أَخْلَاقُ وَصِفَاتُ

الْمُعَرِّفِ بِالْإِسْلَامِ وَالدَّاعِي إِلَى اللَّهِ

أَهَمُّ أُسُسِ البِناءِ الأَخْلاقِيّ وَالْإِيمانِيّ والتَّزكوِيّ والتَّرْبَوِيّ والسُّلوكِيّ وَالقِيَمِيّ، والإِخْفاقاتُ، والمعوقاتُ، وأَنْجَعُ الوسائِلِ المُعينَةِ لاكْتِسابِها

إعداد: جوتيار بامرني

حقوق الطبع لكل مسلم ومسلمة

رحم الله من طبعه أو صوَّره أو ترجمه أو نشره عبر وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة بدون زيادةٍ أو نقص وجزاه اللهُ تعالى خيرًا كثيرًا، وَثَبَّتَنا وإياه على الْإسلام والسنَّة.

للتواصل مع المؤلف عبر البريد الالكتروني:

bamarni@gmx.de

الطبعة الأولى 2024م

لاَ يَثْبُتُ عَلَى قَدَمِ الدَّعْوَةِ والْحَقِّ إِلاَّ مَنْ أَنَارَ اللهُ بَصِيرَتَهُ، وَكَانَ قَلْبُهُ مُعَلَّقًا بِهِ جَلَّ وَعَلاَ، وَلِذَا لاَ عَجَبَ حِينَمَا تَرَى الدَّاعِيَةَ الَّذِي تَعَرَّضَ لِلتَّأْهِيلِ التَّرْبَوِيِّ ثَابِتًا رَاسِخًا، كَالنَّخْلَةِ الشَّمَّاءِ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ.

وَلاَ شَكَّ أَنَّ التَّرْبِيَةَ مِنْ أَهَمِّ الأَسْبَابِ التِي تُعِينُ الدَّاعِيَةَ عَلَى الإِخْلاَصِ، وَمِنْ ثَمَّ الوُصُولُ إِلَى مَرْحَلَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الإِتْقَانِ فِي عَمَلِ الدَّعْوَةِ دُونَ انْتِظَارِ أَجْرٍ دُنْيَوِيٍّ، وَلاَ مَكَانَةٍ مَرْمُوقَةٍ، وَلاَ ثَنَاءٍ عَطِرٍ، وإِنَّمَا يَنْتَظِرُ فَقَطْ وَعْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ يَبْنِي لِآخِرَتِهِ، لاَ لِدُنْيَاهُ، مُوقِنًا أَنَّ الحَيَاةَ لَحَظَاتٌ إِذَا فَاتَتْ لَحْظَةٌ، فَاتَتْ أُخْتُهَا؛ وَلِذَلِكَ تَجِدُهُ دَائِمَ العَمَلِ والإِنْجَازِ، لاَ يَتَوَانَى وَلاَ يَتَكَاسَلُ.

وَعَلَى النَّقِيضِ، فَإِنَّ انْصِرَافَ بَعْضِ الدُّعَاةِ عَنِ التَّرْبِيَةِ، إِمَّا بِسَبَبِ اسْتِغْرَاقِهِم فِي الْجَانِبِ الْعِلْمِيِّ البَحْتِ، مَعَ ضَعْفٍ رَبْطِهِ بِالْجَوَانِبِ الإِيمَانِيَّةِ، أَو بِحُجَّةِ أَنَّهُم قَدْ جَاوَزُوا قَنْطَرَةَ تَرْبِيَةِ المَوَاعِظِ والرَّقَائِقِ، وَأَنَّهَا قَاصِرَةٌ عَلَى الْمُبْتَدِئِينَ مِمَّنْ هُمْ عَلَى أَعْتَابِ الْعَمَلِ الدَّعَوِيِّ، لَهْلَكَةٌ عَظِيمَةٌ وَقَاصِمَةٌ لِلظَّهْرِ.

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نَحمدَه ونَستعينه، من يهده الله فَلا مضلَّ لَه، ومن يضلِل فَلا هادي لَه، وأشْهدَ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شَريكَ لَه، وأنَّ مُحَمَّدًا عبدَه ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وسَلَّم. الحمد لله الذي أعَزَّنا بالإسلام، وأكْرَمَنا بالقرآن، والصلاة والسلام على خير الأنام، سَيدنا محمد وعلى آله وصحبه الكرام... وبعد:

حَقًّا إنَّهُ مَوْضوعٌ عَظيم، مَا أَحْوَجَنا إلَيْهِ نَحْنُ مَعْشر المُعَرّفين بالإسلام؛ لأنه أَساسٌ لِقِيَامِ الدَّعْوَةِ وَمِعْيارٌ لِنَجاحِها ومِن أهَم أدَواتِها، ألَا وَهُو: البِناءُ الأَخْلاقيُّ وَالْإيمانيُّ والتَّزكويُّ والتَّرْبَويُّ والسُّلوكيُّ وَالقِيَميُّ لِلْمُعَرّفِ بِالْإِسْلَام.

فالْأَخْلاقُ الحَميدَةُ مِن صلبِ الدِّين، وأحَدُ أعمِدَتِهِ الرَّئيسِيَّة، وهِيَ مِنْ الخِصالِ الأَساسيَّةِ اَلَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا كُلُّ داعيَةٍ بِصِفَةٍ خَاصَةٍ، وَكُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى وَجْهِ العُمُومِ، وأنْ يَتَّخِذُوها مَشروعَ العُمر وَذَلِكَ فِي حَياتِهِم وَجَميعِ مُعَامَلَاتِهِم؛ لِيَكُونُوا اَلْقُدْوَةَ اَلْحَسَنَةَ التي يُقْتَدَى بها عَبْرَ الأَزْمَانِ.

فَنَحْنُ بِلَا شَكٍّ أَتْباعُ الحَبيبِ المُصْطَفَى مُحَمَّد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَنُمَثِّلُهُ بِكُلِّ فَخْرٍ، فَهُوَ خاتَمُ الأَنْبياءِ والرُّسُلِ، أَرْسَلَهُ الله عز وجل لِلْبَشَرِيَّةِ؛ لِيُوحَى إلَيْه؛ ولِيُقْتَدَى بِهِ، ولِيُضُاءَ بِهِ طَريقَ الهِداية، لِذَا نَسْتَهْدِفُ بِهَذَا الكِتابِ غَرْسَ القيَمِ وَالأَخْلَاقِ والْمَبادِئِ السّاميَةِ فِي نُفُوسِ المُعَرَّفِيْنَ بِالْإِسْلَامِ وَتَوْجيهِهِمْ إلَى نَشْرِها؛ لأنهم أَوْلَى بِالتَّحَلّي بِقيَمِ هِذَا الدِّينِ العَظِيمِ، وبِأَخْلَاقِ وَآدابِ هَذَا التَّخَصُّصِ اَلَّذِي يُؤَهَّلُون لَهَ، مع التَّمَكُّنِ مِنْ إبْداءِ آرائِهِم بِمَوْضوعيَّةٍ وَتَجَرُّدٍ، وَإجادَةِ آدَابِ النِّقاشِ والْحِوارِ بِشَكْلٍ بَنّاءٍ، فَضْلًا عَنْ اكْتِسابِ سِماتِ اَلشَّخْصيَّةِ الدَّعَويَّةِ الوَسَطيَّةِ اَلْمُعْتَدِلَةِ وَاَلْخَبيرَةِ، فَيَكُونَونَ بِذَلِكَ قُدْوَةً صالِحَةً تُسْهِمُ فِي إعْدادِ جِيلٍ يَفْهَمُ أَخْلاقيّاتِ الدَّعْوَةِ فَهْمًا شُموليًّا بَعِيدًا عَنْ اَلْغُلوِّ والْجَفاءِ.

وَتُعَدُّ تَرْبيَةُ النُّفوسِ مِنْ أَشَقِّ الأُمورِ؛ لِاحْتياجِها إلى الصَّبْرِ والْمُلازَمَةِ، وَهِيَ أَصْعَبُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ وَكَسْبِ المَهَارَاتِ، قَالَ سَعيدُ بْنُ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يَا بُنَيَّ، إنَّ المَكارِمَ لَوْ كَانَتْ سَهْلَةً يَسيرَةً لَسابَقَكُمْ إلَيْهَا اللِّئَامُ، وَلَكِنَّها كَريهَةٌ مُرَّةٌ، لَا يَصْبِرُ عَلَيْهَا إلَّا مَنْ عَرَفَ فَضْلَها، وَرَجَا ثَوابَها".[1]

[1] مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا:٣٠

مَا هُوَ البَاعِثُ عَلَى اختيارِ هَذَا البَحْث؟

(أَسْبَابُ اخْتيارِ البَحْث)

إنَّ البَاعِثَ عَلَى اختيارِ هذا البحث، هو التأكيد على أنَّ الدّاعيةَ اَلَّذِي يتعَرَّضُ لِلتَّأْهِيلِ التَّرْبَوِيّ، يَكُونُ - بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ - رَاسِخًا كَاَلنَّخْلَةِ اَلشَّمَاءِ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ، ثَابِتًا عَلَى قَدَمِ الدَّعْوَةِ، لَا يَنْثَنِي عَنْ قَوْلِ الحَقِّ مَهْمَا كَلَّفَهُ الأَمْر؛ وَذَلِكَ لِمَا يَقْذِفُه اللهُ جَلَّا وَعَلَا مِنْ نُورٍ فِي قَلْبِهِ وَبَصِيرَتِهِ، فَيَرَى الحَقِيقَةَ بِلَا حَيْرَةٍ وَلَا رَيْبٍ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهَا رَأْيَ عَيْنٍ. يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} [الأنفال:29]، وَيَقُولُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ} [الحديد:28].

وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّرْبِيَةَ الإِيمَانِيَّةَ، وَمَا تُثْمِرُه مِنْ تَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَهَمِّ أَسْبابِ إِتْقانِ الدّاعيةِ فِي عَمَلِهِ الدَّعْوِيّ، فلَا يَنْتَظِرُ أَجْرًا دُنْيَوِيًّا، وَلَا ثَناءً عَطِرًا، وَلَا مَكانَةً مَرْموقَةً، وإِنَّمَا يَنْتَظِرُ وَعْدَ اللهِ، فَهُوَ يَبْني لِآخِرَتِهِ لَا لِدُنْياه.

وَلِذَلِكَ فالدّاعيةُ اَلَّذِي تَرَبَّى، لَهُ مِن حُسْنِ التَّأْثِيرِ فِي اَلْجُمْهورِ مَا لَيْسَ لصاحِبِ الهَيْئَةِ والْبِزَّةِ بِلَا تَرْبِيَةٍ، كَمَا أَنَّهُ يُوقِنُ أَنَّ الحَياةَ لَحَظاتٌ، إِذَا فَاتَتْ لَحْظَةٌ فَاتَتْ أُخْتُها، فَتَجِدُهُ دائِمَ العَمَلِ والْإِنْجازِ، لَا يَتَوَانَى وَلَا يَتَكاسَلُ.

وَمِنَ المُؤْسِفِ انْصِرافُ بَعْضِ الدُّعاةِ عَنْ مَجالِسِ التَّذْكِيرِ والْوَعْظِ والرَّقائِقِ ومكارِمِ الأخلاقِ بِحُجَّةِ أَنَّهُم قَدْ جاوَزوا قَنْطَرَةَ تَرْبِيَةِ المَواعِظِ والرَّقائِقِ، وَأَنَّهَا لِلْمُبْتَدِئِينَ مِمَّنْ هُمْ عَلَى أَعْتابِ اَلدَّعْوَةِ.

وَيَقِينًا إِنَّ هَذَا الانْصِراف لَمَهْلَكَةٌ عَظِيمَةٌ، وَقاصِمَةٌ لِلظَّهْرِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الاسْتِغْراقِ فِي اَلْجانِبِ اَلْعِلْمِيّ البَحْت، وَضَعْفِ رَبْطِهِ بِالْجَوانِبِ العَمَلِيَّةِ وَالْإِيمانِيَّةِ، والسلوكية والتِّي صَارت دَيْدَنَ أَكْثَرِيَّةِ المَناهِجِ التَّأْهيلِيَّةِ لِلدُّعَاةِ فِي هَذَا العَصْرِ.

وَلَقَد ظَهَرَ مِنْ بَعْضِ الدُّعَاةِ الذين يَصْعَدُونَ المَنابِرَ وَيَتَصَدَّرُونَ الدَّعْوَةَ تَسَاهُلًا فِي أَخْلَاقِ الإِسْلَامِ، مِمَّا أصابَ الدَّعْوَةَ فِي مَقْتَلٍ، وأَضَرَّ بها ضَرَرًا بِلِيغًا، فَالنَّاسُ يُقْبِلُونَ عَلَى حَسَنِ الخُلُقِ، جَمِيلِ الطَّبْعِ، فَيَرْتَضُونَ قَوْلَهُ، وَيَرْقُبُونَ فِعْلَهُ؛ لِيُقَلِّدُوه، بَيْنَمَا يَنْفُرُونَ مِنْ سَيِّءِ الخُلُقِ، رَدِيءِ التَّعَامُلِ، فَيَرْفُضُونَ نُصْحَهُ، ويرون فيه قول الله عز وجل: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ}[2]، وَمِنْ ثَمَّ صَارَتْ وَظِيفَةُ الأَنْبِيَاءِ التِّي قَرَّرَ أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ أَنْ يَتَبَوُّوهَا سهلةً رخيصةً، وَجَاءَ الْوَهَنُ وَالخُنُوعُ وَالذُّلُ وَدُنُو الهِمَّةِ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَأَصْبحَتِ الأُمَّة الإِسْلَامِيَّة بِسَبَبِهِم - وَالتِّي قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} – [أَصْبَحَتْ] فِي حَالٍ يُرْثَى لَهَا. ولذلك مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ، عَطَّلَ سَبِيلَ الدَّعْوَةِ، وَجَعَلَ النَّاسَ يُسِيئُونَ الظَنَّ بِأُولِي الدِّينِ، وَبِأَهْلِ الْالْتِزَامِ وَأَنَّهُم لَا يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

لِهَذَا تَمَنَّيْتُ أَنْ يَكونَ هُنَاكَ مادَّةٌ خاصَّةٌ تُؤَهِّلُ المُعَرِّفَ بِالْإِسْلَامِ أَخْلَاقِيًّا وَسُلوكِيًّا وَتَزْكَوِيًّا وَإِيمانِيًّا؛ لِئَلَّا يَتَصَدَّرَ لِلدَّعْوَةِ مَنْ لَا يزال عِنْدَهُ خَلَلٌ فِي أَدَبِهِ وَأَمانَتِهِ. فَيَنْفُرَ النَّاسُ مِنْ الإِسْلامِ، بَلْ قَدْ يَتَأَثَّرُ هُوَ بِالشُّبُهَاتِ والشَّهَواتِ فَلَا تَقومُ لَهُ قائِمَةٌ.

وليس هناك حل أمثل من أن نَحْذو حَذْوَ الرَّعيلِ الأَوَّلِ الذي تَرَبَّى وَتَتَلْمَذَ على يدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فتُسْقَى قُلوبُ وَنُفوسُ الدُّعاةِ بِمَكارِمِ اَلْأَخْلاقِ، وتُبْنَى ذَواتُهُم بِأَساسٍ مَتينٍ مِنْ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ، شَرِيطَةَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الأَمْرَ رُكْنًا مِنْ أَرْكانِ تَأْهيلِ الدُّعاةِ لَيْسَ فَقَطْ لِأَنَّهَا عِبادَةٌ عَظيمَةٌ، وَلأَنَّ أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ الجَنَّةَ حُسْنُ الخُلُقِ، وَإِنَّمَا أَيْضًا لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا جَذبَ غَيْرَ المُسْلِمِينَ إلى الإِسْلَامِ عَلَى مَرِّ الدُّهورِ كَالْمِغْناطيسِ، هوَ مَكارِمُ أَخْلاقِ هَذَا الدّينِ العَظيمِ، كَمَا أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَجْعَلُ الدُّعاةَ مَوَفَّقينَ، ويَطْرحُ البركة في دَعْوَتِهم، هِيَ التَّرْبِيَةُ الإِيمَانِيَّةُ.

[2] سورة البقرة، آية: 44

وأنا في الحقيقة أَسْتَغْرِبُ مِنْ الدُّعاةِ والْمُؤَسَّساتِ الدَّعَويَّةِ وَالجَامِعَاتِ الإِسْلاميَّةِ إِهْمالَهُمْ لِهَذَا الجانِبِ الدَّعَويِّ العَظيمِ، كَيْفَ لَا وَأَنَّهُ أَخْلاقُ النُّبوَّةِ! وَلَقَدْ وَصَفَ رَبُّنا جَلَّ وَعَلا نَبِيَّهُ في كِتابِهِ العَزِيزِ قَائِلًا: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}.

لِأَجْلِ هَذَا حُقَّ لَنَا أَنْ نَفْتَخِرَ بِهَذَا الإِرْثِ العَظِيم، وأَنْ نُظْهِرَهُ وَنَهْتَمَّ بِهِ، وَنَجني ثِمارَهُ من انْطِباعاتٍ إِيجَابِيَّةٍ عَنْ الإِسْلامِ مِنْ خِلالِ مُمارَسَتِنا الصّادِقَةِ لَهُ وَلِقِيَمِ الإِسْلَامِ النَّبيلَةِ؛ لِنَكُونَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ لَقَبَ "دَاعِيَةٍ" عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

مُشْكِلَةُ البَحْث والواقِعُ والمُتَوَقَّعُ

أولًا: مُشْكِلَةُ البَحْث

حَقًّا إِنَّنِي حَزينٌ على مَا وَصَلَ إِلَيْهِ البَعْضُ في عَصْرِنا مِنْ التَّقْصيرِ وَالإِخْفَاقَاتِ الظّاهِرَةِ، فَكُلَّمَا سافرت إِلَى بُلْدانٍ إِسْلاميَّةٍ، قَلْبِي يَعْصِرُ دَمًا عِنْدَمَا أَرَى كَثيرًا مِنْ المُسْلِمِينَ أَخْلاقُهُمْ سَيِّئَةٌ، وَحَياتُهُمْ عِبارَةٌ عَنْ تَقْليدٍ أَعْمَى.

وأَكْثَرُ ما يُؤْلِمُني وَيَصْدِمُني ما أَرَاهُ مِنْ الدُّعاةِ أَنْفُسِهِمْ، وَلِذَا لَا أَسْتَغْرِبُ عَدَم استِعداد غَيْرِ المُسْلِمِينَ أن يَسْمَعُوا كَلامَنا، ولَا أَسْتَغْرِبُ لِمَاذَا أَعْدادٌ كَبيرَةٌ تَدْخُلُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجًا ثُمَّ تَخْرُجُ ثانيَةً؛ وَذَلِكَ لِأَسْبابٍ كَثيرَةٍ، عَلَى رَأْسِهَا أَخْلاقُ بَعْضِ الدُّعاةِ وَالَّتِي يَنْدَى لَهَا الجَبِين، وَقَدْ يَكُونُ السَّبَبُ أيضا في تَقْصيرِهِمْ، أَوْ كَسَلِهِمْ فِي العِنايَةِ بِمَنْ يُسْلِمُ، أَوْ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا قُدْواتٍ بِحَقٍّ، فَلَا هُم يحملون هَمَّ الدين على عَوَاتِقِهِم، ولا يَأْخُذُونَهُ بِقُوَّةٍ، وَلِذَلِكَ يَتَأَخَّرُ النَّصْرُ والتَّمْكينُ، فالله عز وجل يقول: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[3].

وفي خِلالِ تَأَمُّلي في الثَلاثِينَ سَنَة الماضِيَة، وأَنا فِي أَلْمانيَا، رأيتُ أَنَّ ثَمَّةَ عَقَبَتَيْن فِي طَريقِ نَشْرِ الدّينِ:

العَقَبَةُ الأُولَى: البُعْدُ عَنْ أَخْلاقِ الإِسلامِ، فغير المسلمين لا يرون فينا الإسلام، كَما نَشَأَ جِيلٌ لَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا جَمْعُ بَعْضِ الحُطامِ، وَكَثيرٌ مِنْهُمْ لا يُبَالِي أَحَلالٌ هي أَمْ حَرامٌ؟، بالإضافة إلى أَنَّ أَكْثَرِيَّتَهُمْ أَهْمَلوا تَرْبِيَةَ أَوْلادِهِمْ، فَضَلّوا وَأَضَلُّوا وضَاعَتِ الأَمانَةُ وَضاع حَياءُ الأبناء، وخرج جِيلٌ لَا يفهمون مِنْ دينِهِم إِلَّا القليل، وعَقيدَتُهُمْ وأخلاقهم فاسِدَةٌ، فَكَانُوا أَسْوَأَ سُفَراءَ لِأَفْضَلِ دِينٍ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ الخِذْلانِ.

ورَأَيْتُ أيضا فِي جَنوبِ شَرْقِ آسْيَا سُلوكِيَاتٍ لَا تَلِيقُ بِالْدُعاةِ، وَمِنْهَا الكَسَلُ وخيانَةُ الْأَمَانَةِ، وَأَخَذُ أَمْوالِ المحسنين بِغَيْرِ حَقٍّ، والِانْشِغالُ بِمَصَالِحِهِمُ الشَّخْصيَّةِ، وَالقَليلُ مِنْهُمْ مَنْ يُقالُ فِيهِم أَنَّهُمْ قُدْواتٌ.

والْعَقَبَةُ الثّانِيَةُ فِي طَريق الدَعْوةِ: هِيَ الْعَقيدَةُ الفاسِدة لِعددٍ لَيْسَ بِقَليلٍ مِن المُسلمين، فَإِهْمالُهُمُ للعَقيدَةِ الصَّحيحَةِ، الَّتِي هِيَ أَساسُ الدّينِ كُلِّهِ وَالتي بِدُونِهَا لَا تُقْبَلُ الأَعْمالُ، كَانَتْ مِنْ الإِخْفَاقَاتِ الكَبيرَةِ الَّتِي نَفَّرَتْ غَيْرَ المُسْلِمِينَ مِنْ الإِسْلامِ. وَأنا لَمْ أَجِدْ دَاعيةً - عَلَى مَدَارِ تِلْكَ السَّنَوَاتِ فِي بَلْدَةٍ مِنْ البُلْدانِ -عَقيدَتُهُ هَشَّة كَانَ جادًا فِي دَعْوَتِهِ، أَوْ كَانَ مُوَفَّقًا فِي إِدْخالِ النَّاس فِي دِينِ الإِسْلَامِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَاتَيْنِ العَقَبَتَيْنِ عَلَى صِلَةٍ مُبَاشِرَةٍ بِبَعْضِهِما البَعْضِ، فَصَاحِبُ العَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ، الذي يُجَدِّدُ نِيَّتَهُ دَائِمًا، سَائِلًا اللهِ أَنْ يَرْزُقَهُ الصِّدْقَ وَالْإِخْلَاصَ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ، مُحْتَسِبًا الأَجْرَ مِنْهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، هُوَ الَّذِي يُوَفَّقُ إِلَى مَكارِمِ الأَخْلاقِ.

ولقد شَاهَدتُّ بأمّ عيني العقبةَ الأُولى - وهي البعدُ عن أخلاقِ الإسلام - خِلَالَ رِحْلَاتِي الدَّعَوِيَّةِ، فَكَثِيرٌ مِن الدُّعَاة - مِنْ خِرِّيجِي الجَامِعَاتِ وَالمعَاهِدِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي أُورُبَّا، وَجَنُوبِ شَرْقِ آسْيَا، وَفِي البُلْدَانِ العَرَبِيَّةِ، وَفِي إِفْرِيقْيَا، وَفِي تُرْكِيَا - لَدَيْهِمْ

[3] سورة الرعد، آية: 11.

مُشْكِلَاتٍ فِي هَذَا الجَانِبِ، وَلِذَلِكَ أَرَدْتُّ بِهَذَا البَحْثِ أَنْ أَضَعَ أُصْبَعِي عَلَى الجُرْحِ، آمِلًا مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ أَجِدَ لِنَفْسِي وَلَهُم حُلُولًا لِهَذِهِ الإِشْكَالِيَّاتِ، وَلِتِلْكَ التَّنَاقُضَاتِ، وَعِلَاجًا لِلْعَدِيدِ مِن الأَمْرَاضِ، وَكَيْفِيَّةِ التَّحَصُّنِ مِنْهَا.

وَلِهَذَا قَدْ تَجِدُنِي قَدْ بَالَغْتُ فِي الإِطَالَةِ عِنْدَ التَّطَرُّقِ إِلَى بَعْضِ الأَخْلَاقِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا، كَخُلُقِ الأَمَانَةِ، وَذَلِكَ لِأَنِّي رَأَيْتُ فِي شَأْنِهَا الْعَجَبَ الْعُجَاب، فَقَدْ **رَأَيْتُ** مَنْ يَغِيبُ عِدَّةَ أَيَّامٍ عَن التَّدْرِيسِ، لِأَكْتَشِفَ مِنْ طُلَّابِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى. وَعِنْدَمَا وَاجَهْتُ أَحَدُهُم عَلَى انْفِرَادٍ قَائِلًا لَهُ: "أَنْتَ رَجُلٌ طَيِّبٌ، وَحَبَاكَ اللهُ عِلْمًا، فَاقْبَلْ مِنِّي نَصِيحَتِي أَخِي الحَبِيب اللَّبِيب، لَا تَأْخُذْ إِجَازَةً مَرَضِيَّةً من عَمَلِكَ، وَأَنْتَ غَيْرُ مَرِيضٍ، فَتَكُونَ بِذَلِكَ قَدْ جَمَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ أَرْبَعَ مَعَاصِي، الأُولَى: الْكَذِبِ، وَالثَّانِيَةَ: أَكْلُ الْمَالِ الْحَرَامِ، وَالثَّالِثَةَ: التَّقْصِيرُ فِي حَقِّ طُلَّابِكَ، أَمَّا المَعْصِيَةُ الرَّابِعَةُ: هِيَ أَنَّكَ أَصْبَحْتَ قُدْوَةً سَيِّئَةً لِطُلَّابِكَ؛ لِأَنَّهُم عَلِمُوا أَنَّكَ أَثْنَاءَ غِيَابِكَ تَعْمَلُ فِي مَكَانٍ آخَر، وَوَاللَّهِ إِنَّ الْخَصْمَ مِنْ رَاتِبِكَ مَعَ تَقْوَى اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ خَيْرٌ لَكَ وَأَبْقَى". لِلْأَسَفِ، لَمْ يَقْبَلْ مِنِّي النَّصِيحَةَ وَكَادَ أَنْ يَضْرِبَنِي.

وَرَأَيْتُ أَيْضًا مَنْ يَأْخُذُ أَمْوَالَ وَمُمْتَلَكَاتِ الدَّعْوَةِ بِالْبَاطِلِ وَلَا يُبَالِي.

وَرَأَيْتُ مَنْ كَانَ خُلُقُ الحَيَاءِ وَالعِفَّةِ عِنْدَهُ فِي أَدْنَى مُسْتَوَيَاتِهِ.

وَرَأَيْتُ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ وَالمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ عِنْدَ البَعْضِ، قَدْ بَلَغَ مَبْلَغًا لَا يُطَاق. وَبِالطَّبْعِ، لَا يُمْكِن القَبُول بِمِثْلِ هَذِهِ الأَفْعَالِ فِي حَقِّ الدَّعْوَةِ، وَفِي حَقِّ مَنْ سَيَمُوتُ عَلَى الْكُفْرِ وَيُخَلَّدُ فِي النَّارِ؛ بِسَبَبِ تَقْصِيرِهِمْ، وَقِلَّةِ وَرَعِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ رَغْمَ تَفَرُّغِهِم لِهَذِهِ الوَظِيفَةِ.

وَرَأَيْتُ وَلَا زِلْتُ أَرَى كَثِيرًا مِن الدُّعَاةِ وَطُلَّابِ العِلْمِ، بَلْ وَكِبَارِ المَشَايِخِ أَيْضًا لَا يَحْتَرِمُونَ الوَقْتَ وَالمَوَاعِيد، وَلَيْسَ لَدَيْهِم وَفَاءٌ بِالوُعُودِ.

كُلُّ هَذَا وَغَيْرِهِ كَانَ سَبَبًا فِي اخْتِيَارِي لِهَذَا البَحْثِ؛ لَعَلِّي أَجِدُ لِنَفْسِي أَوَّلًا ثُمَّ لِإِخْوَانِي الدَّوَاءَ الفَعَّالَ وَالمَنْهَجِيَّةَ الَّتِي تَضَعُ حَجَرَ الأَسَاس لِلْبِنَاءِ الأَخْلَاقِيّ وَالْإِيمَانِيّ والتَّزكَوِيّ والتَّرْبَوِيّ والسُّلوكِيّ وَالقِيَمِيّ، وأَنْجَعُ الوسائِلُ المُعينَةُ على اكْتِسَاب ذلك.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الدُّعاةَ يَتَحَمَّلُونَ جُزْءً كَبيرًا مِنْ المَسْئوليَّةِ فِي مُجْتَمَعاتِهِمْ، إِمَّا لِحَاجَتِهِمْ أَنْفُسِهِمْ لِهَذَه الأَخْلاقِ أَكْثَرَ من غيرهم، أَوْ أنهُم بالفعل صالِحون، لكنهم غَير مصلحين، حيث إنهم لا يُعْطُوا الأَهَمِّيَّةَ لِغَرْسِ قيَمِ الإِسْلامِ فِي نُفُوسِ المُسْلِمِينَ حَوْلَهُمْ، وَلِذَلِكَ يَقَعُ اللَّوْمُ عَلَيْهِمْ؛ لِعَدَمِ أَخْذِ هَذَا الأَمْر بِعَيْنِ الاعْتِبَارِ.

ولقد كان الهَدْيُ النَّبَويُّ مُتَكَامِلًا فِي بِناءِ أَخْلاقِ جِيلٍ ذِي عُلوِّ هِمَّةٍ وَسُموّ أَخْلاقٍ، وَلَن يُصْلِحْ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلُحَ بِهِ أَوَّلُها، فَإِذَا كَانَتْ الأُمَّةُ شاعِرَةً بِسوءِ حَالِهَا، جادَّةً فِي إِصْلاحِها، فَمَا عَلَيْهَا إِلَّا أَنْ تعودَ إِلَى أَخْلاقِ دِينِهَا، وَالتَّعَلُّقِ بِرَبِّهَا وَسُنَّةِ نَبِيِّها وَأن تَسيرَ عَلَى خُطَى السَلَف الصالح.

إِنَّنَا فِي أَمَسِ الحاجَةِ إِلَى رِجالٍ يَهَبُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وأوقاتَهُم؛ لِنَشْرِ أَخْلاقِ الإِسْلامِ بَيْنَ الدُّعاةِ خُصُوصًا وَالمُسْلِمِينَ عُمُومًا فِي عَصْرٍ يُنْفِقُ اَلْحاقِدونَ فِيه عَشَراتِ اَلْبَلايينِ مِنْ الدُّولَارَاتِ؛ لِلْهُجُومِ عَلَى الإِسْلامِ، وَتَشْوِيهِ صورَتِهِ فِي وَسائِلِ الإِعْلامِ الدَّوْلِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ، بَيْنَمَا يَغُطُّ كَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ، بَلْ يُشَارِكُونَ أَعْدَاءَ الدِّينِ فِي حَمَلَاتِهِمْ بِسُوءِ أَخْلَاقِهِمْ.

ثانيا: الواقِعُ والمُتَوَقّع

إِنَّ مَا سَنَطْرَحُهُ فِي هَذَا البَحْثِ يُمْكِنُ اعْتِبَارُهُ خَارِطَةَ الطَّرِيقِ لِمَا هُوَ وَاقِعٌ مُعَاشٌ بِالْفِعْلِ، ومحاولةً لِلْبَحْثِ عَنْ حُلُولٍ لِكَيْ نَصِلَ إِلَى مَا هُوَ مُتَوَقَّعٌ.

أ- الوَاقِعُ:

لَيْسَ سِرًّا أَنَّ وَاقِعَ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ لَا يَلِيقُ بِمَكَانَةِ الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ السُّلُوكِيَّةِ وَالإِيمَانِيَّةِ.

وَمِنْ خِلَالِ مُقَابَلَاتِي الكَثِيرَة مَعَ طُلَّابِ الْعِلْمِ فِي جَمِيعِ القَارَّاتِ، وَجَدْتُهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِعَدَمِ رِضَاهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَبِأَنَّهُمْ عَلَى يَقِينٍ بِوُجُودِ إِخْفَاقَاتٍ كَبِيرَةٍ حَصَلَتْ فِي تَرْبِيَتِهِمْ مِنْ قِبَلِ المُؤَسَّسَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ وَالجَامِعَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ أَوْ مِنْ خِلَالِ مَشَايِخِهِمْ أَثْنَاءَ دِرَاسَتِهِمْ، وَمَا قَامُوا بِهِ مِنْ حَشْوِهِمْ بِالمَعْلُومَاتِ، بَيْنَمَا أَغْفَلُوا أَهَمّ جَانِبٍ، وَهُوَ دُرُوسِ التَّرْبِيَةِ الإِيمَانِيَّةِ وَتَعْلِيمِ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، فَكَانَتِ النَّتِيجَةُ، تَخَرُّجَ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْهُمْ لَيْسُوا عَلَى المُسْتَوَى المَطْلُوبِ مِنَ النَّاحِيَةِ الخُلُقِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ، وُهُوَ مَا لَا يُقْبَلُ فِي حَقِّ الدَّاعِيةِ وَطَالِبِ الْعِلْمِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الحِقْبَةَ التِي نَعِيشُ فِيهَا الآنَ - وفِي ظِلِّ الأَمْوَاجِ العَاتِيَةِ مِنَ المُلْهِيَاتِ، وَانْتِشَارِ القُدْوَاتِ السَيِئَةِ، وَالإِعْلَامِ المُضَلِّلِ، وَوَسَائِلِ التَّوَاصِلِ الاجْتِمَاعِيِّ بِمَا لَهَا وَمَا عَلَيْهَا، وَكَثْرَةِ الاحْتِكَاكِ بِأَنْوَاعِ البَشَرِ- لَتَحَدٍّ كَبِيرٍ فِي طَرِيقِ التَّرْبِيَةِ.

ب- المُتَوَقَّعُ:

هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنَ المُتَوَقَّعِ، والَّذِي مِنْ شَأْنِهِ إِحْدَاثَ تَغْيِيرٍ كَبِيرٍ، مِنْهُ:

1- التَّأْهِيلُ قَبْلَ الزَّوَاجِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مَعَاهِدٍ مُتَخَصِّصَةٍ، تُسَاعِدُ فِي تَكْوِينِ أُسْرَةٍ صَالِحَةٍ.

2- وُجُودُ شَيْخٍ أَوْ دَاعِيَةٍ صَاحِبِ صِفَاتٍ مُمَيَّزَةٍ فِي كُلِّ بَلَدٍ؛ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ عُمُومًا والشَّبَابَ والشَّابَّاتِ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ.

3- إِقَامَةُ خِيَمٍ دَعَوِيَّةٍ تَرْبَوِيَّةٍ صَيْفِيَّةٍ تُرَكِّزُ عَلَى العَقِيدَةِ وَالأَخْلَاقِ مِنَ النَّاحِيَةِ التَّطْبِيقِيَّةِ.

4- إِدْخَالُ مَادَّةٍ خَاصَةٍ بِالأَخْلَاقِ وَالتَّرْبِيَةِ الإِيمَانِيَّةِ لِكُلِّ صَفٍّ مِنْ صُفُوفِ المَدَارِسِ الابْتِدَائِيَّةِ وَالمُتَوَسِّطَةِ وَالثَّانَوِيَّةِ، عَلَى أَنْ يَتِمَّ تَدْرِيسُ المَادَّةِ يَوْمِيًّا، مَعَ الحِرْصِ الشَّدِيدِ عَلَى أَنْ يَتَوَلَّى مَسْئُولِيَّةَ التَّدْرِيسِ أَفْضَلُ الأَسَاتِذَةِ.

5- إِلْزَامُ الوَالِدَيْنِ بِالمُشَارَكَةِ فِي الأَنْشِطَةِ التَّرْبَوِيَّةِ، وَحُضُورِ الدَّوَرَاتِ التِي تُثَقِّلَهُمْ تَرْبَوِيًّا، وَالتَّأْكِيدِ عَلَى أَهَمِّيَّةِ تَوَاصُلِهِمِ الدَّائِمِ مَعَ المَدْرَسَةِ، مَعَ إِعْطَاءِ وَاجِبَاتٍ فِي مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ يَتَشَارَكَانِ فِيهَا مَعَ أَبْنَائِهِمْ، ثُمَّ قِيَامِهِمْ بِمُهِمَّةِ تَعْبِئَةِ اسْتِمَارَةِ النَّشَاطِ بِأَنْفُسِهِمْ.

6- تَدْرِيبُ وَتَأْهِيلُ مُدَرِّسِي بَقِيَّةِ المَوَادِ غَيْرِ الدِّينِيَّةِ أَيْضًا فِي الجَانِبِ الأَخْلَاقِي وَالسُّلُوكِيّ، وَحَثِّهِمْ عَلَى المُشَارَكَةِ فِي الجَانِبِ التَّرْبَوِيّ؛ وَذَلِكَ لِاحْتِكَاكِهِمْ الْيَوْمِي بِالطُّلَابِ.

مَنْ الَّذِي سَيَتَكَلَّمُ عَنْ اللهِ وَعَنْ رَسُولِهِ؟

لَا شَكَّ أَنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، كَمَا أَنَّ العَمَلَ عَلَى رَفْعِ مُسْتَوَاهُمُ الإِيمَانِي بِاسْتِمْرَارٍ مِنَ الْبَدِيهِيَّاتِ، وَلَكِنَّنَا لَسْنَا بِصَدَدِ التَّحَدُّثِ عَنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا حَدِيثُنَا مُنْصَبٌّ هُنَا عَلَى الدَّاعِيَةِ الَّذِي سَيَتَكَلَّمُ عَنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَسَيَتَكَلَّمَ عَنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالَّذِي يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عَلَى قَدْرِ تِلْكَ المَسْئُولِيَّةِ الجَلِيلَةِ الوَاقِعَةِ عَلَى عَاتِقِهِ، فَهُوَ يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيْرَ وَيَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ، كَمَا أَنَّهُ بِمَثَابَةِ القُدْوَةِ لِلْأَجْيَالِ الصَّاعِدَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

أَوَّلُ أَخْطَاءِ التَّرْبِيَةِ وَوَاقِعُ الجَامِعَاتِ

إِنَّ أَوَّلَ الأَخْطَاءِ بَلْ الوَيْلَاتِ بِلَا مُنَازِعٍ، وَالَّتِي يَتَحَمَّلُ تَبَعَاتِهَا الآبَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، هِيَ تَرْبِيَتُهُمْ الخَاطِئَةِ لِأَبْنَائِهِمْ دَاخِلِ بُيُوتِهِمْ، وَفِي مُحِيطِ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، ثُمَّ تَتَوَالَى الْأَخْطَاءُ وَتَزْدَادُ خَطَرًا وَعُمْقًا مُنْذُ بِدَايَةِ الالْتِحَاقِ بِالمَدْرَسَةِ، إِلَّا أَنَّنَا سَنُرَكِّزُ هُنَا عَلَى مَرْحَلَةِ مَا قَبْلَ الدِّرَاسَةِ فِي الجَامِعَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ، حَيْثُ تَقَعُ الكَارِثَةُ الْكُبْرَى فِي إِشْكَالِيَّةِ اخْتِيَارِ الجَامَعَاتِ لِطُلَّابِهَا، وَلَا نَسْتَثْنِي مِنْ ذَلِكَ الجَامِعَاتِ العَرِيقَةِ، مِثْل الجَامِعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ.

لِلْأَسَفِ، غَالِبِيَّةُ الجَامِعَاتِ فِي الدُّوَلِ الإِسْلَامِيَّةِ لَا تُجْرِي مُقَابَلَاتٍ شَخْصِيَّةٍ مَعَ الطُّلَابِ المُتَقَدِّمِينَ لِلدِّرَاسَةِ؛ وَذَلِكَ لِاكْتِشَافِ أَنْمَاطِهِمْ الشَّخْصِيَّةِ، وَهَلْ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ الشُّرُوطُ الضَّرُورِيَّةُ أَمْ لَا، وَإِنَّمَا يَتِمُّ اخْتِيَارُهُمْ "إِلِكْتُرُونِيًّا"؛ لِذَا فَإِنَّ أَكْثَرِيَّةَ الطُّلَابِ لَا يُقَدِّرُونَ قِيمَةَ هَذَا المِقْعَدِ العَظِيمِ الَّذِي أُعْطُوهُ، وَلَا يَصْلُحُونَ مِنْ الأَسَاسِ لِتَحَمُّلِ تِلْكَ المَسْئُولِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يُنْفَقَ عَلَيْهِم مِنْ أَمْوَالِ المُسْلِمِينَ وَلَا أَنْ تُبْذَلَ لِأَجْلِهِم الجُهُودُ.

لِذَلِكَ مِنْ المحْزِنِ جِدًا أَنَّ أَنْظِمَةَ هَذِهِ الجَامِعَاتِ كُلِّهَا قَدْ تَخَلَّتْ عَنْ آلِيَّةِ الاخْتِبَارِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي تَكْفُلُ صِنَاعَةَ رِجَالٍ لِلْأُمَّةِ كَيْ تَعْتَمِدَ عَلَيْهِم، ثُمَّ نَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ وَنَسْتَغْرِبُ لِمَاذَا وَصَلَتْ الأُمَّةُ إِلَى مَا آلَتْ إِلَيْهِ الآنْ مِنْ دُنُوٍّ وَتَرَدِّي عَلَى كَافَّةِ الأَصْعِدَةِ، غَيْر مُدْرِكِينَ أَنَّ مَا نَحْنُ فِيهِ هُوَ بِأَيْدِينَا وَمِنْ كَسْبِنَا، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [الروم: 41] ويقول أيضا عز وجل: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشورى: 30]

المُتَوَقَّعُ مِنْ هَذِهِ الجَامِعَاتِ

تُوجَدُ سِلْسِلَةٌ مِنْ الأَعْمَالِ وَجَبَ عَلَى القَائِمِينَ عَلَى الجَامِعَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ فِي القِيَامِ بِهَا عَلَى أَتَمِّ وَجْهٍ، أَهَمُّهَا:

1- الإِعْلَانُ المُسْبَقُ عَنْ شُرُوطٍ تَرْبَوِيَّةٍ يَجِبُ تَوَفُّرُهَا فِي الطَّالِبِ؛ لِكَيْ يَتِمَّ قَبُولُهُ.

2- تَوْفِيرُ بَعْضِ المَوَادِ الدِّرَاسِيَّةِ السَّهْلَةِ؛ لِيَدْرِسَهَا الطَّالِبُ بِلُغَتِهِ، ثُمَّ اخْتِبَارُهُ فِيهَا؛ لِإِثْبَاتِ جِدِّيَّتِهِ وَمُثَابَرَتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ.

3- تَعْبِئَةُ اسْتِمَارَةٍ طَوِيلَةٍ تَسْتَهْدِفُ مَعْرِفَةَ المَزِيد عَنْ الطَّالِبِ، وَحَثُّهُ خِلَال الاسْتِبَانَةِ عَلَى المُتَوَقَّعُ مِنْهُ.

4- عَدَمُ الاسْتِعَانَةِ بِتَزْكِيَّاتِ أَحَدٍ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ كَثِيرٌ مِنْهَا لَا تَعْكِسُ الْوَاقِعَ.

5- أَنْ يُطْلَبَ مِنْ المَشَايِخِ وَرُؤَسَاءِ مَرَاكِزِ دَعَوِيَّةٍ ثِقَةٍ أَنْ يُرَشِّحُوا طُلَّابًا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ الشُّرُوطُ وَأَنْ يَتَّقُوا اللهَ فِي تَرْشِيحِهِمْ.

6- إِقَامَةُ دَوْرَةٍ فِي بَلَدِ المُرَشَّحِ ثُمَّ يُطْلَبُ مِنْهُ المُشَارَكَةُ فِيهَا، وَيَكُونُ هُنَاكَ مَبِيتٌ حَتَّى يَتِمَّ مُرَاقَبَتُهُ سُلُوكِيَّاتِهِ المُخْتَلِفَةِ، وَمِنْهَا: صَبْرُهُ، وَحِرْصُهُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَأَخْلَاقُهُ، وَاهْتِمَامَاتُهُ، وَذَكَاؤُهُ، وَأَهْدَافُهُ فِي الحَيَاةِ، وَإِدْرَاكُهُ مَكَانَةِ طَلَبِ الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ وَفَضْلِهِمَا، وَمَكَانَةِ الأَخْلَاقِ وَالتَّرْبِيَةِ الإِيمَانِيَّةِ وَفَضْلِهِمَا. وَفِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الدَّوْرَةِ يَتِمُّ تَدْوِينُ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ عَنْ المُرَشَّحِ، وَالَّتِي سَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا قَرَارُ قَبُولِهِ فِي الجَامِعَةِ أَوْ رَفْضِهِ وِفْقَ هِذِهِ البَيَانَاتِ وَالمُرَاقَبَاتِ.

7- بَعْدُ قَبُولِ المُرَشَّحِ يَكُونُ هُنَاكَ فَتْرَةٌ زَمَنِيَّةٌ قَبْلَ قُدُومِهِ لِلْجَامِعَةِ يُطْلَبُ مِنْهُ تَعَلُّمُ بَعْضِ المَوَادِ وَإِنْجَازِ بَعْضِ الأَنْشِطَةِ الدَّعَوِيَّةِ أَوْ التَّرْبَوِيَّةِ.

8- يَكُونُ هُنَاكَ تَطْبِيقٌ عَمَلِيٌّ لِمَا يَتَعَلَّمُهُ الطَّالِبُ أَثْنَاءَ دِرَاسَتِهِ كَتَعْلِيمِهِ لِبَعْضِ النَّاسِ بِضْعِ سَاعَاتٍ فِي الأُسْبُوعِ بِإِحْدَى المَسَاجِدِ أَوْ أُونْلَايِنْ أَوْ مِنْ خِلَال الدَّعْوَةِ المَيْدَانِيَّةِ.

9- إِعْطَاءُ الطَّالِبِ مَهَامٍ تَعْلِيمِيَّةٍ وَدَعَوِيَّةٍ فِي فَتْرَةِ العُطْلَةِ الصَّيْفِيَّةِ؛ لِتَكُونَ بِمَثَابَةِ تَطْبِيقٍ عَلَى مَا تَعَلَّمَهُ، وَلِئَلَّا يَنْتَظِرَ سَنَوَاتٍ حَتَّى يَتَخَرَّجَ ثُمَّ يَعُودَ إِلَى بِلَادِهِ فَيَصْطَدِمَ بِالوَاقِعِ وَيَجِد نَفْسَهُ لَا يَصْلُحَ لِلدَّعْوَةِ.

10- إِعْطَاءُ الطَّالِبِ دَوَرَاتٍ مَهَارِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ أَثْنَاء دِرَاسَتِهِ؛ لِصَقْلِهِ وَمُسَاعَدَتِهِ فِي خِدْمَةِ أَمْرِ الدَّعْوَةِ لَاحِقًا، مِنْهَا: تَعَلُّمُ المَهَارَاتِ التِّقْنِيَّةِ وَمَهَارَاتِ الحِوَارِ وَالإِلْقَاءِ.

وَبُنَاءً عَلَى مَا سَبَقَ، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي عَلَى الدُّعَاةِ وَمَنْ يَقُومُ بِإِعْدَادِهِمْ أَنْ يُعِيدُوا التَّفْكِيرَ فِي وَضْعِ الأَوْلَوِيَّاتِ؛ لِتَكُونَ مُوَافِقَةً لِلأَوْلَوِيَّاتِ التِي وَضَعَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَرْبِيَتِهِ لِلصَّحَابَةِ رِضْوَانِ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ؛ لِنَحْظَى نَحْنُ أَيْضًا بِتَرْبِيَةٍ سَلِيمَةٍ تَلِيقُ بِمَكَانَةِ مَا نَدْعُو إِلَيْهِ، مَعَ الحِفَاظِ عَلَى ثَوَابِتِ الدَّعْوَةِ وَأُصُولِهَا، فَلَا يَنْصَبُّ اهْتِمَامُ الدَّاعِيَةِ عَلَى الأَخْلَاقِ فَقَطْ، وَإِهْمَالُ دِرَاسَةِ العَقِيدَةِ عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، وَالتِي بِدُونِهَا لَا تُقْبَلُ الأَعْمَالُ وَلَا تُقْبَلُ الأَخْلَاقُ، بَلْ عَلَيْهِمْ أَنْ يُوَازِنُوا بَيْنَ تَعَلُّمِ الأَخْلَاقِ النَّبِيلَةِ، وَبَيْنَ دِرَاسَةِ الْعِلْمِ أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ. وَالهَدَفُ مِنْ ذَلِكَ، هُوَ نَشْرُ رِسَالَةِ الإِسْلَامِ لِلْعَالَمِينَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِي رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ.

حَاجَةُ الدُّعَاةِ

"تَشتَدُّ حَاجَةُ الدعَاةِ لِمَعرفةِ المَنهَجِ السَّلِيمِ، وَالطَّرِيقِ القَوِيمِ فِي الدَّعْوةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي اخْتَلَطَتْ فِيهِ المَفَاهِيمِ، وَاضْطَرَبَتْ فِيهِ الأَفْكَارُ، وَتَضَارَبَتْ فِيهِ الآرَاءُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ، فَوَقَعَتْ مِنْ بَعْضِهِم مُمَارَسَاتٍ وَتَطْبِيقَاتٍ - زَعَمُوهَا دَعَوِيَّةٍ - جَانَبُوا فِيهَا الصَّوَابَ وَارْتَكَبُوا فِيهَا المَحْذُورُ مِنْ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ، وَكَانَ مِنْ أَظْهَرِ عَوَاقِبِهَا الوَخِيمَةِ، وَآثَارِهَا السَّيِّئَةِ عَلَى الأُمَّةِ: الفُرْقَةُ وَالاخْتِلَافِ بَيْنَ مُجْتَمَعَاتِ المُسْلِمِينَ، وَالتِي كَانَتْ سَبَبًا لِلْفَشَلِ وَالإِخْفَاقِ فِي عَدَدٍ مِنْ مَجَالَاتِ الحَيَاةِ بَيْنَهُمْ"[4].

وَمِنْ هُنَا جَاءَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ؛ لِتَعْرِضَ مَجْمُوعَةً مِنْ القَضَايَا السُّلُوكِيَّةِ، التِي عَادَةً يَقَعُ الخَلَلُ فِيهَا، بَلْ قَدْ يَصِلُ الأَمْرُ فِي بَعْضِ تِلْكَ القَضَايَا إِلَى النُّفُورِ مِنْ الإِسْلَامِ وَدُعَاتُهَا.

وَتَأْتِي أَهَمِيَّةُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ فِي الآتِي:

1- تَعْرِيفُ الدُّعَاةِ بِأَهَمِّ الآدَابِ وَالأَخْلَاقِ وَالقِيَمِ، وَاسْتِخْدَام أَنْجَعِ الوَسَائِلِ المُعِينَة؛ لاكْتِسَابِهَا. بالإضافة إِلَى كَشْفِ الإِخْفَاقَاتِ، وَسُبُل عِلَاجِهَا.

2- مُحَاوَلَةُ الامْتِثَالِ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى بِالتَّمَسُّكِ بِالأَخْلَاقِ وَبِالتَّقْوَى، وَالسَّيْرِ عَلَى هُدَي وَمَنْهَجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الأَخْلَاقِ.

3- تَآلُفُ الدُّعَاةِ وَاجْتِمَاعِهِمْ وَتَرَابُطِهِمْ وَتَمَاسُكِ مُجْتَمَعِهِمْ.

4- حَاجَةُ الدُّعَاةِ إِلَى البِنَاءِ الأَخْلَاقِيّ وَالْإِيمَانِيّ والتَّزكَوِيّ والتَّرْبَوِيّ والسُّلوكِيّ وَالقِيَمِيّ، وَحَاجَتِهِمْ أَيْضًا إِلَى الوَسَائِلِ التِي تُعِينُهُمْ عَلَى تَنْمِيَةِ سُلُوكِيَاتِهِمْ وَالارْتِقَاءِ بِهَا.

5- حَاجَةُ الدَّعْوَةِ إِلَى غَرْسِ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ فِي نُفُوسِ المُسْلِمِينَ.

6- حَاجَةُ الدُّعَاةِ إِلَى مَا يَعْصِمُهُمْ مِنْ الهَجْمَةِ الشَّرِسَةِ وَالْفِتَنِ وَالشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ التِي تَهْدِفُ إِلَى النَّيْلِ مِنْهُمْ وَمِنْ دَعْوَتِهِمْ، وَاصْطِيَادِ المَوَاقِفِ وَاسْتِعْمَالِهَا فِي مُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ وَالإِسَاءَةِ لَهَا.

الجَدِيدُ فِي هَذَا البَحْثِ:

أَمَّا الجَدِيدُ فِي هَذَا البَحْثِ، فَأُلَخِّصُه بِمَا يَلِي:

1. أَنَّهُ نَابِعٌ مِنْ تَجْرِبَتِي الدَّعَوِيَّةِ وَالعَمَلِ المُبَاشِرِ فِي المَيْدَانِ وَالاحْتِكَاكِ المُبَاشِرِ بِالدُّعَاةِ وَمَعْرِفَتِي بِالإِخْفَاقَاتِ، وَلِذَلِكَ أَعْطَيْتُ الاهْتِمَامَ الشَّدِيدَ بِالأَخْلَاقِ التِي لَا يَسَعُ المُعَرِّفُ بِالإِسْلَامِ وَالدَّاعِيَةِ الاسْتِغْنَاءِ عَنْهَا.

([4]) رَكَائِز منهج السلف في الدعوة إلى الله لفضيلة د. عبدالله بن محمد المجلي 88/148 بترقيم الشاملة منشور في مجلة البحوث الإسلامية.

2. يَجِدُ البَحْثُ إِخْفَاقَاتٍ فِي سُلُوكِيَّاتِ الدُّعَاةِ، وَيَطْرَحُ مُعَالِجَاتٍ نَاجِعَةٍ.
3. يُرَكِّزُ البَحْثُ عَلَى حَاجَاتِ المُعَرِّفِينَ بِالإِسْلَامِ خُصُوصًا، وَالدُّعَاةُ عُمُومًا فِي مَجَالِ البِنَاءِ الأَخْلاقِيّ وَالْإِيمانِيّ والتَّزكوِيّ والتَّرْبَوِيّ والسُّلوكِيّ وَالقِيَمِيّ واكتشاف الإِخْفاقات.
وقَد يَظُنُّ ظانٌّ أَنَّنِي بَالَغْتُ فِي الاهْتِمَامِ بِبَعْضِ الأَخْلَاقِ دُونَ غَيْرِهَا، وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ إِلَّا لِحَاجَةِ الدُّعَاةِ الشَّدِيدَةِ إِلَيْهَا، وَلِكَثْرَةِ الوُقُوعِ فِيهَا.

مَنْهَجِيَّةُ البَحْثِ:
إِنَّ المَنْهَجِيَّةَ التِي سَلَكْتُهَا فِي كِتَابَةِ هَذَا البَحْثِ تَتَمَثَّلُ فِي النِّقَاطِ التَّالِيَةِ:
- الاسْتِفَادَةُ مِنْ كَثْرَةِ التَّوَاصُلِ مَعَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَرْبَابِ التَّخَصُّصِ.
- أَنْ يَكُونَ البَحْثُ ثَرِيًّا بِآيِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَحَادِيثِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالرُّجُوعِ إِلَى كِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي اسْتِنْبَاطِ القَوَاعِدِ وَالأَحْكَامِ.
- عَزْو الآيَاتِ المُسْتَشْهَدِ بِهَا إِلَى السُّورَةِ.
- الرُّجُوعُ إِلَى كُتُبِ التَّفْسِيرِ بِالمَأْثُورِ خَاصَّةً لِلْبَحْثِ فِي مَعَانِي الآيَاتِ، وَالاعْتِمَادُ عَلَى كُتُبِ العُلَمَاءِ عَامَّةً فِي صِيَاغَةِ البَحْثِ وَمَسَائِلِهِ.
- اسْتِخْدَامُ الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فَقَطْ، وَتَجَنُّبُ الاسْتِشْهَادِ بِأَحَادِيثٍ ضَعِيفَةٍ.
- الاعْتِمَادُ فِي تَصْحِيحِ الأَحَادِيثِ عَلَى أَقْوَالِ أَهْلِ الشَّأْنِ فِي هَذَا المَجَالِ.
- تَجَنُّبُ ذِكْرِ الخِلَافِ فِي المَسَائِلِ الفِقْهِيَّةِ.
- تَجَنُّبُ ذِكْرِ أَسْمَاءِ أَشْخَاصٍ وَمَرَاكِزٍ رَأَيْتُهُمْ كَنَمَاذِجَ تَحْتَاجُ إِلَى هَذَا العِلَاجِ.
- الاسْتِفَادَةُ مِنْ كُتُبٍ وَمَقَالَاتٍ وَدِرَاسَاتٍ مُعَاصِرَةٍ لِأَهْلِ التَّخَصُّصِ مَعَ مُرَاعَاةِ الأَمَانَةِ العِلْمِيَّةِ فِي نَسْبِ الفِكْرَةِ أَوْ النَصِّ أَوْ البَحْثِ لِأَصْحَابِهِ.
- الاسْتِفَادَةُ مِنْ أَقْوَالِ وَأَفْعَالِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ فِي كُلِّ خُلُقٍ تَطَرَّقْتُ إِلَيْهِ.

الصُّعُوبَاتُ التِي وَاجَهَتْ البَحْثَ:
لَقَدْ تَمَثَّلَتْ صُعُوبَةُ البَحْثِ فِي أَمْرَيْن:
- **الأَوَّلُ**: أَكْبَرُ صُعُوبَةٍ فِي البَحْثِ أَنَّ تَقْرِيبًا كُلَّ مَنْ كَتَبَ شَيْئًا فِي هَذَا المَجَالِ وَكَذَلِكَ كَلَّ المُؤَسَّسَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ لَمْ يَأْتُوا بِحُلُولٍ تُوَاكِبُ الْعَصْرَ فِي غَرْسِ هَذِهِ الْقِيَمِ.
- **الثَّانِي**: صُعُوبَةُ تَحْوِيلِ المَنْهَجِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ إِلَى تَطْبِيقَاتٍ مُعَاصِرَةٍ.

خُطَّةُ البَحْثِ:
يَشْتَمِلُ هَذَا البَحْثُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَ(سبعة) فُصُولٍ، وَخَاتِمَةٍ، وَفَهَارِسِ، وَذَلِكَ وِفْقَ التَّالِي:

• الفَصْلُ الأَوَّلُ: الأَخْلَاقُ وَالسُّلُوكُ وَالقِيَمُ

المبحث الأول: الأَخْلاق

- المطلبُ الأوَّلُ: مَعْنى الأخْلاقِ
- المطلبُ الثَّاني: أهميَّةُ الأخلاقِ

- المطلبُ الثَّالثُ: فضائِلُ التَّخَلُّقِ بالأخلاقِ الحَسَنةِ
- المطلبُ الرَّابِعُ: مكانةُ الأخْلاقِ في الإسْلَامِ
- المَطْلَبُ الخَامِسُ: مَصادِرُ الأَخْلَاقِ
- المطلبُ السَّادِسُ: خصائِصُ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ
- المطلبُ السَّابِعُ: عَلاماتُ حُسْنِ الخُلُقِ
- المطلبُ الثَّامنُ: اكتسابُ الأخلاقِ
- المطلبُ التَّاسِعُ: وَسَائِلُ اكْتِسَابِ الأَخْلَاقِ
- المطلبُ العَاشِرُ: أقسامُ الأخلاقِ
- المطلبُ الحَادِي عَشَرَ: موقِفُ أعداءِ الدِّين مِنْ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ
- المطلبُ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ أقوالِ أعداءِ الإسلامِ والمُسلمينَ
- المطلبُ الثَّالِثُ عَشَرَ: ادِّعاءُ نِسبيَّةِ الأخلاقِ
- المطلبُ الرَّابِعُ عَشَرَ: حُسْنُ الخُلُقِ مِنْ أَسْبابِ نَجاحِ الدَّعْوَةِ
- المطلبُ الخَامِسُ عَشَرَ: جَوامِعُ الأَخْلاقِ الَّتِي تُؤَهِّلُ الدُّعاةَ
- المطلبُ السَّادِسُ عَشَرَ: أَخْلَاقُ الدَّاعِية إِلَى اللهِ وَأَثَرُهَا فِي المدْعُوِّيين
- المطلبُ السَّابِعُ عَشَرَ: إِقَامَةُ الْأَخْلَاقِ مِنْ مَقَاصِدِ الْإِسْلَامِ
- المطلبُ الثَّامِنُ عَشَرَ: إِقَامَةُ الْعَدْلِ وَمُحَارَبَةُ الظُّلْمِ مِنْ مَقَاصِدِ الْإِسْلَامِ

المبحث الثاني: أخلاقُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

- المطلبُ الأَوَّلُ: اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَصِفُ نَبِيَّهَ
- المطلبُ الثَّاني: أخلاقُ النَّبِيِّ قبل البعثة
- المطلبُ الثَّالثُ: أَخْلَاقُ النَّبِيِّ بَعْدَ البَعْثَةِ
- المطلبُ الرَّابِعُ: شَهاداتُ أقاربِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- المطلبُ الخَامِسُ: شَهاداتُ أَصْحابِهِ مِنْ غَيْرِ قَرَابَتِه
- المطلبُ السَّادِسُ: شَهَادَةُ أعدائِه

المبحث الثالث: السلوك

- المطلبُ الأوَّلُ: مَعْنَى السُّلوكِ

- المطلب الثَّاني: الفرقُ بَينَ الأخلاقِ والسُّلوكِ

المبحث الرابع: القِيَم

- المطْلَبُ الأَوَّلُ: تَعْرِيفُ القِيَمِ
- المطلبُ الثَّاني: أَهَمِيَّةُ غَرْسِ الْقِيَمِ لَدَى الدُّعَاةِ

● الفَصْلُ الثَّانِي: الأَدَبُ

المبحث الأول: الأدب ومكانته في الإسلام

- المطلب الأول: تعريفُ الأدبِ لغةً وعُرْفًا واصطلاحًا
- المطلبُ الثَّاني: الفَرْقُ بَيْنَ الأَدَبِ والْخُلُقِ
- المطلبُ الثَّالثُ: بعضُ الآدابِ في النُّصُوصِ الشَّرعية
- المطلبُ الثَّالثُ: مَكَانَةُ الأدَبِ في هَرَمِ الإِسْلَامِ

المبحث الثاني: أَنْواعُ الأَدَبِ

- المطلبُ الأوَّلُ: الأَدَبُ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
- المطلب الثاني: الأَدَبُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- المطلبُ الثَّالثُ: الأدَبُ مع صَحابَة النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- المطلبُ الرَّابِعُ: الأَدَبُ مَعَ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَتَقْدِيْرُهُمْ
- المطْلبُ الخَامِسُ: الْأَدَبُ مَعَ الْخَلْقِ
- المطْلبُ السَّادسُ: الْأَدَبُ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ
- المطْلبُ السَّابِعُ: أَدَبُ الْمَرْءِ عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ
- المطلبُ الثَّامنُ: أقوالُ العلماءِ في الأدبِ
- المطلبُ التَّاسعُ: من فَوائدِ الالتزَامِ بالأَدَبِ

● الفَصْلُ الثَّالِثُ: القُدْوَةُ الحَسَنَةُ

المبحث الأول: مفهوم القدوة الحسنة وأهميتها

- المطْلبُ الأَوَّلُ: مَعْنَى الْقُدْوَةِ لُغَةً واصْطِلاحًا
- المطلبُ الثَّاني: أَثَرُ القُدوةِ الحسَنَةِ فِي عَمَلِيَّةِ التَّربيةِ وَغَرْسِ القِيَمِ

- المطْلبُ الثَّالِثُ: القُدوةُ الحَسَنةُ وَحَقِيقَتُهَا
- المطْلبُ الرَّابِعُ: التَّرغِيبُ فِي القُدْوَةِ الحَسَنَةِ والحثُّ عَلَيْهَا

المبحث الثاني: القدوة الحسنة وأثرها في الدعوة

- المطْلَبُ الأَوَّلُ: أَهَمِيَّةُ الْقُدْوَةِ كَأَسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ
- المطلبُ الثَّاني: أَرْكَانُ الْقُدْوَةِ وَأُصُولُهَا
- المطْلبُ الثَّالِثُ: مُتَطَلَّبَاتُ الْقُدْوَةِ

● الفصل الرابع: التَّأْهِيلُ التَّرْبَوِيُّ الْإِيمانيّ

المبحث الأول: مَفْهومُ التَّأْهِيلِ التَّرْبَوِيّ الْإِيمانِيّ لِلدُّعَاةِ

- المطلبُ الأوَّل: مَعْنَى التَّرْبِيَةِ لُغَةً اصْطِلَاحًا
- المطلبُ الثَّانِي: مَعْنَى التَّأْهِيلُ التَّرْبَوِيُّ الْإِيمانِيُّ لِلدُّعَاةِ اصْطِلَاحًا

المبحث الثاني: أَهَمِّيَّةُ التَّأْهِيلِ التَّرْبَوِيّ الْإِيمانِيّ لِلدُّعَاةِ

- المطْلَبُ الأَوَّلُ: التَزْكِيَةُ والتَّأْهِيلُ التَّرْبَوِيّ أَوَّلًا قَبْلَ التَّعْلِيمِ
- المطلبُ الثَّانِي: أَنْواع التَّرْبِيَة
- المطْلبُ الثَّالثُ: جَوَانِبُ التَّأْهِيلُ التَّرْبَوِيُّ لِلدُّعَاةِ
- المطْلبُ الرَّابِعُ: أَهَمِّيَّةُ تَرْبِيَةِ الدُّعاةِ
- المطلبُ الخَامِسُ: أَهَمِّيَةُ مَعْرِفَةِ مَعَالِمُ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَتَرْبِيَتِهَا
- المطلبُ السَّادِسُ: آفَاتُ التَّرْبِيَةِ

المبحث الثالث: التَّرْبِية الْإِيمَانِية فِي حَياةِ الدُّعاةِ

- المطْلبُ الأَوَّلُ: أَهَمِّيَةُ التَّرْبِيَةِ الإِيمَانِيَّةِ
- المطْلَبُ الثَّانِي: التَّرْبِيَةُ عَلَى اَلْتَنَسّكِ والتَّعَبُّدِ

● الفَصْلُ الخَامِسُ: أَعْمَالُ القُلُوبِ والعَنَايَةُ بِتَرْسِيخِها فِي النُّفُوسِ

المبْحَثُ الأَوَّلُ: الإِخْلَاصُ

- المطْلَبُ الأَوَّلُ: مَعْنَى الإِخْلَاصِ

- المطلب الثاني: الحثُّ عَلَى الإخْلاصِ والتَّرغيبُ فيه
- المطلب الثالث: لماذا يُعَدُّ الإخْلَاصُ مِنْ أَهَمِّ أَعْمَالِ القُلُوبِ؟
- المطلب الرابع: حُكْمُ الإخْلاصِ
- المطلبُ الخَامِسُ: مَنْزِلَةُ الإخْلَاصِ
- المطلب السادس: صُوَرٌ من إخْلاصِ النيَّةِ لله عزَّ وجَلَّ
- المطلب السابع: صُورٌ مِنْ عدمِ إخلاصِ النيةِ لله عزَّ وجَلَّ
- المطلب الثامن: الإخلاص في حَياةِ الدَّاعيةِ المُعَرِّف بالإسلام
- المطلب التاسع: مَظَاهِرُ إِخْلَاصِ الدُّعَاةِ
- المطلب العاشر: مَظَاهِرُ وَآثَارُ ضَعْفِ إِخْلَاصِ الدُّعَاةِ
- المطلب الحادي عشر: الأَسْبَابُ المعِينَةُ على الإخْلَاصِ
- المطلب الثاني عشر: أمور يجب التنبيه عنها في مسألة الإخلاص
- المطلب الثالث عشر: ما يُتَوَهَّمُ أنه رياء وشرك وليس كذلك
- المطلب الرابع عشر: فوائد وثمرات الإخلاص
- المطلب الخامس عشر: حَقِيقَةُ الْإِخْلَاصِ وَخُلاَصَتُهُ

المبحث الثاني: المراقبة

- المطلب الأول: مَعْنَى المُرَاقَبَة
- المطلب الثاني: المراقبة ومرتبة الإحسان
- المطلب الثالث: الحثُّ على المراقبة
- المطلب الرابع: مَراتِب المراقبة
- المطلب الخامس: سُبُلُ اكتسابِ المراقبةِ
- المطلب السادس: فوائد المراقبة
- المطلب السابع: نماذج من أهل المراقبة
- المطلب الثامن: أَهَمِّيَّةُ غَرْسِ المُرَاقَبَةِ فِي قَلْبِ الدُعَاةِ خَاصَّةً

المبحث الثالث: التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ

- المطلب الأول: تَعْرِيفُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

- المطلب الثاني: حقيقة التوكل وأهميته
- المطلب الثالث: الحثُّ على التوكل والترغيب فيه
- المطلب الرابع: نماذج من توكل الأنبياء والصالحين
- المطلب الخامس: مواضع يُتَأَكَّدُ فيها التوكلُ على الله
- المطلب السادس: ثمرات التوكل
- المطلب السابع: أصناف الناس في التوكل
- المطلب الثامن: التوكل لا يكون إلا على الله
- المطلب التاسع: حكم التوكل على الله
- المطلب العاشر: التوكل والأخذ بالأسباب

المبحث الرابع: تعلق القلب بالله

- المطلب الأول: مَعْنَى التَّعَلُّق
- المطلب الثاني: الحثُّ على التَّعَلُّقِ بالله والتَّرغيبُ فيه
- المطلب الثالث: عَلَامَاتُ التَّعَلُّقِ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ
- المطلب الرابع: ثمرات التعلق بالله والاستغناء عن الناس
- المطلب الخامس: صُوَرٌ مِنَ التَّعُلُّقِ بِاللهِ وَالاسْتِغْنَاءِ عَنْ الخَلْقِ
- المطلب السادس: مَنْ تعلق بغير الله، عُذِّبَ به
- المطلب السابع: كيف السبيل إلى التعلق بالله والزهد في غيره؟

المبحث الخامس: الاستعانة

- المطلب الأول: مَعْنَى الاسْتِعَانَة
- المطلب الثاني: العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي
- المطلب الثالث: حقيقةُ الاستعانةِ بالله
- المطلب الرابع: الأمورُ التي يُطلبُ فيها العَوْن
- المطلب الخامس: الحثُّ على الاستعانةِ بالله والتَّرغيبُ فيها
- المطلب السادس: أقسامُ الاستعانةِ
- المطلب السابع: بيان سبب اقتران الاستعانة بالعبادة

- المطلب الثامن: بيانُ أقسامِ النَّاسِ في العبادةِ والاستعانةِ
- المطلب التاسع: ثَمَرَاتُ الاسْتِعَانةِ باللهِ
- المطلب العاشر: كلمات ذات صلة بالاستعانة
- المطلب الحادي عشر: أثر الاستعانة بالله على الفرد والمجتمع

المبحث السابع: الزُّهد

- المطلب الأول: معنى الزُّهدِ
- المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ الزُّهدِ والوَرعِ
- المطلب الثالث: التَّرغيبُ في الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ
- المطلب الرابع: فوائِدُ الزُّهدِ
- المطلب الخامس: مظاهِرُ وصُوَرُ الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ
- المطلب السادس: موانِعُ الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ
- المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ
- المطلب الثامن: نماذِجُ مِن الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ
- المطلب التاسع: حُكمُ الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ
- المطلب العاشر: أخطاءٌ شائِعةٌ حولَ الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ
- المطلب الحادي عشر: تربية الدعاة على الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة
- المطلب الثاني عشر: من أروع قصائد الزهد

المبحث الثامن: الورع

- المطلب الأول معنى الوَرَعِ
- المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الزُّهْدِ والوَرَعِ
- المطلب الثالث: التَّرغيبُ في الوَرَعِ والحَثُّ عليه
- المطلب الرابع: أقسامُ الوَرَعِ
- المطلب الخامس: فوائِدُ الوَرَعِ
- المطلب السادس: درَجاتُ الوَرَعِ
- المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ الوَرَعِ

- المطلب الثامن: موانع الوَرَعُ
- المطلب التاسع: الوسائِلُ المعينةُ على الوَرَعِ
- المطلب العاشر: قِصَصٌ ونماذِجُ من الوَرَعِ
- المطلب الحادي عشر: حُكمُ الوَرَعِ
- المطلب الثاني عشر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ الوَرَعِ
- المطلب الثالث عشر: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث التاسع: اليقين

- المطلب الأول: بيان معنى اليقين وحقيقته
- المطلب الثاني: الفرق بين اليقين وغيره من الصفات
- المطلب الثالث: منزلة اليقين
- المطلب الرابع: الحث على اليقين والترغيب فيه
- المطلب الخامس: مراتب اليقين
- المطلب السادس: مراتب الناس في اليقين
- المطلب السابع: اختبار اليقين
- المطلب الثامن: الطريق إلى اليقين
- المطلب التاسع: ثمرات اليقين
- المطلب العاشر: الأمور التي تنافي اليقين
- المطلب الحادي عشر: أخبار السلف رضى الله عنهم مع اليقين

المبحث العاشر: المحبة

- المطلب الأول: معنى المحبة
- المطلب الثاني: فضل المحبة
- المطلب الثالث: الحث على المحبة
- المطلب الرابع: وسائل اكتساب المحبة
- المطلب الخامس: فوائد المحبة
- المطلب السادس: حكم المحبة

- المطلب السابع: نماذج لمحبة الله عزوجل

المبحث الحادي عشر: المحاسبة

- المطلب الأول: معنى المحاسبة
- المطلب الثاني: الحث على محاسبة النفس والترغيب فيها
- المطلب الثالث: أقسام محاسبة النفس
- المطلب الرابع: المحاسبة المعتدلة
- المطلب الخامس: كيفية المحاسبة
- المطلب السادس: فوائد محاسبة النفس
- المطلب السابع: الأسباب المعينة لمحاسبة النفس

المبحث الثاني عشر: التوبة

- المطلب الأول: معنى التوبة
- المطلب الثاني: الفرق بين التوبة وبين غيرها من الصفات
- المطلب الثالث: فضل التوبة
- المطلب الرابع: الحث على التوبة والترغيب فيها
- المطلب الخامس: حكم التوبة
- المطلب السادس: نماذج من قصص التائبين
- المطلب السابع: صور التوبة
- المطلب الثامن: وسائل اكتساب التوبة
- المطلب التاسع: فوائد التوبة

المبحث الثالث عشر: الخوف

- المطلب الأول: معنى الخوف
- المطلب الثاني: الفرق بين الخوف وغيره من الصفات
- المطلب الثالث: فضل الخوف من الله
- المطلب الرابع: الحث على الخوف من الله
- المطلب الخامس: وسائل اكتساب الخوف من الله

- المطلب السادس: فوائد الخوف من الله
- المطلب السابع: نماذج من أهل الخوف من الله عز وجل

المبحث الرابع عشر: الخشوع

- المطلب الأول: معنى الخشوع
- المطلب الثاني: الفرق بين الخشوع وغيره من الصفات
- المطلب الثالث: أهمية الخشوع ومنزلته
- المطلب الرابع: الحث على الخشوع والترغيب فيه
- المطلب الخامس: درجات الخشوع
- المطلب السادس: مراتب الناس في الخشوع
- المطلب السابع: أنواع الخشوع
- المطلب الثامن: الطريق إلى الخشوع
- المطلب التاسع: ثمرات الخشوع
- المطلب العاشر: الأمور التي تنافي الخشوع
- المطلب الحادي عشر: نماذج في الخشوع

المبحث الخامس عشر: الشكر

- المطلب الأول: معنى الشكر
- المطلب الثاني: الفرق بين الشكر والحمد
- المطلب الثالث: فضل الشكر
- المطلب الرابع: الحث على الشكر والترغيب فيه
- المطلب الخامس: صور الشكر
- المطلب السادس: وسائل اكتساب الشكر
- المطلب السابع: فوائد الشكر
- المطلب الثامن: نماذج من أهل الشكر
- المطلب التاسع: حكم الشكر

- **الفَصْلُ السَّادِسُ: الصِّفَاتُ المَحْمُودَةُ للدَّاعِيةِ إِلَى اللهِ**

المبحث الأول: الأَمَانَة

- المَطْلَبُ الأَوَّلُ: مَعْنَى الأَمَانَة
- المطلب الثَّاني: الحثُّ على الأمانة
- المطلب الثَّالث: مَجَالَات وصُوَر الأَمَانَة
- المطلب الرَّابِع: أَدَاءُ الْأَمَانَاتِ فِي الْوِلَايَاتِ
- المطلب الخَامِس: نماذِجُ في الأمانةِ
- المطلبُ السَّادِس: فَوَائِدُ وثَمَرَاتُ الْأَمَانَةِ
- المطلبُ السَّابِع: وسائلُ اكتسابِ الأَمَانَةِ
- المطلبُ الثَّامنُ: موانِعُ التَّحَلِّي بِصِفَةِ الأمانةِ
- المطلبُ التَّاسِع: حُكْمُ الأَمَانَةِ
- المطلبُ العَاشِرِ: أخطاءٌ شائعةٌ حَولَ الأمانةِ

المبحث الثاني: الصِّدْقُ

- المطلب الأول: معنى الصدق
- المطلب الثاني: حَقِيقَةُ الصِّدْقِ
- المطلب الثالث: الفَرْقُ بَيْنَ الصِّدقِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المطلب الرابع: الترغيبُ في الصدق والحثُّ عليه
- المطلب الخامس: فوائِدُ الصِّدقِ
- المطلب السادس: دَرَجَاتُ الصِّدقِ
- المطلب السَّابع: صُوَرُ الصِّدقِ ومَظاهِرُه
- المطلب الثامن: موانعُ اكتسابِ صفةِ الصِّدقِ
- المطلب التاسع: الوسائلُ المعينةُ على الصِّدقِ
- المطلب العاشر: نماذجُ في الصِّدقِ

المبحث الثالث: الإحسان

- المطلبُ الأولُ: مَعْنَى الإِحْسَان
- المطلب الثاني: الفَرْق بَيْنَ الإحسانِ وبعضِ الصِّفاتِ

- المطلب الثالث: التَّرغيبُ في الإحْسَانِ والحثُّ عليه
- المطلب الرابع: مظاهِرُ وصُوَرُ الإحسانِ
- المطلب الخامس: فوائِدُ الإحسانِ
- المطلب السادس: موانعُ الإحسانِ
- المطلب السابع: الوسائِلُ المُعِينةُ على اكتسابِ الإحسانِ
- المطلب الثامن: نماذِجُ من الإحسانِ
- المطلب التاسع: حُكمُ الإحسانِ
- المطلب العاشر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ الإحسانِ
- المطلب الحادي عشر: مسائل متفرقة

المبحث الرابع: خدمة الناس وقضاء حوائجهم

- المطلب الأول: علامات توفيق العبد
- المطلب الثاني: فَضْلُ قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ
- المطلب الثالث: التحذيرُ من عَدَمِ قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ مَعَ الاِسْتِطَاعَةِ
- المطلب الرابع: نَبِيُّنَا قُدْوَتُنَا فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ
- المطلب الخامس: صوَرٌ من حِرْصِ النَّبِي عَلَى قَضَاءِ حَوائِجِ النَّاسِ
- المطلب السادس: صُوَرٌ مِنْ حِرْصِ الصَّحَابَةِ عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ
- المطلب السابع: أَقْوَالُ بَعْضِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاس

المبحث الخامس: حُسْن ولين الكلام

- المْطْلَبُ الأَوَّلُ: مَعْنَى اللين
- المْطْلَبُ الثَّاني: التَّرغيبُ في لينِ الكلامِ والحثُّ عليه
- المطلب الثَّالث: نَمَاذِجُ مِن اللينِ
- المطلب الرابع: ثَمَراتُ حُسْنِ وَلِينِ الكَلام
- المطلب الخَامِسُ: أثَرُ مُقابَلةِ الأذى بِاللين
- المطلب السَّادِسُ: اللين مع غيرِ المُسلِمينَ
- المطلبُ السَّابع: الدَّاعِيةُ إِلَى اللَّهِ وَخُلُقُ اللينِ

المبحث السادس: احترام الناس وتوقيرهم

- المطلب الأول: معنى الاحترامِ والتَّوقيرِ
- المطلب الثاني: الترغيب في احترام وتقدير الناس
- المطلب الثالث: فوائِدُ الاحترامِ والتَّوقيرِ بَيْنَ النَّاسِ
- المطلب الرابع: أقسامُ الاحترامِ والتَّوقيرِ
- المطلب الخامس: نماذِجُ من تَوْقيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للكَبيرِ
- المطلب السادس: مَظاهِرُ وصُوَرُ من الاحْتِرامِ والتَّوقيرِ
- المطلب السابع: موانِعُ اكْتِسَابِ الاحْترامِ والتَّوقِيرِ
- المطلب الثامن: الوسائِلُ المعينةُ على الاحترامِ والتَّوقيرِ
- المطلب التاسع: معيارُ الاحترامِ والتَّوقيرِ في ميزانُ الشَّرعِ
- المطلب العاشر: بعضُ الأمورِ التي لا تتنافى مع الاحترامِ

المبحث السابع: الإهداء والجُود والكَرَم

- المطلب الأول: معنى الهدية والجود والكرم
- المطلب الثاني: نماذج من الكرم
- المطلبُ الثَّالثُ: أنواعُ الكرمِ
- المطلب الرابع: فَضْلُ الكرمِ والْجُودِ
- المطلب الخامس: الوَسائِلُ المُعِينةُ على اكتِسابِ صِفاتِ الكَرَمِ والجُودِ
- المطلب السادس: فوائِدُ الكَرَمِ والجُودِ والسَّخاءِ والبَذْلِ وأثَرُهم
- المطلب السابع: موانِعُ اكتسابِ صِفاتِ الكَرَمِ والجُودِ
- المطلب الثامن: نَصَائِحُ تُؤخَذُ في الاعتبار

المبحث الثامن: الإيثار

- المطلب الأول: معنى الإيثار
- المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ الإيثارِ والسَّخاءِ والجُودِ
- المطلب الثالث: الترغيب في الإيثار والحث عليه
- المطلب الرابع: نماذِجٌ من الإيثار

- المطلب الخامس: دَرَجاتُ الإيثارِ
- المطلب السادس: أقسام الإيثار
- المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ الإيثارِ
- المطلب الثامن: فوائِدُ وثمار الإيثارِ
- المطلب التاسع: موانِعُ اكتسابِ خُلُق الإيثارِ
- المطلب: الوسائِلُ المُعينةُ على اكتِسابِ خُلُق الإيثارِ

المبحث التاسع: الرِّفقُ

- المطلب الأول: معنى الرفق
- المطلب الثاني: الترغيب في الرفق والحث عليه
- المطلب الثالث: نماذج من الرفق
- المطلب الرابع: أقسامُ الرِّفْقِ
- المطلب الخامس: صُوَرُ الرِّفْقِ
- المطلب السادس: حُكْمُ الرِّفْقِ
- المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على اكتسابِ صِفةِ الرِّفْقِ
- المطلب الثامن: ثَمَراتُ الرِّفْقِ
- المطلب التاسع: أخطاءٌ شائعةٌ
- المطلب العاشر: مسائل متفرقة
- المطلب الحادي عشر: أهمية الرفق واللين في الدعوة

المبحث العاشر: الحلم

- المطلب الأول: معنى الحلم
- المبحث الثاني: الترغيب في الحلم والحث عليه
- المطلب الثالث: نماذِجُ مِن الحِلمِ
- المطلب الرابع: درجاتُ الحِلْمِ
- المطلب الخامس: صُوَرٌ مِنْ الحِلْمِ
- المطلب السادس: فضل الحلم

- المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على اكتِسابِ الحِلمِ
- المطلب الثامن: موانِعُ اكتِسابِ الحِلمِ
- المطلب التاسع: ثمراتُ الحلمِ

المبحث الحادي عشر: التَّأَنِّي والتُّؤَدَةَ والأناة

- المطلب الأول: معنى التأني
- المطلب الثالث: الترغيب في الأناة والحث عليه
- المطلب الخامس: مظاهر وصور التأني
- المطلب السادس: ثَمَراتُ التَأَنِّي
- المطلب السابع: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ التَّأنِّي
- المطلب الثامن: الوسائِلُ المُعينةُ على اكتِسابِ صِفةِ التَّأنِّي

المبحث الثاني عشر: الصَّبرُ

- المطلب الأول: معنى الصبر
- المطلب الثاني: الفرقُ بَينَ الصَّبرِ وبَعضِ الصِّفاتِ
- المطلب الثالث: الترغيب في الصبر والحث عليه
- المطلب الرابع: نماذج من الصبر
- المطلب الخامس: فوائِدُ الصَّبرِ
- المطلب السادس: أقسامُ الصَّبرِ
- المطلب السابع: مَراتِبُ الصَّبرِ ودَرَجاتُه
- المطلب الثامن: صُورُ الصَّبرِ ومَجالاتُه
- المطلب التاسع: مَوانِعُ التَّحَلِّي بالصَّبرِ
- المطلب العاشر: الوسائِلُ المُعينةُ على الصَّبرِ
- المطلب الحادي عشر: حُكمُ الصَّبرِ
- المطلب الثاني عشر: الصَّبرُ والدعوة
- المطلب الثالث عَشَرَ: أخطاءٌ شائِعةٌ

المبحث الثالث عشر: الشَّجاعةُ

- المطلب الأول: معنى الشَّجاعةِ
- المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الشَّجاعةِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المطلب الثالث: التَّرغيبُ في الشَّجاعةِ
- المطلب الرابع: فوائِدُ الشَّجاعةِ وآثارُها
- المطلب الخامس: أقسامُ الشَّجاعةِ
- المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ الشَّجاعةِ
- المطلب الثامن: موانعُ اكتسابِ الشَّجاعةِ
- المطلب التاسع: الوسائلُ المُعينةُ على اكتسابِ خُلُقِ الشَّجاعةِ
- المطلب العاشر: ضوابطُ استعمالِ الشَّجاعةِ
- المطلب الحادي عَشَرَ: نماذِجُ في الشَّجاعةِ
- المطلب الثاني عشر: عِلَاقَةُ الشَّجَاعَةِ بِالصَّبرِ وَالحِكْمَةِ
- المطلب الثالث عشر: دَوْرُ الشَّجَاعَةِ في نَجَاحِ الْقَادَةِ
- المطلب الرابع عشر: أخطاءٌ شائعةٌ
- المطلب الخامس عشر: مَسائِلُ مُتفَرّقةٌ

المبحث الرابع عشر: الحِكْمَة

- المطلب الأول: معنى الحكمة
- المطلب الثاني: التَّرغيب في الحكمة والحثُّ عليها
- المطلب الثالث: نماذجُ في الحِكمةِ
- المطلب الرابع: أقسام الحكمة
- المطلب الخامس: دَرَجَاتُ الحِكْمَةِ
- المطلب السادس: أركانُ الحِكْمَةِ
- المطلب السابع: مواضِعُ يُتَأَكَّدُ فيها لزومُ الحِكمةِ
- المطلب الثامن: فوائدُ الحِكمةِ
- المطلب التاسع: وسائِلُ اكتسابِ الحِكمةِ
- المطلب العاشر: موانِعُ اكتسابِ الحِكمةِ
- المطلب الحادي عشر: لماذا وُصِفَت السُّنَّةُ بالحِكْمَةِ

- المطلب الثاني عشر: لماذَا يَترُكونَ كَلَامَ خَيرِ الأَنَامِ ويَسْتَشْهِدُونَ بِتُرَّهَاتِ عُبَّادِ الأَوثَانِ ؟!
- المطلب الثالث عشر: الحِكْمَةُ فِي الدَّعْوَةِ وَمَعَالِمُهَا
- المطلب الرابع عشر: أخطاءٌ شائعةٌ
- المطلب الخامس عشر: مسائلٌ مُتفرّقة

المبحث الخامس عشر: التضحية

- المطلب الأول: معنى التضحية
- المطلب الثَّاني: الفَرقُ بَينَ التَّضْحيةِ والفِداءِ
- المطلبُ الثَّالِثُ: التَّرْغِيبُ فِي خُلُقِ التَّضْحِيَة وَالحَثُّ عَلَيْهِ
- المطلب الرابع: نماذجٌ يُقتدَى بِهَا فِي التَّضْحِيَةِ
- المطلب الخامس: مظاهِرُ وصُوَرُ التَّضْحيةِ
- المطلب السادس: ثمارُ التَّضْحِيَة
- المطلب السابع: أقسامُ التَّضْحيةِ
- المطلب الثامن: الوَسائِلُ المُعينَةُ على التَّضْحِيَة
- المطلب التاسع: موانِعُ اكتِسابِ صِفةِ التَّضحيةِ
- المبحث العاشر: أخطاءٌ شائِعةٌ حولَ التَّضْحيةِ
- المطلب الحادي عشر: مَتَى تَنجَحُ التَّضْحِيةُ فِي الدَّعْوَةِ؟
- المطلب الثاني عشر: التضحية في الدعوة هي التجارة الرابحة
- المطلب الثالث عشر: الوعيد لمن لم يضحي في سبيل الله

المبحث السادس عشر: قوة العزم والعزيمة وعلوّ الهمة

- المطلب الأول: معنى العَزمِ والعَزيمةِ
- المطلب الثاني: الفرق بين الهِمَّةِ وغيرها من الصفات
- المطلب الثالث: التَّرغِيبُ في العزم والحثُّ عليه
- المطلب الرابع: نماذِجُ من العَزمِ والعَزيمةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ
- المطلب الخامس: أقسامُ الهِمَّةِ
- المطلب السادس: فوائدُ قوة العَزمِ والعَزيمةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ

- المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ العَزمِ والعَزيمةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ
- المطلب الثامن: موانِعُ اكتِسابِ العَزمِ والعَزيمةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ
- المطلب التاسع: الوسائِلُ المُعينةُ على تقويةِ العَزمِ والعَزيمةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ
- المطلب العاشر: نَجَاحُ الدَّاعيةِ بِحَسْبِ قُوَّةِ عَزِيمَتِهِ وَعُلُوِّ هِمَّتِهِ
- المطلب الحادي عشر: علاماتُ عالي الهِمَّة
- المطلب الثاني عشر: السر في كلمة "استمر"
- المطلب الثالث عشر: صاحبُ الهمَّة يَسْبقُ إلى القِمَّة ويَسُودُ الأُمَّةِ
- المطلب الرابع عشر: دَنِيءُ الهمَّةِ مختومٌ عَلَى قَلبِه
- المطلب الخامس عشر: حوارٌ بينَ شيخٍ وتلميذِهِ
- المطلب السادس عشر: غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ
- المطلب السابع عشر: (الْمُرَاهَقَةُ) ظَاهِرَةٌ مُعَاصِرَةٌ لَا تَلِيقُ بِأَوْلَادِنَا
- المطلب الثامن عشر: البُكَاءُ عَلَى الأَبْوَابِ الْمُوصَدَةِ

المبحث السابع عشر: تَحَمُّلُ المَسئوليات

- المطلب الأول: معنى المسئولية
- المطلب الثاني: المسئولية في نصوص الكتاب والسنة
- المطلب الثالث: الدعوة إلى الله مسئولية الجميع
- المطلب الرابع: نداءٌ إلى كلِّ أبٍ
- المطلب الخامس: مَا هُوَ مَشْرُوعُكَ وَثَغْرُكَ وَمَسْئُولِيَّتُكَ؟
- المطلب السادس: رسالةٌ أَرْجُو أَنْ تَصِلَ
- المطلب السابع: الرِّحْلَةُ اليَابَانِيَّةُ وَتَحَمُّلِ المسْئُولِيَّةِ
- المطلب الثامن: علاجُ ضعفِ الشعورِ بالمسئوليةِ
- المطلبُ التَّاسع: دَوَافِعُ الشُّعُورِ بِالمسْئُولِيَّةِ

المبحث الثامن عشر: التفاؤل

- المطلب الأول: معنى التفاؤل
- المطلب الثاني: الفرق بين التفاؤل وحسن الظن بالله

- المطلب الثالث: الترغيب في التفاؤل والحث عليه
- المطلب الرابع: نماذِجُ مِن التَّفاؤُلِ
- المطلب الخامس: أقسامُ التَّفاؤُلِ
- المطلب السادس: مظاهِرُ وصُوَرُ التَّفاؤُلِ
- المطلب السابع: موانِعُ اكتِسابِ التَّفاؤُلِ
- المطلب الثامن: الوَسائِلُ المُعينةُ على التَّفاؤُلِ
- المطلب التاسع: ثمراتُ التَّفاؤل
- المطلب العاشر: حُكمُ التَّفاؤُلِ وما يُباحُ منه
- المطلب الحادي عشر: أخطاءٌ شائعةٌ حَولَ التَّفاؤُلِ
- المطلب الثاني عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرّقةٌ
- المطلب الثالث عشر: الداعيةُ إلى الله وصفةُ التَّفاؤل
- المطلب الرابع عشر: الالتزام بالمنهج في العسر واليسر
- المطلب الخامس عشر: لا تكنْ متشائمًا

المبحث التاسع عشر: الأَمَل والرَّجاءُ

- المطلب الأول: تعريفُ الأمل
- المطلب الثاني: التَّرغيبُ في الأمل والحثُّ عليه
- المطلب الثالث: الأمل واقترانه بالعمل
- المطلب الرابع: فضل الأمل والرجاء
- المطلب الخامس: قَانُونُ الجُهُودِ المَهْدُورَة
- المطلب السادس: الشدائد لا تدوم
- المطلب السابع: بث الأمل في نفوس العاصين
- المطلب الثامن: قائدٌ عَلَّمَتْهُ نَمْلَةٌ

المبحث العشرون: الوفاء بالعهود واحترام الوقت (المواعيد)

- المطلب الأول: معنى الوفاء
- المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ الوفاءِ وغَيرِه مِن الصِّفاتِ

- المطلب الثالث: الترغيب في الوفاء بالعهود والحث عليه
- المطلب الرابع: فوائِدُ الوفاءِ بالعَهدِ
- المطلب الخامس: أقسامُ الوفاءِ بالعَهدِ
- المطلب السادس: صُوَرُ الوفاءِ بالعهود
- المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على الوفاءِ بالعهود
- المطلب الثامن: نماذج في الوفاء بالعهود
- المطلب التاسع: حُكمُ الوفاءِ
- المطلب العاشر: ضرورة الوفاء
- المطلب الحادي عشر: الإساءة إلى مكانة الوفاء بمخالفة المواعيد
- المطلب الثاني عشر: وَعْدُ الحُرِّ دَيْنٌ عَلَيْهِ
- المطلب الثالث عشر: قِصَّتِي مَعَ احْتِرَامِ الوقت

المبحث الواحد والعشرون: الأُخُوَّةُ في الله والصحبة الصالحة

- المطلب الأول: "يدُ اللَّهِ معَ الجماعةِ
- المطلب الثاني: الحث على الأخوة في الله والترغيب فيها
- المطلب الثالث: ثَمَراتُ الأُخُوَّة والصُحْبَة الصَّالِحَة
- المطلب الرابع: حُقُوقُ الأُخُوَّةِ فِي اللهِ
- المطلب الخامس: كَيْفَ يَنْشَأُ التَّرَاحُمُ بيْنَ المؤْمِنِينَ ؟
- المطلب السادس: حُسْنُ اختيارِ الداعية لِمَعاونيهِ مِنْ إِخْوانِهِ
- المطلب السابع: مُجالسَةُ الصَّالِحين وَبركَةُ مُصَاحَبَتِهِمْ
- المطلب الثامن: مُجَالَسَةُ أَهْلِ السُّوءِ وآثاره
- المطلب التاسع: لَا مُوَالَاةٌ للأَخِ إِنِ اسْتَحَبَّ الكفرَ عَلَى الإِيمَانِ
- المطلب العاشر: النَّهي عنِ الانفراد وأن يبيت الرجل وحده
- المطلب الحادي عشر: تجربة مررتُ بها (البخلاء وَأَنَا!)
- المطلب الثاني عشر: أَسْبَابُ ظَّاهِرَةِ (ضَعِفِ رَابِطَةِ الْأُخُوَّةِ فِي اللَّهِ)
- المطلب الثالث عشر: سُبُلُ عِلَاجِ ظَاهِرَةِ ضَعْفِ رَابِطَةِ الْأُخُوَّةِ فِي اللَّهِ
- المطلب الرابع عشر: بعضُ صُورِ الأُخوَّةِ والوِحْدَةِ والتَّعَاوُنِ والقُوَّةِ

- المطلب الخامس عشر: المرءُ قليلٌ بنفسِهِ كثيرٌ بإخوانِهِ
- المطلب السادس عشر: التعاون المرفوض
- المطلب السابع عشر: أَعْلِنْ المحَبَّةَ وَالمَوَدَّةَ لِلْآخَرِينَ
- المطلب الثامن عشر: الأخوة في الله طَرَفي نَقِيضٍ
- المطلب التاسع عشر: المحبَّةُ نِعْمَةٌ والتَّوَاصُلُ أُنْسٌ

المبحث الثاني والعشرون: التواضع ولين الجانب

- المطلبُ الأَوَّلُ: مَعْنَى التَّوَاضِعُ
- المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ التَّواضُعِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المطلب الثالث: التَّواضُعُ وَسَطٌ بَيْنَ خُلُقَينِ ذميمَينِ
- المطلبُ الرابع: التَّرغِيبُ في التَّواضعِ والحثُّ عليه
- المطلب الخَامِسُ: نماذجٌ في التَّواضِعِ
- المطلب السادس: صور للتواضع
- المطلب السابع: أقسامُ التَّواضُعِ
- المطلب الثامن: دَرَجاتُ التَّواضُعِ
- المطلب التاسع: الوسائِلُ المعينةُ على التَّواضُعِ
- المطلب العاشر: ثُمَراتُ التَّواضُعِ
- المطلب الحادي عشر: مسائل متفرقة

المبحث الثالث والعشرون: القناعة والرِضا

- المطلب الأول: مَعْنَى القَنَاعَةِ
- المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ القَنَاعَةِ وَغَيرِها مِن الصِّفاتِ
- المطلب الثالث: الترغيب في القناعة والحث عليها
- المطلب الرابع: نماذجٌ في القَنَاعَةِ
- المطلب الخامس: ثَمَرَاتُ القَنَّاعَةِ
- المطلب السادس: دَرَجاتُ القناعةِ
- المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ الرضا والقناعةِ

- المطلب الثامن: فَضْلُ القَنَاعَةِ
- المطلب التاسع: موانِعُ اكتسابِ القناعةِ
- المطلب العاشر: الوسائِلِ المُعينةِ على اكتِسابِ القناعةِ
- المطلب الحادي عشر: زُرْ هَذِهِ الأَمَاكِن حَتَّى تَقْنَعَ
- المطلب الثاني عشر: مَا أحوجَ الدُّعاة إِلَى الْقَنَاعَةِ
- المطلب الثالث عشر: لا تحزن
- المطلب الرابع عشر: مَا أَجْمَلَ الْقَنَاعَةَ! وَمَا أَسْعَد أَهْلَهَا!
- المطلب الخامس عشر: ربَّما كان الخيرُ في المنعِ
- المطلب السادس عشر: مَا الدُّنْيَا إِلَّا قَطْرَةُ عَسَلٍ كَبِيرَةٍ
- المطلب السابع عشر: لَيْتَنِي مِثْلُ سَالِمٍ بِمُلْكِي كُلِّهِ
- المطلب الثامن عشر: عدَمُ قناعةِ الأغنياءِ
- المطلب التاسع عشر: الأَرْمَلَةُ الفَقِيرَةُ
- المطلب العشرون: الرّضا بالكَفافِ يُؤَدّي إلى العَفافِ
- المطلب الحادي والعشرون: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ القناعةِ

المبحث الرابع والعشرون: التَّعاوُنِ والتَكاتف

- المطلب الأول: معنى التَّعاوُنِ لُغةً واصطِلاحًا
- المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ التَّعاوُنِ والتَّظاهُرِ
- المطلب الثالث: الترغيب في التعاون والحث عليه
- المطلب الثالث: نماذج في التعاون
- المطلب الرابع: حُكمُ التَّعاوُنِ
- المطلب الخامس: أقسامُ التَّعاوُنِ
- المطلب السادس: أصنافُ النَّاسِ في التَّعاوُنِ
- المطلب السابع: دَرَجاتُ التَّعاوُنِ
- المطلب الثامن: فوائِدُ التَّعاوُنِ
- المطلب التاسع: مظاهِرُ وصُوَرُ التَّعاوُنِ
- المطلب العاشر: موانِعُ التَّعاوُنِ

- المطلب الحادي عشر: الوسائِلِ المُعِينَةِ على التَّعاوُنِ
- المطلب الثاني عشر: آثارُ التَّعاوُنِ على الإثمِ والعُدوانِ

المبحث الخامس والعشرون: الحياء

- المطلب الأول: معنى الحَياء
- المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ الحَياءِ والخَجَلِ
- المطلب الثالث: التَّرغِيبُ في الحيَاءِ والحثُّ عليه
- المطلب الرابع: فوائِدُ الحَياءِ
- المطلب الخامس: أقسامُ الحَياءِ
- المطلب السادس: أوجُهُ الحَياءِ
- المطلب السابع: مَظاهِرُ وصُوَرُ الحَياءِ
- المطلب الثامن: موانِعُ اكتسابِ الحَياءِ
- المطلب التاسع: الوسائِلُ المعينةُ على اكتِسابِ الحَياءِ
- المطلب العاشر: نماذج في الحياء
- المطلب الحادي عشر: مَكَانَتُهُ وَمَنْزِلَةُ الحَيَاءِ
- المطلب الثاني عشر: من مظاهِرِ قِلَّةِ الحَياءِ
- المطلب الثالث عشر: العلاقة بين قِلَّةِ الحَيَاءِ وبين التفريطُ فِي الْغَيْرَةِ
- المطلب الرابع عشر: حَيَاءُ المرْأَةِ
- المطلب الخامس عشر: الحَيَاءُ مِنَ اللهِ
- المطلب السادس عشر: مُحَارَبَةُ أَعْداءِ الإِسْلامِ لِلْحَياءِ
- المطلب السابع عشر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ الحَياءِ
- المطلب الثامن عشر: مسائل متفرقة

المبحث السادس والعشرون: العِفَّة

- المطلب الأول: معنى العِفَّة
- المطلب الثاني: الترغيب في العفة والحث عليها
- المطلب الثالث: ثَمَرَاتُ العِفَّةِ

- المطلب الرابع: أنواعُ العِفَّةِ
- المطلب الخامس: أقْسامُ العفة
- المطلب السادس: شُروطُ العِفَّةِ
- المطلب السابع: أساسُ العِفَّةِ وتمامُها
- المطلب الثامن: صُوَرُ العِفَّةِ
- المطلب التاسع: موانِعُ العِفَّةِ
- المطلب العاشر: الوسائِلُ المعينةُ عَلَى اكْتِسَابِ خُلُقِ العِفَّةِ
- المطلب الحادي عشر: نماذج في العفة
- المطلب الثَّاني عشر: فَضْلُ العِفَّةِ
- المطلب الثالث عشر: الدُّعَاةُ إِلَى اللهِ وَخُلُقُ العِفَّةِ
- المطلب الرابع عشر: العِفَّةُ باختصار

المبحث السابع والعشرون: المَوْعِظَة الحسنة

- المطلب الأول: معنى المَوْعِظَةُ الحَسَنَةُ
- المطلب الثاني: الحثُّ على المَوْعِظَةِ الحسنةِ والتَّرغيبُ فيه
- المطلب الثالث: شُمُولِيَّةُ المَوْعِظَةِ الحَسَنَة لِلأمْرِ والنَّهي
- المطلب الرابع: أنواعُ المَوْعِظَةِ الحسنةِ
- المطلب الخامس: مَعَالِمُ المَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الله
- المطلب السادس: الْحِكْمَةُ وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ قَرِينَتَانِ
- المطلب السابع: الموعظة الحسنة باختصار

المبحث الثامن والعشرون: التَّغافُلُ

- المطلب الأول: معنى التَّغافُلِ
- المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ التَّغافُلِ وَغَيْرِهِ من الصِّفَاتِ
- المطلب الثالث: التَّرغيبُ في خلق التَّغَافِلِ والحثُّ عليه
- المطلب الرابع: نماذج في التغافل
- المطلب الخامس: مظاهِرُ وصُوَرُ التَّغافُلِ

- المطلب السادس: فوائِدُ التَّغافُلِ
- المطلب السابع: أقسامُ التَّغافُلِ
- المطلب الثامن: دَرَجاتُ التَّغافُلِ
- المطلب التاسع: الوسائِلِ المُعينةِ على اكتِسابِ التَّغافُلِ
- المطلب العاشر: موانِعُ اكتِسابِ التَّغافُلِ
- المطلب الحادي عشر: أخطاءٌ شائِعةٌ حولَ التَّغافُلِ
- المطلب الثاني عشر: لماذا ذُمَّت الغَفلةُ ومُدِحَ استعمالُها؟
- المطلب الثالث عشر: التَّغافُل في الدَّعْوَة
- المطلب الرابع عشر: لِبَقَاءِ الْوُدِّ وَرَاحَةِ الْبَالِ، تَغافلْ
- المطلب الخامس عشر: الحَيَاةُ تَحْتاجُ إلى التَّغَافُلِ
- المطلب السادس عشر: أُمْحُهَا يَا عَلِيُّ
- المطلب السابع عشر: حُفْرَةٌ فِي طَيِّ النِسْيَانِ
- المطلب الثامن عشر: تَجَاهَلْ مَنْ يُحْبِطَكَ

المبحث التاسع والعشرون: الأُمُورُ المَعِينَةُ عَلَى كَسْبِ خُلُقٍ مِنْ أَخْلَاقِ الْإِسْلَامِ

● الفصل السابع: أخلاق مذمومة

المبحث الأول: النِّفاقُ

- المطلب الأول: النِّفاقُ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ النِّفاقِ وغيرِه من الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذمُّ النِّفاقِ والتَّحذيرُ منه
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ النِّفاقِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ النِّفاقِ
- المَطْلَبُ السَادِس: مظاهِرُ وصُوَرُ النِّفاقِ
- المَطْلَبُ السَابِع: أسبابُ الوُقوعِ في النِّفاقِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ النِّفاقِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: حُكمُ النِّفاقِ

- المَطْلَبُ العَاشِر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ النِّفاقِ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث الثاني: العُجْبُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى العُجْبِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ العُجْبِ وبَعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذمُّ العُجْبِ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ العُجْبِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: صُوَرُ العُجْبِ
- المَطْلَبُ السَادِس: أسبابُ العُجْبِ
- المَطْلَبُ السَابِع: علاماتُ العُجْبِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ العُجْبِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: قِصَصٌ في العُجْبِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: حُكمُ العُجْبِ

المبحث الثالث: الكِبْرُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الكِبْرِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ الكِبْرِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذمُّ الكِبْرِ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الكِبْرِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ الكِبْرِ
- المَطْلَبُ السَادِس: دَرَجاتُ الكِبْرِ
- المَطْلَبُ السَابِع: مظاهِرُ الكِبْرِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: أسبابُ الكِبْرِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: بماذا يكونُ التَّكبُّرُ
- المَطْلَبُ العَاشِر: الوسائِلُ المعينةُ على تَركِ الكِبْرِ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: حُكمُ الكِبْرِ

- المَطْلَبُ الثَّانِي عَشَرَ: أخطاءٌ شائعةٌ
- المَطْلَبُ الثَّالِث عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث الرابع: الظُّلمُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: مَعنى الظُّلمِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرقُ بَينَ الظُّلمِ ومُتَرادِفاتِه
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ الظُّلمِ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الظُّلمِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ الظُّلمِ
- المَطْلَبُ السَادِس: مَظاهرُ وصورُ الظُّلمِ
- المَطْلَبُ السَابِع: أسبابُ الوُقوعِ في الظُّلمِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الظُّلمِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: قِصَصٌ في الظُّلمِ... عِبَرٌ وعِظاتٌ
- المَطْلَبُ العَاشِر: حُكمُ الظُّلمِ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: أخطاءٌ شائِعةٌ
- المَطْلَبُ الثَّانِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتَفرِّقةٌ

المبحث الخامس: الخِيانةُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الخيانةِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ الخيانةِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ الخيانةِ والنَّهيُ عنها
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الخيانةِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: صُوَرُ الخيانةِ
- المَطْلَبُ السَادِس: أسبابُ الوُقوعِ في الخيانةِ
- المَطْلَبُ السَابِع: الوسائِلُ المعينةُ على تَركِ الخيانةِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: نماذِجُ من الخيانةِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: حُكمُ الخيانةِ

- المَطْلَبُ العَاشِر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ الخيانةِ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث السادس: الطَّمَعُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الطَّمَعِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ الطَّمَعِ وبَعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ الطَّمَعِ
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الطَّمَعِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أنواعُ الطَّمَعِ وأقسامُه
- المَطْلَبُ السَادِس: مظاهِرُ وصُوَرُ الطَّمَعِ
- المَطْلَبُ السَابِع: الأسبابُ المؤَدِّيةُ إلى الطَّمَعِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الطَّمَعِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: نماذِجُ من الطَّمَعِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: حُكمُ الطَّمَعِ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث السابع: سُوءُ الظَّنِّ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى سُوءِ الظَّنِّ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ سُوءِ الظَّنِّ وبعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ سُوءِ الظَّنِّ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ سُوءِ الظَّنِّ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ سُوءِ الظَّنِّ
- المَطْلَبُ السَادِس: أسبابُ الوقوعِ في سُوءِ الظَّنِّ
- المَطْلَبُ السَابِع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ سُوءِ الظَّنِّ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: حُكمُ سُوءِ الظَّنِّ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: حُكمُ سُوءِ الظَّنِّ بالنَّفسِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث الثامن: الغَضَبُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: مَعنى الغَضَبِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفرقُ بَينَ الغَضَبِ وبَعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ الغَضَبِ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الغَضَبِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ الغَضَبِ والمُتَّصِفينَ به
- المَطْلَبُ السَادِس: دَرَجاتُ الغَضَبِ
- المَطْلَبُ السَابِع: أسبابُ الغَضَب
- المَطْلَبُ الثَّامِن: الأسبابُ المُعينةُ على تَركِ الغَضَبِ وما يترَتَّبُ عليه
- المَطْلَبُ التَّاسِع: نَماذِجُ في الغَضَبِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: حُكمُ الغَضَبِ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتَفرّقةٌ

المبحث التاسع: الحِقْدُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الحِقْدِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ الحِقْدِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ الحِقْدِ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الحِقْدِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: دَرَجاتُ الحِقْدِ
- المَطْلَبُ السَادِس: حُكمُ الحِقْدِ وما يُباحُ منه
- المَطْلَبُ السَابِع: أسبابُ الحِقْدِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: وسائِلُ علاجِ الحِقْدِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: مَسائِلُ مُتفَرّقةٌ

المبحث العاشر: الحَسَدُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الحَسَدِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ الحَسَدِ وبَعضِ الصِّفاتِ

- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذمُّ الحَسَدِ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الحَسَدِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ الحَسَدِ
- المَطْلَبُ السَادِس: صُوَرُ الحَسَدِ
- المَطْلَبُ السَابِع: أسبابُ الوُقوعِ في الحَسَدِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الحَسَدِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: الوسائِلُ المُعينةُ على دفعِ شَرِّ الحاسِدِ عن المحسودِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: نماذِجُ من الحُسَّادِ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: حُكمُ الحَسَدِ
- المَطْلَبُ الثَّانِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث الحادي عشر: الجَفاءُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الجَفاءِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: ذمُّ الجَفاءِ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الثَّالِث: آثارُ الجَفاءِ
- المَطْلَبُ الرَّابِع: صُوَرُ الجَفاءِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أسبابُ الوُقوعِ في الجَفاءِ
- المَطْلَبُ السَادِس: الوسائِلُ المُعينةُ على تَرْكِ الجَفاءِ
- المَطْلَبُ السَابِع: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث الثاني عشر: العُبوسُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى العُبوسِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفرقُ بينَ العُبوسِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ العُبوسِ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ العُبوسِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ العُبوسِ
- المَطْلَبُ السَادِس: دَرَجاتُ العُبوسِ

- المَطْلَبُ السَابِع: مظاهِرُ وصُوَرُ العُبوسِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: أسبابُ الوقوعِ في العُبوسِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَرْكِ العُبوسِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: أخطاءٌ شائعةٌ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرّقةٌ

المبحث الثالث عشر: الغِلظةُ والقَسوةُ والفَظاظةُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرقُ بَينَ القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ وبَعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ قَسوة القَلبِ والغِلظةِ والفَظاظةِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ الغِلظةِ والقَسوةِ
- المَطْلَبُ السَادِس: مَظاهِرُ وصوَرُ القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ
- المَطْلَبُ السَابِع: أسبابُ قَسوةِ القَلبِ والغِلظةِ والفَظاظةِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: الوَسائِلُ المُعينةُ على التَّخَلُّصِ مِن القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: ما يُباحُ مِن القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: أخطاءٌ شائِعةٌ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرّقةٌ

المبحث الرابع عشر: التَّعالُم

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى التَّعالُمِ لغةً واصطلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرقُ بَينَ صفةِ التَّعالُمِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذمُّ صِفةِ التَّعالُمِ والنَّهيُ عنها
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ التَّعالُمِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: مظاهِرُ وصُوَرُ التَّعالُمِ
- المَطْلَبُ السَادِس: أسبابُ الوُقوعِ في التَّعالُمِ
- المَطْلَبُ السَابِع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ التَّعالُمِ

- المَطْلَبُ الثَّامِن: نماذِجُ من التَّعالُمِ

المبحث الخامس عشر: التَّعَصُّبُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: التَّعَصُّبُ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: ذَمُّ التَّعَصُّبِ والتَّحذيرُ منه
- المَطْلَبُ الثَّالِث: آثارُ التَّعَصُّبِ
- المَطْلَبُ الرَّابِع: أقسامُ التَّعَصُّبِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: مَظاهِرُ وصُوَرُ التَّعَصُّبِ
- المَطْلَبُ السَادِس: أسبابُ الوُقوعِ في التَّعَصُّبِ
- المَطْلَبُ السَابِع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ التَّعَصُّبِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: نماذِجُ من التَّعَصُّبِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: حُكمُ التَّعَصُّبِ وما يُباحُ منه
- المَطْلَبُ العَاشِر: أخطاءٌ شائعةٌ حَولَ التَّعَصُّبِ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث السادس عشر: التَّخاذُلُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى التَّخاذُلِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: ذمُّ التَّخاذُلِ والتَّحذيرُ منه
- المَطْلَبُ الثَّالِث: آثارُ التَّخاذُلِ
- المَطْلَبُ الرَّابِع: أقسامُ التَّخاذُلِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: مظاهِرُ وصُوَرُ التَّخاذُلِ
- المَطْلَبُ السَادِس: أسبابُ التَّخاذُلِ
- المَطْلَبُ السَابِع: الوَسائِلُ المُعينةُ على تَركِ التَّخاذُلِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: حُكمُ التَّخاذُلِ

المبحث السابع عشر: الاختِلافُ والتَّنازُعُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: مَعنى التَّنازُعِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفرقُ بَينَ التَّنازُعِ والاختِلافِ وبَعضِ الصِّفاتِ

- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ التَّنازُعِ والاختِلافِ والنَّهيُ عنهما
- المَطْلَبُ الرَّابِع: أقسامُ التَّنازُعِ والاختِلافِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: آثارُ التَّنازُعِ والاختِلافِ
- المَطْلَبُ السَادِس: دَرَجاتُ التَّنازُعِ والاختِلافِ
- المَطْلَبُ السَابِع: مَظاهرُ التَّنازُعِ والاختِلافِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: أسبابُ الوُقوعِ في التَّنازُعِ والاختِلافِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ التَّنازُعِ والاختِلافِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: حُكمُ التَّنازُعِ والاختِلافِ
- حاديَ عَشَرَ: أخطاءٌ شائِعةٌ
- المَطْلَبُ الثَّانِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتَفرّقةٌ

المبحث الثامن عشر: الجِدالُ والمِراءُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الجَدَلِ والمِراءِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ الجِدالِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ الجِدالِ والمِراءِ والنَّهيُ عنهما
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الجِدالِ والمِراءِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ الجِدالِ
- المَطْلَبُ السَادِس: دَرَجاتُ الجِدالِ المذمومِ
- المَطْلَبُ السَابِع: آدابُ الجِدالِ المحمودِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: نماذِجُ من الجِدالِ المحمودِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: حُكمُ الجِدالِ

المبحث التاسع عشر: الجُبْنُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الجُبْنِ لغةً واصطلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ الجُبْنِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ الجُبْنِ
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الجُبْنِ

- المَطْلَبُ الخَامِس: مظاهِرُ وصُوَرُ الجُبْنِ
- المَطْلَبُ السَادِس: أسبابُ الوُقوعِ في الجُبْنِ
- المَطْلَبُ السَابِع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الجُبْنِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: نماذِجُ من أخبارِ الجُبَناءِ وأقوالِهم وأشعارِهم
- المَطْلَبُ التَّاسِع: حُكمُ الجُبْنِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ الجُبْنِ
- حادي عشر: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث العشرون: الجَزَعُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الجَزَعِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرقُ بَينَ الجَزَعِ وبَعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ الجَزَعِ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الجَزَعِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ الجَزَعِ
- المَطْلَبُ السَادِس: صوَرُ الجَزَعِ
- المَطْلَبُ السَابِع: أسبابُ الوُقوعِ في الجَزَعِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: الوَسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الجَزَعِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: أخطاءٌ شائِعةٌ
- المَطْلَبُ العَاشِر: مَسائِلُ مُتَفَرِّقةٌ

المبحث الحادي والعشرون: السَّفَهُ والحُمقُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى السَّفَهِ والحُمقِ لُغةً واصطلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ السَّفَهِ والحُمقِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذمُّ السَّفَهِ والحُمقِ والنَّهيُ عنهما
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ السَّفَهِ والحُمقِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ السَّفَهِ
- المَطْلَبُ السَادِس: الوسائِلُ المعينةُ على تركِ السَّفَهِ والحُمقِ

- المَطْلَبُ السَابِع: من أخبارِ الحَمقى
- المَطْلَبُ الثَّامِن: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث الثاني والعشرون: البُخلُ والشُّحُّ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى البُخلِ والشُّحِّ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ البُخلِ والشُّحِّ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ البُخلِ والشُّحِّ والنَّهيُ عنهما
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ البُخلِ والشُّحِّ
- المَطْلَبُ الخَامِس: صُوَرُ البُخلِ والشُّحِّ
- المَطْلَبُ السَادِس: أسبابُ الوُقوعِ في البُخلِ والشُّحِّ
- المَطْلَبُ السَابِع: الوَسائِلُ المعينةُ على تركِ البُخلِ والشُّحِّ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: نماذِجُ من البُخلاءِ وأخبارِهم ونوادِرِهم
- المَطْلَبُ التَّاسِع: حُكمُ البُخلِ والشُّحِّ
- المَطْلَبُ العَاشِر: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث الثالث والعشرون: المَنُّ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى المنِّ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: ذمُّ المَنِّ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الثَّالِث: آثارُ المَنِّ
- المَطْلَبُ الرَّابِع: أقسامُ المَنِّ
- المَطْلَبُ الخَامِس: مظاهِرُ وصُوَرُ المَنِّ
- المَطْلَبُ السَادِس: أسبابُ الوقوعِ في المَنِّ
- المَطْلَبُ السَابِع: الوسائِلُ المعينةُ على تَركِ المَنِّ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: حُكمُ المَنِّ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث الرابع والعشرون: الكَذِبُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الكَذِبِ لُغةً واصطِلاحًا

- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْق بَيْنَ الكَذِبِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ الكَذِبِ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الكَذِبِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ الكَذِبِ
- المَطْلَبُ السَادِس: صُوَرُ الكَذِبِ ومَظاهِرُه
- المَطْلَبُ السَابِع: أسبابُ الوُقوعِ في الكَذِبِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: الوسائِلُ المعينةُ على تَركِ الكَذِبِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: نماذِجُ من الكَذِبِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: حُكمُ الكَذِبِ وما يُباحُ منه وحُكمُ المعاريضِ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: أخطاءٌ شائعةٌ في الكَذِبِ
- المَطْلَبُ الثَّانِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرّقةٌ

المبحث الخامس والعشرون: السُّخْرِيَّةُ والاستِهْزاءُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى السُّخْرِيَّةِ والاستِهْزاءِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ الاستِهْزاءِ والسُّخْرِيَّةِ وبعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذمُّ السُّخْرِيَّةِ والاستِهْزاءِ والنَّهيُ عنهما
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ السُّخْرِيَّةِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: صُوَرُ السُّخْرِيَّةِ والاستِهْزاءِ
- المَطْلَبُ السَادِس: أسبابُ السُّخْرِيَّةِ والاستِهْزاءِ
- المَطْلَبُ السَابِع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ السُّخْرِيَّةِ والاستِهْزاءِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: حُكمُ السُّخْرِيَّةِ والاستِهْزاءِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: أخطاءٌ شائِعةٌ
- المَطْلَبُ العَاشِر: مَسائِلُ مُتفَرّقةٌ

المبحث السادس والعشرون: الغِيبةُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الغِيبةِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ الغِيبةِ وبَعضِ الصِّفاتِ

- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ الغِيبةِ والنَّهيُ عنها
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الغِيبةِ وأضرارُها على الفَردِ والمجتَمَعِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ الغِيبةِ
- المَطْلَبُ السَادِس: صُوَرُ الغِيبةِ
- المَطْلَبُ السَابِع: أسبابُ الوقوعِ في الغِيبةِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: التَّوبةُ مِن الغِيبةِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الغِيبةِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: حُكمُ الغِيبةِ وما يُباحُ منها وضوابِطُ الإباحةِ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: حُكمُ سَماعِ الغِيبةِ ومَوقِفُ السَّلَفِ والعُلَماءِ من المُغتابينَ
- المَطْلَبُ الثَّانِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث السابع والعشرون: النَّميمةُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى النَّميمةِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ النَّميمةِ وبَعضِ الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذمُّ النَّميمةِ والنَّهيُ عنها
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ النَّميمةِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ النَّميمةِ
- المَطْلَبُ السَادِس: صُوَرُ النَّميمةِ
- المَطْلَبُ السَابِع: أسبابُ الوقوعِ في النَّميمةِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ النَّميمةِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: ماذا يفعَلُ مَن حُمِلَت إليه النَّميمةُ؟
- المَطْلَبُ العَاشِر: حُكمُ النَّميمةِ وما يباحُ منها
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث الثامن والعشرون: الثَّرثَرةُ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الثَّرثَرةِ لُغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ الثَّرثَرةِ وبَعضِ الصِّفاتِ

- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ الثَّرثَرةِ والتَّحذيرُ منها
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ الثَّرثَرةِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ الثَّرثَرةِ
- المَطْلَبُ السَادِس: دَرَجاتُ الثَّرثَرةِ
- المَطْلَبُ السَابِع: مظاهِرُ وصُوَرُ الثَّرثَرةِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: أسبابُ الوقوعِ في الثَّرثَرةِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الثَّرثَرةِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ الثَّرثَرةِ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث التاسع والعشرون: إفشاءُ السِّرِّ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى إفشاءِ السِّرِّ لغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: ذمُّ إفشاءِ السِّرِّ والتَّحذيرُ منه
- المَطْلَبُ الثَّالِث: آثارُ إفشاءِ السِّرِّ
- المَطْلَبُ الرَّابِع: أنواعُ السِّرِّ وأقسامُ إفشائِه
- المَطْلَبُ الخَامِس: صُوَرُ إفشاءِ السِّرِّ ومَظاهِرُه
- المَطْلَبُ السَادِس: أسبابُ الوُقوعِ في إفشاءِ السِّرِّ
- المَطْلَبُ السَابِع: الوسائِلُ والأسبابُ المُعينةُ على تَركِ إفشاءِ السِّرِّ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: حُكمُ إفشاءِ الأسرارِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

المبحث الثلاثون: خُلْفُ الوَعْدِ

- المَطْلَبُ الأَوَّل: خُلْفُ الوَعْدِ لغةً واصطِلاحًا
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ خُلْفِ الوَعْدِ وغَيرِه من الصِّفاتِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: ذَمُّ خُلْفِ الوَعْدِ والنَّهيُ عنه
- المَطْلَبُ الرَّابِع: آثارُ خُلْفِ الوَعْدِ
- المَطْلَبُ الخَامِس: أقسامُ خُلْفِ الوَعْدِ

- المَطْلَبُ السَادِس: دَرَجاتُ خُلْفِ الوَعْدِ
- المَطْلَبُ السَابِع: مظاهِرُ وصُوَرُ خُلْفِ الوَعْدِ
- المَطْلَبُ الثَّامِن: أسبابُ الوُقوعِ في خُلْفِ الوَعْدِ
- المَطْلَبُ التَّاسِع: الوسائِلُ المعينةُ على تَركِ خُلْفِ الوَعْدِ
- المَطْلَبُ العَاشِر: حُكمُ خُلْفِ الوَعْدِ
- المَطْلَبُ الحادِي عَشَرَ: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ خُلْفِ الوَعْدِ
- المَطْلَبُ الثَّانِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **الخاتمة.**
- **توصيات**
- **فهرس المراجع والمصادر.**
- **فهرس المحتويات.**

الكِتَابُ فِي سُطُورٍ

إِنَّ هَذِهِ الأَخْلَاقَ التِّي حَوَاهَا الكِتَابُ، هِيَ حَصِيلةُ جُهْدٍ تَمَّ جَمْعُهُ مِنْ أَبْحَاثٍ وَدِرَاسَاتٍ وَمَقَالَاتٍ وَمُحَاضَرَاتٍ، وَتَأَمُّلَاتٍ، وَمُرَاجِعَةٍ، وَقِرَاءَةٍ، وَمُرَاقَبَةٍ لِلْخَطَأِ وَالصَّوَابِ فِي مَجَالِ العَمَلِ الدَّعَوِيِّ وَلِسُلُوكِيَّاتِ الدُّعَاةِ وَاخْتِيَارِ أَهَمِّ المَطَالِبِ لِلدَّاعِيَةِ. وَهُنَاكَ مِنْ هَذِهِ القَضَايَا مَا تَمَّتْ صِيَاغَتُهُ ابْتَدَاءً، وَمِنْهَا مَا تَمَّ اقْتِبَاسُه بِمَعْنَاهُ أَوْ بِلَفْظِهِ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ؛ لِحُصُولِ الاقْتِنَاعِ بِهِ. لِذَلِكَ نَطْمَحُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الجَمْعُ "خَارِطَةَ طَرِيقٍ" مُسْتَمَّدة مِنْ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ وَأَخْلَاقِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا العَمَلُ المُتَواضِعُ لَيْسَ إِلَّا جُهْدَ المُقِلِ، فَإِنَّ عُذْرِي أَنَّ هَذَا هوَ كُلُّ مَا أَسْتَطيعُ، وَمَا كَانَ فِيه مِنْ صَوابٍ فَمِن اللَّهِ وَحْدَهُ، وَمَا كَانَ مِنْ خَطَأٍ فَمِن نَفْسَى ومن الشَّيْطانِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ العَفْوَ والسَّدادَ.

فَاَللَّهُمَّ اهدِنِي والقارئ لِأَحْسَنِ الأَخْلاقِ لَا يَهْدي لِأَحْسَنِها إِلَّا أَنْتَ، واصْرِفْ عَنَّا سَيِّئَها لَا يَصْرِفُ عَنَّا سَيِّئَها إِلَّا أَنْتَ.

سُبْحَانَكَ اللَّهُ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلهَ إِلّا أنتْ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.

الفَقيرُ إِلَى اللَّهِ

جُوتْيَار بامَرْني غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوالِديْه

الفَصْلُ الأَوَّلُ: الأَخْلَاقُ وَالسُّلُوكُ وَالقِيَمُ

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الأَخْلَاقُ

المطلبُ الأوَّلُ: مَعْنى الأخْلاقِ

- **الأخلاقُ لُغَةً:**

الأخلاقُ جَمعُ خُلُقٍ، والخُلُقُ -بضَمِّ اللَّامِ وسُكونِها- هو الدِّينُ والطَّبعُ والسَّجيَّةُ وَهُوَ ما خُلِقَ عليه مِنَ الطَّبعِ والمُروءة، وحَقيقةُ الخُلُقِ أنَّه لصورةِ الإنسانِ الباطِنةِ، وهي نَفسُه وأوصافُها ومَعانيها المُختَصَّةُ بها بمَنزِلةِ الخَلقِ لصورَتِه الظَّاهرةِ وأوصافِها ومَعانيها.[5]

وقال الرَّاغِبُ: "والخَلقُ في الأصلِ واحِدٌ... لكِن خُصَّ الخَلقُ بالهَيئاتِ والأشكالِ والصُّورِ المُدرَكةِ بالبَصَرِ، وخُصَّ الخُلُقُ بِالْقُوَى والسَّجايا المُدرَكةِ بالبَصيرةِ".[6]

وحَقيقةُ الخُلُقِ في اللُّغةِ: هو ما يَأخُذُ به الإنسانُ نَفسَه منَ الأدَبِ، يُسَمَّى خُلُقًا؛ لأنَّه يَصيرُ كالخِلقةِ فيه.

- **الأخلاقِ اصْطِلاحًا:**

عَرَّف الجُرجانيُّ الخُلُقَ بأنَّه: "عِبارةٌ عن هَيئةٍ للنَّفسِ راسِخةٍ تَصدُرُ عنها الأفعالُ بسُهولةٍ ويُسرٍ من غَيرِ حاجةٍ إلى فِكرٍ ورَويَّةٍ، فإن كان الصَّادِرُ عنها الأفعالَ الحَسَنةَ كانتِ الهَيئةُ خُلُقًا حَسَنًا، وإن كان الصَّادِرُ منها الأفعالَ القَبيحةَ سُمِّيَتِ الهَيئةُ التي هي مَصدَرُ ذلك خُلُقًا سَيِّئًا". [7]

وعَرَّفه ابنُ مِسكَوَيهِ بقَولِه: "الخُلُقُ: حالٌ للنَّفسِ داعيةٌ لها إلى أفعالِها مِن غَيرِ فِكرٍ ولا رَوِيَّةٍ، وهذه الحالُ تَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: مِنها ما يَكونُ طَبيعيًّا مِن أصلِ المِزاجِ، كالإنسانِ الذي يُحَرِّكُه أدنى شَيءٍ نَحوَ غَضَبٍ، ويَهيجُ مِن أقَلِّ سَبَبٍ، وكالإنسانِ الذي يَجبُنُ من أيسَرِ شَيءٍ، أو كالَّذي يَفزَعُ مِن أدنى صَوتٍ يَطرُقُ سَمعَه، أو يَرتاعُ مِن خَبَرٍ يَسمَعُه، وكالذي يَضحَكُ ضَحِكًا مُفرِطًا من أدنى شَيءٍ يُعجِبُه، وكالذي يَغتَمُّ ويَحزَنُ من أيسَرِ شَيءٍ يَنالُه، ومنها ما يَكونُ مُستَفادًا بالعادةِ والتَّدَرُّبِ، ورُبَّما كان مَبدَؤُه بالرَّويَّةِ والفِكرِ، ثمَّ يَستَمِرُّ أوَّلًا فأوَّلًا، حتَّى يَصيرَ مَلَكَةً وخُلُقًا".[8]

وقال السُّيوطيُّ: "الخُلُقُ: مَلَكةٌ نَفسانيَّةٌ تَصدُرُ عنها الأفعالُ النَّفسانيَّةُ بسُهولةٍ من غَيرِ رَويَّةٍ".

وقيل: "الخُلُقُ صِفةٌ مُستَقِرَّةٌ في النَّفسِ -فِطريَّةٌ أو مُكتَسَبةٌ- ذاتُ آثارٍ في السُّلوكِ مَحمودةٍ أو مَذمومةٍ".[9]

وقد عَرَّف بَعضُ الباحِثينَ الأخلاقَ في نَظَرِ الإسلامِ بأنَّها عِبارةٌ عن "مَجموعةِ المَبادِئِ والقَواعِدِ المُنَظِّمةِ للسُّلوكِ الإنسانيِّ، التي يُحَدِّدُها الوَحيُ؛ لتَنظيمِ حَياةِ الإنسانِ، وتَحديدِ علاقَتِه بغَيرِهِ على نَحوٍ يُحَقِّقُ الغايةَ من وُجودِهِ في هذا العالَمِ على أكمَلِ وَجهٍ".[10]

- **تَعْرِيفُ الأَخْلَاقِ كَعِلْمٍ:**

---

[5] القاموس المحيط للفيروزآبادي ص 881، لسان العرب لابن منظور

[6] مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ص: 297

[7] التعريفات للجرجاني، ص: 101

[8] تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص: 41

[9] الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن بن حسن حبنكة ص: 10

[10] التربية الأخلاقية الإسلامية لمقداد يالجين ص: 75، كما في نضرة النعيم لمجموعة باحثين ص: 22

وأمَّا الأخلاقُ كعِلمٍ فقد عُرِّفَت بِعِدَّةِ تَعريفاتٍ، منها:

1- هو "عِلمٌ: مَوْضُوعُهُ أحكامٌ قِيَميَّةٌ تَتَعلَّقُ بالأعمالِ التي توصَفُ بالحُسْنِ أوِ القُبحِ."[11]

2-وقيل هو: "عِلمٌ: يوَضِّحُ مَعنى الخَيرِ والشَّرِّ، ويُبَيِّنُ ما يَنبَغي أن تَكونَ عليه مُعامَلةُ النَّاسِ بَعضِهم بَعضًا، ويَشرَحُ الغايةَ التي يَنبَغي أن يَقصِدَ إليها النَّاسُ في أعمالِهم، ويُنيرُ السَّبيلَ لِما يَنبَغي".[12]

وَالأَخْلَاقُ فِي دِينِنَا الإِسْلامِيِّ الحَنيفِ تُعْتَبَرُ مِنْ سِماتِ المُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ، فَهِيَ تُساعِدُ عَلَى تَجَنُّبِ الوُقوعِ فِي العَمَلِ الفاحِشِ، كَمَا أَنَّهَا تَجْعَلُ صاحِبَها يَبْتَعِدُ عَنْ الخَطيئَةِ.

وَالأَخْلَاقُ هِيَ أَبْرَزُ مَا جَاءَ فِيه الهَدْيُ النَّبَويُّ الشَّريفُ، فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَعْظَمُ مَنِ اتَّصَفَ بِالْأَخْلَاقِ الحَسَنَةِ، وَكَذَا الأَنْبياءُ كُلُّهُمْ.

المطلبُ الثَّاني: أهميَّةُ الأخلاقِ

أوَّلًا: الالتِزامُ بالأخلاقِ الحَسَنةِ واجتِنابُ السَّيِّئِ منها طاعةٌ للَّهِ ورَسولِه:

لقد تَضافرَتِ النُّصوصُ من كِتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ؛ لِتَأْمُرَ بالأخلاقِ الحَسَنةِ، وَمِنْ ذلكَ قَولُهُ تَعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ} [النحل: 90].

وقولُه تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199].

وقولُه تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: 6].

وَكَذلِكَ نَهَت عن الأخلاقِ المذمومةِ، ومن ذلك:

قولُه تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} [الحجرات: 11-12].

ولَمَّا كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَمتَثِلُ أمرَ اللهِ تعالى في كُلِّ شَأنِه قَولًا وعَمَلًا، ويَأتَمِرُ بكُلِّ أخلاقٍ حَسَنةٍ وَرَدَ الأمرُ بِهِ في القُرآنِ، ويَنتَهِي عَنْ كُلِّ أخلاقٍ وَرَدَ النَّهيُ عَنْها فِي القُرآنِ؛ لذا كان خُلُقُه القُرآنَ.

وأيضًا فقد كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَأمُرُ بحُسنِ الخُلُقِ، فعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال لي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "اتَّقِ اللهَ حَيثُما كُنتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئةَ الحَسَنةَ تَمحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ"[13]؛ لذا فإنَّ الالتِزامَ بالأخلاقِ الحَسَنةِ طاعةٌ للَّهِ عَزَّ وجَلَّ ولرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

ثانيًا: الأخلاقُ الحَسَنةُ أحَدُ مُقَوِّماتِ شَخصيَّةِ المُسلِمِ:

الإنسانُ جَسَدٌ ورُوحٌ، ظاهِرٌ وباطِنٌ، والأخلاقُ الإسلاميَّةُ تُمَثِّلُ صورةَ الإنسانِ الباطِنةَ، والتي مَحَلُّها القَلبُ، وهذه الصُّورةُ الباطِنةُ هي قِوامُ شَخصيَّةِ الإنسانِ المُسلِمِ، فالإنسانُ لا يُقاسُ بطولِه وعَرضِه، أو لونِه وجَمالِه، أو فَقرِه وغِناه، وإنَّما بأخلاقِه وأعمالِه المُعَبِّرةِ عن هذه الأخلاقِ، يَقولُ تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

---

[11] المعجم الوسيط لمجموعة مؤلفين 1/252

[12] كتاب الأخلاق لأحمد أمين ص: 8

[13] رواه الترمذي 1987، وأحمد 21354. صحَّحه ابنُ العربي في عارضة الأحوذي 4/349، وحسَّنه ابنُ حجر في الأمالي المطلقة 131، والألباني في صحيح سنن الترمذي 1987، وحسَّنه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 21354

لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13]، ويَقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى أجسادِكُم ولا إلى صورِكُم، ولكِن يَنظُرُ إلى قُلوبِكُم وأعمالِكُم"[14]، ويَقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أيضًا: "لَيَنتَهِيَنَّ أقوامٌ يَفتَخِرونَ بآبائِهِمُ الذينَ مَاتُوا، إنَّما هُمْ فَحمُ جَهَنَّمَ، أو لَيَكونُنَّ أهونَ على اللهِ مِنَ الجُعَلِ[15] الذي يُدَهْدِهُ[16] الخِراءَ بأنفِه، إنَّ اللهَ أذهب عنكم عُبِّيَّةَ[17] الجاهليَّةِ وفَخْرَها بالآباءِ، إنَّما هو مُؤمِنٌ تَقيٌّ، وفاجِرٌ شَقيٌّ، النَّاسُ بَنو آدَمَ، وآدَمُ خُلِقَ من تُرابٍ".[18] [19]

ثالثًا: الارتِباطُ الوثيقُ بَينَ الأخلاقِ والدِّينِ الإسلاميِّ عَقيدةً وشَريعةً:

إنَّ ارتِباطَ الأخلاقِ بالعَقيدةِ وثيقٌ جِدًّا؛ لذا فكَثيرًا ما يَربُطُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بَينَ الإيمانِ والعَملِ الصَّالِحِ، الذي تُعَدُّ الأخلاقُ الحَسَنةُ أحَدَ أركانِه، فالعَقيدةُ دونَ خُلُقٍ، شَجَرةٌ لا ظِلَّ لها ولا ثَمَرةَ، أمَّا عنِ ارتِباطِ الأخلاقِ بالشَّريعةِ فإنَّ الشَّريعةَ منها عِباداتٌ، ومنها مُعامَلاتٌ، والعِباداتُ تُثمِرُ بالأخلاقِ الحَسَنةَ ولا بُدَّ إذا ما أقامَها المُسلمُ على الوَجهِ الأكمَلِ أن تُبعِدَه عن المُنكرات؛ لذا قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: 45]، وقال في الزَّكاةِ: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة: 103]، وقال في الصَّومِ: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 183]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "مَن لم يَدَعْ قَولَ الزُّورِ والعَملَ به فليس للَّهِ حاجةٌ في أن يَدَعَ طَعامَه وشَرابَه"[20]، وقال في الحَجِّ: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: 197].

وأمَّا صِلةُ الأخلاقِ بالمُعامَلاتِ فإنَّ المُعامَلاتِ كُلَّها قائِمةٌ على الأخلاقِ الحَسَنةِ في أقوالِ المُسلمِ وأفعالِه، والمُتَأمِّلُ في تَعاليمِ الإسلامِ يَرى هذا واضِحًا جَليًّا.

رابعًا: الأخلاقُ لها آثارٌ عَظيمةٌ في سُلوكِ الفردِ والمُجتَمَعِ:

"تَظهَرُ أهَمِّيَّةُ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ وأثرُها في سُلوكِ الفَردِ، وفي سُلوكِ المُجتَمَعِ.

أمَّا أثَرُها في سُلوكِ الفردِ، فإنها تَزرَعُ في نَفسِ صاحِبِها الرَّحمةَ والصِّدقَ، والعَدلَ والأمانةَ، والحَياءَ والعِفَّةَ، والتَّعاوُنَ والتَّكافُلَ، والإخلاصَ والتَّواضُعَ، وغَيرَ ذلك منَ القِيَمِ والأخلاقِ السَّاميةِ، فالأخلاقُ بالنِّسبةِ للفردِ هي أساسُ الفَلاحِ والنَّجاحِ، يَقولُ تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: 9-10]، ويقولُ سُبحانَه: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [الأعلى:14-15].

والتَّزكيةُ في مَدلولِها ومَعناها تَعني: تَهذيبَ النَّفسِ باطِنًا وظاهرًا في حَرَكاتِه وسَكَناتِه.

وأمَّا أثَرُها في سُلوكِ المُجتَمعِ كُلِّه، فالأخلاقُ هي الأساسُ لبناءِ المُجْتَمعاتِ الإنسانيَّةِ إسلاميَّةً كانت أو غَيرَ إسلاميَّةٍ، يُقَرِّرُ ذلك قَولُه تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر 1-3]، فالعَمَلُ الصَّالحُ المُدَعَّمُ بالتَّواصي بالحَقِّ، والتَّواصي بالصَّبرِ في مواجَهةِ المُغرَياتِ والتَّحَدِّياتِ من شَأنِه أن يَبنيَ

---

[14] أخرجه مسلم 2564 عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ اللهَ لا ينظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم.

[15] الجُعَلُ: حيوانٌ معروفٌ كالخُنفُساءِ. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 1/277

[16] يُدَهْدِهُ: يُدحرِجُ. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 2/143

[17] عُبِّيَّةَ: يعني: الكِبرَ. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 3/169

[18] رواه الترمذي 3955. حسَّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي 3955، وحسَّن إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج شرح السنة 13/124، وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ. والحَديثُ رُوِيَ بلفظِ: "إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قد أذهَبَ عنكُم عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ وفَخرَها بالآباءِ، مُؤمِنٌ تَقيٌّ وفاجِرٌ شَقيٌّ، أنتُم بَنو آدَمَ وآدَمُ من تُرابٍ، ليَدَعَنَّ رِجالٌ فَخْرَهم بأقوامٍ إنَّا هم فَحمٌ مِن فَحمِ جَهَنَّمَ أو لَيَكونُنَّ أهونَ على اللهِ منَ الجُعلانِ التي تَدفعُ بأنفِها النَّتَنَ" رواه أبو داود 5116 واللفظ له، وأحمد 10781. صحَّحه ابنُ تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم 1/247، وصحَّحه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود 5116، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود 5116

[19] الأخلاق الإسلامية لحسن السعيد المرسي، ص: 24.

[20] رواه البخاري 1903

مُجتمَعًا مُحَصَّنًا لا تَنالُ منه عَوامِلُ التَّرَدِّي والانحِطاطِ، وليس ابتِلاءُ الأمَمِ والحَضاراتِ كامنًا في ضَعفِ إمكاناتِها المادِّيَّةِ أو مُنجَزاتِها العِلميَّةِ، إنَّما في قيمَتِها الخُلُقيَّةِ التي تَسودُها وتَتَحَلَّى بها".[21]

خامِسًا: مَكارِمُ الأخلاقِ ضَرورةٌ اجتِماعيَّةٌ:

"إنَّ أيَّ مُجتمَعٍ مِنَ المُجتَمَعاتِ الإنسانيَّةِ لا يَستَطيعُ أفرادُهُ أن يَعيشُوا مُتَفاهِمِينَ مُتَعاوِنِينَ سُعَداءَ ما لم تَربُطْ بَينَهم رَوابطُ مَتينةٌ منَ الأخلاقِ الكَريمةِ.

ولو فرَضْنا احتِمالًا أنَّه قامَ مُجتَمَعٌ منَ المُجتَمَعاتِ على أساسِ تَبادُلِ المَنافِعِ المادِّيَّةِ فقَط من غَيرِ أن يَكونَ وراءَ ذلك غَرَضٌ أسْمى؛ فإنَّه لا بُدَّ لسَلامةِ هذا المُجتَمَعِ من خُلُقَي الثِّقةِ والأمانةِ على أقَلِّ التَّقاديرِ.

فمَكارِمُ الأخلاقِ ضَرورةٌ اجتِماعيَّةٌ لا يَستَغني عنها مُجتَمَعٌ مِنَ المُجتَمَعاتِ، ومَتى فُقِدَتِ الأخلاقُ التي هي الوسيطُ الذي لا بُدَّ منه لانسِجامِ الإنسانِ مَعَ أخيه الإنسانِ، تَفَكَّكَ أفرادُ المُجتَمَعِ وتَصارَعوا، وتَناهَبوا مَصالحَهم، ثمَّ أدَّى بهم ذلك إلى الانهيارِ ثمَّ إلى الدَّمارِ.

لَكَ أن تَتَخَيَّلَ مُجتَمَعًا منَ المُجتَمَعاتِ انعَدَمَت فيه مَكارِمُ الأخلاقِ، كَيف يَكونُ هذا المُجتَمَعُ؟!

كَيف تَكونُ الثِّقةُ بالعُلومِ والمَعارِفِ والأخبارِ، وضَمانِ الحُقوقِ لَولا فضيلةُ الصِّدقِ؟!

كَيف يَكونُ التَّعايُشُ بَينَ النَّاسِ في أمنٍ واستِقرارٍ، وكَيف يَكونُ التَّعاوُنُ بَينَهم في العَمَلِ ضِمنَ بيئةٍ مُشتَرَكةٍ، لولا فضيلةُ الأمانةِ؟

كيف تَكونُ أمَّةٌ قادِرةً على إنشاءِ حَضارةٍ مُثلى لولا فضائِلُ التَّآخي والتَّعاوُنِ، والمَحَبَّةِ والإيثارِ؟

كَيف تَكونُ جَماعةٌ مُؤَهَّلةً لبناءِ مجدٍ عَظيمٍ لولا فضيلةُ الشَّجاعةِ في رَدِّ عُدوانِ المُعتَدينَ وظُلمِ الظَّالمينَ، ولولا فضائِلُ العَدلِ والرَّحمةِ والإحسانِ والدَّفعِ بالتي هي أحسَنُ؟!

كَيف يَكونُ الإنسانُ مُؤَهَّلًا لارتِقاءِ مَراتِبِ الكَمالِ الإنسانيِّ إذا كانت أنانيَّتُه مُسَيطِرةً عليه، صارِفةً له عن كُلِّ عَطاءٍ وتَضحيةٍ وإيثارٍ؟

لقد دَلَّتِ التَّجارُبُ الإنسانيَّةُ، والأحداثُ التَّاريخيَّةُ على أنَّ ارتِقاءَ القُوى المَعنَويَّةِ للأمَمِ والشُّعوبِ مُلازِمٌ لارتِقائِها في سُلَّمِ الأخلاقِ الفاضِلةِ، ومُتَناسِبٌ مَعَه، وأنَّ انهيارها مُلازِمٌ لانهيارِ أخلاقِها، ومُتَناسِبٌ مَعَه، فبَيْنَ القُوى المَعنَويَّةِ والأخلاقِ تَناسُبٌ طَرديٌّ دائِمًا، صُعُودًا وَهُبُوطًا؛ وذلك لأنَّ الأخلاقَ الفاضِلةَ في أفرادِ الأمَمِ والشُّعوبِ تُمَثِّلُ المَعاقِدَ الثَّابتةَ التي تُعقَدُ بها الرَّوابِطُ الاجتِماعيَّةُ، ومتى انعَدَمَت هذه المَعاقِدُ أوِ انكَسَرَت في الأفرادِ لَم تَجِدِ الرَّوابِطُ الاجتِماعيَّةُ مَكانًا تَنعَقِدُ عليه، ومَتى فُقِدَتِ صارَتِ المَلايينُ في الأمَّةِ المُنحَلَّةِ عن بَعضِها مُزَوَّدةً بقوَّةِ الأفرادِ فقَط، لا بقوَّةِ الجَماعةِ، بل رُبَّما كانتِ القوى المُبعثَرةُ فيها، تعاني فيما بينها بأساً شديداً، مُضافاً إلى قوَّةِ عَدوِّها.

وإذا كانتِ الأخلاقُ في أفرادِ الأمَمِ تُمَثِّلُ مَعاقِدَ التَّرابُطِ فيما بَينَهم، فإنَّ النُّظُمَ الإسلاميَّةَ الاجتِماعيَّةَ تُمَثِّلُ الأربِطةَ التي تَشُدُّ المَعاقِدَ إلى المَعاقِدِ، فتَكونُ الكُتلةُ البَشَريَّةُ المُتَماسِكةُ القَويَّةُ التي لا تَهُونُ ولا تَستَخْذِي".[22]

سادِسًا: أهَمِّيَّةُ الأخلاقِ في الدَّعوةِ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

"الذي يَظُنُّ أنَّ النَّاسَ يَدْخُلونَ في الدِّينِ فقَط لأنَّهم يَقتَنِعونَ عَقليًّا فقَط، لا شَكَّ أنَّه مُخطِئٌ، وكَثيرٌ منَ النَّاسِ يدخُلونَ في الدِّينِ لأنَّهم يَرَونَ أنَّ أهلَ هذا الدِّينِ على خُلُقٍ، وأنَّ الدُّعاةَ إلى اللهِ عِندَهم أخلاقٌ، والشَّواهِدُ في هذا البابِ كَثيرةٌ،

[21] الأخلاق الإسلامية لحسن السعيد المرسي، ص: 26

[22] الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حبنكة الميداني 1/29

فالاستِقامةُ على الأخلاقِ لها أثَرٌ كَبيرٌ، ونَفعُها بَليغٌ، ولا أدَلَّ على ذلك ممَّا جاءَ في السِّيرةِ النَّبويَّةِ من أنَّ أخلاقَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كانت مَحَلَّ إعجابِ المُشرِكينَ قَبلَ البَعثةِ، حتَّى شَهِدوا له بالصِّدقِ والأمانةِ.

عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: "لَمَّا نَزَلت آيةُ {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء: 214]، قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (أرَأيتَكُم لو أخبَرتُكُم أنَّ خَيلًا تَخرُجُ بسَفحِ هذا الجَبَلِ أكُنتُم مُصَدِّقيَّ؟ قالوا: ما جَرَّبنا عليك كَذِبًا، قال: فإنِّي نَذيرٌ لَكُم بَينَ يَدَي عَذابٍ شَديدٍ) ".[23]

وقد بَدَأ انعِكاسُ الصُّورِ السُّلوكيَّةِ الرَّائِعةِ بتأثيرِها في انتِشارِ هذا الدِّينِ في بَعضِ المَناطِقِ التي لم يَصِلْها الفتحُ؛ إذ دَخَل في هذا الدِّينِ الحَنيفِ شُعوبٌ بكامِلِها لمَّا رَأوا القُدوةَ الحَسَنةَ مُرتَسِمةً خُلُقًا حَميدًا في أشخاصٍ مُسلمينَ صالحينَ مارَسوا سُلوكَهمُ الرَّشيدَ، فكانوا كَحامِلِ مِصباحٍ يُنيرُ طَريقَه لنَفسِه، فيَرى الآخَرونَ ذلك النُّورَ ويَرَونَ به، وليس أجمَلَ منه في قَلبِ الظَّلامِ، وبناءً عَلَى ذَلِكَ كَانَ الإقبالُ سَريعًا دونَ دافِعٍ سِوى القُدوةِ الحَسَنةِ، فرُبَّ صِفةٍ واحِدةٍ ممَّا يَأمُرُ بها الدِّينُ تُترَجَمُ حَيَّةً على يَدِ مُسلمٍ صالحٍ يَكونُ لها أثَرٌ لا يُمكِنُ مُقارَنَتُه بنَتائِجِ الوعظِ المُباشِرِ؛ لأنَّ النُّفوسَ قد تَنفِرُ منَ الكَلامِ الذي تَتَصَوَّرُ أنَّ للنَّاطِقِ به مَصلحةً، وأحسَنُ من تلك الصِّفاتِ التَّمَسُّكُ بالأخلاقِ الحَميدةِ التي هي أوَّلُ ما يُرى منَ الإنسانِ المُسلمِ، ومن خِلالِها يُحكَمُ له أو عليه".[24]

سابعًا: أهَمِّيَّةُ الأخلاقِ في إضْفَاءِ السَّعادةِ على الأفرادِ والمُجتَمَعاتِ:

لا شَكَّ أنَّ السَّعادةَ كُلَّ السَّعادةِ في الإيمانِ باللهِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وعلى قَدرِ امتِثالِ المُسلمِ لتَعاليمِ الإسلامِ في سُلوكِه وأخلاقِه تَكونُ سَعادَتُه، والالتِزامُ بقَواعِدِ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ كَفيلٌ بتَحقيقِ أكبَرِ نِسبةٍ من السَّعادةِ للفَردِ الإنسانيّ، وللجَماعةِ الإنسانيَّةِ، ثمَّ لسائِرِ الشُّرَكاءِ في الحَياةِ على هذه الأرضِ، وذلك بطَريقةٍ بارِعةٍ جدًّا يَتِمُّ فيها التَّوفيقُ بالنِّسَبِ المُستَطاعةِ بَينَ حاجاتِ ومَطالِبِ الفردِ من جِهةٍ، وحاجاتِ ومَطالِبِ الجَماعةِ من جِهةٍ أخرى، ويَتِمُّ فيها إعطاءُ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه، أو قِسطًا من حَقِّه وِفْقَ نِسبةٍ عادِلةٍ اقتَضاها التَّوزيعُ العامُ المَحفوفُ بالحَقِّ والعَدلِ.

فَمِنَ الواضِحِ في هذا العُنصُرِ أنَّ أسُسَ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ لم تُهمِلِ ابتِغاءَ سَعادةِ الفردِ الذي يُمارِسُ فضائِلَ الأخلاقِ ويَجتَنِبُ رَذائِلَها، ولم تُهمِلِ ابتِغاءَ سَعادةِ الجَماعةِ التي تَتَعامَلُ فيما بَينَها بفضائِلِ الأخلاقِ مُبتَعِدةً عن رَذائِلِها.

ورَوعةُ الأخلاقِ التي أرشَدَ إليها الإسلامُ تَظهَرُ فيما اشتَمَلت عليه مِنَ التَّوفيقِ العَجيبِ بَينَ المَطالِبِ المُختَلفةِ للفردِ من جِهةٍ، وللجَماعةِ من جِهةٍ أخرى، وتَظهَرُ فيما تُحَقِّقُه من وحَداتِ السَّعادةِ الجُزئيَّةِ في ظُروفِ الحَياةِ الدُّنيا بِقَدْرِ ما تَسمَحُ به سُنَنُ الكَونِ الدَّائِمةِ الثَّابتةِ التي تَشمَلُ جَميعَ العامِلينَ، مُؤمنينَ باللهِ أو كافِرينَ، أخلصوا له النِّيَّةَ أو لم يُخلِصوا"[25].[26]

وَأَمَرَنَا اللهُ بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، فَقَالَ تَعَالَى: {ادفَع بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فُصِّلَت:٣٤]. لإِضْفَاءِ السَّعادةِ على الأفرادِ والمُجتَمَعاتِ.

[23] أخرجه مطولًا البخاري 4971، ومسلم 208، واللفظ له

[24] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز ص 39 بتصرف

[25] الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني 1/82

[26] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيّة، مَوْسُوعَةُ الأخْلاقِ والسُلُوك

المطلبُ الثَّالثُ: فضائِلُ التَّخَلُّقِ بالأخلاقِ الحَسَنةِ

1. حُسْنُ الخُلُقِ مِنْ أَفْضَلِ مَا يُقَرِّبُ العَبْدَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

2. لَا يُكَرِّمُ العَبْدُ نَفْسَهُ بِمِثْلِ حُسْنِ الخُلُق وَلَا يُهِينُهَا بِمِثْلِ سُوءِهِ.

3. حُسْنُ الخُلُقِ يَدُلُّ عَلَى سَمَاحَةِ النَّفْسِ وَكَرَمِ الطَّبعِ.

4. حُسْنُ الخُلُقِ سَبَبٌ في مَحَبَّةِ اللهِ لعَبدِه:

إنَّ الأخلاقَ الحَسَنةَ طَريقٌ وَسَبَبٌ في مَحَبَّة الله ﷻ لَعبدِهِ، وَقَد ذَكَرَ اللهُ تَعالى مَحَبَّتَه لِمَن يَتَخَلَّقُ بالأخلاقِ الحَسَنةِ، والتي منها الصَّبرُ والإحسانُ والعَدلُ وغَيرُ ذلك، فقد قال اللهُ تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:195]، وقال أيضًا: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران:146]، وقال أيضًا: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [المائدة: 42]، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة:222].

وسُئِل صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "فَمَن أحَبُّ عِبادِ اللهِ إلى اللهِ؟ قال: أحسَنُهم خُلُقًا"[27]، وقال صَلى الله عليه وسلم: "إن اللهَ يُحِبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كُلِّه"[28]، وقال: "إنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقيَّ، الغنيَّ، الخفيَّ"[29]، و"إن اللهَ عزَّ وجلَّ حليمٌ حييٌّ، سِتّيرٌ، يُحِبُّ الحياءَ، والسِتْرَ"[30]، وقال: "إنَّ اللهَ كريمٌ يُحبُّ الكُرَماء، جوادٌ يُحبُّ الجَوَدَةَ، يُحبُّ معاليَ الأخلاقِ، ويكرَهُ سَفْسافَها"[31]، وقال: "إنَّ اللهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ"[32]، وقال: "إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ إذا عمِلَ أحدُكُمْ عملًا أنْ يُتقِنَهُ"[33]، وقال: "إنَّ اللهَ تعالى عفوٌّ يُحِبُّ العَفوَ"[34]، وقال: "إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ سَمْحَ البَيعِ، سَمْحَ الشِّراءِ، سَمْحَ القَضاءِ"[35]، وقال: "أحَبُّ عبادِ الله إلى الله أحْسَنُهُم خُلُقًا" [36]، كما يَعكِس حُسْنُ خُلُقك حُبَّكَ لله إن كانت أخلاقك الحَسَنَةُ خالِصةً لوجه الله.

5. حُسْنُ الخُلُقِ من أسبابِ مَحَبَّةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَالقُرْبِ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ:

قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ مِن أحَبِّكُم إليَّ وأقرَبِكُم منِّي مَجلِسًا يومَ القيامةِ أحاسِنَكُم أخلاقًا".[37]

6. حُسْنُ الخُلُقِ من أسبابِ دُخولِ الجَنَّةِ:

فَهِيَ مِنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: سُئِلَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ عن أَكْثَرِ ما يُدخِلُ النَّاسَ

---

[27] رواه مطولًا ابن حبان 486 باختلافٍ يسير، والطبراني 1/182 473، والحاكم 8214 واللفظ لها من حديثِ أسامةَ بنِ شَريكٍ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابنُ حِبان، والألباني في صحيح الجامع 179

[28] صحيح البخاري 6024

[29] صحيح مسلم 2965

[30] صحيح النسائي 440

[31] صحيح الجامع 1800

[32] المصدر السابق 7674

[33] المصدر السابق 1880

[34] المصدر السابق 1779

[35] المصدر السابق 1888

[36] رواه الحاكم 441/4، والطبراني في الكبير 1/181. قال الهيثمي في المجمع 8/27: رجاله رجال الصحيح. وقال البوصيري في إتحاف الخيرة 6/9: رواته محتج بهم في الصحيح

[37] رواه الترمذي 2018 مطولًا من حديثِ جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما. صحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي 2018، وقال الترمذي: حسن غريب، وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج رياض الصالحين 1738

الجنَّةَ؟ فقالَ: "تقوى اللهِ وحُسنُ الخلُقِ، وسُئِلَ عن أَكْثرِ ما يُدخِلُ النَّاسَ النَّارَ، قالَ: الفَمُ والفَرجُ".[38]

وَهِيَ بابٌ من أبوابِ الجَنَّة ومِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُوَصِّلُ إِلَى مَنْزِلَةِ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أنا زَعيمٌ ببَيتٍ في رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَن تَرَكَ المِراءَ وإن كان مُحِقًّا، وببَيتٍ في وسَطِ الجَنَّةِ لمَن تَرَكَ الكَذِبَ وإن كان مازِحًا، وببَيتٍ في أعلى الجَنَّةِ لِمَن حَسُن خُلُقُه".[39]

7. مَكارِمُ الأخلاقِ مِنْ خَيْرِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَأَثْقَلَهَا فِي الميزانِ يومَ القيامةِ:

قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ما مِن شَيءٍ أثقَلُ في الميزانِ من حُسنِ الخُلُقِ"[40].

وقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا أَبَا ذَر أَلَّا أَدُلُّكَ عَلَى خَصْلَتَيْنِ هُمَا أَخَفُّ عَلَى الظَّهْرِ وَأَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ غَيْرِهِمَا قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وَطُولِ الصَّمْتِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا عَمِلَ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهِمَا".[41]

8. حُسْنُ الخُلُقِ من أسبابِ رِفعةِ الدَّرَجاتِ:

جَعَلَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- الْأَخْلَاقَ الْفَاضِلَةَ سَبَبًا لِلْوُصُوْلِ إِلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ الْعَالِيَةِ، يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى: {وَسَارِعُوْا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِيْنَ * الَّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِيْنَ الْغَيْظَ وَالْعَافِيْنَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ} [آل عِمْرَان: ١٣٣-١٣٤].

وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ المُسلِمَ المُسَدَّدَ ليُدرِكُ دَرَجةَ الصَّوَّامِ القَوَّامِ بآياتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لكَرَمِ ضَريبَتِه[42] وحُسنِ خُلُقِه".[43]

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "ما مِن شيءٍ يوضَعُ في الميزانِ أثقلُ من حُسنِ الخلقِ، وإنَّ صاحِبَ حُسنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ درجةَ صاحبِ الصَّومِ والصَّلاةِ".[44]

9. حُسْنُ الخُلُقِ علامةٌ على كَمالِ الإيمانِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "أكمَلُ المُؤمنينَ إيمانًا أحسَنُهم خُلُقًا، وخيارُكُم خيارُكُم لنِسائِهم".[45]

10. حُسْنُ الخُلُقِ يُزِيدُ فِي الْأَعْمَارِ وَيُعَمِّرُ الدِّيَارَ:

قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "حُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يُعَمِّرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ".[46]

---

[38] صحيح الترمذي 2004، وابن ماجه 4246، وأحمد 9085

[39] رواه أبو داود 4800، والطبراني 8/117 7488، والبيهقي في السنن الكبرى 21708. صححه النووي في رياض الصالحين ص: 216، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود 4800، وحسَّن إسنادَه المنذري في الترغيب والترهيب 4/50

[40] رواه الترمذي 2002، وابن حبان 12/ 506. قال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٦٢٨. ورواه أبو داود 4799 واللفظ له، والترمذي 2003 مطولًا، وأحمد 27496 باختلافٍ يسيرٍ من حديثِ أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابن حبان في صحيحه 481، والألباني في صحيح سنن أبي داود 4799، والوادعي في الصحيح المسند 1041

[41] رواه البزار 13/ 359، وأبو يعلى 6/ 53، والطبراني في الأوسط 7/ 140. وجوَّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب 3/ 274، وقال الهيثمي في المجمع 8/ 22: رجاله ثقات. وقال البوصيري في إتحاف الخيرة 6/ 18: هذا إسناد رجاله ثقات

[42] لكَرَمِ ضريبتِه: طبيعتِه وسَجِيَّتِه. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير3/80

[43] رواه أحمد 6648 واللفظ له، والخرائطي في مكارم الأخلاق 51، والطبراني 14/108 14726 من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما. صحَّحه الألباني في صحيح الجامع 1949، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تخريج مسند أحمد 6648

[44] صحيح الترمذي 2003

[45] رواه أبو داود 4682، والترمذي 1162 واللفظ له، وأحمد 7402 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه الترمذي، وابن حبان في صحيحه 479، والحاكم على شرط مسلم في المستدرك 2، وابن تيمية في الإيمان 328، والألباني في صحيح سنن الترمذي 1162

11. حُسْنُ الخُلُقِ يُضَاعِفُ الأَجْرَ وَالثَّوَابَ:

لأَنَّ كَسْبَهُ مُجَاهَدَةٌ وَفِيهِ مَشَقَّةٌ، مَكَانَتُهُ أَيْضًا عَظِيمَةٌ، فَالْأَجْرُ بِقَدْرِ الْمَشَقَّةِ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "يَا بُنَيَّ، إِنَّ الْمَكَارِمَ لَوْ كَانَتْ سَهْلَةً يَسِيرَةً لَسَابَقَكُمْ إِلَيْهَا اللِّئَام، وَلَكِنَّهَا كَرِيهَةٌ مُرَّةٌ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ عَرَفَ فَضْلَهَا، وَرَجَا ثَوَابَهَا".[47]

12. حُسْنُ الخُلُقِ سَبَبٌ لعَفْوِ اللهِ وَجَالِبٌ لِغُفْرَانِهِ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أُتِيَ اللهُ بعَبْدٍ مِن عِبَادِهِ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَقالَ له: مَاذَا عَمِلْتَ في الدُّنْيَا؟ قالَ: وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا، قالَ: يا رَبِّ آتَيْتَنِي مَالَكَ، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِن خُلُقِي الجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ علَى المُوسِرِ، وَأُنْظِرُ المُعْسِرَ، فَقالَ اللَّهُ: أَنَا أَحَقُّ بذَا مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عن عَبْدِي".[48]

13. **يَمْحو اللهُ بِحُسْنِ الخُلُقِ السّيئات،** {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: 114].

14. **حُسْنُ الخُلُقِ يُحَرِّمُ جَسَدَ صَاحِبِهِ عَلَى النَّارِ:**

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَا أُخْبِرُكُم بمَن يَحْرُمُ على النَّارِ، وبمَن تَحْرُمُ عليه النَّارُ؟ على كلِّ قريبٍ هيِّنٍ سهْلٍ".[49]

15. **حُسْنُ الخُلُقِ مِنْ أَهَمِّ الأَسْبَابِ التِّي تُسَاعِدُ عَلَى غَرْسِ رُوحِ المَوَدَّةِ، والْمَحَبَّةِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ الْوَاحِدِ،** كما أنها أَسَاسُ بَقَاءِ الأُمَمِ، والْمُؤَشِّرُ الرَّئِيسِيُّ عَلَى انْهِيَارِها أَوِ اسْتِمْرَارِيَّتِهَا؛ ولذلك فَإِنَّ انْهِيَارَ الأَخْلَاقِ يُعَدُّ انْهِيَارًا لِكِيَانِ الأُمَّةِ بِأَكْمَلِهَا.

16. **حُسْنُ الخُلُقِ مِنْ أَسْبابِ إِنْهاءِ العَداوَةِ والبغضاء، فَهِيَ تُحَوِّلُ العَدُوَّ إِلَى صَدِيقٍ:**

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: 35-33]، وَقَالَ صَلى الله عَلَيهِ وَسَلَّم: "إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الوَجْهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ".[50] والْواقِعُ يَشْهَدُ بِذَلِكَ، فَكَمْ مِنْ عَداوَةٍ انْتَهَتْ بِحُسْنِ الخُلُقِ، "فَالْوَاجِبُ عَلَى العاقِلِ أَنْ يَتَحَبَّبَ إِلَى النّاسِ بِلُزومِ حُسْنِ الخُلُقِ، وَتَرْكِ سُوءِ الخُلُقِ؛ لِأَنَّ الخُلُقَ الحَسَنَ يُذِيبُ الخَطَايَا كَمَا تُذيبُ الشَّمْسُ الجَليدَ، وَإِنَّ الخُلُقَ السَّيِّئَ لَيُفْسِدُ العَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ".[51]

17. **حُسْنُ الخُلُقِ هُوَ مِفْتاحُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ،** فَمِنْ خِلَالِه تَظْهَرُ الصُّورَةُ الحَقِيقِيَّةُ لِلْإِسْلَامِ، وَتُصَحَّحُ الصُّورَةُ السَّلْبِيَّةُ عَنْهُ وَعَنْ الْمُسْلِمِينَ، وَتَجْعَلُ مَنْ حَوْلَهُ يَنْظُرُونَ إِلَيْه عَلَى أَنَّهُ أُنموذَجٌ مِثالِيٌّ يُمْكِنُ أَنْ يَتَأَثَّروا بِهِ وَيَتَخَلَّقُوا بِأَخْلاقِهِ.

---

[46] رواه أحمد 6/159، وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة 519

[47] مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، 30

[48] فقالَ أبو مَسْعُودٍ: وأنا سَمِعْتُهُ مِن رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ. صحيح مسلم 1560

[49] سنن الترمذي 2488

[50] مُسْنَدُ البَزّار 177/15 8544، قَالَ العِراقِيُّ: رَوَاه البَزّارُ وَأَبُو يَعْلَى وَالطَّبَرَانِيُّ فِي مَكارِمِ الأَخْلاقِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَبَعْضُ طُرُقِ البَزّارِ وَرِجالُهُ ثِقاتٌ

[51] رَوْضَةُ العُقَلاءِ وَنُزْهَةُ الفُضَلاءِ، ص: 62

المطلبُ الرَّابِعُ: مكانةُ الأخْلاقِ في الإسْلَامِ

أَوَّلًا: الإسْلامُ دِينُ الأَخْلاقِ الحَميدَةِ، دَعَا إِلَيْهَا، وَحَرَصَ عَلَى تَرْبِيَةِ نُفُوسِ المُسْلِمِينَ عَلَيْهَا، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَأْمُرُنَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ بِأَحْسَنِ الأَخْلاقِ، وَمَن يَقْرَأُ اَلْقُرْآنَ سَيَجِدُ مَكارِمَ الأخْلاقِ بِاسْتِمْرَارٍ. وَكُلُّ الأعْمالِ الصّالِحَةِ يُتَقَرَّبُ بِهَا إلى اللَّهِ عز وجل، فَهِيَ مِنْ الأخْلاقِ الحَسَنَةِ، وَقَدْ مَدَحَ اللَّه تَعَالَى نَبِيَّهُ، فَقَالَ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ} [القَلَمِ: 4]، أَيْ: عَلَى دِينٍ عَظِيمٍ، وَعَلَى أَدَبِ القُرْآنِ.

سَأَلَ اَحَدُ الصَّحابَةِ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ! أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ القُرْآنَ ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ القُرْآنُ.[52]

ثَانِيًا: مَكانَةُ الأخلاق عِندَ اللهِ وَرَسُوله عَظيمٌ، فَمَنْ يَدَّعي حُبَّ الله وحُبَّ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اَلَّذِي كَانَ أَحْسَنَ النّاسِ خُلُقًا، وَجادَ بِاتِّخاذِهِ قُدْوَتَهُ، فَلِيحْذُو حَذْوَهُ، وَيَتَجَمَّلْ بأخْلاقِهِ حَتَّى يَصِلَ إلى القِمَّةِ فِي ذَلِكَ.

ثَالِثًا: الأَخْلاقُ الحَميدَةُ هو مَا يُبْنَى عَلَيْهِ شَخْصيَّةُ المُسْلِمِ، ولَا يُقاسُ بِاَلْمادّيّاتِ، لَا بِفَقْرِهِ وَلَا بِغِنَاه، وَلَا بِحَجْمِهِ وَلَوْنِهِ بَلْ بِأَخْلاقِهِ وَتَصَرُّفاتِهِ اَلَّتِي تَعْكِسُ عَنْ هَذَه الأَخْلاقِ، يَقُولُ تَعَالَى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اَللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [اَلْحُجُراتُ: 13]، وَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ"[53].

وحُقَّ لَنا أن نَقُولَ إنَّ الداعِيَة لَيْسَ كأيّ مُسْلِم، ومن ثَمَّ لا يَجُوزُ أنْ يَكُونَ عادِيًّا في خُلُقِهِ، بِل ونَسْألُهُ: أَيُّ مُعَرَّفٍ بِالْإِسْلَامِ أَنْتَ؟ بَلْ أَيْ مُسْلِمٍ أنْت إنْ لَمْ تَكُنْ أَخْلاقُكَ أَخْلاقَ الْقُرْآنِ وَأَخْلاقَ الرَّسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَمَسْئُولِيَّتُكَ أَيُّهَا المُسْلِمُ، ومَسْئُولِيَّتُكِ أَيَّتُهَا المُسْلِمَةُ عَظِيمَةٌ لأنَّكم بِحُسْنِ خُلُقِكم تُمَثِّلُون الإسْلامَ، وتبنون بها وَبِشَخْصِيَّتِكم حِصْنًا، وَمَلَاذًا آمِنًا أَمَامَ الأخْلاقِ المَذْمومَةِ، وَالرَّذَائِلِ اَلَّتِي اسْتَفْحَلَتْ، وتَأْتِينا مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ.

رَابِعًا: لِلْأَخْلَاقِ الحميدة صِلَةٌ وَثِيقَةٌ بِالْإِيمَانِ والْعَقِيدَةِ، يَقُولُ رسول الله الله صلى الله عليه وسلم: "أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا".[54]

وقَالَ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّه: "الدّينُ كُلُّهُ خُلُقٌ، فَمَن زَادَ عَلَيْكَ فِي الخُلُقِ زَادَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ".

والأَخْلاقُ فِي الإسْلامِ تَعْتَمِدُ عَلَى أَهْدافِ العَقيدَةِ الإسْلاميَّةِ بِاعْتِبَارِها مِعْياراً تُوْزَنُ عَلَيْهِ الأَعْمالُ والْأَقْوالُ وَكافَّةُ التَّصَرُّفَاتِ، لِحِفْظِ كَرامَةِ الإنْسانِ وَصيانَتِهِ وَتَحْقيقِ سَعادَتِهِ فَى حَياتِهِ الدُّنْيا والْآخِرَةِ.[55]

خَامِسًا: اَلْأَخْلَاقُ لها عِلَاقَةٌ بِالشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّهَا عِبَادَاتٌ وَمُعَامَلَاتٌ، وَلا شك أن الْعِبَادَاتِ تُبْعِدُ اَلْمُسْلِمَ مِنْ اَلْأَخْلَاقِ اَلْمَذْمُومَةِ وَتُقَرِّبُهُ إِلَى مَكَارِمِ اَلْأَخْلَاقِ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَأَقِمِ اَلصَّلَاةَ إِنَّ اَلصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ اَلْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [اَلْعَنْكَبُوتُ:45].

---

[52] صحيح مسلم 746

[53] رَوَاه مُسْلِمٌ 6708

[54] رواه أبو داود، 4682، 632/2، والترمذي، 1162، 466/3، صححه الألباني في صحيح الجامع 1230

[55] موسوعة نضرة النعيم فى أخلاق الرسول الكريم 1/92

سَادِسًا: أَخْلَاقُ اَلْمُسْلِمِ عمومًا، وأَخْلَاقُ اَلدَّاعِيَةِ خُصُوصًا، ضَرُورَةٌ فِي اَلدَّعْوَةِ إلى الله عز وجل، فالْمُسْلِمُ اَلصَّالِحُ، الْمُتَزَيِّنُ بِالْأَخْلَاقِ يَدعُو إِلَى اَللَّهِ بِمُجَرَّدِ اخْتِلَاطِهِ بِالنَّاسِ، وكَم مِنَ الشُّعُوبِ دَخَلَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ جَمَالِ أَخْلَاقِ المُسْلِمِينَ قَدِيمًا، فَمُمَارَسَةُ أَخْلَاقِ اَلْإِسْلَامِ وَالِاسْتِمْرَارُ عَلَيْهَا مِنْ أَعْظَمِ وأَنْجَعِ اَلْوَسَائِلِ اَلدَّعْوِيَّةِ.

سَابِعًا: نَتَائِجُ اَلْأَخْلَاقِ اَلْحَمِيدَةِ تُؤَدِّي إِلَى عَلَاقَاتٍ طَيِّبَةٍ مَعَ اَلْأَقْرِبَاءِ وَرَبْطِ اَلْأَوَاصِرِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَتُؤَدِّي إِلَى اَلسَّعَادَةِ، وَإِلَى اَلتَّعَايُشِ اَلسِّلْمِيِّ بَيْنَ اَلشَّعْبِ اَلْوَاحِدِ وَالشُّعُوبِ مَعَ بَعْضِهَا، أمّا الْأَخْلَاقُ اَلْمَذْمُومَةُ فتُؤَدِّي إِلَى تَشَتُّتِ اَلْعَائِلَاتِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ وَضَعْفِهَا وَمِنْ ثَمَّ هَدْمِهَا.

المَطْلَبُ الخَامِسُ: مَصادِرُ الأَخْلَاقِ

يُمكِنُ أن نُجمِلَ مَصادِرَ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ في مَصدَرَينِ رَئيسَينِ، هما أعظَمُ ما تُستَمَدُّ منه هذه الأخلاقُ:

كِتابُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وسُنَّةُ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصَّحيحةُ:

أولا: القُرآنُ الكَريمُ:

هو المَصدَرُ الأوَّلُ للأخلاقِ، والآياتُ التي تضمنَّت الدَّعوةَ إلى مَكارِمِ الأخلاقِ والنَّهيَ عن مَساوِئِها كَثيرةٌ، منها قولُه تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90].

وقولُه تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 33].

ويَدُلُّنا على أصالةِ هذا المَصدَرِ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي وصَفه اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ بالخُلُقِ العَظيمِ تَصِفُه عائِشةُ رَضِيَ اللهُ عنها بقَولِها: "فإنَّ خُلُقَ نَبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان القُرآنَ"[56]، ومَعنى ذلك كما يَقولُ ابنُ كَثيرٍ: "أنَّه قد ألزَمَ نَفسَه ألَّا يفعَلَ إلَّا ما أمَرَهُ به القُرآنُ، ولا يَترُكَ إلَّا ما نَهاه عنه القُرآنُ، فصارَ امتِثالُ أمرِ رَبِّه خُلُقًا له وسَجيَّةً، صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه إلى يَومِ الدِّينِ".[57]

ثانيا: السُّنَّةُ النَّبَويَّةُ:

والمُرادُ بالسُّنَّةِ: (ما أضيف إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أقوالٍ وأفعالٍ وتقريراتٍ)، وتُعتَبَرُ السُّنَّةُ النَّبَويَّةُ الصَّحيحةُ هي المَصدَرَ الثَّانيَ للأخلاقِ، يَقولُ اللهُ تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ} [الحشر: 7]، وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21]، وقال سُبحانَه: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [النساء: 59]، وقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّما بُعِثتُ لأتَمِّمَ صالحَ الأخلاقِ".[58]

ولِأَنَّ مَصْدَرَ الأَخْلَاقِ هُمَا "الْوَحيانِ" القُرْآنُ والسُّنَّةُ؛ لِذَلِكَ فهِيَ قيَمٌ ثابِتَةٌ وَمُثُلٌ عُليَا، تَصْلُحُ لِكُلِّ إِنْسانٍ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ جِنْسِهِ وَزَمانِهِ وَمَكانِهِ وَنَوْعِهِ، وَتَقْبَلُهَا الفِطَرُ السَّلِيمَةُ التِّي فُطِرَ النَّاسُ عَلَيْهَا، يَقُولُ رُسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "كُلُّ مَوْلودٍ يولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ..." الحَديثُ.

قال إبراهيمُ الحَربيُّ: "يَنبَغي للرَّجُلِ إذا سَمِعَ شَيئًا من آدابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَتَمَسَّكَ به"[59]، ولذا حَرَصَ الصَّحابةُ رِضوانُ اللهِ عليهم واهتَمُّوا اهتِمامًا كَبيرًا، وتَخَلَّقُوا بالأَخْلاقِ الحَسَنةِ مُستَنِدِينَ فِي ذَلِكَ إِلَى مَا جَاءَ فِي كِتابِ اللهِ سُبحانَه وتَعَالَى وسُنَّةِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فَهُم قُدوتُنا وسَلَفُنا الصَّالحُ فِي الأَخْلَاقِ.[60]

فالرسول صلى الله عليه وسلم أُسْوَةٌ، والصَحابة أُسْوَةٌ، والعُلَماء والزُّهَّادُ، وعُبَّادُ الأُمَّةِ فِي كُلِّ جِيلٍ أُسْوَةٌ.

---

[56] أخرجه مسلم 746

[57] الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لابن كثير، ص: 264

[58] رواه أحمد 8952 واللفظ له، والحاكم 4221، والبيهقي 21303. صحَّحه الحاكم وقال: على شرط مسلم، وابن عبد البر في التمهيد 24/333، وابن باز في مجموع الفتاوى 7/152، والألباني في صحيح الجامع 2349، وشعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 8952

[59] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي 1/142

[60] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز، ص: 31

وفي هذا المقام يوجد أمرٌ وجب التنبيه عليه لمن يقول: "لا أجدُ صحبةً صالحةً"، وهو أنّ مُجَاهَدَتَكَ في إصلاحِ نَفْسِكَ هو ما سيَجْذِبُ الصَّالِحِينَ إِلَيْكَ، سُئل أَحَدُ الصَّالِحِينَ: "كيفَ أجدُ الصُحبةَ الصالحة؟ فقال: كُن صالِحًا، يتهافَت عَلَيْكَ الصالِحون".

المطلبُ السَّادِسُ: خصائِصُ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ

أوَّلًا: الأخلاقُ الإسلاميَّةُ، رَبَّانيَّةُ المَصدَرِ:

الأخلاقُ الإسلاميَّةُ مصدَرُها كِتابُ اللهِ وسُنَّةُ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا مَدخَلَ فيها للآراءِ البَشَريَّةِ، أوِ النُّظُمِ الوضعيَّةِ، أوِ الأفكارِ الفلسَفيَّةِ.

ولذا اتَّسَمَتِ الأخلاقُ الإسلاميَّةُ بسِمَةِ الخُلودِ والصِّدقِ والصِّحَّةِ.

ثانيًا: الشُّمُولُ والتَّكامُلُ:

مِن خَصائِصِ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ: أنَّها شامِلةٌ ومُتَكامِلةٌ، وهي خاصِّيَّةٌ مُنبَثِقةٌ مِنَ الخاصِّيَّةِ الأولى، وهي الرَّبَّانيَّةُ؛ وذلك لأنَّها تُراعِي الإنسانَ والمُجتَمَعَ الذي تَعيشُ فيه، وتُراعِي أهدافَ حَيَاتِهِ وغايَتَها وما وراءَها طِبقًا للتَّصَوُّرِ الإسلاميِّ، وتَشمَلُ كافَّةَ مَناشِطِه وتَوجُّهاتِه، بل وتَستَوعِبُ حَياتَه كُلَّها من جَميعِ جَوانِبِها، ثُمَّ هي أيضًا لا تَقِفُ عِندَ حَدِّ الحَياةِ الدُّنيا.

ثالثًا: الأخلاقُ الإسلاميَّةُ صالحةٌ لكُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ:

لَمَّا كانتِ الأخلاقُ الإسلاميَّةُ رَبَّانيَّةَ المَصدَرِ، كانت صالحةً لجَميعِ النَّاسِ في كُلِّ زَمانٍ وفي أيِّ مَكانٍ؛ نَظَرًا لِما تَتَمَيَّزُ به من خَصائِصَ، فلا يَطرَأُ عليها أيُّ تَغييرٍ أو تَبديلٍ بسَبَبِ تَغَيُّرِ الظُّروفِ والأزمانِ؛ لأنَّها ليست نِتاجًا بَشَريًّا، بل هي وَحيٌ منَ اللهِ تعالى لنَبيِّه صلى الله عليه وسلم.

رابعًا: الإقناعُ العَقليُّ والوِجدانيُّ:

تَشريعاتُ الإسلامِ تُوافِقُ العُقولَ الصَّحيحةَ، وتتواءمُ مَعَ الفِطَرِ السَّليمةِ، وتَحصُلُ القَناعةُ الكامِلةُ والانسِجامُ التَّامُّ مَعَ ما أتَت به الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ من نُظُمٍ أخلاقيَّةٍ.

فالأخلاقُ الإسلاميَّةُ يَقنَعُ بها العَقلُ السَّليمُ، ويَرضى بها القَلبُ، فيَجِدُ الإنسانُ ارتياحًا واطمِئنانًا تِجاهَ الحَسَنِ مِنْهَا، ويَجِدُ نُفرةً وقَلقًا تِجاهَ السَّيِّئِ مِنْهَا.

خامِسًا: المسئوليةُ:

الأخلاقُ الإسلاميَّةُ تَجْعَلُ الإنسانَ مسؤولًا عَمَّا يَصدُرُ منه في كُلِّ جَوانِبِ الحَياةِ، سَواءٌ كانت هذه المسئوليةُ شَخصيَّةً أم جَماعيَّةً، ولا تَجعَلُه اتِّكاليًّا لا يَأبَهُ بما يَدورُ حَولَهُ من أشياءَ، وهذه خاصِّيَّةٌ من خَصائِصِ أخلاقِنا انفرَدَت بها الشَّريعةُ الغَرَّاءُ.

ونَعني بالمسئوليةِ الشَّخصيَّةِ أنَّ الإنسانَ مسؤولٌ عَمَّا يَصدُرُ منه؛ إن كان خَيرًا فخَيرٌ، وإن كان شَرًّا فشَرٌّ، وفي هذا الصَّدَدِ يَقولُ اللهُ تعالى: {كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [الطور: 21].

ويقولُ تعالى: {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ} [النساء: 111].

ويقولُ تعالى: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا} [الإسراء: 36].

فهذه الآياتُ وغَيرُها تُبَيِّنُ لنا مَدى المسئوليةِ التي تَقَعُ على عاتِقِ الإنسانِ عَمَّا يَصدُرُ منه، ويَقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "وإنَّ العَبدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن سَخَطِ اللَّهِ لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في جَهَنَّمَ"[61]، يَقولُ ابنُ حَجَرٍ في شَرحِ الحَديثِ: „"لا يُلقي لها

[61] أخرجه من طرق: البخاري 6478 مطولًا واللفظ له، ومسلم 2988 بنحوه من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

بالًا": أي: لا يَتأمَّلُ بخاطِرِه، ولا يَتفكَّرُ في عاقِبَتِها، ولا يَظُنُّ أنَّها تُؤَثِّرُ شَيئًا"[62]، فقَبْلَ أن تَخرُجَ الكَلمةُ مِن فيكَ أعطِ نَفسَك فُرصةً للتَّفكيرِ، هل ما سَتقولُه يُرضي اللهَ أم يُغضِبُه؟ هَل تَكونُ عاقِبَتُه خَيرًا أم شَرًّا؟ وطالما لَم تَخرُجْ فأنتَ مالِكُها، فإذا خَرَجَت كُنتَ أسيرَها، وإذا كان هذا في الكَلامِ، ففي سائِرِ التَّصَرُّفاتِ من بابٍ أَولى.

وعندما نتكلم عن المسئوليةِ الشَّخصيَّةِ لا ننسى أيضا أنَّ الإنسانَ غير مسؤولٍ عَمَّا يَصدُرُ من الآخرين إن لَم يكن بإمكانه التحكم به، يقول تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} [فاطر:18].

ونَعني بالمسئوليةِ العامَّةِ (الجَماعيَّةِ): تلك المسئوليَّةَ التي تُراعي الصَّالحَ العام للنَّاسِ، فلا يَكونُ الرَّجُلُ إمَّعةً مُتَكاسِلًا أو سَلبيًّا، بل عليه أن يَأمُرَ بالمَعروفِ، ويَنهى عنِ المُنكَرِ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن رَأى منكُم مُنكرًا فليُغَيِّرْه بيَدِه، فإن لم يَستَطِعْ فبلِسانِه، فإن لم يَستَطِعْ فبقَلبِه، وذلك أضعَفُ الإيمانِ".[63]

سادِسًا: العِبرةُ بالظَّاهرِ والباطِنِ مِنَ الأعمالِ مَعًا:

أخلاقُنا الإسلاميَّةُ لا تَكتفي بالظَّاهرِ منَ الأعمالِ، ولا تَحكُمُ عليه بالخَيرِ والشَّرِّ بمُقتَضى الظَّاهرِ فقَط، بل يَمتَدُّ الحُكمُ ليَشمَلَ النَّوايا والمَقاصِدَ، وهي أمورٌ باطِنيَّةٌ؛ فالعِبرةُ إذًا بالنِّيَّةِ، يَقولُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لكُلِّ امرِئٍ ما نَوى..."[64]، والنِّيَّةُ هي مَدارُ التَّكليفِ، وعلى ذلك فالإسلامُ يُراعي نيَّةَ الإنسانِ في الحُكمِ على عَمَلِه الظَّاهرِ.

سابعًا: الرَّقابةُ الدِّينيَّةُ:

الرَّقابةُ: تَعني مُراقَبةَ المُسلمِ لجانِب مَولاه سُبحانَه في جَميعِ أمورِ الحَياةِ.

وعلى هذا فإنَّ الرَّقابةَ في أخلاقِنا الإسلاميَّةِ لها مَدلولُها المُستَقِلُّ والمُختَلِفُ عنِ الرَّقابةِ في مَصادِرِ الأخلاقِ الأخرى؛ حَيثُ تَكونُ رَقابةً خارِجيَّةً منَ الغَيرِ تَتَمَثَّلُ في رَقابةِ السُّلطةِ والأفرادِ.

أمَّا الرَّقابةُ في الإسلامِ فهي رَقابةٌ ذاتيَّةٌ في المَقامِ الأوَّلِ، وهي نابعةٌ مِنَ التَّربيةِ الإسلاميَّةِ الصَّحيحةِ، ومِن إيقاظِ الضَّميرِ، فإذا كان المُسلمُ يَعلمُ أنَّ اللهَ مَعَه، وأنَّه مُطَّلِعٌ على حَرَكاتِه وسَكَناتِه، فإنَّه يَكونُ رَقيبًا على نَفسِه، ولا يَحتاجُ إلى رَقابةِ الغَيرِ عليه، يَقولُ تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [الحديد: 4]، ويقولُ سُبحانَه: {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه: 7]، ويقولُ عزَّ وجلَّ: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1]، فإذا قَرأ المُسلمُ هذه الآياتِ وعَرَف مَعناها فإنَّه حينَئِذٍ يَتَيَقَّنُ أنَّه إذا تَمَكَّنَ مِنَ الإفلاتِ مِن رَقابةِ السُّلطةِ، فإنَّه لن يَتَمَكَّنَ مِنَ الإفلاتِ مِن رَقابةِ اللَّهِ، وهذا في حَدِّ ذاتِه أكبَرُ ضَمانٍ لعَدَمِ الانحِرافِ والانسياقِ إلى الأخلاقِ المَذمومةِ.

ثامنًا: الأخلاقُ الإسلاميَّةُ تَرتَبطُ بالجَزاءِ الدُّنيَويّ والأخرَويّ:

أخلاقُ الإسلامِ تَرتَبطُ ارتباطًا وثيقًا بالجَزاءِ، سَواءٌ في الدُّنيا أوِ الآخِرةِ؛ لذا وُجِدَ الوعدُ والوعيدُ، والتَّرغيبُ والتَّرهيبُ.

فالأخيارُ مِنَ النَّاسِ، جَزاؤُهم عَظيمٌ في الدُّنيا والآخِرةِ، ومِن ذلك ما أعَدَّه اللهُ لهم في الآخِرةِ، كما في قولِه تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: 72].

وكَذلك ما وعَدَهمُ اللهُ به في الدُّنيا مِنَ الجَزاءِ العاجِلِ؛ قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: 2-3].

---

[62] فتح الباري 11/311

[63] أخرجه مسلم 49 من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدريّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[64] رواه مطولًا البخاري 1 واللفظ له، ومسلم 1907 من حديثِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه.

وأمَّا الأشرارُ مِنَ النَّاسِ، فقد تَوعَّدَهمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ، كما في قَولِه تعالى: {فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ *كُلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج: 19-22].

وأمَّا جزاؤهم في الدُّنيا فمثالُه قَولُه تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل: 112] [65]. [66]

المطلبُ السَّابعُ: عَلاماتُ حُسْنِ الخُلُقِ

لِمَكارِمِ الأَخْلاقِ دَلائِلٌ يُعْرَفُ بِهَا المَرْءُ بِأَنَّهُ حَسَنُ الخُلُقِ، قَالَ يوسُفُ بْنُ أَسْباطٍ: عَلامَةُ حُسْنِ الخُلُقِ عَشْرُ خِصالٍ:

1 - قِلَّةُ الخِلافِ.

2 - وَحُسْنُ الإِنْصافِ.

3 - وَتَرْكُ طَلَبِ اَلْعَثَراتِ.

4 - وَتَحْسينُ مَا يَبْدُو مِنْ السَّيِّئَاتِ.

5 - والْتِماسُ المَعْذِرَةِ.

6 - واحْتِمالُ الأَذَى.

7 - والرُّجوعُ بِاَلْمَلامَةِ عَلَى النَّفْسِ.

8 - والتَّفَرُّدُ بِمَعْرِفَةِ عُيوبِ نَفْسِهِ دُونَ غَيْرِهِ.

9 - وَطَلاقَةُ الوَجْهِ لِلصَّغِيرِ والْكَبيرِ.

10 - وَلُطْفُ الكَلامِ لِمَنْ دونَهُ وَمَن فَوْقَه.

وَلقد جَمَعَ بَعْضُ العُلَماءِ عَلاماتِ حُسْنِ الخُلُقِ، فَقَالَوا: "إِنَّ حُسْنَ الخُلُقِ هوَ أَنْ يَكونَ كَثيرَ الحَياءِ، قَليلَ الأَذَى، كَثيرَ الصَّلاحِ، صَدوقَ اللِّسانِ، قَليلَ الكَلامِ، كَثيرَ العَمَلِ، قَليلَ الزَّلَلِ، قَليلَ الفُضولِ، بَرًّا، وَصُولًا، وَقُورًا، صَبورًا، شَكُورًا، رَضِيًّا، حَليمًا، رَفِيقًا، عَفيفًا، شَفيقًا، كَريمًا، لَا لَعّانًا، وَلَا سَبَّابًا، وَلَا نَمَّامًا، وَلَا مُغْتابًا، وَلَا عَجُولًا، وَلَا حَقودًا، وَلَا بَخِيلًا، وَلَا حَسودًا، بَشَّاشًا، هَشَّاشًا، يُحِبُّ فِي اللَّهِ، وَيَبْغَضُ فِي اللَّهِ، وَيَرْضَى فِي اللَّهِ، وَيَغْضَبُ فِي اللَّهِ".[67]

---

[65] ينظر: الأخلاق الإسلامية لحسن السعيد المرسي، ص: 62-53، نضرة النعيم 1/81

[66] موسوعة الأخلاق والسلوك للدر السنية

[67] رُوحُ الْإِسْلامِ، مُحَمَّد عَطيَّةِ الإِبْراشي، ص: 99

المطلبُ الثَّامنُ: اكتسابُ الأخلاقِ

لَو لَم يَكُنْ لدى كُلِّ إنسانٍ عاقِلٍ قُدرةٌ على اكتِسابِ حَدٍّ ما مِنَ الفضائِلِ الأخلاقيَّةِ، لَما كَلَّفه اللَّهُ ذلك.

ولَيسَ أمرُ قُدرةِ الإنسانِ على اكتِسابِ ذلك بَعيدًا عنِ التَّصَوُّرِ والفَهْمِ، ولكِنَّه بحاجةٍ إلى مِقدارٍ مُناسِبٍ منَ التَّأمُّلِ والتَّفكيرِ.

إنَّه ما مِن إنسانٍ عاقِلٍ إلَّا ولدَيه تلك القُدْرة، وفي حُدودِ هذا المِقدارِ الذي يَستَطيعُه، يَكونُ تَكْلِيفُهُ، وتَكونُ مسئوليتُه، ثمَّ في حُدودِه تَكونُ مُحاسَبَتُه ومُجازاتُه.

إنَّ أسرَعَ النَّاسِ استِجابةً لانفِعالِ الغَضَبِ يَستَطيعُ بوسائِلِ التَّربيةِ أن يَكتَسِبَ مِقدارًا ما مِن خُلُقِ الحِلمِ، ومَتى صَمَّمَ بإرادَتِه أن يَكتَسِبَ ذلك فإنَّه يَستَطيعُه؛ لذلك فهو مسؤولٌ عنِ اكتِسابِ ما يَستَطيعُه منه، فإذا هو أهمَل تَربيةَ نَفسِه، وتَركَها من غَيرِ تَهذيبٍ تَنمو نُموَّ أشواكِ الغابِ، فإنَّه سَيُحاسَبُ على إهمالِه، وسيَجني ثَمَراتِ تَقصيرِه.

وإنَّ أشَدَّ النَّاسِ بُخلًا وأنانيَّةً وحُبًّا للتَّملُّكِ يَستَطيعُ بِوَسائِلِ التَّربيةِ أن يَكتَسِبَ مِقدارًا ما مِن خُلُقِ حُبِّ العَطاءِ، ومَتى صَمَّمَ بإرادَتِه أن يَكتَسِبَ ذلك فإنَّه يَستَطيعُه؛ لذلك فهو مسؤولٌ عنِ اكتِسابِ القَدرِ الواجِبِ شَرعًا منه، فإذا هو أهمَل تَربيةَ نَفسِه، وتَركَها من غَيرِ تَهذيبٍ، فإنَّه سَيُحاسَبُ على إهمالِه، وسَيَجني ثَمَراتِ تَقصيرِه.

والمَفطورُ على نِسبةٍ كَبيرةٍ منَ الجُبنِ يَستَطيعُ أن يَكتَسِبَ بالتَّربيةِ المُقتَرِنةِ بالإرادةِ والتَّصميمِ مِقدارًا ما من خُلُقِ الشَّجاعةِ، قد لا يَبلُغُ به مَبلَغَ المَفطورِ على نِسبةٍ عاليةٍ منه، ولكِنَّه مِقدارٌ يَكفيه لتَحقيقِ ما يَجِبُ عليه فيه أن يَكونَ شُجاعًا، وضِمنَ الحُدودِ التي هو مسؤولٌ فيها.

وأشَدُّ النَّاسِ أنانيَّةً في تَكوينِه الفِطريِّ يَستَطيعُ أن يَكتَسِبَ بالتَّربيةِ المُقتَرِنةِ بالإرادةِ والتَّصميمِ مِقدارًا ما منَ الغَيريَّةِ والإيثارِ، قد لا يَبلُغُ فيه مَبلَغَ المَفطورِ على مَحَبَّةِ الآخَرينَ، والرَّغبةِ بأنْ يُؤثِرَهم على نَفسِه، ولكِنَّه مِقدارٌ يَكفيه لتَأديةِ الحُقوقِ الواجِبةِ عليه تِجاهَ الآخَرينَ.

وهكذا نَستَطيعُ أن نَقولَ: إنَّ أيَّةَ فضيلةٍ خُلُقيَّةٍ باستِطاعةِ أيِّ إنسانٍ عاقِلٍ أن يَكتَسِبَ منها بالتَّربيةِ المُقتَرِنةِ بالإرادةِ والتَّصميمِ المِقدارَ الذي يَكفيه لتَأديةِ واجِبِ السُّلوكِ الأخلاقيِّ.

والنَّاسُ مِن بَعدِ ذلك يَتَفاوتونَ بمَدى سَبقِهم وارتِقائِهم في سُلَّمِ الفضائِلِ.

وتَفاوُتُ الاستِعداداتِ والطَّبائِعِ لا يُنافي وُجودَ استِعدادٍ عامٍّ صالحٍ لاكتِسابِ مِقدارٍ ما من أيِّ فرعٍ من فُروعِ الاختِصاصِ، سَواءٌ أكان ذلك من قَبيلِ العُلومِ، أو الفُنونِ، أو المَهاراتِ، أو الأخلاقِ.

وفي حُدودِ هذا الاستِعدادِ العامِّ ورَدَتِ التَّكاليفُ الشَّرعيَّةُ الرَّبَّانيَّةُ العامَّةُ، ثمَّ تَرتَقي من بَعدِه مسئولياتُ الأفرادِ بحَسَبِ ما وهَبَ اللَّهُ كُلًّا منهم مِن فِطَرٍ، وبحَسَبِ ما وَهبَ كُلًّا منهم مِنِ استِعداداتٍ خاصَّةٍ زائِدةٍ على نِسبةِ الاستِعدادِ العامِّ.

ولو أنَّ بَعضَ النَّاسِ كان مَحرومًا من أدنى حُدودِ الاستِعدادِ العامِّ الذي هو مَناطُ التَّكليفِ، فإنَّ التَّكليفَ لا يَتَوَجَّهُ إليه أصلًا، ومَن سُلِب منه هذا الاستِعدادُ بسَبَبٍ ما؛ ارتَفَعَ عنه التَّكليفُ، فمن الضروري اقتِران التَّكليفِ بالاستِطاعةِ، كما أوضَحَت ذلك نُصوصُ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ.

ووَفقَ هذا الأساسِ جاءَتِ التَّكاليفُ الشَّرعيَّةُ بالتِزامِ فضائِلِ الأخلاقِ واجتِنابِ رَذائِلِها، وَوِفْقَهُ أَيْضًا وَضَعَ الإسلامُ الخُطَطَ التَّربَويَّةَ التي تَنفعُ في التَّربيةِ على الأخلاقِ الفاضِلةِ؛ فالاستِعدادُ لذلك مَوجودٌ في الواقِعِ الإنسانيِّ، وإن اختَلفت نِسْبَتُهُ من شَخصٍ إلى آخَرَ.

وفي الإصلاحِ التَّربَويّ قد يَقبَلُ بَعضُ النَّاسِ بَعضَ فضائِلِ الأخلاقِ بسُهولةٍ، ولا يَقبَلُ بَعضَها الآخَرَ إلَّا بصُعوبةٍ ومُعالجةٍ طَويلةِ المَدى، وقد تَقِلُّ نِسبةُ استِجابَتِه.[68]

ولقد قرأت عن أحد العلماء، يقول: "لو كانتِ الأخلاقُ لا تَقبَلُ التَّغييرَ لبَطَلتِ الوصايا والمَواعِظُ والتَّأديباتُ، وكَيف يُنكَرُ هذا في حَقِّ الآدَميّ، وتَغييرُ خَلقِ البَهيمةِ مُمكِنٌ؟! إذ يُنقَلُ البازي منَ الاستيحاشِ إلى الأُنسِ، والكَلبُ من شَرَهِ الأَكلِ إلى التَّأدُّبِ والإمساكِ والتَّخليةِ، والفرَسُ منَ الجِماحِ إلى السَّلاسةِ والانقيادِ، وكُلُّ ذلك تَغييرٌ للأخلاقِ".

المطلبُ التَّاسِعُ: وَسَائِلُ اكْتِسَابِ الأَخْلَاقِ

هناك مجموعة من الوَسائِل الناجعة التي يمكن من خلالها اكتِسابِ الأخْلاقِ، وَهِيَ كَالتَّالِي:

1. تَصْحيحُ العَقيدةِ:

إنَّ العَقيدةَ تَنعَكِسُ على أخلاقِ مُعتَقِدِها، فإذا صَحَّتْ حَسُنَتِ الأخلاقُ تَبَعًا لذلك؛ „فالسُّلوكُ ثَمرةٌ لِما يَحْمِلُه الإنسانُ من مُعتَقَدٍ، وما يَدينُ به من دينٍ، والانحِرافُ في السُّلوكِ ناتِجٌ عن خَللٍ في المُعتَقدِ، فالعَقيدةُ هي السُّنَّةُ، وهي الإيمانُ الجازِمُ باللهِ تعالى، وبما يَجِبُ له مِنَ التَّوحيدِ والإيمانِ بمَلائِكَتِه وكُتُبِه ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، والقدَرِ خَيرِه وشَرِّه، وبما يَتفرَّعُ عن هذه الأصولِ، ويَلحَقُ بها ممَّا هو مِن أصولِ الإيمانِ، كما قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ أكمَلَ المُؤمنينَ إيمانًا أحسَنُهم خُلُقًا، وإنَّ حُسنَ الخُلُقِ ليَبلُغُ دَرَجةَ الصَّومِ والصَّلاةِ"[69]„[70]، والعَقيدةُ الصَّحيحةُ، هي: عَقيدةُ السَّلَفِ من أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ، والتي تَحمِلُ صاحِبَها على مَكارِمِ الأخلاقِ، وتَردَعُه عن مَساوِئِها.

2. العِباداتُ:

(إنَّ العِباداتِ التي شُرِعَت في الإسلامِ، واعتُبِرَت أركانًا للإيمانِ به، ليست طُقوسًا مُبهَمةً في النَّوعِ الذي يَربُطُ الإنسانَ بالغُيوبِ المَجهولةِ، ويُكَلِّفُه بأداءِ أعمالٍ غامِضةٍ، وحَرَكاتٍ لا مَعنى لها، كَلَّا؛ فالفرائِضُ التي ألزَمَ الإسلامُ بها كُلَّ مُنتَسِبٍ إليه هي تَمارينٌ مُتَكَرِّرةٌ لتَعويدِ المَرءِ أن يَحيا بأخلاقٍ صَحيحةٍ، وأن يَظَلَّ مُستَمسِكًا بهذه الأخلاقِ مَهما تَغَيَّرَت أمامَه الحَياةُ.

والقُرآنُ الكَريمُ والسُّنَّةُ المُطَهَّرةُ يَكشِفانِ -بوُضوحٍ- عن هذه الحَقائِقِ، فالصَّلاةُ الواجِبةُ عِندَما أمرَ اللَّهُ بها أبانَ الحِكمةَ من إقامَتِها، وقال: {وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ} [العنكبوت: 45].

فالابتِعادُ عنِ الرَّذائِلِ والتَّطهيرُ من سوءِ القَولِ وسوءِ العَمَلِ، هو حَقيقةُ الصَّلاةِ، والزَّكاةُ المَفروضةُ ليست ضَريبةً تُؤخَذُ منَ الجُيوب بل هي -أوَّلًا- غَرسٌ لمَشاعِرِ الحَنانِ والرَّأفةِ، وتَوطيدٌ لعلاقاتِ التَّعارُفِ والأُلفةِ بَين شَتَّى الطَّبَقاتِ، وقد نَصَّ القُرآنُ على الغايةِ من إخراجِ الزَّكاةِ بقَولِه: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} [التوبة: 103].

فتَنظيفُ النَّفسِ من أدرانِ النَّقصِ والتَّسامي بالمُجتَمَعِ إلى مُستَوًى أنبَلَ هو الحِكمةُ الأولى.

وكَذلك شَرَعَ الإسلامُ الصَّومَ فلم يَنظُرْ إليه على أنَّه حِرمانٌ مُؤَقَّتٌ من بَعضِ الأطعِمةِ والأشرِبةِ، بَل اعتَبَرَه خُطوةً إلى حِرمانِ النَّفسِ دائِمًا من شَهَواتِها المَحظورةِ ونَزَواتِها المَنكورةِ.

---

[68] الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة 1/179 بتصرف

[69] رواه البزار 7445، وأبو يعلى 4166، والضياء في الأحاديث المختارة 2210 باختلافٍ يسيرٍ من حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابن تيمية في الإيمان 328، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة 1590، ووثَّق رجالَه الهيثمي في مجمع الزوائد 1/63، والبوصيري في إتحاف الخيرة المهرة 6/19. والحَديثُ رويَ بلفظٍ مُقارِبٍ عن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ:ما من شَيءٍ يوضَعُ في الميزانِ أثقَلُ من حُسنِ الخُلُقِ، وإنَّ صاحِبَ حُسنِ الخُلُقِ ليَبلُغُ به دَرَجةَ صاحِبِ الصَّومِ والصَّلاةِ. رواه أبو داود 4799، وأحمد 27496 مختصرًا، والترمذي 2003 واللفظ له. صحَّحه ابن حبان في صحيحه 481، والألباني في صحيح سنن الترمذي 2003، والوادعي في الصحيح المسند 1041، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 27496

[70] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز، ص: 58

وإقرارًا لهذا المَعنى قال الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "مَن لم يَدَعْ قَولَ الزُّورِ والعَمَلَ به، فليس للَّهِ حاجةٌ في أن يَدَعَ طَعامَه وشَرابَه"[71].

وقد يَحسَبُ الإنسانُ أنَّ السَّفرَ إلى البقاعِ المُقدَّسةِ التي كلف بها المستطيع واعتبرها من فرائض الإسلام على بعض أتباعه؛ رِحلةً مُجَرَّدةً عنِ المَعاني الخُلُقيَّةِ، ومَثَلًا لما قد تَحتَويه الأديانُ أحيانًا من تعبُّداتٍ غَيبيَّةٍ، وهذا خَطَأٌ؛ إذ يَقولُ اللهُ تعالى -في الحَديثِ عن هذه الشَّعيرةِ: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} [الحج: 197]).[72]

3. الارتباطُ بالقرآنِ الكريمِ:

لا شَكَّ أنَّ القُرآنَ كِتابُ هِدايةٍ ومَنهَجُ حَياةٍ، ولا شَكَّ أنَّ الارتِباطَ به قِراءةً وتَدَبُّرًا وعَمَلًا مِن أعظَمِ الوسائِلِ لتَحقيقِ الهدايةِ والحَياةِ الكَريمةِ والأخلاقِ الفاضِلةِ، قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: {إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} [الإسراء: 9].

وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الشورى: 52].

وقال سُبحانَه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: 57].

قال ابنُ كَثيرٍ: "مَّوعِظةٌ: زاجِرٌ عنِ الفواحِشِ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، أي: مِنَ الشُّبَهِ والشُّكوكِ، وهو إزالةُ ما فيها مِن رِجسٍ ودَنَسٍ وَهوَ هُدًى وَرَحْمَةٌ، أي: مُحَصِّلٌ لها الهدايةَ والرَّحمةَ مِنَ اللهِ تعالى، وإنَّما ذلك للمُؤمنينَ به والمُصَدِّقينَ الموقِنينَ".[73]

وقال جَلَّ ثناؤه: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: 89].

قال السَّعديُّ: "يَستَضيئونَ به في ظُلُماتِ الكُفرِ والبِدَعِ، والأهواءِ المُرْديةِ، ويَعرِفونَ به الحَقائِقَ، ويهتَدونَ به إلى الصِّراطِ المُستَقيمِ".[74]

وقال الشَّنقيطيُّ: „هذه الآيةُ الكَريمةُ أجمَلَ اللَّهُ جَلَّ وعلا فيها جَميعَ ما في القُرآنِ منَ الهُدى إلى خَيرِ طَريقٍ وأعدَلِها وأصوَبِها، فلو تَتَبَّعْنا تَفصيلَها على وَجهِ الكَمالِ لأتَينا على جَميعِ القُرآنِ العَظيمِ؛ لشُمولِها لجَميعِ ما فيه مِنَ الهدى إلى خَيرِ الدُّنيا والآخِرةِ".[75]

وكم في هذا الكتابِ العظيمِ من توجيهٍ وهدايةٍ، فقال سُبحانَه: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ} [البقرة: 231].

فالقُرآنُ الكَريمُ اشتَمَل على الأمثالِ والقِصَصِ والعِبَرِ هدايةً لخَيرَي الدُّنيا والآخِرةِ.

- فأمَّا الأمثالُ القُرآنيَّةُ، فَمِن أفضَلِ الوسائِلِ لغَرسِ القِيَمِ الإسلاميَّةِ، وتَهذيبِ النُّفوسِ والأفكارِ، وتَغييرِ السُّلوكِ والاعتِبارِ، ومن خِلالِها يُعيدُ المَرءُ تَرتيبَ نَفسِه بالتَّفكيرِ والإمعانِ، والعَمَلِ على إصلاحِ النَّفسِ وتَربيَتِها.

---

[71] أخرجه البخاري 1903 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه

[72] خلق المسلم لمحمد الغزالي، ص: 9

[73] تفسير ابن كثير 4/210

[74] تفسير الكريم المنان، ص: 708

[75] أضواء البيان 3/409

- وأمَّا القَصَصُ القُرآنيُّ، فله أثرٌ بالغٌ في نَفسِ القارِئِ والسَّامِعِ، تَهفو لها النُّفوسُ، وتَطمَئِنُّ بها القُلوبُ، وتَسمو بها الأرواحُ، فيها مِنَ السِّحرِ الأخَّاذِ للسَّمعِ والفُؤادِ، وفيها مِنَ الفوائِدِ والعِبَرِ والدُّروسِ والإرشادِ والدَّلالاتِ لَمَن أمعنَ النَّظَرَ، وألقى السَّمعَ وهو شَهيدٌ.

قال تعالى: {إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} [يوسف: 2-3] „.[76]

4. التَّدريبُ العَمَليُّ والرِّياضةُ النَّفسيَّةُ:

„إنَّ التَّدريبَ العَمَليَّ والمُمارَسةَ التَّطبيقيَّةَ ولو مَعَ التَّكَلُّفِ في أوَّلِ الأمرِ، وقَسرَ النَّفسِ على غَيرِ ما تَهوى: مِنَ الأمورِ التي تَكسِبُ النَّفسَ الإنسانيَّةَ العادةَ السُّلوكيَّةَ، طال الزَّمَنُ أو قَصُرَ.

والعادةُ لها تَغَلغُلٌ في النَّفسِ يَجعَلُها أمرًا مُحَبَّبًا، وحينَ تَتَمَكَّنُ في النَّفسِ تَكونُ بمَثابةِ الخُلُقِ الفِطريِّ، وحينَ تَصِلُ العادةُ إلى هذه المَرحَلةِ تَكونُ خُلُقًا مُكتَسَبًا، ولو لم تَكُنْ في الأصلِ الفِطريِّ أمرًا مَوجودًا.

وقد عَرَفنا أنَّ في النَّفسِ الإنسانيَّةِ استِعدادًا فِطريًّا لاكتِسابِ مِقدارٍ ما مِن كُلِّ فضيلةٍ خُلُقيَّةٍ، وبِمِقدارِ ما لدى الإنسانِ مِن هذا الاستِعدادِ تَكونُ مسئوليتُه، ولو لم يَكُنْ لدى النُّفوسِ الإنسانيَّةِ هذا الاستِعدادُ لكان مِنَ العَبَثِ اتِّخاذُ أيَّةِ مُحاولةٍ لتَقويمِ أخلاقِ النَّاسِ، والقَواعِدُ التَّربَويَّةُ المُستَمَدَّةُ منَ الواقِعِ التَّجريبيِّ تُثبِتُ وُجودَ هذا الاستِعدادِ، واعتِمادًا عليه يَعمَلُ المُرَبُّونَ على تَهذيبِ أخلاقِ الأجيالِ التي يُشرِفونَ على تَربيَتِها، وقد وَرَدَ في الأثَرِ: "العِلمُ بالتَّعلُّمِ، والحِلمُ بالتَّحَلُّمِ".[77]

وثَبَتَ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "ومَن يَستَعفِفْ يُعِفَّه اللَّهُ، ومَن يَستَغنِ يُغنِه اللهُ، ومَن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْه اللهُ".[78]

فقد رَوى البُخاريُّ ومُسلِمٌ عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ أنَّ ناسًا منَ الأنصارِ سَألوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأعطاهم، ثمَّ سَألوه، فأعطاهم، حتَّى إذا نَفِدَ ما عِندَه قال: "ما يَكُنْ عِندي من خَيرٍ فلن أدَّخِرَه عنكم، ومَن يَستَعفِفْ يُعِفَّه اللَّهُ، ومَن يَستَغنِ يُغنِه اللهُ، ومَن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْه اللهُ، وما أعطيَ أحَدٌ عَطاءً خَيرًا وأوسَعَ منَ الصَّبرِ".[79]

وضَرَبَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَثَلًا دَلَّ فيه على أنَّ التَّدريبَ العَمَليَّ ولو مَعَ التَّكَلُّفِ يَكسِبُ العادةَ الخُلُقيَّةَ حتَّى يَصيرَ الإنسانُ مِعطاءً غَيرَ بَخيلٍ، ولو لم يَكُنْ كَذلك أوَّلَ الأمرِ.

واعتِمادًا على وُجودِ الاستِعدادِ الفِطريِّ لاكتِسابِ الخُلُقِ ورَدَتِ الأوامِرُ الدِّينيَّةُ بفضائِلِ الأخلاقِ، ووَرَدَتِ النَّواهي الدِّينيَّةُ عن رَذائِلِ الأخلاقِ.

ولكِن منَ المُلاحَظِ أنَّه قد يَبدَأُ التَّخَلُّقُ بخُلُقٍ ما عَمَلًا شاقًّا على النَّفسِ، إذا لم يَكُنْ في أصلِ طَبيعَتِها الفِطريَّةِ، ولكِنَّه بتَدريبِ النَّفسِ عليه وبالتَّمَرُّسِ والمِرانِ يُصبحُ سَجيَّةً ثابتةً يَندَفِعُ الإنسانُ إلى مُمارَسةِ ظَواهِرِها اندِفاعًا ذاتيًّا دونَ أن يَجِدَ أيَّةَ مَشَقَّةٍ أو مُعارَضةٍ أو عَقَبةٍ من داخِلِ نَفسِه، ولَئِن وجَدَ شَيئًا من ذلك فإنَّ دافِعَ الخُلُقِ المُكتَسَبِ يَظَلُّ هو الدَّافِعَ الأغلَبَ، بشَرطِ أن يَكونَ التَّخَلُّقُ قد تَحَوَّلَ فِعلًا إلى خُلُقٍ مُكتَسَبٍ.

وليس التَّدريبُ النَّفسيُّ ببَعيدِ الشَّبَهِ عنِ التَّدريبِ الجَسَديِّ، الذي يُكْتَسَبُ به المَهاراتُ العَمَليَّةُ الجَسَديَّةُ".[80]

---

[76] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز، ص: 116 -113

[77] أخرجه ابن أبي الدنيا في الحلم 47، والبيهقي في المدخل إلى السنن 385، وابن عساكر في تاريخ دمشق 47/176. صحَّح إسناده الألباني في العلم لأبي خيثمة 114 وقال: وله شاهدٌ. والحديثُ رُوِيَ مرفوعًا، لكن ذكر الدارقطني في العلل 1085 أنَّ ما رُوِيَ عن أبي الدَّرداءِ موقوفًا هو المحفوظُ.

[78] رواه مطولًا البخاري 1469، ومسلم 1053 واللَّفظُ له، من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[79] أخرجه البخاري 1469، ومسلم 1053 واللفظ له

[80] الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حبنكة الميداني 1/197

قال الغَزاليُّ: „فمَن أرادَ مَثَلًا أن يُحَصِّلَ لنَفسِه خُلُقَ الجودِ فطَريقُه أن يَتَكَلَّفَ تَعاطِيَ فِعلِ الجَوادِ، وهو بَذلُ المالِ، فلا يَزالُ يُطالِبُ نَفسَه ويواظِبُ عليه تَكَلُّفًا مُجاهدًا نَفسَه فيه حتَّى يَصيرَ ذلك طَبعًا له، ويَتَيَسَّرَ عليه فيَصيرَ به جَوادًا، وكَذا من أرادَ أن يُحَصِّلَ لنَفسِه خُلُقَ التَّواضُعِ وقد غَلبَ عليه الكِبرُ، فطَريقُه أن يواظِبَ على أفعالِ المُتَواضِعينَ مُدَّةً مَديدةً، وهو فيها مُجاهِدٌ نَفسَه ومُتَكَلِّفٌ إلى أن يَصيرَ ذلك خُلُقًا له وطَبعًا فيَتَيَسَّرَ عليه، وجَميعُ الأخلاقِ المَحمودةِ شَرعًا تَحصُلُ بهذا الطَّريقِ، وغايَتُه أن يَصيرَ الفِعلُ الصَّادِرُ منه لذيذًا، فالسَّخيُّ هو الذي يَستَلِذُّ بَذلَ المالِ الذي يَبذُلُه دونَ الذي يَبذُلُه عن كَراهةٍ، والمُتَواضِعُ هو الذي يَستَلِذُّ التَّواضُعَ، ولن ترسَخَ الأخلاقُ الدِّينيَّةُ في النَّفسِ ما لم تَتَعَوَّدِ النَّفسُ جَميعَ العاداتِ الحَسَنةِ، وما لم تَترُكْ جَميعَ الأفعالِ السَّيِّئةِ، وما لم تواظِبْ عليه مواظَبةَ من يَشتاقُ إلى الأفعالِ الجَميلةِ ويَتَنَعَّمُ بها، ويَكرَهُ الأفعالَ القَبيحةَ ويَتَألَّمُ بها".[81]

5. التَّفَكُّرُ في الآثارِ المُترَتِّبةِ على حُسنِ الخُلُقِ:

„على المَرءِ أن يَستَذكِرَ دائِمًا ويَحتَسِبَ ثَوابَ حُسنِ الخُلُقِ.

عنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمعانَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: سَألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنِ البرِّ والإثمِ؟ فقال: "البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ، والإثمُ ما حاكَ في صَدرِك وكَرِهتَ أن يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ".[82]

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "أثقَلُ شَيءٍ في الميزانِ حُسنُ الخُلُقِ".[83]"[84].

6. النَّظَرُ في عواقِبِ سُوءِ الخُلُقِ:

(وذلك بتَأمُّلِ ما يَجلِبُه سوءُ الخُلُقِ مِنَ الأسَفِ الدَّائِمِ، والهَمِّ المُلازِمِ، والحَسرةِ والنَّدامةِ، والبِغضةِ في قُلوبِ الخَلقِ؛ فذلك يَدعو المَرءَ إلى أن يَقصُرَ عن مَساوِئِ الأخلاقِ، ويَنبَعِثَ إلى مَحاسِنِها.

قال ابنُ القَيِّمِ: "ومِن عُقوباتِها أي: المَعاصي وسوءِ الأخلاقِ سُقوطُ الجاهِ والمَنزِلةِ والكَرامةِ عِندَ اللهِ وعِندَ خَلقِه؛ فإنَّ أكرَمَ الخَلقِ عِندَ اللهِ أتقاهُم، وأقرَبَهم منه مَنزِلةً أطوَعُهم له، وعلى قدرِ طاعةِ العَبدِ له، تَكونُ مَنزِلتُه عِندَه، فإذا عَصاه وخالف أمرَه سَقَطَ من عَينِه، فأسقَطَه من قُلوبِ عِبادِه، وإذا لم يَبقَ له جاهٌ عِندَ الخَلقِ وهانَ عليهم، عامَلوه على حَسَبِ ذلك، فعاشَ بَينَهم أسوأَ عَيشٍ: خامِلَ الذِّكرِ، ساقِطَ القَدرِ، زَريَّ الحالِ، لا حُرمةَ له، فلا فرَحَ له ولا سُرورَ؛ فإنَّ خُمولَ الذِّكرِ وسُقوطَ القَدرِ والجاهِ يَجلِبُ كُلَّ غَمٍّ وهَمٍّ وحُزنٍ، ولا سُرورَ مَعَه ولا فرَحَ، وأينَ هذا الألمُ من لذَّةِ المَعصيةِ؟! ومِن أعظَمِ نِعَمِ اللهِ على العَبدِ: أن يَرفعَ له بَينَ العالَمينَ ذِكرَه، ويُعلِيَ له قَدْرَه).[85]

وليس هذا فَحسبُ، بَل تَأمَّلْ ما يَقولُ ابنُ القَيِّمِ أيضًا: "ومِن عُقوباتِها: أنَّها تَسلُبُ صاحِبَها أسماءَ المَدحِ والشَّرَفِ، وتَكسوه أسماءَ الذَّمِّ والصَّغارِ؛ فتَسلُبُه اسمَ المُؤمنِ، والبَرِّ، والمُحسِنِ، والمُتَّقي، والمُطيعِ، والمُنيبِ، والوليِّ، والوَرِعِ، والصَّالحِ، والعابِدِ، والخائِفِ، والأوَّابِ، والطَّيِّبِ، والمرضيِّ، ونَحوِها، وتَكسوه اسمَ الفاجِرِ، والعاصي، والمُخالِفِ، والمُسيءِ، والمُفسِدِ، والسَّارِقِ، والكاذِبِ، والخائِنِ، والغادِرِ وأمثالِها".[86]

---

[81] إحياء علوم الدين 58 /3

[82] أخرجه مسلم 2553

[83] رواه أبو داود 4799، وأحمد 27496 باختلاف يسير، والترمذي 2003 مطولًا باختلافٍ يسيرٍ. صحَّحه ابن حبان في صحيحه 481، والألباني في صحيح سنن أبي داود 4799، والوادعي في الصحيح المسند 1041، وصحَّح إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 27496

[84] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز، ص: 69

[85] الجواب الكافي ص: 126

[86] المرجع السابق

وتَأَمَّلْ عاقِبةَ هذه المَرأةِ التي كانت تَصومُ النَّهارَ وتَقومُ اللَّيلَ، ولكِنَّها سَيِّئةُ الخُلُقِ في مُعامَلتِها مَعَ جيرانِها. فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قيل للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ فُلانةَ تَقومُ اللَّيلَ وتَصومُ النَّهارَ، وتَفعلُ وتَصَدَّقُ، وتُؤذي جيرانَها بلسانِها؟ فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا خَيرَ فيها، هي من أهلِ النَّارِ. قالوا: وفُلانةُ تُصَلِّي المكتوبةَ وتَصَدَّقُ بأثوارٍ[87]، ولا تُؤذي أحَدًا، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هي من أهلِ الجَنَّةِ".[88]

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ من أحَبِّكُم إليَّ وأقرَبِكُم منِّي مَجلِسًا يَومَ القيامةِ أحاسِنَكُم أخلاقًا، وإنَّ من أبغَضِكُم إليَّ وأبعَدِكُم منِّي يَومَ القيامةِ الثَّرثارون والمُتَشَدِّقونَ والمُتَفَيهِقونَ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، قد عَلِمنا الثَّرثارينَ والمُتَشَدِّقينَ، فما المُتَفيهِقونَ؟ قال: المُتَكَبِّرونَ"[89].[90]

7. الأمرُ بالمَعروفِ والنَّهيُ عنِ المُنكَرِ، والتَّواصي بالحَقِّ:

„القُرآنُ الكَريمُ يوصي ويَفرِضُ ضَرورةَ التَّذكيرِ، والأمرِ بالمَعروفِ، والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ، والتَّواصي بالحَقِّ والصَّبرِ، يَقولُ سُبحانَه وتعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: 55]، ويَقولُ تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} [آل عمران: 110].

وإنَّ التَّذكيرَ والأمرَ بالمَعروفِ والنَّهيَ عنِ المُنكَرِ والتَّواصيَ من أساليبِ التَّربيةِ الإسلاميَّةِ التي بَدَت خِلالَ أحاديثِ المُرَبِّي الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفي طَريقةِ التَّواصي دَعوةُ كُلِّ مُسلمٍ إلى أن يَكونَ مُرَبِّيًا يُعَلِّمُ أخاه المُسلمَ، والتَّذكيرُ بالخَيرِ والحَقِّ والدَّعوةُ إليهما، والتَّنبيهُ إلى الشَّرِّ والضَّرَرِ والنَّهْيُ عنهما: هو من صَميمِ الأساليبِ التَّربَويَّةِ الإسلاميَّةِ لتَنميةِ القِيَمِ والأخلاقِ الإسلاميَّةِ في نَفسِ المُسلمِ، وفي الحَديثِ الشَّريفِ أنَّ أبا ذَرٍّ لَمَّا بَلَغَه مَبعَثُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لأخيه: اركَبْ إلى هذا الوادي فاسمَعْ مِن قَولِه، فرَجَعَ فقال: "رَأيته يَأمُرُ بمَكارِمِ الأخلاق".“[91]„[92]„

8. التَّواصي بحُسنِ الخُلُقِ:

„وذلك ببَثِّ فضائِلِ حُسنِ الخُلُقِ، وبالتَّحذيرِ من مَساوِئِ الأخلاقِ، وبنُصحِ المُبتَلَينَ بسوءِ الخُلُقِ، وبتَشجيعِ حَسَني الأخلاقِ، فحُسنُ الخُلُقِ مِنَ الحَقِّ، واللهُ سُبحانَه يَقولُ: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 3].

والرِّبحُ الحَقيقيُّ للمُسلمِ أن يَكونَ له ناصِحونَ يَنصَحونَه، ويوصونَه بالخَيرِ والاستِقامةِ، فإذا حَسُنَتْ أخلاقُ المُسلمِ، كَثُرَ مُصافُوه، وأحَبَّه النَّاسُ.

قال المُناويُّ: „أنتَ مِرآةُ أخيك، يُبصِرُ حالَه فيك، وهو مِرآةٌ لك، تُبصِرُ حالَك فيه“.[93]

قال الخَوارِزميُّ:

لا تَصحَبِ الكَسلانَ في حالاتِه
كَم صالحٍ بفسادِ آخَرَ يَفسُدُ
عَدوى البَليدِ إلى الجَليدِ سَريعةٌ
كالجَمرِ يوضَعُ في الرَّمادِ فيُخمَدُ“.[94]

---

[87] الأثوارُ: قِطَعٌ من الأقطِ، وهو لَبَنٌ جامِدٌ مُستحجَرٌ. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير1/228

[88] رواه أحمد 9675، وابن حبان 5764، والحاكم 7304. صحَّحه ابنُ حبان، والألباني في صحيح الترغيب 2560، وصحَّح إسناده الحاكم، والمنذري في الترغيب والترهيب 3/321، والبوصيري في إتحاف الخيرة المهرة5/490

[89] رواه الترمذي 2018. صحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي 2018، وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ، وحسَّن إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج رياض الصالحين 1738

[90] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز، ص: 70

[91] أخرجه البخاري 3861، ومسلم 2474 مطولًا من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[92] نضرة النعيم 1/140

[93] فيض القدير 252 /6

9. أن يتَّخِذَ النَّاسَ مرآةً لنَفسِه:

إنَّ العاقِلَ يَنبَغي أن يَنظُرَ لغَيرِه ويَجعَلَهم مِرآةً لنَفسِه، فكُلُّ ما كَرِهَه ونَفَرَ عنه من قَولٍ أو فِعلٍ أو خُلُقٍ، فليَتَجَنَّبْه، وما أحَبَّه من ذلك واستَحسَنَه فليَفعَلْه.

قال ابنُ حَزمٍ: „لِكُلِّ شَيءٍ فائِدةٌ، ولقدِ انتفعتُ بمَحْكِ[95] أهلِ الجَهلِ مَنفعةً عَظيمةً، وهي أنَّه تَوقَّدَ طَبعي، واحتَدَمَ خاطِري، وحَمِيَ فِكري، وتَهَيَّجَ نَشاطي، فكان ذلك سَبَبًا إلى تَواليفَ[96] عَظيمةِ المَنفعةِ، ولولا استِثارَتُهم ساكِني، واقتِداحُهم كامِني، ما انبَعَثتُ لتلك التَّواليفِ".[97]

10. مُصاحَبةُ الأخيارِ، ومجالسة أهلِ الأخلاقِ الفاضِلةِ[98]:

إنَّ مُصاحبةَ الصَّالحينَ ومُجالستَهم مِن شِيَمِ الأخيارِ، وهو طَريقٌ لنَيلِ السَّعادةِ في الدَّارَيْنِ، أمَّا مُصاحبةُ الأشرارِ الطَّالِحين، فمِن شِيَمِ ضِعافِ النُّفوسِ، وطَريقٌ للخَسارةِ والبَوارِ.

ومعلومٌ أنَّ المَرءَ مُولَعٌ بمُحاكاةِ مَن حَوله، شَديدُ التَّأثُّرِ بمَن يُصاحِبُه، ومُجالسَتُهم تُكسِبُ المَرءَ الصَّلاحَ والتَّقوى، والاستِنكافُ عنهم تَنَكُّبٌ عنِ الصِّراطِ المُستَقيمِ.

قال اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119]. وقال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان:63].

وقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: "مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ والجَليسِ السُّوءِ كَمَثَلِ صاحِبِ المِسكِ وكِيرِ الحَدَّادِ، لا يَعدَمُك من صاحِبِ المِسكِ: إمَّا تَشتَريه، أو تَجِدُ ريحَه، وكيرُ الحَدَّادِ يُحرِقُ بَدَنَك أو ثَوبَك، أو تَجِدُ منه ريحًا خَبيثةً".[99]

وفي هذا الحديثِ يَضْرِبُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِثالَينِ لِصِنْفَيْنِ مِنَ النَّاسِ، وهُما الجليسُ الصَّالِحُ والجليسُ السَّوءُ؛ وذلك ليُقرِّبَ لنا المعانيَ، ويَحُثَّنا على الْتزامِ الخيرِ والابتعادِ عن السُّوءِ والشَّرِّ.

المثالُ الأوَّلُ للجليسِ الصَّالحِ، (والجَليسُ) هو الَّذي يُجَالِسُ غيرَهُ مِنَ النَّاسِ، (والصَّالحُ) هو مَنْ يَدُلُّ جَليسَهُ على اللهِ تعالَى وما يُقَرِّبُ إليه مِن قَولٍ، أو عَمَلٍ، فيُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ هذا الجَليسَ الصَّالحَ مِثلُ صاحِبِ المِسكِ، لن تَفْقِدَ منه أَحَدَ أمرَيْنِ: (إمَّا تَشْتَرِيهِ، أو تَجِدُ رِيحَهُ)، أي: إمَّا أنْ تَشتريَ مِن مِسكِهِ وعُطُورِهِ، أو تَجِدَ وَتَشُمَّ مِن رِيحِهِ الطَّيِّبَةِ، وكذلك الجليسُ الصَّالحُ؛ إمَّا أنْ تَأخُذَ منه خَيرًا، وتَنتفِعَ به، أو أنْ تَجِدَ مِن مُجالَستِهِ رَوْحًا وطِيبًا.

والمثالُ الثاني للجَليسِ السَّوءِ، وهو مَنْ يُجالِسُ غيرَه ويَصُدُّه عن سَبيلِ اللهِ، ومَا يُقَرِّبُ إليه، مِن قَولٍ وعَمَلٍ؛ فشَبَّهَه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ بـ(كِيرِ الحدَّادِ)، أي: إنَّه كصاحبِ الكِيرِ، وهو زِقٌّ أو جِلدٌ غَليظٌ تُنْفَخُ به النَّارُ. فنافِخُ الكيرِ هذا إمَّا أنْ يُحرِقَ بدَنَك أو ثِيابَك مِن شرَرِه المُتطايرِ، أو تَجِدَ مِن مُجالَستِهِ رِيحًا خَبيثةً، فيَجلِبَ لك كَرْبًا وضِيقًا، وتَشُمَّ منه ما يُؤذِيك، وهكذا الجليسُ السَّوءِ إمَّا أنْ تَطالَك شُرورُ أفعالِه، فتُشارِكَه أوزارَه، وتَحترِقَ بنارِهِ، وإمَّا أنْ تَرى القبيحَ وسُوءَ الفعلِ أمامَك، فتُذَمَّ لمُصاحبةِ ومُجالَسةِ مَن هذا حالُه.[100]

---

[94] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز، ص: 77.

[95] مِحْكُ الشَّخصُ: مَحَكَ؛ أكثر من الجَدَل بالباطل، لجَّ في المنازعة.

[96] تواليف، أي: التآليف/ الكُتُب.

[97] الأخلاق والسير لابن حزم، ص: 128

[98] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز، ص: 80

[99] أخرجه البخاري 2101

[100] الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث

وقال أبو حاتِمٍ: "العاقِلُ يَلزَمُ صُحبةَ الأخيارِ، ويُفارِقُ صُحبةَ الأشرارِ؛ لأنَّ مَودَّةَ الأخيارِ سَريعٌ اتِّصالُها، بَطيءٌ انقِطاعُها، ومَودَّةَ الأشرارِ سَريعٌ انقِطاعُها، بَطيءٌ اتِّصالُها، وصُحبةُ الأشرارِ سوءُ الظَّنِّ بالأخيارِ، ومَن خادَنَ الأشرارَ لم يَسلَمْ منَ الدُّخولِ في جُمْلَتِهم؛ فالواجِبُ على العاقِلِ أن يَجتَنِبَ أهلَ الرَّيبِ؛ لئَلَّا يكونَ مُريبًا، فكَما أنَّ صُحبةَ الأخيارِ تورِثُ الخَيرَ، كَذلك صُحبةُ الأشرارِ تورِثُ الشَّرَّ".[101]

فالصَّداقةُ المَتينةُ والصُّحبةُ الصَّالحةُ لا تَحُلُّ في نَفسٍ إلَّا هَذَّبَت أخلاقَها الذَّميمةَ، فإذا كان الأمرُ كذلك فما أحرى بذلك اللُّبِّ أن يَبحَثَ عن إخوانٍ ثِقاتٍ؛ حتَّى يُعينوه على كُلِّ خَيرٍ، ويُقْصِرُوه عن كُلِّ شَرٍّ.

قال ابنُ الجَوزيِّ: "ما رَأيتُ أكثَرَ أذًى للمُؤمنِ من مُخالطةِ من لا يَصلُحُ، فإنَّ الطَّبعَ يَسرِقُ، فإنْ لم يَتَشَبَّهْ بهم ولم يَسرِقْ منهم فتَرَ عن عَمَلِه".[102]

وقال أبو جَعفرٍ أحمَدُ بنُ ليونَ التَّجيبيُّ:

أنتَ في النَّاسِ تُقاسُ.. بالذي اختَرتَ خَليلَا

فاصحَبِ الأخيارَ تَعلو.. وتَنَلْ ذِكرا جَميلَا [103]

وقيل: إنَّما سُمِّيَ الصَّديقُ صَديقًا لصِدقِه، والعَدوُّ عَدوًّا لعَدْوِه عليك.[104]

11. الغَمسُ في البيئاتِ الصَّالحةِ:

(ومن وسائِلِ اكتِسابِ الأخلاقِ الفاضِلةِ الغَمسُ في البيئاتِ الصَّالحةِ؛ وذلك لأنَّ من طَبيعةِ الإنسانِ أن يَكتَسِبَ مِنَ البيئةِ التي يَنغَمِسُ فيها، ويَتَعايَشُ مَعَها ما لَدَيها من أخلاقٍ وعاداتٍ وتَقاليدَ وأنواعِ سُلوكٍ، عن طَريقِ السِّرايةِ والمُحاكاةِ والتَّقليدِ، وبذلك تَتِمُّ العَدوى النَّافِعةُ أوِ الضَّارَّةُ، وفي الحِكَمِ السَّائِرةِ: أنَّ الطَّبعَ للطَّبعِ يَسرِقُ.

ويُمكِنُ تَلخيصُ التَّأثيرِ الجَماعيِّ على الفردِ بالعناصِرِ التَّاليةِ:

أ- السِّرايةُ[105] التي تَفعلُ فِعلَها العَميقَ في كيانِ الإنسانِ، وهي من خَصائِصِ الاجتماعِ، وكُلَّما كَبُرَ المُجتَمَعُ كان تَأثيرُه على الفردِ الذي يَنخرِطُ فيه أكثَرَ.

ب- القوَّةُ المَعنويَّةُ الجَماعيَّةُ التي يَخشى الأفرادُ عُقوباتِها المادِّيَّةَ والمَعنويَّةَ، ويَرجونَ مَثوباتِها المادِّيَّةَ والمَعنويَّةَ.

ت- جاذِبيَّةُ الجَماعةِ لعُنصُرِ التَّقليدِ والمُحاكاةِ الذي يوجَدُ عِندَ الأفرادِ.

ج- عُنصُرُ المُنافَسةِ، وهو من خَصائِصِ الجَماعةِ.

ح- رَغبةُ الأفرادِ بتَقديرِ الآخَرينَ ومَحَبَّتِهم له، وهذا الدَّافِعُ لا يَتَحَرَّكُ إلَّا في وَسَطِ الجَماعةِ، فاستِغلالُه من خَصائِصِ الجَماعةِ.

هذا وقوَّةُ الجَماعةِ الخَيِّرةِ يوجَدُ نَظيرُها في الجَماعةِ الشِّرِّيرةِ الخَبيثةِ، يُضافُ إليها مَيلُ النَّفسِ بفِطرَتِها إلى الأهواءِ والشَّهَواتِ التي تُرافِقُ رَذائِلَ الأخلاقِ وقَبائِحَ الأفعالِ، لا سيَّما إذا كان مُخالِطُ الأشرارِ غِرًّا صَغيرًا غَيرَ مُضَرَّسٍ[106] في الحَياةِ، وسُلطانُ الغَرائِزِ والأهواءِ فيه أقوى من سُلطانِ العَقلِ والوِجدانِ والضَّميرِ).[107]

---

[101] روضة العقلاء ص: 80

[102] صيد الخاطر ص: 425

[103] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري.553 /5

[104] أدب الدنيا والدين للماوردي ص: 161

[105] السِّرايَةُ: الجَرَيانُ والانْتِشارُ، يُقال: سَرَى الدَّمُ في الجَسَدِ، يَسْرِي، سِرايَةً: إذا جَرَى وانْتَشَرَ. وأَصْلُها: السَّيْرُ لَيْلاً، يُقال: سَرَيْتُ سُرى، ومَسْرى، وأَسْرَيْتُ: إذا سِرْتُ لَيْلاً. ومِن مَعانِيها: الانْتِقالُ، والاسْتِمْرارُ، والتَّعْدِيَةُ. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: (5/313) - روضة الطالبين: (8/384) - المغني لابن قدامة: (10/508) - المنثور في القواعد: (2/200) - طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية: (ص 34) - القاموس الفقهي: (ص 171) - معجم لغة الفقهاء: (ص 243) - مقاييس اللغة: (3/154) - مختار الصحاح: (ص 147) - لسان العرب: (7/178) - تاج العروس: (38/261) - الموسوعة الفقهية الكويتية: (24/284) - الموسوعة الفقهية الكويتية (24/286)

[106] أي: مُجَرِّبٍ. ينظر: تاج العروس للزبيدي 185 /16

12. الاختِلافُ إلى أهلِ الحِلمِ والفَضلِ وذوي المروءاتِ:

„فإذا أكثَرَ المَرءُ إلى هؤلاء من لقائِهم وزيارَتِهم تَخَلَّقَ بأخلاقِهم، وقَبَس من سَمتِهم ونورِهم.

أ- يُروى أنَّ الأحنَفَ بنَ قَيسٍ قال: „كُنَّا نَختَلفُ إلى قَيسِ بنِ عاصِمٍ نَتَعلَّمُ منه الحِلمَ كما نَتَعلَّمُ الفِقهَ".

ب- كان أصحابُ عَبدِ اللَّهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه يَرحَلونَ إليه، فينظُرونَ إلى سَمتِه وهَدْيه ودَلِّه، قال: فيَتَشَبَّهونَ به.[108]

ت- قال مالِكٌ: قال ابنُ سِيرينَ: كانوا يَتعلَّمونَ الهَدْيَ كما يَتعلَّمونَ العِلمَ، قال: وبَعَثَ ابنُ سِيرينَ رَجُلًا فنَظَرَ كَيف هَدْيُ القاسِمِ -هو ابنُ مُحَمَّدِ بنِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ- وحالُه.[109]

ج- قال القاضي أبو يَعلى: رَوى أبو الحُسَينِ بنُ المُنادي بسَنَدِه إلى الحُسَينِ بنِ إسماعيلَ قال: سَمِعتُ أبي يَقولُ: كُنَّا نَجتَمِعُ في مَجلسِ الإمامِ أحمَدَ زُهاءً على خَمسةِ آلافٍ أو يَزيدونَ، أقَلُّ مِن خَمسمِائةٍ يَكتُبونَ، والباقي يَتَعلَّمونَ منه حُسنَ الأدَبِ، وحُسنَ السَّمتِ.[110]

ح- قال إبراهيمُ بنُ حَبيبِ بنِ الشَّهيدِ لابنِه: يا بُنَيَّ، إيتِ الفُقَهاءَ والعُلماءَ، وتَعلَّمْ منهم، وخُذْ من أدَبِهم وأخلاقِهم وهَدْيِهم؛ فإنَّ ذاكَ أحَبُّ إليَّ لك من كَثيرٍ منَ الحَديثِ.[111]

د- وقال الأعمَشُ: كانوا يَأتونَ همَّامَ بنَ الحارِث يَتَعلَّمونَ من هَدْيِه وسَمتِه".[112]

13. الضَّغطُ الاجتماعيُّ من قِبَلِ المجتمَعِ الإسلاميّ:

(ضِمنَ مَجموعةِ الوسائِلِ التي اعتَمَدَ عليها الإسلامُ في تَقويمِ الأفرادِ وإصلاحِهم، وإلزامِهم بكَمالِ السُّلوكِ وفضائِلِ الأخلاقِ، اعتَمَدَ على المُجتَمَعِ الإسلاميّ السَّويّ؛ وذلك لِما للمُجتَمَعِ من سُلطةٍ مَعنَويَّةٍ فعَّالةٍ ومُؤَثِّرةٍ على نُفوسِ الأفرادِ.

وتَرجِعُ هذه السُّلطةُ المَعنَويَّةُ إلى أنَّ الفردَ جُزءٌ منَ المُجتَمَعِ الذي يَعيشُ فيه، وله من مُجتَمَعِه مَصالحُ كَثيرةٌ مادِّيَّةٌ ونَفسيَّةٌ.

وبما أنَّ الإنسانَ كائِنٌ اجتماعيٌّ، ولا يَستَطيعُ أن يَعيشَ عَيشًا سَويًّا سَليمًا إلَّا ضِمنَ مُجتَمَعٍ منَ النَّاسِ، كان ارتِباطُه بالمُجتَمَعِ نابعًا من حاجتِه إليه، والحاجةُ لشَيءٍ ذي إرادةٍ تَجعلُ لهذا الشَّيءِ سُلطانًا على من كان بحاجةٍ إليه، إذ هو لا يُحَقِّقُ هذه الحاجةَ من نَفسِه ما لم يَكُنْ راضيًا، عِندَئِذٍ يَسعى ذو الحاجةِ إلى تَحقيقِ رِضاه حتَّى يَنالَ منه حاجَتَه.

ومنَ الحاجاتِ النَّفسيَّةِ المُرتَبطةِ بالمُجتَمَعِ حاجةُ الإنسانِ إلى التَّقديرِ؛ ولذلك يَكدَحُ كَثيرٌ منَ الكادِحينَ؛ ليَظفروا بتَقديرِ النَّاسِ لهم وثَنائِهم عليهم، ويَمنَعُ كَثيرٌ منَ النَّاسِ أنفُسَهم من شَهَواتٍ مُلحَّةٍ، وأهواءٍ يَتَطَلَّعونَ إليها، مَخافةَ أن يَنظُرَ النَّاسُ إليهم بازدِراءٍ واحتِقارٍ، أو مَخافةَ أن يُعاقِبوهم بالهَجرِ والقَطيعةِ، أو بالتَّلويمِ والتَّثريبِ والمَذَمَّةِ، وما ذلك إلَّا من شُعورِ الفردِ بحاجَتِه إلى التَّقديرِ، وبحاجَتِه إلى المُحافظةِ على كَرامةِ نَفسِه بَينَ النَّاسِ، وهذا هو الذي يَجعلُ للمُجتَمَعِ سُلطانًا على أفرادِه.

يُضافُ إلى ذلك أسبابُ التَّأثيرِ الجَماعيّ على الفردِ، وإذِ اتَّخَذَ الإسلامُ -ضِمنَ وسائِلِه لإلزامِ الأفرادِ بالمنهَجِ الأخلاقيّ الذي رَسَمَه للنَّاسِ- وسيلةَ الضَّغطِ الاجتماعيّ الذي يُمارِسُه المُجتَمَعُ الإسلاميُّ؛ فقد عَمِل بالتَّربيةِ الفرديَّةِ النَّبَويَّةِ وبالتَّربيةِ الجَماعيَّةِ على تَكوينِ المُجتَمَعِ الإسلاميّ الأوَّلِ، ثمَّ جَعَل من هذا المُجتَمَعِ رَقيبًا على أفرادِه، وحارِسًا ساهِرًا، ومُحاسِبًا عادِلًا، ومُعاقِبًا بأنواعٍ شَتَّى من أنواعِ العِقابِ المَعنَويّ، ومُؤَنِّبًا وناصِحًا، وآمِرًا بالمَعروفِ وناهيًا عنِ المُنكَرِ.

---

[107] الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حبنكة الميداني 1/203

[108] غريب الحديث للقاسم بن سلام 3/383

[109] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي 1/79

[110] شرح منتهى الإرادات للبهوتي 1/9

[111] الجامع للخطيب 1/80

[112] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز، ص: 81

فَمِن شَأنِ هذا المُجتَمَعِ أن يُمليَ على مَن يَنشَأُ فيه أو يَنخَرِطُ فيه فضائِلَ الأخلاقِ، ومَحاسِنَ السُّلوكِ، بصِفةٍ عَمَليَّةٍ فعَّالةٍ...).[113]

14. إدامةُ النَّظَرِ في السِّيرةِ النَّبَويَّةِ:

فالسِّيرةُ النَّبَويَّةُ تَضَعُ بَينَ يَدَي قارِئِها أعظَمَ صورةٍ عَرَفَتها الإنسانيَّةُ، وأكمَلَ هَديٍ وخُلُقٍ في حَياةِ البَشَريَّةِ.

قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

قال ابنُ حَزمٍ: مَن أرادَ خَيرَ الآخِرةِ وحِكمةَ الدُّنيا، وعَدلَ السِّيرةِ، والاحتِواءَ على مَحاسِنِ الأخلاقِ كُلِّها، واستِحقاقَ الفضائِلِ بأسرِها؛ فليَقتَدِ بمُحَمَّدٍ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وليستَعمِلْ أخلاقَه وسِيرَه ما أمكَنَه، أعانَنا اللَّهُ على الائتِساءِ به بمَنِّه. آمينَ.[114]

وبدِراسةِ السِّيرةِ النَّبَويَّةِ يَتمُّ حُسنُ الاقتِداءِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومَعرِفةُ شَمائِلِه، تُنَبِّهُ الإنسانَ على مَكارِمِ الأخلاقِ، وتُذَكِّرُه بفضلِها، وتُعينُه على اكتِسابِها، والشَّمائِلُ: جَمعُ شِمالٍ، وهي السَّجايا والأخلاقُ التي كان عليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.[115]

15. النَّظَرُ في سِيَرِ الصَّحابةِ الكِرامِ، وأهلِ الفَضلِ والحِلمِ:

السَّلَفُ الصَّالحُ أعلامُ الهُدَى، ومَصَابِيحُ الدُّجى، وهُمُ الذينَ ورِثوا عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هَدْيَه وسَمتَه وخُلُقَه؛ فالنَّظَرُ في سِيَرِهم والاطِّلاعُ على أحوالِهم يَبعَثُ على التَّأسِّي بهم، والاقتِداءِ بهَديِهم، قال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 23].

إنَّ الإحاطةَ بتَراجِمِ أعيانِ الأمَّةِ مَطلوبةٌ، وَلِذَوِي المَعارِفِ مَحبوبةٌ؛ ففي مُدارَسةِ أخبارِهم شِفاءٌ للعليلِ، وفي مُطالعةِ أيَّامِهم إرواءٌ للغَليلِ.

فأيُّ خَصلةِ خَيرٍ لم يَسبِقوا إليها؟! وأيُّ خُطَّةِ رُشدٍ لم يَستَولوا عليها؟! تاللهِ لقد ورَدُوا رَأسَ الماءِ من عَينِ الحَياةِ عَذبًا صافيًا زُلالًا، وأيَّدوا قَواعِدَ الإسلامِ، فلم يَدَعوا لأحَدٍ بَعدَهم مَقالًا.[116]

واعلَمْ تَحقيقًا أنَّ أعلمَ أهلِ الزَّمانِ وأقرَبَهم إلى الحَقِّ، أشبَهُهم بالصَّحابةِ وأعرَفُهم بطَريقِ الصَّحابةِ، فمنهم أُخِذ الدِّينُ؛ ولذلك قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عنه: "خَيْرُنا أتبَعُنا لهذا الدِّينِ".[117]

قال النَّاظِمُ:

فتَشَبَّهوا إن لم تكونوا مِثْلَهم
إنَّ التَّشَبُّهَ بالكِرامِ فَلاحُ

وكَذلك قِراءةُ سِيَرِ التَّابعينَ ومَن جاءَ بَعدَهم في تَراجِمِهم ممَّا يُحَرِّكُ العَزيمةَ على اكتِسابِ المَعالي ومَكارِمِ الأخلاقِ؛ ذلك أنَّ حَياةَ أولئِكَ تَتَمَثَّلُ أمامَ القارِئِ، وتوحي إليه بالاقتِداءِ بهم، والسَّيرِ على منوالِهم.

وجَديرٌ بمَن لازَمَ العُلماءَ بالفِعلِ أوِ العِلمِ أن يَتَّصِفَ بما اتَّصَفوا به، وهكذا مَن أمعنَ النَّظَرَ في سيرَتِهم أفادَ منهم، وهكذا كان شَأنُ السَّلفِ الصَّالحِ؛ فأوَّلُ ذلك مُلازَمةُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأخذُهم بأقوالِه وأفعالِه، واعتِمادُهم على ما يَرِدُ منه كائِنًا ما كان، وعلى أيِّ وَجهٍ صَدَر، وإنَّما ذلك بكَثرةِ المُلازَمةِ، وشِدَّةِ المُثابَرةِ، وصارَ مِثلُ

---

[113] الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة الميداني 1/205

[114] الأخلاق والسير لابن حزم، ص: 91

[115] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز، ص: 87

[116] إعلام الموقعين لابن القيم 1/15

[117] الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد للإمام بدر الدين الغزي العامري، ص: 138

ذلك أصلًا لَمَن بَعدَهم؛ فالتَزَمَ التَّابعونَ في الصَّحابةِ سيرَتَهم مَعَ النَّبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ففَقِهوا، ونالوا ذِروةَ الكَمالِ في العُلومِ الشَّرعيَّةِ، والأخلاقِ العليَّةِ.[118]

16. سُلطانُ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ:

(للسُّلطةِ المادِّيَّةِ التي تُمارِسُها الدَّولةُ الإسلاميَّةُ أثَرٌ فعَّالٌ في إلزامِ الأفرادِ والجَماعاتِ بالمنهجِ الأخلاقيِّ الذي رَسَمَه الإسلامُ للنَّاسِ، وفي تَربيةِ نُفوسِهم وقُلوبِهم على الفضائِلِ الأخلاقيَّةِ.

ولذلك كان من مُهمَّاتِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ ضَبطُ انتِظامِ الأفرادِ والجَماعاتِ في نِظامِ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ، بما تُوليه من رَقابةٍ يَقِظةٍ، وحِراسةٍ ساهِرةٍ، ومُحاسَبةٍ للمُنحَرِفينَ، وتَشجيعٍ للسَّابقينَ، وتَوجيهٍ وتَربيةٍ، وبناءٍ وصيانةٍ.

ولذلك كان من مُهمَّاتِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ وضعُ الأنظِمةِ المُختَلِفةِ المُرَغِّبةِ بالتِزامِ المنهجِ الأخلاقيِّ الرَّبَّانيِّ، والرَّادِعةِ عن مُخالفتِه، واتِّخاذِ مُختَلِفِ الوسائِلِ النَّافِعةِ والناجِعة التَّوجيهيَّةِ والتَّربَويَّةِ لحِمايةِ الأخلاقِ وصيانَتِها.

ورُبَّما كان وازِعُ السُّلطةِ الإداريَّةِ هذا أقوى وازِعٍ لإلزامِ الجَماهيرِ بسُلوكِ السَّبيلِ الأقومِ، وقد جاءَ في الأثَرِ: "إنَّ اللهَ ليَزَعُ بالسُّلطانِ ما لا يَزَعُ بالقُرآنِ"[119]).[120]

---

[118] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز ص: 88

[119] أي: يكُفُّ عن ارتكابِ العظائِمِ مخافةَ السُّلطانِ ما لا يكُفُّه مخافةُ القرآنِ ومخافةُ اللهِ تعالى. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 5/180

[120] المصدر الأول: الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة الميداني 1/20، المصدر الثاني: سموسوعة الأخلاق والسلوك للدر السنية.

المطلبُ العَاشِرُ: أقسامُ الأخلاقِ

أوَّلًا: أقسامُ الأخلاقِ باعتبارِها فِطريَّةً أو مُكتَسَبةً:

الأخلاقُ تَنقَسِمُ بهذا الاعتِبارِ إلى قِسمَينِ: أخلاقٌ فِطريَّةٌ، وأخلاقٌ مُكتَسَبةٌ.
فبَعضُ أخلاقِ النَّاسِ أخلاقٌ فِطريَّةٌ قد جُبِلوا عليها، وتَظهَرُ فيهم مُنذُ بدايةِ نَشأتِهم، والبَعضُ الآخَرُ من أخلاقِهم مُكتَسَبٌ يَحصُلُ بالتَّخَلُّقِ والتَّكَلُّفِ والمُجاهَدةِ.
فـ "الأخلاقُ الحميدةُ الفاضلةُ تكونُ طبعًا، وتكونُ تطبُّعًا ولكِنَّ الطَّبعَ بلا شَكٍّ أحسنُ من التَّطبُّعِ؛ لأنَّ الخُلُقَ الحَسنَ إذا كان طبيعيًّا صار سجيَّةً للإنسانِ وطبيعةً له لا يحتاجُ في ممارستِه إلى تكَلُّفٍ ولا يحتاجُ في استدعائِه إلى عناءٍ ومَشقَّةٍ، ولكنْ هذا فَضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ، ومن حُرِمَ الخُلُقَ على سبيلِ الطَّبعِ فإنَّه يمكِنُه أن ينالَه عن سبيلِ التَّطبُّعِ، وذلك بالمرونةِ والممارسةِ".[121]
والأخلاقُ الفِطريَّةُ قابلةٌ للتَّنميةِ والتَّوجيهِ والتَّعديلِ؛ لأنَّ وُجودَ الأخلاقِ الفِطريَّةِ يَدُلُّ على وُجودِ الاستِعدادِ الفِطريِّ لتَنميَتِها بالتَّدريبِ والتَّعليمِ وتَكَرُّرِ الخِبراتِ، والاستِعدادِ الفِطريِّ لتَقويمِها وتَعديلِها وتَهذيبِها.
قال ابنُ القَيِّمِ: „فإن قُلتَ: هَل يُمكِنُ أن يَقَعَ الخُلُقُ كَسْبيًّا، أو هو أمرٌ خارِجٌ عنِ الكَسبِ؟
قُلتُ: يُمكِنُ أن يَقَعَ كَسبيًّا بالتَّخَلُّقِ والتَّكَلُّفِ حتَّى يَصيرَ له سَجيَّةً ومَلَكةً".
واستَدَلَّ بقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأشَجِّ عَبدِ القَيسِ رَضِيَ اللهُ عنه: "إنَّ فيك خَلَّتَينِ يُحِبُّهما اللهُ: الحِلمُ والأناةُ، قال: يا رَسولَ اللهِ، أنا أتَخَلَّقُ بهما أم اللهُ جَبَلني عليهما؟ قال: بل اللَّهُ جَبَلك عليهما، قال: الحَمدُ للَّهِ الذي جَبَلني على خَلَّتَينِ يُحِبُّهما اللهُ ورَسولُه".[122]
قال: „فدَلَّ على أنَّ مِنَ الخُلُقِ ما هو طَبيعةٌ وجِبلَّةٌ، وما هو مُكتَسَبٌ. وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ في دُعاءِ الاستِفتاحِ: "اللَّهمَّ اهدِني لأحسَنِ الأخلاقِ لا يهدي لأحسَنِها إلَّا أنتَ، واصرِفْ عنِّي سَيِّئَها لا يَصرِفُ عنِّي سَيِّئَها إلَّا أنتَ"[123]، فذَكَرَ الكَسبَ والقَدَرَ. واللهُ أعلمُ".[124]
„إنَّنا نَجِدُ مَثَلًا الخَوفَ الفِطريَّ عِندَ بَعضِ النَّاسِ أشَدَّ منه عِندَ فريقٍ آخَرَ، ونَجِدُ الطَّمَعَ الفِطريَّ عِندَ بَعضِ النَّاسِ أشَدَّ منه عِندَ فريقٍ آخَرَ، ونَجِدُ فريقًا منَ النَّاسِ مَفطورًا على سُرعةِ الغَضَبِ، بَينَما نَجِدُ فريقًا آخَرَ مَفطورًا على نِسبةٍ ما منَ الحِلمِ والأناةِ وبُطءِ الغَضَبِ.
هذه المُتَفاوِتاتُ نُلاحِظُها حتَّى في الأطفالِ الصِّغارِ الذينَ لم تُؤَثِّرِ البيئةُ في تَكوينِهمُ النَّفسيِّ بَعدُ.
وقد جاءَ في أقوالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يُثبِتُ هذا التَّفاوُتَ الفِطريَّ في الطِّباعِ الخُلُقيَّةِ وغَيرِها:
منها: ما رَواه البُخاريُّ ومُسلِمٌ عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "النَّاسُ مَعادِنُ كَمَعادِنِ الفِضَّةِ والذَّهَبِ، خيارُهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فَقُهوا"[125].

---

[121] مجموع فتاوى ورسائل العثيمين 26/ 489 بتصرف يسير
[122] أخرجه أبو داود 5225 واللفظ له، والطبراني 5/275 5313، والبيهقي في شعب الإيمان 8966 من حديثِ زارعِ بنِ عامرِ بنِ عبدِ القيسِ العَبديِّ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود 5225، وحَسنه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود 5225. وقَولُه: إنَّ فيك خَلَّتَينِ يُحِبُّهما اللهُ: الحِلمُ والأناةُ أصله في صَحيحِ مُسلمٍ 17 من حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عنهما، و18 من حَديثِ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، بلفظِ: خَصلتَينِ.
[123] رواه مسلم 771 من حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه
[124] مدارج السالكين 300 /2
[125] أخرجه مسلم 2638 مطولًا. وأخرجه من طريق آخر: البخاري 3493، ومسلم 2526

ومنها: قَولُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ اللهَ خَلقَ آدَمَ من قَبضةٍ قَبَضَها من جَميعِ الأرضِ، فجاءَ بَنو آدَمَ على قَدرِ الأرضِ؛ جاءَ منهمُ الأبيَضُ والأحمَرُ والأسوَدُ وبَينَ ذلك، والخَبيثُ والطَّيِّبُ والسَّهلُ والحَزْنُ وبَينَ ذلك".[126]

وفي قَولِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "النَّاسُ مَعادِنُ" دَليلٌ على فُروقِ الهِباتِ الفِطريَّةِ الخُلُقيَّةِ، وفيه يُثبِتُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ خيارَ النَّاسِ في التَّكوينِ الفِطريِّ هم أكرَمُهم خُلقًا، وهذا التَّكوينُ الخُلُقيُّ يُرافِقُ الإنسانَ ويُصاحِبُه في كُلِّ أحوالِه، فإذا نَظَرْنا إلى مَجموعةٍ منَ النَّاسِ غَيرِ مُتَعلِّمةٍ ولا مُهَذَّبةٍ، أو في وسَطِ مُجتَمَعٍ جاهليٍّ، فإنَّه لا بُدَّ أن يَمتازَ في نَظَرِنا من بَينِهم أحاسِنُهم أخلاقًا، فهم خَيرُهم مَعْدِنًا، وأفضَلُهُم سُلوكًا اجتماعيًّا، ثمَّ إذا نَقَلْنا هذه المَجموعةَ كُلَّها فعلَّمْناها وهَذَّبْناها وأنقَذْناها من جاهليَّتِها، ثمَّ نَظَرْنا إليها بَعْدَ ذلكَ نَظرةً عامَّةً لِنَرى مَن هو أفضَلُهم، فلا بُدَّ أن يَمتازَ في نَظَرِنا مِن بَينِهم مَن كان قدِ امتازَ سابقًا؛ لأنَّ العِلمَ والتَّهذيبَ والإيمانَ تَمُدُّ مَن كان ذا خُلُقٍ حَسَنٍ في أصلِ فِطرَتِه، فتَزيدُه حُسنَ خُلُقٍ واستِقامةَ سُلوكٍ، وتَزيدُه فضلًا، ثمَّ إذا جاءَ الفِقهُ في الدِّينِ كان ارتِقاءُ هؤلاء فيما فُضِّلوا به ارتِقاءً يَجعلُهم همُ السَّابقينَ على من سِواهم لا مَحالةَ، وبذلك تَكونُ فُروقُ النِّسبةِ لصالِحِهم فَضلًا وكَرَمًا"[127].[128]

ثانيًا: أقسامُ الأخلاقِ باعتبارِ عَلاقاتِها:

تَنقَسِمُ الأخلاقُ باعتِبارِ عَلاقاتِها إلى أربَعةِ أقسامٍ:

- **القِسمُ الأوَّلُ: ما يَتَعلَّقُ بوُجوهِ الصِّلةِ القائِمةِ بَينَ الإنسانِ وخالِقِه:** والفضيلةُ الخُلُقيَّةُ في حُدودِ هذا القِسمِ تَفرِضُ على الإنسانِ أنواعًا كَثيرةً منَ السُّلوكِ الأخلاقيِّ:

منها الإيمانُ به؛ لأنَّه حَقٌّ، ومنها الاعترافُ له بكَمالِ الصِّفاتِ والأفعالِ، ومنها تَصديقُه فيما يُخبِرُنا به؛ لأنَّ مِن حَقِّ الصَّادِقِ تَصديقُه، ومنها التَّسليمُ التَّامُّ لِما يحكُمُ علينا به؛ لأنَّه هو صاحِبُ الحَقِّ في أن يَحكُمَ علينا بما يَشاءُ.

فكُلُّ هذه الأنواعِ مِنَ السُّلوكِ أمورٌ تَدعو إليها الفضيلةُ الخُلُقيَّةُ.

أمَّا دَواعي الكُفرِ بالخالقِ بَعدَ وُضوحِ الأدِلَّةِ على وُجودِه، فهي حَتمًا دَواعٍ تَستَنِدُ إلى مَجموعةٍ من رَذائِلِ الأخلاقِ، منها الكِبرُ، ومنها ابتِغاءُ الخُروجِ على طاعةِ من تَجِبُ طاعَتُه؛ استِجابةً لأهواءِ الأنفُسِ وشَهَواتِها، ومنها نُكرانُ الجَميلِ وجُحودُ الحَقِّ.

- **القِسمُ الثَّاني: ما يَتَعلَّقُ بوُجوهِ الصِّلةِ بَينَ الإنسانِ وبَينَ النَّاسِ الآخَرينَ:**

وصُوَرُ السُّلوكِ الأخلاقيِّ الحَميدِ في حُدودِ هذا القِسمِ مَعروفةٌ وظاهرةٌ: منها الصِّدقُ، والأمانةُ، والعِفَّةُ، والعَدلُ، والإحسانُ، والعَفوُ، وحُسنُ المُعاشَرةِ، والمواساةُ والمَعونةُ، والجودُ، وهكذا إلى آخِرِ جَدوَلِ فضائِلِ الأخلاقِ التي يَتَعَدَّى نَفعُها إلى الآخَرينَ مِنَ النَّاسِ.

أمَّا صوَرُ السُّلوكِ الأخلاقيِّ الذَّميمِ في حُدودِ هذا القِسمِ، فهي أيضًا مَعروفةٌ وظاهرةٌ: منها الكَذِبُ، والخيانةُ، والظُّلمُ، والعُدوانُ، والشُّحُّ، وسوءُ المُعاشَرةِ، وعَدَمُ أداءِ الواجِبِ، ونُكرانُ الجَميلِ، وعَدَمُ الاعترافِ لذي الحَقِّ بحَقِّه، وهكذا إلى آخِرِ جَدولِ رَذائِلِ الأخلاقِ التي يَتَعَدَّى ضَرَرُها إلى الآخَرينَ مِنَ النَّاسِ.

- **القِسمُ الثَّالثُ: ما يَتَعلَّقُ بوُجوهِ الصِّلةِ بَينَ الإنسانِ ونَفسِه:**

---

[126] رواه أبو داود 4693، والترمذي 2955، وأحمد 19582 واللفظ له. صحَّحه الترمذي، وابن حبان في صحيحه 6160، وابن العربي في عارضة الأحوذي 6/74، وابن دقيق العيد في الاقتراح 127، والألباني في صحيح سنن أبي داود 4693

[127] الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة 1/167

[128] موسوعة الأخلاق والسلوك للدر السنية

وصُوَرُ السُّلوكِ الأخلاقيِّ الحَميدِ في حُدودِ هذا القِسمِ كَثيرةٌ:
منها الصَّبرُ على المَصائِبِ، ومنها الأناةُ في الأمورِ، ومنها النِّظامُ والإتقانُ في العَمَلِ، ومنها عَدَمُ استِعجالِ الأمورِ قَبلَ أوانِها، وكُلُّ ذلك يَدخُلُ في حُسنِ إدارةِ الإنسانِ لنَفسِه، وحِكمَتِه في تَصريفِ الأمورِ المُتَعلِّقةِ بذاتِه.
وصُوَرُ السُّلوكِ الأخلاقيِّ الذَّميمِ في حُدودِ هذا القَسَمِ تَأتي على نَقيضِ صُوَرِ السُّلوكِ الأخلاقيِّ الحَميدِ.

- **القِسمُ الرَّابعُ: الصِّلةُ بَينَ الإنسانِ والأحياءِ غَيرِ العاقِلةِ:**

ويَكفي أن تَتَصَوَّرَ مِنَ السُّلوكِ الأخلاقيِّ الحَميدِ في حُدودِ هذا القَسَمِ الرَّحمةَ بها، والرِّفقَ في مُعامَلتِها، وتَأديةَ حُقوقِها الواجِبةِ.
أمَّا الظُّلمُ والقَسوةُ وحِرمانُها من حُقوقِها فهي من قَبائِحِ الأخلاقِ، وفي هذا يَقولُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما رَواه البُخاريُّ ومُسلِمٌ عنِ ابن عُمَرَ: "عُذِّبَتِ امرَأةٌ في هرَّةٍ سَجَنَتْها حتَّى ماتَت فدَخَلت فيها النَّارَ، لا هي أطعَمَتْها ولا سَقَتْها إذ حَبَسَتها، ولا هي تَركَتْها تَأكُلُ من خَشاشِ الأرضِ[129]".[130]
ولا بُدَّ من مُلاحَظةِ أنَّ كَثيرًا منَ الأخلاقِ لها عَدَدٌ مِنَ الارتِباطاتِ والتَّعلُّقاتِ، ولذلك فقد تَدخُلُ في عَدَدٍ من هذه الأقسامِ في وقتٍ واحِدٍ؛ إذ قد تَكونُ لفائِدةِ الإنسانِ نَفسِه، وتَكونُ في نَفسِ الوقتِ لفائِدةِ الآخَرينَ، وتَكونُ مَعَ ذلك مُحَقِّقةً مَرضاةَ اللهِ تعالى[131].[132]

- **حُقُوقُ الحَيَوانَاتِ عِنْدَ غَيْرِ المسْلِمِين:**

هُنَاكَ تَنَاقُضَاتٌ كَثِيرَةٌ عِنْدَ غَيْرِ المسْلِمِين فِي مَجَالِ حُقُوقِ الحَيَوَانَاتِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ: فِي إِسْبَانْيَا، لَدَيْهِمْ قَوَانِينٌ لِحِمَايَةِ الحَيَوَانَاتِ، بِاسْتِثْنَاءِ مُصَارَعَةِ الثِّيرَانِ، والتِّي تُعْتَبَرُ جُزْءًا مِنْ التُّرَاثِ الثَّقَافِيِّ الإِسْبَانِيِّ، حَيْثُ يَقُومُونَ بِتَعْذِيبِ الثَّورِ إِلَى أَنْ يُفَارِقَ الحَيَاةَ وَسْطَ ضَحِكَاتِهِم وانْتِشَائِهِم، وَمِنَ المؤْسِفِ القولُ إِنَّ عَدَدَ قَتْلَى الثِّيرَانِ يَتَرَاوَحُ مَا بَيْنَ خَمْسَةِ آلَافٍ إِلَى عَشْرَةِ آلَافٍ سنويًا، بِزَعْمِ أَنَّهَا رِيَاضَةٌ، وَمَا كَانَ القتلُ يومًا رِيَاضَة!

---

[129] خَشاشُ الأرضِ: هَوامُّها وحَشَراتُها. ينظر: شرح النووي على مسلم 6/207
[130] أخرجه البخاري 3482 واللفظ له، ومسلم2242
[131] الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حبنكة الميداني 1/52 بتصرف.
[132] موسوعة الأخلاق والسلوك للدر السنية.

المطلبُ الحَادِي عَشَرَ: موقِفُ أعداءِ الدِّين مِنْ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ

لَم نَكُن في زَمَنٍ مِنَ الأزْمانِ أحْوَج إليه من الوَعيِ والإدْراك والحيطة والحَذر عَن حقيقة فَتْحِ أمَمِ الكُفْرِ لِكُلِ الجَبَهاتِ وتَكالُبِهِم على هذه الأجْيالِ وَتَسْليحِهِم جُنُودَهُم وأمْوالهَم وإعْلامَهُم فلَن يَهْدَأ بالُهُم حَتى يُفسِدوا أخلاقَهُم وقِيَمَهُم ويُدَمِروا فِطْرتهم بَنَشرِ الرَّذيَلة بَيْنَهُم ليتمَكنوا في السَيْطَرة عَلَيْهِم.

أدرَكَ أعداءُ المُسلمينَ الحَقائِقَ عن مَكارِمِ الأخلاقِ، فعَمِلوا على إفسادِ أخلاقِ المُسلمينَ بكُلِّ ما أوتوا من مَكرٍ ودَهاءٍ، وبكُلِّ ما أوتوا من وسائِلِ مادِّيَّةٍ وشَياطينِ إغواءٍ؛ ليُبَعثِروا قِواهُمُ المُتَماسِكةَ بالأخلاقِ الإسلاميَّةِ العَظيمةِ، وليُفَتِّتُوا وَحدَتَهُمُ التي كانت مِثلَ الجَبَلِ الرَّاسِخِ الصُّلبِ قوَّةً، ومِثلَ الجَنَّةِ الوارِفةِ المُثمِرةِ خُضرةً وبهاءً وثَمَرًا وماءً.

إنَّ أعداءَ المُسلمينَ قد عَرَفوا أنَّ الأخلاقَ الإسلاميَّةَ في أفرادِ المُسلمينَ تُمَثِّلُ مَعاقِدَ القُوَّةِ، فجَنَّدوا لغَزوِ هذه المَعاقِدِ وكَسرِها جُيوشَ الفَسادِ والفِتنةِ.

ولقد كان غَزوُهم للأخلاقِ الإسلاميَّةِ من عِدَّةِ جَبَهاتٍ:

1- لقد عَرَفُوا أنَّ النَّبعَ الأساسيَّ الذي يُزَوِّدُ الإنسانَ المُسلمَ بالأخلاقِ الإسلاميَّةِ العَظيمةِ إنَّما هو الإيمانُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، فصَمَّموا على أن يَكسِروا مَجاريَ هذا النَّبعِ العَظيمِ، ويَسُدُّوا عُيونَه، ويقطَعوا شَرايينَه.

2- وعَرَفُوا أنَّ تَفَهُّمَ مَصادِرِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ تَفهُّمًا سَليمًا هو الذي يَمُدُّ نَبعَ الإيمانِ بما يَتَطَلَّبُه من مَعارِفَ، فمَكَروا بالعُلومِ الإسلاميَّةِ، وبالدِّراساتِ المُتَعلِّقةِ بها مَكرًا بالغًا، وذلك ما بَينَ حَجبٍ لها تارةً، وتَلاعُبٍ بمَفاهيمِها أخرى، وتَشويهٍ لها أو جُحودٍ ومُضايقةٍ لرُوَّادِها ومُبَلِّغيها، كُلُّ ذلكَ في حَربٍ مُستَمِرَّةٍ لا تَعرِفُ كَلالًا ولا مَللًا.

3- وعَرَفُوا أنَّ تَفَهُّمَ مَصادِرِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ تتَطَلَّبُ اللغَةَ العَربيَّةَ الفُصْحَى وهي لغة الأمة وفَخرُها، فمَكَرُوا بِهَا أيْضاً، وبالدِّراساتِ المُتَعلِّقةِ بها مَكْرًا شَدِيدًا وَرَوَّجوا لِلُغاتٍ أجْنبيةٍ، مُسْتَخْدِمِينَ فِي حَرْبِهِم وِزَارَاتٍ وَعِلَاقَاتٍ، "وَنُخَبًا" دَرَسُوا فِي بُلْدَانِهِم.

4- وعَرَفُوا قيمةَ الإفسادِ العَمَليِّ التَّطبيقيِّ، فوجَّهوا جُنودَهم لغَمسِ أبناءِ المُسلمينَ في بيئاتٍ مَشحونةٍ بالانحِلالِ الخُلُقيِّ، بُغيةَ إصابَتِهم بالرَّذائِلِ الخُلُقيَّةِ عن طَريقِ العَدوى، وسِرايةِ الفسادِ بقوَّةِ تَأثيرِ البيئةِ، واستِمراءِ الشَّهَواتِ المُرتَبِطةِ برَذائِلِ الأخلاقِ.

5- وعَرَفُوا قيمةَ إفسادِ المَفاهيمِ والأفكارِ، فجَنَّدوا جُيوشَ المُضَلِّلينَ الفِكريِّينَ، الذينَ يَحمِلونَ إلى أبناءِ المُسلمينَ الأفكارَ والمَفاهيمَ والفلسَفاتِ الباطِلةَ ضِمنَ واردِاتِ المَعارِفِ المادِّيَّةِ الصَّحيحةِ، ذاتِ المُنجَزاتِ الحَضاريَّةِ المُدهِشةِ، وعن طَريقِ هذا الغَزوِ الفِكريِّ الخَطيرِ يُدخِلونَ السُّمَّ في الدَّسَمِ.[133]

إذَنْ، هم سَيَستَمِرُّون {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: 30] وسَتَتَمَسَّك الأمة بِقِيَمِها النَبيلة وحتمًا كل الحضارات والأمم إلى زَوالٍ إلا أمة الإسلام فَهِيَ باقِيَةٌ ما بَقيَت الأرْضُ وَما عَلَيها والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقين.

[133] موسوعة الأخلاق والسلوك للدر السنية.

المطلبُ الثَّاني عَشَرَ مِنْ أقوالِ أعداءِ الإسلامِ والمُسلمينَ

- **جاءَ في خِطاب... (صَموئيل زويمر) رَئيسِ إرساليَّةِ التَّبشيرِ في البَحرينِ مُنذُ أوائِلِ القَرنِ العِشرينَ الميلاديّ، الذي خَطَبَه في مُؤتَمَرِ القُدسِ التَّبشيريّ، الذي انعَقدَ برِئاسَتِه سَنةَ (1953م) ما يَلي:**

... ولكِنَّ مُهمَّةَ التَّبشيرِ التي نَدَبتَكُم دولُ المَسيحيَّةِ للقيامِ بها في البلادِ المُحَمَّديَّةِ ليست هي إدخالَ المُسلمينَ في المَسيحيَّةِ، فإنَّ في هذا هدايةً لهم وتَكريمًا، وإنَّما مُهمَّتُكُم أن تُخرِجوا المُسلمَ منَ الإسلامِ، ليُصبِحَ مَخلوقًا لا صِلةَ له باللهِ، وبالتَّالي فلا صَلاةَ تَربُطُه بالأخلاقِ التي تَعتَمِدُ عليها الأمَمُ في حَياتِها، وبذلك تَكونونَ أنتُم بعَمَلِكُم هذا طَليعةَ الفتحِ الاستِعماريّ في المَمالكِ الإسلاميَّةِ، وهذا ما قُمتُم به خِلالَ الأعوامِ المِائةِ السَّالفةِ خَيرَ قيامٍ، وهذا ما أهَنِّئُكُم عليه وتُهَنِّئُكُم دولُ المَسيحيَّةِ والمَسيحيُّونَ جَميعًا كُلَّ التَّهنِئةِ...!

- **وجاءَ في نَشرةِ المَشرِقِ الأعظَمِ الماسونيّ الفرَنسيّ لسَنةِ (1923م) ما يَلي:**

... وبُغيةَ التَّفريقِ بَينَ الفردِ وأسرَتِه عليكُم أن تَنتَزِعوا الأخلاقَ من أسُسِها؛ لأنَّ النُّفوسَ تَميلُ إلى قَطعِ رَوابطِ الأسرةِ والاقترابِ منَ الأمورِ المُحَرَّمةِ؛ لأنها تُفضِلُ الثَّرثَرةَ في المَقاهي على القيامِ بتَبعاتِ الأسرةِ...

- **وجاءَ في البُروتوكولِ الثَّاني منَ المُقَرَّراتِ اليهوديَّةِ السِّرِّيَّةِ ما يَلي:**

... إنَّ الطَّبقاتِ المُتَعلِّمةَ ستَختالُ زَهوًا أمامَ أنفُسِها بعِلمِها، وستَأخُذُ جُزافًا في مُزاولةِ المَعرِفةِ التي حَصَّلَتها منَ العِلمِ الذي قدَّمَه إليها وُكَلاؤُنا؛ رَغبةً في تَربيةِ عُقولِهم حَسَبَ الاتِّجاهِ الذي توَخَّيناه.

ولا تَتَصَوَّروا أنَّ كلماتِنا جَوفاءُ، ولاحِظوا هنا أنَّ نَجاحَ (دارونَ) و(ماركِس) و(نيتشَه) والأثَرَ غَيرَ الأخلاقيّ لاتِّجاهِ هذه العُلومِ في الفِكرِ الأمَميّ أي عِندَ غَيرِ اليهودِ سيَكونُ واضِحًا لنا على التَّأكيدِ!)[134].

(أمَّا طَريقةُ دُعاةِ التَّضليلِ لهَدمِ الأبنيةِ الأخلاقيَّةِ فهي تَتلخَّصُ بما يَلي:

1- أن يُقنِعوا الأجيالَ بأنَّ الأخلاقَ نِسبيَّةٌ اعتِباريَّةٌ لا ثَباتَ لها، وليس لها حَقائِقُ ثابتةٌ في ذاتِها، فهي خاضِعةٌ للتَّبَدُّلِ والتَّغَيُّرِ.

2- أن يَستَغِلُّوا بُحُبثٍ بَعضَ النَّظَريَّاتِ الفلسَفيَّةِ التي من شَأنِها تَقليلُ قيمةِ الأخلاقِ في نُفوسِ النَّاسِ؛ إذ تُقيمُها على أسُسٍ واهنةٍ ضَعيفةٍ، أو على شَفا جُرُفٍ هارٍ! ومَتى قامَت في نُفوسِ النَّاسِ على مِثلِ ذلك تَداعَتِ الأبنيةُ الأخلاقيَّةُ التَّقليديَّةُ ثمَّ انهارَت وحَلَّت مَحلَّها أنانيَّاتٌ فوضَويَّةٌ تَعتَمِدُ على القوَّةِ والحيلةِ، والإباحيَّةِ المُطلَقةِ لكُلِّ شَيءٍ مُستَطاعٍ، فلا خَيرَ إلَّا ما تَدعَمُه القوَّةُ، ولا شَرَّ إلَّا ما تَضعُفُ القوَّةُ عن تَحقيقِه.

3- أن يُلفِّقوا من عِندِ أنفُسِهم نَظَريَّاتٍ فلسَفيَّةً يَخدَعونَ بها النَّاسَ، لا سيَّما النَّاشِئونَ منهم، ويَستَغِلُّونَ فيهم رَغَباتِ المُراهَقةِ بالتَّمَرُّدِ على الحَقِّ والواجِبِ، تَطَلُّعًا لمجدٍ مَوهومٍ، وقد تَطولُ فترةُ المُراهَقةِ عِندَ بَعضِ النَّاشِئينَ، حتَّى تَكتَسِحَ عُمرَ الشَّبابِ منهم، وجُزءًا من عُمرِ الكُهولةِ، وسَبَبُ ذلك الاستِسلامُ التَّامُّ لعَواطِفِ طَورِ المُراهَقةِ، ووُجودُ المُغَذِّياتِ الشَّيطانيَّةِ الخَبيثةِ، وضَعفُ التَّربيةِ الإسلاميَّةِ أوِ انعِدامُها. ومَتى وجَدَت هذه الظُّروفَ المواتيةَ لنُموِّ الشَّرِّ، فليس منَ البَعيدِ أن يَصيرَ الإنسانُ شَيخًا في سِنِّه وجِسمِه ويَبقى مُراهِقًا في عَقلِه ونَفسِه.

4- اتِّخاذُ الوسائِلِ العَمَليَّةِ التَّطبيقيَّةِ لإفسادِ أخلاقِ الأمَمِ، وأهَمُّها الغَمسُ في بيئاتٍ مَوبوءةٍ بالأخلاقِ الفاسِدةِ، حتَّى تَكونَ الانحِرافاتُ عاداتٍ مُستطاباتٍ)[135].

---

[134] ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (32/1)

[135] ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (98/1)

المطلبُ الثَّالِثُ عَشَرَ: ادِّعاءُ نِسبيَّةِ الأخلاقِ

يَعمَلُ المَلاحِدةُ والمادِّيُّونَ وأذنابُهم في خُطَطٍ خَبيثةٍ ماكِرةٍ على هَدمِ صَرحِ الأخلاقِ من خِلالِ دَعوى أنَّ الأخلاقَ أمورٌ اعتِباريَّةٌ نِسبيَّةٌ لا ثَباتَ لها، تَختَلِفُ من مَكانٍ إلى مَكانٍ، ومن زَمانٍ إلى زَمانٍ، ومن أمَّةٍ إلى أمَّةٍ؛ فالذي يُعتَبَرُ مُنافيًا للأخلاقِ عِندَ شَعبٍ منَ الشُّعوبِ لا يُعتَبَرُ مُنافيًا للأخلاقِ عِندَ شَعبٍ آخَرَ، وبَعضُ ما كان مُستَنكَرًا فيما مَضى قد يُعتَبَرُ مُستَحسَنًا في عَصرٍ آخَرَ؛ فالأخلاقُ عِندَ هؤلاء مَفاهيمُ اعتِباريَّةٌ تَتَواضَعُ عليها الأمَمُ والشُّعوبُ، وليس لها ثَباتٌ في حَقيقَتِها.

(وإنَّ أسبابَ الغَلَطِ أوِ المُغالَطةِ عِندَ أصحابِ فِكرةِ نِسبيَّةِ الأخلاقِ، تَرجِعُ إلى ثَلاثةٍ:

الأوَّلُ: تَعميمُهُمُ اسمَ الأخلاقِ على أنواعٍ كَثيرةٍ منَ السُّلوكِ الإنسانيِّ؛ فلم يُمَيِّزوا الظَّواهرَ الخُلُقيَّةَ عنِ الظَّواهِرِ الجَماليَّةِ والأدَبيَّةِ، وعنِ العاداتِ والتَّقاليدِ الاجتِماعيَّةِ، وعنِ التَّعاليمِ والأحكامِ المَدَنيَّةِ أوِ الدِّينيَّةِ البَحتةِ، فَحَشَروا مُفرَداتِ كُلِّ هذه الأمورِ تَحتَ عُنوانِ الأخلاقِ، فأفضى ذلك بهم إلى الخَطَأِ الأكبَرِ، وهو حُكمُهم على الأخلاقِ بأنَّها أمورٌ اعتِباريَّةٌ نِسبيَّةٌ.

الثَّاني: أنَّهم جَعلوا مَفاهيمَ النَّاسِ عنِ الأخلاقِ مصدَرًا يُرجَعُ إليه في الحُكمِ الأخلاقيِّ، مَعَ أنَّ في كَثيرٍ من هذه المَفاهيمِ أخطاءً فادِحةً، وفسادًا كَبيرًا يَرجِعُ إلى تَحَكُّمِ الأهواءِ والشَّهَواتِ والعاداتِ والتَّقاليدِ فيها، ويَرجِعُ أيضًا إلى أمورٍ أخرى غَيرِ ذلك، والتَّحَرِّي العِلميُّ يَطلُبُ منَ الباحِثينَ أن يَتَتَبَّعوا جَوهَرَ الحَقيقةِ حَيثُ توجَدُ الحَقيقةُ، لا أن يَحكُموا عليها من خِلالِ وِجهةِ نَظَرِ النَّاسِ إليها، فكُلُّ الحَقائِقِ عُرضةٌ لأن يُثبِتَها مُثبِتونَ، ويُنكِرَها مُنكِرونَ، ويَتَشَكَّكَ بها مُتَشَكِّكونَ، ويَتَلاعَبَ فيها مُتَلاعِبونَ، ومَعَ ذلك تبقى على ثَباتِها، لا تُؤَثِّرُ عليها آراءُ النَّاسِ فيها.

الثَّالثُ: اعتِمادُهم على أفكارِهم وضَمائِرِهم فقَط، وجَعلُها المِقياسَ الوحيدَ الذي تُقاسُ به الأخلاقُ.

أمَّا مَفاهيمُ الإسلامِ فإنَّها... قد مَيَّزَتِ الأخلاقَ عَمَّا سِواها، ومَيَّزَتِ السُّلوكَ الأخلاقيَّ عن سائِرِ أنواعِ السُّلوكِ الإنسانيِّ، فلم تُعَمِّمْ تَعميمًا فاسِدًا، ولم تُدخِلْ في مُفرَداتِ الأخلاقِ ما ليس منها، وهي أيضًا لم تَعتَمِدْ على مَفاهيمِ النَّاسِ المُختَلفةِ، ولم تَتَّخِذْها مَصدرًا يُرجَعُ إليه في الحُكمِ الأخلاقيِّ، وأمَّا العَقلُ والضَّميرُ فإنَّها لم تُهمِلْها وإنَّما قَرَنَتْهما بعاصِمٍ يَرُدُّهما إلى الصَّوابِ كُلَّما أخطَأ سَبيلَ الحَقِّ والهدايةِ والرَّشادِ، وهذا العاصِمُ هو الوحيُ الذي نَزَل بدينِ اللهِ لِعبادِه، وشَرائِعِه لخَلقِه، وتَعاليمِه التي لا يَأتيها الباطِلُ من بَينِ يَدَيها ولا من خَلفِها؛ لأنَّها تَنزيلٌ من عَزيزٍ حَكيمٍ، وقد بلَّغَها رُسُلُه. أمَّا صورَتُها المُثلى المَحفوظةُ منَ التَّغييرِ فهي ما ثَبَتَ في نُصوصِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ المُنَزَّلةِ على رَسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ صَلواتُ اللهِ وسَلاماتُه عليه وعلى سائِرِ الأنبياءِ والمُرسَلينَ.

فَمَن تَبَصَّرَ بالأصولِ العامَّةِ للأخلاقِ في المَفاهيمِ الإسلاميَّةِ، وتَبَصَّرَ بأنَّ الأخلاقَ الإسلاميَّةَ مُقتَرِنةٌ بالوصايا والأوامِرِ والنَّواهي الرَّبَّانيَّةِ، وتَبَصَّر بأنَّ هذه الوصايا والأوامِرَ والنَّواهيَ مَحفوفةٌ بقانونِ الجَزاءِ الإلهيِّ بالثَّوابِ العِقابِ، فإنَّه لا بُدَّ أن يَظهَرَ له بجَلاءٍ أنَّ الأخلاقَ الإسلاميَّةَ هي حَقائِقُ في ذاتِها، وهي ثابتةٌ ما دامَ نِظامُ الكَونِ ونِظامُ الحَياةِ ونِظامُ الخَيرِ والشَّرِّ أمورًا مُستَمِرَّةً ثابتةً، وهي ضِمنَ المَفاهيمِ الإسلاميَّةِ الصَّحيحةِ غَيرُ قابلةٍ للتَّغَيُّرِ ولا للتَّبَدُّلِ من شَعبٍ إلى شَعبٍ، ولا من زَمانٍ إلى زَمانٍ.

أمَّا الأمَّةُ الإسلاميَّةُ فهي أمَّةٌ واحِدةٌ، وهي لا تَتَواضَعُ فيما بَينَها على مَفاهيمَ تُخالِفُ المَفاهيمَ التي بَيَّنَها الإسلامُ، والتي أوضَحَها في شَرائِعِه ووصاياه.

وإذا رَجَعْنا إلى مُفرَداتِ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ وجَدْنا أنَّ كُلَّ واحِدةٍ منها -ضِمنَ شُروطِها وقُيودِها وضَوابِطِها- ذاتُ حَقيقةٍ ثابتةٍ، وهي غَيرُ قابلةٍ في المَنطِقِ السَّليمِ للتَّحَوُّلِ من حَسَنٍ إلى قَبيحٍ، أو من قَبيحٍ إلى حَسَنٍ. إنَّ حُسنَها حَسَنٌ في كُلِّ

زَمانٍ، وقَبيحَها قَبيحٌ في كُلِّ زَمانٍ، ولا يُؤَثِّرُ على حَقيقَتِها أن تَتَواضَعَ بَعضُ الأمَمِ على تَقبيحِ الحَسَنِ منها، أو تَحسينِ القَبيحِ؛ تَأثُّرًا بالأهواءِ، أو بالشَّهَواتِ، أو بالتَّقاليدِ العَمياءِ.

إنَّ الإسلامَ يُقَرِّرُ أنَّ حُبَّ الحَقِّ وكَراهيةَ الباطِلِ فضيلةٌ خُلُقيَّةٌ، ويُقَرِّرُ أنَّ كَراهيةَ الحَقِّ وحُبَّ الباطِلِ رَذيلةٌ خُلُقيَّةٌ، فهَل يَشُكُّ أحَدٌ سَويٌّ عاقِلٌ في أنَّ هذه الحَقيقةَ حَقيقةٌ ثابتةٌ غَيرُ قابلةٍ للتَّحَوُّلِ ولا للتَّغَيُّرِ، وإنْ تَواضَعَ على خِلافِها جَماعةٌ ذاتُ أهواءٍ؟! وهكذا سائِرُ الأمثِلةِ الأخلاقيَّةِ الإسلاميَّةِ)[136].

المطلبُ الرَّابِعُ عَشَرَ: حُسْنُ الخُلُقِ مِنْ أَسْبابِ نَجاحِ الدَّعْوَةِ

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ لِنَبِيِّهِ: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ * وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آلِ عِمْرانَ:159]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فُصِّلَتْ:34]، فَدَفْعُ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ مِنْ أَعْظَمِ الأَخْلاقِ الَّتِي تُقَرِّبُ العَلاقاتِ بَيْنَ النّاسِ عامَّةً وَبَيْنَ الدّاعيَةِ والنّاسِ خاصَّةً.

وَإِذَا رُزِقَ الدّاعيَةُ حُسنَ الخُلُقِ حَصَلَ لَهُ التَّوفيقُ والقَبولُ، وَعَمَّ نَفْعُهُ وَأَثَّرَتْ دَعْوَتُهُ، وَبِهِ يَنالُ المَنْزِلَةَ العاليةَ عِنْدَ اللهِ فِي الدّارِ الآخِرَةِ، قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ رَحِمه اللهُ: "وَلَا يَسودُ الرَّجُلُ النّاسَ حَتَّى يَكونَ فِي نَفْسِهِ مُجْتَمَعُ الخُلُقِ ثَابِتًا".[137]

فَحُسْنُ الخُلق أَساس النُّبوغِ فِي العِلْمِ والدَّعْوَةِ، فَعَلَى الدّاعيَةِ أَنْ يكونَ طَاهِرَ النَّفْسِ عَنْ رَذائِلِ الأَخْلاقِ، وَلَوْ حَصَّلَ سَيِّئُ الأَخْلاقِ العِلْمَ، فَإِنَّهُ لَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ وَلَنْ يَنْفَعَ بِهِ، بَل وَسَيُسِيئُ إلى الدين والدَّعوةِ، ولذلك عَلَى الدّاعيَةِ أَنْ يَلْتَزِمَ حُسْنَ الخُلُقِ مَعَ المَدْعُوّينَ عامَّةً، -المُسْلِمِينَ وَغَيْرِ المُسْلِمِينَ-، قَالَ تَعَالَى: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرَّعْد: 22-23]، أَيْ: "يُعَاشِرُونَ النّاسَ بِحُسْنِ الخُلُقِ فَإِنْ عَامَلَهُمْ أَحَدٌ بِالْجَفاءِ قَابَلُوهُ بِالْوَفَاءِ؛ لِيَحوزوا عَلَى البَقاءِ بَعْدَ الفَناءِ – أَيْ فِي الجَنَّةِ - أَوْ العاقِبَةِ الحَميدَةِ".[138]

المطلبُ الخَامِسُ عَشَرَ: جَوامِعُ الأَخْلاقِ الَّتِي تُؤَهِّلُ الدُّعاةَ

يَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ رحمه الله: "وَحُسْنُ الخُلُقِ يَقومُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكانٍ، لَا يُتَصَوَّرُ قِيَامُ ساقِهِ إِلَّا عَلَيْهَا:

الصَّبْرُ والْعِفَّةُ والشَّجاعَةُ، والْعَدْلُ.

فَالصَّبْرُ: يَحْمِلُهُ عَلَى الِاحْتِمالِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَكَفِّ الأَذَى، والْحِلْمِ، والْأَناةِ، والرِّفْقِ، وَعَدَمِ الطَّيْشِ والْعَجَلَةِ.

والْعِفَّةُ: تَحْمِلُهُ عَلَى اجْتِنابِ الرَّذائِلِ وَالقَبائِحِ مِنْ القَوْلِ والْفِعْلِ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى الحَياءِ؛ وَهُوَ رَأْسُ كُلِّ خَيْرٍ، وَتَمْنَعُهُ مِنْ الفَحْشَاءِ، والْبُخْلِ والْكَذِبِ، والْغيبَةِ والنَّميمَةِ.

والشَّجاعَةُ: تَحْمِلُهُ عَلَى عِزَّةِ النَّفْسِ، وَإِيثارِ مَعالي الأَخْلاقِ والشّيَمِ، وَعَلَى البَذْلِ والنَّدَى؛ اَلَّذِي هوَ: شَجاعَةُ النَّفْسِ وَقوَّتُها عَلَى إِخْراجِ المَحْبوبِ وَمُفارَقَتِهِ، وتَحْمِلُهُ عَلَى كَظْمِ الغَيْظِ والْحِلْمِ؛ فَإِنَّهُ بِقوَّةِ نَفْسِهِ وَشَجاعَتِها يُمْسِكُ عَنانَها، وَيَكْبَحُها بِلجامِها عَنْ اَلْنَزْغِ والْبَطْشِ، وَهُوَ حَقيقَةُ اَلشَّجاعَةِ، وَهِيَ: مَلَكَةٌ يَقْتَدِرُ بِهَا العَبْدُ عَلَى قَهْرِ خَصْمِهِ.

والْعَدْلُ: يَحْمِلُهُ عَلَى اعْتِدالِ أَخْلاقِهِ، وَتَوَسُّطِهِ فِيهَا بَيْنَ طَرَفَي الإِفْراطِ والتَّفْريطِ، فَيَحْمِلُهُ عَلَى خُلُقِ اَلْجُودِ والسَّخاءِ اَلَّذِي هوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الإِسْرافِ والْبُخْلِ، وَعَلَى خُلُقِ اَلشَّجاعَةِ، اَلَّذِي هوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الجُبْنِ وَاَلْتَهَوُّرِ، وَعَلَى خُلُقِ الحِلْمِ، اَلَّذِي هوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الغَضَبِ والْمَهانَةِ وَسُقوطِ النَّفْسِ، وَمَنْشَأُ جَميعِ اَلْأَخْلاقِ اَلْفاضِلَةِ مِنْ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ[139].[140]

---

[136] ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (91/1) بتصرف.

[137] مَجْموعُ اَلْفَتاوي 226/77

[138] رُوحُ المَعاني 177/13 بِاخْتِصارٍ يَسيرُ.

[139] مَدارِجُ السَّالِكِينَ 294/2

المطلبُ السَّادِسُ عَشَرَ: أَخْلَاقُ الدَّاعِية إِلَى اللهِ وَأَثَرُهَا فِي المدْعُوِّين

إِنَّ أَخْلَاقُ الدَّاعِية إِلَى اللهِ هِي أَخْلَاقُ الْإِسْلَامِ الَّتِي بَيَّنَهَا اللهُ تَعَالَى فِي قُرْآنِهِ وَفَصَّلَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُنَّتِهِ، وَانْصَبغ بِهَا صَحَابَتُهُ الْكِرَامُ فِي سُلُوكِهِمْ.

وَهِي لَازِمَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، وَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنَّ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا؛ لِيَزِنَ نَفْسَهُ فِي مِيزَانِهِ؛ وَلِيَعْلَمَ مَا عِنْدَهُ مِنْهَا، وَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ بَعْدُ مِنْهَا.

وَسَنَذْكُرُ جُمْلَةً مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ فِي فَصْلٍ مُسْتَقِلٍ، مِنْ بَيْنِهَا بَعْضُ تِلْكَ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي لَهَا صِلَةٌ وَثِيقَةٌ بِعَمَلِ الدَّاعِي وَيَحْتَاجُ إِلَيْهَا حَاجَةً مُلِحَّةً تَبْلُغُ حَدَّ الضَّرُورَةِ إِذَا أَرَادَ التَّوْفِيقَ فِي عَمَلِهِ الطَّيِّبِ الْمَبْرُورِ.[141]

وَلا شَكَّ أَنَّ الدُّعَاةَ إِلَى اللهِ، هُمْ أَحَقُّ النّاسِ بِاكْتِسابِ الأخلاقِ الحَمِيدَةِ فِي الظّاهِرِ والْباطِنِ، وَأَوْلَاهُم بِحيازَةِ مَراتِبِها الجَليلَةُ، فَلَا يَليقُ أَبَدًا بِمَنْ يَتَصَدَّرُ لِلدَّعْوَةِ أن يكونُ حالُهُ حالَ أَيِّ مُسْلِمٍ.

وَلِذَلِكَ مَهْما أُوتِيتَ عِلْمًا وَفَهْمًا وَفِقهًا وَدِرايَةً وَرِوايَةً وَمَهارَة، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَصْحوبَةً بِحُسْنِ الخُلُقِ فَلَنْ يَتَعَدَّى عِلْمُكَ عَتَبَةَ بابِكَ، فَكَيْفَ لَوْ تَتَصَدَّرُ لِدَّعْوَةِ غَيْرِ المُسْلِمِينَ وَهُمْ يُرَاقِبُونَكَ مُراقَبَةً فاحِشَةً.

والسُّؤالُ الذي يَطْرَحُ نفسه هُنَا: كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الدَّاعيةُ إلى اللهِ أَنْ يُؤَثِّرَ بأخلاقِهِ الحَسَنَةِ فِي نُفُوسِ المَدْعُوِّينَ؟

يَسْتَطِيعُ الدَّاعيةُ إِلَى اللهِ - بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ - أَنْ يَتْرُكَ أَثَرًا طَيِّبًا فِي نُفُوسِ المدْعُوِيين بِأَخْلَاقِهِ الحَسَنَةِ مِنْ خِلَالِ:

- **المُعايَشَة الِاجْتِماعيَّة:**

فَإِنَّ الخِلْطَةَ بِأَهْلِ الخَيْرِ تَجْعَلُ المَدْعُوِّينَ يَتَعَرَّفُونَ عَلَى اَلدّاعيَةِ، وَعَلَى الخَيْرِ اَلَّذِي عِنْدَهُ، فَإِذَا دَعَاهُم إِلَيْه كَانُوا أَقْرَبَ النّاسِ لِلْقُبول، فَقَدْ قَامَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طالِبٍ أَمَامَ النَّجاشيّ، وَبَيَّنَ لَهُ أَسْبَابَ دُخولِهِمْ فِي الإِسْلام وَفِرَارِهِمْ بِهِ مِنْ الِاضْطِهادِ، فَقَالَ: "أَيُّهَا المَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهلَ جاهِليَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنامَ، وَنَأْكُلُ المَيْتَةَ، وَنَأْتِي الفَواحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحامَ، وَنُسيءَ الجِوَارَ، يَأْكُلُ القَويُّ مِنَّا الضَّعيفَ، فَكُنّا عَلَى ذلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنا رَسولًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعانا إِلَى اللهِ؛ لنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ونَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ وَآباؤُنا مِنْ دونِهِ، مِنْ الحِجارَةِ والْأَوْثانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الحَديثِ، وَأَداءِ الأَمانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الجِوَارِ، والكَفِّ عَنْ المَحارِمِ والدِّماءِ، وَنَهانَا عَنْ الفَواحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ اليَتيمِ، وَقَذْفِ المُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ والزَّكاةِ والصّيامِ - فَعَدَّدَ عَلَيْه أُمور الإِسْلامِ - فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنّا بِهِ وَاتَّبَعْناه عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنا مَا أُحِلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونا إِلَى عِبادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْناكَ عَلَى مَنْ سِواكَ، وَرَغِبْنا فِي جِوارِكَ، وَرَجَوْنَا أَلّا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا المَلِكُ".[142]

---

[140] هذا إِجْمَالٌ مِنْ خِلالِ كَلامِ ابْنِ القَيِّمِ رَحِمه اللهُ وَغَيرِهِ وَيُمْكِنُ فِي تَفْصيلِها الرُّجوعُ إِلَى كِتابِ نَضْرَةِ النَّعيمِ فِي أَخْلاقِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ فَهُوَ كِتابٌ جامِعٌ وَقَيِّمٌ، وَكِتابُ الأَخْلاقِ الإِسْلامِيَّةِ لِعَبْدِالرَحْمِن حَبَنْكَةِ المَيْدانِيّ، وَمَوْسوعَةُ الأَخْلاقِ والسُّلوك، إِعْدادُ: مَجْموعَةٌ مِنْ البَاحِثِينَ بِإِشْرافِ الشَّيْخِ عُلْوِيّ بْنِ عَبْدِ القادِرِ السَّقّافِ، مَطْبوعٌ وَمَنْشورٌ عَلَى مَوْقِعِ اَلدُرَرِ السَّنِيَّةِ عَلَى الإِنْتَرْنِتْ. موسوعة الدعوة، الدعاة: المفهوم والأهمية... للشيخ الدكتور محمد العواجي، ص: 86

[141] أصول الدعوة د. عبدالكريم زيدان، ص: 348

[142] مسند أحمد ١ / ٢٠١ ١٧٤٠، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن والرواية مختصرة.

- **الرَّغْبَة الصَّادقة فِي إنْقَاذِ النَّاس:**

إنَّ نَجاحُ الدّاعيَةِ فِي دَعْوَتِهِ لِلنَّاسِ يَعْنِي التَّأْثِيرَ الإيجابيَّ فِيهم، هَذَا التَّأْثِيرُ يَسْتَلْزِمُ وُجودَ رَغْبَةٍ جَارِفَةٍ تُهَيْمِنُ عَلَى قَلْبِهِ تَسْتَحِثُّهُ لِإِنْقَاذِ الآخَرِينَ، فَيَخْرُجُ كَلامُهُ مُحَمَّلًا بِالْحُرْقَةِ والشَّفَقَةِ عَلَيْهِم، وَلَا يُمْكِنُ التَّلَبُّسُ بِهَذِهِ الحالَةِ إِلَّا مِنْ خِلالِ يَقَظَةِ الْإِيمَانِ وَتَمَكُّنِهِ فِي قَلْبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [الإنسان: ٩].

إِنَّهَا الرَّحْمَةُ الَّتِي تَنْبَثِقُ مِنَ الْقُلُوبِ الرَّقِيقَةِ الرَّفِيقَةِ، الَّتِي تَطْلُبُ رِضَا اللهِ، وَلَا تَبْتَغِي جَزَاءً مِّنَ الْخَلْقِ وَلَا شُكْرًا، وَلَا تَقْصِدُ الِاسْتِعْلَاءَ عَلَى الْمُحْتَاجِينَ وَلَا خُيَلاء، كَمَا تَتَّقِي بِهَا يَوْمًا شَدِيدَ الْعُبُوسِ، تَتَوَقَّعُهُ وَتَخْشَاهُ، وَتَتَّقِيهِ بِهَذَا الْوِقَاءِ.

ولَا شَكَّ أن صُوَرَ الْإِحْسَانِ وَوَسَائِلَهُ قَدْ تَتَغَيَّرُ بِحَسْبِ الْبِيئَاتِ وَالظُّرُوفِ، وَلَكِنْ الَّذِي يَجِبُ الِاحْتِفَاظُ بِهِ هُوَ حُسْنُ الْقُلُوبِ، وَالرَّغْبَةُ فِي الْخَيْرِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، وَالتَّجَرُّدُ عَنِ الْبَوَاعِثِ الْأَرْضِيَّةِ مِن جَزَاءٍ أَوْ شُكْرٍ أَوْ نَفْعٍ مِّن مَّنَافِعِ الْحَيَاةِ!

وَهُنَاكَ أَمْرٌ لَا بُدَّ أَلَّا يَغْفَلَ عَنْهُ الدُّعَاةُ، وَهُوَ تَهْذِيبُ أَرْوَاحِهِمْ وَهُمْ يَبْذُلُونَ فِي طَرِيقِ دَعْوَتِهِمْ، وَرَفْعِهَا إِلَى ذَلِكَ الْمُسْتَوَى الْكَرِيمِ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ إِغْفَالُهُ وَلَا التَّهْوِينُ مِن شَأْنِهِ وَلَا أَن تَنْقَلِبَ الْمَعَايِيرُ فَيُصْبِحَ مَذْمُومًا وَيُقَبَّحَ وَيُشَوَّه.

"فَالْخُلُقُ هوَ أَبْرَزُ مَا يَرَاه النّاسُ، وَيُدْرِكونَهُ مِنْ سائِرِ أَعْمالِ الإِسْلامِ؛ فَالنَّاسُ لَا يَرَوْنَ عَقيدَةَ الشَّخْصِ؛ لِأَنَّ مَحِلَّها القَلْبُ كَما لَا يَرَوْنَ كُلَّ عِبَادَاتِهِ، لَكِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَخْلاقَهُ وَيَتَعَامَلُونَ مَعَهُ مِنْ خِلالِها؛ لِذَا فَإِنَّهُمْ سَيُقَيِّمُونَ دينَهُ بِناءً عَلَى تَعامُلِهِ، فَيَحْكُمُونَ عَلَى صِحَّتِهِ مِنْ عَدَمِهِ عَنْ طَرِيقِ خُلُقِهِ وَسُلوكِهِ، لَا عَنْ طَرِيقِ دَعْوَاه وَقَوْلِهِ، وَإِنَّ مِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ اليَوْمَ أَنَّ الوَسيلَةَ الَّتِي جَذَبَتْ كَثِيرًا مِنْ النّاسِ إِلَى الإِسْلامِ هِيَ نَفْسُها الَّتِي غَدَتْ تَصْرِفُ النّاسَ عَنْهُ؛ وَذَلِكَ لَمَّا فَسَدَتْ الأَخْلاقُ وَالسُّلُوكُ، فَرَأَى النّاسَ تَبَايُنًا - بَلْ تَنَاقُضًا - بَيْنَ الِادِّعاءِ والْواقِعِ".[143]

[143] الأَخْلاقُ أَهَمِّيَّتُها وَفَوائِدُها، مَقالُ د . عَبْدُ السَّلامِ حَمّودٍ غالِبٍ مَنْشورٍ عَلَى شَبَكَةِ الْألوكَة.

المطلبُ السَّابِعُ عَشَرَ: إِقَامَةُ الْأَخْلَاقِ مِنْ مَقَاصِدِ الْإِسْلَامِ

إِقَامَةُ الْأَخْلَاقِ مَقْصِدٌ مُهِمٌّ مِنْ مَقَاصِدِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى الدَّاعِيةِ إِلَى اللهِ أن يَعْيَه، وَيُعْطِيَهُ اهْتِمَامًا كَبِيرًا، وَبَيَانُ تِلْكَ الْأَهَمِيَّةِ سَيَتَضِّحُ لَنَا مِنْ خَلَالِ الْأُمُورِ التَّالِيَةِ:

أَوَّلًا: الْهَدَفُ مِنْ بَعْثَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هُوَ تَحْقِيقُ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"[144]، وفي رِوايةٍ: "صالِحَ الأَخْلاقِ".[145]

كَأَنَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ بِنَاءٌ شَيَّدهُ الْأَنْبِيَاءُ، وَبُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُتِمَّ هَذَا الْبِنَاءَ، فَيَكْتَمِلَ صَرْحُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ بِبِعْثَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقَدْ بَيَّنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذَا الْأُسْلُوبِ أَهَمِّيَّةَ الْخُلُقِ، بَالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ أَهَمَّ شَيْءٍ بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجْلِهِ، فَالْعَقِيدَةُ أَهَمُّ مِنْهُ، وَالْعِبَادَةُ أَهَمُّ مِنْهُ، وَلَكِنْ هَذَا أُسْلُوبٌ نَبَوِيٌّ لِبَيَّانِ أَهَمِّيَّةِ الشَّيْءِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ أَهَمَّ مِنْهُ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا وَجْهُ أَهَمِّيَّةِ الْخُلُقِ حَتَّى يُقَدَّمَ عَلَى الْعَقِيدَةِ وَالْعِبَادَةِ؟

فَالْجَوَابُ: إِنَّ الْخُلُقَ هُوَ أَبْرَزُ مَا يَرَاهُ النَّاسُ، وَيَتَعَامَلُونَ مَعَهُ مِنْ خِلَالِهَا؛ لِذَا فَإِنَّهُمْ سَيُقَيِّمُونَ دِينَهُ بِنَاءً عَلَى تَعَامُلِهِ، فَيَحْكُمُونَ عَلَى خُلُقِهِ وَسُلُوكِهِ، وَقَدْ حَدَّثَنَا التَّارِيخُ أَنَّ إِنْدُونِسْيَا وبُلدانَ آخرى لَمْ يَعْتَنِقْ أَهْلُهَا الْإِسْلَامَ بِفَصَاحَةِ الدُّعَاةِ، وَلَا بِسَيْفِ الْغُزَاةِ، بَلْ بِأَخْلَاقِ التُّجَّارِ وَسُلُوكِهِمْ مِنْ أَهْلِ حَضْرَمَوْتَ وَعُمَانَ".[146]

ثَانِيًا: حُسْنُ الْخُلُقِ مِنْ أَفْضَلِ الطَّاعَاتِ الَّتِي تُدْخِلُ الْجَنَّةَ:

وَقَدْ جَعَلَ الْإِسْلَامُ أَسَاسَ الْخَيْرِيَّةِ وَالتَّفَاضُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحُسْنِ الْخُلُقِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَجْلِسًا، أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ أسوَؤُكُمْ أَخْلَاقًا"[147]، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَكْمَلُ المؤمِنِينَ إيمانًا أحْسَنُهُم خُلُقًا".[148]

وَلِذَا يَقُولُ ابنُ القَيِّمِ: "اعْلَمْ أَنَّ الدّينَ كُلَّهُ خُلُقٌ، فَمَن زَادَ عَلَيْكَ فِي الخُلُقِ زَادَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ".[149]

كَمَا جَعَلَ الإِسْلَامُ أَيْضًا أَجْرَ حُسْنِ الخُلُقِ ثَقِيلاً فِي المِيزَانِ، بَلْ لا شَيءَ أَثْقَلُ مِنهُ، وَجَعَلَ كَذَلِكَ أَجْرَهُ كَأَجْرِ الْعِبَادَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ، مِنْ صِيَامٍ وَقِيامٍ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ به دَرَجَةَ صاحِبِ الصَّوْمِ والصَّلَاةِ".[150]

بَلْ وَبَلَغَ مِنْ تَعْظِيمِ الشَّارِعِ لِحُسْنِ الخُلُقِ أَنْ جَعَلَهُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ دُخُولِ الجَنَّةِ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سُئِلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ؟ فَقَالَ: "تَقْوَى اللهِ وحُسْنُ الخُلُقِ".[151]

---

[144] موطأ مالك 904/2 1609، المستدرك على الصحيحين للحاكم 670/2 4221، الأدب المفرد للبخاري 104/1 273، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم 45

[145] مسند أحمد 381/2 8939 وعلق شعيب الأرناؤوط بقوله: صحيح وهذا إسناد قوي، وصححه الألباني في صحيح الجامع 2349

[146] الأخلاق أهميتها وفوائدها د. عبد السلام حمود غالب، بحث منشور على شبكة الألوكة.

[147] مسند أحمد 29/267 17732، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره، وجامع الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق 2018 وقال: وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد8/21: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح.

[148] مسند أحمد 16/114 10106، وجامع الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها 1162، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وسنن أبي داوود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، وإسناده حسن 4682

[149] بصائر ذوي التمييز للسعدي 2/ 568

[150] جامع الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق 2003 واللفظ له، وقال الترمذي هذا حديث غريب من هذا الوجه، وسنن أبي داوود، كتاب الأدب، باب حسن الخلق 4799. قال الهيثمي في مجمع الزوائد 22/8: رواه الترمذي والبزار ورجاله ثقات. وقال الألباني في السلسلة الصحيحه535/2 وسنده جيد.

[151] جامع الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق 2004 قال الترمذي: صحيح غريب.

وَضَمِنَ الإِسْلَامُ لِصَاحِبِ الخُلُقِ بُلُوغَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الجَنَّةِ، فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أنا زعيمٌ بِبَيْتٍ فِي رِبَضِ الجَنَّةِ "[152]" لِمَنْ تركَ المِراءَ وإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تركَ الكَذِبَ وإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ".[153]

ثَالِثًا: تَحْقِيقُ حُسْنِ الْخُلُقِ، مِنْ مَقَاصِدِ تَشْرِيعِ الْعِبَادَاتِ فِي الْإِسْلَامِ:

وَهَذَا المقْصِدُ، مِنْ أَهَمّ مَقَاصِدِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، بالإضافة إلى أَنَّهُ مِنْ مَقَاصِدِ تَشْرِيعِ الْعِبَادَاتِ فِي الْإِسْلَامِ.

ففي الصَّلَاةِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ} [العنكبوت: 45].

وعَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللهُ: "مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ، فَلَيْسَتْ صَلَاتُهُ بِصَلَاةٍ، وَهِيَ وَبَالٌ عَلَيْهِ".[154]

والفحشاء، هو: كُلُّ مَا اسْتَعْظَمَ وَاسْتَفْحَشَ مِنَ الْمَعَاصِي الَّتِي تَشْتَهِيهَا النُّفُوسُ، وَالْمُنكَرُ، هو: كُلُّ مَعْصِيَةٍ تُنْكِرُهَا الْعُقُولُ وَالْفِطَرُ.

وَوَجْهُ كَوْنِ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ، أَنَّ الْعَبْدَ الْمُقِيمَ لَهَا، الْمُتَمِّمَ لِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا وَخُشُوعِهَا، يَسْتَنِيرُ قَلْبُهُ، وَيَتَطَهَّرُ فُؤَادُهُ، وَيَزْدَادُ إِيمَانُهُ، وَتُقَوَّى رَغْبَتُهُ فِي الْخَيْرِ، وَتَقِلُّ أَوْ تُعْدَمُ رَغْبَتُهُ فِي الشَّرِّ، فَبِالضَّرُورَةِ، مُدَاوَمَتُهَا وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ، فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِهَا وَثَمَرَاتِهَا".[155]

وَفِي الزَّكَاةِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 103]

الزَّكَاةُ، إِنَّمَا أَوْجَبَهَا اللهُ تَعَالَى سَدًّا لِحَاجَةِ الْمُعْدَمِ، وَتَفْرِيجًا لِكُرْبَةِ الْغَارِمِ، وَتَحْرِيرًا لِرِقَابِ الْمُسْتَعْبَدِينَ، وَتَيْسِيرًا لِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ، فَاسْتَلَّ بِذَلِكَ ضَغَائِنَ أَهْلِ الْفَاقَةِ، عَلَى مَنْ فُضِّلُوا عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَ أُولَئِكَ مَحَبَّةَ هَؤُلَاءِ، وَسَاقَ الرَّحْمَةَ فِي نُفُوسِ هَؤُلَاءِ عَلَى أُولَئِكَ الْبَائِسِينَ".[156]

وفي الصِيام، قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزورِ والعَمَلِ بِهِ، فليس للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ".[157]

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قَالَ اللهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ".[158]

وَفِي الْحَجِّ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البَقَرَة: 197].

"هذِهِ الآيَةُ كَالْحَثِّ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، وَالتَّمَسُّكِ بِالْآدَابِ الْحَسَنَةِ، وَالِاحْتِرَازِ عَمَّا يَحْبِطُ ثَوَابَ الطَّاعَاتِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ قَهْرُ الْقُوَى الثَّلَاثَةِ، أَعْنِي الشَّهْوَانِيَّةَ، وَالْغَضَبِيَّةَ، وَالْوَهْمِيَّةَ، فَقَوْلُهُ {فَلَا رَفَثَ} إِشَارَةٌ إِلَى قَهْرِ الشَّهْوَانِيَّةِ، وَقَوْلُهُ: {وَلَا فُسُوقَ} إِشَارَةٌ إِلَى قَهْرِ الْقُوَةِ الْغَضَبِيَّةِ الَّتِي تُوجِبُ التَّمَرُّدَ وَالْغَضَبَ، وَقَوْلُهُ: {وَلَا جِدَالَ} إِشَارَةٌ إِلَى الْقُوَةِ الْوَهْمِيَّةِ الَّتِي تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى الْجِدَالِ".[159]

---

[152] ربض الجنة: ما حولها خارجا عنها، تشبيها بالأبنية تكون حول المدن، ينظر: النهاية في غريب الحديث 2/185

[153] سنن أبي داوود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق رقم 4800 وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة 1/552 273

[154] محاسن التأويل 7/557

[155] تيسير الكريم الرحمن ص 632

[156] محاسن التأويل 5/495

[157] صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور، والعمل به في الصوم 1903

[158] صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب: هل يقول إني صائم إذا شتم 1904، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام 1151

[159] مفاتيح الغيب 5/319

هذَا فِي جَانِبِ الْعِبَادَاتِ أَمَّا فِي جَانِبِ الْمُعَامَلَاتِ، فَلَمْ يُشَرِّعْ اللهُ تَعَالَى فِقهَ الْأُسْرَةِ وَفِقْهَ الْمُعَامَلَاتِ وَالْجِنَايَاتِ وَالْقِصَاصِ وَالْحُدُودِ إِلَّا مِنْ أَجْلِ ضَبْطِ التَّعَامُلَاتِ بَيْنَ النَّاسِ؛ حَتَّى يَسُودَ بَيْنَهُمْ الْخُلُقُ وَالتَّعَامُلُ الْحَسَنُ، وَجِمَاعُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠].

وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ ذَهَابِ أَجْرِ الْعِبَادَةِ سُوءَ الْخُلُقِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ ولَا مَتاعَ، فَقَالَ: إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتِي يَأْتِي يومَ القِيامَةِ بصَلاةٍ، وصِيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأْتِي قدْ شَتَمَ هَذَا، وقَذَفَ هَذَا، وأَكَلَ مالَ هَذَا، وسَفَكَ دَمَ هَذَا، وضَرَبَ هَذَا، فيُعْطَى هَذَا مِن حَسَناتِهِ، وهَذَا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ".[160]

رابعًا: حُسْنُ الخُلُق مِن عَوامِل بَقاءِ الأُمَمِ وَتَطَوُّرِها:

لَقَد أخبَرَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَنْوَاعِ المَصَائِبِ التي كَانَ يَخْشَى أَنْ تَنْزِلَ بِأُمَّتِهِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ أَسْبابِ نُزُولِهَا، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا مَعْشَرَ المهَاجِرِينَ! خِصَالٌ خَمْسٌ إِذَا ابتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ باللهِ أن تُدْرِكُوهُنَّ: لَم تَظْهَرِ الفَاحِشَةُ فِي قومٍ قَطُّ؛ حتى يُعْلِنُوا بها؛ إلا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ والأَوْجَاعُ التي لم تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِم الَّذِينَ مَضَوْا، ولم يَنْقُصُوا المِكْيالَ والميزانَ إِلَّا أُخِذُوا بالسِّنِينَ وشِدَّةِ المُؤْنَةِ، وجَوْرِ السُلْطَانِ عَلَيهِمْ، ولَم يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوالِهِم إِلَّا مُنِعُوا القَطْرَ من السَّمَاءِ، وَلَوْلَا البَهَائِمُ لم يُمْطَرُوا، ولَم يَنْقُضُوا عَهدَ اللهِ وعَهدَ رَسُولِهِ إلا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ويَتَخَيَّرُوا فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ". «161»

وعَن زَينَب بِنْتَ جَحشٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّها سَأَلَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَهْلِكُ وفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: "نَعَم، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ". «162»

وَتَجْدُرُ الْإِشَارَةُ هُنَا إِلَى أَنَّ مِنْ أَبْرَزِ أَسْبَابِ سُقُوطِ الْأُمَمِ وَالْحَضَارَاتِ، انْهِيَارُ أَخْلَاقِهَا، فَأُمَمُ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَالِاسْتِبْدَادِ وَنَقْضِ الْعُهُودِ، والفَواحِشِ، وَالسَّرْقَةِ وَالنَّهْبِ وَالتَّعَدِّي عَلَى الْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ، والغِشِّ فِي الْحُقُوقِ، وَعَدَمِ إِعْطَاءِ الزَّكَاةَ لِلْمُسْتَحِقِّينَ؛ هِيَ أُمَمٌ أَقْرَبُ مَا تَكُونُ إِلَى التَّفَكُّكِ وَالْانهِيَارِ.

قَالَ أَحْمَد شَوْقِي:

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ

فَإِن تَوَلَّتْ مَضَوْا فِي إِثْرِهَا قُدُمًا[163]

- فَالْأُمَمُ تَبْقَى إِذَا سَادَ فِيهَا الْعَدْلُ، وَرُفِعَ الظُّلْمُ فِيهَا عَنِ الْمَظْلُومِينَ.
- الْأُمَمُ تَبْقَى إِذَا انتَشَرَتْ فِيهَا الْأَمَانَةُ، وَوُسِّدَ الأَمْرُ لِأَهْلِهِ، وَابْتَعَدَ النَّاسُ عَنِ الْخِيَانَةِ.
- الْأُمَمُ تَبْقَى إِذَا أَحْسَنَ وَأَتْقَنَ كُلُّ شَخْصٍ عَمَلَهُ بِأَمَانَةٍ وَعِلْمٍ، بَعِيدًا عَنِ الْكَذِبِ وَالْغِشِّ وَالْخِدَاعِ وَالْغُرُورِ وَكُلِّ أَنْوَاعِ التَّعَامُلَاتِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا شَرْعًا وَعُرْفًا وَقَانُونًا.
- الْأُمَمُ تَبْقَى إِذَا ظَهَرَتْ فِيهَا العِفَّةُ عَنِ الْمَالِ وَعَنِ الْأَعْرَاضِ، وَإِذَا عَفَّ اللِّسَانُ وَعَفَّتْ الْيَدُ وَعَفَّ الْفَرْجُ.

---

160 رواه مسلم 2581

[161] صحيح الجامع 7978

[162] سنن ابن ماجة في كتاب الفتن، باب العقوبات برقم 4019 وحسنه الألباني

163 ديوان أحمد شوقي 1/ 259

- الْأُمَمُ تَبْقَى إِذَا ظَهَرَ فِيهَا الْكَرَمُ والسَّخَاءُ وَالْإِيثَارُ، وَرِعَايَةُ الْمُحْتَاجِ، وَابْتِعَادُ النَّاسِ عَنِ الْأَثَرَةِ وَالشُّحِّ بِالْمَالِ وَالْجُهْدِ وَالنَّفْسِ.

وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ ثِمَارِ الْأَخْلَاقِ الحَسَنَةِ عَلَى الْأُمَّةِ، نَشْرُ الْأَمنِ والْأَمَانِ بَيْنَ أَفْرَادِهَا وَمجْتَمَعَاتِهَا، الْأَمَانُ بِكُلِّ صُوَرِهِ، أَمَانٌ عَلَى النَّفْسِ وَالدِّينِ والعَقلِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ.

وَمِنْ ثِمَارِهَا كَذَلِكَ، شِيوَعُ الْأُلْفَةِ وَالْمحَبَّةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَبَثُّ رُوحِ التَّسَامُحِ، وَسيَادَةُ التَّعَاوُنِ وَالتَّكَافُلِ الاجْتِمَاعِيّ، وَتَقْدِيمُ مَا يُفِيدُ الأُمَّةَ والْبَشَرِيَّةَ.

المطلبُ الثَّامِنُ عَشَرَ: إِقَامَةُ الْعَدْلِ وَمُحَارَبَةُ الظُّلْمِ مِنْ مَقَاصِدِ الْإِسْلَامِ

مَفْهُومُ الْعَدْلِ:

هُوَ بَذْلُ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ، وَتَسْوِيَةُ الْمُسْتَحَقِّينَ فِي حُقُوقِهِمْ[164]، وَهُوَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْمُهِمَّةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي يَجِبُ عَلَى الدُّعَاةِ التَنَبُّهِ لَهَا وَالْعَمَلُ عَلَى تَحْقِيقِهَا، وَبَيَانُ هَذَا الْمَقْصَدِ فِي الْأُمُورِ التَّالِيَةِ:

أَوَّلًا: الْعَدْلُ وَرَفْعُ الظُّلْمِ رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ:

رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ هِيَ تَحْقِيقُ الْعَدْلِ وَرَفْعُ الظُّلْمِ، قَالَ تَعَالَى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" [الحديد: 25].

إِنَّ الهدفَ والمقصدَ مِنْ إِنْزَالِ الْكُتُبِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ، هو إِقَامَةُ الْعَدْلِ، فَالْعَدْلُ مِيزَانُ اللَّهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَهُوَ مِنَ الْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْإِسْلَامُ، وَجَعَلَهَا مِنْ مَقُوِّمَاتِ الْحَيَاةِ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِهَا أَمْرًا مُبَاشِرًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النحل: 90].

لَقَدْ ارْتَضَى اللَّهُ لِلأُمَّةِ دِينَ الْإِسْلَامِ دَعْوَةً عَالَمِيَّةً إِنْسَانِيَّةً، لَا تَعَصُّبَ فِيهَا لِقَبِيلَةٍ أَوْ لِجِنْسٍ، وشَرَعَ المُبادِئَ التي تَكْفُلُ تَماسُكَ أَفْرَادِه وَمُجْتَمَعَاتِهِ، فَشَرَعَ العَدْلَ قاعِدَةً ثابِتَةً للتعامُل، لا تَميلُ مع الهَوَى، ولا تَتأثَّرُ بالوُدِّ والبُغْضِ.

ولقد تَوَعَّدَ اللهُ تَعَالَى الظَّالِمِينَ في القُرآنِ أَشَدَّ الوَعيدِ، فقالَ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} [إبراهيم:٤٢]، قَالَ الشَّيخُ السَّعْدِيّ: "هذا وَعيدٌ شَديدٌ للظَّالِمين، وتَسْلِيَةٌ لِلمَظْلُومِينَ، حيثُ أَمْهَلَ الظَّالِمينَ وأدرَّ عليهمُ الأرْزَاقَ، وتَرَكَهُم يَتقَلَّبُونَ فِي البِلادِ آمِنِينَ مُطمئِنِينَ، فَلَيْسَ في هَذا ما يَدُلُّ على حَسَنِ حَالِهم فإنَّ اللهَ يُمْلِي للظَّالِمِ ويُمهِلُهُ ليَزدَادَ إثمًا، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ".[165]

وَهَكَذَا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ الظُّلْمَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْعَذَابِ الْعَامِ، فَبِسَبَبِهِ هَلَكَتِ الْأُمَمُ السَّالِفَةُ وَالْقُرُونُ الْخَالِيَةُ، وَبِسَبَبِهِ تَسْقُطُ الدُّوَلُ، وَتَهْلِكُ الْقُرَى، قَالَ تَعَالَى: {وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} [الكهف: ٥٩]، وقَالَ تَعَالَى: {وَكَم قَصَمنَا مِن قَريَة كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأنَا بَعْدَهَا قَومًا ءَاخَرِينَ} [الأنبياء: ١١]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢].

ثانيًا: شموليّة العَدل في الإسلام:

"إِنَّ العَدْلَ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ يَشْمَلُ العَدْلَ في حَقِّهِ، وفي حَقِّ عِبَادِهِ، وهو في ذلك، يعني: أداءُ الحقوقِ كَامِلَةً، بِحَيْثُ يُؤَدِّي العَبدُ مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ الحُقُوقِ المَالِيَّةِ والبَدَنِيَّةِ.

والعدلُ، هُوَ ما فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ، وعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وأَمَرَهُم بِسُلُوكِهِ.

والعدلُ وَاجِبٌ، والإحسَانُ فَضِيلَةٌ مُسْتَحَبَّةٌ وذلك كنفع الناسِ بالمالِ والبدَنِ والعِلمِ، وغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أنوَاعِ النفعِ حَتَّى إِنَّهُ يدخُلُ فيهِ الإحسَانُ إلى الحَيَوَانِ البَهِيمِ المَأكُولِ وغَيْرِهِ".[166]

وَقَدْ اعْتَنَى الإِسْلامُ بِهَذَا الْأَمْرِ، وَفَصَّلَ فِيهِ تَفْصِيلًا بِمَا لَا يَدَعُ مَجَالًا لِأَيِّ أَحَدٍ أَنْ يَظْلِمَ وَلَا يَجُورَ عَلَى أَحَدٍ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ مَنَاحِي الْحَيَاةِ.

---

[164] الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة للسعدي، ص: 253

165 تيسير الكريم الرحمن، ص: 427

166 تيسير الكريم الرحمن ص 447

فَفِي كِتَابَةِ الدِّيونِ وَالتِّجَارَاتِ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ في سورة البَقَرَة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ} [آية: 282]، وَفِي الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ يَأْمُرُ اللَّهُ بِالْعَدْلِ في سورة النساء {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [آية: 58].

وَأَمَرَ الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا حَكَمْتُمْ فَاعْدِلُوا".[167]

وَفِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ يَأْمُرُ اللَّهُ بِالْعَدْلِ في سُورَةِ الحُجُرَاتِ {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [آية: 9].

وَكَذَلِكَ أَمَرَ بِالْعَدْلِ حَتَّى مَعَ الْأَعْدَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: 8]، وَقَالَ تَعَالَى: {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: 8].

وَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ الْعَدْلَ يَكُونُ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْآخَرِينَ، فَقَالَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: {لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران: 113].

وَأَمَرَ بِالْعَدْلِ حَتَّى عِنْدَ قِتَالِ الْأَعْدَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة: 190].

وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَدْلِ بَيْنَ الْأَوْلَادِ فقَالَ: "فاتَّقُوا اللهَ واعْدِلُوا بَيْنَ أولادِكُم".[168]

وَمِنْ صُوَرِ العَدْلِ الَّتِي أمَرَ اللهُ بها في مَواضِعَ كَثِيرةٍ في القُرآنِ، العَدلُ في الأمْوالِ، وَرَفْعُ الظُّلْمِ، وَعَدَمُ بَخسِ النَّاسَ حُقُوقَهُم، وَذَلِكَ فَي قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن: 8-9]، وَتَوَعَّدَ مَنْ يَظْلِمُ فِي الميزَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} [المطففين: 1-6].

ثالثاً: دَعْوَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ إِلى العَدْلِ:

بِمَا أَنَّ العَدلَ مِنْ مَقاصِدِ الدَّعوةِ، فَقَدْ نَبَّهَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَنْبيها عِظيمًا، حَيْثُ بَايَعَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَحابَتَهُ عَلَى العَدْلِ، وقَوْلِ كَلِمَةِ العَدلِ، فَعن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: "بايَعْنا رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَةِ فِي اليُسْرِ والعُسْرِ والمَنْشَطِ والمَكْرَهِ وأَلَّا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ وَأَنْ نَقُومَ، أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ".[169]

وبَيَّنَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضْلَ الإِمَامِ العَادِلِ يومَ القِيامَةِ، فَقَالَ: "سَبْعةٌ يُظِلُّهُم اللهُ تَعالَى فِي ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّه: إِمَامٌ عَادِلٌ... الحديث".[170]

---

167 مجمع الزوائد 5/ 197 واللفظ له وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات. وذكره الألباني في صحيح الجامع 1/ 194، وقال: حسن وكذلك في الصحيحة برقم 469

168 صحيح البخاري 2587

169 صحيح البخاري 7199، ومسلم 1709

170 صحيح البخاري 660، ومسلم 1031

كَمَا بَيَّنَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِظَمَ مَقامِ أَهْلِ العَدل يومَ القيامة، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمرو بنِ العَاصِ رَضِي اللهُ عَنْهُما، قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ المُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنابِرَ مِن نُورٍ، عن يَمِينِ الرَّحْمَنِ عزَّ وجلَّ -وكِلْتا يَدَيْهِ يَمِينٌ- الَّذِينَ يَعْدِلُونَ في حُكْمِهِمْ وأَهْلِيهِمْ وما وَلُوا".[171]

بَل بَيَّن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ أحَبَّ النَّاسِ إلى الله يومَ القيامة هُمْ أهلُ العَدْلِ، فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِي اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ أَحَبَّ النّاسِ إلَى اللهِ يومَ القِيَامَةِ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجلِسًا: إمَامٌ عَادِلٌ، وَأَبغَضَ النّاسِ إلَى اللهِ، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجلِسًا: إمَامٌ جَائِرٌ".[172]

رابعاً: تَحذيرُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن عاقِبةِ الظُّلمِ:

بَيَّنَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ اللهَ تعالَى حَرَّمَ على نَفْسِهِ الظُلمَ وَحَرَّمَهُ على خَلْقِهِ، فَفي الحَديثِ القُدْسِيِّ، قَالَ اللهُ تعالَى: "يَا عِبَادِي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا".[173]

وبَيَّنَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطُورةَ الظُلمِ يومَ القِيامَة، فَعَنْ جَابِرَ بنِ عبدِ اللهِ- رَضِي الله عَنهُما- قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اتَّقُوا الظُّلمَ فَإنَّ الظُّلمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".[174]

وَأَوْصَى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذًا بِعَدمِ الظُّلْمِ، وَذَلِكَ بِإخْبَارِهِ أَنَّ دَعْوَةَ المَظْلُومِ حَتْمًا مُسْتَجَابَةٌ، فَقَالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ"[175]، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالإِمَامُ الْعَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الْغَمَامِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ".[176]

وَأَمَرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتَحَلُّلِ مِن أصحابِ المَظالِمِ تَخْفِيفًا مِن الحِسابِ يومَ القِيامَة، فعن أبِي هُريرةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ كَانَتْ له مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ مِن عِرْضِهِ أَوْ شيءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَومَ، قَبْلَ أَنْ لَا يكونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إنْ كانَ له عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وإنْ لَمْ تَكُنْ له حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عليه".[177]

ولقد نَهَى الإسلامُ وَشَدَّدَ على أنواعٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الظُلْمِ، وَمِنْها:

- ظُلمُ الخَدَمِ والعَبِيدِ، وَمَآلُهُ يومَ القِيامَة، فعن عَمّار بن ياسر- رضي اللهُ عَنْهما- قَال: قَالَ لي رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَن ضَرَبَ مَمْلُوكَهُ ظُلْمًا اقْتَصَّ مِنْهُ يومَ القيامَة".[178]

- ومِنَ الظُلمِ، قَتْلُ النَّفْسِ بِغَيرِ حَقٍّ، وأنَّ مَنْ سَنَّ القَتْلَ ظُلْمًا، عَلَيْهِ وِزْرُ ذَلِكَ إلَى يومِ القِيامة، عن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا تُقْتَلُ نَفسٌ ظُلْمًا إلّا كَانَ عَلَى ابنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِن دَمِهَا؛ لأنَّهُ كانَ أوَّلُ مَن سَنَّ القَتْلَ".[179]

- وكَذلِكَ الظُلمُ في أخذِ حُقُوقِ الغَيرِ، فقد نَهى عَنهُ الشَّرعَ نَهيا عَظيمًا حَتى وَلَو كانَ قَيدَ شِبرٍ، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَن ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ طُوِّقَهُ مِن سَبْعِ أرَضِينَ".[180]

---

171 صحيح مسلم 1827

172 جامع الترمذي 1329 وقال: حديث حسن غريب، وقد حسنه السيوطي في الجامع الصغير 2174

[173] صحيح مسلم 2577

174 صحيح البخاري 2447، ومسلم 2578 واللفظ له

[175] صحيح البخاري 4347، ومسلم 27

[176] جامع الترمذي 3598 وقال: هذا حديث حسن.

177 صحيح البخاري 2449

178 ذكره المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواه الطبراني، ورواته ثقات 3/ 211

179 صحيح البخاري 3335، ومسلم 1677

[180] صحيح البخاري 2453. ومسلم 1612

خامِساً: الأَمْرُ بِالأخذِ عَلى يَدِ الظالمين، وَرَفْعِ الظُلم:

بَيَّنَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْرَ قَولِ كَلِمَةِ الحَق للظالِمِين، فعن أبي سعيد الخدْريّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ أعظَمَ الجِهادِ كَلِمةُ عَدلٍ عِنْدَ سُلطانٍ جَائِرٍ"[181]، وَذَلِكَ "لأنَ ظُلْمَ السُلطانِ يَسْرِي فِي جَمِيعِ مَنْ تَحْتَ سِيَاسَتِهِ، وَهُوَ جَمٌّ غَفيرٌ، فَإِذَا نَهاهُ عَن الظُلمِ فَقَد أوصَلَ النَّفْعَ إلى خَلقٍ كَثيرٍ".[182]

وحَذرَ النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن الخَوفِ مِن الظالمين فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إذا رأيتُم أُمَّتي تَهابُ الظّالِم، أن تَقُولَ لَهُ إنَّكَ أنْتَ ظالِمٌ فَقَد تُوُدِّعَ[183] مِنْهُم".[184]

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ النَّاسَ إذَا رأَوْا ظَالمًا فَلَمْ يأخُذُوا على يَدَيْه أَوْشَكَ أَنْ يعُمَّهُم اللهُ بِعِقَابٍ".[185]

وَعَنْ البَرَاءِ بنِ عَازب رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ بناسٍ وُهُم جلوسٌ في الطَّريقِ فقال: "إنْ كُنتُم لَا بدّ فاعِلِينَ فردُّوا السَّلامَ، وأَعِينُوا المظلومَ واهْدُوا السَّبِيلَ".[186]

---

181 جامع الترمذي 2174 واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن غريب، وسنن أبي داوود 4344، وسنن ابن ماجة 4011 وصححه الألباني.

182 مرقاة المفاتيح 2412/6

183 تُوُدّعَ من فلانٍ: سُلِّم عليه للتَّوديع. وتُوُدّعَ، أي: يُئِسَ من صَلاحه.

184 أخرجه الإمام أحمد 11/ 73 6521 وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه أحمد والبزار بإسنادين ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح وكذلك أحمد.

185 سنن أبي دود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي4340، وجامع الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر 2168 وقال: هذا حديث صحيح.

186 مسند أحمد 30/ 43718483، وجامع الترمذي، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في الجالس على الطريق 2726 وقال: هذا حديث حسن غريب. ومعناه في الصحيح.

المبحث الثاني: أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

المطلبُ الأوَّلُ: اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَصِفُ نَبِيَّهُ

لَعَلَّ أوَّلَ ما نَبدأُ بهِ هو وَصْفُ اللهِ لِمُحَمَّد صلى الله عليه وسلم بِقَوْلِهِ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4].
لَقَدْ كَانَ عَظِيمًا فِي رَحْمَتِهِ، وَفِي تَوَاضُعِهِ، وَفِي جُودِهِ، وَفِي حِلْمِهِ، وَفِي شَجَاعَتِهِ، وَفِي عَدْلِهِ، وَفِي حَيَائِهِ، وَفِي صِدْقِهِ، وَفِي وَفَائِهِ، وَفِي زُهْدِهِ، وَكَانَ عَظِيمًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَشَهِدَ بِهَذِهِ الْعَظَمَةِ الصَّاحِبُ وَالْعَدُوُّ، وَالْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَالْقَاصِي وَالدَّانِي، وَاشْتَهَرَ ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ وَتَنَاقَلُوهُ جِيلًا عَنْ جِيلٍ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ دَلَائِلِ نُبُوَّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ أَنْصَفَ، حَتَّى قَالَ ابْنُ حَزَم: "إِنَّ سِيرَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقْتَضِي تَصْدِيقَهُ ضَرُورَةً، وَتَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ معجزةٌ غَيْر سِيرَتِهِ لَكَفَى". [187]

المطلبُ الثَّاني: أخلاقُ النَّبيِّ قبل البعثة

لقد وَرَدَ في سياقات عديدة، كيف كانَ النبيُّ مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الإسلام، وكيف أنَّهُ كان مُلَقَّبًا في قَومِه بالصادِقِ الأمين، وكيف ارتَضوهُ حَكَمًا في قَضِيَّةِ وَضعِ الحجرِ الأسْوَدِ عِند بناء الكعبة، وما اشتَمَلَ عليهِ من خِصَالٍ كَريمةٍ بينَ قَومِه، مثل: مساعدة الضَّعيف، وإكرام الضَّيف، وصلة الأرحام، ونصرة المظلوم، والإعانة على نوائب الحقّ، والوفاء بالعهد، والتَّرفع عن عادات الجاهليَّة الأولى، فلم يسجد لصنمٍ أبدًا، ولم يتقرَّب لكاهنٍ، ولم يقل شِعرًا ولم يشرب خمرًا، ولا مارس رذيلة قطّ.[188]

لقد كانت أخلاق النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قبل بعثته كلُّها تدلُّ على نبوَّته، فلا توجد زلَّةٌ واحدةٌ في سيرته، ومن المواقف التي كانت في حياته اليوميَّة التي تدلُّ على ذلك[189]:

- **نومه ليلة المغاني:** إذ كان ومعه غلام يرعيان الغنم في مكَّة، فسمعا غناءً وأودع غنمه عند صاحبه، وذهب من أجل السَّمَر هناك، ولمَّا وصل وجلس يستمع للدُّفوف والمزامير ضرب الله -تعالى- على أذنيه فنام، ولم يفق إلَّا في اليوم التَّالي من حرِّ الشَّمس، فعصمه الله -تعالى- حتى في طفولته التي لا يحاسب عليها من كلِّ هفوةٍ.
- **امتناعه عن التّعرّي أمام الكعبة:** وذلك عندما صغيرا والغلمان تلهو حول الكعبة، وقد كانوا يحملون الحجارة على إزارهم ويلعبون بها، ولكنَّ محمَّدا صلى الله عليه وسلم لمَّا همَّ بفعل ذلك كما الصِّبيان، إذا بشيء يمنعه عن خلع إزاره فجعل يحمل الحجارة على ظهره ورقبته ويلهو مع الغلمان.
- **خلوته واعتزاله النّاس:** فقد كان -صلى الله عليه وسلم- يحبُّ الاختلاء بنفسه ويخرج بعيدا عن ضجيج بلده وزحمة قومه؛ ليتفكَّر في الخلق وفي ملكوت السَّماوات والأرض.[190]

---

[187] قبس من الأخلاق النبوية، ص17 - نقلًا عن الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل.
[188] السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة، ص: 235-238. بتصرّف
[189] المصدر السابق
[190] الجامع الصحيح للسيرة النبوية، سعد المرصفي، ص:655. بتصرّف

المطلبُ الثَّالثُ: أَخْلَاقُ النَّبِيِّ بَعْدَ البَعْثَةِ

- كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتواضَعُ للصَّغِيرِ، ويُعَلِّمُ ويَغرِسُ في قَلْبِهِ العَقِيدَةَ:

قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابْنِ عَبَّاسٍ ذَاتَ يومٍ: "يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكَ كلِماتٍ، احفَظِ اللَّهَ يحفَظكَ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سألْتَ فاسألِ اللَّهَ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللَّهِ، واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتَمعتْ علَى أن ينفَعُوكَ بشَيءٍ لم يَنفعُوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ لَكَ، ولو اجتَمَعُوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ".[191]

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَلَطَّفُ فِي تَعْلِيمِ صَحَابَتِهِ وَيُظْهِرُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ حُبِّهِ لَهُمْ:

فَقَدْ أَخَذَ بِيدِ مُعَاذٍ ذَاتَ يومٍ، وَقَالَ لَهُ: "وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ".[192]

- وكانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يُراعي أحوالَ النَّاسِ وظُروفَهُم، ويُيسِّرُ عليهِم، وكان رَفيقًا بالمسلمين، مُشفِقًا عليهم، خافضًا جَناحَه لهم:

فها هو أبو رِفاعةَ العَدويُّ رَضِي اللهُ عنه يَرْوي لنا أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم كانَ يَخطُبُ بالنَّاسِ يومًا، فجاءَ إليه أبو رِفاعةَ رَضِي اللهُ عنه، فقالَ: "يا رسولَ اللهِ، رجلٌ غريبٌ"، والغريبُ هو: البَعيدُ عن وَطنِهِ، "جاءَ يَسألُ عن دِينِه"، أي: عن أُمورِ الإسلامِ وشَرائعِه، "ولا يَدري ما دِينُه"؛ وذلكَ لأنَّه لم يُعلِّمْه أحدٌ، فأقبَلَ علَيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وترَكَ خُطبتَه، ثمَّ مَشَى حتَّى انتَهى إلى أبي رِفاعةَ رَضِي اللهُ عنه، فجاءَه الصَّحابَةُ بكُرسيٍّ ظنَّ أبو رِفاعةَ أنَّ قوائمَهُ مِن حَديدٍ، فقَعَدَ علَيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم؛ وذلكَ حتَّى يَراهُ الصَّحابَةُ فيَتعلَّمُوا منه، وبَدَأَ يُعلِّمُ أبا رِفاعةَ رَضِي اللهُ عنه مِن أُمورِ الإسلامِ الَّتي يَحتاجُها، ثمَّ بعْدَ أنِ انتَهى مِن تَعليمِه، رجَعَ إلى مَكانِه وأكمَلَ خُطبتَه إلى آخِرِها.[193]

قيل: إنَّما ترَكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم الخُطبةَ وأقبَلَ على الرَّجلِ يُعلِّمُه؛ لتَعيُّنِه عليه في الحالِ، ولخَوْفِ الفوْتِ، ولأنَّه لا يُناقِضُ ما كان فيه مِن الخُطبةِ، ومَشْيُه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، وقُربُه منه في تلك الحالِ مُبادرةٌ لاغتنامِ الفرصةِ، وإظهارِ الاهتمامِ بشَأنِ السَّائلِ.

وفي الحَديثِ: تَواضُعُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، وفيه: تَلطُّفُ السَّائلِ، وحسْنُ عَرضِ سُؤالِه.

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَفِيقًا بِالشَّبَابِ، مُشْفِقًا عَلَيْهِمْ:

قَالَ مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ: أَتَيْنَا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فَظَنَّ أَنَّا اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، وَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، **وكانَ** رَفِيقًا رَحِيمًا، قَالَ: "ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي".[194]

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَمِثُ الخُلُقِ، لَيْسَ بِفَاحِشٍ وَلَا مُتَفَحِّشٍ فِي الْأَلْفَاظِ، وَحِيَاؤُهُ أَشَدُّ مِنَ الْعَذراءِ فِي خِدْرِهَا، عَفُّ الْيَدِ، لَمْ يَضْرِبْ أَحَدًا فِي حَيَاتِهِ:

---

[191] صحيح الترمذي 2516

[192] رَوَاهُ أبو داود 1522

[193] رَوَاهُ مُسْلِمٌ 876

[194] رَوَاهُ البُخاري 631، ومُسْلِم 674

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "ما ضَرَبَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ شيئًا قَطُّ بيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا؛ إلَّا أَنْ يُجَاهِدَ في سَبيلِ اللهِ، وَما نِيلَ منه شَيءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِن صَاحِبِهِ؛ إلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيءٌ مِن مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[195]، وقَالَتْ أيضا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "ما خُيِّرَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ أمْرَيْنِ قَطُّ إلَّا أخَذَ أيْسَرَهُما، ما لَمْ يَكُنْ إثْمًا، فإنْ كانَ إثْمًا كانَ أبْعَدَ النَّاسِ منه، وما انْتَقَمَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ لِنَفْسِهِ في شيءٍ قَطُّ، إلَّا أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ بهَا لِلَّهِ".[196]

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلْقُ الْوَجْهِ:

قَالَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ: "ما حَجَبَنِي النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُنْذُ أسْلَمْتُ، ولَا رَآنِي إلَّا تَبَسَّمَ في وجْهِي. ولقَدْ شَكَوْتُ إلَيْهِ إنِّي لا أثْبُتُ علَى الخَيْلِ، فَضَرَبَ بيَدِهِ في صَدْرِي، وقالَ: اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ واجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا"[197].

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاصِلًا لِرَحِمِهِ، صَادِقًا فِي حَدِيثِهِ، قَاضٍ لِحَوَائِجِ الْمَكْرُوبِينَ: قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: "إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ علَى نَوَائِبِ الحَقِّ"[198].

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بارًا بوالدته:

زَارَ قَبْرَهَا فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْله، وَقَالَ: "اِسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا، **فلم يُؤذَن لي، واستأذنته في أن أزور قبرَها فأذِن لي".**[199]

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوصِي بالجار ويحُثُّ على حُسن جواره وإكرامه: قال لأبي ذرٍّ: "يا أبا ذَرٍّ إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فأَكْثِرْ ماءَها، وتَعاهَدْ جِيرانَكَ"[200].

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقيقَ القلب رفيقًا بمن تحته:

لقد خَدَمَهُ أنسٌ عشر سنين، فما قال له أفٍّ قط، ولا قال لشيءٍ صنعَه لم صنعتَ، ولا ألا صنعتَ.

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحيمًا بالضعفاء والمرضى:

أمر من يُصلِّي بهم أن يُخفِّف صلاتَه من أجلهم، فقال صلى الله عليه وسلم: "أَيُّكُم أَمَّ النَّاسَ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمْ الصَّغِيرَ وَالكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الحَاجَةِ وَإِذَا صَلَّى لِنَفْسِهِ، فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ"[201].

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رؤوفًا بالناس شديد الحِلم:

بالَ أعرابيٌّ جهلاً منه في مسجده، فَثَارَ إلَيْهِ النَّاسُ ليَقَعُوا به، فَقالَ لهمْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "دَعُوهُ، وأَهْرِيقُوا علَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِن مَاءٍ -أوْ سَجْلًا مِن مَاءٍ- فإنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ ولَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ".[202]

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرَ البذل والعطاء، كريمَ اليد واسِعَ الجُود، لا يردُّ سائلاً ولا مُحتاجًا:

قال حكيمُ بن حزامٍ رضي الله عنه: "سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سألتُه فأعطاني، ثم سألتُه

---

[195] أخرجه مسلم 2328

[196] أخرجه البخاري 6126، ومسلم2327

[197] صحيح البخاري 3035

[198] صحيح البخاري 6982

[199] رواه مسلم 976

[200] رواه مسلم 2625

[201] رواه البخاري 662، ومسلم 714

[202] رواه البخاري 6128

فأعطاني [203]**، وجاءه رجلٌ فأعطاه غنمًا بين جبلَين، ورأى رجلٌ عليه بُردةً فقال: اكسنيها ما أحسنها، فأعطاه إياها".**[204]

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طيبٌ لا يأكل إلا طيبًا، يتوارى عن أي شُبهةٍ في المطعَم أو المشرَب:
قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إني لأنقلبُ إلى أهلي فأجِدُ التمرةَ ساقطةً على فراشي فأرفعها لآكلَها، ثم أخشى أن تكون صدقةً فأُلقيها".[205]

- **وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجِلُّ صحابته وَيُعَظِّمُ مكانتهم وإن كانوا حديثي السن:** فها هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوصِي بأسامة بن زيد - وهو لم يتجاوز حينذاك الثامنة عشرة من عمره – قائلا: "أُوصيكم به فإنه من صالحيكم".[206]

- **وكان صلى الله عليه وسلم إذا مرِضَ أحدهم عادَه وحزنَ لمُصابه:** ذات يوم زار سعد بن عبادة فوجدَ مرضَه شديدًا، فبكى.

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيًّا مع صحابته، لم ينسَ فضلَهم وإيثارهم:

فعن بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُوصيكُمْ بِالأنْصارِ فإنَّهمْ كَرِشِي[207] وعيْبَتِي[208] وقدْ قَضَوا الذي عليْهِمْ، وبَقِيَ الذي لَهُمْ، فاقْبَلُوا من مُحسِنِهِمْ، وتَجاوَزُوا عن مُسيئِهِمْ"[209].

- وحفظَ لخديجةَ مواقفها العظيمة وبذلَها السخيّ وعقلَها الراجِح: فكان يذكرها بالخير بعد وفاتها ويصِل أقرباءها ويُحسِن إلى صديقاتها. وأمر بسدِّ كل خَوخةٍ - أي: باب - من البيت يُفتَح على المسجد النبوي سوى باب أبي بكرٍ - رضي الله عنه - وفاءً له.

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جميلَ المعشَر مع أهله مُتلطِّفًا معهم: إذا دخل بيتَه يكُونُ في مهنتهم، رَغْمَ عِظَمِ أَعْبَاءِ ما أُوكِل إليه من الرسالة.

- وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقيقًا مع أولاده وأحفاده مُكرمٌ لهم: إذا دَخَلَتْ ابنتُه فاطمةُ يَقُومُ لها ويأخذ بيدها ويُجلِسُها في مكانه الذي كان يجلسُ فيه، وكان يضعُ الحسنَ على عاتقه فيقول: "اللهم إني أُحبُّه فأحِبَّه"[210]، وخرج على صحابته يومًا وبنتُ ابنته أمامةُ على عاتقه، فصلَّى بها فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها.[211]

- وقام عثمانُ رضي الله عنه بوصفِ معاملتِه لصحابته: فقال: "صحِبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر والحضَر، وكان يعودُ مرضانا، وَيَتْبَع جنائزنَا، ويغزو معنا، ويُواسينا بالقليل والكثير".[212]

---

[203] رَوَاهُ البُخاري 1472

[204] رواه البخاري 6036

[205] رَوَاهُ البُخاري 2055، ومُسْلِم 1071

[206] أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه وسلم: 3730، وفي المغازي باب غزوة زيد بن حارثة: 4250، وباب بعث النبي أسامة بن زيد رقم: 4468، 4469، والأيمان والنذور باب وأيم الله حديث: 6627، والأحكام باب من لم يكترث بطعن من لا يعلم من الأمراء حديث: 7187، مسلم في فضائل الصحابة باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي الله عنهما: 2426، والترمذي في المناقب باب مناقب زيد بن حارثة حديث رقم: 3816، وأحمد في المسند: 2/ 20، 89، 106، 110، وابن سعد في الطبقات: 4/ 65، وقال الترمذي حسن صحيح.

[207] الكَرِشُ: بمَنزلةِ المَعِدةِ للإنسانِ

[208] والعَيْبَةُ مُستودَعُ الثِّيابِ

[209] رواه البخاري 927

[210] أخرجه البخاري (5884) واللفظ له، ومسلم (2421).

[211] أخرجه البخاري (5996)، ومسلم (543).

[212] رواه أحمد 1: 69-70.

- **ولقد ذاقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحياةِ مُرَّها:** قالت عائشة رضي الله عنها: "دخلت عليَّ امرأةٌ ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجِد عندي شيئًا غير تمرةٍ واحدة".[213]

- **كما ربطَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بطنهِ الحجرَ من الجوع:** قال عمر رضي الله عنه: "لقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يظلُّ اليومَ يتلوَّى، ما يجدُ من الدَّقَل - أي: التمر الرديء - ما يملأ به بطنَه".[214]

- **كما لاقَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المِحن والشدائد أشقَّها:** نشأ يتيمًا، وأُخرِج من بلده، وحُوصِر في الشِّعبِ ثلاث سنين، واختفَى في غارٍ، ومات له ستة من الولد، وتبِعَه قومُه في مُهاجَره وقاتلوه، ومكرَ به أهلُ النفاق، وسُقِي السمُّ، وعُمِل له السحر، وكان يقول: "أُخِفتُ في الله وما يُخافُ أحد، وأُوذيتُ في الله وما يُؤذَى أحد". ومع ما لاقاه من تلك المصائب وغيرها كان مُتفائلاً في حياته ويقول: "يُعجِبني الفألُ والكلمةُ الحسنة".[215]

- **وأَعْرَضَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الدُّنْيَا وَارْتَجَى مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَكَانَ يَقُولُ:** "مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"، فَفَارَقَ الْحَيَاةَ وَلَمْ يُخَلِّفْ شَيْئًا مِنْ حُطَامِهَا، قَالَتْ عَائِشَة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا تَرَكَ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَلَا شَاةً وَلَا بَعِيرًا، وَلَا أَوْصَى بِشَيْءٍ.

---

[213] أخرجه البخاري (1418)، ومسلم (2629).

[214] رواه مسلم 2978

[215] أخرجه البخاري (5756)، ومسلم (2224)

المطلبُ الرَّابعُ: شَهاداتُ أقاربِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

هَا هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ يَشْهَدُونَ بِعَظِيمِ أَخْلَاقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- **شَهَادَةُ زَوْجِهِ خَدِيجَة رَضِيَ اللهُ عَنْها:**

عِنْدَمَا رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَعَادَ خَائِفًا فَزِعًا مِنْ هَوْلِ مَا رَأَى، قال لِخَدِيجَة رَضِيَ اللهُ عَنْها: "لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي"، فَرَدَّتْ عَلَيْهِ قَائِلَةً: "كَلَّا، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ". [216]

- **شَهَادَةُ زَوْجِهِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها:**

تَقُولُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها وَقَدْ سُئِلَتْ: "مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟" قَالَتْ: "يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ"، وَحِينَمَا سُئِلَتْ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ، قَالَتْ: "لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَلَا صَخَّابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ". [217]

- **شَهَادَةُ ابْنِ عَمِّهِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِب رَضِيَ اللهُ عَنْه:**

يقولُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب وَاصِفًا إِيَّاهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَانَ أَجْوَدُ النَّاسِ كَفًّا، وَأَشْرَحُهُم صَدْرًا، وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهجَةً، وَأَلِينُهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمُهُمْ عِشْرَةً، مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ،" يَقُولُ نَاعِتُهُ: "لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ".[218]

- **شَهَادَةُ ابْنِ عَمِّهِ جَعْفَر بْن أَبِي طَالِب:**

يَقِفُ جَعْفَر بْن أَبِي طَالِب بَيْنَ يَدَيْ النَّجَاشِي فِي بَلَاطِ الْمَلِكِ بَيْنَ بَطَارِقَتِهِ وَحَاشِيَتِهِ فَيَقُولُ: "أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الجِوارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ المَحارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ".[219]

- **شَهَادَةُ ابْنِ عَمِّهِ عَبْد اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ:**

يقولُ عَبْدَاللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ فَيَأْتِيهِ جِبْرِيلُ فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ".[220]

فَهؤلاءِ أَقْرباؤُهُ، وَهَذِهِ شَهاداتُهُمْ فِيهِ.

---

[216] أخرجه البخاري 6982

[217] سنن الترمذي 2016

[218] سنن الترمذي 3637

[219] السيرة لابن هشام 1 / 224

[220] أخرجه البخاري (3220) واللفظ له، ومسلم (2308). ورواية أبي هريرة أخرجها البخاري موصولة (4998). ورواية فاطمة أخرجها البخاري معلقاً بعد حديث (3220)، وأخرجها موصولاً مسلم (2450) مطولاً من حديث عائشة رضي الله عنها.

المطلبُ الخَامِسُ: شَهاداتُ أَصْحابِهِ مِنْ غَيْرِ قَرَابَتِه

أَمَّا شَهاداتُ أَصْحابِهِ مِنْ غَيْرِ قَرَابَتِه فحَدِّثْ عَنِ البَحْرِ وَلا حَرَج، فَما أَكْثَرَ ما وَصَفُوهُ بِهِ، وَشَهِدُوا لَهُ بِهِ مِنْ مَكارِمِ الأَخْلاقِ وَمَحاسِنِ الأَفْعالِ، وَنَذْكُرُ مِنْها:

مَا قَالَهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ: "خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشَرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ صَنَعْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لِمَ تَرَكْتَهُ؟"[221]

المطلبُ السَّادِسُ: شَهَادَةُ أعدائِه

وَلَعَلَّكَ قَدْ يَأْخُذُكَ بَعْضُ الرَّيبِ فِي هَذِهِ الشَّهَادَاتِ فَتَحْسَبُ البَاعِثَ مِنْ وَرَائِهَا عُنْصُرَ القَرَابَةِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ أَوِ الصُحْبَة لَهُ، فَدونَكَ إِذًا، فَهَا هِيَ شَهَادَاتُ أَعْدَائِهِ فِيهِ، وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَشَأَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَقَضَى أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ وَهُمْ يَعْرِفُونَ عَنْهُ الصَّغِيرَةَ وَالْكَبِيرَةَ قَبْلَ أَنْ يَبعَثَهُ اللَّهُ نَبِيًّا.

1- فَهَا هُوَ أَبُو سُفْيَانَ: وَهُوَ سَيِّدُ قُرَيْشٍ، وَمِنْ أَشَدِّ أَعْدَائِهِ يَوْمَئِذٍ - وَاقِفٌ فِي بُلاطِ هِرَقل عَظِيمِ الرُّومِ يَسْأَلُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مُحَاوَرَةٍ طَوِيلَةٍ وَثَقَّهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ، فَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَا سَأَلَهُ عَنْ أَخْلَاقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهمونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَأَجَابَ أَبُو سُفْيَانَ: لَا، قَالَ: فَهَلْ يَغْدُرُ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيأْمُرُنا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعفَافِ وَالصِّلَةِ، ثُمَّ عَقَبَ هِرَقل عَلَى جَوَابِ أَبِي سُفْيَانَ قَائِلًا: سَأَلْتُكَ: هَلْ كُنتُمْ تَتَّهِمُونَه بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنَّ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ!"[222]

2- وَهذَا أَبُو جَهْل - وَهُوَ مِنْ أَلَدِّ أَعْدَائِهِ وَأَشَدِّهِم حَرْبًا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ - لَمْ يَمْلِك إِلَّا الاعْتِرَافَ بِصِدْقِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "إِنَّا لَا نُكَذِّبُكَ، وَلَكِن نُكَذِّبُ الَّذِي جِئْتَ بِهِ"، فَأَنزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ* وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ} [الأنعام: 33، 34].

وَأَخِيرًا أَقولُ: مَنْ أَرَادَ أَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ وَأَجْمَلَهَا، فَلْيَأْخُذْهَا مِنْ مشَكَّاتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَقْتَدِي بِهِ فِي سِيرَتِهِ وَسَرِيرَتِه، وَمُعَاشَرَتِهِ وَأَخْلَاقِهِ، وَعِبَادَتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ، وَدَعْوَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ، وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ. قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:21]، وَلِذَلِكَ فَقَدْ ذَكَرْنَا آنِفًا جُمْلَةً مِنْ الْأَخْلَاقِ وَالشَّمَائِلِ الَّتِي تَخَلَّقَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهَا، وَعَامَلَهُم بِهَا، وَرَغَّبَهُم فِي التَّخَلُّقِ بِهَا؛ لِتَكُونَ قُدْوَةً لِكُلِّ إِنْسَانٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، يَعْبُدُ بِهَا رَبَّهُ، وَيَتَجَمَّلُ بِهَا بَيْنَ خَلْقِهِ، وَيَتَأَلَّفُ بِهَا قُلُوبَ الْعِبَادِ، وَيُسَوِّقُ بِهَا الْكَافِرَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَجُرَّ بِهَا الْعَدُوَّ إِلَى الْمَحَبَّةِ، وَيَجْذِبُ بِهَا الْخَلْقَ إِلَى الْحَقِّ، وَيَدْفَعَ بِهَا السَّفِيهِ إِلَى الْحِلْمِ، قَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فُصِّلَت:34- 35].

---

[221] سنن الترمذي 2015

[222] أخرجه البخاري 7

المبحث الثالث: السلوك

المطلبُ الأوَّلُ: مَعْنَى السُّلوكِ

- **مَعنى السُّلوكِ لُغةً:**

السُّلوكُ: مَصدَرُ سَلكَ، يُقالُ: سَلَكَ يَدَه في الجَيبِ والسِّقاءِ ونَحوِهما، يَسلُكُها، وأسلَكَها: أدخَلها فِيهِمَا، وسَلَكَ الطَّريقَ: إذا ذَهَبَ فِيهِ، والمَسلَكُ: الطَّريقُ، والسُّلوكُ: سِيرَةُ الإنسانِ ومَذهَبُه واتِّجاهُه، يُقالُ: فلانٌ حَسَنُ السُّلوكِ أو سَيِّئُ السُّلوكِ.[223]

- **معنى السُّلوكِ اصطِلاحًا:**

السُّلوكُ: هو المَظهَرُ الخارِجيُّ للخُلُقِ.[224]

أو: هو أعمالُ المرءِ الإراديَّةُ [225] المُتَّجِهةُ نَحوَ غايةٍ مُعَيَّنةٍ مَقصودةٍ، كَقَولِ الصِّدقِ والكَذِبِ، وأعمالِ الشَّجاعةِ والجُبنِ، والكَرَمِ والبُخلِ، ونَحوِها.

أو: هو الأفعالُ التي تَصدُرُ عنِ الحالةِ الرَّاسِخةِ الكامنةِ في النَّفسِ."226"،"227"

المطلب الثَّاني: الفرقُ بَينَ الأخلاقِ والسُّلوكِ

الأخلاقُ صورةُ النَّفسِ الباطِنةُ، والسُّلوكُ هو صورَتُها الظَّاهرةُ التي تَدُلُّ عَلَيهَا، وَنَحْنُ نَستَدِلُّ عَلَى طَبيعةِ أخلاقِ المَرءِ بسُلوكِه الظَّاهرِ.[228]

فالخُلُقُ حالةٌ راسِخةٌ في النَّفسِ، وَلَيْسَ شيئًا خارِجًا مَظهَرِيًّا، فالأخلاقُ شَيءٌ يَتَّصِلُ بباطِنِ الإنسانِ، ولا بُدَّ لنا مِنْ مَظهَرٍ يَدُلُّنا على هذه الصِّفةِ النَّفسيَّةِ، وهذا المَظهَرُ هو: السُّلوكُ؛ فالسُّلوكُ: هو المَظهَرُ الخارِجيُّ للخُلُقِ، فنَحن نَستَدِلُّ مِنَ السُّلوكِ المُستَمِرِّ لشَخصٍ ما على خُلُقِه، فالسُّلوكُ دَليلُ الخُلُقِ، ورَمزٌ له، وعُنوانُه، فإذا كان السُّلوكُ حَسَنًا دَلَّ على خُلُقٍ حَسَنٍ، وإن كان السُّلوكُ سَيِّئًا دَلَّ على سُلوكٍ قَبيحٍ، كما أنَّ الشَّجَرةَ تُعرَفُ بالثَّمَرِ، فكَذلك الخُلُقُ الحَسَنُ يُعرَفُ بالأعمالِ الطَّيِّبةِ[229].[230]

---

[223] مختار الصحاح لزين الدين الرازي، ص: 152، لسان العرب لابن منظور 10/ 442، تاج العروس للزبيدي 27/ 205، المعجم الوسيط 1/ 445، معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار 2/ 1097

[224] الخلق الحسن في ضوء الكتاب والسنة لسعيد القحطاني، ص: 6

[225] لكِن يوجَدُ بَعضُ أنواعِ السُّلوكِ الإراديِّ للإنسانِ، لا يَدخُلُ في بابِ الأخلاقِ، ومن ذلك: الاستِجابةُ للغَريزةِ؛ فالأكلُ مَثَلًا غَريزةٌ، والإنسانُ عِندَ الجوعِ يَأكُلُ بدافِعِ الغَريزةِ، وليس مِمَّا يُمدَحُ به أو يُذَمُّ. لكِن لو أنَّ إنسانًا أكل زائِدًا عن حاجَتِه الغَريزيَّةِ صارَ فِعلُه مَذمومًا؛ لأنَّه أثَّرَ لخُلُقٍ في النَّفسِ مَذمومٍ، وهو الطَّمَعُ. ومنها الآدابُ الشَّخصيَّةُ أوِ الاجتِماعيَّةُ التي تُفعَلُ احتِرامًا لأذواقِ النَّاسِ، وتَكريمًا لهم واستِرضاءً لمَشاعِرِهم. ومنها: التَّقاليدُ الاجتماعيَّةُ؛ فالسُّلوكُ نابِعٌ من طاعةِ تَقاليدِ المُجتَمَعِ. ينظر: موسوعة الأخلاق للخراز، ص: 22

[226] مباحث في فلسفة الأخلاق لمحمد يوسف موسى، ص: 74

[227] موسوعة الأخلاق والسلوك للدر السنية.

[228] التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية لمحمد منير مرسي، ص: 148

[229] الخلق الحسن في ضوء الكتاب والسنة لسعيد القحطاني، ص: 6

[230] موسوعة الأخلاق والسلوك للدرر السنية.

المبحث الرابع: القيم

المطلب الأول: تعريف القيم

تَعْرِيفُ الْقِيَمِ بِشَكْلٍ عَامٍّ: "هِيَ الْفَضَائِلُ الدِّينِيَّةُ وَالْخُلُقِيَّةُ وَالْاِجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا حَيَاةُ الْمُجْتَمَعِ الإِنْسَانِيّ".[231]

أَمَّا تَعْرِيفُ الْقِيَمِ الإِسْلَامِيَّةِ، فَلَهَا عِدَّةُ تَعْرِيفَاتٍ مِنْهَا:

"حُكْمٌ يَصْدُرُهُ الإِنْسَانُ عَلَى شَيْءٍ مَا، مُهْتَدِيًا بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمَبَادِئِ وَالْمَعَايِيرِ الَّتِي ارْتَضَاهَا الشَّرْعُ، مُحَدِّدًا الْمَرْغُوبَ فِيهِ، وَالْمَرْغُوبَ عَنْهُ مِنَ السُّلُوكِ".[232]

كَمَا عُرِفَتْ بِأَنَّهَا: "مَجْمُوعَةُ الْمَبَادِئِ وَالْقَوَاعِدِ وَالْمُثُلِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْوَحْيُ، وَيُؤْمِنُ بِهَا الإِنْسَانُ، وَيَتَحَدَّدُ سُلُوكُهُ فِي ضَوْئِهَا، وَتَكُونُ مَرْجِعَ حُكْمِهِ فِي كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ أَفْعَالٍ وَأَقْوَالٍ وَتَصَرُّفَاتٍ تَرْبُطُهُ بِاللَّهِ عَزَوَجَلَ، وَيُحَقِّقُ بِهَا رِسَالَتَهُ كَدَاعِي مُسْلِمٍ".[233] [234]

وَفِي الإِسْلَامِ مَجْمُوعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْقِيَمِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الاِتِّجَاهَاتِ وَالتَّخَصُّصَاتِ، فَهُنَاكَ قِيَمٌ دِينِيَّةٌ، وَقِيَمٌ اِجْتِمَاعِيَّةٌ، وَقِيَمٌ اِقْتِصَادِيَّةٌ، وَقِيَمٌ سِيَاسِيَّةٌ، وَهُنَاكَ قِيَمٌ خَاصَّةٌ بِالْأَطِبَاءِ، وَقِيَمٌ خَاصَّةٌ بِالْمُعَلِّمِينَ، وَقِيَمٌ خَاصَّةٌ بِالإِعْلَامِيِّينَ...إِلَخ.

وَلِذَا كَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ بَيَانُ مَفْهُومِ الْقِيَمِ الدَّعْوِيَّةِ والَّتِي يُمْكِنُ مِنْ خَلَالِهَا تَحْدِيدُ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْقِيَمِ، ينبغي على الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أن يَلْتَزِمَهَا.

المطلبُ الثَّاني: أَهَمِيَّةُ غَرْسِ الْقِيَمِ لَدَى الدُّعَاةِ

إِنَّ تَحْدِيدَ الْهَدَفِ مِنَ الدَّعْوَةِ وَتَحْدِيدَ قِيَمِهِ يُمَكِّنُنَا مِنْ تَقْيِيمِ سُلُوكِ الدَّاعِيَةِ، وَتَحْدِيدِ مَا هُوَ مَرْغُوبٌ أَوْ غَيْرُ مَرْغُوبٍ مِنْهُ، خُصُوصًا وَأَنَّ الدَّاعِيَةَ يَقُومُ بِنَقْلِ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ وَالتَّعْرِيفِ بِهِ.

وَلِكَيْ يَكْتَسِبَ الدَّاعِيَةُ السُّلُوكِيَّاتِ الْحَسَنَةَ وَيَبْتَعِدَ عَنِ السُّلُوكِيَّاتِ السَّيِّئَةِ "فَإِنَّهُ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ: نُعَزِّزَ لَدَيْهِ مَنْظُومَةَ الْقِيَمِ الْفَاعِلَةِ وَالصَّحِيحَةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الْقَنَاعَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ، وَنَعْمَلُ بِذَلِكَ عَلَى تَحْدِيدِ مَسَارَاتِ الْفَرْدِ وَاتِّجَاهَاتِهِ فِي مَوَاقِفِ الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَيَسْلُكَهَا عِنْدَمَا يُوَاجِهُهُ الْمَوْقِفُ أَوْ الْمُشْكِلَةُ وَفْقًا لِمَا لَدَيْهِ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ وَقِيَمٍ".[235]

فَالْقِيَمُ تُشَكِّلُ إِطَارًا مَرْجِعِيًّا يَحْكُمُ تَصَرُّفَاتِ الدَّاعِيَةِ، وَيَضْبِطُ سُلُوكَهُ وَيُوَجِّهُهُ، وَهِيَ تَنْتَظِمُ مَعَ بَعْضِهَا لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ، فَتُزَوِّدُهُ بِالطَّاقَاتِ، وَتُمَكِّنُهُ مِنَ التَّفَاعُلِ الإِيجَابِيِّ مَعَ الْمَوَاقِفِ الَّتِي سَيَمُرُّ بِهَا، فَالثَّبَاتُ وَالْمُبَادَرَةُ وَعُلُوُّ الْهِمَّةِ قِيَمٌ، إِذَا تَبَنَّاهَا الدَّاعِيَةُ جَنَبًا إِلَى جَنْب، وَوَاجَهَتْهُ مُشْكِلَةٌ تَحُولُ دُونَ وُصُولِهِ إِلَى هَدَفِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْقِيَمَ سَتَدْفَعُهُ بِقُوَّةٍ لِمُوَاجَهَةِ هَذِهِ الْعَوَائِقِ بَعِيدًا عَنِ الْعَجْزِ وَالإِسْتِسْلَامِ.

"إِنَّ الْقِيَمَ هي الشَّرطُ المُسْبَقُ الذي يُحَدِّدُ سُلُوكَ الذَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَيُنَظِّمُ مُقَوِّمَاتِ الْفِعْلِ الْإِنْسَانِيّ، وَهِيَ الْعِلَّةُ الْكَامِنَةُ وَرَاءَ كُلِّ سُلُوكٍ هَادِفٍ".[236]

---

[231] معجم اللغة العربية العاصرة 2/1878

[232] الصراع القيمي لدى الشباب ومواجهته من منظور التربية الإسلامية السيد الشحات، ص: 43

[233] القيم السلوكية، د. محمود عطا حسين، ص: 33

[234] يُنْظَرُ: بحث بعنوان: القيم الدعوية في السنة النبوية دراسة حديث: يَسِّرا وَلَا تُعَسِّرا، وَبَشِّرا وَلَا تُنَفِّرا، وَتَطَاوَعا وَلَا تَخْتَلفا، د. هِنْدُ بِنْتُ مُصْطَفَى شَرِيفي- بحث محكم في جامعة طيبة، ص: 11

[235] تَعَلُّمُ الْقِيَمِ وَتَعلِيمُهَا، د. مَاجِدُ زَكِي، ص: 24

[236] الْقِيَمُ فِي الْفِكْرِ الْغَرَبِيّ، د. عَبْدالوَدُودِ مَكْرُم، ص: 24

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ فَإِنَّ الدَّاعِيَةَ أَثْنَاءَ مُوَاجَهَتِهِ لِلْمَوَاقِفِ الدَّعْوِيَّةِ وَمُخَالَطَتِهِ لِلْمَدْعُوِّينَ؛ لَا يَسْلُكُ سُلُوكًا عَشْوَائِيًّا، وَإِنَّمَا يَسْلُكُ سُلُوكًا وَاعِيًا يَسْعَى بِهِ إِلَى تَحْقِيقِ هَدَفٍ مُعَيَّن، وَهُنَا يَأْتِي دَوْرُ قِيمَةِ الْبَصِيرَةِ الْمُنْطَلِقَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ} [يُوسُف: 108]، فَتَجْعَلُ الدَّاعِيَةَ يَسِيرُ بِتَدَرُّجٍ وَتَعَقُّلٍ، وَتُعْطِيهِ الدَّافِعَ الذي يَجْعَلُهُ يَبْذُلُ الْجُهْدَ لِإِتْقَانِ الْعَمَلِ وَتَجْوِيدِهِ، بَعِيدًا عَنِ التَّسَرُّعِ وَالْعَشْوَائِيَّةِ وَالْحَمَاسَةِ غَيْرِ الْمُنْضَبِطَةِ، وَحَرْقِ الْمَرَاحِلِ أو التَّدَرُّجِ وَعَدَمِ الإِتْقَانِ فِي الْعَمَلِ.

إِنَّ مَعْرِفَةَ الدَّاعِيَةِ بِقِيَمِهِ، وبدَوْرِهِ وَبِرِسَالَتِهِ سَتَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَى تَحْقِيقِ أَهْدَافِ دَعْوَتِهِ، وَهِيَ: "إِخْرَاجُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ."[237]

[237] يُنْظَر القِصَّةَ بِطُولِهَا فِي تَارِيخِ الرُّسُلِ وَالْمُلُوكِ 3/520، وَالْكَامِلِ فِي التَّارِيخِ لِابْنِ الْأَثِيرِ 2/297، وَالْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ لِابْنِ كَثِيرٍ 7/39 حَوَادِثَ سَنَةِ خَمْسَةَ عَشَرَ.

الفَصْلُ الثَّانِي: الأَدَبُ

المبحث الأول: الأدب ومكانته في الإسلام

لا شك أن الأدب في الإسلام أمرٌ مهمٌ جدًا. والأدب كلمة عظيمة، تعني جمال أخلاق العبد واجتماعُ خصال الخير فيه: في ظاهره وباطنه، وفي جوارحه، وفي حركاته وسكناته، وفي هيئته ومظهره، وفي قيامه وقعوده، وفي حِلِّه وترحاله، وفي معاملاته، وفي جميع شؤونه، فالأدب ملازم للمسلم في كل حال، بها تزكو نفسه، وتهذب أخلاقه، ويطيب قلبه، وبها تبتعد النفوس عن رعوناتها، والقلوب عن شرورها، والأخلاق عن رديئها، وسفسافها. وبها ترتفع منارات الدين، وتتسع رقعته، ويكثر دخول الناس فيه، وتأمل هذا -رعاك الله- في قول الله -تبارك وتعالى-: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران].

المطلب الأول: تعريفُ الأدبِ لغةً وعُرْفًا واصطلاحًا

- **الأدبُ لُغَةً:**

هو دُعَاءُ النَّاسِ، إذا دعوتُهم إلى شَيءٍ. وسُمِّيَتْ المأدبة: مأدبةً؛ لأنَّه يدعى النَّاسِ فيها إلى الطَّعامِ. والآدِبْ، هو الدَّاعي. وكذلك، فإنَّ الأدَبَ أمرٌ قد أُجْمِعَ على اسْتِحْسَانِهِ[238].

- **الأدبُ عُرْفًا:**

ذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي شَرْحِهِ لِكِتابِ الأَدَبِ، مِنْ صَحيحِ الإمامِ البُخاريّ رَحِمَهُ اللَّه، قَالَ: الأَدَبُ اسْتِعْمالُ مَا يُحْمَدُ قَوْلًا وَفِعْلًا. وَعَبَّرَ بَعْضُهُمْ عَنْهُ: بِأَنَّهُ الأَخْذُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلاقِ. وَقِيلَ: الوُقوفُ مَعَ الأُمورِ الْمُسْتَحْسَنَةِ، وَقِيلَ: هوَ تَعْظيمُ مَنْ فَوْقَكَ، والرِّفْقُ بِمَنْ دونَكَ.[239]

والْأَدَبُ كَذَلِكَ مِمَّا وَرَدَ فِي تَعْرِيفِهِ: حُسْنُ الأَخْلاقِ، وَفِعْلُ المَكارِمِ. والْأَدَبُ الَّذِي يَتَأَدَّبُ بِهِ الأَديبُ مِنْ النّاسِ، سُمِّيَ أَدَبًا؛ لِأَنَّهُ يَأْدَبُ النّاسَ إِلَى المَحامِدِ، وَيَدْعُوهم إِلَيْهَا.

وَجَاءَ فِي المِصْباحِ عَنْ الأَدَبِ: تَعَلُّمُ رياضَةِ النَّفْسِ، وَمَحاسِنِ الأَخْلاقِ. وَقِيلَ: الأَدَبُ مَلَكَةٌ تَعْصِمُ مَنْ قَامَتْ بِهِ عَمَّا يَشِينُهُ.

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "الأَدَبُ اجْتِماعُ خِصالِ الخَيْرِ فِي العَبْدِ، وَمِنْهُ المَأْدُبَةُ: الطَّعامُ الَّذِي يَجْتَمِعُ عَلَيْهُ النّاسُ".[240]

وَكَذَلِكَ يُطْلَقُ الأَدَبُ فِي اللُّغَةِ: عَلَى الجَمْعِ. وَسُمِّيَ الأَدَبُ أَدَبًا؛ لِأَنَّهُ يَأْدَبُ النّاسَ، يَعْنِي: يَجْمَعُهُمْ إِلَى المَحامِدِ.

والْأَدَبُ، هوَ: الخِصالُ الحَميدَةُ.

- **جَوانِبُ اسْتِعْمالاتِ كَلِمَةِ الأَدَبِ:**

أَمَّا اسْتِعْمالاتُ كَلِمَةِ الأَدَبِ فِي كُتُبِ أَهْلِ العِلْمِ، فَإِنَّهَا تَأْتِي بِمَعْنَى: خِصالِ الخَيْرِ، مِثْلُ آدَابِ الطَّعامِ، وَآدابِ الشَّرابِ، وَآدابِ النِّكاحِ، وَآدابِ القَضاءِ، وَآدابِ الفُتْيَا، وَآدابِ المَشْيِ، وَآدابِ النَّوْمِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَلِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا مُصَنَّفاتٌ.

---

[238] مقاييس اللغة لابن فارس.

[239] فَتْحُ البَارِي: 10/ 400

[240] مَدارِجُ السَّالِكِينَ 355/2

- **الأَدَبُ فِي اصْطِلاحِ الفُقَهاءِ:**

يُطْلِقُ بَعْضُ الفُقَهاءِ: كَلِمَةَ آدَابٍ عَلَى كُلِّ مَا هوَ مَطْلوبٌ، سَواءٌ كَانَ وَاجِبًا أَوْ مَنْدُوبًا، وَلِذَلِكَ بَوَّبُوا فَقَالُوا: آدَابُ الخَلاءِ والِاسْتِنْجاءِ، مَعَ أَنَّ مِنْهَا مَا هوَ مُسْتَحَبٌّ، وَمِنْهَا مَا هوَ واجِبٌ، فَكَلِمَةُ أَدَب أَوْ آدَابٌ، أَوْ أَنَّ هَذَا الشَّيْءَ مِنْ الْآدَابِ، لَا يَعْنِي أَنَّهُ مُسْتَحَبٌّ فَقَطْ، بَلْ رُبَّمَا يَكونُ وَاجِبًا.

وَقَدْ نَثَرَ الفُقَهاءُ اَلْآدَابَ عَلَى أَبْوابِ الفِقْهِ، فَذَكَرُوا فِي كُلِّ بَابٍ مَا يَخُصُّهُ مِنْ الْآدَابِ، وأفرَدوها بالبَيانِ عن الأحْكام الفِقْهِيَّة نَفْسِها.

المطلبُ الثَّاني: الفَرْقُ بَيْنَ الأَدَبِ والْخُلُقِ

سُئِلَ اَلدُّكْتورُ صالِحُ الفَوْزَانِ: مَا الفَرْقُ بَيْنَ الأَدَبِ والْخُلُقِ، وَهَلْ يَدْخُلُ حَسَنُ الأَدَبِ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وأقربِكُم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنَكُم أخلاقًا"[241]؟

فَأَجَابَ: نَعَمْ، الخُلُقُ هوَ الأَدَبُ نَفْسُهُ، التَّخَلُّقُ بِالْأَخْلَاقِ الفاضِلَةِ، والشِّيَمِ الكَرِيمَةِ، هَذِهِ هِيَ الْآدَابُ، سَمِّها آدَابًا أَوْ سَمِّها أَخْلَاقًا بِمَعْنًى واحِد، وَلَكِنَّ الخُلُقَ إِذَا أُطْلِقَ يُرادُ بِهِ سِعَةُ الْبَالِ، وَالمُرَادُ بِالْحَدِيثِ: أَنْ يَكونَ الإِنْسانُ واسِعَ الْبَالِ مَعَ إِخْوانِهِ، يَسَعَهُمْ بِخُلُقِهِ وَيَتَلَطَّفُ وَيَرْفُقُ بِهِمْ.

المطلبُ الثَّالثُ: بعضُ الآدابِ في النُّصُوصِ الشَّرعية

حَثَّ الإسلام المسلم أن يعتني بالآداب في أولاده وذويه، ولا يتغافل عنهم، ويذكرهم ويؤدبهم بآداب الإسلام، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً} [التحريم: 6]. قال عليّ رَضَيَ اللهُ عنه في معنى الآية: "علموهم وأدبوهم"[242]. وقال مجاهد رحمه الله: "أَوْصُوا أَنفُسَكُم وَأَهْلِيكُم بِتَقْوَى الله وَأَدِّبُوهُم"[243].

- **ومما جاء في النصوص الشرعية في المعاني التي تتعلق بالأدب والتأديب:**

قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ" وذكر منهم: "الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ، فَيُعَلِّمُها فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يَعْتِقُهَا، فَيَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَان"[244].

وجاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كلُّ شيءٍ ليس من ذِكْرِ اللهِ فهو لَهْوٌ أو سَهْوٌ إلا أربعَ خِصَالٍ: مَشْيُ الرجلِ بينَ الغَرَضَيْنِ - المَرْمَى - وتأديبُه فَرَسَهُ ومُلَاعَبَتُهُ أهلَه وتعليمُه السِّبَاحَةَ"[245].

والأدب بهذه اللفظة، جاءت في حديث جابر رضي الله عنه عندما تزوج ثَيِّبًا، وسأله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبره أنه تزوج بثيب، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هلْ تَزَوَّجْتَ بِكْرًا أمْ ثَيِّبًا؟ فَقُلْتُ: تَزَوَّجْتُ ثَيِّبًا. فَقالَ: هَلَّا تَزَوَّجْتَ بِكْرًا تُلَاعِبُهَا وتُلَاعِبُكَ؟ قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، تُوُفِّيَ والِدِي -أوِ اسْتُشْهِدَ- ولِي أخَوَاتٌ صِغَارٌ، فَكَرِهْتُ أنْ أتَزَوَّجَ مِثْلَهُنَّ، فلا

---

[241] صحيح الترمذي 2018

[242] جامع البيان في تأويل القرآن 491/23

[243] معجم غريب القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، ص: 68

[244] رواه البخاري 3011، ومسلم 404

[245] أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (8940)، والبزار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (272/5)، والطبراني (193/2) (1785) باختلاف يسير

تُؤَدِّبُهُنَّ، ولَا تَقُومُ عليهِنَّ، فَتَزَوَّجْتُ ثَيِّبًا لِتَقُومَ عليهِنَّ وتُؤَدِّبَهُنَّ"[246]. يعني: أتزوج صغيرة لا تستطيع التأديب فلا تؤدبهن، ولا تقيم عليهن، فتزوجت ثيبا؛ لتقوم عليهنّ، وتؤدبهن.

المطلبُ الثَّالثُ: مَكَانَةُ الأدَبِ في هَرَمِ الإسْلَامِ

الإسْلامُ هَرَمٌ مُقَسَّمٌ إلَى أَرْبَعَةِ أَقْسامٍ: عَقائِدٌ وَعِباداتٌ وَمُعامَلاتٌ وَآدابٌ، فَإِذَا صَحَّتْ عَقيدَةُ المُسْلِمِ، وَصَحَّتْ عِبادَتُهُ ومُعامَلاتُهُ، بَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَضَعَ تَاجًا عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ الأَدَبُ.

- **القِسْمُ الأَوَّلُ وَهُوَ القِسْمُ العُلْويُّ: اَلْعَقيدَةُ:**

وَهُوَ أَعْظَمُ قِسْمٍ فِي الدّينِ، وَأَخْطَرُ شَيْءٍ فيه، إِنْ صَحَّتْ صَحَّ العَمَلُ وسَلِمَ العَبْدُ وَسَعِدَ فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ العَمَل وَهَلَكَ العَبْدُ وَشَقِيَ فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ.

- **القِسْمُ الثَّانِي: قِسْمُ العِبَادَاتِ:**

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:56]، فالإِنْسانُ مَخْلوقٌ لِعِبادَةِ اللَّهِ عز وجل، ومن العبادات: الصَّلَاةُ والتي هي عِمادُ الدّينِ، والصَّوْمُ والْحَجُّ والزَّكاةُ.

- **الْقِسْمُ الثّالِثُ: قِسْمُ المُعامَلاتِ:**

منها: البَيْعُ، وَالشِّرَاءُ، والزَّواجُ، والطَّلاقُ والْكَفالَةُ، وَالحَوالَةُ.

- **القسم الرّابِعُ الْآدَابُ:**

الْآدابُ شَيْءٌ مُتَمَيِّزٌ فِي الإسْلامِ، فَالْمُؤْمِنُ لَا يُعْرَفُ مِنْ صَلاتِهِ، وَحَجِّه، وَزَكاتِهُ، وَإِنَّمَّا يُعْرَفُ مِنْ آدَابِهِ، فُهُوَ الشَّيْءُ الصَّارِخُ، المُمَيِّزُ، إِذَا أَكَلَ، إِذَا جَلَسَ، إِذَا تَكَلَّمَ، إِذَا سَارَ، إِذَا أَلْقَى كَلِمَةً فَإِنَّهُ يُعْرَفُ بِالْأَدَبِ، فَالْأَدَبُ أَصْلٌ مِنْ أُصولِ الدّينِ، وَهَوَ اَلَّذِي يَجْذِبُ غَيْرَ المُسْلِمِينَ إِلَى الإسْلامِ، وَيُعْطِي لِمَزايا الإسْلامِ المِصْداقيَّةَ، وَعَكْسُ ذَلِكَ: مَنْ كَانَ مِنَ المُعَرِّفِيْنَ بِالْإِسْلَامِ، أَخْلَاقُهُ فِي وَادٍ، والْإِسْلامُ فِي وَادٍ آخر، ولا ريبَ أَنَّ هَذَا يُنَفِّرُ النّاسَ وَيُبْعِدُهُمْ عَنْ الإسْلامِ.

[246] أخرجه البخاري (2967)، ومسلم (715)

المبحث الثاني: أنواع الأدب

لِلْأَدَبُ أَنْواعٌ، مِنْهُ:

أَوَّلًا: أَدَبٌ مَعَ اللَّهِ عزوجل.

ثَانِيًا: أَدَبٌ مَعَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثَالِثًا: أَدَبٌ مَعَ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

رَابِعًا: الأَدَبُ مَعَ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَتَقْدِيرُهُمْ.

خَامِسًا: الأَدَبُ مَعَ الخَلْقِ.

المطلبُ الأوَّلُ: الأَدَبُ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

إِذَا كَانَ زِينَةُ الْمَرْءِ وَكَمَالُهُ فِي خُلُقِهِ وَأَدَبِهِ، فَإِنَّ الأَدَبَ مَعَ اللَّهِ -تَعَالَى- هُوَ الأَدَبُ الأَتَمُّ، وَالْخُلُقُ الْأَجَلُّ.

وَالْأَدَبُ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَقْتَضِي تَوْحِيدَه وَتَعْظِيمَهُ، وَذِكْرَهُ وَشُكْرَهُ، وَطَاعَةَ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَالْحَيَاءَ مِنْهُ، وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، وَالتَّوَدُّدَ إِلَيْهِ، وَهَذَا يَشْمَلُ الْقَلْبَ وَاللِّسَانَ وَالْجَوَارِحَ، كما يَقْتَضِي التَّوَجُّهَ إِلَيْهِ، وَإِرْجَاعَ الْأَمْرِ لَهُ، قَالَ تَعَالَى: {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [هُود: 123]،

- **أما الأدب مع الله عز وجل، فله أمثلةٌ كثيرة؛ منها:**

1. **إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَتَرْكُ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وهو أَعْظَمُ الْأَدَبِ وَأَهَمُّهُ وَأَوْجَبُهُ:** كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 162-163]، فَلَا يَدْعُو إِلَّا اللَّهَ، وَهُوَ إِظْهَارُ غَايَةِ التَّذَلُّلِ وَالِافْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ، وَالِاسْتِكَانَةِ لَهُ.[247]

2. **الإِيمَانُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ،** كَما جاءَتْ في كِتابِهِ الكَرِيمِ، وعلى لِسانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف:180].

وأَنْ يُوصَفَ بِهَا سُبحانَه وتَعَالَى عَلَى الوَجْهِ اللائِقِ بِهِ، من غَيرِ تَحْرِيفٍ، ولا تَعْطِيلٍ، ولا تَكْيِيفٍ، وَلا تَمْثِيل.

وَأَنْ تُثْبَتَ أسماؤهُ وصِفاتُهُ كَما جاءَت فِي القُرآنِ، والسُنَّةِ الصَحِيحَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَرضَى ويَغْضَبُ ويَرحَمُ، ويُعْطِي ويَمنعُ، ويَضْحَكُ وَيَتَكَلَّمُ، وأنه سُبْحَانَهُ قَد اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ اسْتواءً يَلِيقُ بِجَلالِهِ وَعَظَمَتِهِ، لا يُشَابِهُ خَلْقَهُ في اسْتِوائِهِم وَلَا فِي صِفَاتِهِمْ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى:11]، ويَقُولُ تَعَالَى: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل:74].

3. **اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ،** وَالتَّمَسُّكُ بِهِ، وَالْحَذَرُ مِمَّا يُخَالِفُهُ، مَعَ اتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَتَعْظِيمِهَا وَالْحَذَرُ مِمَّا يُخَالِفُهُمَا وَالتَّصْدِيقُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ، وَمِنْ ذَلِكَ عَالَمُ الْبَرْزَخِ، وَسُؤَالُ الْمَلَكَيْنِ فِي الْقَبْرِ، وَالْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ، وَالنَّارُ وَمَا فِيهَا مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: 87].

[247] فتح الباري لابن حجر العسقلاني - ج11 - ص 98

4. **طَاعَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؛ لِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِيْ أَرْسَلَهُ لِلنَّاسِ، وَكَلَّفَهُ بِالرِّسَالَةِ السَّمَاوِيَّةِ[248]، قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: 52]، وقال تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء: 80].

وَقال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ".[249]

5. نَهْيُ المصَلِّي عَن رَفعِ بَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقًا خافضًا طرفه إلى الأرض، ولا يرفع بصره إلى فوق، قال: والجهمية لما لم يفقهوا هذا الأدب ولا عرفوه"؛ لأنهم يُنكرون أنَّ الله فوق سماواته، وهذا من جهلهم ... إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض، ولا يرفع بصره إليهم، فما الظن بملك الملوك سبحانه ؟!

6. النَّهي عن قراءةِ القرآنِ في الرُّكوع والسُّجود:

وقال شيخ الإسلام في مسألة النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود: إنها من الأدب مع الله عز وجل؛ لأن القرآن كلام الله، قال: "وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد، فمن الأدب مع كلام الله: أنْ لا يقرأ في هاتين الحالتين"[250] يعني: في الركوع والسجود؛ لأنهما حالتا ذلٍ وانخفاض.

7. **أَلا يَسْتَقْبِلْ بيتَه في قضاءِ الحَاجَةِ، ولا يَسْتَدْبِر**: ورجح ابن القيم رحمه الله: أن هذا الأدب يعم الفضاء والبنيان[251].

8. **فِي الوُقُوفِ فِي الصَّلَاةِ:** بأن يضع يده اليمنى على اليسرى على صدره وهو يقف بين يدي ربه حال قيام القراءة. ولا شك أن هذا من أنواع الأدب مع الله عز وجل.

9. السُّكُونُ فِي الصَّلَاةِ:

وَهُوَ الدَّوَامُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} [المعارج: ٢٣]. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنِ ابْنِ لَهِيعَةَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ: أَنَّ أَبَا الْخَيْرِ أَخْبَرَهُ قَالَ: سَأَلْنَا عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} [المعارج: ٢٣] أَهُمُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ دَائِمًا؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّهُ إِذَا صَلَّى لَمْ يَلْتَفِتْ عَنْ يَمِينِهِ، وَلَا عَنْ شِمَالِهِ وَلَا خَلْفَهُ.

قُلْتُ: هُمَا أَمْرَانِ: الدَّوَامُ عَلَيْهَا، وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَيْهَا. فَهَذَا الدَّوَامُ، وَالْمُدَاوَمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [المعارج: ٣٤] وَفُسِّرَ الدَّوَامُ بِسُكُونِ الْأَطْرَافِ وَالطُّمَأْنِينَةِ.

وَأَدَبِهِ فِي اسْتِمَاعِ الْقِرَاءَةِ: أَنْ يُلْقِيَ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

وَأَدَبُهُ فِي الرُّكُوعِ: أَنْ يَسْتَوِيَ. وَيُعَظِّمَ اللَّهَ تَعَالَى، حَتَّى لَا يَكُونَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَيَتَضَاءَلَ وَيَتَصَاغَرَ فِي نَفْسِهِ. حَتَّى يَكُونَ أَقَلَّ مِنَ الْهَبَاءِ.[252]

10. وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعَالَى الحَدِيثُ بِاللغَةِ التِّي خَاطَبَنَا بِهَا اللهُ تَعَالَى وَرَسُوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ اللغَةُ العَرَبِيَّةُ الفُصْحَى، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ تَعَلُّمَهَا وَنَشْرَهَا مِنْ نَشْرِ الدِّينِ، وَهِيَ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهَا اللغَة التِّي خَاطَبَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ، وَخَاطَبَنَا بِهَا خَيْرُ البَرِيَّةِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

11. وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعَالَى أن لا تقول كلمةً إلا وهي صادقة فأنت تعلم أن الله يسمعك.

---

[248] موسوعة الأخلاق (خالد جمعة الخراز) ص 134: ص 152

[249] البخاري 7137، مسلم 1835

[250] مدارج السالكين 2/385-386

[251] المصدر السابق 2/386

[252] مدارج السالكين، ص: 2/369

• أَدَبُ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

يقولُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: (تَأَمَّلْ أَحْوَالَ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ مَعَ اللَّهِ، وَخِطَابَهُمْ وَسُؤَالَهُمْ. كَيْفَ تَجِدُهَا كُلَّهَا مَشْحُونَةً بِالْأَدَبِ قَائِمَةً بِهِ؟

1- **قَالَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:** {إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ} [المائدة: 116] وَلَمْ يَقُلْ: لَمْ أَقُلْهُ. وَفَرْقٌ بَيْنَ الْجَوَابَيْنِ فِي حَقِيقَةِ الْأَدَبِ. ثُمَّ أَحَالَ الْأَمْرَ عَلَى عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ بِالْحَالِ وَسِرِّهِ، فَقَالَ: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي} [المائدة: 116] ثُمَّ بَرَّأَ نَفْسَهُ عَنْ عِلْمِهِ بِغَيْبِ رَبِّهِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ {وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [المائدة: 116].

ثُمَّ أَثْنَى عَلَى رَبِّهِ، وَوَصَفَهُ بِتَفَرُّدِهِ بِعِلْمِ الْغُيُوبِ كُلِّهَا، فَقَالَ {إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة: 116].

ثُمَّ نَفَى أَنْ يَكُونَ قَالَ لَهُمْ غَيْرَ مَا أَمَرَهُ رَبُّهُ بِهِ - وَهُوَ مَحْضُ التَّوْحِيدِ - فَقَالَ: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} [المائدة: 117].

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ شَهَادَتِهِ عَلَيْهِمْ مُدَّةَ مُقَامِهِ فِيهِمْ، وَأَنَّهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَا اطِّلَاعَ لَهُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بَعْدَ الْوَفَاةِ بِالِاطِّلَاعِ عَلَيْهِمْ. فَقَالَ: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ} [المائدة: 117].

ثُمَّ وَصَفَهُ بِأَنَّ شَهَادَتَهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ كُلِّ شَهَادَةٍ وَأَعَمُّ، فَقَالَ: {وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المائدة: 117].

ثُمَّ قَالَ: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ} [المائدة: 118] وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ، أَيْ شَأْنُ السَّيِّدِ رَحْمَةُ عَبِيدِهِ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ، وَهَؤُلَاءِ عَبِيدُكَ لَيْسُوا عَبِيدًا لِغَيْرِكَ، فَإِذَا عَذَّبْتَهُمْ - مَعَ كَوْنِهِمْ عَبِيدَكَ - فَلَوْلَا أَنَّهُمْ عَبِيدُ سُوءٍ مِنْ أَبْخَسِ الْعَبِيدِ، وَأَعْتَاهُمْ عَلَى سَيِّدِهِمْ، وَأَعْصَاهُمْ لَهُ - لَمْ تُعَذِّبْهُمْ؛ لِأَنَّ قُرْبَةَ الْعُبُودِيَّةَ تَسْتَدْعِي إِحْسَانَ السَّيِّدِ إِلَى عَبْدِهِ وَرَحْمَتَهُ. فَلِمَاذَا يُعَذِّبُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، وَأَعْظَمُ الْمُحْسِنِينَ إِحْسَانًا عَبِيدَهُ؟ لَوْلَا فَرْطُ عُتُوِّهِمْ، وَإِبَاؤُهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ، وَكَمَالُ اسْتِحْقَاقِهِمْ لِلْعَذَابِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ: {إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة: 116] أَيْ هُمْ عِبَادُكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِسِرِّهِمْ وَعَلَانِيَتِهِمْ، فَإِذَا عَذَّبْتَهُمْ: عَذَّبْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْكَ بِمَا تُعَذِّبُهُمْ عَلَيْهِ، فَهُمْ عِبَادُكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا جَنَوْهُ وَاكْتَسَبُوهُ، فَلَيْسَ فِي هَذَا اسْتِعْطَافٌ لَهُمْ، كَمَا يَظُنُّهُ الْجُهَّالُ، وَلَا تَفْوِيضٌ إِلَى مَحْضِ الْمَشِيئَةِ وَالْمُلْكِ الْمُجَرَّدِ عَنِ الْحِكْمَةِ، كَمَا تَظُنُّهُ الْقَدَرِيَّةُ. وَإِنَّمَا هُوَ إِقْرَارٌ وَاعْتِرَافٌ وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَكَمَالِ عِلْمِهِ بِحَالِهِمْ، وَاسْتِحْقَاقِهِمْ لِلْعَذَابِ.

ثُمَّ قَالَ: {وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: 118] وَلَمْ يَقُلِ: الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ قَالَهُ فِي وَقْتِ غَضَبِ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ، وَالْأَمْرِ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَلَيْسَ هُوَ مَقَامَ اسْتِعْطَافٍ وَلَا شَفَاعَةٍ، بَلْ مَقَامُ بَرَاءَةٍ مِنْهُمْ، فَلَوْ قَالَ: فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ؛ لَأَشْعَرَ بِاسْتِعْطَافِهِ رَبَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِ الَّذِينَ قَدِ اشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَيْهِمْ، فَالْمَقَامُ مَقَامُ مُوَافَقَةٍ لِلرَّبِّ فِي غَضَبِهِ عَلَى مَنْ غَضِبَ الرَّبُّ عَلَيْهِمْ، فَعَدَلَ عَنْ ذِكْرِ الصِّفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يُسْأَلُ بِهِمَا عَطْفَهُ وَرَحْمَتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ إِلَى ذِكْرِ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ، الْمُتَضَمِّنَتَيْنِ لِكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَكَمَالِ الْعِلْمِ، وَالْمَعْنَى: إِنْ غَفَرْتَ لَهُمْ فَمَغْفِرَتُكَ تَكُونُ عَنْ كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ، لَيْسَتْ عَنْ عَجْزٍ عَنِ الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ، وَلَا عَنْ خَفَاءٍ عَلَيْكَ بِمِقْدَارِ جَرَائِمِهِمْ، وَهَذَا؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَغْفِرُ لِغَيْرِهِ لِعَجْزِهِ عَنِ الِانْتِقَامِ مِنْهُ؛ وَلِجَهْلِهِ بِمِقْدَارِ إِسَاءَتِهِ إِلَيْهِ. وَالْكَمَالُ: هُوَ مَغْفِرَةُ الْقَادِرِ الْعَالِمِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَكَانَ ذِكْرُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَيْنَ الْأَدَبِ فِي الْخِطَابِ.

وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ حَمَلَةُ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ: اثْنَانِ يَقُولَانِ: "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ. لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ". وَاثْنَانِ يَقُولَانِ: "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ"، وَلِهَذَا يَقْتَرِنُ كُلٌّ مِنْ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ بِالْأُخْرَى كَقَوْلِهِ: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ} [النساء: 12] وَقَوْلِهِ: {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: 149].

2- **قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٧٨] وَلَمْ يَقُلْ: وَإِذَا أَمْرَضَنِي. حِفْظًا لِلْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ.

3- **وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّفِينَةِ** {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا} [الكهف: 79] وَلَمْ يَقُلْ: فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ أَعِيبَهَا. وَقَالَ فِي الْغُلَامَيْنِ: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} [الكهف: 82].

4- **وَكَذَلِكَ قَوْلُ مُؤْمِنِي الْجِنِّ:** {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ} [الجن: 10] وَلَمْ يَقُولُوا: أَرَادَهُ بِهِمْ، ثُمَّ قَالُوا: {أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: 10].

5- **وَأَلْطَفُ مِنْ هَذَا قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ** {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [القصص: 24] وَلَمْ يَقُلْ: أَطْعِمْنِي.

6- **وَقَوْلُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ** {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: 23] وَلَمْ يَقُلْ: رَبِّ قَدَرْتَ عَلَيَّ وَقَضَيْتَ عَلَيَّ.

7- **وَقَوْلُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ** {مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: 83]. وَلَمْ يَقُلْ: فَعَافِنِي وَاشْفِنِي.

8- **وَقَوْلُ يُوسُفَ لِأَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ:** {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ} [يوسف: 100] وَلَمْ يَقُلْ: أَخْرَجَنِي مِنَ الْجُبِّ، حِفْظًا لِلْأَدَبِ مَعَ إِخْوَتِهِ. وَتَفَتِّيًا عَلَيْهِمْ: أَنْ لَا يُخْجِلَهُمْ بِمَا جَرَى فِي الْجُبِّ، وَقَالَ {وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ} [يوسف: 100] وَلَمْ يَقُلْ: رَفَعَ عَنْكُمْ جُهْدَ الْجُوعِ وَالْحَاجَةَ أَدَبًا مَعَهُمْ. وَأَضَافَ مَا جَرَى إِلَى السَّبَبِ. وَلَمْ يُضِفْهُ إِلَى الْمُبَاشِرِ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْهُ، فَقَالَ: {مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي} [يوسف: 100] فَأَعْطَى الْفُتُوَّةَ وَالْكَرَمَ وَالْأَدَبَ حَقَّهُ. وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ كَمَالُ هَذَا الْخُلُقِ إِلَّا لِلرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ)[253].

● أمور يَتَحَقَّقُ بها الأدبُ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

قال الشيخ محمد بن العثيمين رحمه الله:

الأَدَبُ في معاملة الخالق يجمع ثلاثة أمور:

1. تلقي أخبار الله تعالى بالتصديق.
2. تلقي أحكامه بالتنفيذ والتطبيق.
3. تلقي أقداره بالصبر والرضا.[254]

هذه ثلاثة أشياء عليها مدار حسن الأدب مع الله تعالى.

أَوَّلًا: بِأَنْ يَتَلَقَّى العَبْدُ أَحْكَامَ اللَّهِ بِالْقَبُولِ وَالتَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ وَيُصَدِّق أخباره، فَلَا يَرُدُّ شَيْئًا مِنْهَا، فَإِذَا رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ، فَهَذَا سُوءُ خُلُقٍ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، سَوَاءٌ رَدَّهَا مُنْكِرًا حُكْمَهَا، أَوْ مُسْتَكْبِرًا عَنِ الْعَمَلِ بِهَا، أَوْ مُتَهَاوِنًا بِالْعَمَلِ بِهَا، قَالَ

[253] مدارج السالكين 2/360-358

[254] مكارم الأخلاق ص 13، للشيخ محمد بن صالح العثيمين. بتصرف

تَعَالَى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب: 36].

ثَانِيًا: وَأَنْ يَتَلَقَّى الْمُسْلِمُ أَقْدَارَ اللَّهِ بِالرِّضَا وَالصَّبْرِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ، قَالَ تَعَالَى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 155].

ثَالِثًا: وأن يَتَلقّى أخبار الله تعالى بالتصديق، بحيث لا يقع عند الإنسان شك أو تردد في تصديق خبر الله تعالى لأن خبر الله سبحانه وتعالى صادر عن علم وهو أصدق القائلين كما قال تعالى عن نفسه: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: 87].

المطلب الثاني: الأَدَبُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إِنَّ الْأَدَبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هُوَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْأَدَبِ، بَعْدَ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ -تَعَالَى-، وَالْأَدَبُ مَعَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أَدَبٌ مَعَ اللهِ -تَعَالَى- أَوَّلًا؛ لِأَنَّهُ أَدَبٌ مَعَ مُرْسِلِهِ -تَعَالَى-، كَمَا أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَاعَةِ اللهِ -تَعَالَى-، قَالَ اللهُ تَعَالَى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء:80].

وَلَيْسَ الْأَدَبُ مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُجَرَّدَ كَلِمَاتٍ وَمَدَائِحَ خَالِيَةٍ مِنَ الِاتِّبَاعِ وَالْعَمَلِ، بَلْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِمَحَبَّةٍ صَادِقَةٍ تَسْتَوْجِبُ اتِّبَاعَهُ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ، وَاجْتِنَابَ كُلِّ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَاتِّخَاذَهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قُدْوَةً فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، فِي السَّمْتِ وَالْعَمَلِ، فِي الْخُلُقِ وَالْمُعَامَلَةِ، فَاللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَقْبَلُ دَعْوَةَ مَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ، قَالَ تَعَالَى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 31، 32].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ".[255]

بِرَبِّكُم، لَوْ سَأَلْتُ اثنين مِلْيَارِ مُسْلِمٍ: "أَتُحِبُّونَ رَسُولَ اللهِ؟" ثم أَجَابَ أَحَدُهُم بِمِلءِ فِيهِ: "نَعَمْ"، وَلَا يُوجَدُ لَدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِنِصْفِ مَالِهِ أَوْ رُبْعِهِ أَوْ بِنِسْبَةٍ مِنْهُ لِتَعْلِيمِ الْآخَرِينَ سُنَّتَهُ وَسِيرَتَهُ والمُسَاهَمَةَ فِي التَّعْرِيفِ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ تُدْعَى هَذِهِ مَحبَّةٌ؟! إِذًا هَذَا اِدِّعَاءٌ كَاذِبٌ.

وحِينَمَا قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا"، أي: أَنْ يَكُونَ اللهُ فِي قُرْآنِهِ، وَالنَّبِيُّ فِي سُنَّتِهِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَمِنْ ثَمَّ عِنْدَمَا تَتَعَارَضُ مَصْلَحَتُكَ مَعَ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، تَقِفُ مَعَ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ ضَارِبًا بِمَصْلَحَتِكَ عَرْضَ الحَائِطِ، وَلِسَانُ حَالِكَ يَقُولُ: "مَعَاذَ اللهِ أَنْ أَعْصِيَهُ" عِنْدَئِذٍ تَذُوقُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، وَحَلَاوَةُ الْإِيمَانِ شَيْءٌ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ ذَاقَهُ.

[255] رواه البخاري 16، ومسلم 43

• وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

1. **أَنْ لَا يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ،** وَلَا إِذَنٍ وَلَا تَصَرُّفٍ. حَتَّى يَأْمُرَ هُوَ، وَيَنْهَى وَيَأْذَنَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الحجرات: 1] وَهَذَا بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَمْ يُنْسَخْ. فَالتَّقَدُّمُ بَيْنَ يَدَيْ سُنَّتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، كَالتَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي حَيَّاتِهِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا عِنْدَ ذِي عَقْلٍ سَلِيمٍ.

قَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا تَفْتَاتُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: تَقُولُ الْعَرَبُ: لَا تُقَدِّمْ بَيْنَ يَدَيِ الْإِمَامِ وَبَيْنَ يَدَيِ الْأَبِ، أَيْ لَا تُعَجِّلُوا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ دُونَهُ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: لَا تَأْمُرُوا حَتَّى يَأْمُرَ. وَلَا تَنْهُوا حَتَّى يَنْهَى.

2. **وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَهُ: أَنْ لَا تُرْفَعَ الْأَصْوَاتُ فَوْقَ صَوْتِهِ.** فَإِنَّهُ سَبَبٌ لِحُبُوطِ الْأَعْمَالِ فَمَا الظَّنُّ بِرَفْعِ الْآرَاءِ، وَنَتَائِجِ الْأَفْكَارِ عَلَى سُنَّتِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ؟ أَتُرَى ذَلِكَ مُوجِبًا لِقَبُولِ الْأَعْمَالِ، وَرَفْعُ الصَّوْتِ فَوْقَ صَوْتِهِ مُوجِبٌ لِحُبُوطِهَا؟

3. **وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَهُ: أَنْ لَا يَجْعَلَ دُعَاءَهُ كَدُعَاءِ غَيْرِهِ.** قَالَ تَعَالَى: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} [النور: ٦٣] وَفِيهِ قَوْلَانِ لِلْمُفَسِّرِينَ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّكُمْ لَا تَدْعُونَهُ بِاسْمِهِ، كَمَا يَدْعُو بَعْضُكُمْ بَعْضًا، بَلْ قُولُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَعَلَى هَذَا: الْمَصْدَرُ مُضَافٌ إِلَى الْمَفْعُولِ، أَيْ دُعَاءَكُمُ الرَّسُولَ.

الثَّانِي: أَنَّ الْمَعْنَى: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَهُ لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ دُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا. إِنْ شَاءَ أَجَابَ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ، بَلْ إِذَا دَعَاكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بُدٌّ مِنْ إِجَابَتِهِ، وَلَمْ يَسَعْكُمُ التَّخَلُّفُ عَنْهَا أَلْبَتَّةَ. فَعَلَى هَذَا: الْمَصْدَرُ مُضَافٌ إِلَى الْفَاعِلِ، أَيْ دُعَاؤُهُ إِيَّاكُمْ.

4. **وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَهُ: أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ - مِنْ خُطْبَةٍ، أَوْ جِهَادٍ، أَوْ رِبَاطٍ - لَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَذْهَبًا فِي حَاجَتِهِ حَتَّى يَسْتَأْذِنَهُ.** كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ} [النور: ٦٢].

فَإِذَا كَانَ هَذَا مَذْهَبًا مُقَيَّدًا بِحَاجَةٍ عَارِضَةٍ، وَلَمْ يُوَسِّعْ لَهُمْ فِيهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَكَيْفَ بِمَذْهَبٍ مُطْلَقٍ فِي تَفَاصِيلِ الدِّينِ: أُصُولِهِ، وَفُرُوعِهِ، دَقِيقِهِ، وَجَلِيلِهِ؟ هَلْ يُشْرَعُ الذَّهَابُ إِلَيْهِ بِدُونِ اسْتِئْذَانِهِ؟ {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣].

5. **وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَهُ: أَنْ لَا يُسْتَشْكَلَ قَوْلُهُ: بَلْ تُسْتَشْكَلُ الْآرَاءُ لِقَوْلِهِ:** وَلَا يُعَارَضُ نَصُّهُ بِقِيَاسٍ بَلْ تُهْدَرُ الْأَقْيِسَةُ وَتُلْقَى لِنُصُوصِهِ. وَلَا يُحَرَّفُ كَلَامُهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ لِخَيَالٍ يُسَمِّيهِ أَصْحَابُهُ مَعْقُولًا، نَعَمْ هُوَ مَجْهُولٌ، وَعَنِ الصَّوَابِ مَعْزُولٌ، وَلَا يُوقَفُ قَبُولُ مَا جَاءَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مُوَافَقَةِ أَحَدٍ، فَكُلُّ هَذَا مِنْ قِلَّةِ الْأَدَبِ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَيْنُ الْجُرْأَةِ.

6. **التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،** وَالِاعْتِقَادُ بِصِحَّةِ كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَمَا أَخْبَرَ عَنْ أُمُورِ الْغَيْبِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ لِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: 1 - 4])[256].

---

[256] مدارج السالكين 2/369-368

المطلبُ الثَّالثُ: الأدَبُ مع صَحابَة النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مَعْشَر الدُّعاة: "مَنْ كَانَ مُتَأَسِّيًا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبَرَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا، وَأَحْسَنَهَا حَالًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِقَامَةِ دِينِهِ فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوا آثَارَهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ"، قالهُ ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

علينا كدعاة أن نَكونَ جادِّين في التأسي بالرَّعيلِ الأَوَّلِ الذي تَرَبى وَتَتَلْمَذَ على يدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فكانُوا أُنْمُوذَجًا حَيًّا وإسلامًا يَمْشُونَ على الأرْض.

- **مَنَاقِبُ الصَّحَابَةِ رِضْوَانِ اللهِ عليهم:**

للصَّحَابَةِ رِضْوَانِ اللهِ عليهم مَنَاقِبُ كثيرة، منها:

1- **أَنَّهُم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَفْضَلُ الْأُمَّةِ،** وَخَيْرُ النَّاسِ، آمَنُوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وَنَصَرُوهُ وَصَبَرُوا عَلَى مَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الصُّدُودِ وَالْإِعْرَاضِ وَالْمَشَقَّةِ وَالْأَذَى، فَبَلَّغُوا الدِّينَ وَجَاهَدُوا الْمُعَانِدِينَ فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُم، وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: {وَالسّابِقونَ الأَوَّلونَ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأَنصارِ وَالَّذينَ اتَّبَعوهُم بِإِحسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم وَرَضوا عَنهُ وَأَعَدَّ لَهُم جَنّاتٍ تَجري تَحتَهَا الأَنهارُ خالِدينَ فيها أَبَدًا ذلِكَ الفَوزُ العَظيمُ} [سورة التوبة: 100]، وقال سبحانه: {وَالَّذينَ آمَنُوا وَهاجَروا وَجاهَدوا في سَبيلِ اللَّهِ وَالَّذينَ آوَوا وَنَصَروا أُولـئِكَ هُمُ المُؤمِنونَ حَقًّا لَهُم مَغفِرَةٌ وَرِزقٌ كَريمٌ} [سورة الأنفال: 74]، وقال سبحانه: {لـكِنِ الرَّسولُ وَالَّذينَ آمَنوا مَعَهُ جاهَدوا بِأَموالِهِم وَأَنفُسِهِم وَأُولـئِكَ لَهُمُ الخَيراتُ وَأُولـئِكَ هُمُ المُفلِحونَ} [سورة التوبة: 88].

2- **أَنَّهُم أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَصْفِيَاؤُهُ،** وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَكُلُّهُمْ عُدُولٌ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ مِنْ أَئِمَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَدْ ذَهَبَتْ شِرْذِمَةٌ لَا مُبَالَاةَ بِهِمْ إِلَى أَنْ حَالَ الصَّحَابَةِ كَحَالِ غَيْرِهِمْ، فَيَلْزَمُ الْبَحْثُ عَنْ عَدَالَتِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ حَالِهِمْ فِي بِدَاءَةِ الْأَمْرِ فَقَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْعَدَالَةِ إِذ ذَاكَ، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ بِهِمْ الْأَحْوَالُ فَظَهَرَتْ فِيهِمُ الْحُرُوبُ وَسَفْكُ الدِّمَاءِ، فَلَا بُدَّ مِنْ الْبَحْثِ، وَهَذَا مَرْدُودٌ، فَإِنَّ فضلاءَ الصَّحَابَةِ وخيارَهُم كَعَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَغَيْرِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِمَّنْ أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَزَكَّاهُمْ وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ وَوَعَدَهُمُ الْجَنَّةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [المائدة: 9] وَخَاصَّةً الْعَشَرَةَ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ، هُمْ الْقُدْوَةُ مَعَ عِلْمِهِمْ بِكَثِيرٍ مِنْ الْفِتَنِ وَالْأُمُورِ الْجَارِيَةِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ بِإِخْبَارِهِ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَذَلِكَ غَيْرُ مُسْقِطٍ مِنْ مَرَتِبَتِهِمْ وفَضْلِهِم.[257]

وَلقد أَخْبَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَنْ خَيْرِيَّتِهِمْ وَفَضْلِهِمْ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَة، مِنْهَا:

1- مَا جَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ".[258]، "وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ يَقُولُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَنَا أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ".[259]

---

[257] تفسير القرطبي: سورة الفتح الآية 29

[258] البخاري 2652.

[259] مسلم 2531.

2- وعَنْ عَبْدَالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَشَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ: أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَابْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ".[260]

3- وعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: فِي الْأَنْصَارِ: "لا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ".[261]

4- وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ".262

وَكَمَا دَلَّتِ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ عَلَى فَضْلِهِمْ، فَإِنَّ الْوَاقِعَ قَدْ شَهِدَ بِذَلِكَ أَيْضًا، وَهَذَا ظَاهِرٌ لِمَنْ نَظَرَ فِي أَحْوَالِهِمْ وَقَرَأَ أَخْبَارَهُمْ، فَهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، كَالنُّجُومِ الزَّاهِرَةِ يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ، مَنْ أَحَبَّهُمْ؛ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ؛ أَبْغَضَهُ اللَّهُ، اخْتَارَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى؛ لِيَحْمِلُوا رِسَالَةَ الْإِسْلَامِ، فَصَارُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.

- **إيذاء المنافقين للصحابة رضوان الله عليهم:**

وَكَمَا لَمْ يَسْلَمْ أَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِيذَاءِ الْمُنَافِقِينَ، كَذَلِكَ لَمْ يَسْلَمْ أَصْحَابُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم مِنْ سَبِّهِمْ وَإِيذَائِهِمْ، وَهَذَا غَايَةٌ فِي الْكُفْرِ؛ لِأَنَّهُمْ الَّذِينَ حَمَلُوا الدِّينَ إِلَيْنَا، فَمَنْ قَدَحَ فِيهِمْ قَدَحَ فِي الدِّينِ، فَلِذَلِكَ شَكَّكُوا فِي الْقُرْآنِ وَحَرَّفُوا فِيهِ، وَشَكَّكُوا فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَرَّفُوا فِيهَا.

- **وفي السُّطُورِ التَّالِيَةِ سَنَذْكُرُ بَعْضَ الْآدَابِ مَعَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ:**

1. **اعْتِقَادُ عَدَالَتِهِمْ:** فَالصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ عُدولٌ ثِقَاتٌ صَادِقُونَ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ عَنْ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ أَوْ عَنْ غَيْرِهِمْ.

2. **مَحَبَّتُهُمْ وَالتَّرَضِّيَ عَنْهُمْ**؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَبَّهُمْ وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَوَعَدَهُمُ الْجَنَّةَ كَمَا فِي الْآيَاتِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا.

3. **تَعْظِيمُهُمْ وَتَوْقِيرُهُمْ:** فَأَهْلُ السُّنَّةِ يُعَظِّمُونَ جَمِيعَ الصَّحَابَةِ وَيَتَرَضَّوْنَ عَنْهُمْ وَيُوَقِّرُونَهُمْ.

4. **اعْتِقَادُ خَيْرِيَّتِهِمْ وَفَضْلِهِمْ**، كَمَا فِي الْأَحَادِيثِ السَّابِقَةِ.

5. **قِرَاءَةُ سِيَرِهِمْ وَنَشْرُ مَنَاقِبِهِمْ بَيْنَ الْأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ**، وَتَرْجَمَةُ قِصَصِهِمْ الرَّائِعَةِ إِلَى لُغَاتِ الْعَالَمِ.

6. **سَلَامَةُ الصُّدُورِ تِجَاهَهُمْ**، وَالْكَفُّ عَنِ الْخَوْضِ فِيمَا حَصَلَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفِتَنِ.

7. **عَدَمُ الْإِفْرَاطِ وَتَجَاوُزِ الْحَدِّ وَالْغُلُوِّ فِي حُبِّ أَحَدِهِمْ**، أَوْ رَفْعِ أَحَدِهِمْ إِلَى مَنْزِلَةٍ فَوْقَ مَنْزِلَتِهِ.

8. **مَحَبَّةُ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** -أُمَّهاتِ المؤمنين-، وَالِاعْتِرَافُ بِفَضْلِهِنَّ.

---

[260] أخرجه الترمذي (3747)، وأحمد (1/193)، والنسائي في ((السنن الكبرى))(5/56)

[261] أخرجه البخاري (3783)، ومسلم(75)

[262] البخاري 3673، أخرجه مسلم (2541) باختلاف يسير.

9. **مَعْرِفَةُ قَدْرِهِمْ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: وَأَنَّهُمُ الَّذِينَ حَمَلُوا هَذَا الدِّينَ وَبَلَّغُوهُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْنَا، وَأَنَّهُمُ السَّابِقُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِهِ، أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا هُمْ أَهْلُهُ لِمَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنْ صِفَاتٍ حَمِيدَةٍ وَمَنْزِلَةٍ سَامِقَةٍ رَفِيعَةٍ.

10. **وُجُوبُ مَحَبَّةِ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وَمُوَالَاتِهِمْ، وَرِعَايَةِ وَصِيَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ.

المطلبُ الرَّابِعُ: الأَدَبُ مَعَ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَتَقْدِيرُهُمْ

إِنَّ احْتِرَامَ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَتَقْدِيرَهُمْ، هُوَ أَدَبٌ مَعَ اللهِ وَرَسُوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمُ الَّذِيْنَ يُبَلِّغُوْنَ عَنِ اللهِ تعالى وَعَنْ رَسُوْلِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِذَا وَجَبَ الْأَدَبُ مَعَهُمْ، وعدمُ الإِسَاءَةِ إليهم؛ لِأَنَّ في ذلك تَعَدِّي عَلَى مَا يَحْمِلُوْنَهُ مِنْ كِتَابٍ وَسُنَّةَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ".[263]

وَقَدْ رَوَى الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ أَنَّهُمَا قَالَا: "إِنْ لَمْ يَكُنِ الْفُقَهَاءُ الْعَامِلُونَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ فِي أَرْضِهِ وَلِيٌّ"، قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس:62]، فَهَؤُلَاءِ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ بِشَهَادَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وقال ابنُ عَساكِر: "اعلَمْ -يا أخي- وفَّقَنا اللهُ وإيَّاك لِمَرْضاتِه، وجعَلَنا ممَّن يخشاه ويتَّقيه حَقَّ تُقاتِه، أنَّ لُحومَ العُلَماءِ -رحمةُ اللهِ عليهم- مسمومةٌ، وعادةُ اللهِ في هَتْكِ أستارِ مُنتَقِصِيهم معلومةٌ؛ لأنَّ الوقيعةَ فيهم بما هم منه بَراءٌ أَمْرُها عظيمٌ، والتناوُلَ لأعراضِهم بالزُّورِ والافتراءِ مَرْتَعٌ وَخِيمٌ، والاختِلاقَ على من اختاره اللهُ منهم لِنَعْشِ العِلمِ خُلُقٌ ذَميمٌ".[264] وقال أيضًا: كلُّ من أطلَقَ لِسانَه في العُلَماءِ بالثَّلْبِ، بلاه اللهُ عزَّ وجلَّ قبل مَوتِه بمَوتِ القَلْبِ".[265]

وقَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَوَاضَعَ لِمُعَلِّمِهِ وَيَتَأَدَّبَ مَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَ مِنْهُ سِنًّا وَأَقَلَّ شُهْرَةً وَنَسَبًا وَصَلَاحًا، وَيَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مُعَلِّمِهِ بِعَيْنِ الاِحْتِرَامِ وَيُعْتَقَدَ كَمَالَ أَهْلِيَّتِهِ وَرُجْحَانِهِ".[266]

وَيَجِبُ كَذَلِكَ تَعْظِيمُ حُرْمَتِهِمْ وَرَدُّ غَيْبَتِهِمْ فَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ قَامَ وَفَارَقَ الْمَجْلِسَ، وَهَذَا عَامٌّ مَعَ جَمِيعِ النَّاسِ فَكَيْفَ مَعَ الْعُلَمَاءِ؟ فَالْوَاجِبُ مَعَهُمْ أَشَدُّ، وَمِنْ ذَلِكَ عَدَمُ تَتَبُّعِ عَثَرَاتِهِمْ وَالتَّشْهِيرِ بِهَا أَوْ عَدَمُ ذِكْرِ مَحَاسِنِهِمْ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَتَبَّعَ زَلَّاتِ الْعُلَمَاءِ، كَمَا لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ إلَّا بِمَا هُمْ لَهُ أَهْلٌ".[267]

المطْلبُ الخَامِسُ: الْأَدَبُ مَعَ الْخَلْقِ

وَأَمَّا الْأَدَبُ مَعَ الْخَلْقِ: فَهُوَ مُعَامَلَتُهُمْ - عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ - بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ، فَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ أَدَبٌ، وَالْمَرَاتِبُ فِيهَا أَدَبٌ خَاصٌّ. فَمَعَ الْوَالِدَيْنِ: أَدَبٌ خَاصٌّ، وَلِلْأَبِ مِنْهُمَا: أَدَّبٌ هُوَ أَخُصُّ بِهِ، وَمَعَ الْعَالِمِ: أَدَبٌ آخَرُ، وَمَعَ السُّلْطَانِ: أَدَبٌ يَلِيقُ بِهِ، وَلَهُ مَعَ الْأَقْرَانِ أَدَبٌ يَلِيقُ بِهِمْ. وَمَعَ الْأَجَانِبِ: أَدَبٌ غَيْرُ أَدَبِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ وَذَوِي أُنْسِهِ. وَمَعَ الضَّيْفِ: أَدَبٌ غَيْرُ أَدَبِهِ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ. وَلِكُلِّ حَالٍ أَدَبٌ: فَلِلْأَكْلِ آدَابٌ، وَلِلشُّرْبِ آدَابٌ، وَلِلرُّكُوبِ وَالدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ وَالسَّفَرِ وَالْإِقَامَةِ وَالنَّوْمِ آدَابٌ، وَلِلْبَوْلِ آدَابٌ، وَلِلْكَلَامِ آدَابٌ، وَلِلسُّكُوتِ، وَالِاسْتِمَاعِ آدَابٌ.

---

[263] صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب التواضع 6502

[264] تبيين كذب المفتري، ص: 29

[265] المصدر السابق، ص: 425

[266] التبيان في آداب حملة القرآن، ص: 39

[267] مجموع الفتاوى 32/239

المطْلبُ السَّادسُ: الْأَدَبُ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ

وَالْأَدَبُ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ. فَإِنَّ سَتْرَ الْعَوْرَةِ مِنَ الْأَدَبِ. وَالْوُضُوءَ وَغُسْلَ الْجَنَابَةِ مِنَ الْأَدَبِ. وَالتَّطَهُّرَ مِنَ الْخُبْثِ مِنَ الْأَدَبِ. حَتَّى يَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ طَاهِرًا، وَلِهَذَا كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يَتَجَمَّلَ الرَّجُلُ فِي صَلَاتِهِ؛ لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ: أَمَرَ اللَّهُ بِقَدْرٍ زَائِدٍ عَلَى سَتْرِ الْعَوْرَةِ فِي الصَّلَاةِ. وَهُوَ أَخْذُ الزِّينَةِ. فَقَالَ تَعَالَى {خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الأعراف: 31] فَعَلَّقَ الْأَمْرَ بِأَخْذِ الزِّينَةِ، لَا بِسَتْرِ الْعَوْرَةِ، إِيذَانًا بِأَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ: أَنْ يَلْبَسَ أَزْيَنَ ثِيَابِهِ، وَأَجْمَلَهَا فِي الصَّلَاةِ.

وَكَانَ لِبَعْضِ السَّلَفِ حُلَّةٌ بِمَبْلَغٍ عَظِيمٍ مِنَ الْمَالِ، وَكَانَ يَلْبَسُهَا وَقْتَ الصَّلَاةِ. وَيَقُولُ: رَبِّي أَحَقُّ مَنْ تَجَمَّلْتُ لَهُ فِي صَلَاتِي، وَمَعْلُومٌ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ لَاسِيَّمَا إِذَا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَحْسَنُ مَا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَلَابِسِهِ وَنِعْمَتِهِ الَّتِي أَلْبَسَهُ إِيَّاهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.[268]

المطْلبُ السَّابِعُ: أَدَبُ الْمَرْءِ عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ

يقول ابن القيم رحمه الله: "وَأَدَبُ الْمَرْءِ: عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ. وَقِلَّةُ أَدَبِهِ: عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ وَبَوَارِهِ، فَمَا اسْتُجْلِبَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمِثْلِ الْأَدَبِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ حِرْمَانُهُمَا بِمِثْلِ قِلَّةِ الْأَدَبِ. فَانْظُرْ إِلَى الْأَدَبِ مَعَ الْوَالِدَيْنِ: كَيْفَ نَجَّى صَاحِبَهُ مِنْ حَبْسِ الْغَارِ حِينَ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ؟ وَالْإِخْلَالُ بِهِ مَعَ الْأُمِّ - تَأْوِيلًا وَإِقْبَالًا عَلَى الصَّلَاةِ - كَيْفَ امْتُحِنَ صَاحِبُهُ بِهَدْمِ صَوْمَعَتِهِ وَضَرْبِ النَّاسِ لَهُ، وَرَمْيِهِ بِالْفَاحِشَةِ؟

وَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ كُلِّ شَقِيٍّ وَمُغْتَرٍّ وَمُدْبِرٍ: كَيْفَ تَجِدُ قِلَّةَ الْأَدَبِ هِيَ الَّتِي سَاقَتْهُ إِلَى الْحِرْمَانِ؟

وَانْظُرْ قِلَّةَ أَدَبِ عَوْفٍ مَعَ خَالِدٍ: كَيْفَ حَرَمَهُ السَّلْبَ بَعْدَ أَنْ بَرَدَ بِيَدَيْهِ؟[269]

وَانْظُرْ أَدَبَ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ: أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. كَيْفَ أَوْرَثَهُ مَقَامَهُ وَالْإِمَامَةَ بِالْأُمَّةِ بَعْدَهُ؟ فَكَانَ ذَلِكَ التَّأَخُّرُ إِلَى خَلْفِهِ - وَقَدْ أَوْمَأَ إِلَيْهِ أَنِ اثْبُتْ مَكَانَكَ - جَمْزًا، وَسَعْيًا إِلَى قُدَّامَ؟ بِكُلِّ خُطْوَةٍ إِلَى وَرَاءَ مَرَاحِلُ إِلَى قُدَّامَ. تَنْقَطِعُ فِيهَا أَعْنَاقُ الْمَطِيِّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ"[270].

---

[268] مدارج السالكين 2/363

[269] أي عندما غضب عوف ولم يملك نفسه، حرم الخير. عن عوف بن مالك، قال: قَتَلَ رَجُلٌ مِن حِميَرَ رَجُلًا مِنَ العَدوِّ، فأَرَادَ سَلَبَهُ، فَمَنَعَهُ خَالِدُ بنُ الوليدِ، وَكَانَ وَالِيًا عَلَيهِم، فَأَتَى رسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - عَوفُ بنُ مَالِكٍ، فَأخبَرَهُ، فقال لِخَالِدٍ: "مَا مَنَعَكَ أَن تُعطِيَهُ سَلَبَهُ؟ " قال: استَكثَرْتُهُ، يَا رَسُولَ اللهِ! قال: "ادفَعهُ إِلَيهِ"، فَمَرَّ خَالِدٌ بِعَوفٍ فَجَرَّ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قال: هَلْ أَنجَزتُ لَكَ مَا ذَكَرتُ لَكَ مِن رَسُولِ اللهِ؟ فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - فَاستُغضِبَ. فقال: "لَا تُعطِهِ يَا خَالِدُ، لَا تُعطِهِ يَا خَالِدُ، هَلْ أَنتُم تَارِكُونَ لِي أُمَرَائِي؟ إِنَّمَا مَثَلُكُم وَمَثَلُهُم كَمَثَلِ رَجُلٍ استُرعِيَ إِبِلًا أَو غَنَمًا فَرَعَاهَا، ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقْيَهَا، فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا، فشَرِعَت فِيهِ فشَرِبَت صَفوَهُ وَتَرَكَتْ كَدرَهُ، فَصَفوُهُ لَكُم وَكَدرُهُ عَلَيهِم".

[270] مدارج السالكين، ص: 368

المطلبُ الثَّامنُ: أقوالُ العلماءِ في الأدبِ

من بعض أقوال العلماء في الأدب:

-قول النبي صلى الله عليه وسلم، وهو إمام العلماء: "إنَّ الْهديَ الصَّالحَ والسَّمتَ الصَّالحَ والاقتصادَ جزءٌ من خمسةٍ وعشرينَ جزءًا منَ النُّبوَّةِ"[271].

يُريدُ اللهُ لعبادِه المؤمنين الخيرَ والفلاحَ، وأن يُلبِسَهم لِباسَ التَّقوى، وفي هذا الحديثِ يُرشِد النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم المؤمنَ لذلك، فيقول: (إنَّ الهَدْيَ الصَّالِح) أي: طريقَ أهلِ الخيرِ والصَّلاحِ، والسَّيرَ على الطَّريقِ المستقيمِ، (والسَّمْتَ الصَّالِح) أي: الهيْئَة الحسَنَة، المليئَة بالسَّكِينَة والوَقَار، وهو ما كان عليه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، (والاقتصادَ) أي: التَّوَسُّطَ في الأمورِ، والدخولَ فيها برِفقٍ؛ حتى يمكِن الدَّوَامُ عليها، (جزْءٌ مِن خَمْسة وعشرين جُزْءًا مِن النُّبُوَّةِ) أي: هذه الخِلال جزءٌ مِن شَمائلِ الأنبياءِ والمرسَلينَ وفضائِلِهم، فَمَن اتَّصف بهنَّ واقْتَدَى بِهم فيها فقدِ اتَّصفَ بما يُوصَف به الأنبياءُ، وكانتْ كَرامةً له مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّ النُّبُوَّة لا تتجزَّأُ، ولا هي مُكتَسَبة، ولا نُبوَّةَ بعدَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم.[272]

-وسئل الحسن البصري رحمه الله عن أنفع الأدب، فقال: "التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عليك"[273].

-وقال ابن المبارك: "نحن إلى قليلٍ من الأدب أحوج منا إلى كثيرٍ من العلم"[274]. فهناك أناس عندهم علم كثير، لكن ليس عندهم أدب، ولذلك نفَّروا الناس، وما أحدٌ أخذَ عنهم، لسوءِ أدبهم.

-وقال بعض الحكماء: "لا أدب إلا بعقل، ولا عقل إلا بأدب"[275].

المطلبُ التَّاسعُ: من فَوائدِ الالتزَامِ بالأَدَبِ

إنّ الالتزام بالأدب يُحقّق فوائد عديدة للمسلم، منها ما يلي:

1- يصفّي سلوك الفرد ممّا يشينه وينتقصه.

2- يجعل النّاس يتحلّون بالمحامد والمكارم.

3- يجعل الإنسان يحترز عن الخطأ ويتحرّى الصّواب.

4- يُهذّب الأخلاق ويُصلح العادات.

5- يجعل الإنسان يلتزم بالمنهج الإلهيّ في الأرض ممّا يصلح أحواله.

6- الالتزام بالأدب مع الله يحقّق التّقوى في قلب الإنسان.

7- الالتزام بالأدب مع رسول الله يحقّق التّسليم والانقياد للطّاعة فيما أمر ونهى.

8- الالتزام بأدب الشّريعة يؤدّي بالإنسان إلى القيام بأركان المنهج الإلهيّ.

---

[271] رواه أبو داود: 4778، وأحمد: 2698، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود: 4776، وفي الروض النضير: 384

[272] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث

[273] المصدر السابق

[274] الرسالة القشيرية، ص: 129

[275] المصدر السابق

9- الالتزام بأدب السّياسة، يؤدّي بالإنسان إلى القيام بواجباته في حياته كلّ بما يستحقّه، وفي هذا ضمان لحسن سير الحياة.

10- يحقّق الالتزام بالأدب توجّها نفسيّا وأثرا قويّا يحمل الإنسان على الاستزادة من الالتزام بضمان الأدب.

11- يحقّق الالتزام بالأدب قاعدة اجتماعيّة قويّة تتيح مناخا ملائما للحياة الصّالحة.

12- يحقّق الالتزام بالأدب تحرّيا للخير، ودعوة إلى القيم الرّفيعة تمنع انفلات الإنسان وهبوطه إلى الأدنى، أو ارتكاب الأفعال الهابطة، بل تدعوه إلى التّسامي وقمع الشّهوات.

13- يحقّق الالتزام بالأدب وحدة دائمة، وانسجاما في الإنسان وسلوكه الفرديّ والاجتماعيّ.

14- يحقّق الالتزام بالأدب الوحدة في أدب التّلقّي والتّعلّم.

15- يحقّق الالتزام بالأدب الإيجابيّة في الحياة، وإتاحة الفرصة للإبداع والابتكار، والحيويّة في السّلوك.

الفَصْلُ الثَّالِثُ: القُدْوَةُ الحَسَنَةُ

المبحث الأول: مفهوم القدوة الحسنة وأهميتها

المطْلبُ الأَوَّلُ: مَعْنَى الْقُدْوَةِ لُغَةً واصْطِلاحًا

- **مَعْنَى الْقُدْوَةِ لُغَةً:**

الْقُدْوَةُ مَأْخُوذَةٌ مِنْ مَادَّةِ "قَدْوَ"، وَهُوَ: "أَصْلٌ صَحِيحٌ يُدَلُّ عَلَى اقْتِبَاسٍ بِالشَّيْءِ وَاهْتِدَاءٍ، وَمُقَادَرَةٍ فِي الشَّيْءِ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ مُسَاوِيًا لِغَيْرِهِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: هَذَا قَدَّى رُمْحَ، أَيْ قَيَّسَهُ، وَفُلَانٌ قُدْوَةٌ: يُقْتَدَى بِهِ". [276]

- **مَعْنَى الْقُدْوَةِ اصطِلاحًا:**

الْاقْتِدَاءُ بِالْغَيْرِ، وَمُتَابَعَتُهُ، وَالتَّأَسِّي بِهِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَحْوَالِ.[277]

المطلبُ الثَّاني: أَثَرُ القُدوةِ الحسَنَةِ فِي عَمَليَّةِ التَّربيةِ وَغَرْسِ القِيَمِ

القُدوةُ تعني أن يَكونَ المُرَبِّي أوِ الدَّاعي مِثالًا يُحتَذى به في أفعالِه وتَصَرُّفاتِه، وقد أشادَ القُرآنُ الكَريمُ بهذا، فقال عَزَّ مِن قائِلٍ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} [الممتحنة: 4].

وقد كان المُصطَفى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -ولا يَزالُ- قُدوةً للمُسلمينَ جَميعًا طِبقًا لما نَصَّ عليه القُرآنُ الكَريمُ، كما أنَّ القُدوةُ الحَسَنةُ التي يُحَقِّقُها الدَّاعي بسيرَتِه الطَّيِّبةِ هي في الحَقيقةِ دَعوةٌ عَمَليَّةٌ للإسلامِ بكُلِّ ما يَحمِلُه من مَبادِئَ وقيَمٍ تَدعو إلى الخَيرِ، وتَحُثُّ على الفضيلةِ.

وَلَا رَيْبَ أنَّ القُدوةِ لَهَا أَثَرٌ بَالِغٌ فِي عَمَليَّةِ التَّربيةِ -وخاصَّةً في مَجالِ الاتِّجاهاتِ والقِيَمِ- وَلِذَلِكَ فَقَدِ استَطاعَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بفضلِ تلك القُدوةِ أن يُحَوِّلَ مُعاصِريه قِيَمَ الإسلامِ وتَعاليمَه وأحكامَه، لا بالأقوالِ فقَط وإنَّما بالسُّلوكِ الواقِعيِّ الحَيِّ، وقد حَرَصوا على تَتَبُّعِ صِفاتِه وحَرَكاتِه، ورَصْدِها والعَمَلِ بها، وما ذلك إلَّا حِرصًا منهم على تَمَثُّلِ أفعالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لقد كان المَثَلَ الأعلى لهم، وقد تَمَثَّلَت في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صِفاتٌ جَليلةٌ جَعلَت منه قُدوةً بالفِعلِ.[278]

المطْلبُ الثَّالِثُ: القُدوةُ الحَسَنةُ وَحَقيقَتُها

القُدوةُ الحَسَنةُ هي المِثالُ الواقِعيُّ للسُّلوكِ الخُلُقيِّ الأمثَلِ، وهذا المِثالُ الواقِعيُّ قد يَكونُ مِثالًا حِسِّيًّا مُشاهَدًا مَلموسًا يُقتَدى به، وقد يَكونُ مِثالًا حاضِرًا في الذِّهنِ بأخبارِه وسِيَرِه، وصورةً مُرتَسِمةً في النَّفسِ بما أُثِرَ عنه من سِيَرٍ وقِصَصٍ، وأنباءٍ من أقوالٍ أو أفعالٍ.

والقُدوةُ الحَسَنةُ تَكونُ للأفرادِ على صِفةِ أفرادٍ مِثاليِّينَ مُمتازينَ، وتَكونُ للجَماعاتِ على صِفةِ جَماعاتٍ مِثاليَّةٍ مُمتازةٍ.

---

[276] مقاييس اللغة لابن فارس

[277] التوقيف على مهمات التعاريف ص: 269

[278] نضرة النعيم 1/143

المطْلبُ الرَّابِعُ: التَّرْغِيبُ فِي القُدْوَةِ الحَسَنَةِ والحثُّ عَلَيْهَا

القُدْوةُ الحَسَنَةُ، خُلُقٌ مِنْ أَخْلَاقِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَلِأَهَمِّيَتِهَا أَوْرَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ صُوَرًا عَدِيدَةً مِنْ الاقْتِدَاءِ فِيمَا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ، فقد أرشد القرآن الكريم إلى أهمية القدوة في حياة الأمة، فأرشد نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى الاقتداء بحال الأنبياء السابقين[279]، فالله سبحانه وتعالى قد أمر رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين؛ لأنهم صفوة خلقه، جبلهم على مكارم الأخلاق، وكمال الدين، ولهذا جاء الأمر بالاقتداء بهم واتباعهم، فقال تعالى بعد أن ذكر مجموعة من الرسل: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [الأنعام: 90].

ولقد وجَّهَ القُرآنُ الكَريمُ بصَراحةٍ تامَّةٍ إلى القُدوةِ الحَسَنةِ، فقال اللهُ تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

ففي هذا النَّصِّ إرشادٌ عَظيمٌ مِنَ اللهِ تَبارَكَ وتعالى للمُؤمنينَ أن يَجعلوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قُدوةً حَسَنةً لهم، يَقتَدونَ به في أعمالِه وأقوالِه وأخلاقِه، وكُلِّ جُزئيَّاتِ سُلوكِه في الحَياةِ؛ فهو خَيرُ قُدوةٍ يَقتَدي بها الأفرادُ العاديُّونَ، والأفرادُ الطَّامِحونَ لبُلوغِ الكَمالِ الإنسانيِّ في السُّلوكِ.

وجميع "الأنبياء والمرسلين عليهم السَّلام من أوَّلهم إلى آخرهم، كانوا قدوةً حسنةً لأقوامِهم، وهذا يدل على عِظَمِ وأهمية القدوة الحسنة"[280]، "فالقدوة الحسنة، والنشأة القويمة، والتربية السليمة للإنسان تجعل منه عنصرًا صالِحًا طيبًا ينتفع منه الجميع"[281].

ولقد جَعل اللهُ أَيْضًا الذينَ آمَنوا مَعَه وصَدَّقوا، وأخلصوا واستَقاموا أمثِلةً رائِعةً يُقتَدى بها في مُعظَمِ الفضائِلِ الفرديَّةِ والاجتِماعيَّةِ.

ورغم أن الرَّسولَ صَلواتُ اللهِ عليه انتَقَل إلى جِوارِ رَبِّه، إلا أنَّ سيرَتَه التي تَحتَوي على جُزئيَّاتِ سُلوكِه، ماثِلةٌ لنا.

وفيما بَلَغَنا من تَراجِمِ أصحابِه رِضوانُ اللهِ عليهم ما يَكفي لتَجسيدِ القُدوةِ الحَسَنةِ للمُجتَمَعِ المُسلِمِ.

ثمَّ إنَّ كُلَّ عَصرٍ منَ العُصورِ من بَعدِهم لا يَخلو من وُجودِ طائِفةٍ من أمَّةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَصلُحُ لأن تَكونَ قُدوةً حَسَنةً، قَلَّت هذه الطَّائِفةُ أو كَثُرَت، فقد بَشَّرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك في قَولِه: "لا تَزالُ طائفةٌ من أُمَّتي يقاتِلونَ على الحقِّ، ظاهِرِينَ على مَن نَاوَأَهُمْ، حتى يقاتِلَ آخِرُهم المسيحَ الدَّجَّالَ"[282].[283]

---

[279] أثر القدوة في المجتمع بين الواقع والمثال؛ د/ أحمد إدريس الطعان، ص 248، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، مجلد 27، عدد2، 2011م

[280] الخُلق الحسن في ضوء الكتاب والسنة؛ د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ص 49، مطبعة سفير، الرياض، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض، (د-ن، د-ت)

[281] المداراة وأثرها في العلاقات العامة بين الناس: د/ محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود. ص262، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة الرابعة والثلاثون العدد (114)، 1422هـ/2002

[282] رواه أبو داود 2484، وأحمد 19920 من حديثِ عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه الحاكم في المستدرك 2392 وقال: على شرط مسلم، والألباني في صحيح سنن أبي داود 2484، والوادعي في الصحيح المسند 1030 وقال: على شرط مسلم، وصحَّح إسنادَه الطبري في مسند عمر 2/824، وشعيب الأرناؤوط على شرط مسلم في تخريج مسند أحمد 19920

[283] وفي هذا الحَديثِ يَقولُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "لا تَزالُ طائِفةٌ من أُمَّتي يُقاتِلونَ على الحقِّ"، أي: ستَظَلُّ جَماعةٌ من أُمَّةِ الإسْلامِ يُجاهِدونَ في سَبيلِ نُصْرةِ الحقِّ بلِسانِهم وسِنانِهم، وهُمْ ثابِتونَ على الحَقِّ عِلْمًا وعَمَلًا، وهذه الطَّائفةُ تكون مُتناثِرةً بَينَ طَوائِفِ الأُمَّةِ؛ فمِنَ المُمكِنِ أن يَكونوا مِنَ العُلماءِ والفُقهاءِ، والمُجاهِدين والآمِرين بالمَعروفِ والنَّاهينَ عنِ المُنكرِ، وقَدْ يكونون مُجتمِعينَ في مَكانٍ أو مُتفرِّقينَ في البُلدانِ، وقد وَرَدَ أنَّهم بالشَّامِ، وأنَّهم ببيتِ المقدسِ وأكنافِ بيتِ المَقدسِ، وورَد أنَّ آخِرَهم بِبيتِ المَقْدِسِ، "ظاهِرينَ على مَن ناوَأَهُمْ"، أي: وهُمْ مُنتَصِرونَ وغالِبونَ على مَن عاداهُمْ بقَدَرِ اللهِ وحِكْمَتِه، "حتى يُقاتِلَ آخِرُهُمُ المَسيحَ الدَّجَّالَ"، أي: سيظَلُّونَ على هذه الحالِ إلى آخِرِ الزَّمانِ طائِفةٌ بعدَ طائِفةٍ، حتى يُقاتِلوا الدَّجَّالَ الكَذَّابَ.

- وقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا تَزالُ طائِفةٌ من أمَّتي يُقاتِلونَ على الحَقِّ ظاهرينَ إلى يَومِ القيامةِ".[284]

- وقال النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا يَزالُ مِن أمَّتي أمَّةٌ قائِمةٌ بأمرِ اللَّهِ، لا يَضُرُّهم من خَذَلهم ولا من خالفَهم حتَّى يأتيَهم أمرُ اللهِ وهم على ذلك".[285]

فلا يَخلو عَصرٌ من عُصورِ الأمَّةِ المُحَمَّديَّةِ من طائِفةٍ صالحةٍ تَصلُحُ لأن تَكونَ في عَصرِها قُدوةً حَسَنةً للأفرادِ).[286]

[284] أخرجه مسلم 156 مطولًا.

[285] أخرجه البخاري 3641 واللفظ له، ومسلم 1037 باختلاف يسير.

[286] الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة الميداني 1/203

المبحث الثاني: القدوة الحسنة وأثرها في الدعوة

المطلب الأول: أهمية القدوة كأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله

1. **القُدْوَةُ الْحَسَنَةُ لها أَبْلَغُ فِي التَّأْثِيرِ فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ مِنْ آلافِ الْمَوَاعِظِ وَالْخُطَبِ الرَّنَّانَةِ**، فَالنُّفُوسُ بِطَبْعِهَا تَمِيلُ إِلَى الْمُحَاكَاةِ وَالتَّقْلِيدِ لِغَيْرِهَا، وَبِخَاصَّةٍ مِنْ آثَارِ إِعْجَابِهَا وَاسْتِحْسَانِهَا قَوْلَهُ وَفِعْلَهُ وَخُلُقَهُ، وَالتَّارِيخُ يُحَدِّثُنَا أَنَّ جَنُوبَ شَرْقِ آسِيَا الْمُتَمَثِّلَةِ فِي إِنْدُونِيسْيَا وَالْمَلَايُو وَالْفِلِبِّينِ وَمَالِيزِيَا إِنَّمَا اعْتَنَقَ أَهْلُهَا الْإِسْلَامَ وَدَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا لَيْسَ بِفَصَاحَةِ الدُّعَاةِ وَلَا بِسُيُوفِ الْغُزَاةِ؛ وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بِفَضْلِ أُنَاسٍ جَاءُوا لِلتِّجَارَةِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ.[287]، قَدِ اجْتَمَعَتْ فِيهِمْ أُصُولُ الْقُدْوَةِ الْحَسَنَةِ مِنْ صَلَاحٍ وَحُسْنِ خُلُقٍ وَمُوَافَقَةِ الْأَقْوَالِ لِلْأَفْعَالِ، فَتَأَثَّرَ بِهِمُ النَّاسُ، وَأَحَبُّوا الِاقْتِدَاءَ بِهِمْ، فَأَسْلَمَ غَالِبِيَّةُ سُكَّانِ هَذِهِ الْبِلَادِ بِفَضْلِ الْقُدْوَةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي قَدَّمَهَا هَؤُلَاءِ التُّجَّارِ لِأَهْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ.

2. **التَّعْلِيمُ بِالْقُدْوَةِ أَيْسَرُ فِي إِفْهَامِ النَّاسِ وَإِيصَالِ الْمَعَانِي لَهُمْ**، فَالنَّاسُ يَتَفَاوَتُونَ فِي مُسْتَوَيَاتِ أَفْهَامِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَسَاوُونَ فِي مُتَابَعَةِ نَمُوذَجِ حَيَاةٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَالِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَخْلَاقِ، وَمِثَالُ ذَلِكَ مِنَ السُّنَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ: "قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا"، قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ، وَلَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقُكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا".[288]

3. الْقُدْوَةُ الْحَسَنَةُ خَيْرُ دَلِيلٍ وَأَكْبَرُ بُرْهَانٍ لِلنَّاسِ عَلَى إِمْكَانِ التَّحَلِّي بِمَعَالِي الْأُمُورِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مُسْتَحِيلًا وَجُودُهُ فِي الْبَشَرِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ.

4. **الْقُدْوَةُ الْحَسَنَةُ تُحَفِّزُ النُّفُوسَ وَتُشَجِّعُهَا عَلَى التَّنَافُسِ وَالْمُسَابَقَةِ لِلْخَيْرَاتِ**؛ لِلْوُصُولِ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْمُقْتَدَى بِهِ أَوْ سَبَقَهُ فِي ذَلِكَ.

5. **الدَّاعِيَةُ الَّذِي يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْخَيْرِ تُرَاقِبُهُ أَعْيُنُ النَّاسِ دَوْمًا وَتُتَابِعُهُ**؛ لِتَقِيسَ مَدَى مُطَابَقَةِ مَا يَقُولُهُ وَيَدْعُو إِلَيْهِ لِفِعْلِهِ وَسُلُوكِهِ، فَإِذَا رَأَوْا قَوْلَهُ مُطَابِقًا لِفِعْلِهِ، ارْتَفَعَ شَأْنُهُ فِي نُفُوسِهِمْ، وَحَرَصُوا عَلَى الِاقْتِدَاءِ بِهِ، وَإِنْ وَجَدُوهُ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ، سَقَطَ مِنْ أَعْيُنِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ أَيُّ قِيمَةٍ فِي نُفُوسِهِمْ، قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: "إِنَّ الْعَالِمَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنْ الْقُلُوبِ كَمَا يَزِلُّ الْقَطْرُ عَنِ الصَّفَا".[289]

6. **الْقُدْوَةُ الْحَسَنَةُ دَعْوَةٌ صَامِتَةٌ إِلَى الْعَمَلِ**، فَهِيَ تَرْجَمَةٌ عَمَلِيَّةٌ لِلْعِلْمِ النَّظَرِيِّ، فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يُغَيِّرُ الْعِلْمَ النَّظَرِيَّ كَثِيرًا مِنْ سُلُوكِهِمْ؛ حَتَّى يَرَوْا تَطْبِيقَهُ عَمَلِيًّا فِي غَيْرِهِمْ، وَبِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحيي بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَكَانَ يُتَرْجِمُ الْقُرْآنَ الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَى أَصْحَابِهِ بِصُورَةٍ عَمَلِيَّةٍ، فَكَانَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - تَصِفُهُ فَتَقُولُ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ"[290]، أَيْ: مُطَبِّقًا لِكُلِّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، فَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرْآنًا يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ.

---

[287] ينظر السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، لعبد الشافي محمد عبد اللطيف ص: 218

[288] صحيح البخاري 2731

[289] اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي ص: 61

[290] مسند أحمد 148/41 24601، وصححه الألباني في صحيح الجامع 4811

المطلبُ الثَّاني: أَرْكَانُ الْقُدْوَةِ وَأُصُولُهَا

حَتَّى يَكُونَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ قُدْوَةً حَسَنَةً مُؤَثِّرَةً فِي غَيْرِهِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَجْتَمِعَ فِيهِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ – هِيَ بِمَنْزِلَةِ أَرْكَانِ الْقُدْوَةِ الْحَسَنَةِ- وَهِيَ:

"الصَّلَاحُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَمُوَافَقَةُ الْأَقْوَالِ لِلْأَفْعَالِ".[291]

● **الرُكْنُ الْأَوَّلُ: هُوَ الصَّلَاحُ**، وَالصَّلَاحُ لِلدَّاعِيَ يَشْمَلُ الظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ، فَصَلَاحُ الْبَاطِنِ يَكُونُ بِتَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى، وَتَحْقِيقِ الْإِخْلَاصِ لَهُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَالتَّخَلُصِ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَآفَاتِهَا، كَالرِّيَاءِ، وَالْكِبْرِ، وَالْغِلِّ، وَالْحَسَدِ، وَصَلَاحُ الظَّاهِرِ يُكُونُ بِالِاسْتِقَامَةِ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى كَمَا أَمَرَ.

● **الرُكْنُ الثَّانِي: وَهُوَ حُسْنُ الْخُلُقِ** بِالتَّحَلِّي بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَعَالِيهَا، كَالصِّدْقِ، وَالْأَمَانَةِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالرِّفْقِ، وَالتَّوَاضُعِ، وَالْقَنَاعَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ وَالَّتِي كُلَّمَا اتَّصَفَ بِهَا الدَّاعِي أَكْثَرَ، زَادَ ذَلِكَ مِنْ تَأَثُّرِ النَّاسِ بِهِ.

● **الرُكْنُ الثَّالِثُ: وَهُوَ مُوَافَقَةُ الْقَوْلِ لِلْفِعْلِ**، وَهُوَ أَهَمُّ مُقَوَّمٍ مِنْ مُقَوَّمَاتِ الْقُدْوَةِ الْحَسَنَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُدْعُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ هُوَ تَطْبِيقُ الدَّاعِي إِلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، فَإِنْ رَأَى مِنْهُ مُوَافَقَةَ الْقَوْلِ لِلْفِعْلِ قَبِلَ مِنْهُ، وَإِلَّا رَدَّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ وَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ، وَقَدْ عَابَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أُنَاسٍ يَقُولُونَ وَلَا يَعْمَلُونَ، قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 2-3]، وَقَالَ تَعَالَى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: 44].

المطْلبُ الثَّالِثُ: مُتَطَلَّبَاتُ الْقُدْوَةِ

1- الْأُخْذُ بِالْعَزَائِمِ وَتَرْكُ الرُّخَصِ مَا أَمْكَنَ.
2- حُسْنُ الضِّيَافَةِ.
3- الِابْتِسَامَةُ وَبَشَاشَةُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْعِشْرَةِ.
4- الْهَدِيَّةُ مَادِيَّةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً كَالْمَدْحِ.
5- بَيَانُ مُشَاعِرِ الْحُبِّ وَالْحَنَانِ وَالشَّفَقَةِ.

■ كَانَتْ هَذِهِ لَمَحَاتٌ سَرِيعَةٌ تُوَضِّحُ لَكَ الْمَنْطَلَقَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ عَنْ أَهَمِيَّةِ الْقُدْوَةِ، وَكَيْفَ أَنَّ تَحَقِّيقَ تِلْكَ الْمَنْطَلَقَاتِ لَا يَسْتَلْزِمُ مِنْكَ شَيْئًا يُثْقِلُ كَاهِلَكَ، بَلْ كُلُّهَا أَخْلَاقٌ تُسَاهِمُ بِهَا فِي رَفْعِ مُسْتَوَاكَ الْإِيمَانِيِّ وَالسُّلُوكِيِّ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ تُؤَدِّي الْمَسئولِيةَ الْمُلْقَاةَ عَلَى عَاتِقِكَ فِي الدَّعْوَةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْه.

فَأَنْتَ تُدْرِكُ أَنَّ خَيْرِيَّةَ النَّاسِ تَتَجَلَّى فِي سُمُوِّ أَخْلَاقِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ مَعَ النَّاسِ.
وَكُلَّمَا كَانَ الْعَطَاءُ الْأَخْلَاقِيُّ فِي الدَّعْوَةِ أَسْمَى، كَانَتْ ثِمَارُهُ وَبَقَاؤُهُ أَجْمَلَ وَأَهْدَى.

[291] القدوة مبادئ ونماذج، د. صالح بن حميد ص 12

الفصل الرابع: التَّأْهِيلُ التَّرْبَوِيُّ الْإِيمَانِيّ

المبحث الأول: مفهوم التأهيل التربوي الإيماني للدعاة

للتزكية والتربية دور قوي في نجاح الدعوات سواء على مستوى الداعية أو المدعو أو الدعوة، وإدراك الداعية لهذه القضية يعينه على أن ينطلق في ساحات العمل الدعوي يبني جيلا ربانيا بإذن الله تعالى.

المطلبُ الأوَّل: مَعْنَى التَّرْبِيَةِ لُغَةً اصْطِلَاحًا

- **التَّرْبِيَةُ لُغَةً:**

مُشْتَقَّةٌ مِنْ الفِعْلِ (رَبَبَ) والِاسْمُ (الرَّب) وَيُطْلَقُ عَلَى: المالِكِ والسَّيِّدِ المُطاعِ وَالْمُصْلِحِ[292]، يَقُولُ الرّاغِبُ الأَصْفَهانِيُّ: الرَّبُّ فِي الأَصْلِ التَّرْبِيَةِ، وَهُوَ إِنْشاءُ الشَّيْءِ حَالًا فَحالًا إِلَى حَدِّ التَّمامِ.[293]

والتَّرْبِيَةُ بِمَعْنَى التَّزْكِيَةِ: فَالتَّزْكِيَةُ فِي اللُّغَةِ مَصْدَرُ زَكَّى الشَّيْءَ يُزَكِّيه، وَلَهَا مَعْنَيَانِ:

المَعْنَى الأَوَّل: التَّطْهِيرُ، يُقالُ زَكيتُ هَذَا الثَّوْبَ، أَيْ: طَهَرتُهُ، وَمِنْهُ الزَّكاءُ، أَيْ: الطَّهارَةُ.

وَالمَعْنَى الثَّانِي: هوَ الزِّيادَةُ، يُقالُ زَكَّى الْمَالَ يَزْكُو إِذَا نَمَى وَمِنْهُ الزَّكاةُ لِأَنَّهَا تَزْكِيَةٌ لِلْمَالِ وَزِيادَةٌ لَهُ[294]، يُقالُ: زَكَا الزَّرْعُ يَزْكُو: إِذَا حَصَلَ مِنْهُ نُموٌّ وَبَرَكَة[295].

عَبَّرَ القُرْآنُ عَنْ التَّرْبِيَةِ بِقَوْلِهِ: {وَيُزَكِّيهم} والتَّزْكِيَةُ هِيَ: "التَّعْديلُ، وَالْزَكي وَالْزّاكي: الطّاهِرُ".[296]

وَعَلَى هَذَا المَعْنَى جَاءَتِ الْآيَاتُ القُرْآنِيَّةُ بِالْأَمْرِ بِتَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَتَهْذِيبِها، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قَدْ أَفْلَحَ مِنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [الأَعْلَى:14-15]، يَقُولُ ابْنُ كَثِيرٍ: „يَحْتَمِلُ أَنْ يَكونَ المَعْنَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ، أَيْ: بِطاعَةِ اللَّهِ، وَطَهَّرَها مِنْ الرَّذائِلِ وَالأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}، أَيْ: دَسَّسَها وَأَخْمَلَها وَوَضَعَ مِنْهَا بِخِذْلانِهِ إِيَّاهَا عَنْ الهُدَى، حَتَّى رَكِبَ المَعَاصِي وَتَرَكَ طاعَةَ اللَّهِ".[297]

- **ثانِيًا: التَّرْبِيَةُ اصْطِلَاحًا:**

وعَلَى أَساسِ المَعْنَى اَللُّغَوِيّ جَاءَ المَعْنَى الِاصْطِلاحيُّ لِتَزْكِيَةِ النُّفوسِ، فَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ شامِلَةٌ لِأَمْرَيْنِ:

- تَطْهيرُها مِنْ اَلْأَدْرانِ والْأَوْساخِ
- وَتَنْمِيَتُها بِزِيادَتِها بِالْأَوْصافِ الحَميدَةِ.

---

[292] لِسانُ العَرَبِ لِابْنِ مَنْظور، والْقاموسُ المُحيطُ لِلْفيرُوزِ أَبادِي ص: 111

[293] المُفْرَداتُ فِي غَرِيبِ القُرْآنِ لِلْأَصْفَهَانِيّ ص: 336

[294] القَامُوسُ المُحيطُ لِلْفِيرُوزَ أَبَادِي، ص: 1667

[295] المُفْرَداتُ فِي غَرِيبِ القُرْآنِ لِلْأَصْفَهَانِيّ، ص: 380

[296] أَنِيسُ الفُقَهاءِ لِقاسِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اَلْقُونُوِي، ص: 6

[297] تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ لِابْنِ كَثِير 412/8

فالتَّرْبِيَةُ اصْطِلَاحًا تَنْمِيَةُ الجَوانِبِ المُخْتَلِفَةِ لِشَخْصِيَّةِ الإِنْسانِ، عَنْ طَرِيقِ التَّعْلِيمِ، والتَّدْرِيبِ والتَّثْقِيفِ والتَّهْذِيبِ، والْمُمارَسَةِ؛ لِغَرَضِ إِعْدادِ اَلْإِنْسانِ اَلصّالِحِ لِعِمارَةِ الأَرْضِ، وَتَحْقِيقِ مَعْنَى الِاسْتِخْلَافِ فِيهَا.[298]

والتَّرْبِيَةُ اَلْإِيمانِيَّةُ، هي: تَعْمِيقُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ، وَتَعْمِيقُ الصِّلَةِ بِاللَّهِ، وَتَرْبِيَةُ النُّفوسِ عَلَى الحَياةِ فِي مَعِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمُمارَسَةُ السُّلوكِ اَلْإِيمانِيّ فِي الواقِعِ؛ وَغَرْسُ الوَعْيِ بِالْوَسائِلِ اَلَّتِي تُؤَدِّي إِلَى تَعْمِيقِ اَلْإِيمَانِ، مَعَ التَّأْكِيدِ عَلَى أَنَّ القُدْوَةَ هِيَ الوَسِيلَةُ الأَكْثَرُ أَهَمِّيَّةً فِي اَلتَّرْبِيَةِ، ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَهَا المَوْعِظَة وَالنَّصَائِحُ، مَعَ الرِّعايَةِ وَالْمُتَابَعَةِ والصَّبْرِ، لِتَسْتَجِيبَ النُّفوسُ وَتَسْتَقِيمُ.

المطلبُ الثَّانِي: مَعْنَى التَّأْهِيلُ التَّرْبَوِيُّ اَلْإِيمانِيُّ لِلدُّعَاةِ اصْطِلَاحًا

مِن خِلالِ مَا سَبَقَ يُمْكِنُ أَنْ نَقولَ أَنَّ مَفْهومَ التَّأْهِيلِ التَّرْبَوِيّ اَلْإِيمانِيّ لِلدُّعَاةِ هوَ: إِصْلاحُ نُفُوسِ الدُّعاةِ وَتَطْهِيرُهَا، عَنْ طَرِيقِ العِلْمِ النّافِعِ، والْعَمَلِ الصّالِحِ وَفِعْلِ المَأْمُورَاتِ وَتَرْكِ المَحْظُورَاتِ[299]، وَهَذَا جَوْهَرُ وَروحُ تَأْهِيلِ الدُّعاةِ، وَهِيَ: "تَطْهِيرُ القُلوبِ، وَتَسْدِيدُ الأَقْوالِ، وَإِصْلاحُ الأَعْمالِ، وَتَدْرِيبُ المَدْعُوّينَ عَلَى ذَلِكَ عَمَلِيًّا".[300]

إن التَّرْبِيَةُ تُشْبِهُ عَمَلَ الفَلّاحِ اَلَّذِي يُزِيلُ الشَّوْكَ والنَّباتاتِ الغَرِيبَةَ مِنْ بَيْنِ الزَّرْعِ لِيَحْسُنَ نَبَاتُهَ، وَهَذَا هوَ المَقْصودُ بِتَرْبِيَةِ الدُّعاةِ، وَهو جَوْهَرُ وَروحُ الإِسْلامِ اَلَّذِي هوَ وَظِيفَةُ الأَنْبِياءِ، وامْتَنَّ الله تعالى عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [آلِ عِمْران: 164].

كما أن التَّزْكِيَةَ: إصلاح النفوس وتطهيرها، عن طريق العلم النافع والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المحظورات[301].

وهي مرحلة متقدمة في الدعوة تصل بالمسلم إلى درجة الإحسان التي جاءت في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[302].

ولذلك فالتربية والتزكية تعدّ بمثابة المرحلة النهائية والثمرة المرجوّة بعد أن يَعْلَمَ الإنسان الدين الحق ويَتَعَلَّمه، فإنه يتأثر بما فيه من وسائل ترقى به وبأخلاقه وبتصرفاته إلى مستوى يليق بالعبد المسلم الموحد لله تعالى، فيتربّى بهذا الدين ويتزكّى به، فتطيب نفسُه وتسعدُ روحُه وتهنأُ حياتُه بهذا النوع الفريد من أنواع التربية المؤثرة والفعّالة، ألا وهي التربية الإسلامية.

---

[298] التَّرْبِيَةُ الاسْلامِيَّةُ المُصْطَلَحِ والْمَفْهومُ. د. صالِحُ بْنُ عَلي أَبُو عِرادٍ ص 4 بَحْث بموقع صَيْدِ الفَوائِدِ.

[299] مَعالِمُ فِي السُّلوكِ وَتَزْكِيَةِ النُّفوسِ، د. عَبْدُ العَزِيزِ آلِ عَبْداللطيف ص 57

[300] مَنْهَجُ الدَّعْوَةِ فِي ضَوْءِ الواقِعِ المُعاصِرِ، عَدْنان عرعور ص 23

[301] معالم في السلوك وتزكية النفوس د. عبدالعزيز آل عبداللطيف، ص: 57

[302] صحيح البخاري 50

المبحث الثاني: أهمية التأهيل التربوي الإيماني للدعاة

المطلب الأول: التزكية والتأهيل التربوي أولًا قبل التعليم

لا غنى للدعوة عن التربية، فهي سبيل الثبات، وهي التي تؤدي إلى تخريج أجيال جديدة من الدعاة، وهي التي تقي وتعصم من الوقوع في الزلل والتقصير خصوصًا عند فقدان الرقيب، ولذلك فإنَّ صَلاحُ أَفْعالِ الإِنْسانِ يَكونُ بِصَلاحِ أَخْلاقِهِ، لِأَنَّ الفَرْعَ بِأَصْلِهِ، فَإِذَا صَلُحَ الأَصْلُ صَلُحَ الفَرْعُ، وَإِذَا فَسَدَ الأَصْلُ فَسَدَ الفَرْعُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {والْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا} [الأعْرافِ:58].

وَلِهَذَا كَانَ اَلنَّهْجُ اَلسَّديدُ فِي إِصْلاحِ النّاسِ وَتَقْويمِ سُلوكِهِمْ وَتَيْسيرِ سُبُلِ الحَياةِ الطَّيِّبَةِ لَهُمْ أَنْ يَبْدَأَ اَلْمُصْلِحونَ بِإِصْلاحِ النُّفوسِ وَتَزْكِيَتِها، وَغَرْسِ مَعاني الأَخْلاقِ الجَيِّدَةِ فِيهَا، قَالَ تَعَالَى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [آلِ عِمْرانَ: 164].

وَقَالَ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الجُمُعَة: 2]، فَبَدَأَ بِالْتَزْكِيَةِ قَبْلَ التَّعْليمِ فِي الوَصْفَيْنِ.

وَأَكَّدَ الإِسْلامُ عَلَى صَلاحِ النُّفوسِ، وَبَيَّنَ أَنَّ تَغْيِيرَ أَحْوالِ النّاسِ مِنْ سَعادَةٍ وَشَقاءٍ وَيُسْرٍ وَعُسْرٍ، وَرَخاءٍ وَضيقٍ، وَطُمَأْنينَةٍ وَقَلَقٍ، وَعِزٍّ وَذُلٍّ، وكُلِّ ذَلِكَ وَنَحْوِه تَبَعٌ لِتَغْيِيرِ مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ مَعانٍ، وَصِفاتٍ، قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرَّعْدِ:11]

يقول البشير الإبراهيمي متذكرا طريقة الشيخ ابن باديس: "وكان رحمه الله يُؤْثِرُ التربية على التعليم ويحرص على غرس الفضائل في نفوس تلامذته قبل غرس القواعد الجافة في أدمغتهم، وهكذا فإنه أخرج للأمة الجزائرية في الزمن اليسير جيلا يفهم الحياة"[303].

وقد كان التابعون والعلماء الصالحون يدركون أهمية هذا الموضوع فلا يعتمدون على العلم المجرد والوعظ، بل يتابعون ويقيدون وينصحون ويمارسون ويتورعون حتى يقتدي بهم غيرهم.

ومن جهة أخرى، فإنَّ بناءَ الدعوةِ يجبُ أن ينمو من جميع جوانبه وفي وقت واحد، فلا يُقال: نتعلم ثم نربي، ولا يقال: ندرس العقيدة ثم نبدأ بالجوانب الأخرى، وإنما كل معلومة تصل للمدعو لا بد أنْ تصحبها تربية، فالفرد في المرحلة المكية تَلَقَّى التوحيد والأخلاق والعمل الاجتماعي والصمود، ولذلك عندما نأمر بالصلاة، فإننا نُرَبِّي على ما يترتب على الصلاة قبلها من طهارة، وأثنائها من خشوع وافتقار لله عز وجل، وبعدها من استغفار وترك المحرمات، قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

المطلبُ الثَّاني: أنْواع التَّرْبِيَة

تتعدد أنواع التربية بتعدد المستفيدين وبتعدد موضوعاتها، ويمكن حصرها في التالي:

- **تربية علمية:** تؤهل القادرين، وتبني ملكات الفهم، وتضبط قواعد العلم.
- **تربية وجدانية:** تعنى بالمشاعر، وترعى الخواطر، وتوقظ القلوب.
- **وتربية جهادية:** تحرك إيمان الصادقين، لتدافع عن ديار المسلمين

[303] الآثار الكاملة - البشير الإبراهيمي 139/5

- **تربية إيمانية:** تصون الإيمان أن يبلى، واليقين أن يُزوى، والفرد أن يتردى.
- **تربية توجه للأمة عامة؛** لوقايتها وتحصينها وعلاج ما بها من أخطاء.
- **تربية توجه لقاعدة الدعوة بخاصة؛** لتنتج وتبذل لهذا الدين ببصيرة وبذل[304].

المطْلبُ الثَّالثُ: جَوَانِبُ التَّأْهِيلُ التَّرْبَويُّ لِلدُّعَاةِ

التَّأْهِيلُ التَّرْبَويُّ لِلدُّعَاةِ، يَشْمَلُ جَانِبَيْنِ:

- **الأَوَّلُ: التَّأْهِيلُ العَقَديُّ وَالْتَعَبُّديُّ،** اَلَّذِي يَرْتَقِي بِهِ فِي مَعالِي الرَّبَّانِيَّةِ اَلَّتِي تُصَبِّرُهُ وَتُثَبِّتُهُ وَتُقَوّيه وَتَحْفَظُهُ مِنْ مَداخِلِ شَياطينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ وَمَكْرِهِمْ.
- **الثَّانِي: التَّأْهِيلُ فِي جانِبِ السُّلوكِ والْعَمَلِ؛** لِيَرْتَقِيَ بِهِ لِمَعالي الأَخْلاقِ وَتَدَرُّجات تَزْكِيَة النَّفْسِ وَطَهارَتِها.[305]

المطْلبُ الرَّابِعُ: أَهَمِّيَّةُ تَرْبِيَةِ الدُّعاةِ

يُمْكِنُ بَيانُ أَهَمِّيَّةِ تَرْبِيَةِ الدُّعاةِ فِي النِّقاطِ التّالِيَةِ:[306]

1- **انْتِشارُ ظاهِرَةِ الِاكْتِفاءِ الذّاتِيّ**، فَنَرَى مِنْ بَعْضِ الدُّعاةِ اِنْصِرافَهُمْ عَنْ مَجالِسِ التَّذْكِيرِ والْوَعْظِ والرَّقائِقِ وانْصِرافَ مَناهِجِ تَرْبِيَتِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ عَنْ هَذَا الجانِبِ، بِحُجَّةِ الِاكْتِفاءِ الذّاتِيّ، وَأَنَّ تَرْبِيَةَ المَواعِظِ والرَّقائِقِ قَدْ جاوَزوا قَنْطَرَتَها، فَالمَوْعِظَة وَالْتَرْقِيقُ إِنَّمَا هِيَ لِلْمُبْتَدِئِينَ عَلَى عَتَبَةِ بَابِ اَلدَّعْوَةِ؛ وَهَذِهِ مَهْلَكَةٌ عَظِيمَةٌ وَقاصِمَةٌ لِلظَّهْرِ.

2- **التَّرْبِيَةُ مِنْ أَهَمّ وَسائِلِ الثَّباتِ عَلَى الدّينِ وَلُزومِ الحَقّ عِنْدَ الهَرْجِ وَالْمَرَجِ**، واخْتِلاطِ الأُمورِ، ولذلك تَجِدُ الدّاعِيَةَ اَلَّذِي تَعَرَّضَ لِلتَّأْهِيلِ التَّرْبَوِيّ ثَابِتًا رَاسِخًا، كَالْنَخْلَةِ اَلشَّمَاءِ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ، دَؤُوبًا في العمل، فهو لَا يَكْتَفِي بِالثَّبَاتِ، بَلْ يَزِيدُ الثَّبات دَوَامًا وَاسْتِمْرارًا.

3- **جُنوحُ كَثيرٍ مِنْ المَناهِجِ التَّأْهيليَّةِ لِلدُّعَاةِ فِي هَذَا العَصْرِ إِلَى اَلْجانِبِ اَلْعِلْمِيّ البَحْت، والِاسْتِغْراقُ فِيهَا مَعَ ضَعْفِ رَبْطِهِ بِالْجَوَانِبِ العَمَليَّةِ وَالْإِيمانيَّةِ**، فَإِنَّكَ تَرَى اليَوْمَ كَيْفَ أَنَّ اَلَّذِي يُدَرِّسُ النّاسَ وَيُعَلِّمُهُمْ أَسْماءَ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفاتِهِ يُغْرَقُ فِي الْكَلَامِيَّاتِ والرُّدودِ الفَلْسَفيَّةِ التي تُخْرِجُ الْهَدَفَ مِنْ تَعَلُّمِ أَسْماءِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحْصائِها عَنْ مَقْصِدِهِ، وَهُوَ تَأْثِيرُهُ فِي سُلوكِ النّاسِ.

5- **قَلْبُ الإنسانِ سَريعُ التَّقَلُّبِ والنِّسْيانِ، فَإِذَا طَالَ عَلَيْهِ الأَمَدُ بِلَا تَذْكِيرٍ وَلَا تَذَكُّرٍ، تَبَلَّدَ وَقَسا وَأَظْلَمَ**! فَلا بُدَّ مِنْ تَذْكِيرِ هَذَا القَلْبِ حَتَّى يُذَكَّرَ وَيَخْشَعَ، وَلَا بُدَّ مِنْ اليَقَظَةِ الدّائِمَةِ كَيْ لَا يُصيبَهُ اَلْتَبَلُّدُ وَاَلْقَساوَةُ.

6- **اَلدُّعاةُ إِلَى اللَّهِ هُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَى التَّرْبِيَةِ وَمُحاسَبَةِ النَّفْسِ وَتَقْريعِها بِاَلْزَعائِبِ والرَّقائِقِ**؛ لِيُشْرِقَ نُورُ الْإِيمَانِ فِي دَعْوَتِهِمْ، وَفِي أَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ، بَلْ حَتَّى فِي هَيْئَتِهِمْ وَسَمْتِهِمْ.

7- **الدّاعِيَةُ اَلَّذِي تَرَبَّى، يَظْهَرُ أَثَرُهُ عَلَى سُلوكِهِ، وَيَكُونُ أَقْوَى تَأْثِيرًا فِي اَلْجُمْهورِ مِنْ صاحِبِ الهَيْئَةِ والْبِزَّةِ بِلَا تَرْبِيَةٍ.**

---

[304] معالم في أصول الدعوة، ص: 93-92 باختصار

[305] موسوعة الدعوة، تأْهِيلُ الدُّعَاة، للدكتور محمد العواجي ص 140

[306] مُلَخَّصٌ لِمَقالٍ بِعُنْوَانِ: الدُّعاةُ والْحاجَةُ إِلَى اَلتَّرْبِيَةِ، مَنْشورٌ عَلَى مَوْقِعِ صَيْدِ الفَوائِدِ

8- **الدّاعيةُ الَّذِي تَرَبَّى، يَظْهَرُ الإِنْجازُ فِي حَياتِهِ ظُهُورًا مُتَمَيِّزًا**، فَهُوَ لَا يَتَوَانَى وَلَا يَتَكاسَلُ، وَيوقِنُ أَنَّ الحَياةَ لَحَظاتٌ إِذَا فَاتَتْ لَحْظَةٌ فَاتَتْ أُخْتُها فَهُوَ دائِمُ العَمَلِ والْإِنْجازِ.

9- **التَّرْبِيَةُ مِنْ أَهَمِّ أَسْبابِ إِتْقانِ الدّاعيَةِ فِي عَمَلِهِ الدَّعْوِيِّ، دُونَ أن يَنْتَظِرَ أَجْرًا دُنْيَوِيًّا، وَلَا ثَناءً عَطِرًا، وَلَا مَكانَةً مَرْموقَةً،** إِنَّمَا يَنْتَظِرُ وَعْدَ اللَّهِ، فَهُوَ يَبْنِي لِآخِرَتِهِ لَا لِدُنْياه، يَعْمَلُ مُرَاقِبًا اللَّهَ تَعَالَى، وَيَخْطُو الخُطَى وَاثِقًا بِهِ جَلَّ وَعَلَا، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ أَعْمالُهُ فِي نَظَرِ الآخَرِينَ لَا تُذْكَر! لَكِنْ رُبَّ دِرْهُمٍ سَبَقَ أَلْفَ دِرْهَمٍ.

10- **التَّرْبِيَةُ مِنْ أَهَمِّ الأَسْبابِ المَوَصِّلَةِ لِلتَّأَثُّرِ والْيَقْظَةِ وَسُرْعَةِ الِاسْتِجابَةِ**، فَالْدَّاعي المُتَأَهِّلُ تَرْبَوِيًّا يَتَأَثَّرُ بِالْمَوْقِفِ والْكَلِمَةِ، قَالَ تَعَالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأَنْفالِ: 2]. هنا ذكر الله ثلاث صفات للمؤمنين وكلها من أعمال القلوب.

المطلبُ الخَامِسُ: أَهَمِّيَّةُ مَعْرِفَةِ مَعَالِمِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَتَرْبِيَتِهَا

لا شَكَّ أن المسلمين عامَةً والدُعاة إلى الله خاصةً بحاجة ماسَّة إلى معرفة معالم تزكية النفس وتربيتها، ويرجع ذلك لعدة أسباب، منها:

1- **أنَّ من أعظم مهام الدعاة الربانيين، تربية الناس وتزكية نفوسهم**، إذ هم أتباع الرسل الذين كانت التزكية من أعظم مهامهم: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الجمعة:2].

2- **أنَّ التربية والتزكية في حقيقتها تقريب المدعو من رتبة الكمال البشري بكل وسيلة مشروعة**، فهي تصنع الأجيال وتُهيئ الأشبال؛ ليرتقوا ذُرَى الكمال متسلحين بعقائدٍ صحيحةٍ وأعمالٍ صالحة، وأخلاق زاكية في الدنيا، كما تُهيئهم لأنعم نعيم أهل الجنة في الآخرة.

3- **أنَّ التربية هي التي تُحَوِّلُ العقيدة المستكينة في الضمائر إلى حقيقة سلوكية في الواقع**، وتُرَسِّخُ معاني الألوهية في القلب؛ ليصبح يقينًا لا تزلزله محنةً وابتلاءً، كما لا تغيره نعمة ورخاء، وهذه التربية تحتاج إلى ترسيخ الأخلاق، وتقويم السلوك، وتعميق الوعي، ولا يتحقق هذا إلا بعمل مستمر دائم، وعزم لا يلين.

4- **تتعاظم أهمية التربية**؛ لأن الدعوة والدعاة يتعرضون فوق كل أرض وتحت كل سماء للفتن أنواعًا منوعة، بالخير والشر، والرغبة والرهبة، ولا يعصم -بإذن الله- من فتنة السَّراء والضَّرَّاء إلا تربية تُعظِّم أمر الآخرة، وتصغِّر شأن الدنيا، وتُؤْثِرُ ما يبقى على ما يفنى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} [الأعلى:14-17].

5- **أنَّ التربية وقاية من مفاسد الزمن**، فهذا الزمن يتميز بتقدم مذهل في وسائل التقنية ونقل المعلومات، فدارت عجلة الفساد سريعة عبر تلك المعابر، اقتحمت حصون الأمة، وهددت من داخلها، كل ذلك يقتضي عناية خاصة بالتربية؛ لتكون حصانة للأمة بعامة، وللدعاة بخاصة.

6- أنَّ التربية على العمل بالعلم، والتحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل، والاقتداء والتأسي بالمثل الكامل، تحقق حصانة للأمة بعامة، وللدعاة بخاصة.

7- **يتميز هذا الزمان بأزمة في الكفاية والإتقان**؛ فيُشتكى من جَلَد الفاجر وعجز الثقة، وتضعف القوة والكفاية، ويخف الصدق والأمانة، والتربية على إحسان العمل، ورعاية حقوق الله تعالى، وحقوق خلقه، أداءً للأمانة، وقيامًا بالواجب، تمثل حصانة للأمة بعامة، وللدعاة بخاصة.

8- **القيام بواجب التربية والتزكية للنفوس هو في الحقيقة تهيئة الأمة للمطالبة بتحقيق شرع الله في الأرض وتطبيقه**، وما أحسن مقولة من قال: "أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم في أرضكم"[307].

9- **العناية بالتربية لطائفة مخصوصة من الأمة تُهيئ لها فئات فَذَّة قادرة على البذل والعطاء**، وتحقيق الآمال، والمرابطة على الثغور العلمية والعملية؛ حماية للدين من كيد الكائدين وعبث العابثين.

10- كثيرا ما يُرَدُّ الإخفاق في تحقيق الأهداف الدعوية إلى أسباب داخلية، وعمدة هذه الأسباب عند التحقيق هو الخلل التربوي:

- **فتارة يكون الخلل بسبب ضعف التربية**، وتارة بسبب عدم تدرج التربية وقفز الأغرار فوق أكتاف الثقات.
- **وتارة بسبب عدم تكامل التربية**؛ فتتضخم قضايا وأمور على حساب أمور أخرى لا تقل أهمية.
- **وتارة أخرى بسبب عدم التوازن بين التربية وأصول ومنطلقات الدعوة إلى الله.**

11- **التربية الجادة المتكاملة المنضبطة، هي دعامةُ تَحْقِيقِ الأهداف**، سواء كانت أهدافًا علمية أم عملية. فقد عد الإمام الشاطبي -رحمه الله- أمارات العالِم فذكر منها: „أن يكون ممن ربَّاه الشيوخ في ذلك العلم؛ لأخذه عنهم وملازمته لهم، فهو الجدير أن يتصف بما اتصفوا به من ذلك، وهكذا كان شأن السلف الصالح، فأول ذلك ملازمة الصحابة، رضي الله عنهم، لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخذهم بأقواله وأفعاله، وصار مثل ذلك أصلًا لمن بعدهم، فالتزم التابعون في الصحابة سيرتهم مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى فقهوا ذروة الكمال في الأمور الشرعية"[308].

12- **اتساع نطاق العمل الدعوي**، فقوافل التائبين إلى الله تترى، وهي خليط متنافر من سلوكيات تربوية، لا يجمع بينها إلا أنها بعيدة عن المنهج السوي، وإقبالها على التربية وقد انتقلت إلى الصف الإسلامي بكل ما تحمله من رواسب المسالك الماضية، وإن تصعيدها في مدارج العمل الإسلامي من غير تصفية وتربية جادة لابد أن ينعكس بآثار وبيلة على العمل بأسره، ما لم يتدارك ذلك بتربية حاسمة ومؤثرة، فلابد من إزالة أوصار الماضي وتأسيس بنيان الحاضر على أسس مستقيمة وقواعد متينة.

13- **أهمية إفراز الصفوف الثانية وتنشئتها، والكفايات البديلة، وصناعة الأجيال**، فلا يصح ولا يصلح الاعتماد بعد الاتساع على شخصيات آسرة وقيادات كبرى فحسب؛ ذلك أن العمل التربوي يعتمد على المخالطة والاحتكاك المباشر، ولا يتأتى هذا لتلك القيادات الأولى، فلابد من همزة الوصل بين الأجيال، وهم أفراد تلك الصفوف الثانية من طلبة العلم والدعاة النابهين، الذين يعتمد عليهم في تحريك القلوب، ومتابعة التعليم والتقويم المستمر، وعليه فلابد من جهد تربوي ضخم لتربية أدوات التغيير ووسائله من الدعاة والمصلحين.

14- **تنوع مجالات الدعوة وتخصصاتها ووسائلها**، ويحتاج الأمر إلى من يسد الثغرات في سائر المجالات من الطاقات والكفايات، ولا يتأتى هذا إلا بوجود الإنتاج التربوي المتين الغزير، الذي يوصف بالرجولة والصدق، قال تعالى: {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب:23].

فإن مجالات كثيرة قد أشرعت أبوابها، تنتظر من يَلِجُهَا ويشارك فيها، ويضرب للدعوة فيها بسهم، وهذا يستلزم اعتماد التربية وسيلة وغاية في وقت واحد، مع التنبه إلى خطورة الاستعجال في التجميع على حساب التربية المنضبطة..

وفي الجملة فإن التربية أصل ضخم وأساس متين، لا يتم بدونه تغيير، ولا تنجح بدونه دعوة، وليس له غاية ينتهي عندها، ولا يستغني عنها الكبير فضلًا عن الصغير، ولا المنتهي فضلاً عن المبتدي[309].

---

[307] نقلها الشيخ الألباني في رسالته التصفية والتربية ص: 33

[308] الموافقات 1/66

[309] معالم في أصول الدعوة، ص: 83- 92 باختصار وتصرف

المطلبُ السَّادِسُ: آفَاتُ التَّرْبِيَةِ

من الأمور الواجب التنبيه عليها، أنَّ لكلِّ عملٍ عظيمٍ آفات، ومن أخطر آفات التربية، ما يلي:

1- التهوين من شأن العقيدة، وضعف التربية على معانيها.
2- التربية على التقليد والتعصب لراية أو شعار دون الإسلام
3- المغالاة في النظرة للتربية الخاصة على حساب البلاغ المبين للدين.
4- الاهتمام بالشكل دون المضمون، والعناية بالظاهر على حساب الباطن.
5- فقدان التوازن بين أنواع التربية ومجالاتها.
6- اتخاذ الترخص الجافي منهجًا في مسائل الفقه والأحكام، أو اعتماد التنطع الغالي منهجًا في مسائل الدين والسلوك.
7- كما أن التهور والاندفاع اليائس يعكس خللاً تربويًّا، فالتثاقل والتباطؤ ينبئ عن عجز وكسل، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم"[310].

[310] معالم في أصول الدعوة ص: 93

المبحث الثالث: التربية الإيمانية في حياة الدعاة

المطلب الأول: أهمية التربية الإيمانية

1. إنَّ الْإِيمَانَ هوَ الزّادُ لِلْمَرْءِ عُمُومًا، وَلِلدَّاعِيَةِ خُصُوصًا فِي مواجَهَةِ الشَّهَواتِ، وَهُوَ العِلاجُ الأَنْجَعُ لِكَثِيرٍ مِنْ المُشْكِلَاتِ وَالآفَاتِ، مِنْ قَسْوَةِ القَلْبِ، والْفُتورِ، والْيَأْسِ، والِاسْتِعْجالِ والتَّسْويفِ، وَغَيْرِها مِنْ المُشْكِلَاتِ لَا يُعالِجُها إِلَّا قوَّةُ الْإِيمَانِ.

2. إنَّ الْإِيمَانُ يُعِيّنُ الدّاعيةَ عَلَى اَلثَّباتِ عَلَى دِينِ اللَّهِ، خاصَّةً وَنَحْنُ اليَوْمَ نُعَانِي مِنْ كَثيرٍ مِنْ حَالَاتِ التَّقَهْقُرِ والتَّراجُعِ، لِذَا فَحِينَ سَأَلَ هِرَقْلُ أَبَا سُفْيانَ عَنْ أَصْحابِ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: "وَسَأَلْتُك أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيه؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخالِطُ بِشاشَتُهُ القُلُوبَ".[311]

3. إنَّ الْإِيمَانَ مِنْ أَعْظَمِ الحَواجِزِ بَيْنَ الدّاعيةِ وَبَيْنَ مواقَعَةِ الحَرامِ وَالمَعَاصِي، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ الشَّيْطانِ: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سلطَٰنٌ عَلَى اَلَّذِينَ ءَامَنوَا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النَّحْلُ: 99]، وَحِينَ يواقِعُها فَالْمُؤْمِنُ هوَ أَقْدَرُ النّاسِ عَلَى الإِقْلاعِ والتَّوْبَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} [الأَعْرافِ:201].

4. إنَّ الْإِيمَانَ يُعِينُ الدُّعاةَ عَلى بَذْلِ النَّفْسِ والْمالِ واحْتِمالِ المَصاعِبِ.

5. إنَّ الْإِيمَانَ يعْصِمُ الدّاعيةَ مِنْ الفُتورِ والضَّعْفِ، فَكَيْفَ يَفْتُرُ داعيةٌ وَكَلامُ اللَّهِ جَليسُهُ، وَحَديثُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنيسُهُ؟ وَكَيْفَ يَضْعُفُ داعيةٌ والذِّكْرُ غِذَاؤُهُ وَدَواؤُهُ؟! وَكَيْفَ يَيْأَسُ أَوْ يَيْأَسُ والدُّعاءُ سَلْوَتُهُ وَقيامُ اللَّيْلِ لَذَّتُهُ؟! وَكَيْفَ يَضِلُّ أَوْ يَزِلُّ وَالتَّقْوَى سيرَتُهُ وَسَريرَتُهُ؟!

6. إنَّ الْإِيمَانَ يَعْمَلُ عَلَى أَنْ يَتَخَلَّى الدّاعيةُ عَنْ الآفَاتِ، وَتَحْلِيَتُهُ بِجَميلِ الصِّفاتِ والسَّمْتِ الصّالِحِ والْهَدْيِ الظّاهِرِ، وَيَمْنَعُهُ مِنْ المُخالَفَةِ بَيْنَ القَوْلِ والْعَمَلِ، وَيَزْجُرُهُ عَنْ عِلْمٍ لَا نَفْعَ فِيه، وَعَنْ عَمَلٍ لَا إِخْلاصَ فِيه، ويَحولُ بَيْنَه وَبَيْنَ إِيثَارِ الدُّنْيَا، وَاَلرَّكْضِ خَلْفَ مَتاعِها وَمَا يُذَمُّ مِنْ أَعْراضِها.

7. إنَّ التَّرْبِيَةَ الإِيمَانِيَّةَ تُعَلِّقُ قَلْبَ الدّاعيةِ بِاللَّهِ، وَتُخَلِّصُهُ مِنْ عَوالِقِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِها وَقوَّتِها وَحَوْلِها، فَلَا يكونُ لَهُ تَعَلُّقٌ بِمالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ سُلْطانٍ أَوْ رِفْعَةٍ أَوْ مَكانَةٍ أَوْ شُهْرَةٍ، وَهِيَ اَلَّتِي تَكْبَحُ النَّفْسَ عَنْ جِماحِ شَهَوَاتِهَا وَلَذّاتِها.

8. إنَّ التَّرْبِيَةَ الإِيمَانِيَّةَ تُعْنَى أَكْثَرَ بِإِصْلاحِ القَلْبِ واسْتِقامَتِهِ، وَتَحْقيقِ عُبُودِيَّةِ القَلْبِ للَّهِ جَلَّ وَتَعَالَى، فَإِنَّ صَلاحَ القَلْبِ لازَمَهُ صَلاحُ السُّلوكِ "أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ".[312]

المطلب الثاني: التربية على التنسك والتعبد

وَهَذِهِ مِنْ الأُمورِ المُهِمَّةِ جِدًّا، فالْعِبادَةُ هِيَ زَادُ الدّاعيَة فِي طَريقِهِ إِلَى اللَّهِ أَوَّلًا، وَفِي طَريقِ دَعْوَتِهِ ثَانِيًا، وَهُنَاكَ مَجْموعَةٌ مِنْ العِبَادَاتِ اَلَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تَكونَ شِعَارًا لِلدَّاعِيَةِ، لَا يَتْرُكُها وَلَا يَسْتَغْني عَنْهَا، نُبْرِزُ أَرْبَعَةً مِنْهَا:

أَوَلًا: تَرْسيخُ قِيَامِ اللَّيْلِ عِنْدَ الدُّعاةِ:

قِيَامُ اللَّيْلِ هوَ زَادُ الداعيةِ الإِيمَانِيُّ فِي طَريقِ دَعْوَتِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلِذَا يُرْشِدُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ إِلَى مَا يَرْفَعُ دَرَجَتَهُ فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا}

---

[311] صَحيحُ البُخاريّ 7، وَمُسْلِم 1773

[312] صحيح البخاري 52، ومسلم 1599

[الإسْرَاءِ:79].

لَا بُدَّ لِأَيِّ نَفْسٍ تُرِيدُ أَنْ تُؤَثِّرَ فِي واقِعِ الحَياةِ البَشَرِيَّةِ مِنْ خَلْوَةِ بَعْضِ الوَقْتِ، وانْقِطاعٍ عَنْ شَواغِلِ الدُّنْيَا، وَضَجَّةِ وَزَحْمَةِ الحَياةِ، وَهُمومِ النّاسِ اَلَّتِي تَشْغَلُ.

ثانيًا: تَرسيخُ ذِكْرِ اللهِ فِي حَياةِ الدُّعاةِ:

ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى، هوَ مِفْتاحُ القُلوبِ لِلْإِيمَانِ، والمُثَبِّتُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَلِذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ بِذِكْرِهِ، والدَّوام عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَاذْكُر اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْه تَبْتيلًا} [المُزَّمِّلِ:8]، أَيْ: داوم عَلَى ذِكْرِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا عَلَى أَيِّ وَجْهٍ مِنْ تَسْبيحٍ وَتَهْليلٍ وَتَحْمِدٍ".[313] والدَّوامُ عَلَى ذَلِكَ.[314] قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: „أَيْ أَقْبِل عَلَى شَأْنِكَ مِنْ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَذِكْرِ اللهِ بِأَنْواعِ الذِّكْرِ.[315]

ثالثًا: تَرسيخُ قِراءَةِ القُرْآنِ فِي حَياةِ الدُّعاةِ:

كِتابُ اللهِ تَعَالَى هوَ زَادُ الدّاعيَةِ ِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ زَادُ كُلّ ِ مُسْلِمٍ لِيُعينَهُ عَلَى مواصَلَةِ ِ طَريقِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى جَنَّتِهِ.

رابعًا: تَرسيخُ عِبادَةِ التَّفَكُّرِ فِي حَياةِ الدُّعاةِ:

التَّفَكُّرُ مِنْ العِبَادَاتِ اَلَّتِي لَهَا أَثَرُها المُهِمُّ فِي بِناءِ الدّاعيَةِ وَتَأْهيلِهِ إِيمَانِيًّا، وَقَدْ ظَهَرَتْ هَذِهِ العِنايَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم.

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسَّرَ لِنَبِيِّهِ سُبُلَ التَّفَكُّرِ، فَبَيْلَ النُّبوَّةِ حَبَّب اللَّه تَعَالَى إِلَى نَفْسِ نَبِيِّهِ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم الخَلْوَةَ للتَفَكُّرِ والتَّأَمُّلِ، فَعَنْ عائِشَةَ قَالَتْ: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسولُ اللَّهِ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم مِنْ الوَحْيِ الرُّؤْيَا اَلصّالِحَة فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حَبَّبَ إِلَيْه الخَلاءَ، وَكَانَ يَخْلو بِغار حِراءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيه - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَواتُ العَدَدِ.[316]

قَالَ السُّيوطيُّ: جَاءَ عَنْ بَعْضِ المَشَايخِ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَبَّدُ بِالتَّفَكُّرِ[317].[318]

---

[313] أيسر التفاسير للجزائري 5/456

[314] التحرير والتنوير 29/249

[315] المرجع السابق 29/375

[316] صَحيحُ البُخاريّ، كِتابُ بَدْءِ الوَحْيِ، كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ وَقَوْلَ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ.

[317] الدّيباجُ فِي شَرْح صَحيح مُسْلِمٍ لِلسُّيُوطِيّ.

[318] موسوعة الدعوة، تأهيل الدعاة، للدكتور محمد العواجي، ص: 156-164

الفَصْلُ الخَامِسُ: أَعْمَالُ القُلُوبِ والعَنَايَةُ بِتَرْسِيخِها فِي النُفُوسِ

كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَدِيدَ العَنَايَةِ بِأَعْمَالِ القُلُوبِ، حَتَّى إِنَّهُ قَالَ: "أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ".[319] وَعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟" قَالَ: "كُلُّ مُخْمومِ القَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ"، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مُخْمُومُ القَلْبِ؟ قَالَ: "هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ".[320] وَقَالَ: "إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ".[321] وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثرُ أن يقولَ يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينِك.[322]

وَمِنْ هُنَا كَانَ لَا بُدَّ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِإِصْلَاحِ قَلْبِه؛ لأَنَّ القَلْبَ مَوْضِعُ نَظَرِ الرَّبِّ.

المبحث الأول: الإخلاص

إنَّ أعظمَ الأصولِ المهمَّةِ في دِينِ الإسْلامِ هُوَ تحقيقِ الإخْلاصِ للهِ تَعالى فِي كُلِّ العبَادَاتِ، والابتعاد والحذر عن كل ما يضاد الإخلاص وينافيه، كالرياء والسمعة والعجب ونحو ذلك.

ورحم الله أحد العلماء إذ يقول: "وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلّا، فانه ما أُتيَ على كثير من الناس إلا من تضيع ذلك"[323].

المطلب الأول: معنى الإخلاص

- **الإخْلَاصُ لُغَةً:**

الإخْلَاصُ فِي اللُّغَةِ: خَلَصَ يَخْلُصُ خُلُوصًا: صَفا وَزَالَ عَنْهُ شَوْبُهُ، وَيُقَالُ: خَلَصَ مِنْ وَرْطَتِهِ: سَلِمَ مِنْهَا وَنَجَا، وَيُقَالُ: خَلَّصَهُ تَخْلِيصًا: أَيْ: نَجَّاهُ، وَالإِخْلَاصُ فِي الطَّاعَةِ: تَرْكُ الرِّيَاءِ.[324]

قَالَ ثَعْلَبُ: وَالْمُخْلِصُونَ: هُمُ الَّذِينَ أَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، أَي: اخْتَارَهُمْ، فَالْمُخْلِصُونَ: الْمُخْتَارُونَ، وَالْمُخْلِصُونَ: الْمُوَحِّدُونَ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ: كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ.[325]

- **الإخْلَاصُ اصْطِلَاحًا:**

ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ تَعْرِيفَاتٍ بَعْضُهَا قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ:

- قَالَ الْكَفَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي الْكُلِّيَّاتِ: الإِخْلَاصُ: هُوَ الْقَصْدُ بِالْعِبَادَةِ إِلَى أَنْ يَعْبُدَ بِهَا الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ، وَقِيلَ: تَصْفِيَةُ السِّرِّ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

---

[319] صَحِيحُ البُخَارِيّ 52، وَمُسْلِم 1599

[320] سُنَنُ ابْنِ مَاجَهْ 4226. وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الجَامِعِ 3261

[321] صَحِيحُ مُسْلِمٍ 2564

[322] أخرجه الترمذي (2140)، وأحمد (13696) باختلاف يسير، وابن ماجه (3834) بنحوه

[323] مقاصد المكلفين للدكتور عمر الأشقر، ص: 5

[324] المعجم الوسيط، مختار الصحاح ص: 77

[325] لسان العرب لابن منظور

- وَقَالَ الْمَنَاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "الإِخْلاَصُ: هُوَ تَخْلِيصُ القَلْبِ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ يُكَدِّرُ صَفَاءَهُ، فَكُلُّ مَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَشُوبَهُ غَيْرُهُ فَإِذَا صَفَا عَنْ شَوْبِهِ وَخَلُصَ مِنْهُ يُسَمَّى خَالِصًا، وَقِيلَ: الإِخْلاَصُ ". [326]

- وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ: "الإِخْلاَصُ: أَلَّا تَطْلُبَ لِعَمَلِكَ شَاهِدًا غَيْرَ اللهِ".

- وَقَالَ سَهْلُ التُّسْتُرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "نَظَرَ الْأَكْيَاسُ فِي تَفْسِيرِ الإِخْلاَصِ فَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ هَذَا: أَنْ تَكُونَ حَرَكَتُهُ وَسُكُونُهُ فِي سِرِّهِ وَعَلاَنِيَتِهِ لِلهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، لَا يُمَازِجُهُ شَيْءٌ؛ لَا نَفْسٌ وَلَا هَوًى وَلَا دُنْيَا".

- وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ الْمَغْرِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "الإِخْلاَصُ: نِسْيَانُ رُؤْيَةِ الْخَلْقِ بِدَوَامِ النَّظَرِ إِلَى الْخَالِقِ، وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، سَقَطَ مِنْ عَيْنِ اللهِ تَعَالَى".

- وَقَالَ حُذَيفَةُ المَرعَشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "الإِخْلاَصُ اسْتِوَاءُ أَعْمَالِ الْعَبْدِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَالرِّيَاءُ: أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ خَيْرًا مِنْ بَاطِنِهِ، وَالصِّدْقُ فِي الإِخْلاَصِ: أَنْ يَكُونَ بَاطِنُهُ أَعْمَرَ مِنْ ظَاهِرِهِ".

- وَقِيلَ لِسَهْلٍ رَحِمَهُ اللهُ: "أَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ؟، قَالَ: "الإِخْلاَصُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا فِيهِ نَصِيبٌ".

- وَقَالَ الْجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللهُ: "الإِخْلاَصُ سِرٌّ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ، لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ فَيَكْتُبَهُ، وَلَا شَيْطَانٌ فَيُفْسِدَهُ، وَلَا هَوًى فَيُمِيلُهُ".[327]

- وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْفَوَائِدَ: "الْإِخْلَاصُ: هُوَ مَا لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ فِيكْتُبُهُ، وَلَا عَدُوٌّ يُفْسِدُهُ، وَلَا يُعْجَبُ بِهِ صَاحِبُهُ فَيُبْطِلُهُ".

المطلب الثاني: الحثُّ عَلَى الإِخْلاصِ والتَّرغيبُ فيه

أ. الإخلاص في القرآن الكريم:

- **الفرق بين المُخْلِص والمُخْلَص في آيات القرآن الكريم:**

أولا: المُخْلِص: بِكَسْرِ اللَّامِ، هُوَ الَّذِي أَخْلَصَ عِبَادَتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى فَلَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [غافر:٦٥]

ثانيا: المُخْلَص: بفتح اللام، هو مَن أخْلَصَهُ الله تعالى واختاره، قال الله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم:٥١]، أي: أنه مِن عبادنا الذين أخْلَصْناهُم لأنفسِنا واخترناهم لنُبُوَّتِنا ورِسالَتِنا.

- **كَلِمةُ الإخلاص في القرآنِ الكَريم:**

وردت كلمةُ الإخلاصِ وَصيغها في القرآن الكريم ٣٨ مرة، قَالَ اللهُ تَعَالَى:

{إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} [ص: ٤٦]

{وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} [يوسف:٥٤]

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم:٥١]

- **ولَفظ (خلص) باشْتِقاقاتِهِ المُختَلِفة وَرَدَ في القرآن الكَريم على أربَعةِ مَعان:**

[326] صفات الداعية إلى الله في الحديث النبوي ص: 1/141 - جامع الكتب الإسلامية

[327] مدارج السالكين 2/95

1. بِمَعْنى التَّوحيدِ وَعَدَم الإشراك بالله تعالى:

وأكثَر ما جاء في القرآن الكريم هو وِفْقُ هذا المعنى:

قال الله تعالى: {وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [الأعراف :29]، أي: وَحِّدُوهُ ولا تُشْرِكوا بِهِ.

وقال الله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة:5].

وقال الله تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر:11]، أي: لا أُشْرِكُ في طاعَتِه وعِبادَتِهِ أحَداً غَيرُه سبحانه.

وقال الله تعالى: {دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [يونس:22]، أي: دَعَوْهُ وَحْدَهُ، وتَركُوا ما كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِه.

2. بمعنى الاصْطِفاء والاخْتِيارُ مِن دونِ النَّاس:

قال الله تعالى: {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [الحجر:40]، أي: الذين أخْلَصْتَهُم واصْطَفَيْتَهُم وطَهَّرْتَهُم.

وقال الله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم:51]

3. بمعنى الانْفِراد عَنِ الغَير:

كوصف حالِ إخْوةِ يوسُفَ عليه السلام، قال الله تعالى: {فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا} [يوسف:80]، أي: انفردوا بأنفُسِهِم، وليس يوسُفُ مَعَهُم.

4. بمعنى الأمر الذي لا يَشُوبُه شيء، كما في قوله تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمر:3].

ب. الإخلاصُ في السُنة النَّبَوِيَّة:

- عن أبي أُمَامَةَ الباهلي رضي الله عنه قال: "جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أرأيتَ رجلًا غزا يلتمِسُ الأجرَ والذِّكر؟ -يعني يُرِيدُ الأَجْرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويُرِيدُ أنْ يُذْكَر، يقالُ: فلانٌ مجاهدٌ- ما له؟ فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا شَيْءَ له، فأعاد ثلاثَ مرَّاتٍ، يَقُولُ له رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا شَيْءَ له، ثمَّ قال: إنَّ اللهَ لا يقبلُ من العملِ إلَّا ما كان خالصًا وابتُغي به وجهُه".[328]

- وجاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "قال الله -تبارك وتعالى-: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ".[329]

فَالْأَعْمَالُ الَّتِي تَخْتَلِطُ فِيهَا الْإِرَادَاتُ، وَيَتَلَفَّتُ صَاحِبُهَا يَمِينًا وَيَسَارًا يُرِيدُ مِنَ اللَّهِ وَيُرِيدُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، اللَّهُ غَنِيٌّ عَنْهَا، وَلَا يَعْبَأُ بِهَا، وَلَا يُقِيمُ لَهَا وَزْنًا.

- وَجَاءَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ مَحَلَّ نَظَرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَلْبُ الْعَبْدِ، وَهُوَ مَحَلُّ الْإِخْلَاصِ وَالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ".[330]

- وَلِلتِّرْمِذِي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ للهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ" [331]، "ثلاثٌ"، أي: ثلاثُ خِصَالٍ، "لا

---

[328] أخرجه النسائي 3140، وحسنه الألباني في صحيح الجامع 1856

[329] أخرجه مسلم 2985

[330] أخرجه مسلم 2564

[331] سنن الترمذي 2658

يُغِلُّ علَيهِنَّ قلبُ مؤمِنٍ"، ويُغِلُّ- بضَمِّ الياءِ- مِن الإغْلالِ وهو الخِيانةُ. وقيل: بفَتْحِها، مِن الحِقْدِ، والمعنى: أنَّ هذه الخِلالَ الثَّلاثَ تَصْطَلِحُ بها القلوبُ؛ فمَن تمَسَّك بها طَهُر قلبُه مِن الخيانةِ والشَّرِّ، وأنَّ المؤمِنَ لا يَخونُ في هذه الثَّلاثةِ ولا يَدخُلُ في نفسِه حاجةٌ تُبعِدُه عن الحقِّ.

وأُولَى تلك الخِصالِ: "إخلاصُ العمَلِ للهِ"، أي: بأَنْ يَقصِدَ بالعمَلِ وجْهَ اللهِ، ورِضاه فقَطْ، دونَ غرَضٍ آخَرَ دُنيَويٍّ.

والثَّانيةُ: النَّصيحةُ، وهي إرادَةُ الخيرِ للمنصوحِ له، ونَصِيحَةُ الوُلاةِ والأئِمَّةِ: لا يَخاف في الله لومة لائم وأن يُطيعَهم في الحقِّ، ونَصيحةُ عامَّةِ المسلِمين إرشادُهم إلى مَصالِحِهم.

والثَّالثةُ: "لُزومُ جَماعتِهم"، أي: مُوافَقتُهم في الاعْتِقادِ، والعمَلِ الصَّالحِ؛ مِن صَلاةِ الجُمعةِ، والجماعةِ، وغيرِ ذلك؛ "فإنَّ دَعوَتَهم تُحيطُ مِن وَرائِهم"، والمعنى أنَّ دَعْوةَ المسلِمين مُحيطةٌ بهم، فتَحرُسُهم مِن كَيدِ الشَّياطينِ، ومِن الضَّلالةِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ مَن خرَج مِن جَماعتِهم لم يَنَلْ بَرَكَتَهم، وبَرَكةَ دُعائِهم؛ لأنَّه خارِجٌ عمَّا أحاطَتْ بهم مِن وَرائِهم.

وفي الحديثِ: الحثُّ على حفظِ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ، وتَبليغِها للنَّاسِ.

وفيه: بيانُ فضْلِ العُلماءِ.

وفيه: الأمرُ بالتَّناصُحِ بينَ المسلِمين ولُزومِ الجَماعةِ.

المطلب الثالث: لماذا يُعَدُّ الإخْلَاصُ مِنْ أَهَمِّ أَعْمَالِ القُلُوبِ؟

يُعَدُّ الإخلاصُ مِن أهَمِّ أعْمالِ القُلُوبِ المُنْدَرِجَةِ في تَعريفِ الإيمَانِ، وأَعْظَمِهَا قَدْرًا ومَنْزِلةً؛ وذلك للأسبابِ الآتية:

أ – أنه مَضْمُونُ دعوةِ الرُسُلِ وَحَقيقَةِ الدِّينِ:

- قال الله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة:٥]، أي أنهم قاصدون بِجَميعِ عِباداتِهم الظاهرة والباطنة وجهَ الله.

- قال الله تعالى مخاطبًا نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر:٢]

ب – لا يَقْبَلُ اللهُ تعالى من العملِ إلا ما كان خالصًا لَهُ:

- قال الله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: 23]، أي: وقَدِمْنا إلى ما عَمِلوه مِن مَظاهِرِ الخَيرِ والبِرِ، فَجَعَلناهُ باطلا مُضْمَحِلًّا لا يَنْفَعُهُم كالهَباءِ المَنْثُور، وذلك أنَّ العمل لا يَنْفَعُ في الآخرةِ إلّا إذا تُوَفِّرُ في صاحِبِهِ: الإيمان بِالله، والإخلاصَ لَه.

- قال الله تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمر:٣]، أي: لا يُقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إلا ما أخْلَصَ فيه العامِلُ للهِ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَه.

المطلب الرابع: حُكْمُ الإخْلاصِ

الإخلاصُ واجِبٌ في كُلِ الأعْمال، ولذلك عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُخْلِصَ النِّيَّةَ فِي كُلِّ عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ حَتَّى يَتَقَبَّلَهُ اللَّهُ مِنْهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا كَانَ لِوَجْهِهِ تَعَالَى خَالِصًا، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ} [البينة: 5]، وَقَالَ تَعَالَى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ ٱلْخَالِصُ} [الزمر: 3].

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ".[332]
وَالْإِخْلَاصُ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لِلْمُسْلِمِ إِذَا كَانَ عَامِلًا أَوْ تَاجِرًا أَوْ طَالِبًا أَوْ دَاعِيًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَالْعَامِلُ يُتْقِنُ عَمَلَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِإِتْقَانِ الْعَمَلِ وَإِحْسَانِهِ، وَالتَّاجِرُ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَجْتَهِدُ فِي سَلَامَةِ تِجَارَتِهِ مِنْ الْكَذِبِ، والخِيَانَةِ، والغِشِّ، والأَيْمَانِ الفَاجِرةِ، وَالطَّالِبُ يَجْتَهِدُ فِي تَحْصِيلِ دروسِهِ، وَهُوَ يَبْتَغِي بِذَلِكَ مَرْضَاتَ اللَّهِ وَنَفْعَ الْمُسْلِمِينَ بِهَذَا الْعِلْمِ، وَالدَّاعِي يَشْعُرُ بِالْمَسئولِيةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَقَعُ عَلَى عَاتِقِهِ من نَشْرِ تَعَالِيمِ الدِّينِ فِي صِدْقٍ وإِخْلَاصٍ وحُسْنِ قَصْدٍ، مَعَ إِدْرَاكِ التَّحَدِّيَّاتِ والمَخَاطِرَ التي تُهَدِّدُ الأُمَّةَ الإِسلاميَّةَ، والمؤَامَراتِ الَّتِي تُحَاكُ ضِدَّها، وتُرِيدُ النَّيْلَ مِنْهَا، وَمِنْ ثَمَّ الأَخذُ بالأَسْبَابِ فِي مُواجَهَتِهَا.

المطلبُ الخَامِسُ: مَنْزِلَةُ الإِخْلَاصِ

الإخلاص هو حقيقة الدين، وهو مضمون دعوة الرسل قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء} [البينة: 5]، وقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك: 2].
قال الفضيل بن عياض في هذه الآية الكريمة: "أخلصه وأصوبه". قيل: "يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟" قال: أن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم تقبل وإذا صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً؛ والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة".[333]

وقال تعالى: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: 27]. يقول شيخ الإسلام: "الناس لهم في هذه الآية ثلاثة أقوال: طرفان ووسط، فالخوارج والمعتزلة يقولون: لا يتقبل الله إلا من اتَّقَى الكبائر، وعندهم صاحب الكبيرة لا يُقبل منه حسنة بحال، والمرجئة يقولون: من اتَّقَى الشرك، والسلف والأئمة يقولون: لا يتقبل إلا ممن اتقاه في ذلك العمل، ففعله كما أمر به خالصًا لوجه الله تعالى".[334]

المطلب السادس: صُوَرٌ من إخْلاصِ النيَّةِ لله عزَّ وجَلَّ

- ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: "يَا رَسُولَ اللهِ، نُرِيدُ أَنْ نَخْرُجَ مَعَكَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَلَيْسَ مَعَنَا مَتَاعٌ وَلَا سِلَاحٌ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْءٌ يُعِينُهُم بِهِ، فَأَمَرَهُمْ بِالرُّجُوعِ، فَرَجَعُوا مَحْزُونِينَ يَبْكُونَ لِعَدَمِ اسْتِطَاعَتِهِمْ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَنزَلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي حَقِّهِمْ قُرْآنًا يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ} [التوبة: 91-92]. فَلَمَّا ذَهَبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْحَرْبِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: "إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ „يَعْنِي يَأْخُذُونَ مِنَ الْأُجْرِ مِثْلَنَا“، حَبَسَهُمْ (أي: مَنَعَهُمْ) الْعُذْرُ". [335]

[332] سنن النسائي 3140
[333] مناهج السنة 217/6
[334] المصدر السابق
[335] رواه البخاري 2839

- وقال ابنُ عَقِيل: "كانَ أبُو إسْحَاقَ الفَيْرُوز آبَادِي لا يُخْرِجُ شيئًا إلى فَقِيرٍ إلا أحْضَرَ النِّيَّةَ، ولا يتكلمُ في مسألةٍ إلا قَدَّمَ الاسْتِعَانَةَ باللهِ وَإِخْلَاصَ القَصْدِ في نُصْرَةِ الحَقِّ دون التزيين والتحسين للخلق. ولا صَنَّفَ مسألةً إلا بعد أنْ صَلَّى رَكْعَتَين، فلا حَرَجَ أنْ شَاعَ اسْمُه واشْتَهَرت تَصَانِيفُه شرقًا وغربًا، وهذه بَرَكَاتُ الإِخْلَاصِ"[336].

- وَمِنَ المثِيرِ للانْتِبَاهِ أنَّ مَرْوِيَّاتِ الطُّفَيْلِ بِنْ عَمْرٍو الدَّوْسِيّ فِي الْفِقْهِ وَالسُّنَّةِ لَا تُكَادُ تُذْكَرُ أَمَامَ مَرْوِيَّاتِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، مَعَ أَنَّ الثَّانِيَ أَسْلَمَ عَلَى يَدِ الْأَوَّل، وَهُوَ فِي صَحِيفَتِهِ، ولذلك إِذَا عَلَّمْتَ أَحَدًا، أَوْ وَظَفْتَهُ، أَوْ أَكْسَبْتَهُ مَهَارَاتٍ دَعْوِيَّةٍ، لَا تَنْزَعِجْ مِنْ تَفُوقِهِ عَلَيْكَ، إِنْ صَلُحَتْ نِيَّتُكَ فَهُوَ فِي صَحِيفَتِكَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَلَا تَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَكَ.

المطلب السابع: صُورٌ مِنْ عدمِ إخلاصِ النيةِ للهِ عزَّ وجَلَّ

هَاجَرَتْ إِحْدَى الصَّحَابِيَّاتِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ اسْمُهَا أُمُّ قَيْسٍ، فَهَاجَرَ رَجُلٌ إِلَيْهَا لِيَتَزَوَّجَهَا، وَلَمْ يُهَاجِرْ مِنْ أَجْلِ نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا „يَتَزَوَّجُهَا“؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ".[337]

المطلب الثامن: الإخلاص في حَياةِ الدَّاعيةِ المُعَرِّف بالإسلام

هُوَ أَنْ يَقْصِدَ الداعيةُ بِإِرَادَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَسَائِرِ تَصَرُّفَاتِهِ وَتَوْجِيهَاتِهِ وَتَعْلِيمِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا رَبَّ سَوَاهُ.
وَالْإِخْلَاصُ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ عَمَلٌ قَلْبِيٌّ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ هِيَ الْأَصْلُ فِي الْوُصُولِ إِلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَلِذَلِكَ وَجَبَ عَلَى الدَّاعِي أَنْ يَكُونَ مُخْلِصًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يُرِيدُ ثَنَاءَ النَّاسِ وَلَا مَدْحَهُمْ وَحَمْدَهُمْ، إِنَّمَا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ، يُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ.[338]
وَفِي هَذَا السِّيَاقِ قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: "تَرْكُ الْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ رِيَاءٌ، وَالْعَمَلُ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ شِرْكٌ، وَالْإِخْلَاصُ أَنْ يَعَافِيَكَ اللَّهُ مِنْهُمَا".[339]
وإذا كانَ الإخلاصُ مُهِمًّا ولازمًا لِكُلِّ مُسْلِمٍ ومُسْلِمةٍ، فهو للدَّاعِيةِ أهمُّ وألزمُ؛ لأنه القُدْوَةُ العَمَلِيَّةُ لِغَيْرِهِ.
وَالإِخْلَاصُ هُوَ رُوحُ عَمَلِ الدَّاعِيَةِ، وَمِنْ أَهَمِّ صِفَاتِهِ، وَهُوَ أَسَاسُ نَجَاحِ دَعْوَتِهِ، فَبِدُونِهِ يُصْبِحُ كَالْجَسَدِ الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ، وَيَكُونُ جُهُدُهُ وَعَمَلُهُ هَبَاءً مُنْثُورًا.

المطلب التاسع: مَظَاهِرُ إِخْلَاصِ الدُّعَاةِ

وَمِنْ مَظَاهِرِ إِخْلَاصِ الدُّعَاةِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:
1. انطِلاقُ أَعْمَالِ التَّعْرِيفِ بِالْإِسْلَامِ مِنَ الشُّعُورِ الْغَامِرِ بِالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ.
2. الْفَرَحُ بِكُلِّ كَفَاءَةٍ تَبْرُزُ فِي سَاحَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ.
3. طَلَبُ الْحَقِّ وَتَعْظِيمُ أَهْلِهِ، مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا.
4. الصَّبْرُ وَالصَّفْحُ عَنْ الْمُدَّعِينَ وَالْمُخَالِفِينَ.
5. الْعَدْلُ وَالْوَرَعُ وَالتَّثَبُّتُ عِنْدَ الْحُكْمِ عَلَى الرِّجَالِ وَالطَّوَائِفِ.

---

[336] بدائع الفوائد 3/ 149
[337] رواه البخاري 54، ومسلم 1907
[338] مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني.
[339] مدارج السالكين لابن القيم 2/91

المطلب العاشر: مَظَاهِرُ وَآثَارُ ضَعْفِ إِخْلَاصِ الدُّعَاةِ

مِنْ مَظَاهِرِ ضَعْفِ الإِخْلَاصِ لَدَى الدُّعَاةِ:

1. الانفِصَالُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.
2. هِيَجَانُ الرُّعُونَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَالْحَظُوظِ الشَّخْصِيَّةِ.
3. الِاخْتِلَافُ وَالْافْتِرَاقُ.
4. التَّعَصُّبُ لِلْأَشْخَاصِ وَالْمَذَاهِبِ وَالطَّوَائِفِ.
5. حُبُّ الدُّنْيَا وَالسُّقُوطُ فِي فِتْنَتِهَا.[340]

المطلب الحادي عشر: الأَسْبَابُ المعِينَةُ على الإِخْلَاصِ

1. **مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ تَحْصِيلِ الْإِخْلَاصِ، سَلَامَةُ الْمُعْتَقَدِ:** فَهُوَ مَطْلَبٌ ضَرُورِيٌّ، لَنْ تَصْلُحَ الدَّعْوَةُ وَلَنْ يَصْلُحَ الدَّاعِيَةُ بِدُونِهِ، وَلأَنَّ فَاقِدَ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ فَكَذَلِكَ صَاحِبُ الْمُعْتَقَدِ الْفَاسِدِ حَتْمًا سَيَكُونُ ضَرَرُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى الدَّعْوَةِ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ، وَقد تَكَلَّمنا عَنْ هَذَا الْأَمْرِ بِالتَّفْصِيلِ فِي مَادَّةِ عَقِيدَةِ الْمُعْرِّفِ بِالْإِسْلَامِ.
2. **أَنْ يَعْلَمَ المكلف يقينا بأنّه عَبْدٌ مَحْضٌ**، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضا ولا أجرا، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه وإحسان إليه، ولا معاوضة.
3. **مشاهدته مِنَّه الله عليه وفضله وتوفيقه،** وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو، وكل خير فهو مجرد فضل الله ومنته.
4. **مطالعته عيوبه وآفاته، وتقصيره منه، وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان**، فقلّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل، وللنفس فيه حظ. سُئِلَ النبي صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل في صلاته؟! فقال: "هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد". فإذا كان هذا التفات طرفه، فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟!، كما أن عليه التخلص من حظوظ نفسه، فإنه لا يجتمع الإخلاص في القلب وحب المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلّا كما يجتمع الماء والنار، فإذا أردت الإخلاص فاقبل على الطمع فاذبحه بسكين اليأس، وقم على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، حينئذ فقط يَسْهُلُ عليك الإخلاص. والطمع يسهل ذبحه باليقين، فإنه ليس من شيءٍ تطمعُ فيه إلا وبيد الله خزائنه، لا يملكها غيره.
5. **تذكير النفس بما أمر الله به من إصلاح القلب وإخلاصه**، وحرمان المرائي من التوفيق.
6. **الخوف من مقت الله تعالى،** إذا اطلع على قلبه وهو منطوٍ على الرياء.
7. **الإكثار من العبادات غير المشاهدة وإخفاؤها،** كقيام الليل، وصدقة السر والبكاء خالياً من خشية الله.
8. تعظيم الله عز وجل، وذلك بتحقيق التوحيد.
9. معرفة أسماء الله وصفاته والتعبد بها.
10. تذكر الموت وأهواله.
11. الإكثار من الأعمال المخفية.
12. أن يرد الرياء بالاقتداء.

[340] موسوعة دليل الداعية، الدعاة، العواجي ص 45

13. **أن يعلم عاقبة الرياء.**

14. **الإلحاح على الله بالدعاء،** فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء والإلحاح على الله.

15. تدبر القرآن.

16. **المجاهدة:** {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: 69]، ولذلك فإنه مطلوب منك بذل الجهد في دفع خواطر الرياء وعدم الركون إليها حتى تصل إلى المرحلة التي قال الله تعالى فيها: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر: 42] وهي المرحلة التي تكون النفس فيها مطمئنة بطاعة الله، ساكنة إليها لا تخالجها الشكوك الأثيمة.

17. إخفاء الطاعات وعدم التحدّث بها.

18. عدم الاكتراث بالناس.

19. الخوف من الشرك بنوعيه.

20. **الدعاء بكفارة الرياء.** ففي الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس اتقوا هذا الشرك فانه أخفى من دبيب النمل. قالوا: وكيف نتقيه؟! قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه".

21. تعاهد النفس بالوعظ ومجالس الذكر ومصاحبة أهل الإخلاص.

22. **تذكّر عظم نعمة الله سبحانه على المرء وشكرها**، ونسبتها إلى مسببها، والاعتراف بها ظاهراً وباطناً.

23. **اعتياد الطاعات** بحيث تصير جزءا لا يتجزأ من حياة المرء.

المطلب الثاني عشر: أمور يجب التنبيه عنها في مسألة الإخلاص

1- **قصد النعيم الأخروي:** بالغ بعض العباد في تجريد القصد إلى الله والتقرب إليه حتى عدوا طلب الثواب الأخروي الذي وعد الله به عباده الصالحين قادحاً في الإخلاص، وهم وإن لم يقولوا ببطلان الأعمال التي قصد أصحابها الثواب الأخروي إلا أنهم كرهوا للناس العمل على هذا النحو، ووصفوا العامل رجاء حظ أخروي بالرعونة، وسموه بأجير السوء.

ورابعة العدوية – إن صح عنها – تقول: "ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً في جنته، فأكون كأجير السوء، بل عبدته حباً له وشوقا إليه".

وعدّ الهروي الرجاء أضعف منازل المريدين، وهذا بعيد عما جاءت به نصوص الكتاب والسنة، فقد وصف الله سادات المؤمنين بأنهم كانوا يعبدون الله خائفين راجين: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: 90]. وقال تعالى يصف عباد الرحمن: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً} [الفرقان: 65].

وخليل الرحمن إبراهيم يقول في دعائه: {وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: 85-89].

وقد وصف الله نعيم الجنة في سورة المطففين، ثم حث على التنافس والتسابق في طلبة فقال: {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين: 26].

فكيف يمكن إطلاق هذا القول وقد ثبت أن دين الله تعالى كله دعوة إلى العباد كي يطلبوا الجنة ويهربوا من النار، وأن سادة المؤمنين من الرسل والأنبياء والصديقين والشهداء كلهم يطلبون الجنة ويخافون النار؟

المطلب الثالث عشر: ما يُتَوَهَّمُ أنه رياء وشرك وليس كذلك

1. **حَمْدُ النَّاسِ للرجلِ عَلَى عَمَلِ الخَيرِ:** فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: "قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عليه؟ قالَ: تِلكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ. وفي روايةٍ: وَيُحِبُّهُ النَّاسُ عليه"[341].

2. **عدم التحدث بالذنوب وكتمانها:** وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "اجْتَنِبوا هذه القاذوراتِ التي نَهى الله عنها، فَمَن أَلَمَّ فلْيَستَتِرْ بِسِترِ اللهِ، ولْيَتُبْ إلى اللهِ"[342]. وقوله صلى الله عليه وسلم: "كلُّ أُمَّتي مُعافًى إلا المجاهرين، وإنَّ من الجِهارِ أن يعملَ الرجلُ بالليلِ عملًا ثم يُصبِحُ وقد ستره اللهُ تعالى فيقولُ: عملتُ البارحةَ كذا وكذا، وقد بات يسترُه ربُّه، ويُصبِحُ يكشفُ سِترَ اللهِ عنه"[343].

3. **ترك الطاعات خوفا من الرياء؛** لأن ذلك من مكائد الشيطان. وعن الحارث بن قيس قال: "إذا هممت بخير فلا تؤخر، وإذا أتاك الشيطان وأنت تصلي، فقال: إنَّك ترائي، فزدها طولاً"[344].

4. **نشاط العبد بالعبادة عند رؤية العابدين:** قال المقدسي: "يَبِيتُ الرَّجَلُ مع المتهجدين فَيُصَلُّون أكثر الليل وعادته قيام ساعة فَيُوَافِقُهم، أو يصومون ولولاهم ما انبعث هذا النشاط، فربما ظن ظان أنّ هذا رياء وليس كذلك على الإطلاق، بل فيه تفضيل، وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى ولكن تعوقه العوائق وتستهويه الغفلة فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة". ثم قال: "ويختبر أمره بأن يمثل القوم في مكان لا يراهم ولا يرونه، فإن رأي نفسه تسخو بالتعبد فهو لله، وإن لم يسخ كان سخاؤها عندهم رياء وقس على هذا"[345].

5. **اكتساب العبد لشهرة من غير طلبها وترك العمل خوفا أن يكون شركا:** قال الفضيل بن عياض: "ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل من اجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منه"[346]. قال النووي معلقا على كلام الفضيل: "ومعنى كلامه رحمه الله أن من عزم على عبادة وتركها مخافة أن يراه الناس فهو مراء؛ لأنه ترك العمل لأجل الناس، أما لو تركها؛ ليصليها في الخلوة، فهذا مستحب إلا أن تكون فريضة أو زكاة واجبة أو يكون عالما يُقتدى به، فالجهر بالعبادة في ذلك أفضل"[347].

6. **أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله عز وجل، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أظهر الجميل من أحواله، فيسر بحسن صنع الله وستره المعصية فيكون فرحه بذلك لا بحمد الناس ومدحهم وتعظيمهم:** فعن أبي ذر الغفاري قال: "قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عليه؟ قالَ: تِلكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ. وفي روايةٍ: وَيُحِبُّهُ النَّاسُ عليه"[348] [349].

يقول ابن تيمية رحمه الله: "ومن كان له ورد مشروع من صلاة الضحى أو قيام ليل أو غير ذلك فإنه يصليه حيث كان ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع؛ لأجل كونه بين الناس إذا علم الله مِنْ قَلْبِهِ أَنَّه يفعله سرًا لله مع اجتهاده في سلامته من

---

[341] صحيح مسلم 2642

[342] أخرجه الطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (91)، والحاكم (7615) باختلاف يسير، والبيهقي (18056) مختصرا

[343] أخرجه البخاري (6069)، ومسلم (2990) باختلاف يسير

[344] رواه وكيع في الزهد (259) ــ وعنه ابن أبي شيبة (2/ 476) وأحمد في الزهد (2092) ــ حدثنا الأعمش، والطبري في تهذيب الآثار ــ مسند عمر رضي الله عنه (1141) ــ حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر عياش، عن الأعمش، عن خيثمة بن عبد الرحمن، عن الحارث بن قيس الجعفي قال: فذكره رواته ثقات. والحارث بن قيس الجعفي من كبار تابعي الكوفة.

[345] مختصر منهاج القاصدين ص 234

[346] بتصرف: من كتاب الإخلاص 25- 27

[347] شرح الأربعين ص 11

[348] صحيح مسلم 2642

[349] مختصر منهاج القاصدين باختصار

الرياء ومفسدات الإخلاص" ثم قال رحمه الله: "ومن نهى عن أمر مشروع بمجرد زعمه إن ذلك رياء فنهيه مردود عليه من وجوه:

1- إن **الأعمال المشروعة لا يُنهى عنها خوفا من الرياء**، بل يُؤمر بها وبالإخلاص فيها.

2- إن **الإنكار إنما يقع على ما أنكرته الشريعة**، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عن قُلُوبِ النَّاسِ ولَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ"[350].

3- إن تسويغ مثل هذا يُفضي إلى أنَّ **أهل الشرك والفساد يُنكرون على أهل الخير والدِّين إذ رأوا منْ يُظهر أمرا مشروعا** قالوا: "هذا مراءٍ". فيترك أهل الصدق إظهار الأمور المشروعة حذرا من لمزهم، فيتعطّل الخير.

4- إنَّ مثل هذا من شعائر المنافقين، وهو الطعن على من يظهر الأعمال المشروعة {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ}"[351].

المطلب الرابع عشر: فوائد وثمرات الإخلاص

الإخلاص له ثمرات حميدة وفوائد جليلة عظيمة، منها ما يأتي[352]:

1. خير الدنيا والآخرة من فضائل الإخلاص وثمراته.

2. الإخلاص هو السبب الأعظم في قبول الأعمال مع متابعة النبي صلى الله عليه وسلم.

3. الإخلاص يُثمر محبة الله للعبد، ثم محبة الملائكة، ووضع القبول في الأرض.

4. الإخلاص أساس العمل وروحه.

5. يُثمر الأجر الكبير والثواب العظيم بالعمل اليسير والدعاء القليل.

6. يُكتب لصاحب الإخلاص كل عمل يقصد به وجه الله، ولو كان مباحًا.

7. يُكتب لصاحب الإخلاص ما نوى من العمل ولو لم يعمله.

8. إذا نام أو نسي كُتب له عمله الذي كان يعمله.

9. إذا مرض العبد أو سافر كُتب له بإخلاصه ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا.

10. ينصر الله الأمة بالإخلاص.

11. الإخلاص يُثمر النجاة من عذاب الآخرة.

12. تفريج كروب الدنيا والآخرة من ثمرات الإخلاص.

13. رفع المنزلة في الآخرة يحصل بالإخلاص.

14. الإنقاذ من الضلال.

15. الإخلاص سبب لزيادة الهدى.

16. الصِّيت الطيب عند الناس من ثمار الإخلاص.

17. طمأنينة القلب والشعور بالسعادة.

18. تزيين الإيمان في النفس.

19. التوفيق لمصاحبة أهل الإخلاص.

20. حسن الخاتمة.

---

[350] أخرجه البخاري (4351)، ومسلم (1064)

[351] في الفتاوى 23/ 174- 175 باختصار.

[352] عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن على بن وهف القحطاني، ص 579-581

21. استجابة الدعاء.

22. النعيم في القبر والتبشير بالسرور.

23. دخول الجنة والنجاة من النار، وهذه الثمرات والفوائد أدلتها كثيرة من الكتاب والسنة.

المطلب الخامس عشر: حَقِيقَةُ الْإِخْلَاصِ وَخُلَاصَتُهُ

أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ وَالْإِرَادَةُ فِي الْعَمَلِ هُوَ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدهُ، أَمَّا أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ إِرَادَةَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ فَهِيَ ظُلَمَاتٌ مُتَرَاكِمَةٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ؛ لأَنَّ ذَلِكَ يُنَافِي كَمَالَ التَّوْحِيدِ، وَيُحْبِطُ الْعَمَلَ؛ قَالَ تَعَالَى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود: 15،16].

وَلَنْ يَكُونَ الدَّاعِيَةُ مَقْبُولَ النُّصْحِ إِلَّا إِذَا كَانَ خَالِيَ الْوِفَاضِ مِنَ الْأَغْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَإِلَّا فَلَنْ يَجِدْ لِدَعْوَتِهِ أَثَرًا فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ مَذْمُومًا، قَالَ تَعَالَى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} [الشورى: 20].

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِخْلَاصَ فِي الدَّعْوَةِ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ التِفَافِ النَّاسِ حَوْلَ الدَّاعِيَةِ، فَمَنْ يُؤْمِنُ بِقَضِيَّةٍ وَيُحَاوِلُ إِيصَالَهَا لِلنَّاسِ بِحَدِيثٍ يَخْرُجُ مِنْ القَلْبِ، فإنَّها سَتَعْرِفُ طَرِيقَهَا إِلَى القَلْبِ عَلَى الفَوْرِ وَبِلَا عَنَاءٍ؛ وما ذَلِكَ إِلَّا لِصِدْقِه وإِخْلَاصِهِ فِي دَعْوتِهِ.

وَأَكَّدَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى الشَّيْخُ ابْنُ بازٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ – قَائِلًا عن الإخلاصِ أنَّه: "مِنْ أَعْظَمِ الصِّفَاتِ الَّتِي تَجِبُ عَلَى الدُّعَاةِ، فَيُرِيدُوا بِدَعْوَتِهِمْ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَيُرِيدُوا إِصْلَاحَ النَّاسِ وَإِخْرَاجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ".[353]

[353] مجموع فتاوي سماحة الشيخ ابن باز 349/1، و229/4

المبحث الثاني: المراقبة

المطلب الأول: مَعْنَى المُرَاقَبَة

- **المُرَاقَبَة لغةً:**

مصدرٌ مِن قولهم: رَاقَبَ مُرَاقَبةً، وهو مأخوذ من مادة: (ر ق ب)، تَدلُّ على الانتصاب لمراعاة شيء، ومن ذلك الرقيب؛ وهو الحافظ. تقول: رَقَبْتُ الشيءَ أَرْقُبُهُ رُقُوبًا ورِقْبةً ورِقْبانًا، ورَقَابةَ: إذا رَصَدتَهُ، وَالمَرْقَبُ والمَرْقَبة: الموضع المُشرِفُ العالي، يقف عليه الناظر، ومن ذلك اشتقاق الرقبة؛ لأنها منتصبةٌ؛ ولأن الناظِرَ لا بدَّ أن ينتصب عند نَظَره، ورَقَبَ الشيءَ يَرْقُبُهُ أيضًا: حَرَسَهُ. ومن أسماء الله تعالى: الرقيب، وهو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، وهو فَعِيل بمعنى فاعل[354].

قال ابن القيم الله رحمة الله:

وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الخَوَاطِرِ وَاللَّوَا.. حِظِ كَيْفَ بِالْأَفْعَالِ بِالْأَرْكَانِ ؟![355]

- **المُرَاقَبَةُ شرعا:**

وأما المُرَاقَبَةُ في المعنى الشرعي، فقد عرَّفها ابن القيم رحمه الله بأنها: "دَوَامُ عِلْمِ العَبْدِ وَتَيَقُّنِهِ بِاطِّلَاعِ الحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ"[356]. "يَعْنِي أَنَّ العَبْدَ مَتَى عَلِمَ أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى نَاظِرٌ إِلَيْهِ أَوْرَثَهُ هَذَا العِلْمُ حَيَاءً مِنْهُ سُبْحَانَهُ، فَيَجْذِبُهُ إِلَى احْتِمَالِ أَعْبَاءِ الطَّاعَةِ، وَذَلِكَ كَمَثَلِ العَبْدِ إِذَا عَمِلَ الشُّغْلَ بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِهِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ نَشِيطًا فِيهِ، مُحْتَمِلًا لِأَعْبَائِهِ، وَلَا سِيمَا مَعَ الإِحْسَانِ مِنْ سَيِّدِهِ، وَاللهُ لَا يَغِيبُ نَظَرُهُ عَنْ عَبْدِهِ".[357] فَيَأْتِي تَقْوَى اللهِ تَعَالَى، الَّتِي هِيَ مِنْ ثَمَارِ اسْتِشْعَارِ رَقَابَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ.

وقال رحمه الله أيضا: المراقبة: "هي التعبُّدُ باسمه الرَّقِيب الحفيظ العليم، السميع البصير. فمن عقل هذه الأسماء، وتعبَّد بمُقْتَضاها حصلت له المراقبة"[358]. وهذا المعنى جامع لما قيل في تعريف المراقبة.

وقيل: المراقبة: "خلوص السر والعلانية لله"[359].

وقيل: "مراعاة القلب للرَّقِيب واشتغاله به والتفاته إليه، وملاحظته إياه، وانصرافه إليه"[360].

المطلب الثاني: المراقبة ومرتبة الإحسان

إِنَّ المُرَاقَبَةَ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ الدِّينِ، وَهِيَ دَاخِلَةٌ تَحْتَ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ: "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ".[361] "أَرَادَ بِالإِحْسَانِ -هنا- الإِشَارَةَ إِلَى المُرَاقَبَةِ وَحُسْنِ الطَّاعَةِ، فَإِنَّ مَنْ رَاقَبَ اللهَ أَحْسَنَ عَمَلَهُ".[362]

---

[354] نظر: الصحاح في اللغة، للجوهري (ر (ق) (ب) ولسان العرب لابن منظور، (رق ب)، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي، فصل: (الراء).

[355] نونية ابن القيم (٣٢٩٨)

[356] مَدَارِجِ السَّالِكِينَ لابن القيم، ٦٨/٢

[357] المصدر السابق ٢/ ٢٦٧

[358] المصدر السابق (٢/ ٦٥ - ٦٦)

[359] المصدر السابق (٢/٦٦) بتصرف يسير

[360] إحياء علوم الدين، للغزالي (٤/٣٩٨)

[361] أخرجه البخاري (50)، ومسلم (8)

قال السعدي رحمه الله: "من عَلِمَ أنَّ اللهَ تعالى رقيبٌ على حَرَكاتِ قَلْبِه، وحَرَكاتِ جوارِحِه، وألفاظِه السِّرِّيةِ والجَهريَّةِ، وهو مُطَّلِعٌ على عمَلِه؛ فإنَّه لا بُدَّ أن يُثمِرَ له ذلك مراقبةَ تصَرُّفاتِه، ومُعامَلاتِه وعِباداتِه، وسائِرِ حياتِه، وفي ذلك صلاحُ دُنياه وآخِرتِه، بل بلوغُه درجةَ الإحسانِ"[363].

المطلب الثالث: الحثُّ على المراقبة

أ. المراقبة في القرآن الكريم:

(بين دفتي الكتاب العزيز والسُّنَّة المطهَّرة نصوص جمَّة تحث على المراقبة، وتغرسها في النفوس؛ تارةً بالتلميح، وتارة بالتصريح:

- **فمن التلميح: تَضَافُر الأدلة على أن الله عز وجل محيط بكل مخلوقاته**، وأنه لطيف خبير، وأنه بكل شيء عليم، لا تَخفَى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. وذلك من شأنه تنمية المراقبة في قلوب العباد؛ لذا كثيرًا ما يختم بها الله تعالى آيات الأحكام والمواعظ في كتابه كقوله تعالى عَقِبَ ترغيبه في النفقة: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: ٢٦٥]، وكقوله عقب ذكر أحكام المداينة: {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٨٢].

ومن التصريح: ما صرّح فيها - سبحانه - باطلاعه على أحوال خلقه، وإحاطة علمه بما يصدر عنهم؛ كقوله تعالى: {وإِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [آل عمران: ٥].

وقوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: 4]، أي: بعلمه وإحاطته.

وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: ١٤].

وقوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩].

وقوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ} [البقرة: ٢٣٥].

وقوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا} [الأحزاب: ٥٢].

وقوله تعالى: {ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨].

وقوله تعالى: {أَلَمْ يَعلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: 14].

وقوله تعالى في ذكر معيَّته الخاصة لموسى عليه السلام: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيني} [طه: ١٣٩])[364].

وقوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ} [البقرة: 235].

وقوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا} [الأحزاب: 52].

ب. المراقبة في السنة النبوية:

- عن معاذ رضي الله عنه أن قال: يا رسول الله أوصني؟ قال: "اعبدِ اللهَ كأنك تراهُ، واعدُد نفسَك في الموتَى، واذكرِ اللهَ عند كلِّ حَجرٍ، وعند كلِّ شجَرٍ، وإذا عمِلتَ سيئةً فاعمل بِجَنبِها حَسنةً، السِّرُّ بالسِّرِّ، والعَلانيةُ بالعَلانيةِ."[365].

---

[362] النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٨٧

[363] فتح الرحيم الملك العلام للسعدي، ص: 69

[364] أعمال القلوب، خالد بن عثمان السبت، ص: 2/317

[365] صحيح الترغيب 3342، خلاصة حكم المحدث: حسن لغيره

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم قال: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وهو أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقولونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ."[366].

في هذا الحَديثِ يُبيِّنُ لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ المَلائِكةَ تَتَناوَبُ على حِراسةِ البَشرِ، فطائِفةٌ تَحرُسُهم لَيلًا، وطائِفةٌ أُخرى تَحرُسُهم نَهارًا، ثم تَجتَمِعُ مَلائِكةُ النَّهارِ بمَلائِكةِ اللَّيلِ في وَقتَيْنِ؛ الأوَّلُ: في صَلاةِ الفَجرِ، حيثُ يَنزِلُ مَلائِكةُ النَّهارِ عِندَ أوَّلِ الصَّلاةِ، وما زالَ مَلائِكةُ اللَّيلِ مَوجودينَ فيَلتَقونَ بهم، ويَجتَمِعُ مَلائِكةُ اللَّيلِ بمَلائِكةِ النَّهارِ في صَلاةِ العَصرِ، وهو الوَقتُ الثاني، ثمَّ تَصعَدُ مَلائِكةُ اللَّيلِ بَعدَ صَلاةِ الفَجرِ، فيَسألُهمُ الرَّبُّ عَزَّ وجَلَّ -وهو أعلَمُ بهم-: كَيفَ تَرَكتُم عِبادي؟ وهو في غِنًى عَن سُؤالِهم هذا؛ لِأنَّه عَليمٌ بِهم، وإنَّما يَسألُهم عن ذلك في المَلَأِ الأعلى؛ تَنويهًا بشَأنِ بَني آدَمَ، وبَيانًا لِفَضلِهم، ولِيُباهيَ بهمُ المَلائِكةَ، فيَقولونَ: تَرَكناهم وهُم يُصَلُّونَ صَلاةَ الصُّبحِ، وأتَيْناهم وهُم يُصَلُّونَ صَلاةَ العَصرِ، فهم في صَلاةٍ دائِمةٍ. وكذلك يَسْألُ عَزَّ وجَلَّ مَلائِكةَ النَّهارِ، فيُجيبونَ بمِثلِ ما أجابَ به مَلائِكةُ اللَّيلِ.

وفي الحَديثِ: أنَّ الصَّلاةَ أعلى العِباداتِ؛ لِأنَّها عليها وَقَعَ السُّؤالُ والجَوابُ.

وفيه: التَّنبيهُ على أنَّ الفَجرَ والعَصرَ مِن أعظَمِ الصَّلَواتِ. وفيه: الدَّلالةُ على أنَّ اللهَ تعالَى يَتكَلَّمُ مع مَلائِكَتِه كما يَشاءُ، دُونَ تَشبيهٍ، أو تَعطيلٍ، أو تَأويلٍ[367].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رَسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ قالَ: "قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: إذا تَحَدَّثَ عَبْدِي بأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فأنا أُكْتُبُها له حَسَنَةً ما لَمْ يَعْمَلْ، فإذا عَمِلَها، فأنا أُكْتُبُها بعَشْرِ أمْثالِها، وإذا تَحَدَّثَ بأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فأنا أغْفِرُها له ما لَمْ يَعْمَلْها، فإذا عَمِلَها، فأنا أُكْتُبُها له بمِثْلِها. وَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: قالتِ الملائِكَةُ: رَبِّ، ذاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وهو أبْصَرُ به، فقالَ: ارْقُبُوهُ فإنْ عَمِلَها فاكْتُبُوها له بمِثْلِها، وإنْ تَرَكَها فاكْتُبُوها له حَسَنَةً، إنَّما تَرَكَها مِن جَرَّايَ. وَقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: إذا أحْسَنَ أحَدُكُمْ إسْلامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُها تُكْتَبُ بعَشْرِ أمْثالِها إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، وكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُها تُكْتَبُ بمِثْلِها حتَّى يَلْقَى اللَّهَ"[368].

اللهُ عَزَّ وجَلَّ واسِعُ الرَّحمةِ، جَزيلُ العَطاءِ، ومُعامَلتُه لعِبادِه دائرةٌ بينَ العَدلِ والفَضلِ.

وهذا المتنُ يَشتمِلُ على عِدَّةِ رِواياتٍ كلّها تَشتمِلُ عَلى ذاتِ المَعنى؛ وهو بَيانُ كَرَمِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ عَلى العِبادِ في كِتابةِ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ؛ فيَرْوي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن ربِّ العِزَّةِ جَلَّ جلالُه أنه إذا تحدَّثَ الإنسانُ في نَفسِهِ، وهَمَّ بأن يَعمَلَ حَسنةً، ولم يعمَلْ هذه الحَسنةَ، لِمانعٍ أو لِغَيرِ مانعٍ؛ كَتَبَها اللهُ له حَسنةً كامِلةً غيرَ مَنقوصةٍ، فإذا أتَمَّ عَمَلَها، ضاعَفَ اللهُ هذه الحسنةَ عَشَرةَ أمثالٍ، وفي الصَّحيحَينِ عَنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنهُما، عَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "كَتَبَها اللهُ لَهُ عِندَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ، إلى سَبعِ مئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كَثيرةٍ"، كَما قالَ تَعالَى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 261]؛ وذلكَ بحسَبِ الإخلاصِ، وصِدقِ العَزمِ، وحُضورِ القَلبِ، وتَعدِّي النَّفعِ.

وأنَّه متى تَحدَّثَ الإنسانُ في نَفسِهِ، وهَمَّ بأن يَعمَلَ سيِّئةً، ولم يعمَلْها، بل تَرَكَها خَوفًا منَ اللهِ وحَياءً مِنهُ، غَفَرَها اللهُ له، وفي الصَّحيحَينِ عَنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهُما، عَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "كَتَبَها اللهُ لَهُ عِندَهُ حَسنةً كامِلةً"، وإذا عَمِلَها كُتِبَت سيِّئةً واحدةً؛ رَحمةً منه سُبحانَه وتعالَى، دُونَ زيادةٍ أو مُضاعَفةٍ كَما في الحَسَناتِ.

---

[366] أخرجه البخاري (555) ومسلم (632)

[367] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

[368] أخرجه البخاري (42)، ومسلم (129)

وتَشتملُ الرّواياتانِ الأخيرتانِ عَلى نفْسِ المَعنى المُتقدّمِ، وقولُه في الرّوايةِ الثّانيةِ: "قالتِ الملائِكَةُ: رَبِّ، ذاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً"، فاطّلاعُ المَلَكِ عَلى النّيّةِ الّتي هي من فِعلِ القَلبِ يَكونُ باطلاع اللهِ تَعالَى إيّاهُ، وقولُهُ: "إنّما تَرَكَها من جَرّايَ"، أي: من أجْلي، فصارَ تَركُه لها -خوفًا منَ اللهِ، ومُجاهَدةً لِنفسِه الأمّارةِ بالسُّوءِ، وعِصيانًا لِهَواهُ- حَسنةً.

وقولُه صلّى اللهُ عليه وسلّم: "إذا أحسَنَ أحَدُكم إسلامَهُ"، أي: باعتقادِه وإخلاصِهِ، ودُخولِه فيه بالباطِنِ والظّاهِرِ.

وفي الحديثِ: عَظيمُ فَضلِ اللهِ تَعالَى على عِبادِه، ورحمتِه بهم.

وفيه: إثباتُ مُراقَبةِ المَلائكةِ لِأعمالِ الإنسانِ.[369]

- وفي حديث أبي هريرة أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِلِّهِ، يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: الإمَامُ العَادِلُ، وشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ رَبِّهِ، ورَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، ورَجُلَانِ تَحَابَّا في اللَّهِ اجْتَمعا عليه وتَفَرَّقَا عليه، ورَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ، فَقَالَ: إنِّي أخَافُ اللَّهَ، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ، أخْفَى حتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"[370].

وإذا تأملت هؤلاء السبعة وجدت أن عامة أمرهم يرجع إلى المراقبة: فالإمام لا يَخَافُ الناس ولا يخافُ محاسَبَتهم، وإنما يقوم بالعدل بينهم إذا كان مراقبا لله عز وجل.

والشاب الذي نَشَأَ في عبادة الله إنما صرَفَهُ عن المعصية مع قوة الداعي إليها، وفوران الشهوة، ودفعه للطاعة: مراقبته الله تبارك وتعالى.

والرجل الذي دَعَتْه امرأة ذات منصب وجمال فقال: "إِنِّي أَخَافُ الله"، لا شك أن الدافع لتركه متابعة هواه مع قوة الداعي: ناتج عن مراقبته الله عز وجل.

وكذلك أيضًا: الذي تصدَّقَ بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنفِقُ يمينه! فإن الذي دفعه إلى أن يُخفي هذه الصدقة هذا الإخفاء الشديد، ويحترز هذا الاحتراز: مراقبة الله تعالى. وقُلْ مثل ذلك في الذي ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه، فإنَّ بكاءه خاليًا مِن خَشْية الله من مراقبته لربه سبحانه[371].

ت. أقوال السلف:

- قال الجُنَيد المُرِّي رحمه الله: "من تحقّق في المُراقبة، خافَ على فوات لحظةٍ من ربّه لا غير"[372].

- قال ذُو النُّون المِصْري رحمه الله: "علامة المراقبة: إيثارُ ما أنزل الله، وتعظيم ما عظّم الله، وتصغير ما صغّر الله"[373].

- قال أَبُو حَفْص لأبي عثمان النيسابوري رحمهم الله: "إذا جلستَ للناسِ فكُن واعظًا لقلبك ونفسك، ولا يغرنّك اجتماعهم عليك، فإنّهم يُراقبون ظاهرك، والله يُراقب باطنك"[374].

- وقد سُئِلَ محمد بن المبارك رحمه الله: ما علامة المحبة لله؟ فقال: "المراقبة للمحبوب، والتحري لمرضاته"[375].

- وسُئِلَ إسماعيل بن نُجَيْد رحمه الله: ما الذي لا بد للعبد منه؟ فقال: "ملازمة العبودية على السُّنَّة، ودوام المراقبة"[376].

---

[369] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

[370] أخرجه البخاري (660)، ومسلم (1031)

[371] أعمال القلوب، خالد بن عثمان السبت، ص: 2/318

[372] مدارج السالكين، لابن القيم (2 /68)

[373] المصدر السابق.

[374] المصدر السابق.

[375] أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٢٢٤/٥٥)

فالعبد متى لزم العبودية على السنة، كان على الشريعة، ومتى داوم على المراقبة، كان على الإخلاص، وبذلك يُحفَظ بإذن الله عز وجل من الخروج عن الصراط المستقيم.

- وقال بعضهم: "أفضل الطاعات: حفظ الأوقات؛ وهو ألا يطالع العبد غير حده، ولا يراقب غير ربه، ولا يقارن غير وَقْتِه"[377].

- وسُئِل آخر: "ما أفضَلُ الطاعات؟ فقال: مراقبةُ الحق على دوام الأوقات"[378].

فينبغي للعبد أن يُعنى بهذا الجانب غايةَ العِناية؛ ناظرًا للرب، غير ملتفت للخلق بحال من الأحوال، والمشتغل بالتعليم والتوجيه والخطابة والدعوة أحوج من غيره إلى هذا المعنى.

المطلب الرابع: مَراتِب المراقبة

قَسَّمَ بعض أهل العلم المراقبة إلى ثلاثِ مراتب؛ وذلك باعتبار الحامل عليها، والدافع إليها:

المرتبة الأولى: ما كان الحامل عليه الخوف من الله عز وجل.

والمرتبة الثانية: ما كان الحامل عليه الحياء من الله عز وجل.

المرتبة الثالثة: ما كان الحامل عليه المحبة.

فالخائف: مراقب الله له بالحَذَرِ وغَلَبة الفَزَع، والمستَحْيِي[379]: مراقب له بشدة انكسار وغلَبة إخبات، والمُحِبُّ: مراقب له بشدَّة السرور وغَلَبَةِ النَّشَاطِ وَسَخَاءِ النفس، فيُقبل على العبادة بانشراح صدر[380].

- **وقسمها الهروي إلى ثلاث مراتب أيضا[381]:**

- الأولى: مراقبة الله وتحمل في السَّيْرِ إليه على الدَّوَام، مع ملاحظة التعظيم الذي يمتلئ به القلب في حال سير العبد إلى ربه عز وجل:

فيكون هذا التعظيم الذي ملأ قلبه به شاغلا له وصارفًا عن تعظيم المخلوقين، التعظيم الذي يزاحِمُ تعظيم المعبود تبارك وتعالى، وكذلك أيضًا: أن يكون مُجدا مجتهدا في القرب منه تبارك وتعالى، فإنه كلما ازداد قُربا من الله، ازداد تعظيما له، مع سرور وانشراح يَبعَثُهُ على العمل، فيَجِدُ لَذَّةً في عمله الصالح، وتكون قُرَّةُ عينه في طاعة الله؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ"[382]، فيجد نعيما عند القيام بوظائف العبودية لا يدانيه نعيم الدنيا بِأَسْرِها بمختلف أنواعه، وهذا حال من أحوال أهل الجنة حتى قال بعض العارفين: "إنه لَتَمُرُّ أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عَيْشٍ طَيِّب"[383].

---

[376] أخرجه البيهقي في الزهد» (٤٧٢)

[377] الرسالة القشيرية (١/٣٣٢)

[378] المصدر السابق

[379] هكذا في الحلية؛ وهي اللغة العالية لغة أهل الحجاز.

[380] انظر: حلية الأولياء (١٠/ ٩٣ - ٩٤)

[381] انظر: مدارج السالكين (٢/٦٦ - ٧٢)

[382] أخرجه النسائي (3939)، وأحمد (14069) باختلاف يسير، والبيهقي (13836) واللفظ له.

[383] مجموع الفتاوى (٢٨/٣١)

قال ابن القيم رحمه الله: ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله، وبذل الجهد في طلبه وابتغاء مرضاته، ومن لم يجد هذا السرور، ولا شيئًا منه، فليتهم إيمانه وأعماله، فإن للإيمان حلاوة، من لم يذقها، فَلْيَرْجِع، وليقتبس نورًا يجد به حلاوة الإيمان[384].

ونقل عن شيخه ابن تيمية رحمه الله أنّه قال: "إذا لم تَجِدُ للعمل حلاوة في قلبك وانشراحا، فاتَّهمه؛ فإن الرب تعالى شكور، يعني: أنه لا بد أن يُثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوَّة انشراح وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك، فعَمَلُه مدخول"[385].

- الثانية: مراقبة نظر الحقِّ برفض المعارضة:

وهذه مراقبة لمراقبة الله عز وجل لك، وهذه المراقبة تُوجِبُ للعبدِ صيانة الباطن والظاهر؛ فصيانة الظاهر: بحفظ الحَركات الظاهرة، وصيانة الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة، التي منها رفض معارضة أمره وخبره، فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كُلِّ إرادة تعارِضُ إرادته، ومن كل شبهة تعارض خبَرَه، ومن كلِّ محبَّة تزاحم محبته؛ وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به[386]. فتكون المراقبة بهذا الاعتبار دافعة لكل مناوأة وتشكُّك واعتراض على أحكام الله القدرية، وأحكامه الشرعيَّة، ولا يعترضُ على أسمائه وصفاته ولا يعترض على شرعِهِ وأمره، ولا يكون متردّدًا متشكّكًا في الأخبار التي أخبر الله جل بها، ولا يُقَدِّمُ على قول الله عز وجل قولا لأحد مهما عَظُمَ وعَلَتْ مرتبته؛ كما قال تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الحجرات: ١]؛ فلا يُقَدِّمُ عليه معقولا، ولا فلسفة من الفلسفات، ولا سياسة من السياسات، وإنما يكون المقدَّم في قلبه هو أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

فأين من هذا أولئك الذين يصرحون بأن الدِّين الذي أنزله الله عز وجل على رسوله لا يصلح لهذا العصر على الفهم الذي فَهِمهُ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟! يريدون أن يأتوا بدين ممسوخ على أفهامهم المُعْوَجَّة؛ فهؤلاء لم يُراقبوا الله عز وجل المراقبة التي تنفي المعارضة، فهم معارِضُونَ الله عز وجل، معارِضُونَ لرسوله صلى الله عليه وسلم، معارِضُونَ لشرعِهِ وَحُكْمِهِ وكتابه[387].

- الثالثة: الإيمان الصادق بانفراد الحَقِّ بأَزَلِيَّتِهِ وحده، وأنه كان ولم يكن شيء غيرُه البتة، وكل ما سواه فكائن بعد عَدَمِهِ بتكوينه:[388]

وفوق ذلك درجة هي أعلى وأرفع مما تقدَّم، وهي: مراقبة مواقع رضا الرب تبارك وتعالى ومَسَاخِطِهِ في كلِّ حَرَكة[389]، فيسعى في مرضاته، ويتجنب مساخطه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ اللَّهَ عز وجل قالَ: مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَألَنِي

---

[384] مدراج السالكين (2/67)

[385] المصدر السابق (2/68)

[386] من كلام ابن القيم في مدارج السالكين (2/66 - 68)؛ باختصار وتصرف.

[387] انظر: مقدمة الإمام أحمد لكتابه الرد على الجهمية والزنادقة (ص 55 - 57)

[388] مدارج السالكين (2/72)

[389] المصدر السابق (2/74)، بتصرف.

لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَساءَتَهُ"[390].

في هذا الحديثِ القُدسيّ يُخبِرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: "مَن عادى لي وَلِيًّا"، أي: ألحق الأذى بوَلِيٍّ مِنَ أولياءِ اللهِ، والوَلِيُّ: هو المُؤمِنُ التَّقيُّ، العالِمُ باللهِ تعالَى، المواظِبُ على طاعتِه، المُخلِصُ في عِبادتِه. وهو أيضًا مَن يَتولَّى اللهُ سُبحانَه وتعالَى أمْرَه ولا يَكِلُه إلى نفْسِه لَحْظةً، بلْ يَتولَّى الحقُّ رِعايتَه، أو هو الذي يَتولَّى عِبادةَ اللهِ وطاعتَه، فعِباداتُه تَجْري على التَّوالي مِن غيْرِ أنْ يَتخلَّلَها عِصيانٌ.

فمن عادى وَلِيَّ اللهِ، فقدْ أعلَنَ اللهُ سُبحانَه الحربَ عليه، وهذا فيه الغايةُ القُصوى مِنَ التَّهديدِ؛ إذ مَن حارَبَه اللهُ وعامَلَه مُعاملةَ المحارِبِ، فهو هالكٌ لا مَحالةَ، ومَن يُطيقُ حرْبَ اللهِ ؟!

ثم قال الحَقُّ سُبحانَه: "وما تَقرَّبَ إليَّ عَبْدي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افترَضْتُه عليه"، أي: أوجَبْتُه عليه؛ فالصَّلَواتُ الخَمسُ أحَبُّ إلى اللهِ مِن قيامِ اللَّيلِ، وأحبُّ إلى اللهِ مِنَ النَّوافِلِ، وصِيامُ رَمَضانَ أحَبُّ إلى الله من صيامِ الاثنينِ والخميسِ، والأيَّامِ السِّتَّةِ مِن شَوَّالٍ، وما أشبَهَها؛ فالفَرائِضُ أحَبُّ إلى اللهِ وأوكَدُ. "وما يَزالُ عَبْدي يَتقرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافلِ" مع الفرائضِ، كالصَّلاةِ والصِّيامِ، وغيرِهما من أعمالِ البِرِّ والطَّاعةِ التي ليست من الفريضةِ؛ فالنَّوافِلُ تُقَرِّبُ إلى اللهِ، وهي تُكَمِّلُ الفرائِضَ، فإذا أكثَرَ الإنسانُ مِنَ النَّوافِلِ مع قيامِه بالفرائِضِ، نال محبَّةَ اللهِ، فيُحِبُّه اللهُ، وإذا أحَبَّه كان اللهُ سُبحانَه سَمْعَه الَّذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويَدَهُ التي يَبطِشُ بها، ورِجْلَه التي يَمْشِي بها، يعني أنَّه يكونُ مُسَدِّدًا له في هذه الأعضاءِ الأربعةِ؛ يُسَدِّدُه في سمعِه، فلا يَسمَعُ إلَّا ما يُرضِي اللهَ، ويُسَدِّدُه في بَصَرِه، فلا يَنظُرُ إلَّا إلى ما يحِبُّ اللهُ النَّظَرَ إليه، ولا ينظُرُ إلى المحَرَّمِ، ويُسَدِّدُه في يَدِه، فلا يعمَلُ بيَدِه إلَّا ما يُرضي اللهَ؛ لأنَّ اللهَ يُسَدِّدُه، وكذلك رِجْلُه، فلا يمشي إلَّا إلى ما يُرضي الله؛ لأنَّ اللهَ يُسَدِّدُه، فلا يسعى إلَّا إلى ما فيه الخيرُ.

وإن سأل اللهَ شيئًا فإنَّ اللهَ يعطيه ما سأل، فيكونُ مُجابَ الدَّعوةِ، ولئِنِ استعاذ باللهِ ولجأ إليه طلَبًا للحمايةِ، فإنَّ اللهَ سُبحانَه يُعيذُه ويحميه ممَّا يَخافُ.

"وما ترَدَّدتُ عن شَيءٍ أنا فاعلُه تَردُّدي عن نفْسِ المُؤمِنِ" وليْسَ هذا التَّرَدُّدُ مِن أجْلِ الشَّكِّ في المصلحةِ، ولا مِن أجْلِ الشَّكِّ في القُدرةِ على فِعلِ الشَّيءِ، بلْ هو مِن أجْلِ رَحمةِ هذا العبدِ المُؤمِنِ، ولهذا قال اللهُ تعليلًا لهذا التردُّدِ: "يَكْرَهُ المَوْتَ" لِمَا فيه من الألمِ العظيمِ، "وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"؛ لِمَا يَلْقَى المُؤمِنُ مِن الموتِ وصُعوبتِه.

فالعَبدُ الذي صار محبوبًا للحَقِّ عز وجل مُحِبًّا له، يتقرَّبُ إليه أولًا بالفرائِضِ، وهو يحِبُّها، ثمَّ اجتهد في النَّوافِلِ التي يحِبُّها ويحِبُّ فاعِلَها، فأتى بكُلِّ ما يقدِرُ عليه من محبوبِ الحَقِّ، فأحبَّه الحَقُّ لفِعْلِ محبوبِه من الجانِبَينِ بقَصْدِ اتفاقِ الإرادةِ؛ بحيث يحِبُّ ما يحِبُّه، ويكرَهُ ما يكرهُه محبوبُه، والرَّبُ يكرَهُ أن يَسُوءَ عَبْدَه ومحبوبَه، فلَزِمَ مِن هذا أن يكرَهَ الموتَ؛ ليزدادَ مِن محابِّ محبوبِه، واللهُ سُبحانَه وتعالى قد قضى بالموتِ، فكُلُّ ما قضى به فهو يريدُه، ولا بُدَّ منه؛ فالرَّبُّ مُريدٌ لِمَوتِه لِما سبق به قضاؤُه، وهو مع ذلك كارهٌ لمساءةِ عَبدِه، وهي المَساءةُ التي تحصُلُ له بالموتِ؛ فصار الموتُ مُرادًا للحَقِّ مِن وَجهٍ، مَكروهًا له من وجهٍ، وهذا حقيقةُ التردُّدِ[391].

- **وبعضهم جعل المراقبة على مَرْتَبَتَيْن:**

- الأولى: مراقبة الصديقين المقربين:

[390] صحيح البخاري 6502

[391] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

وهي مراقبة التعظيم والإجلال، تتعطل فيها الجَوَارِحُ عن المباحات، فضلا عن المحظورات؛ وإذا تحركت بالطاعات، كانت كالمستعملة بها؛ فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سَنَنِ السَّدَاد.

- والثانية: مراقبةُ الوَرِعِينَ أصحاب اليمين:

وهم قومٌ غَلَبَ يقين اطّلاع الله على ظاهرهم وباطنهم، وعلى قلوبهم، قد غلب عليهم الحياء من الله؛ فهم يمتنعون عن كل ما يُفتضحون به يوم القيامة. وإنما يُعرَفُ اختلاف الدَّرَجَتَيْنِ بالمشاهدات؛ فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالًا، فيحضُرُكَ صَبِيٌّ أو نحوه؛ فتَعلَمُ أنه مُطَّلِع عليك؛ فتستحيي منه؛ فتحسن جلوسك، وتراعي أحوالك، لا عن إجلال وتعظيم، بل عن حياء؛ فإن مشاهدته وإن كانت لا تُدهِشُكَ، ولا تستغرِقُك، فإنها تهيج الحياء منك، وقد يدخُلُ عليك مَلِكٌ من الملوك، أو كبير من الأكابر، فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شُغُلا به لا حياء منه؛ فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى.

ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نَظَرَان: نظر قبل العمل، ونظر في العمل؛ أمَّا قبل العمل: فلينظُرُ ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره: أهو لله خاصة، أو هو في هوى النَّفْسِ ومتابعة الشيطان، فيتوقف فيه، ويتثبت حتَّى يَنكشِفَ له ذلك بنور الحق؟ فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله، وانكف عنه، ثم لام نَفْسَهُ على رغبته فيه وهمه به ومَيْلِه إليه، وعرَّفها سوء فعلها، وسعيها في فضيحتها، وأنها عَدُوَّةٌ نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته[392]؛ وبذلك نعلم ما تتطلبه المراقبة في جميع صورها ومراتبها من تمام الإخلاص لله تعالى في الفعل والترك، وتمام المتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم. وقد قال بعض السلف: "ما مِن فَعْلَة، وإنْ صَغُرَتْ إلَّا يُنْشَرُ لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟ أي: لِمَ فَعَلْتَ؟ وكيف فَعَلَتَ؟[393]

وهكذا كان حال السلف:

- يقول الحسن البصري رحمه الله: "كان أحدهم إذا أراد أن يتصدَّقَ بصَدَقة، تَثَبَّت؛ فإن كانت لله، أمضاها"[394]. وكان يقول: "رَحِمَ اللهُ عَبْدًا وقف عند هَمِّه؛ فإنَّ أحدًا لا يعمل حتى يَهُم: فَإِنْ كان لله عز وجل، مضى، وإن كان لغير الله، أمسك"[395].

- وقال بعضهم: "إن المؤمن وَقَّافٌ متأن، يقف عند همه، ليس كحاطِبِ لَيْل"[396].

وهذا لا يتحقق إلا بالعلم المتين، والمعرفة بالله على معرفة تامة، والمعرفة بالنفس وأغوارها وكثرة شرودِ النِّيَّةِ على الإنسان والمعرفة بالشيطان ومكايده.

ولا يخلو العبد أن يكون إما في طاعة، أو معصية، أو مباح: فمراقبته في الطاعة بالإخلاص، والكمال، ومراعاة الأدب، وحراستها عن الآفات. وإن كان في معصية: فمراقبته بالتوبةِ والنَّدَم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر. وإن كان في مباح: فمراقبته بمراعاة الأدب، ثم بمعرفة حق النعمة من الشكر والحمد.

ففي الساعة التي يكون فيها مشغول الجوارح بالطعام والشراب، فإنه لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو من أفضل الأعمال، وهو الذِّكْرُ والفِكْر، فإنَّ الطَّعَامَ الذي يتناوله مثلا فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفَطِنَ له، كان ذلك أفضل من كثير

---

[392] إحياء علوم الدين (٤ / ٣٩٨ - ٤٠٠) باختصار وتصرف

[393] إغاثة اللهفان (١/٤٢)

[394] مقاصد المكلفين (ص ٤٢٩)

[395] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩/٤١١)

[396] إحياء علوم الدين (٤/٤٠٠)

من أعمال الجوارح، ثُمَّ إن العبد ليس يخلو في جملة أحواله عن بليَّة لا بد له من الصبر عليها، ونعمة لا بدَّ له من الشُّكْرِ عليها، وكلُّ ذلك من المراقبة[397].

المطلب الخامس: سُبُلُ اكتسابِ المراقبةِ

السبيل إلى نيلِ المُراقبة يتأتى بأمور، منها:

أوّلاً: أن يستحضر العبد معاني الأسماء الحُسنى الّتي تؤثر في هذا المقام، وأن يتعبّد لربه تبارك وتعالى بمقتضى هذه الأسماء: الرقيب، والشهيد، والحفيظ، والمحيط، والعليم، والخبير، واللطيف، والسّميع، والبصير، والمُهيمن، والقريب. فالمراقبة ثمرة علم العبد بأنّ الله سبحانه رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ قوله، وهو مطّلع على عمله كلّ وقتٍ وكلّ لحظة، وكلّ نَفَسٍ وكلّ طرفة عين.

ثانياً: تحقيق مرتبة الإحسان:

يقول ابن القيم: "وحقيقةُ مشهد المُراقبة: هو أن يعبد الله كأنه يرى ربّه تبارك وتعالى فوق سماواته، مُسْتَوِيًا على عرشه، يتكلّم بأمره ونهيه، ويدبّر أمرَ الخليقة، فينزل الأمر من عنده، ويصعدُ إليه، وتُعرَض أعمالُ العباد عليه، وأرواحهم عند الوفاة إليه؛ فيشهد العبدُ ذلك كله بقلبه، ويشهد أسماءه وصفاته، ويشهد قيّومًا حيًّا، سميعًا بصيرًا، عزيزًا حكيمًا، آمرًا ناهيًا، يُحبُّ ويُبغض، ويرضى ويغضب، ويفعل ما يشاء، ويحكُم ما يريد، وهو فوق عرشِه لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصّدور"[398].

ثالثاً: ذكر الله تبارك وتعالى:

فمن فوائد الذّكر كما ذكر ابن القيم: "أنّه يورثه المُراقبة، حتّى يدخل في باب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذّكر إلى مقام الإحسان".[399]

رابعاً: مُحاسبة النّفس:

ومُلاحظة الأنفاس والخواطر على كلّ حال؛ فالعبد بحاجة إلى مُحاسبة النفس ومُلاحظة الأنفاس والخطرات في سرّه وعلانيته. فهل حاولت يوما – أخي القارئ - أنْ تعد حسناتك وسيئاتك كما تعد دنانيرك ودراهمك؟ هل خلوتَ بنفسك يوماً فحاسبتَها على ما بَدَرَ منها من التقصير والإهمال في جنب الله؟ هل تأملتَ يومًا طاعتَك التي تقرّبتَ بها إلى بارئك مفتخرًا بها، فوجدت أكثرها مشوبة بالرياء والسمعة وحظوظ النفس؟

إنَّ محاسبة النفس أمرٌ لا بد منه، فحاسبْ نفسَك الآن قبل أنْ تُحاسَبَ يوم القيامة، وَزِنْ حسناتك بسيئاتك في الدنيا قبل أنْ تُوزَنَ يوم الآخرة، يوم الحسرة والندامة، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. وعليك أنْ تتصفح عملك في الليل ما صدر منك ذلك النهار، فإنْ كان عملك محمودًا أمضيته ثم تعمل فيما بعده بمثله، وإنْ كان ما فعلته في ذلك النهار مذموما فعليك أنْ تستغفر وتتوب وتستدركه، وتنتهي عن مثله فيما يستقبل من الأيام. ثم عليك أخي المسلم أنْ

---

[397] المصدر السابق (٤/٤٠٢ - ٤٠٣)، بتصرف.

[398] رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص44-45)

[399] انظر: "الوابل الصيب" لابن القيم (ص42)

تتثبت دائماً في جميع الأحوال قبل الفعل والترك، حتى يتبين لك ما تفعل، فإنْ كان خيراً فاعمل وإنْ كان دون ذلك فاتركه[400].

المطلب السادس: فوائد المراقبة

من ثمرات المُراقبة وفوائدها:

1. التّأدب مع الله تبارك وتعالى؛ فإذا كان العبدُ مُراقبا لله عز وجل، فإنه يتأدب معه في كل حركاته وسكناته؛ لأنّه يُدرك أنّ الله يراه ويسمعه ويُراقبه.

2. دخول الجنّة؛ فإذا صلُحَت أعمال العباد الظّاهرة والباطنة، وصَلُحَت قلوبهم وأعمالهم، واستقامت ألسنتهم، فإنّ مآلهم إلى جنّة عرضها السماوات والأرض.

3. الوصول إلى القُرب من المعبود عزّ وجل؛ فإنّ المعاصي والغفلات تُبعدنا عنه؛ فكلما كان العبد أكثر استحضارًا لنظر الله عزّ وجل إليه، كان أكثر قربًا، وذلك حال يَصِلُ إليه العبد بعد ألوان من التّرويض والمُجاهدات التي يُجاهد فيها نفسه.

4. السعادة والانشراح وقرّة العين؛ وذلك لأنّ الإنسان إذا كانَ مُستحضرًا لنظر المعبود عز وجل، فإنّ ذلك يُثمرُ عنده استعدادًا لمُلاقاته، وحفظًا لجوارحه وقلبه من سائر ما يدنسّه، وإذا فعل ذلك حصل للقلب أنواع السرور والنعيم والبهجة والانشراح، وإنما يشقى العبدُ إذا كان كثير الالتفات إلى غير مليكه ومعبوده عزّ وجل، فيعذب بتلك التعلقات التي تعلق بها.

5. السّكينة والحياء والمحبة والخشوع والخوف والرّجاء والاستعانة والتّوكل، وما إلى ذلك من أعمال القلوب والجوارح؛ فقد ذكر ابن القيم جملة من الأعمال التي يتوصل بها إلى السكينة، ثمّ أجمل ذلك بقوله: "سببها: استيلاء مراقبة العبد لربه عزّ وجل، حتّى كأنه يراه، وكلّما اشتدت هذه المُراقبة، أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبّة والخضوع والخشوع، والخوف والرّجاء ما لا يحصلُ بدونه؛ فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامها به"[401].

6. إيثار ما أنزل الله تعالى وتعظيم ما عظّم الله، وتصغير ما صغّر الله عزّ وجل.

7. حفظُ الأنفاس والأوقات؛ فإذا عرف الإنسان أنّ ربه ينظر إليه، ويكتب كلّ شيء يصدر عنه، فلن يضيع لحظةً بعبث.

8. أنك تطّلع على عيوب نفسك ونقائصها ومثالبها، ومن ثم تستطيع أنْ تضع الدواء على موضع الداء.

9. من أعظم ثمار المحاسبة التوبة والندم وتدارك ما فات من الأعمال الصالحة في زمن الإمكان، وسيؤول ذلك إلى الاجتهاد في الطاعة وترك المعاصي؛ حتى تسهل عليك المحاسبة في يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون[402].

المطلب السابع: نماذج من أهل المراقبة

- دخل الشلبي على ابن أبي الحُسين النوري وهو قاعد ساكن، لا يتحرّك من ظاهره شيء، فقال له: "ممّن أخذت هذه المُراقبة والسّكون؟ فقال: من سِنَّوْر[403] كانت هُنا، إذا أرادت الصّيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك لها شعرة".[404]

---

[400] بتصرف: أعمال القلوب، خالد بن عثمان السبت، ص: 333 /ج1، و"حرمة المسلم على المسلم" لماهر الفحل.

[401] "إعلام الموقعين" لابن القيم (6 /111)

[402] أعمال القلوب، خالد بن عثمان السبت، ص: (1 /346-339)، و"حرمة المسلم على المسلم" لماهر الفحل.

[403] السِّنَّوْرُ: حيوانٌ أَليفٌ، من الفصيلة السِّنَّوْريّةِ ورتبة اللَّواحم، من خير مآكلهِ الفأر؛ ومنه أَهْلِيٌّ وبَرِّيٌّ. (معجم المعاني الجامع).

- قال زيد بن أسلم: "مرَّ ابن عمر براعي غنم، فقال: يا راعي الغنم، هل من جَزْرةٌ؟ قال الرّاعي: ليس ها هنا ربّها، فقال ابن عمر: تقول: أكلها الذّئب، فرفَع الرّاعي رأسه إلى السّماء، ثم قال: فأين الله؟ فاشترى ابن عمر الراعي، واشترى الغنم، فأعتقه وأعطاه الغنم"[405].

- قال عروة بن الزُّبَيْر رحمه الله: "خَطَبْتُ إلى عبد الله بن عُمَرَ ابنته ونحن في الطواف، فسكَتَ ولم يُجِبْنِي بكلمة، فقلتُ: لو رَضِيَ لأجابني، والله لا أراجِعُهُ فيها بكلمةٍ أبدًا، فقُدِّر له أن صدر إلى المدينة قَبْلي، ثم قَدِمْتُ، فدخَلْتُ مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فسَلَّمْتُ عليه، وأَدَّيْتُ إليه من حقه ما هو أهله، فأتيتُه، ورحب بي، وقال: متى قَدِمْتَ؟ فقلت: هذا حين قدومي، فقال: أكُنْتَ ذكرت لي سودة بنت عبد الله، ونحن في الطوافِ نَتَخَايَلُ الله عز وجل بين أعْيُننا، وكنتَ قادرًا أن تلقاني في غير ذلك الموطن؟ فقلت: كان أمرًا قُدِرَ، قال: فما رأيُكَ اليوم؟ قلتُ: أحرَصُ ما كُنْتُ عليه قط، فدعا ابنيه سالما وعبد الله، فزوجني[406]".

فقد كانت مراقبة الله عز وجل مسئولية على قلبه رضي الله عنه؛ فما عاد ينطق بشيء من أمر الدنيا.

- ونَظَر عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه إلى الصُّنَابِحِي - وهو من أئمة التابعين - فقال: "مَن سَرَّهُ أن ينظر إلى رجل كأنَّما رُقِي به فوق سبع سماوات، فعمل ما عمل على ما رأى؛ فلينظر إلى هذا[407]"، يعني: أنَّ الصُّنَابِحِيَّ كان يراقب الله، وكان شديد الخوف والحياء منه سبحانه.

- وذُكِرَ عند الإمام أحمد رحمه الله - لما كان في مرض الموت - عن طاوس؛ أنَّه كان يكره الأنينَ؛ فلم يئن حتَّى مات[408].

- وقال ابن دقيق العِيدِ رحمه الله: "ما تكلَّمْتُ كلمةً ولا فَعَلْتُ فعلا إلا وأعددت له جوابا بين يدي الله[409]".

- وقيل للجنيد رحمه الله: قل: لا إله إلا الله فقال: "ما نَسِيتُهُ فَأَذْكُرُهُ"، وقال:

حَاضِرٌ فِي القَلْبِ يَعْمُرُهُ
لَسْتُ أَنْسَاهُ فَأَذْكُرُهُ
فَهُوَ مَوْلَايَ وَمُعْتَمَدِي
وَنَصِيبِي مِنْهُ أَوْفَرُهُ.[410]

- وقال البخاري رحمه الله: "ما اغتَبْتُ أحدًا قط منذ علمتُ أن الغيبةَ تَضُرُّ أهلها[411]". وكان يقول: "إني أرجو أن ألقى الله ولا يُحاسبني أني اغتبتُ أحدا"[412]. ولذلك تجد في كلامه عن الرجالِ توقِّيًا زائدا، وتحريًا بليغًا.

---

[404] "مختصر منهاج القاصدين" لابن قدامة (ص355).

[405] أخرجه أبو داود في الزهد (306).

[406] أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/٣٠٩)

[407] أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨٥٧)؛ ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (١/١٢٩)، وابن عساكر في تاريخه (٣٥/١٣٠)

[408] أخرجه الدينوري في المجالسة) (٢٥٣)، وأبو نعيم في الحلية) (٩/١٨٣)، وابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص٥٤٦)، وهو في سيرة الإمام أحمد لابنه صالح (١٢٢ - ١٢٣)؛ غير أنه قال: «فلم يئن إلا في الليلة التي تُوفِّي فيها.

[409] طبقات الشافعية الكبرى (٩/٢١٢).

[410] الرسالة القشيرية (٢/٤٧٢).

[411] سير أعلام النبلاء (١٢/٤٤١).

[412] أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٣٢)، وابن عساكر في تاريخه (٥٢/٨١).

المطلب الثامن: أَهَمِّيَّةُ غَرْسِ المُرَاقَبَةِ فِي قَلْبِ الدُعَاةِ خَاصَّةً

إِنَّ الدَّاعِيَةُ فِي هَذَا العَصْرِ يَعِيشُ عَصْرَ الفَضَائِيَّاتِ وَالإِنْتَرْنِت، وَبَيْنَ ثَقَافَاتٍ كَثِيرَةٍ وَمُتَنَوِّعَةٍ، مُنْفَتِحَةٍ وَمُتَحَرِّرَةٍ، اجْتَمَعَ فِيهَا الحَابِلُ بِالنَّابِلِ! مِمَّا يَخْشَى أَنْ تَذُوبَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ القِيَمِ وَالمَبَادِئِ الَّتِي تَرَبَّى عَلَيْهَا فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ، لِذَلِكَ كَانَ لِزَامًا عَلَى الْقَائِمِينَ عَلَى تَأْهِيلِ الدُّعَاةِ أَنْ يُعْنَوْا بِقَضِيَّةِ الرَّقَابَةِ الذَّاتِيَّةِ وَتَقْوِيتِهَا، فَهِيَ الْمَسْئُولَةُ عَنْ قُوَّةِ دِفَاعِهِمْ عَنْ مَبَادِئِهِمْ وَأَخْلَاقِيَّاتِهِمْ، وَسُلُوكِيَّاتِهِمْ فَضْلًا عَنْ تَمَسُّكِهِمْ بِهَا وَانْقِيَادِهِمْ لَهَا بِقِنَاعَةٍ.

إِنَّ تَعْزِيزَ الرَّقَابَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ هُمَا سِرُّ نَجَاحِ أَيِّ مُسْلِمٍ بِصِفَةٍ عامَّة، وَالدَّاعِيَةِ بِصِفَةٍ خَاصَةٍ، لِأَنَّهُ يُدْرِكُ دَائِمًا بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ أَجْلِ إِرْضَاءِ اللَّهِ، وَلَيْسَ لِإِرْضَاءِ نَفْسِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَرَغْبَاتِهِ.

وَغَرْسُ الْمُرَاقَبَةِ أَمْرٌ هَامٌ لِلْغَايَةِ فِي تَأْهِيلِ الدُّعَاةِ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَدْفَعَ الدَّاعِيَةَ لِخَشْيَةِ اللَّهِ وَالْخَوْفِ مِنْ الإِقْدَامِ عَلَى أَيِّ عَمَلٍ يُغْضِبُه جَلَّ وَعَلَا سَوَاءً فِي خُلْوَتِهِ أَوْ بَيْنَ الْمَدْعُوِّينَ أَوْ فِي كِتْمَانِ الْحَقِّ وَعَدَمِ إِظْهَارِهِ بَلْ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا.

إِنَّنَا فِي حَاجَةٍ مَاسَةٍ أَنْ نُعِيدَ تَرْتِيبَ أَوْلُوِيَاتِنَا وَنَحْنُ نُعَزِّزُ الرَّقَابَةَ الذَّاتِيَّةَ فِي نُفُوْسِ الدُّعَاةِ؛ لِأَنَّهَا هِيَ أَقْوَى أَنْوَاعِ الرَّقَابَةِ، وَهِيَ الَّتِي سَتُؤَدِّي إِلَى التَّطْوِيرِ الْحَقِيقِيِّ فِي الْبِنَاءِ الْحَضَارِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ، وَحَقًّا إِنَّهَا الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ فِي آنٍ وَاحِدٍ.

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرٍ فَإِنَّ الرَّقَابَةَ وَالْخَوْفَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى يُثْمِرَانِ: "الْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، وَالْأَمَنَ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ الْإِيمَانِ وَحُسْنِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ صَلَاحِ الْعَبْدِ وَاسْتِقَامَتِهِ".[413]

وَلذلك لَوْ تَمَّتِ الْعِنَايَةُ بِهَذَا الْأَمْرِ غَايَةَ الْعِنَايَةِ، لَتَحَقَّقَتْ مَكَاسِبُ كَثِيرَةٌ سَوَاءٌ عَلَى الْمُسْتَوَى الشَّخْصِيِّ لِلدَّاعِيَةِ، وَعَلَى مُسْتَوَاه الْإِيمَانِيِّ، وَأَيْضًا على مُسْتوى الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ.

وَأَخِيرًا وَلَيْسَ آخِرًا، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي عَلَى الدَّاعِيَة إِلَى اللهِ أَنْ يُرَاقِبَ اللَّهَ فيما يُفَكِّرُ فيه وَيَحِسُّه، فَاللهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَمَا أَخْفَى، فَيُنَظِّفَ مَشَاعِرَهُ أَوَّلًا فَأَوَّلًا، وَلَا يَحْسِدُ وَلَا يَحْقِدُ، وَلَا يكْرَهُ لِلنَّاسِ الْخَيْرَ، وَلَا يَشْتَهِي الشَّهَوَاتِ الْبَاطِلَةَ وَالْمَتَاعَ الدَّنِسَ، وَحِينَ تُوجَدُ فِي الْقَلْبِ هَذِهِ الْحَسَّاسِيَّةُ الْمُرْهَفَةُ تِجَاهَ اللَّهِ تَسْتَقِيمُ النَّفْسُ وَيَسْتَقِيمُ الْمُجْتَمَعُ، وَيَعِيشُ نَظِيفًا من الْجَرِيمَةِ، نَظِيفًا مِنَ الدَّنَسِ، نَظِيفًا مِنَ الْأَحْقَادِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَعَامَلُ فِي الْحَقِيقَةِ مع بَعْضِه الْبَعْضُ وَإِنَّمَا يَتَعَامَلُ أَوَّلًا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى".[414]

---

[413] نَضْرَةُ النَّعِيمِ ٣٣٧٢/٨ بِاخْتِصَارٍ.

[414] لِلِاسْتِزَادَةِ عَنِ الْمُرَاقَبَةِ يَنْظُرُ: مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ صَ ٤٧٣ - ٠٨٣، بَابِ الْمُرَاقَبَةِ مِنْ رِيَاضِ الصَّالِحِينَ، نَضْرَةُ النَّعِيمِ ٧٦٣٣/٨ - ٢٧٣٣، وَكِتَابُ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، خَالِد بن عُثْمَان السَّبْت، وَأَعْمَالِ الْقُلُوبِ د. مُحَمَّدِ المَنْجِدِ.

المبحث الثالث: التوكل على الله

التوكل مقام عظيم من مقامات العبودية، فما أحوج الإنسان إليه وخاصة في ظل طغيان المادية، وسيطرة ضغوط الحياة على الكثير، وما أحوج الداعية إلى هذه العبودية ولزومها في مَسِيرَتِهِ الدَّعْوِيَّةِ المباركة في إخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم. وَفِي الْمُشْكِلَاتِ الَّتِي سَتُوَاجِهُهُ، وَفِي الِاسْتِكْبَارِ وَالْعِنَادِ الَّذِي سيلاقيه، وَفِي تَطْبِيقِ مَنْهَجِ اللهِ فِي نَفْسِهِ ثُمَّ فِي وَاقِعِهِ وَبَيْنَ النَّاسِ.

المطلب الأول: تَعْرِيفُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

- **تَعْرِيف التَّوَكُّلِ لُغَةً:**

وَكَّلَ بِاَللَّهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَاتَّكَلَ: اِسْتَسْلَمَ لَهُ، وَيُقَالُ تُوكِّل بِالْأَمْرِ إِذَا ضَمِنَ اَلْقِيَامُ بِهِ، وَوَكَّلْتُ أَمْرِي إِلَى فُلَانٍ: أَيْ أَلْجَأْتُهُ إِلَيْهِ، وَاعْتَمَدْتُ فِيهِ عَلَيْهِ، وَوَكَّلَ فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا اِسْتَنْكَفَاهُ أَمْرُهُ ثِقَةً بِكِفَايَتِهِ أَوْ عَجْزًا عَنْ اَلْقِيَامِ بِأَمْرِ نَفْسِهِ.[415]

- **تَعْرِيفُ التَّوَكُّلِ اصْطِلَاحًا:**

هُوَ صِدْقُ اعْتِمَادِ القَلْبِ عَلَى اللهِ تَعَالَى فِي اسْتِجْلَابِ المَصَالِحِ وَدَفْعِ المَضَارِّ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ[416]. وَالسَّعْيِ لِلْأَخْذِ بِالأَسْبَابِ المَشْرُوعَةِ[417]، مَعَ الإِيمَانِ الجَازِمِ بِأَنَّ النَّفْعَ وَالضُّرَّ، وَالعَطَاءَ وَالمَنْعَ كُلٌّ ذَلِكَ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا أَحَدٌ سِوَاهُ[418]، وَتَكُونُ الجَوَارِحُ مُشْتَغِلَةً بِالأَسْبَابِ، أَمَّا القَلْبُ فَلَا يَتَعَلَّقُ وَيَنْشَغِلُ إِلَّا بِاَللَّهِ تَعَالَى[419]، ثُمَّ الرِّضَا بِالمَقْضِيِّ وَالقَبُولِ بِهِ[420].

- **وقال الجرجاني رحمه الله:** التوكل هو الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس.[421]

المطلب الثاني: حقيقة التوكل وأهميته

التوكل، كما يقول ابن القيم: "نصف الدين، والنصف الثاني: الإنابة. فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة. ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها"[422].

وهو (من أعم المقامات تعلقًا بالأسماء الحسنى، فإن له تعلقًا خاصًا بعامة أسماء الأفعال وأسماء الصفات، ... ولهذا فسَّره من فسَّره من الأئمة بأنه المعرفة بالله)[423] ، ويُمثل حقيقة العبودية، فمن عزل نفسه عن مقام التوكل فقد عزلها عن حقيقة العبودية[424].

---

[415] يُنْظَرُ في: (لسان العرب) لابن منظور

[416] العلوم والحكم، لابن رجب (409)

[417] فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب، محمد عويضة، صفحة 109. بتصرّف.

[418] نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (الطبعة الرابعة)، مجموعة من المؤلفين، صفحة 1378، جزء 4. بتصرّف.

[419] رقائق القرآن ابراهيم السكران، ص: 149. بتصرّف.

[420] مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ص: 114، جزء 2. بتصرّف.

[421] التعريفات، ص: (74)

[422] مدارك السالكين، ص: 2/86

[423] المصدر السابق: ص: 2/95

[424] المصدر السابق: ص: 2/92

وَهُوَ (مَرْكَبُ السَّائِرِ اَلَّذِي لَا يَتَأَتَّى لَهُ السَّيْرُ إِلَّا بِهِ، . . . وَمِن لَوازِمِ الْإِيمَانِ وَمُقْتَضَياتِهِ)[425]، فَمِن لَا تَوَكُّلَ لَهُ، لَا إِيمَانَ لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: 23])، فجعل التَّوكُلَ شرطًا في الإيمان. (وَأَنَّ قُوَّةَ التَّوَكُّلِ وَضَعْفَهُ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَضَعْفِهِ، فَكُلَّمَا قَوِيَ إِيمَانُ العَبْدِ كَانَ تَوَكُّلُهُ أَقْوَى، وَإِذَا ضَعُفَ الْإِيمَانُ، ضَعُفَ التَّوَكُّلِ)[426].

المطلب الثالث: الحثُّ على التوكل والترغيب فيه

أ. في القرآن الكريم:

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ فِي الْقُرْآنِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [النِّسَاء: ٨١]، وَقَالَ: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الْأَنْفَالِ:٦١].

وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [الْأَحْزَاب: ٤٨]

وَقَالَ تَعَالَى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} [الفرقان: 58].

وَقَالَ تَعَالَى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء: 217-220].

وَقَالَ تَعَالَى: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [الملك: 29]، [ص: 109].

وَقَالَ تَعَالَى: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} [النمل: 79].

وقال تَعَالَى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهِ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159].

وأمر به المؤمنين، فقال تعالى في سبعة مواضع من القرآن: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[427].

وقال عن أنبيائه ورسله: {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا} [إبراهيم:12].

وقال عن أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران:173].

وقال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال:2].

وقال تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: 23].

وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق:3].

وقال تعالى عن أوليائه: {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة:4].

- **(ولقد جمع الله عز وجل في كتابه الكريم بين التوكل والإسلام،** فقال سبحانه: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: 84].

وجمع بين التوكل والتقوى، فقال سبحانه: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: 2-3].

---

[425] طريق الهجرتين لابن القيم، ص: 460

[426] المصدر السابق، بتصرف.

[427] (آل عمران: 122)، (آل عمران: 160)، (المائدة: 11)، (التوبة: 51)، (إبراهيم: 11)، (المجادلة: 10)، (التغابن: 13)

كما جمع بين التوكل والهداية، فقال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} [النمل: 79])[428].

ولذا فقد عني ابن القيم بهذا المقام أشد عناية، حيث نجده:

ب- في السنة النبوية:

(كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرِيصًا عَلَى تَعْلِيمِ أُمَّتِهِ أَمْرَ التَّوَكُّلِ، فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا"[429]).[430]

- وعن عمران بن الحصين، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِن أُمَّتي سَبْعُونَ ألْفًا بغيرِ حِسابٍ، قالوا: مَن هُمْ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ، ولا يَكْتَوُونَ، وعلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"[431].

- وروى عبد الله بن عباس، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كان يقولُ: "اللهمَّ لكَ أسلمتُ وبكَ آمنتُ وعليكَ توكلتُ وإليكَ أنبتُ وبكَ خاصمتُ أعوذُ بعزَّتِكَ لا إلهَ إلا أنتَ أن تُضِلَّني أنت الحيُّ الذي لا تموتُ والجنُّ والإنسُ يموتونَ"[432].

المطلب الرابع: نماذج من توكل الأنبياء والصالحين

1- لما مر ركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهم بحمراء الأسد، فأخبرهم بالذي بأن أبا سفيان جمع لهم، وذلك بعيد أحد- قالوا: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ} ـ أي زاد المسلمين قولهم ذلك ـ {إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل عمران: 173، 174].

2- وقد ثبت في صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أنه قال: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173].[433]

3- أَخْبَرَ جَابِرَ بنَ عبدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عنْهمَا: "أَنَّهُ غَزَا مع رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَفَلَ معهُ، فأدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ في وادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَحْتَ سَمُرَةٍ وعَلَّقَ بهَا سَيْفَهُ، ونِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْعُونَا، وإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقالَ: إنَّ هذا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي، وأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وهو في يَدِهِ صَلْتًا، فَقالَ: مَن يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: اللَّهُ، - ثَلَاثًا - ولَمْ يُعَاقِبْهُ وجَلَسَ".[434]

---

[428] طريق الهجرتين، ص: 460، 462

[429] جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ 2344، وَابْنُ مَاجَهْ 4164، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، الْأَلْبَانِيُّ فِي سِلْسِلَةِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ 1310/620

[430] موسوعة دليل الداعية، تأهيل الدعاة، الدكتور محمد العواجي، ص: 168-177

[431] صحيح مسلم (218).

[432] أخرجه البخاري (7383) مختصراً، ومسلم (2717) باختلاف يسير

[433] صحيح البخاري (4563).

[434] صحيح البخاري (2910)

4- قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "كُنْتُ مع النبيّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الغَارِ فَرَأَيْتُ آثَارَ المُشْرِكِينَ، قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، لو أنَّ أحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا، قالَ: ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا".[435]

وفي ذلك يقول ربنا: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 40].

5- ولما لحق سراقة بن مالك بالنبي صلى الله عليه وسلم بشره بسواري كسرى وهو مطارد، قال له: "كَأَنِّي بِكَ قَدْ لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى"[436].

فأي ثقة هذه التي امتلأ بها قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم!

6- قال تعالى عن نوح عليه السلام: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ} [يونس: 71].

ومعنى الآية: أعدُّوا أمركم، وادعوا شركاءكم، ثم لا تجعلوا أمركم عليكم مستترًا بل ظاهرًا منكشفًا، ثم اقضوا عليَّ بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ولا تمهلوني ساعة من نهار.

7- قال الله تعالى عن يعقوب عليه السلام: {قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ ءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [يونس: 66-67].

8- قال تعالى عن موسى عليه السلام: {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ *وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: 53-62]. فالبحر أمامه، وفرعون خلفه، والجبال الشاهقة ترى عن يمينه وشماله، ومع ذلك: (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ).

9- وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: 44-46].

أي: " ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم".[437]

10- ولما فوَّضت أم موسى أمرها إلى الله حفظ ابنها ورده إليها، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} [القصص: 7-8].

---

[435] أخرجه البخاري (4663)، ومسلم(2381)

[436] أخرجها البيهقي في الكبرى (6/ 358، 12815)

[437] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ص: 738

المطلب الخامس: مواضع يُتَأَكَّدُ فيها التوكلُ على الله

ينبغي على المسلم أن يعتمد على الله في أمره كله، ومع ذلك هناك مواضع يُتأكد فيها التوكل على الله عز وجل، منها:

- **عند النوم:**

فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً ورَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ ولَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الذي أَنْزَلْتَ، وبِنَبِيِّكَ الذي أَرْسَلْتَ، فإِنْ مُتَّ مِن لَيْلَتِكَ، فأَنْتَ علَى الفِطْرَةِ، واجْعَلْهُنَّ آخِرَ ما تَتَكَلَّمُ بهِ. قالَ: فَرَدَّدْتُهَا علَى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَلَمَّا بَلَغْتُ: اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الذي أَنْزَلْتَ، قُلتُ: ورَسولِكَ، قالَ: لَا، ونَبِيِّكَ الذي أَرْسَلْتَ."[438].

- **عند نزول الفاقة:**

ففي جامع الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللَّهِ فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ"[439].

- **عند الإعراض عن الأعداء:**

قال تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا} [النساء: 81].

- **إذا أعرض الناس عنك:**

قال تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وهو رب العرش العظيم} [التوبة: 129].

- **عند مسالمة الأعداء:**

قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [الأنفال: 61].

- **عند مواجهة الأعداء:**

قال تعالى: {قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ * قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [إبراهيم: 10-12].

- **عند نزول المصائب وحلول الكرب:**

قال تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: 51].

---

[438] أخرجه البخاري (247)، ومسلم (2710)

[439] أخرجه أبو داود (1645)، والترمذي (2326) واللفظ له، وأحمد(3696)

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ"[440].

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ"[441].

- **عند الخروج من المنزل:**

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ"؟[442]

- **إذا تسرب إلى النفس شيء من التطير:**

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطيرة شرك". قال ابن مسعود: وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ.[443]

والمسلم الحق عليه أن يلجأ إلى الله تعالى في كل أحواله، فلا أشقى من عبد وكله الله إلى نفسه، قال سبحانه: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} [النساء: 81].

المطلب السادس: ثمرات التوكل

1- النصر:

قال تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: 160].

فأمر الله بالتوكل بعيد ذكره للنصر ليدلل على أن من أسبابه الاعتماد عليه.

2- الحفظ من الشيطان الرجيم:

قال تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل: 99].

3- الشجاعة: فمن امتلأ قلبه بالتوكل على الله فمم يخاف؟

ولهذا كان سيد المتوكلين سيد الشجعان، ففي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ اسْتَبْرَأَ الْخَبَرَ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: "لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا"، ثُمَّ قَالَ: "وَجَدْنَاهُ بَحْرًا"[444].

---

[440] صحيح البخاري (6346)، صحيح مسلم (2730) باختلاف يسير

[441] أخرجه أبو داود (5090) مطولاً واللفظ له، وأحمد (20430) مطولاً باختلاف يسير

[442] أخرجه أبو داود (5095)، والترمذي (3426)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (9917) باختلاف يسير.

[443] أخرجه أبو داود (3910)، والترمذي (1614) باختلاف يسير، وابن ماجه (3538)، وأحمد (3687) واللفظ لها.

[444] أخرجه البخاري (3040)، ومسلم (2307)

و(العُري): غير المسرج. و(لم تراعوا): أي روعا مستقرًا، أو روعا يروعكم، و(وجدناه بحرًا): أي واسع الجري.

وفي الزهد لهناد بن السري أن شقيق بن سلمة أبو وائل قال: "خرجنا في ليلة مخوفة، فمررنا بأجمة –الشجر الكثير الكثيف الملتف- فيها رجل نائم، وقيد فرسه فهي ترعى عند رأسه فأيقظناه، فقلنا له: تنام في مثل هذا المكان؟ قال: فرفع رأسه فقال: إنّي أستحي من ذي العرش أن يعلم أنّي أخاف شيئا دونه، ثم وضع رأسه فنام"[445].

4- الرزق:

ففي سنن الترمذي وابن ماجة: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو[446] خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا"[447].

5- دليل على صدق الإيمان:

قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2].

قال سعيد بن جبير رحمه الله: "التوكل على الله جماع الإيمان"[448] .

وقال ابن القيم رحمه الله: "التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة؛ فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة"[449].

6- الكفاية والحماية والرعاية:

قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} [النساء: 81].

وقال: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق:3].

وقال: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: 49].

وَعَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: "بَيْنَا رَجُلٌ فِي بُسْتَانٍ بِمِصْرَ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ مُكْتَئِبًا مَعَهُ شَيْءٌ يَنْكَتُ بِهِ فِي الأَرْضِ، إِذْ رَفَعَ رَأْسَهُ فَسَنَحَ[450] لَهُ صَاحِبُ مِسْحَاةٍ[451]، فَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا مَالِي أَرَاكَ مُكْتَئِبًا حَزِينًا؟ قَالَ: فَكَأَنَّهُ ازْدَرَاهُ فَقَالَ: لاَ شَيْءَ. قَالَ صَاحِبُ المِسْحَاةِ: أَلَدُنْيَا؟ فَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ، يَأْكُلُ مِنْهَا البَرُّ وَالفَاجِرُ، وَالآخِرَةُ أَجَل صَادِقٌ يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ، يَفْصِلُ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ. فَلَمَّا سُمِعَ ذَلِكَ مِنْهُ كَأَنَّهُ أَعْجَبَهُ، فَقَالَ: لِمَا فِيهِ المُسْلِمُونَ. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ سَيُنْجِيكَ بِشَفَقَتِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ، وَسَلْ، فَمَنْ ذَا الَّذِي سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى فَلَمْ يُعْطِهِ، وَدَعَاهُ فَلَمْ يُجِبْهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَكْفِهِ، أَوْ وَثِقَ بِهِ فَلَمْ ينْجِهِ؟ فَدَعَا اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي وَسَلِّمْ مِنِّي، فَتَمَحَّلْتُ[452]، وَلَمْ تُصِبْ مِنْهُمْ أَحَدًا"[453].

---

[445] الزهد لهناد بن السري، باب التوكل، ص: 306/ج1

[446] تغدو: تذهب أول النهار، وتروح: ترجع آخر النهار.

[447] أخرجه الترمذي (2344)، وابن ماجه (4164)، وأحمد (205) واللفظ له.

[448] سير أعلام النبلاء، ص: 4/322

[449] مدارك السالكين، 118/2

[450] سنح: عرَض وظهَر

[451] مسحاة: مِجراف هي أداة صممت خصيصا للحفر أو لقطع جذور النباتات

[452] فتمحلت: تمحَّل الشَّخصُ لبلوغ هدفه: احتال، التمس حيلة

[453] التوكل على الله لابن أبي الدنيا، ص: 52

7- نيل محبة الله:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159].

8- وأعظم ثمرة جنة الله:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ} [العنكبوت: 58-59].

وفي الصحيحين عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ". ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ"؟ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: "هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، ولا يكتوون، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"[454].

المطلب السابع: أصناف الناس في التوكل

وأصناف الناس في باب التوكل ثلاثة:

- **الصنف الأول: المعرضون عن الأسباب بالكلية:**

وهم صنف اعتمد على الله بقلبه وترك العمل بالأسباب، ولم يبذل جهدا في التحصيل، ولم يفرق بين التواكل والذي هو مسلك مذموم وبين التوكل، وهذا منهج الصوفية الذين تركوا التكسب والعمل والتزود، ويرون ذلك منافيا للتوكل، وهذا النهج مذموم عند السلف.

- **الصنف الثاني: المعتمدون على الأسباب بالكلية، المبالغون فيها:**

وهؤلاء لم يعتمدوا على الله، فتوجهت قلوبهم وجوارحهم إلى الأسباب من غير النظر إلى مسببها، وجعلوها مؤثرة ومستقلة في جلب الخير ودفع الشر، وهذا مسلك مذموم؛ لأنه مسلك الماديين والعقلانيين، وهذا باطل مخالف للشرع.

- **الصنف الثالث: الجامعون بين الاعتماد على الله سبحانه وتعاطي الأسباب التي أذن الله بها:**

حيث تقوم الجوارح بالأسباب والقلب معتمد على مسبب الأسباب، وهذا هو الموافق للشرع، وصريح العقل، ومقتضى الفطرة السليمة، فأثبت للأسباب تأثيرا في مسبباتها لكن لا بذاتها؛ لأن المؤثر حقيقة والمستقل بالنفع والضر هو الله.

[454] أخرجه البخاري (5705)، ومسلم (220) واللفظ له

المطلب الثامن: التوكل لا يكون إلا على الله

يَسُوغُ: لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فُلانٌ إِنْ كَانَ فُلانٌ سَبَبًا، وَلَيْسَ يَجُوزُ: تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ثُمَّ عَلَيْكَ، وَأَقْبَحُ مِنْهُ: تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: {وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [سورة الأنعام: 107]، {أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلً} [الإسراء: 2]، وقال: {وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: 51]، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

فالاستعانة بغير الله فيما يُقْدَر عليه لا شيء فيها، أما التوكل فِعْلُ القلب لا يكون إلا على الله تعالى.

المطلب التاسع: حكم التوكل على الله

والتوكل على الله واجب من أعظم الواجبات، فقد أمر الله عباده بالتوكل عليه في كل أمورهم، والله لا يأمر إلا بما يحب، قال تعالى: {وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُؤْمِنِين} [المائدة: 23].

ولما كان التوكل محبوبا لله دل ذلك أنه عباده، ومن ثم فإنه تجري عليه القاعدة التي تسير على كل العبادات: (كل ما ثبت بالكتاب والسنة أنه عبادة، فصرفه لله توحيد، وصرفه لغير الله شرك).

فإن قيل: التوكل على غير الله عز وجل، هل هو شرك أكبر أم شرك أصغر؟ فجوابه على تفصيل:

١- الحالة الأولى: أن يكون شركاً أكبر، وهو أن يتوكل على أحد من الخلق فيما لا يقدر عليه إلا الله عزوجل، كجلب نفعٍ أو دفع ضرٍ.

٢- الحالة الثانية: أن يكون شركاً أصغر: إن اعتمد على مخلوق في أمر أقدره الله عز وجل عليه من جلب رزق أو دفع أذى أو قضاء حاجة من مصالح الدنيا، مع اعتقاده أن الأمر كله لله عز وجل، ولكن صرف جزءاً من توكله إلى هذا المخلوق، فهو شرك أصغر.

المطلب العاشر: التوكل والأخذ بالأسباب

لابد هنا من لفت الانتباه إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنّ التَّوَكُّلَ على الله لا يَعْنِي تَرْكَ الأَسْبَابِ وَلَا يُنَافِي الأخذ بها، فإن الله الذي أمر بالتوكل عليه، هو الذي أمر بالأخذ بالأسباب وتعاطيها، قال تعالى: {وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ} [النساء: 120]، وقال عز وجل: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: 60].

فالتوكل عمل القلب والأخذ بالأسباب عمل الجوارح، وكلاهما طاعة أمر العبد بها، لذا فإن الذي يطعن في التوكل إنما هو يطعن في الإيمان، والذي يطعن في الأسباب يطعن في السنة. فلا تعارض بين الأمرين، فالذي قال {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [الأنفال: 10] هو سبحانه وتعالى الذي قال {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: 60].

-وعن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: "كانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، ذَاتَ يَومٍ جَالِسًا وفي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ به، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقالَ: ما مِنكُم مِن نَفْسٍ إلَّا وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ قالوا: يا رَسُولَ اللهِ، فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفلا

نَتَّكِلُ؟ قالَ: لَا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بالحُسْنَى}، إلى قَوْلِهِ {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: 5 - 10]"[455].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكّل، أو أطلقها وأتوكّل؟ -لناقته- فقال صلى الله عليه وسلم: "اعقلها وتوكّل"[456].

- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى}"[457].

- وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: "لا تبشّرهم فيتكلوا"[458]. وهذا دليل على أنه لابد من بذل الأسباب وعدم الاتكال.

- **قال أبو العباس ابن تيمية:** "التوكل لا يعني ترك الأخذ بالأسباب، فمن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط وإن كان متوكلاً على الله، ومن ظن أن التوكل يغني عن الأسباب فهو ضال"[459].

- **قال ابن الجوزي:** "سئل أحمد: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده، وقال لا أعمل شيئاً، وسوف يأتي رزقي؟

فأجاب: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم: (وجُعل رزقي تحت ظل رمحي)، وقوله صلى الله عليه وسلم: (تغدو خماصاً وتروح بطانا"[460].

- **قال الغزالي:** "قد يظن الجهَّال أن شرط التوكل ترك الكسب وتركُ التداوي والاستسلامُ للمهلكات، وذلك خطأ؛ لأنَّ ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على التوكل، وندب إليه، فكيف يُنال ذلك بمحظوره؟!"[461]

- **قال ابن القيم:** "من أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله، وحال بدنه قيامه بالأسباب"[462].

الأمر الثاني: تتخذ الأسباب وإن كانت ضعيفة في نفسها.

ولذلك أمر الله تعالى أيوب عليه السلام أن يضرب الأرض برجله بعد أن دعا لمرضه، وهل ضربة الصحيح للأرض مُنْبِعَةٌ للماء؟ لا، ولكن الله يريد أن يعلمنا أنه لابد من اتخاذ السبب ولو كان ضعيفاً، فالأمر أمره، والكون كونه، ولكن لابد من فعل الأسباب.

ولما أراد الله أن يطعم مريم وهي في حالة وهن وضعف أمرها أن تهز جذع النخلة؛ لأن السبب يتخذ ولو ضعف.

الأمر الثالث: أنْ لا يعتمد عليها، وإنما يجعل اعتماده على الله تعالى.

---

[455] صحيح مسلم (2647)

[456] صحيح ابن حبان (731)

[457] أخرجه البخاري (1523)

[458] صحيح مسلم (30)

[459] مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٨)

[460] الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ١٦٨)، وفي رواية قال المروذي: قلت لأحمد: هؤلاء المتوكلة يقولون نقعد وأرزاقنا على الله عز وجل؟!! فقال: ذا قول خبيث، قال تعالى {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ} [الجمعة: ٩] فهل هذا إلا البيع والشراء؟ [وانظر: "الحث على التجارة والصناعة والعمل والإنكار على من يدعي التوكل في ترك العمل والحجة عليهم في ذلك (ص/٢٦)"].

[461] الأربعين في أصول الدين (ص/٤٢١)

[462] مدارج السالكين (٢/ ١٢٠)

ابذل السبب ولو كان يسيرا، واعلم أنّ الله هو مسبب الأسباب، ولو شاء أن يحول بين السبب وأثره لفعل سبحانه، ولذا لما أُلقي إبراهيم في النار لم يحترق لأن الله قدر ذلك، وإسماعيل عليه السلام لما أمرَّ أبوه السكين على عنقه وهي سبب في إزهاق الروح لم تزهق روحه لأن الله لم يأذن في ذلك.

فلا يعتمد إلا على الله، وتتخذ الأسباب، لأن الله يقدر الأمور بأسبابها.

وَسِيرَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُنَبِّهُنَا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، فَعَمَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْهِجْرَةِ، وَأَخْذُهُ بِالْأَسْبَابِ، وَعَمَلُهُ فِي مَعَارِكِهِ وَخِطَطِهِ فِيهَا، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَوَاقِفِ يَدُلُّنَا عَلَى أَهَمِّيَّةِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ.[463]

[463] يُنْظَرُ: أَحْدَاثُ الْهِجْرَةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ لِابْنِ هِشَامٍ 684/2، وَالسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ الصَّحِيحَةِ 1/72 وَمَا بَعْدَهَا. وَكُلُّ غَزْوَةٍ مِنَ الْغَزَوَاتِ تَحْمِلُ فِيهَا دُرُوسًا حَوْلَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالْعَمَلِ بِالْأَسْبَابِ.

المبحث الرابع: تعلق القلب بالله

إنَّ التعلُّقَ بالله سبب لكل خير، وهو روح التوحيد وأساس السعادة، وهل بعثت الرسل ونزلت الكتب إلا لذلك؟ والانشغال عن ذلك والغفلة عنه والتعلق بغيره أعظم خذلان وأكبر حرمان.

المطلب الأول: مَعْنَى التَّعَلُّق

التعلق، هو ملازمة التشبث بالشيء الأعلى، ماديًا كان أو معنويا، وهو الاحتياج والانجذاب والثقة والتقرّب واللزوم والإناطة.

و(الْعَيْنُ وَاللَّامُ وَالْقَافُ أَصْلٌ كَبِيرٌ صَحِيحٌ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنْ يُنَاطَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ الْعَالِي. ثُمَّ يَتَّسِعُ الْكَلَامُ فِيه، وَالْمَرْجِعُ كُلُّهُ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ. تَقُولُ: عَلَّقْتُ الشَّيْءَ أُعَلِّقُهُ تَعْلِيقًا. وَقَدْ عَلِقَ بِهِ، إِذَا لَزِمَهُ. وَالْقِيَاسُ وَاحِدٌ. وَالْعَلَقُ: مَا تَعَلَّقَ بِهِ الْبَكْرَةُ مِنَ الْقَامَةِ. وَيُقَالُ الْعَلَقُ: آلَةُ الْبَكْرَةِ. وَيَقُولُونَ: الْبِئْرُ مُحْتَاجَةٌ إِلَى الْعَلَقِ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْعَلَقُ هِيَ الْبَكْرَةُ بِكُلِّ آلَتِهَا دُونَ الرِّشَاءِ وَالدَّلْوِ. وَالْعَلَقُ: الدَّمُ الْجَامِدُ، وَقِيَاسُهُ صَحِيحٌ، لِأَنَّهُ يَعْلَقُ بِالشَّيْءِ; وَالْقِطْعَةُ مِنْهُ عَلَقَةٌ.

قَالَ الْخَلِيلُ: الْعَلَقُ أَنْ يَنْشِبَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ. قَالَ جَرِيرٌ: (إِذَا عَلِقَتْ مَخَالِبُهُ بِقَرْنٍ.. أَصَابَ الْقَلْبَ أَوْ هَتَكَ الْحِجَابَا) وَعَلِقَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ: خَاصَمَهُ. وَالْعَلَقُ: الْهَوَى. وَفِي الْمَثَلِ: "نَظْرَةٌ مِنْ ذِي عَلَقٍ"، أَيْ ذِي هَوًى قَدْ عَلِقَ قَلْبُهُ بِمَنْ يَهْوَاهُ.

وَالْعَلَاقَةُ: الْحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ. وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْعُلُوقَ مِنَ النِّسَاءِ: الْمُحِبَّةُ لِزَوْجِهَا)[464].

المطلب الثاني: الحثُّ على التَّعَلُّقِ بالله والتَّرغيبُ فيه

1. في القرآن الكريم:

قال الله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس:107].

"هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، ... الذي إذا مَسَّ بضر كفقر ومرض، ونحوها فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ لأنَّ الخلق، لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدا، لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرده الله، ولهذا قال: {وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} أي: لا يقدر أحد من الخلق أنْ يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ، فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} أي: يختص برحمته من شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم، {وَهُوَ الْغَفُورُ} لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه، كبارها، وصغارها. {الرَّحِيمِ} الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغنى عن إحسانه طرفة عين، فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أنَّ الله هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأنَّ أحدًا من الخلق، ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأنَّ ما يدعون من دونه هو الباطل.[465]

---

[464] معجم مقاييس اللغة لابن فارس في مادة (علق).

[465] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي

2. في السنة النبوية:

النبي صلى الله عليه وسلم يعلّق القلوب بالله:

1. قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: "يا غُلامُ إنِّي أُعلِّمُكَ كلِماتٍ، احفَظِ اللَّهَ يحفَظكَ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سألْتَ فاسألِ اللَّهَ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللَّهِ، واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتَمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ لَكَ، ولو اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ"[466].

في هذا الحَديثِ يقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم لِعَبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ: "يا غلامُ"، والغُلامُ هو الصَّبيُّ الصَّغيرُ الَّذي لم يَبلُغِ الحُلُمَ بَعدُ، "إنِّي أُعلِّمُك كَلِماتٍ"، أي: أُعلِّمُك أُمورًا وأشياءَ يَنفَعُك اللهُ بها، "احفَظِ اللهَ"، أي: اتَّقِ اللهَ في الأوامِرِ والنَّواهي، والْزَمِ الطَّاعاتِ، ولا تَقرَبِ المعاصيَ، "تَجِدْه تُجاهَك"، والمعنى: أنَّك تَجِدُه حينَئذٍ كأنَّه حاضرٌ تِلقاءَك وقُدَّامَك في مقام إحسانك وإيقانك وكمال إيمانك، كأنَّك تراه بحيثُ تُغْنَى بالكُلِّيَّةِ عن نظَرِك ما سِواه، وقيل: المعنى: إذا حَفِظْتَ طاعةَ اللهِ وجَدتَه يَحفَظُك ويَنصُرُك في مُهِمَّاتِك أينَما توجَّهتَ، ويُسهِّلُ لك الأمورَ الَّتي قصَدتَ، وقيل المعنى: تجِدُ عِنايتَه ورَأفتَه قَريبًا منك؛ يُراعيك في جَميعِ الحالاتِ، ويُنقِذُك مِن جميعِ المضَرَّاتِ.

"إذا سألْتَ فاسأَلِ اللهَ"، أي: إذا أرَدتَ أن تَطلُبَ شيئًا، فلا تَطلُبْ إلَّا مِن اللهِ، "وإذا استَعنتَ فاستَعِنْ باللهِ"، أي: وإذا أردتَ العونَ فلا تَطلُبِ العونَ إلَّا مِن اللهِ ولا تَستَعِنْ إلَّا باللهِ، "واعْلَمْ"، كرَرَ فِعلَ الأمْرِ زِيَادَةً في الحَثِّ عَلَى التَّوَجُّهِ إلَى اللهِ تعالى "أنَّ الأُمَّةَ لو اجتَمَعَت"، أَيِ: اتَّفَقَتْ فَرْضًا وَتَقْدِيرًا "على أن يَنفَعوك بشيءٍ لم يَنفَعوك" أَيْ: لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ، "إلَّا بشيءٍ قد كتبَه اللهُ لك"، والمعنى: وَلْيَكُنْ عِندَك عِلْمٌ ويقينٌ أنَّه لن يَكونَ إلَّا ما قدَّره اللهُ لك؛ فلن تُحصِّلَ مَنفعةً إلَّا ما كتَبه الله لك، ولو اجتَمَع على مَنفعتِك أهلُ الأرضِ جَميعًا، "وإنِ اجتَمَعوا على أن يَضُرُّوك بشيءٍ لم يَضُرُّوك إلَّا بشيءٍ قد كتَبه اللهُ عليك"، أي: وَلْيَكُنْ عِندَك عِلْمٌ أيضًا أنَّك لن تَرى إلَّا ما قدَّره اللهُ عليك، فلَن يَبلُغَك ضُرٌّ إلَّا ما قدَّره اللهُ عليك، ولو اجتَمَع على ضُرِّك أهلُ الأرضِ جميعًا، وهذا مُتَّفِقٌ مع الحُكمِ المقرَّرِ في الاعتقادِ أنَّ اجتِماعَهم على إيصالِ النَّفعِ والضُّرِّ بدونِ مَشيئةِ اللهِ مِن المُحالِ.

2. عن بريدة بن الحصيب الأسلم، أنه قال: "كانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ إذَا أَمَّرَ أَمِيرًا علَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ في خَاصَّتِهِ بتَقْوَى اللهِ، وَمَن معهُ مِنَ المُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قالَ: اغْزُوا باسْمِ اللهِ في سَبيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَن كَفَرَ باللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا... "[467].

في هذا الحديثِ يَروي بُرَيدةُ بنُ الحُصَيبِ الأسلميُّ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا جعَل أحدًا مِن أصحابِه رَضيَ اللهُ عنه أميرًا على جَيْشٍ أو (سَرِيَّةٍ)؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها كانت تَسْرِي في اللَّيْلِ وتُخفي ذَهابَها، ثُمَّ أُطلِقَتْ على كلِّ قِطْعَةِ جَيْشٍ خَرَجت ليلًا أو نَهارًا، وعَدَدُها مِن مِائَةٍ إلى خَمْسِ مِائَةٍ، أَوْصَى النَّبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك الأميرَ "في خاصَّتِه" أي: في حقِّ نفسِه خُصوصًا، بتَقْوَى الله، وأَوْصاه خيرًا بِمَنْ معه مِن المسْلِمين، أنْ يَتَّقِيَ اللهَ فيهم ولا

---

[466] أخرجه الترمذي (2516) واللفظ له، وأحمد (2669)

[467] صحيح مسلم (1731)

يَخُونَهم ولا يُشَدِّدَ عليْهِم، وأنْ يُسَهِّلَ لهُم مِن أمرِهم، ثُمَّ قال لِأَمِيرِ الغَزْوَةِ ولِمَن معه: (اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ) أي: مُستعِينِينَ بذِكْرِه، في سَبِيلِ الله، ولِأَجْلِ مَرْضاتِه وإعلاءِ دِينِه لا للمَغنَمِ ولا للعصبيَّةِ ولا لإظهارِ الشَّجاعةِ، ... "[468].

3. عَنْ عُثْمَانِ بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه أَنَّهُ شَكَا إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ وَجَعًا يَجِدُهُ في جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقالَ له رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: "ضَعْ يَدَكَ علَى الَّذي تَأَلَّمَ مِن جَسَدِكَ، وَقُلْ: باسْمِ اللهِ، ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ باللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِن شَرِّ ما أَجِدُ وَأُحَاذِرُ"[469].

في هذا الحديثِ يَرْوي عُثْمانُ بنُ أبي العَاصِ الثَّقَفيُّ رَضيَ اللهُ عنه أنَّه شَكَا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وَجَعًا يُؤْلِم جسَدَه منذُ أسلَمَ، فأَمَره صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَضَعَ يدَه على ما يُؤْلِمُه مِن جَسدِه، ويقولَ: "بِاسْمِ الله" ثلاثَ مرَّاتٍ، وأنْ يقولَ سَبْعَ مرَّاتٍ: "أَعُوذُ باللهِ وقُدرَتِه"، أي: أَلْتَجِئُ وأَعتَصِم وأَتَحَصَّن باللهِ وقُدرتِه "مِن شرِّ ما أَجِدُ" وأشعُرُ به مِن الوَجَعِ في الوقتِ الحاضرِ مِن الألَمِ "وأُحاذِرُ" أي: وممَّا يُتوقَّعُ حُصولُه في المستقبَلِ مِن الحُزنِ والخوفِ، أو مِن أنْ يَستمِرَّ هذا المرضُ ويَنتشِرَ ألَمُه بالجسَدِ، وظاهرُ هذا الدُّعاءِ أنَّه لكلِّ ألمٍ مِن الآلامِ الَّتي بالأعضاءِ.

4. عن ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، أنه قال: قالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النبيُّ والنَّبيَّانِ يَمُرُّونَ معهُمُ الرَّهْطُ، والنَّبيُّ ليسَ معهُ أحَدٌ، حتَّى رُفِعَ لي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلتُ: ما هذا؟ أُمَّتي هذِه؟ قيلَ: بَلْ هذا مُوسَى وقَوْمُهُ، قيلَ: انْظُرْ إلى الأُفُقِ، فَإذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قيلَ لِي: انْظُرْ هَاهُنَا وهَاهُنَا في آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإذَا سَوَادٌ قدْ مَلَأَ الأُفُقَ، قيلَ: هذِه أُمَّتُكَ، ويَدْخُلُ الجَنَّةَ مِن هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ ألْفًا بغَيرِ حِسَابٍ. ثُمَّ دَخَلَ ولَمْ يُبَيِّنْ لهمْ، فأفَاضَ القَوْمُ، وقالوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا باللَّهِ واتَّبَعْنَا رَسولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ، أوْ أوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا في الإسْلَامِ؛ فإنَّا وُلِدْنَا في الجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَخَرَجَ، فَقالَ: هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، ولَا يَتَطَيَّرُونَ، ولَا يَكْتَوُونَ، وعلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقالَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ: أمِنْهُمْ أنَا يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: نَعَمْ، فَقَامَ آخَرُ فَقالَ: أمِنْهُمْ أنَا؟ قالَ: سَبَقَكَ بهَا عُكَّاشَةُ"[470].

في هذا الحديثِ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (عُرِضَتْ عليَّ الأمُمُ»، أي: يومَ القيامةِ، ومَاذا يكونُ حالُهُم، وذلكَ مِن إعلامِ اللهِ له، وممَّا عُرِضَ عليه أنَّ النَّبيَّ والنَّبيِّينِ يَمُرُّون مَعَهُم الرَّهْطُ، والرَّهْطُ: هُم الجماعةُ مِنَ الثَّلاثةِ إلى العَشرةِ، ويمُرُّ النَّبيُّ ليسَ معَه أحدٌ آمَنَ بهِ في الدُّنيا، حتَّى رُفِعَ له سَوادٌ عَظيمٌ، أي: جُموعٌ كَثيفةٌ مَلأَتِ المكانَ والجِهةَ التي أَتتْ منها، فسأل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنهم وظَنَّهم أمَّتَه، فقيلَ له: هذا موسى عليه السَّلامُ، ومن أسلم وآمَنَ باللهِ معه، ثم قيل للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: انظُرْ إلى الأُفُقِ الظَّاهِرِ من بعيدٍ، فإذا سَوادٌ يَملأُ الأُفقَ، ثمَّ قيل له: انظرْ هاهنا وهاهنا في آفاقِ السماءِ ونواحيها، فإذا سَوادٌ قد ملأَ الأُفقَ، قيل له: هذهِ أُمَّتُكَ، والأفُق هو الجِهةُ، والمعنى: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رأى كَثرةَ أتْباعِهِ يومَ القيامةِ بِالمُقارنةِ إلى أَتباعِ الأنبياءِ الآخرينَ، فالمسلمونَ أَعدادُهُم مَلأَتِ الجِهاتِ مِن كَثرَتِها، وهذا مِن فضْلِ اللهِ على نَبيِّه وعلى أُمَّةِ الإسلامِ، ثمَّ أخبرَ أنَّه (يَدْخُلُ الجنَّةَ مِنْ هَؤُلاءِ سَبْعونَ أَلْفًا بِغَيرِ حِسابٍ)، ثُمَّ دخَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حُجْرتَه بعد أن حَدَّثَهم بهذا القَدْرِ مِن الحديثِ، ولم يُبيِّنْ لهم صِفاتِ هؤلاءِ الذينَ لا يُحاسَبونَ، فأَفاضَ القَوْمُ، أي: جَعَلوا يُكثِرون الكلامَ في تَعْيينِ السَّبعينَ ألفًا ومَن هم؟ بعْدَ حَديثِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لهم، وَقالُوا: نَحنُ الذينَ آمنَّا بِاللهِ واتَّبَعْنَا رَسولَهُ، فنحن أَوْلى بأنْ نكونَ مِن السَّبعينَ ألْفًا لهذا السبَبِ، وقالوا أيضًا: أَوْ أولادُنا الذينَ وُلِدوا في

---

[468] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث

[469] أخرجه مسلم (2202)

[470] صحيح البخاري (5705)، صحيح مسلم (220) باختلاف يسير.

الإسلامِ؛ فإنَّا وُلِدْنا في الجاهِلِيَّةِ، فَبلَغَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يقوله القوم وما يَتحدَّثون به، فَخَرَجَ فقالَ لهم مُوَضِّحًا صفاتِهم: "هُمُ الَّذينَ لا يَسْتَرْقونَ"، أي: لا يَطْلُبونَ الرُّقْيَةَ مِن أَحدٍ مُطلقًا؛ وذَلِكَ لِشِدَّةِ تَوَكُّلِهِمْ على اللهِ وإيمانِهِم بأنَّه المَلْجأُ، "وَلا يَتَطَيَّرونَ"، أي: لا يَتشاءَمونَ بالطُّيورِ ونحوِها، كما كانت عادةُ النَّاسِ قبل الإسلامِ، "ولا يَكْتَوُونَ" بالنَّارِ طَلَبًا للشِّفاءِ، ولا يَعتَقِدون أنَّ الشِّفاءَ يكونُ بالكَيِّ كما كان يعتَقِدُ أهلُ الجاهليَّةِ، وقد ورَدَ النَّهيُ عن الاكْتِواءِ. وهُمْ في كلِّ أحوالِهِمْ -ومِنها ما سبَقَ ذِكْرُهُ- يَتوكَّلونَ على اللهِ حَقَّ تَوكُّلِهِ، فيُفَوِّضون أمورَهم إليه تعالى في ترتيبِ المُسَبَّباتِ على الأسبابِ مع تهيئَتِها؛ فاستَحَقُّوا بذلك أن يَدْخلوا الجنَّةَ بغيرِ حِسابٍ، "فقالَ عُكَاشةُ بنُ مِحْصَن: أمِنْهُم أنا يا رَسولَ اللهِ؟" أي: مِن الذين يَدخُلون الجَنَّةَ بغَير حِسابٍ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: نعمْ. وفي روايةٍ أُخرى في الصَّحيحَينِ أنَّه قال للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ادْعُ اللهَ لي يا رسولَ اللهِ أن يجعَلَني منهم. فقال: "اللهُمَّ اجعَلْه منهم"، فطَمِع رجلٌ آخرُ في أنْ يكونَ منهم، فقام فقال: "أمِنْهُم أَنا ؟ قالَ: سَبَقَكَ بِها عُكَّاشَةُ" وفاز بها لاستِباقِه إليها.

5. وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: يا رسولَ اللهِ، علِّمْني وأوجِزْ، قال: "إذا قُمْتَ في صلاتِكَ، فصَلِّ صلاةَ مُودِّعٍ، ولا تَكَلَّمْ بكلامٍ تعتذِرُ منه، وأجمِعِ اليَأْسَ عمَّا في أيدي النَّاسِ"[471].

في هذا الحديثِ يَقولُ أبو أيُّوبَ الأنصاريُّ رَضِيَ اللهُ عَنه: " جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، فقال: يا رسولَ اللهِ، علِّمْني وأوجِزْ"، أي: اختَصِرْ واقتَصِرْ على خُلاصةِ الأمرِ؛ لِيَكونَ أسهَلَ للضَّبطِ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: "إذا قُمتَ في صَلاتِك"، أي: شَرَعتَ وبدَأْتَ، "فصَلِّ صلاةَ مُودِّعٍ"، أي: مُودِّعٍ وتاركٍ لِمَا سِوى اللهِ، بالاستِغْراقِ في مُناجاةِ مَوْلاك، أو المعنى: صَلِّ صلاةَ مَن يُودِّعُ الدُّنْيا وكأنَّها آخِرُ صَلاةٍ لك؛ فَحَسِّنْ خاتِمةَ عَمَلِك، وأقصِرْ طولَ أمَلِك؛ لاحتِمالِ قُربِ أجَلِك، "ولا تَكلَّمْ بكلامٍ يُعتذَرُ مِنه"، أي: لا تتَحدَّثْ بكلامٍ تَحتاجُ للاعتذارِ عَنه لِقُبحِه، أو لِما فيه مِن الإثمِ والعقابِ، فالاعتذارُ إمَّا إلى اللهِ بالتَّوبةِ؛ لأنَّ ترْكَ الذَّنْبِ خيرٌ مِن طلَبِ المغفرةِ أو مِن النَّاسِ، فالمرادُ لا يَأْتي بما يُعتذَرُ مِنه، "وأجْمِعِ اليأسَ"، أي: اعقِدِ العَزْمَ وأحكِمْه في قلبِك على قَطْعِ الأمَلِ "عمَّا في أيدي النَّاسِ"، أي: مِن مَتاعِ الدُّنيا؛ فإنَّك إنْ فعَلتَ ذلك استَراحَ قلبُك، ولا يَتِمُّ ذلك إلَّا بتقصيرِ الأَمَلِ، وتقديرِ أنَّه لا زَمانَ تعيشُ فيه وتُؤمِّلُه من الأوقاتِ المُستقبَلةِ.

قال السعدي رحمه الله: "هذه الوصية توطين للنفس على التعلق بالله وحده في أمور معاشه ومعاده، فلا يسأل إلا الله، ولا يطمع إلا في فضله. ويوطن نفسه على اليأس مما في أيدي الناس؛ فإن اليأس عصمة. ومن أَيِس من شيء استغنى عنه، فكما أنه لا يسأل بلسانه إلا الله، فلا يعلق قلبه إلا بالله، فيبقى عبداً لله حقيقة، سالماً من عبودية الخلق، قد تحرر من رقِّهم، واكتسب بذلك العز والشرف؛ فإن المتعلق بالخلق يكتسب الذل والسقوط بحسب تعلقه بهم"[472].

6. وعن عبد الله بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اسْتَغْنُوا عن الناسِ ولو بشَوْصِ السِّوَاكِ"[473].

في هذا الحديثِ يقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "استَغْنوا عن النَّاسِ"، أي: تعَفَّفوا عن مَسألَتِهم، "ولو بشَوْصِ السِّواكِ"، وأصلُ الشَّوْصِ: الغَسلُ، وشَوْصُ السِّواكِ: ما يَنفتَّتُ منه عندَ التَّسوُّكِ، والمُرادُ: التَّقنُّعُ بالقَليلِ، والاكتِفاءُ

---

[471] صحيح ابن ماجه (3381)

[472] بهجة قلوب الأبرار (ص 169)

[473] أخرجه البزار (4824)، والطبري في ((مسند عمر)) (27)، والطبراني (444/11) (12257)

بالكَفافِ، حتى لو اكتَفى المَرءُ بأَكلِ فُتاتِ السِّواكِ! لو فُرِضَ أنَّه يسُدُّ رَمَقَه، وهذا مُبالغةٌ في الاستِغناءِ عن النَّاسِ، وعَدمِ طَلبِ شيءٍ منهم، وهذا مِن تَربيَةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأُمَّتِه على التَّعفُّفِ والتَّرفُّعِ عن سؤالِ النَّاسِ. وفي الحديثِ: الأمْرُ بالاستِغناءِ عن النَّاسِ ولو بأحْقرِ حَقيرٍ وأقلِّ قَليلٍ.

7. عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ، حتَّى يَأْتِيَ يومَ القِيَامَةِ ليسَ في وجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ ..."[474].

في الحديثُ بَيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الإنسانَ الذي يَسأَلُ الناسَ عن غَيرِ فَقْرٍ وَفاقةٍ، وإنَّما يَسأَلُ تَكثُّرًا، ويُذِلُّ نفْسَه، ويَمتهِنُ كَرامتَه الَّتي أوجَبَ اللهُ عليه صِيانتَها -يَغضَبُ اللهُ عليه، فيُذِلُّه ويُهِينُه يومَ القيامةِ كما أذَلَّ نفْسَه في الدُّنيا، ويَفضَحُه على رُؤوسِ الأشهادِ، فيَسلَخُ له وَجْهَه كلَّه، حتَّى يَأتيَ أمامَ النَّاسِ وليس في وَجْهِه قِطعةُ لحمٍ؛ جَزاءً وِفاقًا لِما فَعَله في الدُّنيا مِن إراقةِ ماءِ وَجْهِه.

ج. من أقوال السلف:

- **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:** "وَكُلُّ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمَخْلُوقَاتِ أَنْ يَنْصُرُوهُ أَوْ يَرْزُقُوهُ أَوْ أَنْ يَهْدُوهُ خَضَعَ قَلْبُهُ لَهُمْ ; وَصَارَ فِيهِ مِنْ الْعُبُودِيَّةِ لَهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ أَمِيرًا لَهُمْ مُدَبِّرًا لَهُمْ مُتَصَرِّفًا بِهِمْ، فَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ إلَى الْحَقَائِقِ لَا إلَى الظَّوَاهِرِ، فَالرَّجُلُ إذَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِامْرَأَةٍ وَلَوْ كَانَتْ مُبَاحَةً لَهُ يَبْقَى قَلْبُهُ أَسِيرًا لَهَا تَحْكُمُ فِيهِ وَتَتَصَرَّفُ بِمَا تُرِيدُ، وَهُوَ فِي الظَّاهِرِ سَيِّدُهَا لِأَنَّهُ زَوْجُهَا. وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ أَسِيرُهَا وَمَمْلُوكُهَا لَا سِيَّمَا إذَا دَرَتْ بِفَقْرِهِ إلَيْهَا ; وَعِشْقِهِ لَهَا، وَأَنَّهُ لَا يَعْتَاضُ عَنْهَا بِغَيْرِهَا، فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تَحْكُمُ فِيهِ بِحُكْمِ السَّيِّدِ الْقَاهِرِ الظَّالِمِ فِي عَبْدِهِ الْمَقْهُورِ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْخَلَاصَ مِنْهُ بَلْ أَعْظَمُ فَإِنَّ أَسْرَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ أَسْرِ الْبَدَنِ وَاسْتِعْبَادَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ اسْتِعْبَادِ الْبَدَنِ فَإِنَّ مَنْ اُسْتُعْبِدَ بَدَنُهُ وَاسْتُرِقَّ لَا يُبَالِي إذَا كَانَ قَلْبُهُ مُسْتَرِيحًا مِنْ ذَلِكَ مُطْمَئِنًّا بَلْ يُمْكِنُهُ الِاحْتِيَالُ فِي الْخَلَاصِ. وَأَمَّا إذَا كَانَ الْقَلْبُ الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ رَقِيقًا مُسْتَعْبَدًا مُتَيَّمًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَهَذَا هُوَ الذُّلُّ وَالْأَسْرُ الْمَحْضُ وَالْعُبُودِيَّةُ لِمَا اسْتَعْبَدَ الْقَلْبَ. وَعُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَأَسْرُهُ هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَوْ أَسَرَهُ كَافِرٌ، أَوْ اسْتَرَقَّهُ فَاجِرٌ بِغَيْرِ حَقٍّ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ إذَا كَانَ قَائِمًا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْوَاجِبَاتِ وَمَنْ اُسْتُعْبِدَ بِحَقِّ إذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ لَهُ أَجْرَانِ وَلَوْ أُكْرِهَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكُفْرِ فَتَكَلَّمَ بِهِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ وَأَمَّا مَنْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ فَصَارَ عَبْدًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَهَذَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَلِكَ النَّاسِ . فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ كَمَا أَنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ"[475].

- **وقال ابن القيم رحمه الله:** "أعظم الناس خذلانا من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت"[476].

---

[474] صحيح البخاري (1474) صحيح مسلم (1040)

[475] مجموع الفتاوى (186-10/185)

[476] مدارج السالكين (1/458)

وقال أيضا: "الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم. ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته، فقال: يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك، وفي ذلك قيل: وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم[477]".

- **وقال الفضيل بن عياض رحمه الله:** "وَاَللَّهِ مَا صَدَقَ اللَّهَ فِي عُبُودِيَّتِهِ مَنْ لِأَحَدٍ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ عَلَيْهِ رَبَّانِيَّةٌ"[478].

- **وقال الحسنُ البَصريُّ رحمه الله:** "لا يزالُ الرَّجُلُ كريمًا على النَّاسِ حتَّى يطمَعَ في دينارِهم، فإذا فعَلَ ذلك استخفُّوا به، وكَرِهوا حديثَه وأبغضوه"[479].

- **وقال أيوب السَّختياني رحمه الله:** "لا يَنْبُلُ الرجلُ حتى تكونَ فيه خصلتان: العفَّةُ عمَّا في أيدي الناس، والتجاوزُ عمّا يكون منهم[480]".

المطلب الثالث: عَلَامَاتُ التَّعَلُّقِ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ

التعلق بالله تعالى وحده له علامات ومنارات، منها:

1. الخضوع والخشوع لربه: فإذا تعلّق المؤمن بربّه فإنه يذل لأمره ويخضع ويخشع، ويعلم أن الأمر كله لله، وأن الدين دينه، فمهما جرت به رياح الأحكام فهو جارٍ معها رخيّةً كانت عليه أو شديدة، فالله خلقه ليبتليه وليظهر رسوخ قدمه في التسليم لأمره وشرعه.

2. الاستعداد للرحيل: ذلك أن المتعلق بالله مستعدٌّ للرحيل على الدوام، حازمٌ أمره قبل الموت، حاملٌ زاده قبل الفوت، حبلُ أمله في الدنيا أقصر من كراع نملة، وفي الآخرة أوسع من شعاع الشمس.

"ويجب على من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعدا، ولا يغتر بالشباب والصحة، فإن أقل من يموت الأشياخ، وأكثر من يموت الشبان. ولهذا يندر من يكبر، وقد أنشدوا:

يعمّر واحدٌ فيغرّ قوما.. ويُنسى من يموت من الشبابِ

ومن الاغترار طول الأمل، وما من آفة أعظم منه، فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلا، وإنما يقدم المعاصي ويؤخر التوبة لطول الأمل وتبادر الشهوات، وتنسى الإنابة لطول الأمل.

وإن لم تستطع قصر الأمل فاعمل عمل قصير الأمل، ولا تُمسِ حتى تنظر فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلة فامحها بتوبة، أو خرقا فارقعه باستغفار، وإذا أصبحت فتأمل ما مضى في ليلك، وإياك والتسويف فإنه أكبر جنود إبليس"[481].

---

[477] الفوائد (1/45)

[478] مجموع الفتاوي لابن تيمية (593/10)

[479] (منتهى السؤل) لعبد الله عبادي اللحجي (3/293)

[480] يُنظَر: (مكارم الأخلاق) لابن أبي الدنيا (ص: 28)، (الترغيب والترهيب) لقوام السنة (3/ 228) (2410)

[481] صيد الخاطر (1 / 65)

3. تجديد التوبة النصوح: فالمتعلق بالله محسن لمتابه، فهو يعلم أن قلبَه محلٌّ نظر ربه تعالى الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يخرج شيء عن حكمه وتدبيره، والحذرَ الحذر من المعاصي، فإن عواقبَها سيئة. فوا أسفًا لمعاقب لا يحس بعقوبته، قال ابن سيرين: "عيّرت رجلا بالفقر فافتقرت بعد أربعين سنة". فالله الله في تجويد التوبة عساها تكف كف الجزاء، والحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه، وأصلح ما بينك وبينه في السر يصلح لك أحوال العلانية[482].

4. إحسان الظن بالمولى الكريم: فالمتعلق بربه كله أمل في فضله وكرمه وسعة رحمته، وتهش نفسه وتطرب لسماع البشارات للمؤمنين سائلًا ربه أن يسلكه سبيلهم، فهو منتظر لرحمة ربه في الآخرة، راغبا راهبا محبا، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.

5. الفرح بالله وبشاراته: فالمتعلق بالله فرح مسرور بربه تعالى، مستبشرٌ حُسنَ العاقبة لديه، فرحٌ بالزلفى بين يديه، محتفٍ بالخير الهائل من يديه، جَذِلٌ مسرورٌ ببشارات رسوله وحبيبه صلى الله عليه وسلم متمثلًا تلك الأوصاف الحميدة والأخلاق الجميلة، ممتلأً قلبه بمحبته والتمسك بسنته والمسارعة لاتّباعه، وقد قال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا} [الأحزاب: 45 - 47].

6. حراسة الوقت من الضياع: فالمتعلق بالله يعلم أن عمره قصير، وأن سنينه مهما امتدت وبسطت فمناه وآماله أكبر وأبعد من أن تحتويها، لذلك فهو يعمر الباقية ولو بخراب الفانية، فيجعل الدنيا معينة على تحصيل فوز الآخرة وفلاح الباقية، مجتهد في عمارة وقته بذكر الله وما والاه، مقدمٌ الأهم على المهم، متكامل في توزيع جهده، منظمٌ في ترتيب وقته، يقطع بحسن نيته وقوة عزيمته ما لا يقطعه الأفذاذ من أقرانه، متعلق بكليته بالله واثقٌ به متوكلٌ عليه مفوض أموره إليه. يحزن للساعة التي يغفل فيها عن ربه، فإن اختلستها نفسه الأمارة، واستلبها القرين الرجيم حمل عليهما بنفس لوّامة لهما، فاستعاض عما سلف من غفلته بتدارك ما استقبله والاجتهاد في تعويض ما فاته، فاطمأنت نفسه للخير الذي ترجوه، والأمل الذي ترقبه، فهو بين ادّكار واعتبار وفرح واستبشار، متقلب على مراضي ربه، مراوح بين الفرض والنفل، قد جهز راحلتي صبره وشكره، وأعدّ زاملته بزاد التقوى.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم منهجاً لمن خشي أن يُفتن في دينه بمخالطة الناس أن عليه أن يعتزل أسباب الفتنة، ولو أن يتخذ البادية بدل المدينة مسكنا وموطنا - وهذا حالٌ يحتاج إلى فقه حتى لا تزل به القدم - فقال صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شَعَفَ الجبال ومواطن القطر، يفر بدينه من الفتن"[483].

7. توحيد التعلق بالله دون من سواه: وهذه أخص سمات المتعلق الحقيقي، ومن مقتضيات تحقيق العبودية لله تعالى إفراده سبحانه بالتعلق، فمع بذل الأسباب الظاهرة لا بد أن يكون القلب متعلقاً بمسببها سبحانه، فالخير كله بيديه وهو على كل شيء قدير.

---

[482] المصدر السابق (1/ 66)

[483] صحيح البخاري (19)

وتفكر في قصة خطبة الصديق عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف علّق الناس برب الناس لا بغيره من مخلوقاته، فخطب الناس قائلاً: "أما بعد، فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: 144]، قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلاها منه الناس كلهم؛ فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها"[484]، فأبو بكر رضي الله عنه قد احتمل هذا الخطب الجسيم؛ لأن قلبه كان شديد التعلق بالخالق، فوفّقه في ساعة الشدة، وتأمل فقهه بقوله: "فإن الله حي لا يموت" فيا لله! كم فيها للمؤمنين من ذخرٍ ورضا.

8. شدةُ الحرص على موارد حياة القلب ودفع أسباب ضعفه وموته، فلما كان القلب هو قطب رحى الإرادة، وصندوق ذخائر الإيمان، وبصلاحه صلاح النفس وفلاح المصير؛ كان له المحل الأرفع في استصلاحه وتنمية موارد الخير فيه والعمل على حراسته من غوائل الشيطان. ومن كان هذا حاله فهو البصير حقا والعاقل صدقا، وعلى قدر صلاح القلب تكون نسبة تحسسه من دغل الذنوب وتفرسه في مآلاتها في حاله ومآله.

والمتعلق بالله حريص للغاية على رعاية أحوال قلبه، فهو يخشى سقوطه من عين ربه لأدنى زلة، وخوفه من الله وخشيته وهيبته على قدر علمه به. كما أنه يوطّن نفسه دائما لأحسن الأحوال مع الله مع اختلاف الأحوال عليه، فهو قد وطّن نفسه على إحسان العبادة على كل حال قدر طاقته ووسعه.

9. تعلقُ القلب ببيوت الله، فلما تعلق قلبه بربه هفت نفسه لبيوت الله التي رُفعت لذكره: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ} [النور: 36، 37]، فالمسجد هو قطب رحى راحة المؤمن فإذا خرج منه أحس بِبَضعة منه بقيت خلفه فلا يطمئن حتى يعاودها، فهو ينتقل من صلاة لقراءة لذكر لتفكر لدعاء حتى اختلط حب المسجد بلحمه ودمه وعصبه، وكذلك المؤمنة في مصلاها في قعر بيتها، فسلوتها وراحتها في صلاتها وذكرها ودعائها. ويكفي المؤمن الذي أمسى بهذا الحنين لموطن السجود بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله "رجل قلبه معلق بالمساجد"[485].

المطلب الرابع: ثمرات التعلق بالله والاستغناء عن الناس

من ثمرات التعلق بالله عز وجل:

1. الكفاية والوقاية:

قال تعالى: {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: 3].

[484] صحيح البخاري (4452)

[485] البخاري (6114) ومسلم (1031)

والمعنى أن الله كافيه؛ فإنه سبحانه بالغ ما يريده من الأمر لا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب[486].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: "{وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} أي: يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به. {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} أي: في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك {فَهُوَ حَسْبُهُ} أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي [العزيز] الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له؛ فلهذا قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} أي: وقتًا ومقدارًا، لا يتعداه ولا يقصر عنه[487].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن نَزَلتْ به فَاقةٌ، فأَنزَلَها بالنَّاسِ، لَم تُسدَّ فاقتُه، ومَن نَزلَتْ به فاقةٌ، فأنزلَها باللهِ، فيُوشِكُ اللهُ له برزقٍ عاجلٍ، أو آجلٍ"[488].

في هذا الحديثِ يقولُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: "مَن نزَلتْ به فاقَةٌ"، أي: حاجَةٌ شديدَةٌ؛ مِن ضِيقٍ في العيْشِ أو غيرِه ، "فأنزَلَها بالنَّاسِ"، أي: طلَب مِن النَّاسِ ما يرفَعُ عنه حاجَتَه، واعتمَد عليهم في رفْعِ تلك الحاجَةِ الَّتي حدَثتْ له، كان عِقابُه "لَم تُسدَّ فاقَتُه"، أي: لَم تُرفَعْ عنه تلك الحاجَةُ؛ فقد سأَل واعتمَد على مَن لا يملِكُ له نفْعًا ولا ضَرًّا، "ومَن نزَلتْ به فاقَةٌ"، أي: حاجَةٌ شدِيدةٌ؛ مِن ضِيقٍ في العيْشِ أو غيرِه، "فأنزَلَها باللهِ"، أي: سأَل اللهَ أنْ يرفَعَها، واعتمَد عليه، وظنَّ ألَّا يفعَلَ ذلك إلَّا اللهُ، "فيوشِكُ اللهُ له برزْقٍ عاجِلٍ أو آجِلٍ"، أي: يَقترِبُ له الفرَجُ مِن اللهِ بأنْ يَرزُقَه ما يسُدُّ به حاجَتَه. وهذا كلُّه مِن التَّربيةِ النَّبويَّةِ للمُسلِمينَ على حُسْنِ التَّوكُّلِ على اللهِ وسُؤالِه والطَّلبِ منه، وعدَمِ الرُّكونِ إلى النَّاسِ[489].

2. العِزَّة:

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أتاني جبريلُ عليه السَّلامُ فقال: يا محمَّدُ! عِشْ ما شئتَ فإنَّك ميِّتٌ، وأحبِبْ من شئتَ فإنَّك مفارقُه، واعمَلْ ما شئتَ فإنَّك مجزِيٌّ به، ثمَّ قال: يا محمَّدُ! شرفُ المؤمنِ قيامُه باللَّيلِ، وعِزُّه استغناؤُه عن النَّاسِ"[490].

3. نيل محبة الله:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللهَ يحبُّ الغَنيَّ الحليمَ المُتعفف، ويبغضُ البذيءَ الفاجرَ السَّائلَ الملحَ"[491].

في هذا الحديث يقول النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ اللهَ يُحِبُّ الغَنِيَّ"، والمُرادُ به غَنِيُّ النَّفْسِ، "الحَليمَ"، أي: العاقِلَ، "المُتعفِّفَ"، أي: الَّذي لا يَطلُبُ حَرامًا، ولا يَسأَلُ النَّاسَ حاجتَهُ، "ويُبغِضُ البذيءَ الفاجرَ"، أي: الَّذي لا حَياءَ له، أو فاحِشَ القَولِ وبَذيءَ اللِّسانِ، "السَّائلَ المُلِحَّ"، أي: الَّذي يُلِحُّ في سُؤالِه النَّاسَ، سواءٌ أُعطِيَ أو لم يُعْطَ[492].

---

[486] التفسير الميسر.

[487] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

[488] أخرجه أبو داود (1645)، والترمذي (2326) واللفظ له، وأحمد (3696)

[489] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

[490] أخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (4278)، والحاكم (7921) باختلاف يسير.

[491] أخرجه البزار (9362) باختلاف يسير، وأخرجه البخاري (6018)، ومسلم (47) بلفظ مقارب دون قوله: "إن الله يحب الغني ..."

4. الجنة:

عن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من يتكفلُ لي أنْ لا يسأل الناسَ شيئًا وأتكفَّلُ لهُ الجنةَ؟ قال ثوبانُ: أنا. قال: فكان ثوبانُ لا يسألُ أحدًا شيئًا"[493].

والحديث بلفظ آخر: **"من يتقبَّلُ لي بواحدةٍ وأتقبَّلُ لَهُ بالجَنَّةِ قلتُ أنا قالَ لا تسألِ النَّاسَ شيئًا قالَ فكانَ ثَوبانُ يقعُ سوطُهُ وَهوَ راكبٌ فلا يقولُ لأحدٍ ناولنيهِ حتَّى ينزلَ فيأخذَهُ"[494].**

في هذا الحديثِ عن ثَوبانَ مَولى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "مَن يتقبَّلْ لي بواحدةٍ وأتقبَّلْ له بالجَنَّةِ"؟ أي: مَن يَلتزِمْ بخَصلةٍ واحدةٍ ويُداوِمُ على هذه الخَصلةِ، وأضمَنْ له الجَنَّةَ جزاءَ المُداومةِ والمُحافظةِ على تلك الخَصلةِ؟ قال ثَوبانُ رضِيَ اللهُ عنه: "قلْتُ: أنا"، فقال له النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "لا تسأَلِ النَّاسَ شيئًا"، أي: لا تلتمِسْ منهم حاجتَك وَعَفِّفْ نفْسَك عن سُؤالِهم.
قال عبدُ الرَّحمنِ بنُ يَزيدَ الرَّاوي عن ثَوبانَ: "فكان ثوبانُ يقَعُ سوطُه"، أي: آلةُ الضَّربِ أو العصا "وهو راكبٌ، فلا يقولُ لأحدٍ: ناولْنيه، حتَّى ينزِلَ فيَتناولَه" أي: كان ثوبانُ ينزِلُ مِن على دابَّتِه ليأخُذَ ما أوقَعَه هو دونَ طلَبِ المُساعدةِ من أحدٍ، وهذا مِن المُبالغةِ في شِدَّةِ الامتِثالِ لأمْرِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والحِرصِ على العَملِ بالخَصلةِ التي وجَّهَه إليها[495].

المطلب الخامس: صُوَرٌ مِنَ التَّعلُّقِ بِاللهِ وَالاسْتِغْنَاءِ عَنْ الخَلْقِ

1. عن جابر بن عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ –شجر شوك- فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاهِ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ سَمُرَةٍ –شجر الطلح- فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، فَنِمْنَا نَوْمَةً ثُمَّ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُونَا، فَجِئْنَاهُ، فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ» ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

2. وقال تعالى عن هود عليه السلام: {قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِي ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: 53-56].
فكيدوني جميعا لا يتخلف منكم أحد.

3. وقال تعالى عن نوح عليه السلام: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ} [يونس: 71].

---

[492] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.
[493] مسند عمر 30/1، خلاصة حكم الحديث: صحيح.
[494] صحيح ابن ماجه 1499
[495] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث

4. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عليه السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ منهنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ؛ قَوْلُهُ {إِنِّي سَقِيمٌ} [الصافات: 89]، وقَوْلُهُ: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} [الأنبياء: 63]. وقالَ: بيْنَا هو ذَاتَ يَومٍ وسَارَةُ، إِذْ أَتَى علَى جَبَّارٍ مِنَ الجَبَابِرَةِ، فقِيلَ له: إنَّ هَاهُنَا رَجُلًا معهُ امْرَأَةٌ مِن أَحْسَنِ النَّاسِ، فأرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقالَ: مَن هذِه؟ قالَ: أُخْتِي، فأتَى سَارَةَ قالَ: يا سَارَةُ، ليسَ علَى وجْهِ الأرْضِ مُؤْمِنٌ غيرِي وغَيْرَكِ، وإنَّ هذا سَأَلَنِي فأخْبَرْتُهُ أنَّكِ أُخْتِي، فلا تُكَذِّبِينِي، فأرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عليه ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بيَدِهِ فَأُخِذَ، فَقالَ: ادْعِي اللَّهَ لي ولَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللَّهَ فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ، فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقالَ: ادْعِي اللَّهَ لي ولَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ، فَقالَ: إنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بإِنْسَانٍ، إنَّما أَتَيْتُمُونِي بشيطَانٍ! فأخْدَمَهَا هَاجَرَ، فأتَتْهُ وهو قَائِمٌ يُصَلِّي، فأوْمَأَ بيَدِهِ: مَهْيَا، قالَتْ: رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الكَافِرِ -أَوِ الفَاجِرِ- في نَحْرِهِ، وأَخْدَمَ هَاجَرَ. قالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تِلكَ أُمُّكُمْ يا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ"[496].

وفي الحديثِ: إجابةُ الدُّعاءِ بإخلاصِ النيَّةِ، وبَيانُ حِفظِ اللهِ لِعبادِهِ الصَّالحينَ. وفيه: حِفظُ اللهِ لأنبيائِه وأوليائِه.

5. ومدح الله في كتابه سادات الأولياء بكونهم أهل عفة، قال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (272) لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [البقرة: 272- 273].

6. وعن أصبغ بن زيد قال: مكثت أنا ومن عندي ثلاثاً لم نطعم شيئا -أي: من الجوع- فخرجت إليّ ابنتي الصغيرة وقالت: يا أبتِ الجوع! -تشكو الجوع- قال: فأتيت الميضأة، فتوضأت وصليت ركعتين، وأُلهمت دعاء دعوت به، في آخره: اللهم افتح عليّ منك رزقًا لا تجعل لأحد عليّ فيه منة، ولا لك عليّ في الآخرة فيه تبعة، برحمتك يا أرحم الراحمين! ثم انصرفت إلى البيت، فإذا بابنتي الكبيرة وقد قامت إليّ وقالت: يا أبه! جاء رجل يقول: إنه عمي بهذه الصرة من الدراهم وبحمال عليه دقيق، وحمال عليه من كل شيء في السوق، وقال: أقرئوا أخي السلام وقولوا له: إذا احتجت إلى شيء فادع بهذا الدعاء، تأتك حاجتك، قال أصبغ بن زيد: والله ما كان لي أخ قط، ولا أعرف من كان هذا القائل، ولكن الله على كل شيء قدير[497].

وعن شقيق البلخي قال: "كنت في بيتي قاعدا فقال لي أهلي: قد ترى ما بهؤلاء الأطفال من الجوع، ولا يحل لك أن تحمل عليهم ما لا طاقة لهم به، قال: فتوضأت وكان لي صديقٌ لا يزال يقسم عليَّ بالله إن يكن بي حاجة أعلمه بها ولا أكتمها عنه، فخطر ذكره ببالي، فلما خرجت من المنزل مررت بالمسجد، فذكرت ما روي عن أبي جعفر قال: من عرضتْ له حاجة إلى مخلوق فليبدأ فيها بالله عز وجل، قال: فدخلت المسجد فصليت ركعتين، فلما كنت في التشهد، أفرغ عليَّ النوم، فرأيت في منامي أنه قيل: يا شقيق! أتدل العباد على الله ثم تنساه؟! قال: فاستيقظت وعلمت أن ذلك تنبيه نبهني به ربي، فلم

---

[496] أخرجه البخاري (3358)، ومسلم (2371)

[497] المصدر الأول: أرشيف ملتقى أهل الحديث ،3، المجلد 55، ص: 468، جامع الكتب الإسلامية، المصدر الثاني: من عجائب الدعاء، الجزء الثاني، المجلد 1، ص: 104 - جامع الكتب الإسلامية.

أخرج من المسجد حتى صليت العشاء الآخرة، ثم تركت الذهاب لصاحبي وتوكلت على الله، وانصرفت إلى المنزل فوجدت الذي أردت أن أقصد قد حركه الله وأجرى لأهلي على يديه ما أغناهم"[498].

المطلب السادس: مَنْ تعلق بغير الله، عُذِّبَ به

قال تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} [الأنبياء: 98-100].

وانظر بأي شيء تعلق ابن نوحٍ عليه السلام وماذا كان عاقبة أمره، قال تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} [هود/42، 43]

وقال: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا *كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [مريم:81، 82].

والمعنى: واتخذ المشركون آلهة يعبدونها من دون الله; لتنصرهم، ويعتزوا بها، فبين الله أن الأمر لن يكون كذلك، بل ستكفر هذه الآلهة في الآخرة بعبادتهم لها، وتكون عليهم أعوانًا في خصومتهم وتكذيبهم بخلاف ما ظنوه فيها.

وفي صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: (هل تُضارُون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوا»؟ قلنا: لا. قال: "فإنكم لا تضارُون في رؤية ربّكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما". ثم قال: "ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم".

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} [هود: 101].

- عن عبد الله بن عكيم الجهني، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من تعلَّق شيئًا وُكِلَ إليه"[499].

في هذا الحديثِ يَقولُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَنْ "تَعلَّقَ شيئًا"، أي: علَّق على نَفْسِهِ شيئًا مِنَ التَّمائمِ ونحوِها لجَلْبِ نَفْعٍ له أو دَفْعِ ضُرٍّ عنهُ، "وُكِلَ إليه"، أي: تُرِكَ أَمْرُهُ إلى ذلك الشَّيءِ، وهو لا يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ، والمعنى: أنَّ مَنْ تَمسَّكَ بشيءٍ مِنَ المُداواةِ، واعْتَقَدَ أنَّ الشِّفاءَ منه لا مِنَ اللهِ تعالى لم يَشْفِهِ اللهُ، بلْ وَكَلَ شفاءَه إلى ذلك الشَّيءِ، وحينئذٍ لا يَحْصُلُ شِفاؤُه؛ لأنَّ الأشياءَ لا تَنْفَعُ ولا تَضُرُّ إلا بإذنِ اللهِ تَعالى. وفي الحديثِ: التَّحذيرُ مِنَ التَّعلُّقِ بغيرِ اللهِ[500].

---

[498] من عجائب الدعاء - الجزء الثاني - مجلد 1، ص: 94 - جامع الكتب الإسلامية.

[499] صحيح الترمذي 2072

[500] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

المطلب السابع: كيف السبيل إلى التعلق بالله والزهد في غيره؟

1. بالصبر ومجاهدة النفس: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "إِنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فأعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فأعْطَاهُمْ، حتَّى نَفِدَ ما عِنْدَهُ، فَقَالَ: ما يَكونُ عِندِي مِن خَيْرٍ فَلَنْ أدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، ومَن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، ومَن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، ومَن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وما أُعْطِيَ أحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ."[501].

كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أجوَدَ بالخَيرِ مِن الرِّيحِ المُرسَلةِ، وكان يُعطِي عَطاءَ مَن لا يَخْشَى الفقْرَ، ومع سَعةِ إنفاقِه وُجودِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يُربِّي النُّفوسَ على العَفافِ والاستغناءِ، وأنَّ ما عندَ اللهِ خَيرٌ وأبْقى.

وفي هذا الحديثِ يَحكي أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ ناسًا مِن الأنصارِ لم يُسَمِّهم سَأَلوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شَيئًا مِن المالِ فأعْطاهم، ثمَّ سَأَلوه فأعْطاهم، ثمَّ سَأَلوه فأَعْطاهم حتَّى نَفِدَ وانتَهى ما عِندَه مِن المالِ، فبيَّنَ لهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لا يَمنَعُ عنهم شيئًا مِن المالِ يكونُ عندَه فيَحتفَظ به لغَيرِهم.

ثمَّ أرشَدَهُم صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ وحَثَّهم على الاستِعفافِ؛ فَمَن تَخلَّقَ بالعِفَّةِ عمَّا حَرَّمَ اللهُ عليْه -سَواءٌ في مَأكَلٍ، أو مَشرَبٍ، أو مَلبَسٍ، ونَحوِ ذلك- أعانَه اللهُ عليْها وحَصَلَتْ له، ثمَّ حثَّهم صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ على الاستِغناءِ، وهو أنْ يُستَغْنى الإنسانُ عمَّا في أيْدي النَّاسِ، ويَستَغنيَ بما عِندَه مِن اليَسيرِ عن المَسأَلةِ، فلا يَسألُ إلَّا إذا كان مُضطَرًّا، ومَن يَفعَلْ ذلك يَمُدَّه اللهُ عزَّ وجلَّ بالغِنى مِن عِندِه، ويَجعَلِ القَليلَ في عَينِه كَثيرًا، ثمَّ حثَّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ على الْتِزامِ الصَّبرِ وتَعويدِ النَّفسِ عليْه؛ لأنَّ الإنسانَ إذا صَبرَ استَعفَفَ واستَغْنى، ولم يَحصُلْ منه السُّؤالُ والإلْحافُ في المَسأَلةِ.

وقولُه: (ومَن يَتَصبَّرْ يُصَبِّرْه اللهُ)، أي: ومَن يُعالِجِ نفْسَه بالصَّبرِ ويَتَكلَّفْه على ضِيقِ العَيشِ وغَيرِه مِن مَكارِهِ الدُّنيا؛ يَملَأِ اللهُ قَلْبَه به، ومَن بَذَلَ الأسبابَ وحَرَصَ على الصَّبرِ؛ فإنَّ اللهَ تعالَى يُوفِّقُه لتَحصيلِه، ويَجعَلُه يَتَّصفُ به.

ثمَّ بيَّن أنَّه ما أعْطَى اللهُ أحدًا نِعمةً ولا خُلُقًا كَريمًا أفضَلَ ولا أوسَعَ مِن الصَّبرِ؛ لأنَّه يَتَّسِعُ لكُلِّ الفَضائلِ، فكُلُّها تَصدُرُ عنه، وتَعتَمِدُ عليْه؛ مِن عِفَّةٍ، وشَجاعةٍ، وعَزيمةٍ، وإرادةٍ، وإباءٍ، وغَيرِها، والإنسانُ إذا كان صَبورًا تَحمَّلَ كُلَّ مَكروهٍ بإذْنِ اللهِ تعالَى.

وفي الحَديثِ: أنَّ الأخلاقَ الكَريمةَ يُمكِنُ اكتِسابُها والوصولُ إليها عن طَريقِ التعوُّدِ عليها.

وفيه: ما كان عليه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الكَرَمِ والسَّخاءِ والإيثارِ على نفْسِه.

وفيه: الاعتِذارُ للسَّائلِ إذا لم يَجِدِ المسئول ما يُعطِيه.

وفيه: الحَضُّ على الاستِغناءِ عن النَّاسِ بالصَّبرِ، والتَّوكُّلِ على اللهِ، وانتظارِ رِزقِ اللهِ سُبحانَه، وأنَّ الصَّبرَ أفضلُ ما أُعطيَه المؤمنُ، وكذلك الجَزاءُ عليه غيرُ مُقدَّرٍ ولا مَحدودٍ.[502]

2. بالدعاء: عن عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى". وفي روايةٍ: وَالْعِفَّةَ.[503]

---

[501] صحيح البخاري 1469

[502] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

[503] صحيح مسلم 2721

في هذا حديثٌ يُخبِرُ عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه أنَّه كان مِن دُعاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (اللَّهُمَّ إنِّي أَسألُكَ الهُدَى) مِن الهدايةِ، وهو الطَّريقُ المُستقيمُ، (والتُّقى) وهو الخَوفُ منَ اللهِ، والحَذَرُ مِن مُخالَفَتِه، وأطلَقَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الهُدى والتُّقى مِن دونِ تَقْييدٍ لَهُما لِيَتناوَلَ كُلَّ ما يَنْبَغِي أنْ يَهتَدِيَ إليه مِن أمْرِ المعاشِ والمعادِ، ومَكارمِ الأَخْلاقِ، وكُلَّ ما يَجِبُ أن يَتَّقيَ مِنه مِن الشِّركِ والمعاصِي، ورَذائلِ الأَخْلاقِ، (والعَفافَ) مِن العِفَّةِ، وهي الابتعادُ عن كُلِّ ما حَرَّمَ اللهُ عليه، (والغِنى) والمُرادُ به: الغِنَى عَنِ الخَلْقِ، فَالإنسانُ إذا وَفَّقَه اللهُ ومَنَّ عليه بِالاستغْنَاءِ عنِ الخَلْقِ، صار عَزيزَ النَّفْسِ غَيرَ ذَليلٍ؛ لأنَّ الحاجَةَ إلى الخَلْقِ ذُلٌّ ومَهانَةٌ، والحاجَةُ إلى اللهِ تَعالَى عِزٌّ وعِبَادَةٌ. وفي الحديثِ: أنَّ الَّذي يَملِكُ النَّفعَ والضَّرَّ والهِدايةَ لِلخَلْقِ هو اللَّهُ وَحْدَه، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبيٌّ مُرْسَلٌ ولا غَيرُهُما. وفيه: شَرفُ هذه الخِصالِ -الهُدى والتُّقى والعفافُ والغِنى- والحثُّ على التَّخلُّقِ بها[504].

[504] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث

المبحث الخامس: الاستعانة

إنَّ الاستعانة بالله تعالى من أجلِّ العبادات التي يُؤجَر عليها المؤمن، فالله عز وجل يعرف المداخل والمفاتيح لقلب الإنسان وعقله، التي تكشف عن مشاعره وأحاسيسه، والتي تجعله مستعينًا حق الاستعانة بالله عز وجل في كل وقت.

المطلب الأول: مَعْنَى الاسْتِعَانَة

- **الاسْتِعَانَة لُغَةً:**

الاستعانة لغة: مصدر استعان وهو من العون بمعنى المعاونة والمظاهرة على الشّيء، يقال: فلان عوني أي: معيني وقد أعنته، والاستعانة طلب العون، كما قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة: ٤٥]، والعون الظّهير على الأمر، الواحد والاثنان والجمع والمؤنّث فيه سواء، وقد حكي في تكسيره أعوان، والعرب تقول: إذا جاءت السّنةُ جاء معها أعوانُها، يعنون بالسّنة: الجدب، وبالأعوان: الجراد والذّئاب والأمراض. وتقول: أعنته إعانة واستعنته واستعنت به فأعانني وتعاونوا عليّ واعتونوا: أعان بعضهم بعضًا، وتعاونًا: أعان بعضنا بعضًا، والمعونة: الإعانة، ورجل معوان حسن المعونة، وكثير المعونة للنّاس وكلّ شيء أعانك فهو عون لك كالصّوم عون على العبادة[505].

- **الاسْتِعَانَة بالله اصطلاحا:**

قال ابن تيمية: "والاستعانة طلب العون، والمخلوق يُطْلَبُ منه من هذه الأمور ما يقدر عليه"[506].

ويقول ابن سعدي: "والاستعانة هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك"[507].

وقال الألوسي: "الاستعانة: هي طلب ما يتمكن به العبد من الفعل، ويوجب السير عليه"[508].

المطلب الثاني: العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي

لما كانت الاستعانة في اللغة مأخوذة من العون، بمعنى المعاونة على الشيء، أطلق في الاصطلاح على ذلك المعنى، وحدّد في الاستعانة الشرعية بأن تكون بالله تعالى، وذلك بكمال الاعتماد عليه والثقة به.

المطلب الثالث: حقيقةُ الاستعانةِ بالله

إنَّ الاستعانة بالله تعالى تجتمع في أصلين عظيمين هما: الثقة بالله، والاعتماد عليه.

قال ابن القيم: "الاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه؛ فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به"[509].

---

[505] لسان العرب لابن منظور، وينظر: الصحاح للجوهري

[506] تفسير السعدي (39)

[507] مجموع الفتاوى (1/103)

[508] تفسير الألوسي (1/87)

المطلب الرابع: الأمورُ التي يُطلبُ فيها العَوْن

هناك نوعان من الأمور التي يُطلب فيها العون:

- **النوع الأول: ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل**؛ فهذا لا تجوز الاستعانة فيه إلا بالله كمغفرة الذنوب، والنجاة من النار، والتوفيق للإيمان، وصلاح الأولاد، وتيسير الأمور.
- **النوع الثاني: ما يقدر عليه المخلوق**، ما دام حيًّا حاضرًا قادرًا على الإعانة[510]، كدلالة الإنسان على الطريق، وكإعانة الإنسان في حمله على دابته، أو حمل متاعه عليها كما في الحديث: "وتُعِينُ الرَّجُلَ في دابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عليها، أوْ تَرْفَعُ له عليها مَتاعَهُ صَدَقَةٌ"[511]، وكما طَلَبَ ذو القرنين من الذين اشتكوا إليه يأجوج ومأجوج الإعانة؛ حتى يبني لهم السد؛ كما في قوله تعالى: {قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} [الكهف: 95]، فالاستعانة بالمخلوق الحي الحاضر على أمر قادر عليه، أو وهو غائب ويُتَصلُ به إما مباشرة أو بكتاب، فهذا ليس محذورًا، ولكن تركه من كمال إيمان العبد، ولذلك كان الأصل في سؤال الناس وطلبهم النهي[512].

المطلب الخامس: الحثُّ على الاستعانةِ بالله والتَّرغيبُ فيها

أ. الاستعانة في القرآن الكريم:

الاستعانة معناها: طلب العون والتوفيق[513]، وهي من العبادات القلبية التي لا تصرف إلا إلى الله تعالى.

- **لقد وردت كلمة الاستعانة في القرآن الكريم ست مرات ضمن الصيغ والاشتقاقات التالية:**

1. "نستعين" بصيغة الجمع: ووردت مرة واحدة في سورة الفاتحة.
2. "استعينوا" بصيغة الأمر: ووردت ثلاث مرات: مرة في سورة الأعراف، ومرتين في سورة البقرة.
3. "المستعان" بصيغة اسم المفعول الذي يدل على الحال أو الاستقبال: ووردت مرتين: مرة في سورة يوسف، ومرة في سورة الأنبياء.

- **وبإحصاء عدد مرات ورود مادة (استعان) في القرآن الكريم، نجدها ست مرات مرتبة حسب النزول:**

1. {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5]، أي: نطلب العون منك في جميع أمورنا"[514]. فهذه الآية الكريمة تتحدث عن استحقاق الله عز وجل لجميع صفات الكمال، واختصاصه سبحانه بالعبادة والاستعانة به، فهي هنا بمعنى المعونة على العبادة والطاعة والإخلاص فيها.

---

[509] مدارج السالكين (86/1)

[510] شرح الأصول الثلاثة، عبد العزيز الراجحي (59)، وينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (1/357)

[511] البخاري 2707، ومسلم 8009

[512] شرح الأصول الثلاثة، د. خالد المصلح (34)؛ وتنبيه العقول إلى كنوز ثلاثة الأصول، د. عبد الرحمن الشمسان (1 /459)

[513] تفسير القرطبي، 145/1

[514] تفسير ابن عطية 1/72

2. {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ} [الأعراف: 128]: لما ذكر القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل وما جرى في هذه القصة من أحداث، وإيمان السحَرة بفرعون، وتوعُّد فرعون لهم، أمر موسى قومه بالصبر على أذيته لهم، فليستعينوا بالله وليصبروا.

3. {وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: 18] هذه الآية الكريمة، حكاية عن نبي الله يعقوب عليه السلام حينما قال لأبنائه: "لقد زيَّنت لكم أنفسُكم هذا المكر والخداع، وغرَّتكم أنفسُكم"، فهو يستعين بالله من شرِّ أفعالهم.

4. {قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [الأنبياء: 112]: وفي هذه الآية دعاء النبي عليه السلام؛ ليحكم اللهُ بينه وبين المكذِّبين بالحق، فهو يستعين بالله عليهم وعلى كفرهم.

5. {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: 45]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 153].

- **فوائدَ وتنبيهات:**

هناك عدة فوائد يمكن استخلاصها مما سبق، منها:

1. أن صيغة الماضي في لفظة "الاستعانة" لم ترد في القرآن؛ وذلك للدلالة على أن الإنسان يستعين بالله في ماضيه وحاضره ومستقبله، ولا ينقطع عن الله، والاستعانة به في حياته وأقواله وأفعاله.

2. ورود لفظة "الاستعانة" في سورة البقرة مرتين، وهي سورة مدَنيَّة، واللفظة في الموضع الأول جاءت في سياق الحديث عن بني إسرائيل، أما اللفظة الثانية فهي تتعلَّق بتوجيه وحثِّ المؤمنين على ذكر الله، والاستعانة والصبر والصلاة.

ب. الحث على الاستعانة في نصوص السنة النبوية:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: "كنتُ رديفَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالَ: يا غلَّامُ - أو يا بنيَّ - ألا أعلِّمكَ كلماتٍ ينفعكَ اللَّهُ بهنَّ؟ فقلتُ: بلى فقالَ: احفظِ اللَّهَ يحفظكَ، احفظِ اللَّهَ تجدهُ أمامَكَ تعرَّف إليهِ في الرَّخاءِ يعرفُكَ في الشِّدَّةِ إذا سألتَ فاسألِ اللَّهَ وإذا استعنتَ فاستعن باللَّهِ قد جفَّ القلمُ بما هوَ كائنٌ فلو أنَّ الخلقَ كلَّهم جميعًا أرادوا أن ينفعوكَ بشيءٍ لم يقضهِ اللَّهُ لكَ لم يقدروا عليهِ وإن أرادوا أن يضرُّوكَ بشيءٍ لم يقضهِ اللَّهُ عليكَ لم يقدروا عليهِ فاعمل للَّهِ بالشُّكرِ واليقينِ واعلم أنَّ الصَّبرَ على ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ وأنَّ النَّصرَ معَ الصَّبرِ وأنَّ الفرجَ معَ الكربِ وأنَّ معَ العسرِ يسرًا"[515].

وفي هذا الحديثِ يقولُ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما: "كنتُ رَدِيفَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ"، أي: كنتُ راكِبًا خلْفَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ظَهرِ الدابَّةِ، "فقال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يا غُلامُ -أو يا بُنَيَّ-" والغلامُ هو الصَّبيُّ الصغيرُ الذي لم يَبلُغِ الحُلُمَ بعْدُ، وقولُه: (يا بُنيَّ)؛ لبَيانِ مدَى حُبِّه وحِرصِه على نُصحِه، "ألَا أُعلِّمُك كلماتٍ يَنفَعُك اللهُ بهنَّ؟" أي: أُعلِّمُك أمورًا وأشياءَ يَنفَعُك اللهُ بها، "قلْتُ: بلى، فقال: احفَظِ اللهَ"، أي: اتَّقِ اللهَ في

[515] أخرجه الترمذي (2516) مختصراً بنحوه، وأحمد (2803) باختلاف يسير، والبيهقي في ((الاعتقاد)) (ص139) واللفظ له

أوامِرِه ونَواهيهِ؛ بحيث يَجِدُك قائمًا على الطاعاتِ والقُرباتِ، ولا يَجِدُك قائمًا على المعاصي والآثامِ، "يَحْفَظْك"، أي: إذا اتَّقَيتَه وحفِظْتَه كان جزاؤك أنْ يَصُونَك عن الشُّرورِ والموبقاتِ، ويَحفَظَك في نفْسِك وأهلِكَ، ومالِك، ودِينك ودُنياكَ، "احفَظِ اللهَ تَجِدْه أمامَك"، أي: كان اللهُ لك مُؤيِّدًا ومُعِينًا ونَصيرًا، "تَعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ"، والمعنى: اجعَلِ اللهَ يَعرِفُك بطاعتِه، والعمَلِ فيما أَولَاك مِن نِعمَتِه؛ فإنَّه سُبحانه يُجازِيك عندَ الشِّدَّةِ والحاجةِ إليه في الدُّنيا والآخِرةِ، "إذا سأَلْتَ فاسأَلِ اللهَ"، أي: إذا أردْتَ أنْ تَطلُبَ شيئًا، فلا تَطلُبْ إلَّا مِن اللهِ، "وإذا استعَنْتَ فاستعِنْ باللهِ"، أي: وإذا أردْتَ العونَ فلا تَطلُبِ العونَ إلَّا مِن اللهِ، ولا تَستعِنْ إلَّا باللهِ، "فقد جَفَّ القلَمُ بما هو كائنٌ"، أي: كُتِبَت مَقاديرُ الخلائقِ جميعًا، ورُفِعَ القلَمُ؛ فلا زِيادةَ ولا نُقصانَ، وقد جفَّت الصُّحفُ بما كتَبَتْه الأقلامُ فيها مِن مَقاديرِ الخلائقِ، فلا تَبديلَ ولا تَغييرَ؛ فكلُّ شَيءٍ قد كُتِبَ في اللَّوحِ المحفوظِ، "فلو أنَّ الخلْقَ كلَّهم جميعًا أرادوا أنْ يَنفَعوك بشَيءٍ لم يَقْضِه اللهُ لك، لم يَقدِروا عليه"، أي: إنَّه لنْ يكونَ إلَّا ما قدَّرَه اللهُ لك، فلنْ تَحصُلَ مَنفعةٌ لك إلَّا ما قد كتَبَه اللهُ لك، ولو اجتمَعَ على مَنفعتِك أهلُ الأرضِ جميعًا، "وإنْ أرادوا أنْ يَضُرُّوك بشَيءٍ لم يَقْضِه اللهُ لك، لم يَقدِروا عليه"، أي: لنْ يَبلُغَك ضُرٌّ إلَّا ما قدَّرَه اللهُ عليك، ولو اجتمَعَ على ضَرِّك أهلُ الأرضِ جميعًا[516].

ويقول الحافظ ابن رجب: "وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا مُعين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله، فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإن المعنى: لا تحول للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة، وهي كنز من كنوز الـجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا، وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)[517]، ومن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولًا، ومن كلام بعض السلف: يا رب، عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك؟ عجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك؟"[518].

"وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجزٌ عن الاستقلال بجَلْب مصالحه ودفع مضارِّه، ولا مُعين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فَمَن أعانه الله فهو المُعان، ومَن خذله الله فهو المخذول، وهذا تحقيق قوله: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وهذه كلمة عظيمة، وهي كَنزٌ من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها؛ في الدنيا، وعند الموت، وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقَّق الاستعانة عليه في ذلك كله، أعانه"[519].

---

[516] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

[517] صحيح مسلم 2664

[518] جامع العلوم والحكم 2/573

[519] المصدر السابق

ت. أقول أهل العلم في الاستعانة:

-كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله: "لا تستعن بغير الله، فيكلك الله إليه"[520].

-وقال ابن القيم رحمه الله: "التوكل نصف الدين. والنصف الثاني: الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة"[521].

-وقال ابن رجب رحمه الله: "العبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عزّ وجل. فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه الله، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به، فصار مخذولاً وهو كذلك في أمور الدنيا لأنه عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه جميعًا إلا الله عزّ وجل، فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله الله فهو المخذول. وهذا هو تحقيق معنى قول العبد: لا حول ولا قوة إلا بالله. والمعنى: أن العبد لا يتحول حاله من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله عزّ وجل"[522].

المطلب السادس: أقسامُ الاستعانةِ

الاستعانة منها ما هو مشروع مندوب، ومنها ما هو ممنوع مذموم:

أولاً: الاستعانة المشروعة، وهي على صُوَرٍ:

1. **استعانة بالله تعالى، وهي الاستعانة به على طاعته؛** وهي من أعلى أبواب الاستعانة، قال ابن تيمية: "وكل عمل لا يعين الله العبد عليه، فإنه لا يكون ولا ينفع؛ فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم، فلذلك أمر العبد أن يقول: {إياك نعبد وإياك نستعين}". فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات والصبر على المقدورات كلها...ولا يقدر على الإعانة إلا الله، فمن حقَّق الاستعانة به في ذلك كله أعانه.

2. **استعانة بالله على الأمور الدنيوية؛** فجميع العباد فقراء إلى الله الغني الحميد، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وخزائن العالم بأسرها بيده، والعبد لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولو تُرِكَ لنفسه لحظة ضاع وهلك، ولهذا فالعبد في كل لحظة بحاجة إلى ربه ومولاه، يقول الشيخ السعدي: "التوكل على الله والاستعانة به خُلُقٌ جليل، يضطر إليه العبد في أموره كلِّها دينيِّها ودنيويِّها، لأنَّه وإن كان الله تعالى قد أعطى العبد قدرة وإرادة تقع بها أفعاله الاختيارية، ولم يجبره على شيء منها، فإنَّه لا حول له ولا قوة إلا بالله، فإذا اعتمد بقلبه اعتمادًا كليًا قويًا على ربه في تحصيل وتكميل ما يريد فعله من أمور دينه ودنياه، ووثق به أعانه وقوّى إرادته وقدرته، ويسّر له الأمر الذي قصده، وصرف عنه الموانع أو خفَّفها، وتضاعفت قوة العبد وازدادت قدرته؛ لأنه استمدَّ من قوة الله التي لا تنفد ولا تبيد.

---

[520] انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (1/482)

[521] مدارج السالكين (2/113 ـ 114)

[522] انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (1/481 ـ 482)

3. **استعانة بالله على مواجهة الظالمين**، وقد اشتمل القرآن على نماذج عديدة من الاستعانة بالله على مواجهة الظالمين، منها:

- ما أرشد إليه موسى عليه السلام قومه في مواجهتهم مع فرعون وقومه: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف:128].

- ومنها قصة مؤمن آل فرعون، الذي قال لقومه: {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [غافر: 44]، وكانت نتيجة استعانته بالله ما ذكره سبحانه بقوله: {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} [غافر: 45].

- ومنها ما ذكره ربنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم في دعوته قريشاً: {قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ * إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ} [الأنبياء: 108-112].

فعقيدة المؤمن الصادق في إيمانه في مواجهة الظالمين، تقوم على أمرين اثنين: تفويض الأمر إلى الله وتوقع الفرج منه سبحانه، والاستعانة به على مواجهة الظالمين.

4. **الاستعانة بالأعمال الصالحة**، قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة: 45]، فالصبر والصلاة هما الزاد الذي يمد المؤمن بالقوة التي تعينه على احتمال تكاليف الدين والدنيا.
وهناك أمور تتأكد عندها أهمية الاستعانة؛ منها: حين يتعرض المؤمن للبلاء، وعند مواجهة الفتن الكثيرة، وعند مواجهة شبهات الأعداء.

ثانياً: الاستعانة الممنوعة:

الاستعانة عبادة يجب صرفها لله وحده، وهي التي يصحبها معان تعبدية، تقوم في قلب المستعين من المحبة والخوف والرجاء والرغب والرهب، فإذا استعان العبد بغيره سبحانه بهذه المعاني المشار إليها، يكون قد دخل في الاستعانة الممنوعة، ولها صور، منها:

1. **الاستعانة بالأموات والمعبودين من دون الله**، قال تعالى ذامًّا المشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد: {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ} [الزمر: 43]. وقد أكثر القرآن من وصف المعبودات بأنها لا تملك لعابديها دفع ضرٍّ أو طلب نفع، من ذلك قوله عز وجل: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [يونس: 18]، والآيات في هذا الشأن كثيرة وفيرة.

يقول ابن القيم بخصوص طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم: "وَهَذَا أَصْلُ شِرْكِ الْعَالَمِ ، فَإِنَّ الْمَيِّتَ قَدِ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، فَضْلًا عَمَّنِ اسْتَغَاثَ بِهِ وَسَأَلَهُ قَضَاءَ حَاجَتِهِ، أَوْ سَأَلَهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ إِلَى اللَّهِ فِيهَا، وَهَذَا مِنْ جَهْلِهِ بِالشَّافِعِ وَالْمَشْفُوعِ لَهُ عِنْدَهُ، كَمَا تَقَدَّمَ ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ لَمْ يَجْعَلِ اسْتِغَاثَتَهُ وَسُؤَالَهُ سَبَبًا لِإِذْنِهِ، وَإِنَّمَا السَّبَبُ لِإِذْنِهِ كَمَالُ التَّوْحِيدِ، فَجَاءَ هَذَا الْمُشْرِكُ بِسَبَبٍ يَمْنَعُ الْإِذْنَ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنِ

اسْتَعَانَ فِي حَاجَةٍ بِمَا يَمْنَعُ حُصُولَهَا، وَهَذِهِ حَالَةُ كُلِّ مُشْرِكٍ، وَالْمَيِّتُ مُحْتَاجٌ إِلَى مَنْ يَدْعُو لَهُ، وَيَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ، كَمَا أَوْصَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا زُرْنَا قُبُورَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ نَتَرَحَّمَ عَلَيْهِمْ، وَنَسْأَلَ لَهُمُ الْعَافِيَةَ وَالْمَغْفِرَةَ، فَعَكَسَ الْمُشْرِكُونَ هَذَا، وَزَارُوهُمْ زِيَارَةَ الْعِبَادَةِ، وَاسْتِقْضَاءِ الْحَوَائِجِ، وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ، وَجَعَلُوا قُبُورَهُمْ أَوْثَانًا تُعْبَدُ، وَسَمَّوْا قَصْدَهَا حَجًّا"[523].

2. **الاستعانة بالمخلوق في أمور غيبية**، والغيب لا يعلمه إلا الله، فمن ادعى علم الغيب بأي وسيلة كانت غير ما استثنى الله من رسله، فهو كاذب ومشرك.

3. **الاستعانة بالجن**، جعل سبحانه بين الثقلين -الإنس والجن- حواجز، ومخاوف واختلافًا بين الطبيعتين؛ ليعبد كل منهما ربه وَفْق ما شرع له من غير استعانة بالآخر، إلا أن الشياطين من الجن والإنس خالفوا أمر ربهم، وقالوا وعملوا ما لم يشرعه لهم؛ ولهذا التجاوز للمشروع حصل كثير من المنكرات، ووقع في الشرك والكفر بسبب هؤلاء الشياطين -وهم كفرة الجن- أو فساقهم أكثرُ الخلق من قديم الزمان، قال سبحانه: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} [سبأ: 20-21].

قال الطبري عند تفسيره لقوله تعالى: "{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن: 6]: يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل هؤلاء النفر: وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال من الجن في أسفارهم إذا نزلوا منازله، وكان ذلك من فعلهم".

وبيَّن سبحانه أن هذه الاستعانة كانت سبباً للخلود في النار: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام:128]".

ثالثًا: الاستعانة المباحة:

من الأسباب التي شرع الله الأخذ بها الاستعانة بالمخلوق الحاضر القادر على أمر يقدر عليه، وهذه بحسب المستعان عليه، فإن كانت على بِرٍّ أو مباح فهي جائزة للمستعين، مشروعة للمعين. وهذه الاستعانة تكون في الأمور الدينية والدنيوية، قال تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ} [المائدة: 2]؛ ومن الاستعانة الدينية الاستعانة بمعلِّم لتعلُّم أمور الدين، ومن الاستعانة الدنيوية قول موسى عليه السلام في ما أخبر به سبحانه: {وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي} [طه: 29-32]، قال مقاتل عند تفسيره لهذه الآية: "يقول: اشدد به ظهري، وليكون عوناً لي، وأشركه في أمري الذي أمرتني به، يتعظون لأمرنا ونتعاون كلانا جميعا".

[523] مدارج السالكين 1/354-353

المطلب السابع: بيان سبب اقتران الاستعانة بالعبادة

المتأمل في نصوص الكتاب العزيز يلحظ اقتران العبادة بالاستعانة في العديد من المواضع؛ للإشارة إلى الصلة الوثيقة بينهما، ومن صور هذا الاقتران ما يأتي:

أولاً: اقتران الصبر والصلاة بالاستعانة:

قال سبحانه: {واستعينوا بالصبر والصلاة} [البقرة: 45]، وقال تعالى: {استعينوا بالصبر والصلاة} [البقرة: 153]، ولهذا الاقتران حِكَمٌ، منها:

1. الصبر والصلاة يمدان المؤمن بالقوة التي تعينه على احتمال تكاليف العبادة، ومدافعة شهوات النفس وأهوائها؛ فالصبر قهر للنفس على احتمال المكاره في ذات الله، وتوطينها على تحمل المشاق، والصلاة صلة بين العبد وربه، فالاستعانة بهما من أكبر العون على الثبات على الأمر وأداء الواجبات على الوجه الأكمل.
2. الصبر أشد الأعمال الباطنة على البدن؛ إذ فيه ضبط النفس، وسيطرة الإرادة على الهوى، وسيطرة العقل على الشهوة، والصلاة أشد الأعمال الظاهرة على البدن؛ إذ فيها خضوع واستسلام لله، وتوجُّه بالقلب إليه، واستشعار لعظمة الخالق، فجمع بينهما في الاستعانة تنبيهاً على أن الإنسان إذا أتى بهما على وجههما كان متمًّا لما عداهما من التكاليف.
3. إطاعة الأوامر الإلهية وعدم مخالفتها تحتاج إلى صبر، ومن صبر عن المعاصي فقد صبر على الطاعة، ومن أخص حالات الصبر الصلاة؛ فالصلاة فيها سجن النفوس، وجوارح الإنسان فيها مقيدة بها عن جميع الشهوات.
4. الاستعانة بالصبر والصلاة الطريق الأمثل لمواجهة محن الدعوة من شبهات الأعداء والصبر على الاستشهاد في سبيل الله.

ثانياً: اقتران العبادة بالاستعانة:

قال عز وجل: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينَ} [الفاتحة: 5]، ومن حِكَم اقتران العبادة بالاستعانة ما يأتي:

1. الجمع بين الوسيلة والغاية؛ فالعبادة غاية العباد التي خُلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، فجمع سبحانه بين أشرف غاية ووسيلتها.
2. الإشارة إلى كمال التوحيد المطلوب من العباد؛ فقوله سبحانه: {إياك نعبد} تبرؤ من الشرك، وقوله عز من قائل: {وإياك نستعين} تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله سبحانه، فجمع بينهما تنبيهاً لعباده إلى كمال التوحيد المطلوب منهم.
3. بيان أن الاستعانة هي ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالى بالعبادة.
4. الإشارة إلى أن لزوم الاستعانة في العبادة سبيل السعادة الأبدية؛ فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.
5. بيان احتياج العبد الدائم إلى الاستعانة بالله في العبادة. فالله سبحانه ذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها؛ لاحتياج العبد في جميع عبادته إلى الاستعانة بالله، فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريد. فالاستعانة هي نوع من استصغار العبد حاله بجوار عظمة الله تعالى، وافتقاره إليه، وأنه محتاج إليه دائماً، كما قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15].

6. الإشارة إلى أن الاستعانة لا تكون إلا بمن يستحق العبادة.
7. الجمع بين شكر الألوهية والربوبية؛ فعبادة الله هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لألوهيته، واستعانته هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لربوبيته.
8. القضاء على الكِبْر والعُجْب عند الإنسان؛ فقوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} يقتضي حصول رتبة عظيمة للنفس بعبادة الله تعالى، وذلك يورث العجب، وقوله سبحانه: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين} يدل على أن تلك الرتبة الحاصلة بسبب العبادة ما حصلت من قوة العبد، وإنما حصلت بإعانة الله سبحانه.

المطلب الثامن: بيانُ أقسامِ النَّاسِ في العبادةِ والاستعانةِ

إن الخلق في هذا الباب متفاوتون ومتباينون، والمتأمل في ذلك يرى بينهم بونًا شاسعًا.

● **القسم الأول:** فأعلاهم منزلة وأعظمهم عبودية واستعانة أهل التقوى والإيمان، الذين قد جمع لهم الله خيري تحقيق العبودية وكمال الذل والافتقار إليه والبراءة من الحول والقوة بلزوم الاستعانة به سبحانه، وهؤلاء هم المقسطون الذين وحدوا الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وهم المُنعَمُ عليهم من عباد الله الموصوفون في سورة النساء في قوله سيحانه: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69].

● **والقسم الثاني:** وأدناهم وأخسهم وأحطهم منزلة خلق لا عبودية لهم ولا استعانة، وهؤلاء إنما كانوا كذلك لأنهم قد فات عليهم تحقيق جانبي العبودية والاستعانة وهما أصلا الشرع وقوام الدين، فقد استغنوا عن خالقهم بأنفسهم، وقد تُلجؤهم الشدائدُ لسؤال خالِقِهم ودعائه مخلصين له الدين في ذلك الله عنهم: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت: 65].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر، فخافوا الغرق والهلاك فيه {دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [يونس: 22]، يقول: أخلصوا لله عند الشدة التي نزلت بهم التوحيدَ، وأفردوا له الطاعة، وأذعنوا له بالعبودة، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم ولكن بالله الذي خلقهم. {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ} [العنكبوت: 65]، يقول: فلما خلّصهم مما كانوا فيه وسلّمهم فصاروا إلى البر إذا هم يجعلون مع الله شريكًا في عبادتهم، ويدعون الآلهة والأوثان معه أربابًا"[524].

● **القسم الثالث:** وخلق لهم عبودية ولكنهم نقص حظهم وقسطهم ونصيبهم من الاستعانة، وفات عليهم تحقيق كمال الإيمان بالقدر فضعف لديهم جانب الاستعانة والصبر على الأوامر والنواهي على الأقدار كونًا وشرعًا، فلم يسعفهم ضعفُ الاستعانةِ على كمال الاستجابة لله ولشرعه، وقد تكون لهم معافاة وقوة بقدر تحقيقهم الصبر على الطاعة وعلى لزوم السنة ومجانبة الهوى.

● **القسم الرابع:** وخلق لهم حظ من العبودية والاستعانة، ولكن منشأ ذلك حظوظ النفس ومشتهياتها، وهم كمن يعبد الله على حرف تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: 11].

---

[524] تفسير الطبري (159/10)

قال ابن سعدي: "أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفًا، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن، {فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ} أي: إن استمر رزقه رغدًا، ولم يحصل له من المكاره شيء، اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه".

فهذا، ربما أن الله يعافيه، ولا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه، {وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ} من حصول مكروه، أو زوال محبوب انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ أي: ارتد عن دينه، {خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ} أما في الدنيا، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذي جعل الردة رأسًا لماله، وعوضًا عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له، وأما الآخرة، فظاهر، حُرِمَ الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار، {ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: 11] أي: الواضح البين"[525].

المطلب التاسع: ثَمَرَاتُ الاسْتِعَانَةِ باللهِ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإذا حصل الاستعانة بالله واستهداؤه ودعاؤه والافتقار إليه أو سلوك الطريق الذي أمر بسلوكها هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه {وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النور: 46]"[526].

وبتحقيق الاستعانة يحصل كمال الاهتداء، كما بين ذلك شيخ الإسلام في قوله: "وحقيقة الأمر أن العبد مفتقر إلى ما يسأله من العلم والهدى، فبذكر الله والافتقار إليه يهديه الله ويدلّه كما قال: (يَا عِبَادِي، كُلُّكُم ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أُهْدِكُمْ[527]".

وكما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: "اللهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ الأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُون، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"[528]).[529]

وقال ابن القيم: "وإذا عظم المطلوب وأعوزك الرفيق الناصح العليم فارحل بهمتك من بين الأموات وعليك بمعلّم إبراهيم"[530].

وبقدر تحقيق العبودية والاستعانة يتحقق للعبد السلامة من الآفات المهلكات.

قال ابن القيم: "كثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية، يقول: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} تدفع الرياء {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} تدفع الكبر"[531].

"فلا نجاة من مصايد الشيطان ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله، والتعرض لأسباب مرضاته"[532].

---

[525] تفسير ابن سعدي (5/1093)

[526] الصفدية (205/1)

[527] مسلم (2577)

[528] مسلم (770)

[529] مجموع الفتاوى (4/39)

[530] مفتاح دار السعادة (32/1)

[531] مدارج السالكين (54/1)

[532] إغاثة اللهفان لابن القيم (5/1)

وقد (رُوِيَ عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ماذا تصنع إذا سول لك الشيطان الخطايا؟ قال أجاهده، قال هذا يطول، أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها، ومنعك من العبور ماذا تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي قال: هذا يطول عليك، لكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك، إذا أردت التخلص من الشيطان ووسوسته، فاستعن بخالقه يكفه عنك ويحميك)[533].

هذا مثل ضربه ابن الجوزي لتقريب المعنى وتصويره في الذهن، والله تعالى له الْكَمَال الْمُطْلَق الكامل التام مِنْ كُلّ الوَجْوه، قال سبحانه: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [النحل: 60].

وعلى قدر استعانة العبد بربه وصدقه في توكله عليه واضطراره والانقياد لأمره والرضا بمقدوره يتحقق له المطلوب، وينال من ربه كل محبوب ومرغوب.

المطلب العاشر: كلمات ذات صلة بالاستعانة

- **الدعاء:** وهو سؤال العبد ربه حاجته، ووجه الصلة بين الدعاء والاستعانة أن الاستعانة أعمُّ من الدعاء، فالدعاء صورة من صور الاستعانة، والاستعانة تكون بالدعاء وبغيره، فكل دعاء استعانة، ولا عكس.
- **الاستعاذة:** اللجوء والاعتصام وطَلَب دفع الشر؛ والاستعانة أعم من الاستعاذة، فإنهما يجتمعان في طلب كفِّ الشر؛ فالاستعاذة صورة من صور الاستعانة، وتزيد الاستعانة بأنها تكون في تحصيل الخير، فكل استعاذة استعانة، ولا عكس.
- **الاستغاثة:** طَلَبُ الغوث في الشدائد والأزمات والملمات، بينهما عموم وخصوص من وجه؛ فكل استغاثة استعانة، ولا عكس، فالاستغاثة خاصة في الشدائد والكربات، والاستعانة عامة فيها وفي غيرها.
- **التوكل:** مصدر توكل يتوكل، وأصل المادة يدل على اعتمادٍ على الغير في أمر ما، ومن ذلك إظهار العجز في الأمر والاعتماد على الغير. وهو في الاصطلاح اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودَفْعِ المضار. ووجه الصلة بين الاستعانة والتوكل أن الأخير هو تفويض الأمر لله، والاستعانة لا يلزم منها هذا التفويض، وبذلك تكون الاستعانة أعمُّ من التوكل .

المطلب الحادي عشر: أثر الاستعانة بالله على الفرد والمجتمع

الاستعانة بالله عز وجل لها آثار عظيمة على الفرد والمجتمع، وهذه الآثار لا حصر لها، ومن أهمها:

1. **أنها مظهر من مظاهر عبادته سبحانه وتوحيده.**
2. **لزوم الاستعانة سبيل السعادة الأبدية.**
3. **بها يحصل صلاح قلب العبد وسدِّ حاجته الروحية.**
4. **أنها تجعل الفرد المسلم وثيق الصلة بربه؛ يجيبه إذا دعاه، ويفرج كربه إذا نزل به كرب، ويغفر ذنبه.**
5. **بالاستعانة يواجه العبد الأخطار المحدقة به.**
6. **تمنح العبد الشعور بالقوة؛ لأنه لا يواجه مصاعب الحياة بمفرده، بل معه ربه سبحانه.**

---

[533] تلبيس إبليس (48)

7. تنزع من العبد شعور العجز من نفسه.
8. الاستعانة بالله سبب محبة الله عبده ورضاه عنه.
9. أنها تذلل الصعاب، وتقوي المرء مع إخوانه على ما لا يستطيعه بمفرده.
10. الاستعانة المباحة تزيل الضغائن والحقد الحسد من القلوب.
11. أنها تحقق بين أفراد المجتمع معاني الأخوة الإنسانية.

المبحث السابع: الزُّهد

المطلب الأول: معنى الزُّهدِ

- **الزُّهدُ لغةً:**

مِن زَهِدَ، وهو أصلٌ يدُلُّ على قلَّةِ الشَّيءِ، يُقالُ: زَهِدَ فُلانٌ في الدُّنيا، أي: استقلَّها وترَكها، والزُّهدُ: خِلافُ الرَّغبةِ، والتَّزهيدُ خلافُ التَّرغيبِ[534]، ومنه الحديثُ في ساعةِ الجُمُعةِ، وقال بيدِه؛ يُقلِّلُها يُزهِّدُها[535].

- **الزُّهدُ اصطِلاحًا:**

- قيل: (استِصغارُ الدُّنيا واحتِقارُها)[536].

- وقيل: (خُلوُّ القَلبِ ممَّا خلَت منه اليدُ)[537].

- وقيل: (تَركُ ما لا ينفَعُ في الآخِرةِ)[538].

المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ الزُّهدِ والوَرعِ

قال ابنُ القيِّمِ: (وسمِعْتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ يقولُ: الزُّهدُ تَركُ ما لا ينفَعُ في الآخِرةِ، والوَرعُ تَركُ ما تخافُ ضَررَه في الآخِرةِ، وهذه العِبارةُ مِن أحسَنِ ما قيل في الزُّهدِ والوَرعِ وأجمَعِها)[539].

المطلب الثالث: التَّرغيبُ في الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ

أ- مِن القرآنِ الكريمِ:

1. قولُه تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} [طه: 131]، أمَره ألَّا يتشوَّفَ إلى مَتاعِ الدُّنيا، أي: لا تنظُرْ إلى هؤلاء المُترَفينَ، وما هم فيه مِن النِّعمِ، فإنَّما هو زهرةٌ زائِلةٌ ونِعمةٌ حائِلةٌ؛ لنختبِرَهم بذلك[540]

2. قولُه تعالى: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ} [النساء: 32]، (ولا تشتَهوا ما فضَّل اللهُ به بعضَكم على بعضٍ)[541].

---

[534] (التقفية في اللغة) لابن أبي اليمان (ص: 324)، (جمهرة اللغة) لابن دريد، (الصحاح) للجوهري

[535] لفظُ الحديثِ: (إنَّ في الجُمُعةِ لساعةً لا يوافِقُها مُسلِمٌ قائمٌ يُصَلِّي يسألُ اللهَ خيرًا إلَّا أعطاه إيَّاه. وقال بيَدِه يُقَلِّلُها يُزَهِّدُها). أخرجه البخاري (5294)، ومسلم (852) واللفظ له من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه

[536] المعين على تفهم الأربعين لابن الملقن (ص: 370)

[537] دليل الفالحين لابن علان (4/ 374)

[538] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 12)

[539] المصدر السابق (2/ 12)

[540] يُنظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (5/ 326).

3. قولُه: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ} [البقرة: 273]؛ لأنَّهم أغنياءُ النُّفوسِ، يتعفَّفونَ عمَّا في أيدي النَّاسِ، ويزهَدونَ فيه، فيُظَنُّونَ أغنياءَ بكثرةِ العَرَضِ[542].

4. قولُه: {فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ} [الكهف: 40]، (فعسى ربِّي أن يرزُقَني خيرًا مِن بُستانِك هذا)، قيل: كان زاهِدًا في الدُّنيا، راغِبًا في الآخِرةِ[543].

5. قولُه تعالى: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [سبأ: 47]، أي: قُلْ -يا رسولَ اللهِ- لمُشرِكي قومِك: إن سألْتُكم أجرًا فهو لكم؛ فلا أريدُ منكم أجرًا على تبليغي رسالةَ اللهِ إليكم، ولا تظنُّوا أنِّي أدعوكم إلى الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، وأُنذِرُكم عذابَه لآخُذَ شيئًا مِن أموالِكم إنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، أي: ما أجري على تبليغِكم رسالةَ اللهِ إلَّا على اللهِ وَحدَه[544].

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الدُّعاةَ إلى اللهِ ينبغي لهم أن يتنزَّهوا عن الطَّمعِ في النَّاسِ جُمدَهم، ولو اضطُرُّوا إلى ذلك؛ إذ لا يقعُ النَّفعُ العامُّ على أيديهم إلَّا بَعدَ الزُّهدِ التَّامِّ، والتَّعفُّفِ التَّامِّ عمَّا في أيدي النَّاسِ، فإذا تحقَّقوا بهذا الأمرِ جعَلهم اللهُ حُجَّةً، يَدمَغُ بهم على الباطِلِ[545].

6. وقال تعالى: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: 197]، عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما قال: (كان أهلُ اليَمنِ يحُجُّونَ ولا يتزوَّدونَ، ويقولون: نحن المُتوكِّلونَ، فإذا قدِموا مكَّةَ سألوا النَّاسَ، فأنزَل اللهُ تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [البقرة: 197])[546]، أي: تزوَّدوا مِن أقواتِكم بما يُعينُكم على الوُصولِ للبيتِ الحرامِ، وأداءِ مناسِكِ الحجِّ؛ فإنَّ في التَّزوُّدِ استِغناءً عن المخلوقينَ، وإعانةً للمُحتاجينَ. ولمَّا أمَرهم اللهُ عزَّ وجلَّ بأخذِ الزَّادِ الدُّنيويِّ غذاءً لأجسادِهم أرشَدهم إلى الزَّادِ الأخرَويِّ الموصِلِ لدارِ النَّعيمِ الأبَديِّ، غذاءً لقُلوبِهم، وهو استِصحابُ التَّقوى؛ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[547].

وقال البِقاعيُّ: (وَتَزَوَّدُوا أي: التَّقوى لمعادِكم، الحامِلةَ على التَّزوُّدِ الحِسِّيِّ لمعاشِكم، الحامِلِ على الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ، والمواساةِ لمُحتاجِهم، الواقِيةَ للعبدِ مِن عذابِ اللهِ)[548].

ب- مِن السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

ومِمَّا جاء في حضِّ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ:

1. قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ليس الغِنى عن كثرةِ العَرَضِ، ولكنَّ الغِنى غِنى النَّفسِ"[549].

---

[541] جامع البيان لابن جرير الطبري (663 /6)

[542] يُنظر: عمدة الحفاظ للسمين الحلبي (3/ 177).

[543] يُنظر: التفسير البسيط للواحدي (14/ 7)

[544] التفسير المحرر - الدرر السَّنية (26/ 242)

[545] البحر المديد لابن عجيبة (4/ 507)

[546] رواه البخاري (1523)

[547] التفسير المحرر - الدرر السَّنية (567/1)

[548] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (3/ 144)

[549] أخرجه البخاري (6446)، ومسلم (1051) من حديث أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه

الغِنى النَّافِعُ غِنى النَّفسِ، وشِبَعُها وقلَّةُ حِرصِها، لا كثرةُ المالِ؛ لأنَّ كثيرًا ممَّن وسَّع اللهُ عليه في المالِ يكونُ فقيرَ النَّفسِ، لا يقنَعُ بما أُعطِي، فهو مُشرِفُ النَّفسِ لِما عندَ غَيرِه، والذي يستغني بالقليلِ ويقنَعُ، ولم يحرِصْ على الزِّيادةِ فيه، ولا ألحَّ في الطَّلبِ؛ فكأنَّه غَنيٌّ واجِدٌ أبدًا[550].

2. قال عُمرُ: "كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعطيني العَطاءَ، فأقولُ: أعطِه مَن هو أفقَرُ إليه منِّي، فقال: خُذْه، إذا جاءك مِن هذا المالِ شيءٌ وأنت غَيرُ مُشرِفٍ ولا سائِلٍ فخُذْه، وما لا فلا تُتبِعْه نَفسَك"[551].

أي: لا تجعَلْ نَفسَك تتحسَّرُ على فَوتِه، ولا تُعلِّقْها بطلبِ واتِّباعِ ما عندَ غَيرِك[552].

3. وقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلوةٌ، فمَن أخَذه بطِيبِ نَفسٍ بورِكَ له فيه، ومَن أخَذه بإشرافِ نَفسٍ لم يُبارَكْ له فيه، وكان كالذي يأكُلُ ولا يشبَعُ"[553].

قولُه: (بإشرافِ نَفسٍ)، أي: بتطلُّعٍ وحِرصٍ وطَمعٍ، وشَرهٍ إليه، وارتِفاعٍ له، وتعرُّضٍ وطَلبٍ[554].

4. قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ومَن يستعفِفْ يُعِفَّه اللهُ، ومَن يستغْنِ يُغنِه اللهُ، ومَن يتصبَّرْ يُصبِّرْه اللهُ، وما أُعطِي أحدٌ عطاءً خَيرًا وأوسَعَ مِن الصَّبرِ"[555].

وفيه: الحضُّ على الاستِغناءِ عن النَّاسِ بالصَّبرِ، والتَّوكُّلِ على اللهِ، وانتِظارِ رِزقِ اللهِ، وذلك أفضَلُ ما أُعطِيَه المُؤمِنُ[556].

5. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ليس منَّا مَن لم يتغَنَّ بالقرآنِ"، مِن معانيه: لم يستغْنِ به، فلا يطمَحُ بَصرُه إلى ما عندَ النَّاسِ مِن زخارِفِ الدُّنيا، وعندَه معارِفُ المولى[557].

6. قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهُ وَسَلَّمَ: "قَدْ أَفْلَحَ مَن أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بما آتَاهُ".[558]

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَتعهَّدُ أصحابَه بالمَوْعِظَة والنُّصحِ والتَّرغيبِ في مَعالي الأمورِ؛ لتكونَ الدُّنيا في أيْديهم ولَيْسَ في قُلوبِهم، ويكونَ ما حَصَّلوه منها عوْنًا لهم على الطَّاعةِ.

وفي هذا الحديثِ إرشادٌ مِنَ النبيّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم لِأَفْرَادِ أُمَّتِهِ أَلَّا يُتْعِبُوا أَنْفُسَهُم في طَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَى الكَفَافِ؛ لأنَّ المحمودَ مِنَ الرِّزقِ ما حَصَلَتْ به القُوَّةُ على الطَّاعةِ، ويكونُ الاشتِغالُ به على قَدْرِ الحاجَةِ، فأخبَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أنَّه قدْ حاز الفَلَاحَ وفاز به، مَن أَسْلَمَ إسلامًا صَحيحًا؛ لأنَّه خَلَص مِن الكُفرِ والشِّركِ، وهو الذَّنْبُ الَّذي لا يَغفِرُه الله، ورُزِقَ الكِفايَةَ بِلا زِيادةٍ ولا نَقْصٍ، وما يَكُفُّ عن الحاجاتِ ويَدْفَعُ الضَّروراتِ والفَاقَاتِ، والمرادُ به: الرِّزقُ الحلالُ؛

---

[550] شرح البخاري لابن بطال (10/ 165)

[551] أخرجه البخاري (1473) واللفظ له، ومسلم (1045)

[552] إكمال المعلم للقاضي عياض (3/ 579)، الإفصاح لابن هبيرة (1/ 103)

[553] أخرجه البخاري (6441)، ومسلم (1035) من حديثِ حكيمِ بنِ حِزامٍ رَضِيَ اللهُ عنه

[554] مطالع الأنوار لابن قرقول (6/ 36)، كشف المشكل لابن الجوزي (4/ 64)

[555] أخرجه البخاري (1496) واللفظ له، ومسلم (1053) من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[556] الاستذكار لابن عبد البر (27/ 411).

[557] أعلام الحديث للخطابي (2/ 1184).

[558] صحيح مسلم 1054

لأنَّه لا فَلاحَ مع رِزقٍ حرامٍ، وقولُه: (وقَنَّعَهُ اللهُ بما آتاهُ)، أي: رَزَقَه اللهُ القَناعَةَ بما عِنْدَهُ مِن الكَفافِ، فلم تَطمَحْ نفْسُه لطلَبِ ما زاد على ذلك.[559]

7. وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسولَ الله، مُرْنِي بِعَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ وَأَحَبَّنِي النّاسِ؟، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكِ اللهُ، وازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النّاسِ يُحِبُّكَ النّاسُ".[560]

ج- مِن أقوالِ السَّلفِ والعُلَماءِ:

1. قال حكيمُ بنُ حِزامٍ رضِي اللهُ عنه: (يا رسولَ اللهِ، والذي بعَثك بالحقِّ لا أرزَأُ أحدًا بَعدَك شيئًا حتَّى أفارِقَ الدُّنيا)، أي: لا أنقُص بَعدَك مالَ أحدٍ بالسُّؤالِ عنه والأخذِ مِنه[561].

2. كتَب أبو الدَّرداءِ إلى بعضِ إخوانِه: (أمَّا بَعدُ، فإنِّي أوصيك بتقوى اللهِ، والزُّهدِ في الدُّنيا، والرَّغبةِ فيما عندَ اللهِ؛ فإنَّك إذا فعلْتَ ذلك أحبَّك اللهُ لرغبتِك فيما عندَه، وأحبَّك النَّاسُ لتَركِك لهم دُنياهم، والسَّلامُ)[562].

3. وحضَر رجُلًا مِن الأنصارِ الموتُ، فقال لابنِه: يا بُنيَّ إنِّي موصيك بوَصيَّةٍ فاحفَظْها؛ فإنَّك إلَّا تحفَظْها منِّي خليقٌ ألَّا تحفَظَها مِن غَيري: اتَّقِ اللهَ عزَّ وجلَّ، وإن استطعْتَ أن تكونَ خيرًا منك أمسِ، وغدًا خيرًا منك اليومَ؛ فافعَلْ، وإيَّاك والطَّمعَ؛ فإنَّه فقرٌ حاضِرٌ، وعليك بالإياسِ؛ فإنَّك لا تيأسُ مِن شيءٍ إلَّا أغناك اللهُ عنه عزَّ وجلَّ، وإيَّاك وكُلَّ شيءٍ يُعتذَرُ منه؛ فإنَّه لا يُعتذَرُ مِن خيرٍ، وإذا عثَر عاثِرٌ مِن بَني آدَمَ فاحمَدِ اللهَ ألَّا تكونَه، فإذا قُمْتَ إلى صلاتِك فصلِّ صلاةَ المُودِّعِ، وأنَّك ترى أنَّك لا تُصلِّي بَعدَها أبدًا[563].

4. رُوِي عن الحَسنِ البَصريِّ قولُه: (لا تزالُ كريمًا على النَّاسِ، ولا يزالُ النَّاسُ يُكرِمونَك ما لم تتعاطَ ما في أيديهم، فإذا فعلْتَ ذلك استخَفُّوا بك، وكرِهوا حديثَك، وأبغَضوك)[564].

5. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: (أظهِرِ اليأسَ ممَّا في أيدي النَّاسِ؛ فإنَّه الغِنى، وإيَّاك وما يُعتذَرُ منه؛ فإنَّه لا يُعتذَرُ مِن خيرٍ)[565].

6. عن مُعاويةَ بنِ عمَّارٍ، عن أبي جَعفَرٍ قال: اليأسُ عمَّا في أيدي النَّاسِ عِزٌّ، ثُمَّ قال: أمَا سمِعْتَ قولَ حاتِمٍ الطَّائِيِّ:

إذا ما عرَفْتَ اليأسَ ألفَيتَه الغِنى

إذا عرَفَتْه النَّفسُ والطَّمَعُ الفَقرُ[566].

7. وقيل لبعضِ أهلِ البَصرةِ: (مَن سيِّدُكم؟ قال: الحَسنُ، قال: بمَ سادكم؟ قال: احتَجْنا لعِلمِه، واستَغنى عن دُنيانا)[567].

8. قال الكَلاباذيُّ: (فمَن زَهِدَ فيما في أيديهم، وبذَل لهم ما عندَه...، وَدَّه النَّاسُ وأحبُّوه، وهذه أوصافُ العُقَلاءِ)[568].

---

[559] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث

[560] سُنَنُ ابْنِ مَاجَهُ كِتابُ الزُّهْدِ بَابُ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا 4102 وَصَحَّحَهُ الأَلْبانيُّ فِي صَحَّ الجامِعُ 922

[561] الكاشف للطيبي (5/ 1514).

[562] شعب الإيمان للبيهقي (13/ 198).

[563] (الزهد) للإمام أحمد، رواية عبد الله (ص: 631).

[564] المصدر السابق (ص: 216) رقم (1511).

[565] الطبقات الكبير لابن سعد (8/ 380)

[566] روضة العقلاء لابن حبان (ص: 144)

[567] فيض القدير للمناوي (1/ 481)

9. قال أحمَدُ بنُ المُغلِّسِ: (سمعْتُ أبا نَصرٍ؛ بِشرَ بنَ الحارِثِ يقولُ: وقد قال له رجُلٌ: يا أبا نَصرٍ، ما أشَدَّ حُبَّ النَّاسِ لك! فغلُظ عليه ذلك، ثُمَّ قال: ولك، عافاك اللهُ! قال: وكيف؟ قال: دَعْ لهم ما في أيديهم)[569].

10. قال وَهبُ بنُ مُنبِّهٍ: (كان العُلَماءُ قَبلَنا قد استغنَوا بعِلمِهم عن دُنيا غَيرِهم، فكانوا لا يلتفِتونَ إلى دُنيا غَيرِهم، وكان أهلُ الدُّنيا يبذُلونَ لهم دُنياهم رَغبةً في عِلمِهم، فأصبَح أهلُ العِلمِ اليومَ فينا يبذُلونَ لأهلِ الدُّنيا عِلمَهم رغبةً في دُنياهم، وأصبَح أهلُ الدُّنيا قد زَهِدوا في عِلمِهم لِما رأَوا مِن سوءِ مَوضِعِهم عندَهم)[570].

11. قال أيُّوبُ السَّختيانيُّ: (لا ينبُلُ الرَّجلُ حتَّى تكونَ فيه خَصلتانِ: العِفَّةُ عمَّا في أيدي النَّاسِ، والتَّجاوُزُ عمَّا يكونُ منهم)[571]. وفي لفظٍ: (لا يستوي العبدُ -أو لا يسودُ العبدُ- حتَّى يكونَ فيه خَصلتانِ: اليأسُ ممَّا في أيدي النَّاسِ، والتَّغافُلُ عمَّا يكونُ منهم)[572].

12. قال الأصمَعيُّ: (سمعْتُ أعرابيًّا يقولُ: عجِبْتُ للحريصِ المُستقِلِّ لكثيرِ ما في يدِه، والمُستكثِرِ لقليلِ ما في يدِ غَيرِه، حتَّى طلب الفَضلَ بذَهابِ الأصلِ، فركِب مفاوِزَ البَراري ولُجَجَ البِحارِ مُعرِّضًا نَفسَه للممات ومالَه للآفاتِ، ناظِرًا إلى مَن سَلِم، غَيرَ مُعتبِرٍ بمَن عَدِم)[573].

13. قال ابنُ المُبارَكِ: (سخاءُ النَّفسِ عمَّا في أيدي النَّاسِ أفضَلُ مِن سخاءِ النَّفسِ بالبَذلِ)[574].

14. وقال بعضُ الحُكَماءِ: (صِلْ مَن شئْتَ فأنت أميرُه، وسلْ مَن شئْتَ فأنت حقيرُه، واستَغنِ عمَّن شئْتَ فأنت نَظيرُه)[575].

15. وقال رجُلٌ مِن الحُكَماءِ: (تقرُّبُك مِن اللهِ مسألتُه، وتقرُّبُك مِن النَّاسِ تَركُ مسألتِهم)[576].

16. كان يُقالُ: (أفضَلُ النَّاسِ مَن كان فيه خمسُ خِصالٍ:

أوَّلُها: أن يكونَ على عبادةِ ربِّه مُقبِلًا.

والثَّاني: أن يكونَ نَفعُه للخَلقِ ظاهِرًا.

والثَّالثُ: أن يكونَ النَّاسُ مِن شَرِّه آمِنينَ.

والرَّابعُ: أن يكونَ عمَّا في أيدي النَّاسِ آيسًا.

والخامسُ: أن يكونَ للموتِ مُستعِدًّا)[577].

17. قال ابنُ عُثَيمينَ: (مَن لم يستَغنِ عمَّا في أيدي النَّاسِ لم يُغنِه اللهُ عنهم، يبقى دائِمًا مُتلهِّفًا إلى ما في أيدي النَّاسِ)[578].

---

[568] بحر الفوائد (ص: 61)

[569] تاريخ دمشق لابن عساكر (10/ 199)

[570] الحلية لأبي نعيم الأصبهاني (4/ 29)

[571] روضة العقلاء لابن حبان (ص: 167)، التوبيخ والتنبيه لأبي الشيخ الأصبهاني (ص: 68) رقم (58)

[572] حلية الأولياء لأبي نعيم (3/ 5)

[573] التذكرة الحمدونية لابن حمدون (3/ 133)

[574] المروءة لابن المرزبان (ص: 82) رقم (115)

[575] سُنن الصالحين وسَنن العابدين لأبي الوليد الباجي (ص: 448)

[576] المصدر السابق (ص: 450)

[577] تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: 44)

المطلب الرابع: فوائِدُ الزُّهدِ

1. سَببٌ لمحبَّةِ النَّاسِ؛ فإنَّ الدُّنيا محبوبةٌ للنَّاسِ، فَمن يُزاحِمُهم عليها يُبغِضونَه، حكى الرِّياشيُّ عن الأصمَعيِّ، قال: (رأَيتُ أعرابيًّا مُتعلِّقًا بأستارِ الكَعبةِ وهو يقولُ: إلهي أنت جئْتَ بي، وعليك قدِمْتُ، وأنت أقدَمْتَني، عصَيتُك بعِلمِك فلك الحُجَّةُ عليَّ، وأطعْتُك بجِلمِك فالمِنَّةُ عليَّ، فبوُجوبِ حُجَّتِك وانقِطاعِ حُجَّتي إلَّا عفَوتَ عنِّي، فدنَوتُ منه، وقلْتُ: يا أعرابيُّ، متى يكونُ العبدُ أقرَبَ ما يكونُ إلى اللهِ؟ قال: إذا سأله، قلْتُ: ومِن النَّاسِ؟ قال: إذا لم يسأَلْهم، ثُمَّ ولَّى وهو يقولُ:

اللهُ يغضَبُ إن تركْتَ سُؤالَه

وبُنيُّ آدَمَ حينَ يُسأَلُ يغضَبُ)[579].

2. راحةُ القلبِ والبَدنِ.

3. التَّخلِّي عن داءِ الحِرصِ، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ومَن أعطَيتُه عن مسألةٍ وشَرَهٍ كان كالذي يأكُلُ ولا يشبَعُ"[580].

4. حُصولُ البَرَكةِ.

5. اغتِنامُ العُمُرِ، قال أبو حازِمٍ؛ سَلَمةُ بنُ دينارٍ: (وجدْتُ الدُّنيا شيئَينِ: فشيءٌ منها هو لي فلن أتعجَّلَه قَبلَ أجَلِه، ولو طلَبْتُه بقوَّةِ السَّمواتِ والأرضِ، وشيءٌ منها هو لغَيري، فذلك ما لم أنَلْه فيما مضى، ولا أرجوه فيما بقي، يمنَعُ الذي لي مِن غَيري، كما يمنَعُ الذي لغَيري منِّي؛ ففي أيِّ هذَينِ أُفني عُمري؟!)[581].

6. سَدُّ بابِ الظُّلمِ وحُصولُ العَدلِ والأمنِ؛ فإنَّ المرءَ قد يتطلَّعُ إلى ما في يدِ غَيرِه، فتدعوه القوَّةُ الشَّهوانيَّةُ إلى أخذِه قَهرًا[582].

7. الاستِعفافُ عن المسألةِ وتجنُّبُ ذُلِّ السُّؤالِ؛ قال الحَسنُ البَصريُّ: (عِزُّ المُؤمِنِ استِغناؤُه عمَّا في أيدي النَّاسِ)[583]، ومَن طمِع ذلَّ وانحطَّت منزِلتُه عندَ الحقِّ والخَلقِ[584]، وما بسَقَت أغصانُ ذُلٍّ إلَّا على بَذْرِ طَمَعٍ، وأنت حُرٌّ ممَّا أنت عنه آيسٌ، وعبدٌ لِما أنت له طامِعٌ[585].

8. الرِّضا بقضاءِ اللهِ وعَدمُ السَّخَطِ؛ قال وَهبُ بنُ مُنبِّهٍ: (ومَن أَسِف على ما في يدِ غَيرِه سَخِط قضاءَ ربِّه عزَّ وجلَّ)، وقيل: (مَن رَضِي برِزقِ اللهِ لم يحزَنْ على ما في يدِ غَيرِه)[586].

9. النَّجاةُ مِن داءِ الشُّحِّ، قال طاوسُ بنُ كَيسانَ: (البُخلُ: أن يبخَلَ الرَّجلُ بما في يَدَيه، والشُّحُّ: أن يُحِبَّ أن يكونَ له ما في أيدي النَّاسِ بالحرامِ، لا يقنَعُ)[587].

---

[578] فتح ذي الجلال والإكرام (3/ 108)

[579] الدر الفريد للمستعصمي (2/ 43، 44)

[580] أخرجه مسلم (1037) من حديثِ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ رَضِيَ اللهُ عنهما

[581] القناعة لابن أبي الدنيا (ص: 49)

[582] منهاج السنة لابن تيمية (6/ 383)

[583] التهجد وقيام الليل لابن أبي الدنيا (2/ 36)

[584] التيسير للمناوي (2/ 77)

[585] الحكم لابن عطاء الله (ص: 28)

[586] بستان العارفين لأبي الليث السمرقندي (ص: 408)

10. ثباتُ العِلمِ في القلبِ؛ فإنَّ ذَهابَه بالطَّمعِ وشَرَهِ النَّفسِ، وتَطَلُّبِ الحاجاتِ إلى النَّاسِ[588].

11. سلامةُ الدِّينِ وصيانةُ الإيمانِ؛ قال وَهبُ بنُ مُنبِّهٍ: (ومَن تضَعضَعَ[589] لغَنيٍّ ذهَب ثُلُثا دينِه)[590].

12. الطُّمأنينةُ وراحةُ البالِ وسلامةُ الصَّدرِ.

13. التَّوقِّي مِن الوُقوعِ في المُحرَّماتِ.

المطلب الخامس: مظاهِرُ وصُوَرُ الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ

1. عَدمُ سُؤالِ النَّاسِ ما عندَهم، أو التَّعريضِ بذلك؛ قال ابنُ عُمرَ: (لا أسألُ أحدًا شيئًا، ولا أرُدُّ ما رزَقني اللهُ)[591].

2. التَّعفُّفُ عن أكلِ أموالِ النَّاسِ بأيِّ حيلةٍ.

3. أكلُ الإنسانِ مِن عَمَلِ يدِه.

4. رَفضُ جوائِزِ المُلوكِ.

5. ردُّ صِلاتِ أهلِ الدُّنيا.

6. عَدمُ الالتِفاتِ إلى زُخرُفِ الدُّنيا.

7. تَركُ الحَسدِ.

8. عَدمُ تمنِّي ما عندَ غَيرِه مِن مالٍ.

المطلب السادس: موانِعُ الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ

1. الشَّرَهُ وطَلبُ الاستِكثارِ مِن المالِ؛ قال النَّوَويُّ: (مَن كان طالِبًا للزِّيادةِ لم يستَغنِ بما معَه)[592].

2. تَركُ الاكتِسابِ؛ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "والذي نَفسي بيَدِه، لأنْ يأخُذَ أحدُكم حَبلَه، فيحتطِبَ على ظَهرِه خَيرٌ له مِن أن يأتيَ رجُلًا فيسألَه؛ أعطاه أو منَعه"[593].

وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "الخَيلُ لثلاثةٍ...، ورجُلٌ ربطَها تغنِّيًا وتعفُّفًا"[594]، وهذا الحديثُ أصلٌ في اكتِسابِ المالِ، يتعفَّفُ به عمَّا في أيدي النَّاسِ[595].

3. نِسيانُ الآخِرةِ، قيل:

ولولا أنَّ ذِكرَ الموتِ يُسلي

---

[587] جامع البيان للطبري (7/ 21)، حلية الأولياء لأبي نعيم (4/ 6)

[588] القناعة لابن أبي الدنيا (ص: 75)

[589] أي: خَضَع وذَلَّ. يُنظر: (النهاية في غريب الحديث والأثر) لابن الأثير (3/ 88)

[590] شعب الإيمان للبيهقي (12/ 373) رقم (9570)

[591] أخرجه ابن سعد في (الطبقات الكبرى) (5089)، وابن أبي الدنيا في (القناعة والتعفف) (11)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (152/31) صحَّح إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج (سير أعلام النبلاء) (220/2)

[592] شرح النووي على مسلم (140 /7)

[593] أخرجه البخاري (1470) واللفظ له، ومسلم (1042) من حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[594] أخرجه البخاري (4962) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه. والحديث أخرجه مسلم (987) دونَ هذا اللفظِ.

[595] (تفسير الموطأ) للقنازعي (2/ 578)

عن الدُّنيا ولَذَّتِها أسِفْتُ

وأعظَمُ مِن نُزولِ الموتِ أنِّي

أُدانُ بما كَسَبْتُ وما اكتَسَبْتُ[596]

4. عَدمُ الرِّضا والقَناعةِ، فيتشوَّفُ إلى ما في يدِ غَيرِه.

5. الغَفلةُ عن أنَّ اللهَ تعالى هو الذي قسَم الأرزاقَ، فجعَل هذا غنيًّا، وهذا فقيرًا، وأعطى هذا، ومنَع ذاك؛ قال تعالى: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [الزخرف: 32].

وقد قيل:

كم جاهِلٍ يملِكُ دُورًا وقُرَى

وعالِمٍ يسكُنُ بَيتًا بالكِرَى[597]

لمَّا سمِعْنا قولَه سُبحانَه

نحن قَسَمْنا بَينَهم زالَ المِرا[598]

6. الوُقوعُ في أَسْرِ الشَّهَواتِ، والميلُ معَ الهوى.

7. التَّعلُّقُ بالدُّنيا وازدِراءُ نِعمةِ اللهِ؛ قال تعالى: {قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُوْ حَظٍّ عَظِيمٍ} [القصص: 79]، وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إذا نظَر أحدُكم إلى مَن فُضِّل عليه في المالِ والخَلقِ، فلينظُرْ إلى مَن هو أسفَلَ منه"[599].

المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ

1. تعويدُ النَّفسِ على القناعةِ؛ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "قد أفلَح مَن أسلَم، ورُزِق كَفافًا، وقنَّعه اللهُ بما آتاه"[600].

2. الاقتِداءُ بالنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ قال عَمرُو بنُ العاصِ: "أيُّها النَّاسُ، كان نبيُّكم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أزهَدَ النَّاسِ في الدُّنيا، وأصبحْتُم أرغَبَ النَّاسِ فيها"[601].

---

[596] (القناعة) لابن أبي الدنيا (5/ 133)

[597] أي: بالأجرة. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (2/ 532)

[598] الجواهر الحسان للثعالبي. والمراء: الجدال. يُنظر: تاج العروس للزبيدي.

[599] أخرجه البخاري (6490)، ومسلم (2963) من حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[600] أخرجه مسلم (1054) من حديث عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما.

[601] أخرجه أحمد (17815)، وابن حبان (6379) واللفظ له، والحاكم (7927). صحَّحه ابنُ حبان، وابن عساكر في (معجم الشيوخ) (2/1235)، والألباني في (صحيح الموارد) (1795)، والوادعي في (الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين) (1014)

3. إدمانُ النَّظرِ في سِيَرِ السَّلفِ الصَّالِحِ؛ قال عَمرُو بنُ دينارٍ: (ما رأَيتُ أحدًا الدَّراهمُ أهوَنُ عليه مِن الزُّهريّ، إن كانت الدَّراهِمُ عندَه بمنزِلةِ البَعْرِ!)[602].

4. طَلبُ العِلمِ؛ قال رَبيعةُ بنُ أبي عبدِ الرَّحمنِ: (العِلمُ وسيلةٌ إلى كُلِّ فَضيلةٍ)[603].

5. تَركُ مُجالَسةِ أهلِ الشَّرَهِ والطَّمعِ.

6. اليأسُ ممَّا في أيدي النَّاسِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا أيِس مِن الشَّيءِ استغنى عنه[604].

7. أن يعلَمَ أنَّ نِعمةَ اللهِ عليه فيما زوى عنه مِن الدُّنيا أعظَمُ مِن نِعمتِه عليه فيما أعطاه منها[605].

8. الرِّضا بالمقسومِ والثِّقةُ بما عندَ اللهِ؛ قال الحَسنُ بنُ حيٍّ: (إنِّي لأُصبِحُ وما عندي دينارٌ ولا دِرهَمٌ ولا رغيفٌ، وكأنَّما حيزَت لي الدُّنيا بحَذافيرِها)[606].

وعن شَقيقٍ قال: كنْتُ شاعِرًا، فرزَقني اللهُ التَّوبةَ، وخرجْتُ مِن ثلاثِمائةِ ألفِ دِرهَمٍ، ولبسْتُ الصُّوفَ عِشرينَ سنةً، ولا أدري أنِّي مُراءٍ حتَّى لقيتُ عبدَ العزيزِ بنَ أبي رُوادٍ، فقال: (ليس الشَّأنُ في أكلِ الشَّعيرِ، ولُبسِ الصُّوفِ، الشَّأنُ أن تعرِفَ اللهَ بقلبِك، ولا تُشرِكَ به شيئًا، وأن ترضى عن اللهِ، وأن تكونَ بما في يدِ اللهِ أوثَقَ منك بما في أيدي النَّاسِ)[607].

9. طَلبُ الرِّزقِ مِن اللهِ، فلا يبقى له حاجةٌ إلى الخَلقِ، وكان بَكرُ بنُ عبدِ اللهِ يقولُ في دُعائِه: (اللَّهمَّ ارزُقْنا رِزقًا يزيدُنا بك عمَّن سِواك غِنًى وتعفُّفًا)[608].

10. سُؤالُ اللهِ غِنى النَّفسِ؛ كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يدعو: "اللَّهمَّ إنِّي أسألُك الهُدى والتُّقى، والعَفافَ والغِنى"[609]، قال القاضي عِياضٌ: (والغِنى: هو غِنى النَّفسِ، والاستِغناءُ عمَّا في أيدي النَّاسِ)[610].

11. عِلمُ العبدِ أنَّ الدُّنيا ظِلٌّ زائِلٌ وخَيالٌ زائِرٌ، نهى اللهُ عن الاغترارِ بها، وسمَّاها مَتاعَ الغُرورِ، {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [الحديد: 20].

12. النَّظرُ في الآخِرةِ، وشَرفِ ما فيها، ودَوامِ نَعيمِها؛ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أحدُكم إصبَعَه هذه في اليمِّ، فلينظُرْ بم ترجِعُ؟"[611].

13. معرفتُه أنَّ زُهدَه لا يمنَعُه شيئًا كُتِب له، وأنَّ حِرصَه لا يجلِبُ له ما لم يُقضَ له ممَّا في أيدي النَّاسِ[612].

14. الأنَفةُ مِن مُشارَكةِ الفُسَّاقِ، ومِن المَنقَصةِ عندَ اللهِ تعالى، والسُّقوطِ مِن عَينَيه[613].

---

[602] تاريخ دمشق لابن عساكر (336 /55)

[603] سير أعلام النبلاء للذهبي (6/ 90)

[604] جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (2/ 892)

[605] المصنف لابن أبي شيبة (7/ 209) (35409)

[606] القناعة لابن أبي الدنيا (ص: 53)

[607] حلية الأولياء لأبي نعيم (8/ 59، 60)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (9/ 314)

[608] القناعة لابن أبي الدنيا (ص: 51)

[609] أخرجه مسلم (2721) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه

[610] إكمال المعلم (8/ 224)

[611] أخرجه مسلم (2858) من حديثِ المستوردِ بنِ شَدَّادٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[612] طريق الهجرتين لابن القيم (ص: 253)

[613] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 19)

15. التَّربيةُ الحَسنةُ والنَّفَقةُ على العِيالِ وتعاهُدُ الأهلِ بالبِرِّ والمعروفِ، وكان أيُّوبُ يقولُ لأصحابِه: (تعاهَدوا أولادَكم وأهليكم بالبِرِّ والمعروفِ، ولا تَدَعوهم يطمَحوا بأبصارِهم إلى ما في أيدي النَّاسِ)[614].

المطلب الثامن: نماذِجُ مِن الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ

أ- نماذِجُ مِن الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ عندَ الأنبياءِ والمُرسَلينَ:

1. قال نوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ} [هود: 29]، أي: لا أسألُكم (على نصيحتي لكم ودِعايتِكم إلى توحيدِ اللهِ، وإخلاصِ العِبادةِ له مَالًا أجرًا على ذلك، فتتَّهِموني في نَصيحتي، وتظُنُّونَ أنَّ فِعلي ذلك طَلَبُ عَرَضٍ مِن أعراضِ الدُّنيا، إنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ (يقولُ: ما ثوابُ نصيحتي لكم ودِعايتِكم إلى ما أدعوكم إليه إلَّا على اللهِ؛ فإنَّه هو الذي يُجازيني ويُثيبُني عليه)[615].

2. وقال هودٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِه: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: 127]، أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجزاءٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أي: ما أرجو ثَوابي إلَّا مِن اللهِ الخالِقِ الرَّازِقِ، المالِكِ المُدبِّرِ لجميعِ العالَمينَ دونَ غَيرِه[616].

3. وكذلك قال صالِحٌ ولوطٌ وشُعَيبٌ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مِثلَ قِيلِ هودٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِه، وأعيدَ ذلك في سورةِ الشُّعراءِ بلَفظٍ واحِدٍ، والفائِدةُ منه بَيانُ أنَّهم كانوا مُتَّفِقينَ على الامتِناعِ مِن أخذِ الأجرِ على الدَّعوى وتبليغِ الرِّسالةِ، وأنَّهم كانوا في رغبةٍ تامَّةٍ عمَّا في أيدي النَّاسِ[617].

4. وكانوا يحترِفونَ {وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [الفرقان: 20] (يتَّبِعونَ المعاشَ في الدُّنيا)[618]، وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ داودَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ كان لا يأكُلُ إلَّا مِن عَمَلِ يَدِه"[619].

ب- نماذِجُ مِن زُهدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أزهَدَ النَّاسِ فيما عندَ النَّاسِ، مُكتفِيًا بالبلاغِ؛ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "اللَّهمَّ ارزُقْ آلَ مُحمَّدٍ قُوتًا"[620]، وقد آتاه اللهُ مفاتيحَ خِزائِنِ الأرضِ، فأبى أن يقبَلَها، واختار الآخِرةَ عليها:

1. قال عُمرُ: "رفعْتُ بَصري في بَيتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فواللهِ ما رأَيتُ فيه شيئًا يرُدُّ البَصرَ غَيرَ أَهَبَةٍ[621] ثلاثةٍ، فقلْتُ: ادعُ اللهَ فليُوسِّعْ على أمَّتِك؛ فإنَّ فارِسَ والرُّومَ وُسِّع عليهم، وأُعطوا الدُّنيا وهُم لا يعبُدونَ اللهَ، وكان مُتَّكِئًا فقال: أوفي شكٍّ أنت يا بنَ الخطَّابِ؟! أولئك قومٌ عُجِّلَت لهم طيِّباتُهم في الحياةِ الدُّنيا"[622].

---

[614] محاضرات الأدباء للراغب (1/ 580)

[615] جامع البيان لابن جرير الطبري (12/ 384، 385)

[616] التفسير المحرر - الدرر السَّنية (228/21)

[617] التفسير البسيط للواحدي (17/ 118، 119)

[618] الكشف والبيان للثعلبي (19/ 69)

[619] أخرجه البخاري (2073) من حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[620] أخرجه البخاري (6460) واللفظ له، ومسلم (1055) من حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[621] جِلدٌ شُرِع في دَبغِه ولم يَكمُلْ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (9/ 288)

[622] أخرجه مطولًا البخاري (2468) واللفظ له، ومسلم (1479)

2. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ما يسُرُّني أنَّ عندي مِثلَ أُحُدٍ هذا ذَهبًا تمضي عليَّ ثالثةٌ وعندي منه دينارٌ إلَّا شيئًا أرصُدُه لدَينٍ، إلَّا أن أقولَ به في عِبادِ اللهِ هكذا وهكذا وهكذا، عن يَمينِه، وعن شِمالِه، ومِن خَلفِه[623]، ثُمَّ مشى، فقال: إنَّ الأكثَرينَ هم الأقَلُّونَ يومَ القِيامةِ، إلَّا مَن قال هكذا وهكذا وهكذا - عن يَمينِه، وعن شِمالِه، ومِن خَلفِه - وقليلٌ ما هُم!"[624].

3. قالت عائِشةُ رضِي اللهُ عنها: "تُوفِّيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وما في بيتي مِن شيءٍ يأكُلُه ذو كَبِدٍ[625] إلَّا شَطرُ شعيرٍ في رَفٍّ لي! فأكَلْتُ منه حتَّى طال عليَّ، فكِلْتُه ففَنِيَ"[626].

4. قالت عائِشةُ رضِي اللهُ عنها: "كان فِراشُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أَدَمٍ[627]، وحَشوُه مِن ليفٍ"[628].

5. عن أنسٍ رضِي اللهُ عنه، قال: "لم يأكُلِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على خِوانٍ حتَّى مات، وما أكل خُبزًا مُرقَّقًا[629] حتَّى مات"[630].

6. عن عائِشةَ قالت: "إنْ كنَّا -آلَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لنمكُثُ شَهرًا ما نستوقِدُ بنارٍ، إن هو إلَّا التَّمرُ والماءُ"[631].

7. عن أنسٍ رضِي اللهُ عنه، قال: "جئْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا، فوجَدْتُه جالِسًا معَ أصحابِه يُحدِّثُهم، وقد عصَب بَطنَه بعِصابةٍ[632]، فقلْتُ لبعضِ أصحابِه: لمَ عصَب رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَطنَه؟ فقالوا: مِن الجوعِ!"[633].

8. وعن عائِشةَ أمِّ المُؤمِنينَ رضِي اللهُ عنها، قالت: "قال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذاتَ يومٍ: يا عائِشةُ، هل عندَكم شيءٌ؟ قالت: فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ، ما عندَنا شيءٌ، قال: فإنِّي صائِمٌ"[634].

ج- نماذِجُ مِن الزُّهدِ عندَ الصَّحابةِ رضِي اللهُ عنهم

مِن صُورِ زُهدِ الصَّحابةِ رضِي اللهُ عنهم فيما في أيدي النَّاسِ:

1. عن أنسٍ رضِي اللهُ عنه، قال: "قدِم عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ المدينةَ، فآخى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَينَه وبَينَ سَعدِ بنِ الرَّبيعِ الأنصاريِّ، فعرَض عليه أن يُناصِفَه أهلَه ومالَه، فقال عبدُ الرَّحمنِ: بارَك اللهُ لك في أهلِك ومالِك، دُلَّني على السُّوقِ، فربِح شيئًا مِن أَقِطٍ وسَمنٍ، فرآه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعدَ أيَّامٍ وعليه وَضَرٌ مِن صُفرةٍ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ

---

[623] أي: إلَّا مَن حرَّك وأعملَ يدَه في صرفِ مالِه في الخيراتِ من جانبِ يمينِه ويسارِه، وخَلفَه وقُدَّامَه؛ يعني: يعطي مَن سألَه ومَن رأى من المحتاجين. والعَرَبُ تجعَلُ القولَ عبارةً عن جميعِ الأفعالِ، وتُطلِقُه على غيرِ الكلامِ، وقَولُه: قال هكذا، أي: أشار بيدِه إشارةً مِثلَ هذه الإشارةِ. يُنظر: ((الكاشف عن حقائق السنن)) للطيبي (5/ 1527)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (2/ 526)

[624] أخرجه البخاري (6444) واللفظ له، ومسلم (94) من حديثِ أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[625] (ذو كَبِدٍ) أي: حيوانٌ، أي: ما معنا طعامٌ، سواءٌ كان ما يأكُلُ الدَّوابُّ أو الإنسانُ. يُنظر: ((الكاشف عن حقائق السنن)) للطيبي (10/ 3317)

[626] أخرجه البخاري (3097) واللفظ له، ومسلم (2973)

[627] أي: جِلدٌ مدبوغٌ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (4/ 273)

[628] أخرجه البخاري (6456) واللفظ له، ومسلم (2082)

[629] الخُبزُ المُرقَّقُ: الخفيفُ، وكأنَّه مَأخوذٌ من المِرقاقِ: وهي الخشَبةُ التي يُرقَّقُ بها. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (3/ 282)

[630] أخرجه البخاري (6450)

[631] أخرجه البخاري (6458)، ومسلم (2972) واللفظ له.

[632] عَصَب بَطنَه، أي: شدَّه لتسكُنَ حرارةُ الجوعِ، والعِصابةُ: التي يُربَطُ بها الرَّأسُ ويُشَدُّ. يُنظر: لمعات التنقيح للدهلوي (6/ 453)

[633] أخرجه مسلم (2040)

[634] أخرجه مسلم (1154)

عليه وسلَّم مَهْيَمْ يا عبدَ الرَّحمنِ؟! قال: يا رسولَ اللهِ، تزوَّجْتُ امرأةً مِن الأنصارِ، قال: فما سُقْتَ فيها؟ فقال: وَزنَ نَواةٍ مِن ذَهبٍ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أولِمْ ولو بشاةٍ"[635].

(وفي الحديثِ أيضًا مَنقبةٌ... لعبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ في تنزُّهِه عن شيءٍ يستلزِمُ الحياءُ والمُروءةُ اجتنابَه ولو كان مُحتاجًا إليه...

وفيه استِحبابُ التَّكسُّبِ وأنْ لا نَقصَ على مَن يتعاطى مِن ذلك ما يليقُ بمُروءةِ مِثلِه، وكراهةُ قَبولِ ما يُتوقَّعُ منه الذُّلُّ مِن هبةٍ وغَيرِها، وأنَّ العيشَ مِن عَملِ المرءِ بتِجارةٍ أو حِرفةٍ أَولى لنَزاهةِ الأخلاقِ مِن العَيشِ بالهبةِ ونَحوِها)[636].

2. عن عامِرِ بنِ سَعدٍ قال: "كان سَعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ في إبلِه، فجاءه ابنُه عُمرُ، فلمَّا رآه سَعدٌ قال: أعوذُ باللهِ مِن شرِّ هذا الرَّاكِبِ، فنزَل، فقال له: أنَزَلْتَ في إبلِك وغَنمِك، وتركْتَ النَّاسَ يتنازَعونَ المُلكَ بَينَهم؟ فضرَب سَعدٌ في صَدرِه، فقال: اسكُتْ! سمعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ العبدَ التَّقيَّ الغَنيَّ الخَفيَّ"[637]، أي: غنيُّ القلبِ، مُستغنٍ باللهِ عن الخَلقِ، ويُؤثِرُ العُزلةَ استِئناسًا باللهِ تعالى[638].

3. عن أبي هُرَيرةَ رضِي اللهُ عنه: "أنَّه مرَّ بقومٍ بَينَ أيديهم شاةٌ مَصليَّةٌ[639]، فدعوه، فأبى أن يأكُلَ، وقال: خرَج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الدُّنيا ولم يشبَعْ مِن خُبزِ الشَّعيرِ!"[640].

قال ابنُ القيِّمِ: (لمَّا رأى نَصارى الشَّامِ الصَّحابةَ، وشاهَدوا هَديَهم وسيرتَهم وزُهدَهم في الدُّنيا، ورَغبتَهم في الآخِرةِ، قالوا: ما الذين صَحِبوا المسيحَ بأفضَلَ مِن هؤلاء!)[641].

4. كما كان الصَّحابةُ يَسعَونَ في طَلبِ الرِّزقِ، ويأكُلونَ مِن عَملِ أيديهم؛ ليَستَغنوا بذلك عمَّا في أيدي النَّاسِ، ولا يكونوا عالةً ولا كَلًّا على غَيرِهم[642].

ومِن ذلك قولُ عائِشةَ رضِي اللهُ عنها: (كان أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عُمَّالَ أنفُسِهم)[643].

ولمَّا استُخلِف أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ قال: (لقد عَلِم قومي أنَّ حِرفتي لم تكنْ تَعجِزُ عن مَؤونةِ أهلي)[644].

د- نماذِجُ مِن الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ عندَ السَّلفِ رضِي اللهُ عنهم:

1. قيل لأبي حازِمٍ: ما مالُك؟ قال: (الثِّقةُ بما في يدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والإياسُ عمَّا في أيدي النَّاسِ)[645].

---

[635] أخرجه البخاري (3937)

[636] فتح الباري لابن حجر (9/ 235)

[637] أخرجه مسلم (2965)

[638] الكاشف للطيبي (10/ 3327)

[639] مَصْليَّةٌ، أي: مَشويَّةٌ. يُنظر: فتح الباري لابن حجر (9/ 550)

[640] أخرجه البخاري (5414)

[641] جامع البيان لابن جرير الطبري (12/ 384)

[642] شرح البخاري لابن بطال (10/ 113)

[643] أخرجه البخاري (2071)

[644] أخرجه البخاري (2070)

[645] المجالسة للدينوري (3/ 337) رقم (963)

ودخَل أبو حازِمٍ على سُلَيمانَ بنِ عبدِ المَلِكِ بالشَّامِ في نَفَرٍ مِن العُلَماءِ، فقال سُلَيمانُ: (يا أبا حازِمٍ، ألَك مالٌ؟ قال: نعَم، لي مالانِ، قال: ما هُما بارَك اللهُ لك؟ قال: الرِّضا بما قسَم اللهُ تعالى، والإياسُ عمَّا في أيدي النَّاسِ، قال سُلَيمانُ: يا أبا حازِمٍ، ارفَعْ إليَّ حاجتَك، قال: هيهاتَ! رفَعْتُها إلى مَن لا تُختزَلُ الحوائِجُ إليه، فما أعطاني شكَرْتُ، وما منَعني صَبَرْتُ)[646].

2. ولمَّا حجَّ الرَّشيدُ دخَل على الفُضَيلِ، فوعَظه بما وعَظه، وأراد الخُروجَ، فقال: يا فُضَيلُ، هل عليك دَينٌ؟ فقال: نعَم، دَينُ ربِّي لو يُحاسِبُني عليه، فالوَيلُ لي إن حاسَبني عليه، والوَيلُ لي إن ناقَشني، فقال الرَّشيدُ: إنِّي أسألُك عن دَينِ العِبادِ، فقال: عندَنا بحَمدِ اللهِ خيرٌ كثيرٌ لا نَحتاجُ معَه إلى ما في أيدي النَّاسِ، قال: هذه ألفُ دينارٍ فاستعِنْ بها، فقال: يا حَسنَ الوَجهِ، أدُلُّك على النَّجاةِ، وتُكافِئُني بالهَلاكِ؟ أسألُ اللهَ التَّوفيقَ، فلمَّا خرَج عاتَبَته بُنيَّتُه، فقالت: لو أخذْتَها فاستَغنَّا بها! فقال: إنَّ مَثلي ومَثلَكم مَثلُ قومٍ كان لهم بَعيرٌ يَكُدُّونَه ويأكُلونَ مِن كَسْبِه، فلمَّا كَبِر وسقَط عن العَملِ نحَروه فأكَلوه[647]!

3. سُئِل أبو عبدِ اللهِ؛ أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ عن الرَّجلِ يَدَعُ العَملَ ويجلِسُ، ويقولُ: (ما أعرِفُ إلَّا ظالِمًا أو غاصِبًا، فأنا آخُذُ مِن أيديهم، ولا أُعينُهم، ولا أُقوِّيهم على ظُلمِهم، قال: ما ينبغي لأحدٍ أن يَدَعَ العَملَ، ويقعُدَ ينتظِرُ ما في أيدي النَّاسِ، أنا أختارُ العَملَ، والعَملُ أحَبُّ إليَّ، إذا جلَس الرَّجلُ ولم يحترِفْ دَعَته نَفسُه إلى أن يأخُذَ ما في أيدي النَّاسِ، وأنا أختارُ للرَّجلِ الاضطِرابَ في طَلبِ الرِّزقِ، والاستِغناءَ عمَّا في أيدي النَّاسِ، وهو عندي أفضَلُ)[648].

4. قال حمَّادُ بنُ زيدٍ: (كنَّا عندَ عَمرِو بنِ دينارٍ، ومعَنا أيُّوبُ، فذكَر عَمرٌو طاوسًا، فقال: ما رأَيتُ رجُلًا أعَفَّ عمَّا في أيدي النَّاسِ منه، فقال لي أيُّوبُ بيدِه: إنَّه لم يَرَ مُحمَّدًا، إنَّه لم يَرَ مُحمَّدًا؛ ابنَ سِيرينَ)[649].

5. كان سُحْنونُ ربَّما وصَل إخوانَه بالثَّلاثينَ دينارًا، وكان لا يقبَلُ مِن أحدٍ شيئًا[650].

المطلب التاسع: حُكمُ الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ

إذا كان الزُّهدُ فيما في أيدي النَّاسِ بتَركِ الحرامِ منه وأكلِه بالباطِلِ، فهو زُهدٌ واجِبٌ، وما دونَ ذلك فهو مندوبٌ .

المطلب العاشر: أخطاءٌ شائِعةٌ حولَ الزُّهدِ فيما في أيدي النَّاسِ

1. ليس المُرادُ مِن الزُّهدِ رَفضَ المالِ مِن المِلكِ؛ فقد كان سُلَيمانُ وداودُ عليهما السَّلامُ مِن أزهَدِ أهلِ زمانِهما، ولهما مِن المالِ والمُلكِ والنِّساءِ ما لهما، وكان عليُّ بنُ أبي طالِبٍ وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ والزُّبَيرُ وعُثمانُ -رضِي اللهُ عنهم- مِن الزُّهَّادِ معَ ما كان لهم مِن الأموالِ، وكان الحَسنُ بنُ عليٍّ رضِي اللهُ عنه مِن الزُّهَّادِ معَ أنَّه كان مِن أغنى النَّاسِ، وكان عبدُ اللهِ بنُ المُبارَكِ مِن الأئمَّةِ الزُّهَّادِ، معَ مالٍ كثيرٍ، وكذلك اللَّيثُ بنُ سَعدٍ مِن أئمَّةِ الزُّهدِ، وكان له رأسُ مالٍ[651]، قال ابنُ القيِّمِ: (الزُّهدُ زُهدُ القلبِ لا زُهدُ التَّركِ مِن اليدِ وسائِرِ الأعضاءِ، فهو تخلِّي القلبِ عنها، لا خُلوُّ اليدِ منها)[652].

---

[646] تاريخ دمشق لابن عساكر (22/ 38)

[647] يُنظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (8/ 105-108)، محاضرات الأدباء للراغب (1/ 618)

[648] الحث على التجارة للخلال (ص: 160)

[649] العلل للإمام أحمد رواية عبد الله (3811)

[650] سير أعلام النبلاء للذهبي (69 /12)

[651] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 15)

[652] المصدر السابق (2/ 19)

2. مِن الصُّوفيَّةِ الذين لا يرَونَ إلَّا عَيبَ المالِ، ويخافونَ مِن شرّه، فيتجرَّدونَ مِن الأموالِ، ويجلِسونَ على بِساطِ الفَقرِ، وقد ورِث أبو عبدِ اللهِ المقَّريُّ مِن أبيه خمسينَ ألفَ دينارٍ سِوى الضِّياعِ والعَقارِ، فخرَج عن ذلك كُلِّه، وأنفَقه على الفُقَراءِ، وقد رُوي مِثلُ هذا عن جماعةٍ كثيرةٍ، وهذا الفِعلُ لا يُلامُ صاحِبُه إذا كان يرجِعُ إلى كِفايةٍ قد ادَّخَرها لنَفسِه، أو إن كانت له صِناعةٌ يستَغني بها عن النَّاسِ، أو كان المالُ عن شُبهةٍ، فتصدَّق به، أمَّا إذا أخرَج المالَ الحلالَ كُلَّه، ثُمَّ احتاج إلى ما في أيدي النَّاسِ، وأفقَر عِيالَه؛ فهو إمَّا أن يتعرَّضَ لِمَنِ الإخوانِ أو لصَدَقاتِهم، أو أن يأخُذَ مِن أربابِ الظُّلمِ والشُّبُهاتِ؛ فهذا هو الفِعلُ المذمومُ المَنهيُّ عنه، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لكَعبِ بنِ مالِكٍ لمَّا أراد أن يتصدَّقَ بمالِه كُلِّه: "أمسِكْ عليك بعضَ مالِك؛ فهو خيرٌ لك"[653]، وقال لسَعدٍ: "إنَّك أن تَذَرَ وَرَثتَك أغنياءَ خيرٌ مِن أن تَذَرَهم عالةً يتكفَّفونَ النَّاسَ"[654].

أمَّا ما جاء أنَّ أبا بكرٍ رضِي اللهُ عنه جاء بكُلِّ مالِه؛ فالجوابُ: أنَّ أبا بكرٍ صاحِبُ مَعاشٍ وتجارةٍ؛ فإذا أخرَج الكُلَّ أمكَنه أن يستدينَ عليه فيتمعيَشَ، فمَن كان على هذه الصِّفةِ لا يُذَمُّ إخراجُه لمالِه.

وإنَّما الذَّمُّ مُتطرِّقٌ إلى مَن يُخرِجُ مالَه وليس مِن أربابِ المعايِشِ، أو يكونُ مِن أولئك إلَّا أنَّه ينقطِعُ عن المَعاشِ، فيبقى كَلًّا على النَّاسِ، يستَعطيهم، ويتعلَّقُ قَلبُه بالخَلقِ، ومتى حُرِّك بابُه نهَض قَلبُه، وقال: رِزقٌ قد جاء!

وهذا أمرٌ قبيحٌ بمَن يقدِرُ على المَعاشِ، وإن لم يقدِرْ كان إخراجُ ما يملِكُ أقبَحَ؛ لأنَّه يتعلَّقُ قلبُه بما في أيدي النَّاسِ، وربَّما ذلَّ لبعضِهم، أو تزيَّن له بالزُّهدِ، وأقلُّ أحوالِه أن يُزاحِمَ الفُقَراءَ والمكافيفَ والزَّمْنى في الزَّكاةِ[655].

المطلب الحادي عشر: تربية الدعاة على الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة

يَجِبُ أَنْ تَرْتَكِزَ تَرْبِيَة الدُّعَاةِ عَلَى القَنَاعَةِ وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ وَمَتَاعِهَا، وَتَرْكِ الِاغْتِرَارِ بها، وَإِيثَارِ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ، وَتَعْزِيزِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وفِي نِعَمِهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [يونُس:58]. ولحديث النبي صلى الله عليه وسلم والذي ذكرناه آنفا: "قَدْ أَفْلَحَ مَن أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بما آتَاهُ".[656]
فَهَذَا النَّوْعُ مِنْ التَّرْبِيَةِ يَجْعَلُ هُمومَ الدّاعيَةِ هَمًّا وَاحِدًا، فَإِذَا اجْتَهَدَ فِيمَا يَنْفَعُهُ فِي آخِرَتِهِ، يُيَسِّرُ اللَّهُ لَهُ مَا أَهَمَّهُ مِنْ دُنْيَاه، كَمَا قَالَ: "مَنْ جَعَلَ الهُمومَ هَمًّا وَاحِدًا كَفَاه اللهُ هَمَّ دُنْيَاه، وَمَن تَشَعَّبَتْ بِهِ الهُمومُ فِي أَحْوالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِها هَلَكَ".[657]

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَه اللَّه: "قَالُوا: وَإِذَا خَلا القَلْبُ مِنْ مُلاحَظَةِ الجَنَّةِ والنّارِ، وَرَجاءِ هَذِهِ وَالهَرَبُ مِنْ هَذِهِ فَتَرَتْ عَزائِمُهُ، وَضَعُفَتْ هِمَّتُهُ، وَوَهى باعِثُهُ، وَكُلَّمَا كَانَ أَشَدَّ طَلَبًا لِلْجَنَّةِ، وَعَمَلًا لَهَا: كَانَ الباعِثُ لَهُ أَقْوَى، والْهِمَّةُ أَشَدَّ، والسَّعْيُ أَتَمَّ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلومٌ بِالْذَوْقِ".[658]

---

[653] أخرجه البخاري (2757)، ومسلم (2769)

[654] أخرجه البخاري (6373) ومسلم (1628)

[655] يُنظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص: 158)، صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: 74، 75)

[656] صحيح مسلم 1054

[657] سُنَنُ ابْنِ مَاجَهُ 257، افْتِتاحُ الكِتابِ، بَابُ الِانْتِفاعِ بِالْعِلْمِ والْعَمَلِ بِهِ وَحَسَّنَهُ الأَلْبانِيُّ.

[658] مَدارِجُ السَّالِكِينَ 79/2

إِنَّ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا شِعارُ صَلاحِ الدّاعيةِ وَمَعْرِفَتِهِ وَشَرَفِهِ وَعُلوِّ هِمَّتِهِ، وَصِدْقِهِ وَعُمومِ بَرَكَتِهِ، والدّاعيةُ اَلْمُتَجَرِّدُ عَنِ الزُّهْدِ كَالْعودِ اَلْمُتَجَرِّدِ عَنِ اللَّحَى، والْعَيْنِ اَلَّتِي لَا تَبْضُ بِقَطْرَةِ مَاءٍ، فَلَيْسَ لَهُ فِي الدَّعْوَةِ أَثَرٌ يُذْكَرُ، أَوْ فِعالٌ تُشْكَرُ؛ لِأَنَّ سِرَّ جَمالِ الدّاعيةِ وَحَيَويَّتِهِ، وَنَشاطِهِ واسْتِقامَتِهِ، وَتَأْثِيرِهِ وَنَفْعِهِ، إِنَّمَا هوَ عَلَى زُهْدِهِ وَإِخْلاصِهِ، والزُّهْدُ هوَ أُسٌّ لِلْإِخْلَاصِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُخْلِصَ إِلَّا زاهِدٌ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَزْهَدُ إِلَّا مُخْلِصٌ.

وَجَاءَ التَّنْبيهُ عَلَى هَذَا الأَمْرِ فِي اَلتَّرْبِيَةِ لِمَا نَرَاه مِنْ انْقِطاعِ لِدُعَاةِ الخَلَفِ عَنْ حَياةِ دُعاةِ السَّلَفِ، واتِّجاهِ طائِفَةٍ، لَيْسَتْ بِالْقَليلَةِ مِنْ دُعاةِ العَصْرِ إِلَى مَقاصِدَ لَيْسَتْ مِنَ الدَّعْوَةِ فِي شَيْءٍ، امْتَطوا صَهْوَتَها جَهْلًا أَوْ تَجاهُلًا؛ لِمَقاصِدِ الدَّعْوَةِ الإِسْلاميَّةِ الشَّريفَةِ، وَالتِماسِهِمْ مُبَرِّراتٍ لَا تَقومُ عَلَى سَاقٍ، فالدُّنْيا عَدُوَّةٌ لِلْإِنْسَانِ، بِغُرورِها ضَلَّ مَنْ ضَلّ، وَبِمَكْرِها زَلَ مَنْ زَل، فَحُبُّها رَأْسُ الخَطَايَا والسَّيِّئاتِ، وَبُغْضُها والزُّهْدُ فِيهَا أَمُّ الطَّاعَاتِ، وَأُسُّ القُرُبَاتِ، وَرَأْسُ المُنْجياتِ.

والدّاعيةُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا بُدَّ أَنْ يكونَ مَحْبُوبًا لَدَى الخَلْقِ؛ حَتَّى يَسْمَعُوا مِنْهُ وَعَظَهُ، والطَّريقُ إِلَى ذَلِكَ هوَ فِي الحَديثِ السّالِفِ الذِّكْرِ، وَهُوَ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللهُ، وازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النّاسِ يُحِبُّكَ النّاسُ".[659]

فَلَا بُدَّ لِلدَّاعِيَةِ مِنْ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنالَ مَحَبَّةَ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنْ أَحَبَّهُ اللهُ سُبْحَانَهُ أَحَبَّهُ الخَلْقُ تَبَعًا لِذَلِكَ، ثُمَّ تَزْدادُ مَحَبَّةُ الخَلْقِ لَهُ عِنْدَمَا يَرَوْنَهُ زَاهِدًا عَمَّا فِي أَيْديهم مِنْ لِعَاعَاتِ الدُّنْيَا، غَيْرَ مُتَطَلِّعٍ إِلَى أَجْرٍ مِنْ مَخْلوقٍ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ أَجْرَهُ مِنْ خالِقِهِ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهَذَا كَانَ دَأْبُ أَسْلافِنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، كَانُوا يَرُدُّونَ عَشَراتِ الْآلَافِ مِنَ الدَّراهِمِ والدَّنانيرَ اَلَّتِي تَأْتِيهِم مِنْ المُلوكِ وَغَيْرِهِمْ، وَسَارَ عَلَى طَريقِهِمْ مِنْ الدُّعاةِ والْعُلَماءِ الكَثير، وَإِنَّمَا يَكْفِي مِنْ القِلادَةِ مَا أَحَاطَ بِاَلْعُنُقِ، والْحَليمُ تَكْفِيه الإِشارَة".[660]

المطلب الثاني عشر: من أروع قصائد الزهد

أَحْوَجُ ما يَحتاجُ إِلَيه الدُعاة هُوَ الزُّهْدُ وهُم أَوْلى بِها مِن غَيْرِهم وتُعَدُ هذه القَصيدة [661] مِن أَروَعِ قَصائِدِ الزُّهدِ والَّتي يَقولُ فِيها إِبراهيمُ بِنُ العَبَّاسِ الصُّولي:

لا تَأْسَفَنَّ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا * * * فَالمَوْتُ لا شَكَّ يُفْنِيْنَا وَيُفْنِيْهَا
وَمَنْ يَكُنْ هَمُّهُ الدُّنْيَا لِيَجْمَعَهَا * * * فَسَوْفَ يَوْمًا عَلَى رَغْمٍ يُخَلِّيْهَا
لا تَشْبَعُ النَّفْسُ مِنْ دُنْيَا تُجَمِّعُهَا * * * وَبُلْغَةٌ مِنْ قِوَامِ العِيْشِ تَكْفِيْهَا
اعمل لِدَارِ البَقَا رِضْوَانُ خَازِنُهَا * * * الجَارُ أَحْمَدُ والرَّحمنُ بَانِيْهَا
أَرْضٌ لَهَا ذَهَبٌ والمِسْكُ طِيْنَتُهَا * * * وَالزَّعْفَرانُ حَشِيْشٌ نَابِتٌ فِيْهَا
أَنْهَارُهَا لَبَنٌ مَحْضٌ وَمِنْ عَسَلٍ * * * والخَمْرُ يَجْرِي رَحِيْقًا فِي مَجَارِيْهَا
وَالطَّيْرُ تَجْرِي عَلَى الأَغْصَانِ عَاكِفَةً * * * تُسَبِّحُ اللهَ جَهْرًا فِي مَغَانِيْهَا
مَنْ يَشْتَرِي قُبَّةً فِي العَدْنِ عَالِيَةً * * * فِي ظِلِّ طُوبى رَفِيْعَاتٍ مَبَانِيْهَا
دَلالُهَا المُصْطَفَى واللهُ بَائِعُهَا * * * وَجِبْرَائِيْل يُنَادِي فِي نَوَاحِيْهَا
مَنْ يَشْتَرِيْ الدَّارَ فِي الفِرْدَوْسِ يَعْمُرُهَا * * * بِرَكْعَةٍ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ يُخْفِيْهَا

---

[659] سُنَنُ ابْنِ مَاجَهُ 4102 وَصَحَّحَهُ الأَلْبانيُّ فِي صحيح الجامِعُ 922

[660] موسوعة الدعوة، تأهل الدعاة، الدكتور محمد العواجي، ص 196-199

[661] انْظَرْ تُرْجَمَتَهُ فِي: سِيَرِ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ 19:161، الْعِبَرُ لِلذَّهَبِيِّ 1/440، مُعَجَّمُ الْأُدَبَاءِ 1/104

أَو سَدِّ جَوْعَةَ مِسْكِينٍ بِشِبْعَتِهِ * * * في يَوْمِ مَسْغَبَةٍ عَمَّ الغَلا فِيْهَا
النَّفْسُ تَطْمَعُ في الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ * * * أَنَّ السَّلامَةَ مِنْهَا تَرْكُ مَا فِيْهَا
وَاللهِ لَو قَنِعَتْ نَفْسِي بِمَا رُزِقَتْ * * * مِنَ المَعِيْشَةِ إلا كَانَ يَكْفِيْهَا
وَاللهِ واللهِ أَيْمَانٌ مُكَرَّرَةٌ * * ** ثَلاثَةٌ عَنْ يَمِيْنٍ بَعْدَ ثَانِيْهَا
لَوْ أَنَ في صَخْرَةٍ صَمَّا مُلَمْلَمَةٍ * * * في البَحْرِ رَاسِيَةٌ مِلْسٌ نَوَاحِيْهَا
رِزْقًا لِعَبْدٍ بَرَاهَا اللهُ لانْفَلَقَتْ * * * حَتَّى تُؤَدِيْ إِلَيْهِ كُلُّ مَا فِيْهَا
أَوْ كَانَ فَوْقَ طِباقِ السَّبْعِ مَسْلَكُهَا * * * لَسَهَّلَ اللهُ في المَرْقَى مَرَاقِيْهَا
حَتَّى يَنَالَ الذِي في اللَّوحِ خُطَّ لَهُ * * * فَإِنْ أَتَتْهُ وإِلا سَوْفَ يَأْتِيْهَا
أَمْوَالُنَا لِذَوِي المِيْرَاثِ نَجْمَعُهَا * * * وَدَارُنا لِخَرَابِ البُومِ نَبْنِيْهَا
لا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ المَوتِ يَسْكُنُهَا * * * إلا التي كانَ قَبْلَ المَوْتِ يَبْنِيْهَا
فَمَنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهُ * * * وَمَنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيْهَا
وَالنَّاسُ كَالحَبِّ والدُّنْيَا رَحَى نُصِبَتْ * * * لِلْعَالَمِيْنَ وَكَفُّ المَوْتِ يُلْهِيْهَا
فَلا الإِقَامَةُ تُنْجِي النَّفْسَ مِنْ تَلَفٍ * ** وَلا الفِرَارُ مِنَ الأَحْدَاثِ يُنجِيْهَا
ولِلنُّفُوسِ وَإِن كَانَتْ عَلَى وَجَلٍ * * * مِن المنيةِ آمَالٌ تُقَوِّيْهَا
فَالمَرْء يَبْسُطُهَا والدَّهْرُ يَقْبِضُهَا * * * وَالبِشْرُ يَنْشُرهَا وَالمَوْتُ يَطْوِيْهَا
وَكُلُّ نَفْسٍ لَهَا زَوْرٌ يُصَبِّحُهَّا * * * مِنَ المَنِيَّةِ يَوْمًا أَوْ يُمَسِّيْهَا
تِلْكَ المَنَازِلُ في الآفَاقِ خَاوِيَةٌ * * * أَضْحَتْ خَرَابًا وَذَاقَ المَوْتَ بَانِيْهَا
كَمْ مِن عَزِيزٍ سَيَلْقَى بَعد عزته * * * ذُلاً وضَاحِكَةٍ يَوْمًا سَيُبْكِيْهَا
وَلِلْمَنَايَا تُرَبِّي كُلُّ مُرضِعَةٍ * * * وَلِلْحِسَاب بَرَى الأَرْوَاحَ بارِيْهَا
لا تَبْرَحَ النَّفْسُ تَنْعَى وهي سَالِمَةٌ * * * حَتَّى يَقُومَ بِنَادِ القَومِ نَاعِيْهَا
وَلَنْ تَزَالَ طِوَالَ الدَّهْرِ ظَاعِنَةً * * * * حَتَّى تُقِيْمَ بِوَادٍ غَيْرِ وَادِيْهَا
أَيْنَ المُلوكُ الَّتِي عَنْ حَظِّهَا غَفَلَتْ * * حَتَّى سَقَاهَا بِكَأْسِ المَوْتِ سَاقِيْهَا
أَفْنَى القُرونَ وَأَفْنَى كُلَّ ذِي عُمُرٍ * * * كَذَلِكَ المَوتُ يُفْنِي كُلَّ مَا فِيْهَا
فَالمَوتُ أَحْدَقَ بِالدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا * * * وَالنَّاسُ في غَفْلَةٍ عَنْ كُلِّ مَا فِيْهَا
لَوْ أَنَّهَا عَقَلَتَ مَاذَا يُرَادُ بِهَا * * * مَا طَابَ عَيْشٌ لَهَا يَوْمًا وَيُلْهِيْهَا
تَجْنِي الثِمَارَ غَدًا في دَارِ مَكْرُمَةٍ * * * لا مَنَّ فِيْهَا وَلا التَّكْدِيْرُ يَأْتِيْهَا
فِيْهَا نَعِيْمٌ مُقِيْمٌ دَائِمًا أَبَدًا * * * بِلا انْقِطَاعٍ وَلا مَن يُدَانِيْهَا
الأُذْنُ وَالعَيْنُ لَمْ تَسْمَعْ وَلَمْ تَرَهُ * * * وَلَمْ يَدُر في قُلُوبِ الخَلْقِ مَا فِيْهَا
فَيَا لَهَا مِنْ كَرَامَاتٍ إِذَا حَصَلَتْ * * * وَيَا لَهَا مِنْ نُفُوسٍ سَوْفَ تَحْوِيْهَا
وَهَذِهِ الدَّارُ لا تَغْرُرْكَ زَهْرَتُهَا * * * فَعَنْ قَرِيْبٍ تَرَى مُعْجِبكَ ذَاوِيْهَا
فَارْبَأْ بِنَفْسُكَ لا يَخْدَعكَ لامِعُهَا * * * مِنَ الزَّخَارِفِ وَاحْذَرْ مِنْ دَوَاهِيْهَا
خَدَّاعَةٌ لَمْ تَدُمْ يَوْمًا عَلَى أَحَدٍ * * * وَلا اسْتَقَرَّتْ عَلَى حَالٍ لَيَالِيْهَا
فَانْظُرْ وَفَكِّرْ فَكَمْ غَرَّتْ ذَوي طَيْشٍ * * وَكَمْ أَصَابَتْ بِسَهْمِ المَوْتِ أَهْلِيْهَا
اعْتَزَّ قَارُونُ في دُنْيَاهُ مِنْ سَفَهٍ * * * وَكَانَ مِنْ خَمْرِهَا يَا قَوْمُ ذَاتِيْهَا

يَبِيْتُ لَيْلَتَهُ سَهْرَانَ مُنْشَغِلاً * * * في أَمْرِ أَمْوَالِهِ في الهَمِّ يَفْدِيْهَا
وَفي النَّهَارِ لَقَدْ كَانَتْ مُصِيْبَتُهُ * * * تَحُزُّ في قَلْبِه حَزًّا فَيُخْفِيْهَا
فَمَا اسْتَقَامَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَلا قَبِلتْ * * * مِنْهُ الودَادَ وَلَمْ تَرْحَمْ مُجِبِّيْهَا
ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى المَعْصُومِ سَيِّدِنَا * * * أَزْكَى البَرِّيةِ دَانِيْهَا وَقَاصِيْهَا

المبحث الثامن: الورع

المطلب الأول معنى الوَرَعِ

- **الوَرَعُ لُغةً:**

(ورع) أصلٌ يدُلُّ على الكَفِّ والانقباضِ، ومنه الوَرَعُ: العِفَّةُ، وهي الكَفُّ عمَّا لا ينبغي، والوَرَعُ: التَّقوى، والتَّحرُّجُ، والكفُّ عن المحارِمِ. مِن وَرِعَ الرَّجُلُ، كوَرِثَ، والوَرِعُ -بكسر الرَّاء-: الرَّجُلُ التَّقيُّ المتحرِّجُ، والوَرَعُ في الأصلِ: الكَفُّ عن المحارِمِ والتَّحرُّجُ منها، ثمَّ استعير للكَفِّ عن المباحِ والحلالِ[662].

- **الوَرَعُ اصطلاحًا:**

- الوَرَعُ هو: (اجتنابُ الشُّبُهاتِ خوفًا من الوقوعِ في المحرَّماتِ)[663].

- وعرَّفه القَرافيُّ بقَولِه: (تَركُ ما لا بأسَ به؛ حذَرًا ممَّا به البأسُ)[664].

- وقال الكَفَويُّ: (الوَرَعُ: الاجتنابُ عن الشُّبُهاتِ، سواءٌ كان تحصيلًا أو غيرَ تحصيلٍ) إذ قد يفعَلُ المرءُ فعلًا تورُّعًا، وقد يتركُه تورعًا أيضًا، ويستعمَلُ بمعنى التقوى، وهو الكفُّ عن المحرَّماتِ القطعيَّةِ[665].

- وقيل: هو تَركُ ما يَريبُك ونَفيُ ما يَعيبُك، والأخذُ بالأوثَقِ[666].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الزُّهْدِ والوَرَعِ

قال ابنُ القَيِّمِ: "والفَرْقُ بينَه وبينَ الوَرَعِ: أنَّ الزُّهْدَ تَركُ ما لا ينفَعُ في الآخرةِ. والوَرَعُ: تَركُ ما يُخشى ضَرَرُه في الآخِرةِ"[667].

وبهذا الاعتبارِ يمكِنُ أن يُقالَ كما قال بعضُ أهلِ العِلمِ بأنَّ الوَرَعَ هو أوَّلُ الزُّهْدِ، كما أنَّ القناعةَ هي أوَّلُ الرِّضا، وعليه فإنَّ المرءَ قد يكونُ وَرِعًا ولا يكونُ زاهِدًا، وأنَّ الزَّاهِدَ لا بدَّ أن يكونَ وَرِعًا؛ لأنَّ الزُّهْدَ أبلَغُ من الوَرَعِ؛ فإنَّ الزَّاهِدَ يَترُكُ المحرَّماتِ ويترُكُ المكروهاتِ والمُشتَبِهاتِ، كما أنَّه يترُكُ المباحاتِ التي يخشى أن تجرَّ إلى المحرَّماتِ، كما يترُكُ التَّوسُّعَ في المباحاتِ، وما لا ينفَعُ في الآخرةِ، فيكتفي بالقليلِ من الدُّنيا ولا يتعلَّقُ بها ولا يتوسَّعُ في حُطامِها، فمن ترك التَّوسُّعَ في هذه المباحاتِ وتقَلَّلَ منها فهو زاهِدٌ، ولا شَكَّ أنَّ من كان بهذه المثابةِ فإنَّه يكونُ قد ترك المكروهاتِ والمُشتَبِهاتِ فضلًا عن المحرَّماتِ[668].

---

[662] يُنظَر: (مقاييس اللغة) لابن فارس، (لسان العرب) لابن منظور، (تاج العروس) للزبيدي

[663] (التعريفات) للجرجاني (ص: 252)

[664] (الفروق) (210/4)

[665] (الكليات) لأبي البقاء (ص: 944)

[666] (التوقيف على مهمات التعاريف) للمناوي (ص: 336)

[667] الفوائد (ص: 181)

[668] أعمال القلوب لخالد بن عثمان السبت (353/1)

المطلب الثالث: التَّرغيبُ في الوَرَعِ والحَثُّ عليه

أ- من السُّنَّةِ النَّبويَّةِ

1- عن النَّوَّاسِ بنِ سَمعانَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: "سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن البِرِّ والإثمِ، فقال: البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ، والإثمُ ما حاك في صَدرِك، وكَرِهتَ أن يطَّلِعَ عليه النَّاسُ"[669].

قال النَّوويُّ: "معنى (حاك في صَدرِك) أي: تحرَّك فيه وتردَّد ولم ينشَرِحْ له الصَّدرُ، وحصَل في القلبِ منه الشَّكُّ وخَوفُ كونِه ذنبًا"[670].

وقال ابنُ عُثَيمين: "أمَّا الإثمُ فهو أنَّ الإنسانَ يتردَّدُ في الشَّيءِ، ويشُكُّ فيه، ولا ترتاحُ له نفسُه، وهذا فيمن نفسُه مطمَئِنَّةٌ راضيةٌ بشرعِ اللهِ، وأمَّا أهلُ الفُسوقِ والفُجورِ فإنَّهم لا يتردَّدون في الآثامِ، تجِدُ الإنسانَ منهم يفعَلُ المعصيةَ مُنشرِحًا بها صَدرُه والعياذُ باللهِ، لا يبالي بذلك، لكِنَّ صاحِبَ الخيرِ الذي وُفِّق للبرِّ هو الذي يتردَّدُ الشَّيءُ في نفسِه، ولا تطمَئِنُّ إليه، ويحيك في صدرِه، فهذا هو الإثمُ، وموقِفُ الإنسانِ من هذا أن يدَعَه، وأن يتركَه إلى شيءٍ تطمَئِنُّ إليه نفسُه، ولا يكونُ في صَدرِه حَرَجٌ منه، وهذا هو الوَرَعُ"[671].

2- وعن الحسَنِ بنِ علي رَضِيَ اللهُ عنهما قال: حَفِظتُ من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يَريبُك؛ فإنَّ الصِّدقَ طُمَأنينةٌ، وإنَّ الكَذِبَ ريبةٌ"[672].

قال ابنُ حَجَرٍ: "قولُه: (يَريبُك). بفتحِ أوَّلِه، ويجوزُ الضَّمُّ، يقال: رابه يَريبُه بالفتح، وأرابه يُريبُه بالضَّمِّ، ريبةً، وهي الشَّكُّ والتَّردُّدُ، والمعنى: إذا شككْتَ في شيءٍ فدَعْه، وترْكُ ما يُشَكُّ فيه أصلٌ عظيمٌ في الوَرَعِ... قال الخطَّابيُّ: كُلُّ ما شككْتَ فيه، فالوَرَعُ اجتنابُه"[673].

3- وعن النَّعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عنهما: قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: "الحلالُ بَيِّنٌ والحرامُ بَيِّنٌ، وبَيْنَهما مُشَبَّهاتٌ لا يعلَمُها كثيرٌ من النَّاسِ، فمن اتَّقى المشَبَّهاتِ استبرأ لدينِه وعرضِه، ومن وقَع في الشُّبُهاتِ كراعٍ يرعى حولَ الحِمى، يوشِكُ أن يواقِعَه، ألا وإنَّ لكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا إنَّ حِمى اللهِ في أرضِه محارِمُه، ألا وإنَّ في الجسَدِ مُضغةً إذا صلَحَت صلَحَ الجسَدُ كُلُّه، وإذا فسَدَت فسَد الجَسَدُ كُلُّه، ألا وهي القَلبُ"[674].

قال الخطَّابيُّ: "هذا الحديثُ أصلٌ في الوَرَعِ، وفيما يلزَمُ الإنسانَ اجتنابُه من الشُّبهةِ والرَّيبِ"[675].

---

669 أخرجه مسلم (2553)

670 شرح النووي على مسلم (16/ 111)

671 شرح رياض الصالحين (3/498-499)

672 أخرجه الترمذي (2518)، وأحمد (1723) واللفظ لهما، والنسائي (5711) مختصرًا. صحَّحه الترمذي، وابن حبان في (صحيحه) (722)، وابن الملقن في (شرح البخاري) (42/14)

673 فتح الباري (52/5)

674 رواه البخاري (52) واللفظ له، ومسلم (1599)

675 معالم السنن (3/ 56)

وقال ابنُ رجَبٍ: (هذا الحديثُ حديثٌ عظيمٌ، وهو أحدُ الأحاديثِ التي مدارُ الدِّينِ عليها، وقد قيل: إنَّه ثلُثُ العلمِ أو ربُعُه... ومعنى الحديثِ: أنَّ اللهَ أنزل كتابَه، وبيَّن فيه حلالَه وحرامَه، وبيَّن النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأمَّتِه ما خفي من دلالةِ الكتابِ على التَّحليلِ والتَّحريمِ، فصَرَّح بتحريمِ أشياءَ غيرِ مصَرَّحٍ بها في الكتابِ، وإن كانت عامَّتُها مستنبَطةً من الكتابِ وراجعةً إليه؛ فصار الحلالُ والحرامُ على قسمينِ:

- **القسم الأول:** ما هو واضحٌ لا خفاءَ به على عمومِ الأمَّةِ؛ لاستفاضتِه بَيْنَهم وانتشارِه فيهم، ولا يكادُ يخفى إلَّا على من نشأ بباديةٍ بعيدةٍ عن دارِ الإسلامِ؛ فهذا هو الحلالُ البَيِّنُ والحرامُ البَيِّنُ.

ومنه: ما تحليلُه وتحريمُه لعينِه؛ كالطَّيِّباتِ من المطاعمِ والمشارِبِ والملابسِ والمناكِحِ، والخبائثِ من ذلك كُلِّه. ومنه: ما تحليلُه وتحريمُه من جِهةِ كَسْبِه؛ كالبيعِ، والنِّكاحِ، والهِبةِ، والهَدِيَّةِ، وكالرِّبا، والقِمارِ، والزِّنا، والسَّرِقةِ، والغَصبِ، والخيانةِ، وغيرِ ذلك.

- **القسمُ الثَّاني:** ما لم ينتَشِرْ تحريمُه وتحليلُه في عمومِ الأمَّةِ؛ لخفاءِ دلالةِ النَّصِّ عليه، ووقوعِ تنازُعِ العُلَماءِ فيه ونحوِ ذلك، فيشتَبِهُ على كثيرٍ من النَّاسِ: هل هو من الحلالِ أو من الحرامِ؟ وأمَّا خواصُّ أهلِ العلمِ الرَّاسِخون فيه فلا يشتبهُ عليهم، بل عندَهم من العلمِ الذي اختصُّوا به عن أكثرِ النَّاسِ ما يستَدِلون به على حِلِّ ذلك أو حُرمتِه، فهؤلاء لا يكونُ ذلك مشتَبِهًا عليهم لوضوحِ حُكمِه عندَهم.

أمَّا من لم يَصِلْ إلى ما وصلوا إليه فهو مشتَبِهٌ عليه؛ فهذا الذي اشتبه عليه إن اتقى ما اشتبه عليه حِلُّه وحِرْمُه، واجتَنَبه فقد استبرأ لدينِه وعرضِه، بمعنى أنَّه طلب لهما البراءةَ ممَّا يشينُهما، وهذا معنى الحديثِ الآخَرِ: "دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يَريبُك"[676]، وهذا هو الوَرَعُ، وبه يحصُلُ كَمالُ التَّقوى)[677].

4- وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "أيُّها النَّاسُ، اتَّقوا اللهَ وأجمِلوا في الطَّلَبِ؛ فإنَّ نفسًا لن تموتَ حتَّى تستوفيَ رِزْقَها وإن أبطأَ عنها، فاتَّقوا اللهَ وأجمِلوا في الطَّلَبِ، خُذوا ما حَلَّ، ودَعُوا ما حَرُمَ"[678].

قوله: (فاتَّقوا اللهَ وأجمِلوا في الطَّلَبِ) أي: اطلُبوا الرِّزقَ طَلَبًا رفيقًا، وبيَّن كيفيَّةَ الإجمالِ بقولِه: (خُذوا ما حلَّ) لكم تناوُلُه، (ودَعوا) اترُكوا (ما حَرُم) عليكم أخذُه، ودَعوا أيضًا ما اشتبه عليكم أمرُه من الشُّبُهاتِ، ومدارُ ذلك على اليقينِ؛ فإنَّه إذا عَلِم أنَّ ما قُدِّر له من الرِّزقِ لا بُدَّ منه عَلِم أنَّ طلَبَه لِما لم يُقَدَّرْ عناءٌ، فيقتَصِرُ ويختَصِرُ ويستريحُ[679].

5- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "اشترى رجلٌ مِن رجُلٍ عَقَارًا له، فوجَد الرَّجُلُ الذي اشترى العَقارَ في عَقارِه جَرَّةً فيها ذَهَبٌ، فقال له الذي اشترَى العَقارَ: خُذْ ذهَبَك مِنِّي، إنَّما اشتريتُ منك الأرضَ، ولم

---

[676] أخرجه الترمذي (2518)، وأحمد (1723) واللفظ لهما، والنسائي (5711) مختصرًا. صحَّحه الترمذي، وابن حبان في ((صحيحه)) (722)، وابن الملقن في ((شرح البخاري)) (42/14)

[677] فتح الباري (52/5)

[678] أخرجه من طرقٍ: ابنُ ماجه (2144) واللفظ له، وابن الجارود في ((المنتقى)) (556)، وابن حبان (3239). صحَّحه ابن حبان، والحاكم على شرط مسلم في ((المستدرك)) (2135)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (2144)

[679] التيسير للمناوي (417/1)، (مرشد ذوي الحجا والحاجة إلى سنن ابن ماجه) للهرري (12/ 365)

أبْتَعْ منك الذَّهَبَ! فقال الذي شَرى الأرضَ: إنَّما بِعتُك الأرضَ وما فيها! فتَحاكما إلى رجُلٍ، فقال الذي تَحاكَما إليه: ألَكُما وَلَدٌ؟ فقال أحدُهما: لي غلامٌ، وقال الآخَرُ: لي جاريةٌ، قال: أنْكِحوا الغُلامَ الجاريةَ، وأنْفِقوا على أنفُسِهما منه، وتَصدَّقا"[680].

(في هذا الحديثِ: تورُّعُ البائِعِ والمشتري، وإنصافُ الحاكِمِ بَيْنَهما، وعَدَمُ طمَعِه)[681].

ب- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- قال أبو الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه: (تمامُ التَّقوى أن يتقيَ اللهَ عزَّ وجَلَّ العبدُ، حتى يتقِيَه في مِثقالِ ذَرَّةٍ، حتى يترُكَ بعضَ ما يرى أنَّه حلالٌ خَشيةَ أن يكونَ حرامًا، يكونُ حاجِزًا بينه وبين الحرامِ)[682].

- وقال الحَسَنُ: (ما زالت التَّقوى بالمتقَّين حتى تركوا كثيرًا من الحلالِ مخافةَ الحرامِ)[683].

- وقال الثَّوريُّ: (إنَّما سُمُّوا المتَّقين؛ لأنَّهم اتَّقَوا ما لا يُتَّقى)[684].

- ورُويَ عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: (إني لأحِبُّ أن أدَعَ بيني وبين الحرامِ سُترةً من الحلالِ ولا أخرِمَها)[685].

- وقال ميمونُ بنُ مِهرانَ: (لا يَسلَمُ للرَّجُلِ الحلالُ حتى يجعَلَ بينَه وبينَ الحرامِ حاجِزًا من الحلالِ)[686].

- وقال سُفيانُ بنُ عُيَينةَ: (لا يصيبُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يجعَلَ بينَه وبينَ الحرامِ حاجِزًا من الحلالِ، وحتى يَدَعَ الإثمَ وما تشابه منه)[687].

- وقال إبراهيمُ بنُ أدهَمَ: (الوَرَعُ تركُ كُلِّ شُبهةٍ، وتَركُ ما لا يَعنيك هو تَركُ الفَضلاتِ)[688].

- وقال إسحاقُ بنُ خَلَفٍ: (الوَرَعُ في المنطِقِ أشَدُّ منه في الذَّهَبِ والفِضَّةِ، والزُّهْدُ في الرِّياسةِ أشَدُّ منه في الذَّهَبِ والفِضَّةِ؛ لأنَّهما يُبذَلانِ في طَلَبِ الرِّياسةِ)[689].

- وقال أبو سُلَيمانَ الدَّارانيُّ: (الوَرَعُ أوَّلُ الزُّهْدِ، والقناعةُ أوَّلُ الرِّضا)[690].

- وقال يحيى بنُ مُعاذٍ: (الوَرَعُ اجتنابُ كُلِّ رِيبةٍ، وتَركُ كُلِّ شُبهةٍ، والوقوفُ مع اللهِ على حَدِّ العِلمِ من غيرِ تأويلٍ)[691].

---

[680] أخرجه البخاري (3472) واللفظ له، ومسلم (1721)

[681] (تطريز رياض الصالحين) لفيصل المبارك (ص: 1037)

[682] رواه ابنُ المبارك في (الزهد) (19/2)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (212/1) واللفظ له، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (160/47)

[683] (الدر المنثور) للسيوطي (61/1)

[684] المصدر السابق، (حلية الأولياء) لأبي نعيم (284/7) وفيه عن سفيانَ بنِ عُيَينةَ رحمه اللهُ.

[685] رواه أحمد في (الورع) (178)

[686] (الورع) لأحمد بن حنبل (ص: 53)، حلية الأولياء لأبي نعيم (84/4)

[687] (الورع) لأحمد بن حنبل (ص: 146)

[688] الرسالة القشيرية (233/1)

[689] الزهد الكبير للبيهقي (ص: 319)، تاريخ دمشق لابن عساكر (205/8)

[690] (الزهد) لابن أبي الدنيا (ص: 159)

[691] الزهد الكبير للبيهقي (ص: 316)

وقال: (الوَرَعُ على وجهين: ورَعٌ في الظَّاهِرِ، ووَرَعٌ في الباطِنِ، أمَّا ورَعُ الظَّاهِرِ فلا يتحَرَّكُ إلَّا للهِ، وأمَّا الباطِنُ فلا يدخُلُ قَلبَك سِواه)[692].

وقال: (من لم ينظُرْ في الدَّقيقِ من الوَرَعِ لم يَصِلْ إلى الجليلِ من العَطاءِ)[693].

- وقال يونُسُ بنُ عُبيدٍ: (الوَرَعُ الخروجُ من كُلِّ شُبهةٍ، ومحاسَبةُ النَّفسِ في كُلِّ طَرفةِ عَينٍ)[694].

وقال سُفيانُ الثَّوريُّ: (ما رأيتُ أسهَلَ من الوَرَعِ؛ ما حاك في نفسِك فاترُكْه!)[695].

- وقال الحَسَنُ: (مثقالُ ذَرَّةٍ من الوَرَعِ خيرٌ من ألفِ مِثقالٍ من الصَّومِ والصَّلاةِ)[696].

- وقال أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: (جُلَساءُ اللهِ تعالى غدًا أهلُ الوَرَعِ والزُّهْدِ)[697].

- وقال بعضُ الصَّحابةِ: (كُنَّا نَدَعُ سَبعينَ بابًا من الحلالِ مخافةَ أن نقَعَ في بابٍ من الحرامِ)[698].

- وقال ابنُ مِسكَوَيهِ: (وأمَّا الوَرَعُ فهو لُزومُ الأعمالِ الجميلةِ التي فيها كمالُ النَّفسِ)[699].

- وقال سُفيانُ: (عليك بالوَرَعِ يُخَفِّفِ اللهُ حِسابَك، ودَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يَريبُك، وادفَعِ الشَّكَّ باليقينِ يسلَمْ لك دينُك)[700].

المطلب الرابع: أقسامُ الوَرَعِ

قال ابنُ تَيميَّةَ: "فأمَّا الوَرَعُ المشروعُ المُستحَبُّ، الذي بعث اللهُ به محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فهو: اتِّقاءُ ما يُخافُ أن يكونَ سَببًا للذَّمِّ والعذابِ عِندَ عَدَمِ المعارِضِ الرَّاجِحِ[701]، ويدخُلُ في ذلك أداءُ الواجباتِ والمشتَبِهاتِ التي تُشبِهُ الواجِبَ، وتَركُ المحرَّماتِ والمُشتَبِهاتِ التي تُشبِهُ الحرامَ، وإن أدخَلْتَ فيها المكروهاتِ قلتَ: نخافُ أن يكونَ سَببًا للنَّقصِ والعذابِ".[702]

1- الوَرَعُ الواجِبُ:

---

[692] المصدر السابق (ص: 318)

[693] الرسالة القشيرية (234/1)

[694] المصدر السابق (235/1)

[695] المصدر السابق

[696] المصدر السابق (236/1)

[697] المصدر السابق

[698] إحياء علوم الدين للغزالي (490/4)، مدارج السالكين لابن القيم (25/2)

[699] تهذيب الأخلاق (ص: 29)

[700] الورع لابن أبي الدنيا (ص: 112)

[701] قال ابنُ تَيميَّةَ: وقولي: (عندَ عَدَمِ المعارِضِ الرَّاجِحِ) فإنَّه قد لا يُترَكُ الحرامُ البيِّنُ أو المشتَبِهُ إلَّا عِندَ تركِ ما هو حسنةٌ موقعُها في الشَّريعةِ أعظَمُ مِن تركِ تلك السَّيِّئةِ، مِثلُ مَن يترُكُ الائتمامَ بالإمامِ الفاسِقِ؛ فيترُكُ الجُمعةَ والجماعةَ والحجَّ والغَزْوَ، وكذلك قد لا يؤدِّي الواجِبَ البيِّنَ أو المشتَبِهَ إلَّا بفعلِ سَيِّئةٍ أعظَمَ إثمًا من تركِه، مثلُ من لا يمكِنُه أداءُ الواجباتِ من الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكرِ لذوي السُّلطانِ، إلَّا بقتالٍ فيه من الفسادِ أعظَمُ من فسادِ ظُلمِه [مجموع الفتاوى (20/137)].

[702] مجموع الفتاوى لابن تَيميَّةَ (138/20، 139)

(وأمَّا الوَرَعُ الواجِبُ: فهو اتِّقاءُ ما يكونُ سَبَبًا للذَّمِّ والعذابِ، وهو فِعلُ الواجبِ وتَركُ المحرَّمِ)[703].

2- الوَرَعُ الفاسِدُ:

قال ابنُ تَيميَّةَ: (كثيرٌ من النَّاسِ تَنفِرُ نفسُه عن أشياءَ لعادةٍ ونحوِها، فيكونُ ذلك ممَّا يقوِّي تحريمَها واشتباهَها عنده، ويكونُ بعضُهم في أوهامٍ وظنونٍ كاذبةٍ، فتكونُ تلك الظُّنونُ مبناها على الوَرَعِ الفاسِدِ، فيكونُ صاحبُه ممَّن قال اللهُ تعالى فيه: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ} [النجم: 23]، وهذه حالُ أهلِ الوَسوَسةِ في النَّجاساتِ؛ فإنَّهم من أهلِ الوَرَعِ الفاسِدِ المركَّبِ من نوعِ دينٍ، وضَعفِ عَقلٍ وعِلمٍ، وكذلك وَرَعُ قومٍ يَعُدُّون غالِبَ أموالِ النَّاسِ محرَّمةً أو مُشتَبِهةً أو كُلَّها، وآل الأمرُ ببعضِهم إلى إحلالِها لذي سُلطانٍ؛ لأنَّه مستَحِقٌّ لها، وإلى أنَّه لا يُقطَعُ بها يَدُ السَّارِقِ، ولا يُحكَمُ فيها بالأموالِ المغصوبةِ! وقد أنكَر حالَ هؤلاء الأئمَّةُ كأحمَدَ بنِ حنبلٍ وغيرِه، وذَمَّ المتنَطِّعين في الوَرَعِ. وقد روى مُسلِمٌ في صحيحِه عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "هلك المتنَطِّعون. قالها ثلاثًا"[704].

ووَرَعُ أهلِ البِدَعِ كثيرٌ منه من هذا البابِ، بل ورعُ اليهودِ والنَّصارى والكُفَّارِ عن واجباتِ دينِ الإسلامِ من هذا البابِ، وكذلك ما ذمَّه اللهُ تعالى في القرآنِ مِن وَرَعِهم عما حرَّموه ولم يحَرِّمْه اللهُ تعالى، كالبَحيرةِ والسَّائبةِ والوَصيلةِ والحامِ. ومن هذا البابِ الوَرَعُ الذي ذمَّه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الحديثِ الذي في الصَّحيحِ، لَمَّا ترخَّص في أشياءَ فبلغه أنَّ أقوامًا تنزَّهوا عنها فقال: (ما بالُ رجالٍ يتنزَّهون عن أشياءَ أترخَّصُ فيها؟! واللهِ إني لأرجو أن أكونَ أعلَمَهم باللهِ وأخشاهم. وفي روايةٍ: أخشاهم وأعلَمَهم بحدودِه له)[705]. ولهذا يحتاجُ المتدَيِّنُ المتوَرِّعُ إلى علمٍ كثيرٍ بالكتابِ والسُّنَّةِ والفِقهِ في الدِّينِ، وإلَّا فقد يُفسِدُ توَرُّعُه الفاسِدُ أكثَرَ ممَّا يُصلِحُه، كما فعَله الكُفَّارُ وأهلُ البِدَعِ من الخوارجِ والرَّوافضِ وغيرِهم. الثَّالثةُ: جهةُ المعارِضِ الرَّاجحِ. هذا أصعَبُ من الذي قبلَه؛ فإنَّ الشَّيءَ قد يكونُ جِهةُ فَسادِه يقتضي تركَه، فيَلحَظُه المتورِّعُ، ولا يلحَظُ ما يعارِضُه من الصَّلاحِ الرَّاجحِ، وبالعَكسِ، فهذا هذا. وقد تبيَّن أنَّ من جعَل الوَرَعَ التَّركَ فقط، وأدخل في هذا الوَرَعِ أفعالَ قومٍ ذوي مقاصِدَ صالحةٍ بلا بصيرةٍ من دينِهم، وأعرَض عما فوَّتوه بورَعِهم من الحَسَناتِ الرَّاجِحةِ، فإنَّ الذي فاته من دينِ الإسلامِ أعظَمُ ممَّا أدركه؛ فإنَّه قد يعيبُ أقوامًا هم إلى النَّجاةِ والسَّعادةِ أقرَبُ)[706].

3- **الوَرَعُ المندوبُ:** وهو الوقوفُ عن الشُّبُهاتِ[707].

4- **الوَرَعُ الذي هو فضيلةٌ:** وهو الكَفُّ عن كثيرٍ من المباحاتِ، والاقتصارُ على أقَلِّ الضَّروراتِ، وذلك للنَّبيِّين، والصِّدِّيقين، والشُّهَداءِ، والصَّالحين[708].

---

[703] المصدر السابق (137/20)

[704] رواه مسلم (2670)

[705] رواه البخاري (6101) عن مَسروقٍ قالت عائشةُ: صنع النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شيئًا فرَخَّص: فيه، فتنزَّه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فخطب فحَمِدَ اللهَ، ثمَّ قال: ((ما بالُ أقوامٍ يتنَزَّهون عن الشَّيءِ أصنعُه؟! فواللهِ إني لأعلمُهم باللهِ وأشَدُّهم له خشيةً)). ورواه مسلم (2356) عن عائشةَ قالت: صنع رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمرًا فترخَّصَ فيه، فبلغ ذلك ناسًا من أصحابِه، فكأنهم كرِهوه وتنزَّهوا عنه. فبلغَه ذلك، فقام خطيبًا فقال: ((ما بالُ رجالٍ بلغَهم عني أمرٌ ترخَّصتُ فيه، فكَرِهوه وتنزَّهوا عنه؟! فواللهِ لأنا أعلَمُهم باللهِ وأشَدُّهم له خشيةً)).

[706] مجموع الفتاوى (20/140-142) بتصرفٍ يسيرٍ.

[707] (الذريعة إلى مكارم الشريعة) للراغب الأصفهاني (ص: 323)

[708] المصدر السابق

المطلب الخامس: فوائِدُ الوَرَعِ

1- يجلِبُ محبَّةَ اللهِ سُبحانَه وتعالى.

2- فيه الاقتداءُ بهَدي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

3- به يطيبُ المطعَمُ والمشرَبُ.

4- أنَّه سَبَبٌ لاستجابةِ الدُّعاءِ.

5- فيه الاستبراءُ للدِّينِ والعِرضِ.

6- أنَّه سِمةٌ من سماتِ العُبَّادِ والصَّالحين.

7- الوَرَعُ سَبَبٌ من أسبابِ كَمالِ التَّقوى.

8- دوامُ مُراقبةِ النَّفسِ.

9- الانشغالُ بعيوبِ النَّفسِ عن عيوبِ الآخَرين.

10- يبلُغُ بالعبدِ إلى الزُّهْدِ في الدَّنيا.

11- العِوَضُ من اللهِ سُبحانَه، فمَن تورَّع عن بعضِ ما لا يليقُ رجاءَ ما عِندَ اللهِ سُبحانَه أو خوفًا منه فتَح اللهُ له أبوابًا من الخَيرِ.

12- التَّوفيقُ للأعمالِ الصَّالحةِ، فمَن تورَّع عن الحرامِ ضَبَط جوارِحَه وأعمالَه.

13- طهارةُ القلبِ ونقاوتُه، فالوَرَعُ يطَهِّرُ دَنَسَ القلبِ كما يُطَهِّرُ الماءُ دَنَسَ الثَّوبِ ونجاستَه[709].

المطلب السادس: درَجاتُ الوَرَعِ

- **قال الهَرَويُّ: (الوَرَعُ على ثلاثِ دَرَجاتٍ:**

الدَّرَجةُ الأُولى: تجنُّبُ القبائحِ لصَونِ النَّفسِ، وتوفيرِ الحسَناتِ، وصيانةِ الإيمانِ.

الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: حِفظُ الحُدودِ عِندَ ما لا بأسَ به، إبقاءً على الصِّيانةِ والتَّقوى، وصعودًا عن الدَّناءةِ، وتخلُّصًا عن اقتحامِ الحُدودِ.

الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: التَّورُّعُ عن كُلِّ داعيةٍ تدعو إلى شَتاتِ الوقتِ، والتَّعلُّقِ بالتَّفرُّقِ، وعارِضٍ يعارِضُ حالَ الجميعِ)[710].

- **وقال الغَزاليُّ: (الوَرَعُ عن الحرامِ على أربعِ درجاتٍ:**

---

[709] (الزهد وصفة الزاهدين) لابن الأعرابي (ص: 43)، (مدارج السالكين) لابن القيم (23/2)، (فيض القدير) للمناوي (487/3)، (أضواء البيان) لمحمد الأمين الشنقيطي (326/3)، (أعمال القلوب) لخالد بن عثمان السبت (387/1-392)، (موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق) لياسر عبد الرحمن (141/1)

[710] مدارج السالكين لابن القيم (22/2)

الأولى: وَرَعُ العُدولِ: وهو الذي يجِبُ الفِسقُ باقتحامِه، وتسقُطُ العدالةُ به، ويثبُتُ اسمُ العصيانِ، والتَّعرُّضُ للنَّارِ بسَبَبِه، وهو الوَرَعُ عن كُلِّ ما تحرِّمُه فتاوى الفُقَهاءِ.

الثَّانيةُ: وَرَعُ الصَّالحين: وهو الامتناعُ عمَّا يتطرَّقُ إليه احتمالُ التَّحريمِ، ولكِنَّ المفتيَ يُرَخِّصُ في التَّناوُلِ بناءً على الظَّاهِرِ، فهو من مواقِعِ الشُّبهةِ على الجملةِ.

الثَّالثةُ: ما لا تحَرِّمُه الفتوى، ولا شُبهةَ في حِلِّه، ولكِنْ يُخافُ منه أداؤه إلى محرَّمٍ، وهو تركُ ما لا بأسَ به مخافةً ممَّا به بأسٌ، وهذا ورعُ المتَّقين.

الرَّابعةُ: ما لا بأسَ به أصلًا، ولا يُخافُ منه أن يؤدِّيَ إلى ما به بأسٌ، ولكِنَّه يُتناوَلُ لغيرِ اللهِ، وعلى غيرِ نيَّةِ التَّقَوِّي به على عبادةِ اللهِ، أو تتطَرَّقُ إلى أسبابِه المُسَهِّلةِ له كراهيةٌ أو معصيةٌ، والامتناعُ منه وَرَعُ الصِّدِّيقينَ)[711].

المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ الوَرَعِ

الوَرَعُ له صُوَرٌ ومظاهِرُ عِدَّةٌ، وقد ذَكَر ابنُ أبي الدُّنيا مظاهِرَ للوَرَعِ؛ منها:

1- الوَرَعُ في النَّظَرِ:

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لعليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه: "لا تُتبِعِ النَّظرةَ النَّظرةَ؛ فإنَّ لك الأولى، وليست لك الآخِرةُ"[712].

عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (إذا مرَّت بك امرأةٌ فغَمِّضْ عينيك حتى تجاوِزَك)[713].

عن داودَ الطَّائيِّ قال: (كانوا يكرَهون فُضولَ النَّظَرِ)[714].

قال عمرُو بنُ مُرَّةَ: (ما أحِبُّ أني بصيرٌ؛ كُنتُ نظَرْتُ نَظرةً وأنا شابٌّ!)[715].

وقال وكيعٌ: خرَجْنا مع سفيانَ الثَّوريِّ في يومِ عيدٍ، فقال: (إنَّ أوَّلَ ما نبدَأُ به في يومِنا غَضُّ أبصارِنا)[716].

2- الوَرَعُ في السَّمعِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "ومن استَمَع إلى حديثِ قومٍ وهم له كارِهونَ -أو يَفِرُّون منه- صُبَّ في أذُنِه الآنُكُ يومَ القيامةِ"[717].

---

[711] إحياء علوم الدين (94/2)

[712] رواه أبو داود (2149)، والترمذي (2777)، وأحمد (22991) من حديثِ بريدةَ بنِ حُصَيبٍ رَضِيَ الله عنه. صحَّحه الحاكم في ((المستدرك)) (2788) وقال: (على شرطِ مُسلمٍ)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2149)، وحسَّنه لغيرِه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (2149)، وقال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ)

[713] رواه ابنُ أبي الدنيا في (الورع) (72)

[714] ((الزهد)) لأحمد بن حنبل (ص: 143)، ((الورع)) لابن أبي الدنيا (ص: 62)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (361/7)

[715] (الورع) لابن أبي الدنيا (ص: 62)

[716] المصدر السابق (ص: 63)

قال ابنُ عُثَيمين: (قال العُلَماءُ: الآثِمُ هو الرَّصاصُ المذابُ، والعياذُ باللهِ... وسواءٌ كانوا يكرهون أن يسمَعَ لغَرَضٍ صحيحٍ أو لغيرِ غَرَضٍ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ يكرَهُ أن يسمَعَه غيرُه ولو كان الكلامُ ما فيه خطأٌ ولا فيه سَبٌّ، ولكن لا يريدُ أنَّ أحدًا يسمَعُه، وهذا يقعُ فيه بعضُ النَّاسِ، تجِدُه مثلًا إذا رأى اثنينِ يتكلَّمان يأخذُ المصحَفَ ويجلس قريبًا منهما، ثمَّ يبدأُ يطالِعُ المصحَفَ كأنَّه يقرأُ، وهو يستَمِعُ إليهما وهما يكرهان ذلك، هذا الرَّجُلُ يُصَبُّ في أذنيه الآنُكُ يومَ القيامةِ، فيُعذَّبُ هذا العذابَ، والعياذُ باللهِ)[718].

وقال الوليدُ بنُ عُتبةَ بنِ أبي سُفيانَ: (كنتُ أسايرُ أبي ورجُلٌ يقَعُ في رجلٍ، فالتفَتَ إليَّ أبي فقال: يا بُنَيَّ نَزِّهْ سَمعَك عن استماعِ الخَنَا كما تُنَزِّهُ لسانَك عن الكلامِ به؛ فإنَّ المستَمِعَ شريكُ القائِلِ، ولقد نظر إلى أخبَثِ ما في وعائِه فأفرَغَه في وعائِك، ولو رُدَّت كَلِمةُ جاهِلٍ في فيه لسَعِدَ رادُّها كما شَقِيَ قائِلُها)[719].

3- الوَرَعُ في الشَّمِّ:

فعن محمَّدِ بنِ سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ قال: (قَدِم على عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه مِسكٌ وعنبَرٌ من البحرينِ، فقال عُمَرُ: واللهِ لوَدِدْتُ أني أجِدُ امرأةً حَسَنةً تَزِنُ لي هذا الطِّيبَ؛ حتى أفرِّقَه بَيْنَ المُسلِمين! فقالت له امرأتُه عاتِكةُ بنتُ زَيدِ بنِ عَمرِو بنِ نُفَيلٍ: أنا جَيِّدةُ الوَزنِ، فهُلَمَّ أزِنُ لك! قال: لا. قالت: ولِمَ؟ قال: إني أخشى أن تأخُذيه هكذا -وأدخَل أصابِعَه في صُدغَيه- وتمسَحين عُنُقَك؛ فأصيبَ فَضلًا عن المُسلِمين!)[720].

وعن عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمه اللهُ (أنَّه أُتِيَ بغنائِمِ مِسكٍ، فأخَذ بأنفِه، فقالوا: يا أميرَ المُؤمِنين: تأخُذُ بأنفِك لهذا! قال: إنما يُنتَفَعُ من هذا بريحِه؛ فأكرَهُ أن أجِدَ ريحَه دونَ المُسلِمين!)[721].

4- الوَرَعُ في اللِّسانِ:

فعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه اطَّلع على أبي بَكرٍ وهو يمُدُّ لِسانَه قال: ما تصنَعُ يا خليفةَ رسولِ اللهِ؟ قال: إنَّ هذا الذي أوردني الموارِدَ[722]!

وعن الحَسَنِ بنِ حَيٍّ قال: (فتَّشتُ عن الوَرَعِ فلم أجِدْه في شيءٍ أقَلَّ منه في اللِّسانِ)[723].

وعن الفُضَيلِ بنِ عِياضٍ قال: (أشَدُّ الوَرَعِ في اللِّسانِ)[724].

وعن يونُسَ بنِ عُبَيدٍ قال: (إنَّك لتَعرِفُ وَرَعَ الرَّجُلِ في كلامِه)[725].

---

[717] رواه البخاري (7042)

[718] شرح رياض الصالحين (6/ 172)

[719] عيون الأخبار لابن قتيبة (2/ 18)

[720] رواه أحمد في ((الزهد)) (623)، وابن شبَّة في ((تاريخ المدينة)) (703/2)

[721] ((الورع)) لابن أبي الدنيا (ص: 74)

[722] رواه أبو يعلى (5)، وابن السني في ((عمل اليوم والليلة)) (7)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (4947) واللفظ له صحَّح إسناده على شرط البخاري الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (71/2)

[723] ((الورع)) لابن أبي الدنيا (ص: 77)، ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (ص: 136)

[724] ((الورع)) لابن أبي الدنيا (ص: 77)

وسُئِل عبدُ اللهِ بنُ المبارَكِ: (أيُّ الوَرَعِ أشَدُّ؟ قال: اللِّسانُ)[726].

5- الوَرَعُ في البَطنِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "أيها النَّاس إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يَقبَلُ إلَّا طيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمرَ المؤمنين بما أمَرَ به المرسَلينَ، فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا} [المؤمنون: 51] ، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: 172] ، ثمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ أشعثَ أغبرَ، يمدُّ يديه إلى السَّماءِ: يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمُه حرامٌ، ومَشرَبُه حرامٌ، ومَلبَسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ؛ فأنَّى يُستجابُ لذلك؟! "[727].

وعن طريفٍ أبي تميمةَ قال: شَهِدتُ صَفوانَ وجُندَبًا وأصحابَهُ وهو يُوصيهم، فقالوا: هل سَمِعتَ مِن رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شيئًا؟ قال أي: جُندَبٌ: سَمِعتُه يقولُ: "مَن سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ به يومَ القيامةِ، قال: ومَن يُشاقِق يَشقُقِ اللهُ عليه يومَ القِيامةِ، فقالوا: أوصِنا، فقال: إنَّ أوَّلَ ما يُنتِنُ مِنَ الإنسانِ بَطنُه، فَمَنِ استَطاعَ أنْ لا يَأكُلَ إلَّا طَيِّبًا فليَفعَل، ومَنِ استَطاعَ أنْ لا يُحالَ بينَهُ وبينَ الجَنَّةِ بِملءِ كَفِّه مِن دَمٍ أهراقَه فَلْيَفعَلْ"[728].

وعن أبي صالحٍ الحنفيِّ قال: (دخَلتُ على أمِّ كُلثومٍ فقالت: ائتوا أبا صالحٍ بطعامٍ، فأتوني بمرقةٍ فيها حبوبٌ، فقُلتُ: أتطعِموني هذا وأنتم أُمَراءُ؟! قالت: كيف لو رأيتَ أميرَ المُؤمنين عَليًّا، وأُتِيَ بأُترُجٍّ[729]، فأخَذ الحسَنُ أو الحُسَينُ منها أُترُجَّةً لصَبيٍّ لهم، فانتَزَعها من يدِه، وقَسَّمها بَيْنَ المُسلِمين!)[730].

6- الوَرَعُ في الفتوى:

كان الصَّحابةُ ومَن بَعدَهم من التَّابعين رَضِيَ اللهُ عنهم يتورَّعون أشَدَّ الوَرَعِ عن الفتوى، فكانوا يدفَعون الفتوى عن أنفُسِهم، ولا يُقدِمون عليها.

فعن البراءِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (لقد رأيتُ ثلاثَمائةٍ من أهلِ بَدرٍ، ما منهم من أحَدٍ إلَّا وهو يحِبُّ أن يَكفيَه صاحِبُه الفتوى)[731].

وقال ابنُ أبي ليلى: (أدركتُ مِئةً وعشرين من الأنصارِ من أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُسأَلُ أحَدُهم المسألةَ، فيَرُدُّها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجِعَ إلى الأوَّلِ، وما منهم من أحَدٍ يحَدِّثُ بحديثٍ أو يُسأَلُ عن شيءٍ إلَّا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه)[732].

وكان ابنُ سِيرينَ إذا سئِل عن شيءٍ من الحلالِ والحرامِ تغيَّرَ لونُه وتبَدَّلَ، حتى كأنَّه ليس بالذي كان[733].

---

[725] ((الورع)) لأحمد بن حنبل (ص: 77)، ((الورع)) لابن أبي الدنيا (ص: 77)

[726] ((الورع)) لابن أبي الدنيا (ص: 77)

[727] رواه مسلم (1015)

[728] رواه البخاري (7152) واللفظ له، ومسلم (2987)

[729] هو نوعٌ من الفاكهة. يُنظَر: ((المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود)) لمحمود السبكي (9/ 205)

[730] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((الورع)) (131)

[731] رواه الخطيب في ((تاريخ بغداد)) (281/8)

[732] الآداب الشرعية لابن مفلح (61/2)

وقال عطاءُ بنُ السَّائِبِ: (أدركتُ أقوامًا إن كان أحَدُهم ليُسأَلُ عن الشَّيءِ فيتكَلَّمُ وإنَّه ليُرعَدُ)[734].

(ورُوِيَ عن مالكٍ أنَّه كان إذا سئِل عن مسألةٍ كأنَّه بَيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ)[735].

وقال أبو حُصَينٍ عُثمانُ بنُ عاصِمٍ: (إنَّ أحدَهم ليُفتي في المسألةِ، ولو وردَت على عُمَرَ بنِ الخطَّابِ لجَمَع لها أهلَ بَدرٍ!)[736].

وكان مالِكٌ إذا سُئِل عن المسألةِ قال للسَّائِلِ: (انصَرِفْ حتى أنظُرَ فيها. فينصَرِفُ ويُرَدِّدُ فيها، فقيل له في ذلك، فبكى وقال: إني أخاف أن يكونَ لي من المسائِلِ يومٌ، وأيُّ يومٍ؟!)[737].

وكان أحمدُ بنُ حنبَلٍ يقولُ: (ربَّما مكثتُ في المسألةِ ثلاثَ سِنينَ قَبلَ أن أعتَقِدَ منها شيئًا!)[738].

7- الوَرَعُ عن الأَكلِ بالدِّينِ:

قال الغزاليُّ: (كان المتوَرِّعون يُوكِلون في الشِّراءِ من لا يُعرَفُ أنَّه وكيلُهم حتَّى لا يتسامحوا في المبيعِ خِيفةً من أن يكونَ ذلك أكلًا بالدِّينِ؛ فإنَّ ذلك مخطَرٌ، والتَّقيُّ خَفِيٌّ لا كالعِلْمِ والنَّسَبِ والفقرِ؛ فينبغي أن يُجتَنَبَ الأخذُ بالدِّينِ ما أمكَنَ)[739].

المطلب الثامن: موانع الوَرَعُ

1- تَركُ مراقبةِ النَّفسِ ومحاسَبتِها.

2- قِلَّةُ العنايةِ بتحَرِّي الحلالِ في الكَسبِ ووُجوهِ جمعِ المالِ.

3- اتِّباعُ الهوى وشَهَواتِ النَّفسِ.

4- عدَمُ التَّردُّدِ في الولوغِ في الآثامِ، وقِلَّةُ المبالاةِ بعواقِبِها.

5- الجَهلُ بخَيرِ الخيرَينِ وشَرِّ الشَّرَّينِ، فيتولَّدُ معه الجَهلُ بحقيقةِ الوَرَعِ وكيفيةِ تحقيقِه.

6- قلَّةُ التَّقوى وضَعفُ اليقينِ؛ فإنَّهما يحجُزانِ العبدَ عن مواقعةِ الحرامِ أو ما فيه شُبهةٌ.

7- التَّأويلاتُ الباطلةُ والمخارِجُ الفاسِدةُ.

8- قلَّةُ الحياءِ من اللهِ سُبحانَه[740].

---

[733] ينظر ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (2/264)، ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (2/353)

[734] ((المعرفة والتاريخ)) للفسوي (817/2)، ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (353/2)

[735] مجموع رسائل ابن رجب (23/1)

[736] يُنظَر: ((المدخل إلى السنن)) للبيهقي (ص: 434)، ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (411/38)

[737] الموافقات للشاطبي (323/5)

[738] مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص: 359)

[739] إحياء علوم الدين (2/ 154)

[740] يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (10/ 513)، ((فيض القدير)) للمناوي (487/3)، ((أضواء البيان)) لمحمد الأمين الشنقيطي (58/6)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (498/3)، ((أعمال القلوب)) لخالد بن عثمان السبت (360/1، 383)

المطلب التاسع: الوسائِلُ المعينةُ على الوَرَعِ

1- أن يَعلَمَ أنَّ الوَرَعَ فيه صيانةُ النَّفسِ عن مواقعةِ الحرامِ، والوقايةُ من التَّلبُّسِ بالشُّبُهاتِ، وفي ذلك سلامةُ دينِه ودُنياه.

2- **أن يَعلَمَ أنَّ الوَرَعَ من أخلاقِ الأنبياءِ والصَّالحين، فيَحرِصَ على الاقتداءِ بهم.**

3- أن يَحرِصَ على العِلمِ الشَّرعيِّ الصَّحيحِ حتى لا يتورَّطَ في التَّلبُّسِ بورعٍ فاسدٍ، ويظُنَّ أنَّه من المحسِنين الوَرِعين.

4- أن يَعلَمَ أنَّ الوَرَعَ أوَّلُ الزُّهْدِ، والزُّهْدُ يبلُغُ به إلى محبَّةِ اللهِ سُبحانَه، وأكرِمْ بها من مَنقبةٍ!

5- أن يراقِبَ رَبَّه سُبحانَه في أقوالِه وأفعالِه وسائرِ أخلاقِه، فيَحمِلَه ذلك على الحياءِ منه سُبحانَه، فلا يتلبَّسَ بما يَكرَهُ.

6- أن يجعَلَ بَينَه وبينَ الشُّبُهاتِ حاجِزًا صيانةً لدينِه وعِرضِه وبراءةً لذِمَّتِه.

7- أن يترُكَ كُلَّ ما رابه من الأمورِ إلى ما لا ريبَ فيه. عن يونُسَ بنِ عُبَيدٍ قال: (عجِبتُ من كَلِمةِ حسَّانَ بنِ أبي سِنانٍ: ما شيءٌ أهوَنَ عندي من الوَرَعِ؛ إذا رابني شيءٌ تركْتُه!)[741].

8- **أن يحاسِبَ نفسَه ويداومَ على ذلك؛ فإنَّ مَن حاسَب نفسَه أصلَح خَلَلَها وعالَجَ فسادَها.**

9- أن يحرِصَ على تذكيرِ نفسِه بضرورةِ التَّخلُّقِ بالوَرَعِ، وإحياءِ الشُّعورِ في نفسِه بأهميَّتِه وذِكرِ خِصالِه النَّافعةِ وآثارِه الجليلةِ.

10- أن يحرِصَ على تحقيقِ التَّقوى واليقينِ في نفسِه؛ فبهما تتحقَّقُ سلامةُ النَّفسِ، وإيثارُ ما عِندَ اللهِ سُبحانَه على ما في هذه الدُّنيا[742].

المطلب العاشر: قِصَصٌ ونماذِجُ من الوَرَعِ

أ- الوَرَعُ عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القُدوةَ في الوَرَعِ، فكان زاهِدًا وَرِعًا، وقد ضَرَب لنا نموذجًا أعلى في الوَرَعِ، فهذا أنَسٌ رَضِيَ اللهُ عنه يحكي لنا مشهَدًا من مشاهِدِ الوَرَعِ، فيقولُ:

- "مرَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتمرةٍ مَسقوطةٍ، فقال: لولا أن تكونَ صَدَقةً لأَكَلْتُها"[743].

(فيه دليلٌ على تحريمِ الصَّدَقةِ على النَّبيِّ -عليه السَّلامُ- مُطلَقًا سواءٌ كانت فرضًا أو تطوُّعًا؛ لعمومِ اللَّفظِ،

وفيه استعمالُ الوَرَعِ؛ لأنَّ هذه التَّمرةَ لا تحرُمُ بمجَرَّدِ الاحتمالِ، لكِنَّ الوَرَعَ تَركُها)[744].

---

[741] أخرجه البيهقي في ((الزهد الكبير)) (845)

[742] يُنظَر: ((الزهد)) لابن أبي الدنيا (ص: 159)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (10/ 513)، ((فتح الباري)) لابن رجب (52/5)، ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: 147-148)، ((أعمال القلوب)) لخالد بن عثمان السبت (381/1-385)

[743] رواه البخاري (2055) واللفظ له، ومسلم (1071) من حديثِ أنسٍ رَضِيَ الله عنه.

[744] نخب الأفكار للعيني (7/ 527)

- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "(إني لأنقلِبُ إلى أهلي، فأجِدُ التَّمرةَ ساقِطةً على فراشي، فأرفَعُها لآكُلَها، ثمَّ أخشى أن تكونَ صَدَقةً؛ فأُلقيها"[745].

(قال المُهَلَّبُ: إنما تركها صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تورعًا وليس بواجبٍ؛ لأنَّ الأصلَ أنَّ كُلَّ شيءٍ في بيتِ الإنسانِ على الإباحةِ حتَّى يقومَ دليلٌ على التَّحريمِ)[746].

فالمحَلُّ الذي رأى فيه التَّمرةَ هو فِراشُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومع ذلك لم يأكُلْها، وذلك أبلغُ في الوَرَعِ[747].

- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه "أنَّ الحَسَنَ بنَ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنهما أخذَ تمرةً من تمرِ الصَّدَقةِ فجَعَلها في فيه، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالفارسيَّةِ: كِخْ، كِخْ[748]! أمَا تَعرِفُ أنَّا لا نأكُلُ الصَّدَقةَ"[749].

- وعن رجُلٍ من الأنصارِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: "خَرَجْنا معَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جِنازةٍ، فرَأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو على القَبرِ يوصي الحافِرَ: أوسِعْ مِن قِبَلِ رِجلَيه، أوسِعْ مِن قِبَلِ رأسِه، فلمَّا رَجَعَ استَقبلَه داعي امرَأةٍ، فجاءَ وجيءَ بالطَّعامِ، فوَضَعَ يَدَه، ثُمَّ وَضَعَ القَومُ فأكَلوا، فنَظَرَ آباؤُنا ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَلوكُ، أي: يمضُغُ[750] لُقمةً في فيه، ثُمَّ قالَ: أجِدُ لَحمَ شاةٍ أُخِذَت بغَيرِ إذنِ أهلِها، فأرسَلَتِ المَرأةُ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي أرسَلتُ إلى البَقيعِ[751] يُشتَرى لي شاةٌ فلم توجَدْ، فأرسَلتُ إلى جارٍ لي قد اشتَرى شاةً أن أَرسِلْ إليَّ بها بثَمَنِها فلم توجَدْ، فأرسَلتُ إلى امرأتِه فأرسَلَت إليَّ بها، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أَطعِميه الأُسارى"[752].

ب- قِصَصٌ ونماذِجُ من الوَرَعِ عِندَ الصَّحابةِ:

• وَرَعُ أبي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه:

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (كان لأبي بَكرٍ غلامٌ يخرِجُ له الخَراجَ، وكان أبو بكرٍ يأكُلُ من خراجِه، فجاء يومًا بشيءٍ، فأكَل منه أبو بكرٍ، فقال له الغلامُ: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكرٍ: وما هو؟ قال: كنتُ تكَهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهليَّةِ، وما أُحسِنُ الكِهانةَ إلَّا أني خدَعْتُه، فلَقِيَني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكَلْتَ منه! فأدخل أبو بكرٍ يَدَه، فقاء كُلَّ شيءٍ في بطنِ)[753].

• وَرَعُ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه:

---

[745] رواه البخاري (2432) واللفظ له، ومسلم (1070)

[746] فتح الباري لابن حجر (294/4)

[747] المصدر السابق (294/4)

[748] هي كَلِمةٌ يُزجَرُ بها الصِّبيانُ عن المستقذَراتِ، فيقالُ له: كِخْ، أي اتركْه وارمْ به، وقيل: هي عجميَّةٌ مُعرَّبةٌ، بمعنى بئِسَ. يُنظَر: شرح النووي على مسلم (7/175)

[749] رواه البخاري (3072) واللفظ له، ومسلم (1069)

[750] يُنظَر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (26/129)

[751] اسمُ مكانٍ متَّسِعٍ كانت فيه سوقُ أهلِ المدينةِ، وهو غيرُ بقيعِ الغَرقَد. يُنظَر: ((الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني)) للساعاتي (147/15)

[752] رواه أبو داود (3332) واللفظ له، وأحمد (22509). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (3332)، وحسَّنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (1490)، وصحَّح إسنادَه النووي في ((المجموع)) (286/5)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (296/5)، وابن حجر في ((التخليص الحبير)) (686/2)

[753] رواه البخاري (3842)

- عن عاصِمِ بنِ عُمَرَ (عن عُمَرَ قال: إنَّه لا أجِدُه يحِلُّ لي أن آكُلَ من مالِكم هذا إلَّا كما كنتُ آكُلُ من صُلبِ مالي: الخُبزُ والزَّيتُ، والخُبزُ والسَّمنُ، قال: فكان ربَّما يؤتى بالجَفنةِ قد صُنِعَت بالزَّيتِ، وممَّا يليه منها سَمنٌ، فيعتَذِرُ إلى القومِ، ويقولُ: إني رجلٌ عربيٌّ، ولستُ أستمري الزَّيتَ!)[754].

- وعن نافعٍ، عن ابنِ عُمَرَ (أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه كان فَرَض للمهاجِرين الأوَّلين أربعةَ آلافٍ في أربعةٍ، وفَرَض لابنِ عُمَرَ ثلاثةَ آلافٍ وخَمسَ مائةٍ، فقيل له: هو من المهاجِرين، فلمَ نقَصْتَه من أربعةِ آلافٍ؟! فقال: إنما هاجَرَ به أبواه، يقولُ: ليس هو كمَن هاجَرَ بنَفْسِه!)[755].

قال ابنُ عُثَيمين: (وهذا يدُلُّ دَلالةً عظيمةً على شِدَّةِ وَرَعِ أميرِ المُؤمِنين عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه. وهكذا يجِبُ على من تولى شيئًا من أمورِ المُسلِمين ألَّا يحابِيَ قريبًا لقُربِه، ولا غنيًّا لغِناه، ولا فقيرًا لفَقرِه، بل ينزِلُ كُلَّ أحدٍ مَنزلتَه، فهذا من الوَرَعِ والعَدلِ، ولم يقُلْ عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ: يا أبتِ، أنا مهاجِرٌ، ولو شِئتُ لبَقيتُ في مكَّةَ، بل وافق على ما فرَضه له أبوه)[756].

• وَرَعُ عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه:

قال يحيى بنُ سَلَمةَ: (استعمل عليٌّ عَمرَو بنَ سَلِمةَ على أصبهانَ، فقَدِم ومعه مالٌ وزِقاقٌ فيها عَسَلٌ وسمنٌ، فأرسَلَت أمُّ كُلثومٍ بنتُ عليٍّ إلى عمرٍو تطلُبُ منه سمنًا وعَسَلًا، فأرسل إليها ظَرفَ عَسَلٍ وظَرفَ سمنٍ. فلمَّا كان الغَدُ خرج عليٌّ وأحضر المالَ والعَسَلَ والسَّمنَ ليُقسَمَ، فعَدَّ الزِّقاقَ فنقَصَت زِقَّينِ، فسألَه عنهما، فكتَمَه وقال: نحن نحضِرُها، فعَزَم عليه إلَّا ذكَرها له، فأخبره، فأرسَلَ إلى أمِّ كُلثومٍ فأخذ الزِّقَّين منها، فرآهما قد نقَصا، فأمَرَ التُّجَّارَ بتقويمِ ما نقَص منهما، فكان ثلاثةَ دراهِمَ، فأرسل إليها فأخَذَها منها ثمَّ قَسَم الجميعَ!)[757].

• ورَعُ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما:

عن قَزَعةَ قال: (رأيتُ على ابنِ عُمَرَ ثيابًا خَشِنةً أو جَشِبةً[758]، فقلتُ له: إني قد أتيتُك بثوبٍ لَيِّنٍ ممَّا يُصنَعُ بخُراسان، وتَقَرُّ عيناي أن أراه عليك! قال: أرِنيه. فلَمَسَه، وقال: أحريرٌ هذا؟ قلتُ: لا، إنَّه من قُطنٍ. قال: إني أخافُ أن ألبَسَه، أخافُ أكونُ مختالًا فخورًا، واللهُ لا يحِبُّ كُلَّ مختالٍ فخورٍ)[759].

وعن طاوُوسَ قال: (ما رأيتُ أورَعَ من ابنِ عُمَرَ)[760].

عن موسى بنِ أنَسٍ عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم افتقد ثابِتَ بنَ قَيسٍ، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنا أعلَمُ لك عِلمَه، فأتاه فوجَده جالسًا في بيتِه، مُنكِّسًا رأسَه، فقال: ما شأنُك؟ فقال: شَرٌّ! كان يرفَعُ صوتَه

---

[754] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((الورع)) (190)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (302/44)

[755] رواه البخاري (3912)

[756] شرح رياض الصالحين (508/3)

[757] يُنظَر: ((الكامل في التاريخ)) لابن الأثير (264/3)

[758] الجَشِبُ: الغليظُ الخَشِنُ. يُنظر: ((الفائق في غريب الحديث)) للزمخشري (1/ 215)

[759] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (302/1)

[760] سير أعلام النبلاء للذهبي (350/3)

فوقَ صوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد حَبِط عَمَلُه، وهو من أهلِ النَّارِ! فأتى الرَّجُلُ فأخبره أنَّه قال كذا وكذا، فقال موسى بنُ أنَسٍ: فرجع المرَّةَ الآخرةَ ببشارةٍ عظيمةٍ، فقال: اذهَبْ إليه، فقُلْ له: إنَّك لستَ من أهلِ النَّارِ، ولكِنْ من أهلِ الجنَّةِ))[761].

- **وَرَعُ عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه:**

عن عُثمانَ بنِ أبي العاتِكةِ (أنَّ عُبادةَ بنَ الصَّامِتِ مرَّ بقريةٍ من قُرى الغوطةِ، فأمر غلامًا أن يقطَعَ له سواكًا من صَفصافٍ على نهرِ بردَى، فمضى، ثمَّ قال: ارجِعْ؛ فإنَّه إلَّا يكُنْ بثَمَنٍ فإنَّه سيَيبسُ فيعودُ حَطَبًا بثَمَنٍ)[762].

- **زينبُ بنتُ جَحشٍ رَضِيَ اللهُ عنها:**

وقد شَهِدت لوَرَعِها عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها، وذلك حين شَهِدت بالحَقِّ في أمرِ الإفكِ المُفْتَرَى، وصانت لسانَها عن الزُّورِ؛ قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها: "وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يسألُ زَينَبَ ابنةَ جَحشٍ عن أمْري، فقال: يا زينبُ، ماذا عَلِمْتِ أو رأيتِ؟ فقالت: يا رَسولَ اللهِ، أحمي سَمْعي وبَصَري، ما عَلِمْتُ إلَّا خيرًا. قالت: وهي التي كانت تُساميني من أزواجِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعَصَمَها اللهُ بالوَرَعِ"[763].

(قولُه: فعَصَمَها اللهُ، أي: حَفِظَها ومنعَها، قولُه: بالوَرَعِ، أي: بالمحافظةِ على دينِها ومجانبةِ ما تخشى سوءَ عاقبتِه)[764].

ج- قِصَصٌ ونماذِجُ من الوَرَعِ عِندَ السَّلَفِ:

- **وَرَعُ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ:**

- عن ابنِ السَّمَّاكِ قال: (كان عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ يقسِمُ تفَّاحًا بَيْنَ النَّاسِ، فجاء ابنٌ له وأخذ تفاحةً من ذلك التُّفَّاحِ، فوثب إليه ففَكَّ يَدَه، فأخذ تلك التُّفاحةَ فطرحها في التُّفَّاحِ! فذهب إلى أمِّه مستغيثًا فقالت له: ما لك أي بُنَيَّ؟ فأخبَرَها، فأرسلت بدرهمينِ فاشترت تفاحًا، فأكَلَت وأطعمَتْه، ورفَعَت لعُمَرَ، فلمَّا فرغ ممَّا بَيْنَ يديه دخل إليها، فأخرجت له طبقًا من تفَّاحٍ، فقال: من أين هذا يا فاطمةُ؟ فأخبرته فقال: رحمكِ اللهُ، واللهِ إنْ كُنتِ لأشتَهيه!)[765].

- وعن فاطِمةَ بنتِ عَبدِ المَلِكِ قالت: (اشتهى عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ يومًا عسَلًا، فلم يكنْ عندنا، فوجَّهْنا رجلًا على دابَّةٍ من دوابِّ البريدِ إلى بَعلَبَكَّ، فأتى بعَسَلٍ، فقُلْنا يومًا: إنَّك ذكَرْتَ عسَلًا وعندنا عَسلٌ، فهل لك فيه؟ قال: نعم. فأتيناه به فشَرِب، ثمَّ قال: من أين لكم هذا العَسَلُ؟ قالت: قلتُ: وجَّهْنا رجلًا على دابَّةٍ من دوابِّ البريدِ بدينارينِ إلى بعلَبَكَّ فاشترى لنا عسَلًا. قالت: فأرسَلَ إلى الرَّجُلِ فجاء، فقال: انطَلِقْ بهذا العَسَلِ إلى السُّوقِ، فبِعْه، فاردُدْ إلينا رأسَ مالِنا، وانظُرِ الفَضلَ، فاجعَلْه في عَلَفِ دوابِّ البريدِ! ولو كان ينفَعُ المُسلِمين قيءٌ لتقيَّأْتُ!)[766].

---

[761] أخرجه البخاري (3613) واللفظ له، ومسلم (119)

[762] أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في ((الأموال)) (420)، وابن زنجويه في ((الأموال)) (628) واللفظ له، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (203/26)

[763] أخرجه البخاري (4750) واللفظ له، ومسلم (2770)

[764] فتح الباري لابن حجر (8/ 478)

[765] ((الورع)) لابن أبي الدنيا (ص: 124)

[766] المصدر السابق

- **وَرَعُ محمَّدِ بنِ سِيرينَ:**

- عن العلاءِ بنِ زيادٍ أنَّه كان يقولُ: (لو كنتُ مُتمنِّيًا لتمنَّيتُ فِقهَ الحَسَنِ، ووَرَعَ ابنِ سِيرينَ، وصوابَ مُطَرِّفٍ، وصلاةَ مُسلِمِ بنِ يَسارٍ)[767].

- وعن عاصِمٍ قال: (سَمِعتُ مُورِّقًا العِجليَّ يقولُ: ما رأيتُ أحدًا أفقَهَ في ورَعِه ولا أورَعَ في فِقهِه من محمَّدِ بنِ سيرينَ. وقال عاصِمٌ: وذُكِر محمَّدٌ عِندَ أبي قِلابةَ، فقال: اصرِفوه كيف شِئتُم، فلتَجِدُنَّه أشدَّكم وَرَعًا، وأملَكَكم لنَفسِه!)[768].

- وقال بَكرُ بنُ عبدِ اللهِ المُزنيُّ: (من أراد أن ينظُرَ إلى أورَعِ مَن أدرَكْنا، فلينظُرْ إلى محمَّدِ بنِ سِيرينَ. وقال هشامُ بنُ حَسَّانَ: كان محمَّدٌ يتَّجِرُ، فإذا ارتاب في شيءٍ تَرَكه)[769].

- وعن هِشامَ بنِ حَسَّانَ: (أنَّ ابنَ سيرينَ اشترى بيعًا مِن مَنُونيا[770]، فأشرَفَ فيه على ربحِ ثمانينَ ألفًا، فعَرَض في قلبه شيءٌ، فتركه. قال هشامٌ: ما هو واللهِ بربًا!)[771].

- وقال محمَّدُ بنُ سعدٍ: (سألتُ الأنصاريَّ عن سببِ الدَّينِ الذي ركِبَ محمَّدَ بنَ سِيرينَ حتى حُبِس؟ قال: اشترى طعامًا بأربعين ألفًا، فأُخبِرَ عن أصلِ الطَّعامِ بشَيءٍ، فكَرِهه، فتركه، أو تصدَّقَ به، فحُبِس على المالِ، حبَسَتْه امرأةٌ، وكان الذي حبَسَه مالكُ بنُ المنذِرِ. وقال هشامٌ: ترك محمَّدٌ أربعين ألفًا في شيءٍ ما يَرَون به اليومَ بأسًا!)[772].

- **وَرَعُ عبدِ اللهِ بنِ المُبارَكِ:**

عن الحسَنِ بنِ عَرفةَ قال: (قال لي ابنُ المبارَكِ: استعرْتُ قَلَمًا بأرضِ الشَّامِ، فذهبتُ على أن أردَّه، فلمَّا قَدِمتُ مَرْوًا نظَرْتُ فإذا هو معي، فرجَعتُ إلى الشَّامِ حتى ردَدْتُه على صاحبِه!)[773].

وقال الحَسَنُ بنُ الرَّبيعِ: (لمَّا احتُضِر ابنُ المبارَكِ في السَّفَرِ، قال: أشتهي سَويقًا. فلم نجِدْه إلَّا عِندَ رجُلٍ كان يعمَلُ للسُّلطانِ، وكان معنا في السَّفينةِ، فذكَرْنا ذلك لعبدِ اللهِ، فقال: دعوه. فمات ولم يَشرَبْه!)[774].

- **وَرَعُ أبي وائلٍ شَقيقِ بنِ سَلَمةَ:**

(كان أبو وائلٍ يقولُ لجاريتِه: إذا جاء يحيى -يعني ابنَه- بشيءٍ فلا تقبَليه، وإذا جاء أصحابي بشيءٍ فخُذيه. وكان ابنُه قاضيًا على الكناسةِ! وكان لأبي وائلٍ -رحمه الله- خُصٌّ من قَصَبٍ، يكونُ فيه هو وفَرَسُه، فإذا غزا نقَضَه وتصدَّق به، فإذا رجَع أنشأ بناءَه).

---

[767] سير أعلام النبلاء للذهبي (4/ 511)

[768] المصدر السابق (4/ 609)

[769] المصدر السابق (4/ 615)

[770] مَنُونيا: قريةٌ من قرى نهرِ الملك، كانت أوَّلًا مدينةً، ولها ذِكرٌ في أخبارِ الفُرسِ، وهي على شاطئِ نهرِ الملك. ((معجم البلدان)) لياقوت الحموي (616/4)

[771] سير أعلام النبلاء للذهبي (4/ 616)

[772] يُنظر: ((الطبقات الكبير)) لابن سعد (9/ 197)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (616/4)

[773] سير أعلام النبلاء للذهبي (8/ 395)

[774] المصدر السابق (8/ 411)

قال الذَّهبيُّ: (قد كان هذا السَّيِّدُ رأسًا في العِلمِ والعَمَلِ)[775].

- **وَرَعُ محمَّدِ بنِ واسِعٍ:**

عن ابنِ شوذَبٍ قال: (كان محمَّدُ بنُ واسِعٍ مع يزيدَ بنِ المهَلَّبِ بخراسانَ غازيًا، فاستأذنه للحَجِّ فأذن له فقال له: نأمُرُ لك؟ قال: تأمرُ به للجيشِ كُلِّهم؟ قال: لا، قال: لا حاجةَ لي به)[776].

- **وَرَعُ زكريَّا بنِ عَديٍّ التَّيميِّ:**

عن أبي يحيى صاعقةٍ، قال: (قَدِم زكريَّا بنُ عَدِيٍّ هاهنا، فكلَّموا له إنسانًا، وكان شُغلُه في ضيعةٍ، وأجرى عليه ثلاثين دِرهمًا، وكره أن يزيدَه فلا يذهَبَ، فلمَّا كان بعد شَهرٍ قَدِم فقُلنا: ما حالُك؟ فقال: ليس أراني أعمَلُ بقَدرِ ما آخُذُ، فاشتكت عينُه فأتاه إنسانٌ بكُحلٍ، فقال: أنت ممَّن يسمعُ الحديثَ؟ قال: نعم، فأبى أن يأخُذَه)[777].

- **وَرَعُ بِشرٍ الحافي وأختِه:**

(قيل: جاءت أختُ بِشرٍ الحافي إلى أحمَدَ بنِ حنبَلٍ وقالت: إنَّا نغزِلُ على سُطوحِنا فتَمُرُّ بنا مشاعِلُ الطَّاهِريَّةِ ويَقَعُ الشُّعاعُ علينا، أفيجوزُ لنا الغزلُ في شُعاعِها؟! فقال أحمدُ: من أنتِ؟ عافاك اللهُ تعالى! فقالت: أختُ بِشرٍ الحافي، فبكى أحمد وقال: مِن بَيتِكم يخرُجُ الوَرَعُ الصَّادِقُ، لا تَغزلي في شُعاعِها)[778].

- **وَرَعُ أحمَدَ بنِ حَنبَلٍ:**

عن أحمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ مسروقٍ قال: قال لي عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ حنبَلٍ: دخل عليَّ أبي رحمه اللهُ في مرضي يعودُني، فقلتُ: يا أبتِ، عندنا شيءٌ قد بقي مما كان يَبَرُّنا به المتوكِّلُ، أفأحُجُّ منه؟ قال: نعم، قلتُ: فإذا كان هذا عندَك هكذا، فلم لم تأخُذْ؟! قال: يا بُنَيَّ، ليس هو عندي حرامٌ، ولكنِّي تنزَّهتُ عنه[779].

وعن جعفَرِ بنِ محمَّدِ بنِ يعقوبَ قال: جاءَ رسولٌ من دارِ أحمَدَ بنِ حنبلٍ إليه يذكُرُ له أنَّ أبا عبدِ الرَّحمنِ عليلٌ واشتهى الزُّبدَ، فناول رجلًا من أصحابِه قطعةً وقال: اشترِ له بها زُبدًا، فجاء به على وَرقِ سلقٍ، فلمَّا أن نظَرَ إليه قال: من أين هذا الوَرَقُ؟ فقال: أخذتُه من عِندَ البقَّالِ، فقال: استأذَنْتَه في ذلك؟ قال: لا، قال: رُدَّه[780].

وعن محمَّدِ بنِ عَيَّاشٍ قال: أرسلني أبو عبدِ اللهِ فاشتريتُ له سَمنًا بقِطعةٍ، فجئتُ به على وَرَقةِ بَقلٍ، فأخذ السَّمنَ وأعطاني الوَرَقةَ، وقال: رُدَّها[781].

---

[775] سير أعلام النبلاء للذهبي (4/ 165)

[776] حلية الأولياء لأبي نعيم (4/ 165)

[777] تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (467/9)

[778] الرسالة القشيرية (1/ 235)

[779] مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص: 347)

[780] المصدر السابق (ص: 354)

[781] المصدر السابق (ص: 353)

وقال أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ: رُبَّما مكثتُ في المسألةِ ثلاثَ سِنينَ قبل أن أعتَقِدَ منها شَيئًا!

وعن أبي بَكرٍ الأثرمِ قال: سمعتُ أحمَدَ بنَ حَنبَلٍ يُستفتى، فيُكثِرُ أن يقولَ: لا أدري، وذلك فيما قد عَرَف الأقاويلَ فيه، وذلك أنَّه يُسألُ عن اختيارِه فيذكُرُ الاختلافَ، ومعنى قولِه: لا أدري، أي: ما أختارُ من ذلك، وربما سمعتُه يقولُ في المسألةِ: لا أدري، ثمَّ يَذكُرُ فيها أقاويلَ[782].

د- قِصَصٌ ونماذِجُ من الوَرَعِ عِندَ العُلَماءِ المتقدِّمين والمتأخِّرين:

• وَرَعُ البُخاريّ:

قال بكرُ بنُ مُنيرٍ: سمِعتُ أبا عبدِ اللهِ البخاريَّ يقولُ: أرجو أن ألقى اللهَ ولا يحاسِبُني أني اغتبتُ أحدًا.

قال الذَّهبيُّ: (صدق -رحمه الله- ومن نظَرَ في كلامِه في الجرحِ والتَّعديلِ عَلِمَ وَرَعَه في الكلامِ في النَّاسِ، وإنصافَه فيمن يضَعِّفُه؛ فإنَّه أكثَرُ ما يقول: مُنكَرُ الحديثِ، سكتوا عنه، فيه نَظَرٌ، ونحوُ هذا، وقَلَّ أن يقولَ: فلانٌ كذَّابٌ، أو كان يَضَعُ الحديثَ، حتى إنَّه قال: إذا قُلتُ: فلانٌ في حديثِه نَظَرٌ، فهو متَّهَمٌ واهٍ، وهذا معنى قولِه: لا يحاسِبُني اللهُ أني اغتبتُ أحدًا، وهذا هو واللهِ غايةُ الوَرَعِ)[783].

وعن محمَّدِ بنِ العبَّاسِ الفِرَبْريّ، قال: كنتُ جالسًا مع أبي عبدِ اللهِ البخاريّ بفِرَبْرَ في المسجدِ، فدفعتُ من لحيتِه قَذاةً مِثلَ الذَّرَّةِ أذكُرُها، فأردتُ أن ألقيَها في المسجِدِ، فقال: ألقِها خارجًا من المسجِدِ[784].

• وَرَعُ أبي إسحاقَ الشِّيرازيّ:

قال أبو سعدٍ السَّمعانيُّ: (جاءته الدُّنيا صاغرةً، فأباها واقتَصَر على خُشونةِ العَيشِ أيَّامَ حياتِه، صَنَّف في الأصولِ والفُروعِ، والخِلافِ والمذهَبِ. وكان زاهِدًا وَرِعًا، متواضِعًا ظريفًا، كريمًا جوادًا، طَلْقَ الوَجهِ دائمَ البِشرِ، مليحَ المحاورةِ)[785].

(وورد أن أبا إسحاقَ كان يمشي، وإذا كَلبٌ، فقال فقيهٌ معه: اخسَأْ! فنهاه الشَّيخُ وقال: لِمَ طرَدْتَه عن الطَّريقِ؟ أمَا عَلِمتَ أنَّ الطَّريقَ بيني وبينه مُشتَرَكٌ؟)[786].

وقال السَّمعانيُّ: (دخل أبو إسحاقَ يومًا مسجِدًا ليتغدَّى، فنسيَ دينارًا، ثمَّ ذَكَر فرجع فوجَده، ففَكَّر وقال: لعلَّهُ وقع من غيري، فتَرَكه!)[787].

---

[782] المصدر السابق (ص: 359)

[783] سير أعلام النبلاء (12/439-441)

[784] المصدر السابق (10/106)

[785] تاريخ الإسلام للذهبي (32/93)

[786] المصدر السابق (32/ 94)

[787] سير أعلام النبلاء للذهبي (18/456)

- **وَرَعُ النَّوَوِيِّ:**

قال الذَّهَبِيُّ: (وكان مع تبحُّرِه في العِلمِ وسَعةِ مَعرفتِه بالحديثِ والفِقهِ واللُّغةِ وغيرِ ذلك بما قد سارت به الرُّكبانُ- رأسًا في الزُّهْدِ، قُدوةً في الوَرَعِ، عديمَ المِثلِ في الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، قانعًا باليسيرِ، راضيًا عن اللهِ واللهُ عنه راضٍ، مقتَصِدًا إلى الغايةِ في مَلبَسِه ومَطعَمِه وإنائِه، تعلوه سكينةٌ وهيبةٌ؛ فاللهُ يرحمُه ويُسكِنُه الجنَّةَ بمَنِّه)[788].

وقال ابنُ كثيرٍ: (كان من الزَّهادةِ والعبادةِ والوَرَعِ والتَّحَرِّي والانجماعِ عن النَّاسِ على جانبٍ كبيرٍ، لا يقدِرُ عليه أحدٌ من الفُقَهاءِ غيرُه)[789].

وقال ابنُ العَطَّارِ: (وكان لا يأكُلُ فاكِهةَ دِمَشقَ، فسألتُه عن ذلك فقال: دِمَشقُ كثيرةُ الأوقافِ وأملاكِ من هو تحت الحَجرِ شَرعًا، والتَّصرُّفُ لهم لا يجوزُ إلَّا على وجهِ الغِبطةِ والمصلحةِ، والمعاملةُ فيها على وَجهِ المساقاةِ، وفيها اختِلافٌ بَيْنَ العُلَماءِ، ومن جوَّزها قال: بشرطِ المصلحةِ والغِبطةِ لليتيمِ والمحجورِ عليه، والنَّاسُ لا يفعلونها إلَّا على جزءٍ من ألفِ جُزءٍ من الثَّمَرةِ للمالكِ، فكيف تطيبُ نفسي بأكلِ ذلك؟!)[790].

- **وَرَعُ ابنِ تَيميَّةَ:**

قال ابنُ القَيِّمِ: (قال لي يومًا شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ -قدَّس اللهُ رُوحَه- في شيءٍ من المباحِ: هذا ينافي المراتِبَ العاليةَ، وإن لم يكُنْ تركُه شرطًا في النَّجاةِ، أو نحوَ هذا من الكلامِ)[791].

وقال أبو حفصٍ البزَّارُ: (كان رَضِيَ اللهُ عنه في الغايةِ التي يُنتهى إليها في الوَرَعِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أجراه مدَّةَ عُمُرِه كُلَّها عليه؛ فإنَّه ما خالَط النَّاسَ في بيعٍ ولا شراءٍ، ولا معاملةٍ ولا تجارةٍ، ولا مشاركةٍ ولا زراعةٍ ولا عمارةٍ، ولا كان ناظِرًا مباشِرًا لمالِ وَقفٍ، ولم يكُنْ يقبَلُ جِرايةً ولا صلةً لنفسه من سُلطانٍ ولا أميرٍ ولا تاجرٍ، ولا كان مدَّخِرًا دينارًا ولا درهمًا ولا متاعًا ولا طعامًا، وإنَّما كانت بضاعتُه مدَّةَ حياتِه وميراثَه بعدَ وفاتِه رَضِيَ اللهُ عنه العِلمَ!)[792].

- **ورَعُ حَسَنِ بنِ عليٍّ باعَلَوي:**

(كان شديدَ الوَرَعِ والزُّهْدِ، مدقِّقًا فيهما، اكترى مرَّةً بعيرًا يحمِلُ عليه طعامًا، فلمَّا بلغ بالحُمولةِ بعضَ الطَّريقِ، بلغه أنَّ ذلك البعيرَ مع صاحبِه حرامٌ، فقال الشَّيخُ لصاحِبِ البعيرِ: خُذِ البعيرَ بما عليه، فأبى المُكري أن يأخُذَ طعامَ الشَّيخِ، فلم يدَعْه الشَّيخُ حَسَن حتى أخَذ الطَّعامَ؛ تورُّعًا أن يأخُذَ شيئًا حُمِل على حرامٍ، وهذا من دقيقِ الوَرَعِ!)[793].

---

[788] العبر في خبر من غبر (3/ 334)

[789] البداية والنهاية (17/ 540)

[790] تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين (ص: 68)

[791] مدارج السالكين (28/2)

[792] الأعلام العلية (ص: 42)

[793] (قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر) للطيب بامخرمة (337/6)

المطلب الحادي عشر: حُكمُ الوَرَعِ

الوَرَعُ على ثلاثةِ أضرُبٍ: (واجبٌ: وهو الإحجامُ عن المحارِمِ، وذلك للنَّاسِ كافَّةً.

ونَدبٌ: وهو الوقوفُ عن الشُّبُهاتِ، وذلك للأوساطِ.

وفضيلةٌ: وهو الكَفُّ عن كثيرٍ من المباحاتِ، والاقتصارُ على أقلِّ الضَّروراتِ، وذلك للمتَّقين من النَّبِيِّين والصِّدِّيقين والشُّهَداءِ والصَّالحين)[794].

والمشروعُ منه (هو الوَرَعُ عمَّا قد تُخافُ عاقبتُه، وهو ما يُعلَمُ تحريمُه، وما يُشَكُّ في تحريمِه وليس في تركِه مفسدةٌ أعظَمُ من فِعلِه)[795].

المطلب الثاني عشر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ الوَرَعِ

1- الامتناعُ عن الطَّيِّباتِ دونَ سَبَبٍ شَرعيٍّ تورُّعًا:

وهذا خطَأٌ؛ قال ابنُ عُثَيمين عِندَ تعرُّضِه لذِكرِ أمرِه سُبحانَه للمُرسَلين بالأكلِ من الطَّيِّباتِ: (يتفرَّعُ على هذا فائدةٌ: ذمُّ من امتنع عن الطَّيِّباتِ بدونِ سَبَبٍ شَرعيٍّ؛ فلو أنَّ إنسانًا بعدَ أن منَّ اللهُ على الأمَّةِ بالغنى وأنواعِ الثِّمارِ والفواكِهِ، قال: أنا لن آكُلَ هذه تورُّعًا لا لعَدَمِ الرَّغبةِ؛ فإنَّه قد أخطأ، وعَمَلُه خِلافُ عَمَلِ السَّلَفِ الصَّالحِ؛ لأنَّ السَّلَفَ الصَّالحَ لَمَّا فتحوا البلادَ صاروا يأكُلون ويَشرَبون أكلًا وشُربًا لا يعرِفونه في عهدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمن امتنع عن الطَّيِّباتِ بغيرِ سَبَبٍ شرعيٍّ فهو مذمومٌ رادٌّ لمنَّةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ عليه، ومن المعلومِ بالعقلِ أنَّ ردَّ مِنَّةِ ذي المنَّةِ إساءةُ أدبٍ؛ فلو أنَّ رجُلًا من الكُرَماءِ أهدى إليك هديَّةً ورَدَدْتَها، فإنَّ هذا يُعتَبَرُ سُوءَ خُلُقٍ وأدَبٍ)[796].

2- ما يَقَعُ من التَّشدُّدِ والغُلُوِّ بدَعوى الوَرَعِ:

وفي هذا يقولُ ابنُ القَيِّمِ: (وأمَّا تعريضُ الأمرِ والنَّهيِ للتشديدِ الغالي فهو كمَن ... يتشدَّدُ في الوَرَعِ الغالي؛ حتى لا يأكُلَ شيئًا من طعامِ عامَّةِ المُسلِمين خشيةَ دُخولِ الشُّبُهاتِ عليه، ولقد دخل هذا الوَرَعُ الفاسِدُ على بعضِ العُبَّادِ الذين نقَص حَظُّهم من العِلمِ، حتى امتنع أن يأكُلَ شيئًا من بلادِ الإسلامِ، وكان يتقوَّتُ بما يُحمَلُ إليه من بلادِ النَّصارى ويَبعَثُ بالقَصدِ لتحصيلِ ذلك! فأوقعه الجهلُ المُفرِطُ والغُلُوُّ الزَّائدُ في إساءةِ الظَّنِّ بالمُسلِمين وحُسنِ الظَّنِّ بالنَّصارى، نعوذُ باللهِ من الخِذلانِ!)[797].

3- الاعتقادُ بأنَّ الوَرَعُ هو من بابِ التَّركِ فقط، فلا وَرَعَ إلَّا في تَركِ الحرامِ:

وهذا اعتقادٌ خطَأٌ، وقد بَيَّنَ ابنُ تَيميَّةَ أنَّه من الجهاتِ التي يَقَعُ الغَلَطُ بسَبَبِها في تحقيقِ الوَرَعِ؛ قال ابنُ تَيميَّةَ: (وهذا يُبتلى به كثيرٌ من المتدَيِّنةِ المتوَرِّعةِ؛ ترى أحدَهم يتورَّعُ عن الكَلِمةِ الكاذبةِ، وعن الدِّرهَمِ فيه شُبهةٌ؛ لكونِه من مالِ ظالمٍ أو معاملةٍ

---

[794] الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص: 227). ويُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (2/998-1001)

[795] مجموع الفتاوى (10/512)

[796] شرح الأربعين النووية (ص: 147-148)

[797] الوابل الصيب (ص: 14)

فاسدةٍ، ويتورَّعُ عن الرُّكونِ إلى الظَّلَمةِ؛ من أجْلِ البِدَعِ في الدِّينِ، وذوي الفُجورِ في الدُّنيا، ومع هذا يتركُ أمورًا واجبةً عليه إمَّا عينًا، وإمَّا كفايةً وقد تعيَّنَت عليه؛ من صِلةِ رحمٍ، وحَقِّ جارٍ، ومسكينٍ وصاحِبٍ، ويتيمٍ وابنِ سبيلٍ، وحِقِّ مُسلمٍ، وذي سُلطانٍ، وذي عِلمٍ، وعن أمرٍ بمعروفٍ، ونهيٍ عن مُنكَرٍ، وعن الجهادِ في سبيلِ اللهِ، إلى غيرِ ذلك ممَّا فيه نفعٌ للخَلقِ في دينِهم ودُنياهم ممَّا وجب عليه، أو يفعَلُ ذلك لا على وجهِ العبادةِ لله تعالى، بل من جهةِ التَّكليفِ ونحوِ ذلك. وهذا الوَرَعُ قد يوقِعُ صاحِبَه في البِدَعِ الكِبارِ؛ فإنَّ وَرَعَ الخوارِجِ والرَّوافِضِ والمعتزلةِ ونحوِهم، من هذا الجنسِ، تورَّعوا عن الظُّلمِ وعمَّا اعتَقَدوه ظُلمًا من مخالطةِ الظَّلَمةِ في زَعمِهم، حتى تركوا الواجباتِ الكِبارَ من الجُمُعةِ والجماعةِ، والحَجِّ والجِهادِ، ونصيحةِ المُسلِمين والرَّحمةِ لهم، وأهلُ هذا الوَرَعِ ممَّن أنكر عليهم الأئمَّةُ، كالأئمَّةِ الأربعةِ، وصار حالُهم يُذكَرُ في اعتقادِ أهلِ السَّنةِ والجماعةِ)[798].

4- أن يلحَظَ المتورِّعُ جهةَ فَسادِ الشَّيءِ ممَّا يقتضي تركَه ويَغفُلُ عمَّا يعارِضُه من الصَّلاحِ الرَّاجِحِ:

وهذا خطأٌ[799]. قال ابنُ تَيميَّةَ: (تمامُ الوَرَعِ أن يعلَمَ الإنسانُ خَيرَ الخيرَينِ وشَرَّ الشَّرَّينِ، ويعلَمَ أنَّ الشَّريعةَ مبناها على تحصيلِ المصالحِ وتكميلِها، وتعطيلِ المفاسِدِ وتقليلِها، وإلَّا فمن لم يوازِنْ ما في الفِعلِ والتَّركِ من المصلحةِ الشَّرعيَّةِ والمفسدةِ الشَّرعيَّةِ، فقد يدَعُ واجباتٍ ويفعَلُ محرَّماتٍ، ويرى ذلك من الوَرَعِ كمن يَدَعُ الجهادَ مع الأمراءِ الظَّلَمةِ ويرى ذلك وَرَعًا، ويَدَعُ الجُمُعةَ والجماعةَ خَلفَ الأئمَّةِ الذين فيهم بدعةٌ أو فجورٌ، ويرى ذلك من الوَرَعِ، ويمتَنِعُ عن قبولِ شهادةِ الصَّادِقِ وأخْذِ عِلمِ العالِمِ؛ لِما في صاحِبِه من بدعةٍ خفيَّةٍ، ويرى تَركَ قَبولِ سماعِ هذا الحقِّ الذي يجبُ سماعُه، من الوَرَعِ)[800].

المطلب الثالث عشر: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **ما لا مَدخَلَ للوَرَعِ فيه:**

لا مَدخَلَ للوَرَعِ فيما لا مَضرَّةَ فيه، أو كان فيه مضرَّةٌ قليلةٌ مرجوحةٌ، ويقترنُ به منافعُ عظيمةٌ تُهدَرُ في جانِبِها تلك المضَرَّةُ اليسيرةُ، فلا توجَدُ مصلحةٌ خالصةٌ من كُلِّ وجهٍ، كما أنَّه لا توجَدُ مَفسَدةٌ خالصةٌ من كُلِّ وَجهٍ، وإنما العبرةُ بما غَلَب.

قال ابنُ تَيميَّةَ: (وأمَّا الوَرَعُ عمَّا لا مضرَّةَ فيه أو فيه مضَرَّةٌ مرجوحةٌ -لِما تقترنُ به من جَلبِ منفعةٍ راجحةٍ، أو دَفعِ مضَرَّةٍ أخرى راجِحةٍ- فجَهلٌ وظُلمٌ. وذلك يتضَمَّنُ ثلاثةَ أقسامٍ لا يتورَّعُ عنها: المنافِعُ المكافئةُ، والرَّاجحةُ، والخالِصةُ؛ كالمباحِ المحضِ، أو المستحَبِّ، أو الواجِبِ؛ فإنَّ الوَرَعَ عنها ضلالةٌ)[801].

وقال أيضًا: (فأمَّا ما لا رَيبَ في حِلِّه فليس تركُه من الوَرَعِ، وما لا رَيبَ في سُقوطِه فليس فِعلُه من الوَرَعِ)[802].

---

[798] مجموع الفتاوى (137/20)

[799] المصدر السابق (142/20)

[800] المصدر السابق (10/ 513)

[801] المصدر السابق (616/10)

[802] المصدر السابق (137/20)

- **قَبولُ الرُّخصةِ لا يقدَحُ في الوَرَعِ:**

قال البقاعيُّ في قَولِه تعالى {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} [التحريم: 2]: (عَبَّرَ بالفرضِ؛ حَثًّا على قبولِ الرُّخصةِ؛ إشارةً إلى أنَّ ذلك لا يقدَحُ في الوَرَعِ، ولا يخِلُّ بحرمةِ اسمِ اللهِ؛ لأنَّ أهلَ الهِمَمِ العوالي لا يحبُّون النُّقلةَ من عزيمةٍ إلى رُخصةٍ، بل من رُخصةٍ إلى عزيمةٍ، أو عزيمةٍ إلى مِثْلِها)[803].

- **ليس من الوَرَعِ الخروجُ من كُلِّ خِلافٍ:**

قال العِزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ: (ليس من الوَرَعِ الخروجُ من كُلِّ خلافٍ، وإنما الوَرَعُ الخروجُ من خلافٍ يقارِبُ أدلَّتَه ومأخَذَه)[804].

- **مراتِبُ النَّاسِ في الوَرَعِ:**

إذا كان الوَرَعُ على مراتِبَ فكذلك النَّاسُ فيه على مراتِبَ، وهي المذكورةُ في قولِه تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [فاطر: 32].

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وهو مَن وقَع في بعضِ الحرامِ، أو تَرَك بعضَ الواجِبِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وهو مَن لزِمَ الواجِبَ وتَرَك المحرَّمَ، دونَ فِعلِ المستحَبِّ أو اجتنابِ المكروهِ أو المتشابهِ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وهذا هو الذي ترَك الحرامَ وتَرَك المكروهَ والمُشتَبَهَ، وَفَعل الواجِبَ والمستحَبَّ؛ فهذه مراتبُ النَّاسِ في هذا البابِ)[805].

- **من دقيقِ الوَرَعِ:**

قال ابنُ القَيِّمِ: (من دقيقِ الوَرَعِ ألَّا يقبَلَ المبذولَ حالَ هَيَجانِ الطَّبعِ مِن حُزنٍ أو سرورٍ؛ فذلك كبَذلِ السَّكرانِ، ومعلومٌ أنَّ الرَّأيَ لا يتحقَّقُ إلَّا مع اعتدالِ المِزاجِ، ومتى بَذَل باذِلٌ في تلك الحالِ يَعقُبُه نَدَمٌ، ومِن هنا لا يقضي القاضي وهو غَضبانُ، وإذا أردتَ اختبارَ ذلك فاختَبِرْ نفسَك في كُلِّ مواردِك من الخيرِ والشَّرِّ؛ فالبِدارُ بالانتقامِ حالَ الغَضَبِ يُعقِبُ نَدَمًا، وطالما نَدِم المسرورُ على مجازفتِه في العطاءِ، وودَّ أنْ لو كان اقتَصَر!)[806].

---

[803] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (183/20)

[804] شجرة المعارف والأحوال (ص: 310)

[805] أعمال القلوب لخالد بن عثمان السبت (368/1)

[806] بدائع الفوائد (136/3)

المبحث التاسع: اليقين

المطلب الأول: بيان معنى اليقين وحقيقته

- **اليقين لغة:**

اليقين مشتق من الفعل يَقِنَ وأيقن يوقن إيقانًا، ويِيقن يقنًا ويقينًا، فهو موقن.

واليقين نقيض الشك، فهو العلم وتحقيق الأمر وإزاحة الشك، فكما أن العلم نقيض الجهل، فكذلك اليقين نقيض الشك، يقال: علمته يقينًا، أي علمًا لا شك فيه[807].

والعرب تسمي اليقين ظنًا والشك ظنًا، ومنه قوله تعالى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا} [الكهف: 53] أي: فأيقنوا أنهم مواقعوها[808].

بل قال مجاهد رحمه الله: "كُلُّ ظَنٍّ في القرآن فهو علمٌ ويقينٌ"[809]، ولكن هذا مُشْكِلٌ في جَمْعٍ من آي القرآن الكريم، فإن قيل: حيث وُجد الظنُّ محمودًا مثابًا عليه فهو يقين، وحيث وُجد مذمومًا متوعدًا عليه بالعذاب فهو شك؛ لكان أولى بالصواب.

وقال الجوهري: "اليقين: العلم وزوال الشك، يُقال: منه يقنت الأمر يقنًا واستيقنت، وأيقنت، وتيقنت، كله بمعنى واحد، أنا على يقين منه ...، وربما عبَّروا عن الظن باليقين وبالظن عن اليقين"[810].

وقال الراغب الأصفهاني: "اليقين من صفةِ العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يُقال: علم يقين، ولا يُقال: معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم"[811].

- **اليقين اصطلاحًا:**

هو اليقين الجازم بعلمٍ وطمأنينة واستقرارٍ نفس، بكل ما جاء في الكتاب والسنة عن الله تعالى، يقينًا يدفع المرءَ إلى العبودية لله تعالى، مع حرص شديد على إخلاص النية له سبحانه، واتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

أو تقول: هو أن تتيقن بكل ما ورد من الحق، فيكون عندك كالشاهد.

فاليقين هو إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه، وهو العلم الجازم الذي لا شك فيه، المؤدي إلى استقرار القلب وطمأنينته، الدافع إلى العمل، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "اليقينُ هو طمأنينةُ القلبِ، واستقرارُ العلمِ فيه، وضدُّ اليقينِ الريبُ، وهو نوعٌ من الحركةِ والاضطرابِ"[812]، ويقول السعدي: "اليقينُ هو العلمُ التامُّ الذي ليس فيه أدنى شكٍّ، الموجبُ للعملِ"[813].

---

[807] انظر: لسان العرب لابن منظور، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس، والصحاح للجوهري.

[808] تفسير السعدي، ص (480)

[809] انظر: تفسير الطبري (1/206/207)، وتفسير ابن كثير (1/88)، وصحح إسنادَه ابنُ كثير رحمه الله.

[810] الصحاح

[811] المفردات، ص (892)

[812] مجموع فتاوى ابن تيمية (3/329)

[813] تفسير السعدي، ص (41)

نقل ابن قيّم الجوزية رحمه الله عن الخاصَّة مِنْ أهل العِلم في "المدارج" زُمرةً من التعريفات لليقين، وإنْ كانتْ هذه التعريفاتُ متباينةً من حيث المبنَى، إلا أنها متحِدة من حيثُ المعنى، ومن ذلك:

قول الجُنَيْد: "اليقين هو استقرارُ العِلْم الذي لا ينقلِب ولا يُحوَّل ولا يتغيَّر في القلْب".

وقول ذي النون: "اليقين هو النَّظرُ إلى الله في كلِّ شيء، والرُّجوع إليه في كلِّ أمر، والاستعانة به في كلِّ حالٍ"[814].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: "الْيَقِينُ أَنْ لَا تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَلَا تَحْمَدَ أَحَدًا عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَلَا تَلُمْ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ عز وجل، فَإِنَّ الرِّزْقَ لَا يَسُوقُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ، فَإِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِقِسْطِهِ وَعِلْمِهِ وَحِلْمِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَجَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ"[815].

وَقَالَ أَيْضًا: "اليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ"[816]، وعَنْه أيضًا قَالَ: "الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ"[817].

وقد نَحَى العلامةُ السعدي - رحمه الله - مَنْحَى آخر، فعدَّ اليقين أخص من العلم؛ فقال: "اليقينُ أخصُّ من العلمِ بأمرين؛ أحدهما: أنه العلمُ الراسخُ القويُّ الذي ليس عرضةً للريبِ والشكِّ، والأمر الثاني: أن اليقينَ هو العلمُ الذي يحملُ صاحبَه على الطمأنينةِ بخبرِ اللهِ تعالى، والطمأنينةِ بذكرِ اللهِ تعالى، والصبرِ على المكارِه، والقوةِ في أمرِ اللهِ، والشجاعةِ القوليةِ والفعليةِ، والاستحلاءِ للطاعات، وأن يهونَ على العبدِ في ذاتِ اللهِ المشقاتُ والمكارِهُ"[818].

المطلب الثاني: الفرق بين اليقين وغيره من الصفات

أولا: الفرق بين العلم وبين اليقين[819]:

إنَّ العلم قد لا يحمل صاحبه على العمل والامتثال، وقد لا يصير العبد بهذا العلم بمنزلة المشاهد للحقائق الغيبية، فقد يعلم باليوم الآخر، ولكن هذا العلم قد يضعف في قلبه، وقد تعتريه في بعض الأحيان بعض الشكوك، وبعض الشبهات، فتؤثر عليه. وأما إذا كان اليقين مستقرا في القلب، فلا طريق للشبه، ولا طريق للأمور المشككة، وإنما هو اعتقاد جازم راسخ، لا يقبل التشكيك بحال من الأحوال، ولهذا يقولون: "العلم يعارضه الشكوك واليقين لا شك فيه".

ونحن نعلم أن العلم يتفاوت كما أن الإيمان يتفاوت، فعلمك بخبر المخبر أن فلانا قد قدم من سفره إذا كان هذا المخبر ثقة، فإن هذا يورث علما في القلب، فإذا جاءك آخر ممن تثق به وأخبرك أن فلانا قد قدم من السفر، فإن هذا العلم قد ازداد مع أن العلم حصل من أول مرة، ثم إذا صادفت العشرات وأخبروك أن فلانا قد قدم من السفر، فإن ذلك يصير راسخا قد لا يقبل التشكيك بحال من الأحوال. أما خبر المخبر الأول -مع أنه ثقة- فإنه قد يقبل التشكيك، فلو جاءك إنسان آخر وقال: أنا أعلم أنه لم يأت، وأن الخبر الذي وصلك بمجيئه لا حقيقة له؛ فإن هذا يزعزع هذا المعلوم، أما إذا وصل هذا العلم في قلبك إلى مرتبة اليقين فإنه لا يقبل التشكيك.

---

[814] مدارج السالكين، ابن القيم، (2/125)، مكتبة الصفا، القاهرة، ط 2004.

[815] اليقين، ابن أبي الدنيا، ص (47)

[816] أورده البخاري (1/10)

[817] السنة، أبو بكر الخلال، (5/22)

[818] فوائد قرآنية، عبد الرحمن السعدي، ص (93)

[819] انظر: بصائر ذوي التمييز (5/ 397)

ثانيا: الفرق بين التصديق، وبين اليقين:

إن التصديق في حقيقته يبنى على معلوم الإنسان، سواء كان هذا المعلوم لديه من قبيل الحق أو كان من قبيل الباطل، إلا أن الفرق بينهما:

أن التصديق أمر اختياري، وأما اليقين: فهو أمر ضروري، بمعنى أن اليقين شيء يوجد في نفس الإنسان إذا وجد موجبه من غير اختيار الإنسان، كالشبع، فإذا أكل الإنسان، وجد الشبع، ولو أن الإنسان يريد أن يأكل كثيرا ولا يشبع؛ لجودة الطعام، أو لحاجته إليه، أو لأنه يستخسر إلقاءه وإهداره، فهو يريد أن يأكل ولا يشبع من هذا الطعام؛ فإنه لا يستطيع ذلك. وهكذا لو أنه شرب فإنه بهذا الشرب يرتوي ولا بد إذا وصل إلى حد معين، وهذا الري الذي يقع للإنسان هو أمر غير اختياري، فالشرب اختياري، ولكن الري ليس اختياريا.

وهكذا اليقين إذا حصلت موجباته؛ فإنه يوجد في القلب، ويرسخ فيه، ويثبت من غير اختيار؛ ولهذا فإن الكفار بل عتاة الكافرين مع تمردهم، وعتوهم على الله عز وجل، وعلى رسله، فإن الله عز وجل يقول: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: 14] أي: أنهم جحدوا بها ظلما وعلوا مع وجود اليقين في نفوسهم.

وبهذا يتبين الفرق بين اليقين وبين التصديق، فقد يكون الإنسان مصدقا مع حصول اليقين في قلبه، وقد يكون الإنسان متيقنا من أمر من الأمور إلا أنه مكابر جاحد، لا يقر ولا يذعن بالحقيقة.

ثالثا: الفرق بين اليقين وبين الثقة[820]:

أن اليقين إذا وجد في القلب؛ وجدت الثقة فيه، فإذا تيقن العبد أن هذه الشريعة مثلا من عند الله عز وجل؛ فإنه يطمئن إلى أحكامها، وأنه لا حيف فيها، ولا نقص ولا هضم لحق أحد، وإذا علمت المرأة أن هذه الشريعة من عند الله عز وجل؛ فهي تعلم أن إعطائها نصف الميراث أنه حق، وأنه كمال العدل والإنصاف، وأنه لا ظلم فيه ولا شطط؛ فوجدت الثقة، فيثق العبد بأحكام الله عز وجل الشرعية، وإذا وجد اليقين في قلب العبد؛ وجدت الثقة أيضا في قلبه في أحكام الله عز وجل الكونية والقدرية، فإذا رأى مبتلى فإنه لا يقول: فلان ما يستحق هذا البلاء الذي نزل به. ولا يقول: لماذا أنا يا رب؟ لماذا تقع المصائب والكوارث والمحن على أهل الإيمان، والكفار ينعمون بهذه النعم التي تغدق عليهم صباح ومساء؟ وإنما يثق بأن الله عز وجل حكم عدل، وأنه تبارك وتعالى يعطى ويمنع لحكمة بالغة يعلمها جل جلاله، فالثقة توجد إذا وجد اليقين في القلب، ولذلك لا ثقة من غير يقين.

المطلب الثالث: منزلة اليقين

جاء عن بعض السلف: "الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله"[821]. وهذا صحيح؛ لأن الصبر فوقه درجة ومرتبة وهي: اليقين، فالإنسان قد يصبر، ولكن قلبه يتحرك بالخواطر والإرادات، وترد عليه أنواع الواردات، فهو يموج بصاحبه، إلا أن صاحبه يتحمل، ويصبر ويُثَبِّتْ نفسه مع مقاساته لألم المصيبة، وأما صاحب اليقين، فإنه في مرتبة فوق ذلك، فهو يعد البلاءَ نعمةً أصلًا، ويفرح بالبلاء كما يفرح غيره بالعافية، ويركن إلى الله عز وجل، ويطمئن بما قَسَمَ الله عز وجل في هذا

---

[820] مدارج السالكين

[821] مجموع الفتاوى، ورسالة اليقين لابن أبي الدنيا.

القضاء، فلا يَتَبَرَّم ولا يتمنى عطاء غيره، فتطمئن نفسه، ويطمئن قلبه، فكان اليقين بهذا نصف الإيمان، وهو فوق الصبر، وقد أخرج البخاري رحمه الله في صحيحه عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال: "الْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّه"[822]. بل قال ابن القيم رحمه الله: "اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وهو مع المحبة ركنان للإيمان، وعليهما ينبني وبهما قوامه، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية، وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوتهما تقوى الأعمال، وجميع منازل السائرين إنما تُفْتَتَحُ بالمحبة واليقين، وهما يُثمران كل عمل صالح، وعلم نافع، وهدى مستقيم"[823].

المطلب الرابع: الحث على اليقين والترغيب فيه

أ. في القرآن الكريم:

الله تبارك وتعالى ذكر اليقين في مواضع متعددة: فتارة: يذكره من أوصاف أهل الإيمان، فيقول تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [سورة البقرة: 4].

وتارة: يذكر بعض حكمه في بعض أفعاله، وليصل بعبد من عباده إلى مرتبة اليقين: فيقول: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} [سورة الأنعام: 75].

وتارة: يذم من لا يقين عنده: فيقول: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} [سورة النمل: 82].

ب. في السنة النبوية:

جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم عدد كثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي يذكر فيها فضل اليقين ومنزلته وشرفه، منها، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، حيث قال:

"كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، معنا أبو بَكْرٍ، وعُمَرُ في نَفَرٍ، فَقامَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ مِن بَيْنِ أظْهُرِنا، فأبْطَأَ عَلَيْنا، وخَشِينا أنْ يُقْتَطَعَ دُونَنا، وفَزِعْنا، فَقُمْنا، فَكُنْتُ أوَّلَ مَن فَزِعَ، فَخَرَجْتُ أبْتَغِي رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ حتَّى أتَيْتُ حائِطًا لِلأنْصارِ لِبَنِي النَّجَّارِ، فَدُرْتُ به هلْ أجِدُ له بابًا؟ فَلَمْ أجِدْ، فإذا رَبِيعٌ يَدْخُلُ في جَوْفِ حائِطٍ مِن بئْرٍ خارِجَةٍ، والرَّبِيعُ الجَدْوَلُ، فاحْتَفَزْتُ، فَدَخَلْتُ علَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فقالَ: أبو هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ: نَعَمْ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: ما شَأْنُكَ؟ قُلتُ: كُنْتَ بيْنَ أظْهُرِنا، فَقُمْتَ فأبْطَأْتَ عَلَيْنا، فَخَشِينا أنْ تُقْتَطَعَ دُونَنا، فَفَزِعْنا، فَكُنْتُ أوَّلَ مَن فَزِعَ، فأتَيْتُ هذا الحائِطَ، فاحْتَفَزْتُ كما يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ، وهَؤُلاءِ النَّاسُ ورائِي، فقالَ: يا أبا هُرَيْرَةَ وأَعْطانِي نَعْلَيْهِ، قالَ: اذْهَبْ بنَعْلَيَّ هاتَيْنِ، فَمَن لَقِيتَ مِن وراءِ هذا الحائِطَ يَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بها قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بالجَنَّةِ، ..."[824].

وفي هذا الحديثِ أنَّ الصَّحابةَ كانوا جالِسينَ حولَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ مَرَّةٍ، ومعهم أبو بَكرٍ وعُمرُ رَضيَ اللهُ عنهما في جَماعةٍ، فقامَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِحاجَةٍ، فأبطَأَ في رُجوعِه إليهم، فخَشُوا وخافوا أن يكونَ أحدٌ منَ

---

[822] هَذَا التَّعْلِيقُ طَرَفٌ مِنْ أَثَرٍ وَصَلَهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

[823] مدارج السالكين 2/397

[824] أخرجه مسلم (31)

الأعداءِ اقتَطَعَه دُونَهم، أيِ: انفرَدَ به وأصابَه بمَكروهٍ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَطلوبٌ من جِهةِ المُنافِقينَ ومِن جِهةِ غيرِهم من أعداءِ الدِّينِ، فقامَ الصَّحابةُ فَزِعين خائفين يَبحثون عنه، وكانَ أوَّلَ مَن فَزِعَ أبو هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، حتَّى أتى حائطًا -وهو بُستانٌ مُحاطٌ بسُورٍ- لِبَني النَّجَّارِ -وهُم بَطنٌ منَ الخَزرجِ، يُنسَبونَ إلى النَّجَّارِ بنِ ثعلبةَ بنِ عمرِو بنِ الخَزرجِ- فجعَل يَطوفُ به ويَدورُ حولَه؛ لعلَّه يَجِدُ بابًا يَدخُلُ منه، فلم يجِد، فإذا به يَجِدُ رَبيعًا -والرَّبيعُ الجَدولُ، والجَدولُ هو النَّهرُ الصَّغيرُ، أو مَجرى الماءِ الذي يَدخُلُ للبُستانِ- يَدخُلُ في جَوفِ حائطٍ من بِئرٍ خارجةٍ، فضَمَّ أبو هريرةَ رَضيَ اللهُ عنه جِسمَه مِثلَ الثَّعلبِ حتَّى دخَلَ من فتحةِ مَجرى الماءِ، فوجَدَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ داخِلَ البُستانِ، فأحسَّ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالَ له مُستفسِرًا عنِ الدَّاخِلِ وظنَّ أنَّه أبو هُرَيرةَ، فسألَه: «أبو هُرَيرةَ؟»، أي: أأنتَ أبو هُريرةَ، فأجابَه: نَعَم، فأعطاه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَعلَيه لِتَكُونَ عَلَامةً ظاهِرةً معلومةً عندَهم يَعرِفونَ بها أنَّه لَقِيَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولِيَكُونَ أوقَعَ في نُفوسِهم لِما يُخبِرُهم به عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالَ له: اذهَب بنَعليَّ هاتَينِ، فمَن لَقيتَ منَ النَّاسِ في الخارجِ، يَشهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، مُستيقِنًا بها قَلبُه، بمعنى: أن يستَيقِنَ المُسلمُ يَقينًا جازمًا بمَدلولِ كَلمةِ التَّوحيدِ، وهو أنَّه لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ، وعَمِلَ بمُقتضاها دُونَ تَسرُّبِ شَيءٍ منَ الشُّكوكِ التي يَبذُرُها شَياطينُ الجِنِّ والإنسِ؛ لأنَّها لا تَقبَلُ شكًّا ولا ظنًّا، ولا تَردُّدًا ولا ارتيابًا، بَل يَنبغي أن تَقُومَ على اليَقينِ القاطِعِ الجازِمِ، وهذا يَصدُقُ على كلِّ مَن كانَ بهذا اليَقينِ في أيِّ عصرٍ منَ العُصورِ، وذَكَرَ القلبَ هنا للتَّأكيدِ على الإخلاصِ في الإيمانِ، فأمَرَه أن يُبشِّرَه أنَّه من أهلِ الجَنَّةِ... "[825].

المطلب الخامس: مراتب اليقين[826]

كما أن العلم يتفاوت- واليقين هو من جملة مراتب العلم- فكذلك اليقين يتفاوت، فهو على ثلاث مراتب بعضها فوق بعض، فأدنى مراتب اليقين هي: مرتبة: (علم اليقين)، والمرتبة التي فوقها هي مرتبة: (عين اليقين)، وأعلى المراتب هي مرتبة: (حق اليقين)، والله عز وجل يقول: {كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ} [سورة التكاثر: 5]. فذكر العلم: علم اليقين. {لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ} [التكاثر: 6-7] فذكر في هذه الآيات مرتبتين من مراتبه: علم اليقين، وعين اليقين.

● **المرتبة الأولى: علم اليقين:** هو التصديق الكامل الجازم، الذي لا تردد فيه، بحيث لا يعرض له شك، ولا شبهة، ولا ريب بحال من الأحوال، فينكشف بذلك المعلوم للقلب، فيصير بمنزلة المشاهد له، فلا يشك فيه كما يشك الرائي بعينه في مشاهده، فيكون علم اليقين بالنسبة للقلب كالمرئي بالعين بالنسبة للبصر، وذلك كعلمنا بالجنة: بوجودها ونعيمها كما أخبرنا الله عز وجل، فنعلم أنها دار المتقين، وأنها مقر المؤمنين، فهذه مرتبة علم اليقين، إذا كان ذلك راسخا في قلب الإنسان وتيقنه. ثم إذا كان اليوم الآخر، ورأينا الجنة بأعيننا، فإن هذه المرتبة هي مرتبة عين اليقين.

● **المرتبة الثانية: عين اليقين:** وهي التي سألها إبراهيم صلى الله عليه وسلم ربه قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي} [سورة البقرة: 260]. فإبراهيم عليه السلام كان كامل الإيمان، راسخ اليقين، لا تردد عنده، ولا اشتباه ولا ريب، ولكنه أراد أن ينتقل من مرتبة من مراتب الكمال إلى مرتبة أعلى منها، أراد أن ينتقل من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين، فيرى ذلك بأم عينه، وقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم المسافة التي بين علم

[825] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث

[826] انظر: (كتاب الزهد والورع والعبادة)، ص77، (التبيان في أقسام القرآن)، ص119 – 120، (مفتاح دار السعادة) 1/ 149

اليقين، وبين عين اليقين: (شَكًّا) لعله من باب التجوز، **فقال صلى الله عليه وسلم: "أَنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ مِن إبْرَاهِيمَ إذْ قالَ: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ المَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: 260]، ويَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا؛ لقَدْ كانَ يَأْوِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ، ولو لَبِثْتُ في السِّجْنِ طُولَ ما لَبِثَ يُوسُفُ، لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ"**[827].

وفي هذا الحَديثِ يَقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على سَبيلِ التَّواضُعِ: «نحْن أحَقُّ بالشَّكِّ مِن إبراهيمَ»، وقدْ أرادَ بذلك صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُبالَغةَ في نَفْيِ الشَّكِّ عن نبيِّ اللهِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، أي: إذا كنَّا نحْن لا نَشكُّ في قُدْرةِ اللهِ على إحْياءِ الموتَى، فإبراهيمُ أَوْلَى بعَدمِ الشَّكِّ، وإنَّما سَأَل إبراهيمُ ربَّه أنْ يُرِيَه كَيف يُحْيي الموتى عِيانًا ومُشاهَدةً؛ ليَطْمَئِنَّ قَلْبُه، كما قال: {وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: 260]؛ لأنَّه أَبْلَغُ في اليَقِينِ.

ثمَّ ذكَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَبيَّ اللهِ لُوطًا عندما جاءَه أَضْيافُه، فخافَ عليهم مِن قَومِه فقال: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [هود: 80]، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «ويَرْحَمُ اللهُ لُوطًا؛ لقَدْ كان يَأْوِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ»، أيْ: كيْفَ يتمنَّى أنْ يَجِدَ مُعِينًا وناصرًا يَحْمِي أَضْيافَه مِن قَومِه وقدْ كان يَأْوِي إلى رُكْنٍ شَديدٍ، وهو اللهُ القَويُّ العزيزُ ؟! ولُوطٌ عليه السَّلامُ لم يَغفُلْ عن اللهِ عزَّ وجلَّ، ولم يَترُكِ التَّوكُّلَ عليه، وإنَّما ذكَرَ لُوطٌ عليه السَّلامُ السَّبَبَ، فقال عليه السَّلامُ لَمَّا رأَى إصرارَ قَومِه على طلَبِ الفاحشةِ مِن ضُيوفِه، وعَجَزَ عن ردِّهم: لَيتَ لي أنصارًا وأعوانًا يُعينونَني على رَدِّكم، أو ألْجَأُ وأنضَمُّ إلى عَشيرةٍ تَمنَعُني وتَعصِمُني منكم، فأحُولَ بيْنكم وبيْن ما تُريدونَ مِن ضيوفي. وذِكْرُه عليه السَّلامُ للسَّببِ وحْدَه يَظُنُّ السَّامعُ منه نِسيانَه للهِ عزَّ وجلَّ، فأراد نَبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قَولِه: «ويَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، لقَدْ كانَ يَأْوِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ» ألَّا نَقولَ ما يُوهِمُ هذا.

ثمَّ ذكَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَبيَّ اللهِ يُوسفَ عليه السَّلامُ، فقال: "ولو لَبِثْتُ في السِّجْنِ طُولَ ما لَبِثَ يُوسفُ لأجَبتُ الدَّاعيَ"، أيْ: لَأسرَعتُ إلى الإجابةِ، قال ذلك إعْجابًا بصَبْرِ يُوسفَ عليه السَّلامُ وقُوَّةِ عَزيمَتِه، حيثُ قال يُوسفُ لرَسولِ المَلِكِ الَّذي أُرسِلَ إليه ليُخرِجَه مِن السِّجنِ ويَذهَبَ به للمَلِكِ: {ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} [يوسف: 50]، أي: ارجِعْ إلى سَيِّدِك المَلِكِ، واطلُبْ منه أنْ يَسألَ النِّسوةَ اللَّاتي جَرَحْنَ أيديَهنَّ عن حَقيقةِ أمْرِهنَّ وشَأنِهنَّ معي؛ لتَظهَرَ الحقيقةُ للجميعِ، وتتَّضِحَ براءتي، إنَّ رَبِّي عليمٌ بصَنيعِهنَّ وأفعالِهنَّ، لا يَخفى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن ذلك، وكان قدْ مَكَثَ في السِّجنِ بِضعَ سِنينَ، أي: ما بيْن ثَلاثٍ إلى تِسعِ سَنواتٍ، ومع هذا لمْ يُسارِعْ بالخُروجِ مِن السِّجنِ الطَّويلِ والرَّاحةِ مِن البَليَّةِ العَظيمةِ لأوَّلِ ما أمْكَنَه، بلْ تَثبَّتَ حتَّى تَظهَرَ بَراءتُه، ويَلْقَى المَلِكَ غيرَ مُرتابٍ ولا خَجِلٍ ممَّا عَساهُ يقَعُ بقلْبِه ممَّا رُفِعَ عنه؛ أراد أنْ يَخرُجَ خُروجَ مَن قدْ ثَبتَتْ له الحُجَّةُ، لا خُروجَ مَن عُفِيَ عنه[828].

والفرق بين هذه المرتبة والتي قبلها هو كالفرق بين العلم وبين المشاهدة، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: **" ليس الخبرُ كالمعايَنَةِ، إنَّ اللهَ تعالى أخبرَ موسى بما صنع قومُهُ في العجلِ، فلَمْ يُلْقِ الألواحَ، فلما عايَنَ ما صنعوا، ألْقَى الألْوَاحَ فانكسَرَتْ"**[829].

---

[827] صحيح البخاري (3372)، صحيح مسلم (151) باختلاف يسير.

[828] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

[829] أخرجه أحمد (2447) واللفظ له، وابن حبان (6213)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (25) باختلاف يسير.

لقد علَّمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُمَّتَه الحِكَمَ الواقعيَّةَ في الحياةِ، وأنَّ الإنسانَ قد يَصدُرُ منه عندَ رُؤيةِ الحدثِ والفِعلِ ما لم يكُنْ يتصوَّرُه إذا حُكِيَ له نفْسُ الحدَثِ.

وفي هذا الحديثِ يقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ليس الخبرُ كالمُعايَنةِ"، أي: الشَّأنُ في رُؤيةِ الحدثِ بالعينِ ليس مِثْلَ السَّماعِ عنه في اليقينِ والتَّثبُّتِ، "إنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ مُوسى بما صنَعَ قومُه في العِجلِ"، أي: مِن عِبادتِهم له بعدَ أنْ أغْواهم السَّامريُّ، كما قال تعالى: {إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } [طه: 58]، "فلم يُلْقِ الألواحَ"، وهي ألواحٌ مِن الحجارةِ مكتوبٌ فيها التَّوراةُ، "فلمَّا عايَنَ ما صَنَعوا"، أي: رأى بعَيْنِه فِعلَ قومِه وما أخبَرَه به اللهُ عزَّ وجلَّ، "ألْقى الألواحَ"، أي: غضِبَ ورَماها مِن يَدِه، "فانكسَرَت"، كما حكى ذلك الحقُّ في قولِه: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ { [الأعراف: 150]؛ وكان ذلك لِعِظَمِ ما هاله مِمَّا أتَوه مِن المعصيةِ، فدلَّ على أنَّ المُعايَنةَ أعظَمُ مِن الخبرِ، مع أنَّه أخبَرَهُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ عِلْمًا، فلم يقَعْ منه الخبرُ كما وقعَتْ منه المعاينةُ، وفيه أنَّه يَحتمِلُ أنَّ المُرادَ: ليس أثَرُ الخبرِ عندَ المُخبَرِ كأثَرِ المعاينةِ وإنْ كانَا سواءً في قوَّةِ التَّصديقِ، لكنْ يَصدُرُ عن المعاينةِ ما لا يَصدُرُ عن الخبرِ[830].

● **أما المرتبة الثالثة فهي: مرتبة حق اليقين:** وهي مباشرة الشيء بالإحساس فعلا، فحينما يخبرك مخبر أن لديه عسلا وتثق بخبره، فإنك تكون في هذه الحال متيقنا لهذا الخبر، فإذا أحضره أمامك فإن ذلك يكون عين اليقين، وهي مرتبة أعلى لأنه اجتمع فيها العلم والمشاهدة، فإذا ذقته فهذا هو حق اليقين.

وإذا أخبرك مخبر أن بهذا الوادي ماء، فهذا إن كان المخبر ثقة؛ فإنه يحصل لك بمقتضى هذا الخبر علم اليقين، فإذا شاهدت الماء كان ذلك عين اليقين، فإذا بلغت الماء، واغترفت منه، وشربت، أو اغتسلت؛ فإن ذلك يكون حق اليقين- - وإذا كان اليقين يتفاوت في نفسه، فإن هذا أيضا يقتضي أن أهله يتفاوتون فيه.

المطلب السادس: مراتب الناس في اليقين[831]

أهل مرتبة اليقين يتفاوتون فيها، فمنهم من يكتمل يقينه ويصير المعلوم بالنسبة إلى قلبه كالمشاهد الذي يشاهده بعينه سواء بسواء، وقد يصل العبد إلى منزلة اليقين، ولكنه لا يصل إلى هذه المرتبة، ولذلك فإن الناس يتفاوتون بسبب هذا في عملهم وجدهم، وهمتهم ونشاطهم، وسعيهم للدار الآخرة، والعمل في مرضاة الله تبارك وتعالى.

● **علم اليقين: وهو على مراتب:**

- تارة: يعلم العبد الحقيقة علما جازما لثقته بالمخبر.
- وتارة: يعلم صدقه، ويتيقن ذلك، وتقوم الدلائل في قلبه حتى يصير ذلك كالمشاهد بعينه، فهذه مرتبة أعلى.

---

[830] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

[831] مجموع الفتاوى 7/ 270، الفوائد ص4

- **عين اليقين: من أهل العلم من يقول إنه نوعان:**

نوع يحصل لقلب المؤمن في الحياة الدنيا: وهذا إذا ارتقى إيمان العبد ورسخ اليقين في قلبه، واستقر وصار كأن حقائق الآخرة ماثلة بين يديه، وكأنه يشاهد عرش الرحمن، يحف به الملائكة، وصار كأنه يرى الجنة والنار، فهذه بعض أهل العلم يعدونها من عين اليقين بالنسبة للقلب، يقولون: هذا في الدنيا. وأما في الآخرة: فيكون ذلك بمشاهدتها بالعين الباصرة.

وهناك كثير ممن ينتسب إلى الإيمان، ويصدق الرسول صلى الله عليه وسلم بما جاء به لا يصل به ذلك إلى درجة اليقين الكامل في القلب، وإنما يكون ذلك معلوم له، ولو جاءه مشكك لربما حركه، ولربما دفعه عن الإيمان، وأوقع الشبهات في قلبه، فيتزعزع ويتضعضع إيمانه، ولربما انتكس رأسا على عقب، وهذا حال كثير ممن ينتسب إلى الإيمان، فهم يؤمنون بالرسول صلى الله عليه وسلم إيمانا مجملا، فهذا الإيمان يكفيهم وينجيهم عند الله عز وجل، ولكنه لم يصل بهم إلى درجة لا تقبل التشكيك، ولا تقبل المحرك الذي يكون بسبب الشبهات؛ لهذا قال بعضهم: "حظ الخَلْقِ من اليقين على قدر حظهم من الرضا، وحظهم من الرضا على قدر رغبتهم في الله"[832].

ومن الناس أيضا من إذا تتابعت عليه النعم واسترسل عليه عطاء الله عز وجل مما يحب، فإنه يرضي ويطمئن ويسكن إلى ذلك، وإذا أصابته البلايا والمحن، وفُتِن؛ تزعزع وتضعضع، ولربما نكص على عقبيه كما قال الله عز وجل: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [سورة الحج: 11].

المطلب السابع: اختبار اليقين

كيف يُخْتَبَرُ اليقين؟ ما هو المحك الذي يتبين به رسوخ الإيمان، وثباته في قلب الإنسان؟

هناك مواقف يتبين العبد حاله فيها ومرتبته في هذا الباب، ومن هذه المواقف والمواطن:

- **الموقف الأول: موقف التوبة:**

فالعبد الذي قد كمل اليقين في قلبه؛ لا يتردد إذا وقع منه تقصير، أو ذنب، أو زلة -وكل إنسان معرض لذلك- فإنه يبادر إلى التوبة من غير تردد، ويرجع إلى الله عز وجل، وينيب إليه؛ لأنه يعلم أن ثمة يوما سيحاسب فيه على القليل والكثير، والدقيق والجليل، وسيؤاخذ بجرمه، فلا تردد عنده في التوبة.

وأما من ضعف يقينه، فيحتاج إلى تحريك القلب بعرض ألوان من المواعظ والعبر، والأمور المرققة لقسوة قلبه، والأمور التي تزيل عن هذا القلب الغشاوة والغفلة، فيتحرك قلبه ويلين ويرق للتوبة، فيكون ذلك موطئا لها، ولربما احتاج إلى إقناع، ولربما احتاج إلى مسايسة ومداراة وطول صحبة؛ من أجل أن تصلح حاله ويتوب، ولربما وعد بالتوبة ثم بعد ذلك يتراجع ويتردد ويحسب بزعمه الخسائر والأرباح، إذا تاب سيخسر هؤلاء الأصدقاء، سيخسر هذه الوظيفة، سيخسر كذا من أطماعه وشهواته، ثم يبقى مترددا متذبذبا يُقدم رجلا ويُؤخر أخرى، وما ذلك إلا لضعف يقينه. ولو اكتمل اليقين عند العبد فإنه لا يبالي بشيء، وإنما همته وطلبته هو رضا الله جل جلاله فلا يحتاج إلى إقناع، ولا يحتاج إلى مسايسة، ولا يحتاج إلى كثير ملاطفة، ولا إلى طول صحبة؛ من أجل أن يتأثر.

---

[832] مدارج السالكين 2/ 222

- **الموقف الثاني: هو موقف المصيبة:**

فكثير من الناس يحسن الكلام عن الصبر، وعن الثبات، وعن الإيمان، وعن الجزاء الذي يعطيه الله عز وجل للصابرين في الدار الآخرة، وما أعد لهم من النعيم المقيم، ولكنه إذا وقعت المصيبة؛ اضطرب وتحرك قلبه، فجزع، ولم يثبت ولم يصبر، وإنما كان متسخطا على ربه تبارك وتعالى معترضا على أقداره، والله عز وجل يقول: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [سورة البقرة: 155-157].

فمن كان متحققا باليقين؛ فإنه عند المصيبة يكون رابط الجأش، ثابتا، صابرا، حابسا للسانه عن التسخط، ولجوارحه عن فعل ما لا يليق من شق جيب، أو لطم خد، أو نحو ذلك مما يفعله من لا يقين عندهم، فهذه أمور قد لا تتبين في حال الرخاء، وإنما تتبين في حال الشدة والمصائب.

ولربما ابْتُلِيَ العبد المؤمن، فسخط على ربه أن ابتلاه بهذا البلاء، وما ابتلاه الله إلا ليمحصه، ويرفعه من درجة إلى درجة، ومن منزلة إلى منزلة ما كان ليبلغها بعمله. ولكن سرعان ما ينتكس العبد، ويتبرم، ويتسخط على ربه، ويعترض على أقداره تبارك وتعالى، فهذا ليس له نصيب من اليقين.

- **الموقف الثالث: في حال الحاجة:**

فإذا احتاج العبد وافتقر إلى المخلوقين، أو احتاج إليهم في شيء من أمور الدنيا، فإنه بذلك يختبر يقينه، فإذا كان قلبه يتلفت إلى المخلوقين، ويتطلع إليهم، ويتعلق بهم؛ لينال ما عندهم؛ فإن قلبه لم يتحقق باليقين بعد. وأما إذا كان قلبه متوجها إلى الله وحده لا شريك له، لا يلتفت إلى أحد من المخلوقين، ولا يتعلق بهم؛ فإن هذا اليقين هو اليقين الكامل.

- **الموقف الرابع: في حال الغنى:**

من الناس من لا يصبر إذا أغناه الله عز وجل، فيصل به ذلك إلى الكفر، فيقول: إنما أوتيته على علم عندي، وينسى أن الله عز وجل هو الذي أعطاه وأولاه، وأن الله عز وجل هو مالك الملك، فيكون بذلك كافرا لنعمة ربه جل جلاله.

وعلى كل حال: إذا أردت أن تكون متحققا باليقين، وأن تعرف ذلك من نفسك؛ فلا تُمْسِ ولا تُصْبِحُ وفي قلبك أحدٌ أحبُّ إليك من الله، وإذا أردت أن يكون اليقين وصفا راسخا ثابتا في قلبك؛ فلا يكن أحد من المخلوقين أخوفُ عندك من الله؛ فصاحب اليقين لا يتعلق بأحد من الخلق، ولا يخاف أحدًا منهم، فيترك ما أمره الله عز وجل به، أو يتردد في التمسك بحبل الله جل جلاله من أجل الخوف من هذا المخلوق، وإنما صاحب اليقين يكون ثابتا، مرتبطا بالله عز وجل في كل أحواله، فهو يرجو الله، ويؤمله، ويحبه، كما أنه يخافه عز وجل ولا يرقب أحدا سواه.

المطلب الثامن: الطريق إلى اليقين

ينبغي علينا بادئ بَدْء أنْ يعلمَ العبدُ أنَّ التوفيق بيد الله عز وجل، وأن المواهب بيده، فما عليه إلا أن يَلْتَجِئَ إليه سبحانه وتعالى، وأن يَصْدُقَ في الإقبال عليه، فيسأله قائمًا وقاعدا أن يرزقه الإيمان الكامل، واليقين الجازم الراسخ الذي لا يتزعزع، ثم بعد ذلك يَبْذُلُ الأسبابَ التي توصله إلى هذه المرتبة، ومن هذه الأسباب:

● **السبب الأول: العلم: وهو أول درجات اليقين**، وذلك باستعماله، أي: بأن تعمل بمقتضى هذا العلم، ثم يأتي بعد ذلك اليقين ليحملك كما قال بعض السلف: "العلم يستعملك –فتعمل بمقتضاه- واليقين يَحْمِلُكَ"[833]، فالمال حبيب إلى النفوس، والنفوس أيضا عزيزة على أصحابها ومع ذلك يندفع العبد للعمل، ويقدم، وينفق ماله الذي يكون حبيبا إلى قلبه؛ تقربا إلى الله عز وجل؛ ولأنه يتيقن بالجزاء وأن سبحانه وتعالى يربي له صدقته، كما يندفع أيضا فيبذل نفسه رخيصة في سبيل الله؛ لأنه يعلم أن الشهيد يُغفر له من أول قطرة من دمه، ويَشفع في سبعين من أهله، وأن مرتبة الشهداء من أعلى المراتب والمنازل عنده عز وجل.

فالعبد قد يكون يستعمله العلم، أي (يكون لديه علما)، ولكنه لا يُقْدِمُ على الأمور التي تحتاج إلى تضحيات كبيرة؛ لأنه لم يتيقن، ولم يصل إلى مرتبة اليقين.

أما صاحب اليقين، فلا يقف إلى حد العلم فيكون ذلك معلوما له فحسب، بل إن يقينه يحمله على الامتثال والإقدام والعمل، ولو كان ذلك في سبيل إزهاق نفسه، وإتلاف ماله، وإنفاقه أجمع، فله يقين راسخ أنها مَخْلُوفَة، وأنها مُعَوَّضَة، وأنه سيلقى عائدة ذلك في يومٍ هو أحوج ما يكون إليه، وأن الإنسان ليس له إلا موتة واحدة، فيقول: يا نفس هل لك موتتان؟ ولهذا فإن العلم إذا رسخ؛ أثمر اليقين الذي هو حياةُ القلب، وبه طمأنينته وقوته ونشاطه.

وهذا العلم الذي يحتاج إليه العبد ليصل إلى مرتبة اليقين يشمل: العلم بالله عز وجل:

والعلم بالله عز وجل يشمل:

1. العلم بأنه المألوه المعبود وحده لا شريك له، وأنه لا يستحق العبادة أحد سواه، فلا يلتفت قلبه إلى أحد من الخلق، ولا يتعلق بهم، وهو يعلم أيضا ربوبية الله عز وجل للكائنات، وأن أزمة الأمور بيده، وأنه مدبر هذا الكون ومصرفه، وأن الخلق عبيده يربهم ويتصرف بهم، فإذا علم العبد ذلك، اطمأن إلى رزقه؛ لأن الأرزاق بيد الله، واطمأن إلى أجله؛ لأن الآجال بيد الله عز وجل، واطمأن إلى أقداره، وإلى عطاءه ومنعه، فلا يعترض على الله، ولا يقترح، ولا يسيء الأدب معه عز وجل.

2. العلم بأسمائه وصفاته، فيعلم أن الله هو العظيم الأعظم، فلا يعظم أحد في عينه عظمة لا تصلح إلا الله، ويعلم أن الله عز وجل هو الجبار القاهر، القادر القوى المتين، فلا يهاب المخلوقين، وإنما يعظم الخوف من الله عز وجل في نفسه، فلا تمتد عينه ولا يده إلى الحرام ولا تخطو رجله إلى الحرام؛ لأن يقينه راسخ بأن الله هو الرقيب، وأن ما يخفى على المخلوقين لا يخفى عليه جل جلاله؛ فتسكن جوارحه، وتلتزم طاعة ربها ومليكها، فلا يصدر منه شيء ينافي هذا الإيمان، وهذا اليقين الذي وقر في قلبه بمعرفته بأوصاف الله عز وجل الكاملة، وإذا عرف أن ربه قوي؛ عرف أن ربه قادر على أن يمنعه من كل المخاوف، وأن الله قادر على حفظه، فهو يلجأ إلى ركن قوى، فيفوض أموره إليه، فيكون بذلك متوكلا على الله لا متوكلا على ذاته أو ذكائه أو أبيه، ويكون متوكلا على الله لا متوكلا على سوقه ومتجره ومصنعه.

[833] مفتاح دار السعادة 1/ 154

● **السبب الثاني:: دفع الواردات والخواطر والأمور المنافية لليقين:** ولهذا كان جهاد الشيطان على مرتبتين اثنتين: جهاده فيما يلقيه من الشبهات والوساوس والخواطر المزعزعة لليقين، فهذا لا يسلم منه إلا إذا دفعه العبد، فلا يقرأ في كتب الشبه، ولا يناقش أهلها ولا يسمع منهم، ولا يجعل قلبه عرضة لكل آسر وكاسر وقاطع طريق، فلا يدخل في المنتديات في شبكة الإنترنت التي تُلقى الشبه من قبل زنادقة، ومن قبل ضلال ممن ينتسبون إلى الإسلام، أو ينتسبون إلى غيره، فلا يجعل قلبه عرضة لسهام هؤلاء، فقد يدخل فيه شيء ولا يخرج منه؛ ولذلك فإن من الأمور المهمة التي تعين العبد على الوصول لمرتبة اليقين هو أن يدفع الخواطر والوساوس، وأسباب الشكوك والشبهات، فإذا دفع العبد الشبه عن قلبه، والشكوك والوساوس؛ فإن ذلك يورثه يقينا، كما أنه إذا جاهد الشيطان في باب الشهوات؛ فإن ذلك يورثه صبرا كما قال شمس الدين ابن القيم رحمه الله[834].

ولهذا كانت الإمامة في الدين تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

● **السبب الثالث: العزم الجازم الذي لا تردد فيه في العمل بمرضاة الله عز وجل:** فيُسارع العبد في التوبة، وتصحيح العمل، وفي تقديم الصدقة، وفي الصيام؛ مخافة أن تفوته فرصة الحياة، وهو لم يتقرب إلى الله عز وجل كثيرا، فهو بحاجة إلى الإقدام والجزم، ولهذا قال بعض أهل العلم: "الاهتمام بالعمل يُورث الفكرة، والفكرة تُورث العبرة، والعبرة تُورث الحزم، والحزم تُورث العزم، والعزم تُورث اليقين، واليقين تُورث الغنى –فلا يلتفت ولا يفتقر إلى أحد سوى الله عز وجل- والغنى تُورث الحب، والحب تُورث اللقاء".

● **السبب الرابع: مفارقة الشهوات والحظوظ النفسانية:** فإذا كان العبد منغمسا في شهواته، فأني له باليقين؟ وقد قال ابن القيم –رحمه الله- في هذا المعنى: "أصل التقوى مباينة النهي، وهو مباينة النفس، فعلى مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين"[835].

● **والأمر الأخير، مما يورث اليقين في قلوبنا، ويكون سببا إلى تحصيله: التفكر في الأدلة التي توصل إلى اليقين:** فكلما تواردت البراهين المسموعة، والمعقولة، والمشاهدة على قلب الإنسان؛ كلما كان ذلك زيادة في يقينه وإيمانه، وهذا شيء مشاهد، فكثير من الأشياء التي في حياتنا والتي نعايشها، وكثير من الأمور التي شاهدناها، أو التي لم نشاهدها: كيف تيقناها؟ كيف حصل فيها هذا اليقين؟ والله عز وجل قد أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا، فكيف حصلنا اليقين فيها؟ حصلنا هذا اليقين: إما بالمشاهدة بعد أن كان ذلك معلوما، أو بالمشاهدة ابتداء، أو أننا حصلنا اليقين بتوارد الأدلة، فنعلم أن هذا الأمر حق لا يقبل الجدل، وأنه شيء ثابت راسخ لا يقبل التشكيك.

---

[834] زاد المعاد 3/ 10

[835] مدارج السالكين، ص: 2/376

المطلب التاسع: ثمرات اليقين

من ثمرات وفوائد اليقين:

1. أن اليقين إذا وصل إلى قلب الإنسان؛ امتلأ نورا وإشراقا، وانتفى عنه أضداد ذلك من الشكوك والريب والشبهات التي تقلقه: فيكون القلب مستريحا مطمئنا، فيرتفع عنه السخط والهم والغم الذي يجلبه الشك والريب، فيمتلئ قلبه محبة لله، وخوفا منه، ورضا به، وشكرا له، وتوكلا عليه، وإنابة إليه. كما قال ابن القيم رحمه الله[836]. بخلاف الريب والشك والتردد، فإنه يورث قلقا في القلب، وضجرا وألما، ولهذا كان الشك يوجب له حرارة، وأما اليقين فيوجد له بردا في قلبه ولهذا يقال: "ثَلَجَ صدره، وحصل له برد اليقين"[837]، فتزول عنه هذه الأمور التي تعصر القلب، وتؤلمه، وتعصف به.

2. اليقين يجعل صاحبه يفرق بين الحق، وبين ما يلبسه الشيطان على الجهال من العباد وغيرهم: ولهذا كان بعض المتقدمين يصلي ويختم كل ليلة في مسجده، وكان على مرتبة عظيمة من العبادة: من صلاة، وتهجد، وصيام، وقراءة القرآن، فرأى ليلة نورا قد خرج من حائط المسجد وقال: تَمَلَّا من وجهي، فأنا ربك - ومعلوم أن الله عز وجل لا يُرى في الدنيا- فماذا فعل هذا الرجل- وهو أحمد بن تزار القيرواني؟ بصق في وجهه وقال: اذهب يا ملعون، فانطفأ النور الذي في الحائط. فهذا الشيطان تمثَّلَ، وأراد أن يخدعه، وأن يُضِلَّه، فجاءه بهذه الصورة، فلما كان هذا راسخ الإيمان، ثابت اليقين لم يلتفت إلى هذا العارض، وما صرفه عن طاعة الله عز وجل.

3. الهدى والفلاح في الدنيا والآخرة: ومعلوم أن الفلاح هو تحصيل المطلوب، والنجاة من المرهوب، ولهذا قال الله عز وجل عن المؤمنين: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة البقرة: 4-5].[838].

وعن رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال: "قامَ أبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ على المنبرِ ثمَّ بَكى فقالَ قامَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلم عامَ الأوَّلِ على المنبرِ ثمَّ بَكى فقالَ سلوا اللَّهَ العفوَ والعافيةَ فإنَّ أحدًا لم يُعطَ بعدَ اليقينِ خيرًا منَ العافيةِ"[839].

في هذا الحديثِ يقولُ رِفاعةُ بنُ رافعٍ رَضِي اللهُ عَنه: "قام أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ على المِنبَرِ ثمَّ بكى، فقال: قام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم عامَ الأوَّلِ على المنبَرِ ثمَّ بكى"، قيل: إنَّما بكى النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؛ لأنَّه عَلِم وُقوعَ أمَّتِه في الفِتَنِ، وغَلبةَ الشَّهوةِ والحِرصِ على جمعِ المالِ، وقيل: إنَّ الَّذي أبكى أبا بكرٍ رَضِي اللهُ عَنه وضَّحه ما في روايةٍ أخرى: " فبكى أبو بكرٍ حين ذكَر رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم"، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: "سَلُوا اللهَ"، أي: اطلُبوا في دُعائِكم مِن اللهِ، "العفوَ"، أي: مَحْوَ الذُّنوبِ وسَتْرَ العيوبِ، "والعافيةَ"، أي :السَّلامةَ في الدِّينِ مِن الفِتنةِ، وفي البَدنِ مِن الأمراضِ، أو السَّلامةَ في الدُّنيا مِن النَّاسِ وشُرورِهم، وأن يُعافِيَك اللهُ مِنهم ويُعافِيَهم منك؛ "فإنَّ أحَدًا لم يُعطَ بعدَ اليَقينِ"، أي: الإيمانِ والبصيرةِ في الدِّينِ "خيرًا مِن العافيةِ"، أي: أفضلَ من أن يُعْطى معه العافيةَ؛ فإنَّه لا يَتِمُّ صلاحُ العبدِ وسعادتُه في

---

[836] مدارج السالكين 1/ 398

[837] إغاثة اللهفان 1/ 19 - 20

[838] زاد المعاد 4/ 215

[839] صحيح الترمذي 3558

الدَّارَينِ إلَّا باليقينِ في اللهِ، وبالفَوزِ بعفوِه سبحانه، والعفوُ مِن اللهِ هو العُمْدةُ في الفَوزِ بدارِ المعادِ، والعافيةُ هي العُمدةُ في صَلاحِ أمورِ الدُّنيا والسَّلامةِ مِن شُرورِها ومِحَنِها؛ فكان هذا الدُّعاءُ مِن جَوامعِ الدُّعاءِ[840].

يقول ابن القيم رحمه الله: "لا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا من قلبه وبدنه"[841].

ويقول شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، مبينا لطيفة تتعلق بآية من كتاب الله عز وجل: " يقول الله عز وجل: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} [سورة المطففين: 22-28]. (خِتَامُهُ مِسْكٌ) أي أن آخره يكون بطعم المسك، (وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ) فالتسنيم هي عين يشرب بها المقربون من عباد الله عز وجل في الجنة، وأولئك الأبرار يشربون من شراب من خمر ممزوجة مخلوطة بالتسنيم، وليست تسنيما صافيا خالصا؛ لأنهم مزجوا أعمالهم .. ، ويشربه المقربون صرفا خالصا كما أخلصوا أعمالهم، وجعل سبحانه شراب المقربين من الكافور الذي فيه من التبريد والقوة ما يناسب برد اليقين وقوته؛ لما حصل لقلوبهم، ووصل إليها في الدنيا، مع ما في ذلك من مقابلته للسعير- وذلك في قوله تبارك وتعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا} [سورة الإنسان: 5]. فالجزاء من جنس العمل، فلما حصل لهم برد اليقين حصل لهم أيضا برد هذا الشراب من الكافور في الجنة"[842].

4. أن اليقين يورث صاحبه الزهد في الدنيا وقصر الأمل: فلا تتعلق نفسه بها، ولا يتشبث بحطامها، وإنما يكون زاهدا فيها؛ لأنه يعلم أنها ليست موطنا له، ولأنه يعلم أنها دار ابتلاء، وأنه فيها كالمسافر يحتاج إلى مثل زاد الراكب، ثم بعد ذلك يجتاز ويعبر إلى دار المقام، فهو بحاجة إلى أن يشمر إليها، وأن يعمل لها، ولهذا لما قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ لأصحابه: "قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأرْضُ، قالَ: يقولُ عُمَيْرُ بنُ الحُمَامِ الأنْصَارِيُّ: يا رَسولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأرْضُ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: ما يَحْمِلُكَ علَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟ قالَ: لا وَاللَّهِ يا رَسولَ اللهِ، إلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِن أَهْلِهَا، قالَ: فإنَّكَ مِن أَهْلِهَا، فأخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِن قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ منهنَّ، ثُمَّ قالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هذِهِ إنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قالَ: فَرَمَى بما كانَ معهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حتَّى قُتِلَ"[843].

فما الذي جعل هذا الصحابي الجليل أن يعد هذه اللحظات -التي لا تتجاوز الدقائق القليلة- حياة طويلة؟! وما الذي جعل إنسانا آخر عاش مائة سنة ومع ذلك هو متمسك بالدنيا بيديه ورجليه؟ ما الذي يجعل هذا بهذه المثابة، والآخر بتلك المثابة؟! يقول التابعي الجليل بلال بن سعد رحمه الله: "عِبَادَ الرَّحْمَنِ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ تَعْمَلُونَ فِي أَيَّامٍ قِصَارٍ لِأَيَّامٍ طُوَالٍ، فِي دَارِ زَوَالٍ لِدَارِ مُقَامٍ، وَدَارِ حُزْنٍ وَنَصَبٍ لِدَارِ نَعِيمٍ وَخُلْدٍ، وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ مِنَ الْيَقِينِ فَلَا يَتَعَنَّ"[844].

---

[840] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث

[841] انظر: مدارج السالكين 2/ 397

[842] دقائق التفسير 3/ 22، بتصرف

[843] صحيح مسلم 1901

[844] كتاب اليقين لابن أبي الدنيا، ص: 49

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن الذي يجعل الإنسان يتشبث بهذه الحياة الدنيا هو ما غرس في قلبه من محبتها، وما زين في نفسه من شأنها، وكذلك ما يتعلق بها من محبة الإنسان للثناء والحمد. يقول رحمه الله: "ما تأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونفرته من ذمهم، فإذا زهد في هذين الشيئين تأخرت عنه العوارض كلها"[845].

ولهذا فإنه لا ينتهي بهذه الدنيا، ويتكاثر فيها مع من يتكاثر، ويتكالب على حطامها إلا من كانت الغفلة غالبة على قلبه، وكان اليقين مترحلا عنه، وفي ذلك يقول الله عز وجل: {انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} {[سورة الأعراف: 136]. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "واللهِ لو تَعلمونَ ما أعْلَمُ لضَحِكْتُمْ قليلًا ولبَكَيتُمْ كثيرًا، وما تَلَذَّذْتُمْ بالنساءِ على الفُرُشِ، ولخَرَجْتُمْ إلى الصَّعُدَاتِ تجْأَرونَ إلى اللهِ"[846].

وما وجد هذا التكاثر والإلهاء عما هو أولى بالخلق منه من العمل للآخرة، والسعي لتحصيل دار الكرامة إلا لاختلال اليقين في النفوس[847]، وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التي لا يشك في صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وبشاشته؛ لما ألهاه عن موجبه، وترتب أثره عليه، فإن مجرد العلم بقبح الشيء، وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين؛ كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد، فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء، وفي هذا المعنى قال حسان رضى الله عنه فيمن قتل من أهل بدر من المشركين: (سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم ** لو يعلمون يقين العلم ما ساروا)[848].

5. الانتفاع بالآيات والبراهين[849] : فالله عز وجل يقول: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ} [الذاريات: 20]. يقول تعالى ذكره: وفي الأرض عبر وعظات لأهل اليقين بحقيقة ما عاينوا ورأوا إذا ساروا فيها[850].

إن الإنسان الذي عنده يقين راسخ إذا مر بآية من الآيات الكونية؛ فإنه يرق قلبه، وتتمالكه مشاعر كثيرة لا يستطيع أن يعبر عنها، ولربما دمعت عينه وبكى، وهناك آخر، ينظر إلى هذه الأشياء، ولا يحرك ذلك في قلبه ساكنا، فالآيات إنما تؤثر وتحرك نفوس أصحاب اليقين، أما أهل الغفلة، فإنهم لا ينتفعون بها؛ ولهذا يقول الله عز وجل: {وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يوسف: 105].

6. الصبر: والعبد إذا كان فارغ القلب؛ لم يصبر، وإنما إذا كان له شيء يتنعم به، ويتلذذ به، ويركن إليه؛ فإنه يركن، ويصبر، ويسكن، فلا يصدر منه شيء يخالف مقتضى الصبر.

وعلى حسب يقين العبد بالمشروع؛ يكون صبره على المقدور، كما قال الله عز وجل: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} [الروم: 60] أي: فاصبر يا محمد لما ينالك من أذاهم، وبلّغهم رسالة ربك، فإن وعد الله الذي وعدك من النصر عليهم، والظفر بهم، وتمكينك وتمكين أصحابك وتُبَّاعك في الأرض حقّ(وَلا يسْتَخِفَّنَّك الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ)

---

[845] مدارج السالكين 2/ 302

[846] أخرجه ابن ماجه (4190)، وأحمد (21516) باختلاف يسير

[847] مجموع الفتاوى 16/ 517 – 518

[848] تفسير ابن القيم، في تفسير قوله تعالى: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} سورة التكاثر، آية: 5

[849] مدراج السالكين 2/ 397

[850] تفسير الطبري

يقول: ولا يستخفنّ حلمك ورأيك هؤلاء المشركون بالله الذين لا يوقنون بالمعاد ولا يصدّقون بالبعث بعد الممات، فيثبطوك عن أمر الله والنفوذ لما كلَّفك من تبليغهم رسالته[851].

والعبد يجب عليه أن يروض نفسه على الحد الأدنى وهو الصبر؛ لأنه ليس دون الصبر إلا الجزع والسخط، فيذهب الأجر، ولا يسترد المفقود، وبالتالي ليس على العبد إلا أن يصبر؛ ليؤجر على مصيبته، وأما إذا تسخط، فإنه يأثم، ويفوته الأجر. وكان عطاء الخراساني رحمه الله لا يقوم من مجلسه حتى يقول: "اللَّهُمَّ هَبْ لَنَا يَقِينًا بِكَ حَتَّى تَهُونَ عَلَيْنَا مُصِيبَاتُ الدُّنْيَا، وَحَتَّى نَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُصِيبُنَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَنَا عَلَيْنَا، وَلَا يَأْتِينَا مِنْ هَذَا الرِّزْقِ إِلَّا مَا قَسَمْتَ بِهِ"[852].

7. مما يورثه اليقين- وهو مرتبه فوق الصبر-: الرضا بما قدر الله عز وجل وأعطى وقسم: فاليقين هو أفضل مواهب الله عز وجل على العبد، ولا يمكن أن تثبت قدم الرضا إلا على قاعدة اليقين ودرجته، فمن لا يقين عنده لا يمكن أن يصبر، فضلا أن يرتقى إلى درجة الرضا بما قدر الله عز وجل عليه من الآلام والمصائب والمحن والبلايا، وما قدر الله عليه من الفقر والمرض، وما أشبه ذلك، يقول الله عز وجل: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن: 11]. عن الأعمش، عن أَبي ظبيان قال: كنا عند علقمة، فقرئ عنده هذه الآية: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) فسُئل عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم ذلك ويرضى[853]، ولهذا لم يحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا باليقين[854].

8. أن البلاء يصير عند من استكمل اليقين نعمة، والمحنة منحة: قال سفيان بن عيينة: "من لم يعد البلاء نعمة فليس بفقيه"[855].

9. التوكل على الله عز وجل: ولهذا قرن الله بينه وبين الهدى، فقال: {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [إبراهيم: 12]. وقال: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} [النمل: 79]. والحق هنا هو اليقين- كما قال ابن القيم رحمه الله[856].

10. أنه يحمل صاحبه على مباشرة الأهوال، وركوب الأخطار: وهو يأمر بالإقدام دائما، فإن لم يقارنه العلم؛ فربما حمل على المعاطب، والعلم من غير اليقين قد يحمل صاحبه على التأخر والنظر في حسابات كثيرة من نواح متعددة، فتفوت صاحبه الفرص[857]. فإذا قارنه اليقين؛ فذاك الكمال.

ولما أراد سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أن يعبر دجلة إلى المدائن، وقطع الفرس عليه الجسر، وحازوا السفن؛ نظر سعد في جيشه، فلما اطمأن إلى حالهم، اقتحم الماء، فخاض الناس معه، وعبروا النهر فما غرق منهم أحد، ولا ذهب لهم متاع، فعامت بهم الخيل وسعد يقول: "حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه، وليظهرن الله دينه، وليهزمن الله عدوه؛ إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات"[858].

---

[851] المصدر السابق

[852] كتاب اليقين لابن أبي الدنيا، ص: 41

[853] تفسير الطبري

[854] مفتاح دار السعادة 1/ 154

[855] المصدر السابق

[856] مدارج السالكين 2/ 398

[857] بصائر ذوي التمييز 5/ 400

[858] تاريخ الطبري2/ 462

ولما نزل خالد بن الوليد رضى الله عنه الحيرة، فقيل له: احذر السم لا تسقك الأعاجم، فقال: "ائتوني به، فأتي به، فالتهمه، واستفه، وقال: بسم الله، فما ضره". قال الذهبي رحمه الله: "هذه والله الكرامة وهذه الشجاعة".[859]

11. أن اليقين إذا تزوج بالصبر فإنه يولد بينهما الإمامة في الدين: والله عز وجل يقول: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: 24]. فالصبر هو لقاح اليقين.[860]

12. أنه يحمل صاحبه على الجد في طاعة الله عز وجل والتشمير والمسارعة والمسابقة في الخيرات: ولذلك فإن أصحابه يمتطون العزائم، ويهجرون اللذات، علموا طول الطريق، وقلة المقام في منزل التزود؛ فسارعوا في الجهاز، وجد بهم السير إلى منزل الأحباب، فقطعوا المراحل، وطووا المفاوز- كما يقول ابن القيم رحمه الله[861].

وهذا كله من ثمرات اليقين فإن القلب إذا استيقن ما أمامه من كرامة الله، وما أعد لأوليائه بحيث كأنه ينظر إليه من وراء حجاب الدنيا، ويعلم أنه إذا زال الحجاب، رأى ذلك عيانا؛ زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلفون، ولان له ما استوعره[862] المترفون

13. أن اليقين يجعل صاحبه ثابتا على الحق الذي اتبعه وعرفه: وقد ذكر هذا شيخ الإسلام رحمه الله في جملة الخصائص السلوكية لأهل السنة والجماعة: "وتجد أن أصحاب الرأي من المتكلمين، وأصحاب العقائد الفاسدة، والجدل الباطل؛ هم أكثر الناس تنقلا من قول إلى قول، ومن مذهب إلى مذهب ... بخلاف حال المؤمن الثابت، الذي رزقه الله عز وجل اليقين؛ ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: "أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا، قال: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب". وأما أهل السنة، فما يعلم أحد من علمائهم، ولا صالح عامتهم؛ رجع قط عن قوله، أو اعتقاده، بل هم أعظم الناس صبرا على ذلك، وإن امتحنوا بأنواع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين، كأهل الأخدود، ونحوهم، وكسلف هذه الأمة من الصحابة، والتابعين، وغيرهم من الأئمة، حتى كان مالك رحمه الله يقول: لا تغبطوا أحدا لم يصبه في هذا الأمر بلاء"[863].

14. الثبات أمام الأعداء حتى النصر أو الشهادة: وأخبار أهل اليقين في هذه الأمة كثيرة جدا، ومن ذلك: خبر الغلام مع الملك وثباته العظيم الذي ثبته، وكذلك إبراهيم صلى الله عليه وسلم، حينما ثبت أمام قومه، وقد توعدوه بالإحراق، بل وأوقدوا نارا عظيمة أمامه وطالبوه أن يرجع عن دينه، فلما أبى؛ ألقوه فيها، وهو لم يتردد إطلاقا، ولا طرفة عين، وكذلك موسى صلى الله عليه وسلم، ثبت أمام فرعون ثباتا عظيما مع أنه معروف بطغيانه واستعباده للناس، حيث كان يقول لهم: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: 24]. وكان موسى صلى الله عليه وسلم، يقول له: {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا[864]} [الإسراء: 102]. فلما أمره الله عز وجل بالانطلاق في بني إسرائيل، ولم يجد إلا البحر أمامه، وتردد من تردد ممن كان معه، وقالوا: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} [الشعراء: 61]. قال بكل ثبات: {كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: 62]، فأمره الله عز وجل بأن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فانفلق، فكان كل فوق كالطود العظيم.

---

[859] سير أعلام النبلاء 1/ 376

[860] مدارج السالكين 2/ 196، الفوائد ص 199

[861] مفتاح دار السعادة 1/ 149

[862] استوْعَرَ الطريقَ والمكان: رآه وعْرًا

[863] مجموع الفتاوى 4/ 50

[864] قال ابن عباس: (مثبورا): أي ملعونا. وقال الضحاك: أي مغلوبا. وقال بعضهم: إني لأظنك يا فرعون هالكا. (تفسير الطبري)

15. أن صاحبه لا يعرف اليأس مهما طال ليل الظالمين ومهما امتد الظلام: فإن بعد الليل انفلاق الفجر ولا محالة، فالليل مهما طالت ساعاته ومهما اشتدت ظلمته فإنه يزول وينفلق عن بياض الصبح، فأهل اليقين لا يعرفون اليأس، وبالتالي مهما وقع على الأمة من مصائب، وبلايا، ومحن، وتسلط الأعداء؛ فإن أهل اليقين تختلف مواقفهم عن غيرهم من الناس، فمن ضَعُفَ يَقِينُهم؛ ينخذلون للعدو، ويستسلمون له. وأما أهل اليقين: فيصبرون، ويثبتون، ويفعلون ما في وسعهم، وطاقتهم، والله عز وجل لا يكلف نفسا إلا وسعها، ثم بعد ذلك إذ أقدرهم الله عز وجل، ومكنهم من رقاب عدوهم؛ استعملوا معه ألوان العزائم التي أمرهم الله عز وجل بها، وشرعها لهم. فيصبرون، ويثبتون على مبادئهم، ولا يعرفون شيئا اسمه الأمر الواقع، أو التسليم بالأمر الواقع، وهؤلاء هم الذين يغير الله على أيديهم وإن طال الزمان.

16. مما يورثه اليقين: أن أعمال أهله الصالحة تكون راجحة في الموازين عند الله تبارك وتعالى: ولهذا جاء عن أبي الدرداء رضى الله عنه أنه قال: "ولمثقال ذرة بر من صاحب تقوى، ويقين؛ أفضل، وأرجح، وأعظم من أمثال الجبال عبادة من المغترين"[865].

والمقصود: أن اليقين يورث صاحبه أمورا جليلة عظيمة، ويؤثر في سلوكه فوائد جمة: فهو يزيد العبد المسلم قربة من الله عز وجل، وحبا، ورضا بما قدره وقضاه، وهو لب الدين، ومقصده الأعظم، ويزيد صاحبه استكانة وخضوعا لربه وخالقه جل جلاله، كما أنه يكسبه رفعة، وعزة، ويبعده عن مواطن الذل والضعة، وهو أيضا: باليقين يتبع النور، والحق المبين، ويسلك طريق السلامة المحققة، فلا يحيد عنها بضعف يقينه؛ رغبة أو رهبة، كما أنه يحمل صاحبه دائما على الإخلاص والصدق، وتحري ذلك في كل أعماله، كما أنه أيضا: يضبط العلاقة بين العبد وبين الرب، ويجعل العبد يلتزم الإخلاص، والصدق، والمراقبة، وفعل ما يليق، وترك ما لا يليق في تعامله مع ربه؛ لأنه يعلم أن ذلك يوصله إلى دار الأمان، ولا سبيل إلى الوصول إلا بسلوك هذه الطريق.

المطلب العاشر: الأمور التي تنافي اليقين

1. إنَّ ممَّا ينافي اليقين أن يكون القلب متطلعاً إلى غير الله - عزَّ وجلَّ -، متعلقًا به، ملتفتًا إليه، قال بعض السلف: "حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين، وفيه السكون إلى غير الله عز وجل، وحرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكرهه الله جل جلاله"[866].

2. ومما يضعف اليقين في القلوب: الإصغاء إلى الشكوك، والريب، والأمور التي تجلب ذلك: بسماع الشبه، وسماع كلام المخذلين، والمثبطين الذين يثبطون عزائم المؤمنين، ويوهنونهم، ويحثونهم على القعود عن التزام صراط الله - عزَّ وجلَّ - المستقيم، فهؤلاء الذين قَلَّ يقينهم إذا استمع العبد منهم؛ فربما سبّبوا له شيئاً من ضعف اليقين، حين ذلك يورثه قلقًا، وانزعاجًا، واضطرابًا، وهذا يخالف اليقين؛ لأن اليقين طمأنينة، وثبات واستقرار، كما قال ابن القيم - رحمه الله -: "الشك مبدأ الريب كما أن العلم مبدأ اليقين"[867].

---

[865] حلية الأولياء لأبو نعيم الأصبهاني، ص: 1/211

[866] روضة المحبين ص439

[867] بدائع الفوائد 4/ 913

المطلب الحادي عشر: أخبار السلف رضى الله عنهم مع اليقين

وهي كثيرة، وقد ذكرت طائفة منها عند الكلام على بعض جزئيات هذا الموضوع، وأذكر شيئا يسيرا ومن ذلك:

- ما قاله عامر بن عبد القيس رحمه الله مبينا الدرجة التي وصل إليها في هذا الباب يقول: لو كُشف الغطاء ما ازددت يقينا.

- ويقول الآخر: رأيت الجنة والنار حقيقة. فقيل له: كيف رأيتها حقيقة؟ قال: رأيتها بعيني رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورؤيتي لها بعينه آثر عندي من رؤيتي لها بعيني؛ فإن بصري قد يطغى ويزيغ بخلاف بصره صلى الله عليه وسلم. فهذا يعتبر ما أخبر عنه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، آكد في نفسه، وأعظم ثقة من الأشياء التي شاهدها بأم عينه.

- ومما يذكر في هذا الباب من أخبارهم: أن عالما من العلماء المتقدمين ألف كتابا في التفسير، فلم يجد سعة، ومالا من أجل أن يستنسخ الكتاب، كانت هذه الكتب تستنسخ عند الوراقين، ولربما كلفهم ذلك مبالغ إذا كان الكتاب كبيرا لا يستطيعون دفعها، فركب هذا العالم سفينة، وسار على النهر ليذهب إلى رجل من أهل الغنى والثراء؛ ليعرض عليه هذا الكتاب من أجل أن يتبرع لنسخه، فبينما هو بالسفينة إذ مر برجل يمشي على قدميه يريد الركوب، فطلب من صاحب السفينة أن يحمل هذا الرجل ويحسن إليه، فتوقفت فحملوا بها هذا الرجل فسأل الرجل العالم: من أنت؟ فأخبره باسمه، فقال: أنت العالم المفسر؟ قال: نعم، قال: وأين تريد؟ قال: أريد أن أذهب إلى فلان عله أن يتبرع بنسخ هذا الكتاب، فقال هذا الرجل للعالم: وكيف فسرت قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين} [الفاتحة: 5]؟ فأخبره عما قال وتفطن لمقصده! ثم قال لصاحب السفينة: ارجع بي إلى حيث حملتني، ورجع إلى بيته، وبقي فيه.

فلم يمتد نظره إلى المخلوق، فيتعلق قلبه به، ولو في هذا الأمر الذي يعم نفعه، وهو نسخ هذا الكتاب، وبعد مدة ليست بالبعيدة، وإذا برجل يطرق الباب، ومعه رسول فعرفه بنفسه، وقال: إنه مرسل من قبل فلان الرجل الذي كان يريد أن يذهب إليه، وقال: إنه قد بلغه أنك قد كتبت كتابا في التفسير، فهو يريد أن يطلع عليه، فبعث إليه بجزء من أجزاء هذا الكتاب، فلما نظر إليه أمر أن يوزن له بالذهب، فوزن فبعث به إلى هذا العالم. فانظر كيف يؤثر اليقين، وكيف كانت حالهم معه!

- وهذا الإمام البخاري لما ابتلى، وأوذي إيذاء كثيرا -في القصة المعروفة- ماذا كان يردد، ويقول؟ كان يردد ليلا ونهارا يقول: {إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: 160][868]. فلم يذهب إلى أحد المخلوقين، فيشكو له فلانا، أو فلانا، ويطلب النصرة منه، وإنما كان يردد هذه الآية، وكان إذا قيل له: يقولون عنك كذا، وكذا؛ لا يزيد أن يقرأ آية من القرآن: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173]. يقولون: إنهم يكيدون لك كذا وكذا، فيقرأ: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: 43]. في جميع جواباته على ما ينقل إليه من أقوال، وأفعال خصومه.

- اجتمع حذيفة المرعشي، وسليمان الخواص، ويوسف بن أسباط، وهم من الزهاد، فتذاكروا الفقر والغنى، وسليمان الخواص ساكت، فقال بعضهم: الغني من كان له بين يكنه. ما هو معنى الغني؟ ما ميزان الغني عندهم؟ الغني من كان له بين يكنه،

[868] نزهة الفضلاء 1019

وثوب يستره، وسداد عيش يكفه عن فضول الدنيا، وقال الآخر: الغني من لم يحتج إلى الناس وسليمان سأكت، فقيل له: ما تقول أنت أبا أيوب؟ فبكى ثم قال: رأيت جوامع الغنى في التوكل، ورأيت جوامع الشر من القنوط، والغني حق الغنى من أسكن الله قلبه من غناه يقينا، ومن معرفته توكلا، ومن عطاياه وقسمه رضا، فذاك الغني حق الغنى، وإن أمسى طاويا، وأصبح معوزا، فبكى القوم جميعا من كلامه.

- وهذه المرأة الصحابية من بنى عبد الدار من الأنصار رضى الله عنهم لما أخبرت باستشهاد زوجها، وأخيها، وأبيها، ولم يبق لديها أحد، قالت: ماذا صنع رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: هو بخير، فقالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل. يعني: أنها سهلة يسيرة، فقدت زوجها، وأباها، وأخاها، وتقول ذلك في حرارة المصيبة.

- وأيضا: من عجائب أخبارهم ما جاء عن حيوة بن شريح التجيبي، الفقيه، المحدث، الزاهد، وهو من رواة الحديث الثقات، كان يأخذ عطاءه في السنة ستين دينارا، فلا يفارق ذلك المكان الذي أخذ فيه العطاء حتى يتصدق بها جميعا، فكان إذا جاء إلى منزله وجد الستين دينارا، تحت فراشة، فبلغ ذلك ابن عم له، فتصدق لعطائه جميعا أراد أن يفعل مثل حيوة، وجاء إلى تحت فراشه فلم يجد شيئا! فذهب إلى حيوة وقال: أنا تصدقت بكل عطائي، ولم أجد تحت فراشي شيئا، فقال له حيوة: أنا أعطيت ربي يقينا، وأنت أعطيته تجربة. يعنى: أنت كنت تريد أن تجرب، وتختبر ربك، فتصدقت، لتنظر النتيجة، وأما أنا فأتصدق وأنا راسخ اليقين بما عند الله عز وجل من الجزاء والعوض.

- وهذه الخنساء، ومعروف خبرها: لما مات أخوها صخر، فكانت تبكي وترثيه، وتقول: ومن بكى حولا كاملا فقد اعتذر. وكانت تقول: ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وقالت فيه شعرها المشهور المعروف، فلما دخلت في الإسلام، وقتل أبناؤها الأربعة في وقعة واحدة، ماذا قالت؟ قالت: الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم. فانظر كيف قلب اليقين حالها، فغيرها هذا التغيير!!

- وكذلك أم حارثة التي قتل ابنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع فقال: "ويْحَكِ، أوَهَبِلْتِ، أوَجَنَّةٌ واحِدَةٌ هي؟ إنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وإنَّه لَفِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ"[869]. فسكتت، وما بكت، وما جزعت، وما تحرك لها ساكن. فما الذي يجعل الإنسان يفعل هذه الأمور، ويصبر هذا الصبر الذي كان عليه السلف الصالح رضى الله عنهم؟ هو قوة اليقين بالله.[870]

[869] صحيح البخاري 6550

[870] للاستزادة، ينظر: أعمال القلوب، خالد بن عثمان السبت.

المبحث العاشر: المحبة

المحبّة هي إحدى أعمال القلوب؛ ويقصد بها: ميل القلب إلى المحبوب، وذلك يقتضي إيثاره، وتقديمه على كلّ شيء.

وقد ورَدَ ذِكْرُ المحبّة في القرآن الكريم والسّنة النبوية الشريفة في مواضع عديدة، ولها فضلٌ عظيم وأجرٌ كبير، وقد ضرَب لنا الصحابة والصالحين خير مثال على محبّة الله ورسوله.

المطلب الأول: معنى المحبة

- **المحبة لغةً:**

يدورُ أصلُ المحبّة في اللغة على ستّة معانٍ، هي: الأول: الصفاء والبياض. الثاني: العلوّ والظهور. الثّالث: اللزوم والثّبات. الرّابع: اللب. الخامس: الحفظ والإمساك[871].

- **المحبة اصطلاحًا:**

يقول ابن القيم: "لا تحدُّ المحبة بحدٍّ أوضح منها؛ فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً، فحدها وجودها ولا توصف المحبّة بوصفٍ أظهر من المحبّة"[872].

وقد عرض ابن القيم للمحبة نحو ثلاثين تعريفاً، أجمع ما قيل فيها ما قاله أبو بكر الكتاني: "جرَت مسألة في المحبّة بمكة أعزها الله أيام الموسم، فتكلّم الشيوخ فيها، وكان الجُنيد أصغرهم سِنّاً، فقالوا: هات ما عِندَك يا عراقي، فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه، متصلٌ بذكر ربّه، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفا شُربُه من كأس وُدّه، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإذا تكلّم فبالله، وإن نطَقَ فعن الله، وإن تحرّك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين"[873].

وقال النووي: "أصلُ المحبّة: الميل إلى ما يُوافق المُحب، ثمّ الميل قد يكون لما يستلذّه الإنسان ويستحسنه؛ كحسن الصورة والصوت والطعام ونحوها، وقد يستلذّه بعقله للمعاني الباطنة؛ كمحبة الصّالحين، وأهل الفضل مطلقاً، وقد يكون لإحسانه إليه، ودفع المضار والمكاره عنه"[874].

والحاصل أنّ حقيقة المحبة: ميل القلب إلى المحبوب، وذلك يقتضي إيثاره، وتقديمه على كلّ شيء، وذلك يزيد وينقص[875].

- **العلاقة بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي:**

---

871 "مقاييس اللغة" لابن فارس (2 /26)، "لسان العرب" لابن منظور (3 /7)، "الصحاح" للجوهري (1 /106)، "تهذيب اللغة" للأزهري (4 /8)

872 مدارج السالكين لابن القيم (3 /10)

873 المصدر السابق (3 /17)

874 شرح صحيح مسلم للنووي (2/14)

875 أعمال القلوب للسبت (2 /8)

تتضمن المعاني اللغوية الخمسة للمحبة جُملة من أوصاف المحبة ومقتضياتها، يقول ابن القيم: "ولا ريبَ أنّ هذه الخمسة من لوازم المحبة؛ فإنها صفاء المودة، وهَيجان إرادات القلب للمحبوب، وعلوّها وظهورها عليه، وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزوماً لا تُفارقه، ولإعطاء المحب محبوبه وهو لبّه، وأشرف ما عنده، وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه"[876].

المطلب الثاني: فضل المحبة

1. **المحبّة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات**، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرةٌ من ثمارها، وتابعٌ من توابعها؛ كالشوق، والأنس، والرّضى، ولا قبل المحبّة مقام إلا وهو من مُقدّماتها؛ كالتوبة والصبر والزّهد وغيرها[877].

2. **محبّة العبدِ لربّه وخالقه عزّ وجل تمثّل أحد شقي العبادة**؛ لأنّ اسم العبادة يتناول غاية الحب مع غاية الذّل، وهذا هو حقيقة الدّين الّذي يدينُ النّاسُ به لربّ العالمين، فهذا الدين أو هذه العبادة لا بدَّ فيها من حب، ولا بدّ فيها من خضوع، بخلاف طاعتهم للملوك؛ فإنها تكون خضوعاً ظاهراً فقط[878].

3. **ومحبّة الله من أعظم الفروض،** وليست هي من قبيل المُستحبّات الّتي يتزوّد بها العبد، ويتقرّب بها إلى ربّه ومولاه دون أن يُحاسب، أو يُؤاخذ على تقصيره وتفريطه فيها، بل إنّها من أعظم الواجبات، ومِن أَجلِّ قواعد الدّين وأكبر أصوله، بل هي أصلٌ لكل عملٍ من أعمال الدّين والإيمان؛ فإنّ كلّ حركة في الوجود إنَّما تصدرُ عن محبّةٍ محمودةٍ أو مذمومة؛ فجميع الأعمال الإيمانية الدّينية لا تصدرُ إلا عن المحبة المحمودة، وأصلُ المحبة المحمودة هي محبة الله عزّ وجل؛ إذ العمل الصّادر عن محبةٍ مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحا"[879].

المطلب الثالث: الحث على المحبة

أ. المحبة في القرآن الكريم:

تكرر ذكر المحبّة في كتاب الله، وجاء في صورٍ متعددة:

- قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222].
- وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: 195].
- وقال تعالى: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 146].

وأخبر سبحانه وتعالى عن محبّة عباده المؤمنين له سبحانه:

- قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: 165].
- وقال تعالى: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: 54].

---

[876] مدارج السالكين، لابن القيم (3 /10)

[877] مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة (ص322)

[878] جامع المسائل لابن تيمية المجموعة الرابعة (ص40)

[879] مجموع الفتاوى لابن تيمية (48/10-49)

ب: المحبة في السنة النبوية:

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رَجُلًا سَأَلَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "مَتَى السَّاعَةُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أعْدَدْتَ لَهَا قالَ: ما أعْدَدْتُ لَهَا مِن كَثِيرِ صَلَاةٍ ولَا صَوْمٍ ولَا صَدَقَةٍ، ولَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ، قالَ: أنْتَ مع مَن أحْبَبْتَ"[880].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه "أَنَّ رَجُلًا زارَ أخًا له في قَرْيَةٍ أُخْرَى، فأرْصَدَ اللَّهُ له، علَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أتَى عليه، قالَ: أيْنَ تُرِيدُ؟ قالَ: أُرِيدُ أخًا لي في هذِهِ القَرْيَةِ، قالَ: هلْ لكَ عليه مِن نِعْمَةٍ تَرُبُّها؟ قالَ: لا، غيرَ أنِّي أحْبَبْتُهُ في اللهِ عزَّ وجلَّ، قالَ: فإنِّي رَسولُ اللهِ إلَيْكَ، بأنَّ اللَّهَ قدْ أحَبَّكَ كما أحْبَبْتَهُ فِيهِ"[881].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "مِنْ أشَدِّ أُمَّتي لي حُبًّا، ناسٌ يَكونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أحَدُهُمْ لو رَآنِي بأَهْلِهِ ومالِهِ"[882].

ت. أقوال أهل العلم:

- يقول الحسن البَصْري: "مَن عرَفَ ربّه أحبه، ومَن أحبَّ غير الله تعالى، لا من حيث نسبته إلى الله، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته؛ فأمّا حب الرّسول صلى الله عليه وسلّم، فذلك لا يكون إلّا عن حُب الله تعالى، وكذلك حبُّ العُلماء والأتقياء؛ لأنّ محبوبَ المحبوبِ محبوب، بل إنّ ما يفعل المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، وكلّ ذلك يرجعُ إلى حبِّ الأصل، ولا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مُستحقَّ للمحبّة سواه"[883].

- يقول ابن القيم: "ومتى رأيتَ القلبَ قد ترحّل عن حبّ الله، والاستعداد للقائه، وحلَّ فيه حبُّ المخلوق، والرّضا بالحياة الدّنيا، والطّمأنينة بها، فاعلم أنّهُ قد خُسِفَ به"[884].

- يقول العز بن عبد السلام: "محبّة الله وسيلة إلى أن يُعامله العبد مُعاملة المُحب لحبيبه في المُبادرة لطاعته، والمُسارعة إلى كلّ ما يُرضيه، واجتناب كلّ ما يُسخطه، والتحرز من أسباب سخطه، والاحتياط لأسباب رضاه"[885].

المطلب الرابع: وسائل اكتساب المحبة

الأسباب الجالبة للمحبة عشرة وهي:

1. **قراءة القرآن بالتّدبر والتفهم لمعانيه وما أُريد به**؛ كتدبّر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه؛ ليتفهم مُراد صاحبه منه.
2. **التّقرب إلى الله بالنّوافل بعد الفرائض**؛ فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.
3. **دوام ذكره على كلّ حال،** باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبّة على قدر نصيبه من هذا الذّكر.
4. **إيثار محابّه على محابِّك عند غلبات الهوى**، والتَّسنم إلى محابّه، وإن صعُب المرتقى.

---

[880] أخرجه البخاري (6171)

[881] أخرجه مسلم (2576)

[882] أخرجه مسلم (2832)

[883] مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة (ص323)

[884] بدائع الفوائد، لابن القيم (3 /1200)

[885] شجرة المعارف والأحوال (ص: 45 -46)

5. **مُطالعة القلب لأسمائه وصفاته،** ومُشاهدتها ومعرفتها، وتقلّبه في رياض هذه المعرفة وميادينها؛ فمن عرَف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبّه لا محالة.

6. **مشاهدة برِّهِ وإحسانه وآلائه،** ونعمه الباطنة والظّاهرة؛ فإنها داعية إلى محبّته.

7. انكسار القلب بكليّته بين يديه.

8. **الخَلوة به وقت النّزول الإلهي**؛ لمُناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتّأدب بأدب العبوديّة بين يديه، ثمّ ختمُ ذلك بالاستغفار والتّوبة.

9. **مُجالسة الصّادقين،** والتقاطُ أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقي أطايب الثّمر، ولا تتكلّم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أنّ فيه مزيداً لحالك، ومنفعةً لغيرك.

10. **مُباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عزّ وجل**[886].

يقول الشيخ عماد الدين الواسطي رحمه الله تعالى مبينًا سبيل محبة الله تعالى، ومشيرًا إلى العوائق التي تحول دون تحقيقها: "فصلٌ في بيان مَنشَأ المعرفة والمحبَّة لله عز وجل، من أين تنشأ؟ ومن ماذا تنشأ؟ أصل المعرفة: الإيمان بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما ينشأ الإيمان من معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بمعرفة سيرته، وسنته، وغزواته، ومعجزاته، وآياته، وكراماته، فبذلك يعلم شأن النبوة، وتلوح أدلتها وبراهينها في القلوب. ومتى علم شأن النبوة، ورسخت معالمها ودلائلها في القلوب: كانت كرسيًّا لعلم التوحيد، وطريقًا إلى معرفة الربّ العظيم المرسل الباعث، لأن النبوة آيات الله عز وجل وبيناته ودلالاته لمن اتسع فهمه وصفا من الكدر، وطلب استخراج ذلك منه. وإنما حجب أكثر من حجب عن حقائق التوحيد، وإن كانوا عالمين بالسنة وتفاصيلها؛ لأنهم يطلبون من السُنَّة معرفة الأحكام وهمهم قاصرة عن طلب السنة لمعرفة حقائق الإيمان، ولو طلبوه - مع المشيئة - لأدركوه، فهمهم منصرفة إلى محبة الدنيا، ومناصبها، والرفعة فيها، قد سرحت قلوبهم في أكناف الدنيا، وانصرفت عن أكناف الآخرة، وحجبت عن شهود المعرفة وذوق المحبة، ولم يتجاوزوا صورة الشريعة وظواهر الأحكام إلى حقائق أسرارها ومدلولاتها من المعارف الإلهية، فلم يشرق في قلوبهم شيء من أنوار الصفات ولا معارف الأفعال"[887].

المطلب الخامس: فوائد المحبة

لمحبّة الله فوائد وثمرات عديدة، منها:

أوّلًا: أنّها تبلغنا الدّرجات العُلى عند الله تبارك وتعالى: ولا بدَّ فيها من العمل والاتّباع، فلا تكفي دعوى المحبّة.

ثانيًا: أنّها تقود إلى طاعة الله عزّ وجل: وذلك أنّ القلب يكون مأسوراً لمن أحب، فلا يجد بدّاً من طاعته والانقياد إليه؛ فإذا غُرست شجرة المحبّة في القلب، وسُقيت بماء المعرفة والإخلاص، وصُدّقت بمُتابعة الحَبيب، أثمرت أنواع العبادات، وآتت أُكلها كل حينٍ بإذن ربها[888].

---

[886] الإكسير لمجموعة من الباحثين (220-222)

[887] (مدخل أهل الفقه واللِّسَان إلى ميدان المحبّة والعرفان) للواسطي (ص49)

[888] مدارج السالكين لابن القيم (3 /9)

ثالثًا: أنّ ذلك يُسهّل عليه الأمور الشّاقة: فالمحبّة كلّما تمكنت في القلب، ورسخت فيه كان أذى المحبّ في رضا محبوبه مستحلى غير مسخوط، والمحبّون يفتخرون عند أحبابهم بذلك.

رابعًا: أنّها تورث الشّوق إلى لقاء الله عزّ وجل: والفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوّة المحبة وضعفها.

خامسًا: أنّها صلاحُ ما بينه وبين الخلق: كما قال بعضهم: "ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله عزّ وجل إلا أقبلَ الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم"[889].

سادسًا: أنّها تورث نعيم القلب وسرور النّفس: فكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة اللذة والسرور والنّعيم أقوى[890].

سابعًا: تحقيق الحب في الله والبغض في الله: فيوالي أولياء الله، ويُعادي أعداءه؛ فإنّ أصل الموالاة المحبة، كما أنّ أصل المعاداة البغض، والمحب من حبه لحبيبه يحب كل ما يحبه، ويواليهم، وينصرهم، كما يبغض أعداءه، ويتبرأ منهم[891].

المطلب السادس: حكم المحبة

يقول ابن قدامة: "واعلم أنّ الأمّة مجمعةً على أنّ الحُبَّ لله ولرسوله فرضٌ"[892].

المطلب السابع: نماذج لمحبة الله عزوجل

- قال الفضيل بن عياض في مرضه الذي مات فيه: "ارحمني بحبي إياك، فليس شيء أحبَّ إليَّ منك"[893].
- وكان يقول أيضا: "كفى بالله محبًّا، وبالقرآن مؤنسًا، وبالموت واعظًا، وكفى بخشية الله علماً، وبالاغترار جهلًا"[894].
- ويقول آخر: "إنّه ليمرُّ بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيب"[895].

---

[889] أخرجه أحمد في "الزهد" (232)

[890] إغاثة اللهفان لابن القيم (2/931-932)

[891] جامع الرسائل لابن تيمية (2 /384)

[892] مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (ص322)

[893] أخرجه أبو نعيم في الحلية (8 /109)

[894] أخرجه البيهقي في الشعب (449)

[895] الوابل الصيب لابن القيم (ص111)

المبحث الحادي عشر: المحاسبة

المطلب الأول: معنى المحاسبة

- **المحاسبة لغة:**

مصدر من حاسب يحاسب. والمحاسبة: مفاعلة من الحساب وهو استيفاء الأعداد[896]. والفعل المجرد منه هو: يحسب حسبانا وحسابا وحسابة وحسبا، أي: عد[897].

- **المحاسبة اصطلاحًا:**

إذا ربطنا المعنى اللغوي بالاصطلاحي فإننا نستطيع أن نقول: إن المحاسبة هي: عد السيئات، وعد العيوب.

- وعرّف الماوردي المحاسبة فقال: "أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن كان محموداً أمضاه وأتبعه بما شاكله، وضاهاه، وإن كان مذموما استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل"[898].

- وعرف بعضهم المحاسبة بأنها: قيام العقل على حراسة النفوس من الخيانة، فيتفقد زيادتها ونقصانها، ويسأل عن كل فعل يفعله لم فعلته؟ ولمن فعلته؟ فإن كان الله مضى فيه، وإن كان لغير الله امتنع عنه، وأن يلوم نفسه على التقصير والخطأ، وإذا أمكن المعاقبة، أو صرفها إلى الحسنات الماحية. فالمحاسبة هي: النظر في أعمال النفس، واستدراك الأخطاء، والمضي في الصالحات.

- وعرفها الحارث المحاسبي بقوله: "هي التثبت في جميع الأحوال قبل الفعل والترك من العقد بالضمير، أو الفعل بالجارحة حتى يتبين له ما يفعل وما يترك، فإن تبين له ما كره الله عز وجل جانبه بعقد ضمير قلبه، وكف جوارحه عما حرم الله عز وجل، ومنع نفسه من الإمساك عن ترك الفرض وسارع إلى أدائه"[899].

- وقال عنها ابن القيم رحمه الله: هي: "التمييز بين ما له وعليه فيستصحب ما له ويؤدي ما عليه، لأنه مسافر سفر من لا يعود"[900].

المطلب الثاني: الحث على محاسبة النفس والترغيب فيها

أ. في القرآن الكريم:

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [المائدة: 105].

---

[896] التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 640

[897] القاموس المحيط (1/94)

[898] أدب الدنيا والدين، ص: 453 - 454 بتصرف.

[899] التربية الذاتية من الكتاب والسنة ص97

[900] مدارج السالكين 169/1

وقال تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى} [طه: 53، 54].

وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى} [طه: 128].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [الحشر: 18، 19].

وقال تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: 1، 2]. يقول الفراء في تفسير قوله تعالى: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: 2]: "أنه ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيراً، قالت: هلا ازددت، وإن عملت شراً، قالت: ليتني لم أفعل"[901].

وقال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: 40، 41]

ب. في السنة النبوية:

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: " الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ"[902].

قال الشيخ ابنُ عثيمين رحمه الله: "قوله: (الكَيِّس)؛ معناه: الإنسان الحازم الذي يغتنم الفرصَ ويتَّخذُ لنفسِه الحيطةَ حتى لا تفوتَ عليه الأيام والليالي فيضيع.

وقوله: (مَنْ دانَ نَفْسَه)؛ أي: من حاسَبها ونظرَ ما فعل من المأمورات، وماذا ترك من المهينات: هل قام بما أمرَ به، وهل ترك ما نهي عنه، فإذا رأي مِنْ نفسِه تفريطًا في الواجب استدركه إذا أمكن استدراكه، وقام به أو بدَّله، وإذا رأى من نفسِه انتهاكًا لمحرَّمٍ أقلع عنه ونَدِم وتاب واستغفر.

وقوله: (عمِل لما بعدَ الموْتِ)، يعني: عمِل للآخرةِ، لأنَّ كلَّ ما بعدَ الموتِ فإنَّه من الآخرةِ، وهذا هو الحقُّ والحزم، إن الإنسان يعملُ لما بعد الموْتِ، لأنَّه في هذه الدنيا مارٌّ بها مرورًا، والمآل هو ما بعد الموت، فإذا فرَّط ومضتْ عليه الأيام، وأضاعها في غير ما ينفعه في الآخرةِ فليس بكيِّسٍ.

(الكيِّس): هو الذي يعملُ لما بعد الموتِ، والعاجزُ من أتبع نفسه هواها وصار لا يهتم إلَّا بأمور الدنيا، فيُتبع نفسَه هواها في التَّفريطِ في الأوامر، ويُتبع نفسَه هواها في فعل النَّواهي، ثم يتمَّني علي الله الأماني، فيقول: الله غفور رحيم، وسوف أتوب إلى الله في المستقبل، وسوف أصلحُ من حالي إذا كبرت، وما أشبه من الأماني الكاذبة التي يمليها الشيطان عليه، فربما يدركها وربَّما لا يدركها.

---

[901] تفسير البغوي 421/4

[902] أخرجه الترمذي (2459)، وأحمد (17164) مختصراً، وابن ماجه (4260) باختلاف يسير، والديلمي في ((الفردوس)) (4930) واللفظ له.

ففي هذا الحديث: الحثُّ على انتهاز الفرص، وعلى أنْ لا يضيع الإنسان من وقته فرصة إلا فيما يرضي الله - عزَّ وجلَّ - وأن يدع الكسل والتَّهاون والتمني، فإنَّ التَّمني لا يفيد شيئًا، كما قال الحسن البصري - رحمه الله -: (ليس الإيمانُ بالتَّمنِّي ولا بالتَّحلِّي، ولكن الإيمانُ ما وقرَ في القلبِ وصدَّقته الأعمال)"[903].

ت. أقوال السلف في المحاسبة:

- قال أبو مليكة: "أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه، وما منهم أحد يقول أنا على إيمان جبريل وميكائيل"[904].

- قال أبو سعيد الحسن البصري رحمه الله تعالى: "إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة همه"[905].

- وقال إبراهيم التيمي: "مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعاني من سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أي شيء تريدين؟ فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً، قلت: فأنت في الأمنية فاعملي"[906].

- وجاء رجل يشكو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو مشغول فقال له: "أتتركون الخليفة حين يكون فارغا حتى إذا اشتغل بأمر المسلمين أتيتموه؟ فضربه بالدرة وانصرف الرجل حزينا، فتذكر عمر أنه ظلمه، فدعاه وأعطاه الدرة، وقال له: اضربني كما ضربتك، فقال الرجل: تركت حقي لله، فقال عمر: إما أن تتركه لله فقط، وإما أن تأخذ حقك، فقال الرجل: تركته لله، فانصرف عمر إلى منزله، فصلى ركعتين، ثم جلس يقول لنفسه: يا ابن الخطاب كنت وضيعا فرفعك الله، وضالا فهداك الله، وضعيفا فأعزك الله وجعلك خليفة، فأتى رجل يستعين بك على دفع الظلم فظلمته؟! ما تقول لربك غدا إذا أتيته، وظل يحاسب نفسه حتى أشفق الناس عليه"[907].

- وقال الحسن البصري رحمه الله واصفا المؤمن بقوله: "المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة"[908].

- وقد أحسن ميمون بن مهران حينما قال: "لا يكون العبد تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه"[909].

- وها هو الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يلقي كلماته المشهورة في المحاسبة قائلاً: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}"[910].

---

[903] شرح رياض الصالحين (1/ 507 - 509)

[904] رواه البخاري، 26/1

[905] الحلية، 2/146

[906] الزهد للإمام أحمد، ص: 501

[907] مناقب أمير المؤمنين عمر لابن الجوزي، ص171

[908] حلية الأولياء لأبي نعيم، 2/157

[909] مدارج السالكين 79/1

[910] الزهد للإمام أحمد، ص 177، ومدارج السالكين 170/1

-وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: "اقرعوا هذه الأنفس فإنها طلعة (تكثر التطلع إلى الشيء)، وإنها تنازع إلى شر غاية، وإنكم إن تقاربوها لم تبق لكم من أعمالكم شيئا، فتبصروا وتشددوا، فإنما هي أيام تعد، وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعي أحدكم فلا يجيب ولا يلتفت، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم"[911].

المطلب الثالث: أقسام محاسبة النفس

محاسبة النفس قسمان:

- **القسم الأول: محاسبة النفس قبل العمل وهي:**

أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه فينظر في همه وقصده، فالمرء إذا نفى الخطرات قبل أن تتمكن من القلب سهل عليه دفعها، فالخطرة النفسية والهم القلبي قد يقويان حتى يصبحا وساوس، والوسوسة تصبح إرادة والإرادة الجازمة لابد أن تكون فعلاً، قال الحسن البصري: (كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن كانت لله أمضاها)[912].

- **القسم الثاني: محاسبة النفس بعد العمل وهي على ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: محاسبة النفس على التقصير في الطاعات في حق الله تعالى التي لم تؤد على الوجه الذي ينبغي، وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور[913]:

أ) الإخلاص في العمل.

ب) النصيحة لله تعالى.

ج) متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيه.

د) شهود مشهد الإحسان فيه.

هـ) شهود منة الله عليه فيه.

و) شهود تقصيره فيه.

النوع الثاني: محاسبة النفس على معصية الله تعالى، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (وبداية المحاسبة أن تقايس نعمته سبحانه وتعالى وجنايتك، فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلال والعطب، وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب وأن العبد عبد، ومن ثم يتبين لك حقيقة النفس وصفاتها وعظمة جلال الربوبية وتفرد الرب بالكمال والإفضال، وأن كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل)[914].

---

[911] ذم الهوى لابن الجوزي: 41

[912] إحياء علوم الدين للغزالي ص 4/400

[913] إغاثة اللهفان لابن القيم 83/1

[914] مدارج السالكين 1/170

النوع الثالث: محاسبة النفس على أمر كان تركه خيرا من فعله، أو على أمر مباح، ما سبب فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ أم أنه أراد به التقليد والدنيا العاجلة؟ قال الحسن البصري: (إن المؤمن يفجؤه الشيء ويعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء، فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلا هذا، ومالي ولهذا، ما أردت إلا هذا ومالي ولهذا؟ والله مالي عذر بها، والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله تعالى)[915].

المطلب الرابع: المحاسبة المعتدلة

الناس في مسألة المحاسبة طرفان ووسط، منهم من يدلل الأبناء ولا يحاسبهم فهذا تفريط مذموم، ومنهم من ديدنه المحاسبة على كل صغير وكبير، وهذا إفراط مذموم في المحاسبة، والتوسط هو المنهج النبوي في هذه القضية.

فقد كان صلى الله عليه وسلم يحاسب الناشئة على أخطائهم باعتدال دون إفراط أو تفريط ولم تكن درجة المحاسبة واحدة، بل تختلف باختلاف درجة الخطأ وخطورته، وهل صاحبه مصرٌّ عليه أم تائب منه؟ وهل كان جاهلا أو متعمدا؟ إلى غير ذلك مما كان يراعيه صلى الله عليه وسلم في تربيته للناشئة فمن ذلك محاسبته لمعاذ بن جبل، وكان شابا ناشئا يصلي بقومه فيطيل الصلاة بهم فقال له صلى الله عليه وسلم: "يا مُعاذُ، أفتَّانٌ أنت؟!"[916]، فلم يسكت عن خطئه، ولم يحمله أكثر مما يتحمل.

بل لقد كان أحيانا يكتفي بالسكوت وإظهار الغضب على وجهه، ومن ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها: "أنَّها اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فيها تَصاوِيرُ، فَقامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالبابِ فَلَمْ يَدْخُلْ، فَقُلْتُ: أتُوبُ إلى اللَّهِ ممَّا أذْنَبْتُ، قالَ: ما هذِه النُّمْرُقَةُ قُلْتُ: لِتَجْلِسَ عليها وتَوَسَّدَها، قالَ: إنَّ أصْحابَ هذِه الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَومَ القِيامَةِ، يُقالُ لهمْ: أحْيُوا ما خَلَقْتُمْ، وإنَّ المَلَائِكَةَ لا تَدْخُلُ بَيْتًا فيه الصُّورَةُ"[917].

وفي المقابل اشتدت محاسبة النبي صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد وقد شفع يوما في حد من حدود الله حين وسطه بعض الناس ليطلب من النبي صلى الله عليه وسلم عدم قطع يد المرأة المخزومية التي سرقت فغضب عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "أتَشْفَعُ في حَدٍّ مِن حُدُودِ اللَّهِ"[918].

المطلب الخامس: كيفية المحاسبة

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أن محاسبة النفس تكون كالتالي[919]:

1- البدء بالفرائض: فإذا رأيت فيها نقصا، فتداركه إما بقضاء أو إصلاح.

---

[915] ذم الهوى لابن الجوزي 40

[916] أخرجه البخاري (701)، ومسلم (465)، وأبو داود (790) واللفظ له، والنسائي (835)، وابن ماجه (986)، وأحمد (14307)

[917] صحيح البخاري (5957)

[918] صحيح البخاري (3475)

[919] إغاثة اللهفان، 83/1

2- المناهي: فإن غرتك نفسك والهوى والشيطان بفعل شيء مما نهاك الله عنه، فتداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحيات.

3- محاسبة النفس على الغفلة، فالذكر والإقبال على الله تعالى مما يتدارك به المسلم غفلته.

4- محاسبة النفس على الجوارح، إلى أين خطت رجلاك؟ وماذا بطشت يداك؟! أو سمعت أذناك؟

المطلب السادس: فوائد محاسبة النفس

1- الاطلاع على عيوب النفس، ونقائصها ومثالبها، ومن ثم إعطاؤها مكانتها الحقيقية إن هي جنحت إلى الكبر والغطرسة.

2- أن تتعرف على حق الله تعالى وعظيم فضله ومنه عليك.

3- التوبة والندم وتدارك ما فات من الأعمال الصالحة في زمن الإمكان.

4- مقت النفس والإزراء عليها، والتخلص من العجب، ورؤية العلم، قال أبو الدرداء: "لا يفقه الرجل كل الفقه يمقت الناس في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون أشد لها مقتا"[920].

5- الاجتهاد في الطاعة وترك المعاصي حتى تسهل عليك المحاسبة في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

6- تزكية النفس وتطهيرها وإصلاحها وإلزامها أمر الله تعالى قال سبحانه وتعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس:9-10]. قال مالك بن دينار: "رحم الله عبدا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله عز وجل فكان لها قائدا"[921].

7- ومن فوائد المحاسبة تربية النفس وتنمية الشعور بالمسئولية ووزن الأعمال والتصرفات بميزان الشرع.

8- معرفة كرم الله سبحانه وتعالى وعفوه ورحمته بعباده إذ إنه لم يعجل العقوبة على أهل المعاصي والذنوب، وأنه أرحم بالعبد من الأم بولدها.

المطلب السابع: الأسباب المعينة لمحاسبة النفس

من الأسباب المعينة التي تعينك على محاسبة النفس، ما يلي:

1- تَذَكَّر أنك كلما اجتهدت في محاسبة نفسك اليوم استرحت من ذلك غدا، وكلما أهملت المحاسبة أشتد عليك حسابها يوم القيامة.

2- مَحَبَّتُك للأخيار الذين يحاسبون أنفسهم ويطلعونك على عيوب نفسك.

---

[920] الزهد للإمام أحمد، ص196

[921] إغاثة اللهفان لابن القيم، 79/1

3- النظر والتأمل في الصور المشرقة لمحاسبة الرعيل الأول أنفسهم، الذين ارتبطت قلوبهم بالله عز وجل، فكانوا أجسادا في الأرض، قلوبا في السماء.

4- زيارة القبور والتأمل في أحوال الموتى الذين لا يستطيعون محاسبة أنفسهم أو تدارك ما فاتهم في زمن الإمهال من الأعمال الصالحة التي تقربهم إلى ربهم عز وجل.

5- حضور مجالس العلماء والزيادة في طلب العلم الشرعي، فإنه يدعو إلى محاسبة النفس والكشف عن حقائقها.

6- كثرة قراءة القرآن والاستمرار على قيام الليل والتقرب إلى الله بأنواع القربات.

7- البعد عن أماكن اللهو والغفلة، فإنها تُنسي الإنسان محاسبة نفسه.

8- تذكر العقبى الحميدة لمحاسبة أنفسهم في الآخرة من سُكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرحمن جل جلاله، ومجاورة الأنبياء وأهل الفضل والصالحين بإذن الله تعالى.

9- أن يكون المرء صادقا في محاسبته لنفسه، وهذه المحاسبة الصادقة تعتمد أُسُسًا ثلاثة هي:

أ) الاستنارة بنور الحكمة، وهو العلم الذي يميز به العبد بين الحق والباطل، وكلما كان هذا العلم أقوى كلما كانت المحاسبة أتم وأكمل.

ب) سوء الظن بالنفس، حتى لا تمنع من البحث والتنقيب عن المساوئ والعيوب.

ج) تمييز النعمة من الفتنة، فكم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه.

المبحث الثاني عشر: التوبة

إنّ منزلة التوبة أوّل المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يُفارقه العبد السّالك، ولا يزالُ فيه إلى الممات. وحقيقة التوبة: ترك الذّنب عِلماً بِقبحِه، وندَماً على فِعلِه، وعَزماً على ألّا يعودَ إليه إذا قَدِر، وتَدارُكاً لما لا يمكنُ تدارُكه من الأعمال، وأداءً لما ضيّعَ من الفرائض؛ إخلاصاً لله، ورجاءً لثوابه، وخوفاً من عِقابه، وأن يكونَ ذلكَ قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشّمس من مغربها. وقد جاءت آيات وأحاديث كثيرة تحثُّ على المبادرة إلى التوبة، والرّجوع إلى الله، وتبين فضل التوبة؛ فالتوبة من أحب الأعمال إلى الله عز وجل، كما أنّ الله يمحو بها الخطايا، وفرح الله بتوبة عبده لم يأتِ نظيره في غيرها من الطّاعات دليلٌ على عظم التوبة وفضلها ومنزلتها. ومن صور التوبة: التوبة الواجبة، والتّوبة المستحبة، والتوبة النصوح، والتوبة الخاصة من بعض الذنوب. كما أنّ للتوبة فوائد عظيمة منها: أن التوبة تبدّل السيئات حسنات، وأنها سبب المتاع الحسن، وأنها سببٌ لنزول المطر. ومن الأمور التي تُعين على التوبة: تدبّر القرآن، والتفكر، ومحاسبة النفس.

المطلب الأول: معنى التوبة

- **التعريف لغة:**

التّوبة في اللّغة تدور على معنى الرّجوع والعودة، والإنابة والنّدم. والتاء والواو والباء كلمة واحدة تدلّ على الرّجوع، والتّوب: التّوبة.[922]

- **التعريف اصطلاحًا:**

التّوبة: هي ترك الذّنب عِلمًا بِقبحِه، ونَدمًا على فِعلِه، وعَزمًا على ألّا يعودَ إليه إذا قَدِر، وتَدارُكًا لما لا يمكنُ تدارُكه من الأعمال، وأداءً لما ضيّعَ من الفرائض؛ إخلاصًا لله، ورجاءً لثوابه، وخوفًا من عِقابه، وأن يكونَ ذلكَ قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشّمس من مغربها[923].

- **العلاقة بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي:**

المعنى اللغوي والاصطلاحي للتوبة متفقين؛ فالتّوبة في اللغة: الرجوع من الذنب. والتوبة في الاصطلاح: الرجوع عن الذّنب الّذي تاب منه إلى ما رجع إليه. والتّوبة المشروعة: هي الرّجوع إلى الله عزّ وجل إلى فعلِ ما أمر به، وترك ما نهى عنه[924].

والتّواب: صيغة مُبالغة، أي الكثير التوبة، بمعنى أنّه كلما تاب من الذّنب، ثمّ عادَ إليه ثانيًا بتقدير الله تعالى يتوب منه ثانيًا، ولا يصرّ على شيءٍ من الذّنوب[925].

---

[922] مقاييس اللغة لابن فارس

[923] التوبة للمحاسبي (ص51)، أعمال القلوب للسبت (2/509)

[924] التحفة العراقية لابن تيمية (ص140)

[925] التوبة للمحاسبي (ص83)

المطلب الثاني: الفرق بين التوبة وبين غيرها من الصفات

- **الفرق بين التوبة والإنابة والأوبة:**

الإنابة أوسع من التّوبة؛ فالإنابة تكون بالرّجوع عن الذّنب، وبالإقبال على الله عزّ وجل بفعل الطّاعات بالقلب واللّسان والجوارح، وبالإقبالِ عليه عزّ وجل بإنزال الحاجات، والضّراعة إليه والدّعاء.

وقال بعض أهل العلم: مَن خافَ العقاب فهو صاحبُ توبة، ومَن تابَ طمعًا في الثّواب فهو مُنيب، ومَن تابَ لمُراعاة أمر الله فهو صاحبُ أوبة. وقال بعضُهم: التّوبة صفة عامّة المؤمنين، كما قال الله عزّ وجل: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ} [النور: 31] على اختلافِ درجاتهم في الإيمان، وأمّا الإنابة فهي صفة للأولياء المقرّبين، كما قال عزّ وجل: {وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ} [ق: 33] والأوبة صفة الأنبياء والمُرسلين، كما قال تعالى: {نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: 30].[926]

المطلب الثالث: فضل التوبة

التّوبة كما أنّها في أول المقامات، فهيَ آخرها أيضًا، بل هي في كل مقامٍ مُستصحبة، ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصّته، فقال في غزوة تبوك، وهي آخر الغزوات: {لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: 117]، فجعل التّوبة أوّل أمرهم وآخره. والتّوبة نهاية كلّ سالك، وكلّ ولي لله، وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله، وعبوديته، وما ينبغي له.

قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: 72-73] فجعل سبحانه وتعالى التوبة غاية كلّ مؤمنٍ ومؤمنة.

وفي الآية: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: 31] خاطب الله بها أهل الإيمانِ وخِيارَ خلقِه، وأمرهم أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم، وصبرهم، وهجرتهم، وجهادهم، ثمّ علّقَ الفلاح بالتّوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالتّرجي إيذانًا بأنكم إذا تُبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التّائبون.

ولم يجعل الله محبته للتائبين إلا وهُم خواص الخلق لديه، وهي من أفضل الكمالات، والله عزّ وجل قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار، وهي أكمل الخلق. وتوبة المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم، وأكبر طاعاتهم، وأجلّ عباداتهم، الّتي ينالون بها أجلّ الثواب، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب. وممّا يدلُّ على فضل التوبة أيضًا: قول الرسول صلى الله عليه وسلّم لكعب بن مالك: "أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ ولَدَتْكَ أُمُّكَ"[927].

---

[926] مدارج السالكين لابن القيم (1 /434-435)، الرسالة القشيرية للقشيري (1 /211)

[927] أخرجه البخاري (4418)

فهذا دليلٌ على أنّ خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يوم توبته إلى الله وقبول الله توبته. وفرح الله بتوبة عبده لم يأتِ نظيره في غيرها من الطّاعات دليلٌ على عظم التوبة وفضلها ومنزلتها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "اللَّهُ أفْرَحُ بتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِن أحَدِكُمْ، سَقَطَ علَى بَعِيرِهِ، وقدْ أضَلَّهُ في أرْضٍ فَلاةٍ"[928].

كما أنّ التوبة تمحو الخطايا، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم قال: "التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ"[929].[930]

المطلب الرابع: الحث على التوبة والترغيب فيها

أ. التوبة في القرآن الكريم:

تارةً يأمرُ الله بها عباده، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التحريم: 8].

وتارةً يخبر عن توبته على بعض عباده، قال تعالى: {لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: 117].

وتارةً يُخبر عن قبوله لتوبة عباده، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى: 25].

وتارةً يذكُر دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أقوامهم للتوبة؛ كما في قول هود عليه الصلاة والسلام: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [هود: 52].

وتارةً يذكر توبتهم أو سؤالهم التوبة عليهم؛ كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: 128].[931]

ب: التوبة في السنة النبوية:

- عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنّه قال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إلى اللهِ، فإنِّي أَتُوبُ في اليَومِ إلَيْهِ مِئَةَ مَرَّةٍ"[932].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "واللَّهِ إنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وأَتُوبُ إلَيْهِ في اليَومِ أكْثَرَ مِن سَبْعِينَ مَرَّةً"[933].

---

[928] أخرجه البخاري (6309)

[929] أخرجه ابن ماجه (4250) والبيهقي (20561)

[930] التوبة للمحاسبي (ص74)، أعمال القلوب للسبت (2 /524-526)

[931] أعمال القلوب للسبت (2 /542-543)

[932] أخرجه مسلم (2702)

[933] أخرجه البخاري (6307)

ت. أقوال أهل العلم:

- قال ابن القيم: "وَلو لَم تكن التّوبة أحبّ الأشياء إلى الله عز وجل لما ابتلى بالذّنب أكرم الخلق عليه؛ فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذّنب الّذي يوجب وقوع محبوبه في التّوبة، وزيادة محبته لعبده؛ فإنّ للتائبين عنده محبّة خاصّة"[934].

- قال لقمانُ رحمهُ الله تعالى لابنه: "لا تُؤخّرِ التَّوْبة، فإنَّ الموت يأتي بغتةً ومَن تركَ المبادرة إلى التّوبة بالتّسويف كان بين خطرين أعظمين: أحدهما: أن تتراكم الظّلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رَيْنًا وطَبعاً فلا يقبل المحو. والثّاني: أن يعاجلَه المرض أو الموت فلا يجد مهلةً للاشتغال بالمحو"[935].

المطلب الخامس: حكم التوبة

- قال القرافي: "التوبة واجبة بالإجماع على الفور"[936].

- قال ابن قدامة: "الإجماع منعقدٌ على وجوب التّوبة؛ لأنّ الذنوب مهلكاتٌ مبعداتٌ عن الله تعالى، فيجب الهربُ منها على الفور"[937].

- وقال ابن قدامة أيضا: التوبة واجبةٌ على الدّوام؛ فإنَّ الإنسانَ لا يخلو عن معصية، لو خلا عن معصيةٍ بالجوارح لم يخل عن الهمّ بالذّنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخل عن وسواس الشّيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، لو خلا عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وأفعاله وصفاته وأفعاله، وكلّ ذلك نقص، ولا يسلم أحدٌ من هذا النّقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأمّا أصل ذلك فلا بدَّ منه[938].

المطلب السادس: نماذج من قصص التائبين

- **تَوْبَةُ مَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه:**

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي. فَقَالَ: وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي. فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ. قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: فِيمَ أُطَهِّرُكَ، فَقَالَ: مِنَ الزِّنَى. فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَبِهِ جُنُونٌ؟ فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، فَقَالَ: أَشَرِبَ خَمْرًا، فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَزَنَيْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ قَائِلٌ يَقُولُ لَقَدْ هَلَكَ لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وَقَائِلٌ يَقُولُ مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ. قَالَ: فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُمْ جُلُوسٌ،

---

[934] مدارج السالكين لابن القيم (1 /306)

[935] التوبة لابن أبي الدنيا (ص53)

[936] الذخيرة (13 /355)

[937] مختصر منهاج القاصدين (ص238)

[938] مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (ص238-239)

فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ. قَالَ: فَقَالُوا غَفَرَ اللَّهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ"[939].

- **تَوْبَةُ الْغَامِدِيَّةِ:**

عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: "جَاءَتِ الْغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي. وَإِنَّهُ رَدَّهَا فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَرُدُّنِي لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا فَوَاللَّهِ إِنِّي لَحُبْلَى. قَالَ: إِمَّا لاَ فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي. فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ. قَالَ: اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ. فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ، فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَبَّهُ إِيَّاهَا فَقَالَ: مَهْلاً يَا خَالِدُ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ. ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ"[940].

- **توبة رجل من بني إسرائيل:**

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "كَانَ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لاَ، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا نَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ مَعَهُمْ، وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا أَتَى نِصْفَ الطَّرِيقِ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى، فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوا. فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ. قَالَ قَتَادَةُ فَقَالَ الْحَسَنُ ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَاءَ بِصَدْرِهِ"[941].

- **تَوبَةُ أَبِي مِحْجَنٍ رضي الله عنه:**

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: أُتِيَ سَعْدٌ بِأَبِي مِحْجَنٍ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ وَقَدْ شَرِبَ الْخَمْرَ، فَأَمَرَ بِهِ إِلَى الْقَيْدِ، قَالَ: وَكَانَ بِسَعْدٍ جِرَاحَةٌ، فَلَمْ يَخْرُجْ يَوْمَئِذٍ إِلَى النَّاسِ، قَالَ: وَصَعِدُوا بِهِ فَوْقَ الْعُذَيْبِ لِيَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ، قَالَ: وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْخَيْلِ خَالِدَ بْنَ عُرْفُطَةَ، فَلَمَّا الْتَقَى النَّاسُ، قَالَ أَبُو مِحْجَنٍ:

كَفَى حُزْنًا أَنْ تُرْدَى الْخَيْلُ بِالْقَنَا.. وَأُتْرَكُ مَشْدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِيَا

فَقَالَ لِابْنَةِ خَصَفَةَ، امْرَأَةِ سَعْدٍ: أَطْلِقِينِي وَلَكِ عَلَيَّ إِنْ سَلَّمَنِيَ اللَّهُ أَنْ أَرْجِعَ حَتَّى أَضَعَ رِجْلِي فِي الْقَيْدِ، وَإِنْ قُتِلْتُ اسْتَرَحْتُمْ، فَحَلَّتْهُ حِينَ الْتَقَى النَّاسُ، فَوَثَبَ عَلَى فَرَسٍ لِسَعْدٍ يُقَالُ لَهَا: الْبَلْقَاءُ، ثُمَّ أَخَذَ رُمْحًا، ثُمَّ خَرَجَ، فَجَعَلَ لاَ يَحْمِلُ عَلَى نَاحِيَةٍ مِنَ

---

[939] رَوَاهُ مُسْلِمٌ 3293

[940] رَوَاهُ مُسْلِمٌ 3294

[941] رواه البخاري 3301، ومسلم 5074

الْعَدُوِّ إِلاَّ هَزَمَهُمْ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ: هَذَا مَلَكٌ، لِمَا يَرَوْنَهُ يَصْنَعُ، وَجَعَلَ سَعْدٌ يَقُولُ: الصَّبْرُ صَّبْرُ الْبَلْقَاءِ، وَالطَّعَنُ طَعَنُ أَبِي مِحْجَنٍ، وَأَبُو مِحْجَنٍ فِي الْقَيْدِ، فَلَمَّا هُزِمَ الْعَدُوَّ، رَجَعَ أَبُو مِحْجَنٍ حَتَّى وَضَعَ رِجْلَيْهِ فِي الْقَيْدِ، فَأَخْبَرَتْ بِنْتُ خَصَفَةَ سَعْدًا بِالَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، قَالَ: فَقَالَ سَعْدٌ: وَاللهِ لاَ أَضْرِبُ الْيَوْمَ رَجُلاً أَبْلَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى يَدَيْهِ مَا أَبْلاَهُمْ، قَالَ: فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَقَالَ أَبُو مِحْجَنٍ: قَدْ كُنْتُ أَشْرَبُهَا حَيْثُ كَانَ يُقَامُ عَلَيَّ الْحَدُّ، فَأَطْهَرُ مِنْهَا، فَأَمَّا إِذْ بَهْرَجْتَنِي فَلاَ وَاللهِ لاَ أَشْرَبُهَا أَبَدًا[942].

• توبة الْكِفْلِ:

عَنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: "لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَدِيثًا لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مِرَارٍ وَلَكِنْ قَدْ سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: "كَانَ الْكِفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ يَطَأَهَا فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ أَرْعَدَتْ وَبَكَتْ فَقَالَ مَا يُبْكِيكِ أَكْرَهْتُكِ قَالَتْ لَا وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ قَطُّ وَإِنَّمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ الْحَاجَةُ قَالَ فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَلَمْ تَفْعَلِيهِ قَطُّ قَالَ ثُمَّ نَزَلَ فَقَالَ اذْهَبِي فَالدَّنَانِيرُ لَكِ ثُمَّ قَالَ وَاللَّهِ لَا يَعْصِي اللَّهَ الْكِفْلُ أَبَدًا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِهِ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكِفْلِ"[943].

• تَوْبَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْلَمَةَ الْقَعْنَبِيِّ:

كان عبد الله بن مسلمة القعنبي شاباً كثير المجون كثير الشراب، وله قومٌ من الأحداث المردان، يجلس معهم، فدعاهم يوما وقعد على الباب ينتظرهم فمر به شعبة بن الحجاج رحمه الله أحد أئمة الحديث فاستوقفه على حماره والناس خلفه يهرعون فقال من هذا؟ فقيل شعبة، فقال: وأيش شعبة؟ قالوا: محدث، فقام إليه عليه أزار أحمر، فقال له: حدثني، فقال له: ما أنت من أصحب الحديث، فأحدثك، فأشهر سكينه، وقال له: حدثني أو أجرحك، فقال له شعبة: حدثني مَنْصُورٌ عَنْ رِبْعِيَّ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "إِذَا لَمْ تَسْتَحِي فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ"[944].

فرمي القعنبي سكينه ورجع إلى منزله، فقام إلى جميع ما كان عنده من الشراب فأراقه، وقال لأمه: الساعة أصحابي يجيئون فأدخليهم وقدمي الطعام إليهم، فإذا أكلوا فأخبريهم بما عملت بالشراب حتى ينصرفوا، ومضى من وقته إلى المدينة[945].

ولازم مالك بن أنس ثلاثين سنة يسمع منه ويتعلم فأكثر السماع عنه حتى صار أثبت رواة الموطأ، قال ابن أبي حاتم: قلت لأبي: القعنبي أحب إليك في " الموطأ " أو إسماعيل بن أبي أويس؟ قال: بل القعنبي، لم أر أخشع منه، ثم رجع إلى البصرة وقد مات شعبة فما سمع من شعبة غير هذا الحديث[946].

---

[942] رَوَاهُ سعيد بن منصور 2321، وَابن أبي شيبة 33084، وعبد الرزاق 16491

[943] رواه أحمد 4608، والترمذي 2480، وأبو يعلى 5593، وابن حبان 388، والبيهقي 6828 بسند ضعيف.

[944] صحيح البخاري 3314

[945] معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي 1/62

[946] سير أعلام النبلاء 259/10

● **تَوْبَةُ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ رحمه الله:**

عن الفضل بن موسى: كان الفُضَيْلُ بنِ عِيَاضٍ شاطرًا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع تاليًا يتلو: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} [الحديد: 16]. فلما سمعها قال: بلى يا رب قد آن، فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سائل، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، قال: ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين هاهنا يخافونني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام[947].

المطلب السابع: صور التوبة

● **التّوبة الواجبة:** تكون من فعل المحرّمات وترك الواجبات التّوبة المستحبّة: تكون من فعل المكروهات، وترك المستحبّات. فمن اقتصر على التّوبة الأولى كانَ من الأبرار المُقتصدين، ومن تاب التّوبتين كان من السّابقين المقرّبين، ومَن لَم يأتِ بالأولى كانَ من الظّالمين: إمّا الكافرين وإما الفاسقين[948].

● **التّوبة النّصوح:** هي الخالصة، الصّادقة، الناصحة، الخالية من الشّوائب والعلل. وهي الّتي تكون من جميع الذّنوب؛ فلا تدع ذنباً إلا تناولته، وهي التي يجمع صاحبها العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوم، ولا انتظار. وهي الّتي تقع لمحض الخوف من الله، وخشيته، والرّغبة فيما لديه، والرّهبة مما عنده؛ فليست لحفظ الجاه، والمنصب، والرّياسة، ولا لحفظ الحال، أو القوة، أو المال، ولا لاستدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، ولا لقضاء النهمة من الدّنيا أو للإفلاس والعجز، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها، وإخلاصها لله عز وجل. فمن كانت هذه حاله غفرت ذنوبه كلها، وإذا حسنت توبته بدّل الله سيئاته حسنات[949].

● **التّوبة الخاصة من بعض الذّنوب:** فالواجب على العبد أن يتوب من جميع الذّنوب صغيرها وكبيرها. فإذا تاب من بعضها مع إصراره على بعضها الآخر قُبلت توبته مما تاب منه، ما لم يصرّ على ذنب آخر من نوعه. أمّا إذا تابَ من ذنبٍ مع مباشرة ذنبٍ آخر لا تعلق له به ولا هو من نوعه صحت توبته مما تاب منه. مثالُ ذلك: أن يتوبَ من الرّبا، وهو مصرّ على السرقة وشرب الخمر، فتُقبل توبته من الرّبا. أما إذا تاب من نوعٍ من أنواع الرّبا وهو مصرٌّ على نوعٍ آخر منه، أو تاب من نوع منه، وانتقل إلى نوعٍ آخر فلا تقبل توبته؛ كحال من يتوب من ربا الفضل وهو مصرّ على ربا النّسيئة، أو أن ينتقل من ربا الفضل إلى ربا النسيئة، وكحال من يتوب من الزنا بامرأة، وهو مصر على الزنا بأخرى، فإن توبته لا تصح، فهو لم يتب في الحقيقة من الذّنب، وإنّما عدل عن نوعٍ منه إلى نوعٍ آخر. وقد يتصوّر أن يتوب الإنسان من الكثير من الذنوب دونَ القليل؛ لأنّ لكثرة الذّنوب تأثيرًا في كثرة العقوبة، وصعوبة التّوبة[950].

---

[947] تهذيب الكمال 23/ 286، وتهذيب التهذيب 265/8، وسير أعلام النبلاء 8/ 423

[948] جامع الرسائل لابن تيمية (1/227)

[949] مدارج السالكين لابن القيم (1 /316-317)

[950] إحياء علوم الدين للغزالي (4/40)

وبالجملة فكل ذنب له توبة خاصة، وهي فرض منه لا تتعلق بالتوبة من غيره؛ فهذه هي التوبة الخاصة. وحكمها أنها تصح فيما تاب منه؛ شريطة أن يكون التائب باقيًا على أصل الإيمان. وسرّ المسألة أن التوبة تتبعض كالمعصية، فيكون تائبًا من وجهٍ دون وجه كالإسلام والإيمان[951].

المطلب الثامن: وسائل اكتساب التوبة

1. ينبغي على العبد ألا يُعين الشيطان على أخيه المُسلم، فإن وقع في الذّنب نصحه وأَرشَده:

2. **تدبّر القرآن:** فمن تدبّر آي القرآن وما جاء فيها من الوعد والوعيد حمله ذلك على استقبال التوبة، واستقباح الحال التي هو عليها، ومن مواقعة الذنوب، والخروج عن طاعة رب العباد.

3. **النظر إلى أثر الذّنب:** فمن تأمل ما يجنيه بذنبه من خزي الدّنيا وخسران الآخرة، مع ما يكون عليه من مقبوح الحال، أنِفَ لنفسه أن يكون بتلك المَثابة، إذا كان عَقولاً، له حظ من النظر والتعقل، وليس كالبهيمة لا ينظر إلا فيما يشتهيه، دون تدبر العواقب وما يجنيه من الخسائر.

4. **مُحاسبة النفس:** بالمُحاسبة يُميّز العبد بينَ ما له وما عليه، فيستصحب ما له، ويؤدي ما عليه، ومن منزلة المحاسبة يصحُّ له نزول منزلة التوبة؛ لأنه إذا حاسب نفسه، عرَف ما عليه من الحقّ، فخرج منه، وتنصّل منه إلى صاحبه، وهي حقيقة التوبة.

5. **التفكّر:** التفكّر أداة التّذكر، وهو أمرٌ ينبغي أن يحرص عليه المسلم في أمر دينه ودُنياه، وهو مما يُعين العبد على نفسه إذا أقبلَ على الله تائبًا، إليه مُنيبًا، فحريٌّ بمن تفكر في عواقب الطاعات وآثارها الحميدة أن يُقبل عليها، وحريٌّ بمن تفكّر في عواقب المعاصي وما قد يحصل له بها من خزي الدنيا وعذاب الآخرة أن يُعرض عنها[952].

المطلب التاسع: فوائد التوبة

- **للتّوبة أسرار بديعة، وفوائد متعددة، منها:**

1. **التوبة سبب الفلاح،** قال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: 31].

2. **بالتّوبة تكفر السيئات:** فإذا تابَ العبدُ توبةً نصوحاً كفَّرَ الله بها جميع ذنوبه وخطاياه. قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53].

3. **بالتّوبة تبدّل السيئات حسنات:** فإذا حسنت التّوبة بدّل الله سيئات صاحبها حسنات، وذلك فضلٌ من الله وتكرّم. قال تعالى: {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الفرقان: 70].

4. **التّوبة سبب للمتاع الحسن:** قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} [هود: 3].

---

[951] مدارج السالكين لابن القيم (1 /285)

[952] أعمال القلوب للسبت (2 /595-601)

5. **التّوبة سبب لنزول المطر، وزيادة القوّة، والإمداد بالأموال والبنين،** قال تعالى على لسان هود عليه السّلام: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [هود: 52].

6. **أنّ الله يحبُّ التّوبة والتّوابين؛** فعبودية التّوبة من أحب العبوديّات إلى الله وأكرمها، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222].

7. **التّوبة توجب للتائب آثاراً عجيبة من المقامات الّتي لا تحصل بدون التّوبة:** فتوجب له المحبّة، والرّقة، واللطف، وشكر الله، وحمده، والرّضا عنه، فرتّب له على ذلك أنواع من النّعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل لا يزالُ يتقلب في بركتها وآثارها ما لّم ينقضها أو يفسدها.

8. **حصول الذّل والانكسار لله:** ففي التوبة من الذّل، والانكسار، والخضوع، والتّذلل لله ما هو أحبُّ إلى الله من كثيرٍ من الأعمال الظّاهرة، وإن زادَت في القدرِ والكميّة على عبودية التّوبة، فالذّل والانكسار روح العبوديّة ولبّها.

9. **أن يعرِفَ العبدُ حاجته إلى حفظ الله ومعونته وصيانته،** وأنّه كالوليد في حاجته إلى من يحفظه؛ فإنه إن لَم يحفظه مولاه ويصونه ويُعينه فهو هالك ولا بد. أنْ يعرِفَ العبدُ حقيقة نفسه وأنها الظالمة الجهول، وأنَّ ما صدرَ منها من شر فقد صدرَ من أهله ومعدنه؛ إذ الجهل والظّلم منبع الشّر كلّه، وأنّ كل ما فيها من خيرٍ وعلمٍ وهدى وإنابة وتقوى فهو من ربّها الّذي زكّاها، وأعطاها إياه. فإذا ابتُلي العبدُ بالذّنب عرف نفسه، ونقصها، فرتّب له على ذلكَ حِكَم ومصالح عديدة، منها: أن يأنف نقصها، ويجتهد في كمالها. ومنها: أن يعلم فقرها، ومَن يتولاها، ويحفظها[953].

وقال عزّ وجل على لسان نوح عليه السلام: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا} [نوح: 10:12]

[953] مدارج السالكين لابن القيم (1 /306-312)

المبحث الثالث عشر: الخوف

الخوفُ من المقامات العليّة، وهو من لوازم الإيمان، قال تعالى: {وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[954]، وكلّما كان العبدُ أقرب إلى ربّه، كانَ أشد خشيةً ممن دونه. وهو عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروهٍ في المستقبل، ومما يُعين على اكتساب الخوف وتحقيقه: تفريغُ القلبِ من الخوفِ من غير الله، وتدبّر القرآن، ومعرفة الله عزّ وجل معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته. وقد رتّب الله عز وجل على الالتزام به فوائد عظيمة، منها: أنه سبب لدخول الجنة، وأنّه أمانٌ للخائفين يوم الفزع الأكبر، وأنّه سببٌ لنيل مغفرة الله تبارك وتعالى، وأنّه يسوق العبد إلى امتثال المأمور واجتناب المحظور.

المطلب الأول: معنى الخوف

- **الخوف لُغةً:**

تدور مادة (خوف) حول الذعر والفزع[955]، يقال: خاف يخاف خوفًا وخيفة ومخافة، ومنه التخويف والإخافة، والنعت منها خائف[956].

- **التعريف اصطلاحًا:**

الخوف في الاصطلاح: عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروهٍ في المستقبل[957].

وقال الجرجاني: "الخوف: توقع حلول مكروهٍ أو فوات محبوب"[958].

وقال الأصفهاني: "الخوف: توقّع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة، كما أنّ الرّجاء والطمع توقّع محبوب عن أمارة مظنونة، أو معلومة، ويضادّ الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية"[959].

وقيل: "غم يلحق الإنسان مما يتوقعه من السوء"[960].

وقيل: "هربُ القلب من حلول المكروه عند استشعاره"[961].

يتضح مما سبق أن الخوف شعور بالاضطراب وعدم الأمن نتيجة حدوث مكروه في الحال، أو توقع حدوثه في المستقبل.

---

[954] آل عمران: 175

[955] مقاييس اللغة

[956] مختار الصحاح، الرازي ص 81، لسان العرب، ابن منظور، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص512

[957] مختصر منهاج القاصدين

[958] التعريفات للجرجاني (ص107)

[959] المفردات، الراغب الأصفهاني ص 303

[960] التوقيف، المناوي ص 161

[961] مدراج السالكين لابن القيم (1 /512)

المطلب الثاني: الفرق بين الخوف وغيره من الصفات

- **الفرق بين الخوف والخشية:**

الخوفُ: هربُ القلب من حلول المكروه عند استشعاره. والخشيةُ أخصُّ من الخوف؛ فإنّ الخشية للعلماءِ بالله، قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: 28].

فهَي خوفٌ مقرونٌ بمعرفة؛ وذلك لأنه كلّما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلّما كانت المعرفة به أتمّ والعلمُ به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر.

فالخوفُ: حركة، والخشية: انجماعٌ وانقباضٌ وسكون.

والخوفُ لعامّة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين[962].

- **الفرق بين الخوف والرهبة:**

الرّهبة مأخوذة من الرهب، وهو الخوف مع الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه، قال تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا} [الأنبياء: 90].[963]

وقيل: "الرّهبة: طول الخوف واستمراره"[964].

وقيل: "الرّهبة: خوفٌ معه تحيّر"[965].

ولذلك فالرّهبة أخصُّ من مُطلق الخوف، فهي خوفٌ مع تحرّز واضطراب الخائف وارتعاده، فيحصل له بسبب ذلك رهبة تُخالجُ شعوره، فتدفعه إلى مُجانبة مواطِن الهَلكة، فيحصلُ له الهرب من المخاوف[966].

- **الفرق بين الخوف والوَجَل:**

الوجل: هو خوفٌ مع رجفان القلب لذكرِ من يخافُ سلطانه وعقوبته لرؤيته[967]. ويُقال: "الخائف إن لَم يكُن مُطمئناً فهو وَجِل"[968]. فالوجل أخصُّ من الخوف وأعلى مرتبة منه.

---

[962] المصدر السابق (1 /513)، تفسير ابن كثير (3 /553)

[963] مدارج السالكين لابن القيم (1 /512).

[964] الفروق اللغوية للعسكري (ص241)

[965] الكليات للكفوي (429)

[966] أعمال القلوب للسبت (2 /123)

[967] مدارج السالكين لابن القيم (1 /513)

[968] الفروق اللغوية للعسكري (243)

المطلب الثالث: فضل الخوف من الله

الخوفُ من المقامات العليّة، وهو من لوازم الإيمان، قال تعالى: {وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران: 175]، وكلّما كان العبدُ أقرب إلى ربّه، كانَ أشد خشيةً ممن دونه.

وقد وصف الله تعالى الملائكة، بقوله: {يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ}، والأنبياء بقوله: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا} [الأحزاب: 39] وإنّما كان خوف المقرّبين أشدّ؛ لأنهم يُطالبون بما لا يُطالب به غيرهم، فيُراعون تلك المنزلة تلك المنزلة؛ ولأنّ الواجب لله من الشكر على المنزلة، فيُضاعف بالنّسبة لعلوّ تلك المنزلة[969].

والخوف هو علامة صحّة الإيمان، وترحّله من القلب علامة ترحّل الإيمان منه، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2].[970]

يقول أبو سليمان الداراني: "أصلُ كلّ خيرٍ في الدّنيا والآخرة الخوف من الله تعالى"[971].

يقول ابن قدامة: "فضيلة كل شيءٍ بقدر إعانته على طلب السّعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقرب منه، فكلّ ما أعان على ذلك فهو فضيلة.

قال الله تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: 46]، وقال تعالى: {رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [البينة: 8]". "مختصر منهاج القاصدين" لابن قدامة (ص290).

المطلب الرابع: الحث على الخوف من الله

أ. الخوف في القرآن الكريم:

ذُكِرَ الخوف في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، ففي القرآن العظيم فرضَ الله الخوف والخشية منه على جميع المُكلّفين، فقال تعالى: {فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران: 175].

وقال تعالى: {فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} [البقرة: 150].

ومَدَح الله عزّ جل الخائفين، فقال: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [النور: 36-38].

وقال تعالى: {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} [السجدة: 16].

وقد جعل الله أهل الخوف والخشية من أولي الألباب، قال تعالى: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ}. [الرّعد: 19-21].

---

[969] فتح الباري لابن حجر (11 /319)

[970] مدارج السالكين لابن القيم (1 /515)

[971] أخرجه أبو نعيم في الحلية (9 /259)

ووعد الله الخائفين منه بالنّصر والتّمكين لهم في الأرض في قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ} [إبراهيم: 13-14].

ب: الخوف في السنة النبوية:

1- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أسرف رجلٌ على نفسِه فلما حضرَه الموتُ أوصى بنيهِ فقال إذا أنا متُّ فأَحْرِقوني ثم اسحَقُوني ثم ذروني في الريحِ في البحرِ فواللهِ لئن قدر عليَّ ربي ليُعذِّبنِّي عذابًا ما عذَّبه أحدًا قال ففعلوا به ذلك فقال للأرضِ أدِّي ما أخذتِ فإذا هو قائمٌ فقال له ما حملَك على ما صنعتَ قال خشيتَك أو مخافتَك يا ربِّ فغفرَ له لذلك"[972].

2- عن أبي هريرة قال: «لا يَلِجُ النارَ رجلٌ بكَى من خَشيَةِ اللهِ حتى يعودَ اللبَنُ في الضَّرْعِ، ولا يجتَمِعُ غُبَارٌ في سبيلِ اللهِ ودُخَانُ جهنَّمَ». وجاء في حديث السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله: "..... وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّه"[973].

ت. كلام أهل العلم:

- قَالَ أَبُو الدَّرْدَاء: "إن أخوف ما أخاف إذا لقيت ربي تبارك وتعالى أن يقول لي: قد علمتَ فماذا عملتَ فيما علمت"[974].

- قَالَ سَعيد بن جُبَير: "الخشية أن تخشى الله حتى تحول خشيته بينك وبين معصيته، فتلك الخشية"[975].

- قَالَ ابن الْمُبَارَك: "الّذي يهيجُ من الخوف حتى يسكُن في القلب دوام المُراقبة في السر والعلانية"[976].

- قَالَ سُلَيمان الدَّاراني: "ينبغي للقلبِ أنْ لا يكون الغالبُ عليه إلا الخوف، فإنّه إذا غلب الرّجاءُ على القلبِ فسد القلب"[977].

- قَالَ المَرْداوي:

ومَنْ يَنتحِبْ مِنْ خَشيَةِ اللَّهِ قُلْ لَهُ.. طَفَأْتَ لَظَى وَاحْرَزْتَ كلَّ التَّعَبُّدِ

فعَينٌ بَكَتْ مِنْ خشيَةِ اللَّهِ حُرِّمَتْ.. على النارِ في نَصِّ الحديثِ الْمُسَدَّدِ.[978]

---

[972] أخرجه مسلم (2757). وأخرج الترمذي (2311)

[973] أخرجه البخاري (660)

[974] (الزهد) لأحمد بن حنبل (ص170)

[975] (الزهد) لابن المبارك في زيادة نعيم بن حماد (ص35)

[976] الرسالة القشيرية (1 /348)

[977] المصدر السابق (1 /349)

[978] (الألفية في الآداب الشرعية) (ص67)

المطلب الخامس: وسائل اكتساب الخوف من الله

أوّلًا: تفريغُ القلب من الخوفِ من غير الله، وملؤه بالخوفِ من الله: يقول ابن القيم رحمه الله عن المُهاجر إلى ربّه: "فيُهاجر بقلبه من محبّة غير الله إلى محبّته، ومن عبودية غيره إلى عبوديّته، ومن خوف غيره ورجائه والتّوكل عليه، إلى خوف الله ورجائه والتّوكل عليه، ومن دُعاء غيره، وسؤاله، والخضوع له، والذّل والاستكانة له، إلى دعائه وسؤاله والخضوع له، والذّل له، والاستكانة له، وهذا بعينه معنى الفرار إليه، قال تعالى: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ} [الذاريات: 50]، والتّوحيد المطلوب من العبد: هو الفِرار من الله إليه"[979].

ثانيًا: تدبّر القرآن: فالمتدبّر لآيات الله سبحانه يجدُ فيها من الوعيد لمن عصى الله ما يدعوه إلى الخوفِ منه، قال الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2].

قال السعدي: "أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثّرت في قلوبهم من الإيمان والرّغبة والرّهبة ما أوجب لهم البُكاء والإنابة والسّجود لربهم"[980].

ثالثًا: معرفة الله عزّ وجل معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته: فبالعلم بها يزداد المُسلم معرفةً بربّه سبحانه، فيزداد خوفًا منه، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: 28].

والعلم الذي يُورث الخشية، هو العلم بالمعبود عزّ وجل، بأسمائه وصفاته، والعلم بالطّريق الموصل إليه، والعلم بحدوده ومعالم الطريق التي وصفها للسّالكين من أجل أن يسلكوها. فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة للعبد، مع معرفةٍ بالنّفس، بحيث لا يتعدّى طوره، فيعرف أنّه ضعيف عاجزٌ مسكين؛ فإنّ ذلك يُثمر الثّمار اليانعة في نفسه، فلا يتطاول، ولا يتكبّر، وإنّما يكونُ حاله الإشفاق، والإخبات، والتّواضع، والوَجَل، والخوف من الله عزّ وجل.[981]

رابعًا: اليقين الرّاسخ بوعد الله ووعيده، وتصديق كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلّم: فلو آمن الإنسان بالله وحده، وَجزمَ يقيناً بما بعد الحياة من الجنّة والنّار، وما أعدّ الله لأهل هذه وهذه إجمالاً وتفصيلاً؛ لما اجترأ يوماً أن يتخطى شريعة الله أو ينتهك محارم الله الّتي حذره من تخطيها، ببقوله تعالى: {وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [النساء: 14]، وقوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: 299].[982]

يقول ابن تيمية: "كلّ عاصٍ لله فهو جاهل، وكلّ خائفٍ منه فهو عالم مُطيع لله، وإنّما يكونُ جاهلاً لنقص خوفه من الله؛ إذ لو تمَّ خوفه من الله لَم يعص، كما قال ابن مسعود: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترارِ باللهِ جهلًا، وذلك؛ لأنّ تصوّر

---

[979] الرسالة التبوكية لابن القيم (ص16)

[980] تفسير السعدي (ص: 1005)

[981] أعمال القلوب للسبت (2 /149)

[982] (الخوف من الله تعالى) لمحمد شومان (ص59)

المَخُوف يوجِبُ الهرب منه، وتصوّر المحبوب يوجبُ طلبه، فإذا لك يهرُب من هذا، ولَم يطلُب هذا، دلّ على أنّه لم يتصوّره تصوّراً تامّاً"[983].

وقال ابن جزي: "الخوف من الله تعالى، وهو اللجام القامع عن المعاصي، وسببه: معرفة شدة عذاب الله"[984].

خامسًا: الوقوف عند الآيات الكونيّة الّتي يخوّف الله عزّ وجل بها عباده: كالخسوف والكسوف، وتغيّر الأحوال الأرضية والسّماويّة، ومما يقع من البلايا والأهوال العِظام، من الزلازل والبراكين؛ فلو أنّ الناس تفكروا في هذه الآيات العظام، وما أجراه الله تعالى على المكذّبين من العذاب والنقم، فبقيت بعض آثارهم، وما يُجريه الله سبحانه في هذه العصور من ألوان العقوبات، وما يُجريه من بعض الجوائح التي تُصيب النّاس؛ لرأوا في ذلك أعظم العبر.[985]

سابعًا: الدّعاء: فالعبدُ فقيرٌ إلى ربه كل الافتقار، فهو بحاجةٍ شديدة إلى عونه وتسديده وتأييده، وأن يُفتح على قلبه، فينبغي للعبد أن يُلحَّ في الطّلب والسؤال، وأن يسأل ربه قائمًا وقاعدًا، وأن يذكره بقلبٍ خائفٍ يخشاه ويهابه.[986]

المطلب السادس: فوائد الخوف من الله

للخوف من الله فوائد وثمرات كثيرة:

1. **أنّه سبب موصل لجنة الله عز وجل،** كما أنّه سبب للخلاص من عذاب الله تبارك وتعالى في الدّنيا والآخرة.
2. **أنّه أمانٌ للخائفين يوم الفزع الأكبر**؛ كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: "وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ، إِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[987].
3. **أنّه سبب لنيل مغفرة الله تبارك وتعالى:** فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "إذا أرادَ عَبْدِي أنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فلا تَكْتُبُوها عليه حتَّى يَعْمَلَها، فإنْ عَمِلَها فاكْتُبُوها بمِثْلِها، وإنْ تَرَكَها مِن أجْلِي فاكْتُبُوها له حَسَنَةً، وإذا أرادَ أنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْها فاكْتُبُوها له حَسَنَةً، فإنْ عَمِلَها فاكْتُبُوها له بعَشْرِ أمْثالِها إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ". أخرجه البخاري (7501).
4. **أنّه يورث المهابة:** فيكون للخائف من الله عز وجل من الهيبة في قلوب الخلق ما لا يكون للمسترسلين في معصية الله تعالى، الذين لا يرفعون لخشيته رأساً. أنّه يحمل صاحبه على الإحسان إلى الخلق وترك ظلمهم.
5. **أنّه سائق يسوق العبد إلى امتثال المأمور واجتناب المحظور،** فيعمل بطاعة الله، ويقمع هذه النفس التي تريد أن تستولي عليه بالشهوات، فيكون من أهل الورع الكامل الّذي يُجتنَب فيه الحرام، ويُتقّى فيه المكروه، وفضول المُباح.
6. **أنّه سببٌ للتوفيق والرّحمة**[988].

---

[983] مجموع الفتاوى لابن تيمية (7 /22- 23)

[984] القوانين الفقهية (ص636)

[985] أعمال القلوب للسبت (2 /159)

[986] المصدر السابق

[987] رواه ابن المبارك في "الزهد" (157)، وحسنه الألباني في "الصحيحة" (742)

[988] أعمال القلوب للسبت (2 /165-174)

يقول الغزالي: "إنّه يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصيرُ العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أنّ فيه سمًّا، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويُفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في عاقبته، فلا يتفرّغ لغيره، ولا يكون له شغلٌ إلا المُراقبة والمُحاسبة والمُجاهدة"[989].

المطلب السابع: نماذج من أهل الخوف من الله عز وجل

أولا: خوف النّبي صلى الله عليه وسلم:

-عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما رَأَيْتُ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ضَاحِكًا حتَّى أرَى منه لَهَوَاتِهِ، إنَّما كانَ يَتَبَسَّمُ، قالَتْ: وكانَ إذَا رَأَى غَيْمًا أوْ رِيحًا عُرِفَ في وجْهِهِ، قالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ إنَّ النَّاسَ إذَا رَأَوْا الغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أنْ يَكونَ فيه المَطَرُ، وأَرَاكَ إذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ في وجْهِكَ الكَرَاهيةُ، فَقالَ: يا عَائِشَةُ ما يُؤْمِنِّي أنْ يَكونَ فيه عَذَابٌ؟ عُذِّبَ قَوْمٌ بالرِّيحِ، وقدْ رَأَى قَوْمٌ العَذَابَ، فَقالوا: هذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا"[990].

-عن عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ قال: "رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصَلِّي وفي صدرِه أَزِيزٌ كأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ البُكاءِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم"[991].

ثانيا: خوف عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل حذيفة بن اليمان الذي هو أمين سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي أطلعه رسول الله صلى الله عليه وسلّم على أسماء المُنافقين، فقال له: أُنشدك بالله! ألم يسمّني رسول الله صلى الله عليه وسلّم منهم؟ وكان عمر رضي الله عنه يسمع آيةً فيمرض فيُعاد أيامًا. وأخذ يومًا نبتةً من الأرض فقال: يا ليتني كنت هذه النبتة، يا ليتني لم أكُ شيئاً مذكوراً، يا ليتَ أمّي لم تلدني. وكانَ في وجهه خطّان أسودان من البكاء[992].

ثالثا: خوف التّابعين:

كان علي بن الحسين إذا توضأ اصفرَّ وتغيّر، فيُقال: ما لك؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟ وكان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لا يكاد يفتُر.

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، ويبكي حتى تجري دموعه على لحيته، وبكى ليلة فبكى أهل الدار، فلما تجلت عنهم العبرة، قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: ذكرتُ منصرف القوم من بين يدي الله تعالى، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير، ثمّ صرخ وغشي عليه. ولما أراد المنصور بيت المقدس، نزل براهب كان ينزل

---

989 إحياء علوم الدين للغزالي (4 /16)

990 أخرجه البُخاري (4828)

991 أخرجه أبو دواد (904)

992 مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (ص298)

به عمر بن عبد العزيز فقال له: أخبرني بأعجب رأيت من عمر. فقال: باتَ ليلة على سطح غرفتي هذه وهو من رخام، فإذا أنا بماء يقطرُ من الميزاب، فصعدت فإذا هو ساجد، وإذا دموع عينه تنحدر من الميزاب[993].

رابعًا: خوف العلماء:

قال أبو شامة في ترجمة الإمام فخر الدين ابن عساكر رحمهما الله تعالى: "سمعت عليه معظم كتاب (دلائل النبوة) للحافظ أبي بكر البيهقي وغيره، وكان رقيق القلب، سريع الدمعة، فكنت أشاهده في أثناء قراءة تلك الأحاديث عليه يبكي عند سماع ما يتلى منها، ويردد مواضع المواعظ منها، نحو الشعر المنسوب إلى قس بن ساعدة:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر
لا من مضى يأتي إليك ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

فكان رحمه الله يُرَدِّدُها، ويبكي"[994].

[993] المصدر السابق
[994] المذيل على الروضتين (1/362-363)

المبحث الرابع عشر: الخشوع

المطلب الأول: معنى الخشوع

- **الخشوع لغة:**

يدور الخشوع في كلام العرب على معنى واحد، وهو التطامن[995]، ولذلك نجد أن بعضهم يعبرون عنه بقولهم: الخاشع: المستكين، والراكع[996]، وبعضهم يقول: "المتضرع"[997]. وبعضهم يقول: "المختشع: هو الذي طأطأ رأسه، وتواضع" وبعضهم يقول كلاماً يقارب هذا، وهو يدور في لغة العرب على ما ذكرت، والتخشع هو: تكلف الخشوع. فالتخشع لله عز وجل هو: الاخبات، والتذلل له عز وجل.

- **الخشوع اصطلاحا:**

وأما معنى الخشوع في الاصطلاح، فعبارات العلماء فيه متقاربة[998]: فمن قائل: هو قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع، والذل.

ومن قائل: هو الانقياد للحق - والواقع أن الانقياد للحق هو من موجبات الخشوع.

ومن قائل: هو تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وابن القيم - رحمه الله - يقول: إن الخشوع معنى يلتئم من التعظيم، والمحبة، والذل، والانكسار[999].

والحافظ ابن حجر - رحمه الله - ينقل عن بعضهم تعريف الخشوع بأنه: تارة يكون من فعل القلب كالخشية، وتارة من فعل البدن كالسكون - سكون الأعضاء، والجوارح - وقد قيل: لابد من اعتبار الأمرين حتى يكون ذلك من قبيل الخشوع المعتبر. وبعضهم يقول: هو معنى يقوم في النفس يظهر عنه سكون الأطراف يلائم مقصود العبادة[1000].

وابن رجب له كلام جيد في بيان معناه يقول: "الخشوع في الصلاة: أصله خشوع القلب، وهو انكساره لله، وخضوعه، وسكونه عن التفاته إلى غير من هو بين يديه، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها تبعا لخشوعه"[1001]؛ لأنها تابعة له، كما قال صلى الله عليه وسلم: ألا وإن في الجسد مضغة...[1002].

وكان صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه في الصلاة: خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي[1003]، فهو يرى: أن خضوع الجوارح هو ثمرة لخضوع القلب، ولينه.

---

[995] مقاييس اللغة

[996] غريب القرآن لابن قتيبة (ص: 101)

[997] المفردات في غريب القرآن (ص: 283)

[998] مدارج السالكين (1/ 516-517)

[999] المصدر السابق (1/ 518)

[1000] فتح الباري لابن حجر (2/ 225)

[1001] المصدر السابق (6/ 367)

[1002] أخرجه البخاري (52)، ومسلم (1599)

- **وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرى أن الخشوع يتضمن معنيين:**

أولهما: التواضع، والتذلل.

والثاني: السكون، والطمأنينة، يقول: "وذلك مستلزم للين القلب، ومنافٍ للقسوة، فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله، وطمأنينته أيضاً، ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن هذا، وهذا، التواضع، والسكون"[1004].

فشيخ الإسلام يرى أن لين القلب هو نتيجة، وأثر، ولازم من لوازم الخشوع، وأن الخشوع هو التواضع، والتذلل، والسكون، والطمأنينة، ولهذا جاء عن عليٍّ رضي الله عنه: "الخشوع في القلب: أن تلين كنفك للرجل المسلم، وألا تلتفت في الصلاة"[1005]. وجاء عنه أن: "الخشوع في القلب"[1006]. وهكذا جاء عن إبراهيم النخعي أيضاً، وطائفة من السلف[1007].

وكان ابن سيرين يقول: "كانوا يقولون في معنى الخشوع: لا يجاوز بصره مصلاه"[1008].

وسُئل الأوزاعي عن الخشوع، فقال: "غض البصر، وخفض الجناح، ولين القلب، وهو الحزن، والخوف"[1009].

وكان الأوزاعي رحمه الله كما وُصف: كأنه أعمى من الخشوع[1010]، يعني أن ذلك أثر أيضًا على بصره، ونظره.

المطلب الثاني: الفرق بين الخشوع وغيره من الصفات

- **الفرق بين الخشوع، والإخبات:**

الله عز وجل يقول: {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} [الحج:34] ثم فسر المخبتين، فقال: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [الحج:35] وقال أيضًا: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [هود:23].

والخَبتُ أصله في كلام العرب: هو المكان المنخفض من الأرض، وابن عباس - رضي الله عنهما - يفسر: وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ بالمتواضعين[1011].

ومجاهد رحمه الله من التابعين يقول: المخبت: "المطمئن إلى الله عز وجل"[1012].

ويقول الأخفش: "المخبتون: الخاشعون"[1013].

[1003] أخرجه مسلم (771)

[1004] مجموع الفتاوى (7/ 28)

[1005] المصدر السابق

[1006] المصدر السابق

[1007] المصدر السابق (22/ 555-556)

[1008] تفسير الطبري (17/ 8)، وتفسير ابن كثير (5/ 461)

[1009] سير أعلام النبلاء (7/ 116)

[1010] تاريخ الإسلام (9/ 487)، والبداية والنهاية (10/ 125)

[1011] تفسير البغوي (5/ 386)

[1012] مدارج السالكين (2/ 5)

[1013] تفسير البغوي (5/ 386)، ومدارج السالكين (2/ 6)

ويفسره إبراهيم النخعي رحمه الله: "بالمصلين المخلصين"[1014].

وفسره الكلبي: "بالرقيقة قلوبهم"[1015].

وفسره عمر بن أوس: "بالذين لا يظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا"[1016].

وهذه الأقوال جميعًا كما يقول الحافظ ابن القيم رحمه الله تدور على معنيين: التواضع، والسكون لله عز وجل[1017]، وبهذا نعرف أن الإخبات مقارب للخشوع، لكن الخشوع يصحبه ذل القلب، وانكساره، ويؤثِّر لينَ القلب، ورقة القلب مع المحبة، والتعظيم.

- **أما الفرق بين الخشوع، وبين الخضوع:**

فبينهما تقارب أيضا، وقد قيل: إن الخضوع: بالبدن، يقال: فلان خضع لفلان، وإن كان قلبه لم يخضع له، فالخضوع في البدن، وهو الإقرار بالاستسلام، فيستسلم لمن خضع له.

- **وأما الخشوع:**

فيكون في القلب، والبدن، والصوت، والبصر، فيظهر هذا على بصره، وجوارحه، وأصل الخضوع: هو الذل، والانقياد، فإذا قيل: خضوع القلب فهو ذل القلب، وإذا قيل: خضوع البدن فهو انقياده، واستسلامه.

- **وأما الفرق بين الخشوع، وبين الضراعة:**

فكذلك بينهما تقارب، وقد قيل: أكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح في الظاهر، وإن كان أيضاً يرتبط بالقلب بلا شك، وأما الضراعة: فأكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب، فلا يقال: فلان ضارع ببدنه، وأكثر ما تقال في خضوع القلب، وأصل الضراعة في كلام العرب: الذل، والخضوع، وبهذا تعرف أنها معانٍ متقاربة.

المطلب الثالث: أهمية الخشوع ومنزلته

أما ما يتعلق بأهمية الخشوع، ومنزلته: فهو بلا شك في غاية الأهمية، ومن فقده فقد واجباً من واجبات الإيمان، ومما يدل على أهميته أنه واجب من واجبات الصلاة على قول طائفة من أهل العلم، وممن اختار هذا القول: القرطبي صاحب التفسير[1018]، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1019]، والحافظ ابن القيم[1020]، وطائفة من السلف، والخلف، وقد استدل شيخ الإسلام ابن تيمية على أن الخشوع واجب من واجبات الصلاة بأدلة متعددة منها:

[1014] المصدران السابقان

[1015] المصدران السابقان

[1016] المصدران السابقان

[1017] مدارج السالكين (2/ 6)

[1018] تفسير القرطبي (12/ 104)

[1019] مجموع الفتاوى (22/ 554، 558)

[1020] الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: 10)

● **الدليل الأول:** أن الله عز وجل قال: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ، وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:45] يقول مبيناً وجه هذا الاستدلال: "وهذا يقتضي ذم غير الخاشعين {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [سورة البقرة:45] فغير الخاشع تكون كبيرة عليه، فمعنى ذلك أنه مذموم؛ لأن الله قال: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} [البقرة:143] فهؤلاء الذين يكبر عليهم التحول من بيت المقدس إلى الكعبة، فهؤلاء فقدوا أساساً، وأمراً عظيماً، حيث إنهم خرجوا عن هذا الوصف: {وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} [البقرة:143] والله عز وجل يقول: {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} [الشورى:13].

يقول شيخ الإسلام: "من مجموع هذه الآيات، دل كتاب الله عز وجل على أن من كبر عليه ما يحبه الله أنه مذموم بذلك، وأن ذلك مسخوط منه، والذم، أو السخط لا يكون إلا لترك واجب، أو فعل محرم، وإذا كان غير الخاشعين مذمومين دل ذلك على وجوب الخشوع، فمن المعلوم أن الخشوع المذكور في قوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:45] لابد أن يتضمن ذلك الخشوع في الصلاة، فإنه لو كان المراد الخشوع خارج الصلاة لفسد المعنى، إذ لو قيل: إن الصلاة لكبيرة إلا على من خشع خارجها، ولم يخشع فيها، كان يقتضي أنها لا تكبر على من لم يخشع فيها، وتكبر على من خشع فيها، وقد انتفى مدلول الآية، فثبت أن الخشوع واجب في الصلاة"[1021].

● **الدليل الثاني** الذي استدل به رحمه الله: قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} [المؤمنون:1 - 4] إلى أن قال بعد أن سرد جملة من الأمور الواجبة: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون:10 - 11].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فأخبر الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء هم الذين يرثون فردوس الجنة، وذلك يقتضي أنه لا يرثها غيرهم، وقد دل هذا على وجوب هذه الخصال، إذ لو كان فيها ما هو مستحب لكانت جنة الفردوس تورث بدونها؛ لأن الجنة تنال بفعل الواجبات دون المستحبات، ولهذا لم يذكر في هذه الخصال إلا ما هو واجب"[1022].

● **واستدل أيضا بدليل ثالث ذكره في موضع آخر من كتبه، يقول:** يدل على وجوب الخشوع في الصلاة أن النبي صلى الله عليه وسلم توعد تاركيه، كالذي يرفع بصره في السماء، فإن حركته، ورفعه ضد حال الخاشع، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم فاشتد قوله في ذلك، حتى قال: ليَنتهُنّ عن ذلك، أو لتُخطفنّ أبصارهم"[1023].

وكذلك حديث جابر بن سَمُرة رضي الله عنه قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد، فرأى فيه ناسًا يصلون رافعي أيديهم إلى السماء، فقال: ليَنتهِينّ رجال يشخصون أبصارهم إلى السماء، أو لا ترجع إليهم أبصارهم[1024]، فاستدل به على أن الخشوع واجب، وبهذا استدل أيضًا الحافظ العراقي[1025] على ذلك.

[1021] مجموع الفتاوى (22/ 553-554)

[1022] المصدر السابق (22/ 554)

[1023] أخرجه البخاري (750)

[1024] أخرجه أبو داود (912)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (846)، وأخرجه مسلم بلفظ: ليَنتهِينّ أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، أو لا ترجع إليهم (428)

[1025] طرح التثريب في شرح التقريب (2/ 372)

كما أن الله عز وجل ذم قسوة القلوب المنافية للخشوع في غير موضع من كتابه كما قال: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [البقرة:74]. قال الزجاج: "قست: بمعنى غلظت، ويبست، وعسيت، فقسوة القلب: هي ذهاب اللين، والرحمة، والخشوع منه، والقلب القاسي، والعاسي: هو الشديد الصلابة"[1026].

ويقول ابن قتيبة رحمه الله: "وقوة القلب المحمودة غير قسوته المذمومة، فإنه ينبغي أن يكون قويًّا من غير عنف، ولينا من غير ضعف، وهذا كاليد فإنها قوية لينة، بخلاف ما يقسو من العَقِب فإنه يابس لا لين فيه، وإن كان فيه قوة"[1027].

ومما يدل على تأكد الخشوع في الصلاة أن صلاة الظهر يشرع تأخيرها عن أول الوقت إلى حد الإبراد، مع أن الصلاة في أول الوقت محبوبة إلى الله عز وجل وهي أفضل العمل: "الصلاة على وقتها"[1028]، ومع ذلك شرع لنا النبي صلى الله عليه وسلم الإبراد بالصلاة، وحكمة هذا التأخير فيما ذكره الحافظ ابن القيم رحمه الله: "أن الصلاة في شدة الحر تمنع صاحبها من الخشوع، وحضور القلب، والتأثر بها"[1029]، ويورثه ذلك ضجراً، وقلقاً، وانزعاجاً، ومن ثَمّ لا يحصل له المقصود في الصلاة من الخشوع، وحضور القلب، والتأثر بها.

وأمر آخر مما يدل على أهمية الخشوع، ومنزلته في الدين أن العبادة التي يصاحبها الخشوع تفضل العبادة التي لا خشوع فيها، وشتان بين اثنين أحدهما يصلي، وهو خاشع، والآخر يصلي، وهو أبعد ما يكون من الخشوع، يقول حسان بن عطية رحمه الله: "إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وإن بينهما في الفضل كما بين السماء، والأرض"[1030].

كما أن الخشوع أيضاً هو أول ما يفقد من هذه الأمة، كما قال حذيفة رضي الله عنه: "أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة" ورب مصلٍّ لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيه خاشعاً"[1031] وقد قال نحوه أبو يزيد المدني.

ومما يدل على أهميته أيضاً أن الله استبطأ المؤمنين في تحقيق هذا الوصف: فقال: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد:16].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فدعاهم إلى خشوع القلب في ذكره، وما نزل من كتابه، ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وهؤلاء هم الذين {إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال:2] وكذلك قال في الآية الأخرى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر:23].

يقول: "والذين يخشون ربهم هم الذين إذا ذكر الله تعالى وجلت قلوبهم، فإن قيل: فخشوع القلب لذكر الله، وما نزل من الحق واجب؟ قيل: نعم"[1032]. فشيخ الإسلام يقرر ذلك، ويؤيده، هذا ما يتعلق بأهمية الخشوع.

[1026] مجموع الفتاوى (7/ 30)

[1027] المصدر السابق

[1028] أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، برقم (527)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب فضل الصلاة لوقتها، برقم (85)

[1029] انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: 13)

[1030] المصدر السابق (ص: 21)

[1031] أخرجه الحاكم في المستدرك (8448)، وابن أبي شيبة في المصنف (34808)، ومدارج السالكين (1/517)

المطلب الرابع: الحث على الخشوع والترغيب فيه

أ. الخشوع في آيٍ القرآن الكريم:

تكرر الخشوع في كتاب الله عز وجل وجاء في معانٍ متعددة: منها الذل، وسكون الجوارح، والخوف، والتواضع، فهذه أربعة معانٍ، ويمكن أن يضاف إليها معنى خامس: وهو الجمود، واليبس.

- **فأما المعنى الأول: وهو مجيء الخشوع بمعنى الذل:**

قال الله عز وجل: {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [طه: 108] أي: ذلت، ويقول الله تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا} [الحشر:21] أي: ذليلا، وقال: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ} [الغاشية:2].

- **وأما المعنى الثاني: وهو الخشوع بمعنى سكون الجوارح:**

قال الله عز وجل: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون:2].

قال الحسن: "كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا لذلك الجناح"[1033].

وقال مجاهد: "السكون فيها"[1034].

وجاء عن ابن عمر رضي الله عنهما: "إذا قاموا في الصلاة أقبلوا على صلاتهم، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، وعلموا أن الله يقبل عليهم فلا يلتفتون يمينًا، وشمالًا"[1035].

وقال ابن عباس في تفسيرها: "أي: خائفون ساكنون"[1036]. وبه قال طائفة من السلف كمجاهد، والحسن، وقتادة، والزهري، وإبراهيم النخعي.

وجاء عن سعيد بن جبير - رحمه الله - أنه قال: "يعني متواضعين، لا يعرف مَن عن يمينه، ولا مَن عن شماله، ولا يلتفت من الخشوع لله عز وجل"[1037].

هذا معنى من قام لله خاشعًا {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون:2] فهو ساكن الجوارح، منكسر القلب لا يرفع بصره، ولا ينظر عن يمينه، ولا عن شماله، وقد ذكر شيخ الإسلام في عدد من كتبه هذه المعاني، وذكر غيرها: كقول الضحاك: "الخشوع هو الرهبة لله عز وجل"[1038]، أي: هذا الخشوع الذي ذكره الله عز وجل.

ونقل عن أبي سنان أنه قال في هذه الآية: "الخشوع في القلب، وأن يُلين كنفه للمرء المسلم، وألا تلتفت في صلاتك"[1039].

[1032] مجموع الفتاوى (7/ 29)

[1033] تفسير الطبري (17/ 8)

[1034] المصدر السابق، ومجموع الفتاوى (22/ 555)

[1035] الدر المنثور في التفسير بالمأثور (6/ 84)

[1036] تفسير الطبري (17/ 10)، ومجموع الفتاوى (22/ 555)

[1037] تفسير ابن رجب الحنبلي (2/ 18)

[1038] مجموع الفتاوى (22/ 555)

ونقل عن قتادة قال: "الخشوع في القلب، والخوف، وغض البصر في الصلاة"[1040].

وقد قال شيخ الإسلام - رحمه الله - في معنى: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون:2]: "ومنه خشوع البصر، وخفضه، وسكونه، يعني أنه مضاد لتقليبه في الجهات، كقوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [القمر:6 - 8] (خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ) أي: أنها ساكنة ذليلة، ثم ذكر الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [المعارج:43 - 44] وفي القراءة الأخرى: (خاشعًا أبصارهم) يقول: وفي هاتين الآيتين وصف أجسادهم بالحركة السريعة، حيث لم يصف بالخشوع إلا أبصارهم، بخلاف آية الصلاة، وهي: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون:2] فإنه وصف بالخشوع جملة المصلين - يعنى البصر، والبدن - وصفهم بكليتهم أنهم حققوا الخشوع فقال: (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ).

وقال: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:45] لم يقل: إلا على الخاشعين في أبصارهم، بينما في المحشر قال: (خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ) مع أنهم يسرعون في مشيتهم، ويقول شيخ الإسلام: "ومن ذلك خشوع الأصوات كقوله: {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ} [طه:108] وهو انخفاضها، وسكونها"[1041].

ومما يدخل في هذا المعنى - وهو السكون - قوله تعالى: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة:238] حيث قال مجاهد: "أي: الركون، والخشوع، وغض البصر، وخفض الصوت، والرهبة لله عز وجل"[1042].

- **والمعنى الثالث من معاني الخشوع في القرآن: الخوف:**

قال قتادة: "الخشوع في القلب هو الخوف، وغض البصر في الصلاة"[1043].

قال الله عز وجل: {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء:90] قال الحسن: "هو الخوف الدائم في القلب"[1044].

وقال تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} [الشورى:45] وقال الله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد:16].

- **والمعنى الرابع في القرآن: هو التواضع:**

قال الله تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:45].

وقال تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ} [آل عمران:199].

وقال تعالى: {وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء:109].

[1039] المصدر السابق (22/ 556)

[1040] المصدر السابق

[1041] القواعد النورانية (ص: 77)

[1042] تفسير البغوي (5/ 408)

[1043] الدر المنثور في التفسير بالمأثور (6/ 84)، وتفسير القرطبي (1/ 374)

[1044] الدر المنثور في التفسير بالمأثور (5/ 670)

وقال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ} [الأحزاب:35].

وكذا قوله تعالى: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} [الفتح:92] قال مجاهد: "هو الخشوع، والتواضع"[1045].

- **والمعنى الخامس: هو اليبس، والجمود:**

قال الله تبارك وتعالى: {وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً} [فصلت:39] يعني: هامدة يابسة لا نبات فيها.

ب. الخشوع في نصوص السنة النبوية:

وأما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد جاء الخشوع في عدد من الأحاديث، منها:

1- عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيُحسن وضوءَها، وخشوعها، وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤتِ كبيرة، وذلك الدهر كله"[1046].

وحديث أبي هريرة عند النسائي بإسناد صحيح قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم، القائم، الخاشع، الراكع، الساجد"[1047] فهذا يدل على منزلة من حقق الخشوع.

2- عن على بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي"[1048].

المطلب الخامس: درجات الخشوع

لا شك أن هذا المعنى يتفاوت، ولا يكون الناس فيه أيضاً على وتيرة واحدة، وابن القيم رحمه الله يجعل الخشوع من هذه الحيثية - أي من جهة مراتبه - ثلاث مراتب[1049]:

- **الأولى**: وهي التذلل لأمر الله عز وجل مع الاستسلام لحكمه، مع التواضع لنظر الله عز وجل له، هذه هي المرتبة الأولى.

فالتذلل لأمر الله تبارك وتعالى: أن نتلقاه بذلة من غير استنكاف، ومن غير نفرة، ومن غير تعالٍ عليه، وإنما يخضع العبد لأمر ربه، ومولاه عز وجل فيقبل هذا الأمر، وينقاد إليه، ويتمثل هذا التوجيه الرباني مع موافقة الباطن لظاهره، مع إظهار الضعف، والافتقار لهداية الله عز وجل فهو منقاد لأمر ربه بقلبه، وجوارحه متواضع لله عز وجل.

[1045] الزهد لوكيع (ص 598)، وتفسير الطبري (323/21)، وتفسير ابن كثير (361/7)، وتفسير القرطبي (341/3)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور (542/7)

[1046] أخرجه مسلم (228)

[1047] أخرجه النسائي (3127)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (5850)

[1048] أخرجه مسلم (771)

[1049] مدارج السالكين (1/ 518)

وأما الاستسلام لحكم الله عز وجل: فهذا يشمل الحكم بنوعيه: الحكم الشرعي، فلا يعترض على شرائع الدين، وأحكام الله عز وجل الدينية، فيقول: يا رب لماذا تشرع هذا؟ ولا يعترض على أحكام الله القدرية الكونية، فإذا نزلت به مصيبة، أو بمن يحب، فإنه يتلقى ذلك بالصبر، والرضا دون أن يتسخط، ودون أن يعترض على الأقدار، فهو لا يعارض أمر الله الشرعي بشهوة، ولا برأي، ولا يعارض قدر الله بِتَسَخُّطٍ، وتذمر، وامتعاض.

وأما ما يتعلق بالتواضع لنظر الله عز وجل: فهو أن يتواضع القلب، والجوارح لله عز وجل فينكسر قلبه، وينكسر العبد أيضاً لاستشعاره أن الله ينظر إليه، ويراه، وأن الله مطلع عليه، يعلم تفاصيل أحواله، هذه هي المرتبة الأولى: أن تستسلم لربك، ومولاك ظاهرا، وباطنا، وأن تخضع لأحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية، وأن تتطامن، وتتواضع لربك، ومليكك عز وجل.

- **وأما المرتبة الثانية:** فهي الرجوع إلى النفس باستشعار نقصها، وضعفها، وعجزها، أن يستشعر العبد أنه مقصر، ومذنب، فيورثه ذلك أيضاً تواضعاً، وأما في نظره إلى الخلق فإنه يرى فضاءلهم، ومحاسنهم، فنظره إلى النفس بأن لا يلتفت إلى محاسنها، ومن ثَمّ فلا يطالب الناس بحقوقه عليهم، ولا يطالب الناس أن يقدموا له شيئاً من الإكرام، والإجلال، أو يتشوق إلى رد المعروف الذي اسْتَشْعَرَه عليهم، لكنه في المقابل إذا نظر إلى الناس فإنه ينظر إلى إفضالهم، وإحسانهم، وينظر إلى مناقبهم، ومحاسنهم، فيثني عليهم، ويشكر معروفهم، ويحفظ صنائعهم، فلا تضيع، ولا تنسى، وهذا لا شك أنه من أكمل الكمالات، أن العبد ينظر إلى نفسه بعين النقص، وينظر إلى غيره بالنظر إلى فضائلهم، ومحاسنهم، ومن ثَمّ فإنه لا يتعالى على الخلق، ولا يجحد لهم معروفًا، وصنيعًا.
- **أما المرتبة الثالثة:** فهي أن يصفي قلبه من النظر إلى المخلوقين، فلا يلتفت إليهم بعمله الصالح، فلا يعمل أعمالًا صالحة، وقلبه يتشبث بهم، ويتطلع إليهم، هذا مع إخفاء أحواله عن المخلوقين، فلا يعرفون أحواله مع الله عز وجل من عبادة، وخشوع، وإخلاص، وغير ذلك مما قد يظهره العبد للناس، فهذا شيء بينه، وبين الله تعالى، فصارت مراتبه ثلاثًا.

المطلب السادس: مراتب الناس في الخشوع

فكما أن الخشوع يتفاوت في نفسه، وليس على مرتبة واحدة، فكذلك الناس يتفاوتون فيه بحسب ما يقع في قلوبهم من معرفة الله عز وجل ومعرفة صفات عظمته، وجلاله، واستشعار مراقبته، وكذلك بحسب ما يكون في قلوبهم من معرفة النفس، ونقائصها، وعيوبها، وكذلك بحسب فهمهم، وتدبرهم لمعاني القرآن، فيتفاوت الناس في ذلك تفاوتًا كبيرًا، ويكون بين الواحد، ومن بجانبه في الصلاة مثلاً كما بين المشرق، والمغرب، مع صرف النظر عن مادة هذا الخشوع، والسبب الموصل إليه بالنسبة لهذا، أو ذاك.

فمن الناس من يتحقق له هذا الخشوع لقوة مطالعته لقرب الله عز وجل من عبده، واطلاعه على سره، وضميره، ومكنوناته، فيستحي من الله، ويراقب ربه في حركاته، وسكناته، ومنهم من يحصل له الخشوع لمطالعته لكمال الله، وجماله المقتضي الاستغراق في محبته، والشوق إلى لقائه.

وبعضهم يخشع حين يستشعر قوة الله عز وجل وجبروته، وبطشه، وشدة أخذه، ونكاله للظالمين، المجرمين، الخارجين عن حدوده، وطاعته، فهؤلاء يحصل لهم الخشوع مع صرف النظر عن الأمر الذي أوجب لهم هذا الخشوع، وهم كذلك أيضا في هذا الباب بين ظالم لنفسه، وبين مقتصد، وبين سابق بالخيرات بإذن الله[1050]؛ لأن مراتب السالكين إلى الله عز وجل في العبودية لا تخرج عن هذه المراتب الثلاث كما قال الله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} [فاطر:32].

فالظالم لنفسه: هو المقصر في الواجبات، المرتكب للمحظورات، والمقتصد: هو من اقتصر على الأمر الواجب دون زيادة، أو نقص، وترك المحرم.

والسابق بالخيرات: هو من جاء بالواجب، وفارق المحرم، مع مجانبته للمكروه، وفعله المستحبات، فالخشوع عمل من أعمال القلب التي تظهر على الوجه، والجوارح.

فالناس يتفاوتون فيه، وهم فيه على هذه المراتب، فالسابقون في هذا الباب هم أعلى المراتب، ثم يلي ذلك من هو مقتصد، ثم بعد ذلك الظالم لنفسه، والظالم لنفسه متوعد بالعقوبة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بربه من قلب لا يخشع، ومن علم لا ينفع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع[1051].

وفي هذا الحديث: استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم بربه من القلوب التي لا محل للخشوع فيها، فدل على أن تحقيق الخشوع، وتحصيله من الواجبات في الحد الذي لا يُرَخَّصُ للمكلف في تركه، والتقصير فيه.

وهكذا أحوال العباد في صلاتهم من جهة الخشوع، فهم على مراتب، وقد جعلهم ابن القيم - رحمه الله - في بعض كتبه على خمس مراتب[1052]:

الأول: الظالم لنفسه الذي تنقّص من وضوئها، ومواقيتها، وحدودها، وأركانها، ولا شك أن هذه الأمور تؤثر في خشوع العبد، بل إن الإمام يتأثر في خشوعه، وإدراكه في صلاته بسبب إخلال بعض المأمومين في طهارتهم، أو في إقامة صلاتهم.

والثاني: رجل يحافظ على المواقيت، والأركان الظاهرة، والوضوء، ولكنه يضيع مجاهدة النفس في الوسوسة، فهذا مؤاخذ، يأتي بالصلاة مستوفية للأركان، والشروط، ولكنه في صلاته مستغرق في وساوسه، وأفكاره، وخواطره، فهذا ليس له من صلاته إلا ما عقل، وغاية ما في الأمر أن تكون هذه الصلاة مجزئة، أي مسقطة للمطالبة، ولكنه قد لا يثاب عليها، أو أنه لا يثاب إلا على القدر الذي عقله فحسب.

وأما الثالث: فهو من حافظ على حدودها، وأركانها، وجاهد نفسه بدفع الوساوس، فهو مشغول بين صلاة، وجهاد، يحاول أن يستحضر، ويجاهد الخواطر، فهذا مأجور على مجاهدته، مأجور على صلاته، ولكنه ليس في المرتبة العالية.

[1050] مجموع الفتاوى (7/ 29)

[1051] أخرجه أبو داود (1548)، والترمذي (3482)، والنسائي (5467)، (5536)، وابن ماجه (3837)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (1384)، وفي صحيح الجامع (1297).

[1052] الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: 23)

وأما الرابع - وهو فوقه -: فهو من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها، وأركانها، وحدودها، واستغرق قلبه في مراعاة حدودها، وحقوقها؛ لئلا يُضيع شيئاً منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي، وإكمالها، وإتمامها، قد استغرق قلبَه شأنُ الصلاة، وعبودية ربه - تبارك، وتعالى - فيها.

وأما الخامس - وهو أعلى هذه المراتب، وأرفع درجات الخاشعين في الصلاة -: فهو إضافة إلى ما سبق من تحقيق الشروط، والواجبات، والأركان، وحضور القلب، إضافة إلى ذلك فإنه قد امتلأ قلبه محبة لله، وعظمة، وإجلالاً له تعالى، يصلي كأن الله يراه، وكأنه يرى ربه عز وجل فتندفع عنه تلك الوساوس التي عند الآخرين، والخطرات، ولا تأتي إليه أصلاً، ولا تجد طريقاً إلى قلبه.

فالأول: معاقب، والثاني محاسب، والثالث: مكفر عنه؛ لمجاهدته، والرابع: مثاب، والخامس قريب إلى ربه في أعلى المنازل، والدرجات.

المطلب السابع: أنواع الخشوع

الخشوع ليس له نوع واحد، وإن كان في صورته الظاهرة يخرج المرء، أو العبد مع غيره فيه بهيئة متحدة، إلا أن ذلك يفترق في حقيقة الأمر بسبب ما يقوم في القلب من الحقائق، والدواعي، فهناك خشوع حقيقي، وهذا هو القسم الأول، وخشوع مزيف، وهو خشوع النفاق، وهو خشوع الظاهر دون مواطأة الباطن، فالباطن الذي هو محل للخشوع أصلاً قد صار فارغاً من هذا الخشوع، فظهر ذلك مرتسماً على وجه صاحبه، وظاهراً على جوارحه، ولكن قلبه قد فرغ منه، فهذا لا فائدة فيه، وهو خشوع النفاق.

ومتى تكلف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه، وأطرافه مع فراغ قلبه منه فإن ذلك يكون من قبيل خشوع النفاق إلا في حالة واحدة: وهي أن يكون العبد يفعل ذلك من أجل الوصول إلى الخشوع، كصاحب المجاهدة الذي حدثتكم عنه، بشرط أنْ لا يظهر ذلك أمام الناس بحيث يكون الإنسان بعيداً عن نظر الناس لا يلتفت إليهم بقلبه، ولا يحضر مجامعهم بهذا الفعل الذي يتصنع فيه الخشوع، فهو يتظاهر، أو يتصنع، أو يحاول أن يبكي، وأن يخشع، وإن لم يكن قلبه خاشعاً من أجل أن يحصل الخشوع، فهذا لا يكون مذمومًا.

وأما المذموم فأن يكون ذلك على سبيل النظر إلى الخلق، وتصنع الخشوع من أجل تحصيل محمدتهم، وقد كان جماعة من السلف يستعيذون من هذا النوع، وهو خشوع النفاق، وكان بعضهم يقول: "استعيذوا بالله من خشوع النفاق" فقيل له: وما خشوع النفاق؟ فقال: "أن ترى الجسد خاشعاً، والقلب ليس بخاشع"[1053]

وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله - وهو من كبار الخاشعين - يقول: "كان يُكره أن يُرِيَ الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه"[1054].

[1053] مجموع الفتاوى (7/ 368)، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (2/ 124)، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1/ 517)، والزهد لأحمد بن حنبل (ص: 117)، وصفة الصفوة (1/ 243)

يعني أن يُظهر في ظاهره أعظم مما قام في باطنه، وقد ذُكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلًا طأطأ رقبته في الصلاة، فقال: "يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب"[1055] إنما الخشوع في القلوب.

ولما ذكر شمس الدين ابن القيم - رحمه الله - أنواع البكاء في كتابه: "زاد المعاد" قال: "والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمع العين، والقلب قاسٍ، فيُظهر صاحبه الخشوع، وهو من أقسى الناس قلباً"[1056].

وقد رأى بعضهم رجلاً خاشع المنكبين، والبدن فقال: يا فلان، الخشوع هاهنا - وأشار إلى صدره - لا هاهنا - وأشار إلى منكبيه"[1057].

وذكر أن عائشة - رضي الله عنها - رأت أناساً يمشون، ويتماوتون في مشيتهم، فسألت عن هؤلاء، فقيل لها: نُسّاك - أي: أن هؤلاء عباد - فقالت: "كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقًّا"[1058].

وقد فرق ابن القيم - رحمه الله - بين خشوع النفاق، وخشوع الإيمان في كتابه: "الروح" فقال عن خشوع الإيمان بأنه: "خشوع القلوب لله بالتعظيم، والإجلال، والوقار، والمهابة، والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل، والخجل، والحب، والحياء، وشهود نعم الله، وجناياته هو، فيخشع القلب لا محالة فيتبعه خشوع الجوارح، وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً، وتكلفاً، والقلب غير خاشع ... - إلى أن قال - : فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته، وسكن دخانها عن صدره؛ فانجلى الصدر، وأشرق فيه نور العظمة؛ فماتت شهوات النفس للخوف، والوقار الذي خُشي به، وخمدت الجوارح، وتوقر القلب، واطمأن إلى الله، وذِكْرِه بالسكينة التي نزلت عليه من ربه، فصار مخبتاً له، والمخبت: المطمئن، فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء، فكذلك القلب المخبت قد خشع، واطمأن كالبقعة المطمئنة من الأرض التي يجري إليها الماء فيستقر فيها، وعلامته أن يسجد بين يدي ربه إجلالاً، وذلا، وانكساراً بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه.

وأما القلب المتكبر فإنه قد اهتز بتكبره، وربا، فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء، فهذا خشوع الإيمان، وأما التماوت، وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً، ومراءاة، ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات، وإرادات، فهو يخشع في الظاهر، وحية الوادي، وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة"[1059]. أي: أن جوارحه لم تواطئ قلبه في هذا الخشوع، هذا الفرق بين الخشوعين، وشتان ما بينهما.

[1054] مدارج السالكين (1/ 517)

[1055] مدارج السالكين (1/ 517)، وإحياء علوم الدين (3/ 296)، والزواجر عن اقتراف الكبائر (1/ 69)

[1056] زاد المعاد في هدي خير العباد (1/ 178)

[1057] مدارج السالكين (1/ 517)

[1058] المصدر السابق

[1059] الروح (ص: 232-233)

المطلب الثامن: الطريق إلى الخشوع[1060]

- **كيف تُحَصِّل الخشوع في قلبك؟**

1- **أن تستحضر نظر الله تعالى إليك في حركاتك، وسكناتك في صلاتك، وفي قراءتك، وفي قيامك، وقعودك،** فالخشوع لا يختص بالصلاة، وإنما هو عبادة قلبية يظهر أثرها على الجوارح في كل أحوال العبد، فهذا سبب أساسي في تحصيل الخشوع، استحضار نظر الرب عز وجل إليك، وكلما كان العبد أكثر استحضارا لهذا المعنى، كلما زاد الخشوع في قلبه، وإنما يفارق الخشوع قلبك إذا حصلت الغفلة عن استشعار نظر الله عز وجل ومراقبته.

هذا على بن الحسين زين العابدين إذا قام إلى الصلاة اضطرب، وارتعد، فقيل له - سُئل عن هذا - فقال: "تدرون بين يدي من أقوم، ومن أناجي؟"[1061].

وكان إذا توضأ للصلاة يصفر لونه من شدة الوجل، والحياء، والخوف، واستشعار عظمة الله، والنظر إليه، سيقدم على صلاة يناجي فيها ربه[1062]، فيظهر ذلك صفرة في وجهه، كمن أراد أن يلاقي عظيمًا من العظماء، فقد يظهر ذلك الوجل على قسمات وجهه، وعلى حركاته، وسكناته، حتى إن بعضهم كان إذا قام إلى الصلاة، ووقع ذباب على وجهه لا يطرده بيده، ولا يحرك رأسه لطرد الذباب؛ لغلبة الخشوع عليه[1063].

وهذا خلف بن أيوب كان لا يطرد الذباب عن وجهه في الصلاة، فقيل له: كيف تصبر؟! قال: "بلغني أن الفساق يتصبرون تحت السياط ليقال: فلان صبور"[1064]. يعني الفساق إذا جلدوا، وضربوا الحدود، أو إذا جلدوا تعزيرًا فإن الواحد منهم يتجلد لا يتحرك، وهو يُجلد؛ ليُظهر للآخرين أنه لا يبالي، ولذلك قال خلف بن أيوب: إذا كان هؤلاء يتجلدون للسياط، فكيف لا نتجلد أمام رب الأرباب، نتجلد عن دفع هذا الذباب؟ يقول: "أنا بين يدي ربي أفلا أصبر على ذباب يقع عليّ؟!".

2- **ترقب آفات النفس، والعمل، ورؤية فضل كل ذي فضل:** فارجع إلى نفسك، وانظر إلى عيوبها، فإن ذلك يورثك انكسارا، وأمّا في الخلق فلا تنظر إلى عيوبهم، بل انظر إلى محاسنهم، فيورثك ذلك شعورًا بأنك أقل من هؤلاء جميعا، وأنك المقصر المذنب، الذي يحتاج إلى عفو ربه.

3- **معرفة الرب عز وجل معرفة صحيحة تورث التعظيم:** فالعبد كلما كان بالله أعرف، كلما كان له أخوف، وكلما كان أكثر تعظيما لله عز وجل، ولهذا قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر:28] فإذا عرف العبد صفات الكمال التي اتصف الله بها، واستشعرها فإنه ينكسر، ويخضع، ويتواضع، ويخشع قلبه أمام الله عز وجل.

[1060] أعمال القلوب، الشيخ خالد بن عثمان السبت، ص: 288، بتصرف.

[1061] المصدر السابق

[1062] المصدر السابق

[1063] إحياء علوم الدين (1/ 188)

[1064] المصدر السابق (1/ 151)

4- **أن تضع في قلبك إذا قمت إلى الصلاة، وتهيأت لها أنها الصلاة الأخيرة**، صلِّ صلاة مودع، فقد لا تصلي بعدها، فإذا قيل للعبد: هذه هي الصلاة الأخيرة، كيف يصلي؟ لا شك أنه يفرغ قلبه من كل شاغل من شواغل الدنيا، ويحضر قلبه في هذه الصلاة، خطب عدي بن أرطاة على منبر المدائن، فجعل يعظ الناس حتى بكي، وأبكى، فقال: "كونوا كرجل قال لابنه، وهو يعظه: يا بني أوصيك لا تصلِّ صلاة إلا وظننت أنك لا تصلي بعدها حتى تموت"[1065].

5- **أن تستشعر، وتستحضر أنك على الصراط فوق جهنم، وكأنك تشاهد الجنة، والنار أمام عينك، وكأنك قمت بين يدي الله عز وجل في موقف الحساب:** كان بعض السلف إذا سمعوا الأذان تغيرت ألوانهم، وفاضت عيونهم، كانوا يرون أنه يذكرهم بالنداء يوم العرض الأكبر، كانوا يستشعرون هذه المعاني في كل شيء حولهم، إذا سمعوا المؤذن يؤذن فاضت أعينهم؛ لأنه يذكرهم بالنداء في ذلك الموقف الرهيب، وهذا رجل من العلماء كان يخشع في صلاته فسُئل عن ذلك كيف يحصل لك هذا الخشوع العظيم؟ فقال: "أقوم إلى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي، أظنها آخر صلاتي"[1066].

وهذا الرجل من العلماء العباد، وهو سعيد بن عبد العزيز كان يبكي إذا صلى، وكان إذا صلى على الحصير يسمع من بجانبه، وقع الدموع على الحصير تتقاطر، وكان قد سُئل: ما هذا البكاء الذي يعرض لك في الصلاة؟ قال: "يا ابن أخي، وما سؤالك عن ذلك؟" فقال السائل: رجاء أن ينفعني الله بذلك، فقال: "ما قمت إلى صلاة إلا مُثلت لي جهنم"[1067]، كأنه يرى جهنم مسعرة، وأهلها يصطرخون فيها {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} [فاطر:37] فكان ذلك يورثه خشوعاً، وبكاء في صلاته.

ومن استشعر هذه المعاني في الصلاة فإن ذلك لا يفترق بالنسبة إليه في صلاة نافلة، أو صلاة فريضة، كما لا يفترق بالنسبة إليه في الصلاة الجهرية، أو الصلاة السرية، وأنت تعجب حين تسمع بعض الناس يستغربون ممن يخشع في الصلاة السرية كيف يخشع في الصلاة السرية؟ وكيف لا يخشع، وهو يقف بين يدي الله، ويستحضر الجنة، والنار، وأن الله يراه، وينظر إليه، ويناجيه؟ كيف لا يخشع؟ ولكن الغفلة التي غلبت على قلوبنا أورثتنا بعداً عن هذه المعاني، يقول بعض السلف: "لو رأيتَ أحدهم، وقد قام إلى صلاته، فلما وقف في محرابه، واستفتح كلام سيده خطر على قلبه أن ذلك المقام هو الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين؛ فانخلع قلبه، وذهل عقله"[1068].

تخيلْ هذا: الناسُ في صفوفهم للصلاة يقفون صفوفا فتتذكر، وتستشعر الوقوف بين يدي الرب عز وجل فيخشع الإنسان، وينكسر قلبه.

وكان منصور بن صفية يبكي في كل صلاة، وكانوا يرون أنه يذكر الموت، والقيامة في صلاته فيبكي هذا البكاء[1069].

[1065] تاريخ دمشق لابن عساكر (40/ 61)

[1066] إحياء علوم الدين (1/ 151)

[1067] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (8/ 34)

[1068] تفسير ابن رجب الحنبلي (2/ 21)

[1069] تهذيب الكمال في أسماء الرجال (28/ 539)

6- **أن تفرغ قلبك لها، وأن تؤثرها على ما سواها مع مجانبة الصوارف، والشواغل التي تؤثر في القلب، وقد ذكر هذا المعنى الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره حيث قال:** "والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له، وقرة عين، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أحمد، والنسائي عن أنس رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "حُبب إليّ الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة[1070]"[1071].

وكان محمد بن المنكدر - رحمه الله - يقول: "إني لأدخل في الليل، فيَهُولني، فينقضي، وما قضيت منه إربي"[1072].

يقول: أدخل في الليل لأصلي صلاة الليل، فأشرع فيها، فينقضي الليل بأجمعه، ولم أشبع، ولم أقضِ نهمة نفسي، وذلك لاستغراقه في هذه الصلاة.

وقد قال سعد بن معاذ رضي الله عنه: "فيّ ثلاث خصال لو كنت في سائر الأحوال أكون فيهن لكنت أنا أنا: إذا كنت في الصلاة لا أحدث نفسي بغير ما أنا فيه، وإذا سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقع في قلبي ريب فيه، وإذا كنت في جنازة لا أحدث نفسي بغير ما تقول، أو يقال لها"[1073]. يعني من الحساب.

وقد قالوا لعامر بن عبد القيس، أتحدث نفسك في الصلاة؟ قال: "أوَشيء أحب إليَّ من الصلاة أحدث به نفسي؟" قالوا: إنا لنحدث أنفسنا في الصلاة، قال: أبالجنة، والحور؟ قالوا: لا، بأهلينا، وأموالنا، فقال: "لئن تختلف الأسنة فيّ أحب إليّ"[1074]. أي من أن أحدث نفسي بشيء من حطام الدنيا، وأنا في هذه الصلاة!

وهذا عامر بن عبد القيس - أيضًا - قيل له: أما تسهو في صلاتك؟ قال: أوَحديثٌ أحب إليّ من القرآن حتى أشتغل به؟! هيهات، مناجاة الحبيب تستغرق الإحساس[1075].

وبعضنا ربما يكون إمامًا، ويسجد للسهو في اليوم مرارًا!، وقد اشتكى بعض الناس من إمام لهم يسهو في اليوم الواحد في ثلاثة فروض، هذه التي يسجد فيها للسهو! فأين القلب؟ هذا قلبه مشغول.

وهذا الحسن - رحمه الله - يقول: "إذا قمت إلى الصلاة قانتا، فقم كما أمرك الله، وإياك، والسهو، والالتفات، إياك أن ينظر الله إليك، وتنظر إلى غيره، وتسأل ربك الجنة، وتعوذ به من النار، وقلبك ساهٍ لا تدري ما تقول بلسانك"[1076].

7-**تدبر القرآن:** يقول ابن جرير الطبري رحمه الله: "إني لأعجب ممن قرأ القرآن، ولم يعلم تأويله، كيف يلتذ بقراءته؟"[1077]، فمعرفة معاني القرآن تجعل القلب يستغرق في تدبره، والتفكر في معانيه، حتى إن القلب يخشع عند ذلك، وكان أبو بكر رضي الله عنه قريب الدمعة، كثير البكاء، لا يتمالك نفسه إذا صلى، ولذلك لما مرض النبي صلى الله عليه وسلم وأمر أن

[1070] أخرجه النسائي (3940)، وأحمد في المسند (14037)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (3124)

[1071] تفسير ابن كثير (5/ 461)

[1072] الخشوع في الصلاة، ابن رجب، (ص: 27)

[1073] الفتاوى الكبرى لابن تيمية (2/ 222)، ومجموع الفتاوى (22/ 605)

[1074] مجموع الفتاوى (22/ 605)

[1075] المدهش (ص: 455)

[1076] تفسير ابن رجب الحنبلي (2/ 25)

[1077] تفسير الطبري (جامع البيان) (1/ 10)

يصلى أبو بكر بالناس اعتذرت عنه عائشة رضي الله عنها بأنه رجل رقيق لا يتمالك، إذا صلى، وقرأ القرآن فإنه يبكي[1078]، و كان السلف يقرأ الواحد منهم آية واحدة، ويقوم يرددها إلى الفجر يبكي، هذا مالك بن دينار - رحمه الله -كان يقرأ قول الله عز وجل : {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر:21] ثم يقول: "أقسم لكم، لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صُدِع قلبه"[1079].

ويقول ابن مسعود: "إن أقواما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم" وهم الخوارج.[1080]

وقد قال أبو عمران الجوني رحمه الله: "والله لقد صرف إلينا ربنا في هذا القرآن ما لو صرف إلى الجبال لمحاها"[1081].

وكان الحسن يقول: "يا ابن آدم، إذا وسوس لك الشيطان في خطيئة، أو حدثت بها نفسك فاذكر عند ذلك ما حمّلك الله في كتابه مما لو حملته الجبال الرواسي لخشعت، وتصدعت، أما سمعته يقول: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ [الحشر:21]"[1082].

8- **ترك التكلف في كل شأن من الشئون،** ولذلك من الأحسن أن يصلي الإنسان في كل مكان، لا يتكلف لأحد فيه، وأن يصلي في مكان لا يكون بجانبه أحد قد يجد نفسه تشده لأنْ يتكلف له، اجعل الله أمام ناظرك، ولا تلتفت إلى غيره، ولا تتكلف لأحد.

وكذلك أيضاً التكلف في القراءة، والتقعر، والتكلف، والمبالغة في التجويد، أمر يُذهب الخشوع على الإمام، وعلى المأمومين، بل أبلغ من ذلك التكلف في الدعاء، حينما يتكلف الإنسان أن يأتي بالدعاء على غير سجيته المعهودة في كلامه، بمعنى إذا كان من عادة الإنسان أنه يلحن، فصار يحاول أن يأتي بالدعاء موزونًا معربًا، لا يخرم حرفًا، واحدًا فإن ذلك يكون مدعاة لذهاب الخشوع، وليست هذه دعوة للحن، وإنما ينبغي في الدعاء أن يحرص الإنسان أن يدعو على سجيته، ولهذا فإن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - لفت النظر إلى هذا المعنى، وكان يقول: "إن الله يسمع دعاء الداعين سواء كان مسجوعاً، أو ملحوناً، سواء كان معرباً، أو غير معرب"[1083].

بمعنى أن الإنسان إذا تكلف السجع في الدعاء، وكذلك أن يتكلف الإعراب فيه، أي: أن يأتي به على أوزان لغة العرب في أواخر الكلم، فإن ذلك يُذهب الخشوع. يقول شيخ الإسلام: "بل ينبغي للداعي إذا لم تكن عادته الإعراب أنْ لا يتكلف الإعراب، وقد قال بعض السلف: "إذا جاء الإعراب، ذهب الخشوع، وهذا كما يُكره تَكَلُّفُ السجع في الدعاء فإذا وقع بغير تكلف فلا بأس به، فإن أصل الدعاء في القلب، واللسان تابع للقلب"[1084].

[1078] أخرجه البخاري (664)، ومسلم (418)

[1079] الدر المنثور في التفسير بالمأثور (8/ 121)، وتفسير ابن رجب الحنبلي (2/ 16)

[1080] أخرجه البخاري (7562)، ومسلم (1064)، وانظر: تفسير ابن رجب الحنبلي (2/ 14)

[1081] تفسير ابن رجب الحنبلي (2/ 16)

[1082] المصدر السابق

[1083] مجموع الفتاوى (22/ 489)

[1084] المصدر السابق

المطلب التاسع: ثمرات الخشوع

من فوائد وثمرات الخشوع:

1- **أنه يطرد الشيطان؛** لأن الشيطان لا يجتمع مع الخشوع إطلاقًا، فالخواطر، والوساوس تشغل القلب، والخشوع حضور القلب بكليته، وصاحب القلب الخاشع لا يجد الشيطان طريقاً في وساوسه، وخواطره إلى قلبه، ولذلك قال من قال من أهل العلم: "من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان"[1085].

2- **الرفعة، وعلو المنزلة:** "ومن تخشع لله تواضعًا - كما قال ابن مسعود - رفعه الله يوم القيامة"[1086].

3- **بلوغ المرام، وتحصيل المطلوب:** يقول الله عز وجل: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون:1 - 2] فذكر ذلك في أول صفاتهم، والفلاح الذي قد حكم الله به بطريقة محققة بالتعبير بقد: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) هو تحصيل المطلوب، والنجاة من المرهوب، قال رجل للحسن: أوصني، قال: "رطب لسانك بذكر الله، وندِّ جفونك بالدموع من خشية الله، فقلّ من طلبتَ لديه خيراً فلم تدركه"[1087]. فمن كان بهذه المثابة حصل له مطلوبه من ربه - تبارك، وتعالى - فأكرمه، وقربه.

4 - **أن الخشوع يُورث صاحبه أخلاقًا محمودة،** وذلك أن الخشوع أصل من أصول الأخلاق، وأساس من أسسها، كما قال ابن القيم رحمه الله: "فالكبر، والمهابة، والدناءة أصل الأخلاق المذمومة، والكبر يقابل الخشوع، والخشوع يقابله الصلف، والتعالي، والجفاء، والرعونة، والدناءة، وأما الخشوع فهو عكس ذلك، فهو أصل الأخلاق الفاضلة، كالصبر، والشجاعة، والعدل، والمروءة، والعفة، والسيادة، والجود، والحلم، والعفو، والصفح، والاشتمال، والإيثار، وعزة النفس عن الدناءة، والتواضع، والقناعة، والصدق، والأخلاق، والمكافأة على الإحسان بمثله، أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس، وترك الانشغال بما لا يعنيه، وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة، ونحو ذلك، فكلها ناشئة من الخشوع، وعلو الهمة، والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة، ثم ينزل عليها الماء، فتهتز، وتربو، وتأخذ زينتها، وبهجتها، فكذلك المخلوق منها إذا أصاب حظه من التوفيق" إلى أن قال : "فمن علت همته، وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته، وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل"[1088].

5- **أن الخشوع يرد العبد إلى حكم العبودية،** والكبر يرفعه عن هذا المقام، ولذلك كان الكبر لا يتناسب إطلاقا مع عبودية القلب، ومع عبودية العبد، فالكبر كمال لله عز وجل، أما المخلوق فكماله في الخشوع، والتواضع، والإخبات، فالعبد لو تُرك مع نفسه فإن فيه صفات مذمومة قبيحة تدعو إليها النفس من التعالي على الخلق، والأَشَر؛ فيخرج عن طوره، وأصله الذي خُلق له، ويثب على حق ربه من الكبرياء، والعظمة، فينازع ربه ذلك، وقد أمر العبد بالسجود - كما قال ابن القيم - رحمه الله - خضوعا لعظمة ربه، وفاطره، وخشوعا له، وتذللا بين يديه، وانكسارا له، فيكون هذا الخشوع، والخضوع، والتذلل ردًّا له إلى حكم العبودية، فيتدارك بذلك ما حصل له من الهفوة، والغفلة، والإعراض الذي خرج به عن أصله،

[1085] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1/ 517)

[1086] أخرجه وكيع بن الجراح في الزهد، (ص: 467)، برقم (216)

[1087] الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (ص: 49)

[1088] الفوائد لابن القيم (ص:143-144)

فتُمثَّل له حقيقة التراب الذي خلق منه، وهو يضع أشرف شيء منه، وأعلاه، وهو الوجه، وقد صار أعلاه أسفله خضوعاً بين يدي ربه الأعلى، وخشوعًا له، وتذللًا لعظمته، واستكانة لعزته مرددًا: "سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى". يقول ابن القيم رحمه الله: "وهذه غاية الخشوع الظاهر، فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذللة للوطء بالأقدام، واستعمله فيها، وردَّه إليها، ووعده بالإخراج منها، فهي أمُّه، وأبوه، وأصله، وفصله، فضمته حيًّا على ظهرها، وميتا في بطنها، وجُعلت له طهورا، ومسجدًا، فأمر بالسجود إذ هو غاية خشوع الظاهر، وأجمع العبودية لسائر الأعضاء، فيعفر وجهه في التراب؛ استكانة، وتواضعًا، وخضوعًا، وإلقاء باليدين، ويقول مسروق لسعيد بن جبير: "ما بقي شيء يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا في التراب لله"[1089].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يتقي الأرض بشيء قصدًا، بل إذا اتفق له ذلك فعله، ولذلك سجد في الماء، والطين كما جاء في الصحيحين[1090]"[1091]. فلم يكن صلى الله عليه وسلم يتكلف شيئا دون جبهته، ووجهه إذا صلى على التراب، فلم يكن يضع رداءه صلى الله عليه وسلم دون وجهه، وإذا صلى على الحصير لم يتكلف وضع وجهه على الأرض مباشرة من دون حصير.

6 - **ما يحصل به من تفاضل الأعمال، وتفاوتها،** فكم من الفرق بين اثنين كل منهما قائم في الصف يصلي، هذا خاشع، وهذا لم يخشع!

فلا شك أن هذه الصلاة التي حصل بها هذا الخشوع أنها في غاية الكمال، ويؤجر عليها غاية الأجر، فالله سبحانه وتعالى أحدٌ، عدل، يعدل بين عباده في الثواب، والجزاء، هذه سورة "قل هو الله أحد" أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها تعدل ثلث القرآن[1092].

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن هذه السورة مع ما فيها من الثواب، والأجر، والمنزلة إلا أن العبد قد يقرأ آية سواها، ويخشع فيها، فيكون ذلك أعظم من قراءته هذه السورة، بل يقول: "إن العبد قد يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، مع حضور القلب، واتصافه بمعانيها فيكون ذلك أفضل في حقه من قراءة سورة "قل هو الله أحد" مع الجهل، والغفلة، والناس متفاضلون في فهم هذه السورة، وما اشتملت عليه، كما أنهم متفاضلون في فهم سائر القرآن"[1093].

المطلب العاشر: الأمور التي تنافي الخشوع

1- **كثرة الحركة:** سواء في الصلاة، أو خارج الصلاة، كما قلت لكم في الذي يمشي، ويخطر بيديه في مشيته، فهو كثير الحركة، فهذا أبعد ما يكون عن الخشوع، والوقار، وقلة الحركة تنبئ عن سكينة، وتؤدة، ووقار، وخشوع، وكذلك في الصلاة، والله عز وجل يقول: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة:238] والمراد به أن يكون العبد ساكنًا مع طول القيام فيها، لا

[1089] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (4/ 66)

[1090] أخرجه البخاري (2016)، ومسلم (1167)

[1091] الصلاة وأحكام تاركها (ص: 148)

[1092] أخرجه البخاري (5013)، ومسلم (811)

[1093] مجموع الفتاوى (17/ 140)

يلتفت، ولا يرفع بصره، ولا يتحرك، ولا يشتغل بشيء من جوارحه، أو ببصره عما هو بصدده؛ لأن الخشوع يتضمن السكينة، والتواضع جميعًا.

ولهذا نُقِلَ عن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلًا يعبث بلحيته فقال: "لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه"[1094]، أي: لسكنت، وخضعت.

والله عز وجل يقول: {وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [فصلت:39] فأخبر أنها بعد الخشوع تهتز - والاهتزاز حركة - وتربو - والربو الارتفاع - فعلم أن الخشوع فيه سكون، وانخفاض، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في حال ركوعه: اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي[1095]، فوصف نفسه بالخشوع في حال الركوع؛ لأن الراكع ساكن متواضع[1096].

2- **رفع البصر:** وهو منهي عنه في الصلاة لكونه مما ينافي الخشوع، والله قد ذكر خشوع أهل الموقف فقال: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ [القمر:7] وقال: يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ [المعارج:44] وقال: وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ [سورة الشورى:45] أي: أنهم لا يحركون أبصارهم يمنة، ويسرة، وينظرون إلى أعلى، ولا يحركون جوارحهم، وإنما ينظرون من طرف خفي، يسارقون فيه النظر مسارقة، هذا ذكره بمعناه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في "تعارض العقل، والنقل" وذكر نحو ذلك أيضاً في الفتاوى[1097].

المطلب الحادي عشر: نماذج في الخشوع

أولا: خشوع النبي صلى الله عليه وسلم:

هذا إمامنا، وقائدنا، وقدوتنا صلى الله عليه وسلم وقد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه، وَصَفَهُ عبد الله بن الشخير فقال: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي، وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء"[1098].

ويقول ابن مسعود: "قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: اقرأ عليّ القرآن قلت: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء:41] قال: أمسك فرأيت عينيه تذرفان"[1099].

[1094] أخرجه الحكيم الترمذي (3/ 210)، وقال العراقي: "أخرجه التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي النَّوَادِر من حَدِيث أبي هُرَيْرَة بِسَنَد ضَعِيف أَنه من قَول سعيد بن الْمسيب رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي الْمُصَنف وَفِيه رجل لم يسم." انظر: تخريج أحاديث الإحياء (المغني عن حمل الأسفار) (ص: 178)

[1095] أخرجه مسلم (771)

[1096] مجموع الفتاوى (22/ 555)

[1097] المصدر السابق (6/ 578)، ودرء تعارض العقل والنقل (7/ 24)

[1098] أخرجه أبو داود واللفظ له (904)، والنسائي (1214)، وأحمد في المسند (16312)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (839)

[1099] أخرجه البخاري (5055)، ومسلم (800)

وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: "ما كان بين إسلامنا، وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} [الحديد:16] إلا أربع سنين"[1100] فأنت كم يمضي عليك، وأنت تسمع القرآن، وتشهد مع الناس الصلاة، وقلبك لا يتحرك ؟!

ثانيا: خشوع السلف:

-كان ابن عمر إذا تلا هذه الآية: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} [الحديد:16] قال: "بلى يا رب، بلى يا رب[1101]" ويبكي حتى تبل الدموع لحيته.

- وقد قال القرطبي رحمه الله عند تفسير هذه الآية: "...كانت هذه الآية سببا؛ لتوبة الفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك، وقد سئل عبد الله بن مبارك عن بدء زهده، وتوبته فقال: كنت يوما مع إخواني في بستان لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا، وشربنا حتى الليل، ونمنا، وكنت مُولعا بضرب العود، والطبول، فقمت في بعض الليل، فضربت بصوت عالٍ يقال له: راشين السَّحَر، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة، والعود في يدي لا يجيبني إلى ما أريد، فإذا به ينطق كما ينطق الإنسان يقول: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد:16] فقلت: "بلى، والله، فكسرت العود، وصرفت ما كان عندي من الناس، والأصحاب، فكان هذا أول زهدي، وتشميري"[1102].

- وأما الفضيل بن عياض فكان سبب توبته أنه عشق امرأة فواعدته ليلا، فجاء يرتقي الجدران، وبينما هو يتسور؛ ليصل إليها، سمع قارئًا يقرأ: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} [الحديد:16] فرجع، وهو يقول: "بلى والله قد آن"، فآواه الليل إلى خَرِبة، وبها جماعة من السابلة من المسافرين، وبعضهم يقول لبعض: إن فضيلا يقطع الطريق - وهم لم يشعروا بمكانه - فقال: "أوّاه، أراني بالليل أسعى في معاصي الله، وقوم من المسلمين يخافونني، اللهم إني قد تُبت إليك، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام"[1103]. وفي بعض الروايات أنه قال لهؤلاء القوم: أنا الفضيل، جُوزوا - يعني: امضوا في طريقكم، وسفركم - والله لأجتهدن ألا أعصي الله أبدًا، فرجع عن ذلك.

وأما ابن المبارك الذي عرفتم توبته، فكان يوصف خشوعه بأوصاف عجيبة، كان إذا قرأ في كتابه الزهد، والرقائق كأنه بقرة منحورة من كثرة البكاء، وكذا كان الفضيل في خشوعه.

ولقد جاء ناس إلى الفضيل بن عياض، واستأذنوا عليه عند بابه، فلم يُؤذن لهم، فقال قائل: إنه لا يخرج إليكم إلا إذا سمع القرآن، فكان معهم رجل مؤذن حسن الصوت، فقال له اقرأ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر:1] فقرأ، ورفع بها صوته، فأشرف عليهم الفضيل، وقد بكى حتى بَلَّ لحيته بالدموع، ومعه خرقة ينشف بها الدموع من عينيه، ويقول:

بلغت الثمانين أو جُزتُها.. فماذا أُؤمل أو أنتظر

[1100] أخرجه مسلم (3027)

[1101] الدر المنثور في التفسير بالمأثور (8/ 59)

[1102] تفسير القرطبي (17/ 251)

[1103] الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي) (9/ 242)

أتاني ثمانون من مولدي.. وبعد الثمانينَ ما يُنتظر

علتني السنون فأبلينني ...

ثم انقطع، وخنقته العبرة، فأكمل لهم رجل البيت:

علتني السنون فأبلينني فَرقّت عظامي وكلّ البصر[1104]

- ويقول الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد:16]: "إن المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله صدقوا بها، وأفضى يقينها إلى قلوبهم، وخشعت لله قلوبهم، وأبدانهم، وأبصارهم، وكنتُ، والله إذا رأيتُهم رأيتُ قوماً كأنهم رأى عين - يعني: للجنة، والنار - فوالله ما كانوا بأهل جدل، ولا باطل، ولا اطمأنوا إلا إلى كتاب الله، ولا أظهروا ما ليس في قلوبهم، ولكن جاءهم عن الله أمر فصدقوا به، فنعتهم الله في القرآن بأحسن نعت فقال: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان:63] قال: حلماء لا يجهلون، وإذا جُهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون، ثم ذكر ليلهم خير ليل فقال: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} [الفرقان:64] تجري دموعهم؛ خوفًا، وفرقًا من ربهم، فقال: "لأمرٍ ما سهروا ليلهم، لأمرٍ ما خشعوا نهارهم، ثم قرأ: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} [الفرقان:65] قال: كل شيء يصيب ابن آدم، ثم يزول عنه فليس بغرام، إنما الغرام الملازم له ما دامت السموات، والأرض، قال: صدق القومُ، واللهِ الذي لا إله إلا هو، فعملوا، وأنتم تَمنّون، فإياكم، وهذه الأماني؛ فإن الله لم يعطِ عبداً بأمنيته خيراً قط في الدنيا، والآخرة، وكان يقول: "يا لها موعظة لو وافقت من القلوبِ حياةً"[1105].

- ولقد قرأ ابن عمر رضي الله عنهما بـ {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ} [المطففين:1] فلما بلغ: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين:6] بكى حتى خر، وامتنع عن قراءة ما بعده[1106].

- وبات رجل عند الربيع بن خثيم ذات ليلة، فقام الربيع يصلي، فمر بهذه الآية: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ} [سورة الجاثية:21] فمكث ليلته حتى أصبح يبكي بكاء شديداً لا يجاوز هذه الآية[1107].

- وكان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق:1] اضطرب حتى تضطرب أوصاله[1108].

- وكان عبد الله بن الزبير يسجد، فيأتي المنجنيق، فيصيب ثوبه، ولربما أصاب طرف ثوبه، وهو لا يتحرك في صلاته، ولا يرفع رأسه، ولا يلتفت، ودخل عليه رجل بيته فإذا به يصلي، فسقطت حية على ابنه هاشم، فصاحوا: الحية، الحية، ثم قتلوها، وما قطع صلاته، ولما سئل بعد الصلاة قال: "ما شعرت بشيء من ذلك"[1109].

[1104] في سير أعلام النبلاء (8/ 442)

[1105] تفسير ابن رجب الحنبلي (2/ 18)

[1106] أخرجه وكيع بن الجراح في الزهد (27)، ص: (252)

[1107] تفسير القرطبي (16/ 166)

[1108] إحياء علوم الدين (1/ 168)

[1109] سير أعلام النبلاء (4/ 401)

- وكان كُرز بن وَبرة إذا دخل في الصلاة لا يرفع طرفه يمنة، ولا يسرة، وكان من المخبتين، وربما كُلم خارج الصلاة فلا يجيب إلا بعد مدة من شدة استغراقه في التفكير، يقول الذهبي رحمه الله معلقًا على ذلك: "هكذا كان زهاد السلف، وعبادهم، أصحاب خوف، وخشوع، وتعبد"[1110].

- وكان مسلم بن يسار يقول لأهله إذا دخل في صلاته: "تحدثوا فلست أسمع حديثكم"[1111].[1112]

[1110] المصدر السابق (6/ 86)

[1111] تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي (ص: 538)، وصفة الصفوة (2/ 141)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (58/ 134)، وسير أعلام النبلاء (4/ 512)

[1112] للاستزادة من الخشوع، يُنظر: كتاب أعمال القلوب للشيخ خالد بن عثمان السبت

المبحث الخامس عشر: الشكر

الشكر هو: ظهور أثر نعمة الله على عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبّةً وعلى جوارحه انقياداً وطاعةً. فالشّكرُ هو القيامُ بطاعته والتّقربُ إليه بأنواع محابِّه ظاهرا وباطنا، وهذان الأمران هما جِماع الدّين؛ فذكره مُستلزمٌ لمعرفته، وشكره مُتضمّنٌ لطاعته، وهذان هما الغاية التي خُلق لأجلها الجنّ والإنس، والسموات والأرض، ووُضع لأجلها الثواب والعقاب، وأُنزل الكتب، وأُرسل الرسل، وهي الحق الذي به خُلقت السماوات والأرض وما بينهما، وضّدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدّس عنه سبحانه. وقد جاءت آيات وأحاديث كثيرة تحثّ المُسلم على الشكر وتبيّن جزاء الشاكرين، ومن مظاهر الشكر وصوره: سجود الشكر، والتحدث بنعمة الشكر، وإعمال الجوارح بطاعة الله. ومما يُعين على الشكر: حسن النظر في نعم الله الحاضرة، والدّعاء، والتّفكر في نِعَم الله. وقد جعل الله عز وجل للشكر فوائد عظيمة منها: نيل محبة الله والقرب منه، وتحقيق النّجاة، ودوام النِعَم وزيادتها.

المطلب الأول: معنى الشكر

- **معنى الشكر لغة:**

أصل الشّكر في كلام العرب: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورًا بيّنًا. يُقال: شكرت الدّابة: إذا ظهر عليها أثرُ العلف[1113]. أيضًا، الشكر: الثّناء على المُحسن بما أوْلاكه من المعروف[1114].

- **معنى الشكر اصطلاحًا:**

الشكر في الاصطلاح: ظهور أثر نعمة الله على عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبَّة وعلى جوارحه انقيادًا وطاعةً[1115]. وقيل: هو الثّناء على المُنعم، ومحبّته والعمل بطاعته[1116].

- **العلاقة بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي:**

الشكر في معناه اللغوي موافق لمعناه الاصطلاحي. يقول ابن القيم: "وأصلُ الشكر في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورًا بيّنًا، كذلك حقيقته في العبودية، وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعةً"[1117].

[1113] لسان العرب لابن منظور

[1114] مختار الصحاح للرازي (ص344)

[1115] مدارج السالكين لابن القيم (2 /244)

[1116] طريق الهجرتين لابن القيم (ص449)

[1117] مدارج السالكين لابن القيم (2 /244)

المطلب الثاني: الفرق بين الشكر والحمد

الحمدُ: يتضمن المدح والثّناء على المحمود بذكر محاسنه، سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكُن، **والشّكر:** لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشّاكر. فمن هذا الوجه الحمدُ أعمُّ من الشّكر؛ لأنه يكون على المحاسن والإحسان. وأمّا الشّكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام، فهو أخصُّ من الحمد من هذا الوجه، لكنه يكون بالقلب واليد واللّسان. والحمدُ إنّما يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشّكر أعمّ من جهة أنواعه، والحمد أعمّ من جهة أسبابه[1118].

يقول القرطبي: "الصحيح: أنّ الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشّكر ثناءٌ على المشكور بما أولى من الإحسان، وعلى هذا الحد قال علماؤنا: الحمد أعمّ من الشّكر"[1119].

وقال ابن القيم: "الشّكر أعمّ من جهة أنواعه وأسبابه، وأخصّ من جهة متعلقاته، والحمدُ أعم من جهة المتعلّقات، وأخصُّ من جهة الأسباب، ومعنى هذا: أنّ الشكر يكون بالقلبِ خضوعًا واستكانةً، وباللسان ثناءً واعترافًا، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا، ومتعلقّه النعم دون الأوصاف الذّاتية، فلا يُقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها، كما هو محمود على إحسانه وعدله. والشّكر يكون على الإحسان والنعم، فكل ما يتعلق به الشّكر يتعلّق به الحمد من غير عكس. وكل ما يقع به الحمد يقع به الشّكر من غير عكس؛ فإنّ الشكر يقع بالجوارح، والحمدُ يقعُ بالقلب واللسان"[1120].

المطلب الثالث: فضل الشكر

1. **الشّكرَ سبيُل رسلُ الله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أخصّ خلقه وأقربهم إليه، يندرجُ فيه جميع مقامات الإيمان، حتى المحبّة والرّضا والتّوكل وغيرها؛** فإنّ الشكر لا يصحُّ إلا بعد حصولها، فهو: جامعٌ لجميع مقامات الإيمان؛ ولذلك كان أرفعها وأعلاها، فجميعُ المقامات مُندرجةٌ فيه، لا يستحقُّ صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له، ولهذا كان الإيمانُ نصفين: نصفٌ شكرٌ، ونصفٌ صبر، والصّبر داخلٌ في الشّكر، فرجع الإيمانُ كلّه شكراً، والشّاكرون هم أقلُّ العباد، كما قال تعالى: {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: 13].

كما أنّ مبنى الدّينِ على قاعدتين: الذّكر، والشّكر. وقد جمعهما الله تعالى بقوله: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: 152].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: "يا مُعاذُ، واللَّهِ إنِّي لأحبُّكَ، واللَّهِ إنِّي لأحبُّك، فقالَ: أوصيكَ يا معاذُ لا تدَعنَّ في دُبُرَ كلِّ صلاةٍ تقولُ: اللَّهمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسنِ عبادتِكَ"[1121].

والذكر رأسُ الشّكر، والذّكر والشّكر جماعُ السعادةِ والفلاح[1122].

[1118] مجموع الفتاوى لابن تيمية (11 /133-134)

[1119] تفسير القرطبي (1 /207)

[1120] مدارج السالكين لابن القيم (2 /246)

[1121] أخرجه أبو داود (1522)

[1122] الوابل الصيب لابن القيم (ص161)

والشّكرُ: هو القيامُ بطاعته والتّقربُ إليه بأنواع محابّه ظاهرًا وباطنًا، وهذان الأمران هما جِماع الدّين؛ فذكره مُستلزمٌ لمعرفته، وشكره مُتضمّنٌ لطاعته، وهذان هما الغاية التي خُلق لأجلها الجنّ والإنس، والسموات والأرض، ووُضع لأجلها الثواب والعقاب، وأُنزل الكتب، وأُرسل الرسل، وهي الحق الذي به خُلقت السماوات والأرض وما بينهما، وضّدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدّس عنه سبحانه.[1123]

والعبدُ لا يخلو قط من أن يكونَ في نعمةٍ أو بليّة؛ فإن كان في نعمةٍ ففرضها الشكر والصبر؛ فالشكر قيدها، والصبر لئلا يقع فيما يتسبب في سلبها. وقد سمّى الله تعالى نفسه شاكرًا، وشكورًا، وسمّى الشاكرين بهذين الاسمين، وهذا تشريف وتكريم لهم، وحسبك بهذا محبةً للشاكرين وفضلًا.

قال تعالى: {إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا} [الإنسان: 22]

وقال: {وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء: 147].

وقلة أهله في العالمين تدلُّ على أنهّم هم خواصُّه، قال تعالى: {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: 13][1124].

المطلب الرابع: الحث على الشكر والترغيب فيه

أ. الشكر في القرآن الكريم:

دلّ الكتابُ على أمرِ الله جلّ وعلا لعبادِه بأن يشكرُوه تبارك وتعالى على ما أولاهم من النّعم:

- قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة: 172].

- وقال تعالى: {وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [العنكبوت: 17].

- وقد وعدَ الله أهل الشّكر بأحسن الجزاء، قال تعالى: {وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: 144].

- وقال تعالى: {كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ} [القمر: 35].

- ومدح الله عزّ وجل الشّاكرين، قال تعالى: {نَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [لقمان: 31].

- وأخبر الله عزوجل عن رضاه بشكر الشّاكرين: {وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: 7].

ب: الشكر في السنة النبوية:

أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمن؛ بأنّه إذا أصابته سرّاء شكر، وإذا أصابته ضرّاء صبر، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه صهيب الرومي: "عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له"[1125].

وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل بالشكر فقال: "يا مُعاذُ، واللَّهِ إنِّي لأحبُّكَ، واللَّهِ إنِّي لأحبُّك، فقالَ: أوصيكَ يا معاذُ لا تدَعنَّ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ تقولُ: اللَّهمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسنِ عبادتِكَ"[1126].

[1123] الفوائد لابن القيم (ص186)

[1124] أعمال القلوب للسبت (2 /415)

[1125] أخرجه مسلم (2999)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الطاعمُ الشَّاكرُ بمنزلةِ الصائمِ الصابرِ"[1127].

ت. أقوال السلف في الشكر:

- قالت عائشة رضي الله عنها: "ما مِن عبدٍ يشربُ الماء القراح فيدخلُ بغير أذى ويخرجُ بغير أذى، إلا وجب عليه الشّكر"[1128].

- وقال مطرّف بن الشخير: "لأن أُعافى فأشكُر أحبّ إليَّ من أبتلى فأصبُر"[1129].

- وقال أيضا: "نظرتُ ما هو خيرٌ لا شرّ فيه، فإذا هو أن يعاف العبدُ فيشكر"[1130].

- وقال يزيد بن ميسرة: "لا تضر نعمة معها شكر"[1131].

- وقال محمد بن كعب القرظي: "إنَّ نوحًا عليه السلام كان إذا أكل، قال: الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله. فسماه الله عبدا شكورا"[1132].

- وقال الفضيل بن عياض: "عليكم بملازمة الشكر على النعم، فقلّ نعمة زالت عن قومٍ فعادت إليهم"[1133].

المطلب الخامس: صور الشكر

أوّلاً: سجود الشكر:

وهو سجود مخصوص لحصول نعمة. ففي حديث كعب بن مالك رضي الله عنه المشهور في توبته حين تخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة العُسرة، قال: "فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ علَى الحَالِ الَّتي ذَكَرَ اللَّهُ، قدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بما رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أَوْفَى علَى جَبَلِ سَلْعٍ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يا كَعْبُ بنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وعَرَفْتُ أنْ قدْ جَاءَ فَرَجٌ، وآذَنَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الفَجْرِ"[1134].

ثانيا: التحدث بها:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: "التَّحدُّثُ بنعمةِ اللهِ شُكرٌ، وتركُها كُفرٌ، ومَن لا يشكرُ القَليلَ لا يَشكرُ الكثيرَ، ومَن لا يشكرُ النَّاسَ لا يشكرُ اللهَ، والجماعةُ برَكةٌ، والفُرقةُ عذابٌ"[1135].

ثالثًا: إعمالُ الجوارح بطاعة الله عز وجل:

[1126] أخرجه أبو داود (1522)

[1127] أخرجه البخاري (5460)، وأخرجه الترمذي (2486)، وابن ماجة (1764) واللفظ لها، وأحمد (7793)

[1128] عدة الصابرين لابن القيم(ص145)

[1129] الزهد لأحمد بن حنبل (ص297)

[1130] المصدر السابق (ص293)

[1131] المصدر السابق (ص462)

[1132] المصدر السابق (ص66-67)

[1133] إحياء علوم الدين للغزالي (4 /119)

[1134] أخرجه البخاري (4418)

[1135] أخرجه أحمد (18449)

قال رجلٌ لأبي حازم: "ما شكرُ العينين يا أبا حازم؟ قال: إن رأيتَ بهما خيرا أعلنته، وإن رأيتَ بهما شرّا سترته، قال: فما شُكر الأذنين؟ قال: إن سمعتَ بهما خيرًا وعيته، وإن سمعتَ بهما شرّا دفعته. قال: فما شكرُ البطن؟ قال: أن يكونَ أسفلهُ طعاما، وأعلاهُ علما. قال: فما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله عز وجل {إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [المؤمنون: 6-7]. قال: فما شُكر الرّجلين؟ قال: إنْ رأيت حيّاً غبطته استعملتَ بهما عمله، وإن رأيت ميتاً مقتّه كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله عزَ وجل. فأمّا من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه؛ فمثَلُه كمثل رجل له كساء، فأخذ بطَرَفه ولم يلبسه، فلم ينفع ذلك من الحرِّ، والبرد، والثلج، والمطر"[1136].

رابعاً: ظهور أثر النّعمة على العبد:

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللَّهَ يُحبُّ أن يَرى أثرَ نعمتِه علَى عبدِه"[1137].

خامساً: الرّضا والتّسليم بقضاء الله عز وجل:

فعن الربيع بن أن عن بعض أصحابه قال: "علامة حبّ الله: كثرة ذكره، وعلامة الدّين: الإخلاص لله. وعلامة العِلم: الخشية لله، وعلامة الشّكر: الرّضا بقضاء الله، والتّسليم لقدره"[1138].

سادساً: شكر النّاس:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكرُ اللهَ"[1139].

المطلب السادس: وسائل اكتساب الشكر

أوّلاً: تنمية المحبة الصّادقة لله تبارك وتعالى:

فإنّ العبدَ إذا كان مُحبّاً لله، فإنّه يستعظمُ ما يصلُ إليه من الله من النعم، ويعترفُ بها، فهو مسرورٌ بذلك؛ لأنّ الله قد اختاره، وأولاه، وحرَمَ آخرين، وقد يكون ذلك أعظم في نظره من النّعمة نفسها. يقول ابن القيم: "وإنما يتأتى الشّكر لله من العبد إذا تمكّن حب الله من قلبه، وعَلِمَ حسن اختياره له، وبرّه به، ولُطفه به، وإحسانه إليه بالمُصيبة، وإنْ كرِهَ المصيبة وعبوديته في قضاء المعائب المبادرة إلى التوبة منها، والتّنصل والوقوف في مقام الاعتذار والانكسار"[1140].

ثانيًا: النّظر في عظمة الله تعالى وصفات كماله:

فالله عزّ وجل هو المستحق بذاته للعبادة والتّعظيم والإجلال؛ فالنّفوس العليّة الزّكية تعبده؛ لأنّه أهلٌ لأن يتعبد ويجل ويحب ويُعظم، فهو لذاته مستحقٌ للعبادة. ولا ينبغي للعبد أن يكونَ كأجير السوء، إن أُعطي أجره عمل، وإن لَم يُعطَ لم يعمل. كيف وهو يمتنُّ عليه بوافر النعم التي لا تُحصى؟! ويتفضّل عليه بأنواع الفضائل التي لا تُستقصى؟!

ثالثا: حُسن النظر في نعمة الله الحاضرة:

[1136] أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (129)

[1137] أخرجه الترمذي (2819)

[1138] أخرجه محمد بن نصر المروزي في "تعظيم قدر الصلاة" (744)

[1139] أخرجه الترمذي (1954)

[1140] الفوائد لابن القيم (ص163-164)

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: "انظروا إلى من هو أسفلَ منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقَكم، فإنه أجدَرُ أن لا تزدَروا نعمةَ اللهِ عليكم"[1141].

فالعاقل إنّما ينظرُ إلى من هو دونه، أو ينظر إلى من يُشاكله في أمر الصحبة والزواج والإنفاق والمسكن واللباس، ونحو ذلك؛ حتى يتعرف بحقٍ على نعم الله عليه، فلا يزدريها، فيؤدي به ازدراؤها إلى الكفر بها، ونسيان شكر المتفضّل عليه سبحانه، وإلا فإنه إذا تطلعّت عيناه إلى من هو أعلى منه نعمة تطلّع قلبه، وإذا تطلّع قلبه إلى نعمة من نعم الدّنيا، فلَم يطلها سخِط وتبرّم. والشّاكر راضٍ بالقليل، مقرٍ بالفضل للمتفضِّل الجواد الكريم، رابضٌ، لا يترمرم.

رابعا: الدّعاء:

فإذا علِمَ العبدُ أنّ النّعمَ كلها من الله وحده، نِعَم الطاعات، ونِعَم اللذات، رغبَ إليه ليُلهمه، ويوزعه شكرها، قال تعالى: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [النحل: 53] وكما أنَّ تلك النعم منه وحده سبحانه، فذكرها وشكرها لا يُنال إلا بتوفيقه. والعبدُ مفتقر مضطرٌ إلى الضراعة إلى الله عز وجل والابتهال إليه أن يدفع عنه العوارض، والأمور التي تصرفه عن القيام بحق الله في الشّكر.

يقول ابن القيم: "فأنفعُ الدّعاء: طلبُ العونِ على مرضاته سبحانه، وأفضلُ المواهب إسعافُ العبد بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله، وتيسير أسبابه وقال ابن تيمية: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته"[1142].

خامسا: التفكّر في نِعَم الله:

وهو أمرٌ جديرٌ بالعناية، ومن أعظم ما يتوصّل به إلى معرفة النّعم. فعن عبد الله بن أبي نوح قال: "قال لي رجلٌ على بعض السواحل: كم عاملته تعالى اسمه بما يكره، فعاملك بما تُحب؟ قلت: ما لا أحصي ذلك كثرةً. قال: فهل قصدتَ إليه في أمرٍ كرِبَك فخذلك؟ قلت: لا والله، ولكنه أحسن إلي، فأعانني. قال: قال: فهل سألته شيئاً قط فأعطاك؟ قلت: وهل منعني شيئاً سألته؟! ما سألته شيئاً قط إلا أعطاني، ولا استعنتُ به إلا أعانني. قال: أرأيتَ لو أنَّ ابن آدمَ فعلَ بك بعض هذه الخلال، ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له على مكافأة ولا جزاء. قال: فربّك أحق وأحرى أن بذلت نفسك له في أداء شكر نعمه عليك، وهو المُحسن قديما وحديثا إليك، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده، إنه تبارك وتعالى رضي بالحمد من عباده شكرا"[1143].

فإذا لاحظ العبدُ ما هو فيه من نعمة الله، ومحض جوده، شهِدَ مع ذلك فقره إليه في كل لحظة، وعدم استغنائه عنه طرفة عين؛ فكانَ ذلكَ من أعظم أبواب الشّكر، وأسباب المزيد، وتوالي النعم عليه[1144].

[1141] أخرجه الترمذي في "سننه" (2513)

[1142] مدارج السالكين لابن القيم (1 /78)

[1143] أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (141)

[1144] أعمال القلوب للسبت (2 /422-433)

المطلب السابع: فوائد الشكر

أوّلاً: المحبة لله تعالى:

قال أبو سلميان الواسطي: "ذكر النّعمة يورث الحبّ لله"[1145]، وذلك أنّ القلوب مجبولة على حُبّ من أحسن إليها، وبُغض من أساء إليها.

ثانياً: القرب من الله تعالى:

قال أبو حازم: "كلُّ نعمةٍ لا تُقرّبُ من الله فهيَ بليّة"[1146] ولا يُمكن أن تُقرّبَ النّعمة من الله إلا بالشّكر عليها.

ثالثاً: تحقيق النّجاة:

قال أبو العالية: "إنّي لأرجو ألا يهلَكَ عبدٌ بين نعمة يَحمد الله عليها، وذنبٍ يستغفر الله منه"[1147].

رابعاً: قوة الإيمان والانتفاع بآيات الله:

"فالصبر والشكرِ سببان للانتفاع صاحبها بالآيات، فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنّما ينتفعُ بها من آمنَ بالله، ولا يتمّ له الإيمان إلا بالصّبر والشّكر".[1148] فالصّابر الشاكر هو المُنتفع بآيات الله.

خامسا: دوام النّعمة:

قال عمر بن عبد العزيز: "قيّدوا النّعمَ بالشُّكر"[1149].

سادسا: مع الشّكر المزيد:

قال عليٌّ رضي الله عنه لرجلٌ من همدان: "إنّ النّعمة موصَّلة بالشّكر، والشّكر معلّقٌ بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشّكر من العبد"[1150].

المطلب الثامن: نماذج من أهل الشكر

- عن المُغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: "قَامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فقِيلَ له: غَفَرَ اللَّهُ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، قالَ: أفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا"[1151].

- وأُمطِرَ أهل الكوفة مطرا، فهُدمت منه البيوت، فأعتق ابن أبي داود جاريةً له؛ شكراً لله تعالى إذ عافاه من ذلك[1152].

[1145] أخرجه ابن أبي الدّنيا في الشكر (29)

[1146] المصدر السابق (20)

[1147] المصدر السابق (88)

[1148] الفوائد لابن القيم (ص191)

[1149] أخرجه ابن أبي الدّنيا في الشّكر (27)

[1150] المصدر السابق (18)

[1151] أخرجه البخاري (4836)

[1152] تاريخ ابن معين لابن معين (4 /359-360)

- قال جعفر بن محمد بن علي: "فَقَد أبي بغلته، فقال: إن ردّها الله علي لأحمدنَّه بمحامد يرضاها، فما لب أن أُتيَ بها، بسرجها ولجامها فركبها، فلما استوى عليها، وضمَّ إليها ثيابه رفع رأسه إلى السماء، فقال: الحمد لله، لم يزِد عليها، فقيل له في ذلك" فقال: وهل تركتُ شيئاً؟ أو أبقيتُ شيئاً؟ جعلتُ الحمد كله لله عز وجل"[1153].

- وعن مضارب بن حزن قال: "بينا أنا أسير من الليل إذا رجلٌ يُكبّر، فألحقته بعيري، قلت: من هذا المكبّر؟ قال: أبو هريرة. قلت: ما هذا التكبير؟ قال: شكراً؟ قلت: علامة؟ فقال: على أنّي منت أجيراً لبسرة بنت غزوان بعُقبة رجلي، وطعام بطني، فكان القوم إذا ركبوا سقت لهم، وإذا نزلوا خدمتهم، فزوّجنيها الله، فهي امرأتي اليوم، فأنا إذا ركِبَ القوم ركبت، وإذا نزلوا خدمت"[1154].

المطلب التاسع: حكم الشكر

الشكر واجبٌ بإجماع الأمة؛ فالإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر، وقد أمر الله به، ونهى عن ضدّه، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحراساً وحافظاً لنعمته، وأخبرَ أنّ أهله هم المُنتفعون بآياته، واشتقَّ لهم اسمًا من أسمائه؛ فإنه سبحانه هو الشّكور، وهو موصل الشّاكر إلى مشكوره، بل يُعيد الشاّكر مشكورًا، وهو غاية رضا الرب من عبده[1155].

والعبد يكون إمّا شاكرا لنعمه سبحانه، وإمّا كافرا بها، قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: 7].

وقال عن نبيه سلميان عليه السلام: {فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [النمل: 40].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [لقمان: 12]. فمن لَم يشكُر وقع في الكُفر؛ إما في الكفر الأكبر، وإمّا في كُفران النعمة، فلا يُنجي من الوقوع في هذا الضلال إلا الشّكر، فتعيّن القول بفرضيّته، ووجوبه على النّاس[1156].

[1153] أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (106)

[1154] أخرجه ابن ماجة (2445)

[1155] الإكسير لمجموعة من الباحثين (ص167)

[1156] أعمال القلوب للسبت (2/413)

الفَصْلُ السَّادِسُ: الصِّفَاتُ المَحْمُودَةُ للدَّاعِيةِ إِلَى اللهِ

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الأَمَانَةُ

المَطْلَبُ الأَوَّلُ: مَعْنَى الأَمَانَة

- **معنى الأمانةِ لُغةً:**

الأمانةُ: ضِدُّ الخيانةِ، مصدَرُ أمِنَ أمانةً فهو أمينٌ، ثمَّ استُعمِلَ المصدَرُ في الأعيانِ، فقيل: الوديعةُ أمانةٌ، ونحوه، والجمعُ أماناتٌ، والأمانةُ أيضًا: اسمٌ لِما يؤمَنُ عليه الإنسانُ، نحوُ قولِه تعالى: {وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ} [الأنفال: 27]، أي: ما ائتُمِنْتُم عليه، وأصلُ الأمنِ: سُكُونُ القَلبِ وطُمَأنينةُ النَّفسِ وزوالُ الخَوفِ.[1157]

- **معنى الأمانةِ اصطِلاحًا:**

الأمانةُ :هي كُلُّ حَقٍّ لَزِمَك أداؤه وحِفظُه.[1158]

وقيل: هي التَّعَفُّفُ عمَّا يَتَصَرَّفُ الإنسانُ فيه مِن مالٍ وغيرِه، وما يوثَقُ به عليه من الأعراضِ والحُرَمِ مع القُدرةِ عليه، وَرَدُّ ما يُستودَعُ إلى مُودِعِه.[1159]

وقال الكَفَوِيُّ: كُلُّ ما افتُرِضَ عَلَى العِبَادِ فهو أمانةٌ؛ كصلاةٍ وزكاةٍ، وصيامٍ وأداءِ دَينٍ، وأوكَدُها الودائعُ، وأوكَدُ الودائعِ كَتمُ الأسرارِ.[1160]

وقيل: هي خُلُقٌ ثابتٌ في النَّفسِ يَعِفُّ به الإنسانُ عمَّا ليس له به حَقٌّ، ويؤدِّي به ما عليه أو لديه مِن حَقٍّ لغيرِه.[1161]

وقيل: هي كُلُّ شيءٍ يُؤتَمَنُ الإنسانُ عليه؛ مِن أمرٍ ونهيٍ، وشأنِ دينٍ ودُنيا.[1162]

وقيل: هي كُلُّ ما تحمَّلَه الإنسانُ من أمرِ دينِه ودُنياه قولًا وفِعلًا.[1163]

إِذًا الأَمَانَةُ هِيَ أَدَاءُ الْحُقُوقِ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا، فَالْمُسْلِمُ يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ فِي الْعِبَادَةِ، وَيَحْفَظُ جَوَارِحَهُ عَنِ الْحَرَامِ، وَيَرُدُّ الْوَدَائِعَ... إِلَخ.

وَجَعَلَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَمَانَةَ دَلِيلًا عَلَى إِيمَانِ الْمَرْءِ وَحُسْنِ خُلُقِهِ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ".[1164]

[1157] يُنظَر: العين للخليل بن أحمد 389 /8، مقاييس اللغة لابن فارس 133 /1، مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني 90/1، لسان العرب لابن منظور 13/21، المصباح المنير للفيومي 24/1

[1158] يُنظَر: فيض القدير للمناوي .1/288

[1159] يُنظَر: تهذيب الأخلاق المنسوب للجاحظ ص: 24

[1160] يُنظَر: الكليات ص 269

[1161] يُنظَر: الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة 1/ 645

[1162] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 4/ 402

[1163] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 4/ 137

[1164] صحيح الترغيب 3004، أخرجه أحمد 12567، والبزار 7196، وأبو يعلى 2863

المطلب الثَّاني: الحثُّ على الأمانة

أ. الأمانة في القرآن الكريم:

الأَمَانَةُ خُلُقٌ جَلِيلٌ مِنْ أَخْلاَقِ الْإِسْلاَمِ المتَّفَقِ على أهمِيَّتِها؛ لأنَّها تَشْمَلُ جميعَ جَوَانِبِ حياةِ المسلمِ، في عِبادَاتِه، وفي عَمَلِه، وفي حديثِه، وفي مجتَمَعِه، كما أنها أَسَاسٌ مِنْ أُسُسِ الإسلام، فَهِيَ فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ، بَيْنَمَا رَفَضَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ أَنْ يَحْمِلْنَهَا لِعِظَمِهَا وَثِقَلِهَا.

1. قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: 72-73].

ففي هذه الآيةِ: „عَظَّم تَعالى شأنَ الأمانةِ التي ائتَمَنَ اللهُ عَلَيْها المُكَلَّفين، التي هيَ امتِثالُ الأوامِرِ، واجتنابُ المحارِمِ، في حالِ السِّرِّ والخُفيةِ كحالِ العلانيةِ، وأنَّه تعالى عرَضَها على المخلوقاتِ العظيمةِ؛ السَّماواتِ والأرضِ والجبالِ، عَرْضَ تخييرٍ لا تحتيمٍ، وأنَّكِ إن قُمتِ بها وأدَّيتِها على وَجهِها فلكِ الثَّوابُ، وإنْ لم تقومي بها ولم تؤدِّيها فعليكِ العِقابُ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، أي: خَوفًا ألَّا يَقُمْنَ بما حُمِّلْنَ، لا عصيانًا لِرَبِّهِنَّ، ولا زُهدًا في ثَوابِه، وعَرَضَها اللهُ على الإنسانِ على ذلك الشَّرطِ المذكورِ، فقَبِلَها وحمَلَها مع ظُلمِه وجَهلِه، وحَمل هذا الحِملَ الثَّقيلَ"[1165]، „إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا"، أي: إنَّ الإنسانَ واقِعٌ في ظُلمِ نَفسِه، والجَهلِ برَبِّه وشَرعِه وقَدْرِ الأمانةِ.[1166]

ولا شك أن الأمانةَ فَضيلةٌ ضَخمةٌ، لا يستطيعُ حَملَها الرِّجالُ المهازيلُ، وَقَد ضَرَبَ اللهُ المثَلَ لِضَخامَتِها، فأبان أنَّها تُثقِلُ كاهِلَ الوجودِ، فَلا يَنْبَغي لِلإنسانِ أن يستهينَ بها أو يُفَرِّطَ في حَقِّها.

والظُّلمُ والجَهلُ آفتانِ عَرَضتا للفِطرةِ الأُولى، وعُنِيَ الإنسانُ بجهادِهما، فلن يَخلُصَ له إيمانٌ إلَّا إذا أنقاه من الظُّلمِ، قال الله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ}[الأنعام: 82]، وَلَنْ تَخْلُصَ لَهُ تَقْوى إلَّا إذا نقَّاها من الجهالةِ: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: 28]، ولِذلِكَ بَعْدَ أن تقرأَ الآيةَ التي حمَّلَت الإنسانَ الأمانةَ تجِدُ أنَّ الذين غَلَبَهم الظُّلمُ والجَهْلُ خانوا ونافَقوا وأشركوا؛ فَحُقَّ عليهِمُ العِقابُ، ولم تُكتَبْ السَّلامةُ إلَّا لأهلِ الإيمانِ والأمانةِ، قال تعالى: {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: 73][1167].

2. وقد أمر اللهُ تعالى بأداءِ الأمانةِ في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58].

قال ابنُ تيميَّةَ: „قال العُلَماءُ: نزلت في وُلاةِ الأمورِ: عَلَيْهِم أن يؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها، وإذا حكَموا بَينَ النَّاسِ أن يحكُموا بالعَدْلِ، وإذا كانت الآيةُ قد أوجَبَت أداءَ الأماناتِ إلى أهلِها والحُكمَ بالعَدلِ، فهذان جِماعُ السِّياسةِ العادِلةِ والوِلايةِ الصَّالحةِ".[1168]

[1165] يُنظَر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص: 673

[1166] يُنظَر: جامع البيان لابن جرير الطبري 196/19، أضواء البيان للشنقيطي 6/259

[1167] يُنظَر: خلق المسلم للغزالي ص: 47

[1168] يُنظَر: السياسة الشرعية ص: 12

وقال الشَّوكانيُّ: „هذه الآيةُ من أمَّهاتِ الآياتِ المُشتَمِلةِ على كثيرٍ من أحكامِ الشَّرعِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ أنَّ الخِطابَ يَشمَلُ جميعَ النَّاسِ في جميعِ الأماناتِ، وقد رُوِيَ عن عليٍّ، وزيدِ بنِ أسلَمَ، وشَهرِ بنِ حَوشَبٍ: أنَّها خطابٌ لوُلاةِ المُسلِمين، والأوَّلُ أظهَرُ، وَوُرُودُهَا على سَبَبٍ لا ينافي ما فيها من العمومِ؛ فالاعتبارُ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَبِ، كما تقرَّر في الأصولِ، وَيَدْخُلُ الولاةُ في هذا الخِطابِ دُخولًا أوَّلِيًّا، فيَجِبُ عليهم تأديةُ ما لَدَيْهِم مِن الأماناتِ، ورَدُّ الظُّلُماتِ، وتَحَرِّي العَدلِ في أحكامِهم، ويَدْخُلُ غَيرُهم من النَّاسِ في الخِطابِ؛ فيجِبُ عليهم رَدُّ ما لَدَيْهِم مِن الأماناتِ، والتَّحَرِّي في الشَّهاداتِ والأخبارِ، ومِمَّن قال بِعُمُومِ هذا الخطابِ: البراءُ بنُ عازبٍ، وابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وأُبيُّ بنُ كَعبٍ، واختاره جمهورُ المُفَسِّرين، ومنهم ابنُ جريرٍ، وأجمعوا على أنَّ الأماناتِ مردودةٌ إلى أربابِها: الأبْرارِ منهم والفُجَّارِ، كما قال ابنُ المُنذِرِ".[1169]

ولما كان التَّرتيبُ الصَّحيحُ أن يبدأَ الإنسانُ بنفسِه في جَلبِ المنافِعِ ودَفعِ المَضارِّ، ثمَّ يَشتَغِلَ بحالِ غَيْرِه؛ أُمِرَ بأداءِ الأمانةِ أوَّلًا، ثمَّ بَعدَه أُمِرَ بالحُكمِ بالحَقِّ، والحُكمِ بالعَدلِ بَينَ النَّاسِ[1170].

3. وقال تعالى في ذِكرِ صِفاتِ المُفلِحين: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [المؤمنون: 8]، أي: مُراعونَ لَها، حافِظون مُجْتَهِدون على أدائِها والوَفاءِ بِها، وَهذا شامِلٌ لِجَميعِ الأماناتِ التي بَيَّنَ العَبْدِ وبَينَ رَبِّه، كالتَّكاليفِ السِّرِّيَّةِ التي لا يطَّلِعُ عليها إلَّا اللهُ، والأماناتِ التي بَيْنَ العبْدِ وبَيْنَ الخَلقِ في الأموالِ والأسرارِ.[1171]

4. وقال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ} [البقرة:283]، أي: إن كان الذي عَلَيْه الحَقُّ أمينًا عِنْدَ صاحِبِ الحَقِّ، لِحُسنِ ظَنِّهِ بِهِ، وأمانَتِه لَدَيْهِ، واستغنى بأمانَتِه عَنْ الإرْتِهانِ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ وهو المَدْيُونُ أَمَانَتَهُ، أي: الدَّينَ الذي عليه، فحثَّ المديونَ على أن يَكُونَ عِنْدَ ظَنِّ الدَّائِنِ الذي ائتَمَنه، وأن يؤدِّيَ إليه حَقَّه الذي ائتَمَنه عَلَيْه وَلَم يَرتهِنْ مِنْهُ عَليه شيئًا، وإلَّا فأداءُ الأمانةِ واجِبٌ سواءٌ ائتمَنه أو لَم يَفْعَلْ ذلك. [1172]

[1169] يُنظَر: فتح القدير 1/719

[1170] يُنظَر: جامع البيان لابن جرير 173/7، مفاتيح الغيب 108/10، البحر المحيط لأبي حيان 3/684

[1171] يُنظَر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص: 887

[1172] مفاتيح الغيب للرازي 62 /10

ب. الأمانةُ في السُنَّةِ النَّبَوية:

- لِبَيَانِ أهمِّيَّةِ الأمانةِ وعِظَمِ خَطَرِها وَرَدَ في حَديثِ حُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخْبَرَ عن أحداثِ يومِ القيامةِ، فقال: "وتُرسَلُ الأمانةُ والرَّحِمُ، فَتَقومانِ جَنْبَتَيِ الصِّراطِ يمينًا وشِمالًا" [1173]، أي: تَقِفانِ في ناحيَتَيِ الصِّراطِ، فتُصَوَّران مُشَخَّصَتَينِ على الصِّفَةِ التي يُريدُها اللهُ تعالى، والمعنى أنَّ الأمانةَ والرَّحِمَ لِعِظَمِ شَأنِهما وفخامةِ ما يلزَمُ العِبادَ من رعايةِ حَقِّهما، تُوقَفانِ هناك للأمينِ والخائنِ، والواصِلِ والقاطِعِ، فتُحاجَّانِ عن المُحِقِّ، وتَشهدانِ على المُبطِلِ، وإنَّما كان كذلك؛ ليتَميَّزَ الأمينُ مِن الخائنِ، والواصِلُ من القاطِعِ، على رُؤوسِ المَلأِ؛ سُرورًا للأمينِ والواصِلِ، وفضيحةً للخائنِ والقاطِعِ، فهذا تحريضٌ بليغٌ على رِعايتِهِمَا، وحثٌّ تامٌّ على أداءِ حَقِّيْهِما؛ فإنَّ رِعايَتَهُمَا سَبَبٌ لمصالِحَ كثيرةٍ، وَفَوائِدَ عظيمةٍ".[1174]

- وعن أبي موسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال :"الخازِنُ المُسلِمُ الأمينُ الذي يُنفِذُ -ورُبَّما قال: يُعطِي- ما أُمِرَ به، فيُعْطِيهِ كَامِلًا مُوفَّرًا، طَيِّبةً به نَفْسُه، فيَدفَعُه إلى الَّذِي أُمِرَ له به- أحَدُ المتصَدِّقِينَ" [1175]، والخازِنُ: هو الذي يَخزُنُ عندَه المالَ، أي: يَحفَظُ، وقد أثنى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الخازِنِ الأمينِ الذي لا يخونُ في أَخْذِه وإعطائِه، فيُعطي أمانةَ هذا المالِ بطِيبِ نَفسٍ منه، ويَظهَرُ طِيبُ النَّفسِ من الخازِنِ بعَدَمِ إيذائِه الفقيرَ في إعطائِه، وهو بذلك يكونُ قد أدَّى أمانَةَ ما أَمَرَهُ به صاحِبُ المالِ وأذِنَ له فيه مع صِدقِ نيَّتِه، فيُثيبُه اللهُ بِذلك بجَعلِه أحَدَ المتصَدِّقين، وله نصيبٌ في الأجرِ والثَّوابِ، وجعَلَه كذلك مع أنَّ المالَ الذي تصَدَّق مِنه لَيْسَ مِلكًا لَه، وإنَّما هو خازِنٌ فقط؛ لأنَّه مُعِينٌ على إنفاذِ الحَسَنةِ، ولأنَّه لَمَّا كان واليًا على خِزَانَتِه، وأدَّى حقوقَ النَّاسِ في وِلايتِه بطِيبِ نفسٍ منه بِمَا أدَّاه؛ استحَقَّ ذلك التَّكريمَ لِأَمَانَتِهِ. [1176]

- وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: "حَدَّثَنا رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أحَدَهُما، وأنا أَنْتَظِرُ الآخَرَ؛ حَدَّثَنا: أنَّ الأمانَةَ نَزَلَتْ في جَذْرِ[1177] قُلُوبِ الرِّجالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ، وحَدَّثَنا عن رَفْعِها قالَ: يَنامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الأمانَةُ مِن قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أثَرُها مِثْلَ أثَرِ الوَكْتِ[1178]، ثُمَّ يَنامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ، فَيَبْقَى أثَرُها مِثْلَ المَجْلِ[1179]، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ علَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ [1180]، فَتَراهُ مُنْتَبِرًا [1181] وليسَ فيه شَيءٌ، فيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبايَعُونَ، فلا يَكادُ أحَدٌ يُؤَدِّي الأمانَةَ، فيُقالُ: إنَّ في بَنِي فُلانٍ رَجُلًا أمِينًا، ويُقالُ لِلرَّجُلِ: ما أعْقَلَهُ! وما أظْرَفَهُ! وما أجْلَدَهُ! وما في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ .ولقَدْ أتَى عَلَيَّ زَمانٌ وما أُبالِي أيَّكُمْ بايَعْتُ؛ لَئِنْ كانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الإسْلامُ، وإنْ كانَ نَصْرانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ ساعِيهِ، فأمَّا اليَومَ فَما كُنْتُ أُبايِعُ إلَّا فُلانًا وفُلانًا".[1182]

[1173] أخرجه مسلم 195

[1174] يُنظَر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي 3/ 72، المفاتيح في شرح المصابيح للمظهري 5125 /، فتح الباري لابن حجر 11/ 453

[1175] أخرجه البخاري 1438، ومسلم 1023 واللفظ له

[1176] يُنظَر: شرح صحيح البخاري لابن بطال 4556 /، إكمال المعلم للقاضي عياض 3/ 550، شرح أبي داود للعيني 4366 /، الكوكب الوهاج محمد الأمين الهرري 12/ 91 .

[1177] الجَذرُ: الأصلُ مِن كلِّ شَيءٍ. يُنظَر: إكمال المعْلم بفوائد مسلم للقاضي عياض 448/1

[1178] الوَكْتُ: أثَرُ الشَّيءِ اليسيرُ، ومنه: بُسرٌ مُوكِتٌ، بكسرِ الكافِ: إذا بدا فيه شيءٌ من الإرطابِ .يُنظَر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي 1/ 380

[1179] المَجْلُ: هو التنفُّطُ الذي يصيرُ في اليدِ من العَمَلِ بفأسٍ أو نحوِها، ويصيرُ كالقُبَّةِ فيه ماءٌ قليلٌ. يُنظَر :شرح النووي على مسلم 2/169

[1180] نَفِط: أي: صار منتَفِطًا، يقالُ: انتفَط الجُرحُ: إذا وَرِم وامتلأَ ماءً. يُنظَر: فتح الباري لابن حجر 13/39

[1181] مُنتبِرًا: مرتفِعًا .يُنظَر: شرح النووي على مسلم 2/169

[1182] أخرجه البخاري6497 ، ومسلم 143 واللفظ له

وَقَد حَمَلَ البعضُ الأمانةَ هُنَا عَلَى ظاهِرِ مَعْنَاهَا الّتي هِيَ العُهُودُ، وَحَمَلَها البَعضُ على الإيمانِ، والحقيقةُ أنَّه لا اختلافَ بَينَ مَن حَمَل الأمانةَ على ظاهِرِ معناها التي هي العهودُ، وبَينَ مَن حَملها على الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ الحقيقيَّ مُستَلزِمٌ للأمانةِ التي هي العهودُ، وكذلك الأمانةُ مُستلزِمةٌ له؛ لأنَّ العهودَ شامِلةٌ لِما بَيْنَ العبادِ وبَيْنَ ربِّهم، ولِما يجري بينهم، والحديثُ وإن كان ظاهِرًا في معنى الأمانةِ التي هي العَهدُ؛ فإنَّ حُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه إنَّما ساقَهُ لبيانِ فَقدِ الأمانةِ من الأمَّةِ، وَرَفْعِهَا عَنْهُم، فقَولُه: "ويُصبِحُ النَّاسُ يَتبايعون ... إلخ"، وقولُه: "وما أُبالي أيَّكُم بايَعتُ ... إلخ"، وقولُه: "فما كنتُ لأبايِعَ إلَّا فلانًا وفلانًا"، كُلُّ هذا ظاهِرٌ في معناها الحقيقيّ، لكِنَّه لا يَنْفي شُمُولَه للعَهدِ الّذي بَينَ العبادِ وبَينَ ربِّهم، فيكونُ الخِلافُ في هذا لفْظِيًّا، والحاصِلُ أنَّ الأمانةَ هي كُلُّ العهودِ التي بَينَ العبادِ وبَينَ رَبِّهم وفيما بَينَهم، فدخل فيها الإيمانُ دُخولًا أوَّليًّا؛ ولذلك قال في الأَخِيرِ: "وما في قَلبِهِ مِثقالُ حَبَّةٍ من خردَلٍ من إيمانٍ"؛ إشارةً إلى فَقْدِهَا كُلِّيَّةً[1183].

وهذا الحديثُ يُصَوِّرُ انتزاعَ الأمانةِ من القُلوبِ الخائنةِ تَصويرًا مُحرِجًا؛ فهي كذِكرياتِ الخَيرِ في النُّفوسِ الشِّرِّيرةِ، تمُرُّ بها وليست منها، وقد تترُكُ مِن مَرِّها أثَرًا لاذِعًا، بَيْدَ أنَّها لا تُحيي ضميرًا مات، وأصبح صاحِبُه يَزِنُ النَّاسَ على أساسِ أثَرَتِه وشَهوتِه، غيرَ مُكتَرِثٍ بكُفرٍ أو إيمانٍ[1184] !

- وعن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه قال: "بينَما النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مَجلِسٍ يُحَدِّثُ القَومَ، جاءَه أعرابيٌّ فقال: مَتى السَّاعةُ؟ فمَضَى رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُحَدِّثُ، فقال بَعضُ القَومِ: سَمِعَ ما قال فكَرِهَ ما قال، وقال بَعضُهم: بل لم يَسمَعْ، حَتَّى إذا قَضَى حَديثَه، قال أينَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعةِ؟ قال: ها أنا يا رَسولَ اللهِ، قال: فإذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانتَظِرِ السَّاعةَ. قال: كيفَ إضاعَتُها؟ قال: إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غَيرِ أهلِه فانتَظِرِ السَّاعةَ" [1185]، وهنا قد بَيَّنَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ ضياعَ الأمانةِ من علاماتِ اقترابِ قيامِ السَّاعةِ، ثمَّ بَيَّنَ كَيفيَّةَ ضَيَاعِهَا، فَقَالَ: "إذا وُسِّد الأمرُ إلى غيرِ أهلِه"؛ لأنَّ الأئِمَّةَ قد ائتمَنَهُم اللهُ على عِبَادِه، وفَرَضَ عَلَيْهِم النَّصيحةَ لهم، فينبغي لهم توليةُ أهلِ الدِّينِ والأمانةِ والكفايةِ للنَّظرِ في أمرِ الأُمَّةِ، فإذا قَلَّدوا غيرَ الأَكْفَّاءِ، واسْتَعْمَلُوا من يُعِينُهُم على الجَورِ والظُّلمِ، فقد ضَيَّعُوا الأمانةَ التي فرَضَهَا اللهُ عليهم، بل ضَيَّعُوا أكبَرَ الأمانةِ بإسنادِ الأمرِ إلى غيرِ أهلِه، وهذا التَّضْييعُ للأمانةِ مِن عَلاماتِ السَّاعةِ، وإنَّما دَلَّ ذلك على دُنُوِّ السَّاعةِ؛ لأنَّ تَغَيُّرَ الوُلَاةِ وفَسَادَهُم مُسْتَلْزِمٌ لتغيُّرِ الرَّعيَّةِ، فيكونُ ذلك تضييعًا للأمانةِ في المجتَمَعِ كُلِّه، وهذا إنَّما يَكُونُ عِنْدَ غَلَبَةِ الجَهلِ، وَضَعْفِ أهلِ الحَقِّ عَنِ القِيامِ به، وكُلُّ هذا مِن رَفعِ العِلمِ الذي هوَ مِن عَلاماتِ اقترابِ السَّاعةِ. [1186]

ت. الأمانةُ في أقْوالِ السَّلف والعُلَماء:

- عَن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنه قال: „لا تَغُرَّنِي صلاةُ امرئٍ ولا صَومُه، مَن شَاءَ صَامَ، ومَن شَاءَ صَلَّى، لا دِينَ لِمنْ لا أمانَةَ لَه". [1187]

- وعَن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه أيضًا قال: „مَنْ أدَّى الأمانةَ وكَفَّ عن أَعْرَاضِ المُسلِمين فهو الرَّجُلُ". [1188]

[1183] يُنظَر: فتح الباري لابن حجر 13/ 44، البحر المحيط الثجاج للإتيوبي 107 /4

[1184] يُنظَر: خلق المسلم للغزالي ص: 47

[1185] أخرجه البخاري 59

[1186] يُنظَر شرح صحيح البخاري لابن بطال 1/ 138، شرح المشكاة للطيبي.3437 /11

[1187] أخرجه من طرق: الخرائطي في مكارم الأخلاق 162 واللفظ له، والبيهقي في السنن الكبرى 13069

[1188] ذكره ابن عبد البر في الاستذكار 563 /8

- وقال عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ: „القتلُ في سَبِيلِ اللهِ كفَّارةُ كُلِّ ذنبٍ إلَّا الأمانةَ، وإنَّ الأمانةَ الصَّلاةُ والزَّكاةُ، والغُسلُ مِن الجنابةِ، والكَيلُ والميزانُ، والحديثُ، وأعظَمُ مِن ذلك الودائِعُ".[1189]

- وعن سُفيانَ بنِ عُيَينةَ قال: „مَن لَم يَكُنْ لَه رأسُ مالٍ فَلِيَتَّخِذْ الأمانةَ رأسَ مالِه". [1190]

- وقال الشَّافعيُّ: „آلاتُ الرِّياسةِ خَمسٌ: صِدقُ اللَّهجةِ، وكِتمانُ السِّرِّ، والوفاءُ بالعَهدِ، وابتداءُ النَّصيحةِ، وأداءُ الأمانةِ". [1191]

- قال السَّرِيُّ بنُ المُغَلَّسِ: „أربَعٌ مَن أُعطِيَهنَّ فَقَد أُعْطِيَ خَيْرَ الدُّنيا والآخِرةِ: صِدقُ الحَديثِ، وحِفظُ الأمانةِ، وعَفافُ الطُّعمةِ، وحُسنُ الخليقةِ". [1192]

- قال القاضي حُسَينٌ المَهديُّ: „إذا طلَبْتَ الخيرَ فاطْلُبْه في أداءِ الأمانةِ، وإذا عمِلْتَ البِرَّ فتحَرَّ فيه أداءَ الأمانةِ، وإذا أردتَ العِزَّ فالزَمْ في سُلوكِكَ الأمانةَ، وأدِّ في مسئوليَّتِك الأمانةَ، وتعامَلْ مع أهلِ الصِّدقِ والأمانةِ تَفُزْ بفَضلِ اللهِ ورِضوانِه" [1193]، وقال أيضًا: „مَن حافَظ على الأمانةِ سَلِمَ، ومَن أدَّاها غَنِمَ". [1194]

المطلب الثَّالث: مَجَالَات وصُوَر الأَمَانَة

هُناكَ مَجالاتٌ وَصُوَرٌ تَدْخُلُ فيها الأمانةُ، وهي كثيرةٌ؛ فالأمانةُ بابٌ واسِعٌ جِدًّا، وأصلُها أمرانِ:

- **الأمر الأول:** أمانةٌ في حقوقِ اللهِ.
- **الأمر الثاني:** أمانةٌ في حقوقِ البَشَرِ.

وفيما يلي تفصيلُ ما يدخُلُ تحتَها مِن صُوَرٍ:

1. الأَمَانَةُ فيما افْتَرَضَهُ اللهُ عَلَى عِبَادِه:

فَمِنَ الأمانةِ: ما ائتَمَنه اللهُ على عِبادِه مِن العِباداتِ التي كلَّفهم بها [1195]، فَيُؤَدِّي فُروضَ الدِّينِ كَما يَنْبَغي، وَيُحافِظُ على الصَلاةِ والصِّيامِ وَبِرِّ الوَالدَيْنِ، وَغَيرِ ذلكَ مِنَ الفروضِ التي يَجِبُ عَلَيْنا أن نؤَدِّيَها بِأَمَانَةِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

2. الأَمَانَةُ فِي الأَمْوَالِ:

قال ابنُ عُثَيمين: "الأمانةُ الماليَّةُ، هي: الودائِعُ التي تُعطَى للإنسانِ ليحفَظَها لِأَهْلِهَا، وكذلك الأموالُ الأُخرى التي تكونُ بِيَدِ الإنسانِ لمصلحتِه، أو مصلحتِه ومصلحةِ مالِكِها، وذلك أنَّ الأمانةَ التي بيَدِ الإنسانِ إمَّا أن تكونَ لمصلحةِ مالِكِها، أو لمصلحةِ مَن هي بيَدِه، أو لمصلحتِهما جميعًا؛ فأمَّا الأوَّلُ: فالوديعةُ تجعَلُها عندَ شَخْصٍ، تقولُ له على سبيل المثال: هذه ساعتي عندَك، احفَظْها لي، أو هذه دراهِمُ، احفَظْها لي، وما أشبَهَ ذلك، فهذه الوديعةُ بَقِيَتْ عند المُودَعِ لمصلحةِ مالِكِها، وأمَّا التي

[1189] أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق 160 واللفظ له، وأبو نُعيم في حلية الأولياء 201/4، والبيهقي في شعب الإيمان 5266 .حسَّنه الألباني في صحيح الترغيب 1763، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في عمدة التفسير 1/527

[1190] رواه البيهقي في شعب الإيمان 5284

[1191] رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق 413/51

[1192] يُنظَر: لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص: 249

[1193] صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال 1/ 515

[1194] المصدر السابق.

[1195] يُنظَر: شرح رياض الصالحين لابن عثيمين 462/2

لمصلحةِ مَن هي بيَدِه فالعاريَّةُ: يُعْطيكَ شَخصٌ شيئًا يُعيرُكَ إيَّاه من إناءٍ أو فِراشٍ أو ساعةٍ أو سيَّارةٍ، فهذه بَقِيَت في يَدِك لمصلحتِك، وأمَّا التي لمصلحةِ مالِكِها ومَن هي بيَدِه: فالعَينُ المُستأجَرةُ، فهذه مصلحتُها للجميعِ؛ استأجَرْتَ مني سيارةً وأخَذْتَها، فأنت تنتَفِعُ بها في قضاءِ حاجتِك، وأنا أنتَفِعُ بالأجرةِ، وكذلك البيتُ والدُّكَّانُ وما أشبَهَ ذلك، كلُّ هذه من الأماناتِ".[1196]

وَمِنَ الْأَمَانَةِ: حِفْظُ الْوَدَائِعِ، وَأَدَاؤُهَا لِأَصْحَابِهَا عِنْدَمَا يَطْلُبُونَهَا كَمَا هِيَ، مِثْلَمَا فَعَلَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، إِذْ كَانَتْ قُرَيْشٌ تَسْتَودِعُه أَمْوالَها ثِقَةً بِهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ مَعَ إِصْرَارِهَا عَلَى الكُفرِ؛ لذا يَذْكُرُ أَصْحَابُ السِّيَرِ أَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَرَجَ لِلْهِجْرَةِ أَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَتَخَلَّفَ بِمَكَّةَ حَتَّى يُؤَدِّيَ عَنْهُ الوَدَائِعَ الَّتِي كَانَتْ عَنْدَه للنَّاسِ، „وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس بمكَّةَ أحدٌ عِندَه شيءٌ يَخْشَى عليه إلَّا وَضَعَهُ عِنْدَهُ؛ لِمَا يُعْلَمُ مِنْ صِدْقِه وَأَمَانَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".[1197]

3. الأَمَانَةُ في حِفْظِ الجَوارِحِ:

عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْجَوَارِحَ وَالْأَعْضَاءَ كُلُّهَا أَمَانَاتٌ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَحَافِظَ عَلَيْهَا، وَلَا يَسْتَعْمِلُهَا فِيمَا يُغْضِبُ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ-، فَالْعَيْنُ أَمَانَةٌ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَغُضَّهَا عَنِ الْحَرَامِ، وَالْأُذُنُ أَمَانَةٌ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُجَنِّبَهَا سَمَاعَ الْحَرَامِ، وَالْيَدُ أَمَانَةٌ، وَالرِّجْلُ أَمَانَةٌ... وَهَكَذَا.

وتكونُ الأمانةُ فيها بكَفِّها عن العُدوانِ على أصحابِ الحُقوقِ، وبحِفظِها عَن مَعْصِيَةِ اللهِ فيها، وبتَوجِيهِها للقيامِ بِما يَجِبُ فيها مِن أعمالٍ.

"ومِن مِعاني الأمانةِ أن تَنْظُرَ إلى حَواسِّكَ الَّتي أنْعَمَ اللهُ بِها عَلَيْكَ، وإلى المواهِبِ التي خَصَّكَ بِها، فتُدرِكَ أنَّها ودائِعُ اللهِ الغاليةُ عندَك، فيَجِبُ أن تُسَخِّرَها في قُرُباتِه، وأن تستخدِمَها في مَرضاتِه".[1198]

4. الأَمَانَةُ فِي الْكَلَامِ:

وَمِنَ الْأَمَانَةِ أَنْ يَلْتَزِمَ الْمُسْلِمُ بِالْكَلِمَةِ الْجَادَّةِ، فَيَعْرِفُ قَدْرَ الْكَلِمَةِ وَأَهَمِّيَّتَهَا؛ فَالْكَلِمَةُ قَدْ تُدْخِلُ صَاحِبَهَا الْجَنَّةَ وَتَجْعَلُهُ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم: 24].

وَقَدْ يَنْطِقُ الْإِنْسَانُ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ فَيَصِيرُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَضَرَبَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ- مَثَلًا لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ بِالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ، فَقَالَ: {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} [إبراهيم: 26].

وَقَدْ بَيَّنَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهَمِّيَّةَ الْكَلِمَةِ وَأَثَرَهَا، فَقَالَ: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ". [1199]

وَالْمُسْلِمُ يَتَخَيَّرُ الْكَلَامَ الطَّيِّبَ وَيَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ -سُبْحَانَهُ-، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ". [1200]

[1196] شرح رياض الصالحين 2/462

[1197] السيرة النبوية لابن هشام 11 /3

[1198] يُنظَر: خلق المسلم للغزالي ص: 44

[1199] صحيح البخاري 6478، أخرجه مسلم (2988) مختصراً بنحوه.

[1200] أخرجه البخاري (2989)، ومسلم (1009) مطولاً.

5. الأَمَانَةُ فِي الْأَعْرَاضِ:

وَهِيَ الْعِفَّةُ عَمَّا لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ حَقٌّ مِنْهَا، وَكَفُّ النَّفْسِ وَاللِّسَانِ عَنْ نَيْلِ شَيْءٍ مِنْهَا بِسُوءٍ، كَالْقَذْفِ وَالْغِيبَةِ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "الْمُسْلِمُ منْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ". [1201]

6. الأَمَانَةُ فِي الأجسامِ والأرواحِ:

وهي كَفُّ النَّفسِ واليَدِ عن التَّعرُّضِ لها بِسُوءٍ؛ مِنْ قَتلٍ أو جَرحٍ، أو ضُرٍّ أو أذًى.

7. الأَمَانَةُ فِي المعارِفِ والعلومِ:

بِتَأْدِيَتِهَا دُونَ تَحْرِيفٍ أو تَغْيِيرٍ، وَبِنِسْبَةِ الأَقْوَالِ إِلَى أَصْحَابِهَا، وَعَدَمِ انْتِحَالِ مَا لغَيرِه مِنْهَا.

8. الأَمَانَةُ فِي الوِلايةِ:

وَذَلِكَ بِتأْدِيةِ الحُقوقِ إِلَى أَهْلِهَا، وإِسْنَادُ الأَعْمَالِ إِلَى مُستَحِقِّيهَا الأَكْفَّاءِ لَهَا، وَحِفْظُ أَمْوالِ النَّاسِ وأَجْسَامِهِم وَأَروَاحِهِم وَعُقُولِهِم، وَصِيَانَتُهَا مِمَّا يُؤْذِيهَا أو يَضُرُّ بِهَا، وَحِفْظُ الدِّينِ الَّذِي ارْتَضَاه اللهُ لِعِبادِه مِنْ أَنْ يَنَالَهُ أحَدٌ بسُوءٍ، وحِفظُ أسرارِ الدَّولةِ وكُل ما ينبغي كِتمانُه مِنْ أن يُسَرَّبَ إِلَى الأعْدَاءِ، إِلَى غيرِ ذلك من أمورٍ.[1202]

وقال ابنُ تيميَّةَ: "واجتِماعُ القُوَّةِ والأمانةِ في النَّاسِ قليلٌ، فالواجِبُ في كُلِّ ولايةٍ الأصلَحُ بحسَبِها، فإذا تعيَّن رجلانِ أحَدُهما أعظَمُ أمانةً، والآخَرُ أعظَمُ قُوَّةً؛ قُدِّم أنفَعُهما لتلك الولايةِ وأقَلُّهما ضررًا فيها، فيُقَدَّمُ في إمارةِ الحُروبِ الرَّجُلُ القَويُّ الشُّجاعُ وإن كان فيه فُجورٌ على الرَّجُلِ الضَّعيفِ العاجِزِ وإن كان أمينًا، كَما سُئِل الإمَامُ أَحْمَدُ عن الرَّجُلينِ يَكُونَانِ أَمِيرَيْنِ في الغَزْوِ، أحَدُهما قويٌّ فاجِرٌ، والآخَرُ صالحٌ ضعيفٌ، مع أيِّهما يُغْزَى؟ فقال: أمَّا الفاجِرُ القَويُّ فقُوَّتُه للمُسلِمين، وفجورُه على نَفسِه، وأمَّا الصَّالحُ الضَّعيفُ فصلاحُه لنَفسِه، وضَعفُه على المُسلِمين، فيُغْزَى مع القَويِّ الفاجِرِ، وقد قال النَّبيُّ :"إنَّ اللهَ يؤيِّدُ هذا الدِّينَ بالرَّجُلِ الفاجِرِ".[1203] وإنْ لم يكُنْ فاجِرًا كان أَولى بإمارةِ الحَربِ ممَّن هو أصلَحُ منه في الدِّينِ، إذا لم يَسُدَّ مسَدَّه".[1204]

9. الأَمَانَةُ فِي الشَّهادةِ:

وذلك بتحَمُّلِها بحسَبِ ما هي عليه في الواقِعِ، وبأدائِها دونَ تحريفٍ أو تغييرٍ، أو زيادةٍ أو نقصانٍ.

10. الأَمَانَةُ فِي القضاءِ:

وتكونُ الأمانةُ في القضاءِ بإصدارِ الأحكامِ وَفْقَ أحكامِ العَدلِ التي اسْتُؤْمِنَ القَاضِي عَلَيْهَا، وفُوِّضَ الأمرُ فيهَا إِلَيْهِ.

11. الأَمَانَةُ فِي الكِتَابةِ:

وتَكون الأمانةُ في الكتابةِ بأن تكونَ على وَفْقِ ما يُمليه مُمليها، وعلى وَفْقِ الأَصْلِ الَّذِي تُنْسَخُ عَنْهُ، فلا يكونُ فيها تَغْيِيرٌ ولا تَبْدِيلٌ، ولا زيادةٌ ولا نقصٌ، وإذا كانت مِن إنشَاءِ كاتِبِها فالأمانةُ فيها أن تكونَ مضامينُها خاليةً من الكَذِبِ والتَّلاعُبِ بالحقائِقِ، إلى غيرِ ذلك.

12. الأَمَانَةُ فِي الأسرارِ التي يُستأمَنُ الإنسانُ على حِفْظِها وعَدَمُ إفْشَائِهَا:

[1201] مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، مسلم 40،41، 42، بخاري10، 11، ترمذي 2504، نسائي 5014

[1202] من رقم 3 إلى 6، منقول من كتاب الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن الميداني .1/595

[1203] أخرجه البخاري 3062، ومسلم 111 واللفظ له، من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[1204] يُنظَر: مجموع الفتاوى لابن تيمية .255 -28/254

وتكونُ الأمانةُ فيها بكِتمانِها [1205]، فالمسْلِمُ يَحْفَظُ سِرَّ أَخِيهِ وِلا يَخُونُه، وقد قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ: "إذا حدَّثَ الرَّجُلَ بِالحَدِيثِ ثُمَّ الْتفَتَ فَهِيَ أَمَانَة". [1206]

"وَمِنَ الأماناتِ ما يكونُ بَينَ الرَّجُلِ وصاحِبِه من الأمورِ الخاصَّةِ التي لا يُحِبُّ أن يَطَّلِعَ عليها أحَدٌ؛ فإنَّه لا يجوزُ لصاحبِه أن يخبِرَ بها، ومِن ذلك أيضًا ما يكونُ بَينَ الرَّجُلِ وبَينَ زَوجتِه من الأشياءِ الخاصَّةِ؛ فإنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنزِلةً عِندَ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثمَّ يَرُوحُ يَنشُرُ سِرَّها، وَيَتَحَدَّثُ بِمَا جَرَى بَيْنَهُمَا". [1207]

13. الأَمَانَةُ في الرِّسالاتِ:

وتكونُ الأمانةُ فيها بتبليغِها إلى أهلِها تامَّةً غيرَ مَنْقُوصَةٍ ولا مُزَادٍ عليها، وعلى وَفْقِ رغبةِ مُحمِّلِها، سواءٌ أكانت رسالةً لفظيَّةً أم كتابيَّةً أم عَمَليَّةً.

14. الأَمَانَةُ في النُّصحِ والمشورةِ:

ومِن صُوَرِ الأمانةِ أن تنصَحَ مَن استَشارَكَ، وأن تَصْدُقَ مَن وَثِق برأيِك؛ فإذا عرَض عليك أحَدٌ من النَّاسِ موضوعًا مُعَيَّنًا، وطلَب منك الرَّأيَ والمشورةَ والنَّصيحةَ، فاعلَمْ أنَّ إبداءَ رأيِكَ له أمانةٌ، فإذا أشَرْتَ عليه بغيرِ الرَّأيِ الصَّحيحِ فذلك خيانةٌ، وقد قال الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم :"المُستَشارُ مُؤتَمَنٌ".

15. الأَمَانَةُ في تربيةِ الأولادِ:

„إِنَّ تربيةَ الأولادِ وتهذيبَهم وتعليمَهم أمورَ الدُّنيا والدِّينِ أمانةٌ يجِبُ أداؤُها؛ فتوجيهُ الأولادِ للمعالي، وتربيتُهم على الفضيلةِ، وتعويدُهم على البِرِّ والأخلاقِ الحميدةِ وطَلَبِ الرِّزقِ من وجوهِ الحلالِ، وتعليمُهم الصَّلاةَ والصِّيامَ والزَّكاةَ وتَحْبيبَهُم الدَّعوة مِن سنٍ مُبَكِّر: أمانةٌ؛ فاللهُ جَلَّ وعلا يقولُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: 6]، وقال ابنُ عُمَرَ لرجُلٍ: "أَدِّبِ ابنَك؛ فإنَّك مسؤولٌ عن ولَدِك: ماذا أدَّبْتَه؟ وماذا عَلَّمْتَه؟ وإنَّه مسؤولٌ عن بِرِّك وَطَوَاعِيَتِه لك". [1208]

16. أمانةُ كُلِّ إنسانٍ في عَمَلِه:

"فالتَّاجِرُ يَجِبُ أن يكونَ أمينًا، والزَّارعُ فيما يزرَعُ ويحصُدُ يجبُ أن يكونَ أمينًا، والصَّانِعُ فيما يصنَعُ ويُبدِعُ يجِبُ أن يكونَ أمينًا، والعالِمُ فيما يعلَمُ ويُنْتِجُ يجِبُ أن يكونَ أمينًا، والموظَّفُ فيما يَعمَلُه ويؤَدِّيه يجِبُ أن يكونَ أمينًا". [1209]

لَا تَأْخُذْ إِجَازَةَ مَرَضِيَّةً من عَمَلِكَ وَأَنْتَ غَيْرُ مَرِيضٍ، فَتَجْمَعَ بَيْنَ مَعْصِيَتَيْنِ: الْكَذِبِ وَأَكْلِ الْمَالِ الْحَرَامِ، وَوَاللَّهِ إِنَّ الْخَصْمَ مِنْ رَاتِبِكَ مَعَ تَقْوَى اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ خَيْرٌ لَكَ وَأَبْقَى.

وَلَا تَتَصَدَّرْ لِلدَّعْوَةِ إِنْ كُنْتَ سَتَتَكَاسَلُ وَتَأْخُذُ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ بِالْبَاطِلِ وَتُسَوِّفُ الْمَشَارِيعَ وتماطِلُ وَتُفْشِلُهَا وَلَا تَعْتَنِي بِمَنْ أَسْلَمَ فَيَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ وَأَنْتَ السَّبَبُ.

17. الأمانة في الوظيفة:

[1205] من رقم 7 إلى 10، منقول من كتاب الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن الميداني 1/595

[1206] أخرجه أبو داود (4868)، والترمذي (1959)، وأحمد(14514)

[1207] يُنظَر: شرح رياض الصالحين لابن عثيمين 464/2

[1208] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى 3/ 120

[1209] صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال للقاضي حسين 1/ 516

الواجبُ على المَوَظَّفِ أَنْ يَتَّقِي اللهَ، وَيُؤَدِّي الأمانةَ بصدقٍ وإخلاصٍ وعنايةٍ، وحفظٍ للوقتِ حتى تَبْرَأَ الذمَّةُ، وَيَطِيبُ الكسبُ وَيُرْضِي رَبَّهُ وَيَنْصَحُ لدولته في هذا الأمر، أو للشركة التي هو فيها، يرجو ثواب الله ويخشى عقابه ويعمل بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء:58].

ومنْ خصالِ أهلِ النفاقِ الخيانةُ فِي الأَمَانَاتِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عليه وسلَّم: "آيَةُ المنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخلَفَ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ"[1210]، فلا يجوز للمسلم أن يتشبه بأهل النفاق، بل يجب عليه أن يبتعد عن صفاتهم، وأن يؤدي عمله بغاية العناية حتى وإن تساهل رئيسه، ولم يأمره بشيْءٍ، فلا يقعد عن العمل أو يتساهل فيه، بل ينبغي أن يجتهد حتى يكون أخيرَ من رئيسه في أداء العمل والنصح في الأمانة وحتى يكون قدوة حسنة لغيره.[1211]

18. الأمانة في البيع:

المُسلمُ لا يَغِشُّ، ولا يَغْدِرُ، وَلا يَخُونُ أحدًا، وَقَدْ مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَجُلٍ يَبِيعُ طَعَامًا فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي كُومَةِ الطَّعَامِ، فَوَجَدَهُ مَبْلُولًا، فَقَالَ لَهُ: "مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ (الْمَطَرُ) يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي"[1212].

- ونستخلص مما سبق أن كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْئُولٌ عَنْ شَيْءٍ يُعْتَبَرُ أَمَانَةً فِي عُنُقِهِ، سَوَاءٌ أَكَانَ حَاكِمًا أَمْ مَوَظَفًا أَوْ دَاعِيًا أَوْ مُعَلِّمًا أَوْ وَالِدًا أَو ابْنًا، وَسَوَاءٌ أَكَانَ رَجُلًا أَمْ امْرَأَةً، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا „زَوْجِهَا" وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ". [1213]

المطلب الرَّابع: أَدَاءُ الْأَمَانَاتِ فِي الْوِلَايَاتِ

- **الأَمَانَةُ في الدَّعوة إلى الله:**

الأَمَانَةُ فِي الْعَمَلِ الدَّعَوِيِّ وَالْخَيْرِيِّ لَيْسَ فَقَطْ فِي أَنْ يَكُونَ أَحَدُنَا أَمِينًا فِي نَفْسِهِ وَإِنَّمَا عَلَيْهِ مُتَابَعَةُ مَنْ يَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّاتِهِم.

لِمَاذَا الْمُتَابَعَةُ؟ أَلَيْسَ الْأَصْلُ هُوَ الثِّقَةُ؟

نَعَمْ وَلَكِنَّ قِلَّةُ الْمُتَابَعَةِ هِيَ الَّتِي أَدَّتْ إِلَى إِخْفَاقَاتٍ كَبِيرَةٍ فِي الْعَمَلِ الدَّعَوِيِّ فِي الْمَرَاكِزِ الدَّعَوِيَّةِ مِنْ ضَيَاعِ الْأَمْوَالِ أَوْ تَوْظِيفِ شَخْصٍ غَيْرِ مُنَاسِبٍ، وقد تَكَلَّمَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرَّةً فَقَالَ: "أَرَأَيْتُمْ إِذَا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ خَيْرَ منْ أَعْلَمَ، ثُمَّ أَمَرْتُهُ بِالْعَدْلِ، أَكُنتُ قَضَيْتُ مَا عَلَيَّ؟" قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: "لَا، حَتَّى أَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ: أَعَمِلَ بِمَا أَمَرْتُهُ أَمْ لَا؟".

فَبِدُونِ مُتَابَعَةٍ قَدْ تُفْسِدُ أَفْضَلَ دَاعِيَةٍ وَيَشْعُرُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ مُشْكِلَةٌ إِذَا اسْتَغَلَّ مَوَارِدَ الدَّعْوَةِ أَوْ أُعْطِيَ رَاتِبًا وَلَكِنَّه عَمِلَ لِمَصْلَحَةِ جَهَةٍ ثَانِيَةٍ أَوْ لِنَفْسِهِ، فَلَرُبَّمَا شُعُورُ الذَّنْبِ وَالْحَرَامِ يَقِلُّ عِندَ الْبَعْضِ مَعَ مَرُورِ الزَّمَنِ وَكَثْرَةِ الْمُلْهِيَاتِ وَانْشِغَالِ النَّاسِ بِجَمْعِ حُطَامِ الدُّنْيَا وَكَثْرَةِ مَطَالِبِ الْأَهْلِ وَالزَّوْجَةِ وَقِلَّةِ الْقَنَاعَةِ وَضَعْفِ التَّرْبِيَةِ الْإِيمَانِيَّةِ قَدْ يُؤَدِّي إلى خيانَةِ الأمانة.

وعن أبي حُمَيدٍ عبد الرحمن بن سعد السَّاعِدِي رضي الله عنه، قَالَ: "اسْتَعْمَلَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ رَجُلًا مِنَ

[1210] أخرجه البخاري (33)، ومسلم(59)

[1211] مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز: 5/39

[1212] صحيح مسلم (102).

[1213] أخرجه البخاري (2554)، ومسلم(1829)، وأبو داود (2928)، والترمذي (1705)، والنسائي في (السنن الكبرى) (9173)، وأحمد (5167) واللفظ له.

الأسْدِ، يُقَالُ له: ابنُ اللُّتْبِيَّةِ، قالَ عَمْرٌو: وَابنُ أَبِي عُمَرَ، علَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قالَ :هذا لَكُمْ، وَهذا لِي، أُهْدِيَ لِي، قالَ: فَقَامَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ علَى المِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عليه، وَقالَ: ما بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ، فيَقولُ: هذا لَكُمْ، وَهذا أُهْدِيَ لِي، أَفلا قَعَدَ في بَيْتِ أَبِيهِ، أَوْ في بَيْتِ أُمِّهِ، حتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إلَيْهِ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لا يَنَالُ أَحَدٌ مِنكُم منها شيئًا إلَّا جَاءَ به يومَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ علَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ له رُغَاءٌ[1214]، أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَيْعِرُ[1215]، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إبْطَيْهِ، ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ، هلْ بَلَّغْتُ؟ مَرَّتَيْنِ". [1216]

- ولأَهَمِيَّةِ الْوَلَايَاتِ لَنَا نَحْنُ مَعشَرَ الدُّعَاةِ وَدِدْتُ أَنْ أَتَطَرَّقَ إِلَى هَذَا الْمَوْضُوعِ بِتَفَاصِيلَ أَكْثَرَ لِحُدُوثِ الكَثِيرِ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي هَذَا الْجَانِبِ بَيْنَ الدُّعَاةِ وَضَيَاعُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَمَانَاتِ، وَقَدْ دَلَّتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَنَّ الوِلَايَةَ أَمَانَةٌ يَجِبُ أَدَاؤُهَا فِي مَوَاضِعَ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ وَمِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْإِمَارَةِ: "يا أَبَا ذَرٍّ، إنَّكَ ضَعِيفٌ، وإنَّهَا أَمَانَةُ، وإنَّهَا يومَ القِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إلَّا مَن أَخَذَهَا بحَقِّهَا، وَأَدَّى الذي عليه فِيهَا. "[1217].

- وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَن مَعْقِلُ بن يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم قَالَ: "مَا مِنْ رَاعٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهَا إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ"[1218].

- والنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ وَتَسَلَّمَ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ مِنْ بَنِي شَيْبَةَ طَلَبَهَا مِنْهُ الْعَبَّاسُ لِيَجْمَعَ لَهُ بَيْنَ سِقَايَةِ الْحَاجِّ وَسِدَانَةِ الْبَيْتِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} {النساء: 58}. فَدَفَعَ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ إِلَى بَنِي شَيْبَةَ، إِذْ يَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ أَنْ يُوَلِّيَ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ أَصْلَحَ مَنْ يَجِدُهُ لِذَلِكَ الْعَمَلِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم: "مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَوَلَّى رَجُلًا وَهُوَ يَجِدُ مَنْ هُوَ أَصْلَحُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ".

إِذْ وَجَبَ عَلَى وَلِّي الأَمْرِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلْوِلَايَاتِ مِنْ الْأُمَرَاءِ وَالْقُضَاةِ، وَأُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ وَمُقَدِّمِي الْعَسَاكِرِ الصِّغَارِ وَالْكِبَارِ، وَوُلَاةِ الْأَمْوَالِ مِنْ الْوُزَرَاءِ وَالْكُتَّابِ وَالسُّعَاةِ عَلَى الْخَرَاجِ وَالصَّدَقَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَمْوَالِ الَّتِي لِلْمُسْلِمِينَ.

وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ أَنْ يَسْتَنِيبَ وَيَسْتَعْمِلَ أَصْلَحَ مَنْ يَجِدُهُ؛ وَيَنْتَهِي ذَلِكَ إلَى أَئِمَّةِ الصَّلَاةِ وَالْمُؤَذِّنِينَ وَالْمُقْرِئِينَ وَالْمُعَلِّمِينَ وَأُمَرَاءِ الْحَاجِّ وَالْبَرَدِ وَالْعُيُونِ الَّذِينَ هُمْ الْقُصَّادُ وَخُزَّانِ الْأَمْوَالِ وَحُرَّاسِ الْحُصُونِ وَالْحَدَّادِينَ الَّذِينَ هُمْ الْبَوَّابُونَ عَلَى الْحُصُونِ وَالْمَدَائِنِ وَنُقَبَاءِ الْعَسَاكِرِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ وَعَرَفَاءِ الْقَبَائِلِ وَالْأَسْوَاقِ وَرُؤَسَاءِ الْقُرَى الَّذِينَ هُمْ الدَّهَاقِينُ.

وَهَكَذَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِيمَا تَحْتَ يَدِهِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ أَصْلَحَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَا يُقَدِّمُ الرَّجُلَ لِكَوْنِهِ طَلَبَ الْوِلَايَةَ أَوْ سَبَقَ فِي الطَّلَبِ؛ بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِلْمَنْعِ؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "دَخَلْتُ علَى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ أَنَا وَرَجُلَانِ مِن بَنِي عَمِّي، فَقالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: يا رَسولَ اللهِ، أَمِّرْنَا علَى بَعْضِ ما وَلَّاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقالَ الآخَرُ مِثْلَ ذلكَ، فَقالَ: إنَّا وَاللَّهِ لا نُوَلِّي علَى هذا العَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ، وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عليه". [1219]

[1214] الرغاء: صوت الإبل. والخوار: صوت البقر. وتيعر: تصيح وصوتها اليعار. النهاية 2/87 و240 و297.

[1215] تيعر: أي: تَصِيح، وَاليُعَارُ: صَوْتُ الغَنَمِ.

[1216] أخرجه البخاري (7174)، ومسلم (1832)

[1217] أخرجه مسلم (1825)

[1218] أخرجه البخاري (7150)، ومسلم (142) واللفظ له

[1219] أخرجه البخاري (7149)، ومسلم (1733)

وَقَالَ أَيْضًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم: "مَنْ طَلَبَ الْقَضَاءَ وَاسْتَعَانَ عَلَيْهِ وُكِّلَ إِلَيْهِ وَمَنْ لَمْ يَطْلُبْ الْقَضَاءَ وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَيْهِ؛ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ". [1220] فَإِنْ عَدَلَ عَنْ الْأَحَقِّ الْأَصْلَحِ إلَى غَيْرِهِ لِأَجْلِ قَرَابَةٍ بَيْنَهُمَا أَوْ وَلَاءِ عَتَاقَةٍ أَوْ صَدَاقَةٍ أَوْ مُرَافَقَةٍ فِي بَلَدٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ طَرِيقَةٍ أَوْ جِنْسٍ: كَالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ وَالتُّرْكِيَّةِ وَالرُّومِيَّةِ، أَوْ لِرِشْوَةٍ يَأْخُذُهَا مِنْهُ مِنْ مَالٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ؛ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ أَوْ لِضِغْنٍ فِي قَلْبِهِ عَلَى الْأَحَقِّ أَوْ عَدَاوَةٍ بَيْنَهُمَا، فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَدَخَلَ فِيمَا نُهِيَ عَنْهُ فِي قَوْله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة الأنفال: 27]، ثُمَّ قَالَ: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [سورة الأنفال: 28]، فَإِنَّ الرَّجُلَ لِحُبِّهِ لِوَلَدِهِ أَوْ لِعَتِيقِهِ قَدْ يُؤْثِرُهُ فِي بَعْضِ الْوِلَايَاتِ أَوْ يُعْطِيهِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ؛ فَيَكُونُ قَدْ خَانَ أَمَانَتَهُ؛ وَكَذَلِكَ قَدْ يُؤْثِرُهُ زِيَادَةً فِي مَالِهِ أَوْ حِفْظِهِ؛ بِأَخْذِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ أَوْ مُحَابَاةِ مَنْ يُدَاهِنُهُ فِي بَعْضِ الْوِلَايَاتِ، فَيَكُونُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَانَ أَمَانَتَهُ.

ثُمَّ إنَّ الْمُؤَدِّيَ لِلْأَمَانَةِ مَعَ مُخَالَفَةِ هَوَاهُ يُثَبِّتُهُ اللَّهُ فَيَحْفَظُهُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالْمُطِيعُ لِهَوَاهُ يُعَاقِبُهُ اللَّهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ فَيُذِلُّ أَهْلَهُ وَيُذْهِبُ مَالَهُ.

وَفِي ذَلِكَ الْحِكَايَةُ الْمَشْهُورَةُ، أَنَّ بَعْضَ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ سَأَلَ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ أَنْ يُحَدِّثَهُ عَمَّا أَدْرَكَ فَقَالَ: أَدْرَكْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ؛ قِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْفَرَتْ أَفْوَاهَ بَنِيك مِنْ هَذَا الْمَالِ وَتَرَكْتَهُمْ فُقَرَاءَ لَا شَيْءَ لَهُمْ- وَكَانَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ- فَقَالَ: أَدْخِلُوهُمْ عَلَيَّ؛ فَأَدْخَلُوهُمْ؛ وَهُمْ بِضْعَةَ عَشَرَ ذَكَرًا لَيْسَ فِيهِمْ بَالِغٌ، فَلَمَّا رَآهُمْ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا بَنِيَّ وَاَللَّهِ مَا مَنَعْتُكُمْ حَقًّا هُوَ لَكُمْ وَلَمْ أَكُنْ بِالَّذِي آخُذُ أَمْوَالَ النَّاسِ فَأَدْفَعَهَا إلَيْكُمْ؛ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إمَّا صَالِحٌ فَاَللَّهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ؛ وَإِمَّا غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا أُخَلِّفُ لَهُ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، قُومُوا عَنِّي، قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ بَنِيهِ حَمَلَ عَلَى مِائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ يَعْنِي أَعْطَاهَا لَمِنْ يَغْزُو عَلَيْهَا، قُلْت: هَذَا وَقَدْ كَانَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَقْصَى الْمَشْرِقِ بِلَادِ التُّرْكِ إلَى أَقْصَى الْمَغْرِبِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهَا وَمِنْ جَزَائِرِ قُبْرُصَ وَثُغُورِ الشَّامِ وَالْعَوَاصِمِ كطرسوس وَنَحْوِهَا إلَى أَقْصَى الْيَمَنِ، وَإِنَّمَا أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ مِنْ تَرِكَتِهِ شَيْئًا يَسِيرًا يُقَالُ: أَقَلُّ مِنْ عِشْرِينَ دِرْهَمًا- قَالَ وَحَضَرْتُ بَعْضَ الْخُلَفَاءِ وَقَدْ اقْتَسَمَ تَرِكَتَهُ بَنُوهُ فَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سِتّمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَهُمْ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ- أَيْ يَسْأَلُهُمْ بِكَفِّهِ- وَفِي هَذَا الْبَابِ مِنْ الْحِكَايَاتِ وَالْوَقَائِعِ الْمُشَاهَدَةِ فِي الزَّمَانِ وَالْمَسْمُوعَةِ عَمَّا قَبْلَهُ؛ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِكُلِّ ذِي لُبٍّ.

وَدَخَلَ أَبُو مُسْلِمٍ الخولاني عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْك أَيُّهَا الْأَجِيرُ؛ فَقَالُوا: قُلْ السَّلَامُ عَلَيْك أَيُّهَا الْأَمِيرُ، فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْك أَيُّهَا الْأَجِيرُ؛ فَقَالُوا: قُلْ: السَّلَامُ عَلَيْك أَيُّهَا الْأَمِيرُ، فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْك أَيُّهَا الْأَجِيرُ؛ فَقَالُوا قُلْ السَّلَامُ عَلَيْك أَيُّهَا الْأَمِيرُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْك أَيُّهَا الْأَجِيرُ؛ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: دَعُوا أَبَا مُسْلِمٍ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ. فَقَالَ: إنَّمَا أَنْتَ أَجِيرٌ اسْتَأْجَرَك رَبُّ هَذِهِ الْغَنَمِ لِرِعَايَتِهَا؛ فَإِنْ أَنْتَ هَنَّأْت جَرْبَاهَا وَدَاوَيْت مَرْضَاهَا وَحَبَسْت أُولَاهَا عَلَى أُخْرَاهَا؛ وَفَاك سَيِّدُهَا أَجْرَك وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَهْنَأْ جَرْبَاهَا وَلَمْ تُدَاوِ مَرْضَاهَا؛ وَلَمْ تَحْبِسْ أُولَاهَا عَلَى أُخْرَاهَا عَاقَبَك سَيِّدُهَا.

وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي الِاعْتِبَارِ؛ فَإِنَّ الْخَلْقَ عِبَادُ اللَّهِ وَالْوُلَاةُ نُوَّابُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَهُمْ وُكَلَاءُ الْعِبَادِ عَلَى نُفُوسِهِمْ؛ بِمَنْزِلَةِ أَحَدِ الشَّرِيكَيْنِ مَعَ الْآخَرِ؛ فَفِيهِمْ مَعْنَى الْوِلَايَةِ وَالْوِكَالَةِ، ثُمَّ الْوَلِيُّ وَالْوَكِيلُ متى اسْتَنَابَ فِي أُمُورِهِ رَجُلًا وَتَرَكَ مَنْ هُوَ أَصْلَحَ لِلتِّجَارَةِ أَوْ الْعَقَارِ مِنْهُ وَبَاعَ السِّلْعَةَ بِثَمَنٍ وَهُوَ يَجِدُ مَنْ يَشْتَرِيهَا بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ الثَّمَنِ، فَقَدْ خَانَ صَاحِبَهُ لَا سِيَّمَا إنْ كَانَ بَيْنَ مَنْ حَابَاهُ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ أَوْ قَرَابَةٌ فَإِنَّ صَاحِبَهُ يُبْغِضُهُ وَيَذُمُّهُ وَيَرَى أَنَّهُ قَدْ خَانَهُ وَدَاهَنَ قَرِيبَهُ أَوْ صَدِيقَهُ، إذَا عُرِفَ هَذَا فَلَيْسَ

[1220] مسند الإمام أحمد (12889)، ص: 220/ج3

عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ إِلَّا أَصْلَحَ الْمَوْجُودِ وَقَدْ لَا يَكُونُ فِي مَوْجُودِهِ مَنْ هُوَ أَصْلَحُ لِتِلْكَ الْوِلَايَةِ فَيَخْتَارُ الْأَمْثَلَ فَالْأَمْثَلَ فِي كُلِّ مَنْصِبٍ بِحَسْبِهِ وَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ الِاجْتِهَادِ التَّامِّ وَأَخْذِهِ لِلْوِلَايَةِ بِحَقِّهَا فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ وَقَامَ بِالْوَاجِبِ فِي هَذَا وَصَارَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ أَئِمَّةِ الْعَدْلِ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنْ اخْتَلَّ بَعْضُ الْأُمُورِ بِسَبَبٍ مِنْ غَيْرِهِ إِذَا لَمْ يُمْكِنْ إِلَّا ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦]، وَيَقُولُ: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦]، وَقَالَ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء: ٨٤]، وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة: ١٠٥]، فَمَنْ أَدَّى الْوَاجِبَ الْمَقْدُورَ عَلَيْهِ فَقَدْ اهْتَدَى، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ" [1221]، لَكِنْ إِنْ كَانَ مِنْهُ عَجْزٌ بِلَا حَاجَةٍ إِلَيْهِ أَوْ خِيَانَةٌ عُوقِبَ عَلَى ذَلِكَ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ الْأَصْلَحَ فِي كُلِّ مَنْصِبٍ فَإِنَّ الْوِلَايَةَ لَهَا رُكْنَانِ: الْقُوَّةُ وَالْأَمَانَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: ٢٦]، وَقَالَ صَاحِبُ مِصْرَ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} [يوسف: ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ جِبْرِيلَ: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [التكوير: ١٩ – ٢١].

وَالْقُوَّةُ فِي كُلِّ وِلَايَةٍ بِحَسْبِهَا؛ فَالْقُوَّةُ فِي إِمَارَةِ الْحَرْبِ تَرْجِعُ إِلَى شَجَاعَةِ الْقَلْبِ وَإِلَى الْخِبْرَةِ بِالْحُرُوبِ وَالْمُخَادَعَةِ فِيهَا؛ فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ وَ تَرْجِعُ أيضًا إِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى أَنْوَاعِ الْقِتَالِ: مِنْ رَمْيٍ وَطَعْنٍ وَضَرْبٍ وَرُكُوبٍ وَكَرٍّ وَفَرٍّ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: ٦٠]، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَن عَلِمَ الرَّمْيَ، ثُمَّ تَرَكَهُ، فليسَ مِنَّا، أوْ قدْ عَصَى" [1222].

وَالْقُوَّةُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ تَرْجِعُ إِلَى الْعِلْمِ بِالْعَدْلِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى تَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ.

وَالْأَمَانَةُ تَرْجِعُ إِلَى خَشْيَةِ اللَّهِ وَأَلَّا يَشْتَرِيَ بِآيَاتِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا وَتَرْكِ خَشْيَةِ النَّاسِ؛ وَهَذِهِ الْخِصَالُ الثَّلَاثُ الَّتِي أَخَذَهَا اللَّهُ عَلَى كُلِّ مَنْ حَكَمَ عَلَى النَّاسِ؛ فِي قَوْله تعالى: {فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: 44]، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم: "القُضاةُ ثلاثةٌ، اثنانِ في النَّارِ، وواحدٌ في الجنَّةِ، رجلٌ علِمَ الحقَّ فقضَى بهِ فَهوَ في الجنَّةِ، ورجلٌ قضَى للنَّاسِ علَى جَهْلٍ فَهوَ في النَّارِ، ورجلٌ جارَ في الحُكْمِ فَهوَ في النَّارِ، لقُلنا: إنَّ القاضيَ إذا اجتَهَدَ فَهوَ في الجنَّةِ" [1223].

وَالْقَاضِي اسْمٌ لِكُلِّ مَنْ قَضَى بَيْنَ اثْنَيْنِ وَحَكَمَ بَيْنَهُمَا سَوَاءٌ كَانَ خَلِيفَةً أَوْ سُلْطَانًا أَوْ نَائِبًا أَوْ وَالِيًا، أَوْ كَانَ مَنْصُوبًا لِيَقْضِيَ بِالشَّرْعِ أَوْ نَائِبًا لَهُ حَتَّى مَنْ يَحْكُمُ بَيْنَ الصِّبْيَانِ فِي الْخُطُوطِ إذَا تَخَايَرُوا، هَكَذَا ذَكَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ ظَاهِرٌ. [1224]

• اجْتِمَاعُ الْقُوَّةِ وَالْأَمَانَةِ:

إنَّ اجْتِمَاعَ الْقُوَّةِ وَالْأَمَانَةِ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ؛ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَشْكُو إلَيْك جَلَدَ الْفَاجِرِ وَعَجْزَ الثِّقَةِ.

[1221] أخرجه البخاري (7288)، ومسلم(1337)

[1222] صحيح مُسْلِمٌ (1919)

[1223] أخرجه أبو داود (3573)، والترمذي (1322)، وابن ماجه (2315) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (5922)

[1224] مجموع الفتاوى - المجلد 28 - الصفحة 254 - جامع الكتب الإسلامية.

وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعْمِلُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى الْحَرْبِ مُنْذُ أَسْلَمَ وَقَالَ: "إنَّ خَالِدَ سَيْفٌ سَلَّهُ اللَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ"، مَعَ أَنَّهُ أَحْيَانًا كَانَ يَعْمَلُ مَا يُنْكِرُهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إنَّهُ مَرَّةً قَامَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ إلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ إنِّي أَبْرَأُ إلَيْك مِمَّا فَعَلَ خَالِدٌ"، لَمَّا أَرْسَلَهُ إلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ بِنَوْعِ شُبْهَةٍ وَلَمْ يَكُنْ يَجُوزُ ذَلِكَ وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِ بَعْضُ مَنْ مَعَهُ مِنْ الصَّحَابَةِ حَتَّى وَدَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَمِنَ أَمْوَالَهُمْ؛ وَمَعَ هَذَا فَمَا زَالَ يُقَدِّمُهُ فِي إمَارَةِ الْحَرْبِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَصْلَحَ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ غَيْرِهِ، وَفَعَلَ مَا فَعَلَ بِنَوْعِ تَأْوِيلٍ.[1225]

وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَصْلَحَ مِنْهُ فِي الْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ؛ وَمَعَ هَذَا قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ إنِّي أَرَاك ضَعِيفًا وَإِنِّي أُحِبُّ لَك مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي: لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ". [1226]

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى أَبَا ذَرٍّ عَنْ الْإِمَارَةِ وَالْوِلَايَةِ لِأَنَّهُ رَآهُ ضَعِيفًا مَعَ أَنَّهُ قَدْ رَوَى: "مَا أَظَلَّتْ الْخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتْ الْغَبْرَاءُ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ".

- وَلقد أَمَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّةً عَمْرَو بْنَ العاص فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ - اسْتِعْطَافًا لِأَقَارِبِهِ الَّذِينَ بَعَثَهُ إلَيْهِمْ - عَلَى مَنْ هُمْ أَفْضَلُ مِنْهُ.

- وَأَمَّرَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ؛ لِأَجْلِ طَلَبِ ثَأْرِ أَبِيهِ.

- كَذَلِكَ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ لِمَصْلَحَةٍ رَاجِحَةٍ مَعَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ يَكُونُ مَعَ الْأَمِيرِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ.

وَهَكَذَا أَبُو بَكْرٍ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا زَالَ يَسْتَعْمِلُ خَالِدًا فِي حَرْبِ أَهْلِ الرِّدَّةِ وَفِي فُتُوحِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَبَدَتْ مِنْهُ هَفَوَاتٌ كَانَ لَهُ فِيهَا تَأْوِيلٌ وَقَدْ ذُكِرَ لَهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَهُ فِيهَا هَوًى فَلَمْ يَعْزِلْهُ مِنْ أَجْلِهَا؛ بَلْ عَاتَبَهُ عَلَيْهَا؛ لِرُجْحَانِ الْمَصْلَحَةِ عَلَى الْمَفْسَدَةِ فِي بَقَائِهِ وَأَنَّ غَيْرَهُ لَمْ يَكُنْ يَقُومُ مَقَامَهُ؛ لِأَنَّ الْمُتَوَلِّيَ الْكَبِيرَ إذَا كَانَ خُلُقُهُ يَمِيلُ إلَى اللِّينِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خُلُقُ نَائِبِهِ يَمِيلُ إلَى الشِّدَّةِ؛ وَإِذَا كَانَ خُلُقُهُ يَمِيلُ إلَى الشِّدَّةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خُلُقُ نَائِبِهِ يَمِيلُ إلَى اللِّينِ؛ لِيَعْتَدِلَ الْأَمْرُ.[1227]

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إلَى الدُّعَاةِ، فَالأَمَانَاتُ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا: الحِفَاظُ عَلَى مَوَارِدِ الدَّعْوَةِ وَوَظَائِفِهَا وَتَوْرِيثُ الخبراتِ والمرَاكِزِ بِأَمَانَةٍ.

المطلب الخَامِس: نماذِجُ في الأمانةِ

أ. الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القُدوةُ في الأمانةِ:

أشهَرُ وأعظَمُ من اتَّصَف بالأمانةِ هو نبيُّنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قَبلَ البعثةِ وبَعدَها.

أمَّا أمانتُه قبلَ البَعثةِ: فقد عُرِف بَينَ قومِه قَبلَ بَعثتِه بالأمينِ ولُقِّبَ به.

قال محمود سامي البارودِيُّ:

ولقَّبتْه قُرَيشٌ بالأمينِ على صِدقِ الأمانةِ والإيفاءِ بالذِّمَمِ[1228]

وقال أحمد شوقي:

بِسِوى الأمانةِ في الصِّبا والصِّدقِ لم

[1225] مجموع الفتاوى - المجلد 28 - الصفحة 254 - جامع الكتب الإسلامية.

[1226] صحيح مسلم (1826)

[1227] مجموع الفتاوى - المجلد 28 - الصفحة 254 - جامع الكتب الإسلامية.

[1228] كشف الغمة ص: 9

يَعرِفْه أهلُ الصِّدقِ والأُمَناءُ [1229]

وقال أيضًا:

يا جاهِلين على الهادي ودَعوتِه
هل تجهَلون مكانَ الصَّادِقِ العَلَمِ
لقَّبْتُموه أمينَ القومِ في صِغَرٍ
وما الأمينُ على قولٍ بمُتَّهَمِ [1230]

ولقد كان من أسبابِ زواجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخديجةَ رَضِيَ اللهُ عنها شُهرتُه بالأمانةِ؛ فقد تاجَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مالِ خديجةَ قَبلَ البعثةِ، ورأت منه الصِّدقَ والأمانةَ؛ يقولُ ابنُ الأثيرِ في هذا الصَّدَدِ: „فلمَّا بلغَها -أي: خديجةَ- عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صِدقُ الحديثِ، وَعِظَمُ الأمانةِ، وكرمُ الأخلاقِ؛ أَرْسَلَتْ إليه ليَخرُجَ في مالِها إلى الشَّامِ تاجِرًا" [1231]، ثمَّ تزوجَّها صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ ذلك.

وَأمَّا أمانتُه بَعدَ البَعثةِ:

فقد أدَّى الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الأمانةَ الكُبرى -التي تكفَّل بها، وهي الرِّسالةُ- أعظَمَ ما يكونُ الأداءُ، وَتَحَمَّلَ في سبيلِها أعظَمَ أنواعِ المشقَّةِ.[1232]

وقد شَهِدَتْ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمَّتُه بتبليغِه، وأدائِه الأمانةَ، وَاسْتَنْطَقَهُم بذلك في أعظَمِ المحافِلِ في خُطبتِه يومَ عَرَفةَ في حَجَّةِ الوداعِ، وقد كان هناك من أصحابِه نَحْوِ أربعين ألفًا أو أكثَرُ، فقد أخرج مسلمٌ في صحيحِه من حديثِ جَابِرِ بنِ عبدِ اللهِ -رَضِيَ اللهُ عنهما- الطَّويلِ، وفيه: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "وأنتم تُسأَلون عنِّي، فما أنتم قائِلون؟ قالوا: نَشهَدُ أنَّك قد بلَّغْتَ وأدَّيتَ ونصَحْتَ، فقال بإصبَعِه السَّبَّابةِ، يرفَعُها إلى السَّماءِ ويَنكُتُها إلى النَّاسِ: اللَّهُمَّ اشهَدْ، اللَّهُمَّ اشهَدْ، ثلاثَ مَرَّاتٍ".[1233]

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: "كان على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثوبانِ قِطْرِيَّانِ [1234] غليظانِ، فكان إذا قعَد فعَرِق ثَقُلا عليه، فقَدِم بَزٌّ من الشَّامِ لفلانٍ اليهوديِّ، فقُلتُ: لو بعَثْتَ إليه، فاشتَرَيتَ منه ثوبينِ إلى الميسَرةِ، فأرسَلَ إليه، فقال: قد عَلِمْتُ ما يريدُ، إنما يريدُ أن يذهَبَ بمالي أو دراهمي! فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كَذَبَ! قد عَلِمَ أنِّي مِن أتقاهم للهِ، وآداهم للأمانةِ". [1235]

أي: أشَدُّهم أداءً „للأمانةِ"، وأقضاهم للدَّينِ على ما يقتَضيه الدَّينُ.[1236]

وقد شَهِد له بالأمانةِ حتَّى أعداؤه، ومن الأمثلةِ على ذلك: ما جاء في حِوارِ أبي سفيانَ -وذلك قبلَ إسلامِه- وهِرَقْلَ، حيثُ قال هِرَقْلُ: „سألتُك: ماذا يأمُرُكم؟ فزعَمْتَ أنَّه أمَرَكم بالصَّلاةِ والصِّدقِ، والعَفافِ والوفاءِ بالعهدِ وأداءِ الأمانةِ، قال: وهذه صِفةُ نَبيٍّ" [1237].

[1229] الأعمال الكاملة لأحمد شوقي 35 /1

[1230] ديوان أحمد شوقي 197 /1

[1231] الكامل 2/26، ويُنظَر: السيرة النبوية لابن هشام 1/139

[1232] يُنظَر: الأخلاق الإسلامية لحسن المرسي ص: 173

[1233] أخرجه مسلم 1218

[1234] القَطْرُ -بفتحِ القافِ وكسرِها-: نوعٌ من البُرودِ فيه حُمرةٌ، والقَطرُ: مَوضِعٌ بَينَ عُمانَ وسِيفِ البحرِ، وسِيفِ السَّاحِلِ، فنُسِبَ الثَّوبُ إليه. يُنظَر: المفاتيح في شرح المصابيح للمظهري 24 /5

[1235] أخرجه الترمذي 1213 واللفظ له، والنسائي 4628، وأحمد25141

[1236] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري 2789 /7

[1237] أخرجه البخاري 2681، ومسلم 1773

وفي موضعٍ آخَرَ يقولُ هِرَقْلُ: „وسألتُك: هل يَغدِرُ؟ فزعَمْتَ أنْ لا، وكذلك الرُّسُلُ لا يَغْدِرون". [1238]

ب. نماذج مِنْ السلفِ الصَّالِحِ:

1. ذَاتَ يَوْمٍ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- مَعَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ يَسِيرُونَ فِي الصَّحْرَاءِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَجَلَسُوا يَأْكُلُونَ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ شَابٌّ صَغِيرٌ يَرْعَى غَنَمًا، وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَدَعَاهُ ابْنُ عُمَرَ إِلَى الطَّعَامِ، وَقَالَ لَهُ: "هَلُمَّ يَا رَاعِي، هَلُمَّ فَأَصِبْ مِنْ هَذِهِ السُّفْرَةِ، فَقَالَ الرَّاعِي: إِنِّي صَائِمٌ، فَتَعَجَّبَ ابْنُ عُمَرَ، وَقَالَ لَهُ: أَتَصُومُ فِي مِثْلِ هٰذَا الْيَوْمِ الشَّدِيدِ حَرُّهُ، وَأَنْتَ فِي هٰذِهِ الْجِبَالِ تَرْعَى هٰذِهِ الْغَنَمَ؟ ثُمَّ أَرَادَ ابْنُ عُمَرَ أَنْ يَخْتَبِرَ أَمَانَتَهُ وَتَقْوَاهُ، فَقَالَ لَهُ: فَهَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنَا شَاةً مِنْ غَنَمِكَ هٰذِهِ فَنُعْطِيَكَ ثَمَنَهَا، وَنُعْطِيَكَ مِنْ لَحْمِهَا فَتَفْطُرَ عَلَيْهَا؟ فَقَالَ الْغُلَامُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي، إِنَّهَا غَنَمُ سَيِّدِي، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: قُلْ لَهُ: أَكَلَهَا الذِّئْبُ، فَغَضِبَ الرَّاعِي، وَابْتَعَدَ عَنْهُ وَهُوَ يَرْفَعُ إِصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَيَقُولُ: فَأَيْنَ اللهُ؟! فَظَلَّ ابْنُ عُمَرَ يُرَدِّدُ مَقُولَةَ الرَّاعِي: فَأَيْنَ اللهُ؟! وَيَبْكِي، وَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، بَعَثَ إِلَى مَوْلَى الرَّاعِي فَاشْتَرَى مِنْهُ الْغَنَمَ وَالرَّاعِي، ثُمَّ أَعْتَقَ الرَّاعِي وأعطاه الغَنَمَ!" [1239]، وَهَكَذَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُرَاقِبًا لِلَّهِ عَلَى الدَّوَامِ، فَلَا يُقْدِمُ عَلَى مَعْصِيَةٍ، وَلَا يَرْتَكِبُ ذَنْبًا؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ مَعَهُ، يَسْمَعُهُ وَيَرَاهُ.

2. جَاءَ رَجُلٌ مِنَ ٱلْبَادِيَةِ ونَزَلَ بِٱلْبَصْرَةِ لِلْعِلْمِ وَٱلتِّجَارَةِ، وَٱسْتَأْجَرَ غُرْفَةً لِيَسْكُنَ فِيهَا، وَكَانَ يَخْرُجُ لِلْعَمَلِ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلْفَجْرِ، ثم يَذْهَبُ إِلَى دُرُوسِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلظُّهْرِ، وكَانَ يَقْسِمُ أَجْرَ عَمَلِهِ إِلَى ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ: ثُلُثٌ لِأَبِيهِ، وَثُلُثٌ لِصَاحِبِ ٱلْغُرْفَةِ، وَثُلُثٌ لِنَفَقَتِهِ، مَرَّتْ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ إِيجَارَ سَكَنِهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ ٱلْغُرْفَةِ: أَمَامَكَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ لِدَفْعِ ٱلْإِيجَارِ وَإِلَّا سَجَنْتُكَ؛ لِأَنِّي مَا بَنَيْتُ هَذَا ٱلْبَيْتَ وَقْفًا لِلْفُقَرَاءِ، فَخَرَجَ يَبْحَثُ عَنْ عَمَلٍ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْأَوَّلِ فَلَمْ يَجِدْ، فَذَهَبَ إِلَى دِيوَانِ ٱلْخَرَاجِ يَسْأَلُهُمْ عَنْ عَمَلٍ فَلَمْ يَجِدْ، إِلَى أَنْ جَاءَ ٱلْيَوْمُ ٱلثَّالِثُ يَوْمُ سَجْنِهِ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ حَامِلًا ٱلدُّنْيَا فَوْقَ رَأْسِهِ، يَقُولُ: أَخَذْتُ فِي ٱلْمَشْيِ إِلَى أَنْ وَجَدْتُ نَفْسِي فِي أَطْرَافِ بَغْدَادَ، فَوَجَدْتُ بَيْتًا مُتَهَالِكًا فَقُلْتُ: أَسْتَرِيحُ، وَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى ٱلْبَابِ فَإِذَا ٱلْبَابُ مَفْتُوحٌ، وَإِذَا بِشَيْخٍ مُسِنٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى سَرِيرٍ، فَنَادَى عَلَيَّ وَقَالَ لِي: ٱسْمَعْ يَا بُنَيَّ: وَوَاللَّهِ مَا سَاقَكَ إِلَيَّ إِلَّا ٱللَّهُ، وَأَنَا ٱلسَّاعَةَ أَمُوتُ، وَأَشْتَهِي عِنَبًا، فَقُلْتُ لَهُ: أَبْشِرْ، وَوَاللَّهِ لَتَأْكُلَنَّ ٱلْيَوْمَ عِنَبًا، فَٱنْطَلَقْتُ إِلَى ٱلسُّوقِ وَذَهَبْتُ إِلَى بَائِعٍ يَبِيعُ ٱلْعِنَبَ وَسَأَلْتُهُ: بِكَمْ هَذَا ٱلْعِنَبُ؟ فَقَالَ: بِدِرْهَمٍ، فَقُلْتُ لَهُ: خُذْ ثَوْبِي هَذَا رَهْنًا عِنْدَكَ إِلَى أَنْ آتِيَكَ بِٱلْمَالِ، وَأَخَذْتُ ٱلْعِنَبَ وَأَنَا أَجْرِي بِهِ حَتَّى أَلْحَقَ الرَّجُلَ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ الْعِنَبَ، مَعَ أَنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَبَعْدَ أَنْ أَكَلَ الْعِنَبَ قَالَ لِي: ٱسْمَعْ يَا بُنَيَّ: هَذَا الرُّكْنُ فِي هَذِهِ الْغُرْفَةِ ٱحْفُرْ تَحْتَهُ وَستَجِدُ شَيْئًا، أَخَذْتُ فِي الْحَفْرِ إِلَى أَنْ وَجَدْتُ جَرَّةً مَلِيئَةً بِالْمَالِ وَالذَّهَبِ، وَقَدَّمْتُهَا لَهُ، فَسَكَبَهَا فِي مَلَابِسِي ثُمَّ قَالَ لِي: هِيَ لَكَ، لَكِنْ لِهَذَا الْمَالِ قَصَّةٌ يَا بُنَيَّ، كُنْتُ أَنَا وَأَخِي تَاجِرَيْنِ كَبِيرَيْنِ نَذْهَبُ لِلْهِنْدِ وَالسِّنْدِ، وَنُتَاجِرُ فِي الْحَرِيرِ وَالصُّوفِ، وَكُنَّا نَخَافُ مِنَ اللُّصُوصِ وَقُطَّاعِ الطُّرُقِ، وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ نَزَلْنَا مَنْزِلًا فَقُلْتُ لِأَخِي: هَذَا الْمَنْزِلُ يُرْتَادُهُ قُطَّاعُ الطُّرُقِ، وَأَنَا أَخْشَى عَلَى مَالِي وَمَالِكَ، أَعْطِنِي مَالَكَ كِي أُخْفِيَهِ مَعَ مَالِي فِي مَكَانٍ آمِنٍ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَيْكَ، فَإِنْ أَصْبَحْنَا وَسَلِمْنَا أَخَذْنَا مَالَنَا وَمَشَيْنَا، يَقُولُ: وَمَا كِدْتُ أَدْخُلُ فِي النَّوْمِ مَعَ أَخِي إِلَّا وَجَاءَ اللُّصُوصُ وَقَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا، وَنَهَبُوا مَا نَهَبُوا، وَمَا أَفَقْتُ إِلَّا مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَأَخَذْتُ أَبْحَثُ عَنْ أَخِي فَلَمْ أَجِدْهُ لَا بَيْنَ الْأَحْيَاءِ وَلَا بَيْنَ الْأَمْوَاتِ، فَدَخَلْتُ بَغْدَادَ وَبَنَيْتُ هَذَا الْبَيْتَ، وَأَخْفَيْتُ هَذَا الْمَالَ الَّذِي هُوَ مَالُ أَخِي مُنْذُ عِشْرِينَ عَامًا، فَإِنْ مِتُّ فَهُوَ حَلَالٌ لَكَ، ثُمَّ نَطَقَ الرَّجُلُ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَمَاتَ، يَقُولُ: فَأَخْفَيْتُ الْمَالَ وَخَرَجْتُ عَلَى مَنْ يُعِينُنِي عَلَى دَفْنِ هَذَا الشَّيْخِ، وَبَعْدَ دَفْنِهِ عُدْتُ لِآخُذَ جَرَّةَ الْمَالِ، فَبَعْدَ أَنْ كُنْتُ فَقِيرًا مُعْدَمًا أَصْبَحْتُ مِنْ أَثْرِيَاءِ بَغْدَادَ، ثم أَخَذْتُ الْمَالَ وَذَهَبْتُ إِلَى بَائِعِ الْخُضْرَةِ وَأَعْطَيْتُهُ ثَمَنَ الْعِنَبِ وَأَعْطَانِي ثِيَابِي، ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ أَرْكَبَ مَرْكَبًا لِأَنْتَقِلَ إِلَى النَّاحِيَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ

[1238] أخرجه البخاري 2941

[1239] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 11/102، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة 7/469: إسنادُه صحيحٌ.

نَهْرِ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ، فَوَجَدْتُ مَرَاكِبَ كَثِيرَةً، لَكِنَّنِي وَجَدْتُ مَرْكَبًا صَاحِبُهُ يَبْدُو عَلَيْهِ الْفَقْرُ وَالْعَوَزُ، فَرَكِبْتُ مَعَهُ وَقَدْ أَحْزَنَنِي حَالُهُ، وَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُعْطِيَهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ الَّذِي مَعِي، فَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ فَقِيرًا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، فَقَدْ كُنْتُ تَاجِرًا أَذْهَبُ إِلَى الْهِنْدِ وَالسِّنْدِ، وَأُتَاجِرُ فِي الْحَرِيرِ وَالصُّوفِ، وَكَانَ لِي أَخٌ لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهِ قَدْ اتَّفَقَ مَعَ اللُّصُوصِ كَيْ يَقْتُلُونِي وَيَأْخُذُوا مَالِي، لَكِنَّ اللَّهَ نَجَّانِي، إِلَى أَنْ آلَ بِي الْمَآلُ إِلَى بَغْدَادَ.

يَقُولُ: فَاسْوَدَّتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنَيَّ مَرَّةً ثَانِيَةً، لَقَدْ أَصْبَحَتِ الْجَرَّةُ مِنْ نَصِيبِ صَاحِبِهَا، وَلَا بُدَّ لِلْمَالِ أَنْ يَعُودَ إِلَى صَاحِبِهِ، تَدَخَّلَ الشَّيْطَانُ وَقَالَ لِي: أَعْطِهِ بَعْضَهُ أَوْ نِصْفَهُ، إِلَى أَنْ تَوَقَّفْتُ وَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَقُلْتُ لَهُ: هَذَا الْمَالُ مَالُكَ، فَلَمْ يُصَدِّقِ الرَّجُلُ، وَحَكَيْتُ لَهُ مَا حَدَثَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَخِيهِ، وَأَنَّنِي قَدْ دَفَنْتُهُ مِنْ سَاعَةٍ فَقَطْ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ يَبْكِي وَيَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ لِسُوءِ ظَنِّهِ بِأَخِيهِ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُعْطِينِي شَيْئًا مِنْ هَذَا الْمَالِ فَأَبَيْتُ، لَكِنَّنِي طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَعْذُرَنِي فِي دِرْهَمِ الْعِنَبِ.

يَقُولُ: فَرَجَعْتُ إِلَى بَغْدَادَ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَقِيرًا مُعْدَمًا كَمَا خَرَجْتُ مِنْهَا مِنْ قَبْلُ، وَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ إِذْ بِالْعَسْكَرِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي دِيْوَانِ الْخَرَاجِ يُنَادُونَ عَلَيَّ وَيَقُولُونَ لِي: نَبْحَثُ عَنْكَ، فَقُلْتُ: سَيَسْجُنُونَنِي لِعَدَمِ دَفْعِي إِيجَارِ الْغُرْفَةِ، ثُمَّ قَالُوا لِي: لَقَدْ مَاتَ بِالْأَمْسِ أَحَدُ الْكُتَّابِ بِالدِّيْوَانِ وَنَبْحَثُ عَنْكَ كَيْ تَعْمَلَ بَدَلًا مِنْهُ، فَأَدْخَلُونِي عِنْدَهُمْ وَأَعْطَوْنِي مُرَتَّبَ شَهْرٍ، فَذَهَبْتُ إِلَى صَاحِبِ الدَّارِ وَأَعْطَيْتُهُ حَقَّهُ فِي الْإِيجَارِ إِلَى أَنْ أَصْبَحْتُ وَزِيرًا، إِنَّهُ الْعَالِمُ الْفَقِيهُ الْوَزِيرُ „ابْنُ هُبَيْرَةَ“، الْمَوْلُودُ سَنَةَ 449 هجرية، الْمَتُوفَى 560 هجرية.[1240]

قَالَ عَنْهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: خَرَجَ فِي جَنَازَتِهِ مَا لَمْ يُرَ فِي جَنَازَةِ غَيْرِهِ فِي عَصْرِهِ.

"وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ"، وسُبْحَانَ مُغِيْرِ الْأَحْوَالِ.

ت. نماذِجُ في الأمانةِ من الأُمَمِ الماضيةِ:

1. عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "اشترى رجلٌ مِن رجُلٍ عَقَارًا له، فوجَد الرَّجُلُ الذي اشترى العَقارَ في عَقارِه جَرَّةً فيها ذَهَبٌ، فقال له الذي اشتَرى العَقارَ: خُذْ ذهَبَك، إنَّما اشتريتُ منك الأرضَ، ولم أبْتَعْ منك الذَّهَبَ! فقال الذي شَرى الأرضَ: إنَّما بِعتُك الأرضَ وما فيها! فتَحاكما إلى رجُلٍ، فقال الذي تَحاكَما إليه: ألَكُما وَلَدٌ؟ فقال أحدُهما: لي غلامٌ، وقال الآخَرُ: لي جاريةٌ، قال: أنْكِحوا الغُلامَ الجاريةَ، وأنْفِقوا على أنفُسِكما منه، وتَصدَّقا".[1241]

فالرَّجُلُ الأوَّلُ اشترى عَقارًا من الرَّجُلِ الثَّاني، والعَقارُ هو الأرضُ وما يتَّصِلُ بها من البناءِ والأشجارِ، فلمَّا وجَد الذَّهبَ تورَّع عنه وعدَّه أمانةً، فرَدَّه إلى البائِعِ، لكِنَّ البائِعَ قال: "إنَّما بِعتُك الأرضَ وما فيها، ولَمَّا رأى القاضي „صِدقَ نيَّتِهما ونصيحةَ كلِّ واحدٍ منهما لصاحِبِه، راعى جانِبَ كُلٍّ منهما في ذلك"[1242]، فأمَرَهما أن يُزَوِّجا ابنَ هذا لابنةِ ذاك.

2. وعنه أيضًا، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ذكَر، أنَّ رَجُلًا مِن بَني إسرائيلَ سألَ بَعضَ بَني إسرائيلَ أنْ يُسَلِّفَه ألْفَ دينارٍ، قال: ائْتِني بشُهَداءَ أُشْهِدُهم، قال: كَفى باللهِ شَهيدًا، قال: ائْتِني بكَفيلٍ، قال: كَفى باللهِ كَفيلًا، قال: صَدَقتَ، فدَفَعَها إليه إلى أجَلٍ مُسمًّى، فخرَجَ في البَحرِ، فقَضى حاجَتَهُ، ثم التَمَسَ مَركَبًا يَقدَمُ عليه لِلأجَلِ الذي كان أجَّلَه، فلم يَجِدْ مَركَبًا، فأخَذَ خَشَبةً، فنَقَرَها، وأدخَلَ فيها ألْفَ دينارٍ وصَحيفةً معها إلى صاحِبِها، ثُمَّ زَجَّجَ [1243] مَوضِعَها، ثم أتى بها

[1240] هو يحيى بن محمَّد بن هُبَيرة، ويُكنى أبا المظفَّر، ويُلقَّب بعون الدِّين، وينعت بالوزير العادل. وُلِد في ربيع الآخر سَنَة تِسع وتسعين وأربعمائة بقرية بني أوقر، وهي قريةٌ مِن بغداد، وعُرِفت فيما بعدُ باسم الوزير ابن هبيرة؛ لأنَّه أقام فيها مسجدًا ومدرسةً على ما ذَكَر ياقوت في "معجم البلدان".

[1241] أخرجه البخاري 3472، ومسلم 1721 واللفظ له.

[1242] يُنظَر: لمعات التنقيح لعبد الحق بن سيف الدهلوي584 /5

[1243] زجَّج: أي: سَوَّى موضِعَ النَّقرِ وأصلَحَه؛ مِن: تزجيجِ الحواجِبِ، وهو حَذفُ زوائدِ الشَّعرِ. انظر: لسان العرب لابن منظور 2/287

البَحرَ، ثم قال: اللَّهمَّ إنَّكَ قد علِمتَ أنِّي استَلَفتُ مِن فُلانٍ ألْفَ دينارٍ، فسألَني كَفيلًا، قُلتُ: كَفى باللهِ كَفيلًا، فرَضيَ بكَ، وسألَني شَهيدًا، فقُلتُ: كَفى باللهِ شَهيدًا، فرَضيَ بكَ، وإنِّي قد جَهِدتُ [1244] أنْ أجِدَ مَركَبًا أبعَثُ إليه بالذي له، فلم أجِدْ مَركَبًا، وإنِّي استَودَعتُكها، فرَمى بها في البَحرِ حتى ولَجَتَ [1245] فيه، ثم انصَرَفَ يَنظُرُ وهو في ذلك يَطلُبُ مَركَبًا يَخرُجُ إلى بَلَدِه، فخَرَجَ الرَّجُلُ الذي كان أسلَفَه يَنظُرُ لَعلَّ مَركَبًا يَجيءُ بمالِهِ، فإذا بالخَشَبةِ التي فيها المالُ، فأخَذَها لِأهلِهِ حَطَبًا، فلمَّا كَسَرَها وجَدَ المالَ والصَّحيفةَ، ثم قَدِمَ الرَّجُلُ الذي كان تَسلَّفَ منه، فأتاه بألْفِ دينارٍ، وقال: واللهِ ما زلتُ جاهِدًا في طَلَبِ مَركَبٍ لِآتيكَ بمالِكَ، فما وَجَدتُ مَركَبًا قَبلَ الذي أتَيتُ فيه. قال: هل كُنتَ بعَثتَ إليَّ بشَيءٍ؟ قال: ألم أُخبِرْكَ أنِّي لم أجِدْ مَركَبًا قَبلَ هذا الذي جِئتُ فيه؟ قال: فإنَّ اللهَ قد أدَّى عنكَ الذي بعَثتَ به في الخَشَبةِ، فانصَرِفْ بألْفِكَ راشِدًا.[1246]

ففي هذا الحديثِ يظهَرُ أنَّ الرَّجُلينِ رَضِيَا باللهِ كَفيلًا بينهما وشَاهِدًا على الدَّينِ، وأنَّ المَدينَ اسْتَفْرَغَ جُهْدَهُ في الرُّجوعِ إلى بَلَدِه؛ ليَرُدَّ دَينَه الذي هو أمَانَةٌ عندَه، ثمَّ إنَّه لَمَّا ألقى المالَ في البحرِ واسْتَودَعَهُ اللهَ، تكفَّلَ اللهُ سُبحانَه به وَأَوْصَلَه إلى صَاحِبِ الدَّينِ، دُونَ أن يَعرِفَ المدينُ أنَّه قد وَصَلَه، ولَمَّا تَيَسَّرَ للمَدينِ الرُّجوعُ إلى بلَدِه ذهَبَ لِيَدْفَعَ الدَّينَ الذي عليه للدَّائِنِ، فكان الدَّائِنُ أيضًا أمينًا؛ حيثُ اعْتَرَفَ أنَّ مالَه قد وَصَلَ إليه وأقَرَّ به أمامَ المدينِ، وقال له: „فانصَرِفْ بالألفِ الدِّينارِ راشِدًا"، وهكذا ظهَرتْ أَمَانَتُهُمَا.[1247]

وفيه: أنَّ اللهَ تعالى مُتَكَفِّلٌ بِعَونِ من أَرَادَ أدَاءَ الأمانةِ، وأنَّ اللهَ يُجَازِي أَهْلَ الإرفاقِ بالمالِ بِحِفْظِهِ عليهم مَعَ أَجْرِ الآخِرةِ، كما حَفِظَه عَلَى المُسلِفِ.[1248]

المطلبُ السَّادِس: فَوَائِدُ وثَمَرَاتُ الْأَمَانَةِ[1249]

عِنْدَمَا يَلْتَزِمُ النَّاسُ بِالْأَمَانَةِ يَتَحَقَّقُ لَهُمُ الْخَيْرُ، وَيَعُمُّهُمُ الْحُبُّ، وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِحِفْظِهِمْ لِلْأَمَانَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [الْمَعَارِجِ: 32]، وَفِي الْآخِرَةِ يَفُوزُ الْأُمَنَاءُ بِرِضَا رَبِّهِمْ، وَبِجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ.

وَسَنَذْكُرُ فِي السُّطُورِ التَّالِيَةِ بَعْضَ ثَمَرَاتِ الْأَمَانَةِ، وَمِنْهَا:

1. **أَنَّهَا عَلَامَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ إِيمَانِ الْعَبْدِ**؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَه النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ".[1250]

وقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، والمسلمُ مَن سلِمَ النَّاسُ مِن لسانِه ويدِه والمجاهدُ مَن جاهَد نفسَه في طاعةِ اللهِ والمهاجرُ مَن هجَر الخطايا والذُّنوبَ".[1251]

[1244] الجُهدُ: بُلوغُك غايةَ الأمرِ الذي لا تألو على الجُهدِ فيه. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 3/133

[1245] الوُلوجُ: الدُّخولُ. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 2/399

[1246] أخرجه البخاريُّ مُعَلَّقًا بصيغةِ الجزمِ 3472 واللفظ له، ورواه موصولًا 2063 دونَ ذِكرِ لفظِه.

[1247] يُنظَر: الإفصاح عن معاني الصحاح لابن هبيرة 7/299- 301، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري للكوراني 5/ 10، منحة الباري بشرح صحيح البخاري لزكريا الأنصاري 48 /5

[1248] عمدة القاري شرح صحيح البخاري 99 /9

[1249] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، مَوْسُوعَةُ الأَخْلاقِ والسُلُوك.

[1250] أخرجه الترمذي (2627) باختلاف يسير، والنسائي (4995)، وأحمد (8918) واللفظ لها.

[1251] صحيح ابن حبان (4862)

2. **إِنَّ الْأَمَانَةَ وَحِفْظَهَا هِيَ سِرُّ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛** فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أربعٌ إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدُّنيا حفظُ أمانةٍ وصدقُ حديثٍ وحسنُ خُلقٍ وعِفَّةٌ في طُعمةٍ".[1252]

3. **إِنَّ حِفْظَ الْأَمَانَةِ وَعَدَمَ تَضْيِيعِهَا سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ نِيلِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛** فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَلْيَصْدُقْ حَدِيثَهُ إِذَا حَدَّثَ، وَلْيُؤَدِّ أَمَانَتَهُ إِذَا أُؤْتُمِنَ، وَلْيُحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَهُ".[1253]

4. **إِنَّ الْأَمَانَةَ مَنْ حَفِظَهَا وَأَدَّاهَا وَلَمْ يُضَيِّعْهَا كَانَتْ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛** بَلْ ضَمِنَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ؛ إذ قَالَ: "اضمَنوا لي ستًّا من أنفسِكم أضمَنْ لكم الجنَّةَ اصدُقوا إذا حدَّثتم وأوفوا إذا وعدتم وأدُّوا الأمانةَ إذا ائتُمِنتم واحفَظوا فروجَكم وغُضُّوا أبصارَكم وكُفُّوا أيديَكم".[1254]

كما أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعَدَّ للأمين منزلة عظيمة في الآخرة وهي جنة الفردوس قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} [المؤمنون: 8– 12].

5. **الْأَمَانَةُ يَكْفِيهَا أَهَمِّيَةً وَفَضْلًا أَنَّهَا مِنْ أَخْلَاقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛** فَقَدْ عُرِفَ بِهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلُقِّبَ بِهَا قَبْلَ الْبَعْثَةِ، وَقِصَّةُ وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ مَشْهُورَةٌ؛ حَيْثُ فَرِحَ الْقَوْمُ بِمَقْدَمِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: هَذَا الْأَمِين.

6. **حِفْظُ الْأَمَانَةِ وَعَدَمُ تَضْيِيعِهَا مِنْ وَصَايَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمَّتِهِ؛** فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خُطْبَةِ الْوَدَاعِ: "... فإنَّ دِماءَكُمْ وأَمْوالَكُمْ -قالَ مُحَمَّدٌ: وأَحْسِبُهُ قالَ- وأَعْراضَكُمْ عليْكُم حَرامٌ، كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، وسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَسَيَسْأَلُكُمْ عن أعْمالِكُمْ، ألَا فلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ، ألَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ؛ فَلَعَلَّ بَعْضَ مَن يُبَلَّغُهُ أنْ يَكونَ أوْعَى له مِن بَعْضِ مَن سَمِعَهُ -فَكانَ مُحَمَّدٌ إذا ذَكَرَهُ يقولُ: صَدَقَ مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- ثُمَّ قالَ: ألَا هلْ بَلَّغْتُ؟ مَرَّتَيْنِ"[1255].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاس رَضِيَ الله عَنهُمَا، أنَّ رسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:"... فَمَنْ كان عندَهُ أَمانَةٌ فَلْيُؤَدِّها إلى مَنِ ائْتَمَنَهُ عليْها ..."[1256].

7. **وَمِمَا يُبَيِّنُ عِظَمَهَا وَأَهَمِّيَّتَهَا أَنَّهَا تُؤَدَّى لِلْبَرِّ وَالفَاجِرِ؛** قَالَ مَيمُونُ بنُ مُهْرَانَ: "ثَلَاثَةٌ يُؤَدَّيْن إِلَى الْبَرّ وَالفَاجِرِ: الأَمَانَةُ، وَالعَهْدُ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ"، وَلَمَّا جَاءَ الأَمْرُ إِلَى النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالهِجْرَةِ تَرَكَ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي مَكَّةَ لِأَدَاءِ الأَمَانَاتِ، وَرَدِّ الوَدَائِعُ إِلَى أَهْلِهَا، بِرَغْمِ مَا فَعَلُوهُ مَعَهُ وَمَعَ أَصْحَابِهِ الكِرَامِ مِنْ اضْطِهَادٍ وَإِيذَاءٍ؛ وَلَكِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعَلِّمَنَا هَذَا الخُلُقَ العَظِيمَ؛ فَأَقَامَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثَلَاثَ لَيَالٍ وَأَيَّامَهَا، حَتَّى أَدَّى عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوَدَائِعَ الَّتِي كَانَتْ عِندَهُ لِلنَّاسِ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهَا لَحِقَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

8. **الأَمَانَةُ بِهَا يَعْلُو شَأْنُ الإِنْسَانِ إِذَا اتَّصَفَ بِهَا،** فَقَدْ رَفَعَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَأْنَ أَبِي عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَمَا أَتَى صَاحِبَا نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَا: "ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، ولا تَبْعَثْ مَعَنَا إلا أَمِينًا"، فقالَ: "لأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ"، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فقالَ: "قُمْ يا أَبَا عُبَيْدَةَ

[1252] أخرجه أحمد (6652)، وابن وهب في ((الجامع)) (546)

[1253] رواه البيهقي (1533) وحسَّنه الألباني.

[1254] أخرجه أحمد (22809)، وابن أبي الدنيا في ((مكارم الأخلاق)) (116)، وابن حبان (271)

[1255] أخرجه البخاري (4406)، ومسلم (1679)

[1256] أحكام القرآن لابن العربي 503/2، خلاصة حكم الحديث: صحيح

بْنَ الجَرَّاحِ"، فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "هَذا أَمِينُ هذهِ الأُمَّةِ" [1257]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لِكلِّ أُمَّةٍ أمينٌ، وأمينُ أمتي أبو عبيدَةُ بنُ الجرَّاحِ"[1258].

9. **الأمانةُ مِن صِفَاتِ صَفْوَةِ الخَلْقِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ،** فَمَا مِنْ نَبِيٍّ إلا وَقَدْ قَالَ لِقَوْمِهِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ: {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} [الشعراء: 107، 108].

واتَّصَفَ بها موسى عليه السلام؛ كما في قوله تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: 26]، واتَّصفَ بها هودٌ عليه السَّلامُ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَهُوَ يُخَاطِبُ قَومَهُ: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} [الأعراف: 68]، ولما اتَّصفَ بها يوسفُ عليه السَّلامُ؛ جَعَلَتْ المَلِكُ يُقُولُ له: {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} [يوسف: 54]، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى بها جِبْرِيلَ عليه السَّلام؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 193]، وقال تعالى: {مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [التكوير: 21].

10. **حِفْظُ الْأَمَانَةِ وَعَدَمِ تَضْيِيعِهَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ تَفْرِيجِ الْكُرُبَاتِ،** فَفِي خَبَرِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ آوَاهُمُ الْمَبِيتُ فِي الْغَارِ وَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ، فَتَوَسَّلَ كُلٌّ مِنْهُمْ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: "اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غيرَ رَجُلٍ واحِدٍ تَرَكَ الَّذي له وذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حتَّى كَثُرَتْ منه الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقالَ: يا عَبْدَ اللَّهِ، أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ له: كُلُّ ما تَرَى مِن أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ والرَّقِيقِ، فَقالَ: يا عَبْدَ اللَّهِ، لا تَسْتَهْزِئْ بِي! فَقُلْتُ: إِنِّي لا أَسْتَهْزِئُ بكَ، فأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ منه شيئًا، اللَّهُمَّ فإنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلكَ ابْتِغَاءَ وجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا ما نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ"[1259].

11. **الْأَمَانَةُ تُوجِدُ الثِّقَةَ وَالطَّمْأْنِينَةَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ وَتُقَوِّي أَوَاصِرَ الْمَحَبَّةِ وَالْأُخُوَّةِ وَالتَّعَاوُنِ بَيْنَهُمْ.**[1260]

المطلبُ السَّابِع: وسائلُ اكتسابِ الأَمَانَةِ

هناك وَسائِلٌ مُعِينَةٌ على اكتِسابِ صِفَةِ الأمانة، منها:[1261]

1/ تَقويةُ الإيمانِ.

2/ مُجاهَدةُ النَّفسِ على اكتِسابِ الأخلاقِ الحَميدةِ والتَّخلِّي عن رذائِلِها.

3/ مطالعةُ سِيَرِ الأنبياءِ والصَّالحين والاقتداءُ بهم.

4/ أن يَعلَمَ ما يترتَّبُ على أداءِ الأمانةِ مِن مَنافِعَ دُنيويَّةٍ وأُخرويَّةٍ وما يترتَّبُ على الإخْلالِ بها.

5/ إسنادُ الأمورِ إلى أهلِها.

6/ استِشعارُ كُلِّ امرئٍ المسئوليةَ تجاهَ واجِباتِه.

المطلبُ الثَّامنُ: موانِعُ التَّحَلِّي بِصِفَةِ الأمانةِ

1/ عدَمُ التَّربيةِ على مكارِمِ الأخلاقِ، ومنها الأمانةُ.

2/ ضَعفُ الإيمانِ.

[1257] أخرجه البخاري (4380)، ومسلم (2420).

[1258] أخرجه البخاري (4382)، ومسلم (2419) باختلاف يسير.

[1259] صحيح البخاري (2272)، صحيح مسلم (2743) باختلاف يسير

[1260] أخلاق في الإسلام - د. إيمان عبد المؤمن ص 175

[1261] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، مَوْسُوعَةُ الأَخْلاقِ والسُلُوك.

3/ عدَمُ العِلمِ بما يترتَّبُ على الأمانةِ من فوائِدَ دُنيويَّةٍ وأُخرويَّةٍ.

4/ عدَمُ استشعارِ تحمُّلِ المسئوليةِ.

5/ إسنادُ الأمورِ إلى غيرِ أهلِها.

6/ فسادُ الأخلاقِ وانحِرافُها.

7/ انقِلابُ الموازينِ؛ فيُسَمَّى الغِشُّ والخِداعُ والخيانةُ والاختلاسُ والرِّشوةُ وغيرُ ذلك أنواعًا من المهارةِ والذَّكاءِ.

8/ فُقْدانُ القُدوةِ الحَسَنةِ.

المطلبُ التَّاسِع: حُكْمُ الأَمَانَةِ

الْأَمَانَةُ صِفَةٌ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَهِيَ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَوْجَبُ، إِذْ أَنَّهُ لَا بُدَّ وأن "يَشْعُرَ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدَيْهِ أَمَانَةٌ سوف يُحَاسَبُ عَلَيْهَا أَمَامَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَالْجِسمُ وَالْوَقْتُ وَالْفَرَاغُ وَالْكَلِمَاتُ والأماناتُ وَالدَّعْوَةُ نَفْسُهَا وَالنَّاسُ الَّذِينَ يُعَلِّمُهُمْ أَوْ يَدْعُوهُمْ، كُلُّ ذَلِكَ أَمَانَاتٌ لَا بُدَّ مِنْ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا".[1262]

تَصَوَّر لَوْ تُعْطَى مَهَامًا وَأَنْتَ لَمْ تُؤَدِّهَا بِإِتْقَانٍ، وَقَدْ اِتَّفَقْتَ مَعَ صَاحِبِ الْعَمَلِ عَلَى ثَمَانِي سَاعَاتٍ يَوْمِيًّا مُقَابِلَ الرَّاتِبِ الَّذِي تَأْخُذُهُ ثُمَّ تَأْتِي وَتَنْقُصُ هَذَا الِاتِّفَاقَ وَلَا تَعْمَلُ سِوَى أَرْبَعِ سَاعَاتٍ فَقَطْ، فَأَنْتَ بِهَذَا خَائِنٌ، مُضَيِّعٌ لِلْأَمَانَةِ، وَتَحْتَاجُ إِلَى وَقْفَةِ مُحَاسَبَةٍ مَعَ النَّفْسِ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبَ أَمَامَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى وَإِنْ كُنْتَ تَعْمَلُ تَطَوُّعًا بِلَا مُقَابَلٍ مَادِيٍّ، طَالَمَا اِتَّفَقْتَ عَلَى شَيْءٍ فَالْزَمْهُ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ" [1263]، أي: ثابِتونَ على الشُّروطِ الجائزةِ شَرْعًا التي تَقَعُ بينهم؛ فيُوَفُّونَ بِهَا وَلَا يَرجِعُون عَنها؛ لأنَّ هَذَا مِنْ الوفاءِ بالعُقودِ الَّذِي أمَرَ اللهُ بِهِ.

المطلبُ العَاشِر: أخطاءٌ شائعةٌ حَولَ الأمانةِ

1- من الأخطاءِ الشَّائعةِ قَصْرُ مفهومِ الأمانةِ على حِفظِ الودائِعِ، وهذا تَضْيِيقٌ لمفهومِ الأمانةِ الواسِعِ الذي يَشْمَلُ كُلَّ ما يلزَمُ الإنسانَ أن يحفَظَه من أمورِ الدِّينِ والدُّنيا.

2- في الإجارَةِ وغيرِها من التَّعامُلاتِ رُبَّما يُطلَبُ مِن طَرَفٍ أداءُ ما عليه مِن أمانةٍ دونَ مُطالبةِ الطَّرَفِ الآخَرِ بأداءِ ما عليه مِن أمانةٍ هو أيضًا، وهذا خطأٌ؛ فعلى كُلِّ إنسانٍ أن يؤدِّيَ أمانتَه، ومثالُ ذلك أن يُطلَبَ من العُمَّالِ والمُوظَّفين والأُجَراءِ أداءُ أمانةِ العَمَلِ دونَ الإخلالِ بها، مع الغَفلةِ عن مُطالبةِ أصحابِ الأعمالِ بأداءِ أماناتِهم تِجاهَ العُمَّالِ، بإعطائِهم أجورَهم، وألَّا يَبْخَسوهم حَقَّهم، أو يُكَلِّفوهم من العَمَلِ ما لا يُطيقون، أو يُقَصِّروا في توفيرِ الوسائِلِ والأدواتِ التي تساعِدُ في إنجازِ أعمالِهم، إلى غيرِ ذلك.[1264]

يَتَّضِحُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الْأَمَانَةَ كَلِمَةٌ تَعْجَزُ الْأَقْلَامُ مَهْمَا كَثُرَتْ عَنْ أَدَاءِ حَقِّهَا كَامِلًا، وَإِنَّمَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقْتَبِسَ مِنْ مِشْكَاةِ مَعَانِيهَا أُمُورًا لَا تُحَدُّ وَلَا تُعَدُّ، فَهِيَ أَحَدُ الْأَعْمِدَةِ الرَّئِيسَةِ لِلنِّظَامِ الْأَخْلَاقِيِّ الْإِسْلَامِيِّ، وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ مَنْ تَحَلَّى بِهَا قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَبَعْدَهَا، وَحَثَّ النَّاسَ عَلَيْهَا حَتَّى أَنَّهُ جَعَلَ اِخْتِلَالَ هَذِهِ الصِّفَةِ فِي الْمَرْءِ وَتَحَوُّلَهَا إِلَى خِيَانَةٍ خِصْلَةً مِّنَ النِّفَاقِ، وَلأَهَمِّيَّتِهَا رَبَطَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِيمَانِ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُعْلِنُ عَنْ ذَلِكَ فِي خُطَبِهِ، فعَنْ أَنَسٍ

[1262] الخلاصة في فقه الدعوة - المجلد 1 - الصفحة 66

[1263] أخرجه أبو داود 3594

[1264] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، مَوْسُوعَةُ الأَخْلاقِ والسُلُوك.

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: "قَلَّمَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَالَ: "لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ".[1265]

وَلَا يَقْتَصِرُ مَفْهُومُ الْأَمَانَةِ عَلَى حِفْظِ شَيْءٍ ما اسْتَوْدَعَهُ صَاحِبُهُ عِندَ شَخْصٍ آخَر، بَلْ هِيَ أَشْمَلُ مِن ذَالِكَ بِكَثِيرٍ، وَهِيَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ تَكُونَ مُحْصُورَةً فِي مَعْنًى وَاحِدٍ بِمَدْلُولِهِ اللُّغَوِيّ وَالَّذِي هُوَ ضِدُّ الْخِيَانَة.

[1265] صحيح الترغيب 3004، أخرجه أحمد 12567، والبزار 7196، وأبو يعلى 2863.

المبحث الثاني: الصِّدْقُ

المطلب الأول: معنى الصدق

● **الصِّدقُ لغةً:** ضِدُّ الكَذِبِ، وأصلُ (صدق) يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَه، وسُمِّي الصِّدقُ بذلك لقُوَّتِه في نفسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قُوَّةَ له، فهو باطِلٌ، وقيل: هو في أصلِ اللُّغةِ: ثباتُ الشَّيءِ، ويقالُ :صَدَّقَه: قَبِلَ قولَه، وَصَدَّقَه الحديثَ: أنبَأَه بالصِّدقِ، ويقالُ :صَدَقْتُ القومَ، أي: قُلتُ لهم صِدقًا.[1266]

● **الصِّدقُ اصطلاحًا:** هو الخبَرُ عن الشَّيءِ على ما هو به، وهو نقيضُ الكَذِبِ.[1267]
وقال الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ: „الصِّدقُ مطابقةُ القولِ الضَّميرَ والمخبَرَ عنه معًا، ومتى انْخَرَمَ شرطٌ من ذلك لم يكُنْ صِدقًا تامًّا“[1268].

أَوَّلُ مَا يَتَبَادَرُ مِنْ كَلِمَةِ الصِّدْقِ، هُوَ الصِّدْقُ فِي اللِّسَانِ، وَلَكِنَّ الْوَاقِعَ أَنَّ الصِّدْقَ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي اللِّسَانِ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119] فَحَقِيقَةُ الصِّدْقِ هِيَ الْإِخْلَاصُ التَّامُ فِي الْقَلْبِ، وَمِنْهُ يَفِيضُ الصِّدْقُ عَلَى الْجَوَارِحِ كُلِّهَا، فَتَكُونُ أَقْوَالُ الْإِنْسَانِ وَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا تَنْطُقُ بِالصِّدْقِ.

المطلب الثاني: حَقِيقَةُ الصِّدْقِ

حَقِيقَةُ الصِّدْقِ: حُصُولُ الشَّيْءِ وَتَمَامُهُ وَكَمَالُ قُوَّتِهِ وَاجْتِمَاعُ أَجْزَائِهِ. هَكَذَا قَالَ ابْنُ الْجُوزِيَّةِ فِي مَدَارِجِهِ وَيَكُونُ فِي الْقَصْدِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَمَعْنَاهُ فِي الْقَصْدِ كَمَالُ الْعَزْمِ وَقُوَّةُ الْإِرَادَةِ عَلَى السَّيرِ إِلَى اللَّهِ وَتَجَاوُزُ الْعَوَائِقِ وَيَكُونُ ذَلِكَ بِالْمُبَادِرَةِ إِلَى أَدَاءِ مَا افْتَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَفِي مُقَدِّمَتِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَمِنْهُ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ، وَالصُّدُودُ عَنْ كُلِّ مَعُوِّقٍ أَوْ مُثَبِّطٍ وَالْانِصرَافُ عَنْهُمْ وَالنُّفْرَةُ مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ أَنَاسٌ فِي غَفْلَةٍ يَعِيشُونَ وَلَا يَعْلَمُونَ إِلَّا ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَهُوَ فِي حَقِيقَتِهِ الْجَهَالَةُ وَالْهَوَى.

وَالْحَقِيقَةُ إِنَّ قَلْبَ الصَّادِقِ شَدِيدُ الْحَساسِيَّةِ لَا يَحْتَمِلُ هؤُلَاءِ الْمُثَبِّطِينَ وَلَهَذَا فَهُوَ يَضِيقُ بِهِمْ وَلَا يَسْتَطِيعُ مُجَاوَرَتَهُمْ وَلَا مُصَاحَبَتَهُمْ وَلَا مُجَالَسَتَهُمْ. إِنَّهُ يَنْشَرِحُ صَدْرُهُ وَيَهُشُّ[1269] لِمَنْ يُشَوِّقُهُ إِلَى الِاسْتِعْجَالِ فِي سَيْرِهِ إِلَى اللَّهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ.
أَمَّا صِدْقُ الْقَوْلِ، فَمَعْنَاهُ نُطْقُ اللِّسَانِ بِالْحَقِّ وَالصَّوَابِ فَلَا يَنْطِقُ بِالْبَاطِلِ أَيًّا كَانَ. وَيَكُونُ الصِّدْقُ فِي الْأَعْمَالِ بِأَنْ تَكُونَ وَفْقَ الْمَنَاهِجِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْمُتَابِعَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ، وَإِذَا مَا تَحَقَّقَ لِلْمُسْلِمِ الصِّدْقُ فِي الْقَوْلِ وَالْقَصْدِ وَالْعَمَلِ أَدَّى بِهِ ذَلِكَ إِلَى دَرَجَةٍ أُخْرَى فِي الصِدِّيقِيَّةِ وهي التي أمَرَ اللهُ عِبادَهُ المؤمنين بِطَلَبِها، مُوَجِّهاً جل جلاله الخِطابَ إلى رَسولِهِ الكَريم: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا} [الإسراء: 80].

[1266] العين للخليل بن أحمد 5/ 56، مقاييس اللغة لابن فارس 3/339، لسان العرب لابن منظور 10/193، مختار الصحاح للرازي ص: 174

[1267] الواضح في أصول الفقه لابن عقيل 129/1

[1268] الذريعة إلى مكارم الشريعة ص: 270

[1269] هَشَّ: انشرح صدرُه فرحًا وسرورًا به، هَشَّ للمعروف: تبسّم وارتاح له.

وَمَعْنَى مُدْخَلَ الصِّدْقِ وَمُخْرَجَهَ أَنْ يَكُونَ دُخُولُ الْمُسْلِمِ فِي أَيِّ شَيْءٍ، وَمُبَاشَرَتُهُ لِأَيِّ عَمَلٍ، وَخُرُوجُهُ مِنْهُ، وَتَرْكُهُ لَهُ بِاللَّهِ وَلِلَّهِ، بِمَعْنَى أَنَّ أَفْعَالَهُ وَتَرْكَهُ مَوْصُولَةٌ بِاللَّهِ وَمَوْصُولَةٌ إِلَيْهِ، مُسْتَعِينًا عَلَى أَدَائِهَا بِاللَّهِ، وَأَنَّ مَقْصُودَهُ مَرْضَاةُ اللَّهِ، فَغَايَتُهُ هُوَ وَحْدَهُ: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[1270] فَإِذَا بَلَغَ الْمُسْلِمُ هَذِهِ الدَّرَجَةَ مِنَ الصَّدِيقِيَّةِ لَمْ يَعُدْ فِي نَظَرِهِ غَرَضٌ مَقْبُولٌ لِرَغْبَتِهِ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا إِذَا كَانَ بَقَاؤُهُ فِيهَا وَسِيلَةً لِمَرْضَاةِ اللَّهِ فَإِذَا فَاتَهُ هَذَا الْغَرَضُ أَوْ لَمْ يَسْتَطِعْهُ، رَغِبَ عَنِ الْحَيَاةِ وَأَحَبَّ الْمَوْتَ.

رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: „لَوْلَا ثَلَاثٌ لَمَا أَحَبَبْتُ الْبَقَاءَ: لَوْلَا أَنْ أَحْمِلَ عَلَى جِيَادِ الْخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمُكَابَدَةُ اللَّيْلِ، وَمُجَالَسَةُ أَقْوَامٍ يَنْتَقُونَ أَطَايِبَ الْكَلَامِ كَمَا يُنْتَقَى أَطَايِبُ التَّمْرِ" [1271] ويُريدُ الإمام عُمَر رضي الله عَنه بهذه الثَلاث التي ذَكَرها: الجِهادُ والصَلاةُ والعِلْمُ النَّافِعُ، وكُلُّها تُرضِي الرَّبَّ عَزَّ وَجل.

المطلب الثالث: الفَرْقُ بَيْنَ الصِّدقِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الحَقِّ والصِّدقِ:**

الحَقُّ في اللُّغةِ: هو الثَّابتُ الذي لا يسوغُ إنكارُه، مِن حَقَّ الشَّيءُ يَحِقُّ: إذا ثبَت ووجَب. وفي اصطلاحِ أهلِ المعاني: الحُكمُ المطابِقُ للواقعِ، يُطلَقُ على الأقوالِ والعقائِدِ والأديانِ والمذاهِبِ باعتبارِ اشتمالِها على ذلك، ويقابِلُه الباطِلُ، وأمَّا الصِّدقُ فقد شاع في الأقوالِ خاصَّةً، ويقابِلُه الكَذِبُ.

فالحَقُّ أعمُّ؛ لأنَّه وقوعُ الشَّيءِ في موقِعِه الذي هو أولى به، والصِّدقُ الإخبارُ عن الشَّيءِ على ما هو به، والحَقُّ يكونُ إخبارًا وغيرَ إخبارٍ.

وقد يُفَرَّقُ بَيْنَهما بأنَّ المطابقةَ تُعتَبَرُ في الحقِّ: من جانِبِ الواقعِ، وفي الصِّدقِ: من جانِبِ الحُكمِ.

فمعنى صِدْقِ الحُكمِ: مُطابقتُه للواقعِ، ومعنى حقِّيَّتِه: مطابقةُ الواقعِ إيَّاه، وقد يُطلَقُ الحقُّ على الموجدِ للشَّيءِ، وعلى الحِكمةِ، ولِما يوجَدُ عليه، كما يقالُ: اللهُ حَقٌّ، وكَلِمتُه حَقٌّ[1272].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الوفاءِ والصِّدقِ:**

قيل: هما أعمُّ وأخصُّ؛ فكُلُّ وفاءٍ صِدقٌ، وليس كُلُّ صدقٍ وَفاءً، فإنَّ الوفاءَ قد يكونُ بالفعلِ دونَ القولِ، ولا يكونُ الصِّدقُ إلَّا في القولِ؛ لأنَّه نوعٌ من أنواعِ الخبرِ، والخَبَرُ قولٌ[1273]. وقد قيل: الصِّدقُ والوفاءُ تَوءَمانِ[1274].

المطلب الرابع: الترغيبُ في الصدق والحثُّ عليه

أمر الإسلامُ بالصِّدقِ وحَثَّ عليه في كُلِّ المعاملاتِ التي يقومُ بها المُسلِمُ، والأدلَّةُ كثيرةٌ من القرآنِ الكريمِ والسنة النبوية على هذا الخُلُقِ النَّبيلِ، ومنها ما يلي:

[1270] الأنعام 162

[1271] مدارج الساكين 2/281-282

[1272] يُنظَر: ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص: 48)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: 89)، ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمناوي (ص: 143). وينظر أيضًا: ((الكليات)) للكفوي (ص: 556).

[1273] يُنظَر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: 137، 253)، ((الكليات)) للكفوي (ص: 948).

[1274] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 263).

أ. الصدق في القرآن الكريم:

قال اللهُ تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119] أي: اصدُقوا والزَموا الصِّدقَ تكونوا مع أهلِه، ويجعَلْ لكم فرَجًا من أمورِكم ومخرَجًا، ويَومَ القِيامَة يُنَجِّيكُم مِن سَخَطِ اللهِ ويؤَدِّي بِكُم إلى الجِنان.

وَلقد وَصَف اللهُ به نفسَه فقال: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: 87]، وقال: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: 122] أي: لا أحَدَ أصدَقُ منه في حديثِه وَخَبَرِهِ، ووَعدِه وَوَعيدِه سُبحانَه؛ فحديثُه وأخبارُه وأقوالُه في أعلى مراتِبِ الصِّدقِ، فليس في كلامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى شيءٌ من التَناقُضِ إطلاقًا.

وقال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة المائدة: ١١٩].

ب. الصدق في السنة النبوية:

جاءتِ الأحاديثُ النَّبَويَّةُ مُتضافِرةً في الحَثِّ على الصِّدقِ والأمرِ به، وأنَّه وسيلةٌ إلى الجنَّةِ، ومنها:

- عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عليكم بالصِّدقِ؛ فإنَّ الصِّدقَ يهدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَصدُقُ ويتحرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكتَبَ عند اللهِ صِدِّيقًا. وإيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ يهدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يهدي إلى النَّارِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَكذِبُ، ويتحَرَّى الكَذِبَ حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذَّابًا".[1275]

قال العُلَماءُ: "هذا فيه حثٌّ على تحرِّي الصِّدقِ، وهو قَصدُه والاعتناءُ به، وعلى التَّحذيرِ من الكَذِبِ والتَّساهُلِ فيه، فإنَّه إذا تساهلَ فيهِ كَثُرَ مِنه فعُرِف به. وكَتَبه اللهُ لمبالغتِه صِدِّيقًا إنِ اعْتادَهُ، أو كذَّابًا إن اعْتادَهُ. ومَعْنى يُكتَبُ هنا يُحكَمُ له بذلك، ويستَحِقُّ الوصْفَ بِمَنْزِلَةِ الصِّدِّيقين وثوابِهم، أو صِفَةِ الكذَّابين وَعِقابِهم، والمرادُ إظهارُ ذلك للمَخْلُوقين، إمَّا بأنْ يكتُبَه في ذلك؛ ليشتَهِرَ بحَظِّه من الصِّفتَين في الملأِ الأعلى، وإمَّا بأنْ يُلقيَ ذلك في قلوبِ النَّاسِ وألسنَتِهم، وكما يُوضَعُ له القَبولُ والبَغضاءُ، وإلَّا فقَدَرُ اللهِ تعالى وكتابُه السَّابِقُ بكُلِّ ذلك". [1276]

ت. أقوال السلف الصالح:

- قال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ الله عنه حينما بُويعَ للخلافةِ: "أيُّها النَّاسُ، إني قد وُلِّيتُ عَليكم، ولستُ بخَيرِكم، فإن أحسَنْتُ فَأَعِينُوني، وإن أسأتُ فقَوِّمُوني، الصِّدقُ أمانةٌ، والكَذِبُ خيانةٌ".[1277]

- وقال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه: „لأَنْ يَضَعَني الصِّدقُ -وقلَّما يَضَعُ- أحَبُّ إليَّ مِن أن يرفَعَني الكَذِبُ، وقلَّما يَفعَلُ".[1278]

- وقال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: „ما مِن مُضغةٍ أحَبُّ إلى اللهِ من لسانٍ صَدوقٍ، وما مِن مُضغةٍ أبغَضُ إلى اللهِ من لسانٍ كَذوبٍ".[1279]

والصِّدْقُ هُوَ الصِّفَةُ الْفَارِقَةُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ فَإِنَّ أَسَاسَ النِّفَاقِ الَّذِي بُنِيَ عَلَيْهِ الْكَذِبُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ

[1275] أخرجه البخاري 6094 ، ومسلم 2607 واللفظ له.

[1276] يُنظَر: شرح صحيح مسلم للنووي 243-16/241

[1277] أخرجه الطبري في التاريخ 237/2 من حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه .صحَّح إسنادَه ابن كثير في البداية والنهاية 218/5، وشعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أبي بكر 1/159

[1278] أدب الدنيا والدين للماوردي 1/263

[1279] رواه ابنُ حبان في روضة العقلاء ص: 52

مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ".[1280]

وفِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ فإن أحْوجَ الناسِ إلى صَراحَتِكَ وَصِدْقِكَ، هُوَ نَفْسُك الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ؛ لذا رَوِّضْ نَفْسَكَ وَحَاسِبْهَا، أُخْلُ بها وعاتِبْها، شَجِّعْها، وَصَوِّبْها، قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: 18].

تأَمَّلْ هذِهِ الآيةَ الَّتِي أَشَارَتْ إلى تَقْوى اللهِ فِيمَا مَضَى مِنْ عُمُرك من أعمالٍ والنظرِ والمحاسبةِ فِيمَا قَدَّمْتَ لِآخِرَتِكَ.

وفِي الأثرِ المشهورِ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا، أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ" [1281]، وهذه المحاسبةُ مطلوبةٌ قبلَ العملِ، وأثناءَه وبعدَه، وفي كُلِّ وقتٍ.

وقال الفُضَيْلُ بن عِياضٍ: مَنْ حَاسَبَ نفسَهُ قبلَ أن يُحَاسبَ خفَّ في القيامةِ حِسابُه وحضرَ عَنْ السؤالِ جَوابُه وحَسُنَ مُنْقَلَبُهُ ومآبُهُ ومن لم يُحَاسِبْ نفسَهُ دامتْ حَسَراتُه وَطَالتْ في عَرصَاتِ القيامةِ وقفاتُه وقادتْهُ إلى الخزيِ والمقْتِ سيئاتُهُ وَأَكْيَسُ الناسِ من دان نفسَهُ وحاسَبْهَا وعَاتَبْهَا وَعَمِلَ لما بعدَ الموتِ واشْتَغَلَ بعيوبِهِ وإصلاحِهَا.

المطلب الخامس: فوائِدُ الصِّدقِ

1- الصِّدقُ طريقُ الأبرارِ إلى الجنَّةِ.

2- من أسبابِ محبَّةِ اللهِ والقُربِ منه.

3- الصَّادِقون يحبُّهم النَّاسُ ويَثِقون بهم ويأتمِنونَهم في سائِرِ مُعاملاتِهم.

4- الصِّدقُ يرفَعُ قَدْرَ صاحِبِه.

5- الصِّدقُ يرفَعُ الأعمالَ ويُعلي شأنَها.

6- الصِّدقُ دليلُ القُوَّةِ وسِمةُ الثِّقةِ بالنَّفسِ.

7- الصِّدقُ مَنجاةٌ.

8- الصِّدقُ في الحديثِ يجعلُه مؤثِّرًا في القلوبِ.

9- الصَّادقُ محشورٌ مع النَّبيِّين والشُّهداءِ والصَّالحين[1282].

10- حصولُ البَركةِ في الأعمالِ والأموالِ، ومن ذلك حُصولُ البركةِ في البيعِ والشِّراءِ، كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "البَيِّعانِ بالخيارِ ما لم يتفرَّقا -أو قال: حتى يتفرَّقا-، فإن صدَقَا وبَيَّنَا بورِكَ لهما في بيعِهما، وإنْ كَتَما وكَذَبا مُحِقَت بَركةُ بَيْعِهما"[1283]. (حُصولُ البركةِ لهما إن حَصَل منهما الشَّرطُ، وهو الصِّدقُ والتَّبيينُ، ومَحْقُها إن وُجِد ضِدُّهما، وهو الكَذِبُ)[1284].

11- انشراحُ الصَّدرِ وسكينةُ النَّفسِ.

12- الصِّدقُ يُبعِدُ صاحِبَه عن النِّفاقِ.

[1280] مَجْمُوعُ فتاوى ابْنِ تيمية، أصول الفقه التمذهب فصل الصدق أساس الحسنات وجماعها والكذب أساس السيئات ونظامها.

[1281] رواه ابن أبي الدنيا في "محاسبة النفس" ص22 ، وأحمد في "الزهد" ص 120، وأبو نعيم في "الحلية52/ " ، وضعفه الألباني في "الضعيفة" 1201، وأبو إسحاق الحويني في " تخريجه لتفسير ابن كثير" 1/478 وقال: "وهذا سند رجاله ثقات لكنه منقطع بين ثابت بن الحجاج وعمر بن الخطاب فلم يدركه" انتهى.

[1282] يُنظَر: ((نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم)) (6/ 2516).

[1283] أخرجه البخاري (2079) واللفظ له، ومسلم (1532) من حديثِ حكيمِ بنِ حزامٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[1284] يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن رجب (311/4).

13- يؤدِّي إلى تماسُكِ المجتمعِ وترابُطِ أفرادِه.
14- الصِّدقُ هو طريقٌ إلى علُوِّ المنزلةِ بَيْنَ النَّاسِ؛ يقولُ ابنُ القَيِّمِ في الصِّدقِ: إنَّه (منزِلُ القومِ الأعظمُ الذي منه تنشَأُ جميعُ منازِلِ السَّالكين...، ومن نطَق به علَت على الخصومِ كلِمتُه، فهو روحُ الأعمالِ، ومحكُّ الأحوالِ،... وهو أساسُ بناءِ الدِّينِ، وعمودُ فُسطاطِ اليقينِ، ودرجتُه تاليةٌ لدرجةِ النُّبُوَّةِ،... وقد أمَر اللهُ سُبحانَه أهلَ الإيمانِ أن يكونوا مع الصَّادقين، وخَصَّ المنعَمَ عليهم بالنَّبِيِّين والصِّدِّيقين والشُّهَداءِ والصَّالحين، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119])[1285].

المطلب السادس: دَرَجَاتُ الصِّدقِ

وللصدق درجات، ألا وهي:

1- صِدقُ اللِّسانِ:

وهو أشهَرُ أنواعِ الصِّدقِ وأظهَرُها، وصِدقُ اللِّسانِ لا يكونُ إلَّا في الإخبارِ أو فيما يتضمَّنُ الإخبارَ ويُنَبِّهُ عليه، والخبَرُ إمَّا أن يتعلَّقَ بالماضي أو بالمستقبَلِ، وفيه يدخُلُ الوفاءُ بالوعدِ والخُلفُ فيه، وحَقٌّ على كُلِّ عبدٍ أن يحفَظَ ألفاظَه، فلا يتكَلَّمَ إلَّا بالصِّدقِ.

2- صِدقُ النِّيَّةِ والإرادةِ:

وَيَرْجِعُ ذلك إلى الإخلاصِ، وهو ألَّا يكونَ له باعثٌ في الحركاتِ والسَّكَناتِ إلَّا اللهُ تعالى، فإن مازَجَهُ شَوْبٌ مِن حظوظِ النَّفسِ بَطُلَ صِدقُ النِّيَّةِ، وصاحِبُه يجوزُ أن يُسمَّى كاذِبًا.

3- صِدقُ العَزمِ:

فإنَّ الإنسانَ قد يُقَدِّمُ العزمَ على العمل؛ فيقولُ في نفسِه: "إن رَزَقَنِي اللهُ مالاً تَصَدَّقْتُ بجميعِه أو بشطرِه، أو إن لَقِيتُ عَدُوًّا في سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى قَاتَلْتُ وَلَمْ أُبَالِ وإن قُتِلْتُ، فَهَذِهِ العَزِيمَةُ قَدْ يُصَادِفُهَا مِنْ نَفْسِهِ وَهِيَ عَزِيمَةٌ جَازِمَةٌ صَادِقَةٌ، وَقَدْ يَكُونُ فِي عَزْمِهِ نَوْعُ ميلٍ وَتَرَدُّدٍ وَضَعْفٍ يُضَادُّ الصِّدْقَ فِي العَزِيمَةِ.

4- صِدقُ الوَفاءِ بالعَزمِ:

قال اللهُ تعالى: {رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب: 23]. فهُم صدَقوا في عزمِهم، وصدَقوا في الوفاءِ الحَقِّ بما عزَموا عليه، ولم تتراجَعْ نفوسُهم ولم تتَرَدَّدْ في إنفاذِ العَزمِ.

5- الصِّدقُ في الأعمالِ والأفعالِ:

وهو أن يجتَهِدَ حتى لا تدُلَّ أعمالُه الظَّاهرةُ على أمرٍ في باطنِه لا يتَّصِفُ هو به. ولا يتحقَّقُ الصِّدقُ في الأعمالِ إلَّا باستواءِ السَّريرةِ والعلانيةِ بأن يكونَ باطِنُه مثلَ ظاهِرِه أو خيرًا من ظاهِرِه.

6- الصِّدقُ في مقاماتِ الدِّينِ:

وهو أعلى الدَّرَجاتِ وأعزُّها، ومن أمْثِلَتِهِ: الصِّدقُ في الخَوْفِ والرَّجاءِ، والتَّعظيمِ والزُّهدِ، والرِّضا والتَّوكُّلِ، وغيرِها من الأمورِ.

ومن اتَّصفَ بالصِّدقِ في جميعِ ما سَبَق فَهوَ صِدِّيق.

[1285] ((مدارج السالكين)) (5/3).

المطلب السَّابع: صُوَرُ الصِّدقِ ومَظاهِرُه

1- الصِّدقُ في الحديثِ.
2- الصِّدقُ في المعاملاتِ كالبيعِ والشِّراءِ.
3- الصِّدقُ في الحالِ، فلا يُظهِرُ خلافَ ما يُبطِنُ.
4- الصِّدقُ في الوعدِ.
5- الصِّدقُ عِندَ الإدلاءِ بالشَّهادةِ.
6- صِدقُ الأبناءِ مع الوالِدَين.
7- الاعترافُ بالخطَأِ صورةٌ من صوَرِ الصِّدقِ.

المطلب الثامن: موانعُ اكتسابِ صفةِ الصِّدقِ

1- كثرةُ الكلامِ: فمن كَثُرَ كلامُه كَثُرَ سَقطُه؛ إذ لا يخلو في كثيرٍ من الأحيانِ من التَّزيُّدِ واللَّغوِ أو الهَذْرِ الذي إذا لم يضُرَّ فإنَّه لا ينفَعُ، ويؤدِّي إلى الوقوعِ في الكَذِبِ، خاصَّةً مع عدمِ التَّحرُّزِ، وقد قال اللهُ تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: 114].

ومن الكَذِب أن يحَدِّثَ الإنسانُ بكُلِّ ما يسمَعُ من أحاديثَ وأخبارٍ دونَ تحريرٍ لها ولا تنقيحٍ؛ لأنَّه بتهاوُنِه وإهمالِه وعدَمِ تحَرِّيه الصِّدقَ في الأخبارِ يساهِمُ في نشرِ الأكاذيبِ وإشاعتِها؛ فعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه قال: (بحَسْبِ امرئٍ من الكَذِبِ أن يحَدِّثَ بكُلِّ ما سَمِع)[1286].

2- التَّناقُضُ بَيْنَ القولِ والعمَلِ:

لقد عدَّ بعضُ السَّلَفِ مخالفةَ عَمَلِ المرءِ لقولِه أمارةَ كَذِبٍ ونفاقٍ. قال إبراهيمُ التَّيميُّ: (ما عرَضْتُ قولي على عملي إلَّا خَشِيتُ أن أكونَ مُكَذِّبًا!)[1287].

3- مُداهنةُ النَّفسِ والاسترسالُ معها في أهوائِها وشهَواتِها؛ ولهذا قيل: (لا يَشَمُّ رائحةَ الصِّدقِ عبدٌ داهَنَ نفسَه أو غيرَه)[1288].

فكلَّما ألجمها بلِجامِ المجاهدةِ، وزمَّها بزمامِ المراقبةِ والمحاسبةِ، ثبتَت على الصِّدقِ قَدَمُه[1289].

4- الصُّحبةُ السَّيِّئةُ.
5- افتقادُ القُدواتِ.
6- الغَفلةُ عن الآثارِ السَّيِّئةِ للكَذِبِ.
7- عدَمُ العِلمِ بالفوائِدِ المترتِّبةِ على الصِّدقِ وما أعدَّ اللهُ للصَّادقين.
8- سوءُ الخُلُقِ وعدَمُ الاهتمامِ باكتسابِ الأخلاقِ الفاضلةِ.

[1286] أخرجه من طُرُقٍ: البخاري في ((الأدب المفرد)) (884)، ومسلم في ((مقدمة الصحيح)) (5) واللفظ له، وابن أبي شيبة (26132) صحَّحه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (679)، وصحَّح إسناده ابن كثير في ((مسند الفاروق)) (626/2)

[1287] رواه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزمِ قبل حديث (48)، ورواه موصولًا ابنُ أبي شيبة (36117)، وابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (104)

[1288] يُنظَر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (311/2)

[1289] يُنظَر: ((الرائد: دروس في التربية والدعوة)) لمازن بن عبد الكريم الفريح (255/3)

المطلب التاسع: الوسائلُ المعينةُ على الصِّدقِ

1- مراقبةُ اللهِ تعالى:

إنَّ إيمانَ المرءِ بأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ معه يُبصِرُه ويَسمَعُه، يدفَعُه للخشيةِ والتَّحفُّظِ؛ قال اللهُ تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7] وعندما يستحضِرُ أنَّ كَلِماتِه وخطَراتِه وحَرَكاتِه وسكَناتِه كُلَّها محصاةٌ مكتوبةٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [ق: 18]، {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ} [الانفطار: 10-11]؛ فإنَّ ذلك يقودُه إلى رياضِ الصِّدقِ في الأقوالِ والأعمالِ والأحوالِ.

2- الحياءُ:

الحياءُ يحجُبُ صاحِبَه عن كُلِّ ما هو مستقبَحٌ شرعًا وعُرفًا وذَوقًا، والمرءُ يستحيي أن يُعرَفَ بَيْنَ النَّاسِ أنَّه كذَّابٌ، وهذا هو الذي حمَل أبا سُفيانَ -وهو يومَئذٍ مُشرِكٌ- أن يَصدُقَ هِرَقلَ وهو يسألُه عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. قال أبو سفيانَ: (فواللهِ لولا الحياءُ من أن يأثُروا عليَّ كَذِبًا لكذَبتُ عنه)[1290]، أي: ينقُلوا عليَّ الكَذِبَ لكَذَبتُ عليه. قال ابنُ حَجَرٍ: (وفيه دليلٌ على أنَّهم كانوا يستقبِحون الكَذِبَ، إمَّا بالأخذِ عن الشَّرعِ السَّابقِ، أو بالعُرفِ... وقد ترَك الكَذِبَ استحياءً وأنَفةً من أن يتحَدَّثوا بذلك بعد أن يرجِعوا، فيصيرَ عِندَ سامعي ذلك كذَّابًا)[1291].

قلتُ: فالمُسلِمُ أولى بالحياءِ من ربِّه أن يسمَعَه يقولُ كَذِبًا، أو يطَّلِعَ على عَمَلٍ أو حالٍ هو فيه كاذبٌ.

3- صُحبةُ الصَّادِقين:

فقد أمرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ المُؤمِنين أن يكونوا مع أهلِ الصِّدقِ، فقال سُبحانَه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119]، أي: اقتَدوا بهم واسلُكوا سبيلَهم، وهم الذين استوت ظواهِرُهم وبواطِنُهم، ووفَوا بعهودِهم، وصَدَقوا في أقوالِهم وأعمالِهم.

4- إشاعةُ الصِّدقِ في الأُسرةِ:

الإسلامُ يوصي أن تُغرَسَ فضيلةُ الصِّدقِ في نفوسِ الأطفالِ؛ حتى يَشِبُّوا عليها وقد أَلِفوها في أقوالِهم وأحوالِهم كُلِّها.

5- الدُّعاءُ:

فَحَملُ النَّفسِ على الصِّدقِ في جميعِ أمورِها أمرٌ شاقٌّ، ولا يمكِنُ لعبدٍ أن يأتيَ به على وجهِه إلَّا بإعانةِ اللهِ له وتوفيقِه إليه.

6- معرفةُ وعيدِ اللهِ للكذَّابين وعذابِه للمُفتَرين:

قد جاءت النُّصوصُ الكثيرةُ التي تحَذِّرُ من الكَذِبِ، وتُبَيِّنُ سُوءَ عاقبتِه في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولهذا فإنَّ تذكيرَ النَّفسِ بها ممَّا يُعينُ المرءَ على الصِّدقِ في أحوالِه كُلِّها[1292].

7- العِلمُ بما أعدَّه اللهُ تعالى للصَّادقين، وما يترَتَّبُ على الصِّدقِ من منافعَ.

المطلب العاشر: نماذجُ في الصِّدقِ

أ- نماذِجُ من صِدقِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ:

[1290] أخرجه البخاري (7)

[1291] فتح الباري لابن حجر (35/1)

[1292] ((الرائد: دروس في التربية والدعوة)) لمازن بن عبد الكريم الفريح (251/3).

الأنبياءُ عليهم السَّلامُ كُلُّهم موصوفون بالصِّدقِ، وقد ذكر اللهُ أنبياءه بالصِّدقِ، فقال: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} [مريم: 41] وقال سُبحانَه: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} [مريم: 56].

ووُصِف يوسُفُ عليه السَّلامُ بالصِّدقِ حينما جاءه الرَّجُلُ يستفتيه فقال: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ} [يوسف: 46].

وأثنى اللهُ على إسماعيلَ عليه السَّلامُ، فقال: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم: 54].

قال ابنُ جريرٍ الطَّبَريُّ: (يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: واذكُرْ -يا محمَّدُ- في هذا الكتابِ إسماعيلَ بنَ إبراهيمَ، فاقصُصْ خَبَرَه إنَّه كان لا يَكذِبُ وَعدَه، ولا يُخلِفُ، ولكِنَّه كان إذا وعَد رَبَّه أو عبدًا من عبادِه وَعدًا وفى به)[1293]، وقال الشِّنقيطيُّ: (مما يُبيِّنُ من القرآنِ شِدَّةَ صِدقِه في وعدِه: أنَّه وعَد أباه بصَبرِه له على ذبحِه، ثمَّ وفى بهذا الوَعدِ، ومن وفى بوَعدِه في تسليمِ نفسِه للذَّبحِ، فإنَّ ذلك من أعظَمِ الأدِلَّةِ على عظيمِ صِدقِه في وعدِه، قال تعالى: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات: 102]، فهذا وعدُه، وقد بَيَّنَ تعالى وفاءَه به في قولِه: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ [الصافات: 103])[1294].

ب- الصِّدقُ عِندَ الأمَمِ السَّابقةِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: "انطلق ثلاثةُ رهطٍ ممَّن كان قبلَكم حتَّى أوَوا المبيتَ إلى غارٍ، فدخلوه، فانحدَرَت صَخرةٌ من الجَبَلِ فسَدَّت عليهم الغارَ، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصَّخرة إلَّا أن تَدْعوا اللهَ بصالحِ أعمالِكم. فقال رجُلٌ منهم: اللَّهمَّ كان لي أبوانِ شيخانِ كبيرانِ، وكُنتُ لا أَغبِقُ قَبْلَهما أهلًا ولا مالًا، فنأى بي في طَلَبِ شيءٍ يومًا، فلم أُرِحْ عليهما حتَّى ناما، فحَلَبْتُ لهما غَبوقَهما فوجَدْتُهما نائمَينِ، وكَرِهتُ أن أَغبِقَ قَبْلَهما أهلًا أو مالًا، فلَبِثتُ والقَدَحُ على يَديَّ أنتَظِرُ استيقاظَهما حتى بَرَق الفَجرُ، فاستيقَظا فشَرِبا غَبوقَهما، اللَّهُمَّ إنْ كنتُ فعَلْتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِك، ففرِّج عنَّا ما نحن فيه من هذه الصَّخرةِ، فانفرجَت شيئًا لا يستطيعونَ الخروجَ ... وقال الثَّالِثُ: اللَّهمَّ إنِّي استأجرتُ أُجَراءَ، فأعطيتُهم أجرَهم غيرَ رَجُلٍ واحدٍ ترك الذي له وذهَب، فثمَّرتُ أجرَه حتى كَثُرت منه الأموالُ، فجاءني بعدَ حينٍ، فقال: يا عبدَ اللهِ، أدِّ إليَّ أجري، فقُلتُ له: كلُّ ما ترى من أجرِك من الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ والرَّقيقِ! فقال: يا عبدَ اللهِ، لا تستهزِئْ بي! فقُلتُ: إنِّي لا أستهزئُ بك، فأخذَه كُلَّه، فاستاقه، فلم يترُكْ منه شيئًا"[1295].

فهذا الحديثُ يُبيِّنُ أنَّ الصِّدقَ في الأقوالِ والأفعالِ كان سببًا في نجاةِ هؤلاء الثَّلاثةِ.

ج- نماذِجُ مِن صِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إمامِ الصَّادِقين:

- الرَّسولُ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم كان أصدَقَ النَّاسِ وأبَرَّهم وأكمَلَهم عِلمًا وعَمَلًا وإيمانًا وإيقانًا، معروفًا بالصِّدقِ في قومِه، لا يَشُكُّ في ذلك أحدٌ منهم؛ ولهذا لمَّا سأل هِرَقلُ مَلِكُ الرُّومِ أبا سفيانَ عن تلك المسائلِ التي سألها من صفةِ رسولِ اللهِ

[1293] ((جامع البيان)) لابن جرير (561/15)، ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (115/11)، ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (238/5، 239)، ((تفسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 496).

[1294] ((أضواء البيان)) للشنقيطي (437/3)

[1295] أخرجه البخاري (2272) واللفظ له، ومسلم (2743)

صلَّى الله عليه وسلَّم، كان فيما قال له: "وسألتُك: هل كنتُم تتَّهمونه بالكَذِبِ قَبلَ أن يقولَ ما قال؟ فزَعَمْتَ أنْ: لا. فقد عرَفْتُ أنَّه لم يكُنْ لِيَدعَ الكَذِبَ على النَّاسِ ثمَّ يذهَبَ فيَكذِبَ على اللَّهِ"[1296].[1297]

وصِدْقُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: (ممَّا أقرَّ له به أعداؤه المحاربون له، ولم يجرِّبْ عليه أحدٌ من أعدائِه كَذبةً واحدةً قطُّ، دَعْ شهادةَ أوليائِه كُلِّهم له به، فقد حاربه أهلُ الأرضِ بأنواعِ المحارَباتِ؛ مُشرِكوهم وأهلُ الكتابِ منهم، وليس أحدٌ منهم يومًا من الدَّهرِ طَعَن فيه بكَذبةٍ واحدةٍ صَغيرةٍ ولا كبيرةٍ)[1298].

-وقد روى البخاريُّ من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: ((لمَّا نزَلتْ: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: 214]، صَعِد النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّم على الصَّفا، فجعَلَ يُنادي: "يا بَني فِهرٍ، يا بَني عَدِيٍّ -لِبُطونِ قُريشٍ- حتَّى اجتَمعوا، فجَعَل الرَّجلُ إذا لم يَستطِعْ أنْ يَخرُجَ أرسَل رَسولًا ليَنظُرَ ما هو، فجاءَ أبو لَهَبٍ وقُريشٌ، فقال: أرأيتَكُم لو أخبرْتُكم أنَّ خيلًا بالوادي تُريدُ أنْ تُغيرَ عليكم، أكُنْتُم مُصَدِّقيَّ؟! قالوا: نعَمْ، ما جرَّبْنا عليك إلَّا صِدْقًا، قال: فإنِّي نَذيرٌ لكم بينَ يَديْ عَذابٍ شَديدٍ. فقال أبو لَهَبٍ: تبًّا لك سائِرَ اليومِ، ألهذا جمَعْتَنا؟! فنزَلتْ: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد: 1- 2]"[1299].

د- نماذِجُ مِن صِدقِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم:

- **صدق أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه:**

كان أبو ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه صادِقَ اللَّهجةِ[1300]؛ فقد قال عنه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "ما أقلَّتِ الغَبراءُ ولا أظَلَّتِ الخَضراءُ من رجُلٍ أصدَقَ لهجةً من أبي ذَرٍّ"[1301].

- **صِدقُ بِلالٍ:**

وخطب بِلالٌ على أخيه امرأةً من بني حِسلٍ من قُرَيشٍ، وقال: "نحن من قد عرَفتُم، كُنَّا عبدَينِ فأعتَقَنا اللهُ، وكُنَّا ضالَّينِ فهدانا اللهُ، وفقيرينِ فأغنانا اللهُ، وأنا أخطُبُ على أخي خالدٍ فُلانةَ، فإن تَنكِحوه فالحمدُ للهِ، وإن تردُّوه فاللهُ أكبَرُ، فأقبَل بعضُهم على بعضٍ فقالوا: هو بلالٌ، وليس مِثلُه يُدفَعُ، فزوَّجوا أخاه. فلمَّا انصَرَفْنا قال خالِدٌ لبلالٍ: يغفِرُ اللهُ لك! ألَا ذكَرْتَ سوابِقَنا ومشاهِدَنا مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم! قال بلالٌ: مَهْ! صدَقْتَ فأنكَحَك الصِّدقُ!"[1302].

المطلب الحادي عشر: أثرُ الصِّدقِ في نَجاحِ الدَّعْوَة

"لِلصِّدْقِ أَثَرُهُ البالغ في مَسِيرَةِ الدَّاعِيَةِ، فَصِدْقُ كَلَامِهِ وَسَمْتُهُ وَحَرَارَةُ عَاطِفَتِهِ تُؤَثِّرُ فِي الْمَدْعُوِّينَ وَتَتْرُكُ فِيهِمْ انْطِبَاعًا عَمِيقًا بِمَصْدَاقِيَةِ الْفِكْرَةِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا وَيُؤْمِنُ بِهَا. وَلِلصِّدَقِ أَثَرُهُ الْحَمِيدُ فِي تَآلُفِ وَتَقَارُبِ الْقُلُوبِ عَلَى عَكْسِ الْكَذِبِ الَّذِي يَزْرَعُ الضَّغِينَةَ وَيُورِثُ الرِّيبَةَ بِفِعْلِ التَّلَوُّنِ الَّذِي يَتَّصِفُ بِهِ الْكَاذِبُ. وَمَتَى تَأَلَّفَتِ الْقُلُوبُ وَتَصَافَتْ وَاجْتَمَعَتْ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ،

[1296] أخرجه مطوَّلًا البخاري (7)، ومسلم (1773) واللفظ له.

[1297] يُنظَر: ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (605/4)

[1298] يُنظَر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: 183)

[1299] أخرجه البخاري (4770) واللفظ له، ومسلم (208)

[1300] اللَّهجةُ: هي لغةُ الإنسانِ التي جُبِل عليها فاعتادها. ومعنى صادِقِ اللَّهجةِ: أنَّه لا يذهَبُ إلى التوريةِ والمعاريضِ في الكلامِ، فلا يُرخي عِنانَ كلامِه، ولا يحابي مع النَّاسِ ولا يسامِحُهم، ويظهِرُ الحَقَّ البحتَ، والصِّدقَ المحْضَ. يُنظَر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (206/10)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (2041/3)

[1301] رواه الترمذي (3801)، وابن ماجه (156) واللفظ له، وأحمد (6630) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما. صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (156)، وحسَّنه الترمذي، وحسَّنه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (6630)

[1302] يُنظَر: ((الطبقات الكبير)) لابن سعد (3/ 218)، ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (4/ 72)، ((التذكرة الحمدونية)) لابن حمدون (3/ 78)

سَرَتِ الدَّعْوَةُ فِي الْمُجْتَمَعِ سَرَيَانِ الْمَاءِ فِي الزَّرْعِ، فَأَمَدَّتْهُ بِالْحَيَاةِ، وَنَمَا فِي الْمُجْتَمَعِ الْإِيمَانُ، وَاسْتَوْثَقَتْ عُرَاهُ وَارْتَفَعَتْ أَعْلَامُهُ".[1303]

وَتَجْدُرُ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الثِّقَةَ فِي الدُّعَاةِ وَالْعُلَمَاءِ تَعْتَمِدُ عَلَى النَّزَاهَةِ وَالشَّفَافِيَّةِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ لذا عَلَيهِم أَنْ يَكُونُوا عَلَى درَايَةٍ بِالْمَسئوليةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَقَعُ عَلَى عَاتِقِهِمْ فِي الْحِفَاظِ عَلَى سُمْعَةِ الدِّينِ وَاجْتِنَابِ مَا قد يَتَسَبَّبُ فِي فِقْدانِ الثِّقَةِ بَيْنَهُم وبَيْنَ الْمَدْعُوِّينَ.

إِنَّ الصِّدْقَ يَزْرَعُ فِي النُّفُوسِ الثِّقَةَ وَالطَّمَأْنِينَةَ وَالرَّاحَةَ وَالْأَنْس، وَمَتَى وَثِقَ النَّاسُ فِي الدَّاعِي لِصِدْقِهِ فَتَحُوا لَهُ الْقُلُوبَ، فَاسْتَمَعُوا إِلَيْهِ إِذَا تَحَدَّثَ، وَقَبِلُوا إِرْشَادَهُ وَتَوْجِيهَهُ إِذَا وَجَّهَ وَأَرْشَدَ وَبَيَّنَ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ يَسْأَلُونَ وَيَسْتَفْتُونَ، وَحَصَلَ التَّوَاصُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَهِيَ نِعْمَةٌ لَا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ وَلَا تَحْصُلُ إِلَّا بِفَضْلِ اللَّهِ ثُمَّ بِفَضْلِ الصِّدْقِ، وَنَقَاءِ الصَّفْحَةِ، وَخُلُوِّ السِّيرَةِ مِنْ مَسَارِ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ.[1304]

[1303] مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة. الشيخ سعيد بن علي القحطاني.

[1304] انظر أصول الدعوة وطرقها للدكتور عبد الرب بن نواب، 128/2

المبحث الثالث: الإحسان

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله:

"ومن الأسباب التي تزيل الهم والغم والقلق: الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل، وأنواع المعروف. وكلها خير وإحسان، وبها يدفع الله عن البر والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب لثوابه"[1305].

المطلبُ الأولُ: مَعْنَى الإحْسَان

- **معنى الإحسان لغةً:**

الإحسانُ ضِدُّ الإساءةِ، وهو فِعلُ ما ينبغي أن يُفعَلَ من الخيرِ، وهو مصدَرُ أحسَنَ، أي: جاء بفعلٍ حسَنٍ، ويُقالُ على معنيينِ؛ أحَدُهما: متعَدٍّ بنفسِه، كقولِك :أحسَنْتُ كذا: إذا حسَّنْتَه وكَمَّلْتَه. وثانيهما: متعَدٍّ بحَرفِ جَرٍّ، كقَولِك: أحسَنْتُ إلى كذا، أي: أوصَلْتُ إليه ما ينتفِعُ به[1306].

- **ومَعْناهُ اصطلاحًا:**

قال الكَفَويُّ: „الإحسانُ: هو فِعلُ ما ينفَعُ غيرَه بحيثُ يَصِيرُ الغيرُ حَسَنًا به، كإطعامِ الجائعِ، أو يصيرُ الفاعِلُ به حَسَنًا بنفسِه".[1307]

وقال الرَّاغبُ: „الإحسانُ فوقَ العَدلِ، وذاك أنَّ العَدلَ هو أن يُعطيَ ما عليه، والإحسانُ أن يُعطِيَ أكثَرَ مما عليه، ويأخُذَ أقَلَّ ممَّا له؛ فالإحسانُ زائدٌ على العَدلِ، فتحرّي العدلِ واجبٌ، وتحرّي الإحسانِ ندبٌ وتطوُّعٌ".[1308]

وقال السَّعديُّ: „هو بذلُ جميعِ المَنافِعِ من أيّ نوعٍ كان، لأيّ مخلوقٍ يكونُ".[1309]

وَالْإِحْسَانُ هُوَ مُرَاقَبَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وَفِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَهُوَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ، وَابْتِغَاءُ مَرْضَاةِ اللَّهِ.

المطلب الثاني: الفَرق بَيْنَ الإحسانِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الإحسانِ والإنعامِ:**

(أنَّ الإحسانَ يكونُ لنَفسِ الإنسانِ ولغيرِه؛ تقولُ: أحسَنْتُ إلى نفسي. والإنعامُ لا يكونُ إلَّا لغيرِه)[1310]. فالإحسانُ أعَمُّ من الإنعامِ[1311].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الإحسانِ والإفضالِ:**

[1305] الوسائل المفيدة، ص: 18

[1306] يُنظَر: تهذيب اللغة للأزهري4/182، الفروق اللغوية للعسكري ص: 193، لسان العرب لابن منظور 13/117، التعريفات للجرجاني ص: 12، تاج العروس للزبيدي 34/418

[1307] الكليات ص: 53

[1308] المفردات في غريب القرآن ص: 236-237

[1309] بهجة قلوب الأبرار ص 142

[1310] ((لسان العرب)) لابن منظور (114/13)

[1311] ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروز آبادي (68/2)

(أنَّ الإحسانَ: النَّفعُ الحَسَنُ. والإفضالَ: النَّفعُ الزَّائدُ على أقَلِّ المقدارِ، وقد خُصَّ الإحسانُ بالفَضلِ، ولم يجِبْ مِثلُ ذلك في الزِّيادةِ؛ لأنَّه جرى مجرى الصِّفةِ الغالبةِ)[1312].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الإحسانِ والفَضلِ:**

(أنَّ الإحسانَ قد يكونُ واجِبًا وغيرَ واجِبٍ، والفضلُ لا يكونُ واجِبًا على أحَدٍ، وإنَّما هو ما يتفضَّلُ به من غيرِ سَبَبٍ يُوجِبُه)[1313].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الإحسانِ والنَّفعِ:**

(أنَّ النَّفعَ قد يكونُ من غيرِ قَصدٍ، والإحسانُ لا يكونُ إلَّا مع القصدِ؛ تقولُ: ينفعُني العدُوُّ بما فعله بي: إذا أراد ضَرًّا، فوقع نفعًا، ولا يُقالُ: أحسَنَ إليَّ في ذلك)[1314].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الإحسانِ والإجمالِ:**

(أنَّ الإجمالَ هو الإحسانُ الظَّاهِرُ؛ من قَولِك: رجُلٌ جميلٌ، كأنَّما يجري فيه السَّمنُ، وأصلُ الجميلِ: الوَدَكُ[1315]، واجتمَلَ الرَّجُلُ: إذا طبخ العِظامَ ليُخرِجَ وَدَكَها. ويُقالُ: أحسَنَ إليه، فيُعدَّى بـ (إلى)، وأجمَلَ في أمرِه؛ لأنَّه فَعَل الجميلَ في أمرِه. ويُقالُ: أنعَمَ عليه؛ لأنَّه دخَلَه معنى عُلُوِّ نِعَمِه عليه، فهي غامرةٌ له، ولذلك يُقالُ: هو غريقٌ في النِّعمةِ، ولا يُقالُ: غريقٌ في الإحسانِ والإجمالِ. ويُقالُ: أجمَلَ الحسابَ، فيُعَدَّى ذلك بنَفسِه؛ لأنَّه مُضمَّنٌ بمفعولٍ يُنبِئُ عنه من غيرِ وسيلةٍ، وقد يكونُ الإحسانُ مِثلَ الإجمالِ في استحقاقِ الحمدِ به، وكما يجوزُ أن يحسِنَ الإنسانُ إلى نفسِه يجوزُ أن يُجمِلَ في فعلِه لنَفسِه)[1316].

المطلب الثالث: التَّرغيبُ في الإحْسَانِ والحثُّ عليه

أ. الإحسان في القرآن الكريم:

1- قال اللهُ سُبحانَه: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90].

قرأ الحسَنُ البصريُّ هذه الآيةَ، ثمَّ وقف فقال: "إنَّ اللهَ جمع لكم الخيرَ كُلَّه والشَّرَّ كُلَّه في آيةٍ واحدةٍ؛ فواللهِ ما ترك العَدلُ والإحسانُ شيئًا من طاعةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ إلَّا جمَعَه، ولا ترك الفحشاءُ والمُنكَرُ والبَغيُ من معصيةِ اللهِ شيئًا إلَّا جمَعَه".[1317]

وقال السَّعديُّ: "الإحسانُ فضيلةٌ مُستحَبٌّ، وذلك كنَفعِ النَّاسِ بالمالِ والبَدَنِ والعِلمِ، وغيرِ ذلك من أنواعِ النَّفعِ، حتَّى إنَّه يدخُلُ فيه الإحسانُ إلى الحيوانِ البهيمِ المأكولِ وغيرِه".[1318]

2- وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ} [البقرة: 83]، أي :,,أَحسِنوا بالوالِدَين إحسانًا، وهذا يعُمُّ كُلَّ إحسانٍ قوليٍّ وفِعليٍّ ممَّا هو إحسانٌ إليهم، وفيه النَّهيُ عن الإساءةِ إلى الوالِدَين؛ لأنَّ الواجِبَ الإحسانُ، والأمرُ بالشَّيءِ نهيٌ عن ضدِّه.

[1312] ((معجم الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص: 23)

[1313] المصدر السابق (ص: 24)

[1314] ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص: 193-194)

[1315] الوَدَكُ: الدَّسمُ أو دَسمُ اللَّحمِ. يُنظَر: ((المعجم الوسيط)) (1022/2)

[1316] ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص: 194)

[1317] حلية الأولياء لأبي نعيم 2/158

[1318] تيسير الكريم الرحمن ص: 447

وللإحسانِ ضِدَّان: الإساءةُ، وهي أعظَمُ جُرمًا، وتركُ الإحسانِ بدونِ إساءةٍ، وهذا محرَّمٌ، لكِنْ لا يجِبُ أن يُلحَقَ بالأوَّلِ، وكذا يُقالُ في صِلةِ الأقاربِ واليتامى والمساكينِ، وتفاصيلُ الإحسانِ لا تنحَصِرُ بالعَدِّ، بل تكونُ بالحَدِّ.

وقد أمر اللهُ في القرآنِ بالإحسانِ إلى النَّاسِ عُمومًا، فقال:{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}، ومن القَولِ الحَسَنِ: أمرُهم بالمعروفِ، ونهيُهم عن المُنكَرِ، وتعليمُهم العِلمَ، وبذلُ السَّلامِ، والبَشاشةُ، وغيرُ ذلك من كُلِّ كلامٍ طَيِّبٍ.

ولَمَّا كان الإنسانُ لا يسَعُ النَّاسَ بمالِه، أُمِر بأمرٍ يَقدِرُ به على الإحسانِ إلى كُلِّ مخلوقٍ، وهو الإحسانُ بالقولِ، فيكونُ في ضِمنِ ذلك النَّهيُ عن الكلامِ القبيحِ للنَّاسِ حتَّى للكُفَّارِ".[1319]

وفي قَولِه تعالى: „وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا" قاعدةٌ شرعيَّةٌ عامَّةٌ في أقوالِ النَّاسِ، وفي كلامِ بعضِهم مع بعضٍ، لفظًا ومعنًى، أُسلوبًا ومضمونًا، لو اتَّبعوها لعادت عليهم بَرَكَاتُهَا راحةً وسلامًا في الدُّنيا والآخرةِ [1320]، ومِثلُه قولُه تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ} [الإسراء: 53]

3- وقال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: 77].

قال الشَّوكانيُّ في تفسيرِ قَولِه: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}: „أي: أحسِنْ إلى عبادِ اللهِ كما أحسَن اللهُ إليك بما أنعَم به عليك من نِعَمِ الدُّنيا".[1321]

4- وقال تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرَّحمن: 60].

فالجزاءُ من جِنسِ العمَلِ، يعني: „هل جزاءُ العَمَلِ الصَّالحِ الذي أحسَنَ فيه صاحبُه إلَّا الإحسانُ بالثَّوابِ".[1322]

وهذا كلامٌ عامٌّ في كُلِّ إحسانٍ من الإنسانِ، سواءٌ كان إلى نفسِه أو إلى الغيرِ؛ فإنَّه يُجازَى عليه من اللهِ بإحسانِ الأجرِ والثَّوابِ.[1323]

5- وقال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: 134].

قال ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ قَولِه تعالى: "وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ"، أي: لا يُعمِلون غضَبَهم في النَّاسِ، بل يكفُّون عنهم شَرَّهم، ويحتَسِبون ذلك عِندَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ثمَّ قال تعالى: "وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ" أي: مع كَفِّ الشَّرِّ يعفون عمَّن ظلَمَهم في أنفُسِهم، فلا يبقى في أنفُسِهم مَوجِدةٌ على أحَدٍ، وهذا أكمَلُ الأحوالِ؛ ولهذا قال: "وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" فهذا من مقاماتِ الإحسانِ.[1324]

6- وقال تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: 56]، وفيه تحريضٌ على الإحسانِ وترغيبٌ فيه، وَوَجْهُ ذلك: أنَّ قُربَه تبارك وتعالى من المحسِنين وقُربَ رحمتِه منهم متلازمانِ، وقربُ اللهِ تعالى من عَبدِه هو غايةُ الأماني ونهايةُ الآمالِ؛ فإذا كانت رحمتُه قريبةً منهم، فهو أيضًا قريبٌ منهم سُبحانَه بسببِ إحسانِهم، وكُلَّما كان العبدُ أكثَرَ إحسانًا كان

[1319] يسير الكريم الرحمن للسعدي ص: 57

[1320] يُنظَر: الأخلاق الفاضلة لعبد اللهِ بن ضيف الله الرحيلي ص: 41

[1321] فتح القدير 4/261

[1322] فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام لابن عثيمين 1/431

[1323] يُنظَر: مفاتيح الغيب للرازي 29/377

[1324] تفسير القرآن العظيم 2/122

أقرَبَ إلى رحمةِ رَبِّه تعالى، وكان ربُّه قريبًا منه برحمتِه، والجزاءُ من جنسِ العَمَلِ، فكما أحسَنُوا بأَعْمَالِهم أحسَنَ اللهُ إليهم برحمتِه.[1325]

ب. الإحسانُ في السُنةِ النبَويّة:

1- عن شَدَّادِ بنِ أوسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: „ثِنْتانِ حَفِظْتُهما عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: "إنَّ اللهَ كَتَبَ الإحسانَ على كُلِّ شيءٍ، فإذا قتَلْتُم فأحسِنُوا القِتْلةَ، وإذا ذَبَحْتُم فأحسِنُوا الذِّبحَ، ولْيُحِدَّ أحَدُكُم شَفْرَتَه، ولْيُرِحْ ذَبيحتَه" [1326]. والإحسانُ هنا هو الإحكامُ والإكمالُ، والتَّحسينُ في الأعمالِ المشروعةِ؛ فحَثَّ من شَرَع في شيءٍ منها أن يأتيَ به على غايةِ كمالِه، ويحافِظَ على آدابِه المصحِّحةِ، والمُكَمِّلةِ، وإذا فعَل ذلك قُبِل عَمَلُه، وكَثُر ثوابُه [1327]. (والحديثُ يدُلُّ على وجوبِ الإحسانِ في كُلِّ شيءٍ من الأعمالِ، لكِنْ إحسانُ كُلِّ شيءٍ بحَسَبِه، والإحسانُ الواجِبُ في معاملةِ الخَلقِ ومعاشرتِهم: القيامُ بما أوجَب اللهُ من حقوقِ ذلك كُلِّه).[1328]

وفي قولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ اللهَ كتَب الإحسانَ على كُلِّ شيءٍ" قاعِدةٌ أخلاقيَّةٌ تربويَّةٌ قويمةٌ، وقاعدةٌ أساسيَّةٌ لا يُغني عنها سِواها، ومِنْ ثَمَّ جاءت هكذا عامَّةً لِتَدْخُلَ في كُلِّ عَمَلٍ أو تَصَرُّفٍ أَخْلَاقِيٍّ يقومُ به الإنسانُ؛ فاللهُ كَتَبَ الإحسانَ في كُلِّ شيءٍ، وإذا كان الإنسانُ لا يَنْفَكُّ عِن العَمَلِ ما دام حيًّا، فإنَّ عَمَلَه يجبُ ألَّا ينفَكَّ عن الإحسانِ، وإذا كان الإنسانُ كذلك فقد أصبح على الخُلُقِ الفاضلِ القويمِ.[1329]

2- وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما قال: „أقْبَلَ رجلٌ إلى نبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أبايعُك على الهِجرةِ والجِهادِ، أبتغي الأجرَ من اللهِ، قال: فهل من والِدَيك أحدٌ حَيٌّ؟ قال: نعَمْ، بل كِلاهما. قال: فتبتغي الأجرَ من اللهِ؟ قال: نعَمْ، قال: فارجِعْ إلى والِدَيك فأحسِنْ صُحْبَتَهُما" [1330]، أي: أحسِنْ إليهما وبِرَّهما، قال النَّوويُّ: „هذا دليلٌ لِعِظَمِ فضيلةِ بِرِّهما". [1331]

3- وعن سُلَيمانَ بنِ عَمرِو بنِ الأحوَصِ، قال: „حدَّثني أبي أنَّه شَهِد حَجَّةَ الوداعِ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فحَمِد اللهَ، وأثنى عليه، وذَكَّر، ووَعَظ، فذكَر في الحديثِ قِصَّةً، فقال: "ألا واسْتَوصُوا بالنِّسَاءِ خَيرًا؛ فإنَّما هُنَّ عوانٌ عندَكم، ليس تملِكُون منهنَّ شيئًا غيرَ ذلك، إلَّا أن يأتينَ بفاحشةٍ مُبَيِّنةٍ، فإن فعَلْنَ فاهجُروهنَّ في المضاجِعِ، واضرِبوهنَّ ضَربًا غيرَ مُبَرِّحٍ، فإن أطَعْنَكُم فلا تَبْغُوا عليهنَّ سبيلًا، ألا إنَّ لَكُم على نسائِكم حَقًّا، ولنسائِكم عليكُم حقًّا؛ فأمَّا حقُّكُم على نسائِكم فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكم من تكرهون، ولا يأذَنَّ في بيوتِكم لمن تكرهون، ألا وحَقُّهنَّ عليكم أن تحسِنوا إليهنَّ في كِسْوتِهنَّ وطعامِهنَّ". [1332]

فقد أوصى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهنَّ خيرًا بالإحسانِ إليهنَّ، وأوضح أنَّ الزَّوجاتِ لهنَّ النَّفَقةُ على قَدْرِ كِفَايَتِهنَّ، من غيرِ إفراطٍ أو تفريطٍ، وكذلك أوصى النِّساءَ بالإحسانِ إلى أزواجِهنَّ؛ فالإحسانُ شامِلٌ في حَقِّ بعضِهم البعضِ.[1333]

[1325] يُنظَر: بدائع الفوائد لابن القيم 3/17

[1326] أخرجه مسلم 1955

[1327] يُنظَر: شرح النووي على مسلم 13/107، البحر المحيط الثجاج للإتيوبي33/289،290

[1328] جامع العلوم والحكم لابن رجب 383 - 1/382

[1329] يُنظَر: الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها لعبد اللهِ بن ضيف الله الرحيلي ص: 57- 58

[1330] أخرجه مسلم 2549

[1331] شرح النووي على مسلم 16/104

[1332] أخرجه الترمذي 1163 واللفظ له، وابن ماجه 1851. صحَّحه الترمذي، وابن العربي في عارضة الأحوذي 6/179، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي 1163، وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج شرح مشكل الآثار 4865

[1333] يُنظَر: التحبير لإيضاح معاني التيسير للصنعاني 1/218، تحفة الأحوذي للمباركفوري 8/483

4- وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما :„أنَّ رجلًا سأل رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الإسلامِ خيرٌ؟ قال: "تُطعِمُ الطَّعامَ، وتقرَأُ السَّلامَ على من عرَفْتَ ومَن لم تعرِفْ" [1334].

وجمَع في الحديثِ بَيْنَ إطعامِ الطَّعامِ، وإفشاءِ السَّلامِ؛ لأنَّه به يجتَمِعُ الإحسانُ بالقولِ والفعلِ، وهو أكمَلُ الإحسانِ".[1335]

5- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم :„مَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلم يعمَلْها كُتِبَت له حَسَنةً، ومن هَمَّ بحَسَنةٍ فعَمِلَها كُتِبَت له عَشرًا إلى سبعِمئةِ ضِعفٍ، ومن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلم يعمَلْها لم تُكتَبْ، وإنْ عَمِلها كُتِبَت".[1336]

والحَسَنةُ تَشمَلُ كُلَّ قَولٍ أو عَمَلٍ حَسَنٍ، ومن ذلك إحسانُ المُسلِمِ إلى غيرِه بالقَولِ أو الفِعلِ، وهذا الحديثُ وأمثالُه يدُلُّ دَلالةً شاملةً على مضاعفةِ اللهِ سُبحانَه أجرَ مَن عَمِلَ عمَلًا وأحسَنَ فيه بصفةٍ عامَّةٍ، سواءٌ أحسَن في عمَلِه أو أحسَن إلى غيرِه، ومثلُ ذلك في قولِ اللهِ تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 261].

فإنفاقُ الأموالِ في سبيلِ اللهِ إحسانٌ من العبدِ لنفسِه وإحسانٌ صادِرٌ منه إلى غيرِه، وتكونُ مضاعَفةُ الأجرِ للمُحسِنين بحسَبِ الإخلاصِ، وصِدقِ العَزمِ، وحضورِ القَلبِ، وتعدِّي النَّفعِ، والحَسَنةُ والسَّيِّئةُ هاهنا: يُقصَدُ بها كُلُّ حَسَنةٍ وكُلُّ سَيِّئةٍ، وقد قَيَّد الحسَنةَ والسَّيِّئةَ بالعَمَلِ بقَولِه: „يَعمَلُها" في بعضِ الأحاديثِ، وأطلقها في البعضِ، فيُحمَلُ المُطلَقُ على المقيَّدِ؛ لأنَّ الحسَنةَ الْمَنْوِيَّةَ لا تُكتَبُ بالعَشرِ؛ إذ لا بُدَّ من العمَلِ حتى تُكتَبَ بها، وأمَّا السَّيِّئةُ فلا اعتدادَ بها دونَ العمَلِ أصلًا.[1337]

4- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَجُلًا قالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّ لي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إليهِم وَيُسِيئُونَ إلَيَّ، وَأَحْلُمُ عنْهمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقالَ: „لَئِنْ كُنْتَ كما قُلْتَ، فَكَأنَّما تُسِفُّهُمُ [1338] المَلَّ وَلَا يَزَالُ معكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عليهم ما دُمْتَ علَى ذلكَ". [1339]

بَذلُ الإحسانِ في الأقاربِ مِن جَميلِ ما أمَرَ به الشَّرعُ والدِّينُ الإسلاميُّ، ومِن مَظاهرِ هذا التَّشريعِ أنَّه حَضَّ على صِلةِ الرَّحِمِ والبذلِ فيهم، وإنْ لم يَجِدِ الإنسانُ ما يُرْضِيه عندَ أقاربِهِ مِن الوصلِ له وحِرصِهم عليه.

ت. الإحسان في أقوالِ السَّلف الصَّالح:

- قال ابنُ حِبَّانَ: „لا سَبَبَ لتسكينِ الإساءةِ أحسَنُ من الإحسانِ" [1340]، -وقال ابنُ حِبَّانَ أيضًا: „لا يجِبُ الهُجرانُ بَيْنَ المُسلِمين عِندَ وُجودِ زَلَّةٍ من أحَدِهما، بل يجِبُ عليهما صَرفُها إلى الإحسانِ، والعَطفُ عليه بالإشفاقِ وتَركِ الهِجرانِ".[1341]

- وقال ابنُ تيميةَ: „على الإنسانِ أنْ يكونَ مقصودُه نفعَ الخلقِ، والإحسانَ إليهم مطلقًا، وهذا هو الرحمةُ التي بُعِث بها محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم في قولِه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 107]، والرحمةُ يحصلُ بها نفعُ العبادِ، فعلى العبدِ

[1334] أخرجه البخاري 28، ومسلم 39

[1335] البحر المحيط الثجاج للإثيوبي 2/88

[1336] أخرجه مسلم 130

[1337] يُنظَر: شرح صحيح البخاري لابن بطال 1/99، شرح النووي على مسلم 148/2، عمدة القاري للعيني 1/254، إرشاد الساري للقسطلاني 1/129

[1338] "فكأنَّما تُسِفُّهُم"، أي: تُطعِمُهم في أفواهِهِم المَلَّ وهو: الرَّمادُ الحارُّ، وهو تَشبيهٌ لِما يَلحَقُهُم مِن الألَمِ بما يَلحَقُ آكِلَ الرَّمادِ الحارِّ مِن الألَمِ، وقيل: معناه: إنَّك بالإحسانِ إليهم تُخزِيهم وتُحَقِّرهم في أنفُسِهم لِكثرةِ إحسانِكَ وقُبحِ فِعلِهم.

[1339] صحيح مسلم 2558

[1340] روضة العقلاء ص: 166

[1341] روضة العقلاء ص: 204

أنْ يقصِدَ الرحمةَ والإحسانَ والنَّفعَ". [1342]

- وقال ابنُ القَيِّمِ: „مِفتاحُ حُصولِ الرَّحمةِ الإحسانُ في عبادةِ الخالِقِ، والسَّعيُ في نَفعِ عَبيدِه". [1343]

- وقال أيضًا: „الإحسانُ يُفرِحُ القَلبَ، ويَشرَحُ الصَّدرَ، ويَجلِبُ النِّعَمَ، ويدفَعُ النِّقَمَ، وتركُه يوجِبُ الضَّيمَ والضِّيقَ، ويمنعُ وُصولَ النِّعمَ إليه". [1344]

- وقال ابنُ عُثَيمين: „كلَّما كنتَ في حاجةِ أخيك كان اللهُ في حاجتِك، فأكثِرْ من المعروفِ، أكثِرْ من الإحسانِ، ولا تحقِرَنَّ شيئًا ولو كان قليلًا". [1345]

المطلب الرابع: مظاهِرُ وصُوَرُ الإحسانِ

1- الإحسان مع الله:

وَهُوَ أَنْ يَسْتَشْعِرَ الْإِنْسَانُ وُجُودَ اللَّهِ مَعَهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَفِي كُلِّ حَالٍ، خَاصَّةً عِنْدَ عِبَادَتِهِ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَيَسْتَحْضِرُهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ. قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإحسان: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"[1346].

2- الإحسان إلى النَّفس:

1- يقولُ اللهُ تعالى: {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} [الإسراء: 7]، قال القُرطبيُّ في تفسيره: "(إِنْ أَحْسَنْتُمْ) فأطعتم الله وأصلحتم أمركم، ولزمتم أمره ونهيه (أَحْسَنْتُمْ) وفعلتم ما فعلتم من ذلك (لأنْفُسِكُمْ) لأنكم إنما تَنْفَعُونَ بفعلتكم ما تفعلون من ذلك أَنْفُسَكُم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الله يدفع عنكم من بَغَاكُم سوءا، ويُنَمّي لكم أموالكم، ويَزِيدَكُم إلى قوّتِكُم قوّةً، وأما في الآخرة فإن الله تعالى يثيبكم به جنانه، (وإِنْ أَسَأْتُمْ) يقول: وإن عصيتم الله وركبتم ما نهاكُم عنه حينئذ، فإلى أنفسِكُم تُسِيئُون، لِأَنَّكُم تُسْخِطُون بِذَلِكَ على أَنْفُسِكُم رَبَّكُمْ، فَيُسَلِّطَ عَلَيْكُم في الدُّنيا عَدُوَّكُم، ويُمَكِّنَ مِنْكُم مَنْ بَغَاكُم سوءًا، وَيُخَلِّدَكُم في الآخرةِ في العَذَابِ المُهِين، وقال جلّ ثناؤه „وَإِنْ أَسَأْتُمْ فلها" المعنى: فإليها كما قال بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا والمعنى: أوحى إليها."

يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يس: 65].

هَلْ تَصَوَّرتَ يومًا ذَلِكَ الْمَشْهَدَ الرَّهِيبَ وَالْمَوْقِفَ الصَّعْبَ عِنْدَمَا يَسْأَلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، وَجَلِيلَةٍ وَحَقِيرَةٍ، فَتَشْهَدُ الجَوَارِحُ، وتَعْتَرِفُ الأَعْضَاءُ بِمَا عَمِلَتْهُ مِنْ مَعَاصِي وَآثَامٍ؟

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يُخْرِسُ اللَّهُ أَفْوَاهَهُمْ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْكَلَامِ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ النُّطْقَ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْمُجَادَلَةِ وَالْمُنَاقَشَةِ الَّتِي لَمْ تَعُدْ تَنْفَعُهُمْ وَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا، فَإِذَا خُرِّسَتْ أَلْسِنَتُهُمْ وَتَجَمَّدَتْ أَفْوَاهُهُمْ وَلَمْ تَنْطِقْ؛ شَهِدَتْ عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُمْ، فَتَتَكَلَّمُ أَيْدِيهِمْ بِمَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ أَخْذِ الْحَرَامِ، وَسَرِقَةِ أَمْوَالِ النَّاسِ، وَظُلْمِ الْآخَرِينَ وَالتَّعَدِّي عَلَيْهِم، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا فَعَلُوهُ مِنْ آثَامٍ وَمُوبِقَاتٍ مَشَوْا إِلَيْهَا، وَمَارَسُوهَا.

[1342] جامع المسائل لابن تيمية- المجموعة السادسة 37 /1

[1343] حادي الأرواح ص: 69

[1344] طريق الهجرتين ص 460

[1345] شرح رياض الصالحين 4/295

[1346] أخرجه البخاري (50) واللفظ له، ومسلم (9).

وَفِي مَوْقِفٍ آخَرٍ يَشْهَدُ اللِّسَانُ نَفْسُهَ بِمَا نَطَقَ بِهِ مِنْ كَذِبٍ وَغِيبَةٍ وَنَمِيمَةٍ وَزُورٍ وَبُهْتَانٍ وَافْتِرَاءٍ، فَيَقُولُ: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، وَنَطَقْتَ بِكَذَا وَكَذَا، وَشَهِدْتَ زُورًا وَبُهْتَانًا عَلَى كَذَا وَكَذَا، يَقُولُ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النور: 24]. إِنَّهُ عَدْلُ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يُنْطِقُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتَهُمْ وَيَجْعَلُهَا شَاهِدَةً عَلَيْهِمْ، فَمَاذَا سَيَقُولُونَ حِينَمَا تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ جَارِحَةٌ مِّن جَوَارِحِهِمْ؟ وَكَيْفَ سَيَعْتَرِضُونَ أَوْ يَنْكِرُونَ حِينَمَا يَرَوْنَهَا تَشْهَدُ ضِدَّهُمْ وَتَقِفُ خَصْمًا لَهُمْ؟

وفي هَذَا الشَّأْنِ روى مسلمٌ في صَحِيحِه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- قَالَ: "كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- فَضَحِكَ، فَقَالَ: "هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟" قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ".[1347]

تِلْكَ الْأَهْوالُ العَظِيمَةُ والكُرُبَاتُ الجَسِيمَةُ لَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا مَنْ أَحْسَنَ إِلَى نَفْسِهِ بِأَنْ أَعَدَّ لِذَلِكَ الْيَومِ عُدَّتَه، وقَدَّمَ المؤَهِّلَاتِ مِنْ الإِيمَانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، أَمَّا مَنْ يَأْتِي يومَ القِيَامَةِ وَقَدْ أَسَاءَ لِنَفْسِهِ مُعْلنًا إِفْلَاسَهُ مِنْ الإِيمَانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ؛ فإنَّه يَشْقَى، وَيُكَابِدَ، وَلَوْ كَانَتْ عندَهُ الدُّنيا وَزِينَتُهَا مِنْ الأَمْوالِ وَالأَوْلَادِ، وَالجَاهِ؛ لم تُغنِ عَنْهُ وَلَمْ تَنْفَعْهُ بِشَيءٍ، يقول الله عز وجل: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه} [آل عمران: 30].

3- الإحسانُ إلى الوالِدَين:

جاءت نصوصٌ كثيرةٌ تحُثُّ على مراعاةِ حُقوقِ الوالِدَين وبرِّهما بالمعروفِ، وطاعتِهما في غيرِ معصيةِ اللهِ، وكفِّ الأذى عنهما، وإيصالِ الخيرِ إليهما، والدُّعاءِ والاستغفارِ لهما، وإنفاذِ عَهدِهما، وإكرامِ صَديقِهما؛ قال اللهُ تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: 23 – 24].

قال القُرطبيُّ: "قال العُلَماءُ: فأحقُّ النَّاسِ بعدَ الخالِقِ المنَّانِ بالشُّكرِ والإحسانِ، والتِزامِ البِرِّ والطَّاعةِ له والإذعانِ: مَن قَرَن اللهُ الإحسانَ إليه بعبادتِه وطاعتِه، وشُكرَه بشُكرِه، وهما الوالِدَان؛ فقال تعالى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} [لقمان: 14]"[1348].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ العَمَلِ أفضَلُ؟ قال: الصَّلاةُ لوقتِها. قال: قُلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: بِرُّ الوالِدَين. قال :قُلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: الجهادُ في سبيلِ اللهِ".[1349]

4- الإحسانُ بَيْنَ الزَّوجَينِ:

[1347] رواه مسلم (2969)

[1348] الجامع لأحكام القرآن 5/183

[1349] أخرجه البخاري 26، ومسلم 85

قال اللهُ تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [الروم: 21]، فإحسانُ المرأةِ عِشرةَ زَوجِها وطاعتُه والحِرصُ على رِضاه: ممَّا يوجِبُ المودَّةَ والرَّحمةَ مع زوجِها، وكذلك الزَّوجُ يُحسِنُ إلى زوجتِه، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "استوصوا بالنِّساءِ خَيرًا"، وهو من أعظَمِ أبوابِ السَّعادةِ الزَّوجيَّةِ.

وقال أيضًا :„خَيرُكم خيرُكم لأهلِه"، قال الشَّوكانيُّ: „في ذلك تنبيهٌ على أنَّ أعلى النَّاسِ رُتبةً في الخيرِ، وَأَحَقَّهُم بالاتِّصافِ به: هو من كان خيرَ النَّاسِ لأهلِه؛ فإنَّ الأهلَ هم الأحقَّاءُ بالبِشْرِ وحُسنِ الخُلُقِ، والإحسانِ، وجَلبِ النَّفعِ ودَفعِ الضُّرِّ، فإذا كان الرَّجُلُ كذلك فهو خيرُ النَّاسِ، وإن كان على العكسِ مِن ذلك فهو في الجانِبِ الآخَرِ من الشَّرِّ، وكثيرًا ما يقعُ النَّاسُ في هذه الورطةِ؛ فترى الرَّجُلَ إذا لَقِيَ أهلَه كان أسوأَ النَّاسِ أخلاقًا، وأشجَعَهم نفسًا، وأقَلَّهم خيرًا، وإذا لَقِيَ غيرَ الأهلِ من الأجانبِ لانثْ عريكتُه، وانبسَطَت أخلاقُه، وجادت نفسُه، وكَثُر خَيرُه! ولا شَكَّ أنَّ من كان كذلك فهو محرومُ التَّوفيقِ، زائغٌ عن سواءِ الطَّريقِ، نسألُ اللهَ السَّلامةَ".[1350]

وكان يُقالُ: „مَنْ قَلَّ خيرُه على أهلِه، فلا تَرْجُ خَيرَه".[1351]

5- الإحسانُ إلى الأرحامِ:

صِلةُ الرَّحِمِ من أفضَلِ الطَّاعاتِ التي يتقَرَّبُ بها العبدُ إلى رَبِّه، وقد أمر اللهُ تعالى بها، وبَيَّن أنَّ وَصْلَها موجِبٌ للمثوبةِ، وقد ورد الحثُّ على صلةِ الرَّحِمِ فيما لا يُحصَى من النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ، ولم يَرِدْ لها ضابطٌ؛ فالمعَوَّلُ على العُرفِ، وهو يختَلِفُ باختلافِ الأشخاصِ والأحوالِ والأزمنةِ، والواجِبُ منها ما يُعَدُّ به في العُرفِ واصلًا، وما زاد فهو من الإحسانِ والتَّفضُّلِ والمكرُمةِ، وأظهَرُها معاودتُهم، وتفقُّدُ أحوالِهم، وزيارتُهم، والتلطف إليهم بِطِيبِ الكَلَامِ، وإعانتُهم على الخيرِ، وبذلُ الصَّدَقاتِ في فُقَرائِهم، والهدايا لأغنيائِهم، قال اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1].

ففي هذه الآيةِ أخبر اللهُ سُبحانَه بأنَّه خلَق النَّاسَ من نفسٍ واحدةٍ، وأنَّه بثَّهم في أقطارِ الأرضِ، مع رجوعِهم إلى أصلٍ واحدٍ، وذلك لتَعطِفَ قلوبُ النَّاسِ بعضِهم على بعضٍ بالإحسانِ، ولترقيقِ بعضِهم على بعضٍ، وقَرَن سُبحانَه الأمرَ بتقواه بالأمرِ ببِرِّ الأرحامِ والنَّهي عن قطيعتِها؛ ليؤكِّدَ هذا الحَقَّ، وأنَّه كما يلزمُ القيامُ بحَقِّ اللهِ تعالى بإحسانٍ، كذلك يجِبُ القيامُ بحقوقِ الخَلقِ -والأقربينَ منهم خاصَّةً- بإحسانٍ؛ فالقيامُ بحُقوقِهم هو من حَقِّ اللهِ عزَّ وجَلَّ الذي أمَر به، وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ليس الواصِلُ بالمكافِئِ، ولكِنَّ الواصِلَ الذي إذا قُطِعَت رَحِمُه وصَلَها" [1352]، أي: إذا أساء إليه أقارِبُه أحسَنَ إليهم ووصَلَهم، وهذا من بابِ الحثِّ على مكارمِ الأخلاقِ [1353].

6- الإحسانُ إلى الجارِ:

قال اللهُ تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ} [النساء: 36]، فَأَمَرَ اللهُ بالإحسانِ إلى الجيرانِ، وعن أبي شُرَيحٍ الخُزاعيِّ رَضِيَ اللهُ

[1350] نيل الأوطار 246،245/6

[1351] بهجة المجالس لابن عبد البر 2/189

[1352] أخرجه البخاري 5991 من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما.

[1353] يُنظَر: مرقاة المفاتيح للقاري 3086/7، منار القاري لحمزة محمد قاسم 242/5

عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "من كان يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيُحسِنْ إلى جارِه" [1354]، وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "ما زال يُوصِيني جِبريلُ بالجارِ، حتَّى ظنَنْتُ أنَّه سيُوَرِّثُه"[1355].

قال الذَّهبيُّ: "إنما جاء الحديثُ في هذا الأسلوبِ للمبالغةِ في حِفظِ حُقوقِ الجارِ وعَدَمِ الإساءةِ إليه؛ حيث أنزله الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منزلةَ الوارثِ؛ تعظيمًا لحقِّه، ووجوبِ الإحسانِ إليه، وعَدَمِ الإساءةِ إليه بأيِّ نوعٍ من أنواعِ الأذى"[1356]، ويكونُ الإحسانُ إليه: بالسَّلامِ عليه، واحترامِه، وطَلاقةِ الوَجهِ عِندَ لقائِه، وبَذلِ الخيرِ والمعروفِ فيه، وزيارتِه وتفقُّدِ أحوالِه.[1357]

7- الإحسانُ إلى اليتامى[1358] والمساكينِ:

قال اللهُ تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ} [النساء: 36]، وهذا يشمَلُ كُلَّ أنواعِ الإحسانِ القَوليَّةِ والفِعليَّةِ، وهو لليتامى بالمحافظةِ على أموالِهم، وكَفالةِ عَيشِهم، وصيانةِ حُقوقِهم، وتأديبِهم وتربيتِهم بالحُسنى، والمسحِ على رُؤوسِهم، والإحسانُ للمَساكينِ يكونُ بسَدِّ جوعِهم، وسَترِ عورتِهم، وعَدَمِ احتقارِهم وازدرائِهم، وعدمِ المِساسِ بهم بسوءٍ، وإيصالِ النَّفعِ إليهم بما يستطيعُ.

8- الإحسانُ إلى الأجيرِ والخادِمِ:

الأُخُوَّةُ الإيمانيَّةُ والإنسانيَّةُ هي العامِلُ المشتَرَكُ الذي يربِطُ بَيْنَ المُسلِمِ وأخيه المُسلِمِ، لا فَرْقَ في ذلك بَيْنَ عربيٍّ وأعجميٍّ، أو أبيضَ أو أسودَ، أو خادِمٍ أو مخدومٍ، من هذا المنطَلَقِ جاءت تعاليمُ الدِّينِ الإسلاميِّ عَبْرَ كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مؤكِّدةً على حُسنِ معاملةِ الخادِمِ وإكرامِه في شتَّى مناحي الحياةِ من مأكَلٍ ومشرَبٍ ومَسكَنٍ، بشكلٍ يحافِظُ على إنسانيَّتِه، ويكفُلُ له حقوقَه.

يقولُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „إخوانُكم خَوَلُكم [1359]، جعَلَهم اللهُ تحتَ أيديكم، فمن كان أخوه تحتَ يَدِه فلْيُطعِمْه ممَّا يأكُلُ، وَلْيُلبِسْه ممَّا يَلبَسُ، ولا تُكَلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإن كَلَّفْتُمُوهم فأعينوهم"[1360].

9- الإحسانُ في المعامَلاتِ التِّجاريَّةِ:

أمَر اللهُ تعالى بالعَدلِ والإحسانِ جميعًا، والعَدلُ سَبَبُ النَّجاةِ، وهو يجري من التِّجارةِ مجرى سلامةِ رأسِ المالِ، والإحسانُ سببُ الفوزِ ونَيلِ السَّعادةِ، وهو يجري من التِّجارةِ مجرى الرِّبحِ، ولا يُعَدُّ من العقلاءِ من قَنِع في معاملاتِ الدُّنيا برأسِ مالِه، فكذا في معاملاتِ الآخِرةِ!

ولا ينبغي للمتدَيِّنِ أن يقتَصِرَ على العدلِ واجتنابِ الظُّلمِ، ويَدَعَ أبوابَ الإحسانِ، وقد قال اللهُ تعالى: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [القصص: 77]، وقال عزَّ وجَلَّ: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} [النحل: 90]، وقال سُبحانَه: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: 56].

[1354] أخرجه البخاري6019، ومسلم 48 واللفظ له.

[1355] أخرجه البخاري 6014 واللفظ له، ومسلم 2624

[1356] حق الجار ص: 24

[1357] يُنظَر: التحفة الربانية في شرح الأربعين النووية لإسماعيل الأنصاري ص: 35

[1358] جمعُ يتيمٍ، وهو من فَقَد أباه قبلَ البلوغِ. يُنظَر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 5/291

[1359] أي: خَدَمُكم أو عبيدُكم الذين يتخوَّلون الأمورَ، أي: يُصلِحونها. يُنظَر: إرشاد الساري للقسطلاني 1/116

[1360] أخرجه البخاري 30 واللفظ له، ومسلم 1661 من حديثِ أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه.

وَيَنَالُ المعامِلُ رُتبةَ الإحسانِ بواحدٍ مِن سِتَّةِ أُمورٍ:

الأوَّلُ: في المغابَنةِ أو الغَبنِ [1361]، فينبغي ألَّا يَغبِنَ أحدُ طَرَفي البيعِ صاحِبَه بما لا يُتغابَنُ به في العادةِ، فأمَّا أصلُ المغابنةِ فمأذونٌ فيه؛ لأنَّ البيعَ للرِّبحِ، ولا يمكِنُ ذلك إلَّا بغَبنٍ، ولكِنْ يُراعى فيه التَّقريبُ.

الثَّاني: في احتمالِ الغَبنِ: المُشتري إن اشترى طعامًا من ضعيفٍ أو شيئًا من فقيرٍ، فلا بأسَ أن يحتَمِلَ الغَبنَ ويتساهَلَ، ويكونَ به مُحسِنًا وداخلًا في قولِه عليه السَّلامُ: „رَحِم اللهُ سَهْلَ البيعِ وسَهْلَ الشِّراءِ“.[1362]

الثَّالِثُ: في استيفاءِ الثَّمَنِ وسائِرِ الدُّيونِ، والإحسانُ فيه: مرَّةً بالمسامحةِ وحَطِّ البعضِ، ومرَّةً بالإمهالِ والتَّأخيرِ، ومرَّةً بالمساهَلةِ في طَلَبِ جودةِ النَّقد.

الرَّابعُ: في تَوْفِيَةِ الدَّينِ، وَمِنْ الإحسانِ فيه حُسْنُ القضاءِ، وذلك بأن يمشيَ المدينُ إلى صاحِبِ الحقِّ، ولا يكلِّفَه أن يمشيَ إليه يتقاضاه؛ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „خَيرُكم أحسَنُكم قضاءً“[1363]، وإذا ما قَدَر المَدينُ على قضاءِ الدَّينِ فلْيبادِرْ إليه ولو قَبْلَ وقتِه، وإن عجَز فليَنْوِ قضاءَه، ولو أتى صاحِبُ الحقِّ إلى المَدينِ فلْيتحَمَّلْه وليُقابِلْه باللُّطفِ.

الخامِسُ: أن يُقيلَ مَن يَستقيلُه؛ قال رسول الله صلى لله عليه وسلم: „من أقال مُسلِمًا أقاله اللهُ عَثرتَه يومَ القيامةِ“.[1364]

وصورةُ إقالةِ البيعِ: إذا اشترى أحدٌ شيئًا من آخرٍ، ثمَّ نَدِم على شرائِه؛ إمَّا لظُهورِ الغَبنِ فيه، أو لِزَوالِ حاجتِه إليه، أو لانعدامِ الثَّمَنِ، فرَدَّ المبيعَ على البائِعِ، وقَبِل البائعُ رَدَّه- أَزَالَ اللهُ مَشقَّتَه وعَثرتَه يومَ القيامةِ؛ لأنَّه إحسانٌ منه على المُشتري؛ ولأنَّ البيعَ كان قد بُتَّ، فلا يستطيعُ المُشتري فَسْخَه، فكان الجزاءُ من جنسِ العَمَلِ؛ لأنَّه لَمَّا مَنَّ على أخيه المُسلِمِ بعد أن ثبَت البيعُ واستقَرَّ، فأعاد إليه مالَه وأرجَع سِلعَتَه، فاللهُ عزَّ وجَلَّ أكرمُ من عبدِه؛ فيَمُنُّ عليه جَلَّ وعلا في يومٍ يحتاجُ إليه.

والناسُ عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالم يأخذ فوق حقّه، ومقتصدٌ يأخذ بقدرِ حقِّه، ومحسنٌ يعفو ويترك حقَّه.[1365]

السَّادِسُ: أن يقصِدَ في معاملتِه جماعةً من الفُقَراءِ بالنَّسيئةِ، وهو في الحالِ عازِمٌ على ألَّا يُطالِبَهم إن لم يظهَرْ لهم مَيسَرةٌ، وكان من السَّلَفِ من يقولُ لفقيرٍ: خُذْ ما تريدُ، فإن يَسُرَ لك فاقْضِ، وإلَّا فأنت في حِلٍّ منه وسَعَةٍ!

10- الإحسانُ إلى المسيءِ:

(ومن أجَلِّ أنواعِ الإحسانِ: الإحسانُ إلى من أساء إليك بقَولٍ أو فعلٍ؛ قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: 34 – 35].

ومن كانت طريقتُه الإحسانَ، أحسَنَ اللهُ جَزاءَه: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن: 60]).[1366]

قال ابنُ القيِّمِ في ذلك: „هذه الدَّرَجةُ أعلى ممَّا قَبْلَها وأصعَبُ؛ فإنَّ الأُولى تتضَمَّنُ تركَ المقابلةِ والتَّغافلَ، وهذه تتضَمَّنُ الإحسانَ إلى من أَساءَ إليك، ومعامَلَتَه بضِدِّ ما عاملك به، فيكونُ الإحسانُ والإساءةُ بَينَك وبَينَه خِطَّتَينِ، فخِطَّتُك:

[1361] وهو في البيع: أن يشتريَ المرءُ بأكثَرَ من القيمةِ بكثيرٍ، فيُغبَنَ المشتري، أو يبيعَ بأقلَّ من القيمةِ بكثيرٍ، فيُغبَنَ البائعُ. يُنظَر: الإتقان والإحكام في شرح تحفة الحكام 39/2، تحفة المحتاج للهيتمي 5/316

[1362] أخرجه البخاري 2076 عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: رَحِم اللهُ رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى.

[1363] أخرجه البخاري 2306، ومسلم 1601 مطوَّلًا من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[1364] أخرجه أبو داود 3460، وابن ماجه 2199 واللفظ له، وعبد الله بن أحمد في زوائد مسند أحمد 7431 صحَّحه ابنُ حبان في صحيحه 5030، والحاكم على شرط الشيخين في المستدرك 2291، وابن دقيق العيد في الاقتراح 99، والسخاوي في المقاصد الحسنة 465

[1365] ابن تيمية، جامع المسائل.

[1366] بهجة قلوب الأبرار للسعدي ص: 206

الإحسانُ. وخِطَّتُه: الإساءةُ.
ومن أراد فَهْمَ هذه الدَّرَجةِ كما ينبغي فلْيَنظُرْ إلى سيرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع النَّاسِ يَجِدْها بعَينِها".[1367]

11- الإحسانُ في الكَلامِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عليه صَدَقَةٌ، كُلَّ يَومٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، ويُعِينُ الرَّجُلَ علَى دابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عليها، أوْ يَرْفَعُ عليها مَتاعَهُ صَدَقَةٌ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوها إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، ويُمِيطُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ."[1368]، ووَجهُ كونِ الكَلِمةِ الطَّيِّبةِ صَدَقةً أنَّ إعطاءَ المالِ يَفرَحُ به قَلبُ الذي يُعطاه، ويُذهِبُ ما في قَلبِه، وكذلك الكلامُ الطَّيِّبُ، فأشبَهَا من هذه الحيثيَّةِ؛ ألا ترى أنَّها تُذهِبُ الشَّحناءَ وتُجلي السَّخيمةَ، كما قال تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت:34]، والدَّفعُ بالتي هي أحسَنُ قد يكونُ بالقَولِ كما يكونُ بالفِعلِ[1369].

12- الإحسانُ في الجِدالِ:

يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125].
قال الشَّوكانيُّ: "أي: بالطَّريقِ التي هي أحسَنُ طُرُقِ المجادَلةِ، وإنَّما أمَر سُبحانَه بالمجادَلةِ الحَسَنةِ لكونِ الدَّاعي محِقًّا وغرَضُه صحيحًا، وكان خَصْمُهُ مُبطِلًا وغَرَضُه فاسِدًا".[1370]

13- الإحسانُ إلى الحَيَوانِ:

ومن الإحسانِ إلى الحَيوانِ إطعامُه إن جاع، وعدَمُ تكليفِه ما لا يُطيقُ، والرِّفقُ به إن عَمِل، وإراحتُه إن تَعِب؛ فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عنهم سألوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "وإنَّ لنا في البَهائِمِ أجرًا؟! قال: في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبةٍ أجرٌ".[1371]
- وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ما من مُسلِمٍ يَغرِسُ غرسًا، أو يَزرَعُ زَرعًا، فيأكُلُ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ، إلَّا كان له به صَدَقةٌ"، فإذا أراد أن يذبحَه -إن كان ممَّا يُذبَحُ- فإنَّه يُجِدُّ شَفرتَه، ولا يُجِدَّها أمامَه، قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ اللهَ كتَب الإحسانَ على كُلِّ شيءٍ؛ فإذا قتَلْتُم فأحسِنوا القِتْلةَ"[1372].

- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "بينا رجُلٌ يمشي، فاشتَدَّ عليه العَطَشُ، فنزَل بِئرًا، فشَرِب منها، ثمَّ خرج فإذا هو بكَلبٍ يلهَثُ يأكُلُ الثَّرى من العطَشِ، فقال: لقد بلغَ هذا مِثلُ الذي بلَغ بي، فملأَ خُفَّه، ثمَّ أمسكه بفيه، ثمَّ رَقِيَ، فسقى الكَلبَ؛ فشَكَر اللهُ له، فغفَر له".
- وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "كنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ، فانطلق لحاجتِه فرَأَينا حُمَّرةً[1373] معها فرخانِ، فأخَذْنا فرْخَيها، فجاءت الحُمَّرةُ فجعَلَت تُفَرِّشُ، فجاء النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: "من فجَّع هذه بولَدِها؟ ردُّوا ولَدَها إليها."

[1367] مدارج السالكين لابن القيم 3/139
[1368] أخرجه البخاري 2989، ومسلم 1009 واللفظ له.
[1369] يُنظَر: شرح صحيح البخاري لابن بطال 225/9، عمدة القاري للعيني 113/22
[1370] فتح القدير 3/287
[1371] أخرجه البخاري 2363 واللفظ له، ومسلم 2244
[1372] أخرجه مسلم 1955 من حديثِ شدَّادِ بنِ أوسٍ رَضِيَ اللهُ عنه
[1373] طائرٌ صغيرٌ كالعصفورِ. يُنظَر: الصحاح للجوهري2/637

ورأى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قريةَ نملٍ قد حرَقْناها فقال: "مَن حرَق هذه؟" قُلْنا: نحن. قال: إنَّه لا ينبغي أن يُعَذِّبَ بالنَّارِ إلَّا ربُّ النَّارِ!" [1374]

- وعن عبدِ اللهِ بنِ جعفَرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: „دخلَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حائطًا لرجلٍ من الأنصار فإذا جَمَلٌ، فلمَّا رأى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حنَّ وذرَفَت عيناه، فأتاه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَمَسَح ذِفْراه[1375] فسكَت، فقال: "من رَبُّ هذا الجَملِ؟ لِمَن هذا الجَمَلُ؟" فجاء فتًى من الأنصارِ، فقال: لي يا رَسولَ اللهِ، فقال: "أفلا تتَّقي اللهَ في هذه البَهيمةِ التي ملَّكَكَ اللهُ إيَّاها، فإنَّه شَكَى إليَّ أنَّك تُجيعُه وتُدْئِبُه[1376]".[1377]

- وعن ابن عباس - رضي الله عنه – قال: مرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ على رجُلٍ واضِعٍ رِجْلَه على صَفحةِ شاةٍ وهوَ يُحِدُّ شفرتَه وهيَ تلحَظُ إليه ببصَرِها قال: "أفلا قَبلَ هذا؟ أو تريدُ أن تُمِيتَها مَوتاتٍ؟!"[1378]، وفي هذا الحَديثِ: „مرَّ رسول الله صلى الله عليه على رجلٍ واضعٍ رِجْلَه على صَفحةِ شاةٍ"، أي: على جانبِ رَقبتِها وهي مُلْقاةٌ على الأرضِ، „وهو يُحِدُّ شَفرتَه"، أي: يُحْمِي أداةَ الذَّبْحِ ويُرَقِّقُها؛ كالسِّكِّينِ ونحوِها، „وهي تَلحَظُ إليه ببَصرِها"، أي: تَنظُرُ وتُراقِبُ السِّكِّينَ، فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „أفلَا قبلَ هذا؟" أي: كان الأَوْلى بِكَ أنْ تُحِدَّ سِكِّينَك وأداةَ الذَّبحِ قبْلَ أنْ تأتِيَ بها للذَّبْحِ؛ حتَّى لا تراكَ، „أو تُرِيدُ أنْ تُمِيتَها موتاتٍ؟!"، أي: مَوْتةَ الخَوْفِ بالنَّظرِ إلى أداةِ الذَّبحِ، ثمَّ موتَةَ الذَّبْحِ نفْسِها؟!
وهذه دعوةٌ إلى الرِّفقِ بالحيوانِ عندَ ذبْحِه؛ حتَّى يكونَ خوفُه أقلَّ، وموتُه أخفَّ، فتُوارى السِّكِّينُ، ولا تَظهَرُ إلَّا عندَ الذَّبحِ، وهذا أيضًا مِن الإحسانِ إلى الحيوانِ.
وفي الحديثِ: إرشادٌ إلى الرِّفقِ بالحيوانِ وعدَمِ تَعذيبِه أو إخافتِه، والإحسانِ إليه عند الذَّبحِ.[1379]
- وقال ابنُ رجَبٍ: „وهذا يدُلُّ على وُجوبِ الإسراعِ في إزهاقِ النُّفوسِ التي يُباحُ إزهاقُها على أسهَلِ الوُجوهِ".
- وكان عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه ينهى أن تُذبَحَ الشَّاةُ عِندَ الشَّاةِ.

14- الإحسانُ بإطعامِ الطَّعامِ:

قال الرَّازيُّ: "أشرَفُ أنواعِ الإحسانِ هو الإحسانُ بالطَّعامِ، وذلك لأنَّ قَوامَ الأبدانِ بالطَّعامِ، ولا حياةَ إلَّا به"[1380].

15- الإحسانُ إلى الأمواتِ:

ومن صُوَرِ الإحسانِ إلى الميِّتِ: الدُّعاءُ له، والصَّلاةُ عليه[1381].

16- الإحسانُ بالبَدِن:

ومثالُ ذلك ما جاء عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِه فتَحمِلُه عليها، أو ترفَعُ عليها متاعَه: صَدَقةٌ"[1382]، ومنها أن تمشِيَ مع أخيك لتقضِيَ حاجةً له، أو تأخُذَ بيَدِ عاجِزٍ، إلى غيرِ ذلك.

[1374] أخرجه أبو داود 2675. صحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود 2675، وأخرجه أحمد 3763 بلفظ: نزل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منزِلًا، فانطلق لحاجتِه، فجاء وقد أوقد رجلٌ على قريةِ نملٍ، إمَّا في الأرضِ، وإمَّا في شَجَرةٍ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّكم فعَلَ هذا؟ فقال رجُلٌ من القومِ: أنا يا رسولَ اللهِ، قال: أطْفِها، أطْفِها. حسَّنه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 3763

[1375] ذفراه: مؤخر رأسه

[1376] أي: تُتعِبُه بكثرةِ استعمالِه. يُنظَر: التحبير لإيضاح معاني التيسير للصنعاني 4/440

[1377] أخرجه أبو داود 2549 واللفظ له.

[1378] أخرجه الطبراني 11/333 11916، والحاكم 7563، والبيهقي 19615

[1379] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

[1380] مفاتيح الغيب 30/747

[1381] يُنظَر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية 49/3

قال ابنُ القَيِّمِ: "فالجُبْنُ: تَركُ الإحسانِ بالبَدَنِ، والبُخلُ: تَركُ الإحسانِ بالمالِ"[1383].

17- الإحسانُ في الأعمالِ البَدَنيَّةِ:

بإجادةِ العَمَلِ، وإتقانِ الصَّنعةِ، وبتخليصِ سائرِ الأعمالِ من الغِشِّ[1384].

المطلب الخامس: فوائِدُ الإحسانِ

1/ تماسُكُ بُنيانِ المجتمعِ، ووقايتُه من الآفاتِ الاجتماعيَّةِ.

2/ المحسِنُ يكونُ في معيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ قال اللهُ تعالى: {وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: 69].

3/ المُحسِنُ يكتَسِبُ بإحسانِه محبَّةَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: 195].

4/ للمُحسِنين أجرٌ عظيمٌ في الآخرةِ، ويكونون في مأمَنٍ من الخوفِ والحُزنِ؛ قال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 112].

5/ المُحسِنُ قريبٌ من رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: 56].

6/ الإحسانُ هو وسيلةُ المجتمعِ للرُّقِيِّ والتَّقدُّمِ، وإذا كان صِنْوُه -أي: العَدلُ- وَسيلةً لحفظِ النَّوعِ البشَريِّ، فإنَّ الإحسانَ هو وسيلةُ تقدُّمِه ورُقِيِّه؛ لأنَّه يؤدِّي إلى توثيقِ الرَّوابطِ وتوفيرِ التَّعاوُنِ.

7/ الإحسانُ وسيلةٌ لإزالةِ ما في النُّفوسِ من الكَدَرِ وسُوءِ الفَهمِ وسُوءِ الظَّنِّ ونحوِ ذلك[1385].

8/ الإحسانُ إلى النَّاسِ سَبَبٌ من أسبابِ انشِراحِ الصَّدرِ:

فالذي يحسِنُ إلى النَّاسِ ينشَرِحُ صَدرُه، ويشعرُ بالرَّاحةِ النَّفسيَّةِ؛ قال ابنُ القيِّمِ: „إنَّ الكريمَ المُحسِنَ أشرَحُ النَّاسِ صَدرًا، وأطيبُهم نفسًا، وأنعَمُهم قلبًا، والبخيلُ الذي ليس فيه إحسانٌ أضيَقُ النَّاسِ صدرًا، وأنكَدُهم عيشًا، وأعظَمُهم همًّا وغَمًّا"[1386].

9/ الإحسانُ إلى النَّاسِ يُطفِئُ نارَ الحسَدِ، ويدفَعُ العداوةَ:

(إطفاءُ نارِ الحاسِدِ والبَاغِي والمُؤذِي بالإحسانِ إليه؛ فكلَّما ازداد أذًى وشَرًّا وبَغيًا وحسَدًا ازدَدْتَ إليه إحسانًا، وله نصيحةً، وعليه شَفَقةً، وما أظنُّك تُصَدِّقُ بأنَّ هذا يكونُ فضلًا عن أن تتعاطاه! فاسمَعِ الآنَ قولَه عزَّ وجلَّ: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت: 34 – 36]، وقال: {أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [القصص: 54].

هذا مع أنَّه لا بُدَّ له مع عَدُوِّه وحاسِدِه من إحدى حالتَينِ؛ إمَّا أن يملِكَه بإحسانِه فيستَعبِدَه وينقادَ له ويَذِلَّ له، ويبقى من أحبِّ النَّاسِ إليه، وإمَّا أن يُفَتِّتَ كَبدَه ويقطَعَ دابِرَه إن أقام على إساءتِه إليه؛ فإنَّه يذيقُه بإحسانِه أضعافَ ما ينالُ منه بانتقامِه، ومَن جَرَّب هذا عرَفَه حقَّ المعرفةِ، واللهُ هو الموفِّقُ المُعينُ، بيَدِه الخيرُ كُلُّه لا إلهَ غَيرُه، وهو المسئول أن يستعمِلَنا وإخوانَنا في ذلك بمَنِّه وكَرَمِه)[1387].

[1382] أخرجه مسلم 1009

[1383] طريق الهجرتين ص 460

[1384] منهاج المسلم للجزائري ص: 132

[1385] نضرة النعيم 2/91

[1386] زاد المعاد 2/22

[1387] بدائع الفوائد لابن القيم 244-2/243

10/ من أسبابِ إزالةِ الهَمِّ والغَمِّ؛ قال السَّعديُّ: „من الأسبابِ التي تُزيلُ الهَمَّ والغَمَّ والقَلقَ: الإحسانُ إلى الخَلقِ بالقَولِ والفِعلِ، وأنواعِ المعروفِ، وكُلُّها خيرٌ وإحسانٌ، وبها يدفَعُ اللهُ عن البَرِّ والفاجِرِ الهمومَ والغُمومَ بحَسَبِها، ولكِنْ للمُؤمِنِ منها أكمَلُ الحَظِّ والنَّصيبِ". [1388]

11/ تثبيتُ دعائِمِ الأُخُوَّةِ والمحبَّةِ بَيْنَ المُسلِمين.

12/ من أسبابِ جَلبِ النِّعَمِ، ودَفعِ النِّقَمِ.

المطلب السادس: موانعُ الإحسانِ

1- الجَهلُ بالفَضلِ الكبيرِ والأجرِ الجزيلِ الذي جعَله سُبحانَه للمُحسِنين مِن عبادِه.

2- الغفلةُ عن الآثارِ الحَسَنةِ الكثيرةِ للإحسانِ.

3- ضَعفُ التَّقوى؛ فإنَّ مَن عرَف اللهَ سُبحانَه واتَّقاه أحسَن مُعاملةَ خَلقِه.

4- الرَّغبةُ في الانتصارِ للنَّفسِ، وتَرْكُ المسامحةِ.

5- آفاتُ النَّفسِ كالغِلِّ والحَسَدِ والكراهيةِ ونَحوِها.

6- شُحُّ النَّفسِ وغَلَبةُ الأثَرةِ عليها؛ ما يمنَعُها من البَذلِ للآخَرينَ، والسَّعيِ في نفعِهم والإحسانِ إليهم.

المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على اكتسابِ الإحسانِ

1- أن يعلَمَ أنَّ الإحسانَ للغيرِ من الأخلاقِ التي يحبُّها اللهُ سُبحانَه ورَسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

2- أن يتعَرَّفَ على ما للإحسانِ من فَضلٍ، وما يترَتَّبُ عليه من أجرٍ أُخرويٍّ ومصالحَ دُنيويَّةٍ.

3- أن يجاهِدَ نَفسَه في تحصيلِ الأخلاقِ الحميدةِ التي تُقَرِّبُه من أهلِ الإحسانِ.

4- أن يلجَأَ إلى رَبِّه سُبحانَه بالتَّضرُّعِ والدُّعاءِ أن يكونَ من عبادِه المُحسِنين.

5- أن يتخَلَّصَ من آفاتِ النَّفسِ، كالشُّحِّ والبُخلِ والطَّمَعِ، إلى غيرِ ذلك.

6- مصاحبةُ أهلِ الإحسانِ.

7- مطالعةُ سِيرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والسَّلَفِ الصَّالِحِ.

8- أن يتذَكَّرَ إحسانَ اللهِ عليه؛ فإنَّ إحسانَه موجِبٌ للإحسانِ إلى عَبيدِه، كما قال تعالى: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [القصص: 77]، وقال رجلٌ لأحَدِ السَّلاطينِ: „أحَقُّ النَّاسِ بالإحسانِ من أحسَنَ اللهُ إليه، وأولاهم بالإنصافِ من بُسِطت القُدرةُ بَيْنَ يَدَيه؛ فاستَدِمْ ما أوتيتَ من النِّعَمِ بتأديةِ ما عليك من الحَقِّ".[1389]

9- أن يستحضِرَ نِيَّةَ الإحسانِ إلى الخَلقِ ونَفْعِهم؛ قال ابنُ تَيميَّةَ: "فعلى الإنسانِ أن يكونَ مقصودُه نَفْعَ الخَلقِ والإحسانَ إليهم، وهذا هو الرَّحمةُ التي بعَث اللهُ بها محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قولِه عزَّ وجَلَّ: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ [الأنبياء: 107]" [1390].

المطلب الثامن: نماذِجُ من الإحسانِ

أ- الإحسانُ عِندَ الأنبياءِ والمُرسَلينَ:

- **إحسانُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ:**

[1388] الوسائل المفيدة للحياة السعيدة ص: 16

[1389] عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري 3/20

[1390] المستدرك على مجموع الفتاوى 5/104

إحسانُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ إلى أبيه بحُسنِ دَعوتِه والشَّفقةِ عليه؛ قال اللهُ تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} [مريم: 41 - 47] ، فالآياتُ أظهَرت كيف أحسَن نبيُّ اللهِ إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى أبيه في دعوتِه تلك بأحسَنِ كلامٍ وألطَفِه، وبندائِه: يا أبتِ، وبتوضيحِ أنَّه نبيٌّ قد جاءه من اللهِ الوَحيُ بعِلمٍ لم يعلَمْه أبوه قبلَ ذلك، ولمَّا تمسَّك أبوه بكُفرِه لم يُسِئْ إليه إبراهيمُ عليه السَّلامُ، بل أحسَن إليه بقَولِه: سَلَامٌ عَلَيْكَ، ثم أحسَن إليه بأنَّه قال: سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا.

ومن صُوَرِ إحسانِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ إحسانُه في الضِّيافةِ:

قال تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} [الذاريات: 24 - 27].

- **إحسانُ نوحٍ عليه السَّلامُ:**

وصَف اللهُ سُبحانَه نوحًا عليه السَّلامُ بالإحسانِ، فقال تعالى: {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: 79 - 80]

قال الألوسيُّ: (قولُه تعالى: إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تعليلٌ لِما فُعِل به ممَّا قصَّه اللهُ عزَّ وجَلَّ بكونِه عليه السَّلامُ من زُمرةِ المعروفين بالإحسانِ الرَّاسخين فيه، فيكونُ ما وقع من قَبيلِ مجازاةِ الإحسانِ بالإحسانِ، وإحسانُه: مجاهدتُه أعداءَ اللهِ تعالى بالدَّعوةِ إلى دينِه، والصَّبرِ الطَّويلِ على أذاهم، ونحوِ ما ذُكِر)[1391].

قال اللهُ تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [هود: 25 - 33].

ب- نماذِجُ من الإحسانِ في الأُمَمِ السَّابقةِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "بينا رجُلٌ يمشي، فاشتَدَّ عليه العَطَشُ، فنَزَل بِئرًا، فشَرِب منها، ثمَّ خرج فإذا هو بكَلبٍ يلهَثُ يأكُلُ الثَّرى من العطَشِ، فقال: لقد بلغَ هذا مِثلُ الذي بلَغ بي، فملأ خُفَّه، ثمَّ أمسكه بفيه، ثمَّ رَقِيَ، فسقى الكَلبَ؛ فشَكَر اللهُ له، فغفَر له"[1392].

عن حُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ رجلًا كان فيمن كان قبلَكم، أتاه المَلَكُ ليَقبِضَ رُوحَه، فقيل له: هل عَمِلتَ من خيرٍ؟ قال: ما أعلَمُ، قيل له: انظُرْ، قال: ما أعلَمُ شيئًا غيرَ أنِّي كنتُ أبايِعُ النَّاسَ في الدُّنيا

[1391] ((روح المعاني)) (96/12).

[1392] أخرجه البخاري (2363) واللفظ له، ومسلم (2244)

وأجازيهم، فأُنظِرُ الموسِرَ، وأتجاوَزُ عن المُعسِرِ؛ فأدخَلَه اللهُ الجنَّةَ))[1393]، والمعنى: كنتُ أتقاضى الحقوقَ وأطلُبُها من النَّاسِ، وآخُذُ منهم وأعطِيهم، فأُنظِرُ الموسِرَ، أي: أُمهِلُه. وأتجاوَزُ، أي: أتسامَحُ عن المُعسِرِ الذي لا يجِدُ قَضاءً لدَينِه؛ فكان جزاءُ هذا المُحسِنِ أن أدخَله اللهُ الجنَّةَ[1394].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: "انطلق ثلاثةُ رهطٍ ممَّن كان قبلَكم حتَّى أوَوا المبيتَ إلى غارٍ، فدخلوه، فانحدَرَت صَخرةٌ من الجَبَلِ فسَدَّت عليهم الغارَ، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصَّخرة إلَّا أن تَدْعوا اللهَ بصالحِ أعمالِكم. فقال رجُلٌ منهم: اللَّهمَّ كان لي أبوانِ شيخانِ كبيرانِ، وكُنتُ لا أَغبِقُ قَبْلَهما أهلًا ولا مالًا، فنأى بي في طَلَبِ شيءٍ يومًا، فلم أُرِحْ عليهما حتَّى ناما، فحَلَبْتُ لهما غَبوقَهما فوجَدْتُهما نائمَينِ، وكَرِهتُ أن أَغبِقَ قَبْلَهما أهلًا أو مالًا، فلَبِثتُ والقَدَحُ على يَديَّ أنتَظِرُ استيقاظَهما حتى بَرَق الفَجرُ، فاستيقَظا فشَرِبا غَبوقَهما، اللَّهُمَّ إنْ كنتُ فعَلْتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِك، ففرِّج عنَّا ما نحن فيه من هذه الصَّخرةِ، فانفرجَت شيئًا لا يستطيعونَ الخروجَ... وقال الثَّالِثُ: اللَّهمَّ إنِّي استأجرتُ أُجَراءَ، فأعطيتُهم أجرَهم غيرَ رَجُلٍ واحدٍ ترك الذي له وذهَب، فثمَّرتُ أجرَه حتى كَثُرت منه الأموالُ، فجاءني بعدَ حينٍ، فقال: يا عبدَ اللهِ، أدِّ إليَّ أجري، فقُلتُ له: كلُّ ما ترى من أجرِك من الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ والرَّقيقِ! فقال: يا عبدَ اللهِ، لا تستهزِئْ بي! فقُلتُ: إنِّي لا أستهزئُ بك، فأخذَه كُلَّه، فاستاقه، فلم يترُكْ منه شيئًا ..."[1395].

ج- نماذِجُ من الإحسانِ عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

• إحسانُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى قرابتِه:

- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: لمَّا أُنزِلَت هذه الآيةُ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [الشعراء: 214] ، دعا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قريشًا، فاجتَمَعوا فعَمَّ وخَصَّ، فقال: ((يا بني كَعبِ بنِ لُؤَيٍّ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّارِ، يا بني مُرَّةَ بنِ كَعبٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّارِ، يا بني عبدِ شَمسٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّارِ، يا بني عبدِ مَنافٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّارِ، يا بني هاشِمٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّارِ، يا بني عبدِ المطَّلِبِ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّارِ، يا فاطِمةُ، أنقِذي نَفسَكِ من النَّارِ؛ فإنِّي لا أملِكُ لكم من اللهِ شيئًا، غيرَ أنَّ لكم رَحِمًا سأبُلُّها ببِلالِها)) [1396]، (والبِلالُ -بكسرِ الباءِ-: السَّبَبُ الذي يوصَلُ الرَّحِمُ به، وهو الإحسانُ إلى الأقارِبِ ومعاونتُهم وخِدمتُهم)[1397].

• إحسانُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها:

- عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: (واللهِ لقد رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقومُ على بابِ حُجرتي، والحَبَشةُ يَلعَبون بحِرابِهم في مَسجِدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يسترُني بردائِه؛ لكي أنظُرَ إلى لَعِبِهم، ثمَّ يقومُ من أجلي حتى أكونَ أنا التي أنصَرِفُ؛ فاقدُروا قَدْرَ الجاريةِ الحديثةِ السِّنِّ، حريصةً على اللَّهوِ)[1398].

• إحسانُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الخَدَمِ:

عن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (خدَمْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَشْرَ سِنينَ، فما قال لي: أفٍّ، ولا: لِمَ صَنَعْتَ؟! ولا: ألَا صنَعْتَ؟!)[1399]؛ ولذلك قال أنَسٌ خادِمُه رَضِيَ اللهُ عنه في تمامِ حديثِه: (وكان رسولُ اللهِ من أحسَنِ النَّاسِ خُلُقًا)[1400].

[1393] أخرجه البخاري (3451) واللفظ له، ومسلم (1560)

[1394] ((معالم السنن)) للخطابي (122/3)، ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (233/9)

[1395] أخرجه البخاري (2272)

[1396] أخرجه مسلم (204)

[1397] ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (203/5)

[1398] أخرجه البخاري (454)، ومسلم (892) واللفظ له.

- **إحسانُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الحيوانِ:**

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "كنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ، فانطلق لحاجتِه فرَأَينا حُمَّرةً[1401] معها فرخانِ، فأخَذْنا فرْخَيها، فجاءت الحُمَّرةُ فجعَلَت تُفَرِّشُ، فجاء النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: من فجَّع هذه بولَدِها؟ ردُّوا ولَدَها إليها. ورأى قريةَ نملٍ قد حرَقْناها فقال: مَن حرَق هذه؟ قُلْنا: نحن. قال: إنَّه لا ينبغي أن يُعَذِّبَ بالنَّارِ إلَّا ربُّ النَّارِ!"[1402] .

د- نماذِجُ من الإحسانِ عِندَ الصَّحابةِ:

- **إحسانُ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه إلى أمِّه:**

يخبرُ أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه عن حالِه مع أمِّه فيقولُ: (كنتُ أدعو أمِّي إلى الإسلامِ وهي مُشرِكةٌ، فدعوتُها يومًا، فأسمعَتْني في رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أكرَهُ! فأتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأنا أبكي، قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ إنِّي كنتُ أدعو أمِّي إلى الإسلامِ، فتأبى عليَّ، فدعوتُها اليومَ فأسمعَتْني فيك ما أكره، فادْعُ اللهَ أن يهدِيَ أمَّ أبي هُرَيرةَ، فقال: اللهمَّ اهْدِ أمَّ أبي هُرَيرةَ، فخرجتُ مُستبشِرًا بدعوةِ نَبيِّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلمَّا جِئتُ فصِرْتُ إلى البابِ، فإذا هو مُجافٌ، فسمعَتْ أمِّي خَشْفَ قَدَميَّ، فقالت: مكانَك يا أبا هُرَيرةَ، وسمعتُ خَضخَضةَ الماءِ، قال: فاغتسلَتْ، ولبسَتْ دِرْعَها، وعَجِلَت عن خمارِها، ففتحَت البابَ، ثُمَّ قالت: يا أبا هُرَيرةَ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبدُه ورَسولُه! فرجعتُ إلى رَسولِ اللهِ فأتيتُه وأنا أبكي من الفَرَحِ! قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أبشِرْ، قد استجاب اللهُ دعْوَتَك، وهدى أمَّ أبي هُرَيرةَ، فَحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه، وقال خَيرًا، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أن يحبِّبَني أنا وأمِّي إلى عبادِه المُؤمِنين، ويحبِّبَهم إلينا، قال: فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبيدَك هذا -يعني أبا هُرَيرةَ- وأمَّه إلى عبادِك المُؤمِنين، وحَبِّبْ إليهم المُؤمِنينَ؛ فما خُلِق مُؤمِنٌ يسمَعُ بي ولا يَراني إلَّا أحَبَّني)[1403].

- **إحسانُ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما إلى صديقِ أبيه:**

عن عبدِ اللهِ بنِ دينارٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّه كان إذا خرج إلى مكَّةَ، كان له حمارٌ يتروَّحُ عليه إذا مَلَّ ركوبَ الرَّاحلةِ، وعمامةٌ يَشُدُّ بها رأسَه، فبينا هو يومًا على ذلك الحمارِ إذ مرَّ به أعرابيٌّ، فقال: ألستَ ابنَ فلانِ بنِ فلانٍ؟ قال: بلى، فأعطاه الحِمارَ وقال: اركَبْ هذا، والعمامةَ، قال: اشدُدْ بها رأسَك، فقال له: بعضُ أصحابِه: غَفَر اللهُ لك! أعطَيتَ هذا الأعرابيَّ حمارًا كنتَ تَروَّحُ عليه، وعمامةً كنتَ تَشُدُّ بها رأسَك! فقال: إنِّي سمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: "إنَّ مِن أبَرِّ البرِّ صِلةَ الرَّجُلِ أهلَ وُدِّ أبيه بعد أن يُوَلِّيَ"، وإنَّ أباه كان صديقًا لعُمَرَ[1404]. فأحسَن عبدُ اللهِ برَّ أبيه عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهما بعد مماتِه بهديَّتِه لهذا الأعرابيِّ؛ فمن أفضَلِ أنواعِ البرِّ إحسانُ الرَّجُلِ لأهلِ وُدِّ أبيه، وهم

[1399] أخرجه البخاري (6038) واللفظ له، ومسلم (2309)

[1400] أخرجه البخاري (6203)، ومسلم (2310) واللفظ له.

[1401] طائرٌ صغيرٌ كالعصفورِ. يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري (637/2)

[1402] أخرجه أبو داود (2675). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2675)، وصحَّح إسناده النووي في ((رياض الصالحين)) (455)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (689/8)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (2675). وأخرجه أحمد (3763) بلفظ: (نزل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منزِلًا، فانطلق لحاجتِه، فجاء وقد أوقد رجلٌ على قريةِ نملٍ، إمَّا في الأرضِ، وإمَّا في شَجَرةٍ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّكم فعَلَ هذا؟ فقال رجُلٌ من القومِ: أنا يا رسولَ اللهِ، قال: أطْفِها، أطْفِها). حسَّنه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (3763)، وحسَّن إسناده أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (288/5)، ووثَّق رجاله البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (99/6)

[1403] أخرجه مسلم (2491)

[1404] أخرجه مسلم (2552)

أهلُ محبَّةِ أبيه وصداقتِه، بعدَ أن «يولِّيَ» وهو كنايةٌ عن الموتِ، وإنَّما كانت الوصيَّةُ بأولياءِ الوالِدِ بعدَ موتِه أبَرَّ؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى كَسبِ الدُّعاءِ له وبقاءِ المودَّةِ[1405].

هـ- نماذِجُ من الإحسانِ عِندَ السَّلَفِ:

- **إحسانُ عبدِ اللهِ بنِ أبي بَكرةَ إلى جيرانِه:**

-كان عبدُ اللهِ بنُ أبي بَكرةَ يُنفِقُ على مَن حولَ دارِه، وعلى أهلِ أربعينَ دارًا من كُلِّ جهةٍ من جهاتِها الأربَعِ! وكان يبعَثُ إليهم بالأضاحيِّ والكِسوةِ، ويقومُ لمن تزوَّج منهم بما يُصلِحُه، ويُعتِقُ في كُلِّ عيدٍ مائةَ رَقَبةٍ، سِوى ما يُعتِقُ في سائرِ السَّنةِ[1406]!

- **إحسانُ عليِّ بنِ الحُسَينِ لرَجُلٍ سَبَّه:**

(عن عليِّ بنِ الحُسَينِ بنِ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عنهم أنَّه سَبَّه رجُلٌ، فرمى إليه بخَميصةٍ كانت عليه، وأمَر له بألفِ دِرهَمٍ!)[1407].

- **إحسانُ الرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ:**

عن الرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ أنَّه قال لأهلِه: اصنَعوا لي خَبِيصًا -وفي روايةٍ: وكان لا يكادُ يشتهي عليهم شيئًا- فصنَعِ له، فدعا رجلًا به خَبَلٌ، فجَعَل يُلقِمُه ولُعابُه يَسيلُ! فلمَّا ذهب قال أهلُه: تكَلَّفْنا وصَنَعْنا، وما يدري هذا ما أكَل! قال الرَّبيعُ: لكِنَّ اللهَ يدري[1408]!

وجاء سائِلٌ يسألُ على بابِ الرَّبيعِ، فقال: أطعِموا هذا السَّائِلَ سُكَّرًا، فقال أهلُه: إنما يريدُ نُطعِمُه كِسرةً! قال: أطعِموه سُكَّرًا؛ فإنَّ الرَّبيعَ يُحِبُّ السُّكَّر"![1409]

المطلب التاسع: حُكمُ الإحسانِ

الإحسانُ للغيرِ إمَّا أن يكونَ واجبًا، وإمَّا أن يكونَ مندوبًا مُستحَبًّا:

- **قال ابنُ رجبٍ:** "الإحسانُ الواجِبُ في معاملةِ الخَلقِ ومُعاشرتِهم: القيامُ بما أوجب اللهُ من حقوقِ ذلك كُلِّه، والإحسانُ الواجِبُ في ولايةِ الخَلقِ وسِياستِهم: القيامُ بواجباتِ الولايةِ كُلِّها. والقَدرُ الزَّائدُ على الواجِبِ في ذلك كُلُّه إحسانٌ ليس بواجِبٍ"[1410].

- **وقال عبدُ الرَّحمنِ السَّعديُّ:** "اعلَمْ أنَّ الإحسانَ المأمورَ به نوعانِ:

أحدُهما: واجِبٌ، وهو الإنصافُ والقيامُ بما يجِبُ عليك للخَلقِ بحَسَبِ ما توجَّه عليك من الحقوقِ.

والثَّاني: إحسانٌ مُستحَبٌّ، وهو ما زاد على ذلك من بَذلِ نَفعٍ بَدَنيٍّ أو ماليٍّ أو عِلميٍّ، أو توجيهٍ لخيرٍ دينيٍّ، أو مصلحةٍ دُنيويَّةٍ؛ فكُلُّ معروفٍ صَدَقةٌ، وكُلُّ ما أدْخَلَ السُّرورَ على الخَلقِ صدَقةٌ وإحسانٌ، وكُلُّ ما أزال عنهم ما يكرهون ودفَع عنهم ما لا يَرتَضون من قليلٍ أو كثيرٍ، فهو صدَقةٌ وإحسانٌ"[1411].

[1405] يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (110/16)، ((البحر المحيط الثجاج)) للإتيوبي (264/40)

[1406] ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (392/1)

[1407] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (178/3)

[1408] أخرجه أحمد في ((الزهد)) (ص: 270) وهناد في ((الزهد)) (343/1)

[1409] ((الزهد)) لأحمد بن حنبل (ص: 267)

[1410] جامع العلوم والحكم 382/1

[1411] بهجة قلوب الأبرار للسعدي ص: 142

المطلب العاشر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ الإحسانِ

1- من الخَطَأِ أن يُظَنَّ أنَّ الإحسانَ يكونُ إحسانًا على كُلِّ حالٍ؛ فالإحسانُ إنَّما يكونُ إحسانًا إذا لم يتضَمَّنْ فِعلَ محرَّمٍ، أو تَرْكَ واجبٍ، وممَّا يدُلُّ على ذلك قولُ اللهِ تعالى: {قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ} [يوسف: 78 - 79]، فإنَّهم طَلَبوا من يوسُفَ أن يُحسِنَ إليهم بتَركِ هذا الأخِ أن يذهَبَ إلى أبيه، ويأخُذَ أحدَهم بدَلَه، فامتنع وقال: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ؛ فالإحسانُ إذا تضَمَّن تَرْكَ العدلِ كان ظُلمًا؛ ولهذا كان تخصيصُ بعضِ الأولادِ على بعضٍ، وبعضِ الزَّوجاتِ على بعضٍ -وإن كان إحسانًا إلى المُخصَّصِ والمُفَضَّلِ- غيرَ جائزٍ؛ لأنَّه تَركٌ للعدلِ، وكذلك ما أشبَهَ ذلك[1412].

فالإحسانُ لا يكونُ إحسانًا إلَّا بعد العَدلِ، وذكر ابنُ تَيميَّةَ مثالًا على ذلك، وهو استيفاءُ الإنسانِ حَقَّه من الدَّمِ، فإنَّ هذا الاستيفاءَ عَدلٌ، أمَّا العفوُ فهو إحسان، لكِنْ إن حصَل بالعفوِ ضَرَرٌ، كان ظُلمًا من العافي إمَّا لنفسِه وإمَّا لغيرِه؛ فلا يُشرَعُ[1413].

وكذلك ليس من الإحسانِ أن يفعَلَ الإنسانُ كُلَّ ما يهواه ابنُه أو زوجُه وغيرُهما، أو يترُكَ ما يكرهونَه. قال ابنُ تَيميَّةَ مشيرًا إلى هذا المعنى: (ليس من حُسنِ النِّيَّةِ للرَّعيَّةِ والإحسانِ إليهم أن يفعَلَ ما يَهوونه، ويَترُكَ ما يَكرهونَه؛ قال تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ [المؤمنون: 71]، وقال لأصحابِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ} [الحجرات: 7])[1414].

فالأبُ الذي يعاقِبُ ابنَه لتقصيرِه وسُوءِ تصَرُّفِه، فهذا وإن كان عقوبةً في ظاهِرِه، لكِنَّه إحسانٌ من الأبِ لتأديبِ وَلَدِه وتعليمِه وتربيتِه، فهو يعودُ بالنَّفعِ على الابنِ.

2- من الخَطَأِ اعتقادُ أنَّ عِظَمَ الإحسانِ وكثرةَ العطاءِ والإنفاقِ يستلزِمُ القَبولَ عِندَ اللهِ تعالى دونَ استيفاءِ شُروطِ القَبولِ؛ فقد حذَّر اللهُ من أمرٍ يدخُلُ على المعطي ربَّما أحبط عمَلَه، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [البقرة: 264]، فحينَئذٍ يُصبِحُ الإحسانُ سَيِّئةً لا لذاتِه، ولكِنْ بما لحِقَه من المنِّ والأذيَّةِ.

3- الاعتقادُ بأنَّ الإحسانَ لا يصدُرُ إلَّا من متَّصِفٍ بالرَّحمةِ، وهذا خطَأٌ؛ فإنَّ الإحسانَ قد يحصُلُ لغرَضٍ ما، ولا يكونُ فاعِلُه رحيمًا بإحسانِه ولا قاصِدًا للرَّحمةِ؛ فالرَّحمةُ ليست لازمةً للإحسانِ.

قال الكَفَويُّ: (الرَّحمةُ والإحسانُ متغايرانِ، ولا يلزمُ من وجودِ أحَدِهما وجودُ الآخَرِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ قد توجَدُ وافرةً في حَقِّ مَن لا يتمكَّنُ من الإحسانِ كالوالِدةِ العاجِزةِ ونحوِها، وقد يوجَدُ الإحسانُ ممَّن لا رحمةَ له في طبعِه، كالمَلِكِ القاسي؛ فإنَّه قد يحسِنُ إلى بعضِ أعدائِه لمصلحةِ مُلكِه)[1415].

[1412] يُنظَر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: 56)

[1413] ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (97/5)

[1414] ((جامع الرسائل)) (84/1)

[1415] ((الكليات)) (ص: 667)

المطلب الحادي عشر: مسائل متفرقة

- **تفاوُتُ الإحسانِ:**

الإحسانُ يتفاوَتُ بتفاوُتِ المُحسَنِ إليهم، وحقِّهم ومقامِهم، وبحسَبِ الإحسانِ، وعِظَمِ مَوقِعِه، وعظيمِ نفعِه، وبحَسَبِ إيمانِ المُحسِنِ وإخلاصِه، والسَّبَبِ الدَّاعي له إلى ذلك[1416].

- **حُبُّ الإنسانِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ:**

الإنسان عَبْدُ الإحسان، قَالَتْ أم المؤمنين عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "جُبِلَتِ النُّفُوسُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا"[1417]، أي: خُلقت وطُبعت على حب من أحسن إليها بقول أو فعل، وبُغض من أساء إليها، ولذلك قال ابْنُ عَطَاءٍ: "من أحسن إليك، فقد استرقك بامتنانه، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه"[1418]. وقيل أيضا:

أَحْسِنْ إلى النّاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ.. فطالَما استعبَدَ الإنسانَ إحسانُ[1419].

فالإحسان إلى الناس له تأثير عجيب على قلوبهم، به تَسْبي ألْبَابَهُم، وتَسْتَمِيلُها نحوك، وكأنك ملكتهم، حتى صاروا لك عبيدا.

[1416] المصدر السابق.

[1417] إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، مرتضى الزبيدي - محمد بن محمد الحسيني الزبيدي ص 146/ج6

[1418] المصدر السابق.

[1419] البيت للشاعر: البستي أبو الفتح علي. أديب وشاعر فارسي الأصل. توفي سنة 1010م.

المبحث الرابع: خدمة الناس وقضاء حوائجهم

المطلب الأول: علامات توفيق العبد

مِنْ عَلَامَاتِ التَّوْفِيقِ لِلْعَبْدِ:

أن يجعلهُ الله ملجئاً للناس، يُفَرّجُ هماً، يُنَفّسُ كرباً، يقضِي ديناً، يُعين ملهوفاً، ينصر مظلومًا، ينصحُ حائرًا، يُنقذ متعثرًا، يهدي عاصِياً.

إِنَّ "السَّعْيَ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَالِيَةِ، الرَّفِيعَةِ الَّتِي نَدَبَ إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ وَحَثَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا، وَجَعَلَهَا مِنْ بَابِ التَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى الَّذِي أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فَقَالَ فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة المائدة] ".[1420]

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: „أي: لِيُعِينَ بَعْضُكُم بَعْضًا عَلَى الْبِرِّ وَهُوَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ.“ [1421]

المطلب الثاني: فَضْلُ قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ

قَضَاءُ حَوَائِجِ النَّاسِ لَهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا الْمُسْلِمُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِيَرْفَعَ رَصِيدَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَيَنَالَ مَرْضَاةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَسَنَذْكُرُ فِي السُّطُورِ التَّالِيَةِ بَعْضًا مِنْ فَضَائِلِهَا، وَمِنْهَا:

1/ قَضَاءُ حَوَائِجِ النَّاسِ وَصِيَّةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الحج: 77].

قوله: „وَافْعَلُوا الْخَيْرَ“، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: بِصِلَةِ الرَّحِمِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وقوله: „لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ“؛ أَيْ: لِكَيْ تَسْعَدُوا وَتَفُوزُوا بِالْجَنَّةِ.[1422]

إِنَّ قَضَاءَ حَوَائِجِ النَّاسِ الْمَشْرُوعَةِ مِنْ أَفْضَلِ وَسَائِلِ فِعْلِ الْخَيْرِ.

2/ قَضَاءُ حَوَائِجِ النَّاسِ سَبِيلُ الْحَسَنَاتِ:

حَثَّنَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى السَّعْيِ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ وَسَائِلِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْحُصُولِ عَلَى الْحَسَنَاتِ، وذلك كما يلي:

1- قال الله تعالى: {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المزمل: 20]

قال الإمام الطبري رحمه الله: "مَا تُقَدِّمُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لأَنفُسِكُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ نَفَقَةٍ تُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نَفَقَةٍ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ، أَوْ عَمَلٍ بِطَاعَةِ اللَّهِ مِنْ صَلاَةٍ أَوْ صِيَامٍ أَوْ حَجٍّ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ فِي طَلَبِ مَا عِندَ اللَّهِ - تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَعَادِكُمْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُم مِّمَّا قَدَّمْتُم فِي الدُّنْيَا، وَأَعْظَمُ مِنْهُ ثَوَابًا؛ أَي: ثَوَابُهُ أَعْظَمُ مِن ذَلِكَ الَّذِي قَدَّمْتُمُوهُ.“[1423]

[1420] الإبداع في التعريف بالإسلام، أ. د. ناجي بن إبراهيم العرجِ، ص 8

[1421] تفسير السعدي: 218.

[1422] تفسير البغوي، ج5، ص 401

[1423] تفسير الطبري، ج23، ص 398، 399

2- روى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: „إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يَومَ القِيامَةِ: يا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قالَ: يا رَبِّ، كيفَ أعُودُكَ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟! قالَ: أَمَا عَلِمْتَ أنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أمَا عَلِمْتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قالَ: يا رَبِّ، وكيفَ أُطْعِمُكَ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟! قالَ: أَمَا عَلِمْتَ أنَّه اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أنَّكَ لوْ أطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلكَ عِندِي، يا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قالَ: يا رَبِّ، كيفَ أسْقِيكَ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟! قالَ: اسْتَسْقاكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أمَا إنَّكَ لو سَقَيْتَهُ وجَدْتَ ذلكَ عِندِي"[1424].

قوله: „يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي": أراد به مَرَضَ عبده، وإنما أضاف إلى نفسهِ تشريفًا لذلك العبد، فنزَّله منزلة ذاته سُبْحَانَهُ.

قوله: "كَيْفَ أَعُودُكَ"؛ أي: المرض إنما يكون للمريض العاجِز، وأنتَ القَاهِرُ الْقَوِيُّ المَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ.

قوله: "اسْتَطْعَمْتُكَ"، أي: طَلَبْتُ مِنْكَ الطَّعَامَ.

قوله: "كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟!"، أي: كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ تُطْعِمُ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ، وَأَنْتَ غَنِيٌّ قَوِيٌّ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَإِنَّمَا الْعَاجِزُ يَحْتَاجُ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْإِنْفَاقِ.

قوله: "لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِندِي"، أي: لَوَجَدْتَ ثَوَابَ ذَلِكَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ عِنْدِي؛ فَاللهُ تَعَالَى لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.

قوله: "اسْتَسْقَيْتُكَ"، أي: طَلَبْتُ مِنْكَ الْمَاءَ.[1425]

3- عن أبي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، قَالَ: "اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيُقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ".[1426]

وَمَعْنَى الشَّفَاعَةِ هُنَا: التَّوَسُّطُ لِلْغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ مُشْرَوَعَةٍ لَهُ، أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ عَنْهُ.[1427]

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "هذا الحديث فيه اسْتِحْبابُ الشَّفاعَةِ لأَصْحَابِ الحَوَائِجِ الْمُبَاحَةِ؛ سَوَاءٌ كَانَتْ الشَّفَاعَةُ إِلَى سُلْطَانٍ وَوَالٍ وَنَحْوِهِمَا، أَمْ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، وَسَوَاءٌ كَانَتِ الشَّفَاعَةُ إِلَى سُلْطَانٍ فِي كَفِّ ظُلْمٍ أَوْ إِسْقَاطِ تَعْزِيرٍ، أَوْ فِي تَخْلِيصِ عَطَاءٍ لِمُحْتَاجٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ فِي الْحُدُودِ فَحَرَامٌ، وَكَذَا الشَّفَاعَةُ فِي تَتْمِيمِ بَاطِلٍ أَوْ إِبْطَالِ حَقٍّ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهِيَ حَرَامٌ[1428]".

4- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ"[1429].

قوله: "كُلُّ مَعْرُوفٍ"، أي: ما عُرِف من جُمْلَةِ الخيرات مِن عَطِيَّةِ مالٍ أو خُلُقٍ حسنٍ، أو ما عُرِف فيه رضا الله من الأقوال والأفعال.

قوله: „صدقة"؛ أي: ثوابه كثواب الصدقة.[1430]

3/ اصْطِفاءُ اللهِ لِلَّذِينَ يَقْضُونَ حَوَائِجَ النَّاسِ:

[1424] مسلم 2569

[1425] مرقاة المفاتيح؛ لعلي الهروي، ج 3، ص1123

[1426] البخاري 1432، ومسلم 2627

[1427] العقيدة الصافية؛ للسيد عبد الغني، ص184

[1428] مسلم بشرح النووي، ج16، ص 177

[1429] البخاري 6021، ومسلم 1005

[1430] مرقاة المفاتيح لعلي الهروي، ص4/1336

- قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، يُقِرُّهُمْ فِيهَا مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ، فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ"[1431].

قَوْلُهُ: "لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ"؛ أَي: لأَجْلِ مَنَافِعِ النَّاسِ.

قَوْلُهُ: "يُقِرُّهُمْ فِيهَا مَا بَذَلُوهَا"؛ أَي: مُدَّةُ دَوَامِ إِعْطَائِهِمْ مِنْهَا لِلْمُسْتَحِقِّ.

قَوْلُهُ: "نَزَعَهَا مِنْهُمْ"؛ أَي: نَزَعَ مِنْهُمْ النِّعْمَةَ لِمَنْعِهِمُ الإِعْطَاءَ لِلْمُسْتَحِقِّ.

قَوْلُهُ: "فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ"؛ أَي: حَوَّلَ اللهُ تَعَالَى النِّعَمَ إِلَى غَيْرِهِمْ؛ لِيَقُومُوا بِهَا كَمَا يَجِبُ[1432].

- قَالَ الإِمَامُ عبدُ الرَّؤُوفِ المُنَاوِيّ رَحِمَهُ اللهُ: "العَاقِلُ الحَازِمُ مَن يَسْتَدِيمُ النِّعْمَةَ، وَيُدَاوِمُ عَلَى الشُّكْرِ وَالإِفْضَالِ مِنْهَا عَلَى عِبَادِ اللهِ تَعَالَى، وَاكْتِسَابُ مَا يَفُوزُ بِهِ فِي الآخِرَةِ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [القصص: 77][1433].

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "المُؤمِنُ يألَفُ ويُؤلَفُ ولا خيرَ فيمَنْ لا يألَفُ ولا يُؤلَفُ وخيرُ النَّاسِ أنفَعُهم للنَّاسِ"[1434].

قَوْلُهُ: "ولا خيرَ فيمَنْ لا يألَفُ ولا يُؤلَفُ": لأَنَّ التَّآلُفَ سَبَبُ الِاعْتِصَامِ بِاللهِ وَبِحَبْلِهِ، وَبِهِ يَحْصُلُ الِاجْتِمَاعُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَبِضِدِّهِ يَحْصُلُ التَّفَرُّقَةُ بَيْنَهُمْ.[1435]

قَوْلُهُ: "أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ": أَي: بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بِمَالِهِ وَجَاهِهِ وَعِلْمِهِ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ.[1436]

4/ اللهُ تَعَالَى يُحِبُّ الَّذِينَ يَقْضُونَ حَوَائِجَ النَّاسِ وَيُؤَمِّنُهُم يومَ القيامةِ:

رَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَالطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أحبُّ الناسِ إلى اللهِ أنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وأحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سُرورٌ تُدْخِلُهُ على مسلمٍ، أوْ تَكْشِفُ عنهُ كُرْبَةً، أوْ تَقْضِي عنهُ دَيْنًا، أوْ تَطْرُدُ عنهُ جُوعًا، وَلِأَنْ أَمْشِيَ مع أَخٍ لي في حاجَةٍ أحبُّ إِلَيَّ من أنْ اعْتَكِفَ في هذا المسجدِ، يعني مسجدَ المدينةِ شهرًا، ومَنْ كَفَّ غضبَهُ سترَ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، ولَوْ شاءَ أنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ اللهُ قلبَهُ رَجَاءً يومَ القيامةِ، ومَنْ مَشَى مع أَخِيهِ في حاجَةٍ حتى تتهَيَّأَ لهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يومَ تَزُولُ الأَقْدَامِ [و إِنَّ سُوءَ الخُلُقِ يُفْسِدُ العَمَلَ، كما يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ].[1437]

في هذا الحديثِ يقول النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "أحَبُّ الناسِ إلى اللهِ أنفَعُهم للناسِ"، أي: أكثَرُ مَن يَنتفِعُ الناسُ بهم، وهذا لا يَقتصِرُ على النَّفعِ المادِّيِّ فَقَطْ، ولكنَّه يمتَدُّ ليشمَلَ النَّفعَ بالعِلمِ، والنَّفعَ بالرَّأْيِ، والنَّفعَ بالنَّصيحَةِ، والنَّفعَ بالمَشورةِ، والنَّفعَ بالجاهِ، والنَّفعَ بالسُّلطانِ، ونحوَ ذلك، فكُلُّ هذه من صُوَرِ النَّفعِ التي تجعَلُ صاحِبَها يَشْرُفُ بحُبِّ اللهِ له، "وأحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ سُرورٌ تُدْخِلُه على مُسلِمٍ"، أي: أنَّ أحَبَّ الأعمالِ: هي السَّعادَةُ التي تُدخِلُها على قَلبِ المُسلِمِ، وهذا يَختلِفُ باختِلافِ الأحوالِ والأفرادِ، فقد يتحقَّقُ السُّرورُ في قلْبِ المُسلِمِ بسُؤالِ أخيه عنه، وقد يتحقَّقُ بزيارةِ أخيه له، وقد يتحقَّقُ بهدِيَّةِ أخيه له، وقد يتحقَّقُ بأيِّ شَيءٍ سِوى ذلك، الأصْلُ أنْ تُدخِلَ السُّرورَ عليه بأيِّ طريقةٍ استطَعْتَ، "أو يَكشِفُ عنه كُربَةً"، والكُربَةُ: هي الشِّدَّةُ العظيمةُ التي تُوقِعُ صاحِبَها في الهَمِّ والغَمِّ، فَمَنِ استطاعَ أنْ يَكشِفَ عن أخيه كُرْبَه،

[1431] حديث حسن. صحيح الجامع للألباني 2164

[1432] فيض القدير لعبد الرؤوف المناوي، ص 478/ج2

[1433] المصدر السابق.

[1434] حديث حسن؛ صحيح الجامع للألباني 6662

[1435] مرقاة المفاتيح، ص 3129/ج8

[1436] التيسير بشرح الجامع الصغير؛ لعبدالرؤوف المناوي، ص 528/ج1

[1437] حديث حسن، صحيح الجامع للألباني 176

ويَرفَعَ عنه غَمَّه، فقد وُفِّقَ بذلك إلى أفضَلِ الأعمالِ، "أو يَقضي عنه دَينًا"، أي: تَقْضي عن صاحِبِ الدَّينِ دَينَه؛ وذلك فيمن يَعجَزُ عن الوفاءِ بدَينِه، "أو تطرُدُ عنه جُوعًا"، أي: بإطعامِه أو إعطائِه ما يقومُ مَقامَ الإطعامِ، "؛ ولِأَنْ أَمشِيَ معَ أخٍ لي في حاجَةٍ أحَبُّ إليَّ مِن أنْ أَعتكِفَ في هذا المسجِدِ، يعني: مسجِدَ المدينَةِ شَهرًا"، ففي قولِه هذا إشارةٌ إلى فضْلِ المَشْيِ مع المُسلِمينَ في قَضاءِ حوائِجِهم، وتَيسيرِ العَقَباتِ لهم، حتى جاوَز هذا الفضْلُ الاعتكافَ في مسجِدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا يَدُلُّ هذا إلَّا على عَظيمِ فضْلِ السَّعيِ بين المُسلِمينَ لقَضاءِ حوائجِهم، "ومَن كَفَّ غَضَبَه سَتَرَ اللهُ عَورَتَه"، وفيه إرشادٌ إلى ما يَجِبُ أنْ يأخُذَ المُسلِمُ به نفسَه وقتَ الغَضَبِ، من كَفِّ الغَضَبِ وكَظْمِ الغَيظِ، وأنَّ عاقِبَةَ ذلك طَيِّبةٌ، وهي سَترُ اللهِ عزَّ وجلَّ لعَورَتِه، "ومَن كَظَمَ غيظَه، ولو شاءَ أنْ يُمضِيَه أمضاهُ مَلَأَ اللهُ قلْبَه رَجاءً يومَ القيامَةِ"، وهذا فضْلُ مَن كَظَمَ غيظَه للهِ، مع استطاعَتِه أنْ يُمضِيَ غيظَه، ولكِنَّه كَظَمَه ومَنَعَه للهِ؛ ولأنَّ هذا الأمرَ عزيزٌ على النَّفسِ، فكان فضْلُه عظيمًا، "ومَن مَشى معَ أخيه في حاجَةٍ حتى تتهيَّأَ له"، أي: حتى تُقْضى له، "أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَه يوم تَزولُ الأقدامُ"، أي: ثبَّت اللهُ قَدَمَه يومَ القيامَةِ على الصِّراطِ.

ثم قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "وإنَّ سُوءَ الخُلُقِ يُفسِدُ العَمَلَ، كما يُفسِدُ الخَلُّ العَسَلَ"، خَتَمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذه العِباراتِ، وهذا الإرشادِ، بعدَ أنْ أرشَدَ السائِلَ إلى أحَبِّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى، وكأنَّه أرادَ أن يقولُ له: إنْ فَعَلتَ هذه الأعمالَ الصالِحَةَ، فإيَّاك أنْ يفوتَك حُسْنُ الخُلُقِ؛ فإنَّ سوءَ الخُلُقِ يُفسِدُ الأعمالَ الصالِحَةَ، فَسادًا عَظيمًا، كما يفسُدُ العَسَلُ إذا وُضِعَ عليه الخَلُّ، فعليكَ -إذنْ- أنْ تَجتنِبَ سوءَ الخُلُقِ؛ فإنَّ سوءَ الخُلُقِ يُحبِطُ الأعمالَ، ويُضيعُ الثَّوابَ.

وفي الحديثِ: الحثُّ على مَكارِمِ الأخلاقِ والتَّحذيرُ من سُوءِ الخُلُقِ.[1438]

5/ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَقْضُونَ الْحَوَائِجَ مَفَاتِيحُ الْخَيْرِ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ." [1439]

6/ الله في عَوْنِ الذين يقضون حوائج الناس:

- قال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "مَن نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عنْه كُرْبَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ، وَمَن يَسَّرَ علَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عليه في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَن سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ."[1440]

قَوْلُهُ: "„وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ“": فيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى فَضِيلَةِ عَوْنِ الأَخِ عَلَى أُمُورِهِ، وَإِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُكَافَأَةَ عَلَيْهَا بِجِنْسِهَا مِنَ الْعِنَايَةِ الإِلَهِيَّةِ؛ سَوَاءٌ كَانَ بِقَلْبِهِ أَوْ بَدَنِهِ، أَوْ بِهِمَا لِدَفْعِ الْمَضَارِ، أَوْ جَذْبِ الْمَنَافِعِ؛ إِذْ الْكُلُّ عَوْنٌ.[1441]

قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: „الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ“.[1442]

قَوْلُهُ: "„وَلَا يُسْلِمُهُ“؛ أَي: لَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَتْرُكُهُ مَعَ مَنْ يُؤْذِيهِ، وَلَا فِيمَا يُؤْذِيهِ، بَلْ يَنْصُرُهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ.[1443]

[1438] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

[1439] حديث حسن؛ صحيح ابن ماجه للألباني 194

[1440] صحيح مسلم 2699

[1441] مرقاة المفاتيح، ص 3104/ ج7

[1442] البخاري 2442، ومسلم 2580

[1443] فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ص 97/ ج5

قَوْلُهُ: "„كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ"؛ أَي: سَعَى فِي قَضَاءِ حَاجَةِ أَخِيهِ.
قَوْلُهُ: "„كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ"؛ أَي: أَعَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَسَهَّلَ لَهُ قَضَاءَ حَاجَتِهِ.[1444]
وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما يَنْبغي أنْ يكونَ عليه المُسلِمُ تُجاهَ أخيهِ المسلمِ، فيُبيِّنُ أنَّ المسلِمَ -سواءٌ كان بالغًا أو غيرَ بالِغٍ- أخُو المسلمِ في الإسلامِ، لا يَقومُ بظُلمِه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه حرَّمَ قَليلَ الظُّلمِ وكَثيرَه، وفي الوقتِ نفْسِه لا يَترُكُه إلى الظُّلمِ دونَ أنْ يُعينَه، ولا يَترُكُه مع مَن يُؤذِيه دونَ أنْ يَحميَه قدْرَ استطاعتِه.
ويُخبِرُ أنَّ مَن سَعَى في قَضاءِ حاجةِ أخيه المسلمِ، أعانَهُ اللهُ تعالَى وسَهَّل عليه قَضاءَ حاجتِه، ومَن ساعَدَ مُسلِمًا في كُربةٍ نزَلَت به مِن كُرُباتِ الدُّنيا، أي: في غمٍّ يُؤثِّرُ في نفْسِه، أو في مُصيبَةٍ مِن مَصائبِ الدُّنيا حتَّى يَزولَ غَمُّه ومُصِيبتُه؛ أزالَ اللهُ عنه مُصيبةً وهَوْلًا مِن أهْوالِ يومِ القيامةِ. ومَن اطَّلَع مِن أخيه على عَوْرَةٍ أو زَلَّةٍ، فسَتَره ولم يَفْضَحْه، سَتَره اللهُ يومَ القيامةِ، ولا يَعني هذا أنْ يَسكُتَ عن مَعصيةٍ إنْ رآهُ مُتلبِّسًا بها، بلْ يَجِبُ عليه نُصْحُه والإنكارُ عليه بما شُرِعَ مِن وَسائلِ الإنكارِ حتَّى يَنتهِيَ عن مَعصيتِه، فهذا مِن النَّصيحةِ الواجبةِ.[1445]

7/ قَضَاءُ حَوَائِجِ النَّاسِ مِنْ أَبْوَابِ التَّعَاوُنِ عَلَى الْخَيْرِ:

يُعْتَبَرُ التَّعَاوُنُ عَلَى الْخَيْرِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ ضَرُورَةً إِنْسَانِيَّةً وَاجْتِمَاعِيَّةً، لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ الِاسْتِغْنَاءَ عَنْهَا؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: 2].
"رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: "بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ على رَاحِلَةٍ له، قالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: مَن كانَ معهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ به علَى مَن لا ظَهْرَ له، وَمَن كانَ له فَضْلٌ مِن زَادٍ، فَلْيَعُدْ به علَى مَن لا زَادَ له، قالَ: فَذَكَرَ مِن أَصْنَافِ المَالِ ما ذَكَرَ، حتَّى رَأَيْنَا أنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ."[1446]
قوله: „يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا"؛ أي: متعرضًا لشيء يدفع به حاجته.
قوله: „مَن كانَ معهُ فَضْلُ ظَهْرٍ"؛ أي: زيادة ما يركب على ظهره من الدواب.
والمعنى: كانت راحلتُه ضَعيفةً لم يَقدِرْ أنْ يَركَبَها، ويَمْشي مُترجِّلًا، ويَسقُطُ مِن الضَّعفِ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ راحلتُه قَويَّةً، إلَّا أنَّها قدْ حَمَل عليها زادَهُ، ولم يَقدِرْ أنْ يَركَبَها مِن ثِقَلِ حَملِها، فلمَّا رآهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تلك الحالِ، قال في أصحابِهِ: مَن كان معه „فَضْلُ ظَهْرٍ" أي: رَكوبةٌ زائدةٌ عمَّا يَركَبُها، والمرادُ بالظَّهرِ: الدَّابَّةُ وما في مَعناها مِن الوسائلِ الحديثةِ والمعاصِرةِ، كالسَّيَّارةِ ونحوِها، „فَلْيَعُدْ به" أي: فلْيَتصدَّقْ به ويُعْطِه إلى مَن لا يَملِكُ ما يَسيرُ به ويَحمِلُه، „ومَن كان له فَضْلُ زادٍ"، وهو ما فَضَل مِن طَعامٍ مِنْه „فَلْيَعُدْ" لِيَجُدْ بذلك الفاضلُ ولِيَرجِعْ بالإحسانِ به على المحتاجِ إليه.
وأخبَرَ أبو سَعيدٍ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذَكَر مِن „أصنافِ المالِ" كالثَّوْبِ والنِّعالِ والقِرْبَةِ والماءِ والخَيْمَةِ والنُّقُودِ ونحوِها، حتَّى ظنَّ الصَّحابةُ رَضيَ اللهُ عنهم وفَهِموا مِن أمرِه هذا „أنَّه لا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ"، يعني: أنَّ الإنسانَ ليْس له حقٌّ في إمساكِ ما زاد على حاجتِه مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ والرَّحْلِ وغيرِ ذلك، وهذا كلُّه مِن بابِ الإيثارِ، وهكذا الحُكمُ إذا نَزَلَت حاجةٌ أو مَجاعةٌ في السَّفرِ أو في الحضَرِ؛ واسَى المسْلمُ بما زاد على كِفايةِ تلك الحالِ.[1447]

8/ قَضَاءُ حَوَائِجِ النَّاسِ مِنْ وَسَائِلِ وَحْدَةِ الْمُجْتَمَعِ:

[1444] المصدر السابق
[1445] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.
[1446] مسلم 1728
[1447] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: „إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وشَبَّكَ أَصَابِعَهُ." [1448]

قَوْلُهُ: „كَالْبُنْيَانِ"؛ أَي: الْبَيْتُ الْمَبْنِيُّ.

قَوْلُهُ: „يَشُدُّ بَعْضُهُ"؛ أَي: بَعْضُ الْبُنْيَانِ يُقَوِّي بَعْضُهُ.

قَالَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ الْهَرَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا الْحَدِيثُ مَعَنَاهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَتَقَوَّى فِي أَمْرِ دِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ إِلَّا بِمَعُونَةِ أَخِيهِ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ الْبُنْيَانِ يُقَوِّي بَعْضُهُ."[1449]

لقد بَنَى الإسلامُ مُجتمَعَ المسلمين على أساسٍ مَتينٍ منَ الأُخوَّةِ والتَّآزُرِ فيما بيْنهم، فقال اللهُ تعالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: 10].

في هَذِه الآيةِ الكريمةِ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالى أنَّ المؤمنينَ إخوةٌ في الدِّينِ، والأُخُوَّةُ يُنافيها الحِقْدُ والبَغضاءُ، وتَقْتَضِي التَّوادَّ والتَّناصُرَ، وقِيامَ الأُلْفةِ والمَحبَّةِ فيما بيْنَهم، وفي هذا الحديثِ أيضًا يُخْبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ المؤمنينَ في تَآزُرِهم وتَماسُكِ كُلِّ فَرْدٍ منهم بالآخَرِ، كالبُنيانِ المَرْصوصِ الذي لا يَقْوَى على البَقاءِ إلَّا إذا تَماسَكَتْ أجزاؤُه لَبِنَةً لَبِنَةً، فإذا تفَكَّكَتْ سَقَطَ وانهارَ، وشَبَّكَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيْن أصابِعِه إشارةً إلى أنَّ تعاضُدَ المؤمنينَ بيْنهم كتَشْبيكِ الأصابِعِ بَعْضِها في بَعضٍ، فكما أنَّ أصابِعَ اليدينِ مُتعدِّدةٌ، فهي تَرجِعُ إلى أصلٍ واحدٍ، ورَجُلٍ واحدٍ، فكذلك المؤمنونَ وإنْ تعدَّدَت أشخاصُهم فهمْ يَرجِعونَ إلى أصْلٍ واحدٍ، وتَجْمَعُهم أُخُوَّةُ الإيمانِ، وهذا التَّشبيكُ مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذا الحديثِ كان لَمصلحةٍ وفائدةٍ، فإنَّه لَمَّا شَبَّهَ صلى الله عليه وسلم المؤمنينَ بالبُنيانِ الذي يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا، كان ذلك تَشبيهًا بالقَوْلِ، ثُمَّ أوضَحَه بالفِعْلِ، فشَبَّكَ أصابِعَه بَعْضَها في بعضٍ؛ لِيَتأكَّدَ بذلك المثالُ الذي ضَرَبَه لهم بِقَوْلِه، ويَزدادَ بَيانًا وظُهورًا [1450].

9/ قَضَاءُ حَوَائِجِ النَّاسِ سَبِيلُ الْمُحَبَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ:

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: „تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وتَوَادِّهِمْ وتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى." [1451]

حضَّ الإسلامُ على المؤاخاةِ والأُلفةِ والمواساةِ بيْن المؤمنينَ، وأنْ يَكونوا مُتكاتِفين مِثلَ الجَسدِ الواحدِ، ومثلَ البُنيانِ المرصوصِ؛ لتَقْوى وحْدتُهم وتَتَّفِقَ كَلِمَتُهم؛ ولذلك أرشَدَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُمَّتَه في هذا الحديثِ إلى ما يُنشِئُ فِيهِمُ التَّراحُمَ والحبَّ والعاطفةَ؛ حيث قال: „تَرَى المؤمنين في تَراحُمِهِم" بأنْ يَرحَمَ بَعضُهُم بَعضًا بأُخُوَّةِ الإسلامِ، لا بِسَببٍ آخَرَ، „وتَوادِّهِم"، وهو تَواصُلُهُم الجالبُ للمَحبَّةِ، كالتَّزاوُرِ، والتَّهادِي، „وتَعاطُفِهِم" بأنْ يُعينَ بعضُهم بعْضًا، كمَثَلِ الجسدِ بالنِّسبةِ إلى جميعِ أعضائِه، إذا اشتكى عُضوٌ منه تَداعَى له سائرُ جَسدِه، أي: دعَا بعْضُه بعضًا إلى المشاركةِ بالسَّهرِ؛ لأنَّ الألَمَ يَمنَعُ النَّومَ، والمعنى: أنَّ المسلمين يستَشعِرون آلامَ بعضِهم ومصائِبَهم بالعَوْنِ وتقديمِ مُساعدةِ بعضِهم بعضًا، كمَثَلِ الجَسَدِ الواحِدِ، إذا مرِضَ منه عضوٌ انهارَ له سائرُ جَسَدِه، وهذا تنبيهٌ للمُسلِمين بأن يكونوا كذلك في جميعِ شُؤونِهم.

وفي الحَديثِ: التَّشبيهُ وضرْبُ الأمثالِ؛ لتَقريبِ المعاني للأفهامِ.[1452]

10/ قَضَاءُ حَوَائِجِ النَّاسِ عَلامةٌ على إيمانِ العبدِ:

روى الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: „لا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ

[1448] البخاري 2446، ومسلم 2585

[1449] مرقاة المفاتيح، ص 3102/ج7

[1450] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

[1451] صحيح البخاري 6011

[1452] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ." [1453]

المطلب الثالث: التحذيرُ من عَدَمِ قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ مَعَ الإِسْتِطَاعَةِ

قال رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: "مَن ولَّاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ شيئًا من أمرِ المسلمينَ فَاحْتَجَبَ دونَ حاجتِهِم، وخلَّتِهِم وفَقرِهِم، احتَجبَ اللَّهُ عنهُ دونَ حاجَتِهِ وخلَّتِهِ، وفقرِهِ قالَ: فجعلَ رجلًا علَى حوائجِ النَّاسِ".[1454]

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَمْرو بْن مُرَّةَ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "ما مِن إمامٍ يُغْلِقُ بابَه دونَ ذَوي الحاجةِ والخَلَّةِ والمسكَنةِ؛ إلَّا أغلَق اللهُ أبوابَ السَّماءِ دونَ خَلَّتِه وحاجتِه ومَسكنتِهِ"، فَجَعَلَ مُعَاوِيَةُ رَجُلاً عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ.[1455]

„يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ"؛ أي: يَحْتَجِبُ وَيَمْتَنِعُ مِنَ الْخُرُوجِ عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ.

„الْخَلَّةُ"؛ أي: الْفَقْرُ.

„إِلَّا أَغْلَقَ اللَّهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ دُونَ خَلَّتِهِ وَحَاجَتِهِ وَمَسْكَنَتِهِ"؛ أي: أَبْعَدَهُ وَمَنَعَهُ عَمَّا يَبْتَغِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ أَوِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَلَا يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى حَاجَةٍ مِنْ حَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةِ.[1456]

المطلب الرابع: نَبِيُّنَا قُدْوَتُنَا فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ

نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمِثَالُ الْأَعْلَى، وَالْقُدْوَةُ الْحَسَنَةُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يُرِيدُ أَنْ يَصِلَ إِلَى كَمَالِ الْأَخْلَاقِ.

1/ قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21]، قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ".[1457]

2/ روى البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: „أَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ، وَفُكُّوا الْعَانِيَ „أَي: الأَسِيرَ"".[1458]

- قوله: „أَطْعِمُوا الْجَائِعَ"؛ أي: قدِّموا له من الطَّعامَ ما يُشْبِعُه، ويُذهِب عنه الجوع؛ لأن الإسْلامَ دِينُ الرحمةِ والتَّعاطفِ، ومنْ أَهَمِّ ما يَقْتضِيه ذلك، إطْعَامُ الفَقِيرِ الجَائِعِ، وقوله: „وَعُودُوا الْمَرِيضَ"؛ أي: قوموا بزيارة المريض، وقوله: „وَفُكُّوا الْعَانِيَ"؛ أي: خَلِّصُوا الأَسِيرَ مِن يَدِ الأعداء، وكذلك المحْبُوسِ ظلمًا.[1459]

وفي أيامنا هذه، حتى وإن لم نجد حولنا جائعين، إلا أن هناك أخوةً لنا في إفريقيا وغيرها من البلدان يحتاجون إلى مساعدتنا، لذا علينا الاجتهاد في البحث عنهم، وإيصال المساعدة لهم.

[1453] البخاري 13، ومسلم 45

[1454] صحيح أبي داود للألباني 2948

[1455] صحيح الترمذي للألباني 1071

[1456] تحفة الأحوذي؛ للمباركفوري، ص 468/ ج4

[1457] تفسير ابن كثير، ص 391/ ج6

[1458] البخاري 5649

[1459] منار القاري، حمزة قاسم، ص 197، 198/ ج5

المطلب الخامس: صوَرٌ من حِرْصِ النَّبِي عَلَى قَضَاءِ حَوائِجِ النَّاسِ

1/ روى الشيخان عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: قالت خديجة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم: „وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.“.[1460]

- „لَتَصِلُ الرَّحِمَ“؛ أي: تُحْسِنُ إلى الأقارب وَتُواسِيهِم.
- „وَتَحْمِلُ الكَلَّ“؛ أي: تُسَاعِدُ الضَّعِيفَ وَاليَتِيمَ وَغَيْرَهُمَا.
- „وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ“؛ أي: تُعْطِي الْمَالَ تَبَرُّعًا لِلْمُحْتَاجِ.
- „وَتَقْرِي الضَّيْفَ“؛ أي: تُقَدِّمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ لِلضَّيْفِ.
- „نَوَائِبِ الْحَقِّ“؛ أي: الْحَوَادِثَ الْجَارِيَةَ عَلَى الْخَلْقِ بِتَقْدِيرِ اللهِ تَعَالَى.

2/ روى البُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: "كَانَتِ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، لَتَأْخُذَ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَنْطَلِقَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ". [1461]

„فَتَنْطَلِقَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ“؛ أي: يَذْهَبُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الجَارِيَةِ إِلَى حَيْثُ شَاءَتْ مِنَ الأَمَكِنَةِ، وَلَوْ كَانَتْ حَاجَةُ الجَارِيَةِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، وَالتَّمَسَتْ مِنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسَاعَدَتَهَا فِي قَضَاءِ تِلْكَ الْحَاجَةِ، لِيُساعِدَها النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا الْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى مَزِيدِ تَوَاضُعِهِ وَبَرَاءَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْكِبْرِ.[1462]

3/ رَوَى مسلمٌ عن أَنَّسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ - „أَي مِنَ الْخَفَّةِ“- فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: „يَا أُمَّ فُلَان، انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ“، فَخَلا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا.[1463]

قال الإمام النووي رحمه الله: هذا الحديث فيه دَليلٌ على صَبْرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى المَشَقَّةِ فِي نَفْسِهِ لِمَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِجَابَتِهِ مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً.[1464]

4/ رَوَى البخاري عن سهلٍ بن سعدٍ رضي الله عنه أنَّ أهلَ قُبَاءَ اقتتلوا حتى تَرَامُوا بالحجارة، فأُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فقال: „اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحْ بَيْنَهُمْ.“.[1465]

قوله: „اقتتلوا“؛ أي: وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ خُصُومَةٌ شَدِيدَةٌ أَدَّتْ إِلَى الاشْتِبَاكِ بِالْأَيْدِي وَالضَّرْبِ بِالْحِجَارَةِ، حَتَّى وَصَلَتْ أَخْبَارُهُمْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ..[1466]

قال الإمام أحمد بن محمد القسطلاني رحمه الله: في الحديث دليل على خُرُوجِ الإمام في أَصْحَابِهِ لِلْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ عِنْدَ شِدَّةِ تَنَازُعِهِمْ.[1467]

[1460] البخاري 3، ومسلم 160

[1461] البخاري 6072

[1462] فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ص 490/ ج10

[1463] مسلم 2326

[1464] مسلم بشرح النووي، ص 82/ ج15

[1465] البخاري 2693

[1466] منار القاري شرح مختصر البخاري، حمزة قاسم، ص 53/ ج4

[1467] إرشاد الساري؛ للقسطلاني، ص 419/ ج4

وَلَا شَكَّ أن الْإِصْلَاحَ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ يَعْتَبِرُ مِنْ أَفْضَلِ وَسَائِلِ قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ التَّآلُّفُ بَيْنَ قُلُوبِ النَّاسِ، وَإِخْمَادُ نَارِ الْفِتْنَةِ.

المطلب السادس: صُوَرٌ مِنْ حِرْصِ الصَّحَابَةِ عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ

لَقَدْ اِقْتَدَى الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحِرْصِ عَلَى السَّعيِّ لِقَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ، وَكَانُوا يَكْتُبُونَ إِلَى وُلاَتِهِم بِذَلِكَ، فَقَدْ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: „إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ لِلنَّاسِ وُجُوهٌ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ؛ فَأَكْرِمْ وُجُوهَ النَّاسِ، فَبِحَسْبِ الْمُسْلِمِ الضَّعِيفِ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ يُنْصَفَ فِي الْحُكْمِ وَالْقِسْمَةِ".[1468]

- لَمّا استُخلِف أبو بكرٍ الصِّدّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عنه أصْبَحَ غاديًا إلى السُّوقِ، وكان يَحْلُبُ للحيِّ أغنامَهم قبل الخلافةِ، فلمَّا بُويِعَ قالت جاريةٌ من الحيِّ: الآن لا يَحْلُبُ لنا. فقال: بلى لأحلُبَنَّها لكم، وإني لأرجو ألَّا يُغَيِّرَني ما دخلتُ فيه.[1469]

- وَلَقَدْ كَانَ عُمَرُ يَتَعَاهَدُ الْأَرَامِلَ يَسْتَقِي لَهُنَّ الْمَاءَ بِاللَّيْلِ، وَرَآهُ طَلْحَةُ بِاللَّيْلِ يَدْخُلُ بَيْتًا، فَدَخَلَ إِلَيْهَا طَلْحَةُ نَهَارًا فَإِذَا هِيَ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ عَمْيَاءُ مُقْعَدَةٌ، فَسَأَلَهَا: مَا يَصْنَعُ هَذَا الرَّجُلُ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: هَذَا مُذْ كَذَا وَكَذَا يَتَعَاهَدُنِي يَأْتِينِي بِمَا يُصْلِحُنِي وَيُخْرِجُ عَنِّي الأذى، فَقَالَ طَلْحَةُ: ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَا طَلْحَةُ، أَعَوَرَاتُ عُمَرَ تُتَّبَعُ؟

- وَكَانَ أَبُو وَائِلَ يَطُوفُ عَلَى نِسَاءِ الْحَيِّ وَعَجَائِزِهِنَّ كُلَّ يَوْمٍ فَيَشْتَرِي لَهُنَّ حَوَائِجَهُنَّ وَمَا يُصْلِحُهُنَّ.[1470]

- وقالَ مُجاهِد: "صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ لِأَخْدُمَهُ فَكَانَ يَخْدُمُنِي."[1471]

المطلب السابع: أَقْوَالُ بَعْضِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاس

1/ قِيلَ لِابْنِ الْمُنْكَدِرِ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِ. قِيلَ: أَيُّ الدُّنْيَا أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِفْضَالُ عَلَى الْإِخْوَانِ. أَي: التَّفَضُّلُ عَلَيْهِمْ وَالْقِيَامُ بِخِدْمَتِهِمْ.

2/ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ رَحِمَهُ اللهُ: "لَمْ يَبْقَ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا إِلَّا قَضَاءُ حَوَائِجِ الإِخْوَانِ." [1472]

3/ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي وَصْفِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ: "كَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ يَسْعَى سَعْيًا شَدِيدًا لِقَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ."

4/ كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ - رَحِمَهُ اللهُ - يَحْمِلُ الْخُبْزَ إِلَى بُيُوتِ الْمَسَاكِينِ فِي الظَّلَامِ فَلَمَّا مَاتَ فَقَدُوا ذَلِكَ، كَانَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَعِيشُونَ وَلَا يَدْرُونَ مِنْ أَيْنَ مَعَاشُهُمْ فَلَمَّا مَاتَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ فَقَدُوا ذَلِكَ الَّذِي كَانَ يَأْتِيهِمْ بِاللَّيْلِ."

5/ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَسْتَشْفِعُ بِهِ فِي حَاجَةٍ فَقَضَاهَا، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ يَشْكُرُهُ، فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ: "عَلَامَ تَشْكُرُنَا وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ لِلْجَاهِ زَكَاةً كَمَا أَنَّ لِلْمَالِ زَكَاةً؟!".[1473]

6/ قال الحسن البصري رحمه الله: "لأن أَقْضِيَ لأخٍ لي حاجةً أحبُّ إليّ من أنْ أعتكف شهرين".[1474]

7/ قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ رَحِمَهُ اللَّهُ لِابْنِ أَخِيهِ: "إِنَّ أَفْضَلَ الْعَطِيَّةِ مَا أُعْطِيَتِ الرَّجُلَ قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ، فَإِذَا سَأَلَكَ فَإِنَّمَا تُعْطِيهِ ثَمَنَ وَجْهِهِ حِينَ بَذَلَهُ إِلَيْكَ."[1475]

[1468] ابن عبد البر: المجالسة وجواهر العلم 282/2

[1469] رواه ابنُ سعد في الطبقات الكبرى 3430، والطبري في التاريخ13/64، وابن عساكر في تاريخ دمشق 30/323 مطوَّلًا.

[1470] - كتاب خطوات إلى السعادة، ص85

[1471] كتاب الجهاد ابن المبارك، ص159

[1472] آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي، ص 102، رقم 150

[1473] الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي، ص 176/ ج2

[1474] قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا، ص 48، رقم 38

[1475] المصدر السابق ص 49، رقم 39

8/ قَالَ طَاوُس بْنُ كَيْسَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً، ثُمَّ جَعَلَ إِلَيْهِ حَوَائِجَ النَّاسِ؛ فَإِنْ احْتَمَلَ وَصَبَرَ، وَإِلَّا عَرَّضَ تِلْكَ النِّعْمَةُ لِلزَّوَالِ." [1476]

9/ قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ لِصَاحِبٍ لَهُ: "إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلَيَّ حَاجَةٌ، فَلَا تُكَلِّمْنِي فِيهَا، وَلَكِنِ اكْتُبْهَا فِي رُقَعَةٍ، ثُمَّ ارْفَعْهَا إِلَيَّ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرَى فِي وَجْهِكَ ذُلَّ الْمَسْأَلَةِ." [1477]

10/ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "مَا رَدَدْتُ أَحَدًا عَنْ حَاجَةٍ أَقْدِرُ عَلَى قَضَائِهَا، وَلَوْ كَانَ فِيهَا ذَهَابُ مَالٍ." [1478]

11/ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ النَّضْرِ الْحَارِثِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "أَوَّلُ الْمُرُوءَةِ طَلَاقَةُ الْوَجْهِ، وَالثَّانِي التَّوَادُّ إِلَى النَّاسِ، وَالثَّالِثُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ، وَمَنْ فَاتَهُ حَسَبُ نَفْسِهِ، لَمْ يَنفَعْهُ حَسَبُ أَبِيهِ." [1479]

12/ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَسَأَلَهُ رَجُلٌ: "يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قُرْحَةٌ خَرَجَتْ فِي رُكْبَتِي مُنْذُ سَبْعِ سَنَوَاتٍ، وَقَدْ عَالجتُ بِأَنْوَاعِ الْعِلَاجِ، وَسألْتُ الأَطِبَّاءَ فَلَمْ أَنْتَفِعْ بِهِ،" قَالَ: "اذْهَبْ فَانْظُرْ مَوْضِعًا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى الْمَاءِ فَاحْفُرْ هُنَاكَ بِئْرًا، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَنْبَعَ هُنَاكَ عَيْنٌ، وَيُمْسَكُ عَنْكَ الدَّمُ،" فَفَعَلَ الرَّجُلُ فَبَرِئَ؛ "أَي: شَفاهُ اللَّهُ تَعَالَى". [1480]

ويَتَضِحُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ قَضَاءَ الْحَوَائِجِ وَاصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ بَابٌ وَاسِعٌ يَشْمَلُ كُلَّ الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ والْحِسِّيَّةِ الَّتِي حَثَّنَا الْإِسْلَامُ عَلَيْهَا، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْإِيثَارِ الَّذِي مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة الحشر:8-9].

وَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى السَّعْيِ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ عَلَى النَّفْعِ الْمَادِيِّ فَقَطْ، وَلَكِنَّهُ يَمْتَدُّ لِيَشْمَلَ النَّفْعَ بِالْعِلْمِ، وَالنَّفْعَ بِالرَّأْيِ، وَالنَّفْعَ بِالنَّصِيحَةِ، وَالنَّفْعَ بِالْمشوَّرَةِ، وَالنَّفْعَ بِالْجَاهِ، وَالنَّفْعَ بِالسُّلْطَانِ.

[1476] المصدر السابق ص 56، رقم 50

[1477] القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا، ص 31

[1478] قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا، ص 64، رقم 67

[1479] المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري، ج3، ص189، رقم 828

[1480] شعب الإيمان؛ للبيهقي، ج5، ص69، رقم 3109

المبحث الخامس: حُسن ولين الكلام

اللين: خُلقٌ عَظيمٌ تَخَلَّقَ به النَبي صلى الله عليه وسلم، بَل وهو مِن الدَّرَجاتِ التي اخْتَصَمَ فيها الملأُ الأعلى؛ ألا وهو: „لينُ الكَلام"

المطْلَبُ الأَوَّلُ: مَعْنَى اللين

- **اللين بِمَعْناهُ اللغوي:**

السُهُولَةُ واليُسْر، كقولِك: طَريقٌ لَيِّن أي: سَهْل، وأصلُ اللِّيونَةِ: الرِّقَة، وَضِدُّها الخُشُونة، يُقالُ: لاَنَ الشَيء يَلِينُ لُيونَةً أَيْ رَقَّ، ومِن مَعاني اللين أيضا: الرِّفْقُ واللُّطْفُ..

قال ابنُ فارس: "اللام والياء والنون كلمةٌ واحدة، وهي اللِّين: ضدُّ الخُشُونَة. ويقال: هو في لَيَانٍ من عَيش، أي نَعْمةٍ، وفلانٌ مَلْيَنَة، أي لَيِّنُ الجانب".[1481]

- **وَاللِّينُ بِمَعْنَاهُ الْاِصْطِلَاحِيِّ:**

هُوَ سَهُوْلَةُ الْاِنْقِيَادِ لِلْحَقِّ، وَالتَّلَطُّفُ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ وَعِنْدَ التَّحَدُّثِ إِلَيْهِمْ.[1482]

المطْلَبُ الثَّاني: التَّرغيبُ في لينِ الكلامِ والحثُّ عليه

أ. الحَثُ على لِينِ الكَلام في القُرآن الكَريم:

إِنَّ الْمُتَدَبِّرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِدُهُ قَدْ حَثَّ عَلَى الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ، والْقَوْلِ الْحَسَنِ السَّدِيدِ، وَحَضَّ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَحَذَّرَ مِنَ الْكَلِمَاتِ وَالْأَفْعَالِ الْخَبِيثَةِ؛ ومن ثَمَّ يَنْبَغِي على المُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ لِلنَّاسِ لَيِّنًا، مَعَ اِنْبِسَاطِ وَجْهِهِ؛ لأَنَّ حُسْنَ الْقَوْلِ وَبَشَاشَةَ الْوَجْهِ؛ دَلِيلَانِ عَلَى حُسْنِ اسْتِقَامَتِهِ وَفِقْهِهِ.

ولقد حَثَّ الْقُرْآنُ على حُسْنِ الْخُلُقِ مَعَ الْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ وَالشُّرَفَاءِ وَالْوُضَعَاءِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ؛ حَتَّى مَعَ أَطْغَى طُغَاةِ الْأَرْضِ فِرْعَوْنَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه:44].

كما حَثَّ المَوْلى عَزَ وَجَل، على الكَلامِ الطَّيبِ؛ فقال سُبْحَانَهُ: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} [البقرة:83]، وَقَالَ تَعَالَى: {قُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [الإسراء:53]، وذلكَ لِمَا لها من أثرٍ في تأليف القُلُوبِ وَتَطْيِيبِ النفوس.

وحَثَّ القرآن على القَوْلِ المَيْسُور؛ فَقال تَعالى: {فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا} [الإسراء: 28]، وهو القَوْلُ السَّهْلُ اللّين، الذي فيه مَسَرَّةٌ للمُخاطَبين، وَجَبْرٌ لِخاطِرِهِم، وَتَيْسِيرٌ لِمُعْسِرِهِمْ.

كما أنَّ اللينَ صورةٌ من صورِ الرحمةِ، يَضَعُهَا اللهُ في قلبِ العَبْدِ، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل: عمران:159].

ب. الحَثُ على لينِ الكَلامِ في السُّنَّة النَّبَوِيَّة:

- قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "والكَلِمَةُ الطَّيبةُ صَدَقةٌ"[1483]، وقال أيضا: "إنَّ أوْلى النَّاسِ باللهِ مَن بَدَأَهُمْ بالسَّلام".[1484]

- كَما قال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه درجةَ الصائمِ القائمِ".[1485]

[1481] مقاييس اللغة، ابن فارس

[1482] نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم 8/3296

[1483] أخرجه البخاري (2989)، ومسلم (1009)

[1484] صَحِيح أَبِي دَاوُدَ (5197)

- وروت أمنا عَائِشَةَ رضي الله عنها: "أَنَّ اليَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالوا: السَّامُ عَلَيْكَ، قَالَ: وعلَيْكُم، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ علَيْكُم، ولَعَنَكُمُ اللَّهُ وغَضِبَ علَيْكُم، فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَهْلًا يا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بالرِّفْقِ، وإيَّاكِ والعُنْفَ، أوِ الفُحْشَ، قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ ما قالوا؟! قَالَ: أَوَلَمْ تَسْمَعِي ما قُلتُ؟ رَدَدْتُ عليهم، فيُسْتَجَابُ لي فيهم، ولَا يُسْتَجَابُ لهمْ فِيَّ".[1486]

- وَقَدْ قَالَ صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَومَ القِيَامَةِ مَن تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ".[1487]

ت. أقوالُ بَعْضِ السَّلَفِ في لِينِ الكَلام:

- كان أَصْحابُ ابنِ مَسْعُودٍ رضي اللهُ عَنه إِذَا رَأَوْا قَوْمًا على ما يُكْرَهُ؛ يَقُولُونَ لَهُم: „مَهْلًا مَهْلًا، بَارَكَ اللهُ فيكم"!

- ورأى بَعْض التَّابِعِينَ رَجُلًا واقِفا مَعَ امرأةٍ، فقال لهما: „إن الله يَرَاكُما، سترنا الله وَإِيَّاكُما."!

- وقال سُفيان: „لا يَأْمُرُ بالمعْروفِ، ولا يَنْهَى عَنْ المنْكَرِ؛ إلا مَنْ كَانَ فيه خِصَالٌ ثلاثٌ: رفيقٌ بما يَأْمُرُ، رَفيقٌ بِما يَنْهى، عَدْلٌ بِما يَأمُر، عَدْلُ بما يَنْهى، عالِمٌ بما يأمُرُ، عالمٌ بما يَنْهى".

- وقال الإمام أحمد: „النَّاسُ يَحْتاجونَ إلى مُدَارَاةٍ وَرِفْقٍ في الأمرِ بالمعروف، بلا غِلْظَةٍ، إلّا رَجُلًا مُعْلِنًا بالفِسْق؛ فإنَّهُ لا حُرْمَةَ له."

المطلب الثَّالث: نَمَاذِجُ مِن اللينِ

- **لين النبي صلى الله عليه وسلم:**

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: "مَرَّ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقالَ: اتَّقِي اللَّهَ واصْبِرِي قالَتْ: إلَيْكَ عَنِّي، فإنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصِيبَتِي، ولَمْ تَعْرِفْهُ، فقِيلَ لَهَا: إنَّه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأتَتْ بَابَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقالَ: إنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى"[1488].

في هذا الحديثِ يُخبِرُ التابعيُّ ثابِتٌ البُنانيُّ أنَّه سمع أنَسَ بنَ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه يُكَلِّمُ امْرَأَةً مِن أهْلِهِ، وسَأَلَها: تَعْرِفِينَ فُلَانَةَ؟ قالَتْ: نَعَمْ، فأخبرها أنَّه لَمَّا مرَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على هذه المرأةِ ووجَدَها تَبْكي على القَبرِ لِفقْدِ أحدِ أحبَّائِها، وفي روايةِ مُسلِمٍ: «تبكي على صبيٍّ لها»؛ قال لها ناصحًا: «اتَّقي اللهَ واصْبِري»، أي: لا تَجزَعي الجَزَعَ الذى يُحبِطُ الأجرَ، واسْتشعِري الصَّبْرَ على المُصيبةِ بما وعَدَ اللهُ على ذلك؛ ليحصُلَ لك الثَّوابُ، وخافي غَضَبَ اللهِ إن لم تَصْبري، فقالتِ المرأةُ: ابتَعِدْ عنِّي؛ فإنَّك لمْ تُصَبْ بما أُصِبْتُ به، فَجاوزَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَضَى في طَريقِه، فعرَّفَها رجُلٌ بأنَّ مَن مَرَّ بها ونصحها بتقوى اللهِ والصَّبرِ على المصيبةِ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فقالت: إنها لم تكُنْ تَعرِفُ أنَّه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ لو عرفَتْه لم تكُنْ لتخاطِبَه بهذا الخِطابِ، ثُمَّ جاءتْ إلى بَيتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم تَجِدْ عليه بوَّابًا، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكثرَ النَّاسِ تَواضعًا؛ لا يَقِفُ على بابِه بوَّابٌ، أو حارسٌ، أو حاجِبٌ يمنعُ النَّاسَ من الدُّخولِ عليه، وفائِدةُ هذه الجُملةِ أنَّ المرأةَ لَمَّا استشعرت خوْفًا وهيبةً في نفسِها، تصَوَّرت أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِثلُ الملوكِ له حاجِبٌ أو بوَّابٌ يمنعُ النَّاسَ مِن الوصولِ إليه، فوجدت الأمرَ بخلافِ ما تصوَّرَتْه، فلمَّا أتَتْهُ قالتْ له: واللهِ ما عرَفْتُك، وكأنها تعتَذِرُ عن سوءِ قَولِها وسُوءِ رَدِّها عليه، فأخبرها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ الصَّبرَ المحمودَ الذي

[1485] أخرجه أبو داود (4798) واللفظ له، وأحمد (24355) باختلاف يسير.

[1486] صحيح البخاري (6401)، صحيح مسلم (2165) باختلاف يسير.

[1487] صحيح البخاري (6032)، صحيح مسلم (2591) باختلاف يسير.

[1488] أخرجه البخاري (1283)، ومسلم (926)

يُؤجَرُ عليه الإنسانُ يكونُ عندَ صَدمةِ المُصيبةِ الأُولَى وبدايتِها؛ لأنَّه هو الذي يَشُقُّ ويَعظُمُ تَحمُّلُه ومُجاهدةُ النَّفْسِ عليه، وأمَّا بعْدَ الصَّدمةِ الأُولى ومُرورِ الأيامِ فكلُّ أحدٍ يَصبِرُ ويَنسَى المُصيبةَ.

وفي الحَديثِ: بَيانُ لينه ورِفقُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وكريمُ خُلقِه؛ حيثُ لم يَنتهِرِ المرأةَ لَمَّا ردَّتْ عليه قولَه، بل عذَرَها بمُصيبتِها.[1489]

- روى أبو هريرة رضي الله عنه: "أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا به، فَقَالَ لهمْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: دَعُوهُ، وأَهْرِيقُوا علَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِن مَاءٍ -أَوْ سَجْلًا مِن مَاءٍ- فإنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ ولَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ"[1490].

في هذا الحديثِ يُخبِرُ أبو هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ أعرابيًّا -وهو الذي يسكُنُ الصَّحراءَ من العَرَبِ-، بَالَ في المسجِدِ، فقام إليه النَّاسُ ليؤذُوه بالضَّربِ ونحْوِه، فأمَرَهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يتركُوه حتَّى يُتِمَّ بَوْلَه، ولا يَقطَعوه عنه، وأن يَصُبُّوا على مَوضِعِ بَولِه دَلْوًا كَبيرًا مِن الماءِ؛ ووضَّح لهم أنَّ هذا من يُسْرِ الشَّريعةِ وسماحتِها، وأنَّهم إنما بُعِثوا «مُيَسِّرِينَ» في تَعليمِ النَّاسِ أمْرَ دِينِهم، ولم يُبعَثوا «مُعَسِّرِينَ»، وهو تَأكيدٌ لقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «مُيسِّرين» مُبالَغةً في التَّيسيرِ.

وقد بيَّن له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خطَأَه وأرشده للصَّوابِ، كما في روايةٍ أُخرى في صحيحِ مُسلمٍ، من حديثِ أنَسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، وفيه: «إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دعاه فقال له: إنَّ هذه المساجِدَ لا تصلُحُ لشيءٍ من هذا البَولِ ولا القَذَرِ، إنما هي لذِكرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، والصَّلاةِ، وقراءةِ القُرآنِ».

وفي الحَديثِ: حُسنُ تَعليمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ورِفْقُه.

وفيه: الرِّفقُ بالجاهِلِ وتعليمُه ما يَلزَمُه من غيرِ تعنيفٍ ولا إيذاءٍ إذا لم يأتِ بالمخالفةِ استخفافًا أو عنادًا[1491].

- **لين إبراهيم عليه السلام مَعَ أبيه:**

وانظر إلى لين إبراهيم عليه السلام مَعَ أبيهِ: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} [مريم: 46-47].

- قال الشنقيطي: „بَيَّنَ اللهُ جلَّ وعلَا في هاتين الآيتين الكَريمَتَينِ أنَّ إبراهيمَ لَمَّا نَصَحَ أباهُ النَّصيحَةَ المَذْكُورةَ مَعَ ما فيها مَن الرِّفق واللينِ، وإيضاحِ الحَقِّ، والتَحْذيرِ من عِبادةِ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِر، ومِن عَذابِ الله تعالى، وَوِلَايَةِ الشَّيْطَانِ، خَاطَبَهُ هَذَا الْخِطَابَ الْعَنِيفَ وَسَمَّاهُ بِاسْمِهِ، وَلَمْ يَقُلْ لَهُ يَا بُنَيَّ فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ لَهُ يَا أَبَتِ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ أَنَّهُ رَاغِبٌ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، أَيْ: مُعرِضٌ عَنْهَا لَا يُرِيدُهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ جَلَّ وَعَلَا، وَهَدَّدَهُ بِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَمَّا يَقُولُهُ لَهُ لَيَرْجُمَنَّهُ، قِيلَ: بِالْحِجَارَةِ، وَقِيلَ: بِاللِّسَانِ شَتْمًا، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِهِجْرِهِ مَلِيًّا، أَيْ: زَمَانًا طَوِيلًا، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ قَابَلَ أَيْضًا جَوَابَهُ الْعَنِيفَ بِغَايَةِ الرِّفْقِ وَاللِّينِ، فِي قَوْلِهِ: قَالَ {سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي} [مريم: 47][1492].

المطلب الرابع: ثَمَراتُ حُسنِ وَلِينِ الكَلام

1/ سَبَبٌ لِمَغْفِرةِ الذُّنُوبِ:

يَقُولُ رسولُ اللهُ صلى الله عليه وسلم: "إنَّ مِنْ مُوجِباتِ المَغْفِرةِ بَذْلُ السَّلامِ، وَحُسْنُ الكَلامِ". [1493]

2- اللينُ في الكَلامِ يُوجِبُ المَحَبَّة:

جَاءَ عَنْ عليِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "مَنْ لَانَتْ كَلِمَتُهُ وَجَبَتْ مُحَبَّتُهُ"، فَمَنْ رَاعَى الْأَدَبَ فِي الْكَلَامِ، واسْتَخْدَمَ

[1489] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

[1490] صحيح البخاري (6128)

[1491] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

[1492] أضواء البيان في تفسير القرآن - سورة مريم - تفسير الآيات 46-47

[1493] صحيح، السلسلة الصحيحة 1035

الذَّوْقَ فِي عِبَارَاتِهِ، امْتَلَكَ قُلُوبَ الْعِبَادِ.

3- سَبَبٌ لِتَآلُفِ الْقُلُوبِ:

قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: 34، 35].

فَالْكَلِمَاتُ الطَّيِّبَةُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ دَفْعِ الْعَدَاوَةِ، وَالتَّقَارُبِ الاِجْتِمَاعِيِّ بَيْنَ الْعِبَادِ.

4- دَلِيلٌ عَلَى اِسْتِقَامَةِ الْقَلْبِ:

يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ." [1494]

فَاللِّسَانُ مِعْرَفَةُ الْقَلْبِ، وَبِهِ تُعْرَفُ طَيِّبَاتُ النُّفُوسِ، وَدَرَجَاتُ الْعُقُولِ.

5- سَبَبٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ:

جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: "إِنَّ فِي الجنةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُها من باطِنِها، وباطِنُها من ظَاهِرِها. فقال أبو مالِكٍ الأَشْعَرِيُّ: لِمَنْ هِيَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: لِمَنْ أَطَابَ الكَلامَ، وأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وباتَ قائِمًا والناسُ نِيامٌ"[1495].

المطلب الخَامِسُ: أَثَرُ مُقَابَلَةِ الأذى بِاللين

إِنَّ مُقَابَلَةَ الْأَذَى بِاللِّينِ مِنَ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ الطَّيِّبَةِ، وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَقُولَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَفْضَلَ الْعِبَارَاتِ وَأَحْسَنَهَا، وَيَنْتَقُوا أَطَايِبَ الْكَلَامِ كَمَا يَنْتَقُونَ أَطَايِبَ الثَّمَرِ؛ فَلَا يَتَفَوَّهُ الْمُسْلِمُ بِكَلِمَةٍ يُفْسِدُ بِهَا وُدَّ أَخِيهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَزْرَعُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْإِخْوَةِ بِالْكَلِمَةِ الْخَشِنَةِ، وَالْعِبَارَةِ السَّيِّئَةِ.

فَكَمْ نَزَعَتِ الْعِبَارَاتُ الخَشِنَةُ التِي لَا لَيِنَ فِيهَا، وَلَا حُسْنَ أواصِرَ الْحُبِّ وَالْوُدِّ، فَأَعْقَبَتِ الْمَحَبَّةَ بِالْبَغْضَاءِ، وَالْمَوَدَّةَ بِالْعَدَاوَاءِ! فَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ تُدَاوِي جِرَاحَ الْقُلُوبِ؛ بِعَكْسِ الْكَلِمَةِ السَّيِّئَةِ؛ التِي يَزَغُ بِهَا الشَّيْطَانُ بَيْنَ الإِخْوَةِ، فَيَلْتَمِسُ سُقُوطَاتِ الْإِنْسَانِ، وَعَثَرَاتِ اللِّسَانِ؛ لِيُحَرِّشَ بَيْنَ الْعِبَادِ، لِذَا وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَسُدَّ عَلَيْهِ الثَّغَرَات ونُغْلِقَ أَمَامَهُ الأَبْوَابَ بِلِينِ الكلام؛ فَلِينُ الكلام، وَدَرءُ السَّيِئات بالحَسَناتِ دَأْبُ الصَّالِحِينَ، وَمَنْهَجُ الْمُتَّقِينَ، لا يَغُوصُ في أَعْمَاقِهِ إلا نُجَبَاءُ الرِّجال، نُبَهَاءُ الْعُقُولِ، الذين اصْطَفاهُمُ اللهُ لِلْجِنَانِ. -قَالَ تَعَالَى-: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:22].

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ في تفسير هذه الآية الكريمة: "هو الرجلُ يَسُبُّهُ الرَّجُلُ فيقول له: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا؛ فَغَفَرَ اللهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا؛ فَغَفَرَ اللهُ لَكَ".[1496]

ولِذا قال بَعْضُ الحُكَماءِ: الكَلِمَةُ قَبْلَ أن تُطْلِقَها مَلَكْتَها؛ فإذا أَطْلَقْتَها مَلَكَتْكَ". ولَيْسَتِ الألفاظُ على دَرَجَةٍ واحِدَة؛ فَبَعْضُها يُؤَثِّرُ فِي الْمُخَاطَبِ سَلْبًا وَبَعْضُهَا إِيجَابًا، بَل حَتى الكَلِماتُ الحَسَنَةُ بَعْضُها أَوْقَعُ على قَلْبِ السّامِعِ مِن بَعْض، لِذا عَلَينا عِنْدَ مُخاطَبَةِ الآخَرينَ أن نَجْتَنِبَ الكَلِماتِ الْجَافَّةَ الْجَارِحَةَ، فَبِلِينِ الكلام يُحَبَّبُ الناس لربهم ولِدِينِهِم، ولِبَعْضِهِم البَعْض، فَكَمْ ضَلَّ بِسَبَبِ الكَلِمَةِ أَقْوامٌ، واهْتَدى بها أقوامٌ! وَكَمْ حُقِنَتْ بِلِينِ الكلامِ دِماءٌ وَفُكَّتْ رِقَابٌ وَفُرِّجَ عَنْ مَأْسُورٍ! وَكَمْ بَسوءِ كَلِمَة أُشْعِلَتْ حُرُوبٌ! وَتَخَاصَمَتْ دُوَلٌ! وَتَنَازَعَتْ قَبَائِلُ! وَتَشَرْذَمَتْ أُسَرٌ! وَتَهَاجَرَ أَقَارِبُ! وَتَخَاصَمَ أَصْحَابٌ وَأَحْبَابٌ! وَأُسِيلَتْ دِمَاءٌ! فَلْنَتَأَدَبْ بِأَدَبِ القُرْآنِ، وَلْنَتَأَسَّ بِخَيرِ الأنامِ عَلَيهِ الصلاةُ والسَّلام في انْتِقاءِ الألْفاظِ، وَلِينِ الكَلام.[1497]

المطلب السَّادِسُ: اللين مع غيرِ المُسلِمينَ

[1494] صحيح، صحيح الترغيب والترهيب.2554

[1495] حسن، صحيح الجامع.2123

[1496] أَوْرَدَهُ الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ؛ عِنْدَ تَفْسِيرِهِمْ لِهَذِهِ الآيَةِ.

[1497] لين الكلام/ الشيخ صالح بن مقبل العصيمي.

قال الله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [الممتحنة: 8]، أي: لا ينهاكم اللَّهُ -أيُّها المُؤمنون- عن الكافِرين الذين لم يقاتِلوكم من أجْلِ دينِكم من أقارِبِكم وغَيرِهم من الكُفَّارِ، ولم يُخرِجوكم من بلادِكم كما أخرجَكم كُفَّارُ مكَّةَ، أن تحسِنوا إليهم وتُكرِموهم، وتعدِلوا في تعامُلِكم معهم عدلًا تامًّا." [1498]

قال القَرافيُّ: "وأمَّا ما أمَر به من بِرِّهم ومن غيرِ مودَّةٍ باطنيَّةٍ، فالرِّفقُ بضعيفِهم، وسَدِّ خَلَّةِ فقيرِهم، وإطعامِ جائِعِهم، وإكساءِ عاريهم، ولِينِ القَولِ لهم -على سبيلِ اللُّطفِ لهم والرَّحمةِ لا على سبيلِ الخَوفِ والذِّلَّةِ- واحتمالِ إذايتِهم في الجوارِ مع القُدرةِ على إزالتِه -لُطفًا منَّا بهم لا خوفًا وتعظيمًا- والدُّعاءِ لهم بالهدايةِ وأن يُجعَلوا من أهلِ السَّعادةِ، ونصيحتِهم في جميعِ أمورِهم في دينِهم ودُنياهم، وحِفظِ غَيبتِهم إذا تعرَّض أحدٌ لأذيَّتِهم، وصَونِ أموالِهم وعيالِهم وأعراضِهم وجميعِ حُقوقِهم ومصالِحِهم، وأن يُعانوا على دَفعِ الظُّلمِ عنهم وإيصالِهم لجميعِ حقوقِهم، وكُلِّ خيرٍ يَحسُنُ من الأعلى مع الأسفَلِ أن يفعَلَه، ومن العَدُوِّ أن يفعَلَه مع عَدُوِّه؛ فإن ذلك من مكارِمِ الأخلاقِ، فجَميعُ ما نفعَلُه معهم من ذلك ينبغي أن يكونَ من هذا القبيلِ لا على وَجهِ العِزَّةِ والجلالةِ مِنَّا، ولا على وجهِ التَّعظيمِ لهم وتحقيرِ أنفُسِنا بذلك الصَّنيعِ لهم نعامِلُهم بما تقدَّم ذِكره امتثالًا لأمرِ رَبِّنا عزَّ وجَلَّ، وأمرِ نَبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا محبَّةً فيهم ولا تعظيمًا لهم".[1499]

المطلبُ السَّابع: الدَّاعِيةُ إلَى اللهِ وَخُلُقُ اللينِ

لا شك أنَّ الدَّاعِيةَ إِلَى اللَّهِ، هوَ الأَوْلَى بِالتَّخْلُقِ بِهَذَا الْخُلُقِ الْكَرِيمِ، فَيُشْفِقَ عَلَى النَّاسِ وَلَا يَشُقَّ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُنَفِّرُهُمْ مِنَ الدِّينِ بِأَسْلُوبٍ غَلِيظٍ، قَالَ تَعَالَى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَة الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125]، وَلِذَلِكَ عَلَى الدَّاعِيةِ أن يَدْعُوَ بِالْحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَة الْحَسَنَةِ، وَيَتَلَطَّفَ مَعَ الْعَاصِي بِكَلَامٍ لَيِّنٍ وَبِرِفْقٍ، وَلَا يُعِينُ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِ، وفي هذا الشأن يقول عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِذَا رَأَيْتُمْ أَخَاكُمْ قَارِفًا ذَنْبًا، فَلَا تَكُونُوا أَعْوَانًا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ، تَقُولُوا: اللَّهُمَّ أَخْزِهِ، اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، وَلَكِنْ سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِنَّا- أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كُنَّا لَا نَقُولُ فِي أَحَدٍ شَيْئًا حَتَّى نَعْلَمَ عَلَامَ يَمُوتُ؟ فَإِنْ خُتِمَ لَهُ بِخَيْرٍ عَلِمْنَا أَنَّ قَدْ أَصَابَ خَيْرًا، وَإِنْ خُتِمَ بِشَرٍّ خِفْنَا عَلَيْهِ"[1500].

فَكَيْفَ بِأَخِيكَ الْمُسْلِمِ ؟!

وقد قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159].

وقال سبحانه: و{لَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [العنكبوت: 46]

[1498] تفسير ابن جرير 22/571، 574، تفسير ابن كثير 8/90، نظم الدرر للبقاعي 19/508، تفسير ابن عاشور 28/153

[1499] الفروق للقرافي 3/ 15

[1500] رواه الطبراني في مكارم الأخلاق (35)

المبحث السادس: احترام الناس وتوقيرهم

المطلب الأول: معنى الاحترام والتوقير

- **الاحترامُ:**

- **الاحترامُ لُغةً:** مِن الحُرمةِ، وهي: المهابةُ، يقالُ: احترمه، أي: كرّمه وأكبَرَه، وأحسَنَ معاملتَه حُبًّا ومهابةً.[1501]

- **الاحترامُ اصطِلاحًا:** هو الإكبارُ والمهابةُ ورَعيُ الحُرمةِ وحُسنُ المعاملةِ.[1502]

- **التَّوقيرُ:**

- **التَّوقيرُ لُغةً:** التَّعظيمُ والتَّبجيلُ.[1503]

- **التَّوقيرُ اصطِلاحًا:** قال ابنُ تَيميَّةَ: „التَّوقيرُ: اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما فيه سكينةٌ وطمأنينةٌ من الإجلالِ والإكرامِ، وأن يُعاملَ من التَّشريفِ والتَّكريمِ والتَّعظيمِ بما يصونُه عن كُلِّ ما يُخْرِجُه عن حَدِّ الوَقارِ". [1504]

المطلب الثاني: الترغيب في احترام وتقدير الناس

أ. احْتِرَامُ النَّاسِ وَتَقْدِيرُهُمْ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ:

إنَّ النَّاظِرَ في نُصوصِ السُّنَّةِ المُشرَّفةِ يلاحِظُ بجَلاءٍ ما اشتمَلَتْ عليه من حثٍّ على التَّوقيرِ والاحترامِ في مختَلِفِ صُوَرِه وأَشْكَالِه؛ فقد أَمرَتْ السُّنَّةُ بحُسْنِ المعاملةِ والبشاشةِ، والقولِ الحَسَنِ وبَذلِ السَّلامِ، ودعَتْ إلى تهذيبِ اللِّسانِ، والتَّحَلِّي بالتَّسامُحِ، ونَبذِ الفُحشِ والبذاءةِ حتَّى مع غيرِ المُسلِمِ، وبالجُملةِ فهي أمثلةٌ حَيَّةٌ وصُوَرٌ مُشرِقةٌ لمعاني الاحترامِ والتَّوقيرِ.

1- عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه، "جُاء شيخٌ يُريدُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فَأَبْطَأَ القومُ أن يُوَسِّعوا له، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لَيْسَ مِنَّا مَن لم يُوَقِّرْ كبيرَنا، وَيَرْحَمْ صَغيرَنا"[1505]. وفي روايةٍ "ويَعرِفُ شَرَفَ كَبيرِنا"[1506]، وهذا زَجرٌ من النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِه: "ليس مِنَّا". أي: ليس من أهلِ سُنَّتِنا وهَدْيِنا وطريقتِنا مَن لم يُوَقِّرِ الكبيرَ ويُعَظِّمْه، وهو شامِلٌ للشَّابِّ والشَّيخِ.[1507]

2- عن أبي مَسعودٍ عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: „كان رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يمسَحُ مناكِبَنا في الصَّلاةِ، ويقولُ: استَوُوا، ولا تختَلِفُوا فتختَلِفَ قُلوبُكم، لِيلِيَنِي منكم أولو الأحلامِ والنُّهى، ثمَّ الذين يَلُونَهم، ثمَّ الذين يَلُونَهم. قال أبو مسعودٍ: فأنتم اليومَ أشَدُّ اختلافًا"[1508]

فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يحرِصُ على توقيرِ ذوي المكانةِ والعِلمِ والفَضلِ، وتصديرِهم في مُقدِّمةِ المجالِسِ، كما في وُقوفِ ذوي الأحلامِ والنُّهى خَلفَ الإمامِ، ولا يكونُ ذلك في الغالِبِ إلَّا لكِبارِ السِّنِّ وَمَن لديهم مِنَ العِلمِ والمكانَةِ ما يَسْتَوْجِبُ احترامَهم وتوقيرَهم، كما اسْتَوجَبَ أن يقدَّموا فيكونوا في الصَّفِّ الأوَّلِ خَلفَ الإمامِ، ولا يختَصُّ هذا التَّقديمُ بالصَّلاةِ، بل السُّنَّةُ أن يُقَدَّمَ أهلُ الفَضْلِ في كُلِّ مجمَعٍ إلى الإمامِ وكبيرِ المجلِسِ، كمجالسِ العِلمِ والقَضاءِ والذِّكرِ والمشاورةِ، ومواقِفِ

[1501] تهذيب اللغة للأزهري، المصباح المنير للفيومي، معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار.

[1502] معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار.

[1503] العين للخليل بن أحمد، الصحاح للجوهري، الفروق اللغوية للعسكري، ص 203

[1504] الصارم المسلول، ص 422

[1505] أخرجه أحمد 6937 واللفظ له، والبخاري في الأدب المفرد 358. صحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد 272.

[1506] أخرجها الترمذي 1920. صحَّحها الترمذي، والنووي في الترخيص بالقيام 57، والألباني في صحيح سنن الترمذي 1920

[1507] مرقاة المفاتيح للقاري 8/ 3114، دليل الفالحين لابن علان 3/ 213

[1508] أخرجه مسلم 432

القِتالِ، وإمامةِ الصَّلاةِ، والتَّدريسِ والإفتاءِ، وإسماعِ الحديثِ ونحوِها، ويكونُ النَّاسُ فيها على مراتِبِهم في العِلمِ والدِّينِ والعَقلِ، والشَّرَفِ والسِّنِّ والكفاءةِ.[1509]

3- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "يُسَلِّمُ الصَّغيرَ على الكبيرِ..."[1510]، وتسليمُ الصَّغيرِ لأجْلِ حَقِّ الكبيرِ؛ لأنَّه أُمِرَ بتوقيرِه والتَّواضُعِ له".[1511]

ب. أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ في احْتِرَامِ وَتَقْدِيرِ النَّاس:

- قال ابنُ المبارَكِ: "حَقٌّ على العاقِلِ ألَّا يستخِفَّ بثلاثةٍ: العُلَماءِ، والسَّلاطينِ، والإخوانِ؛ فإنَّه مَن استخَفَّ بالعُلَماءِ ذَهَبتْ آخِرَتُه، ومن استخَفَّ بالسُّلطانِ ذهَبتْ دُنياه، ومَن استخَفَّ بالإخوانِ ذهَبَتْ مروءتُه".[1512]

- عن العَبَّاسِ بنِ عبدِ العظيمِ العَنبريِّ، قال: "كنتُ عِندَ أحمدَ بنِ حَنبَلٍ وجاءه عليُّ بنُ المدينيِّ راكِبًا على دابَّةٍ، قال: فتناظَرا في الشَّهادةِ [1513]، وارتفَعَتْ أصواتُهما حتَّى خِفْتُ أن يقَعَ بَيْنَهما جفاءٌ، وكان أحمدُ يرى الشَّهادةَ، وعليٌّ يأبى ويدفَعُ، فلمَّا أراد عليٌّ الانصرافَ قام أحمدُ فأخَذ برِكابِه".[1514]

- قال ابنُ حَزمٍ: „اتَّفَقوا على توقيرِ أهلِ القرآنِ والإسلامِ، والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكذلك الخليفةُ والفاضِلُ والعالِمُ".[1515]

- وعن ابنِ طاوُسٍ، عن أبيه، قال: „من السُّنَّةِ أن يُوَقَّرَ أربعةٌ: العالِمُ، وذو الشَّيبةِ، والسُّلطانُ، والوالِدُ".[1516]

- وعن الحُسَينِ الوَرَّاقِ، قال: سألْتُ أبا عُثمانَ عن الصُّحبةِ، فقال: „الصُّحبةُ مع اللَّهِ عزَّ وجَلَّ بحُسْنِ الأدَبِ ودوامِ الهَيبةِ والمراقَبةِ، والصُّحبةُ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باتِّباعِ سُنَّتِه ولُزومِ ظاهِرِ العِلْمِ، والصُّحبةُ مع أولياءِ اللَّهِ بالاحترامِ والحُرمةِ، والصُّحبةُ مع الأهلِ والولَدِ بحُسْنِ الخُلُقِ، والصُّحبةُ مع الإخوانِ بدَوامِ البِشْرِ والانْبِسَاطِ ما لم يكُنْ إثمًا، والصُّحبةُ مع الجُهَّالِ بالدُّعاءِ لهم والرَّحمةِ عليهم، ورُؤيةِ نِعمةِ اللَّهِ عَلَيْكَ أن عافاك ممَّا ابتلاهم به".[1517]

المطلب الثالث: فوائِدُ الاحترامِ والتَّوقيرِ بَيْنَ النَّاسِ

1- يَعْصِمُ مِنَ الوُقُوعِ في التَّعَدِّي بالقَولِ أو الفِعلِ، فتُصانُ الحُرُماتُ وتُحفَظُ الأعْراض.

2- يدفَعُ أسبابَ العداوةِ والبغضاءِ.

3- بهِ يتحَقَّقُ العَدلُ ويُنْزَلُ كُلُّ واحدٍ مَنزِلتَه.

4- مِن أسبابِ تَقارُبِ وِجهاتِ النَّظرِ ودَفعِ الخِلافِ.

5- مِن أسبابِ تقويةِ أواصِرِ المحبَّةِ بَيْنَ النَّاسِ.

6- فيه امتِثالٌ لتعاليمِ الشَّرعِ الكريمِ.

7- يجلِبُ محبَّةَ اللَّهِ تعالى ومحبَّةَ النَّاسِ.

8- تَقْوِيةُ العِلاقاتِ وغَرسُ الثِّقةِ بَيْنَ أفرادِ المجتَمَعِ.

[1509] شرح مسلم للنووي 4/ 155

[1510] أخرجه البخاري 6231

[1511] فتح الباري لابن حجر 11/ 17

[1512] سير أعلام النبلاء للذهبي 17/ 251

[1513] أي: الشَّهادةِ بالجنَّةِ لغيرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. يُنظَر: المستدرك على مجموع الفتاوى 1/110

[1514] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 2/ 968

[1515] الآداب الشرعية لابن مُفلح 1/ 408

[1516] الجامع لمعمر بن راشد 11/137

[1517] حلية الأولياء لأبي نعيم 10/245

9- مِن أسْبابِ كَسْبِ القُلوبِ ونَجاحِ الدَّعَواتِ.

المطلب الرابع: أقسامُ الاحترامِ والتَّوقيرِ

يُمْكِنُ تَقْسِيمُ الاحْتِرامِ والتَّوقِيرِ إلى ثَلاثَةِ أقسامٍ:

الأوَّلُ: الاحترامُ والتَّوقيرُ في القولِ، وذلك باستعمالِ الكلامِ الحسَنِ المُشْتَمِلِ على إظهارِ الأدَبِ، والتَّقديرِ وإنزالِ النَّاسِ مَنازِلَهُم اللَّائقةِ بهم، وَمُخاطَبَتِهِم خِطابًا يَدُلُّ على احترامِهم وتَقْديرِهِم.

الثَّاني: الاحترامُ والتَّوقيرُ في الفِعلِ، وذلك بالمعاملةِ اللَّائقةِ لمن نتعامَلُ معهم، وتقديمِهم والاستماعِ إليهم.

الثَّالِثُ: الاحترامُ والتَّوقيرُ بالتَّركِ، وذلك بتركِ كُلِّ قَوْلٍ أو فِعْلٍ يتضَمَّنُ الإساءةَ، أو يَحصُلُ به الأذى أو الانتِقاصُ.

المطلب الخامس: نماذِجُ من تَوْقيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للكَبيرِ

1- عن سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللَّهُ عنه: "أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُتِيَ بشَرابٍ فشَرِب منه، وعن يمينِه غلامٌ، وعن يسارِه الأشياخُ، فقال للغُلامِ: أتأذَنُ لي أن أُعطِيَ هؤلاء؟ فقال الغلامُ: واللَّه يا رسولَ اللَّهِ لا أوثِرُ بنصيبي منك أحَدًا! قال: فتلَّه -أي: وضَعَه- رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في يَدِه.[1518]

فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم استأذن الغلامَ في أن يبدأَ بالأشياخِ توقيرًا لهم وتقديرًا لسِنِّهم، لكِنَّه مع ذلك لَمَّا امتنع الغلامُ احترم حقَّه؛ لأنَّه كان على اليمينِ، والأيمَنُ في الشُّربِ ونحوِه يُقَدَّمُ وإن كان صغيرًا أو مفضولًا، لذا أعطاه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الشَّرابَ.

2- روت عائشةُ أمُّ المُؤمِنين رَضِيَ اللَّهُ عنها فقالت: "ما رأيتُ أحَدًا أشبَهَ سَمْتًا ودَلًّا وهَدْيًا برسولِ اللَّهِ في قيامِها وقُعودِها من فاطمةَ بنتِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قالت: وكانت إذا دخَلَت على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قام إليها فقبَّلَها وأجلَسَها في مجْلِسِه، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا دخَل عليها قامت من مجلِسِها فقبَّلَتْه وأجلسَتْه في مجلِسِها".[1519]

المطلب السادس: مَظاهِرُ وصُوَرُ من الاحْتِرامِ والتَّوقيرِ

1- **تَوْقيرُ المُسْلِمِ لِرَبِّه** سُبحانَه وتَعظيمُه بما يليقُ به، وهذا التَّوقيرُ للهِ سُبحانَه ينتُجُ عنه احترامُ أوامِرِه ونواهيه، وتعظيمُ دينِه وشَرعِه، والحِرصُ على التَّحلِّي بجميلِ الصِّفاتِ التي أَمَر بها سُبحانَه، وَمِنْ ثَمَّ هذا التَّوقيرُ يُثمِرُ الخيرَ للعبدِ في الدُّنيا والآخرةِ، ويُثمِرُ التَّخلُّقَ بالأخلاقِ التي يعودُ أثَرُها ونَفعُها على النَّاسِ في معاشَرَتِهم والتَّعامُلِ معهم.

قال اللَّه تعالى حكايةً عن نبيِّه نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه قال لقومِه عندما كفَروا به وبرسالتِه: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} [نوح: 13]، أي: ما لَكُم لا تَرون للهِ عَظَمةً، وقيل: ولا تُعَظِّمون اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِه [1520]، فاستخدمَ لَفظَ الوَقارِ في معنى التَّوقيرِ والتَّعظيمِ للهِ تعالى بما يَليقُ به سُبْحانَه مِن كَمالِ التَّعْظيمِ والتَّبْجيلِ.

2- **احْتِرامُ وتوقيرُ المُسلِمِ لرَسولِه** صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتعظيمِ أمرِه ونهيِه، واتِّباعِ آثارِه، والسَّيرِ على طريقتِه، وألَّا يُقدِّمَ شيئًا على ما جاء به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ قال اللَّه تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفتح: 8 - 9].

[1518] أخرجه البخاري 5620 واللفظ له، ومسلم 2030

[1519] أخرجه أبو داود 5217، والترمذي 3872 واللفظ له مطوَّلًا. صحَّحه ابن حبان في صحيحه 6953، والحاكم على شرط الشيخين في المستدرك 7715.

[1520] جامع البيان للطبري 23/ 294، 295

قال ابنُ كثيرٍ: "{لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ}، قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُ واحِدٍ: يُعَظِّموه. وَتُوَقِّرُوهُ من التَّوقيرِ، وهو الاحترامُ والإجلالُ والإعظامُ".[1521]

وقال السَّعديُّ: "وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ أي: تُعَزِّروا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتُوَقِّروه، أي: تُعَظِّموه وتُجِلُّوه، وتقُوموا بحُقوقِه، كما كانَت له المِنَّةُ العظيمةُ برِقابِكم".[1522]

وقال اللَّهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [الحجرات: 1 - 4]، فَبَيَّن سُبحانَه أنَّ الذين يَخفِضُون أصواتَهم عِندَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم توقيرًا وتَبجِيلًا له، أولئك هُم الذين امتحَن اللَّهُ قلوبَهم لتَقواه، وأخلصَهم لها، ولهم مَغفرةٌ لذُنوبِهم، ولهم ثوابٌ عظيمٌ عِندَ اللَّهِ يومَ القيامةِ، فيُدخِلُهم الجنَّةَ.[1523]

وقال اللَّهُ تعالى: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} [النور: 63]، في تلك الآيةِ يَظهَرُ الأمرُ بتوقيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واحترامِه؛ فقد نهى اللَّهُ سُبحانَه المُسلِمين أن ينادوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِثلَ مُناداتِهم بَعْضِهم بعضًا، وقد التَزم الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عنهم الأدَبَ في مناداتِه، فكانوا ينادونه: يا رسولَ اللَّهِ، ويا نبيَّ اللَّهِ، أو يا أيُّها النَّبيُّ، ويا أيُّها الرَّسولُ.[1524]

وقال القاضي عِياضٌ: "اعلَمْ أنَّ حُرمةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ مَوتِه وتوقيرَه وتعظيمَه لازمٌ كما كان حالَ حياتِه، وذلك عِندَ ذِكرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذِكرِ حَديثِه وسُنَّتِه، وسَماعِ اسمِه وسيرَتِه، ومُعاملةِ آلِه وعِترتِه [1525]، وتعظيمَ أهلِ بَيتِه وصَحابتِه".[1526] وعن حمَّادِ بنِ زَيدٍ، قال: "كُنَّا عِندَ أيُّوبَ فسَمِع لَغَطًا، فقال: ما هذا اللَّغَطُ؟ أمَا بلَغَهم أنَّ رفعَ الصَّوتِ عِندَ الحديثِ عن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كَرَفْعِ الصَّوتِ عليه في حَياتِه". [1527]

3- **احترامُ وتقديرُ العُلَماءِ** وإنزالُهم المنزلةَ اللَّائقةَ بهم لمكانتِهم، ومن مظاهِرِ احترامِهم التَّعاوُنُ معهم على البِرِّ والتَّقوى، والحَذَرُ من قَدْحِهم أو الوقوعِ في غِيبتِهم.

قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ} [آل عمران: 18].

قال البَيهقيُّ: "فقَرَن اسمَ العُلَماءِ باسمِ الملائكةِ كما قَرَن اسمَ الملائكةِ باسمِه، وكما وَجَب الفضلُ للملائكةِ بما أكرَمَهم به، فكذلك يجبُ الفَضلُ للعُلَماءِ بما أكرمهم به مِن مِثلِه".[1528]

وقال النَّوويُّ في حديثه عن آدابِ المتعلِّمِ: "وعليه أن ينظُرَ إلى مُعَلِّمِه بعَينِ الاحترامِ ويعتَقِدَ كَمالَ أهليَّتِه ورُجْحانَه على طبقَتِهِ؛ فإنَّه أقرَبُ إلى انتفاعِه به، وكان بعضُ المتقَدِّمين إذا ذهب إلى مُعَلِّمِه تصَدَّق بشَيءٍ، وقال: اللَّهُمَّ استُرْ عَيبَ مُعَلِّمي عني، ولا تُذهِبْ بَرَكةَ عِلمِه منِّي". [1529]

[1521] تفسير القرآن العظيم 7/ 329

[1522] تيسير الكريم الرحمن ص: 792

[1523] جامع البيان للطبري 21/ 338، إعلام الموقعين لابن القيم 1/41

[1524] تفسير سورة النور لابن عثيمين ص: 433، 434

[1525] قال أبو هِلالٍ العَسكريُّ: الفَرْقُ بَيْنَ العِترةِ والآلِ: أنَّ الآلَ هم الأهلُ والأتباعُ. والعِترةُ هم الأصلُ في قَولٍ، والأهلُ وبنو الأعمامِ في قولٍ آخَرَ، معجم الفروق اللغوية، ص 350، 351

[1526] الشفا 2/91

[1527] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي 1/195

[1528] شعب الإيمان 3/ 217

[1529] التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص: 47

وقال ابنُ عُثَيمين: "وإذا كان الأنبياءُ لهم حَقَّ التَّبجيلِ والتَّعظيمِ والتَّكريمِ، فَلِمَن وَرَثَهم نصيبٌ من ذلك. وبتوقيرِ العُلَماءِ تُوَقَّرُ الشَّريعةُ؛ لأنَّهم حامِلوها، وبإهانةِ العُلَماءِ تُهانُ الشَّريعةُ؛ لأنَّ العُلَماءَ إذا ذُلُّوا وسقطوا أمامَ أعيُنِ النَّاسِ ذُلَّت الشَّريعةُ التي يحمِلونها، ولم يَبْقَ لها قيمةٌ عِندَ النَّاسِ، وصار كُلُّ إنسانٍ يحتَقِرُهم ويزدريهم، فتضيعُ الشَّريعةُ".[1530]
وقيل: "توقيرُ حَمَلةِ الشَّرعِ وحُماتِه من توقيرِ اللَّهِ سُبحانَه وتعالى، فكُلُّ ما يُشَرَّفُ بالإضافةِ إلى اللَّهِ تعالى فإنَّ حَقَّه التَّعظيمُ والتَّوقيرُ".[1531]

4- **احترامُ وتوقيرُ طَلَبَةِ العِلمِ** الذين سلَكوا سبيلَه وسَعَوا في تحصيلِه، ومِن احترامِهم إنزالُهم منزِلةً تَليقُ بهم وبالعِلمِ الذي يطلبونَه، دونَ التَّنَقُّصِ منهم أو الاستخفافِ بجُهدِهم، أو الحَطِّ من شأنِهم ولو كانوا صغارًا، فإنَّما رفعهم العلمُ الذي يَطلُبونَه.
قال السَّجزيُّ: "فالمتَّبعُ للأثَرِ يجِبُ تقدُّمُه وإكرامُه، وإن كان صغيرَ السِّنِّ غيرَ نَسيبٍ، والمخالِفُ له يلزَمُ اجتنابُه وإن كان مُسِنًّا شريفًا". [1532]
وقال ابنُ القَيِّمِ: "النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوصى بطَلَبَةِ العِلمِ خيرًا، وما ذاك إلَّا لفَضلِ مطلوبِهم وشَرَفِه".[1533]
وبوَّب الخطيبُ البغداديُّ في الجامعِ: "بابُ توقيرِ المحَدِّثِ طَلَبَةَ العِلمِ، وأخذِه نفسَه بحُسنِ الاحتمالِ لهم والحِلمِ"[1534]، وذَكَر تحتَ هذا البابِ فُصولًا كثيرةً في احترامِ وتوقيرِ طلبةِ العِلمِ.

5- **احترامُ وتوقيرُ الوالِدَينِ**؛ فقد أكَّد الإسلامُ على ضرورةِ توقيرِ الوالِدَين، والإحسانِ إليهما والاعتناءِ بهما ولو كانا كافِرَينِ، وحرَّم الإساءةَ إليهما بأيِّ صورةٍ كانت وجَرَّمَها.
قال تعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} [لقمان: 15]، فالإنسانُ مأمورٌ بتوقيرِ والِدَيه واحترامِهما حتَّى وإن طلبا منه الدُّخولَ في الكُفرِ والشِّركِ، مع عَدَمِ طاعتِهما في ذلك، ثمَّ بَيَّنَ اللَّهُ تعالى الطَّريقةَ العَمَليَّةَ لبِرِّهما وتوقيرِهما، فقال: "﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا"، فلفظُ المصاحبةِ يدُلُّ على التَّرفُّقِ والرَّحمةِ بهما مع التَّوقيرِ الكامِلِ لهما، ثمَّ يكونُ التَّوقيرُ والمصاحبةُ بالمعروفِ".[1535]
وفي آياتٍ أُخرى أمَر اللَّهُ سُبحانَه بتوقيرِ الوالِدَين خاصَّةً، وبيَّن صُوَرًا عمليَّةً لكيفيَّةِ توقيرِهما، فقال سُبحانَه: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: 23-24]، فمِن مظاهِرِ التَّوقيرِ للوالِدَين توقيرُهما بالقَولِ الحَسَنِ الكريمِ، وعَدَمُ التَّلفُّظِ بما يدُلُّ على الضَّجَرِ، ثمَّ التَّوقيرُ والاحترامُ بالفِعلِ، بلِينِ الجانِبِ والتَّذلُّلِ لهما مع الرَّحمةِ بهما، ثمَّ بالدُّعاءِ لهما بأن يرحَمَهُمَا اللَّهُ جزاءً وِفاقًا على تربيتِهما لأبنائِهم.[1536]

6- **احترامُ وتوقيرُ الكبيرِ**؛ فقد أعطى الإسلامُ الكبيرَ حَقَّه من الشَّرَفِ والتَّقديرِ والتَّوقيرِ، ومِن مظاهِرِ احترامِه التَّوسِعةُ له في المجلِسِ وتقديمُه، وخَفضُ الصَّوتِ عِندَ التَّحدُّثِ إليه، والإنصاتُ القولِ له وإكرامُه والشَّفَقةُ عليه، والبَدءُ بالسَّلامِ عليه.
يقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "مَن لم يرحَمْ صغيرَنا، ويَعرِفْ حَقَّ كبيرِنا، فليس منَّا".[1537]

[1530] شرح رياض الصالحين 3/230، 231
[1531] موسوعة الأخلاق للخراز ص: 321
[1532] رسالة السجزي إلى أهل زبيد ص: 340
[1533] مفتاح دار السعادة 1/ 76
[1534] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/ 343
[1535] جامع البيان 18/ 553، تفسير القرآن العظيم لابن كثير 6/ 337، تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص: 648
[1536] فتح البيان للقنوجي 7/378
[1537] أخرجه من طرقٍ: أبو داود 4943، وأحمد 7073 واللفظ لها، والترمذي 1920 بلفظِ: "ويَعرِفْ شَرَفَ كبيرِنا" من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما. صحَّحه الترمذي، والنووي في الترخيص بالقيام 57، والألباني في صحيح سنن أبي داود 4943، والوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين 788.

7- **احترامُ المُسلِمِ لأخيه المُسلِمِ**، وتوقيرُه بحِفظِه في غَيبتِه، وعَدَمُ الإساءةِ إليه، وإلقاءُ السَّلامِ عليه، ونُصحُه، واستعمالُ الرِّفقِ والحِلمِ واللِّينِ والسَّماحةِ معه.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "حقُّ المُسلِمِ على المُسلِمِ سِتٌّ. قيل: ما هنَّ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: إذا لَقِيتَه فسَلِّمْ عليه، وإذا دعاك فأجِبْه، وإذا استنصَحَك فانصَحْ له، وإذا عَطَس فحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وإذا مَرِضَ فعُدْه، وإذا مات فاتَّبِعْه".[1538]

قال الصَّنعانيُّ: "اعلَمْ أنَّه ذَكَر في هذا سِتَّةَ حُقوقٍ، ومفهومُ عَدَدِه غيرُ مرادٍ؛ فإنَّ له حقوقًا غيرَها".[1539]

والحذَرُ من الوقوعِ في عِرضِه باغتيابِه أو سَبِّه أو تحقيرِه أو فِعلِ ما يؤذيه، إلى غيرِ ذلك؛ فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "أتدرون ما الغِيبةُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: ذِكْرُك أخاك بما يَكرَهُ، قيل: أفرأَيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟ قال: إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتَبْتَه، وإنْ لم يكُنْ فيه فقد بَهَتَّه".[1540]

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "المُسلِمُ أخو المُسلِمِ، لا يَظلِمُه ولا يَخذُلُه ولا يَحقِرُه".[1541]

قال القاريُّ: "أي: لا يحتَقِرُه بذِكرِ المعايبِ، وتنابُزِ الألقابِ، والاستهزاءِ والسُّخريَّةِ إذا رآه رَثَّ الحالِ، أو ذا عاهةٍ في بدَنِه، أو غيرَ لائقٍ في محادثتِه، فلعَلَّه أخلَصُ ضميرًا وأتقى قلبًا ممَّن هو على ضِدِّ صِفتِه، فيَظلِمُ نفسَه بتحقيرِ مَن وَقَّره اللَّهُ".[1542]

وعن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "سِبابُ المُسلِمِ فُسوقٌ، وقِتالُه كُفرٌ".[1543]

قال القُرطبيُّ: "قولُه: (سبابُ المُسلِمِ فُسوقٌ)، أي: خروجٌ عن الذي يجِبُ من احترامِ المُسلِمِ، وحُرمةِ عِرضِه وسَبِّه".[1544]

وعن عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "إذا كانوا ثلاثةً فلا يتناجى اثنانِ دونَ الثَّالِثِ".[1545]

ومن ذلك احترامُ ظُروفِ النَّاسِ وحاجاتِهم ومراعاةُ مَرَضِ المريضِ منهم، فعن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ قال: "أتى رجلٌ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: إنِّي لَأتأخَّرُ عن صَلاةِ الغَداةِ من أجلِ فُلانٍ؛ ممَّا يُطيلُ بنا فيها، قال: فما رأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَطُّ أشَدَّ غضبًا في موعظةٍ منه يومَئِذٍ! ثُمَّ قال: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّ مِنكم مُنَفِّرينَ، فأيُّكم ما صلَّى بالنَّاسِ فلْيُوجِزْ؛ فإنَّ فيهم الكَبيرَ والضَّعيفَ وذا الحاجةِ".[1546]

8- ومن ذلك احترامُ الأُمِّيِّ والمخطِئِ، والرِّفقُ بهما وتعليمُهما دونَ جَرحِ مَشاعِرِهما:

عن معاويةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَميِّ، قال: "بينا أنا أُصَلِّي مع رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذ عَطَس رجُلٌ من القومِ، فقُلتُ: يرحَمُك اللَّهُ! فرماني القومُ بأبصارِهم، فقُلتُ: واثُكْلَ أُمِّيَاه! ما شأنُكم تَنظُرون إليَّ؟! فجَعَلوا يَضرِبون بأيديهم على أفخاذِهم، فلمَّا رأيتُهم يُصَمِّتُونني لكِنِّي سكَتُّ، فلمَّا صلَّى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: إنَّ هذه الصَّلاةَ لا يَصلُحُ فيها شيءٌ من كلامِ النَّاسِ، إنَّما هو التَّسبيحُ والتَّكبيرُ وقراءةُ القرآنِ".[1547]

[1538] أخرجه البخاري 1240 بنحوه، ومسلم 2162 واللفظ له.

[1539] التنوير 5/ 365

[1540] أخرجه مسلم 2589

[1541] أخرجه مسلم 2564

[1542] مرقاة المفاتيح 7/ 3105

[1543] أخرجه البخاري 48، ومسلم 64

[1544] المفهم 1/ 255

[1545] أخرجه البخاري 6288

[1546] رواه البخاري 90، ومسلم 466

[1547] رواه مسلم 537

ومن ذلك الاحترامُ في المجالِسِ، فعن عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "أنَّه نهى أن يُقامَ الرَّجُلُ من مجلِسِه، ويجلِسَ فيه آخَرُ، ولكِنْ تَفَسَّحوا وتوَسَّعوا"، وكان ابنُ عُمَرَ يكرَهُ أن يقومَ الرَّجُلُ من مجلِسِه ثمَّ يجلِسَ مكانَه.[1548]

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ} [المجادلة: 11]، أي: إذا قيل لكم: توسَّعوا في المجالِسِ ليَجلِسَ آخرون معكم، فوسِّعوا لهم؛ فإنَّكم إن فعَلْتُم ذلك يوسِّعِ اللَّهُ عليكم في الدُّنيا والآخرةِ [1549]، إلى غيرِ ذلك من مظاهِرِ الاحترامِ والتَّوقيرِ والتَّبجيلِ بَيْنَ المُسلِمِ وأخيه المُسلِمِ.

بل يمتدُّ ذلك إلى احترامِ الأمواتِ، وفي الحديثِ: „لا تَسُبُّوا الأمواتَ؛ فإنَّهم قد أفضَوا إلى ما قدَّموا".[1550]

وعن عَمرِو بنِ حَزمٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: "رآني رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأنا متَّكئٌ على قبرٍ، فقال: لا تؤذِ صاحِبَ القبرِ".[1551]

9- **الاحترامُ والتَّوقيرُ بَيْنَ الزَّوجينِ**، وأساسُ هذا الاحترامِ أن يَسكُنَ كُلُّ طَرَفٍ إلى شريكِه، ويُعَظِّمَ حَسَناتِه، ويتغاضَى عن سيِّئاتِه ما أمكَن، وأن يكونَ أساسُ تعامُلِهما بالمعروفِ والإحسانِ، ويُغَلِّبا جانِبَ المودَّةِ والرَّحمةِ فيما بَيْنَهُمَا على ما يقعُ من خلافاتٍ قلَّما يخلو منها بيتٌ.

قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: 21].

فينبغي أن يُعلَمَ „أنَّ الزَّواجَ هو أهَمُّ مُقَوِّماتِ الحياةِ، والمتمِّمُ للوظائِفِ الحيويَّةِ، والحافِظُ للجامعةِ البَشَريَّةِ من الانقراضِ والزَّوالِ بإذنِ اللَّهِ، وأساسٌ لتقديرِ المرءِ في الهيئةِ الاجتماعيَّةِ، وقِوامُه وجودُ الألفةِ والتَّحابُبِ، والاحترامِ والتَّوقيرِ بَيْنَ الزَّوجينِ، وبه يحصُلُ التَّعاوُنُ والتَّعاضُدُ والتَّآلُفُ والتَّآزُرُ بَيْنَ الأُسَرِ المتناسِبةِ؛ بسَبَبِ ما تمَّ بينها من المصاهرةِ المقَرِّبةِ للبعيدِ، والمحَبِّبةِ للقريبِ، والمُدْنيةِ للأجنَبيِّ".[1552]

10- **ومن ذلك احترامُ الجارِ لجارِه**، والنُّصوصُ في حَقِّ الجارِ والوصيَّةُ به معلومةٌ مشهورةٌ.

11- **احترامُ الضُّعَفاءِ والمساكينِ والخَدَمِ**، وحُسنُ معاملتِهم، وعَدَمُ الاستخفافِ بهم أو الإساءةِ إليهم.

فعن أبي مسعودٍ البَدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عنه، لَمَّا ضَرَب غلامَه قال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "اعلَمْ أبا مسعودٍ أنَّ اللَّه أقدَرُ عليك منك على هذا الغُلامِ!"[1553]

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه: "أنَّ امرأةً سوداءَ كانت تَقُمُّ المسجِدَ -أو شابًّا- ففَقَدها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسأل عنها -أو عنه- فقالوا: مات، قال: أفلا كنتُم آذنْتُمُوني، قال: فكأنَّهم صغَّرُوا أمرَها -أو أمرَه- فقال: دُلُّوني على قَبرِه، فدَلُّوه، فصلَّى عليها".[1554]

[1548] رواه البخاري 6270 واللفظ له، ومسلم 2177

[1549] تفسير ابن كثير 8/45، نظم الدرر للبقاعي 19/375، تفسير السعدي ص: 846، تفسير ابن عاشور 28/38

[1550] أخرجه البخاري 6516

[1551] أخرجه أحمد في المسند 39/475، والطحاوي في شرح معاني الآثار 2944، والحاكم في المستدرك 6502، وأبو نعيم في معرفة الصحابة 4972 صحَّح إسناده محمد بن عبد الهادي في تنقيح تحقيق التعليق 2/160، والذهبي في تنقيح التحقيق 1/320، وابن حجر في فتح الباري 3/266، وصحَّحه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح 1662

[1552] موارد الظمآن لدروس الزمان لعبد العزيز السلمان 4/ 223

[1553] أخرجه مسلم 1659

[1554] أخرجه البخاري 458، ومسلم 956 واللفظ له

12- **احترامُ المرأةِ**؛ قال عُمَرُ: "واللَّهِ إنْ كُنَّا في الجاهليَّةِ ما نَعُدُّ للنِّساءِ أمرًا، حتَّى أنزل اللَّهُ تعالى فيهِنَّ ما أنزَلَ، وقسَمَ لهنَّ ما قَسَم"[1555]، والنُّصوصُ في الوصيَّةِ بالمرأةِ أُمًّا وزوجةً وبنتًا، وصلةِ الأرحامِ كثيرةٌ معلومةٌ.

لَقَدْ حَرَصَ الْإِسْلَامُ عَلَى احْتِرَامِ النَّاسِ وَحِفْظِ كَرَامَتِهِمْ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَثَرٍ فِي النُّفُوْسِ، فَوَجَّهَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى إِكْرَامِ وَتَقْدِيرِ ذِي الْفَضْلِ وَالْمَكَانَةِ وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، فَقَالَ: "أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ"[1556]، فقدكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجِلُّ من يَدْخُلُ عَلَيْهِ وَيُكْرِمُه، وَرُبَّمَا بَسَطَ لَهُ ثَوْبَهُ، أَوْ يُؤْثِرُهُ بِوِسَادَتِهِ فيَدْعُوهُ لِلْجُلُوسِ عَلَيْهَا وَيُصِرُّ عَلَى ذَلِكَ إِنْ هُوَ أَبَى، فَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلاً يُحْتَذَى بِهِ فِي إِنْزَالِ النَّاسِ مِنَازِلَهُم، وَمَعْرِفَةِ فَضْلِ أُوْلِي الْفَضْلِ.[1557]

ومعنى "إِنْزَالِ النَّاسِ مِنَازِلَهُم"، أَنْ نُعْطِيَ كُلَّ وَاحِدٍ قَدْرَهُ بِمَا يَلِيقُ بِحَالِهِ مِنْ سِنٍّ أَوْ عِلْمٍ أَوْ شَرَفٍ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ أَمَرَنَا بِعَدَمِ احْتِقَارِ مَنْ هُمْ أَقَلُّ مَكَانَةً أَوْ قَدْرًا، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا".[1558]

وَعِبَارَةُ "لَيْسَ مِنَّا" تُشِيْرُ إِلَىٰ أَنَّهَا مِنْ مَقَايِيْسِ الْكَبَائِرِ إِذْ تَبَرَّأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نِسْبَةِ هَذَا الْإِنْسَانِ إِلَيْه.

وَمَا أَعْظَمَ وَأَرْقَى فِعْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَمَا أَسْلَمَ أَبُو قُحَافَةَ وَالِدُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَكَانَ رَجُلًا كَبِيْرًا فِي السِّنِّ. أَتَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِأَبِيْهِ أَبِيْ قُحَافَةَ يَقُوْدُهُ، فَلَمَّا رَأَهُ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: "هَلَا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى آتِيْهِ؟"، فَقَالَ: "يَمْشِيْ هُوَ إِلَيْكَ يَا رَسُوْلَ اللهِ أَحَقُّ أَنْ تَمْشِيْ إِلَيْهِ"، فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَسَحَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدْرَهُ وَقَالَ: "أَسْلِمْ تَسْلَمْ"، فَأَسْلَمَ، وَهَنَّأَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِإِسْلَامِ أَبِيْهِ.

المطلب السابع: موانِعُ اكْتِسَابِ الاحْترامِ والتَّوقِيرِ

1- الكِبرُ والخُيَلاءُ من الصِّفاتِ المانعةِ من الاحترامِ بَيْنَ النَّاسِ.

2- التَّعدِّي على أموالِ النَّاسِ وأعراضِهم.

3- العُبوسُ والتَّقطيبُ في وُجوهِ النَّاسِ.

4- اغتيابُ النَّاسِ ورَميُهم بالكَذِبِ والبُهتانِ.

5- الشُّحُّ والبُخلُ مَدعاةٌ لمقتِ البخيلِ الشَّحيحِ، وعَدَمِ توقيرِه أو الهيبةِ له.

6- الجَفاءُ وتَركُ التَّواصُلِ بَيْنَ النَّاسِ يكونُ سَبَبًا يحولُ دونَ استدامةِ الوُدِّ، بل يمنَعُ التَّوقيرَ والتَّبجيلَ.

7- الخُصوماتُ والنِّزاعاتُ عائِقٌ دونَ الوُصولِ إلى المحبَّةِ المؤدِّيةِ إلى الاحترامِ والتَّوقيرِ.

8- الجَهلُ بأهمِّيَّةِ الاحترامِ والتَّقديرِ وما له من فوائِدَ.

9- سُوءُ الخُلُقِ.

10- إهمالُ تربيةِ الصِّغارِ على هذا الخُلُقِ.

المطلب الثامن: الوسائِلُ المعينةُ على الاحترامِ والتَّوقيرِ

1- قَبولُ الغَيرِ في أقوالِه وأفعالِه واختياراتِه بما لا يتنافى مع أصلٍ من أصولِ الشَّريعةِ.

[1555] أخرجه مسلم 1479

[1556] أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه معلقا 6 /1

[1557] مهارات كسب القلوب، جوتيار بامرني، ص 18

[1558] الراوي: أنس بن مالك وعبدالله بن عمرو بن العاص وابن عباس/ صحيح الجامع

2- تركُ السُّخريَّةِ والاستهزاءِ بالغَيرِ.
3- تركُ الغِيبةِ والبُهتانِ.
4- التَّواضُعُ وتَركُ الكِبرِ.
5- تذكُّرُ كِبَرِ السِّنِّ وتقَدُّمِ العُمُرِ.
6- إلقاءُ السَّلامِ وإفشاؤه بَيْنَ النَّاسِ والتَّبسُّمُ في الوُجوهِ.
7- السَّعيُ في حاجةِ الآخَرين وبَذلُ النُّصحِ لهم.
8- معرفةُ أقدارِ النَّاسِ ومنازِلِهم.
9- معرفةُ الفوائِدِ والثِّمارِ المترَتِّبةِ على الاحترامِ والتَّوقيرِ للنَّاسِ.
10- أن يُحِبَّ المُسلِمُ لأخيه ما يحِبُّه لنفسِه، فكما يحِبُّ أن يُوَقِّرَه النَّاسُ ويحتَرِموه، فعليه أن يحتَرِمَهم ويوقِّرَهم؛ فعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "لا يؤمِنُ أحَدُكم حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يحِبُّ لنفسِه." [1559] من كُلِّ خيرٍ دينيٍّ ودُنيويٍّ. [1560]
11- التَّربيةُ من الصِّغَرِ على الاحترامِ والتَّوقيرِ.
12- الصُّحبةُ الصَّالحةُ.
13- التَّحَلِّي بالأخلاقِ الحَسَنةِ، والبُعدُ عن مساوئِ الأخلاقِ.

هُنَا أَمرٌ وَجَبَ التَنْبِيهِ عليه، وَهُوَ أَنَّكَ لَسْتَ مَلْزَمًا أَنْ تُحِبَّ كُلَّ النَّاسِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ حُبًّا فَلْيَكُنْ احْتِرَامًا، وَلَا تَأْسَفْ عَلَى احْتِرَامِكَ وَخِدْمَتِكَ وَطِيبَتِكَ لِلنَّاسِ، إِذَا لَمْ يُقَدِّرْكَ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ أو يَشْكُرْكَ، فَالْعَصَافِيْرُ تُغَرِّدُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَا أَحَدَ يُشْكُرُهَا وَمَعَ هَذَا فَإِنَّهَا تَسْتَمِرُّ بِالتَّغْرِيْدِ.

المطلب التاسع: معيارُ الاحترامِ والتَّوقيرِ في ميزانُ الشَّرعِ

إنَّ الميزانَ عِندَ اللَّهِ سُبحانَه يختَلِفُ عن موازينِ النَّاسِ؛ فكثيرًا ما يقيسُ النَّاسُ بعضُهم بعضًا بموازينِ الدُّنيا من الجاهِ والمالِ والسُّلطانِ، حتَّى قيل في المثَلِ: إنَّ الرِّقِينَ [1561] تُغَطِّي أَفْنَ الأفينِ [1562]. والمعنى أنَّ التَّوقيرَ والإجلالَ يُكتَسَبُ بوِجدانِ المالِ؛ فإنَّ المالَ يُحَلِّي المرءَ بحِليةِ الكَمالِ، ويَستُرُ ما فيه من ذميمِ الخِصالِ، ويُحَبِّبُه إلى قلوبِ الرِّجالِ، حتَّى يَرَوه بعينِ التَّوقيرِ والإجلالِ، وإن كان من أحمَقِ الحمقى وأجهَلِ الجُهَّالِ.[1563]
أمَّا الميزانُ عِندَ اللَّهِ سُبحانَه فهو بتحقيقِ العبدِ للتَّقوى وقُربِه مِن رَبِّه. قال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13].
وعن سَهلٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: مرَّ رَجُلٌ على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: "ما تقولونَ في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خطَبَ أن يُنكَحَ، وإن شَفَع أن يُشفَعَ، وإن قال أنْ يُستَمَعَ، قال: ثمَّ سَكَت، فمَرَّ رجُلٌ من فقراءِ المُسلِمين، فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حَريٌّ إن خَطَب ألَّا يُنكَحَ، وإن شَفَع ألَّا يُشفَعَ، وإن قال ألَّا يُستَمَعَ، فقال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا خيرٌ مِن مِلءِ الأرضِ مِثلَ هذا." [1564]

[1559] أخرجه البخاري 13 واللفظ له، ومسلم 45
[1560] مرقاة المفاتيح للقاري 7/ 3112، التنوير للصنعاني 9/ 288
[1561] الرِّقِينَ: جَمعُ رِقةٍ، وهي الفِضَّةُ. يُنظَر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 254 /2
[1562] أي: تُغَطِّي حُمقَ الأحمَقِ. يُنظَر: تاج العروس للزبيدي 182 /34
[1563] زهر الأكم في الأمثال والحكم لنور الدين اليوسي 1/ 109
[1564] أخرجه البخاري 5091

المطلب العاشر: بعضُ الأمورِ التي لا تتنافى مع الاحترامِ

1- إن استأذَنَ أحدٌ من أهلِ البُيوتِ في دُخولِ بُيوتِهم، فلم يأذَنوا، وقالوا له: انصَرِفْ، فلينصَرِفْ بلا غَضَبٍ، ومِثلُ هذا لا يتنافى مع الاحترامِ؛ فاللَّهُ تعالى يقولُ: {وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا} [النور: 28] قال السَّعديُّ: "وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا أي: فلا تمتَنِعوا من الرُّجوعِ، ولا تغضَبوا منه؛ فإنَّ صاحِبَ المنزِلِ لم يمنَعْكم حقًّا واجبًا لكم، وإنَّما هو مُتبرِّعٌ، فإن شاء أذِن أو مَنَع، فأنتم لا يأخُذْ أحَدَكم الكِبرُ والاشمئزازُ من هذه الحالِ".[1565]

2- إن أُذِن للصَّغيرِ أن يتكَلَّمَ بحَضرةِ الكبيرِ بعِلمٍ، فلا يتنافى هذا مع احترامِ الكبيرِ وتوقيرِه؛ فعن ابنِ عباس، رَضِيَ اللَّهُ عنهما، قال: "كان عُمَرُ يُدْخِلُني مع أشياخِ بَدرٍ، فكأنَّ بعضَهم وجَدَ في نفسِه، فقال: لِمَ تُدخِلُ هذا معنا ولنا أبناءٌ مِثلُه؟! فقال عُمَرُ: إنَّه من حيثُ عَلِمْتُم، فدعا ذاتَ ليلةٍ فأدخله معهم، فما رُئِيتُ أنَّه دعاني يومَئذٍ إلَّا ليُرِيَهم، قال: ما تقولون في قَولِ اللهِ تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: 1]؟ فقال بعضُهم: أُمِرْنا أن نحمَدَ اللهَ ونستغفِرَه إذا نُصِرْنا وفُتِحَ علينا. وسكت بعضُهم فلم يقُلْ شيئًا، فقال لي: أكذاك تقولُ يا ابنَ عبَّاسٍ؟ فقُلتُ: لا، قال: فما تقولُ؟ قُلتُ: هو أجَلُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أعلَمَه له، قال: إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فتحُ مَكَّةَ، وذلك علامةُ أجَلِك؛ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا [النصر: 3] فقال عُمَرُ: ما أعلَمُ منها إلَّا ما تقولُ".[1566]

المطلبُ الحَادِي عَشَر: قَاعِدَةٌ فِي أَسْرِ الْقُلُوبِ

هناك قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ فِي كَسْبِ الْقُلُوبِ وَأَسْرِهَا، وهي: أَنْ تَهْتَمَّ بِاهْتِمَامَاتِ مَنْ يَهُمُّكَ أَمْرُهُ، فَلَا يُوجَدُ أَجْمَلُ مِنْ أَنْ يَكُلِّمَكَ أَحَدُهُم عَمَّا تُحِبُّهُ، وَعَلَى النَّقِيضِ، لَا يُوجَدُ أَثْقَلُ مِمَنْ يُكَلِّمُكَ بِلَا انْقِطَاعٍ عَنْ مَا يُحِبُّهُ هُوَ مِنْ هِوَايَاتِهِ وَاهْتِمَامَاتِهِ حَتَّى تَمَلَّ دُونَ مُراعَاةٍ لهوايَاتِكَ وَاهْتِمَامَاتِكَ.

المطلبُ الثَّاني عَشَر: مَسَائِلُ مُتَفَرِّقَةٌ

- **مِنَ الاحْتِرامِ، التَحِيَّةُ الحَارَّةُ وَمَعْرِفَةُ وَاسْتِخْدَامُ أَسْمَاءِ الْمَدْعَوِّينَ[1567]:**

إنَّ مِنَ الِاهْتِمَامِ وَالِاحْتِرَامِ الْمُنَادَاةَ أَوْ الْمُخَاطَبَةَ بِالْأَلْقَابِ، فَفِيهِ حُسْنُ الْأَدَبِ وَدَمَاثَةُ الْخُلُقِ وَاللِّيْنُ وَالتَّوَاضُعُ، وَإِبْرَازُ أَقْدَارِ النَّاسِ وَمَنَازِلِهِمْ، وَالْمُنَادَاةُ بِالْكُنَى فِيهِ رَفْعُ الْحَرَجِ وَإِزَالَةُ الْكُلْفَةِ بَيْنَ الْمُحِبِّينَ الْمُقَرَّبِينَ.

ولذلك عِنْدَمَا تَتَعَرَّفُ عَلَى شَخْصٍ جَدِيدٍ يُفَضَّلُ أَنْ تُعِيدَ ذِكْرَ اسْمِهِ كَأَنْ تَقُولَ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ: "أَنَا مُمْتَنٌّ يَا فُلَانُ بِلِقَائِكَ"، هَذِهِ الطَّرِيقَةُ تُسَاعِدُ عَلَى بِنَاءِ رَابِطٍ بَيْنَكُمَا وَمِنْ ثَمَّ يُفْسَحُ الطَّرِيقُ إِلَى حِوَارٍ مُقْنِعٍ.

- **<u>انْجِذَابُ النَّاسِ إِلَى مَنْ يُشْعِرُهُم بِالتَقْدِيرِ وَالِاهْتِمَامِ:</u>**

إِنَّ مِنْ أَكْثَرِ مَا يَجْذِبُ النَّاسَ إِلَيْكَ وَيُدْخِلُ السُّرُورَ فِي قُلُوبِهِمْ هُوَ أَنْ تُشْعِرَهُ بِالتَّقْدِيرِ وَالِاهْتِمَامِ، تُكَنِّيهِ وتَبْتَسِمُ فِي وَجْهِهِ وتَسْتَمِعُ إِلَيْهِ، تُرَحِّبُ بِهِ وَتُقَدِّمُ لَهُ الْأَكْلَ أَوْ الشُّرْبَ بِسُرْعَةٍ مَعَ بَشَاشَةٍ، فَعِنْدَمَا تُشْعِرُهُ بِالْأَهَمِيَّةِ هُوَ سَيُعْطِيكَ أَيْضًا الْأَهَمِيَّةَ. يَذْكُرُ الدُّكْتُورُ يَاسِرُ الْحُزِيمِيُّ، أَنَّهُ ثَمَّةَ أَمْرَيْنِ تَأْسِرُ بِهِمَا قُلُوبَ النَّاسِ وَهُوَ: بَعْدَ الْأَهَمِيَّةِ بِهِ، تَهْتَمُّ بِاهْتِمَامَاتِهِ.

[1565] تفسير السعدي ص: 565

[1566] أخرجه البخاري 4294

[1567] كسب القلوب وبناء الجسور، ص 28، جوتيار بامرني.

المبحث السابع: الإهداء والجود والكرم

المطلب الأول: معنى الهدية والجود والكرم

أولًا: الهَدِيَّة:

● **الهَدِيَّةِ لغة:** هي ما أُتْحِفْتَ به، والتهادي: أن يُهدِي بَعْضُهم بَعضا يُقال: أَهْدَى له وإليه، فكلاهما صَحيح، وأَهْدَى الهَدية إلى فلان، أي: بَعَثَ بِها إكراماً له.[1568]

● **واصْطِلاحًا:** هي تَمْليكُ عينٍ للغَير على غَيرِ عِوَض[1569]، فإن كانَت لِطَلَبِ الأجرِ المَحْضِ مِنَ اللهِ غَلَبَ عليها اسم الصَّدَقة، وإن كانَت لِلْتَوَدُّدِ والمحبةِ والتآلُفِ فَهي هَدية.

والهَدِيَّةُ سُنَّةٌ نَّبَوِيَّةٌ، وَمَظْهَرُ حُبٍّ، وَمَبْعَثُ أُنْسٍ، تُقَرِّبُ الْبَعِيدَ، وتَصِلُ المقْطُوعَ، وَتَشُقُّ طَرِيقَ الدَّعْوَةِ إِلَى النُّفُوسِ، وَتَفْتَحُ مَغَالِيقَ الْقُلُوبِ، وَتَغْرِسُ الْمَحَبَّة بَيْنَ النَّاسِ.

وَلَقَد حَرَصَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى تَشْرِيعِ كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُؤَلِّفَ الْقُلُوبَ، فَالْهَدِيَّةُ مِنْ هَدْيِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّتِي حَضَّ عَلَيْهَا حَيْثُ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَهادُوا تحابُّوا." [1570] وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خيرُكُمْ مَنْ أَطْعَمَ الطعامَ، وردَّ السلامَ."[1571]

وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهْدِي، وَيَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ - الْقَلِيلُ وَالْكَثِيرُ -، وَيُثِيبُ عَلَيْهَا، وَيُرَغِّب فِيهَا، وَكَانَ يَقُولُ: "لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أو كُرَاع [1572] لَقَبِلْتُ".[1573]

وعن أنس رضي الله عنه قال: "ما سُئِلَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإسْلَامِ شيئًا إلَّا أَعْطَاهُ، قالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فأعْطَاهُ غَنَمًا بيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إلى قَوْمِهِ، فأتَى قَوْمَهُ فَقالَ: أَيْ قَوْمِ، أَسْلِمُوا؛ فَوَاللَّهِ إنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً ما يَخَافُ الفَقْرَ. فَقالَ أَنَسٌ: إنْ كانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ ما يُرِيدُ إلَّا الدُّنْيَا، فَما يُسْلِمُ حتَّى يَكونَ الإسْلَامُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَما عَلَيْهَا".[1574]

كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحْسنَ النَّاسِ خُلُقًا، وأَجْوَدَهم وأَكرَمهم، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤلِّفُ القلوبَ بالعَطايا لِمَن في إسلامِهِم ضَعفٌ حتَّى يُرغِّبَهم في الإسلامِ.

وفي هذا الحديثِ يَرْوي أنسُ بنُ مالكٍ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رَجلًا -قيل: إنَّه أحدُ الأعرابِ، ويُقالُ: إنَّه صَفوانُ بنُ أُميَّةَ قبْلَ أنْ يُسلِمَ- سَألَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وطَلَب منه غَنَمًا كَثيرةً تَملَأُ ما بيْنَ جَبلَيْن، وإنَّما سَأل الرَّجلُ هذا المالَ طَمعًا، فأَعطاهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَطلوبَه، وإنَّما أعطاهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا المالَ لِما يَرْجوه مِن الخيرِ لهذا الرَّجلِ ولِمَن وَراءه، وهذا ما وَقَع؛ فإنَّ الرَّجلَ أَتى قَومَه المشْرِكين، مُتعَجِّبًا مِن كَرمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فطَلَبَ مِنهُم أن يُسلِموا؛ فإنَّ الإسلامَ يَهدي إلى مَكارمِ الأَخلاقِ، ثُمَّ حَلَفَ لَهُم باللهِ إنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعطي عَطاءً عَظيمًا، ما يَخافُ الفَقرَ مَعه، مُرادُه أنَّه سيُعطِيكم ويُكثِرُ مِن العطاءِ، فأصبَحَ الرَّجلُ بتلكَ العطيَّةِ داعيةً إلى الإسلامِ.

ثُمَّ يُبيِّن أَنَسٌ رَضيَ اللهُ عنه ويُخبِرُ أنَّ بعضَ النَّاسِ كان يَدخُلُ في الإسلامِ ما يُريدُ إلَّا الدُّنيا، وطَمَعًا في المالِ، فَما يَلبَثُ بَعدَ

[1568] كتاب سلسلة الآداب المنجد، ص2

[1569] المغني 8/239

[1570] صحيح الأدب المفرد 594

[1571] صحيح الجامع (3318)

[1572] الكراع: مستدق الساق من الغنم والبقر العاري من اللحم.

[1573] صحيح البخاري (5178)

[1574] صحيح مسلم (2312)

إسلامِه إلَّا يَسيرًا حتَّى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليهِ، والمُرادُ: أنَّه يُظهِرُ الإسلامَ أَوَّلًا للدُّنيا لا بِقَصدٍ صَحيحٍ بقَلبِه، ثُمَّ لم يَلبثْ إلَّا قَليلًا حتَّى يَنشرِحَ صَدرُه بحَقيقَةِ الإيمانِ ويَتمكَّنَ مِن قَلبِه فيَكونَ حينئذٍ أَحبَّ إليه منَ الدُّنيا.
وفي الحديثِ: أنَّه يَنْبغي أنْ نُؤلِّفَ قُلوبَ غيْرِ المسْلِمين، ونَجذِبَهم إلى الإسلامِ بالمالِ واللِّينِ وحُسنِ الخُلقِ حتَّى يَألَفوا الإسلامَ.[1575]

ثانيًا: الجُودِ

- **معنى الجُودِ لُغةً:**

الجُودُ: خِلافُ البُخلِ، وأصلُ (جود) هو التَّسَمُّحُ بالشَّيءِ، وكَثْرةُ العَطاءِ؛ يقالُ: جادَ الرَّجُلُ بِمالِه يجُودُ جُودًا، بالضَّمِّ، فَهُوَ جَوَادٌ. والجُودُ: السَّخاءُ، والجَوادُ: السَّخِيُّ والسَّخيَّةُ، أي: الذَّكَرُ والأُنثى سواءٌ، وقيل: الجَوادُ: هو الذي يُعطي بِلا مِسألةٍ؛ صيانةً للآخِذِ مِن ذُلِّ السُّؤالِ. وَقيلَ للمَطَرِ الغزيرِ: الجُودُ.[1576]

- **معنى الجُودِ اصطِلاحًا:**

قال الكَرمانيُّ: "الجُودُ: إعطاءُ ما ينبغي لمن ينبغي".[1577]
وقيل هو: "صفةٌ تحمِلُ صاحِبَها على بَذْلِ ما ينبغي من الخَيرِ لغيرِ عِوَضٍ".[1578]

ثالثا: الكرم:

- **معنى الكَرَمِ لُغةً:**

الكَرَمُ: ضِدُّ اللُّؤمِ، والكَرَمُ شَرَفُ الرَّجُلِ، يقالُ: كَرُمَ كرامةً وكَرَمًا وكَرَمةً، و: كَرُمَ فُلانٌ: أعطى بسهولةٍ وجاد، وكَرُم الشَّيءُ: عَزَّ ونَفُسَ، وقد كَرُم الرَّجُلُ: فهو كريمٌ، وقومٌ كِرامٌ وكُرماءُ، ونِسوةٌ كَرائِمُ.[1579]

- **معنى الكَرَمِ اصطِلاحًا:**

قال الجُرْجانيُّ: "الكَرَمُ: هو الإعطاءُ بسُهولةٍ".[1580]
وقال مِسْكَوَيهِ: "أمَّا الكَرَمُ فهو إنفاقُ المالِ الكثيرِ بسهولةٍ من النَّفسِ في الأمورِ الجليلةِ القَدْرِ، الكثيرةِ النَّفعِ، كما ينبغي".[1581]
وقال ابنُ تَيميَّةَ: "الكَرَمُ: لفظٌ جامِعٌ للمحاسِنِ والمحامِدِ، لا يرادُ به مجرَّدُ الإعطاءِ، بل الإعطاءُ من تمامِ معناه؛ فإنَّ الإحسانَ إلى الغيرِ تمامُ المحاسِنِ. والكَرَمُ كثرةُ الخَيرِ ويُسْرَتُه"[1582].[1583]

وَتَحْتَ مُسْمَّى الْجُودِ وَالسَّخَاءِ وَالْإِيثَارِ وَالْإِنْفَاقِ، وَأَبْلَغُهَا الْجُودِ:
- فَمَنْ بَذَلَ أَكْثَرَ مَالِهِ فَهُوَ جَوادٌ.
- وَمَنْ أَعْطَى الْبَعْضَ وَأَمْسَكَ الْبَعْضَ الْآخَرَ فَهُوَ سَخِيٌّ.

[1575] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.
[1576] يُنظَر: الصحاح للجوهري 461/2، مجمل اللغة لابن فارس ص: 202، مقاييس اللغة لابن فارس 493 /1، القاموس المحيط للفيروزابادي 1489، تاج العروس للزبيدي 7/527، 531، المعجم الوسيط 784/2
[1577] يُنظَر: تاج العروس للزبيدي 527/7، كوثر المعاني الدراري لمحمد الخضر الشنقيطي 309 /1
[1578] يُنظَر: المعجم الوسيط، ص 146
[1579] العين للخليل بن أحمد 5/ 368، جمهرة اللغة لابن دريد 798/2، الصحاح للجوهري 5/ 2020.
[1580] يُنظَر: التعريفات، ص 184
[1581] يُنظَر: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لمسكويه، ص: 31
[1582] يُنظَر: مجموع الفتاوى لابن تيمية 293 /16
[1583] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، مَوْسُوعَةُ الأَخْلاقِ والسُلُوك.

- وَمَنْ آثَرَ غَيْرَهُ لِكَبْرٍ أَوِ احْتِرَامٍ إِلَى مَكَانٍ يَرْجُوهُ الْجَمِيعُ وَبَقِيَ هُوَ أَوْ أَخَّرَ نَفْسَهُ عَنْهُ فَهُوَ صَاحِبُ إِيثَارٍ.

المطلب الثاني: نماذج من الكرم

أولا: نَمَاذِجٌ من كَرَمِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وجُودِه:

لقد مَثَّل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المَثَلَ الأعلى والقُدوةَ الحَسَنةَ في الجُودِ والكَرَمِ „وقد بلَغ -صلَواتُ اللهِ عليه- مرتبةَ الكمالِ الإنسانيِّ في حُبِّه للعَطاءِ؛ إذ كان يُعطي عَطاءَ مَن لا يَحْسَبُ حِسابًا للفَقرِ ولا يَخشاه؛ ثِقةً بعَظيمِ فَضلِ اللهِ، وإيمانًا بأنَّه هو الرَّزَّاقُ ذو الفَضلِ العظيمِ".[1584]

وهو القائِلُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لو كان لي مِثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا ما يَسُرُّني ألا يمُرَّ عَلَيَّ ثلاثٌ، وعندي منه شيءٌ إلَّا شيءٌ أرصُدُه[1585] لِدَينٍ".[1586]

"إنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُقَدِّمُ بهذا النَّموذَجِ المثاليِّ للقُدوةِ الحَسَنةِ، لا سيَّما حينما نلاحِظُ أنَّه كان في عطاءاتِه الفِعليَّةِ مُطَبِّقًا لهذه الصُّورةِ القوليَّةِ التي قالها؛ فقد كانَت سَعادَتُهُ ومَسَرَّتُهُ عَظِيمَتَينِ حينَما كانَ يَبْذُلُ كُلَّ ما عندَه مِن مالٍ، ثُمَّ إنَّه يُرَبِّي المسلِمين بقولِه وعَمَلِه على خُلُقِ حُبِّ العطاءِ، إذ يُريهِم مِن نَفسِه أجمَلَ صورةٍ للعَطاءِ وأكمَلَها".[1587]

وكانَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُؤثِر على نفسِه، فيُعطي العطاءَ ويَمضي عليه الشَّهرُ والشَّهرانِ لا يُوقَدُ في بيتِه نارٌ! وكانَ كَرَمُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كَرَمًا في مَحَلِّهِ، يُنفِقُ المالَ للهِ وباللهِ إمَّا لفقيرٍ، أو محتاجٍ، أو في سبيلِ اللهِ، أو تأليفًا على الإسلامِ، أو تشريعًا للأمَّةِ، وغيرِ ذلك.[1588]

ومن أمثلة كَرَمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

1- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: "كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أجودَ النَّاسِ، وكان أجوَدَ ما يكونُ في رَمَضانَ حينَ يلقاه جِبريلُ، وكان يلقاه في كُلِّ ليلةٍ من رَمَضانَ فيُدارِسُه القُرآنَ، فلَرَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أجوَدُ بالخيرِ من الرِّيحِ المُرسَلةِ".[1589]

فهذا الحديثُ يُوَضِّحُ خُلُقًا من أخلاقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فـ „لَمَّا كانت نفسُه أشرَفَ النُّفوسِ ومزاجُه أعدَلَ الأمزجةِ، لا بدَّ أن يكونَ فِعلُه أحسَنَ الأفعالِ، وخُلُقُه أحسَنَ الأخلاقِ، فلا شَكَّ يكونُ أجوَدَ، فكيف لا وهو مُستغنٍ عن الفانياتِ بالباقياتِ الصَّالحاتِ، وكان في رمضانَ أكثَرَ موسِمِ الخيراتِ، ولأنَّ اللهَ يتفَضَّلُ على عبادِه في رمضانَ ما لا يتفضَّلُ في غيرِه، فكان يؤثِرُ متابعةَ سُنَّةِ اللهِ في عبادِه، ولأنَّه كان يصادِفُ البُشرى من اللهِ بمُلاقاةِ أمينِ الوَحيِ، ويتابِعُ إمدادَ الكَرامةِ عليه، فيُنعِمُ على عبادِ اللهِ بما أنعم اللهُ عليه، ويُحْسِنُ إليهم كما أحسَنَ اللهُ إليه".[1590]

2- عن موسى بنِ أنَسٍ عن أبيه، قال: "ما سُئِل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الإسلامِ شيئًا إلَّا أعطاه، قال: فَجاءَهُ رَجُلٌ فأعْطاهُ غَنَمًا بَينَ جبلَينِ، فَرَجَعَ إلى قَومِه، فَقالَ: يا قَومِ أسلِموا؛ فإنَّ محمَّدًا يُعْطِي عطاءً لا يخشى الفاقةَ[1591]".[1592]

[1584] يُنظَر: الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني 377/2

[1585] أرصُدُه: أي أُعِدُّه وأترقَّبُ به أداءَ دَيْني. يُنظَر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض 3/506

[1586] أخرجه البخاري 2389

[1587] يُنظَر: الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني 378/2

[1588] يُنظَر: مكارم الأخلاق لابن عثيمين ص: 55

[1589] أخرجه البخاري 6 واللفظ له، ومسلم 2308

[1590] يُنظَر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري لشمس الدين الكرماني 51 /1

[1591] الفاقةُ: الحاجةُ والفَقرُ. يُنظَر: النهاية في غريب الحديث والأثر 3/ 480

وكَما تَروي عنه أمُ المُؤمِنين السيدة عائشة -رضي الله عنها- أنَّهم ذَبَحوا شاةً فَقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ: "ما بقيَ منْها؟" قلت ما بقيَ منْها إلَّا كتفُها، قالَ: "بقيَ كُلُّها غَيْرَ كَتِفِها"[1593]، أَي أَنَّ مَا يَتَصَدَّق بِهِ الإِنسَان فِي سَبِيلِ الله هُوَ الَّذِي يَبْقَى يَوْمَ الْقِيَامَة، وَلَا يَفْنَى إِلَّا مَا اسْتَعْمَلَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما نَقَصَتْ صَدَقةٌ مِن مالٍ، وما زادَ اللَّهُ عَبْدًا بعَفْوٍ إلَّا عِزًّا، وما تَواضَعَ أحَدٌ للَّهِ إلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ".[1594]

ثانيا: نماذِجُ مِن كَرَمِ الصَّحابةِ وجُودِهم رِضْوَانِ اللهِ عَلَيْهِم:

1- عن زَيدِ بنِ أسلَمَ، عن أبيه، قال: سَمِعْتُ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ: "أمَرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا أن نتصَدَّقَ، فوافَقَ ذلك مالًا عِندَي، فقُلتُ: اليومَ أسبِقُ أبا بكرٍ إن سبَقْتُه يومًا! فجِئتُ بنِصفِ مالي، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ما أبقَيْتَ لأهلِك؟" قُلتُ: مِثْلَه، قال: وأتى أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه بكُلِّ ما عِندَه، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ما أبقَيْتَ لأهلِك؟" قال: أبقَيتُ لهم اللهَ ورَسُولَهُ! قُلتُ: لا أسابِقُك إلى شيءٍ أبدًا".[1595]

2- وعن إسحاقَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ أبي طَلحةَ، أنَّه سَمِعَ أنَسَ بنَ مالكٍ يقولُ: "كان أبو طَلحةَ أكثَرَ أنصاريٍّ بالمدينةِ مالًا، وكان أحبَّ أموالِه إليه بَيْرُحَى، وكانت مُستَقبِلةَ المسجِدِ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدخُلُها ويَشرَبُ من ماءٍ فيها طيِّبٍ، قال أنَسٌ: فلمَّا أُنزِلَت هذه الآيةُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: 92]، قام أبو طَلحةَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يقولُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيْرُحَى، وإنَّها صَدَقةٌ للهِ، أرجو بِرَّها وذُخْرَها عندَ اللهِ، فضَعْها يا رسولَ اللهِ حيثُ أراك اللهُ، قال: فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: بَخْ! ذلك مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابِحٌ! وقد سَمِعْتُ ما قُلتَ، وإنِّي أرى أن تجعَلَها في الأقرَبينَ، فقال أبو طلحةَ: أفعَلُ يا رسولَ اللهِ، فقسَمها أبو طلحةَ في أقارِبِه وبني عَمِّه".[1596]

3- مَرِضَ قَيسُ بنُ سعدِ بنِ عُبادةَ، فاستبطَأَ إخوانَه، فقيل له: إنَّهم يَسْتَحْيُون مِمَّا لك عليهم من الدَّينِ، فقال: أخزى اللهُ مالًا يمنَعُ الإخوانَ من الزِّيارةِ! ثمَّ أمرَ مناديًا فنادى: من كان عليه لقَيسِ بنِ سَعدٍ حقٌّ فهو منه بريءٌ، قال: فانكَسَرت درجَتُه بالعَشِيِّ لكثرةِ من زاره وعاده! [1597]

4- وقال سعيدُ بنُ عبدِ العزيزِ: „سَمِع الحسَنُ بنُ عَليٍّ رجُلًا إلى جَنبِه يسألُ اللهَ أن يَرزُقَه عَشَرةَ آلافِ دِرهَمٍ، فانصرف، فبعَثَ بها إليه". [1598]

ثالثا: نَمُوذَجٌ مِنْ كَرَمِ العَرَبِ وجُودِهم:

لقد كان الكَرَمُ من أبرَزِ الصِّفاتِ لدى العَرَبِ في الجاهليَّةِ، بل كانوا يتباهَون بالكَرَمِ والجُودِ والسَّخاءِ، وكانوا يَصِفُونَ بالكَرَمِ عُظَمَاءَ القَومِ، واشتَهَر بعضُ العَرَبِ بهذه الصِّفةِ الحميدةِ حتى صار مَضْرِبًا للمَثَلِ، ونذكُرُ بعضَ النَّماذِجِ من هؤلاء الذين اشتَهَروا بفيضِ كَرَمِهم وسخاءِ نُفوسِهم، ومن أولئك:

- كَرَمُ حاتِمِ الطَّائِيّ:

[1592] أخرجه مسلم 2312

[1593] صحيح الترمذي 2470

[1594] صحيح مسلم 2588

[1595] أخرجه أبو داود 1678 واللفظ له، والترمذي 3675 صحَّحه الترمذي، والحاكم على شرط مسلم، والنووي في المجموع 236/6، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، والوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين 996

[1596] أخرجه البخاري1461، ومسلم 998 واللفظ له.

[1597] ذكره القشيري في الرسالة القشيرية 2/406، وابن الجوزي في المنتظم 5/318

[1598] سير أعلام النبلاء للذهبي 260 /3

كان حاتمٌ الطَّائيُّ من أشهَرِ من عُرِف عندَ العَرَبِ بالجُودِ والكَرَمِ حتى صار مَضرِبَ المثَلِ في ذلك.
و"قيل: سأل رجلٌ حاتِمًا الطَّائيَّ فقال: يا حاتِمُ، هل غلبَك أحدٌ في الكَرَمِ؟ قال: نعم، غلامٌ يتيمٌ مِن طَيِّءٍ، نزَلْتُ بفَنائِه وكان له عشرةُ أرؤُسٍ من الغَنَمِ، فعَمَد إلى رأسٍ منها فذبحَه. وأصلح مِن لحمِه، وقدَّم إليَّ، وكان فيما قَدَّم إليَّ الدِّماغَ، فتناوَلْتُ منه فاستَطَبْتُه، فقُلتُ: طَيِّبٌ واللهِ! فخرج من بَينِ يَدَيَّ، وجعل يذبحُ رأسًا رأسًا، ويقَدِّمُ إليَّ الدِّماغَ وأنا لا أعلَمُ. فلمَّا خرَجْتُ لأرحَلَ نظرتُ حولَ بيتِه دمًا عظيمًا، وإذا هو قد ذبَحَ الغَنَمَ بأسْرِه! فقلتُ له: لِمَ فعَلْتَ ذلك؟ فقال: يا سُبحانَ اللهِ! تستطيبُ شيئًا أملِكُه فأبخَلُ عليك به! إنَّ ذلك لَسَبَّةٌ على العَرَبِ قبيحةٌ! قيل يا حاتِمُ: فما الذي عوَّضْتَه؟ قال: ثلاثُمائةِ ناقةٍ حَمراءَ وخَمسُمائةِ رأسٍ من الغَنَمِ، فقيل: أنت إذًا أكرَمُ منه! فقال: بل هو أكرَمُ؛ لأنه جاد بكُلِّ ما يملِكُه، وإنما جُدتُ بقليلٍ من كثيرٍ".[1599]
هذا يذكرني بحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "سبقَ دِرهمٌ مائةَ ألفِ درهمٍ قالوا." وَكَيفَ؟ قالَ: "كانَ لرجلٍ درهمانِ تصدَّقَ بأحدِهِما وانطلقَ رجلٌ إلى عُرضِ مالِهِ، فأخذَ منهُ مائةَ ألفِ درهمٍ فتصدَّقَ بِها".[1600]
كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُرشِدُ أُمَّتَه إلى مَعالي الأمورِ مِن الأقوالِ والأفعالِ، وقد حَثَّ النَّاسَ على التَّصدُّقِ والإنفاقِ عن طِيبِ خاطرٍ، وأوضَح أنَّ اللهَ يُعْطي على ذلك الأجْرَ العظيمَ، وأنَّ الصَّدقةَ تُنْمَّى لِصاحبِها عندَ اللهِ تعالى.
وفي هذا الحديثِ يقولُ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "سبَق دِرهمٌ مِئةَ ألفِ دِرهمٍ"، أي: نفقةُ دِرهمٍ في سبيلِ اللهِ بالتَّصدُّقِ به عن طيبِ خاطرٍ وإخلاصِ نيَّةٍ؛ فإنَّ ذلك في الأجرِ والثَّوابِ أفضَلُ مِن نفَقةِ مِئةِ ألفِ دِرْهَمٍ، "قالوا: وكيف؟ قال: كان لِرَجُلٍ دِرْهَمانِ تصَدَّق بأحَدِهما"، أي: إنَّه رجلٌ فقيرٌ لا يَملِكُ إلَّا دِرْهَمين فأنفَق وتَصدَّق بأحَدِهما وهو فقيرٌ محتاجٌ فيكونُ قد أنفَق نِصفَ مالِه، مع احتياجِه إلى ما أنفقَه، "وانطَلَق رجلٌ إلى عُرضِ مالِه، فأخَذ مِنه مِئةَ ألْفِ دِرْهَمٍ فتصَدَّق بها"، أي: إنَّه رجلٌ غنيٌّ، فأنفَق مِن بعضِ مالِه مِئةَ ألفٍ فقط، وبقي أكثرُ مالِه كما هو.
وقد ورَد في رِوايةٍ مُوضِّحةٍ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم سُئِل: "أيُّ الصَّدقةِ أفضلُ؟ قال: جُهْدُ المقِلِّ".
والجُهدُ الوُسْعُ والطَّاقةُ، أو المشقَّةُ والغايةُ، والمُقِلُّ: الفقيرُ الَّذي معَه شيءٌ قليلٌ مِن المالِ: أي: إنَّ أفضلَ الصَّدقةِ هو الَّذي يتَصدَّقُ به الفقيرُ، قليلُ المالِ على قدْرِ طاقتِه ووُسْعِه مع مَشقَّةِ ذلك عليه، وإنَّما كانتْ صدقةُ المقِلِّ أفضلَ مِن صَدقةِ الغنيِّ؛ لأنَّ الفقيرَ يتَصدَّقُ بما هو مُحتاجٌ إليه، بخلافِ الغَنيِّ؛ فإنَّه يتَصدَّقُ بفُضولِ مالِه.
ويُجمَعُ بينَه وبينَ حديثِ "خيرُ الصَّدَقةِ ما كان عن ظهرِ غِنًى" أنَّ هذا الحديثَ مَحمولٌ على قَويِّ الإيمانِ الَّذي يَصبِرُ على الفاقةِ، ويَكتَفي بأقلِّ الكفايةِ، والحديثُ الثَّاني على ضعيفِ الإيمانِ، ويُحتَمَلُ أن يكونَ المرادُ بالغِنَى غِنَى القلبِ الَّذي يَصبِرُ صاحبُه على الجوعِ والشِّدَّةِ، وهو المرادُ بالمقلِّ، فيكونُ المعنى: أنَّ تَصدُّقَ الفقيرِ الغنيِّ القلبِ، ولو كان قليلًا، أفضلُ مِن تَصدُّقِ الغنيِّ بكثيرٍ مِن مالِه.[1601]

[1599] يُنظَر: المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي ص 111
[1600] صحيح النسائي 2526، وأحمد 8929
[1601] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

المطلبُ الثَّالثُ: أنواعُ الكرمِ

إن للكرم أنواعًا كثيرة منها:

1- الكرم مع الله: المُسْلمُ يكُون كريمًا مع اللهِ بالإحسانِ في العبادةِ والطاعةِ، ومَعْرِفةِ اللهِ حَقَّ المَعْرِفَةِ، وفِعْلِ كُلِّ ما أُمِرَ بهِ، والانْتِهاءَ عَمَّا نهي عنه.

2- الكَرَمُ مع النبي صلى الله عليه وسلم: ويَكونُ بالاقْتِداءِ بِسُنَّتِهِ، والسَّيرِ على مَنْهَجِهِ، واتِّباعِ هَديهِ، وتَوْقيرِهِ.

3- العطاءُ من المالِ، ومن كُلِّ ما يمتَلِكُ الإنسانُ من أشياءَ يُنتَفَعُ بها؛ كالذَّهَبِ والفِضَّةِ، والخَيْلِ والأنعامِ والحَرثِ، وكُلِّ مأكولٍ أو مَشْروبٍ، أو مَلبوسٍ أو مَرْكُوبٍ، أو مَسكونٍ أو يُؤوي إليه، وكُلِّ آلةٍ أو سَبَبٍ أو وسيلةٍ يُنتَفَعُ بها، وكُلِّ ما يُتداوى به أو يَقي ضرًّا أو يدفَعُ بأسًا، إلى غيرِ ذلك مِن أشياءَ يَصعُبُ إحصاؤُها.

4- وَمِنْها العطاءُ مِن العِلمِ والمعرفةِ، والمِعطاءُ في ذلك هو الذي لا يدَّخِرُ وُسعًا في بَذلِ العِلمِ والمَعْرفةِ لِمَن يَنْتَفِعُ بِهِما، والدَّاعيةُ البَخيلُ هُوَ الذي يَتَقَوْقَعُ في بَيْتِهِ أو مَسجِدِهِ أو مَركَزِهِ ولا يَخْرُجُ إلى المَلأ، بَل يَحْتَفِظُ بِمَعارِفِه وعُلُومِهِ ومَهاراتِهِ لِنَفسِهِ، فَلا يُنفِقُ مَنها لِمُسْتَحَقِّيها؛ ضنًّا بها ورغبةً بالاستِئثارِ.

5- وَمِنْها عَطاءُ النَّصيحَةِ؛ فالإنسانُ الجوادُ كريمُ النَّفسِ، لا يَبْخَلُ على أخيه الإنسانِ بأيِّ نصيحةٍ تَنْفَعُه في دينِه أو دُنياه، بَل يُعطيه نُصحَه الذي ينفَعُه مُبْتَغيًا به وَجهَ اللهِ تعالى.

6- وَمِنها العَطاءُ مِن النَّفسِ؛ فالجَوادُ يُعطِي مِن جاهِهِ، ويُعطِي مِن عَطفِه وحَنانِه، ويُعطِي مِن حُلْوِ كَلامِه وابتِسامَتِه وطَلاقةِ وَجهِه، ويُعطِي مِن وَقتِه وراحتِه، ويُعطِي مِن سَمعِه وإصغائِه، ويُعطِي مِن حُبِّه ورحمتِه، ويُعطِي مِن دُعائِه وشَفاعَتِهِ، وهكذا إلى سائِرِ صُوَرِ العَطاءِ مِن النَّفسِ.

7- والكرم مع النفس: فلا يُهِينُ الإنسانُ نفسَه، أَوْ يُذِلُّهَا أَوْ يُعَرِّضُهَا لِقَولِ السُّوءِ أَوْ اللغْوِ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ عِبَادَ الرَّحْمَنِ بِأَنَّهُم: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [الفرقان: 72].

8- ومنها العطاءُ من طاقاتِ الجَسَدِ وقُوَاهُ؛ فالجَوادُ يُعطِي مِن معونَتِه، ومِن خَدَماتِه، وجُهْدِهِ، فيُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِه فيَحمِلُه عليها أو يحمِلُ له عليها، ويُميطُ الأذى عَن طَريقِ النَّاسِ وعن المَرافِقِ العامَّةِ، ويَأخُذُ بِيَدِ العاجِزِ حتَّى يجتازَ به إلى مكانِ سلامَتِه، ويمشي في مصالِحِ النَّاسِ، وَيَتعَبُ في مُساعَدَتِهم، وَيَسْهَرُ من أجلِ مَعُونَتِهم، وَمِنْ أجلِ خِدْمَتِهم، فإذا سَمِعَ - عَلَى سَبيلِ المَثَالِ - أَنَّ أحَدًا سَيَنتَقِلُ مِنْ بَيْتٍ إلى آخَر، لا يَنْتَظِرُ أَنْ يُطْلَبَ منه العَوْنُ، وَإِنَّمَا يُبادرُ بِنَفْسِهِ لِيَحْمِلَ معَه مَتاعَهُ، وَهَكَذَا إِلَى سَائِرِ صُوَرِ العطاءِ من الجَسَدِ.

9- ويَرتَقي العَطاءُ حتَّى يصِلَ إلى مُسْتَوى التَّضحيةِ بالحياةِ كلِّها، كالمجاهِدِ المقاتِلِ في سَبيلِ اللهِ، يَجودُ بِحَياتِهِ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ ونُصرةِ دينِه؛ ابتغاءَ مَرضاةِ رَبِّه.[1602]

10- إكرامُ الضُّيوفِ والجيرانِ والأصدقاءِ ونحوِهم؛ فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "من كان يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيَقُلْ خيرًا أو لِيَصمُتْ، ومن كان يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيُكرِمْ جارَه، ومن كان يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيُكرِمْ ضَيفَه".[1603]

[1602] يُنظَر: الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني 2/361-363

[1603] أخرجه البخاري 6475، ومسلم 47 واللفظ له

11- الكرم مع الأهل والأقارب؛ قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [البقرة: 215].

فَالْمُسْلِمُ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يُكْرِمَ زَوْجَهُ وَأَوْلَادَهُ وَأَقَارِبَهُ، وَذَلِكَ بِمِعَامَلَتِهِمْ مُعَامَلَةٍ حَسَنَةٍ، وَالإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ، فَخَيْرُ الإِكْرَامِ والإِنْفَاقِ أَنْ يَبْدَأَ الْمُسْلِمُ بِأَهْلِهِ وَزَوْجَتِهِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ أَيْ: (إِعْتَاقِ عَبْدٍ)، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ".[1604]

وقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: „إِذَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُ نَفَقَةً عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا „أَيْ: يَنْوِي عِنْدَ إِنْفَاقِهَا أَنَّهَا خَالِصَةٌ لِوَجْهِ اللهِ"، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ".[1605]

فَالصَّدَقَةُ عَلَى القَرِيبِ لَهَا أَجْرٌ مُضَاعَفٌ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ يَأْخُذُ بِهَا ثَوَابَ الصَّدَقَةِ وَثَوابَ صِلَةِ الرَّحِمِ. يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: „الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ، أَيْ: (القَرِيبِ) ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ".[1606]

12 -الْكَرَمُ والسَّخاءُ مع الفُقَراءِ والمساكينِ؛ فقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „السَّاعي على الأرملةِ والمِسكينِ كالمجاهِدِ في سبيلِ اللهِ".[1607]

13- إِكرامُ اليتيمِ، كما قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „أنا وكافِلُ اليتيمِ في الجنَّةِ هكذا، وأشار بالسَّبَّابةِ والوُسطى، وفرَّج بينهما شيئًا".[1608]

14- الكرم مع الناس: طُرُقُ الْكَرَمِ مَعَ النَّاسِ كَثِيرةٌ، فَالتَّبَسُّمُ فِي وُجُوهِهِمْ صَدَقَةٌ، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "لَا تُحَقِّرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ".[1609]

وَقَدْ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ يَحُثُّ عَلَى الْعَطَاءِ وَإِنْ قَلَّ: لَا تَسْتَحِ مِنْ عَطَاءِ الْقَلِيلِ؛ فَالْحِرْمَانُ أَقَلُّ مِنْهُ، وَلَا تَجْبُنْ عَنْ الْكَثِيرِ؛ فَإِنَّكَ أَكْثَرُ مِنْهُ.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عليه صَدَقَةٌ، كُلَّ يومٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، ويُعِينُ الرَّجُلَ علَى دابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عليها، أوْ يَرْفَعُ عليها مَتاعَهُ صَدَقَةٌ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوها إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، ويُمِيطُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ"[1610]، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ".[1611]

15- الْكَرَمُ والإِنْفَاقُ فِي حَوَائِجِ وَفِي قَضَايَا الْمُسْلِمِينَ: الْمُسْلِمُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُنْفِقَ فِي حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ، فَمَثَلًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، يُنْفِقُ فِي طِبَاعَةِ الْكُتُبِ وَالْمَطْوِيَّاتِ، وَفِي وَقْتِ الْحُرُوبِ يُكْثِرُ مِنْ الإِنْفَاقِ فِي تَجْهِيزِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَفِي أَزْمَاتِ التَّعْلِيمِ يُنْفِقُ فِي تَيْسِيرِهَا، وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ وَبَاءٌ أَوْ مَرَضٌ، يَتَبَرَّعُ بِالْمَالِ مُسَاهَمَةً مِنْهُ فِي الْقَضَاءِ عَلَى هَذَا الْمَرَضِ، وَلَوْ عَلِمَ بِحَاجَةِ مُسْلِمٍ فِي بَلَدٍ إِسْلَامِيٍّ مُعَيَّنٍ إِلَى دَوَاءٍ أَوْ غِذَاءٍ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُسَارِعَ إِلَى مُعَاوَنَتِهِ.

المطلب الرابع: فَضْلُ الكرمِ والْجُودِ

1- الْكَرَمُ مِنْ عَلَامَاتِ الْبِرِّ، وَيَتَبَيَّنُ ذلك فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عِمْرَانَ: 92].

[1604] صحيح مسلم 995

[1605] أخرجه البخاري (55)، ومسلم (1002)

[1606] أخرجه الترمذي (658)، والنسائي (2582)، وابن ماجه (1844)، وأحمد (16278) باختلاف يسير.

[1607] أخرجه البخاري 5353، ومسلم 2982 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[1608] أخرجه البخاري 5304 من حديثِ سهلِ بنِ سعدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[1609] أخرجه مسلم (2626)

[1610] أخرجه البخاري (2989)، ومسلم (1009)

[1611] أخرجه البخاري (6021) مختصراً، والترمذي (1970)، وأحمد (14877) واللفظ لها.

ويُطْلَقُ عَلَى كُلِّ مَا يُحْمَدُ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَالشَّرَفِ وَالْجُودِ وَالْعَطَاءِ وَالْإِنْفَاقِ.

2- الْكَرَمُ أَحَدُ مَقَوِّمَاتِ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ، وَلَقَد وَعَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلُ الْإِنْفَاقِ بِالْخَيْرِ الْكَثِيرِ، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} [سَبَأ: 39]، وَأَقْرَبُهُ إِلَى اللَّهِ حِينَمَا يَكُونُ خَالِصًا لِوَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، لَا يُقْصَدُ مِنْهُ الرِّيَاءُ، وَلَا يُرَادُ مِنْهُ السُّمْعَةُ، قَالَ تَعَالَى: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [الْإِنْسَانَ:9].

3- لِلكَرَمِ والْجُودِ وَالْإِنْفَاقِ ثَوَابٌ عَظِيمٌ، وَقَدْ رَغَّبَنَا اللَّهُ فِيهِ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البَقَرَة: 261].

وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَآءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [البَقَرَة: 272].

وَقَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البَقَرَة: 274].

4- الْكَرَمُ بَرَكَةٌ لِلْمَالِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا".[1612]

وَقَالَ اللَّهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِي: "أَنْفِقْ يَا بْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ." [1613]

5- الْكَرَمُ عِزُّ الدُّنْيَا، وَشَرَفُ الْآخِرَةِ، وَحُسْنُ الصِّيتِ، وَخُلُودُ جَمِيلِ الذِّكْرِ.

6- الْكَرَمُ يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ مَحْبُوباً مِنْ أَهْلِهِ وَجِيْرَانِهِ وَأَقَارِبِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ.

لِكُلِّ هَذِهِ الْفَضَائِلِ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ كَرِيمًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهو يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا." [1614]

والحَسدُ نَوعانِ؛ الأوَّلُ: حسَدٌ مَذمومٌ مُحرَّمٌ شَرعًا، وهو أنْ يَتمَنَّى المرءُ زَوالَ النِّعمةِ عن أخيهِ سواءٌ حصَلتْ للحاسدِ أو لا، والثاني: حَسَدٌ مُباحٌ، وهو الغِبطةُ، ومعْناها: أنْ يَرى المرءُ نِعمةً عندَ غَيرِه، فيَتمَنَّى مِثلَها لنَفْسِه دونَ زَوالِها عن أخيه، فإنْ كانت الغِبطةُ في أمرٍ دُنيويٍّ مِن صحَّةٍ، أو قوَّة، أو مَركزٍ، أو ولَدٍ؛ فهي مُباحةٌ، وإنْ كانت في أمرٍ دِينيٍّ كالعِلمِ النَّافعِ، أو المالِ الصَّالحِ فهي مُستحبَّةٌ شَرعًا.

وهنا يُخبِرنا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الحسَدَ لا يكونُ مَحمودًا مُستحبًّا شَرعاً إلَّا في أمْرينِ؛ الأوَّلُ: أنْ يكونَ هناك رجُلٌ غَنيٌّ تَقيٌّ، أعطاهُ اللهُ مالًا حلالًا، فأنفَقَه فيما يَنفَعُه ويَنفَعُ غيرَه، ويُرضي ربَّه، مِن وُجوهِ الخيرِ، فيَتمَنَّى الإنسانُ أنْ يكونَ مِثلَه، ويَغبِطُه على هذه النِّعمةِ.

والأمرُ الثَّاني: أنْ يكونَ هناك رجُلٌ عالِمٌ حَكيمٌ، أعطاهُ اللهُ عِلْمًا نافعًا يَعمَلُ به، ويُعلِّمُه لغيرِه، وحِكمةً يَحكُمُ بعِلْمِه وحِكمتِه بيْنَ النَّاسِ، فيَتمَنَّى الإنسانُ أنْ يكونَ مِثلَه. وفي الحديثِ: أنَّ الغنيَّ إذا قام بشَرْطِ المالِ، وفعَلَ فيه ما يُرضي اللهَ، كان أفْضلَ مِن الفقيرِ.

وفيه: فضْلُ العِلمِ وفضْلُ تعلُّمِه. وفيه: المُنافسةُ في الخيرِ، والحضُّ عليه.[1615]

[1612] صحيح البخاري 1442

[1613] أخرجه البخاري 4684، 7411، ومسلم 993

[1614] صحيح البخاري 73، أخرجه مسلم 816

وَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُدَرِّبَ نَفْسَهُ عَلَى خُلُقِ الْكَرَمِ، وَيُعَوِّدَهَا عَلَيْهِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْمَالَ مَالُ اللَّهِ، وَأَنَّ نَفْسَهُ مِلْكٌ لِلَّهِ، وَأَنَّ ثَوَابَ اللَّهِ عَظِيمٌ، وَمِنْ ثَمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَثِقَ فِي اللَّهِ، وَلَا يَخْشَى الْفَقْرَ إِذَا أَنْفَقَ، وَأَنْ يَتَأَسَّى بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِصَحَابَتِهِ فِي إِنْفَاقِهِمْ، فَيُكْثِرَ مِنَ الإِنْفَاقِ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِ الْعَامِ، وَخَاصَّةً فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَفِي الْأَعْيَادِ وَالْمَنَاسِبَاتِ الَّتِي تَحْتَاجُ مِنَهُ إِلَى ذَلِكَ.

قَالَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ مَيْمُونَ بْنُ مَهْرَانَ الْجَزْرِيُّ لِصَاحِبِهِ: "إِنِّي أَتَصَدَّقُ عَلَى الْفُقَرَاءِ فَأَجِدُ مَالِي يَزْدَادُ، فَذَهَبَ صَاحِبُهُ وَتَصَدَّقَ عَلَى الْفُقَرَاءِ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ وَقَالَ: إِنِّي تَصَدَّقْتُ فَوَجَدْتُ أَنَّ مَالِي يَنْقُصُ! فَقَالَ مَيْمُونُ: أَنَا أُعَامِلُ رَبِّي بِيَقِينٍ وَأَنْتَ تُجَرِّبُهُ."

المطلب الخامس: الوَسائِلُ المُعِينةُ على اكتِسابِ صِفاتِ الكَرَمِ والجُودِ

1- العِلمُ بما يترتَّبُ على الكَرَمِ والجُودِ والسَّخاءِ من منافِعَ دُنيويَّةٍ وأُخرَويَّةٍ.
2- مُعالَجَةُ أدْواءِ النَّفسِ كالبُخلِ والحِرصِ والطَّمَعِ.
3- قِصَرُ الأمَلِ.
4- حُسنُ الظَّنِّ باللهِ. قال الحَسَنُ: مَن أيقَنَ بالخَلَفِ جادَ بالعَطِيَّةِ.
5- الاستعانةُ باللهِ والتَّوكُّلُ عليه، وكَثرةُ الدُّعاءِ.
6- النَّظَرُ في سيرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والصَّالحينَ.
7- التَّعبُّدُ للهِ بِمُقْتَضَى أسمائِه وصفاتِه: الجُودِ والكَرَمِ والعطاءِ.

المطلب السادس: فوائِدُ الكَرَمِ والجُودِ والسَّخاءِ والبَذْلِ وأثَرُهم

1- الكَرَمُ والجُودُ والعطاءُ من كمالِ الإيمانِ وحُسنِ الإسلامِ.
2- دليلُ حُسنِ الظَّنِّ باللهِ تعالى.
3- الكرامةُ في الدُّنيا، ورَفعُ الذِّكرِ في الآخِرةِ.
4- المتَّصِفُ بهذه الصِّفاتِ محبوبٌ مِنَ الخالِقِ الكَريمِ، وقَريبٌ مِنَ الخَلقِ أجْمَعين.
5- المتَّصِفُ بِهذهِ الصِّفاتِ قِليلُ الأعْداءِ والخُصومِ؛ لأنَّ خَيرَه مَنْشورٌ على العُمومِ.
6- المتَّصِفُ بهذه الصِّفاتِ نَفْعُهُ متعَدٍّ غيرُ مقصورٍ.
7- هذه الصِّفاتُ تُثمِرُ حُسنَ ثناءِ النَّاسِ عليه.
8- هذه الصِّفاتُ تبعَثُ على التَّكافُلِ الاجتماعيِّ والتَّوادِّ بَينَ النَّاسِ.
9- هذه الصِّفاتُ تُزيدُ البركةَ في الرِّزقِ والعُمُرِ.
10- هذه الصِّفاتُ تولِّدُ في الفردِ شُعورًا بأنَّه جُزْءٌ من الجماعةِ، وليس فردًا منعَزِلًا عنهم إلَّا في حدودِ مَصَالِحِه ومَسئولياتِه الشَّخصيَّةِ.
11- هذه الصِّفاتُ تُزَكِّي الأنفُسَ وتُطَهِّرُها من رذائِلِ الأنانيَّةِ المَقيتةِ، والشُّحِّ الذَّميمِ.
12- هذه الصِّفاتُ تُسهِمُ في حَلِّ مُشكلاتِ ذوي الحاجاتِ من أفرادِ المجتَمَعِ الواحِدِ.
13- هذه الصِّفاتُ تُساعِدُ في إقامةِ سَدٍّ واقٍ يمنَعُ الأنفُسَ من سيطرةِ حبِّ التَّمَلُّكِ والأثَرةِ.[1616]

[1615] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.
[1616] المصدر السابق.

المطلب السابع: موانِعُ اكتسابِ صِفاتِ الكَرَمِ والجُودِ

1- حُبُّ المالِ والتَّعلُّقُ به يمنَعُ الإنسانَ مِن بَذلِه بأيِّ صُوَرِه، وَيُورِثُه صفةَ البُخلِ.
2- ظَنُّ الإنسانِ أنَّ البُخلَ بالمالِ والامتناعَ عن البَذْلِ والسَّخاءِ نوعٌ من الذَّكاءِ والفِطنةِ والتَّدبيرِ لأمورِ الدُّنيا.
3- ضَعفُ حُسنِ ظَنِّه باللهِ مع الخَوفِ من المستقبَلِ، والهَلَعِ من الفَقرِ والحاجةِ التي يَعِدُ بها الشَّيطانُ، فيَستثقِلُ الإنسانُ الإنفاقَ والبَذْلَ.
4- خوفُ الإنسانِ على أبنائِه وحُبُّه لهم؛ فالأبناءُ مَبخَلةٌ مَجبَنةٌ.
5- النَّشأةُ والتَّربيةُ؛ فقد ينشأُ المرءُ مُعتادًا على الكَرَمِ يجِدُ القُدوةَ فيه من أهلِ بَيتِه.
6- الغَفلةُ عن الأجورِ المترتِّبةِ على الإنفاقِ وما يترتَّبُ على الكَرَمِ والسَّخاءِ من آثارٍ حَسَنةٍ.
7- طولُ الأمَلِ، والتَّشبُّثُ بالحياةِ.[1617]
8- تَظُنُّ بَعْضُ النِّساءِ أنَّ الإنفاقَ مُقْتَصرٌ عَلَى الرِّجال، فَتَجِدَهُنَّ حَرِيصَاتٍ عَلَى اكْتِنَازِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ دون الاكْتِرَاثِ بِالإِحْسَانِ إِلَى أَنْفُسِهِنَّ بِالبَذْلِ والعَطَاءِ والجُودِ.

المطلب الثامن: نَصَائِحُ تُؤخَذُ في الاعتبار

1- إِخْلاَصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى عِنْدَ تَقْدِيمِ الْهَدِيَّةِ، بِحَيْثُ يُرَادُ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.
2- الدُّعَاءُ لِلْمَهْدِيِّ إِلَيْهِ بِأَنْ يُبَارِكَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَدِيَّتِهِ.
3- يُحْسُنُ أَنْ تَتَنَاسَبَ الْهَدِيَّةُ مَعَ الْمَهْدِيِّ إِلَيْهِ، فَهَدِيَّةُ الْمَرْأَةِ تَخْتَلِفُ عَنْ هَدِيَّةِ الرَّجُلِ، وَهَدِيَّةُ الصَّغِيْرِة تَخْتَلِفُ عَنْ هَدِيَّةِ الْكَبِيْرة، وَهَدِيَّةُ الْعَالِمِ تَخْتَلِفُ عَنْ هَدِيَّةِ الشَّخْصِ الْعَادِي، وَهَكَذَا.
4- يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَظْهَرُ الْخَارِجِيُّ لِلْهَدِيَّةِ مُنَاسِبًا وَمَقْبُوْلًا، كَأَنْ تُغَلَّفَ بِغِلَافٍ جَمِيْلٍ مَعَ عِبَارَاتِ تَهْنِئَةٍ وَدُعَاءٍ.
5- اخْتِيَارُ الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ، وَلَا سِيْمَا الْمُنَاسَباتِ الْجَمِيْلَةِ، كَالزَّوَاجِ، والْوِلَادَةِ، وَالْحُصُوْلِ عَلَى شَهَادَاتٍ، أَوْ التَرْقِيَاتٍ، أَوْ عِنْدَ الانْتِقَالِ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيدٍ.
6- تَقْدِيْمُ الْهَدِيَّةِ بِنَفْسٍ طَيِّبَةٍ وَرَاضِيَةٍ وَبِوَجْهٍ بَاسِمٍ، وَكَلَامٍ جَمِيْلٍ، بَعِيْدًا عَنْ الْمَنْ وَالْأَذَى.
7- مِنْ الجَمِيلِ لَوْ قُدِّمَتِ الْهَدِيَّةُ فِي جَوٍّ عَائِلِيٍّ تَمْلَؤُهُ الْبَهْجَةُ وَالسُّرُوْرُ، أَوْ فِي مَلَأٍ؛ لِيَشْعُرَ الْمَهْدِيُّ إِلَيْهِ بِقِيمَتِهِ وَقِيمَةِ الْهَدِيَّةِ، وَلِكَيْ تُصْبِحَ الْمُنَاسَبَةُ مِنَ الذِّكْرَيَاتِ الْجَمِيْلَةِ الَّتِي لَا تُنْسَى.

[1617] المصدر السابق.

المبحث الثامن: الإيثار

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: 9].

المطلب الأول: معنى الإيثار

- **الإيثارُ لُغةً:**

الإيثارُ مَصدَرُ آثَرَ يُؤثِرُ إيثارًا، بمعنى التَّقديمِ والاختيارِ والاختِصاصِ؛ فآثَرَه إيثارًا: اختاره وفَضَّله، ويقالُ: آثَرَه على نَفْسِه، والشَّيءَ بالشَّيءِ: خَصَّه به.[1618]

- **الإيثارُ اصطِلاحًا:**

قال ابنُ العَرَبيِّ: الإيثارُ هو تقديمُ الغيرِ على النَّفسِ في حُظوظِها الدُّنيويَّةِ؛ رَغبةً في الحُظوظِ الدِّينيَّةِ.[1619]

وقال الجُرْجانيُّ: الإيثارُ أن يُقَدِّمَ غَيرَه على نفسِه في النَّفعِ له، والدَّفعِ عنه".[1620]

وقال ابنُ مِسْكَوَيهِ: الإيثارُ: هو فضيلةٌ للنَّفسِ بها يَكُفُّ الإنسانُ عن بعضِ حاجاتِه التي تخصُّه؛ حتَّى يبذُلَه لِمن يستَحِقُّه.[1621]

إذاً الإيثارُ هو أن يُقَدِّمَ الإنسانُ حاجَةَ غَيْرِهِ من النّاس على حاجَتِهِ، بِرَغم احتياجه لما يَبْذُلُهُ، فقد يجوع لِيَشْبَعَ غيره، ويَعْطَشَ لِيَرْوِي سِواه، وَأَقَلُّ مِن ذلكَ أن يُحِبَّ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، قَالَ النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: „لا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحبُّ لِنَفْسِهِ." „[1622]

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، وقالَ ابنُ عَبَّادٍ: وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بيَدِهِ، ما أَشْبَعَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ أَهْلَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تِبَاعًا، مِن خُبْزِ حِنْطَةٍ حتَّى فَارَقَ الدُّنْيا." [1623]

المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ الإيثارِ والسَّخاءِ والجُودِ

ذكَرَ ابنُ قَيِّمِ الجوزيَّةِ فُروقًا بَينَ كُلٍّ من الإيثارِ والسَّخاءِ والجُودِ، مع أنَّها كُلَّها أفعالُ بَذلٍ وعَطاءٍ، فقال: „وهذا المَنزِلُ -أي الإيثارُ-: هو مَنزِلُ الجُودِ والسَّخاءِ والإحسانِ، وسُمِّي بمَنزِلِ الإيثارِ؛ لأنَّه أعلى مراتِبه؛ فإنَّ المراتِبَ ثلاثةٌ:

- إحداها: ألَّا يَنقُصَه البَذْلُ ولا يَصعُبَ عليه، فهو مَنزِلةُ السَّخاءِ.
- الثَّانيةُ: أن يُعطِيَ الأكثَرَ ويُبقِيَ له شيئًا، أو يُبقِيَ مِثلَ ما أعطى، فهو الجُودُ.
- الثَّالِثةُ: أن يُؤثِرَ غَيرَه بالشَّيءِ مع حاجتِه إليه، وهي مرتبةُ الإيثارِ.[1624]

المطلب الثالث: الترغيب في الإيثار والحث عليه

أ. <u>الإيثار في القُرآنِ الكريمِ:</u>

[1618] يُنظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي 1/38، المعجم الوسيط لمجموعة من المؤلفين 1/5

[1619] أحكام القرآن 220 /4

[1620] التعريفات 1/59

[1621] تهذيب الأخلاق ص: 19

[1622] قال المصنف في شرح صحيح مسلم 1/230 45: معناه لا يؤمن الإيمان التام.

[1623] صحيح مسلم 2976

[1624] مدارج السالكين 2/292

يُعَدُّ الإيثارُ من محاسِنِ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ؛ فهو مرتبةٌ عاليةٌ من مراتِبِ البَذلِ، ومنزلةٌ عظيمةٌ من منازِلِ العطاءِ؛ لذا أثنى اللهُ على أصحابِه، ومدَح المتحلِّين به، وبيَّن أنَّهم المُفلِحون في الدُّنيا والآخرةِ.

1- قال اللهُ تبارك وتعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

قال الطَّبَريُّ: „يقولُ تعالى ذِكْرُه وهو يَصِفُ الأنصارَ: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} من قَبْلِ المُهاجِرين... {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ}، يقولُ: ويُعطون المهاجِرين أموالَهم إيثارًا لهم بها على أنفُسِهم، {وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}، يقولُ: ولو كان بهم حاجةٌ وفاقةٌ إلى ما آثَرُوا بِهِ من أموالِهم على أنفُسِهم".[1625]

وقال ابنُ كثيرٍ: "أي: يُقَدِّمون المحاويجَ على حاجةِ أنفُسِهم، ويَبدَؤون بالنَّاسِ قَبْلَهم في حالِ احتياجِهم إلى ذلك".[1626]

ويقولُ ابنُ تيميَّةَ: „وأمَّا الإيثارُ مع الخصاصةِ فهو أكمَلُ من مجرَّدِ التَّصَدُّقِ مع المحبَّةِ؛ فإنَّه ليس كُلُّ متصَدِّقٍ محبًّا مُؤثِرًا، ولا كُلُّ مُتصَدِّقٍ يكونُ به خصاصةٌ، بل قد يتصَدَّقُ بما يحِبُّ مع اكتفائِه ببعضِه مع محبَّةٍ لا تبلُغُ به الخصاصةَ".[1627]

2- وقال اللهُ تعالى: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ [آل عمران: 92].

„يعني: لن تنالوا وتُدرِكوا البِرَّ -الذي هو اسمٌ جامِعٌ للخيراتِ، وهو الطَّريقُ الموصِلُ إلى الجنَّةِ- حتَّى تُنفِقوا ممَّا تحبُّون من أطيَبِ أموالِكم وأزكاها؛ فإنَّ النَّفَقةَ من الطَّيِّبِ المحبوبِ للنُّفوسِ من أكبَرِ الأدِلَّةِ على سماحةِ النَّفسِ، واتِّصافِها بمكارمِ الأخلاقِ، ورَحمتِها ورِقَّتِها، ومن أدَلِّ الدَّلائِلِ على محبَّةِ اللهِ، وتقديمِ محبَّتِه على محبَّةِ الأموالِ التي جُبِلت النُّفوسُ على قُوَّةِ التَّعَلُّقِ بها؛ فمَن آثَرَ محبَّةَ اللهِ على محبَّةِ نَفسِه فقد بلغ الذِّروةَ العُليا من الكَمالِ، وكذلك مَن أنفَقَ الطَّيِّباتِ، وأحسنَ إلى عبادِ اللهِ، أحسَنَ اللهُ إليه ووفَّقه أعمالًا وأخلاقًا لا تحصُلُ بدونِ هذه الحالةِ".[1628]

3- وقال تبارك وتعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: 177].

قال أبو حيَّانَ: „والمعنى: أنَّه يُعطي المالَ مُحِبًّا له، أي: في حالِ محبَّتِه للمالِ واختيارِه وإيثارِه، وهذا وَصفٌ عظيمٌ أن تكونَ نَفسُ الإنسانِ متعلِّقةً بشَيءٍ تعَلُّقَ المحِبِّ بمحبوبِه، ثمَّ يُؤثِرَ به غيرَه ابتغاءَ وَجهِ اللهِ".[1629]

4- وقال تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [الإنسان: 6 - 9].

قَولُه: {عَلَى حُبِّهِ}، قال ابنُ عَبَّاسٍ وجمهورُ المُفَسِّرين: الضَّميرُ للطَّعامِ، أي: على حُبِّ الطَّعامِ، وشَهْوَتِهم إيَّاه، وحاجتِهم إليه، كما قال: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: 92].[1630]

وممَّا يدُلُّ على هذا المعنى أيضًا قولُه تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: 9]".[1631]

قال الزَّجَّاجُ: „المعنى: يُطعِمون الطَّعامَ أشَدَّ ما تكونُ حاجتُهم إليه للمِسكينِ، ووَصَفَهم اللهُ بالأثَرةِ على أنفُسِهم".[1632]

[1625] جامع البيان 22/524، 527

[1626] تفسير القرآن العظيم 8/70

[1627] منهاج السنة النبوية 7/129

[1628] تيسير الكريم الرحمن 1/970

[1629] البحر المحيط في التفسير 135 /2

[1630] رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز للرسعني 407 /8

[1631] يُنظر: أضواء البيان للشنقيطي 8/394

ثمَّ قال اللهُ تبارك وتعالى: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا} [الإنسان: 12-13].

(والمعنى: وجزاهم بصَبْرِهم على الإيثارِ، وما يؤدِّي إليه من الجُوعِ والعُرْيِ بُستانًا فيه مأكَلٌ هَنيءٌ، وحريرًا فيه مَلبَسٌ بَهِيٌّ).[1633]

ب. الإيثَارُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ:

لَمَّا كان الإيثارُ من الأخلاقِ النَّبيلةِ، والصِّفاتِ الحميدةِ؛ رَغَّبَتْ السُّنَّةُ النَّبَويَّةُ فيه، وأثنَت على أصحابِه، وممَّا ورد في ذلك:

1- عن أبي موسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ الأشعَرِيِّين[1634] إذا أرمَلوا[1635] في الغَزْوِ، أو قَلَّ طَعامُ عيالِهم بالمدينةِ، جَمَعوا ما كان عندَهم في ثوبٍ واحدٍ، ثمَّ اقتَسَموه بَيْنَهم في إناءٍ واحِدٍ بالسَّوِيَّةِ؛ فهم مِنِّي، وأنا منهم".[1636]

يقولُ العينيُّ: "فيه مَنقَبةٌ عظيمةٌ للأشعَرِيِّين من إيثارِهم ومواساتِهم بشَهادةِ سَيِّدنا رسولِ اللهِ، وأعظَمُ ما شُرِّفوا به كونُه أضافهم إليه... وفيه فضيلةُ الإيثارِ والمواساةِ".[1637]

وقال أبو العبَّاسِ القُرطبيُّ: „هذا الحديثُ يدُلُّ على أنَّ الغالِبَ على الأشعَرِيِّين الإيثارُ والمواساةُ عِندَ الحاجةِ، فَثَبَتَ لهم بشهادةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّهم كُرماءُ مُؤثِرون".[1638]

2- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "طعامُ الاثنَينِ كافي الثَّلاثةِ، وطعامُ الثَّلاثةِ كافي الأربعةِ" [1639]، وفي لفظٍ: "طعامُ الواحِدِ يكفي الاثنَينِ، وطعامُ الاثنَينِ يكفي الأربعةَ، وطعامُ الأربعةِ يكفي الثَّمانيةَ".[1640]

قال المُهَلَّبُ: „والمرادُ بهذه الأحاديثِ، الحَضُّ على المُكارَمةِ في الأكلِ والمواساةِ والإيثارِ على النَّفسِ، الذي مدَح اللهُ به أصحابَ نَبيِّه، فقال: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: 9].

ولا يرادُ بها معنى التَّساوي في الأكلِ والتَّشاحِّ؛ لأنَّ قولَه عليه السَّلامُ: "كافي الثَّلاثةِ" دليلٌ على الأثَرةِ التي كانوا يُمْتَدَحُونَ بها والتَّقنُّعِ بالكفايةِ، وقد هَمَّ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ في سَنَةِ مجاعةٍ أن يجعَلَ مع كُلِّ أهلِ بَيتٍ مِثْلَهم، وقال: لن يَهلِكَ أحَدٌ عن نِصْفِ قُوتِه".[1641]

3- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الصَّدَقةِ أعظَمُ أجرًا؟ قال: أن تَصَدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ، تخشى الفَقرَ وتأمُلُ الغِنى، ولا تمهِلْ حتَّى إذا بلَغَتِ الحُلقومَ [1642] قُلتَ: لفُلانٍ كذا، ولفُلانٍ كذا، وقد كان لفُلانٍ! ".[1643]

[1632] معاني القرآن وإعرابه 259 /5

[1633] مفاتيح الغيب للفخر الرازي 30/218

[1634] هُمْ قَبيلَةٌ مِن أَهلِ اليَمَنِ، ومنها الصَّحابيُّ أبو مُوسى الأشْعريُّ

[1635] أرمَلَ القَومُ: نَفِد زادُهم. يُنظر: لسان العرب لابن منظور

[1636] أخرجه البخاري 2486، ومسلم 2500

[1637] عمدة القاري للعيني13/44

[1638] المفهم للقرطبي 6/452

[1639] أخرجه البخاري 5392، ومسلم 2058

[1640] أخرجه مسلم 2059 من حديثِ جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[1641] شرح صحيح البخاري لابن بطال 9/471

[1642] إذا بلَغَت نفسُ أحَدِكم الحُلقومَ عِندَ النَّزعِ، والحُلقومُ: مَجرى النَّفَسِ والسُّعالِ من الجَوفِ. يُنظر: لسان العرب لابن منظور.

[1643] أخرجه البخاري 1419 واللفظ له، ومسلم 1032

قال ابنُ بَطَّالٍ: „فيه أنَّ أعمالَ البِرِّ كُلَّما صَعُبت كان أجرُها أعظَمَ؛ لأنَّ الصَّحيحَ الشَّحيحَ إذا خَشِيَ الفَقرَ وأمَلَ الغِنى، صَعُبَت عليه النَّفَقةُ، وسوَّل له الشَّيطانُ طُولَ العُمُرِ، وحُلولَ الفَقرِ به، فمَن تصَدَّقَ في هذه الحالِ فهو مُؤثِرٌ لثوابِ اللهِ على هوى نَفسِه، وأمَّا إذا تصَدَّق عندَ خُروجِ نَفْسِه، فيُخشى عليه الضِّرارُ بميراثِه، والجَورُ في فِعْلِه".[1644]

4- وعن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ حَدَّث عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه أراد أن يغزوَ فقال: "يا مَعشَرَ المهاجِرين والأنصارِ إنَّ من إخوانِكم قومًا ليس لهم مالٌ ولا عشيرةٌ، فليَضُمَّ أحَدُكم إليه الرَّجُلَينِ أو الثَّلاثةَ، فما لِأحَدِنا من ظَهرٍ يحمِلُه إلَّا عُقْبةٌ [1645] كعُقْبةِ -يعني- أحَدِهم، فضَمَمْتُ إليَّ اثنينِ أو ثلاثةً، قال: ما لي إلَّا عُقْبةٌ كعُقْبةِ أحَدِهم من جَمَلي".[1646]

قال الرَّمليُّ: „هذا من بابِ المواساةِ والرِّفقِ بالمُشاةِ؛ فإذا كان مع الغُزاةِ أو المُسافرين في غيرِ الغَزْوِ مُشاةٌ كثيرون، فينبغي للجماعةِ أن يتوَزَّعوهم، ويأخُذَ كُلُّ واحدٍ منهم رَجُلين أو ثلاثةً يَضُمُّهم إليه، يتعاقَبون في الرُّكوبِ على الدَّابَّةِ، يركَبُ كُلُّ واحدٍ منهم مرَّةً؛ ليرتَفِقَ بعضُهم ببعضٍ على حَسَبِ ما يحتَمِلُ الحالُ".[1647]

5- وعن عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ أصحابَ الصُّفَّةِ كانوا أناسًا فُقَراءَ، وأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "مَنْ كان عندَه طعامُ اثنين فليذهَبْ بثالِثٍ، وإنْ أربَعٌ فخامِسٌ أو سادِسٌ".[1648]

قال ابنُ المُلَقِّنِ: „فيه فضيلةُ الإيثارِ والمواساةِ، وأنَّه عِندَ كَثْرةِ الأضْيافِ يُوَزِّعُهم الإمامُ على أهلِ المحلَّةِ، ويُعْطِي لكُلِّ منهم ما يَعلَمُ أنَّه يحتَمِلُه، ويأخُذُ هو ما يُمكِنُه".[1649]

6- عن أبي قتادةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ ساقِيَ القومِ آخرُهم شُربًا".[1650]

قال ابنُ العربي: "هذا أمرٌ ثابتٌ عادةً وشرعًا، والحكمةُ فيه استحبابُ الإيثارِ".[1651]

وقال ابنُ الجوزي: „إنَّما كان ذلك لمعنيينِ: أحدهما: أنَّه قد تَفَضَّل بإيثارِهم على نفسِه، فينبغي أنْ يُتِمَّمَ. والثاني: أنَّه إذا شَرِبَ وقد بَقِي أحدٌ اتُّهِمَ بتناولِ الصَّافي، وتَرْكِ الكَدَرِ".[1652]

المطلب الرابع: نماذِجٌ من الإيثار

أولا: إيثارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

أخَذَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من جَمِيعِ الأخْلاقِ أوْفَرَ الحَظِّ والنَّصيبِ، فما مِن خُلُقٍ إلَّا وَقَد تَرَبَّع المُصْطفى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على عَرشِه، وعَلا ذِرْوةَ سَنامِه، ففي خُلُقِ الإيثارِ كان هو سَيِّدَ المُؤثِرين وقائِدَهم، بل وصَل الحالُ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه لم يكُنْ يَشبَعُ لا هو ولا أهلُ بيتِه؛ بسَبَبِ إيثارِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال ابنُ حَجَرٍ: „والذي يَظهَرُ أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يُؤثِرُ بما عِندَه، فقد ثَبَتَ في الصَّحيحينِ أنَّه كان إذا جاءه ما فَتَح اللهُ عليه من خَيبَرَ وغَيرِها من تمرٍ وغَيرِه يدَّخِرُ قُوتَ أهلِه سَنةً، ثمَّ يجعَلُ ما بَقِيَ عِندَه عُدَّةً في سبيلِ اللهِ تعالى، ثمَّ كان مع ذلك إذا طرأَ عليه طارئٌ أو نَزَل به ضيفٌ يُشيرُ على أهلِه بإيثارِهم؛ فرُبَّما أدَّى ذلك إلى نفادِ ما عِندَهم أو مُعظَمِه".[1653]

[1644] شرح صحيح البخاري 3/417

[1645] العقبة: النوبة. يُنظر: لسان العرب لابن منظور.

[1646] رواه أبو داود 2534، وأحمد 14863. صحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود 2534، والوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين 230، وصحَّح إسنادَه الحاكم 2451، وشعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود 2534

[1647] شرح سنن أبي داود 168 /11

[1648] أخرجه البخاري 602 واللَّفظُ له، ومسلم 2057

[1649] التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن 6/297

[1650] أخرجه مسلم 681

[1651] عارضة الأحوذي8/79

[1652] كشف المشكل من حديث الصحيحين 155 /2

[1653] فتح الباري 11/280

وَإِلَيْكُمْ بعضَ الصُّوَرِ من إيثارِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

1- عن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: „جاءت امرأةٌ ببُردةٍ، قال: أتدرون ما البُردةُ؟ فقيل له: نعَمْ، هي الشَّملةُ منسوجٌ في حاشِيَتِها. قالت: يا رسولَ اللَّهِ إنِّي نسَجْتُ هذه بيَدي أكسوكَها، فأخذَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنَّها إزارُه، فقال رجُلٌ من القومِ: يا رسولَ اللَّهِ اكسُنِيها. فقال: نَعَمْ. فجلس النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في المجلِسِ، ثمَّ رجع فطواها، ثمَّ أرسَلَ بها إليه، فقال له القومُ: ما أحسَنْتَ، سألتَها إيَّاه، لقد عَلِمْتَ أنَّه لا يَرُدُّ سائلًا! فقال الرَّجُلُ: واللهِ ما سألْتُه إلَّا لتكونَ كَفَني يومَ أموتُ. قال سهلٌ: فكانت كَفَنَه".[1654]

والحديثُ فيه: الأثَرةُ على نفسِه وإن كانت به حاجةٌ إلى ذلك الشَّيءِ.[1655]

2- وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: „إنَّا يومَ الخَندَقِ نحفِرُ فعَرَضَت كُديةٌ [1656] شديدةٌ، فجاؤوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالوا: هذه كُدْيةٌ عَرَضَت في الخندَقِ. فقال: أنا نازِلٌ، ثمَّ قام -وبطنُه معصوبٌ بحَجَرٍ، ولَبِثْنا ثلاثةَ أيَّامٍ لا نذوقُ ذَواقًا [1657] - فأخَذ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المِعْوَلَ [1658] فضَرَب في الكُدْيةِ فعاد كثيبًا أَهْيَلَ أو أَهْيَمَ [1659]، فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، ائذَنْ لي إلى البيتِ، فقُلتُ لامرأتي: رأيتُ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شيئًا [1660] ما كان في ذلك صَبرٌ، فعِندَكِ شيءٌ؟! فقالت: عِندِي شَعيرٌ وعَناقٌ [1661]. فذَبَحْتُ العَناقَ، وَطَحَنَتْ الشَّعيرَ حتَّى جعَلْنا اللَّحمَ بالبُرمةِ. ثمَّ جِئتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والعَجينُ قد انكَسَر، والبُرمةُ[1662] بَينَ الأثافيِّ[1663] قد كادت أن تَنضَجَ. فقُلتُ: طُعَيِّمٌ لي[1664]، فقُمْ أنت -يا رسولَ اللَّهِ- ورجُلٌ أو رجلانِ. قال: كم هو؟ فذكَرْتُ له، فقال: كثيرٌ طَيِّبٌ. قال: قُلْ لها: لا تَنْزِعِ البُرمةَ ولا الخُبزَ مِن التَّنُّورِ حتَّى آتيَ. فقال: قوموا. فقام المهاجِرون والأنصارُ، فَلمَّا دَخَل على امْرَأَتِه قال: وَيحَكِ! جاء النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمهاجرين والأنصارِ ومن معهم! قالت: هل سألَكَ؟ قلتُ: نعَمْ. فقال: ادخُلوا ولا تَضاغَطوا [1665]. فجعَلَ يَكسِرُ الخُبزَ ويجعَلُ عليه اللَّحْمَ ويُخَمِّرُ البُرمةَ والتَّنُّورَ إذا أخَذ منه، ويُقَرِّبُ إلى أصحابِه، ثمَّ يَنزِعُ، فلم يَزَلْ يَكسِرُ الخُبزَ ويَغرِفُ حتَّى شَبِعوا وبَقِيَ بَقيَّةٌ. قال: كُلي هذا وأهدِي؛ فإنَّ النَّاسَ أصابَتْهم مجاعةٌ".[1666]

3- وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: „قال أبو طَلحةَ لأمِّ سُلَيمٍ: لقد سمعتُ صَوتَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ضعيفًا أعرِفُ فيه الجوعَ، فهل عندكِ مِن شيءٍ؟ قالت: نعم، فأخرَجَتْ أقراصًا من شعيرٍ، ثُمَّ أخرَجَتْ خِمارًا لها، فلفَّت الخُبزَ بَبَعْضِه، ثُمَّ دسَّته تحت يَدي ولاثَتْني ببَعْضِه[1667]، ثُمَّ أرسلَتْني إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: فذهبتُ به فوجدتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في المسجِدِ ومعه النَّاسُ، فقمتُ عليهم، فقال لي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أَرْسَلَكَ أبو طلحةَ؟ فقلتُ: نعم. قال: بطعامٍ؟ قلتُ: نعم. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لمن معه: قوموا، فانطلَقَ

[1654] أخرجه البخاري 2093

[1655] شرح صحيح البخارى لابن بطال 6/ 225، التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن 14/ 200

[1656] الكُدْيةُ: هي القِطعةُ الصُّلبةُ الصَّمَّاءُ. يُنظر: فتح الباري لابن حجر 396 /7

[1657] أي: مأكولًا ومشروبًا. يُنظر: مرقاة المفاتيح للقاري 3783 /9

[1658] أي: المِسْحاةَ. يُنظر: فتح الباري لابن حجر 396 /7

[1659] هو الرَّمْلُ اليابِسُ الذي لم يمُرَّ به المطَرُ، فهو إلى السَّيَلانِ أسرَعُ. والأهيَلُ: المُنهارُ الذي لا يتماسَكُ. يُنظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي 45 /3

[1660] يعني: من الجُوعِ. يُنظر: عمدة القاري للعيني 180 /17

[1661] العَناقُ: الأُنثى من المَعْزِ. يُنظر: لسان العرب لابن منظور 10/374، فتح الباري لابن حجر397 /7

[1662] البُرمةُ: قيل: هي القِدْرُ مُطلَقًا، وقيل: قِدرٌ من حِجارةٍ. يُنظر: لسان العرب لابن منظور 12/45، الكاشف عن حقائق السنن للطيبي 1503 /5

[1663] الأثافيُّ مُفرَدُها: الأُثْفِيَّةُ والإثْفِيَّةُ: وهي حِجارةٌ يُوضَعُ عليها القِدْرُ. يُنظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين 3/ 45، لسان العرب لابن منظور 9/3

[1664] طُعَيِّمٌ: مُصَغَّرُ طَعامٍ. يُنظر: عمدة القاري لبدر الدين العيني 17/180

[1665] ولا تَضاغَطوا: أي: لا تزدَحِموا، والتَّضاغُطُ: التَّزاحُمُ. يُنظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي 3/ 46، لسان العرب لابن منظور 7/342

[1666] أخرجه البخاري 4101 واللَّفظُ له، ومسلم 2039 بنحوِه.

[1667] لاثَتْني، أي: لَفَّت عليَّ بَعضَه وأدارَته عليه، يعني خِمارَها، واللَّوثُ: الطَّيُّ واللَّيُّ. يُنظر: لسان العرب لابن منظور 2/185، فتح الباري لابن حجر 184 /1

وانطلقتُ بَينَ أيديهم حتى جئتُ أبا طلحةَ فأخبَرْتُه. فقال أبو طلحة: يا أُمَّ سُليمٍ، قد جاء رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنَّاسِ وليس عندنا ما نُطعِمُهم! فقالت: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، فانطَلَق أبو طلحةَ حتى لَقِيَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأقبل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو طلحةَ معه، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هلمَّ يا أُمَّ سُلَيمٍ ما عندكِ، فأتت بذلك الخُبزِ، فأمَر به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ففُتَّ وعَصَرَت أمُّ سُلَيمٍ عُكَّةً فأدَمَتْه [1668]، ثُمَّ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيه ما شاءَ اللهُ أَنْ يقولَ، ثُمَّ قال: ائذَنْ لعَشَرةٍ، فأَذِنَ لهم فأكلوا حتى شَبِعوا، ثُمَّ خرجوا ثُمَّ قال: ائذَنْ لعَشَرةٍ، فأَكل القَومُ كُلُّهم حتى شَبِعوا، والقومُ سبعون أو ثمانون رَجُلًا!". [1669]

وفي هذا الحديثِ والذي قبله تقديمُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأصحابِه على نَفْسِه مع جوعِه وحاجتِه إلى الطَّعامِ!

4- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه كان يقولُ: „واللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هو إنْ كُنْتُ لأعتَمِدُ بكَبِدي على الأرضِ مِنَ الجُوعِ، وإنْ كنتُ لأَشُدُّ الحَجَرَ على بطني من الجُوعِ، ولقد قعَدْتُ يومًا على طريقِهم الذي يخرُجون منه فمرَّ أبو بكرٍ فسألتُه عن آيةٍ مِنْ كِتابِ اللهِ ما سألتُه إلَّا ليُشبِعَني، فمرَّ ولم يفعَلْ، ثُمَّ مرَّ بي عُمَرُ فسألتُه عن آيةٍ مِن كِتابِ اللهِ ما سألتُه إلَّا ليُشبِعَني فمرَّ ولم يفعَلْ، ثُمَّ مرَّ أبو القاسمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فتبسَّم حين رآني وعرَف ما في نَفسي وما في وَجْهي، ثُمَّ قال: أبا هِرٍّ، قلتُ: لبَّيك يا رسولَ اللهِ. قال: الحَقْ، ومضى فتبِعْتُه، فدخل فاستأذن فأَذِنَ لي فدخل فوجد لبنًا في قَدَحٍ، فقال: مِنْ أين هذا اللَّبنُ؟ قالوا: أهداه لك فلانٌ أو فلانةٌ، قال: أبا هِرٍّ، قُلتُ: لبَّيك يا رسولَ اللهِ، قال: الحَقْ إلى أهلِ الصُّفَّةِ فادْعُهم لي، قال: وأَهلُ الصُّفَّةِ أضيافُ الإسلامِ لا يأوُون إلى أهلٍ ولا مالٍ ولا على أحدٍ، إذا أتته صَدَقةٌ بعث بها إليهم ولم يتناوَلْ منها شيئًا، وإذا أتته هَدِيَّةٌ أرسَلَ إليهم وأصاب منها وأَشركَهم فيها، فساءني ذلك، فقلتُ: وما هذا اللَّبَنُ في أهلِ الصُّفَّةِ؟! كُنتُ أَحقَّ أَنْ أُصيبَ من هذا اللَّبَنِ شَربةً أتقوَّى بها! فإذا جاء أمرني فكنتُ أَنا أعطيهم، وما عسى أَنْ يبلُغَني من هذا اللَّبَنِ؟! ولم يَكُنْ من طاعةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه بُدٌّ، فأتيتُهم فدعوتُهم، فأَقبلوا فاستأذنوا فأذِنَ لهم وأخذوا مجالِسَهم من البيتِ. قال: أبا هِرٍّ، قلتُ: لبَّيك يا رسولَ اللهِ، قال: خُذْ فأَعْطِهم، قال: فأخذتُ القَدَحَ فجَعَلْتُ أُعطيه الرَّجُلَ فيَشرَبُ حتى يَرْوَى، ثُمَّ يرُدُّ عَلَيَّ القَدَحَ، فأُعطي الرَّجُلَ فيَشرَبُ حتى يروى، ثُمَّ يرُدُّ عليَّ القَدَحَ، حتى انتهيتُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقد رَوِيَ القومُ كُلُّهم، فأخذ القَدَحَ فوضعه على يَدِه، فنظر إليَّ فتبسَّم، فقال: يا أبا هِرٍّ! قُلتُ: لبَّيك يا رسولَ اللهِ، قال: بَقِيتُ أَنا وأَنت، قلتُ: صَدَقْتَ يا رسولَ اللهِ، قال: اقعُدْ فاشرَبْ، فقعدتُ فشَرِبْتُ، فما زال يقولُ: اشرَبْ، حتى قُلتُ: لا والذي بعثك بالحقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسلَكًا! قال: فأَرِني، فأعطيتُه القَدَحَ، فحَمِد اللهَ وسَمَّى وشَرِبَ الفَضْلةَ". [1670]

فيه „قَبولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الهَدِيَّةَ، وتناوُلُه منها، وإيثارُه ببعضِها الفُقَراءَ". [1671]

ثانيا: نماذِجُ من إيثارِ الصَّحابةِ رِضوانُ اللهِ عليهم:

ضَرَب الصَّحابةُ أروَعَ أمثلةِ الإيثارِ وأجمَلَها، ومن يتأمَّلْ في قِصَصِ إيثارِهم يحسَبْ ذلك ضَربًا من خيالٍ، لولا أنَّه منقولٌ لنا عن طريقِ الأثباتِ، وبالأسانيدِ الصَّحيحةِ الصَّريحةِ.

وإليكم بعضًا من النَّماذِجِ التي تَروي لنا صُوَرًا رائعةً من الإيثارِ:

1/ ضَيفُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

[1668] فأَدَمَتْه، أي: صَيَّرت ما خرَج من العُكَّةِ له إدامًا، والعُكَّةُ -بضَمِّ المُهمَلةِ وتشديدِ الكافِ-: إناءٌ من جِلدٍ مُستديرٍ يُجعَلُ فيه السَّمنُ غالِبًا والعَسَلُ. يُنظر: فتح الباري لابن حجر 6/590

[1669] أخرجه البخاري 3578 واللَّفظُ له، ومسلم 2040

[1670] أخرجه البخاري 6452

[1671] فتح الباري لابن حجر 11/ 289

- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: "أنَّ رَجُلًا أتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فبَعَث إلى نسائِه، فقلْنَ: ما معنا إلَّا الماءُ! فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: من يَضُمُّ أو يُضِيفُ هذا؟ فقال رجلٌ من الأنصارِ: أنا. فانطَلَق به إلى امرأتِه، فقال: أكرمي ضيفَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقالت: ما عِندَنا إلَّا قوتُ صبياني. فقال: هَيِّئي طعامَكِ، وأصْبِحي سِراجَكِ،[1672] ونَوِّمي صِبيانَكِ إذا أرادوا عَشاءً! فهيَّأَت طعامَها، وأصبَحَت سِراجَها، ونوَّمَت صِبيانَها، ثُمَّ قامت كأنَّها تُصلِحُ سِراجَها فأطفَأَتْه، فجَعَلَا يُرِيانِه أنَّهما يأكُلانِ فباتا طاوِيَينِ![1673] فلمَّا أصبح غَدا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ضَحِكَ اللهُ اللَّيلةَ أو عَجِبَ مِن فِعالِكما! فأنزل اللهُ: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9]".[1674]

2/ الأنصارُ إيثارٌ مُنقَطِعُ النَّظيرِ:

أقبَل المُهاجِرون إلى المدينةِ لا يَملِكون من أمرِ الدُّنيا شيئًا، قد تركوا أموالَهم وما يَملِكون خَلْفَ ظُهورِهم، وأقبَلوا على ما عِندَ اللهِ عزَّ وجَلَّ يَرجُون رحمتَه ويخافون عذابَه، فاستقبَلَهم الأنصارُ الذين تبَوَّؤوا الدَّارَ، وأكرموهم أيَّا إكرامٍ، ولم يبخَلوا عليهم بِشَيءٍ من حُطامِ الدُّنيا، في صُورةٍ يَعجِزُ عن وَصفِها اللِّسانُ، ويَضعُفُ عن تعبيرِها البيانُ!

- عن أنَسِ بنِ مالك رَضِيَ اللهُ عنه قال: "لمَّا قدِم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينةَ أتاه المُهاجِرونَ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، ما رأينا قومًا أبذَلَ مِن كثيرٍ ولا أحسَنَ مُواساةً مِن قليلٍ مِن قومٍ نزَلْنا بَينَ أظهُرِهم! لقد كفَوْنا المُؤنةَ، وأشرَكونا في المَهنَأِ[1675] حتَّى خِفْنا أن يذهَبوا بالأجرِ كلِّه! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا، ما دعَوتُم اللهَ لهم، وأثنَيتُم بالأجرِ عليهم".[1676]

- وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "قَدِمَ عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ، فآخى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَينَه وبَينَ سَعدِ بنِ الرَّبيعِ الأنصاريِّ، فعَرَض عليه أن يناصِفَه أهلَه ومالَه، فقال عبدُ الرَّحمنِ: بارَك اللهُ لك في أهلِك ومالِك، دُلَّني على السُّوقِ".[1677]

3/ إيثارٌ حتَّى بالحياةِ:

وقد وصَل الحالُ بصَحابةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن آثروا إخوانَهم بحياتِهم! وهذا غايةُ الجودِ، ومُنتهى البَذلِ والعَطاءِ.

- ففي غَزوةِ اليَرموكِ قال عِكْرِمةُ بنُ أبي جَهلٍ: قاتَلْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مواطِنَ، وأفِرُّ منكم اليومَ؟! ثمَّ نادى: مَن يبايِعُ على الموتِ؟ فبايَعَه عَمُّه الحارِثُ بنُ هِشامٍ، وضِرارُ بنُ الأزوَرِ في أربَعمائةٍ من وجوهِ المُسلِمين وفُرسانِهم، فقاتلوا قُدَّامَ فُسطاطِ خالِدٍ حتَّى أُثبِتوا جميعًا جِراحًا، وقُتِل منهم خَلقٌ، منهم ضِرارُ بنُ الأزوَرِ -رَضِيَ اللهُ عنهم-... فلمَّا صُرِعوا من الجِراحِ استَسْقَوا ماءً، فجِيءَ إليهم بشَربةِ ماءٍ، فلمَّا قُرِّبَت إلى أحَدِهم نَظَر إليه الآخَرُ، فقال: ادفَعْها إليه. فلمَّا دُفِعَت إليه نَظَر إليه الآخَرُ، فقال: ادفَعْها إليه. فتدافَعوها كُلُّهم من واحدٍ إلى واحدٍ حتَّى ماتوا جميعًا ولم يَشْرَبْها أحَدٌ منهم، رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعين![1678]

4/ إيثارُ أبي بكرٍ بمالِه:

[1672] وأصْبِحي سِراجَكِ: أي: أوقِديه. يُنظر: فتح الباري لابن حجر 7/120

[1673] طاوِيَين، أي: جائِعَين. يُنظر: مطالع الأنوار على صحاح الآثار لابن قرقول 287 /3

[1674] أخرجه البخاري 3798 واللَّفظُ له، ومسلم 2054

[1675] المَهْنَأُ: ما يقومُ بالكفايةِ في إصلاحِ المعيشةِ، وقيل: ما يأتيك بلا تَعَبٍ ولا مشقَّةٍ. يُنظر: لسان العرب لابن منظور، مرقاة المفاتيح للقاري.

[1676] رواه أبو داود 4812، والترمذي 2487 واللَّفظُ له، وأحمد 13075. صحَّحه الترمذي، والحاكم على شرط مسلم في المستدرك 2368، وابن دقيق العيد في الاقتراح 117، وابن حجر كما في الفتوحات الربانية لابن علان5/249

[1677] أخرجه البخاري 2048 مُطَوَّلًا.

[1678] البداية والنهاية لابن كثير 7/15

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "أمَرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا أن نتصَدَّقَ، فوافَق ذلك مالًا عِندَي، فقُلتُ: اليومَ أسبِقُ أبا بكرٍ إن سبَقْتُه يومًا! فجِئتُ بنِصفِ مالي، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما أبقَيْتَ لأهلِك؟، قُلتُ: مِثْلَه، قال: وأتى أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه بكُلِّ ما عِندَه، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما أبقَيْتَ لأهلِك؟ قال: أبقَيتُ لهم اللهَ ورَسولَه! قُلتُ: لا أسابِقُك إلى شيءٍ أبدًا"![1679]

5/ صُوَرٌ من إيثارِ أمِّ المؤمِنين عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها:

- لَمَّا طُعِن أميرُ المؤمِنين عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهما قال لابنِه عبدِ اللَّهِ: "يا عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ، اذهَبْ إلى أمِّ المؤمِنين عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، فقُلْ: يقرَأُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ عليك السَّلامَ، ثمَّ سَلْها أن أُدفَنَ مع صاحِبَيّ. قالت: كنتُ أريدُه لنفسي، فلأُوثِرَنَّه اليومَ على نفسي! فلمَّا أقبَلَ، قال له: ما لَدَيك؟ قال: أذِنَت لك يا أميرَ المؤمنينَ! قال: ما كان شَيءٌ أهَمَّ إليَّ من ذلك المَضجَعِ! فإذا قُبِضْتُ فاحمِلوني، ثمَّ سَلِّموا، ثمَّ قُلْ: يَستأذِنُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فإنْ أَذِنَتْ لي فادفِنوني، وإلَّا فرُدُّوني إلى مقابِرِ المُسلِمين".[1680]

- وعن أمِّ ذَرَّةَ -وكانت تغشى عائِشةَ- قالت: "بَعَث إليها ابنُ الزُّبيرِ بمالٍ في غِرارتَينِ[1681] قالت: أُراه ثمانينَ ومِئةَ ألفٍ، فدَعَت بطَبَقٍ وهي يومَئذٍ صائِمةٌ، فجَلَسَتْ تَقْسِمُه بَينَ النَّاسِ، فأمسَت وما عِندَها من ذلك دِرهَمٌ! فلمَّا أمسَت قالت: يا جارِيةُ هَلُمِّي فِطْري. فجاءَتْها بخُبزٍ وزَيتٍ، فقالت لها أمُّ ذَرَّةَ: أمَا استطَعْتِ ممَّا قَسَمْتِ اليومَ أن تشتري لنا بدِرهَمٍ لحمًا نُفطِرُ عليه؟! فقالت لها: لا تُعَنِّفيني، لو كنتِ ذكَّرْتِني لفعَلْتُ".[1682]

- وعن عُروةَ قال: "لقد رأيتُ عائِشةَ تَقسِمُ سَبعينَ ألفًا وهي تُرَقِّعُ دِرْعَها".[1683]

6/ ابنُ عُمَرَ نموذَجٌ آخَرُ من نماذِجِ الإيثارِ الفَذَّةِ:

- مَرِضَ ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما فاشتهى عِنَبًا أوَّلَ ما جاء العِنَبُ، فأرسلَت صَفِيَّةُ بدِرهَمٍ فاشتَرَت عُنقودًا، فاتَّبَع الرَّسولَ سائِلٌ، فلمَّا أتى البابَ دَخَل، قال السَّائِلُ: السَّائِلُ، قال ابنُ عُمَرَ: أعطوه إيَّاه فأعطَوه إيَّاه، ثمَّ أرسلَت بدِرهَمٍ آخَرَ فاشتَرَت به عُنقودًا، فاتَّبَع الرَّسولَ السَّائِلُ، فلمَّا انتهى إلى البابِ ودَخَل، قال السَّائِلُ: السَّائِلُ، قال ابنُ عُمَرَ: أعطوه إيَّاه، فأعطَوه إيَّاه، فأرسَلَت صَفِيَّةُ إلى السَّائِلِ فقالت: واللهِ لَئِنْ عُدْتَ لا تُصيبُ منِّي خيرًا أبدًا! ثمَّ أرسَلَت بدِرهَمٍ آخَرَ فاشتَرَت به.[1684]

7/ عُمَرُ يختَبِرُ إيثارَ أصحابِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

- عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه أخَذَ أربَعَمئةِ دينارٍ فجَعَلَها في صُرَّةٍ، فقال للغُلامِ: "اذهَبْ بها إلى أبي عُبيدةَ بنِ الجَرَّاحِ، ثمَّ تَلَهَّ ساعةً في البيتِ حتَّى تنظُرَ ما يصنَعُ، فذهب بها الغلامُ إليه، فقال: يقولُ لك أميرُ المؤمِنين: اجعَلْ هذه في بعضِ حاجتِك، فقال: وَصَلَهُ اللهُ ورَحِمَهُ، ثمَّ قال: تعالَي يا جاريةُ، اذهَبي بهذه السَّبعةِ إلى فُلانٍ، وبهذه الخَمسةِ إلى فُلانٍ، حتى أنفَدَها! فرجَعَ الغلامُ وأخبَرَه، فوَجَدَه قد أعَدَّ مِثْلَها إلى مُعاذِ بنِ جَبَلٍ، فقال: اذهَبْ بهذا إلى مُعاذِ بنِ جَبَلٍ وتَلَهَّ في البيتِ حتَّى تَنظُرَ ما يصنَعُ، فذَهَب بها إليه، فقال: يقولُ لك أميرُ المؤمِنين: اجعَلْ هذا في بَعضِ حاجتِك، فقال: رَحِمه اللهُ ووَصَله، تعالَي يا جاريةُ، اذهَبي إلى بيتِ فلانٍ بكذا، واذهَبي إلى بيتِ فُلانٍ بكذا، فاطَّلَعَت امرأةُ معاذٍ، فقالت: نحن

[1679] أخرجه أبو داود 1678 واللفظ له، والترمذي 3675. صحَّحه الترمذي، والحاكم على شرط مسلم في المستدرك 1510، والنووي في المجموع 6/236

[1680] أخرجه البخاري 1392 مطَوَّلًا من حديثِ عَمرِو بنِ ميمونٍ رحمه اللهُ.

[1681] الغِرارةُ: وِعاءٌ من الخَيشِ ونَحوِه. يُنظر: المعجم الوسيط 648 /2

[1682] حلية الأولياء لأبي نعيم 2/ 47، صفة الصفوة لابن الجوزي 318 /1

[1683] حلية الأولياء لأبي نعيم 2/ 47، صفة الصفوة لابن الجوزي 318 /1

[1684] رواه من طُرُقٍ: الطبراني 12/266 13067، وأبو نُعيم في حلية الأولياء 1/397، والبيهقي 8055 واللَّفظُ له. وثَّق رجاله شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج سير أعلام النبلاء 3/220، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 9/350: رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ نُعيمِ بنِ حَمَّادٍ، وهو ثقةٌ.

واللهِ مساكينُ، فأعْطِنا، ولم يَبْقَ في الخِرقةِ إلَّا ديناران، فدَحَا[1685] بهما إليها، ورجَعَ الغلامُ إلى عُمَرَ، فأخبرَه وسُرَّ بذلك، وقال: إنَّهم إخوةٌ بَعضُهم من بعضٍ! " [1686]

8/ إيثارُ جابرٍ لأخواتِه:

عن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما: "أنَّ عبدَ اللهِ هَلَك، وتَرَك تِسعَ بَناتٍ -أو قال: سَبْعَ- فتزَوَّجْتُ امرأةً ثَيِّبًا، فقال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا جابِرُ، تزوَّجْتَ؟ قال: قُلتُ: نعمْ، قال: فبِكرٌ أم ثَيِّبٌ؟ قال: قُلتُ: بل ثَيِّبٌ يا رسولَ اللَّهِ، قال: فهَلَّا جاريةٌ تُلاعِبُها وتُلاعِبُك!، أو قال: تُضاحِكُها وتُضاحِكُك، قال: قُلتُ له: إنَّ عبدَ اللهِ هَلَك، وتَرَك تِسعَ بناتٍ -أو سَبعَ- وإنِّي كَرِهْتُ أن آتيَهنَّ أو أجيئَهنَّ بمِثْلِهنَّ، فأحبَبْتُ أن أجيءَ بامرأةٍ تقومُ عليهنَّ وتُصلِحُهنَّ، قال: فبارَكَ اللهُ لك أو قال لي خيرًا".[1687]

قال ابنُ حَجَرٍ: „فيه فضيلةٌ لجابِرٍ لشَفَقتِه على أخواتِه وإيثارِه مَصلحتَهنَّ على حَظِّ نفسِه".[1688]

ثالثا: نموذج من إيثارُ أحدِ التابعين:

-كَانَ هناكَ رَجُلٌ مِنَ التَّابِعِيْنَ كَثُرَ الفِئْرانُ فِي بَيْتِهِ، عِنْدَمَا قِيْلَ لَهُ: "لِمَا لَا تَأْتِي بِهِرَّةٍ لِتَهْرُبَ الفِئْرانُ مِنْ بَيْتِكَ". قَالَ أَخْشَى لَوْ أَتَيْتُ بِهِرَّةٍ هَرَبَتْ الفِئْرانُ مِنْ بَيْتِنَا فَتَدْخُلُ إِلَى بُيُوْتِ جِيْرَانِنا، فَيُحَاسِبُنا اللهُ عَلَى حَقِّ الْجَارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

- جَاءَ أَحَدُ الْمَشَايِخِ الْمُحْسِنِيْنَ مِنْ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ إِلَى أَحَدِ الْقُرَى الْمُسْلِمَةِ لِيُوْزِّعَ عَلَيْهِمُ الْمُسَاعَدَاتِ، وَأَراد بِجَانِبِ ذَلِكَ أَنْ يُدْخِلَ السُّرُوْرَ فِي قُلُوْبِ أَطْفَالِهِمْ، وَأَيضًا تَعْلِيْمَهُمْ خُلُقَ الْإِيْثَارِ، فَقَامَ بِاللعِبِ مَعَهُمْ حَيْثُ وَضَعَ عُلْبَةً مَلِيْئَةً بِالْحَلَوِيَّاتِ اللَّذِيْذَةِ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنْ يَتَسَابِقُوْا إِلَى اَلْحَلَوِيَّاتِ مَعًا، وَشَرَطَ أَنْ يَصِلُوا سَوِيًّا فِي آنٍ وَاحِدٍ لِيَتَقَاسَمُوا الْحَلَوَيَّاتِ فِيْمَا بَيْنَهُمْ، وكَانَ أَحَدُ الأَشْخَاصِ يُرَاقِبُ المَشْهَدَ، فَسَأَلَ الشَّيْخَ، قائلا: "أَلَيْسَ الْأَوْلَى فِي الْأَلْعَابِ أَنْ يَفُوْزَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِالْعُلْبَةِ؟ ".

رَدَّ عَلَيْهِ الشَّيْخُ، فقال: "كَيْفَ نُعَوِّدُهُمْ عَلَى الْأَنَانِيَّةِ مِنْ خَلَالِ اللَّعِبِ وَلَا نَسْتَغِلُّهُ لِتَرْبِيَتِهِمْ عَلَى خُلُقِ الْإِيْثَارِ؟ لَا يُمْكِنُ أَنْ نَجْعَلَ طِفْلًا وَاحِدًا سَعِيدًا وَيَكُونَ الْبَاقُونَ مَحْرُوْمُونَ، السَّعَادَةُ مَعَ الْآخَرِيْنَ حَقِيْقَةٌ، وَالإنفِرَادُ بها وَهْمٌ، فَلْيَكُنْ شِعَارُنَا: „نَحْنُ جَمِيْعًا وَلَيْسَ أَنَا وَحْدِي"".

رابعا: نموذج من خُلُقُ الإيثَارِ بَيْنَ التُّجَّارِ قَدِيمًا:

كَانَ التُّجَّارُ مِنْ عَادَتِهِمْ قَدِيْمًا عِنْدَمَا يَفْتَحُونَ دَكَاكِينَهُمْ فِي الصَّبَاحِ، يَضَعُوْنَ كُرْسِيًّا صَغِيْرًا بِجَانِبِ بَابِ الدُّكَانِ، وَمع أَوَّلِ زَبُونٍ يَأْتِي إِلَى أَحَدِهِمْ، ويَسْتَفْتِحُ بِهِ، أَيْ: يَبِيعُ إِلَيْهِ، كَانَ يُدْخِلُ الْكُرْسِيّ إِلى الدُّكَانِ، وَعِنْدَمَا يَأْتِيهِ زَبُوْنٌ آخَرَ لِيَسْأَلَ عَنْ سِلْعَةٍ، كان يَخْرُجُ مِنْ دُكَّانِهِ، وَيَنْظُرُ أَيُّ دُكَّانٍ لَا يَزَالُ الْكُرْسِيُّ مَوْجُودًا بِخَارِجِهِ، ثم يَقُوْلُ لِلزَّبُوْنِ: انْظُرْ، ذٰلِكَ الدُّكَانُ إِنْ شَاءَ اللهُ ستَجِدُ طَلَبَكَ عِنْدَهُ، فأَنَا اسْتَفْتَحْتُ، وَجَارِي فِي السُّوْقِ لَمْ يَسْتَفْتِحْ بَعْدُ.

المطلب الخامس: دَرَجاتُ الإيثارِ

ذكَر أَبُو إسماعيلَ الهَرَويُّ في كتابِه (منازِلِ السَّائِرين) أنَّ للإيثارِ ثلاثَ دَرَجاتٍ:

- **الدَّرجةُ الأولى:** „أن تؤثِرَ الخَلْقَ على نَفْسِك فيما لا يَحرُمُ عليك دينًا، ولا يقطَعُ عليك طريقًا، ولا يُفسِدُ عليك وَقتًا".[1689]

[1685] أي: دفَعَه، يقالُ: دحا الحَجَرَ بيَدِه: أي: رمى به ودفَعَه. يُنظر: تاج العروس للزبيدي 38 /38

[1686] رواه ابن المبارك في الزهد 1/178، والطبراني 20/23 46 واللَّفظُ له، وأبو نعيم في الحلية 1/237 من حديث مالك الدار. حسَّنه الألباني في صحيح الترغيب 926

[1687] أخرجه البخاري 5367، ومسلم 715 واللَّفظُ له.

[1688] فتح الباري 9/123

[1689] منازل السائرين ص: 57

قال ابنُ القَيِّمِ في شرحِه لهذه الدَّرَجةِ: „يعني: أن تُقَدِّمَهم على نَفسِك في مصالِحِهم، مِثلُ: أن تُطعِمَهم وتجوعَ، وتكسُوَهم وتَعْرى، وتَسقيَهم وتَظمَأَ، بحيثُ لا يؤدِّي ذلك إلى ارتكابِ إتلافٍ لا يجوزُ في الدِّينِ".[1690]

- **الدَّرجةُ الثَّانيةُ:** „إيثارُ رِضا اللهِ تعالى على رِضا غيرِه، وإن عَظُمَت فيه المِحَنُ وثَقُلَت به المُؤَنُ، وضَعُفَ عنه الطَّولُ والبَدَنُ".[1691]

قال ابنُ القَيِّمِ: „هو أن يُريدَ ويفعَلَ ما فيه مَرضاتُه ولو أغضَبَ الخَلْقَ، وهي دَرَجةُ الأنبياءِ وأعلاها للرُّسُلِ عليهم صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه، وأعلاها لأُولي العَزْمِ منهم، وأعلاها لنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم".[1692]

- **الدَّرجةُ الثَّالثةُ:** „إيثارُ إيثارِ اللهِ تعالى".[1693]

وقال ابنُ القَيِّمِ: „يعني بإيثارِ إيثارِ اللهِ: أن تَنسُبَ إيثارَك إلى اللهِ دونَ نَفسِك، وأنَّه هو الذي تفرَّدَ بالإيثارِ لا أنت، فكأنَّك سلَّمْتَ الإيثارَ إليه، فإذا آثَرْتَ غيرَك بشيءٍ فإنَّ الذي آثَرَه هو الحَقُّ لا أنت، فهو المُؤثِرُ حقيقةً...".[1694]

المطلب السادس: أقسام الإيثار

- **<u>ينقَسِمُ الإيثارُ من حيثُ تَعَلُّقُه بالغيرِ إلى قِسمَينِ:</u>**

- القِسمُ الأوَّلُ: إيثارٌ يتعَلَّقُ بالخالِقِ:

وهو أفضَلُ أنواعِ الإيثارِ وأعلاها منزلةً، وأرفعُها قَدْرًا؛ يقولُ ابنُ القَيِّمِ: „والإيثارُ المتعَلِّقُ بالخالِقِ أجَلُّ من هذا -أي من الإيثارِ المتعَلِّقِ بالخَلقِ- وأفضَلُ، وهو إيثارُ رِضاه على رِضا غيرِه، وإيثارُ حُبِّه على حُبِّ غيرِه، وإيثارُ خَوفِه ورجائِه على خَوفِ غيرِه ورجائِه، وإيثارُ الذُّلِّ له والخُضوعِ والاستِكانةِ والضَّراعةِ والتَّمَلُّقِ على بَذْلِ ذلك لغَيرِه، وكذلك إيثارُ الطَّلَبِ منه والسُّؤالِ وإنزالِ الفاقاتِ به على تعَلُّقِ ذلك بغيرِه".[1695]

- **القِسمُ الثَّاني: إيثارٌ يتعَلَّقُ بالخَلقِ.**[1696]

وقد قسم الشيخ ابن عثيمين رحمه الله هذا النوع من الإيثار إلى ثلاثة أقسام فقال: "ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول :ممنوع، والثاني: مكروه أو مباح، والثالث: مباح.

- **القسم الأول :وهو الممنوع:** وهو أن تؤثر غيرك بما يجب عليك شرعا فإنه لا يجوز أن تقدم غيرك فيما يجب عليك شرعاً، فالإيثار في الواجبات الشرعية حرَامٌ، ولا يَحِلُّ؛ لأنه يستلزم إسقاط الواجب عليك.

- **القسم الثاني: وهو المكروه أو المباح:** فهو الإيثار في الأمور المستحبة وقد كَرِهَهُ بعضُ أهلِ العلم، وأباحه بعضُهم، لكن تركه أولى لا شك إلا لمصلحة.

- **القسم الثالث: وهو المباح:** وهذا المباح قد يكون مستحباً وذلك أن تؤثر غيرك في أمرٍ غيرِ تَعَبُّدِيٍّ، أي تؤثر غيرك وتقدمه على نفسك في أمر غير تعبدي".[1697]

[1690] المصدر السابق 2/297

[1691] منازل السائرين لعبد الله الأنصاري الهروي ص: 58

[1692] مدارج السالكين 2/299

[1693] منازل السائرين لعبد الله الأنصاري الهروي ص: 58

[1694] مدارج السالكين 2/302

[1695] طريق الهجرتين وباب السعادتين 1/449

[1696] يُنظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم 1/446

[1697] شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ٣/ ٤١٦ – ٤١٧

- **ينقسم الإيثار من حيثُ باعِثُه والدَّاعي إليه:**

الأوَّلُ: قِسمٌ يكونُ الباعِثُ إليه الفِطرةَ والغريزةَ، كالذي يكونُ عندَ الآباءِ والأمَّهاتِ وأصحابِ العِشقِ، وهذا كما يقولُ عبدُ الرَّحمنِ المَيدانيُّ: "الباعِثُ إليه فِطريٌّ في النُّفوسِ يَنتِجُ عنه حُبٌّ شديدٌ عارِمٌ، والحُبُّ من أقوى البواعِثِ الذَّاتيَّةِ الدَّافِعةِ إلى التَّضحيةِ بالنَّفسِ وكُلِّ ما يتَّصِلُ بها من مصالِحَ وحاجاتٍ؛ من أجْلِ سلامةِ المحبوبِ، أو تحقيقِ رِضاه، أو جَلْبِ السَّعادةِ أو المسَرَّةِ إليه".[1698]

وتقولُ أمُّ المؤمِنين عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها: „جاءتني مِسكينةٌ تحمِلُ ابنَتَين لها فأطعَمْتُها ثلاثَ تَمَراتٍ، فأعطَتْ كُلَّ واحدةٍ منهما تَمْرَةً، ورفَعَت إلى فيها تمرةً لتأكُلَها، فاستطعَمَتْها ابنتاها، فشَقَّت التَّمرةَ التي كانت تريدُ أن تأكُلَها بينهما! فأعجَبَني شَأنُها، فذكَرْتُ الذي صنَعَتْ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: إنَّ اللهَ قد أوجَبَ لها بها الجَنَّةَ، أو أعتقَها بها مِنَ النَّارِ".[1699] فهذا الإيثارُ دافِعُه حُبُّ الأمِّ لابنَتَيها، ورحمتُها بهما.

الثَّاني: قِسمٌ يكونُ الدَّافِعُ هو الإيمانَ، وحُبَّ الخيرِ للغَيرِ على حسابِ النَّفسِ ومَلَذَّاتِها ومُشْتَهَياتِها، وهو كما قال الميدانيُّ: „ليس إيثارًا انفعاليًّا عاطفيًّا مجرَّدًا، ولكِنَّه إيثارٌ يعتَمِدُ على محاكَمةٍ مَنطِقيَّةٍ سَليمةٍ، ويعتَمِدُ على عاطفةٍ إيمانيَّةٍ عاقِلةٍ".[1700]

المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ الإيثارِ

1- إيثارٌ بالمالِ.
2- إيثارٌ بالطَّعامِ والشَّرابِ.
3- إيثارٌ بمصلحةِ الغَيرِ على مصلحةِ نَفسِه.
4- إيثارٌ بالنَّفسِ.
5- إيثارٌ براحةِ الآخَرينَ على راحتِه.
6- إيثارُ الأبوَينِ لأولادِهما.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِيثَارَ الْوَالِدَيْنِ أَبْنَاءَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَمرٌ فِطْرِيٌّ وبَدِيهِيٌّ؛ وَلِذَلِكَ وَجَبَ التَّنْبِيهُ هُنَا عَلَى أَنَّ العِبْرَةَ فِي الإِيثَارِ لَيْسَتْ بِتَقْدِيمِ الأَبَوَيْنِ أو الأَبْنَاءِ عَلَى نَفْسِكَ، وَإِنَّمَا العِبْرَةُ فِي تَقْدِيمِ حُقُوقِ الغَيْرِ عَلَى حَقِّكَ.

المطلب الثامن: فوائِدُ وثمار الإيثارِ

للإيثارِ فوائِدُ عَظيمةٌ وثمارٌ جليلةٌ يَجْنِيهَا أَصْحَابُ هذا الخُلُقِ العظيم، منها:
1- دُخولُهم فيمن أثنى اللهُ عليهم من أهلِ الإيثارِ، وجَعَلَهُم من المُفلِحين.
2- الإيثارُ طريقٌ إلى محبَّةِ اللهِ تبارك وتعالى.
3- تحقيقُ الكمالِ الإيمانيّ؛ فالإيثارُ دليلٌ عليه، وثَمرةٌ من ثمارِه.
4- التَّحَلِّي بخُلُقِ الإيثارِ فيه اقتداءٌ بالنَّبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.
5- أنَّ المُؤثِرَ يجني ثمارَ إيثارِه في الدُّنيا قبلَ الآخرةِ، وذلك بمحبَّةِ النَّاسِ له وثنائِهم عليه، والشُّعورِ بالرِّضا وطُمَأنينةِ النَّفسِ، كما أنَّه يجني ثمارَ إيثارِه بَعدَ مَوتِه بحُسنِ الأُحْدوثةِ وجمالِ الذِّكرِ، فيكونُ بذلك قد أضاف عُمُرًا إلى عُمُرِه.

[1698] الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني 2/435
[1699] أخرجه مسلم 2630
[1700] الأخلاق الإسلامية وأسسها 2/435

6- الإيثارُ يقودُ المرءَ إلى غيرِه من الأخلاقِ الحَسَنةِ والخِلالِ الحميدةِ، كالرَّحمةِ، وحُبِّ الغَيرِ، والسَّعيِ لنَفعِ النَّاسِ، كما أنَّه يقودُه إلى تَرْكِ جملةٍ من الأخلاقِ السَّيِّئةِ والخِلالِ الذَّميمةِ؛ كالبُخلِ والشُّحِّ، وحُبِّ النَّفسِ، والأثَـرةِ والطَّمَعِ، وغيرِ ذلك.

7- الإيثارُ جالِبٌ للبَركةِ في الطَّعامِ والمالِ والمُمتلَكاتِ.

8- وجودُ الإيثارِ في المجتَمَعِ دليلٌ على وُجودِ حِسِّ التَّعاوُنِ والتَّكافُلِ والمودَّةِ، وفَقْدُه من المجتَمِعِ دليلٌ على خلُوِّه من هذه الرَّكائِزِ المُهِمَّةِ في بناءِ مجتَمَعاتٍ مُؤمِنةٍ قَوِيَّةٍ ومُتكاتِفةٍ.

9- بالإيثارِ تحصُلُ الكفايةُ الاقتصاديَّةُ والماديَّةُ في المجتَمَعِ، فطعامُ الواحِدِ يكفي الاثنَينِ، وطعامُ الاثنَينِ يكفي الثَّلاثةَ، والبيتُ الكبيرُ الذي تستأثِرُ به أسرةٌ واحِدةٌ مع سَعَتِه يكفي أكثَرَ من أُسرةٍ ليس لها بُيوتٌ تُؤويها، وهكذا.

المطلب التاسع: موانِعُ اكتسابِ خُلُق الإيثارِ

1- ضَعفُ الإيمانِ واليقينِ، فكما أنَّ الإيمانَ القَوِيَّ يدفَعُ صاحِبَه للبَذلِ والعطاءِ والإيثارِ، فإنَّ ضَعْفَه يكونُ سَبَبًا في الأثَرةِ والشُّحِّ.

2- الشُّحُّ المطاعُ، لذا ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ في الآيةِ التي مدَح فيها أهلَ الإيثارِ أنَّ من يوفَّقُ في الوقايةِ من شُحِّ نَفسِه فقد أفلَح؛ فقال تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

3- حُبُّ النَّفسِ، وتملُّكُ الأثَرةِ على القَلبِ.

4- قَسْوةُ القَلبِ وجمودُه؛ فمن رَقَّ قَلْبُه وَلَانَتْ طباعُه سَهُلَ عَلَيْهِ أمرُ الإيثارِ.

5- ضَعْفُ الهِمَّةِ.

المطلب: الوسائِلُ المُعينةُ على اكتِسابِ خُلُق الإيثارِ

"**أحَدُها**: رَغبةُ العبدِ في مكارمِ الأخلاقِ ومعاليها؛ فإنَّ مِن أفضَلِ أخلاقِ الرَّجُلِ وأشرَفِها وأعلاها: الإيثارَ، وقد جبَل اللهُ القلوبَ على تعظيمِ صاحِبِه ومحبَّتِه، كما جبَلَها على بُغضِ المُستأثِرِ ومَقْتِه، لا تبديلَ لخَلقِ اللهِ.

الثَّاني: النُّفرةُ من أخلاقِ اللِّئامِ، ومَقتُ الشُّحِّ وكَراهَتُهُ له.

الثَّالِثُ: تعظيمُ الحُقوقِ التي جعَلَها اللهُ سُبحانَه وتعالى للمُسلِمين بعضِهم على بعضٍ؛ فهو يرعاها حَقَّ رعايتِها، ويخافُ من تضييعِها، ويَعلَمُ أنَّه إنْ لم يَبذُلْ فَوقَ العَدلِ لم يمكِنْه الوقوفُ مع حَدِّه؛ فإنَّ ذلك عَسِرٌ جِدًّا، بل لا بُدَّ من مجاوزتِه إلى الفَضلِ أو التَّقصيرِ عنه إلى الظُّلمِ؛ فهو لخَوفِه من تضييعِ الحَقِّ والدُّخولِ في الظُّلمِ يختارُ الإيثارَ بما لا يَنقُصُه ولا يَضُرُّه، ويكتَسِبُ به جميلَ الذِّكرِ في الدُّنيا، وجزيلَ الأجرِ في الآخِرةِ، مع ما يَجلِبُه له الإيثارُ من البرَكةِ وفَيضانِ الخَيرِ عليه، فيعودُ عليه من إيثارِه أفضَلُ ممَّا بذَلَه، ومَن جَرَّب هذا عرَفَه، ومَن لم يجَرِّبْه فلْيَستقرِئْ أحوالَ العالَمِ، والمُوَفَّقُ مَن وَفَّقه اللهُ سُبحانَه وتعالى".[1701]

(أسأل الله أنْ يَجْعَلْنَا ممنْ يُؤثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا للإنْفَاقِ مِمَّا نُحبُّ لِكَيْ نَنَالَ البرَّ)

[1701] طريق الهجرتين وباب السعادتين 1/448

المبحث التاسع: الرِّفق

المطلب الأول: معنى الرفق

- **معنى الرِّفْقِ لُغةً:**

الرِّفْقُ: ضِدُّ العُنفِ، وهو لِينُ الجانبِ، ويُقالُ: رَفَق بالأمرِ وله وعليه يرفُقُ رِفقًا ومِرفَقًا: لَانَ له جانبُه وحَسُن صنيعُه. ورَفَق يَرفُقُ ورَفِق: لَطَف، ورَفَق بالرَّجُلِ وأرفَقَه بمعنًى، وكذلك ترفَّق به.[1702]

- **معنى الرِّفْقِ اصطلاحًا:**

قال ابنُ حَجَرٍ في تعريفِ الرِّفْقِ: „هو لِينُ الجَانِبِ بِالقَوْلِ والفِعْلِ، والأخذُ بالأسهَلِ، وهو ضِدُّ العُنفِ".[1703]

وقال القاريُّ: „هو المداراةُ مع الرُّفقاءِ، ولينُ الجانبِ، واللُّطفُ في أخذِ الأمرِ بأحسَنِ الوُجوهِ وأيسَرِها".[1704]

وقيل: الرِّفقُ هُوَ التَّلَطُّفُ فِي الأُمُورِ، وَهُوَ ضِدُّ العُنْفِ وَالشِّدَّةِ وَالغِلظَةِ وَالفَظَاظَةِ وَالخُشُونَةِ سَواءً فِي الطِّبَاعِ أو المَوَاقِفِ، وَهُوَ خُلُقٌ قَرِيبٌ مِنْ الحِلْمِ وَلَكِنَّهُ أَخَصُّ مِنْهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالتَّحَلِّي بِهِ فِي سَائِرِ الأُمُورِ، فَقَالَ: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199].

كما أنه خُلُقٌ مِنَ الأخلاقِ الفاضِلةِ الَّتي يُحِبُّها اللهُ تَعالى، وتَأْتي بالخَيرِ لِلعَبدِ في الدُّنيا والآخِرةِ، ولقد وهَبَ اللهُ تعالَى برَحْمتِه لنَبيِّه محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرفقَ في دَعوتِه إلى الإسلامِ، فكان سَهلًا رَقيقًا في تَعامُلِه مع النَّاسِ ومع أصحابِه، ولو كان فَظًّا، ذا قلْبٍ قاسٍ مُتحجِّرٍ، لَنَفَروا منه وفارَقوه.

وتُخْبِرُنا أُمُنا عائِشة رضي الله عنها أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها: "يا عائِشَةُ إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي علَى الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي علَى العُنْفِ، وما لا يُعْطِي علَى ما سِواهُ."[1705]

وفي الحديث: فَضلُ الرِّفقِ والحثُّ على التَّخلُّقِ به، وذَمُّ العُنفِ، وأنَّ الرِّفقَ سَببُ كلِّ خَيرٍ، وفيه: إثباتُ اسمِ الرَّفيقِ للهِ عزَّ وجلَّ، ووَصْفُه به.

المطلب الثاني: الترغيب في الرفق والحث عليه

أ. الرفقُ في القرآنِ الكريمِ:

1- قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159].

„يقول تعالى مخاطِبًا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ممتنًّا عليه وعلى المُؤمِنين فيما ألان به قلبَه على أمَّتِه، المتَّبعين لأمرِه، التَّاركين لزَجرِه، وأطاب لهم لفظَه: „فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ"، أي: أيُّ شيء جعَلك لهم لَيِّنًا لولا رحمةُ اللهِ بك وبهم".[1706]

2- وقال سُبحانه مخاطبًا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 215] „أي: ارفُقْ بهم وألِنْ جانبَك لهم".[1707]

[1702] يُنظَر: النهاية لابن الأثير 246/2، لسان العرب لابن منظور 118/10، المعجم الوسيط 1/362

[1703] فتح الباري لابن حجر 10/449

[1704] مرقاة المفاتيح للقاري 8/3170

[1705] صحيح البخاري 6927، وصحيح مسلم 2593

[1706] تفسير القرآن العظيم لابن كثير 2/148

3- وقال سُبحانه: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: 43-44].
فقولُه تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا} „أي: سهلًا لطيفًا، برِفقٍ ولينٍ وأدَبٍ في اللَّفظِ من دونِ فُحشٍ ولا صَلَفٍ[1708]، ولا غِلظةٍ في المقالِ، أو فظاظةٍ في الأفعالِ؛ لَعَلَّهُ بسببِ القولِ اللَّيِّنِ يَتَذَكَّرُ ما ينفَعُه فيأتيَه، أَوْ يَخْشَى ما يَضرُّه فيتركَه، فإنَّ القولَ اللَّيِّنَ داعٍ لذلك، والقولَ الغليظَ مُنفِّرٌ عن صاحبِه".[1709]

ب. الرِّفْقُ في السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

1- عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: „إنَّ يهودَ أتَوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالوا: السَّامُ[1710] عليكم. فقالت عائشةُ: عليكم، ولعنكم اللهُ وغَضِب اللهُ عليكم. قال: مهلًا يا عائشةُ، عليكِ بالرِّفْقِ وإيَّاكِ والعُنفَ والفُحشَ. قالت: أوَ لم تسمَعْ ما قالوا؟ قال: أو لم تسمَعي ما قُلتُ؟ ردَدْتُ عليهم فيُستجابُ لي فيهم ولا يُستجابُ لهم فيَّ".[1711]
وفي روايةٍ: „فقال: يا عائشةُ، إنَّ اللهَ رفيقٌ يحِبُّ الرِّفْقَ في الأمرِ كُلِّه".[1712]
وفي روايةٍ أخرى: قال: „يا عائشةُ، إنَّ اللهَ رفيقٌ يحِبُّ الرِّفْقَ، ويعطي على الرِّفْقِ ما لا يُعطي على العُنفِ، وما لا يُعطي على ما سِواه".[1713]
2- وعن جريرٍ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: „مَن يُحرَمِ الرِّفْقَ يُحرَمِ الخيرَ".[1714]
„يعني أنَّ الإنسانَ إذا حُرِمَ الرِّفْقَ في الأمورِ فيما يتصَرَّفُ فيه لنفسِه، وفيما يتصَرَّفُ فيه مع غيرِه، فإنَّه يُحرَمُ الخيرَ كُلَّه، أي: فيما تصَرَّف فيه، فإذا تصَرَّف الإنسانُ بالعُنفِ والشِّدَّةِ، فإنَّه يُحرَمُ الخيرَ فيما فعل، وهذا شيءٌ مجرَّبٌ ومشاهَدٌ، أنَّ الإنسانَ إذا صار يتعاملُ بالعنفِ والشِّدَّةِ؛ فإنَّه يُحرَمُ الخيرَ ولا ينالُهُ الخيرَ، وإذا كان يتعامَلُ بالرِّفْقِ والحِلمِ والأناةِ وسَعةِ الصَّدرِ، حصل على خيرٍ كثيرٍ، وعلى هذا فينبغي للإنسانِ الذي يريدُ الخيرَ أن يكونَ دائمًا رفيقًا حتى ينالَ الخيرَ".[1715]
3- وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: „سمعتُ من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ في بيتي هذا: اللَّهُمَّ مَن وَلِيَ من أمرِ أمَّتي شيئًا فشَقَّ عليهم، فاشقُقْ عليه، ومَن وَلِيَ مِن أمرِ أمَّتي شيئًا فرفَق بهم، فارفُقْ به".[1716]
4- وعنها أيضًا رَضِيَ الله عنها عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: „إنَّ الرِّفْقَ لا يكونُ في شيءٍ إلَّا زانه[1717]، ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلَّا شانه„.[1718] „[1719]
5- قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „إنَّ اللهَ رفيقٌ يحِبُّ الرِّفْقَ في الأمرِ كُلِّه".[1720]
وهذه النُّصوصُ التي مرَّت معنا تدُلُّ „على أنَّ الرِّفْقَ في الأمورِ، والرِّفْقَ بالنَّاسِ، واللِّينَ والتَّيسيرَ: من جواهِرِ عُقودِ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ، وأنَّها من صفاتِ الكَمالِ، وأنَّ اللهَ تعالى من صفاتِه أنَّه رفيقٌ، وأنَّه يحبُّ من عبادِه الرِّفْقَ، فهو يوصيهم

[1707] معالم التنزيل للبغوي 6/207
[1708] الصَّلَفُ: مجاوزةُ القَدْرِ في الظَّرفِ والبراعةِ، والادِّعاءُ فوق ذلك تكبُّرًا. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور9/196
[1709] تيسير الكريم الرحمن للسعدي 506
[1710] السَّامُ: الموتُ. يُنظَر: فتح الباري لابن حجر 1/135
[1711] رواه البخاري 6030 واللفظ له، ومسلم 2165
[1712] البخاري 6927
[1713] مسلم 2593
[1714] رواه مسلم 2592
[1715] شرح رياض الصالحين لابن عثيمين 3/592
[1716] رواه مسلم 1828
[1717] الزَّينُ: ضِدُّ الشَّينِ. يُنظَر: تاج العروس للزبيدي 35/162
[1718] شانه يَشينُه شَينًا: ضِدُّ زانه، أي: عابه. يُنظَر: تاج العروس للزبيدي 35/299
[1719] رواه مسلم 2594
[1720] رواه البخاري 6927 واللفظ له، ومسلم 2165 من حديثِ عائشة رَضِيَ اللهُ عنها.

به ويرغِّبُهم فيه، ويَعِدُهم عليه عطاءً لا يعطيه على شيءٍ آخَرَ، ويُفهَمُ من النُّصوصِ أنَّ العُنفَ شَينٌ خُلقيٌّ، وأنَّه ظاهرةٌ قبيحةٌ، وأنَّ اللهَ لا يحِبُّه من عبادِه".[1721]

ت. من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَّماءِ في الرفق:

1- „بلغ عُمَرَ رَضِيَ الله عنه عن بعضِ عُمَّالِه شيءٌ، فجمعهم فخطَبهم، فقال: أيَّتُها الرَّعيَّةُ، إنَّ للرَّعاةِ عليكم حقًّا: المناصحةُ بالغيبِ، والمعاونةُ على الخيرِ، ألا وإنَّه ليس شيءٌ أحَبَّ إلى اللهِ من حِلمِ إمامٍ عادلٍ ورِفقِه، ولا جَهلَ أبغَضُ إلى اللهِ مِن جَهلِ إمامٍ جائرٍ وخُرْقِه، ومن يأخُذْ بالعافيةِ فيمن بَيْنَ ظَهْرَيه يُعطَ العافيةَ ممَّن فوقَه".[1722]

2- وعن مُعاويةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: „من وَلَّيناه شيئًا من أمورِنا فليجعَلِ الرِّفْقَ بَيْنَ الأمانةِ والعَدلِ".[1723]

3- وعن عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ قال: „كان يُقالُ: الرِّفْقُ رأسُ الحِكمةِ".[1724]

4- وعن حبيبِ بنِ حُجرٍ القَيسيِّ قال: „كان يُقالُ: ما أحسَنَ الإيمانَ يَزينُه العِلمُ! وما أحسَنَ العِلمَ يَزينُه العَمَلُ! وما أحسَنَ العَمَلَ يزينُه الرِّفْقُ!".[1725]

5- قال أحمدُ بنُ حنبَلٍ: „النَّاسُ محتاجون إلى مداراةٍ ورِفقٍ، الأمرُ بالمعروفِ بلا غلظةٍ إلَّا رجُلًا معلنًا بالفِسقِ، فلا حُرمةَ له".[1726]

- وقال ابنُ حَجَرٍ: „لا يتعمَّقُ أحدٌ في الأعمالِ الدِّينيَّةِ ويترُكُ الرِّفْقَ، إلَّا عَجَز وانقطع فيُغلَبُ".[1727]

المطلب الثالث: نماذج من الرفق

أولا: نماذجُ من رِفقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رفيقًا هَيِّنًا لَيِّنًا سَهلًا في تعامُلِه، وفي أقوالِه وأفعالِه، وكان يحِبُّ الرِّفْقَ، ويحثُّ النَّاسَ عَلَيْهِ، ويرغِّبُهم فيه؛ فعن عُبادةَ بنِ شُرَحبيلَ قال: "قَدِمتُ مع عمومتي المدينةَ فدخَلتُ حائطًا من حيطانِها، ففرَكتُ من سنبُلِه، فجاء صاحِبُ الحائطِ فأخذ كسائي وضرَبني، فأتيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أستعدي[1728] عليه، فأرسل إلى الرَّجُلِ، فجاؤوا به، فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسولَ اللَّهِ، إنَّه دخل حائطي، فأخَذ من سنبُلِه ففَرَكه، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما علَّمْتَه إذ كان جاهِلًا، ولا أطعَمْتَه إذ كان جائعًا، اردُدْ عليه كساءَه، وأمر لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بوَسقٍ[1729] أو نِصفِ وَسقٍ".[1730]

- **رِفقُه بقَومِه رَغمَ أذِيَّتِهم له:**

كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رِفيقًا بقَومِه رَغمَ أذيَّتِهم له؛ فعن عروةَ أنَّ عائشةَ زوجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حدَّثَتْه أنَّها قالت

[1721] الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن الميداني 2/339

[1722] رواه وكيع في الزهد 419، وابن شبة في تاريخ المدينة 2/774 واللفظ له، والطبري في التاريخ 2/578

[1723] البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي 7/ 18

[1724] رواه أحمد في الزهد 274، وابن أبي شيبة 25817، ووكيع في الزهد 458

[1725] رواه ابنُ المبارك في الزهد 1336، وأبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم 798 مطوَّلًا.

[1726] جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي 2/ 256

[1727] فتح الباري لابن حجر 1/94

[1728] أستعدي عليه، أي: أطلُبُ منه أن ينتَقِمَ منه لي. يُنظَر: حاشية السندي على سنن النسائي 8/ 240

[1729] الوَسقُ: ستُّون صاعًا. يُنظَر: معالم السنن للخطابي 13 /2

[1730] رواه أبو داود2621 ، والنسائي 5409 واللفظ له، وابن ماجه .2298 صحَّحه القرطبي في التفسير3/37، والألباني في صحيح سنن النسائي 5409، والوادعي على شرط الشيخين في الصحيح المسند 534، وحسَّنه ابنُ كثير في جامع المسانيد والسنن 5882، وصحَّح إسناده ابن حجر في الإصابة2/265، وشعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود 2621، وقال الذهبي في ميزان الاعتدال 402/1: إسنادُه صحيحٌ غريبٌ

لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "يا رسولَ اللهِ، هل أتى عليكَ يومٌ كان أشَدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ فقال: لقَدْ لَقِيتُ مِن قَومِكِ، وكانَ أَشَدَّ ما لَقِيتُ منهم يَومَ العَقَبَةِ، إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي على ابنِ عبدِ يَالِيلَ بنِ عبدِ كُلَالٍ، فلم يُجِبْني إلى ما أرَدْتُ، فانطَلَقْتُ وأنا مَهمومٌ على وَجْهي، فلم أسْتَفِقْ إلَّا بقَرنِ الثَّعَالِبِ[1731]، فرَفَعْتُ رَأسي فإذا أنا بسَحابةٍ قد أظَلَّتني، فنَظَرْتُ فإذا فيها جِبْريلُ، فناداني، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ قد سمِعَ قَولَ قَومِكَ لك، وما ردُّوا عليك، وقد بَعَث إليك ملَكَ الجِبالِ لتَأْمُرَه بما شِئتَ فيهم، قال: فناداني مَلَكُ الجِبالِ وسَلَّم عَلَيَّ، ثمَّ قال: يا محمَّدُ، إنَّ اللهَ قد سمِعَ قَولَ قَومِك لك، وأنا مَلَكُ الجِبالِ وقد بعثَني ربُّك إليكَ لتَأمُرَني بأمْرِك، فما شِئتَ، إنْ شِئتَ أن أُطبِقَ عليهم الأخشَبَينِ، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم مَن يعبُدُ اللهَ وَحدَه لا يُشرِكُ به شيئًا".[1732]

والعجيبُ في مسلَكِ الرِّفْقِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يخُصَّ به مواقِفَ دونَ أخرى، وظروفًا دونَ غيرِها، وإنَّما جعله سلوكًا دائمًا وعامًّا لا ينفَكُّ عنه المسلِمُ في كُلِّ شُؤونِ حياتِه، حتى في الظُّروفِ الاجتماعيَّةِ التي يَظُنُّ الظَّانُّ أنَّها تستلزِمُ شيئًا من العُنفِ.[1733]

- **رِفقُه في تعليمِ الجاهِلِ:**

- عن معاويةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَميِّ، قال: "بينا أنا أُصَلِّي مع رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذ عَطَس رجُلٌ من القومِ، فقُلتُ: يرحمُك اللَّهُ! فرماني القومُ بأبصارِهم، فقُلتُ: واثُكْلَ أُمِّيَاه![1734] ما شأنُكم تَنظُرون إليَّ؟! فجَعَلوا يَضرِبون بأيديهم على أفخاذِهم، فلمَّا رأيتُهم يُصَمِّتُونني لكِنِّي سكَتُّ، فلمَّا صلَّى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ مُعَلِّمًا قَبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعليمًا منه، فواللهِ ما كَهَرني[1735]، ولا ضرَبني، ولا شتَمَني. قال: إنَّ هذه الصَّلاةَ لا يَصلُحُ فيها شيءٌ من كلامِ النَّاسِ، إنَّما هو التَّسبيحُ والتَّكبيرُ وقراءةُ القرآنِ".[1736]

- وعن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ الله عنه قال: "كنَّا في سفَرٍ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... الحديث، وفيه: ثمَّ نزل صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فدعا بالوَضوءِ فتوَضَّأ، ونودِيَ بالصَّلاةِ فصَلَّى بالنَّاسِ، فلمَّا انفتل من صلاتِه إذا هو برجُلٍ معتَزِلٍ لم يُصَلِّ مع القومِ، قال: ما منعك يا فلانُ أن تُصلِّيَ مع القومِ؟ قال: أصابتني جنابةٌ ولا ماءَ. قال: عليك بالصَّعيدِ؛ فإنَّه يكفيك... " الحديثَ.[1737]

قال ابنُ حَجَرٍ: „فيه: حُسنُ الملاطفةِ، والرِّفْقُ في الإنكارِ".[1738]

ثانيا: نماذِجُ مِن رِفقِ الصَّحابةِ رَضِيَ الله عنهم:

- **رِفقُ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه:**

- عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: „خرَجْتُ مع عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه إلى السُّوقِ، فلَحِقَتْ عمَرَ امرأةٌ شابَّةٌ،

[1731] هو ميقاتُ أهلِ نجدٍ. يُنظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض 6/ 169

[1732] رواه البخاري 3231 واللفظ له، ومسلم 1795

[1733] عقوبة التلاميذ البدنية لعدنان باحارث ص: 88، 89

[1734] الثُّكْلُ: هو فِقدانُ المرأةِ وَلَدَها، وأصلُه: ثَكِلَت أمّي، أي: وافَقْدَ أمّي إيّاي؛ فإنّي هلَكْتُ .يُنظَر: شرح النووي على مسلم 5/ 20، شرح أبي داود للعيني 1784 /، شرح السيوطي على مسلم 2/ 217

[1735] الكَهْرُ: الانتهارُ .يُنظَر: لسان العرب لابن منظور.

[1736] رواه مسلم 537 مطوَّلًا

[1737] أخرجه البخاري 344 واللفظ له، ومسلم 682

[1738] فتح الباري 1/ 451

فقالت: يا أميرَ المؤمنين، هلك زوجي وترَك صِبيةً صِغارًا، واللهِ ما يُنضِجون كُراعًا[1739]، ولا لهم زَرعٌ ولا ضرعٌ، وخَشِيتُ أن تأكُلَهم الضَّبُعُ، وأنا بنتُ خُفافِ بنِ إيماءَ الغِفاريِّ، وقد شَهِد أبي الحُدَيبيةَ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فوقف معها عُمَرُ ولم يَمضِ، ثمَّ قال: مرحبًا بنَسَبٍ قريبٍ، ثمَّ انصرف إلى بعيرٍ ظهيرٍ[1740] كان مربوطًا في الدَّارِ، فحمل عليه غِرارتينِ[1741] ملأهما طعامًا، وحمل بينهما نفقةً وثيابًا، ثمَّ ناولها بخِطامِه، ثمَّ قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيَكم اللهُ بخيرٍ، فقال رجلٌ: يا أميرَ المؤمنين، أكثَرْتَ لها! قال عُمَرُ: ثَكِلَتْك أمُّك! واللهِ إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حِصنًا زمانًا فافتَتَحاه، ثمَّ أصبَحْنا نستفيءُ [1742] سُهْمانَهما فيه".[1743]

- وكان عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه يذهَبُ إلى العوالي كُلَّ يومِ سَبتٍ، فإذا وجَد عبدًا في عَملٍ لا يطيقُه وَضَع عنه منه.[1744]

- **رِفقُ أبي الدَّرداءِ:**

عن أبي قِلابةَ ،،أنَّ أبا الدَّرداءِ مَرَّ على رجُلٍ قد أصاب ذنبًا، فكانوا يسبُّونَه، فقال: أرأيتُم لو وجَدْتُموه في قَليبٍ، ألم تكونوا مُستخرِجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تَسُبُّوا أخاكم، واحمَدوا اللهَ الذي عَافَاكم، قالوا: أفلا تُبغِضُه؟ قال: إنَّما أبغِضُ عَمَلَه، فإذا تركَه فهو أخي".[1745]

ثالثا: نموذج من عصرنا الحالي: "الرفق جوهرة":

قِصةٌ أدهشَتْني عن الرِّفقِ حدثَتْ في زمَانِنَا هذا، يقولُ صاحبُها بكلماتٍ بسيطةٍ:

"كنتُ طِفلاً في السَّابِعةِ مِن العُمُرِ عِندمَا سمِعتُ عَن طَلاقِ عمَّتي وَمجيئِهَا لِلإقَامةِ فِي بَيتِنَا، تَوقَّعتُ أَنْ أَرَى إنسَانةً حَزِينةً مِن رُدودِ أَفعَالِ أمّي، لكِنّي فوجِئتُ أنَّ عمتي كانت مبتسِمة.

عندما كَبُرتُ عَرَفتُ أنَّ زوجَهَا طلَّقَها لعدمِ إنجابِها، وهِي لم تَكُنْ ناقِمةً حتَّى عليهِ، بل كَانَتْ تقُولُ فِي ثقةٍ: "الحقُّ معهُ فهُو مُحتاجٌ لِلذرِّيةِ".

أمّي كَانَتْ تُصَابُ بِارتِفَاعِ الضَّغطِ؛ لأنَّ عمَّتي لم تَكُنْ ناقِمة على زوجِها الذِي طلَّقَها، بل كَانَتْ دوماً تُردِّد كلِمتين فَقَط، وَهُمَا: "الرِّفْقُ جَوْهَرَةٌ"، لم أكن حِينَها أفهَمُهَا لكِنّي مع الوقتِ فهمتُ أن عمتي إنسانةٌ رفِيقةٌ، تربَّتْ على التِمَاسِ الأَعذَارِ، وأن الرِفقَ بِالآخرِينَ خلقٌ نتقربُ به إلى اللهِ عزَّ وجلَّ.

تَعاونَتْ مَعَ أُمّي في تَربِيَتِنَا، تَحكِي القِصَص لنا، وتساعِدُ في الرِعايةِ بِلا أيِّ تَأَفُّفٍ أو غَضَبٍ، وعِندمَا كَانَتْ أُمّي تَجرِي وَرَائِي لتضرِبَني كَانَتْ عمتي تقول لها: هذا سَندُكِ، هَلْ هَناكَ أحدٌ يضرِبُ سَنَدَهُ! فَتَتَرَاجَعَ أمّي.

طالما أحببتُ عمَّتي، رغمَ أنَّهَا من ناحيةِ الشَكلِ لم تَكُنْ جَمِيلةً، ولكِنَّها جميلةٌ الدينِ والأخلاقِ والروحِ، والمدهشُ أنَّ طَلِيقَهَا ظَلَّ عَلَى تَواصُلٍ مَعَنَا وأَرَادَ إعَادتهَا إلى عصمَتِهِ، وَكَانَ قَد أنجَبَ من زَوجةٍ أُخرَى، لكِنَّها اعتذرتْ. سمعتُه يقُولُ لها: "أُرِيدُكِ أن تُرَبِّي أَبنَائِي"، لكِنَّها ردت عليه: "اللهُ يُوفِّقُك".

[1739] الكُراعُ في الغَنَمِ والبقَرِ بمنزلةِ الوظيفِ في الفَرَسِ والبعيرِ، وهو مُستدَقُّ السَّاقِ. يُنظَر: الصحاح للجوهري 3/1275

[1740] بعيرٍ ظهيرٍ، أي: قويّ .يُنظَر: فتح الباري لابن حجر 1/152

[1741] مُثَنَّى غِرارةٍ، وهي ما يوضَعُ فيها الشَّيءُ من التِّبنِ وغيرِه. يُنظَر: عون المعبود للعظيم آبادي 8/147

[1742] نستفيءُ: مِن استفأتُ هذا المالَ، أي: أخذتُه فَيئًا، أي: نَطلُبُ الفَيءَ مِن سُهمانِها. يُنظَر: عمدة القاري لبدر الدين العيني 17/219

[1743] رواه البخاري 4160، 4161

[1744] رواه مالك 2/980

[1745] رواه معمر بن راشد في الجامع 11/ 180، وأبو داود في الزهد 232

في إحدَى الأيامِ أَصَابَ أمّي مرضٌ واحتاجتْ إلى من تُلازِمُها، وتَعتَني بِها فِي المسْتَشْفَى، فلمْ تتردَّدْ عمَّتِي لِلحظةٍ، فبادرتْ بالاهتمامِ بِها، بجانب رِعايَتِها لنا فِي البيتِ، وكَانَتْ تُرَدِّدُ دائماً هذهِ العبارةَ: "الرِّفْقُ جَوْهَرَةٌ"، وفهِمتُ أنها تعنِي الهُدُوءَ، فلا تَضرِبُ ولا تنفعِلُ ولا تُعادِي، وكَانَتْ تقُولُ: "إنَّ الإنسانَ أحوجُ مخلوقٍ إلى الرِّفقِ".

ولا أنسى إحدَى أَشْجارِ حَدِيقَتِنَا عِندما كادتْ أنْ تموتْ، فعَطَفتْ عمَّتِي عليها، واهتمَّتْ بِها حتى عَادَتْ إلى النُّمُوِّ.

عمَّتِي هي التِي علمتْنِي الصلاةَ، وأَخلَاقَ الإسلاَمِ، والعقيدةَ، والتعلُّقَ باللهِ وحدَهُ، ذاتَ مرةٍ سألتُها: أليسَ اللهَ عظيمٌ لا يحتاجُ إلى صَلاتِنَا؟ فلماذا يُرِيدُها مِنَّا؟ قالت بهدوءٍ: "الذِي يتَّصِلُ بِمَلِكِ المُلوكِ، هو الذي يَستفِيدُ أم الملكُ يا صَغِيرِي؟ نحنُ نُصلِّي مِن أَجْلِنَا، نحنُ مَن يحتاجُها".

كانَ لِي أخٌ صَوْتُهُ دائِمًا مُرتفِعٌ، فكَانَتْ تقُولُ له: "أُحِبُّ صَوتَكَ الرَّائِعَ المنخَفِضَ"، وكان يَندهشُ من قَولِها، ثم بَدَأَ يُخَفِّضُهُ.

عادتْ أُمِّي من المستشفى لِتجِدَني أُصَلِّي، وأخِي قَد كفَّ عن ارتِفاعِ الصوتِ.

رأيتُ مرةً عَمَّتِي تتأملُ صورةَ زِفافِهَا، سألتُها: هل أنتِ حزِينةٌ لأنكِ لم تُنجِبِي؟، سألتني: الإنجابُ بِيدِ من؟، قلتُ: "بيدِ الله"، قالت فِي يقِينٍ: "اللهُ لا يرِيدُ بِي إلَّا خَيرًا، لِذَا أَنَا لَسْتُ مُنزَعِجةٌ".

في الحقيقةِ، كنتُ أشعرُ فِي بعضِ الأحيانِ أنَّها مفتقِدةٌ لزوجِهَا لكَنَّها تَأْبَى الرُّجُوعَ إليه رَغْمَ إلحاحِهِ عليها بالعودةِ، لا أَنْسَى يَومَ جَاءَ إلى بيتِنا وَجَلَسَ مَعَهَا وَمَعَ أبِي وَأَعمَامِي لإقنَاعِهَا بالعودةِ إليه، كَانَ نَادِماً على الطَّلاقِ الذي كان طَلاقاً رجعِياً، قلتُ لها: "ارْجِعِي له"، قالت لي وهي تبكي: "زوجتُهُ الجديدةُ ترفضُ رجُوعَنا، لا أُرِيدُ أنْ أفرِّق بينَهُ وبينَ أطفالِهِ".

ورغمَ رفضِها المتكرر، كان لا يزال يُلِحُّ في إعادتها، حتَّى أَنَّنِي ذاتَ يومٍ سألتُهُ: لماذا كلُّ هذِهِ المحاولاتِ؟ فقال لي: "لا يُوجدُ مِثْلُهَا فِي الرِّفقِ، وَلَدَيهَا كلُّ أخلاقِ الإسْلامِ".

كنتُ ذاتَ يومٍ بجوارِها عِندمَا تلقَّتْ اتِّصالًا مِن زوجتِهِ الثانِيةِ، وهِي تصرُخُ، مُتوعِّدة: "ابعِدِي عَنْهُ"، رَدَّتْ عَمَّتِي بِرِفْقٍ: "حاضر، أبشرِي وأغلقتْ الخطَّ"، كِدْتُ أَنفَجِرَ، وسألتُها: لماذا لم تَصْرُخِي؟

قالتْ بالدُّمُوعِ: "إنها زوجةٌ خَائفةٌ على زوجِهَا".

تدهورتْ الحالةُ النفسِيةُ لِطَلِيقِ عَمَّتِي، حتَّى اضطرَّت زوجتُه إلى الاتِّصَالِ بِعمَّتِي ترجُوها العودةَ إليه، كنتُ مندهشا، أعلمُ أن عَمَّتِي كانتْ تحبُّه، وهو كذلكَ، فعِندمَا عادت إليهِ، عَادَتْ إليهِ الحياةُ، ولَكِنْ مَعَ الأسفِ كانتْ كراهيةُ الزوجةِ الثانيةِ لعمَّتِي في ازديادٍ مَعَ تحرِيضِ أولادِها عليها، وما كَانَ من عَمّتِي إلا الصَّبرُ عليهِم واحتِضانُهُم حتى تعلَّقُوا بِهَا أَكثَرَ مِن أمِّهِم، ثم تعلَّقتْ الزوجةُ الثانيةُ بعمَّتِي التِي كانت توصي زوجَهَا خيرا بِها، وكانت تَقُولُ لها: " أنتِ الودود الولود وأنا عاقر".

عمَّتِي قصةٌ من الصَّبرِ والإنسَانِيةِ المكْتَمِلةِ.. اليومُ بعدَ أن تَوَفَّاهَا اللهُ فجْأَةً أقفُ على دفنِهَا وبِجوارِي زوجُها البَاكِي، وأبناؤُهُ الثلاثةُ، وأَخِي وأتَذَكَّرُ كَلِمَاتِهَا: "الرِّفْقُ جَوْهَرَةٌ".

المطلب الرابع: أقسامُ الرِّفْقِ

- **ينقَسِمُ الرِّفْقُ بالنَّظَرِ إلى باعثِه إلى:**

1- فِطريٌّ: فالرِّفْقُ غريزةٌ بشريَّةٌ، وأمرٌ جِبلِّيٌّ في نوعِ الإنسانِ، وهو موجودٌ في داخِلِ كُلِّ أحدٍ. ومهما بدا على أقوالِ وأفعالِ الإنسانِ من سلوكٍ يتنافى مع الرِّفْقِ، إلَّا أنَّ أصلَ الرِّفْقِ كامِنٌ في إنسانيَّتِه؛ لذلك تكونُ العودةُ إليه ممكنةً غالبًا إلَّا ممَّن نزع اللهُ الرَّحمةَ مِن قَلبِه. ومِن صُورِه رِفقُ الأمِّ بوَلَدِها، وهذا ظاهِرٌ حتَّى في غيرِ نوعِ الإنسانِ.

2- مكتَسَبٍ: فالنَّاسُ متفاوتون في أخلاقِهم؛ فمنهم من يغلِبُ اللُّطفُ واللِّينُ على أحوالِه وتصرُّفاتِه، ومنهم من تغلِبُ عليه الشِّدَّةُ والغِلظةُ، وهذا الأخيرُ مأمورٌ بمجاهدةِ نفسِه وحملِها على الرِّفْقِ، والسَّيرِ على خطى المترفِّقين؛ فإنَّه إن فعل ذلك كان رِفقُه مُكتَسَبًا.

● **وينقَسِمُ الرِّفْقُ بالنَّظَرِ إلى محَلِّه إلى:**

1- ذاتيّ: أي: رِفْقِ الإنسانِ بنفسِه، وإذا كان الرِّفْقُ مطلوبًا عِندَ التَّعامُلِ مع الآخَرِ، فهو في حقِّ النَّفسِ أَولى.

2- متعَدٍّ، وهو رفقُه بالآخَرين.[1746]

● **وينقَسِمُ من حيثُ مشروعيَّتِه إلى:**

1- رفقٍ مشروعٍ، كالرِّفْقِ بالمسلِمين وبالوالِدَين، وبالزَّوجةِ والأولادِ والمرضى وغيرِهم.

2- رفقٍ ممنوعٍ، كالرِّفْقِ بالكافِرين المعتَدين، والعُصاةِ المجرِمين المتمرِّدين، والظَّلَمةِ المُعتَدين، والرِّفْقِ بالمفسِدين في الأرضِ، والرِّفْقِ بالخائنِ للأمانة خاصة في الدعوة، والرِّفْقِ بالمُسيءِ بتَركِ تأديبِه، وبالمُقَصِّرِ بتركِ محاسَبتِه، ونحوِ ذلك، كُلُّ هذا يُعَدُّ من الرِّفْقِ الممنوعِ المذمومِ.

قال ابنُ حزمٍ: „قد أثنى عليه السَّلامُ على الرِّفْقِ، وأمر بالتَّيسيرِ، ونهى عن التَّنفيرِ، وكان يتخوَّلُ بالمَوْعِظَة خوفَ المَلَلِ. وقال تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159].

وأمَّا الغلظةُ والشِّدَّةُ فإنما تَجِبُ في حدٍّ من حدودِ اللَّهِ، فلا لِينَ في ذلك للقادِرِ على إقامةِ الحَدِّ خاصَّةً"[1747].[1748]

المطلب الخامس: صُوَرُ الرِّفْقِ

1- الرِّفْقُ بالنَّفسِ في أداءِ ما فُرِض عليه:

المسلِمُ لا يُحَمِّلُ نفسَه من العبادةِ ما لا تطيقُه؛ فالإسلامُ دينُ يُسرٍ وسهولةٍ، فالمتَّبعُ له يوغِلُ فيه برِفقٍ؛ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ الدِّينَ يُسرٌ، ولن يُشادَّ[1749] الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غلبه، فسَدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا، واستعينوا بالغَدوةِ والرَّوحةِ [1750] وشيءٍ من الدُّلجةِ [1751]".[1752]

وعن عائشةَ رَضِيَ الله عنها: "أنَّ الحولاءَ بنتَ تُوَيتِ بنِ حَبيبِ بنِ أسَدِ بنِ عَبدِ العُزَّى مرَّت بها وعندها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلتُ: هذه الحولاءُ بنتُ تُوَيتٍ، وزعموا أنَّها لا تنامُ اللَّيلَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تنامُ اللَّيلَ! خذوا من العَمَلِ ما تطيقون، فواللهِ لا يسأمُ اللهُ حتَّى تسأَموا [1753]".[1754]

قال ابنُ القَيِّمِ: "نهى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن التَّشديدِ في الدِّينِ بالزِّيادةِ على المشروعِ، وأخبر صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ تشديدَ العبدِ على نفسِه هو السَّببُ لتشديدِ اللهِ عليه إمَّا بالقَدَرِ وإمَّا بالشَّرعِ؛ فالتَّشديدُ بالشَّرعِ: كما يشَدِّدُ على نفسِه بالنَّذرِ الثَّقيلِ، فيَلزَمُه الوفاءُ به، وبالقَدَرِ كفِعلِ أهلِ الوَسواسِ؛ فإنَّهم شَدَّدوا على أنفُسِهم، فشَدَّد عليهم القَدَرُ، حتى استحكم ذلك، وصار صفةً لازمةً لهم".[1755]

[1746] الرفق في السنة النبوية لحسن محمد عبه جي، ص: 63.

[1747] رسائل ابن حزم 1/ 383، 384.

[1748] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، مَوْسُوعَةُ الأخْلاقِ والسُلُوك.

[1749] المشادَّةُ في الشَّيءِ: التشَدُّدُ فيه والمغالبةُ. يُنظَر: تاج العروس للزبيدي.8/242

[1750] الغَدوةُ: البُكرةُ ما بَيْنَ صلاةِ الغَداةِ وطُلوعِ الشَّمسِ. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 15/116. الرَّوحةُ: الوَقتُ لِما بَيْنَ زوالِ الشَّمسِ إلى اللَّيلِ. يُنظَر: فتح الباري لابن الحجر 1/126

[1751] الدُّلجةُ: سَيرُ السَّحَرِ. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 2/272

[1752] رواه البخاري 39 واللفظ له، ومسلم 2816

[1753] سَئِمَ الشَّيءَ وسَئِمَ منه سآمةً: مَلَّ. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور.12/280

[1754] رواه البخاري 43، مسلم 785 واللفظ له.

[1755] إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم 1/132

ويُروى أنَّ رجلًا رأى أبا ذرٍّ رضي اللهُ تعالى عنه وهو يتبوَّأُ مكانًا، فقال له: ما تريدُ يا أبا ذرٍّ؟ فقال: "أطلُبُ موضِعًا أنامُ فيه، نفسي هذه مطيَّتي إن لم أرفُقْ بها لم تُبلِّغْني".[1756]

وقال ابنُ الجَوزيِّ: "لا ينبغي للإنسانِ أن يحمِلَ على بدَنِه ما لا يطيقُ؛ فإنَّ البَدَنَ كالرَّاحلةِ، إن لم يُرفَقْ بها، لم تَصِلْ بالرَّاكبِ".[1757]

2- الرِّفْقُ مع النَّاسِ عامَّةً:

ويكونُ بلِينِ الجانِبِ وعَدَمِ الغِلظةِ والجَفاءِ، والتَّعامُلِ بالسَّماحةِ واللُّطفِ؛ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا".[1758]

قال النَّوويُّ: „ومعنى "كونوا عبادَ اللهِ إخوانًا"، أي: تعامَلوا وتعاشَروا معاملةَ الإخوةِ ومعاشرتَهم في المودَّةِ والرِّفْقِ والشَّفَقةِ والملاطفةِ والتَّعاوُنِ في الخيرِ، ونحوِ ذلك، مع صفاءِ القلوبِ والنَّصيحةِ بكُلِّ حالٍ".[1759]

وأفضل وأولى صور الرفق مع الأهل والأرحام.

3- الرِّفْقُ بالرَّعيَّةِ:

الرَّاعي سواءٌ كان حاكمًا أو رئيسًا أو مسؤولًا، عليه أن يرفُقَ برعيَّتِه، فيقضيَ حاجتَهم، ويؤدِّيَ مصالحَهم برفقٍ؛ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „اللَّهُمَّ مَن وَلِيَ من أمرِ أمَّتي شيئًا فشَقَّ عليهم، فاشقُقْ عليه، ومَن وَلِيَ مِن أمرِ أمَّتي شيئًا فرَفَق بهم، فارفُقْ به".[1760]

وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ شَرَّ الرِّعاءِ الحُطَمةُ[1761]".[1762]

(وقد ضرب الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذا الحديثِ مَثلًا لكُلِّ راعٍ عنيفٍ، قاسٍ شديدٍ، لا رحمةَ في قلبِه على رعيَّتِه من النَّاسِ، سواءٌ أكان وليَّ أسرةٍ، أو صاحِبَ سُلطانٍ، صَغُرت دائرةُ رعيَّتِه أو كبُرت، فشَرُّ الرُّعاةِ من النَّاسِ على النَّاسِ هو الحُطَمةُ الذي لا رِفقَ عندَه، ولا رحمةَ في قَلبِه تُلينُ سياستَه وقيادتَه، فهو يقسو ويشتدُّ على رعيَّتِه، ويوسِعُهم عَسفًا وتحطيمًا، ويدفَعُهم دائمًا إلى المآزِقِ والمُحرِجاتِ، ولا يعامِلُهم بالرِّفْقِ والحِكمةِ في الإدارةِ والسِّياسةِ).[1763]

قال ابنُ عُثَيمين: "أمَّا ولاةُ الأمورِ فيَجِبُ عليهم الرِّفْقُ بالرَّعيَّةِ، والإحسانُ إليهم، واتِّباعُ مصالحِهم، وتوليةُ من هو أهلٌ للولايةِ، ودفعُ الشَّرِّ عنهم، وغيرُ ذلك من مصالحِهم؛ لأنَّهم مسؤولون عنهم أمامَ اللهِ عزَّ وجلَّ".[1764]

وقال ابنُ خَلدونَ: "إنَّ المَلِكَ إذا كان قاهِرًا باطِشًا بالعُقوباتِ مُنَقِّبًا عن عَوراتِ النَّاسِ وتعديدِ ذُنوبِهم، شَمِلَهم الخوفُ والذُّلُّ، ولاذوا منه بالكَذِبِ والمكْرِ والخديعةِ؛ فتخَلَّقوا بها، وفَسَدت بصائِرُهم وأخلاقُهم، وربَّما خذلوه في مواطِنِ الحروبِ والمدافعاتِ، ففسدت الحمايةُ بفسادِ النِّيَّاتِ، وربَّما أجمعوا على قتلِه لذلك، فتَفسُدُ الدَّولةُ، ويخربُ السِّياجُ، وإن دام أمرُه

[1756] حلية الأولياء لأبي نعيم164 /1، 165

[1757] صيد الخاطر، ص: 458

[1758] رواه البخاري 6076، ومسلم 2558

[1759] شرح النووي على مسلم 16/ 116

[1760] رواه مسلم 1828 من حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها.

[1761] الحُطَمةُ هو الرَّاعي الذي لا يمكِّنُ رعيَّتَه من المراتعِ الخَصيبةِ، ويقبِضُها ولا يَدَعُها تنتَشِرُ في المرعى. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 12/139

[1762] رواه مسلم 1830 مطوَّلًا من حديثِ عائذِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنه.

[1763] الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن الميداني 2/341 بتصرف يسير.

[1764] شرح رياض الصالحين لابن عثيمين 3/627

عليهم وقهرُه فسَدت العَصَبيَّةُ لِما قُلناه أوَّلًا، وفسد السِّياجُ من أصلِه بالعَجزِ عن الحمايةِ، وإذا كان رفيقًا بهم متجاوِزًا عن سيِّئاتِهم استناموا إليه ولاذوا به وأُشرِبوا محبَّتَه واستماتوا دونَه في محاربةِ أعدائِه؛ فاستقام الأمرُ من كُلِّ جانبٍ".[1765]

4- الرِّفْقُ في الدَّعوةِ، والنُّصحِ والمَوْعِظَة، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكَرِ بِدُونِ مُنكَرٍ:

قال سُفيانُ الثَّوريُّ: "لا يأمُرُ بالمعروفِ ولا ينهى عن المُنكَرِ إلَّا من كان فيه ثلاثُ خِصالٍ: رفيقٌ بما يأمُرُ، رفيقٌ بما ينهى، عدلٌ بما يأمُرُ، عَدلٌ بما ينهى، عالمٌ بما يأمرُ، عالمٌ بما ينهى".[1766]

وقال أبو العبَّاسِ بنُ قُدامةَ: "وأمَّا الرِّفْقُ في الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكَرِ فمتعيِّنٌ؛ قال اللهُ تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا} [طه: 44]".[1767]

وقال ابنُ تيميَّةَ: „القيامُ بالواجباتِ من الدَّعوةِ الواجبةِ وغيرِها يحتاجُ إلى شروطٍ يقامُ بها... فالفقهُ قبل الأمرِ ليَعرِفَ المعروفَ ويُنكِرَ المُنكَرَ، والرِّفْقُ عِندَ الأمرِ ليَسلُكَ أقرَبَ الطُّرُقِ إلى تحصيلِ المقصودِ، والحِلمُ بعدَ الأمرِ ليَصبِرَ على أذى المأمورِ والمنهيّ؛ فإنَّه كثيرًا ما يحصُلُ له الأذى بذلك؛ ولهذا قال تعالى: {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ} [لقمان: 17] „.[1768]

وقال أحمدُ بنُ حنبَلٍ: „يأمُرُ بالرِّفْقِ والخُضوعِ، فإن أسمَعُوه ما يكرَهُ لا يَغضَبُ؛ فيكونَ يريدُ ينتَصِرُ لنفسِه".[1769]

والدَّاعيةُ عليه أن يَرفُقَ في دعوتِه، فيُشفِقَ على النَّاسِ، ولا يَشُقَّ عليهم ولا يُنفِّرَهم من الدِّينِ بأسلوبِه الغليظِ والعنيفِ „وأولى النَّاسِ بالتَّخلُّقِ بخُلُقِ الرِّفْقِ الدُّعاةُ إلى اللهِ والمعلِّمون، فالدَّعوةُ إلى اللهِ لا تؤثِّرُ ما لم تقترنْ بخُلُقِ الرِّفْقِ في دعوةِ الخَلقِ إلى الحَقِّ، وتعليمُ النَّاسِ لا يؤتي ثمراتِه الطَّيِّباتِ ما لم يقترِنْ بخُلُقِ الرِّفْقِ الذي يملِكُ القُلوبَ بالمحبَّةِ".[1770]

قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَة الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125].

فيدعو بالحِكمةِ والمَوْعِظَة الحَسَنةِ، ويتلطَّفُ مع العاصي بكلامٍ لَيِّنٍ وبرفقٍ، ولا يعينُ الشَّيطانَ عليه.

وكان أصحابُ ابنِ مسعودٍ إذا مرُّوا بقومٍ يرون منهم ما يكرهون، يقولون: مهلًا رحمكم اللَّهُ، مهلًا رحِمَكم اللَّهُ![1771]

وقال ابنُ حزمٍ: „الائتِساءُ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في وعظِه أهلَ الجَهلِ والمعاصي والرَّذائِلِ واجِبٌ، فمَن وَعَظ بالجفاءِ والاكفهرارِ فقد أخطأ وتعدَّى طريقتَه، وصار في أكثرِ الأمورِ مُغريًا للموعوظِ بالتَّمادي على أمرِه لَجاجًا وحَرَدًا ومغايظةً للواعِظِ الجافي، فيكونُ في وعظِه مُسيئًا لا مُحْسِنًا.

ومن وَعَظ بِبِشْرٍ وَتبَسُّمٍ وَلِينٍ، وكأنَّه مُشِيرٌ بِرأْيٍ ومُخْبِرٍ عن غيرِ الموعوظِ بما يُستقبَحُ من الموعُوظِ، فَذَلِكَ أبلَغُ وأنجَعُ في المَوْعِظَة...".[1772]

5- الرِّفْقُ بالمُستفتي:

قال النَّوويُّ في آدابِ الفتوى: „إذا كان المُستفتي بعيدَ الفَهمِ فليرفُقْ به، ويصبِرْ على تفهُّمِ سؤالِه، وتفهيمِ جوابِه؛ فإنَّ ثوابَه جزيلٌ".[1773]

[1765] المقدمة 2/561

[1766] الورع لأحمد بن حنبل - رواية المروزي ص: 166

[1767] مختصر منهاج القاصدين ص: 130

[1768] مجموع الفتاوى 15/ 167

[1769] جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي 2/ 256

[1770] الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن الميداني 2/340

[1771] جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي 2/ 256

[1772] رسائل ابن حزم 1/ 383، 384

[1773] المجموع شرح المهذب 1/ 48

6- رِفقُ العالِمِ بالمتعَلِّمِ والمتعَلِّمِ بالعالِمِ:

وعن أبي سَلمةَ بنِ عبدِ الرَّحمنِ قال: „لو رفَقْتُ بابنِ عبَّاسٍ لاستخرَجْتُ منه عِلمًا كثيرًا". قال الشَّعبيُّ: „كان أبو سَلمةَ يماري ابنَ عبَّاسٍ؛ فحُرِم بذلك عِلمًا كثيرًا".[1774]

وكان في نافعٍ مولى ابن عُمَرَ حِدَّةٌ، فكان مالِكُ بنُ أنسٍ يلاطِفُه ويداريه.[1775]

وعن حَجَّاجٍ قال: „كان عَمرُو بنُ قَيسٍ المُلائيُّ إذا بلغه الحديثُ عن الرَّجلِ، فأراد أن يسمَعَه، أتاه حتى يجلِسَ بَيْنَ يديه ويخفِضَ جناحَه، ويقولَ: عَلِّمني -رحِمَك اللهُ- ممَّا علَّمك اللهُ".[1776]

7- الرِّفْقُ بالصِّغارِ والأحداثِ:

فـ „رحمةُ الولدِ الصَّغيرِ ومعانقتُه وتقبيلُه والرِّفْقُ به من الأعمالِ التي يرضاها اللهُ ويجازي عليها، ألا ترى قولَه عليه السَّلامُ للأقرَعِ بنِ حابِسٍ حينَ ذَكَر عِندَ النَّبيِّ أنَّ له عَشَرةً من الوَلَدِ ما قبَّل منهم أحدًا: "مَن لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ" [1777]، فدَلَّ أنَّ تقبيلَ الولدِ الصَّغيرِ وَحَمْلَه والتَّحفِّيَ به ممَّا يُستحَقُّ به رحمةُ اللَّهِ، ألا ترى حَمْلَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ أُمامةَ ابنةَ أبي العاصِ على عنُقِه في الصَّلاةِ [1778]، والصَّلاةُ أفضَلُ الأعمالِ عِندَ اللَّهِ، وقد أَمَر عليه السَّلامُ بلُزومِ الخشوعِ فيها والإقبالِ عليها، ولم يكُنْ حَمْلُه لها ممَّا يُضادُّ الخُشُوعَ المأمورَ به فيها، وكَرِه أن يَشُقَّ عليها لو تركها ولم يحمِلْها في الصَّلاةِ.

وفي فِعلِه عليه السَّلامُ ذلك أعظَمُ الأُسوةِ لنا؛ فينبغي الاقتداءُ به في رحمتِه صِغارَ الوَلَدِ وكِبارَهم، والرِّفْقِ بهم".[1779]

وقال عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ حَنبَلٍ: سمِعتُ أبي يقولُ: „الأحداثُ يُرفَقُ بهم".[1780]

وقبيحٌ جِدًّا أن يَغفُلَ المُربُّونَ عن الرِّفْقِ بالصِّغارِ والتَّلطُّفِ بهم في الوقتِ الذي توجِّهُ فيه السُّنَّةُ جَمعٍ من الأحاديثِ النَّبويَّةِ إلى الرِّفْقِ بالحيوانِ ورحمتِه![1781]

8- الرِّفْقُ بالخادِمِ والمملوكِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ للهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "للمملوكِ طعامُه وكِسوتُه، ولا يُكَلَّفُ من العَمَلِ إلَّا ما يُطيقُ".[1782]

قال الشِّنقيطيُّ: „فأوجب على مالكيهم الرِّفْقَ والإحسانَ إليهم، وأن يُطعِموهم ممَّا يَطعَمون، ويَكسوهم ممَّا يَلبَسون، ولا يُكَلِّفوهم من العَمَلِ ما لا يُطيقون، وإن كلَّفوهم أعانوهم؛ كما هو معروفٌ في السُّنَّةِ الواردةِ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع الإيصاءِ عليهم في القرآنِ".[1783]

عن أبي مسعودٍ البَدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: „كُنتُ أضرِبُ غُلامًا لي بالسَّوطِ، فسَمِعتُ صوتًا مِن خَلفي: اعلَمْ أبا مسعودٍ. فلم أفهَمِ الصَّوتَ من الغَضَبِ، قال: فلمَّا دنا منِّي إذا هو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فإذا هو يقولُ: اعلَمْ أبا مسعودٍ،

[1774] يُنظَر: أخلاق حملة القرآن للآجري ص: 96، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 1/ 521، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي 209 /1

[1775] سير أعلام النبلاء للذهبي 5/ 98

[1776] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي 1/ 210

[1777] أخرجه البخاري 5997، ومسلم 2318 من حديثِ أبي هُرَيرةَ.

[1778] أخرجه البخاري 516، ومسلم 543

[1779] شرح صحيح البخاري لابن بطال 9/ 211، 212

[1780] مسائل الإمام أحمد - رواية ابنه عبد الله ص: 448

[1781] عقوبة التلاميذ البدنية لعدنان باحارث 89

[1782] رواه مسلم 1662

[1783] أضواء البيان للشنقيطي 3/30

اعلَمْ أبا مسعودٍ. قال: فألقَيتُ السَّوطَ مِن يدي، فقال: اعلَمْ أبا مسعودٍ أنَّ اللَّهَ أقدَرُ عليك منك على هذا الغُلامِ. قال: فقُلتُ: لا أضرِبُ مملوكًا بعدَه أبدًا".[1784]

„فيه الحثُّ على الرِّفْقِ بالمملوكِ".[1785]

ويُروى أنَّ أبا هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه رأى رجلًا راكبًا وغلامُه يمشي خَلْفَه، فقال: „يا عبدَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ؛ إنَّما هو أخوك، رُوحُك مثلُ رُوحِه، احمِلْه"، فحَمَلَه.[1786]

9- الرِّفْقُ في طَلَبِ الحُقوقِ ودَفعِها:

عن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: „رَحِم اللهُ رجلًا سَمحًا إذا قضى، وإذا اقتضى".[1787]

قال العِزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ: „الرِّفْقُ في الطَّلبِ والدَّفعِ من الإحسانِ المطلوبِ شَرعًا؛ لِما فيه من البِرِّ وتأليفِ القلوبِ".[1788]

10- الرِّفْقُ أثناءَ السَّفَرِ:

قال النَّوويُّ في آدابِ السَّفَرِ: „ينبغي له أن يستعمِلَ الرِّفْقَ وحُسنَ الخُلُقِ مع الغلامِ والجِمالِ والرَّقيقِ والسَّائِلِ وغيرِهم، ويتجَنَّبَ المخاصمةَ والمخاشنةَ، ومزاحمةَ النَّاسِ في الطُّرُقِ ومواردِ الماءِ إذا أمكنه ذلك، وأن يصونَ لسانَه من الشَّتمِ والغِيبةِ ولَعْنَةِ الدَّوابِّ وجميعِ الألفاظِ القبيحةِ، ويَرفُقَ بالسَّائِلِ والضَّعيفِ، ولا ينهَرَ أحدًا منهم ولا يوبِّخَه على خروجِه بلا زادٍ وراحلةٍ، بل يواسِيه بما تيسَّر، فإن لم يفعَلْ رَدَّه ردًّا جميلًا. ودلائِلُ هذه المسائِلِ مشهورةٌ في القرآنِ والأحاديثِ الصَّحيحةِ وإجماعِ المسلِمين".[1789]

11- الرِّفْقُ بالغريمِ:

عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها قالت: „سمِعَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صوتَ خُصومٍ بالبابِ عاليةٍ أصواتُهما، وإذا أحدُهما يستوضِعُ الآخَرَ، ويسترفِقُه في شيءٍ، وهو يقولُ: واللهِ لا أفعَلُ. فخرج عليهما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: أين المتألِّي على اللهِ لا يفعَلُ المعروفَ؟! فقال: أنا يا رسولَ اللَّهِ، وله أيُّ ذلك أحَبَّ".[1790]

قال ابنُ حَجَرٍ: „في هذا الحديثِ: الحَضُّ على الرِّفْقِ بالغريمِ، والإحسانِ إليه بالوضعِ عنه".[1791]

12- الرِّفْقُ بالميِّتِ:

قال عطاءٌ: "حضَرْنا مع ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما جنازةَ ميمونةَ بسَرِفَ، فقال ابنُ عبَّاسٍ: هذه زوجةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فإذا رفَعْتُم نَعْشَها فلا تُزَعزِعوها، ولا تُزَلزِلوها، وارفُقوا ..." الحديث.[1792]

قال ابنُ حَجَرٍ: „قولُه: "وارفُقوا" إشارةٌ إلى أنَّ مرادَه السَّيرُ الوَسَطُ المعتَدِلُ، ويستفادُ منه أنَّ حُرمةَ المُؤمِنِ بعدَ موتِه باقيةٌ كما كانت في حياتِه".[1793]

[1784] أخرجه مسلم 1659

[1785] شرح النووي على مسلم 11/ 130

[1786] سنن الصالحين وسنن العابدين لأبي الوليد الباجي ص: 355

[1787] أخرجه البخاري 2076 بلفظ: رَحِم اللهُ رجُلًا سَمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى.

[1788] شجرة المعارف والأحوال ص: 190

[1789] المجموع شرح المهذب 4/ 394

[1790] أخرجه البخاري 2705 ومسلم 1557

[1791] فتح الباري 5/ 308

[1792] أخرجه البخاري 5067، ومسلم 1465

[1793] فتح الباري 9/ 113

13- الرِّفْقُ بالحيوانِ:

فمِن الرِّفْقِ بالحيوانِ أن تدفعَ عنه أنواعَ الأذى، كالعَطَشِ والجوعِ والمَرَضِ، والحِمْلِ الثَّقيلِ؛ فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: „بينا رجُلٌ يمشي، فاشتَدَّ عليه العَطَشُ، فنَزَل بِئرًا، فشَرِب منها، ثمَّ خرج فإذا هو بكَلبٍ يلهَثُ يأكُلُ الثَّرَى من العطَشِ، فقال: لقد بلغَ هذا مِثلُ الذي بلَغ بي، فملأَ خُفَّه، ثمَّ أمسَكَه بفيه، ثمَّ رَقِيَ، فسقى الكَلبَ؛ فشَكَر اللهُ له، فغفَر له، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وإنَّ لنا في البهائِمِ أجرًا؟ قال: في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبةٍ أجرٌ“.[1794]

وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: „مرَّ ابنُ عُمَرَ بفتيانٍ من قُرَيشٍ قد نصَبوا طيرًا وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحِبِ الطَّيرِ كُلَّ خاطئةٍ من نَبْلِهم، فلمَّا رأوا ابنَ عُمَرَ تفرَّقوا، فقال ابنُ عُمَرَ: من فعَل هذا؟! لعَن اللهُ مَن فَعَل هذا! إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَعَنَ من اتَّخَذَ شيئًا فيه الرُّوحُ غَرَضًا[1795]“[1796].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إذا سافَرْتُم في الخِصبِ فأعطوا الإبِلَ حَظَّها من الأرضِ، وإذا سافَرْتُم في السَّنةِ فأسرِعوا عليها السَّيرَ ..." الحديث.[1797]

قال النَّوويُّ: „معنى الحديثِ: الحَثُّ على الرِّفْقِ بالدَّوابِّ ومراعاةُ مصلحتِها، فإن سافروا في الخِصبِ قلَّلوا السَّيرَ، وتركوها ترعى في بعضِ النَّهارِ وفي أثناءِ السَّيرِ، فتأخُذُ حَظَّها من الأرضِ بما ترعاه منها، وإن سافروا في القَحْطِ عَجَّلُوا السَّيرَ؛ ليصِلُوا المقصِدَ وفيها بقيَّةٌ من قوَّتِها، ولا يُقَلِّلوا السَّيرَ فيَلحَقَها الضَّرَرُ؛ لأنَّها لا تجِدُ ما ترعى فتَضعُفُ ...“.[1798]

ومن الرِّفْقِ بها، تَرْكُ وَسْمِ[1799] الحيواناتِ في الوَجْهِ، وضَربِها على الوَجْهِ؛ فعن جابرٍ رَضِيَ الله عنه قال: „نهى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الضَّربِ في الوَجهِ، وعن الوَسْمِ في الوَجهِ“.[1800]

ومن الرِّفْقِ بالحيوانِ الرِّفْقُ به حتى عِندَ إزهاقِ رُوحِه؛ فعن شَدَّادِ بنِ أَوسٍ رَضِيَ الله عنه قال: ثِنْتانِ حَفِظْتُهما عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: „إنَّ اللهَ كَتَبَ الإحْسَانَ على كُلِّ شيءٍ، فإذا قَتَلْتُم فأحسِنوا القِتْلةَ، وإذا ذبَحْتُم فأحسِنوا الذِّبحَ، ولْيُحِدَّ أحَدُكم شَفْرَتَه، فلْيُرِحْ ذَبيحتَه“.[1801]

المطلب السادس: حُكْمُ الرِّفْقِ

الرِّفْقُ فَضيلةٌ وأدَبٌ، وخَصلةٌ من خصالِ الخَيرِ يُستَحَبُّ التَّخلُّقُ بها، فحُكمُ الرِّفْقِ النَّدبُ والاستحبابُ، وهذا الحُكمُ من حيثُ العُمومُ، أمَّا إذا كان التَّعامُلُ بالرِّفْقِ يُحَقِّقُ مصلحةً، وتركُه يحَقِّقُ مَفسدةً، أو يفوِّتُ مَقصَدًا شرعيًّا، أو هو مَظِنَّةٌ لذلك، فحُكمُه حينئذٍ الوجوبُ. وأمَّا إذا كان التَّعامُلُ بالرِّفْقِ يجلِبُ مفسدةً، أو يُفَوِّتُ مقصَدًا شرعيًّا، فهو ممنوعٌ، وحُكمُه التَّحريمُ.[1802]

المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على اكتسابِ صِفةِ الرِّفْقِ

1- العِلمُ بالفوائِدِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ المترتِّبةِ على الرِّفْقِ.

2- مجاهَدةُ النَّفسِ على التَّحلِّي بمكارِمِ الأخلاقِ؛ فالرِّفْقُ في الأمورِ ثمَرةٌ لا يُثمِرُها إلَّا حُسنُ الخُلُقِ.

[1794] رواه البخاري 2363 واللفظ له، ومسلم.2244

[1795] الغَرَضُ: هَدَفٌ يُرمى فيه. يُنظَر: تاج العروس للزبيدي.18/451

[1796] رواه مسلم.1958

[1797] رواه مسلم.1926

[1798] شرح النووي على مسلم 13/ 69

[1799] يقال: وَسَمَه يَسِمُه وَسمًا، وسِمَةً: إذا أثَّر فيه بكَيٍّ. يُنظَر: تاج العروس للزبيدي 45 /34

[1800] رواه مسلم 2116

[1801] رواه مسلم 1955

[1802] يُنظَر :الرفق في السنة النبوية لحسن محمد عبه جي ص: 56

3- أن يَعلَمَ أنَّ في الرِّفْقِ امتثالًا لما جَاءَ به الشَّرعُ واقتداءً برَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.
4- مُطالعةُ سِيرةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والسَّلَفِ الصَّالحِ.
5- أن يستحضِرَ العَبدُ أنَّه كما يُحِبُّ أن يُرفَقَ به ينبغي أن يَرفُقَ بالنَّاسِ.

المطلب الثامن: ثَمَراتُ الرِّفْقِ

1- الرِّفْقُ طريقٌ موصِّلٌ إلى الجنَّةِ.
2- دليلُ كمالِ الإيمانِ وحُسنِ الإسلامِ.
3- يُثمِرُ محبَّةَ اللهِ ومحبَّةَ النَّاسِ.
4- ينَمّي روحَ المحبَّةِ والتَّعاونِ بَيْنَ النَّاسِ.
5- دليلٌ على صلاحِ العبدِ وحُسنِ خُلُقِه.
6- بالرِّفْقِ ينشَأُ المجتمعُ سالمًا من الغِلِّ والعنفِ.
7- عنوانُ سَعادةِ العبدِ في الدَّارينِ.
8- الرِّفْقُ يُزينُ الأشياءَ.
9- الرِّفْقُ بالحيوانِ في إطعامِه، أو ذبحِه: من مظاهِرِ الإحسانِ.
10- الرِّفْقُ دليلٌ على فِقْهِ الرَّفيقِ وأناتِه وحِكمتِه.
11- الرِّفْقُ يَنتُجُ منه حُسنُ الخُلقِ.
12- بالرِّفْقِ تُوطَّدُ العلاقاتُ وتقوى الأواصِرُ.
13- بالرِّفْقِ يصِلُ الإنسانُ إلى غايتِه، وتتيسَّرُ له الأمورُ.
14- الرِّفْقُ يَكسِبُ الرَّاحةَ والطُّمأنينةَ، والرَّزانةَ والحِلْمَ.

المطلب التاسع: أخطاءٌ شائعةٌ

1- قد يُظَنُّ أنَّ الرِّفْقَ بالنَّفسِ يُلبِّي لها ما تريدُه من شهَواتِها، أو أنَّ الرِّفْقَ بالنَّاسِ يَأْتِي إليهم ما يشتَهون، وهذا خطَأٌ.
قال ابنُ عُثَيمين: „قد يظُنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّ معنى الرِّفْقِ أن تأتيَ للنَّاسِ على ما يشتهون ويريدون، وليس الأمرُ كذلك، بل الرِّفْقُ أن تسيرَ بالنَّاسِ حَسَبَ أوامرِ اللهِ ورَسولِه، ولكِنْ تسلُكُ أقرَبَ الطُّرُقِ وأرفَقَ الطُّرُقِ بالنَّاسِ".[1803]
2- قد يُظَنُّ أنَّ الرِّفْقَ يكونُ مُطلَقًا بلا ضوابِطَ ولا مراعاةٍ للمصالحِ والمفاسِدِ، وهذا خطأٌ، فالرِّفْقُ له ضوابطُ؛ منها:
- أن يكونَ الرِّفْقُ لِينًا من غيرِ ضَعفٍ؛ فاللِّينُ مع الضَّعفِ عَجزٌ.
- أن يكونَ الرِّفْقُ تيسيرًا في الدِّينِ من غيرِ تفريطٍ فيه، فليس من الرِّفْقِ دعوةُ النَّاسِ إلى التَّساهُلِ في الدِّينِ، والعُدُولِ عن السَّبيلِ القَويمِ، وليس منه أيضًا التَّسامُحُ مع من يترُكُ المأمُوراتِ، أو يَقتَرِفُ المحظُوراتِ، أو يُعَطِّلُ الحدودَ أو يتهاوَنُ فيها؛ لِما في ذلك من إثمٍ كبيرٍ.
- أن يُستعمَلَ الرِّفْقُ في موضِعِه استعمالًا حكيمًا: فالعُنفُ في محَلِّه حَسَنٌ، كما أنَّ الرِّفْقَ في محَلِّه حَسَنٌ. قال سفيانُ لأصحابِه: „تدرون ما الرِّفْقُ؟ قالوا: قلْ يا أبا محمَّدٍ، قال: أن تضَعَ الأمورَ في مواضِعِها؛ الشِّدَّةُ في موضِعِها، واللِّينُ في موضِعِه، والسَّيفُ في موضِعِه، والسَّوطُ في مَوضِعِه".
- „الرِّفْقُ من العَبدِ لا يُنافِي الحَزمَ، فيَكُونُ رفيقًا في أمورِه متأنِّيًا، ومع ذلك لا يفوِّتُ الفُرَصَ إذا سنَحَتْ ولا يُهمِلُها إذا عَرَضَتْ".[1804]

المطلب العاشر: مسائل متفرقة

• أَثَرُ البِيئَةِ عَلَى طِبَاعِ الإِنْسَانِ

يَكْبُرُ الإِنْسَانُ وَقَدْ انْطَبَعَتْ فِيهِ صِفَاتٌ طَبِيعِيَّةٌ، فَتَجِدُهُ سَرِيعَ الغَضَبِ، لَدَيْه عَجَلَةٌ أَوْ قَسْوَةٌ، وَقَدْ تَجِدُهُ رَفِيقًا، لَيِّنًا، مُتَأَنِّيًا، وَمَا إِلَى ذَلِكَ منْ الصِّفَاتِ الَّتِي يَكْتَسِبُهَا فِي الغَالِبِ مِنْ البِيئَةِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا.
وَهُنَاكَ بَعْضُ البِيئَاتِ فِيهَا مِنْ الشِّدَةِ وَالخُشُونَةِ وَسُوءِ الطِّبَاعِ مَا يَحتَاجُ إِلَى اجْتِثَاثٍ، وَهُنَاكَ بِيئَاتٌ أُخْرَى: الرِّفْقُ خُلُقُهَا، وَاللينُ سَمْتُهَا وَهِيَ حُجَةٌ عَلَى غَيْرِهَا. وَالسُّؤَالُ الَذي يَطرَحُ نَفسَهُ الآنَ:

• هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُغَيِّرَ الإِنْسَانُ مِنْ طِبَاعِهِ؟

لَا شَكَّ أَنَّ الكَثِيرَ مِن الطِّبَاعِ الَّتِي يتَمَيَزُ بِهَا الإِنْسَانُ هِيَ فِي الحَقِيقَةِ مُكْتَسَبَةٌ وَمتَعَلَّمَةٌ، وَتُوجَدُ بَعضُ الصِّفَاتِ القَلِيلَةِ الَّتِي تَكُونُ سِمَةً لَازِمةً لِلشَّخصيَّةِ، أَيْ أَنَّ الوِرَاثَةَ أَو الجِينَاتِ الوِرَاثِيَّةِ لَعِبَتْ دَوْراً فِيهَا، وَبِمَا أَنَّ الشَّيءَ المتَعَلَّمَ أَو المُكْتَسَبَ يُمكِنُ أَن يُفقَدَ، فَبِنَاءً عَلَى هَذا المبدءِ يُمْكِنُ للإِنسَانِ أَنْ يغيِّرَ مِنْ طِبَاعِهِ وَمِنْ صِّفَاتِهِ خَاصَّةً السَّيِّئَةَ مِنْهَا، وفِي الوَقتِ نَفسِهِ يَسْعَى لتوطِيدِ وَتَقوِيَةِ الصِّفَاتِ الحَمِيدَةِ.

وَعَلَى الإِنسَانِ أَن يُدرِكَ وَيَعرِفَ الطِّبَاعَ أو الصِّفَاتِ غَيرِ الْمَحْمُودَةِ فِيهِ وَيَعتَرِفَ بِهَا، لأَنَّه حِينَ يَقبَلُهَا وَيَفهَمُهَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يغَيِّرَهَا، وَذَلِكَ بالبَحْثِ عَن مُضَادَّاتِهَا، وَكَمَا يُقَالُ: "إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَد خَلَقَ الدُّنيَا بِثُنَائِيَّةٍ عَجِيبةٍ، فَلِكُلِّ شَيْءٍ ضِدُّهُ إِلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ."
وَلِذَلِكَ لَا يَحِقُّ لأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خُلِقْتُ هَكَذَا وَلَا أَسْتَطِيعُ أَن أَتَغيَّرَ؛ لأَنَّ الإِيمَانَ حِينَ تخَالِطُ بشَاشَتُه القُلوبَ تَتَغَيَّرُ

[1803] شرح رياض الصالحين لابن عثيمين 3/634
[1804] توضيح الكافية الشافية للسعدي ص: 192

الأَخلَاقُ، وَخَيرُ مثَالٍ على ذَلكَ، هُو الفَاروقُ عمَرُ بنِ الخطَابِ رَضي الله عَنه، فَقَد كَانَ جَبَّارًا، وَمن أَكثرَ النَّاسِ شِدَّةً في الجاهِليةِ، ولكن بعدَمَا استقَرَّ الإيمانُ قلبَه، لانتْ طباعُهُ وصارَ من أرفقِ النَّاسِ وألينِهِم، بلْ إنه لم يمُتْ إلَّا وفي خدَيْهِ آثارُ خَطَّينِ أسْوَدَينِ من كثرةِ البُكَاءِ.

وبما أن الرِّفقَ أحدُ أسبَابِ قَبُولِ النَّاسِ الحقَّ، فقد قَبِلُوه من رسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه، لرفقِهِ بِهِم ولينِ جانبِهِ مَعَهُم، والدَّليلُ عَلَى ذَلِكَ، قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ} [آل عمران: 159].

قَالَ الحسنُ البَصْرِيّ: "هذا خُلُقُ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، بَعَثَهُ اللهُ بهِ".

أحيَانًا قَد يَسأَلُ البعضُ: لماذَا أولَادِي أَو طُلَّابِي لا يَقبلُونَ مِنِّي الحقَّ؟ والجوابُ بوُضُوحٍ وبمُنتَهَى الدِّقَّةِ لِأَنَّك تُقَدِّمُ الحقَّ في قَالبِ الحدَّةِ والشِّدَّةِ والعُنفِ، ولو أَنَّكَ قَدَّمْتَهُ في قالبٍ جميلٍ لَقَبِلُوهُ مِنْك؛ ولذلكَ عندمَا يَتَرَفَّقُ الدَّاعِي بالمدعُوِّ يستطيعُ أن يأسِرَهُ، فلا يكْفِيهِ أنْ يكونَ الحقُّ مَعَه بل عليه أن يُقَدِّمَه بأسلوبٍ يحبِّبُ المدْعُوَّ في هذا الحقِّ الذي يحمِلُه، يَقُولُ تعالى لمُوسَى وهارونَ وهما ذاهِبَانِ إلى فِرعَونَ: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: 44].

وَلذلكَ مِنْ أَسْبَابِ فَشَلِ دعوةِ البعضِ، أنَّ القالبَ الذي قَدَّمَ فيه دَعوَتَهُ ليسَ نَبَوِيًّا، ومن ثَمَّ لا تَسْتَغرِبَ إذا وجَدْتَ دَاعِيةً لم يُسلِمْ على يديهِ أحدٌ منذُ عَشَراتِ السِّنِين؛ والسَّبَبُ فِي ذَلِكَ يَعُودُ إلى خُشُونَتِه وعَدَمِ صَبرِه على المدْعُوِّينَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَنَطُّعَ والتَّشَدُّدَ دِينُ الجُهَّالِ والصِّبْيَةِ.

أيضًا هُنَاكَ أَمْرٌ وَجَبَ عَلَى الدُّعَاةِ التَّنبيهُ إلَيهِ، وَهُوَ ضَرُورةُ التفرقةِ بين المُدَارَاةِ وبين المدَاهَنَةِ، قالَ ابنُ حجرٍ في الفَتحِ نَقلاً عَن القُرطُبي: "والفرقُ بين المداراةِ والمداهنةِ أن المُدَارَاةَ بَذْلُ الدُّنيَا لِصَلاحِ الدُّنيَا أو الدِّينِ أو هُما مَعاً، وَهِيَ مُباحَةٌ وربما اسْتُحِبَّتْ. والمداهنةُ تركُ الدِّينِ لِصَلاحِ الدُّنيا".

وَفِي الصَّحِيحَينِ عن عائشةَ رَضِي اللهُ عنها: "أنَّ رجلاً اسْتَأْذنَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم، فلمَّا رآهُ قَالَ: بِئْسَ أخُو العَشِيرةِ وبِئْسَ ابنُ العَشِيرةِ، فلمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فِي وَجْهِهِ وانْبَسطَ إليه! فَلَمَّا انطَلَقَ الرَّجلُ، قَالَتْ لَهُ عَائِشةُ: يا رسُولَ اللهِ حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ، قلتَ له كذا وكذا، ثم تَطلَّقتَ في وجهِهِ وانبسَطْتَ إليه، فَقَالَ رسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا عائشةُ مَتَى عَهدْتِنِي فَحَّاشاً؟! إنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ منزلةً يومَ القِيَامةِ مَن تركَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ".[1805]

فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَارَى الرَّجُلَ رَغمَ تَضَجُّرِه منه حينَ استأذنَ عليه، لكنَّه لَمْ يُداهنْهُ، وإنَّمَا بذَلَ له من دُنياهُ حُسْنَ عشرَتِهِ، والرِّفقَ في مُكَالمتِهِ، وَمَعَ ذَلكَ فَلَمْ يمْدَحْهُ بقولٍ، ولم يُنَاقِضْ قَوْلُه فِيهِ فِعلَه، فإنَّ قولَهُ فيه قولُ حَقٍّ وفعلَهُ معه حُسْنُ عِشْرَةٍ.

ولذلِكَ فإنَّ مُداراةَ المدعُوِّينَ رَجَاءَ نَجَاتِهِم مِن النَّارِ كَانَ من فِعْلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومِنْ هَدْيِهِ.

- **<u>العَطَاءُ ليسَ مالًا فَحَسْبُ:</u>**

لَا يَظُنُّ البعضُ أنَّ العَطَاءَ مالٌ فَحَسْبُ، وإنَّمَا قد يكونُ عطاءُ اللهِ لك هُو خُلُقٌ كَخلقِ الرِّفقِ فتكونُ مِّمن يتفَنَّنُ في انتِقَاءِ أطايبِ الكَلامِ وألطَفِهِ، وَمَا يعقُبُ ذَلِكَ مِن مَحَبَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ ثُمَّ مَحبَّةِ النَّاسِ، فَعَنْ أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "مَن أُعطيَ حَظَّه من الرِّفْقِ فقد أعطِيَ حَظَّه من الخيرِ، ومَن حُرِم حَظَّه من الرِّفْقِ حُرِم حَظَّه من الخيرِ". [1806]

[1805] صحيح البخاري 6032

[1806] أخرجه الترمذي 2013 واللفظ له، وأحمد 27553 أوله في أثناء حديث.

وفي هذا الحَديثِ يقولُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: "مَن أُعطِيَ حظَّه مِن الرِّفقِ"، أي: نَصيبَه من اللُّطفِ واللِّينِ، والسَّماحَةِ في تَعامُلِه مع النَّاسِ؛ فقد أُعطِيَ حَظَّه مِن الخيرِ، "ومَن حُرِم حظَّه مِن الرِّفقِ"، أي: مُنِع نَصيبَه مِن اللُّطفِ واللِّينِ، والسَّماحَةِ في تَعامُلِه مع النَّاسِ، "فقد حُرِم حظَّه مِن الخيرِ"؛ فبِه تُدرَكُ الدُّنيا والآخرةُ، وبِفَوتِه يَفوتانِ؛ لأنَّ عَكْسَه العُنفُ، وهو أمرٌ غيرُ محمودٍ، ولا يَحصُلُ به خيرٌ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، فمَن أعطاه اللهُ الرِّفقَ فَلْيَحمَدِ اللهَ على ما أعطاه مِن الخيرِ؛ إذ بالرِّفقِ تُنالُ المطالِبُ الأُخرويَّةُ والدُّنيويَّةُ، وبفَوتِه يفوتانِ".

وفي الحديثِ: الحثُّ على الرِّفقِ، وأنَّه أقصرُ الطُّرقِ للوُصولِ إلى الخيرِ.

- **الرفق لا يعني المداهنة:**

إن القول اللين والرفق والمداراة لا يعني المداهنة التي هي إخفاء الحق والرضا بالباطل، قال ابن بطال رحمه الله: „وقد ظن من لم يمعن النظر أن المداراة هي المداهنة، وذلك غلط، لأن المداراة مندوب اليها والمداهنة محرمة، والفرق بينهما بين، وذلك أن المداهنة اشتق اسمها من الدهان الذى يظهر على ظواهر الأشياء ويستر بواطنها، وفسرها العلماء فقالوا: المداهنة هي أن يلقى الفاسق المصر فيؤالفه ويؤاكله، ويشاربه، ويرى أفعاله المنكرة ويريه الرضا بها ولا ينكرها عليه ولو بقلبه وهو أضعف الإيمان، فهذه المداهنة التي برأ الله عز وجل منها نبيه -عليه السلام- بقوله: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} القلم: ٩]، والمداراة هي الرفق بالجاهل الذي يستتر بالمعاصي ولا يجاهر بالكبائر، والمعاطفة في رد أهل الباطل إلى مراد الله بلين ولطف حتى يرجعوا عما هم عليه"[1807].

وكما أنه من الحكمة استعمال اللين في معاشرة المؤمنين، وفي مقام الدعوة للكافرين، فمن الحكمة استعمال الغلظة في موضعها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التحريم: ٩]، لأن المقام هنا مقام لا تفيد فيه الدعوة، بل قد تعين فيه القتال، فالغلظة فيه من تمام القتال، وقد جمع الله بين الأمرين في قوله في وصف خواص الأمة: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: ٢٩]".[1808]

المطلب الحادي عشر: أهمية الرفق واللين في الدعوة

إن الرفق ولين الجانب بالقول والفعل صفة لا بد وأن يتصف بها من أراد الخير لغيره، وأسلوب لا بد وأن يسلكه الداعية مع مدعويه؛ وذلك لأن الله تعالى جبل نفوس الخلق على قبول الحق ممن جاء به بلين ورفق، وعلى النفرة من الغلظة والشدة وإن جاء بها صاحب الحق، وقد وصف الله نبيه بلين القول والرفق، وبين أنه لو كان فظا غليظا لانفض الناس من حوله، ولما قبلوا الحق الذي جاءهم به؛ وذلك „لأن الفظاظة هي الشراسة والخشونة في المعاشرة، وهي القسوة والغلظة، وهما من الأخلاق المنفرة للناس؛ لا يصبرون على معاشرة صاحبها؛ وإن كثرت فضائله، ورجيت فواضله، بل يتفرقون ويذهبون من حوله ويتركونه وشأنه لا يبالون ما يفوتهم من منافع الإقبال عليه، والتحلق حواليه"[1809]؛ قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩].

جاءت النصوص الشرعية المتكاثرة بالحث على اللين والرفق والأمر به، ومن ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه".[1810]

(اللهُمَّ اجعلْ الرفقَ لنا خُلقًا وَسَجِيَّة)

[1807] شرح صحيح البخاري، لابن بطال، 306/9

[1808] تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير الأحكام، لابن سعدي ص 312

[1809] تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا 163/4

[1810] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق 2593

المبحث العاشر: الحِلم

المطلب الأول: معنى الحلم

- **الحِلمُ لُغةً:**

الحِلمُ -بالكَسرِ-: خِلافُ الطَّيشِ، وجَمعُه: أحلامٌ وحُلومٌ، يُقالُ: حلُمْتُ عنه أحلُمُ حِلمًا، فأنا حَليمٌ، وحَلُم: صفَح وستَر. والحِلمُ: العَقلُ، وليس الحِلمُ في الحقيقةِ العَقلَ، لكن فسَّروه بذلك؛ لكونِه مِن مُسبِّباتِ العَقلِ، ويقال لأصحاب العقول: أصحاب الأحلام، أو أولو الأحلام، ويقال له: النُّهى، ويقال له: اللب.[1811]

- **الحِلمُ اصطِلاحًا:**

عُرِّفَ الحِلمُ بعدَّةِ تَعريفاتٍ؛ منها:

1- أنَّه „ضَبطُ النَّفسِ والطَّبعِ عن هَيَجانِ الغَضبِ".[1812]

2- وقيل: هو „احتِمالُ أذى الخَلقِ".[1813]

3- وقيل هو: „الطُّمأنينةُ عندَ سَورةِ الغَضبِ".[1814]

4- „وقيل: تأخيرُ مُكافأةِ الظَّالِمِ".[1815]

المبحث الثاني: الترغيب في الحلم والحث عليه

أ. الحلم في القرآن الكريم:

وردَت آياتٌ قرآنيَّةٌ كثيرةٌ تُشيرُ إلى صفةِ الحِلمِ، ووصَف اللهُ نَفسَه بالحِلمِ، وسمَّى نَفسَه الحَليمَ، وهو يَغْدِقُ على عِبادِهِ نِعَمَهُ الظاهرة والباطنة، وهم يُعَجِّلونه بالمعاصي، ويخالفون أوامره فيمهلهم ويحلم ولا يعجل عليهم العقوبة، قال تعالى: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: 44]. وقال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [البقرة: 235].

ووردَت آياتٌ تدعو المُسلِمينَ إلى التَّحلِّي بهذا الخُلقِ النَّبيلِ، وعَدمِ المُعامَلةِ بالمِثلِ، ومُقابَلةِ الإساءةِ بالإساءةِ، والحثِّ على الدَّفعِ بالتي هي أحسَنُ، والتَّرغيبِ في الصَّفحِ عن الأذى والعَفوِ عن الإساءةِ.

1- قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: 133- 134].

قال ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ قولِه تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}: „أي: لا يُعْمِلُونَ غَضبَهم في النَّاسِ، بل يكُفُّونَ عنهم شرَّهم، ويحتسِبونَ ذلك عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

ثمَّ قال تعالى: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} أي: معَ كفِّ الشَّرِّ يَعْفُونَ عمَّن ظَلَمَهُم في أنفُسِهم، فلا يَبْقَى في أَنْفُسِهم مَوجِدةٌ على أحدٍ، وهذا أكمَلُ الأحوالِ؛ ولهذا قال: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، فهذا مِن مقاماتِ الإحسانِ".[1816]

[1811] مقاييس اللغة لابن فارس، لسان العرب لابن منظور، المصباح المنير للفيومي، تاج العروس للزبيدي.

[1812] المفردات للراغب ص: 253

[1813] مجموع الفتاوى لابن تيمية 71 /16

[1814] التعريفات للجرجاني ص: 92

[1815] المصدر السابق.

2- وقال عزَّ وجلَّ: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199]، „والأمرُ بالإعراضِ عن الجاهِلينَ حضٌّ على التَّخلُّقِ بالحِلمِ، والتَّنزُّهِ عن مُنازَعةِ السُّفَهاءِ، وعلى الإغضاءِ عمَّا يسوءُ".[1817]

ب. الحلم في السنة النبوية:

1- قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأَشَجِّ عبدِ القيسِ: „إنَّ فيك لَخَصلتَينِ يُحبُّهما اللهُ: الحِلمُ والأناةُ".[1818]

قولُه: „الحِلمُ والأناةُ"، „الحِلمُ": تأخيرُ مُكافأةِ مَن ظلَمك، هذا هو الأصلُ، ويُستعمَلُ في العَفوِ عن الذَّنبِ. وقيل: الحِلمُ هنا هو العَقلُ.[1819]

ودلَّ الحديثُ على التَّرغيبِ في التَّخلُّقِ بهاتَينِ الخَصلتَينِ "الحِلمِ والأناةِ" لمحبَّةِ اللهِ تعالى لهما.

2- وعن أبي هُرَيرةَ رضِي اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „ليس الشَّديدُ بالصُّرَعةِ، إنَّما الشَّديدُ الذي يملِكُ نَفسَه عندَ الغَضبِ".[1820]

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: „في هذا الحديثِ مِن الفِقهِ: فَضلُ الحِلمِ، وفيه دليلٌ على أنَّ الحِلمَ: كِتمانُ الغيظُ، وأنَّ العاقِلَ مَن ملَك نَفسَه عندَ الغضبِ؛ لأنَّ العقلَ في اللُّغةِ: ضبطُ الشَّيءِ وحَبسُه منه".[1821]

3- وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لِيَلِني منكم أولو الأحلامِ والنُّهى".[1822]

(أي: ذَوو الألبابِ والعُقولِ، واحِدُها: حِلمٌ بالكَسرِ، فكأنَّه مِن الحِلمِ: الأناةُ والتَّثبُّتُ في الأمورِ، وذلك مِن شعائِرِ العُقلاءِ، وواحِدُ النُّهى: نُهْيةٌ بالضَّمِّ، سُمِّي العقلُ بذلك؛ لأنَّه ينهى صاحِبَه عن القبيحِ).[1823]

قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:21]

.

وَلِذَلِكَ مَنْ أَرَادَ أَحْسَنَ الأَخْلَاقِ وَأَجمَلَهَا فَليَأْخُذْهَا مِنْ مِشْكَاتِهِ، وَيَقْتَدِي بِهِ فِي سِيرَتِهِ وَسَرِيرَتِهِ، وَأَخْلَاقِهِ، وَعِبَادَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ، وَفِي سَائِرِ أَحوَالِهِ.

وَقدْ ذَكَرْنَا أَهَمَّ الأَخلَاقِ وَالشَّمَائِلِ التي تَخَلَّقَ بِهَا النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهَا، وَعَامَلَهُم بِهَا، وَرَغَّبَهُم في التَّخَلُّقِ بِهَا، لتِكُونَ قدوةً لِكُلِّ إِنْسَانٍ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، يَعبُدُ بِهَا رَبَّهُ، وَيَتَجَمَّلُ بِهَا بيْنَ خَلْقِهِ، وَيَتَأَلَّفُ بِهَا قُلُوبَ العبادِ، وَيَسُوقُ بِهَا الكَافِرَ إِلَى الإِسْلَامِ، وَيَجُرُّ بِهَا العَدُوَّ إِلَى المَحَبَّةِ، وَيَجْذِبُ بِهَا الخَلْقَ إلى الحقِّ، وَيدْفَعُ بِهَا السَّفِيهَ إِلَى الحلْمِ. قَالَ تَعَالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فُصِّلَت:34- 35]

ت. مِن أَقْوالِ السَّلفِ والعُلَماءِ في الحلم:

[1816] تفسير القرآن العظيم 2/122

[1817] البحر المحيط في التفسير لأبي حيان 5/256

[1818] أخرجه مسلم 18 من حديث أبي سعيدٍ الخدريّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[1819] شرح النووي على مسلم 1/189

[1820] أخرجه البخاري 6114، ومسلم 2609

[1821] التمهيد 6/322

[1822] أخرجه مسلم 432 مطوَّلًا من حديثِ أبي مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[1823] حاشية على سنن النسائي للسيوطي2/87،88

- قال عليُّ بنُ أبي طالِبٍ رضِي اللهُ عنه: „ليس الخيرُ أن يكثُرَ مالُك وولدُك، ولكنَّ الخيرَ أن يكثُرَ عِلمُك، ويعظُمَ حِلمُك، وأن تُباهِيَ النَّاسَ بعِبادةِ ربِّك، فإن أحسَنْتَ حمِدْتَ اللهَ، وإن أسأْتَ استغفَرْتَ اللهَ".[1824]

- وقال عُمرُ: „أيَّتُها الرَّعيَّةُ، إنَّ لنا عليكم حقًّا: النَّصيحةَ بالغَيبِ، والمُعاوَنةَ على الخيرِ، وإنَّه ليس مِن شيءٍ أحَبَّ إلى اللهِ وأعَمَّ نَفعًا مِن حِلمِ إمامٍ ورِفقِه، وليس شيءٌ أبغَضَ إلى اللهِ مِن جَهلِ إمامٍ وخُرْقِه".[1825]

- وقال رضِي اللهُ عنه: „تعلَّموا العِلمَ، وتعلَّموا للعِلمِ السَّكينةَ والحِلمَ".[1826]

- وقال ابنُ مسعودٍ رضِي اللهُ عنه: „وينبغي لحامِلِ القرآنِ أن يكونَ باكِيًا محزونًا حليمًا سَكينًا، ولا ينبَغي لحامِلِ القرآنِ أن يكونَ جافيًا ولا غافِلًا ولا صخَّابًا ولا ضاحِكًا ولا حديدًا".[1827]

- وقال مُعاوِيةُ بنُ أبي سُفيانَ رضِي اللهُ عنهما: „لا يبلُغُ الرَّجلُ مَبلَغَ الرَّأيِ حتَّى يغلِبَ حِلمُه جَهلَه، وصبرُه شَهوتَه، ولا يبلُغُ ذلك إلَّا بقوَّةِ الحِلمِ".[1828]

- وسُئِل عَمرُو بنُ الأهتَمِ: „أيُّ الرِّجالِ أشجَعُ؟ قال: مَن ردَّ جَهلَه بحِلمِه".[1829]

- وقال مُعاوِيةُ بنُ أبي سُفيانَ لعَرَابةَ بنِ أَوسٍ: „بِمَ سُدْتَ قومَك؟ قال: كنْتُ أحلُمُ عن جاهِلِهم، وأُعطي سائِلَهم، وأسعى في حوائِجِهم".[1830]

- وعن رجاءِ بنِ أبي سَلَمةَ قال: „الحِلمُ خَصلةٌ مِن خِصالِ العقلِ"[1831]؛ لذا قيل: „العاقِلُ هو مَن يغلِبُ حِلمُه جَهلَه".[1832]

- وعن الحَسنِ قال: „المُؤمِنُ حليمٌ لا يجهَلُ وإن جُهِل عليه، حليمٌ لا يظلِمُ وإن ظُلِم غفَر، لا يقطَعُ وإن قُطِع وصَل، لا يبخَلُ وإن بُخِل عليه صبَر".[1833]

- وقال وَهبُ بنُ مُنبِّهٍ: „العِلمُ خليلُ المُؤمِنِ، والحِلمُ وزيرُه، والعَقلُ دليلُه، والعَملُ قيمتُه، والصَّبرُ أميرُ جُنودِه، والرِّفقُ أبوه، واللِّينُ أخوه".[1834]

- وقال أبو هِلالٍ العَسكَريُّ: „ومِن أشرَفِ نُعوتِ الإنسانِ أن يُدعى حليمًا؛ لأنَّه لا يُدعاه حتَّى يكونَ عاقِلًا، وعالِمًا، ومُصطبِرًا مُحتسِبًا، وعفُوًّا، وصافِحًا، ومُحتمِلًا وكاظِمًا، وهذه شرائِفُ الأخلاقِ، وكرائِمُ السَّجايا والخِصالِ".[1835]

- وقال ابنُ حبَّانَ: „إنَّ مِن نَفاسةِ اسمِ الحِلمِ وارتِفاعِ قَدرِه أنَّ اللهَ جلَّ وعلا تسمَّى به".[1836]

- قال عبدُ اللهِ بنُ عُمرَ رضِي اللهُ عنهما: „نحن -مَعشَرَ قُرَيشٍ- نعُدُّ الحِلمَ والجودَ السُّؤدُدَ".[1837]

- وقال الحَسنُ البَصريُّ: „اطلُبوا العِلمَ وزيِّنوه بالوَقارِ والحِلمِ".[1838]

[1824] رواه الدارقطني في المؤتلف والمختلف 2/1062، وأبو نعيم في حلية الأولياء 1/75 واللفظ له، والبيهقي في الزهد الكبير 276

[1825] رواه هناد في الزهد 2/602 واللفظ له، والطبري في التاريخ 4/224

[1826] رواه وكيع في الزهد ص: 538 رقم 275، وآدم بن أبي إياس في العلم والحلم 93، وأحمد في الزهد رواية عبد الله ص: 230 رقم 630، والدينوري في المجالسة 4/ 39 رقم 1197، والآجري في فرض طلب العلم، ص: 139 رقم 48، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى 539، والخطيب في الجامع 41

[1827] رواه ابن أبي شيبة 36734، وأحمد في الزهد 892 واللفظ له، وأبو نعيم في حلية الأولياء 1/130

[1828] رواه معمر في الجامع 9/ 53 رقم 20214 وابن أبي الدنيا في الحلم 13، وابن عساكر في تاريخ دمشق59/184

[1829] رواه ابن أبي الدنيا في الحلم 22

[1830] المصدر السابق 39

[1831] المصدر السابق 6/ 562 رقم 5

[1832] العقل وفضله لابن أبي الدنيا ص: 42

[1833] رواه ابن أبي الدنيا في الحلم ص: 53 رقم 61، شعب الإيمان للبيهقي 9/ 116 رقم 6347

[1834] رواه ابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال 249، وابن عساكر في تاريخ دمشق 63/388. وبنحوه روي عن بكر بن خنيس يُنظر: المعجم لابن المقرئ ص: 228 رقم 731

[1835] ديوان المعاني 1/ 135

[1836] روضة العقلاء، ص: 209

[1837] ذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية 2/215

- وقال أَكثَمُ بنُ صَيفيٍّ: „دِعامةُ العقلِ الحِلمُ، وجِماعُ الأمرِ الصَّبرُ، وخيرُ الأمورِ العَفوُ".[1839]
- وأوصَى عبدُ الملكِ بنُ صالحٍ ابنًا له، فقال: „أيْ بنيَّ، احلُمْ؛ فإنَّ مَن حلُم ساد، ومَن تفهَّم ازداد.[1840]
- وقال العِزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ: "الحليمُ هو الذي لا يَعجَلُ بعُقوبةِ المُذنِبينَ؛ فاحلُمْ عن كُلِّ مَن آذاك وظلَمك، وسبَّك وشتَمك، فإنَّ مولاك صبورٌ حليمٌ، بَرٌّ كريمٌ، يقبَلُ التَّوبةَ عن عِبادِه، ويعفو عن السَّيِّئاتِ، ويعلَمُ ما تفعَلونَ".[1841]

- وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:
يُخَاطِبني السَّفيهُ بِكُلِّ قُبْحٍ.. فأَكرَهُ أن أَكونَ له مجيباً
يزيدُ سفاهةً فأزيدُ حلماً.. كعودٍ زادهُ الإحراقُ طيباً

المطلب الثالث: نماذِجُ مِن الحِلمِ

أولا: نماذج من حلم النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

لقد بلَغ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غايةَ الحِلمِ والعَفوِ، والسُّنَّةُ النَّبويَّةُ حافِلةٌ بمواقِفِ الرَّسولِ الكريمِ في الحِلمِ، ومِن ذلك:

1- قصَّةُ الأعرابيِّ الذي جبَذ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بردائِه جَبذةً شديدةً، فعن أنسِ بنِ مالِكٍ رضِي اللهُ عنه قال: "كنْتُ أمشي معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعليه بُردٌ نَجرانيٌّ غليظُ الحاشِيةِ، فأدرَكه أعرابيٌّ، فجَبَذه[1842] بردائِه جبذةً شديدةً، حتَّى نظرْتُ إلى صَفْحةِ عاتِقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد أثَّرَت بها حاشِيةُ البُردِ مِن شِدَّةِ جَبذتِه! ثُمَّ قال: يا مُحمَّدُ، مُرْ لي مِن مالِ اللهِ الذي عندَك، فالتفَت إليه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثُمَّ ضحِك، ثُمَّ أمَر له بعَطاءٍ".[1843]

2- وعن أبي هُرَيرةَ رضِي اللهُ عنه: "أنَّ رجُلًا أتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتقاضاه فأغلَظ، فهمَّ به أصحابُه، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعوه؛ فإنَّ لصاحِبِ الحقِّ مقالًا، ثُمَّ قال: أعطوه سِنًّا[1844] مِثلَ سِنِّه، قالوا: يا رسولَ اللهِ، لا نجِدُ إلَّا أمثَلَ مِن سِنِّه، فقال: أعطوه؛ فإنَّ مِن خيرِكم أحسَنَكم قَضاءً".[1845]

3- وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضِي اللهُ عنه قال: "كأنِّي أنظُرُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَحْكِي "يُشْبِهُ" نَبيًّا مِن الأنبياءِ ضرَبه قومُه فأدمَوه، فهو يمسَحُ الدَّمَ عن وَجهِه، ويقولُ: ربِّ اغفِرْ لقومي؛ فإنَّهم لا يعلَمونَ".[1846]

قال النَّوَويُّ: „فيه ما كانوا عليه -صَلَواتُ اللهِ وسلامُه عليهم- مِن الحِلمِ والتَّصبُّرِ والعَفوِ والشَّفقةِ على قومِهم، ودُعائِهم لهم بالهِدايةِ والغُفرانِ، وعُذرِهم في جِنايتِهم على أنفُسِهم بأنَّهم لا يعلَمونَ، وهذا النَّبيُّ المُشارُ إليه مِن المُتقدِّمينَ، وقد جرى لنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِثلُ هذا يومَ أحُدٍ".[1847]

[1838] ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين 3/178

[1839] رواه ابن أبي الدنيا في الحلم 16

[1840] البيان والتبيين للجاحظ 306 /3

[1841] شجرة المعارف والأحوال، ص: 39

[1842] جبذه: أي جَذَبَهُ نَحْوَهُ، وجَرَّهُ.

[1843] أخرجه البخاري 3149 واللفظ له، ومسلم 1057

[1844] أعطوه سنا أي ناقة لها سن معين. يُنظر: فتح الباري لابن حجر 134 /1

[1845] أخرجه البخاري 2306 واللفظ له، ومسلم 1601

[1846] أخرجه البخاري 6929 واللفظ له، ومسلم 1792

[1847] شرح النووي على مسلم 12/150

4- وعن أنسٍ رضِي اللهُ عنه قال: "كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أحسَنِ النَّاسِ خُلقًا، فأرسَلني يومًا لحاجةٍ، فقلْتُ: واللهِ لا أذهَبُ، وفي نَفسي أن أذهَبَ لِما أمَرني به نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم، قال: فخرجْتُ حتَّى أمرَّ على صِبيانٍ وهم يلعَبونَ في السُّوقِ، فإذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قابِضٌ بقَفايَ مِن وَرائي، فنظرْتُ إليه وهو يضحَكُ، فقال: يا أُنَيسُ، اذهَبْ حيثُ أمرْتُك، قلْتُ: نعَم، أنا أذهَبُ يا رسولَ اللهِ، قال أنسٌ: واللهِ لقد خدَمْتُه سبعَ سنينَ أو تِسعَ سنينَ ما علمْتُ قال لشيءٍ صنعْتُ: لِمَ فعلْتَ كذا وكذا؟ ولا لشيءٍ تركْتُ: هلَّا فعلْتَ كذا وكذا!".[1848]

5- أَسْلَمَ الطُّفَيلُ بنِ عَمْرو الدَّوسِّي، وَاسْتَأذَنَ الرَسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ في أَن يَذْهَبَ ليَدْعُوَ قَبِيلَتَهُ „دوْسًا" إِلَى الإِسْلَامِ، فَأَذِنَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، لَكِنَّهُم لم يَستَجِيبُوا للطفَيل؛ فَرَجَعَ إِلى النَّبِّي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنَّ دَوسًا قَد عَصَتْ وَأَبَتْ؛ فَادعُ اللهَ عَلَيهِم، فَاسْتقْبَلَ رَسُولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ القِبْلَةَ، وَرَفَعَ يَدَيهِ، فَقَالَ النَّاسُ: هَلَكُوا؛ لأَنَّ النَّبَّي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ سَيَدعُو عَلَيهِم، وَدُعَاؤُهُ مُستَجَابٌ. فَدَعَا النَّبُّي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: „اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِم".[1849]

ثُمَّ رَجَعَ الطُّفَيلُ إِلَى قَبِيلَتِهِ فَدَعَاهُم مَرَّةً ثَانِيةً إِلَى الإِسْلامِ، فَأَسْلَمُوا جميعًا. وَهَكَذَا كَانَ النَّبُّي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ حَلِيماً يَدْعُو لِلنَّاسِ وِلَا يَدْعُو عَلَيْهِم.

ثانيا: نَمَاذِجٌ مِن حِلْمِ الصَّحَابَةِ والسَّلَفِ الصَّالِح:

● عمرُ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

دَخَلَ عَاملٌ لعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِن إحدَى الولَايَاتِ فوجَدَهُ مُستَلقِياً وصبيانُهُ يلعَبُونَ عَلَى بَطنِهِ، فَأَنكَرَ ذَلِكَ!

فَقَالَ له عُمرُ: كيفَ أنتَ مَعَ أهلِكَ؟

قَالَ: إِذَا دَخَلْتُ سَكَتَ النَّاطِقُ.

قَالَ: عَزَلْنَاكَ، فَإِنَّكَ لَا تَرْفُقُ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ، فَكَيفَ تَرْفُقُ بِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ.[1850]

● الأَحْنَفُ بنِ قَيْسٍ:

كَانَ الصَّحَابِيُّ الجليلُ الأَحْنَفُ بنِ قَيْسٍ، شديدَ الحلمِ حَتَّى صَارَ يُضْرَبُ به المَثَلَ في ذلكَ الخُلُقِ، فَيُقَالُ: أَحلمُ مِن الأَحْنفِ. وَيُحْكَى أَنَّ رجلًا شَتَمَهُ، فلمْ يَرُدَّ عَلَيهِ وَمَشَى في طَرِيقِهِ، وَمَشَى الرَّجلُ وراءَهُ، وَهُوَ يَزِيدُ في شَتْمِهِ، فلمَّا اقْتَرَبَ الأحنفُ من الحيِّ الذي يعيشُ فيهَ، وَقَفَ وَقَالَ للرَّجلِ: "إِنَّ كَانَ قد بَقِيَ فِي نَفْسِكَ شَيءٌ فَقُلْهُ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَكَ أَحَدٌ مِن الحيِّ فَيُؤْذِيَكَ".

وَيُحْكَى أَنَّ قومًا بَعَثُوا إليه رجلاً لِيَشْتُمَهُ، فَصَمَتَ الأَحنفُ ولم يَتَكَلَّمْ، وَاسْتَمَرَّ الرَّجلُ في شَتْمِهِ حَتَّى جَاءَ مَوعدُ الغَدَاءِ، فَقَالَ له الأحنفُ: يَا هذا إِنَّ غَدَاءَنَا قد حَضَرَ، فَقُمْ مَعي إِنْ شِئْتَ. فَاسْتَحَيَا الرَّجُلُ وَمَشَى.

● عُمَرُ بنِ عَبدِ العَزِيزِ:

ذاتَ ليلةٍ، خرجَ الخَليفَةُ عمرُ بنِ عبدِ العزيزِ ليَتَفَقَّدَ أحوالَ رعيَّتَهُ، وكَانَ في صُحبَتِهِ شُرطِيٌّ، فَدَخَلا مسْجِدًا، وكَانَ المسجدُ مُظلمًا، فَتَعَثَّرَ عُمَرُ برَجُلٍ نَائِمٍ، فَرَفَعَ الرَّجُلُ رأسَهُ وَقَالَ له: أَمجنونٌ أنتَ؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَا. وَأَرَادَ الشُّرْطِيُّ أنْ يَضْرِبَ الرَّجُلَ، فَقَالَ له عُمَرُ: لَا تفعلْ، إِنَّمَا سَأَلَنِي: أَمجنونٌ أنتَ؟ فقلتُ له: لَا.

[1848] أخرجه مسلم 2309، 2310

[1849] أخرجه البخاري (2937)، ومسلم (2524)

[1850] ربيع الأبرار – الزمخشري.

فَقَد سَبَقَ حِلمُ الخَليفَةِ غَضَبَهُ، فَتَقَبَّلَ ببساطَةٍ أنْ يصفَهُ رَجُلٌ مِن عامةِ النَّاسِ بِالجُنُونِ، وَلَمْ يَدْفَعْهُ سلطَانُهُ وَقُوَّتُهُ إِلَى البَطْشِ بِهِ.

● **إبْراهِيمُ بنِ أَدْهَمَ:**

„كان إبْرَاهِيمُ بنِ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ إمامًا وعالمًا من كِبَارِ أئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، مَرَّ ذَاتَ يَومٍ فِي طَرِيقٍ، وَإِذَا بِرَجُلٍ يَهُودِيٍّ وَمَعَهُ كَلْبٌ، فَأَرَادَ هَذَا اليَهُودِيُّ أَنْ يَسْتَفِزَّهُ، فَقَالَ له: "يَا إبْرَاهِيمُ، أَلِحْيَتُكَ خَيْرٌ مِنْ ذَنَبِ كَلْبِي، أمْ ذَنَبُ كَلْبِي خَيرٌ مِنْ لِحْيَتِكَ؟"

ماذا تَتَوَقَّعُونَ مِنْ الإمَامِ أنْ يفعلَ، وَهُوَ يُهان وَبِهَذِه الطَّرِيقَةِ، وَأَمَامَ أَصْحابِهِ؟! تُقَارَنُ لِحْيَتُهُ بذَنَبِ الكَلبِ أجَلَّكُم اللهُ؟! تَعَالُوا إِلَى مَنْ تَرَبَّى عَلَى أَخْلَاقِ سَيِّدِ المُرسَلينَ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لِنَرَى مَاذَا كَانَ رَدُّهُ؟ وكَيفَ قَابَلَ هَذه الإِسَاءَةَ؟ لَمْ يشْتُمْهُ أو يزجُرْه أو حَتَّى عَلَى الأَقَلِّ أَنْ يَأْخذَ جزءًا مِنْ حقِّهِ، بَلْ رَدَّ عَلَيهِ بكُلِّ حِلْمٍ، وأَنَاةٍ، فَقَالَ رحمَهُ اللهُ: "إنْ نَجَتْ لحْيَتِي مِن النَّارِ، فَهِيَ أَكْرَمُ وأَطْهَرُ مِنْ ذَنَبِ كَلْبِكَ، وإنْ لَمْ تَنْجُ لحْيَتِي مِن النَّارِ، فَذَنَبُ كَلْبِكَ أَكْرَمُ وأَطْهَرُ مِنْهَا".

يَا لهَا مِنْ إجَابةٍ، وَيَا لهَا مِنْ حِكْمَةٍ! فلمَّا سَمِعَ اليَهُودِيُّ هَذَا الجَوَابَ الحَلِيمَ من المؤمِنِ الكَرِيمِ، قَالَ: "واللهِ إنَّ هذِهِ الأَخْلَاقَ لهِيَ أَخْلَاقُ النُّبُوَّةِ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ". يقول الله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: 34، 35]“. [1851]

المطلب الرابع: درجاتُ الحِلْمِ

قال ابنُ حبَّانَ: „أوَّلُ الحِلمِ المعرفةُ، ثُمَّ التَّثبُّتُ، ثُمَّ العَزمُ، ثُمَّ التَّصبُّرُ، ثُمَّ الصَّبرُ، ثُمَّ الرِّضا، ثُمَّ الصَّمتُ والإغضاءُ“. [1852]

المطلب الخامس: صُوَرٌ مِنَ الحِلْمِ

<u>مِن مظاهِرِ وصور الحِلمِ:</u>

1- العفوُ عن الإساءةِ.

2- عَدمُ إجابةِ السَّفيهِ؛ يقولُ الشَّاعِرُ:

سكتُّ عن السَّفيهِ فظنَّ أنِّي.:. عَيِيتُ عن الجوابِ وما عَيِيتُ[1853]

3- كَظمُ الغيظِ.

4- تَركُ مُكافأةِ مَن جَهِل عليه، والرِّفقُ به.

5- الوَقارُ والسَّكينةُ وخَفضُ الصَّوتِ.

6- صِيانةُ اللِّسانِ مِن السَّبِّ والشَّتمِ وقبيحِ القولِ.

7- صِيانةُ القلبِ مِن الحِقدِ والحَسدِ وإضمارِ السُّوءِ.

8- أن يُحِلَّ الرَّجلُ مَن اغتابه، قال قَتادةُ: "أيعجِزُ أحدُكم أن يكونَ مِثلَ أبي ضَمضَمٍ؟ كان إذا أصبَح قال: اللَّهمَّ إنِّي قد تصدَّقْتُ بعِرضي على عِبادِك!".[1854]

[1851] مقالة للدكتور: محمد جمعة الحلبوسي/دعوة لاستقبال شهر رمضان بقلوب سليمة ـ بتصرف.

[1852] روضة الدر الفريد للمستعصمي 250 /3

[1853] العقلاء لابن حبان ص: 210

[1854] السنن لأبي داود 7/ 359

المطلب السادس: فضل الحلم

الحِلمُ خُلُقٌ عَظِيمٌ مُكْتَسَبٌ يُضْفِي عَلَى صَاحِبِهِ الهَيْبَةَ والوَقَارَ والسَّكِينَةَ وَكَظْمَ الغَيظِ، ومُجَاهَدَةَ النَّفْسِ عَلَى الردِّ عَلَى المُستَحِقِّ وَمُقَابَلَةَ السَّيِّئَةِ بِالحَسَنَةِ وَضَبْطَ النَّفْسِ عَنْ هَيَجَانِ الغَضَبِ وَالطَّيْشِ، وَهُوَ لَا يَعْنِي أَنْ يَرْضَى الإِنْسَانُ بِالذُّلِّ أَوْ يَقْبَلَ الهوَانَ، وَإِنَّمَا هُوَ التَّرَفُّعُ عَنْ شَتْمِ النَّاسِ، وَتَنْزِيهِ النَّفْسِ عَنْ سبِّهِم وَعَيبِهِم وَسُرعةِ مُعَاقبةِ المُخْطِئِ. قَالَ الأَوزَاعِي: كَانَ عُمَرُ بنِ عَبدِ العَزِيزِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُعَاقِبُ رَجلًا حَبَسَهُ ثَلَاثَةَ أَيَامٍ، ثُمَّ عَاقَبَهُ كَرَاهِيةَ أَنْ يُعجِّلَ فِي أَوَّلِ غَضَبِهِ.

وَكَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْلَمَ النَّاسِ، فَلَا يَضِيقُ صَدْرُهُ بِمَا يَصدُرُ عَنْ بعضِ المسلِمِين مِنْ أَخْطَاءٍ، وَكَانَ يُعَلِّمُ أَصحَابَهُ ضَبْطَ النَّفْسِ وَكَظْمَ الغَيظِ.

وَلَا يَكُونُ الحِلْمُ فِي الرَّخَاءِ وَالمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ بَلْ فِي الغَضَبِ وَالقُدْرَةِ عَلَى رَدِّ المُسِيءِ.

عن معاذِ بنِ أَنسٍ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "مَنْ كَظَمَ غَيظاً"[1855]، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالى عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ العِينِ مَا شَاءَ".[1856]

وَقَدْ قِيلَ: مِن عَادَةِ الكَرِيمِ إِذَا قَدِرَ غَفَرَ وَإِذَا رَأَى زَلَّةً سَتَرَ. وَالحِلْمُ تَجَاوُزُكَ عَن أَخِيكَ، وَالْتِمَاسُكَ لَهُ العُذْرَ، وَدعَاؤُكَ لَه بِالهِدَايَةِ وَالصَّلَاحِ، وَتَفْتِيشُكَ عَنْ مَعَايِبِكَ، وَسُؤَالُكَ نَفسِكَ عَنْ خَطَئِهَا وَرَدِّهَا عَنْ تَكَبُّرِهَا.

وَالحِلْمُ خُلُقٌ مِنْ أَخْلَاقِ الأَنْبِيَاءِ، قَالَ تَعَالَى عَنْ إبرَاهِيمَ: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ} [التوبة: 114]، وَقَالَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} [الصافات: 101].

المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على اكتِسابِ الحِلمِ

ويُمكِنُ اكتِسابُ هذه الصِّفةِ مِن خِلالِ ما يلي:

1- تذكُّر كثرةِ حِلمِ اللهِ على العبدِ؛ فاللهُ سبحانَه وتعالى حليمٌ يرى معصيةَ العاصي ومُخالَفتَه لأمرِه فيُمهِلُه؛ قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [البقرة: 235].

- قال ابنُ حبَّانَ: „الواجِبُ على العاقِلِ إذا غضِب واحتَدَّ أن يَذكُر كثرةَ حِلمِ اللهِ عنه، معَ تواتُرِ انتِهاكِه محارِمَه، وتعدِّيه حُرُماتِه، ثُمَّ يحلُمُ، ولا يُخرِجُه غيظُه إلى الدُّخولِ في أسبابِ المعاصي".[1857]

- وقال مُحمَّدُ بنُ السَّعديِّ لابنِه عُروةَ لمَّا ولِي اليمنَ: „إذا غَضِبْتَ فانظُرْ إلى السَّماءِ فَوقَك، وإلى الأرضِ تَحتَك، ثُمَّ عظِّمْ خالِقَهما".[1858]

2- تذكُّر ما أعدَّه اللهُ تعالى للمُتخلِّقينَ بالأخلاقِ الفاضِلةِ، كالحِلمِ وكَظمِ الغيظِ والعَفوِ والإحسانِ؛ قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: 133- 134].

[1855] الغيظ: هو الغضب الشديد، والإنسان الغاضب هو الذي يتصور نفسه أنه قادر على أن ينفذ لأن من لا يستطيع لا يغضب لكنه يحزن، ولهذا يوصف الله بالغضب. شرح رياض الصالحين لابن عثيمين 1/125

[1856] رواه أبو داود والترمذي، وَقالَ: حديث حسن

[1857] روضة العقلاء لابن حبان ص: 212

[1858] يُنظر: الإشراف لابن أبي الدنيا ص: 218 رقم 249، روضة العقلاء لابن حبان ص: 212

- عن أبي جَعفَرٍ الخَطْميّ أنَّ جِدَّه عُمَيرَ بنَ حَبيبٍ -وكان قد بايَع النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أَوْصَى بَنِيهِ، فقال لهم: „أي بَنيَّ، إيَّاكم ومُخالَطةَ السُّفَهاءِ؛ فإنَّ مُجالَستَهم داءٌ، وإنَّه مَن يحلُمْ عن السَّفيهِ يُسَرَّ بحِلمِه، ومَن يُجِبْه يندَمْ، ومَن لا يُقِرَّ بقليلِ ما يأتي به السَّفيهُ يُقِرَّ بالكثيرِ".[1859]

3- التَّرفُّعُ عن المُعامَلةِ السَّيِّئةِ بالمِثلِ، وهذا يدُلُّ على شَرفِ النَّفسِ، وعُلوِّ الهِمَّةِ؛ يقولُ جابِرُ بنُ عبدِ اللهِ رضِي اللهُ عنهما: "غزَونا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غزوةَ نَجدٍ، فلمَّا أدركَته القائِلةُ وهو في وادٍ كثيرِ العِضاهِ[1860]، فنزَل تَحتَ شجرةٍ، واستظلَّ بها، وعلَّق سيفَه، فتفرَّق النَّاسُ في الشَّجرِ يستظِلُّونَ، وبَينا نحن كذلك إذ دعانا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فجِئْنا، فإذا أعرابيٌّ قاعِدٌ بَينَ يدَيه، فقال: إنَّ هذا أتاني وأنا نائِمٌ، فاخترَط سيفي[1861]، فاستيقَظْتُ وهو قائِمٌ على رأسي مُخترِطٌ صَلتًا، قال: مَن يمنَعُك منِّي؟ قلْتُ: اللهُ، فشامَه[1862]، ثُمَّ قعَد، فهو هذا، قال: ولم يُعاقِبْه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم".[1863]

4- التَّفضُّلُ على المُسيءِ، ومِن ذلك ما رواه أنسُ بنُ مالِكٍ رضِي اللهُ عنه؛ حيثُ قال: „كُنْتُ أمشي معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعليه بُردٌ[1864] نَجرانيٌّ غليظُ الحاشِيةِ، فأدرَكه أعرابيٌّ، فجبَذه[1865] بردائِه جَبذةً شديدةً، حتَّى نظرْتُ إلى صَفْحةِ عاتِقِ[1866] رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قد أثَّرَت بها حاشِيةُ البُردِ مِن شِدَّةِ جَبذتِه! ثُمَّ قال: يا مُحمَّدُ، مُرْ لي مِن مالِ اللهِ الذي عندَك، فالتفَت إليه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثُمَّ ضحِك، ثُمَّ أمَر له بعَطاءٍ".[1867]

5- الاستِحياءُ مِن جزاءِ الجَوابِ، وكان الأحنَفُ بنُ قَيسٍ يقولُ: „مَن لم يصبِرْ على كلمةٍ سمِع كلماتٍ، ورُبَّ غيظٍ قد تجرَّعْتُه مخافةَ ما هو أشَدُّ منه".[1868]

6- الرِّعايةُ لِيَدٍ سَالِفةٍ وحُرمةٍ لازِمةٍ، وهذا مِن الوَفاءِ، وحُسنِ العَهدِ، وكمالِ المُروءةِ؛ عن حَفصِ بنِ غِياثٍ قال: „كُنْتُ جالِسًا عندَ جَعفَرِ بنِ مُحمَّدٍ، ورجُلٌ يشكو رجُلًا عندَه، قال لي كذا، وفعَل لي كذا، فقال له جَعفَرٌ: مَن أكرمك فأكرِمْه، ومَن استخفَّ بك فأكرِمْ نَفسَك عنه".[1869]

7- مُجاهَدةُ النَّفسِ على اكتِسابِ صفةِ الحِلمِ؛ عن أبي الدَّرداءِ قال: „العِلمُ بالتَّعلُّمِ، والحِلمُ بالتَّحلُّمِ".[1870]

8- زيادةُ الإيمانِ؛ فكُلَّما ازداد الإيمانُ في القلبِ ازدادَت معَه السَّماحةُ، وازداد الحِلمُ.

[1859] رواه ابن أبي شيبة في المصنف 234 /5 رقم 25590، والطبراني 10850/17 ، والبيهقي 20705، وثق رجاله الهيثمي في مجمع الزوائد 7/269

[1860] العِضاهُ: كُلُّ شَجَرةٍ ذاتِ شَوكٍ. يُنظر: شرح النووي على مسلم 15/44

[1861] اخترط السَّيفَ: سَلَّه مِن غِمدِه. يُنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 2/23

[1862] فشامَه، أي: ردَّه في الغِمدِ. يُنظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن 269 /21

[1863] أخرجه البخاري 4139 واللفظ له، ومسلم 843

[1864] البُرْدُ: نوعٌ من الثِّيابِ. يُنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 1/ 116. والنَّجرانيُّ: منسوبٌ إلى نجرانَ: وهي بلدةٌ باليمَنِ. يُنظر :كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي 205 /3

[1865] الجَبذُ: الجَذبُ. يُنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 1/235

[1866] صَفْحُ كُلِّ شيءٍ: وَجهُه وناحيتُه، والعاتِقُ: ما بين المَنكِبِ والعُنُقِ .يُنظر: عمدة القاري للعيني 73 /15

[1867] أخرجه البخاري 3149 واللفظ له، ومسلم 1057

[1868] العقد الفريد لابن عبد ربه 2/279

[1869] روضة العقلاء لابن حبان 213

[1870] العلم لأبي خيثمة 114، قال الألباني في تخريجه: إسنادُه صحيحٌ، موقوفٌ وله شاهِدٌ.

9- أن يعلَمَ أنَّ الحِلمَ نجاةٌ مِن المُهاتَراتِ والمُنازَعاتِ وتَبادُلِ السِّبابِ والشَّتائِمِ والتَّعدي على الأعراضِ.

10- مُلاحَظةُ العواقِبِ تمنَعُ مِن أن تستخِفَّه دواعي الغضبِ والشَّهوةِ.[1871]

المطلب الثامن: موانِعُ اكتِسابِ الحِلمِ

1-دُنُوُّ الهِمَّةِ؛ قيل: „الحِلمُ والأناةُ تَوءَمانِ، يُنتِجُهما عُلوُّ الهِمَّةِ".[1872]

2-شِدَّةُ الغَضبِ وعَدمُ التَّحكُّمِ فيه، وفي أمثالِهم: „الغَضَبُ غُولُ الحِلمِ".[1873]

3- عَدمُ التَّحلِّي بصِفةِ كَظمِ الغيظِ، والجَهلُ بما جاء في فَضلِها.

4- سوءُ التَّربيةِ، وفِقدانُ القُدوةِ، والجَهلُ بسيرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وسِيَرِ الصَّالِحينَ.

5- عَدمُ النَّظرِ في العواقِبِ؛ قال بعضُ الفُقَهاءِ: „الشَّرُّ بَدْؤُه صِغارٌ، فاصفَح عنه؛ لكيلا يُخرِجَك إلى أكبَرَ منه".[1874]

6- الكِبرُ.

7- اعتِقادُ أنَّ تَركَ مُكافأةِ الجاهِلِ ذُلٌّ وضَعفٌ؛ قال بعضُ الفُقَهاءِ: „العِزُّ والغَلَبةُ للحِلمِ"[1875]، وقال الشَّاعِرُ:

إذا سبَّني نَذلٌ تزايَدْتُ رِفعةً.:. وما العَيبُ إلَّا أن أكونَ مُسابِبَه

ولو لم تكنْ نَفسي عليَّ عزيزةً.:. لمكَّنْتُها مِن كُلِّ نَذلٍ تُحارِبُه

ولو أنَّني أسعى لنَفعي وجَدْتني.:. كثيرَ التَّواني للذي أنت طالِبُه

ولكنَّني أسعى لأنفَعَ صاحِبي.:. وعارٌ على الشَّبعانِ إن جاع صاحِبُه.[1876]

8- الجَهلُ بعاقِبةِ الغضبِ؛ قال ابنُ الجَوزيِّ: „يعودُ الغضبُ بثَلبِ دينِ الغَضبانِ وبَدنِه قَبلَ أذى المغضوبِ عليه، فإنَّ بعضَ النَّاسِ استشاط يومًا مِن الغضبِ، فصاح، فنفَث الدَّمَ، وأدَّاه ذلك إلى السُّلِّ، وقد أثَّر غضبُ خَلقٍ كثيرٍ في بَطشِهم بأولادِهم وأهاليهم، وتطليقِ زَوجاتِهم، ثُمَّ طالت نَدامتُهم، وفات الاستِدراكُ".[1877]

9- الغَفلةُ عن تَزكيةِ النَّفسِ ومُجاهَدتِها على التَّحلُّمِ.

المطلب التاسع: ثمراتُ الحلمِ

1/ الحلمُ دَليلٌ عَلَى قُوَّةِ إرَادَةِ صَاحِبِهِ، وَتَحكُّمِهِ فِي انفِعَالَاتِهِ، فَقَدْ قَالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عَلَيه وَسَلَّمَ: „لَيسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ (مُغَالَبة النَّاسِ وَضَرْبِهِم)، إنما الشَّدِيدُ الذي يَملِكُ نفسَهُ عِندَ الغَضَبِ".[1878]

2/ الحلمُ وَسِيلةٌ لكَسْبِ الخُصُومِ والتَّغَلُّبِ عَلَى شَيَاطِينِهِم وَتَحْوِيلِهِم إِلَى أَصْدِقَاءٍ، قَالَ تَعَالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: 34]. وَقَدْ قِيلَ: "إِذَا سَكَتَّ عن الجاهِلِ فقد أوسَعْتَه جَوابًا، وأَوْجَعْتَه عِقَابًا".

3/ الحلمُ وَسِيلةٌ لنَيْلِ مَحَبَّةِ النَّاسِ وَاحْتِرَامِهِم، فَقَدْ قِيلَ: "أَولُّ مَا يُعوَّضُ الحَلِيمُ عن حلمِهِ أنَّ النَّاسَ أَنْصَارُه".

4/ الحلمُ يُجَنِّبُ صَاحِبَهُ الوُقُوعَ فِي الأخطَاءِ، ولا يُعْطِي الفُرصَةَ لِلشَّيطَانِ لكَي يُسَيطِرَ عَلَيهِ. فَمِثْلَمَا تَترُكَ بَعضَ الأَطْعِمَةِ

[1871] إعلام الموقعين عن رب العالمين 6/107

[1872] الحلم لابن أبي الدنيا ص: 39 رقم 36، البديع لابن المعتز ص: 78، إعجاز القرآن للباقلاني ص: 68

[1873] مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني 2/ 61

[1874] المجالسة للدينوري 3/ 428 رقم 1035

[1875] عيون الأخبار لابن قتيبة 1/ 399

[1876] ديوان الإمام الشافعي ص: 32

[1877] كشف المشكل 3/ 539

[1878] أخرجه البخاري (6114)، ومسلم (2609)

"تَبْرُدُ" قَلِيلاً لِيَسْهُلَ عَلَيكَ أَكْلُهَا، فَالحِكْمَةُ تَقتَضِي أَحْيَاناً تَرْكَ بَعْضِ الخِلَافَاتِ "تَهْدَأُ" قَلِيلاً لِيَسْهُلَ عَلَيْكَ حَلُّهَا.

(اللهُمَّ اجْعَلْنَا مِن أَحْلَمِ خَلْقِكَ عَلَى خَلْقِك،
وأن تُوسِّعَ صُدورَنا فلا تَضِيقُ بِهِم أبدًا)

المبحث الحادي عشر: التأني والتؤدة والأناة

المطلب الأول: معنى التأني

- **التَّأَنِّي (الأناةُ) لغةً:**

الأناةُ والأَنى: الحِلمُ والوقارُ، وأَنِيَ وتأنَّى واستأنى: تثبَّت، ورجلٌ آنٍ، أي: كثيرُ الأناةِ والحِلمِ.
وتقولُ للرَّجُلِ: إنَّه لذو أناةٍ، أي: لا يَعجَلُ في الأمورِ، وهو آنٍ: وقورٌ.[1879]

- **التَّأَنِّي (الأناةُ) اصطِلاحًا:**

الأناةُ هي: التَّثبُّتُ وتَركُ العَجَلةِ.[1880]
وقال أبو هلالٍ العَسكريُّ: „الأناةُ: هي المبالغةُ في الرِّفقِ بالأمورِ والتَّسبُّبِ إليها".[1881]
وقيل: التَّمهُّلُ في تدبيرِ الأمورِ ومُفارقةُ التَّعجيلِ فيها، وقال بعضُهم: الأناةُ: السُّكونُ عند الحالةِ المُزعِجةِ.[1882]
وقيل: التَّأنِّي: عدَمُ العَجَلةِ في طَلَبِ شَيءٍ من الأشياءِ، والتَّمهُّلُ في تحصيلِه، والتَّرفُّقُ فيه.[1883]
وبما أن التأني هو التَّثبُّتُ والتمهُّلُ وعدمُ التعجُّل، لذا على المسلم أن يحرص على التأني والتمهل في أموره كلها، فَيُؤدِّي ما عليه بتأنٍّ وإخلاصٍ وإتقانٍ، وقد قال الإمام علي -رضي الله عنه-: „لا تطلبْ سرعةَ العَمَلِ، واطلبْ تجويدَه، فإنَّ النَّاسَ لا يسألون في كَم فَرَغَ، وإنما ينظرون إلى إتقانِهِ وجودِتِهِ".

- **الفَرقُ بَينَ الأناةِ والتُّؤَدةِ:**

التُّؤَدةَ: مفارَقةُ الخِفَّةِ في الأمورِ، فالتُّؤَدةُ تفيدُ من هذا خِلافَ ما تفيدُ الأناةُ، وذلك أنَّ الأناةَ تفيدُ مقاربةَ الأمرِ والتَّسبُّبَ إليه، والتُّؤَدةُ تفيدُ مُفارقةَ الخِفَّةِ.

- **الفَرقُ بَينَ الأناةِ والحِلمِ:**

كثيرٌ من العُلَماءِ يرى أنَّهما بمعنًى واحدٍ؛ فالحِلمُ في كلامِ العَرَبِ: الأناةُ والعَقلُ، والسُّكونُ مع القُدرةِ والقُوَّةِ، والأناةُ والأَنى: الحِلمُ والوقارُ.
وفرَّق بَينَهما أبو هِلالٍ العَسكَريُّ بأنَّ الأناةَ هي: التَّمهُّلُ في تدبيرِ الأمورِ، وتَركُ التَّعجُّلِ. والحِلمُ: هو الإمهالُ بتأخيرِ العقابِ المُستَحَقِّ.

- **التَّأَنِّي وَسَطٌ بَينَ خُلُقَينِ ذميمَينِ:**

إنَّ كُلَّ خُلُقٍ محمودٍ مكتَنَفٌ بخُلُقَينِ ذميمَينِ، وهو وسَطٌ بينهما، وطرفاه خُلُقانِ ذميمانِ، والنَّفسُ متى انحرفت عن التَّوسُّطِ انحرفت إلى أحَدِ الخُلُقينِ الذَّميمَينِ ولا بُدَّ، فإذا انحرَفَت عن خلُقِ الأناة والرِّفق انحرَفَت: إما إلى عَجَلةٍ وطَيشٍ وعُنفٍ، وإمَّا إلى تفريطٍ وإضَاعةٍ. والرِّفقُ والأناةُ بينَهما.[1884]

[1879] يُنظَر: الصحاح للجوهري 2274/6، مقاييس اللغة لابن فارس 1/142
[1880] شرح صحيح مسلم للنووي 1/189
[1881] الفروق اللغوية، ص:204
[1882] الفروق اللغوية للعسكري، ص: 204
[1883] نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم 865/3
[1884] مدارج السالكين لابن القيم295 /2

المطلب الثالث: الترغيب في الأناة والحث عليه

أ. صفة الأناة في القرآن:

1/ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: 94].

قال الطَّبَرِيُّ: „فَتَبَيَّنُوا يقولُ: فتأنَّوا في قَتلِ من أُشْكَل عليكم أمرُه، فلم تعلَموا حقيقةَ إسلامِه ولا كُفرِه، ولا تَعْجَلوا فتَقْتُلوا من الْتَبَسَ عليكم أمرُه، ولا تتقَدَّموا على قَتلِ أحَدٍ إلَّا على قَتلٍ من عَلِمتُموه يقينًا حربًا لكم ولله ولرَسولِه".[1885]

2/ وقال تعالى محذِّرًا من خُطورةِ نَقلِ الكلامِ من غيرِ تأنٍّ وتثبُّتٍ منه: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [النور: 15].

ومن المعلومِ بداهةً أنَّ التَّلقِّيَ إنَّما يكونُ بالأُذُنِ، ثمَّ يُعرَضُ على العَقلِ والقَلبِ، وحينئذٍ يكونُ الكلامُ باللِّسانِ، فإنَّما هي لفتةٌ إلى السُّرعةِ وعدَمِ التَّأنِّي أو التَّروِّي في إصدارِ الحُكمِ، بل في تداوُلِه والتَّحرُّكِ به، كأنَّ الإفكَ عندما وقَع من ابنِ سَلولَ صُمَّتْ الآذانُ وسُتِرتْ العقولُ وغُلِّفتْ القلوبُ، فلم يَبْقَ إلَّا أن لاكَتْه الألسُنُ وتحرَّكتْ به الشِّفاهُ دُونَ فَهْمٍ للوَاقِعِ، ودُونَ مَعْرفةٍ بالظُّروفِ والمُلابَسَاتِ.[1886]

ب. صفة الأناة في السنة النبوية:

-عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للأشَجِّ: أشَجِّ عبدِ القَيسِ: "إنَّ فيك خَصلتَينِ يحِبُّهما اللهُ: الحِلمُ، والأناةُ".[1887]

والمرادُ بالأناةِ تَرَبُّصُه حتَّى نظر في مصالحِه ولم يَعْجَلْ[1888].

-وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "... لو لَبِثتُ في السِّجنِ ما لَبِث يوسُفُ لأجبْتُ الدَّاعيَ"[1889].

قال النَّوويُّ: „هو ثناءٌ على يوسُفَ عليه السَّلامُ وبيانٌ لصَبرِه وتأنِّيه، والمرادُ بالدَّاعي رسولُ المَلِكِ الذي أخبر اللهُ سُبحانه وتعالى أنَّه قال: {ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} [يوسف: 50] ، فلم يخرُجْ يوسُفُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مبادِرًا إلى الرَّاحةِ ومُفارقةِ السِّجنِ الطَّويلِ، بل تثبَّت وتوقَّر وراسَل المَلِكَ في كَشفِ أمرِه الذي سُجِن بسببِه، ولتَظهَرَ براءتُه عندَ المَلِكِ وغَيرِه، ويلقاه مع اعتقادِه براءتَه ممَّا نُسِبَ إليه، ولا خَجلَ من يوسُفَ ولا غيرِه، فبَيَّنَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فضيلةَ يوسُفَ في هذا وقُوَّةَ نفسِه في الخيرِ، وكمالَ صبرِه وحُسنَ نَظَرِه، وقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن نفسِه ما قاله تواضُعًا وإيثارًا للإبلاغِ في بيانِ كمالِ فضيلةِ يوسُفَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. واللهُ أعلَمُ"[1890].

[1885] جامع البيان في تأويل القرآن 70/9

[1886] آفات على الطريق للسيد محمد نوح ص 193

[1887] أخرجه مسلم 17

[1888] يُنظَر: إكمال المعلم بفوائد مسلم 1/ 233، 234، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي 189/1

[1889] رواه مطوَّلًا البخاري 4694، واللفظ له، ومسلم 151

[1890] شرح النووي على مسلم2/185

- وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "التُّؤَدةُ في كُلِّ شيءٍ إلَّا في عَمَلِ الآخِرةِ".[1891] وفي روايةٍ: "التُّؤَدةُ في كُلِّ شيءٍ خَيرٌ ..."[1892].

قال القاري: „التُّؤَدةُ: بضَمِّ التَّاءِ وفَتحِ الهمزةِ، أي: التَّأنِّي، "في كُلِّ شيءٍ" أي: من الأعمالِ. "خيرٌ" أي: مُستحسَنٌ "إلَّا في عَمَلِ الآخرةِ" أي: لأنَّ في تأخيرِ الخيراتِ آفاتٍ. ورُوِيَ أنَّ أكثَرَ صِياحِ أهلِ النَّارِ من تسويفِ العَمَلِ. قال الطِّيبيُّ: وذلك لأنَّ الأمورَ الدُّنيويَّةَ لا يُعلَمُ عواقِبُها في ابتدائِها أنَّها محمودةُ العواقِبِ حتى يُتعجَّلَ فيها، أو مذمومةٌ فيُتأخَّرُ عنها، بخلافِ الأمورِ الأُخرَويَّةِ؛ لقولِه تعالى: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} [البقرة: 148]، {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} [آل عمران: 133]".[1893]

- وقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "السَّمْتُ الحَسَنُ والتُّؤَدَةُ والاقْتِصَادُ جُزءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ".[1894]

- وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: „الأَنَاةُ مِنْ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ (التَّسَرُّعُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ) مِنْ الشَّيْطَانِ".[1895]

المطلب الخامس: مظاهر وصور التأني

التَّأنِّي مطلوبٌ في كثيرٍ من الأمورِ والأحوالِ والمواقِفِ التي تمُرُّ على الإنسانِ، ومن ذلك:

1 -عندَ الذَّهابِ إلى الصَّلاةِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: „إذا سمِعتُم الإقامةَ فامشوا إلى الصَّلاةِ، وعليكم بالسَّكينةِ والوقارِ، ولا تُسرِعوا، فما أدرَكْتُم فصَلُّوا، وما فاتكم فأتِمُّوا"[1896].

فَفي الحَديثِ نَهْيٌ عن الاستعجالِ والإسراعِ لإدراكِ الصَّلاةِ، والأمرُ بالتَّأنِّي والسَّكينةِ في المجيءِ للصَّلاةِ والقيامِ لها[1897].

2 -التَّأنِّي في طَلَبِ العِلمِ:

قال تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} [القيامة: 16].

- قال ابنُ القَيِّمِ في هذه الآيةِ: „ومن أسرارِها -سورةِ القيامةِ-: أنَّها تضمَّنَت التَّأنِّيَ والتَّثبُّتَ في تلقِّي العلمِ، وألَّا يحمِلَ السَّامِعَ شِدَّةُ محبَّتِه وحِرصِه وطَلَبِه على مبادرةِ المعَلِّمِ بالأخذِ قبلَ فراغِه من كلامِه، بل من آدابِ الرَّبِّ التي أدَّب بها نبيَّه أمْرُه بتركِ الاستعجالِ على تلقِّي الوحيِ، بل يصبرُ إلى أن يفرُغَ جبريلُ من قراءتِه، ثمَّ يقرؤُه بعد فراغِه عليه، فهكذا ينبغي لطالِبِ العِلمِ ولسامِعِه أن يصبرَ على مُعَلِّمِه حتَّى يقضيَ كلامَه"[1898].

- وعن يونُسَ بنِ يزيدَ قال: قال لي ابنُ شِهابٍ: „يا يونُسُ، لا تكابِرِ العِلمَ؛ فإنَّ العِلمَ أوديةٌ، فأيُّها أخَذْتَ فيه قطَعَ بك قبل أن تبلُغَه، ولكِنْ خُذْه مع الأيَّامِ واللَّيالي، ولا تأخُذِ العِلمَ جُملةً؛ فإنَّ من رام أخْذَه جملةً ذَهَب عنه جملةً، ولكِنِ الشَّيءَ بَعدَ الشَّيءِ مع اللَّيالي والأيَّامِ"[1899].

- وفي روايةٍ عن الزُّهْريِّ قال: „من طَلَب العِلمَ جُملةً فاته جملةً، وإنَّما يُدرَكُ العِلمُ حديثٌ وحديثانِ".

[1891] رواه أبو داود 4810 واللفظ له، والحاكم 213، والبيهقي .21324 صحَّحه الحاكم، وقال: على شَرطِ الشَّيخين، والألباني في صحيح سنن أبي داود 4810، ووثق رواته شعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود 4810

[1892] مستدرك الحاكم 213

[1893] مرقاة المفاتيح .8/3164 ويُنظَر: الكاشف عن حقائق السنن للطيبي 3224 /10

[1894] أخرجه الترمذي (2010)، وعبد بن حميد في ((المنتخب)) (512)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (1017)

[1895] رواه الترمذي برقم (2012)

[1896] أخرجه البخاري 635 واللفظ له، ومسلم 603

[1897] يُنظَر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر 118/2، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني 5/150

[1898] التبيان في أقسام القرآن 159/1

[1899] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 431 /1

ولذلكَ وَجَبَ عَلَى طُلابِ العِلْمِ -والعِلْمُ هُنَا يشمَلُ العُلومَ الشَّرعيةِ والعُلُومَ الدُّنيَوِيَّةِ الَّتِي يَنْفَعُ اللهُ بِهَا البِلادَ والعِبَادَ- أَن يَتَأَنَّوا فِي مُذَاكَرتِهِم، وَفَهْمِ دُرُوسِهِم فَهْمًا جَيِّدًا، وَتَجَنُّبِ العَجَلَةَ فِي الجَوابِ، فَقَدْ قَالَ بَعضُ الحُكَماءِ قَدِيماً: "مَنْ أَسْرَعَ فِي الجَوابِ حَادَ عَن الصَّوابِ".

وبما أَنَّنَا نَعِيشُ الآنَ فِي زَمَنِ سُهُولَةِ الحِصُولِ على المعلُومَةِ، لَكِنْ لا يَنْبَغِي أَنْ يُنسِينَا هَذَا ضَرُورةَ تَلَقِّي العِلمَ والتَّدَرُّجَ فيه والتَّأَنِّي أَثْنَاءَ طَلَبِهِ حَتَّى تَحْصُلَ الثَّمَرَةُ وَيَجْلُوَ الأَثَرُ، وَلِذَلِكَ صَدَقَ أَحَدُهم حِينَمَا قَالَ: "مَن تَأَنَّى نَالَ مَا تَمَنَّى".

3 -التَّأَنِّي عندَ مُواجَهةِ العَدُوِّ في ساحةِ القتالِ:

قال النُّعمانُ بنُ مُقرِّنٍ للمُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنهما في تأخيرِ القتالِ يومَ نَهاوَنْدَ: „ربَّما أشهَدَك اللهُ مِثلَها مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يُنَدِّمْك، ولم يُخْزِك، ولكِنِّي شَهِدتُ القتالَ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا لم يقاتِلْ في أوَّلِ النَّهارِ انتَظَر حتَّى تهُبَّ الأرواحُ[1900]، وتحضُرَ الصَّلَواتُ"[1901].

قال ابنُ حَجَرٍ: „قولُه: "فلم يُنَدِّمْك" أي: على التَّأنِّي والصَّبرِ حتَّى تزولَ الشَّمسُ"[1902].

4 -التَّأَنِّي في الإنكَارِ في الأُمُورِ المحتَمَلةِ:

فعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قصَّةِ موسى والخَضِرِ عليهما السَّلامُ، وفيه: „فعَمَد الخَضِرُ إلى لوحٍ من ألواحِ السَّفينةِ فنزَعه، فقال موسى: قومٌ حملونا بغيرِ نَولٍ[1903]، عمَدْتَ إلى سفينتِهم فخرَقْتَها لتُغرِقَ أهلَها؟! قال: ألم أقُلْ: إنَّك لن تستطيعَ معي صبرًا؟ قال: لا تؤاخِذْني بما نَسيتُ"[1904].

- قال ابنُ حَجَرٍ: „إنَّ الذي فعَلَه الخَضِرُ ليس في شيءٍ منه ما يناقِضُ الشَّرعَ، فإنَّ نقضَ لوحٍ من ألواحِ السَّفينةِ لدفعِ الظَّالمِ عن غَصْبِها، ثمَّ إذا تركها أعيدَ اللَّوحُ- جائزٌ شرعًا وعقلًا، ولكِنْ مُبادرةُ موسى بالإنكارِ بحَسَبِ الظَّاهِرِ، وقد وقع ذلك واضِحًا في روايةِ أبي إسحاقَ التي أخرجها مسلمٌ، ولفظُه: فإذا جاء الذي يُسَخِّرُها فوجدها منخَرِقةً، تجاوَزَها فأصلَحَها، فيُستفادُ منه وجوبُ التَّأنِّي عن الإنكارِ في المحتَمَلاتِ"[1905].

5 -التَّأَنِّي في التَّحدُّثِ مع الآخَرينَ:

عن أمِّ المؤمنين عائشةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنها قالت: „إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يحَدِّثُ حديثًا لو عدَّه العادُّ لأحصاه".[1906] وفي لفظٍ: „إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ يَسرُدُ الحديثَ كسَرْدِكم"[1907].

قال بدرُ الدِّينِ العَينيُّ: "(لم يكُنْ يَسرُدُ) أي: لم يكُنْ يتابِعُ الحديثَ استِعْجالًا، أي: كان يتكَلَّمُ بكلامٍ متتابعٍ مفهومٍ واضحٍ على سبيلِ التَّأنِّي؛ لئلَّا يلتَبِسَ على المستَمِعِ"[1908].

6 -عندَ الفصلِ في المنازَعاتِ وإنزالِ العُقوباتِ:

[1900] الأرواحُ: جمعُ رِيحٍ .يُنظَر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني 5/ 232 .والمعنى: حتى تجيءَ الرِّياحُ -ومنها ريحُ النصرِ- وتكسِرَ حرارةَ النَّهارِ وشوكةَ الشَّمسِ التي هي معبودةُ الكُفَّارِ. يُنظَر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري.

[1901] أخرجه البخاري 3160

[1902] فتح الباري 6/256

[1903] النَّولُ: الأجرُ (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير).

[1904] رواه مطوَّلًا البخاري 122 واللفظ له، ومسلم 2380

[1905] فتح الباري 1/222

[1906] أخرجه البخاري 3567 واللفظ له، ومسلم 2493

[1907] أخرجه البخاري3568، ومسلم 2493

[1908] عمدة القاري 16/115

قال أبو عُثمانَ بنُ الحدَّادِ: „القاضي شأنُه الأناةُ والتَّثبُّتُ، ومن تأنَّى وتثبَّتَ تهيَّأَ له من الصَّوابِ ما لا يتهيَّأُ لصاحِبِ البَديهةِ"[1909].

وقال الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ: „قال بعضُهم: ينبغي للسُّلطانِ أن يؤخِّرَ العقوبةَ حتَّى ينقضيَ سُلطانُ غَضَبِه، ويُعَجِّلَ مكافأةَ المحسِنِ، ويَستعمِلَ الأناةَ فيما يُحدِثُ؛ ففي تأخيرِ العقوبةِ إمكانُ العفوِ إن أحَبَّ ذلك، وفي تعجيلِ المكافأةِ بالإحسانِ مُسارعةُ الأولياءِ إلى الطَّاعةِ"[1910].

وقع سُهَيْل بن عمرو أسيرًا في أيدي المسلمين يوم بدر، وكان خطيبًا مفوَّهًا بليغًا، فأراد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن يقتلع أسنانه الأمامية حتى لا يخطُب في الكفار، ويحرِّض المشركين على القتال، فاستأذن النبي صلى الله عليه وسلم قائلا: دعني أنزع ثنيتي سهيل؛ فلا يقوم علينا خطيبًا؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: „دعها؛ فلعلها أن تَسُرَّك يومًا".

وَفِي فَتْحِ مَكَّةَ أَسْلَمَ سُهَيلٌ، وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَلَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يَرْتَدُّوا عَنِ الإِسْلَامِ، فَقَامَ سُهَيلٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَخْطُبُ فِيهِم، وَيُذَكِّرُهُم بِاللهِ، وَيَحُثُّهُم عَلَى الثَّبَاتِ، والتَّمَسُّكِ بِالدِّينِ، فَسَمِعُوا لَهُ وَأَطَاعُوا.

7 -التَّأَنِّي في العِبَادَةِ وَخَاصَّةً الدُّعَاءِ:

يَنْبَغِي عَلَى المسْلِمِ أَنْ يَخشَعَ في عِباداتِهِ، ويُؤَدِّيَهَا بِتَمَهُّلٍ وَتَأَنٍّ، فَإِنْ كَانَ مُصَلِيًا، صَلَّى في خُضُوعٍ وَخُشُوعٍ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وإِنْ كَانَ يَدعُو رَبَّهُ، دَعَاهُ في تَضَرُّعٍ وَتَذَلُّلٍ، فَيَبْدَأُ بِحَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ، وَالصَّلَاةُ عَلَى رَسُولِه، فعن فضالة بن عبيد قال: "بينا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ قاعدٌ إذ دخلَ رجلٌ فصلَّى فقال: اللَّهمَّ اغفر لي وارحمني، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ: عجِلتَ أيُّها المصلِّي، إذا صلَّيتَ فقعدتَ فاحمَدِ اللَّهَ بما هوَ أَهلُه، وصلِّ عليَّ ثمَّ ادعُه. قال: ثمَّ صلَّى رجلٌ آخرُ بعدَ ذلِكَ فحمدَ اللَّهَ وصلَّى على النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ فقالَ لَهُ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ: أيُّها المصلِّي ادعُ تُجَب".[1911]

وفي الدُّعَاءِ أَيْضًا، عَلَى المسْلِمِ أَلَّا يَتَعَجَّلَ الإِجَابَةَ، فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: أَنَّ رُسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لي".[1912]

قال ابنُ بطَّالٍ: „قال بعضُ العُلَماءِ: قولُه: "ما لم يَعْجَلْ" يعنى: يسأمُ الدُّعاءَ ويتركُه فيكونُ كالمانّ بدعائِه، وأنَّه قد أتى من الدُّعاءِ ما كان يستَحِقُّ به الإجابةَ، فيصيرُ كالمُبخِّلِ لربٍّ كريمٍ لا تُعجِزُه الإجابةُ، ولا يَنقُصُه العطاءُ، ولا تَضُرُّه الذُّنوبُ!"[1913].

8 -التَّأَنِّي في نقلِ الأخبارِ:

كأخبارِ الصُّحُفِ والمجلَّاتِ والمواقعِ الإلكترونيَّةِ؛ حتَّى لا يندَمَ على تسرُّعِه في نقلِ خبرٍ يظهَرُ فيما بَعدُ عَدَمُ صِحَّتِه، فينبغي على العاقِلِ أن يتأنَّى في ذلك ولا يتسَرَّعَ.

„والمُشَاهَدُ وَالوَاقِعُ أنَّ عَدَمَ التَّثبُّتِ وعَدَمَ التَّأَنِّي يؤدِّيانِ إلى كثيرٍ من الأضرارِ والمفاسِدِ؛ فقد يَسمَعُ الإنسانُ خبرًا أو يقرأُ نبأً في صحيفةٍ أو مجلَّةٍ، فيسارِعُ بتصديقِه، ويعادي ويصادِقُ، ويبني على ذلك التَّصرُّفاتِ والأعمالَ التي يُصدِرُها للمقاومةِ أو الموافقةِ، على أساسِ أنَّه حقٌّ واقعٌ، ثمَّ يظهَرُ أنَّه كان مَكذوبًا، أو مُحرَّفًا، أو مُزوَّرًا، أو مُبالَغًا فيه، أو مُرادًا به غيرُ ما فَهِمه الإنسانُ، ومن هُنا يَكتوِي المتسَرِّعُ بلَهَبِ النَّدمِ والحَسرةِ بِسَبَبِ استعجالِه وعَدَمِ تثبُّتِه"[1914]

[1909] جامع بيان العلم وفضله/ لابن عبد البر 2/1127

[1910] الذريعة إلى مكارم الشريعة 1/242

[1911] أخرجه أبو داود (1481)، والترمذي (3476) واللفظ له، والنسائي (1284)، وأحمد (23982)

[1912] أخرجه البخاري 6340 واللفظ له، ومسلم 2735

[1913] شرح صحيح البخاري لابن بطال 10/100

[1914] الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى / لسعيد بن وهف القحطاني 71/1

9 -التَّأنِّي في الفتوى:

قال مالِكُ بنُ أنسٍ: „العَجَلةُ في الفتوى نوعٌ من الجَهلِ والخُرقِ، قال: وكان يقالُ: التَّأنِّي من اللَّهِ، والعَجَلةُ من الشَّيطانِ".[1915]

10- أهميَّةُ التَّأنِّي عندَ وُرودِ الشَّائعاتِ:

حَذَّرَتْ الشَّريعةُ مِن نَقلِ الكلامِ من غيرِ تأنٍّ وتثبُّتٍ حتى ينتَشِرَ في الآفاقِ، وبعضُ النَّاسِ لا يُبالي بصِدقِ الكلامِ أو كَذِبِه، فيُسارِعُ في نقلِه، وقد لا يكونُ للكلامِ مَصْدَرٌ صحيحٌ، وليس إلَّا مجرَّدُ شائعةٍ سُرعانَ ما تنتَشِرُ بَينَ النَّاسِ.

المطلب السادس: ثَمَراتُ التَّأنِّي

1 -دلالةٌ على رجاحةِ العَقلِ، ووُفورِ الرَّزانةِ، وطُمَأنينةِ القَلبِ.

2 -يَعصِمُ الإنسانَ من الضَّلالِ والخطَأِ وما لا تُحمَدُ عُقباه:

قال ابنُ عُثَيمين: „الأناةُ: التَّأنِّي في الأمورِ وعَدَمُ التَّسرُّعِ، وما أكثَرَ ما يَهلِكُ الإنسانُ ويَزِلُّ بسبَبِ التَّعجُّلِ في الأمورِ، وسواءٌ في نقلِ الأخبارِ أو في الحُكمِ على ما سَمِع، أو في غيرِ ذلك. فمن النَّاسِ -مثلًا- من يَتَخَطَّفُ الأخبارَ، بمجَرَّدِ ما يَسْمَعُ الخبَرَ يُحَدِّثُ بِهِ ويَنْقُلُه، ومن النَّاسِ من يتسَرَّعُ في الحُكمِ، سمِعَ عن شخصٍ شيئًا من الأشياءِ، ويتأكَّدُ أنَّه قاله، أو أنَّه فعَلَه، ثمَّ يتسَرَّعُ في الحُكمِ عليه، أنَّه أخطأ أو ضلَّ أو ما أشبَهَ ذلك، وهذا غَلَطٌ. التَّأنِّي في الأمورِ كُلُّه خيرٌ".

3 -التَّأنِّي محمودُ العاقبةِ في الدُّنيا والآخِرةِ.

4 -صيانةٌ للإنسانِ من الأخلاقِ المذمومةِ كالعَجَلَةِ وَالطَّيْشِ والعُنْفِ أو التَّفْرِيطِ والإضَاعَةِ.

5 -سببٌ لنَيلِ محبَّةِ اللهِ ورِضاه سُبحانَه:

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأشَجِّ عبدِ القَيسِ: „إنَّ فيك خصلَتَينِ يحِبُّهما اللَّهُ: الحِلمُ، والأناةُ".

6 -صيانةُ الإنسانِ من كَيدِ الشَّيطانِ وتسَلُّطُه عليه.

7 -التَّرَيُّثُ عندَ وُصولِ الخبَرِ إليه حتَّى لا يندَمَ.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: 6].

8 -القُدرةُ على التَّمييزِ بَينَ الحَقِّ والباطِلِ، والهُدى والضَّلالِ، والصَّوابِ والخطَأِ.

9 -لا يبقى مجالٌ للظَّنِّ والشُّبهةِ في بابِ الحُكمِ والقَضاءِ.

10 -لا يبقى مجالٌ للأحكامِ السَّطحيَّةِ والفُروضِ الوهميَّةِ في عالَمِ البحوثِ والتِّجارِبِ والعُلومِ.

11-يعيشُ المجتَمَعُ الملتَزِمُ بهذا الخُلُقِ الفاضِلِ في سلامٍ وأمانٍ.

12-وقايةُ الأُسَرِ من التَّشتُّتِ والضَّياعِ الذي قد تحدِثُه الشَّائعاتُ.

13- تطهيرُ المجتَمَعِ المسلِمِ من المنافِقين وإرجافاتِهم التي لا تنفَكُّ عن الكَذِبِ.

[1915] إعلام الموقعين لابن القيم 2/128

المطلب السابع: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ التَّأنّي

الاعتقادُ بأنَّ التَّأنّيَ وتَركَ العَجلةِ يُطلَبُ في كُلِّ أمرٍ، وهذا اعتقادٌ خَطأٌ؛ فهناك أمورٌ ومواقِفُ تتطَلَّبُ من التَّصَرُّفِ الحازمِ والعَمَلِ السَّريعِ ما لا يناسِبُه التَّأنّي، مِثلُ العَجَلةِ في اغتنامِ الأوقاتِ، وتركِ التَّسويفِ فيها، وكذا تعجيلُ الفِطرِ للصَّائِمِ، وكذا إغاثةُ الملهوفِ، فلا تأنِّيَ في ذلك، وعدَمُ تأخيرِ البيانِ عن وقتِ الحاجةِ، كبيانِ حَقٍّ وإبطالِ باطِلٍ، وأمرٍ بالمعروفِ ونهيٍ عن المنكَرِ.

وهذا معنى قولِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه „التُّؤَدةُ في كُلِّ شيءٍ حَسَنٌ إلَّا في أمورِ الآخِرةِ".[1916]

وقال إبراهيمُ بنُ أدهَمَ: „ذَكَروا الأناةَ في الأشياءِ كُلِّها، فقال الأحنَفُ: أمَّا أنا فإذا حضَرَت جِنازةٌ لم أتأنَّ، وإذا وجَدْتُ كُفُؤًا زوَّجْتُ ولم أتأنَّ، وإذا حضَرَت الصَّلاةُ لم أتأنَّ".[1917]

وعن الأحنَفِ قال: „ثلاثةٌ لا أناةَ فيهنَّ عندي. قيل: وما هنَّ يا أبا بحرٍ؟ قال: المبادَرةُ بالعَمَلِ الصَّالحِ، وإخراجُ مَيِّتِك، وأن تُنكِحَ الكُفءَ أيِّمَك".[1918]

و"قالوا: من تمامِ المعروفِ تعجيلُه".

المطلب الثامن: الوسائِلُ المُعينةُ على اكتِسابِ صِفةِ التَّأنّي

1- الدُّعاءُ:

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو اللهَ بأن يهديَه إلى أحسَنِ الأخلاقِ، فكان من دُعائِه: „واهْدِني لأحسَنِ الأخلاقِ؛ لا يهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصرِفْ عنِّي سَيِّئَها؛ لا يَصرِفُ عنِّي سَيِّئَها إلَّا أنت".[1919]

2- النَّظَرُ في عواقِبِ الاستِعجالِ:

قال أبو إسحاقَ القَيروانيُّ: „قال بعضُ الحُكَماءِ: إيَّاك والعَجَلةَ؛ فإنَّ العَرَبَ كانت تُكَنّيها أمَّ النَّدامةِ؛ لأنَّ صاحِبَها يقولُ قَبلَ أن يعلَمَ، ويجيبُ قَبلَ أن يَفهَمَ، ويَعزِمُ قَبلَ أن يُفَكِّرَ، ويَقطَعُ قَبلَ أن يَقدِرَ، ويَحمَدُ قَبلَ أن يُجَرِّبَ، ويَذُمُّ قَبلَ أن يَخبُرَ، ولن يصحَبَ هذه الصِّفةَ أحدٌ إلَّا صَحِبَ النَّدامةَ، واعتَزَلَ السَّلامةَ".[1920]

3- معرفةُ معاني أسماءِ اللهِ وصِفاتِه:

فمن أسمائِه سُبحانَه: الحليمُ والرَّفيقُ، ومن معانيهما: التَّأنّي في الأمورِ، والتَّدرُّجُ فيها، ومن ذلك إمهالُ الكافِرين والظَّالِمين؛ إقامةً للحُجَّةِ وقطعًا للمَحجَّةِ؛ ليَهلِكَ مَن هلَك عن بيِّنةٍ، ويحيا من حَيَّ عن بيِّنةٍ.[1921]

قال تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [يونس: 11].

4- قراءةُ سيرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

[1916] أخرجه مسدد كما في إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري 7/452 واللفظ له، وابن أبي شيبة 36769، والبيهقي في شعب الإيمان 10604. صحَّح سندَه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة 7/452

[1917] رواه البيهقي في شعب الإيمان 9270

[1918] البيان والتبين للجاحظ 138 /2

[1919] أخرجه مسلم 771 مطوَّلًا من حديثِ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

[1920] زهر الآداب وثمر الألباب 4/942

[1921] يُنظَر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير 6/557، صفات الله -عز وجل- الواردة في الكتاب والسنة لعلوي السقاف1/139، 180

فنَستفيدُ مِن سِيرتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم التَّأنِّيَ والصَّبرَ على الإيذاءِ؛ قال خبَّابُ بنُ الأرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه: „شكَونا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو متوَسِّدٌ[1922] بُردةً[1923] له في ظِلِّ الكعبةِ، قُلْنا له: ألَا تَسْتَنْصِرُ لنا؟ ألَا تَدْعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجلُ فيمَنْ قبلَكم يُحفَرُ له في الأرْضِ، فيُجعَلُ فيهِ، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رأسِهِ فيُشَقُّ باثْنتَينِ، وما يصُدُّه ذلك عن دِينِه، ويُمشَّطُ بأمْشاطِ الحَديدِ ما دُونَ لَحمِه مِن عظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يصُدُّهُ ذلك عن دِينِه، واللهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمرَ، حتَّى يَسيرَ الرَّاكبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ، لا يَخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِه، ولكنَّكم تَستعجِلونَ".[1924]

5- قراءةُ سيرةِ السَّلَفِ الصَّالحِ:

ففي سيرةِ سَلَفِنا الصَّالحِ نماذِجُ كثيرةٌ تدُلُّ على تحَلّيهم بخُلُقِ التَّأنِّي، والتَّريُّثِ في أمورِهم؛ فقراءةُ سِيَرِهم تُعينُ على الاقتداءِ بهم، وانتِهاجِ طَريقِهم.

6- استشارةُ أهلِ الصَّلاحِ والخِبرةِ:

إذا أقدَمَ الشَّخصُ على أمرٍ يجهَلُه فعليه أن يستشيرَ أهلَ الصَّلاحِ والخبرةِ، ولا يتعجَّلَ في أمرِه؛ قال تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159].

قال الماوَرْديُّ: "الحَزمُ لكُلِّ ذي لُبٍّ ألَّا يُبرِمَ أمرًا ولا يُمضِيَ عَزمًا إلَّا بمشورةِ ذي الرَّأيِ النَّاصِحِ، ومطالَعةِ ذي العَقلِ الرَّاجِحِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ بالمشورةِ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع ما تكفَّل به من إرشادِه، ووعَد به من تأييدِه، فقال تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}"، وقال الحسَنُ البَصريُّ رحمه اللهُ تعالى: "أَمَرَهُ بمشاورتِهم ليستَنَّ به المُسلِمون، ويتَّبِعَه فيها المؤمنون، وإن كان عن مشورتِهم غَنيًّا".[1925]

[1922] الوِسادُ والوِسادةُ: المخدَّةُ، وقد وسَّدْتُه الشيءَ فتوسدَّه: إذا جعَله تحتَ رأسِه. يُنظَر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري 2/550

[1923] بُردةً: أي: كِساءً أسوَدَ مُرَبَّعٌ. يُنظَر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني.96 /10

[1924] أخرجه البخاري 3612

[1925] أدب الدنيا والدين 1/300

المبحث الثاني عشر: الصبر

المطلب الأول: معنى الصبر

- **الصَّبرِ لُغةً:**

الصَّبرُ: نَقيضُ الجَزَعِ، وقيل: أصلُ الكَلِمةِ مِنَ الشِّدَّةِ والقوَّةِ، ومِنه الصَّبرُ للدَّواءِ المَعروفِ؛ لشِدَّةِ مَرارَتِه، وقيل: مَأخوذٌ مِنَ الجَمعِ والضَّمِّ، فالصَّابرُ يجمَعُ نَفسَه ويضُمُّها عنِ الهَلَعِ والجَزَعِ، ومِنه صُبرةُ الطَّعامِ. والتَّحقيقُ أنَّ في الصَّبرِ المَعانيَ الثَّلاثةَ: المَنعَ والشِّدَّةَ والضَّمَّ.[1926]

- **الصَّبرِ اصطِلاحًا:**

„الصَّبرُ: هو حَبسُ النَّفسِ عن مَحارِمِ اللهِ، وحَبسُها على فرائِضِه، وحَبسُها عنِ التَّسَخُّطِ والشِّكايةِ لأقدارِه".[1927]

وقيل الصَّبرُ: „حَبسُ النَّفسِ على ما يقتَضيه العَقلُ والشَّرعُ، أو عَمَّا يقتَضيانِ حَبسَها عنه".[1928]

المطلب الثاني: الفرقُ بَينَ الصَّبرِ وبَعضِ الصِّفاتِ

- **الفرقُ بَينَ الصَّبرِ والتَّصَبُّرِ، والاصطِبارِ والمُصابَرةِ:**

الفرقُ بَينَ هذه الأسماءِ بحَسبِ حالِ العَبدِ في نَفسِه وحالِه مَعَ غَيرِه:

- فإنْ حَبَسَ نَفسَه ومَنعَها عن إجابةِ داعي ما لا يَحْسُنُ، إن كان خُلُقًا له ومَلكةً سُمّي صَبرًا.

- وإنْ كان بتَكلُّفٍ وتَمَرُّنٍ وتَجَرُّعٍ لمَرارَتِه سُمّي تَصَبُّرًا.

كما يدُلُّ عليه هذا البناءُ لُغةً؛ فإنَّه مَوضوعٌ للتَّكَلُّفِ، كالتَّحَلُّمِ والتَّشَجُّعِ والتَّكَرُّمِ والتَّحَمُّلِ ونَحوِها، وإذا تَكلَّفه العَبدُ واستَدعاه صارَ سَجيَّةً له.

كما في الحَديثِ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: „ومَن يتَصَبَّرْ يُصَبِّرْه اللهُ".[1929]

وكذلك العَبدُ يتَكلَّفُ التَّعَفُّفَ حتَّى يصيرَ التَّعَفُّفُ له سَجيَّةً، كذلك سائِرُ الأخلاقِ...

وقيل: مَراتِبُ الصَّابرينَ خَمسةٌ: صابِرٌ، ومُصطَبِرٌ، ومُتَصَبِّرٌ، وصَبورٌ، وصَبَّارٌ؛ فالصَّابرُ: أعَمُّها، والمُصطَبِرُ: المُكتَسِبُ الصَّبرِ المَليءُ به. والمُتَصَبِّرُ: المُتَكلِّفُ حامِلُ نَفسِه عليه. والصَّبورُ: العَظيمُ الصَّبرِ الذي صَبرُه أشَدُّ مِن صَبرِ غَيرِه. والصَّبَّارُ: الكَثيرُ الصَّبرِ. فهذا في القَدْرِ والكَمِّ. والذي قَبلَه في الوصفِ والكَيفِ.[1930]

وأمَّا الاصطِبارُ فهو أبلغُ مِنَ التَّصَبُّرِ:

فإنَّه افتِعالٌ للصَّبرِ بمَنزِلةِ الاكتِسابِ؛ فالتَّصَبُّرُ مَبدَأُ الاصطِبارِ، كما أنَّ التَّكسُّبَ مُقدِّمةُ الاكتِسابِ، فلا يزالُ التَّصَبُّرُ يتَكرَّرُ حتَّى يصيرَ اصطِبارًا.

- وأمَّا المُصابَرةُ فهي مُقاوَمةُ الخَصمِ في مَيدانِ الصَّبرِ:

[1926] الصحاح للجوهري ص: 706، لسان العرب لابن منظور 4/437، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص: 15

[1927] رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص: 18

[1928] مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني 474. وقريبٌ منه تعريفُ ابنِ القَيِّمِ الصَّبرَ بأنَّه: ثباتُ القلبِ على الأحكامِ القَدَريَّةِ والشَّرعيَّةِ. الروح ص: 241. وذكر الزَّبيديُّ غيرَ ذلك من تعريفاتِ الصَّبرِ. يُنظَر: تاج العروس 12/272، 273

[1929] رواه مطوَّلًا البخاري 1469 واللفظ له، ومسلم 1053 من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[1930] مدارج السالكين لابن القيم 2/ 158

فإنَّها مُفاعَلةٌ تَستَدعي وُقوعَها بَينَ اثنَينِ، كالمُشاتَمةِ والمُضارَبةِ؛ قال اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: 200]، فَأَمَرَهُم بالصَّبرِ: وهو حالُ الصَّابرِ في نَفسِه، والمُصابَرةِ: وهي حالةٌ في الصَّبرِ مَعَ خَصمِه، والمُرابَطةِ: وهي الثَّباتُ واللُّزومُ والإقامةُ على الصَّبرِ والمُصابَرةِ؛ فقد يصبرُ العَبدُ ولا يُصابرُ، وقد يُصابرُ ولا يُرابطُ، وقد يصبرُ ويُصابرُ ويُرابطُ مِن غَيرِ تَعبُّدٍ بالتَّقوى، فأخبَرَ سُبحانَه أنَّ مِلاكَ ذلك كُلِّه التَّقوى، وأنَّ الفلاحَ مَوقوفٌ عليها، فقال: {وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: 200]، فالمُرابطةُ كما أنَّها لُزومُ الثَّغرِ الذي يُخافُ هجومُ العَدوِّ مِنه في الظَّاهرِ، فهي لُزومُ ثَغرِ القَلبِ؛ لئَلَّا يدخُلَ مِنه الهَوى والشَّيطانُ فيُزيلَه عن مَملكتِه".[1931]

- **الفرقُ بَينَ الصَّبرِ والاحتِمالِ:**

„أنَّ الاحتِمالَ للشَّيءِ يُفيدُ كَظمَ الغَيظِ فيه، والصَّبرُ على الشِّدَّةِ يُفيدُ حَبسَ النَّفسِ عنِ المُقابَلةِ عليه بالقَول والفِعل، والصَّبرُ عنِ الشَّيءِ يُفيدُ حَبسَ النَّفسِ عن فِعلِه، وصَبَرتُ على خُطوبِ الدَّهرِ، أي: حَبَستُ النَّفسَ عنِ الجَزَعِ عِندَها، ولا يُستَعمَلُ الاحتِمالُ في ذلك؛ لأنَّك لا تَغتاظُ مِنه".[1932]

- **الفرقُ بَينَ الصَّبرِ والحِلمِ:**

„الفرقُ بَينَ الصَّبرِ والحِلمِ: أنَّ الصَّبرَ ثَمرةُ الحِلمِ وموجِبُه، فعلى قَدرِ حِلمِ العَبدِ يكونُ صَبرُه، فالحِلمُ في صِفاتِ الرَّبِّ تعالى أوسَعُ مِنَ الصَّبرِ؛ ولهذا جاءَ اسمُه الحَليمُ في القُرآنِ في غَيرِ مَوضِعٍ، ولسَعَتِه يَقرُنُه سُبحانَه باسمِ العَليمِ، كقَولِه: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا} {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ}.[1933]

المطلب الثالث: الترغيب في الصبر والحث عليه

أ. الصَّبْرُ في القُرآنِ الكريمِ:

الصَّبرُ مِن أكثَرِ الأخلاقِ التي اعتَنى بها دينُ الإسلامِ؛ لذا تَكرَّرَ ذِكرُه في القُرآنِ في مَواضِعَ كثيرةٍ، قال أبو عَبدِ اللهِ أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ: „ذَكرَ اللهُ سُبحانَه الصَّبرَ في القُرآنِ في تِسعينَ مَوضِعًا".[1934]

وغالبًا ما يَكونُ الصَّبرُ مُقْتَرِنًا بالإيمانِ في كِتابِ الله كَقَوْلِهِ تَعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا} [آل عمران:200].

- **وقد سِيقَ الصَّبرُ في القُرآنِ في عِدَّةِ أنواعٍ:**

أحدُها: الأمرُ به، كقَولِه: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: 127]، وقال: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [الطور: 48].

الثَّاني: النَّهيُ عَمَّا يُضادُّه، كقَولِه تعالى: {وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} [الأحقاف: 35]، وقَولِه: {وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ} [القلم: 48].

الثَّالثُ: تَعليقُ الفلاحِ به، كقَوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: 200]، فعَلَّقَ الفلاحَ بمَجموعِ هذه الأُمورِ.

الرَّابعُ: الإخبارُ عن مُضاعَفةِ أجرِ الصَّابرينَ على غَيرِه، كقَولِه: {أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} [القصص: 54]، وقولِه: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر:10].

[1931] عدة الصابرين لابن القيم ص: 41 بتصرف.

[1932] الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص: 22

[1933] عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص: 276

[1934] عدة الصابرين لابن القيم ص: 113

الخامِسُ: تَعليقُ الإمامةِ في الدِّينِ به وباليقينِ، قال اللهُ تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: 24].

السَّادِسُ: ظَفَرُهُم بمَعيَّةِ اللهِ سُبحانَه لهم، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 153].

السَّابِعُ: أنَّه جَمَعَ للصَّابرينَ ثَلاثةَ أُمورٍ لم يجمَعها لغَيرِهم، وهي الصَّلاةُ مِنه عليهم، ورَحمَتُه لهم، وهدايتُه إيَّاهم؛ قال تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: 155-157].

الثَّامِنُ: أنَّه سُبحانَه جَعَل الصَّبرَ عَونًا وعُدَّةً، وأمَرَ بالاستِعانةِ به، فقال: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة: 45] فمَن لا صَبْرَ له لا عَوْنَ له.

التَّاسِعُ: أنَّه سُبحانَه عَلَّقَ النَّصرَ بالصَّبرِ والتَّقوى، فقال تعالى: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: 125].

العاشِرُ: أنَّه سُبحانَه جَعَل الصَّبرَ والتَّقوى جُنَّةً عَظيمةً مِن كَيدِ العَدوِّ ومَكرِه، فَما استَجَنَّ العَبدُ مِن ذلك جَنَّةً أعظَمَ مِنهما، قال تعالى: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} [آل عمران: 120].

الحاديَ عَشَر: أنَّه سُبْحانَه أخبَرَ أنَّ مَلائِكته تُسَلِّمُ عليهم في الجَنَّةِ بِصَبْرِهم، كما قال: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 24].

الثاني عَشر: أنَّه سُبحانَه أباحَ لهم أن يُعاقِبُوا على ما عُوقِبوا به، ثُمَّ أقسَمَ قَسَمًا مُؤَكَّدًا غَايَةَ التَّأْكِيدِ أنَّ صَبْرَهم خَيرٌ لهم، فقال: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل: 126].

الثَّالثَ عَشَرَ: أنَّه سُبحانَه رَتَّب المَغفِرةَ والأجْرَ الكبيرَ على الصَّبرِ والعَمَلِ الصَّالحِ، فقال: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [هود: 11].

الرَّابعَ عَشَرَ: أنَّه سُبحانَه جَعَل الصَّبرَ على المَصائِب مِن عَزمِ الأُمورِ، أي: مِمَّا يُعزَمُ مِنَ الأُمورِ التي إنَّما يُعزَمُ على أجَلِّها وأشرَفِها، فقال: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى: 43] وقال لُقمانُ لابنِه: {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان: 17].

الخامِسَ عَشَرَ: أنَّه سُبحانَه وعَدَ المُؤمِنينَ بالنَّصرِ والظَّفَرِ، وأخبَرَ أنَّه إنَّما أنالهم ذلك بالصَّبرِ، فقال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا} [الأعراف: 137].

السَّادِسَ عَشَرَ: أنَّه سُبحانَه عَلَّقَ مَحَبَّتَه بالصَّبرِ وجَعلَها لأهلِه فقال: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 146].

السَّابعَ عَشَرَ: أنَّه سُبحانَه أخبَرَ عن خِصالِ الخَيرِ أنَّه لا يُلَقَّاها إلَّا الصَّابرونَ، في مَوضِعَينِ مِن كتابِه؛ في سورةِ القَصَصِ في قِصَّةِ قارونَ، وأنَّ الذين أوتوا العِلمَ قالوا للذين تَمَنَّوا مِثلَ ما أُوتي: {وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص: 80]، كما أمَرَ العَبدَ أن يدفعَ بالتي هي أحسَنُ، فإذا فعَل ذلك صارَ الذى بَينَه وبَينَه عَداوةٌ كأنَّه حَبيبٌ قَريبٌ، ثُمَّ قال: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: 35].

الثَّامِنَ عَشَرَ: أنَّه سُبحانَه أخبَرَ أنَّه إنَّما ينتفِعُ بآياتِه ويتَّعِظُ بها الصَّبَّارُ الشَّكورُ، فقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [إبراهيم: 5]، وقال تعالى في لُقمانَ: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [لقمان:31]، وقال في قِصَّةِ سَبأ: {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [سبأ: 19]، وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [الشورى: 32-33]، فهذه أربعةُ مَواضِعَ في القُرآنِ تَدُلُّ على أنَّ آياتِ الرَّبِّ إنما ينتفِعُ بها أهلُ الصَّبرِ والشُّكرِ.

التَّاسِعَ عَشَرَ: أنَّه أثنى على عَبدِه أيُّوبَ بأحسَنِ الثَّناءِ على صَبْرِه، فقال: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: 44] فأطلقَ عليه نِعْمَ الْعَبْدُ بِكَوْنِه وَجَدَهُ صَابرًا، وهذا يَدُلُّ على أنَّ مَن لم يَصْبِرْ إذا ابتُلِيَ فإنَّه بئسَ العَبدُ.

العِشرونَ: أنَّه سُبحانَه حَكَمَ بالخُسرانِ حُكمًا عامًّا على كُلِّ مَن لم يُؤمِنْ ولم يكُنْ مِن أهلِ الحَقِّ والصَّبرِ، وهذا يدُلُّ على أنَّه لا رابحَ سِواهم، فقال تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 1-3]، وذلك أنَّ العَبْدَ كمالُه في تكميلِ قوَّتَيه: قوَّةِ العِلمِ وقوَّةِ العَمَلِ، وهما الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالحُ، وكما هو مُحتاجٌ إلى تكميلِ نَفسِه فهو مُحتاجٌ إلى تكميلِ غَيرِه، وهو التَّواصي بالحَقِّ والتَّواصي بالصَّبرِ، وأخيَّةُ ذلك وقاعِدتُه وساقُه الذى يقومُ عليه إنَّما هو الصَّبرُ.

الحادي والعِشرونَ: أنَّه سُبحانَه خَصَّ أهلَ المَيمَنةِ بأنَّهم أهلُ الصَّبرِ والمَرحَمةِ الذين قامَت بهم هاتانِ الخَصلتانِ، ووصَّوا بهما غَيرَهم، فقال تعالى: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} [البلد: 17-18]، وهذا حَصرٌ لأصحابِ المَيمَنةِ فيمَن قامَ به هذانِ الوصفانِ.

الثاني والعِشرونَ: أنَّه سُبحانَه قَرَن الصَّبرَ بأركانِ الإسلامِ ومَقاماتِ الإيمانِ كُلِّها، فقَرنه بالصَّلاةِ، كقَولِه: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة: 45]، وقَرَنُهُ بالأعمالِ الصَّالحةِ عُمومًا، كقَوله: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [هود: 11]، وجَعَله قَرينَ التَّقوى، كقَولِه: {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ} [يوسف: 90]، وجَعَله قَرينَ الشُّكرِ، كقَولِه: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [إبراهيم: 5]، وجَعَله قَرينَ الحَقِّ، كقَولِه: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 3]، وجَعَله قَرينَ الرَّحمةِ، كقَولِه: {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [البلد: 17]، وجَعَله قَرينَ اليقينِ، كقَولِه: {لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: 24]، وجَعَله قَرينَ الصِّدقِ، كقَولِه: {وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ} [الأحزاب: 35]، وجَعَله سَبَبُ مَحَبَّتِه ومَعيَّتِه ونَصرِه وعَونِه وحُسنِ جَزائِه، ويكفي بَعضُ ذلك شَرَفًا وفضلًا. واللهُ أعلمُ.[1935]

- **التَّواصِي بالصَّبرِ في سورة العصر:**

قال اللهُ عزَّ وجلَّ: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 1 – 3].

قال ابنُ تيميَّةَ: „فلا بُدَّ مِنَ التَّواصي بالحَقِّ والصَّبرِ؛ إذ إنَّ أهلَ الفسادِ والباطِل لا يقومُ باطِلُهم إلَّا بصَبرٍ عليه أيضًا، لَكِنِ المُؤمِنونَ يتَواصَونَ بالحَقِّ والصَّبرِ، وأولئِك يتَواصَونَ بالصَّبرِ على باطِلِهم، كما قال قائِلُهُم: {أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} [ص: 6].

فالتَّواصي بالحَقِّ بدونِ الصَّبرِ كما يفعَلُه الذين يقولونَ: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ * أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت:10].

والتَّواصي بالصَّبرِ بدونِ الحَقِّ، كقَولِ الذين قالوا: {أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} [ص: 6]، كِلاهما موجِبٌ للخُسرانِ، وإنَّما نَجا مِنَ الخُسرانِ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحات وتَواصَوا بالحَقِّ وتَواصَوا بالصَّبرِ، وهذا مَوجودٌ في كُلِّ مَن خَرَجَ عن هؤلاء من أهلِ الشَّهَواتِ الفاسِدةِ وأهلِ الشُّبُهاتِ الفاسِدةِ، أهلِ الفُجورِ وأهلِ البدَعِ".[1936]

ب. الصَّبرُ في السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

[1935] عدة الصابرين لابن القيم ص: 114

[1936] جامع الرسائل 2/394

- عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: „إنَّ ناسًا من الأنصارِ سألوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأعطاهم، ثمَّ سألوه فأعطاهم. حتَّى إذا نفِدَ ما عنده قال: "ما يكُنْ عندي من خيرٍ فلن أدَّخِرَه عنكم. ومن يستعفِفْ يُعِفَّه اللهُ، ومن يستغْنِ يُغنِه اللهُ. ومن يصبِرْ يُصبِّرْه اللهُ، وما أُعْطِيَ أحدٌ من عطاءٍ خيرٍ وأوسَعَ من الصَّبرِ."[1937]

وقَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „ومَن يتَصَبَّرْ": أي يطلُبْ توفيقَ الصَّبرِ مِنَ اللهِ؛ لأنَّه قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: 127] أي: يأمُرْ نَفسَه بالصَّبرِ ويتكلَّفْ في التَّحَمُّلِ عن مَشاقِّه، وهو تَعميمٌ بَعدَ تَخصيصٍ؛ لأنَّ الصَّبرَ يشتَمِلُ على صَبْرِ الطَّاعةِ والمَعْصِيةِ والبَلِيَّةِ، أو مَن يتَصَبَّرْ عنِ السُّؤالِ والتَّطَلُّعِ إلى ما في أيدي النَّاسِ بأن يتَجَرَّعَ مَرارةَ ذلك ولا يَشكو حالَه لغَيرِ رَبِّه. „يُصَبِّرْه اللهُ": بالتَّشديدِ أي: يُسَهِّلْ عليه الصَّبرَ، فتَكونُ الجُمَل مُؤَكِّداتٍ. ويُؤَيِّدُ إرادةَ مَعنى العُمومِ قَولُه: „وما أُعطِيَ أحَدٌ مِن عَطاءٍ": أي: مُعطًى أو شَيئًا، „أوسَعَ": أي: أشرَحَ للصَّدرِ، „مِنَ الصَّبرِ"؛ وذلك لأنَّ مَقامَ الصَّبرِ أعلى المَقاماتِ؛ لأنَّه جامِعٌ لمَكارِمِ الصِّفاتِ والحالاتِ.[1938]

- وأخبَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الصَّبرَ عِندَ الصَّدمةِ الأولى؛ فعن أنَسٍ رَضيَ اللهُ عنه قال: „مَرَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بامرَأةٍ تَبكي عِندَ قَبرٍ، فقال: اتَّقي اللهَ واصبري. قالت: إليكَ عنِّي؛ فإنَّك لم تُصَبْ بمُصيبَتي! ولم تَعرِفْه، فقيل لها: إنَّه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأتَت بابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلم تَجِدْ عِندَه بَوَّابينَ، فقالت: لم أعرِفْك، فقال: إنَّما الصَّبرُ عِندَ الصَّدمةِ الأولى".[1939]

قال ابنُ القَيِّمِ: „فإنَّ مُفاجَأةَ المُصيبةِ بَغتةً لها رَوعةٌ تُزعزِعُ القَلبَ، وتُزعِجُه بصَدْمِها، فإنْ صَبَرَ الصَّدمةَ الأولى انكسَرَ حَدُّها، وضَعُفَتْ قوَّتُها، فهانَ عليه استِدامةُ الصَّبرِ، وأيضًا فإنَّ المُصيبةَ تَرِدُ على القَلبِ وهو غَيرُ موطِّنٍ لها فتُزعِجُه، وهي الصَّدمةُ الأولى، وأمَّا إذا ورَدَتْ عليه بَعدَ ذلك تَوطَّنَ لها، وعَلِم أنَّه لا بُدَّ له مِنها، فيصيرُ صَبْرُه شَبيهَ الاضطِرارِ، وهذه المَرأةُ لَمَّا عَلِمَتْ أنَّ جَزَعَها لا يُجدي عليها شَيئًا، جاءَتْ تَعتَذِرُ إلى النَّبيِّ، كأنَّها تَقولُ له: قد صَبَرْتُ، فأخبَرَها أنَّ الصَّبرَ إنَّما هو عِندَ الصَّدمةِ الأولى".[1940]

- وعن عَطاءِ بنِ أبي رَباحٍ قال: „قال لي ابن عَبَّاس: ألا أُريك امرَأة مِن أهل الجَنَّةِ؟ قُلت: بَلى، قال: هذه المَرأةُ السَّوداءُ أتَت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قالت: إنِّي أصرَعُ وإنِّي أتَكشَّفُ، فادعُ الله لي. قال: إن شِئتِ صَبَرتِ؛ ولكِ الجَنَّةُ. وإن شِئتِ دَعَوتُ اللهَ أن يُعافِيَكِ. قالت: أَصْبِرُ. قَالَتْ: فإنِّي أتَكشَّفُ فادعُ اللهَ أَنْ لَا أتَكشَّفُ، فدَعا لها".[1941]

- وبَيَّن صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ مَن صَبَرَ على فقدِ عَينَيه عَوَّضه اللهُ الجَنَّةَ، فعن أنَسٍ رَضيَ اللهُ عنه قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: „إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قال: إذا ابتَلَيتُ عَبدي بحَبيبَتَيه فصَبَرَ، عَوَّضتُه مِنهما الجَنَّةَ، يُريدُ عَينَيه".[1942]

قال ابنُ بَطَّالٍ: „في هذا الحَديثِ حُجَّةٌ في أنَّ الصَّبرَ على البَلاءِ ثَوابُه الجَنَّةُ، ونِعمةُ البَصَرِ على العَبدِ، وإن كانت مِن أجَلِّ نِعَمِ اللهِ تعالى فعَوضُ اللهِ عليها الجَنَّةَ أفضَلُ من نعمتِها في الدُّنيا؛ لنَفادِ مُدَّةِ الالتِذاذِ بالبَصَرِ في الدُّنيا، وبَقاءِ مُدَّةِ الالتِذاذِ به في الجَنَّةِ".[1943]

[1937] رواه البخاري 1469 واللفظ له، ومسلم 1053

[1938] عون المعبود شرح سنن أبي داود لشمس الحق العظيم أبادي 5/59

[1939] رواه البخاري 1283 واللفظ له، ومسلم 926

[1940] عدة الصابرين، ص: 121

[1941] رواه البخاري 5652، ومسلم 2576

[1942] رواه البخاري 5653

[1943] شرح صحيح البخاري 9/377

- وعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمرَه كُلَّه خَيرٌ، وليس ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ؛ إن
أصابَته سَرَّاءُ[1944] شَكَرَ فكان خَيرًا له، وإن أصابَته ضَرَّاءُ[1945] صَبَرَ فكان خَيرًا له".[1946]
وقَولُه: „عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمرَه كُلَّه له خَيرٌ". أي: أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أظهَرَ العَجَبَ على وجهِ الاستِحسانِ لأمرِ المُؤمِنِ، أي: لشَأنِه؛ فإنَّ شَأنَه كُلَّه خَيرٌ، وليسَ ذلك لأحَدٍ إلا للمُؤمِنِ.
ثُمَّ فصَّل الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هذا الأمرَ الخَيِّرَ، فقال: „إن أصابَته سَرَّاءُ شَكَرَ فكان خَيرًا له، وإن أصابَته ضَرَّاءُ صَبَرَ فكان خَيرًا له"، فهذه حالُ المُؤمِنِ وكُلِّ إنسانٍ، فإنَّه في قَضاءِ اللهِ وقَدَرِه بَينَ أمرَينِ: إمَّا سَرَّاءُ وإمَّا ضَرَّاءُ، والنَّاسُ في هذه الإصابةِ ينقَسِمونَ إلى قِسمَينِ: مُؤمِنٍ، وغَيرِ مُؤمِنٍ؛ فالمُؤمِنُ على كُلِّ حالٍ ما قدَّرَ اللهُ له فهو خَيرٌ له، إن أصابَته الضَّرَّاءُ صَبَرَ على أقدارِ اللهِ، وانتَظَرَ الفرَجَ مِنَ اللهِ، واحتَسَبَ الأجرَ على اللهِ، فكان خَيرًا له، فنال بهذا أجرَ الصَّابرينَ.
وإن أصابَته سَرَّاءُ مِن نِعمةٍ دينيَّةٍ كالعِلمِ والعَمَلِ الصَّالحِ، ونِعمةٍ دُنيويَّةٍ كالمالِ والبَنينَ والأهلِ، شَكَرَ اللهَ، وذلك بالقيامِ بطاعةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.
فيشكُرُ اللهَ فيكونُ خَيرًا له، ويكونُ عليه نِعمَتانِ: نِعمةُ الدِّينِ، ونِعمةُ الدُّنيا: نِعمةُ الدُّنيا بالسَّرَّاءِ، ونِعمةُ الدِّينِ بالشُّكرِ، هذه حالُ المُؤمِنِ.
وأمَّا الكافِرُ فهو على شَرٍّ -والعياذُ باللهِ- إن أصابَته الضَّرَّاءُ لم يصبرْ بَل يضجَرُ، ودَعا بالوَيلِ والثُّبورِ، وسَبَّ الدَّهرَ، وسَبَّ الزَّمَنَ...
والحَديثُ فيه الحَثُّ على الصَّبرِ على الضَّرَّاءِ، وأنَّ ذلك مِن خِصالِ المُؤمِنينَ، فإذا رَأيتَ نَفسَك عِندَ إصابةِ الضَّرَّاءِ صابرًا مُحتَسِبًا، تَنتَظِرُ الفرَجَ مِنَ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وتحتَسِبُ الأجرَ على اللهِ، فذلك عُنوانُ الإيمانِ، وإن رَأيتَ بالعَكسِ فلُمْ نَفسَك، وعَدِّلْ مَسيرَك، وتُبْ إلى اللهِ".[1947]
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: "مَا لعَبدِي المُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ[1948] مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلاَّ الجَنَّةَ."[1949]
- وقال صلى الله عليه وسلم: "لقد أُخِفْتُ في اللَّهِ وما يُخافُ أحدٌ. ولَقَد أُوذِيتُ في اللَّهِ وَمَا يُؤذَى أَحَدٌ. ولقد أَتَتْ عليَّ ثلاثونَ من بينِ يومٍ وليلةٍ وما لي ولبلالٍ طعامٌ يأكُلُهُ ذو كبدٍ إلاَّ شيءٌ يواريهِ إبطُ بلالٍ".[1950]
- وعن أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ رضيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "مَا يُصيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ، وَلاَ حَزَنٍ، وَلاَ أَذَىً، وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوكَةُ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ".[1951]
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ".[1952]

[1944] السَّرَّاءُ: الرَّخاءُ. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 4/361
[1945] الضَّرَّاءُ: نقيضُ السَّرَّاءِ. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 4/483
[1946] رواه مسلم 2999
[1947] شرح رياض الصالحين لابن عثيمين 1/197-199 بتصرف.
[1948] يسمي العلماء هذا القسم من الحديث، الحديث القدسي؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم رواه عن الله. والصفيّ: من يصطفيه الإنسان ويختاره من ولد، أو أخ، أو عم، أو أب، أو أم، أو صديق، المهم أن ما يصطفيه الإنسان ويختاره ويرى أنه ذو صلة منه قوية. إذا أخذه الله عز وجل، ثم احتسبه الإنسان، فليس له جزاء إلا الجنة. شرح رياض الصالحين لابن عثيمين 1/101.
[1949] رواه البخاري.
[1950] صحيح الترمذي 2472
[1951] أخرجه البخاري (5642) واللفظ له، ومسلم (2573)
[1952] أخرجه البخاري (5645)

- وَلَقَدْ أَسْلَمَ عَمَّارُ بن ياسر وأبوهُ ياسر وأمُّهُ سُمَيَّةَ -رضي الله عنهم- وعَلِمَ الكُفَّارُ بإسلامِهِم، فأخَذوهُم جَميعًا، وَظَلُّوا يُعَذِّبُونَهُم عَذابًا شديدًا، فَلَمّا مرَّ عَليهم الرسول صلى الله عليه وسلم، قَال لهم: "صبرًا آل ياسر! فإن مَوْعِدَكُمُ الجَنَّة"[1953]، وَصَبَر آل ياسِر، وَتَحَمَّلوا ما أصابَهم من العَذاب، حَتى ماتَ الأَبُ وماتتْ الأمُّ مِن شِدَّةِ العَذاب، ثم ماتَ الابنُ بعد ذلك في سبيل الله بإحْدَى المَعارِك؛ لَيَكُونوا جَميعًا من السابقين إلى الجَنَّة، الضاربين أروَعَ الأمثِلة في الصَّبر وتَحَمُّلِ الأذى.

- **وفي الصَّبرِ على أذى النَّاس:** قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "المُسلِمُ إذا كانَ مخالطًا النَّاسَ ويصبِرُ على أذاهم خيرٌ منَ المسلمِ الَّذي لا يُخالطُ النَّاسَ ولا يصبرُ على أذاهم."[1954]

وَلَمَّا كانَتْ مُخالَطةُ النَّاسِ سَبيلًا إلى نَشْرِ الأخلاقِ الحسَنةِ والفضائلِ وأَخْذِ الأُسْوةِ جعَل النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيْه وسلَّم الخَيريَّةَ لِمَن يُخالِطُ النَّاسَ على الَّذي يَعتزِلُهم.

وفي هذا الحديثِ يقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيْه وسلَّم: "المسلِمُ إذا كان مُخالِطًا النَّاسَ"، أي: موجودًا بينَهم ويتَعامَلُ معَهم ويؤثِّرُ فيهم ويتأثَّرُ بهم التأثُّرَ الحسَنَ، "ويَصبِرُ على أذاهم"، أي: ويَصبِرُ على ما يُصيبُه مِنهم مِن مَكروهٍ وأذًى، ويُقابِلُ السَّيِّئةَ بالحسَنةِ، ويَعْفو ويصفَحُ، "خيرٌ"، أي: أفضَلُ حالًا وأكثرُ ثوابًا وأعظَمُ أجرًا، "مِن المسلِمِ الَّذي لا يُخالِطُ النَّاسَ ولا يَصبِرُ على أذاهم"، أي: مِن المسلمِ الذي اعتزَل النَّاسَ وبَعُدَ عَنْهُم فلم يُساكِنْهم ولم يُعاشِرْهم ولم يُعامِلْهم؛ وذلك لأنَّ الَّذي يُخالِطُ النَّاسَ ويتعامَلُ معَهم يَجِدُ مِن البلاءِ والأذى ما لا يَجِدُه المعتزِلُ، فإن صبَر على ذلك كان له عظيمُ الأجرِ والثَّوابِ. وفيه: فضلُ مُخالَطةِ النَّاسِ ومُعامَلتِهم على اعتِزالِهم والبُعدِ عنهم.[1955]

ت. مِن أقوالِ السَّلفِ والعُلماءِ:

- قال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضيَ اللهُ عنه: „إنَّ أفضَل عَيشٍ أدرَكناه بالصَّبرِ، ولو أنَّ الصَّبرَ كان مِنَ الرِّجالِ كان كريمًا".[1956]

- وقال عَليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضيَ اللهُ عنه: „ألا إنَّ الصَّبرَ مِنَ الإيمانِ بمَنزِلةِ الرَّأسِ مِنَ الجَسَدِ، فإذا قُطِعَ الرَّأسُ باد الجَسَدُ، ثُمَّ رَفعَ صَوتَه فقال: ألا إنَّه لا إيمانَ لمَن لا صَبرَ له".[1957]

- وكان خالدُ بنُ الوليدِ يقولُ: „يا أهلَ الإسلامِ، إنَّ الصَّبرَ عِزٌّ، وإنَّ الفشَل عَجزٌ، وإنَّ مَعَ الصَّبرِ النَّصرَ".[1958]

- وقال الحَسَنُ: „قَطرَتانِ وجُرعتانِ؛ فما جُرعةٌ أحَبَّ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ مِن جُرعةِ غَيظٍ يكظِمُها عَبدٌ بحِلمٍ يبتغي بذلك وجهَ اللهِ، وجُرعةِ مُصيبةٍ مُوجِعةٍ يصبِرُ عليها عندَ اللهِ، قال: وما قَطرةٌ أحَبَّ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ مِن قَطرةِ دَمٍ في سَبيلِه، أو قَطرةِ دَمعٍ مِن عَبدٍ ساجِدٍ في جَوفِ اللَّيلِ لا يرى مَكانَه إلَّا اللهُ عَزَّ وجَلَّ".[1959]

وقال الأحنَفُ: مَن لم يصبِرْ على كلمةٍ سَمِعَ كلماتٍ".[1960]

- وعنِ الشَّعبيِّ، قال شُرَيحٌ: „إنِّي لأُصابُ بالمُصيبةِ، فأحمَدُ اللهَ عليها أربَعَ مَرَّاتٍ، أحمَدُ إذ لم يكُنْ أعظَمَ مِنها، وأحمَدُ إذ رَزَقَني الصَّبرَ عليها، وأحمَدُ إذ وفَّقَني للاسترجاعِ لِما أرجو مِنَ الثَّوابِ، وأحمَدُ إذ لم يجعَلْها في ديني".[1961]

- وقال مَيمونُ بنُ مِهرانَ: „الصَّبرُ صَبرانِ: الصَّبرُ على المُصيبةِ حَسَنٌ، وأفضَلُ مِن ذلك الصَّبرُ عنِ المَعاصي".[1962]

[1953] أخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (1508)، والحاكم (5666)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (6664) باختلاف يسير.

[1954] صحيح الترمذي 2507

[1955] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

[1956] رواه ابنُ أبي الدنيا في الصبر والثواب عليه 6

[1957] رواه ابنُ أبي الدنيا في الصبر والثواب عليه 8

[1958] العقد الفريد لابن عبد ربه 1/ 92

[1959] شعب الإيمان للبيهقي 10/ 549

[1960] البيان والتبيين للجاحظ 2/ 50

[1961] سير أعلام النبلاء للذهبي 4/105

- وقال يحيى بنُ مُعاذٍ: „حُفَّتْ الجَنَّةُ بالمَكارِهِ وأنت تكرَهُها، وحُفَّتْ النَّارُ بالشَّهَواتِ وأنت تطلُبُها، فما أنت إلَّا كالمَريضِ الشَّديدِ الدَّاءِ، إن صَبرَ نفسَه على مَضَضِ الدَّواءِ اكتَسَبَ بالصَّبرِ عافيةً، وإن جَزِعَتْ نفسُه مِمَّا يَلْقَى طالَتْ به عِلَّةُ الضَّنا".[1963]

- وقال مالِكُ بنُ دينارٍ: „ما مِن أعمالِ البرِّ عَمَلٌ إلَّا ودونَه عَقَبةٌ، فإن صَبرَ صاحِبُها أفضَت به إلى رَوحٍ، وإن جَزِعَ رَجَعَ".[1964]

- قال سُفيانُ الثَّوريُّ فيما أوصى به عَليَّ بنَ الحَسَنِ السُّلميَّ: „عَليك بالصَّبرِ في المواطِنِ كُلِّها؛ فإنَّ الصَّبرَ يجُرُّ إلى البرِّ، والبِرَّ يجُرُّ إلى الجَنَّةِ، وإيَّاك والحِدَّةَ والغَضَبَ، فإنَّهما يجُرَّانِ إلى الفُجورِ، والفُجورُ يجُرُّ إلى النَّارِ".[1965]

- وقال شُمَيطُ بنُ عَجلانَ: „إنَّ العافيةَ سَتَرَت البَرَّ والفاجِرَ، فإذا جاءَت البلايا استَبانَ عندَها الرَّجُلانِ؛ فجاءَت البلايا إلى المُؤمِنِ فأذهَبَتْ مالَه وخادِمَه ودابَّتَه حتى جاعَ بَعدَ الشِّبَعِ، ومَشى بَعدَ الرُّكوبِ، وخَدَمَ نفسَه بَعدَ أن كان مَخدومًا، فصَبَرَ ورَضيَ بقَضاءِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وقال: هذا نَظَرٌ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ لي، هذا أهونُ لِحسابي غَدًا. وجاءَت البلايا إلى الفاجِرِ فأذهَبت مالَه وخادِمَه ودابَّتَه، فجَزِع وهَلَع، وقال: واللهِ ما لي بهذا طاقةٌ، واللهِ لقد عَوَّدتُ نفسي عادةً ما لي عنها صَبرٌ مِن الحُلوِ والحامِضِ، والحارِّ والبارِدِ، ولينِ العَيشِ، فإن هو أصابَه مِن الحَلالِ وإلَّا طَلَبَه مِن الحَرامِ والظُّلمِ؛ ليعودَ إليه ذلك العَيشُ".[1966]

- وقال الجاحِظُ: „الصَّبرُ صَبرانِ: فأعلاهما أن تَصبرَ على ما تَرجو فيه الغُنمَ في العاقِبةِ. والحِلمُ حِلمانِ: فأشرَفُهما حِلمُك عَمَّن هو دونَك. والصِّدقُ صِدْقانِ: أعظَمُهما صِدقُك فيما يضُرُّك. والوفاءُ وفاءانِ: أسناهما وفاؤُك لَمَن لا تَرجوه ولا تَخافُه؛ فإنَّ مَن عُرِف بالصِّدقِ صارَ النَّاسُ له أتباعًا، ومَن نُسِبَ إلى الحِلمِ أُلبِسَ ثَوبَ الوقارِ والهَيبةِ وأُبَّهَةَ الجَلالةِ، ومن عُرِفَ بالوفاءِ استَنامَت بالثِّقةِ به الجَماعاتُ، ومَن استَعَزَّ بالصَّبرِ نال جسيماتِ الأُمورِ. ولعَمْري ما غَلِطَتْ الحُكماءُ حينَ سَمَّتها أركانَ الدِّينِ والدُّنيا".[1967]

قال ابن تيمية رحمه الله: "والمنازل العالية لا تُنال إلا بالبلاء".[1968]

المطلب الرابع: نماذج من الصبر

أولا: نَماذِجُ مِن صَبرِ نَبيِّنا مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

لَقَدْ صَبرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبَلَغَ صَبرُه مَبلغًا عَظيمًا، وهذه نَماذِجُ مُتَنَوِّعةٌ مِن صَبرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

1/ صَبرُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المُشرِكينَ حينَما آذَوه، ورَمَوه بالكَذِبِ والكِهانةِ والسِّحرِ:

- قال ابنُ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه: „بَينا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ساجِدٌ وحَوله ناسٌ مِن قُرَيشٍ جاءَ عُقبةُ بنُ أبي مُعَيطٍ بسَلى جَزورٍ"[1969]، فقَذَفه على ظَهرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يرفع رَأسَه، فجاءَت فاطِمةُ عليها السَّلامُ فأخَذَته من ظَهرِه، ودَعَت على مَن صَنَعَ".[1970]

[1962] رواه ابنُ أبي الدنيا في الصبر والثواب عليه 18

[1963] صفة الصفوة لابن الجوزي 4/94

[1964] الصبر والثواب عليه لابن أبي الدنيا 43، حلية الأولياء لأبي نعيم 2/371

[1965] حلية الأولياء لأبي نعيم 7/ 83

[1966] صفة الصفوة لابن الجوزي 2/ 205

[1967] الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة 4/ 185، تاريخ الإسلام للذهبي 12/699، 700

[1968] مجموع الفتاوى ٣٠٢/٢٥

[1969] هي مَشيمةُ البهيمةِ. وقيل: السَّلى: الجِلدُ الرَّقيقُ الذي يخرجُ فيه الولدُ من بطنِ أمهِ ملفوفًا فيه. يُنظَر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 2/ 396، فتح الباري لابن حجر 133 /1

- وعن عُروةَ بنِ الزُّبَيْرِ قال: „قُلتُ لِعَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ: أخبِرْني بأشَدِّ ما صَنَعَ المُشركونَ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: بَينا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصَلِّي بفِناءِ الكَعبةِ إذ أقبَلَ عُقْبةُ بنُ أبي مُعَيْطٍ، فأخذَ بمَنكِبِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولَوى ثَوبَه في عُنُقِه فخَنقَهُ خَنقًا شَديدًا".[1971]

2/ صَبرُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَشاقِّ الحَياةِ وشِدَّتِها:

- عن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها أنَّها قالت لعُروةَ: „ابنَ أُختي، إن كُنَّا لننظُرُ إلى الهلالِ ثلاثةَ أهِلَّةٍ في شَهرينِ، وما أُوقِدَت في أبياتِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نارٌ! فقُلتُ: ما كان يُعَيّشُكم؟ قالت: الأسودانِ: التَّمرُ والماءُ، إلَّا أنَّه قد كان لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جيرانٌ من الأنصارِ كان لهم منائِحُ[1972]، وكانوا يمنَحون رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أبياتِهم، فيَسْقيناه".[1973]

- وعن عبد الله بن عباس رَضيَ اللهُ عَنْهُما، قال: "كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ يبيتُ اللَّيالي المتتابعةَ طاويًا وأهلُه لا يجدونَ العشاءَ وكان عامَّةُ خبزِهم خبزَ الشَّعيرِ".[1974]

3/ صَبرُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على فقدِ الأولادِ والأحبابِ:

لقد فَقَدَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ أباهُ وكان لا يزال في بطن أمه فُوُلِدَ يَتِيمًا، وماتتْ أُمُّهُ وهو طِفْلٌ صَغِيرٌ، ثم ماتَ جَدُّه، كَمَا فَقَدَ عَمَّه أبا طالبٍ، وفَقَدَ زَوجَتَه خَديجةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي نَفْسِ العَامِ فَأَطْلَقَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ عَلَى هَذَا العَامِ عَامَ الحُزْنِ، وقد تُوُفِّي أولادُه كُلُّهم في حَياتِه إلَّا فاطِمةَ، وقُتِل عَمُّه حَمزةُ، وقُتِلَ الكَثيرُ مِن أَصْحَابِهِ، فكان نِعْمَ العَبْدُ الصَّابِرُ المحْتَسِبُ صَلواتُ رَبِّي وسَلامُه عَلَيْهِ.

ثانيا: نَماذِجُ مِنَ الصَّبرِ عِندَ الأنبياءِ والمُرسَلينَ:

ضَرَبَ أَنْبِيَاءُ اللهِ -صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِم- أَرْوَعَ الْأَمْثَلَةِ فِي الصَّبْرِ وَتَحَمُّلِ الْأَذَى مِنْ أَجْلِ الدَّعْوَةِ إِلَى الله، وَقَدْ تَحَمَّلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُشَاقَّ فِي سَبِيلِ نَشْرِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ أَهْلُ قُرَيْشٍ يَرْفُضُونَ دَعْوَتَهُ لِلْإِسْلَامِ وَيَسُبُّونَهُ، وَلَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُ، وَكَانَ جِيْرَانُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُؤْذُونَهُ وَيَلْقُونَ الْأَذَى أَمَامَ بَيْتِهِ، فَلَا يُقَابِلُ ذَلِكَ إِلَّا بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ.

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ -تَعَالَى- كَثِيرًا مِنْ أَنْبِيَائِهِ بِالصَّبْرِ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ * كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا * إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ} [الأنبياء: 85-86].

وَقَالَ الله تَعَالَى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: 35]، وَأُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ هُمْ: نُوح، وَإِبْرَاهِيم، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّد -عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ-.

فالصَّبرُ صِفةُ الأنبياءِ والمُرسَلينَ؛ قال اللهُ تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} [الأنعام: 34].

1/ صَبرُ أولي العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ على مَشاقِّ الدَّعوةِ إلى اللهِ:

صَبرَ أولو العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ على مَشاقِّ الدَّعوةِ إلى اللهِ، فأبلَوا بَلاءً حَسَنًا:

- **صَبرَ نوحٌ عليه السَّلامُ** وقَضى ألفَ سَنةٍ إلَّا خَمسينَ عامًا كُلُّها دَعوةٌ.

[1970] رواه البخاري 3854 واللفظ له، ومسلم 1794

[1971] رواه البخاري 4815

[1972] منائِحُ: جمعُ منيحةٍ، وهي كعطيَّة لفظًا ومعنًى. يُنظَر: فتح الباري لابن حجر5/199

[1973] رواه البخاري 6459 واللفظ له، ومسلم 2972

[1974] صحيح ابن ماجه 2719

- **صَبر إبراهيمُ عليه السَّلامُ** على كُلِّ ما نَزَل به، فجُمِعَ له الحَطَبُ الكثيرُ، وأُوقِدَتْ فيه النَّارُ العَظيمةُ، فأُلقيَ فيها، فكانت بَردًا وسَلامًا.

- **موسى عليه السَّلامُ** يصبرُ على أذى فِرعَونَ وجَبَروتِه وطُغيانِه.

- **عيسى عليه السَّلامُ يصبرُ** على تَكذيبِ بَني إسرائيلَ له، ورَفْضِ دَعوتِه، ويصبِرُ على كيدِهم ومَكرِهم حتَّى أرادوا أن يقتُلوه ويصلُبوه، إلَّا أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى نَجَّاه مِن شَرِّهم.

- **وأمَّا نَبيُّنا مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم** فما أكثَرَ ما لاقاه في سَبيلِ نَشرِ هذا الدِّينِ، فصَبَرَ صَلواتُ رَبِّي وسَلامُه عليه.

- قال تعالى آمِرًا نَبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصَّبرِ: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف:35].

قال السَّعديُّ: „أمَرَ تعالى رَسولَه أن يصبرَ على أذيَّةِ المُكذِّبينَ المُعادينَ له، وألَّا يزالَ داعيًا لهم إلى اللهِ، وأن يقتَديَ بصَبرِ أُولي العَزمِ مِنَ المُرسَلينَ ساداتِ الخَلقِ أُولي العَزائِمِ والهِمَمِ العاليةِ، الذين عَظُمَ صَبرُهم، وتَمَّ يقينُهم، فهم أحَقُّ الخَلقِ بالأُسوةِ بهم، والقَفوِ لآثارِهم، والاهتِداءِ بمَنارِهم".[1975]

2/ نَبيُّ اللهِ إبراهيمُ وابنُه إسماعيلُ عليهما السَّلامُ وصَبرُهما على طاعةِ اللهِ:

رَأى نَبيُّ اللهِ إبراهيمُ عليه السَّلامُ في المَنامِ أنَّه يذبَحُ ولَدَه إسماعيلَ، ورُؤيا الأنبياءِ وحيٌ، فأخبَرَ ابنَه بذلك، وعَرَضَ عليه الأمرَ. قال اللهُ تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات: 102].

„قال إسماعيلُ صابرًا مُحتَسِبًا، مُرْضِيًا لرَبِّه، وبارًّا بوالدِه: (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) أي: امضِ لما أمَرَكَ اللهُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ أخبَرَ أباه أنَّه مُوطِّنٌ نَفسَه على الصَّبرِ، وقَرَنَ ذلك بمَشيئةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّه لا يكونُ شَيءٌ بدونِ مَشيئةِ اللهِ تعالى.

{فَلَمَّا أَسْلَمَا} [الصافات: 103] أي: إبراهيمُ وابنُه إسماعيلُ، جازِمًا بقَتلِ ابنِه وثَمَرةِ فُؤادِه؛ امتِثالًا لأمرِ رَبِّه، وخَوفًا مِن عِقابِه، والابنُ قد وَطَّنَ نَفسَه على الصَّبرِ، وهانَتْ عليه في طَاعةِ رَبِّه، ورِضَا والدِه، {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} [الصافات: 103] أي: تَلَّ إبراهيمُ إسماعيلَ على جَبينِه، ليُضجِعَه فيَذْبَحَه، وقد انكبَّ لوجهِه؛ لئَلَّا ينظُرَ وقتَ الذَّبحِ إلى وجهِه.

{وَنَادَيْنَاهُ} [الصافات: 104] في تلك الحالِ المُزعِجةِ، والأمرِ المُدهِشِ: {أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} [الصافات: 104-105] أي: قد فعَلتَ ما أُمِرتَ به، فإنَّك وطَّنْتَ نَفسَك على ذلك، وفعَلتَ كُلَّ سَبَبٍ، ولم يَبقَ إلَّا إمرارُ السِّكِّينِ على حَلقِه {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: 105] في عِبادَتِنا، المُقدِّمينَ رِضَانا على شَهَواتِ أنفُسِهم".[1976]

3/ صَبرُ يعقوبَ عليه السَّلامُ على فُقْدَانِ يوسُفَ عليه السَّلامُ:

لَمَّا ذَهَبَ إخوةُ يوسُفَ عليه السَّلامُ بِهِ، وألقَوه في جَوفِ البئرِ، ثُمَّ جاؤوا إلى أبيهم في وقتِ العَشاءِ يبكونَ، ويُظهرونَ الأسَفَ والجَزَعَ، ويزعُمونَ أنَّ الذِّئبَ أكَلَه، فما كان مِن يعقوبَ عليه السَّلامُ -مَعَ شِدَّةِ مَحَبَّتِه ليوسُفَ عليه السَّلامُ- إلَّا أن استَسلَمَ لأمرِ اللهِ وصَبَرَ، وقال: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: 18]، ففيه ما ينبَغي استِعمالُه عِندَ المَصائِبِ، وهو الصَّبرُ الجَميلُ، والاستِعانةُ باللهِ.

4/ صَبرُ موسى عليه السَّلامُ:

[1975] تيسير الكريم الرحمن 783

[1976] تيسير الكريم الرحمن للسعدي 705

عن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: لَمَّا كان يومُ حُنَينٍ آثَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أناسًا في القِسمةِ، فأعطى الأقرَعَ بنَ حابِسٍ مائةً من الإبِلِ، وأعطى عُيَينةَ مِثلَ ذلك، وأعطى أناسًا من أشرافِ العَرَبِ فآثَرهم يومَئذٍ في القِسمةِ، قال رجُلٌ: واللهِ إنَّ هذه القِسمةَ ما عُدِل فيها، وما أُريدَ بها وَجهُ اللهِ! فقلتُ: واللهِ لأخبِرَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأتيتُه فأخبَرْتُه، فقال: „فَمن يَعدِلُ إذا لم يَعدِلِ اللهُ ورسولُه؟! رَحِمَ اللهُ موسى قد أوذِيَ بأكثَرَ من هذا فصَبَر!".[1977]

5/ أيُّوبُ عليه السَّلامُ وصَبرُه على البَلاءِ:

كَانَ نَبِيُّ اللهِ أيُّوبُ عليه السَّلامُ غايةً في الصَّبرِ، وبه يُضرَبُ المَثَلُ في ذلك؛ قال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء: 83-84].

أَخْرَجَ ابْنُ عَساكِرَ عَنِ الحَسَنِ قالَ: "ضُرِبَ أيُّوبُ بِالبَلاءِ ثُمَّ بِالبَلاءِ بَعْدَ البَلاءِ؛ بِذَهابِ الأهْلِ والمالِ، ثُمَّ ابْتُلِيَ في بَدَنِهِ، فَما يُعْلَمُ أيُّوبُ دَعا اللَّهَ يَوْمًا أنْ يَكْشِفَ ما بِهِ لَيْسَ إلّا صَبْرًا واحْتِسابًا حَتّى مَرَّ بِهِ رَجُلانِ فَقالَ أحَدُهُما لِصاحِبِهِ: لَوْ كانَ لِلَّهِ في هَذا حاجَةٌ ما بَلَغَ بِهِ هَذا كُلَّهُ، فَسَمِعَ أيُّوبُ فَشَقَّ عَلَيْهِ فَقالَ: رَبِّ: {مَسَّنِيَ الضُّرُّ} ثُمَّ رَدَّ ذَلِكَ إلى رَبِّهِ فَقالَ: {وأنْتَ أرْحَمُ الرّاحِمِينَ} {فاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِن ضُرٍّ وآتَيْناهُ أهْلَهُ ومِثْلَهم مَعَهُمْ} قالَ: وآتَيْناهُ أهْلَهُ في الدُّنْيا ومِثْلَهم مَعَهم في الآخِرَةِ".

فَقَدْ كَانَ أَيُّوبُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- رَجُلًا كَثِيرَ الْمَالِ وَالْأَهْلِ، فَابْتَلَاهُ اللهُ وَاخْتَبَرَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، فَأَصَابَتْهُ الْأَمْرَاضُ، وَظَلَّ مُلَازِمًا لِفِرَاشِ الْمَرَضِ سِنِينَ طَوِيلَةً، وَفَقَدَ مَالَهُ وَأَوْلَادَهُ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا زَوْجَتُهُ الَّتِي وَقَفَتْ بِجَانِبِهِ صَابِرَةً مُحْتَسِبَةً وَفِيَّةً لَهُ.

وَكَانَ أَيُّوبَ مِثَالًا عَظِيمًا فِي الصَّبْرِ، فَقَدْ كَانَ مُؤْمِنًا بِأَنَّ ذَلِكَ قَضَاءُ اللهِ، وَظَلَّ لِسَانُهُ ذَاكِرًا، وَقَلْبُهُ شَاكِرًا، فَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَضْرِبَ الْأَرْضَ بِرِجْلِهِ فَفَعَلَ، فَأَخْرَجَ اللهُ لَهُ عَيْنًا مَّاءً بَارِدَةً، وَأَمَرَهُ أَنْ يَغْتَسِلَ وَيَشْرَبَ مِنْهَا، فَفَعَلَ، فَأَذْهَبَ اللهُ عَنْهُ الْأَلَمَ وَالْأَذَى وَالْمَرَضَ، وَأَبْدَلَهُ صِحَّةً وَجَمَالًا وَمَالًا كَثِيرًا، وَعَوَّضَهُ بِأَوْلَادٍ صَالِحِينَ جَزَاءً لَّهُ عَلَى صَبْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [ص: 43].

6/ صَبْرُ ليا زَوْجَةُ أَيُّوبَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ:

صَبَرَتْ ليا على أَيُّوبَ -عَلَيْهِ السَّلَام- في مَرَضِهِ صَبْرًا جميلًا، فَقَد تَعَوَّدَتْ أَنْ تَكِلَ أَمْرَهَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فارْتَقَتْ مَنزلةً مُباركةً في مَقَامِ الصِّدْقِ، واقْتَعَدَتْ مَكَانًا عَلِيًّا في مَنَازِلَ الأَبرارِ، حيثُ عَاشَتْ مَعَ زوجِهَا في مِحْنتِهِ التي امْتَدَّتْ قُرابةَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةٍ، وكَانتْ مِثَالَ المرأةِ البَارَّةِ والزَّوْجَةِ الصَّابِرَةِ الرَّاضِيَةِ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، فَقَدْ كَانَتْ تَرْعَى له حَقَّهُ، وَتَعْرِفُ قَدِيمَ إِحْسَانِهِ إِلَيْهَا، عِنْدَمَا كَانَ فِي بَحْبُوحَةٍ مِنْ العَيشِ، وَبَسْطَةٍ مِنْ الصَّحةِ وَالجِسْمِ.

وَلهذَا وَصَفَهَا ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ بقولِهِ: "الصَّابِرَةُ، والمحتَسِبةُ، المكَابِدَةُ، الصِّدِّيقَةُ، البَارَّةُ، والرَّاشِدَةُ، رَضِيَ اللهُ عَنهَا".

فلما طَالَ مَرَضُ أَيُّوبَ -عليه السَّلام- حتَّى كَادَ يَنقَطِعُ عنه النَّاسَ، ولم يَزْدَدْ إلا شكرًا وتسليمًا، أَشْفَقَتْ عليه إِشْفَاقًا شَديدًا وَرَثَتْ لحاله، عِندَئِذٍ قالتْ له فِيما رواه ابنُ عباسٍ -رَضِيَ اللهُ عنه-: "يَا أَيُّوبُ، إِنَّكَ رجلٌ مجابُ الدَّعوَةِ، فادْعُ اللهَ أَنْ يَشْفِيَكَ، فَقَالَ: ويحك...! كنَّا في النَّعماءِ سبعينَ سنةٍ، فَدَعِينَا نَكُونُ فِي البَلَاءِ سبعينَ سنةٍ".

فلمَّا سمعتْ ليا هَذَا الكلامَ الذي يَنضَحُ بالإيمانِ والتسليمِ والانقيادِ لله، وعرفتْ أنها لنْ تدركَ منزلتَهُ، اسْتَمَرَّتْ في الإحْسَانِ إليه، وَحَفِظَتْ وُدَّه لإيمَانِهَا باللهِ تعالى، إلى أنْ كَشَفَ اللهُ عَنْهُ الضُّرَّ، وَمَسَّتْهُ نَفْحَةً رَبَّانِيَّةً فَعَادَ صَحِيحًا سَلِيمًا، وَقَدْ أَثْنَى عَلَيهِ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فَقَالَ: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [سورة ص آية 44].

[1977] رواه البخاري 3150، ومسلم 1062 واللفظ له.

ثالثا: نَماذِجُ مِن صَبرِ الصَّحابةِ رضوانُ اللهِ عَلَيهِم:

عَلَّمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أصحابَه كيف يصبرونَ في مُختَلِفِ الأُمورِ وضُروبِها، فقد عَلَّمَهم الصَّبرَ مِن أجلِ هذا الدِّينِ، والتَّضحيةَ في سَبيلِه.[1978]

„والصَّحابةُ رَضيَ اللهُ عنهم لهم مَواقِفُ كثيرةٌ جِدًّا، لا يستَطيعُ أحَدٌ أن يحصُرَها؛ لأنَّهم رَضيَ اللهُ عنهم باعوا أنفُسَهم وأموالَهم وحَياتَهم للهِ؛ ابتِغاءَ مَرضاتِه، وخَوفًا مِن عِقابِه، ففازوا بسَعادةِ الدُّنيا والآخِرةِ".[1979]

وإليك نماذِجَ من صَبرِهم رَضِيَ اللهُ عنهم:

1/ بلالٌ رَضيَ اللهُ عنه يُعَذَّبُ فيَصبرُ:

فهذا بلالُ بنُ رَباحٍ رَضيَ اللهُ عنه يُعَذَّبُ مِن أجلِ إيمانِه فيصبرُ „فكان أُميَّةُ يُخرِجُه إذا حَمِيَت الظَّهيرةُ فيطرَحُه على ظَهرِه في بَطحاءِ مَكَّةَ، ثُمَّ يأمُرُ بالصَّخرةِ العَظيمةِ فتوضَعُ على صَدرِه، ثُمَّ يقولُ له: لا تَزالُ هَكذا حتَّى تَموتَ أو تَكفُرَ بمُحَمَّدٍ وتَعبُدَ اللَّاتَ والعُزَّى! فيقولُ وهو في ذلك البَلاءِ: أحَدٌ أحَدٌ".[1980]

- وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه قال: „كان أوَّلَ من أظهَرَ إسلامَه سَبعةٌ: رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأبو بكرٍ، وعَمَّارٌ، وأُمُّه سُمَيَّةُ، وصُهَيبٌ، وبلالٌ، والمِقدادُ، فأمَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فمَنَعَه اللهُ بعَمِّه أبي طالبٍ، وأمَّا أبو بكرٍ فمَنَعه اللهُ بقومِه، وأمَّا سائِرُهم فأخذَهم المُشرِكون، وألبسوهم أدراعَ الحديدِ، وصَهَروهم في الشَّمسِ، فما منهم من أحدٍ إلَّا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلَّا بلالًا؛ فإنَّه قد هانت عليه نفسُه في اللهِ، وهان على قومِه، فأخَذوه فأعطَوه الوِلدانَ فجَعَلوا يطوفون به في شِعابِ مكَّةَ، وهو يقولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ".[1981]

2/ أمُّ سُلَيمٍ رَضيَ اللهُ عنها وصَبرُها عِندَ فقدِ ابنِها:

وهذه أمُّ سُلَيمٍ تَصبِرُ عندَ مَوتِ ابنِها وفِلذةِ كَبِدِها، فعن أنسٍ رَضيَ اللهُ عنه قال: „مات ابنٌ لأبي طلحةَ من أمِّ سُلَيمٍ، فقالت لأهلِها: لا تُحَدِّثوا أبا طلحةَ بابنِه حتَّى أكونَ أنا أحَدِّثُه، قال: فجاء فقَرَّبت إليه عشاءً، فأكل وشَرِب، فقال: ثمَّ تصَنَّعَتْ له أحسَنَ ما كان تَصنَّعُ قبلَ ذلك، فوَقَعَ بها، فلمَّا رأت أنَّه قد شَبِعَ وأصابَ منها، قالت: يا أبا طلحةَ أرأيتَ لو أنَّ قومًا أعاروا عاريَّتَهم أهلَ بَيتٍ، فطَلَبوا عاريَّتَهم، ألهم أن يمنَعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتَسِبْ ابنَك، قال: فغَضِبَ، وقال: تركْتِني حتَّى تلطَّخْتُ، ثمَّ أخبَرْتِني بابني! فانطلق حتى أتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبره بما كان، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: بارَكَ اللهُ لكما في غابِرِ[1982] ليلَتِكما".[1983]

3/ صبرُ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ:

عن مَنصورِ بنِ صَفيَّةَ عن أُمِّه قالت: „قيل لابنِ عُمَر: إنَّ أسماءَ في ناحيةِ المَسجِدِ -وذلك حينَ صُلِب ابنُ الزُّبَيرِ- فمَالَ إليها، فقال: إنَّ هذه الجُثَثَ ليست بشَيءٍ، وإنَّما الأرواحُ عِندَ اللهِ، فاتَّقي اللهَ واصبري. فقالت: وما يمنَعُني، وقد أُهْدِيَ رَأسُ يحيى بنِ زَكريَّا إلى بَغيٍّ مِن بَغايا بَني إسرائيلَ!".[1984]

[1978] الأخلاق الإسلامية لحسن السعيد ص: 197

[1979] دروس إيمانية في الأخلاق الإسلامية لخميس السعيد ص: 89

[1980] رواه أبو نعيم في حلية الأولياء 1/148 من حديثِ ابنِ إسحاقَ رحمه اللهُ.

[1981] رواه ابنُ ماجه 150 واللفظ له، وأحمد 3832. صحَّحه ابن حبان في صحيحه 7083، والذهبي في تاريخ الإسلام 1/217، وحسَّنه الوادعي في الصحيح المسند 863، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تخريج مسند أحمد 5/319

[1982] الغابِرُ: الباقي. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 5/3

[1983] رواه ابنُ حبان 7188 واللفظ له، وأبو يعلى 3398، وابن السني في عمل اليوم والليلة 618. صحَّحه ابن حبان، وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج صحيح ابن حبان 7188. والحديث أصله في الصحيح رواه البخاري 5470، ومسلم 2144

[1984] تاريخ الإسلام للذهبي 2/ 788، سير أعلام النبلاء للذهبي 2/ 294، 295

رابعا: نَماذِجُ مِنَ الصَّبرِ عِندَ السَّلَفِ:

1/ عُروةُ بنُ الزُّبَيرِ وصَبرُه على الابتِلاءِ:

„وقَعَتْ الآكِلةُ[1985] في رِجلِ عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ، فصَعِدَتْ في ساقِه، فبَعَثَ إليه الوليدُ، فحُمِل إليه ودَعا الأطِبَّاءَ، فقالوا: ليسَ له دَواءٌ إلَّا القَطعُ! وقالوا له: اشرَبِ المُرقِدَ[1986]، فقال عُروةُ للطَّبيبِ: امضِ لشَأنِك، ما كُنتُ أظُنُّ أنَّ خَلقًا يشرَبُ ما يُزيلُ عَقلَه حتَّى يُعرَفَ به! فوضَعَ المِنشارَ على رُكبَتِه اليُسرى، فما سُمِعَ له حِسٌّ! فلمَّا قَطَعَها جَعَل يقولُ: "لئِن أخَذتَ لقد أبقَيتَ، ولئِن ابتَلَيتَ لقد عافَيتَ"، وما تَرَك جُزْأَه مِنَ القُرآنِ تلك الليلةَ! قال الوليدُ: ما رَأيتُ شَيخًا قَطُّ أصبرَ مِن هذا. ثُمَّ إنَّه أُصيبَ بابنِه مُحَمَّدٍ في ذلك السَّفرِ، رَكَضَتْه بَغلةٌ في إصطَبلٍ، فلم يُسمَعْ مِن عُروةَ في ذلك كَلِمةٌ! فلمَّا كان بوادي القُرى قال: "لقينا مِن سَفرِنا هذا نَصبًا! اللهمَّ كان لي بنون سَبعةٌ، فأخَذتَ واحِدًا وأبقَيتَ لي سِتَّةً، وكان لي أطرافٌ أربَعةٌ، فأخَذتَ واحِدًا وأبقَيتَ ثَلاثةً، ولئِن ابتَلَيتَ لقد عافَيتَ، ولئِن أخَذتَ لقد أبقَيتَ"„.[1987]

2/ مُطَرِّفُ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ وصَبرُه على مَوتِ ولَدِه:

عن ثابتٍ قال: ماتَ عَبدُ اللهِ بنُ مُطَرِّفٍ، فخَرَجَ مُطَرِّفٌ على قَومِه في ثيابٍ حَسَنةٍ وقد ادَّهَنَ، فغَضِبوا وقالوا: يموتُ عَبدُ اللهِ ثُمَّ تَخرُجُ في ثيابٍ مِثلِ هذه مُدَّهِنًا! قال: فأستَكينُ لها وقد وعَدَني رَبِّي تبارك عليها ثَلاثَ خِصالٍ، كُلُّ خَصلةٍ مِنها أحَبُّ إليَّ مِنَ الدُّنيا كُلِّها؟ قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: 156-157] فأستَكينُ لها بَعدَ هذا؟[1988]

3/ عنِ الحَسَنِ قال: „سَبَّ رَجُلٌ رَجُلًا مِنَ الصَّدرِ الأوَّلِ، فقامَ الرَّجُلُ وهو يمسَحُ العَرَقَ عن وجهِه، وهو يتلو: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى: 43]، قال الحَسَنُ: عَقَلها واللهِ وفَهِمها إذ ضَيَّعَها الجاهِلونَ!".[1989]

خامسا: نَموذجٌ مِنَ الصَّبرِ عِندَ العُلماءِ المُتَقدِّمينَ:

صَبرُ الإمامِ أحمَدَ بنِ حَنبَلٍ على مِحنةِ خَلقِ القُرآنِ:

„أُخِذَ أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ في مِحنةِ خَلقِ القُرآنِ أيَّامَ المَأمونِ؛ ليُحمَلَ إلى المَأمونِ ببلادِ الرُّومِ، وأُخِذَ مَعَه أيضًا مُحَمَّدُ بنُ نوحٍ مُقَيَّدينِ، وماتَ المَأمونُ قَبل أن يلقاه أحمَدُ، فرُدَّ أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ ومُحَمَّدُ بنُ نوحٍ في أقيادِهما، فماتَ مُحَمَّدُ بنُ نوحٍ في الطَّريقِ، ورُدَّ أحمَدُ إلى بَغدادَ مُقَيَّدًا.

ودَخَل على الإمامِ أحمَدَ بَعضُ حُفَّاظِ أهلِ الحَديثِ بالرَّقَّةِ وهو مَحبوسٌ، فجَعَلوا يُذاكِرونَه ما يُروى في التَّقيَّةِ مِنَ الأحاديثِ، فقال أحمَدُ: وكيف تَصنَعونَ بحَديثِ خَبَّابٍ: „إنَّ مَن كان قَبلَكم كان يُنشَرُ أحَدُهم بالمِنشارِ، ثُمَّ لا يصُدُّه ذلك عن دينِه“؟[1990] فيَئِسوا مِنه!

[1985] الآكِلةُ: داءٌ يقعُ في العُضوِ فيأتكِلُ منه. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 11/22

[1986] المُرقِدُ: شيءٌ يُشرَبُ فيُنَوِّمُ مَن شَرِبه ويُرقِدُه. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 3/183

[1987] سير أعلام النبلاء للذهبي 4/430

[1988] صفة الصفوة لابن الجوزي 2/132

[1989] رواه ابنُ أبي الدنيا في الصبر والثواب عليه 120،121

[1990] عن خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ، قال: شَكَونا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهُو مُتوسِّدٌ بُردَةً له في ظِلِّ الكَعْبةِ، قُلنا له: ألَا تَستَنْصِرُ لنا؟ ألَا تَدْعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجلُ فيمَنْ قبلَكم يُحفَرُ له في الأرْضِ، فيُجعَلُ فيهِ، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رأسِهِ فيُشَقُّ باثْنَتَينِ، وما يصُدُّه ذلك عن دِينِه، ويُمشَطُ بأمْشاطِ الحَديدِ ما دُونَ لَحمِه مِن عظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يصُدُّهُ ذلك عن دِينِه، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرَ، حتَّى يَسيرَ الرَّاكبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَموتَ، لا يَخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِه، ولَكنَّكم تَستعجِلونَ. رواه البخاري3612

وقال إبراهيمُ البُوشَنجيُّ: ذَكروا أنَّ المُعتَصِمَ رَقَّ في أمرِ أحمَدَ، لَمَّا عُلِّقَ في العقابَينِ، ورَأى ثُبوتَه وتَصميمَه، وصَلابَتَه في أمرِه، حتَّى أغراه ابنُ أبي دؤادَ، وقال له: إن تَركتَه قيل: إنَّك تَركتَ مَذهَبَ المَأمونِ، وسَخِطتَ قَولَه، فهاجَه ذلك على ضَربِه!

وقال أبو غالبٍ ابنُ بنتِ مُعاويةَ: ضُرِبَ أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ بالسِّياطِ في اللهِ، فقامَ مَقامَ الصِّدِّيقينَ في العَشرِ الأواخِرِ مِن رَمَضانَ سَنةَ عِشرينَ ومِائَتَينِ".[1991]

لا يأتي التَّمْكينُ إلا بعد الابْتِلاء:

سَأَلَ رَجُلٌ الشافِعِيَّ فَقال: "يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أَيُّمَا أَفْضَلُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُمَكَّنَ أَمْ يُبْتَلَى؟" فَأَجَابَ الشَّافِعِيُّ: "لَا يُمَكَّنُ حَتَّى يُبْتَلَى، فَإِنَّ اللهَ ابْتَلَى نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدًا، صَلَّوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، فَلَمَّا صَبَرُوا مَكَّنَهُمْ، فَلَا يَظُنَّ أَحَدٌ أَنْ يَخْلُصَ مِنَ الْأَلَمِ البَتَّة."[1992]

المطلب الخامس: فوائِدُ الصَّبرِ

1- الصَّبرُ به يتَمَكَّنُ الإنسانُ مِن ضَبطِ نَفسِه، وتَحَمُّلِ المَتاعِبِ والمَشَقَّاتِ والآلامِ.

2- الصَّبرُ به يتَمَكَّنُ الإنسانُ مِن ضَبطِ نَفسِه عنِ الاندِفاعِ بعَوامِلِ الضَّجَرِ والجَزَعِ، والمَلَلِ والرُّعونةِ والطَّيشِ، والخَوفِ والطَّمَعِ، والأهواءِ والشَّهَواتِ

3- الصَّبرُ يُؤَدِّي إلى وضعِ الأشياءِ في مَواضِعِها والتَّصَرُّفِ بعَقلٍ واتِّزانٍ، وفي الوقتِ المُناسِبِ بالطَّريقةِ المُناسِبةِ.

4- في الصَّبرِ اقتِداءٌ بالأنبياءِ والمُرسَلينَ، واتِّباعٌ لطَريقِ الصَّالحينَ.

5- الصَّبرُ مَطيَّةٌ للارتِقاءِ بالنَّفسِ نَحوَ كمالِها ومُعالجةِ آفاتِها.

6- الصَّبرُ كما أنَّه سَبَبُ الفلاحِ في الآخِرةِ فهو سَبَبُ النَّجاحِ في الدُّنيا، فهو ضَرورةٌ دُنيويَّةٌ كما هو ضَرورةٌ دينيَّةٌ.

7- الصَّبرُ يُؤَدِّي إلى ضَمانِ النَّصرِ والمَدَدِ.

8- الصَّبرُ سَبَبٌ للتَّمكينِ في الأرضِ.

9- الصَّبرُ سَبَبٌ للحِفظِ مِن كيدِ الأعداءِ.

10- الصَّبرُ يُؤَهِّلُ لمرتبةِ القيادةِ والإمامةِ، ويوصِلُ إليهما.

11- الصَّبرُ يُثمِرُ محبَّةَ النَّاسِ.

12- الصَّابرونَ ينالونَ مَعيَّةَ اللهِ ومَحَبَّتَه ورَحمَتَه.

13- الصَّبرُ عاقِبتُه الجَنَّةُ ونَيلُ عَظيمِ الأجرِ.

14- الصَّبرُ يعصِمُ مِنَ التَّخَبُّطِ ويحفظُ مِنَ اليأسِ والقُنوطِ.[1993]

المطلب السادس: أقسامُ الصَّبرِ

ينقَسِمُ الصَّبرُ بعِدَّةِ اعتِباراتٍ:

- **فباعتِبارِ مَحَلِّه ينقَسِمُ إلى ضَربَينِ:**

(ضَربٌ بَدَنيٌّ، وضَربٌ نَفسانيٌّ، وكُلٌّ مِنهما نَوعانِ: اختياريٌّ واضطِراريٌّ، فهذه أربَعةُ أقسامٍ:

[1991] صلاح الأمة لسيد العفاني 4/409

[1992] الفوائد للإمام ابن القيم، ص269

[1993] أخلاق القرآن للشرباصي 1/199، الأخلاق الإسلامية للميداني 1/305، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم 6/ 2471، الصبر الجميل للهلالي ص: 51

الأوَّلُ: البَدَنيُّ الاختياريُّ: كتَعاطي الأعمالِ الشَّاقَّةِ على البَدَنِ اختيارًا وإرادةً.

الثَّاني: البَدَنيُّ الاضطِراريُّ: كالصَّبرِ على ألمِ الضَّربِ والمَرَضِ والجِراحاتِ، والبَردِ والحَرِّ وغَيرِ ذلك.

الثَّالثُ: النَّفسانيُّ الاختياريُّ: كصَبرِ النَّفسِ عن فِعلِ ما لا يحسُنُ فِعلُه شَرعًا ولا عَقلًا.

الرَّابعُ: النَّفسانيُّ الاضطِراريُّ: كصَبرِ النَّفسِ عن مَحبوبِها قَهرًا إذا حيلَ بَينَها وبَينَه.

فإذا عَرَفتَ هذه الأقسامِ فهي مُختَصَّةٌ بنَوعِ الإنسانِ دونَ البَهائِمِ، ومُشاركةٌ للبَهائِمِ في نَوعَينِ مِنها، وهما: صَبرُ البَدَنِ والنَّفسِ الاضطراريَّانِ، وقد يكونُ بَعضُها أقوى صَبرًا مِنَ الإنسانِ، وإنَّما يتَميَّزُ الإنسانُ عنها بالنَّوعَينِ الاختياريَّينِ، وكثيرٌ مِنَ النَّاسِ تَكونُ قوَّةُ صَبرِه في النَّوعِ الذي يُشارِكُ فيه البَهائِمَ، لا في النَّوعِ الذي يخُصُّ الإنسانَ، فيُعَدُّ صابرًا وليسَ مِنَ الصَّابرينَ... فالإنسانُ مِنَّا إذا غَلبَ صَبرُه باعِثَ الهَوى والشَّهوةِ التَحَقَ بالمَلائِكةِ، وإن غَلبَ باعِثُ الهَوى والشَّهوةِ صَبرَه التَحَقَ بالشَّياطينِ، وإن غَلبَ باعِثُ طَبعِه مِنَ الأكلِ والشُّربِ والجِماعِ صَبرَه التَحَقَ بالبَهائِمِ. قال قتادةُ: خَلقَ اللهُ سُبحانَه المَلائِكةَ عُقولًا بلا شَهَواتٍ، وخَلق البَهائِمَ شَهَواتٍ بلا عُقولٍ، وخَلق الإنسانَ وجَعل له عَقلًا وشَهوةً؛ فمَن غَلبَ عَقلُه شَهوتَه فهو مِنَ المَلائِكةِ، ومَن غَلبَت شَهوتُه عَقلَه فهو كالبَهائِمِ، ولَمَّا خُلقَ الإنسانُ في ابتِداءِ أمرِه ناقِصًا، لم يُخلَقْ فيه إلَّا شَهوةُ الغِذاءِ الذي هو مُحتاجٌ إليه، فصَبرُه في هذه الحالِ بمَنزِلةِ صَبرِ البَهائِمِ، وليسَ له قَبل تَمييزِه قوَّةُ الاختيارِ، فإذا ظَهَرَت فيه شَهوةُ اللَّعِبِ استعَدَّ لقوَّةِ الصَّبرِ الاختياريِّ على ضَعفِها فيه، فإذا تَعَلَّقت به شَهوةُ النِّكاحِ ظَهَرَت فيه قوَّةُ الصَّبرِ، وإذا تَحَرَّك سُلطانُ العَقلِ وقَويَ استعَانَ بجَيشِ الصَّبرِ)[1994].

- **وباعتِبارِ مُتَعَلِّقِه ينقَسِمُ إلى ثَلاثةِ أقسامٍ:**

(صَبرٌ على الأوامِرِ والطَّاعاتِ حتَّى يُؤَدِّيَها، وصَبرٌ عنِ المَناهي والمُخالفاتِ حتَّى لا يقَعَ فيها، وصَبرٌ على الأقدارِ والأقضيةِ حتَّى لا يتَسَخَّطَها...

فأمَّا الذي مِن جِهةِ الرَّبِّ فهو أنَّ اللهَ تعالى له على عَبدِه حُكمانِ: حُكمٌ شَرعيٌّ دينيٌّ، وحُكمٌ كونيٌّ قدَريٌّ؛ فالشَّرعيُّ مُتَعَلِّقٌ بأمرِه، والكونيُّ مُتَعَلِّقٌ بخَلقِه، وهو سُبحانُه له الخَلقُ والأمرُ، وحُكمُه الدِّينيُّ الطَّلبيُّ نَوعانِ بحَسبِ المَطلوبِ؛ فإنَّ المَطلوبَ إن كان مَحبوبًا له فالمَطلوبُ فِعلُه إمَّا واجِبًا وإمَّا مُستَحَبًّا، ولا يتِمُّ ذلك إلَّا بالصَّبرِ، وإن كان مَبغوضًا له فالمَطلوبُ تَركُه إمَّا تَحريمًا وإمَّا كراهةً، وذلك أيضًا مَوقوفٌ على الصَّبرِ، فهذا حُكمُه الدِّينيُّ الشَّرعيُّ، وأمَّا حُكمُه الكونيُّ فهو ما يقضيه ويُقدِّرُه على العَبدِ مِنَ المَصائِبِ التي لا صُنعَ له فيها، ففرضُه الصَّبرُ عليها، وفي وُجوبِ الرِّضا بها قَولانِ للعُلماءِ، وهما وجهانِ في مَذهَبِ أحمَدَ، أصَحُّهما أنَّه مُستَحَبٌّ، فمَرجِعُ الدِّينِ كُلِّه إلى هذه القَواعِدِ الثَّلاثِ: فِعلُ المَأمورِ، وتَركُ المَحظورِ، والصَّبرُ على المَقدورِ، وأمَّا الذي مِن جِهةِ العَبدِ فإنَّه لا ينفكُّ عن هذه الثَّلاثِ ما دامَ مُكلَّفًا، ولا تَسقُطُ عنه هذه الثَّلاثُ حتَّى يسقُطَ عنه التَّكليفُ، فقيامُ عُبوديَّةِ الأمرِ والنَّهيِ والقدَرِ على ساقِ الصَّبرِ، ولا تَستَوي إلَّا عليه كما لا تَستَوي السُّنبُلةُ إلَّا على ساقِها، فالصَّبرُ مُتَعَلِّقٌ بالمَأمورِ والمَحظورِ والمَقدورِ بالخَلقِ والأمرِ)[1995].

- **وباعتِبارِ تَعَلُّقِ الأحكامِ الخَمسةِ به ينقَسِمُ إلى خَمسةِ أقسامٍ:**

(إلى واجِبٍ ومَندوبٍ ومَحظورٍ ومَكروهٍ ومُباحٍ.

[1994] ((عدة الصابرين)) لابن قيم الجوزية (ص: 43) بتصرف.

[1995] المصدر السابق، (ص: 52) بتصرف.

فالصَّبرُ الواجِبُ ثَلاثةُ أنواعٍ:

أحدُها: الصَّبرُ عنِ المُحَرَّماتِ.

والثَّاني: الصَّبرُ على أداءِ الواجِباتِ.

والثَّالثُ: الصَّبر على المَصائِبِ التي لا صُنعَ للعَبدِ فيها، كالأمراضِ والفقرِ وغَيرِها.

وأمَّا الصَّبرُ المَندوبُ: فهو الصَّبرُ عنِ المكروهاتِ، والصَّبرُ على المُستَحبَّاتِ، والصَّبرُ على مُقابلةِ الجاني بمِثلِ فِعلِه.

وأمَّا المَحظورُ فأنواعٌ: أحدُها: الصَّبرُ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ حتَّى يموتَ، وكذلك الصَّبرُ عنِ الميتةِ والدَّمِ ولحمِ الخِنزيرِ عِندَ المَخمَصةِ حَرامٌ إذا خاف بتَركِه المَوتَ؛ قال طاؤُسٌ وبعدَه أحمَدُ: مَن اضطُرَّ إلى أكلِ المَيتةِ والدَّمِ فلم يأكُلْ فماتَ، دَخل النَّارَ...

ومِنَ الصَّبرِ المَحظورِ: صَبرُ الإنسانِ على ما يقصِدُ هَلاكَه مِن سُبعٍ أو حَيَّاتٍ أو حَريقٍ أو ماءٍ، أو كافِرٍ يُريدُ قَتلَه، بخِلافِ استِسلامِه وصَبرِه في الفِتنةِ وقِتالِ المُسلمينَ؛ فإنَّه مُباحٌ له، بَل يُستَحَبُّ، كما دَلَّت عليه النُّصوصُ الكثيرةُ.

وقد سُئِل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن هذه المَسألةِ بعَينِها فقال: "فليكُنْ كخَيرِ ابنَي آدَمَ"[1996]. وفي لفظٍ: "... وليكُنْ عَبدَ اللهِ المَقتولَ، ولا يكُنْ عَبدَ اللهِ القاتِلَ"[1997].

- **وأمَّا الصَّبرُ المكروهُ فله أمثِلةٌ:**

أحَدُها: أن يصبرَ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ واللُّبسِ وجِماعِ أهلِه حتَّى يتَضَرَّرَ بذلك بَدَنُه.

الثَّاني: صَبرُه عن جِماعِ زَوجَتِه إذا احتاجَت إلى ذلك ولم يتَضَرَّرْ به.

الثَّالثُ: صَبرُه على المكروهِ.

الرَّابعُ: صَبرُه عن فِعلِ المُستَحَبِّ.

وأمَّا الصَّبرُ المُباحُ: فهو الصَّبرُ عن كُلِّ فِعلٍ مُستَوي الطَّرَفينِ، خُيِّر بَينَ فِعلِه وتَركِه والصَّبرِ عليه)[1998].

- **ومِن جِهةٍ أُخرى ينقَسِمُ الصَّبرُ مِن حَيثُ المَدحُ والذَّمُّ إلى قِسمَينِ: قِسمٌ مَذمومٌ، وقِسمٌ مَمدوحٌ:**

(فالمَذمومُ: الصَّبرُ عنِ اللهِ وإرادتِه ومَحَبَّتِه وسَيرِ القَلبِ إليه، فإنَّ هذا الصَّبرَ يتَضَمَّنُ تَعطيلَ كمالِ العَبدِ بالكُلِّيَّةِ وتَفويتَ ما خُلِقَ له، وهذا كما أنَّه أقبَحُ الصَّبرِ فهو أعظَمُه وأبلغُه؛ فإنَّه لا صَبرَ أبلغُ مِن صَبرِ مَن يصبرُ عن مَحبوبِه الذي لا حَياةَ له بدونِه البَتَّةَ.

[1996] رواه مطوَّلًا أبو داود (4259)، وابن ماجه (3961)، وأحمد (19730) واللفظ لهم، والترمذي (2204) بلفظ: "وكونوا كابنِ آدَمَ" من حديثِ أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه الترمذي، وابن حبان في ((صحيحه)) (5962)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (101)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4259)، وصحَّحه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (19730)، وحسَّنه على شرط البخاري: الوادعي في ((الصحيح المسند)) (829)

[1997] رواه ابنُ أبي شيبة (38585)، وأبو يعلى (1523)، والطبراني (177/2) (1724) مطوَّلًا من حديثِ جُندَبِ بن عبدِ اللهِ بنِ سُفيانَ رَضِيَ اللهُ عنه. حسَّن إسنادَه ابن حجر في ((المطالب العالية)) (5/8)، وجوَّده لغيره الألباني في ((إرواء الغليل)) (104/8)

[1998] ((عدة الصابرين)) لابن قيم الجوزية بتصرف (ص: 57)

وأمَّا الصَّبرُ المَحمودُ فنَوعانِ: صَبرٌ للهِ، وصَبرٌ باللهِ؛ قال اللهُ تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: 127]، وقال: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: 48] ... وزادَ بَعضُهم قِسمًا ثالثًا مِن أقسامِ الصَّبرِ، وهو الصَّبرُ مَعَ اللهِ، وجَعَلوه أعلى أنواعِ الصَّبرِ)[1999].

قال ابنُ القَيِّمِ: (وأمَّا الصَّبرُ على اللهِ سُبحانَه فهو الصَّبرُ على أحكامِه الدِّينيَّةِ والكونيَّةِ، فهو يرجِعُ إلى الصَّبرِ على أوامِرِه والصَّبرِ على ابتِلائِه، فليسَ في الحَقيقة قِسمًا ثالثًا، واللهُ أعلمُ)[2000].

(وزادَ بَعضُهم قِسمًا آخَرَ مِن أقسامِه، وسَمَّاه الصَّبرَ فيه، وهذا أيضًا غَيرُ خارِجٍ عن أقسامِ الصَّبرِ المَذكورةِ، ولا يُعقَلُ مِنَ الصَّبرِ فيه مَعنًى غَيرُ الصَّبرِ له)[2001].

- **وقَسَّمَ الماوَرديُّ الصَّبرَ المَحمودَ إلى سِتَّةِ أقسامٍ، فقال:**

(واعلَمْ أنَّ الصَّبرَ على سِتَّةِ أقسامٍ، وهو في كُلِّ قِسمٍ مِنها مَحمودٌ:

فأوَّلُ أقسامِه وأولاها: الصَّبرُ على امتِثالِ ما أمَرَ اللهُ تعالى به، والانتِهاءُ عَمَّا نَهى اللهُ عنه؛ لأنَّ به تَخلُصُ الطَّاعةُ، وبها يصِحُّ الدِّينُ، وتُؤَدَّى الفُروضُ، ويُستَحَقُّ الثَّوابُ، كما قال في مُحكمِ الكِتابِ: إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [الزمر: 10] ... وليس لِمَن قَلَّ صَبرُه على طاعةٍ حَظٌّ مِن بِرٍّ ولا نَصيبٌ مِن صَلاحٍ...

وهذا النَّوعُ مِنَ الصَّبرِ إنَّما يكونُ لفرطِ الجَزَعِ وشِدَّةِ الخَوفِ؛ فإنَّ مَن خاف اللهَ عَزَّ وجَل صَبَرَ على طاعَتِه، ومَن جَزِعَ مِن عِقابِه وقَف عِندَ أوامِرِه.

الثَّاني: الصَّبرُ على ما تَقتَضيه أوقاتُه مِن رَزيَّةٍ قد أجهَده الحُزنُ عليها، أو حادِثةٍ قد كدَّه الهَمُّ بها؛ فإنَّ الصَّبرَ عليها يَعقُبُه الرَّاحةُ مِنها، ويكسِبُه المَثوبةَ عنها، فإن صَبر طائِعًا وإلَّا احتَمَل هَمًّا لازِمًا، وصَبرَ كارِهًا آثِمًا.

وقال عَليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضيَ اللهُ عنه للأشعَثِ بنِ قَيسٍ: (إنَّك إن صَبَرتَ جَرى عَليك القَلَمُ وأنت مَأجورٌ، وإن جَزِعتَ جَرى عَليك القَلَمُ وأنت مَأزورٌ).

الثَّالثُ: الصَّبرُ على ما فاتَ إدراكُه مِن رَغبةٍ مَرجوَّةٍ، وأعوزَ نَيلُه مِن مَسَرَّةٍ مَأمولةٍ؛ فإنَّ الصَّبرَ عنها يُعقِبُ السُّلُوَّ مِنها، والأسَفُ بَعدَ اليأسِ خُرقٌ...

وقال بَعضُ الحُكماءِ: اجعَلْ ما طَلبتَه مِنَ الدُّنيا فلم تَنَلْه مِثلَ ما لا يخطُرُ ببالِك فلم تَقُلْه.

الرَّابعُ: الصَّبرُ فيما يُخشى حُدوثُه مِن رَهبةٍ يخافُها، أو يَحذَرُ حُلولَه مِن نَكبةٍ يخشاها، فلا يتَعَجَّلُ همَّ ما لم يأتِ؛ فإنَّ أكثَرَ الهمومِ كاذِبةٌ، وإنَّ الأغلبَ مِنَ الخَوفِ مَدفوعٌ...

وقال الحَسَنُ البَصريُّ رَحِمَه اللهُ: لا تَحمِلنَّ على يومِك همَّ غَدِك؛ فَحسبُ كُلِّ يومٍ هَمُّه.

الخامِسُ: الصَّبرُ فيما يتَوقَّعُه مِن رَغبةٍ يرجوها، وينتَظِرُ مِن نِعمةٍ يأمُلُها؛ فإنَّه إن أدهَشَه التَّوقُّعُ لها، وأذهَله التَّطَلُّعُ إليها انسَدَّت عليه سُبُلُ المطالبِ، واستَفزَّه تَسويلُ المَطامِعِ، فكان أبعَدَ لرَجائِه، وأعظَم لبَلائِه.

[1999] المصدر السابق، (ص: 44)

[2000] ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: 269)

[2001] ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: 48)

وإذا كان مَعَ الرَّغبةِ وَقورًا، وعِندَ الطَّلبِ صَبورًا، انجَلت عنه عَمايةُ الدَّهَشِ، وانجابَت عنه حَيرةُ الوَلَهِ، فأبصَرَ رُشدَه وعَرَف قَصدَه. وقد رويَ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: "والصَّبرُ ضِياءٌ"[2002]. يعني -واللهُ أعلمُ- أنَّه يكشِفُ ظُلَمَ الحَيرةِ، ويوضِّحُ حَقائِقَ الأُمورِ.

السَّادِسُ: الصَّبرُ على ما نَزَل مِن مَكروهٍ، أو حَلَّ مِن أمرٍ مخوفٍ.

فبالصَّبرِ في هذا تَنفتِحُ وُجوهُ الآراءِ، وتُستَدفعُ مكائدُ الأعداءِ؛ فإنَّ مَن قَلَّ صَبرُه عَزَبَ رَأيُه، واشتَدَّ جَزَعُه، فصارَ صَريعَ همومِه، وفريسةَ غُمومِه. وقد قال اللهُ تعالى: وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [لقمان: 17] ... واعلَمْ أنَّ النَّصرَ مَعَ الصَّبرِ، والفرَجَ مَعَ الكربِ، واليُسرَ مَعَ العُسرِ)[2003].

المطلب السابع: مَراتِبُ الصَّبرِ ودَرَجاتُه

ذَكَر ابنُ القَيِّمِ أربَعَ مَراتِبَ للصَّبرِ:

إحداها: مَرتَبةُ الكَمالِ، وهي مَرتَبةُ أولي العَزائِمِ، وهي الصَّبرُ للهِ وباللهِ.

فيكونُ في صَبرِه مُبتَغيًا وجهَ اللهِ صابرًا به، مُتبَرِّئًا مِن حَولِه وقوَّتِه، فهذا أقوى المَراتِبِ وأرفعِها وأفضَلِها.

الثَّانيةُ: ألَّا يكونَ فيه لا هذا ولا هذا، فهو أخَسُّ المَراتِبِ وأردَأُ الخَلقِ، وهو جَديرٌ بكُلِّ خِذلانٍ وبكُلِّ حِرمانٍ.

الثَّالثةُ: مَرتَبةُ مَن فيه صَبرٌ باللهِ، وهو مُستَعينٌ مُتَوكِّلٌ على حَولِه وقوَّتِه، مُتَبَرِّئٌ مِن حَولِه هو وقوَّتِه، ولكِنْ صَبرُه ليسَ للهِ؛ إذ ليسَ صَبرُه فيما هو مُرادُ اللهِ الدِّينيُّ مِنه، فهذا ينالُ مَطلوبَه ويظفرُ به، ولكِن لا عاقِبةَ له، ورُبَّما كانت عاقِبَتُه شَرَّ العَواقِبِ، وفي هذا المَقامِ خُفَراءُ الكفَّارِ وأربابُ الأحوالِ الشَّيطانيَّةِ؛ فإنَّ صَبرَهم باللهِ لا للهِ ولا في اللهِ.

الرَّابعُ: مَن فيه صَبرٌ للهِ، لكِنَّه ضَعيفُ النَّصيبِ مِنَ الصَّبرِ به والتَّوكُّلِ عليه والثِّقةِ به والاعتِمادِ عليه، فهذا له عاقِبةٌ حَميدةٌ، ولكِنَّه ضَعيفٌ عاجِزٌ مَخذولٌ في كثيرٍ مِن مَطالبِه؛ لضَعفِ نَصيبِه مِن {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5]، فنَصيبُه مِنَ اللهِ أقوى مِن نَصيبِه باللهِ، فهذا حالُ المُؤمِنِ الضَّعيفِ.

وصابرٌ باللهِ لا للهِ: حالُ الفاجِرِ القَويِّ، وصابِرٌ للهِ وباللهِ: حالُ المُؤمِنِ القَويِّ، والمُؤمِنُ القَويُّ خَيرٌ وأحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤمِنِ الضَّعيفِ.

فصابرٌ للهِ وباللهِ: عَزيزٌ حَميدٌ، ومَن ليسَ للهِ ولا باللهِ: مَذمومٌ مَخذولٌ، ومَن هو باللهِ لا للهِ: قادِرٌ مَذمومٌ، ومَن هو للهِ لا باللهِ: عاجِزٌ مَحمودٌ.[2004]

وقال ابنُ حِبَّانَ في دَرَجاتِ الصَّبرِ: (وأوَّلُ دَرَجَتِه الاهتِمامُ، ثُمَّ التَّيقُّظُ، ثُمَّ التَّثَبُّتُ، ثُمَّ التَّصَبُّرُ، ثُمَّ الصَّبرُ، ثُمَّ الرِّضا، وهو النِّهايةُ في الحالاتِ)[2005].

المطلب الثامن: صُورُ الصَّبرِ ومَجالاتُه

إنَّ صَورَ الصَّبرِ ومَجالاتِه كثيرةٌ في حَياةِ الإنسانِ، فلا يستَغني عنه أحَدٌ بحالٍ مِنَ الأحوالِ، يقولُ ابنُ القَيِّمِ: (إنَّ الإنسانَ لا يستَغني عنِ الصَّبرِ في حالٍ مِنَ الأحوالِ؛ فإنَّه بَينَ أمرٍ يجِبُ عليه امتِثالُه وتَنفيذُه، ونَهيٍ يجِبُ عليه اجتِنابُه وتَركُه، وقدَرٍ يجري عليه اتِّفاقًا، ونعمةٍ يجِبُ عليه شُكرُ المُنعِمِ عليها، وإذا كانت هذه الأحوالُ لا تُفارِقُه فالصَّبرُ لازِمٌ له إلى المَماتِ، وكُلُّ ما

[2002] رواه مسلم (223) مطوَّلًا من حديثِ أبي مالكٍ الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[2003] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي، بتصرف (295-298)

[2004] مدارج السالكين لابن القيم 2/450

[2005] ((روضة العقلاء)) (ص: 161).

يلقى العَبدُ في هذه الدَّارِ لا يخلو مِن نَوعَينِ: أحَدُهما: يوافِقُ هَواه ومُرادَه، والآخَرُ: يُخالفُه، وهو مُحتاجٌ إلى الصَّبرِ في كُلٍّ مِنهما)[2006].

فمِن صُورِ الصَّبرِ:

1- الصَّبرُ على بَلاءِ الدُّنيا مِن آلامٍ وأمراضٍ وفِقدانٍ للأقارِبِ والأصدِقاءِ وفَقرٍ، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 155].

2- الصَّبرُ عن شَهَواتِ النَّفسِ.

3- الصَّبرُ على الطَّاعةِ، قال تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ} [مريم: 65]، وقال: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} [طه: 132].

4- الصَّبرُ في الدَّعوةِ إلى اللهِ وتَحمُّلُ مَشاقِّها، فقد تَجِدُ مِنَ النَّاسِ إعراضًا عن دَعوتِك، وقد تَجِدُ مِنهم أذًى قَولًا أو فِعلًا فلا بُدَّ مِنَ الصَّبرِ.

وقد قَرَنَ اللهُ تعالى الصَّبرَ في بَعضِ الآياتِ بالأذى الذي يحتاجُ تَحَمُّلُه إلى عَزيمةٍ وإرادةٍ، ومِن ذلك: {وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا} [إبراهيم: 12]، وقَولُه: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ} [البقرة: 177]، وقَولُه: {وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ} [الحج: 35].

5- الصَّبرُ عِندَ مُلاقاةِ الأعداءِ والجِهادِ في سَبيلِ الله:

وقد قَرَنَ اللهُ تعالى في كِتابِه بَينَ ذِكرِ الجِهادِ وذِكرِ الصَّبرِ؛ لأنَّ في الجِهادِ مَشَقَّةً تَستَلزِمُ العَزيمةَ، ومِن ذلك قَولُه تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} [البقرة: 250] ، وقَولُه: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: 110] ، وقَولُه عَزَّ وجَلَّ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْ} [الأنفال: 65].

وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "أيُّها النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوا لقاءَ العَدوِّ، وسَلوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتُموهم فاصبِروا".[2007]

6- الصَّبرُ على الزَّوجةِ والأولادِ.

7- الصَّبرُ على الإخوةِ في اللهِ.

8- الصَّبرُ على طَلَبِ العِلمِ، قال موسى عليه السَّلامُ للخَضِرِ لَمَّا أرادَ أن يصحَبَه ليأخُذَ العِلمَ عليه: {قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} [الكهف: 69].

9- الصَّبرُ على أذى النَّاسِ.

ومِنَ المَجالاتِ التي ينبَغي للإنسانِ أن يضبِطَ نَفسَه عِندَها ويصبرَ عليها:

1- ضَبطُ النَّفسِ عنِ الضَّجَرِ والجَزَعِ عِندَ حُلولِ المَصائِبِ ومَسِّ المَكارِهِ.

2- ضَبطُ النَّفسِ عنِ السَّأمِ والمَلَلِ لدى القيامِ بأعمالٍ تَتَطَلَّبُ الدَّأبَ والمُثابَرةَ خِلالَ مُدَّةٍ مُناسِبةٍ.

3- ضَبطُ النَّفسِ عنِ العَجَلةِ والرُّعونةِ لدى تَحقيقِ مَطلبٍ مِنَ المَطالبِ المادِّيَّةِ أو المَعنَويَّةِ.

4- ضَبطُ النَّفسِ عنِ الغَضَبِ والطَّيشِ لدى مُثيراتِ عَوامِلِ الغَضَبِ في النَّفسِ.

5- ضَبطُ النَّفسِ عنِ الخَوفِ لدى مُثيراتِ الخَوفِ في النَّفسِ.

6- ضَبطُ النَّفسِ عنِ الطَّمَعِ لدى مُثيراتِ الطَّمَعِ فيها.

[2006] ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: 101)

[2007] أخرجه البخاري 2966، ومسلم 1742

7- ضَبطُ النَّفسِ عنِ الاندِفاعِ وراءَ أهوائِها وشَهَواتِها وغَرائِزِها.
8- ضَبطُ النَّفسِ لتَحَمُّلِ المَتاعِبِ والمَشَقَّاتِ والآلامِ الجَسَديَّةِ والنَّفسيَّةِ.[2008]

المطلب التاسع: مَوانِعُ التَّحَلِّي بالصَّبرِ

على المُسلمِ الذي يُريدُ أنَّ يتحلَّى بالصَّبرِ أن يحذَرَ مِنَ المَوانِعِ التي تَعتَرِضُ طَريقَه، ومِن هذه المَوانِعِ:
1- **الاستِعجالُ:** فالنَّفسُ مولَعةٌ بحُبِّ العاجِلِ، والإنسانُ عَجولٌ بطَبعِه، حتَّى جَعَل القُرآنُ العَجَلَ كأنَّه المادَّةُ التي خُلِقَ الإنسانُ مِنها: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ} [الأنبياء: 37]، فإذا أبطَأ على الإنسانِ ما يُريدُه نَفِدَ صَبرُه، وضاقَ صَدرُه، ناسيًا أنَّ للهِ في خَلقِه سُنَنًا لا تَتَبَدَّلُ، وأنَّ لكُلِّ شَيءٍ أجَلًا مُسَمًّى، وأنَّ اللهَ لا يَعجَلُ بعَجَلةِ أحَدٍ مِنَ النَّاسِ، ولكُلِّ ثَمَرةٍ أوانٌ تَنضَجُ فيه، فيَحسُنُ عِندَئِذٍ قِطافُها، والاستِعجالُ لا يُنضِجُها قَبلَ وقتِها، فهو لا يملِكُ ذلك، وهي لا تَملِكُه، ولا الشَّجَرةُ التي تَحمِلُها، إنَّها خاضِعةٌ للقَوانينِ الكونيَّةِ التي تحكُمُها، وتَجري عليها بحِسابٍ ومِقدارٍ.

2- **الغَضَبُ:** فقد يستَفِزُّ الغَضَبُ صاحِبَ الدَّعوةِ إذا ما رَأى إعراضَ المَدعوِّينَ عنه، ونُفورَهم مِن دَعوتِه، فيدفعُه الغَضَبُ إلى ما يليقُ به مِنَ اليأسِ مِنهم، أو النَّأيِ عنهم، مَعَ أنَّ الواجِبَ على الدَّاعيةِ أن يصبرَ على مَن يدعوهم، ويُعاوِدَ عَرْضَ دَعوتِه عليهم مَرَّةً بَعدَ مَرَّةٍ، وعَسى أن يتفَتَّحَ له قَلبٌ واحِدٌ يومًا، تُشرِقُ عليه أنوارُ الهدايةِ، فيكونَ خَيرًا له مِمَّا طَلعَت عليه الشَّمسُ وغَرَبَت.
وفي هذا يقولُ اللهُ لرَسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} [القلم: 48 - 50].

3- **شِدَّةُ الحُزنِ والضِّيقِ** مِمَّا يمكُرونَ، فليسَ أشَدَّ على نَفسِ المَرءِ المُخلِصِ لدَعوتِه مِنَ الإعراضِ عنه، والاستِعصاءِ عليه. فضلًا عنِ المكرِ به، والإيذاءِ له، والافتِراءِ عليه، والافتِنانِ في إعناتِه. وفي هذا يقولُ اللهُ لرَسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} [النحل: 127]، ثُمَّ يُؤنِسُه بأنَّه في مَعيَّتِه سُبحانَه ورِعايتِه، فيقولُ: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النَّحل: 128].

4- **اليأسُ:** فهو مِن أعظَمِ عَوائِقِ الصَّبرِ؛ فإنَّ اليائِسَ لا صَبرَ له؛ لأنَّ الذي يدفعُ الزَّارِعَ إلى مُعاناةِ مَشَقَّةِ الزَّرعِ وسَقيِه وتَعَهُّدِه هو أمَلُه في الحَصادِ، فإذا غَلَبَ اليأسُ على قَلبِه، وأطفأ شُعاعَ أمَلِه، لم يَبقَ له صَبرٌ على استِمرارِ العَمَلِ في أرضِه وزَرعِه، وهَكذا كُلُّ عامِلٍ في مَيدانِ عَمَلِه...
ولهذا حَرَصَ القُرآنُ على أن يدفعَ الوَهنَ عن أنفُسِ المُؤمِنينَ، فبَذَرَ الأمَلَ في صُدورِهم: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران: 139-140] ، ولمَّا أمَرَ موسى قَومَه بالصَّبرِ إزاءَ طُغيانِ فِرعَونَ وتَهديدِه أضاءَ أمامَهم شُعلةَ الأمَلِ، فقال: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 128-129].[2009]

المطلب العاشر: الوسائِلُ المُعينةُ على الصَّبرِ

أ- الوسائِلُ المُعينةُ على الصَّبرِ عنِ المَعصيةِ والصَّبرِ على الطَّاعةِ[2010]:

[2008] ملخص من كتاب الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة الميداني2/294
[2009] الصبر في القرآن الكريم ص: 109. ويُنظَر أيضًا: الرائد لمازن الفريح ص: 166، الصبر الجميل للهلالي، ص: 67
[2010] ملخَّص من كتاب طريق الهجرتين لابن القيم، ص: 275

1- مَعْرِفَةُ أنَّ حَياةَ الدُنْيا زائِلةٌ لا دَوامَ فِيها.
2- محبَّةُ اللهِ، وهي أقوى الأسبابِ في الصَّبرِ عن مُخالفتِه ومَعاصيه؛ فإنَّ المُحِبَّ لَمن يُحِبُّ مُطيعٌ، وكُلَّما قَوِيَ داعي المَحَبَّةِ في القَلبِ كانت استِجابَتُه للطَّاعةِ بحَسَبِه.
3- الحَياءُ مِنَ اللهِ سُبحانَه؛ فإنَّ العَبدَ متى عَلِم بنَظَرِه إليه ومَقامِه عليه وأنَّه بمَرأًى مِنه ومَسمَعٍ، وكان حَييًّا، استحيا مِن رَبِّه أن يتَعَرَّضَ لمساخِطِه بتَركِ طاعَتِه أو ارتِكابِ مَعاصيه.
4- خَوفُ اللهِ وخَشيةُ عِقابه، ورَجاءُ ثَوابِه ومَغفِرَتِه، وهذا إنَّما يَثبُتُ بتَصديقِه في وعدِه ووعيدِه، والإيمانِ به وبكِتابِه وبرَسولِه.
5- مُراعاةُ نِعَمِه عَليك وإحسانِه إليك؛ فإنَّ الذُّنوبَ تُزيلُ النِّعَمَ ولا بُدَّ، فما أذنَبَ عَبدٌ ذَنبًا إلَّا زالت عنه نِعمَةٌ مِنَ اللهِ بحَسبِ ذلك الذَّنبِ، ومَن أطاعَه وشَكَرَه زادَه مِن نِعَمِه وآلائِه.
6- شَرَفُ النَّفسِ وزَكاؤُها وفضلُها وأنَفَتُها وحَميَّتُها أن تَختارَ الأسبابَ التي تَحُطُّها وتَضَعُ مِن قَدْرِها وتُخَفِّضُ مَنزِلتَها وتُحَقِّرُها وتُسَوِّي بَينَها وبَينَ السِّفلةِ.
7- قوَّةُ العِلمِ بسوءِ عاقِبةِ المَعصيةِ وقُبحِ أثَرِها والضَّرَرِ النَّاشِئِ مِنها؛ مِن سَوادِ الوجهِ، وظُلمةِ القَلبِ وضيقِه، وغَمِّه وحُزنِه، وألَمِه وانحِصارِه، وشِدَّةِ قَلقِه واضطِرابِه، وتَمَزُّقِ شَملِه، وضَعفِه عن مُقاومةِ عَدوِّه، وتَعَرِّيه من زينتِه، والحَيرةِ في أمرِه، وتَخَلِّي وليِّه وناصِره عنه، وتَولِّي عَدوِّه المُبينِ له، وقوَّةِ العِلمِ بحُسنِ عاقِبةِ الطَّاعةِ وأثَرِها الطَّيِّبِ على النَّفسِ.
8- قِصَرُ الأمَلِ، وعِلمُه بسُرعةِ انتِقاله، وأنَّه كمُسافِرٍ دَخل قَريةً وهو مُزمِعٌ على الخُروجِ مِنها، أو كراكِبٍ قال في ظِلِّ شَجَرةٍ ثُمَّ سارَ وتَركها، فهو لعِلمِه بقِلَّةِ مُقامِه وسُرعةِ انتِقالِه حَريصٌ على تَركِ ما يَثقُلُه حَملُه ويضُرُّه ولا ينفعُه، حَريصٌ على الانتِقالِ بخَيرِ ما بحَضرَتِه، فليسَ للعَبدِ أنفعُ مِن قِصَرِ الأمَلِ ولا أضَرُّ مِنَ التَّسويفِ وطولِ الأمَلِ.
9- مُجانَبةُ الفُضولِ في مَطعَمِه ومَشرَبِه ومَلبَسِه ومَنامِه واجتِماعِه بالنَّاسِ.
10- ثَباتُ شَجَرةِ الإيمانِ في القَلبِ، فصَبرُ العَبدِ عنِ المَعاصي إنَّما هو بحَسبِ قوَّةِ إيمانِه، فكُلَّما كان إيمانُه أقوى كان صَبرُه أتَمَّ، وإذا ضَعُف الإيمانُ ضَعُف الصَّبرُ، وكُلَّما قَوِيَ داعي الإيمانِ في القَلبِ كانت استِجابَتُه للطَّاعةِ بحَسَبِه، وهذا السَّبَبُ جامِعٌ للأسبابِ كُلِّها.
قال ابنُ القَيِّمِ: „والصَّبرُ على الطَّاعةِ ينشَأُ مِن مَعرِفةِ هذه الأسبابِ، ومِن مَعرِفةِ ما تَجلبُه الطَّاعةُ مِنَ العَواقِبِ الحَميدةِ والآثارِ الجَميلةِ، ومِن أقوى أسبابِها: الإيمانُ والمَحَبَّةُ، فكُلَّما قَوِيَ داعي الإيمانِ والمَحَبَّةِ في القَلبِ كانت استِجابَتُه للطَّاعةِ بحَسَبِه".[2011]
11- مِمَّا يُعينُ على الصَّبرِ عنِ المَعصيةِ عِلمُ العَبدِ بقُبحِها ورَذالتِها ودَناءَتِها، وأنَّ اللهَ إنَّما حَرَّمَها ونَهى عنها صيانةً وحِمايةً عنِ الدَّنايا والرَّذائِلِ، كما يحمي الوالِدُ الشَّفيقُ وَلَدَه عَمَّا يضُرُّه.

ب – الوسائِلُ المُعينةُ على الصَّبرِ على البَلاءِ:

1- أن يعلمَ أنَّ اللهَ قد ارتَضاها له واختارَها وقَسَمَها، وأنَّ العُبوديَّةَ تَقتَضي رِضاه بما رَضيَ له به سَيِّدُه ومَولاه.
2- أن يعلمَ أنَّ هذه المُصيبةَ هي دَواءٌ نافِعٌ ساقَه إليه الطَّبيبُ العَليمُ بمَصلحَتِه الرَّحيمُ به؛ فليصبِرْ على تَجَرُّعِه ولا يتَقَيَّأْه بتَسَخُّطِه وشَكواه فيذهَبَ نَفعُه باطِلًا.
3- أن يعلمَ أنَّ في عُقبى هذا الدَّواءِ مِنَ الشِّفاءِ والعافيةِ والصِّحَّةِ وزَوالِ الألَمِ ما لم تَحصُلْ بدونِه، فإذا طالعَت نَفسُه كراهةَ هذا الدَّاءِ ومَرارَتَه فلينظُرْ إلى عاقِبَتِه وحُسنِ تَأثيرِه؛ قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا

[2011] طريق الهجرتين وباب السعادتين ص: 275

شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216]، وقال اللهُ تعالى: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: 19].

4- أن يعلمَ أنَّ اللهَ يُرَبِّي عَبدَه على السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والنِّعمةِ والبَلاءِ، فيستَخرِجُ مِن عُبوديَّتِه في جَميعِ الأحوالِ؛ فإنَّ العَبدَ على الحَقيقةِ مَن قامَ بعُبوديَّةِ اللهِ على اختِلافِ الأحوالِ، وأمَّا عَبدُ السَّرَّاءِ والعافيةِ الذي يعبُدُ اللهَ على حَرفٍ، فإن أصابَه خَيرٌ اطمَأنَّ به، وإن أصابَته فِتنةٌ انقَلبَ على وجهِه، فليس مِن عَبيدِه الذين اختارَهم لعُبوديَّتِه، فلا رَيبَ أنَّ الإيمانَ الذي يَثبُتُ على مَحَلِّ الابتِلاءِ والعافيةِ هو الإيمانُ النَّافِعُ وقتَ الحاجةِ، وأمَّا إيمانُ العافيةِ فلا يكادُ يصحَبُ العَبدَ ويُبلِّغُه مَنازِلَ المُؤمِنينَ، وإنَّما يصحَبُه إيمانٌ يَثبُتُ على البَلاءِ والعافيةِ؛ فالابتِلاءُ كِيرُ العَبدِ ومحَكُّ إيمانِه.[2012]

5- أن يعلمَ أنَّ ما أصابَه مُقدَّرٌ مِنَ اللهِ:

قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد: 22 - 23].

6- أن يتَذكَّرَ أعظَمَ المَصائِبِ التي حَلَّت بالأُمَّةِ الإسلاميَّةِ، وهي مَوتُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

قال الشَّاعِرُ:

اصبِرْ لكُلِّ مُصيبةٍ وتَجَلَّدِ.:. واعلَمْ بأنَّ المَرءَ غَيرُ مُخَلَّدِ

وإذا ذُكِرتَ مُصيبةً تَسلو بها.:. فاذكُرْ مُصابَك بالنَّبيِّ محمَّدِ.[2013]

7- أن يتجنَّبَ الجزَعَ فهو لا ينفَعُه، بل يزيدُ من مُصابِه:

قال ابنُ القَيِّمِ: „إنَّ الجَزَعَ يُشمِتُ عَدوَّه، ويسوءُ صَديقَه، ويُغضِبُ رَبَّه، ويَسُرُّ شَيطانَه، ويُحبِطُ أجرَه، ويُضعِفُ نَفسَه، وإذا صَبرَ واحتَسَبَ أنضى[2014] شَيطانَه، ورَدَّه خاسِئًا، وأرضى رَبَّه، وسَرَّ صَديقَه، وساءَ عَدوَّه، وحَمَلَ عن إخوانِه، وعَزَّاهم هو قَبلَ أن يُعزُّوه؛ فهذا هو الثَّباتُ والكَمالُ الأعظَمُ، لا لطمُ الخُدودِ، وشَقُّ الجُيوبِ، والدُّعاءُ بالوَيلِ والثُّبورِ، والسَّخَطُ على المَقدورِ".[2015]

8- أن يتَسَلَّى المُصابُ بمَن هم أشَدُّ مِنه مُصيبةً:

قال ابنُ القَيِّمِ: „ومِن عِلاجِه أن يُطفِئَ نارَ مُصيبَتِه ببَردِ التَّأسِّي بأهلِ المَصائِبِ، وليَعلَمْ أنَّه في كُلِّ وادٍ بَنو سَعدٍ[2016]، ولينظُرْ يَمنةً فهل يرى إلَّا مِحنةً؟! ثُمَّ ليَعطِفْ يَسرةً فهل يرى إلَّا حَسرةً؟! وأنَّه لو فتَّشَ العالَمَ لم يرَ فيهم إلَّا مُبتَلًى إمَّا بفواتِ مَحبوبٍ أو حُصولِ مَكروهٍ، وأنَّ شُرورَ الدُّنيا أحلامُ نومٍ أو كظِلٍّ زائِلٍ؛ إن أضحَكتْ قَليلًا أبكتْ كثيرًا، وإنْ سَرَّت يومًا ساءَتْ دَهرًا، وإنْ مَتَّعَتْ قَليلًا خيرةً إلَّا مَلأَتْها عَبرةً، ولا سَرَّته بيومِ سُرورٍ إلَّا خَبَّأت له يومَ شُرورٍ".[2017]

9- أن يتَسَلَّى المُصابُ بأنَّه للهِ، وأنَّ مَصيرَه إليه:

[2012] من رقم 1 إلى 4 ملخص من كتاب طريق الهجرتين لابن القيم ص: 276

[2013] المجالسة وجواهر العلم للدينوري 7/ 328. ويُنظَر: شعب الإيمان للبيهقي 12/ 425

[2014] أنضى: أي: أتعَبَ وأهزَلَ. يُنظَر: المعجم الوسيط 929 /2

[2015] زاد المعاد لابن القيم 4/173

[2016] يُضرَبُ مَثَلًا لاستواءِ القومِ في الشَّرِّ والمكروهِ، ومثلُه قولُهم: أينما أوجَّهْ أَلَقَ سَعدًا. والمثَلُ للأضبطِ بنِ قُرَيعٍ السَّعديِّ وكان سيِّدَ قومِه، فرأى منهم تنقُّصًا له وتهاونًا به، فرحل عنهم ونزل بآخرين، فرآهم يفعلون بأشرافِهم فِعلَ قومِه به، فقصَد آخرين فرآهم على مِثلِ حالِهم، فقال: أينما أُوَجِّهْ أَلَقَ سَعدًا! ورحل إلى قومِه. يُنظَر: جمهرة الأمثال للعسكري 1/61

[2017] زاد المعاد لابن القيم 4/173

قال ابنُ القَيِّم: „إذا تَحَقَّقَ العَبدُ بأنَّه للهِ وأنَّ مَصيرَه إليه تَسَلَّى عن مُصيبَتِه، وهذه الكَلِمةُ مِن أبلغِ عِلاجِ المُصابِ وأنفعِه له في عاجِلتِه وآجِلتِه؛ فإنَّها تَتَضَمَّنُ أصلينِ عَظيمَينِ إذا تَحَقَّقَ العَبدُ بمَعرِفتِهما تَسَلَّى عن مُصيبَتِه: أحَدُهما: أنَّ العَبدَ وأهلَه ومالَه مِلكٌ للهِ عَزَّ وجَل حَقيقةً... الثَّاني: أنَّ مَصيرَ العَبدِ ومَرجِعَه إلى اللهِ مَولاه الحَقِّ، ولا بُدَّ أن يُخلِّفَ الدُّنيا وراءَ ظَهرِه، ويجيءَ رَبَّه فرَدًا كما خَلقَه أوَّلَ مَرَّةٍ بلا أهلٍ ولا مالٍ ولا عَشيرةٍ، ولكِنْ بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، فإذا كانت هذه بدايةَ العَبدِ وما خُوِّله ونِهايتَه، فكيف يفرَحُ بمَوجودٍ أو يأسى على مَفقودٍ؟!".[2018]

10- أن يعلمَ أنَّ ابتِلاءَ اللهِ له هو امتِحانٌ لصَبرِه:

يقولُ ابنُ قَيِّمِ الجَوزيَّةِ في ذلك: „إنَّ الذي ابتَلاه بها أحكَمُ الحاكِمينَ أرحَمُ الرَّاحِمينَ، وإنَّه سُبحانَه لم يُرسِلْ إليه البَلاءَ ليُهلِكَه به ولا ليُعَذِّبَه به ولا ليجتاحَه، وإنَّما افتَقدَه به ليمتَحِنَ صَبرَه ورِضاه عنه وإيمانَه، وليسمَعَ تَضَرُّعَه وابتِهالَه، وليراه طَريحًا ببابِه لائِذًا بجَنابِه، مَكسورَ القَلبِ بَينَ يدَيه رافِعًا قِصَصَ الشَّكوى إليه".[2019]

11- أن يعلمَ أنَّ مَرارةَ الدُّنيا هي حَلاوةُ الآخِرةِ:

قال ابنُ القَيِّمِ: „إنَّ مَرارةَ الدُّنيا هي بعَينِها حَلاوةُ الآخِرةِ، يَقلِبُها اللهُ سُبحانَه كذلك، وحَلاوةُ الدُّنيا بعَينِها مَرارةُ الآخِرةِ، ولأن ينتقِلَ مِن مَرارةٍ مُنقَطِعةٍ إلى حَلاوةٍ دائِمةٍ خَيرٌ له مِن عَكسِ ذلك؛ فإن خَفيَ عَليك هذا فانظُرْ إلى قَولِ الصَّادِقِ المَصدوقِ: "حُفَّت الجَنَّةُ بالمَكارِهِ، وحُفَّت النَّارُ بالشَّهَواتِ"[2020]. وفي هذا المَقامِ تَفاوتَتْ عُقولُ الخَلائِقِ، وظَهَرَتْ حَقائِقُ الرِّجالِ، فأكثَرُهم آثَرَ الحَلاوةَ المُنقَطِعةَ على الحَلاوةِ الدَّائِمةِ التي لا تَزولُ، ولم يحتَمِلْ مَرارةَ ساعةٍ لحَلاوةِ الأبَدِ، ولا ذُلَّ ساعةٍ لعِزِّ الأبَدِ، ولا مِحنةَ ساعةٍ لعافيةِ الأبَدِ؛ فإنَّ الحاضِرَ عِندَه شَهادةٌ، والمُنتَظَرَ غَيبٌ، والإيمانَ ضَعيفٌ، وسُلطانَ الشَّهوةِ حاكِمٌ، فتَولَّدَ مِن ذلك إيثارُ العاجِلةِ ورَفضُ الآخِرةِ".[2021]

12- التَّفكُّرُ في ثَوابِ المُصيبةِ التي نَزلتْ واليقينُ بحُسنِ الجَزاءِ.

قال السَّمَرقَنديُّ: „ينبغي للعاقِلِ أن يتَفكَّرَ في ثَوابِ المُصيبةِ فتَسهُلَ عليه المُصيبةُ؛ فإنَّ ثَوابَ المُصيبةِ إذا استَقبَله يومَ القيامةِ يودُّ أن يكونَ جَميعُ أقارِبِه وجَميعُ أولادِه ماتوا قَبلَه لينالَ الأجرَ وثَوابَ المُصيبةِ.

وقد وعَدَ اللهُ تعالى في المُصيبةِ ثَوابًا عَظيمًا إذا صَبرَ واحتَسَبَ".[2022]

وعنِ الحَسَنِ البَصريِّ أنَّ رَجُلًا جَزِعَ على ولَدِه، وشَكا ذلك إليه، فقال الحَسَنُ: كان ابنُك يغيبُ عنك؟ قال: نَعم، كانت غَيبَتُه أكثَرَ مِن حُضورِه، قال: فاترُكه غائِبًا؛ فإنَّه لم يغِبْ عنك غيبةً الأجرُ لك فيها أعظَمُ مِن هذه، فقال: يا أبا سَعيدٍ، هَوَّنتَ عنِّي وجدي على ابني.[2023]

13- أن يذكُرَ المُصابُ نِعَمَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ عليه.

„جاءَ رَجُلٌ إلى يونُسَ بنِ عبيدٍ فشَكا إليه ضِيقًا مِن حالِه ومَعاشِه، واغتِمامًا بذلك، فقال: „أيسُرُّك ببَصَرِك مِئةَ ألفٍ؟ قال: لا. قال: فبسَمعِك؟ قال: لا. قال: فبلسانِك؟ قال: لا. قال: فبعَقلِك؟ قال: لا... في خِلالٍ. وذَكَّره نِعَمَ اللهِ عليه، ثُمَّ قال يونُسُ: أرى لك مئينَ أُلوفًا وأنت تَشكو الحاجةَ؟!".[2024]

[2018] زاد المعاد لابن القيم 4/173 بتصرف.

[2019] زاد المعاد لابن القيم 4/173

[2020] رواه مسلم 2822 واللَّفظُ له من حديثِ أنس بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[2021] زاد المعاد لابن القيم 4/173

[2022] تنبيه الغافلين، ص: 260

[2023] الأذكار للنووي، ص: 152

[2024] سير أعلام النبلاء للذهبي 6/292

ج- الوسائِلُ المُعينةُ على الصَّبرِ على ما يُصيبُ المَرءَ بغَيرِ اختيارِه مِنَ المَصائِبِ بفِعلِ النَّاسِ في مالِه أو عِرضِه أو نَفسِه:

1- أن يشهَدَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى خالقُ أفعالِ العِبادِ، حَرَكاتِهم وسَكناتِهم وإراداتِهم، فما شاءَ اللهُ كان، وما لم يشَأْ لم يكُنْ، فلا يتَحَرَّكُ في العالمِ العُلويِّ والسُّفليِّ ذَرَّةٌ إلَّا بإذنِه ومَشيئَتِه، فالعِبادُ آلةٌ، فانظُر إلى الذي سَلَّطَهم عَليك، ولا تَنظُرْ إلى فِعلِهم بك، تَستَرِحْ مِنَ الهَمِّ والغَمِّ.

2- أن يشهَدَ ذُنوبَه، وأنَّ اللهَ إنَّما سَلَّطَهم عليه بذَنبِه، كما قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: 30].

3- أن يشهَدَ العَبدُ حُسنَ الثَّوابِ الذي وعَدَه اللهُ لَمَن عَفا وصَبَرَ، كما قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى: 40].

4- أن يشهَدَ أنَّه إذا عَفا وأحسَنَ أورَثَه ذلك مِن سَلامةِ القَلبِ لإخوانِه، ونَقائِه مِنَ الغِشِّ والغِلِّ وطَلبِ الانتِقامِ وإرادةِ الشَّرِّ، وحَصَل له مِن حَلاوةِ العَفو ما يزيدُ لذَّتَه ومَنفعَتَه عاجِلًا وآجِلًا.

5- أن يعلمَ أنَّه ما انتَقَمَ أحَدٌ قَطُّ لنَفسِه إلَّا أورَثَه ذلك ذُلًّا يجِدُه في نَفسِه، فإذا عَفا أعَزَّه اللهُ تعالى، وهذا مِمَّا أخبَرَ به الصَّادِقُ المَصدوقُ؛ حَيثُ يقولُ: «وما زادَ اللهُ عَبدًا بعَفوٍ إلَّا عِزًّا».[2025]

6- أن يشهَدَ أنَّ الجَزاءَ مَن جِنْسَ العَمَلِ، وأنَّه نَفسَه ظالِمٌ مُذنِبٌ، وأنَّ مَن عَفا عنِ النَّاسِ عَفا اللهُ عنه، ومَن غَفَرَ لهم غَفَرَ اللهُ له.

7- أن يعلمَ أنَّه إذا اشتَغَلتْ نَفسُه بالانتِقامِ وطَلبِ المُقابَلةِ ضاعَ عليه زَمانُه، وتَفرَّقَ عليه قَلبُه، وفاتَه مِن مَصالِحِه ما لا يُمكِنُ استِدراكُه.

8- إن أوذيَ على ما فعَله للهِ، أو على ما أمَرَ به مِن طاعَتِه ونَهى عنه مِن مَعصيتِه، وجَبَ عليه الصَّبرُ، ولم يكُنْ له الانتِقامُ؛ فإنَّه قد أوذيَ في اللهِ، فأجرُه على اللهِ.

9- أن يشهَدَ مَعيَّةَ اللهِ مَعَه إذا صَبَرَ، ومَحبَّةَ اللهِ له إذا صَبَرَ ورِضاه. ومَن كان اللهُ مَعَه دَفعَ عنه أنواعَ الأذى والمضرَّاتِ ما لا يدفعُه عنه أحَدٌ مِن خَلقِه؛ قال تعالى: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: 46]، وقال تعالى: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 146].

10- أن يشهَدَ أنَّ صَبرَه حُكمٌ مِنه على نَفسِه، وقَهرٌ لها وغَلَبةٌ لها، فمتى كانت النَّفسُ مَقهورةً مَعَه مَغلوبةً، لم تَطمَعْ في استِرقاقِه وأسْرِه وإلقائِه في المَهالِكِ، ومتى كان مُطيعًا لها سامِعًا مِنها مَقهورًا مَعَها، لم تَزَلْ به حتَّى تُهلِكَه، أو تَتَدارَكه رَحمةٌ مِن رَبِّه.

11- أن يعلمَ أنَّه إن صَبَرَ فاللهُ ناصِرُه ولا بُدَّ، فاللهُ وكيلُ مَن صَبَرَ، وأحال ظالِمَه على اللهِ، ومَن انتَصَرَ لنَفسِه وكَلَه اللهُ إلى نَفسِه، فكان هو النَّاصِرَ لها.

12- أنَّ صَبرَه على مَن آذاه واحتِمالَه له يوجِبُ رُجوعَ خَصمِه عن ظُلمِه، وندامتَه واعتِذارَه، ولومَ النَّاسِ له، فيعودُ بَعدَ إيذائِه له مُستَحييًا مِنه نادِمًا على ما فعَله، بَل يصيرُ مواليًا له.[2026]

13- أن يتأسَّى بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه؛ قال السَّمَرقَنديُّ: «الواجِبُ على العَبدِ أن يصبرَ على ما يُصيبُه مِنَ الشِّدَّةِ، ويعلمَ أنَّ ما دَفعَ اللهُ عنه مِنَ البَلاءِ أكثَرُ مِمَّا أصابَه، ويحمَدَ اللهَ تعالى على ذلك.

وينبَغي للعَبدِ أن يقتَديَ بنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وينظُرَ إلى صَبرِه على أذى المُشرِكينَ...

[2025] رواه مسلم 2588 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[2026] ملخص من كتاب جامع المسائل لابن تيمية 1/168-174

وكان أصحابُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في شِدَّةٍ مِن أذى الكُفَّارِ ومِنَ الجوعِ، فصَبَروا على ذلك حتَّى فرَّجَ اللهُ عنهم، وكُلُّ مَن صَبرَ فرَّجَ اللهُ عنه؛ فإنَّ الفرَجَ مَعَ الصَّبرِ، وإنَّ مَعَ العُسرِ يُسرًا. وكان الصَّالحونَ رَحِمَهم اللهُ يفرَحونَ بالشِّدَّةِ؛ لِما يرجونَ مِن ثَوابِها".[2027]

وقال السُّيوطيُّ: „ما كان كبيرٌ في عَصرٍ قَطُّ إلَّا كان له عَدوٌّ مِنَ السِّفلةِ؛ إذ الأشرافُ لم تَزَلْ تُبتَلى بالأطرافِ".[2028]

14- الاستِعانةُ باللهِ تعالى وكثرةُ دُعائِه:

قال اللهُ تعالى حِكايةً عن يعقوبَ عليه السَّلامُ: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: 18]، المَعنى: أنَّ إقدامَ يعقوبَ عليه السَّلامُ على الصَّبرِ لا يُمكِنُ إلَّا بمَعونةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ الدَّواعيَ النَّفسانيَّةَ تَدعوه إلى إظهارِ الجَزِعِ، وهي قَويَّةٌ، والدَّواعيَ الرُّوحانيَّةَ تَدعوه إلى الصَّبرِ والرِّضا، فكأنَّه وقَعَت المُحارَبةُ بَينَ الصِّنفينِ، فما لم تَحصُلْ إعانةُ اللهِ تعالى لم تَحصُلِ الغَلبةُ، فقَولُه: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} يُجري مَجرى قَولِه: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاتِحة: 5] ، وقَولُه: {وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} يُجري مَجرى قَولِه: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5].[2029]

ولَمَّا هَدَّدَ فِرعَونُ موسى عليه السَّلامُ وقَومَه قال موسى عليه السَّلامُ لقَومِه: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا}؛ لذا يقتَرِنُ الصَّبرُ بالتَّوكُّلِ، كما في قَولِه تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}، وقَولِه: {وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}.

ولما هَدَّدَ فِرعَونُ السَّحَرةَ حينَ آمَنوا قالوا: {قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا}، ثُمَّ دَعَوا اللهَ تعالى قائِلينَ: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [الأعراف: 125-126].

المطلب الحادي عشر: حُكمُ الصَّبرِ

لخَّصَ ابنُ القَيِّمِ حُكمُ الصَّبرِ بالآتي:

"وبالجُملةِ فالصَّبرُ على الواجِبِ واجِبٌ، وعنِ الواجِبِ حَرامٌ، والصَّبرُ عنِ الحَرامِ واجِبٌ، وعليه حَرامٌ. والصَّبرُ على المُستَحَبِّ مُستَحَبٌّ، وعنه مَكروهٌ، والصَّبرُ عنِ المكروهِ مُستَحَبٌّ، وعليه مَكروهٌ، والصَّبرُ عنِ المُباحِ مُباحٌ."[2030]

المطلب الثاني عشر: الصَّبرُ والدعوة

الصَّبرُ أَمْرٌ لازِمٌ لَمَنْ يُعَرِّفُ بالإسلامِ أو لَمَنْ هو نَشيطٌ في الدَّعْوةِ وفي التَّربِيَةِ وَلِكُلِّ مَنْ يأمُرُ بالمَعروفِ وَيَنْهى عنِ المُنكَرِ:

- قال بِشرُ بنُ الحارِثِ: „لا ينبَغي أن يأمُرَ بالمَعروفِ وينهى عنِ المُنكَرِ إلَّا مَن يصبرُ على الأذى".[2031]

-وقال ابنُ تيميَّةَ: "القيامُ بالواجِباتِ -مِنَ الدَّعوةِ الواجِبةِ وغَيرِها- يحتاجُ إلى شُروطٍ يُقامُ بها... فالفِقهُ قَبل الأمرِ ليَعرِفَ المَعروفَ ويُنكِرَ المُنكَر، والرِّفقُ عِندَ الأمرِ ليسلُكَ أقرَبَ الطُّرُقِ إلى تَحصيلِ المَقصودِ، والحِلمُ بَعدَ الأمرِ ليَصبرَ على أذى المَأمورِ والمَنهيِّ؛ فإنَّه كثيرًا ما يحصُلُ له الأذى بذلك؛ ولهذا قال تعالى: {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ} [لقمان: 17]"[2032].

[2027] تنبيه الغافلين، ص: 249، 254

[2028] فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني 1/ 542

[2029] تفسير الرازي 18/432

[2030] عدة الصابرين لابن قيم الجوزية ص: 57 بتصرف.

[2031] حلية الأولياء لأبي نعيم 8/ 337

[2032] ((مجموع الفتاوى)) (15/ 167)

- وعن أبي جَعفرٍ الخَطميّ أنَّ جَدَّه عُمَيرَ بنَ حَبيبٍ -وكان قَد بايَعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أوصى بَنيه، فقال لهم: „إذا أرادَ أحَدُكم أن يأمُرَ بالمَعروفِ أو ينهى عنِ المُنكَرِ فليوطِّنْ نَفسَه قَبلَ ذلك على الأذى، وَلْيُوقِنْ بالثَّوابِ مِنَ اللهِ؛ فإنَّ مَن يوقِنُ بالثَّوابِ مِنَ اللهِ لا يجِدُ مَسَّ الأذى".[2033]

المطلب الثالث عَشَرَ: أخطاءٌ شائِعةٌ

- كثيرٌ مِنَ النَّاسِ يظُنُّ أو يَزعُمُ أنَّ الصَّبرَ خُلُقٌ سَلبيٌّ، وأنَّ مَعناه الاستِسلامُ والرِّضا بالواقِعِ، والكَفُّ عن مُعالجةِ الأُمورِ والاحتيالِ للخُروجِ مِنَ الشَّدائِدِ والأزَماتِ، وهذا فهمٌ خاطِئٌ ووهمٌ فاسِدٌ؛ فالصَّبرُ كما يكونُ جُهدًا نَفسيًّا للتَّأبِّي على المَعاصي والابتِعادِ عنِ السَّيِّئاتِ، يكونُ في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ جُهدًا عَمَليًّا إيجابيًّا فيه حَرَكةٌ وسَعيٌ، وفيه إنتاجٌ وتَحَمُّلٌ للتَّبِعاتِ وتَعَرُّضٌ لجَلائِلِ الأعمالِ ومَواقِفِ الأبطالِ[2034].

- الصَّبرُ لا يُناقِضُ الإحساسَ بالألمِ؛ لأنَّ هذا الإحساسَ أمرٌ طَبيعيٌّ ليسَ مَعيبًا، وإنَّما المَعيبُ هو الخُضوعُ لهذا الإحساسِ والرِّضا به أو الاستِجابةُ لداعيه الذي يُغرِقُ صاحِبَه في الجَزَعِ والهَوانِ[2035].

فلمَّا توُفِّيَ إبراهيمُ ابنُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جَعَلت عَينا رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَذرِفانِ، فقال له عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ عَوفٍ رَضيَ اللهُ عنه: وأنت يا رَسولَ اللهِ؟! فقال: "يا ابنَ عَوفٍ، إنَّها رَحمةٌ، ثُمَّ أتبَعَها بأُخرى، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ العَينَ تَدمَعُ، والقَلبَ يحزَنُ، ولا نَقولُ إلَّا ما يُرضي رَبَّنا، وإنَّا بفِراقِك يا إبراهيمُ لَمحزونونَ"[2036].

وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ بدَمعِ العَينِ، ولا بحُزنِ القَلبِ، ولكِنْ يُعَذِّبُ بهذا -وأشارَ إلى لسانِه- أو يرحَمُ"[2037].

قال ابنُ حَجَرٍ: "والتَّحقيقُ أنَّ الألَمَ لا يقدِرُ أحَدٌ على رَفعِه، والنُّفوسُ مَجبولةٌ على وِجدانِ ذلك، فلا يُستَطاعُ تَغييرُها عَمَّا جُبِلَت عليه، وإنَّما كُلِّف العَبدُ ألَّا يقَعَ مِنه في حالِ المُصيبةِ ما له سَبيلٌ إلى تَركِه كالمُبالغةِ في التَّأوُّه والجَزَعِ الزَّائِدِ، كأنَّ مَن فعلَ ذلك خَرَجَ عن مَعاني أهلِ الصَّبرِ، وأمَّا مُجَرَّدُ التَّشَكِّي فليس مَذمومًا حتَّى يحصُلَ التَّسَخُّطُ للمَقدورِ"[2038].

- قد يُظَنُّ أنَّ الشَّكوى إلى اللهِ تعالى تُنافي الصَّبرَ، وهذا خَطَأٌ؛ ففي قَولِه تعالى عن يعقوبَ عليه السَّلامُ: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: 18] مَعَ قَولِه سُبحانَه عنه: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} [يوسف: 86] أنَّ الشَّكوى إلى اللهِ لا تُنافي الصَّبرَ الجَميلَ[2039].

قال ابنُ القَيِّمِ: (فإنَّ يعقوبَ -عليه السَّلامُ- وعَدَ بالصَّبرِ الجَميلِ، والنَّبيُّ إذا وعَدَ لا يُخلِفُ، ثُمَّ قال: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} [يوسُف: 86]، وكذلك أيُّوبُ أخبَرَ اللهُ عنه أنَّه وجَدَه صابرًا، مَعَ قَولِه: {مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: 83].

وإنَّما يُنافي الصَّبرَ شَكوى اللهِ، لا الشَّكوى إلى اللهِ. كما رَأى بَعضُهم رَجُلًا يشكو إلى آخَرَ فاقةً وضَرورةً، فقال: يا هذا، تَشكو مَن يرحَمُك إلى مَن لا يرحَمُك؟ ثُمَّ أنشَدَ:

وإذا عَرَتْك بَليَّةٌ فاصبِرْ لها

[2033] الزهد لأحمد بن حنبل 1031، الحلم لابن أبي الدنيا 17، شعب الإيمان للبيهقي 11/ 25

[2034] ((أخلاق القرآن)) للشرباصي (194/1)

[2035] المصدر السابق.

[2036] أخرجه البخاري (1303)، ومسلم (2315)

[2037] أخرجه البخاري (1304)، ومسلم (924)

[2038] ((فتح الباري)) لابن حجر (10/ 124)

[2039] مجموع الفتاوى لابن تيمية (666/10)

صَبرَ الكريمِ فإنَّه بك أعلَمُ
وإذا شَكوتَ إلى ابنِ آدَمَ إنَّما
تَشكو الرَّحيمَ إلى الذي لا يرحَمُ)[2040].

قال ابنُ حَجَرٍ: "وقد اتَّفقوا على كراهةِ شَكوى العَبدِ رَبَّه، وشَكواه إنَّما هو ذِكره للنَّاسِ على سَبيلِ التَّضَجُّرِ، واللهُ أعلمُ"[2041].

- قد يُظَنُّ أنَّ الصَّبرَ لا يكونُ إلَّا على البَلاءِ أو الشِّدَّةِ، وهذا خَطَأٌ؛ فالصَّبرُ على النِّعَمِ لا يقِلُّ عنِ الصَّبرِ على البَلاءِ؛ قال ابنُ تيميَّةَ: "وما يُصيبُ الإنسانَ إن كان يسُرُّه فهو نِعمةٌ بَيِّنةٌ، وإن كان يسوؤُه فهو نِعمةٌ؛ لأنَّه يُكفِّرُ خَطاياه ويُثابُ عليه بالصَّبرِ، ومِن جِهةِ أنَّ فيه حِكمةً ورَحمةً لا يعلَمُها العَبدُ، {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ} [البقرة: 216] الآية، وكِلتا النِّعمَتَينِ تَحتاجُ مَعَ الشُّكرِ إلى الصَّبرِ، أمَّا الضَّرَّاءُ فظاهرٌ، وأمَّا نِعمةُ السَّرَّاءِ فتَحتاجُ إلى الصَّبرِ على الطَّاعةِ فيها، كما قال بَعضُ السَّلفِ: ابتُلينا بالضَّرَّاءِ فصَبَرنا، وابتُلينا بالسَّرَّاءِ فلم نَصبرْ؛ فلهذا كان أكثَرُ مَن يدخُلُ الجَنَّةَ المَساكينَ، لكِن لمَّا كان في السَّرَّاءِ اللَّذَّةُ، وفي الضَّرَّاءِ الألمُ، اشتَهَرَ ذِكرُ الشُّكرِ في السَّرَّاءِ، والصَّبرِ في الضَّرَّاءِ؛ قال تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ} [هود: 9] إلى قَولِه: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}... [هود: 11] الآية"[2042].

وقال ابنُ القَيِّمِ: "وكُلُّ ما يلقى العَبدُ في هذه الدَّارِ لا يخلو مِن نَوعَينِ: أحَدُهما يوافِقُ هَواه ومُرادَه، والآخَرُ يُخالفُه، وهو مُحتاجٌ إلى الصَّبرِ في كُلٍّ مِنهما؛ أمَّا النَّوعُ الموافِقُ لغَرَضِه فكالصِّحَّةِ والسَّلامةِ والجاهِ والمالِ وأنواعِ المَلاذِّ المُباحةِ، وهو أحوجُ شيءٍ إلى الصَّبرِ فيها مِن وُجوهٍ:

أحَدُها: ألَّا يركَنَ إليها ولا يغترَّ بها ولا تَحمِلَه على البَطَرِ والأشَرِ والفرَحِ المَذمومِ الذي لا يحبُّ اللهُ أهلَه.

الثَّاني: ألَّا ينهَمِكَ في نَيلِها ويُبالغَ في استِقصائِها؛ فإنَّها تَنقَلبُ إلى أضدادِها؛ فمَن بالغَ في الأكلِ والشُّربِ والجِماعِ انقَلبَ ذلك إلى ضِدِّه، وحُرِمَ الأكلَ والشُّربَ والجِماعَ.

الثَّالثُ: أن يصبرَ على أداءِ حَقِّ اللهِ فيها ولا يُضَيِّعَه؛ فيُسلَبَها.

الرَّابعُ: أن يصبرَ عن صَرفِها في الحَرامِ، فلا يُمَكِّنَ نَفسَه مِن كُلِّ ما تُريدُه مِنها؛ فإنَّها توقِعُه في الحَرامِ، فإن احتَرَزَ كُلَّ الاحتِرازِ أوقَعَته في المكروهِ، ولا يصبرُ على السَّرَّاءِ إلَّا الصِّدِّيقونَ.

قال بَعضُ السَّلَفِ: البَلاءُ يصبرُ عليه المُؤمِنُ والكافِرُ، ولا يصبرُ على العافيةِ إلَّا الصِّدِّيقونَ، وقال عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ عَوفٍ رضيَ اللهُ عنه: "ابتُلينا بالضَّرَّاءِ فصَبَرْنا، وابتُلينا بالسَّرَّاءِ فلم نَصبِرْ"؛ ولذلك حَذَّرَ اللهُ عِبادَه مِن فِتنةِ المالِ والأزواجِ والأولادِ، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [المنافقون: 9] ، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن: 14] ، وليسَ المُرادُ مِن هذه العَداوةِ ما يَفهمُه كثيرٌ مِنَ النَّاسِ أنَّها عَداوةُ البَغضاءِ والمُحادَّةِ، بل إنَّما هي عَداوةُ المحبَّةِ الصَّادَّةِ للآباءِ عنِ الهِجرةِ والجِهادِ، وتَعلُّمِ العِلمِ، والصَّدَقةِ، وغَيرِ ذلك مِن أُمورِ الدِّينِ وأعمالِ البِرِّ... وما أكثَرَ ما فاتَ العَبدَ مِنَ الكمالِ والفلاحِ بسَبَبِ زَوجَتِه وولَدِه!"[2043].

المطلب الرابع عَشَر: مَسائِلُ مُتَفرِّقةٌ

- **الصَّبرُ وسَطٌ بَينَ خُلُقَينِ ذَميمَينِ:**

[2040] مدارج السالكين (2/ 160)

[2041] فتح الباري لابن حجر (10/ 124)

[2042] مجموع الفتاوى (8/ 209)

[2043] ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: 63)

الصَّبرُ مُرَكَّب مِن أمرَينِ: دَفعُ الجَزَعِ، ومُحاولةُ طَردِه، ثُمَّ مُقاومةُ أثَرِه حتَّى لا يغلِبَ على النَّفسِ، وإنَّما يكونُ ذلك مَعَ الإحساسِ بألمِ المكروهِ؛ فمَن لا يُحِسُّ به لا يُسَمَّى صابرًا، وإنَّما هو فاقِدٌ للإحساسِ، ويُسَمَّى بَليدًا، وفرقٌ بَينَ الصَّبرِ والبَلادةِ؛ فالصَّبرُ وسَطٌ بَينِ الجَزَعِ والبَلادةِ.[2044]

- **الخَلقُ بَعضُهم لبَعضٍ فِتنةٌ والمَطلوبُ الصَّبرُ:**

قال اللهُ تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ} [الفرقان: 20] فالرَّسولُ فِتنةٌ للمُرسَلِ إليهم، واختِبارٌ للمُطيعينَ مِنَ العاصينَ، والرُّسُلُ فتنَّاهم بدَعوةِ الخَلقِ، والغَنيُّ فِتنةٌ للفقيرِ، والفقيرُ فِتنةٌ للغَنيِّ، وهَكذا سائِرُ أصنافِ الخَلقِ في هذه الدَّارِ دارِ الفِتَنِ والابتِلاءِ والاختِبارِ، والقَصدُ مِن تلك الفِتنةِ: أتصبِرونَ فتقومونَ بما هو وظيفتُكم اللَّازِمةُ الرَّاتِبةُ، فيُثيبُكم مَولاكم، أم لا تَصبرونَ فتَستَحِقُّونَ المُعاقَبةَ[2045]؟

فكُلُّ مَن اتَّصَل بك من أهلِك وبَنيك، وأبيك وأُمِّك، وأصحابِك وعَشيرتِك، وقَومِك وكُلِّ مَن تَرتَبطُ به برِباطٍ مِن أبناءِ جِنسِك: هو فِتنةٌ وامتِحانٌ لك: هَل تَقومُ بواجِبك نَحوَه مِن جَلبِ خَيرٍ له، أو دَفعِ شَرٍّ عنه، أو جَلبِ خَيرٍ مِنه لغَيرِه، أو دَفعِ شَرِّه عن غَيرِه، وهَل تَكُفُّ يدَك عن شَيئِه، وتَكُفُّ بَصَرَك عَمَّا مُتِّعَ به، وتَسأَلُ اللهَ مِمَّا عِندَه مِن فضلِه؟ وإنَّما تَقومُ بواجِبك نَحوَه مِمَّا تَقدَّمُ، وتَكُفُّ يدَك وعَينَك عنه، وتَسألُ اللهَ مِمَّا عِندَه راضيًا بما قَسَمَ لك، مُعتَقِدًا الخَيرَ كُلَّ الخَيرِ في قَسْمِه؛ إذا تَدَرَّعتَ بالصَّبرِ على إتيانِه وإن كان عَليك ثَقيلًا، والكَفِّ عَمَّا يُطلَبُ مِنك الانكِفافَ عنه وإن كان مِنك قَريبًا، وفي طَبعِك لذيذًا. وإنَّما يكونُ لك هذا الصَّبرُ إذا كُنتَ دائِمَ اليقينِ بعِلمِ اللهِ بك، واطِّلاعِه عليك، وأنَّه كان بك بَصيرًا. هذه الحَقائِقُ كُلُّها هَدَتنا هذه الآيةُ الكريمةُ إليها؛ هَدَتْنا إلى أنَّا امتُحِنَّا ببَعضِنا، وأنَّ الذي يُخَلِّصُنا في هذا الامتِحانِ ويُخرِجُنا سالمينَ هو الصَّبرُ[2046].

- **لماذا سُمِّيَ الصَّبرُ صَبرًا؟**

حَكى أبو بَكرِ بنُ الأنباريِّ عن بَعضِ العُلماءِ أنَّه قال: "إنَّما سُمِّي الصَّبرُ صَبرًا؛ لأنَّ تمرُّرَه في القَلبِ وإزعاجَه للنَّفسِ كتَمَرُّرِ[2047] الصَّبرِ في الفَمِ".[2048]

- **الباعِثُ على الصَّبرِ:**

يجِبُ أن يكونَ الباعِثُ على الصَّبرِ ابتِغاءَ وَجهِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، والتَّقَرُّبَ إليه ورَجاءَ ثَوابِه، لا لإظهارِ الشَّجاعةِ وقوَّةِ النَّفسِ وغَيرِ ذلك مِنَ الأغراضِ؛ قال تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} [الرعد: 22].

قال السَّعديُّ في تَفسيرِه للآيةِ: ابتِغاءَ وَجهِ رَبِّهم „لا لغَيرِ ذلك مِنَ المَقاصِدِ والأغراضِ الفاسِدةِ؛ فإنَّ هذا هو الصَّبرُ النَّافِعُ الذي يحبسُ به العَبدُ نَفسَه طَلبًا لمَرضاةِ رَبِّه، ورَجاءً للقُربِ منه، والحُظوةِ بثَوابِه، وهو الصَّبرُ الذي مِن خَصائِصِ أهلِ الإيمانِ، وأمَّا الصَّبرُ المُشتَرَكُ الذي غايتُه التَّجَلُّدُ ومُنتَهاه الفَخرُ، فهذا يصدُرُ مِنَ البَرِّ والفاجِرِ، والمُؤمِنِ والكافِرِ؛ فليسَ هو المَمدوحَ على الحَقيقةِ".[2049]

وقال سُبحانَه: وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ „أي: اجعَل صَبرَك على أذاهم لوَجهِ رَبِّك عَزَّ وجَلَّ".[2050]

[2044] تفسير المنار لمحمد رشيد رضا 4/ 227

[2045] يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص: 580)

[2046] يُنظَر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: 168)

[2047] الصَّبرُ: هو الدَّواءُ المُرُّ المعروفُ. يُنظَر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير 4/317

[2048] ذم الهوى لابن الجوزي ص: 58

[2049] تيسير الكريم الرحمن ص: 416

[2050] تفسير القرآن العظيم لابن كثير 8/264

- **شُروطُ الصَّبرِ:**

عن أبي مَيمونٍ قال: "إنَّ للصَّبرِ شُروطًا... أن تَعرِفَ كيف تَصبرُ؟ ولِمَن تَصبرُ؟ وما تُريدُ بصَبرِك؟ وتَحتَسِبَ في ذلك وتُحسِنَ النِّيَّةَ فيه، لعَلَّك أن يَخلُصَ لك صَبرُك، وإلَّا فإنَّما أنت بمَنزِلةِ البَهيمةِ نزلَ بها البَلاءُ فاضطَرَبَت لذلك، ثُمَّ هَدَأَ فهَدَأَت، فلا هي عَقَلَت ما نَزَل بها فاحتَسَبَت وصَبَرَت، ولا هي عَرَفت النِّعمةَ حينَ هَدَأَ ما بها، فحَمِدَت اللهَ على ذلك وشَكَرَت"[2051].

ومِنهم مَن ذَكَر أنَّ شُروطَ الصَّبرِ ثَلاثةٌ:

1 -الإخلاصُ.

2 -عَدَمُ شَكوى اللهِ.

3 -أن يكونَ الصَّبرُ في أوانِه[2052].

- **مَراتِبُ الصَّابرينَ:**

قيل: مَراتِبُ الصَّابرينَ خَمسةٌ: صابرٌ، ومُصطَبرٌ، ومُتَصَبِّرٌ، وصَبورٌ، وصَبَّارٌ؛ فالصَّابرُ: أعَمُّها، والمُصطَبرُ: المُكتَسِبُ الصَّبرِ المَليءُ به. والمُتَصَبِّرُ: المُتَكلِّفُ حامِلُ نَفسِه عليه. والصَّبورُ: العَظيمُ الصَّبرِ الذي صَبرُه أشَدُّ مِن صَبرِ غَيرِه. والصَّبَّارُ: الكثيرُ الصَّبرِ. فهذا في القَدْرِ والكمِّ. والذي قَبلَه في الوصفِ والكَيفِ[2053].

- **الصَّبرُ المَذمومُ:**

-قال المُرُّوذيُّ: "سَمِعتُ أبا عَبدِ اللهِ يقولُ: الصَّبرُ في كِتابِ اللهِ ثَمانونَ مَوضِعًا مَحمودٌ، ومَوضِعانِ مَذمومٌ: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} [إبراهيم: 21] ،{ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} [ص: 6] ، أو قال: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ المُرُّوذيُّ شَكَّ} [البقرة: 175]"[2054].

- **زادُ الصَّابِرِ:**

قال ابنُ الجَوزيِّ: "ليس في الوُجودِ شَيءٌ أصعَبَ مِنَ الصَّبرِ: إمَّا عنِ المَحبوبِ، أو على المكروهاتِ، وخُصوصًا إذا امتَدَّ الزَّمانُ، أو تَوقَّعَ اليأسَ مِنَ الفرَجِ، وتلك المُدَّةُ تَحتاجُ إلى زادٍ يقطَعُ به سَفرَها.

والزَّادُ يتَنَوَّعُ مِن أجناسٍ: فمِنه: تَلمُّحُ مِقدارِ البَلاءِ، وقد يُمكِنُ أن يكونَ أكثَرَ، ومِنه: أنَّه في حالٍ فوقَها أعظَمُ مِنه، مِثلُ أن يُبتَلى بفقدِ وَلَدٍ، وعِندَه أعَزُّ مِنه. ومِن ذلك: رَجاءُ العِوَضِ في الدُّنيا، ومِنه: تَلمُّحُ الأجرِ في الآخِرةِ، ومِنه: التَّلذُّذُ بتَصويرِ المَدحِ والثَّناءِ مِنَ الخَلقِ فيما يمدَحونَ عليه، والأجرِ مِنَ الحَقِّ عَزَّ وجَلَّ.

ومِن ذلك أنَّ الجَزَعَ لا يُفيدُ، بَل يفضَحُ صاحِبَه... إلى غَيرِ ذلك مِنَ الأشياءِ التي يقدَحُها العَقلُ والفِكرُ؛ فليس في طَريقِ الصَّبرِ نَفقةٌ سِواها، فينبَغي للصَّابرِ أن يشغَلَ بها نَفسَه، ويقطَعَ بها ساعاتِ ابتِلائِه، وقد صَبَّحَ المَنزِلَ"[2055].

- **الصَّبرُ الجَميلُ:**

قال تعالى: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا} [المعارج: 5].

[2051] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((الصبر والثواب عليه)) (ص: 52)

[2052] الصبر الجميل للهلالي (ص: 27)

[2053] مدارج السالكين لابن القيم (2/158)

[2054] بدائع الفوائد (3/115)

[2055] صيد الخاطر (ص: 170، 171).

قال ابنُ تيميَّةَ: "إنَّ اللهَ أمَرَ نَبيَّه بالهَجرِ الجَميلِ، والصَّفحِ الجَميلِ، والصَّبرِ الجَميلِ؛ "فالهَجرُ الجَميلُ" هَجرٌ بلا أذًى، "والصَّفحُ الجَميلُ" صَفحٌ بلا عِتابٍ، "والصَّبرُ الجَميلُ" صَبرٌ بلا شَكوى"[2056].

- **بالصَّبرِ تُدفَعُ فِتنةُ الشَّهَواتِ:**

قال ابنُ قَيِّمِ الجَوزيَّةِ: "أصلُ كُلِّ فِتنةٍ إنَّما هو مِن تَقديمِ الرَّأي على الشَّرعِ، والهَوى على العَقلِ.

فالأوَّلُ: أصلُ فِتنةِ الشُّبهةِ، والثَّاني: أصلُ فِتنةِ الشَّهوةِ.

ففِتنةُ الشُّبُهاتِ تُدفَعُ باليقينِ، وفِتنةُ الشَّهَواتِ تُدفَعُ بالصَّبرِ؛ ولذلك جَعَل سُبحانَه إمامةَ الدِّينِ مَنوطةً بهَذَين الأمرَينِ، فقال: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: 24]، فدَلَّ على أنَّه بالصَّبرِ واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ.

وجَمَعَ بَينَهما أيضًا في قَولِه: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 3].

فتَواصَوا بالحَقِّ الذي يدفعُ الشُّبُهاتِ، وبالصَّبرِ الذي يكُفُّ عنِ الشَّهَواتِ، وجَمَعَ بَينَهما في قَولِه: وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ [ص: 45]، فالأيدي: القُوى والعَزائِمُ في ذاتِ اللهِ، والأبصارِ: البَصائِرُ في أمرِ اللهِ"[2057].

- **التَّواصي بالصَّبرِ:**

قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 1 – 3].

قال ابنُ تيميَّةَ: "فلا بُدَّ مِنَ التَّواصي بالحَقِّ والصَّبرِ؛ إذ إنَّ أهلَ الفسادِ والباطِل لا يقومُ باطِلُهم إلَّا بصَبرٍ عليه أيضًا، لَكِنِ المُؤمِنونَ يتَواصَونَ بالحَقِّ والصَّبرِ، وأولئِك يتَواصَونَ بالصَّبرِ على باطِلِهم، كما قال قائِلهُم: {أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} [ص: 6].

فالتَّواصي بالحَقِّ بدونِ الصَّبرِ كما يفعَلُه الذين يقولونَ: آمَنَّا بالله، فإذا أوذيَ أحَدُهم في اللهِ جَعَل فِتنةَ النَّاسِ كعذابِ اللهِ، والذين يعبُدونَ اللهَ على حَرفٍ، فإن أصابَ أحَدَهم خَيرٌ اطمَأنَّ به، وإن أصابَته فِتنةٌ انقَلبَ على وجهِه، خَسِرَ الدُّنيا والآخِرةَ.

والتَّواصي بالصَّبرِ بدونِ الحَقِّ، كقَولِ الذين قالوا: أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ كِلاهما موجِبٌ للخُسرانِ، وإنَّما نَجا مِنَ الخُسرانِ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحات وتَواصَوا بالحَقِّ وتَواصَوا بالصَّبرِ، وهذا مَوجودٌ في كُلِّ مَن خَرَجَ عن هؤلاء من أهلِ الشَّهَواتِ الفاسِدةِ وأهلِ الشُّبُهاتِ الفاسِدةِ؛ أهلِ الفُجورِ وأهلِ البدَعِ"[2058].

- **الصَّبرُ عِندَ الصَّدمةِ الأولى:**

لَمَّا كان مَصيرُ كُلِّ مُصابٍ أن ينسى المُصيبةَ بَعد حينٍ ما لم يكُنْ ألَمُها جاثِمًا مُتَجَدِّدًا، كان حِسابُ قيمةِ الصَّبرِ مُقدَّرًا عِندَ الصَّدمةِ الأولى لا بَعدَ أن يضمَحِلَّ أثَرُ المُصيبةِ بمُرورِ الزَّمَنِ، وهذا ما بَيَّنَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... فقال: "إنَّما الصَّبرُ عِندَ الصَّدمةِ الأولى[2059].

- **انتِظامُ الصَّبرِ للعَديدِ مِنَ الفضائِلِ:**

الصَّبرُ لفظٌ عامٌّ ينتَظِمُ جُملةً مِنَ الفضائِلِ، وقد يُسَمَّى بأسماءٍ كثيرةٍ؛ لكثرةِ مَواطِنِه ومَظاهرِه[2060].

[2056] مجموع الفتاوى (10/ 666)

[2057] إغاثة اللهفان لابن القيم(2/ 167)

[2058] جامع الرسائل (2/ 394)

[2059] ((الأخلاق الإسلامية)) للميداني (ص: 327)

قال الغَزاليُّ: "إن كان صَبرًا على شَهوةِ البَطنِ والفَرجِ سُمّي عِفَّةً، وإن كان على احتمالِ مَكروهٍ اختَلفت أساميه عِندَ النَّاسِ باختِلافِ المكروهِ الذي غَلبَ عليه الصَّبرُ؛ فإن كان في مُصيبةٍ اقتصَرَ على اسمِ الصَّبرِ، وتُضادُّه حالةٌ تُسَمَّى الجَزَعَ والهَلَعَ، وهو إطلاقُ داعي الهَوى ليسترسِلَ في رَفعِ الصَّوتِ وضَربِ الخُدودِ وشَقِّ الجُيوبِ وغَيرِها، وإن كان في احتمالِ الغِنى سُمّي ضَبطَ النَّفسِ، وتُضادُّه حالةٌ تُسَمَّى البَطَرَ، وإن كان في حَربٍ ومُقاتلةٍ سُمّيَ شَجاعةً، ويُضادُّه الجُبنُ، وإن كان في كظمِ الغَيظِ والغَضَبِ سُمّي حِلمًا، ويُضادُّه التَّذَمُّرُ، وإن كان في نائبةٍ مِن نَوائِبِ الزَّمانِ مُضجِرةٍ سُمّي سَعةَ الصَّدرِ، ويُضادُّه الضَّجَرُ والتَّبَرُّمُ وضِيقُ الصَّدرِ، وإن كان في إخفاءِ كلامٍ سُمّيَ كِتمانَ السِّرِّ، وسُمّي صاحِبُه كَتومًا، وإن كان عن فُضولِ العَيشِ سُمّي زُهدًا، ويُضادُّه الحِرصُ، وإن كان صَبرًا على قدَرٍ يسيرٍ مِنَ الحُظوظِ سُمّي قَناعةً، ويُضادُّه الشَّرَهُ؛ فأكثَرُ أخلاقِ الإيمانِ داخِلٌ في الصَّبرِ"[2061].

وقال الرَّاغِبُ: (فالصَّبرُ لفظٌ عامٌّ، وربَّما خولِفَ بَينَ أسمائِه بحَسَبِ اختِلافِ مَواقِعِه؛ فإن كان حَبسَ النَّفسِ لمُصيبةٍ سُمّي صَبرًا لا غَيرُ، ويُضادُّه الجَزَعُ، وإن كان في مُحارَبةٍ سُمّي شَجاعةً، ويُضادُّه الجُبنُ، وإن كان في نائبةٍ مُضجِرةٍ سُمّي رَحبَ الصَّدرِ، ويُضادُّه الضَّجَرُ، وإن كان في إمساكِ الكلامِ سُمّي كِتمانًا، ويُضادُّه المَذْلُ[2062]، كُلُّ مَن قَلِق بسِرِّه حتَّى يذيعَه أو بمضجَعِه حتى يتحوَّلَ عنه فقد مَذَلَ به.

سَمَّى اللهُ تعالى كُلَّ ذلك صَبرًا، ونبَّهَ عليه بقَولِه: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ} [البقرة: 177]، {وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ} [الحج: 35]، {وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ} [الأحزاب: 35])[2063].

- **تَفاوُتُ دَرَجاتِ الصَّبرِ:**

الصَّبرُ نَوعانِ: اختياريٌّ واضطِراريٌّ، والاختياريُّ أكمَلُ مِنَ الاضطِراريِّ؛ فإنَّ الاضطراريَّ يشتَرِكُ فيه النَّاسُ ويتأتَّى مِمَّن لا يتأتَّى مِنه الصَّبرُ الاختياريُّ؛ ولذلك كان صَبرُ يوسُفَ الصِّدِّيقِ عليه السَّلامُ عن مُطاوعةِ امرَأةِ العَزيزِ وصَبرُه على ما ناله في ذلك مِنَ الحَبسِ والمكروهِ أعظَمَ مِن صَبرِه على ما ناله مِن إخوتِه لَمَّا ألقَوه في الجُبِّ، وفرَّقوا بَينَه وبَينَ أبيه، وباعوه بَيعَ العَبدِ، ومِنَ الصَّبرِ الثَّاني: إنشاءُ اللهِ سُبحانَه له ما أنشَأه مِنَ العِزِّ والرِّفعةِ والمُلكِ والتَّمكينِ في الأرضِ[2064].

وقال ابنُ القَيِّمِ: "سَمِعتُ شَيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ -قدَّسَ اللهُ روحَه- يقولُ: كان صَبرُ يوسُفَ عن مُطاوعةِ امرَأةِ العَزيزِ على شَأنِها أكمَلَ مِن صَبرِه على إلقاءِ إخوتِه له في الجُبِّ، وبَيعِه، وتَفريقِهم بَينَه وبَينَ أبيه؛ فإنَّ هذه أُمورٌ جَرَت عليه بغَيرِ اختيارِه، لا كَسْبَ له فيها، ليسَ للعَبدِ فيها حيلةٌ غَيرُ الصَّبرِ، وأمَّا صَبرُه عنِ المَعصيةِ فصَبرُ اختيارٍ ورِضًا ومُحارَبةٍ للنَّفسِ. ولا سيَّما مَعَ الأسبابِ التي تَقوى مَعَها دَواعي الموافقةِ؛ فإنَّه كان شابًّا، وداعيةُ الشَّبابِ إليها قَويَّةٌ. وعَزَبًا ليسَ له ما يُعَوِّضُه ويرُدُّ شَهوتَه. وغَريبًا، والغَريبُ لا يستَحي في بَلدِ غُربَتِه مِمَّا يستَحي مِنه مَن بَينَ أصحابِه ومَعارِفه وأهلِه. ومَملوكًا، والمَملوكُ أيضًا ليسَ وازِعُه كوازِعِ الحُرِّ. والمَرأةُ جَميلةٌ، وذاتُ مَنصِبٍ، وهي سَيِّدتُه، وقد غابَ الرَّقيبُ، وهي الدَّاعيةُ له إلى نَفسِها، والحَريصةُ على ذلك أشَدَّ الحِرصِ، ومَعَ ذلك توعَّدَته إن لم يفعَلْ بالسَّجنِ والصَّغارِ، ومَعَ هذه الدَّواعي كُلِّها صَبرَ اختيارًا، وإيثارًا لِما عِندَ اللهِ، وأينَ هذا مِن صَبرِه في الجُبِّ على ما ليس مِن كَسْبِه؟"[2065].

- **وصفُ اللهِ بالصَّبرِ:**

[2060] ((أخلاق القرآن)) للشرباصي(1/192)

[2061] ((إحياء علوم الدين)) (4/ 67)

[2062] تاج العروس للزبيدي (30/ 400)

[2063] المفردات في غريب القرآن (ص: 474)

[2064] عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: 33)

[2065] مدارج السالكين (2/ 156)

يوصَفُ اللهُ عَزَّ وجَل بصِفةِ الصَّبرِ، كما هو ثابتٌ في السُّنَّةِ الصَّحيحةِ؛ فعن أبي موسى رَضيَ اللهُ عنه: "ما أحَدٌ أصبرَ على أذًى سَمِعَه مِنَ اللهِ؛ يدعونَ له الوَلَدَ، ثُمَّ يُعافيهم ويَرزُقُهم"[2066].

وصَبرُه تعالى يُفارِقُ صَبرَ المَخلوقِ ولا يُماثِلُه مِن وُجوهٍ مُتَعَدِّدةٍ؛ مِنها: أنَّه عن قُدرةٍ تامَّةٍ، ومِنها: أنَّه لا يَخافُ الفَوتَ، والعَبدُ إنما يستَعجِلُ الخَوفَ بالفَوتِ، ومِنها: أنَّه لا يَلحَقُه بصَبرِه ألَمٌ ولا حُزنٌ ولا نَقصٌ بوجهٍ ما[2067].

- **مَفعولُ الصَّبر يُحذَفُ غالبًا:**

الصَّبرُ يكونُ عَميقًا مُثمِرًا إذا صارَ كالطَّبعِ للإنسانِ، وقد يُساعِدُ عِلَّةَ هذا الفهمِ أنَّنا نُلاحِظُ في حَديثِ القُرآنِ الكريمِ عنِ الصَّبرِ أنَّ مَفعولَ الصَّبرِ يُحذَفُ غالبًا؛ للدَّلالةِ على أنَّه صارَ كالطَّبعِ للفاعِلِ، ولم تَرِدْ مادَّةُ الصَّبرِ مَعَ ذِكرِ المَفعولِ إلَّا في آيةٍ واحِدةٍ، وهي قَولُه: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ... [الكهف: 28][2068].

- **ما يُقالُ عِندَ المُصيبةِ:**

عن أُمِّ سَلَمةَ أنَّها قالت: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: „ما مِن مُسلمٍ تُصيبُه مُصيبةٌ، فيقولُ ما أمَرَه اللهُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعونَ، اللهمَّ أجُرْني في مُصيبتي، وأخلِفْ لي خَيرًا مِنها، إلَّا أخلَفَ اللهُ له خَيرًا مِنها".[2069]

- **الصَّبْرُ شَقيقُ النَّصْر:**

أيْنَما كان الصَّبْرُ حَلَّ النَّصْر. ولقد انتَصَرَ المسلمُونَ في أيَّامِ الفتحِ الإسلامِيِّ العَظِيمِ؛ لأنَّهُم صَبَرُوا وَصَابَرُوا وَرَابَطُوا واتَّقُوا اللهَ.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "واعلَمْ أنَّ النَّصرَ في الصَّبرِ"[2070].

وقال ابن القيم: "فإن الله سبحانه جَعَلَ الصَّبْرُ جوادًا لا يَكبو[2071]، وصارِمًا لا يَنبو[2072]، وَجُندًا غالبًا لا يُهزم، وحصنًا حصينًا لا يُهدم ولا يثلم، فهو والنصر أخوان شقيقان لا يفترقان، فالنصر مع الصَّبْرِ، والفرج مع الكرب، واليسر مع العسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال، بلا عدة ولا عدد، ومحله من الظفر كمحل الرأس من الجسد."[2073] وقال البطال: "إنما النَّصْرُ صَبْرُ سَاعَةٍ."[2074]

- قِيل لعنترةِ بن شداد العبسي: ما الذي جعَلكَ أشجعَ الشُّجعَان، يخافُك الأبطالُ ويخشَاكَ الرِّجَالُ؟!

قَال عنترةُ: "إنني أخافُ الموت كما تَخافُونَ، ولكنني أكْثرُكُم صبرًا، وبالصبرِ الجميلِ أنتصرُ على الأقرانِ!".

قيل له: وكَيفَ ذلكَ؟!

قال عنترة: "ليتقَدَّم أشجعُكُم جنانًا حتى أريكُم كيفَ أنتصِرُ عليه".

وقَدَّمَ المتسَائِلونَ أحدَهُم، وكَانَ معروفًا بشجاعتِهِ، مشْهورًا برجولتِهِ، له مكانةٌ بين الشجعانِ، ومكانٌ بين الرجالِ.

[2066] أخرجه البخاري (7378)، ومسلم (49)

[2067] عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: 276)

[2068] ((أخلاق القرآن)) للشرباصي(1/195)

[2069] أخرجه مسلم 918

[2070] أخرجه الترمذي 2516

[2071] كبا الجواد يكبو كبوة إذا عثر. انظر "لسان العرب.

[2072] نبا السيف إذا كلّ ولم يقطع. انظر "لسان العرب.

[2073] كتاب عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ط عطاءات العلم - أهمية الصبر ص5 - المكتبة الشاملة.

[2074] فتروى هذه العبارة في كتب أهل العلم بلفظ: "الشجاعة صبر ساعة" وقد نسبها كثير منهم للإمام البَطَّال- رحمه الله -كالإمام الحافظ الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام حيث قال: عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عيّاش قَالَ: قِيلَ للبطّال: ما الشجاعة؟ قَالَ: صبرُ ساعة. اهـ. ونسبها له كذلك الحافظ ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق، والحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم عند شرحه للحديث التاسع عشر. والإمام البَطَّال هو أبو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الله، قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: رَأْسُ الشُّجْعَانِ وَالأَبْطَالِ، أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ البَطَّالُ، مِنْ أَعْيَانِ أُمَرَاءِ الشَّامِيِّيْنَ، أَوْطَأَ الرُّوْمَ خَوْفاً وَذُلاًّ. قُتِلَ سَنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ وَمائَةٍ. اهـ. بتصرُّف يسير.

وقَالَ عنترةُ للرَّجلِ الشُّجاعِ: "ضعْ أُصْبعَكَ في فمي، وهذا أُصْبُعِي في فمِك، وليحاولَ كلُّ واحدٍ منا أن يعضَّ أصبعَ صاحبِهِ بشدةٍ وقسوةٍ وإصرارٍ".

ووقَفَ المشاهدُونَ ينظرُونَ، ويدُ كلِّ واحدٍ من الرجلينِ يضْغَطُ بعنفٍ على أصبعِ صاحِبِهِ.

واحتقَنَ الدَّمُ في وجَهيهِمَا، وتدَفَّقَ الدَّمُ من أصبعيهِمَا، وَمَضَتْ لحظَاتٌ قصارٌ ولكنَّها بُدْنَ طويلةً كأنَّها ساعاتٌ، وكَتَمَ المشاهدُون أنفَاسَهُم، وخيَّمَ عليهِم الصَّمتُ الرهيبُ.

وقال صاحبُ عنترةَ: "آه...آه... لقد ألمتَني أشَدَّ الألمِ يا عنترةُ"!!

وَضَحِكَ عنترةُ ما وَسِعَهُ الضَّحِكَ وَأَرخَى أَسنَانَهُ عن أَصبَعِ صاحِبِهِ، وَقَالَ له: "واللهِ لَوْ لمْ تقلْ آه قَبْلِي، وَصَبَرْتَ لحْظَةً واحدةً عَلَى ما حَاقَ بِكَ من ألمٍ، لَسَبَقْتُكَ إلى قَولِ آه، ولانْتَصَرْتَ عَلَيَّ".

وَمن سُنَنِ اللهِ الثَّابِتَةِ فِي الأَرْضِ أنَّ عَاقِبَةَ كُلِّ صَبْرٍ خيرٌ، فتأمَّلُوا كيفَ صَبرَ نبيُّ اللهِ يوسفُ عليه السَّلامُ، وَكيفَ أنَّ هذا الصَّبْرَ حَوَّلَهُ مِن سَجِينٍ إلى وزيرٍ، والعَاقبةُ للمتقينَ.

والصبرُ ثباتٌ في السِّلمِ، وثباتٌ في الحربِ، فَهُو ثباتٌ في الحربِ مَهْمَا طالتْ ومَهْمَا كانتْ التضحياتُ، وهُوَ أيضًا ثباتٌ بعدَ الحربِ في إعادةِ البناءِ، ومُقَاومةِ الحربِ النَّفْسيَّةِ، وفِي التصْمِيمِ على إحْرازِ التَّقَدُّمِ، وَفِي إعْدادِ مُتَطَلِّبَاتِ النَّصرِ الماديةِ والمعنويةِ.

(أَسْأَلُ اللهَ أن يجعلَ الصبرَ لَنَا خُلُقًا وَسجِيَّةً، وَأَنْ نَكُونَ
من الصَّابِرِين المصْطَبرين المُصَابِرينَ الصَّبَّارِينَ).

المبحث الثالث عشر: الشَّجاعةُ

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله:

" يتميز المؤمن بقوة إيمانه وصبره وتوكله على الله واعتماده عليه، واحتسابه لثوابه- أمورا تزداد بها شجاعته، وتخفف عنه وطأة الخوف، وتهون عليه المصاعب، كما قال تعالى: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ}[2075] ويحصل لهم من معونة الله، ومعيّته الخاصة، ومدده؛ ما يبعثر المخاوف، قال تعالى: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[2076]"[2077].

المطلب الأول: معنى الشَّجاعةِ

- **معنى الشَّجاعةِ لُغةً:**

الشَّجاعةُ: شِدَّةُ القلبِ عِندَ البأسِ، وأصلُ هذه المادَّةِ (شجع) يَدُلُّ على جُرأةٍ وإقدامٍ. يُقالُ: رجُلٌ شُجاعٌ، وامرأةٌ شُجاعةٌ، ونِسوةٌ شُجاعاتٌ.[2078]

- **معنى الشَّجاعةِ اصطِلاحًا:**

الشَّجاعةُ هي „الإقدامُ على المكارهِ والمهالِكِ عِندَ الحاجةِ إلى ذلك، وثباتُ الجأشِ عِندَ المخاوِفِ، والاستهانةُ بالموتِ".[2079]

وقال ابنُ حزمٍ: „حَدُّ الشَّجاعةِ: بَذلُ النَّفسِ للموتِ، عن الدِّينِ والحريمِ، وعن الجارِ المُضطَهَدِ، وعن المستجيرِ المظلومِ، وعن الهَضيمةِ ظُلمًا في المالِ والعِرضِ، وفي سائِرِ سُبُلِ الحَقِّ، سواءٌ قَلَّ من يعارِضُ أو كَثُرَ".[2080]

„وقيل: الشَّجاعةُ: هيئةٌ للقُوَّةِ العقليَّةِ بها يُقدَمُ على أمورٍ ينبغي أن يُقدَمَ عليها، كالقتالِ مع الكُفَّارِ ما لم يزيدوا على ضِعفِ المسلمينَ، واستخلاصِ مُسلمٍ من يَدِ متعَدٍّ".[2081]

أو: هي مَلَكةٌ بها يُقدَمُ على أمورٍ ينبغي أن يُقدَمَ عليها كتخليصِ المظلومِ من يَدِ الظَّالمِ.[2082]

أو: هي قُوَّةٌ في عزيمةِ النَّفسِ تدفَعُ إلى الإقدامِ بعَقلٍ في مخاطرةٍ بعَمَلٍ أو قولٍ؛ لتحصيلِ خيرٍ أو دفعِ شَرٍّ، مع ما في ذلك من توقُّعِ هلاكٍ أو مضَرَّةٍ يقينًا أو ظنًّا.[2083]

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الشَّجاعةِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الشَّجاعةِ والقُوَّةِ:**

„كثيرٌ من النَّاسِ تشتَبِهُ عليه الشَّجاعةُ بالقُوَّةِ، وهما متغايرانِ؛ فإنَّ الشَّجاعةَ هي ثباتُ القَلبِ عِندَ النَّوازِلِ، وإن كان ضعيفَ البَطشِ.

[2075] النساء: ١٠٤

[2076] الأنفال: ٤٦

[2077] الوسائل المفيدة، ص١٨

[2078] العين للخليل بن أحمد، تهذيب اللغة للأزهري، مقاييس اللغة لابن فارس

[2079] تهذيب الأخلاق المنسوب للجاحظ، ص 27

[2080] الأخلاق والسير لابن حزم ص 80

[2081] بريقة محمودية للخادمي 2/ 269

[2082] المصدر السابق 2/ 34

[2083] الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني 2/586

وكان الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عنه أشجَعَ الأمَّةِ بعدَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكان عُمَرُ وغَيْرُه أقوى منه، ولكِنْ برز على الصَّحابةِ كُلِّهم بثباتِ قَلْبِه في كُلِّ موطِنٍ من المواطِنِ التي تُزلزِلُ الجبالَ، وهو في ذلك ثابتُ القَلبِ، ربيطُ الجأشِ، يلوذُ به شُجْعانُ الصَّحابةِ وأبطالُهم، فيُثَبِّتُهم ويُشَجِّعُهم".[2084]

- **الفَرْقُ بَيْنَ الشَّجاعةِ والبسالةِ:**

أصلُ البَسلِ: الحَرامُ، فكأنَّ الباسِلَ يتعذَّرُ على أحَدٍ أو يَحْرُمُ عليه أن يصيبَه في الحَربِ بمكروهٍ؛ لشِدَّتِه فيها وقوَّتِه.

والشَّجاعةُ: الجُرأةُ، والشُّجاعُ: الجَريءُ المِقدامُ في الحربِ ضَعيفًا كان أو قويًّا، والجرأةُ قُوَّةُ القَلبِ الدَّاعيةُ إلى الإقدامِ على المكارِهِ؛ فالشَّجاعةُ تُنبئُ عن الجُرأةِ، والبسالةُ تُنبئُ عن الشِّدَّةِ.[2085]

- **الفَرْقُ بَيْنَ الشَّجاعةِ والجُرأةِ:**

أنَّ الشَّجاعةَ من القَلبِ: وهي ثباتُه واستقرارُه عِندَ المخاوِفِ، وهو خُلُقٌ يتولَّدُ من الصَّبرِ وحُسنِ الظَّنِّ؛ فإنَّه متى ظنَّ الظَّفَرَ وَساعَدَهُ الصَّبرُ ثَبَتَ، كما أنَّ الجُبنَ يتولَّدُ من سوءِ الظَّنِّ وعَدَمِ الصَّبرِ، فلا يَظُنُّ الظَّفَرَ ولا يساعِدُه الصَّبرُ.

وأمَّا الجُرأةُ فهي إقدامٌ سَبَبُه قِلَّةُ المبالاةِ، وعَدَمُ النَّظرِ في العاقبةِ، بل تُقدِمُ النَّفسُ في غيرِ مَوضِعِ الإقدامِ مُعرِضةً عن ملاحظةِ العارِضِ، فإمَّا عليها وإمَّا لها.[2086]

المطلب الثالث: التَّرغيبُ في الشَّجاعةِ

أ. الشجاعةُ في القرآنِ الكريمِ:

1- أمر اللهُ سُبحانَه وتعالى المسلمين بالقتالِ في سبيلِه، والثَّباتِ عليه، والإقدامِ في الحروبِ، وعَدَمِ الجُبنِ؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال: 15 - 16].

2- قال سُبحانَه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ [الأنفال: 65].

قال السَّعديُّ: "يقولُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ} أي: حُثَّهم وأنهِضْهم إليه بكُلِّ ما يُقوِّي عزائِمَهم ويُنشِّطُ هِمَمَهُم، مِنَ التَّرغيبِ في الجهادِ، ومقارعةِ الأعداءِ، والتَّرهيبِ من ضِدِّ ذلك، وذِكرِ فضائِلِ الشَّجاعةِ والصَّبرِ، وما يترَتَّبُ على ذلك من خيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ، وذِكرِ مضارِّ الجُبنِ، وأنَّه من الأخلاقِ الرَّذيلةِ المُنقِصَةِ للدِّينِ والمروءةِ، وأنَّ الشَّجاعَةَ بالمُؤمِنين أَولى من غيرِهم".[2087]

3- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 123]

[2084] الفروسية لابن القيم، ص: 500.

[2085] الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص: 99

[2086] الروح لابن القيم، ص: 237

[2087] تيسير الكريم الرحمن ص 325

„قولُه: {وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} قال ابنُ عبَّاسٍ: شجاعةً. وقال مجاهدٌ: شِدَّةً. وقال الحسَنُ: صبرًا منكم على الجِهادِ. وقال الضَّحَّاكُ: عُنفًا".[2088]

4- وقال سُبحانَه: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة: 190].

5- وأمر اللهُ المسلمين بالثَّباتِ في الجهادِ فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال: 45].

ب. الشَّجَاعةُ في السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

1- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "المؤمِنُ القَويُّ خَيرٌ وأحَبُّ إلى اللهِ من المؤمِنِ الضَّعيفِ، وفي كُلٍّ خَيرٌ، احرِصْ على ما ينفَعُك، واستَعِنْ باللهِ، ولا تَعجِزْ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقُلْ: لو أنِّي فعَلْتُ كان كذا وكذا، ولكِنْ قُلْ قَدَّر اللهُ وما شاء فَعَل، فإنَّ لو تفتَحُ عَمَلَ الشَّيطانِ".[2089]

قال النَّوويُّ: „والمرادُ بالقُوَّةِ هنا عزيمةُ النَّفسِ والقَريحةِ في أمورِ الآخرةِ، فيكونُ صاحِبُ هذا الوصفِ أكثَرَ إقدامًا على العدوِّ في الجهادِ، وأسرَعَ خُروجًا إليه، وذَهابًا في طَلَبِه، وأشَدَّ عزيمةً في الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، والصَّبرِ على الأذى في كُلِّ ذلك، واحتمالِ المشاقِّ في ذاتِ اللهِ تعالى، وأرغَبَ في الصَّلاةِ والصَّومِ والأذكارِ وسائِرِ العباداتِ، وأنشَطَ طَلَبًا لها ومحافَظةً عليها، ونحوَ ذلك".[2090]

2- وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رضِي اللهُ عنه قال: „بايَعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على السَّمعِ والطَّاعةِ في العُسرِ واليُسرِ، والمَنشَطِ والمَكرَهِ، وعلى أثَرةٍ علينا، وعلى ألَّا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه، وعلى أن نقولَ بالحقِّ أينما كنَّا، لا نخافُ في اللهِ لومةَ لائِمٍ".[2091]

3- عن طارِقِ بنِ شِهابٍ قال: أوَّلُ من بدأ بالخُطبةِ يومَ العيدِ قبلَ الصَّلاةِ مَروانُ، فقام إليه رجُلٌ فقال: الصَّلاةُ قبل الخُطبةِ. فقال: قد تُرِك ما هنالك! فقال أبو سعيدٍ: أمَّا هذا فقد قضى ما عليه، سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: "من رأى منكم مُنكَرًا فلْيُغَيِّرْه بيدِه، فإن لم يستَطِعْ فبلِسانِه، فإن لم يستطِعْ فبقَلبِه، وذلك أضعفُ الإيمانِ".[2092]

4- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: كنتُ خَلفَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا، فقال: "يا غُلامُ، إنِّي أعلِّمُك كَلِماتٍ: احفَظِ اللهَ يحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك، إذا سألْتَ فاسأَلِ اللهَ، وإذا استعَنْتَ فاستَعِنْ باللهِ، واعلَمْ أنَّ الأُمَّة لو اجتمَعَت على أن ينفعوك بشَيءٍ لم ينفعوك إلَّا بشَيءٍ قد كتبه اللهُ لك، واعلَمْ أنَّ الأُمَّة لو اجتمَعَت على أن يضُرُّوك بشَيءٍ لم يضرُّوك إلَّا بشَيءٍ قد كتبه اللهُ عليك، رُفِعَت الأقلامُ وجَفَّت الصُّحُفُ".[2093]

5- وعن أبي النَّضرِ، عن كتابِ رَجُلٍ من أسلَمَ، من أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُقالُ له عبدُ اللهِ بنُ أبي أَوفى، فكَتَب إلى عُمَرَ بنِ عُبَيدِ اللهِ حينَ سار إلى الحَروريَّةِ، يُخْبِرُه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان في بعضِ أيَّامِه التي

[2088] التفسير الوسيط للواحدي 2/ 535

[2089] أخرجه مسلم 2664

[2090] شرح النووي على صحيح مسلم 4/2052

[2091] أخرجه البخاري 7199 مختصرًا، ومسلم 1709 واللفظ له

[2092] أخرجه مسلم 49

[2093] أخرجه الترمذي 2516 واللفظ له، وأحمد 2669. صحَّحه الترمذي، والألباني في صحيح سنن الترمذي 2516، وصحَّحه لغيره الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين 699، وحسَّنه ابنُ حجر في موافقة الخبر الخبر 1/327

لقيَ فيها العَدُوَّ ينتَظِرُ حتى إذا مالت الشَّمسُ قام فيهم، فقال: "يا أيُّها النَّاسُ، لا تتمَنَّوا لقاءَ العَدُوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيتُموهم فاصبِروا، واعلَموا أنَّ الجنَّةَ تحتَ ظِلالِ السُّيوفِ، ثمَّ قام النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال: „اللَّهُمَّ مُنزِلَ الكتابِ، ومُجريَ السَّحابِ، وهازِمَ الأحزابِ، اهزِمْهم، وانصُرْنا عليهم".[2094]

„فالثَّباتُ هنا معناه المواجَهةُ والشَّجاعةُ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا ما كان ثابتًا في القتالِ فالعدُوُّ يخشاه ويهابُه، وإنْ لم يكُنْ كذلك فسوف يُضطَرُّ إلى النُّكوصِ، وهذا ما يُجَرِّئُ الكُفَّارَ عليكم. وما دُمتُم قد جِئتُم إلى القتالِ فلا بدَّ أن يَشهَدَ الأعداءُ شجاعتَكم؛ لأنَّكم إن فرَرتُم فهذه شهادةُ ضَعفٍ ضِدَّكم؛ ولذلك لا بُدَّ من التَّدريبِ على الثَّباتِ والقتالِ، وهذا هو الإعدادُ المُسبقُ للحَربِ".[2095]

ت. الشجاعةُ في أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

1- قال أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه لخالدِ بنِ الوليدِ: „احرِصْ على الموتِ تُوهَبْ لك الحياةُ".[2096]

2- وقال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: "الجُبنُ والشَّجاعةُ غرائزُ في النَّاسِ، تلقى الرَّجُلَ يقاتِلُ عمَّن لا يَعرِفُ، وتلقى الرَّجُلَ يَفِرُّ عن أبيه! ".[2097]

3- وخطَب عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ رَضِيَ اللهُ عنه النَّاسَ لَمَّا بلغه قَتلُ أخيه مُصعَبٍ، فقال: „إنْ يُقتَلْ فقد قُتِل أبوه وأخوه وعَمُّه، إنَّا واللهِ لا نموتُ حَتفًا، ولكِنْ نموتُ قَعْصًا بأطرافِ الرِّماحِ، وموتًا تحتَ ظِلالِ السُّيوفِ، وإن يُقتَلْ مُصعَبٌ فإنَّ في آلِ الزُّبيرِ خَلَفًا منه".[2098]

4- وكتب زيادٌ إلى ابنِ عبَّاسٍ: أنْ صِفْ لي الشَّجاعةَ والجُبْنَ والجُودَ والبُخلَ، فكَتَب إليه: كتَبتَ تسألُني عن طبائِعَ رُكِّبَت في الإنسانِ تركيبَ الجوارحِ، اعلَمْ أنَّ الشُّجاعَ يقاتِلُ عمَّن لا يَعرِفُه، والجبانَ يَفِرُّ عن عِرسِه، وأنَّ الجوادَ يعطي من لا يلزَمُه، وأنَّ البخيلَ يمسِكُ عن نفسِه".[2099]

5- وقال الغَزاليُّ: „الفضائِلُ وإن كانت كثيرةً فتجمَعُها أربعةٌ تشمَلُ شُعَبَها وأنواعَها، وهي الحكمةُ، والشَّجاعةُ، والعِفَّةُ، والعدالةُ؛ فالحِكمةُ فضيلةُ القُوَّةِ العقليَّةِ، والشَّجاعةُ فضيلةُ القُوَّةِ الغَضَبيَّةِ، والعِفَّةُ فضيلةُ القُوَّةِ الشَّهوانيَّةِ، والعدالةُ عبارةٌ عن وقوعِ هذه القوى على التَّرتيبِ الواجِبِ فيها، فبها تَتِمُّ جميعُ الأمورِ...، وأمَّا الشَّجاعةُ فهي فضيلةٌ للقُوَّةِ الغَضَبيَّةِ؛ لكونِها قويَّةً، ومع قوَّةِ الحَميَّةِ مُنْقَادَةٌ للعَقلِ المتأدِّبِ بالشَّرعِ في إقدامِها وإحجامِها، وهي وَسَطٌ بَيْنَ رذيلتَيها المُطيفتينِ بها، وهما التَّهوُّرُ والجُبنُ".[2100]

- وقال ابنُ تَيميَّةَ: „ولمَّا كان صلاحُ بني آدَمَ لا يَتِمُّ في دينِهم ودنياهم إلَّا بالشَّجاعةِ والكَرَمِ، بَيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّه من تولَّى عنه بتركِ الجِهادِ بنفسِه أبدَلَ اللهُ به من يقومُ بذلك، ومن تولَّى عنه بإنفاقِ مالِه أبدَل اللهُ به من يقومُ بذلك".[2101]

والشُّجاعُ ضِدُّ البخيلِ؛ لأنَّ البخيلَ يَضِنُّ بمالِه، والشُّجاعُ يجوُد بنفسِه، كما قال القائلُ:

[2094] أخرجه البخاري 3024، 3025، ومسلم 1742 واللفظ له.

[2095] تفسير الشعراوي 8/ 4719

[2096] أخرجه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم 671

[2097] أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق200

[2098] العقد الفريد لابن عبد ربه 1/101، والموتُ قعصًا: أن يُرمى فيموتَ مكانَه.

[2099] محاضرات الأدباء للراغب 2/ 146، نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري 3/347

[2100] ميزان العمل ص: 264- 266

[2101] الاستقامة لابن القيم 2/269

كم بَيْنَ قومٍ إنَّما نفقاتُهم

مالٌ وقومٌ يُنفِقون نُفوسًا"[2102]

- وقال ابنُ القَيِّم أيضًا: "الشَّجاعةُ جُنَّةٌ للرَّجُلِ من المكارِهِ، والجُبنُ إعانةٌ منه لعَدُوِّه على نفسِه، فهو جندٌ وسلاحٌ يعطيه عدوَّه ليحاربَه به، وقد قالت العرَبُ: الشَّجاعةُ وقايةٌ، والجبنُ مَقتَلةٌ، وقد أكذب اللهُ سُبحانَه أطماعَ الجُبناءِ في ظنِّهم أنَّ جُبنَهم يُنجيهم من القَتلِ والموتِ، فقال اللهُ تعالى: {قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب: 16]".[2103]

- وقال الذَّهبيُّ: "الشَّجاعةُ والسَّخاءُ أخوانِ، فمن لم يَجُدْ بمالِه فلن يجودَ بنَفسِه".[2104]

وقال تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [النساء:78].

المطلب الرابع: فوائِدُ الشَّجاعةِ وآثارُها

الشَّجاعةُ لها فوائدُ تعودُ على الفَردِ والمجتَمَعِ؛ منها:

1- أنَّها سَبَبٌ لانشراحِ الصَّدرِ وحُصولِ السَّعادةِ:

قال مِسكَوَيهِ: „ولذلك لما قَسَّمُوا السَّعادةَ جعلوها كلَّها في قوى النَّفسِ - والتي ذكَرْناها في أوَّلِ الكتابِ-، وهي „الحِكمةُ، والشَّجاعةُ، والعِفَّةُ، والعدالةُ"، وأجمعوا على أنَّ هذه الفَضَائلَ هي كافيةٌ في السَّعادةِ ولا يُحْتَاجُ معها إلى غيرِها من فضائِلِ البَدَنِ، ولا ما هو خارجُ البَدَنِ، فإنَّ الإنسانَ إذا حصَّل تلك الفضائِلَ لم يَضُرَّه في سعادَتِهِ أنْ يكونَ سقيمًا ناقِصَ الأعضاءِ مُبتلًى بجميعِ أمراضِ البَدَنِ".[2105]

وقال ابنُ القَيِّم: „فإنَّ الشُّجاعَ مُنشَرِحُ الصَّدرِ، واسِعُ البِطَانِ، مُتَّسِعُ القَلبِ، والجبانُ أضيَقُ النَّاسِ صَدرًا، وأحصَرُهم قلبًا، لا فَرحةَ له ولا سُرورَ، ولا لَذَّةَ له ولا نَعِيمَ إلَّا من جِنْسِ ما للحيوانِ البهيميِّ، وأمَّا سُرورُ الرُّوحِ ولذَّتُها، ونعيمُها، وابتهاجُها، فمُحَرَّمٌ على كُلِّ جبانٍ، كما هو محرَّمٌ على كُلِّ بخيلٍ، وعلى كُلِّ مُعْرِضٍ عن اللهِ سُبحانَه، غافِلٍ عن ذِكرِه، جاهلٍ به وبأسمائِه تعالى وصفاتِه ودينِه، متعلِّقُ القَلبِ بغيرِه".[2106]

2- الشَّجاعةُ أصلُ الفضائِلِ وتَحْمِلُ صاحِبَها على عِزَّةِ النَّفسِ وإيثارِ معالي الأخلاقِ والشِّيَمِ:

فمن يتَّصِفُ بالشَّجاعةِ يتحلَّى أيضًا بالنَّجدةِ، وعِظَمِ الهِمَّةِ، والثَّباتِ والصَّبرِ، والحِلمِ وعَدَمِ الطَّيشِ، والشَّهامةِ واحتمالِ الكَدِّ.[2107]

قال ابنُ القَيِّم: „والشَّجاعةُ تحمِلُه على عِزَّةِ النَّفسِ، وإيثارِ معالي الأخلاقِ والشِّيَمِ، وعلى البَذلِ والنَّدَى، الذي هو شجاعةُ النَّفسِ وقوَّتُها على إخراجِ المحبوبِ ومفارقتِه، وتحمِلُه على كَظمِ الغَيظِ والحِلمِ؛ فإنَّه بقوَّةِ نفسِه وشجاعتِها يُمسِكُ عِنانَها،

[2102] الفروسية لابن القيم ص: 498

[2103] الفروسية لابن القيم ص: 491. ويُنظَر: اللطائف والظرائف للثعالبي ص: 128

[2104] سير أعلام النبلاء للذهبي 19/235

[2105] تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص: 92

[2106] زاد المعاد لابن القيم 2/22

[2107] تهذيب الأخلاق لمسكويه ص: 30، ميزان العمل لأبي حامد الغزالي ص: 276 واحتمالُ الكَدِّ: هو قوَّةٌ للنَّفسِ بها تستعمِلُ آلاتِ البَدَنِ في الأمورِ الحِسِّيَّةِ بالتمرينِ وحُسنِ العادةِ. تهذيب الأخلاق لمسكويه ص: 30.

ويَكبَحُها بلجامِها عن التَّزغِ والبَطشِ، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ليس الشَّديدُ بالصُّرَعةِ، إنَّما الشَّديدُ الذي يملِكُ نفسَه عِندَ الغَضَبِ"[2108]، وهو حقيقةُ الشَّجاعةِ، وهي مَلَكةٌ يقتَدِرُ بها العبدُ على قَهرِ خَصْمِهِ".[2109]

3- الرَّجُلُ الشُّجاعُ يُحسِنُ الظَّنَّ باللهِ:

قال ابنُ القَيِّمِ: "والجُبنُ خُلُقٌ مذمومٌ عِندَ جميعِ الخَلقِ، وأهلُ الجُبنِ هم أهلُ سُوءِ الظَّنِّ باللهِ، وأهلُ الشَّجاعةِ والجودِ هم أهلُ حُسنِ الظَّنِّ باللهِ، كما قال بعضُ الحُكَماءِ في وصيَّتِه: (عليكم بأهلِ السَّخاءِ والشَّجاعةِ؛ فإنَّهم أهلُ حُسنِ الظَّنِّ باللهِ)".[2110]

4- لا تَتِمُّ مَصلحةُ الإمارةِ والسِّياسةِ إلَّا بالشَّجاعةِ:

قال ابنُ تَيميَّةَ: „لا تَتِمُّ رعايةُ الخَلقِ وسياستُهم إلَّا بالجودِ الذي هو العطاءُ، والنَّجدةُ التي هي الشَّجاعةُ، بل لا يصلُحُ الدِّينُ والدُّنيا إلَّا بذلك؛ ولهذا كان من لا يقومُ بهما سَلَبه الأمْرَ ونَقَله إلى غيرِه، كما قال اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: 38-39]، وقال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: 38] ، وقد قال اللهُ تعالى: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [الحديد:10] ، فعلَّق الأمرَ بالإنفاقِ الذي هو السَّخاءُ، والقتالِ الذي هو الشَّجاعةُ، وكذلك قال اللهُ تعالى في غيرِ موضعٍ: {وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة: 41] „.[2111]

وقال في موضعٍ آخَرَ: „كما أنَّ عليهم -أي ولاةِ الأمورِ- من الشَّجاعةِ والسَّماحةِ ما ليس على غيرِهم؛ لأنَّ مصلحةَ الإمارةِ لا تَتِمُّ إلَّا بذلك".[2112]

5- بالشَّجاعةِ تُنالُ المكْرُماتُ وتُدْفَعُ المكارِهُ. قال الطرطوشيُّ: „كُلُّ كَرِيهَةٍ تُدْفَعُ أو مَكْرُمَةٍ تُكتَسَبُ، لا تَتَحقَّقُ إلَّا بالشَّجاعةِ".[2113]

6- بالشَّجاعةِ يكونُ النَّصرُ على الأعداءِ وحِفظُ الأوطان.

المطلب الخامس: أقسامُ الشَّجاعةِ

- **ذَكَر الرَّاغبُ الأصفهانيّ في كتابِه (الذَّريعة) خمسةَ أنواعٍ للشَّجاعةِ، وهي:**

- شجاعةٌ „سَبُعِيَّةٌ: كَمَن أقْدَمَ لثَوَرانِ غَضَبٍ وتطَلُّبِ غَلَبةٍ.
- وبهيميَّةٌ: كمن حارب توصُّلًا إلى مأكَلٍ أو مَنكَحٍ.
- وتجريبيَّةٌ: كمن حارب مِرارًا فظَفِر، فجعل ذلك أصلًا يبني عليه.
- وجِهاديَّةٌ: كمن يحارِبُ ذَبًّا عن الدِّينِ.

[2108] أخرجه البخاري 6114، ومسلم 2609 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[2109] الفروسية لابن القيم ص: 491

[2110] المصدر السابق، ويُنظَر: اللطائف والظرائف للثعالبي ص: 128

[2111] السياسة الشرعية ص: 74

[2112] مجموع الفتاوى لابن تَيميَّةَ 28/180

[2113] سراج الملوك ص: 171

- وحكميَّةٌ: وهي ما تكونُ في كُلِّ ذلك عن فِكرٍ، وتمييزٍ وهيئةٍ محمودةٍ بِقَدْرِ ما يجِبُ وعلى ما يجِبُ، ألا ترى أنَّه يُحمَدُ من أقدَمَ على كافرٍ ظالمٍ غضبًا لدينِ اللهِ، أو طمَعًا في ثوابِه، أو خوفًا من عقابِه، أو اعتمادًا على ما رأى من إنجازِ وعدِ اللهِ في نُصرةِ أوليائِه، فإنَّ كُلَّ ذلك محمودٌ، وإنْ كَانَ مَحْضُ الشَّجَاعَةِ هُوَ أَلَّا يَقْصِدَ بالإقْدَامِ حَوزَ ثَوَابٍ، أو دَفْعَ عِقَابٍ...".[2114]

- **ويمكن تقسيم الشَّجاعةِ أيضًا من حيث طريقة التَّعبير عنها إلى قسمين:**

- **شجاعةُ الأقوال أو الشَّجاعةِ القَولية** وهي التي يُعَبَّرُ عنها بالقَولِ ومن أمْثِلَتِها: الصَّدعُ بالحَقِّ، والأمرُ بالمَعْروفِ، والنَّهيُ عن المُنكَر.

- **وشَجاعَةُ الأفعال أو الشَّجاعةِ الفِعْلية** وهي التي يُعبر عنها بالفعل ومن أمثلتها: الثَّبات في الحروب.[2115]

- **قال الرَّاغِبُ: „ومن الشَّجاعةِ المحمودةِ مجاهدةُ الإنسانِ نفسَه أو غيرَه، وكلُّ واحدٍ منهما ضربان:**

- **مجاهدةُ النَّفسِ بالقولِ:** وذلك بالتَّعلُّمِ، وبالفِعلِ: وذلك بِقَمْعِ الشَّهوةِ، وتهذيبِ الحِميةِ.

- **ومجاهدةُ الغيرِ بالقولِ:** وذلك تزيينُ الحَقِّ وتعليمُه، وبالفعلِ: وذلِك مدافعةُ الباطلِ ومتعاطيه بالحَربِ".[2116]

- **ويمكن تقسيمُ الشَّجاعةِ أيضًا من حيثُ الفِطرةُ والاكتسابُ إلى قسمينِ:**

شجاعةٌ فِطريَّةٌ، وشجاعةٌ مُكتَسَبةٌ[2117] فـ(الأخلاقُ الحميدةُ الفاضلةُ تكونُ طبعًا، وتكونُ تطبُّعًا ولكِنَّ الطَّبعَ بلا شَكٍّ أحسنُ من التَّطبُّعِ؛ لأنَّ الخُلُقَ الحَسنَ إذا كان طبيعيًّا صار سجيَّةً للإنسانِ وطبيعةً له لا يحتاجُ في ممارستِه إلى تكَلُّفٍ ولا يحتاجُ في استدعائِه إلى عناءٍ ومَشقَّةٍ، ولكنْ هذا فَضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ، ومن حُرِم الخُلُقَ على سبيلِ الطَّبعِ فإنَّه يمكِنُه أن ينالَه عن سبيلِ التَّطبُّعِ، وذلك بالمرونةِ والممارسةِ).[2118]

المطلب السادس: دَرَجاتُ الشَّجاعةِ

تحدَّثَ ابنُ القَيِّمِ عن مراتِبِ الشُّجْعانِ، فقال:

„أوَّلُ مَراتِبِهم: الهُمَامِ، وسُمِّي بذلك لهِمَّتِهِ وعَزمِهِ، وَجَاءَ على بناءِ فُعالٍ، كشُجاعٍ.

الثَّاني: المِقدامُ، وسُمِّي بذلك من الإقدامِ، وهو ضِدُّ الإحجامِ، وجاء على أوزانِ المبالغةِ، كمِعطاءٍ، ومِنحارٍ، لكثيرِ العَطاءِ والنَّحرِ، وهذا البناءُ يستوي فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ، كامرأةٍ مِعطارٍ: كثيرةِ التَّعطُّرِ، ومِذكارٍ: تَلِدُ الذُّكورَ.

الثَّالثُ: الباسِلُ، وهو اسمُ فاعلٍ مِن بَسُلَ يَبسُلُ، كشَرُفَ يَشرُفُ، والبَسالةُ: الشَّجاعةُ والشِّدَّةُ، وضِدُّها فَشِلَ يَفشَلُ فَشالةً، وهي على وزنِها فعلًا ومصدرًا، وهي الرَّذالةُ.

الرَّابعُ: البَطَلُ، وجَمْعُهُ أبْطالٌ، وفي تسميتِه قولان:

أحدُهما: لأنَّه يُبْطِلُ فِعلَ الأقرانِ، فتَبْطُلُ عِندَ شجاعةِ الشُّجعانِ، فيكونُ بَطَلٌ بمعنى مفعولٍ في المعنى؛ لأنَّ هذا الفِعلَ غيرُ متعَدٍّ.

والثَّاني: أنَّه بمعنى فاعلٍ لفظًا ومعنًى؛ لأنَّه الذي يُبطِلُ شجاعةَ غيرِه فيجعَلُها بمنزلةِ العدَمِ، فهو بَطَلٌ بمعنى مُبطِلٍ.

[2114] الذريعة إلى مكارم الشريعة ص: 328

[2115] الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني 2/587، الشجاعة في ضوء السنة النبوية لخالد بن فلاح ص: 25

[2116] الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص: 328

[2117] الشجاعة في ضوء السنة النبوية لخالد بن فلاح، ص: 37

[2118] مجموع فتاوى ورسائل العثيمين 26/ 489 بتصرف يسير.

ويجوزُ أن يكونَ بَطَلٌ بمعنى مُبطِلٍ، بِوَزْنِ مُكرِمٍ، وهو الذي قد بطَلَه غيرُه، فَلِشَجَاعَتِهَ تحَامَاهُ النَّاسُ، فبطلوا فِعلَه باستسلامِهم له، وتَرْكِ محاربتِهم إيَّاه.

الخامِسُ: الصِّنديدُ، بكَسرِ الصَّادِ".[2119]

المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ الشَّجاعةِ

1- الإقدامُ في ساحاتِ الوغى في الجهادِ في سبيلِ اللهِ، والاستهانةُ بالموتِ.

2- الجُرأةُ في إنكارِ المُنكَرِ وبيانِ الحَقِّ:

عن طارِقِ بنِ شِهابٍ أنَّ رجلًا سأل النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقد وَضَع رِجلَه في الغَرزِ: أيُّ الجهادِ أفضلُ؟ قال: "كَلِمةُ حَقٍّ عِندَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ".[2120]

الجهادُ في سبيلِ اللهِ تعالى غيرُ مُقْتَصِرٍ على الجهادِ بالسِّنانِ في ساحةِ المعركةِ، بل له مجالاتٌ كثيرةٌ، وفي هذا الحديثِ يقولُ النبيُّ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّم: "أفضَلُ الجِهادِ"، أي: أعظَمُ وأنفعُ الجِهادِ الذي يكونُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى، "كَلِمةُ عَدلٍ"، أي: أمرٌ بمَعروفٍ أو نَهيٌ عن مُنكرٍ أيًّا كانَت صُورتُه قَولًا أو كتابةً أو فِعلًا، "عندَ سُلطانٍ جائرٍ- أو أميرٍ جائرٍ-"، أي: إنَّ تلكَ الكَلِمةَ بالعدلِ والحقِّ موجَّهةٌ لوليِّ أمرٍ يَلِي مِن أمورِ المسلِمينَ ما يَلي، وظهرَ مِنه أنَّه ظالمٌ واشتُهِرَ بذلكَ، ورُبما آذَى مَن يأمُرُه أو يَنهاهُ فجعلَ اللهُ أجرَ مَن يأمرُه بالعَدلِ والمعروفِ، ويَنهاهُ عنِ المنكرِ أنَّه في أعلى مراتبِ الجِهادِ؛ وذلكَ أنَّ وليَّ الأمرِ لو أخَذَ بِكَلمَتِه لربَّما عمَّ النفعُ عددًا كبيرًا من الناسِ فتحصُلُ المصلحةُ.

- **ومن الجرأة في بيانِ الحقِّ أيضا:** إنكارُ منكراتِ المجتمعِ، وما أكثر المنكرات المنتشرة في المجتمع والتي لا ينكرها أحد؛ بسببِ ضعف الإيمان الشديد واعتياد الناس عليها حتى ألفوها، وقد يكون من أعظم المنكرات في زمننا: "تبدل المعروف منكرا، والمنكر معروفا " حتى صار الناس يستغربون ممن ينكر عليهم منكرهم، ويأمرهم بالمعروف، بل يعتبرون ذلك تشددا وخروجا عن الدين!

وإذا كان الناس لا يزالون في مجتمع من المجتمعات يعتبرون المنكر منكرا والمعروف معروفا، فإن الأمل في الإصلاح قائم؛ لأن المفاهيم لم تتبدل والفطرة لم تنتكس، فالعاصي إن كان عنده حياء أو مروءةٌ فسيمنعه حياؤه أو مروءَتُه عن مواقعة المنكر أو المجاهرة به على الأقل؛ لأنه مخالف لعرف الناس ودينهم ومفاهيمهم.

بينما إذا تغيرت المفاهيم وانقلبت الأحوال وانتكست الفطرة؛ صار المنكر في عرف الناس معروفا مألوفا لا يُستحَى منه، وصار المعروف منكرا، ويصبح الحق باطلا والباطل حقا، وهذا ما نشاهده الآن، حيث صار التبرج حرية شخصية، والإلحاد رأيا يُحْتَرَمُ، وقس على ذلك!

فانتكاسُ الفطرة، وَتَبَدُّلُ المفاهيم، وانعكاسُ الأحوال هي من أشد المنكرات وأعظمها في زماننا، وما أقل المنكرين لها!

- **ومنها أيضا:** أن يأتيك أَحَدُهُم بالنميمة، فتنكِرَ عليه فِعْلَتَهُ مُذَكِّرًا إياه قَوْلَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ" [2121]، أي: لا يدخُلُ الجَنَّةَ حتى يعاقَبَ على جريمتِه هذه بالنَّارِ، إلا أن يعفوَ اللهُ عنه، أو يتوبَ من جريمتِه؛ وذلك لأنَّ النميمةَ ظاهِرةٌ عُدوانيَّةٌ خَطيرةٌ تُفَكِّكُ المجتَمَعَ، وَتُقَطِّعُ العلاقاتِ، وهي وليدةُ الحقدِ والحَسَدِ؛ ولهذا كان النَّمَّامُ بغيضًا إلى نفوسِ العُقَلاءِ، مَنبوذًا عندهم، ولا يرتاحون إليه.

[2119] الفروسية 503

[2120] أخرجه النسائي 4209 واللفظ له، وأحمد 18830. صحَّحه الألباني في صحيح سنن النسائي 4209، والوادعي في الصحيح المسند 1505، وصحَّح إسنادَه المنذري في الترغيب والترهيب 3/229، والنووي في تحقيق رياض الصالحين 117

[2121] صحيح مسلم (105)

وقد أخبر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ شِرارَ عبادِ اللهِ المشَّاءُون بالنميمةِ، المفَرِّقون بين الأحِبَّةِ، كما أخرجه أحمدُ.
وفي الحَديثِ: النَّهيُ عن نقْلِ الكلامِ بِنيَّةِ الإفسادِ.
وفيه: بيانُ أنَّ النميمةَ كبيرةٌ من الكبائِرِ؛ لأنَّ هذا الوعيدَ الشَّديدَ لا يترتَّبُ إلَّا على ارتكابِ كبيرةٍ.

● **ومنها:** إنكارُ المنكرِ عَلَى مَنْ يكونُ موظفًا في دائرةٍ حكوميةٍ أو شركةٍ وَيَتَكَاسَلُ فِي عَمَلِهِ أَو يَدَّعِي المرضَ؛ قال الله سبحانه وتعالى :{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء:58] فالأمانةُ من أعظمِ خصالِ الإيمانِ، والخيانةُ من أعظمِ خصالِ النفاقِ، كما قال الله سبحانه في وصف المؤمنين {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [المؤمنون:8] وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال:27].

3- الشَّجاعةُ في الأعمالِ التي تحتاجُ إلى تحمُّلِ المخاطِرِ ورباطةِ الجأشِ:

كرِجالِ الشُّرطةِ، ورجالِ الإطفاءِ، وعُمَّالِ المناجِمِ، وغيرِهم.

4- حضورُ الذِّهنِ عِندَ الشَّدائِدِ:

من أكبَرِ مظاهِرِ الشَّجاعةِ حضورُ الذِّهنِ عِندَ الشَّدائِدِ؛ فالشُّجاعُ من إذا عراه خَطبٌ لم يذهَبْ برُشدِه، بل يقابِلُه برزانةٍ وثباتٍ، ويتصَرَّفُ فيه بذهنٍ حاضرٍ، وعقلٍ غيرِ مُشتَّتٍ.[2122]

5- الشَّجاعةُ الأدبيَّةُ:

والمرادُ بها أن يُبْدِيَ الإنسانُ رأيَه وما يعتَقِدُ أنَّه الحَقُّ، مهما ظنَّ النَّاسُ به أو تقوَّلوا عليه، فيقولُ الحقَّ بأدبٍ وإن تألَّم منه النَّاسُ، ويعتَرِفُ بالخطأِ وإن نالته عقوبةٌ، ويرفُضُ العَمَلَ بما لا يراه صوابًا.[2123]

6- الشَّجاعةُ لإعْطاءِ الحُقُوق لأَهلِها:

مِنَ الشَّجاعةِ قَولُ الحَقِّ، وَإعطاءُ الحُقُوقِ كَحَقِ الأخواتِ أو العَمَّاتِ لِلْحُصولِ على الميراث؛ فهناك بعض المجتمعات حينما يُتَوَفَّى الأَبُ جرت العادةُ فيها أن تتنازل البنات عن إرثهن لإخوانهم الذكور إما مجاملةً أو حياءً، ولا شك أن هذا العمل لا يجوز، فالإلحاح على البنات حتى يتركن إرثهن لإخوانهن حياءً ومجاملةً، قريباً من الإكراه ، فلا يجوز مثل هذا العمل، قال سبحانه: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ} [النساء: 11]، فاللهُ جل وعلا جعل للبنات نصيباً من الميراث، وجعل للبنين نصيباً من الميراث، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه"، والبنتُ قد تكونُ أحوجَ إلى الميراثِ مِنْ الولدِ، لِضَعْفِهَا وعَجْزِهَا عَنْ الاكتِسَابِ، بخلافِ الوَلَدِ، فإنَّه يقْوَى على الاكتسابِ، وعلى السفرِ وطلبِ الرزقِ، وبالتَّالي لا يجوزُ، ولا يَصِّحُّ استضعافُ النساءِ، والتَّغَلُّبُ عليهِنَّ، وَأَخْذُ نَصِيبِهِنَّ".[2124]

7- ومِنْ الشَّجَاعَةِ الاعْتِرَافُ بِالْخَطَأِ:

فالاعْتِرَافُ بِالخَطَأِ فَضِيلَةٌ، وَهُوَ مِنْ خُلُقِ الأَقْوِيَاءِ لَا الضُّعَفَاءِ، فَلَا يَتَّصِفُ بِهِ إِلَّا الكِبَار الَّذِينَ لَدَيْهِم القُدْرَةُ عَلَى مُوَاجَهَةِ الآخَرِينَ بِكُلِّ قُوَّةٍ وَشَجَاعَةٍ وَأَدَبٍ.

[2122] الأخلاق الإسلامية لجمال نصار ص: 206

[2123] المصدر السابق.

[2124] مجموع فتاوى الشيخ صالح الفوزان 2/625

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كلُّ ابنِ آدمَ خطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخطَّائينَ التَّوَّابونَ"، فالوُقُوعُ فِي الخَطَأِ حَقِيقَةٌ أَقَرَّهَا رَسُولُ اللهِ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: „كلُّ ابنِ آدَمَ خَطَّاءٌ"، أي: كلُّ إنسانٍ على وَجْهِ الأرضِ يُذنِبُ ويُكثِرُ من الخَطَأِ، فقولُه: خَطَّاءٌ صِيغةُ مُبالَغَةٍ، وأمَّا الأنبياءُ؛ فإنَّهم مَخصوصون عن ذلك، وما صَدَرَ عنهم فهو مِن بابِ تَركِ الأَوْلى، أو يُقالُ: الزَّلَّاتُ المَنقولَةُ عن بعضِهم مَحمولةٌ على الخَطَأِ والنِّسيانِ من غَيرِ أنْ يكونَ لهم قَصدٌ إلى العِصيانِ، „وخيرُ الخَطَّائينَ"، أي: وأفضَلُ بَني آدَمَ الَّذين يُخطِئون ويَعصُون هم، „التَّوَّابون"، أي: الذين إذا أذنَبوا رَجَعوا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وتابوا، واستَغفَروا في كلِّ وَقتٍ وحينٍ؛ فمِن سَعةِ رَحمةِ اللهِ تَعالى بعِبادِه، وعَفْوِه عنهم أنْ شَرَعَ لهم التَّوبةَ؛ لِيَغفِرَ لهم الذُّنوبَ، ويَمحُوَ عنهُم السَّيِّئاتِ، وجعَلَ بابَ التوبةِ مَفتوحًا في كلِّ وقتٍ إلى أن تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها، أو أنْ تَبلُغَ الرُّوحُ الغَرغَرَةَ.[2125]

إِذنْ فليسَ بِدْعًا أَوْ عيبًا فِي الإِسلامِ أَن يُخْطِئَ الإنسانُ أو يُذْنِبُ، فَهُوَ مَجْبُولٌ بِطبعِهِ عَلَى ذلكَ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْلَمَ إِنسَانٌ من ارتكابِ الخطأِ أَو الوُقُوعِ فيه - إِلَّا الأنبياءُ والمرسَلُونَ الذينَ عَصَمَهُم اللهُ تَعَالَى عَن ذَلكَ - فَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ يَزِيدَ بْنِ الأَصَمِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ". [2126]

وَلَكِنْ المعْضِلَةُ تكمنُ فِي الإِصْرَارِ عَلَى الذَنبِ والخَطَأِ، وَعَدَمِ الاعتِرَافِ بِهِ أو التَّرَاجُعِ عَنْهُ، فَمَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ مِمَّن كَانَ قَبْلَنَا إِلَّا بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الذَّنْبِ وَالخَطَأِ، وَاسْتِكْبَارِهِم عَنْ التَّوبَةِ مِنْهُ، وَمَا فَازَ مَنْ فَازَ مِنْ الأَفْرَادِ والمجتَمَعَاتِ وَالأُمَمِ إِلَّا بِاعْتِرَافِهِمْ بِالخَطَأِ إِذَا وَقَعَ مِنْهُمْ، والتَّرَاجُعِ عَنْهُ.

وَيَطِيبُ لَنَا أَنْ نَتَوَجَّهُ إِلَى الرَّافِضِين لِلاعتِرَافِ بِالخَطَأِ بِهَذِهِ البَاقَةِ مِنْ الكِبَارِ العُظَمَاءِ، إِنَّهُم أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُلِهِ الذِينَ اخْتَارَهُم اللهُ واصْطَفَاهُم، وَأَدَّبَهُم فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ يُقدِّمُونَ لَنَا الأُسْوَةَ والقُدوَةَ في المبادرةِ للاعتِذَارِ لِلتَّأكِيدِ عَلَى أَنَّه خُلُقٌ لَا يَشِينُ وَلَا يُقَلِّلُ مِنْ قِيمَةِ صَاحِبِهِ.

فَهَا هُمَا ذَا أَبُونَا آدمُ وَأُمُّنَا حَوَاءُ اعْتَرَفَا بِمَا اقْتَرَفَا لَمَّا اجْتَرَّا وَرَاءَ إِبلِيسَ اللَّعِينَ وَأَكَلَا مِنْ الشَّجَرَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: 23].

وَمُوسَى عَلَيهِ السَّلامُ أَخْطَأَ عندمَا وَكَزَ الرَّجلَ بعصَاهُ فَقَتَلَهُ، فَمَاذَا حَدَثَ؟ إِنَّهُ لم يُبَرِّرْ فِعْلَتَهُ، ولمْ يُراوِغْ لإيجادِ المَخارِجِ مِنْ هَذَا المأزِقِ وَلَكِنَّه اعتَرَفَ ابتَدَاءً أَنَّ مَا فَعَلَهُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ {هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}، ثَمَّ قَامَ لِيُقَدِّمَ الاعتذَارِ وَيَطْلُبَ العَفْوَ والصَّفْحَ وَالمغْفِرَةَ مِنْ الغَفَّارِ {قال رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [القصص: 15-16].

وَيُونُسُ - عَلَيهِ السَّلامُ - اعتَرَفَ بما اقتَرَفَ، فَنَادَى رَبَّه فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ، ظُلمَةِ اللَّيلِ، وظُلمَةِ البَحْرِ، وظُلمَةِ بَطنِ الحُوتِ، فَيَا تَرَى مَاذَا كَانتْ نَتيجَةُ الاعتِرَافِ، واللُّجُوءُ إِلَى اللهِ؟ فَرَّجَ اللهُ كُرْبَتَهُ، ونَجَّاهُ من الغَمِّ. وَلَيسَ الفَرجُ وكشفُ الكُرُبَاتِ للأنبياءِ فَقَطْ، بَلْ كَذَلِكَ للمُؤمنِينَ المعْتَرِفِينَ بِتَقْصِيرِهِم وَفَقْرِهِم، قَالَ تَعَالَى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء: 87، 88].

[2125] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

[2126] أخرجه مسلم (2749)

إنَّ الشَّجاعةَ في الاعتِذارِ والاعتِرَافِ بالخَطَأِ، وتَرْكِ العِنَادِ يُمْكِنُ أَنْ يُؤَدِّيَ إلى التَّعلُّمِ مِنْ الأَخْطَاءِ، كَمَا أَنَّهُ يُسَاعِدُ فِي بِنَاءِ العَلاقَاتِ الجَيِّدَةِ مَعَ الآخَرِينَ حَيْثُ يُزِيلُ الأَحْقَادِ، وَيَقْضِي عَلَى الحَسَدِ، وَيَدْفَعُ عَنْ صَاحِبِهِ سُوءَ الظَّنِّ بِهِ، وَهُوَ أَيْضًا دَلِيلٌ عَلَى التَّوَاضُعِ وَالاحْتِرَامِ، كَمَا أَنَّهُ يُعَدُّ عَلَامَةً عَلَى النُّضُوجِ والشَّجَاعَةِ وَالقُوَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ.

وَهُنَاكَ خُلُقٌ آخَر تَحْتَاجُهُ الشَّجَاعَةُ لِئَلَّا يُؤَدِّي إِلَى التَّهَوُّرِ وَالجُنُونِ وَهُوَ الخُلُقُ القَادِمُ: خُلُقُ الحِكْمَةِ.

المطلب الثامن: موانعُ اكتسابِ الشَّجاعةِ

1- تَرْكُ الاسْتِعَانَةِ باللهِ.
2- الجَهلُ بما لِخُلُقِ الشَّجاعةِ من مَكَانَةٍ وَفَضْلٍ.
3- انْعِدَامُ الثِّقةِ بالنَّفسِ.
4- التَّربيةُ على الذُّلِّ والمهَانَةِ، مَعَ غِيابِ القُدوةِ.
5- مُصَاحَبَةُ الضُّعَفَاءِ والجُبَنَاءِ.
6- الحِرصُ على الدُّنيا ومَتَاعِهَا.
7- التَّأثيرُ الإعلاميُّ وأثرُه السَّيِّئُ في محاربةِ الأخلاقِ الفاضلةِ، ومنها الشَّجاعةُ.
8- نُدْرَةُ البِيئَاتِ التِي تُفْرِزُ لَنَا مَنْ يَحْمِلُ صِفَةَ الشَّجَاعَةِ والجَرْأَةِ فِي الحَقِّ.
9- عَدَمُ مُطَالَعَةِ السِّيرَةِ النَبَوِيَّةِ وَسيرةِ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ وقصَصِ العُظَمَاءِ والشُّجْعَانِ وَالأَبْطَالِ الحَقِيقِيينَ وَأَصْحَابِ المُرُوءَةِ.

المطلب التاسع: الوسائلُ المُعينةُ على اكتسابِ خُلُقِ الشَّجاعةِ

إِنَّ الشَّجَاعَةَ تُمَثِّلُ الرَّكِيزَةَ الْأَسَاسِيَّةَ؛ لتحقيق الْعَدَالَةِ والدِّفَاعِ عَنِ الْحُقُوقِ، وَهِيَ الصِّفَةُ الَّتِي تُمَكِّنُ الْأُمَمَ وَالْجَمَاعَاتِ مِنْ مُوَاجَهَةِ التَّحَدِّيَاتِ وَالتَّصَدِّي لِلظُّلْمِ وَالاِسْتِبْدَادِ، وإِلَيْكَ بَعْضَ السُّبلِ لِكَيْفِيَّةِ اكتسابها:

1. اللُّجوءُ إلى اللهِ بالدُّعاءِ والإكثارُ من الذِّكرِ:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال: 45].

ومن الأدعيةِ الواردةِ في القرآنِ الكريمِ: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147]، وقال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173].

وكان من دعاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „اللَّهمَّ مُنْزِلَ الكتابِ، ومجريَ السَّحابِ، وهازمَ الأحزابِ، اهزِمْهم وانصُرْنا عليهم“.[2127]

2. ترسيخُ عقيدةِ الإيمانِ بالقضاءِ والقَدَرِ، وأنَّ الإنسانَ لن يصيبَه إلَّا ما كتب اللهُ له.
3. ترسيخُ عقيدةِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ.
4. تَعْزِيزُ فَرِيضَةِ طَلَبِ العِلمِ.
5. غرسُ اليقينِ بما أعدَّه اللهُ من النَّعيمِ في الجنَّةِ للذين يقاتِلون في سبيلِ اللهِ.
6. التَّدريبُ العَمَليُّ بدفعِ الإنسانِ إلى المواقِفِ المحرِجةِ التي لا يتخلَّصُ منها إلَّا بأن يتشَجَّعَ.

[2127] أخرجه البخاري 2966 ومسلم 1742

7. الاقتناعُ بأنَّ معظَمَ مثيراتِ الجُبنِ لا تعدو كونَها مجرَّدَ أوهامٍ لا حقيقةَ لها.
8. القُدوةُ الحَسَنةُ وعَرضُ مشاهِدِ الشُّجعانِ، وذِكرُ قَصَصِهم.
9. إثارةُ دوافعِ التَّنافُسِ، ومكافأةُ الأشجَعِ بعطاءاتٍ ماديَّةٍ.[2128]
10. التَّقرُّبُ إلى اللهِ والاستعانةُ به وتَركُ العَجزِ؛ ففي الحديثِ القُدسيِّ: „وما يزالُ عبدي يتقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كُنتُ سَمعَه الذي يَسمَعُ به، وبصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويَدَه التي يَبطِشُ بها، ورِجلَه التي يمشي عليها[2129]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „واستَعِنْ باللهِ ولا تَعجِزْ".[2130]
11. مجاهدةُ النَّفسِ وإعدادُ العُدَّةِ والتَّدريبُ على خوضِ الصِّعابِ.
12. تذكُّرُ الموتِ ومعرفةُ أفضَلِ حالاتِه التي إذَا مَاتَ عَلَيهَا الإنسَانُ عَظُمَ بها أجرُه في الآخِرةِ؛ فمقامُ الشَّهادةِ في قتالِ الكُفَّارِ أعظمُ وأفضَلُ، وكما في قولِ الشَّاعرِ:
من لم يمُتْ بالسَّيفِ مات بغيرِه
تنوَّعَت الأسبابُ والموتُ واحِدٌ[2131]
13. معرفةُ الآثارِ السَّيِّئةِ والعواقِبِ الوخيمةِ للجُبنِ.
14. الزُّهدُ في الدُّنيا وتركُ التَّعلقِ بها والحِرصِ عليها.
15. مصاحبةُ الشُّجعانِ من الأخيارِ.
16. النَّشأةُ والتَّربيةُ التي تُكْسِبُ الأطفالَ العِزَّةَ والكرامةَ، ورَبْطُهم بالنَّماذجِ والقُدواتِ التي من شأنِها غرسُ خُلُقِ الشَّجاعةِ في نفوسِهم.
17. بِنَاءُ وَتَنْمِيَةُ الْقَادَةِ الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ الْقُوَّةَ الْجَسَدِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ، وَالشَّجَاعَةَ لِلدِّفَاعِ عَنْ قَضَايَا الأُمَّةِ، وَمُوَاجَهَةِ الظَّالِمِينَ بالعِلْمِ والسِّياسَةِ والاقْتِصَادِ والتَّخْطِيطِ والتَّرْبِيَةِ.
18. تَعْزِيزُ رُوحِ الِانْتِمَاءِ لِلدِّينِ والعَقِيدَةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ ونَحْوِهَا، حَيْثُ يَكُونُ الْأُفْرَادُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلدِّفَاعِ عَنْهَا وَحِمَايَتِهَا.
19. مُكَافَحَةُ الْفَسَادِ، وَغَرْسُ وَتَعْزِيزُ الشَّفَافِيَّةِ فِي الْحُكْمِ وَالْإِدَارَةِ والمَراكزِ الدَّعْوِيَّةِ والجَمعياتِ الخَيريَّةِ، حَيْثُ يُمْكِنُ لِلشَّجَاعَةِ أَنْ تَظْهَرَ فِي مُوَاجَهَةِ الْفَسَادِ وَالْمُطَالَبَةِ بِالْعَدَالَةِ ومُحاسَبةِ المُفسِدينَ.
20. تَعْزِيزُ الْوَحْدَةِ وَالتَّضَامُنِ دَاخِلِ الْجَمَاعَةِ وَبَيْنَ أبناءِ الأمَّةِ، حَيْثُ يُمْكِنُ لِلشَّجَاعَةِ أَنْ تَظْهَرَ فِي التَّصَدِّي لِلِانْقِسَامَاتِ وَالتَّحَدِّيَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ.
21. تَعْزِيزُ الْحِوَارِ بَيْنَ الْمُسْلِمِين، وَحَلِّ النِّزَاعَاتِ بِطُرُقٍ سِلْمِيَّةٍ، وَلَكِنْ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ اسْتِعْدَادٌ لمواجَهَةِ ومُحاسَبَةِ الفَاسِدِينَ أَوْ الظَّالِمِينَ بِشَجَاعَةٍ، وَبِقَولِ الحَقِّ عِنْدَمَا تَفْشَلُ السُّبُلُ الحِواريَّةُ فِي حَلِّ النِّزَاعَاتِ.

المطلب العاشر: ضوابطُ استعمالِ الشَّجاعةِ

1- الاستعانةُ بها في طاعةِ اللهِ، ومن ذلك الجهادُ في سبيلِ اللهِ:

فيجبُ استعمالُ الشَّجاعةِ فيما يُقَرِّبُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، من مقارعةِ الأعداءِ، وَالجهادِ في سبيلِ اللهِ بِضَوابِطَ شَرْعِيَة.
قال ابنُ تَيميَّةَ: „ومِمَّا ينبغي أن يُعلَمَ أنَّ الشَّجاعةَ إنما فضيلتُها في الدِّينِ لأجلِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وإلَّا فالشَّجاعةُ إذا لم يستَعِنْ بها صاحبُها على الجهادِ في سبيلِ اللهِ كانت إمَّا وَبالًا عليه إنْ استعانَ بها صاحِبُها على طاعةِ الشَّيطانِ، وإمَّا غيرَ

[2128] الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن الميداني. بتصرف 2/568
[2129] أخرجه البخاري 6502 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.
[2130] أخرجه مسلم 2664 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.
[2131] الذخائر والعبقريات للبرقوقي 1/ 291

نافعةٍ له إن استعملها فيما لا يُقرّبُه إلى اللهِ تعالى؛ فشجاعةُ عَليٍّ والزُّبيرِ وخالدٍ، وأبي دُجانةَ والبراءِ بنِ مالكٍ وأبي طلحةَ، وغيرِهم من شُجعانِ الصَّحابةِ، إنَّما صارت من فضائِلِهم؛ لاستعانتِهم بها على الجهادِ في سبيلِ اللهِ؛ فإنَّهم بذلك استحقُّوا ما حَمِد اللهُ به المجاهِدين، وإذا كان كذلك فمعلومٌ أنَّ الجهادَ منه ما يكونُ بالقتالِ باليدِ، ومنه ما يكونُ بالحُجَّةِ والبيانِ والدَّعوةِ؛ قال اللهُ تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} [الفرقان:51-52]، فأَمَرَهُ اللهُ سُبحانَه وتعالى أن يجاهِدَ الكُفَّارَ بالقرآنِ جِهادًا كبيرًا، وهذه السُّورةُ مَكِّيَّةٌ نزلت بمكَّةَ قبل أن يهاجِرَ النَّبيُّ، وقبل أن يؤمَرَ بالقتالِ، ولم يؤذَنْ له، وإنما كان هذا الجهادُ بالعِلمِ والقَلبِ، والبيانِ والدَّعوةِ لا بالقتالِ، وأمَّا القتالُ فيحتاجُ إلى التَّدبيرِ والرَّأيِ، ويحتاجُ إلى شجاعةِ القلبِ، وإلى القتالِ باليدِ، وهو إلى الرَّأيِ والشَّجاعةِ في القَلبِ في الرَّأسِ المطاعِ أحوَجُ منه إلى قوَّةِ البَدَنِ".[2132]

2- أن تكونَ في مَوضِعِها:

فيُقدِمُ الشُّجاعُ في موضِعِ الإقدامِ، ويَثبُتُ في موضِعِ الثَّباتِ، ويُحجِمُ في موضِعِ الإحجامِ.

قال ابنُ القَيِّمِ: "ولمَّا كانت الشَّجاعةُ خُلُقًا كريمًا من أخلاقِ النَّفسِ تَرَتَّبَ عليها أربعةُ أمورٍ، وهي مظهَرُها وثَمَرتُها: الإقدامُ في موضِعِ الإقدامِ، والإحجامُ في موضعِ الإحجامِ، والثَّباتُ في موضعِ الثَّباتِ، والزَّوالُ في موضِعِ الزَّوالِ. وضِدُّ ذلك مخِلٌّ بالشَّجاعةِ، وهو إمَّا جبنٌ، وإمَّا تهوُّرٌ، وإمَّا خفَّةٌ وطَيشٌ".[2133]

3- أن تقترنَ بالرَّأيِ الصَّحيحِ:

قال ابنُ القَيِّمِ: "وإذا اجتمع في الرَّجُلِ الرَّأيُ والشَّجاعةُ فهو الذي يصلُحُ لتدبيرِ الجيوشِ وسياسةِ أمرِ الحَربِ. والنَّاسُ ثلاثةٌ: رجلٌ، ونصفُ رجلٍ، ولا شيءَ؛ فالرَّجلُ: من اجتَمَعَ له أصالةُ الرَّأيِ والشَّجاعةُ، فهذا الرَّجُلُ الكاملُ... ونِصفُ الرَّجُلِ: وهو من انفَرَدَ بِأحَدِ الوصفينِ دونَ الآخَرِ، والذي هو لا شَيءَ: من عَرِيَ من الوصفينِ جميعًا".[2134]

وقال أيضًا: "وصِحَّةُ الرَّأيِ لقاحُ الشَّجاعةِ، فإذا اجتمعا كان النَّصرُ والظَّفَرُ، وإن قعدا فالخِذلانُ والخَيبةُ، وإن وُجِد الرَّأيُ بلا شجاعةٍ فالجُبنُ والعَجزُ، وإن حَصَلت الشَّجاعةُ بلا رأيٍ فالتَّهوُّرُ والعَطَبُ، والصَّبرُ لِقاحُ البصيرةِ، فإذا اجتمعا فالخيرُ في اجتماعِهما، قال الحسَنُ: إذا شئتَ أن ترى بصيرًا لا صبرَ له رأيتَه، وإذا شئتَ أن ترى صابرًا لا بصيرةَ له رأيتَه، فإذا رأيتَ صابرًا بصيرًا فذاك".[2135]

المطلب الحادي عَشَرَ: نماذِجُ في الشَّجاعةِ

أولا: نماذِجُ من شجاعةِ الأنبياءِ والمُرسَلين عليهم السَّلامُ:

1- إبراهيمُ عليه السَّلامُ:

فَمِن مَظاهِرِ شَجاعَةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ شَجاعَتُه في الصَّدعِ بالحقِّ، وشجاعتُه في تحطيمِ الأصنامِ، {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ * قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ

[2132] منهاج السنة النبوية 8/63

[2133] الفروسية، ص: 504

[2134] المصدر السابق، ص: 505

[2135] الفوائد لابن القيم، ص: 200

لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ * قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ * قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ} [الأنبياء: 51–71]، ومنها شجاعتُه في مواجهةِ النُّمروذِ {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورة البقرة: 258].

2- موسى عليه السَّلامُ:

وقد تعدَّدت في قصَّةِ نبيِّ اللهِ موسى عليه السَّلامُ المواقِفُ التي تُظهرُ شجاعتَه، ونُفرِدُ منها ما قصَّه اللهُ عزَّ وجلَّ من أمرِه مع فرعونَ، وقد أمر اللهُ سُبحانَه نبيَّه موسى عليه السَّلامُ أن يذهَبَ إليه ويدعوه إلى توحيدِ اللهِ سُبحانَه، فأبى عليه فِرعونُ {وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَـٰغِرِينَ} [الأعراف: 103- 119].

3- داودُ عليه السَّلامُ:

قال اللهُ تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: 250 - 251].

قال ابنُ كثيرٍ: „قولُه تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} فيه دلالةٌ على شَجاعةِ داودَ عليه السَّلامُ وأنَّه قتله قتلًا أذَلَّ به جُندَه وكَسَر جيشَه".[2136]

وقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن داودَ عليه السَّلامُ: „كان يصومُ يومًا ويُفطِرُ يومًا، ولا يَفِرُّ إذا لاقى".[2137]

ثانيا: نماذج من شَجاعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

مَا مِن شَكٍّ أَنَّ شَجَاعَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُونَهَا كُلُّ شُجَاعَةٍ وَمَن تَتَبَّعْ سِيرَتَهُ، عَرَفَ ذَلِكَ يَقِينًا وإِنَّ شَجَاعَتَهُ وَاستِقَامَتَهُ فِي سَبِيلِ العَدَالَةِ وَالحَقِّ تُعَدُّ قُدُوةً لِلمُسْلِمِينَ وَلِلعَالَمِ بِأَسْرِهِ.

إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ سُنَّتَهُ وَيَأْخُذُونَ دُروسَ الشَّجَاعَةِ وَالصِّدْقِ وَالحِكْمَةِ والتَّقوى مِنْ حَيَاتِهِ، يَجِدُونَ القُوَّةَ وَالإِلْهَامَ لِمُوَاجَهَةِ التَّحَدِّيَاتِ وَالمُحَافَظَةِ عَلَى العَدَالَةِ وَحقُوقِ الإِنْسَانِ.

[2136] قصص الأنبياء 2/ 262

[2137] أخرجه البخاري 1977، ومسلم 1159 من حديثِ عبد اللهِ بنِ عمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما.

إِنَّ شَجَاعَتَهُ وَاستِقَامَتَهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ وَالْمُحَافَظَةَ عَلَى حُقُوقِ النَّاسِ جَعَلَتْهُ قُدْوةً لِلأَجْيَالِ اللاَّحِقَةِ وَمَثَلًا يُحْتَذَى بِهِ فِي كُلِّ الأُمُورِ.

وكَانَ الصَّحَابَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- إِذَا اشْتَدَّتِ الْحَرْبُ يَحْتَمُونَ خَلْفَ ظَهْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَجْعَلُونَهُ فِي الْمُقَدَّمَةِ، وَفِي هَذَا:

1- يَقُولُ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "كُنَّا إِذَا اشْتَدَّتِ الْبَأْسَاءُ (الْحَرْبُ) احْتَمَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ".[2138]

2- وَهذا الْبَرَاءُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- صَقْرُ حروبِ اليَمَامَة الذي فَتَحَ حَديقَةَ المَوتِ[2139] يَقُولُ: "وَلَقَدْ كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِالرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ الَّذِي يُحَاذِي بِهِ".

وفي رواية وَعَنِ البَرَاء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: "كُنّا وَالله إِذَا احْمَرّ البأْس نَتّقِي بِهِ، وَإِنّ الشُّجَاعَ مِنّا لَلّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النّبِيّ صلى الله عليه وسلم".[2140]

3- هذا عليٌّ رَضِيَ اللهُ عنه وهو صاحِب الشَّجاعة والإقدام والعَزيمةِ والإرادَة قال: „لقد رأيتُنا يومَ بدرٍ ونحن نلوذُ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو أقربُنا إلى العَدُوِّ، وكان من أشَدِّ النَّاسِ يومَئذٍ بأسًا".[2141]

4- قال رجلٌ للبراءِ رَضِيَ اللهُ عنه: „يا أبا عُمارةَ، أفرَرْتُم يومَ حُنَينٍ؟! قال: لا واللهِ، ما ولَّى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولكِنَّه خرج شُبَّانُ أصحابِه وأخفَّاؤهم[2142] حُسَّرًا[2143] ليس عليهم سلاحٌ أو كثيرُ سلاحٍ، فلَقُوا قومًا رُماةً لا يكادُ يَسقُطُ لهم سَهمٌ؛ جَمعَ هوازِنَ وبني نَصرٍ، فرشقوهم رشقًا ما يكادون يُخطِئون، فأقبَلوا هناك إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على بغلتِه البيضاءِ، وأبو سفيانَ بنُ الحارِثِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ يقودُ به، فنزل فاستنصر، وقال: أنا النَّبيُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبدِ المطَّلِب، ثمَّ صَفَّهم".[2144]

5- وعن العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: „شَهِدتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنَينٍ، فلَزِمتُ أنا وأبو سفيانَ بنُ الحارِثِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم نفارِقْه، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على بغلةٍ له بيضاءَ أهداها له فروةُ بنُ نُفاثةَ الجُذاميُّ، فلمَّا التقى المسلمون والكُفَّارُ ولَّى المسلمون مُدبِرين، فطَفِق رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يركُضُ بغلتَه قِبَلَ الكُفَّارِ، قال عبَّاسٌ: وأنا آخِذٌ بلِجامِ بغلةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكُفُّها؛ إرادةَ أن لا تُسرِعَ، وأبو سفيانَ آخِذٌ بركابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيْ عبَّاسِ، نادِ أصحابَ السَّمُرةِ[2145]. فقال عبَّاسٌ -وكان رجلًا صَيِّتًا[2146]-: فقُلتُ بأعلى صوتي: أين أصحابُ السَّمُرةِ؟ قال: فواللهِ لكأنَّ عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي عَطفةُ البَقَرِ على أولادِها! فقالوا: يا لبَّيك يا لبَّيك! قال: فاقتتلوا والكُفَّارُ، والدَّعوةُ في الأنصارِ يقولون: يا معشَرَ الأنصارِ، يا معشَرَ الأنصارِ، قال: ثمَّ قَصُرت الدَّعوةُ على بني الحارِثِ بنِ الخزرجِ، فقالوا: يا

[2138] أخرجه الإمام أحمد 1/ 156 وأبو الشيخ في أخلاق النبي ص 57 والبغوي في الأنوار برقم 256

[2139] هو من أبطال الصحابة، شهد عدد من غزوات مع النبي صلى الله عليه وسلم وفتوح العراق وفارس، واستشهد في فتح تستر، وهو أخ الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنهما.

[2140] أخرجه مسلم برقم 1776

[2141] أخرجه أحمد 654، وابن أبي شيبة 33281، وابن أبي عاصم في الجهاد 251. صحَّح إسناده ابن تَيميَّةَ في الجواب الصحيح 5/458، وأحمد شاكر في تخريج مسند أحمد 2/64، وشعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 654، وجوده العراقي في تخريج الإحياء2/467

[2142] الأخفَّاء: المسارِعون المستعجِلون/ يُنظَر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض130 /6

[2143] أي: بغيرِ دُروعٍ، وقد فسَّره بقولِه: ليس عليهم سلاحٌ يُنظَر: شرح النووي على مسلم 12/118

[2144] أخرجه البخاري 2930، ومسلم 1776 واللفظ له.

[2145] السَّمُرةُ: شَجَرةُ الطَّلحِ. يُنظَر: الإفصاح لابن هبيرة 4/162، النهاية لابن الأثير399 /2

[2146] صيِّتًا: أي: جهيرَ الصَّوتِ. يُنظَر: فتح الباري لابن حجر146 /1

بني الحارِثِ بنِ الخزرجِ، يا بني الحارثِ بنِ الخزرجِ، فنظر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو على بغلتِه كالمتطاوِلِ عليها إلى قتالِهم، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هذا حينَ حَمِي الوطيسُ"[2147]. [2148]

6- وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحسَنَ النَّاسِ، وأجوَدَ النَّاسِ، وأشجَعَ النَّاسِ، ولقد فَزِعَ أهلُ المدينةِ ذاتَ ليلةٍ، فانطلق النَّاسُ قِبَلَ الصَّوتِ، فاستقبَلَهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد سَبَق النَّاسَ إلى الصَّوتِ! وهو يقولُ: "لن تُراعُوا، لن تُراعُوا[2149]! وهو على فَرَسٍ لأبي طَلحةَ عُرْيٍ ما عليه سَرْجٌ! في عُنُقِه سَيفٌ، فقال: لقد وجَدْتُه بحرًا[2150]، أو إنَّه لبَحرٌ".[2151]

7- عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: „لَمَّا نزَلتْ: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: 214]، صَعِد النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّم على الصَّفا، فجَعَلَ يُنادي: يا بَني فِهرٍ، يا بَني عَدِيٍّ -لِبُطونِ قُريشٍ- حتَّى اجتَمعوا، فجَعَل الرَّجلُ إذا لم يَستطِعْ أنْ يَخرُجَ أرسَل رَسولًا ليَنظُرَ ما هو، فجاءَ أبو لَهَبٍ وقُريشٌ، فقال: أرأيتَكُم لو أخبرْتُكم أنَّ خَيلًا بالوادي تُريدُ أنْ تُغِيرَ عليكم، أكُنْتُم مُصَدِّقيَّ؟! قالوا: نعَمْ، ما جرَّبْنا عليك إلَّا صِدْقًا، قال: فإنِّي نَذيرٌ لكم بينَ يَديْ عَذابٍ شَديدٍ. فقال أبو لَهَبٍ: تبًّا لك سائِرَ اليومِ، ألهذا جمَعْتَنا؟! فنزَلتْ: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد: 1–2]".[2152]

8- وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: „أنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كتب إلى كِسرى، وإلى قيصَرَ، وإلى النَّجاشيِّ، وإلى كُلِّ جَبَّارٍ، يدعوهم إلى اللهِ تعالى"، وليس بالنَّجاشيِّ الذي صلَّى عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.[2153]

9- ومن ذلك كتابةُ النَّبيِ لهِرَقلَ، وفيها: „بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، مِن مُحمَّدٍ عبْدِ اللهِ ورَسولِه، إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّومِ، سَلامٌ على مَن اتَّبَعَ الهُدى، أمَّا بعْدُ؛ فإنِّي أدْعوك بدِعايةِ الإسْلامِ، أسْلِمْ تَسْلَمْ، وأسْلِمْ يُؤْتِك اللهُ أجْرَك مَرَّتَينِ، فإن تَوَلَّيْتَ فعليك إثْمُ الأريسيِّينَ، و: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 64]".[2154]

10- وفي قِصَّةِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ جاء بُدَيلُ بنُ وَرقاءَ الخُزاعيُّ في نَفَرٍ من قومِه من خُزاعةَ، وكانوا عَيبَةَ[2155] نُصحِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أهلِ تِهامةَ، فقال: إني تركتُ كَعبَ بنَ لُؤَيٍّ، وعامِرَ بنَ لُؤَيٍّ نزلوا أعدادَ مياهِ الحُدَيبيةِ، ومعهم العُوذُ المطافيلُ، وهم مقاتِلوك وصادُّوك عن البيتِ، فقال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّا لم نجئْ لقتالِ أحدٍ، ولكِنَّا جِئْنا معتَمِرين، وإنَّ قريشًا قد نهكَتْهم الحربُ، وأضرَّت بهم، فإن شاءوا مادَدْتُهم مُدَّةً[2156] ويُخَلُّوا بيني وبين النَّاسِ، فإن أظهَرْ فإن شاؤوا أن يدخُلوا فيما دخل فيه النَّاسُ فَعَلوا، وإلَّا فقد جمُّوا[2157]، وإن هم أبَوا فوالذي نفسي بيدِه لأقاتِلَنَّهم على أمري هذا حتى تنفَرِدَ سالفتي[2158]، وليُنفِذَنَّ اللهُ أمرَه"، فقال بُدَيلٌ: سأُبلغُهم ما تقولُ...".[2159]

[2147] حَمِي الوطيسُ: أي: اشتدَّت الحَربُ وتناهى القتالُ. والوطيسُ في الأصلِ: التَّنُّورُ، فشَبَّه الحربَ باشتعالِ النَّارِ ولهبِها. يُنظَر: كشف المشكل من حديثِ الصحيحين لابن الجوزي 10 /4

[2148] أخرجه مسلم 1775 مطوَّلًا.

[2149] وفي روايةٍ: لم تُراعوا بالميمِ فيهما، قيل: أي لا تراعوا، جَحدٌ بمعنى النَّهي، أي: لا تَفزَعوا. يُنظَر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني 32 /9

[2150] بحرًا: أي: واسعَ الجَري. يُنظَر: شرح النووي على مسلم 15/68

[2151] أخرجه البخاري 6033 واللفظ له، ومسلم 2307

[2152] أخرجه البخاري 4770 واللفظ له، ومسلم 208

[2153] أخرجه مسلم 1774

[2154] أخرجه البخاري 7 ومسلم 1773

[2155] أي: موضِعُ سِرِّه وأمانتِه، فشُبِّه الصَّدرُ الذي هو مستودَعُ السِّرِّ بالعَيبةِ التي هي مستودَعُ خيرِ الثِّيابِ. يُنظَر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني 444 /4

[2156] أي: جعَلْتُ بيني وبَيْنَهم مُدَّةً مُعَيَّنةً أترُكُ قتالَهم فيها. يُنظَر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني 4/445

[2157] أي: استراحوا. يُنظَر: كشف المشكل من حديثِ الصحيحين لابن الجوزي 53 /4

[2158] أي: حتى تنفَصِلَ رقبتي، أي: حتى أموتَ أو حتى أموتَ وأبقى منفردًا في قبري. يُنظَر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني 4/445

[2159] أخرجه البخاري 2731 و2732

11- عن جابرٍ قال: „أقبَلْنا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتى إذا كنَّا بذاتِ الرِّقاعِ قال: كنَّا إذا أتينا على شَجَرةٍ ظليلةٍ تركناها لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: فجاء رجلٌ من المُشرِكين وسيفُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُعلَّقٌ بشَجَرةٍ، فأخذ سيفَ نبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فاخترطه، فقال لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أتخافُني؟ قال: لا، قال: فمن يمنعُك مني؟ قال: اللهُ يمنعُني منك، قال: فتهدَّده أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأغمد السَّيفَ، وعلَّقَه".[2160]

12- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „ولولا أن أشُقَّ على أمَّتي ما قعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، ولوَدِدْتُ أنِّي أُقتَلُ في سبيلِ اللَّهِ ثمَّ أَحْيا، ثمَّ أُقتَلُ ثمَّ أَحْيا، ثمَّ أُقتَلُ".[2161]

وَهَكَذَا كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشجَعَ النَّاسِ، فَتَعَلَّمَ الصَّحَابَةُ الشُّجَاعَةَ مِنْهُ، وَكَانُوا قادَةً أَكْفَاءَ وَقُدْوَةً فِي التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ.

ثالثا: نماذِجُ من شَجاعةِ الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عنهم:

„قد كان الموروثُ صلَواتُ اللهِ وسلامُه عليه أشجَعَ النَّاسِ، فكذلك وارثُه وخليفتُه من بعدِه أشجعُ الأمَّةِ بالقياسِ، ويكفي أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ سهمٌ من كنانتِه، وخالدُ بنُ الوليدِ سِلاحٌ من أسلحتِه، والمهاجِرون والأنصارُ أهلُ بيعتِه وشوكتُه، وما منهم إلَّا من اعترف أنَّه يستَمِدُّ من ثباتِه وشَجاعَتِهِ".[2162]

فضَرَبَ الصَّحَابَةُ أَرْوَعَ الْأَمْثِلَةِ فِي الشَّجَاعَةِ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ:

- **شجاعةُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عنه:**

قال ابنُ القَيِّمِ رحمه اللهُ: „وكان الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عنه أشجَعَ الأمَّةِ بعدَ رَسولِ اللهِ... ولو لم يكُنْ له إلَّا ثباتُ قَلبِه يومَ الغارِ وليلتَه، وثباتُ قلبِه يومَ بدرٍ، وهو يقولُ للنَّبيِّ: يا رسولَ اللهِ، كفاك بعضُ مناشَدتِك ربَّك، فإنَّه منجِزٌ لك ما وعدك، وثباتُ قلبِه يومَ أحُدٍ، وقد صرخ الشَّيطانُ في النَّاسِ بأنَّ محمَّدًا قد قُتِل، ولم يبقَ أحدٌ مع رسولِ اللهِ إلَّا دونَ عِشرين في أُحُدٍ، وهو مع ذلك ثابتُ القلبِ ساكِنُ الجأشِ، وثباتُ قلبِه يومَ الخندقِ وقد زاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجِرَ، وثباتُ قلبِه يومَ الحُدَيبيَةِ، وقد قَلِق فارسُ الإسلامِ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ، حتى إنَّ الصِّدِّيقَ ليُثَبِّتُه ويُسَكِّنُه ويُطَمئنُه، وثباتُ قلبِه يومَ حُنَينٍ حيثُ فَرَّ النَّاسُ، وهو لم يَفِرَّ، وثباتُ قلبِه حينَ النَّازلةِ التي اهتزَّت لها الدُّنيا أجمعَ، وكادت تزولُ لها الجبالُ، وعَقَرت لها أقدامُ الأبطالِ، وماجت لها قلوبُ أهلِ الإسلامِ كَموجِ البحرِ عِندَ هُبوبِ قواصِفِ الرِّياحِ، وصاح لها الشَّيطانُ في أقطارِ الأرضِ أبلَغَ الصِّياحِ، وخرج النَّاسُ بها من دينِ اللهِ أفواجًا، وأثار عدوُّ اللهِ بها أقطارَ الأرضِ عَجاجًا، وانقطع لها الوحيُ من السَّماءِ، وكاد لولا دفاعُ اللهِ لطُمِس نجومُ الاهتداءِ، وأنكرت الصَّحابةُ بها قلوبَهم، وكيف لا وقد فقدوا رسولَهم من بَيْنِ أظهُرِهم، وحبيبَهم، وطاشت الأحلامُ، وغَشِيَ الآفاقَ ما غَشِيها من الظَّلامِ، واشرأبَّ النِّفاقُ، ومدَّ أهلُه الأعناقَ، ورفع الباطِلُ رأسًا كان تحت قَدَمِ الرَّسولِ موضوعًا، وسمع المُسلِمون من أعداءِ اللهِ ما لم يكنْ في حياتِه بَيْنَهم مسموعًا، وطَمِع عدوُّ اللهِ أن يعيدَ النَّاسَ إلى عبادةِ الأصنامِ، وأن يَصرِفَ وجوهَهم عن البيتِ الحرامِ، وأن يصُدَّ قلوبَهم عن الإيمانِ والقرآنِ، ويدعوهم إلى ما كانوا عليه من التَّهوُّدِ والتَّمجُّسِ والشِّركِ، وعبادةِ الصُّلبانِ، فشَمَّر الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عنه من جِدِّه عن ساقٍ غيرِ خَوَّارٍ، وانتضى سيفَ عزمِه الذي هو ثاني ذي الفَقارِ، وامتطى من ظهورِ عزائمِه جوادًا لم يكُنْ يكبو

[2160] أخرجه البخاري 4136، ومسلم 843 واللفظ له.

[2161] أخرجه البخاري 36

[2162] الفروسية لابن القيم ص: 502

يومَ السِّباقِ، وتقدَّم جنودَ الإسلامِ فكان أفرَسُهم إنما همُّه اللَّحاقُ، وقال: واللهِ لأجاهِدَنَّ أعداءَ الإسلامِ جُهدي، ولأصْدُقَنَّهم الحربَ حتى تنفَرِدَ سالفتي، أو أُفرَدَ وحدي، ولأدخِلَنَّهم في البابِ الذي خرجوا منه، ولأرُدَّنَّهم إلى الحقِّ الذي رغِبوا عنه، فثبَّت اللهُ بذلك القلبَ -الذي لو وُزِن بقلوبِ الأمَّةِ لرَجَحَها- جيوشَ الإسلامِ، وأذَلَّ بها المُنافِقين والمرتدِّين، وأهلَ الكتابِ وعَبَدةَ الأصنامِ، حتَّى استقامت قناةُ الدِّينِ من بعدِ اعوجاجِها، وجرت المِلَّةُ الحنيفيَّةُ على سَنَنِها ومنهاجِها، وتولَّى حزبُ الشَّيطانِ وهم الخاسرون، وأذَّن مؤذِّنُ الإيمانِ على رؤوسِ الخلائقِ {فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: 56].

هذا وما ضَعُفَت جيوشُ عَزَماتِه، ولا استكانت ولا وَهَنَت، بل لم تَزَلِ الجيوشُ بها مؤيَّدةً ومنصورةً، وما فَرِحت عزائمُ أعدائِه بالظَّفَرِ في موطنٍ من المواطِنِ، بل لم تَزَلْ مغلوبةً مكسورةً، تلك لعَمْرُ اللهِ الشَّجاعةُ التي تضاءلت لها فُرسانُ الأمم، والهمَّةُ التي تصاغرت عندها عَلِيَّاتُ الهِمَمِ، ويحقُّ لصِدِّيقِ الأمَّةِ أن يَضرِبَ من هذا المغنَمِ بأوفَرِ نصيبٍ، وكيف لا وقد فاز من ميراثِ النُّبُوَّةِ بكمالِ التَّعصيبِ؟!".[2163]

- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: „لَمَّا تُوُفِّيَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واستُخلِف أبو بكرٍ، وكَفَر من كَفَر من العَرَبِ، قال عُمَرُ: يا أبا بكرٍ، كيف تقاتِلُ النَّاسَ، وقد قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „أُمِرْتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتَّى يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فمَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقد عَصَم منِّي مالَه ونَفْسَه إلَّا بحَقِّه، وحِسابُه على اللهِ" قال أبو بكرٍ: واللهِ لأقاتِلَنَّ من فَرَّق بين الصَّلاةِ والزَّكاةِ؛ فإنَّ الزَّكاةَ حَقُّ المالِ، واللهِ لو منَعوني عِقالًا[2164] كانوا يؤدُّونَه إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لقاتَلْتُهم على مَنْعِها، قال عُمَرُ: فواللهِ ما هو إلَّا أن رأيتُ أنْ قد شرَحَ اللهُ صَدْرَ أبي بكرٍ للقِتالِ، فعَرَفْتُ أنَّه الحَقُّ".[2165]

- وعن عُروةَ بنِ الزُّبَيْرِ قال: „قُلتُ لِعَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ: أخبِرْني بأشَدِّ ما صَنَعَ المُشرِكونَ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: بَينا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصَلِّي بفِناءِ الكَعبةِ إذ أقبَلَ عُقْبةُ بنُ أبي مُعَيْطٍ، فأخذَ بمَنكِبِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولَوى ثَوبَه في عُنُقِه فخَنقَهُ خَنقًا شَديدًا، فأقبَلَ أبو بَكرٍ، فأخذَ بمَنكِبِه ودَفَعَ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ} [غافر: 28] „.[2166]

● شجاعةُ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه:

- عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: „ما زِلْنا أعزَّةً منذُ أسلَمَ عُمَرُ".[2167]

- وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللهُ عنهما قال: „لَمَّا أسلم عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه لم تعلَمْ قُرَيشٌ بإسلامِه، فقال: أيُّ أهلِ مكَّةَ أنشأُ للحديثِ؟ فقالوا: جميلُ بنُ مَعمَرٍ الجُمَحيُّ، فخرج إليه وأنا معه أتبَعُ أثَرَه، أعقِلُ ما أرى وأسمعُ، فأتاه فقال: يا جميلُ، إني قد أسلَمتُ، قال: فواللهِ ما ردَّ عليه كَلِمةً حتى قام عامدًا إلى المسجدِ، فنادى أندِيةَ قُرَيشٍ، فقال: يا مَعشَرَ قُرَيشٍ، إنَّ ابنَ الخطَّابِ قد صبَأ[2168]! فقال عُمَرُ: كَذَب، ولكني أسلمتُ وآمنتُ باللهِ، وصدَّقتُ رسولَه، فثاوَروه[2169]،

[2163] الفروسية ص: 502

[2164] العِقالُ: الحَبلُ الذي يُعقَلُ به البعيرُ الذي كان يؤخَذُ في الصَّدَقةِ؛ لأنَّ على صاحِبِها التَّسليمَ. يُنظَر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 280 /3

[2165] أخرجه البخاري 1399، ومسلم 20 واللفظ له.

[2166] أخرجه البخاري 3856

[2167] أخرجه البخاري3684

[2168] أي: خرج من دينِه إلى دينٍ آخَرَ. يُنظَر: كشف المشكل من حديثِ الصحيحين لابن الجوزي2/591

[2169] يقال: ثاوَر فلانٌ فلانًا: إذا واثبه. يُنظَر: جمهرة اللغة لابن دريد 1/424

فقاتَلَهم حتَّى ركَدَت الشَّمسُ[2170] على رؤوسِهم، حتَّى فتر عُمَرُ وجلس، فقاموا على رأسِه، فقال عُمَرُ: افعلوا ما بدا لكم، فواللهِ لو كنَّا ثلاثَمائةِ رجُلٍ لقد تركتُموها لنا أو تركْناها لكم...".[2171]

- وعن محمَّدِ بنِ إسحاقَ قال: „فلمَّا قَدِم عبدُ اللهِ بنُ أبي ربيعةَ وعمرُو بنُ العاصِ على قريشٍ ولم يُدرِكوا ما طلبوا من أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وردَّهم النَّجاشيُّ بما يكرهون، أسلم عُمَرُ بنُ الخطَّابِ، وكان رجلًا ذا شكيمةٍ[2172] لا يُرامُ ما وراء ظهرِه، امتنع به أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبحمزةَ بنِ عبدِ المطَّلِبِ، حتَّى غزا قريشًا، فكان عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ يقولُ: ما كنَّا نقدِرُ على أن نُصَلِّيَ عِندَ الكعبةِ حتَّى أسلم عُمَرُ بنُ الخطَّابِ، فلمَّا أسلَم قاتَل قريشًا حتَّى صلَّى عِندَ الكعبةِ وصلَّينا معه، وكان إسلامُ عُمَرَ بعدَ خروجِ من خرج من أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أرضِ الحبَشةِ".[2173]

- **شجاعةُ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه:**

عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: تَرَبَّى عَلَى الشَّجَاعَةِ وَالإِقْدَامِ مُنْذُ صِغَرِهِ، وَضَرَبَ لَنَا وَهُوَ صَغِيرٌ مَثَلاً رَائِعًا فِي الشَّجَاعَةِ والتَّضحِيَةِ عِنْدَمَا نَامَ فِي فِرَاشِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَثْنَاءَ الهِجْرَةِ؛ فَعَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْمَوْتِ بِسُيُوفِ الْمُشْرِكِينَ، لِيُسَهِّلَ مَهَمَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هِجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ سَالِمًا.

- وعن الشَّعبيِّ قال: „كان عليٌّ أشجَعَ النَّاسِ، تُقِرُّ له العَرَبُ بذلك..."[2174]

- عن ابنِ إسحاقَ قال: خَرَجَ - يَومَ الخَندَقِ - عمرُو بنُ عبدِ وُدٍّ فنادَى: مَن يُبارِزُ؟ فقامَ عليٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو مُقَنَّع فى الحَديدِ فقالَ: أنا لَها يا نَبِيَّ اللَّهِ. فقالَ: إنَّه عمرٌو، اجلِسْ.

ونادَى عمرٌو: ألا رَجُلٌ. وهو يُؤَنِّبُهُم ويَقولُ: أينَ جَنَّتُكُمُ التى تَزعُمونَ أنَّه مَن قُتِلَ مِنكُم دَخَلَها؟ أفَلا يَبرُزُ إلَيَّ رَجُل؟

فقامَ عليٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فقالَ: أنا يا رسولَ اللَّهِ. فقالَ: اجلِسْ.

ثُمَّ نادَى الثَّالِثَةَ وذَكَرَ شِعرًا، فقامَ عليٌّ فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ أنا. فقالَ: إنَّه عمرٌو، قال: وإن كان عَمرًا.

فأَذِنَ له رسولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَمَشَى إلَيه حَتَّى أتاه وذَكَرَ شِعرًا، فقالَ له عمرٌو: مَن أنتَ؟

قال: أنا عليٌّ.

قال: ابنُ عبدِ مَنافٍ؟

فقالَ: أنا عليُّ بنُ أبى طالِبٍ.

فقالَ: غَيرُكَ يا ابنَ أخِي مِن أعمامِكَ مَن هو أسَنُّ مِنكَ، فإنِّي أكرَهُ أن أُهَريقَ دَمَكَ.

فقالَ عليٌّ - رضي الله عنه -: لَكِنِّي واللهِ ما أكرَهُ أن أُهَريقَ دَمَكَ.

فغَضِبَ فنَزَلَ وسَلَّ سَيفَه كأنَّهُ شُعلَةُ نارٍ، ثُمَّ أقبَلَ نَحوَ عليٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُغضبًا، واستَقبَلَه عليٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بدَرَقَتِه، فضَرَبَه عمرٌو في الدَّرَقَةِ فقَدَّها، وأَثبَتَ فيها السَّيفَ وأَصابَ رأسَه بشَجَّةٍ، وضَرَبَه عليٌّ على حَبلِ العاتِقِ فسَقَطَ، وثارَ العَجاجُ، وسَمِعَ رسولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - التَّكبيرَ، فعَرَفَ أن عَليًّا قَد قَتَلَه".[2175]

[2170] يقال: ركَدَت الشَّمسُ رُكودًا: إذا قام قائمُ الظَّهيرةِ، فكأنَّ الشَّمسَ لا تسيرُ، وكُلُّ ثابتٌ في مكانِه فهو راكدٌ. يُنظَر: جمهرة اللغة لابن دريد 637 /2

[2171] أخرجه البزار 156 مختصرًا، وابن حبان 6879 واللفظ له، والضياء في الأحاديث المختارة 226 باختلاف يسير. صحَّحه ابنُ حبان، وحسَّن إسنادَه الشوكاني في در السحابة 99 وذكر أنَّه روي من حديثِ عُمَرَ نفسِه بإسنادٍ رجالُه ثقاتٌ، وجوَّده وقوَّاه ابن كثير في البداية والنهاية 3/79، وقوَّاه شعيب الأرناؤوط في تخريج صحيح ابن حبان 6879

[2172] الشَّكيمةُ: الأنفةُ والانتصارُ من الظُّلمِ، وفلانٌ ذو شكيمةٍ: إذا كان لا ينقادُ. يُنظَر: الصحاح للجوهري 5/ 1961، تاج العروس للزبيدي 469 /32

[2173] أخرجه ابن هشام في السيرة 1/342، وعبد الله بن أحمد في زوائد فضائل الصحابة 370

[2174] أنساب الأشراف للبلاذري 2/ 121

[2175] هذه الحادثة المشهورة عند أهل السير والتاريخ والتراجم، وقد نقلوها قاطبة في كتبهم ومصنفاتهم، وممن أخرجها: البيهقي في "السنن الكبرى" 18/ 431، وفي "الخلافيات" 5/ 233

- عن سَلَمةَ بنِ الأكوعِ رَضِيَ اللهُ عنه -في سياقِ ذِكرِه ليومِ خَيبَرَ- أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: „لأعطينَّ الرَّايةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ ورَسولَهُ، أو يُحِبُّهُ اللهُ ورَسولُهُ، قال: فأتيتُ عَلِيًّا، فجِئْتُ به أقودُهُ وهوَ أرمَدُ[2176]، حَتَّى أتيتُ به رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فبَسَق[2177] في عَينَيه فبَرَأ، وأعطاهُ الرَّايةَ، وخَرجَ مَرْحَبٌ، فقال:

قَد عَلِمَتْ خَيبَرُ أنِّي مَرْحَبُ

شاكي السِّلاحِ[2178] بَطَلٌ مُجَرَّبُ.

إذا الحُروبُ أقبَلَت تَلَهَّبُ.

فقال عَليٌّ:

أنا الَّذي سَمَّتْني أمّي حيدَرَهْ

كلَيْثِ غاباتٍ كَرِيهِ المَنْظَرَهْ.

أُوفِيهِم بالصَّاعِ كَيْلَ السَّندَرَهْ[2179].

قال: فضَربَ رَأسَ مَرْحَبٍ فقَتلَه، ثُمَّ كانَ الفَتحُ عَلى يَدَيه".[2180]

- **شجاعةُ الزُّبَيرِ رَضِيَ اللهُ عنه:**

- عن عَمرِو بنِ دينارٍ قال: كان يقالُ: „أشجَعُ النَّاسِ الزُّبَيرُ، وأبسَلُهم عليٌّ رَضِيَ اللهُ عنهما، والباسِلُ فوقَ الشُّجاعِ".[2181]

- وعن هشامِ بنِ عُروةَ، عن أبيه „أنَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قالوا للزُّبيرِ: ألَا تَشُدُّ فنَشُدَّ معك؟ قال: إنِّي إن شدَدْتُ كَذَبْتُم. فقالوا: لا نفعَلُ. فحَمَلَ عليهم حتى شقَّ صفوفَهم، فجاوَزَهم وما معه أحَدٌ، ثمَّ رَجَع مقبلًا، فأخذوا بلِجامِه، فضَربوه ضربَتَينِ: ضربةً على عاتِقِه بينهما ضربةٌ ضُرِبَها يومَ بَدرٍ. قال عُروةُ: فكُنتُ أدخِلُ أصابعي في تلك الضَّرَباتِ ألعَبُ وأنا صغيرٌ! ".[2182]

- وعن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: „كُنتُ يَومَ الأحزابِ جُعِلتُ أنا وعُمرُ بن أبي سَلِمةَ في النِّساءِ، فنَظَرتُ فإذا أنا بالزُّبَيرِ على فرسِه يَختَلِفُ[2183] إلى بني قَرَيظةَ مَرَّتينِ أو ثَلاثًا، فلمَّا رَجَعْتُ قُلتُ: يا أبتِ رأيتك تختَلِفُ! قال: وهل رَأيتَني يا بُنَيَّ؟ قُلتُ: نَعَم، قال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: من يأتِ بني قَريظةَ فيأتيني بخَبرِهم؟ فانطَلَقتُ فلمَّا رَجَعتُ جَمعَ لي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أبوَيه، فقال: فداكَ أبي وأمّي".[2184]

- **شجاعةُ خالِدِ بنِ الوليدِ رَضِيَ اللهُ عنه:**

أطْلَقَ الرسول صلى الله عليه وسلم على خالِدُ بنُ الوليدِ سيف الله المسلول لشجاعته واستبساله في الحروب.

قال خالِدُ بنُ الوليدِ رَضِيَ اللهُ عنه: „لقد دُقَّ في يدي يومَ مُؤتةَ تِسعةُ أسيافٍ، وصبَرَتْ في يدي صفيحةٌ لي يمانيةٌ".[2185]

[2176] الرَّمَدُ: هَيَجانُ العينِ وانتفاخُها. يُنظَر: تاج العروس للزبيدي116 /8

[2177] فبَسَق: أي: بَزَق. يقال: بَزَق وبَسَق وبَصَق. يُنظَر: كشف المشكل من حديثِ الصحيحين لابن الجوزي44 /3

[2178] أي: تامُّ السِّلاحِ من الشَّوكةِ، وهي القُوَّةُ، والشَّوكةُ أيضًا السِّلاحُ. يُنظَر: شرح النووي على مسلم184 /12

[2179] أي: أقتُلُ الأعداءَ قتلًا واسعًا ذريعًا، والسَّندرةُ: مكيالٌ واسِعٌ، وقيل: هي العَجَلةُ، أي: أقتُلُهم عاجِلًا، وقيل: مأخوذٌ من السَّندرةِ، وهي شجرةُ الصَّنوبَرِ يُعمَلُ منها التَّبلُ والقِسيُّ. يُنظَر: شرح النووي على مسلم186 /12

[2180] أخرجه مسلم 1807 مطوَّلًا.

[2181] أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق159

[2182] أخرجه البخاري3975

[2183] أي: يذهَبُ ويجيءُ. يُنظَر: فتح الباري لابن حجر81 /7

[2184] أخرجه البخاري 3720 واللفظ له، ومسلم2416

[2185] أخرجه البخاري 4266

ولمَّا احتُضِر قال: „لقد طلبتُ القَتلَ مظانَّه، فلم يُقدَّرْ لي إلَّا أن أموتَ على فِراشي، وما من عَمَلٍ شيءٍ أرجى عندي بعدَ لا إلهَ إلَّا اللهُ من ليلةٍ بِتُّها وأنا متترِّسٌ بفَرَسي، والسَّماءُ تُهلُّني، منتظِرٌ الصُّبحَ حتَّى نغيرَ على الكُفَّارِ، ثمَّ قال: إذا أنا مِتُّ فانظُروا سلاحي وفَرَسي فاجعلوه عُدَّةً في سبيلِ اللهِ، فلمَّا توفِّيَ خرج عُمَرُ على جنازتِه، فذكَر قولَه: ما على نساءِ أبي الوليدِ أن يَسفحْنَ[2186] على خالدٍ من دُموعِهنَّ ما لم يكُنْ نقعًا أو لَقْلقةً.[2187]"[2188]

• شجاعةُ سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه:

عن عامِرِ بنِ سَعدٍ عن أبيه رَضِيَ اللهُ عنه: „أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جَمعَ له أبَويه يومَ أُحُدٍ، قال: كانَ رَجُلٌ مِنَ المُشرِكين قد أحرَقَ المُسلِمينَ، قال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ارْمِ فِداك أبي وأمِّي، قال: فنَزَعْتُ لهُ بسَهمٍ ليسَ فيه نَصْلٌ[2189]، فأصبْتُ جَنبَه فسَقَط، فانكَشَفَت عَورَتُه، فضَحِكَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى نَظَرتُ إلى نَواجِذِه![2190]"..[2191]

• شَجَاعَةُ عَمرو بْنِ الجَمُوحِ:

مَنَعَهُ أَبنَاؤُهُ مِنْ الاشْتِرَاكِ فِي مِيدَانِ القِتَالِ؛ لأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ عَلَى سَاقِهِ العَرْجَاءِ، فَقَالَ لَهُم: وَاللهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَن أَطَأَ بِعَرجَتِي هَذِهِ الجَنَّةَ، فَعَنْ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "كَانَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ شَيْخًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَعْرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَدْرٍ قَالَ لِبَنِيهِ :أَخْرِجُونِي. فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ عَرَجُهُ، وَحَالُهُ، فَأَذِنَ لَهُ فِي الْمُقَامِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ خَرَجَ النَّاسُ، فَقَالَ لِبَنِيهِ :أَخْرِجُونِي. فَقَالُوا: قَدْ رَخَّصَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَذِنَ، قَالَ :هَيْهَاتَ مَنَعْتُمُونِي الْجَنَّةَ بِبَدْرٍ وَتَمْنَعُونِيهَا بِأُحُدٍ، فَخَرَجَ، فَلَمَّا الْتَقَى النَّاسُ، قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ الْيَوْمَ أَطَأُ بِعَرَجَتِي هَذِهِ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَطَأَنَّ بِهَا الْجَنَّةَ الْيَوْمَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَقَالَ لِغُلَامٍ لَهُ كَانَ مَعَهُ يُقَالُ لَهُ سُلَيْمٌ: ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، قَالَ :وَمَا عَلَيْكَ أَنْ أُصِيبَ الْيَوْمَ خَيْرًا مَعَكَ؟ قَالَ :فَتَقَدَّمْ إِذًا، قَالَ :فَتَقَدَّمَ الْعَبْدُ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ، وَقَاتَلَ هُوَ حَتَّى قُتِلَ".[2192]

• شَجَاعَةُ عَبْدِ اللهِ بنِ رَوَاحَةَ:

هُوَ صَحَابِيٌّ جَلِيلٌ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَاسْتُشْهِدَ فِي مَعركَةِ مُؤتَة.

قَالَ ابنُ إِسحَاقَ: "فَلَمَّا قُتِلَ جَعفَرٌ أَخَذَ عَبْدُ اللهِ بنِ رَوَاحَةَ الرَّايةَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ بِهَا، وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ، فَجَعَلَ يَسْتَنْزِلُ نَفْسَهُ، وَيَتَرَدَّدُ بَعْضَ التَّرَدُّدِ، ثُمَّ قَالَ:

أَقْسَمْتُ يا نَفْسُ لتَنْزِلِنَّهْ
مَا لِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّهْ
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي

[2186] يقال: سَفَحَ الدَّمعُ: أرسله. يُنظَر: تاج العروس للزبيدي475 /6

[2187] اللَّقَعُ: التُّرابُ على الرَّأسِ، واللَّقْلقةُ: الصَّوتُ. يُنظَر: شرح صحيح البخاري لابن بطال.276 /3

[2188] أخرجه البخاري معلَّقًا قبل حديث 1291 مختصَرًا على قولِ عُمَرَ، وأخرجه موصولًا ابن المبارك في الجهاد 53 واللفظ له، والطبراني 4/106 3812 مختصَرًا. صحَّحه ابنُ حجر كما في الفتوحات الربانية لابن علان 4/105، وصحَّح إسنادَه النووي في خلاصة الأحكام 2/1058، وحسَّنه الهيثمي في مجمع الزوائد 9/353، وشعيب الأرناؤوط في تخريج سير أعلام النبلاء1/381

[2189] أي: لا حديدةَ فيه. يُنظَر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض 423 /7

[2190] أي: أنيابِه، وقيل: أضراسِه/ يُنظَر: شرح النووي على مسلم 186 /15

[2191] أخرجه مسلم 2412

[2192] كتاب الجهاد ابن المبارك - أرأيت إن قتلت اليوم أطأ بعرجتي هذه الجنة قال نعم قال فوالذي بعثك بالحق لأطأن بها الجنة - ص69 - المكتبة الشاملة.

هَـذا حِمَامُ المَوتِ قَدْ صَلِيـتِ
وَمَا تَمَنَيْتِ فَـقَـدْ أُعْطِيـتِ
إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُـدِيـتِ

يُرِيدُ صَاحِبَيْهِ زَيدًا وَجَعفَرًا؛ ثُمَّ نَزَلَ فَلَمَّا نَزَلَ أَتَاهُ ابنُ عَمٍّ لَهُ بِعِرْقٍ مِنْ لَحْمٍ فَقَالَ: شُدَّ بِهَذَا صُلْبَكَ، فَإِنَّكَ قَدْ لَقِيتَ فِي أَيَّامِكَ هَذِهِ مَا لَقِيتَ، فَأَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ ثُمَّ انتَهَسَ مِنْهُ نَهْسَةً، ثُمَّ سَمِعَ الحُطَمَةَ فِي نَاحِيةِ النَّاسِ، فَقَالَ: وَأَنتَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ أَلْقَاهُ مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ فَتَقَدَّمَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ". [2193]

• شَجَاعَةُ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِي:

اتّصف أبو ذَرّ الغفاري -رضي الله عنه- بغزارة عِلمه حتى أنّه كان يُوازي عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- في عِلمه، وكان لا يخاف من قول الحقّ، كما كان يأمر بالمعروف، وينهى عن المُنكر[2194]، وكان يدافع عن الفقراء، ويطلب من الأغنياء أن يتصدقوا ويخرجوا زكاة أموالهم التي هي حق الفقراء، وكان يقول: "بَشِّر الكانزين الذين يكنزون الذهب والفضة بكيٍّ من نار تُكْوَى بها جباههم وجنوبهم يوم القيامة".

ويُشار إلى أنّه كان معروفاً بشجاعته، ومع ذلك قال له الرسول -صلّى الله عليه وسلّم-: „يا أبا ذَرٍّ، إنِّي أراكَ ضَعِيفًا، وإنِّي أُحِبُّ لكَ ما أُحِبُّ لِنَفْسِي، لا تَأَمَّرَنَّ علَى اثْنَيْنِ، ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يَتِيمٍ"[2195]؛ ورأى أهل العلم أنّ هذا محمول على رحمة النّبي -عليه السلام- به ومحبّته له؛ إذ كان أبو ذرّ لا يُجيز ادّخار المال، وربما دفعه ذلك لإنفاق المال في أوجه الخير دون إدارة لأولويات إنفاقها.[2196]

• نماذِجُ أُخرى من شجاعةِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم:

- وعنه رَضِيَ اللهُ عنه، قال: „أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخذ سيفًا يومَ أحُدٍ فقال: مَن يأخُذُ مني هذا؟ فبسطوا أيديَهم كُلُّ إنسانٍ منهم يقولُ: أنا أنا. قال: فمَن يأخُذُه بحَقِّه؟ قال: فأحجَمَ القومُ، فقال سِماكُ بنُ خَرَشةَ أبو دُجانةَ: أنا آخُذُه بحَقِّه. قال: فأخذه ففَلَق به هامَ المُشرِكين".

- وعن ابنِ إسحاقَ قال: زحف إليهم المُسلِمون حتى ألجؤوهم إلى الحديقةِ، وفيها عدُوُّ اللهِ مُسيلِمةُ، فقال البراءُ: يا مَعشَرَ المُسلِمين، ألقوني عليهم، فاحتُمِل حتى إذا أشرف على الجدارِ اقتحم فقاتَلَهم على الحديقةِ حتَّى فتحها للمُسلِمين، فقَتَل اللهُ مُسيلِمةَ.

وعن الأنصاريِّ عن أبيه عن ثمامةَ عنِ أنَسِ بنِ مالكٍ قال: رمى البراءُ بنفسِه عليهم فقاتلهم حتى فتح البابَ، وفيه بضعٌ وثمانون جراحةً من بَيْنِ رميةٍ بسَهمٍ وضَربةٍ، فحُمِل إلى رَحلِه يُداوى، فأقام عليه خالِدٌ شَهرًا".[2197]

• شجاعةُ نِسَاءِ الصَّحَابَةِ:

[2193] السيرة النبوية ابن هشام.

[2194] شمس الدين الذهبي 1993، تاريخ الإسلام الطبعة الثانية، بيروت: الكتاب العربي، صفحة 406، جزء 3. بتصرّف.

[2195] رواه مسلم 1826

[2196] شمس الدين الذهبي 2006، سير أعلام النبلاء، القاهرة: دار الحديث، صفحة 387، جزء 3بتصرّف.

[2197] تاريخ خليفة بن خياط ص: 109

اتَّصَفَتْ نِسَاءُ الصَّحَابَةِ -رَضِي اللهُ عنهُنَّ- بِالشَّجَاعَةِ وَالإِقْدَامِ، فَكُنَّ يَشْتَرِكْنَ مَعَ المسْلِمِينَ فِي المَعَارِكِ، وَيَقُمْنَ بِإِعْدَادِ الطَّعَامِ لِلْمُقَاتِلِينَ، وَتَجْهِيزِ المَاءِ لِسَقْيِ الجنُودِ، ومُدَاوَاةِ الجَرحَى والمَرْضَى، حَتَّى اشْتُهِرَ مِنْ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ السَّيِدَةُ أمُّ عِمَارَةَ نَسيبَةُ بنتُ كَعْبٍ، والسَّيدةُ أُمُّ عَطِيَةَ الأَنْصَارِيَةُ، والسَّيِدَةُ أمُّ سليمٍ، والسَّيِدَةُ لَيلَى الغِفَارِيَّة، وغَيْرُهُنَّ -رَضِيَ اللهُ عنهُنَّ-.

وَذَاتَ مَرَّةٍ قَابلَتِ الصَّحابيةُ الجليلةُ خَوْلَةُ بنتُ ثعلبةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أميرَ المؤمنِينَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ -رَضِي اللهُ عنهُ- وَظَلَّتْ تنصحُهُ، وَتَعِظُهُ، وُهُوَ وَاقِفٌ لَا يَتَحَرَّكُ مِنْ أَمَامَهَا، قَالَ عُثْمانُ بنِ سعيدٍ الدَّارَمِيّ: "حَدَّثَنَا مُوسَى بنَ إسماعيلَ، قَالَ: حَدَّثَنَا جريرُ بنُ حَازِمٍ، قَالَ : سَمِعتُ أَبَا يَزيدَ المزني، قَالَ : لَقِيَتِ امرأَةٌ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ يُقَالُ لَهَا خولةُ بنتُ ثعلبةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - وَهُوَ يسيرُ مَعَ النَّاسِ فاسْتَوقَفَتْهُ فَوَقفَ لهَا وَدَنَا منهَا وَأَصْغَى إِلَيْهَا رَأْسُهُ حَتَّى قَضَتْ حَاجَتَهَا وَانصَرَفَتْ، فَقَالَ لَهُ رَجلٌ يَا أَمِيرَ المؤمِنينَ حَبسْتَ رِجَالًا مِنْ قُرِيشٍ عَلَى هَذِهِ العجُوزِ قَالَ: وَيْلَكَ تَدرِي مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: هَذِهِ امرأَةٌ سَمِعَ اللهُ شَكْوَاهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سماواتٍ هَذِهِ خولةُ بنتُ ثعلبةَ وَاللهِ لَوْ لَمْ تَنْصَرِفْ عَنِّي إِلَى الليلِ مَا انصَرَفْتُ حَتَّى تَقْضِيَ حَاجَتَهَا إِلَّا أَنْ تَحْضُرَنِي صَلَاةٌ فَأُصَلِّيهَا ثَمَّ أَرجِعُ إِليهَا حَتَّى تَقْضِيَ حَاجَتَهَا".[2198]

- **شَجَاعَةُ أَطْفَالِ الصَّحَابَةِ: (عُمَيرٌ بنُ أَبِي وَقَّاص أَخُو سَعْدٍ):**

أَظْهَرَ كَثِيرٌ مِنْ الأَطْفَالِ حُزنَهُم لِعَدَمِ اشتِرَاكِهِم فِي المَعَارِكِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، مِنْ بينِهِم عُمَيرٌ بنُ أَبِي وَقَّاص الَّذِي اختَبَأَ فِي صُفُوفِ الجَيْشِ حَتَّى لَا يَرَاهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فَيَرُدَّهُ لِصَغرِ سِنِّهِ، قَالَ عَامِرٌ بنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ: "رَأَيْتُ أَخِي عُمَيرَ بنَ أَبِي وَقَّاص قَبْلَ أَنْ يَعْرِضْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ للخُرُوجِ إِلَى بَدْرٍ يَتَوَارَى فَقُلْتُ: مَا لَكَ يَا أَخِي؟ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَن يَرَانِي رَسُولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فَيَسْتَصْغِرَنِي فَيَرُدَّنِي وَأَنَا أُحِبُّ الخُرُوجَ لَعَلَّ اللهَ يَرْزُقُنِي الشَّهَادَةَ، قَالَ: فَعُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَصْغَرَهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ، فَبَكَى عُمَيرٌ فَأَجَازَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، قال سعد: فَكُنْتُ أَعْقِدُ لَهُ حَمَائِلَ سَيْفِهِ مِنْ صِغَرِهِ، فَقُتِلَ بِبَدْرٍ وَهُوَ ابنُ سِت عَشَرَة سَنَةٍ، قَتَلَهُ عَمْرُو بنُ عَبْدِ وُدٍّ.[2199]

خامسا: نماذِجُ من شجاعةِ السَّلَفِ والعلماءِ المتقدِّمينَ والمتأخِّرينَ:

قال أبو حفصٍ البزَّارُ عن ابن تيمية: „كان رحمه اللهُ من أشجَعِ النَّاسِ، وأقواهم قلبًا، ما رأيتُ أحدًا أثبت جأشًا منه، ولا أعظَمَ عَناءً في جهادِ العَدوِّ منه، كان يجاهدُ في سبيلِ اللهِ بقَلبِه ولسانِه ويدِه، ولا يخافُ في اللهِ لومةَ لائمٍ، وأخبر غيرُ واحدٍ أنَّ الشَّيخَ رحمه اللهُ كان إذا حضر مع عسكرِ المسلمين في جهادٍ يكون بَيْنَهم واقيتَهم، وقُطبَ ثباتِهم، إن رأى من بعضِهم هَلَعًا أو رقَّةً أو جبانةً، شجَّعه وثبَّته، وبشَّره ووعده بالنَّصرِ والظَّفَرِ والغنيمةِ، وبيَّن له فضلَ الجهادِ والمجاهدين، وإنزالَ اللهِ عليهم السَّكينةَ.

وكان إذا ركِبَ الخيلَ يتحَنَّكُ ويجولُ في العدوِّ كأعظمِ الشُّجعانِ، ويقومُ كأَثْبَتِ الفُرسانِ، ويكَبِّرُ تكبيرًا أنكى في العدوِّ من كثيرٍ من الفتكِ بهم، ويخوضُ فيهم خوضَ رجُلٍ لا يخافُ الموتَ.

وحدَّثوا أنَّهم رأوا منه في فتحِ عكَّةَ أمورًا من الشَّجاعةِ يَعجِزُ الواصفُ عن وصفِها.

قالوا: ولقد كان السَّببُ في تملُّكِ المسلمين إيَّاها بفِعلِه ومشورتِه وحسنِ نظَرِه، ولَمَّا ظهر السُّلطانُ غازان على دِمَشقَ المحروسةِ جاءه مَلِكُ الكَرجِ وبذل له أموالًا كثيرةً جزيلةً على أن يمكِّنَه من الفتكِ بالمسلمين من أهلِ دِمَشقَ، ووصل الخبرُ إلى الشَّيخِ، فقام من فورِه، وشجَّع المسلمين ورغَّبهم في الشَّهادةِ، ووعدهم على قيامِهم بالنَّصرِ والظَّفَرِ والأمنِ وزوالِ الخوفِ.

[2198] اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم.

[2199] كتاب صفة الصفوة - عمير بن أبي وقاص أخو سعد - ص149 - المكتبة الشاملة.

فانتدب منهم رجالٌ من وجوهِهم وكُبرائِهم وذوي الأحلامِ منهم، فخرجوا معه إلى حضرةِ السُّلطانِ غازان، فلمَّا رآهم السَّلطانُ قال: من هؤلاء؟ فقيل: هم رؤساءُ دِمَشقَ، فأذِنَ لهم فحضروا بَيْنَ يديه، فتقدَّم الشَّيخُ رحمه اللهُ أوَّلًا، فلمَّا أن رآه أوقعَ اللهُ له في قلبِه هيبةً عظيمةً، حتى أدناه وأجلسَه، وأخذ الشَّيخُ في الكلامِ معه أوَّلًا في عكسِ رأيِه عن تسليطِ المخذولِ مَلِكِ الكَرَجِ على المُسلمين، وضَمِن له أموالًا وأخبره بحرمةِ دِماءِ المسلِمين، وذكَّره ووعَظه، فأجابه إلى ذلك طائعًا، وحُقِنَت بسببِه دِماءُ المسلمين، وحُمِيت ذراريُّهم، وصِينَ حَريمُهم".[2200]

المطلب الثاني عشر: عِلَاقَةُ الشَّجَاعَةِ بِالصَّبرِ وَالحِكْمَةِ

الشَّجَاعَةُ لَيسَتِ القوَّةَ البَدنية فَحَسبُ، لَكنَّهَا أَيضًا الحكمَةُ وَقوةُ القَلبِ، والمَهَارَةُ، تَقولُ الحِكَايةُ الشَّعبِيَّةُ: "هَاجَ ثَورٌ هَائلٌ في مَرَابِعِ بني عَبْس وَمَاجَ، وَأَرعَبَ النِّسَاءَ والرجَالَ، والصِّغَارَ والكِبَارَ، فَفَزِعُوا إِلَى عَنتَرَةَ بنِ شَدَّاد، بَطَلِ العَرَبِ وَحَامِي الحِمَى! وَصَرَخُوا: هيّا يَا عَنتَرَة! اهجِمْ عَلَى الثَّورِ! خَلِّصْنَا مِن الثَّورِ! فَنَظَرَ عنترةُ للثَّورِ الضَّخمِ الهَائِجِ، وقُرُونُهُ المشْرُوعَةُ كَالخَنَاجِرِ الحَادَّةِ، وَتَرَاجَعَ إِلَى الوَرَاءِ وَلَم يَهجِمْ عَلَيهِ، فَوَجَمَ الحضُورُ، وَقَد حَبَسُوا أنفاسَهُم انتِظَاراً لِنَحرِ الثَّورِ بِيَدِ البَطَلِ المقدَامِ، وَذُهِلُوا حِينَ أَحجَمَ عَنتَرَةُ عَن الهُجُومِ عَلَى الثَّورِ وَصَرَخُوا بِهِ:

لماذَا لَا تَهجِمَ عَلَيهِ يَا عنترةُ وأنتَ مُرعِبُ الأبطَالِ والأَقيَالِ؟!

فَزَادَ عنترةُ فِي تَرَاجِعِهِ وَقَالَ:

وَمَا يَدرِي الثَّورُ أَنِّي عَنتَرَةُ؟!

إِنَّهَا حِكمَةٌ تَجَسَّدَتْ فِي عَقْلِهِ، وَاسْتَخْدَمَهَا فِي مَوقِعِهَا، وَلَم تُثْنِهِ شُهْرَتُهُ عَن العَيشِ مَعَ الوَاقِعِ، وَعَدَمِ الإِقْدَامِ عَلَى مُغَامَرةٍ غَيْرِ مَحْسُوبَةٍ، لَكِنَّهُ ظَلَّ عنترة بن شَدَّاد، الفارس، الشَّجَاع، المَاهِر، وَاستَخدَمَ قُوَّةَ قَلبِه فِي صِرَاعِهِ مَعَ خُصُومِهِ والصُّمُودِ فِي المعْرَكَةِ لآخِرِ لحْظَةٍ، حَتَّى أَنَّهُ قَد قَالَ بِمَا مَعنَاهُ: "مَا يُمَيِّزُنِي عَن غَيرِي لَيسَ قُوَّتِي وِلَا شَجَاعَتِي فَقَطْ، فَخُصُومِي قَدْ يَمْلِكُونَ مِنْ الشَّجَاعَةِ مَا أَمْلِكُ، لَكِنِّي رُبَّمَا صَبَرْتُ أَكْثَرَ مِنْهُم قَلِيلاً، وَلَوْ صَبَرُوا لَظَفَرُوا".

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الصَّبْرَ وَحُسْنَ الرَّأْيِ أُسُسُ الحِكْمَةِ وَحَوْلَهُ تَتَمَحْوَرُ، يَقُولُ المتَنَبِّي:

الرَّأيُ قَبلَ شَجاعةِ الشّجْعانِ
هُوَ أوّلٌ وَهِيَ المَحَلُّ الثّاني
فإذا هُمَا اجْتَمَعَا لنَفْسٍ حُرّةٍ
بَلَغَتْ مِنَ العَلْياءِ كلَّ مكانِ

- وقال أحمد شوقي: „ربَّما تقتضيك الشَّجاعةُ أن تجبُنَ ساعةً".[2201]

- „ويُروى أنَّ عبدَ الرَّحمنِ بنَ خالدِ بنِ الوليدِ قال لمعاويةَ رَضِيَ اللهُ عنه: إني لأراك تُقدِمُ أحيانًا حتى أقولَ: أشجَعُ النَّاسِ، وأراك تُحجِمُ أحيانًا حتَّى أقولَ: أجبَنُ النَّاسِ! فقال: إني أُقدِمُ ما كان الإقدامُ غُنمًا، وأُحجِمُ ما كان الإحجامُ حَزمًا، فأنا كما قال القائلُ:

شجاعٌ إذا ما أمكنَتْني فرصةٌ
وإن لم تكُنْ لي فُرصةٌ فجَبانُ

وكان المُهَلَّبُ يقولُ: الإقدامُ على الهَلَكةِ تضييعٌ، كما أنَّ الإحجامَ عن الفُرصةِ جُبنٌ.

[2200] الأعلام العلية للبزار، بتصرف ص: 67

[2201] أسواق الذهب ص: 123

المطلب الثالث عشر: دَوْرُ الشَّجَاعَةِ فِي نَجَاحِ الْقَادَةِ

الشَّجَاعَةُ تُمَثِّلُ جَانِبًا أَسَاسِيًّا فِي نَجَاحِ الْقَادَةِ، خَاصَّةً عِنْدَمَا يُوَاجِهُونَ الْعَدِيدَ مِنْ التَّحَدِّيَاتِ، وَمِنْهَا مُوَاجَهَةُ خَصُومٍ غير مُنصِفين، أَمَّا أَنْ يكون اهْتِمَامَهُم مَقْصُورًا عَلَى مَصَالِحِهِمْ الشَّخْصِيَّةِ وَلَا يُوجَدُ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِلتَّضْحِيَةِ، فَسَيَكُونُونَ بِذَلِكَ سَبَبًا فِي ضَيَاعِ الْبِلَادِ، وَقَدْ ظَهَرَ هَذَا الأَمْرُ جَلِيًّا عِنْدَمَا تَخَلَّى القَادَةُ فِي السَّاحَةِ السِّيَّاسِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَنْ شَجَاعَتِهِمْ فِي الدِّفَاعِ عَنْ مَكْتَسَبَاتِهِمْ التي حَصَلُوا عَلَيْهَا، ولِخَلطِهِم بين مقام الشِّدَّةِ وَمَقامِ اللِّينِ وَالسِّلمِ وَعَدَم تَوَازُنِهِمْ بَيْنَ دَفعِ الظُّلمِ مِنْ جِهَةٍ وَبَيْنَ الدِّفَاعِ عَنْ مَبَادِئِهِمْ وَقِيَمِهِمْ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، مَعَ ادِّعَائِهُمْ أَنَّ "سِلْمِيَّتَهُمْ أَقْوَىٰ مِنَ الرَّصَاصِ" وَأَنَّهُمْ "سَيَدَافِعُونَ عَنْهَا وعَنْ "وِدِيمُقْرَاطِيَّتِهِمْ" بِالسُّبُلِ السِّلْمِيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ فَقَط"[2202] مِنْ دُونِ الدِّفَاعِ عَنِ الْمَكْتَسَبَاتِ.

كُلُّ ذَلِكَ أَعْطَى الْجُرْأَةَ لِخُصُومِهِمْ بِمُسَانَدَةِ أَعْدَاءِ الْأُمَّةِ عَلَى قَمْعِهِم وَرَمْيِهِمْ فِي غياهِبِ الجُبِّ، وما تَرَتَّبَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ قَمْعِ الشُّعُوبِ وَالتَّفَرُّدِ بِالْحُكْمِ.

وَمِمَّا سَبَقَ يَتَبَيَّنُ وُجُوبُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِدُ شُجَاعًا وعَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلدِّفَاعِ عَنْ مَبَادِئِهِ وَقِيَمِهِ، حَتَّى لَوِ اضْطُرَّ إِلَى اسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ، فَالْجَبَانُ لَا يَحْتَرِمُهُ وَلَا يَهَابُهُ أَحَدٌ، لَا شَعْبُهُ وَلَا عَدُوُّهُ، أَمَّا الشُّجَاعُ، فَيَهَابُهُ وَيَحْتَرِمُهُ أَعْدَاؤُهُ قَبْلَ حُلَفَائِهِ، بَلْ وَيَتَسَابَقُونَ إِلَيْهِ لِلتَّفَاوُضِ مَعَهُ وَالتَّنَازُلِ لَهُ.

وَلَقَدْ ثَبَتَ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ أَنَّ الشَّجَاعَةَ كَانَتْ سِمَةً بَارِزَةً فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْقَادَةِ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ اسْتَطَاعُوا قِيَادَةَ أُمَّتِهِمْ إِلَى النَّصْرِ وَالدِّفَاعِ عَنِ الشُّعُوبِ وَدَفْعِ الظُّلْمِ وَالِاسْتِبْدَادِ.

ولقد قال بعضُ الحُكَماءِ: „جِسمُ الحَربِ: الشَّجاعةُ، وقلبُها: التَّدبيرُ، ولسانُها: المكيدةُ، وجَناحُها: الطَّاعةُ، وقائدُها: الرِّفقُ، وسائقُها: النَّصرُ"[2202].

(وكان يقال: الشجاع مُوَقًّى[2203]، والجبان ملقى. ويقال: الشجاع محبب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه.

وقال بعض الحكماء: قوة النفس أبلغ من قوة الجسد.

وكتب أنوشروان إلى وكلائه: "عليكم بأهل الشجاعة والسخاء، فإنهم أهل حسن الظن بالله تعالى".

وقال الشاعر: يفرّ الجبان من أبيه وأمّه ... ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه

ولما قال أبو الطيب المتنبي:

يرى الجبناء أنّ العجز عقل ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

وكلّ شجاعة في المرء تغني ... ولا مثل الشجاعة في الحكيم

قيل له: أنَّى يكون الشجاع حكيما وهما على طرفي نقيض؟)[2204].

- **ولذلك إذا سأل سائل، فقال: من هو الأُسْطورَة الحقيقي؟ لقلنا:**

1- الأُسْطَورَةُ هُوَ **(عَمَرُ بنُ الخطَّابِ)**، عندمَا هَاجَرَ المسلِمُونَ سرًا إِلَى المدينَةِ المُنَوَّرَةِ، إِلَّا عُمَرَ الَّذِي لَبِسَ سَيْفَهُ، وَوَضَعَ قَوْسَهُ عَلَى كَتِفِهِ وَحَمَلَ أَسْهُمًا وَعَصَاهُ القَوِيَّةَ، وَذَهَبَ إِلَى الكَعبَةِ حيثُ طَافَ سَبعَ مَراتٍ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى مَقَامِ إِبرَاهيمَ فَصَلَّى،

[2202] نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري 3/208

[2203] أي، أنَّ الذي عُرِفَ بالشَّجاعةِ والإقدامِ يَتَحَامَاهُ النَّاسُ هَيبةً له ومنه[2203]؛ لأنَّ شجاعتَه تُرهِبُ قِرنَه، فيُولِّي عنه، وجُبنُ الجَبَانِ يُطمِعُ فيه، يُضرَبُ في مدحِ الشَّجاعةِ [المصدر: جمهرة الأمثال للعسكري 1/ 540].

[2204] كتاب اللطائف والظرائف، لأبي منصور الثعالبي، ص: ١٢٨

ثُمَّ قَالَ لحَلَقَاتِ المشركِينَ المجتَمِعَةِ: "شَاهَتِ الوُجُوه، لا يُرْغِمُ اللهُ إلا هَذِهِ المَعَاطِسِ، مَنْ أَرَادَ أن تَثْكِلَهُ أُمُّهُ وَيُيَتِّمَ وَلَدَهُ أو يُرَمِّلَ زوجَه فَلْيَلْقَنِي خَلْفَ هَذَا الوَادِي". فَلَمْ يَتْبَعْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ.

2- الأُسْطَورَةُ هُوَ **(عَلِيُّ بنُ أَبِي طالبٍ)** عندمَا خَلَعَ بَابَ خَيْبَرٍ بِمُفْرَدِهِ.

3- الأُسْطَورَةُ هُوَ **(الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ)** عندمَا هَجَمَ عَلَى حِصْنِ الكُفَّارِ بِمُفْرَدِهِ لِيَفْتَحَ بَابَ النَّصْرِ للمُسْلِمِينَ.

4- الأُسْطَورَةُ هُوَ **(ضِرَارُ بنُ الأَزْوَرِ)** عِنْدَمَا هَجَمَ عَلَى جَيْشِ الرُّومِ بِمُفْرَدِهِ.

5- الأُسْطَورَةُ هُوَ **(خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ)** عِنْدَمَا هَجَمَ عَلَى صُفُوفِ الكُفَّارِ واخْتَطَفَ قَائِدَهُم وَعَادَ إِلَى صُفُوفِ المسْلِمِينَ سَالماً، وَهُوَ الَّذِي خَاضَ مِائَةَ مَعْرَكَةٍ وَلَمْ يَخْسَرْ مِنْهُمْ مَعْرَكَةً وَاحِدَةً.

6- الأُسْطَورَةُ هُوَ **(الخليفةُ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ)** الَّذِي احْتَاجَ إِلَى أَقَلِّ مِنْ عَامَينِ لِيَطُوفَ بَعْدَهَا بِالزَّكَاةِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَأْخُذُهَا.

7- الأُسْطَورَةُ هُوَ **(حَمْزَةُ بنُ عبْدِ المطَّلِبِ)** عنْدَمَا عَلِمَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ شَتَمَ الرَّسُولَ وَأَذَاهُ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ وَشَجَّ وَجْهَهُ، وَقَالَ: "أَتَشْتُمُهُ وَأَنَا عَلَى دِينه أَقُولُ مَا يَقُولُ؟ فَرُدَّ ذَلِكَ عَلَيَّ إِنْ اسْتَطَعْتَ".

المطلب الرابع عشر: أخطاءٌ شائعةٌ

- من الخَطَأِ أن يُظَنَّ أنَّ الشَّجاعةَ هي مُطلَقُ الإقدامِ؛ فالإقدامُ بغيرِ عقلٍ جنونٌ أو شبيهٌ به، والإقدامُ في غيرِ مخاطرةٍ لا يعتَبَرُ من الشَّجاعةِ، بل هو نشاطٌ وهمَّةٌ، والإقدامُ لا لتحصيلِ خيرٍ أو دفعِ شَرٍّ لا يُعَدُّ شجاعةً بل هو تهوُّرٌ، فالمنتحِرُ يُقدِمُ على ما فيه هلاكُه، ولكِنَّ عَمَلَه ليس شجاعةً، إنما هو جنونٌ أو جُنوحٌ في العقلِ، أو جبنٌ، أو فرارٌ من مواجهةِ صَدمةٍ عنيفةٍ مؤلمةٍ من صدَماتِ الحياةِ؛ لأنَّه إقدامٌ لشَرٍّ لا خيرَ فيه، بخلافِ التَّضحيةِ بالنَّفسِ عن عقلٍ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، ومقارعةِ أعداءِ اللهِ؛ فهو من أعلى مراتبِ الشَّجاعةِ؛ لأنَّه جودٌ بالنَّفسِ، والجودُ بالنَّفسِ أقصى غايةِ الجودِ، وهو جودٌ في خيرٍ عظيمٍ.[2205]

- ومن الخطَأِ أن يُظَنَّ أنَّ الشَّجاعةَ هي الإقدامُ وإن لم يكُنْ مصحوبًا بفِكرٍ سليمٍ وعَقلٍ راجحٍ؛ فقد توجَدُ الشَّجاعةُ في الإقدامِ إلى مخاطِرَ لا تقضي الحِكمةُ الفِكريَّةُ السَّليمةُ بجوازِ الإقدامِ إليها؛ لأنَّ الخيرَ الذي يُرجى أن يتحقَّقَ بهذا الإقدامِ، أو الشَّرَّ الذي يُرجى أن يُدفَعَ بها الإقدامُ، لا يكافِئُ تحمُّلَ المخاطرِ المرتقَبةِ، ولكِنَّ ذلك يرجعُ إلى سوءِ تقديرِ صاحِبِ هذا الإقدامِ لِما هو فيه من أمرٍ، فلا يكونُ إقدامُه من قبيلِ التَّهوُّرِ أو الجنونِ، بل هو شجاعةٌ حقيقيَّةٌ، إلَّا أنَّ الفِكرَ عنده كان مخطئًا في تقديرِه، فأشبَه العَمَلُ عَمَلَ المتهوِّرين.[2206]

- حين يدعو أئمة المساجد للمسلمين بالنصر على الأعداء، فإن أكثر ما يخطر في بال المصلين هو النصر العسكري، وأعتقد أن فئة قليلة جدا من شباب المسلمين يفهمون من „النصر على الأعداء" أنه أيضا النصر التربوي أو الأخلاقي أو السياسي أو الاقتصادي أو التقني.

المطلب الخامس عشر: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- يُروى أنَّ لقمانَ رَضِيَ اللهُ عنه قال لابنِه: „ثلاثةٌ لا يُعرَفون إلَّا في ثلاثةِ مواطِنَ: لا يُعرَفُ الحليمُ إلَّا عِندَ الغَضَبِ، ولا الشُّجاعُ إلَّا في الحربِ، ولا تَعرِفُ أخاك إلَّا عِندَ الحاجةِ إليه".[2207]

[2205] الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني 2/586

[2206] الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني 2/587

[2207] البيان والتبيين للجاحظ 2/ 50

- وقال الجاحِظُ: „إنَّ الحياءَ اسمٌ لمقدارٍ من المقاديرِ، ما زاد على ذلك المقدارِ فسَمِّه ما أحبَبتَ. وكذلك الجودُ اسمٌ لمقدارٍ من المقاديرِ؛ فالسَّرَفُ اسمٌ لِما فضَل عن ذلك المقدارِ. وللحَزمِ مِقدارٌ؛ فالجُبنُ اسمٌ لِما فضَل عن ذلك المقدارِ. وللاقتصادِ مقدارٌ؛ فالبُخلُ اسمٌ لِما خرج عن ذلك المقدارِ. وللشَّجاعةِ مِقدارٌ؛ فالتَّهوُّرُ والخَدَبُ[2208] اسمٌ لِما جاوز ذلك المقدارَ".[2209]

- وقال ابنُ القَيِّمِ: „كُلُّ خُلُقٍ محمودٍ مُكتنَفٌ بخُلُقَينِ ذميمَينِ، وهو وَسَطٌ بَينَهما. وطَرَفاه خُلُقانِ ذَميمانِ... فإنَّ النَّفسَ متى انحرَفَت عن التَّوسُّطِ انحرَفَت إلى أحَدِ الخُلُقَينِ الذَّميمَينِ ولا بُدَّ؛ فإذا انحرَفَت عن خُلُقِ الشَّجاعةِ انحَرَفت إمَّا إلى تهَوُّرٍ وإقدامٍ غيرِ محمودٍ، وإمَّا إلى جُبنٍ وتأخُّرٍ مذمومٍ وصاحِبُ الخُلُقِ الوَسَطِ مَهيبٌ محبوبٌ، عزيزٌ جانِبُه، حبيبٌ لِقاؤه".[2210]

- و(حين يَفقِدُ الشُّجاعُ عُنصُرَ الصَّبرِ يفقِدُ شجاعتَه عِندَ نزولِ الآلامِ التي لا يصبِرُ على تحمُّلِها، فيكونُ شُجاعًا في الأوائلِ جبانًا في الأواخِرِ؛ فالصَّبرُ على تحمُّلِ المكارِهِ التي يجرُّها الإقدامُ عن عقلٍ وحكمةٍ هو الذي يحافِظُ على استمرارِ خُلُقِ الشَّجاعةِ في النَّفسِ، وقد تكونُ الحاجةُ إلى الصَّبرِ مقترِنةً بأوَّلِ مراحِلِ الشَّجاعةِ).[2211]

- وممَّا قيل في الشَّجاعةِ: أنَّها „العزمُ على التَّقدُّمِ، والتَّثبُّتُ قبلَ التَّندُّمِ".[2212]

- ويروى أنَّ معاويةَ قال لعمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما: ... فَمَن أشجعُ النَّاسِ؟ قال: من ردَّ جَهلَه بحِلمِه.[2213]

- وقال يعقوبُ بنُ السِّكّيتِ في كتابِ "الألفاظ": العَرَبُ تجعَلُ الشَّجاعةَ في أربعِ طبقاتٍ؛ تقولُ: رجلٌ شُجاعٌ، فإذا كان فوقَ ذلك قالوا: بَطَلٌ، فإذا كان فوقَ ذلك قالوا: بُهمةٌ[2214]، فإذا كان فوقَ ذلك قالوا: أَلْيَسُ[2215].[2216]

[2208] الخَدَبُ: الهَوَجُ، والأخدَبُ: الأهوجُ والذي لا يتمالَكُ من الحُمقِ، والذي يركَبُ رأسَه جراءةً. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 1/ 346، تاج العروس للزبيدي 337 /2

[2209] البيان والتبيين 1/ 177

[2210] مدارج السالكين 2/ 295 – 297

[2211] الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني 2/587

[2212] الأمثال والحكم للماوردي ص: 107

[2213] أنساب الأشراف للبلاذري 5/ 16، المجتنى لابن دريد ص: 49، لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص: 336، 348

[2214] بُهمةٌ: شُجاعٌ، وقيل: هو الفارسُ الذي لا يُدرى من أين يؤتى له من شِدَّةِ بأسِه، والجَمعُ بُهمٌ. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 12/56

[2215] الأَلْيَسُ: من لا يبالي الحربَ ولا تَروعُه. واللِّيسُ واللُّوسُ: الأشِدَّاءُ. يُنظَر: تاج العروس للزبيدي 16/493

[2216] نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري 3/208

المبحث الرابع عشر: الحكمة

المطلب الأول: معنى الحكمة

- **معنى الحِكْمةِ لُغةً:**

الحِكمةُ: مَعرِفةُ أفضلِ الأشياءِ بأفضلِ العُلومِ، مُشتقَّةٌ مِن الحَكَمةِ -وهي ما أحاط بحنكَيِ الفَرَسِ حتى يمنَعَه من الجِماحِ-، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تمنعُ صاحِبَها من أخلاقِ الأراذِلِ، وأحكَمَ الأمرَ: أي أتقَنَه فاستحكَمَ، ومنَعَه عن الفسادِ، أو منعه من الخروجِ عمَّا يُريدُ، وأصلُ (حكم) يدُلُّ على المنعِ.[2217]

- **معنى الحِكمةِ اصطِلاحًا:**

قال ابنُ القَيِّمِ: „الحِكمةُ: فِعلُ ما ينبغي، على الوجهِ الذي ينبغي، في الوقتِ الذي ينبغي".[2218]

وقال النَّوويُّ: „الحِكمةُ: عبارةٌ عن العلمِ المتَّصِفِ بالإحكامِ، المشتَمِلِ على المعرفةِ باللَّهِ تبارك وتعالى، المصحوبِ بنفاذِ البصيرةِ، وتهذيبِ النَّفسِ، وتحقيقِ الحَقِّ والعَمَلِ به، والصَّدِّ عن اتِّباعِ الهوى والباطِلِ، والحكيمُ مَن له ذلك".[2219]

قال أبو إسماعيلَ الهَرَويُّ: „الحِكمةُ اسمٌ لإحكامِ وَضعِ الشَّيءِ في موضِعِه".[2220]

وقيل: „الحِكمةُ: كُلُّ ما منع من الجهلِ، وزَجَر عن القبيحِ".[2221]

وقيل: الحِكمةُ: فضيلةٌ تمنعُ صاحِبَها من الجَهلِ في القولِ والعَمَلِ، وتصُدُّه عن سوءِ التَّصرُّفِ والمعاملةِ، وتحذِّرُه رذيلةَ الاندفاعِ والعَجَلةِ، وتُعلِّمُه أن يَضَعَ كُلَّ شيءٍ في موضِعِه.[2222]

و"قال بعضُ أهلِ العِلمِ: الحِكمةُ: ضربٌ من العِلمِ يمنَعُ من ركوبِ الباطِلِ.

وقال غيرُه: الحِكمةُ: خروجُ نفسِ الإنسانِ إلى كمالِها الممكِنِ لها في حدَّيِ العِلمِ والعَمَلِ".[2223]

„وإذا كانت كَلِمةُ الحِكمةِ قد فسَّرها بعضُهم بالعِلمِ أو الفقهِ، فقد فسَّرها كثيرٌ من الحُكَماءِ بتفسيراتٍ موصولةِ الأسبابِ بجوانبِ الأخلاقِ، ونحن نستطيعُ بملاحظةِ هذه الجوانبِ أن ننظُرَ إلى الحِكمةِ على أنَّها فضيلةٌ من الفضائِلِ الأخلاقيَّةِ التي دعا إليها القرآنُ المجيدُ".[2224]

- **الحِكْمَةُ فِي اصْطِلَاحِ الدُّعَاةِ هِيَ:** الإصابةُ في معرفَةِ الحَقِّ والعَمَلِ به والدقَّةُ فِي وَضْعِ الأُمُورِ مَوْضِعِهَا الصَّحِيحِ".[2225]

[2217] يُنظَر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير 119/1، مختار الصحاح لزين الدين الرازي ص 62، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 288/1، لسان العرب لابن منظور 143/12، المصباح المنير للفيومي 145/1، القاموس المحيط للفيروزابادي ص 1415، تاج العروس للزبيدي 253/8، المعجم الوسيط 1/19

[2218] مدارج السالكين لابن القيم 2/449

[2219] شرح النووي على مسلم 2/33

[2220] منازل السائرين للهروي ص: 78

[2221] شرح النووي على مسلم 6/98

[2222] أخلاق القرآن للشرباصي 3/88

[2223] نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي ص: 260

[2224] أخلاق القرآن للشرباصي 3/87

[2225] وسائل الدعوة أ.د عبدالرحيم المغذوي ص30- 31 باختصار.

أَوْ هِيَ: "الإِصَابَةُ فِي القَولِ والعَمَلِ والاعْتِقَادِ وَوَضْعِ كُلِّ شَيءٍ فِي مَوْضِعِهِ بِإِحْكَامٍ وَإِتْقَانٍ".[2226]

يَقُولُ الدُّكتُور عبدُ الرَّحيمِ المغذوي: "وَالعُلَمَاءُ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الحِكْمَةَ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى مَسْلَكٍ وَاحِدٍ بِعَينِهِ، بلْ هُناكَ جُمْلَةُ مَسَالِكٍ وَجَوَانِبَ فِي حياةِ المسْلِمِ وَالدَّاعِيَةِ بِشَكْلٍ خَاص فِي دَعْوَتِهِ يَنْبَغِي أنْ تَتَّصِفَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْقِفِ الحَمِيدِ.

فَمَثَلًا: جَانِبُ القَولِ واللَّفْظِ والكَلَامِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَاقِلاً مُتَّزِناً عَفِيفاً.

وَجَانِبُ العملِ والفِعلِ والتَّصَرُّفِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بالتَّدَبُّرِ والحلْمِ وَالأَنَاةِ وَوَضْعِ الأُمُورِ فِي مَوْضِعِهَا الصَّحِيحِ.

المطلب الثاني: التَّرغيب في الحكمة والحثُّ عليها

أ. الحكمة في القرآنِ الكريمِ:

الآياتُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي بَيَانِ أَهَمِّيةِ الحِكْمَةِ وَعِظَمِهَا كَثِيرَةٌ، مِنْهَا:

1- قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: 269].

„أي: أنَّه تعالى يعطي الحِكمةَ والعِلمَ النَّافعَ المُصرِّفَ للإرادةِ لمن يشاء من عبادِه، فيميِّزُ به الحقائِقَ من الأوهامِ، ويُسهِّلُ عليه التَّفرقةَ بَيْنَ الوِسواسِ والإلهامِ، وآلةُ الحِكمةِ العَقلُ المستَقِلُّ بالحُكمِ في إدراكِ الأشياءِ بأدلَّتِها، على حقيقتِها، ومن أُوتي ذلك عَرَف الفَرْقَ بَيْنَ وَعدِ الرَّحمنِ ووَعدِ الشَّيطانِ، وعَضَّ على الأوَّلِ بالنَّواجِذِ، وطرَح الثَّانيَ وراءَه ظِهريًّا، وفَهِم الأمورَ".[2227]

وقال السَّعديُّ: „إنَّ من آتاه اللَّهُ الحِكمةَ فقد آتاه خيرًا كثيرًا، وأيُّ خيرٍ أعظمُ من خيرٍ فيه سعادةُ الدَّارينِ، والنَّجاةُ من شقاوتِهما؟! وفيه التَّخصيصُ بهذا الفضلِ، وكونِه من ورَثةِ الأنبياءِ، فكمالُ العبدِ متوقِّفٌ على الحِكمةِ؛ إذ كمالُه بتكميلِ قوَّتيه العِلميَّةِ والعَمليَّةِ، فتكميلُ قوَّتِه العِلميَّةِ: بمعرفةِ الحقِّ، ومعرفةِ المقصودِ به، وتكميلُ قوَّتِه العَمليَّةِ: بالعملِ بالخيرِ وتَركِ الشَّرِّ، وبذلك يتمكَّنُ من الإصابةِ بالقولِ والعَمَلِ، وتنزيلِ الأمورِ منازِلَها في نفسِه وفي غيرِه، وبدون ذلك لا يمكِنُه ذلك".[2228]

2- وقال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125].

„ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ أي: بالمقالةِ المُحكَمةِ الصَّحيحةِ، وهو الدَّليلُ الموضِّحُ للحَقِّ، المزيحُ للشُّبهةِ".[2229]

3- قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [لقمان: 12].

„يخبرُ تعالى عن امتنانِه على عبدِه الفاضِلِ لُقمانَ بالحِكمةِ، وهي العِلمُ بالحَقِّ على وجهِه وحِكمتِه، فهي العِلمُ بالأحكامِ، ومعرفةُ ما فيها من الأسرارِ والإحكامِ؛ فقد يكون الإنسانُ عالِمًا، ولا يكونُ حكيمًا".[2230]

ب. الحكمة في السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

1- عن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: سمعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: "لا حَسَدَ إلَّا في اثنتَينِ: رجلٌ آتاه اللَّهُ مالًا فسُلِّط على هَلَكتِه في الحَقِّ، ورجُلٌ آتاه اللَّهُ الحِكمةَ فهو يقضي بها ويُعَلِّمُها".[2231]

[2226] الحكمة في الدعوة إلى الله ص30

[2227] تفسير المراغي 42،41/3

[22282228] تفسير السعدي، ص: 115

[2229] محاسن التأويل للقاسمي 6/422

[2230] تفسير السعدي ص: 648

قال النَّوويُّ: „ورجلٌ آتاه اللهُ حِكمةً فهو يقضي بها ويُعَلِّمُها، معناه: يعمَلُ بها ويُعلِّمُها احتسابًا".[2232]

2- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ضَمَّني النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقال: "اللَّهُمَّ عَلِّمْه الحِكمةَ".[2233]

قال ابنُ حَجَرٍ: „اختلف الشُّرَّاحُ في المرادِ بالحِكمةِ هنا، فقيل: القرآنُ...، وقيل: العَمَلُ به، وقيل: السُّنَّةُ، وقيل: الإصابةُ في القولِ، وقيل: الخَشيةُ، وقيل: الفَهمُ عن اللهِ، وقيل: العقلُ، وقيل: ما يَشهَدُ العقلُ بصحَّتِه، وقيل: نورٌ يُفرَّقُ به بَيْنَ الإلهامِ والوِسواسِ، وقيل: سرعةُ الجوابِ مع الإصابةِ. وبعضُ هذه الأقوالِ ذكرها بعضُ أهلِ التَّفسيرِ في تفسيرِ قَولِه تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ}، والأقربُ أنَّ المرادَ بها في حديثِ ابنِ عبَّاسٍ: الفَهمُ في القرآنِ".[2234]

ت. الحكمة في أقوال السلف والعلماء:

- قال ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه: (ينبغي لحامِلِ القرآنِ أن يكونَ باكِيًا محزونًا، حليمًا سَكينًا)[2235].

- وكتب سَلمانُ إلى أبي الدَّرداءِ: (إنَّما العِلمُ كالينابيعِ، فينفَعُ به اللهُ من شاء، ومَثَلُ حِكمةٍ لا يُتكَلَّمُ بها كجَسَدٍ لا رُوحَ له)[2236].

- وقال أبانُ بنُ سليمٍ: (كَلِمةُ حِكمةٍ لك من أخيك خيرٌ لك من مالٍ يعطيك؛ لأنَّ المالَ يُطغيك، والكَلِمةَ تَهديك)[2237].

- وقال ابنُ القَيِّمِ عن الحِكمةِ: (كلُّ نظامِ الوُجودِ مرتَبِطٌ بهذه الصِّفةِ، وكُلُّ خَلَلٍ في الوجودِ وفي العبدِ فسَبَبُه الإخلالُ بها؛ فأكمَلُ النَّاسِ أوفَرُهم منها نصيبًا، وأنقَصُهم وأبعَدُهم عن الكمالِ أقلُّهم منها ميراثًا)[2238].

- قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: „كونوا ربَّانِيِّين حُكَماءَ فُقَهاءَ".[2239]

- وقال سُلَيمانُ بنُ عبدِ الملكِ: „يا أبا حازمٍ، مَن أعقَلُ النَّاسِ؟ فقال أبو حازمٍ: من تعَلَّمَ الحِكمةَ وعلَّمها النَّاسَ".[2240]

- وقال حمَّادُ بنُ أبي حنيفةَ: „كان يقالُ: من يستقبِلْ وُجوهَ الآراءِ عَرف مواقِعَ الخطأِ، ومن عُرِف بالحِكمةِ لحَتْه الأعينُ بالوَقارِ".[2241]

- وعن ابنِ عُيَينةَ قال: „كان يقالُ: إنَّ أفضَلَ ما أُعْطِيَ العبدُ في الدُّنيا الحِكمةُ، وفي الآخِرةِ الرَّحمةُ".[2242]

[2231] أخرجه البخاري 1409، ومسلم 816

[2232] شرح النووي على مسلم 6/98

[2233] أخرجه البخاري 3756

[2234] فتح الباري لابن حجر 1/170

[2235] رواه ابنُ أبي شيبة (36734)، وأحمد في ((الزهد)) (892)، وأبو نعيم في ((الحلية)) (1/130)

[2236] رواه الدارمي (557)، وابن أبي شيبة (35811)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (21/440)

[2237] رواه ابنُ عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (263)

[2238] ((مدارج السالكين)) لابن القيم (2/449)

[2239] أخرجه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم قبل حديث 68، ورواه موصولًا ابن أبي حاتم في التفسير3746، والطبري في التفسير 7313 صحَّح إسنادَه ابن الملقن في شرح البخاري 3/328، وحسَّنه ابنُ حجر في فتح الباري 1/192

[2240] رواه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم 3456

[2241] المصدر السابق 2630. ويُنظَر: نثر الدر للآبي 166 /4

[2242] رواه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم 2669

- وقال أبو بكرِ بنُ دُرَيدٍ: „كلُّ كَلِمةٍ وعظَتْك وزجرَتْك، أو دعَتْك إلى مَكرُمةٍ، أو نهَتْك عن قبيحٍ؛ فهي حِكمةٌ".[2243]

وقال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: „العُلَماءُ كثيرٌ، والحُكَماءُ قليلٌ، وإنَّما يرادُ من العِلمِ الحِكمةُ، فمن أوتيَ الحِكمةَ فقد أوتي خيرًا كثيرًا".[2244]

المطلب الثالث: نماذجُ في الحِكمةِ

أ. نماذِجُ من حِكمةِ الأنبياءِ والمُرسَلين عليهم السَّلامُ:

- **حِكمةُ نبيِّ اللهِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ في القَضاءِ:**

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: "كانت امرأتانِ معهما ابناهما، جاء الذِّئبُ فذهب بابنِ إحداهما، فقالت صاحِبَتُها: إنَّما ذهَب بابنِك، وقالت الأُخرى: إنَّما ذهَب بابنِك، فتحاكَمَتا إلى داودَ، فقضى به للكُبرى، فخرجَتَا على سُلَيمانَ بنِ داودَ، فأخبَرَتاه، فقال: ائتوني بالسِّكينِ أشُقُّه بينهما، فقالت الصُّغرى: لا تفعَلْ يرحمُك اللهُ، هو ابنُها، فقضى به للصُّغرى".[2245]

قال ابنُ الجوزيِّ: „أمَّا داودُ عليه السَّلامُ فرأى استواءَهما في اليدِ فقدَّم الكُبرى لأجلِ السِّنِّ، وأمَّا سُلَيمانُ عليه السَّلامُ فرأى الأمرَ محتَمِلًا، فاستنبط فأحسَنَ، فكان أحَدَّ فِطنةً من داودَ، وكلاهما حَكَم بالاجتهادِ؛ لأنَّه لو كان داودُ حَكَم بالنَّصِّ لم يَسَعْ سُلَيمانَ أن يحكُمَ بخلافِه، ولو كان ما حَكَم به نصًّا لم يخْفَ على داودَ، وهذا الحديثُ يدُلُّ على أنَّ الفِطنةَ والفَهمَ مَوهِبةٌ لا بمقدارِ السِّنِّ".[2246]

ب. حِكمةُ لُقمانَ رَضِيَ اللهُ عنه:

قال اللهُ تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} ثمَّ حكى اللهُ بعضَ وصاياه لابنِه، فقال: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان: 13-19].

قال أبو منصورٍ الثَّعالبيُّ: قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} [لقمان: 12]، وحكى عنه مواعِظَه ووصاياه لابنِه، ونسَب إليه سورةً من كتابِه. فما الظَّنُّ بمن ثبَّت اللهُ له حِكمتَه، وارتضى كلامَه، أليس حقيقًا أن يُضرَبَ به المثَلُ؟!

[2243] رواه الثعلبي في التفسير 1/276

[2244] أخلاق العُلَماء للآجري ص: 90، حلية الأولياء لأبي نعيم 8/ 92. ويُنظَر: تاريخ دمشق لابن عساكر 51 .409 /قال الآجُرِّيُّ: قولُ الفُضَيلِ -واللهُ أعلمُ-: الفُقهاءُ كثيرٌ، والحُكَماءُ قليلٌ يعني :قليلٌ من العُلَماءِ من صان عِلمَه عن الدُّنيا، وطلب به الآخِرةَ، والكثيرُ من العُلَماءِ قد افتَتَن بعِلمِه، والحُكَماءُ قليلٌ، كأنَّه يقولُ: ما أعَزَّ من طَلَب بعِلمِه الآخِرةَ .أخلاق العُلَماء، ص: 91

[2245] أخرجه البخاري 3427 واللفظ له، ومسلم 1720

[2246] كشف المشكل لابن الجوزي 3/510

ولم يكُنْ لُقمانُ نبيًّا في قولِ أكثَرِ النَّاسِ...
ومن محاسِنِ مواعِظِه لابنِه قَولُه له:
(يا بُنَيَّ، بِعْ دُنياك بآخرتِك تربَحْها جميعًا..
يا بُنَيَّ، إيَّاك وصاحِبَ السُّوءِ؛ فإنَّه كالسَّيفِ يحسُنُ منظَرُه ويَقبُحُ أثَرُه.
يا بُنَيَّ، لا تكُنِ النَّملةُ أكيَسَ منك؛ تجمَعُ في صيفِها لشتائِها.
يا بُنَيَّ، لا يكُنِ الدِّيكُ أكيَسَ منك؛ ينادي بالأسحارِ وأنت نائمٌ.
يا بُنَيَّ، إيَّاك والكَذِبَ؛ فإنَّه أشهى من لحمِ العُصفورِ.
يا بُنَيَّ، إنَّ اللهَ تعالى يحيي القلوبَ الميتةَ بنورِ الحِكمةِ كما يحيي الأرضَ بالمطَرِ.
يا بُنَيَّ، لا تقرَبِ السُّلطانَ إذا غَضِب، والنَّهرَ إذا مَدَّ.
يا بُنَيَّ، اتَّخِذْ تقوى الله بضاعةً تأتِك الأرباحُ من غيرِ تجارةٍ.
يا بُنَيَّ، شاوِرْ مَن جَرَّب الأمورَ؛ فإنَّه يعطيك من رأيِه ما قام عليه بالغلاءِ، وأنت تأخُذُه بالمجانِّ.
يا بُنَيَّ، كذَبَ من قال: إنَّ الشَّرَّ يُطفَأُ بالشَّرِّ، فإن كان صادِقًا فليوقِدْ نارينِ، ثمَّ ليَنظُرْ هل تُطفَأُ إحداهما بالأخرى؟! وإنَّما يُطفئُ الخيرُ الشَّرَّ كما يطفئُ الماءُ النَّارَ).[2247]

ب. نماذجُ من حِكمةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

● **عن عائشةَ زوجِ النَّبيِّ** صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّها قالت لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا رسولَ اللهِ، هل أتى عليكَ يومٌ كان أشَدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ فقال: "لقَدْ لَقِيتُ مِن قَومِكِ، وكانَ أشَدَّ ما لَقِيتُ منهم يومَ العَقَبَةِ؛ إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي على ابنِ عبدِ يَالِيلَ بنِ عبدِ كُلَالٍ، فلم يُجِبْني إلى ما أرَدْتُ، فانطَلَقْتُ وأنا مَهمومٌ على وَجْهي، فلم أسْتَفِقْ إلَّا بقَرنِ الثَّعالِبِ، فرَفَعْتُ رَأسي فإذا أنا بسَحابةٍ قد أظَلَّتني، فنَظَرْتُ فإذا فيها جِبْريلُ، فنَادَاني، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ قد سمِعَ قَولَ قَومِك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بَعَث إليك ملَكَ الجِبالِ لتَأمُرَه بما شِئتَ فيهم، قال: فناداني مَلَكُ الجِبالِ وسَلَّم عَلَيَّ، ثمَّ قال: يا محمَّدُ، إنَّ اللهَ قد سمِعَ قَولَ قَومِك لك، وأنا مَلَكُ الجِبالِ وقد بعثَني ربُّك إليكَ لتَأمُرَني بأمْرِك، فما شِئتَ، إنْ شِئتَ أن أُطبِقَ عليهم الأخشَبَينِ، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم من يعبُدُ اللهَ وَحدَه لا يُشرِكُ به شيئًا".[2248]

● **وفي صُلحِ الحُدَيبيَةِ:** دعا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الكاتِبَ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "اكتُبْ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. فقال سُهَيلٌ: أمَّا الرَّحمنُ فواللهِ ما أدري ما هو! ولكِنِ اكتُبْ: باسمِكَ اللَّهُمَّ. فقال المسلِمون: واللهِ لا نكتُبُها إلَّا بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اكتُبْ: باسمِكَ اللَّهُمَّ. ثمَّ قال: هذا ما قاضى عليه محمَّدٌ رسولُ اللهِ. فقال سُهَيلٌ: واللهِ لو كُنَّا نعلَمُ أنَّك رسولُ اللهِ ما صدَدْناك عن البيتِ ولا قاتَلْناك، ولكِنِ اكتُبْ: محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ. فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: واللهِ إنِّي لرَسولُ اللهِ، وإن كذَّبْتُموني، اكتُبْ: محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ...".[2249]

[2247] ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص: 124، 125

[2248] أخرجه البخاري 3231، ومسلم 1795 مطوَّلًا من حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها

[2249] أخرجه البخاري 2731، 2732مطوَّلًا من حديثِ المِسوَرِ بنِ مَخرَمةَ ومروانَ بنِ الحَكَمِ رَضِيَ اللهُ عنهما

ج. نماذِجُ من حِكمةِ الصَّحابةِ:

● **أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عنه:** عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: "إنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه خرج، وعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه يُكلِّمُ النَّاسَ، فقال: اجلِسْ، فأبى، فقال: اجلِسْ، فأبى، فتشهَّد أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، فمال إليه النَّاسُ، وتركوا عُمَرَ، فقال: أمَّا بعدُ، فمَن كان منكم يعبُدُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد مات، ومن كان يعبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ؛ قال اللهُ تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [آل عمران: 144]، واللهِ لكأنَّ النَّاسَ لم يكونوا يعلمون أنَّ اللهَ أنزلها حتى تلاها أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، فتلقَّاها منه النَّاسُ، فما يُسمَعُ بَشَرٌ إلَّا يتلوها!".[2250]

● **عثمانُ بنُ عفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه:** أَمَرَ عُثْمَانُ الصَّحابةَ إذا اختلفوا في شيءٍ عِندَ جمعِ القرآنِ أن يكتُبوه بلغةِ قُرَيشٍ، ففعلوا، حتى إذا نسَخوا الصُّحُفَ في المصاحِفِ، رَدَّ عثمانُ الصُّحُفَ إلى حفصةَ رَضِيَ اللهُ عنها، وأرسل إلى كُلِّ أُفُقٍ من الآفاقِ بمصحَفٍ ممَّا نسَخوا، وأمَرَ بما سواه من القرآنِ في كُلِّ صحيفةٍ أو مُصحَفٍ أن يُحرَقَ.[2251]

● **أبو الدَّرداءِ:** مرَّ أبو الدَّرداءِ على رجُلٍ قد أصاب ذنبًا فكانوا يسُبُّونه، فقال: "أرأيتُم لو وجَدتُموه في قَليبٍ، ألم تكونوا مُستخرِجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تَسُبُّوا أخاكم، واحمَدوا اللهَ الذي عافاكم، قالوا: أفلا تُبغِضُه؟ قال: إنَّما أبغِضُ عَمَلَه، فإذا تركَه فهو أخي".[2252]

د. نماذِجُ من حِكمةِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

● **عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ:** حجَّ سُلَيمانُ بنُ عبدِ المَلِكِ ومعه عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ فأصابهم برقٌ ورَعدٌ، حتَّى كادت تنخَلِعُ قلوبُهم، فنظر سليمانُ إلى عُمَرَ وهو يضحَكُ، فقال سُليمانُ: يا أبا حفصٍ، هل رأيتَ مِثلَ هذه اللَّيلةِ قَطُّ أو سمعتَ بها؟ فقال: يا أميرَ المُؤمِنين، هذا صوتُ رحمةِ اللهِ، فكيف لو سمِعتَ صوتَ عذابِ اللهِ؟! فقال: هذه المائةُ ألفِ دِرهَمٍ، فتصدَّقْ بها. فقال عُمَرُ: أو خيرٌ من ذلك يا أميرَ المُؤمِنين؟ قال: وما هو؟ قال: قومٌ صَحِبوك في مظالِمَ لهم، لم يَصِلوا إليك، فجلَس سليمانُ فرَدَّ المظالمَ.

وحَدَث من سليمانَ بنِ عبدِ المَلِكِ أنَّه قال له: "يا أبا حفصٍ، إنَّا وَلِينا ما قد ترى، ولم يكُنْ لنا بتدبيرِه علمٌ، فما رأيتَ من مصلحةِ العامَّةِ فمُرْ به، فكان من ذلك أنَّ عُمَرَ أمر بعَزلِ عُمَّالِ الحَجَّاجِ، وأقيمت الصَّلاةُ في أوقاتِها بعد ما كانت أُميتَت عن وَقتِها، مع أمورٍ جليلةٍ كان يسمَعُ من عُمَرَ فيها، فقد قيل: إنَّ سليمانَ حَجَّ فرأى الخلائقَ بالموقِفِ، فقال لعُمَرَ: أما ترى هذا الخَلقَ الذي لا يُحصي عَدَدَهم إلَّا اللهُ؟ قال: هؤلاء اليومَ رعيَّتُك، وهم غدًا خُصماؤك! فبكى سليمانُ بكاءً شديدًا[2253].

● **الشَّافعيُّ:** جاء رجلٌ من أهلِ الكلامِ إلى الشَّافعيِّ وهو في مصرَ، فسأله عن مسألةٍ من الكلامِ، فقال له الشَّافعيُّ: ,,أتدري أين أنت؟ قال الرَّجُلُ: نعم. قال: هذا الموضِعُ الذي أغرق اللهُ فيه فرعونَ، أَبَلَغَكَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمر بالسُّؤالِ عن ذلك؟ قال: لا. قال: هل تكلَّم فيه الصَّحابةُ؟ قال: لا. قال: هل تدري كم نجمًا في السَّماءِ؟ قال: لا.

[2250] أخرجه البخاري 1242

[2251] الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 165/1

[2252] أخرجه أبو داود في الزهد 232، وأبو نعيم في الحلية 1/225، والبيهقي في شعب الإيمان 6691

[2253] ((مناقب عمر)) لابن الجوزي (52، 53)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (121/5)

قال: فكوكبٌ منها، تَعرِفُ جنسَه، طلوعَه، أُفولَه، ممَّ خُلِق؟ قال: لا. قال: فشيءٌ تراه بعينِك من الخَلقِ لستَ تَعرِفُه، تتكَلَّمُ في عِلمِ خالِقِه؟! ثمَّ سأله الشَّافعيُّ عن مسألةٍ من الوضوءِ فأخطأ فيها، ففرَّعها على أربعةِ أوجُهٍ، فلم يُصِبْ في شيءٍ من ذلك، فقال له: شيءٌ تحتاجُ إليه في اليومِ خمسَ مرَّاتٍ تدَعُ عِلمَه، وتتكَلَّفُ عِلمَ الخالِقِ؟ إذا هجَس في ضميرِك ذلك فارجِعْ إلى اللهِ، وإلى قولِه تعالى: {وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [البقرة: 163]".[2254]

● **العِزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ:** لَمَّا دهمت التَّتارُ بلادَ المسلِمين وضاقت بالسُّلطانِ وعساكِرِه الأرضُ استشاروا الشَّيخَ عِزَّ الدِّينِ رحمه اللهُ، فقال: اخرُجوا وأنا أضمَنُ لكم على اللهِ النَّصرَ، فقال السُّلطانُ له: إنَّ المالَ في خزانتي قليلٌ، وأنا أريدُ أن أقترِضَ من أموالِ التُّجَّارِ، فقال له الشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ: إذا أحضَرْتَ ما عندك وعندَ حَريمِك وأحضَرَ الأمراءُ ما عندهم من الحُليِّ الحرامِ وضرَبْتَه سِكَّةً ونَقدًا وفرَّقْتَه في الجيشِ ولم يَقُمْ بكفايتِهم، ذلك الوَقتَ اطلُبِ القَرضَ، وأمَّا قبل ذلك فلا، فأحضَرَ السُّلطانُ والعسكَرُ كُلُّهم ما عندهم من ذلك بَيْنَ يَدَيِ الشَّيخِ، وكان الشَّيخُ له عَظَمةٌ عندَهم وهَيبةٌ، بحيث لا يستطيعون مخالفتَه، فامتثلوا أمرَه فانتَصَروا.[2255]

● **القاضي أبو بكرٍ الباقِلَّانيُّ:** ذَكَر الخطيبُ البغداديُّ وغيرُه عنه أنَّ عَضُدَ الدَّولةِ بَعَثه في رسالةٍ إلى مَلِكِ الرُّومِ، فلمَّا انتهى إليه إذا هو يدخُلُ عليه من بابٍ قصيرٍ، ففَهِم أنَّ مرادَه بذلك أن ينحنيَ كهيئةِ الرَّاكِعِ للمَلِكِ، فدخَل البابَ بظَهرِه وجعل يمشي القَهقَرى إلى نحوِ الملِكِ، ثم انفَتَل فسَلَّم عليه، فعَرَف الملِكُ مكانَه من العِلمِ والفَهمِ؛ فعَظَّمَه.[2256]

وقد سأله بعضُ الأساقِفةِ بحَضرةِ مَلِكِهم، فقال: ما فعلَت زَوجةُ نَبيِّكم؟ وما كان من أمْرِها فيما رُمِيَت به من الإفكِ؟ فقال مجيبًا له على البديهةِ: هما امرأتانِ ذُكِرتا بسوءٍ: مريمُ وعائشةُ، فبَرَّأهما اللهُ عزَّ وجَلَّ، وكانت عائشةُ ذاتَ زَوجٍ ولم تأتِ بوَلَدٍ، وأتت مريمُ بوَلَدٍ ولم يكُنْ لها زوجٌ! يعني أنَّ عائشةَ أَولى بالبراءةِ من مريمَ -عليها السَّلامُ- فإن تطَرَّقَ في الذِّهنِ الفاسِدِ احتمالٌ إلى هذه فهو إلى تلك أسرَعُ! وهما بحَمدِ اللهِ مبرَّأتانِ من السَّماءِ بوَحيٍ من اللهِ عزَّ وجَلَّ، رَضِيَ اللهُ عنهما.[2257]

المطلب الرابع: أقسام الحكمة

الحِكمةُ من حيثُ الاكتسابُ وعَدَمُه تنقَسِمُ إلى قسمَينِ:

1/ حِكمةٌ فِطريَّةٌ: يؤتيها اللهُ عزَّ وجَلَّ من يشاءُ، ويتفضَّلُ بها على من يريدُ، وهذه لا يدَ للعبدِ فيها، وهي التي عناها عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه حينما كتب إلى أبي موسى الأشعريِّ: „إنَّ الحِكمةَ ليست عن كِبَرِ السِّنِّ، ولكِنَّه عطاءُ اللهِ يعطيه من يشاءُ، فإيَّاك ودناءةَ الأمورِ، ومَراقَّ الأخلاقِ".[2258]

2/ **حِكمةٌ مُكتَسَبةٌ:** يكتَسِبُها العبدُ بفِعلِ أسبابِها، وتركِ موانِعِها، فيَسهُلُ انقيادُها له، وتجري على ألفاظِه التي ينطِقُ بها، وتكتسي بها أعمالُه التي يفعَلُها، ويشهَدُها النَّاسُ على حركاتِه وسَكَناتِه.

ومن جهةٍ أخرى فالحِكمةُ نوعانِ:

[2254] سير أعلام النبلاء للذهبي 10/32

[2255] طبقات الشافعية الكبرى للسبكي 215 /8

[2256] البداية والنهاية 15/ 549

[2257] البداية والنهاية 15/ 549. والقاضي أبو بكر الباقلاني قال عنه ابنُ كثيرٍ: رأسُ المتكَلِّمين على مذهَبِ الشَّيخِ أبي الحسَنِ عليِّ بنِ إسماعيلَ الأشعريِّ، ومن أكثَرِ النَّاسِ كلامًا وتصنيفًا في الكلامِ. البداية والنهاية 15/ 548

[2258] الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا 212

النَّوعُ الأوَّلُ: حِكمةٌ عِلميَّةٌ نظريَّةٌ، وهي الاطِّلاعُ على بواطِنِ الأشياءِ، ومعرفةُ ارتباطِ الأسبابِ بمُسَبَّباتِها، خَلقًا وأمرًا، قدَرًا وشَرعًا.

النَّوعُ الثَّاني: حِكمةٌ عَمَليَّةٌ، وهي وضعُ الشَّيءِ في موضِعِه.[2259]

وَالحِكْمَةُ العَمَلِيَّةُ: وَضْعُ الشَّيءِ فِي مَوْضِعِهِ وَهُمَا مُتَلَازِمَتَانِ[2260].

"فَالحِكْمَةُ النَّظَرِيَّةُ مَرْجِعُهَا إِلَى العِلْمِ والإِدْرَاكِ، وَالحِكْمَةُ العَمَلِيَّةُ مَرْجِعُهَا إِلَى فِعْلِ الْعَدْلِ وَالصَّوَابِ، وَلَا يُمْكِنُ خُرُوجُ الحِكْمَةِ عَنْ هَذَيِنِ المعْنَيَيْنِ؛ لأَنَّ كَمَالَ الإِنْسَانِ فِي أَمْرَيْنِ: أَنْ يَعْرِفَ الحَقَّ لِذَاتِهِ، وَأَنْ يَعْمَلَ بِهِ، وَهَذَا هُوَ العِلْمُ النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ". [2261]

المطلب الخامس: دَرَجَاتُ الحِكْمَةِ

دَرَجَاتُ الحِكْمَةِ ثَلَاثَةٌ، وَهِيَ[2262]:

الدَّرجةُ الأولى: أن تُعْطِيَ كُلَّ شيءٍ حَقَّه ولا تُعْديه حَدَّه، ولا تُعجِلَه عن وقتِه، ولا تؤخِّرَه عنه.

فالأشياءُ لها مراتبُ وحقوقٌ تقتضيها شرعًا وقدَرًا، ولها حدودٌ ونهاياتٌ تَصِلُ إليها ولا تتعدَّاها، ولها أوقاتٌ لا تتقدَّمُ عنها ولا تتأخَّرُ؛ والحِكمةُ مراعاةُ هذه الجهاتِ الثَّلاثِ، بأن تعطيَ كُلَّ مرتبةٍ حقَّها الذي أحقَّه اللهُ بشرعِه وقدَرِه، ولا تتعدَّى بها حَدَّها؛ فتكونَ متعديًا مخالفًا للحِكمةِ، ولا تطلُبَ تعجيلَها عن وقتِها فتخالِفَ الحِكمةَ، ولا تؤخِّرَها عنه فتُفوِّتَها وَهَذَا حُكْمٌ عَامٌ لِجَمِيعِ الأَسْبَابِ مَعَ مُسَبِّبَاتِهَا شَرْعًا وَقَدَرًا؛ فَإِضَاعَتُهَا تَعْطِيلٌ لِلْحِكْمَةِ وَهُوَ بِمَنزِلَةِ إِضَاعَةِ البَذْرِ وَسَقْيِ الأَرْضِ، وَتَعَدِّي الحَقِّ: كَسُقْيِهَا فَوقَ حَاجَتِهَا، بِحَيثُ يَغْرَقُ البَذْرُ وَالزَّرعُ وَيَفْسَدُ، وَتَعْجِيلِهَا عَنْ وَقتِهَا: كَحَصَادِهِ قَبْلَ إِدْرَاكِهِ وَكَمَالِهِ؛ وَلِذَلِكَ فَالحِكْمَةُ كَمَا ذَكَرْنا سَالِفًا، هِيَ: „فِعْلُ مَا يَنْبَغِي، عَلَى الوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، فِي الوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي".
إِذًا الحِكْمَةُ أَنْ تَضَعَ كُلَّ شَيءٍ فِي مَكَانِهِ؛ الغَضَبُ وَالحَزْمُ وَالشِّدَّةُ فِي المَواضِعِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ؛ وَاللِّينُ وَالتَّسَامُحُ وَالرَّحْمَةُ أَيْضًا فِي المَوَاقِفِ الَّتِي تَتَطَّلَبُ ذَلِكَ.

الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: أن تشهَدَ نَظَرَ اللهِ في وَعدِه، وتعرِفَ عَدلَه في حُكمِه، وتلحَظَ بِرَّه في منعِه.

أي: تعرفَ الحِكمةَ في الوعدِ والوعيدِ، وتشهَدَ حُكمَه، كما في قولِه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:40]، فتشهَدَ عدلَه في وعيدِه، وإحسانَه في وعدِه، وكُلٌّ قائمٌ بحِكمتِه.

وكذلك تعرِفُ عَدلَه في أحكامِه الشَّرعيَّةِ والكونيَّةِ الجاريةِ على الخلائِقِ؛ فإنَّه لا ظُلمَ فيها ولا حَيفَ[2263] ولا جَورَ، وكذلك تعرِفُ بِرَّه في منعِه؛ فإنَّه سُبحانَه هو الجوادُ الذي لا يَنقُصُ خزائنَه الإنفاقُ، ولا يَغيضُ ما في يمينِه سَعةُ عَطائِه، فما مَنَع مَن منَعَه فَضلَه إلَّا لِحكمةٍ كاملةٍ في ذلك.

الدَّرجةُ الثَّالثةُ: أن تبلُغَ في استدلالِك البصيرةَ، وفي إرشادِك الحقيقةَ، وفي إشارتِك الغايةَ.

[2259] مدارج السالكين لابن القيم 2/478

[2260] المصدر السابق، 2/448- 449 باختصار.

[2261] الحكمة في الدعوة إلى الله، ص35

[2262] انظر: مدارج السالكين 2/500 وما بعدها باختصار، والحكمة في الدعوة إلى الله، ص37 وما بعدها، ووسائل الدعوة للمغذوي ص34وما بعدها باختصار وتصرف يسير.

[2263] الحَيفُ: الميلُ في الحُكمِ، والجَورُ والظُّلمُ. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 9/60

فتَصِلَ باستدلالِك إلى أعلى درَجاتِ العِلمِ، وهي البصيرةُ التي تكونُ نسبةُ العلومِ فيها إلى القَلبِ كنسبةِ المرئيِّ إلى البصَرِ، وهذه هي الخصيصةُ التي اختصَّ بها الصَّحابةُ عن سائرِ الأمَّةِ، وهي أعلى درَجاتِ العُلَماءِ.[2264]

المطلب السادس: أركانُ الحِكْمَةِ

الحِكمةُ „لها ثَلاثَةُ أَرْكَانٍ ودَعَائِمَ تَقُومُ عَلَيهَا: العِلمُ، والحِلمُ، والأناةُ. وَكُلُّ خللٍ فِي الدَّاعِيةِ، فَسَبَبُهُ الإِخْلَالُ بِالحِكْمَةِ، فَأَكْمَلُ النَّاسِ: أوفرُهُم مِنْهَا نصيبًا، وأنقَصُهُم وأبعدُهُم عَنْ الكَمَالِ أَقَلُّهُم مِنْهَا مِيرَاثًا". „[2265]

وآفاتُها وأضدادُها: الجَهلُ، والطَّيشُ، والعَجَلةُ، فلا حِكمة لجاهِلٍ ولا طائِشٍ ولا عَجولٍ".[2266]

● الرُّكْنُ الأَوَّلُ: العِلْمُ:

وهوَ مِنْ أعْظَمِ أَرْكَانِ الحِكْمَةِ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَأَوْجَبَهُ قَبْلَ القَولِ والعَمَلِ، فَقَالَ تَعَالَى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد: 19].

وَقَدْ بَوَّبَ الإِمَامُ البُخَارِيُّ لهذِهِ الآيةِ بِقَولِهِ: "بَابُ العِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ والعَمَلِ".[2267]

فَبَدَأَ بِالعِلْمِ قَبْلَ العَمَلِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَرْتَبَةَ العلمِ مُقَدَّمَةٌ عَلَى مَرتَبَةِ العَمَلِ، وأَنَّ العِلْمَ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ القَوْلِ والعَمَلِ، فَلَا يُعتَبَرَانِ إِلَّا بِهِ، فهو مُقَدَّمٌ عَلَيهِمَا؛ لأَنَّه مُصَحِّحٌ للنِّيَّةِ المَصحِّحَةِ للعَمَلِ.

وَلَا يَكُونُ الدَّاعيةُ إلى اللهِ حَكِيمًا إِلَّا بالعلمِ الشَّرعِيِّ، وإِنْ لَمْ يَصْحَبِ الداعيةَ مِنْ أَوَّلِ قَدَمٍ يَضَعُه فِي الطريقِ إلى آخِرِ قَدَمٍ يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَسُلُوكُه عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ، وَهُوَ مَقْطُوعٌ عَلَيْهِ طَرِيقُ الوُصُولِ، وَمَسْدُودٌ عَلَيْهِ سَبِيلُ الهُدَى وَالفَلَاحِ، وَهَذَا إِجْمَاعٌ مِنْ العَارِفِينَ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَا يَنْهَى عَنْ العِلْمِ إِلَّا قُطَّاعُ الطَّرِيقِ، وَنُوَّابُ إِبْلِيسَ وَشُرَطِهِ.[2268]

● الرُّكْنُ الثَّانِي: الحِلْمُ:

الحِلمُ: العَقْلُ، وحَلُمَ حِلْمًا: تَأَنَّى وَسَكَنَ عِنْدَ غَضَبٍ، أَوْ مَكْرُوهٍ مَعَ قُدْرَةٍ، وَقُوَّةٍ، وَصَفَحَ، وَعَقَلَ، وَمِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى: (الحَلِيمُ) وَهُوَ الَّذِي لَا يَسْتَخِفُّهُ شَيْءٌ مِنْ عِصْيَانِ العِبَادِ، وَلَا يَسْتَفِزُّهُ الغَضَبُ عَلَيْهِم، وَلَكِنَّه جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ مِقْداراً فُهُوَ مُنْتَهٍ إِلَيْهِ.[2269]

وَالْحِلْمُ: ضَبْطُ النَّفْسِ وَالطَّبْعِ عَنْ هَيَجَانِ الغَضَبِ.[2270]

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْحِلْمُ بِعِلْمٍ، حَيْثُ نَجِدُ أَنَّ عَدَدًا مِنْ الآيَاتِ الَّتِي وَصَفَتِ اللهُ بالحِلْمِ قَدْ قَرَنَ فِيهَا ذِكْرَ الحِلْمِ بِالعلمِ، كَقَولِهِ تَعَالَى: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ} [النساء: ١٢].

وَالحِلْمُ خُلُقٌ عَظِيمٌ مِنْ أَخلَاقِ الأَنْبِيَاءِ فِي دَعْوَتِهِم لِقَوْمِهِم، وَاجَهُوا بِهِ جَهْلَ المَدْعُوِّينَ، وَسَفَهَهُم وَتَطَاوُلَهُم، وَعِنَادَهُم وَتَجَاوُزَهُم بِحِلْمٍ قَوِيٍّ أَوْرَثَ هِدَايَةً لِبَعْضِهِم.

● الرُّكْنُ الثَّالِثُ: الأَنَاةُ:

الأناةُ فِي اللغَةِ: التَّثَبُّتُ وَعَدَمُ العَجلَةِ، وَتَأْتِي بِمَعْنَى التَّبَيُّنَ وَالتَّثَبُّتَ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى: التَّبَصُّرَ وَالتَّعَرُّفَ وَالتَّأَمُّلَ.[2271]

[2264] مدارج السالكين لابن القيم 2/448 -452، بتصرف.

[2265] المصدر السابق، 2/448- 449 باختصار، الحكمة في الدعوة إلى الله ص: 43

[2266] مدارج السالكين لابن القيم 2/449

[2267] فتح الباري كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل 1/ 159

[2268] الحكمة في الدعوة إلى الله ص44 باختصار، وانظر. فتح الباري 1/160، وحاشية ثلاثة الأصول لمحمد بن عبد الوهاب، جمع عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي، ص 15. انظر: مدارج السالكين، للإمام ابن القيم 2/ 464.

[2269] ينظر: القاموس المحيط، المعجم الوسيط، النهاية في غريب الحديث والأثر.

[2270] المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني.

فَالأَنَاةُ هِيَ: التَّصَرُّفُ الحَكِيمُ بينَ العَجَلَةِ وَالتَّبَاطُؤِ.[2272]

والأَنَاةُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ خُلُقِ الصَّبْرِ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ أَصْحَابِ العَقْلِ والرَّزَانَةِ، بِخَلَافِ العَجَلَةِ فَإِنَّهَا مِنْ صِفَاتِ أَصْحَابِ الرُّعُونَةِ وَالطَّيْشِ.

والأَنَاةُ عِنْدَ الدَّاعِيةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى تَسْمَحُ لَهُ بِأَنْ يُحَكِّمَ أُمُورَهُ، وَيَضَعَ الأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا، بِخَلَافِ العَجَلَةِ فَإِنَّهَا تُعَرِّضُهُ لِكَثِيرٍ مِنْ الأَخْطَاءِ، وَالإِخْفَاقِ، وَالتَّعَثُّرِ، وَالارْتِبَاكِ.

والدَّاعِيَةُ مَطْلُوبٌ مِنْهُ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِخُلُقِ الأَنَاةِ، وَلَكِنْ مَا يَتَطَلَّبُ مِنْ الأُمُورِ عَمَلاً سَرِيعًا؛ فَالحِكْمَةُ السُّرْعَةُ إِذَنْ، وَهِيَ لَا تَخْرُجُ عَنِ الأَنَاةِ، وَمَا يَتَطَّلَبُ مِنْ الأُمُورِ عَمَلاً بَطِيئًا؛ فَالحِكْمَةُ البُطْءُ إِذَنْ.[2273]

المطلب السابع: مواضِعُ يُتَأَكَّدُ فيها لزومُ الحِكمةِ

- من المواضِعِ التي تتأَكَّدُ فيها مراعاةُ الحِكمةِ: التَّعامُلُ مع الوالِدَينِ والأقارِبِ، والتَّعامُلُ بَيْنَ الزَّوجينِ، فتَركُ استعمالِ الحِكمةِ فيها يترَتَّبُ عليه من عقوقٍ للوالِدَينِ وقَطعٍ للأرحامِ وتهدُّمٍ للبيوتِ وتصَدُّعٍ للأُسَرِ.

- من المواضِعِ التي تتأَكَّدُ فيها مراعاةُ الحِكمةِ: إشاعةُ الأخبارِ خاصَّةً في أوقاتِ الأزماتِ أو الحروبِ، فعَدَمُ استعمالِ الحِكمةِ في هذه الأمورِ يؤدِّي إلى مفاسِدَ كبيرةٍ وآثارٍ سَيِّئةٍ.

المطلب الثامن: فوائدُ الحِكمةِ

1- أنَّها طريقٌ إلى معرفةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، موصِلةٌ إليه، مقرِّبةٌ منه.

2- أنَّها سمةٌ من سماتِ الأنبياءِ والصَّالحين، وعلامةٌ للعُلَماءِ العامِلين، ومزيَّةٌ للدُّعاةِ المُصلِحين.

3- من أهمِّ فوائِدِ الحِكمةِ، الإصابةُ في القَولِ والسَّدادُ في العَمَلِ.

فالحِكمةُ تدعو صاحِبَها للعَمَلِ على وَفقِ الشَّرعِ، فيصيبُ في القولِ والفِعلِ والتَّفكيرِ، ويسيرُ على هدًى وبصيرةٍ. قال أبو القاسِمِ الجُنَيدُ بنُ محمَّدٍ، وقد سُئِل: بم تأمُرُ الحِكمةُ؟ قال: „تأمُرُ الحِكمةُ بكُلِّ ما يُحمَدُ في الباقي أثَرُه، ويَطيبُ عِندَ جملةِ النَّاسِ خَبَرُه، ويؤمَنُ في العواقِبِ ضَرَرُه".[2274]

4- أنَّها ترفَعُ الإنسانَ دَرَجاتٍ وتُشَرِّفُه، وتزيدُ من مكانتِه بَيْنَ النَّاسِ؛ فعن مالِكِ بنِ دينارٍ قال: „قرأتُ في بعضِ كُتُبِ اللهِ: أنَّ الحِكمةَ تزيدُ الشَّريفَ شَرَفًا، وترفَعُ المملوكَ حتى تجلِسَه مجالِسَ الملوكِ".[2275]

5- فيها دلالةٌ على كمالِ عَقلِ صاحِبِها وعُلوِّ شأنِه، وهذا يجعَلُه قريبًا من النَّاسِ، محبوبًا لهم، يقولُ فيسمعون، ويأمُرُ فيُطيعون.

6- تعطي العبدَ نفاذًا في البصيرةِ، وتهذيبًا للنَّفسِ، وتزكيةً للرُّوحِ، ونقاءً للقَلبِ.

7- تكسو العبدَ بثوبِ الوَقارِ، وتُحَلِّيه بحِليةِ الهَيبةِ، وتخلَعُ عليه ثيابَ البهاءِ والإجلالِ.

[2271] المصباح المنير، ومختار الصحاح، والمعجم الوسيط، والقاموس المحيط، ومختار الصحاح، مادة: (بصر).

[2272] الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني 2/352

[2273] ينظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني 2/353، وأخلاق القرآن الكريم 30/ 15.

[2274] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم 261/13

[2275] الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه لأبي هلال العسكري ص: 50

8- يكونُ صاحبُها كالغيثِ حيثما حلَّ نفع، وأينما وُضِع أفاد، فيتعلَّمُ منه الكبيرُ والصَّغيرُ، ويكونُ مصدَرَ خيرٍ بإذنِ اللهِ تعالى.

9- تحفَظُ الإنسانَ عن ارتكابِ السُّوءِ أو التَّلفُّظِ به، أو ارتكابِ المحذوراتِ، أو التَّجنّي على الغيرِ، أو عَمَلِ ما يضطرُّه للاعتذارِ وطَلَبِ العفوِ؛ قال أبو القاسمِ الجنيدُ بنُ محمَّدٍ، وقد سُئِل عمَّا تنهى الحِكمةُ؟ فقال: „الحِكمةُ تنهى عن كُلِّ ما يحتاجُ أن يُعتَذَرَ منه، وعن كُلِّ ما إذا غاب عِلمُه عن غيرِك أحشَمَك ذِكرُه في نفسِك".[2276]

المطلب التاسع: وسائِلُ اكتسابِ الحِكمةِ

1- **التَّفقُّهُ في الدِّينِ**، وهو من الخيرِ الكثيرِ الذي أشارت إليه الآيةُ: قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة: 269][2277]. وهي ثمرةٌ من ثمارِ التَّربيةِ القرآنيَّةِ، ونتيجةٌ من نتائجِها.

2- **مجالَسةُ أهلِ العِلمِ والصَّلاحِ**، والاختلاطُ بهم، والاستفادةُ منهم؛ لذا كان لقمانُ يقولُ لابنِه وهو يوصيه ويدُلُّه على طريقِ الحِكمةِ: „يا بُنَيَّ، جالِسِ العُلَماءَ وزاحِمْهم بركبَتَيك؛ فإنَّ اللهَ يُحيي القلوبَ بنورِ الحِكمةِ كما يُحيي الأرضَ الميتةَ بوابِلِ السَّماءِ".[2278]

3- **العبادةُ الحقَّةُ للهِ سُبحانَه**، والارتباطُ الوثيقُ به، والبعدُ عن المعاصي، وطردُ الهوى، كُلُّ ذلك من طرُقِ نَيلِ الحِكمةِ؛ فعن الحَسَنِ قال: "من أحسَنَ عبادةَ اللهِ في شبيبتِه لقَّاه اللهُ الحِكمةَ عِندَ كِبَرِ سِنِّه، وذلك قولُه: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [القصص: 14]"[2279]. وقال ابنُ الجوزيِّ: "لكُلِّ بابٍ مِفتاحٌ، ومفتاحُ الحِكمةِ: طَردُ الهوى".[2280]

4- **تحرِّي الحلالِ** في مأكَلِه ومَشرَبِه ومَلبَسِه وشأنِه كُلِّه سَبَبٌ في نيلِ الحِكمةِ.

5- **كثرةُ التَّجارِبِ** والاستفادةُ من مدرسةِ الحياةِ؛ فـ (من مشارِبِ الحِكمةِ: الاستفادةُ من العُمرِ والتَّجارِبِ بالاعتبارِ، وأخذِ الحَيطةِ لأمرِ الدِّينِ والدُّنيا، ففي الحديثِ: "لا يُلدَغُ المُؤمِنُ من جُحرٍ مرَّتين[2281]. وكثرةُ التَّجارِبِ هي التي تُكْسِبُ صاحِبَها الحِلمَ والحِكمةَ).[2282]

6- **ألَّا يعتَمِدَ المرءُ على رأيِ نفسِه**، بل عليه أن يستشيرَ ذوي الخِبرةِ والتَّجربةِ من إخوانِه الصَّالحين؛ ليزدادَ بصيرةً بالعواقِبِ.[2283]

7- **التَّحَلّي بالصَّمتِ** عمَّا لا فائدةَ فيه طريقٌ إلى اكتسابِ الحِكمةِ؛ فالحكيمُ يُعرَفُ بالصَّمتِ وقِلَّةِ الكلامِ، وإذا تكلَّم تكلَّم بالحَقِّ، وإن تلفَّظ تلفَّظ بخيرٍ أو سكت، قال وَهبُ بنُ مُنبِّهٍ: „أَجْمَعَتْ الحُكَماءُ على أنَّ رأسَ الحِكمةِ: الصَّمتُ".[2284]

[2276] حلية الأولياء لأبي نعيم 10/261

[2277] هذه أخلاقنا حين نكون مُؤمنين حقًّا لمحمود محمد الخزندار ص: 122

[2278] تنوير الحوالك في شرح موطأ مالك3/161

[2279] المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري 6/240

[2280] التبصرة لابن الجوزي 1/396

[2281] أخرجه البخاري 6133، ومسلم 2998 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه بلفظ: لا يُلدَغُ المُؤمِنُ من جُحرٍ واحدٍ مرَّتين.

[2282] هذه أخلاقنا حين نكون مُؤمنين حقًّا لمحمود محمد الخزندار ص: 123

[2283] الرائد- دروس في التربية والدعوة لمازن بن عبد الكريم الفريح 3/44

[2284] رواه ابنُ أبي الدنيا في الصمت 619

وقال عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ: „إذا رأيتُم الرَّجُلَ يُطيلُ الصَّمتَ، ويَهرُبُ من النَّاسِ، فاقتربوا منه؛ فإنَّه يُلقَّى الحِكمةَ".[2285] وقال وُهَيبُ بنُ الوردِ: „بلَغَنا أنَّ الحِكمةَ عَشَرةُ أجزاءٍ: تِسعةٌ منها في الصَّمتِ، والعاشِرةُ في عُزلةِ النَّاسِ".[2286]

وقيل: „زَينُ المرأةِ الحياءُ، وزَينُ الحكيمِ الصَّمتُ".[2287]

المطلب العاشر: موانِعُ اكتسابِ الحِكمةِ

1- **التَّعجُّلُ في الأمورِ**، وتَركُ التَّأنِّي في اتِّخاذِ القرارِ؛ فالعَجَلةُ في غيرِ مَوضِعِها تدُلُّ على خِفَّةِ العَقلِ، وقِلَّةِ رزانتِه، وغَلَبةِ الشَّهوةِ عليه؛ ولهذا جعَل ابنُ القَيِّمِ من آفاتِ الحِكمةِ وأضدادِها العَجَلةَ، وقال: „فلا حِكمةَ لجاهِلٍ، ولا طائِشٍ، ولا عَجولٍ".[2288]

قال ابنُ حِبَّانَ: „والعَجِلُ يقولُ قبلَ أن يَعلَمَ، ويجيبُ قبلَ أن يَفهَمَ، ويَحمَدُ قبلَ أن يُجرِّبَ، ويَذُمُّ بعدَ ما يَحْمَدُ، ويَعزِمُ قبلَ أن يُفكِّرَ، ويمضي قبل أن يَعزِمَ، والعَجِلُ تَصحبُه النَّدامةُ، وتعتَزِلُه السَّلامةُ. وكانت العَرَبُ تُكَنِّي العَجَلةَ: أمَّ النَّداماتِ".[2289]

2- **ضِيقُ الأفُقِ**، وعدَمُ التَّفكُّرِ في عواقِبِ الأمورِ، ونقصِدُ بضيقِ الأفُقِ: سَطحيَّةَ التَّفكيرِ وبساطتَه إلى حَدِّ الغفلةِ أو السَّذاجةِ، والنَّظَرَ إلى الأمورِ من جانبٍ واحدٍ، وسوءَ تقديرِ العواقِبِ والنَّتائجِ، والجَهلَ بالواقِعِ، يضافُ إلى ذلك عشوائيَّةُ العَمَلِ، وارتجاليَّةُ الأهدافِ، وإهدارُ الطَّاقاتِ في قضايا ثانويَّةٍ، وتبديدُ الجهودِ في أمورٍ هامشيَّةٍ، وشَغلُ النَّفسِ بالكماليَّاتِ مع التَّفريطِ بالضَّروريَّاتِ.[2290]

3- فقدُ البصيرةِ الدَّالَّةِ على حقائِقِ الأمورِ.

4- عَدَمُ استشارةِ الصَّالحين وأهلِ الخِبرةِ.

5- عَدَمُ الاستفادةِ من خبراتِ السَّابقين.

6- من موانِعِها أيضًا ما ذكره إبراهيمُ الخوَّاصُ؛ حيث قال: „الحِكمةُ تَنزِلُ من السَّماءِ، فلا تَسكُنُ قَلبًا فيه أربعةٌ: الرُّكونُ إلى الدُّنيا، وهمٌّ غَدٍ، وحُبُّ الفُضولِ، وحَسَدُ أخٍ".[2291]

المطلب الحادي عشر: لماذا وُصِفَت السُّنَّةُ بالحِكْمةِ

قال تعالى: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} [الأحزاب: 34]، فوصف السُّنَّةَ بالحِكْمةِ؛ لأنَّ السُّنَّةَ من كلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو بَشَرٌ، وكلامُ البَشَرِ قد يرِدُ عليه احتمالُ ألَّا يكونَ مشتَمِلًا على الحِكمةِ؛ فبَيَّن اللهُ سُبحانَه وتعالى أنَّ السُّنَّةَ حِكمةٌ -وإن كانت من كلامِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أو مِن فِعلِه- لأنَّها موافِقةٌ للصَّوابِ.[2292]

[2285] التبصرة لابن الجوزي 2/289

[2286] رواه الخطابي في العزلة، ص: 19

[2287] حسن السمت في الصمت للسيوطي، ص: 84

[2288] الرائد - دروس في التربية والدعوة لمازن عبد الكريم الفريح 50/3

[2289] روضة العقلاء، ص: 216

[2290] الرائد - دروس في التربية والدعوة مازن عبد الكريم الفريح 53/3

[2291] حلية الأولياء لأبي نعيم 13/326

[2292] يُنظَر: تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب ص: 252

المطلب الثاني عشر: لماذَا يَترُكونَ كَلَامَ خَيرِ الأَنَامِ ويَسْتَشْهِدُونَ بِتُرَّهَاتِ عُبَّادِ الأَوثَانِ؟!

مِنْ المؤْسِفِ أَنْ تجدَ بَعضَ المُسلمين الآنَ لَا سِيَّمَا فِي مَواقِعِ التَّواصُلِ الاجتِمَاعِيِّ يَعْتَنِي بِالاسْتِشْهَادِ بِحِكَمٍ وأقوالِ الوَثَنِيينَ والمُلاحِدةِ، بَيْنَما قَلِيلٌ مِنْهُم من يستشْهدُ بأقوالِ المُؤَيَّدِ بالوحي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي قَالَ عَنهُ رَبُّ العِزَّةِ: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ} [النجم: 3-5].

ولقد فَضَّله اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ والعَالَمِينَ، وَخَصَّه بخَصائصَ كَثيرةٍ، وَأَتَاهُ جَوَامِعِ الكَلِم، إذْ يَقُولُ „صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ“: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ."[2293]؛ والكلمةُ الجامِعةُ هي المُوجَزةُ لفظًا، المُتَّسِعةُ مَعنًى، وهذا يَشمَلُ القرآنَ والسُّنَّةَ؛ لأنَّ كلًّا منهما يَقَعُ فيه المَعاني الكثيرةُ بالألفاظِ القليلةِ، وكانَ „صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ“ يَجمَعُ المَواعِظَ الجَمَّةَ والوصايا الجامِعةَ، والحِكَمَ البالِغةَ في الكلامِ القليلِ؛ ولذلك التَمَسَ المسْلِمُونَ في كُلِّ جِيلٍ الحِكْمَةَ مِن أَقوَالِهِ، فَوَجُدُوا فِيهَا بُغْيَتَهُم، وَنَشَدُوا فيها ضَالَّتَهُم، فزادتهم هُدًى على هُداهُم.

وَكَلَامُهُ وَأَفعَالُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ينطِقُ بِحِكْمَتِهِ وفَصَاحَتِهِ، وَشَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ المنْصِفُونَ وَعُقَلَاءِ العَالَمِ مِنْ غَيْرِ المسْلِمِينَ، وَمِنْهُم، الفَيلَسُوفُ الألمانيُّ فولفجانج فَان جُوتَه حَيْثُ أَعْلَنَ عَنْ إِعْجَابِهِ بِالإِسْلامِ والقُرآنِ في دِيوَانِهِ: "الدِّيوَانُ الشَّرْقِيُّ الغَرْبِيُّ"، قَائِلِا: "إِذَا كَانَ الإِسلَامُ مَعْنَاهُ الاسْتِسْلَامُ للهِ، فَكُلُّنَا مُسْلِمُونَ".

وَكَذَلِكَ كِتَابُ "حِكَمُ النَّبِيِّ محمدٍ" والَّذِي تَحَدَّثَ فِيهِ الكَاتِبُ وَالرِّوَائِيُّ الرُوسِيُّ تُولِسْتُوي عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، وَعَبَّرَ عَنْ إِعْجَابِهِ بِأَحَادِيثٍ أُدْهِشَ بها، وَبَلَغَ عَدَدُهَا مَا يُقَارِبُ الـ 56 حَدِيثاً.

المطلب الثالث عشر: الحِكْمَةُ فِي الدَّعْوَةِ وَمَعَالِمُهَا

"الحِكْمَةُ فِي الدَّعوةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِن أَهَمِّ المهِمَّاتِ، وَمِن أَعظَمِ القُرُبَاتِ، وأنَّهَا بحَاجَةٍ إِلَى مَن يُبرِزُهَا فِي صُورَةٍ مُيَسَّرَةٍ؛ ليَستَفِيدَ منهَا الدُّعَاةُ فِي دعوتِهم إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ وفِي تقدِيمِ الإِسلَامِ لغَيرِ المسْلِمِينَ بِطريقةٍ سَلِيمَةٍ، وهذا يَحتَاجُ إِلَى معرفةِ أحوالِ المدعُوِّينَ، سواءٌ كانتْ اعتِقَادِيَّةً أو نَفسِيَّةً أو اقتِصَادِيَّةً أو اجْتِمَاعِيَّةً، ثُمَّ معرفةِ الشُّبَه لديهِم؛ لِإِزَالَتِهَا بما يَتَنَاسَبُ مَعَ أحْوالِهِم، وهَذَا كُلُّه يَحتَاجُ إِلى دِرَاسَةٍ عِلمَيةٍ دَقِيقَةٍ مُتَكَامِلةٍ مُتَأَنِّيَةٍ".[2294]

وَسَنَتَطَرَّقُ لهذَا الأُسْلُوبِ فِي السُّطُورِ التَّالِيَةِ وأَهَمِّ الأَفْكَارِ التي تدور حَوْلَهُ، مِن خِلَالِ عَرْضِ مَعَالِمِ الحِكْمَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ[2295].

- **مَعَالِمُ الحِكْمَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ[2296]:**

أولًا: الحِكْمَةُ أَوَّلُ أَسَالِيبِ الدَّعْوَةِ:

بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَسَاليبَ الدَّعوةِ إِلَيهِ، وَجَعَلَ فِي مُقَدِّمَتِهَا الحِكْمَةَ، فَقَالَ تَعَالَى: {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: ١٢٥].

[2293] صحيح البخاري 7273

[2294] الحكمة في الدعوة إلى الله لسعيد بن وهف القحطاني ص12

[2295] للاستزادة حول هذا الموضوع ينظر رسالة دكتوراه قيمة وموسعة للأستاذ د. سعيد بن وهف القحطاني، وحكمة الدعوة: لرفاعي سرور، وما كتبه الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، في كتابه: الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة ، إذ خصص صفحتين فقط من الفصل السابع عشر من هذا الكتاب عن الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى.

[2296] ينظر: وسائل الدعوة للمغذوي ص37- 38، وزاد الداعية إلى الله، للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص7

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: "جَعَلَ سبحانَهُ مَرَاتِبَ الدَّعوَةِ بحسْبِ مَراتِبِ الخَلْقِ، فَالمُسْتَجِيبُ القَابِلُ الذَّكِي الَّذِي لَا يُعاندُ الحَقَّ ولا يَأبَاهُ، يُدْعَى بطريقِ الحكمةِ، وَالقَابِلُ الَّذِي عندَهُ نَوْعُ غَفْلةٍ وَتَأَخُّرٍ، يُدْعَى بِالموعِظَةِ الحسنةِ، وَهِي الأمرُ والنَّهيُ المقرونُ بالرَّغبَةِ والرَّهبَةِ، وَالمعَانِدُ الجَاحِدُ، يُجَادَلُ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ".[2297]

ثانيا: الحكمةُ تَتَطَلَّبُ البَصِيرَةَ فيمَا يَدعُو إِلَيهِ:

وذلكَ بأنْ يكونَ الدَّاعيةُ عَالماً بِالحُكمِ الشَّرعيّ فيمَا يَدعُو إليه؛ لأَنَّه قد يَدْعُو إِلَى شَيْءٍ يَظُنُّهُ وَاجِباً، وَهُوَ فِي شَرعِ اللهِ غَيرُ وَاجِبٍ، فيُلزِمُ عِبَادَ اللهِ بِمَا لَمْ يُلزِمْهُم اللهُ به، وقد يَدْعُو إِلَى تَرْكِ شَيْءٍ يَظُنُّهُ مُحَرَّماً، وَهُوَ فِي دِينِ اللهِ غَيرُ مُحَرَّمٍ، فَيُحَرِّمُ عَلَى عِبادَ اللهِ مَا أَحَلَّهُ اللهُ لَهُم.

إِذَنْ لَا بُدَّ من الإلمامِ بالفَهْمِ الشَّامِلِ للإِسْلَامِ، فَتُفْهَمُ رِسالَتُهُ، ومقَاصِدُهُ ومحاسِنُهُ وخصائِصُهُ، والنَّظَرُ إليهِ جملةً واحدةً، وَعَدمُ النَّظَرِ إليهِ نَظْرَةً مُجْتَزَأَةً حتَّى لا يُعْرَضُ الإِسْلامُ مُشَوَّهًا أو مَغْلُوطًا.

ثالثا: الحِكْمَةُ تَتَطَلَّبُ تَنَبُّهَ الدَّاعيةِ إلى نَفْسِهِ:

وذلكَ بمعرِفَةِ مَا يَنبَغِي أَنْ يكونَ عَلَيهِ وَيتَحلَّى بِهِ مِن الصِّفَاتِ وَالمكَارِمِ الحَمِيدَةِ، الَّتِي تُجَمِّلُ دَعْوَتَه وَتُقَوِّيهَا وتُثْمِرَهَا وتُغَذِّيهَا.

وَأَيْضاً بِمَعْرِفَةِ الدَّاعِيَةِ لِوَظِيفَتِهِ الحَقِيقِيَّةِ، وَهِيَ البُشَارَةُ والنِّذَارَةُ والتَّعْلِيمُ وَالدَّلَالَةُ عَلَى طَرِيقِ الهِدَايَةِ وَلَيسَ عَلَيْهِ النَّتِيجَةُ والثَّمَرَةُ.

وَكَذَلِكَ بمَعرِفَتِهِ بِوَاجِبَاتِهِ عَلَى المدْعُوِّينَ وَحقوقِهِم عَلَيهِ، وَوَاجِبَاتِهِ تِجَاهَ إِخوَانِهِ الدَّعَاةِ والعلمَاءِ، والحِكمَةِ فِي التَّعَاملِ وَالتَّعَاونِ مَعَهم خصوصًا عِندَ مَواطِنِ الخِلَافِ.

رابعا: الحِكْمَةُ تَقتَضِي مَعرِفَةَ الدَّاعِيةِ بحَالِ المدْعُوِّينَ:

وَلِهَذَا لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مُعَاذًا إِلَى اليَمَنِ قَالَ لَهُ: "إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوماً أَهلَ كِتَابٍ" [2298]؛ لِيَعرِفَ حَالَهم وَيستَعِدَّ لهم.

وَمِنْ المعْرِفَةِ بِحَالِ المدْعُوِّينَ المَعْرِفَةِ بِمُسْتَوَاهُم العِلمِيّ، ومُسْتَوَاهُم الجَدَلِيّ والمنْطَقِيّ „أي: ثَقَافَتِهِم“ حَتَّى يَتَأَهَّبَ لهُم، وَحَتَّى لَا يَظُنَّ أَنَّ صَاحِبَ البَاطِلِ يَخْفُقُ بِكُلِّ حالٍ؛ فَإِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّكُم تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُم أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ؛ فَأَقْضِيَ لَهُ بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ" [2299]، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المُخَاصِمَ وَإِنْ كَانَ مُبْطِلاً قَد يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ آخَر فَيُقْضَى بِحَسْبِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ هَذَا المُخَاصِمُ، وَمِنْ ثَمَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الدَّاعِيَةُ عَالِماً بِحَالِ المدْعُوِّ.

خامسا: الحِكْمَةُ تَقتَضِي المَعرِفَةَ وَالْوَعْيَ بِكَيْفِيَّةِ الدَّعْوَةِ:

فَإِنَّ المعْرِفَةَ بِمَنْهَجِ الدَّعْوةِ وَوَسَائِلِ الدَّعوَةِ وَأَسَالِيبِهَا المنَاسِبَةِ، وَمَعْرِفَةَ الكَلَامِ المنَاسِبِ فِي الوَقْتِ المنَاسِبِ وللشَّخصِ المنَاسِبِ، فِي الحَالَةِ المنَاسِبةِ، هُوَ عَيْنُ الحِكْمَةِ.

وَهَذِهِ النُقْطَةُ تَبْنِي عَلَى مَا قَبْلَهَا "فَالحِكْمَةُ تَجْعَلُ الدَّاعِيةَ إلى اللهِ يَتَأَمَّلُ وَيُرَاعِي أَحْوَالَ المدْعُوِّينَ وَظُرُوفِهِم وَأَخْلَاقِهِم وَطَبَائِعِهِم، وَالوَسَائِلِ الَّتِي يُؤْتَوْنَ مِنْ قِبَلِهَا، وَالقَدْرِ الَّذِي يُبَيِّنُ لَهُم فِي كُلِّ مَرَّةٍ حَتَّى لَا يُثْقِلَ عَلَيْهِم، وَلَا يَشُقُّ بِالتَكَاليفِ قبلَ استِعدَادِ النَّفُوسِ لها، والطَّرِيقَةِ التي يُخَاطبُهُم بها، والتَّنوِيعِ والتَّشْوِيقِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقةِ حَسْبِ مُقتَضَيَاتِهَا، ويدعُو إلى اللهِ بالعلمِ لا بالجَهْلِ، وَيبدأُ بالمهِمَّ فالَّذِي يَلِيهِ، ويُعَلِّمُ العَامَّةَ مَا يحتَاجُونَهُ بألفاظٍ وعِبَارَاتٍ قَرِيبةٍ مِنْ أَفهَامِهِم ومُسْتَوَيَاتِهِم،

[2297] مفتاح دار السعادة، لابن القيم، 153/1

[2298] صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى 7372، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام 19

[2299] صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين 2680، ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة رقم 1713

وَيُخَاطِبُهُم عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِم، فالحكمَةُ تجعلُ الدَّاعيةَ ينظرُ بِبَصِيرَةِ المؤْمِنِ، فَيَرَى حَاجَةَ النَّاسِ فيُعَالِجُهَا بِحَسْبِ مَا يقتَضِيهِ الحَالُ، وَبِذَلِكَ ينفُذُ إلى قلوبِ النَّاسِ مِنْ أَوْسَعِ الأَبْوَابِ، وَتَنْشَرِحُ له صُدُورُهُم، وَيَرَوْنَ فِيهِ المنقِذَ الحَرِيصَ عَلَى سَعَادَتِهِم ورَفَاهِيَّتِهِم وأَمْنِهِم وَاطْمِئْنَانِهِم، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ بالحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ الطَّرِيقُ الوَحِيدُ للنَّجَاحِ".[2300]

سادسا: شُمُولِيَّةُ الحِكْمَةِ لِكُلِّ أَساليبِ وَوسَائِلِ الدَّعْوةِ:

بَعْضُ النَّاسِ يَظُنُّ أو يعتقِدُ أَنَّ الحكمةَ تقتصِرُ عَلَى الكَلَامِ اللينِ، والرِّفْقِ، والعَفْوِ، والحِلْمِ فَحَسْب، وَهَذَا نَقْصٌ وقُصُورٌ ظاهِرٌ لمفهومِ الحِكْمَةِ؛ فإنَّ الحكمةَ قَد تَكُونُ:

باستخدام اللينِ، والرِّفْقِ، والحِلْمِ والعَفْوِ، مَعَ بيَانِ الحَقِّ عِلْمًا وَعَمَلاً واعتقادًا بالأَدِلَّةِ، وهذِهِ المرتبةُ تُسْتَخْدَمُ لِجَمِيعِ الأَذْكِيَاءِ مِن البَشَرِ الَّذِين يَقْبَلُون الحَقَّ وَلَا يُعَانِدُون.

وَتَارَةً تَكُونُ الحِكْمَةُ باستخْدَامِ الموعِظَةِ الحَسَنَةِ المشْتَمِلَةِ عَلَى التَّرغِيبِ فِي الحَقِّ والتَّرْهِيبِ مِنْ البَاطِلِ، وهَذِهِ المرتبةُ تُستَخْدَمُ مَعَ القَابِلِ لِلْحَقِّ المعترَفِ بِهِ، وَلَكِنْ عِنْدَهُ غَفْلَةٌ وشَهَواتٌ وَأَهْوَاءٌ تَصُدُّهُ عَنِ اتِّبَاعِ الحَقِّ.

وَتَارَةً تَكُونُ الحِكْمَةُ باستخْدَامِ الجِدَالِ بالتي هِيَ أَحْسَنُ، أَي بحُسْنِ خُلُقٍ، وَبِلُطْفٍ، وَلِينِ كَلَامٍ، مَعَ استِخْدَامِ الأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ وَالنَقْلِيَّةِ، وَرَدِّ البَاطِلِ بِأَنسَبِ عِبَارَةٍ، وَأَلَّا يَكُونُ القَصْدُ مِنْ ذَلِكَ مُجَرَّدَ مُجادَلَةٍ ومُغَالَبَةٍ وَحُبِّ عُلُوٍّ، بلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ القَصْدُ بَيَانَ الحَقِ وهِدَايَةَ الخَلقِ، وهَذِهِ المرتبةُ تُسْتَخْدَمُ لِكُلِّ مُعَانِدٍ جَاحِدٍ".[2301]

إِذَنْ لَا بُدَّ للدَّاعِيةِ قَبْلَ أَنْ يَشْرُعَ فِي العَمَلِ الدَّعَوِيِّ أَنْ يَكُونَ مُلِمًّا بِتِلْكَ الأُمُورِ مُجْتَمِعَةٍ.

(وَلِذَلِكَ وَجَبَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الدَّاعيةَ أو العَالِمَ إِذَا كَانَ سَيِّءُ الخُلُقِ فَلَنْ تَكُونَ دَعْوَتُهُ بِحِكمَةٍ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ خُلُقٍ وَسَمْتٍ حَسَنٍ لَكِنَّهُ لَا يَعْلَمُ حَالَ المدعُوِّين أو ليسَ علَى بصيرةٍ ووعيٍ بالوسَائِلِ المنَاسِبَةِ لِكُلِّ مدعُوٍّ وكلِّ موقِفٍ؛ فلنْ تكونَ أيضًا دعوتُهُ حكيمةً، بلْ ربَّمَا كَانَ ضَرَرُهُ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِ وإفسَادُهُ أَكْثَرُ مِن إِصْلَاحِهِ).

سابعا: مَعرِفَةُ الدَّاعيةِ لطرقِ اكتسَابِ الحِكْمَةِ فِي الدَّعوةِ إلى اللهِ:

الداعيةُ لا يكونُ حَكيمًا إِلَّا إِذَا سَلَكَ طُرُقَ تحصِيلِ الحكمَةِ، وَلَا يمكنُ أنْ يحصُلَ عَلَى الحكمةِ إِلَّا إذا كانتْ طرُقُهَا مستَقَاةً من الكتابِ والسنَّةِ، وإذا وُفِّقَ الداعيةُ المسْلِمُ لطُرقِ الحِكْمَةِ، فَلَا يُخْرِجُهَا ذلك عَن كَوْنِهَا هِبَةً مِنْ اللهِ تَعَالَى، لقَولِه تَعَالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة: 269].

فالحكمةُ لَهَا طُرقٌ تُكْتَسَبُ بِهَا بِتَوفِيقِ اللهِ تَعَالى، ومن أَهَمِّ هذِهِ الطرقِ التي إذا سَلَكَهَا الدَّاعِيةُ صَارَ حَكِيمًا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى: العِلْمُ النَّافِعُ، والحلمُ، والأَنَاةُ، والرِّفقُ واللِّينُ، والإِخْلاصُ والتَّقْوَى، وَالصَّبْرُ والمصَابَرَةُ، والسُّلُوكُ الحكِيمُ، والعَملُ بالعِلمِ، والاستِقَامَةُ، والخِبرَاتُ والتَّجَارِبُ، وجِهَادُ النفسِ والشَّيطانِ، وعُلُوُّ الهِمَّةِ، والعَدْلُ، والدُّعَاءُ، والاسْتِخَارَةُ والاسْتِشَارَةُ، وَفِقْهُ وَإِتْقَانُ أَرْكَانِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى.[2302]

المطلب الرابع عشر: أخطاءٌ شائعةٌ

1- لا يعني ظهورُ المُنكَرِ أن يبيحَ المسلمُ لنفسِه أن يفعَلَ ما يشاءُ في مواجهتِه، بل ينبغي أن يراعيَ في إنكارِ المُنكَرِ الضَّوابطَ الشَّرعيَّةَ، وعلى رأسِها الحِكمةُ. وتركُ الحِكمةِ في التَّعامُلِ مع المُنكَراتِ وإنكارِها يؤدِّي إلى مفاسِدَ أكبَرَ ومُنكَراتٍ أعظَمَ.

[2300] الحكمة في الدعوة إلى الله ص11

[2301] الحكمة في الدعوة إلى الله ص10، وانظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم 1/ 194، وتفسير القرآن العظيم 3/416 و4/ 315، ومجموع الفتاوى 2/ 45 و19/ 164.

[2302] تحدث د. سعيد بن وهف القحطاني في كتابه الحكمة في الدعوة إلى الله عن هذه الأمور من ص: 81- 130، وكذلك في صفحات متفرقة من الكتاب كما في ص: 542 - 547

وكذلك قد يتلَبَّسُ بعضُ النَّاسِ ببدعةٍ، وهذا أيضًا يحتاجُ الأمرُ فيه لِحكمةٍ والتَّعرُّفِ على المنهَجِ الشَّرعيِّ في التَّعامُلِ معهم، مع التَّفريقِ بَيْنَ أنواعِ البِدَعِ، والدَّاعي إليها وغيرِ الدَّاعي، إلى غيرِ ذلك.

كذلك من الأخطاءِ الشَّائعةِ مُداهنةُ الظَّالمين، وضياعُ الحَقِّ، والسُّكوتُ على الباطِلِ، وجعلُ ذلك ممَّا تقتضيه الحِكمةُ.

2- من الأخطاءِ الزُّهدُ في الحِكمةِ لكونها جرت على لسانِ مَن لا يُحِبُّ؛ فالحِكمةُ ضالَّةُ المُؤمِن، فحيث وجدَها فهو أحَقُّ بها.

يُروى أنَّ عيسى بنَ مريمَ عليه السَّلامُ قال للحواريّين: „بحقٍّ أقولُ لكم: إنَّ قائِلَ الحِكمةِ وسامِعَها شريكانِ، وأَولاهما بها من حَقَّقها بعَمَلِه. بحَقٍّ أقولُ لكم: لو وجدتُم سراجًا يتوقَّدُ بالقَطِرانِ في ليلةٍ مُظلِمةٍ لاستضأتُم بنورِه ولم يمنَعْكم منه نَتْنُ قَطِرانِه؛ فكذلك ينبغي لكم أن تأخُذوا الحِكمةَ ممَّن وجدتُموها عندَه".[2303]

ويُروى عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: „خذوا الكَلِمةَ من الحِكمةِ من حيثُ كانت؛ فإنَّ الكَلِمةَ من الحِكمةِ تكونُ في صدرِ المُنافِقِ فتَلجلَجُ في صدرِه حتى تسكُنَ إلى صواحِبِها".[2304]

وقال ابنُ المقفَّع: „لا يَمْنَعَنَّك صِغَرُ شأنِ امرئٍ من اجتناءِ ما رأيتَ من رأيِه صوابًا، والاصطفاءِ لِما رأيتَ من أخلاقِه كريمًا؛ فإنَّ اللُّؤلؤةَ الفائقةَ لا تهانُ لهوانِ غائِصِها الذي استخرَجَها".[2305]

المطلب الخامس عشر: مسائلٌ مُتفرِّقة

- **من معاني الحكمة:**

وردت (الحكمة) في القرآنِ على سِتَّةِ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: بمعنى النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ} {وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} أي: النُّبُوَّةَ.

الثَّاني: بمعنى القرآنِ والتَّفسيرِ والتَّأويلِ وإصابةِ القَولِ فيه {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}.

الثَّالِثُ: بمعنى فَهمِ الدَّقائقِ والفِقهِ في الدِّينِ {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} أي: فَهمَ الأحكامِ.

الرَّابِعُ: بمعنى الوَعظِ والتَّذكيرِ {فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} أي المواعِظَ الحَسَنةَ {أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ}.

الخامِسُ: آياتُ القرآنِ وأوامِرُه ونواهيه {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}.

السَّادِسُ: بمعنى حُجَّةِ العَقلِ على وَفقِ أحكامِ الشَّريعةِ {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} أي قولًا يوافِقُ العقلَ والشَّرعَ".[2306]

- **من أسماءِ اللهِ: (الحكيمُ):**

ومعناه الموصوفُ بكَمالِ الحِكمةِ، وهي كمالُ العِلمِ والإرادةِ المتضَمِّنَينِ اتِّساقَ صُنعِه، وجَريانَه على أحسَنِ الوُجوهِ وأكمَلِها، ووَضْعَه الأشياءَ مواضِعَها؛ فالحكيمُ فعيلٌ بمعنى مُفعِلٍ، من الإحكامِ؛ فهو المحكِمُ الذي يُحكِمُ الأشياءَ كَونًا وشرعًا، ويُحكِمُها عمَلًا وصُنعًا، ومنه قيل: بناءٌ مُحكَمٌ، أي: قد أُتقِن وأُحكِمَ.

[2303] عيون الأخبار لابن قتيبة 2/ 293

[2304] المجتنى لابن دريد ص: 46

[2305] الأدب الصغير ص: 46

[2306] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادي 2/ 490

والحكيمُ: الموصوفُ بكمالِ الحُكمِ، فعيلٌ بمعنى فاعِلٍ، من الحُكمِ، وهو الفَصلُ والأمرُ؛ فهو الحاكِمُ الذي له الحُكمُ.[2307]

- **من صفات الإنسان الحكيم:**

قال ذو النُّونِ المِصريُّ: "صِفةُ الحكيمِ ألَّا يَطلُبَ بحكمتِه المنزلةَ والشَّرَفَ، فإذا أحَبَّ الحكيمُ الرِّئاسةَ زال حُبُّ اللهِ من قَلبِه؛ لِما غلَب عليه من حُبِّ ثناءِ المستَمِعين له، فصار لا يَلفِظُ بمسموعٍ يَنفَعُ؛ للذي غَلَب على قلبِه من حُبِّ تبجيلِ النَّاسِ له".[2308]

[2307] يُنظر: اشتقاق أسماء الله للزجاجي ص: 60، شأن الدعاء للخطابي 1/73، مقاييس اللغة لابن فارس 2/91، مدارج السالكين لابن القيم 1/53، بدائع الفوائد لابن القيم 1/67، تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي ص: 186، شرح العقيدة الواسطية للعثيمين 1/188، مجموع فتاوى ورسائل العثيمين 5/223

[2308] شعب الإيمان للبيهقي 3/ 289، تاريخ دمشق لابن عساكر 426 /17

المبحث الخامس عشر: التضحية

المطلب الأول: معنى التضحية

- **التَّضْحِيةُ لُغةً:**

التَّضحيةُ مَصدَرُ ضَحَّى؛ يقالُ: ضحَّى بنَفسِه أو بعَمَلِه أو بمالِه: بذَلَه وتبرَّع به دونَ مقابِلٍ، وهي بهذا المعنى مُحْدَثةٌ.[2309]

- **التَّضْحِيةُ اصطِلاحًا:**

هي بَذلُ النَّفسِ أو الوَقتِ أو المالِ أو كُلِّ نفيسٍ؛ لأجْلِ غايةٍ ساميةٍ، مع احتِسابِ الأجرِ على ذلك.

المطلب الثَّاني: الفَرقُ بَينَ التَّضْحيةِ والفِداءِ

تَشتَرِكُ التَّضحيةُ والفِداءُ في أنَّ كُلًّا منهما فيه بَذلٌ لتحقيقِ غايةٍ؛ فبينَهما تقارُبٌ في المعنى، لكِنَّ التَّضحيةَ أعَمُّ من الفِداءِ.

المطلبُ الثَّالِثُ: التَّرْغِيبُ فِي خُلُقِ التَّضْحِيَة وَالحَثُّ عَلَيْهِ

أ. التضحية في نصوص القرآن الكريم:

1- قال تعالى: {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ} [آل عمران: 140].

قال القاسِميُّ: „أي: وليُكرِمَ ناسًا منكم بالشَّهادةِ؛ لِيَكونوا مثالًا لغيرِهم في تَضْحيةِ النَّفسِ شَهادةً للَحقِّ، واستِماتةً دونَه، وإعلاءً لكَلِمتِه".[2310]

2- وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا * وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [الأحزاب 21:27].

(لَمَّا ذكَر تعالى غزوةَ الأحزابِ، ومَوقِفَ المنافِقين المُذبذَبين منها بالقُعودِ عن الجِهادِ، وتثبيطِ العزائِمِ؛ أمَرَ المؤمنين في هذه الآياتِ بالاقتداءِ بالرَّسولِ الكريمِ في صبرِه وثباتِه، وتَضْحِيتِه وجِهادِه).[2311]

3- وقال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: 169]، „فيما ذُكِر إشارةٌ إلى أنَّ المؤمِنَ الذي يُضَحِّي بنفسِه في سَبيلِ نَصرِ دينِه ودَعوةِ ربِّه، هو من الشُّهَداءِ الأبْـرارِ الذين يَظفَرون بجِنانِ الخُلدِ، وهم أحياءٌ، أرواحُهم في حواصِلِ طَيرٍ خُضْرٍ، تَسرَحُ في الجنَّةِ حيثُ شاءت".[2312]

[2309] المعجم الوسيط 1/535، المعجم الوجيز ص: 377 .

[2310] محاسن التأويل 2/419

[2311] صفوة التفاسير للصابوني 2/476

[2312] التفسير المنير لوهبة الزحيلي 2/40

4- وقال تعالى في الحَثِّ على تضحيةِ الإنسانِ بما يُحِبُّ، وبَذلِه رغبةً في رِضا رَبِّه سبحانَه: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ} [البقرة: 177].

قال الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ: "(عَلَى حُبِّهِ) قيل: على حُبِّ المالِ، ويكونُ مُضافًا إلى المفعولِ، ونبَّه بذلك أنَّه يَبذُلُه مع فرطِ الحاجةِ إليه".[2313]

5- وقال تعالى في بيانِ عَظيمِ أجْرِ بَذْلِ النَّفسِ والمالِ والتَّضحيةِ بهما في سبيلِ اللهِ: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: 111].

قال البيضاويُّ: „تمثيلٌ لإثابةِ اللهِ إيَّاهم الجنَّةَ على بَذْلِ أنفُسِهم وأموالِهم في سبيلِه".[2314]

ب. التضحية في نصوص السنة النبوية:

1- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "انتَدَب اللَّهُ لمن خَرَج في سبيلِه لا يُخرِجُه إلَّا إيمانٌ بي وتصديقٌ برُسُلِي أن أُرجِعَه بما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ، أو أُدخِلَه الجَنَّةَ، ولولا أن أشُقَّ على أمَّتي ما قعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، ولوَدِدْتُ أنِّي أُقتَلُ في سبيلِ اللَّهِ ثمَّ أَحْيا، ثمَّ أُقتَلُ ثمَّ أَحْيا، ثمَّ أُقتَلُ".[2315]

فبَذْلُ النَّفسِ والشَّهادةُ في سبيلِ اللَّهِ هي ذِرْوةُ التَّضْحيةِ.

2- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: "مِن خَيرِ مَعاشِ النَّاسِ لهم رَجُلٌ مُمسِكٌ عِنانَ فَرَسِه في سبيلِ اللَّهِ، يطيرُ على مَتْنِه،[2316] كلَّما سَمِعَ هَيْعَةً[2317] أو فَزعةً طار عليه، يبتغي القَتْلَ والموتَ مَظانَّه، أو رَجُلٌ في غُنَيمةٍ في رأسِ شَعَفَةٍ من هذه الشَّعَفِ،[2318] أو بَطنِ وادٍ مِن هذه الأوديةِ، يقيمُ الصَّلاةَ، ويُؤتي الزَّكاةَ، ويَعبُدُ ربَّه حتَّى يأتيَه اليقينُ، ليس من النَّاسِ إلَّا في خيرٍ".[2319]

قال القاضي عياضٌ: „فيه تفضيلُ الجهادِ وشَرَفُه والمواظَبةُ عليه".[2320]

3- وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: "ما العَمَلُ في أيَّامٍ أفضَلُ منها في هذه يعني: أيَّامَ العَشْرِ؟ قالوا: ولا الجهادُ؟ قال: ولا الجِهادُ، إلَّا رَجُلٌ خَرَج يخاطِرُ بنَفسِه ومالِه، فلم يَرجِعْ بشَيءٍ".[2321]

قال العَينيُّ: "قَولُه: (يخاطِرُ بنَفسِه)، جملةٌ حاليَّةٌ، أي: يكافِحُ العَدُوَّ بنَفْسِه وسلاحِه وجَوَادِه".[2322]

وقال القَسْطَلَّانيُّ: "(يخاطِرُ) من المخاطَرةِ، وهي ارتكابُ ما فيه خَطَرٌ بنفسِه ومالِه، فلم يَرجِعْ بشَيءٍ من مالِه، وإن رجَع هو أو لم يرجِعْ هو ولا مالُه، بأن ذَهَب مالُه واستُشهِدَ".[2323]

[2313] تفسير الراغب الأصفهاني 377/1

[2314] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 99/3

[2315] أخرجه البخاري 36 واللَّفظُ له، ومسلم 1876

[2316] على مَتنِه، أي: على ظَهرِه. يُنظر: شرح المصابيح لابن الملك 309 /4

[2317] الهَيعةُ: الصَّوتُ تَفزَعُ منه وتخافُه من عَدُوٍّ. يُنظر: تاج العروس للزبيدي 22/417

[2318] شَعَفةُ كُلِّ شيءٍ :أعلاه. يريدُ به رأسَ جَبَلٍ من الجبالِ. يُنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 481 /2

[2319] أخرجه مسلم 1889

[2320] إكمال المعلم 6/311

[2321] أخرجه البخاري 969

[2322] عمدة القاري للعيني 6/291

[2323] إرشاد الساري للقسطلاني 2/217

ت. من أقوال السلف في التضحية:

- وقال ابنُ عَطِيَّةَ عن التَّضحيةِ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ: „دَرَجاتُ الجهادِ يجمَعُها بَذلُ النَّفسِ والاعتِمالُ بالبَدَنِ والمالِ في أن تكونَ كَلِمةُ اللهِ هي العُليا، ولا شَكَّ أنَّ بحسَبِ مراتِبِ الأعمالِ ودَرَجاتِها تكونُ مراتِبُ الجَنَّةِ ودَرَجاتُها".[2324]

وقال ابنُ بازٍ: „الدَّعوةُ إلى اللهِ أحسَنُ ما يَبذُلُه المسلِمُ في نَفعِ غَيرِه".[2325]

وقال محمَّدٌ الغَزاليُّ: „إنَّنا نحن -المُسلِمينَ- نتقَرَّبُ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ برحمةِ النَّاسِ وغيرِ النَّاسِ، والبَذلِ من مالِنا وجُهدِنا ووَقتِنا في سبيلِ نَفعِهم، ولنا على كُلِّ شيءٍ من ذلك أجرٌ في ميزانِ اللهِ الذي لا يختَلُّ عِندَه ميزانٌ".[2326]

المطلب الرابع: نماذجٌ يُقتدَى بِهَا في التَّضْحِيَةِ

أ- عِندَ الأنبياءِ والمُرسَلين والأُمَمِ السَّابِقةِ:

- **تَضحياتُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ:**

- تَرْكُ زَوجتِه ووَلَدِه الرَّضيعِ بوادٍ غيرِ ذي زَرعٍ؛ امتِثالًا لأمرِ رَبِّه سُبحانَه:

قال تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: 37].

قال الطَّبَريُّ: „فتأويلُ الكلامِ إذَنْ: رَبَّنا إنِّي أسكَنْتُ بَعضَ وَلَدي بوادٍ غيرِ ذي زَرعٍ، وفي قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دليلٌ على أنَّه لم يكُنْ هنالك يومَئذٍ ماءٌ؛ لأنَّه لو كان هنالك ماءٌ لم يَصِفْه بأنَّه غيرُ ذي زَرعٍ، عِندَ بَيتِك الذي حرَّمْتَه على جميعِ خَلْقِك أن يَستَحِلُّوه".[2327]

- أمرُ إبراهيمَ بذَبحِ إسماعيلَ وامتِثالُهما عليهما السَّلامُ:

قال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: 102 - 105].

قال ابنُ كثيرٍ: (معنى وتَلَّه للجَبينِ أي: صرَعَه على وَجْهِه ليذبَحَه من قفاه، ولا يشاهِدَ وَجهَه عِندَ ذَبحِه؛ ليكونَ أهوَنَ عليه)[2328].

- هِجرةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مِن وَطَنِه:

قال اللهُ تعالى: {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات: 97 - 99].

[2324] يُنظر: المحرر الوجيز 98/2

[2325] مجموع فتاوى ابن باز 217/9

[2326] قذائف الحق لمحمد الغزالي ص: 17

[2327] جامع البيان 13/696

[2328] ((تفسير القرآن العظيم)) (29/7)

قال الشَّوكانيُّ: (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي أي: مُهاجِرٌ مِن بَلَدِ قومي الذين فعَلوا ما فعَلوا تعصبًا للأصنامِ، وكُفرًا باللهِ، وتكذيبًا لرُسُلِه، إلى حيثُ أمرَني بالمهاجَرةِ إليه، أو إلى حيثُ أتمكَّنُ من عبادتِه سَيَهْدِينِ أي: سيَهديني إلى المكانِ الذي أمرَني بالذَّهابِ إليه، أو إلى مَقصَدي)[2329].

- **تضحيةُ يُوسُفَ عليه السَّلامُ بحُرِّيَّتِه إرضاءً للهِ سُبحانَه:**

قال تعالى: {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [يوسف: 32-33].

- **تضحيةُ موسى عليه السَّلامُ في سبيلِ طَلَبِ العِلمِ:**

قال اللهُ تعالى في قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع الخَضِرِ: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} [الكهف: 60-62].

وقد كان الهَدَفُ من هذه الرِّحلةِ التي لَقِيَ فيها النَّصَبَ هو طَلَبَ العِلمِ؛ قال اللهُ تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} [الكهف: 66].

ب. التَّضحيةُ عِندَ الأُمَمِ السَّابِقةِ:

- **تَضحيةُ سَحَرةِ فِرعَونَ:**

قال تعالى مُبَيِّنًا ما دار بَينَ فِرعَونَ والسَّحَرةِ بعدَما تبيَّن لهم صِدقُ موسى عليه السَّلامُ: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى} [طه: 70 - 76].

- **تضحيةُ أصحابِ الكَهْفِ:**

قال اللهُ تعالى: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [الكهف: 9-10].

وقال تعالى حكايةً عنهم: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا} [الكهف: 16].

فقد فرُّوا بدينِهم، وهَجَروا قومَهم وقَراباتِهم وأصدِقاءَهم، وتركوا أموالَهم؛ خَوفَ الفِتنةِ ليَعبُدوا اللهَ وَحدَه، فاتَّخَذوا الكَهفَ مأوًى لهم؛ لِيختَفوا فيه مِن قَومِهم.

[2329] ((فتح القدير)) للشوكاني (4/ 462)

- **تضحيةُ مُؤمِنِ آلِ ياسينَ:**

{وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} [يس: 20 - 27].

(وفي قَولِه: (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ) كنايةٌ عن قَتلِه شَهيدًا في إعلاءِ كَلِمةِ اللهِ؛ لأنَّ تعقيبَ مَوعِظتِه بأمرِه بدُخولِ الجَنَّةِ دَفعةً بلا انتقالٍ: يفيدُ بدلالةِ الاقتضاءِ أنَّه مات وأنَّهم قَتَلوه لمخالفتِه دينَهم، قال بعضُ المُفَسِّرين: قتلوه رجمًا بالحِجارةِ، وقال بعضُهم: أحرَقوه، وقال بعضُهم: حَفَروا له حُفرةً ورَدَموه فيها حيًّا!

وإنَّ هذا الرَّجُلَ المؤمِنَ قد أُدخِلَ الجَنَّةَ عَقِب موتِه؛ لأنَّه كان من الشُّهَداءِ، والشُّهَداءُ لهم مَزِيَّةُ التَّعجيلِ بدُخولِ الجَنَّةِ دُخولًا غيرَ مُوَسَّعٍ).[2330]

ج. التضحية عند النبي صلى الله عليه وسلم:

كانت حياةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كلُّها تَضحياتٌ في سبيلِ اللهِ وإبلاغِ دعوةِ رَبِّه سُبحانَه وتعالى؛ فعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لقد أُخِفْتُ في اللهِ وما يُخافُ أحَدٌ، ولقد أُوذِيتُ في اللهِ وما يُؤذى أحَدٌ، ولقد أَتَت عَلَيَّ ثلاثون من بَينِ يومٍ وليلةٍ وما لي ولبلالٍ طَعامٌ يأكُلُه ذو كَبِدٍ إلَّا شَيءٌ يُواريه إبْطُ بِلالٍ! ".[2331]

- **تضحيتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَركِ مَوطِنِه مهاجِرًا إلى المدينةِ:**

عن عبدِ اللهِ بنِ عَدِيِّ بنِ الحَمراءِ قال: رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو على راحِلَتِه واقِفٌ بالحَزْوَرةِ[2332]، يقولُ: "واللهِ إنَّكِ لخيرُ أرضِ اللهِ، وأحَبُّ أرضِ اللهِ إلى اللهِ، ولولا أنِّي أُخرِجْتُ منكِ ما خرَجْتُ"[2333].

فخرج النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فارًّا بدِينِه، وكذلك أصحابُه، وجلس في الغارِ، وقد نَصَّ اللهُ تعالى على ذلك في سورةِ التَّوبة في قَولِه: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [آية: 40]، فهَجَروا أوطانَهم، وتَرَكوا أرْضَهم وديارَهم، وأهاليَهم وأولادَهم، وقَراباتِهم وإخوانَهم؛ رجاءَ السَّلامةِ بالدِّينِ، والنَّجاةِ مِن فِتنةِ الكافرينَ[2334].

- **تضحيتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سبيلِ الذَّبِّ عن المُسلِمين وحمايتِهم:**

[2330] التحرير والتنوير لابن عاشور 370 /22

[2331] رواه الترمذي2472 ، وأحمد 14055 واللَّفظُ لها، وابن ماجه 151 باختلافٍ يسيرٍ .صحَّحه ابن حبان6560 ، وابن القيم في عدة الصابرين 299/1، والألباني في صحيح سنن الترمذي2472 ، والوادعي في الصحيح المسند 80، وقال الترمذيُّ :حَسَنٌ غريبٌ.

[2332] الحَزْوَرةُ: موضِعٌ كان به سوقُ مكَّةَ، ويقالُ: إنَّما قيل لها: حَزْوَرةٌ، لمكانِ تَلٍّ صغيرٍ هنالك. يُنظر: ((الميسر في شرح مصابيح السنة)) للتوربشتي (2/ 642)

[2333] صحيح الترمذي 3925

[2334] يُنظر: ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (10/ 360).

عن أبي إسحاقَ قال: جاء رجلٌ إلى البراءِ، فقال: أكُنتُم وَلَّيتُم يومَ حُنَينٍ يا أبا عُمارةَ؟ فقال: أشهَدُ على نَبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما وَلَّى، ولكِنَّه انطلق أخِفَّاءُ[2335] من النَّاسِ، وحُسَّرٌ[2336] إلى هذا الحَيِّ من هوازِنَ، وهم قومٌ رُماةٌ، فرَمَوهم برِشْقٍ[2337] من نَبلٍ كأنَّها رِجْلٌ مِن جَرادٍ[2338]

، فانكشفوا، فأقبل القومُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأبو سُفيانَ بنُ الحارِثِ يقودُ به بَغْلَتَه، فنزل ودعا واستنصَرَ، وهو يقولُ: ((أنا النَّبيُّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عَبدِ المُطَّلِبْ. اللَّهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَك))، قال البراءُ: (كُنَّا واللهِ إذا احمَرَّ البأسُ نتَّقي به، وإنَّ الشُّجاعَ مِنَّا لَلَّذي يحاذي به، يعني النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)[2339].

- **تضحيتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبَذلُه من أجْلِ دَعوةِ النَّاسِ لرَبِّ العالَمينَ:**

عن عُروةَ أنَّ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها زوجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حدَّثَتْه أنَّها قالت للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "هل أتى عليكَ يومٌ كان أشَدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ فقال: لقَد لَقِيتُ مِن قَومِكِ، وكانَ أشَدَّ ما لَقِيتُ منهم يومَ العَقَبَةِ؛ إذْ عَرَضْتُ نَفسي على ابنِ عبدِ يَالِيلَ بنِ عبدِ كُلَالٍ، فلم يُجِبْني إلى ما أرَدْتُ، فانطَلَقْتُ وأنا مَهمومٌ على وَجهي، فلم أستَفِقْ إلَّا بقَرنِ الثَّعالِبِ، فرَفَعتُ رَأسي فإذا أنا بسَحابةٍ قد أظَلَّتني، فنَظَرتُ فإذا فيها جِبريلُ، فناداني، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ قد سمِعَ قَولَ قَومِك لك وما ردُّوا عليك، وقد بَعَث إليك ملَكَ الجِبالِ لتَأمُرَه بما شِئتَ فيهم، قال: فناداني مَلَكُ الجِبالِ وسَلَّم عَلَيَّ، ثمَّ قال: يا محمَّدُ، إنَّ اللهَ قد سمِعَ قَولَ قَومِك لك، وأنا مَلَكُ الجِبالِ، وقد بعثَني ربُّك إليكَ لتَأمُرَني بأمرِك، فما شِئتَ؛ إنْ شِئتَ أن أُطبِقَ عليهم الأخشَبَينِ، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم من يعبُدُ اللهَ وَحدَه لا يُشرِكُ به شيئًا"[2340].

ج. نماذِج من تَضحياتِ الصَّحابة:

حياةُ الصَّحابةِ مَليئةٌ بمواقِفِ التَّضْحيةِ والفِداءِ، والبَذلِ والعَطاءِ؛ من أجْلِ نُصرةِ دِينِ اللهِ، وهذه نماذِجُ من تضحياتِهم.

- **أبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عنه:**

عن زيدِ بنِ أسلَمَ عن أبيه قال: سمِعتُ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ يقولُ: "أمَرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا أن نتصَدَّقَ، فوافَق ذلك مالًا عِندَي، فقُلتُ: اليومَ أسبِقُ أبا بكرٍ إن سبَقْتُه يومًا! فجِئتُ بنِصفِ مالي، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما أبقَيْتَ لأهلِك؟، قُلتُ: مِثْلَه، قال: وأتى أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه بكُلِّ ما عِندَه، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما أبقَيْتَ لأهلِك؟ قال: أبقَيتُ لهم اللهَ ورَسولَه! قُلتُ: لا أسابِقُك إلى شيءٍ أبدًا".[2341]

- **عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه:**

[2335] الأخِفَّاءُ هنا: المُسارِعون المُستَعجِلون. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) (6/ 130)

[2336] حُسَّرٌ: أي: لا دُروعَ عليهم. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (2/ 242)

[2337] الرِّشْقُ: الوَجهُ من الرَّمي، وهو أن يرميَ القومَ بأجمعِهم. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (2/ 242)

[2338] الرِّجْلُ من الجرادِ: القِطعةُ منه. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (2/ 242)

[2339] أخرجه مسلم (1776)

[2340] أخرجه البخاري (3231) واللَّفظُ له، ومسلم (1795)

[2341] صحيح أبي داود 1678

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: "أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ أصاب أرضًا بخَيبَرَ، فأتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يستأمِرُه فيها، فقال: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي أصبتُ أرضًا بخيبَرَ لم أصِبْ مالًا قطُّ أنفَسَ عندي منه، فما تأمُرُ به؟ قال: إنْ شِئتَ حَبَسْتَ أصلَها وتصدَّقْتَ بها. قال: فتصدَّقَ بها عُمَرُ أنَّه لا يُباعُ ولا يُوهَبُ ولا يُورَثُ، وتصدَّقَ بها في الفُقَراءِ، وفي القُرْبى، وفي الرِّقابِ، وفي سبيلِ اللهِ، وابنِ السَّبيلِ، والضَّيفِ، لا جُناحَ على من وَلِيَها أن يأكُلَ منها بالمعروفِ، ويُطعِمَ غَيرَ مُتَموِّلٍ. قال: فحدَّثتُ به ابنَ سِيرينَ، فقال: غيرَ مُتَأثِّلٍ مالًا".[2342]

- **الزُّبيرُ بنُ العوَّامِ رَضِيَ اللهُ عنه:**

يقولُ ابنُ كثيرٍ وهو يَستعرِضُ غَزوةَ تَبوكَ: „وقد كان فيمَن شَهِد اليرموكَ: الزُّبَيرُ بنُ العوَّامِ، وهو أفضَلُ مَن هناك من الصَّحابةِ، وكان مِن فُرسانِ النَّاسِ وشِجْعانِهم، فاجتَمَع إليه جماعةٌ من الأبطالِ يومَئذٍ، فقالوا: ألا تحمِلُ فنَحمِلَ معك؟ فقال: إنَّكم لا تَثْبُتون، فقالوا: بلى! فحَمَل وحَملوا، فلمَّا واجَهوا صُفوفَ الرُّومِ أحجَموا وأقدَمَ هو، فاخترَق صفوفَ الرُّومِ حتَّى خرج من الجانِبِ الآخَرِ، وعاد إلى أصحابِه. ثمَّ جاؤوا إليه مرَّةً ثانيةً، ففعل كما فَعَل في الأُولى، وجُرِح يومَئذٍ جُرحَينِ بَينَ كَتِفَيه، وفي روايةٍ: جُرْحٌ".[2343]

- **أنَسُ بنُ النَّضرِ رَضِيَ اللهُ عنه:**

عن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ عمَّه غاب عن بدرٍ، فقال: „غِبتُ عن أوَّلِ قِتالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! لَئِن أشهَدَني اللهُ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليَرَينَّ اللهُ ما أُجِدُّ، فلَقِيَ يومَ أحُدٍ، فهُزِم النَّاسُ، فقال: اللَّهُمَّ إنِّي أعتَذِرُ إليك ممَّا صنع هؤلاء، يعني المُسلِمين، وأبرَأُ إليك ممَّا جاء به المُشرِكون، فتقدَّم بسَيفِه فلَقِيَ سعدَ بنَ مُعاذٍ، فقال: أين يا سَعدُ؟! إنِّي أجِدُ رِيحَ الجنَّةِ دونَ أُحُدٍ! فمضى فقُتِلَ، فما عُرِفَ حتَّى عرَفَتْه أختُه بشامةٍ أو ببَنانِه، وبه بِضعٌ وثمانون مِن طَعنةٍ وضَربةٍ ورَميةٍ بسَهمٍ!".[2344]

د. نماذج من التضحية في حياة السلف:

- **تضحيةُ إسماعيلَ بنِ عَيَّاشٍ بمالِه في طَلَبِ العِلمِ:**

كان إسماعيلُ بنُ عَيَّاشٍ يَقولُ: „وَرِثتُ عن أبي أربعةَ آلافِ دِينارٍ فأنفَقتُها في طَلَبِ العِلمِ".[2345]

- **تضحيةُ عُبَيدِ بنِ يَعيشَ في سَبيلِ طَلَبِ العِلمِ:**

يقولُ عُبَيدُ بنُ يَعيشَ: „أقمتُ ثلاثينَ سَنةً ما أكَلْتُ بيَدي باللَّيلِ، كانت أختي تُلْقِمُني، وأنا أكتُبُ".[2346]

أي أنه كان يأخُذُ لُقَيماتٍ في فَمِه من أختِه؛ توفيرًا لوقتِه على الكتابةِ، وضَنًّا به عن غيرِ العِلمِ!

- **تضحيةُ أبي يوسُفَ القاضي بحُضورِ جِنازةِ ابنِه من أجْلِ العِلمِ:**

[2342] رواه أبو داود1678 ، والتِّرمذي3675 ، والدارمي 480/1 1660، والحاكم 574/1، وقال التِّرمذي: حسنٌ صحيحٌ .وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرّجاه. وصحَّحه النَّوويُّ في المجموع 236/6، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، والوادعي في الصَّحيح المسند 996

[2343] البداية والنهاية 7/15

[2344] أخرجه البخاري 4048 واللَّفظُ له، ومسلم 1903

[2345] المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي 9/ 67

[2346] سير أعلام النبلاء للذهبي 459/11

روى محمَّدُ بنُ قُدامةَ قال: „سَمِعتُ شُجاعَ بنَ مَخلَدٍ قال: سَمِعتُ أبا يوسُفَ يقولُ: مات ابنٌ لي، فلم أحضُرْ جَهازَه ولا دَفْنَه، وتركتُه على جيراني وأقربائي؛ مخافةَ أن يفوتَني من أبي حنيفةَ شَيءٌ لا تَذهَبُ حَسرتُه عَنِّي!".[2347]

- **تضحيةُ أحمَدَ بنِ حَنبَلٍ:**

قال ابنُ كثيرٍ في ذِكرِ محنةِ الإمامِ: „في أيَّامِ المأمونِ ثمَّ المُعتَصِمِ، ثمَّ الواثِقِ بسَبَبِ القُرآنِ، وما أصابه من الحَبسِ الطَّويلِ والضَّربِ الشَّديدِ، والتَّهديدِ بالقَتلِ بسُوءِ العَذابِ وأليمِ العقابِ، وقِلَّةِ مُبالاتِه بما كان منهم من ذلك إليه، وصَبْرِه عليه، وتمسُّكِه بما كان عليه من الدِّينِ القويمِ والصِّراطِ المُستقيمِ، وكان أحمدُ عالِمًا بما ورد بمِثلِ حالِه من الآياتِ المتلوَّةِ والآثارِ المأثورةِ، وبَلغَه ما أُوصِيَ به في المنامِ واليَقَظةِ، فرَضِيَ وسَلَّم إيمانًا واحتسابًا، وفاز بخَيرِ الدُّنيا ونعيمِ الآخرةِ، وهيَّأه اللهُ بما آتاه من ذلك لبُلوغِ أعلى منازِلِ أهلِ البلاءِ في اللهِ من أولياءِ اللهِ، وألحَقَ به محبِّيه فيما نال من كرامةِ اللهِ تعالى، إن شاء اللهُ من غيرِ بَلِيَّةٍ. وباللهِ التَّوفيقُ والعِصمةُ".[2348]

هـ. نموذج معاصر في التضحية: (تَضْحِيَةُ الدُّكْتُور عَبْدِ الرَّحْمَنِ السِمِيط):

السِّرُّ هُو: حُبُّ العَطَاءِ والبَذلِ والتَّضحِيَةِ والتَّأثِيرِ فِي الآخرِينَ لإرضَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّه سِرٌّ خَطِيرٌ إِذَا لَامَسَ قَلْبَ إِنْسَانٍ وجَوَارِحَهُ جَعَلَ مِنْهُ رَجُلاً عَظِيماً.

رَسَمَ الدُّكْتُور السِمِيط أَروَعَ صُوَرِ التَّضحِيَةِ فِي العَالَمِ الإِسْلَامِيّ فَكَانَ نمُوذَجًا مُشرِقًا فِي تَارِيخِنَا المعَاصِرِ؛ فاستَحَقَّ بجَدَارَةٍ أَنْ يُلَقَّبَ بِأَبِي إِفْرِيقْيَا، لَقَد اشتَرَى الآخِرَةَ وَنَعِيمَهَا الدَّائِمِ بالدُّنيَا وَزِينَتِهَا الزَّائِفَةِ؛ فَكَانَ بِحَقٍ رَجُلًا بِأُمَّةٍ.

يقول رحمه الله: "أقود سيارتي مئات الكيلومترات، وأمشي على الأقدام ساعات طويلة، سيارتي تتعطل، حذائي يتمزق، وعندما أصل إلى قرية معزولة، أجد فيها عدة مبشرين جاؤوها بطائرة من أسطولهم الخاص"، لقد ترك دكتور عبد الرحمن السميط الكويت ورغد العيش فيها من أجل مساعدة الفقراء في أفريقيا، هذا الرجل النبيل كان دائما صاحب المبادرة، والهمّة العالية، والاستعداد الدائم للتضحية والعطاء في زمن قلما تجد فيه من يجود بماله ووقته وصحته ومستقبله، من أجل نشر دين الله، ومساعدة المساكين في كل بقعة في العالم.

ثلاثة عقود تقريبا أمضاها في أفريقيا، حيث كان يعود للكويت لمدة قصيرة لا تتجاوز الشهر، ثم يعود من حيث أتى لمتابعة أعماله، ولكنه عندما شعر بأنه لم يعد قادرا على متابعة أبنائه وتربيتهم بالشكل المطلوب قرر أن يصطحبهم معه لأفريقيا في إجازاتهم الصيفية وفي منتصف العام، وعاشوا معه تجربة لا يمكن أن يعيشها أولادنا وبناتنا هذه الأيام، وخاصة أنها تجربة قاسية بمعنى الكلمة، وقد لا يتحملها الأطفال والمراهقون، ونادرا ما تجد أن أحدا من الدعاة يأخذ معه أولاده؛ ليورثهم حب الدعوة، والرغبة في العطاء والخبرة، والموت يترصدهم خلف تلك الشجرة أو عند ذلك المستنقع أو بجوار تلك الصخرة، يقف الموت أيضا ماثلا أمامهم يوميا بسبب المجاعات والجفاف الشديدين، فكَبُر أولاده قبل أوانهم ونضجوا مبكرا وأدركوا قيمة تضحيات والدهم وسبب غيابه الطويل عنهم، فعذروه وشدوا على يديه، فكانوا له نعم العون والسند.

- **وراء كل رجل عظيم امرأة: (زوجة دكتور عبدالرحمن سميط):**

أما مقولة "وراء كل رجل عظيم امرأة"، فهي تنطبق بحذافيرها على شيخنا الجليل حيث كانت زوجته أم صهيب خير

[2347] قيمة الزمن عند العلماء لأبي غدة ص: 31

[2348] البداية والنهاية 14/393

عون له، فقد كانت له السند والزوجة الصادقة النصوح.
أعانته ووقفت بجواره في كل ما تعرض له من محن، ورافقته في حلّه وترحاله، وخاضت معه كل صعاب أفريقيا ومجاهلها، وصبرت على الجوع والعطش والتعب وحتى المرض عندما أصابها انزلاق غضروفي، ورغم ذلك قطعت في السيارة الفيافي الوعرة لمدة عشرين ساعة برفقة زوجها، ولم تشكُ من ألم ولم تئن أو تضجر.
تبرعت بمالها الخاص كله من أجل العمل الخيري وخصصت له علمها وجهدها، ولم تُشعِره يوما بأنها غير راغبة في المضي قدما والاستمرار في هذه الجهود المضنية بل على العكس كانت له الدافع والحافز والمشجع عندما يشعر بالإحباط أو العجز لكثرة ما واجهه من مصاعب.
حتى ابنه الدكتور عبدالله تابع السير على خطى أبيه والذي أمضى شهر العسل في رحلة عمل خيرية في غابات أفريقيا مع عروسه! نعم لأفريقيا عوضا عن لندن أو باريس أو حتى جنيف!.

إن مهمة العمل الخيري لا يستطيع القيام بها إلا ذلك النفر من أصحاب الهمم العالية القوية وأصحاب الجَلَد والصبر، وقد اختار الله سبحانه وتعالى هذه العائلة؛ لتكون بوابة السعادة للفقراء والمساكين، فيسّر لهم خطاهم وأرشدهم لما يخدم دينهم التي نشأوا عليها في بيوتهم ومجتمعاتهم.

رحم الله الشيخ عبد الرحمن السميط الذي كان سببا لإنقاذ ملايين الأرواح وعالج الملايين من الملاريا والعَمَى، وأسلم على يديه الملايين وبنى آلاف المدارس والمساجد والمستشفيات والمستوصفات وحفر آلاف الآبار وبنى خمسَ جامعات وتعلم على يديه آلاف الدعاة والأئمة... إنها قائمة طويلة لا يستطيع تنفيذها إلا أولي البأس من الرجال[2349].

المطلب الخامس: مظاهِرُ وصُوَرُ التَّضْحيةِ

1- التَّضْحيةُ بالنَّفسِ وهي من أعلى مراتِبِ التَّضْحيةِ: وذلك بتعريضِها لمظانِّ الهلاكِ أو المشقَّةِ، وقد سمَّى اللهُ تعالى الذين يُضَحُّون في سبيلِه بأنفُسِهم شُهَداءَ.
وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: "مِن خَيرِ مَعاشِ النَّاسِ لهم رَجُلٌ مُمسِكٌ عِنانَ[2350] فَرَسِه في سبيلِ اللَّهِ، يطيرُ على مَتْنِه كلَّما سَمِعَ هَيْعَةً أو فَزعةً طار عليه، يبتغي القَتْلَ والموتَ مَظانَّه، أو رَجُلٌ في غُنَيمةٍ في رأسِ شَعَفَةٍ[2351] من هذه الشَّعَفِ، أو بَطنِ وادٍ مِن هذه الأوديةِ، يقيمُ الصَّلاةَ، ويُؤتي الزَّكاةَ، ويَعبُدُ ربَّه حتَّى يأتيَه اليقينُ، ليس من النَّاسِ إلَّا في خيرٍ".[2352]

2- التَّضْحيةُ بالمالِ:
ومن ذلك بَذلُ المالِ وإنفاقُه في سبيلِ اللهِ؛ قال تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: 92]، ومنه إسقاطُ الدَّينِ عن المُعسِرِ؛ عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "كان تاجِرٌ يُداينُ النَّاسَ فإذا رأى مُعسِرًا قال لفِتيانِه: تجاوَزوا عنه لعَلَّ اللهَ أن يتجاوَزَ عنَّا، فتجاوَزَ اللهُ عنه".[2353]

[2349] تلخيصٌ لمقال د. زياد الوهر في موقع الراي الكويتي مستفيدا من كتاب الدكتور عبد العزيز سعود العويد الذي كان مصدرا ثريا في ترويده بالمعلومات الكافية والوافية من خلال كتابه عبد الرحمن السميط- أسطورة العمل الإغاثي والذي صدر في العام 2016 وعرض فيه العديد من رحلات فقيدنا والكثير من صوره في توثيق تاريخي ثمين جدا لمسيرة السميط في العمل الخيري والإغاثي والدعوي.

[2350] هو سَيرُ اللِّجامِ الذي تمسِكُ به الدَّابَّةَ. يُنظر: تاج العروس للزبيدي 414 /35

[2351] شَعَفةُ كُلِ شيءٍ: أعلاه. وشَعَفةُ الجَبَلِ: رأسُه. يُنظر: لسان العرب لابن منظور 9/177

[2352] أخرجه مسلم 1889

[2353] أخرجه البخاري 2078 ومسلم 1561

- ومن صور التضحية بالمال، لما أراد صُهَيْبُ بْنُ سِنانٍ الرومي الهجرة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له كُفَّارُ قريش: أتيتنا صُعْلُوكًا حقيرًا، فَكَثُرَ مَالُكَ عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تَخْرُجَ بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أَتُخَلُّونَ سَبِيلِي؟ قالوا: نعم، قال: فإني قد جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ربح صهيب، رَبِحَ صهيبٌ"، وفيه نزل قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} [البقرة: 207].

- وكذلك تضحية الأنصار بمالهم لنصرة إخوانهم المجاهدين في سبيل الله وفيهم نزل قول الله تبارك وتعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر: 8].

- وَمِن صورِ الإنفَاقِ بالمالِ، إنفاقُ المرأةِ بِحليِّهَا وأموالِهَا؛ فالإنفاقُ ليسَ مقتصرًا فقط على الرِّجالِ كَمَا يَتَصَّورُ البعضُ.

- ومن صورِ التَضْحِيةِ أيضًا: التَّفرغُ الكلّي أو الجزئِيّ للدعوةِ مَا قد يُؤدِّي إلى إهْمَالِ تجَارَةٍ أو وظِيفَةٍ دنيويَّةٍ.

3- التَّضْحيةُ بالوَقتِ وبراحة النفس من أجلِ التَّعلُّمِ أو التَّعليمِ أو مساعدةِ الآخَرينَ.

"أفضلُ ما يُمْكِنُ أن يضَّحِي به الإنسَانُ بوقتِهِ وجهدِهِ فيه، هو عبادةُ اللهِ تعالى، وطلبُ العلمِ، والدَّعوةُ إلى اللهِ تعالى بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ، والتِي بدورِهَا جَعَلَتْ الخَيْرِيَّةِ لهذِهِ الأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ، بالإضَافَةِ إلى الإصْلَاحِ بينَ النَّاسِ"[2354]، فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: 110].

4- التَّضحيةُ بالهِجرةِ من الوَطَنِ:

"لقد جسَّد النَّبيُّ صَلَّى الله عليه وسلَّم والصحابةُ رضوان الله عليهم التَّضْحِيَةَ بالأهلِ والوطنِ عندما هَاجَروا من مَكَّةَ مَوطِنِهِم الأمّ إلى المدِينةِ استجابةً لأمرِ اللهِ تعالى، وَمِن أجْلِ بِنَاءِ دولَتِهِم الإسْلامِيَّةِ التي انتشرتْ في بقاعِ الأرضِ، فالهجرةُ من الوطَنِ تُعَدُّ تضحيةً كبيرةً لما تَخْلُفُهُ من نتائِجٍ نفسيةٍ صعبةٍ عَلَى المهَاجِرِ". [2355]

5- التَّضحيةُ بلَذَّةِ النَّومِ والفِراشِ:

ومن ذلك التَّضحيةُ بها لقيامِ اللَّيلِ؛ قال تعالى: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} [الذاريات: 17]، وقال أيضًا: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة: 16]

6- التَّضْحِيَّةُ بالبُعْدِ عَنْ الزَّوجَةِ وَالْوَلَدِ:

وَمِنْ أَبْرَزِ التَّضْحِيَاتِ فِي ذَلِكَ بيتُ أبِي سَلَمَةَ؛ حيثُ كانَ من أولِّ المهاجِرينَ هو وزوجَتُهُ وابنُهُ، فقد هَاجَرَ قبلَ العَقَبَةِ الكبرَى بِسَنَةٍ عَلَى مَا قَالَه ابنُ إسحاقَ، فلمَّا أَجمَعَ عَلَى الخروجِ قَالَ له أصهارُه: "هذه نفسُكَ غَلَبْتَنَا عليها، أَرَأَيْتَ صَاحِبَتَنَا هَذِهِ؟ عَلامَ نترُكُكَ تَسِيرُ بهَا في البِلَادِ؟"، فَأَخَذُوا منه زوجتَهُ، وَغَضِبَ آلُ أبِي سَلَمَةَ لرَجُلِهِم، فقالوا: "لا نترُكُ ابنَنَا مَعَهَا إذ نزعتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا، وَتَجَاذَبُوا الغُلامَ بينهُم فَخَلَعُوا يَدَهُ، وَذَهَبُوا به.

[2354] محمود أبو غبن، التضحية في ضوء القرآن الكريم، ص: 43-47 بتصرّف.

[2355] المصدر السابق، ص: 51 بتصرّف.

وانْطَلَقَ أَبُو سَلَمَةَ وَحْدَهُ إِلَى المدِينَةِ، وكَانَتْ أُمُّ سَلمَةَ رضِيَ اللهُ عنها وَبَعْدِ ذَهَابِ زوجِهَا وَضَيَاعِ ابنِهَا تخرُجُ كلَّ غداةٍ بالأَبْطُحِ تَبْكِي حَتَّى تُمْسِي، وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ نَحْوِ سَنَةٍ، فَرَقَّ لهَا أَحَدُ ذَوِيهَا، وَقَالَ: "ألا تُخْرِجُونَ هَذِهِ المِسْكِينَةَ؟ فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وبينَ زوجِهَا وولَدِهَا، فَقَالُوا لهَا: "الحقي بزوجِكِ إِنْ شِئْتِ، فاسْتَرْجَعَتْ ابْنَهَا مِنْ عُصْبَتِهِ، وَخَرَجَتْ تُرِيدُ المَدِينَةَ.

المطلب السادس: ثمارُ التَّضْحِيَة

1- في التَّضْحيةِ نُصرةٌ للدِّينِ.

2- في التَّضْحيةِ تحقيقُ التَّكافُلِ بَينَ طبَقاتِ المجتَمَعِ.

3- في التَّضحيةِ تقويةُ الأمَّةِ، وتحقيقُ تماسُكِها.

4- في التَّضْحيةِ تحقيقُ التَّراحُمِ بَينَ نسيجِ المجتَمَعِ الإسلاميِّ كلِّه.

5- في التَّضْحيةِ تحقيقُ العِزَّةِ والسَّعادةِ.

6- أنَّ التَّضحيةَ إن كانت للهِ سُبحانَه فإنَّ اللهَ يُعَوِّضُه خيرًا ممَّا ضَحَّى به، وينالُ ثَمرةَ تضحيتِه.

7- أنَّ التَّضحيةَ إن كانت بالمالِ في سبيلِ اللهِ فإنَّه سُبحانَه يُخلِفُه على صاحِبِه.

8- أنَّ التَّضحيةَ فيها تشجيعٌ للغَيرِ على البَذلِ والعَطاءِ.

9- في التَّضحيةِ حِفظُ الدِّينِ والوَطَنِ وإظهارُ قُوَّةِ الأمَّةِ.

10- في تضحيةِ العُلَماءِ بوَقتِهم وجُهدِهم تنشئةُ طُلَّابِ العِلمِ، ونَفعُ الأمَّةِ بهم.

11- التَّضحيةُ وِقايةٌ للنَّفسِ من الأنانيَّةِ والشُّحِّ.

12- في التَّضحيةِ مُضاعَفةُ الأُجورِ.

المطلب السابع: أقسامُ التَّضْحيةِ

تنقَسِمُ التَّضْحيةُ إلى قِسمَينِ:

1- التَّضْحيةُ المحمودةُ (المشروعةُ):

وهي التَّضحيةُ في سبيلِ نُصرةِ الحَقِّ وتحقيقِ هَدَفٍ مشروعٍ، ومنها: التَّضْحيةُ بالنَّفسِ؛ قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} [البقرة: 216].

فاللهُ تعالى „أخبَرَ أنَّه مكروهٌ للنُّفوسِ؛ لِما فيه من التَّعَبِ والمشقَّةِ، وحُصولِ أنواعِ المخاوِفِ، والتَّعرُّضِ للمتالِفِ، ومع هذا فهو خيرٌ محضٌ لِما فيه من الثَّوابِ العظيمِ، والتَّحرُّزِ من العِقابِ الأليمِ، والنَّصرِ على الأعداءِ، والظَّفَرِ بالغنائِمِ، وغيرِ ذلك ممَّا هو مُربٍّ، على ما فيه من الكراهةِ".[2356]

ومن ذلك التَّضْحيةُ بالمالِ: قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [الحديد: 10-11].

كذلك تدُلُّ وقائِعُ التَّربيةِ النَّبويَّةِ على أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يشترِطُ الاستعدادَ لبَذلِ النَّفسِ والمالِ، ويجعَلُ ذلك شارةَ الإيمانِ وصِدْقَه، والإنسانُ عِندَه مَيلٌ فِطريٌّ إلى أن يُضَحِّيَ بنَفسِه ومالِه في سبيلِ المثَلِ الأعلى، بل إنَّ هذه

[2356] تيسير الكريم الرحمن ص: 96

التَّضْحيةَ هي أمرٌ راسِخٌ في فِطرةِ الإنسانِ، وجُزءٌ من وُجودِه، وما تعظيمُ الشَّجاعةِ عِندَ البَشَرِ إلَّا تقديرٌ لقيمةِ التَّضْحيةِ في سبيلِ المَثَلِ الأعلى؛ ولذلك جُعِلَ الجِهادُ أفضَلَ الأعمالِ.[2357]

2- التَّضْحيةُ المذمومةُ „غيرُ المشروعةِ":

التَّضحيةُ المذمومةُ هي التَّضْحيةُ في نُصرةِ باطِلٍ، أو تحقيقِ هَدَفٍ غيرِ مشروعٍ، وكُلُّ تضحيةٍ لم تكُنْ في سبيلِ اللهِ أو ابتغاءَ مَرضاتِه، أو تحقيقًا لمقصَدٍ شَريفٍ نبيلٍ؛ فهي مذمومةٌ.

فعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه قال: "جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: يا رسولَ اللهِ، ما القِتالُ في سبيلِ اللهِ؟ فإنَّ أحَدَنا يقاتِلُ غَضَبًا، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، فرَفَع إليه رأسَه، قال: وما رَفَع إليه رأسَه إلَّا أنَّه كان قائمًا، فقال: مَن قاتَلَ لتَكونَ كَلِمةُ الله هي العليا فهو في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ".[2358]

المطلب الثامن: الوَسائِلُ المُعينَةُ على التَّضْحِيَة

1- تَركُ التَّعلُّقِ بالدُّنيا والانكبابِ عليها.

2- التَّخلُّصُ من الرُّوحِ الانهزاميَّةِ.

قال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 139].

3- إشاعةُ رُوحِ المحبَّةِ والتَّعاوُنِ.

4- التَّحلِّي بالشَّجاعةِ والإقدامِ.

5- التَّحلِّي بعُلُوِّ الهمَّةِ.

6- التَّحلِّي بالكَرَمِ وعَدَمُ البُخلِ.

7- التَّحلِّي بالصَّبرِ واليَقينِ.

8- مُصاحَبةُ أهلِ الخَيرِ والرِّفعةِ، الذين يُنفِقون أموالَهم ويَبذُلون حياتَهم في سبيلِ نصرةِ دِينِ اللهِ.

9- اليقينُ الجازِمُ بما أعدَّه اللهُ لعبادِه المجاهِدين في سبيلِه والمُنفِقين في مَرضاتِه؛ قال تعالى: {وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: 39].

وقال أيضًا: {وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [آل عمران: 157].

10- قِصَرُ الأمَلِ في الدُّنيا.

11- القِراءةُ في أخبارِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، والنَّظَرُ في تضحياتِهم بالنَّفسِ والمالِ.

المطلب التاسع: موانِعُ اكتِسابِ صِفةِ التَّضحيةِ

1- عَدَمُ الإخلاصِ للهِ في العَمَلِ.

2- حبُّ النَّفسِ والأثَرةُ.

3- الانغِماسُ في اللَّهوِ والتَّرَفِ والدَّعَةِ.

4- إساءةُ الظَّنِّ وعَدَمُ الثِّقةِ.

5- ضَعفُ الإيمانِ.

[2357] أهداف التربية الإسلامية لماجد الكيلاني ص: 128

[2358] أخرجه البخاري 123 واللَّفظُ له، ومسلم 1904

6- التَّعَلُّقُ بالدُّنيا وزينتِها، والتَّثاقُلُ إلى الأرضِ.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: 38-39].

7- البُخلُ؛ قال تعالى: {هَاأَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: 38].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الصف: 10-11].

المبحث العاشر: أخطاءٌ شائِعةٌ حولَ التَّضْحيةِ

1- الاعتقادُ أنَّ أجرَ التَّضحيةِ يَزيدُ بزيادةِ قيمةِ المُضَحَّى به؛ فلو ضحَّى رجُلٌ بمالٍ أكثَرَ في سبيلِ اللهِ فأجْرُه أكبَرُ ممَّن ضَحَّى بمبلغٍ أصغَرَ، وهذا خطأٌ، وإنَّما يكونُ الأجرُ بحَسَبِ ما يُنفِقُه الإنسانُ في مقابِلِ ما يملِكُه، كما أخبر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "سَبَق دِرهَمٌ مائةَ ألفِ دِرهَمٍ! قالوا: وكيف؟ قال: كان لرَجُلٍ دِرهمانِ تصَدَّقَ بأحَدِهما، وانطَلَق رجُلٌ إلى عُرْضِ مالِه، فأخذ منه مائةَ ألفِ دِرهَمٍ فتصَدَّقَ بها".[2359]

إنَّ الشَّيطانَ يقعُدُ „للقليلِ المالِ في طريقِ الإنفاقِ، فيُزَهِّدُه فيه، ومِن مداخِلِه عليه أنَّه يُحَقِّرُ له ما يُنفِقُه من قليلٍ بأنَّه لا غَناءَ فيه، فيَقبِضُ يَدَه عن الصَّدقةِ بذلك القليلِ الذي يستطيعُه، فيفوتُه أجرٌ كبيرٌ، فبَصَّرَنا نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بالحقيقةِ، وبَيَّن لنا أنَّ ذلك القليلَ بالنِّسبةِ لمالِ صاحِبِه هو كثيرٌ، حتَّى إنَّه يسبِقُ كثيرَ غيرِه من أهلِ المالِ العظيمِ؛ ليُشارِكَ فقيرُنا غنيَّنا بقليلِه، فيكونَ من السَّابقينَ إلى الأجرِ الكثيرِ".[2360]

2- من الخَطَأِ قَصْرُ التَّضحيةِ على التَّضحيةِ بالنَّفسِ؛ فالتَّضحيةُ قد تكونُ بالنَّفسِ، وقد تكونُ بالمالِ، وقد تكونُ بالوقتِ، وقد تكونُ بالرَّاحةِ، إلى غيرِ ذلك، كما تقدَّم.

المطلب الحادي عشر: مَتَى تَنجَحُ التَّضْحِيةُ فِي الدَّعْوَةِ؟

<u>التَّضْحِيَةُ فِي الدَّعْوَةِ تَنْجَحُ إِذَا:</u>

- قَوِيَ الإيمان بها.
- وتَوَفُّر الإخلاص في سبيلها.
- وبُذِلَ الوقت والجهد والمال من أجلها.

[2359] أخرجه النسائي 2527 واللَّفظ له، وأحمد 8929. صحَّحه ابنُ خُزيمة في الصحيح 2443، وابن حبان في صحيحه 3347، والحاكم في المستدرك 1519 وقال: على شرط مسلم، وابن حزم في المحلى 9/139

[2360] مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص: 128

المطلب الثاني عشر: التضحية في الدعوة هي التجارة الرابحة

قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة:111].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الصف: 12].

المطلب الثالث عشر: الوعيد لمن لم يضحي في سبيل الله

القرآن بيَّن الوعيد لمن آثر أهله أو ماله أو مسكنه على الدعوة إلى الله ورسوله: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة: 24].

المبحث السادس عشر: قوة العزم والعزيمة وعلو الهمة

المطلب الأول: معنى العَزمِ والعَزيمةِ

أولا: معنى العَزمُ والعَزيمةُ:

- **العَزمُ والعَزيمةُ لغةً:**

العَزمُ والعَزيمةُ مصدرانِ مِن عَزَم، وهو: أصلٌ يدُلُّ على الصَّريمةِ والقَطعِ، يقولون: عزمتُ عليك إلَّا فعَلْتَ كذا، أي: جعَلْتُه أمرًا عَزمًا، أي: لا مَثنويَّةَ فيه، ويُقالُ: ما لفُلانٍ عزيمةٌ، أي: لا يمكِنُه أن يصرِمَ الأمرَ، بل يختَلِطُ فيه ويتردَّدُ، والعَزمُ: الصَّبرُ والجِدُّ. والعَزيمةُ هي الحاجةُ التي قد عزَمْتَ على فِعْلِها، وقال الخليلُ: العَزمُ: ما عُقِد عليه القلبُ من أمرٍ أنت فاعِلُه.[2361]

- **العَزمُ والعَزيمةُ اصطِلاحًا:**

قال الرَّاغِبُ: „العَزمُ والعَزيمةُ: عقدُ القلبِ على إمضاءِ الأمرِ".[2362]

وقال الهَرَويُّ: „العَزمُ: تحقيقُ القصدِ طَوعًا أو كَرهًا".[2363]

وقال ابنُ الأثيرِ: العَزيمةُ „هي ما وكَّدْتَ رأيَك وعَزَمْتَ عليه، ووفَيتَ بعهدِ اللهِ فيه".[2364]

وقال ابنُ عاشورٍ في تعريفِ العَزمِ: هو „إمضاءُ الرَّأيِ، وعدَمُ التَّردُّدِ بعدَ تَبيُّنِ السَّدادِ".[2365]

ثانيا: مَعنى عُلوِّ الهمَّةِ:

- **العُلُوُّ لغةً:** ضِدُّ السُّفلِ، وهو مَصدَرٌ مَن عَلا الشَّيءُ، ويُقالُ: عَلا فلانٌ الجَبَلَ: إذا رَقِيَه، وعَلا فلانٌ فلانًا: إذا قَهَرَه، والعَليُّ: الرَّفيعُ، وتعالى: ترفَّع، وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على السُّموِّ والارتِفاعِ.[2366]

- **الهِمَّةُ لُغةً:** ما همَّ به الإنسانُ مِن أمرٍ ليفعَلَه، تَقولُ: إنَّه لعَظيمُ الهَمِّ، وإنَّه لصَغيرُ الهِمَّةِ، وإنَّه لبَعيدُ الهِمَّةِ والهَمَّةُ، بالفتحِ.[2367]

وقال ابنُ القَيِّمِ في تَعريفِ الهِمَّةِ: „والهِمَّةُ فِعلةٌ مِنَ الهَمِّ، وهو مَبدَأُ الإرادةِ، ولَكِن خَصُّوها بنِهايةِ الإرادةِ، فالهَمُّ مَبدَؤُها، والهِمَّةُ نِهايتُها".[2368]

- **الهَمَّةُ اصطِلاحًا،** هي: „تَوجُّهُ القَلبِ وقَصدُه بجَميعِ قواه الرُّوحانيَّةِ إلى جانِبِ الحَقِّ؛ لحُصولِ الكَمالِ له أو لغَيرِه".[2369]

- **عُلوُّ الهمَّةِ اصطِلاحًا،** هو: „استِصغارُ ما دونَ النِّهايةِ مِن مَعالي الأُمورِ، وطَلَبُ المَراتِبِ السَّاميةِ".[2370]

[2361] يُنظَر: تهذيب اللغة للأزهري، الصحاح للجوهري، مقاييس اللغة لابن فارس، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير.

[2362] المفردات في غريب القرآن ص: 565

[2363] منازل السائرين 1/65

[2364] النهاية في غريب الحديث والأثر 3/231

[2365] التحرير والتنوير 4/190

[2366] العين للخليل بن أحمد، مقاييس اللغة لابن فارس، لسان العرب لابن منظور.

[2367] لسان العرب لابن منظور.

[2368] مدارج السالكين لابن القيم 3/5

[2369] التعريفات للجرجاني ص 257

[2370] يُنظر: صيد الخاطر ص: 173، علو الهمة للمقدم ص: 7

وقيل عنه أيضا: طَلَبُ مَا أَمْكَنَ مِنَ الكَمَالِ لِلنَّفْسِ وَلِلْغَيْرِ وَعَدَمُ القَنَاعَةِ بِالنَّقْصِ وَالسُّفْلِ.
فعالي الهمة يجود بالنفس والنفيس في سبيل تحصيل غايته وتحقيق بغيته، وكلما كانت النفوس أشرف، والهمة أعلى، كان تعب البدن أوفر، وحظه من الراحة أقل.
وعُلوُّ الهِمَّةِ يَستَلزِمُ الجِدَّ، والتَّرَفُّعَ عنِ الدَّنايا، ومُحَقَّراتِ الأمورِ؛ قال ابنُ القَيِّمِ في الفوائِدِ: „فَمَن علت هِمَّتُهُ وخَشَعَت نَفسُه اتَّصَف بكُلِّ خُلُقٍ جَميلٍ، ومَن دَنَت هِمَّتُهُ وطَغَت نَفسُه اتَّصَف بكُلِّ خُلُقٍ رَذيلٍ".[2371]
وقال أيضًا: „فالنُّفوسُ الشَّريفةُ لا تَرضى منَ الأشياءِ إلَّا بأعلاها وأفضَلِها وأحمَدِها عاقِبةً، والنُّفوسُ الدَّنيئةُ تَحومُ حَولَ الدَّناءاتِ، وتَقَعُ عليها كما يَقَعُ الذُّبابُ على الأقذارِ؛ فالنُّفوسُ العَليَّةُ لا تَرضى بالظُّلمِ، ولا بالفواحِشِ، ولا بالسَّرِقةِ ولا بالخيانةِ؛ لأنَّها أكبَرُ من ذلك وأجَلُّ، والنُّفوسُ المَهينةُ الحَقيرةُ الخَسيسةُ بالضِّدِّ من ذلك".[2372]
„فإذا حَرَصَ المَرءُ على اكتِسابِ الفضائِلِ، وألزَمَ نَفسَه على التَّخَلُّقِ بالمَحاسِنِ، ولم يَرضَ من مَنقَبةٍ إلَّا بأعلاها، ولم يَقِفْ عِندَ فضيلةٍ إلَّا وطَلب الزِّيادةَ عليها؛ نال مَكارِمَ الأخلاقِ".[2373]

المطلب الثاني: الفرق بين الهِمَّةِ وغيرها من الصفات

- **الفَرقُ بَينَ الهِمَّةِ والهَمِّ:**

(الهِمَّةُ: اتِّساعُ الهَمِّ وبُعدُ مَوقِعِه؛ ولهذا يُمدَحُ بها الإنسانُ، فيُقالُ: فلانٌ ذو هِمَّةٍ وذو عَزيمةٍ. وأمَّا قَولُهم: فُلانٌ بَعيدُ الهِمَّةِ وكبيرُ العَزيمةِ، فلأنَّ بَعضَ الهِمَمِ يكونُ أبعَدَ مِن بَعضٍ وأكبَرَ مِن بَعضٍ، وحَقيقةُ ذلك أنَّه يهتَمُّ بالأُمورِ الكِبارِ.
والهَمُّ: هو الفِكرُ في إزالةِ المكروهِ، واجتِلابِ المَحبوبِ، ومِنه يُقال: أهُمُّ بحاجَتي).

- **الفَرْقُ بَيْنَ الهِمَّةِ والعَزمِ:**

قال الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ: (الهِمَّةُ: إجماعٌ من النَّفسِ على الأمرِ، وإزماعٌ عليه، والعَزمُ: هو العَقدُ على إمضائِه).[2374]
قال المُناويُّ: (والهِمَّةُ أوَّلُ العَزمِ، وقد يُطلَقُ على العَزمِ القويِّ، فيُقالُ: له هِمَّةٌ عاليةٌ)[2375].

المطلب الثالث: التَّرغِيبُ في العزم والحثُّ عليه

أ. العزم والعزيمة في القرآن الكريم:

العَزمُ على فِعلِ الخيرِ وعَدَمُ التَّردُّدِ، والمسارعةُ لفِعلِ الخيراتِ: من شِيَمِ الصَّالحينَ، والعَزيمةُ هي الدَّافعُ لفِعلِ الخيرِ؛ ولهذا حثَّ اللهُ عليها في كتابِه في غيرِ آيةٍ، ومن ذلك:

1- قال تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159].

قال ابنُ جريرٍ الطَّبَريُّ: (قَولُه: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، يعني: فإذا صحَّ عزمُك بتثبيتِنا إيَّاك وتسديدِنا لك فيما نابك وحزَبَك من أمرِ دينِك ودُنياك، فامضِ لِما أمَرْناك به على ما أمَرْناك به، وافَقَ ذلك آراءَ أصحابِك وما أشاروا به عليك أو خالفَها، وتوكَّلْ فيما تأتي من أمورِك وتدَعُ وتحاوِلُ أو تزاوِلُ، على ربِّك؛ فثِقْ به في كُلِّ ذلك، وارْضَ بقضائِه في جميعِه، دونَ

[2371] الفوائد ص: 144
[2372] المصدر السابق، ص: 177
[2373] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز ص: 72.
[2374] التفسير للراغب الأصفهاني 1/ 465
[2375] فيض القدير 2/ 443

آراءِ سائرِ خَلقِه ومعونتِهم؛ فـ {إنَّ اللهَ يحِبُّ المتوكِّلين}، وهم الرَّاضون بقضائِه، والمُستَسلِمون لحُكمِه فيهم، وافَقَ ذلك منهم هَوًى أو خالفَه).[2376]

وقال الجَصَّاصُ: „في ذِكرِ العَزيمةِ عَقيبَ المشاورةِ دَلالةٌ على أنَّها صدَرَت عن المشورةِ".[2377]

2- وقال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: 35].

فهذه الآيةُ: فيها ثَناءٌ على أصحابِ الهمَمِ العاليةِ، وفي طليعتِهم الأنبياءُ والمُرسَلونَ، وفي مُقدِّمَتِهم أولو العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ، وعلى رَأسِهم خاتَمُهم مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... وقد تَجَلَّت همَّتهمُ العاليةُ في مُثابَرَتِهم وجِهادِهم ودَعوتِهم إلى اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ، كما أوضَحَه اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ في قِصَصِ الأنبياءِ: كنُوحٍ، وإبراهيمَ، وموسى، وعيسى، ومُحَمَّدٍ صَلَواتُ اللَّهِ وسَلامُه عليهم أجمَعينَ.[2378]

فـ (أمَرَ تعالى رَسولَه أن يصبرَ على أذيَّةِ المُكذِّبينَ المُعادينَ له، وألا يزالَ داعيًا لهم إلى اللَّهِ، وأن يقتَديَ بصَبرِ أولي العَزمِ مِنَ المُرسَلينَ ساداتِ الخَلقِ أولي العَزائِمِ والهمَمِ العاليةِ).[2379]

ب. العزم وعلو الهمة في السنة النبوية:

1- عن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ اللهَ كَريمٌ يُحِبُّ الكَرَمَ ومَعاليَ الأخلاقِ، ويُبغِضُ سَفسافَها".[2380]

وسَفسَافهُا: أي: حَقيرُها ورَديئُها. وشَرَفُ النَّفسِ أن يَصونَها عنِ الدَّنايا، والهِمَّةُ العاليةُ لا تَزالُ بصاحِبها تَزجُرُه عن مَواقِفِ الذُّلِّ، واكتِسابِ الرَّذائِلِ، وحِرمانِ الفضائِلِ، حتَّى تَرفعَه من أدنى دَرَكاتِ الحَضيضِ إلى أعلى مَقاماتِ المجدِ والسُّؤدُدِ.

2- عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "لا يقولَنَّ أحَدُكم: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي إنْ شِئتَ، اللَّهُمَّ ارحَمْني إن شِئتَ. لِيَعزِمْ في الدُّعاءِ؛ فإنَّ اللهَ صانِعٌ ما شاء، لا مُكرِهَ له".[2381]

3- وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إذا دعا أحَدُكم فلْيَعزِمِ المسألةَ"، أي: ليُنفِذْها ويُمضِها.[2382]

قال النَّوويُّ: „عَزمُ المسألةِ: الشِّدَّةُ في طَلَبِها، والحَزمُ من غيرِ ضَعفٍ في الطَّلَبِ ولا تعليقٍ على مشيئةٍ ونحوِها".[2383]

وقال ابنُ حَجَرٍ: „ومعنى الأمرِ بالعَزمِ: الجِدُّ فيه، وأن يجزِمَ بوقوعِ مَطلوبِه، ولا يُعَلِّقَ ذلك بمشيئةِ اللهِ تعالى، وإن كان مأمورًا في جميعِ ما يريدُ فِعلَه أن يُعَلِّقَه بمشيئةِ اللهِ تعالى، وقيل: معنى العَزمِ: أن يحسِنَ الظَّنَّ باللهِ في الإجابةِ... وقال الدَّاوديُّ: معنى قَولِه: لِيَعزِمِ المسألةَ، أن يجتَهِدَ ويُلِحَّ، ولا يَقُلْ: إن شِئتَ، كالمُستثني، ولكِنْ دعاءَ البائِسِ الفقيرِ".[2384]

[2376] جامع البيان 191 /6 بتصرُّفٍ .

[2377] أحكام القرآن 2/331

[2378] يُنظر: علو الهمة لمحمد إسماعيل المقدم ص: 128

[2379] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص: 784

[2380] رواه الطبراني 6/181 5928 باختلاف يسير، والحاكم 152، والبيهقي 21300 واللفظ لها. صحَّحه الألباني في صحيح الجامع 1801، وصحَّحه بشواهده شعيب الأرناؤوط في تخريج شرح السنة 3503، وصحَّح إسنادَه الحاكم، والعراقي في تخريج الإحياء 3/302

[2381] رواه البخاري6339، ومسلم 2679 واللفظ له

[2382] مشكلات الموطأ للبطليوسي ص: 96

[2383] شرح النووي على مسلم 7 /17

[2384] فتح الباري شرح صحيح البخاري 11/140

وقال بدرُ الدِّينِ العَينيُّ: „قولُه: فلْيَعزِمِ المسألةَ، أي: فلْيَقطَعْ بالسُّؤالِ، ولا يُعَلِّقْ بالمشيئةِ؛ إذ في التَّعليقِ صورةُ الاستغناءِ عن المطلوبِ منه والمطلوبِ".[2385]

4- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ [2386]، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ[2387] اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعلَ؛ فإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ". [2388]

5- عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها قالت: "كان أحَبَّ العمَلِ إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي يدومُ عليه صاحِبُه".[2389]

فيه: أنَّ يسيرَ العمَلِ الذي يدومُ عليه صاحبُه أفضَلُ من الكثيرِ الذي يُفعَلُ مرَّةً أو مرَّتينِ، ثمَّ يَترُكُه ويَترُكُ العَزمَ عليه، والعَزمُ على العَمَلِ الصَّالحِ يُثابُ عليه.[2390]

6- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: "إذا سَألْتُمُ اللَّهَ فسَلوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجَنَّةِ، وأعلى الجَنَّةِ، وفوقَه عَرشُ الرَّحمَنِ، ومِنه تَفجَّرُ أنهارُ الجَنَّةِ".[2391]

ففي هذا الحَديثِ حَثَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُمَّتَه على طَلَبِ مَعالي الدَّرَجاتِ مِنَ الجَنَّةِ في دُعائِهم، وألَّا يكتَفوا بالدُّونِ مِن ذلك؛ فقد أرشَدَهم إلى هذا تَعليمًا للأُمَّةِ وتَعظيمًا للهمَّةِ.[2392]

7- عن حَكيمِ بنِ حِزامٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "اليَدُ العُليا خَيرٌ مِنَ اليدِ السُّفلى، وابدَأ بمَن تعولُ، وخَيرُ الصَّدَقةِ عن ظَهرِ غِنًى، ومَن يستَعفِفْ يُعِفَّه اللَّهُ، ومَن يستَغنِ يُغنِه اللَّهُ".

قال ابنُ بَطَّالٍ: "فيه ندبٌ إلى التَّعَفُّفِ عنِ المَسألةِ، وحَضٌّ على مَعالي الأُمورِ، وتَركِ دَنيئِها، واللَّهُ يُحِبُّ مَعاليَ الأُمورِ".[2393]

<u>ت. العزم وعلو الهمة من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ وغَيرِهم:</u>

- رُوِيَ عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّه قال: „لا تَصغُرنَّ هِمَّتُكم؛ فإنِّي لَم أرَ أقعَدَ عنِ المكرُماتِ مَن صِغَرِ الهِمَمِ".[2394]

- وقال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ أيضًا: „ما رَأيتُ صَغيرَ الهِمَّةِ إلَّا رَأيتُه مَذمومَ الأُحدوثةِ".[2395]

[2385] عمدة القاري 22/299

[2386] قال النووي في شرح صحيح مسلم 382/8 2664: "معناه في كل من القوي والضعيف خير، لاشتراكهما في الإيمان" الإشارةُ بالقوَّةِ هاهنا إلى العَزمِ والحَزمِ والاحتياطِ. كشف المشكل لابن الجوزي552 /3

2387 قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: "قدَرُ الله وما شاء فعل، وبعضهم ضبطها قدَّرَ الله وما شاء فعل أي قدّر الشيء الواقع، والمعنى الأول أظهر، أي: أن هذا الواقع هو قدر الله أي مقدور الله، وما شاء الله فعل" شرح كتاب التوحيد: 250

[2388] أخرجه مسلم 2664

[2389] أخرجه البخاري 6462 واللفظ له، ومسلم 741

[2390] المنتقى لأبي الوليد الباجي 183 /2

[2391] أخرجه البخاري 7423 مطولًا

[2392] تحفة الأحوذي للمباركفوري 201 /7

[2393] شرح صحيح البخاري لابن بطال 3/431

[2394] يُنظر: أدب الدنيا والدين للماوردي، ص: 319

[2395] البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، 8/ 205

- وقال مالِكٌ: „عليك بمَعالي الأُمورِ وكرائمِها، واتَّقِ رَذائِلَها وما سَفَّ مِنها؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى يُحِبُّ مَعاليَ الأُمورِ، ويَكرَهُ سَفسافَها".[2396]

- وعن ذُكَينٍ الرَّاجِزِ قال: „أتَيتُ عُمَرَ بنَ عَبدِ العَزيزِ بَعدَ ما استُخلِفَ أستنجِزُ منه وعدًا كان وعَدَنيه وهو والي المَدينةِ، فقال لي: يا ذُكَينُ، إنَّ لي نَفسًا تَوَّاقةً[2397] لم تَزَلْ تَتوقُ إلى الإمارةِ، فلمَّا نِلتُها تاقَت إلى الخِلافةِ، فلَمَّا نِلتُها تاقَت إلى الجَنَّةِ!".[2398]

- وقال أبو عَبدِ اللهِ الأنطاكيُّ: „بقُوَّةِ العَزمِ يُقهَرُ الهوى".[2399]

- وقال ابنُ الجَوزيِّ: „للَّهِ أقوامٌ ما رَضُوا مِنَ الفضائِلِ إلَّا بتَحصيلِ جَميعِها، فهم يُبالِغونَ في كُلِّ عِلمٍ، ويجتَهِدونَ في كُلِّ عَمَلٍ، ويُثابِرونَ على كُلِّ فضيلةٍ، فإذا ضَعُفت أبدانُهم عن بَعضِ ذلك قامَتِ النِّيَّاتُ نائِبةً وهم لها سابقونَ، وأكمَلُ أحوالِهم إعراضُهم عن أعمالِهم؛ فهم يحتَقِرونَها مَعَ التَّمامِ، ويعتَذِرونَ مِنَ التَّقصيرِ، ومِنهم مَن يزيدُ على هذا فيتَشاغَلُ بالشُّكرِ على التَّوفيقِ لذلك، ومِنهم مَن لا يرى ما عَمِلَ أصلًا؛ لأنَّه يرى نَفسَه وعَمَلَه لسَيِّدِه!

وبالعَكسِ مِنَ المَذكورِ مِن أرباب الاجتِهادِ حالُ أهلِ الكسَلِ والشَّرَهِ والشَّهَواتِ؛ فلَئِنِ التَذُّوا بعاجِلِ الرَّاحةِ لقد أوجَبَت ما يزيدُ على كُلِّ تَعَبٍ مِنَ الأسَفِ والحَسرةِ... ولقد تَأمَّلتُ نَيلَ الدُّرِّ مِنَ البَحرِ فرَأيتُه بَعدَ مُعاناةِ الشَّدائِدِ".[2400]

- وقال ابنُ الجَوزيِّ أيضًا: „مِن عَلامةِ كَمالِ العَقلِ عُلوُّ الهمَّةِ، والرِّاضي بالدُّونِ دَنيٌّ".[2401]

- وقال ابنُ القَيِّمِ: „فَمَن عَلَت هِمَّتُه، وخَشَعَت نَفسُه، اتَّصَف بكُلِّ خُلُقٍ جَميلٍ. ومَن دَنَت هِمَّتُه، وطَغَت نَفسُه، اتَّصَف بكُلِّ خُلُقٍ رَذيلٍ".[2402]

- وقال أيضًا: „الهمَّةُ العَليَّةُ لا تَزالُ حائِمةً حَولَ ثَلاثةِ أشياءَ: تَعَرُّفٌ لصِفةٍ مِنَ الصِّفاتِ العُليا تَزدادُ بمَعرِفتِها مَحَبَّةً وإرادةً، ومُلاحَظةٌ لمِنَّةٍ تَزدادُ بمُلاحَظَتِها شُكرًا أو إطاعةً، وتَذَكُّرٌ لذَنبٍ تَزدادُ بتَذَكُّرِه تَوبةً وخَشيةً، فإذا تَعَلَّقَت الهمَّةُ بسِوى هذه الثَّلاثةِ جالَت في أوديةِ الوساوِسِ والخَطَراتِ. مَن عَشِقَ الدُّنيا نَظَرَت إلى قدرِها عِندَه، فصَيَّرَته مِن خَدَمِها وعَبيدِها وأذَلَّتْه، ومَن أعرَضَ عنها نَظَرَت إلى كِبَرِ قَدرِه فخَدَمَته وذَلَّت له. إنَّما يُقطَعُ السَّفَرُ ويصِلُ المُسافِرُ بلُزومِ الجادَّةِ، وسَيرِ اللَّيلِ، فإذا حادَ المُسافِرُ عنِ الطَّريقِ، ونامَ اللَّيلَ كُلَّه، فمَتى يصِلُ إلى مَقصَدِه؟!".[2403]

- وقال أيضًا: „العِلمُ والعَمَلُ تَوأمانِ أُمُّهما عُلوُّ الهمَّةِ".[2404]

- وقال أيضًا: „لا تَكونُ الرُّوحُ الصَّافيةُ إلَّا في بَدَنٍ مُعتَدِلٍ، ولا الهمَّةُ العاليةُ إلَّا في نَفسٍ نَفيسةٍ".[2405]

[2396] يُنظر: ترتيب المدارك للقاضي عياض، 2/65

[2397] تَوَّاقةٌ: من تاق إلى الشَّيءِ تَوقًا وتَوُوقًا، أي: اشتاق، فهو تائِقٌ وتَوَّاقٌ. يُنظر: شمس العلوم لنشوان الحميري 2/783

[2398] رواه ابن قتيبة الدينوري في عيون الأخبار، 334/1

[2399] الحلية لأبي نعيم الأصبهاني 289 /9

[2400] صيد الخاطر، ص: 282

[2401] المصدر السابق، ص: 28

[2402] الفوائد، ص: 97

[2403] المصدر السابق، ص 99

[2404] بدائع الفوائد، ص 747

[2405] المصدر السابق، ص: 750

- وقال أيضًا: „إذا طَلَعَ نَجمُ الهمَّةِ في ظَلامِ لَيلِ البَطالةِ ورَدِفَه قَمَرُ العَزيمةِ، أشرَقَت أرضُ القَلبِ بنورِ رَبِّها. إذا جَنَّ اللَّيلُ تُغالبُ النَّومَ والسَّهَرَ، فالخَوفُ والشَّوقُ في مُقدَّمِ عَسكَرِ اليقَظةِ، والكَسَلُ والتَّواني في كتيبةِ الغَفلةِ، فإذا حَمَلَ العَزمُ حَمَلَ على المَيمَنةِ وانهزَمَت جُنودُ التَّفريطِ، فما يطلُعُ الفَجرُ إلَّا وقد قُسِمَتِ السُّهانُ وبَردَتِ الغَنيمةُ لأهلِها".[2406]

- وقال مُحَمَّد الخَضِر حُسَين: „كُلُّ ساعةٍ قابلةٌ لأن تضَعَ فيها حَجَرًا يزدادُ به صَرْحُ مَجْدِك ارتفاعًا، ويَقطَعُ به قومُك في السَّعادةِ باعًا أو ذِراعًا، فإنْ كُنتَ حريصًا على أن يكونَ لك المجدُ الأسمى، ولقَومِك السَّعادةُ العُظمى، فدَعِ الرَّاحةَ جانبًا، واجعَلْ بَينَك وبَينَ اللَّهوِ حاجِبًا".[2407]

المطلب الرابع: نماذِجُ من العَزمِ والعَزيمةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ

أ- عِندَ الأنبياءِ والمُرسَلينَ:

لقد نال الأنبياءَ والمُرسَلين من قومِهم الأذى الشَّديدُ، ولكِنَّهم صبَروا على ما لَقُوه من المكارهِ وواصَلوا مِهمَّتَهم بالعَزمِ والإصرارِ، وقد أشاد القرآنُ بعَزمِهم الصَّادِقِ في قَولِه: {اصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: 35].

وأولو العَزمِ من الرُّسُلِ: هم الذين صبروا وجَدُّوا في سبيلِ دعوتِهم.[2408]

ولَمَّا سُئِل النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: "أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياءُ" [2409]؛ فقد خَصَّ اللهُ أنبياءَه بذلك بحسَبِ ما خصَّهم به من قوَّةِ العَزمِ والصَّبرِ والاحتسابِ؛ ليَتِمَّ لهم الخيرُ، ويَعظُمَ لهم به الأجرُ.[2410]

- **نَبيُّ اللهِ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ:**

قال اللهُ تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: 124].

„فلَمَّا اغتَبَطَ إبراهيمُ بهذا المَقامِ وأدرَك هذا، طَلَب ذلك لذُرِّيَّتِه؛ لتَعلوَ دَرَجَتُه ودَرَجةُ ذُرِّيَّتِه، وهذا أيضًا مِن إمامَتِه ونُصحِه لعِبادِ اللَّهِ، ومَحَبَّتِه أن يَكثُرَ فيهمُ المُرشِدونَ، فللَّهِ عَظَمةُ هذه الهمَمِ العاليةِ، والمَقاماتِ السَّاميةِ! ".[2411]

- **نبيُّ اللهِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ:**

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [الكهف: 60].

(يخبِرُ تعالى عن نبيِّه موسى عليه السَّلامُ، وشِدَّةِ رغبتِه في الخيرِ وطَلَبِ العِلمِ، أنَّه قال لخادِمِه: لا أزالُ مُسافِرًا وإن طالت عليَّ الشُّقَّةُ، ولحِقَتْني المشقَّةُ، حتى أصِلَ إلى مجمَعِ البحرينِ، وهو المكانُ الذي أوحيَ إليه أنَّك ستجِدُ فيه عبدًا من عبادِ اللهِ العالِمين، عندَه من العِلمِ ما ليس عندَك أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا أي: مسافةً طويلةً، وهذا عزمٌ منه جازمٌ؛ فلذلك أمضاه)[2412]، ولم

[2406] الفوائد لابن القيم ص: 51

[2407] موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين 5/ 1/ 161

[2408] المعجم الوسيط 599/2

[2409] أخرجه الترمذي 2398، وابن ماجه 4023، وأحمد 1555 من حديثِ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه .صحَّحه الترمذي، وابن باز في مجموع الفتاوى7/146 ، والألباني في صحيح سنن الترمذي 2398، وشعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود 7/5، وحسَّنه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين 377

[2410] إكمال المعلم للقاضي عياض 8/ 40، 41

[2411] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص: 65

[2412] المصدر السابق، ص: 480، 481

يمنَعْه من الاستمرارِ في رحلتِه قولُه: {لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} أي: تعَبًا، وكذلك لم يَثْنِ عَزمَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّهم أخطؤوا الطَّريقَ {قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} [الكهف: 64-66].

وسَبَبُ رِحلةِ نبيِّ اللهِ موسى لطَلَبِ العلمِ عندما جاءه رجُلٌ في ملأٍ من بني إسرائيلَ "فقال: هل تعلَمُ أحَدًا أعلَمَ منك؟ قال موسى: لا، فأوحى اللهُ عزَّ وجَلَّ إلى موسى: بلى، عَبدُنا خَضِرٌ، فسأل موسى السَّبيلَ إليه، فجَعَل اللهُ له الحوتَ آيةً، وقيل له: إذا فقَدْتَ الحوتَ فارجِعْ؛ فإنَّك ستَلْقاه".[2413]

قال ابنُ القَيِّمِ: „إنَّ اللَّهَ سُبحانَه أخبَرَنا عن صَفيِّه وكَليمِه الذي كتَبَ له التَّوراةَ بيدِه وكلَّمَه منه إليه أنَّه رَحَلَ إلى رَجُلٍ عالمٍ يتَعَلَّمُ منه ويزدادُ عِلمًا إلى عِلمِه، فقال: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [الكهف: 60]؛ حِرصًا مِنه على لقاءِ هذا العالِمِ وعلى التَّعَلُّمِ مِنه، فلَمَّا لَقِيَه سَلَكَ مَعَه مَسلَكَ المُتَعَلِّمِ مَعَ مُعَلِّمِه، وقال له: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} [الكهف: 66] فبَدَأه بَعدَ السَّلامِ بالاستِئذانِ على مُتابَعَتِه، وأنَّه لا يَتبَعُه إلَّا بإذنِه، وقال: عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا، فلم يجِئْ مُمتَحِنًا ولا مُتَعنِّتًا، وإنَّما جاءَ مُتَعَلِّمًا مُستَزيدًا عِلمًا إلى عِلمِه، وكفى بهذا فضلًا وشَرَفًا للعِلمِ! فإنَّ نَبيَّ اللَّهِ وكَليمَه سافرَ ورَحَلَ حتَّى لَقيَ النَّصبَ مِن سَفرِه في تَعَلُّمِ ثَلاثِ مَسائِلَ مِن رَجُلٍ عالمٍ، ولَمَّا سَمِعَ به لم يَقَرَّ له قَرارٌ حتَّى لَقِيَه وطَلَبَ مِنه مُتابَعَتَه وتَعليمَه".[2414]

ب. العزم والعزيمة عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

• في تبليغِ الرِّسالةِ:

لقد لَقِيَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سبيلِ تبليغِه للرِّسالةِ أشَدَّ الأذى والمِحَنِ، فصَبَر، مع عزمٍ لا يَلينُ، ممتثلًا لأمرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ له: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُسُلِ} [الأحقاف: 35]، وقد تجلَّت عزيمةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مثابرتِه وجهادِه ودعوتِه إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ.

قال ابنُ جريرٍ الطَّبريُّ: „يقولُ تعالى ذِكرُه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مثَبِّتَه على المضِيِّ لمَا قَلَّده من عِبءِ الرِّسالةِ، وثِقَلِ أحمالِ النُّبُوَّةِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وآمِرَه بالائتساءِ في العَزمِ على النُّفوذِ لذلك بأولي العَزمِ مِن قَبلِه من رُسُلِه الذين صبَروا على عظيمِ ما لَقُوا فيه من قومِهم من المكارِهِ، ونالهم فيه منهم من الأذى والشَّدائِدِ".[2415]

وقال ابنُ عجيبةَ: „فإنَّك من جملتِهم، بل من أكمَلِهم وأفضَلِهم".[2416]

والنَّماذِجُ في تحمُّلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مشاقَّ الدَّعوةِ، وقُوَّةِ عزيمتِه كثيرةٌ، ومن ذلك: ما رواه البراءُ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "رأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الخَندَقِ وهو ينقُلُ التُّرابَ حتَّى وارى التُّرابُ شَعرَ صَدْرِه، وكان رجلًا كثيرَ الشَّعرِ، وهو يرتجِزُ برَجَزِ عبدِ اللهِ:

واللهِ لولا اللهُ ما اهتدَينا

ولا تصدَّقْنا ولا صَلَّينا

[2413] رواه مطوَّلًا البخاري 74 واللفظ له، ومسلم 2380 من حديثِ أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[2414] مفتاح دار السعادة لابن القيم 55 /1

[2415] جامع البيان لابن جرير الطبري 21/ 176

[2416] تفسير البحر المديد 49/6

فأنزِلَنْ سكينةً علينا
وثَبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقَينا
إنَّ الأُلى قد بَغَوا علينا
إذا أرادوا فِتنةً أَبَينا".[2417]

فيه: تحريضٌ وتنشيطٌ وإثارةُ النِّيَّةِ، والعَزمُ على العَمَلِ والطَّاعةِ.[2418]

وقال البخاريُّ: „وشاور النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أصحابَه يومَ أحُدٍ في المُقامِ والخروجِ، فرَأَوا له الخروجَ، فلمَّا لَبِس لأُمَتَه وعزَم، قالوا: أقِمْ، فلم يَمِلْ إليهم بعد العَزمِ، وقال: لا ينبغي لنبيٍّ يلبَسُ لأمَتَه فيضَعَها حتَّى يحكُمَ اللهُ".[2419]

- **في الجِهادِ والشَّجاعةِ والإقدامِ:**

إنَّ „الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو الأُسوةُ الحَسَنةُ، والقُدوةُ الرَّائِعةُ في عُلوِّ الهمَّةِ والشَّجاعةِ والإقدامِ، وقد ثَبَتَ أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا حَمِيَ الوطيسُ[2420] في الحَربِ ، كان أكثَرَ النَّاسِ شَجاعةً، وأعظَمَهم إقدامًا، وأعلاهم همَّةً، وقد قادَ صَلَواتُ اللَّهِ عليه بنَفسِه خِلالَ عَشرِ سِنينَ سَبعًا وعِشرينَ غَزاةً، وكان يتَمَنَّى أن يقومَ بنَفسِه كُلَّ البُعوثِ التي بَعَثَها والسَّرايا التي سَيَّرَها، ولَكِنْ أقعَدَه عن ذلك أنَّه كان لا يجِدُ ما يُزَوِّدُ به جَميعَ أصحابِه للخُروجِ مَعَه في كُلِّ بَعثٍ، وكان أكثَرُهم لا تَطيبُ نَفسُه أن يقعُدَ ورَسولُ اللَّهِ قد خَرَجَ إلى الجِهادِ!

رَوى البُخاريّ ومُسلم عن أبي هُرَيرةَ قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "والذي نَفسي بيدِه، لَولا أنَّ رِجالًا مِنَ المُؤمِنينَ لا تَطيبُ أنفُسُهم أن يتَخَلَّفوا عنِّي، ولا أجِدُ ما أحمِلُهم عليه، ما تَخَلَّفتُ عن سَريَّةٍ تَغزو في سَبيلِ اللَّهِ، والذي نَفسي بيدِه لَوَدِدتُ أنِّي أُقتَلُ في سَبيلِ اللَّهِ ثُمَّ أحيا، ثُمَّ أُقتَلُ ثُمَّ أحيا، ثُمَّ أُقتَلُ ثُمَّ أحيا، ثُمَّ أُقتَلُ!" [2421]. فأيَّةُ همَّةٍ عاليةٍ أعلى مِن هذه الهمَّةِ النَّبَويَّةِ! ".[2422]

- **في العِبادةِ:**

كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القُدوةَ في الهمَّةِ العاليةِ في العِبادةِ؛ فعن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها: "أنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقومُ مِن اللَّيلِ حتى تتَفَطَّرَ قدَماه، فقالت عائِشةُ: لم تصنَع هذا يا رَسولَ اللهِ، وقد غَفَرَ اللهُ لك ما تقدَّمَ مِن ذَنبِك وما تأخَّرَ؟ قال: أفَلا أُحِبُّ أن أكونَ عَبدًا شَكورًا؟!".[2423]

- وعن عَبدِ اللَّهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: "صَلَّيتُ مَعَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأطالَ، حتَّى هَمَمتُ بأمرٍ سوءٍ، قال: قيلَ: وما هَمَمتَ به؟ قال: هَمَمتُ أن أجلِسَ وأدَعَه!".[2424]

ت. علو الهمة عند الصحابة رضي الله عنهم:

[2417] أخرجه البخاري 3034 واللفظ له، ومسلم 1803

[2418] شرح البخاري لابن بطال 47 /5

[2419] صحيح البخاري 138 /9

[2420] الوَطِيسُ: التَّنُّورُ وهو كنايةٌ عن شِدَّةِ الأمرِ واضْطِرامِ الحَرْبِ. يُنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 1/447

[2421] أخرجه البخاري 2797 واللفظ له، ومسلم 1876

[2422] يُنظر: الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن الميداني 2/480

[2423] أخرجه البخاري 4837 واللفظ له، ومسلم 2820

[2424] أخرجه البخاري1135 ، ومسلم 773 واللفظ له

1- عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "كان أوَّلَ من أظهَرَ إسلامَه سَبعةٌ: رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأبو بكرٍ، وعَمَّارٌ، وأُمُّه سُمَيَّةُ، وصُهَيبٌ، وبلالٌ، والمِقدادُ؛ فأمَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فمنَعَه اللهُ بعَمِّه أبي طالبٍ، وأمَّا أبو بكرٍ فمَنَعه اللهُ بقومِه، وأمَّا سائِرُهم فأخذَهم المُشرِكون، وألبسوهم أدراعَ الحديدِ، وصَهَروهم في الشَّمسِ، فما منهم من أحدٍ إلَّا وقد واتاهم[2425] على ما أرادوا، إلَّا بلالًا؛ فإنَّه قد هانت عليه نفسُه في اللهِ، وهان على قومِه؛ فأخَذوه فأعطَوه الوِلدانَ فجَعلوا يطوفون به في شِعابِ مكَّةَ، وهو يقولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ".[2426]

قال السُّيوطيُّ: "قد وافقوا المُشرِكين على ما أرادوا منهم تَقِيَّةً، والتَّقيَّةُ في مِثلِ هذه الحالِ جائزةٌ؛ لقَولِه تعالى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} [النحل: 106]، والصَّبرُ على أذاهم مُستحَبٌّ، وقد عَمِلوا على الرُّخصةِ، وعَمِلَ بلالٌ على العَزيمةِ".[2427]

قال ابنُ الجوزيِّ: "ولولا جِدُّ أنَسِ بنِ النَّضرِ في تركِ هَواه، وقد سمِعْتَ مِن أثَرِ عَزمتِه: لَئِنْ أشهَدَني اللهُ مَشهدًا ليَرَينَّ اللهُ ما أصنعُ، فأقبَلَ يومَ أحُدٍ يقاتِلُ حتَّى قُتِل، فلم يُعرَفْ إلَّا ببَنانِه[2428]، فلولا هذا العَزمُ ما كان انبساطُ وجهِه يومَ حَلَف: واللهِ لا تُكسَرُ سِنُّ الرُّبيِّعِ".[2429،2430]

2- عن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "أمرني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن أتعلَّمَ له كتابَ يهودَ، قال: إنِّي واللهِ ما آمَنُ يهودَ على كتابٍ. قال: فما مرَّ بي نصفُ شَهرٍ حتى تعلَّمْتُه له، قال: فلمَّا تعلَّمْتُه كان إذا كتَب إلى يهودَ كَتَبتُ إليهم، وإذا كتَبوا إليه قرأتُ له كتابَهم".[2431]

3- قال أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: "لمَّا تُوُفِّيَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واستُخلِف أبو بكرٍ، وكَفَر من كَفَر من العَرَبِ، قال عُمَرُ: يا أبا بكرٍ، كيف تقاتِلُ النَّاسَ، وقد قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أُمِرْتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتَّى يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فمَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقد عَصَم منِّي مالَه ونَفْسَه إلَّا بحَقِّه، وحِسابُه على اللهِ، قال أبو بكرٍ: واللهِ لأقاتِلَنَّ من فَرَّق بين الصَّلاةِ والزَّكاةِ؛ فإنَّ الزَّكاةَ حَقُّ المالِ، واللهِ لو منَعوني عَناقًا كانوا يُؤَدُّونها إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لقاتَلْتُهم على مَنْعِها، قال عُمَرُ: فواللهِ ما هو إلَّا أن رأيتُ أنْ قد شرَحَ اللهُ صَدْرَ أبي بكرٍ للقِتالِ، فعَرَفْتُ أنَّه الحَقُّ".[2432]

4- قال زيدُ بنُ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنه: "أرسل إليَّ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ مَقْتَلَ أهلِ اليَمامةِ، فإذا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ عِندَه، قال أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: إنَّ عُمَرَ أتاني فقال: إنَّ القَتلَ قد استحَرَّ يومَ اليمامةِ بقُرَّاءِ القُرآنِ، وإنِّي أخشى أن يَستحِرَّ القَتلُ بالقُرَّاءِ بالمواطِنِ، فيذهَبَ كثيرٌ من القُرآنِ، وإنِّي أرى أن تأمُرَ بجَمعِ القُرآنِ. قُلتُ لعُمَرَ: كيف نفعَلُ شيئًا لم يفعَلْه رَسولُ اللهِ صلَّى

[2425] واتاهم: يقالُ: واتاه على الأمرِ: طاوَعَه، والمُواتاة: حُسنُ المطاوعةِ. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 588/2

[2426] رواه ابنُ ماجه 150 واللفظ له، وأحمد 3832 صحَّحه ابن حبان 7083، والذهبي في تاريخ الإسلام 1/217، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه 150، والوادعي في الصحيح المسند 863، وصحَّح إسناده الحاكم في المستدرك 5238، وأحمد شاكر في تخريج مسند أحمد 319/5، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 3832

[2427] شرح سنن ابن ماجه 14/1

[2428] أخرجه البخاري 2805 ومسلم 1903 من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه

[2429] ما أخرجه البخاري 2703 ومسلم 1675 من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه

[2430] صيد الخاطر ص: 139

[2431] رواه البخاريُّ مُعلَّقًا بصيغة الجزم7195 ، ورواه موصولًا أبو داود 3645، والترمذي 2715 واللفظ له .صحَّحه الترمذي، والحاكم في المستدرك 252، والألباني في صحيح سنن أبي داود 3645، وشعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود .3645

[2432] أخرجه البخاري6924 ، 6925، ومسلم 20 واللفظ له.

اللهُ عليه وسلَّم؟ قال عُمَرُ: هذا -واللهِ- خيرٌ، فلم يَزَلْ عُمَرُ يراجِعُني حتى شرح اللهُ صدري لذلك، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عُمَرُ. قال زيدٌ: قال أبو بكرٍ: إنَّك رجلٌ شابٌّ عاقِلٌ لا نتَّهِمُك، وقد كنتَ تكتُبُ الوَحيَ لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَتَبَّعِ القُرآنَ فاجمَعْه، فواللهِ لو كلَّفوني نَقلَ جَبَلٍ مِن الجِبالِ ما كان أثقَلَ عَلَيَّ ممَّا أمرني به في جمعِ القُرْآنِ! قُلتُ: كيف تفعلونَ شيئًا لم يفعَلْه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قال: هو -واللهِ- خيرٌ، فلم يَزَلْ أبو بَكرٍ يراجِعُني حتى شرح اللهُ صدري لِلذي شرح له صدرَ أبي بكرٍ وعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، فقُمتُ فتتَبَعْتُ القرآنَ أجمَعُه من العُسُبِ واللِّخافِ وصُدورِ الرِّجالِ".[2433]

5- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما قال: „لَمَّا قُبِض رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قُلتُ لرجُلٍ من الأنصارِ: هَلُمَّ فلْنَسأَلْ أصحابَ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّهم اليومَ كثيرٌ، فقال: واعَجَبًا لك يا ابنَ عبَّاسٍ! أترى النَّاسَ يفتَقِرون إليك وفي النَّاسِ مِن أصحابِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن فيهم؟! قال: فتركتُ ذاك وأقبلتُ أسألُ أصحابَ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإن كان يبلُغُني الحديثُ عن الرَّجُلِ فآتي بابَه وهو قائِلٌ فأتوسَّدُ ردائي على بابِه يَسفي الرِّيحُ عَلَيَّ من التُّرابِ، فيخرُجُ فيراني فيقولُ: يا ابنَ عَمِّ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما جاءَ بك؟ هلَّا أرسَلْتَ إليَّ فآتيَك؟ فأقول: لا، أنا أحَقُّ أن آتيَك، قال: فأسألُه عن الحديثِ، فعاش هذا الرَّجُلُ الأنصاريُّ حتَّى رآني وقد اجتمع النَّاسُ حولي يسألوني، فيقولُ: هذا الفتى كان أعقَلَ مِنِّي".[2434]

ج. علو الهمة عِندَ السَّلَفِ رَضِيَ اللهُ عنهم:

1-كان الأسوَدُ بنُ يَزيدَ النَّخعيُّ إذا فاتته الجماعةُ في مسجِدِ قَومِه، عَلَّق النَّعلينِ بيَدَيه وتتبَّعَ المساجِدَ حتَّى يصيبَ جماعةً.[2435]

2- قال حمَّادُ بنُ زَيدٍ: „كان ليثُ بنُ أبي سليمٍ إذا فاتته الصَّلاةُ في مسجِدِ حَيِّه اكترى حمارًا، فطاف عليه المساجِدَ، حتى يُدرِكَ الجماعةَ".[2436]

3- قال محمَّدُ بنُ مِسعَرِ بنِ كِدامٍ: „كان أبي لا ينامُ حتَّى يقرأَ نِصفَ القرآنِ، فإذا فرَغ من وِرْدِه لفَّ ردائَه، ثمَّ هجَع عليه هَجعةً خفيفةً، ثمَّ يَثِبُ كالرَّجُلِ الذي قد ضَلَّ منه شيءٌ فهو يطلُبُه! فإنَّما هو السِّواكُ والطَّهورُ، ثمَّ يستقبِلُ المحرابَ، فكذلك إلى الفَجرِ، وكان يجهَدُ على إخفاءِ ذلك جِدًّا".[2437]

4- عن يزيدَ بنِ يحيى قال: „مَرَّ شَريكٌ القاضي بالمُستَنيرِ بنِ عَمرٍو النَّخعيِّ، فجَلَس إليه فقال: يا أبا عَبدِ اللَّهِ، مَن أدَّبَك؟ قال: أدَّبَتني نَفسي واللَّهِ، وُلِدتُ ببُخارى مِن أرضِ خُراسانَ، فحَمَلَني ابنُ عَمٍّ لَنا حتَّى طَرَحَني عِندَ بَني عَمٍّ لي بنَهرِ صَرصَرٍ،

[2433] أخرجه البخاري 4986

[2434] أخرجه الدارمي 570، والطبراني 10592 10/300، والحاكم 363 واللفظ له. صححه الحاكم على شرط البخاري، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج سير أعلام النبلاء3/343 ، ووثَّق رجالَه البوصيريُّ في إتحاف الخيرة المهرة 1/212، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 280/9: رجالُه رجالُ الصَّحيحِ. ورُوِيَ بلفظ: عن أبي سَلَمةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: وجدتُ عامَّةَ عِلمِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ هذا الحيِّ من الأنصارِ فإن كنتُ لآتي بابَ أحَدِهم فأقيلُ بابَه، ولو شئتُ أن يؤذَنَ لي عليه لآذَنَ لي بقرابتي من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولكني كنتُ أبتغي بذلك طِيبَ نَفسِه/ رواه زهير في العلم 133، والفسوي في المعرفة والتاريخ 540/1، والبيهقي في المدخل إلى السنن 674واللفظ له وجوَّد إسناده الألباني في العلم 133

[2435] أخرجه أبو الشيخ في كتاب الترهيب كما في تغليق التعليق لابن حجر 2/276 وهو في صحيح البخاري 1 131 /معلَّقًا بصيغةِ الجزمِ بنَحوِه مختَصَرًا .وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 2/ 21 5990 بسَنَدِه عن حذيفةَ لا الأسوَدِ .

[2436] الجعديات لأبي القاسم البغوي ص107 رقم 616

[2437] التهجد وقيام الليل لابن أبي الدنيا 2/ 71 رقم 169

فكُنتُ أجلسُ إلى مُعَلِّمٍ لهم، فعَلقَ بقَلبي تعَلُّمُ القُرآنِ، فجِئتُ إلى شَيخِهم فقُلتُ: يا عَمَّاه، الذي كُنتَ تُجري عليَّ هاهنا أجْرِهِ عليَّ بالكوفةِ، أعرِفُ بها السُّنَّةَ والجَماعةَ وقَومي، ففعَلَ، قال: فكُنتُ بالكوفةِ أضرِبُ اللَّبِنَ وأبيعُه، فأشتَري دَفاتِرَ وطُروسًا، فأكتُبُ فيها العِلمَ والحَديثَ ثُمَّ طَلَبتُ الفِقهَ، فبلغتُ ما ترى. فقال المُستَنيرُ بنُ عَمرٍو لولَدِه: قد سَمِعتُم قَولَ ابنِ عَمِّكم، وقد أكثَرتُ عليكم في الأدبِ، فلا أراكم تُفلِحونَ فيه، فليُؤَدِّبْ كُلُّ رَجُلٍ نَفسَه، ثُمَّ من أحسَنَ فلها، ومَن أساءَ فعليها".[2438]

د. العزمُ والعَزيمَةُ وَعُلُوُّ الهِمَّةِ عِندَ العُلَماءِ المتقَدِّمين والمتأخِّرين:

1- لأبي الوفاءِ بنِ عقيلٍ كِتابُ (الفُنونِ)، قال أبو حَفصٍ القَزوينيُّ: "سَمِعتُ بعضَ مشايخِنا يقولُ: هو ثمانِمائةِ مُجلَّدةٍ!"، يقولُ أبو الوفاءِ عن نفسِه: "ما خالَطْتُ لعَّابًا قطُّ، ولا عاشَرْتُ إلَّا أمثالي من طَلَبةِ العِلمِ، وأنا في عَشرِ الثَّمانينَ، أجِدُ من الحرصِ على العِلمِ أشَدَّ ممَّا كنتُ أجِدُه وأنا ابنُ عِشرين!".[2439]

2- قال ابنُ عَقيلٍ: "إنِّي لا يحِلُّ لي أن أُضَيِّعَ ساعةً مِن عُمري، حتَّى إذا تعَطَّل لساني عن مُذاكرةٍ ومُناظَرةٍ، وبَصري عن مُطالعةٍ، أُعمِلُ فِكري في حالِ راحتي وأنا مُستَطرِحٌ، فلا أنهَضُ إلَّا وقد خَطَرَ لي ما أسطُرُه، وإنِّي لأجِدُ مِن حِرصي على العِلمِ وأنا في عَشرِ الثَّمانينَ أشَدَّ مِمَّا كُنتُ أجِدُه وأنا ابنُ عِشرينَ!".[2440]
وقال أيضًا: „أنا أُقصِّرُ بغايةِ جُهدي أوقاتِ أكلي، حتَّى أختارَ سَفَّ الكَعكِ وتَحَسِّيه بالماءِ على الخُبزِ؛ لأجلِ ما بَينَهما مِن تفاوُتِ المَضغِ؛ توفُّرًا على مُطالَعةٍ، أو تسطيرِ فائِدةٍ لم أدرِكْها".[2441]

3- ويصِفُ ابنُ الجَوزيِّ عُلوَّ هِمَّتِه في طَلَبِ العِلمِ وهو يُخاطِبُ ابنَه، فيقولُ: "وانظُرْ يا بُنَيَّ إلى نَفسِك عِندَ الحُدودِ، فتَلَمَّحْ كيف حَفِظُك لها؟ فإنَّه مَن راعى رُوعِيَ، ومَن أهمَلَ تُرِك... فإنِّي أذكُرُ نَفسي ولي همَّةٌ عاليةٌ، وأنا في المكتَبِ ولي نَحوٌ مِن سِتِّ سِنينَ، وأنا قَرينُ الصِّبيانِ الكِبارِ قد رُزِقتُ عَقلًا وافِرًا في الصِّغَرِ يزيدُ على عَقلِ الشُّيوخِ، فما أذكُرُ أنِّي لَعِبتُ في طَريقٍ مَعَ صَبيٍّ قَطُّ، ولا ضَحِكتُ ضَحِكًا جارِحًا، حتَّى إنِّي كُنتُ ولي سَبعُ سِنينَ أو نَحوُها أحضُرُ رَحبةَ الجامِعِ، ولا أتَخَيَّرُ حَلقةَ مُشَعبِذٍ، بل أطلُبُ المُحَدِّثَ، فيتَحَدَّثُ بالسَّنَدِ الطَّويلِ، فأحفظُ جَميعَ ما أسمَعُ، وأرجِعُ إلى البَيتِ فأكتُبُه.
ولقد وُفِّقَ لي شَيخُنا أبو الفَضلِ ابنُ ناصِرٍ رَحِمَه اللَّهُ، فكان يحمِلُني إلى الأشياخِ، وأسمَعَني "المُسنَدَ" وغَيرَه مِنَ الكُتُبِ الكِبارِ، وأنا لا أعلَمُ ما يُرادُ مِنِّي، وضَبط لي مسموعاتي إلى أن بَلَغتُ، فناولَني ثَبَتَها، ولازَمتُه إلى أن توفِّيَ رَحِمَه اللَّهُ، فأدرَكتُ به مَعرِفةَ الحَديثِ والنَّقلِ.
ولقد كان الصِّبيانُ ينزِلونَ دِجلةَ، ويتفَرَّجونَ على الجِسرِ، وأنا في زَمَنِ الصِّغَرِ آخُذُ جُزءًا، وأقعُدُ حُجزةً مِنَ النَّاسِ إلى جانِبِ الرَّقَّةِ فأتَشاغَلُ بالعِلمِ".[2442]
ثُمَّ قال: "ولَم أقنَعْ بفنٍّ واحِدٍ مِنَ العِلمِ، بَل كُنتُ أسمَعُ الفِقهَ والوَعظَ والحَديثَ، وأتبَعُ الزُّهَّادَ، ثُمَّ قَرَأتُ اللُّغةَ ولَم أترُكْ أحَدًا مِمَّن قدِ انزَوى أو يعِظُ، ولا غَريبًا يَقدَمُ إلَّا وأحضُرُه وأتَخَيَّرُ الفضائِلَ... ولقد كُنتُ أدورُ على المَشايخِ لسَماعِ الحَديثِ، فينقَطِعُ نَفَسي مِنَ العَدوِ لئَلَّا أُسبَقَ، وكُنتُ أُصبِحُ وليس لي ما آكُلُ، وأُمسي وليس لي شَيءٌ! وما أذَلَّني اللَّهُ لمَخلوقٍ، ولَكِنَّه ساقَ رِزقي لصيانةِ عِرضي، ولو شَرَحتُ أحوالي لَطالَ الشَّرحُ".[2443]

[2438] أخرجه وكيع في أخبار القضاة 150/3، والخطيب في تاريخ بغداد 9/280
[2439] ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي 1/ 322
[2440] المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي 17/ 181
[2441] ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي 1/ 325
[2442] لفتة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي ص10
[2443] لفتة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي - بتصرف ص 11

4- وكان النَّوويُّ عاليَ الهمَّةِ في طَلَبِ العِلمِ مُنذُ صِغَرِه، فقد ذَكَر ابنُ داوُدَ العَطَّارُ عن ياسينَ بنِ يوسُفَ المراكشيّ قال: „رَأيتُ الشَّيخَ مُحيي الدِّينِ وهو ابنُ عَشرِ سِنينَ بنَوى، والصِّبيانُ يُكرِهونَه على اللَّعِبِ مَعَهم، وهو يهرُبُ مِنهم ويبكي لإكراهِهم، ويقرَأُ القُرآنَ في هذه الحالةِ، فوقَعَ في قَلبي مَحَبَّتُه، وجَعله أبوه في دُكَّانٍ، فجَعل لا يشتَغِلُ بالبَيعِ والشِّراءِ عنِ القُرآنِ، قال: فأتَيتُ الذي يُقرِئُه القُرآنَ، فوصَّيتُه به، وقُلتُ له: هذا الصَّبيُّ يُرجى أن يكونَ أعلَمَ أهلِ زَمانِه وأزهَدَهم، وينتَفِعُ النَّاسُ به، فقال لي: أمُنَجِّمٌ أنتَ؟! فقُلتُ: لا، وإنَّما أنطَقَني اللَّه بذلك، فذَكَر ذلك لوالدِه، فحَرَص عليه، إلى أن خَتَمَ القُرآنَ وقد ناهَزَ الاحتِلامَ".[2444]

قال ابنُ العَطَّارِ في ترجمةِ النَّوَويّ: „وذَكَر لي -رحمه اللهُ- أنَّه كان لا يُضِيعُ له وقتًا في ليلٍ ولا نهارٍ إلَّا في وظيفةٍ من الاشتغالِ بالعِلمِ، حتَّى في ذَهابِه في الطُّرُقِ ومجيئِه يشتَغِلُ في تكرارِ مَحفوظِه، أو مُطالَعةٍ، وأنَّه بَقِيَ على التَّحصيلِ على هذا الوَجهِ نحوَ سِتِّ سِنينَ. ثمَّ إنَّه اشتغل بالتَّصنيفِ، والإشغالِ والإفادةِ، والمناصَحةِ للمُسلِمين ووُلاتِهم، مع ما هو عليه من المجاهَدةِ لنَفسِه، والعَمَلِ بدَقائِقِ الفِقهِ".[2445]

وقال أيضًا: „وذَكَر لي الشَّيخُ قال: "كُنتُ أقرأُ كُلَّ يومٍ اثني عَشَرَ دَرسًا على المشايخِ؛ شَرحًا وتصحيحًا: درسينِ في "الوسيطِ"، ودرسًا في "المهَذَّبِ"، ودرسًا في "الجمعِ بَينَ الصَّحيحينِ"، ودرسًا في "صحيحِ مُسلِمٍ"، ودرسًا في "اللُّمَعِ" لابنِ جِنِّي في النَّحوِ، ودرسًا في "إصلاحِ المَنطِقِ" لابنِ السِّكِّيتِ في اللُّغةِ، ودروسًا في التَّصريفِ، ودرسًا في أصولِ الفِقهِ؛ تارةً في "اللُّمَعِ" لأبي إسحاقَ، وتارةً في "المُنتَخَبِ" لفَخرِ الدِّينِ الرَّازيّ، ودرسًا في أسماءِ الرِّجالِ، ودرسًا في أصولِ الدِّينِ"، قال: "وكنتُ أُعَلِّقُ جميعَ ما يتعَلَّقُ بها؛ من شَرحِ مُشكِلٍ، ووضوحِ عِبارةٍ، وضَبطِ لُغةٍ". قال: "وبارك اللهُ لي في وقتي، واشتِغالي، وأعانني علي".[2446]

المطلب الخامس: أقسامُ الهِمَّةِ

الهِمَّةُ قِسمانِ: وَهبيَّةٌ، وكَسبيَّةٌ...

فالوَهبيَّةُ هي ما وهَبَه اللَّهُ تعالى للعَبدِ مِن عُلوِّ الهمَّةِ أو سُفولِها، ويُمكِنُ أن تُنَمَّى وتُرعى أو تُهمَلَ وتُترَكَ، فإن نَمَّاها صاحِبُها وعلا بها صارَت كَسبيَّةً، أي: أنَّ صاحِبَ الهمَّةِ كَسَبَ دَرَجاتٍ عاليةً لهمَّتِه، وزاد من أصلِ مِقدارِها الذي وهَبَه اللَّهُ تعالى إيَّاه، وإن تَرَكها وأهمَلها ولم يلتَفِتْ إليها خَبَتْ وتَضاءَلَت.[2447]

المطلب السادس: فوائدُ قوة العَزمِ والعَزيمةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ

1- من وسائِلِ تهذيبِ النَّفسِ، وتحصيلِ الأخلاقِ الفاضلةِ:

قال ابنُ قُدامةَ: „وأشَدُّ حاجةِ الرَّائِضِ لنَفسِه قوَّةُ العَزمِ؛ فمتى كان متردِّدًا بَعُدَ فلاحُه، ومتى أحسَّ من نفسِه ضَعفَ العَزمِ تصبَّرَ، فإذا نقَصَت عزيمتُها عاقَبَها لئلَّا تعودَ"[2448].

ومن صفاتِ المُؤمِنِ القويّ قُوَّةُ العَزمِ على الأمرِ.

2- تُعينُ على تحقيقِ التَّقوى:

[2444] تحفة الطالبين لابن العطار ص: 44، 45، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي 8/396-397

[2445] تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين ص: 64

[2446] تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين ص: 49، 50

[2447] يُنظر: الهمة طريق إلى القمة لمُحَمَّد الشَّريف ص: 16

[2448] مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص: 201

وذلك بحَملِ النَّفسِ على فِعلِ المأموراتِ وتَركِ المنهيَّاتِ، وهذه هي حقيقةُ التَّقوى؛ قال تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران: 186].

3- من وسائِلِ التَّخلُّصِ من تلبيسِ الشَّيطانِ ووَسوستِه:

لأنَّه إذا كانت مُهمَّةُ الشَّيطانِ هي الوَسوسةَ، ومَقصَدُه منها „التَّشكيكُ والذَّبذَبةُ والتَّردُّدُ، فإنَّ عموماتِ التَّكليفِ تُلزِمُ المُسلِمَ بالعَزمِ واليقينِ والمضيِّ دونَ تردُّدٍ، كما في قولِه تعالى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159]، وامتَدَح بعضَ الرُّسُلِ بالعَزمِ، وأمرَ بالاقتداءِ بهم {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: 35] ... فمِن هذا كُلِّه كانت دوافِعُ العَزيمةِ مُستقاةً من التَّكاليفِ؛ ممَّا يقضي على نوازعِ الشَّكِّ والتَّردُّدِ، ولم يَبْقَ في قَلبِ المُؤمِنِ مجالٌ لشَكٍّ ولا مَحَلٌّ لوَسوَسةٍ".[2449]

4- من علاماتِ التَّوفيقِ:

قال ابنُ القَيِّمِ: „الدِّينُ مدارُه على أصلينِ: العَزمِ، والثَّباتِ. وأصلُ الشُّكرِ: صِحَّةُ العَزيمةِ، وأصلُ الصَّبرِ قُوَّةُ الثَّباتِ، فمتى أُيِّد العبدُ بعزيمةٍ وثباتٍ فقد أُيِّد بالمعونةِ والتَّوفيقِ".

5- تُحَصِّلُ للمرءِ كُلَّ مَقامٍ شَريفٍ ومنزلةٍ رفيعةٍ:

قال ابنُ القَيِّمِ: „فإنَّ كمالَ العبدِ بالعَزيمةِ والثَّباتِ، فمَن لم يكُنْ له عزيمةٌ فهو ناقصٌ، ومَن كانت له عزيمةٌ ولكِنْ لا ثباتَ له عليها فهو ناقِصٌ، فإذا انضمَّ الثَّباتُ إلى العَزيمةِ أثمر كُلَّ مقامٍ شريفٍ وحالٍ كاملٍ، ومعلومٌ أنَّ شجَرةَ الثَّباتِ والعَزيمةِ لا تقومُ إلَّا على ساقِ الصَّبرِ".

6- **الامتثالُ لأمرِ اللهِ تعالى** بالاقتداءِ بالأنبياءِ والرُّسُلِ؛ قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: 90]، ومن ذلك الاقتداءُ بهم في قوَّةِ العَزمِ.

7- **الثَّباتُ والجَلَدُ.**

8- **صَاحِبُهَا أَكثَرُ النَّاسِ صَبرًا على البلاءِ.**

9- **حصولُ خَيرَيِ الدُّنيا والآخِرةِ.**

10- **تحقيقُ المعالي**؛ قال الشَّاعرُ[2450]:

فلا تحسَبوا أنَّ المعالي رخيصةٌ
ولا أنَّ إدراكَ العُلا هَيِّنٌ سَهلُ
فما كُلُّ من يسعى إلى المجدِ مُدرِكًا
ولا كُلُّ من يهوى العُلا نفسُه تعلو

[2449] تكملة أضواء البيان لعطية سالم 9/189

[2450] ديوان ابن أبي حصينة ص: 177

11- **إنجازُ الأعمالِ الضَّخمةِ الجليلةِ:** ذكَرَ عُبَيدُ اللهِ بنُ أحمدَ السمسارُ، وغيرُه: "أنَّ أبا جعفَرِ بنَ جريرٍ الطَّبَريَّ قال لأصحابِه: هل تَنْشَطون لتاريخِ العالَمِ من آدَمَ إلى وقتِنا، قالوا: كم قَدْرُه؟ فذكَر نحوَ ثلاثينَ ألفَ وَرَقةٍ، قالوا: هذا ممَّا تفنى الأعمارُ قَبلَ تمامِه، فقال: إنَّا للهِ! ماتت الهِمَمُ! فأملاه في نحوِ ثلاثةِ آلافِ وَرَقةٍ!".[2451]

المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ العَزمِ والعَزيمةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ

1- **الإصرارُ على الوُصولِ إلى الهدَفِ**؛ قال الشَّافعيُّ: "لم يكُنْ عِندَ أمِّي ما تعطيني أشتري به القراطيسَ، فكنتُ أنظُرُ إلى العَظمِ فآخُذُه فأكتُبُ فيه!".[2452]

2- **الأخذُ بالأسبابِ**؛ كان الشَّيخُ أبو عليٍّ يكشِفُ عن ظهرِه في اللَّيلةِ الباردةِ؛ يَطرُدُ به النَّومَ![2453].

3- **تَركُ الكَسَلِ وهَجرُ الرَّاحةِ**؛ قال محمَّدُ بنُ عليٍّ الكتَّانيُّ: „من طلَب الرَّاحةَ بالرَّاحةِ عَدِم الرَّاحةَ".[2454]

4- **هجرُ اللَّذَّاتِ**، وبَذلُ الغالي والنَّفيسِ.

5- **تحمُّلُ المشاقِّ والصَّبرُ على اللَّأواءِ**؛ قال ابنُ أبي حاتمٍ ورَّاقُ البُخاريِّ: „ورأيتُه استلقى على قفاه يومًا، ونحن بفِرَبْرَ في تصنيفِ كتابِ التَّفسيرِ، وكان قد أتعَبَ نفسَه في ذلك اليومِ في كَثرةِ إخراجِ الحديثِ، فقُلتُ له: يا أبا عبدِ اللهِ: سمِعتُك تقولُ يومًا: إنِّي ما أتيتُ شيئًا بغيرِ عِلمٍ قَطُّ منذُ عقَلْتُ، قلتُ: وأيُّ علمٍ في هذا الاستِلقاءِ؟ قال: أتعَبْنا أنفُسَنا في هذا اليومِ، وهذا ثَغْرٌ من الثُّغورِ، خَشِيتُ أن يحدُثَ حَدَثٌ من أمرِ العَدُوِّ، فأحببتُ أن أستريحَ، وآخُذَ أُهبةَ ذلك، فإنْ غافَصَنا العَدُوُّ كان بنا حَرَاكٌ!".[2455]

6- **البُكورُ في الطَّلَبِ**؛ قال أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ: "كنتُ رُبَّما أردتُ البُكورَ في الحديثِ، فتأخُذُ أمي بثيابي، وتقولُ: حتَّى يؤذِّنَ النَّاسُ، أو حتَّى يُصبِحوا، وكنتُ رُبَّما بكَّرْتُ إلى مجلِسِ أبي بَكرِ بنِ عَيَّاشٍ وغَيرِه".[2456]

7- **السَّهَرُ وقِلَّةُ النَّومِ**؛ حكى الرَّبيعُ عن فاطمةَ بنتِ الشَّافعيِّ أنَّها قالت: „أسرَجْتُ لأبي في ليلةٍ سبعينَ مَرَّةً!".[2457]

8- **أن يطلُبَ هَدَفَه طَلَبَ المرأةِ المُضِلَّةِ ولَدَها ليس لها غَيرُه.**[2458]

9-**أن يجاهِدَ نفسَه على تَركِ ما أمَرَ بتَركِه.**

المطلب الثامن: موانِعُ اكتِسابِ العَزمِ والعَزيمةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ

1- مَرَضُ القَلبِ وضَعفُ النَّفسِ وانهزامُها: إذا فقد القَلبُ عَزمَه خارت قوى الجَسَدِ مهما كان قويًّا؛ قال تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46].

وقال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: 37]، فإنَّ ضَعفَ العَزيمةِ من ضَعفِ حياةِ القَلبِ، وهي دليلٌ على حياتِه، وعلى مَرَضِه أو مَوتِه.

[2451] طبقات الشافعيين لابن كثير ص: 225

[2452] مناقب الشافعي للبيهقي 92 /1

[2453] الحث على طلب العلم لأبي هلال العسكري ص: 73

[2454] تاريخ بغداد للخطيب البغدادي 127 /4

[2455] تحفة الإخباري لابن ناصر الدين ص: 206

[2456] مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص: 31

[2457] الحث على طلب العلم لأبي هلال العسكري ص: 73

[2458] توالي التأنيس لابن حجر ص: 146

2- العَجزُ والكَسَلُ: فالعَجزُ والكَسَلُ (هما العائقانِ اللَّذان أكثَرَ الرَّسولُ من التَّعوُّذِ باللهِ سُبحانَه منهما[2459]، وقد يُعذَرُ العاجزُ لعَدَمِ قُدرتِه، بخلافِ الكَسولِ الذي يتثاقَلُ ويتراخى ممَّا ينبغي مع القدرةِ؛ قال تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: 46]).

وقال الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "احرِصْ على ما ينفَعُك، واستَعِنْ باللهِ ولا تَعجِزْ".[2460] وقيل: „آفةُ صِدقِ العَزمِ: العَجزُ".[2461]

وَيقُولُ مُصْطَفَى صَادِق الرَّافِعِيّ: "إذا لم تَزِد على الحياةِ شيئًا، تكنْ أنت زائدًا عليها".

3- التَّسويفُ والتَّمنِّي وتركُ الأخذِ بالأسبابِ: والتَّسويفُ والتَّمنِّي „هما صفةُ بليدِ الحِسِّ عديمِ المبالاةِ، الذي كلَّما همَّت نفسُه بخيرٍ وعَزَمت عليه، إمَّا يُعيقُها بـ (سوف) حتَّى يفجأَه الموتُ فَيَقُولَ {رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ} [المُنافِقون: 10]، وإمَّا يركَبُ بها بحرَ التَّمنِّي، وهو بحرٌ لا ساحِلَ له، يُدمِنُ ركوبَه مفاليسُ العالَمِ... وما أحسَنَ ما قال أبو تمَّامٍ: من كان مرعى عَزمِه وهمومِه.. روضَ الأماني لم يَزَلْ مَهزولَا.

وقال الحارِثُ بنُ قَيسٍ: „إذا همَمْتَ بخيرٍ فلا تؤخِّرْ"[2462]، وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: „التُّؤَدةُ في كُلِّ شيءٍ خَيرٌ إلَّا ما كان من أمرِ الآخِرةِ".[2463]

4- الخوفُ من الفَشَلِ: إنَّ الخوفَ الدَّائِمَ من الفَشَلِ، وتوقُّعَ انتقادِ الآخرينَ، من العوامِلِ المؤثِّرةِ في ضَعفِ عزيمةِ النَّفسِ، فالمطلوبُ هو أن تقاوِمَ الخوفَ، وتتأسَّى بأصحابِ العَزمِ الصَّادِقِ، الذين قال اللهُ تعالى عن عَزمِهم، وقوَّتِهم في مواجهةِ الحياةِ، وحُسنِ توكُّلِهم عليه سُبحانَه في تقويةِ عزائِمِهم على مواجَهةِ الصُّعوباتِ {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل عمران: 173-174].

واعلَمْ أنَّ عليك أن تسعى وتأخُذَ بالأسبابِ، وليس عليك تحصيلُ النَّتائجِ؛ قال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 23].

5- التَّردُّدُ وعَدَمُ وُضوحِ الأهدافِ: إنَّ الإسلامَ يَكرَهُ لك أن تكونَ متَرَدِّدًا في أمورِك، تحارُ في اختيارِ أصوَبِها وأسلَمِها، وتكثُرُ الهواجِسَ في رأسِك؛ فتخلُقُ أمامَك جوًّا من الرِّيبةِ والتَّوجُّسِ، فلا تدري كيف تفعَلُ، وتَضعُفُ قَبضتُك في الإمساكِ بما ينفَعُك، فيُفلِتُ منك، ثمَّ يذهَبُ سُدًى؛ ولهذا شَرَع لنا اللهُ سُبحانَه مشاورةَ أهلِ الرَّأيِ والخبرةِ من أهلِ الصَّلاحِ، وشرَع لنا الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الاستخارةَ؛ إعانةً للمرءِ على بلوغِ الصَّوابِ، وبعدَ المشاورةِ يكونُ التَّنفيذُ {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159].

[2459] عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ :اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من الهَمِّ والحَزَنِ، والعَجزِ والكَسَلِ/ أخرجه البخاري 6369 واللفظ له، ومسلم 1365

[2460] رواه مسلم 2664 مطوَّلًا من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه

[2461] معترك الأقران للسيوطي 426 /3

[2462] الزهد لوكيع ص521 رقم 259

[2463] الزهد لأحمد - رواية عبد اللهِ ص: 229 (625)

6- سوءُ الظَّنِّ باللهِ، واليأسُ، وفِقدانُ الأمَلِ، والنَّظرةُ التَّشاؤميَّةُ للحياةِ: إنَّ فِقدانَ الأمَلِ يُقعِدُ الإنسانَ عن طَلَبِ المعالي؛ ليأسِه وحُكمِه على المستقبَلِ بما يعيشُه من واقعٍ أليمٍ، وإنَّ „عَمَلَ الشَّيطانِ هو تشييعُ الماضي بالنَّحيبِ والإعوالِ، هو ما يُلقيه في النَّفسِ من أسًى وقنوطٍ على ما فات، إنَّ الرَّجُلَ لا يلتَفِتُ وراءه إلَّا بمقدارِ ما ينتَفِعُ به في حاضِرِه ومستقبَلِه، أمَّا الوقوفُ مع هزائمِ الأمسِ، واستعادةُ أحزانِها، والتَّعثُّرُ في عقابيلِها وتَكرارُ (لو) و(ليت): فليس ذلك من خُلُقِ المُسلِمِ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [آل عمران: 156].[2464]

7- قِلَّةُ الصَّبرِ، وعَدَمُ الثَّباتِ، واستطالةُ الطَّريقِ، واستعجالُ النَّتائجِ: قِلَّةُ الصَّبرِ وعَدَمُ الثَّباتِ تحرِمُ الإنسانَ من بلوغِ أيِّ هَدَفٍ، وتحقيقِ أيِّ كمالٍ.

8- الفُتورُ والغَفلةُ: الفُتورُ والغَفلةُ هما رأسُ البلاءِ، ومَكمَنُ الدَّاءِ، وإن كان „لا بدَّ من سِنةِ الغَفلةِ ورُقادِ الغَفلةِ، ولكِنْ كُنْ خَفيفَ النَّومِ"[2465]. فلا يعني ذلك تركَ الواجباتِ وفِعلَ المحرَّماتِ؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ لكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً [2466]، ولكُلِّ شِرَّةٍ فَترةً [2467]؛ فمَن كانت شِرَّتُه إلى سُنَّتي فقد أفلَح، ومن كانت فَترتُه إلى غيرِ ذلك فقد هَلَك"[2468]، ومن مظاهرِ ذلك:

1- تضييعُ الوَقتِ وعَدَمُ الإفادةِ منه، وتزجيتُه بما لا يعودُ بالنَّفعِ، وتقديمُ غَيرِ المهِمِّ على المهِمِّ، والشُّعورُ بالفراغِ الرُّوحيِّ والوَقتيِّ، وعَدَمُ البركةِ في الأوقاتِ، وعَدَمُ إنجازِ شَيءٍ من العَمَلِ مع طولِ الزَّمَنِ وَعَدَم احترام المواعيد.

2- عدمُ الاستعدادِ للالتِزامِ بشَيءٍ، والتَّهرُّبُ من كُلِّ عَمَلٍ جِدِّيٍّ.

3- الفَوضويَّةُ في العَمَلِ: فلا هَدَفَ مُحدَّدٌ، ولا عَمَلَ مُتقَنٌ، الأعمالُ ارتجاليَّةٌ، التَّنقُّلُ بَيْنَ الأعمالِ بغيرِ داعٍ.

4- خِداعُ النَّفسِ بالانشغالِ مع الفراغِ، وبالعَمَلِ وهي عاطِلةٌ، الانشغالُ بجُزئيَّاتٍ لا قيمةَ لها ولا أثَرَ يُذكَرُ، ليس لها أصلٌ في الكتابِ أو السُّنَّةِ، وإنَّما هي أعمالٌ تافهةٌ ومشاريعُ وهميَّةٌ لا تُسمِنُ ولا تُغني من جُوعٍ.

5- النَّقدُ لكُلِّ عَمَلٍ إيجابيٍّ؛ تنصُّلًا من المشاركةِ والعَمَلِ، وتضخيمُ الأخطاءِ والسَّلبيَّاتِ؛ تبريرًا لعَجزِه وفتورِه، تراه يبحَثُ عن المعاذيرِ، ويصطَنِعُ الأسبابَ؛ للتخلُّصِ والفِرارِ {وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [التوبة: 81].[2469]

9- كَثرةُ الذُّنوبِ والمَعاصي: إنَّ كَثرةَ المَعاصي أحَدُ أسبابِ انحِطاطِ الهمَّةِ وضَعفِ العَزيمةِ؛ إذ كيف ينطَلِقُ الإنسانُ إلى المَعالي وهو مُكبَّلٌ بالشَّهَواتِ، مُثْقَلٌ بالذُّنوبِ، مُنْهَكُ القوى بالمَعاصي؛ يقولُ ابنُ قَيِّمِ الجَوزيَّةِ: „فالذَّنبُ يحجُبُ الواصِلَ، ويقطَعُ

[2464] خلق المسلم لمحمد الغزالي ص: 89

[2465] علو الهمة لمحمد إسماعيل المقدم ص: 337

[2466] الشِّرَّةُ: النَّشاطُ والرَّغبةُ. النهاية في غريب الأثر 1/613

[2467] فَتْرة: فَتَر الشَّيءُ يَفتُرُ فُتورًا وفِتارًا: سَكَن بعد حِدَّةٍ، ولان بعد شِدَّةٍ. عمدة القاري للعيني 1/53

[2468] رواه أحمد 6958 واللفظ له، وابن خزيمة 2105، وابن حبان 11 من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما .صحَّحه ابنُ خزيمة وابنُ حِبَّان، وابن حجر في الأمالي المطلقة 20، والألباني في صحيح الجامع 2152، والوادعي على شرط الشيخين في الصحيح المسند 810

[2469] الفتور لناصر العمر ص: 19، 20

السَّائِرَ، ويُنَكِّسُ الطَّالبَ، والقَلبُ إنَّما يسيرُ إلى اللَّهِ بقوَّتِه، فإذا مَرِضَ بالذُّنوبِ ضَعُفت تلك القوَّةُ التي ستُسَيِّرُه، فإذا زالَت بالكُلِّيَّةِ انقَطَعَ عنِ اللَّهِ انقِطاعًا يبعُدُ تَدارُكُه، فاللَّهُ المُستعانُ.[2470]

10- مُجالَسةُ البَطَّالينَ والمُثَبِّطينَ: فـ (مَجالِسُ البَطَّالينَ والقاعِدينَ تُوهِنُ العَزائِمَ وتُضعِفُ الهِمَمَ بما يَعلقُ في القَلبِ مِن أقوالِهم مِنَ الشُّبَهِ، وما يحصُلُ بمُجالَستِهم مِن ضَياعٍ للوقتِ، وإشغالٍ بتوافِهِ الأُمورِ.. وكُلَّما أرَدتَ العَمَلَ ثبَّطَك وقال: أمامَك لَيلٌ طَويلٌ فارقُدْ!).[2471]

فينبَغي الحَذَرُ مِن مُجالَسة البَطَّالَين „فإنَّ طَبعَك يَسرِقُ مِنهم وأنت لا تَدري، وليس إعداءُ الجَليسِ جَليسَه بمَقالِه وفِعالِه فقَط، بل بالنَّظَرِ إليه، والنَّظَرُ في الصُّورِ يورِثُ في النُّفوسِ أخلاقًا مُناسِبةً لخُلُقِ المَنظورِ إليه، فإنَّ مَن دامَت رُؤيتُه للمَسرورِ سُرَّ، أو للمَحزونِ حَزِن... ومِن المُشاهَدِ أنَّ الماءَ والهَواءَ يفسُدانِ بمُجاوَرةِ الجيفةِ، فما الظَّنُّ بالنُّفوسِ البَشَريَّةِ التي مَوضِعُها لقَبولِ صُوَرِ الأشياءِ خَيرِها وشَرِّها؟[2472]

11- المَناهِجُ التَّربَويَّةُ والتَّعليميَّةُ الهَدَّامةُ: هذه المَناهِجُ التي تُثَبِّطُ الهِمَمَ وتَخنُقُ المَواهبَ، وتَكبتُ الطَّاقاتِ، وتُخَرِّبُ العُقولَ، وتُنشِئُ الخُنوعَ، وتَزرَعُ في الأجيالِ ازدِراءَ النَّفسِ، وتُعَمِّقُ فيها احتِقارَ الذَّاتِ والشُّعورَ بالدُّونيَّةِ.[2473]

المطلب التاسع: الوسائِلُ المُعينةُ على تقويةِ العَزمِ والعَزيمةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ

1- التَّوكُّلُ على اللهِ وحُسنُ الظَّنِّ به سُبحانَه في الوُصولِ إلى الهَدَفِ:

أرشَدَنا اللهُ سُبحانَه لهذا بقَولِه: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159]، وإنَّ من آثارِ عقيدةِ التَّوحيدِ في نفسِ المُؤمِنِ قُوَّةَ العَزمِ، والصَّبرَ والثَّباتَ؛ لعِلمِه أنَّ اللهَ معه، وأنَّه مؤيِّدُه وناصِرُه، فهو يُرَدِّدُ قَولَ اللهِ تعالى: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173] التي قالها إبراهيمُ عندما أُريدَ إلقاؤه في النَّارِ، ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندما خُوِّف بصناديدِ المُشرِكين، وقولَ هُودٍ عليه السَّلامُ لِقَومِه: {فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ} [هود: 55-56].[2474]

2- كَثرةُ الدُّعاءِ: فالدُّعاءُ سِلاحُ المُؤمِنِ الذي يلجَأُ إليه في كُلِّ أحوالِه، خاصَّةً إذا فتَرَتِ الهمَّةُ وضَعُفتِ العَزيمةُ.

3- العِلمُ النَّافِعُ: فالعِلمُ يُرشِدُ المَرءَ إلى مَصالِحِه وما فيه الخَيرُ له، ويدفعُه إلى العَمَلِ، ويُعَرِّفُه بآفاتِ الطَّريقِ ومَخاطِرِه، ويورِثُ صاحِبَه فِقهًا بالأولَوِيَّاتِ ومَعرِفةً بمَراتِبِ الأعمالِ، وكُلَّما ازدادَ الإنسانُ مِنَ العِلمِ النَّافِعِ عَلَت هِمَّتُه، وازدادَ عَمَلُه.

4- الاقتداءُ بأصحابِ العزائِمِ من أهلِ الصَّلاحِ والدِّينِ: قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: 35]. وقال تعالى في الاقتداءِ بالصَّالحينَ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة: 4].

[2470] الجواب الكافي لابن القيم 73

[2471] الرائد.. دروس في التربية والدعوة لمازن الفريح 274/4

[2472] فيض القدير للمناوي 5/506

[2473] علو الهمة لمحمد إسماعيل المقدم 341

[2474] انظر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد 32 توحيد الله 12/36

ومَن يُطالِعُ سِيَرَ الصَّالحينَ مِن أصحابِ العَزائِمِ والهِمَمِ العاليةِ وينظُرُ في كُتُبِهم „يرى مِن عُلومِ القَومِ، وعُلوِّ هِمَمِهم ما يشحَذُ خاطِرَه، ويُحَرِّكُ عَزيمَتَه للجِدِّ.

5- مصاحبةُ أهلِ العزائِمِ القويَّةِ، والهِمَمِ العاليةِ: فالمرءُ على دينِ خَليلِه، قال ابنُ تَيميَّةَ: „النَّاسُ كأسرابِ القَطَا[2475] مجبولون على تشبُّهِ بَعضِهم ببعضٍ".[2476]

6- المسارعةُ في التَّنفيذِ، وعَدَمُ التَّردُّدِ بعدَ عَقدِ العَزمِ على العَمَلِ: قال تعالى: {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [محمد: 21].

7- الجِدِّيَّةُ: إنَّ الجِدِّيَّةَ في الحياةِ كُلِّها، والزامَ النَّفسِ بما يُرادُ تحقيقُه طريقُ النَّاجِحين في حياتِهم، ومَن جَدَّ وَجَد، ومن زَرَع حصَدَ؛ قال تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا [مريم: 12]، وقال تعالى: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 63].

8- عَدَمُ الاتِّكالِ على الحَسَبِ والنَّسَبِ: والقاعِدةُ الإسلاميَّةُ: لا فَضْلَ لعَرَبيٍّ على أعجَميٍّ إلَّا بالتَّقوى، ولا يستوي العالِمُ والجاهِلُ، ولا المُؤمِنُ والكافِرُ، ولا المجتَهِدُ والكَسولُ، ولا القَويُّ والضَّعيفُ.

9- الرَّغبةُ الصَّادقةُ في تقويةِ العَزمِ والعَزيمةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ:

وهذه تشمَلُ عدة خُطواتٍ، وهي كالتالي:

أ- تغييرُ العاداتِ السَّلبيَّةِ إلى أُخرى إيجابيَّةٍ:

السَّعيُ الحثيثُ لرَفعِ العَزيمةِ وتقويتِها يبدَأُ بالرَّغبةِ في إصلاحِ مَواطِنِ الضَّعفِ في النَّفسِ، والصِّدقِ في تحويلِها لمواطِنِ قُوَّةٍ؛ ولهذا فلم تمنَعْ قاتِلَ التِّسعةِ والتِّسعين نفسًا آثامُه من السَّعيِ للتَّغييرِ، بل ولَمَّا أكمَل المائةَ ما زال عازِمًا على التَّوبةِ، فبحَث وسأل، بل وترَك ما يحِبُّ من أهلٍ ووطنٍ في سبيلِ ما يرجو، حتَّى كانت العاقبةُ مَغفرةَ اللهِ ورِضوانَه.[2477]

ب- تحديدُ الهدَفِ المرادِ تحقيقُه، ووضوحُه.

ت- معرفةُ فائدةِ العَمَلِ في حياتِك الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ.

فمعرفةُ فائدةِ العَمَلِ تُعينُ على تحمُّلِ مشاقِّ العَمَلِ؛ ولهذا جاءت الشَّريعةُ بالتَّرغيبِ في العَمَلِ الصَّالحِ، والتَّرهيبِ من المعاصي، وذَمِّ البَطالةِ والكَسَلِ.

ث- وضعُ أهدافٍ قَصيرةِ المدى.

ج- مُكافأةُ النَّفسِ بَعدَ كُلِّ عَمَلٍ تنجِزُه، والمكافأةُ بقَدرِ العَمَلِ.

ح- محاسَبةُ النَّفسِ على التَّقصيرِ، ومعاقبتُها بتركِ بعضِ ما تحِبُّ.

10- الاهتمامُ بالتَّربيةِ الصَّحيحةِ للنَّشْءِ مُنذُ الصِّغَرِ.

[2475] نوعٌ من اليَمامِ يُؤثِرُ الحياةَ في الصَّحراءِ/ يُنظَر: المعجم الوسيط 748 /2

[2476] مجموع الفتاوى 28/150

[2477] عن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: كان في بني إسرائيلَ رجلٌ قَتَل تِسعةً وتسعين إنسانًا، ثمَّ خرج يسألُ، فأتى راهبًا فسألَه، فقال له: هل من توبةٍ؟ قال لا. فقتَلَه، فجعل يسألُ، فقال له رجُلٌ: ائْتِ قريةَ كذا وكذا. فأدركَه الموتُ، فنَاءَ بصَدْرِه نحوَها، فاختَصَمَتْ فيه ملائكةُ الرَّحمةِ وملائكةُ العذابِ، فأوحى اللهُ إلى هذه أن تَقَرَّبي، وأوحى اللهُ إلى هذه أن تباعَدي، وقال: قيسُوا ما بَيْنَهما، فوُجِد إلى هذه أقرَبَ بشِبرٍ، فغُفِرَ له. أخرجه البخاري 3470 واللفظ له، ومسلم 2466

المطلب العاشر: نَجَاحُ الدَّاعيةِ بِحَسْبِ قُوَّةِ عَزِيمَتِهِ وَعُلُوِّ هِمَّتِهِ

"مِن أَقوَى أَسبَابِ نَجَاحِ الدَّاعيةِ أن يكُونَ مِنْ أُولَى صِفَاتِهِ: الهِمَّةُ العَاليةُ، فتجدُه حريصًا أشَدَّ ما يكُون الحرصُ عَلَى خدمَةِ الدَّعوةِ وأهدَافِهَا فَإِنْ تحقَّقَ مَا كَانَ يَنشُدُه، فَهِذِهِ مِنَّةٌ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وإِنْ غلبَتْهُ الأمورُ وتعسَّرتْ عليه الأحْوَالُ - بعدَ أخْذِهِ بِكَافَّةِ الأَسبَابِ – اسْتَسْلَمَ للهِ ورَضِيَ بقضائِهِ، فلا يقنطُ مِن رحمةِ اللهِ ولا ييأسُ حتَّى لا يَدَعُ للشيطانِ عليهِ سبيلًا يدخُل إليهِ منهُ، فيُضْعِفَ عزيمته ويُحِطَّ من همته، وَهُو مَا يُريدُه وَحِزْبُهُ أَعَاذَنَا اللهُ منْهُم.

وَبِنَاءً عَلَى ذَلكَ، مَن كانتْ همتُه متدنِّيَةٍ، وَعَرَفَ من نفسِهِ أَنَّه سَرِيعُ اليأسِ والإحبَاطِ، فَعَلَيهِ أنْ يَتَوَارَى عن طريقِ الدَّعوةِ؛ لأَنَّه لَا يَصْلُحُ لها، ولذلكَ انظرْ يَا أَخِي يَا مَن تَعْمَلُ فِي مجالِ الدَّعوَةِ: مِنْ أَيِّ الفَرِيقَين أنتَ؟ الفريق الأول أم الثاني؟!

فالفريقُ الأوَّلُ؛ مَنْ يُصيبه يأسٌ وقنوطٌ وفتورٌ؛ فتنهارُ قُوَاهُ ويحزَنُ، فهذا النوعُ، من أصحابِ الهِمَمِ الضَّعِيفَةِ، والفَشَلُ دَائمًا حَلِيفُهُم.

والفريق الثاني؛ مَنْ إذَا أَصَابَهُ فَشَلٌ فِي بَادِئِ الأَمْرِ أَعَادَ الكَرَّةَ مرَّةً بل مراتٍ، وَزَادَه هذا الإخفَاقُ قُوةً وإصراراً عَلَى مُواصَلةِ الطَّريقِ، فَيَتَجَاوَزُ كلَّ العَثَرَاتِ، وَيُحَطِّمُ كُلَّ العَقَبَاتِ بِكُلِّ صَبْرٍ وَعَزِيمَةٍ؛ وَهؤلَاءِ أَصْحَابُ الهِمَمِ العَالِيَةِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِم الدَّعْوَةُ.

تَأَمَّل أَخِي الآيةَ الكَرِيمة: {كَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} [الفرقان:31]، الآيةُ تقُولُ لكَ: "النَّصرُ حليفُكَ؛ مَادَامَ اللهُ مَعَك، فَهُو هَادِيكَ وَنَاصِرُكَ"، فَلِمَ الحزنُ والضَجَرُ! ولِمَ البُرودُ والكَسَلُ! إيَّاكَ وَدَاءُ العَجْزِ، فإنَّه مَهْلَكَةٌ، يقُولُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "احْرِصِ عَلَى مَا ينفَعُك، واستَعِنْ باللهِ وَلَا تَعْجَزْ"، وكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعَوَّذُ مِنْ العَجْزِ والكَسَلِ.

وانْظُرْ كَيْفَ شَنَّعَ اللهُ عَلَى الَّذِين رَغِبُوا في الدُّنْيَا وبَهْرَجِهَا وَأَعْرَضُوا عَنْ الآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا، قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ} [التوبة: 38]، فَعَالِي الْهِمَّةِ لَا يَقْبَلُ أَنْ تَمُوتَ حَسَنَاتِهِ بِمَوْتِهِ". [2478]

المطلب الحادي عشر: علاماتُ عالي الهِمَّة

هذه بَعضُ العَلاماتِ على صاحِبِ الهمَّةِ العاليةِ، نَذكُرُها مُختَصَرةً:

1- الزُّهدُ في الدُّنيا.

2- المُسارَعةُ في الخَيراتِ والتَّنافُسُ في الصَّالحاتِ.

3- التَّطَلُّعُ إلى الكَمالِ والتَّرَفُّعُ عنِ النَّقصِ.

4- التَّرَفُّعُ عن مُحَقَّراتِ الأُمورِ وصَغائِرِها، ونِشدانُ مَعالي الأُمورِ وكَمالاتِها.

5- الأخذُ بالعَزائِمِ.

6- الاستِدراكُ على ما فاتَ.

7- أداءُ الواجِباتِ وتَحَمُّلُ المسئولياتِ.

8- الاهتِمامُ بواقِعِ الأُمَّةِ والسَّعيُ لإصلاحِه.

9- حُسنُ إدارةِ الأوقاتِ.

[2478] فضل الدعوة إلى الله، جوتيار بامرني، ص 89

إنَّ عَالِي الهمَّةِ لَا يَستَوحِشُ مِن قِلَّةِ السَّالِكِينَ، وَلَا يَأْبَهُ بِقلَّةِ النَّاجِين، ولا يَلْتَفِتُ إلى كَثْرَةِ المخَذِّلِين، وَلَا يَكْتَرِثُ بِمُخَالَفَةِ النَّاكِبِينَ، قَلْبُهُ لَا يَعْرِفُ التَّثَاؤُبَ وَلَا الرَّاحَةَ وَلَا السُّكُونَ وَلَا التَّرَفَ.

ولقد حاز سلفنا الصالح قصب السبق في علو الهمة وسمو المراد، وقد ضربوا لهم في كل باب من أبواب هذا الدين بسهم، وأخذوا من كل فضل بنصيب. ففي العبادة؛ لا تراهم إلا راكعين ساجدين، خاشعين باكين مخبتين. وفي سبيل طلب العلم؛ فارقوا الأهل والأولاد، وتنقلوا في البلاد، وهجروا لذيذ الرقاد، وأنفقوا الطارف والتلاد. وفي الإنفاق؛ أنفقوا إنفاق من لا يخشى الفقر في دنياه، ويبتغي رضى مولاه.

وَتُعَدُّ تَرْبِيَةُ النُّفوسِ على علو الهِمَّة مِنْ أَشَقِّ الأُمورِ، لِاحْتياجِها إلى الصَّبْرِ والْمُلازَمَةِ، وَهِيَ أَصْعَبُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ وَكَسْبِ المَهَارَاتِ، لو كان النجاح سهلاً يسيرا لتجرأ عليه كل خامل كسول، قَالَ سَعيدُ بْنُ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يَا بُنَي، إِنَّ المَكارِمَ لَوْ كَانَتْ سَهْلَةً يَسيرَةً لَسابَقَكُمْ إِلَيْهَا اللِّئَامُ، وَلَكِنَّها كَريهَةٌ مُرَّةٌ، لَا يَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ عَرَفَ فَضْلَها، وَرَجَا ثَوابَها".[2479]

المطلب الثاني عشر: السر في كلمة "استمر"

إن الحد الفاصل بين الفشل والنجاح في كلمة واحدة، ألا وهي: الاستمرار؛ فالفشل هو التوقف عن المحاولة، أما النجاح فهو أن تستمر في المحاولة.

ولذلك ستجد في قاموس الناجحين أن (حرف الهاءِ) في كلمة الهزيمة تُنْطَقُ عَيْنًا.

وأَنَّ صَاحِبَ الهمَّةِ الذي يَضَعُ هَدَفَهُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ لَا يَلْتَفِتُ لمغْرَيَاتِ الطَّريقِ: لا يهمه الحرّ.. ولا يخيفه القرّ..

ولا يزعجه الضرّ.. ولا يقلقله المرّ؛ لأنه تَدَرَّعَ بِالصَّبْرِ. ولذلك صدق القائلُ: "لو كَانَ النَّجَاحُ سَهْلاً يَسِيرًا، لَتَجَرَّأَ عَلَيْهِ كُلُّ خَامِلٍ كَسُولٍ".

المطلب الثالث عشر: صاحبُ الهمَّة يَسْبقُ إلى القِمَّة ويَسُودُ الأُمَّةِ

هند بنت عتبة؛ تزوجها أبو سفيان، وأنجبت منه مجموعة من الأبناء ومنهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه. مر عليها أحد متفرسي العرب، فقال لها: "إنني أتوسم فيه أن يسود قومه"، قالت هند: "ثَكَلْتُهُ[2480] إن لم يسد إلا قومه!"، فهي تريد منه أن يسود العرب بأجمعهم.

انظروا إلى علو همة هذه المرأة، وكيف أنها ربته ببث ثقتها فيه وفي إمكانياته حتى وصل به الأمر إلى أن ساد العرب والعجم جميعا! كم من أم دمرت ولدها بإهانتها له والتحقير من شأنه، فخرج إلى المجتمع بشخصية مهترئة!

المطلب الرابع عشر: دَنِيءُ الهمَّةِ مختومٌ عَلَى قَلْبِه

إنَّ دنيءَ الهمة، كلما همَّ ليسموا للعوالي، وليرتقي في درجات المعالي، ختم الشيطان على قلبه، وعقد على ناصيته وقال له: "عليك ليل طويل فارقد!"، وكلما سعى للارتقاء بهمته، وإقالة عثرته عاجلته جيوش التشويش والأماني، ونادته نفسه الأمارة بالسوء: أأنت أكبر أم الواقع؟!

قال الإمام الشوكاني رحمه الله:

"ويَنبَغِي لِمَن كَان صادِقَ الرَّغبَةِ، قَوِيَّ الفَهمِ، ثاقِبَ النَّظَرِ، عزِيزَ النَّفسِ، شَهمَ الطَّبعِ، عالِيَ الهِمَّةِ، سَامِيَ الغَرِيزَةِ: ألا يَرضَى

[2479] مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا:٣٠

[2480] ثَكَلْتُهُ: أي فَقَدْتُهُ

لِنفسِهِ بِالدُّونِ، ولا يَقنَع بِما دُونَ الغَايةِ، ولا يَقعُد عَنِ الجِدِّ والاجتِهَادِ المُبَلِّغَينِ لهُ إلى أعلَى مَا يُرادُ وأرفعُ ما يُستفَاد.
"فَإِنَّ النُّفُوسَ الأَبِيَّةَ والهِمَمَ العَلِيَّةَ لا تَرضَى بِدُونِ الغَايَةِ في المَطَالِبِ الدُّنيَوِيَّة مِن جَاهٍ أو مَالٍ أو رِئَاسَةٍ أو صِنَاعَةٍ أو حِرفَةٍ؛ حتَّى قالَ قائِلهُم:

إذَا غَامَرتَ في شَرَفٍ مَرُومٍ.. فَلا تَقنَع بِمَا دُونَ النُّجومِ
فَطَعمُ المَوتِ فِي أمرٍ حَقِيرٍ.. كَطَعمِ المَوتِ فِي أمرٍ عَظِيمِ

وإذا كَان هَذا شَأنهُم في الأُمُورِ الدُّنيَوِيَّة الَّتِي هِيَ سَرِيعَةُ الزَّوَالِ قَرِيبَةُ الاضمِحلَالِ؛ فكيفَ لا يَكُونُ ذلِكَ مِن مطَالِبِ المُتوجِّهِينَ إلى مَا هُوَ أشرَفُ مطلَبًا، وأعلى مكسَبًا، وأرفَعُ مُرَادًا، وأجلُّ خطرًا، وأعظَمُ قدرًا، وأعوَدُ نفعًا، وأتمُّ فائِدَةً وهِي المَطالِبُ الدِّينِيَّة؟

فَأَكرِم بِنفسٍ تطلُبُ غَايَةَ المَطَالِبِ فِي أشرَفِ المَكَاسِب، وأَحبِب بِرَجُلٍ أرَادَ مِنَ الفضَائِلِ مَا لا تُدانِيهِ فضِيلَةٌ، ولا تُسَامِيهِ مَنقَبَةٌ ولا تُقَارِبُهُ مكرُمَةً.[2481]

وحينَ ينتكسُ الإنسانُ، يهوَي إلى الدَّرَكِ الذِي لا يَهوَي إليه مخلوقٌ قط، حينَ تصبحُ البهائِمُ أرفعُ منه وأقومُ، حينَ يرتكسُ مَعَ هواهُ إلى دَرَكٍ لا تملكُ البهيمةُ أن ترتكسُ إليه، وإذا ماتتْ فيه الغيرةُ على نفسِهِ وعلى المحارمِ، يصبحُ أسفلَ من البهائمِ.
وَمَنْ يَختارُ العيشَ عَلَى هَامشِ الحيَاةِ، وآثَرَ السَّلَامَةَ، فَمَا هُوَ إلَّا رَجُلُ القَصْعَةِ وَالثَّرِيدِ ...وَصَدَقَ فِيهِ قولُ الشَّاعِرِ:

بعض من الأحياء في القبر ميتٌ
وبعض من الأموات حيّ يكبّرُ

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله:
"لو أن الناس كلما استصعبوا أمرًا تركوه، ما قام للناس دنيا ولا دين".

تعفّفْ لا تكن في النّاس كَلّا
وقُل للعجز لا.. أبداً.. وكَلّا
ولا تيأس وكن في الأرض رقماً
تَبوّأَ في معاليها محلّا

المطلب الخامس عشر: حوارٌ بينَ شيخٍ وتلميذِهِ

سأل أحد المشايخ تلميذه: كيف حالك مع الله؟
فأجاب الشاب بحماس: بخير حال، أفضل من غيري.
فسأله الشيخ متعجبا: غيرك من؟ أبو بكر وعمر؟
فأجاب الشاب: بالطبع لا يا شيخ.
فقال الشيخ: آه، لعلك تعني عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود؟
فقال الشاب: لا طبعا، ولا هؤلاء. لم أقصد أحدا من الصحابة.
قال الشيخ: فهمتك الآن. إنك تقصد سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير.
فطأطأ الشاب رأسه، وقال: يا شيخ! يرحمك الله. لم أعنِ هؤلاء. فأين أنا منهم!
وهنا صاح فيه الشيخ: من بربك تعني؟ الفنانون والراقصون؟ الفجار والعصاة؟ الكفار والمشركون؟

[2481] كتاب أبجد العلوم ص193 - مطلب في طبقات أهل العلم.

يا بني! إن أردت أن تعرف حالك، فَقُدْوَتُكَ الصحابة والتابعون. قارن حالك بحالهم؛ لتعمل وتزداد قربا من الله، ولا تقارن حالك بحال أهل زمانك من الغافلين، فتركن وتزداد بعدا عن الله عز وجل.

المطلب السادس عشر: غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ

نسمعُ كثيرًا من الناسِ عندما يُرِيدُونَ أن يكونَ لهم أولادٌ كُثُر، أو يُرِيدُونَ المشاركةَ في نشاطٍ، يقولون: "نريدُ أن نزيدَ من سوادِ المسلمين"، وهذه كلمةُ حقٍ أُرِيدَ به باطل؛ فإنجابُ الأولادِ في هذا الزمنِ، الذي يُعَدُّ فِيهِ المسلمُون غثاءٌ كَغُثَاءِ السَّيلِ، مَعَ تَدَنِّي فِي التَّرْبِيَةِ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ؛ يَزِيدُ من أعباءِ الأمةِ. فَمَنْ لا يُرَبِّي مصلحِين للأمَّةِ، ولَا يُشَارِكُ إلَّا فِي أَقَلِّ الأُمُورِ هذا عِبْءٌ عَلَى الأمَّةِ وَنَعُوذُ باللهِ من الخُذْلَانِ.

إنَّ الأمَّةَ تحتاجُ إلى رجالٍ ونساءٍ مميزينَ؛ لِيُعِيدَ الله -بهمتِهم العَالِيَةِ وثَبَاتِهم ودعوتِهم- الحياةَ فَـيُسَاهِمُوا في تَغَيِيرِ الحالِ، بِتَحَمُّلِ المسْئُولِيّةِ، وَالتَّصَدُّرِ في مختلفِ التَّخَصُّصَاتِ، فَضْلًا عَن تَقدِيمِ الدَّعْمِ لِمَنْ هُمْ عَلَى الثُّغُورِ.

يَقُولُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُوشِكُ الأمُمُ أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأَكَلَةُ إلى قصعتِها، فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ، ولينزِعنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوهْنَ، فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ! وما الوهْنُ؟ قال: "حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ".[2482]

المطلب السابع عشر: (الْمُرَاهَقَةُ) ظَاهِرَةٌ مُعَاصِرَةٌ لَا تَلِيقُ بِأَوْلَادِنَا

لم يَكُنْ الأَقْدَمُونَ يُعَانُونَ مِنْ مَشَاكِلِ أثناءَ المراهقةِ؛ لأنَّ المراهَقَةَ مُشْكِلَةٌ أَوْجَدَتْهَا نَمَطُ الحَيَاةِ المعَاصِرَةِ وَالتَّرْبِيَةِ السَّلْبِيَّةِ أَوْ القَاصِرَةِ.

كان المراهقُ فِي الماضِي يُعتبرُ رَجَلاً بمجرَّدِ بلوغِهِ، ولم يَكُنْ يُطْلِقُ العَرَبُ والفقهاءُ لفظَ (المرَاهِقِ) عَلَى مَنْ بَلَغَ الحُلُمَ، بَلْ كَانُوا يَعُدُّونَهُ رَجَلاً كَسَائِرِ الرجالِ.

إنَّ اعتمادَ الأبناءِ الطَّوِيل عَلَى الأسرةِ والأَبَوينِ، مَعَ طُولِ مُدَّةِ الدِّرَاسَةِ النِّظَامِيَّةِ، وَتَأَخُّرِ دُخُولِ الأَبْنَاءِ فِي سُوقِ العَمَلِ، وَطَبِيعَةِ حَيَاةِ المجتَمَعَاتِ المعَاصِرَةِ التِي أَفْرَزَتْهَا التَّقَنِيَّةُ الحَدِيثَةُ وَالإِعْلَامُ الجَمَاهِيرِيّ، هِيَ عَوَامِلٌ شَكَّلَتْ المراهَقَةَ بِالتَّعْقِيدِ الَّذِي نَرَاهُ اليَوْمَ.

المطلب الثامن عشر: البُكَاءُ عَلَى الأَبْوَابِ الْمُوصَدَةِ [2483]

هنا نَخْتِمُ بقصَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ، يَظُنُّهَا القَّارِئُ أنها مِنْ نَسْجِ الخَيَالِ:

قبل سنيّاتٍ - وكنتُ في رحلةٍ إلى قرقيزيا (أحدُ جمهورياتِ الاتحادِ السوفيتي سابقًا) على حدود الصين - دُعيتُ إلى زيارةِ شيخٍ كبيرٍ تجاوزَ السبعينَ ربما، كانَ داعيةٌ من الجيلِ الأولِ، وكانَ يَتكلَمُ العربيةَ الفُصحَى بلكنةٍ أعجميةٍ، إلا أنه مُتضَّلِعٌ بعلومِ الشَّرِيعَةِ، ذُو باعٍ طويلٍ فِي الدعوةِ والإِصْلَاحِ.

انْسَابَ الحديثُ عذبًا شيقًا مع هذا الشيخِ الكريمِ عن جهودِهِم الدَّعَوِيَّةِ، وَجِهَادِهِم الإصلاحِي الطَّوِيل.

وتحتَ ضغطِ الفُضُولِ العارمِ سَألتُهُ:

[2482] صحيح سنن أبي داود 4297

[2483] بقلم عبد الله المبرد، من موقع رابطة العلماء السوريين.

يا شيخُ! كيفَ درَستَ كلَّ هذهِ العلومِ، وكوّنتَ كلَّ هذهِ الحصِيلةِ العلميةِ، وقد كنتُم إلى عهدٍ قريبٍ في قرقيزستان تحتَ الحكمِ الشُّيوعيِّ الغاشِمِ الذي كانَ يقتلُ من ينطقُ العربيةَ، أو يَتَسَمَّى باسمٍ إسلاميٍّ فضلًا عمّن يُمارسُ شعائرَ الإسلامِ الظاهِرةِ؟!

وأنت يا شيخ وُلدتَ ونشأتَ تحتَ هذا الحكمِ؟!

عِشْتَ صَدْرَ حياتِكَ تحتَ هذا الحكمِ الشَّرسِ الذي انتهَزَ فرصةَ سقوطِ الخلافةِ، فَطَمَسَ كلَّ مظاهِرِ الإسلامِ، وأَعدَمَ من المسلمين ما يَزِيدُ على عشرينَ مليونَ مسلمٍ، وفَرَضَ الإلحادَ، فلم يتركْ للمسلمِين أيَّةَ نَفَسٍ، ولا فُرصَةٍ لممارسةِ شعائرِ دينِهم؛ فضلًا عن العملِ في ميدانِ الدعوةِ والإصلاحِ؟!

تَبَسَّمَ الشيخُ الكبيرُ، وَرَفَعَ صَدْرَهُ إِلَى الأَعْلَى، وَكَأَنَّهُ يَسْتَنْشِقُ رَائِحَةَ الظفرِ بعد الصبرِ، والانتصارِ بعدَ الانكسارِ، والفرجِ بعدَ الشِّدَّةِ والكَرْبِ، وَقالَ: نَعَمْ، كنَّا تحتَ حكمِهِم لَكِنْ لم نسْتَسْلِمْ لهم!!

كنَّا أقوى منهم بإيمانِنَا، وإصرارنا، وقدرتِنَا عَلَى التكيُّفِ.

كانَ آباؤنا يحفُرون أنفاقًا تحتَ الأرضِ على عمقٍ بعيدٍ، وهذه الأنفاقُ تُفْضِي إلى أَقْبِيَةٍ وإلى فُصولٍ ومَدَارسَ تستوعِبُ عَشَراتِ وربما مئاتِ الأطفالِ، كلِّها تحتَ الأرضِ.

وكان الوالدان المسلمان إذا بلغَ طفلهُمَا الخامسةَ من عمره، تسلَّلُوا به في جنحِ الظلامِ، وساروا بحذَرٍ خلفَ مُرشِدِ المدرسةِ حتَّى يبلغَ الطفلُ فوهةَ النفقِ، وعادةً ما تكون هذه الفوهة في حجرة من بيت مهدومٍ، أو خربةٍ مهجورةٍ، وهنا تستلمُهُ المدَّرِسَةُ وتُدْخِلُهُ النَّفَقَ ليَنضَمَّ مَعَ رفاقِهِ تحتَ طباقِ الأرضِ، ليغيبَ لمدةِ سنَتَين أو ثَلاث لا يظهرُ، ولَا يَتَّصِلُ حَتَّى بوالديه، لكِنَّه يخرُجُ وقد حَفِظَ القرآنَ أو أكثَرُهُ، ومِن الحديثِ ما قُدِّر له، ومن عُلومِ العقيدةِ والفقهِ والعَرَبِيَّةِ!

حتى إنِّي سألتُ الشيخَ عمَّا درَسوه في العربية مثلا؟ فقال: حفظتُ ألفيةَ ابنِ مالكٍ!

ثمَّ تحامَلَ على نفسِهِ ونهَضَ متثاقِلًا إلى كُوَّةٍ فِي الجِدَارِ وَمَدَّ يَدَهُ النَّحِيلَةَ إلى كتابٍ متهالكٍ فيها، فَجَاءَ به وَفَتَحَهُ أَمَامِي، فَإِذَا هُوَ نسخَتُهُ الخاصَّةَ من شرحِ ابنِ عَقِيل.. وكنتُ مأخوذًا بالدَّهشَةِ وَالعَجَبِ البَالِغِ من شيْءٍ أرَاهُ بِعَينيَّ، وأسمعُهُ بأُذِنيَّ!

لو حكاهُ لي الثقاةُ لشَككْتُ فيه!

كانتْ الشُّيُوعِيَّةُ جَاثِمَةٌ بِكُلِّ جَبَرُوتِهَا، وَعَسَفِهَا، وقسْوَتِهَا عَلَى النَّاسِ حتَّى ظنَّتْ أنهَا قد قَدَرَتْ عَلَيهِم وَقَطَعَتْ صِلَتِهِم بالإسلامِ؛ لَكِنَّ جِيلًا كَانَ يترعرعُ تحتَ الأرضِ، وَيَتَشَرَّبُ الإسلامَ من مَصَادِرِه "الكتابِ والسُّنَّةِ" وَيتضَلَّعُ مِنْ أَعْمَقِ وَأَجْمَعِ مَرَاجِعِ الشَّرِيعَةِ وَاللغَةِ، كَانَ تحتَ الأَرْضِ دُعَاةٌ ومصلِحُونَ نَذَرُوا حيَاتَهُم للهِ، فَغَابُوا فِي جَوْفِ الأَرْضِ حَيْثُ لا شمسٌ ولا هواءٌ، ولا لهْوٌ، ولا لعِبٌ، وإنما عَمَلٌ شاقٌ مُضْنٍ خَطِيرٍ ثمنُهُ حَيَاةَ أَحَدِهِم وَمَن مَعَهُ لو افْتَضَحَ أَمْرُه!

كانوا يبنُونَ جيلًا جديدًا في أقْسَى ظَرفٍ يمكِنُ أنْ يمُرَّ بِهِ مجتمعٌ، مَا يَئِسُوا، وَمَا ضَعُفُوا، ولَا اسْتَكَانُوا، وَلَا أَلْقُوا السِّلَاحَ، وَمَا خَضَعُوا لِوَاقِعِهِم المتَوَحِّشِ وَلا اسْتَرْهَبَتْهُم سَطْوَتُهُ..

فلمَّا سقطتْ الشيوعيةُ، وَطوتْهَا سنةُ اللهِ في الأَشْجَارِ الخبيثَةِ، خَرَجَتْ طلائِعُ ذلكَ الرَّعِيلُ إلى الشمسِ لِتُعِيدَ البلادَ إلى هوِيَّتِها، والعِبَادَ إلى دينِهم، فَمَا هي إلا بضعُ سَنَواتٍ حتى كانتْ حواضِرُ تلكَ الولاياتُ الشيوعيةُ تَضُجُّ بالأذانِ والصَّلاةِ من مساجِدِهَا التي لا تُحْصَى، وبأئِمَّتِهَا ودُعَاتِهَا الذين نَبَتُوا في تلكَ السَّنَواتِ العِجَافِ، وَفِي أعماقِ الأرضِ.

هذا الدينُ مكينٌ، راسِخٌ، أنزلَهُ اللهُ لِيَبْقَى، ولِيَنْتَصِرَ، ولنْ تَطْمِسَهُ أيَّةَ قوةٍ مَهْمَا بَلَغَتْ قدرتُهَا وشَراسَتُها، لكنْ قد يُبْتَلَى الدُّعاةُ بأيامٍ شدادٍ، ليمتحِنَ اللهُ صدقَهُم وصبرَهُم، ليميزَ اللهُ اليَائِسِينَ الضِّعَافَ المهازيلَ من الأقوياءِ، ذَوي الصِّدْقِ واليَقِين!

فإذا ألقَى الدُّعاةُ السِّلاحَ وأسْلمُوا الثُّغُورَ تَحَجُّجًا بالظروفِ القاسيةِ، وتَذَرُّعًا بالتغيراتِ الجارفةِ، إذَا جَلَسُوا يبكُونَ على أبوابِ الدَّعوةِ التي أُقْفِلَتْ، وَتَركُوا خَلْفَهُم ألفَ بَابٍ مَفْتُوحٍ، وألفَ حيلَةٍ ممكنَةٍ، وألفَ وسيلَةٍ متاحةٍ، فاعلمْ أنهُم وَقَعُوا فِي حَبَائِلِ اليَأْسِ التِّي نَصَبَهَا لهم الشَّيطانُ، وَأَنَّهم ما امتَثَلُوا أمْرَ ربِّهم بِالتَّحَرُّفِ للدَّعْوَةِ، والانْحِيَازِ إلى الممكنِ من برامِجِهَا، ومشروعَاتِهَا المتاحَةِ، وإنما استكَانُوا للعُذْرِ المصْنُوعِ، والحُجَّةِ المزَيَّفَةِ، وَخَسِرُوا شَرَفَ الصُّمُودِ وَأَجْرَ الصَّبْرِ، ويُوشِكُ اللهُ أَنْ يَسْتَبْدِلَهُم بِغَيْرِهِم ثُمَّ لا يكُونُوا أَمْثَالَهُم.

المبحث السابع عشر: تحمل المسئوليات

المطلب الأول: معنى المسئولية

- المسئولية كما عرَّفها مجمع اللغة العربية، هي: "شعور الإنسان بالتزامه أخلاقيًّا بنتائج أعماله، فيحاسب عليها إن خيرًا وإن شرًّا".

- ومن التعريفات التي وردت في كلمة المسئولية لُغَةً: "ما يكون به الإنسان مسئولًا ومطالبا عن أمور أو أفعال أتاها".[2484]

- وجاءت تعريف المسئولية في المعجم الوسيط بأنها: "حالة أو صفة من يسأل عن أمرٍ تقع عليه تبعته". يقال: "أنا بريء من مسئولية هذا العمل"، أي: من تَبِعَتِهِ.

- وقال ابن منظور في قول الله تعالى: {وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [سورة الزخرف:44]، معناه: سَوْفَ تُسْأَلُونَ عن شكر ما خلقه الله لكم من الشرف والذكر. وقوله تعالى: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} [الصافات: 24] قيل: سؤالهم سؤال توبيخ وتقرير لإِيجَابِ الحجة عليهم؛ لأن الله تعالى عالم بأعمالهم.[2485]

المطلب الثاني: المسئولية في نصوص الكتاب والسنة

أ. المسئولية في نصوص القرآن:

لقد القرآن عَرَّف الإنسان بأنه الكائن المكلَّف أو الكائن المسئول، وهناك آيات جاءت نصًا في المسئولية، مثل قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: 30]، وقوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: 72]، وقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56]، وقوله تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110]، ومثل قوله: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الإسراء: 15]، وغير هذه الآيات مما هو في بابها كثير.

"كلُّ هذِهِ الآياتِ تنطقُ بتعريفِ الإنسانِ بدورِهِ بأنَّه الكائنُ المكلَّفُ المسئول؛ لأن الخلافةَ فسرها العلماءُ بِتَمَثُّلِ الدين، والحفاظِ عليه، ونشْرِهِ جِيلًا بعدِ جِيلٍ؛ ولأن الأمانة هي في مجموع آراء المفسرين مع شمولها لكل أمانة تأتي نصاً في فروض الدين؛ ولأن العبادة التي هي غاية خلق الإنس والجن، هي معرفة الله تعالى وطاعته، وطاعته هي التزام أوامره ونواهيه، وهما جماع الدين، وآية تحديد مهمة الأمة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر أوضح من أن يُشَارَ إليها، أو يُعَلَّقَ عليها، فهي التعبير الصريح فيما ذهبنا إليه.

[2484] المنجد في اللغة والأعلام، ص: 316، دار المشرق، بيروت. ط: الأربعون 2003م

[2485] راجع لسان العرب لابن منظور 11 /380 – 382، بتحقيق: عامر أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 2003م، 1424هـ

إذن هذه الآيات، وما يدل على معناها هو الذي جعلنا نقول إن القرآن حدد الإنسانَ بدوره وهو المسئولية"[2486]، فالإنسان في الإسلام هو الكائِن المكلَّف المسئول الذي حمل الأمانة وخُلِقَ للخلافة والعبادة ثم هو مكرم من أجل مسئوليته.

وقال تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الحجر: 92، 93]، وقال تعالى: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مسؤولونَ} [الصافات: 24]، فكل عمل أنت مكلَّف به شرعاً، أو التزمت بالقيام به، فهو مسئولية ينبغي عليك القيام بها على أحسن حال، فالمسئولية فردية؛ لأن التكليف فردي والحساب كذلك يوم القيامة، قال تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: 93 - 95]، بل إن القيم والمبادئ لتملي على صاحبها الوفاء بما التزم به.

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الكثير من المواقف والأحداث على تحمل المسئولية، قال تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [يس: 20، 21]، إنه رجل جاء من أقصى المدينة.. لماذا؟ لإنقاذ الموقف، لإعلان كلمة الحق، وتعزيزا لموقف النبيين والمرسلين: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [يس: 20، 21]، جاء يسعى بكل قوته لأنه شعر بالمسئولية وكأن واجب الوقت حتم عليه أن يجهر بكلمة الحق فكانت النتيجة أَنْ قُتِل رحمه الله {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} [يس: 26، 27].

ب. المسئولية في نُصُوصِ السُنَّة النَبَوِيَّة:

- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "كُلُّكُمْ رَاعٍ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ؛ فَالإِمَامُ رَاعٍ وهو ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ في أَهْلِهِ رَاعٍ وهو ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والمَرْأَةُ في بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وهي ومَسْئُولَةٌ عن رَعِيَّتِهَا، والخَادِمُ في مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وهو ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ. قالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلَاءِ مِن رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأَحْسِبُ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: والرَّجُلُ في مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وهو ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ"[2487].

لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها، وواجبٌ على العبدِ ألَّا يُقدِّمَ نفْسَه لأمرٍ وهو غيرُ مُؤهَّلٍ له، فإذا تَعيَّنَت المسئوليةُ عليه لَزِمَه القيامُ بحقِّها، وسيُسْأَلُ عنها أمامَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وفي هذا الحديثِ يُرشِدُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كلَّ فرْدٍ مِن أُمَّتِه إلى القيامِ بواجبِه نحْوَ ما خَوَّله اللهُ عليه، فيُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ما مِن مُسلمٍ في هذه الأمَّةِ إلَّا وتحْتَه مَن يَرْعاهم ويَتحمَّلُ مَسؤوليَّتَهم، فيَقولُ: «كُلُّكم راعٍ ومَسؤولٌ عن رَعيَّتِه»، والرَّعْيُ: هو حِفظُ الشَّيءِ وحُسنُ التَّعَهُّدِ له، والرَّاعي: هو الحافِظُ المُؤْتَمَنُ المُلتَزِمُ صَلاحَ ما قامَ عليه، فكُلُّ مَن كانَ تحْتَ نَظَرِه شَيءٌ فَهو مُطالَبٌ بالعَدلِ فيهِ والقيامِ بمَصالِحِه في دِينِه ودُنْياهُ ومُتَعلِّقاتِه، فإنْ وفَّى ما عليه مِن الرِّعايةِ حَصَلَ له الحَظُّ الأَوفَرُ والجَزاءُ الأَكبَرُ، وإنْ كانَ غَيرَ ذلكَ طالَبَه كلُّ أحَدٍ مِن رَعيَّتِه بِحَقِّهِ، واللهُ عزَّ وجلَّ سائلُه عن تلك الرَّعيَّةِ إنْ فرَّطَ في حُقوقِها.

[2486] حقيقة الإنسان بين المسؤولية والتكريم، لدكتور أبو اليزيد العجمي، ص: 15، الناشر: المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.

[2487] صحيح البخاري (2409)، صحيح مسلم (1829)

ثُمَّ فَصَّلَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما أجْمَلَه: فالإمامُ الأعْظَمُ -الخَليفةُ- راعٍ فيما اسْتَرْعاه اللهُ، فَعلَيه حِفْظُ رَعيَّتِه فيما تَعَيَّنَ عليه مِن حِفْظِ شَرائِعِهم والذَّبِّ عنها، وعَدَمِ إهْمالِ حُدودِهم، وتَضْييعِ حُقوقِهم وتَرْكِ حِمايَتِهم مِمَّن جارَ عليهم، ومُجاهَدةِ عَدُوِّهم، فَلا يَتصرَّفُ فيهم إلَّا بإذْنِ اللهِ ورَسولِه، ولا يَطلُبُ أجْرَه إلَّا مِن اللهِ، وهو مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه.

والرَّجُلُ في أهْلِه -زَوجَتِه وغَيرِها- راعٍ بالقيامِ عليهم بالحَقِّ في النَّفَقةِ وحُسْنِ المُعاشَرةِ، وتَقْويمِهم، وهو مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه.

والمَرْأةُ في بَيْتِ زَوجِها راعيةٌ بِحُسنِ التَّدبيرِ في أمْرِ بَيتِه، وتَربيةِ أولادِه، والتَّعَهُّدِ لِخَدَمِه وأَضيافِه، وهي مَسؤولةٌ عن رَعيَّتِها.

والخادِمُ -أي: العَبدُ، ويَدخُلُ فيه الأجيرُ عُمومًا- في مالِ سَيِّدِه راعٍ بالقيامِ بحِفظِ ما في يَدِه مِنه وخِدمتِه، وهو مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه.

والرَّجُلُ في مالِ أبيهِ راعٍ بحِفظِه وتَدبيرِ مَصلحتِه، وهو مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه.

فَكُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه، فعمَّمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أوَّلِ الحديثِ، ثمَّ خصَّصَ، وَقسَّم الخُصوصيَّةَ إلى جِهةِ الرَّجُلِ وجِهةِ المَرْأةِ، وهَكَذا، ثمَّ عمَّمَ آخِرًا تأْكيدًا لِبَيانِ الحكْمِ أوَّلًا وآخِرًا.

- وفي معركة أحد لم تكن هزيمة المسلمين نتيجة لقوة العدو، أو كثرة عدده ودقة خططه، بل جاء القرآن ليصدع بالحق، وبيّنَ أن المسلمين الذين خالفوا أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم من وقعت عليهم مسئولية الهزيمة، فقال تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: 165].

- وهذا الصحابي الجليل عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه قد عذره الله، فهو رجل كبير السن وأعمى، ومع ذلك لم يعذر نفسه، ولم يخلد إلى الراحة والدعة، ولم يَتَنَصَّل عن مسئوليته تجاه قضايا الأمة، فكان لا يدعُ فرصةً يستطيعُ من خلالها خدمَةَ الدِّينِ تَفْلِتُ منه، حتى ولو كانتْ في ساحَةِ القِتَالِ، وبينَ قعقعةِ السيوفِ، وطعنِ الرماحِ، وإراقةِ الدماءِ، فقرَّرَ أن يخرجَ مع كتائبِ المسلمينَ لملاقاةِ الفرسِ، قالوا: "قد عذرك الله"، قال: "أُكْثِرُ سَوادَكُم"، وعندمَا خَرَجَ طَلَبَ أنْ تُوكَلَ إليه المهمَّةُ التي تُنَاسِبَهُ وتَليقُ بِهِ، فقال: "إنِّي رَجُلٌ أعمَى لَا أَفِرُّ، فادْفَعُوا إليَّ الرَّايَةِ أُمْسِكُ بها"؛ فَأَمْسَكَ بِهَا حَتَّى اسْتُشْهِدَ رَضِي اللهُ عنه.

المطلب الثالث: الدعوة إلى الله مسئولية الجميع

أَقْسَمَ اللهُ في كتابِهِ الكريمِ على أنَّ الناسَ جميعًا في خسارةٍ إلا من حقَّقَ أربعَ صفاتٍ مُهمةٍ، فقال سبحانه: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر:1-3].

إن التواصي بالحق ليس مسئوليةَ طرفٍ دونَ طرفٍ، بل مسئوليةَ الجميعِ؛ فكُلُّ مسلمٍ مسؤولٌ عن نفسِهِ، وأهلِهِ، ومنطقَتِهِ بِحَسَبِ قدرتِهِ واستطاعَتِهِ.

وليس المؤمنُ الذي لا يحمل هماً لأمتِه، ولا يُعاني نصباً في العملِ لدين ربه، فالعملُ لهذا الدينِ فريضةٌ شرعيةٌ على كلِّ فردٍ في المجتمعِ الإسلاميِّ.

وقال الله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران:110].

هذه الخيريةُ مرتبطةٌ بأمرِهَا بالمعروفِ، ونهيِهَا عن المنكرِ، وإيمانِهَا باللهِ، إنها مسئوليةٌ عظيمةٌ يجبُ على الأمةِ أن تَتَحمَّلَهَا؛ لِتَبْقَى لها هذِهِ الخيريةُ، وتكون لها الصَّدارَةُ، والقيادةُ لسائِرِ الأمَمِ، فتهديهَا إلى الصراطِ المستقِيمِ، وتُخْرِجُهَا مِنَ الظُّلمَاتِ إلى النُّورِ بإذن الله.

وعندما كانت أمة الإسلام تعي مسئوليتها؛ سادتِ الأممُ وحكمتِ العالمَ وأسستْ حَضارةً لم يَعْرِفْ لها التاريخُ مثيلاً، فكلُّ مسلمٍ من سلفِنَا الصالحِ كان يعرفُ دورَهُ ومسئوليتَهُ، فيقومُ بواجبِهِ ولا ينتظرُ أنْ يأمرَهُ غيرُه، ولا يُلقِي المسئوليةَ على الآخرين مهما كانت ظروفُه، ولا يرضَى أنْ يكونَ على هامشِ الحياةِ، ليس فيه نفعٌ للأمة الإسلامية، وبسببِ هذَا الشعورِ العالي بالمسئوليةِ؛ نصرهُمُ اللهُ وأعَزَّهُم.

ثم انحطَّ المسلمُون وَضَعُفُوا وَصَارُوا غثاءً كغثاءِ السيلِ، وإنَّ من أعظمِ أسبابِ ضعفِهِم انتشارَ ثقافةِ التبريرِ واختلاقَ الأعذارِ وإلقاءَ المسئوليةِ على الآخرينَ، وهذا الأمرُ من أخطرِ العللِ والأمراضِ التي أصابتِ الكثيرَ من المسلمين اليوم، فقد ظهَرَ ضعفُ الشعُورِ بتحمُّلِ المسئوليةِ في أغلبِ شرائِحِ المجتمعِ وفئاتِهِ.

لقد طُبِعَ أكثرُ المسلمين اليوم على قلةِ الاهتمامِ بشأنِ الأمَّةِ والعزوفِ عن القيامِ بالأمرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكَرِ، والاحْتِجَاجِ بأنَّ المسئوليةِ تقعُ على العلماءِ والدعاةِ والأمراء فحسب، وهذا الطابعُ وهذه المعاني أخطَرُ ما يهدد الأمَّةَ الإسلاميةَ، وهذه هي العدُوُّ الحقيقيُّ والعقبةُ الكبرى التي تواجه المسلمين، أما العدو الخارجي فأمْرُهُ يهونُ إذا استطعنا أن نغيِّرَ مَا بأنفِسَنا.

وإن أخطرَ ما يترتبُ على تركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ إصابةُ الأمةِ بالعذابِ العامِ، وعدمِ إجَابَةِ الدُّعَاءِ، واستحقَاقِ اللَّعنةِ مِنَ اللهِ، وعدمِ الاستقرارِ وانعدامِ الأمنِ والأمانِ.

وإنَّ الناظرَ في حقيقةِ الدعوةِ والحضارةِ الإسلاميةِ يجدُهَا قائمَةٌ عَلَى أساسِ الشعورِ بالمسئوليةِ، فالإسلامُ هو دينُ تحمُّلِ المسئوليةِ، ودينُ التحدِّي وتفجيرُ الطَّاقَاتِ، إنَّهُ الدينُ الَّذِي يجعلُ الإنسانَ يعيشُ ويحيا في سبيلِ اللهِ، ويدفعُهُ إلى أنْ ينصرَهُ بمالِهِ ونفسِهِ وجهدِهِ ووقتِهِ ودمِهِ.

إن الشعورَ بالمسئوليةِ والقيامَ بها وأدائِهَا على أكملِ وجه يجبُ أن يصبحَ خلقاً وسلوكاً وضرورةً تُمَارسُ في واقع الحياة حتى لا يحدثُ التساهلُ في الواجباتِ، وحتى لا تضيعُ الحقوقُ، وحتى تُنجَزَ الأعمالُ، وتَنْجَحَ المشروعاتُ، وتَسُودَ الأخلاقُ وقيمُ الخيرِ في المجتمعِ.

هذا الشعور هو مفتاح الأعمال الكبيرة التي تُغَيِّرُ الواقع إلى ما يُرضي الله، والذي لا يكونُ إلا بتضافرِ جهودِ المسلمِينَ وتعاونِهم وتناصُحِهِم وتواصِيهِم بالحقِّ وأمرِهِم بالمعروفِ ونهيِهِم عن المنكرِ، وحينئذٍ تسعدُ البشريةُ بشرعِ اللهِ، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد:11].

المطلب الرابع: نداءٌ إلى كلِّ أبٍ

يَأَيُّهَا الأَبُ الشفيقُ! سَاهِم في توجِيهِ أبنائك، وَفِي بنائهم بناءً عَقَدِيًا وأخلاقيًا وفق دِينِهم الحنيفِ، اجعلْهُم ملازمِين لأهلِ الخيرِ والصلاحِ حَتَّى يَأْلَفُوهُم ويَعْتَادُوا عَلَى وُجُوهِهِم الطيبةِ منذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِم، فإنَّ الولدَ إذَا كَبُرَ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ عَلَاقَاتٌ

طيبةٌ؛ بَنَى لِنَفْسِهِ علاقاتِه وَتَشَكَّلَتْ وفقَهَا عَادَاتُهُ وَقَنَاعاتُهُ، والتي قَدْ يَصْعُبَ تَغييرُهَا فيهِ لَاحِقًا؛ ولذلكَ وَجَبَ عليك أَنْ تختارَ له قبل أن يختارَ هو لنفسِهِ، فإذا رأيتَه مالَ إلى أهلِ الخيرِ؛ فشجعْهُ وأيدْهُ ووافِقْهُ على ما مال إليه؛ لأنَّه فيه صَلَاحُ دينهِ ودنياهُ، وإن وجدْتَ منه زيغًا، فَلَا تتركَه، بل عليكَ مصاحبتُهُ والصبرُ عليه، وألا تملَّ نُصْحَهُ بالتي هي أحسن، وأيْسَرُ سَبيلٍ لإنْقَاذِهِ أَنْ تَجْعَلَهُ يحبُّكَ ويثقُ بك؛ فالحبُّ والثقةُ كَفيلان بتصحِيحِ مسارِهِ، بعدَ توكُّلِكَ عَلَى اللهِ عزَّ وَجَلَّ وَدُعَائِكَ له بِصَلَاحِ حالِهِ.

المطلب الخامس: مَا هُوَ مَشْرُوعُكَ وَثَغْرُكَ وَمَسْئُولِيَّتُكَ؟

هل تتبنى ثغرًا في دينك كأنك الوحيد عليه، وتخشى إن كنت مقصرًا أن يُؤتَى الدين من ثغرك؟

لقد أصبحتْ المسْئُوليةُ على عاتقِ كل واحد منا مضاعفةً، يقول الكاتب الكندي "آلان دونو"، في كتابه "نظام التفاهة": "إن التافهين قد حسموا المعركة لصالحهم في هذه الأيام، لقد تغير الزمنُ، زمنُ الحق والقيم، ذلك أن التافهين أمسكوا بكل شيء، بكل تفاهتهم وفسادهم، فعند غياب القيم والمبادئ الراقية؛ يطفو الفساد المبرمج ذوقاً وأخلاقاً وقيماً، إنه زمن الصعاليك الهابط".

إن مواقع التواصل نجحت في ترميز التافهين، حيث صار بإمكان أي جميلة بلهاء، أو وسيم فارغ أن يفرضوا أنفسهم على المشاهدين عبر عدة منصات عامة، هي أغلبها منصات هلامية وغير منتجة، لا تُخْرِجُ لنا أيَّةَ منتج قيمي صالح لمجتمعاتنا المسلمة.

إن مثل هؤلاء كلما تعمَّقوا في الإسفافِ والابتذالِ والهبوطِ ازدادوا جماهيريةً وشهرةً، ولذلك كَيْفَ وَنحن نمتلكُ أَعظَمَ دِينٍ، وَلَدينَا أرقى قِيمٍ أن نترك تلك الجيوش من التافهين تنشر التفاهة والرذيلة والتي تصل إلينا داخل بيوتنا ومدارسنا من خلال وسائل التواصل الاجتماعي؟!

لذلك عليك أخي الكريم أَلَّا تُخلِيَ لهم المكان، وألَّا تنشغل بسفاسف الدنيا، زَاحِمْهُم بأخلاقِك وبمالِك ووقتِك وابداعاتِك، زاحِم كل هذا الباطل وكل هذا الدنوّ بعلوّك وثباتِك، فطوبى للغرباء الذين يعرفون أن الدِّينَ مسئوليةٌ وليسَ مجرَّدُ انتسابٍ، لله دَرُّهم! كَم هم مميزونَ وقليلونَ، فكلُّ مَا هُو نَفِيسٌ نادرٌ.

المطلب السادس: رسالةٌ أَرْجُو أَنْ تَصِلَ

إلى كُلِّ مَنِ اجتهَدَ في بِدَايَةِ الطَّرِيقِ، وتَعِبَ فِي بِنَائِهِ التَّرْبَوِيِّ وَتَعَلُّمِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وأُنْفِقتْ عَلَيْهِ الأَمْوال وَبُذِلَتْ فِيهِ الطَّاقَاتُ، ثُمَّ تَكَاسَلَ عَنِ المسْئُولِيَّةِ والدَّعْوَةِ وَتَرْبِيَةِ الأَجْيَالِ، فَحُرِمَ مِنَ الثِّمَارِ وَحَوْزِ مَكَانَةٍ بَيْنَ الأَخْيَارِ؛ هؤلاء أَنْصَحُهُمْ ألا يَتَنَصَّلُوا مِنَ المَسْئُولِيَّةِ وَأَنْ يَعُودُوا أَدْرَاجَهُمْ إِلَى صُفُوفِ المرَبِّينَ الصَّادِقِينَ، والدُّعَاةَ المخْلِصِينَ، وَأَلَّا يَبْحَثُوا عَنِ الدَّعَةِ والرَّاحَةِ وَالأُمَّةُ تَئِنُّ مِمَّا أَلَمَّ بِهَا مِنَ خُطُوبٍ عَظِيمَةٍ، وَحَوادِثٍ جَسِيمَةٍ.

وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ النَّعيمَ لا يُدرَكُ بِالنَّعِيمِ، وَأَنَّ مَنْ آثَرَ الرَّاحَةَ فَاتَتْهُ الرَّاحَةُ، وَأَنَّهُ بِقَدْرِ الأَهْوَالِ وَاحْتِمَالِ المَشَاقِ تَكُونُ الفَرْحَةُ واللَّذةُ، فَلَا لَذَّةَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ، وَلَا نَعِيمَ لِمَنْ لا شَقَاءَ له، ولا راحَةَ لمن لَا تَعَبَ لَهُ، والجَنَّةُ حُفَّتْ بالمكَارِهِ، وَلَا يُدْرِكُ السَّادَةَ مَنْ لَزِمَ الوِسَادَةَ.

المطلب السابع: الرِّحْلَةُ اليَابَانِيَّةُ وَتَحَمُّلِ المسْئُولِيَّةِ

فِي عَامِ 1906، فِي قَرْيَةِ جرجا بِمُحَافَظَةِ سُوهاج في صَعِيدِ مِصْرَ، اشْتَرَى أَحَدُ الشُّيُوخِ البُسَطَاءِ صَحِيفَةً، وَعِنْدَمَا قَرَأَهَا لَفَتَ انْتِبَاهَهُ خَبَرٌ غَرِيبٌ مُفَادُه: رَئِيس وُزَرَاء اليَابَان الكونت „كاتسورا" أَرْسَل خِطَابَاتٍ رَسْمِيَّةٍ إِلَى دُوَلِ الْعَالَمِ ليرسلوا إِلَيْهِم الْعُلَمَاءَ، وَالْفَلَاسِفَةَ، والمشرعين وَكُلّ أَصْحَاب الدِّيَانَات؛ لِكَي يَجْتَمِعُوا فِي مَدِينَةِ طُوكيُو فِي مُؤْتَمَرٍ عَالَمِيّ ضَخْمٍ يَتَحَدَّث فِيهِ أَهْلُ كُلِّ دِينٍ عَنْ قَوَاعِدِ دِينِهِم وفلسفتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ يَخْتَارُ اليابانيون بَعْدَ ذَلِكَ مَا يُنَاسِبُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَدْيَان؛ لِيَكُون دينًا رسميًا للإمبراطوريةِ اليابانيةِ بِأَسْرِهَا، وَسَبَبُ ذَلِكَ؛ أَن اليابانيين بَعْد انتصارهم المدوي عَلَى الرُّوس فِي مَعْرَكَةِ تسوشيما عَام 1905م رَأَوْا أَنَّ مُعْتَقَدَاتِهِم الْأَصْلِيَّةِ لَا تَتَّفِقُ مَعَ تطورهم الحَضَارِيّ وَعَقْلِهِم الْبَاهِر ورقيهم المادي والأدبي الَّذِى وَصَلُوا إِلَيْهِ، فَأَرَادُوا أَنْ يختاروا دينًا جديدًا للإمبراطورية الصاعدة يَكُونُ ملائمًا لِهَذِه الْمَرْحَلَةِ المتطورةِ مِن تَارِيخِهِم.

عِنْدَهَا أَسْرَعَ هَذَا الصَّعِيدِيُّ المتحمسُ لِنُصْرَةِ دِينِهِ إِلَى شُيُوخِ الأَزْهَرِ يستحثُّهُم بِالتَّحَرُّكِ السَّرِيعِ لِانْتِهَازِ هَذِه الْفُرْصَةِ الذَّهَبِيَّةِ لِنَقْلِ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَقْصَى بِقَاعِ الْأَرْضِ، فَلَم يَسْتَمِع الشَّيْخُ إِلّا عِبَارَات (إِنْ شَاءَ الله)، (رَيِّنَا يِسَهِّلْ) وَهَكَذَا!

فَكَتَبَ الشَّيْخُ فِي صَحِيفَتِه الْخَاصَّة (الإرشاد) نداءً عامًا لِعُلَمَاءِ الأَزْهَرِ؛ لكى يُسْرِعُوا بِالتَّحَرُّكِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتُهُم مَوْعِدُ الْمُؤْتَمَرِ، وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَن تُنَادِي، وبرغم كُلِّ هَذَا الْإِحْبَاطِ لَم يَسْتَسْلِمْ هَذَا الصَّعِيدِيُّ البَطَلُ الَّذِي شَعُرَ بِالْمَسئولية تُجَاهَ الدَّعْوَةِ، فَحَمَلَ هُمَّ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ عَلَى كَتِفَيْهِ، وَانْطَلَقَ إِلَى قَرْيَتِهِ الصَّغِيرَة لِيَبِيعَ خَمْسَ أفدنةٍ مِنَ الْأَرْضِ كَانَتْ كُلُّ ثَرْوَتِه لِيُنْفِقَ عَلَى حِسَابِه الْخَاصّ تَكَالِيفَ تِلْكَ الْمُغَامَرَةِ الْعَجِيبَةِ، الَّتِي انْتَقَلَ فِيهَا عَلَى مَتْنِ بَاخِرةٍ مِنَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ إِلَى إِيطاليا، وَمِنْهَا إِلَى عَدَنَ فِي الْيَمَنِ، وَمِنْهَا إِلَى بومباي فِي الْهِنْد، وَمِنْهَا إِلَى كولمبو فِي جَزِيرَةِ سيلَان، وَمِنْ هُنَاكَ اسْتَقَلَّ بَاخِرَةً لِشَرِكَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ مُتَّجِهَةٍ لسنغافورة، ثُمَّ إِلَى هُونْج كُونْج، ثُمّ سايْغُون فِي الصّين، لِيَصِل أخيراً إِلَى مِينَاء يُوكُوهاما الياباني بَعْد مُغامَرَةٍ بَحَرِيَّةٍ لَقِيَ فِيهَا الْأَهْوَالَ والمصاعبَ.

وَهُنَاكَ فِي اليَابَان كَانَ الْعُجْبُ، فَلَقَد تفاجأ هَذَا الشَّيْخُ الصَّعِيدِيُّ عَلَى الميناء بِوُجُودِ شَيْخٍ هِنْدِيّ، وَشَيْخٍ بَرْبَرِي مِنْ مَشَايِخِ الْقَيْرَوَان فِي تُونُس، وَشَيْخٍ صِينِي مِن تُرْكِسْتان الشَّرْقِيَّة، وَشَيْخٍ قَوْقازِي مِن مُسْلِمِي رُوسْيَا ، كُلُّ هَؤُلَاءِ جَاءُوا مِثْلَهُ عَلَى نَفَقَتِهِمُ الْخَاصَّةَ لِيَجِدُوا أَنَّ الْخَلِيفَةَ الْعُثْمَانِيّ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِيَ أَرْسَلَ وفداً كبيراً مِنْ الْعُلَمَاءِ الْأَتْرَاك؛ لِيَجْتَمِع أُولَئِك الدُّعَاة جميعًا، وَيَكُونُوا وفدًا إسلاميًا ضخمًا مكونًا مِنْ مُسْلِمِينَ مِنْ أقطارٍ مُخْتَلِفَةٍ لِيَحْمِلَ كُلُّ واحدٍ مِنْهُم رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وِجْدَانِه؛ لِيُوصِلَهَا إِلَى إِمْبرَاطُورِ اليَابَانِ شخصيًا.

وَهُنَاكَ فِي طُوكيُو أَسْلَمَ الْآلَافُ عَلَى أَيْدِي تِلْكَ الْمَجْمُوعَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَكَادَ إِمْبرَاطُورُ اليَابَانِ (أَلماكيدو) نَفْسُهُ أَنْ يُسلِمَ عَلَى يَدِ ذَلِكَ الشَّيْخِ الصَّعِيدِيّ البَطَلِ بَعْدَ أَنْ أَبْدَى إِعْجَابَهُ بِالْإِسْلَامِ إِلَّا أَنَّهُ خَافَ عَلَى كُرْسِيِّهِ الامبراطوريّ بَعْدَ أَنْ احْتَجّ الشَّعْبُ عَلَى ذَلِكَ الْمُؤْتَمَرِ، فَأَخْبَرَ „المَاكيدو" الشَّيْخَ الجرجاوي أَنَّهُ إِذَا وَافَقَ الْوُزَرَاءُ عَلَى تَغْيِيرِ دِينِ الْآبَاءِ فَإِنَّه سيختارُ الْإِسْلَامَ بِلَا أَدْنَى شَكٍّ، فَخَرَج الجرجاوي رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى شَوَارِعِ طُوكيُو برفقةِ التَّرْجُمَانِ لِيُسْلِمَ عَلَى يَدَيْهِ آلَافُ اليابانيين وَلِيَعُودَ بَعْدَهَا إِلَى مِصْرَ ليصفَ تِلْكَ الرِّحْلَةِ الْعَجِيبَةِ إِلَى بِلَادِ الشَّرْقِ فِي كِتَابٍ مِنْ أَجْمَلِ كُتُبِ أَدَبِ الرحلاتِ فِي الْقَرْنِ العِشْرِينَ أَسْمَاه: (الرحلة اليابانية)، وضع فِيهِ نَفَائِسَ الْقَصَصِ الْمُمْتِعَةِ وَغَرَائِبِ الْحِكَايَاتِ الشَّيِّقَةِ الَّتِي عَايَشَهَا فِي رِحْلَتِهِ الدعوية إِلَى اليَابَان.

ويُعَدُّ الشَّيخُ عَلِيٌّ أَحْمَدَ الجِرْجَاوِيِّ أَوَّلَ دَاعِيَةٍ لِلْإِسْلَامِ فِي بِلَادِ اليَابَان فِي الْعَصْرِ الحَدِيثِ، فَقَدْ أَسَّسَ هُوَ وَأَحَدُ الدُّعَاة مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ مركزًا لِلدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِمَدِينَةِ طُوكيُو، وَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ ١٢ أَلْف ياباني، وَأَهْدَاهُ إِمْبرَاطُورُ اليَابَانِ سَاعَةً نَفِيسَةً تقديرًا لمجهوداتِهِ، كَذَلِكَ كَانَ مِنْ أَوَائِلِ مِن تَصَدَّوْا لدعَاوَى بَعْضِ المسْتَشْرِقِينَ وَمُفْتَرَيَاتِهِمْ عَلَى

الْإِسْلَامِ.[2488]

المطلب الثامن: علاجُ ضعفِ الشعورِ بالمسئوليةِ

من الحلول النافعة؛ لعلاج ضعف الشعور بالمسئولية:

1- الحرص على أسباب زيادة الإيمان.

2- تعلم القرآن وتلاوته وتدبره؛ فإنه يهدي للتي هي أقوم.

3- تصحيح المفاهيم الخاطئة لدى الإنسان الذي لا يملك الشعور العالي بالمسئولية.

4- تذكير المؤمن بين الحين والآخر بواجباته، وما يترتّب على تقصيره في واجباته من المفاسد الكثيرة في العاجل والآجل

5- مصاحبة أصحاب الهمم العالية الذين يحسُّون بعِظَمِ المسئولية الملقاة على عواتقهم تجاه ربهم، وتجاه أنفسهم وأهليهم وأمتهم.

6- قراءة سِيَرِ أصحاب الهمم العالية.

7- معرفة الواقع الأليم لأمة الإسلام، ومعرفة أن من أعظم أسباب هذا الانحطاط هو عدم شعور المسلمين بمسئوليتهم، ومعرفة أن نصر الله آت لا محالة إذا قمنا بدورنا في نصرة دين الله.

8- معرفة أن مسئولية المسلم تتضاعف عند غربة الدين وقلة الأعوان وكثرة الشهوات والشبهات، ويتضاعف مع ذلك أجره أيضا، فإن أجر المسلم على قدر نصبه.

المطلبُ التَّاسع: دَوَافِعُ الشُّعُورِ بِالمسْئُولِيَّةِ

من الدوافع التي تقوي الشعور بالمسئولية في نفس المسلم، ما يلي:

1- دَافِعُ الاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِ اللهِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِهِ.

2- دَافِعُ اتِّبَاعِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

3- دَافِعُ الإِصْلَاحِ.

4- دَافِعُ الشُّكرِ على نِعَمِ اللهِ التي لا تُعَدُّ ولَا تُحْصَى؛ لحفظِهَا وزيادَتِهَا.

5- دَافِعُ الخوفِ مِنْ عُقُوبَةِ تركِ الأَمْرِ بالمعْرُوفِ، والنَّهْيِ عَنْ المنْكَرِ.

6- دَافِعُ الطَّمَعِ فِي الأَجْرِ من اللهِ.

7- دَافِعُ الغَيْرَةِ على حُرُماتِ الله.

8- دَافِعُ طاعةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: "مَن رَأَى مِنكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلكَ أضْعَفُ الإيمانِ".[2489]

9- دَافِعُ الحرصِ على التمكِينِ للمسلِمِينَ في الأرضِ، فإنَّ من أعظمِ أسبابِ نصرِ اللهِ للمسلِمِينَ أنْ ينصُرُوا دينَهُ بالأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ كما قَالَ اللهُ سبْحَانَهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: 7].

[2488] تحتاج فقط أن تكتب "كتاب الرحلة اليابانية للجرجاوي" في محرك البحث وستجده في مواقع كثيرة.

[2489] صحيح مسلم (49)

المبحث الثامن عشر: التفاؤل

المطلب الأول: معنى التفاؤل

- **التَّفاؤُلُ لُغةً:**

الفَأْلُ: ضِدُّ الطِّيَرةِ „التَّشاؤُمِ"، والجَمعُ فُؤولٌ، وأفْؤُلٌ، وهو ما يُظَنُّ عندَه الخيرُ.[2490]

والتَّفاؤُلُ: مَصدَرٌ للفِعلِ تفاءَلَ، يقالُ: تفاءَلتُ به، وتفأَّلتُ به. والتَّفاؤُلُ: ضِدُّ التَّشاؤُمِ، وقد يُستعمَلُ الفَألُ فيما يُكرَهُ، فيُقالُ: لا فألَ عليك، بمعنى: لا ضَيرَ عليك، ولا طَيرَ عليك، ولا شَرَّ عليك.[2491]

- **التَّفاؤُلُ اصطِلاحًا:**

التَّفاؤُلُ: هو انشراحُ قَلبِ الإنسانِ وإحسانُه الظَّنَّ، وتوقُّعُ الخيرِ بما يسمَعُه مِنَ الكَلِمِ الصَّالحِ أو الحَسَنِ أو الطَّيِّبِ.[2492]

وقيل: هو صِفةٌ تجعَلُ توقُّعاتِ الفَردِ وتوجُّهاتِه إيجابيَّةً نحوَ الحياةِ بصِفةٍ عامَّةٍ؛ يستبشِرُ الخيرَ فيها، ويستَمتِعُ بالحاضِرِ، ويَحدوه الأمَلُ في مُستقبَلٍ أكثَرَ إشراقًا وأحسَنَ حالًا.[2493]

وقيل: هو استقراءُ المُستقبَلِ في ملامِحِ الحاضِرِ، والشُّعورُ بالتَّنبُّؤِ بما يأتي، وترقُّبُ ما سيحصُلُ للإنسانِ عِندَ سماعِه شيئًا حَسَنًا أو رؤيتِه له.[2494]

المطلب الثاني: الفرق بين التفاؤل وحسن الظن بالله

الفرق بينهما: أنَّ التَّفاؤُلَ يبعَثُ على حُسنِ الظَّنِّ باللهِ تعالى، فهو حَسَنٌ؛ لأنَّه وسيلةٌ للخيرِ، فالتَّفاؤُلُ وسيلةٌ لحُسنِ الظَّنِّ باللهِ، وحُسنُ الظَّنِّ باللهِ سُبحانَه غايةٌ من غاياتِ التَّفاؤُلِ.[2495]

المطلب الثالث: الترغيب في التفاؤل والحث عليه

أ. التفاؤل في القرآن الكريم:

إنَّ القُرآنَ الكريمَ يبعَثُ على التَّفاؤُلِ، ويفتَحُ أبوابَ الأملِ والرَّجاءِ، ويسُدُّ أبوابَ التَّشاؤُمِ واليأسِ، ومن ذلك:

1- قال تعالى زارِعًا الثِّقةَ والتَّفاؤُلَ في نفوسِ المؤمِنينَ، ومُثَبِّتًا لقُلوبِهم، ومُقَوِّيًا ليَقينِهم: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: 171 - 173].

2- وقال تعالى في بيانِ صورةٍ مِن صُوَرِ تفاؤُلِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في خِضَمِّ المِحَنِ والحِصارِ: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 40].

[2490] الفروق للقرافي 240 /4

[2491] لسان العرب لابن منظور11/513، المصباح المنير لأبي العباس الفيومي 511/2، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص: 1040-1041 تاج العروس للزبيدي 30/142

[2492] نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم 3/1046

[2493] التفاؤل في زمن الكروب لعبد الله بن محمد العسكر ص: 12

[2494] موسوعة القيم والأخلاق لمرزوق ص: 10

[2495] ينظر الفروق للقرافي 4/241

قال الطَّبريُّ: „إذ يقولُ رسولُ اللهِ لصاحِبِه أبي بكرٍ: لا تحزَنْ، وذلك أنَّه خاف من الطَّلَبِ أن يعلَموا بمكانِهما، فجَزِع من ذلك، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تحزَنْ؛ لأنَّ اللهَ معنا، واللهُ ناصِرُنا، فلن يَعلَمَ المُشرِكون بنا، ولن يَصِلوا إلينا".[2496]

3- وقال تعالى في بيانِ ثباتِ المُؤمِنينَ وتفاؤُلِهم في مقابِلِ تخويفِهم ومحاوَلةِ زَعزَعةِ الثِّقةِ في نفوسِهم بكثرةِ عَدَدِ عَدُوِّهم واجتماعِه عليهم وكَيدِه بهم: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173].

هذا القولُ الذي قاله المثبِّطون زاد المُؤمِنينَ إيمانًا على إيمانِهم، ويقينًا على يقينِهم، وثباتًا على ثباتِهم، وجعَلَهم يقولون للمُرجِفينَ بثِقةٍ واطمئنانٍ: حَسْبُنا اللهُ، أي: كافينا اللهُ أمرَ أعدائِنا، ونِعْمَ الوكيلُ، أي: نِعمَ النَّصيرُ خالِقُنا -عزَّ وجَلَّ- فهو الموكولُ إليه أمْرُنا ومصيرُنا، وقولُهم هذا يَدُلُّ دَلالةً واضِحةً على قوَّةِ إيمانِهم، وشِدَّةِ ثِقتِهم في نَصرِ اللهِ تعالى لهم، مهما كَثُر عَدَدُ أعدائِهم، ومهما تعدَّدَت مظاهِرُ قُوَّتِهم.[2497]

4- وتحدَّث القُرآنُ أيضًا عن تفاؤُلِ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالظَّفَرِ في أشَدِّ لحَظاتِ الفَزَعِ والخَوفِ حينَ اجتمَعت عليهم أحزابُ الكُفرِ.
قال تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: 22].
قال الطَّاهِرُ بنُ عاشورٍ: „قُوبِلَت أقوالُ أولئك أي: المنافِقينَ والذين في قُلوبِهم مَرَضٌ بأقوالِ المُؤمِنينَ حينما نزلت بهم الأحزابُ ورَأَوا كثرتَهم وعدَدَهم، وكانوا على بصيرةٍ من تفَوُّقِهم عليهم في القُوَّةِ والعَدَدِ أضعافًا، وعَلِموا أنَّهم قد ابتُلُوا وزُلزِلُوا، كُلُّ ذلك لم يُخِرْ عزائِمَهم ولا أدخَلَ عليهم شكًّا فيما وعَدَهم اللهُ من النَّصرِ".[2498]

5- ومن ذلك قَولُه تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: 5 - 6].

ب: التفاؤل في السنة النبوية المطهرة:

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُحِبُّ التَّفاؤُلَ، وما يحمِلُ معناه بصُوَرِه كافَّةً، ويكرَهُ التَّشاؤُمَ وما يحمِلُ معناه بصُوَرِه كافَّةً، وهذا كثيرٌ متواتِرٌ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمِن صُوَرِه:
1- أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا جاء سُهَيلُ بنُ عَمرٍو وقد أرسلَتْه قُرَيشٌ للمفاوَضةِ، قال: "لقد سَهُل لكم مِن أمْرِكم".[2499]
2- تفاؤُلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبِشْرُه وتبسُّمُه؛ فعن جريرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "ما حجَبَني النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنذُ أسلَمْتُ، ولا رآني إلَّا تبسَّمَ في وَجهي، ولقد شكَوتُ إليه أنِّي لا أثبُتُ على الخَيلِ، فضَرَب بيَدِه في صَدري، وقال: اللَّهُمَّ ثَبِّتْه واجعَلْه هاديًا مَهْدِيًّا".[2500]

[2496] جامع البيان لابن جرير 11/464
[2497] التفسير الوسيط 2/342
[2498] التحرير والتنوير لابن عاشور 21/304
[2499] أخرجه البخاري 2731
[2500] أخرجه البخاري 3035، 3036، ومسلم 2445

3- تفاؤُلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنَّصرِ والعَونِ والتَّمكينِ وانتشارِ الدِّينِ في أشَدِّ لَحَظاتِ الألمِ والاستِضعافِ:
عن خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ، قال: "شَكَونا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهُو مُتوسِّدٌ بُردَةً له في ظِلِّ الكَعْبةِ، قُلنا له: ألَا تَسْتَنْصِرُ لنا؟ ألَا تَدْعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجلُ فيمَنْ قبلَكم يُحفَرُ له في الأرْضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِهِ فيُشَقُّ باثنتَينِ، وما يصُدُّه ذلك عن دِينِه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دُونَ لَحمِه مِن عظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يصُدُّه ذلك عن دِينِه، واللهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمرَ، حتَّى يَسيرَ الرَّاكبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ، لا يَخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكنَّكم تَستعجِلونَ".[2501]
4- تفاؤُلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع ما يبلُغُه من معانَدةِ قَومٍ وإصرارِهم على كُفرِهم، ورجاؤُه الخيرَ والهِدايةَ لهم:
عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: "قَدِم طُفَيلُ بنُ عَمرٍو الدَّوسيُّ وأصحابُه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ دَوسًا عَصَت وأَبَت، فادْعُ اللهَ عليها، فقيل: هلَكَت دَوسٌ! قال: "اللَّهُمَّ اهْدِ دَوسًا وَأْتِ بهم".[2502]
5- عن أبي هُرَيرةَ قال: "كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعجِبُه الفَألُ الحَسَنُ، ويَكرَهُ الطِّيَرةَ".[2503]
„وإنَّما كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعجِبُه الفَألُ؛ لأنَّ التَّشاؤُمَ سُوءُ ظَنٍّ باللهِ تعالى بغيرِ سَبَبٍ مُحَقَّقٍ، والتَّفاؤُلَ حُسنُ ظَنٍّ به، والمُؤمِنُ مأمورٌ بحُسنِ الظَّنِّ باللهِ تعالى على كُلِّ حالٍ".[2504]
6- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا طِيَرةَ، وخَيرُها الفَألُ، قالوا: وما الفَألُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: الكَلِمةُ الصَّالحةُ يَسمَعُها أحَدُكم".[2505]
قال الخَطَّابيُّ: „إنَّما صار الفَألُ خَيرَ أنواعِ هذا البابِ؛ لأنَّ مَصدَرَه عن نُطقٍ وبيانٍ، فكأنَّه خيرٌ جاءك عن غَيبٍ، وأمَّا سُنوحُ الطَّيرِ وبُروحُها فليس فيه شيءٌ من هذا المعنى، وإنَّما هو تكلُّفٌ من المتَطَيِّرِ وتعاطٍ لِما لا أصلَ له في نوعِ عِلمٍ وبيانٍ؛ إذ ليس للطَّيرِ والبهائِمِ نُطقٌ ولا تمييزٌ؛ فيُستدَلَّ بنُطقِها على مضمونِ معنًى فيه، وطَلَبُ العِلمِ مِن غَيرِ مَظانِّه جَهلٌ؛ فلذلك تُرِكَت الطِّيَرةُ، واستُؤنِسَ بالفَألِ".[2506]
7- وعن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "يدخُلُ الجنَّةَ مِن أمَّتي سبعون ألفًا بغيرِ حِسابٍ، قالوا: مَن هم يا رسولَ اللهِ؟ قال: هم الذين لا يَسْتَرقون، ولا يتطَيَّرون، ولا يَكْتَوون، وعلى ربِّهم يتوَكَّلون".[2507]

ت. من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ في التفاؤل:

1- قال ابنُ عَونٍ عن ابنِ سِيرينَ: „كانوا يَستحبُّونَ الفَألَ، ويَكرَهونَ الطِّيَرةَ".[2508]
2- وقال ابنُ بَطَّالٍ: „جَعَل اللهُ في فِطرةِ النَّاسِ محبَّةَ الكَلِمةِ الطَّيِّبةِ والفَألِ الصَّالحِ، والأُنسَ به، كما جَعَل فيهم الارتياحَ للبُشْرى والمَنظَرِ الأنيقِ، وقد يمُرُّ الرَّجُلُ بالماءِ الصَّافي فيُعجِبُه وهو لا يشرَبُه، وبالرَّوضةِ المنثورةِ فتَسُرُّه وهي لا تنفَعُه".[2509]
3- وقال الماوَرْديُّ: „ينبغي لِمَن تفاءَلَ أن يتأوَّلَ الفَألَ بأحسَنِ تأويلاتِه، ولا يجعَلَ لسُوءِ الظَّنِّ على نفسِه سَبيلًا".[2510]

[2501] أخرجه البخاري 3612
[2502] أخرجه البخاري 2937، ومسلم 2524
[2503] أخرجه ابن ماجه 3536 واللَّفظُ له، وأحمد 8393صحَّحه ابن حبان في صحيحه 6121، والألباني في صحيح سنن ابن ماجه 3536.
[2504] فتح الباري لابن حجر 215 /10
[2505] أخرجه البخاري 5754 واللَّفظُ له، ومسلم 2223.
[2506] أعلام الحديث للخطابي 2136/3
[2507] أخرجه مسلم 218
[2508] الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار لابن عبد البر 9/ 467
[2509] شرح صحيح البخاري لابن بطال 9/437

المطلب الرابع: نماذِجُ مِن التَّفاؤُلِ

أ- نماذِجُ من التَّفاؤُلِ عِندَ الأنبياءِ والمُرسَلينَ:

- تفاؤُلُ موسى عليه السَّلامُ رَغْمَ تآمُرِ الملأِ عليه وخروجِه إلى مَدْيَنَ دونَ طَعامٍ أو كِساءٍ أو صَديقٍ أو بَيتٍ، لكِنَّه أمَلَ في اللهِ سُبحانَه أن يَهدِيَه إلى السَّبيلِ الصَّحيحِ، والطَّريقِ القويمِ.

قال تعالى: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ} [القصص: 21-22].

- وتفاؤُلُه أيضًا حينَ حاصَره فِرعَونُ وجنودُه وكادوا أن يُدرِكوه ومَن معه حتَّى ظنُّوا أنَّهم مُدرَكونَ، ولم يكُنْ أمامَهم سِوى البَحرِ، فثبَّتهم موسى بفَألِه الحَسَنِ وحُسنِ ثِقتِه باللهِ سُبحانَه.

قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: 61 - 62].

- تفاؤُلُ يَعقوبَ عليه السَّلامُ بعَودةِ ابنِه يُوسُفَ وأخيه إليه، فقال اللهُ تعالى حكايةً عنه: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا} [يوسف: 83]، وقال: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: 87].

- تفاؤُلُ نُوحٍ عليه السَّلامُ بإيمانِ قَومِه، وثباتُه على دَعوتِهم حتَّى لَبِث فيهم ألْفَ سَنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا يأمُلُ في إيمانِهم، ويرجو اللهَ لهم، ويحثُّهم على الاستِغفارِ ويُغريهم بالغُفرانِ والقَبولِ دونَ كَلَلٍ أو إحباطٍ.

قال تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح: 5 - 12].

- تفاؤُلُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ حينَ عَزَم قومُه على إلقائِه في النَّارِ، فلم يفزَعْ عليه السَّلامُ أو يتردَّدْ في يقينِه برَبِّه، بل أكَّد ثِقتَه به سُبحانَه، وجعَل كامِلَ توكُّلِه عليه، واللهُ عزَّ وجَلَّ لا يُضيعُ عَبدًا توكَّل عليه.

عن ابنِ عَبَّاسٍ: حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ (قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حينَ أُلقِيَ في النَّارِ، وقالها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ قالوا: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173])[2511].

- تفاؤُلُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ بشِفاءِ مَرَضِه، مع طولِ زَمانِه، وشِدَّةِ ما عاناه فيه، فلم يجزَعْ، ولم يترُكْ نَفسَه -عليه السَّلامُ- فريسةً للتَّشاؤُمِ واليأسِ في شِفاءِ اللهِ سُبحانَه.

[2510] أدب الدنيا والدين للماوردي ص: 316

[2511] أخرجه البخاري (4563)

قال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء: 83 - 84].

ب- نماذِجُ مِن التَّفاؤُلِ عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يحِبُّ التَّفاؤُلَ وما يحمِلُ معناه بصُوَرِه كافَّةً، ويكرَهُ التَّشاؤُمَ وما يحمِلُ معناه بصُوَرِه كافَّةً، وهذا كثيرٌ متواتِرٌ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فمِن صُوَرِه:

أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا جاء سُهَيلُ بنُ عَمرٍو وقد أرسلَتْه قُرَيشٌ للمفاوَضةِ، قال: "لقد سَهُل لكم مِن أمْرِكم"[2512].

- تفاؤُلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبِشْرُه وتبسُّمُه؛ فعن جريرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((ما حجَبَني النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنذُ أسلَمْتُ، ولا رآني إلَّا تبسَّمَ في وَجهي، ولقد شكَوتُ إليه أنِّي لا أثبُتُ على الخَيلِ، فضَرَب بيَدِه في صَدري، وقال: اللَّهُمَّ ثَبِّتْه واجعَلْه هاديًا مَهْدِيًّا))[2513].

- تفاؤُلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتبسُّمُه واستبشارُه بالرُّؤى يراها في نومِه:

عن أنسِ بنِ مالِكٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((رأيتُ ذاتَ ليلةٍ فيما يرى النَّائِمُ كأنَّا في دارِ عُقبةَ بنِ رافعٍ، فأُتينا برُطَبٍ من رُطَبِ ابنِ طابٍ، فأوَّلتُ الرِّفعةَ لنا في الدُّنيا والعاقبةَ في الآخِرةِ، وأنَّ دينَنا قد طابَ))[2514].

- تفاؤُلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ العَقَبةِ بإيمانِ من أعرَضَ عن دَعوتِه، ودعاؤُه لهم رَغمَ ما أصابه يَومَها من الحُزنِ وشِدَّةِ الكَربِ؛ لعَدَمِ إجابتِهم ما طلبَه لهم من الخيرِ.

عن ابنِ شِهابٍ، حَدَّثني عُروةُ بنُ الزُّبَيرِ أنَّ عائشةَ زوجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حدَّثَتْه أنَّها قالت لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا رسولَ اللهِ، هل أتى عليكَ يومٌ كان أشَدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ فقال: لقَدْ لَقِيتُ مِن قَومِكِ، وكانَ أشَدَّ ما لَقِيتُ منهم يَومَ العَقَبَةِ؛ إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي على ابنِ عبدِ يَالِيلَ بنِ عبدِ كُلَالٍ، فلم يُجِبْني إلى ما أرَدْتُ، فانطَلَقْتُ وأنا مَهمومٌ على وَجْهي، فلم أسْتَفِقْ إلَّا بقَرنِ الثَّعالِبِ، فرَفَعْتُ رَأسي فإذا أنا بسَحابةٍ قد أظَلَّتْني، فنَظَرْتُ فإذا فيها جِبْريلُ، فناداني، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ قد سمِعَ قَولَ قَومِك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بَعَث إليك ملَكَ الجِبالِ لتَأمُرَه بما شِئتَ فيهم، قال: فناداني مَلَكُ الجِبالِ وسَلَّم عَلَيَّ، ثمَّ قال: يا محمَّدُ، إنَّ اللهَ قد سمِعَ قَولَ قَومِك لك، وأنا مَلَكُ الجِبالِ وقد بعثَني ربُّك إليكَ لتَأمُرَني بأمْرِك، فما شِئتَ، إنْ شِئتَ أن أُطبِقَ عليهم الأخشَبَينِ، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم من يعبُدُ اللهَ وَحدَه لا يُشرِكُ به شيئًا))[2515].

- تفاؤُلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنَّصرِ والعَونِ والتَّمكينِ وانتشارِ الدِّينِ في أشَدِّ لَحَظاتِ الألمِ والاستِضعافِ.

عن خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ، قال: ((شَكَونا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهُو مُتوسِّدٌ بُردَةً له في ظِلِّ الكَعْبةِ، قُلنا له: ألَا تَستَنْصِرُ لنا؟ ألَا تَدْعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجلُ فيمَنْ قبلَكم يُحفَرُ له في الأرْضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على

[2512] أخرجه البخاري (2731)

[2513] أخرجه البخاري (3035، 3036)، ومسلم (2445)

[2514] أخرجه مسلم (2270)

[2515] أخرجه البخاري (3231)، ومسلم (1795) واللَّفظُ له.

رأسِهِ فيُشَقُّ باثنتَينِ، وما يصُدُّه ذلك عن دِينِه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دُونَ لَحمِه مِن عظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يصُدُّه ذلك عن دِينِه، واللهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمرَ، حتَّى يَسيرَ الرَّاكبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ، لا يَخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكنَّكم تَستعجِلونَ))[2516].

- تفاؤُلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع ما يبلُغُه من معانَدةِ قَومٍ وإصرارِهم على كُفرِهم، ورجاؤُه الخيرَ والهِدايةَ لهم.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قَدِم طُفَيلُ بنُ عَمرٍو الدَّوسيُّ وأصحابُه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ دَوسًا عَصَت وأَبَت، فادْعُ اللهَ عليها، فقيل: هلَكَت دَوسٌ! قال: اللَّهُمَّ اهْدِ دَوسًا وَأْتِ بهم))[2517].

- تفاؤُلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الشِّدَّةِ والجَدْبِ بتَحويلِ الرِّداءِ في صلاةِ الاستِسقاءِ رَجاءَ تحويلِ حالِ العُسرِ لليُسرِ.

عن عبَّادِ بنِ تَميمٍ، عن عمِّه، قال: ((خرج النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يستسقي، فتوجَّه إلى القِبلةِ يدعو، وحَوَّلَ رداءَه، ثمَّ صلَّى ركعتَينِ جَهَر فيهما بالقِراءةِ))[2518].

قال المُهلَّبُ: (وتحويلُ الرِّداءِ إنَّما هو على وَجهِ التَّفاؤُلِ بتَحويلِ الحالِ عمَّا هي عليه)[2519].

ج- نماذِجُ مِن التَّفاؤُلِ عِندَ الصَّحابةِ:

- تفاؤُلُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه بفَتحِ نِهاوَنْدَ لَمَّا أرسَل إليه سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ يسألُه المشورةَ في غَزوِها، وكان أرسَل إليه قَريبَ بنَ ظَفَرٍ، فتفاءل عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه باسمِه.

قال ابنُ حَجَرٍ في ترجمةِ قَريبِ بنِ ظَفَرٍ: (وكان رسولَ سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ إلى عُمَرَ في قِصَّةِ فَتحِ نِهاوَنْدَ، فلمَّا وَصَل إلى عُمَرَ تفاءَل باسمِه واسمِ أبيه، وقال: ظَفَرٌ قَريبٌ!)[2520].

- تفاؤُلُ عَليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه بانفراجِ أزمةِ أهلِ العِراقِ بألَّا يمُرَّ عليهم فيها إلَّا وقتٌ يسيرٌ، وتبشيرُهم بذلك.

عن محمَّدِ بنِ كَعبٍ القُرَظيِّ: أنَّ أهلَ العِراقِ أصابهم أزمةٌ، فقام بينهم عليُّ بنُ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه فقال: (يا أيُّها النَّاسُ، أبشِروا فواللهِ إنِّي لأرجو ألَّا يمُرَّ عليكم إلَّا اليَسيرُ حتَّى تَروا ما يَسُرُّكم من الرَّخاءِ واليُسرِ)[2521].

- تفاؤُلُ سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه برَسولِه العائِدِ مِن عِندِ قائدِ الفُرسِ يَزْدَجَرْدَ والتُّرابُ على عُنُقِه؛ رغبةً مِن يَزْدَجَرْدَ في إهانتِه، فرأى سَعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ أنَّ هذا التُّرابَ مَدعاةٌ للتَّفاؤلِ وبُشرى للظَّفَرِ بتُرابِ أرضِهم.

والقِصَّةُ ذَكَرها ابنُ خَلْدونَ، وفيها: (فقال يَزْدَجَرْدُ: لو قتَل أحَدٌ الرُّسُلَ قَبْلي لقَتَلْتُكم. ثمَّ استَدعى بوِقْرٍ مِن تُرابٍ وحُمِل على أعظَمِهم، وقال: ارجِعوا إلى صاحِبِكم وأعلِموه أنِّي مُرسِلٌ رُسْتُمَ حتَّى يَدفِنَكم أجمعينَ في خَندَقِ القادِسيَّةِ، ثمَّ يُدَوِّخَ بلادَكم

[2516] أخرجه البخاري (3612)

[2517] أخرجه البخاري (3937) واللَّفظُ له، ومسلم (2524)

[2518] أخرجه البخاري (1024) واللَّفظُ له، ومسلم (894)

[2519] ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (10/3).

[2520] ((الإصابة في تمييز الصحابة)) لابن حجر (184/9)

[2521] ((إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة)) للبوصيري (458/7)

أعظَمَ من تدويخِ سابورَ. فقام عاصِمُ بنُ عُمَرَ فحَمَل التُّرابَ على عُنُقِه، وقال: أنا أشرَفُ هؤلاء، ولمَّا رجع إلى سَعدٍ فقال: أبشِرْ؛ فقد أعطانا اللهُ تُرابَ أرضِهم)[2522].

فتأمَّلْ كيف استخلَصَ سَعدٌ رَضِيَ اللهُ عنه البُشرى والتَّفاؤلَ مِن قَلبِ المحنةِ، وكان له ما استبشَر، وتحقَّق النَّصرُ للمُسلِمينَ ؟!

- **وكان الزُّبَيرُ عليه دَينٌ فأوصى ولَدَه عبدَ اللهِ يومَ الجَمَلِ بسَدادِه،** قال عبدُ اللهِ بنُ الزُّبَيرِ: فجَعَل يُوصيني بدَينِه ويقولُ: يا بُنيَّ إنْ عَجَزتَ عنه في شَيءٍ فاستَعِنْ عليه مَولايَ! قال: فواللهِ ما دَرَيتُ ما أراد حتَّى قُلتُ: يا أبتِ مَن مولاكَ ؟ قال: اللهُ. قال: فواللهِ ما وقَعْتُ في كُربةٍ مِن دَينِه إلَّا قُلتُ: يا مولى الزُّبيرِ اقْضِ عنه دَينَه، فيقضيه! فقُتِل الزُّبَيرُ رَضِيَ اللهُ عنه، وحَسَب عبدُ اللهِ ما عليه من الدَّينِ فوَجَد دَينَه أَلْفَيْ أَلْفٍ ومِئَتَي أَلفٍ، فقضاها عنه ابنُه عبدُ اللهِ![2523].

د- نماذِجُ مِن التَّفاؤُلِ عِندَ السَّلَفِ:

- سُلَيمانُ بنُ يَحيى بنِ مُعاذٍ كاتِبُ عبدِ اللهِ بنِ طاهِرٍ يُبَشِّرُه بالتَّفاؤُلِ حينَ شكا إليه بلاءً يتوَقَّعُه.

قال التَّنوخيُّ: (شكا عبدُ اللهِ بنُ طاهِرٍ إلى سُلَيمانَ بنِ يحيى بنِ مُعاذٍ كاتِبِه بلاءً خافه وتوقَّعه، فقال له: أيُّها الأميرُ لا يَغلِبَنَّ على قَلبِك إذا اغتَمَمْتَ ما تَكرَهُ دونَ ما تحِبُّ؛ فلعَلَّ العاقبةَ تكونُ بما تحِبُّ، وتُوَقَّى ما تَكرَهُ، فتكونُ كمن يَستسلِفُ الغَمَّ والخَوفَ! قال: أمَا إنَّك قد فرَّجْتَ عنِّي ما أنا فيه!)[2524].

هـ. نماذِجُ مِن التَّفاؤُلِ عِندَ العُلَماءِ المُتَقَدِّمينَ:

1- تفاؤُلُ ابنِ تيميَّةَ بالنَّصرِ على المَغولِ، وحَثُّه النَّاسَ على حَربِهم، وبَثُّه الأمَلَ في صُفوفِ المُسلِمينَ، مع شِدَّةِ خَوفِهم من قُوَّتِهم، وشديدِ بَطشِهم، وهَولِ ما سَمِعوه عنهم:
قال ابنُ كثيرٍ: „ووصَل التَّتَرُ إلى حِمصٍ وبَعْلَبَكَّ، وعاثوا في تلك الأراضي فَسادًا، وقَلِق النَّاسُ قلَقًا عظيمًا، وخافوا خوفًا شديدًا، واختبطَ البَلَدُ لتأخُّرِ قُدومِ السُّلطانِ ببقيَّةِ الجَيشِ، وقال النَّاسُ: لا طاقةَ لجَيشِ الشَّامِ مع هؤلاء المِصْريِّينَ بلقاءِ التَّتارِ؛ لكثرتِهم، وإنما سبيلُهم أن يتأخَّروا عنهم مرحلةً مرحلةً، وتحدَّث النَّاسُ بالأراجيفِ، فاجتمع الأمراءُ يومَ الأحَدِ المذكورِ بالميدانِ الأخضَرِ، وتحالفوا على لقاءِ العَدُوِّ، وشجَّعوا أنفُسَهم، ونودِيَ بالبلَدِ أنْ لا يرحَلْ أحَدٌ منه، فسَكَن النَّاسُ، وجلس القُضاةُ بالجامِعِ، وحلَّفوا جماعةً من الفُقَهاءِ والعامَّةِ على القِتالِ، وتوجَّه الشَّيخُ تَقيُّ الدِّينِ بنُ تَيميَّةَ إلى العَسكَرِ الواصِلِ من حَماةَ، فاجتمع بهم في القُطَيِّفةِ، فأعلمَهم بما تحالَف عليه الأمراءُ والنَّاسُ من لقاءِ العَدُوِّ، فأجابوا إلى ذلك، وحلَفوا معهم، وكان الشَّيخُ تَقيُّ الدِّينِ بنُ تيميَّةَ يحلِفُ للأُمَراءِ والنَّاسِ: إنَّكم في هذه الكَرَّةِ منصورونَ على التَّتارِ! فيقولُ له الأُمَراءُ: قُلْ: إن شاءَ اللهُ، فيقولُ: إن شاءَ اللهُ، تحقيقًا لا تعليقًا!".[2525]

2- تفاؤُلُ نُورِ الدِّينِ زِنْكِي بفَتحِ بَيتِ المَقدِسِ:
قال ابنُ الأثيرِ: „ولمَّا كان الجُمُعةُ الأُخرى رابِعَ شَعبانَ صلَّى المُسلِمونَ فيه الجُمُعةَ، ومعهم صلاحُ الدِّينِ، وصلَّى في قُبَّةِ الصَّخرةِ، وكان الخطيبُ والإمامُ مُحيي الدِّينِ بنُ الزَّكيِّ، قاضي دِمَشقَ، ثمَّ رَتَّب فيه صلاحُ الدِّينِ خَطيبًا وإمامًا برَسمِ

[2522] ((ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)) لابن خلدون (528/2)
[2523] ينظر ما أخرجه البخاري (3129)
[2524] ((الفرج بعد الشدة)) للتنوخي (155/1)
[2525] البداية والنهاية لابن كثير 18/23

الصَّلَواتِ الخَمسِ، وأمَرَ أن يُعمَلَ له مِنبرٌ، فقيل له: إنَّ نورَ الدِّينِ محمودًا كان قد عَمِل بحَلَبٍ مِنبرًا أمَرَ الصُّنَّاعَ بالمبالغةِ في تحسينِه وإتقانِه، وقال: هذا قد عَمِلْناه ليُنصَبَ ببيتِ المقدِسِ، فعَمِله النَّجَّارونَ في عِدَّةِ سِنينَ لم يُعمَلْ في الإسلامِ مِثلُه! فأمَر بإحضارِه، فحُمِل من حَلَبٍ ونُصِب بالقُدسِ، وكان بَينَ عَمَلِ المِنبَرِ وحَمْلِه ما يزيدُ على عشرينَ سنةً! وكان هذا من كَراماتِ نورِ الدِّينِ، وحُسنِ مَقاصِدِه، رَحِمه اللهُ".[2526]

المطلب الخامس: أقسامُ التَّفاؤُلِ

الفَأْلُ تارةً يتعَيَّنُ للخيرِ، وتارةً للشَّرِّ، وتارةً يكونُ متردِّدًا بينهما:

فالمتعَيِّنُ للخيرِ: مِثلُ الكَلِمةِ الحَسَنةِ يسمَعُها الرَّجُلُ من غيرِ قَصدٍ، نحوُ: يا فلاحُ، يا مسعودُ، فهذا فألٌ حَسَنٌ مُباحٌ مقصودٌ.

وأمَّا الفَألُ الحرامُ: فمِن ذلك أخْذُ الفَألِ مِن ضَربِ الرَّملِ والقُرعةِ، وجميعُ هذا النَّوعِ حرامٌ؛ لأنَّه من بابِ الاستِقسامِ بالأزلامِ، والأزلامُ: أعوادٌ كانت في الجاهليَّةِ مكتوبٌ على أحَدِهما: افعَلْ، وعلى الآخَرِ: لا تفعَلْ، وعلى الآخرِ: غُفْلٌ. فيخرُجُ أحَدُهما؛ فإن وَجَد عليه: افعَلْ، أقدَمَ على حاجتِه التي يقصِدُها، أو: لا تفعَلْ، أعرَضَ عنها واعتَقَد أنَّها ذميمةٌ، أو خرج المكتوبُ عليه غُفلٌ، أعاد الضَّربَ؛ فهو يطلُبُ قَسْمَه من الغَيبِ بتلك الأعوادِ، فهو استِقسامٌ، أي طَلَبُ القَسْمِ الجيِّد يَتبَعُه، والرَّديءِ يَترُكُه[2527].

المطلب السادس: مظاهِرُ وصُوَرُ التَّفاؤُلِ

1- التَّفاؤُلُ بالأسماءِ الحَسَنةِ:

عن ابنِ المُسَيِّبِ أنَّ جَدَّه حَزْنًا قَدِم على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: "ما اسمُك. قال: اسمي حَزْنٌ، قال: بل أنت سَهْلٌ".[2528]

والحَزْنُ: ما غَلُظ من الأرضِ، ويقالُ: في خُلُقِ فُلانٍ حُزونةٌ: أي: غِلظةٌ وقَساوةٌ. وكأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كَرِه الاسمَ لهذا المعنى، فأبدله بضِدِّه؛ تفاؤُلًا.[2529]

وعن ابنِ عُمَرَ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غيَّر اسمَ (عاصِيةَ) وقال: "أنتِ جميلةُ".[2530]

قال ابنُ حِبَّانَ تَعليقًا على هذا الحديثِ: „استِعمالُ المصطفى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هذا الفِعلَ لم يكُنْ تطيُّرًا بعاصيةَ، ولكِنْ تفاؤُلًا بجميلةَ، وكذلك ما يُشبِهُ هذا الجِنسَ من الأسماءِ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نهى عن الطِّيَرَةِ في غَيرِ خَيرٍ".[2531]

وقال ابنُ حَجَرٍ في تعليقِه على حديثِ: "لا يقولَنَّ أحَدُكم خَبُثَت نفسي، ولكِنْ لِيَقُلْ لَقِسَت نفسي" [2532]: „ويؤخَذُ من الحديثِ استحبابُ مجانبةِ الألفاظِ القبيحةِ والأسماءِ، والعُدولِ إلى ما لا قُبحَ فيه، والخَبَثُ واللَّقَسُ وإن كان المعنى المرادُ يتأدَّى بكُلٍّ منهما، لكِنَّ لَفظَ الخَبَثِ قبيحٌ ويجمَعُ أمورًا زائدةً على المرادِ، بخِلافِ اللَّقَسِ؛ فإنَّه يختصُّ بامتلاءِ المَعِدةِ، وفيه: أنَّ المرءَ يطلُبُ الخيرَ حتَّى بالفَألِ الحَسَنِ، ويُضيفُ الخيرَ إلى نفسِه ولو بنسبةٍ ما، ويدفَعُ الشَّرَّ عن نفسِه مهما أمكَن، ويقطَعُ الوُصلةَ بَينَه وبَينَ أهلِ الشَّرِّ حتَّى في الألفاظِ المُشتَرَكةِ".[2533]

[2526] الكامل في التاريخ لابن الأثير 10/37

[2527] ينظر ((الفروق)) للقرافي (240/4، 241)

[2528] أخرجه البخاري 6193

[2529] كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي 74 /4

[2530] أخرجه مسلم 2139

[2531] صحيح ابن حبان 136 /13

[2532] أخرجه البخاري 6179، ومسلم 2250 من حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها.

[2533] فتح الباري لابن حجر 10/564

ومِن التَّفاؤُلِ بالأسماءِ الحَسَنةِ: تسميةُ الوَلَدِ والغُلامِ بالاسمِ الحَسَنِ حتَّى متى سُمِع استبشَرَ القَلبُ.[2534]

2- التَّفاؤُلُ في مقابَلةِ الإخوانِ والأصحابِ، وذلك بالتَّبَسُّمِ في وجوهِهم، فهذه البَسمةُ تبعَثُ في النَّفسِ التَّفاؤُلَ والخَيرَ.
عن أبي ذَرٍّ قال: قال لي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا تحقِرَنَّ من المعروفِ شَيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوَجهٍ طَلْقٍ".[2535]

3- تفاؤُلُ المريضِ، وقد ذكَروا من أمثلةِ التَّفاؤُلِ أن يكونَ رَجُلٌ مَريضًا، فيتفاءَلَ بما يسمَعُ من كلامٍ، فقد يسمَعُ آخَرَ يقولُ: يا سالمُ، فيقَعُ في ظَنِّه أنَّه يَبرَأُ من مرَضِه، فهو يسمَعُ الكَلِمةَ الحَسَنةَ وهو عليلٌ، فيتأوَّلُ منها ما يدُلُّ على بُرْئِه.[2536]

المطلب السابع: موانِعُ اكتِسابِ التَّفاؤُلِ

1- الجَزَعُ عِندَ نُزولِ شدائِدِ الأمورِ، وانبعاثُ اليأسِ والقُنوطِ في النَّفسِ.

2- الاستِسلامُ لوَسْواسِ الشَّيطانِ الذي يَعِدُ بالفَقرِ ويدعو إلى القُنوطِ من رحمةِ اللهِ.

3- شِدَّةُ الحَسرةِ على فواتِ رِزقٍ أو ضياعِ مَصلحةٍ دُنيويَّةٍ كان يتمنَّاها العبدُ ويرجو حُصولَها.

4- الانشِغالُ بأمرِ المُستقبَلِ انشِغالًا شديدًا، مع الهَلَعِ من كُلِّ عارِضٍ؛ فالنَّاسُ مِن خوفِ الفَقرِ في فَقرٍ، ومِن خَوفِ الذُّلِّ في ذُلٍّ!

المطلب الثامن: الوَسائِلُ المُعينةُ على التَّفاؤُلِ

1- التَّذكيرُ بأنَّ كُلَّ ما يصيبُ المرءَ هو من أقدارِ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

2- إحسانُ الظَّنِّ باللهِ عزَّ وجَلَّ.

3- أن يعلَمَ العَبدُ أنَّ كُلَّ ما قدَّره اللهُ عليه: من الخَيرِ.

4- أن يُحسِنَ توكُّلَه على رَبِّه؛ فإنَّ من توكَّل على اللهِ وَحدَه كفاه مِن غَيرِه.

المطلب التاسع: ثمراتُ التَّفاؤل

1- يَهَبُ المرءَ شجاعةً وقوَّةً في قلبِه، وجَسارةً على مواجَهةِ الصِّعابِ.

2- يُرَوِّحُ عن النَّفسِ ويجلِبُ لها السَّعادةَ.

3- يبعَثُ في المرءِ مَزيدًا من النَّشاطِ والحيويَّةِ والهِمَّةِ العاليةِ.

4- المتفائِلُ برحمةِ اللهِ له، المحسِنُ الظَّنَّ بهِ، يأتي بالعبادةِ على أكمَلِ وَجهٍ.

5- له أثَرٌ بالغٌ على صِحَّةِ الإنسانِ؛ فالمريضُ يتماثَلُ للشِّفاءِ إذا ما تفاءَل خيرًا واستبشَر بالشِّفاءِ، وكم من مريضٍ عِلَّتُه في تشاؤُمِه واستِدعائِه الهُمومَ والأحزانَ!

6- أنَّ في التَّفاؤُلِ اقتداءً بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واتِّباعًا لهَدْيِه الشَّريفِ.

7- حُسنُ الظَّنِّ باللهِ.

8- أنَّ في التَّفاؤُل تقويةً لعَزمِ الإنسانِ.

9- أنَّ التَّفاؤُلَ يتضَمَّنُ الرَّجاءَ والأمَلَ، والرَّجاءُ خَيرٌ للمُؤمِنِ من اليأسِ والقُنوطِ في كُلِّ الأحوالِ.

[2534] ينظر الفروق للقرافي4/240،241

[2535] أخرجه مسلم 2626

[2536] ينظر: تهذيب اللغة للأزهري 14/ 11، النهاية في غريب الحديث، والأثر لابن الأثير 3/ 406، لسان العرب لابن منظور 508 /4

10- أنَّه باعِثٌ على الجِدِّ.

11- أنَّه مُعِينٌ على الظَّفَرِ.

12- صِحَّةُ النَّفسِ واعتدالُ المِزاجِ.

13- سعادةُ النَّفسِ والقَلبِ واطمِئنانُهما.

14- دوامُ البِشرِ واللُّطفِ والهُدوءِ.

15- الرِّضا بالقَضاءِ والقَدَرِ، واعتقادُ أنَّ كُلَّ ما قدَّر اللهُ هو خيرٌ له.[2537]

المطلب العاشر: حُكمُ التَّفاؤُلِ وما يُباحُ منه

التَّفاؤُلُ إمَّا مُباحٌ وإمَّا مُستحَبٌّ، وإمَّا محرَّمٌ قد يُفضي إلى الشِّرْكِ، وذلك بحسَبِ ما يقَعُ به التَّفاؤُلُ؛ فالفَألُ المُستحسَنُ في السُّنَّةِ هو ما كان من غَيرِ قَصدٍ، وما يُظَنُّ عِندَه الخيرُ، مِثلُ الكَلِمةِ الحَسَنةِ يَسمَعُها الرَّجُلُ من غيرِ قَصدٍ، نحوُ: يا فلاحُ، وأمَّا التَّفاؤُلُ المُكتَسَبُ من الاستِقسامِ بالأزلامِ، وبالقُرعةِ، وبالنَّظَرِ في النُّجومِ، وزَجرِ الطَّيرِ، والعُطاسِ، ونحوِ ذلك؛ كُلُّ ذلك ممنوعٌ محرَّمٌ، وكذلك أخذُ الفَألِ من المُصحَفِ: إن خرَج جيدًا اتَّبعه، أو رَديئًا اجتَنَبه؛ عدَّه بعضُ أهلِ العِلمِ منَ الاستِقسامِ بالأزلامِ[2538].

المطلب الحادي عشر: أخطاءٌ شائعةٌ حَولَ التَّفاؤُلِ

1-الاعتِقادُ بأنَّ التَّفاؤُلَ مَدْعاةٌ لتَرْكِ الأخْذِ بالأسبابِ، فالتَّفاؤُلُ الذي دعَت إليه الشَّريعةُ وأقرَّتْه هو ما يَبعَثُ على الهِمَّةِ ويَنشُرُ العزيمةَ ويُوَلِّدُ الحَماسةَ في النَّفسِ لِمَزيدٍ من العَمَلِ والعَطاءِ، وليس معناه التَّواكُلَ وتَرْكَ الأسبابِ بحُجَّةِ إحسانِ الظَّنِّ باللهِ.[2539]

قال الماوَرْديُّ: „ويَعلَمُ أنَّ قَضاءَ اللهِ تعالى عليه غالِبٌ، وأنَّ رِزقَه له طالِبٌ، إلَّا أنَّ الحَرَكةَ سببٌ، فلا يَثْنيه عنها ما لا يَضُرُّ مخلوقًا، ولا يدفَعُ مَقدورًا، ولْيَمْضِ في عزائِمِه واثِقًا باللهِ تعالى إن أُعطِيَ، وراضيًا به إن مُنِع".[2540]

2-الاعتقادُ بأنَّ الفَألَ من أقسامِ الطِّيَرةِ؛ لقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم "لا طِيَرةَ، وخَيرُها الفَألُ".[2541]

قال الطِّيبيُّ: „الضَّميرُ المُؤَنَّثُ في قَولِه: "وخَيرُها" راجِعٌ إلى الطِّيَرةِ، وقد عُلِم أنَّ الطِّيَرةَ كُلَّها لا خيرَ فيها، فهو كقَولِه تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [الفرقان: 24]، وهو مبنيٌّ على زعمِهم، وهو من إرخاءِ العِنانِ في المُخادَعةِ بأن يجريَ الكلامُ على زَعمِ الخَصْمِ حتَّى لا يشمَئِزَّ عن التَّفَكُّرِ فيه، فإذا تفَكَّرَ فأنصف من نفسِه قَبِل الحَقَّ، فقَولُه: "خَيرُها الفَألُ" إطماعٌ للسَّامعِ في الاستماعِ والقَبولِ، لا أنَّ في الطِّيَرةِ خَيرًا حقيقةً، أو هو من نحوِ قَولِهم: "الصَّيفُ أحَرُّ مِن الشِّتاءِ"، أي: الفَألُ في بابِه أبلَغُ من الطِّيَرةِ في بابِها".[2542]

3-كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعجِبُه تغييرُ الاسمِ القبيحِ بالاسمِ الحَسَنِ، وقد يَظُنُّ البَعضُ أنَّ ذلك من التَّطَيُّرِ بتلك الأسماءِ، وهذا خطأٌ، وقد أجاب العُلَماءُ على ذلك، ومنهم ابنُ عبدِ البَرِّ؛ فقد قال: „ليس هذا من بابِ الطِّيَرةِ؛ لأنَّه مُحالٌ

[2537] ينظر: أدب الدنيا والدين للماوردي ص: 316، خلق المسلم لمحمد الغزالي 142، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم 3/ 1049، التفاؤل في زمن الكروب للعسكر ص: 17 فما بعدها.

[2538] ((الفروق)) للقرافي (4/240-241)، ((الفجر الساطع على الصحيح الجامع)) لمحمد الفضيل (13/15)

[2539] التفاؤل في زمن الكروب للعسكر ص: 15

[2540] أدب الدنيا والدين للماوردي ص: 316

[2541] أخرجه البخاري 5754، ومسلم 2223 مطوَّلًا من حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[2542] فتح الباري لابن حجر 10/214

أن ينهى عن شَيءٍ ويفعَلَه، وإنَّما هو من بابِ طَلبِ الفألِ الحَسَنِ" [2543]. فبعضُ الأسماءِ قد تحدِثُ في نفوسِ النَّاسِ نُفورًا وتطَيُّرًا؛ ولذلك من رحمتِه بهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَنْعُهم ممَّا يوجِبُ لهم سماعَ المكروهِ.

4- الاعتقادُ بأنَّ ما يقَعُ للإنسانِ من نفورٍ طبيعيٍّ من بعضِ الأشياءِ، كالنُّفورِ مِن صَوتِ الحَميرِ أو صَريرِ الحديدِ ونحوِهما من الأصواتِ والمرائي المنَفِّرةِ للنَّفسِ: من التَّشاؤُمِ المحَرَّمِ، وأنَّه خلافُ ما ينبغي أن يكونَ عليه المُسلِمُ من تفاؤُلٍ، وهذا خَطَأٌ.

يقولُ الرَّاغِبُ الأصفَهانيُّ: „وممَّا يجري مجراها -يعني الكِهانةَ- الطِّيَرةُ، وهو: تشاؤُمُ الإنسانِ بشَيءٍ يقَعُ تحتَ المناظِرِ والمسامِعِ ممَّا تنفِرُ منه النَّفسُ ممَّا ليس بطبيعيٍّ، فأمَّا نِفارُها ممَّا هو طبيعيٌّ في الإنسانِ كنِفارِه من صريرِ الحديدِ وصوتِ الحِمارِ، فلا يُعَدُّ مِن هذا". [2544]

المطلب الثاني عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

1- تسميةُ العَرَبِ الشَّيءَ بضِدِّه:

كانت العَرَبُ تُسَمِّي الشَّيءَ باسمِ ضِدِّه تفاؤُلًا؛ فالرُّفقةُ سُمِّيَت قافِلةً قَبلَ قُفولِها؛ تفاؤُلًا، والدُّمَّلُ سُمِّيَ دُمَّلًا قبل اندِمالِه؛ تفاؤُلًا باندمالِه، واللَّديغُ سُمِّيَ سَليمًا قَبلَ سلامتِه؛ تفاؤُلًا بالسَّلامةِ، والبَيداءُ سُمِّيَت مَفازةً -وهي مَهلَكةٌ-؛ تفاؤُلًا، وسُمِّيَ المطبوبُ -أي: المسحورُ- بذلك، فكَنَّوا بالطِّبِّ عن السِّحرِ؛ تفاؤُلًا بالبُرءِ[2545].

2- المرادُ بكَونِ الشُّؤمِ في ثلاثٍ:

وَرَد في السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ رواياتٌ فيها الشُّؤمُ مِن بعضِ الأمورِ، ممَّا يُوهِمُ التَّعارُضَ مع النُّصوصِ التي ورَد فيها النَّهيُ عن التَّشاؤُمِ؛ فقد جاء في الحديثِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: "لا عدوى ولا طِيَرةَ، إنَّما الشُّؤمُ في ثلاثٍ: في الفَرَسِ، والمرأةِ، والدَّارِ"[2546].

والأمرُ ليس كذلك، فلا تَعارُضَ؛ فالمعنى: أنَّ الشُّؤمَ لو كان له وجودٌ في شيءٍ لكان في هذه الأشياءِ؛ فإنَّها أقبَلُ الأشياءِ له، لكِنْ لا وجودَ له فيها أصلًا، وعلى هذا فالشُّؤمُ في الحديثِ السَّابِقِ وغيرِه محمولٌ على الإرشادِ منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يعني: إن كانت له دارٌ يَكرَهُ سُكناها، أو امرأةٌ يَكرَهُ صُحبتَها، أو فَرَسٌ لا تُعجِبُه، فلْيُفارِقْ بالانتقالِ من الدَّارِ، ويُطَلِّقُ المرأةَ، ويبيعُ الفَرَسَ؛ حتَّى يزولَ عنه ما يجِدُه في نفسِه من الكراهةِ[2547].

وقال ابنُ القَيِّمِ: (فإخبارُه بالشُّؤمِ أنَّه يكونُ في هذه الثَّلاثةِ ليس فيه إثباتُ الطِّيَرةِ التي نفاها، وإنَّما غايتُه أنَّ اللهَ سُبحانَه قد يخلُقُ منها أعيانًا مشؤومةً على مَن قارَبها وسَكَنها، وأعيانًا مُباركةً لا يَلحَقُ مَن قارَبَها منها شُؤمٌ ولا شَرٌّ، وهذا كما يُعطي سُبحانَه الوالِدَينِ وَلَدًا مُبارَكًا يريانِ الخَيرَ على وَجهِه، ويُعطي غيرَهما ولدًا مَشؤومًا نَذلًا يريانِ الشَّرَّ على وَجهِه، فكذلك في الدِّيارِ والنِّساءِ والخَيلِ، فهذا لَونٌ، والطِّيَرةُ الشِّركيَّةُ لونٌ آخَرُ)[2548].

وعلى هذا فلا يُوجَدُ تعارُضٌ بينَ هذه الأحاديثِ وغيرِها التي جاء النَّهيُ فيها عن التَّشاؤُمِ بالأماكِنِ، كالدَّارِ ونحوِ ذلك.

3- وَصفُ بعضِ الأيَّامِ بأنَّها نَحِساتٌ:

[2543] تنوير الحوالك للسيوطي 2/245

[2544] الذريعة إلى مكارم الشريعة ص: 148

[2545] ((شرح درة الغواص)) للشهاب الخفاجي (ص: 438)، ((لسان العرب)) لابن منظور، ((الكليات)) للكفوي (ص: 243)

[2546] أخرجه البخاري (5772) واللفظ له، ومسلم (2225) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[2547] ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (8/ 25)

[2548] ((مفتاح دار السعادة)) (2/ 257)

قال اللهُ تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ، وقال أيضًا: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ} [القمر: 19].

والمرادُ: أنَّ تلك الأيَّامَ بخُصوصِها كانت نحسًا، وأنَّ نَحْسَها عليهم دونَ غيرِهم من أهلِ الأرضِ؛ لأنَّ عادًا هم المقصودون بالعذابِ، وليس المرادُ أنَّ تلك الأيَّامَ مِن كُلِّ عامٍ هي أيَّامُ نَحسٍ على البَشَرِ، وقد وُصِفَت تلك الأيَّامُ بأنَّها نَحِساتٌ؛ لأنَّها لم يحدُثْ فيها إلَّا السُّوءُ لهم من إصابةِ آلامِ الهَشمِ المحَقَّقِ إفضاؤُه إلى الموتِ، ومُشاهدةِ الأمواتِ مِن ذويهم، وموتِ أنعامِهم، واقتِلاعِ نَخيلِهم[2549].

أمَّا ما يذكُرُه بعضُ أهلِ العِلمِ مِن أنَّ يومَ النَّحسِ المُستَمِرِّ هو يومُ الأربعاءِ الأخيرِ من الشَّهرِ، أو يومُ الأربعاءِ مُطلَقًا، حتَّى إنَّ بعضَ المُنتَسِبين لطَلَبِ العِلمِ، وكثيرًا من العوامِّ صاروا يتشاءَمون بيومِ الأربعاءِ الأخيرِ من كُلِّ شَهرٍ، حتَّى إنَّهم لا يُقدِمون على السَّفَرِ والتَّزَوُّجِ ونحوِ ذلك فيه، ظانِّين أنَّه يومُ نحسٍ وشُؤمٍ، وأنَّ نحسَه مُستَمِرٌّ على جميعِ الخَلقِ في جميعِ الزَّمَنِ: فلا أصلَ له ولا مُعَوَّلَ عليه، ولا يَلتَفِتُ إليه مَن عِندَه عِلمٌ؛ لأنَّ نحسَ ذلك اليَومِ مُستَمِرٌّ على عادٍ فقط، الذين أهلكَهم اللهُ فيه؛ فاتَّصَل لهم عذابُ البرزخِ والآخرةِ بعذابِ الدُّنيا، فصار ذلك الشُّؤمُ مُستَمِرًّا عليهم استمرارًا لا انقِطاعَ له[2550].

قال ابنُ القَيِّمِ في قَولِه تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ}: "كان اليومُ نَحسًا عليهم؛ لإرسالِ العذابِ عليهم، أي: لا يُقلِعُ عنهم كما تُقلِعُ مصائِبُ الدُّنيا عن أهلِها، بل هذا النَّحسُ دائمٌ على هؤلاء المكَذِّبين للرُّسُلِ، ومُستَمِرٌّ صِفةٌ للنَّحسِ لا لليومِ، ومَن ظَنَّ أنَّه صِفةٌ لليومِ، وأنَّه كان يومَ أربعاءَ آخِرَ الشَّهرِ، وأنَّ هذا اليومَ نَحسٌ أبدًا؛ فقد غَلِط، وأخطَأَ فَهْمَ القُرآنِ؛ فإنَّ اليومَ المذكورَ بحَسَبِ ما يقَعُ فيه، وكم للهِ من نعمةٍ على أوليائِه في هذا اليومِ، وإن كان له فيه بلايا ونِقَمٌ على أعدائِه! كما يقَعُ ذلك في غيرِه من الأيَّامِ"[2551].

وإضافةُ اليومِ إلى النَّحسِ في قَولِه تعالى: فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ باعتبارِ المنحوسِ؛ فهو يومُ نَحسٍ للمُعَذَّبين، ويومُ نَصرٍ للمُؤمِنين، ومَصائِبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائِدُ، وليس في الأيَّامِ يومٌ يُوصَفُ بنَحسٍ أو بسَعدٍ؛ لأنَّ كُلَّ يومٍ تَحدُثُ فيه نُحوسٌ لقَومٍ وسُعودٌ لآخَرين، وما يُروى من أخبارٍ في تعيينِ بعضِ أيَّامِ السَّنةِ للنَّحسِ هو من أغلاطِ القصَّاصين! فلا يُلقي المسلِمُ الحَقُّ إليها سَمْعَه، واشتَهَر بينَ كثيرٍ من المُسلِمين التَّشاؤُمُ بيومِ الأربعاءِ، وأصلُ ذلك انجَرَّ لهم من عقائدِ مجوسِ الفُرسِ، ويُسَمُّون الأربعاءَ التي في آخِرِ الشَّهرِ: «الأربِعاءَ التي لا تدورُ» أي: لا تعودُ، أرادوا بهذا الوَصفِ ضَبطَ معنى كونِها آخِرَ الشَّهرِ؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّه جميعُ النِّصفِ الأخيرِ منه، وإلَّا فأيَّةُ مُناسبةٍ بينَ عَدَمِ الدَّورانِ وبينَ الشُّؤمِ؟! وما مِن يومٍ إلَّا وهو يقَعُ في الأسبوعِ الأخيرِ من الشَّهرِ، ولا يدورُ في ذلك الشَّهرِ[2552]!

فسُعودُ الأيَّامِ ونُحوسُها إنَّما هو بسُعودِ الأعمالِ وموافقتِها لمرضاةِ الرَّبِّ تعالى، ونُحوسُ الأعمالِ مخالفتُها لِما جاءت به الرُّسُلُ، واليومُ الواحِدُ يكونُ يومَ سَعدٍ لطائفةٍ، ونَحسٍ لطائفةٍ، كما كان يومُ بدرٍ يومَ سَعدٍ للمؤمِنين، ويومَ نَحسٍ على الكافِرين[2553].

فمَن أراد أن يَعرِفَ النَّحسَ والشُّؤمَ والنَّكَدَ والبَلاءَ والشَّقاءَ على الحقيقةِ، فليتحَقَّقْ أنَّ ذلك كُلَّه في معصيةِ اللهِ، وعَدَمِ امتثالِ أمرِه[2554].

[2549] ((تفسير ابن عاشور)) (24/259، 260)

[2550] ((أضواء البيان)) للشنقيطي (7/18)

[2551] ((مفتاح دار السعادة)) (2/194)

[2552] ((تفسير ابن عاشور)) (27/192)

[2553] ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (2/194)

[2554] ((أضواء البيان)) للشنقيطي (7/19)

4- فَتْحُ المُصحَفِ:

(لا يزالُ لدينا الآنَ مِن يستقرِئُ صُحُفَ الغَيبِ عن طريقِ الأوهامِ، فيفتَحُ المُصحَفَ ليرى أوَّلَ آيةٍ تطالِعُه، فإذا تحدَّثَتْ عن خيرٍ سُرَّ ومضى لعَزمِه متفائِلًا، وإذا تحدَّثَتِ الآيةُ عن شَرٍّ تَجَهَّم وانقَبَض وكفَّ عمَّا يحاوِلُ من أمورٍ!

وما نَزَل كتابُ اللهِ ليرى النَّاسُ عاقبةَ شُئونِهم المعيشيَّةِ كَسبًا أو خَسارةً، ولكِنَّه نزل ليرى المسلِمون العاقبةَ المُطمَئِنَّةَ لِمن اعتَصَم بمبادئِ القُرآنِ، فآثَرَ الفضائِلَ وجانَبَ الرَّذائِلَ، كما أمَدَّ المؤمِنَ بزادٍ من التَّفاؤُلِ حينَ دعاه إلى السَّيرِ في جَنَباتِ الأرضِ سَعيًا وراءَ الرِّزقِ، وحينَ حَذَّره من الخواطِرِ المتشائِمةِ والوَساوِسِ المريضةِ، فقال جَلَّ ذِكرُه: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: 201])[2555].

5- من مظاهِرِ التَّشاؤُمِ التي ينبغي اجتنابُها:

- التَّطَيُّرُ من بعضِ الأزمنةِ، كالتَّشاؤُمِ مِن شَهرِ صَفَرٍ، وهي عادةٌ جاهليَّةٌ قديمةٌ، وقد نفى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هذه العادةَ القبيحةَ؛ فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "لا عَدْوى ولا طِيَرةَ، ولا هامَةَ ولا صَفَرَ"[2556].

قال ابنُ عُثَيمين: (قولُه: ((ولا صَفَرَ)) ... الأقرَبُ أنَّ ((صَفَرَ)) يعني الشَّهرَ، وأنَّ المرادَ نفيُ كونِه مشؤومًا؛ أي: لا شُؤمَ فيه، وهو كغَيرِه من الأزمانِ يُقَدَّرُ فيه الخيرُ، ويُقَدَّرُ فيه الشَّرُّ)[2557].

ومِن صُوَرِ التَّشاؤُمِ عندَ العَرَبِ بالأزمنةِ أيضًا: أنَّهم كانوا يتشاءَمون ببعضِ الأيَّامِ أو ببَعضِ السَّاعاتِ، كالحادي والعِشرينَ مِن الشَّهرِ، وآخِرِ أربعاءَ فيه، ونحوِ ذلك، فلا يسافِرُ فيها كثيرٌ من النَّاسِ، ولا يعقِدُ فيها نكاحًا، ولا يعمَلُ فيها عَمَلًا مُهِمًّا ابتداءً، يظُنُّ أو يعتَقِدُ أنَّ تلك السَّاعةَ نَحسٌ، وكذا التَّشاؤمُ ببعضِ الجِهاتِ في بعضِ السَّاعاتِ، فلا يَستقبِلُها في سَفَرٍ ولا أمرٍ حتَّى تنقضِيَ تلك السَّاعةُ أو السَّاعاتُ، وهي من أكاذيبِ المنَجِّمينَ الملاعِينِ[2558].

- التَّطَيُّرُ والتَّشاؤُمُ من الأشخاصِ، وهذا النَّوعُ من التَّشاؤُمِ قد حَصَل مع بعضِ أنبياءِ اللهِ تعالى ورُسُلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ من قِبَلِ أقوامِهم، كما أخبَرَ اللهُ تبارك وتعالى عن ذلك في قِصَصِهم.

- التَّطَيُّرُ والتَّشاؤُمُ بالطُّيورِ، كالغُرابِ، وهو عادةٌ جاهليَّةٌ أبطَلَها الشَّرعُ الشَّريفُ ونهى عنها، وهي تَصدُرُ عن جَهلٍ وسُوءِ ظَنٍّ باللهِ، وجَهلٍ بأقدارِه.

ومن ذلك التَّشاؤُمُ من الهامةِ. والهامةُ: اسمُ طائِرٍ، كان أهلُ الجاهليَّةِ يتشاءَمون بها، وهي من طَيرِ اللَّيلِ، وقيل: هي البُومةُ، وقيل: كانت العَرَبُ تَزعُمُ أنَّ رُوحَ القتيلِ الذي لا يُدرَكُ بثأرِه تصيرُ هامةً، فتقولُ: اسقُوني، فإذا أُدرِكَ بثأرِه طارت، وقيل: كانوا يزعُمون أنَّ عِظامَ المَيِّتِ -وقيل: رُوحُه- تصيرُ هامةً فتطيرُ، ويُسَمُّونه الصَّدى، فنفاه الإسلامُ ونهاهم عنه[2559]؛ فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "لا عَدْوى ولا طِيَرةَ، ولا هامةَ ولا صَفَرَ"[2560].

وكذلك التَّطَيُّرُ والتَّشاؤُمُ بأصواتِ الطُّيورِ، ومنه: التَّشاؤُمُ بنعيقِ الغُرابِ، أو صَوتِ البُومةِ إذا صاحَت، ونحوِ ذلك.

قال عِكرِمةُ: (كُنَّا عندَ ابنِ عمَرَ وعِندَه ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، فمَرَّ غرابٌ يصيحُ، فقال رجُلٌ من القومِ: خَيرٌ خَيرٌ! فقال ابنُ عَبَّاسٍ: لا خَيرَ ولا شَرَّ!)[2561].

[2555] ((من القيم الإنسانية في الإسلام)) لمحمد رجب بيومي (2/ 107)

[2556] أخرجه البخاري (5757) واللفظ له، ومسلم (2220)

[2557] ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (1/ 564)

[2558] ينظر: ((معارج القبول)) لحافظ الحكمي (3/ 990)

[2559] ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (5/ 283)

[2560] أخرجه البخاري (5757) واللفظ له، ومسلم (2220)

[2561] أخرجه الدِّينَوَري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (937)

أي: لا يكونُ عندَ نَعيبِ الغُرابِ ولا به خَيرٌ ولا شَرٌّ، بل كلُّ شيءٍ فهو مِنَ اللهِ تعالى {كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [النساء: 78]، {بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} [المؤمنون: 88][2562].

- التَّطَيُّرُ والتَّشاؤُمُ بالحيواناتِ، وكثيرٌ من أهلِ الجاهليَّةِ كانوا يتشاءَمون ببعضِ الحيواناتِ وأصواتِها، كتشاؤُمِهم بالكَلْبِ الأسوَدِ.

- التَّطَيُّرُ والتَّشاؤُمُ بالأرقامِ، وهي عادةٌ لم تكُنْ موجودةً عندَ العَرَبِ، ولم يكُنْ هذا الأمرُ معروفًا إلَّا عندَ الغربيِّينَ، ومعناه أنَّهم يتوقَّعون ما سوف يحصُلُ لهم من أحداثٍ سَيِّئةٍ بسَبَبِ رؤيتِهم بعضَ الأرقامِ التي يحسَبون أنَّها تجلِبُ الشُّؤمَ والحَظَّ السَّيِّئَ! ومن ذلك تشاؤُمُ النَّصارى وغيرِهم من ترقيمِ المقاعِدِ، وحذفَتْه بعضُ العماراتِ من أرقامِ الطَّوابِقِ والشُّقَقِ! لأنَّ النَّاسَ يتشاءَمون من ذلك الرَّقْمِ. إلى غيرِ ذلك من مظاهِرِ التَّشاؤُمِ والتَّطيُّرِ التي تتنافى مع ما أمِرْنا به من التَّفاؤُلِ.

المطلب الثالث عشر: الداعيةُ إلى الله وصفةُ التَّفاؤل

لماذا يجب أن يكون التفاؤل من صفات الداعية إلى الله؟

لأنَّ المُتفائِل يَرى النَّورَ في نهاية النفق حتى وإن كان النفق مُتَّشِحًا بالسواد، أما المتشائم فلا يرى ذاك النور البتة.

إن إشاعة أجواء التشاؤم بين المسلمين ليس من الدين في شيء، يأتي أحدهم ويقول: "لا توجد أسباب تدعونا للتفاؤل! الواقع مظلم!"، إن مثل هذا الكلام مخالف لما جاء في نصوص القرآن والسنة، والتي تثبت أن المستقبل للإسلام، الله عز وجل يقول في محكم آياته: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ * وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ * وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: 140].

وما يحدث للمسلمين الآن من ذل وهزائم لعله رحمة من الله عز وجل بهم، حتى يعودوا إلى دينهم، وإلا لو بقوا في انتصارات مع تراجعهم عن الإسلام كيف سيدركون أنهم على خطأ، وأنهم بحاجة إلى توبة وأوبة إلى الله عز وجل؟

نحن إذا تطرقنا للأشياء السلبية باستمرار، سيشيع بين الناس اليأس والقنوط، قال الله „عز في علاه" على لسان إبراهيم „عليه السلام": {قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [سورة الحجر: 56]، "هنا دفع إبراهيم عليه السلام عن نفسه رذيلة اليأس من رحمة الله، فقال على سبيل الإنكار والنفي {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} أي: أنا ليس بي قنوط أو يأس من رحمة الله؛ لأنه لا ييأس من رحمة الله تبارك وتعالى إلا القوم الضالون عن طريق الحق والصواب، الذين لا يعرفون سعة رحمته تبارك وتعالى ونفاذ قدرته، ولكن هذه البشارة العظيمة - مع تقدم سنِّي وسنْ زوجي- هي التي جعلتني من شدة الفرح والسرور أعجب من كمال قدرة الله تبارك وتعالى، ومن جزيل عطائه، ومن سابغ مننه، حيث رزقني الولد في هذه السن التي جرت العادة بأن لا يكون معها إنجاب أو ولادة".[2563]

وقال الله عز وجل في ذم من يشيع الخوف بين الناس: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ * وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: 83-85]، أي: "وإذا جاء هؤلاء الذين لم يستقر الإيمان في قلوبهم أمْرٌ يجب كتمانه متعلقًا بالأمن الذي يعود خيره على الإسلام والمسلمين، أو بالخوف الذي يلقي في قلوبهم عدم الاطمئنان، أفشوه وأذاعوا به في الناس، ولو ردَّ هؤلاء ما

[2562] ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (11/ 409)

[2563] التفسير الوسيط لآية 56 من سورة الحجر.

جاءهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى أهل العلم والفقه لَعَلِمَ حقيقة معناه أهلُ الاستنباط منهم، ولولا أنْ تَفَضَّلَ الله عليكم ورحمكم لاتبعتم الشيطان ووساوسه إلا قليلا منكم".[2564]

والأمر ينطبق على من يبث التشاؤم في نفوس المسلمين، ولا شك أن هذا من عمل الشيطان؛ لذلك علينا أن نعود مرة أخرى، ونرفع لواء الإيجابية والفأل، فإذا وجدْتَ الناسَ متقاعسُون عن الصدقةِ، بُثَّ فيهم الروحَ التي تَشَجِّعُهُم على البذل، وإذا وجدْتَ عندهم سُنَّةً مَيِّتَةً، اعمل على إحيائِهَا في قلوبِهِم، ولتكنْ البدايةُ من عندِكَ أنت؛ ليقتدي بك الآخرون.. ابدأ بمشروعٍ دعويٍ كإنْشَاءِ موقعٍ إسلامي، وستجدُ من يقتدي بك.. قم بتفعيل نشاطٍ في المسجدِ أو بتطويرِ حلقةٍ من حلقات التحفيظِ، وَسَتَرَى كم لهذا من أثرٍ ملموسٍ في النفوس.. ابحثْ عن ثَغْرٍ يسدُّ فَاقَةً لدى المسلمين، فهناك أناس عقولهم مُتَّقِدَة، وأذهانُهُم حادةٌ تتفتَّقُ عن أفكارٍ لكنَّها بحاجةٍ إلى من يبحثُ عنها، ويجعلُها واقعًا مَلمُوسًا، كُنْ أنت من يأخذُ ذمامَ المبادرةِ، فتُحَوِّلُ تلكَ الأفكارِ لنورٍ يَشِعُّ بهاءً بينَ المسلمِينَ.

المطلب الرابع عشر: الالتزام بالمنهج في العسر واليسر

إنَّ مرجعِيَّتَنَا يجِبُ أن تكونَ في كلِّ ما يمُرُّ بنا من مواقفٍ، هي: كتابُ اللهِ وسنةُ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأن يكون تعاملنا وفق القواعد الشرعية، وأن ننظر للأمورِ بمنظورٍ شرعي، كي نتجنب الوقوع في أي انحراف فكري أو سلوكي، ولنعلم تمامًا أن قضية العمل للدين قضية لا تموت بإخفاق في جولة من الجولات، أو ضعف في مرحلة من المراحل، فالإخفاق والضعف لا يعني نهاية الطريق، وإنما النهاية تكون عند الاستسلام وترك الأمل، وأن تسيطر علينا نفسية „إنا لمدركون".

إن صاحبَ القضية حينما ينظرُ في صفحاتِ السيرةِ النبوية يعلمُ أنَّ من أفضل العباداتِ الآن، هو تفعيلُ الأمل داخل نفوسِنا ونفوسِ من حولنا، مع السعي والعمل والبذل المقرون بالعلم ونور الوحي.

ولو نظرنا إلى التاريخ لوجدنا أن المحن رغم مرارتها، كانت سببا لا يُستهَانُ به في تقويةِ الأمَّة، فها هم أولاء التتار، قاموا بأعظم إبادة جماعية بعد اقتحامهم بغداد عام ١٢٥٨ وقتلهم ما يزيد على ٨٠٠ ألف مسلم، ولقد طُلب من المؤرخ ابن الأثير تدوين هذه الحقبة، والذي ظن حينها أن ما حدث نهاية العالم، وأنها إحدى علامات الساعة وأن تأريخ هذه اللحظات لن يفيد، فرفض، وقال مقولته الشهيرة: "فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا".

بعد تلك الأحداث بعامين، هُزم التتار فى معركة عين جالوت على يد الملك المظفر سيف الدين قُطُز „رحمه الله".

قال تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ * إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر:44].

وقال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران: 139]، قال عز وجل مسليا للمؤمنين: (وَلَا تَهِنُوا) أي: لا تضعفوا بسبب ما جرى (وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) أي: العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون.

المطلب الخامس عشر: لا تكنْ متشائمًا

- لا تكن متشائمًا كي لا تعيش المشكلة قبل حدوثها؛ فليس من الحكمة أن تقفز في حفرة قبل أن تراها.

[2564] التفسير الميسر.

- تدثر بالفأل وإن كثر الشر؛ فإن التشاؤم يقتل الصبر، والتمس الفرج في الضيق، والمِنَح في المِحَن فإن الله الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي قادر على أن يجعل لك مخرجًا، ويرزقُكَ من حيثِ لا تحتسب، ولقد مرت السيدة مريم بنت عمران عليها السلام بموقف عصيب، ومع ذلك قيل لها: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا} [مريم: 26]، لذلك كل ما تحتاج إليه، هو أن تعبدَ ربك، وتأخذَ بالأسباب دون أن ترهقَ نفسك بالتفكير، فالله عنده حسن التدبير، توكل عليه في كل أمورك، فسعادتك في يده وحده، لا بيد صديقٍ فينزعها، ولا بيدِ عدوٍّ فيمزقها، ولا بيد قريبٍ فيتحكم بها.
- ولا تحبط الآخرين بكلامك، حتى لو كنت ترى الحياة تعيسة؛ فغيرك يحتاج التفاؤل، فإما أن تساعده أو تنأى بنفسك عنه!

وصدق جبران خليل جبران، حينما قال:
المتفائل إنسان يرى ضوءًا غير موجود.
والمتشائم أحمق يرى ضوءًا ولا يصدق.

- وعندما تستيقظ في الصباح وأنت على قيد الحياة فاحمد الله على ذلك، ثم استقبل يومك بسمة مشرقة، وانسَ ما مرّ معك في الأمس فإشراقة الشمس وحدها تبعث في النفس التفاؤل، ولا تفسد يومك بالقلق، فالذي كفاك همّ أمس، سيكفيك هم اليوم، والذي رعاك صغيراً، لن تعجزهُ كبيراً، وكفى بالله وكيلاً، {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}، سوف تنقشع سُحب الهم، وسوف ينجلي ليل الغم بإذن أرحم الراحمين، فتفاءل، ولا تحزن.
- وعليك أَنْ تُدِيمَ حمدك لله عزَّ وجلَّ فَمَنْ أدامَ الحمدَ تتابعت عليه الخيراتُ تترا، ومَنْ أدامَ الاستغفارَ فُتِحَت له المغاليقُ {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا} [نوح: 10-12].

(أسأل الله تعالى أن يجدِّد فينا رُوح التفاؤل والأمل، وأن يرزُقني وإياكم الإخلاص في السرِّ والعلن، والسداد في القول والعمل).

المبحث التاسع عشر: الأمل والرجاء

المطلب الأول: تعريف الأمل

أولا: تعريف الأمَلِ:

قيل: "الأملُ هو انشراحُ النفسِ في وقتِ الضيقِ والأزماتِ؛ بحيث ينتظر المرء الفرج واليسر لما أصابه، والأمل يدفع الإنسان إلى إنجاز ما فشل فيه من قبل، ولا يمل حتى ينجح في تحقيقه".

وقيل الأَمَلُ: "تَوَقُّعُ حُصولِ الشَّيءِ، وأَكثَرُ ما يُستعمَلُ فيما يَبعُدُ حُصولُه، فمَن عزَم على سَفَرٍ لا إلى بلَدٍ بعيدٍ، يقولُ: أمَلْتُ الوصولَ، ولا يقولُ: طَمِعتُ إلَّا إن قَرُب منها؛ فإنَّ الطَّمَعَ ليس إلَّا في القريبِ".

"وقد يكونُ الأمَلُ بمعنى الطَّمَعِ".[2565]

ثانيا: تعريفُ الرَّجَاءِ:

قيلَ: هو الظَّنُّ بوقوعِ الخيرِ الذي يعتري صاحِبَه الشَّكُّ فيه، إلَّا أنَّ ظَنَّه فيه أغلَبُ.

وقيلَ: هو الأمَلُ في الخيرِ، والخَشيةُ والخَوفُ في الشَّرِّ؛ لأنَّهما يكونانِ مع الشَّكِّ في المرجوِّ والمَخوفِ، ولا يكونُ الرَّجاءُ إلَّا عن سببٍ يدعو إليه؛ من كَرَمِ المرجوِّ أو ما به إليه، ويتعدَّى بنفسِه؛ تقولُ: رجوتُ زيدًا، والمرادُ: رَجَوتُ الخيرَ من زيدٍ؛ لأنَّ الرَّجاءَ لا يتعدَّى إلى أعيانِ الرِّجالِ.

والرَّجاءُ "منزلةٌ" بَيْنَ الأملِ والطَّمَعِ؛ فإنَّ الرَّاجيَ يخافُ ألَّا يحصُلَ مأمولُه، فليس يُستعمَلُ بمعنى الخَوفِ.[2566]

المطلب الثاني: التَّرغيبُ في الأمل والحثُّ عليه

أ. الأمل في قَصَصِ القرآن:

- **في قصة نوح عليه السلام:**

ظل يدعو قومه إلى الإيمان بالله ألف سنة إلا خمسين عامًا، دون أن يسأم، بل كان يدعوهم بالليل والنهار، في السر والعلن، فُرَادَى وجماعات، لم يترك طريقًا من طرق الدعوة إلا سلكه معهم أملا في إيمانهم بالله {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا} [نوح: 5-9].

فأوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن معه أحد إلا من اتبعه، فصنع السفينة، وأنجاه الله هو والمؤمنين.

- **في قصة إبراهيم عليه السَّلام:**

عندما بشرته الملائكة المكرمون بغلام، عجب من بشارتهم، وقد تخطى سن الأَمل إلى شيخوخة اليأس، فطمأَنوه قائلين: {قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: 55، 56].

والقُنُوطُ: هو اليأس من الخير، وإبراهيم عليه السلام لم يكن قانطًا، وإنما قال ذلك على وجه التعجب والاستبعاد.

[2565] معجم الفروق اللغوية لبيت الله بيات ص: 73

[2566] بتصرف: التوقيف على مهمات التعاريف ص: 62

● في قصة يعقوب عليه السلام:

عندما ابتلاه الله سبحانه وتعالى بفقد ولديْه: يوسف وبنيامين، فحزن عليهما حزنًا شديدًا حتى فقد بصره، لكن يعقوب „عليه السلام" ظل صابرًا بقضاء الله، ولم ييأس من رجوع ولديه، وازداد أمله ورجاؤه في الله سبحانه أن يُعيدَهما إليه، وطلب يعقوب عليه السلام من أبنائه الآخرين أن يبحثوا عنهما دون يأس أو قنوط؛ لأن الأمل بيد الله عز وجل، فقال لهم: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: 87]، وحقق الله أمل يعقوب ورجاءه، وَرَدَّ عليه بصره وولديه.

● في قصة موسى عليه السلام:

لما أمر قومه بالاستعانة بالله والصبر على ظلم فرعون، ثم بث في نفوسهم الأمل، قال تعالى: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: 128].

وظهر الأمل والثقة في نصر الله بصورة جليَّة حين طاردهم فرعون وجنوده، فظنوا أن فرعون سيدركهم، وشعروا باليأس حينما وجدوه على مقربة منهم، وليس أمامهم سوى البحر، فقالوا لموسى: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} [الشعراء: 61].

فقال لهم موسى عليه السلام في ثقة ويقين: {كَلَا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: 62]، فأمره الله سبحانه أن يضرب بعصاه البحر، فانشق نصفين، ومشى موسى وقومه، وعبروا البحر في أمان، ثم عاد البحر مرة أخرى كما كان، فغرق فرعون وجنوده، ونجا موسى ومن آمن معه.

● أمل نبي الله أيوب عليه السلام:

عندما ابتلاه الله عز وجل في نفسه وماله وولده إلا أنه لم يفقد أمله في أن يرفع الله الضر عنه، وكان دائم الدعاء لله؛ يقول تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: 83] فلم يُخَيِّب الله أمله، فحقق رجاءه، وشفاه الله وعافاه، وعوَّضه عما فقده.

<u>ب. الأَمَلُ في نُصُوصِ السُّنَّةِ، وَبيْنَ دَفَّاتِ السِّيرَةِ العَطِرَةِ:</u>

أولا: الأمل والرجاء في نصوص السنة:

-إِنَّ الأملَ كَانَ سمةَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبثُّه في كلِّ أحوالِهِ، وبلا استثناء، يُؤَمِّلُ أصحابَهُ وأمَّتَه بحصولِ المقصودِ من العطَاءِ، والنصرِ، والتمكينِ، وأنَّ المستقبل للإسلام، ويوسع أملهم بقبول أعمالهم وفوزهم بالجنة.

- ولقد بعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد صالح أهل البحرين وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فَقَدُمَ أبو عبيدة بمالٍ من البحرين، فَسَمِعَتْ الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما انصرف تعرَّضوا له، فتبسم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رآهم، ثم قال: أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء، قالوا: أجل يا رسول الله، قال: "فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ".[2567]

[2567] صحيح البخاري (3158)

- كَمَا أَنَّ اللهَ تَعَالى قد فَتَحَ بابَ الأَمَلِ والرَّجَاءِ والثِّقةِ بعفوهِ عن التائبينَ بعدَ الزللِ والوقوعِ في المعاصِي، وَأَزَالَ من نفوسِهِم اليأسَ والقنوطَ، فَعَن أبي موسى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا".[2568]

- وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: " بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: يا عَدِيُّ، هلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ؟ قُلتُ: لَمْ أَرَهَا، وقدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: فإِنْ طَالَتْ بكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حتَّى تَطُوفَ بالكَعْبَةِ، لا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ -قُلتُ فِيما بَيْنِي وبيْنَ نَفْسِي: فأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّءٍ الَّذِينَ قدْ سَعَّرُوا البِلَادَ؟!- ولَئِنْ طَالَتْ بكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى، قُلتُ: كِسْرَى بنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ: كِسْرَى بنِ هُرْمُزَ، ولَئِنْ طَالَتْ بكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِن ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَن يَقْبَلُهُ منه، فلا يَجِدُ أحَدًا يَقْبَلُهُ منه، ولَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أحَدُكُمْ يومَ يَلْقَاهُ، وليسَ بيْنَهُ وبيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ له، فَلَيَقُولَنَّ له: ألَمْ أبْعَثْ إلَيْكَ رَسولًا فيُبَلِّغَكَ؟ فيَقولُ: بَلَى، فيَقولُ: ألَمْ أُعْطِكَ مَالًا وأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فيَقولُ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عن يَمِينِهِ فلا يَرَى إلَّا جَهَنَّمَ، ويَنْظُرُ عن يَسَارِهِ فلا يَرَى إلَّا جَهَنَّمَ. قَالَ عَدِيٌّ: سَمِعْتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: اتَّقُوا النَّارَ ولو بشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَن لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ. قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حتَّى تَطُوفَ بالكَعْبَةِ، لا تَخَافُ إلَّا اللَّهَ، وكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بنِ هُرْمُزَ، ولَئِنْ طَالَتْ بكُمْ حَيَاةٌ، لَتَرَوُنَّ ما قَالَ النَّبِيُّ أبو القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ...".[2569]

- وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصًا **على هداية قومه، ولم ييأس يومًا من تحقيق ذلك فكان دائِمَ الدعاءِ لهم بأن يهديهم الله، ويشرح صدورهم للإسلام.**

وقد جاءه جبريل -عليه السلام- بعد رحلة الطائف الشاقة، وقال له: لقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبيْن (الجبلين)، فقال صلى الله عليه وسلم: "بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا".[2570]

ثانيا: الأمل والرجاء في السيرة النبوية:

إنَّ السِّيرَةَ النَبَوِّيةَ زَاخِرَةٌ بالمواقِفِ والأحداثِ التي تُبَيِّنُ مَدَى التَّفَاؤُلِ والأمَلِ، والثِّقَةِ واليقينِ بِنَصْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، الذي كانَ يتحلَّى به النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَغْرِسُهُ في نفوسِ أَصْحَابِهِ والمسلِمِينَ مِنْ بعْدِهِم، وَمِنْهَا:

● الهجرة النبوية:

في حادثة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، أخذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأسباب الظاهرة والمتاحة له، إلا أن المشركين انطلقوا خلفه يرصدون الطرق، ويفتشون في الجبال، حتى وصلوا إليه وهو في غار ثور، وسمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه سير أقدامهم وكلامهم، وهنا خاف أبو بكر رضي الله عنه على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحُقَّ له ذلك، فقال للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا! فقال صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر !ما ظنك باثنين الله ثالثهما".[2571]

قال النووي: "معناه ثالثهما بالنصر والمعونة"، وقال ابن الجوزي: وقوله: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما"، أي: بالنصرة والإعانة، أفتظن أن يخذلهما، فرده من النظر إلى الأسباب إلى المُسَبِّب".

[2568] صحيح مسلم (2759)

[2569] أخرجه البخاري (3595)، ومسلم (1016)

[2570] صحيح البخاري (3231)

[2571] أخرجه البخاري (3653)، ومسلم (2381)، والترمذي (3096) واللفظ له، وأحمد (11)

وقال ابن عثيمين: "فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصَرَنا، لأننا في الغار تحته، فقال :"ما ظنك باثنين الله ثالثهما"، وفي كتاب الله أنه قال :{لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40]، فيكون قال الأمرين كلاهما، أي: قال :"ما ظنك باثنين الله ثالثهما"، وقال: {لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}، فقوله :"ما ظنك باثنين الله ثالثهما"، يعني: هل أحد يقدر عليهما بأذية أو غير ذلك؟ والجواب: لا أحد يقدر، لأنه لا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع، ولا مذل لمن أعزَّ ولا معز لمن أذل :{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:26]".

- **غزوة بدر:**

مع أن المعادلة العسكرية في غزوة بدر لم تكن متكافئة، فقريش كان عددها ألفًا، معهم مائتا فرس، في حين كان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وما كان معهم إلا فرَسان، ومع ذلك كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغرس في أصحابه الأمل والتفاؤل والوثوق واليقين بنصر الله عز وجل لهم، رغم أنهم أقل في العدد والعدة من عدوهم، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: "كُنَّا مع عُمَرَ بيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَتَرَاءَيْنَا الهِلَالَ، وَكُنْتُ رَجُلًا حَدِيدَ البَصَرِ، فَرَأَيْتُهُ وَلَيسَ أَحَدٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَآهُ غيرِي، قالَ: فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِعُمَرَ: أَمَا تَرَاهُ؟ فَجَعَلَ لا يَرَاهُ، قالَ: يقولُ عُمَرُ: سَأَرَاهُ وَأَنَا مُسْتَلْقٍ علَى فِرَاشِي، ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا عن أَهْلِ بَدْرٍ؛ فَقالَ: إنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ كانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بالأمْسِ، يقولُ: هذا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا، إنْ شَاءَ اللَّهُ. قالَ: فَقالَ عُمَرُ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بالحَقِّ، ما أَخْطَؤُوا الحُدُودَ الَّتي حَدَّ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، قالَ: فَجُعِلُوا في بِئْرٍ بَعْضُهُمْ علَى بَعْضٍ، فَانْطَلَقَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ حتَّى انْتَهَى إليهِم، فَقالَ: يا فُلَانَ بنَ فُلَانٍ، وَيَا فُلَانَ بنَ فُلَانٍ، هلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَكُمُ اللَّهُ وَرَسولُهُ حَقًّا؟ فإنِّي قدْ وَجَدْتُ ما وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا. قالَ عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، كيفَ تُكَلِّمُ أَجْسَادًا لا أَرْوَاحَ فِيهَا؟! قالَ: ما أَنْتُمْ بأَسْمَعَ لِما أَقُولُ منهمْ، غيرَ أنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شيئًا"[2572].

- **وفي غزوةِ أُحُدٍ:**

أَصَابَ المسْلمُونَ مَا أَصَابَهُم مِنْ قَتْلٍ وَجُرْحٍ، فَنَهَاهُم الله تعالى عنِ الوهنِ والحزنِ، وحَثَّهُم على الثَّبَاتِ، وَغَرَسَ الأَمَلَ في نفوسِهِم، قال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 139].

- **غزوة الأحزاب:**

رغم ما حدث للمسلمين في تلك الغزوة من تعب شديد في حفر الخندق، وجوع، وخوف، وشدة برد، وحصار المشركين لهم في المدينة، وخيانة اليهود، وتخذيل المنافقين وإرجافهم، واشتداد الكرب، حتى قال الله تعالى مصوراً حالهم حينئذٍ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا} [الاحزاب:9-11].

ورغم ذلك كله كان النبي صلى الله عليه وسلم يغرس في أصحابه التفاؤل والأمل، والثقة واليقين بنصر الله عز وجل، ويعدهم ويبشرهم بفتح الشام وفارس واليمن، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: "لما كان حين أمرنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بحَفْرِ الخَنْدَقِ عَرَضَتْ لنا في بعضِ الخَنْدَقِ صخرةٌ لا نأخذُ فيها المَعَاوِلَ، فاشتَكَيْنا ذلك إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فجاء فأخذ المِعْوَلَ فقال : بسمِ اللهِ، فضرب ضربةً فكسر ثُلُثَها، وقال : اللهُ أكبرُ أُعْطِيتُ مَفاتيحَ الشامِ، واللهِ

[2572] أخرجه مسلم (2873)

إني لَأُبْصِرُ قصورَها الحُمْرَ الساعةَ، ثم ضرب الثانيةَ فقطع الثلُثَ الآخَرَ فقال : اللهُ أكبرُ، أُعْطِيتُ مفاتيحَ فارسٍ، واللهِ إني لَأُبْصِرُ قصرَ المدائنِ أبيضَ، ثم ضرب الثالثةَ وقال : بسمِ اللهِ، فقطع بَقِيَّةَ الحَجَرِ فقال : اللهُ أكبرُ أُعْطِيتُ مَفاتيحَ اليَمَنِ، واللهِ إني لَأُبْصِرُ أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذا الساعةَ".[2573]

ولما بشر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بهذه البشريات، قال المنافقون: "إن محمداً يعدنا بكنوز كسرى وقيصر، ولا يأمن أحدنا أن يخرج إلى قضاء حاجته"، ومع ذلك نصر الله عز وجل المسلمين في غزوة الأحزاب انتصاراً عظيما، وتحقق لهم كل ما بشرهم به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

● **غزوة خيبر:**

عن أنس رضي الله عنه: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى خيبر فجاءها ليلا، وكان إذا جاء قوما بليل لا يغير عليهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت يهود بمساحيهم ومكاتلهم (أي: آلات زراعية)، فلما رأوه قالوا محمد والله، محمد والخميس (أي: الجيش)، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إنَّا إذا نَزَلْنا بساحَةِ قَوْمٍ {فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ} [الصافات: 177]".[2574]

قال ابن حجر في فتح الباري: قال السهيلي: "يؤخذ من هذا الحديث التفاؤل، لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رأى آلات الهدم أخذ منه أن مدينتهم ستخرب".

ومما سبق يتبين لنا أنَّ السيرة النبوية مليئة بالبشائر التي تبعث على التفاؤل، وتجدد الأمل، وتقوي اليقين، وتؤكد على حصول التمكين لأمتنا، والنصر لها على أعدائها، على الرغم مما عانته وتعانيه من ابتلاءات في بعض المراحل والأوقات، فقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ اللَّهَ زَوَى لي الأرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي مِنْها".[2575]

فالتفاؤل والأمل من هدي نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهما نِبراسٌ يضيء الطريق والحياة، وفجرٌ ساطِعٌ في دياجِير الكُرُبات والابتلاءات، مع الأخذ بالأسباب وإعداد العُدّة: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال:60].

وعلى ذلك ربَّى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه، فكانوا يرون أن المحن والابتلاءات ليست إلا سحابة صيف، عن قليلٍ تزول وتنقشع بفضل الله تعالى ورحمته، قال الله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: 6:5].

قال السعدي: "بشارة عظيمة، أنه كلما وُجِدَ عُسْرٌ وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جُحْر ضبٍّ لدخل عليه اليُسر، فأخرجه كما قال تعالى: {سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [الطَّلاق:7]، وكما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وأنَّ الفرَجَ مع الكَرْبِ، وأنَّ مع العُسرِ يُسرًا".[2576]

ت. أقوال السلف في الأمل:

- قال ابن حجر: "في الأمل سر لطيف؛ لأنه لولا الأمل ما تَهَنَّى أحد بعيش، ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا".[2577]

[2573] أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (8858)، والروياني في ((المسند)) (410)، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (421/3)

[2574] صحيح البخاري (4197)

[2575] صحيح مسلم (2889)

[2576] أخرجه الترمذي (2516) مختصراً بنحوه، وأحمد (2803) باختلاف يسير.

[2577] فتح الباري؛ ابن حجر 11 / 237

- وقال الماوردي عن نعمة الأمل: "أرفق الله تعالى خلقه باتساع الآمال حتى عمر به الدنيا، فعمَّ صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها إلى قرن بعد قرن، فيتم الثاني ما أبقاه الأول من عمارتها، ويرمم الثالث ما أحدثه الثاني من شعثها؛ لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمة، وأمورها على ممر الدهور منتظمة".[2578]

- وقال ابن القيم: "للحياة حدان: أحدهما: الأمل، والآخر: الأجل، فبالأول بقاؤها، وبالآخر فناؤها" [2579]، وعن طول الأمل يقول: "مذموم للنَّاس إلا للعلماء، فلولا أملهم لما ألَّفوا ولا صنَّفوا".[2580]

وقال أيضًا: فلولا طول الأمل لخربت الدُّنيا وإنما عمارتها بالآمال.[2581]

قالت رابعة العدوية لصالح المزي وكان يقول كثيرًا: "مَن أدمن قرع باب يوشك أن يُفتح له"، فقالت رابعة: "إلى متى تقول مَن أغلق هذا حتى يستفتح؟"، فقال صالح: "شيخ جهِل وامرأة عَلِمَتْ".

هذا وَبابُ الذي تَدعوه مُنفَتِحُ
عَلى الدَّوامِ فَطِب يا واسِعَ الأَمَلِ.[2582]

وقال الطغرائي: أعلِّل النفس بالآمال أرقبها
ما أضيق العيش لولا فُسحة الأمل.[2583]

ولذلك علينا معاشرُ الدعاةِ بث رُوحَ الأَمَلِ بينَ النَّاسِ، ومحارَبَة اليَأْس والتشاؤم.

المطلب الثالث: الأمل واقترانه بالعمل

الأمل في الله، ورجاء مغفرته يقترن دائمًا بالعمل، والأخذ بالأسباب لا بالكسل والتمني، قال تعالى: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا} [الكهف: 110]، وقال عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [البقرة: 218].
فلا يقول عبد إن عنده أمل في الله، وحسن ظن به، ثم نراه لا يؤدي ما عليه من فروض وأوامر تجاه الله عز جل، ولا ينتهي عما نهى عنه عز وجل، ومن يفعل ذلك فهو مخادِعٌ نفسَه، وَمُورِدُها المهَالِكَ لا محالة.

المطلب الرابع: فضل الأمل والرجاء

الأَمَلُ يَدْفَعُ النَّاسَ إِلَى العَمَلِ، ويُعِينُهم عَلَى مَشَقَّاتِ الحَيَاةِ؛ فَيَدْفَعُ الزَّارِعُ للزَرْعِ أَمَلًا في الحصادِ، ويُغْرِي التَّاجِرَ للمُخَاطَرَةِ بِمَالِهِ أَمَلًا في الرِّبْحِ، ويُحَفِّزُ المتَعَلِّمَ إلى الصَّبْرِ في طَلَبِ العِلْمِ أَمَلًا في النَّجَاحِ، وَيَتَجَرَّعُ المَرِيضُ مُرَّ الدَّوَاءِ أملًا في السلامة والعافية، فلولا الأمل ما زرع زارع، ولا تَاجَرَ متاجر، ولا تَعَلَّمَ متعلمٌ، ولا تجرَّعَ مريضٌ دواءً، ولولا الأمل لامتنع الإنسان عن مواصلة الحياة ومجابهة مصائبها وشدائدها، ولولاه لسيطر اليأس على قلبه، وأصبح يحرص على الموت، ولذلك قيل: "اليأس سلم القبر، والأمل نور الحياة"، وقيل: "لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس".
إنَّ الْيَأْسَ: حالةٌ نفسيَّةٌ شعورية تعتري الإنسانَ تحتَ وطأةِ الفتنِ وشدةِ المِحنِ، وكثرة وتسلُّط الأعداءِ والظالمينَ، والذي قد

[2578] أدب الدنيا والدين ص 144
[2579] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان 2/ 266
[2580] بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية 3/1
[2581] مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة 1/ 283
[2582] آداب الأكل ص 72
[2583] الأوراق قسم أخبار الشعراء 1/ 7

يصل بصاحبه إلى القنوط وانقطاع الأمل، قال ابن حجر: "اليأس قد ينضم إليه حالة هي أشد منه، وهي التصميم على عدم وقوع الرحمة له، وهذا هو القنوط، بحسب ما دل عليه سياق الآية :{وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ} [فصِّلت:49]".

وقد نهى الله عز وجل عن اليأس والقنوط وحذر منهما، فقال سبحانه: {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر:56]، وقال تعالى: {إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: 87].

فالمسلم لا ييأس من رحمة الله؛ لأن الأمل في عفوه عز وجل هو الذي يدفع إلى التوبة واتباع صراطه المستقيم، وقد حث الله عز وجل على ذلك، فقال: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53].

وقال حكيم: "لولا الأمل ما بنى بانٍ بنيانًا، ولا غرس غارس شجرًا".

ولولا الأمل لما تحققت كل الإنجازات التي وصلت إليها البشرية، وذلك لأن المخترع لم يتمكن من تحقيق إنجازه من أول مرة في أغلب الأحيان، وإنما حاول تحقيقه مرة بعد مرة دون يأس أو ملل، ولذلك قيل: "الأمل يُنَمِّي الطموح والإرادة، واليأس يقتلها".

فليحرص المسلم على الأمل في كل جوانب حياته، وَلْيَتَمَسَّكَ به تَمَسُّكِهِ بالحياة، ولا يستسلم لليأس والقنوط أبدًا.

وقد قال الشاعر:

أُعَلِّلُ النَّفْسَ بالآمال أَرْقُبُها
ما أَضْيَقَ الْعَيْشَ لولا فُسْحَة الأمل[2584]

فالإنسانُ يصبرُ على ضِيقِ العَيشِ في الدنيا على أملِ أن يُفَرِّجَ الله همومه، ويوسع عليه، ولولا ذلك لضَاقَتْ عليه الدُّنْيَا بما رَحُبَتْ، يقول الله سبحانه: {وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: 87].

وإِنَّ مِنْ أعظَم الأرزاقِ التي يؤتيها الله عبدَهُ؛ أَنْ يرزقَهُ الفَأْلَ الحسَن، واستشعارَ الفرجِ وحُسْنَ الظَنِّ؛ حتى وإِنْ كانت جميع الأسباب حوله تُوحي له بانعدامها، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "الشِّدَةُ بَتْرَاء لَا دَوَامَ لهَا وَإِنْ طَالَتْ".

ولقد كَتَبَ أبو زرعة الرازي إلى إسحاقَ بنِ رَاهَوَيْهِ: "لا يهولنك الباطل فإن للباطل جولة ثم يتلاشى".[2585]

المطلب الخامس: قَانُونُ الجُهُودِ المَهْدُورَة

إِنَّ بَذْلَ الجهدِ لتحقِيقِ الأهدافِ مِنَ الأُمُورِ الهامَّةِ التي تُسَاعِدُ على وُصُولِكَ لنَتِيجَةٍ مُرضية بشكلٍ أسرع، وَلَكِن مَاذَا يحدثُ لَو تَعَرَّضْتَ للفَشَلِ بعدَ بَذْلِكَ أَقْصَى طَاقَةٍ ممكنةٍ لك، هل سَتَيْأَس؟ أَمْ أَنَّكَ سَتُعِيدُ المحاولَةَ مَرةً أُخْرَى؟

لَمْ يَكُنْ الجوابُ بحاجَةٍ إِلَى الكَثِيرِ من التفكيرِ، إذا عَلِمنَا مَا هُوَ قَانُونُ الجهودِ المهدورَةِ، فالحياةُ البريةُ بالرغم من أَنَّهَا عَالَمٌ بِلَا قَانُون إِلَى أَنَّ صُعُوبَةَ الحياةِ فيها منحتْ الكائناتِ الحيَّةَ رغبةً شديدةً لتستمر على قيدِ الحياةِ، ومن هنا جاءتْ فكرة هذا القانون.

إذن، ما هو قانون الجهود المهدورة؟

لا بد أن نعلم أولا أن الأسد ينجح فقط في ربع محاولاته للصيد، أي 25% نجاح و75% فشل ومع هذه النسبة الضئيلة -

---

[2584] ديوان الطغرائي، والطغرائي، هو: الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، أبو إسماعيل، مؤيد الدين، الأصبهاني الطغرائي. شاعر، من الوزراء الكتاب، كان ينعت بالأستاذ. ولد بأصبهان، واتصل بالسلطان مسعود بن محمد السلجوقي (صاحب الموصل) فولاه وزارته. ثم اقتتل السلطان مسعود وأخ له اسمه السلطان محمود فظفر محمود وقبض على رجال مسعود، وفي جملتهم الطغرائي، فأراد قتله ثم خاف عاقبة النقمة عليه، لما كان الطغرائي مشهوراً به من العلم والفضل، فأوعز إلى من أشاع اتهامه بالإلحاد والزندقة، فتناقل الناس ذلك، فاتخذه السلطان محمود حجة، فقتله.

[2585] مقدمة الجرح والتعديل 1/324

التي تشاركه فيها معظم الضواري إلا أنه من المستحيل أن ييأس ويتوقف عن المطاردة، والسبب الرئيسي في ذلك لا يرجع إلى الجوع كما قد يظن البعض وإنما يرجع إلى أن الحيوانات غريزتها مبنية على استيعاب قانون „الجهود المهدورة“، وهو القانون الذي تعمل به الطبيعة كلها:

فنصف بيوض الأسماك يتم التهامها.

ونصف مواليد الدببة تموت قبل البلوغ.

ومعظم أمطار العالم تهطل في المحيطات.

كما أن معظم بذور الأشجار تأكلها العصافير.

وغيرها من هذه الأمثلة التي لا تعد ولا تحصى، بينما الإنسان وحده فقط من يرفض هذا القانون الطبيعي الكوني، ويعتبر أن عدم نجاحه في بضع محاولات دليل على فشله، فما تبذله من طاقة حتى وإن كانت كبيرة ربما لا تمكنك من تحقيق هدفك في المحاولة الأولى أو الثانية، بل ستحتاج عدة محاولات وإصرار على تحقيق هدفك لتصل إلى ما تريده

لكن الحقيقة أن: الفشل الوحيد هو "التوقف عن المحاولة"، والنجاح ليس معناه أن يكون لديك سيرة حياة خالية من العثرات والسقطات بل النجاح هو أن تمشي على أخطائك وأن تتخطى كل مرحلة ذهبت جهودك فيها هدرا وتبقى تتطلع إلى المرحلة المقبلة، ولو كان هنالك من حكمة تلخص حال هذه الدنيا فستكون بكل بساطة في كلمة: "استمر".

المطلب السادس: الشدائد لا تدوم

الشدائد مهما بلغت وتعاظمت لا تدوم؛ فرحمة الله أعظم وفرجه أقرب؛ فلا تيأس ولا تقلق، وقل: "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث"، وكن على ثقة عندما يشاءُ الله، فلا قيمةَ لقوانينِ الحياة، ولا وزنَ لتدبيرِ البشَر، ولا أهمّيةَ لحواجزِ المستحيل.

سَلِ الله أن يحبّك حُبًّا تتجاوزُ به الحياةَ حتّىٰ تنتهي بك وهو راضٍ عنك، سله أن يُعظّم الرِّضا في صدرِك، واليقين في قلبك، فتغدو الأمورُ الشَّديدةُ هيّنةً عليك.

المطلب السابع: بث الأمل في نفوس العاصين

- قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِن أَحَدِكُمْ كانَ علَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فلاةٍ[2586]".[2587]

- وقال نَبِيَّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " كانَ فِيمَن كانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عن أعْلَمِ أهْلِ الأرْضِ فَدُلَّ علَى راهِبٍ، فأتاهُ فقالَ: إنَّه قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهلْ له مِن تَوْبَةٍ؟ فقالَ: لا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ به مِئَةً، ثُمَّ سَألَ عن أعْلَمِ أهْلِ الأرْضِ فَدُلَّ علَى رَجُلٍ عالِمٍ، فقالَ: إنَّه قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ، فَهلْ له مِن تَوْبَةٍ؟ فقالَ: نَعَمْ، ومَن يَحُولُ بيْنَهُ وبيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إلى أرْضِ كَذا وكَذا، فإنَّ بها أُناسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فاعْبُدِ اللَّهَ معهُمْ، ولا تَرْجِعْ إلى أرْضِكَ، فإنَّها أرْضُ سَوْءٍ، فانْطَلَقَ حتَّى إذا نَصَفَ الطَّرِيقَ أتاهُ المَوْتُ، فاخْتَصَمَتْ فيه مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذابِ، فقالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جاءَ تائِبًا مُقْبِلًا بقَلْبِهِ إلى اللهِ، وقالَتْ مَلائِكَةُ العَذابِ: إنَّه لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فأتاهُمْ مَلَكٌ في صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بيْنَهُمْ، فقالَ: قِيسُوا ما بيْنَ الأرْضَيْنِ، فَإلَى أيَّتِهِما كانَ أدْنَى فَهو له، فَقاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أدْنَى إلى الأرْضِ الَّتي أرادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ. قالَ قَتادَةُ: فقالَ الحَسَنُ ذُكِرَ لَنا، أنَّه لَمَّا أتاهُ المَوْتُ نَأَى بصَدْرِهِ".[2588]

[2586] الفلاة: الصحراء الواسعة - اللسان 10/330 فلا.

[2587] صحيح مسلم (2747)

[2588] صحيح مسلم (2766)

المطلب الثامن: قائدٌ عَلَّمَتْهُ نَمْلَةٌ

يُحكى أن قائدًا هُزِمَ في إحدى المعارك، فسيطر اليأس عليه، وذهب عنه الأمل، فترك جنوده وذهب إلى مكان خال في الصحراء، وجلس إلى جوار صخرة كبيرة.

وبينما هو على تلك الحال، رأى نملة صغيرة تَجُرُّ حبة قمح، وتحاول أن تصعد بها إلى منزلها في أعلى الصخرة، ولما سارت بالحبة سقطت منها، فعادت النملة إلى حمل الحبة مرة أخري، وفي كل مرة، كانت تقع الحبة فتعود النملة لتلتقطها، وتحاول أن تصعد بها، وهكذا فأخذ القائد يراقب النملة باهتمام شديد، ويتابع محاولاتها في حمل الحبة مرات ومرات، حتى نجحت أخيرًا في الصعود بالحبة إلى مسكنها، فتعجب القائد المهزوم من هذا المنظر الغريب، ثم نهض القائد من مكانه وقد ملأه الأمل والعزيمة فجمع رجاله، وأعاد إليهم روح التفاؤل والإقدام، وأخذ يجهزهم لخوض معركة جديدة، وبالفعل انتصر القائد على أعدائه، وكان سلاحه الأول هو الأمل وعدم اليأس، الذي استمده وتعلمه من تلك النملة الصغيرة.

(أسأل الله تعالى أن يجدِّد فينا رُوح الأمل والرجاء، وأن يرزُقني وإياكم الإخلاص في السرِّ والعلن، والسداد في القول والعمل).

المبحث العشرون: الوفاء بالعهود واحترام الوقت (المواعيد)

الوفاء، أن يلتزم الإنسان بما عليه من عهود ووعود وواجبات، وقد أمر الله -تعالى- بالوفاء بالعهد، فقال جل شأنه: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} [الإسراء: 34]، وقال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ} [النحل: 91].

المطلب الأول: معنى الوفاء

- **الوفاءِ لُغةً:**

الوفاءُ ضِدُّ الغَدرِ، يُقالُ: وفى بعَهدِه وَأَوْفَى بمَعنًى، ووفى بعَهدِه يفي وفاءً، وأوفى: إذا تَمَّمَ العَهدَ ولم يَنقُصْ حِفظَه.[2589]

- **مَعنى الوفاءِ اصطِلاحًا:**

الوفاءُ هو: „مُلازَمةُ طَريقِ المواساةِ، ومُحافظةُ عُهودِ الخُلطاءِ".[2590]

وقيل: „هو الصَّبرُ على ما يبذُلُه الإنسانُ مِن نَفسِه، ويرهَنُ به لسانَه، والخُروجُ مِمَّا يضمَنُه، وإن كان مُجحِفًا به".[2591]

المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ الوفاءِ وغَيرِه مِن الصِّفاتِ

- **الفرقُ بَينَ الوفاءِ والصِّدقِ:**

قيل: هي أعَمُّ وأخَصُّ، فكُلُّ وفاءٍ صِدقٌ، وليس كُلُّ صِدقٍ وفاءً.[2592]

- **الفرقُ بَينَ الوفاءِ والأمانةِ:**

مَعنى الأمانةِ قَريبٌ مِن مَعنى الوفاءِ؛ فإذا كانت الأمانةُ بمَعنى الفرائِضِ فمن الوفاءِ إتمامُها كامِلةً غَيرَ مَنقوصةٍ، وكذا إذا كانت بمَعنى الوديعةِ.[2593]

المطلب الثالث: الترغيب في الوفاء بالعهود والحث عليه

أ. الوفاء بالعهود في نصوص القُرآنِ الكريمِ:

لقد حث القرآن والسنة على الوفاء بالعقود والعهود، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: 1].
كما قال تعالى لِبَنِي إسرائيل: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} [البقرة: 40].

ورَدَت آياتٌ في كِتابِ اللهِ تَحُثُّ على الوفاءِ بالعَهدِ والوعدِ، منها:
- قولُه سُبحانَه: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} [الإسراء: 34].

[2589] مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص: 878، لسان العرب لابن منظور

[2590] التعريفات للجرجاني ص: 253، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص: 339، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم للسيوطي ص: 208

[2591] تهذيب الأخلاق المنسوب للجاحظ ص: 24

[2592] معجم الفروق اللغوية لبيت الله بيات ص: 575

[2593] موسوعة التفسير الموضوعي 35/159

قال الطَّبَريُّ في تَفسيرِ هذه الآيةِ: "وأوفوا بالعَقدِ الذي تُعاقدونَ النَّاسَ في الصُّلحِ بَينَ أهلِ الحَربِ والإسلامِ، وفيما بَينَكم أيضًا، والبُيوعِ والأشربةِ والإجاراتِ، وغَيرِ ذلك مِن العُقودِ {إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا}، يقولُ: إنَّ اللهَ جَلَّ ثَناؤُه سائِلٌ ناقِضَ العَهدِ عن نَقضِه إيَّاه، يقولُ: فلا تَنقُضوا العُهودَ الجائِزةَ بَينَكم وبَينَ مَن عاهدتُموه -أيُّها النَّاسُ- فتُخفِروه، وتَغدِروا بمَن أعطَيتُموه ذلك.

وإنَّما عنى بذلك أنَّ العَهدَ كان مَطلوبًا".[2594]

- وقال عزَّ مِن قائلٍ: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ} [الرعد: 19-20].

قال الشَّوكانيُّ في تَفسيرِ هذه الآيةِ: "أي: بما عَقدوه مِن العُهودِ فيما بَينَهم وبَينَ رَبِّهم، أو فيما بَينَهم وبَينَ العِبادِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ [الرعد: 20] الذي وثَّقوه على أنفُسِهم، وأكَّدوه بالأيمانِ ونَحوِها، وهذا تَعميمٌ بَعدَ التَّخصيصِ؛ لأنَّه يدخُلُ تَحتَ الميثاقِ كُلُّ ما أوجَبه العَبدُ على نَفسِه، كالنُّذورِ ونَحوِها، ويُحتَمَلُ أن يكونَ الأمرُ بالعَكسِ، فيكونَ مِن التَّخصيصِ بَعدَ التَّعميمِ، على أن يُرادَ بالعَهدِ جَميعُ عُهودِ اللهِ، وهي أوامِرُه ونَواهيه التي وصَّى بها عَبيدَه، ويدخُلُ في ذلك الالتِزاماتُ التي يُلزِمُ بها العَبدُ نَفسَه، ويُرادُ بالميثاقِ: ما أخَذَه اللهُ على عِبادِه حينَ أخرَجَهم مِن صُلبِ آدَمَ في عالمِ الذَّرِّ المَذكورِ في قَولِه سُبحانَه: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ} [الأعراف: 172] ".[2595]

- وقال سُبحانَه: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: 10].

- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة: 1].

قال السَّعديُّ: "هذا أمرٌ مِن اللهِ تعالى لِعبادِه المُؤمِنينَ بما يقتَضيه الإيمانُ بالوفاءِ بالعُقودِ، أي: بإكمالِها، وإتمامِها، وعَدَمِ نَقضِها ونَقصِها، وهذا شامِلٌ للعُقودِ التي بَينَ العَبدِ وبَينَ رَبِّه مِن التِزامِ عُبوديَّتِه، والقيامِ بها أتَمَّ قيامٍ، وعَدَمِ الانتِقاصِ مِن حُقوقِها شَيئًا، والتي بَينَه وبَينَ الرَّسولِ بطاعَتِه واتِّباعِه، والتي بَينَه وبَينَ الوالدَينِ والأقارِبِ ببرِّهم وصِلَتِهم، وعَدَمِ قَطيعَتِهم، والتي بَينَه وبَينَ أصحابِه مِن القيامِ بحُقوقِ الصُّحبةِ في الغِنى والفقرِ، واليُسرِ والعُسرِ، والتي بَينَه وبَينَ الخَلقِ مِن عُقودِ المُعامَلاتِ، كالبَيعِ والإجارةِ، ونَحوِهما، وعُقودِ التَّبرُّعاتِ كالهبةِ ونَحوِها، بَل والقيامِ بحُقوقِ المُسلمينَ التي عَقدَها اللهُ بَينَهم في قَولِه: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: 10] بالتَّناصُرِ على الحَقِّ، والتَّعاوُنِ عليه والتَّآلُفِ بَينَ المُسلمينَ وعَدَمِ التَّقاطُعِ، فهذا الأمرُ شامِلٌ لأُصولِ الدِّينِ وفُروعِه؛ فكُلُّها داخِلةٌ في العُقودِ التي أمَرَ اللهُ بالقيامِ بها".[2596]

ب. الوفاء بالعهود في السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

- عن أبي بَكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "مَن صَلَّى الصُّبحَ فهو في ذِمَّةِ اللهِ، فلا تُخفِروا اللهَ في عَهدِه، فمَن قَتَله طَلبَه اللهُ حتَّى يَكُبَّه في النَّارِ على وَجهِه".[2597]

"(في ذِمَّةِ اللهِ) أي: في عَهدِه وأمانِه في الدُّنيا والآخِرةِ، وهذا غَيرُ الأمانِ الذي ثَبَتَ بكلمةِ التَّوحيدِ، (فلا تُخفِروا اللهَ في ذِمَّتِه) قال في النِّهايةِ: خَفرتُ الرَّجُلَ: أجَرتُه وحَفِظتُه. وأخفَرتُ الرَّجُلَ: إذا نَقَضْتَ عَهدَه وذِمامَه".[2598]

[2594] جامع البيان 17/444

[2595] فتح القدير 4/105

[2596] تيسير الكريم الرحمن ص: 218

[2597] رواه ابنُ ماجه 3945، والضياء في الأحاديث المختارة 64، صحَّحه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه 3945، وقال المنذري في الترغيب والترهيب 1/219: رجال إسنادِه رجالُ الصَّحيحِ.

- وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافِقًا خالِصًا، ومن كانت فيه خَصلةٌ منهُنَّ كانت فيه خَصلةٌ من النِّفاقِ حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خان، وإذا حدَّث كذَب، وإذا عاهَد غدَر، وإذا خاصَم فَجَر".[2599]

- وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "إذا جَمَعَ اللهُ الأوَّلينَ والآخِرينَ يومَ القيامةِ يُرفعُ لكُلِّ غادِرٍ لواءٌ، فيُقالُ: هذه غَدرةُ فُلانِ بنِ فُلانٍ!".[2600]

قَولُه: (لكُلِّ غادِرٍ لواءٌ) قال النَّوويُّ: "مَعناه: لكُلِّ غادِرٍ علامةٌ يُشهَرُ بها في النَّاسِ؛ لأنَّ مَوضوعَ اللِّواءِ الشُّهرةُ مَكانَ الرَّئيسِ علامةً له، وكانت العَرَبُ تَنصِبُ الألويةَ في الأسواقِ الحَفِلةِ لغَدرةِ الغادِرِ؛ لتَشهيرِه بذلك".[2601]

وقال القُرطُبيُّ: "هذا خِطابٌ مِنه للعَرَبِ بنَحوِ ما كانت تَفعلُ؛ لأنَّهم كانوا يرفعونَ للوفاءِ رايةً بَيضاءَ، وللغَدرِ رايةً سَوداءَ؛ ليلوموا الغادِرَ ويذمُّوه، فاقتَضى الحَديثُ وُقوعَ مِثلِ ذلك للغادِرِ؛ ليشتَهِرَ بصِفتِه في القيامةِ، فيَذُمَّه أهلُ المَوقِفِ".[2602]

- عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ خَيرَ النَّاسِ الموفونَ المُطَيَّبونَ".[2603]

(الموفونَ) بما عاهَدوا عليه، (المُطَيَّبونَ) أي: الذين طَيَّب اللهُ أوصافَهم، أو الذين طَيَّبوا أنفُسَهم.[2604]

- عن إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ أبي رَبيعةَ عن أبيه عن جَدِّه قال: "استَقرَض منِّي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أربَعينَ ألفًا، فجاءَه مالٌ فدَفعَه إليَّ، وقال: بارَك اللهُ لك في أهلِك ومالِك، إنَّما جَزاءُ السَّلفِ الحَمدُ والأداءُ".[2605]

- وعن عُبَيدِ اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ أنَّ عَبدَ اللهِ بنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما أخبَرَه، قال: "أخبَرَني أبو سُفيانُ أنَّ هِرَقلَ قال له: سَألتُك ماذا يأمُرُكم؟ فزَعَمتَ: أنَّه أمرَكم بالصَّلاةِ، والصِّدقِ، والعَفافِ، والوفاءِ بالعَهدِ، وأداءِ الأمانةِ، قال: وهذه صِفةُ نَبيٍّ".[2606]

ت. مِن أقوالِ السَّلَفِ والعُلماءِ وغَيرِهم في الوفاء:

- قال الجاحِظُ: "والوفاءُ وفاءانِ: أسناهما وفاؤُك لمَن لا تَرجوه، ولا تَخافُه".[2607]

- وقال الأحنف: "لا صَديقَ لمَلولٍ، ولا وفاءَ لكذوبٍ، ولا راحةَ لحَسودٍ، ولا مُروءةَ لبَخيلٍ، ولا سُؤدُدَ لسَيِّئِ الخُلُقِ".[2608]

- وقال ابن حزم: "إنَّ من حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الأخلاق... الوفاء؛ وإنَّه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر، وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات... وأولُّ مراتبِ الوفاء أن يَفِيَ الإنسانُ لمن يفي

[2598] تحفة الأحوذي للمباركفوري 2/14، ويُنظَر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 2/ 52

[2599] رواه البخاري 34 واللفظ له، ومسلم 58

[2600] رواه البخاري 6177، ومسلم 1735 واللفظ له

[2601] شرح النووي على مسلم 12/43

[2602] فتح الباري لابن حجر 6/284

[2603] رواه أحمد 26312، والبزار 88 واللفظ له، والبيهقي 11423 مطوَّلًا. صحَّحه ابن حزم في المحلى 9/112، والألباني في صحيح الجامع 2062، وحسَّنه الوادعي في الصحيح المسند 1652 وقال: يرتقي إلى الصَّحيح لغيرِه، وصحَّح إسنادَه الهيثمي في مجمع الزوائد 4/142، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 26312

[2604] التنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني 3/ 614

[2605] أخرجه النسائي 4683 واللفظ له، وابن ماجه 2424، وأحمد 16410. صحَّحه الألباني في صحيح سنن النسائي 4683، وصحَّح إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 16410، وحسَّنه العراقي في تخريج الإحياء 1/433

[2606] أخرجه البخاري2681

[2607] الرسائل 1/ 125

[2608] عيون الأخبار لابن قتيبة 1/146

له، وهذا فرضٌ لازم، وحقٌ واجب... لا يحولُ عنه إلا خبيث المحتد، لا خلاقَ له ولا خيرَ عنده".[2609]

- عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "الوفاءُ تَوْأَمُ الصِّدقِ، ولا أعلمُ جُنَّةً أوقى منه، وما يغدِرُ مَن عَلِمَ كيف المَرجِعُ".[2610]

- وعن الحَسَنِ قال: "يا ابنَ آدَمَ، عَمَلُكَ عَمَلُك؛ فإنَّما هو لحمُك ودَمُك، فانظُرْ على أيِّ حالٍ تَلقى عَمَلَك، إنَّ لأهلِ التَّقوى علاماتٍ يُعرَفونَ بها: صِدقُ الحَديثِ، والوفاءُ بالعَهدِ، وصِلةُ الرَّحِمِ، ورَحمةُ الضُّعَفاءِ، وقِلَّةُ الفَخرِ والخُيلاءِ، وبَذلُ المَعروفِ، وقِلَّةُ المُباهاةِ للنَّاسِ، وحُسنُ الخُلُقِ، وسَعةُ الخُلُقِ مِمَّا يُقَرِّبُ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ".[2611]

- وقال صالحُ بنُ كَيسانَ: "خَرَجَ علينا الزُّهريُّ مِن عِندِ هشامِ بنِ عَبدِ المَلكِ فقال: لقد تَكلَّمَ اليومَ رَجُلٌ عِندَ أميرِ المُؤمِنينَ ما سَمِعتُ كلامًا أحسَنَ مِنه، قال له: يا أميرَ المُؤمِنينَ، اسمَعْ مِنِّي أربَعَ كَلِماتٍ فيهنَّ صَلاحُ دينِك ومُلكِك وآخِرَتِك ودُنياك، قال: ما هنَّ؟ قال: لا تَعِدَنَّ أحَدًا عِدَةً وأنتَ لا تُريدُ إنجازَها، ولا يغُرَّنَّك مُرتَقًى سَهلٌ إذا كان المُنحَدَرُ وعْرًا، واعلَمْ أنَّ للأعمالِ آخِرًا فاحذَرِ العَواقِبَ، وإنَّ الدَّهرَ تاراتٌ فكُنْ على حَذَرٍ".[2612]

- وعن عَوفِ بنِ النُّعمانِ الشَّيبانيِّ أنَّه قال في الجاهليَّةِ الجَهلاءِ: "لأن أموتَ عَطَشًا أحَبُّ إليَّ مِن أكونَ مِخلافَ المَوعِدةِ".[2613]

- وعن عَوفٍ الكلبيِّ أنَّه قال: "آفةُ المُروءةِ خُلفُ المَوعِدِ".[2614]

- وقال الحارِثُ بنُ عَمرِو بنِ حُجرٍ الكِنديُّ: "أنجَزَ حُرٌّ ما وعَدَ".[2615]

- وقال أكثَمُ بنُ صَيفيٍّ: "مَن وفى بالعَهدِ فازَ بالحَمدِ".[2616]

- وقال جَعفرٌ الخَلديُّ: "ما عَقَدتُ للهِ على نَفسي عَقدًا فنَكَثتُه".[2617]

- وقال ابنُ حَزمٍ: "إنَّ مِن حميدِ الغَرائِزِ وكريمِ الشِّيَمِ وفاضِلِ الأخلاقِ... الوفاءَ، وإنَّه لَمن أقوى الدَّلائِلِ وأوضَحِ البَراهينِ على طِيبِ الأصلِ وشَرَفِ العُنصُرِ، وهو يتفاضَلُ بالتَّفاضُلِ اللَّازِمِ للمَخلوقاتِ".[2618]

- وقال أيضًا: "الوَفاءُ مُرَكَّبٌ مِن العَدلِ والجُودِ والنَّجدةِ؛ لأنَّ الوفيَّ رَأى مِن الجَورِ ألَّا يُقارِضَ من وَثِقَ به، أو من أحسَنَ إليه؛ فعَدَل في ذلك، ورَأى أن يسمَحَ بعاجِلٍ يقتَضيه له عَدَمُ الوفاءِ من الحَظِّ؛ فجاد في ذلك، ورَأى أن يتَجَلَّدَ لِما يُتَوقَّعُ من عاقِبةِ الوفاءِ، فشَجعَ في ذلك".[2619]

- وقال أبو الوليدِ الباجيُّ في نَصيحَتِه لولَدَيه: "عليكما بأداءِ الأمانةِ، وإيَّاكما والإلمامَ بالخيانةِ، أدِّيا الأمانةَ إلى مَن ائتَمَنَكما، ولا تَخونا مَن خانكما، وأوفيا بالعَهدِ؛ {إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} [الإسراء: 34] ".[2620]

[2609] طوق الحمامة

[2610] ربيع الأبرار للزمخشري 5/300، التذكرة لابن حمدون 3/ 10

[2611] حلية الأولياء لأبي نعيم 2/ 143

[2612] تاريخ دمشق لابن عساكر 68/ 210

[2613] الأمثال لأبي عبيد بن سلام ص: 71

[2614] المصدر السابق

[2615] المصدر السابق

[2616] أنساب الأشراف للبلاذري 13/ 80

[2617] تاريخ بغداد للخطيب 8/ 149

[2618] طوق الحمامة ص: 205 بتصرف

[2619] الأخلاق والسير ص: 145

[2620] النصيحة الولدية ص: 27

- وقال الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ: "الوفاءُ أخو الصِّدقِ والعَدلِ، والغَدرُ أخو الكَذِبِ والجَورِ؛ وذلك أنَّ الوفاءَ صِدقُ اللِّسانِ والفِعلِ مَعًا، والغَدرُ كَذِبٌ بهما؛ لأنَّ فيه مَعَ الكَذِبِ نَقضَ العَهدِ".

والوفاءُ يختَصُّ بالإنسانِ، فمَن فَقَده فيه فقد انسَلخَ من الإنسانيَّةِ، كالصِّدقِ، وقد جَعل اللهُ تعالى العَهدَ من الإيمانِ، وصَيَّرَه قِوامًا لأُمورِ النَّاسِ؛ فالنَّاسُ مُضطَرُّونَ إلى التَّعاوُنِ، ولا يتمُّ تَعاوُنُهم إلَّا بمُراعاةِ العَهدِ والوفاءِ، ولولا ذلك لتنافَرتِ القُلوبُ، وارتَفعَ التَّعايُشُ؛ ولذلك عَظَّم اللهُ تعالى أمرَه، فقال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [البقرة: 40]، وقال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ} [النحل: 91] ".[2621]

- وقال عَبدُ الرَّحمَنِ المَيدانيُّ: "الصِّدقُ في الوعدِ وفي العَهدِ من الفضائِلِ الخُلُقيَّةِ التي يتَحَلَّى بها المُؤمِنونَ، والكذِبُ في الوعدِ، وفي العَهدِ من الرَّذائِلِ الخُلُقيَّةِ التي يَجتَنِبُها المُؤمِنونَ... ويشتَرِكُ الوعدُ والعَهدُ بأنَّ كُلًّا منهما إخبارٌ بأمرٍ جَزَمَ المُخبرُ بأن يفعَلَه، ويفترِقانِ بأنَّ العَهدَ يزيدُ على الوعدِ بالتَّوثيقِ الذي يُقدِّمُه صاحِبُ العَهدِ من أيمانٍ مُؤَكَّدةٍ، والمواعَدةُ مُشاركةٌ في الوعدِ بَينَ فريقَينِ، فيَعِدُ كُلٌّ من الفريقَينِ المُتواعِدينِ صاحِبَه بما سيَفعلُ، ويُعاهِدُ كُلٌّ من الفريقَينِ المُتَعاهدَينِ صاحِبَه بما سيَفعلُ".[2622]

المطلب الرابع: فوائِدُ الوفاءِ بالعَهدِ

1- مَحَبَّةُ اللهِ: أثبَتَ اللهُ مَحَبَّتَه للمُتَّقينَ الموفينَ بعَهدِهم، المُستَقيمينَ على عُهودِهم ومَواثيقِهم حتَّى مَعَ أعدائِهم، ما استَقاموا هم على تلك العُهودِ؛ قال تعالى: {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 7]، وقال تعالى: {فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 4]، وقال سُبحانَه: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 76]، قَولُه: {مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى} أي: قامَ بحُقوقِ اللهِ وحُقوقِ خَلقِه؛ فإنَّ هذا هو المُتَّقي، واللهُ يُحِبُّه.
أي: ومَن كان بخِلافِ ذلك فلم يَفِ بعَهدِه وعُقودِه التي بَينَه وبَينَ الخَلقِ، ولا قامَ بتَقوى اللهِ؛ فإنَّ اللهَ يمقُتُه، وسيُجازيه على ذلك أعظَمَ النَّكالِ".[2623]
2- حُصولُ الأمنِ والاستِقرارِ، وصيانةُ الدِّماءِ وحِفظُ الحُقوقِ.
3- حُصولُ الأجرِ العَظيمِ ونَيلُ الفلاحِ:
قال تعالى: {وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: 10]، وقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [المؤمنون: 1]، وذَكر من صَفاتِهم {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [المؤمنون: 8].
4- حُصولُ الطُّمَأنينةِ النَّفسيَّةِ.
5- الوفاءُ يجلبُ مَحَبَّةَ النَّاسِ، ويكسِبُ ثِقَتَهم.
6- من أسبابِ تَوثيقِ عُرى المَحَبَّةِ، والائتِلافِ، والتَّعاوُنِ.
7- به تَتَحَقَّقُ مَصالحُ المُجتَمَعاتِ الدُّنيويَّةِ، والأُخرَويَّةِ.
8- الالتِزامُ بالمَواعيدِ، والوفاءُ بها يحفظُ الأوقاتَ من الضَّياعِ، ويُعينُ على قَضاءِ المَصالحِ.
9- الوفاءُ بالمُعاهَداتِ على مُستَوى العلاقاتِ الدَّوليَّةِ يُؤَدِّي إلى الاستِقرارِ، والأمنِ، والتَّكافُلِ الدَّوليِّ، ويُحَقِّقُ فُرَصَ التَّعاوُنِ بَينَ الدُّوَلِ في شَتَّى المَجالاتِ.

[2621] الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص: 292
[2622] الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن الميداني 1/501
[2623] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص: 969

المطلب الخامس: أقسامُ الوفاءِ بالعَهدِ

- **ينقَسِمُ الوفاءُ بالعَهدِ باعتِبارِ الموفَّى له إلى قِسمَينِ:**

1- عَهدٌ مَعَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قال في كِتابِه: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا} [الأعراف: 172] فقد أخَذَ اللهُ العَهدَ على عِبادِه جَميعًا أن يعبُدوه، ولا يُشرِكوا به شَيئًا؛ لأنَّه رَبُّهم وخالِقُهم.

2- وعَهدٌ مَعَ عِبادِ اللهِ:

ومِنه العُهودُ التي تَقَعُ بَينَ النَّاسِ؛ بَينَ الإنسانِ وبَينَ أخيه المُسلِمِ، وبَينَ المُسلمينَ وبَينَ الكُفَّارِ، وغَيرُ ذلك من العُهودِ المَعروفةِ؛ فقد أمَرَ اللهُ تعالى بالوفاءِ بالعَهدِ، فقال عَزَّ وجَلَّ: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} [الإسراء: 34]، يعني أنَّ الوفاءَ بالعَهدِ مَسؤولٌ عنه الإنسانُ يومَ القيامةِ، يُسألُ عن عَهدِه: هَل وفَى به أم لا؟ قال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ} [النحل: 91] يعني: ولا تُخلِفوا العَهدَ.[2624]

- **ويُمكِنُ تَقسيمُه باعتِبارِ الموفَى لهم من عِبادِ اللهِ من جِهةٍ أُخرى إلى قِسمَينِ:**

الأوَّلُ: الوفاءُ في حالِ الحَياةِ.

والثَّاني: الوفاءُ بَعدَ المَوتِ.

المطلب السادس: صُوَرُ الوفاءِ بالعهود

1- الوَفاءُ بالعَهدِ الذي بَينَ العَبدِ ورَبِّه:

فالعُهودُ التي يرتَبطُ المُسلمُ بها دَرَجاتٌ؛ فأعلاها مَكانةً وأقدَسُها ذِمامًا: العَهدُ الأعظَمُ الذي بَينَ العَبدِ وربِّ العالمينَ؛ فإنَّ اللهَ خَلقَ الإنسانَ بقُدرَتِه، وربَّاه بنِعمَتِه، وطَلبَ منه أن يعرِفَ هذه الحَقيقةَ، وأن يعتَرِفَ بها، وألَّا تَشرُدَ به المُغوياتُ، فيجهَلَها أو يجحَدَها، قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [يس: 60 - 61] أي: **أن تعبدوا الله وحده، لا تشركوا به شيئًا، وأن تبتعدوا عن عبادة الشيطان واتباع سبيله؛ فالإنسان يدرك بفطرته السليمة وعقله أن لهذا الكون إلهًا واحدًا مستحقًّا للعبادة هو الله سبحانه، وهذا هو العهد الذي بيننا وبين الله.**

2- الوفاءُ في سَدادِ الدَّينِ:

اهتَمَّ الإسلامُ بالدَّينِ؛ لأنَّ أمرَه عَظيمٌ، وشَأنَه جَسيمٌ، وقد أكَّدَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على قَضاءِ الدَّينِ، وكان لا يُصَلِّي على المَيِّتِ إذا كان عليه دَينٌ حتَّى يُقضى عنه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "مَن أخَذَ أموالَ النَّاسِ يُريدُ أداءَها أدَّى اللهُ عنه، ومَن أخَذَها يُريدُ إتلافَها أتلَفَه اللهُ".[2625]

3- الوفاءُ بشُروطِ عَقدِ النِّكاحِ:

قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "أحَقُّ الشُّروطِ أن تُوفُوا به ما استَحلَلْتُم به الفُروجَ".[2626]

[2624] شرح رياض الصالحين لابن عثيمين 4/45

[2625] رواه البخاري 2387 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[2626] رواه البخاري 2721 واللفظ له، ومسلم 1418 من حديثِ عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

قال الخَطَّابيُّ: "الشُّروطُ في النِّكاحِ مُختَلفةٌ؛ فمِنها ما يجِبُ الوفاءُ به اتِّفاقًا، وهو ما أمَرَ اللهُ به من إمساكٍ بمَعروفٍ، أو تَسريحٍ بإحسانٍ، وعليه حَمل بَعضُهم هذا الحَديثَ، ومِنها ما لا يُوفَى به اتِّفاقًا، كسُؤالِ طَلاقِ أُختِها... ومِنها ما اختُلف فيه كاشتِراطِ ألَّا يتَزَوَّجَ عليها، أو لا يتَسَرَّى، أو لا ينقُلَها من مَنزِلها إلى مَنزِلِه".[2627]

4- الوفاءُ بَينَ الزَّوجَينِ:

الوفاءُ بَينَ الزَّوجَينِ يجعلُ الأُسَرَ مُستَقِرَّةً، والبُيوتَ مُطمَئِنَّةً، فيكونُ رابطُ الوفاءِ بَينَهما في حالِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي العُسرِ واليُسرِ.

5- الوفاءُ بإعطاءِ الأجيرِ أجْرَه:

عن أبي هُرَيرةَ رَضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "قال اللهُ: ثَلاثةٌ أنا خَصمُهم يَومَ القيامةِ: رَجُلٌ أعطى بي[2628] ثُمَّ غَدَرَ، ورَجُلٌ باعَ حُرًّا فأكَلَ ثَمَنَه، ورَجُلٌ استَأجَرَ أجيرًا فاستَوفى منه ولم يُعطِ أجرَه".[2629]

6- وفاءُ العامِلِ بعَمَلِه:

وذلك بأن يعمَلَ العامِلُ، ويُعطيَ العَمَلَ حَقَّه باستيفائِه خاليًا من الغِشِّ والتَّدليسِ.

7- الوفاءُ بالنَّذرِ:

والمسلم يفي بنذره ويؤدي ما عاهد الله على أدائه.

والنذر: "هو أن يلتزم الإنسان بفعل طاعة لله سبحانه"، قال تعالى مادِحًا الأبرارَ لوفائِهم بنُذورِهم: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} [الإنسان: 7].

ويشترط أن يكون النذر في خير، أما إن كان غير ذلك فلا وفاء فيه، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "مَن نذَر أنْ يُطيعَ اللهَ فلْيُطِعْه ومَن نذَر أنْ يعصيَ اللهَ فلا يعصِه".[2630]

8- الوفاءُ بما التَزَمَ به من بَيعٍ أو إجارةٍ وغَيرِ ذلك من العُقودِ:

فمن صورِ الوفاءِ: "الوفاءُ بما التَزَمَ به من بَيعٍ أو إجارةٍ وغَيرِ ذلك من المُعامَلاتِ الماليَّةِ ما دامَت مَشروعةً؛ يقولُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: 1]، وسَواءٌ كانت هذه العُقودُ مُبرَمةً بَينَ المُسلمِ والمُسلمِ، أو المُسلمِ وغَيرِ المُسلمِ".[2631]

إن الإسلام يوصي باحترام العقود وتنفيذ الشروط التي تم الاتفاق عليها، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "المسلِمُون على شُروطِهم".[2632]

9- الوفاءُ بَينَ الدُّوَلِ في المُعاهَداتِ والمَواثيقِ:

وقد دَلَّت على ذلك عُموماتُ النُّصوصِ، وأكَّدَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على احترامِ الأحلافِ المَعقودةِ في الجاهليَّةِ، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُؤَكِّدًا على ضَرورةِ الوفاءِ بأحلافِ الجاهليَّةِ: "أوفوا بحِلفِ الجاهليَّةِ؛ فإنَّه لا يزيدُه -يعني الإسلامَ- إلَّا شِدَّةً".[2633]

[2627] فتح الباري لابن حجر 9/218.

[2628] أي: حَلَف بي؛ وذلك لأنَّه اجترأ على ربِّه عزَّ وجَلَّ، أو أعطى الأمانَ باسمي أو بما شرَعْتُه من ديني، يُنظَر: كشف المشكل من حديثِ الصحيحين لابن الجوزي 3/ 533، الكاشف عن حقائق السنن للطيبي2210 /7

[2629] رواه البخاري 2227

[2630] أخرجه البخاري 6696

[2631] الأخلاق الإسلامية لحسن المرسي ص: 218.

[2632] أخرجه أبو داود (3594)، وابن الجارود في ((المنتقى)) (1001)، وابن حبان (5091)

[2633] رواه الترمذي 1585 واللفظ له، وأحمد 6933. من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما. صحَّحه الترمذي، والطبري في التفسير 8/288، وحسَّنه الألباني في صحيح

وقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية مع الكافرين، ووفَّى لهم بما تضمنه هذا العقد، دون أن يغدر بهم أو يخون، بل كانوا هم أهل الغدر والخيانة.

وظَلَّ تاريخُ الإسلامِ مُنذُ فجرِ عَهدِه، وعلى مَرِّ مَراحِلِه التَّاريخيَّةِ، صَفحةً بَيضاءَ نَقيَّةً لم يُدَنَّس بخيانةٍ ولا غَدرٍ، ولا نَقضِ عَهدٍ، بدونِ وُجودِ ناقِضٍ من العَدوّ.[2634]

والمسلم يفي بعهده ما دام هذا العهد فيه طاعة لله رب العالمين، أما إذا كان فيه معصية وضرر بالآخرين، فيجب عليه ألا يؤديه.

10- الوفاءُ في الكَيلِ والميزانِ:

فالمسلم يفي بالوزن، ولا ينقصه؛ لأن الله تعالى قال: {وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [هود: 85]، وقال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ} [الأنعام: 152]، وقال: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} [الإسراء: 35].

11- الوفاءُ بأداءِ الأماناتِ ورَدِّ الودائِعِ:

قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء:58]، يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا.

فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَدَائِهَا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا أُخِذَ مِنْهُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَتُؤَدَّنَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى يُقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ".[2635]

وَعَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: "إِنَّ الشَّهَادَةَ تُكَفِّرُ كُلَّ ذَنْبٍ إِلَّا الْأَمَانَةَ، يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يوم القيامة، وإن كان قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُقَالُ: أَدِّ أَمَانَتَكَ، فيقول: فأنَّى أُؤَدِّيهَا وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا؟ فَتُمَثَّلُ لَهُ الْأَمَانَةُ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ، فَيَهْوِي إِلَيْهَا، فَيَحْمِلُهَا عَلَى عَاتِقِهِ، قَالَ: فَتَنْزِلُ عَنْ عَاتِقِهِ فَيَهْوِي عَلَى أَثَرِهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ".[2636]

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان أنموذجا فريدا في رد الأمانة؛ ففي أحْلَكِ الظروف حينما كان صلى الله عليه وسلم مُعَرَّضًا للموتِ، وتحاكُ حوله مؤامراتٌ وَضِيعةٌ للنَّيلِ منه وَقَتْلِه، وكان من قبلِ ذَلِكَ يُعَانِي ويلاتِ الاضطهادِ على مدى ثلاثةِ عَشَرَ عامًا في مكةَ، حتى هاجرَ أصحابُهُ مخلِّفين وراءهم ديارهم وأموالهم، ورغم ذلك لم يَفُتْهُ أن يرد أمانات هؤلاء المشركين التي أُودِعَتْ عنده، وَيَسْتَبْقِي ابنَ عمِّهِ وحبيبَ قلبِهِ عليًّا رضي الله عنه؛ ليرد الأماناتِ إلى أهلها.

12- الوفاءُ بالوُعودِ:

المسلم يفي بوعده ولا يخلفه؛ لأنه يعلم أن إخلاف الوعد من صفات المنافقين، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذَا وعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ".[2637]

13- الوَفاءُ بالأيمانِ:

قال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [النحل: 91].

سنن الترمذي 1585، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تخريج مسند أحمد 11/140، وحسَّنه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة 1/461، وشعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 6933 وقال: ولبعضِه شواهِدُ يَصِحُّ بها.

[2634] الوفاء بالعهود والمواثيق في الشريعة الإسلامية لعبد اللهِ بن محمد الحجيلي ص: 337.

[2635] الراوي: أبو هريرة - المحدث: ابن كثير - المصدر: نهاية البداية والنهاية - الصفحة أو الرقم: 45/2 خلاصة حكم المحدث: إسناده على شرط مسلم.

[2636] وفي شعب الإيمان 4885.

[2637] أخرجه البخاري (33)، ومسلم (59)

(وقولُه تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ}، والعَهدُ هاهنا هو اليمينُ؛ قال الشَّعبيُّ: "العَهدُ يمينٌ وكفَّارَتُه كفَّارةُ اليمينِ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا (أي: تَشديدِها)، فتَحنَثوا فيها، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا (أي: شَهيدًا بالوفاءِ)).[2638]

وقال ابنُ كثيرٍ: "وهذا مِمَّا يأمُرُ اللهُ تعالى به، وهو الوفاءُ بالعُهودِ والمَواثيقِ، والمُحافظةُ على الأيمانِ المُؤَكَّدةِ؛ ولهذا قال: {وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا}، ولا تعارُض بَينَ هذا وبَينَ قَولِه: {وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ} [البقرة: 224]، وبَيْنَ قَولِه: {ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ} [المائدة: 89] أي: لا تَتركوها بلا تَكفيرٍ، وبَيْنَ قَولِه عليه السَّلامُ فيما ثَبَتَ عنه في الصَّحيحَينِ: "إنِّي واللهِ -إن شاءَ اللهُ- لا أحلِفُ على يمينٍ فأرى غَيرَها خَيرًا مِنها إلَّا أتَيتُ الذي هو خَيرٌ وتَحَلَّلتُها"، وفي رِوايةٍ: "وكَفَّرت عن يميني"؛ لا تَعارُضَ بَيْنَ هذا كُلِّه ولا بَيْنَ الآيةِ المَذكورةِ هاهنا، وهي قَولُه: {وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا} [النحل: 91]؛ لأنَّ هذه الأيمانَ المُرادُ بها الدَّاخِلةُ في العُهودِ والمَواثيقِ لا الأيمانُ التي هي وارِدةٌ على حَثٍّ أو مَنعٍ".[2639]

14- من الوفاءِ ألَّا ينسى المَرءُ من أحسَنَ إليه أو أسدى إليه مَعروفًا: عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال في أُسارى بَدرٍ: "لو كان المَطعِمُ بنُ عَديٍّ حَيًّا، ثُمَّ كلمَني في هؤلاء النَّتْنى لتَركتُهم له".[2640]

والمُرادُ بقَولِه: (النَّتْنى): أُسارى بَدرٍ من المُشرِكينَ، ومَعنى قَولِه: (لتَركتُهم) أي: بغَيرِ فِداءٍ، وذلك لأنَّ المَطعِمَ كانت له يدٌ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قيل: وهي أنَّه لَمَّا رَجَعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الطَّائِفِ دَخَل في جِوارِ المَطعِمِ بنِ عَديٍّ، فأمَرَ المَطعِمُ أربَعةً من أولادِه فلَبِسوا السِّلاحَ وقامَ كُلُّ واحِدٍ مِنهم عِندَ رُكنٍ من الكعبةِ، فبَلغَ ذلك قُرَيشًا فقالوا له: أنت الرَّجُلُ الذي لا تُخفَرُ ذِمَّتُك، وقيل: المُرادُ باليدِ المَذكورةِ أنَّه كان من أشَدِّ من قامَ في نَقضِ الصَّحيفةِ التي كتَبتْها قُرَيشٌ على بَني هاشِمٍ ومَن مَعَهم من المُسلمينَ حينَ حَصَروهم في الشِّعْبِ.[2641]

المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على الوفاءِ بالعهود

1- العَمَلُ على زيادةِ الإيمانِ؛ فهو مَنبَعُ كُلِّ فضيلةٍ.
2- اختيارُ الرُّفقةِ الصَّالحةِ ومُجالسةُ أهلِ الصَّلاحِ.
3- مَعرِفةُ فوائِدِ الوفاءِ وما يترَتَّبُ على الغَدرِ من آثارٍ سَيِّئةٍ.
4- مُجاهَدةُ النَّفسِ على التَّحَلِّي بمَكارِمِ الأخلاقِ، ومِنها الوفاءُ.
5- النَّظَرُ في سِيَرِ الأنبياءِ والصَّالحينَ والاقتِداءُ بهم.

المطلب الثامن: نماذج في الوفاء بالعهود

أولا: نَماذِجُ من الوَفاءِ عِندَ الأنبياءِ السَّابقينَ:

1- قال تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [النجم: 37].
2- وقال عزَّ وجلَّ: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم: 54].
3- وقال سُبحانَه في قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ

[2638] تفسير البغوي 3/ 93.
[2639] تفسير ابن كثير 4/ 598.
[2640] أخرجه البخاري.3139
[2641] فتح الباري لابن حجر 7/ 324.

رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} [القصص: 23 - 28].

عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: "سَألني يهوديٌّ من أهلِ الحِيرةِ: أيُّ الأجَلينِ قَضى موسى؟ قُلتُ: لا أدري، حتَّى أُقدَمَ على حَبْرِ العَرَبِ فأسألَه، فقَدِمتُ فسَألتُ ابنَ عَبَّاسٍ، فقال: قَضى أكثَرَهما وأطيبَهما؛ إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا قال فَعَل".[2642]

ثانيا: نَماذِجُ من وفاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

لن تجد في كتب التاريخ والسير من فجر الخليقة إلى اليوم، بل إلى قيام الساعة رجلا يداني أو يضاهي رسول الله صلى الله عليه وسلم في كمال خُلقه، وعظمة شخصيته، وباهر وفائه، فهو خير البرية أقصاها وأدناها، وهو أبر بني الدنيا وأوفاها، وما وُجِدَ على الأرض أنقى سيرة وسريرة، وأوفى بوعد وعهدٍ منه صلى الله عليه وسلم.

إنَّ الوفاءَ بالعَهدِ وعَدَمَ نِسيانِه أو الإغضاءِ عن واجِبه خُلقٌ كريمٌ؛ ولذا كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيه بالمَحَلِّ الأفضَلِ والمَقامِ الأسمى، والمَكانِ الأشرَفِ؛ فوفاؤُه كان مَضرِبَ المثلِ، وحُقَّ له ذلك، وهو سَيِّدُ الأوفياءِ.[2643]

قال حسَّانُ بنُ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنه:

هَجَوتَ محمَّدًا فأجَبْتُ عنه.. وعندَ اللهِ في ذاك الجزاءُ

هَجَــوتَ محمَّـدًا بَرًّا حنيـفًا.. رسولَ اللهِ شيمـتُه الوَفاءُ

فإنَّ أبي ووالِدَه وعِرْضــي.. لعِـرْضِ محمَّدٍ منكم وِقـاءُ [2644]

وقال أحمد شوقي:

وإذا صَحِبتَ رأى الوفاءَ مجسَّمًا.. في بُردِك الأصحابُ والخُلَطاءُ

وإذا أخَـذْتَ العَهـدَ أو أعطـيتَه.. فجـميعُ عَهـدِك ذمَّـةٌ ووفـاءُ [2645]

- وسُئِل سُفيانُ بنُ عُيينةَ عن قَولِه: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء: 10]، قال: "أُنزِل عليه القُرآنُ بمَكارِمِ الأخلاقِ، فهم الذين كانوا يَشرُفونَ بها، ويَفضُلُ بَعضُهم بَعضًا بها؛ من حُسنِ الجِوارِ، ووفاءٍ بالعَهدِ، وصِدقِ الحَديثِ، وأداءِ الأمانةِ، فقال: إنَّما جاءَكم مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمَكارِمِ أخلاقِكم التي كُنتُم بها تَشرُفونَ وتُعَظَّمونَ، انظُروا هَل جاءَ بشَيءٍ مِمَّا كُنتُم تَعيبونَ من الأخلاقِ القَبيحةِ التي كُنتُم تَعيبونَها، فلم يُقَبِّحِ القَبيحَ، ولم يُحَسِّنِ الحَسَنَ؟!".[2646]

ويتَجَلَّى لنا وفاءُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في صُوَرٍ كثيرةٍ؛ منها:

1- وفاؤُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعَهدِ لعَدوِّه:

[2642] رواه البخاري 2684

[2643] هذا الحبيب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يا محب لأبي بكرٍ الجزائري ص: 556.

[2644] صحيح مسلم 2490.

[2645] الشوقيات 1/35، 36

[2646] حلية الأولياء لأبي نعيم 7/ 291. ويُنظَر: جامع البيان لابن جرير الطبري 16/ 232

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يغدر بأحد قَطّ، بل حافظ على عهوده مع جميع من تحدث أو تعامل معهم، ولم يتخلف وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأعدائه، رغم أنهم بذلوا غاية جهدهم للقضاء على دينه ودعوته، وكادوا له ولصحابته، فاعترفوا بفضله ووفائه وهم في شدة عداوته، فقال مكرز لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما عُرِفتَ بالغدر صغيرا ولا كبيرا، بل عُرِفتَ بالبر والوفا"، ولما سأل هرقل أبا سفيان وهو عدو لرسول الله حينئذ: "أيغدر محمد؟ فقال : لا، فقال هرقل: وكذلك الرسل لا تغدر".

- وثَبَتَ عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال لأبي رافِعٍ وقد أرسلَتْه إليه قُرَيشٌ، فأرادَ المُقامُ عِندَه، وأنَّه لا يرجِعُ إليهم، فقال: "إنِّي لا أَخيسُ[2647] بالعَهدِ، ولا أَحبِسُ البُرُدُ[2648]، ولَكِن ارجِعْ إلى قَومِك، فإن كان في نَفسِك الذي فيها الآنَ فارجِعْ".[2649]

- "وثَبَتَ عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه رَدَّ إليهم أبا جَندَلٍ؛ للعَهدِ الذي كان بَينَه وبَينَهم، أن يرُدَّ إليهم من جاءَه منهم مُسلِمًا".[2650]

- وعن حُذَيفةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما: "ما منَعَني أن أشهَدَ بَدرًا إلَّا أني خرَجتُ أنا وأبي حُسَيلٌ، قال: فأخَذَنا كُفَّارُ قُرَيشٍ، قالوا: إنَّكم تريدون محمَّدًا، فقُلْنا: ما نريدُه، ما نريدُ إلَّا المدينةَ، فأخذوا منا عَهدَ اللهِ وميثاقَه لننصَرِفَنَّ إلى المدينةِ، ولا نقاتِلُ معه، فأتينا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبَرْناه الخبرَ، فقال: انصَرِفا، نَفي لهم بعَهْدِهم، ونستعينُ اللهَ عليهم".[2651]

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وفيًا في عهوده كلها، حتى مع المشركين، لأن الأخلاق في الإسلام قيم ومبادئ مطلقة يتحلى بها المسلم مع كل الناس، وفي كل وقت.

وكان أبرز مثال على هذا الوفاء ما حدث في صلح الحديبية حينما قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي"[2652].

لَمَّا بايَعَ الأَنْصَارُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ خَشِيَ بَعْضُهُمْ إِذَا ظَهَرَ أَنْ يَعُودَ لِقَوْمِهِ وَيَسْتَقِرَّ هُنَاكَ، فَتَبَسَّمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: "بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ".

وَهَاجَرَ إِلَيْهِمْ فَاسْتَقْبَلُوهُ وَصَحَبُوهُ أَيَّمَا اسْتَقْبَلُوهُ، فَلَمَّا فَتَحَ الله لَهُ مَكَّةَ أَشْفَقُوا أَنْ يُقِيمَ بِهَا وَيَتْرُكَهُمْ، فَقَالُوا: أَدْرَكَتْ رَسُولَ الله رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ، فَطَمَأَنَهُمْ وَقَالَ: "كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ"، فَضَجُّوا يَبْكُونَ وَدَمْعُهُمْ يَهْطَلُ فِي الْخَدِّ كَالدِّيمِ يَقُولُونَ: وَالله، مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَّا ضَنًّا وَشُحًّا بِكَ أَنْ تُفَارِقَنَا، فَصَدَّقَهُمْ وَعَذَرَهُمْ[2653].

2- وفاؤه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِزَوجَتِه خَديجةَ:

فَمِنْ وفائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه كان يُكرِمُ صَديقاتِ زَوجَتِه خَديجةَ رَضِيَ اللهُ عنها بَعدَ مَوتِها؛ فعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أُتيَ بشَيءٍ يقولُ: اذهَبوا به إلى فُلانةَ؛ فإنَّها كانت صَديقةَ خَديجةَ، اذهَبوا به إلى بَيتِ فُلانةَ؛ فإنَّها كانت تُحِبُّ خَديجةَ".[2654]

[2647] أي: لا أنقُضُ العَهدَ ولا أفسِدُه، من قولِك: خاس الشَّيءُ في الوعاءِ: إذا فسَد. يُنظَر: معالم السنن للخطابي 317 /2

[2648] البُرُدُ: جَمعُ بريدٍ، وهو الرَّسولُ. يُنظَر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري 2564 /6

[2649] رواه أبو داود 2758، وأحمد 23857 باختلافٍ يسيرٍ من حديثِ أبي رافِعٍ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابن حبان في صحيحه 4877، والألباني في صحيح سنن أبي داود 2758، والوادعي في الصحيح المسند 1235، وشعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 23857

[2650] زاد المعاد لابن القيم 5/79

[2651] رواه مسلم 1787

[2652] الراوي: كعب بن مالك، المحدث: الألباني– المصدر: فقه السيرة ص: 149، خلاصة حكم المحدث: صحيح.

[2653] صحيح مسلم 1780

[2654] رواه ابنُ حبان 7007، والطبراني 23/12 20، والحاكم 7339 واللفظ له. صحَّحه ابن حبان، وحسَّنه ابنُ حجر كما في الفتوحات الربانية لابن علان 4/107، والألباني في صحيح الأدب المفرد 172، وحَّسنه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج صحيح ابن حبان 7007

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: "ما غِرتُ على أحَدٍ من نِساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما غِرتُ على خَديجةَ، وما رَأيتُها! ولكِن كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُكثِرُ ذِكرها، ورُبَّما ذَبحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُها أعضاءً، ثُمَّ يبعَثُها في صَدائِقِ خَديجةَ".[2655]

قال الذَّهَبيُّ: "ومن كرامَتِها عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه لم يتزَوَّجِ امرَأةً قَبلَها، وجاءَه منها عِدَّةُ أولادٍ، ولم يتزَوَّجْ عليها قَطُّ ولا تَسرَّى إلى أن قَضَت نَحْبَها، فوجَدَ لفقدِها؛ فإنَّها كانت نِعْمَ القَرينُ!".[2656]

وقال ابنُ حَجَرٍ: رَوى مُسلمٌ من طَريقِ الزُّهريِّ عن عُروةَ عن عائِشةَ قالت: "لم يتزَوَّجِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على خَديجةَ حتَّى ماتَت".[2657]

وهذا مِمَّا لا اختِلافَ فيه بَينَ أهلِ العِلمِ بالأخبارِ، وفيه دَليلٌ على عِظَمِ قَدْرِها عِندَه، وعلى مَزيدِ فَضلِها؛ لأنَّها أغنَتْه عن غَيرِها، واختَصَّت به بقَدرِ ما اشتَرَك فيه غَيرُها مَرَّتَينِ! لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عاشَ بَعدَ أن تَزَوَّجَها ثَمانيةً وثَلاثينَ عامًا انفرَدَت خَديجةُ منها بخَمسةٍ وعِشرينَ عامًا، وهي نَحوُ الثُّلُثينِ من المَجموعِ، ومَعَ طولِ المُدَّةِ فصانَ قَلبَها فيها من الغَيرةِ، ومن نَكَدِ الضَّرائِرِ الذي رُبَّما حَصَل له هو منه ما يُشَوِّشُ عليه بذلك، وهي فضيلةٌ لم يُشارِكْها فيها غَيرُها".[2658]

وكانتْ السيدة خديجة -رضي الله عنها- زوجة رحيمة تَعْطِفُ على النبي صلى الله عليه وسلم، وتَغمُره بالحنانِ، وتُقَدِّمُ له العون، وقد تحملت معه الآلام والمحن في سبيل نشر دعوة الإسلام، ولما توفيت السيدة خديجة -رضي الله عنها- ظل النبي صلى الله عليه وسلم وفيًّا لها، ذاكرًا لعهدها، فكان يفرح إذا رأى أحدًا من أهلها، ويكرم صديقاتها، فها هي ذا عجوزٌ تأتي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يومًا فيُحْسِن لقاءها ويكرم مثْواها، ويسأل عن حالِها: "كيف أنتم؟ كيف كنتُم بعدنا؟"، قالت: بخيرٍ بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلمَّا خرجتْ، قالت عائشةُ -رضِي الله عنْها-: أَقْبَلْتَ على هذه العجوز هذا الإقبال! قال: "إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ وَإِنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإِيمانِ".[2659]

وَعَنْ أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتي بالشيء يقول: "اذهَبوا به إلى فُلانةَ؛ فإنَّها كانت صَديقةَ خَديجةَ، اذهَبوا به إلى بَيتِ فُلانةَ؛ فإنَّها كانت تُحِبُّ خَديجة"[2660].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما غِرْتُ على أَحَدٍ من أَزْوَاجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما غِرْتُ على خديجةَ وما بي أنْ أَكُونَ أَدْرَكْتُها وما ذلكَ إلَّا لِكَثْرَةِ ذكرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لها وإنْ كان لَيذبحُ الشَّاةَ فَيَتَتَبَّعُ بِها صدايقَ خديجةَ فَيُهْدِيها لهُنَّ".[2661]

وكانت السيدة عائشة -رضي الله عنها- تغار منها وهي في قبرها، فقالت للنبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم: هل كانت إلا عجوزًا قد أبدلكَ الله خيرًا منها؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضبًا شديدًا، وقال لها: "ما أبدَلَني اللهُ عزَّ وجلَّ

[2655] رواه البخاري 3818 واللفظ له، ومسلم 2435 بنحوِه.

[2656] سير أعلام النبلاء 2/ 110

[2657] أخرجه مسلم 2436

[2658] فتح الباري 7/ 137

[2659] الزرياب الإبريز في وفاء النبي العزيز، محاضرةٌ للشيخ علي بن عبد الخالق القرني، والحديث أخرجه الطبراني في " الكبير" 23/14، والحاكم 1/62

[2660] رواه البخاري في الأدب المفرد 232، وابن حبان 15/467 7007، الحاكم 4/193 7339 من حديث أنس رضي الله عنه. وصحح إسناده الحاكم، وصححه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد، 172

[2661] أخرجه البخاري (3818)، ومسلم (2435)، والترمذي (2017) واللفظ له والنسائي في ((السنن الكبرى)) (8361)، وابن ماجه (1997)، وأحمد (24310)

خَيرًا منها، قد آمَنَتْ بي إذ كفَرَ بي الناسُ، وصدَّقَتْني إذ كذَّبَني الناسُ، وواسَتْني بمالِها إذ حرَمَني الناسُ، ورزَقَني اللهُ عزَّ وجلَّ ولَدَها إذ حرَمَني أولادَ النِّساءِ. وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء".[2662]

3- وفائه لأمه من الرضاعة (حليمة بنت أبي ذؤيب):

لقد وفّى لها رسول الله صلى الله عليه وسلم جزاء إرضاعها إياه، فأكرم ابنتها الشيماء، وهي أخته من الرضاعة، وكانت ترعاه في صغره، كما أكرم لخاطرها قومها بعد غزوة حنين وفتح مكة.

4- وَفَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَمَادَاتِ:

لَقَدْ بَلَغَ الْوَفَاءُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى مَعَ الْجَمَادَاتِ، فَقَالَ عَنْ جَبَلِ أُحُدٍ: "أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّهُ".[2663]

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي أَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قبلَ أنْ أُبْعَثَ"[2664]، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ما خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، وما ذَاكَ لَهَا بخُلُقٍ، ولَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ".[2665]

وَهَذَا جِذْعُ شَجَرَةٍ لَا يَعْقِلُ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ عَلَيْهِ، وَفِي يومِ الْجُمُعَةِ صَعَدَ مِنْبَرًا صُنِعَ لَهُ، وَتَرَكَ ذَلِكَ الْجِذْعَ، فَصَاحَ الْجِذْعُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ حنينًا إليهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي لَمْسَةِ وَصُورَةِ وَفَاءٍ يَنْزِلُ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَحْتَضِنُهُ وَيَضُمُّهُ إِلَيْهِ حَتَّى سَكَنَ، ثُمَّ قَالَ: "والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لما زال كذا إلى يوم القيامة حزنا على رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ثم أمر به رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم فدفن".[2666]

ثالثا: نَمَاذِجُ من وفاءِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم:

يجب أن أبين هنا مواقف الصحابة ومبادراتهم التي كان لها الأثر الكبير على مسيرة التاريخ البشري، واستطاعوا في أقل من ربع قرنٍ تغيير معالم الأرض وخارطتها، وبناء دولة قويةٍ مترابطةٍ مترامية الأطراف، متماسكةٍ في الفكر والسلوك..

وأسأل الله أن أوفق في إبراز تلك الدافعية العجيبة لديهم والتي كانت تنبثق من التزام ذاتي وإيمان راسخ بأداء المهمة لكي يُوفوا بذلك العهد الذي قطعوه فأصبح هو الذي يسيرهم في كل صغيرة وكبيرة.

1- وفاءُ أبي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه:

- **وفاؤُه بدُيونِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ووُعودِه:**

- عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: قال لي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لو قد جاءَ مالُ البَحرَينِ لقد أعطَيتُك هَكذا وهَكذا، ثَلاثًا، فلم يَقدَمْ مالُ البَحرَينِ حتَّى قُبِضَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلمَّا قَدِمَ على أبي بَكرٍ أمَرَ مُناديًا فنادى: من كان له عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَينٌ أو عِدَةٌ فلْيَأتِني، قال جابرٌ: فجِئتُ أبا بَكرٍ فأخبَرتُه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: لو جاءَ مالُ البَحرَينِ أعطَيتُك هَكذا وهَكذا، ثَلاثًا، قال: فأعطاني. قال جابرٌ: فلَقِيتُ أبا بَكرٍ بَعدَ ذلك فسَألتُه فلم يُعطِني، ثُمَّ أتَيتُه فلم يُعطِني، ثُمَّ أتَيتُه الثَّالثةَ فلم يُعطِني، فقُلتُ له: قد أتَيتُك فلم تُعطِني، ثُمَّ أتَيتُك

[2662] أخرجه البخاري (3821)، ومسلم (2437) بنحوه مختصراً، وأحمد (24864) واللفظ له.

[2663] صحيح البخاري (1481)

[2664] صحيح الجامع، ص:2487

[2665] صحيح البخاري، ص:2731

[2666] أخرجه الترمذي (3627)، وابن ماجه (1415)، وأحمد (13363) بنحوه مختصراً، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (558/2) واللفظ له

فلم تُعطِني، ثُمَّ أتَيتُك فلم تُعطِني، فإمَّا أن تُعطيَني، وإمَّا أن تبخَلَ عنِّي! فقال: أقُلتَ: تَبخَلُ عنِّي؟! وأيُّ داءٍ أدوَأُ من البُخلِ؟! -قالها ثَلاثًا-، ما مَنَعتُك من مَرَّةٍ إلَّا وأنا أُريدُ أن أُعطيَك!".[2667]

وفي هذا الحديثِ:

يروي جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عنهما أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ قدْ وَعَدَه أنْ لوْ جاءَهُ مِن البَحرينِ مالُ الجِزْيةِ، أعطاهُ (هَكذا وَهَكذا وَهَكذا)، يَعني مِلْءَ كَفَّيْه ثَلاثَ مرَّاتٍ. وكانت البَحرينِ في القَديمِ تُطلَقُ على ما يَشمَلُ حاليًّا: البَحرينِ، والأحساءَ والقَطيفَ شَرْقَ المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ، وقدْ بيَّنَت رِواياتٌ أُخرى عندَ البُخاريِّ وغيرِه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أرسَلَ العَلاءَ بنَ الحَضْرميِّ إلى المُنذرِ بنِ ساوَى عامِلِ الفُرسِ على البَحرينِ يَدْعوه إلى الإسلامِ فأسْلَمَ، وصالَحَ مَجوسَ تلك البلادِ على الجِزيةِ، وتلك المرَّةُ التي وَعَدَ فيها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جابرًا بسَهْمٍ مِن جِزيةِ البَحرينِ، لَمْ يأْتِ المالُ ولم يَصِلْ إلى المدينةِ إلَّا بعْدَ أنْ ماتَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وقُبِضَت رُوحُه، وتَولَّى الخلافةَ بعْدَه أبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ رَضيَ اللهُ عنه، فلمَّا جاءَ مالُ البَحرينِ أمَرَ أبو بَكرٍ رَضيَ اللهُ عنه مُناديًا -قيل: إنَّهُ بِلالٌ- فنادَى: مَن كانَ لهُ عِندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَينٌ أو وَعْدٌ بمالٍ، فلْيَأتِنا كَيْ نُوفِيَهُ حَقَّه، وقدْ أمَرَ أبو بَكرٍ بذلك لعِلمِه بما كان يَفعَلُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الوُعودِ أو الاستدانةِ لقَضاءِ حَوائجِ النَّاسِ حتَّى يَصِلَ مالُ الجِزيةِ أو الفَيءِ.

فجاء جابرٌ رَضيَ اللهُ عنهُ إلى أبي بكر رَضيَ اللهُ عنهُ، فأخْبَرَه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال له: «كَذا وكَذا»، وهذا كِنايةٌ عمَّا وَعَدَه به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَحَثَا له أبو بَكرٍ رَضيَ اللهُ عنه ثَلاثًا، والحَثْيَةُ: ما أُخِذَ بالكَفِّ مَبسوطةً، وقيلَ: هيَ كالحَفْنةِ، وهيَ ما يَملأُ الكَفَّينِ، وهذا ما فَعَلَهُ راوي الحديثِ سُفيانُ بنُ عُيَينةَ عِندما فَسَّرَ ذلكَ وحَثَا بِكفَّيْهِ جَميعًا.

وفي روايةٍ أنَّهُ جاء إلى أبي بَكرٍ رَضيَ اللهُ عنه وسَأَلَه أنْ يُعطِيَه ثَلاثَ مرَّاتٍ، وفي كلِّ مرَّةٍ لم يُعْطِه، فقال له جابرٌ رَضيَ اللهُ عنه: «فإمَّا أنْ تُعطِيَني، وإمَّا أنْ تَبْخَلَ عَنِّي»، والبُخلُ: هو أنْ يَمنَعَ المرءُ ما يَجِبُ علَيهِ فلا يُؤدِّيهِ، فقالَ لهُ أبو بَكرٍ مُستَنكِرًا: «قُلتَ: تَبخَلُ عنِّي؟ ما منَعْتُكَ مِن مَرَّةٍ إلَّا وأنا أُريدُ أنْ أُعْطيَكَ»، وإنَّما تَأخَّرَ أبو بَكرٍ في إعطائِهِ إمَّا لاشتِغالِهِ بما هُوَ أهمُّ مِن ذلكَ، أو خَشيةَ أنْ يَكثُرَ الطَّالِبونَ لِمثلِ هذا، فَلَمَّا أبو بَكرٍ كَفَّيْه مالًا وطَلَبَ منه أنْ يَعُدَّها، فعَدَّها فوَجَدَها خَمسَ مِئةٍ، قالَ: «فَخُذْ مِثلَها مرَّتينِ»، كما وَعَدَهُ رَسولُ اللهِ.

وفي رِوايةٍ أنَّ أبا بَكرٍ قال له: «وأيُّ داءٍ أَدْوأُ مِن البُخْلِ»، أي: أيُّ عَيبٍ ومرَضٍ أقبَحُ مِن أنْ يَتَّصِفَ الإنسانُ بصِفةِ البُخلِ.

وفي الحديثِ: حُسنُ خِلافةِ أَبي بَكرٍ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإقامتُه لسُنَّتِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنفاذُه لوُعودِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

- **وفاؤُه في إنفاذِ جَيشِ أُسامةَ رَضِيَ اللهُ عنه:**

قامَ أبو بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه بإنفاذِ جَيشِ أُسامةَ بنِ زَيدٍ، الذي قَرَّرَه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ليسيرَ إلى تُخُومِ البَلقاءِ من الشَّامِ، "فخَرَجوا إلى الجرفِ فَخَيَّموا به، وكان بَينَهم عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ -ويُقالُ: وأبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ- فاستَثناه رَسولُ اللهِ منهم للصَّلاةِ، فلمَّا ثَقُل رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أقاموا هنالك، فلمَّا ماتَ عَظُمَ الخَطبُ، واشتَدَّ الحالُ، ونَجَم النِّفاقُ بالمَدينةِ، وارتَدَّ من ارتَدَّ من أحياءِ العَرَبِ حَولَ المَدينةِ، وامتَنَعَ آخَرونَ من أداءِ الزَّكاةِ إلى الصِّدِّيقِ، ولم يبقَ للجُمُعةِ مَقامٌ في بَلدٍ سِوى مَكَّةَ والمَدينةِ! وكانت جواثا من البَحرَينِ أوَّلَ قَريةٍ أقامَت الجُمعةَ بَعدَ رُجوعِ النَّاسِ إلى الحَقِّ، وقد كانت ثَقيفٌ بالطَّائِفِ ثَبَتوا على الإسلامِ، لم يفِرُّوا ولا ارتَدُّوا، والمَقصودُ أنَّه لَمَّا وقَعَت هذه الأُمورُ أشارَ كَثيرٌ من النَّاسِ على

[2667] رواه البخاري 4383 واللفظ له، ومسلم 2314

الصِّدِّيقِ أَلَّا يُنفِذَ جَيشَ أُسامةَ؛ لاحتياجِه إليه فيما هو أهَمُّ؛ لأنَّ ما جُهِّزَ بسَبَبِه في حالِ السَّلامةِ، وكان من جُملةِ من أشارَ بذلك عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فامتَنَعَ الصِّدِّيقُ من ذلك، وأبى أشَدَّ الإباءِ إلَّا أن يُنفِذَ جَيشَ أُسامةَ، وقال: واللهِ لا أُحِلُّ عُقدةً عَقدَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولو أنَّ الطَّيرَ تَخطَفُنا، والسِّباعَ مِن حَولِ المَدينةِ، ولو أنَّ الكِلابَ جَرَّت بأرجُلِ أُمَّهاتِ المُؤمِنينَ لأُجَهِّزَنَّ جَيشَ أُسامةَ!".[2668]

- وعن قَيسِ بنِ أبي حازِمٍ قال: "دَخَلتُ مَعَ أبي على أبي بَكرٍ في مَرَضِه، قال: يا أبا حازِمٍ قد أجَزتُ لك فرَسَيك. قال: وكان وعَدَني ووعَدَ أبي فرَسًا".[2669]

2- وَفَاءُ عُمَرِ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

قال عُمَرُ بنُ الخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عنه لمَّا طُعِنَ: "أُوصي الخليفةَ مِن بَعدي بالمُهاجِرينَ الأوَّلينَ، أن يعرِفَ لهم حقَّهم، ويحفَظَ لهم حُرمتَهم، وأوصيه بالأنصارِ خيرًا {الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الحشر: 9] أن يُقبَلَ مِن مُحسِنِهم، وأن يُعفى عن مُسيئِهم، وأوصيه بأهلِ الأمصارِ خيرًا؛ فإنَّهم رِدْءُ[2670] الإسلامِ، وجُباةُ المالِ[2671]، وغَيظُ العدُوِّ، وألَّا يُؤخَذَ منهم إلَّا فَضلُهم عن رِضاهم، وأوصيه بالأعرابِ خيرًا؛ فإنَّهم أصلُ العربِ، ومادَّةُ الإسلامِ، أن يُؤخَذَ مِن حواشي أموالِهم، ويُرَدَّ على فُقَرائِهم، وأوصيه بذمَّةِ اللهِ، وذمَّةِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُوفَى لهم بعَهدِهم، وأن يُقاتَلَ مِن وَرائِهم، ولا يُكلَّفوا إلَّا طاقتَهم".[2672]

3- وَفَاءُ جَرِيرِ بنِ عَبدِ اللهِ البَجَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- ورد في معجم الطبراني أن جرير بن عبد الله البجلي أرسل غلامه ليشتري فرساً، فذهب غلام جرير إلى السوق فوجد فرساً أعجبه، فأخذ يساوم صاحبه حتى وصل إلى ثلاثمائة درهم، وكان الفرس يستحق أكثر من ذلك، لكن الغلام (فطن)، فاتفقوا على السعر وذهب الرجل والغلام بالفرس إلى جرير، فقال له جرير: بكم اشتريت الفرس؟ قال: بثلاثمائة درهم، فقال جرير لصاحب الفرس: يا صاحب الفرس! فرسك يساوي خمسمائة، فاستاء الغلام جداً من هذه الكلمة، فقال الرجل: رضيت!، فقال جرير: بل يساوي ثمانمائة درهم، فقال له الرجل: رضيت!، وأعطاه الثمانمائة درهم وأخذ الفرس، فقال الغلام متعجبا!

ما هذا؟ فقال جرير: "بايعتُ رسولَ اللهِ على إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والنصحِ لكلِّ مسلمٍ، وعلى فِراقِ المُشرك!".[2673]

فهل هذا المثل موجود في غير الصحابة -إلا من رحم الله وقليل ما هم؟ لا يمكن له أن يفض بيعته وعهده الذي عاهد عليه نبيه بخمسمائة درهم!

ولسان حاله يقول إنه من الغبن أن أنقض هذا العهد بخمسمائة درهم، فحين تنظر إلى هذه النماذج ترى نماذج عالية يتأسى بها المسلم، فالجيل الأول كله مكاسب، وإذا اخترت في الأجيال التي تأتي بعد ذلك اختر من كان على منهج هؤلاء، فيلزمك حينئذٍ أن تقتدي بهم وتصاحب من كان على نهجهم.

عن جرير قال: بايعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على السَّمعِ والطاعةِ، والنُّصحِ لكلِّ مسلمٍ، فكان إذا اشترى شيئًا أو باعَه يقول لصاحبه: اعلمْ أنَّ ما أخذنا منك أحبُّ إلينا مما أعطيناكه فاختر.[2674]

[2668] البداية والنهاية لابن كثير 6/335

[2669] تاريخ دمشق لابن عساكر 49/ 458

[2670] رِدْء: أي: المعين والناصر

[2671] جَبَا المالَ، ونحوه: أي: جَمَعَهُ، وَحَصَّلَهُ، واسْتَوْفَاهُ من المُكَلَّفين.

[2672] رواه البخاري 3700

[2673] صحيح النسائي 4186

نُبْلٌ في الأخلاق، سموٌّ في الأَدب، رُقيٌّ في المعاملة، سمعٌ وطاعةٌ ونصحٌ.

قومٌ كرامُ السَّجايا حيثما جلسوا
يبقى المكانُ على آثارِهم عَطِرا

- وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "خَرَجتُ مَعَ جَريرِ بنِ عَبدِ اللهِ البَجَليِّ في سَفرٍ، فكان يخدُمُني، فقُلتُ له: لا تَفعلْ! فقال: إنِّي قد رَأيتُ الأنصارَ تَصنَعُ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شَيئًا، آليتُ ألَّا أصحَبَ أحَدًا منهم إلَّا خَدمتُه!". وكان جَريرٌ أكبَرَ من أنَسٍ.[2675]

4- وفاءُ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

عن نافِعٍ قال: "لَمَّا خَلَعَ أهلُ المَدينةِ يزيدَ بنَ مُعاويةَ جَمَعَ ابنُ عُمَرَ حَشَمَه وولَدَه، فقال: إنِّي سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: "يُنصَبُ لكُلِّ غادِرٍ لواءٌ يومَ القيامةِ"، وإنَّا قد بايعنا هذا الرَّجُلَ على بَيعِ اللهِ ورَسولِه، وإنِّي لا أعلمُ غَدرًا أعظَمَ من أن يُبايَعَ رَجُلٌ على بَيعِ اللهِ ورَسولِه، ثُمَّ يُنصَبَ له القِتالُ، وإنِّي لا أعلمُ أحَدًا منكم خَلَعَه، ولا بايَعَ في هذا الأمرِ، إلَّا كانت الفيصَلَ بَيني وبَينَه".[2676]

5- وفاءُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

عن هارونَ بنِ رِئابٍ قال: "لَمَّا حَضَرتْ عَبدَ اللهِ بنَ عَمرٍو الوفاةُ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: إنَّه كان خَطَبَ إليَّ ابنَتي رَجُلٌ من قُرَيشٍ، وقد كان مِنِّي إليه شَبيهٌ بالوَعدِ، فواللهِ لا ألقى اللهَ بثُلُثِ النِّفاقِ! اشهَدوا أنِّي قد زوَّجْتُها إيَّاه".[2677]

6- وفاءُ أَنَسِ بنِ النَّضْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

لَمْ يَحْضُرْ أَنَسُ بنِ النضرِ غزوةَ بدرٍ، فحزنَ لذلكَ، ثم قَالَ: يا رسولَ اللهِ، غبتُ عن أولِّ قتال قاتلتَ المشركين فيه، ولئنْ أشهَدنِي اللهُ مع النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتالَ المشركين ليُرَيَنَّ ما أصنعُ، وهَكَذَا أَخَذَ أنسُ بنُ النضرِ عهدًا على نفسه بأن يجاهدَ ويقاتلَ المشركين، ويستدركَ ما فاته من الثوابِ في بدر، فلما جاءتْ غزوةُ أحدٍ انكشفَ المسلمُون، وَحَدَثَ بين صُفُوفِهم اضطرابٌ، فَقَالَ أنسٌ لسعدِ بنِ معاذ: يا سعدَ بنَ معاذ، الجَنَّةُ ورَبِّ النَّضْر، إني لأجدُ ريحَهَا من دونِ أُحُدٍ، ثم انْدَفَعَ أَنَسٌ يُقَاتِلُ قتالًا شديدًا حتى استشهدَ في سبيلِ الله، ووجدَ الصحابةُ به بضعًا وثمانين موضعًا ما بين ضربةٍ بالسيف أو طعنةٍ بالرمحِ أو رَمْيَةٍ بِالسَّهْمِ، وَلَمْ يعرفْ أحدٌ أنه أنسٌ بنُ النضرِ إلا أختُهُ بعلامةٍ في إصبَعِهِ".[2678]

فكان الصحابة يرون أن الله قد أنزل فيه وفي إخوانه قوله تعالى: {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 23].

7- وفاءُ الأَنْصَارِ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ضَرَبَ صَحَابَةُ الرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأنصارِ (وهم أهل المدينة) أروعَ الأمثلةِ في الوفاء بالعهد، فقدْ بَايَعُوا النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الدِّفَاعِ عنِ الإسْلامِ، ثم أوفُوا بعهدِهِم، فاسْتَضَافُوا إخوانَهُم المهاجرين واقتَسَمُوا معهم ما عندهم، حتى تم النصرُ لدين الله.

[2674] رواه ابن حبان في صحيحه 4546

[2675] رواه البخاري 2888، ومسلم 2513 واللفظ له.

[2676] رواه البخاري 7111

[2677] رواه ابنُ أبي الدنيا في الصمت 456، وأبو بكر الفريابي في صفة النفاق18، 19

[2678] أخرجه البخاري (2805)، ومسلم (1903)

عن عوف بن مالك الأشجعي -رضي الله عنه- قال: كُنَّا عِنْدَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، تِسْعَةً، أوْ ثَمانِيَةً، أوْ سَبْعَةً، فقالَ: ألَا تُبايِعُونَ رَسولَ اللهِ؟ وكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ ببَيْعَةٍ، فَقُلْنا: قدْ بايَعْناكَ يا رَسولَ اللهِ، ثُمَّ قالَ: ألَا تُبايِعُونَ رَسولَ اللهِ؟ فَقُلْنا: قدْ بايَعْناكَ يا رَسولَ اللهِ، ثُمَّ قالَ: ألَا تُبايِعُونَ رَسولَ اللهِ؟ قالَ: فَبَسَطْنا أيْدِيَنا وقُلْنا: قدْ بايَعْناكَ يا رَسولَ اللهِ، فَعَلامَ نُبايِعُكَ؟ قالَ: علَى أنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا به شيئًا، والصَّلَواتِ الخَمْسِ، وتُطِيعُوا، (وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً)، ولا تَسْأَلُوا النَّاسَ شيئًا. فَلقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أحَدِهِمْ، فَما يَسْأَلُ أحَدًا يُناوِلُهُ إيَّاهُ".[2679]

إن الذي يتتبَّع العهود والمواقف المنبثقة التي قدَّمها الصحابة رضوان الله عليهم في حياة النبي وبعد وفاته، وإبراز أثر هذه العهود عليهم وعلى تعاملاتهم وأثرها في الأمة، سيرى بوضوح أن هذا الجيل صنع أعظم أثر في تاريخ البشرية، ورسم للأمة الطريق ودلها على الوسائل التي ترتقي بها في كل زمان ومكان، ففي كل صقع لهم أثر، وفي كل بلد منهم بقايا، جالوا الأرض وسعوا فيها وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، بصدقٍ والتزامٍ في سبيل عزةِ الإسلامِ، فغدوا جيلًا فريدًا متميِّزًا عن كل الأجيال.

إن الصحابة رضوان الله عليهم لم يقتصروا في عهودهم على مجال واحد؛ كالمجال العلمي أو المجال التعبُّدي فقط، بل رسمت عهودهم مواقف شمولية لجميع جوانب الحياة.

لقد وفى أصحابُ رَسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعُهودِ والمَواثيقِ، والتَزَموا بالمُبايعاتِ التي أخَذَها عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

"فقد بايعَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صَحابَتَه في عِدَّةِ مُناسَباتٍ، وهذه هي العُهودُ والمَواثيقُ التي ذَكَرها اللهُ في أكثَرَ من آيةٍ؛ حَيثُ خُصَّ بَعضُها بالذِّكرِ كبَيعةِ الرِّضوانِ، وأخَذَ عليهم العَهدَ في بَيعَتَيِ العَقَبةِ، وبَيعةِ الرِّضوانِ، وبايعَهم على الإسلامِ، وبايعَ النِّساءَ بَيعةً خاصَّةً، كما بايعَ بَعضَ صَحابَتِه على الجِهادِ، وبايعَ آخَرينَ على السَّمعِ والطَّاعةِ، وبايعَ بَعضَهم على إقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والنُّصحِ لكُلِّ مُسلمٍ.

ومِمَّا يجدُرُ التَّنبيه إليه هنا ما ذَكَره سُبحانَه في سورةِ الأحزابِ مادِحًا أصحابَ تلك العُهودِ والمَواثيقِ، ومُثنيًا عليهم: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 23]، نَعَم، لقد وفى صَحابةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعُهودِهم، والتَزَموا مَواثيقَهم، ولم يكونوا كبَني إسرائيلَ الذين أصبَحَت الخيانةُ والغَدرُ من سِماتِهم وأبرَزِ سَجاياهم وطِباعِهم.

لقد كان من وفاءِ أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ أحَدَهم يسقُطُ سَوطُه وهو راكِبٌ على دابَّتِه، فينزِلُ ليأخُذَ سَوطَه، ولا يطلُبُ من أحَدٍ أن يُناوِلَه؛ لأنَّه بايعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ألَّا يسألَ النَّاسَ شَيئًا، أعطَوه أو مَنَعوه!

هذه هي الطَّاعةُ، وهذا هو الوفاءُ، وبِمِثلِ هؤلاء تَسعَدُ البَشَريَّةُ وتَصِلُ إلى مَدارِجِ الرُّقيِّ وسُموِّ الأخلاقِ، لقد كان جيلًا قُرآنيًّا فذًّا، لم تَعرِفِ البَشَريَّةُ جيلًا كذلك الجيلِ، ولا صَفوةً كتلك الصَّفوةِ {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: 90]، {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: 18]".[2680]

رابعا: نماذِجُ أُخرى من الوفاءِ:

1- "يُذكَرُ أنَّ امرَأَ القَيسِ الكِنديَّ لمَّا أرادَ المُضيَّ إلى قَيصَرَ مَلكِ الرُّومِ، أودَعَ عِندَ السَّمَوْءَلِ دُروعًا وسِلاحًا، وأمتِعةً تُساوي من المالِ جُملةً كثيرةً، فلمَّا ماتَ امرُؤُ القَيسِ أرسَل مَلِكُ كِندةَ يطلُبُ الدُّروعَ والأسلحةَ المودَعةَ عِندَ السَّمَوءَلِ، فقال السَّمَوءلُ: لا أدفعُها إلَّا لمُستَحِقِّها. وأبى أن يدفعَ إليه منها شَيئًا، فعاودَه فأبى، وقال: لا أغدِرُ بذِمَّتي، ولا أخونُ

[2679] صحيح مسلم 1043

[2680] العهد والميثاق في القرآن الكريم لناصر العمر ص: 235

أمانَتي، ولا أترُكُ الوفاءَ الواجِبَ عليَّ، فقَصدَه ذلك المَلكُ من كِندةَ بعَسكرِه، فدَخَل السَّمَوءلُ في حِصنِه، وامتَنَعَ به، فحاصَرَه ذلك المَلِكُ، وكان ولدُ السَّمَوءلِ خارِجَ الحِصنِ، فظَفِرَ به ذلك المَلكُ فأخَذَه أسيرًا، ثُمَّ طاف حَول الحِصنِ وصاحَ بالسَّمَوءلِ، فأشرَف عليه مِن أعلى الحِصنِ، فلمَّا رَآه قال له: إنَّ ولدَك قد أَسرْتُه، وها هو مَعي، فإن سَلَّمتَ إليَّ الدُّروعَ والسِّلاحَ التي لامرِئِ القَيسِ عِندَك رَحَلتُ عنك، وسَلَّمتُ إليك ولدَك، وإن امتَنَعتَ من ذلك ذَبَحتُ ولدَك وأنت تَنظُرُ، فاختَرْ أيَّهما شِئتَ، فقال له السَّمَوءلُ: ما كُنتُ لأُخفرَ ذِمامي، وأُبطِلَ وَفائي، فاصنَعْ ما شِئتَ، فذَبَحَ ولدَه وهو ينظُرُ! ثُمَّ لمَّا عَجَزَ عن الحِصنِ رَجَعَ خائِبًا، واحتَسَبَ السَّمَوءلُ ذَبحَ ولدِه؛ مُحافَظةً على وفائِه، فلمَّا جاءَ المَوسِمُ وحَضَرَ ورَثةَ امرِئِ القَيسِ سَلَّمَ إليهم الدُّروعَ والسِّلاحَ، ورَأى حِفظَ ذِمامِه ورِعايةَ وفائِه أحَبَّ إليه من حَياةِ ولَدِه وبَقائِه، فصارَت الأمثالُ في الوفاءِ تُضرَبُ بالسَّمَوءلِ، وإذا مَدحوا أهلَ الوفاءِ في الأنامِ ذُكِرَ السَّمَوءلُ في الأوَّلِ!

وكم أعلى الوفاءُ رُتبةَ من اعتقَله بيَدَيه، وأغلى قيمةَ من جعلَه نُصبَ عَينَيه، واستَنطَقَ الأفواهَ لفاعِلِه بالثَّناءِ عليه، واستَطلقَ الأيديَ المَقبوضةَ عنه بالإحسانِ إليه!".[2681]

2- قِصَّةٌ أُخرى يحكيها مالكُ بنُ عُمارةَ اللَّخميُّ، قال: "كُنتُ جالسًا في ظِلِّ الكعبةِ أيَّامَ المَوسِمِ عِندَ عَبدِ المَلكِ بنِ مَروانَ، وقَبيصةَ بنِ ذُؤَيبٍ، وعُروةَ بنِ الزُّبَيرِ، وكُنَّا نَخوضُ في الفِقهِ مَرَّةً، وفي المُذاكَرةِ مَرَّةً، وفي أشعارِ العَرَبِ وأمثالِ النَّاسِ مَرَّةً، فكُنتُ لا أجِدُ عِندَ أحَدٍ ما أجِدُه عِندَ عَبدِ المَلكِ بنِ مَروانَ من الاتِّساعِ في المَعرِفةِ، والتَّصَرُّفِ في فُنونِ العِلمِ، وحُسنِ استِماعِه إذا حَدَّثَ، وحَلاوةِ لفظِه إذا حَدَّثَ، فخَلَوتُ مَعَه ليلةً، فقُلتُ له: واللهِ إنِّي لَمسرورٌ بك لِما شاهَدتُه من كثرةِ تَصَرُّفِك، وحُسنِ حَديثِك، وإقبالِك على جَليسِك! فقال: إن تَعِشْ قَليلًا فسَتَرى العُيونَ طامِحةً إليَّ، والأعناقَ نَحوي مُتَطاوِلةً، فإذا صارَ الأمرُ إليَّ فلعلَّك أن تَنقُلَ إليَّ رِكابَك فلأملأَنَّ يديك! فلمَّا أفضَت إليه الخِلافةُ تَوجَّهتُ إليه، فوافيتُه يومَ الجُمُعةِ وهو يخطُبُ على المِنبَرِ، فلمَّا رَآني أعرَضَ عنِّي، فقُلتُ: لعلَّه لم يعرِفْني، أو عَرَفني وأظهَرَ لي نُكرَه! فلمَّا قُضِيَتِ الصَّلاةُ ودَخَل بَيتَه، لم ألبَثْ أن خَرَجَ الحاجِبُ فقال: أينَ مالِكُ بنُ عُمارةَ؟ فقُمتُ، فأخَذَ بيدي وأدخَلني عليه، فمَدَّ إليَّ يدَه، وقال: إنَّك تراءيتَ لي في مَوضِعٍ لا يجوزُ فيه إلَّا ما رَأيتَ، فأمَّا الآنَ فمَرحَبًا وأهلًا! كيف كُنتَ بَعدي؟ فأخبَرتُه، فقال: أتَذكُرُ ما كُنتُ قُلتُ لك؟ قُلتُ: نَعَم. فقال: واللهِ ما هو بميراثٍ ادَّعَيناه، ولا أثَرٍ رُوِّيناه، ولكِنِّي أُخبِرُك بخِصالٍ مِنِّي سُمتُ بها نَفسي إلى المَوضِعِ الذي تَرى: ما خُنتُ ذا وُدٍّ قَطُّ، ولا شَمِتُّ بمُصيبةِ عَدوٍّ قَطُّ، ولا أعرَضتُ عن مُحدِّثٍ حتَّى ينتَهِيَ حَديثُه، ولا قَصَدتُ كَبيرةً من مَحارِمِ اللهِ تعالى مُتَلَذِّذًا بها، فكُنتُ أُؤَمِّلُ بهذه أن يرفعَ اللهُ تعالى مَنزِلتي، وقد فَعَل! ثُمَّ دَعا بغُلامٍ فقال له: يا غُلامُ، بوِّئْه مَنزِلًا في الدَّارِ، فأخَذَ الغُلامُ بيدي وأفرَدَ لي مَنزِلًا حَسَنًا، فكُنتُ في ألَذِّ حالٍ، وأنعَمِ بالٍ، وكان يسمَعُ كلامي وأسمَعُ كلامَه، ثُمَّ أدخُلُ عليه في وقتِ عَشائِه وغَدائِه، فيرفَعُ مَنزِلتي ويُقبِلُ عليَّ ويُحادِثُني، ويسألُني مَرَّةً عن العِراقِ، ومَرَّةً عن الحِجازِ، حتَّى مَضَت لي عِشرونَ ليلةً، فتَغَدَّيتُ يومًا عِندَه، فلمَّا تَفرَّقُ النَّاسُ نَهَضتُ قائِمًا، فقال: على رِسْلِك. فقَعَدتُ، فقال: أيُّ الأمرَينِ أحَبُّ إليك: المُقامُ عِندَنا مَعَ التَّصفةِ لك في المُعاشَرةِ، أو الرُّجوعُ إلى أهلك ولك الكرامةُ؟ فقُلتُ: يا أميرَ المُؤمِنينَ، فارَقتُ أهلي وولدي على أنِّي أزورُ أميرَ المُؤمِنينَ وأعودُ إليهم، فإن أمَرَني أميرُ المُؤمِنينَ اختَرتُ رُؤيتَه على الأهلِ والولدِ! فقال: لا، بَل أرى لك الرُّجوعَ إليهم، والخيارُ لك بَعدُ في زيارَتِنا، وقد أمَرْنا لك بعِشرينَ ألفَ دينارٍ، وكَسَوناك، وحَمَلْناك، أتُراني قد مَلأتُ يديك؟! فلا خَيرَ فيمَن ينسى إذا وعَدَ وعدًا، وزُرْنا إذا شِئتَ. صَحِبَتك السَّلامةُ".[2682]

[2681] المستطرف للأبشيهي 1/432

[2682] المستطرف للأبشيهي 1/438

3- وعن شُعبةَ قال: "ما وعَدْتُ أيُّوبَ مَوعِدًا إلَّا وجَدْتُه قد سَبَقَني إليه!".[2683]

4- وقال أبو سَعيدٍ بَكرُ بنُ مُنيرٍ: كان حُمِلَ إلى مُحَمَّدِ بنِ إسماعيلَ البُخاريّ بضاعةٌ أَنفَذها إليه فُلانٌ، فاجتَمَعَ بَعضُ التُّجَّارِ إليه بالعَشيَّةِ فطلبوها منه بربحِ خَمسةِ آلافِ دِرهَمٍ، فقال لهم: انصَرِفوا اللَّيلةَ، فجاءَه من الغَدِ تُجَّارٌ آخَرونَ، فطَلبوا منه تلك البضاعةَ بربحِ عَشَرةِ آلافِ دِرهَمٍ، فردَّهم، وقال: إنِّي نَويتُ البارِحةَ أن أدفعَ إليهم بما طَلبوا -يعني: الذين طَلبوا أوَّل مَرَّةٍ- ودَفعَ بربحِ خَمسةِ آلافِ دِرهَمٍ! وقال: لا أُحِبُّ أن أنقُضَ نيَّتي![2684]

5- وقال المَدائِنيُّ: "جَعل الحَجَّاجُ في رَجُلٍ مِائةَ ألفٍ، فأُخِذَ فأُتِيَ به الحَجَّاجُ، فقال لقُتَيبةَ: احتَفِظْ به ليلتَك، ثُمَّ بَكِّرْ به عليَّ، فانصَرَف به قُتَيبةُ إلى مَنزِلِه، فأحضَرَه العَشاءَ، فامتَنَعَ منه، فقال له قُتَيبةُ: ما بالُك لا تَعشَّى؟ فقال: للذي في صَدري -أصلحَك اللهُ- من البَلابِلِ[2685]! والذي استَبقَيتُ عليه من الهَلَكةِ؛ فإنَّ أخًا لي هَلك وأوصى إليَّ، فلَستُ آمَنُ على تَركتِه الضَّياعَ، وأنا مُحتاجٌ إلى أن أوصيَ فيها".

قال له قُتَيبةُ: لو كان لك من يَضمَنُك لتَركتُك تَأتي مَنزِلَك فتُحكِمُ أمرَك. قال: اللهُ كفيلي!

قال قُتَيبةُ: كفى باللهِ كفيلًا، انطَلِقْ! فانطَلقَ الرَّجُلُ، وخَشيَ قُتَيبةُ أن يُؤخَذَ به، فجَعلَ لا يتَقارُّ [2686] ليلَه! وكانت له ثَلاثةُ أَسِرَّةٍ، فجَعل يتَنَقَّلُ عليها حتَّى أصبَحَ، فأتاه الرَّجُلُ مُصبِحًا، فقال له قُتَيبةُ: ما الذي خَلَّفك إلى هذا الوقتِ؟ قال: التَّجَهُّزُ للمَوتِ أخَّرَني! فرَكِبَ قُتَيبةُ إلى الحَجَّاجِ، قال له: أينَ صاحِبُك؟ قال: قد جِئتُ به أيُّها الأميرُ، وخَبَّرَه خَبَرَه، فقال له الحَجَّاجُ: فإنِّي قد وهبتُه لك! فخَرَجَ إليه قُتَيبةُ، فقال له: إنَّ الأميرَ قد وهبَك لي، وقد وهَبتُك للهِ عَزَّ وجَلَّ! فقال الرَّجُلُ: نِعمَ القادِرُ اللهُ! ولم يزِدْه عليها، وانطَلقَ إلى المَسجِدِ فصَلَّى رَكعَتَينِ، ثُمَّ أقبَل إلى قُتَيبةَ، فقال له قُتَيبةُ: أعلَمْتُك أنِّي قد مَنَنتُ عليك وأعتَقتُك، فلم تَشكُرْ لي الشُّكرَ الذي يُشبِهُ ما كان مِنِّي! فقال: أحبَبتُ أن أبدَأَ بشُكرِ اللهِ تعالى فأخلِصَه ولا أُشرِكَ به أحَدًا! فقُلتُ ما سَمِعتَ، ودَخَلتُ المَسجِدَ فصَلَّيتُ رَكعَتَينِ، وحَمِدتُ أمرَك إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ. فكتَبَ قُتَيبةُ على خاتَمِه يومَئِذٍ: نِعْمَ القادِرُ اللهُ!".[2687]

6- وقال ابنُ حَزمٍ: "لقد منحَني اللهُ عَزَّ وجَلَّ من الوفاءِ لكُلِّ من يَمُتُّ إليَّ بلُقيةٍ واحِدةٍ، ووهَبَني من المُحافظةِ لَمَن يتَذَمَّمُ مِنِّي ولو بمُحادَثَتِه ساعةً- حَظًّا أنا له شاكِرٌ وحامِدٌ، ومنه مُستَمِدٌّ ومُستَزيدٌ، وما شَيءٌ أثقَلَ عليَّ من الغَدرِ؛ ولعَمْري ما سَمَحَت نَفسي قَطُّ في الفِكرةِ في إضرارِ مَن بَيني وبَينَه أقَلُّ ذِمامٍ، وإن عَظُمَت جَريرتُه، وكثُرَت إليَّ ذُنوبُه، ولقد دَهَمَني من هذا غَيرُ قَليلٍ، فما جَزيتُ على السُّوءى إلَّا بالحُسنى، والحَمدُ للهِ على ذلك كثيرًا".[2688]

المطلب التاسع: حُكمُ الوفاءِ

"يجِبُ الوفاءُ بالعَهدِ، ولا يجوزُ نَقضُه إلَّا إذا نَقضَ العَدوُّ العَهدَ، أو لم يستَقيموا لنا، أو خِفْنا منهم خيانةً، فهنا انتَقَضَ العَهدُ، ولا يلزَمُنا البَقاءُ عليه، ولنا إذا خِفْنا منهم خيانةً أن نُقاتِلَهم بَعدَ إعلامِهم بنَبذِ العَهدِ.

قال اللهُ تعالى: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} [الإسراء: 34].

[2683] حلية الأولياء لأبي نعيم 3/ 5

[2684] تاريخ بغداد للخطيب البغدادي 2/ 330

[2685] جمعُ بلبالٍ: وهو شِدَّةُ الهَمِّ والوَساوِسِ في الصَّدرِ. يُنظَر: تاج العروس للزبيدي 114 /28

[2686] يقال: ما يتقارُّ في مكانِه، أي: ما يستقِرُّ. يُنظَر: العين للخليل الفراهيدي 22 /5

[2687] سنن الصالحين وسنن العابدين لأبي الوليد الباجي ص: 411، 412.

[2688] طوق الحمامة ص: 210.

وقال اللهُ تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: 58] ".[2689]

قال النَّوويُّ: "واتَّفقَ العُلماءُ على جَوازِ خِداعِ الكُفَّارِ في الحَربِ، وكيف أمكنَ الخِداعُ، إلَّا أن يكونَ فيه نَقضُ عَهدٍ أو أمانٍ، فلا يحِلُّ".[2690]

وأمَّا الوفاءُ بالوعدِ، فقال النَّوويُّ فيه: "قد أجمَعَ العُلماءُ على أنَّ من وعَدَ إنسانًا شَيئًا ليس بمَنهيٍّ عنه، فينبَغي أن يفيَ بوَعدِه".[2691]

"وهَل ذلك واجِبٌ أم مُستَحَبٌّ؟ فيه خِلافٌ بَينَهم. ذَهَبَ الشَّافِعيُّ وأبو حَنيفةَ والجُمهورُ إلى أنَّه مُستَحَبٌّ، فلو تَركه فاتَه الفضلُ وارتَكبَ المكروهَ كراهةَ تَنزيهٍ شَديدةً، ولكِنْ لا يأثَمُ. وذَهَبَ جَماعةٌ إلى أنَّه واجِبٌ".[2692]

قال ابنُ عُثَيمينَ: "وأمَّا إخلافُ الوَعْدِ فحَرامٌ. يَجِبُ الوفاءُ بالوَعْدِ سواءٌ وعَدْتَه مالًا أو وعَدْتَه إعانةً تُعينُه في شيءٍ أو أيِّ أمرٍ من الأمورِ، إذا وعَدْتَ فيَجِبُ عليك أن تَفيَ بالوَعْدِ، وفي هذا ينبغي للإنسانِ أن يحَدِّدَ المواعيدَ ويَضبِطَها، فإذا قال لأحَدِ إخوانِه: أواعِدُك في المكانِ الفُلانيِّ فلْيُحَدِّدِ السَّاعةَ الفُلانيَّةَ، حتى إذا تأخَّر الموعودُ وانصرف الواعِدُ يكونُ له عُذرٌ حتَّى لا يَربطَه في المكانِ كثيرًا".[2693]

"وذَهَبَت المالكيَّةُ مَذهَبًا ثالثًا: أنَّه إن ارتَبطَ الوعدُ بسَبَبٍ، كقَوله: تَزَوَّجْ ولك كذا، أو احلِفْ أنَّك لا تَشتُمُني، ولك كذا، أو نَحوَ ذلك؛ وجَبَ الوفاءُ، وإن كان وعدًا مُطلقًا لم يجِبْ. هذا، وإنَّ مَن وعَدَ وفي نيَّتِه الإخلافُ فهو آثِمٌ قَطعًا".[2694]

المطلب العاشر: ضرورة الوفاء

لا تَقُومُ حَيَاةُ النَّاسِ فِي أَيِّ مُجْتَمَعٍ إِلَّا عَلَى الْعَلَاقَاتِ الْمُتَبَادَلَةِ الَّتِي تَتَنَوَّعُ مَا بَيْنَ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَمَادِيَّةٍ وَفِكْرِيَّةٍ، وَالشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَضْمَنُ اسْتِمْرَارَ هَذِهِ الْعَلَاقَاتِ دُونَ قَطِيعَةٍ، هُوَ خُلُقُ الْوَفَاءِ، فَالْوَفَاءُ هُوَ الَّذِي يُقَوِّي أَوَاصِرَ الصَّدَاقَةِ وَالْأُخُوَّةِ فِي اللَّهِ، وَيَجْعَلُ كُلَّ أَخٍ أَوْ أُخْتٍ مُسْلِمَةٍ يُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَجْعَلُهُ يَبْتَغِي مَصْلَحَةَ أَخِيهِ دَائِمًا؛ لِأَنَّهُ يَفِي لَهُ بِعَقْدِ الْأُخُوَّةِ أَوِ الصَّدَاقَةِ.

وَالْوَفَاءُ هُوَ الَّذِي يَضْمَنُ لِعَلَاقَاتِ النَّسَبِ وَالْمُصَاهَرَةِ الِاسْتِمْرَارَ، فَوَفَاءُ كُلِّ إِنسَانٍ بِحَقِّ أَقَارِبِهِ وَأَصْهَارِهِ، يَزِيدُ الْمَحَبَّةَ، وَيُقَوِّي الصِّلَاتِ.

وَالْوَفَاءُ فِي الْعَلاقَاتِ الْمَادِيَّةِ، وَالْعُقُودِ يُؤَدِّي إِلَى دَفْعِ عَجَلَةِ الِاقْتِصَادِ، وَدَوَرَانِ رَأْسِ الْمَالِ بِاطْمِئْنَانٍ وَاسْتِمْرَارٍ وَاسْتِقْرَارٍ، وَمِنْ ثَمَّ تَزْهَرُ الْحَالَةُ الِاقْتِصَادِيَّةُ لِلْمُجْتَمَعِ وَالْأُمَّةِ، وَتَقِلُّ الْخِلَافَاتُ الَّتِي تَصِلُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ إِلَى حَدِّ التَّقَاضِي.

وَالْوَفَاءُ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَضْمَنُ لِلْأُمَّةِ تَحْقِيقَ النَّصْرِ، وَالْحَيَاةَ فِي ظِلِّ رِضْوَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْحَيَاةَ الْكَرِيمَةَ الَّتِي يَضْمَنُهَا اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ، وَفِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مَعَهُ.

المطلب الحادي عشر: الإساءة إلى مكانة الوفاء بمخالفة المواعيد

[2689] مختصر الفقه الإسلامي في ضوء القرآن والسنة للتويجري ص: 1051.

[2690] شرح النووي على مسلم 12/45.

[2691] الأذكار ص: 317. ويُنظَر: التماس السعد في الوفاء بالوعد للسخاوي ص: 53.

[2692] الموسوعة الفقهية الكويتية 2/ 326.

[2693] شرح رياض الصالحين 4/47، 48.

[2694] الموسوعة الفقهية الكويتية 2/ 326.

"قد اشتَهَر عِندَ بعضِ السُّفَهاءِ أنَّهم يقولون: أنا واعِدُك ولا أُخلِفُك، وعدي إنجليزيٌّ! يَظُنُّون أنَّ الذين يُوفُونَ بالوَعْدِ هم الإنجليزُ! ولكِنَّ الوَعْدَ الذي يُوفى به هو وَعدُ المُؤمِنِ؛ ولهذا ينبغي لك أن تقولَ إذا وعَدْتَ أحَدًا وأرَدْتَ أن تؤكِّدَ: إنَّه وَعدُ مُؤمِنٍ، وأنك لن تخلفه؛ لأنَّه لا يُخلِفُ الوَعْدَ إلَّا المُنافِقُ".[2695]

إِنَّ البَعْضَ قَدْ يَسْتَشْهِدُ بالرَّجُلِ الغربيّ فِي احترَامِهِ وانضِبَاطِهِ بِالوَقْتِ، وَيَنْسَى مُؤَذِّنَ مَسْجِدِهِمْ الَّذِي لَا يَتَأَخَّرَ دَقِيقَةً عَنْ وَقْتِهِ خَمْسَ مَرَّاتٍ باليوم، إِنَّهَا عُقْدَةُ الخَوَاجَةِ كَمَا يُطْلَقُ عَلَيْهَا، بَيْنَمَا الحَقِيقَةُ غَيْرُ ذَلِكَ، فَها أَنَا ذَا أَعِيشُ مُنْذُ الصِّغَرِ مَعَهُمْ وَأَرَى أَنَّ الْتِزَامَهُمُ الشَّدِيدَ بِالمَوَاعِيدِ لَيْسَتْ لِأَسْبَابٍ أَخْلَاقِيَّةٍ كَمَا هُوَ حَالُ المُؤْمِنِ، وَإِنَّمَا لِأَسْبَابٍ مَادِّيَةٍ فَحَسَب، وَمَعَ ذَلِكَ يُؤْسِفُنِي القَوْلُ أَنِّي رَأَيْتُ العَجَبَ العُجَابَ فِي إِخْلَافِ الْمَوَاعِيدِ وَخيانة الْوُعُودِ لَدَى الغَالِبِ الأَعَمِّ مِنَ المسلمِينَ، حَتَّى صَارَتْ سِمَةً لهُمْ، بَيْنَمَا يَمْتَازُ غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ فِي الدُّوَلِ الْمُتَقَدِّمَةِ تِقْنِيًّا وَاقِتِصَادِيًّا بِهَذِهِ الْمَزَايَا الْمَفْقُودَةِ عِنْدَنَا.

وَالَّذِي يَنْدَى لَهُ الجَبِينُ أَنْ تَرَى دُعَاةً بَلْ وَمَشَايِخَ كِبَارٍ لَا يَحْتَرِمُونَ المَوَاعِيدِ فَيُصْبِحُوا بِذَلِكَ السُّلُوكِ قُدْوَاتٍ سَيِّئَةً لِغَيْرِهِمْ، فَكَمْ هُوَ أَمْرٌ مُخْزِي عِنْدَمَا يَأْتِي شَيْخٌ أَوْ دَاعِيَةٌ - يُشَارُ إِلَيْهِ بِالبَنَانِ – مُتَأَخِّرًا عَنْ مَوْعِدِهِ إِلَى مُؤْتَمَرٍ أَوْ لِقَاءٍ وَالْكُلُّ يَنْتَظِرُهُ، وَلَرُبَّمَا كَثِيرٌ مِنَ المشَارِيعِ وَلَا سِيَّمَا المشَارِيعِ الدَّعَوِيَّةِ لَا يُكْتَبُ لهَا أَنْ تَرَى النُّورَ وَالسَبَبُ فِي ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى عَدَمِ احْتِرَامِ الوَقْتِ وَالْوَعْدِ.

المطلب الثاني عشر: وَعْدُ الحُرِّ دَيْنٌ عَلَيْهِ

الحِكْمَةُ المأْثُورةُ: "وعدُ الحرِّ دَيْنٌ عَلَيْهِ" تَعْنِي أَنَّ الوعدَ الذِي تَلَفَّظَ بِهِ لِسَانُهُ دَيْنٌ مُعَلَّقٌ فِي رَقَبَتِهِ، وَعَلَيْهِ الوَفَاءُ بِهِ، شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ الوَفَاءِ بِالمَالِ المقْتَرَضِ، وَمِنْ ثَمَّ يَنْبَغِي عَلَى مَنْ لَا يجدُ فِي نَفْسِهِ اسْتِطَاعَةً فِي الوَفَاءِ بالوَعْدِ أَوْ وَجَدَ عَجْزًا عَنْ تَنْفِيذِ وَعِيدٍ، أَلَّا يَتَمَادَى فِي إِطْلَاقِهِ.

وَمِنَ المُحْزِنِ أَنَّ الكَثِيرَ مِنَ المسْلِمِينَ يَسْتَهِينُ فِي أَيَّامِنَا هِذِهِ بِإِخْلَافِ الوُعُودِ فِاقِدِينَ الشُّعُورَ بِمَدَى بَشَاعَةِ هَذَا السُّلُوكِ.

يَقُولُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 2-3].

لِذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَلَّا تعدَ بِمَا لَا تَسْتَطِيعُ؛ حَتَّى لَا تَتَعَوَّدَ مَعَ مُرورِ الزَّمَنِ عَلَى مُخَالَفَةِ الوَعْدِ، وَتَعَلَّمْ أَنْ تقولَ "لَا" مُتَغَلِّبًا عَلَى إِحْسَاسِكَ بِالحَرَجِ، فَلِأَنْ تَعْتَذِرَ فِي البِدَايَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَعْتَذِرَ فِي النِّهَايَةِ.

وَاحْذَرْ أَنْ تَكُونَ حياةُ أَحَدِهِمْ وَطُمُوحَاتُه مُعَلَّقَةٌ بِكَلِمَةِ وَعْدٍ مِنْكَ، وَفِي حَالَ أَخْلَفْتَ بِهَذَا الوَعْدَ، تُؤَدِّي إِلَى تَدْمِيرِهِ، وَلْنَأْخُذَ مِثَالًا عَلَى ذَلِكَ: (شَابٌ وَعَدَ فَتاةً سَاذَجَةً بِالتَّقَدُّمِ لهَا حِينَمَا تَسْنَحُ لَهُ الظُرُوف، وَبِالطَّبْعِ أَهلَهَا لَا يَعْلَمُونَ أَنهَا عَلَى تَوَاصُلٍ مَعَهُ، ارْتَبَطَتْ آمَالُ وَأَحْلَامُ تِلْكَ الفَتَاةِ بِهَذَا الوَعْدِ، وَرَفَضَتْ عَلَى إِصْرِهِ عُرُوضًا أُخْرَى بِالزَّوَاجِ رَاهِنَةً مُسْتَقْبَلَهَا بِهِ، ثُمَّ بعدَ حِينٍ انْسَحَبَ مِنْ هَذَا الوَعْدِ، مُخَلِّفًا وَراءَهُ كَسْرًا لا يَنْجَبِر، وَجُرْحًا لَا يَلْتَئِم إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ).

هَذَا السِينَارْيُو يُمْكِنْ أَنْ يَتَكَرَّرَ فِي سياقَاتٍ مُتنوِّعَةٍ، حَيثُ يُعْتَبَرُ الوفاءُ بالوُعُودِ أَمرًا جَوْهَرِيًّا فِي بِنَاءِ العَلَاقَاتِ وَالثِّقَةِ وَمَا لهَا مِنْ تأثيرٍ كَبيرٍ عَلَى مُجْرَيَاتِ الحَيَاةِ الشَّخْصيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ، سَواءٌ كَانَتْ وُعودًا حُكُومِيَّةً للشَّعْبِ، أَوْ وُعودًا بينَ الآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ، أَوْ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ.

سَأَقُصُّ لَكُمْ مَوْقِفًا حَدَثَ مَعِي شَخْصِيًا فِي هَذَا الشَّأْنِ:

اتَّفَقْنا أنا وابني مَعَ أَحَدِ المشَايِخِ أَنْ نَلْتَقِي لِنُصَلِّي فِي مَسجِدٍ بِعَيْنِهِ صَلَاةَ العَصْرِ، وَرَغْمَ أَنَّ المسْجِدَ بَعِيدٌ عَنّا، لَكِنَّنا ذَهَبْنا إِلَيْهِ لِلِقاءِ الشَّيْخِ.

[2695] شرح رياض الصالحين 4/47، 48

عَقِبَ الصَّلاةِ اتَّصَلتُ بِهِ مَرَّاتٍ عَدِيدةٍ، لَكِنَّهُ لمْ يَرُدَّ إلَّا بَعْدَ نِصْفِ ساعَةٍ، قَائِلًا: "إنَّهُ فِي زِيَارَةِ شَخْصٍ آخَر فِي حَيٍّ بَعِيدٍ!"، ولَمْ يَعْتَذر ولَمْ يَشْعُر أنَّه آذانا. فَلَا هُوَ وَفَّى بِالوعْدِ، وَلَا هُوَ أَخْبَرَنِي أَنَّه لَنْ يأتي وَلَوْ قَبْلَ الموْعِدِ بِقَلِيلٍ.
وَلَقَدْ وَعَدَنِي هَذَا الشَّخْصُ بَعْدَ ذَلِكَ مَرَّتَيْن بِمَوَاعِيدٍ مُهِمَّةٍ، وَلَمْ يُوَفِّي أَيْضًا بِهِمَا، كَمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الاجْتِمَاعَاتِ كَانَ يَأْتِيهَا مُتَأَخِّرًا ولا يُبالي أنَّ العَشرات من اخوانه يَنْتَظِرونَه.
مَا عُدْتُ أُطِيقُ هَذَا التَّصَرُّفَ مِنْهُ، وَلَسْتُ مُضْطَرًا أَنْ يَكُونَ لديَّ أَيُّ نَشَاطٍ مَعَهُ؛ لِأَنِّي قَدْ فَقَدْتُ الثِّقَةَ بِهِ وبمواعيده.

المطلب الثالث عشر: قِصَّتِي مَعَ احْتِرَامِ الوقت

مُنْذُ الصِّغَرِ، وَأَنَا أَهْتَمُّ بِالْمَوَاعِيدِ أَيَّمَا اهْتِمَامٍ، وَأَحْتَرِمُ وَقْتِي وَوَقْتَ الْآخَرِين، وَلَرُبَّمَا تَخَفَّفْتُ مِنَ الْعِلَاقَاتِ الَّتِي لَا تَحْتَرِمُ الْوَقْتَ، وَلَا تُوَفِّي بِالْوَعْدِ فَأَضَعُهَا عَلَى مَحْمَلِ الجِدِّ، وَعَلَى مِثْلِ ذَلِكَ عَوَّدْتُ أَهْلِي، وَأَوْلادِي.
وَلَكِنِّي أَدْرَكْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ النِّسَاءَ تَحْتَاجُ إِلَى وَقْتٍ أَكْبَر حَتَّى تَعْتَادَ عَلَى الانْضِباطِ فِي المَوَاعِيدِ؛ فَتَدَثَّرْتُ بِمَزِيدٍ مِنْ التَّأَدُّبِ وَالصَّبْرِ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا.
وَبَعْد عَوْدَتِي مِنْ الْحَجِّ وَأَنَا فِي نِهَايَةِ العشْرِينَاتِ مِنْ عُمْرِي، رَزَقَنِي رَبِّي سَكِينَةً لَمْ أَكُنْ أَحْلُمُ بِهَا، فَكُنْتُ أَقُودُ السَّيَّارَةَ فِي شَوَارِعِ أَلْمَانِيا بِتُؤَدَة، فَلَا أُسْرِعُ وَلَا أُحَاوِلُ مُسَابَقَةَ غَيْرِي، تَرَكْتُ الِاسْتِعْجَالَ وَالتَّهَوُّرَ وَأَصْبَحْتُ أُفْسِحُ الْمَجَالَ لِلْجَمِيع.
كَمَا أنني أَصْبَحْتُ عَاشِقًا لسَاعَاتِ الِانْتِظَارِ، وَزَوْجَتِي بِفَضْلِ اللَّهِ وَمِنَّتِهِ شَعُرَتْ حِينِهَا بِالْفَارِق الْكَبِير، فَأَنَا كُنْتُ دَائِمَ الْمُعَاتَبَةِ، وَأُبْدِي انْزِعَاجِي لِبُطْءِ أَهْلِي، بَلْ رُبَّمَا كُنْتُ أَصْرُخُ لِشِدَّةِ حِرْصِي عَلَى الْوَفَاءِ بِالْمَوَاعِيد.
ذَاتَ مَرَّةٍ كُنَّا عَلَى مَوْعِدٍ عَائِلِيّ، وَتَأَخَّرَتْ زَوْجَتِي، فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهَا وَمَعِي مُصْحَفِي، كَانَتْ تَتَوَقَّعُ مِنِّي أَنْ أَقُولَ لَهَا بِصَوْتِي الجَهْوَرِيّ: "أنتِ دَائِمًا تَتَأَخَّرِينَ، أَلَمْ أَقُلْ لكِ السَّاعَة كَذَا سَنَخْرُجُ؟ لِمَاذَا لَا تَأْخُذِي احْتِيَاطَاتِك؟"، كُنْتُ أُكَرِّرُ هَذَا الْكَلَامَ مَعَ تِكْرَارِ نَفْسِ الموْقِفِ، لَكِنِّي هَذِهِ الْمَرَّة لَمْ أَقُلْ لَهَا ذَلِكَ، فَقَدْ جَاءَتْنِي وَأَنَا أَقْرَأُ فِي مُصْحَفِي، قَائِلَةً لِي: "سُبْحَانَ اللَّهِ! رَبِّي يهديك، لَمْ تَعُدْ تَسْتَعْجِلُنَا وَتُذَكِّرُنَا بِضَرُورَةِ الْإِسْرَاعِ، وَأَلَّا نَتْرُكَكَ تَنْتَظِرُ".
وَمَع مُرُورِ الزَّمَنِ، اسْتَطَعْتُ بِفَضْلِ اللَّهِ أَنْ أَجْعَلَ الْجَمِيعَ يَتَعَوَّدُونَ عَلَى الِاسْتِعْدَادِ الْمُبَكِّرِ قَبْلَ أَيِّ مَوْعِدٍ، وَمَعَ ذَلِكَ كُنْتُ أَسْتَثْمِرُ كُلَّ دَقَائِقِ الِانْتِظَارِ بِالْقِرَاءَةِ.
وَعِنْدَمَا يَكُونُ لَدَيَّ مَوْعِدٌ فِي دَائِرَةٍ حُكُومِيَّةٍ وَعَلَيَّ الِانْتِظَارُ سَاعَةً، أُخْرِجُ مُصْحَفِي، وَأُنْهِي وِرْدِي، أَوْ أَقْرَأُ فِي كِتَابٍ أَضَعُهُ بِحَقِيبَتِي، أَوْ أُخْرِجُ دَفْتَرِي وَأَكْتُبُ فِي إِحْدَى مُؤَلَّفَاتِي.
وَكَذَلِك عِنْدَمَا أَخْرُجُ بِالسَّيَّارَةِ لِأَمْرٍ مَا، وَيَكُونُ هُنَاكَ ازْدِحَامٌ، أَقُومُ بِالِاسْتِمَاعِ إِلَى الْقُرْآنِ أَوْ إِلَى مُحَاضَرَةٍ؛ فَأَشْعُرُ بِسَكِينَةٍ تَسَلَّلَتْ إِلَى نَفْسِي، وَطُمَأْنِينَةٍ حَلَّتْ بِقَلْبِي، وَلَكَمْ مِنْ سَاعَاتِ انْتِظَارٍ تَضِيقُ بِهَا الصُّدُورُ وَتَمْتَلِئُ بِالْقَلَقِ والتَّوَتُّرِ النُّفُوسُ؛ فَتَكُونُ عَلَيْهِمْ نِقْمَةً، مَعَ أَنَّهُ بِإِمْكَانِهِمْ تَحْوِيلِهَا إِلَى نِعْمَة.
وَلَكَمْ مِنْ رَجُلٍ حِينَ يَتَأَخَّرُ الطَّعَامُ عَلَيْه، يَكُونُ فِي غَايَةِ الِانْزِعَاج، وَلَوْ أَنَّهُ يَأْخُذُ مُصْحَفَهُ وَيَقْرَأُ فِيه لاسْتَطَاعَ أَنْ يَخْتِمَ الْقُرْآنَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ، فِي أَوْقَاتٍ وَجِيزَةٍ، أَوْ لَتَمَكَّنَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكَثِيرِ مِنَ الْكُتُبِ الْمُفِيدَةِ، وَلَكَم أَسْعَدَ بِذَاكَ السُّلُوكِ قَلْبَ زَوْجَتِهِ، وَتَرَكَ انْطِبَاعًا طَيِّبًا لَدَى أَوْلَادِهِ.

المبحث الواحد والعشرون: الأخوة في الله والصحبة الصالحة

المطلب الأول: "يدُ اللهِ معَ الجماعةِ".[2696]

إنَّ الأُخُوَّةَ لَهَا حُقُوقٌ وَآدَابٌ يَجِبُ مُرَاعَاتُهَا، فَالْحُبُّ فِي الله - تَعَالَى - وَتَحْقِيقُ مَبْدَأ الأُخُوَّةِ مِنْ أَهَمِّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْرِصَ عَلَيْهِ كُلُّ مُسْلِمٍ غَيُورٍ عَلَى دِينِهِ، حَتَّى يَسُودَ التَّرَابُطُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَإِذَا كَانَ حُسْنُ الْخُلُقِ يُوجِبُ التَّحَابَّ وَالتَّآلُفَ وَالتَّوَافُقَ، فَإِنَّ سُوءَ الْخُلُقِ يُثْمِرُ التَّبَاغُضَ وَالتَّنَافُرَ وَالتَّحَاسُدَ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ نَتَصَوَّرَ أُخُوَّةً حَقِيقِيَّةً يَكُونُ قَوَامُهَا عَلَى سُوءِ الْأَخْلَاقِ.

ومَا أَحَوْجَنَا فِي هِذِهِ الأَيَّامِ إِلَى الأُخُوَّةِ فِي اللهِ وَالصُّحْبَةِ الصَّالِحَةِ، وَالتِي هِيَ مِنْ أَقْوَى دِعَائِمِ بِنَاءِ الأُمَمِ خَاصَّةً فِي زَمَنِ التَّفَرُّقِ وَالتَّشْرُذُمِ، وَتَكَالُبُ الأُمَمُ عَلَيْنَا، فَالأُمَّةُ لَنْ يَعُودَ مَجْدُهَا وَكَرَامَتُهَا إِلَّا بِالرُّجُوعِ إِلَى الأُسُسِ الَّتِي بَنَى عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دَوْلَةَ الإِسْلَامِ، وَعَضَضْنَا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَتَمَسَّكْنَا بِأُخُوَّتِنَا فِي اللهِ وَلِلهِ، وَنَبَذْنَا التَّفَرُّقَ؛ قَالَ تَعَالَى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: 46]، فالأخلاقُ إِذَا حَسُنَتْ اسْتَطَعْنَا أَنْ نُحَقِّقَ الأُخُوَّةَ الإِيمَانِيَّةَ الحَقِيقِيَّةَ، الَّتِي عُرِفَتْ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ، وَالَّتِي مَا عَرَفَ التَّارِيخُ مِثْلَهَا، تِلْكَ الأُخُوَّةُ الَّتِي جَعَلَتِ الأَخَ يَتَنَازَلُ، لا أَقُولُ: عَنْ مَالٍ، وَإِنَّمَا يَعْرِضُ أَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ إِحْدَى زَوْجَاتِهِ لأَخِيهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، هَذِهِ الأُخُوَّةُ الَّتِي غَابَتْ عَنَّا فِي هَذَا الزَّمَانِ، إِلَّا مَن رَحِمَ الله.

وَيُخْطِئُ مَنْ يَثِقُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى حِفْظِ دِينِهِ وَسَطَ فِتَنٍ تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ، وَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ، فَالذِّئْبُ يَأْكُلُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةِ، بَيْنَمَا هُنَاكَ مَنَافِعُ كَبِيرَةٌ فِي الأُخُوَّةِ فِي الله والصُحْبَةِ الصَّالِحَةِ، وأُجُورٌ عَظِيمَةٌ تَنْتَظِرُ مَنْ تَمَسَّكَ بِها، وَفِي الآخِرَةِ تَدُومُ هَذِهِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ الصَّادِقَةُ وَتَسْتَمِرُّ.

وَلَقَدْ قَالَ رَسُوْل اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يدُ اللَّهِ مع الجماعَةِ ومَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ"[2697]، (ويَدُ اللهِ مع الجماعَةِ)؛ أي: فهو يحفَظُها، (ومَن شَذَّ)، أي: ابتعَدَ وشرَد وتفرَّد عن جماعَةِ المسلمين فيما يتعلَّقُ بأمُورِ العِبادةِ، (شَذَّ إلى النَّارِ)، أي: انفرَدَ عن مُرافقَتِهِ المسلِمين في الدُّنيا، وَزَاغَ عَنْ سَبِيلِ الْهُدَى والحقِّ الذي عَلَيْهِ جُمهورُ المُسلِمينَ وجَماعتُهم، فَذَهَبُوا إِلَى الجَنَّةِ، وذهَبَ هو إلى النَّارِ، لأنَّه فعَلَ بِشُذُوذِهِ عنهم ما يُوجِبُ دُخولَ النَّارِ.[2698]

المطلب الثاني: الحث على الأخوة في الله والترغيب فيها

أ. الأخوة في الله في نصوص القرآن الكريم:

لقد وردت آيات عديدة في القرآن الكريم في الأخوة، ومنها:

1 – قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: 10].

وفي تفسير هذه الآية يقول القرطبي: "(إنما المؤمنون إخوة) أي: في الدين والحرمة لا في النسب"[2699]، ولهذا قيل: "أخوة الدين أثبت من أخوة النسب".[2700]

[2696] أخرجه الترمذي (2167) واللفظ له، والحاكم (397)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (3/37) باختلاف يسير

[2697] نيل الأوطار، ص: 231/9

[2698] الدرر السنية، الموسوعة الحديثية

[2699] تفسير القرطبي، (ت 671هـ)

2 – قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: 103].

3 – قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} [الحجرات: 12].

4- قال تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الكهف: 28]

5- قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا} [سورة الفرقان:35]

6- قال تعالى: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ* قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} [سورة القصص، آية: 34-35]

7- قال تعالى: {وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ * قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة يوسف، آية: 69]

8- {وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 220].

9- {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [التوبة: 11].

10- {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} [طه: 25 - 35].

ويستنتج من هذه الآيات الكريمة:

1 – تأكيد القرآن الكريم على مبدأ الأخوة الإسلامية بمعناها الشامل، حيث الأخوةُ ليست فقط في النسب، ولكن أخوةٌ في الدين والحرمة، والإسلام بذلك يضع تحديداً واسعاً لمفهوم الأخوة أُخِذَتْ عنه النظرياتُ الحديثةُ تحت مسمى: "العلاقات الإنسانية".

2 – فائدة التحلي بالأخوة الإسلامية من حيث أنها تؤدي إلى التفاف الأفراد حول بعضهم بعض، كما تعصمهم من الانزلاق إلى رذيلة الظلم، حيث يسيءُ البعضُ استغلالَ السلطةِ أو النفوذِ أو الثراءِ في التَّسَلُّطِ على الآخرين.

3 – فائدةُ التمثلِ بالأخوةِ الإسلاميَّةِ في تحقيقِ القوةِ للفردِ، وللمجتمعِ الذي ينتمي إليه.

ب. الأخوة في الله في نصوص السنة النبوية:

1- عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: "أوثقُ عُرَى الإيمانِ الحبُّ في اللهِ والبُغْضُ في اللهِ".[2701]

2- عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "إنَّ للهِ جُلَسَاءَ يومَ القيامةِ عن يمينِ العرشِ، وكِلْتَا يدَي اللهِ يمينٌ، على منابرِ مِن نورٍ، وجوهُهُم مِن نورٍ، لَيسوا بأنبياءَ ولا شُهداءَ ولا صدِّيقينَ قيلَ: يا رسولَ اللهِ! مَن هُم؟ قال: هُم المُتحابُّونَ بجلالِ اللهِ تباركَ وتعالى".[2702]

[2700] المصدر السابق (جـ 16ص 212)

[2701] رواه أحمد والطبراني والحاكم والبزار، وهو حسن.

[2702] صحيح الترغيب 3022

وفي هذا الحديثِ بيانُ بَعضِ ثَوابِ المتحابّين في اللهِ، حيثُ يَقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (إنَّ للهِ جُلساءَ)، أي: قومًا اصْطَفاهم اللهُ يَجلِسون (يومَ القِيامةِ عن يَمينِ العَرشِ، وكِلْتا يَدَيِ اللهِ يمينٌ)، وقولُه: (وكِلْتا يَدَيِ اللهِ يمينٌ)، يعني: أنَّهما بصِفةِ الكَمالِ لا نقْصَ في واحدةٍ منهما؛ لأنَّ الشِّمالَ تَنقُصُ عن اليَمينِ في المَخْلوقِ لا الخالِقِ، وهذا كما يَليقُ بجلالِ اللهِ سُبحانه دونَ تكييفٍ أو تَشبيهٍ أو تعطيلٍ.

ومِن كَرامتِهم على اللهِ: أنَّهم يَجلِسون (على مَنابِرَ)، أي: مَقاعِدَ مُرتفعةٍ، (مِن نُورٍ، وُجوهُهم مِن نُورٍ)؛ لِمَا يَغْشاهم مِن نورِ الجلالِ والقربِ مِن اللهِ سُبحانه، (لَيسوا بأنبياءَ، ولا شُهداءَ، ولا صِدّيقينَ)؛ ذَكَرَ ذلك لأنَّ الذي يَتبادَرُ أنَّ مَن لهم ذلك المقامُ الشَّريفُ هم هؤلاء. (قِيل: يا رسولَ اللهِ، مَن هم؟ قال: هُمُ المُتحابُّون بجلالِ اللهِ تبارَكَ وتعالى)، وهم الذين أحَبَّ بعضُهم بَعضًا بما أوقَعَ اللهُ في قُلوبِهم مِن المحبَّةِ الخالصةِ لهُ تعالى، مِن غيرِ أرحامٍ ولا أنسابٍ بينهم، ولا مَصالحَ بَينَهم.

وفي الحديثِ: بيانُ فضْلِ ومَكانةِ الحبِّ في اللهِ، والمتَّصفينَ به، وأنَّه مِن أَفضلِ القُرباتِ.

3- وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تَرَى المُؤْمِنِينَ في تَراحُمِهِمْ وتَوادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى".[2703]

4- وثبت في الصحيحين أيضًا أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: "المُسْلِمُ أخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ ولَا يُسْلِمُهُ، ومَن كانَ في حَاجَةِ أخِيهِ كانَ اللَّهُ في حَاجَتِهِ، ومَن فَرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عنْه كُرْبَةً مِن كُرُبَاتِ يَومِ القِيَامَةِ، ومَن سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَومَ القِيَامَةِ".[2704]

5- وفي الصحيحين أيضًا عن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: "لا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ".[2705]

6- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِلِّهِ، يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: الإمَامُ العَادِلُ، وشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ رَبِّهِ، ورَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، ورَجُلَانِ تَحَابَّا في اللَّهِ اجْتَمعا عليه وتَفَرَّقَا عليه، ورَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ، فَقَالَ: إنِّي أخَافُ اللَّهَ، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ، أخْفَى حتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ".[2706]

فَهذِهِ الآيَاتُ وَالأَحَادِيثُ، كُلُّهَا دَلَائِلُ وَاضِحَةٌ، وَبُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى عِظَمِ الأُخُوَّةِ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ، وَقُوَّةِ الرَّابِطَةِ بَيْنَهُمْ.

ت. أقوالُ بَعْضِ الصَّحابَةِ والسَّلَف والصَّالِحِين:

1- قال ابن عباس رضي الله عنهما: "اذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، ودَع منه ما تُحِبُّ أن يَدَع منك".[2707]

2- قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: "الوَحْدَةُ خَيرٌ مِن جَلِيسِ السُّوءِ، والجَلِيْسُ الصَّالِحُ خَيرٌ مِنَ الوَحْدَةِ".

3- قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: "لَا يَحِلُّ لامرئٍ مسلمٍ سَمِعَ مِن أَخِيه كلمةً أنْ يَظُنَّ بها سُوءاً، وهو يجدُ لها في شيءٍ مِن الخير مَخْرَجاً".

وقال الفاروقُ أيضا: "لولا إخوة يتخيرون أطايب الكلام كما يتخيرون أطايب التمر لما أحببت البقاء في الدنيا".

وقال أيضا: "مَا أُعْطِيَ العَبْدُ بعد الإسلامِ نعمةً خيراً من أخٍ صالحٍ، فإذَا وَجَدَ أَحُدُكُم وُدًّا من أخيه فليتمسك به".

[2703] صحيح البخاري 6011

[2704] صحيح البخاري 2442

[2705] قال المصنف في شرح صحيح مسلم 1/230 45: معناه لا يؤمن الإيمان التام.

[2706] صحيح البخاري 660

[2707] العقد الفريد ١٨٤/٢

وقال رضي الله عنه: "إذا رأيتم أخاً لكم زَلَّ زلةً فَسَدِّدُوهُ ووفقُّوه وادعُوا اللهَ أن يتوبَ عليه، ولا تكونوا أَعْوانًا للشَّيْطَانِ عَلَيْهِ".

4- قال لقمانُ الحكيم لابنِهِ:
"يا بُنَيّ؛ ليكن أولُّ شيء تَكْسِبُهُ بعد الإيمانِ بالله أخًا صادقًا، فإنما مثله كمثل شجرة، إن جَلَسْتَ في ظِلِّهَا، أَظَلَّتْكَ، وإن أَخَذْتَ منها، أَطْعَمَتْكَ، وإن لم تَنْفَعْكَ، لمْ تَضُرّكَ".
وقال لابنه أيضا: "يا بُني، إذا رَأيتَ قَومًا يَذكُرون الله فاجلِس معهم، فإنك إنْ تَكُ عالِمًا، يَنفعك عِلمُك، وإنْ تَكُ جاهِلًا، عَلَّمُوك، ولعل الله تعالى يَطَّلِع عليهم برَحمتِه، فتُصِيبك معهم".[2708]

5- وقال الحسن البصري: "إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا؛ لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة".

6- وقالَ الفُضَيلُ بنُ عَياض رَحِمَهُ الله: "مَنْ طَلَبَ أَخًا بِلَا عَيْبٍ صَارَ بِلَا أَخٍ".[2709]، وقال رَحِمَهُ الله أيضا: "مَنْ رَأَى مِنْ أَخٍ لَهُ مُنْكَراً، فَضَحِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقَدْ خَانَهُ".

7- قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "مَثَلُ الْأُخُوَّةِ فِي اللهِ كَمَثَلِ الْيَدِ وَالْعَيْنِ، إِذَا دَمَعَتِ الْعَيْنُ مَسَحَتِ الْيَدُ دَمْعَهَا، وَإِذَا تَأَلَّمَتِ الْيَدُ بَكَتِ الْعَيْنُ لِأَجْلِهَا، إِذَا كَانَ لَكَ صَدِيقٌ يُعِينُكَ عَلَى الطَّاعَةِ فَشُدَّ يَدَيْكَ بِهِ، فَإِنَّ اِتِّخَاذَ الصَّدِيقِ صَعْبٌ، وَمُفَارَقَتُهُ سَهْل".[2710]
وقال أيضا رَحِمَهُ اللهُ: "لولا صحبة الأخيار، ومناجاة الحق تعالى بالأسحار، ما أحببت البقاء في هذه الدار".
وقال أيضا: "قد جعل الله في الصديق البار المقبل، عوضًا من ذي الرحم العاق المُدْبِر".[2711]
ولقد مرض الإمام أحمد (رَحِمَهُ اللهُ) ذَاتَ يومٍ ولازم الفراش، فزار الإمام الشافعي (رَحِمَهُ اللهُ)، فلما رأى عليه علامات المرض الشديد، أصابه الحزن؛ فمرض الشافعي أيضا، فلما علم الإمام أحمد بذلك، تماسَكَ نَفْسَهُ، وهذب لرؤية الشافعي في بيته، فلما رآه الشافعي قال:
مرض الحبيب فرزته.. فمرضت من أسفي عليه
شُفِيَ الحبيب فزارني.. فشُفِيتُ من نظري إليه
8- قال مالك بن مغول: قال لي طلحة بن مصرف رحمهما الله: "لَلُقياك أحَبُّ إليَّ من العسل!" [2712]

9- قال ابن الأثير: "الصديقُ؛ من ماشي أخاه على عرَجه، إن رأى سيئة وطِئها بالقدم، وإن رأى حسنة رفعها على علَم".[2713]

10- قال محمد بن واسع رحمه الله تعالى: "مَا أَشْتَهِي مِن الدُّنيا إلا ثَلاثةً: أخاً إن تَعَوَّجْتُ قَوَّمَنِي، وَقُوتًا مِنَ الرِّزقِ عَفْوًا مِن غَيرِ تَبِعَةٍ، وصَلاةً في جماعةٍ يُرْفَعُ عَنّي سَهْوُهَا ويُكْتَبُ لي فَضْلُها".

11- وقال أحد الصالحين: "منْ أرَادَ أن يُعْطَى الدرجةَ العليا يوم القيامة، فليُصَاحِبْ في الله".

[2708] تنبيه الغافلين للسمرقندي 438
[2709] أخرجه ابن حبان في كتابه روضة العقلاء ص168-169 والبيهقي في كتابه شعب الإيمان ج10/ص574
[2710] حِلْيَةُ الْأَوْلِيَاء 101/4
[2711] البيهقي، شعب الإيمان
[2712] الإخوان لابن أبي الدنيا 138
[2713] المثل السائر ١/ ١٢٥

12- قَالَ الشَّيْخُ مُحَمّدُ بْنُ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "والأخ لا بد أن يكون ناصحاً لأخيه، مبديًا له الخير، مبينًا ذلك له، داعيًا له".

وقال رحمه الله أيضا: "فإذا رأيت من أصحابك أنهم يدُلُّونك على الخير، ويُعينونك عليه، وإذا نسيتَ ذكَّروك، وإذا جَهِلْتَ علَّمُوك؛ فاستمسك بحُجَزِهِمْ، وعَضَّ عليهم بالنواجِذ".

13- قال الشيخ عبد العزيز الراجحي: "وأقل ما يستفيد الإنسان من الجليس الصالح، وهي فائدة لا يستهان بها: أن ينكفَّ بسببه عن المعاصي، والسيئات رعايةً للصحبة، ومنافسةً في الخير، وترفّعًا عن الشر".

14- قال أحد الصالحين: "الأخُ الصَّالحُ خَيرٌ مِن نفسكَ؛ لأنَّ النَّفس أمَّارةٌ بالسُّوءِ، والأخُ الصَّالحُ لا يأمُرُ إلّا بخيرٍ".

ج. أقوالُ بعضِ الأُدَبَاءِ وَالحُكَمَاءِ فِي الأُخُوَّةِ:

1- قَالَ مُصْطَفَى صَادِق الرَّافعي رَحِمَهُ الله: "وَاعْلَمْ أَنَّ أَرْفَعَ مَنَازِلِ الصَّدَاقَةِ مَنْزِلَتَانِ: الصَّبْرُ عَلَى الصَّدِيقِ حِينَ يَغْلِبُهُ طَبْعُهُ، فَيُسِيءُ إِلَيْكَ، ثُمَّ صَبْرُكَ عَلَى هَذَا الصَّبْرِ حِينَ تَغْلِبُ طَبِيعَتُكَ لِكَيْلَا تُسِيءَ إِلَيْهِ".

2- قَالَ أحدُ الأُدَبَاءِ: "ما أجملَ أنْ نَمْحُوَ الهفوةَ مِن أجلِ أن تستمِرَّ الأخوة، لا أنْ نَمْحُوَ الأخوة مِن أجلِ الهفوة!".

3- قال حكيم: "ليسَ التَّفَوُّقُ بأنْ تصنعَ ألفَ صَدِيقٍ في عام، ولكنَّ التفوّق أنْ تصنعَ صَدِيقاً لألفِ عامٍ".

4- قيل لبعض الحكماء: "أيّهما أحبُّ إليكَ أخوكَ أم صَدِيقُكَ؟ قال: إنّما أُحِبُّ أَخي إِذَا كَان لي صَدِيقاً".

المطلب الثالث: ثَمراتُ الأُخُوَّة والصُحْبَة الصَّالِحَة

إذا ما حقَّقنا الأخوَّة والمحبَّة في الله ولله، والَّتي لا تقوم على تبادُل المنافع المادّيّة أو المصالح الشَّخصيَّة، كما قال أحد السَّلف: "علامة الحبّ في الله ألاَّ يزيد بالبِرِّ وَلَا يَنقُص بِالْجَفَاءِ"، وإِذَا مَا تَحَقَّقَ ذَلِكَ نِلْنَا هَذِهِ الثَّمَارَ الْجَنِيَّةَ.

ومنْ تِلْكَ الثَّمَرَاتِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي يَجْنِيهَا الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:

1- مَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى:

فَعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ".[2714]

وفي رواية أخرى لمعاذ بن جبل في صحيح ابن حبان: "وهم على منابرَ مِن نورٍ يغبِطُهم النَّبيُّونَ والصِّدّيقونَ بمكانِهم".[2715]

وقول الملك للرجل الذي زار أخا له في الله: "إني رسول الله إليك بأنّ الله قد أحبّك كما أحببته فيه".

(المتحابون في الله يحبُّهم الله تعالى) ووالله ما أجملَها من ثمرة أن يحبَّنا الله - جلَّ جلالُه - وهو الغني عن عباده!

ففي الحديث القدسي يقول تعالى: "حقَّت محبَّتي للَّذين يتحابّون فيَّ، وحقَّت محبَّتي للَّذين يتباذلون فيَّ، وحقَّت محبَّتي للَّذين يتزاورون فيَّ".

2- الاسْتِظْلالُ فِي ظلِّ عَرْشِ الرَّحْمَنِ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللَّهَ يقولُ يومَ القِيامَةِ: أيْنَ المُتحابُّونَ بجَلالِي؟ اليومَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي، يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّي".[2716]

[2714] رواه مالك وغيره

[2715] أخرجه أحمد 22834، وابن حبان 577 باختلاف يسير، والطبراني 16820/88

إنَّ الحُبَّ في اللهِ مِن أوثَقِ عُرى الإسلامِ، وهو مِن أبرَزِ سِماتِ المؤمِنينَ فيما بيْنَهم، وقدْ وَعَدَ اللهُ تعالَى على هذا الخُلُقِ النَّبيلِ بواسِعِ الأجْرِ والعَطاءِ.

وفي هذا الحديثِ يُبَيِّنُ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُنادي يومَ القيامةِ على رُؤوسِ الأشهادِ؛ تَعظيمًا لِبعضِ العِبادِ على بعضٍ، فيقولُ: (أينَ المتحابُّونَ بِجلالي؟) أي: بِسَببِ عَظمتي، ولِأجْلِ تَعْظيمي، أو لِأجْلِ رِضَايَ، ونَيْلِ ثَوابي، لا لغَرَضٍ سِوى ذلك مِن دُنيا أو نحْوِها، وذلك مُكافأةً لهم على التَّحابِّ لأجْلِ اللهِ بتَعظيمِ أوامرِه واجتنابِ نَواهيهِ، (اليومَ أُظِلُّهم في ظِلِّي) والمرادُ منه ظِلُّ العرْشِ -كَما في حَديثِ أحمَدَ، مِن حديثِ العِرْباضِ بنِ ساريةَ رَضيَ اللهُ عنه، بلَفظِ: (في ظِلِّ عَرْشي)، وهذا فيه ما فيه مِنَ الثَّوابِ الجَزيلِ، والشَّرَفِ العَظيمِ لهم، فاللهُ عزَّ وجلَّ يُريدُ مِن عِبادِه أنْ تكونَ قُلوبُهم مُجتمِعةً غيْرَ مُتفرِّقةٍ، مُتحابَّةً غيْرَ مُتباغِضةٍ، وقولُه: (يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّي)، وذلكَ يوْمَ أنْ تَدْنُوَ الشَّمسُ مِن رُؤوسِ العِبادِ، ويَشتَدُّ عليهم حَرُّها، فلا يَجِدُ أحَدٌ ظِلًّا إلَّا مَن أظَلَّه اللهُ في ظِلِّ عَرشِه.

وعن أبي هريرة أيضا رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِلِّهِ، يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: الإمَامُ العَادِلُ، وشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ رَبِّهِ، ورَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، ورَجُلَانِ تَحَابَّا في اللَّهِ اجْتَمعا عليه وتَفَرَّقَا عليه، ورَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ، فَقَالَ: إنِّي أخَافُ اللَّهَ، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ، أخْفَى حتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ".[2717]

يقول ابن عثيمين -رحمه الله-: "يعني أنهما جرت بينهما محبة، لكنها محبة في الله، لا في مال، ولا جاه، ولا نسب، ولا أي شيء، إنما هو محبة الله عز وجل، رآه قائماً بطاعة الله، متجنباً لمحارم الله، فأحبه من أجل ذلك، فهذا هو الذي يدخل في هذا الحديث".

ويقول أيضا: (اجتمعا عليه وتفرقا عليه) يعني اجتمعا عليه في الدنيا وبقيت المحبة بينهما حتى فرق بينهما الموت تفرقا وهما على ذلك.

وفي هذا إشارة إلى أن المتحابين في الله لا يقطع محبتهم في الله شيء من أمور الدنيا، وإنما هم متحابون في الله لا يفرقهم إلا الموت، حتى لو أن بعضهم أخطأ على بعض، أو قصر في حق بعض، فإن هذا لا يهمهم؛ لأنه إنما أحبه لله عز وجل، ولكنه يصحح خطأه ويبين تقصيره؛ لأنه هذا من تمام النصيحة".

3 -وُجُودُ حلاوة الإيمان:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثَلَاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلَاوَةَ الإيمَانِ: أنْ يَكونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ".[2718]

هذا حَديثٌ عَظيمٌ، وأصلٌ مِن أُصولِ الإسلامِ، وفيه يُرشِدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى ثِلاثِ خِصالٍ مِن أعْلَى خِصالِ الإيمانِ؛ مَن كَمَّلَها فقدْ وجَدَ حَلاوةَ الإيمانِ؛ فالإيمانُ له حَلاوةٌ وطَعمٌ يُذاقُ بالقُلوبِ، كما تُذاقُ حَلاوةُ الطَّعامِ والشَّرابِ بالفَمِ، وكما أنَّ الجَسدَ لا يَجِدُ حَلاوةَ الطَّعامِ والشَّرابِ إلَّا عندَ صِحَّتِه، فكذلك القَلبُ إذا سَلِمَ مِن مرَضِ الأهواءِ المُضلَّةِ والشَّهواتِ المُحرَّمةِ، وجَدَ حَلاوةَ الإيمانِ، ومتى مَرِضَ وسَقِمَ لم يَجِدْ حَلاوةَ الإيمانِ، بلْ قدْ يَستحْلِي ما فيه هَلاكُه مِن الأهواءِ والمعاصي.

[2716] صحيح مسلم 2566

[2717] صحيح البخاري 660

[2718] صحيح البخاري 16، ومسلم 43

ومَن وجَدَ حَلاوةَ الإيمانِ استلذَّ الطَّاعاتِ، وآثَرها على أغراضِ الدُّنيا، وتحمَّلَ المشَاقَّ في سَبيلِ اللهِ تعالَى.

فالخَصلةُ الأُولى: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أحَبَّ إليه ممَّا سِواهما، ومَحبَّةُ اللهِ تَنشَأُ مِن مَعرفةِ أسمائِه وصِفاتِه، والتَّفكيرِ في مَصنوعاتِه، وما فيها مِن الحِكَمِ والعَجائبِ، وتَحصُلُ مِن مُطالَعةِ نِعَمِه على العِبادِ؛ فإنَّ ذلك كلَّه يدُلُّ على كَمالِه وقُدرتِه، وحِكمتِه وعِلمِه ورَحمتِه، ومَحبَّةُ العبدِ لِخالقِه سُبحانه وتعالَى تَقودُ العبْدَ إلى الْتزامِ شَريعتِه وطاعتِه، والانتهاءِ عمَّا نَهى عنه.
ومَحبَّةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تابعةٌ لمَحبَّةِ اللهِ، ويَلزَمُ مِن تلك المحبَّةِ اتِّباعُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أوامِرِه ونواهيه، كطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويَجِبُ أنْ تكونَ مَحبَّةُ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قلْبِ كلِّ مسلمٍ أعظَمَ مِن مَحبَّتِه لنفْسِه، ومَحبَّتِه لأبيهِ وأُمِّه، وابنِه وبنتِه، وزَوجتِه، وصَديقِه وأقارِبِه، والناسِ أجمعينَ.

والخَصلةُ الثَّانيةُ: أنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا للهِ؛ فهذا حَثٌّ على التَّحابِّ في اللهِ، وهو مِن أَوثقِ عُرَى الإيمانِ، فليستِ المحبَّةُ مِن أجْلِ تَبادُلِ مَنافعَ وتَحصيلِ أغراضٍ دُنيويَّةٍ، وإنَّما جمَعَ بيْنَهما الحُبُّ في اللهِ، ويَلزَمُ مِن تلك المحبَّةِ نفْعُ المسلمِ لأخيه المسلمِ، وتَرْكُ إيذائِه، كما في حَديثِ الصحيحَينِ: "المُسلِمُ أخو المُسلمِ، لا يَظلِمُه، ولا يُسْلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه، ومَن فرَّجَ عن مُسلمٍ كُرْبةً، فرَّجَ اللهُ عنه كُربةً مِن كُرُباتِ يومِ القيامةِ، ومَن سترَ مُسلِمًا سترَه اللهُ يومَ القِيامةِ".

والخَصلةُ الثَّالثةُ: أنْ يَكرَهَ المسلمُ أنْ يَعودَ في الكُفْرِ، كما يَكرَهُ أنْ يُقذَفَ في النَّارِ؛ فإذا رسَخَ الإيمانُ في القلْبِ، وتحقَّقَ به، ووجَدَ العبْدُ حَلاوتَه وطَعْمَه؛ أحَبَّه، وأحَبَّ ثَباتَه ودَوامَه، والزِّيادةَ منه، وكَرِهَ مُفارقتَه، وكانتْ كَراهتُه لمُفارقتِه أعظَمَ عندَه مِن كَراهةِ الإلقاءِ في النَّارِ، فإذا وجَدَ العبْدُ حلاوةَ الإيمانِ في قَلْبِه أحَسَّ بمَرارةِ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ.
قيل: وإنَّما قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا تَحذيرًا وتَخويفًا للصَّحابةِ؛ لأنَّهم كانوا كُفَّارًا فأسلَموا، وكان في بَعضِ النُّفوسِ حُبُّ ما كان في الزَّمانِ الماضي، فبيَّنَ لهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ العَودَ إلى الكُفْرِ كإلْقاءِ الرجُلِ نفْسَه في النارِ؛ لأنَّ عاقِبةَ الكُفَّارِ دُخولُ نارِ جهنَّمَ، ونقْضُ التَّوبةِ والرُّجوعُ مِنَ التَّوبةِ إلى المعصيةِ أيضًا كإلْقاءِ الرجُلِ نفْسَه في نارِ جهنَّمَ، وهذا مِن عِظَمِ ذَنبِ الكُفْرِ والعَودةِ إليه.[2719]
يَقُولُ ابْنُ عُثَيْمِينَ –رَحِمَهُ اللهُ- "هذا الشَّاهِد، تُحِبُّ المَرءَ لَا تُحِبُّهُ إِلَّا لله، لَا تُحِبُّهُ لِقَرَابَةٍ، وَلَا لِمَالٍ، وَلَا لِجَاهٍ، وَلَا لِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، إِنَّمَا تُحِبُّهُ لله".
أَمَّا مَحَبَّةُ الْقَرَابَةِ فَهِيَ مَحَبَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ، كُلٌّ يُحِبُ قَرِيبَهُ مَحَبَّةً طَبِيعِيَّةً، حَتَّى الْبَهَائِمُ تُحِبُ أَوْلَادَهَا، فَالشَّاهِدُ أَنَّ مَحَبَّةَ الْقَرَابَةِ مَحَبَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ، لَكِنْ إِذَا كَانَ قَرِيبُكَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، فَأَحْبَبْتَهُ فَوْقَ الْمَحَبَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَأَنْتَ أَحْبَبْتَهُ لله".

4 -اسْتِكْمَالُ الإِيمَانِ:

الْحُبُّ فِي اللَّهِ مِنْ أَوْثَقِ عُرَى الْإِيمَانِ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الْمُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ، بِهِ يَحْصُلُ الْوِدَادُ وَالْوَئَامُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَتَحَابُّونَ وَيَتَزَاوَرُونَ وَيَتَنَاصَحُونَ وَيَتَنَاسَبُونَ وَيَأْتَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ، وَبِهِ يُحَقِّقُونَ مَعَنَى الْأُخْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَبِهِ يَجِدُونَ حُلاَوَةَ الْإِيمَانِ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ وَمُصَاحَبَاتِهِمْ وَمُعَاشِرَاتِهِمْ.
عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحبَّ للهِ وأبغض للهِ وأعطَى للهِ ومنع للهِ فقد استكمل الإيمانَ".[2720]
إنَّ الإخْلاصَ شرْطُ قَبولِ الأعْمالِ، وعَلامةُ كمالِ الإيمانِ؛ فَمَنْ أخلَص كلَّ طاعاتِه لِلَّهِ تعالى، طالِبًا منه الأجرَ والثَّوابَ لا لِطَلبِ سُمعةٍ ورِياءٍ فإنَّه يَكمُلُ إيمانُه.

[2719] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.
[2720] أخرجه أبو داود 4681، والطبراني 159/8 7613، السلسلة الصحيحة 380

وفي هذا الحَديثِ يقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:
(من أحَبَّ للهِ، وأبْغَضَ للهِ)، أي: أحَبَّ وأبْغَضَ بما يُقرِّبُ مِن طاعةِ اللهِ، فيُخرِجُ حظَّ النَّفسِ مِن الحُبِّ والكُرهِ للغيرِ، إلَّا بما يُرضي اللهَ عزَّ وجلَّ.
(وأعطَى للهِ)، أي: ما كان مِن إنفاقٍ كصَدَقةٍ وهَديَّةٍ، لا يُريدُ بها إلَّا وجهَ اللهِ عزَّ وجلَّ، فيُعطي في مَرضاةِ اللهِ مَن يُحبُّهم اللهُ ويُحبُّونَ اللهَ، وفي الحديثِ القُدسيِّ الذي رواه أحمدُ: "حَقَّتْ مَحبَّتي للذين يَتباذَلون مِن أجْلي".
(ومَنَعَ للهِ)، أي: وأمْسَكَ وامْتنَع عن إنفاقِ مالِهِ في غيرِ ما أمَر به اللهُ عزَّ وجلَّ، وكان إمساكُه طلبًا لرِضا اللهِ وليس منعًا لِهوًى في نفْسِه كالشُّحِّ والبُخْلِ، (فقد استَكمَل إيمانَه)، أي: يكون إيمانُهُ كاملًا لا نقْصَ فيه إذا اتَّصَفَ بهذه الصفاتِ، ومَن جعَل حَياتَه كلَّها للهِ، كان جَزاؤُه أنَّه كَمُلَ إيمانُه.
وإنَّما خَصَّ الأفعالَ الأربعةَ؛ لأنَّها حُظوظٌ نَفْسانيَّةٌ؛ إذْ قلَّما يُمحِّصُها الإنسانُ للهِ تعالى، فإنْ قدَرَ على مِثلِ تلك الأمورِ أنْ يَجعَلَها للهِ تعالى، كان على غَيرِها أقدَرَ.
وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنْ الْخَيْرِ".[2721]
قَالَ الْكِرْمَانِيّ: وَمِنْ الْإِيمَان أَيْضًا أَنْ يُبْغِضَ لِأَخِيهِ مَا يُبْغِضُ لِنَفْسِهِ مِنْ الشَّرّ".[2722]

5 -دخول الجنة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتَّى تَحابُّوا، أوَلَا أدُلُّكُمْ علَى شيءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُمْ؟ أفْشُوا السَّلامَ بيْنَكُمْ".[2723]
وَقَدْ كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعَلِّمُ أصحابَه وأُمَّتَه فَضائلَ الأعمالِ الَّتي تَرفَعُ الدَّرَجاتِ في الآخِرةِ، وتَنفَعُ النَّاسَ في الدُّنيا؛ باستِجلابِ المَودَّةِ بينهم، كما حذَّرَنا ممَّا يُورِثُ التَّنافُرَ والتَّشاحُنَ، ومن أسبابِ المَحبَّةِ والتآلُفِ بين المسلمينَ إفشاءُ السَّلامِ.
وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أنَّه لَن يَدخُلَ الجَنَّةَ إلَّا المؤمِنونَ، وأنَّ التَّحابَّ بين المُؤمنينَ من كَمالِ الإيمانِ؛ فيَقولُ: (لا تدْخلونَ الجَنَّةَ حتَّى تُؤمِنوا)، أي: لا يَكتَمِلُ إيمانُكم ولا يَصلُح حالُكُم في الإيمانِ حتَّى يُحِبَّ بعضُكُم بَعضًا، ثُمَّ يَدُلُّنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أفضَلِ وأكمَلِ الخِصالِ المُساعِدةِ على هذا النَّوعِ منَ التَّحابِّ في المُجتمعِ المسلِمِ، وهي إفشاءُ السَّلامِ بين المُسلِمينَ بإظهارِه والعَملِ به؛ والسَّلامُ هو التَّحيَّةُ التي شَرَعها اللهُ تَعالَى لِعِبادِه، فلا يَمُرُّ مُسلِمٌ على مُسلِمٍ -غَريبًا أو قريبًا- إلَّا ألقَى عَليه السَّلامَ؛ لأنَّ إفشاءَ السَّلامِ سبَبٌ للتَّحابِّ، والتوادِّ، والأُلفةِ بينَ المسلِمينَ المسبِّبُ لِكَمالِ الدِّينِ وإعلاءِ كَلمةِ الإسلامِ، وفي التَّهاجُرِ والتَّقاطُعِ والشَّحناءِ سبَبٌ في التَّفرِقةِ بينَ المسلِمينَ، وصيغةُ تِلك التَّحيَّةِ -كما عند أبي داوُدَ وغَيرِه-: "السَّلامُ عليْكم ورَحمةُ اللهِ وبَرَكاتُه".
ويَقُولُ ابْنُ عُثَيْمِينَ –رحمه الله-: "فَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَحَبَّةَ مِنْ كَمَالِ الإِيمَانِ، وَأَنَّهُ لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ الْعَبْدِ حَتَّى يُحِبَّ أَخَاهُ، وَأَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْمَحَبَّةِ أَنْ يُفْشِيَ الإِنسَانُ السَّلَامَ بَيْنَ إِخْوَانِهِ، أَيْ يُظْهِرُهُ وَيُعْلِنُهُ، وَيُسَلِّمُ عَلَى مَنْ لَقِيَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، سَوَاءٌ عَرَفَهُ أَوْ لَمْ يَعْرِفْهُ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَسْبَابِ الْمَحَبَّةِ؛ وَلِذَلِكَ إِذَا مَرَّ بِكَ رَجُلٌ وَسَلَّمَ عَلَيْكَ أَحَبَبْتَهُ، وَإِذَا أَعْرَضَ؛ كَرِهْتَهُ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْكَ".

6- لَهُم منَابرُ من نورٍ، وَلَا يَخافُونَ إذَا خَافَ النَّاسُ:

[2721] روى البخاري 13 ، ومسلم 45 ، والنسائي5017
[2722] فتح الباري 1/58
[2723] صحيح مسلم 54

المتحابّون في الله في مكانٍ يَغْبِطُهم عليه مَن هم في أفضلِ المنازل: النبيُّون والشهداء ولا يَخافون إذا خاف النَّاس، ولا يفزعون حين يفزع النَّاس، ولنسمع إلى هذا الحديث النبوي الَّذي يهزُّ الوجدان، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ مِن عبادِ اللهِ لَأُناسًا ما هم بأنبياءَ ولا شُهداءَ، يغبِطُهم الأنبياءُ والشُّهداءُ يومَ القيامةِ بمكانِهم مِن اللهِ تعالى، قالوا: يا رسولَ اللهِ، تُخبِرُنا مَن هم؟ قال: هم قومٌ تحابُّوا بِرُوحِ اللهِ على غيرِ أرحامٍ بَيْنَهم، ولا أموالٍ يتعاطَوْنَها، فواللهِ إنَّ وجوهَهم لَنُورٌ، وإنَّهم على نُورٍ، لا يخافونَ إذا خاف النَّاسُ، ولا يحزَنونَ إذا حزِنَ النَّاسُ، وقرَأَ هذه الآيةَ: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: 62]".[2724]

في هذا الحَديثِ يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَضْلَ المحبَّةِ في اللهِ، وأنَّها تُثْمِرُ الفلاحَ في الدُّنيا والآخرةِ، فيقول: (إنَّ مِن عبادِ اللهِ)، أي: مَنْ كَمُلَ إيمانُهم وإحسانُهم للهِ تعالى، وإضافتُهم للهِ إضافةُ تشريفٍ وتعظيمٍ، (لَأُناسًا)، أي: هُمْ جماعةٌ من أولياءِ اللهِ تعالى، الذين يُحبُّونَ في اللهِ ويُعادونَ في اللهِ، (ما هُمْ بأنبياءٍ ولا شُهداءَ)، أي: إنَّ محبَّتَهم للهِ التي ترتَّبَ عليها هذا الخيرُ العظيمُ لا لأجْلِ أنَّهم أنبياءٌ أو شهداءُ، بل هُمْ بَشَرٌ كباقي البَشَرِ، وفي اقترانِ الشُّهداءِ بالأنبياءِ دليلٌ على فضْلِ الشَّهادةِ؛ حيث قُرِنَ بينها وبين مَقامِ النُّبوَّةِ، وهؤلاءِ: (يَغبِطُهم الأنبياءُ والشُّهداءُ يومَ القيامةِ؛ بمكانِهم من اللهِ تعالى)، أي: لقُرْبِهم من اللهِ تعالى يَتمنَّى الأنبياءُ والشُّهداءُ أنْ يكونوا مَكانَهم، و(الغِبْطَةُ) تمنِّي المرءِ النِّعمةَ التي عِند غيرِه، من غيرِ تمنِّي زوالِها عنه؛ فهي تكون في الخيرِ، بخلافِ "الحسَدِ" فهو تمنِّي النِّعمةِ التي عِند غيرِه مع تمنِّي زوالِها عنه، فهو يكون في الشَّرِّ. فتعجَّبَ الصَّحابةُ لهم ولمكانتِهم ومنزلتِهم، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، تُخبِرُنا مَنْ هُمْ؟ أي: صِفْهُمْ لنا، وهو طلَبٌ في غايةِ الأدَبِ، فقال: (هُمْ قومٌ تحابُّوا بِرُوحِ اللهِ)، أي: تزاوَرُوا وتجالَسوا وأَحَبَّ بعضُهم بعضًا في اللهِ، (على غيرِ أرحامٍ بينهم، ولا أموالٍ يَتَعاطَوْنَها)، أي: محبَّةُ بعضِهم بعضًا ليستْ للقَرابةِ والمنفعةِ والمصلحةِ؛ لأنَّها أغراضٌ مُفسِدةٌ للمحبَّةِ، وإنَّما هي خالِصةٌ للهِ تعالى، فالمرادُ تَحسينُ النِّيَّةِ.

ثم أخْبَرَ صلَّى الله عليه وسلَّم عن جزائِهم ومَنزلتِهم قائلًا: (فواللهِ إنَّ وُجوهَهم لَنورٌ)، أي: مُنيرةٌ يَعْلوها النُّورُ، وهي مُبالَغةٌ من شِدَّةِ النُّورِ، (وإنَّهم على نورٍ)، أي: على مَنابِرَ من نورٍ، فهُمْ نورٌ على نورٍ، وهي بيانٌ لحالِهم ومنزلتِهم عِندَ اللهِ، (لا يَخافونَ إذا خافَ النَّاسُ، ولا يَحزَنونَ إذا حزِنَ النَّاسُ)، أي: يومَ القيامةِ، ثمَّ قرأ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هذه الآيةَ استشهادًا على قولِه الأخيرِ: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: 62]، أي: إنَّ المُحبِّينَ المُتَّقينَ أولياءَ اللهِ تعالى لا خَوْفٌ عليهم من عقابٍ يَلْحَقُ بهم، ولا هُمْ يَحزَنونَ من فَواتِ ثَوابِهِمْ.[2725]

7 - المحبَّةُ في اللهِ سببٌ في مغفرةِ الذنوبِ والخَطَايَا:

عن البراء بن عازب عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: "ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفِرَ لهما قبلَ أن يفترقا".[2726]

عَظَّمَ الإسلامُ كلَّ ما مِن شأنِه أن يُنمِّيَ العَلاقاتِ الحَسَنةِ بَينَ المُسلِمينَ، واهتَمَّ بكلِّ ما يَدْعو إلى التَّرابُطِ الاجتماعيِّ والتَّسامُحِ والتَّحابِّ بينَ أفرادِ المجتمَعِ.

وفي هذا الحديثِ يقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: (ما مِن مُسلِمَينِ يَلتَقِيانِ)، أي: يَجتَمِعانِ في طَريقٍ أو نَحوِه، (فيتَصافَحانِ)، أي: فيُسلِّمُ أحَدُهما على الآخَرِ مُصافَحةً باليَدِ، (إلَّا غُفِرَ لهما)، أي: كان ثَوابُهما مَغْفِرةً مِن اللهِ تعالى، (قَبْلَ أن يَفْتَرِقا)، أي: يُغْفَرُ لهما في ذلك الموقِفِ قبلَ أن يَترُكَ أحَدُهما الآخَرَ، فيَفْتَرِقا في الطُّرُقِ.

[2724] صحيح أبي داود 3527

[2725] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

[2726] صحيح أبي داود 5212، والترمذي 2727 وابن ماجه 3703، وأحمد 18547

وفي الحديثِ: الحثُّ على إفشاءِ السَّلامِ، وبيانُ عَظيمِ أَجْرِ مُصافَحةِ المسلمِ لأخيه المُسلِمِ.
فعن مجاهد قال: "إذا التقى المتحابَّان فبشَّ بعضُهم إلى بعض، تحاتَّت عنهم الخطايا كما يتحاتُّ ورق الشَّجر في الشتاء إذا يبس".

8- أولياء الله الذين إذا رُؤوا؛ ذُكِرَ اللهُ:

تُخبِرُ أسماءُ بنتُ يَزيدَ، أنَّها سَمِعَت رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم يَقولُ: "أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ، قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: خِيَارُكُمُ الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ".[2727]

في هذا الحديثِ: (ألَا أُنبِّئُكم بخيارِكم؟)، أي: أفاضِلِكم، فقال الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنهم: "بَلى، يا رسولَ اللهِ"، أي: أخبِرْنا بهم يا رسولَ اللهِ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: (خِيارُكم)، أي: أفضَلُكم مِن جهةٍ ما، وليس بمُطلَقِ الأفضَليَّةِ، (الَّذين إذا رُؤُوا؛ ذُكِرَ اللهُ عزَّ وجلَّ)، أي: إنَّهم مِن الخَشْيةِ والخوفِ مِن اللهِ، أو مِن كَثرةِ ذِكْرِهم للهِ بحيثُ إنَّ النَّاسَ يَذكُرون اللهَ عِندَ حُضورِهم، أو لأنَّهم لِمَا عَليهم مِن سِيَمَا الصَّلاحِ يُذَكِّرون باللهِ سبحانه، أو لأنَّهم يَعِظون العبادَ ويُذكِّرونهم بربِّهم فيَذْكُرونه، فصُحبَتُهم غنيمةٌ؛ وذلك أنَّ المؤمنَ يَستضيءُ بنورِ اللهِ، ويَظهَرُ على وجهِه أثَرُ الإيمانِ، فإذا رآه النَّاسُ ذكَروا اللهَ، وعلى العَكسِ؛ فمَن شغَل النَّاسَ عن ذِكرِ اللهِ وطاعتِه فهو ظالِمٌ وسوف يَندَمُ ويَعضُّ على يديه، كما قال الله تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: 27 - 29].
وفي الحديثِ: الحثُّ على كَثرةِ الذِّكرِ والطَّاعاتِ؛ لِما لها مِن أثَرٍ طيِّبٍ على الذَّاكِرِ وعلى مَن يَراه، فيَتأثَّرُ به.

9- أنّ المرء بمحبته لأهل الخير لصلاحهم واستقامتهم؛ يلتحق بهم ويصل إلى مراتبهم، وإن لم يكن عمله بالغًا مبلغهم:

وفي الصَّحيحَينِ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا رسول الله! كيف تقول في رجل أحبّ قوما ولم يلحق بهم؟ قال: المرء مع من أحبّ".[2728]
وفي الصَّحيحَينِ أيضا عن أنس رضي الله عنه أنَّ رَجُلًا مِن أهْلِ البَادِيَةِ أتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَقالَ: "يا رَسولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ؟ قالَ: ويْلَكَ! وما أعْدَدْتَ لَهَا؟ قالَ: ما أعْدَدْتُ لَهَا إلَّا أنِّي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ، قالَ: إنَّكَ مع مَن أحْبَبْتَ، فَقُلْنَا: ونَحْنُ كَذلكَ؟ قالَ: نَعَمْ. فَفَرِحْنَا يَومَئِذٍ فَرَحًا شَدِيدًا، فَمَرَّ غُلَامٌ لِلْمُغِيرَةِ -وكانَ مِن أقْرَانِي- فَقالَ: إنْ أُخِّرَ هذا، فَلَنْ يُدْرِكَهُ الهَرَمُ حتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ".[2729]
إنَّ وَقْتَ قِيامِ السَّاعةِ مِنَ الغَيبيَّاتِ الَّتي استأثَرَ المولى سُبحانه وتعالَى بها، ولم يُطلِعْ عليه أَحدًا؛ ولذلك فإنَّ المؤمنَ لا يَنشغِلُ بِمَوعِدِ قيامِها، وإنَّما يَجِبُ أنْ تَنصرِفَ هِمَّتُه إلى زادِه إليها وما أعدَّ لها مِنَ العملِ.
وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رجُلًا مِن أهلِ البادِيةِ -وهو الذي يسكُنُ الصَّحراءَ- قيل: هو ذو الخُوَيصِرة اليَمانيُّ، وهو الذي بال في المسجِدِ؛ سَألَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَن وقْتِ قيامِ السَّاعةِ، فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (ويْلَكَ! وما أعددْتَ لها؟)، والويلُ هو الدُّعاءُ بِالهلاكِ، وليس مَقصودًا هنا، وإنَّما هو تَعنيفٌ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه سلَّم؛ لِيَنشغِلَ بِالأصلحِ له -وهو العملُ الصَّالحُ- لا بِموعدِ قيامِ السَّاعةِ.
فقال له الرَّجلُ بعْدَ أنْ سَمِعَ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذلك: (ما أعددْتُ لها إلَّا أنِّي أُحبُّ اللهَ ورَسولَه)، ولم يذكُرْ غيرَها من العباداتِ القَلبيَّةِ والبَدَنيَّةِ والماليَّةِ؛ لأنها كُلَّها فروعٌ للمَحَبَّةِ مترتِّبةٌ عليها؛ ولأنَّ المحبَّةَ هي أعلَمُ منازِلِ السَّائِرين،

[2727] صحيح ابن ماجه 3/349
[2728] صحيح البخاري 6170
[2729] صحيح البخاري 6167، ومسلم 2639 باختلاف يسير.

وأعلى مقاماتِ الطَّائرين؛ فإنها باعِثةٌ لمحبَّةِ اللهِ أو نتيجةٌ لها، فقال له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (إنَّكَ مع مَن أحببْتَ)، أي: معهم في الجَنَّةِ، وليس المرادُ بالمَعِيَّةِ التساوي في الدَّرَجةِ والمنَزلةِ، بل المرادُ كَونُهم في الجَنَّةِ بحيث يتمكَّنُ كُلُّ واحدٍ منهم من رؤيةِ الآخَرِ وإن بَعُد المكانُ؛ لأنَّ الحجابَ إذا زال شاهَدَ بَعضُهم بعضًا، وإذا أرادوا الرُّؤيةَ والتلاقي قدَروا على ذلك.

فقال الصَّحابةُ رِضوانُ اللهِ عليهم: (ونحْنُ كذلك)، أي: نحْنُ أيضًا نُحبُّ اللهَ ورسولَه، فهل نكونُ مع مَن أحبَبْنا؟ فقال لهمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (نَعمْ)، ففَرِحوا بذلك فرحًا شديدًا.[2730]

إنَّ المحبَّة في الله - تعالى - تصِل بالإنسان لدرجةٍ لا يصِل إليْها بعمله، فلو أنَّ إنسانًا أحبَّ مَن هو فوقه في الدِّين والمنزلة يُحشر يوم القيامة معه، ولنسمعْ لحديث النَّبيّ - صلَّى الله عليه وسلَّم:

فَحَرِيٌّ بِنَا أَنْ نَقُولَ مَا قَالَهُ أَنَسٌ: فَإِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِعَمَلِهِمْ، وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ.

المطلب الرابع: حُقُوقُ الأُخُوَّةِ فِي اللهِ

إنَّ التَّحَابَّ في اللهِ والأخوَّةَ في دينِه من أفضلِ القرباتِ، ولها حقوقٌ بمراعاتها تصفُو تلك الأخوةُ عن شوائبِ الكدرِ ونزغاتِ الشيطانِ، وبالمحافظةِ عليها تُنَالُ الدرجاتُ العُلا.

وقد أتت جملة من هذه الحقوق، وبيان لهذه الحرمة من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك:

- قوله صلى الله عليه وسلم: "حَقُّ المُسْلِمِ علَى المُسْلِمِ سِتٌّ، قيلَ: ما هُنَّ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: إذا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عليه، وإذا دَعاكَ فأجِبْهُ، وإذا اسْتَنْصَحَكَ فانْصَحْ له، وإذا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وإذا مَرِضَ فَعُدْهُ وإذا ماتَ فاتَّبِعْهُ.[2731]

- وفي بيانِ حُرمَةِ المسلم، وما لا يجوز له أن يقع فيه مع سائر المسلمين قوله صلى الله عليه وسلم: "إيَّاكُمْ والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَديثِ، ولا تَجَسَّسُوا، ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَباغَضُوا، وكُونُوا إخْوانًا، ولا يَخْطُبُ الرَّجُلُ علَى خِطْبَةِ أخِيهِ حتَّى يَنْكِحَ أوْ يَتْرُكَ".[2732]

- ولقد حثَّتِ الشَّريعةُ على الإصلاحِ بيْن المسلِمينَ وتَوطيدِ الأُخوَّةِ والاجتماعِ بيْنهم، ونَهَتْ عَنْ كلِّ ما يَدْعو لِلفُرقَةِ والتَّباغُضِ والعَداوةِ.

وفي هذا الحديثِ: يَنْهى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُحَذِّرُ مِن بعضِ ما يُؤدِّي إلى هذه الفُرقَةِ والعَداوةِ والتَّباغضِ؛ فحذَّر صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الظَّنِّ، وهو تُهمةٌ تقَعُ في القَلبِ بلا دَليلٍ، يعني سُوءَ الظَّنِّ بِالمسلِمين، والحديثَ بما لم يُتيقَّنْ مِنَ الأخبارِ، وقال: (إنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديثِ)، أي: يَقعُ الكذبُ في الظَّنِّ أكثرَ مِن وُقوعِه في الكلامِ، وقيلَ: المرادُ بأكذَبِ الحديثِ: حَديثُ النَّفْسِ؛ لأنَّه يكونُ بإلْقاءِ الشَّيطانِ في نفْسِ الإنسانِ، وقيل: إنَّ إثْمَ هذا الكَذِبِ أزْيدُ مِن إثمِ الحديثِ الكاذبِ، أو إنَّ المَظنوناتِ يقَعُ الكذِبُ فيها أكثرَ مِن المَجزوماتِ.

ونَهى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن التَّجسُّسِ فقال: (وَلَا تَجَسَّسُوا)، والتَّجسُّسُ: البحثُ عَنِ العَوراتِ والسَّيِّئاتِ، والسَّعيُ في كشْفِ سَترِ اللهِ عن عِبادِه، ويُستثنَى منه ما لو تَعيَّنَ ذلك طَريقًا لإنقاذِ إنسانٍ مِن هَلاكٍ أو نحْوِه؛ كأنْ يُخبِرَ أحدُهم بأنَّ فلانًا خَلا برجُلٍ ليَقتُلَه.

[2730] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

[2731] أخرجه البخاري 1240، ومسلم 2162.

[2732] صحيح البخاري 5143، أخرجه مسلم 1408، 2563 مفرقاً مطولاً باختلاف يسير.

ثمَّ قال: (وَلا تَحَسَّسُوا)، والتَّحسُّسُ: هو طَلَبُ مَعرفةِ الأخبارِ والأحوالِ الغائبةِ، (وَلا تَباغَضُوا) والمرادُ: النَّهيُ عن تَعاطي أسبابِ البَغضاءِ والكراهيةِ، والانسياقِ وَراءَها، وفِعلِ ما يُسبِّبُ العَداوةَ بيْنهم؛ لِمَا في تَباغُضِهم منَ التَّفرُّقِ المذمومِ، (وكُونوا إخوانًا) كما أراد اللهُ لكم؛ حيث جعَلَكم إخوةً في الدِّينِ، وهي رابِطةٌ تلتَئِمُ بها العلاقاتُ بين النَّاسِ، وتَزيدُ المحبَّةَ والأُلفَةَ بيْنهم، كما قال اللهُ تعالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: 10].

ثمَّ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (ولا يَخطُبُ الرَّجلُ على خِطبةِ أخيهِ حتَّى يَنكِحَ أو يَترُكَ)، يعني: إذا أرادَ مُسلِمٌ خِطبةَ امرأةٍ وظَهَر ذلك، وتقدَّمَ لِخطَبتِها، فلا يُحاوِلْ رجُلٌ آخَرُ أنْ يَخطُبَها لِنفسِه، وهذا الخاطبُ الأوَّلُ إمَّا أنْ يُتِمَّ الزَّواجَ فتَمتنِعَ الخِطبةُ قطْعًا، أو يَترُكَ الخِطبةَ، وفي هذه الحالةِ يَحِقُّ لِأيِّ أحدٍ التَّقدُّمُ لِخطبةِ هذه المرأةِ.

وفي هذا الحديثِ نَهى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن بعضِ ما يُسَبِّبُ العَداوةَ والقطِيعةَ بيْن المسلمينَ؛ لِمَا في تباغُضِهم مِن التَّفرُّقِ، ونَهاهم عن التَّحاسُدِ، وهو تَمنِّي زَوالِ النِّعمِ عنِ الآخَرِين، ونَهاهم عن التَّدابُرِ، وهو أنْ يُوَلِّي المسلِمُ أخاهُ المسلمَ ظَهْرَه ودُبُرَه؛ إمَّا حِسيًّا فلا يُجالِسُه ولا يَنظُرُ إليه، وإمَّا مَعنويًّا فلا يُظهِرُ الاهتمامَ به، والمقصودُ: نَهيُهم عن التَّقاطُعِ والتَّهاجُرِ، ثُمَّ بيَّن لهمُ المنزلةَ الَّتي يَنبغي أنْ يَكونوا عليها، وهي الأُخُوَّةُ، كَأُخُوَّةِ النَّسَبِ في الشَّفَقةِ والرَّحمةِ، والمحبَّةِ والمُواساةِ، والمعاوَنةِ والنَّصيحةِ، فأمرهم أن يَأخُذوا بِأسْبابِ كلِّ ما يُوصِلُهم لِمثْلِ الأُخُوَّةِ الحقيقيَّةِ مع صَفاءِ القلْبِ، والنَّصيحةِ بِكلِّ حالٍ.

ونَهاهم عن هَجْرِ المُسلِمِ وتركِه؛ زيارةً، أو كلامًا، ونحو ذلك مِن أشكالِ الهُجْرانِ، فوقَ ثلاثةِ أيَّام إنْ كان الخلافُ على أمْرِ الدُّنيا.

وفي الحَديثِ: الحِرْصُ على وَحْدَةِ المُسلِمينَ أفْرادًا وجَماعاتٍ وشُعوبًا.

وفيه: وجوبُ التآخي والتعاوُنِ بين المُسلِمين.[2733]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: "وَلَوْ كَانَ كُلُّ مَا اخْتَلَفَ مُسْلِمَانِ فِي شَيْءٍ تَهَاجَرَا، لَمْ يَبْقَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عِصْمَةٌ وَلَا أُخُوَّةٌ".

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يا معشرَ من آمنَ بلسانِه ولم يدخلْ الإيمانُ قلبَه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتَّبعوا عوراتِهم، فإنه من اتَّبعَ عوراتِهم يتَّبعُ اللهُ عورتَه، ومن يتَّبعِ اللهُ عورتَه يفضحُه في بيتِه".[2734]

إنَّ الأخوةَ نعمةٌ من الله امتن بها الله على المؤمنين، وهي رُوح الإيمان الحي، ولُبَاب المشاعر الرقيقة، التي يكنَّها المسلم لإخوانه؛ حتى إنه ليحيا بهم ويحيا لهم، حتى كأنهم رُوحٌ واحدة حلَّتْ في أجسام متعدِّدة.

وَمِنْ حَقُّوقِ الْأُخُوةِ فِي اللَّهِ أيضا: لينُ الجانِب، وَصَفاءُ السريرة، وطَلاقَةُ الوجه، والتَّبَسُط في الحديث.

ومنها: أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَنْفَعَ أَخَاكَ بِمَالِكَ فَلْتَكُفَّ عَنْهُ لِسَانَكَ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَهُ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ".[2735]

وَمِنْ الحَقُّوقِ كذلكَ: بذلُ النصيحةِ بصدقٍ وأمانةٍ، ففي صحيح مسلم من حديث تميم الداري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: لِلَّهِ ولِكِتابِهِ ولِرَسولِهِ ولأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وعامَّتِهِمْ".[2736]

[2733] مَوْقِعُ الدُّرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

[2734] صحيح أبي داود 4880

[2735] صحيح البخاري 6018

[2736] صحيح مسلم 55

فالتَّناصُحُ بين المسلمين من مَعالِمِ الدِّينِ الحَنيفِ، ومِن حُسنِ التَّعامُلِ بين النَّاسِ أن يَتناصَحوا فيما بينهم بالمعروفِ، وبغيرِ أن يُحدِثوا مُنكَرًا أكبَرَ ممَّا يَنصَحون به، مع إخلاصِ المحبَّةِ للمَنصوحِ، ومَعرفةِ حَقِّه لإسلامِه، ومَعرفةِ حقِّه لِمَوقعِه في المُجتمعِ.

وهذا الحديثُ: يُوضِّحُ مَعالِمَ النُّصحِ، ولِمَن يكونُ وكيف يكونُ؛ فيُخبِرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ النَّصيحةَ هي عِمادُ الدِّينِ وجَوهرُه، ووَسيلةُ ظُهورِه وانتشارِه، والنَّصيحةُ: هي تَحرِّي قولٍ أو فِعلٍ فيه صَلاحٌ لصاحبِه، أو تَحرِّي إخلاصِ الوُدِّ له، والحاصلُ: أنَّ النَّصيحةَ هي إرادةُ الخيرِ للمنصوحِ له، وهي لفظٌ جامعٌ لمَعانٍ شَتَّى، ويَظهَرُ ذلك في النُّصحِ والتَّناصُحِ بين المسلمين، فسألَ الصَّحابةُ رَضيَ اللهُ عَنهُم رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لِمَن تكونُ النَّصيحةُ ولِمَن تُوجَّه؟ فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "للهِ، ولكِتابِه، ولرَسولِه، ولِأئمَّةِ المسلمين، وعامَّتِهم".

(والنَّصيحةُ لله) هي التعظيمُ لأمرِه، والشَّفقةُ على خلقِه، وتكون بالدَّعوةِ إلى الإيمانِ به، ونَفيِ الشِّركِ وجَميعِ النَّقائصِ عنه، وإخلاصِ العبادةِ كلِّها له سُبحانه.

(والنَّصيحةُ لكِتابِه) سُبحانَه وتَعالَى تَكونُ بالإيمانِ بأنَّه كَلامُ اللهِ تَعالَى، مع شِدَّةِ حُبِّه، وتَعظيمِ قَدرِه، وتِلاوَتِه حَقَّ تِلاوتِه، والذَّبِّ عن تَأويلِ المُحَرِّفين له، والتَّصديقِ بما فيه، والِاعتِبارِ بمَواعِظِه، والتَّفَكُّرِ في عَجائبِه، والعَمَلِ بمُحكَمِه، والتَّسليمِ لمُتَشابِهِه، ونَشرِ عُلومِه، والدُّعاءِ إليه.

(والنَّصيحةُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) تكونُ باتِّباعِه وتَصديقِه في كلِّ ما جاء به، وتَنفيذِ أوامرِه، والانتهاءِ عمَّا نَهى عنه، ومُراعاةِ هَديِه وسُنَّتِه، ومُعاداةِ مَن عاداه، ومُوالاةِ مَن والاه، وإعظامِ حَقِّه، وتَوقيرِه، وبَثِّ دَعوَتِه، ونَشرِ شَريعَتِه، ونَفيِ التُّهمةِ عنها.

(والنَّصيحةُ لأئمَّةِ المسلمين) تكونُ بمُعاونتِهم على الحَقِّ، وطاعتِهم في المَعروفِ، وتَنبيهِهم وتَذكيرِهم برِفقٍ ولُطفٍ بأنسبِ الطُّرقِ على ما غَفَلوا عنه، مع إعانتِهم في إصلاحِ النَّاس، وعدَمِ الخروجِ، إلَّا أن يُرَى مِنهم كُفرٌ بواحٌ عِندنا فيه منَ اللهِ تَعالَى بُرهانٌ، وهذا مَشروطٌ بالقُدرةِ وعَدمِ حُصولِ مَفسدةٍ أكبَرَ.

وقد يَشمَلُ المرادُ بأئمَّةِ المُسلمين: عُلَماءُ الدِّينِ، فمِن نَصيحَتِهم: قَبولُ ما رَوَوهُ، وإحسانُ الظَّنِّ بهم.

(والنَّصيحةُ لعامَّةِ المسلمين) تكونُ بتَعريفِهم بأوامرِ اللهِ ورَسولِه وبشَرائعِ الدِّين، وبالعملِ على ما فيه نَفعُهم وصَلاحُهم، وإبعادِ الضَّررِ عنهم، وأمرِهم بالمَعروفِ، ونَهيِهم عنِ المُنكَرِ برِفقٍ وإخلاصٍ، والشَّفَقةِ عَليهِم، وتَوقيرِ صَغيرِهم، وتَخَوُّلِهم بالمَوعِظةِ الحَسَنةِ، وتَركِ غِشِّهِم وحَسَدِهم، وأن يُحِبَّ لهم ما يُحِبُّ لنَفسِه منَ الخَيرِ، ويَكرَه لهم ما يَكرَه لنَفسِه منَ المكروهِ، والذَّبِّ عن أموالِهِم وأعراضِهِم، وغَيرِ ذلك ممَّا فيه صَلاحُ النَّاسِ في دِينِهم ودُنياهم.

وفي الحديث: بَيانُ أنَّ جَوهرَ الدِّينِ يَظهَرُ في التَّناصُحِ بين المسلمين بالمعروفِ.

وفيه: الحثُّ على النُّصحِ لكافَّةِ المسلمين بكلِّ مُستوياتِهم بَدأً من رأسِ الدَّولةِ حتى عامَّةِ النَّاسِ.

والنَّاصِحُ الصَّادِقُ، رَقِيقُ الْقَلْبِ، نَقِيُّ السَّرِيرَةِ، مُخْلِصُ النِّيَّةِ، يُحِبُّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، إِنْ رَأَى فِي أَخِيهِ عَيبًا؛ دَنَا مِنْهُ بِحَنَانٍ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُ هذا العيبَ بِأَدَبٍ وَرَحْمَةٍ، وتواضُعٍ، وَخَفْضِ جَنَاحٍ.

وَمِنْ حَقُّوقِ الْأَخُوةِ كذلك: "التَّنَاصُرُ"، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "انْصُرْ أَخاكَ ظالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فقالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إذا كانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إذا كانَ ظالِمًا، كيفَ أَنْصُرُهُ؟ قالَ: تَحْجُزُهُ -أَوْ تَمْنَعُهُ- مِنَ الظُّلْمِ؛ فإنَّ ذلكَ نَصْرُهُ".[2737]

[2737] صحيح البخاري 6952

وقد استشكل أحدُ الصَّحابةِ كيفيَّةَ نُصرَتِه للظَّالمِ، فبيَّنَ له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال: (تَحجُزُه -أو: تَمنَعُه مِنَ الظُّلمِ) والشَّكُّ مِنَ الرَّاوي؛ فإنَّ ذلك المنعَ نصْرُه؛ لأنَّه إذا مَنَعَه مِن ظُلمِه فقدْ نصَرَه على هواهُ وعلى شَيطانِه الَّذي يُغويه، وعلى نفْسِه الَّتي تَأمُرُه بِالسُّوءِ، وذلك هو أفضلُ النَّصرِ؛ ولأنَّه إذا تركه على ظُلْمِه ولم يَكُفَّه عنه، أدَّاه ذلك إلى أن يقتَصَّ منه؛ فكان مَنْعُه له ممَّا يُوجِبُ عليه القِصاصُ نَصْرًا له.[2738]

المطلب الخامس: كَيْفَ يَنْشَأُ التَّرَاحُمُ بَيْنَ المؤمِنِينَ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تَرَى المُؤْمِنِينَ في تَراحُمِهِمْ وتَوادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى".[2739]

حضَّ الإسلامُ على المؤاخاةِ والأُلفةِ والمواساةِ بيْن المؤمنينَ، وأنْ يكونوا مُتكاتِفين مِثلَ الجَسدِ الواحدِ، ومثلَ البُنيانِ المرصوصِ؛ لتَقْوى وحْدتُهم وتتَّفِقَ كَلِمتُهم؛ ولذلك أرشَدَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُمَّتَه في هذا الحديثِ إلى ما يُنشِئُ فيهمُ التَّراحُمَ والحبَّ والعاطفةَ؛ حيث قال: (ترَى المؤمنين في تَراحُمِهم) بأنْ يَرحَمَ بَعضُهم بَعضًا بأُخوَّةِ الإسلامِ، لا بسَببٍ آخَرَ، (وتَوادِّهم)، وهو تَواصُلُهم الجالبُ للمَحبَّةِ، كالتَّزاوُرِ، والتَّهادي، (وتَعاطُفِهم) بأنْ يُعينَ بعضُهم بعْضًا، كمَثَلِ الجسدِ بالنِّسبةِ إلى جميعِ أعضائِه، إذا اشتكى عُضوٌ منه تَداعَى له سائرُ جَسدِه، أي: دعَا بعْضُه بعضًا إلى المشاركةِ بالسَّهرِ؛ لأنَّ الألَمَ يَمنَعُ النَّومَ، والحُمَّى؛ لأنَّ فقْدَ النَّومِ يُثيرُها، والمعنى: أنَّ المسلمين يستَشعِرون آلامَ بعضِهم ومصائِبَهم بالعَوْنِ وتقديمِ مُساعدةِ بعضِهم بعضًا، كمَثَلِ الجَسَدِ الواحِدِ، إذا مرِضَ منه عضوٌ انهارَ له سائرُ جَسَدِه، وهذا تنبيهٌ للمُسلِمين بأن يكونوا كذلك في جميعِ شُؤونِهم.

وفي الحَديثِ: التَّشبيهُ وضرْبُ الأمثالِ؛ لتَقريبِ المعاني للأفهامِ، وفيه: اهتمامُ المسلمين بَعضِهم ببَعضٍ في جميعِ شؤونِهم.[2740]

المطلب السادس: حُسْنُ اختيارِ الداعية لِمَعاوِنِيهِ مِنْ إخْوانِهِ

مِنْ صِفاتِ الداعِيَةِ النَّاجِحِ حُسْنُ اختِيارِهِ لِمُعِينِيهِ، مَمَّنْ يَثِقُ بِهِمْ وَبِقُدْراتِهِمْ وَيَعْتَمِدُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ اللهِ فِي المَهَامِ، وَمَمَّنْ يَتَوَفَّرُ فِيهِم الشُّعُورُ بالمَسئولِيةِ، وَيَكُونُ الْعَمَلُ لِلدِّينِ ضِمْنَ أُولُوياتِهِمُ الْحَيَاتِيَّةِ.

رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وشَبَّكَ أَصَابِعَهُ".[2741]

قَوْلُهُ: (كَالْبُنْيَانِ) أَي: الْبَيْتُ الْمَبْنِيُّ.

قَوْلُهُ: (يَشُدُّ بَعْضُهُ) أَي: بَعْضُ الْبُنْيَانِ يُقَوِّي بَعْضُهُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ الْهَرَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "هَذَا الْحَدِيثُ مَعَنَاهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَتَقَوَّى فِي أَمْرِ دِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ إلَّا بِمَعُونَةِ أَخِيهِ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ الْبُنْيَانِ يُقَوِّي بَعْضُهُ".[2742]

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ المؤمنينَ في تَآزُرِهم وتَماسُكِ كُلِّ فَرْدٍ منهم بالآخَرِ، كالبُنيانِ المَرْصوصِ الذي لا يَقْوَى على البَقاءِ إلَّا إذا تَماسَكَتْ أجزاؤُه لَبِنَةً لَبِنَةً، فإذا تفكَّكَتْ سَقَطَ وانهارَ، وشَبَّكَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيْن أصابِعِه، إشارةً إلى أنَّ تعاضُدَ المؤمنينَ بينَهم كتَشْبيكِ الأصابِعِ بَعْضِها في بَعضٍ، فكما أنَّ أصابِعَ اليدينِ مُتعدِّدةٌ؛ فهي

[2738] درر السنية

[2739] صحيح البخاري 6011

[2740] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

[2741] البخاري، حديث رقم 2446، ومسلم حديث رقم 2585

[2742] مرقاة المفاتيح، ص 3102/ ج7

تَرجِعُ إلى أصلٍ واحدٍ، ورَجُلٍ واحدٍ، فكذلك المؤمنونَ وإنْ تعدَّدَت أشخاصُهم فهمْ يَرجِعونَ إلى أصْلٍ واحدٍ، وتَجْمَعُهم أُخُوَّةُ الإيمانِ.

وهذا التَّشبيكُ مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذا الحديثِ كان لَمصلحةٍ وفائدةٍ؛ فإنَّه لَمَّا شَبَّهَ المؤمنينَ بالبُنيانِ الذي يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا، كان ذلك تَشبيهًا بالقَوْلِ، ثُمَّ أوضَحَه بالفِعْلِ، فشَبَّكَ أصابِعَه بَعْضَها في بعضٍ؛ لِيَتأكَّدَ بذلك المثالُ الذي ضَرَبَه لهم بِقَوْلِه، ويَزدادَ بَيانًا وظُهورًا.[2743]

المطلب السابع: مُجالسَةُ الصَّالِحين وَبركَةُ مُصَاحَبَتِهِمْ

1- مصاحبة الصالحين خيرٌ في الدُّنيا والآخرة؛ قال تعالى: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: 67].

2- الإعانة على الطاعات، والبُعد عن المعاصي والذُّنوب؛ قال تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 1 - 3].

3- المسارعة إلى الخَيْرات، والتنافُس في الطاعات؛ قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 133].

4- حدوث الألفة والمحبة، ذلك النور الذي يضعه الله جل وعلا في قلوب المؤمنين، ولا يستطيع أحد أن يفرضها بالأموال والقوة والرجال قال الله: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: 63].

5- مَنْ جالَسَهم تشمَلُه البركةُ، وَيَعُمُّه الخَيرُ الحاصِل لهم، وإن لَمْ يَكُن عَمَلُهُ بالغًا مَبْلَغَهُم؛ كما دلَّ على ذلك ما أخرجه الشيخان مِن حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "إنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ في الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أهْلَ الذِّكْرِ، فإذا وجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجَتِكُمْ قالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بأَجْنِحَتِهِمْ إلى السَّماءِ الدُّنْيا، قالَ: فَيَسْألُهُمْ رَبُّهُمْ -وهو أعْلَمُ منهمْ- ما يَقولُ عِبادِي؟ قالوا: يَقولونَ: يُسَبِّحُونَكَ ويُكَبِّرُونَكَ، ويَحْمَدُونَكَ ويُمَجِّدُونَكَ، قالَ: فَيَقولُ: هلْ رَأَوْنِي؟ قالَ: فيَقولونَ: لا واللَّهِ ما رَأَوْكَ، قالَ: فيَقولُ: وكيفَ لو رَأَوْنِي؟ قالَ: يقولونَ: لو رَأَوْكَ كانُوا أشَدَّ لكَ عِبادَةً، وأَشَدَّ لكَ تَمْجِيدًا وتَحْمِيدًا، وأَكْثَرَ لكَ تَسْبِيحًا، قالَ: يقولُ: فَما يَسْألُونِي؟ قالَ: يَسْألُونَكَ الجَنَّةَ، قالَ: يقولُ: وهلْ رَأَوْها؟ قالَ: يقولونَ: لا واللَّهِ يا رَبِّ ما رَأَوْها، قالَ: يقولُ: فَكيفَ لو أنَّهُمْ رَأَوْها؟ قالَ: يقولونَ: لو أنَّهُمْ رَأَوْها كانُوا أشَدَّ عليها حِرْصًا، وأَشَدَّ لها طَلَبًا، وأَعْظَمَ فيها رَغْبَةً، قالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قالَ: يقولونَ: مِنَ النَّارِ قالَ: يقولُ: وهلْ رَأَوْها؟ قالَ: يقولونَ: لا واللَّهِ يا رَبِّ ما رَأَوْها، قالَ: يقولُ: فَكيفَ لو رَأَوْها؟ قالَ: يقولونَ: لو رَأَوْها كانُوا أشَدَّ مِنْها فِرارًا، وأَشَدَّ لها مَخافَةً، قالَ: فيَقولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أنِّي قدْ غَفَرْتُ لهمْ، قالَ: يقولُ مَلَكٌ مِنَ المَلائِكَةِ: فيهم فُلانٌ ليسَ منهمْ، إنَّما جاءَ لِحاجَةٍ، قالَ: هُمُ الجُلَساءُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ."[2744]

وكم من شخصٍ اهْتدى، وأصبحَ منَ المحافظينَ على الصَّلاةِ، وَتركَ مُجالسةَ أهلِ السُّوءِ، وتوجَّه إلى الدَّعْوَةِ، كلُّ ذلك بفضْل اللهِ، ثُمَّ الرفقةِ الصَّالحةِ!

[2743] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

[2744] صحيح البخاري 6408.

- روى الترمذي في سننه من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تصاحبْ إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامَك إلا تقيٌّ".

قال الخطابي: إنما جاء هذا في طعام الدعوة، دون طعام الحاجة؛ وذلك أنَّ الله سبحانه قال: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: 8]، ومعلوم أن أسراهم كانوا كفارًا غير مؤمنين ولا أتقياء، وإنما حذَّر - صلى الله عليه وسلم - من صُحبة من ليس بتقي، وزجر عن مخالطته ومؤاكلته؛ فإن المطاعمة توقع الألفةَ والمودة في القلوب.

- روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مثَلُ الجليس الصالح والسوء، كحامِل المسك ونافخ الكير؛ فحامِلُ المسك إمَّا أن يُحذِيك، وإمَّا أن تبتاعَ منه، وإما أن تجدَ منه ريحًا طيبة، ونافخُ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا أنْ تجد ريحًا خبيثة".

- وروى الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الرجل على دِين خليله، فلينظرْ أحدُكم مَن يخالل"، وقوله: (على دين خليله): أي: على عادة صاحبه وطريقته وسِيرته، (فلينظر): أي يتأمل ويتدبَّر مَن يُخالل، فمَن رضي دينه وخُلقه، خَالَلَهُ، ومن لا، تجنَّبه، فإن الطباع سراقة.

قال الشاعر:

عَنِ المَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ.. فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

والإنسان مجبول على التأثُّر بصاحبه وجليسه، والأرواح جنودٌ مجندة؛ ولقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الأرواح جنود مُجَنَّدَة، فما تعارَف منها ائتلف، وما تناكَر منها اختلف".

وتآلُفُها هو ما خَلَقَها اللهُ عليه من السَّعادةِ أو الشَّقاوَةِ في المُبْتَدَأ، وكانَت الأرواح قِسْمَيْن متقابلين، فإذا تلاقت الأجسادُ في الدنيا ائتلفتْ واختلفتْ بحسب ما خُلقتْ عليه، فيميلُ الأخيارُ إلى الأخيارِ، والأشرارُ إلى الأشرارِ.

المطلب الثامن: مُجَالَسَةُ أَهْلِ السُّوءِ وآثاره

إنَّ مُصَاحَبَةَ جُلَساءِ السُّوءِ حسْرةٌ وندامةٌ يوم القيامة؛ قال - تعالى -: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: 27 - 29].

ومنَ الآثار المترتِّبة على مُجالسة أهل السُّوء - وهي كثيرة -:

أولاً: أَنَّهُ يَصْرِفُ صَاحِبَهُ وَجَلِيسَهُ مِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ، وَيُزَيِّنُ لَهُ عَمَلَ السُّوءِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ، دَخَلَ عليه النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعِنْدَهُ أبو جَهْلٍ، فَقَالَ: أَيْ عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَقَالَ أبو جَهْلٍ وعَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ! فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ، حتَّى قَالَ آخِرَ شَيءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: علَى مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ما لَمْ أُنْهَ عنْه، فَنَزَلَتْ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة: 113]، وأنزل الله - تعالى - في أبي طالب، موجها كلامه عز وجل لرسوله - صلى الله عليه وسلم -: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: 56][2745].

[2745] صحيح البخاري 3884

وَواجِبُ المُسلِمِ أنْ يَبذُلَ جُهدَه في دَعْوةِ العِبادِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وتَعريفِهم بالإسْلامِ، ويَدَعَ أمرَ الهِدايةِ له سُبحانَه وتعالَى؛ فهو وَحْدَه مُقلِّبُ القُلوبِ، والهادي إلى سَواءِ السَّبيلِ.

ثانيًا: أنَّ غَالِب مَجَالِس أَهْلِ الْفِسْقِ لَا يُذكَر اللهُ - تَعَالَى - فِيهَا؛ بَل يُعصى -جَلَّ وَعَلَا- فَتَكُون حسرةً وَنَدَامَةً عَلَى أَصْحَابِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ ولقد رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَال: "ما جَلَس قومٌ مجلسًا لم يذكروا اللهَ فيه ولم يُصلُّوا على نبيِّهم إلَّا كان عليهم تِرةٌ، فإن شاءَ عذَّبَهم، وإن شاءَ غفَر لهم".[2746]

قال الشافعي:

إِذَا لَمْ أَجِدْ خِلاً تَقِيًّا فَوَحْدَتِي
أَلَذُّ وَأَشْهَى مِنْ غَوِيٍّ أُعَاشِرُهْ
وَأَجْلِسُ وَحْدِي لِلْعِبَادَةِ آمِنًا
أَقَرُّ لِعَيْنِي مِنْ جَلِيسٍ أُحَاذِرُهْ

ثالثًا: أن الجليس السوء يدْعو جليسَه إلى مُماثلته في الوُقوع في المحرَّمات، ويخفِّف وقْع المعصية في قلبه، ويهوِّن عليه التقصير في الطاعة، قيل: "ودَّت الزانية لو زنى النساء كلُّهن".

جَلِيس السُّوء يَنْصَرِفُ عَنْ صَاحِبِهِ عِنْدَ أَدْنَى خِلَافٍ أَوْ فَوَاتِ مَصْلَحَةٍ؛ بَل وَتَحْصُل البغْضاء بَعْدَ ذَلِكَ، قَال عَبْدالله بْنُ الْمُعْتَزّ: "أَخَوَان السُّوء يَنْصَرِفُون عِنْد النَّكْبة، ويُقبِلون مَع النِّعمة".

لِذَا أَنْصَح إخْوَانِي بِإِلْحَاق أَبْنَائِهِم بحلقات تَحْفِيظُ القُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَهِي رفْقة صَالِحَه، وَعِنْدَهُم بَرامِجٌ مُفِيدَةٌ، يقْضي فِيهَا الأبناء أوقاتهم، وتُبعدهم عَن جُلساء السُّوء.

ولقد حذرنا الله تعالى من أهل السوء، فقال: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنعام: 68]، فيا من تعاشر صاحب سوء، لاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، فإن الله نهاك عن ذلك، هؤلاء الذين يتبرأ بعضهم من بعضهم ويقول الواحد منهم يوم القيامة: {يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا} [سورة الفرقان:28]؛ ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يستعيذ في دعائه من صاحب السوء، فيقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ يَوْمِ السُّوءِ، وَمِنْ لَيْلَةِ السُّوءِ، وَمِنْ سَاعَةِ السُّوءِ، وَمِنْ صَاحِبِ السُّوءِ، وَمِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ"[2747]؛

لقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من صاحب السوء؛ وذلك لأنه لا يُسْلَمُ من شره، ولا يُمكنُ أن تأمَنَهُ على شيء، لا على عِرْضٍ، ولا على مَالٍ، ولا عَلَى سِرٍ، ولا يُعينُك على خيرٍ، وإنما يُزَيِّنُ لك المعصيةَ، ويَحُثُّكَ على الخبثِ، فَلَا خيرَ في صحبةِ مَنْ إذَا حدثَّكَ كذَبَكَ، وإذا ائْتَمَنْتُه خَانَكَ، وإذا ائْتَمَنَكَ اتَّهَمَك، وإذا أَنْعَمْتَ عليه كَفَرَك، وإذا أَنْعَمَ عَلَيْكَ مَنَّك.

ولذلكَ ينبغي على المسْلِمِ الذي يُحِبُّ اللهَ ويحبُ دينَهُ ويحب رَسُولَهُ أنْ يختبرَ من يؤاخِيهِ، يختبرُه عند الهوى إذَا هوى، وعند الغضَبِ إذا غَضِبَ، وعند الطَمَعِ إذَا طَمِعَ، لينظرَ ما حَالُه في هذهِ المواقِفِ الثلاثةِ.

قَالَ شيخُ الإسْلامِ رحمه الله: "النَّاسُ كَأَسْرَابِ الْقَطَا، مَجْبُولُونَ عَلَى تَشَبُّهِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلِهَذَا كَانَ الْمُبْتَدِئُ بِالْخَيْرِ والشَّرِّ: لَهُ مِثْلُ مَنْ تَبِعَهُ مِنْ الْأَجْرِ وَالْوِزْرِ".[2748]

[2746] أخرجه أبو داود 4856، والترمذي 3380 واللفظ له، والنسائي في السنن الكبرى 10238، وأحمد9583

[2747] أخرجه الطبراني في الكبير، 17/294، برقم 810، والديلمي، 1/461، برقم 1873. قال الهيثمي في الزوائد، 10/144: ورجاله رجال الصحيح. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة 1443، وصحيح الجامع، 1/ 278، 1299

[2748] مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٥٠

وَلَا تقلْ إنَّه لا يَضُرُّني؛ لِأَنَّ الصاحبَ ساحبٌ وَلَا بُدَّ، والتَشَبُّهُ به حَاصِلٌ، وكلُّ قَرِينٍ بالمقارَنِ يَقْتَدِي.
من الذي علَّمَ أحدُهم إدمانَ المخدراتِ؟ ومن الذي جرَّ الفحشَ إلى كثيرٍ من الناسِ؟ ومن الذي أعطَى القصصَ الخليعةَ ورواياتِ السوءِ إلى من تأثَّر بها؟ من الذي جَلَبَ إليهم الأفلامَ؟ من الذي سَافَرَ بهم إلى بلدانِ الشرِّ والفسادِ؟ من الذي ضيَّعَهُم، وجعلَهُم يُضَيِّعُون أَمَانَاتِهم وزوجَاتِهم، وأولادَهُمْ؟ إنهُم قرناءُ السُّوءِ، أَثَرُهُم واضِحٌ فِي الوَاقِعِ، يُضَيِّعُونَ أَغْلَى ما يملكُ الإنسانُ، وَهُوَ العُمرِ، إنَّهم مَرَضٌ وَغَمٌّ وَعَجْزٌ.
أيُّها المسلمُ، يا عبدَ اللهِ: قد تكونُ أنتَ من أهلِ الخيرِ، ولكن فِي نفسِك شيءٌ من الهوى يدفعُكَ إلى مجالسةِ أهلِ السوءِ فَإِيَّاك إيَّاك منهم، هؤلاء إذا خرجْتَ معهم، فإلى أينَ سيأخذونك؟ قطعا سيأخذونك إلى أماكِنِهِم والتي هِيَ محلُّ غَضَبِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، بَيْنَمَا صَاحِبُ الخيرِ فَسَيأْخُذُكَ إمَّا إلى مسجدٍ أو إلى حَلَقَةِ عِلْمٍ، أو إلى زِيَارَةٍ نَافعَةٍ، أو إلى عِبادَةٍ وطاعَةٍ.
إنَّ صُحبةَ الأشرارِ دَمَّرَتْ حياةَ كثيرٍ منَ النَّاسِ، وأقلُّ مَا فِي صُحْبَتِهِم ضَيَاعُ الأوقاتِ، فهلْ منْ تَوبةٍ؟ وهل من أوْبَةٍ؟
للأَسَفِ، كثيرٌ من الناسِ لا يُغَيِّرُون عِلاقَاتِهِم السيئةَ؛ لِقِدَمِ العهدِ وجريانِ العادةِ، فهو لما تعَوَّدَ على هذه الشِّلَّةِ، صَارَ مُتَعَلِّقًا بِهِم، وَلَا يُرِيدُ مُفَارَقَتِهِم؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ انْتِشَالَ النَّفْسِ منْ بينِهِم يحتَاجُ إلى مجَاهَدَةٍ وَإِرَادَةٍ قَوِيَةٍ لَا تَتَأَتَّى إِلَّا لِمَنْ أَخْلَصَ النيَّةَ للهِ فِي طَلَبِ النَّجَاةِ.

المطلب التاسع: لَا مُوَالَاةَ للأَخِ إنِ اسْتَحَبَّ الكفرَ عَلَى الإِيمَانِ

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ * وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [سورة التوبة: آية: 23]
في هذين الآيتين الكريمتين؛ إنذارٌ من الله تعالى للمؤمنين، ينهاهم فيه عن اتِّخاذ مَن كفَر من آبائهم وإخوانهم أولياءَ لهم يُوادُّونهم ويناصرونهم، ويُطلِعونهم على أسرار المسلمين، وبَواطنِ أمورهم، فيقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) أي: آمنوا بالله ورسوله، ولقاءِ الله ووعده ووعيده، (لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ} أي: آثروا الكفرَ والإصرارَ عليه على الإيمان بالله ورسوله، ويهدِّدهم إن لم يمتثلوا أمرَه، ويُفاصلوا آباءهم وإخوانهم المستحبين للكفر على الإيمان؛ فيقول: (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، ووجهُ الظلم ظاهرٌ؛ وهو أنهم وضعوا المحبةَ موضعَ البغضاء، والنُّصرة موضع الخِذلان؛ لأن الظلم وضعُ الشيء في غير موضعه.
ثم أمر تعالى رسولَه أن يقول لهم، وفي هذا العدول عن خطابهم مباشرة إلى الواسطة ما يشعرُ بالغضب وعدم الرضى، والتهديد والوعيد: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ} فتركتم الجهاد لذلك {فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}؛ أي: انتظروا أمرَ الله، وهو فتحُ مكةَ عليكم، وإنزال العقوبة بكم، {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} أي: لا يوفقهم لسُبل نجاتهم وسعادتهم.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: "أمر تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونَهى عن موالاتهم (إِنِ اسْتَحَبُّوا) أي: اختاروا الكفرَ على الإيمان، وتوعَّد على ذلك؛ كقوله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [المجادلة: 22]
ثم أمر تعالى رسولَه أن يتوعَّد من آثرَ أهلَه وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله تعالى، فقال: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا} أي: تحبونها؛ لطيبها

وحسنها؛ أي: إن كانت هذه الأشياء {أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا} أي: فانتظروا ماذا يحلُّ بكم من عقابه ونَكاله بكم، ولهذا قال: {حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}، وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حتَّى أَكُونَ أحبَّ إليه من والدهِ وولدهِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ"، وروى الإمامُ أحمد وأبو داود - واللفظ له - عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله يقول: "إذا تبايعتم بالعِينَة[2749]، وأخذتم أذنابَ البقر[2750]، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهادَ، سلَّط اللهُ عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم".

ويستفاد من الآيتين الكريمتين:

1- حرمة اتخاذ الكافرين أولياء يوادون، ولو كانوا من أقرب الأقرباء؛ كالأبِ والابن، والأخ والعم.

2- من الظلم الفظيع موالاةُ من عادى اللهَ ورسولَه والمؤمنين.

3- فرضية محبةِ الله ورسوله والجهاد في سبيله، ومحبة سائر محابِّ الله تعالى، وكُره سائر مكاره الله تعالى؛ من العقائد والأقوال والأعمال، والذوات والصفات.

4- حرمان أهل الفسق المتوغلين فيه من هداية الله تعالى إلى ما يكملهم ويسعدهم.

5- أن هذا الحكم عامٌّ في أمة الإسلام إلى يوم القيامة، ولا التفات لسبب نزولها؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المطلب العاشر: النَّهي عنِ الانفراد وأن يبيت الرجل وحده

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهى عن الوِحدةِ أنْ يبيتَ الرجلُ وحده أو يسافرَ وحده. [2751]

حذَّر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من الوَحدةِ والانفرادِ، وخاصَّةً حيثُ يُظنُّ الخَطَرُ على المُنفرِدِ، وفي هذا الحديثِ يروي عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَهى عن الوَحدةِ) وهي الانفِرادُ دون وُجودِ أحَدٍ مع الشَّخصِ، (أنْ يَبيتَ الرَّجُلُ وحدَه) في بيتٍ أو غيرِه، ولعلَّ النَّهيَ لما يتولَّدُ له من الوَحشةِ؛ ولأنَّه قد يحتاجُ في اللَّيلِ إلى غيرِه؛ لطارِقٍ يطرُقُه من مَرَضٍ أو لِصٍّ أو استيحاشٍ، والمرأةُ في ذلك مِثلُ الرَّجُلِ، وهو أيضا إشفاقٌ على الواحدِ مِن الشَّياطينِ؛ لأنَّه وقتُ انتشارِهم وأذاهم للبشَرِ بالتَّمثيلِ لهم، وما يُفزِعُهم ويُدخِلُ في قُلوبِهم الوَساوسَ.

وفي الحديثِ: الحثُّ على اجتماعِ الناسِ ومُؤانَستِهم لبعضِهم.

وفيه: حِرصُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على حِفظِ المُسلِمِ من أنواعِ الضَّرَرِ والأذى .

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله: "فإذا رأيت من أصحابك أنهم يدُلُّونك على الخير ويُعينونك عليه، وإذا نسيتَ ذكَّروك، وإذا جهلتَ علّموك؛ فاستمسك بحُجَزِهِمْ وعَضَّ عليهم بالنواجِذ"[2752]

المطلب الحادي عشر: تجربة مررتُ بها (البخلاء وأنا!)

كُنْتُ فِي إحدى الزياراتِ لبَلَدٍ ما، وخِلَالَ فَتْرَةٍ مُكَثِّي لِبِضْعَةِ أَشْهُرٍ دَعَوْتُ مَنْ حَوْلِي عَشَرَاتِ الْمَرَّاتِ إِلَى الغِدَاءِ وَالعَشَاءِ، وبرغم ذلك لَمْ يَدْعُنِي أحدٌ منهُم ولو لمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ إلى الطعامِ، ولا حتى لِشُرْبِ كَوْبٍ من الشَايِ.

[2749] العينة: نوع من أنواع الربا.

[2750] أذناب: مفرد ذنب، وهو ذيلُ الحيوان.. وأخذتم أذناب البقر للحرث عليها؛ لأن من يحرث الأرض يكون خلف البقرة ليسوقها.

[2751] صحيح الجامع 6919، أخرجه أحمد 5650 مطولاً.

[2752] شرح رياض الصالحين: ١٨/٤

ولذلك أَقُولُ لك يَا أَخِي: إِنْ كُنْتَ فَقِيرًا وَتَخْجَلُ أَنْ يَرَى أَخَاكَ فَقْرَكَ فَأَيْنَ التَّوَاضُعُ للهِ؟ أَلَيْسَ في وُسْعِكَ أَنْ تقدم لأَخِيكَ تَمْرَةً أَوْ تَمْرَتَيْنِ؟، أَمْ أنك تَبْخَلُ خشيةَ الْفَقْرَ؟ ألم يقل الله عز وجل في محكم آياته: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}؟ وأين توكلك على الله عز وجل، وهو القائل: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}؟

إِنِّي عِنْدَمَا أَرَى الْبُخْلَ فِي بَعْضِ الْمَنَاطِقِ رَغْمَ ما فِيهَا مِنْ خَيْرَاتٍ كَثِيرَةٍ، أو بُخْلِ الأَهْلِ فِيمَا بَيْنَهُم فَلَا أَسْتَغْرِبُ الَّسبَبَ؛ لأَنَّهُ قَطْعًا يَعُودُ إِلَى ضَعِفِ رَابِطَةِ الْأُخُوَّةِ فِي اللَّهِ لَدَيْهِمْ.

المطلب الثاني عشر: أَسْبَابُ ظَّاهِرَةِ (ضَعِفِ رَابِطَةِ الْأُخُوَّةِ فِي اللَّهِ)

لا شك أن هذه الظاهرةَ السيئةِ، (وهي: ظاهرةُ ضعفَ رابطةِ الأخوةِ في اللهِ)، وغيرها من الأخلاقِ الرَّدِيئَةِ - والتي لا ينبغي أن يتعامل بها الإخوانِ فيما بينهم - يوجد وراءها العديدُ من الأسبابِ، مِنْهَا:

1- المعاصي:

إن المَعاصي تُمَزِّقُ الأُخُوَّة، وَتُعَدُّ سَبَبًا لا يستهانُ بها فِي إنهاءِ تلكَ الرابطةِ الجَلِيلَةِ بين المُسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نَفسي بيدِهِ ما تَوادَّ اثْنانِ فَيُمَزَّقُ بينَهُما إلَّا بذنبٍ يُحْدِثُهُ أحدُهُما".[2753]

في هذا الحديثِ يقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (والَّذي نَفْسي بيَدِه)، أي: يُقسِمُ باللهِ عَزَّ وجَلَّ الَّذي خلَقَ الأنفُسَ، وكثيرًا ما كان يُقسِمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك القسَمِ، (ما توادَّ اثنانِ)، أي: تحابَّا في اللهِ، (فيُمزَّقُ بيْنهما)، وفي نُسخةٍ: (ففُرِّقَ بيْنهما)، (إلَّا بذَنْبٍ يُحدِثُه أحدُهما)، أي: إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لم يُفرِّقْ بيْنهما ما داما على طاعةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فإذا أحدَثَ أحدُهما ذنْبًا فرَّقَ اللهُ بيْنهما؛ فعُوقِبَ مِن اللهِ تعالى بسلْبِ الأُخوَّةِ منه الَّتي أجْرُها عظيمٌ عندَ اللهِ؛ فإنَّ المعاصيَ تَسلُبُ بَرَكاتِ الطَّاعاتِ.[2754]

2- الاخْتِلافُ والمُنازَعَةُ على حُطامِ الدُنيا:

كَمْ مِنْ أَرْحَامٍ تَقَطَّعَتْ! وَقُلُوبٍ تَفَرَّقَت! وَدِماءٍ سُفِكَت!؛ بِسَبَبِ اختِلاف مَصْلَحَةٍ مادِّيةٍ حَقِيرةٍ فَقَضَتْ على تِلْكَ الأُخُوَّةِ فتحولت إلى بَغْضَاء.

وَلَرُبَّمَا كان أحدُهُم مَعَ أَخِيهِ عَلَى أَحْسَنِ مَا يَكُونُ، فَتَقَعُ بَيْنَهُمَا خُصُومَةٌ عَلَى أَرْضٍ أَوْ سَيَّارَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ؛ فَتُقْطَعُ الأُخُوَّةُ فِي اللهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْأَمْرِ الَّذِي اخْتَصَمَا عَلَيْهِ.

وقد تَجِد رَجُلَيْنِ عَلَى صَلاحٍ وَمُحَبَّةٍ وَأُخُوَةٍ، فَتُفْتَحُ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدِهِمَا؛ فَتُفْسِدُ قَلْبَهُ عَلَى أَخِيهِ!

3- اختِلافُ الرَّأْيِ فِي مَسَائِلَ يَسَعُ فِيهَا الِاجْتِهَاد:

إِنَّ كَثِيرًا مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ تَنَافَرَتْ قُلُوبُهُم، وَاخْتَلَفَتْ بِسَبَبِ اخْتِلافٍ حَوْلَ مَسَائِلَ فَرْعِيَّةٍ فِي هَذَا الدِّينِ، يُعْذَرُ فِيهَا الْمُخَالِفُ، وَلا يُنْكَرُ عَلَيْهِ.

4- تَصَيُّدُ أَخْطَاءِ الْبَعْضِ، وَنِسْيَانُ الْخَيْرِ فِي الْآخَرِ:

[2753] أخرجه أحمد 5357، والخرائطي في مكارم الأخلاق 759 مختصرا.

[2754] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

يَحْصُلُ إِغْرَاء الشَّيْطَانِ لِلْبَعْضِ بِتَتَبُّعِ الزَّلَاتِ دُونَ قَصْدِ النَّصِيحَةِ لِإِخْوَانِهِ، فَتَجِدُ مِن يَتْرُكُ ذِكْرَ مَحَاسِنِ أَخِيهِ أَوْ يَتَغَافَلُ عَنْهَا، وَلرُبَّمَا فَرِحَ بِوُقُوفِهِ عَلَى خَطَأِ أَخِيهِ؛ لِيَتَخَذَ مِنْ ذَلِكَ ذَرِيعَةً لِلْحَطِّ مِن قَدَرِهِ وَالتَّشْهِيرِ بِهِ، فَلا يُنْصَحُهُ؛ لِأَنَّ دَافِعَهُ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطَاعَةُ الشَّيْطَانِ.

4- سُوءُ الظَّنِ:

يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: 12]، الله عز وجل أَمَرَنَا باجتنابِ سُوءِ الظَّنِّ؛ لِأَنَّهُ يَتَوَلَّدُ عنه تِسْعَةُ أضْرَارٍ، كُلُّهَا شُرُور، وَهِي: التَّجَسُّس، ثُمّ التَّحَسُّس، ثُمّ الْغِيبَة، ثُمّ النَّمِيمَة، ثُمّ الشَّحْنَاء، ثُمّ الْبَغْضَاء، ثُمّ التَّقَاطُع، ثُمّ التَّدَابُر.

وعنْ أَبي هُرَيرةَ رضي الله عنه أنَّ رَسُول اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحَدِيثِ".[2755]

وعنْ أبي هُرَيرة رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ: "بِحَسْبِ امْرِيءٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يحْقِرَ أخَاهُ المُسْلِمَ".[2756]

5- الحَسَدُ:

قد يُلْقِي الشَّيْطَانُ الْبَغْضَاءَ فِي قَلبِ المُسلم على أخِيه بِسَبَبِ حَسَدِهِ له على نِعْمَةٍ أنْعَمَ اللهُ بِها عليه، مِنْ مال أَوْ صَلاحٍ وَلَدٍ أَوْ قَبُولٍ عِنْدَ النَّاسِ، وتَمَنَّى زَوالَ تِلك النِّعْمة عَنه.

6- التَّسَرُّعُ فِي تَوبِيخِ الْمُخطِئ وتأنِيبِه:

هُنَاكَ مَنْ يُهَاجِمُ أَخَاهُ بِسَبِبِ عَدَمِ تَرَيُّثِهِ، فَلَا يَسْمَعُ مِنْهُ رَأيَه وحُجَّتَهُ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ، وَمِنْ ثَمَّ يُحَاوِرُهُ وَيَنْصَحُهُ بِالحُسْنَى.

7- كَثْرَةُ المِزاحِ أو الاستِهزاءُ والسُخْرِيةُ:

إنَّ تَجَاوُزَ الْحَدِّ فِي المزَاحِ والخُرُوجِ عَنِ الْقَدْرِ الْمَعْقُولِ مِنْهُ، يَجْرَحُ الْمَشَاعِرَ ويُولِدُ الْبُغْضَاءَ، وَرُبَّمَا وَصَلَتْ إِلَى حدِّ التَّشَابُكِ والضَّرْبِ.

وَلا غرابة أَنْ يَحْصُلَ الاستهزاء والسخرية بين المنحرفين، لكن الغريب المؤلم أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ بَيْنَ طائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالصَّلاحِ، فَتَرَى بَعْضَهُمْ يَسْخَرُ مِنْ مَظْهَرِ أَخِيهِ، أَوْ كَلَامِهِ.

8- التَّكَبُّرُ والاسْتِعلاءُ على النَّاسِ:

عددٌ كبيرٌ مِنَ النَّاسِ يتَكَبَّرُ ويستعلي على الناس مِنْ أَجْلِ مَالٍ أَوْ مَنْصِبٍ أَوْ نَحْوِهِمَا، فَأَدَّى ذَلِكَ إلى بُغْضِ النَّاسِ لَهُم؛ فَزَهَدُوهُمْ وَابْتَعَدُوا عَنْهُمْ.

9- تَركُ إفْشَاءِ السَّلامِ والبَشَاشَةِ:

قد يَمُرُّ الْبَعْضُ دُونَ أَن يُسَلِّمَ عَلَى الآخَرِ، أَوْ يُسَلِّمَ بِبُرُودٍ فَيُحْدِثُ ذَلِكَ فِي قَلْبِ المسلم شَيْئًا مِنَ الْحُزْنِ، وَقَدْ يَسْأَلُ نَفْسَهُ: لِمَ مَرَّ أَخِي وَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَيَّ؟ أَوْ لِمَ عَامَلَنِي بِهَذِهِ الْمَعَامَلَةِ الْبَارِدَةِ؟ وَقَدْ يَظُنُّ بِهِ سُوءًا؛ وما ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ الْأَوَّلَ أَهْمَلَ هَذِهِ الْمِيزَةَ الَّتِي اتَّصَفَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ دُونَ غَيْرِهِمْ، وهي: البَشَاشَةُ وإفْشَاءُ السَّلام، قال رسولُ اللهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتَّى تَحابُّوا، أوَلا أدُلُّكُمْ علَى شيءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُمْ؟ أفْشُوا السَّلامَ بيْنَكُمْ".[2757]

10- إهْمالُ الجَّارِ لجارِهِ، وقَطْعُ الأرحامِ:

[2755] صحيح البخاري (5143)، صحيح مسلم (1408، 2563) مفرقاً مطولاً باختلاف يسير.

[2756] رواه مسلم 2564

[2757] رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

عَن عَبد اللهِ بنِ عَمرِو بن العاصِ رَضِيَ الله عَنهما أَنَّه سَمِعَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: "إنَّ اللهَ يُبغِضُ الفُحْشَ والتَّفَحُّشَ، والذي نَفسُ مُحَمَّدٍ بيدِه، لا تَقومُ السَّاعةُ حَتَّى يُخَوَّنَ الأمينُ، ويُؤتَمَنَ الخائِنُ، حَتَّى يَظهَرَ الفُحشُ والتَّفَحُّشُ، وقَطيعةُ الأرحامِ، وسوءُ الجِوارِ".[2758]

وعَن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عَنه عَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "إنَّ بين يَدَيِ الساعةِ تَسليمَ الخاصَّةِ، وفُشُوَّ التِّجارةِ حَتَّى تُعِينَ الْمَرأةُ زَوجَها على التِّجارةِ، وقَطْعَ الأرحامِ، وشَهادةَ الزُّورِ، وكِتمانَ شَهادةِ الحَقِّ، وظُهورَ القَلَمِ".[2759]

قال الصَّنعانيُّ: "إنَّ قَطيعةَ الرَّحِمِ وسوءَ الخُلُقِ وسوءَ الجِوارِ سَبَبٌ لخَرابِ الدِّيارِ ونَقصِ الأعمارِ".[2760]

قال اللهُ تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ} [محمد: 22، 23].

قال ابنُ كثيرٍ: "هذا نَهْيٌ عَنِ الإفسادِ في الأرضِ عُمومًا، وعَن قَطْعِ الأرحامِ خُصوصًا، بَل قَد أمرَ اللهُ تعالى بالإصلاحِ في الأرضِ وصلةِ الأرحامِ، وهو الإحسانُ إلى الأقاربِ في الْمَقالِ والأفعالِ وبَذلِ الأموالِ. وقَد ورَدتِ الأحاديثُ الصِّحاحُ والحِسَانُ بذلك عَن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، من طُرُقٍ عَديدةٍ، ووُجوهٍ كثيرةٍ".[2761]

وَمَا أَكْثَرُ مَنْ يُقَلِّدُ الْكُفَّارَ خُصُوصًا فِي الْمُدنِ الْكَبِيرَةِ، فَمَعَ الْأَسَفِ انتَشَرَ هَذَا الْخُلُقُ البَغِيضُ هُنَا بَيْنَ أَكْثَرِيَّةِ الْأُخْوَةِ فِي أَلْمَانيَا، فَضْلًا عَنْ انتِشَارِهِ فِي مَجْتَمَعَاتِنَا الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى وَجْهِ العُمُومِ، وَما تَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ ضَرَرٍ بَالِغٍ جِدًّا عَلَى المجتَمعِ المسْلِمِ، فَلَا تَجِدُ مَنْ يَهْتَمُّ بِأَقَارِبِهِ أَوْ جِيرَانِهِ أو أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ الحُقُوقِ عَلَيْهِ، فَلَا هُوَ نَفَعَهُمْ بِنُصْحٍ، وَلَا هُوَ قَدَّم إِلَيْهِمْ يَدَ العَوْنِ إِنْ كَانُوا مِنْ ذَوِي الحَاجَاتِ وَالعِوَزِ.

11- التَّرْوِيجُ للشَّائِعَاتِ وَإِحْدَاثِ الْفُرْقَةِ:

إِنَّ الشَّائِعَاتِ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، وَتُوغِرُ قُلُوبَهُمْ، وَتُوجِدُ الشَّحْنَاءَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَهُمْ، فَلَا شَكَّ أَنَّ الْغِيبَةَ وَالنَّمِيمَةَ، وَنَقْلَ الأَحَادِيثِ، لَهُمْ بَالِغُ الأَثَرِ فِي إِحْدَاثِ الْفُرْقَةِ وَالْخِصَامِ بين صُفُوفِ الْمُؤْمِنِينَ.

المطلب الثالث عشر: سُبُلُ عِلَاجِ ظَاهِرَةِ ضَعْفِ رَابِطَةِ الْأُخُوَّةِ فِي اللهِ

بِاسْتِعْرَاضِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى اِخْتِلَافِ الْقُلُوبِ، وَعَدَمِ ائْتِلَافِهَا، يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَنْتِجَ مِنْ خِلَالِهَا الطُّرُقَ الَّتِي تُمَكِّنُ مِنْ عَوْدَةِ الْأُلْفَةِ وَالْأُخُوَّةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَعَلَّ مِنْ أَبْرَزِهَا مَا يَلِي:

1- أَنْ يُشْعِرَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ بِأَهَمِّيَّةِ هَذِهِ الْأُخُوَّةِ وَالْأُلْفَةِ: الَّتِي دَعَانَا إِلَيْهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَنَبَّهَنَا إِلَيْهَا نَبِيُّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ سَالِفًا، وَأَنْ يُذَكِّرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا نَفْسَهُ أَيْضًا بِمَا وَرَدَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ التَّقَاطُعِ وَالْهُجْرَانِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: "لا تَباغَضُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إخْوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ"[2762].

[2758] أخرجه مُطَولًا أحمد 6872 واللَّفظُ له، والطبراني 13/592 14507، والحاكم 253 باختلافٍ يسيرٍ. صحَّحه الحاكم، وصحَّحه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 6872، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج مسند أحمد 10/20، ووثق رواته البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة 8/100

[2759] أخرجه أحمد 3870 واللَّفظُ له، والطحاوي في شرح مشكل الآثار 1590، والحاكم 7043. صحَّح إسنادَه الحاكم، وأحمد شاكر في تخريج مسند أحمد 5/333، والألباني على شرط مسلم في سلسلة الأحاديث الصَّحيحة 647، وحسنه شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 3870

[2760] التنوير شرح الجامع الصغير 6/ 585.

[2761] تفسير ابن كثير 7/ 318.

[2762] أخرجه البخاري (6065)، ومسلم (2559)

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: "تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ (أَيْ عَدَاوَة) فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا"!

وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هَذَا، ويُعْرِضُ هَذَا، وخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ". [2763]

2- أَلَّا يُؤَدِّي الِاخْتِلَافُ فِي الرَّأْيِ إِلَى التَّقَاطُعِ وَالتَّبَاغُضِ وَالتَّنَافُرِ:

لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتِ الْمَسَائِلُ الْمُخْتَلَفُ فِيهَا مَسَائِلَ يَسْعَى فِيهَا الِاجْتِهَادُ، لِذَا يَجِبُ أَنْ تَتَّسِعَ لَهَا الصُّدُورُ، وَأَنْ يَسَعَنَا مَا وَسِعَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

3-الحِرْصُ عَلَى الإِصْلاحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمَيْنِ:

فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَهِدَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ أَنَّ الصُّلْحَ خَيْرٌ فَقَالَ: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} [النساء: 128]، وقال: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ} [النساء: 114]، وقال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: 10].

وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: "كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عليه صَدَقَةٌ، كُلَّ يومٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ..." الْحَدِيثِ.

وَإِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ صَادِقًا فِي إِرَادَةِ الصُّلْحِ، مُخْلِصًا فِيهَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوَفِّقُهُ لِذَلِكَ كَمَا قَالَ: {إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا} [النساء: 35].

فَيَا أَخِي فِي اللَّهِ، إِذَا عَلِمْتَ بِخِلَافٍ أَوْ خِصَامٍ بَيْنَ إِخْوَانِكَ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْعَ لِلصُّلْحِ بَيْنَهُمْ، وَاحْرِصْ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَالتَّأَلُّفِ بَيْنَ أَرْوَاحِهِمْ، وَلَوْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى قَوْلِ الْكَذِبِ كَمَا فِي الحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عُقْبَةَ بنِ أَبِي مُعَيْطٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ: "لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا ، أو يقول خيرًا".

مَا أَعْظَمَهَا مِن نِّعْمَةٍ أَن تَكُونَ – أَخِي الْكَرِيمُ – مِنْ أُولَئِكَ الْأَخْيَارِ الَّذِينَ حَبَّبَ اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبَهُمْ إِلَى عِبَادِهِ، فَرَفَعَ بِذَلِكَ قَدْرَهُمْ، وَأَعَزَّ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَأَشْهَدَ الْأَرْضَ عَلَى خُطَاهُمْ فِي طَاعَتِهِ وَمُحَبَّتِهِ.[2764]

4- الْحَذَرُ مِن سُوءِ الظَّنِّ: وَالْحِرْصُ عَلَى أَلَّا يُصْبِحَ الْمَرْءُ أَوْ يُمْسِي، أَوْ يَقُومَ، أَوْ يَقْعُدَ، أَوْ يَنَامَ وَفِي قَلْبِهِ سُوءُ ظَنٍّ عَلَى مُسْلِمٍ، وَلَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ لَا يَرْضَوْنَ السُّوءَ لِإِخْوَانِهِمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي قِصَّةِ حَادِثَةِ الْإِفْكِ: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور: 12].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: (هَلَّا أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا سَمِعْتُم مَّا قَالَ أَهْلُ الْإِفْكِ فِي عَائِشَةَ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا)، يَقُولُ: ظَنَنْتُمْ بِمَن قُذِفَ بِذَلِكَ مِنكُمْ خَيْرًا، وَلَمْ تَظُنُّوا بِهِ أَنَّهُ أَتَى الْفَاحِشَةَ، وَقَالَ (بِأَنفُسِهِمْ)؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ كُلَّهُم بِمَنْزِلَةِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ.[2765]

وَلْيَسْأَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا نَفْسَهُ: هَلْ يَرْضَى أَنْ تُسَاءَ بِهِ الظُّنُونُ؟! هَلْ يَرْضَى أَنْ يُحْمَلَ عَلَى أَبْشَعِ الظُّنُونِ، وَأَسْوَأِ الْمَحَامِلِ؟! فَإِنْ كَانَ الْوَاحِدُ مِنَّا لَا يَرْضَى سُوءَ الظَّنِّ لِنَفْسِهِ، فَكَيْفَ يَرْضَاهَا لِإِخْوَانِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ؟! وَعَلَى الْمُؤْمِنِ إِذَا وَسْوَسَ

[2763] أخرجه البخاري (6077)، ومسلم (2560)

[2764] يحسن الرجوع إلى محاضرة للأستاذ الشنقيطي – جزاه الله خيرًا – بعنوان تأليف القلوب.

[2765] نفسير الطبري 9/284

لَهُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَسِيءَ الظَّنَّ بِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَسْتَعْجِلَ فِي دَرْءِ هَذَا الشَّرِّ الْعَرِيضِ بِسُؤَالِهِ، وَمُنَاقَشَتِهِ عَمَّا دَارَ فِي نَفْسِهِ وَمُخَيِّلَتِهِ؛ لِتَزُولَ الْعِلَّةُ سَرِيعًا، وَيَقْطَعَ دَابِرَ الشَّيْطَانِ الَّذِي يُرِيدُ بَتْرَ الْأُخُوَّةِ، وَإِزَالَةَ الْأُلْفَةِ وَالْمَحَبَّةِ.

5- أَنْ يَحْرِصَ الْمُؤْمِنُ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يَنَامَ كُلَّ لَيْلَةٍ وَلَيْسَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ عَلَى مُسْلِمٍ:

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: "كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ" فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ: إِنِّي لَاحَيْتُ[2766] أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ. قَالَ نَعَمْ قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا. فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ ثَمَّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ: (يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ؛ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ".[2767]

6- أَنْ يُدْرِكَ الْمُسْلِمُ فَضْلَ التَّآخِي وَالتَّزَاوُرِ وَالْمَحَبَّةِ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ: فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: "إِذَا عَادَ الرَّجُلُ أَخَاهُ أَوْ زَارَهُ فِي اللَّهِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَبُوِّئْتَ مَنْزِلًا فِي الْجَنَّةِ".[2768]

وَعَنْهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ" فَذَكَرَهُمْ، وَذَكَرَ مِنْهُمْ: "رَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ، وَتَفَرَّقَا"[2769]، وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي".[2770]

7- الْعَفْوُ وَالتَّسَامُحُ وَدَفْعُ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ:

فَإِنَّ مِمَّا يُزِيلُ التَّبَاغُضَ وَالْأَحْقَادَ، وَيُجْلِبُ الْأُلْفَةَ وَالْأُخُوَّةَ، الصَّفْحَ عَنِ الْمُسِيءِ، وَالتَّسَامُحَ مَعَ الْمُخْطِئِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى: 43]، ويقول جل شأنه: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [المؤمنون: 96]، وَلَنَا فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ، وَمَثَلٌ أَعْلَىٰ فَقَدْ جَاءَهُ ذَاتَ يَوْمٍ يَهُودِيٌّ اسْمُهُ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ يَتَقَاضَاهُ دَيْنًا، فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ قَمِيصِهِ وَرِدَائِهِ وَالرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي جَنَازَةٍ مَعَ أَصْحَابِهِ، وَنَظَرَ الْيَهُودِيُّ إِلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِوَجْهٍ غَلِيظٍ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَلَا تَقْضِينِي حَقِّي؟.. وَأَغْلَظَ لَهُ فِي الْقَوْلِ، وَهُنَا غَضِبَ عُمَرُ بْنُ

[2766] لاَحَى صَاحِبَهُ: خَاصَمَهُ.

[2767] رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم، وذكره صاحب كنز العمال برقم 37116 ونسبه إلى ابن عساكر، وقال: ورجاله رجال الصحيح.

[2768] أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان عن أبي هريرة مرفوعًا.

[2769] أخرجه البخاري 660، ومسلم 1031

[2770] صحيح مسلم 2566

الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَنَظَرَ إِلَى زَيْدٍ وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ كَالْفَلَكِ الْمُسْتَدِيرِ ثُمَّ قَالَ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ، أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا أَسْمَعُ، وَتَفْعَلُ مَا أَرَى؟! فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَوْلَا مَا أَحَاذِرُ مِنْ لَوْمِهِ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي رَأْسَكَ. وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَنْظُرُ إِلَى عُمَرَ فِي سُكُونٍ وَتَأَدُّبٍ ثُمَّ قَالَ: "يَا عُمَرُ أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ، اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فَأَعْطِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ!".

فَهَذِهِ الْمُعَامَلَةُ الْعَظِيمَةُ حَتَّى مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ بِدَفْعِ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ كَانَ لَهَا الْأَثَرُ الْكَبِيرُ فِي تِلْكَ الْقُلُوبِ، فَلَقَدْ كَانَ مِنْ آثَارِ هَذِهِ الْمُعَامَلَةِ الْحَسَنَةِ مِنَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِذَلِكَ الْيَهُودِيِّ أَنَّهُ أَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَلِنَسْتَمِعْ إِلَى زُوَيْدٍ وَهُوَ يُحَدِّثُنَا عَنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ: لَمَّا فَعَلَ عُمَرُ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ إِعْطَائِهِ حَقَّهُ، بَلْ وَالزِّيَادَةَ عَلَيْهِ، يَقُولُ: فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الزِّيَادَةُ يَا عُمَرُ؟ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ أَزِيدَكَ مَكَانَ مَا نَقِمْتُكَ. قَالَ: قُلْتُ: أَتَعْرِفُنِي يَا عُمَرُ؟ قَالَ: لَا، مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ. قَالَ: الْحَبْرُ؟ قُلْتُ: الْحَبْرُ؟ قَالَ: فَمَا دَعَاكَ أَنْ فَعَلْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا فَعَلْتَ، وَقُلْتَ لَهُ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: يَا عُمَرُ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ إِلاَّ اثْنَيْنِ لَمْ أُخْبِرْهُمَا مِنْهُ: هَلْ يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلا حِلْمًا، فَقَدْ اخْتَبَرْتُهُمَا! فَأُشْهِدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَبِيًّا، وَأَشْهَدُ أَنَّ شِطْرَ مَالِي – فَإِنِّي أَكْثَرُهُمْ مَالًا – صَدَقَةٌ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ؛ فَإِنَّكَ لاَ تَسَعُهُمْ. قَالَ: قُلْتُ: أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ، فَرَجَعَ زَيْدُ (اليهودي) إِلَى رَسُولِ الله - صلى الله عليه وسلم - فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَآمَنَ بِهِ، وَصَدَّقَهُ!! فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

8- الْحَذَرُ مِنَ الْمَعَاصِي:

فَإِنَّ الِانْكِبَابَ عَلَى الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، وَالِانْشِغَالَ عَنْ أُمُورِ الدِّينِ كَالْعِلْمِ وَالْجِهَادِ وَالدَّعْوَةِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، هَذِهِ كُلُّهَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ تَنَافُرِ الْقُلُوبِ، وَتَبَاغُضِ النُّفُوسِ، وَتَجَنُّبِ الْمَعَاصِي، وَالْحَذَرِ مِنْهَا، وَالِاشْتِغَالِ بِأُمُورِ الدِّينِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهَا مِمَّا يُقَوِّي الرَّابِطَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤَلِّفُ الْقُلُوبَ، وَيُحَبِّبُ النُّفُوسَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

9- الْحِرْصُ عَلَى الْمُصَافَحَةِ وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ:

ثَبَتَ فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ، وَسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَمُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا"، وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ!".

10- إِظْهَارُ الْبِشْرِ وَالسُّرُورِ بِلِقَاءِ الْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ:

فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: "لا تَحقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ".

11- الحذرُ مِنَ الكِبْرِ وَالإِعْجَابِ بِالنَّفْسِ: وَالِاتِّصَافُ بِالتَّوَاضُعِ وَاللِّينِ، فَإِنَّ تَرْكَ الكِبْرِ وَالتَّرَفُّعِ عَلَى النَّاسِ، وَالتَّوَاضُعِ لَهُم مِمَّا يُحَبِّبُ النُّفُوسَ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ، وَيَجْمَعُهَا، وَيُؤَلِّفُ بَيْنَهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 215].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ"، وَكَانَ نَبِيُّنَا - صلى الله عليه وسلم - كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ إِذَا مَرَّ عَلَى الصِّبْيَانِ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ.

12- الحذرُ مِنَ الغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ: وَمُقَاوَمَةُ كُلِّ مَنْ يُحَاوِلُ نَشْرَهُمَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْإِنكَارُ عَلَيْهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - يُصَلِّي فَقَالَ: "أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخْشُمِ؟" فَقَالَ رَجُلٌ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللَّهَ وَلا رَسُولَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم -: "لاَ تَقُلْ ذَلِكَ! أَلاَ تَرَاهُ قَدْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ! وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ".

وَحَرِصَ سَلَفُ الْأُمَّةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَيْضًا عَلَى قَطْعِ هَذِهِ الْخِصَالِ الْخَبِيثَةِ فِي مَهْدِهَا، فَهَا هُوَ ذَا التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ الْحَسَنُ البصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَأْتِيهِ رَجُلٌ فَيَقُولُ لَهُ: إِنَّ فُلَانًا يَقُولُ فِيكَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ لَهُ الْحَسَنُ مُنْكِرًا مُوَبِّخًا: "أَمَا وَجَدَ الشَّيْطَانُ رَسُولًا غَيْرَك"!!

وَجَاءَ رَجُلٌ آخَرَ لِأَحَدِ السَّلَفِ فَقَالَ: فُلَانٌ يَقُولُ فِيكَ: كَذَا وَكَذَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: لأَغِيظَنَّ مِنْ أَمَرِهِ بِذَلِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي!

13- أَنْ يَحْذَرَ الْعَبْدُ مِنَ الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ:

وَأَنْ يَتَذَكَّرَ الإِثْمَ الَّذِي يَلْحَقُهُ مِنْ جَرّاءِ حَسَدِهِ، كَمَا قَالَ نَبِيُّنَا - صلى الله عليه وسلم -: "لا تَبَاغَضُوا، ولا تَحَاسَدُوا، ولا تَدَابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إِخْوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيالٍ".[2771]

14- الحذرُ مِنَ الاِسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَّةِ: وَمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِمَا مِنْ كَثْرَةِ الْمُزَاحِ الْخَارِجِ عَنِ الْقَدْرِ الْمُعْتَادِ، فَإِنَّ تَجْنُبَ هَذِهِ الأُمُورِ مِمَّا يُقَوِّي الرَّابِطَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِهْمَالَهَا مِمَّا يُؤْلِمُ الْقُلُوبَ، وَيُفَرِّقُهَا، وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَدْرِكَ خَطَرَ اِحْتِقَارِ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ وَانْتِقَاصِ قَدْرِهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ} [الحجرات: 11].

وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: "بِحَسْبِ امْرِيءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمُ".

15- مُحَاوَلَةُ تَصْحِيحِ الْخَطَأِ دُونَ جَرْحِ الْأَحَاسِيسِ وَالْمَشَاعِرِ:

وَهَذَا الْأَمْرُ يُخَصُّ بِهِ مَنْ يَتَوَلَّوْنَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّوْجِيهِ وَالإِرْشَادِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ وَالدُّعَاةِ الْمُخْلِصِينَ وَنَحْوِهِمْ، فَإِنَّ الْمَرْءَ أَحْيَانًا يُؤَدِّي بِهِ الاندِفَاعُ وَالتَّحَمُّسُ لِتَصْحِيحِ الْخَطَأِ إِلَى جَرْحِ مَشَاعِرِ الْمُخْطِئِ، وَيُنَبِّهُهُ بِأُسْلُوبٍ فِيهِ شِدَّةٌ وَقَسْوَةٌ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى الْكَرَاهِيَةِ وَالتَّبَاغُضِ، وَلَرُبَّمَا كَانَتْ لِهَذِهِ الْقَسْوَةِ أَثَرٌ عَكْسِيٌّ بِأَنَّ تَجْعَلَ الْمُخْطِئَ يَسْتَمِرُّ وَيَتَمَادَى فِي خَطَئِهِ، وَلَوْ بُيِّنَ لَهُ خَطَؤُهُ بِأُسْلُوبٍ مُهَذَّبٍ رَصِينٍ لَتَقَبَّلَ النَّقْدَ بِصَدْرٍ رَحْبٍ، وَسَمَاحَةِ بَالٍ، وَلَنَا فِي رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، فَذَلِكَ الأَعْرَابِيُّ لَمَّا بَالَ فِي مَسْجِدِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَزَجَرَهُ الصَّحَابَةُ نَهَاهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ ذَلِكَ، فَتَرَكُوهُ حَتَّى قَضَى بَوْلَهُ ثُمَّ دَعَاهُ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ لَهُ: "إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا

[2771] صحيح البخاري 6076

تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ"[2772]، وَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَشَنَّهُ عَلَيْهِ، أَيْ صَبَّهُ، فَانْظُرْ إِلَى رِفقِهِ - صلى الله عليه وسلم - بِأُمَّتِهِ، وَتَأَمَّلَ تَعْلِيمَهُ لِلْمُخْطِئِ مِنْ غَيْرِ تَوْبِيخٍ وَلَا تَعْنِيفٍ!!.

وَلَقَدْ كَانَ لِسَلَفِنَا الْكِرَامِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي نَقْدِ الرِّجَالِ، وَتَصْحِيحِ أَخْطَائِهِمْ مَوَاقِفُ مُشَرِّفَةٌ، تُبَصِّرُ السَّالِكِينَ، وَتُنِيرُ الطَّرِيقَ لِلصَّالِحِينَ، فَهَا هُوَ ذَا الْإِمَامُ هَارُونَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْجَمَالُ يَقُولُ: "جَاءَنِي أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ بِاللَّيْلِ فَدَقَّ عَلَيَّ الْبَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: أَنَا أَحْمَدُ، فَبَادَرْتُ، وَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، فَمَسَّانِي وَمسِّيتُهُ، فَقُلْتُ: حَاجَةَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ؟ (أيك مَا حَاجَتُكَ؟) قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: شَغَلْتَ الْيَوْمَ قَلْبِي!!

فَقُلْتُ: بِمَاذَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟

قَالَ: جُزتُ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَأَنْتَ قَاعِدٌ تُحَدِّثُ النَّاسَ فِي الفَيْءِ (أي: الظِّلِّ) وَالنَّاسُ فِي الشَّمْسِ بِأَيْدِيهِمُ الْأَقْلَامُ وَالدَّفَاتِرُ، لَا تَفْعَلُ مَرَّةً أُخْرَى! إِذَا قَعَدْتَ فَاقْعُدْ مَعَ النَّاسِ.

اللَّهُ أَكْبَرُ.. انظُرْ – رَحِمَكَ اللَّهُ – كَيْفَ كَانَتِ النَّصِيحَةُ!

إِنَّ الَّذِي رَوَى الْحَادِثَةَ لَيْسَ هُوَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، إِنَّمَا هُوَ ذَلِكَ الْعَالِمُ الَّذِي تَأَثَّرَ بِنَصِيحَةِ الْإِمَامِ، وَانظُرْ إِلَى ذَلِكَ السُّلُوكِ الطَّيِّبِ، وَالْمَنْهَجِ السَّلِيمِ فِي مُعَالَجَةِ الْخَطَأِ، يَزُورُهُ بِاللَّيْلِ، ثُمَّ يُبْدِي مَشَاعِرَهُ وَحِرْصَهُ عَلَيْهِ، قائلًا: شَغَلْتَ قَلْبِي! ولَمْ يَقُلْ: أَسَأْتَ لِلنَّاسِ، وَلَمْ يُعَنِّفْ عَلَيْهِ بِالْقَوْلِ[2773]، فَمَا أَحْرَى الْعُلَمَاءَ وَالدُّعَاةَ أَنْ يَسْلُكُوا هَذَا الْمَسْلَكَ الْحَسَنَ، وَيَنْهَجُوا ذَلِكَ الْمَنْهَجَ الْقَوِيمَ، وَيَنْظُرُوا إِلَى الْمُخْطِئِ نَظْرَةَ إِشْفَاقٍ وَرَحْمَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَدْعَى لِقَبُولِهِ النَّصِيحَةِ، وَالِامْتِثَالِ لَهَا، بَلْ وَمَحَبَّةِ صَاحِبِهَا، وَذِكْرِهِ بِالْخَيْرِ.

16- الدُّعَاءُ:

إِنَّ اللَّجُوءَ إِلَى اللهِ بِالدُّعَاءِ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ؛ وَلِذَلِكَ حَثَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يَجِيءُ بَعْدَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَلِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ سُبْحَانَهُ أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ – تَعَالَى أَنْ يَنْزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمُ الْغِلَّ وَالْبُغْضَ لِلَّذِينَ آمَنُوا عَلَى الْإِطْلَاقِ بِقَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهِ: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

المطلب الرابع عشر: بعضُ صُورِ الأُخوَّةِ والوِحْدَةِ والتَّعَاوُنِ والقُوَّةِ

1- أمر الله إبراهيم -عليه السلام- أن يرفع جدران الكعبة، ويجدد بناءها، فقام إبراهيم -عليه السلام- على الفور لينفذ أمر الله، وطلب من ابنه إسماعيل -عليه السلام- أن يعاونه في بناء الكعبة، فأطاع إسماعيل أباه، وتعاونا معًا حتى تم البناء، قال تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: 127].

2- أرسل الله موسى -عليه السلام- إلى فرعون؛ يدعوه إلى عبادة الله وحده، فطلب موسى -عليه السلام- من الله -سبحانه- أن يرسل معه أخاه هارون؛ ليعاونه ويقف بجانبه في دعوته، فقال: {وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} [طه: 29-32] فاستجاب الله تعالى لطلب موسى، وأيده بأخيه هارون، فتعاونا في الدعوة إلى الله؛ حتى مكنهم الله من النصر على فرعون وجنوده.

[2772] صحيح البخاري 6128

[2773] فن التعامل مع الناس، للأستاذ عبد الله الخاطر رحمه الله ص 30، 31.

3- أعطى الله -سبحانه- ذا القرنين مُلكًا عظيمًا؛ فكان يطوف الأرض كلها من مشرقها إلى مغربها، وقد مكَّن الله له في الأرض، وأعطاه القوة والسلطان، فكان يحكم بالعدل، ويطبق أوامر الله.

وكان في الأرض قوم مفسدون هم يأجوج ومأجوج، يهاجمون جيرانهم، فينهبون أموالهم، ويظلمونهم ظلمًا شديدًا؛ فاستغاث هؤلاء الضعفاء المظلومون بذي القرنين، وطلبوا منه أن يعينهم على إقامة سد عظيم، يحول بينهم وبين يأجوج ومأجوج، {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا} [الكهف: 94].

فطلب منهم ذو القرنين أن يتحدوا جميعًا، وأن يكونوا يدًا واحدة؛ لأن بناء السد يحتاج إلى مجهود عظيم، فعليهم أن يُنَقِّبُوا ويبحثوا في الصحراء والجبال، حتى يُحْضِرُوا حديدًا كثيرًا لإقامة السد، قال تعالى: {قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} [الكهف: 95]، وتعاون الناس جميعًا حتى جمعوا قدرًا عظيمًا من الحديد بلغ ارتفاعه طول الجبال، وصهروا هذا الحديد، وجعلوه سدًّا عظيمًا يحميهم من هؤلاء المفسدين.

4- كان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم حينما هاجر إلى المدينة هو بناء المسجد، فتعاون الصحابة مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى هيئوا المكان، وأحضروا الحجارة والنخيل التي تم بها بناء المسجد، فكانوا يدًا واحدة حتى تم لهم البناء.

5- كان الصحابة يدًا واحدة في حروبهم مع الكفار، فَفِي غَزْوةِ الأَحْزابِ اجتمع عليهم الكفار من كل مكان، وأحاطوا بالمدينة، فأشار سلمان الفارسي -رضي الله عنه- على النبي صلى الله عليه وسلم بحفر خندق عظيم حول المدينة، حتى لا يستطيع الكفار اقتحامه، وقام المسلمون جميعًا بحفر الخندق حتى أتمُّوه، وفُوجِئَ به المشركون، ونصر الله المسلمين على أعدائهم.

6- يُحْكَى أنَّ شيخًا كبيرًا جمع أولاده، وأعطاهم حزمة من الحطب، وطلب منهم أن يكسروها، فحاول كل واحد منهم كسر الحزمة لكنهم لم يستطيعوا، فأخذ الأب الحزمة وفكها إلى أعواد كثيرة، وأعطى كل واحد من أبنائه عودًا، وطلب منه أن يكسره، فكسره بسهولة.

ومما سبق يتضح أنه لا يمكن للفرد أن يقوم بكل أعباء هذه الحياة منفردًا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَن كانَ معهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ به علَى مَن لا ظَهْرَ له، وَمَن كانَ له فَضْلٌ مِن زَادٍ، فَلْيَعُدْ به علَى مَن لا زَادَ له".[2774]

كما أنه حثَّ صلى الله عليه وسلم على معونة الخدم، فقال: "ولا تُكلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإنْ كَلَّفتُموهم فأعينُوهم".[2775]

والله سبحانه خير معين، فالمسلم يلجأ إلى ربه دائمًا يطلب منه النصرة والمعونة في جميع شئونه، ويبتهل إليه سبحانه في كل صلاة مستعينًا به، فيقول: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5].

وقد جعل الله فطرة في جميع مخلوقاته، حتى في أصغرهم حجمًا، كالنحل والنمل وغيرها من الحشرات، فنرى هذه المخلوقات تتحد وتتعاون في جمع طعامها، وتتحد كذلك في صد أعدائها، والإنسان أولى بذلك؛ لما ميزه الله به من عقل وفكر.

المطلب الخامس عشر: المرءُ قليلٌ بنفسِهِ كثيرٌ بإخوانِهِ

حينما يتعاون المسلم مع أخيه؛ يصلا إلى الهدف بسرعة حيث يترتب على تعاونِهِمَا اختصار المزيد من الوقت والجهد، وقد قيل في الحكمة المأثورة: "المرءُ قليلٌ بنفسِهِ كثيرٌ بإخوانِهِ".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم ، وتَراحُمِهِم ، وتعاطُفِهِمْ . مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ

[2774] مسلم 1728

[2775] أخرجه البخاري (30)، ومسلم (1661) باختلاف يسير مطولاً.

تدَاعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى".[2776]
وقال صلى الله عليه وسلم: "المُؤْمِنَ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يشدُّ بَعضُهُ بعضًا".[2777]
والمسلم إذا كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.
وقال صلى الله عليه وسلم: "وعَوْنُكَ الضعيفَ بِفَضْلِ قُوَّتِكَ صدقة".[2778]

المطلب السادس عشر: التعاون المرفوض

لقد نهى الله -تعالى- عن التعاون على الشر لما في ذلك من فساد كبير، فقال تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة: 2].
والمسلمُ إذَا رأى أحدًا يرتكبُ معصيةً؛ يجب عليه أولًا ألَّا يسخر منه، أو يستهزئ به؛ حتى لا يُعِينَ الشيطانَ عليه، ثم وَجَبَ عليه بعد ذلك أن يأخذَ بيده، وينصحَهُ بالحُسْنَى.
عن أبي الدَّرْداء رَضِيَ اللهُ عنهُ أنَّه كان يقول: "إذا تغيَّرَ أحَدُ إخْوَانِكُمْ وأَذْنَبَ فلاَ تتركُوهُ ولا تَنبُذُوهُ، وعِظُوهُ أحسَنَ الوَعظِ، واصبِرُوا عليهِ؛ فإنَّ الأخَ يَعْوَجُّ تارةً ويستقيمَ أُخرى."
قال ابن المُعْتَزّ رحمه الله: "خَيْرُ الإخوانِ مَنْ يَنْسَى خَطَأَكَ فَلَا يُعَيِّرُكَ به، وَيَنْسَى معروفَهُ مَعَكَ فلا يَمُنَّ به عليك".

المطلب السابع عشر: أَعْلِنْ المحَبَّةَ وَالمودَّةَ لِلْآخَرِينَ

إذا أحببتَ أحدًا أو كانتْ له منزلةٌ خاصة في نفسك فأخبره بذلك؛ فإنه سهمٌ يصيبُ القلبَ، وَيأسرُ النفسَ؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أحبَّ أحدُكم أخاه فليُعْلِمْهُ إيَّاه"[2779]، وزاد في رواية مرسلة: "فإنَّهُ أبْقَى في الأُلْفةِ، وأثْبَتُ في المَوَدَّةِ" [2780].
ولقد علَّمَنا النبي صلى الله عليه وسلم كيف ننشُرُ الوُدَّ، ونبتعِدُ عن الشَّرِّ والتَّشاحُنِ، ومن ذلك: ما جاء في هذا الحديثِ، حيثُ أخبرَ المِقدامُ بنُ مَعْدي كرِبَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: (إذا أحَبَّ أحدُكم أخاهُ)، أي: أخاهُ في الدِّينِ وفي الإسلامِ، (فلْيُعْلِمْه إيَّاه)، أي: فلْيُعَرِّفْه أنَّه يُحِبُّه؛ ليُحِبَّه الآخَرُ، أو ليَدْعُوَه ذلك لمَحبَّةِ اللهِ له، فيكونا من المُتحابَّينِ في اللهِ، وهذا من الحَثِّ على التَّودُّدِ والتَّآلفِ؛ وذلك أنَّه إذا أخبرَ أخاهُ المُسلِمَ أنَّه يُحِبُّه، استمالَ قلْبَه واجتلَبَ به وُدَّه، وإذا علِمَ منه ذلك قَبِلَ نُصْحَه، ولم يَرُدَّ عليه قولَه في عَيبٍ إنْ أخبرَه به في نفْسِه، فيحصُلُ بذلك الائتلافُ، ويَزُولُ الاختِلافُ بين المُؤمنينَ.

وَلِأَنَّ المجْتَمَعَاتِ إما أن تكون مجتمعاتٌ مليئةٌ بالحبِّ والإخَاءِ والائتلافِ، أَوْ مُجْتَمَعَاتٌ مليئةٌ بالفُرقةِ والتَّناحُرِ والاخْتِلافِ؛ فَقَدْ حَرَصَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على تكوينِ مجتمعٍ متآلِفٍ؛ فآخَى بين المهاجرينَ والأنصارَ، حتى عُرِفَ أنَّ فُلانًا صاحبُ فلانٍ، وبلغَ ذلك الحبُّ أن يوضعَ المتآخون في قبرٍ واحدٍ بعد استِشْهَادِهِمَا في إحدى الغزواتِ، بل أكد صلى الله

[2776] أخرجه البخاري (6011)، ومسلم (2586) واللفظ له.
[2777] أخرجه البخاري (6026)، ومسلم (2585)
[2778] أخرجه الترمذي (1956) بنحوه، وأحمد (21363) واللفظ له
[2779] أخرجه الترمذي 2392، وأحمد 17210 واللفظ له، والنسائي في السنن الكبرى 10034
[2780] صحيح الجامع 280

عليه وسلم على وسائل نشر هذه المحبة، ومن ذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه: "لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتَّى تَحابُّوا، أوَلا أدُلُّكُمْ علَى شيءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُمْ؟ أفْشُوا السَّلامَ بيْنَكُمْ".[2781]

إنَّ إعلانَ المحبةِ والمودةِ من أعظمِ الطرقِ للتأثير على القلوب، لكن بشرط أن تكون المحبةُ لله، وليس لغرضٍ من أغراضِ الدنيا كمنصبٍ أو مالٍ، أو شهرةٍ ووسامةٍ وجمالٍ، ولذلك كُلُّ أُخُوَةٍ لغيرِ اللهِ هباءٌ، وهي يومَ القيامةِ عَدَاءٌ، قال تعالى: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: 67]،

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "قِيلَ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: الرَّجُلُ يُحِبُّ القَوْمَ ولَمَّا يَلْحَقْ بهِمْ؟ قالَ: المَرْءُ مع مَن أحَبَّ"[2782]، لقد كانَ أصْحابُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُحِبُّ بعضُهمْ بَعضًا حبًّا شَديدًا، وكانَ بعضُهمْ أنشَطَ في الطَّاعاتِ مِن بعضٍ، وكَانوا يُشفِقونَ مِن تَفاوُتِ العَملِ بيْنَهم أنْ يُفرِّقَ بيْنَهُمْ في الأجْرِ، فيَفترِقوا عنْ بعضِهم في الجنَّةِ.

وَفي هَذا الحديثِ يُخبِرُ أبو موسى الأشعريُّ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ بعضَ الصَّحابةِ قالَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "الرَّجلُ يُحِبُّ القومَ ولَمَّا يَلحقْ بِهِمْ"، أي: إنَّ الرَّجلَ يُحِبُّ قومًا صالِحينَ مُجتهِدينَ في العبادةِ ولَكِنَّهُ لا يَستَطيعُ أنْ يَعمَلَ بِمِثلِ عَملِهِمْ مِن أعمالِ البِرِّ والخَيرِ، فَماذا يَفعَلُ يا رَسولَ اللهِ؟ فأجابَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا: "المرءُ معَ مَنْ أحبَّ"، أيْ: لا تَخَفْ ولا تَجزَعْ؛ فلنْ يَضُرَّكَ سَبْقُهم إيَّاكَ ما دُمتَ تُحِبُّهم وإنْ كنتَ مُقصِّرًا عنْهُمْ في فِعلِ الخَيراتِ؛ فَمَن أحَبَّ الصَّالحينَ أُلحِقَ بهم في المكانِ، لكنَّه ليس مِثلَهم في الكرامةِ مِن كلِّ وجهٍ.

وعلى العبدِ ألَّا يغترَّ بحُبِّ الصَّالحين، ويركَنَ إلى ذلك دون أن يجتَهِدَ في اتِّباعِ آثارِهم؛ فإنَّه لن يكونَ صادِقًا في حُبِّه حتى يتَّبِعَ آثارَهم، ويأخُذَ بهَدْيِهم، ويقتَدِيَ بسُنَّتِهم، حريصًا أن يكونَ منهم، ويَسلُكَ سَبيلَهم، ويأخُذَ طَريقَتَهم، وإن كان مُقَصِّرًا في العَمَلِ.

إنَّ تَعلُّقَ قُلوبِ الأشخاصِ بعضِها ببَعضٍ في الدُّنيا يكونُ سَببًا في جَمْعِهم معًا في الآخِرَةِ؛ فلْيَختَرِ المسلمُ لنَفْسِه مَن أحبَّ أنْ يُحشَرَ معه.

ولا شك أَنَّ المحبةَ عملٌ جليلٌ من أعمال القلوب، وأعلى وأشرف درجاتُها هو حبُّ الله تعالى، وهذه منزلة السابقين المخلَصين كما قال الله تعالى عنهم: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: 165]، وأهلها يجدون لها سعادة وطمأنينة لا تُوصف، كما يدل عليه الحديث الصحيح: "ثلاث مَن كُنَّ فيه وَجَدَ بهن حلاوة الإيمانِ: أن يكُون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يَكْره أن يعُود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يَكْره أن يُقذف في النار". هكذا هو المؤمن؛ محبته سامية عالية شريفة جليلة؛ ولذلك فَمَن أَحبَّ لله تعالى فإنَّ محبته مِن أعظم ما يقربه إلى الله، فالله جل شأنه شكور يعطي المتقرِّب إليه أعظمَ مما بَذَلَ.

ومن شكره سبحانه لهذا العبد الذي أحبه وأحب رسله وأحب الخير وأحب أهل الخير أن يجعله في المنازل العالية وإنْ قَصُرَ عمله، كما قال سبحانه: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69]، هؤلاء هم أعلى الخليقة منزلة؛ النبيُّون والصدِّيقون والشهداء والصالحون، فيُلْحَقُ بهم المرء ببركة ما قام في قلبه مِن حبه لهم تبعًا لحبه لله ولشرعه جل وعلا.

وهذا الحديث المتقدم: (المرء مع مَن أحبَّ) هو مِن جوامع كَلِم النبي صلى الله عليه وسلم، فهذه العبارة مع أنها مقتصرة على ثلاث كلمات، لكن تحتها معانٍ غزيرة، ودلائلُ جليلة؛ ولذا قال العلماء: "إنَّ مما تضمَّنه هذا الحديث التحذيرُ الشديد مِن محبة أهل الفسوق والعصيان، فإنَّ المحبةَ دليلٌ على قوةِ اتصالٍ بمن يحبُّه هذا الْمُحِبُّ، ومناسبته لأخلاقه واقتدائه به،

[2781] أخرجه مسلم (54)، وأبو داود (5193)، والترمذي (2688)، وابن ماجه (68) واللفظ له، وأحمد (9709)

[2782] رواه البخاري (6170)

وهو نوع مِن سوء الأدب مع الله؛ لأنَّ اللهَ لا يحبُّ أهلَ العصيانِ، ولا أهلَ الفسوقِ والكفرانِ، ولا مَن يحادُّه بالعصيان، فيأتي هذا الإنسان ليحب هؤلاء المحادِّين لله، فأي سوء أدب يحصُل مِن هذا الإنسان!

ألا ترون في حياة الناس كيف أنَّ الإنسانَ إذا كان محبًّا لأحدٍ يقدِّره؛ ممن له عليه فضل ومعروف؛ من والدَين أو قرابة أو رئيس أو غيرهم ممن يحبهم ويجلُّهم، ألا ترون أنه يجافي مَن يجافيه محبوبه ومقدِّره هذا؟ وهذا مِن مقتضى الأدب معه؛ فلا يليقُ أن تُحِبَّ إنسانًا ثم تتقربُ إلى مَن يُعادِيهِ ومَن يُسِيءُ إليه، فهذا مقتضى العقل والرشد والأدب.

وأعظم هذا العقل، وأعظم هذا الرشد والأدب، أن يكون هذا موقفك مع من يحادُّ الله ورسوله، فالذين يستعلِنون بالعصيان، ويُبارزون الله بالكفران واجب عليك أن تخلِّصَ قلبَكَ مِن حبِّهِم، بل واجبٌ عليك أن يستقرَّ في قلبِكَ بُغضُهُم ومجافَاتُهُم.

ولذلك تكونُ النَّدَامَةَ الكُبْرَى يومَ القيامةِ لأولئك الذي أحبُّوا مَن حادُّوا الله ورسوله، كما أخبر الله في كتابه الكريم: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: 27 - 29].

وليس المقصود في هذا المقام الحبُّ الدنيويُّ الفطري الذي باعِثُه قرابة أو صداقة أو مقتضًى مِن مقتضى التعايش، الذي يؤدِّي بك إلى إسداء الخير لهذا الذي ارتبطتَ به ارتباطًا فطريًا أو اجتماعيًا، فالرسول عليه الصلاة والسلام كان عمُّه أبو طالب برغم عدم إقراره بالتوحيد، لكنه كان محبًّا له، وكان يخدمه صلى الله عليه وسلم، وكان أيضًا له جارٌ يهودي فلم يمنعه أن يزوره لمَّا مَرِضَ، وكان في جواره في المدينة مِن اليهود مَن تعامَل معهم فباع واشترى وقبِل الهدية، هذه التعاملات المعيشية لا تَمنَعُ الشريعةُ منها، وها هو ذَا رسولُنا صلى الله عليه وسلم يقُومُ بها على هذا الوجه العظيم الشريف، ولكنَّ الذي تَمنَع منه الشريعة أن يكون في قلب المسلم محبةٌ لهؤلاء باعتبار ما هم عليه من الأخلاق والاعتقاد، ومتابعتُهم على ما هم فيه مِن الانحرافِ إمَّا حضورًا لمجالسهم التي يُعصى اللهُ فيها أو استماعًا لما يتلفظون به من العصيان أيًّا كان نوع هذا الكلام.

المطلب الثامن عشر: الأخوة في الله طَرَفي نَقِيض

وَتَجْدُرُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ المشاعرَ والعواطفَ والأحاسيسَ، النَّاسُ مِنْهَا على طَرَفي نقيض، فهناك من يتعامل مع إخوانِه بأسلوبٍ جامِدٍ جافٍ مجردٍ من المشاعرِ والعواطفِ، وهناك من يتعامل معهم بأسلوب عاطفي حساس رقيق ربما وصل لدرجة العشق والإعجاب والتعلق بالأشخاص، والموازنة بين العقل والعاطفة يختلف بحسب الأحوال والأشخاص، وهو مطلب لا يستطيعه كل أحد لكنه فضل الله يؤتيه من يشاء.

المطلب التاسع عشر: المحبَّةُ نِعْمَةٌ والتَّوَاصُلُ أُنْسٌ

إِنَّ الْمَحَبَّةَ فِي اللَّهِ، نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَالتَّوَاصُلَ مَعَ الْأَحِبَّةِ أُنْس وَمَسَرَّةٌ، هُمْ لِلْعَيْنِ قُرَّةٌ، فَسَلَامٌ عَلَى مَنْ دَامَ فِي الْقَلْبِ ذِكْرَاهُمْ، وَإِنْ غَابُوا عَنِ الْعَيْنِ قُلْنَا يَا رَبِّ احْفَظْهُمْ؛ وَلِذَلِكَ أَلَيْسَ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ بِمَكَانٍ أَنْ نَسْعَى لِتَحْقِيقِ أُخُوَّةٍ قَائِمَةٍ عَلَى التَّحَابِّ وَالتَّآلُفِ فِي اللَّهِ؛ لِنَحْظَى بِهَذَا الْفَضْلِ؟!

أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى أَنْ يُؤَلِّفَ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَيُصْلِحَ ذَاتَ بَيْنِنَا، ويجَعَلَنَا مِنَ الْمُتَحَابِّينَ بِجَلَالِهِ، وأَنْ نَكُونَ صُحْبَةٌ يَأْخُذُ بَعْضُنَا بِيَدِ بَعْضٍ وَنَدْخُلَ الْجَنَّةَ.

كَمَا أَسْأَلُهُ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَنَا، وَأَنْ يَهْدِينَا إِلَى سُبُلِ السَّلَامِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ.

المبحث الثاني والعشرون: التواضع ولين الجانب

التواضُعُ، إنَّهُ خُلُقُ النُّبلاءِ ومِنْ أَخَصِّ خِصَالِ المؤمنينَ المتَّقِينَ، ومِنْ كَرِيمِ سَجَايا وشِيمِ الصَّالِحِين، إنَّه بَشاشةٌ، وطَلاقَةُ وَجْهٍ، هُدُوءٌ وَسَكِينَةٌ ووَقَارٌ واتِّزَانٌ، وَحُسْنُ مُعَامَلَةٍ تَسْتَهْوِي القلوبَ. بِتَمَامِهِ وَصَفَائِهِ، يَتَمَيَّزُ الْخَبِيثُ مِنَ الطَّيِّبِ، وَالصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَبِهِ يُرْفَعُ العبدُ، فَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ تَعَالَى إلا رَفَعَهُ. صَاحِبُهُ رَقِيقُ الْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ ولا ذِلَّةٍ، جَوَادٌ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ.

المطلبُ الأَوَّلُ: مَعْنَى التَّوَاضُعُ

- **معنى التَّواضُعِ لُغةً:**

التَّواضُعُ: التَّذَلُّلُ؛ يقالُ: وَضَع فلانٌ نفسَه وَضعًا، ووُضوعًا بالضَّمِّ، وضَعةً، بالفَتحِ: أي: أذلَّها. وتواضَع الرَّجُلُ: إذا تذلَّل، وقيل: ذلَّ وتخاشَعَ.[2783]

- **معنى التَّواضُعِ اصطلاحًا:**

التَّواضُعُ هو: تَركُ التَّرَؤُّسِ، وإظهارُ الخُمولِ، وكراهيةُ التَّعظيمِ، والزِّيادةُ في الإكرامِ، وأن يتجنَّبَ الإنسانُ المباهاةَ بما فيه من الفضائلِ، والمفاخرةَ بالجاهِ والمالِ، وأن يتحرَّزَ من الإعجابِ والكِبرِ.[2784]

وقيل هو: رِضا الإنسانِ بمنزلةٍ دونِ ما يستحقُّه فضلُه ومنزلتُه.[2785]

وقيل هو: إظهارُ التَّنزُّلِ عن المرتبةِ لمن يرادُ تعظيمُه، وقيل: هو تعظيمُ مَن فوقَه لفضلِه.[2786]

إنَّ التَّواضُعَ هُوَ احترامُ الْجَمِيعِ وعَدَمُ التَّعَالِي وَالتَّكَبُّرِ عَلَيْهِمْ مَهْمَا كَانُوا فُقَرَاءَ أَوْ ضُعَفَاءَ أَوْ أَقَلَّ مَنْزِلَةً، وَلَقَدْ أَمَرَنَا اللَّهُ -تَعَالَى- بِهَذَا الْخُلُقِ الكَرِيمِ، فَقَالَ: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 215]، أي تواضع للناس جميعًا، وقال تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا * وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: 83].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ التَّواضُعِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ التَّواضُعِ والتَّذلُّلِ:**

- إنَّ التَّذَلُّلَ، هوَ: إظهارُ العَجزِ عن مقاومةِ من يتذلَّلُ له.

- أَمَّا التَّواضُعُ، هُوَ: إظهارُ قدرةِ من يتواضعُ له، سواءٌ كان ذا قدرةٍ على المتواضعِ أو لا؛ ألا ترى أنَّه يُقالُ: العبدُ متواضِعٌ لخَدَمِه، أي: يعامِلُهم معاملةَ مَن لهم عليه قدرةٌ، ولا يُقالُ: يتذلَّلُ لهم؛ لأنَّ التَّذلُّلَ: إظهارُ العجزِ عن مقاومةِ المتذَلَّلِ له، وأنَّه قاهرٌ، وليست هذه صفةَ المَلِكِ مع خَدَمِه.[2787]

- **الفَرْقُ بَيْنَ التَّواضُعِ والخُشوعِ:**

- التَّواضُعُ: يعتبرُ بالأخلاقِ والأفعالِ الظَّاهرةِ والباطنةِ.

[2783] العين للفراهيدي 2/196، تاج العروس لمرتضى الزبيدي .22/343

[2784] تهذيب الأخلاق للجاحظ ص: 25

[2785] الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص: 299

[2786] فتح الباري لابن حجر 11/341

[2787] الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص: 122

- والخشوعُ: يُقالُ باعتبارِ الجوارحِ؛ ولذلك قيل: إذا تواضَع القلبُ خشَعتِ الجوارحُ.[2788]

● **الفَرْقُ بَيْنَ التَّواضُعِ والمهانةِ:**

- إنَّ التَّواضُعَ يتولَّدُ مِنَ بَيْنِ العِلمِ باللَّهِ سُبحانَه ومَعرفةِ أسمائِه وصفاتِه ونعوتِ جلالِه، وتعظيمِه ومحبَّتِه وإجلالِه، ومن معرفتِه بنفسِه وتفاصيلِها وعيوبِ عَمَلِها وآفاتِها، فيتولَّدُ من بَيْنِ ذلك كلِّه خُلقٌ هو التَّواضُعُ، وهو انكسارُ القلبِ للهِ، وخفضُ جناحِ الذُّلِّ، والرَّحمةُ بعبادِه، فلا يرى له على أحدٍ فَضلًا، ولا يرى له عِندَ أحدٍ حقًّا، بل يرى الفضلَ للنَّاسِ عليه، والحقوقَ لهم قِبَلَه، وهذا خُلُقٌ إنَّما يعطيه اللَّهُ عزَّ وجَلَّ من يحبُّه ويكرِمُه ويقرِّبُه.

- وأمَّا المهانةُ: فهي الدَّناءةُ والخِسَّةُ، وبَذلُ النَّفسِ وابتذالُها في نَيلِ حظوظِها وشهواتِها... واللَّهُ سُبحانَه يُحِبُّ التَّواضُعَ، ويُبْغِضُ الضَّعةَ والمهانةَ.[2789]

● **الفَرْقُ بَيْنَ التَّواضُعِ والضَّعةِ:**

(التَّواضُعُ): رِضَا الإنسانِ بمَنزلةٍ دونَ ما تستحِقُّه منزلتُه، (والضَّعَةُ): وضعُ الإنسانِ نفسَه في مكانٍ يُزري به.[2790]

المطلب الثالث: التَّواضُعُ وَسَطٌ بَيْنَ خُلُقَيْنِ ذميمَيْنِ

- قال ابنُ القَيِّمِ: "كُلُّ خُلُقٍ محمودٍ مُكتَنَفٌ بخُلُقَيْنِ ذميمَيْنِ، وهو وَسَطٌ بَينَهما، وطَرَفاه خُلُقانِ ذَميمانِ، كالجُودِ الذي يكتَنِفُه خُلُقَا البُخلِ والتَّبذيرِ، والتَّواضُعِ الذي يكتنِفُه خُلُقَا الذُّلِّ والمهانةِ، والكِبرِ والعُلُوِّ؛ فإنَّ النَّفسَ متى انحرَفَت عن التَّوسُّطِ انحرَفَت إلى أحَدِ الخُلُقَيْنِ الذَّميمَيْنِ ولا بُدَّ؛ فإذا انحرَفَت عن خُلُقِ التَّواضُعِ انحرَفَت إمَّا إلى كِبرٍ وعُلُوٍّ، وإمَّا إلى ذُلٍّ ومَهانةٍ وحَقارةٍ".[2791]

فالتَّواضُعُ "وَسَطٌ بَيْنَ الكِبرِ والضَّعةِ، فالضَّعةُ: وَضعُ الإنسانِ نفسَه مكانًا يُزري به بتضييعِ حَقِّه. والكِبرُ: رفعُ نفسِه فوقَ قَدْرِه".[2792]

والميلُ عن الوَسَطِ إلى طَرَفِ النُّقصانِ وهو (التَّملُّقُ) أهوَنُ من الميلِ إلى طَرَفِ الزِّيادةِ (بالتَّكبُّرِ)، كما أنَّ الميلَ إلى طَرَفِ (التَّبذيرِ) في المالِ أحمدُ عِندَ النَّاسِ من الميلِ إلى طَرَفِ (البخلِ)؛ فنهايةُ التَّبذيرِ ونهايةُ البُخلِ مذمومانِ، وأحدُهما أفحَشُ، وكذلك نهايةُ التَّكبُّرِ ونهايةُ التَّنقُّصِ والتَّذلُّلِ مذمومان وأحدُهما أقبحُ من الآخَرِ.

المطلبُ الرابع: التَّرغِيبُ في التَّواضعِ والحثُّ عليه

أ. خُلُقُ التَّوَاضُعِ فِي نُصُوصِ القُرآنِ الكَرِيمِ:

حَثَّنَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى التَّوَاضُعِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَسَوْفَ نَذْكُرُ بَعْضَ هَذِهِ الْآيَاتِ:

1- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: 63]، قال ابنُ القَيِّمِ: "أي: يمشون في سكينةٍ ووقارٍ، متواضِعين غيرَ أشِرينَ ولا مَرِحينَ ولا متكبِّرينَ، قال الحسَنُ: عُلَماءُ حُلَماءُ، وقال محمَّدُ بنُ الحنفيَّةِ: أصحابُ وقارٍ وَعِفَّةٍ، لا يَسفَهون، وإن سُفِه عليهم حَلَموا، والهَونُ -بالفتحِ- في اللُّغةِ: الرِّفقُ واللِّينُ، والهُونُ -بالضَّمِّ-: الهوانُ؛ فالمفتوحُ منه: صفةُ أهلِ الإيمانِ، والمضمومُ: صِفةُ أهلِ الكُفرانِ، وجزاؤهم من اللَّهِ النِّيرانُ".[2793]

[2788] فيض القدير للمناوي 277 /4

[2789] الروح ص: 234.

[2790] بريقة محمودية للخادمي.231 /2

[2791] مدارج السالكين 297 – 295 /2

[2792] الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص: 299

[2793] مدارج السالكين 3/108

2- "وقال تعالى مخاطبًا رسولَه، ممتنًّا عليه وعلى المُؤمنين فيما ألان به قلبَه على أمَّتِه المتَّبعين لأمرِه، التَّاركِين لزجرِه، وأطاب لهم لفظَه، {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159]"[2794].

- ولقد أَمَرَ اللَّهُ سُبحانَه وتعالى رسولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُلينَ جانبَه للمُؤمِنين، وأن يتواضَعَ لهم، فقال: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: 88].

قال القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآيةِ: "أي: ألِنْ جانبَك لمن آمن بك، وتواضَعْ لهم ".[2795]

3- ووصف اللَّهُ سُبحانَه وتعالى أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم يُظهِرون العطفَ والحُنُوَّ والتَّواضُعَ للمُؤمِنين، ويُظهِرون الشِّدَّةَ والغِلظةَ والتَّرفُّعَ على الكافرين؛ حيث قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: 54].

قال ابنُ كثيرٍ: "هذه صفاتُ المُؤمِنين الكُمَّلِ أن يكونَ أحدُهم متواضعًا لأخيه ووليِّه، متعزِّزًا على خَصمِه وعدوِّه، كما قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: 29]".[2796]

وقال ابنُ القيِّمِ: "لَمَّا كان الذُّلُّ منهم ذُلَّ رحمةٍ وعَطفٍ وشَفَقةٍ وإخباتٍ، عدَّاه بأداةِ على؛ تضمينًا لمعاني هذه الأفعالِ، فإنَّه لم يُرِدْ به ذُلَّ الهوانِ الذي صاحبُه ذليلٌ، وإنَّما هو ذلُّ اللِّينِ والانقيادِ الذي صاحبُه ذَلولٌ، فالمُؤمِنُ ذلولٌ".[2797]

4- وقال سبحانه :{وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} [الإسراء: 37].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: "قوله تعالى: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) هذا نهي عن الخيلاء، وأمر بالتواضع".[2798]

5- وقال جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: 54].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: "قوله تعالى: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) أي: يرأفون بالمؤمنين، ويرحمونهم، ويلينون لهم".[2799]

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: "قوله تعالى: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه".[2800]

6- وقال جل شأنه :{فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} [الحج: 34].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: "المخبت: المتواضع الخاشع من المؤمنين".[2801]

7- وقال سبحانه: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: 83].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: "يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض؛ أي: ترفُّعًا على خلق الله وتعاظمًا عليهم وتجبُّرًا بهم، ولا فسادًا فيهم".[2802]

8- وقال الله عز وجل :{فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: 32].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: "قوله تعالى: (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) أي: لا تمدحوها ولا تثنوا عليها، فإنه أبعد من الرياء وأقرب

[2794] تفسير القرآن العظيم لابن كثير 2/148

[2795] الجامع لأحكام القرآن 10/56

[2796] تفسير القرآن العظيم 3/136

[2797] مدارج السالكين 2/327

[2798] تفسير القرطبي، ج10، ص260

[2799] المصدر السابق، جـ 6، صـ220

[2800] تفسير ابن كثير، جـ 3، صـ136

[2801] تفسير القرطبي؛ جـ12، صـ 58

[2802] تفسير ابن كثير، جـ6، صـ258

إلى الخشوع".[2803]

ب. خلق التواضع في السنة النبوية:

رغَّب الإسلامُ في التَّواضُعِ وحثَّ عليه ابتغاءَ مَرضاتِ اللَّهِ، وأنَّ من تواضَع جازاه اللَّهُ على تواضعِه بالرِّفعةِ، وقد ورَدَت نصوصٌ من السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ تدُلُّ على ذلك وأن نبينا صلى الله عليه وسلم حثنا على التواضع في كثير من أحاديثه، وسوف نذكر بعضًا منها:

1- قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ما نقَصَت صَدَقةٌ من مالٍ، وما زاد اللَّهُ عبدًا بعفوٍ إلَّا عِزًّا، وما تواضَعَ أحَدٌ للهِ إلَّا رفعه اللَّهُ".[2804]

قال القاضي عِياضٌ في قولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم (وما تواضَع أحدٌ للهِ إلَّا رفعه اللَّهُ): "فيه وجهانِ: أحدُهما: أنَّ اللَّهَ تعالى يمنحُه ذلك في الدُّنيا جزاءً على تواضُعِه له، وأنَّ تواضُعَه يُثبِتُ له في القلوبِ محبَّةً ومكانةً وعِزَّةً، والثَّاني: أن يكونَ ذلك ثوابَه في الآخِرةِ على تواضُعِه".[2805]

2- وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ اللَّهَ أوحى إليَّ أن تواضَعوا حتَّى لا يَفخَرَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغيَ أحدٌ على أحدٍ".[2806]

يعني: "أن يتواضَعَ كُلُّ واحدٍ للآخَرِ، ولا يترفَّعَ عليه، بل يجعَلُه مِثلَه أو يُكرِمُه أكثَرَ، وكان من عادةِ السَّلَفِ رحمهم اللَّهُ: أنَّ الإنسانَ منهم يجعَلُ من هو أصغرُ منه مثلَ ابنِه، ومن هو أكبرُ مثلَ أبيه، ومن هو مثلُه مثلَ أخيه، فينظُرُ إلى من هو أكبَرُ منه نظرةَ إكرامٍ وإجلالٍ، وإلى مَن هو دونَه نظرةَ إشفاقٍ ورحمةٍ، وإلى مَن هو مثلُه نظرةَ مساواةٍ، فلا يبغي أحدٌ على أحدٍ، وهذا من الأمورِ التي يجبُ على الإنسانِ أن يتَّصِفَ بها، أي بالتَّواضُعِ للهِ عزَّ وجَلَّ ولإخوانِه من المسلِمين".[2807]

3- وعن حارثةَ بنِ وَهبٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّه سمع النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: "ألا أخبِرُكم بأهلِ الجنَّةِ؟ قالوا: بلى، قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كُلُّ ضعيفٍ متضَعَّفٍ، لو أقسَمَ على اللَّهِ لأبرَّه. ثمَّ قال: ألا أخبِرُكم بأهلِ النَّارِ؟ قالوا: بلى. قال: كُلُّ عُتُلٍّ[2808] جوَّاظٍ[2809] مُستكبِرٍ".[2810]

قال القاضي عِياضٌ: "وقولُه في أهلِ الجنَّةِ: (كُلُّ ضعيفٍ متضَعَّفٍ) هو صفةُ نفيِ الكبرياءِ والجَبَروتِ التي هي صفةُ أهلِ النَّارِ، ومَدحُ التَّواضُعِ والخُمولِ، والتَّذلُّلِ للهِ عزَّ وجَلَّ، وحَضٌّ عليه".[2811]

4- عن مُصعَبِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: رأى سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّ له فضلًا على مَن دونَه، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "هل تُنصَرون وتُرزَقون إلَّا بضُعَفائِكم؟".[2812]

[2803] تفسير القرطبي، جـ 17، صـ110

[2804] أخرجه مسلم 2588 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[2805] إكمال المعلم شرح صحيح مسلم/ للقاضي عياض 59/8

[2806] أخرجه مسلم 2865 مطوَّلًا

[2807] شرح رياض الصالحين لابن عثيمين 3/524

[2808] عُتُلٍ: هو الجافي الشَّديدُ الخصومةِ بالباطِلِ، وقيل: الجافي الفَظُّ الغليظُ. يُنظَر: شرح مسلم للنووي17/188

[2809] الجوَّاظُ: الجَموعُ المنوعُ، وقيل: كثيرُ اللَّحمِ المختالُ في مِشيتِه، وقيل: القصيرُ البَطينُ، وقيل: الفاجرُ. يُنظَر: شرح مسلم للنووي 17/188

[2810] أخرجه البخاري 4918، ومسلم 2853 واللفظ له.

[2811] إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض 8/383

[2812] أخرجه البخاري 2896

وقال ابنُ معاذٍ: "حُبُّك الفقراءَ من أخلاقِ المُرسَلين، وإيثارُك مجالَستَهم من علاماتِ الصَّالحين، وفِرارُك منهم من علاماتِ المُنافِقين".[2813]

5- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "لو دُعِيتُ إلى ذِراعٍ أو كُراعٍ[2814] لأجَبْتُ، ولو أهدِيَ إليَّ ذِراعٌ أو كُراعٌ لقَبِلتُ".[2815]

قال ابنُ بطَّالٍ: "قال المُهَلَّبُ: معناه التَّواضُعُ وتركُ التَّكبُّرِ، والاستئلافُ بقَبولِ اليسيرِ والإجابةِ إليه؛ لأنَّ الهَدِيَّةَ تؤكِّدُ المحبَّةَ، وكذلك الدَّعوةُ إلى الطَّعامِ لا تبعَثُ إلى ذلك إلَّا صحَّت محبَّةُ الدَّاعي وسُرورُه بأكلِ المدعوِّ إليه من طعامِه والتَّحبُّبِ إليه بالمؤاكلةِ، وتوكيدِ الذِّمامِ معه بها؛ فلذلك حضَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على قَبولِ التَّافِهِ من الهديَّةِ، وإجابةِ النَّذرِ من الطَّعامِ".[2816]

وقال المظهريُّ: "هذا إظهارُ التَّواضُعِ، وتحريضُ النَّاسِ على التَّواضُعِ، وإجابةُ من يدعوهم إلى ضيافةٍ".[2817]

6- وذات يوم "قال له رجلٌ: يا محمَّدُ، يا سَيِّدَنا وابنَ سَيِّدِنا، وخيرَنا وابنَ خَيرِنا، فقال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا أيُّها النَّاسُ عليكم بتقواكم، لا يَستهوينَّكم الشَّيطانُ، أنا محمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ عبدُ اللَّهِ ورسولُه، واللَّهِ ما أحِبُّ أن ترفعوني فوقَ منزلتي التي أنزلني اللَّهُ".[2818]

7- عَنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ :"لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ"[2819].

في هذا الحديثِ يُرشِدُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمَّتَه ألَّا يُبالِغوا في مَدْحِه، وألَّا يُنزِلوه عنْ مَنزلتِه، فيَقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "لا تُطْروني كما أَطْرَتِ النَّصارى ابنَ مريمَ"، والإطراءُ هو: الإفراطُ في المَديحِ ومُجاوَزةُ الحدِّ فيه، وقيل: هو المديحُ بالباطلِ والكذِبُ فيه، والمعنى: لا تَمْدَحوني بالباطلِ وبما ليس لي مِن الصِّفاتِ، كما وصَفَتِ النَّصارى عِيسى ابنَ مَريمَ بما لم يكُنْ فيه، فزعَموا أنَّه ابنُ اللهِ، فكَفَروا بذلك وضلُّوا.

ثمَّ أمَرَهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولوا عنه: إنَّه عبْدُ اللهِ ورَسولُه، وجمَعَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْن وَصْفِه بالعُبوديَّةِ للهِ ووَصْفِه بالرِّسالةِ؛ دَفْعًا للإفراطِ والتَّفريطِ؛ فدَفَعَ الإفراطَ والغُلوَّ فيه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بكَونِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عبْدَ اللهِ تعالَى، ودفَعَ التَّقصيرَ والتَّفريطَ في حقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَرْكِ مُتابَعتِه، وعدَمِ الأخْذِ بسُنَّتِه، والسَّيرِ على نَهْجِه الَّذي أرْسَلَه اللهُ به؛ بكَونِه رَسولَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

فلا غُلوَّ في حقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولا قُصورَ، ووَصْفُه ومَدْحُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما فضَّله اللهُ به وشرَّفه؛ حقٌّ واجبٌ على كلِّ مَن بَعَثه اللهُ إليه مِن خَلْقِه.

8- عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من ترك اللِّباس تواضُعًا لله وهو

[2813] فيض القدير للمناوي 1/109

[2814] الكُراعُ من الدَّابَّةِ: ما دونَ الكعبِ. يُنظَر: فتح الباري لابن حجر 199 /5

[2815] أخرجه البخاري.2568

[2816] شرح صحيح البخاري لابن بطال 7/ 290

[2817] المفاتيح في شرح المصابيح 2/ 509

[2818] رواه أحمد 12551 واللفظ له، والنسائي في السنن الكبرى 10077 من حديثِ أنس رَضِيَ اللهُ عنه .صحَّحه الألباني في غاية المرام 127، والوادعي على شرط مسلم في الصحيح المسند 132، وصحَّح إسنادَه محمد ابن عبد الهادي في الصارم المنكي 459 وقال: على شرط مسلم، وأحمد شاكر في عمدة التفسير 1/611، وشعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 12551وقال: على شرط مسلم

[2819] أخرجه البخاري 3445

يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها"، ومعنى قوله: (حلل الإيمان): يعني ما يعطى أهل الإيمان من حلل، أي: ثياب الجنة.[2820]
قوله: (من ترك اللباس) أي: لبس الثياب الحسنة المرتفعة القيمة.
قوله: (تواضعًا لله) أي: لا ليقال إنه متواضع أو زاهد ونحوه.[2821]

وقال الإمام ابن عثيمين رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث: "هذا يعني أن الإنسان إذا كان بين أناس متوسطي الحال لا يستطيعون اللِّباس الرفيع، فتواضع وصار يلبس مثلهم؛ لئلا تنكسر قلوبهم، ولئلا يفخر عليهم، فإنه ينال هذا الأجر العظيم، أَمَّا إذا كان بين أناس قد أنعم عليهم، ويلبسون الثياب الرفيعة لكنها غير محرمة، فإن الأفضل أن يلبس مثلهم؛ لأن الله تعالى جميل يحب الجمال.[2822]

ت. من أقوال السلف الصالح في التواضع:

- قال قَتادةُ: "مَن أُعطِيَ مالًا أو جَمالًا وثيابًا وعِلمًا، ثمَّ لم يتواضَعْ، كان عليه وَبالًا يومَ القيامةِ".[2823]

- وقال ابنُ القَيِّمِ: "من علاماتِ السَّعادةِ والفلاحِ أنَّ العبدَ كُلَّما زِيدَ في عِلمِه زِيدَ في تواضُعِه ورحمتِه، وكلَّما زِيدَ في عَمَلِه زِيدَ في خوفِه وحَذَرِه، وكلَّما زِيدَ في عُمُرِه نَقَص من حرصِه، وكلَّما زِيدَ في مالِه زِيدَ في سخائِه وبَذلِه، وكلَّما زِيدَ في قَدْرِه وجاهِه زِيدَ في قُربِه من النَّاسِ وقضاءِ حوائِجِهم والتَّواضُعِ لهم...
وعلاماتُ الشَّقاوةِ أنَّه كلَّما زِيدَ في عِلمِه زِيدَ في كِبرِه وتِيهِه، وكلَّما زِيدَ في عَمَلِه زِيدَ في فَخرِه واحتقارِه للنَّاسِ وحُسنِ ظَنِّه بنفسِه، وكلَّما زِيدَ في عُمُرِه زِيدَ في حِرصِه، وكلَّما زِيدَ في مالِه زِيدَ في بخلِه وإمساكِه، وكلَّما زِيدَ في قَدْرِه وجاهِه زِيدَ في كِبرِه وتِيهِه، وهذه الأمورُ ابتلاءٌ من اللَّهِ وامتحانٌ يَبْتَلِي بها عبادَه فيَسعَدُ بها أقوامٌ ويشقى بها أقوامٌ".[2824]

- وقال إبراهيمُ بنُ شَيبانَ: "الشَّرَفُ في التَّواضُعِ، والعِزُّ في التَّقوى، والحريَّةُ في القناعةِ".[2825]

- وقال ذو النُّونِ المصريُّ: "علامةُ السَّعادةِ ثلاثٌ: متى ما زِيدَ في عُمُرِه نَقَص مِن حِرصِه، ومتى زِيدَ في مالِه زِيدَ في سخائِه، ومتى زِيدَ في قَدرِه زِيدَ في تواضُعِه، وعلامةُ الشَّقاءِ ثلاثٌ: متى ما زِيدَ في عُمُرِه زِيدَ في حرصِه، ومتى ما زِيدَ في مالِه زِيدَ في بخلِه، ومتى ما زِيدَ في قَدرِه زِيدَ في تجبُّرِه وقَهرِه وتكَبُّرِه".[2826]

- وقال ابنُ الحاجِّ: "من أراد الرِّفعةَ فليتواضَعْ للهِ تعالى؛ فإنَّ العزَّةَ لا تقعُ إلَّا بقَدرِ النُّزولِ؛ ألا ترى أنَّ الماءَ لَمَّا نزَل إلى أصلِ الشَّجَرةِ صَعِد إلى أعلاها، فكأنَّ سائلًا سألَه: ما صَعِد بك هاهنا -أعني في رأسِ الشَّجَرةِ- وأنت قد نزَلْتَ تحتَ أصلِها؟ فكأنَّ لسانِ حالِه يقولُ: من تواضَع للهِ رفَعَه اللَّهُ".[2827]

- قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين والشرف في التواضع".

- قال عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه: "من تواضع لله تخشُّعًا، رفعه الله يوم القيامة، ومن تطاول تعظُّمًا، وضعه الله

[2820] صحيح سنن الترمذي2017.
[2821] تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي؛ للمباركفوري، جـ7، صـ 154
[2822] شرح رياض الصالحين؛ لابن عثيمين، جـ4، صـ 317
[2823] رواه ابنُ أبي الدنيا في التواضع والخمول 90
[2824] الفوائد ص: 155
[2825] الرسالة القشيرية للقشيري 1/ 279
[2826] لباب الآداب لأسامة بن منقذ 1/ 255
[2827] المدخل 2/ 120

يوم القيامة".[2828]

- قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: "لا يبلغ عبد ذرى الإيمان حتى يكون التواضُع أحبَّ إليه من الشرف".[2829]

- قال سلمان الفارسي رضي الله عنه لجرير بن عبد الله رضي الله عنه: "يا جرير تواضع لله؛ فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة".[2830]

قال لقمان الحكيم رحمه الله لابنه: "يا بني، تواضع للحق تكن أعقل الناس".[2831]

- سئل يوسف بن أسباط رحمه الله: "ما غاية التواضع؟ قال: ألَّا تلقى أحدًا إلا رأيت له الفضل عليك".[2832]

- قال إبراهيم بن الأشعث رحمه الله: سألت الفضيل عن التواضع، قال: "التواضع أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته منه، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته منه".[2833]

- قال كعب الأحبار رحمه الله: "ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله، وتواضع بها لله، إلا أعطاه نفعها في الدنيا، ويرفع الله له بها درجةً في الآخرة، وما أنعم الله على العبد من نعمة في الدنيا فلم يشكر لله، ولم يتواضع بها لله، إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقًا من النار، يعذبه إن شاء، أو يتجاوز عنه".[2834]

- قال الحسن البصري رحمه الله: "التواضع أن تخرج من منزلك فلا تلق مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلًا".[2835]

- قال يحيى بن الحكم رحمه الله لعبد الملك بن مروان رحمه الله: "أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وترك النصرة عن قوة".[2836]

- قال الشافعي رحمه الله: "التواضع من أخلاق الكرام، والتكبُّر من شيم أخلاق اللئام".[2837]

- قال الشافعي رحمه الله: "أرفع الناس قدرًا مَنْ لا يرى قدره، وأكبر الناس فضلًا من لا يرى فضله".[2838]

- سُئِل الفُضَيلُ عن التَّواضُعِ، فقال: يخضَعُ للحَقِّ، وينقادُ له، ويقبَلُه ممَّن قاله".

- قال ذو النُّونِ المِصريُّ: "ثلاثةٌ من أعلامِ التَّواضُعِ: تصغيرُ النَّفسِ معرفةً بالعَيبِ، وتعظيمُ النَّاسِ حُرمةً للتَّوحيدِ، وقَبولُ الحَقِّ والنَّصيحةِ من كُلِّ أحدٍ"

- قال عون بن عبد الله رحمه الله: كان يقال: "من كان في صورة حسنة، وموضع لا يشينه، ووسَّع عليه في الرزق، ثم تواضع لله عز وجل، كان من خالص الله عز وجل".[2839]

[2828] الزهد، لوكيع بن الجراح، ص 467

[2829] الزهد، عبدالله بن المبارك، ج 2، ص 52

[2830] الزهد؛ لوكيع بن الجراح، ص 465

[2831] غذاء الألباب؛ محمد بن أحمد السفاريني، ج 2 ص232

[2832] سير أعلام النبلاء؛ للذهبي، ج9، ص 170

[2833] التواضع؛ لابن أبي الدنيا، ص117

[2834] الشكر؛ لابن أبي الدنيا، ص64

[2835] التواضع؛ لابن أبي الدنيا، ص152

[2836] تاريخ دمشق؛ لابن عساكر، ج37 ص144

[2837] شعب الإيمان؛ للبيهقي، ج10، ص 515

[2838] المصدر السابق، ج10، ص 515

[2839] التواضع؛ لابن أبي الدنيا، ص 112

- قال يحيى بن كثير رحمه الله: "رأس التواضع ثلاث: أن ترضى بالدون من شرف المجلس، وأن تبدأ من لقيته بالسلام، وأن تكره المدحة والسمعة والرياء بالبر".[2840]

- التواضع يكسب السلامة، ويورث الألفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصد، وثمرة التواضع المحبة كما أن ثمرة القناعة الراحة.[2841]

- قال عدي بن أرطأة لإياس بن معاوية: إنّك لسريع المشية قال: ذلك أبعد من الكِبْر، وأسرع في الحاجة.

المطلب الخَامِسُ: نماذجٌ في التَّواضِعِ

أولا: نماذجٌ منْ تواضُعِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم:

1- جاء عَديّ بن حاتم الطائيّ إلى المدينة المنورة وهو لَمَّا يُسلم بعدُ، وحضر مجلسَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم وحَوْلَهُ أصحَابُه بعد انصرافِهِم من إحدى الغزواتِ يلبسُون الدروعَ السوابغَ، فراعتْهُ هيبةُ الصحابةِ واحترامِهِم لنبيّهم الكريم صلى الله عليه وسلم، وبينما هو كذلك جاءتْ امرأةٌ فقيرةٌ من إماء المدينة إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وقالت له: يا رسول الله، أريد أن أُسِرَّ لك شيئًا، فقال لها: انظري في أي سكك المدينة أخلو لكِ، ثم نهض معها ووقف طويلًا يستمع إليها ثم عاد، فلما رأى عُدَيٌّ هذا، تملكتْه روعةُ هذه النزعة الإنسانية، فأسلَم.

إن عديًّا لم يكن رجلًا عاديًّا من الناس، فهو ابن حاتم الطائي ذي الصيت المعروف، والشهرة المدوية، وقد كان زعيمًا لقومه، وهرب حين حاقت بهم الهزيمة إلى الشام، ثم عاد بعد ذلك، وهو إلى جانب هذا رجل ذو دين فلم يكن وثنيًّا كما كان أكثر العرب، بل كان رجلًا نصرانيًّا عنده علم ومعرفة، إضافة إلى مركز سياسي وقبَلي مرموق.

ومع هذا يتوقف عديٌّ متعجبًا مبهورًا مأخوذًا باحترام الصحابة الشديد للرسول صلى الله عليه وسلم، لا ريب أن منظرهم كان يبعث على الهيبة الشديدة، فهم لعودتهم القريبة من الجهاد يلبسون دروعهم السابغات، وهم حول نبيهم الكريم صلى الله عليه وسلم، كأُسْد الشرى يفدونه بالأرواح والمُهج، لكن هذا الموقف المهيب، كان ينطوي على نزعة إنسانية عميقة في غاية الرحمة والبساطة والتواضع.

من أجل ذلك لم تتردَّد الأَمَة المسكينة الفقيرة في قدومها للرسول صلى الله عليه وسلم لتُسِرَّ إليه شيئًا خاصًّا بها، لقد اقتحمت أسوار الهيبة الصادقة العميقة بنوازع الرحمة التي تعرِفها أصلًا في هذا الدين، وخُلقًا كريمًا في نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام؛ لذلك لم ترجع إذ شاهدت الرجال ودروعهم السوابغ، ولم ترجع للموقف المهيب الذي شهِده عديٌّ، بل اقتحمت ذلك كله، فقد ارتقى الإسلام بإنسانيتها، وعلَّمها أن لها حقًّا، وعلَّمها أن بوسعها الوصول إلى أعظم رجل في الإسلام، بل في الدنيا كلها، وهو رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام.

ينبغي ألا تفوتنا الدلالة الضخمة في حادثة هذه المرأة المسكينة، على عمق شعورها بإنسانيتها وكرامتها، وحقوقها المحفوظة، ومسئولية الحاكم إزاء ذلك كله.

إن ذلك بدون ريبٍ بعض عطاء الموجة التحررية الكبرى التي بثّها الإسلام في نفوس الناس، ورفعهم إلى آفاقها المنيفة الكريمة الشماء، فاستشعروا بها عِظمَ مكانتهم والمنزلة التي يستحقون، أما ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع هذه المخلوقة المسكينة، فهو الأمر العادي المتوقع الذي يليق به، والذي ينسجم مع إعداد الله تعالى له؛ ليكون القدوة الخالدة إلى يوم الدين.

[2840] المصدر السابق، ص154

[2841] روضة العقلاء؛ لابن حبان، ص61

كان رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جمَّ التَّواضُعِ، لا يعتريه كِبرٌ ولا بطَرٌ على رفعةِ قَدْرِه وعُلُوِّ منزلتِه، يخفِضُ جناحَه للمُؤمِنين ولا يتعاظَمُ عليهم، ويجلِسُ بَيْنَهم كواحدٍ منهم، ولا يُعرَفُ مجلِسُه من مجلسِ أصحابِه؛ لأنَّه كان يجلِسُ حيثُ ينتهي به المجلِسُ، ويجلِسُ بَيْنَ ظهرانيهم فيجيءُ الغريبُ فلا يدري أيُّهم هو حتى يسألَ عنه، فقد كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مُتواضِعًا وقَريبًا مِن النَّاسِ، يَمْشي بيْن أصحابهِ كواحدٍ منهم، ويَجلِسُ بيْنهم، ويُعلِّمُهم أُمورَ الدِّينِ ويَعِظُهم ويُرشِدُهم، ويَسمَعُ مِن الصَّغيرِ والكبيرِ، ومِن الحُرِّ والعبدِ، ويَرُدُّ على كلِّ شَخصٍ بجَوابِ مَسألَتِه بما يُناسِبُه ويَنفَعُه في دِينِه ودُنياهُ وآخِرتِه ولذلك استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتواضعه ولين جانبه أن يكسب قلوب الناس من حوله.

2- ذكر أنس رضي الله عنه صورة من صور تواضعه صلى الله عليه وسلم فقال: "أنَّ امْرَأَةً كانَ في عَقْلِهَا شيءٌ، فَقالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ لي إلَيْكَ حَاجَةً، فَقالَ: يا أُمَّ فُلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ، فَخَلَا معهَا في بَعْضِ الطُّرُقِ، حتَّى فَرَغَتْ مِن حَاجَتِهَا".[2842] وكان يقول صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الله أوْحَى إلَيَّ أنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أحَدٌ عَلَى أحَدٍ، وَلاَ يَبْغِي أحَدٌ عَلَى أحَدٍ"[2843].[2844]

3- لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة دخلها خافضًا رأسه تواضعًا لله رب العالمين، حتى إن رأسه صلى الله عليه وسلم كادت أن تمس ظهر ناقته، ثم عفا صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة وسامحهم وقال لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"[2845].

وكان ذلك بعد جهاد قرابة ربع قرن، حيث وقف موقف المنتصر ممن حارَبه وكذَب عليه وظلَمه، تذكَّر دعوته ومبادئها التي يقف بها اليوم غالبًا ظافرًا كما وقف بها من قبل مستخفيًا مطاردًا، وأعلن هذه المبادئ التي طالَما نادى بها من قبل انتصاره النهائي، فوقف على باب الكعبة وقريش ذات الكبرياء والعَنْجَهِيَّة، والفوارق الاجتماعية الظالمة تسمعه إذ يقول: "يا معشر قريش، إن الله أذهب عنكم نَخوةَ الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء، الناس من آدم وآدم خُلِق من تراب"، ثم تلا قول الله عز وجل :{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13]، وبهذا الإعلان الضخم الكبير استقرت كرامة الإنسان، وعُرفت منزلته، وأُعلِنت حقوقه، وتأصَّلت فكرةُ تكريمه وتقديمه، ورعايته واحترامه، أصلًا ضخمًا راشدًا من أصول هذا الدين[2846].

4- وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من تواضُعِه يتفقَّدُ أحوالَ أصحابِه ويقومُ بزيارتِهم؛ فعن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عنهما: "أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذُكِر له صومي، فدخل عليَّ فألقيتُ له وسادةً من أَدَمٍ[2847] حشوُها ليفٌ، فجلس على الأرضِ، وصارت الوسادةُ بيني وبينه، فقال: أما يكفيك من كُلِّ شهرٍ ثلاثةُ أيَّامٍ؟ قال: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، قال: خمسًا، قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، قال: سبعًا. قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، قال: تسعًا، قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، قال: إحدى عشرةَ، ثمَّ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا صومَ فوقَ صومِ داودَ عليه السَّلامُ شَطرَ الدَّهرِ، صُمْ يومًا وأفطِرْ يومًا".[2848]

"إنَّا واللَّهِ قد صَحِبنا رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ في السَّفرِ والحضَرِ وكانَ يعودُ مَرضانا ويتبعُ جَنائزَنا ويغزو معَنا

[2842] صحيح مسلم 2326

[2843] صحيح مسلم 2865

[2844] الإبداع في التعريف بالإسلام، أ. د. ناجي بن إبراهيم العرفج، ص 8-9

[2845] سيرة ابن هشام

[2846] (تواضع النبي صلى الله عليه وسلم) مقال في موقع طريق الإسلام.

[2847] أدم: الجلد المدبوغ، يُنظَر: فتح الباري لابن حجر 10/313

[2848] أخرجه البخاري 1980 واللفظ له، ومسلم 1159

ويُواسينا بالقليلِ والكثيرِ وإنَّ ناسًا يُعلِّموني بِهِ عسَى ألَّا يكونَ أحدُهُم رآهُ قطُّ".[2849]

5- كان النبي صلى الله عليه وسلم متواضعا مع أهله، والنماذج التي تدل على ذلك كثيرة، منها: أن السيدة عائشة -رضي الله عنها- سُئِلَتْ: "ما كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَصْنَعُ في بَيْتِهِ؟ قالَتْ: كانَ يَكونُ في مِهْنَةِ أهْلِهِ - تَعْنِي خِدْمَةَ أهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إلى الصَّلَاةِ"[2850]، فكان يحلب الشاة، ويخيط النعل، ويُرَقِّع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويشتري الشيء من السوق بنفسه، ويحمله بيديه، ويبدأ من يقابله بالسلام ويصافحه، ولا يفرق في ذلك بين صغير وكبير أو أسود وأحمر أو حر وعبد.

6- وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أعظم الناس تواضعًا، ومن تواضعه ما ثبت عن أنس - رضي الله عنه - أنه قال: كانت ناقة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - تُسمّى العضباء وكانت لا تُسْبَقُ، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها فاشتد ذلك على المسلمين وقالوا سُبِقَتِ العضباء، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "إن حقًا على الله أنْ لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه".[2851]

7- كان النبي صلى الله عليه وسلم متواضعًا في دعوته للناس، وقد وصف أبو مسعود - رضي الله عنه - تواضع النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: أتى النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - رجلٌ فكلّمه فجعل ترعُد فرائصُهُ فقال له: "هوِّن عليك نفسك فإني لستُ بِمَلِكٍ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد".

وزاد الحاكم في روايته عن جرير بن عبدالله: "في هذه البطحاء"، ثم تلى جرير" {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} [ق: 45].[2852]

8- ومما يدل على تواضعه العظيم - صلى الله عليه وسلم - تفضيله للأنبياء عليهم السلام على نفسه: فقد قال له رجل: يا خير البرية! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ذاك إبراهيم عليه السلام"[2853]، وقال صلى الله عليه وسلم: "ما ينبغي لأَحدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متَّى".[2854]

ولاشك أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء والمرسلين، وسيد الناس أجمعين؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد الناس يوم القيامة"[2855]، وقال صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم، وأَوَّلُ مَن تنشق عنه الأرض، وَأَوَّلُ شافعٍ، وأَوَّلُ مُشفّع".[2856]

9- ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم: "أنه لم يكن له بوَّابٌ يحجبه عن الناس[2857]، وكان يرقي المرضى ويدعو لهم، ويمسح رأس الصبي ويدعو له[2858]، وكان يشفع لأصحابه، ويقول: "اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء"[2859]، وقال لأنس رضي الله عنه: "(يا بُنَيَّ) على سبيل الملاطفة والتواضع".[2860]

[2849] مسند أحمد 1/246

[2850] رواه البخاري 676

[2851] البخاري مع الفتح 11/340، 6501

[2852] ابن ماجه، برقم 3312، والحاكم 2/466، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، 3/128، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني 4/497، 1876

[2853] مسلم 1369

[2854] البخاري 4630، ومسلم، 4/1846، 2376

[2855] البخاري 3340 و3361 و4712، ومسلم 194

[2856] أبو داود 4763 وصححه الألباني، 3/138

[2857] البخاري 1283

[2858] البخاري 7210

[2859] البخاري 1432، ومسلم 2627

[2860] مسلم 2151، 2152.

10- ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم: "أن رجلًا كان يَقمُّ المسجد أو امرأة سوداء، فماتت أو مات ليلًا، فدفنه الصحابة، ففقدها النبي صلى الله عليه وسلم أو فقده، فسأل عنها أو عنه، فقالوا: مات، قال :"أفلا كنتم آذنتموني" فكأنهم صغَّروا أمرها أو أمره، فقال :"دلُّوني على قبرها" فدلوه فصلى عليها ثم قال: "إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله عز وجل ينوِّرها لهم بصلاتي عليهم"[2861].

11- قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أفٍّ قط، وما قال لشيء صنعته لم صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خُلُقًا".[2862]

ثانيا: نماذِجُ من تواضُعِ الصَّحابةِ رِضوانُ اللَّه عليهم:

كان الصَّحابةُ رِضوانُ اللَّهِ عليهم يقومون بما كان يقومُ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الأعمالِ الجليلةِ والخُلُقِ الكريمِ من التَّواضُعِ وخَفضِ الجناحِ اقتداءً بِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

"وصفوةُ القولِ أنَّهم رَضِيَ اللَّهُ عنهم ساروا على نهجِ الرَّسولِ الكريمِ، فلم يستكبرْ منهم أحدٌ، أو يستنكِفْ عن القيامِ بتلك الأعمالِ اليسيرةِ النَّافعةِ مهما عظُمَت مكانةُ الواحدِ منهم".[2863]

قال السَّمرقَنديُّ: "فهؤلاء أصحابُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان خُلُقُهم التَّواضُعَ، وكانوا أعزَّاءَ عِندَ الخَلقِ، وعند الملائكةِ، وعندَ اللَّهِ سُبحانَه وتعالى".[2864]

- **تواضُعُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عنه:**

- "لما استُخلِف أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عنه أصبح غاديًا إلى السُّوقِ، وكان يَحْلُبُ للحيِّ أغنامَهم قبل الخلافةِ، فلمَّا بويعَ قالت جاريةٌ من الحيِّ: الآن لا يَحْلُبُ لنا. فقال: بلى لأحلُبَنَّها لكم، وإني لأرجو ألَّا يُغَيِّرَني ما دخلتُ فيه".[2865]

- وكان يقولُ: "ودِدتُ أني شَعرةٌ في جَنبِ عبدٍ مُؤمِنٍ".[2866]

قال هذا وهو من المبشَّرين بالجنَّةِ، وهو الصِّدِّيقُ العظيمُ صاحِبُ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وخليفتُه من بعدِه!

- ويُحْكَى أنَّهُ -رضي الله عنه- كان يذهب إلى كوخ امرأة عجوز فقيرة، فيكنس لها كوخها، وينظفه، ويعد لها طعامها، ويقضي حاجتها.

- وقد خرج -رضي الله عنه- يودع جيش المسلمين الذي سيحارب الروم بقيادة أسامة بن زيد -رضي الله عنه- وكان أسامة راكبًا، والخليفة أبو بكر يمشي، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، لَتَرْكَبَنَّ أو لأنزلنَّ، فقال أبو بكر: والله لا أركبن ولا تنزلن، وما عليّ أن أُغَبِّرَ قدمي ساعة في سبيل الله.

- **تواضُعُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عنه:**

[2861] مسلم 956

[2862] البخاري بنحوه برقم 6038، والترمذي بلفظه في الشمائل كما تقدم تخريجه.

[2863] الأخلاق الإسلامية لجمال نصار ص: 237 بتصرف.

[2864] تنبيه الغافلين ص 188

[2865] رواه ابنُ سعد في الطبقات الكبرى 3430، والطبري في التاريخ 64/13، وابن عساكر في تاريخ دمشق 30/323 مطوَّلًا.

[2866] رواه أحمد في الزهد 560

- عن طارِقِ بنِ شِهابٍ، قال: "خرج عُمَرُ بنُ الخطَّابِ إلى الشَّامِ ومعنا أبو عُبَيدةَ بنُ الجرَّاحِ، فأتوا على مخاضةٍ وعُمَرُ على ناقةٍ له، فنزل عنها وخلَع خُفَّيْهِ فوضعَهما على عاتِقِه، وأخذ بزمامِ ناقتِه فخاض بها المخاضةَ، فقال أبو عُبَيدةَ: يا أميرَ المُؤمِنين، أنت تفعلُ هذا، تخلَعُ خُفَّيك وتضعُهما على عاتِقِك، وتأخُذُ بزمامِ ناقتِك، وتخوضُ بها المخاضةَ! ما يسُرُّني أنَّ أهلَ البَلَدِ استشرَفوك، فقال عُمَرُ: أَوَّهْ! لو يَقولُ ذا غيرُك أبا عبيدةَ جعَلْتُه نكالًا لأمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! إنَّا كُنَّا أذَلَّ قومٍ، فأعزَّنا اللَّهُ بالإسلامِ، فمهما نطلُبُ العِزَّةَ بغيرِ ما أعزَّنا اللَّهُ به أذلَّنا اللَّهُ".[2867]

- وقد حمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الدقيق على ظهره، وذهب به إلى بيت امرأة لا تجد طعامًا لأطفالها اليتامى، وأشعل النار، وظل ينفخ حتى نضج الطعام، ولم ينصرف حتى أكل الأطفال وشبعوا.

- وَيُحْكَى أن رجلا من بلاد الفرس جاء برسالة من كسرى ملك الفرس إلى الخليفة عمر، وحينما دخل المدينة سأل عن قصر الخليفة، فأخبروه بأنه ليس له قصر فتعجب الرجل من ذلك، وخرج معه أحد المسلمين ليرشده إلى مكانه، وبينما هما يبحثان عنه في ضواحي المدينة، وجدا رجلا نائمًا تحت شجرة، فقال المسلم لرسول كسرى: هذا هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فازداد تعجب الرجل من خليفة المسلمين الذي خضعت له ملوك الفرس والروم، ثم قال الرجل: حكمتَ فعدلتَ فأمنتَ فنمتَ يا عمر.

- **تواضُعُ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عنه:**

- قال الحسَنُ: "رأيتُ عثمانَ بنَ عَفَّانَ يَقيلُ في المسجدِ وهو يومئذٍ خليفةٌ، ويقومُ وأثَرُ الحصى بجَنبِه، فنقولُ: هذا أميرُ المُؤمِنين، هذا أميرُ المُؤمِنين!".[2868]

- عن ميمونِ بنِ مِهرانَ قال: "أخبرني الهمدانيُّ أنَّه رأى عثمانَ بنَ عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عنه على بغلةٍ، وخَلْفَه عليها غلامُه نائِلٌ، وهو خليفةٌ".[2869]

- **تواضُعُ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنه:**

- عن عَمرِو بنِ قَيسٍ المُلائِيِّ عن رجلٍ منهم قال: "رُئِيَ على عليِّ بنِ أبي طالبٍ إزارٌ مرقوعٌ، فقيل له: تلبَسُ المرقوعَ؟! فقال: يقتدي به المُؤمِنُ، ويخشَعُ به القَلبُ".[2870]

- وفي لفظٍ آخَرَ: عوتِبَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عنه في لَبوسِه فقال: "إنَّ لَبوسي هذا أبعدُ من الكِبرِ، وأجدَرُ أن يقتديَ بي المسلِمُ".[2871]

- **تواضُعُ سلمانَ الفارسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عنه:**

- جَلَسَتْ قريشٌ تتفاخرُ يومًا في حضورِ سلمانَ الفارسِيِّ، وكانَ أميرًا على المدائنِ، فأخذَ كلُّ رجلٍ منهم يذكُر ما عنده من أموالٍ أو حَسَبٍ أو نَسَبٍ أو جَاهٍ، فَقَالَ لهم سلمانُ: أمَا أنَا فَأَوَّلِي نطفةٌ قذرة، ثم أصير جيفةً منتَنةً، ثم آتِي الميزانَ، فإنْ ثَقُل فَأَنَا كَرِيمٌ، وإنْ خَفَّ فَأَنَا لئيمٌ.

[2867] رواه الحاكم 207 صحَّحه على شرط الشيخين الحاكم، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة 1/117

[2868] رواه أحمد في الزهد 675، وأبو نعيم في حلية الأولياء 1/60

[2869] المصدرين السابقين.

[2870] رواه هناد في الزهد 2/368 واللفظ له، وابن أبي الدنيا في إصلاح المال 394

[2871] رواه أحمد في فضائل الصحابة 908 مطوَّلًا، وابن أبي الدنيا في إصلاح المال 393

- **تواضُعُ عبدِ اللَّهِ بنِ سَلامٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه:**

- عن عبدِ اللَّهِ بنِ حنظلةَ: أنَّ عبدَ اللَّهِ بنَ سلامٍ مرَّ في السُّوقِ وعلى رأسِه حُزمةُ حَطبٍ، فقال: أدفَعُ به الكِبْرَ، إني سمعتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: "لا يدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قلبِه مثقالُ حبَّةٍ من خردلٍ مِن كبرٍ".[2872]

ثالثا: نماذج من تواضع السلف الصالح:

- **تواضُعُ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ:**

- "كان عِندَ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ قومٌ ذاتَ ليلةٍ في بعضِ ما يحتاجُ إليه، فغشِيَ سراجُه، فقام إليه فأصلحَه، فقيل له: يا أميرَ المُؤمِنين! ألا نكفيك؟ قال: وما ضَرَّني؟ قمتُ وأنا عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ، ورجَعتُ وأنا عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ".[2873]

- **تواضُعُ أحمدَ بنِ حَنبلٍ:**

قال المَرُّوذيُّ: "لم أرَ الفقيرَ في مجلِسٍ أعَزَّ منه في مجلِسِ أحمَدَ؛ كان مائِلًا إليهم، مُقصِرًا عن أهلِ الدُّنيا، وكان فيه حِلْمٌ، ولم يكُنْ بالعَجولِ، وكان كثيرَ التَّواضُعِ، تعلوه السَّكينةُ والوقارُ، وإذا جلَس في مجلِسِه بعدَ العَصرِ للفُتيا لا يتكَلَّمُ حتَّى يُسأَلَ، وإذا خرج إلى مسجدِه لم يتصَدَّرْ".[2874]

"وكان رُبَّما خرج إلى البقَّالِ، فيشتري الجُرزةَ [2875] الحَطَبَ والشَّيءَ فيَحمِلُه بيَدِه".[2876]

وقال يحيى بنُ مَعينٍ: "ما رأيتُ مِثلَ أحمدَ بنِ حَنبَلٍ! صَحِبناه خمسين سنةً ما افتخر علينا بشيءٍ ممَّا كان فيه من الصَّلاحِ والخيرِ".[2877]

- **تواضُعُ ابنُ الجَوْزِي:**

يُذكَر أن ابن الجوزي رحمه الله أسلم على يده أكثر من عشرين ألف يهودي ونصراني وتاب بسببه مائةُ ألف، وصنف أكثر من أَلْفَينِ مُصنّف، وهو القائل لطلابه: "إذا دخلتم الجنة ولم تجدوني بينكم، فاسألوا عني وقولوا يا رب: إنَّ عبدك فلان كان يذكرنا بك ثم بكى!".

المطلب السادس: صور للتواضع

1- تواضُعُ الإنسانِ في نفسه:

ويكونُ ذلك بألَّا يظُنَّ أنَّه أعلَمُ من غيرِه، أو أتقى من غيرِه، أو أكثَرُ ورَعًا من غيرِه، أو أكثَرُ خَشيةً للهِ من غيرِه، أو يظُنُّ أنَّ هناك من هو شرٌّ منه، ولا يظُنَّ أنَّه قد أخَذ صَكًّا بالغفرانِ، وآخَرَ بدُخولِ الجنَّةِ؛ لأنَّ القلوبَ بَيْنَ إصبعَينِ من أصابعِ الرَّحمنِ يُقَلِّبُها كيف يشاءُ، يقولُ اللَّهُ تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال: 24].

[2872] رواه الطبراني 14946308/14، والحاكم5757، واللفظ له، والبيهقي في شعب الإيمان 8199 صحَّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة 3257، وشعيب الأرناؤوط المرفوع منه في تخريج سير أعلام النبلاء 419/2، وصحَّح إسنادَه الحاكم، والبوصيري في إتحاف الخيرة المهرة 7/375، وحسَّنه المنذري في الترغيب والترهيب 40/4، والهيثمي في مجمع الزوائد 104/1

[2873] سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص: 46

[2874] سير أعلام النبلاء للذهبي 11/218

[2875] الجُرزة: الحُزمة من القَتِّ ونحوِه. يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 5/317

[2876] سير أعلام النبلاء للذهبي 11/209

[2877] حلية الأولياء لأبي نعيم 181 /9

ومن التَّواضُعِ ألَّا يعظُمَ في عينِك عَمَلُك، إن عمِلتَ خيرًا، أو تقرَّبتَ إلى اللَّهِ تعالى بطاعةٍ؛ فإنَّ العمَلَ قد لا يُقبَلُ {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: 27]؛ ولهذا قال بعضُ السَّلفِ: "لو أعلمُ أنَّ اللَّهَ قَبِل مني تسبيحةً لتمنَّيتُ أن أموتَ الآنَ!".

ومن ذلك: التَّواضُعُ عندما تسمَعُ نصيحةً؛ فإنَّ الشَّيطانَ يدعوك إلى رَدِّها، وسوءِ الظَّنِّ بالنَّاصحِ؛ لأنَّ معنى النَّصيحةِ أنَّ أخاك يقولُ لك: إنَّ فيك من العيوبِ كيتَ وكيتَ.

((وكم مرَّةٍ أَتْعَبْتُكُم بِنَصِيحَتِي.. وقد يستفيدُ البِغضةَ المتنَصِّحُ))

أمَّا مَن عصمَه اللَّهُ تعالى فإنَّه إذا وَجَد مَن ينصَحُه ويدُلُّه على عيوبِه، قهَرَ نفسَه وقَبِل منه، ودعا له وشكَرَه؛ ولهذا قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في تعريفِ الكِبرِ: "الكِبرُ: بطَرُ الحَقِّ، وغَمطُ النَّاسِ".[2878]

يعني: ردَّ الحقِّ، وبَخسَ النَّاسِ أشياءَهم، فالمستكبرُ صاحِبُ نفسيَّةٍ متعاظمةٍ لا يكادُ يمدَحُ أحدًا أو يذكُرُه بخيرٍ، وإنِ احْتَاجَ إلى ذلك شفَعَه بذكرِ بَعضِ عُيوبِه.

أمَّا إن سمع من يُذَكِّرُه ببعضِ عُيوبِه فهيهاتَ أن ينصاعَ أو يَلينَ، وما ذاك إلَّا لمركَّبِ النَّقصِ في نفسِه؛ ولهذا كان من كمالِ الإنسانِ أن يقبَلَ النَّقدَ والملاحظةَ بدونِ حساسيةٍ أو انزعاجٍ أو شعورٍ بالخَجَلِ والضَّعفِ، وها هو أميرُ المُؤمنين عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عنه يحمِلُ الرَّايةَ، ويرفَعُ الشِّعارَ: "رَحِم اللَّهُ من أهدى إليَّ عُيوبي".[2879]

2- التَّواضُعُ في التَّعلُّمِ:

قال الشَّافعيُّ: "لا يَطلُبُ هذا العِلمَ أحدٌ بالمُلكِ وعِزَّةِ النَّفسِ فيُفلِحَ، لكِنْ من طلبَه بذِلَّةِ النَّفسِ، وضيقِ العيشِ، وخِدمةِ العِلمِ، وتواضُعِ النَّفسِ، أفلَح".[2880]

وعن الأصمعيِّ قال: "مَن لم يتحمَّلْ ذُلَّ التَّعلُّمِ ساعةً، بقيَ في ذُلِّ الجَهلِ أبدًا".[2881]

3- التَّواضُعُ مع النَّاسِ:

فالمسلمُ يخالطُ النَّاسَ ويدعوهم إلى الخيرِ، وإلى الأخلاقِ الإسلاميَّةِ، ومن طبيعةِ النَّاسِ أنَّهم لا يقبَلون قَولَ من يُعَظِّمُ نفسَه ويحقِرُهم، ويرفَعُ نفسَه ويَضعُهم، وإن كان ما يقولُه حَقًّا، بل عليه أن يعرِفَ أنَّ جميعَ ما عنده هو فضلٌ من اللَّهِ؛ فالمسلمُ المتواضعُ هو الذي لا يُعطي لنفسِه حَظًّا في كلامِه مع الآخرين، ومِن تواضُعِ المسلمِ مع النَّاسِ أن يجالِسَ كُلَّ طبقاتِ المجتَمَعِ، ويُكَلِّمَ كُلًّا بما يفهَمُه، ويجالسَ الفُقراءَ والأغنياءَ.

قال تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: 28].

4- التَّواضُعُ مع الأقرانِ:

[2878] أخرجه مسلم 91 مطوَّلًا من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[2879] رواه الدارمي 649

[2880] مناقب الشافعي للبيهقي 141 /2

[2881] المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي ص: 278

ومن التَّواضُعِ: تواضُعُ المسلمِ مع قرينِه؛ وذلك لأنَّه كثيرًا ما تشتَعِلُ المنافسةُ ويقَعُ التَّحاسدُ بَيْنَهما، وربَّما يؤدِّي ذلك إلى نوعٍ من استعلاءِ بعضِهم على بعضٍ، ثمَّ محاولةِ الحَطِّ مِن قَدرِ قرينِه، والتَّنقُّصِ منه بأيِّ صورةٍ من الصُّوَرِ، أو السَّعيِ في النَّيلِ منه، وقد يُلبِّسُ عليه الشَّيطانُ ذلك ويُلبِسُه لَبوسَ النُّصحِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ.

5- التَّواضُعُ للوالدين:

ببرهما وإكرامهما وطاعتهما في غير معصية، والحنو عليهما والبشر في وجههما، والتلطف في الخطاب معهما، وتوقيرهما والإكثار من الدعاء لهما في حياتهما وبعد مماتهما.

6- تواضُعُ الإنسانِ مع مَن هو دونَه:

بل لا يُتصوَّرُ التَّواضُعُ إلَّا مع من هو دونَك، سواءٌ في العلمِ أو الفهمِ أو المالِ أو الجاهِ، ومَن هو أصغَرُ منك سِنًّا وغيرُ ذلك، بل إذا رأيتَ مَن وَقع في معصيةٍ فلا تتعالى عليه وتُعجَبَ بنَفسِك وعمَلِك؛ فربَّما كانت معصيتُه سببًا في توبةٍ وإنابةٍ، وذُلٍّ وانكسارٍ، وربَّما كان إعجابُ الإنسانِ بعَمَلِه سببًا في حُبوطِ عَمَلِه.

عن جُندَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حدَّث: "أنَّ رجُلًا قال: واللَّهِ لا يغفِرُ اللَّهُ لفلانٍ، وإنَّ اللَّهَ تعالى قال: مَن ذا الذي يتألَّى عليَّ ألَّا أغفِرَ لفُلانٍ؟! فإنِّي قد غَفرتُ لفلانٍ وأحبَطتُ عَمَلَك".[2882]

7- تواضُعُ صاحِبِ المالِ:

فإنَّ مَنْ مَنَّ اللَّهُ عليهم بالمالِ والجاهِ، والقُوَّةِ والنُّفوذِ، أحوَجُ الخَلقِ إلى خُلُقِ التَّواضُعِ؛ لأنَّ هذه النِّعَمَ مَدعاةٌ إلى الكِبرِ والفَخرِ.

وما ابتُلِيَت الأمَّةُ بمصيبةِ الكِبرِ إلَّا مِن هؤلاء، ولو نظر صاحبُ المالِ -مثلًا- إلى سالِفِ أمرِه، لكان أجدَرَ به إذا ما رُزِق مالًا أن يَشكُرَ رَبَّه الذي أغناه بعدَ فقرٍ، وأعطاه بعدَ حِرمانٍ، وأشبَعَه بعدَ جُوعٍ، وأمَّنه بعدَ خَوفٍ، وأن يجعَلَ التَّواضُعَ فِراشَه ودِثارَه وزينتَه، هذا هو الشُّكرُ العَمَليُّ الحقيقيُّ.

أمَّا أن يتكَبَّرَ وهذا حالُه، فلا أدري بمَ يوصَفُ هذا الإنسانُ، وقد بُدِّلت لديه المفاهيمُ والموازينُ؟

وكذلك يُقالُ لصاحِبِ كُلِّ نِعمةٍ: عليك بالتَّواضُعِ، فلرُبَّما دارت عليك الأيَّامُ، وبُدِّل الحالُ.

8- تواضُعُ القائِدِ لمن تحتَ إمرتِه:

القائدُ النَّاجحُ هو الذي يخفِضُ جناحَه للأفرادِ الذين تحتَ إمرتِه؛ لأنَّه كلَّما تواضَع لهم وخَفَض لهم جناحَه كان أقرَبَ إلى نفوسِهم، وكان أمرُه لهم محبَّبًا إليهم، فهم يطيعونه عن حُبٍّ وإخلاصٍ؛ يقولُ تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 215].

ومِن مظاهِرِ هذا التَّواضُعِ عدمُ الاستبدادِ بالرَّأيِ والانفرادِ باتخاذِ القرارِ؛ وذلك أنَّ استفراغَ ما عِندَ الأفرادِ من آراءٍ وأفكارٍ لا شَكَّ أنَّ ذلك يفتحُ أبوابًا كانت مغلقةً على القادةِ، والاستماعُ إليها والنُّزولُ عن الرَّأيِ إليها -إذا كانت صحيحةً- يُقَلِّلُ من نسبةِ الخطأِ في القرارِ، وببركةِ الشُّورى قد يجبرُ اللَّهُ ما بها من قصورٍ، وألَّا يجِدَ القادةُ في نفوسِهم شيئًا إذا تحوَّلوا إلى جنودٍ أو أفرادٍ في الصَّفِّ بعدَ أن كانوا قادةً؛ وذلك لأنَّ الأجرَ والثَّوابَ يكونُ بالإخلاصِ والتَّجرُّدِ، والصِّدقِ مع اللَّهِ.

[2882] أخرجه مسلم 2621

وكما يقولُ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: "من أحَبَّ الرِّياسةَ لم يُفلِحْ أبدًا"، ولا شكَّ أنَّ المُؤمِنَ كلَّما ازداد تواضُعًا ازداد إيمانًا باللَّهِ وقُربًا منه، وكلَّما ازداد عُتُوًّا وترفُّعًا على النَّاسِ، ازداد مقتًا وبُعدًا منه سُبحانَه".[2883]

المطلب السابع: أقسامُ التَّواضُعِ

التَّواضُعُ تواضعانِ: أحَدُهما محمودٌ، والآخَرُ مذمومٌ.

التَّواضُعُ المحمودُ: تركُ التَّطاوُلِ على عبادِ اللَّهِ والإزراءِ بهم.

التَّواضُعُ المذمومُ: هو تواضُعُ المرءِ لذي الدُّنيا رغبةً في دُنياه، فالعاقِلُ يلزَمُ مفارقةَ التَّواضُعِ المذمومِ على الأحوالِ كُلِّها، ولا يفارقُ التَّواضُعَ المحمودَ على الجهاتِ كُلِّها.[2884]

- **التَّواضُعُ المحمودُ على نوعين:**

- النَّوعُ الأوَّلُ: "تواضُعُ العبدِ عِندَ أمرِ اللَّهِ امتثالًا، وعندَ نهيِه اجتنابًا؛ فإنَّ النَّفسَ لطَلَبِ الرَّاحةِ تتلكَّأُ في أمرِه، فيبدو منها نوعُ إباءٍ وشِرادٍ هَرَبًا من العبوديَّةِ وتثبُتُ عِندَ نهيِه طَلَبًا للظَّفَرِ بما منع منه، فإذا وضَع العبدُ نفسَه لأمرِ اللَّهِ ونهيِه فقد تواضَع للعبوديَّةِ.

- والنَّوعُ الثَّاني: تواضُعُه لعَظَمةِ الرَّبِّ وجَلالِه، وخضوعُه لعزَّتِه وكبريائِه؛ فكلَّما شمَخَت نفسُه ذَكَر عظمةَ الرَّبِّ تعالى وتفرُّدَه بذلك، وغَضَبَه الشَّديدَ على من نازعه ذلك، فتواضَعت إليه نفسُه، وانكسر لعظمةِ اللَّهِ قلبُه، واطمأنَّ لهيبتِه وأخبَت لسُلطانِه، فهذا غايةُ التَّواضُعِ، وهو يستلزِمُ الأوَّلَ من غيرِ عَكسٍ، والمتواضِعُ حقيقةً من رُزِق الأمرينِ، واللَّهُ المستعانُ".[2885]

- **التَّواضُعُ المذمومُ:**

ومنه المهانةُ وبَذلُ النَّفسِ وابتذالُها في نَيلِ حُظوظِها وشهواتِها، كتواضُعِ السُّفلِ في نَيلِ شَهَواتِهم، وتواضُعِ المفعولِ به للفاعِلِ، وتواضُعِ طالِبِ كُلِّ حَظٍّ لمن يرجو نَيلَ حَظِّه منه.[2886]

المطلب الثامن: دَرَجاتُ التَّواضُعِ

ذكَر أبو إسماعيلَ الهَرَويُّ للتَّواضُعِ ثلاثَ دَرَجاتٍ، فقال:

الدَّرَجةُ الأولى: التَّواضُعُ للدِّينِ، وهو ألَّا يُعارِضَ بمعقولٍ منقولًا، ولا يتَّهِمَ للدِّينِ دليلًا، ولا يرى إلى الخِلافِ سَبيلًا[2887]. قال ابنُ القَيِّمِ: "التَّواضُعُ للدِّينِ: هو الانقيادُ لِما جاء به الرَّسولُ، والاستسلامُ له والإذعانُ، وذلك بثلاثةِ أشياءَ:

- **الأوَّلُ:** ألَّا يعارِضَ شيئًا ممَّا جاء به بشيءٍ من المعارضاتِ الأربعةِ السَّاريةِ في العالَمِ المسَمَّاةِ: بالمعقولِ والقياسِ والذَّوقِ والسِّياسةِ.

- فالأولى: للمُنحَرِفين أهلِ الكِبرِ من المتكَلِّمين، الذين عارَضوا نصوصَ الوحيِ بمعقولاتِهم الفاسدةِ، وقالوا: إذا تعارَض العقلُ والنَّقلُ قدَّمنا العقلَ وعزَلْنا النَّقلَ؛ إمَّا عَزلَ تفويضٍ، وإمَّا عَزلَ تأويلٍ.

[2883] يُنظَر: الأخلاق الإسلامية ودورها في بناء المجتمع لجمال نصار ص: 238، دروس إيمانية في الأخلاق الإسلامية لخميس السعيد ص: 39

[2884] روضة العقلاء لابن حبان البستي ص: 59.

[2885] الروح لابن القيم ص: 234

[2886] المصدر السابق

[2887] مدارج السالكين 3/120.

- والثَّاني: للمُتكَبِّرين من المنتَسِبين إلى الفِقهِ، قالوا: إذا تعارَض القياسُ والرَّأيُ والنُّصوصُ: قدَّمْنا القياسَ على النَّصِّ ولم نلتَفِتْ إليه.

- والثَّالثُ: للمتكَبِّرين المنحَرِفين من المنتَسِبين إلى التَّصوُّفِ والزُّهدِ، فإذا تعارضَ عندهم الذَّوقُ والأمرُ: قدَّموا الذَّوقَ والحالَ، ولم يعبؤوا بالأمرِ.

- والرَّابعُ: للمتكَبِّرين المنحَرِفين من الولاةِ والأمراءِ الجائِرين، إذا تعارَضت عندهم الشَّريعةُ والسِّياسةُ قدَّموا السِّياسةَ ولم يلتَفِتوا إلى حُكمِ الشَّريعةِ. فهؤلاء الأربعةُ هم أهلُ الكِبرِ، والتَّواضُعُ: التَّخلُّصُ من ذلك كُلِّه.

■ **الثَّاني:** ألَّا يتَّهِمَ دليلًا من أدلَّةِ الدِّينِ، بحيثُ يظنُّه فاسِدَ الدَّلالةِ أو ناقصَ الدَّلالةِ أو قاصِرَها، أو أنَّ غيرَه كان أولى منه، ومتى عَرَض له شيءٌ من ذلك فليتَّهِمْ فَهمَه، وليَعلَمْ أنَّ الآفةَ منه والبليَّةَ فيه، كما قيل:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا
وآفتُه من الفَهمِ السَّقيمِ
ولكِنْ تأخُذُ الأذهانُ منه
على قَدرِ القرائحِ والفُهومِ

وهكذا الواقعُ حقيقةً: أنَّه ما اتَّهَمَ أحدٌ دليلًا للدِّينِ إلَّا وكان المتَّهِمُ هو الفاسدَ الذِّهنِ، المأفونَ في عقلِه وذهنِه، فالآفةُ من الذِّهنِ العليلِ لا في نفسِ الدَّليلِ، وإذا رأيتَ من أدلَّةِ الدِّينِ ما يُشكِلُ عليك وينبو فَهمُك عنه، فاعلَمْ أنَّه لعظمَتِه وشَرَفِه استعصى عليك، وأنَّ تحته كنزًا من كنوزِ العِلمِ، ولم تؤتَ مفتاحَه بعدُ، هذا في حَقِّ نفسِك، وأمَّا بالنِّسبةِ إلى غيرِك فاتَّهِم آراءَ الرِّجالِ على نصوصِ الوَحيِ، وليكنْ ردُّها أيسَرَ شيءٍ عليك للنُّصوصِ، فما لم تفعَلْ ذلك فلستَ على شيءٍ ولو.. ولو.. ولو.. وهذا لا خلافَ فيه بَيْنَ العُلَماءِ؛ قال الشَّافعيُّ -قدَّس اللَّهُ رُوحَه-: أجمع المسلمون على أنَّ من استبانت له سنَّةُ رَسولِ اللَّهِ لم يحِلَّ له أن يدَعَها لقَولِ أحَدٍ.

■ **الثَّالثُ:** ألَّا يجِدَ إلى خلافِ النَّصِّ سبيلًا البَتَة لا بباطنِه ولا بلسانِه ولا بفِعلِه ولا بحالِه، بل إذا أحسَّ بشيءٍ من الخِلافِ فهو كخِلافِ المقدِمِ على الزِّنا وشُربِ الخَمرِ وقَتلِ النَّفسِ، بل هذا الخلافُ أعظَمُ عِندَ اللَّهِ من ذلك، وهو داعٍ إلى التِّفاقِ، وهو الذي خافه الكِبارُ والأئمَّةُ على نفوسِهم.

واعلَمْ أنَّ المخالِفَ للنَّصِّ لقَولِ متبوعِه وشيخِه ومقلِّدِه، أو لرأيِه ومعقولِه وذَوقِه وسياستِه، إن كان عِندَ اللَّهِ معذورًا -ولا واللَّهِ ما هو بمعذورٍ- فالمخالِفُ لقَولِه -لنُصوصِ الوحيِ- أَولى بالعُذرِ عِندَ اللَّهِ ورسولِه وملائكتِه والمُؤمِنين من عبادِه.

فوا عَجَبًا إذا اتَّسع بُطلانُ المخالفين للنُّصوصِ لعُذرِ من خالفها تقليدًا أو تأويلًا أو لغيرِ ذلك، فكيف ضاق عن عذرِ من خالف أقوالَهم وأقوالَ شيوخِهم لأجلِ موافقةِ النُّصوصِ؟! وكيف نصَبوا له الحبائِلَ وبَغَوه الغوائِلَ ورَمَوه بالعظائِمِ، وجعلوه أسوأَ حالًا من أربابِ الجرائمِ؟! فرَمَوه بدائِهم وانسَلُّوا منه لِواذًا، وقَذَفوه بمصابِهم وجعَلوا تعظيمَ المتبوعين ملاذًا لهم ومعاذًا، واللَّهُ أعلَمُ".[2888]

- قال صاحِبُ المنازِلِ: "ولا يصِحُّ ذلك إلَّا بأن يعلَمَ أنَّ النَّجاةَ في البصيرةِ والاستقامةِ بعدَ الثِّقةِ، وأنَّ البيِّنةَ وراءَ الحُجَّةِ".[2889]

-قال ابنُ القيِّمِ: "يقولُ: إنَّ ما ذكَرْناه من التَّواضُعِ للدِّينِ بهذه الأمورِ الثَّلاثةِ:

[2888] مدارج السالكين 3/120

[2889] المصدر السابق 3/124

■ **الأولى:** عِلمُه أنَّ النَّجاةَ من الشَّقاءِ والضَّلالِ: إنَّما هي في البصيرةِ؛ فَمَن لا بصيرةَ له فهو من أهلِ الضَّلالِ في الدُّنيا والشَّقاءِ في الآخرةِ، والبصيرةُ نورٌ يجعَلُه اللَّهُ في عينِ القَلبِ، يَفرُقُ به العبدُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، ونسبتُه إلى القَلبِ كنسبةِ ضَوءِ العَينِ إلى العينِ، وهذه البصيرةُ وهبيَّةٌ وكَسبيَّةٌ، فمن أدار النَّظَرَ في أعلامِ الحَقِّ وأدلَّتِه، وتجرَّد للهِ مِن هواه، استنارت بصيرتُه، ورُزِق فُرقانًا يَفرُقُ به بَيْنَ الحقِّ والباطِلِ.

■ **الثَّاني:** أن يعلَمَ أنَّ الاستقامةَ إنَّما تكونُ بعدَ الثِّقةِ، أي: لا يتصَوَّرُ حُصولُ الاستقامةِ في القَولِ والعَمَلِ والحالِ إلَّا بعدَ الثِّقةِ بصحَّةِ ما معه من العِلمِ، وأنَّه مقتبَسٌ من مِشكاةِ النُّبوَّةِ، ومن لم يكُنْ كذلك فلا ثقةَ له ولا استقامةَ.

■ **الثَّالثُ:** أن يعلَمَ أنَّ البيِّنةَ وراءَ الحُجَّةِ، والبيِّنةُ مرادُه بها: استبانةُ الحَقِّ وظهورِه، وهذا إنما يكونُ بعدَ الحُجَّةِ إذا قامت، استبان الحَقُّ وظهر واتَّضح، وفيه معنًى آخرُ، وهو: أنَّ العبدَ إذا قَبِل حُجَّةَ اللَّهِ بمحضِ الإيمانِ والتَّسليمِ والانقيادِ، كان هذا القَبولُ هو سَبَبَ تبيُّنِها وظهورِها وانكِشافِها لقَلبِه، فلا يصبِرُ على بيِّنةِ ربِّه إلَّا بعدَ قَبولِ حُجَّتِه.

وفيه معنًى آخَرُ أيضًا: أنَّه لا يتبيَّنُ له عيبُ عَمَلِه من صِحَّتِه إلَّا بعدَ العِلمِ الذي هو حجَّةُ اللَّهِ على العبدِ، فإذا عَرَف الحُجَّةَ اتَّضح له بها ما كان مشكِلًا عليه من علومِه، وما كان معيبًا من أعمالِه.

وفيه معنًى آخَرُ أيضًا: وهو أن يكونَ وراءَ بمعنى: أمامَ، والمعنى: أنَّ الحُجَّةَ إنما تحصُلُ للعبدِ بعد تبيُّنِها، فإذا لم تتبيَّنْ له لم تكُنْ له حُجَّةٌ، يعني: فلا يقنَعْ من الحُجَّةِ بمجرَّدِ حُصولِها بلا تبيُّنٍ؛ فإنَّ التَّبيُّنَ أمامَ الحجَّةِ، واللَّهُ أعلمُ".[2890]

قال صاحِبُ المنازِلِ أبو إسماعيلَ الهَرَويُّ:

"الدَّرَجةُ الثَّانيةُ: أن ترضى بما رَضِيَ الحَقُّ به لنفسِه عبدًا من المسلِمين أخًا، وألَّا تَرُدَّ على عَدُوِّك حَقًّا، وأن تقبَلَ من المعتَذِرِ معاذيرَه".[2891]

قال ابنُ القيِّمِ: "يقولُ، أي: الهَرَويُّ: إذا كان اللَّهُ قد رضي أخاك المسلِمَ لنفسِه عبدًا، أفلا ترضى أنت به أخًا؟! فعدَمُ رِضاك به أخًا -وقد رَضِيه سيِّدُك -الذي أنت عبدُه- عبدًا لنفسِه- عينُ الكِبرِ، وأيُّ قبيحٍ أقبحُ مِن تكبُّرِ العبدِ على عبدٍ مِثلِه، لا يرضى بأخوَّتِه، وسَيِّدُه راضٍ بعبوديَّتِه؟!

فيجيءُ من هذا: أنَّ المتكبِّرَ غيرُ راضٍ بعبوديَّةِ سَيِّده؛ إذ عبوديَّتُه توجِبُ رِضاه بأخوَّةِ عبدِه، وهذا شأنُ عبيدِ الملوكِ؛ فإنَّهم يرون بعضَهم خُشْداشيَّةَ[2892] بعضٍ.

ومن ترفَّع منهم عن ذلك لم يكُنْ من عبيدِ أستاذِهم.

قوله: (وألَّا ترُدَّ على عدوِّك حقًّا) أي: لا تصِحُّ لك درجةُ التَّواضُعِ حتَّى تقبَلَ الحَقَّ ممن تُحِبُّ وممن تُبغِضُ، فتَقْبَلُه من عدوِّك كما تقْبَلُه من وليِّك، وإذا لم تَرُدَّ عليه حقَّه، فكيف تمنعُه حَقًّا له قِبَلَك، بل حقيقةُ التَّواضُعِ: أنَّه إذا جاءك قَبِلتَه منه، وإذا كان له عليك حَقٌّ أدَّيتَه إليه، فلا تمنَعْك عداوتُه مِن قَبولِ حقِّه، ولا من إيتائِه إيَّاه.

وأمَّا (قَبولُك من المعتَذِرِ معاذيرَه) فمعناه: أنَّ من أساء إليك، ثمَّ جاء يعتذِرُ من إساءتِه، فإنَّ التَّواضُعَ يوجِبُ عليك قَبولَ مَعذرتِه حَقًّا كانت أو باطلًا، وتَكِلَ سريرتَه إلى اللَّهِ تعالى كما فعَل رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ في المُنافِقين الذين تخلَّفوا عنه في الغَزوِ، فلمَّا قَدِم جاؤوا يعتذرون إليه، فقَبِل أعذارَهم ووكَلَ سرائرَهم إلى اللَّهِ تعالى، وعلامةُ الكَرَمِ والتَّواضُعِ أنَّك

[2890] المصدر السابق

[2891] المصدر السابق 3/126

[2892] الخُشْداشُ أو الخُجْداشُ: أصلُها فارسيٌّ، وهو مملوكٌ مع آخَرَ من المماليكِ في خِدمةِ سَيِّدٍ كبيرٍ. والحالةُ تربطُ بَيْنَ هذين برباطِ الإخاءِ والصَّداقةِ والفِداءِ، ويجمَعُ خُجْداشٌ على خُجداشيَّةٍ، وخُشداشٌ على خُشداشيَّةٍ. يُنظَر: تكملة المعاجم العربية لدوزي 4/26

إذا رأيتَ الخَلَلَ في عُذرِه لا توقِفُه عليه ولا تحاجُّه، وقُلْ: يمكِنُ أن يكونَ الأمرُ كما تقولُ، ولو قُضِيَ شيءٌ لكان، والمقدورُ لا مدفَعَ له. ونحوَ ذلك".[2893]

قال صاحِبُ المنازِلِ أبو إسماعيلَ الهَرَويُّ:

"الدَّرَجةُ الثَّالثةُ: أن تتَّضِعَ للحَقِّ، فتنزِلَ عن رأيِك وعوائِدِك في الخِدمةِ، ورؤيةِ حَقِّك في الصُّحبةِ، وعن رَسمِك في المشاهَدةِ".[2894]

قال ابنُ القَيِّمِ: "يقولُ، أي: الهَرَويُّ: التَّواضُعُ بأن تخدُمَ الحَقَّ سُبحانَه وتعبُدَه بما أمرَك به على مقتضى أمرِه، لا على ما تراه من رأيِك، ولا يكونَ الباعِثُ لك داعيَ العادةِ، كما هو باعثُ مَن لا بصيرةَ له، غيرَ أنَّه اعتاد أمرًا فجرى عليه، ولو اعتاد ضِدَّه لكان كذلك".[2895]

المطلب التاسع: الوسائِلُ المعينةُ على التَّواضُعِ

1- تقوى اللَّهِ:

وهي من أهَمِّ الوسائِلِ التي تعينُ المرءَ على التَّواضُعِ، وتردَعُه عن أخلاقِ أهلِ السَّفَهِ والكِبرِ؛ لأنَّ التَّقوى وقايةٌ من كُلِّ ما يُغضِبُ اللَّهَ تعالى، وفِعلُ جميعِ الطَّاعاتِ التي أمَرَ اللَّهُ تعالى بها، فالكِبرُ كبيرةٌ من الكبائرِ، ولا يتَّصِفُ بها أهلُ التَّقوى، والتَّواضُعُ من محاسِنِ الأخلاقِ، ولا بدَّ أن يتَّصِفَ به أهلُ التَّقوى.

2- أَنْ تُعامِلَ النَّاسَ بما تُحِبُّ أَنْ يُعامِلُوكَ بِهِ:

مِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ المرءَ يُحِبُّ أن يتواضَعَ له النَّاسُ، ويخفِضوا جناحَهم له، ويعامِلوه برفقٍ ولينٍ، ويبغِضُ -من ناحيةٍ أُخرى- من يُغلِظُ له، ومن يتكبَّرُ عليه بأيِّ صورةٍ من الصُّوَرِ.

ولو كان المرءُ جِرابًا حُشِيَ كِبرًا لتألَّم وتأفَّف أيضًا ممن يتكبَّرُ عليه، فلِمَ الكيلُ بمكيالين؟!!

3- التَّفكُّرُ في أصلِ الإنسانِ:

إذا عَرَف الإنسانُ نفسَه عَلِمَ أنَّه أذَلُّ مِن كُلِّ ذليلٍ، ويكفيه نظرةٌ في أصلِ وُجودِه بعد العَدَمِ من ترابٍ، ثمَّ من نُطفةٍ خرجت من مخرجِ البولِ، ثمَّ مِن عَلَقةٍ، ثمَّ من مُضغةٍ، فقد صار شيئًا مذكورًا بعدَ أن كان لا يسمَعُ ولا يُبصِرُ ولا يُغني شيئًا؛ فقد ابتدأ بموتِه قبلَ حياتِه، وبضَعفِه قبلَ قُوَّتِه، وبفَقرِه قبلَ غِناه.

4- معرفةُ الإنسانِ قَدْرَه:

قال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} [الإسراء: 37].

أي: أنت -أيُّها المتكبِّرُ المُختالُ- ضعيفٌ حقيرٌ عاجزٌ محصورٌ بَيْنَ جمادينِ أنت عاجزٌ عن التَّأثيرِ فيها؛ فالأرضُ التي تحتك لا تَقدِرُ أن تؤثِّرَ فيها بشِدَّةِ وَطئِك عليها، والجبالُ الشَّامخةُ فَوقَك لا يبلُغُ طولُك طولَها؛ فاعرِفْ قَدْرَك، ولا تتكبَّرْ، ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحًا.

5- تذكُّرُ الأمراضِ والأوجاعِ والمصائِبِ:

ما أجمَلَ التَّواضُعَ واللِّينَ! فلو رأيتَ أهلَ البلاءِ بشَتَّى صنوفِهم للمَسْتَ التَّواضُعَ يعلو وجوهَهم وأبدانَهم!

[2893] مدارج السالكين 3/126

[2894] المصدر السابق 3/127

[2895] المصدر السابق

انظُرْ إلى مَن غَلَّه المرضُ، واستوثق منه الوَجَعُ، وهدَّه الألمُ، انظُرْ إليه إذا جاء الزَّائرُ يزورُه، وطالِعْ مُحيَّاه؛ فسترى فاقةً وكَسرةً وحاجةً إلى كُلِّ إنسانٍ!

فهو يأنَسُ بهذا، ويشُدُّ على يدِ هذا، ويطلُبُ الدُّعاءَ من آخَرَ، ويتشوَّفُ إلى رنينِ الهاتفِ؛ فلربَّما سمع كَلِمةً تشُدُّ من أَزْرِه، أو ربَّما سَعِد بدعوةٍ مجابةٍ، أليس في هذا الحالِ دَرْسٌ لكلِّ من اختال يومًا، أو تطاول حينًا، أو تكبَّرَ زمنًا؟! بلى واللَّهِ.

وما قيل هنا يُقالُ في أهلِ المصائِبِ كافَّةً، فلماذا التَّجمُّلُ بالتَّواضُعِ عِندَ الضُّرِّ، والافتخارُ والمباهاةُ والأشَرُ والكِبرُ عِندَ الرَّخاءِ والنِّعمةِ في العَلَنِ والسِّرِّ؟!

6- تطهيرُ القَلبِ:

القلبُ إذا صَلَح صَلَحَ العَمَلُ كُلُّه بإذنِ اللَّهِ تعالى؛ ولذلك من أراد اكتسابَ خُلُقِ التَّواضُعِ، عَلَيْهِ أن يُطَهِّرَ قَلبَه من الأمراضِ التي عصَفَت به من حِقدٍ وحَسَدٍ وعُجبٍ وغُرورٍ؛ لأنَّ القلبَ هو موطنُ هذه الأمراضِ كُلِّها.[2896]

7- أن يعلَمَ أنَّ التَّواضُعَ من أخلاقِ الأنبياءِ والصَّالحين، فيجتَهِدَ في الاقتداءِ بهم:

قال السَّمرقنديُّ: "التَّواضُعُ من أخلاقِ الأنبياءِ والصَّالحين، وقد مدح اللَّهُ تعالى عبادَه المُؤمِنين بالتَّواضُعِ، فقال: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: 63]، يعني: متواضعين، ومدَحَهم بتواضُعِهم، وأمر نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّواضُعِ، فقال: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤمِنِينَ} [الحجر 88]، {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 215]، ومدح النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخُلُقِه، فقال: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4]، وكان خلُقُه التَّواضُعَ... وكان الصَّالحون من قَبلُ أخلاقُهم التَّواضُعُ؛ فوجب علينا أن نقتديَ بهم، رضيَ اللَّهُ تعالى عنهم".[2897]

المطلب العاشر: ثَمَراتُ التَّواضُعِ

1- أنَّ التَّواضُعَ يرفعُ المرءَ قدرًا ويُعظِمُ له خطرًا ويزيدُه نُبلًا.[2898]

لَمَّا احتُضر ذو الإصبَعِ العدوانيُّ دعا ابنَه أُسيدًا فقال له: "يا بُنَيَّ! إنِّي موصيك بما إن حفِظتَه بلَغتَ في قومِك ما بلَغْتَه؛ فاحفَظْ عني: أَلِنْ جانبَك لقومِك يحبُّوك، وتواضَعْ لهم يرفَعوك...".[2899]

2- التَّواضُعُ يؤدِّي إلى الخُضوعِ للحَقِّ والانقيادِ له.[2900]

3- التَّواضُعُ هو عينُ العِزِّ؛ لأنَّه طاعةٌ لله ورُجوعٌ إلى الصَّوابِ.[2901]

4- يكفي المتواضِعَ محبَّةُ عبادِ اللَّهِ له، ورَفْعُ اللَّهِ إيَّاه[2902]، قال بعضُ الحُكَماءِ: "ثمرةُ القناعةِ الرَّاحةُ، وثمرةُ التَّواضُعِ المحبَّةُ".[2903]

5- التَّواضُعُ فيه مصلحةُ الدِّينِ والدُّنيا، ويزيلُ الشَّحناءَ بَيْنَ النَّاسِ، ويريحُ مِن تَعَبِ المباهاةِ والمفاخرةِ.[2904]

6- التَّواضُعُ يُكْسِبُ السَّلامةَ، ويورِثُ الأُلفةَ، ويرفَعُ الحِقدَ، ويُذهِبُ الصَّدَّ.[2905]

[2896] يُنظَر: دروس إيمانية في الأخلاق الإسلامية لخميس السعيد ص: 61

[2897] يُنظَر: تنبيه الغافلين ص: 186، 187

[2898] روضة العقلاء لابن حبان البستي ص: 61

[2899] الأغاني للأصفهاني 3/ 69

[2900] الأخلاق الإسلامية لحسن المرسي، بتصرف ص: 209

[2901] المصدر السابق

[2902] المصدر السابق

[2903] تنبيه الغافلين للسمرقندي ص: 185

[2904] فتح الباري لابن حجر، بتصرف 11/341

7- تواضُعُ الشَّريفِ يزيدُ في شَرَفِه، كما أنَّ تكبُّرَ الوضيعِ يزيدُ في ضَعَتِه.[2906]
8- التَّواضُعُ يُؤلِّفُ القلوبَ، ويفتحُ مغاليقَها، ويجعَلُ صاحِبَه جليلَ القدرِ، رفيعَ المكانةِ.
9- "في التَّواضُعِ دَفعُ إضرارِ التَّكبُّرِ والتَّجبُّرِ؛ إذ لا تحتَمِلُه القلوبُ، ولا تصبرُ عليه النُّفوسُ، ولا يزدادُ صاحِبُه إلَّا مقتًا من اللَّهِ ومن عبادِه".[2907]

المطلب الحادي عشر: مسائل متفرقة

• رأسُ التَّواضُعِ:

قال يحيى بنُ أبي كثيرٍ: "رأسُ التَّواضُعِ ثلاثٌ: أن ترضى بالدُّونِ من شَرَفِ المجلسِ، وأن تبدَأَ مَن لقيتَه بالسَّلامِ، وأن تَكرَهَ المِدحةَ والسُّمعةَ والرِّياءَ بالبِرِّ".[2908]
قال ابنُ المبارَكِ: "رأسُ التَّواضُعِ: أن تضَعَ نفسَك عِندَ من هو دونَك في نعمةِ الدُّنيا حتَّى تُعلِمَه أنْ ليس لك بدنياك عليه فَضلٌ، وأن ترفَعَ نفسَك عمَّن هو فوقَك في نعمةِ الدُّنيا حتَّى تُعلِمَه أنَّه ليس له بدُنياه عليك فضلٌ".[2909]

• التَّواضُعُ المتكَلَّفُ:

- قال أحمد شوقي: "التَّواضُعُ المتكَلَّفُ زَهرٌ مُصطَنَعٌ؛ لا في العُيونِ نَضِرٌ، ولا في الأنوفِ عَطِرٌ".[2910]

• الإخلاص في التواضع:

يجب على المسلم أن يقصد بتواضعه مرضاة الله تعالى والتقرُّب إليه وحده.
قال الله تعالى :{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة: 5]، وقال سبحانه :{فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110].
- قال الإمام ابن كثير رحمه الله: "هذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم".[2911]
- وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه".[2912]
- وروى الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "الأعمال بالنية، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه".[2913]
- روى أبو داود عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من كظم

[2905] روضة العقلاء لابن حبان البستي ص: 61
[2906] المصدر السابق.
[2907] شجرة المعارف والأحوال للعز بن عبد السلام ص: 94
[2908] رواه ابنُ أبي الدنيا في التواضع والخمول 118
[2909] المصدر السابق 89
[2910] أسواق الذهب ص: 135
[2911] تفسير ابن كثير، ج9، ص205
[2912] مسلم 2985
[2913] البخاري: 54، مسلم: 1907

غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يُخيِّره الله من الحور العين ما شاء".[2914]

(أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَصِفَاتِه الْعُلَا أَنْ يَرْزُقَنا التَّوَاضُع خالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيم).

[2914] صحيح أبي داود؛ للألباني 3997

المبحث الثالث والعشرون: القناعة والرضا

{نَّحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الزخرف:32]

أَشْبَعُ بالرغيف اليابسِ أُبَلِّلُ.. فَلِمَا أُرْهِقُ نَفسِي وأُوَلْوِلُ

المطلب الأول: مَعْنَى القَنَاعَةِ

- **القَناعةُ لغةً:**

القَناعةُ: مَصدَرُ قَنِعَ -بالكَسرِ- يقنَعُ قُنوعًا وقناعةً: إذا رَضِيَ، وهو من الأضدادِ؛ يقالُ: رجلٌ قانِعٌ: إذا كان راضيًا بما هو فيه لا يسألُ أحدًا، ورجلٌ قانِعٌ: إذا كان سائِلًا، مِن قَنَع -بالفتحِ- يقنَعُ قُنوعًا: إذا سألَ.[2915]

- **القناعةُ اصطِلاحًا:**

"القناعةُ: هي الرِّضا بما أعطى اللهُ".[2916]

وقال ابنُ مِسكَوَيه: "القناعةُ: التَّساهُلُ في المآكِلِ والمشارِبِ والزِّينةِ".[2917]

وقال السُّيوطيُّ: "القناعةُ: الرِّضا بما دونَ الكفايةِ، وتَركُ التَّشوُّفِ إلى المفقودِ، والاستغناءُ بالموجودِ".[2918]

وقال المُناويُّ: "هي: السُّكونُ عندَ عَدَمِ المألوفاتِ، وقيل: الاكتفاءُ بالبُلغةِ، وقيل: سُكونُ الجأشِ عندَ أدنى المعاشِ، وقيل: الوقوفُ عندَ الكفايةِ".[2919]

- القَناعَةُ هيَ الرِضا بِما قَسَمَ اللهُ، ولَو كانَ قَليلًا، وهيَ عَدَم التَّطَلُع إلى ما في أيْدي الآخَرين، وهي عَلامَة على صِدقِ الإيمان.

المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ القَنَاعَةِ وَغَيرِها مِن الصِّفاتِ

1- الفَرقُ بَينَ القناعةِ والقَصدِ:

- أنَّ القصدَ: هو تَركُ الإسرافِ والتَّقتيرِ جميعًا.

- والقناعةُ: الاقتِصارُ على القليلِ والتَّقتيرِ؛ ألا ترى أنَّه لا يقالُ: هو قَنوعٌ إلَّا إذا استعمَل دونَ ما يحتاجُ إليه، ومقتَصِدٌ: لِمَن لا يتجاوَزُ الحاجةَ ولا يَقصُرُ دونَها، وتَركُ الاقتصادِ مع الغِنى ذَمٌّ، وتَركُ القناعةِ معه ليس بذمٍّ، وذلك أنَّ نقيضَ الاقتصادِ الإسرافُ، وقيل: الاقتصادُ من أعمالِ الجوارحِ؛ لأنَّه نقيضُ الإسرافِ، وهو من أعمالِ الجوارحِ، والقناعةُ من أعمالِ القُلوبِ".[2920]

2- الفَرقُ بَينَ القناعةِ والزُّهدِ:

[2915] الأضداد لابن الأنباري ص: 66، الصحاح للجوهري، مقاييس اللغة لابن فارس، لسان العرب لابن منظور.

[2916] مشارق الأنوار للقاضي عياض 2/187

[2917] تهذيب الأخلاق ص: 29

[2918] معجم مقاليد العلوم ص: 205، 217

[2919] التوقيف على مهمات التعاريف ص: 275

[2920] معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص: 430

قال الرَّاغِبُ: "القناعةُ: الرِّضا بما دونَ الكفايةِ، والزُّهدُ: الاقتصارُ على الزَّهيدِ، أي: القليلِ، وهما يتقاربانِ، لكِنَّ القناعةَ تُقالُ اعتبارًا برضا النَّفسِ، والزُّهدُ يقالُ اعتبارًا بالمتناوِلِ لحَظِّ النَّفسِ، وكُلُّ زُهدٍ حَصَل لا عن قناعةٍ فهو تزهُّدٌ لا زُهدٌ".[2921]

المطلب الثالث: الترغيب في القناعة والحث عليها

أ. القَنَاعَةُ فِي نُصُوصِ القُرآنِ الكَرِيمِ:

القناعةُ من أسبابِ سعادةِ الإنسانِ في هذه الدُّنيا، فمتى تحقَّقَت له بعَثَت في نفسِه السَّكينةَ والرَّاحةَ، وقد رَغَّب القرآنُ الكريمُ فيها، ومِن ذلك:

1- قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97]

رُوِيَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ ومحمَّدِ بنِ كَعبٍ والحَسَنِ البَصريِّ في تفسيرِ الحياةِ الطَّيِّبةِ: أنَّها القَناعةُ.[2922]

والحياةُ الطَّيِّبةُ تشمَلُ القناعةَ وغيرَها؛ كالعبادةِ في الدُّنيا، والعَمَلُ بالطَّاعةِ، والانشراحُ بها، والرِّزقُ الحلالُ الطَّيِّبُ.[2923]

2- وقال تعالى: {إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [النور: 32].

قيل: الغِنى: هاهنا القناعةُ.[2924]

3- وقال سُبحانَه: {وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ} [الحج: 36]

قال مجاهِدٌ: "القانِعُ: جارُك الذي يقنَعُ بما أعطيتَه".[2925]

وقال أبو إسحاقَ الثَّعلبيُّ: "القانِعُ من القناعةِ، وهي الرِّضا والتَّعفُّفُ وتَركُ السُّؤالِ".[2926]

وقال الرَّازيُّ بعدَ أن ذَكَر أنَّ القانِعَ هو السَّائِلُ: "قال الفَرَّاءُ: والمعنى الثَّاني القانِعُ: هو الذي لا يسأَلُ، من القناعةِ، يقال: قَنِع يَقنَعُ قناعةً: إذا رَضِيَ بما قُسِم له، وتَرَك السُّؤالَ".[2927]

3- وقال تعالى: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [البقرة: 201]

الحَسَنةُ: مُطلَقةٌ، والمعنى: أنَّهم سألوا اللهَ في الدُّنيا الحالةَ الحَسَنةَ، وقد مَثَّل المفسِّرون ذلك بعِدَّةِ أمثلةٍ؛ منها: القناعةُ بالرِّزقِ.[2928]

4- وقال تعالى آمِرًا نبيَّه موسى عليه السَّلامُ: {فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: 144]

قال القُرطبيُّ: "قَولُه تعالى: فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ إشارةٌ إلى القناعةِ، أي: اقنَعْ بما أعطيتُك".[2929]

ب. القَنَاعَةُ فِي نُصُوصِ السُّنَّةِ النَّبوِيَّةِ:

[2921] الذريعة إلى مكارم الشريعة ص: 225

[2922] القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا ص: 61، جامع البيان للطبري 14/ 352، تفسير القرآن العظيم لابن كثير 2/346

[2923] أضواء البيان للشنقيطي 2/ 441

[2924] معالم التنزيل للبغوي 6/40

[2925] جامع البيان للطبري 16/ 563

[2926] الكشف والبيان 7/23

[2927] مفاتيح الغيب 23/226

[2928] البحر المحيط 2/310

[2929] الجامع لأحكام القرآن 7/280

1- عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "قد أفلَح من أسلَمَ، ورُزِقَ كَفافًا، وقَنَّعه اللهُ بما آتاه".[2930]

كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَتعهَّدُ أصحابَه بالمَوْعِظَةِ والنُّصحِ والتَّرغيبِ في مَعالي الأمورِ؛ لتكونَ الدُّنيا في أيْديهم وليْس في قُلوبِهم، ويكونَ ما حَصَّلوه منها عوْنًا لهم على الطَّاعةِ.

وفي هذا الحديثِ: إرشادٌ مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم لِأُمَّتِه إلى أنَّ طلَبَ الزِّيادةِ على الكَفافِ، وأنْ يُتعِبَ الإنسانُ نفْسَه في ذلك، أمرٌ لا يَنبغي؛ لأنَّ المحمودَ مِنَ الرِّزقِ ما حَصَلَتْ به القُوَّةُ على الطَّاعةِ، ويكونُ الاشتِغالُ به على قَدْرِ الحاجَةِ، فأخبَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أنَّه قدْ حاز الفَلَاحَ وفاز به، مَن أَسْلَمَ إسلامًا صَحيحًا؛ لأنَّه خَلَص مِن الكُفرِ والشِّركِ، وهو الذَّنْبُ الَّذي لا يَغفِرُه الله، ورُزِقَ الكِفايَةَ بلا زِيادةٍ ولا نَقْصٍ، وما يَكُفُّ عن الحاجاتِ ويَدْفَعُ الضَّروراتِ والفَاقَاتِ، والمرادُ به: الرِّزقُ الحلالُ؛ لأنَّه لا فَلاحَ مع رِزقٍ حرامٍ، وقولُه: (وقَنَّعَهُ اللهُ بما آتَاهُ)، قال المُناويُّ: "رُزِق كَفافًا، وقنَّعه اللهُ بالكَفافِ، فلم يَطلُبِ الزِّيادةَ".[2931]

وقال المُبارَكْفوريُّ: "(كَفافًا) أي: ما يَكُفُّ من الحاجاتِ، ويدفَعُ الضَّروراتِ. (وقنَّعه اللهُ) أي: جعَله قانعًا بما آتاه".[2932]

وقال أبو العبَّاسِ القُرطبيُّ: "معنى هذا الحديثِ: أنَّ مَن فَعَل تلك الأمورَ واتَّصف بها، فقد حَصَل على مطلوبِه، وظَفِر بمرغوبِه في الدُّنيا والآخِرةِ".[2933]

وفي الحديثِ: الفَوْزُ والفَلاحُ لِمَنْ أَسْلَمَ للهِ، ورَضِيَ بما قَسَمه اللهُ له.

وفيه: فضْلُ القَناعةِ وأنَّها مِن أسبابِ الفَلَاحِ.[2934]

2- وعن فَضَالةَ بنِ عُبَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "طُوبى لمن هُدِيَ إلى الإسلامِ، وكان عَيشُه كَفافًا وقَنِعَ به".[2935]

"(عيشُه كَفافًا) أي: بقَدرِ كفايتِه، لا يَشغَلُه ولا يُطغيه".[2936]

3- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: "أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يومًا يُحَدِّثُ وعنده رجُلٌ من أهلِ الباديةِ، أنَّ رجُلًا من أهلِ الجنَّةِ استأذن ربَّه في الزَّرعِ، فقال له: ألسْتَ فيما شِئتَ؟! قال: بلى، ولكِنِّي أحِبُّ أن أزرَعَ! قال: فبَذَر، فبادَرَ الطَّرْفَ[2937] نباتُه واستواؤُه واستِحصادُه، فكان أمثالَ الجبالِ! فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: دونَكَ[2938] يا ابنَ آدَمَ؛ فإنَّه لا يُشبِعُك شيءٌ! فقال الأعرابيُّ: واللهِ لا تجِدُه إلَّا قُرَشيًّا أو أنصاريًّا؛ فإنَّهم أصحابُ زَرعٍ، وأمَّا نحنُ فلَسْنا بأصحابِ زَرعٍ! فضَحِك النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم!".[2939]

[2930] رواه مسلم 1054

[2931] فيض القدير 4/508

[2932] التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي 2/ 193، تحفة الأحوذي للمباركفوري 4/508

[2933] المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم 3/99

[2934] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

[2935] أخرجه الترمذي 2349، وأحمد 23944، صحَّحه الترمذي، وابن حبان في صحيحه 705، والحاكم على شرط مسلم في المستدرك 98، والألباني في صحيح سنن الترمذي 2349

[2936] التيسير للمناوي 2/118

[2937] الطَّرْفُ: امتدادُ لحظِ الإنسانِ إلى أقصى ما يراه، ويُطلَقُ أيضًا على حركةِ جَفنِ العَينِ، وكأنَّه المرادُ هنا، يُنظَر: فتح الباري لابن حجر 5/ 27، فبادَرَ: أي سابقَه، أي: نبَت قَبلَ طَرفةِ عينٍ، واستوى واستحصَد، يُنظَر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني 25/ 174، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري3600 /9

[2938] دُونَك بالنَّصبِ على الإغراءِ، أي: خُذْه، يُنظَر: فتح الباري لابن حجر 5/ 27

[2939] رواه البخاري 2348

قال ابنُ بطَّالٍ: "وقولُه: دونَك يا ابنَ آدَمَ، لا يُشبِعُك شَيءٌ: يَدُلُّ على فضلِ القناعةِ، والاقتصارِ على البُلغةِ، وذَمِّ الشَّرَهِ والرَّغبةِ".[2940]

4- وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "اللَّهُمَّ اجعَلْ رِزقَ آلِ محمَّدٍ قُوتًا".[2941]
قال ابنُ حَجَرٍ: "أي: اكْفِهم من القوتِ بما لا يُرهِقُهم إلى ذُلِّ المسألةِ، ولا يكونُ فيه فُضولٌ تبعَثُ على التَّرفُّهِ والتَّبسُّطِ في الدُّنيا، وفيه حُجَّةٌ لِمن فَضَّل الكَفافَ؛ لأنَّه إنَّما يدعو لنَفسِه وآلِه بأفضَلِ الأحوالِ".[2942]
وقال النَّوويُّ: "قال أهلُ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ: القُوتُ: ما يَسُدُّ الرَّمَقَ، وفيه فضيلةُ التَّقلُّلِ من الدُّنيا، والاقتصارِ على القُوتِ منها، والدُّعاءُ بذلك".[2943]

5- وعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حدَّثنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: "إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلقُه في بطنِ أمِّه أربعين يومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يبعَثُ اللهُ مَلكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزقَه، وأجَلَه، وشقيٌّ أو سعيدٌ...".[2944]
"في الحديثِ: الحثُّ على القَناعةِ، والزَّجرُ الشَّديدُ عن الحِرصِ؛ لأنَّ الرِّزقَ إذا كان قد سَبَق لم يُغْنِ التَّعَنِّي في طَلَبِه".[2945]

6- عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: أخذ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمَنكِبي، فقال: "كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابِرُ سَبيلٍ".[2946]
قال ابنُ حِبَّانَ: "فقد أمَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ابنَ عُمَرَ في هذا الخبَرِ أن يكونَ في الدُّنيا كأنَّه غريبٌ أو عابِرُ سَبيلٍ، فكأنَّه أمَرَه بالقناعةِ باليسيرِ من الدُّنيا؛ إذ الغريبُ وعابرُ السَّبيلِ لا يَقصِدانِ في الغَيبةِ الإكثارَ من الثَّروةِ، بل القناعةُ إليهما أقرَبُ من الإكثارِ من الدُّنيا".[2947]

المطلب الرابع: نماذجٌ في القَنَاعَةِ

أولا: القناعةُ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قنوعًا زاهِدًا؛ يَرْضَى بِمَا عِنْدَهُ، وَلَا يَسْأَلُ أحدًا شيئًا، وَلَا يَتَطَلَّعُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ، فَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ بِالتِّجَارَةِ فِي مَالِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةُ -رَضِيَ اللَّه عَنْهَا- فَيَرْبَحُ كثيرًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْمَعَ فِي هَذَا الْمَالَ.
وَكَانَت تُعْرَضُ عَلَيْهِ الْأَمْوَالُ الَّتِي يَغْنِمُهَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَعَارِكِ، فَلَا يَأْخُذُ مِنْهَا شيئًا، بَلْ كَانَ يُوَزِّعُها عَلَى أَصْحَابِهِ.
فقد كان صلَّى اللهُ علَيْه وسلَّم أزهدَ الناسِ في الدُّنيا؛ لِعلمِه بحَقيقتِها وأنَّها دارُ فَناءٍ، وليسَت باقيةً، وإنَّما هي مَرحَلةٌ يتَزوَّدُ فيها المسلمُ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ والطَّاعاتِ؛ حتَّى يَعيشَ الحياةَ الباقيةَ في جَنَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

1- قال عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه: "دخَلتُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو مُضطَجِعٌ على حصيرٍ، فجَلَسْتُ، فأَدْنَى عليه إزارَه[2948] وليس عليه غيرُه، وإذا الحصيرُ قد أثَّر في جنبِه، فنظَرْتُ ببصري في خزانةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم،

[2940] شرح صحيح البخاري 6/489
[2941] رواه البخاري 6460، ومسلم 1055 واللفظ له
[2942] فتح الباري 11/275
[2943] شرح النووي على صحيح مسلم 7/146
[2944] أخرجه البخاري 3208 واللفظ له، ومسلم 2643
[2945] السراج المنير 2/73
[2946] أخرجه البخاري 6416
[2947] روضة العقلاء ص: 157
[2948] الإزارُ: ما تحتَ العاتِقِ في وَسَطِه الأسفَلِ، وقيل: الإزارُ: ما يَستُرُ أسفَلَ البَدَنِ، ولا يكونُ مَخيطًا، تاج العروس للزبيدي.

فإذا أنا بقبضةٍ من شعيرٍ نحوِ الصَّاعِ، ومِثْلِها قَرَظًا[2949] في ناحيةِ الغُرفةِ، وإذا أَفِيقٌ[2950] مُعَلَّقٌ، قال: فابتدَرَت عيناي[2951]! قال: ما يبكيك يا ابنَ الخطَّابِ؟! قُلتُ: يا نبيَّ اللهِ، وما لي لا أبكي، وهذا الحصيرُ قد أثَّر في جنبِك، وهذه خزانتُك لا أرى فيها إلَّا ما أرى، وذاك قيصَرُ وكِسرى في الثِّمارِ والأنهارِ، وأنت رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصفوتُه، وهذه خزانتُك! فقال: يا ابنَ الخطَّابِ، ألا ترضى أن تكونَ لنا الآخِرةُ ولهم الدُّنيا؟ قُلتُ: بلى...".[2952]

2- وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها قالت لعُروةَ: "ابنَ أُختي، إن كُنَّا لننظُرُ إلى الهلالِ ثلاثةَ أهِلَّةٍ في شَهرينِ، وما أُوقِدَت في أبياتِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نارٌ! فقُلتُ: ما كان يُعَيِّشُكم؟ قالت: الأسودانِ: التَّمرُ والماءُ، إلَّا أنَّه قد كان لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جيرانٌ من الأنصارِ كان لهم منائِحُ [2953]، وكانوا يمنَحون رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أبياتِهم، فيَسْقينا".[2954]

3- وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: "كان فِراشُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أَدَمٍ[2955] وحَشْوُه من ليفٍ".[2956]

4- وعن قتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "كنَّا نأتي أنَسَ بنَ مالكٍ وخَبَّازُه قائِمٌ، قال: كُلُوا، فما أعلَمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى رغيفًا مُرَقَّقًا [2957] حتَّى لحِقَ باللهِ! ولا رأى شاةً سَميطًا [2958] بعينِه قطُّ! ".[2959]

5- وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "لم يأكُلِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على خِوانٍ حتى مات، وما أكل خبزًا مُرَقَّقًا حتَّى مات! ".[2960]

6- وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: "لقد توفِّيَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وما في رَفِّي من شيءٍ يأكُلُه ذو كَبِدٍ إلَّا شَطرُ شَعيرٍ في رَفٍّ لي، فأكَلْتُ منه حتَّى طال عَلَيَّ، فكِلْتُه ففَنِيَ".[2961]

7- وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: "لقد مات رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وما شَبِع من خُبزٍ وزَيتٍ في يومٍ واحدٍ مرَّتَينِ! ".[2962]

8- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لو كان لي مِثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا ما يَسُرُّني أنْ لَا يَمُرَّ عليَّ ثلاثٌ، وعندي منه شيءٌ، إلَّا شيءٌ أرصُدُه لدَينٍ".[2963]

9- وعن عُروةَ عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: "ما أكَل آلُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكلَتَينِ في يومٍ إلَّا إحداهما تَمرٌ! ".[2964]

[2949] القَرَظُ: وَرَقُ السَّلَمِ الذي يُدبَغُ به، يُنظَر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني 395 /7

[2950] الأَفِيقُ: هو الجِلدُ الذي لم يَتِمَّ دِباغُه، يُنظَر: شرح النووي على مسلم 83 /10

[2951] فابتدَرَت عيناي: أي: سالت دموعُها، يُنظَر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم لموسى شاهين لاشين 95 /6

[2952] رواه البخاري 4913، ومسلم 1479 واللفظ له.

[2953] جمعُ منيحةٍ: وهي ناقةٌ أو شاةٌ، تُعطى لينتفِعَ بلَبَنِها ويُعيدَها. وكذلك إذا أعطاه لينتفِعَ بوَبرِها وصُوفِها زمانًا، ثمَّ يَرُدَّها. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 4/364

[2954] رواه البخاري 6459 واللفظ له، ومسلم 2972

[2955] الأَدَمُ: جمعُ أديمٍ، وهو الجِلدُ الذي قد تمَّ دِباغُه وتناهى. تاج العروس للزبيدي

[2956] رواه البخاري 6456 واللفظ له، ومسلم 2082

[2957] رغيفًا مرقَّقًا: أي مُلَيَّنًا مُحَسَّنًا، يُنظَر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض 1/298

[2958] شاةً سميطًا: أي: مَشْوِيَّةً، يُنظَر: لسان العرب لابن منظور

[2959] رواه البخاري 5421

[2960] رواه البخاري 6450

[2961] رواه البخاري 6451 واللفظ له، ومسلم 2973

[2962] رواه مسلم 2974

[2963] رواه البخاري 2389 واللفظ له، ومسلم 991

[2964] رواه البخاري 6455 واللفظ له، ومسلم 2971

10- وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها قالت: "ما شَبِع آلُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من خُبزِ شَعيرٍ يومينِ متتابعينِ، حتَّى قُبِض رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! ".[2965]

11- وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: "ما شَبِع آلُ محمَّدٍ منذُ قَدِمَ المدينةَ من طعامِ بُرٍّ ثلاثَ ليالٍ تِباعًا حتَّى قُبِض! ".[2966]

12- نامَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ علَى حصيرٍ فقامَ وقد أثَّرَ في جنبِهِ فقلنا يا رسولَ اللَّهِ لوِ اتَّخَذنا لَكَ وطاءً فقالَ ما لي وما للدُّنيا، ما أنا في الدُّنيا إلَّا كراكبٍ استَظلَّ تحتَ شجرةٍ ثمَّ راحَ وتركَها.[2967]

ثانيا: القناعةُ عِنْدَ الصَّحابةِ والصَحابِيات رَضِيَ اللهُ عَنْهُم:

لقد سار صحابةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ما كان عَليه، واتَّبَعوا آثارَه، وتخلَّقوا بأخلاقِه، وعاشُوا التَّقشُّفَ[2968] والزُّهدَ في أوَّلِ أمرِهم؛ نظرًا لقِلَّةِ ذاتِ اليدِ، ثمَّ انتشر الإسلامُ وجاءَتهم الغنائمُ وفتح اللهُ عليهم، فلم تؤثِّرْ هذه الأموالُ التي اكتَسَبُوها من الغنائمِ على زُهْدِهم، ولم يتعَلَّقوا بالدُّنيا، إنما كان تعلُّقُهم بالآخرةِ، ونذكُرُ بعضَ النَّماذجِ من قناعةِ الصَّحابةِ:

1- عن ثوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "من تكفَّل لي ألَّا يسألَ أحدًا شيئًا، وأتكفَّلُ له بالجنَّةِ؟ فقال ثوبانُ: أنا، فكان لا يَسأَلُ أحدًا شيئًا".[2969]

2- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "لَقَد رَأَيْتُ سَبْعينَ من أصحابِ الصُّفَّةِ ما منهم رجلٌ عليه رداءٌ، إمَّا إزارٌ وإمَّا كساءٌ قد ربطوا في أعناقِهم؛ فمنها ما يبلُغُ نِصفَ السَّاقَينِ، ومنها ما يبلُغُ الكعبَينِ، فيَجمَعُه بيَدِه، كراهيةَ أن ترى عَورتَه".[2970]

قال ابنُ حَجَرٍ: "قولُه: (لقد رأيتُ سَبْعينَ من أصحابِ الصُّفَّةِ) يُشعِرُ بأنَّهم كانوا أكثَرَ من سَبعين، وهؤلاء الذين رآهم أبو هُريرةَ غَيرُ السَّبعين الذين بعثَهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوةِ بئرِ مَعونةَ، وكانوا من أهلِ الصُّفَّةِ أيضًا، لكِنَّهم استُشهِدوا قبلَ إسلامِ أبي هُرَيرةَ".[2971]

3- وعن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "واللهِ إنِّي لأوَّلُ رجُلٍ من العَرَبِ رمى بسهمٍ في سبيلِ اللهِ، ولقد كنَّا نغزو مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ما لنا طعامٌ نأكُلُه إلَّا ورَقُ الحُبْلةِ[2972]، وهذا السَّمُرُ، حتَّى إنَّ أحَدَنا ليَضَعُ كما تضَعُ الشَّاةُ! ".[2973]

4- وعن مجاهدٍ أنَّ أبا هُرَيرةَ كان يقولُ: "أللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هو إنْ كُنْتُ لأعتَمِدُ بكَبِدي على الأرضِ مِنَ الجُوعِ، وإنْ كنتُ لأَشُدُّ الحَجَرَ على بطني من الجُوعِ، ولقد قعَدْتُ يومًا على طريقِهم الذي يخرُجون منه، فمرَّ أبو بكرٍ فسألتُه عن آيةٍ من

[2965] رواه مسلم 2970

[2966] رواه البخاري 5416، ومسلم 2970

[2967] أخرجه الترمذي 2377 واللفظ له، وابن ماجه 4109، وأحمد 3709

[2968] القَشْفُ: شِدَّةُ العيشِ، والمتقَشِّفُ: الذي يتبلَّغُ بالقوتِ وبالمُرَقَّعِ، يُنظَر: مختار الصحاح لزين الدين الرازي ص: 254، طلبة الطلبة للنسفي 88

[2969] رواه أبو داود 1643 واللفظ له، وأحمد 22374، صحَّحه الحاكم في المستدرك 1500 وقال: على شرط مسلم، وابن عبد البر في التمهيد 4/108، والألباني في صحيح سنن أبي داود 1643، والوادعي على شرط الشيخين في الصحيح المسند 195، والحديثُ رُوِيَ من طريقٍ آخَرَ بلَفظ: ومن يتقبَّلُ لي بواحدةٍ أتقبَّلُ له بالجنَّةِ؟ قلتُ: أنا، قال: لا تسألِ النَّاسَ شيئًا .قال: فكان ثوبانُ يقَعُ سَوطُه وهو راكِبٌ، فلا يقولُ لأحدٍ: ناوِلْنيه، حتى ينزِلَ فيأخُذَه، رواه ابن ماجه 1837 واللفظ له، وأحمد 22423، صحَّحه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه 1837، وشعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 37/ 102، والحديثُ رُوِي بلفظِ: من يَضمَنُ لي واحدةً وأضمَنُ له الجَنَّةَ؟ قال: قُلتُ: أنا يا رسولَ اللهِ. قال: لا تسألِ النَّاسَ شيئًا، قال: فكان سَوطُ ثوبانَ يَسقُطُ وهو على بعيرِه، فيُنيخُ حتَّى يأخُذَه، وما يقولُ لأحَدٍ: ناوِلْنيه، رواه أحمد 22405 واللفظ له، والنسائي 2590 مختصَرًا. صحَّحه الألباني في صحيح سنن النسائي 2590

[2970] رواه البخاري 442

[2971] فتح الباري 1/536

[2972] ثمرةُ فصيلةِ القَطانيات، كالفُول والعدس والفاصوليا وغيرها، وتكون ذات فِلْقتين وبضع بزرات، وهي تَتفتَّح عندما تنضج.

[2973] أخرجه البخاري 6453، ومسلم 2966 واللفظ له.

كِتابِ اللهِ ما سألتُه إلَّا ليُشبِعَني، فمرَّ ولم يفعَلْ، ثُمَّ مرَّ بي عُمَرُ فسألتُه عن آيةٍ مِن كِتابِ اللهِ ما سألتُه إلَّا ليُشبِعَني، فمرَّ ولم يفعَلْ، ثُمَّ مرَّ أبو القاسمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فتبسَّم حينَ رآني، وعرَف ما في نفسي وما في وجهي، ثُمَّ قال: يا أبا هِرٍّ، قُلتُ: لبَّيك يا رسولَ اللهِ. قال: الحَقْ، ومضى فتبِعْتُه، فدخل فاستأذن فأَذِنَ لي، فدخل فوجد لبنًا في قَدَحٍ، فقال: مِنْ أين هذا اللَّبنُ؟ قالوا: أهداه لك فلانٌ أو فلانةُ، قال: أبا هِرٍّ، قُلتُ: لبَّيك يا رسولَ اللهِ، قال: الحَقْ إلى أهلِ الصُّفَّةِ فادْعُهم لي، قال: وأهلُ الصُّفَّةِ أضيافُ الإسلامِ لا يأوُون إلى أهلٍ ولا مالٍ ولا على أحدٍ، إذا أتته صَدَقةٌ بعث بها إليهم ولم يتناوَلْ منها شيئًا، وإذا أتته هَدِيَّةٌ أرسَلَ إليهم وأصاب منها وأَشركَهم فيها، فساءني ذلك، فقلتُ: وما هذا اللَّبَنُ في أهلِ الصُّفَّةِ؟! كُنتُ أَحقَّ أن أُصيبَ من هذا اللَّبَنِ شَربةً أتقوَّى بها! فإذا جاء أمرَني فكنتُ أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلُغَني من هذا اللَّبَنِ؟! ولم يَكُنْ من طاعةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه بُدٌّ، فأتيتُهم فدعوتُهم، فأقبلوا فاستأذنوا فأذِنَ لهم، وأخذوا مجالِسَهم من البيتِ، قال: أبا هِرٍّ، قلتُ: لبَّيك يا رسولَ اللهِ، قال: خُذْ فأعطِهم، قال: فأخذتُ القَدَحَ فجَعَلْتُ أُعطيه الرَّجُلَ فيَشرَبُ حتى يَروَى، ثُمَّ يرُدُّ عَلَيَّ القَدَحَ، فأُعطي الرَّجُلَ فيَشرَبُ حتى يَروَى، ثُمَّ يرُدُّ عليَّ القَدَحَ، حتى انتهيتُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقد رَوِيَ القومُ كُلُّهم، فأخذ القَدَحَ فوضَعه على يَدِه، فنظر إليَّ فتبسَّم! فقال: يا أبا هِرٍّ! قُلتُ: لبَّيك يا رسولَ اللهِ، قال: بَقِيتُ أنا وأنت، قلتُ: صَدَقْتَ يا رسولَ اللهِ، قال: اقعُدْ فاشرَبْ، فقعَدْتُ فشَرِبتُ، فما زال يقولُ: اشرَبْ، حتى قُلتُ: لا والذي بعثَك بالحقِّ ما أجِدُ له مَسلكًا! قال: فأَرِني، فأعطيتُه القَدَحَ، فحَمِد اللهَ وسَمَّى وشَرِبَ الفَضْلةَ".[2974]

5- وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: "بعَثَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأمَّر علينا أبا عُبَيدةَ، نتلقَّى عِيرًا[2975] لقُرَيشٍ، وزوَّدنا جِرابًا من تمرٍ لم يجِدْ لنا غيرَه، فكان أبو عُبَيدةَ يُعطينا تمرةً تمرةً، قال: فقُلتُ: كيف كنتُم تصنَعون بها؟! قال: نَمَصُّها كما يَمَصُّ الصَّبيُّ، ثمَّ نشرَبُ عليها من الماءِ، فتكفينا يومَنا إلى اللَّيلِ! وكنَّا نضرِبُ بعِصِيِّنا الخَبَطَ، ثمَّ نَبُلُّه بالماءِ فنأكُلُه!".[2976]

وقولُه: (كنَّا نضرِبُ بعِصِيِّنا الخَبَطَ): وهو أن نضرِبَ الشَّجَرَ بعصًا لتتحاتَّ وَرَقُه، واسمُ الوَرَقِ المخبوطِ خَبَطٌ، وهو من عَلَفِ الإبِلِ.[2977]

6- ورد عن جابِر في الموطأ[2978] قال: رأى عُمَر بن الخطاب لَحْماً مُعَلَّقاً بِيَدي، فقال: ما هذا يا جابِر؟ قُلْتُ: اشْتَهَيْتُ لحماً فاشْتَرَيْتُهُ، فقال: أو كُلَّما اشْتَهَيْتَ اشْتَرَيْتَ يا جابِر! أما تَخافُ هذه الآية: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا} [الأحقاف: 20]

7- أُهْدِيَتْ إِلَى السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- سلالًا مِنْ عِنَبٍ، فَأَخَذَتْ تَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَكَانَت جَارِيَتِهَا قَدْ أَخَذَتْ سَلَّةٌ مِنْ هَذِهِ السِّلَال وأَخْفَتْهَا عَنْهَا، وَفِي الْمَسَاء أَحْضَرَتْهَا، فَقَالَتْ لَهَا السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ -رضي الله عنها-: مَا هَذَا؟ فَأَجَابَت الْجَارِيَة: ادْخَرْتُهُ لِنَأْكُلَهُ، فَقَالَت رضي الله عنها: أَمَّا يَكْفِي عُنْقُود أَو عنقودان؟

8- عن حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ سَأَلْتُ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فأعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فأعْطَانِي، ثُمَّ قالَ: يا حَكِيمُ، إنَّ هذا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَن أَخَذَهُ بسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ له فِيهِ، ومَن أَخَذَهُ بإشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ له فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ ولَا يَشْبَعُ، اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، قالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ لا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شيئًا حتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فكانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنه يَدْعُو حَكِيمًا إلى العَطَاءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ منه، ثُمَّ إنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ

[2974] أخرجه البخاري 6452

[2975] العِيرُ: الإبِلُ تحمِلُ الطَّعامَ أو التِّجارةَ، لا تُسَمَّى عِيرًا إلَّا بذلك، يُنظَر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض 3/ 262

[2976] أخرجه مسلم 1935

[2977] إكمال المعلم للقاضي عياض 6/375

[2978] الموطأ 936

عنه دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ، فأبَى أَنْ يَقْبَلَ منه شيئًا، فَقالَ عُمَرُ: إنِّي أُشْهِدُكُمْ يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ علَى حَكِيمٍ؛ أَنِّي أَعْرِضُ عليه حَقَّهُ مِن هذا الفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى تُوُفِّيَ.[2979]

إنَّ المالَ مِن فِتَنِ الحياةِ الدُّنيا التي يَنْبغي لِلمُؤمِنِ أنْ يَصُونَ نفْسَه عن الحِرصِ عليه، ويَحترِزَ مِن أنْ يَطلُبَه بغَيرِ ما أحلَّ اللهُ، أو يُنفِقَه في غَيرِ مَرضاتِه، وفي هذا الحَديثِ:

يُرشِدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حَكِيمَ بنَ حِزامِ بنِ خُوَيلِدٍ رَضيَ اللهُ عنه إلى الطَّريقِ الأمْثَلِ لأخْذِ المالِ؛ وذلك عِندَما سَأَله حَكِيمُ بنُ حِزامٍ أنْ يُعطِيَه فأَعْطَاه ثَلاثَ مرَّاتٍ، ثُمَّ قال له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (يا حَكِيمُ، إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ)، يعني: كالفاكِهةِ الخَضِرةِ في المَنْظَرِ، الحُلْوةِ في المَذاقِ؛ ولذلك تَرْغَبُه النُّفوسُ وتَميلُ إليه وتَحرِصُ عليه؛ فإنَّ الأخضَرَ مَرغوبٌ مِن حيثُ النَّظَرُ، والحُلْوَ مِن حيثُ الذَّوقُ، فإذا اجتَمَعَا زادَا في الرَّغبةِ؛ (فَمَنْ أخَذَه بسَخاوةِ نَفْسٍ بُورِكَ له فيه)، أي: إنَّ مَن أَخَذ المالَ الذي يُبذَلُ له بغَيرِ إلْحاحٍ في السُّؤالِ، ولا طَمَعٍ ولا حِرْصٍ، ولا إكراهٍ أو إحراجٍ للمُعطِي؛ كَثُر ونَما، وكان رِزْقًا حَلالًا يَشْعُر بِلَذَّتِه، (ومَن أَخَذَه بإشرافِ نَفْسٍ لم يُبارَكْ له فيه)، يعني: ومَن أَخَذه بإلحاحٍ في السُّؤالِ، وتَطلُّعٍ لِمَا في أيدِي غيرِه، وشِدَّةِ حِرْصٍ على تَحصِيلِه، مع إكراهِ المُعطِي وإحراجِه؛ لمْ يَكُنْ له فيه بَرَكةٌ؛ لأنَّه لمْ يَمنَعْ نفْسَه عن المَسألةِ التي هي مَذمومةٌ شَرْعًا، فعُوقِبَ بعَدَمِ البَرَكةِ فيما أَخَذَ، (وكان كالذي يَأكُلُ ولا يَشْبَعُ)، فلا يَقْنَعُ بما يَأْتِيه؛ فكُلَّما ازْدادَ أكْلًا ازْدادَ جُوعًا، وكُلَّما جَمَع مِن المالِ شيئًا ازْدادَ رَغبةً في غَيرِه، وازدادَ شُحًّا وبُخْلًا بِما في يَدِه وحِرصًا عليه، ثمَّ قال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (اليَدُ العُلْيا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى)، أي: إنَّ الإنسانَ الذي يُعطِي خَيرٌ مِن الإنسانِ الذي يَأخُذُ؛ فاليدُ العُلْيا هي اليدُ المُنفِقةُ المُعطِيةُ، واليدُ السُّفلَى هي اليدُ الآخِذةُ.

فلمَّا سَمِعَ حَكِيمٌ رَضيَ اللهُ عنه هذه الوَصِيَّةَ مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: (يا رَسولَ الله، والذي بَعَثَك بالحقِّ، لا أَرْزَأُ أحدًا بعْدَك شيئًا حتَّى أُفارِقَ الدُّنيا)، يعني: أُقسِمُ أنِّي لنْ أَنقُصَ أحدًا مِن مالِه شَيئًا بالطَّلَبِ منه، يُرِيد أنَّه لنْ يَأخُذَ مِن أحدٍ شيئًا بعْدَ ذلك، فكان رَضيَ اللهُ عنه لا يَأخُذُ مِن الفَيْءِ -وهو ما أُخِذَ مِن الكُفَّار مِن غَيرِ قِتالٍ- شيئًا بعْدَ ذلك في زَمَنِ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضيَ اللهُ عنه، وفي زَمَنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضيَ اللهُ عنه، حتَّى إنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضيَ اللهُ عنه لَمَّا عَرَض عليه مِنَ الفَيْءِ وأَبَى؛ أَشْهَدَ الناسَ عليه أنَّه يَعرِضُ عليه مِن الفَيْءِ، فيَأْبَى أنْ يَأخُذَ منه شَيئًا؛ وذلك حتَّى لا يَظُنَّ أحَدٌ أنَّ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنه ظَلَمَه أو مَنَعَه مِن حَقِّه في الفَيءِ؛ ولأنَّه خَشِيَ سُوءَ التَّأويلِ، فَأرادَ تَبْرِئَةَ ساحتِه بالإشهادِ عليه، وظَلَّ حَكيمٌ على حالِه لا يَسأَلُ أحدًا شيئًا حتَّى تُوُفِّيَ رَضيَ اللهُ عنه لعَشْرِ سِنينَ مِن إمارةِ مُعاوِيَةَ، عمَلًا بوَصيَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُبالَغةً في الاحترازِ؛ إذ مُقْتضى الجِبِلَّةِ الإشرافُ والحِرصُ، والنَّفسُ سَرَّاقةٌ، ومَن حامَ حَولَ الحِمى يُوشِكُ أنْ يَقَعَ فيه.

وفي الحديثِ: أنَّ سُؤالَ السُّلطانِ أو الإمامِ ليس بِعَارٍ.

وفيه: أنَّ السَّائلَ إذا أَلْحَفَ لا بَأْسَ بِرَدِّه ووَعْظِه وأَمْرِه بالتَّعفُّفِ وتَرْكِ الحِرْصِ.

وفيه: أنَّ الإنسانَ لا يَسأَلُ إلَّا عندَ الحاجةِ والضَّرُورةِ.

وفيه: أنَّ الأخْذَ مع سَخاوةِ النَّفْسِ يَحصُلُ معه أجْرُ الزُّهْدِ، والبَرَكةُ في الرِّزقِ.

وفيه: فَضيلةٌ ظاهرةٌ لحَكيمِ بنِ حِزامٍ رَضيَ اللهُ عنه.

وفيه: ذَمُّ الحِرصِ والشَّرَهِ إلى الاستِكثارِ مِن المالِ.

وفيه: التَّرغيبُ في الاستعفافِ عن السُّؤالِ والقَناعةِ والرِّضا بالقليلِ.

وفيه: أنَّ اليَدَ المُعطيةَ خَيرٌ عندَ اللهِ مِن اليَدِ السائلةِ.[2980]

[2979] صحيح البخاري 1472

9- كان سَلْمَانُ الْفَارِسِيّ -رضي الله عنه- وَالِيًا عَلَى إِحْدَى الْمُدُن، وَكَان رَاتِبهُ خَمْسَةُ آلَافِ دِرْهَم يَتَصَدَّقُ بِهَا جميعًا، وَكَان يَشْتَرِي خوصًا بِدِرْهَم، فَيَصْنَعُ بِهِ آنِيَة فَيَبِيعُهَا بِثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ؛ فَيَتَصَدَّق بِدِرْهَم، وَيَشْتَرِي طعامًا لِأَهْلِه بِدِرْهَم، وَدِرْهَم يُبْقِيه لِيَشْتَرِيَ بِهِ خوصًا جديدًا.

ثالثا: من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ عَنْ القَنَاعَةِ:

- قال عبدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: "القناعةُ مالٌ لا نفادَ له".[2981]
- وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه: "الرِّزقُ رِزقانِ: فرِزقٌ تَطلُبُه، ورِزقٌ يَطلُبُك، فإنْ لم تأتِه أتاك".[2982]
- وقال سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ لابنِه: "يا بُنَيَّ، إذا طلَبْتَ الغِنى فاطلُبْه بالقناعةِ؛ فإنَّه من لم يكُنْ له قناعةٌ لم يُغْنِه مالٌ".[2983]
- وقال زينُ العابدينَ عليُّ بنُ الحسينِ: "مَن قنِع بما قسَم الله له فهو مِن أغنَى النَّاسِ".[2984]
- وقال عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ: "الفِقهُ الأكبَرُ القناعةُ، وكَفُّ اللِّسانِ".[2985]
- وقال عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ أيضًا: "مَن وَعَظ أخاه بنصيحةٍ له في دينِه، ونَظَر له في صلاحِ دُنياه، فقد أحسَنَ صِلَتَه، وأدَّى واجِبَ حَقِّه، فاتَّقوا اللهَ؛ فإنَّها نصيحةٌ لكم في دينِكم فاقبَلوها، وموعظةٌ مُنجيةٌ من العواقِبِ فالزَموها؛ فالرِّزقُ مقسومٌ، ولن يَعدوَ المرءُ ما قُسِمَ له، فأجمِلوا في الطَّلَبِ؛ فإنَّ في القُنوعِ سَعةً وبُلغةً، وكفًّا عن كُلفةٍ".[2986]
- وقال أكثَمُ بنُ صَيفيٍّ لابنِه: "يا بُنَيَّ، من لم يَأْسَ على ما فاته ودعَ بدنه، ومن قَنِع بما هو فيه قرَّت عينُه".[2987]
وقال أكثَمُ أيضًا: "من رَضِيَ بالقَسمِ طابت معيشتُه، ومن قَنِع بما هو فيه قرَّت عينُه".[2988]
- وعن محمَّدِ بنِ عَليٍّ الكتَّانيِّ قال: "من باع الحِرصَ بالقناعةِ، ظَفِر بالعِزِّ والمروءةِ".[2989]
- وقال بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المُزَنيُّ: "يكفيك من الدُّنيا ما قَنِعْتَ به، ولو كَفَّ تمرٍ، وشَربةَ ماءٍ، وظِلَّ خِباءٍ، وكلَّما انفَتَح عليك من الدُّنيا شيءٌ ازدادت نفسُك به تعَبًا! ".[2990]
- وقال أبو سُليمانَ الدَّارانيُّ: "إنَّ قومًا طَلَبوا الغِنى فحَسِبوا أنَّه في جمعِ المالِ، ألا وإنَّما الغِنى في القناعةِ، وطلَبوا الرَّاحةَ في الكثرةِ، وإنما الرَّاحةُ في القِلَّةِ، وطلَبوا الكرامةَ من الخَلقِ، ألا وهي في التَّقوى، وطلَبوا النِّعمةَ في اللِّباسِ الرَّقيقِ واللَّيِّنِ وفي طعامٍ طَيِّبٍ، والنِّعمةُ في الإسلامِ السَّترُ والعافيةُ".[2991]
- وعن أبي سُلَيمانَ أنَّه قال: "سمعتُ أختي تقولُ: الفُقراءُ كُلُّهم أمواتٌ إلَّا من أحياه اللهُ تعالى بعِزِّ القناعةِ، والرِّضا بفَقرِه".[2992]

[2980] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.
[2981] ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد 160/3
[2982] المصدر السابق.
[2983] رواه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم 1843، وابن عساكر في تاريخ دمشق 363/20
[2984] حلية الأولياء لأبي نعيم 3/ 135
[2985] أدب المجالسة وحمد اللسان لابن عبد البر ص: 87
[2986] القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا ص: 64
[2987] روضة العقلاء لابن حبان ص: 149. ويُنظر: أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني ص418
[2988] القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا ص: 59
[2989] الزهد الكبير للبيهقي 92
[2990] القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا ص: 62
[2991] الزهد الكبير للبيهقي ص: 80
[2992] صفة الصفوة لابن الجوزي 2/431

- وعن الحَسَنِ قال: "لا تزالُ كريمًا على النَّاسِ -أو لا يزالُ النَّاسُ يُكرِمونك- ما لم تُعاطِ ما في أيديهم، فإذا فعَلْتَ ذلك استخَفُّوا بك، وكَرِهوا حديثَك وأبغَضوك".[2993]

- وقال أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ أبي سليمانَ الصوَّافُ: "ليس شيءٌ أروحَ على الإنسانِ مِن الزُّهدِ في الدُّنيا، ولا للقلوبِ أروحَ مِن القناعةِ".[2994]

- وقال ابنُ الجوزيّ: "من قَنِع طاب عَيشُه، ومن طَمِع طال طَيشُه".[2995]

- قال بعضُ الحُكَماءِ: "ثمرةُ القناعةِ الرَّاحةُ، وثمرةُ التَّواضُعِ المحبَّةُ".[2996]

- قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ الله جَوْهَر المَرْءِ في ثَلاث: كِتْمانُ الفَقْر، حَتى يَظُنَّ النَّاسُ مِن عَفَّتِكَ أَنَّكَ غَني، وكِتْمانُ الغَضَب حتى يَظُنَّ النَّاسُ أَنَّكَ راضٍ، وكِتمان الشِّدَة، حتى يَظُنَّ النَّاسُ أَنَّكَ مُتَنَعِّمٌ.[2997]

- قناعةُ أبي حازمٍ: قال زمعةُ بنُ صالحٍ: "كَتب إلى أبي حازمٍ بعضُ بني أميَّةَ يَعزِمُ عليه إلَّا رفَع إليه حوائجَه، فكتب إليه: أمَّا بعدُ؛ فقد جاءني كتابُك تعزِمُ عليَّ أن أرفَعَ إليك حوائجي، وهَيْهاتَ! قد رفَعْتُ حوائجي إلى ربِّي، ما أعطاني منها قَبِلْتُ، وما أمسَكَ عليَّ منها قَنِعْتُ".[2998]

- قال أبو حاتم رحمه الله: "القَناعَةُ تَكُونُ بالقَلبِ فَمَنْ غَنِيَ قَلْبُهُ غَنِيَت يَداه ومَن افْتَقَرَ قَلْبُهُ لم يَنْفَعْهُ غِناه ومَن قَنِعَ لم يَتَسَخَّطْ وعاشَ آمِنا مُطْمَئِنا".[2999]

المطلب الخامس: ثَمَرَاتُ القَنَّاعَةِ

1- سَبَبٌ لنَيلِ محبَّةِ اللهِ.
2- علامةُ كَمالِ الإيمانِ.
3- تجعَلُ الإنسانَ يعيشُ حياةً هَنيئةً طَيِّبةً.
4- تُشيعُ المودَّةَ، وتنشُرُ المحبَّةَ بَينَ النَّاسِ.
5- تُكسِبُ الإنسانَ قوَّةَ الإيمانِ باللهِ، والثِّقةَ به، والرِّضا بما قُسِم له.
6- سَبيلٌ لراحةِ النَّفسِ، والبُعدِ عن الهُمومِ.
7- وقايةٌ من الغِيبةِ والنَّميمةِ والحَسَدِ.
8- طريقٌ مُوصِلٌ إلى الجنَّةِ.
9- سببٌ للبركةِ.
10- عِزٌّ للنَّفسِ.
11- تُكسِبُ صاحِبَها غنى النَّفسِ.
12 فيها تحقيقٌ لشُكرِ اللهِ تعالى على نِعَمِه.
13- تعفُّفٌ عمَّا في أيدي النَّاسِ.[3000]

[2993] حلية الأولياء لأبي نعيم 3/20
[2994] ترتيب المدارك للقاضي عياض 4/ 369
[2995] تذكرة الحفاظ للذهبي 4/ 94
[2996] تنبيه الغافلين للسمرقندي ص: 185
[2997] مناقب الشافعي للبيهقي 188/2
[2998] القناعة لابن السني ص: 40
[2999] روضة العقلاء ١٥١
[3000] نضرة النعيم لمجموعة من الباحثين 8/3235، الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني 2/363-365

المطلب السادس: دَرَجاتُ القناعةِ

قال الماوَرْديُّ: "والقناعةُ قد تكونُ على ثلاثةِ أوجُهٍ:

فالوَجهُ الأوَّلُ: أن يَقنَعَ بالبُلغةِ من دُنياه، ويَصرِفَ نفسَه عن التَّعرُّضِ لِما سواه، وهذا أعلى منازِلِ القناعةِ.

والوَجهُ الثَّاني: أن تنتهِيَ به القناعةُ إلى الكفايةِ، ويحذِفَ الفُضولَ والزِّيادةَ، وهذه أوسَطُ حالِ المقتَنِعِ.

والوَجهُ الثَّالثُ: أن تنتهِيَ به القناعةُ إلى الوقوفِ على ما سنَح، فلا يَكرَهُ ما أتاه وإن كان كثيرًا، ولا يطلُبُ ما تعذَّر وإن كان يسيرًا، وهذه الحالُ أدنى منازِلِ أهلِ القناعةِ؛ لأنَّها مُشْتَرِكَةٌ بَينَ رغبةٍ ورهبةٍ؛ أمَّا الرَّغبةُ فلأنَّه لا يكرَهُ الزِّيادةَ على الكفايةِ إذا سنَحَت، وأمَّا الرَّهبةُ فلأنَّه لا يَطلُبُ المتعَذِّرَ عن نقصانِ المادَّةِ إذا تعذَّرَت".[3001]

المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ الرضا والقناعةِ

1- القناعةُ باليسيرِ من الدُّنيا؛ إذ هي دارُ زَوالٍ لا بقاءَ فيها.

2- القناعةُ بالرِّزقِ وإن كان قليلًا؛ فإنَّ غِنى الإنسانِ الحقيقيّ في قناعتِه بما رزقه اللهُ من حلالٍ طَيِّبٍ، وغنى نفسِه وقَلبِه بعطيَّةِ اللهِ سُبحانَه.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "ليس الغِنى عن كثرةِ العَرَضِ، ولكِنَّ الغِنى غِنى النَّفسِ".[3002]

قال السَّعديُّ: "فإنَّه ليس الغِنى عن كثرةِ العَرَضِ، إنَّما الغِنى غِنى القَلبِ، فكم من صاحبِ ثروةٍ، وقلبُه فقيرٌ متحَسِّرٌ! وكم من فقيرِ ذاتِ اليَدِ، وقلبُه غنيٌّ راضٍ، قانِعٌ برِزقِ اللهِ! فالحازِمُ إذا ضاقت عليه الدُّنيا لم يجمَعْ على نفسِه بَينَ ضِيقِها وفَقرِها، وبينَ فَقرِ القَلبِ وحَسرتِه وحُزنِه، بل كما يسعى لتحصيلِ الرِّزقِ فلْيَسْعَ لراحةِ القَلبِ، وسُكونِه وطُمَأنينتِه".[3003]

3- القناعةُ بالصُّورةِ التي خَلَق اللهُ الإنسانَ عليها.

4- القناعةُ باليسيرِ من الطَّعامِ والشَّرابِ دونَ طَلَبِ التَّوسُّعِ في ألوانِ الطَّعامِ والشَّرابِ ولا في قَدرِهما.

5- القناعةُ بما يبقى للإنسانِ إذا تولَّى توزيعَ طعامٍ أو شرابٍ؛ عن أبي قتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "ساقي القومِ آخِرُهم شُربًا".[3004]

6-القناعةُ عندَ السُّؤالِ، بتركِ الطَّمَعِ أو المبالغةِ في الطَّلَبِ.

عن حكيمِ بنِ حزامٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: "سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأعطاني، ثمَّ سألتُه فأعطاني، ثمَّ سألتُه فأعطاني، ثمَّ قال: يا حكيمُ، إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلوةٌ، فمَن أخَذه بطِيبِ نَفسٍ بورِكَ له فيه، ومَن أخَذه بإشرافِ نَفسٍ لم يُبارَكْ له فيه، وكان كالذي يأكُلُ ولا يشبَعُ".[3005]

قال القاضي عياضٌ: "في هذا الحديثِ وغيرِه ذَمُّ الحِرصِ وكثرةِ السُّؤالِ، وكثرةُ عَطاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه كان لا يَرُدُّ سائِلًا، وفضلُ القناعةِ والإجمالِ في الطَّلَبِ".[3006]

7- القناعةُ في الملبَسِ فلا يتطلَّعُ إلى الفاخِرِ منها، غالي الثَّمَنِ.

قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "البَذاذةُ من الإيمانِ".[3007]

[3001] أدب الدنيا والدين ص: 126-127

[3002] أخرجه البخاري 6446، ومسلم 1051

[3003] بهجة قلوب الأبرار ص: 167

[3004] أخرجه مسلم 681

[3005] أخرجه البخاري 1472 واللفظ له، ومسلم 1035

[3006] إكمال المعلم 3/568

"قَولُه: (البَذاذةُ) يقالُ: باذُّ الهيئةِ وبَذُّ الهيئةِ، أي: رَثُّ اللُّبسةِ، وقولُه: (من الإيمانِ)؛ فإنَّ الإيمانَ بالآخرةِ ونعيمِها وحُلَلِها وخَساسةِ مَتاعِ الدُّنيا وفنائِها: هو الباعِثُ على الزُّهدِ في الدُّنيا، والاكتفاءِ بأدنى شيءٍ منه".[3008]

قال القاريُّ: "البَذاذةُ: وهي القناعةُ بالدُّونِ من الثِّيابِ لا تُنافي النَّظافةَ".[3009]

8- القناعةُ بالمستوى الاجتماعيّ والقُدراتِ المادِّيَّةِ لأسرتِه دونَ التَّسخُّطِ أو التَّذمُّرِ.

9- القناعةُ بما رزَقه اللهُ من زوجةٍ، وتَرْكُ التَّطلُّعِ إلى غيرِها من الأجنبيَّاتِ.

المطلب الثامن: فَضْلُ القَنَاعَةِ

القَنَاعَةُ لهَا فَضَائِلٌ جَلِيلَةٌ، وَتَجْمَعُ لِلْعَبْدِ مِنْ خَيْرِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، وَمِنْهَا أنَّ:

1- القناعة سبب البركة:

فهي كنز لا ينفد، وقد أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أنها أفضل الغنى، فقال: "ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس".[3010]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن أصبحَ منكم آمنًا في سربِهِ ، مُعافًى في جسدِهِ عندَهُ قوتُ يومِهِ ، فَكَأنَّما حيزت لَهُ الدُّنيا".[3011]

فالمسلم عندما يشعرُ بالقناعة والرضا بما قسمه الله له؛ يكونُ غنيًا عن الناسِ، عزيزًا بينهم، لا يذل لأحد منهم.

أما طمع المرء، ورغبته في الزيادة يجعله ذليلاً إلى الناس، فاقدًا لعزته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وارْضَ بما قسم الله لك تكنْ أغنى الناس".[3012]

والإنسان الطماع لا يشبع أبدًا، ويلح في سؤال الناس، ولا يشعر ببركة في الرزق، قال الله صلى الله عليه وسلم: „لا تُلْحِفُوا في المَسْأَلَةِ، (أي: لا تُلحوا في المسألة)، فَواللَّهِ، لا يَسْأَلُنِي أحَدٌ مِنكُم شيئًا، فَتُخْرِجَ له مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شيئًا، وأنا له كارِهٌ، فيُبارَكَ له فِيما أعْطَيْتُهُ".[3013]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وابْدَأْ بمَن تَعُولُ، وخَيْرُ الصَّدَقَةِ عن ظَهْرِ غِنًى، ومَن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، ومَن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ".[3014]

2- القناعة طريق الجنة:

بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن المسلم القانع الذي لا يسأل الناس ثوابُه الجنة، فقال: "مَن يَكْفُلُ لي أن لا يسألَ النَّاسَ شيئًا وأتَكَفَّلُ لَه بالجَنَّةِ فقالَ ثَوبانُ: أنا فكانَ لا يسألُ أحدًا شيئًا".[3015]

3- القناعة عزة للنفس:

القناعة تجعل صاحبها حرًّا؛ فلا يتسلط عليه الآخرون، أما الطمع فيجعل صاحبه عبدًا للآخرين، وقد قال الإمام علي-

---

[3007] أخرجه من طُرُقٍ: أبو داود 4161، وابن ماجه 4118، وأحمد 58 39/493 من حديثِ أبي أُمامةَ الحارثيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، صحَّحه ابن حجر في فتح الباري 10/381، والألباني في صحيح سنن أبي داود 4161، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود 4161

[3008] لمعات التنقيح 7/355

[3009] مرقاة المفاتيح 7/ 2784

[3010] أخرجه البخاري (6446)، ومسلم(1051)

[3011] أخرجه الترمذي (2346) واللفظ له، وابن ماجه (4141)

[3012] أخرجه الترمذي (2305) واللفظ له، وابن ماجه (4217) مختصراً، وأحمد (8095) باختلاف يسير

[3013] صحيح مسلم (1038)

[3014] صحيح البخاري (1427)

[3015] صحيح أبي داود (1643)

رضي الله عنه-: "الطمع رق مؤبد" (أي: عبودية دائمة).
وقال أحد الحكماء: "من أراد أن يعيش حرًّا أيام حياته؛ فلا يسكن قلبَه الطمعُ".
وقيل: "عز من قنع، وذل من طمع".
وقيل: "العبيد ثلاثة: عبد رِقّ، وعبد شهوة، وعبد طمع".

4- القناعة سبيل للراحة النفسية:

المسلم القانع يعيش في راحة وأمن واطمئنان دائم، أما الطماع فإنه يعيش مهمومًا، ولا يستقر على حال.
وفي الحديث القدسي: "يابن آدم تفرغْ لعبادتي أملأ صدرك غِنًى، وأَسُدَّ فقرك، وإن لم تفعل، ملأتُ صدرك شُغْلا، ولم أسُدَّ فقرك".[3016]
وقال أحد الحكماء: "سرور الدنيا أن تقنع بما رُزِقْتَ، وغمها أن تغتم لما لم ترزق".

المطلب التاسع: موانِعُ اكتسابِ القناعةِ

1- الإكثارُ من مجالسةِ ذَوي الأموالِ والمُترَفينَ.
2- طَلَبُ الزِّيادةِ عن الكفايةِ، والتَّوسُّعُ في جمعِ الأموالِ.
3- تركُ قراءةِ القرآنِ الكريمِ وتدَبُّرِ آياتِه.
4- تركُ قراءةِ السِّيرةِ النَبَوية وسِيَرِ الصَّالحين.
قِلَّةُ تذكُّرِ الموتِ والدَّارِ الآخِرةِ.
5- الانغِماسُ في شَهَواتِ الدُّنيا.
6- التَّوسُّعُ في المباحاتِ والإكثارُ منها.
7- إطلاقُ البَصَرِ.

المطلب العاشر: الوسائِلِ المُعينةِ على اكتِسابِ القناعةِ

1- اكتِفاءُ الإنسانِ بما رُزِق.
2- الاطِّلاعُ على سيرةِ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم وسيرة السَّلَفِ الصَّالحِ، وزهدِهم وقناعتِهم، والاقتداءُ بهم.
3- الاقتِصادُ في الإنفاقِ، وعَدَمُ الإسرافِ والتَّبذيرِ.
4- الإلحاحُ في الدُّعاءِ بأن يرزُقَه اللهُ القناعةَ.
عن عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أنَّه كان يقولُ: "اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك الهُدى والتُّقى، والعَفافَ والغِنى".[3017]
قال السَّعديُّ: "هذا الدُّعاءُ من أجمَعِ الأدعيةِ وأنفَعِها، وهو يتضَمَّنُ سُؤالَ خيرِ الدِّينِ وخَيرِ الدُّنيا والعَفافُ والغِنى يتضَمَّنُ العَفافَ عن الخَلقِ، وعَدَمَ تعليقِ القَلبِ بهم، والغِنى باللهِ وبرِزقِه، والقناعةَ بما فيه، وحصولَ ما يَطمَئِنُّ به القلبُ من الكفايةِ، وبذلك تتِمُّ سعادةُ الحياةِ الدُّنيا، والرَّاحةُ القلبيَّةُ، وهي الحياةُ الطَّيِّبةُ؛ فمَن رُزِق الهُدى والتُّقى والعفافَ والغِنى، نال السَّعادتينِ، وحَصَل له كُلُّ مطلوبٍ، ونجا من كُلِّ مرهوبٍ".[3018]
5- الإيمانُ الجازِمُ بأنَّ الأرزاقَ مُقدَّرةٌ مقسومةٌ.

[3016] أخرجه الترمذي (2466)، وابن ماجه (4107)، وأحمد (8681) مختصراً، والحاكم (3657) باختلاف يسير.
[3017] أخرجه مسلم 2721
[3018] بهجة قلوب الأبرار ص: 205

6- تعويدُ النَّفسِ والأهل على القناعةِ، والبُعدِ عن الحِرصِ والطَّمَعِ.
7- تقويةُ الإيمانِ باللهِ تعالى.
8- النَّظَرُ إلى من هو أقلُّ منه في الرِّزقِ، ولا ينظُرُ إلى من هو أعلى منه.
قال رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إذا نظَر أحَدُكم إلى من فُضِّل عليه في المالِ والخَلقِ، فلْيَنظُرْ إلى من هو أسفَلَ منه".[3019]

فقد "أرشَدَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذا الحديثِ إلى الطَّريقِ الذي يورِثُنا القناعةَ، ويملأُ نفوسَنا بالرِّضا، ويُعَرِّفُنا نِعَمَ اللهِ علينا؛ لنَقومَ بشُكرِها الواجبِ، فيَزيدَنا من نِعَمِه، ذلك الطَّريقُ أن ننظُرَ إلى من هو دونَنا في أعراضِ الحياةِ الدُّنيا دونَ مَن هو فوقَنا فيها؛ لأنَّ ذلك يدعو إلى الاعترافِ بنعمةِ اللهِ علينا وإكبارِها والشُّكرِ عليها، لا احتقارِها والاستهانةِ بها".[3020]

9- الاعتقادُ بأنَّ اللهَ سُبحانَه جعَل التَّفاوُتَ في الأرزاقِ بَينَ النَّاسِ لِحكمةٍ يَعلَمُها.
10- تذكُّرُ الموتِ وزيارةُ القُبورِ.
11- قراءةُ القرآنِ والتَّأمُّلُ في الآياتِ القرآنيَّةِ التي تناولت قضيَّةَ الرِّزقِ والمعيشةِ.
12 أن يعلَمَ أنَّ في القناعةِ عِزَّةً للنَّفسِ، وأنَّ في الطَّمَعِ ذُلًّا ومهانةً.
13- أن يَعرِفَ أنَّ في جمعِ المالِ انشغالَ القَلبِ به.
14- الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم لأمره واليقين بأنه المعطي المانع، وأن تدبيره للإنسان أفضل من تدبير الإنسان لنفسه.
15- التدرب على اكتساب هذا الخُلق ولو بتكلف وتصنع في البداية حتى يصير سجيةً وصفةً أصليةً في الشخص، وفي الحديث: "من يستعفف يعفه الله".[3021]
16- أن يعلم أن القناعة مصدر عظيم للقوة، والإنسان يحب أن يكون قوياً، ولا يكون قوياً إلا إذا كان قنوعاً، ولا يذل الإنسان مثل الطمع. ورحم الله الشافعي القائل:

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً.. وإذا مت لست أعدم قبراً
همتي همة الملوك ونفسي.. نفس حر ترى المذلة كفراً
وإذا ما قنعت بالقوت عمري.. فلماذا أخاف زيداً وعمراً.

17- أن يعلم أن ما كان عاجزاً عنه شرعاً وقدراً فطلبه وتمنيه مما نهى الله تعالى عنه بقوله: {وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ} [النساء:32].

المطلب الحادي عشر: زُرْ هَذِهِ الأَمَاكِن حَتَّى تَقْنَعَ

حتى تَقْنَعَ، وَتَعْرِفَ فضلَ اللهِ عليك، زُرْ هَذِهِ الأَمَاكِنَ:

- زر الفقراءَ حتى لو كنت فقيرا؛ لترى من هو دونك من متاع الدنيا.
- زر المحكمة مرة في العام؛ لتعرف فضل الله عليك في حسن الأخلاق.
- زر المستشفى مرة في الشهر؛ لتعرف فضل الله عليك في الصحة.
- زر الحديقة مرة في الأسبوع؛ لتعرف فضل الله عليك في جمال الطبيعة.

[3019] أخرجه البخاري 6490، ومسلم 2963
[3020] الأدب النبوي ص: 221
[3021] صحيح البخاري 1469

- زر مستشفى الأمراض العقلية مرة في الشهر؛ لتعرف فضل الله عليك في العقل.

حينَ تَسْتَشْعِرَ الفَرَحَ في أَبْسَطِ تَفَاصِيلِ يَوْمِكَ وَتَكتفي بِذَلِكَ؛ تأكَّدْ أنَّكَ قدْ أدركتَ من الحياةِ نَعِيمَهَا وسعادتها.

واعلمْ أنَّ العَالَمَ بِأَسْرِهِ إِذَا حَاوَلَ أَنْ يُسْعِدَكَ وَأَنْتَ قَابِعٌ[3022] عَلَى حُزْنِكَ، فَلَنْ تَشْعُرَ بِالسَّعَادَةِ أَبَدًا، ولوْ قيدَ أُنْمُلَةٍ.

وَإِذَا كُنْتَ تُؤَجِّلُ سَعَادَتَكَ وَرَاحَةَ بَالِكَ إِلَى أَنْ يَسْتَقِيمَ النَّاسُ، أَوْ تَتَحَسَّنَ الظُّرُوفُ، فَأَنْتَ كَمَنْ يَنْتَظِرُ المَجْهُولَ؛ لِذَا كُنْ قَنُوعًا وَسَعِيداً بِالمَوْجُودِ، وَلَا تَنْتَظِرِ المفْقُودَ.

المطلب الثاني عشر: مَا أحوجَ الدُّعاة إِلَى الْقَنَاعَةِ

نَعَمْ، مَا أحوجَنَا نَحْنُ مَعْشَرُ الدُّعاةِ إِلَيْهَا، بَلْ مَا أَحْوجَ المسْلِمُونَ جَمِيعًا إِلَيْهَا، وإِلى الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ فِي زَمَنِ التَّكَالُبِ على حُطَامِ الدُّنْيَا الزائلة، والانْغِمَاسِ فِي مَلَذَّاتِهَا، والغَرَقِ فِي شَهَوَاتِهَا، فِي زَمَنِ التَّسَخُّطِ، والتَّذَمُرِ وَالتَّشَكِّي، وَهَل فَشَا الجَشَعُ وَالطَّمَعُ إِلَّا عِنْدَمَا تَوَارَتْ الْقَنَاعَة؟ وَهَل اكْتَوَتِ الْمُجْتَمَعاتُ بِنِيرانِ الْحَسَدِ وَالْكَراهِيَة وَالْبَغْضَاء إِلَّا بِفِقْدَانِ الْقَنَاعَة؟ وَهَل كَثُرَتِ الصِّراعاتُ والنِّزاعاتُ وَالسَّرِقَاتُ إِلَّا بِغِيَاب الْقَنَاعَة؟

المطلب الثالث عشر: لا تحزن

لا تحزنْ على شيءٍ فقدْتَه، أو لم تستطعْ الوصولَ إليه، فربما لو مَلَكْتَه لكانَ الحزنُ أكبرُ، والضيقُ أشدُّ، فالخِيرةُ دَائِمًا فِيمَا اختارَه اللهُ تعالى لك.

واعلمْ أنه من أهم يغرِسُه التوحيد في قلبِك أن تعرف أنه لا سعيد إلا من أسعده الله، قال الله عز وجل: {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ} [النجم: 43].

كثيرٌ من الناسِ يظنُّونَ أنَّه باستطاعَتِهم الضحكَ أو البكاءَ في أيّ وقتٍ شاءُوا، ولكنْ ما لا يعلمُونه أنَّ الأمرَ على خلافِ ذلكَ تماماً، فلا أحدٌ يملكُ أسبابَ الضحكِ والبكاءِ غيرُ اللهِ تعَالى، فهُو الذي يُضْحِكُ ويُبكِي، ويُسعِدُ، وَيُشقِي، ويُغنِي ويُقنِي؛ وَلِذَلِكَ أَخْطَأَ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي الزوجِ، أو فِي الأَوْلَادِ، أو أنَّها بِكثرةِ المالِ والأسفارِ وَتَوَفُّرِ سُبُلِ الرَّفَاهِيَّةِ؛ وإِنَّما السَّعَادَةَ كُلُّ السَّعَادَةِ فِي عِلَاقَتِكَ باللهِ عزَّ فِي عُلَاهُ، وَفِي صِدْقِكَ مَعَهُ، وَإِخْلَاصِكَ لَهُ، والتِزَامِكَ شَرْعَهُ.

المطلب الرابع عشر: مَا أَجْمَلَ الْقَنَاعَةَ! وَمَا أَسْعَد أَهْلَهَا!

حقا، إِنَّ الْقَنَاعَةَ تُعَدُّ مِنْ أَرْوَعِ الصِّفَاتِ، فهي خُلُقٌ عَظِيمٌ مِنْ أَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاء، وَسِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ الأَتْقِياء الْأَتْقِيَاء، وَأَدَبٌ نَبِيلٌ مِنْ آدَابِ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ الحَنِيفِ؛ لها مَنْزِلَةٌ جَلِيلَةٌ، وَرُتْبَةٌ عَلِيَّةٌ، إذا تَحَلَّى النَّاسُ بِهَا؛ لَطَهُرَتْ قُلُوبُهم من الضَّغَائِنُ وَالْأَحْقَادُ؛ وَلَامْتَلأَتْ نُفُوسُهُم غنىً وَسَعَادَةً، لِذَا صَدَقَ مَنْ قَالَ: "كن قنوعاً تَكُنْ أَغْنَى الناس.

كما أَنَّ الْقَنَاعَةَ مَعَ الْإِيمَانِ عُنْوَانُ الْفَلَاحِ وَسَبِيلُ النَّجَاةِ وَسِرُّ السَّعَادَة، إنها الكَنْزُ الذي ضَيَّعَهُ الكَثِيرُون مِمَّن يَبْحَثُونَ عَنْ السَّعَادَةِ؛ إِذَا تَخَلَّقَ بِها الْعَبْدُ اطْمَأَنّ قلبُه، ونَعِمَ بِالرَّاحَةِ بِالُه، وَهَدَأَت نَفْسُهُ، وَسَلِمَتْ مِنْ الْحَرَامِ جَوارِحُه؛ فَالْقَنُوعُ تَرَاهُ دائماً راضِياً، مُسْتَعْلٍ على سَفَاسِفِ الأُمُورِ، مُعْرِضًا عن الأَطْمَاعِ التِّي قد تَلُوحُ أَمَامَه، راضٍ بِمَا قَسَمَهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ رِزْقٍ وَوَظِيفَةٍ وَأَبْنَاءٍ وَزَوْجةٍ وَبَيْتٍ؛ مَتَجَنِّبًا الْوُقُوعَ فِي فَخِّ الغِيرَةِ وَالحَسَدِ، مُتَصالِحًا مَعَ أَقْدَارِه كَمَا هِيَ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِالسُّخْط أَو الْحُزْنَ عَلَى مَا فَاتَ.

[3022] قابع: مُنْعَزِلٌ، مُنْفَرِدٌ

المطلب الخامس عشر: ربَّما كان الخيرُ في المنعِ

كثيرٌ من النَّاسِ لا يقنَعُ بالقليلِ في الدُّنيا، ويسعى للزِّيادةِ بأيِّ سبيلٍ، ورُبَّما كانت وَبالًا عليه في دينِه ودُنياه؛ ولذا كان من حِكمةِ اللهِ تعالى أنَّه يمنَعُ بعضَ عبادِه ملاذَّ الدُّنيا ونعيمَها؛ محبَّةً لهم وحمايةً ممَّا قد يعتريهم بسَبَبِها، وفي ذلك يقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ اللهَ لَيَحمي عبدَه المؤمِنَ من الدُّنيا، وهو يحِبُّه، كما تَحمون مريضَكم من الطَّعامِ والشَّرابِ تخافونَه عليه".[3023]

المطلب السادس عشر: مَا الدُّنْيَا إِلَّا قَطْرَةُ عَسَلٍ كَبِيرَةٍ

يُقَالُ: سَقَطَتْ قطرةُ عسلٍ على الأرضِ، فجاءتْ نملةٌ صغيرةٌ فتذوقتِ العسلَ، ثم حاولتْ الذهابَ لكنْ مذاقُ العَسَلِ رَاقَ لها، فَعَادَتْ وأخذتْ رشفةً أخرى، ثم أرادتْ الذهابَ، لكنها شَعُرَتْ بأنها لم تكتفِ بما ارْتَشَفَتْهُ من العَسَلِ عَلَى حَافَّةِ القَطْرَةِ، وقررتْ أنْ تدخلَ في قطرةِ العسَلِ لتستمتعَ بِهِ أكثرَ وأكثرَ، دخلتْ النملة في العسل وأخذتْ تستمتعُ به، لَكِنَّهَا لم تستطعْ الخروجَ منه، لقد كُبِّلَتْ قوائِمُهَا والتصقتْ بالأرضِ، ولم تستطيعْ الحرَكَةَ، وَظَلَّتْ عَلَى هذِهِ الحالِ إلى أنْ ماتتْ.

ولذا قال أحدُ الحكماءِ: "ما الدنيا إلا قطرةُ عسلٍ كبيرةٍ، فمن اكْتَفَى بارتشافِ القليلَ من عسَلِهَا نجَا، ومنْ غرقَ في بحرِ عَسَلِهَا هَلَكَ.

المطلب السابع عشر: لَيْتَنِي مِثْلُ سَالِمٍ بِمُلْكِي كُلِّهِ

حجَّ الخليفةُ الأموي هشامُ بنُ عبدِ الملكِ ذاتَ مرةٍ، وبينمَا هُوَ يطوفُ بالبيتِ رَأَى سالمًا بنَ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ الخطابِ، وَحِذَاؤُه مُقطَعَةٌ فِي يدِهِ، وعَلَيه مَلابِسُ لَا تساوِي درهمين فاقْتَرَبَ منه وَسَلَّمَ عليه، ثم قَالَ له: "يا سالمُ! ألكَ إليَّ حاجةٌ؟! ".
فَنَظَرَ إليه سالمٌ مستغربًا وغاضبًا، ثم قال له: "أَمَا تَسْتَحِي ونحنُ في بيتِ اللهِ وتريدُ منِّي أنْ أرفعَ حاجتي إلى غيرِ اللهِ؟".
فَظَهَرَ علَى وَجْهِ الخليفةِ الإحراجُ والخجلُ الشديدانِ، وَتَرَكَ سَالمًا وأكملَ طوافَهُ وأَخَذَ يُراقبُه فلمَّا رَآهُ خَارِجًا منَ الحرمِ لِحِقَهُ، وَقَالَ له: "يَا سَالمُ! أَبَيْتَ أن تعرضَ عَلَيَّ حاجتُك فِي الحرمِ فاسْألنِي الآنَ وأنتَ خارجُه، فَقَالَ له سالمُ: "هل أرفعُ إليكَ حاجةً منْ حوائجِ الدنيا أمْ منْ حَوائِجِ الآخرة؟!
فَقَالَ الخليفةُ: "يا سالمُ! منْ حوائجِ الدنيا، فإنَّ حوائجَ الآخرةِ لَا يُسألُ فِيهَا إلا اللهُ".
فقال سالمُ: "يا هشامُ! واللهِ ما طلبتُ حاجةً من حوائجِ الدنيا ممنْ يملكُ الدنيا، وهو (اللهُ)، فَكَيفَ أَطْلُبُهَا ممنْ لَا يَمْلِكُهَا؟!".
عِنْدَهَا دمعتْ عينَا الخليفةِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ، وَقَالَ مقولتَهُ الشَّهيرةَ: "لَيْتَنِي مِثْلُ سَالمٍ بِمُلْكِي كُلِّهِ!".
هَكَذَا الدَّنْيَا وزخرفُها سَقَطَتْ منْ أعينِ العَارِفِينَ باللهِ، ونحنُ اليومَ نُخَاصِمُ من أجلِهَا وَنُصَالحُ من أجلِهَا ونحبُّ لأجلِهَا ونكرَهُ لأجلِهَا، لَقَدْ سَقَطَتْ هِمَمُنَا؛ فَسَقَطْنَا فِي مُسْتَنْقَعِ الدَّنْيَا:

وَهِيَ الْقَنَاعَةُ لَا تَبْغِي بِهَا بَدَلًا
فِيهَا النَّعِيمُ وَفِيهَا رَاحَةُ الْبَدَنِ
انْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الْقُطْنِ وَالْكَفَنِ

[3023] أخرجه الترمذي بعد حديث 2036، وأحمد 23622 واللفظ له، من حديثِ محمودِ بن لَبيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، صحَّحه الألباني في صحيح الجامع 1814، وشعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 33 /39

المطلب الثامن عشر: عدَمُ قناعةِ الأغنياءِ

ربَّما كان الإنسانُ غنيًّا، لكِنْ يفتقِدُ القناعةَ فيسخَطُ على سيارتِه ويسخَطُ على بيتِه إلى غيرِ ذلك، فتراه يقتَرِضُ أموالًا طائلةً ويعيشُ تحتَ وطأةِ الدُّيونِ؛ رَغبةً في السَّيَّاراتِ الفارِهةِ والبيوتِ ذاتِ الحدائِقِ الغَنَّاءِ، فيعيشُ فقيرًا مع غناه؛ وذلك لطَمَعِه وحِرصِه وعَدَمِ قناعتِه.

المطلب التاسع عشر: الأَرْمَلَةُ الفَقِيرَةُ

فِي حُجْرَةٍ صغيرةٍ فوقَ سطحِ أَحَدِ المنَازِلِ، عَاشَتْ الأَرْمَلةُ الفقيرةُ مَعَ طفلِهَا الصغِيرِ حَيَاةً متواضِعةً فِي ظُرُوفٍ صَعْبَةٍ، إِلَّا أَنَّ هذِهِ الأُسْرَةَ الصَّغِيرَةَ كَانَتْ تَتَمَيَّزُ بِنَعمَةِ الرِّضَا، وَتَمْلِكُ القَنَاعَةَ التي هي كنزٌ لا يفنَى. لكنْ أكثرُ مَا كانَ يُزعِجُ الأمَّ هو سقوطُ الأمطارِ فِي فصلِ الشِّتَاءِ، فالغرفةُ عبارةٌ عنْ أربعةِ جُدْرَانٍ، وبها بابٌ خَشَبِيٌّ، غير أنَّه ليسَ لها سقفٌ.

وَكَانَ قَدْ مرَّ على الطفلِ أربعةُ سنواتٍ منذُ ولادَتِهِ لَمْ تَتَعَرَّضْ المَدِينَةُ خِلَالَهَا إِلَّا لِزَخَّاتٍ قَلِيلَةٍ وَضَعِيفَةٍ، لكنْ ذَاتَ يَوْمٍ تَجَمَّعَتْ الغُيُومُ وَامْتَلَأَتْ سَمَاءُ المدِينَةِ بِالسُّحُبِ الدَّاكِنَةِ، ومعَ ساعاتِ الليلِ الأولى هَطَلَ المطرُ بغزارةٍ عَلَى المدينةِ كُلِّهَا، فاحْتَمَى الجميعُ فِي منازِلِهِمْ، أَمَّا الأرملةُ وَالطِّفْلُ فَكَانَ عَلَيْهِمْ مُوَاجَهَةُ مَوقِفٍ عَصِيبٍ.

نظرَ الطفلُ إلى أمِّه نظرةً حائرةً واندسَّ فِي أحضَانِهَا، لكنْ جَسَدَ الأمِّ مَعَ ثيابِهَا كَانَ غَارِقًا فِي البَلَلِ، فَأَسْرَعَتِ الأمُّ إلى بابِ الغُرفةِ فخلَعَتْهُ ووضعَتْهُ مائلاً على أحدِ الجدْرَانِ، وَخبَّأَتْ طفلَهَا خلفَ البَابَ لتَحْجُبَ عَنْهُ سَيْلَ المَطَرِ المُنْهَمِرِ.

فنظرَ الطفلُ إلى أمِّه في سعادةٍ بريئةٍ وقد عَلَتْ عَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةُ الرِّضَا، وقَالَ لأمِّهِ: "مَاذَا يَا تَرَى يفعلُ النَّاسُ الفقراءُ الذين ليسَ عندَهُم بابٌ حينَ يسقطُ عليهِمْ المطرُ؟

لَقَدْ أحسَّ الصغيرُ فِي هَذِهِ اللحظةِ أَنَّهُ ينتَمِي إِلَى طبقَةِ الأَثْرِيَاءِ، فَفِي بَيْتِهِم بَابٌ. مَا أَجْمَلَ الرِّضَا! إِنَّهُ مَصْدَرُ السَّعَادَةِ وَهُدُوءِ البَالِ.

المطلب العشرون: الرِّضا بالكَفافِ يُؤَدِّي إلى العَفافِ

السعداء لا يَملكون كُل شيء، بل مُقتنعينَ وراضينَ بكل شيء، وإنه لمن تمام الرِضا أن يستّقر في قلبك اليقين بأن عطاءات الله تجري في أشياء تُمنع عنك، كما تأتي في أشياء تُمنح لك.

وكنْ على يقينٍ أن أقدارَ اللهِ كلها خير، طابَ بها قلبك أم لم يطبْ؛ فما كتبه الله لك فهو لك، وما كُتِبَ لغيرك فلن تناله، ولو اطلعتَ على الغيبِ، لرضيتَ بما قدّره الله لك كما هو.

قال الله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216]

وقال الله تعالى: {وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً * كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَراً * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَداً * وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّـٰكِنَّاْ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا} [الكهف: 32-41].

إن القناعة بما قسمه الله عز وجل، والتعلق بعطاءاته دون النظر إلى ما عند الغير؛ يجعلك تشعر بالغنى، فترى ما في أيدي الناس صغيراً أو أنك لا تراه أصلا؛ فلا يَعْتَرِيكَ حسدٌ على نعمةٍ أعطَاهَا اللهُ لأحدِهِم؛ لأنَّك لا تعلم ماذا أُخِذَ منه في المقابل، ولا يَلْحَقُ بِكَ حُزْنٌ إذا أَخَذَ الله منك شيئاً؛ لأنك لا تعلم ماذا سيُعطيك الله عوضا عنه.

وكم مِن زوجة رأيتها تعاتب زوجها دائما على ضيق العيش، وتثقل كاهله بكثرة المطالب بسبب تطلعها إلى ما عندَ الآخرين؛ فتجدها في نقاش وجدال دائمٍ معه بلا هوادة، فتجعله يعيش في كبدٍ وَعَنَاءٍ كَعَبْدٍ عندها كَأَنَّهُ لَمْ يُخلَقْ إلَّا لرِضَاهَا.

تقول عائشة رضي الله عنها: "ما شبِع آلُ محمَّدٍ من خُبزِ الشَّعيرِ يومَيْن مُتتابعَيْن حتَّى قُبِض رسولُ اللهِ".[3024]

لقد كانت حياةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم مِثالًا في الزُّهدِ وشِدَّةِ الحالِ، مع تَمكينِ اللهِ له وفتْحِه عليه، ولكنَّ الدُّنيا كانتْ في يَدِه لا في قلْبِه، وآثَرَ ما يَبْقى على ما يَفْنى، وضرَبَت أمَّهاتُ المؤمنينَ زوجاتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم أروعَ الأمثلةِ في الصَّبرِ على البلاءِ، وإيثارِ ما عندَ اللهِ سُبحانه وتعالى على ما هو فانٍ، كما يُوضِّحُ هذا الحديثُ؛ فقد قالت عائشةُ أُمُّ المؤمنين رضِيَ اللهُ عنها: (ما شبِعَ آلُ محمَّدٍ مِن خُبْزِ الشَّعيرِ)، أي: ما ملَأَ أزواجُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بُطونَهم حتَّى الشِّبَعِ مِن خُبزِ الشَّعيرِ، (يومينِ مُتتابعينِ)؛ وذلك لِقلَّةِ ذاتِ اليدِ وضِيقِ الحالِ زهْدًا وتقلُّلًا مِن الدُّنيا، (حتَّى قُبِضَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)، أي: حتَّى مات، علْمًا بأنَّ هذا الخبزَ مِن أشَدِّ أنواعِ المخبوزاتِ طَعمًا ومَذاقًا وملْمَسًا؛ ففيه خُشونةٌ وصلابةٌ، ولا يَستَسيغُه كثيرٌ مِن النَّاسِ، ومع ذلك فقد كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَجِدُه لِيَشبَعَ منه هو وأهلُه.

المطلب الحادي والعشرون: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ القناعةِ

1- اعتِقادُ أنَّ القناعةَ تنافي الأخذَ بالأسبابِ، وهذا خطأٌ؛ فالمسلِمُ مأمورٌ بالأخذِ بالأسبابِ في تحصيلِ المنافعِ، ودَفعِ المضارِّ. وقد أمر صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المسلِمَ بالحِرصِ على النَّافِعِ، ونَبذِ العَجزِ والكَسَلِ؛ فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "احرِصْ على ما ينفَعُك، واستَعِنْ باللهِ ولا تَعجِزْ".[3025]

يقولُ ابنُ عُثَيمين: (احرِصْ على ما ينفَعُك)، وهذه الكَلِمةُ كَلِمةٌ جامعةٌ عامَّةٌ، (على ما ينفَعُك)، أي: على كُلِّ شيءٍ ينفَعُك، سواءٌ في الدِّينِ أو في الدُّنيا، فإذا تعارَضَتْ منفعةُ الدِّينِ ومنفعةُ الدُّنيا، فقَدِّمْ منفَعةَ الدِّينِ؛ لأنَّ الدِّينَ إذا صلَح صلَحَت الدُّنيا، أمَّا الدُّنيا إذا صلَحَت مع فسادِ الدِّينِ فإنَّها تَفسُدُ".[3026]

2- الاعتقادُ أنَّ القَنَاعَةَ تَعْنِي الرِضَا بِالدُّونِ، وَحَيَاةِ الهُونِ، وَضَعْفِ الهِمَّةِ عنْ مَعَالِي الأُمُورِ، وإماتة الرغبة في الطموح، وهذه ليست القناعة المطلوبة شرعاً، إنما القناعة تهذيب للطمع ومنع للجشع، وهي كذلك رضا الإنسان بما وهبه الله وقسم له مما لا يستطيع تغييره، فلا يظل يعيش في الأماني فإن الأماني رأس مال المفاليس.

3- اعتقادُ أنَّ القناعةَ تعني أن يَعِيشَ الإنسانُ فقيرًا، وهذا خطأٌ؛ فالمطلوبُ أن يكونَ الإنسانُ قَنوعًا بما آتاه اللهُ، وألَّا يتملَّكَه الطَّمَعُ أو تأسِرَه محبَّةُ الدُّنيا والحِرصُ عليها، فالغِنى لا مذمَّةَ فيه إذا كان صاحِبُه شاكِرًا يؤدِّي حَقَّ اللهِ تعالى في مالِه ولا يَشغَلُه عن طاعتِه، فَلا يألو جُهْدًا فِي تَقْدِيمِ صَنَائِعِ المعْرُوفِ لِلآخَرِينَ، أَوْ فِي خِدْمَةِ قَضَايَا الأُمَّةِ، أوْ فِي تَرْبِيَةِ الأَجْيَالِ، أَوْ فَتْحٍ للمَرَاكِزِ الدَّعَوِيَّةِ، والمَحَاضِنِ التَّرْبَوِيَّةِ.

وكما أن الفقير في حاجة إلى قناعة، فالغني أيضا في حاجة إلى قناعة:

[3024] أخرجه مسلم 2970

[3025] أخرجه مسلم 2664 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه

[3026] شرح رياض الصالحين 2/79

فقناعة الغني أن يكون راضيا شاكرا، لا جاحدا ظالما، قناعَتُه: ألَّا تَلِجَ أمواله إلى قلبه، حتى يصبح عبدا لها، وألا يستعلي بماله على الفقراء، وألا يوظف ماله في الاستيلاء على ممتلكات الآخرين والاعتداء على حقوقهم.
فكم من صاحب مال وفير، وخير عظيم، رُزق القناعة! فلا يغشّ في تجارته، ولا يمنَع أُجَراءَهُ حقوقَهم، ولا يذلّ نفسه من أجل مال أو جاه، ولا يمنع زكاة ماله؛ إن ربح شكر، وإن خسر رضي؛ فهذا قنوع وإن ملك مال قارون.

وقناعة الفقير أن يكون راضيا بقسمة الله، مستسلما لأمر الله، لا ساخطا ولا شاكيا، ولا جزعا من حالِه، ولا غاضبا على رازقه، قناعته: ألا يتطلع إلى ما في أيدي الآخرين، وَأَنْ يكونَ عفِيفًا متَعَفِّفًا، وألا يرتكب الحرام من أجل الحصول على لقمة العيش.
فكم من مستور يجد كفافًا؛ قد ملأ الطمعُ قلبَهُ، ولمْ يُرْضِه مَا قُسِم له! فَجَزَعَ من رِزْقِهِ، وَغَضِبَ عَلَى رازقه، وبثَّ شَكْوَاهُ للنَّاسِ، وارْتَكَبَ كُلَّ طريقٍ محَرَّمٍ ليُغني نفسه؛ فهذا منزوع القناعة وإن كان لا يملك درهمًا ولا فلسًا.
3- الاعْتقادُ أنَّ القناعة تَشْمَلُ أعمالَ الدُّنيا والآخرةِ عَلَى السواءِ؛ وهذا قَطْعًا خَطَأٌ، فالمسلمُ يَقْنَعُ فقط بما قَسَمَ اللهُ لهُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، أَمَّا فِي عَمَلِ الخَيْرِ والأعْمَالِ الصَّالحةِ فَلَا قَنَاعَةَ فِيهَا، بَلْ عَلَيْهِ الحِرْصُ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُهُ أن يَتَزَوَّدَ مِنْهَا لِآخِرَتِهِ، مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ} [البقرة: 197]، وقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 133].

(الله أسأل أن يرزقنا القناعة والرضا بما وهبنا من زينة الحياة الدنيا المال والبنون، وأن يجعلها عونا لنا في طاعته، وطريقًا إلى جنته).

جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التَّعاوُنَ فِطْرةً جِبِلِّيةً، جبَلَها فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ: صَغِيرِهَا وكَبِيرِهَا، ذَكَرِها وَأُنْثَاهَا، إنْسِهَا وجِنِّهَا؛ وَلِذَلِكَ لا يمكِنُ لأيِّ مخلوقٍ أنْ يُوَاجِهَ الحَيَاةَ بِكُلِّ أَعْبَائِهَا وَمَتَاعِبِهَا مُنفَرِدًا، وَإِنَّمَا لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مَنْ يُعاوِنُه وَيُسَانِدُهُ؛ بَلْ لَوْ نُزِعَ التَّعاوُنُ مِنْ بَيْنَ قومٍ، لَكَانَ ذَلِكَ نَذِيرًا بِهَلَاكِهِمْ؛ إذ أنَّه ضرورةٌ مُلِحَّةٌ لا يمكِنُ الاسْتِغْنَاءُ عَنْهَا بِأَيِّ حَالٍ. وَمَا أَحْوَجَنَا نَحْنُ مَعَاشِرُ الدُّعَاةِ إِلَى الْعَمَلِ الجَمَاعِيِّ وَالمؤَسَّسِيِّ، وَإِلَى تَوْطِيدِ العَلَاقَاتِ وَتَبَادُلِ الخِبْرَاتِ، فَضْلًا عَنْ حَاجَتِنَا المَاسَّةِ إِلَى رُوحِ المبَادَرَةِ والتَّعَاوُنِ مَعَ بَعْضِنَا البَعْضِ مِنْ دُونِ مُزَاحَمَةٍ[3027] أَوْ تَنَافُسٍ غَيرِ شَرِيفٍ.

المطلب الأول: معنى التَّعاوُنِ لُغةً واصطِلاحًا

- **التَّعاوُنُ لُغةً:**

العَونُ: الظَّهيرُ على الأمرِ، وأعانه على الشَّيءِ: ساعده، واستعان فلانٌ فلانًا، وبه: طلَب منه العَونَ. وتعاوَن القومُ: أعان بعضُهم بعضًا، والمِعْوانُ: الحَسَنُ المعونةِ للنَّاسِ، أو كثيرُها.[3028]

- **التَّعاوُنُ اصطِلاحًا:**

قيل: "المُساعدةُ على الحَقِّ: ابتغاءُ الأجرِ من اللهِ سُبحانَه".[3029]

والتَّعاوُنِ هو: التضامن، ومساعدة البعض، والتَّكاتُف في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ.

و(يدُلُّ عَلَى التَّضَافُرِ والتَّعَاضُدِ، والتَّنَاصُرِ والتَّآزُرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ المعَانِي).[3030]

المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ التَّعاوُنِ والتَّظاهُرِ

ويُطلَقُ التَّظاهُرُ على التَّعاوُنِ من جهةِ تقويةِ بعضِهم ظَهرَ بعضٍ، فهو تفاعُلٌ من الظَّهرِ، وهو مُساندةُ بعضِهم ظَهرَه إلى ظَهرِ بَعضٍ.[3031]

المطلب الثالث: الترغيب في التعاون والحث عليه

أ. التَّعاوُنُ في نُصُوصِ القُرآنِ الكَرِيمِ:

1- قال سُبحانَه: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: 2]

قال ابنُ كثيرٍ: "يأمُرُ تعالى عبادَه المؤمنين بالمعاوَنةِ على فِعلِ الخيراتِ، وهو البِرُّ، وتَركُ المُنكَراتِ، وهو التَّقوى، وينهاهم عن التَّناصُرِ على الباطِلِ، والتَّعاوُنِ على المآثِمِ والمحارِمِ".[3032]

وقال القُرطبيُّ: "أي: لِيُعِنْ بعضُكم بعضًا، وتحاثُّوا على ما أمرَ اللهُ تعالى واعمَلوا به، وانتَهوا عمَّا نهى اللهُ عنه وامتَنِعوا منه".[3033]

[3027] المُزَاحَمَة :المُضَايقَة، المُنَافسَة

[3028] يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 298/13، مختار الصحاح للرازي ص 222، تاج العروس للزبيدي 431/35، المعجم الوسيط 2/638

[3029] موسوعة الأخلاق لخالد الخراز ص 441

[3030] المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده 4/ 290

[3031] يُنظَر: جامع البيان للطبري 206 /2

[3032] تفسير القرآن العظيم 2/12

[3033] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 6/46

وقال ابنُ بازٍ: "والمعنى: احذَروا مغبَّةَ التَّعاوُنِ على الإثمِ والعُدوانِ، وتَرْكِ التَّعاوُنِ على البِرِّ والتَّقوى، ومن العاقبةِ في ذلك: شِدَّةُ العقابِ لمن خالف أمرَه، وارتكَب نَهْيَه، وتعدَّى حدودَه".[3034]

2- وقال تعالى حكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} [طه: 29 - 32]، قَوْلُه: (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي) أي: قَوِّ ظَهْري وأعِنِّي به[3035].

قال السَّعديُّ: سأل اللهَ أن يجعَلَ أخاه معه، يتساعدانِ ويتعاونانِ على البرِّ والتَّقوى".[3036]

3- وقال تعالى: {وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ} [الأنفال: 72]، ثمَّ قال: {إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال: 73] أي: إلَّا تفعلوا ما أمَرْتُكم به من التَّعاوُنِ والنُّصرةِ على الدِّينِ تكُنْ فِتنةٌ في الأرضِ.[3037]

4- وقال تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 1 - 3].

"أي: يوصي بعضُهم بعضًا بذلك، ويحثُّه عليه، ويُرَغِّبُه فيه".[3038]

"فهذه السُّورةُ العظيمةُ القصيرةُ اشتمَلت على معانٍ عظيمةٍ، من جملتِها: التَّواصي بالحَقِّ، وهو التَّعاوُنُ على البِرِّ والتَّقوى".[3039]

ب. التَّعَاوُنُ فِي نُصُوصِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ:

1- عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "المؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضًا".[3040]

قال ابنُ بطَّالٍ: "تعاوُنُ المؤمنين بعضِهم بعضًا في أمورِ الدُّنيا والآخِرةِ مندوبٌ إليه بهذا الحديثِ".[3041]

وقال ابنُ الجوزيِّ: "ظاهِرُه الإخبارُ، ومعناه الأمرُ، وهو تحريضٌ على التَّعاوُنِ".[3042]

2- وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "المُسلِمُ أخو المُسلِمِ لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه، ومَن فرَّج عن مُسلِمٍ كُربةً فرَّج اللهُ عنه كُربةً مِن كُرُباتِ يومِ القيامةِ، ومَن ستَر مُسلِمًا ستَرَه اللهُ يومَ القيامةِ".[3043]

والحديثُ فيه حضٌّ على التَّعاوُنِ.[3044]

3- وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: „انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مظلومًا. قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، هذا ننصُرُه مظلومًا، فكيف ننصُرُه ظالِمًا؟ قال: تأخُذُ فوقَ يَدَيه".[3045]

[3034][3034] مجموع فتاوى ومقالات متنوعة 5/93

[3035] جامع البيان 16/55، 56

[3036] تيسير الكريم الرحمن ص 504

[3037] معالم التنزيل للبغوي 3/ 380، زاد المسير لابن الجوزي 228 /2

[3038] تيسير الكريم الرحمن للسعدي 1/934

[3039] مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لابن باز 5/87

[3040] أخرجه البخاري 481 ومسلم 2585 من حديثِ أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[3041] شرح صحيح البخاري 9/227

[3042] كشف المشكل 1/405

[3043] أخرجه البخاري 2442 واللفظ له، ومسلم 2580

[3044] شرح صحيح البخاري لابن بطال 571/6، فتح الباري لابن حجر 97/5، عمدة القاري للعيني 12/289

[3045] أخرجه البخاري 2444

قال ابنُ بطَّالٍ: "والنُّصرةُ عندَ العَرَبِ: الإعانةُ والتَّأييدُ، وقد فسَّره رسولُ اللهِ أنَّ نَصرَ الظَّالمِ مَنْعُه من الظُّلمِ؛ لأنَّه إذا تركْتَه على ظُلمِه ولم تَكُفَّه عنه أدَّاه ذلك إلى أن يقتَصَّ منه؛ فمَنْعُك له ممَّا يوجِبُ عليه القِصاصَ نَصْرُه".[3046]

4- وعن أبي عبدِ الرَّحمنِ زيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أنَّه قال: "من جهَّز غازيًا في سبيلِ اللهِ فقد غزا، ومن خلَفَه في أهلِه بخيرٍ فقد غزا".[3047]

(جهَّز غازيًا) أي: هيَّأ له ما يُصلِحُه في قَصْدِه، والمُعينُ على الشَّيءِ كالفاعِلِ في وقوعِ المشاركةِ في الثَّوابِ والعِقابِ.[3048]

قال ابنُ عُثيمين: "هذا من التَّعاوُنِ على البِرِّ والتَّقوى، فإذا جهَّز الإنسانُ غازيًا، يعني: براحلتِه ومتاعِه وسِلاحِه...، إذا جهَّزه بذلك فقد غزا، أي: كُتِب له أجرُ الغازي؛ لأنَّه أعانه على الخيرِ، وكذلك من خلَفَه في أهلِه بخيرٍ فقد غزا، يعني: لو أنَّ الغازيَ أراد أن يغزوَ ولكنَّه أشكَلَ عليه أهلُه مَن يكونُ عندَ حاجاتِهم، فانتدَب رجلًا من المسلمينَ وقال: اخلُفْني في أهلي بخيرٍ، فإنَّ هذا الذي خلَفَه يكونُ له أجرُ الغازي؛ لأنَّه أعانه".[3049]

5- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "مَن نفَّس عن مُسلِمٍ كُربةً مِن كُرَبِ الدُّنيا نفَّس اللهُ عنه كُربةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَن يسَّر على مُعسِرٍ في الدُّنيا يسَّر اللهُ عليه في الدُّنيا والآخِرةِ، ومَن ستَر على مُسلِمٍ في الدُّنيا ستَره اللهُ في الدُّنيا والآخِرةِ، واللهُ في عَونِ العبدِ ما كان العبدُ في عونِ أخيه...".[3050]

قال ابنُ دقيقِ العيدِ: "هذا الحديثُ عظيمٌ جامعٌ لأنواعٍ من العُلومِ والقواعِدِ والآدابِ، فيه فَضلُ قضاءِ حوائجِ المُسلِمين ونفعِهم بما يتيسَّرُ من علمٍ أو مالٍ أو معاونةٍ، أو إشارةٍ بمصلحةٍ، أو نصيحةٍ، أو غيرِ ذلك".[3051]

6- وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "مثَلُ المؤمِنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مَثَلُ الجَسَدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى[3052] له سائرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى".[3053]

وقال النَّوويُّ في تعليقِه على هذا الحديثِ وما في معناه، وحديثِ: (المؤمِنُ للمؤمِنِ كالبُنيانِ): "هذه الأحاديثُ صريحةٌ في تعظيمِ حُقوقِ المُسلمين بعضِهم على بعضٍ، وحثِّهم على التَّراحُمِ والملاطَفةِ والتَّعاضُدِ في غيرِ إثمٍ ولا مكروهٍ".[3054]

7- عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "من دلَّ على خيرٍ فله مِثلُ أجرِ فاعِلِه".[3055]

قال النَّوويُّ: "فيه فضيلةُ الدَّلالةِ على الخيرِ والتَّنبيهِ عليه والمساعدةِ لفاعِلِه، وفيه فضيلةُ تعليمِ العِلمِ ووظائِفِ العباداتِ، لا سيَّما لمن يعمَلُ بها من المتعبِّدين وغيرِهم، والمرادُ بمِثلِ أجرِ فاعِلِه: أنَّ له ثوابًا بذلك الفِعلِ، كما أنَّ لفاعِلِه ثوابًا، ولا يلزمُ أن يكونَ قَدْرُ ثوابِهما سواءً".[3056]

[3046] شرح صحيح البخاري 6/572

[3047] أخرجه البخاري 2843، ومسلم 1895 واللفظ له.

[3048] كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي 263 /2

[3049] شرح رياض الصالحين 374 /2

[3050] أخرجه مسلم 2699

[3051] شرح الأربعين النووية 1/119

[3052] أي: دعا بعضُه بعضًا إلى المشاركةِ في ذلك، يُنظَر: شرح النووي على مسلم 140 /16

[3053] أخرجه البخاري 6011، ومسلم 2586 واللفظ له، من حديثِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما

[3054] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي 139 /16

[3055] أخرجه مسلم 1893

[3056] شرح النووي على مسلم 39 /13

والحديثُ فيه تحضيضٌ على التَّعاوُنِ على البرِّ والحَثِّ عليه.[3057]

ت. من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ في التعاون:

1- قال أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: "أعينوا العامِلَ مِن عَمَلِه؛ فإنَّ عامِلَ اللهِ لا يخيبُ، يعني: الخادِمَ".[3058]

2- قال عطاءُ بنُ أبي رَباحٍ: "تعاهَدوا إخوانَكم بعدَ ثلاثٍ، فإن كانوا مرضى فعودوهم، وإن كانوا مشاغيلَ فأعينوهم، وإن كانوا نَسُوا فذَكِّروهم".[3059]

3- وقال ابنُ تيميَّةَ: "حياةُ بني آدَمَ وعَيشُهم في الدُّنيا لا يَتِمُّ إلَّا بمعاونةِ بعضِهم لبعضٍ".[3060]

4- قال أبو هلالٍ العَسكريُّ: "أجوَدُ ما قيل في التَّضافُرِ والتَّعاوُنِ قولُ قيسِ بنِ عاصِمٍ المِنْقَريِّ يوصي ولَدَه وقَومَه: وجَدْتُ في كتابٍ غيرِ مسموعٍ: لَمَّا حضَر عبدَ المَلِكِ بنَ مَرْوانَ الوفاةُ وعاينَتْه، قال: يا بَنِيَّ، أوصيكم بتقوى اللَّهِ، ولْيَعطِفِ الكبيرُ منكم على الصَّغيرِ، ولا يَجهَلِ الصَّغيرُ حَقَّ الكبيرِ... وعليكم بالتَّعاوُنِ والتَّضافُرِ، وإيَّاكم والتَّقاطُعَ والتَّدابُرَ".[3061]

5- اجتمع الشَّيخُ ابنُ عُثَيمين برُؤساءِ المراكِزِ الإسلاميَّةِ الذين زاروه أثناءَ علاجِه بأمريكا، فأكثَرَ عليهم النَّصيحةَ وأعاد وكرر عليهم أن يتَّقوا اللَّهَ، وأن يتَّحِدوا وأن يتكاتفوا، وأن يجمَعوا كَلِمتَهم، وأن يعتَصِموا بحبلِ اللهِ جميعًا، وأن ينبِذوا الفُرقةَ، وأن يبدَؤوا الحِوارَ بينَهم باللِّينِ والحِكمةِ والحُسنى، وتحوَّل جَناحُه في المستشفى إلى حَلْقةٍ من حِلَقِ العِلمِ والفُتيا والذِّكرِ والدَّعوةِ[3062].

المطلب الثالث: نماذج في التعاون

أولا: نماذِجُ من تَعاوُنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

1- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يسعى لقضاءِ حوائجِ المُسلِمين، ويحِبُّ إعانتَهم، والوقوفَ معهم فيما يُلِمُّ بهم من نوازِلَ، وكان مجبولًا على ذلك من صِغَرِه وقبلَ بَعثتِه، وقد بيَّنَت ذلك أمُّنا خديجةُ رَضِيَ اللهُ عنها عندما كانت تخفِّفُ من رَوعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عند عودتِه من غارِ حِراءَ بعدَ نزولِ الوَحيِ عليه، وكان فَزِعًا، فقالت له: "كَلَّا، واللهِ ما يخزيك اللهُ أبدًا؛ إنَّك لتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحمِلُ الكَلَّ[3063]، وتَكسِبُ المعدومَ[3064]، وتَقْري[3065] الضَّيفَ، وتُعينُ على نوائِبِ الحَقِّ[3066]".[3067]

[3057] يُنظَر: المجتنى لابن دريد ص: 12، الدرر السنية

[3058] الأدب المفرد للبخاري ص95 رقم 191

[3059] رواه أبو نعيم في حلية الأولياء 198/5

[3060] الفتاوى الكبرى 364/6

[3061] ديوان المعاني 151/1

[3062] صفحات مشرقة لحمود بن عبد الله المطر ص: 85

[3063] الكَلُّ: ما لا يَستَقِلُّ بأمرِه، ويدخلُ في حَملِ الكَلِّ الإنفاقُ على الضَّعيفِ واليتيمِ والعيالِ وغيرِ ذلك. يُنظَر: شرح النووي على مسلم 201 /2

[3064] وتَكسِبُ المعدومَ، أي: تسبِقُ إلى فِعلِ الخيرِ، فتبادِرُ إلى إعطاءِ الفقيرِ، فتَكسِبُ حسَنَتَه قبلَ غيرِك، ويسمَّى الفقيرُ معدومًا، وقيل: المرادُ بالمعدومِ هاهنا المالُ المعطى، أي: يعطي المالَ لمن هو عادِمُه، وقيل غيرُ ذلك. يُنظَر: البداية والنهاية لابن كثير 18 /4

[3065] تَقري: أي: تُطعِمُ. يُنظَر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري 3732 /9

[3066] النَّوائِبُ جمعُ نائبةٍ، وهي: الحادثةُ، وإنما قالت: نوائِبَ الحَقِّ؛ لأنَّ النائبةَ قد تكونُ في الخيرِ، وقد تكونُ في الشَّرِّ. يُنظَر: شرح النووي على مسلم 201 /2

[3067] رواه مطولًا: البخاري 3 واللفظ له، ومسلم 160

2- وعن الأسوَدِ قال: "سألتُ عائشةَ: ما كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يصنَعُ في بيتِه؟ قالت: كان يكونُ في مِهنةِ أهلِه - تعني: خِدمةَ أهلِه-، فإذا حضَرَت الصَّلاةُ خرج إلى الصَّلاةِ".[3068]

3- وعن البراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: "كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ينقُلُ التُّرابَ يومَ الخندقِ حتَّى أغمَرَ بَطنَه[3069] أو اغبَرَّ بَطنُه".[3070]

ثانيا: نماذِجُ من تَعاوُنِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم:

كان الصَّحابةُ رِضوانُ اللهِ عليهم مثالًا يُحتذى في التَّعاوُنِ، وكانوا في ذلك المثَلَ الأسمى، فكانوا كالجسَدِ الواحِدِ إذا اشتكى منهم عضوٌ تداعى له سائرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى، و(في الوقتِ الذي كان فيه أبو عُبيدةَ بنُ الجرَّاحِ، وسعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ، وخالدُ بنُ الوليدِ، وعمرُو بنُ العاصِ؛ يفتحون مصرَ والشَّامَ والعراقَ، كان أبو بكرٍ وعُمَرُ وعُثمانُ وعَليٌّ يسوسون النَّاسَ، ويرعون شُؤونَهم، وكان معاذُ بنُ جَبَلٍ وابنُ عبَّاسٍ وابنُ عُمَرَ يُعَلِّمون النَّاسَ، ويُفتونهم ويُرَبونهم، وكان أبو هريرةَ وأنَسٌ وعائشةُ يحفظون الحديثَ ويَروونه، وكان أبو ذَرٍّ وأبو الدَّرداءِ يَعِظون النَّاسَ والحُكَّامَ ويَنصَحونهم؛ فتعاوَنوا ولم يَتعايَبوا، وتناصَروا ولم يَتدابروا)[3071].

1- تعاوُنُ الصَّحابةِ في بناءِ المسجِدِ النَّبَويِّ:

عندما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لبني النَّجَّارِ: "يا بني النَّجَّارِ، ثامِنُوني بحائِطِكم هذا، قالوا: لا واللهِ لا نطلُبُ ثمَنَه إلَّا إلى اللَّهِ، فقال أنَسٌ: فكان فيه ما أقولُ لكم قبورُ المُشرِكين، وفيه خَرِبٌ وفيه نَخلٌ، فأمر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقبورِ المُشرِكين فنُبِشَت، ثمَّ بالخَرِبِ فسُوِّيَت، وبالنَّخلِ فقُطِع، فصَفُّوا النَّخلَ قِبلةَ المسجِدِ، وجعلوا عِضادَتَيه[3072] الحِجارةَ، وجعلوا يَنقُلون الصَّخرَ وهم يرتَجِزون والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معهم، وهو يقولُ: اللَّهُمَّ لا خيرَ إلَّا خيرُ الآخِرهْ فاغفِرْ للأنصارِ والمُهاجِرهْ".[3073]

2- تعاوُنُ الأنصارِ مع المهاجِرين بعدَ الهِجرةِ:

قال عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ رَضِيَ اللهُ عنه: "لمَّا قدِمنا المدينةَ آخى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيني وبَينَ سعدِ بنِ الرَّبيعِ، فقال سعدُ بنُ الرَّبيعِ: إني أكثَرُ الأنصارِ مالًا، فأقسِمُ لك نِصفَ مالي، وانظُرْ أيَّ زوجَتيَّ هَوِيتَ نزَلْتُ لك عنها، فإذا حَلَّت تزوَّجْتَها. قال: فقال عبدُ الرَّحمنِ: لا حاجةَ لي في ذلك، هل من سُوقٍ فيه تجارةٌ؟ قال: سوقُ قَينُقاعٍ. قال: فغدا إليه عبدُ الرَّحمنِ، فأتى بأَقِطٍ[3074] وسَمنٍ...".[3075]

وقالت الأنصارُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "اقسِمْ بيننا وبينهم النَّخلَ، قال: لا، قال: يكفونَنا المَئونةَ وتَشْرِكونَنا في التَّمرِ، قالوا: سمِعْنا وأطَعْنا".[3076]

[3068] أخرجه البخاري 676

[3069] أغمَرَ بَطْنَه: أي: وارى التُّرابُ جِلْدَه وسَتَرَه. يُنظَر: تاج العروس للزبيدي 13/264

[3070] أخرجه البخاري 4104 واللفظ له، ومسلم 1803

[3071] التيه والمخرج لعدنان عرعور 54،53

[3072] أي: عِضادَتَيِ البابِ، وهما خشبتان من جانِبَيه. يُنظَر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني6/233

[3073] رواه مطوَّلًا: البخاري 428 واللفظ له، ومسلم 524 من حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه

[3074] الأَقِطُ: شيء يُعمَلُ من اللَّبَنِ ويجفَّفُ. يُنظَر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي3/581

[3075] أخرجه البخاري 2048 مطوَّلًا

[3076] أخرجه البخاري 3782 من حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه

3- ومِن تعاوُنِ الصَّحابةِ أيضًا: موقِفُهم في قِصَّةِ سَلمانَ رَضِيَ اللهُ عنه عندما كاتَب سَيِّدَه، وكان فقيرًا لا يملِكُ ما كاتَبَ عليه، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للصَّحابةِ: "أعينوا أخاكم".[3077] فأعانوه حتى تحَرَّر من رِقِّه، وأصبحَ حُرًّا.

المطلب الرابع: حُكمُ التَّعاوُنِ

يختَلِفُ حُكمُ التَّعاوُنِ باختلافِ المتعاوَنِ عليه؛ فقد يكون التَّعاوُنُ واجبًا، كالتَّعاوُنِ على تَركِ المحرَّماتِ، وفِعلِ الفرائِضِ، وقد يكونُ مُستحَبًّا إذا كان التَّعاونُ على أمرٍ مُستحَبٍّ.

وقد يكونُ التَّعاوُنُ محرَّمًا؛ كالتَّعاوُنِ على القَتلِ أو السَّرِقةِ، أو قطعِ الطَّريقِ، أو الغِيبةِ أو النَّميمةِ، أو الهَمزِ واللَّمزِ، أو التَّنابُزِ بالألقابِ، أو شهادةِ الزُّورِ، أو بيعِ أدواتِ التَّجميلِ ممَّن تتبرَّجُ بها، أو بيعِ السِّلاحِ في الفتنةِ، ونحوِ ذلك، وقد يكونُ مكروهًا كالتَّعاوُنِ على فِعلٍ مكروهٍ.

المطلب الخامس: أقسامُ التَّعاوُنِ

قال ابنُ تيميَّةَ: "التَّعاوُنُ نوعانِ:

- **الأوَّلُ:** تعاوُنٌ على البِرِّ والتَّقوى؛ من الجهادِ، وإقامةِ الحدودِ، واستيفاءِ الحقوقِ، وإعطاءِ المُستَحقِّين؛ فهذا ممَّا أمر اللهُ به ورسولُه، ومن أمسك عنه خشيةَ أن يكونَ من أعوانِ الظَّلَمةِ فقد ترك فرضًا على الأعيانِ، أو على الكفايةِ، متوهِّمًا أنَّه متورِّعٌ، وما أكثَرَ ما يَشتبِهُ الجُبنُ والفَشَلُ بالوَرِعِ! إذ كلٌّ منهما كَفٌّ وإمساكٌ.
- **والثَّاني:** تعاوُنٌ على الإثمِ والعُدوانِ؛ كالإعانةِ على دَمٍ معصومٍ، أو أخذِ مالٍ معصومٍ، أو ضَربِ من لا يستحِقُّ الضَّربَ، ونحوِ ذلك؛ فهذا الذي حرَّمه اللهُ ورسولُه.

نعم، إذا كانت الأموالُ قد أُخِذت بغيرِ حَقٍّ، وقد تعذَّر ردُّها إلى أصحابِها، ككثيرٍ من الأموالِ السُّلطانيَّةِ؛ فالإعانةُ على صرفِ هذه الأموالِ في مصالحِ المسلِمين؛ كسدادِ الثُّغورِ، ونَفَقةِ المُقاتِلةِ، ونحوِ ذلك: من الإعانةِ على البِرِّ والتَّقوى".[3078]

المطلب السادس: أصنافُ النَّاسِ في التَّعاوُنِ

قال الماوَرْديُّ: "تنقَسِمُ أحوالُ مَن دخل في عِدادِ الإخوانِ أربعةَ أقسامٍ: منهم مَن يُعينُ ويَستعينُ، ومنهم مَن لا يُعينُ ولا يَستعينُ، ومنهم مَن يَستعينُ ولا يُعينُ، ومنهم مَن يُعينُ ولا يَستعينُ.

فأمَّا المُعينُ والمُستعينُ فهو معاوِضٌ مُنصِفٌ؛ يؤدِّي ما عليه ويستوفي ما له، فهو كالمُقرِضِ يُسعِفُ عندَ الحاجةِ ويستَزِدُّ عندَ الاستغناءِ، وهو مشكورٌ في معونتِه، ومعذورٌ في استعانتِه، فهذا أعدَلُ الإخوانِ.

وأمَّا من لا يُعينُ ولا يَستعينُ فهو متروكٌ قد منع خَيرَه وقمَعَ شَرَّه، فهو لا صديقٌ يُرجى، ولا عدوٌّ يُخشى، وإذا كان الأمرُ كذلك فهو كالصُّورةِ المُمثَّلةِ، يروقُك حُسنُها، ويخونُك نفعُها، فلا هو مذمومٌ لقمعِ شَرِّه، ولا هو مشكورٌ لمنعِ خَيرِه، وإن كان باللَّومِ أجدَرَ.

[3077] رواه أحمد 23737، والبزار 2500، والطبراني 222/6 6065 مطوَّلًا، حسَّنه الوادعي في الصحيح المسند 442، وحسَّن إسنادَه الألباني في السلسلة الصحيحة 894، وشعيب الأرناؤوط في تخريج مسند أحمد 39/ 147، وجوَّده ابن العراقي في طرح التثريب 4/42

[3078] السياسة الشرعية ص: 40.

وأمَّا مَن يستعينُ ولا يُعينُ فهو لئيمٌ كَلٌّ، ومَهينٌ مُستَذَلٌّ، قد قطع عنه الرَّغبةَ، وبَسَط فيه الرَّهبةَ، فلا خيرُه يُرجى، ولا شَرُّه يُؤمَنُ، وحَسْبُك مهانةً من رجُلٍ مستثقَلٍ عندَ إقلالِه، ويُستَقَلُّ عندَ استقلالِه؛ فليس لِمثلِه في الإخاءِ حَظٌّ، ولا في الوِدادِ نصيبٌ.

وأمَّا مَن يُعينُ ولا يَستعينُ فهو كريمُ الطَّبعِ، مشكورُ الصُّنعِ، وقد حاز فضيلَتَيِ الابتداءِ والاكتِفاءِ، فلا يُرى ثقيلًا في نائبةٍ، ولا يقعُدُ عن نهضةٍ في مَعونةٍ.

فهذا أشرَفُ الإخوانِ نفسًا وأكرَمُهم طبعًا؛ فينبغي لمن أوجَد له الزَّمانُ مِثلَه -وقَلَّ أن يكونَ له مِثلٌ؛ لأنَّه البَرُّ الكريمُ والدُّرُّ اليتيمُ- أن يَثني عليه خِنصَرَه، ويَعَضَّ عليه بناجِذِه، ويكونَ به أشَدَّ ضَنًّا منه بنفائِسِ أموالِه، وسَنِيِّ[3079] ذخائِره؛ لأنَّ نَفْعَ الإخوانِ عامٌّ، ونَفعَ المالِ خاصٌّ، ومن كان أعَمَّ نفعًا فهو بالادِّخارِ أحَقُّ، ثمَّ لا ينبغي أن يَزهَدَ فيه لخُلُقٍ أو خُلُقَينِ يُنكِرُهما منه إذا رَضِيَ سائِرَ أخلاقِه، وحَمِد أكثَرَ شِيَمِه؛ لأنَّ اليسيرَ مغفورٌ، والكمالَ مُعْوِزٌ".[3080]

فـ (هذا تقسيمٌ من الماوَرْديِّ رحمه اللهُ أشبَهُ بالحَصرِ العقليِّ، وهو تقسيمٌ جميلٌ لتصويرِ النُّفوسِ وأحوالِ النَّاسِ والشُّخوصِ، ولكِنَّ واقِعَ النَّاسِ وما قضت به سُنَّةُ اللهِ في هذه الحياةِ من بناءِ الدُّنيا، واستقامةِ المعاشِ على المُشاركةِ والمعاونةِ، واتخاذِ النَّاسِ بعضِهم بعضًا سُخريًّا...يُشَوِّشُ على ما قرَّره الماوَرْديُّ؛ فلا يُتصَوَّرُ في الواقِعِ من أحدٍ -فيما نحن بصَدَدِه- أن يحقِّقَ مُبتغاه إلَّا بتعاضُدِ أطرافٍ من النَّاسِ، هذا جانبٌ. ومِن جانبٍ آخَرَ؛ فإنَّ البذلَ من طرَفٍ واحدٍ -على نحوِ ما ذكَر الماوَرْديُّ- لا يُسَمَّى إلَّا إحسانًا ومِنَّةً ونِعمةً، وهذا ليس من بابِ التَّعاوُنِ في شيءٍ إلَّا من حيثُ الأثَرُ والفائدةُ للمُحسَنِ إليه والمُنعَمِ عليه.

كما أنَّ مَن يستعينُ ولا يُعينُ قد رَضِيَ لنفسِه أن يكونَ عالةً على غيرِه، وجعل حياتَه مَبنيَّةً على السُّؤالِ والطَّلَبِ والتَّطلُّعِ إلى ما في أيدي النَّاسِ.

وأمَّا من لا يُعينُ ولا يَستعينُ فتصَوُّرُ وُجودِه في بني الإنسانِ بعيدٌ... فالإنسانُ لا يستغني عن أخيه الإنسانِ، كما قضى اللهُ عزَّ وجَلَّ في سُنَنِه)[3081].

المطلب السابع: دَرَجاتُ التَّعاوُنِ

التَّعاوُنُ على سَبعِ دَرَجاتٍ:

1- التَّعاوُنُ على العَصَبيَّةِ: وهي أوَّلُ دَرَجةٍ يَضَعُ بها العبدُ قَدَمَه على مقامِ التَّعاوُنِ، وتقَعُ من غيرِ اكتسابٍ أو تزكيةٍ للنَّفسِ، كما أنَّ الحيوانَ يدافِعُ عن القطيعِ بالغريزةِ، ويكونُ الباعِثُ على هذه الدَّرَجةِ هو الحَمِيَّةَ، وكان هذا من شأنِ العَرَبِ في الجاهليَّةِ؛ فقامت بينهم لذلك حروبٌ استمرَّت سنينَ، ويَصِفُ ذلك الشَّاعِرُ بقولِه:

إذا استُنجِدوا لم يَسألوا مَن دعاهم، لأيَّةِ حَربٍ أم لأيِّ مَكانِ.[3082]

وهذا تظاهُرٌ مذمومٌ؛ كالذي يُعينُ قومًا على الظُّلمِ...

[3079] السَّنِيُّ: الرَّفيعُ. يُنظَر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري.2384 /6

[3080] أدب الدنيا والدين 171-173 بتصرُّفٍ واختصارٍ.

[3081] مجلة البحوث الإسلامية العدد 51، ربيع الأول - جمادى الثانية، 1418هـ، 209-210.

[3082] العقد الفريد لابن عبد ربه 6/ 59

2- التَّعاوُنُ لمصلحةٍ دُنيويَّةٍ: سواءٌ كانت مُباحةً أو غيرَ مُباحةٍ، والنِّيَّةُ الصَّالحةُ تحوِّلُ المباحَ إلى قُربةٍ؛ قال معاذٌ رَضِيَ اللهُ عنه: "أحتَسِبُ نومتي كما أحتَسِبُ قَومتي".[3083]

3- التَّعاوُنُ بِسَبَبِ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ: يكونُ التَّضافُرُ في هذه الدَّرَجةِ ابتغاءَ مَرضاةِ اللهِ تعالى؛ قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: "من استطاع منكم أن ينفَعَ أخاه فلْيَفعَلْ"[3084]، ويستَمِرُّ التَّعاوُنُ ما دام سبَبُه، وهو حُبُّ اللهِ تعالى؛ قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: "سبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه" فعدَّ منهم: "ورجلانِ تحابَّا في اللَّهِ؛ اجتَمَعا عليه وتفَرَّقا عليه"[3085]، ومَن وَضَع قَدَمَه في هذه الدَّرَجةِ سَهُلت عليه الدَّرَجاتُ التَّاليةُ.

4- التَّعاوُنُ على العبادةِ والمصالحِ الدِّينيَّةِ: فعن أمِّ عطيَّةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: "أمَرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن نُخْرِجَهُنَّ في الفِطرِ والأضحى: العواتِقَ، والحُيَّضَ، وذواتِ الخُدورِ؛ فأمَّا الحُيَّضُ فيعتَزِلْنَ الصَّلاةَ، ويَشهَدْنَ الخيرَ، ودعوةَ المُسلِمين، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إحدانا لا يكونُ لها جِلبابٌ، قال: لِتُلْبِسْها أختُها مِن جِلبابِها".[3086]

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "أتى رجلٌ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: هلكْتُ! وقعتُ على أهلي في رمضانَ، قال: أعتِقْ رَقَبةً، قال: ليس لي، قال: فصُمْ شهرينِ مُتتابِعَينِ، قال: لا أستطيعُ، قال: فأطعِمْ سِتِّين مسكينًا، قال: لا أجِدُ، فأُتِيَ بعَرَقٍ فيه تَمرٌ -العَرَقُ: المِكْتَلُ- فقال: أين السَّائِلُ؟ تصدَّقْ بها، قال: على أفقَرَ مني؟! واللهِ ما بَينَ لابَتَيها[3087] أهلُ بيتٍ أفقَرُ مِنَّا! فضَحِكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى بدَت نواجِذُه! قال: فأنتم إذًا".[3088]

5- التَّعاوُنُ على النَّوائِبِ والمُهِمَّاتِ: ومِثالُه قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: "إنَّ الأشعَرِيِّين إذا أرمَلوا[3089] في الغَزْوِ، أو قَلَّ طعامُ عيالِهم بالمدينةِ، جَمَعوا ما كان عندَهم في ثوبٍ واحدٍ، ثمَّ اقتَسَموه بينهم في إناءٍ واحدٍ بالسَّويَّةِ! فهم مني وأنا منهم".[3090]

المطلب الثامن: فوائِدُ التَّعاوُنِ

1- استفادةُ كُلِّ فردٍ من خبراتِ وتجاربِ الآخَرينَ في شتَّى مناحي الحياةِ.

2- استِغلالُ الملَكاتِ والطَّاقاتِ المُهدَرةِ الاستغلالَ المناسِبَ لِما فيه مصلحةُ الفردِ والمجتَمَعِ.

3- إظهارُ القُوَّةِ والتَّماسُكِ والتَّرابُطِ.

4- تنظيمُ الوقتِ وتوفيرُ الجُهدِ.

5- رفعُ الظُّلمِ عمَّن وقَع عليه.

6- حمايةُ الفردِ.

7- تقاسُمُ الحِملِ وتخفيفُ العِبءِ.

8- سهولةُ التَّصدِّي لأيِّ أخطارٍ تواجِهُ الإنسانَ ممَّن حولَه.

9- سهولةُ إنجازِ الأعمالِ الكبيرةِ التي لا يقدِرُ عليها الأفرادُ.

[3083] أخرجه البخاري 4342 واللفظ له، ومسلم 1733

[3084] أخرجه مسلم 2199 من حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[3085] أخرجه البخاري 660، ومسلم 1031 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[3086] أخرجه البخاري 1652، ومسلم 890 واللفظ له.

[3087] اللَّابةُ: الحَرَّةُ، وهي أرضٌ ذاتُ حِجارةٍ سُودٍ بينَ جَبَلينِ، أراد جانِبَي المدينةِ. يُنظَر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض 56 /4

[3088] أخرجه البخاري 6087 واللفظ له، ومسلم 1111

[3089] نَفِد زادُهم النهاية لابن الأثير 265 /2

[3090] أخرجه البخاري 2486، ومسلم 2500 من حديثِ أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

10- القضاءُ على الأنانيَّةِ وحُبِّ الذَّاتِ.
11- من أهَمِّ ركائزِ النَّجاحِ والتَّفوُّقِ.
12- سببُ نَيلِ تأييدِ اللَّهِ.
13- سببُ نَيلِ محبَّةِ اللهِ ورِضاه.
14- اشتراكُ المتعاونين على الخيرِ في الأجرِ.
15- يجعَلُ الفردَ يشعُرُ بالسَّعادةِ.
16- يزيلُ الضَّغائِنَ والحِقدَ والحسَدَ من القُلوبِ.
17- يساعِدُ الفردَ على بَذلِ المزيدِ من الجهدِ والقُوَّةِ.
18- يساعِدُ على سُرعةِ التَّنفيذِ.
19- يُسرِّعُ من عجلةِ التَّطوُّرِ العِلميِّ والتَّقدُّمِ التِّقْنيِّ.
20- يُولِّدُ سلامةَ الصَّدرِ ويُكسِبُ حُبَّ الخيرِ للآخَرينَ.
21- يؤدِّي بالفَردِ إلى الإتقانِ في العَمَلِ.
22- يُولِّدُ عندَ الفردِ الشُّعورَ بالقُوَّةِ.
23- يجَدِّدُ طاقةَ الفردِ ويُنَشِّطُها.
24- يُسَهِّلُ العمَلَ ويُيَسِّرُه.
25- يحقِّقُ أكبَرَ الاستثماراتِ.
26- يُحُدُّ من الازدواجيَّةِ في العمَلِ.
27- يتبَيَّنُ للفردِ ما يمتَلِكُ من طاقةٍ وخِبراتٍ وقُدراتٍ.
28- يُشيعُ رُوحَ الألفةِ والمحبَّةِ بَينَ المُسلِمين.
29- يُكمِلُ النَّقصَ ويَسُدُّ الخَلَلَ؛ فالمرءُ ضعيفٌ بنفسِه، قويٌّ بإخوانِه.
30- يُكسِبُ المرءَ قُوَّةً في مواجَهةِ العَقَباتِ التي تواجِهُه.

المطلب التاسع: مظاهِرُ وصُوَرُ التَّعاوُنِ

للتَّعاوُنِ صُوَرٌ كثيرةٌ نذكُرُ منها ما يلي:

1- التَّعاوُنُ على تجهيزِ الغازي.
2- التَّعاوُنُ على دَفعِ الظُّلمِ.
3- التَّعاوُنُ في الثَّباتِ على الحَقِّ والتَّمسُّكِ به.
4- التَّعاوُنُ في الدَّعوةِ إلى اللَّهِ، أو في نشر المنتجات الدعوية.
5- التَّعاوُنُ في تزويجِ العُزَّابِ.
6- التَّعاوُنُ في طَلَبِ العِلمِ والتَّفقُّهِ في الدِّينِ.
7- التَّعاوُنُ لتفريجِ كُرُباتِ المهمومينَ وسَدِّ حاجاتِ المُعْوِزين.
8- التَّعاوُنُ مع أولياءِ الأُمورِ والمسئولين، وتقديمُ النُّصحِ لهم، ومساعدتُهم على القيامِ بواجباتِهم.

9- التعاون مع الدعاة في تسهيل مهامهم بتقديم خدمات لهم ولأولادهم والتخفيف عنهم حتى يتفرغوا كليا للدعوة.
10- التَّعاوُنُ على الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكَرِ.
11- التَّعاوُنُ في جمعِ التَّبرُّعاتِ والصَّدَقاتِ والزَّكَواتِ، وتوزيعِها على مستحقِّيها.
12- التَّعاوُنُ على حَلِّ الخلافاتِ والنِّزاعاتِ التي تقَعُ بَينَ المُسلِمين.
13- التَّعاوُنُ في العناية بالمسلمين الجدد واحتوائهم.

المطلب العاشر: موانِعُ التَّعاوُنِ

1- التَّعصُّبُ والحِزبيَّةُ.
2- اتِّباعُ الأوهامِ والشُّكوكِ في مدى جدوى هذا التَّعاوُنِ والاستفادةِ منه.
3- الأنانيَّةُ، وعدَمُ حُبِّ الخيرِ للآخَرينَ.
4- تعذُّرُ الفردِ بانشغالِه وكثرةِ أعمالِه.
5- تنافُسُ الأفرادِ.
6- محبَّةُ الصَّدارةِ والزَّعامةِ وغيرِها من حظوظِ النَّفسِ.
7- الحَسَدُ للآخَرينَ.
8- سُوءُ الظَّنِّ بالآخَرينَ.
9- عَدَمُ التَّعوُّدِ على التَّعاوُنِ.
10- الكِبرُ على الآخَرينَ، وتوهُّمُ الفردِ أنَّه أعظَمُ من غيرِه.
11- الكَسَلُ.
12- اعتقادُ عَدَمِ جدوى التَّعاوُنِ؛ تأثُّرًا ببعضِ نماذجَ نادرةٍ للتعاوُنِ لم تُكَلَّلْ بالنَّجاحِ.

المطلب الحادي عشر: الوسائِلِ المُعِينَةِ على التَّعاوُنِ

هناك العديدُ من الطُّرُقِ والسُّبُلِ التي تعمَلُ على تقويةِ التَّعاوُنِ وتثبيتِه بَينَ المؤمنينَ، ومن ذلك:
1- التَّعارُفُ.
2- معرفةُ المسلِمِ لحقوقِ المسلِمِ عليه.
3- احتسابُ الأجرِ.
4- تنميةُ الرُّوحِ الجماعيَّةِ.
5- فِقهُ الواقعِ.
6- تطهيرُ القلبِ من الأمراضِ.[3091]
7- تعويدُ النَّفسِ على التَّعاوُنِ.
8- النَّظَرُ في سيرةِ النَّبيِّ والسَّلَفِ الصَّالحِ، والاقتداءُ بهم.
9- تقويةُ الإيمانِ

[3091] يُنظَر: الرائد: دروس في التربية والدعوة لمازن الفريح 225-1/223

10- تدعيمُ أواصِرِ الأُخُوَّةِ.

المطلب الثاني عشر: آثارُ التَّعاوُنِ على الإثمِ والعُدوانِ

1- يَقلِبُ نظامَ المُجتمَعِ ويُساعِدُ على فسادِ الذِّمَمِ.
2- يفتَحُ أبوابَ الشَّرِّ ويَطمِسُ معالمَ الحَقِّ.
3- يُنبِئُ عن خِسَّةِ صاحِبِه ودناءةِ نَفسِه.
4- دليلٌ كامِلٌ على ضَعفِ الإيمانِ وقِلَّةِ المروءةِ.
5- يساعِدُ على الطُّغيانِ.
6- إذا تحقَّقَت في مجتَمَعٍ كانت سببًا في خرابِه.
7- تضيعُ الحُقوقُ، وتَصِلُ إلى غيرِ أهلِها ومُستَحقِّيها.[3092]

[3092] نضرة النعيم 4209/9

المبحث الخامس والعشرون: الحياء

الحَيَاءُ جَوهَرَةٌ ثَمِينَةٌ وَمَنبَعُ كُلِّ فَضِيلَةٍ وهُوَ أَسَاسُ مَكَارِمِ الأَخلَاقِ وأَفضَلُها وَأَجَلُّها، وَأَعظَمُهَا قَدرًا، وَأَكثَرُهَا نَفعًا، وهُوَ خُلُقُ الكِرام وسِمَةُ أَهْلِ المُرُوءةِ والشَّرَفِ والإيمان، وَتاجُ الأَخْلاقِ، وَعِنوان العَفاف، ورَمْزُ الوَقار، يَزيدُ المرأةَ جَمالًا وَرِفْعَة، والرُّجولةَ كَمالاً وَمُرُوءةً؛ لِأَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيهِ القَولُ الطَّيِّبُ، وَالفِعلُ الحَسَنُ. ولقد ضَرَبَ لنا رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم المَثَلَ الأعلى في الحَياء بِأقوالِهِ وأفعالِهِ، ويَكْفي قَولُ الصَّحابي الجَليل أبي سعيد الخُدري رضي الله عَنه وهو يَصِفُ الرسولَ الكَريم فَيَقُول: "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ في خِدْرِهَا، وإِذَا كَرِهَ شيئًا عُرِفَ في وَجْهِهِ".[3093]

المطلب الأول: معنى الحَياء

- **الحَياءُ لُغةً:**

الحَياءُ: الحِشمةُ، ضِدُّ الوَقاحةِ. وقد حَيِيَ منه حَياءً، واستحيا واستحى، فهو حَيِيٌّ، وهو الانقباضُ والانزواءُ.[3094]

الحَياءُ اصطِلاحًا:

هو: "انقِباضُ النَّفسِ من شيءٍ وتركُه حَذَرًا عن اللَّومِ فيه".[3095]

وقال ابنُ حَجَرٍ: "الحَياءُ: خُلُقٌ يبعَثُ صاحِبَه على اجتنابِ القبيحِ، ويمنعُ من التَّقصيرِ في حَقِّ ذي الحَقِّ".[3096]

وقيل هو: "تغيُّرٌ وانكسارٌ يعتري الإنسانَ من خوفِ ما يُعابُ به ويُذَمُّ، ومحلُّه الوَجهُ".[3097]

المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ الحَياءِ والخَجَلِ

"الخَجَلُ: معنًى يَظهَرُ في الوَجهِ لغَمٍّ يَلحَقُ القلبَ عندَ ذَهابِ حُجَّةٍ، أو ظُهورٍ على رِيبةٍ، وما أشبَهَ ذلك، فهو شيءٌ تتغيَّرُ به الهَيبةُ.

والحَياءُ: هو الارتِداعُ بقُوَّةِ الحَياءِ؛ ولهذا يقالُ: فلانٌ يستحي في هذا الحالِ أن يفعَلَ كذا، ولا يقالُ: يخجَلُ أن يفعَلَه في هذه الحالِ؛ لأنَّ هيئتَه لا تتغيَّرُ منه قبل أن يفعَلَه؛ فالخَجَلُ ممَّا كان، والحَياءُ ممَّا يكونُ.

وقد يُستعمَلُ الحَياءُ موضِعَ الخَجَلِ توسُّعًا، وقال الأنباريُّ: أصلُ الخجَلِ في اللُّغةِ: الكَسَلُ والتَّواني وقِلَّةُ الحَرَكةِ في طَلَبِ الرِّزقِ، ثمَّ كَثُرَ استعمالُ العَرَبِ له حتَّى أخرجوه على معنى الانقِطاعِ في الكلامِ.

وقد جاء عن العَرَبِ الخَجَلُ بمعنى: الدَّهَشِ.

قال الكُمَيتُ:

فلم يدفَعوا عندَنا ما لهم
لوَقعِ الحُروبِ ولم يخجَلوا

أي: لم يَبقوا دَهِشين مَبهوتين".[3098]

[3093] صحيح البخاري 3562، صحيح مسلم 2320 مطولاً باختلاف يسير.

[3094] مقاييس اللغة لابن فارس 2/122، لسان العرب لابن منظور 14/217، المصباح المنير للفيومي 1/160

[3095] التعريفات للجرجاني ص: 94

[3096] فتح الباري 1/52. ويُنظَر: مدارج السالكين لابن القيم 2/249

[3097] التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم ص: 61

[3098] الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص: 244

أيضًا فالخَجَلُ، مع أنَّه العُنصُرُ البارِزُ في الحَياءِ، لكنَّه يقعُ في الخيرِ والشَّرِّ، وقد يجُرُّ صاحِبَه إلى وَرطاتٍ سَيِّئةٍ، أمَّا الحَياءُ فلا يكونُ إلَّا في الحُدودِ المشروعةِ.[3099]

المطلب الثالث: التَّرغِيبُ في الحَيَاءِ والحثُّ عليه

أ. الحَيَاءُ فِي نُصُوصِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ:

1- قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ} [الأعراف: 26]، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ أي: استشعارُ النُّفوسِ تقوى اللَّهِ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، والحَياءِ، وخشيةِ اللَّهِ، والسَّمتِ الحَسَنِ: خيرٌ لصاحِبِه من اللِّباسِ والرِّياشِ الذي يتجَمَّلُ به.[3100]

واللباس نوعان: ظاهري يستر العورة، وباطني وهو التقوى الذي يستمر مع العبد، وهو جمال الروح والقلب.[3101]

2- وقال سُبحانَه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ} [الأحزاب: 53].

قال ابنُ كثيرٍ: "قيل: المرادُ أنَّ دُخولَكم مَنزِلَه بغيرِ إذنِه، كان يشُقُّ عليه ويتأذَّى به، لكِنْ كان يكرَهُ أن ينهاهم عن ذلك من شِدَّةِ حيائِه عليه السَّلامُ، حتَّى أنزل اللَّهُ عليه النَّهيَ عن ذلك".[3102]

وقال الشَّوكانيُّ: "أي: يَسْتَحيي أن يَقُولَ لَكُم: قُومُوا، أو اخرُجوا".[3103]

3-وقال تعالى في حَثِّ العَبدِ على الحَياءِ من رَبِّه؛ إذ هو مُطَّلِعٌ عليه في جميعِ أحوالِه وتقَلُّباتِه: {وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس: 61].

قال القُشَيريُّ: "خَوَّفَهم بما عرَّفهم من اطِّلاعِه عليهم في جميعِ أحوالِهم، ورؤيةِ ما سيَفعلونَه من فُنونِ أعمالِهم، والعِلمِ بأنَّه يراهم يوجِبُ استِحياءهم منه، وهذه حالُ المراقَبةِ، والعبدُ إذا عَلِمَ أنَّ مولاه يراه استحيا منه، وتَرَك متابعةَ هواه، ولا يحومُ حولَ ما نهاه".[3104]

4- وقال تعالى في الحَثِّ على التزامِ الحَياءِ مع الوالِدَينِ: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} [الإسراء: 23].

قال النَّيسابُوريُّ: "(وَلَا تَنْهَرْهُمَا): والنَّهرُ والنَّهيُ أخوانِ، يقالُ: نهَرَه وانتَهَره: إذا استقبله بكلامٍ يَزجُرُه. (وَقُلْ لَهُمَا): بَدَل التَّأفيفِ والنَّهرِ قَوْلًا كَرِيمًا جميلًا مشتَمِلًا على حُسنِ الأدَبِ، ورعايةِ دقائِقِ المروءةِ والحَياءِ والاحتِشامِ".[3105]

ب. الحَيَاءُ فِي نُصُوصِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ:

[3099] خلق المسلم لمحمد الغزالي ص: 149

[3100] التفسير المحرر - الدرر السنية 6/90

[3101] المختصر في تفسير القرآن الكريم، جماعة من علماء التفسير، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ص 153

[3102] تفسير القرآن العظيم 6/454

[3103] فتح القدير 4/342

[3104] لطائف الإشارات 2/104

[3105] غرائب القرآن ورغائب الفرقان 4/341

1- عن أبي مسعودٍ البَدريّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ ممَّا أدرك النَّاسُ من كلامِ النُّبُوَّةِ الأولى: إذا لم تستَحِ فاصنَعْ ما شِئتَ".[3106]

قال الخطَّابيُّ: "معنى قولِه: (النُّبُوَّة الأُولى): أنَّ الحَياءَ لم يَزَلْ أمرُه ثابتًا، واستِعمالُه واجبًا منذُ زَمانِ النُّبُوَّةِ الأُولى، وأنَّه ما من نبيٍّ إلَّا وقد نَدَب إلى الحَياءِ وبَعَث عليه، وأنَّه لم يُنسَخْ فيما نُسِخ من شرائِعِهم، ولم يُبَدَّلْ فيما بُدِّل منها".[3107]

والحديثُ فيه تفسيرانِ:

أحَدُهما: أنَّه على التَّهديدِ والوعيدِ، والمعنى: مَن لم يستَحِ فإنَّه يصنَعُ ما شاء من القبائِحِ؛ إذ الحامِلُ على تركِها الحَياءُ، فإذا لم يكُنْ هناك حَياءٌ نزَعَه من القبائِحِ، فإنَّه يواقِعُها، وهذا تفسيرُ أبي عُبَيدةَ.

والثَّاني: أنَّ الفِعلَ إذا لم تستَحِ فيه من اللهِ فافعَلْه، وإنَّما الذي ينبغي تركُه ما يُستَحى منه من اللهِ، وهذا تفسيرُ الإمامِ أحمدَ في روايةِ ابنِ هانئٍ؛ فعلى الأوَّلِ: يكونُ تهديدًا، كقولِه: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} [فصلت:40]، وعلى الثَّاني: يكونُ إذنًا وإباحةً، فإن قيل: فهل من سبيلٍ إلى حملِه على المعنيَينِ؟ قلتُ: لا، ولا على قولِ من يحمِلُ المشتَرَكَ على جميعِ معانيه؛ لِما بَينَ الإباحةِ والتَّهديدِ من المنافاةِ، ولكِنَّ اعتبارَ أحَدِ المعنيَينِ يوجِبُ اعتبارَ الآخَرِ.[3108]

2- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "الإيمانُ بِضعٌ وسَبعونَ -أو بِضعٌ وسِتُّونَ- شُعبةً، فأفضَلُها قَولُ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطَّريقِ، والحياءُ شُعبةٌ مِنَ الإيمانِ".[3109]

قال الخطَّابيُّ: "معنى قولِه: (الحَياءُ شُعبةٌ من الإيمانِ) أنَّ الحَياءَ يقطَعُ صاحِبَه عن المعاصي ويحجُزُه عنها، فصار بذلك من الإيمانِ".[3110]

و"إنَّما أفرد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هذه الخَصلةَ من خِصالِ الإيمانِ في هذا الحديثِ، وخَصَّها بالذِّكرِ دونَ غيرِها من باقي شُعَبِ الإيمانِ؛ لأنَّ الحَياءَ كالدَّاعي إلى باقي الشُّعَبِ؛ فإنَّ صاحِبَ الحَياءِ يخافُ فضيحةَ الدُّنيا والآخرةِ، فيأتَمِرُ وينزَجِرُ، فلمَّا كان الحَياءُ كالسَّبَبِ لفِعلِ باقي الشُّعَبِ خُصَّ بالذِّكرِ ولم يُذكَرْ غَيرُه معه".[3111]

وقال السَّعديُّ: "لعَلَّ ذِكر الحَياءِ؛ لأنَّه السَّبَبُ الأقوى للقيامِ بجميعِ شُعَبِ الإيمانِ؛ فإنَّ من استحيا من اللهِ لتواتُرِ نِعَمِه، وسوابِغِ كرَمِه، وتجلِّيه عليه بأسمائِه الحُسنى -والعبدُ مع هذا كثيرُ التَّقصيرِ مع هذا الرَّبِّ الجليلِ الكبيرِ، يظلِمُ نفسَه ويجني عليها- أوجَب له هذا الحَياءُ التَّوقِّيَ من الجرائمِ، والقيامَ بالواجِباتِ والمُستحبَّاتِ".[3112]

3- وعن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "الحَياءُ لا يأتي إلَّا بخيرٍ".[3113]

قال ابنُ بطَّالٍ: "معناه: أنَّ من استحيا من النَّاسِ أن يرَوه يأتي الفُجورَ ويرتَكِبُ المحارِمَ، فذلك داعيةٌ له إلى أن يكونَ أشَدَّ حَياءً من رَبِّه وخالقِه، ومن استحيا من رَبِّه فإنَّ حَياءَه زاجِرٌ له عن تضييعِ فرائِضِه وركوبِ معاصيه؛ لأنَّ كُلَّ ذي فِطرةٍ صحيحةٍ يعلَمُ أنَّ اللهَ تعالى بيده النفع، وَبِيَدِهِ الضُّرُّ، وهو الرَّزَّاقُ والمُحيي والمُميتُ، فإذا عَلِمَ ذلك فينبغي له أن يستحيِيَ منه عزَّ وجَلَّ".[3114]

[3106] رواه البخاري 6120

[3107] معالم السنن 4/109

[3108] الجواب الكافي ص: 69-70

[3109] رواه مسلم 35

[3110] معالم السنن 4/312

[3111] المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية للسفيري 1/365

[3112] بهجة قلوب الأبرار ص: 179

[3113] رواه البخاري 6117، ومسلم 37

[3114] بتصرف: شرح صحيح البخاري 9/297

وقال ابنُ رَجَبٍ: "... (الحَياءُ لا يأتي إلَّا بخيرٍ): فإنَّه يكُفُّ عن ارتكابِ القبائِحِ ودناءةِ الأخلاقِ، ويحُثُّ على استعمالِ مكارِمِ الأخلاقِ ومعاليها".[3115]

وقال ابنُ حَجَرٍ: "إذا صار الحَياءُ عادةً، وتخلَّق به صاحِبُه، يكونُ سَبَبًا يجلِبُ الخيرَ إليه، فيكونُ منه الخيرُ بالذَّاتِ والسَّبَبِ".[3116]

فالحَياءُ فضيلةٌ من فضائِلِ الفِطرةِ، وهو مادَّةُ الخيرِ والفضيلةِ، وبهذا وصَفه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه: "الحَياءُ خيرٌ كُلُّه".[3117]

4- وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مرَّ على رجُلٍ، وهو يعاتِبُ أخاه في الحَياءِ، يقولُ: "إنَّك لتستحيي حتَّى كأنَّه يقولُ: قد أضَرَّ بك، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعْه؛ فإنَّ الحَياءَ من الإيمانِ".[3118]

قال ابنُ بطَّالٍ: "معناه: أنَّ الحَياءَ من أسبابِ الإيمانِ وأخلاقِ أهلِه؛ وذلك أنَّه لَمَّا كان الحَياءُ يمنَعُ من الفواحِشِ، ويحمِلُ على الصَّبرِ والخيرِ، كما يمنَعُ الإيمانُ صاحِبَه من الفُجورِ، ويقيِّدُه عن المعاصي، ويحمِلُه على الطَّاعةِ- صار كالإيمانِ لمساواتِه له في ذلك، وإن كان الحَياءُ غريزةً، والإيمانُ فِعلُ المؤمِنِ، فاشتبَها من هذه الجِهةِ".[3119]

- وعن أبي واقدٍ اللَّيثيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينما هو جالِسٌ في المسجِدِ والنَّاسُ معه إذ أقبل ثلاثةُ نَفَرٍ، فأقبل اثنانِ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وذهَب واحِدٌ، قال: فوقفا على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأمَّا أحَدُهما فرأى فُرجةً في الحَلقةِ فجلس فيها، وأمَّا الآخَرُ فجلس خلْفَهم، وأمَّا الثَّالثُ: فأدبر ذاهِبًا، فلمَّا فرغ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ألا أخبِرُكم عن النَّفَرِ الثَّلاثةِ؟ أمَّا أحدُهم فأوى إلى اللهِ فآواه اللهُ، وأمَّا الآخَرُ فاستحيا، فاستحيا اللهُ منه، وأمَّا الآخَرُ فأعرَض، فأعرَضَ اللهُ عنه".[3120]

قال القاضي عِياضٌ: "(وأمَّا الآخَرُ فاستحيا): أي: ترَك المزاحمةَ والتَّخطِّيَ كما فعَل الآخَرُ؛ حَياءً من النَّبيِّ وممَّن حضر، أو استحيا من النَّبيِّ أن يُعرِضَ ويذهَبَ كما فعَل الآخَرُ".[3121]

وقال أبو العبَّاسِ القُرطبيُّ: "قولُه: (وأمَّا الآخَرُ فاستحيا؛ فاستحيا اللهُ منه)، كأنَّ هذا الثَّالِثَ كان متمكِّنًا من المزاحمةِ؛ إذ لو شرَع فيها لفُسِح له؛ لأنَّ التَّفسُّحَ في المجلِسِ مأمورٌ به مندوبٌ إليه، لكنْ منَعه من ذلك الحَياءُ، فجلس خَلْفَ الصَّفِّ الأوَّلِ، ففاتَتْه فضيلةُ التَّقدُّمِ".[3122]

ت. الحَيَاءُ فِي أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

1- عن عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ، عن أبيه قال: قال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ وهو يخطُبُ النَّاسَ: "يا معشرَ المُسلِمين، استحيوا من اللهِ؛ فوالذي نفسي بيَدِه إنِّي لأظَلُّ حين أذهبُ إلى الغائِطِ في الفضاءِ متقنِّعًا بثوبي؛ استِحياءً من رَبِّي عزَّ وجلَّ".[3123]

[3115] جامع العلوم والحكم 1/501

[3116] فتح الباري 10/522

[3117] صحيح مسلم 6117

[3118] رواه البخاري 6118 واللفظ له، ومسلم 36

[3119] شرح صحيح البخاري لابن بطال 9/298

[3120] أخرجه البخاري 66، ومسلم 2176

[3121] إكمال المعلم 7/67

[3122] المفهم 18/13

[3123] أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق 316

2- عن سلمانَ قال: "إنَّ اللهَ تعالى إذا أراد بعبدٍ شَرًّا أو هَلَكَةً نزَع منه الحَياءَ، فلم تَلْقَه إلَّا مَقيتًا مُمقَّتًا، فإذا كان مَقيتًا مُمقَّتًا نُزِعَت منه الرَّحمةُ فلم تَلْقَه إلَّا فَظًّا غليظًا، فإذا كان كذلك نُزِعَت منه الأمانةُ فلم تَلْقَه إلَّا خائنًا مخوَّنًا، فإذا كان كذلك نُزِعَت رِبقةُ الإسلامِ من عُنُقِه؛ فكان لعينًا مُلَعَّنًا".[3124]

3- وقال أحمدُ بنُ حَنبَلٍ: "إذا نُزِع الحَياءُ من الإنسانِ نُزِع منه الخيرُ".[3125]

4- وقال طاووسٌ: "الإيمانُ عُريانٌ، ولِباسُه التَّقوى، وزينتُه الحَياءُ، ومالُه الفِقهُ".[3126]

5- وقال الماوَرْديُّ: "ليس لمَن سُلِب الحَياءَ صادٌّ عن قبيحٍ، ولا زاجِرٌ عن محظورٍ؛ فهو يُقدِمُ على ما يشاءُ، ويأتي ما يهوى".[3127]

6-وقال ابنُ حبَّانَ: "الحَياءُ من الإيمانِ، والمؤمِنُ في الجنَّةِ، والبَذاءُ من الجَفاءِ، والجافي في النَّارِ إلَّا أن يتفضَّلَ اللهُ عليه برحمتِه فيُخَلِّصَه منه، فإذا لزِمَ المرءُ الحَياءَ كانت أسبابُ الخيرِ منه موجودةً، كما أنَّ الوَقِحَ إذا لزِمَ البذاءَ كان وجودُ الخيرِ منه معدومًا، وتواتُرُ الشَّرِّ منه موجودًا؛ لأنَّ الحَياءَ هو الحائِلُ بَينَ المرءِ وبَينَ المزجوراتِ كُلِّها، فبقوَّةِ الحَياءِ يَضعُفُ ارتكابُه إيَّاها، وبضَعفِ الحَياءِ تقْوى مباشرتُه إيَّاها".[3128]

وقال أيضًا: "إنَّ المرءَ إذا اشتَدَّ حياؤه صان عِرضَه، ودَفَن مساويَه، ونَشَر محاسِنَه، ومن ذهب حياؤه ذهَب سرورُه، ومن ذهَب سرورُه هان على النَّاسِ ومُقِتَ، ومَن مُقِت أوذِيَ، ومن أوذِيَ حَزِن، ومَن حَزِن فقَدَ عَقلَه، ومن أصيبَ في عَقلِه كان أكثرُ قولِه عليه لا له، ولا دواءَ لِمن لا حَياءَ له".[3129]

7- وقال الجُنَيدُ: "الحَياءُ: رؤيةُ الآلاءِ ورؤيةُ التَّقصيرِ، فيتولَّدُ بينهما حالةٌ تسمَّى الحَياءَ، وحقيقتُه: خُلُقٌ يَبعَثُ على تَركِ القبائحِ، ويمنَعُ من التَّفريطِ في حقِّ صاحِبِ الحَقِّ".[3130]

8- وقال أبو عُبَيدةَ النَّاجي: سمِعتُ الحسَنَ يقولُ: "الحَياءُ والتَّكرُّمُ خَصلتانِ من خِصالِ الخيرِ، لم يكونا في عبدٍ إلَّا رفَعه اللهُ عزَّ وجَلَّ بهما".[3131]

9- وقال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: "خمسٌ من علاماتِ الشَّقاءِ: القَسوةُ في القلبِ، وجمودُ العينِ، وقِلَّةُ الحَياءِ، والرَّغبةُ في الدُّنيا، وطولُ الأمَلِ".[3132]

10- وقال ابنُ أبي الدُّنيا: "قيل لبَعضِ الحُكَماءِ: ما أنفَعُ الحَياءِ؟ قال: أن تستحيَ أن تسألَه ما تحِبُّ، وتأتي ما يَكرَهُ".[3133]

11- وقال العِزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ: "لا يُخْفى ما في الحَياءِ من الحَثِّ على كُلِّ حَسَنٍ، والزَّجرِ عن كُلِّ قبيحٍ".[3134]

12- وقال ربيطُ بني إسرائيلَ: "زَينُ المرأةِ الحَياءُ، وزَينُ الحكيمِ الصَّمتُ".[3135]

13- وقال ابنُ عطاءٍ: "العِلمُ الأكبَرُ: الهيبةُ والحَياءُ؛ فإذا ذهَبَت الهيبةُ والحَياءُ، لم يَبْقَ فيه خيرٌ".[3136]

[3124] حلية الأولياء لأبي نعيم 1/ 204

[3125] مسائل الإمام أحمد - رواية أبي داود ص: 379

[3126] سير أعلام النبلاء للذهبي 4/550

[3127] أدب الدنيا والدين ص: 247

[3128] روضة العقلاء ص: 57، 58

[3129] المصدر السابق، ص: 82

[3130] مدارج السالكين لابن القيم 2/249

[3131] مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص: 43

[3132] شعب الإيمان للبيهقي 10/182

[3133] التوبة لابن أبي الدنيا ص: 91

[3134] شجرة المعارف والأحوال ص: 93

[3135] الصمت لابن أبي الدنيا ص: 263

[3136] الرسالة القشيرية للقشيري 2/367

14- وقال ذو النُّونِ المِصريُّ: "الحَياءُ وجودُ الهَيبةِ في القَلبِ، مع وَحشةِ ما سبَق منك إلى رَبِّك تعالى".[3137]

15- وقال أبو عُثمانَ: "من تكلَّم في الحَياءِ ولا يستحي من اللهِ عزَّ وجَلَّ فيما يتكَلَّمُ به، فهو مُستدرَجٌ".[3138]

16- وقال الجريريُّ: "تعامَل القَرنُ الأوَّلُ من النَّاسِ فيما بينهم بالدِّينِ، حتى رقَّ الدِّينُ، ثمَّ تعامَل القَرنُ الثَّاني بالوفاءِ حتى ذهب الوفاءُ، ثمَّ تعامَل القَرنُ الثَّالثُ بالمروءةِ حتى ذهبت المروءةُ، ثمَّ تعامَل القَرنُ الرَّابعُ بالحَياءِ حتى ذهب الحَياءُ، ثمَّ صار النَّاسُ يتعاملون بالرَّغبةِ والرَّهبةِ".[3139]

17- وقال ابنُ القَيِّمِ: "على حَسَبِ حياةِ القَلبِ يكونُ فيه قوَّةُ خُلُقِ الحَياءِ، وقِلَّةُ الحَياءِ من مَوتِ القَلبِ والرُّوحِ، فكلَّما كان القلبُ أحيى كان الحَياءُ أتمَّ".[3140]

18- يقول ابن القيّم رحمه الله: وَمِنْ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِي: "ذَهَابُ الْحَيَاءِ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ الْقَلْبِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَذَهَابُهُ ذَهَابُ الْخَيْرِ أَجْمَعِهِ".[3141]

المطلب الرابع: فوائِدُ الحَياءِ

1- هَجرُ المعصيةِ، والإقبالُ على الطَّاعةِ.

2- يُبعِدُ عن فضائِحِ الدُّنيا والآخِرةِ.

3- يكسو المرءَ الوقارَ، فلا يفعَلُ ما يُخِلُّ بالمروءةِ والتَّوقيرِ، ولا يؤذي مَن يستَحِقُّ الإكرامَ.

4- مَن استحى من اللهِ ستَرَه اللهُ في الدُّنيا والآخِرةِ.

5- يؤدِّي إلى محبَّةِ اللهِ ومحبَّةِ النَّاسِ.

6- يدفَعُ المرءَ إلى التَّحلِّي بكُلِّ جميلٍ محبوبٍ، والتَّخَلِّي عن كُلِّ قبيحٍ مكروهٍ.

7- يمنَعُ من التَّفريطِ في حَقِّ صاحِبِ الحَقِّ.

8- اعتيادُ مُراقبةِ اللهِ سُبحانَه في الأقوالِ والأعمالِ وسائِرِ الأحوالِ.

9- يُكسِبُ صاحبَه الأخلاقَ الحميدةَ.

10- المجتَمَعُ الذي ينتَشِرُ فيه الحَياءُ تَقِلُّ فيه الشُّرورُ والمعاصي؛ قال مجاهِدٌ: "إنَّ المُسلِمَ لو لم يُصِبْ من أخيه إلَّا أنَّ حَياءَه منه يمنَعُه من المعاصي، لكفاه".[3142]

11- يكشِفُ عن إيمانِ المرءِ وما يتحلَّى به من أدَبٍ.

12- يُكْسِبُ الْعِفَّةَ وَالْوَفَاءَ: فَمَنْ اتَّصَفَ بِالْحَيَاءِ صَار عفيفاً وفياً، بعيداً عَنْ كُلِّ مَنْقَصَةٍ، قَرِيباً مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ، قَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ: "اثنتان لَا تَجْتَمِعَانِ أبداً فِي بَشَرٍ: الْكَذِبُ وَالْمُرُوءَةُ، وَمِنْ ثَمَرَاتِ الْمُرُوءَةِ: الصِّدْق، وَالْوَفَاء، وَالْعِفَّة، وَالْحَيَاء". وَأَمَّا مَنْ فَقَدَ الْحَيَاءَ، فقُلْ: عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَقَد سَقَطَ فِي مَيْدَانِ الرَّذِيلَةِ، وَهَوَى فِي دَرَكَاتِ الْحَمَاقَةِ وَالْوَقَاحَةِ، وَلَمْ تَزَلْ خُطَوَاتِهِ تَقُودُهُ مِنْ سَيِّئَةٍ إلَى أُخْرَى، حَتَّى يَصِيرَ بَذِيئاً جَافِياً، فِيهِ مِنْ قَبَائِحِ الْأَفْعَالِ، وَسَيِّءِ الْأَقْوَالِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ.

[3137] المصدر السابق 2/367-368

[3138] المصدر السابق 2/368

[3139] المصدر السابق 2/368

[3140] مدارج السالكين 2/248

[3141] كتاب الداء والدواء الجواب الكافي ص 68، ط دار المعرفة - فصل المعاصي تذهب الحياء.

[3142] حلية الأولياء لأبي نعيم 3/ 280

المطلب الخامس: أقسامُ الحَياءِ

- **ينقَسِمُ الحَياءُ إلى قِسمَينِ:**

1- القِسمُ الأوَّلُ: حَياءٌ فِطريٌّ: وهو الذي يولَدُ مع الإنسانِ متزَوِّدًا به، ومن أمثلتِه: حَياءُ الطِّفلِ عندما تنكَشِفُ عورتُه أمامَ النَّاسِ، وهذا النَّوعُ من الحَياءِ مِنْحةٌ أعطاها اللهُ لعبادِه.

2- القِسمُ الثَّاني: حَياءٌ مُكتَسَبٌ: وهو الذي يكتَسِبُه المُسلِمُ من دينِه، فيمنَعُه مِن فِعلِ ما يُذَمُّ شَرعًا، مخافةَ أن يراه اللهُ حيثُ نهاه، أو يفقِدَه حيثُ أمَره.

وينقَسِمُ باعتبارِ مُتعَلِّقِه إلى قِسمَين:

1- القِسمُ الأوَّلُ: الحَياءُ الشَّرعيُّ: وهو الذي يقَعُ على وَجهِ الإجلالِ والاحترامِ، وهو محمودٌ.

2- **القِسمُ الثَّاني:** الحَياءُ غيرُ الشَّرعيِّ: وهو ما يقَعُ سَببًا لتركِ أمرٍ شَرعيٍّ، وهذا النَّوعُ من الحَياءِ مذمومٌ، وهو ليس بحَياءٍ شَرعيٍّ، وإنَّما هو ضَعفٌ ومهانةٌ".[3143]

- **ويمكِنُ تقسيمُ الحَياءِ من حيثُ من يُستحيا منه إلى ثلاثةِ أقسامٍ:**

1-الحَياءُ مِنَ اللهِ:

وذلك بالحِرصِ على امتثالِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه، وذاك إنَّما يكونُ عن معرفةٍ ومراقبةٍ.

2-الحَياءُ من النَّاسِ:

وهذا يوجِبُ للعبدِ أن يستعمِلَ المروءةَ وأن يفعَلَ ما يجَمِّلُه ويُزَيِّنُه عندَ النَّاسِ، ويتجنَّبَ ما يُدَنِّسُه ويَشينُه.

3- الحَياءُ من النَّفسِ:

وذلك حينَ يجعَلُ الإنسانُ من نفسِه حَكَمًا على نفسِه، فيحاسِبُها فيما تقولُ أو تفعَلُ، وفيما تسمَعُ أو تنظُرُ أو تُفَكِّرُ، وفي سائرِ أحوالها، وهذا القِسمُ لا تَشعُرُ به إلَّا النُّفوسُ العزيزةُ.[3144]

المطلب السادس: أوجُهُ الحَياءِ

ذَكَر ابنُ القَيِّمِ صُوَرًا للحَياءِ، وقَسَّمها إلى عَشَرةِ أوجُهٍ، وهي:

"حَياءُ جنايةٍ، وحَياءُ تقصيرٍ، وحَياءُ إجلالٍ، وحَياءُ كَرَمٍ، وحَياءُ حِشمةٍ، وحَياءُ استِصغارٍ للنَّفسِ واحتقارٍ لها، وحَياءُ محبَّةٍ، وحَياءُ عُبوديَّةٍ، وحَياءُ شَرَفٍ وعِزَّةٍ، وحَياءُ المُستحيي من نَفسِه".

1- فأمَّا حَياءُ الجنايةِ: فمنه حَياءُ آدمَ عليه السَّلامُ لَمَّا فرَّ هارِبًا في الجنَّةِ.

2- وحَياءُ التَّقصيرِ: كحَياءِ الملائكةِ الذين يُسَبِّحون اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفتُرون، فإذا كان يومُ القيامةِ قالوا: سُبحانَك! ما عبَدْناك حقَّ عبادتِك.

3- وحَياءُ الإجلالِ: هو حَياءُ المعرفةِ، وعلى حَسَبِ معرفةِ العبدِ برَبِّه يكونُ حياؤُه منه.

4- وحَياءُ الكَرَمِ: كحَياءِ النَّبيِّ من القومِ الذين دعاهم إلى وليمةِ زَينبَ وطوَّلوا الجلوسَ عِندَه، فقام واستحيا أن يقولَ لهم: انصَرِفوا.[3145]

[3143] الأخلاق الإسلامية لحسن السعيد المرسي ص: 146

[3144] مدارج السالكين لابن القيم 2/252، عمدة القاري للعيني 1/129، شرح رياض الصالحين لابن عثيمين 29/4-30، أخلاق القرآن لأحمد الشرباصي 1/107

5- وحَياءُ الحِشمةِ: كحَياءِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه أن يسألَ رَسولَ اللهِ عن المَذْيِ؛ لمكانِ ابنتِه منه.[3146]

6- وحَياءُ الاستِحقارِ واستِصغارِ النَّفسِ: كحَياءِ العَبدِ مِن رَبِّه عزَّ وجَلَّ حينَ يسألُه حوائجَه؛ احتقارًا لشأنِ نفسِه واستِصغارًا لها...

<u>وقد يكونُ لهذا النَّوعِ سَببانِ:</u>

أحدُهما: استحقارُ السَّائِلِ نفسَه، واستعظامُ ذُنوبِه وخطاياه.

والثَّاني: استِعظامُ مَسؤولِه.

7- وأمَّا حَياءُ المحبَّةِ فهو حَياءُ المحِبِّ من محبوبِه: حتَّى إنَّه إذا خطَر على قَلبِه في غيبتِه هاج الحَياءُ من قَلبِه، وأحسَّ به في وَجهِه، ولا يُدرى ما سَبَبُه، وكذلك يَعرِضُ للمُحِبِّ عند ملاقاتِه محبوبَه ومناجاتِه له روعةٌ شديدةٌ، ومنه قولُهم: جمالٌ رائعٌ، وسَبَبُ هذا الحَياءِ والرَّوعةِ ممَّا لا يَعرِفُه أكثَرُ النَّاسِ.

ولا رَيبَ أنَّ للمحبَّةِ سُلطانًا قاهِرًا للقَلبِ أعظَمَ من سُلطانِ من يقهَرُ البَدَنَ، فأين مَن يقهَرُ قَلبَك ورُوحَك إلى مَن يَقهَرُ بَدَنك؟! ولذلك تَعَجَّبَتِ الملوكُ والجبابِرةُ من قَهْرِهم للخَلقِ، وقَهْرِ المحبوبِ لهم وذُلِّهم له! فإذا فاجأ المحبوبُ مُحِبَّه ورآه بَغتةً، أحسَّ القَلبُ بهُجومِ سُلطانِه عليه فاعتراه رَوعةٌ وخَوفٌ...

وأمَّا الحَياءُ الذي يعتريه منه وإن كان قادرًا عليه كأمَتِه وزَوجتِه، فسَبَبُه -واللهُ أعلَمُ- أنَّ هذا السُّلطانَ لـمَّا زال خوفُه عن القَلبِ بَقِيَت هيبتُه واحتشامُه، فتولَّد منها الحَياءُ، وأمَّا حُصولُ ذلك له في غَيبةِ المحبوبِ فظاهِرٌ لاستيلائِه على قَلبِه، فوَهمُه يُغالِطُه عليه ويكابِرُه حتَّى كأنَّه معه.

8- **وأمَّا حَياءُ العُبوديَّةِ:** فهو حَياءٌ ممتَزِجٌ من محبَّةٍ وخوفٍ، ومشاهَدةِ عَدَمِ صلاحِ عبوديَّتِه لمعبودِه، وأنَّ قَدْرَه أعلى وأجَلُّ منها؛ فعُبوديَّتُه له توجِبُ استِحياءَه منه لا محالةَ.

9- **وأمَّا حَياءُ الشَّرَفِ والعِزَّةِ:** فحَياءُ النَّفسِ العظيمةِ الكبيرةِ، إذا صدَر منها ما هو دونَ قَدْرِها من بَذلٍ أو عطاءٍ وإحسانٍ، فإنَّه يستحْيي -مع بذلِه- حَياءَ شَرَفِ نَفسٍ وعِزَّةٍ، وهذا له سببانِ: أحَدُهما: هذا، والثَّاني: استِحياؤه من الآخِذِ حتَّى كأنَّه هو الآخِذُ السَّائِلُ، حتَّى إنَّ بعضَ أهلِ الكَرَمِ لا تطاوِعُه نفسُه بمواجهتِه لمَن يعطيه؛ حَياءً منه، وهذا يدخُلُ في حَياءِ التَّلوُّمِ؛ لأنَّه يَستحيي من خَجلةِ الآخِذِ.

10- **وأمَّا حَياءُ المرءِ من نَفسِه:** فهو حَياءُ النُّفوسِ الشَّريفةِ العزيزةِ الرَّفيعةِ مِن رضاها لنَفْسِها بالنَّقصِ وقناعَتِها بالدُّونِ، فيَجِدُ نَفسَه مستحيًا من نفسِه حتَّى كأنَّ له نفسَينِ يستحْيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمَلُ ما يكونُ من الحَياءِ؛ فإنَّ العبدَ إذا استحْيا مِن نفسِه فهو بأن يستحييَ من غيرِه أجدَرُ.[3147]

[3145] ما رواه البخاري 4793، ومسلم 1428

[3146] ما رواه البخاري 132، ومسلم 303

[3147] مدارج السالكين لابن القيم 2/250-252

المطلب السابع: مَظاهِرُ وصُوَرُ الحَياءِ

أولا: من مَظاهِرِ وصُوَرِ الحَياءِ المحمودِ:

1- حَيَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ حَيِي سِتِّيرٌ، يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّه حَيِي سِتِّيرٌ، يُحِبُّ الْحَيَاءَ والستر".[3148]

في الحديثِ: إثباتُ صِفةِ الحِلمِ والحَياءِ والسَّترِ للهِ عزَّ وجلَّ بما يَليقُ بذاتِه وجَلالِه، في غَيرِ مُشابَهةٍ للعبادِ، والتَّحلِّي بصِفَتَي الحَياءِ والسَّترِ.

الحَياءُ صِفةٌ خَبَريَّةٌ ثابتةٌ للهِ عزَّ وجَلَّ بالكتابِ والسُّنَّةِ، و(الحَيِيُّ) من أسمائِه تعالى، وحَياءُ اللهِ سُبحانَه وَصفٌ يليقُ به، ليس كحَياءِ المخلوقين، الذي هو تغيُّرٌ وانكسارٌ يعتري الشَّخصَ عندَ خَوفِ ما يُعابُ أو يُذَمُّ، بل هو تَركُ ما لا يتناسَبُ مع سَعةِ رحمتِه، وكمالِ جُودِه وكَرَمِه، وعظيمِ عَفوِه وحِلمِه.[3149]

2- الْحَيَاءُ مِنْ اللَّهِ:

وَأَعْلَى مَنَازِلِ الْحَيَاء، وَأَجَلُّ صوَرِه، أَنْ يَسْتَحْيِيَ العبدُ مِن ربِّه حقَّ الْحَيَاء، فيحفظَ الرَّأس وَمَا وَعى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وأَن يستحْيِيَ مِنْهُ - جَلَّ فِي عُلَاه - أَنْ يَرَاهُ حَيْثُ نَهَاه، أَوْ أَنْ يَفْقِدَهُ حَيْثُ أَمَرَهُ، وهو الذي سوَّاهُ وَمِنْ كُلِّ نِعْمَةٍ أَسْبَغَ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ، وَلِطَرِيقِ الْهُدَى وفَقَّهُ وَهَدَاه.

فَالْمُسْلِم ينبغي عليه أن يَتَأَدَّب مَعَ اللَّهِ -سُبحانه- وَيَسْتَحْيِي مِنْه، ويمتلئ قَلْبَهُ بِالْخَوْفِ وَالْمَهَابَةِ مِنْه، وَتَمْتَلِئ نَفْسَهُ بالوَقارِ وَالتَّعْظِيمِ لهُ، وَلَا يُجَاهِرُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَلَا يَفْعَلُ الْقَبَائِحَ وَالرَّذَائِل؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْه يَسْمَعُه وَيَرَاه، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ -تعالى- عَنْ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ الْمَعَاصِي دُون حَيَاءٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ: {يَسْتَخْفُونَ مِنْ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللَّهِ} [النساء:108].

إنَّ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَسْتَحْيِ مِنْ رَبِّهِ إذَا فَعَلَ ذَنبًا أَوْ مَعْصِيَةً، أَقْرَبُ لِأَنْ يَؤُوبَ إلَى رَبِّهِ سَرِيعًا، طالبًا مِنْهُ العَفْوَ وَالْغُفْرَان.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اسْتَحْيوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الحياء، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، إنَّا نَسْتَحِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَال: لَيْسَ ذَاك، وَلَكِن الِاسْتِحْيَاءُ مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنُ وَمَا حَوَى، ولتَذْكُر الْمَوْت والْبلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الحياء".[3150]

وَإِنْ تَعْجَبْ، فَعَجَبٌ مِنْ أُناسٍ يستحْيون مِنْ الْمَخْلُوقِ، وَلَا يستحْيون مِن الْخَالِق، يَخْجَلُونَ مِن فِعْل السُّوءِ وقولِه أمَامَ النَّاس، فَإِذَا غَابُوا عَن الأَعْيُنِ، ظَهَر الْفُجُور، وَبَدَتِ الْمَعَاصِي، وَانْكَشَفَ المَسْتُورِ، هَؤُلَاءِ مَنْ قَالَ عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ: "... أقوامٌ إذا خَلَوا بمحارمِ اللهِ انتهكُوها".[3151]

رَدِدْ كَلِمَاتُ الشَّاعر:

إِذَا مَا قَالَ لِي رَبِّي.. أَمَا اسْتَحْيَيْتَ تَعْصِينِي
وَتُخْفِي الذَّنْبَ مِنْ خَلْقِي.. وَبِالعِصْيَانِ تَأْتِينِي

[3148] صحيح النسائي 404

[3149] صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة للسقاف ص: 147

[3150] الترمذي وأحمد

[3151] صحيح ابن ماجة: 3442

فَمَا قَوْلِي لَهُ لَمَّا.. يُعَاتِبُنِي وَيُقْصِينِي

إنَّ الحَياءُ من اللهِ، يمنَعُ صاحِبَه من ارتكابِ المعاصي والآثامِ؛ لأنَّه يراقِبُ الله فِي كُلِّ أَفْعَالِهِ، فِي حِلِّه وتَرْحالِه.
وهو أعلى صُوَرِ الحَياءِ مكانةً، وبه يَصِلُ الإنسانُ إلى مرتبةِ الإحسانِ التي دلَّ عليها قولُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عِنْدَما سألَهُ جبريلُ عن الإحسانِ، فقال: "أن تعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنَّه يراك".[3152]
وقال أبو عبدِ اللهِ المَرْوَزيُّ: "ينبغي للعاقِلِ أن يستحيَ من اللهِ تعالى أن يراه كثيرَ الحَياءِ من الخَلقِ، قليلَ الحَياءِ من اللهِ تعالى، فلْيَكُنِ الغالِبُ عليه الحَياءَ من اللهِ".[3153]
وقال عُبَيدُ بنُ عُمَيرٍ: "آثِروا الحَياءَ من اللهِ على الحَياءِ من النَّاسِ".[3154]

3- الحَياءُ مِنْ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

حَقٌّ على الْمُسْلِمِ أن يَسْتَحْيِ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنْ لَمْ تَدْفَعْهُ نَفْسُهُ لتَعَلُّمِ سُنَّتِهِ وَسِيرَتِهِ أو يَتَّخِذْهُ أُسْوَةً حَسَنَةً؛ فَلَا يَحْذُو حَذْوَهُ فِي الْأَخْلَاقِ وَفِي الدَّعْوَة، أو يتَكَلَّمُ بِلُغَتِهِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى مَعَ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى تَعَلُّمِ اللُّغَاتِ الأُخْرَى؛ فَتَرَاهُ يَتْبَعُ كُلَّ نَاعِقٍ، وَيَمِيلُ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئْ بِنُورِ الوَحْيِ، وَلَمْ يَلْجَأْ إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ، قَالَ تَعَالَى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي} [آل عمران:31]، قال بعضُ السَّلَفِ: "ادَّعى قومٌ محبَّةَ اللهِ، فأنزل اللهُ آيةَ المحبَّةِ".[3155]
هذا الحَياءُ منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحقَّقُ باتِّباعِه بالفِعلِ، وليس بِمُجَرَّدِ القَولِ.
لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدُّ النَّاسِ حَياءً، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شيئًا عَرَفَهُ الصَّحَابَةُ فِي وَجْهِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
وَكَانَ إِذَا بَلَغَهُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مَا يَكْرَهُهُ لَمْ يُوَجِّهْ لَهُ الْكَلَامُ، وإِنَّمَا يَقُولُ: "مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَصْنَعُون كَذَا"، دُونَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ أَحَدٍ حَتَّى لَا يَفْضَحَه.
وَلَمْ يَكُنْ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاحِشًا وَلَا مُتَفَحِشًا، وَلَا صَخابًا أي: (لا يُحَدِّث ضجيجًا فِي الْأَسْوَاقِ).

4- الحَياءُ من الملائكةِ:

وذلكَ عِنْدَما يَسْتَشْعِرُ المؤمِنُ أنَّ الملائكةَ معه يُرافِقونه في كُلِّ أوقاتِه، ولا يُفارِقونه إلَّا عِنْدَما يأتي الغائِطَ، أو عِنْدَما يأتي أهلَه، قَالَ تَعَالَى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: 10 - 13].
و"الحِكمةُ في كتابةِ الأعمالِ وحِفظِها على العامِلين أنَّ المكلَّفَ إذا عَلِمَ أنَّ أعمالَه تُحفَظُ عليه، وتُعرَضُ على رؤوسِ الأشهادِ، كان ذلك أزجَرَ له عن الفواحِشِ والمُنكَراتِ، وأبعَثَ له على عَمَلِ الصَّالحاتِ، فإن لم يَصِلْ إلى مقامِ العلمِ الرَّاسِخِ الذي يُثمِرُ الخشيةَ للهِ، والمعرفةَ الكامِلةَ التي تُثمِرُ الحَياءَ؛ رُبَّما غَلَبَ عليه الغُرورُ بالكَرَمِ الإلهيِّ، والرَّجاءُ في المغفرةِ والرَّحمةِ؛ فَلا يَكُونُ لَدَيْهِ مِنَ الخَشْيَةِ والحَياءِ ما يَزجُرُه عن المعصيةِ، كما يَزجُرُه تَوَقُّعُ الفَضيحَةِ في مَوْقِفِ الحسابِ على أعيُنِ الخلائِقِ وأسماعِهم".[3156]
وقال بَعْضُ الصَّحابة رضوان الله عليهم: "إنَّ مَعَكُم مَن لا يُفارِقُكُم، فاسْتَحيوا مِنْهُم، وأَكْرِموهم"، والمقصود ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: (وَإِن عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ)، قال ابن القيم رحمه الله: "أي استَحْيُوا مِن هؤلاءِ الحافِظين الكِرام، وأَكْرِمُوهم، وأجِلُّوهُم أنْ يَرَوا مِنْكُم ما تَسْتَحْيونَ أنْ يَراكُم عَلَيهِ مَنْ هو مِثْلُكُم؛ لأنَّ الملائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأذى مِنْهُ بَنو آدَم،

[3152] أخرجه البخاري 50 واللفظ له، ومسلم 9 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، وأخرجه مسلم 8 من حديثِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه.
[3153] تعظيم قدر الصلاة للمروزي 2/855
[3154] حلية الأولياء لأبي نعيم 3/268
[3155] المواهب اللدنية للقسطلاني 2/583
[3156] تفسير حدائق الروح والريحان لمحمد الأمين الهرري 8/ 379

فإذا كانَ ابنُ آدم يَتَأذى مِمَنْ يَفْجُر ويَعْصي بين يَدَيْهِ، وإن كانَ يَعْمَل مِثلَ عَمَلِهِ، فما الظَّنُ بإيذاءِ المَلائِكةِ الكِرام الكاتِبين ؟".

5- الحَياءُ من النَّاسِ:

وهو دليلٌ على مروءةِ الإنسانِ؛ فالمؤمِنُ يستحي أن يُؤذِيَ الآخَرينَ، سواءٌ بلِسانِه أو بيَدِه، فلا يقولُ القبيحَ ولا يتلفَّظُ بالسُّوءِ، ولا يطعَنُ أو يغتابُ أو يَنمُّ، وكَذلِكَ يَسْتَحي مِن أن تنكَشِفَ عَوراتُه فيطَّلِعَ عَلَيْها النَّاسُ.

وكذلك (أَنْ يخجَلَ من أن يُؤثَرَ عنه سوءٌ، وأن يحرِصَ على بقاءِ سُمْعَتِهِ نَقِيَّةً مِنَ الشَّوائِبِ، بَعيدَةً عَنِ الإشاعاتِ السَّيِّئةِ).[3157]

فَهذِهِ مَرْيَمُ عَلَيْها السَّلامُ تَتَمَنَّى المَوْتَ من فَرْطِ حَيائِها مِن النَّاسِ؛ قال تَعالى: {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا} [مريم: 22-23].

قال الثَّعالبيُّ: "فلمَّا أحَسَّت بِذلِكَ وَخافَتْ تَعْنيفَ النَّاسِ، وأن يُظَنَّ بها الشَّرُّ انتبَذَت، أي: تَنَحَّت مَكانًا بَعيدًا؛ حَياءً وفِرارًا على وَجهِها".[3158]

فَمَرْيَمُ "تَمَنَّت أنْ لَو كانَت ماتَتْ قَبْلَ هذا الوَقْتِ الذي لَقِيَت فِيه ما لَقِيَت؛ حَياءً من النَّاسِ وخوفًا من لائمَتِهم، أو كانت شيئًا لا يُعتَدُّ به ولا يخطُرُ ببالِ أحدٍ من النَّاسِ".[3159]

6-حَياءُ المرأةِ:

ومِن الحَياءِ أن تَلْتَزِمَ الفَتاةُ المُسْلِمَةُ بالهَيْئَةِ التي تَصُونُها عَنْ أنْ يَتَعَرَّضَ لَها أحَدٌ بأذًى، وَذَلِكَ بِارْتِدَائِهَا الحِجَابِ الشَّرعيّ الذي فَرَضَهُ اللهُ سُبحانَه، فلا تُظْهِرُ مِنْ جَسَدِها ما حَرَّمَه عَلَيْها، وإنَّما تَجْعَلُ الحياءَ عِنْوانًا لها وسُلُوكًا يَدُلُّ على طُهْرِها وَعِفَّتِها، ودائمًا تَقُول:

زِينَتِي دَوْمًا حيائي واحْتِشَامِي رَأسُ مَالِي

ومن حَياءِ المرأةِ أيضا، إذا تقدَّم إليها من يخطُبُها، لا سيَّما إن كانَت بِكرًا، أنْ تَسْتَحي مِنَ الإفْصاحِ عَنْ رَغْبَتِها في النِّكاحِ، فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها قالت: "يا رسولَ اللهِ، إنَّ البِكرَ تَستحي؟ قال: رِضاها صَمْتُها".[3160]

7-حَياءُ الفقيرِ والمحتاجِ من سُؤالِ النَّاسِ مع حاجتِه وفاقتِه:

وذلك لِتَعفُّفِه وصَونِ نَفسِه عن السُّؤالِ، قال تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [الذاريات: 19].

قال النَّيسابوريُّ: "المحرومُ: الذي لا يَسألُ حَياءً".[3161]

ولِذلِكَ كانَ مِن كَمالِ الكَرَمِ والسَّخاءِ تَحَرِّي الفَقيرِ المُتَعَفِّفِ الذي لا يَسْأَلُ النَّاسَ؛ لشِدَّةِ الحَياءِ.

8- الحَياءُ في الكلامِ:

وحَياءُ المؤمِنِ يَجْعَلُهُ لا يَعْرِفُ الكَلامَ الفاحِشَ، ولا التَصرفات البَذيئَة، ولا الغِلْظَة ولا الجَفاءُ، إذْ أنَّ هذِهِ مِنْ صِفاتِ أَهْلِ النَّارِ، وقدْ قَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ: "الحياءُ مِنَ الإيمانِ، والإيمانُ في الجَنَّةَ، والبَذاءُ منَ الجَفاءِ، والجَفاءُ في النَّارِ".[3162]

[3157] خلق المسلم لمحمد الغزالي ص: 152

[3158] الجواهر الحسان في تفسير القرآن 4/ 12

[3159] تفسير المراغي 16/44

[3160] أخرجه البخاري 5137 واللفظ له، ومسلم 1420 بمعناه

[3161] إيجاز البيان عن معاني القرآن للنيسابوري 2/765

[3162] الترمذي والحاكم

"فالحَياءُ في الكلامِ يتطَلَّبُ من المسلِمِ أن يُطَهِّرَ فَمَه من الفُحشِ، وأن يُنَزِّهَ لسانَه عن العَيبِ، وأن يخجَلَ من ذِكرِ العَوراتِ، فإنَّ من سوءِ الأدَبِ أن تُفلِتَ الألفاظُ البذيئةُ من المرءِ غيرَ عابئٍ بمواقِعِها وآثارِها...، ومن الحَياءِ في الكلامِ أن يقتَصِدَ المسلِمُ في تحدُّثِه بالمجالِسِ".[3163]

ثانيًا: من مَظاهِرِ وصُوَرِ الحَياءِ المذمومِ:

1- الحَياءُ في طَلَبِ العِلمِ:

إذا تعَلَّقَ الحَياءُ بأمرٍ دينيٍّ، فَيمنَعُ من السُّؤالِ فيه أو عَرْضِه في تعليمٍ أو دعوةٍ، حينَها يَنْبَغِي رَفْعُ الحَرَجِ، ومدافَعةُ هذا الحَياءِ الذي يمنَعُ من التَّحصيلِ العِلميِّ أو الدَّعوةِ إلى اللهِ، سواءٌ عِنْدَ الرِّجالِ أو النِّساءِ.[3164]

وقد ورَد أنَّ أمَّ سُلَيمٍ رَضِيَ اللهُ عنها جاءت إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: "يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ لا يستحْيي من الحَقِّ، فهل على المرأةِ من غُسلٍ إذا احتَلَمَت؟ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إذا رأت الماءَ، فغَطَّت أمُّ سَلَمةَ -تعني وَجْهَها- وقالت: يا رسولَ اللهِ، وتحتَلِمُ المرأةُ؟! قال: نعَمْ، تَرِبَت يمينُكِ، فبِمَ يُشبِهُها ولَدُها!".[3165]

وقالت عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عنها: "نِعْمَ النِّساءُ نِساءُ الأنصارِ، لم يكُنْ يَمنَعُهنَّ الحَياءُ أن يتفَقَّهْنَ في الدِّينِ".[3166]

وعن مجاهِدٍ قال: "إنَّ هذا العِلمَ لا يتعَلَّمُه مُستحٍ ولا مُتكَبِّرٌ".[3167]

2- الحَياءُ من الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ ومن الدَّعْوَةِ إلى اللهِ:

الحَياءُ لا يمنَعُ المُسلِمَ من أن يأمُرَ بالمعروفِ أو ينهى عن المنكَرِ؛ قال تعالى: {وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ} [الأحزاب: 53].

بل الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ ودعوة غير المُسْلِمِينَ إلى الإسْلامِ سِمةٌ من سماتِ هذه الأمَّةِ، كما قال عزَّ وجَلَّ: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110].

وَمَعَ هَذَا تَجِدُ أَكثريةَ المسلِمِينَ فِي زَمَنِنَا الرَّاهِنِ، يَسْتَحْيُونَ مِنْ تَعرِيفِ الإسلامِ لِغَيرِ المسلِمِينَ الموجُودِينَ فِي محيطِهِم؛ لجَهْلِهِمْ بِكَيْفِيَّةِ ذلك؛ فَهُمْ مِنَ البِدَايَةِ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لاسْتِثْمَارِ جُزْءٍ مِنْ أَوْقَاتِهِم لله عزَّ وجلَّ، فَيتعلَّمُونَ خُطواتِ تَعْرِيفِ غيرِ المسلِمِ ببعضِ أَسَاسِيَّاتِ الإسْلامِ، مَعَ إعطائِهِ بعضِ الكُتبِ والمطوياتِ.

وَلَقَدْ كَانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع شِدَّةِ حيائِه لم يَثْنِه ذلك عن قولِ الحَقِّ، ويتبيَّنُ ذلك في موقِفِه مع أسامةَ بنِ زيدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، حينما أراد أن يشفَعَ في حدٍّ من الحدودِ، فلم يمنَعْه حياؤه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أن يقولَ لأسامةَ في غَضَبٍ: "أتشفَعُ في حَدٍّ من حُدودِ اللهِ؟! ثمَّ قام فاختَطَب، ثمَّ قال: إنَّما أهلَكَ الذين قبلَكُم أنَّهم كانوا إذا سَرَق فيهم الشَّريفُ تركوه، وإذا سَرَق فيهم الضَّعيفُ أقاموا عليه الحَدَّ، وايمُ اللهِ لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمَّدٍ سرَقَت لقطَعْتُ يَدَها".[3168]

وقد يكونُ الحَياءُ مكروهًا أو محرَّمًا؛ قال أبو العبَّاسِ القُرطبيُّ: "وقد يُفرِطُ الحَياءُ على بَعضِ النَّاسِ، حتى يمنَعَه ذلك من القيامِ بحَقِّ اللهِ تعالى من الأمرِ بالمعروفِ وتغييرِ المنكَرِ، ويحمِلَه على المداهَنةِ في الحَقِّ، وكُلُّ ذلك حَياءٌ مذمومٌ شرعًا وطبعًا، يحرُمُ استعمالُه، ويجِبُ الانكفافُ عنه؛ فإنَّ ذلك الحَياءَ أحقُّ باسمِ الجُبنِ والخَورِ، وأولى منه باسمِ الحَياءِ والخَفرِ".[3169]

[3163] خلق المسلم لمحمد الغزالي ص: 151

[3164] بتصرف: المرأة المسلمة المعاصرة.. إعدادها ومسؤوليتها في الدعوة لأحمد بن محمد أبا بطين ص: 388-389

[3165] رواه البخاري 130 واللفظ له، ومسلم 313

[3166] أخرجه مسلم 332. وأخرجه البخاري معلَّقًا قبل حديث 130

[3167] حلية الأولياء لأبي نعيم 3/287

[3168] رواه البخاري 3475 واللفظ له، ومسلم 1688 من حديثِ عائشة رَضِيَ اللهُ عنه.

[3169] المفهم 1/136

وعن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "إنَّ اللهَ تبارك وتعالى ليسأَلُ العبدَ يومَ القيامةِ حتى يقولَ: ما منَعَك إذ رأيتَ المُنكَرَ تُنكِرُه، فإذا لقَّى اللهُ عبدًا حُجَّتَه قال: يا رَبِّ وَثِقتُ بك، وفَرِقْتُ[3170] من النَّاسِ".[3171]

3- فِعلُ أمرٍ نهى عنه الشَّارِعُ:

فَمَن دفَعه حياؤه إلى فِعلِ أمرٍ نهى عنه الشَّارِعُ، أو إلى تَركِ واجِبٍ مرغوبٍ في الدِّينِ، فليس حيِيًّا شرعًا، وإنَّما هذا يُعَدُّ ضَعفًا ومهانةً.

"فَلَيْسَ مِنَ الحَياءِ أن يترُكَ الصَّلاةَ الواجبةَ بسَبَبِ ضُيوفٍ عِندَه حتى تفوتَه الصَّلاةُ، وليس من الحَياءِ أن يمتَنِعَ الشَّخْصُ من المطالبةِ بالحقوقِ التي كفَلَها له الشَّرعُ"[3172]، أو المُطَالَبةِ بحُقُوقِ الآخرينَ كَحُقوقِ الأخواتِ والعَمَّاتِ أو الأَقَارِبِ من الميراثِ.

4- الحَياءُ مِنَ النَّاسِ:

المُسْلِمُ يَسْتَحي مِنَ النَّاس، فَلا يُقَصِّرُ في حَقٍّ وَجَبَ لَهُم عَلَيهِ، ولا يُنْكِرُ مَعْرُوفًا صَنَعُوه مَعَه، ولا يُخاطِبُهُم بِسُوء، ولا يَكْشِفَ عَوْرَتَهُ أمامَهُم، فَقَد قال رجلٌ للرسول صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله، عَوْراتُنا ما نأتي مِنها وما نَذَرُ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: احْفَظ عَوْرَتَكَ إلَّا مِن زَوْجَتِكَ أو ما مَلَكْتَ يمينُكَ، فقال: يا رسول الله، إذا كان القوم بَعْضُهُم في بُعْض؟ فقال الله صلى الله عليه وسلم: إن استطعتَ ألا يَرَيَنَّها أحد فلا يرينَّها، قال: يا رسول الله، إذا كان أحَدُنا خاليًا (لَيْسَ مَعَهُ أحَد)؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فالله أحَقُّ أن يُسْتَحيا مِنْهُ مِنَ النَّاس".[3173]

ومِن حَياءِ المسلمِ أنْ يَغُضَّ بَصَرَهُ عَنِ الحَرام، وعن كُل مَنْظَرٍ مُؤْذٍ، مِمَّا يَقْتَضي غَضُ البَصَر.

المطلب الثامن: موانِعُ اكتسابِ الحَياءِ

1- ظُلمُ الإنسانِ لنَفسِه وجنايتُه عليها.

2- ارتكابُ المعاصي: إنَّ الذُّنوبَ والمعاصيَ تُذهِبُ الحَياءَ؛ فالمعاصي لها عقوباتٌ، "ومن عقوباتِها ذَهابُ الحَياءِ الذي هو مادَّةُ الحياةِ للقَلبِ، وهو أصلُ كُلِّ خيرٍ، وذَهابُ كُلِّ خيرٍ بأجمَعِه، وفي الصَّحيحِ عنه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: "الحَياءُ خَيرٌ كُلُّه"[3174].

وقال صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "إنَّ ممَّا أدرَكَ النَّاسُ من كلامِ النُّبُوَّةِ الأولى: إذا لم تستَحِ فاصنَعْ ما شِئتَ".[3175]

والمقصودُ: أنَّ الذُّنوبَ تُضعِفُ الحَياءَ من العبدِ، حتى ربَّما انسلَخ منه بالكُلِّيَّةِ، حتى ربَّما أنَّه لا يتأثَّرُ بعِلمِ النَّاسِ بسُوءِ حالِه، ولا باطِّلاعِهم عليه، بل كثيرٌ منهم يخبِرُ عن حالِه وقُبحِ ما يفعَلُه، والحامِلُ على ذلك انسلاخُه من الحَياءِ، وإذا وصل العبدُ إلى هذه الحالةِ لم يَبْقَ في صلاحِه مَطْمَعٌ".[3176]

3- ضَعفُ الإيمانِ والوازِعِ الدِّينيّ.

[3170] وفَرِقْتُ، أي: خِفْتُ. يُنظَر: التنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني 343 /3

[3171] أخرجه ابن ماجه 4017، وأحمد 11245 واللفظ له، صحَّحه ابنُ حبان في صحيحه 7368، والألباني في صحيح سنن ابن ماجه 4017، وحسَّنه ابنُ حجر في الأمالي المطلقة 167، والوادعي في الصحيح المسند 403

[3172] الأخلاق الإسلامية لحسن السعيد ص: 155

[3173] صحيح ابن ماجه 1572

[3174] رواه مسلم 37 من حديثِ عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[3175] رواه البخاري 6120

[3176] الجواب الكافي ص : 69-70

4- الغَفلةُ عن قُبحِ الفضيحةِ في الدُّنيا والآخِرةِ.
5- الغَفلةُ عن شُكرِ نِعَمِ اللهِ سُبحانَه، والغَفلةُ عن أداءِ حُقوقِها.
6- الصُّحبةُ السَّيِّئةُ.
7- إهمالُ النَّظَرِ في سِيَرِ الصَّالحينَ، واقتِفاءِ آثارِهم.
8- عدَمُ مُراقبةِ اللهِ سُبحانَه على الوَجهِ الذي يحمِلُ صاحِبَه على فِعلِ ما يحِبُّ، وتَركِ ما يَكرَهُ سُبحانَه.
9- الغِناءُ: روى البَيهقيُّ وابنُ أبي الدُّنيا عن أبي عُثمانَ اللَّيثيِّ قال: قال يزيدُ بنُ الوليدِ النَّاقِصُ[3177]: "يا بني أميَّةَ، إيَّاكم والغِناءَ؛ فإنَّه يَنقُصُ الحَياءَ، ويزيدُ في الشَّهوةِ، ويَهدِمُ المروءةَ".[3178]
10- الغَزوُ الثَّقافيُّ والفِكريُّ، والتَّقليدُ الأعمى لغيرِ المُسلِمين في كثيرٍ من نواحي الحياةِ.

11- أجهزة الإفساد البصرية: إِنَّ العَينَ لَتَدمَعُ، وَإِنَّ القَلبَ لَيَحزَنُ ويَتَفَطَّر، عَلَى قِلَّةِ الحَيَاءِ بَينَ العِبَادِ، فَلا وَاللهِ ما في العَيْشِ خَيْرٌ ولا في الدُنْيا بِأَسْرِهَا إذا تَرَكْنا الحَياءَ يَذْهَبُ عَبْرَ أَجهِزَةِ الفَسَادِ البَصَرِيَّةِ الَّتِي تَنسِفُ الحَيَاءَ نَسفًا، وتنزَعه مِنَ الأَجْيَالِ وَتُدَمِّرُهُ. فَلِيَضَعَ كُلُّ واحِدٍ مِنَّا نَفْسَهُ وأَهْلَهُ على مَحْمَلِ الجَّدِ أَمَامَ هَذَا الخُلُقِ، فَهُوَ يُعَدُّ بحقٍّ مِن أَسْمى الصِّفاتِ الإنْسانيَّة وألطفِها، وأنبَلِ الأخْلاقِ الإسلاميَّة وأشرفِها، حَسْبُكَ إن كُنْتَ ذامًّا أحدًا، أن تَنْفِيَ عَنْهُ هذا الخُلُقَ، الَّذِي داسَتْهُ وَسائِلُ الإعْلام، واجْتَثَّتْه من النُفُوس اجتثاثًا بِشَتَّى أنواع وأساليبِ الخِداع والمكر.

المطلب التاسع: الوسائِلُ المعينةُ على اكتِسابِ الحَياءِ

الحَياءُ مَوْجُودٌ في فِطْرةِ الإنسانِ، وعَلَيْنا أن نَجْعَلَه رفيقًا لنا في كُلِّ أقوالِنا وأفعالِنا، وهُناك بَعْضُ الوَسائِلِ التي تُنَمِّي هذه الصِّفةَ وتُقَوِّيها في نُفُوسِنا، ومن هذه الوَسائِلِ:
1- اتِّباعُ أوامِرِ اللهِ سُبحانَه، والخَوفُ مِنه، ومراقبتُهُ في كُلِّ حينٍ، واستشعارُ معيَّتِه.
2- اتِّباعُ سُنَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والاقتداءُ به في سُنَنِه القوليَّةِ والفِعليَّةِ.
3- غَضُّ البَصَرِ عمَّا حرَّم اللهُ سُبحانَه وتعالى، وعَدَمُ تتبُّعِ عَوراتِ الآخَرينَ.
4- الصَّبرُ عن المعصيةِ يُعينُ على ملازمةِ الحَياءِ.
5- تربيةُ الأولادِ على الحَياءِ.
6- مجالَسةُ من يتَّصِفُ بصفةِ الحَياءِ.
7- لزومُ الرُّفقةِ الصَّالحةِ والابتعادُ عن رُفَقاءِ السُّوءِ.
8- مُطالعةُ سِيَرِ الصَّالحينَ والاقتداءُ بهم.
9- العِلمُ بما في الحَياءِ من منافِعَ، وما في تَرْكِه من مَضارَّ.

[3177] لُقِّبَ: بِالنَّاقِصِ؛ لِكَوْنِهِ نَقَصَ عَطَاءَ الأَجنَادِ.
[3178] روح المعاني للألوسي 11/68

المطلب العاشر: نماذج في الحياء

أولا: الحياءُ عندَ الأنبياءِ والمُرسَلين عليهم السَّلامُ:

1- حَياءُ أَبِينَا آدَمَ وأُمِّنا حوَّاءَ:

إنَّ الحَياءَ خاصيَّةٌ من الخصائِصِ التي حبا اللهُ بها الإنسانَ؛ ليبتَعِدَ عن مزاولةِ الذُّنوبِ والمعاصي والشَّهَواتِ، وحينما أَكَل آدَمُ وحوَّاءُ من الشَّجَرةِ التي نهاهما اللهُ عن الأَكلِ منها، بدت لهما سوآتِهما، فأسرعا يأخُذانِ من أوراقِ الجنَّةِ ليَستُرا عوراتِهما؛ قال تعالى: {فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ} [الأعراف: 22].

أي: "شرَعَا يُلصِقان على عورَتيهما من وَرَقِ الجنَّةِ لسَتْرِها؛ حَياءً وخَجَلًا"[3179]، وهذا يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ مفطورٌ على الحَياءِ.

2- حَياءُ نبيِّ اللهِ موسى عليه السَّلامُ:

جاء في وَصفِ موسى عليه السَّلامُ أنَّه كان كثيرَ الحَياءِ، من شأنِه وإرادتِه حُبُّ السَّترِ والصَّونِ، حتى قال بعضُ بني إسرائيلَ: "ما يبالِغُ في سَترِ نَفسِه إلَّا من عيبٍ في جِسمِه!".

فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ موسى كان رجلًا حَيِيًّا سَتِيرًا لا يُرى مِن جِلْدِه شَيءٌ استحياءً منه، فآذاه مَن آذاه من بني إسرائيلَ، فقالوا: ما يستَتِرُ هذا التستُّرَ إلَّا مِن عَيبٍ بجِلْدِه: إمَّا بَرَصٌ، وإمَّا أُدْرَةٌ[3180]، وإمَّا آفَةٌ، وإنَّ اللهَ أراد أن يُبَرِّئَه مِمَّا قالوا لموسى، فخلا يومًا وَحْدَه، فوضع ثيابَه على الحَجَرِ، ثمّ اغتسل، فلمَّا فَرَغ أقبل إلى ثيابِه ليأخُذَها، وإنَّ الحَجَر عدا بثوبِه، فأخذ موسى عصاه وطَلَب الحَجَرَ، فجعل يقولُ: ثوبي حَجَرُ! ثوبي حَجَرُ! حتَّى انتهى إلى ملأٍ من بني إسرائيلَ فرأوه عُريانًا أحسَنَ ما خلق اللهُ، وأبرَأَه مِمَّا يقولون! وقام الحَجَرُ، فأخذ بثَوبِه فلَبِسَه، وطَفِقَ بالحَجَرِ ضَربًا بعصاه، فواللهِ إنَّ بالحَجَرِ لنَدَبًا من أثَرِ ضَرْبِه، ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا! فذلك قَولُه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} [الأحزاب: 69]".[3181]

3- حَياءُ يوسُفَ عليه السَّلامُ:

وهو من الأمثلةِ القُرآنيَّةِ الفريدةِ التي تُبَيِّنُ كيف يكونُ حَياءُ الإنسانِ من رَبِّه في سِرِّه وعلانيَتِه.

قال تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: 23-24].

قال القاسِمُ بنُ أبي بزَّةَ: "قام استِحياءً من اللهِ تعالى ذِكْرُه".[3182]

ثانيا: نماذِجُ من الحَياءِ في الأُمَمِ السَّابقةِ:

1- حَياءُ امرأةٍ صالحةٍ:

قصَّ علينا ربُّنا في مُحْكَمِ التَّنزيل خبر تلك المرأة الصَّالحة مع نبي الله موسى عليه السلام التي مَشَتْ إليْه بخطوات، لا إغْواءَ فيها ولا إغراء، وَحَادَثَتْهُ بِكَلِماتٍ مَعْدوداتٍ، لا خُضُوعَ فِيها ولا تَمَيُّع، قال تعالى: {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ

[3179] التفسير الوسيط للقرآن الكريم 6/ 1075

[3180] الأُدْرَةُ بالضَّمِّ: نفخةٌ في الخصيةِ، يقال: رجُلٌ آدَرُ بَيِّنُ الأَدَرِ، بفَتحِ الهَمزةِ والدَّالِ. يُنظَر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير 1/31

[3181] رواه البخاري 3404 واللفظ له، ومسلم 339

[3182] جامع البيان للطبري 13/94

قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [القصص: 25].

أي: فجاءت إحدى المرأتينِ إلى موسى، وهي تمشي مُستَحِيَةً مُسْتَتِرَةً، غيرَ مُتبَخترةٍ ولا مُبْدِيَةٍ زِينةً، وقالت لموسى عليه السَّلامُ: "إنَّ أبي يدعوك ليكافِئَكَ على سَقْيِك لنا الغَنَمَ"، وتأمل قوله تعالى: (تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ) وكأن الحياء قد تمكن منها، وتمكنت منه، وهو تعبير قرآني يصور حالة المرأة وما هي عليه من أدب جم، وخلق فاضل، وسمت كريم، وأعظم ما في خلق المرأة حياؤها، وهكذا تكون المرأة المسلمة.

وقال عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه: "فأقبَلَت إليه ليست بسَلْفَعٍ[3183] من النِّساءِ، لا خرَّاجةٍ ولا ولَّاجةٍ، واضِعةً ثوبَها على وَجْهِها".[3184]

وقال مجاهِدٌ: "يعني: واضِعةً ثوبَها على وَجهِها، ليست بخرَّاجةٍ ولا ولَّاجةٍ".[3185]

وقال الطَّبَريُّ: "(فأتَتْه تمشي على استحياءٍ)، وهي تستحيي منه".[3186]

2- حَياءُ العَرَبِ في الجاهِليَّةِ:

- **حَيَاءُ أَبِي سُفْيَانَ:**

كان أهلُ الجاهليَّةِ يتحَرَّجون من بعضِ القبائحِ بدافِعِ الحَياءِ، فها هو هِرَقلُ يسألُ أبا سفيانَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولُ أبو سفيانَ: "فواللهِ لولا الحَياءُ من أن يَأْثُروا علَيَّ كَذِبًا لكذَبْتُ عنه"[3187]، فمنَعَه الحَياءُ من الافتراءِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لئلَّا يوصَفَ بالكَذِبِ، ويُشاعَ عنه ذلك.[3188]

- **حَيَاءُ عَنْتَرَةَ بن شَدَّادٍ:**

وقال عَنترةُ وَاصِفًا حَالَهُ إِذَا أَقْبَلَتْ جَارَتُهُ لَهُ:

وأغُضُّ طَرْفي إن بدَتْ لي جارتي.. حتَّى يواريَ جارتي مأواها[3189]

ثالثا: نماذِجُ من حَياءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

أمَّا قدوتنا وحبيبُنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد تسنَّم صُوَرَ الحياء في أعلى قَامَاتِهَا، وَمِنْهَا:

1- حياؤه من اللهِ:

ومن مَظاهِرِ حيائِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حياؤُه من خالِقِه سُبحانَه وتعالى؛ وذلك لَمَّا طلب موسى عليه السَّلامُ من نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ليلةِ الإسراءِ أن يراجِعَ رَبَّه في تخفيفِ فَرضِ الصَّلاةِ، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لموسى عليه السَّلامُ: "استَحْيَيتُ مِن رَبِّي!".[3190]

2- حياؤه من النَّاسِ:

[3183] السَّلْفَعُ: السَّليطةُ الجريئةُ. يُنظَر لسان العرب لابن منظور 8/161

[3184] رواه ابن أبي شيبة 32503 واللفظ له، والطبري في جامع البيان 19/559، وابن أبي حاتم في التفسير 17559، صحَّح إسنادَه ابنُ كثير في التفسير 6/238

[3185] تفسير مجاهد ص: 529

[3186] جامع البيان 18/221

[3187] رواه البخاري 7 مطوَّلًا

[3188] الأخلاق الإسلامية ودورها في بناء المجتمع لجمال نصار ص: 244

[3189] ديوان عنترة 308

[3190] رواه البخاري 349، ومسلم 163 مطوَّلًا من حديثِ أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه.

من ذلك ما جاء عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّ امرأةً سألت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن غُسلِها من المحيضِ، فأمَرَها كيف تغتَسِلُ، قال: خُذي فِرْصةً [3191] منِ مِسكٍ فتطَهَّري بها، قالت: كيف أتطَهَّرُ؟ قال: تطَهَّري بها! قالت: كيف؟ قال: سُبحانَ اللهِ! تطَهَّري! فاجتَبَذْتُها إليَّ فقُلتُ: تتبَّعي بها أثَرَ الدَّمِ".[3192]

رابعا: نماذِجُ من الحَياءِ عندَ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم:

هَذَا الخُلُقُ النَّبَويُّ وَالحَيَاءُ المحَمَّدِيُّ انْعَكَسَ أَثَرُهُ عَلَى صَحَابَتِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ:

1- حَياءُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عنه:

خطَب الصِّدِّيقُ النَّاسَ يومًا، فقال: "يا مَعشَرَ المُسلِمين، استَحْيُوا من اللهِ، فوالذي نفسي بيَدِه إنِّي لأظَلُّ حينَ أذهَبُ الغائِطَ في الفَضاءِ متقَنِّعًا بثوبي استِحياءً من رَبِّي عزَّ وجَلَّ".[3193]

2- حَياءُ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه:

عُرِفَ عثمانُ رَضِيَ اللهُ عنه بشِدَّةِ الحَياءِ، حتَّى إنَّ الملائكةَ كانت تستَحي منه؛ فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: "كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُضطَجِعًا في بيتي كاشِفًا عن فَخِذَيه أو ساقَيه، فاستَأذَن أبو بَكْرٍ فأذِنَ لهُ وهوَ على تِلكَ الحالِ فتَحدَّثَ، ثُمَّ استَأذَنَ عُمرُ فأذِنَ لهُ وهوَ كذلك فتحدَّثَ، ثُمَّ استَأذَنَ عُثمانُ، فجَلَس رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وسَوَّى ثيابَه. -قال مُحَمَّدٌ[3194]: ولا أقولُ ذلك في يَومٍ واحِدٍ- فدَخلَ فتَحدَّثَ، فلَمَّا خَرجَ قالت عائِشةُ: دَخلَ أبو بَكْرٍ فلَم تَهتَشَّ[3195] لهُ، ودَخلَ عُمرُ ولَم تُبالِه[3196]، ثُمَّ دَخلَ عُثمانُ فجَلَسْتَ وسَوَّيتَ ثيابَكَ! فقال: ألا أستَحِي من رَجُلٍ تَستَحي مِنهُ المَلائِكةُ".[3197]

3- حَياءُ عَليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه:

عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: "كنتُ رَجُلًا مَذَّاءً [3198]، وكنتُ أستحي أن أسألَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لمكانِ ابنتِه، فأمَرْتُ المقدادَ بنَ الأسوَدِ فسألَه، فقال: يَغسِلُ ذَكَره ويتوَضَّأُ".[3199]

4- حَياءُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها:

واسمع لشيءٍ من حَياءِ أمِّنا، أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عَنْها حينَ قالَت: "كنتُ أدخُلُ بيتي الذي دُفِنَ فيه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبي، فأضَعُ ثوبي، فأقولُ: إنَّما هو زوجي وأبي، فلمَّا دُفِن عُمَرُ معهم، فواللهِ ما دخَلْتُ إلَّا وأنا مشدودةٌ عَلَيَّ ثيابي؛ حَياءً من عُمَرَ!".[3200]

5- حَياءُ فاطمةَ رَضِيَ اللهُ عنها بنتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

[3191] الفِرْصةُ: هي القِطعةُ، والمِسكُ: هو الطِّيبُ المعروفُ. يُنظَر: شرح النووي على مسلم 14 /4

[3192] رواه البخاري 314 واللفظ له، ومسلم 332

[3193] رواه ابنُ أبي الدنيا في مكارم الأخلاق 92 واللفظ له، وأبو نعيم في حلية الأولياء 1/34، والبيهقي في شعب الإيمان 7732

[3194] قالَ مُحَمَّدٌ -وهو ابنُ أبي حَرْملةَ- أحدُ رُواةِ الحديثِ: «ولا أقولُ ذلكَ في يَومٍ وَاحِدٍ» يعني: أنَّ دُخولَ كلِّ واحدٍ كان في يومٍ غيرِ يومِ دُخولِ الآخَرِ.

[3195] والهَشاشَةُ: البَشاشَةُ وطَلاقَةُ الوَجهِ وحُسنُ الالتِقاءِ.

[3196] «ولم تُبالِه»: أي: ولم تَكتَرِثْ له وظَللْتَ على حالِكَ كاشِفًا للفَخِذِ أو السَّاقِ

[3197] رواه مسلم 2401

[3198] المَذَّاءُ: الكَثيرُ المَذْيِ، والمَذْيُ: ماءٌ أبيضُ دقيقٌ لَزِجٌ يخرجُ عندَ شهوةٍ، لا بشهوةٍ ولا دَفقٍ، ولا يَعقُبُه فتورٌ، وربَّما لا يُحَسُّ بخروجِه. يُنظَر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي 1/ 181، شرح النووي على مسلم 213 /3

[3199] رواه البخاري 132، ومسلم 303 واللفظ له.

[3200] رواه أحمد 25660 واللفظ له، والحاكم 4402. صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وقال: على شرط الشيخين، والألباني في دفاع عن الحديث 96، وشعيب الأرناؤوط على شرط الشيخين في تخريج مسند أحمد 42/ 441، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 8/29: رجالُه رجالُ الصَّحيحِ.

عن عبدِ اللهِ بنِ بُرَيدةَ، قال: "لَبِثَت فاطمةُ بعدَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سبعينَ بَينَ يومٍ وليلةٍ، فقالت: إنِّي لأستحيي من خَلَلِ هذا النَّعشِ إذا حُمِلْتُ فيه! فقالت لها امرأةٌ -لا أدري: أسماءُ بِنتُ عُمَيسٍ أو أمُّ سَلَمةَ- إن شئتِ عَمِلتُ لكِ شيئًا يُعمَلُ بالحَبَشةِ، ويُحمَلُ فيه النِّساءُ، قالت: أجَلْ، فاصنَعيه، فصنَعَت النَّعشَ، فلمَّا رأَتْه قالت: سَترَكِ اللهُ. قال: فما زالت النُّعوشُ تُصنَعُ بَعدَها".[3201]

6- حَياءُ فاطمةَ بنتِ عُتبةَ رَضِيَ اللهُ عنها:

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: "جاءت فاطِمةُ بنتُ عُتبةَ بنِ رَبيعةَ تبايِعُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخَذ عليها ألَّا يُشرِكْنَ باللهِ شَيئًا ولا يَزْنِينَ، الآية. قالت: فوضَعَت يدَها على رأسِها حَياءً! فأعجَبَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما رأى منها، فقالت عائشةُ: أقِرِّي أيَّتُها المرأةُ، فواللهِ ما بايَعْنا إلَّا على هذا. قالت: فنَعَمْ إذًا. فبايَعَها بالآيةِ".[3202]

<u>خامسا: نماذِجُ من الحَياءِ عندَ السَّلَفِ:</u>

1- قال الجرَّاحُ الحكميُّ: "تركتُ الذُّنوبَ حَياءً أربعين سنةً، ثم أدرَكني الوَرَعُ".[3203]

2- وعن مولًى لعَمْرِو بنِ عُتبةَ قال: "استيقَظْنا يومًا حارًّا في ساعةٍ حارَّةٍ فطلَبْنا عمرَو بنَ عُتبةَ، فوجَدْناه في جَبَلٍ وهو ساجِدٌ وغمامةٌ تُظِلُّه، وكنَّا نخرجُ إلى العَدُوِّ فلا نتحارَسُ لكثرةِ صلاتِه، ورأيتُه ليلةً يُصَلِّي فسَمِعْنا زئيرَ الأسَدِ فهَرَبْنا وهو قائِمٌ يُصَلِّي لم ينصَرِفْ! فقُلْنا له: أمَا خِفتَ الأسَدَ؟! فقال: إنِّي لأستحي من اللهِ أن أخافَ شيئًا سِواه!".[3204]

3- وقال جعفَرٌ الصَّائغُ: كان في جيرانِ أبي عبدِ اللهِ أحمدَ بنِ محمَّدِ بنِ حنبلٍ رجُلٌ ممَّن يمارِسُ المعاصيَ والقاذوراتِ، فجاء يومًا إلى مجلِسِ أحمدَ يُسَلِّمُ عليه، فكأنَّ أحمدَ لم يَرُدَّ عليه ردًّا تامًّا وانقبض منه، فقال له: يا أبا عبدِ اللهِ، لِمَ تنقَبِضُ منِّي؟ فإنِّي قد انتقَلْتُ عمَّا كنتَ تَعهَدُني برُؤيا رأيتُها. قال: وأيَّ شيءٍ رأيتَ؟ قال: رأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النَّومِ كأنَّه على عُلوٍ من الأرضِ، وناسٌ كثيرٌ أسفَلَ جُلوسٌ، قال: فيقومُ رجُلٌ رجُلٌ منهم إليه، فيقولُ: ادْعُ لي! فيدعو له، حتَّى لم يَبْقَ من القومِ غيري، قال: فأردْتُ أن أقومَ فاستَحْيَيتُ من قبيحِ ما كنتُ عليه، قال لي: يا فلانُ، لِمَ لا تقومُ إليَّ فتسألُني أدعو لك؟! قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، يقطَعُني الحَياءُ؛ لقبيحِ ما أنا عليه! فقال: إن كان يقطَعُك الحَياءُ فقُمْ فسَلْني أدْعُ لك؛ فإنَّك لا تَسُبُّ أحدًا من أصحابي. قال: فقُمتُ، فدعا لي، فانتَهَتْ وقد بَغَّضَ اللهُ إليَّ ما كنتُ عليه. قال: فقال لنا أبو عبدِ اللهِ: يا جعفَرُ، يا فُلانُ، حَدِّثوا بهذا واحفَظوه؛ فإنَّه ينفَعُ.[3205]

4- وكان الرَّبيعُ بنُ خُثَيمٍ مِن شِدَّةِ غَضِّه لبَصَرِه وإطراقِه يظُنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّه أعمى! وكان يختَلِفُ إلى منزِلِ ابنِ مَسعودٍ عِشرين سنةً، فإذا رأَتْه جاريتُه قالت لابنِ مَسعودٍ: صديقُك الأعمى قد جاء! فكان يضحَكُ ابنُ مسعودٍ من قولِها، وكان إذا دَقَّ البابَ تخرُجُ الجاريةُ إليه فتراه مُطرِقًا غاضًّا بَصَرَه.[3206]

[3201] ذكره السيوطي في الوسائل إلى معرفة الأوائل ص: 38، وعزاه إلى ابن السكن في المعرفة.

[3202] رواه أحمد 25216 واللفظ له، والبزار كما في كشف الأستار للهيثمي 70، وابن حبان 4554، صحَّحه ابنُ حبان، والوادعي في الصحيح المسند 1636، وقال: وبيعةُ النِّساءِ مذكورةٌ في الصَّحيحينِ، وشعيب الأرناؤوط في تخريج صحيح ابن حبان 4554، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 6/40: رجالُه رجالُ الصَّحيحِ، وبيعةُ النِّساءِ أصلُها في الصَّحيحِ، أخرجها البخاري 4891، ومسلم 1866

[3203] سير أعلام النبلاء للذهبي 5/190

[3204] حلية الأولياء لأبي نعيم 4/157

[3205] التوابين لابن قدامة ص: 152

[3206] ص229 - كتاب موسوعة الأخلاق الإسلامية - نماذج من حياء السلف - المكتبة الشاملة.

5- وعن عَلقَمةَ بنِ مَرثَدٍ قال: انتهى الزُّهدُ إلى ثمانيةٍ من التَّابعينَ؛ منهم الأسوَدُ بنُ يزيدَ، كان مجتَهِدًا في العبادةِ، فلمَّا احتُضِر بكى، فقيل له: "ما هذا الجزَعُ؟ قال: ما لي لا أجزَعُ؟! ومَن أحَقُّ بذلك منِّي؟! واللهِ لو أُتيتُ بالمغفرةِ من اللهِ عزَّ وجَلَّ لهَمَّني الحَياءُ منه ممَّا قد صنَعْتُه! إنَّ الرَّجُلَ ليكونُ بينَه وبينَ الرَّجُلِ الذَّنبُ الصَّغيرُ فيعفو عنه، فلا يزالُ مُستحيِيًا منه!".[3207]

سادسا: نماذِجُ من الحَياءِ عندَ العُلَماءِ المتقَدِّمين وغيرِهم:

1- حَياءُ ابنِ قُدامةَ المَقْدِسيّ:

قال عبدُ اللهِ اليُونينيُّ في وصفِ أخلاقِ ابنِ قُدامةَ: "وقد رأيتُ من كَرَمِ أخلاقِه، وحُسنِ عِشرتِه، ووُفورِ حِلمِه، وكَثرةِ عِلمِه، وغزيرِ فِطنتِه، وكمالِ مروءتِه، وكثرةِ حَيائِه، ودوامِ بِشرِه، وعُزوفِ نَفسِه عن الدُّنيا وأهلِها، والمناصِبِ وأربابِها: ما قد عَجَز عنه كبارُ الأولياءِ!".[3208]

2- حَياءُ المَلِكِ نَجمِ الدِّينِ أيُّوبَ:

قال ابنُ واصِلٍ: "كان المَلِكُ الصَّالحُ نَجمُ الدِّينِ عزيزَ النَّفسِ، أبِيَّها، عفيفًا، حيِيًّا، طاهِرَ اللِّسانِ والذَّيلِ، لا يَرى الهَزْلَ ولا العَبَثَ، وقورًا، كثيرَ الصَّمتِ".[3209]

3- حَياءُ أبي سعيدٍ الغَزنويّ:

قال السَّمعانيُّ في ترجمةِ أبي سعيدٍ: "كان أديبًا فاضِلًا، ومُقرِئًا بارعًا، عارِفًا بالنَّحوِ، حَسَنَ السِّيرةِ سَليمَ الجانِبِ، حَيِيًّا ساكِنًا، مشتَغِلًا بما يَعنيه من الإفادةِ والاستفادةِ".[3210]

4- حَياءُ الحافظِ العِراقيّ:

قال ابنُ حَجَرٍ في ترجمةِ العِراقيّ: "كان مُنَوَّرَ الشَّيبةِ، حَسَنَ الخَلْقِ والخُلُقِ، كثيرَ الحَياءِ، بَهِيَّ المنظَرِ".[3211]

سابعا: نموذجٌ مِنَ الحَياءِ عِنْدَ العُلَمَاءِ المُعَاصِرِينَ:

● حَياءُ الشيخ عبدِ الرَّزَّاقِ عفيفي[3212]

هُوَ مِنَ العُلَمَاءِ الَّذِينَ انْتَفَعَ طَلَبَةُ الْعِلْمِ، وَالْقُضَاةُ، وَالمشَايِخُ بِعِلْمِهِمْ، فمنذُ أنْ حَلَّتْ قَدَمَاهُ أَرْضَ الحَرَمَيْنِ، وَأَصْبَحَ يَنْشُرُ العِلمَ والدَّعوةَ إِلَى اللهِ فِي المعَاهِدِ والحَلَقَاتِ النِّظَامِيَّةِ.

يقول عنه الشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد -رحمه الله- في كتابه (الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي):

"الشَّيخُ رحمه اللهُ كان غايةً في حُسنِ المعاشرةِ، وقُدوةً في رَوعةِ المؤانَسةِ، لا يحسُدُ ولا يحقِدُ، مجلِسُه مجلِسُ خَيرٍ وعِلمٍ، ومحَلُّه محَلُّ حَياءٍ وحِلمٍ، يجيبُ دعوةَ من دعاه ويعودُ المرضى ويتجاوَزُ عمَّن أساء إليه، ويدفَعُ بالتي هي أحسَنُ، ويدعو أصدقاءَه وطُلَّابَه بكُنَاهُم وأحَبِّ أسمائِهم إليهم، ويميلُ إلى محادَثتِهم والتَّلطُّفِ معهم، وهو مع ذلك عزيزُ النَّفسِ، مُوفَرُ الكرامةِ، قويَّ الإرادةِ، زاهدًا فيما عندَ النَّاسِ".[3213]

[3207] حلية الأولياء لأبي نعيم 2/103

[3208] ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي 3/288

[3209] سير أعلام النبلاء للذهبي 23/191

[3210] التحبير 1/548

[3211] إنباء الغمر بأبناء العمر 2/311

[3212] هو الشيخ عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية بن عبد البر شرف الدين النوبي المصري، ولد في 1323هـ/ 1905م، في قرية شنشور مركز أشمون التابع لمحافظة المنوفية.

[3213] الشيخ عبد الرزاق عفيفي - حياته العلمية وجهوده الدعوية وآثاره الحميدة لمحمد بن أحمد سيد ص: 96

المطلب الحادي عشر: مَكَانَةُ وَمَنْزِلَةُ الحَيَاءِ

الْحَيَاءُ لَهُ مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهُو يَدْعُو الْإِنْسَانَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَيَصْرِفُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ الْحَيَاءُ كُلُّهُ خيرًا وَبَرَكَةً ونفعًا لِصَاحِبِه، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الحَياءُ كُلُّهُ خَيْرٌ"[3214]، وَقَال صلى الله عليه وسلم: "الحَياءُ لا يَأْتي إلَّا بخَيْرٍ".[3215]

فَلْيَجْعَل الْمُسْلِمُ الْحَيَاءَ خُلُقًا لازمًا لَهُ عَلَى الدَّوَامِ، حَتَّى يَفُوزَ بِرِضَا الرَّحْمَنِ.

وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

إذا لم تَخْشَ عاقبة اللَّيالي.. ولم تَسْتَحْي فاصنعْ ما تشاءُ

فلا والله ما في الْعَيْشِ خيرٌ.. ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

وَمِن مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي كَان الجاهليون يَتَحَلَّوْنَ بِهَا: غيرةُ الرَّجُلِ عَلَى مَحَارِمِه، بَلْ كَانَ بَعْضُهُمْ يُبَالِغُ فِي هَذَا الْأَمْرِ حَتَّى وَصَلَ الْحَالُ بِبَعْضِهِم إِلَى أَنْ يَئِدَ بِنْتَهُ خوفاً مِنْ أَنْ تَقَعَ فِي الْفَاحِشَةِ إِذَا كَبِرَتْ. فَحَرَّم الإسلامُ هَذَا، وهَذَّبَ جَانِبَ الْغَيرَةِ وَحَسَّنَه وَجَعَلَهُ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا أحَدَ أغْيَرُ مِنَ اللَّهِ؛ فَلِذلكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ"[3216]، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ اللَّهَ يَغارُ، وغَيْرَةُ اللَّهِ أنْ يَأْتِيَ المُؤْمِنُ ما حَرَّمَ اللَّهُ"[3217]، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خُطْبَتِهِ لَمَّا كُسِفَتِ الشَّمْسُ: "يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ واللَّهِ ما مِن أحَدٍ أغْيَرُ مِنَ اللَّهِ"[3218].

وَلَمَّا قَالَ سعدُ بْنُ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لو رَأَيْتُ رَجُلًا مع امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بالسَّيْفِ غيرَ مُصْفَحٍ، فَبَلَغَ ذلكَ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: أتَعْجَبُونَ مِن غَيْرَةِ سَعْدٍ، واللَّهِ لَأَنَا أغْيَرُ منه، واللَّهُ أغْيَرُ مِنِّي، ومِنْ أجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولَا أحَدَ أحَبُّ إلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّهِ، ومِنْ أجْلِ ذلكَ بَعَثَ المُبَشِّرِينَ والمُنْذِرِينَ، ولَا أحَدَ أحَبُّ إلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللَّهِ، ومِنْ أجْلِ ذلكَ وعَدَ اللَّهُ الجَنَّةَ".[3219]

(غير مُصْفَح)، أي: أَنْ يَضْرِبَهُ بحدِّ السَّيْف لَا بِعَرْضِه، فَالَّذِي يَضْرِب بِالْحَدّ يَقْصِد الْقَتْل بِخِلَافِ الَّذِي يَضْرِبُ بِعَرْض السَّيْف فَإِنَّهُ يَقْصِدُ التأديب.

وفي هذا الحَديثِ يُخبِرُ عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذكر أنَّه لَا أَحَدَ أشدُّ غَيْرَةً مِن اللهِ سُبحانه وتعالَى على عِبادِه، فاللهُ سُبحانَه وتعالَى يَغارُ أنْ تُنتهَكَ مَحارِمُه؛ ولذلك حرَّم الفواحِشَ، وهي كُلُّ خَصلةٍ قَبيحةٍ مِنَ الأقوالِ والأفعالِ، فاللهُ سُبحانَه حرَّم الفواحشَ سِرَّها وعَلانيَتَها، غَيْرَةً على عِبادِه وحِفظًا لِمَصالِحِهم، ومِنْ ثَمَّ فظُهورُ الفواحشِ مُؤذِنٌ بخَطَرٍ عَظيمٍ، ومُؤذِنٌ بتَعْجيلِ العُقوبةِ.

وغَيْرةُ الله تعالى من جِنسِ صِفاتِه التي يختصُّ بها؛ فهي ليست مماثِلةً لغَيرةِ المخلوقِ، بل هي صِفةٌ تليقُ بعَظَمتِه، مِثلُ الغَضَبِ والرِّضا.[3220]

[3214] أخرجه البخاري (6117) بمعناه، ومسلم (37)

[3215] المصدرين السابقين.

[3216] صحيح البخاري 4637 وصحيح مسلم 2760 باختلاف يسير.

[3217] صحيح البخاري 5223

[3218] صحيح البخاري 1044، ومسلم 901

[3219] صحيح البخاري 7416

[3220] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

وَلَقَد تحَلّى الصَّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِهَذَا الْأَدَب النَّبَوِيّ وَتَمَسَّكُوا بِه، شأنُه شَأْن غَيْرِهِ مِنْ وَاجِبَاتِ الْإِيمَان وشُعَبِه، فَلَمْ يَكُنْ غريباً مِنْ أَحَدِهِمْ أَنْ يَقْتُلَ أَو يُقْتَلَ بِسَبَبِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ.

رَوَى ابْنُ هَاشِمٍ: أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْعَرَبِ قَدِمَتْ بجَلْبٍ لَهَا (ما يُجْلَب لِلْأَسْوَاق لِيُبَاع فيها) فَبَاعَتْه بِسُوقِ بَنِي قَينُقاع (إحدى قَبَائِل اليهود) وَجَلَسَتْ إِلَى صَائِغٍ بِهَا، فَجَعَلُوا يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا فَأَبَت، فَعَمِدَ الصَّائِغُ إِلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إِلَى ظَهْرِهَا -وهي لَم تشعر- فَلَمَّا قَامَتْ انكَشفت سَوْأتها، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَت، فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِغِ فَقَتَلَه -وكان يهودياً- وشَدَّتِ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَاصَرَهُم حَتّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَأَجْلَاهُمْ إِلَى الشّامِ.

وَعَلَى هَذَا مَضَى سَلَف الْأُمَّةِ، وَلَمْ يَتَنَازَلْ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الخُلُقِ أَو يُفرّطوا فِيهِ حَتَّى فِي فَتَرَاتِ الضَّعْفِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الأُمَّةُ الإِسْلاَمِيَّةُ؛ فَحِينَمَا احْتَلَّ الصَّلِيبِيُّونَ بَعْضَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ فِي الشَّامِ وَدَامَ احتِلالهُم لَهَا قُرَابَةَ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ، وَهِي فَتْرَةٌ قَد تُلْقِي فِي بَعْضِ النُّفُوسِ الظنَّ أَنَّهُمْ بَاقُونَ أَبَدًا حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي تِلْكَ الْفَتْرَة سَجَّل المؤرخون أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى النَّصَارَى نظرةَ احتقارٍ وازدراءٍ وَأَنَّهُم دياييث، يَكُونُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ سائرًا مَعَ زَوْجَتِهِ فِي الطَّرِيقِ فَتَلْتَقِي بِصَدِيقٍ لَهَا، فَيَتَنَحَّى الزَّوْجُ لِيُتِيحَ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَتَحَدّثَ مَعَ صَدِيقِها مَا شَاءَتْ مِنْ الْحَدِيثِ.

المطلب الثاني عشر: من مظاهِرِ قِلَّةِ الحَياءِ

1- المجاهَرةُ بالذُّنوبِ والمعاصي، وعَدَمُ الخوفِ من اللهِ.

2- ارْتِدَاءُ النِّساءِ الكاسياتِ العارياتِ الملابسَ الضَّيِّقةَ أو المفتوحة من الأعلى ومن والأسفَلِ والتي تصِفُ الأجسامَ.

3- حديثُ المرأةِ مع الرَّجُلِ الأجنبيِّ عندَ خُروجِها واختلاطِها به.

4- التَّلفُّظُ والتَّفوُّهُ بالألفاظِ البذيئةِ والسَّيِّئةِ التي تجرَحُ الآخَرينَ.

5- كلامُ الرَّجُلِ مع غيرِه بالأسرارِ الزَّوجيَّةِ، والأمورِ الخاصَّةِ التي تحصُل بينَه وبينَ زوجتِه.

6- كَشفُ العَوراتِ وعدَمُ سَترِها.

المطلب الثالث عشر: العلاقة بين قِلَّةِ الحَيَاءِ وبين التفريطُ فِي الْغَيْرَةِ

لِلأَسَفِ! انْتَشَرَ بَيْنَ بَعْضِ المسلمينَ قِلَّةُ الحَيَاءِ، لِلدَرَجَةِ الَّتِي تَرَى فِيهَا أَحَدَهُمْ، وَقَدْ اخْتَلَتِ امْرَأَتُهُ بِالرِّجَالِ الْأَجَانِبِ - كالسَّائقِ فِي سَيَّارَتِهِ، أَوْ الْبَائِعِ فِي مَتْجَرِهِ، أَو الطَّبِيبِ فِي عِيَادَتِهِ- ولم يحرّكْ ذَلِكَ فيه سَاكِنًا، أو تَرَاهَا تَمْشِي فِي الشَّارِعِ، وَصَوتُها مُرْتَفِعٌ، وتَضْحَكُ مَع الغُرَباءِ، وَلَا يَجِدُ فِي ذَلِكَ عَيْبًا، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَا لا يَخْلُوَنَّ رجُلٌ بامرأةٍ لا تَحِلُّ له؛ فإنَّ ثالثَهما الشَّيطانُ، إلَّا مَحْرَمٌ."[3221]

- **وَمِنْ صُوَرِ التَّفْرِيطِ فِي الْغَيْرَةِ:**

1- تَرْكُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَمَنْ فِي وِلَايَتِهِ يَخْرُجْنَ وَهنَّ مُتَنَمِّصَاتٍ، وَمُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ، أَوْ مُرْتَدِيَاتٍ مَا يُظْهِرُ بَعْضَ الْبَدَنِ أَوْ يُجَسِّدُهُ أَوْ يَصِفُ البَشْرَةَ.

2- خُرُوجُ الرَّجُلِ بِامْرَأَتِهِ ومَحارِمِهِ إِلَى بَعْضِ التَّجَمُّعَاتِ الْعَامَّةِ الَّتِي قَدْ تَتَعَرَّضُ فِيهَا لِلِاخْتِلَاط بِالرِّجَالِ أَوْ تَكُونَ عُرضةً لِإِطْلَاقِ أَبْصَارِهُم عَلَيْهَا.

[3221] أخرجه أحمد 15696

3- تركُ الرَّجُلِ امْرَأَتَه تُسَافِرُ بِدُون مُحَرَّم، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامْرَأَةٍ إِلَّا وَمعهَا ذُو مَحْرَمٍ، وَلَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مع ذِي مَحْرَمٍ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وإنِّي اكْتُتِبْتُ في غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، قالَ: انْطَلِقْ فَحُجَّ مع امْرَأَتِكَ".[3222]

فَهَذَا مجاهدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَعْدِلَ عَنْ الْغَزْوِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَيْ يُرَافِقَ امْرَأَتَهُ الَّتِي خَرَجَتْ فِي سَفَرٍ فَاضِلٍ، هُو سَفَرُ الْحَجِّ، وَمَع رِفْقَةِ مَنْ هُمْ أَزْكَى النَّاسِ وَأَتْقَاهُمْ، ثُمَّ إنَّهَا قَدْ خَرَجَتْ وَمَضَتْ، وَمَعَ كُلِّ هَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "انْطَلَق فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ".

● أَسْبَابُ التَّفْرِيطِ فِي الْغَيْرَةِ

مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ صُوَرٍ للتَّفْرِيطِ فِي الغَيْرَةِ، هِيَ حِكَايَةٌ لَوَاقِعٍ حَاصِلٍ ومُشاهَد، وَمَعَ هَذَا فَالصِّبغةُ الْغَالِبَةُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ والمنَّةُ، هِي الْمُحَافَظَةُ وَالْغَيْرَةُ عَلَى الْأَعْرَاضِ.

وَلَكِنْ دَعُونَا هُنَا نَطْرَحُ سُؤَالًا مِنَ الأَهَمِّيَةِ بِمَكَانٍ، أَلَا وَهُوَ: مَا سَبَبُ مَا يَحْصُلُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ مَنْ ذَهَابِ الْغَيْرَةِ وَزَوَال الْحَيَاءِ؟

والجوابُ فِي عِدَّةِ أسبابٍ، مِنْهَا:

1- التساهلُ فِي التَّرْبِيَةِ مُنْذُ الصِّغَر، فَمَن شَبَّ عَلَى شَيْءٍ شَابَ عَلَيْه.

قال الشاعر[3223]:

قَد يَنفَعُ الأدب الأطفال في صغر
وَلَيسَ يَنفَعُ بَعد الكَثرَةُ الأَدَب
إنَّ الغُصونُ إذا قَوَّمتَها اِعتَدَلَت
وَلا يَلِينُ إذا قَوَّمْتَهُ الخَشَبُ

إنَّ الأطفالَ فِي الصِّغَرِ كالغُصُونِ النَّضِرَةِ اللينَةِ، الغَضَّةِ الطَّرِيَّةِ، يَسْهُلُ تَقْوِيمُهَا، فَإِذا كَبِرُوا صَارُوا كَالخَشَبِ يَصْعُبُ تَقْوِيمُ مَا اعْوَجَّ مِنْهُ.

2- كَثْرَةُ احْتِكَاكِ الْمَرْأَةِ بِالرِّجَالِ الْأَجَانِبِ، وَكَثْرَةُ التَّحَدُّثِ والتَواصُلِ مَعَهُم.

3- مُخَالَطَةُ منَ قلَّ حَيَاؤُهُمْ، أَوْ تَكَرَّرَتْ رُؤْيَتُهُم، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ نَاتِجًا عَنْ السَّفَرِ إلَى الْخَارِجِ أَوْ بِرُؤْيَتِهِم فِي الْأَسْوَاقِ والمنْتَزَهَاتِ أو بالصُحْبَةِ السَّيئةِ، أَو مِنْ خِلَالِ مُشاهَدَتِهِم فِي المُسَلْسَلَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْأَخْلَاقَ حَسَنهَا وَسَيِّئَهَا تُكْتَسَبُ بِالْمُخَالَطَةِ؛ لأَنَّ الصَّاحِبَ سَاحِبْ.

4- وَلَعَلَّ مَنْ أَهَمِّ الْأَسْبَاب: كَثْرَةُ خُرُوجِ الْمَرْأَةِ مِنْ بَيْتِهَا، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} [الأحزاب:33]، وقال النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ المرأةَ عورةٌ، فإذا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيطانُ، وأقربُ ما تكونُ من وجهِ ربِّها وهي في قَعْرِ بيتِها"[3224].

(استشرفها)، أي: تطلَّع إلَيْهَا، وَطَمِع بها.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا تَمْنَعُوا نسائَكُمُ المساجِدَ، وبُيُوتَهُنَّ خيرٌ لهنَّ"[3225].

[3222] صحيح مسلم 1341، أخرجه البخاري 3006

[3223] قصيدة: قَد يَنفَعُ الأدب الأطفال في صغر / لصالح بن عبد القدوس الأزدي الجذامي، شعره كله أمثال وحكم وآداب، اتهم عند المهدي العباسي بالزندقة، فقتله ببغداد.

[3224] أخرجه الترمذي 1173 مختصراً، وابن خزيمة 1685، وابن حبان 5598

[3225] أخرجه أبو داود 567، وأحمد 5468

قَالَ الْحَافِظُ الدِّمْيَاطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "قد صَرَّحَ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ بِأَنَّ صَلَاتَهَا فِي دَارِهَا أفضلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي الْمَسْجِدِ، وَإِنْ كَانَ مسجدُ مَكَّةَ أَوْ الْمَدِينَةِ أَوْ بَيْتِ المقدس".

وَلْينتبه العاقلُ الفَطِنُ إِلَى أَنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ فِي بَعْضِ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ التفسُّخِ والتَّبَذُّلِ لَمْ يَحْدُثْ دَفْعَةً وَاحِدَةً، إِنَّمَا بَدَأَ -في الغالب- بِبِدَاياتٍ سَاذَجَةٍ حَتَّى آلَ الأمرُ إِلَى مَا آلَ إِلَيْهِ الآن، فَخُذْ حِذْرك، فَحينَما يَغيبُ الحَياء عن المُجْتَمَعِ، فَكَبِّر على الأخلاقِ بَعدَهُ أربعًا.

المطلب الرابع عشر: حَيَاءُ المرْأَةِ

- **عَذْرَاءٌ فِي خِدْرِهَا.. وَأُخْرَى بِخِلَافِهَا:**

إِنَّ الأَصْلَ فِي المَرْأَةِ الحَيَاءُ، وَهَلْ هُنَاكَ جَمَالٌ أَكْثَرُ مِنْ حَيَائِهَا؟! مُخْطِئَةٌ مَنْ ظَنَّتْ أَنَّ الجَمَالَ يَكْمُنُ فِي حُلِيِّهَا، أَوْ فِي حُسْنِ خَلْقِهَا، أوْ فِي أَنَاقَةِ زِيِّهَا، إِنَّمَا الجَمَالُ الحَقِيقِيُّ فِي عِفَّتِهَا، وَحَيَائِهَا.

عِنْدَمَا وُصِفَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ أَشَدُّ حَيَاءً مَنْ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِها؛ ذَلِكَ لِأَنَّ العَذْرَاءَ الَّتِي لَا تُفَارِقُ سِتْرَهَا، وَلَمْ تَكُنْ تُخَالِطُ الرِّجَالَ، بَلْ دَائِمَةُ الاخْتِبَاءِ عَنْ الأَعْيُنِ حتَّى عنِ النِّسَاءِ أَنْفُسِهِنَّ؛ كَانَتْ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الحَيَاءِ وَأَشَدِّهَا، بِخِلَافِهَا إذا كانت في غَيرِ بَيتِها، واختِلاطِها معَ غَيرِها، أو كَانَتْ كَثِيرَةُ الخُرُوجِ والدُّخُولِ؛ فإنَّها حينَئذٍ تكونُ أقلَّ حَياءً.

- **امْرَأَةٌ عَافَتْهَا النُّفُوسُ:**

كَمْ مِنْ امْرَأَةٍ لَمَّا كَشَفَتْ عَنْهَا سِتْرَهَا، عَافَتْهَا النُّفُوسُ السَّلِيمَةُ وَالفِطَرُ القَوِيمَةُ؛ وَلِسَانُ حَالِهِمْ يَقُولُ: "نَعَمْ، فِي وَجْهِكِ حُسْنٌ، وَفِي ثَوْبِكِ جَمَالٌ، وَلَكِنْ نَرَى جَمَالًا الْتَفَّ حَوْلَهُ الذُّبَابُ؛ فَقَذَّرَهُ، وَحَامَ حَوْلَهُ الكِلَابُ؛ فَنَجَّسَهُ.

إِنَّ المرأةَ الحَيِيَّةَ، تَسْلُبُ لُبَّ الرَّجُلِ العَفِيفِ، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ بِمَقَايِيسِ الجَمَالِ لَيْسَتْ بِحَظٍ وَافِرٍ، فَحَيَاؤُهَا يُكْمِلُ مَا نَقَصَ مِنْهَا.

- **رَحِمَ اللهُ فتاةً:**

رَحِمَ اللهُ فتاةً لَمْ تُؤتَ منْ كَيْدِ النِّسَاءِ شَيئًا، بريئةً نقيةً صافيةَ الرُّوحِ، لَا تخدعُ ولا تُنافقُ، لا تَكْرَهُ ولا تَتَرَبَّصُ، لَا تَحْمِلُ ضَغِينَةً وَلَا حِقْدًا وَلَا حَسَدًا، لا تَغْتَابُ ولا تَنُمُّ، ولا يَشْغَلَهَا منْ تُرَّاهَاتِ فَتَيَاتِ أهلِ عَصْرِنَا شيئًا، تحملُ الخيرَ للجَمِيعِ، وتُجَاهِدُ ألا تتركَ إلا أثرًا طيّبا، تَطُلبُ العلمَ وَتُهَيِّئ نَفْسَها؛ لِتُصْبِحَ أَعْظَمَ أُمٍّ لأعْظَمَ رِجَالٍ فِي الأُمَّةِ.

- **للهِ دُرُّ فَتَاةٍ:**

للهِ دُرُّ فَتَاةٍ أَدَّبَهَا القُرْآنَ، تَعْرِفُ أنَّ حَيَاءَها جُزءٌ مِن إيمَانِها؛ فَيُزَيِّنُها ويَرْفَعُ مِن شِأنِها، ذَاكَ الحَياءُ الذي يُوافِقُ طَبِيعَتَهَا الَّتِي خُلقتْ عَلَيْهِ، فَالحَيَاءُ فِطرَتُها، وَلَقَدْ كانَتْ المَرأةُ، وَمَازَالَتْ مَضْرَبَ المَثَلِ فِي الحَيَاءِ، وَزَوَالِهِ عَنْهَا نَقْصٌ فِي إيمَانِهَا، وخُرُوجٌ عن فِطْرَتِها.

المطلب الخامس عشر: الحَيَاءُ مِنَ اللهِ

- **الحياء من الله في الخَلَوَاتِ:**

إن الحياءَ من اللهِ يجعلُ العبدَ في جَوْفِ الليلِ يَستَحِي أن يَرفعَ سبَّابَتَهُ التي حَركَهَا اللهُ لهُ بِعَافِيةٍ منه وَفَضْلٍ؛ ليَنْقُرَ عَلَى جَوَّالِهِ أو جِهَازِهِ الحَاسُوبِيِّ، فيَرَى فِيهِ مَا لَا يُرْضِيهِ.

وَمِنَ الحَيَاءِ أَنْ يَتَذَكَّرَ العبدُ نِعَمَ اللهِ عليه، فَيَشْكُرَه عَلَى إحْسَانِهِ، وَلَا يكْفُرُه.. وَيَتَذَّكَرَ فَضْلَهُ وَلَا يُنْكِرُه، ويقولُ لنفسِهِ: "لقد أُعطيتُ كلَّ هذا النَّعِيم ثم أُسَخِّرُهُ فِي مَعْصِيَةِ الكَرِيم!"؛ فيذوبُ حياءً مِنْهُ، وَيَنكسِرُ بين يَدَيْهِ، ويُخبِتُ ويُنِيبُ إِلَيْهِ.. وَكُلُّنَا ذَاكَ الرَّجُلُ، وَحالُنَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ.

● ذُنُوبُ الخَلَوَاتِ تَحُطُّ مِنْ قَدْرِ الذَّاتِ:

قال المَاوَرْدِيُّ: "مَنْ عَمِلَ فِي الخَفَاءِ عَمَلًا يخشَى أنْ يعملَه فِي العَلَنِ فَلَيْسَ لِنَفْسِهِ قَدْرٌ عِنْدَهُ"؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَحِ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا مِنْ خَالِقِهِ.

كَمْ مِنْ عَبْدٍ فِي خَلَوَاتِهِ فَاجِرٌ، وفِي جَلَوَاتِهِ يَدَّعِي أَنَّهُ طَاهِرٌ! لم يصن نفسَهُ ولا عِرْضَهُ، وَلَهُ تَقَلُّبَاتٌ وأقنعةٌ وأَوجُه.. في الخفاءِ يخونُ ربَّ السَّمَاءِ، وفي العَلَنِ يَدَّعِي أَنَّهُ يَفْعَلُ المليحَ ويترُكَ القبيحَ.. يكونُ أمامَ النَّاسِ قديس، وفي الخلواتِ من أعوانِ إبليس.. هَذَا النَّوْعُ من النَّاسِ، قَدْ نَسَجَ فِيهِمْ ابْنُ المبَارَكِ شِعْرًا، فَقَالَ:

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوبَ.. ويتبِعُها الذلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوبِ حياةُ القلوبِ.. وخيرٌ لنفسِكَ عِصْيانُها

● انْظُرْ إِلَى نَظَرِ اللهِ لَكَ:

إِذَا أَرَادَ عَبْدٌ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ تَعَالى بَعِيدًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، تجِدُهُ ينظرُ إلى اليَمِينِ لِيَتَأَكَّدَ هَلْ يَرَاهُ أَحَدٌ؟ ثُمَّ ينظرُ إِلَى اليَسَارِ وَيَتَأَكَّدُ، ثُمَّ ينظرُ عَنْ أمامِه وَعَنْ خَلْفِهِ، وَأَحْيَانًا يَتَأَكَّدُ مِنْ غَلْقِ البَابِ لِيَرْتَكِبَ المَعْصِيَةَ، لَكِنْ! نَسِيَ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ جِهَةِ العُلُوِّ! نَسِيَ أن ينظرَ إِلَى السَّمَاءِ، نَسِيَ أَنْ يَتَأَكَّدَ من الجهةِ التي ينظرُ اللهُ تعالى إِلَيْهِ مِنْهَا.

إِنَّهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ، أَلَا وَهُوَ مُرَاقَبَةُ اللهِ فِي الخَلْوَةِ، تِلْكَ الحالُ التي يشعرُ فيها العبدُ أنه لا رَقِيبَ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ، فَهِيَ عِلْمُ القَلْبِ بِقُربِ الرَبِّ، إِذْ يَقُولُ: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: 16]؛ لِذَا كَانَتْ مَرْتَبَةُ الإِحْسَانِ الرَّفِيعَةِ: أَنْ تعبدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

وَقَدْ سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَائِلًا: يَا رَسُولَ اللهِ! ما تزكيةُ النفسِ؟ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ معه حَيْثُ كَانَ".[3226]

هُنَاكَ مِنْ عبادِ اللهِ مَنْ يَخْلُو لِمُعَاتَبَةِ نَفْسِه لِيُزَكِيَهَا، وَيَرْفَعَ شَأنَهَا، وَيَطُهِّرَهَا مِنْ دَنَسِ المعَاصِي، وَمِنْهُم مَنْ يَخْلُو لِأَجْلِ المَعْصِيَةِ فَيُدَنِّسُ نَفْسَهُ، وَيَمْلَأُ قَلْبَهُ ظُلْمَةً وَوَحْشَةً.

يُذْكَرُ عنْ أَبِي حامدٍ الحَلَقَانِي أَنَّه قَالَ للإِمَامِ أَحْمَدَ - رحمه الله -: "يَا أَبَا عبدِ اللهِ، هذِه القَصَائدُ الرقاقُ التي في ذِكْرِ الجنَّةِ والنَّارِ، أيُّ شَيْءٍ تَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: مِثْلُ أيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: يَقُولُونَ:

إِذَا مَا قَالَ لِي رَبِّـــي.. أَمَا اسْتَحْيَيْتَ تَعْصِينِي
وتُخْفِي الذَّنْبَ عَنْ خَلْقِي.. وَبِالعِصْيَانِ تَأْتِينِـــي

فَقَالَ: أَعِدْ عليَّ فأعَدتُ عليه، فَقَامَ ودَخَلَ بيتَه وردَّ البَابَ، فَسَمِعْتُ نَحِيبَه مِنْ دَاخِلِ البَيْتِ، وَهُوَ يَقُولُ:

إِذَا مَا قَالَ لِي رَبِّـــي.. أَمَا اسْتَحْيَيْتَ تَعْصِينِي
وتُخْفِي الذَّنْبَ عَنْ خَلْقِي.. وَبِالعِصْيَانِ تَأْتِينِـــي

[3226] السلسلة الصحيحة:3 /38

فَبَكَى حَتَّى أَصْبَحَ لَهُ صَوْتٌ كَبُكَاءِ الأَطْفَالِ، قَالَ تَلَامِذَتُهُ: "كَادَ الإِمَامُ يَهْلَكُ مِنْ كَثْرَةِ البُكَاءِ".

سُبْحَانَ مَنْ لَا تُوَارِيهِ سَمَاءٌ سَمَاءً! وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا! وَلَا بَحْرٌ ما فِي قَعْرِهِ! وَلَا جَبَلٌ مَا فِي وَعْرِهِ! سُبْحَانَهُ يَرَى النَّمْلَةَ السَّوْدَاءَ، عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ، فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ؛ إِذْ هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا وَأَنْشَأَهَا وَأَوْجَدَهَا.

قَالَ حُمَيْدٌ الطَّوِيلُ: "لَئِنْ كُنْتَ عَصَيْتَ اللهَ خَالِيًا ظَنَنْتَ أَنَّهُ يَرَاكَ، لَقَدْ اجْتَرَأْتَ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، وَلَئِنْ كُنْتَ ظَنَنْتَ أَنَّ اللهَ لَا يَرَاكَ فَقَدْ كَفَرْتَ!".

هل يستطيعُ أحدٌ أنْ يَعصِيَ مَلِكًا مِنْ مُلوكِ الدُّنيا على بِسَاطِ مُلكِه، يأمُرُه بِالأَمرِ، فَيَقولُ لهُ: لَا؟ فَكَيفَ بِمَلِكِ المُلُوكِ؟ وَنحنُ خَلْقُهُ وَعَلَى أرضِهِ ونَأكلُ منْ رِزْقِه؟

تَذَكَّرْ أَنَّ الأعضاءَ تَشْهَدُ، والأرضَ تَشْهَدُ، والملائكةَ تَشْهَدُ، واللهُ يَشْهَدُ، وَكَفَى باللهِ شَهِيدًا.

تَذَكَّرْ أَنَّ عينَ اللهِ تُلَاحِقُكَ أيْنَمَا ذَهَبْتَ، وفي أيِّ مكانٍ حَلَلْتَ، خَلْفَ الحِيطَانِ ووراءَ الجُدْرَانِ، وَفِي الخَلَوَاتِ والجَلَوَاتِ، فَأَنْتَ مُرَاقَبٌ بِأَشَدَّ مِنْ تقنيةِ الكَامِيرَاتِ، قَالَ كعبٌ: "اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ فِي سَرَائِرِكُمْ، كَمَا تَسْتَحْيُونَ مِنَ النَّاسِ فِي عَلَانِيَتِكُمِ".

إنَّ الإيمان يتبيَّنُ ويتمحَّصُ إذا كان العَبْدُ وحده، فالعبرةُ إذا كنتَ خاليًا بعيدًا عن أعينِ البَشَرِ؛ لأنَّ أغلبَ الناسِ لا يرتكبُونَ المعصيةَ أمامَ الخلقِ: وَإِذَا خَلَوْتَ بِرِيبَةٍ فِي ظُلْمَـــةٍ.. والنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الطُّغْيَانِ

فَاسْتَحْيِ مِنْ نَظَرِ الإِلَهِ وَقُلْ لَهَا.. إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلامَ يَرَانِي[3227]

إنَّ صلاحَ السريرةِ أصلُ قَبولِ كُلِّ عملٍ؛ لأنه دليلُ الإخلاصِ، فَمَنْ أصلحَ سَرِيرَتَهُ فَاحَ عبيرُ فَضْلِه، وَعَبَقَتْ القُلوبُ بنشرِ طِيبه، وفسادُ السريرةِ لا ينفعُ مَعَهُ الصَّلاحُ الظَّاهريُّ فقط، يقول ابن القيم: "أَجْمَعَ العارفُونَ باللهِ أنَّ ذُنُوبَ الخلواتِ هِيَ أصلُ الانتكاساتِ، وأنَّ عباداتِ الخفاءِ هي أعظمُ أَسْبَابِ الثَّبَاتِ".

وَيَقُولُ ابنُ رَجَبٍ: "خاتمةُ السُّوءِ تكُونُ بسببِ دَسِيسَةٍ باطنةٍ للعبدِ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ".

وَيَقُولُ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "إِنَّ العَبْدَ لَيَخْلُوَ بِمَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى فَيُلْقِي اللهُ بُغْضَه فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرَ".

نَعَمْ قَدْ يُحِبُّهُ مَنْ هُوَ عَلَى شَاكِلَتِهِ، لَكِنْ قُلُوبُ المؤْمِنِينَ وَالمتَّقِينَ لَا تُحِبُّهُ وَلَا تُرِيدُ أَنْ تُجَالِسَهُ.

وَقَالَ أَمِيرُ المؤمنينَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "مَا أَسَرَّ عَبْدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَظْهَرَهَا اللهُ عَلَى قَسَمَاتِ وَجْهِهِ أَوْ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ".

● لمنْ يَشْتَكِي ذُنُوبَ الخَلَوَاتِ:

نَقُولُ لَهُ: لا تُمكِّنْ خَواطرَ القلبِ الرَّديئةَ من الاسْتِمْرَارِ؛ لأنَّ الخَاطرةَ تأتي بالفكرةِ، والفكرةُ تَأتِي بِحَدِيثِ النَّفسِ، وَحديثُ النَّفسِ يَأتِي بالهمِّ، والهمُّ يَأتِي بالعزيمةِ، والعزيمةُ تَأتِي بِالفِعْلِ فيقعَ المحظورُ، يَقُولُ مَسْرُوقٌ: "مَنْ رَاقَبَ اللهَ فِي خَطَرَاتِ قَلْبِهِ، عَصَمَهُ اللهُ فِي حَرَكَاتِ جَوَارِحِهِ"، وهذا هو الفهم من قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: 69].

إنَّ مما يُعِينُ عَلَى مُرَاقبةِ اللهِ تَعَالَى أنَّ هَذَا العَبْدَ كَمَا جَعَلَ بينَهُ وبينَ اللهِ سرًّا سيئًا أنْ يَجْعَلَ بينَهُ وبينَ اللهِ سرًّا حسنًا، وخبيئةً من العَمَلِ الصَّالحِ يستعينُ بهَا بإذنِ اللهِ على تركِ الأعمالِ السَّيِّئَةِ، قَالَ مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ: "مَا تلذَّذَ المتلذِّذُونَ بمثلِ الخُلْوَةِ بِمُنَاجَاةِ اللهِ تَعَالَى".

وقيل لمَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ وَقَدْ جَلَسَ فِي البَيْتِ وَحْدَهُ: "أَمَا تَسْتَوْحِشُ؟ قَالَ: وَيَسْتَوْحِشُ مَعَ اللهِ أَحَدٌ؟!".

[3227] نُونِيَّةُ القَحْطَانِي

● **إِنْ تَنْتَهُوا.. يُغْفَرْ لَكُمْ مَا قَدْ سَلَفَ**

هل تُرِيدُ أَنْ تُمْحَى خَطَايَاكَ السَّابِقَة؟ أَتَوَدُّ أَنْ يُغْفَرَ لَكَ مَا سَلَفَ وَكَانَ مْنَ الذُّنُوبِ وَالعِصْيَانِ؟
إذا دعَتْك نفسُك لفعلِ معصيةٍ في الخلوةِ، فاكْبَحْ جِمَاحَهَا، وانْهَهَا عَنْ غيِّها، وَأَبْشِرْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الملك: 12]، اتْرُكْهَا لِأَجْلِ اللهِ تَعَالَى، وخشيةً مِنْهُ، لا حياءً مِنْ أحَدٍ؛ إِنَّمَا حَيَاءً مِنَ الوَاحِدِ الأَحَدِ الَّذِي يَقُولُ جَلَّ شَأْنُهُ: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: 46].

● **ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ لِلْعَبْدِ فِي خَلْوَتِهِ**

إن العبدَ في خلوتِهِ، له ثلاثةُ أحوالٍ: إما أن تكون حاله كما هي في العلانية، فهذا هو المطلوب، أو تكون حاله في الخلوة أفضل، وهذا مقامٌ عالٍ للصالحين، أو يكون المسلم في الخلوة أقل حالًا منه في العلانية، فهذا هو المذموم، فإن الوَرَع في العلانية له أسباب تجلبه، وقد يكون لغير الله فيه حظٌّ، أما الورع في الخلوة فلا يبعث عليه إلا مخافةُ الله تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} [نوح: 13، 14].

المطلب السادس عشر: مُحَارَبَةُ أَعْداءِ الإِسْلامِ لِلْحَياءِ

إِنَّ الْحَدِيثَ عَنْ خُلُقِ الْحَيَاءِ لَيَتَأَكَّدَ فِي هَذَا العصْر، الَّذي تُحارَبُ فِيهِ الأُمَّةُ فِي أَخْلاقِها وقِيَمِها حربًا لَا هوادةَ فِيهَا، قَنَواتٌ تُصَبِّحُ النَّاسَ وَتُمْسِيهِم بِبَرَامِجَ وَمَشاهِدَ تُدَمِّرُ الْأَخْلَاق، وَتُمَزِّقُ الْحَيَاء، وَتُطَبِّعُ الرَّذيلة، وَتُغَرِّبُ الْمُجْتَمِعَ فِي سُلُوكِهِ وَطِبَاعِهِ وَعَادَاتِه، ثمَّ لَا تسَلْ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ شَبَابِنَا وَتَفَاهَةِ هُمُومِهِمْ، وَضَحَالَةِ ثَقافَتِهِمْ، وَسَطْحِيَّةِ أَفْكَارِهِم، واهْتِمَامَاتِهِمْ المنْصَبَّةِ عَلَى سَفاسِفِ الأُمُورِ.

لِذَا وَجَبَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمانِ وَالْغَيْرَةِ، والرُّجولةِ وَالْمُرُوءَةِ: أَنْ تَتَضَافَرَ جُهُودُهُمْ لِإِحْيَاءِ هَذَا الخُلُقِ النَّبِيلِ، ذِي المَعْدَنِ الْأَصِيلِ، بِتَهْذِيبِ أَنْفُسِهِمْ عَلَيْهِ ابتداءً، ثُمَّ السَّعْيِ فِي تَهْذِيبِ أَبْنَائِهِمْ -ذُكورِهم وإِنَاثِهم- عَلَيْهِ، وَذَلِكَ بالتَّزَامُنِ مَعَ المحاولةِ المسْتَمِرَّةِ فِي نَشْرِ ثَقَافَةِ الْحَيَاءِ والعِفَّةِ وَغَرْسِهَا فِي الْمُجْتَمَعِ، وَالْحِرْصِ الدَّائِمِ عَلَى التَّصَدِّي لِأَعْوَانِ إِبْلِيسَ وَحِزْبِهِ، الَّذِينَ لَا يَأْلُونَ جَهْدًا فِي نَشْرِ السُّوءِ والفَحْشَاءِ، والتَّوفيقُ كُلُّ التَّوفيقِ مِن ربِّ الْأَرْضِ والسَّمَاءِ.

المطلب السابع عشر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ الحَياءِ

1- اعتِقادُ أنَّ الحَياءَ ممدوحٌ في كُلِّ حالٍ حتى لو أدَّى إلى مداهنةٍ أو تركِ واجبٍ أو فِعلِ محرَّمٍ، إلى غيرِ ذلك من الصُّوَرِ التي يُذَمُّ فيها الحَياءُ.
قال ابنُ عُثَيمين: "اعلَمْ أنَّ الحَياءَ خُلُقٌ محمودٌ إلَّا إذا منع ممَّا يجِبُ، أو أوقع فيما يَحرُمُ، فإذا مَنَع ممَّا يجِبُ فإنَّه مذمومٌ، كما لو منعه الحَياءُ من أن يُنكِرَ المنكَرَ مع وجوبه، فهذا حَياءٌ مذمومٌ، أنكِرِ المنكَرَ ولا تُبالِ، ولكِنْ بشَرطِ أن يكونَ ذلك واجِبًا، وعلى حَسَبِ المراتِبِ والشُّروطِ".[3228]
فـ (الحَياءُ محمودٌ في الدِّينِ، وفي اجتنابِ المحارِمِ، وفي الإفضالِ، وأمَّا في تركِ الحُقوقِ والنُّكوصِ عن الخُصومِ عندَ الحِجاجِ فهو نُقصانٌ في النَّفسِ).[3229]
وقال أبو الوليدِ الباجيُّ: "معنى الحَياءِ المأمورِ به: إذا كان سببَ الإمساكِ عمَّا لا يحِلُّ أو يَنقُصُ المروءةَ، وأمَّا إذا منع شيئًا من الدِّيانةِ أو العِلمِ، أو قضاءِ الحقوقِ التي عليه للهِ أو للنَّاسِ، فهو مذمومٌ، واسمُ العيِّ أحَقُّ به".[3230]

[3228] شرح الأربعين النووية ص: 210
[3229] معجم الأدباء للحموي 1/ 58، 59

إنَّ الحَياءَ لا يكونُ إلَّا في الحُدودِ المشروعةِ، فالذي يتهيَّبُ تقريعَ المُبطِلين لا يُعتَبَرُ حَييًّا! إنَّ الحَياءَ لا يكونُ تجاهَ الباطِلِ، ولا موضِعَ له مع النَّاسِ إذا ضَلُّوا، ولا موضِعَ له في السُّلوكِ عندَما يَقِفُ المرءُ مَوقِفًا يناصِرُ فيه الحَقَّ.[3231]

2- الاعتقادُ بأنَّ الحَياءَ الغريزيَّ الذي يخلُقُه اللهُ سُبحانَه في الإنسانِ لا يحتاجُ إلى المحافظةِ عليه أو تنميتِه، وهذا اعتقادٌ خَطَأٌ، فهذا الحَياءُ مع كونِه فِطريًّا أودعه اللهُ في النَّاسِ، فإنَّه قد يَفقِدُ وظيفتَه، وقد يتخلَّى الإنسانُ عنه، أو ينحَرِفُ بالإنسانِ إلى الحَياءِ المذمومِ.

3- الحَياءُ ينفَعُ المطيعَ والعاصيَ:

قال أبو عبدِ اللهِ المَرْوَزيُّ: "الحَياءُ خيرٌ كُلُّه، غيرَ أنَّه أمرٌ يَدَّعيه الصَّادِقُ والكاذِبُ، وأصلُه فِعلٌ من الطَّبيعةِ الكريمةِ غريزةً، وخيرٌ يختصُّ اللهُ تعالى به مَن يشاءُ مِن خَلقِه، ينفَعُ العاصيَ والمُطيعَ؛ أمَّا المُطيعُ فقد زال كُلُّ خُلُقٍ دَنِيٍّ، وأمَّا الفاسِقُ فلم يجمَعْ مع فِسقِه تهتُّكًا".[3232]

وقال أيضًا: "إنْ فَعَلَ الفِعلَ للحَياءِ وتَرَكَه لغيرِ ذِكرِ إخلاصٍ ولا رياءٍ، فهو دينٌ... وذلك أن يستحيَ العبدُ من إظهارِ المعاصي فيستَتِرَ حَياءً من النَّاسِ، والحَياءُ من اللهِ أَولى به، فضَيَّع الحَياءَ من اللهِ تعالى في سريرتِه، واستحيا من النَّاسِ، والحَياءُ الذي أدَّاه إلى السَّترِ خَيرٌ له من التَّهتُّكِ".[3233]

4- الاعتقادُ بأنَّ الحَياءَ من سماتِ النِّساءِ فقط، وأنَّه قدحٌ في رُجولةِ الرِّجالِ، وهذا اعتقادٌ خَطَأٌ تسبَّبَت فيه المفاهيمُ المغلوطةُ التي يُرَوَّجُ لها في بعضِ البيئاتِ، ففَضلًا عن أنَّ الحَياءَ من سماتِ الأنبياءِ، وهم أكمَلُ الرِّجالِ وأقواهم في الحَقِّ، وأرفَعُهم أخلاقًا؛ فإنَّ الحَياءَ لا يمنَعُ الرِّجالَ من قَولِ الحَقِّ والصَّدعِ به.

إذًا: "الفَرقُ بَينَ الحَياءِ والضَّعفِ هو الفَرقُ تمامًا بَينَ الكَمالِ والنَّقصِ، فلا يستَشعِرُ الحَياءَ إلَّا من اكتَمَلت شمائِلُه أدَبًا وعِفَّةً ورَزانةً، واعتِدادًا بالذَّاتِ، وثِقةً بسلامةِ بِنائِه الأخلاقيِّ".[3234]

5- الحَياءُ من النَّاسِ واتقاءُ المُسلِمِ لهم والاستتارُ بالمعاصي عنهم، لا يعني النِّفاقَ بإبطانِ القبيحِ وإظهارِ الحَسَنِ، كلَّا، بل المرادُ عَدَمُ الجَهرِ بالقبائِحِ والاستِحياءُ من مقارفتِها علانيةً؛ فإنَّ الرَّجُلَ الذي يخجَلُ من الظُّهورِ برذيلةٍ، لا تزالُ فيه بقيَّةٌ من خيرٍ، والرَّجُلُ الذي يطلُبُ الظُّهورَ بالفضيلةِ لا تزالُ فيه بقيَّةٌ من شَرٍّ، على أنَّ الإنسانَ ينبغي أن يخجَلَ من نفسِه كما يخجَلُ من النَّاسِ، فإذا كَرِه أن يَرَوه على نقيصةٍ فلْيَكْرَهْ أن يَرى نفسَه على مِثْلِها.[3235]

6- ليس الحَياءُ جُبنًا؛ فإنَّ الرَّجُلَ الخجولَ قد يُفَضِّلُ أن يريقَ دَمَه على أن يريقَ ماءَ وَجْهِه، وتلك هي الشَّجاعةُ في أعلى صُوَرِها، قد يكونُ في الحَياءِ شيءٌ من التَّخوُّفِ، بَيْدَ أنَّه تخوُّفُ الرَّجُلِ الفاضِلِ على مكارِمِه ومحامِدِه أن تذهَبَ بهائِها الأوضاعُ المُحْرِجةُ. وهذا التَّخوُّفُ يقارِنُ الجراءةَ في مواطِنِها المحمودةِ.[3236]

[3230] سنن الصالحين وسنن العابدين لأبي الوليد الباجي ص: 643

[3231] خلق المسلم لمحمد الغزالي ص: 153

[3232] تعظيم قدر الصلاة 2/850 بتصرُّفٍ يسيرٍ

[3233] المصدر السابق 2/ 852

[3234] الحياء المفتقد لعلي بن قاسم ص: 226

[3235] خلق المسلم لمحمد الغزالي ص: 152

[3236] المصدر السابق، ص: 153

المطلب الثامن عشر: مسائل متفرقة

- **الحياء بين خُلُقَينِ ذميمَينِ:**

كُلُّ خُلُقٍ محمودٍ مُكتنَفٌ بخُلُقَينِ ذميمَينِ، وهو وَسَطٌ بَينَهما، وطَرَفاه خُلُقانِ ذَميمانِ، والنَّفسُ متى انحرَفَت عن التَّوسُّطِ انحرَفَت إلى أحَدِ الخُلُقَينِ الذَّميمَينِ ولا بُدَّ؛ فإذا انحرَفَت عن خُلُقِ الحياءِ انحرَفَت إمَّا إلى قِحَةٍ وجُرأةٍ، وإمَّا إلى عَجزٍ وخَوَرٍ ومهانةٍ، بحيثُ يُطمِعُ في نفسِه عَدُوَّه، ويفوتُه كثيرٌ من مصالحِه، ويزعُمُ أنَّ الحامِلَ له على ذلك الحياءُ، وإنَّما هو المهانةُ والعَجزُ، وموتُ النَّفسِ.[3237]

وقال الجاحِظُ: "الحَياءُ: اسمٌ لمقدارٍ من المقاديرِ، ما زاد على ذلك المِقدارِ فسَمِّه ما أحبَبْتَ".[3238]

- **عِلاقَةُ الحياء ببَقيَةِ الْأَخْلَاقِ:**

تُوجَدُ عِلَاقَةٍ وَثِيقَة بَيْنَ الحَيَاءِ وَبَيْنَ سَائِرِ الأَخْلَاقِ الحَمِيدَة، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم يُقَوِّي الْآخَر، وَالْعَكْسُ صَحِيحٌ، فَمَثَلًا مَنْ بَدَأَ بالكَذِبِ أَوْ الظُّلْمِ اسْتِهَانَ[3239] بِالذُّنُوبِ الْأُخْرَى؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا أَذْنَبَ بَعُدَ مِنَ اللَّهِ، وَكُلَّمَا كَانَ أَبْعَدَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، كَانَتْ الذُّنُوبُ إِلَيْهِ أَقْرَبُ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: "إِنَّ الذُّنُوبَ تُضْعِفُ الحَيَاءَ مِنَ الْعَبْدِ حَتَّى رُبَّمَا انْسَلَخَ مِنْه بالكُلِّيَّةِ، حَتَّى ربَّما أَنَّهُ لَا يتأثَّرُ بِعِلْمِ النَّاسِ بِسُوءِ حَالِهِ، وَلَا باطِّلَاعِهِم عَلَيْهِ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُخْبِرُ عَنْ حَالِهِ وَقُبْحِ مَا يَفْعَلُهُ، وَالْحَامِلُ عَلَى ذَلِكَ انْسِلَاخُهُ مِنَ الحَيَاء، وَإِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ، لَمْ يَبْقَ فِي صَلَاحِهِ مَطْمَعٌ".[3240]

[3237] مدارج السالكين لابن القيم 2/ 295.

[3238] البيان والتبين 1/ 177.

[3239] استهان بأمر ما، أي: اسْتَخَفَّ بِه، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَيْه بِعَيْنِ الاعْتِبارِ

[3240] الجواب الكَافِي 69-70

المبحث السادس والعشرون: العِفَّة

المطلب الأول: معنى العِفَّة

- **العِفَّة لغةً:**

مصدَرُ عَفَّ، يقالُ: عفَّ عن الحرامِ يَعِفُّ عِفَّةً وعَفًّا وعَفافةً، أي: كفَّ، فهو عَفٌّ وعفيفٌ، والمرأةُ عَفَّةٌ وعفيفةٌ، وأعفَّه اللهُ، واستعَفَّ عن المسألةِ، أي: عَفَّ، وتعفَّف: تكلَّف العِفَّةَ.

الكفُّ عمَّا لا يحِلُّ ويجمُلُ، والاستعفافُ: طَلَبُ العفافِ.[3241]

والعفيفُ: الممسِكُ نفسَه عن القاذوراتِ، وعفيفٌ على وزنِ فعيلٍ ينقَسِمُ بين فاعلٍ ومفعولٍ، فإذا تماسَك وتوقَّى وأخذ نفسَه مأخَذَ الواجبِ فهو في طريقِ الفاعلِ، ثمَّ قد يكونُ في معنى المفعولِ به؛ لأنَّ العِفَّةَ طِباعٌ، فكأنَّها توجَدُ في فِطرتِه.[3242]

- **العِفَّةِ اصطلاحًا:**

قيل: هي عبارةٌ عن التحرُّزِ عن تناوُلِ المشتَهَياتِ المخالِفةِ للشَّرعِ والمروءةِ.[3243]

وقيل: هي حاجزٌ داخليٌّ يمنعُ الإنسانَ من تغليبِ الشَّهوةِ، ويُبعِدُه عن عملِ القبيحِ عُرفًا وشرعًا، ويدفعُه إلى الصَّبرِ والنَّزاهةِ عن الشَّهواتِ الدُّنيويَّةِ والحاجاتِ الإنسانيَّةِ.[3244]

والعفيفُ: الممسِكُ نفسَه عن القاذوراتِ.[3245]

وقيل هي: "ضَبطُ النَّفسِ عن الشَّهَواتِ وقصرُها على الاكتفاءِ بما يقيمُ أودَ الجسَدِ، ويحفظُ صحَّتَه فقط، واجتنابُ السَّرَفِ في جميعِ الملذَّاتِ، وقَصدُ الاعتدالِ"[3246].[3247]

ويأتي في مُقابِل العِفَّة: الدَّنَاءَةُ والخِسَّةُ، فَالدَّنَاءَةُ هِيَ: "فِعلُ الشَّيءِ الخَسِيسِ الذي يُلامُ على فِعلِه"[3248]، أما الخِسَّةُ، فَهِيَ: "انحِطاطُ القَدرِ والمَنزِلةِ والقيمةِ، وتَكونُ في السُّلوكِ والفِعلِ والرَّأيِ".[3249]

وَللخِسَّةِ وَالدَّنَاءَةِ صُوَرٌ عَدِيدَةٌ، مِنْهَا:

1- التَّعالي والتَّسَلُّطُ على مَن لا يُمكِنُه المُعارَضةُ.

2- المَهانةُ والذُّلُّ.

3- التَّعاوُن على الإثمِ والعُدوانِ.

4- أكلُ المَرءِ بدينِه.

5- إظهارُ المُغالَبةِ بغَيرِ حَقٍّ وعَدَمُ الاعترافِ بالخَطَأِ إذا ظَهَرَ.

6- المُسارَعةُ إلى حُضورِ الولائِمِ وإن كانت غَيرَ شَرعيَّةٍ.

[3241] لسان العرب لابن منظور 9/253، مختار الصحاح للرازي 4/1405

[3242] البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي 117 /5 ، 118

[3243] معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم للسيوطي ص: 205

[3244] موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم 24/8

[3245] البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي117 /5، 118

[3246] تهذيب الأخلاق المنسوب للجاحظ ص: 21

[3247] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، مَوْسُوعَةُ الأَخْلاقِ والسُلُوك

[3248] ((النظم المستعذب)) لبطال الركبي (140 /2)

[3249] ينظر: ((الإبانة في اللغة العربية)) للصحاري (3/ 56)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لمختار عمر (1/ 642)

7- انتِظارُ المُقارَضةِ على الإحسانِ والمَعروفِ.
8- الطَّمَعُ والإقبالُ على الأغنياءِ والإعراضُ عنِ الفُقَراءِ.

المطلب الثاني: الترغيب في العفة والحث عليها

أ. العِفَّةُ في نصوصِ القرآنِ الكريمِ:

1- قال تعالى: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ} [النور: 33]، أي: ليَطلُبِ العِفَّةَ عن الحرامِ والزِّنا الذين لا يجِدون ما لا يَنكِحون به للصَّداقِ والنَّفَقةِ حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، أي: يوسِّعَ عليهم من رِزقِه.

2- وقال سُبحانَه: {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ} [النور: 60]، وقولُه: (وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ) أي: وترْكُ وَضعِهنَّ لثيابِهنَّ -وإن كان جائزًا- خيرٌ وأفضلُ لهنَّ، واللهُ سميعٌ عليمٌ.

3- وقال سُبحانَه: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [البقرة: 273]، (يحسَبُهم الْجَاهِلُ) بحالِهم (أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) أي: من تعَفُّفِهم عن السُّؤالِ وقناعتِهم يظنُّ مَن لا يعرفُ حالَهم أنَّهم أغنياءُ، والتَّعفُّفُ: من العِفَّةِ وهي التَّركُ، يقالُ: عَفَّ عن الشَّيءِ: إذا كَفَّ عنه، وتعفَّف: إذا تكلَّف في الإمساكِ.
(تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ): السِّمةُ هي العلامةُ التي يُعرَفُ بها الشَّيءُ، واختلفوا في معناها هاهنا؛ قال السُّدِّيُّ: "أثَرُ الجَهدِ من الحاجةِ والفقرِ"، وقال الضَّحَّاكُ: "صُفرةُ ألوانِهم من الجوعِ والضُّرِّ"، وقيل: "رثاثةُ ثيابِهم".
(لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا): قال عطاءٌ: إذا كان عندَهم غَداءٌ لا يسألون عَشاءً، وإذا كان عندهم عشاءٌ لا يسألون غَداءً، وقيل: معناه لا يسألون النَّاسَ إلحافًا أصلًا؛ لأنَّه قال: من التَّعفُّفِ، والتَّعَفُّفُ: تركُ السُّؤالِ.[3250]

ب. العِفَّةُ في نُصُوصِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ:

1- كانَ مِن دُعاءِ النبي صلى الله عليه وسلم: "اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الهُدى والتُّقى والعَفافَ والغِنى".[3251]
قال النَّوويُّ: "أمَّا العَفافُ والعِفَّةُ فهو التَّنزُّهُ عمَّا لا يباحُ، والكفُّ عنه، والغنى هنا غنى النَّفسِ، والاستغناءُ عن النَّاسِ وعمَّا في أيديهم".[3252]

بَلْ لَقَدْ كَانَ مِن أُولَيَاتِ دعوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدعوة إلى العفاف؛ فقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة أبي سفيان مع هرقل، أنه قال: "أَخْبَرَنِي أبو سُفْيَانَ، أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ له: سَأَلْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَزَعَمْتَ: أَنَّه أَمَرَكُمْ بالصَّلَاةِ، والصِّدْقِ، والعَفَافِ، والوَفَاءِ بالعَهْدِ، وأَدَاءِ الأَمَانَةِ، قَالَ: وهذِه صِفَةُ نَبِيٍّ".[3253]

2- وقد جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سأله سائِل عن عَمَلٍ إذا فَعَلَهُ أحَبَّهُ النَّاس، فقال له: "وازْهَدْ فِيما في أيْدي النَّاس يُحِبُّكَ النَّاس". [3254]

3- وَثَبَتَ من حَديثِ سهل بن سعد مرفوعاً: "شَرَفُ المُؤمِنِ قيامهُ باللَّيل، وَعِزُّهُ اسْتِغْناؤهُ عَنِ النَّاس".[3255]

[3250] معالم التنزيل للبغوي 1/338
[3251] أخرجه الترمذي (3489) واللفظ له، وأخرجه مسلم (2721) باختلاف يسير.
[3252] شرح صحيح مسلم 17/41
[3253] أخرجه البخاري (2681)، ومسلم (1773) بنحوه.
[3254] رواه الطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة 944
[3255] رواه الطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب، وحسنه الألباني في السلسلة: 831

4- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال وهو على المنبر، وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسألة: "اليدُ العُلْيا خيرٌ منَ اليدِ السُّفْلَى، واليدُ العُلْيا هِيَ المنفِقَةُ، واليدُ السُّفْلَى هِيَ السائِلَةُ".[3256]

5- وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنه قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثلاثةٌ حقٌّ على اللهِ عَوْنُهُم: المجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، والمكاتَبُ الذي يريدُ الأداءَ، والنَّاكِحُ الذي يريدُ العفافَ"[3257]، أي: العِفَّةَ من الزِّنا.

6- وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: "إنَّ ناسًا من الأنصارِ سألوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعطاهم، ثمَّ سألوه فأعطاهم، حتَّى إذا نفِدَ ما عنده قال: ما يكُنْ عندي من خيرٍ فلن أدَّخِرَه عنكم، ومن يستعفِفْ يُعِفَّه اللهُ، ومن يستغْنِ يُغْنِه اللهُ. ومن يصبِرْ يُصبِّرْه اللهُ، وما أعطيَ أحدٌ من عطاءٍ خيرٍ وأوسَعَ من الصَّبرِ".[3258]

ت. من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ في العِفَّةِ:

1- قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: "المروءةُ مروءتانِ: مروءةٌ ظاهرةٌ، ومروءةٌ باطنةٌ؛ فالمروءةُ الظَّاهرةُ الرِّياشُ، والمروءةُ الباطنةُ العفافُ".[3259]

2- وقال أيُّوبُ السَّختيانيُّ: "لا يَنبُلُ الرَّجُلُ حتَّى يكونَ فيه خصلتانِ: العِفَّةُ عن أموالِ النَّاسِ، والتَّجاوُزُ عمَّا يكونُ منهم".[3260]

3- وقال الحسنُ البَصريُّ: "لا يزالُ الرَّجُلُ كريمًا على النَّاسِ حتَّى يطمَعَ في دينارِهم، فإذا فعَلَ ذلك استخفُّوا به، وكَرِهوا حديثَه وأبغضوه".[3261]

4- وَمَا أَحسَنَ قَوْلَ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ فِي وَصْفِ الدُّنْيَا [3262]:

وَما هِيَ إِلّا جِيَفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ.. عَلَيْهَا كِلابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذَابُهَا

فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا كُنْتَ سِلْمًا لِأَهلِها.. وَإِن تَجْتَذِبْهَا نَازَعَتْكَ كِلَابُهَا

5- وَمِنَ رَوائِعِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْعِفَّةِ، قَوْلُهُ: "إِنَّ لِلْعِفَّةِ لَذَّةٌ أَعْظَمُ مِنْ لَذَّةِ قَضَاءِ الْوَطَرِ، لَكِنَّهَا لَذَّةٌ يَتَقَدَّمُهَا أَلَمُ حَبْسِ النَّفْسِ، ثُمَّ تَعْقُبُهَا اللَّذَّة، أَمَّا قَضَاءَ الْوَطَرِ فَبِالضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ".

المطلب الثالث: ثَمَرَاتُ العِفَّةِ

1- سَلامَةُ المجتمعِ من الفواحِشِ وانتِهاكِ الأعراضِ.

فالمجتمعُ الذي يتَّصِفُ بالعِفَّةِ يكونُ بعيدًا من الفواحشِ والرَّذائلِ، وتُصانُ فيه الأعراضُ.

2- أنَّ العفيفَ من السَّبعةِ الذين يُظلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه.

ففي الحديثِ: "ورجلٌ طلبَتْه امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقال: إني أخافُ اللهَ".[3263]

[3256] أخرجه البخاري (5355)، ومسلم (1042) بنحوه.

[3257] أخرجه الترمذي 1655 واللفظ له، والنسائي 3218، وابن ماجه 2518. صحَّحه ابن حبان في صحيحه 4030، وابن العربي في عارضة الأحوذي 3/5، وابن الملقن في شرح صحيح البخاري 24/236، وابن باز في فتاوى نور على الدرب 20/24، وحسَّنه الترمذي، والألباني في صحيح سنن الترمذي 1655

[3258] رواه البخاري 1469، ومسلم 1053 واللفظ له.

[3259] العقد الفريد لابن عبد ربه 2/150

[3260] مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص: 28، الترغيب والترهيب لقوام السنة 3/ 228 (2410)

[3261] منتهى السؤل لعبد الله عبادي اللحجي 3/293

[3262] قصيدة: خبت نار نفسي باشتعال مفارقي/ للإمام الشافعي.

[3263] رواه مطوَّلًا البخاري 660 واللفظ له، ومسلم 1031 من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه

3- العِفَّةُ سببٌ للنَّجاةِ من الابتلاءاتِ والمضائِقِ؛ فقد جاء في قصَّةِ أصحابِ الغارِ الذين انطبقت عليهم الصَّخرةُ أنَّ أحَدَهم توسَّل إلى اللهِ بقولِه: "اللَّهُمَّ إن كنتَ تعلَمُ أنَّه كان لي ابنةُ عَمٍّ من أحبِّ النَّاسِ إليَّ، وأنِّي راودتُّها عن نفسِها فأبَت إلَّا أن آتيَها بمائةِ دينارٍ؛ فطلَبْتُها حتَّى قدَرْتُ، فأتيتُها بها فدفَعْتُها إليها، فأمكنَتْني من نفسِها، فلمَّا قعدْتُ بينَ رِجلَيها فقالت: اتَّقِ اللهَ، ولا تَفُضَّ الخاتَمَ إلَّا بحَقِّه[3264]، فقُمتُ وتركتُ المائةَ دينارٍ، فإن كنتَ تعلَمُ أنِّي فعلتُ ذلك من خَشيتِك ففَرِّجْ عنَّا؛ ففرَّج اللهُ عنهم فخَرَجوا".[3265]

4- إعانةُ اللهِ لمن أراد العَفافَ: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ثلاثةٌ حقٌّ على اللهِ عزَّ وجلَّ عونُهم: المكاتَبُ الذي يريدُ الأداءَ، والنَّاكحُ الذي يريدُ العفافَ، والمجاهدُ في سبيلِ اللهِ".[3266]

5- سلامةُ المرءِ من الوقوعِ في المحرَّماتِ.

6- صيانةُ المروءةِ: قال أعرابيٌّ: "صُنْ عقلَك بالحِلمِ، ومروءتَك بالعفافِ، ونجدتَك بمجانبةِ الخُيَلاءِ، وخلَّتَك بالإجمالِ في الطَّلَبِ".[3267]

7- وقايةٌ للمجتمعاتِ من انتشارِ الأمراضِ الفَّتاكةِ نتيجةَ ارتكابِ الفواحِشِ.

المطلب الرابع: أنواعُ العِفَّةِ

لِلْعِفَّةِ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا:

1- عِفَّةُ الْجَوَارِحِ:

الْمُسْلِمِ يَعُفُّ يَدَهُ وَرِجْلَهُ وَعَيْنَهُ وَأُذُنَهُ وَفَرْجَهُ عَنِ الْحَرَامِ فَلَا تَغْلِبُهُ شَهَوَاتُهُ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ كُلَّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعُفَّ نَفْسَهُ وَيَحْفَظَ فَرْجَهُ إِلَى أَنْ يَتَيَسَّرَ لَهُ الزَّوَاجَ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النور:33].

وَحَثَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشَّبَابَ عَلَى الزَّوَاجِ طَلَبًا لِلْعِفَّةِ، وَأَرْشَدَ مَنْ لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ الزَّوَاجَ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالصَّوْمِ وَالْعِبَادَةِ، حَتَّى يَغُضَّ بَصَرَهُ وَيَحْصُنَ فَرْجَهُ، فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ (أي: أداء حُقُوق الزوجِيَّة) فَلْيَتَزَوَّجْ، ومَن لَمْ يَسْتَطِعْ فَعليه بالصَّوْمِ؛ فإنَّه له وِجَاءٌ (أي: وِقَايَةٌ)".[3268]

2- عِفَّةُ الْجَسَدِ:

الْمُسْلِمُ يَسْتُرُ جَسَدَهُ، ويَبْتَعِدُ عَنْ إِظْهَارِ عَوْرَاتِه؛ فَيَسْتُرُ مَا بَيْنَ سُرَّتِهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَكَذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمَةِ أَنْ تَلْتَزِمَ بِالْحِجَابِ؛ لِأَنَّ شِيمَتَهَا الْعِفَّةُ وَالْوَقَارُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ -تبارك وتعالى-: {وليَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنّ} [النور:31]، وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الأحزاب :59].

كَمَا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ النَّظَرَ إِلَى الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَغُضُّوا أَبْصَارَهُم، فَقَال: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} [النور: 30].

وَقَالَ تَعَالَى: {وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ} [النور: 31].

[3264] بحقِّه: أرادت به الحلالَ، أي: لا أُحِلُّ لك أن تقرَبَني إلَّا بتزويجٍ صحيحٍ. يُنظَر: فتح الباري لابن حجر6/509

[3265] رواه مطوَّلًا البخاري 3465 واللفظ له، ومسلم 2743 من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما

[3266] أخرجه الترمذي 1655، والنسائي 3218 واللفظ له، وابن ماجه 2518، صحَّحه ابنُ حبان في صحيحه 4030، وابن العربي في عارضة الأحوذي 3/5، وابن الملقن في شرح صحيح البخاري 24/236، وابن باز في فتاوى نور على الدرب 20/24، وحسَّنه الترمذي، والألباني في صحيح سنن النسائي 3218

[3267] الأمالي لأبي علي القالي 2/ 29، لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص: 19

[3268] صحيح البخاري (5065)، مسلم (1400) باختلاف يسير

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرِ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولا} [الإسراء: 36].

3- الْعِفَّةُ عَنْ أَمْوَالِ الْغَيْرِ:

الْمُسْلِمِ عَفِيفٌ عَنْ أَمْوَالِ غَيْرِهِ لَا يَأْخُذُهَا بِغَيْرِ حَقٍّ، وَقَدْ ضَرَبَ لَنَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عبدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ -رضي اللَّهُ عنه- مَثَلًا رائعًا فِي الْعِفَّةِ عَنْ أَمْوَالِ الْغَيْرِ، فقال: "لَمَّا قَدِمْنا المَدِينَةَ آخَى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَيْنِي وبيْنَ سَعْدِ بنِ الرَّبِيعِ، فقالَ سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ: إنِّي أكْثَرُ الأنْصارِ مالًا، فأقْسِمُ لكَ نِصْفَ مالِي، وانْظُرْ أيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لكَ عَنْها، فإذا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَها. قالَ: فقالَ له عبدُ الرَّحْمَنِ: لا حاجَةَ لي في ذلكَ، هلْ مِن سُوقٍ فيه تِجارَةٌ؟ قالَ: سُوقُ قَيْنُقاعٍ. قالَ: فَغَدا إلَيْهِ عبدُ الرَّحْمَنِ، فأتَى بأَقِطٍ وسَمْنٍ، قالَ: ثُمَّ تابَعَ الغُدُوَّ، فَما لَبِثَ أنْ جاءَ عبدُ الرَّحْمَنِ عليه أثَرُ صُفْرَةٍ، فقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: تَزَوَّجْتَ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: ومَنْ؟ قالَ: امْرَأَةً مِنَ الأنْصارِ، قالَ: كَمْ سُقْتَ؟ قالَ: زِنَةَ نَواةٍ مِن ذَهَبٍ - أوْ نَواةً مِن ذَهَبٍ-، فقالَ له النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أوْلِمْ ولو بِشاةٍ".[3269]

4- عِفَّةُ اللِّسَان:

الْمُسْلِمُ يَعُفُّ لِسَانَهُ عَنْ السَّبِّ وَالشَّتْمِ، فَلَا يَقُولُ إِلَّا طَيِّبًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَاَللَّهُ -تعالى- يَصِف الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنْ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} [الحج: 24].

وَيَقُول عَزَّ وَجَلَّ عَنْ نَوْعِ الْكَلَامِ الَّذِي يَقْبَلُهُ: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10].

وَيَأْمُرُنَا اللَّه -سبحانه- أَنْ نَقُولَ الْخَيْرَ دائمًا، فَيَقُولُ تَعَالَى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة: 83].

وَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ليسَ المؤمنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ ولا الفاحشِ ولا البَذيءِ".[3270]

وَقَد حَثَّنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصِّدْقِ فِي الْحَدِيثِ، وَنَهَانَا عَنْ الْكَذِبِ، فَقَال: "إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتَّى يَكونَ صِدِّيقًا، وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا".[3271]

5- التَّعَفُّفُ عَنْ سُؤَالِ النَّاسِ:

الْمُسْلِمُ يَعُفُّ نَفْسَهُ عَنْ سُؤَالِ النَّاسِ إِذَا احْتَاجَ، فَلَا يَتَسَوَّلُ وَلَا يَطْلُبُ الْمَالَ بِدُونِ عَمَلٍ، وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ أُنَاسًا مِنْ الْفُقَرَاءِ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ لِكَثْرَةِ عِفَّتِهِم، فَقَالَ تَعَالَى: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [البقرة: 273].

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وابْدَأْ بمَن تَعُولُ، وخَيْرُ الصَّدَقَةِ عن ظَهْرِ غِنًى، ومَن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، ومَن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ".[3272]

المطلب الخامس: أقْسامُ العفة

يُقَسِّمُ الماوردي في أدَبِ الدُنيا وَالدِّين العِفَّةَ إلى قسمَينِ:

1- العِفَّةُ عن المحرَّماتِ: وهي نوعانِ:

[3269] صحيح البخاري 2048

[3270] أخرجه الترمذي (1977) واللفظ له، وأحمد (3839)

[3271] أخرجه البخاري 6094، ومسلم 2607 باختلاف يسير.

[3272] صحيح البخاري 1427

أ- العِفَّةُ عن المحرَّماتِ المتعلِّقةِ بالنَّفسِ لا بالغيرِ (المحرَّماتُ القاصرةُ)، كالنَّظَرِ إلى ما لا يحِلُّ، أو سماعِ المعازِفِ.
ب- العِفَّةُ عن المحرَّماتِ المتعلِّقةِ بالغيرِ (المحرَّماتُ المتعدِّيةُ) كالغِيبةِ والنَّميمةِ، وأكلِ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ أو التَّعدّي عليهم.

2- العِفَّةُ عن المباحاتِ: كتعفُّفِ المحتاجِ عن سؤالِ النَّاسِ.

ولمَّا تكلَّم الماوَرديُّ عن المروءةِ ذكَر أنَّ من شروطِها في نفسِها -بعدَ التِزامِ ما أوجبه الشَّرعُ من أحكامِه- ثلاثةَ أمورٍ، وهي: العِفَّةُ والنَّزاهةُ والصِّيانةُ. وفصَّل الكلامَ في كلِّ واحدةٍ منها، نلخِّص كلامَه في العِفَّةِ.

فقد ذكَر أنَّ العِفَّةَ نوعانِ:

أحدُهما: العِفَّةُ عن المحارمِ، والثَّاني: العِفَّةُ عن المآثمِ.

1- فأمَّا العِفَّةُ عن المحارمِ فنوعانِ:

- **أحدُهما: ضبطُ الفَرْجِ عن الحرامِ.**

وذكَر أنَّ الدَّاعيَ إلى ذلك شيئان:

أحَدُهما: إرسالُ الطَّرْفِ، والثَّاني: اتِّباعُ الشَّهوةِ.

وقَهرُ الشَّهوةِ، يكونُ بثلاثةِ أمورٍ:

أحدُها: غضُّ الطَّرفِ عن إثارتِها، وكفُّه عن مساعدتِها.

والثَّاني: ترغيبُها في الحلالِ عِوَضًا، وإقناعُها بالمباحِ بدَلًا.

والثَّالثُ: إشعارُ النَّفسِ تقوى اللهِ تعالى في أوامِره، واتِّقاءَه في زواجرِه، وإلزامُها ما ألزم من طاعتِه، وتحذيرُها ما حذَّر من معصيتِه، وإعلامُها أنَّه لا يخفى عليه ضميرٌ، ولا يَعزُبُ عنه قِطميرٌ، وأنَّه يجازي المحسِنَ ويكافئُ المسيءَ، وبذلك نزلَت كتُبُه وبلَّغت رُسُلُه.

- **والثَّاني: كَفُّ اللِّسانِ عن الأعراضِ.**

وما قَدَح في الأعراضِ من الكلامِ نوعان:

أحَدُهما: ما قَدَح في عِرضِ صاحِبِه ولم يتجاوَزْه إلى غيرِه، وذلك شيئان: الكَذِبُ وفُحشُ القولِ.

والثَّاني: ما تجاوزه إلى غيرِه، وذلك أربعةُ أشياءَ: الغِيبةُ والنَّميمةُ والسِّعايةُ والسَّبُّ بقَذفٍ أو شتمٍ.

2- وأمَّا العِفَّةُ عن المآثمِ فنوعان:

أحَدُهما: الكفُّ عن المجاهرةِ بالظُّلمِ.

والثَّاني: زَجرُ النَّفسِ عن الإسرارِ بخيانةٍ.[3273]

المطلب السادس: شُروطُ العِفَّةِ

1- ألَّا يكونَ تَعَفُّفُه عن الشَّيءِ انتظارًا لأكثَرَ منه.
2- ألَّا يكونَ تَعَفُّفُه عن الشَّيءِ لأنَّه لا يوافِقُه.
3- ألَّا يكونَ تَعَفُّفُه عن الشَّيءِ لجمودِ شهَوتِه.
4- ألَّا يكونَ تَعَفُّفُه عن الشَّيءِ لاستشعارِ خوفٍ من عاقبتِه.
5- ألَّا يكونَ تَعَفُّفُه عن الشَّيءِ لأنَّه ممنوعٌ من تناوُلِه.

[3273] أدب الدنيا والدين للماوردي 324 -321

6- ألَّا يكونَ تَعَفُّفُه عن الشَّيءِ لأنَّه غيرُ عارفٍ به لقصورِه.
فإنَّ ذلك كُلَّه ليس بعِفَّةٍ، بل هو إمَّا اصطيادٌ، أو تطبُّبٌ، أو مَرَضٌ، أو خَرَمٌ، أو عَجْزٌ، أو جَهلٌ، وتركُ ضبطِ النَّفسِ عن الشَّهوةِ أذَمُّ من تركِها عن الغَضَبِ.
فالشَّهوةُ مغتالةٌ مخادِعةٌ، والغضَبُ مغالِبٌ، والمتحَيِّزُ عن قتالِ المخادِعِ أردأُ حالًا من المتحَيِّزِ عن قتالِ المغالِبِ؛ ولهذا قيل: عبدُ الشَّهوةِ أذَلُّ مِن عبدِ الرِّقِ، وأيضًا بالشَّرَهِ قد يجهَل عَيبَه.[3274]

المطلب السابع: أساسُ العِفَّةِ وتمامُها

قال الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ وهو يبيّنُ أساسَ وتمامَ العِفَّةِ: "وأسُّها يتعَلَّقُ: بضبطِ القَلبِ عن التَّطلُّعِ للشَّهَواتِ البَدَنيَّةِ، وعن اعتقادِ ما يكونُ جالبًا للبغي والعُدوانِ.
وتمامُها يتعَلَّقُ بحفظِ الجوارحِ، فَمَنْ عَدِمَ عِفَّةَ القَلبِ يكونُ منه التَّمنّي وسوءُ الظَّنِّ اللَّذان هما أُسُّ كُلِّ رذيلةٍ؛ لأنَّ من تمنَّى ما في يدِ غيرِه حسَده، وإذا حسَده عاداه، وإذا عاداه نازعه، وإذا نازعه ربَّما قتله.
ومن أساء الظَّنَّ عادى وبغى وتعدَّى؛ ولذلك نهى اللهُ سبحانه عنهما جميعًا فقال: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ} [النساء:32]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: 12]، فأمر فيهما بقَطعِ شجرتينِ يتفرَّعُ عنهما جُلُّ الرَّذائلِ والمآثمِ.
ولا يكونُ الإنسانُ تامَّ العِفَّةِ حتى يكونَ عفيفَ اليدِ واللِّسانِ، والسَّمعِ والبَصَرِ.
فمِنْ عَدَمِها في اللِّسَانِ: السُّخريَّةُ، والتَّجسُّسُ، والغِيبةُ، والهَمزُ، والنَّميمةُ، والتَّنابُزُ بالألقابِ.
ومِنْ عَدَمِها في البَصَرِ: مدُّ العينِ إلى المحارمِ، وزينةِ الحياةِ الدُّنيا المولِّدةِ للشَّهَواتِ الرَّديئةِ.
ومِنْ عَدَمِها في السَّمعِ: الإصغاءُ إلى المسموعاتِ القبيحةِ.
وعِمادُ عِفَّةِ الجوارحِ كُلِّها ألَّا يُطلِقَها صاحِبُها في شيءٍ ممَّا يختصُّ بكُلِّ واحدٍ منهما، إلَّا فيما يسوِّغُه العَقلُ والشَّرعُ دونَ الشَّهوةِ والهوى".[3275]

المطلب الثامن: صُوَرُ العِفَّةِ

1- العِفَّةُ عمَّا في أيدي النَّاسِ:

وهي أن يَعِفَّ عمَّا في أيدي النَّاسِ، ويترُكَ مسألتَهم؛ فعن ثوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "من تكفَّل لي ألَّا يسألَ النَّاسَ شيئًا وأتكفَّلُ له بالجنَّةِ"، فقال ثوبانُ: أنا، فكان لا يسألُ أحدًا شيئًا.[3276]
- ومن الأمور أيضاً التي رغَّبنا فيها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لتحصيل العفَّة عما في أيدي النَّاس من الأموال: السَّعيُ في التِّجارة؛ فإذا قال الشَّخص: كيف أُحَصِّلُ العفَّةَ عنْ أموالِ النَّاسِ؟ فنقول: اسعَ في التِّجارةِ، وفي طلب الرِّزق، فقد نَدَبَنَا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى العفَّةِ في المكسب، حتى لا يسأل الإنسانُ النَّاسَ، فهذا يعطيه وهذا يمنعه، فعن أبي هريرة

[3274] الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص: 319
[3275] الذريعة إلى مكارم الشريعة ص: 318
[3276] صحيح سنن أبي داود 1643، والحديثُ رُوِي من طريقٍ آخَرَ بلفظِ: ومن يتقَبَّلُ لي بواحدةٍ أتقبَّلْ له بالجَنَّةِ؟ قُلتُ: أنا. قال: لا تسألِ النَّاسَ شيئًا .قال: فكان ثوبانُ يَقَعُ سَوطُه وهو راكِبٌ، فلا يقولُ لأحَدٍ: ناوِلْنيه، حتَّى ينزِلَ فيأخُذَه. رواه ابنُ ماجه 1837 واللفظ له، والحديثُ رُوِيَ بلفظِ: من يَضمَنُ لي واحدةً وأضمَنُ له الجَنَّةَ؟ قال: قلتُ: أنا يا رسولَ اللهِ. قال: لا تسألِ النَّاسَ شيئًا. قال: فكان سَوطُ ثوبانَ يسقُطُ وهو على بعيرِه فيُنيخُ حتَّى يأخُذَه، وما يقولُ لأحدٍ: ناوِلْنيه!. صحَّحه الألباني في صحيح سنن النسائي 2590.

رضي الله عنه أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: "والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لَأَنْ يَأْخُذَ أحَدُكُمْ حَبْلَه، فيَحْتَطِبَ علَى ظَهْرِه؛ خَيْرٌ له مِن أنْ يَأْتِيَ رَجُلًا، فيَسْأَلَه، أعْطاهُ أوْ مَنَعَه".[3277]

- وعن الحَسَنِ البصريّ قال: "لا تجاهِدْ في الطَّلَبِ جِهادَ المغالِبِ، ولا تتَّكِلْ على القَدَرِ اتِّكالَ المستسلِمِ؛ فإنَّ ابتغاءَ الفَضلِ من السُّنَّةِ، والإجمالَ في الطَّلَبِ من العِفَّةِ، وليست العِفَّةُ بدافعةٍ رِزقًا، ولا الحِرصُ بجالبٍ فضلًا؛ الرِّزقُ مقسومٌ، والأجَلُ محتومٌ، وفي الحِرصِ اكتسابُ المآثِمِ".[3278]

وكان يقالُ: "الشُّكرُ زينةُ الغِنى، والعَفافُ زينةُ الفَقرِ".[3279]

2- العِفَّةُ عن المأكلِ الحرامِ والمشرَبِ الحرامِ:

لَقَدْ حَثَّ الشَّرعُ الإسلاميُّ المطهَّرُ المسلِمَ على الامْتِنَاعِ عَنْ وَضْعِ اللُّقْمَةِ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ، فعن كعب بن عجرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " أعيذُكَ باللَّهِ يا كعبُ بنَ عُجرةَ من أمراءَ يَكونونَ من بعدي فمن غشِيَ أبوابَهم فصدَّقَهم في كذبِهم وأعانَهم على ظُلمِهم فليسَ منِّي ولستُ منهُ ولا يردُ عليَّ الحوضَ ومن غشيَ أبوابَهم أو لم يغشَ ولم يصدِّقهم في كذبِهم ولم يُعِنهم على ظلمِهم فَهوَ منِّي وأنا منهُ وسيَرِدُ عليَّ الحوضَ يا كعبُ بنَ عُجرةَ الصَّلاةُ برهانٌ والصَّومُ جنَّةٌ حصينةٌ والصَّدَقةُ تطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النَّارَ يا كعبُ بنَ عُجرةَ إنَّهُ لا يربو لحمٌ نبتَ من سحتٍ إلَّا كانتِ النَّارُ أولى بِهِ".[3280]

وفي هذا الحديثِ: يقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيْه وسلَّم: (أُعيذُكَ باللهِ يا كَعبَ بنَ عُجْرةَ)، أي: أدعو اللهَ أن يُنجِّيَك يا كعبُ ويَحفظَك ويُجيرَك (مِن أُمَراءَ يَكونونَ مِن بَعدِي)، أي: خُلَفاءَ ومُلوكٍ وسَلاطينَ كَذَبةٍ ظَلمةٍ يأتون بعدَ موتي، (فَمَن غَشِي أبوابَهم)، أي: دخَل عليهم ولازَمَهم وكان معَهم، (فصَدَّقهم في كَذِبِهم)، أي: صدَّقهم في الكذبِ الَّذي هم فيه والكذبِ الَّذي يَقولونه وهو يَعلَمُ أنَّه كذبٌ، (وأعانَهم على ظُلمِهم)، أي: وكان لهم مُعينًا على ظلمِ الرَّعيَّةِ والبغيِ بينَ النَّاسِ، (فليس منِّي ولستُ منه)، أي: فيكونُ جَزاؤُه أنِّي بريءٌ منه وهو بريءٌ منِّي ولا يَدخُلُ تحتَ رايتي، (ولا يَرِدُ علَيَّ الحوضَ)، أي: ولن يَشرَبَ مِن حَوضِ الكوثرِ.

(ومَن غَشِي أبوابَهم أو لم يَغْشَ ولم يُصدِّقْهم في كَذِبِهم ولم يُعِنْهم على ظُلمِهم)، أي: ومَن دخَل عليهم أو لم يَدخُلْ عليهم شَريطةَ ألَّا يُصدِّقَهم في الكذبِ الَّذي يدَّعونه والكذبِ الَّذي هم فيه ولم يَكُنْ لهم مُعينًا على ظُلمِ النَّاسِ، (فهو مِنِّي وأنا منه)، أي: فالصِّلةُ قائمةٌ بَيني وبينَه، وهو داخِلٌ تحتَ رايتي وفي شَفاعتي، (وسيَرِدُ عليَّ الحوضَ)، أي: وسيَمُرُّ عليَّ في الحوضِ ويَشرَبُ شَربةً لا يَرى بعدَها عطَشًا.

(يا كعبَ بنَ عُجرةَ، الصَّلاةُ بُرهانٌ)، أي: الصَّلاةُ حجَّةٌ ودليلٌ على الإيمانِ، (والصَّومُ جُنَّةٌ حَصينةٌ)، أي: والصَّومُ وِقايةٌ وحِصنٌ حَصينٌ مِن الوقوعِ في المعاصي والشَّهواتِ، (والصَّدقةُ تُطفِئُ الخَطيئةَ كما يُطفِئُ الماءُ النَّارَ)، أي: وإخراجُ الصَّدقاتِ يَمْحو الذُّنوبَ والخَطايا وتَقْضي عليها كما يَقْضي الماءُ على النَّارِ ويُطفِئُها ويُزيلُها.

(يا كَعبَ بنَ عُجرةَ، إنَّه لا يَربو)، أي: لا يَنشَأُ ويَنْمو ويَزيدُ، (لَحمٌ نبَت مِن سُحْتٍ)، أي: جِسمٌ تَغذَّى بالحرامِ ونشَأ فيه وتَرعرَعَ مِنه، (إلَّا كانت النَّارُ أولى به)، أي: إلَّا كان مَصيرُه إلى النَّارِ، فالنَّارُ أَوْلى بكلِّ حَرامٍ أن يَحترِقَ فيها.

ويَقُولُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة: 172].

[3277] حديث رواه البخاري 1470.

[3278] البصائر والذخائر لأبي حيان 4/ 193 و227 /5

[3279] ربيع الأبرار للزمخشري 5/ 91، بهجة المجالس لابن عبد البر 1/206

[3280] صحيح الترمذي 614

لقد حثنا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْأَكْلِ مِنَ الْحَلَالِ، وبيَّن أَنَّ أَفْضَلَ الطَّعَامِ هُوَ مَا كَانَ مِنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما أَكلَ أحدٌ طعامًا قطُّ، خيرًا من أنْ يأكلَ من عمَلِ يدِهِ وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ من عمَلِ يدِهِ"[3281]؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ فِي الْكَسْبِ الْحَلَالِ عِزَّةً وشَرَفًا، وَفِي الْحَرَام الذُّلَّ وَالْهَوَانَ وَالنَّارَ.

3- عِفَّةُ الجوارحِ عن المحرَّماتِ، ومنها:

- عفَّةُ اللِّسانِ بكَفِّه عن المحرَّماتِ واللَّغوِ: فلا يقولُ إلَّا طَيِّبًا وإلَّا فليصمُتْ، عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "المسلمُ مَن سَلِم المسلمون من لسانِه ويَدِه، والمهاجِرُ مَن هجَر ما نهى اللهُ عنه".[3282]

- عِفَّةُ البَصَرِ عن النَّظَرِ إلى الحرامِ؛ قال تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور: 30]، وقال: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ} [النّور: 31].

- عِفَّةُ اليَدِ بالكَفِّ عن أخذِ ما لا يحِلُّ أو البطشِ ظُلمًا.

- عِفَّةُ الرِّجلِ بتركِ المشيِ إلى الحرامِ.

- عِفَّةُ السَّمعِ بتركِ استماعِ ما حرَّم اللهُ سماعَه كالغِناءِ والمعازفِ، وَكَذَلِكَ بِالانْتِهَاءِ عَنْ سَمَاعِ الغِيبَةِ والنَّمِيمَةِ، والإِنْكَارِ عَلَى مَنْ يَتَلَفَّظُ بِهِمَا.

- عِفَّةُ الفَرْجِ بِحِفْظِهِ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ.

- عِفَّةُ الجسَدِ بسَترِ ما أمر اللهُ بسَترِه من العَوْراتِ، وبالتزامِ النِّساءِ للحِجابِ.[3283]

المطلب التاسع: موانِعُ العِفَّةِ

1- ضَعفُ الإيمانِ.

2- وسائِلُ الإعلامِ المنحَرِفةُ:

فكثيرٌ من وسائِلِ الإعلامِ الموجودةِ في البلادِ الإسلاميَّةِ -فضلًا عن غيرِها- قد انحرفَت عن الجادَّةِ وسلكَت طريقَ الفسادِ والإفسادِ، سواءٌ القنواتُ الفضائيَّةُ، أو الشَّبكةُ العنكبوتيَّةُ، أو الإذاعاتُ والمجلَّاتُ والصُّحُفُ، فتجِدُها تبثُّ السُّمومَ وتنشُرُ الرَّذيلةَ، وتدعو إلى خلافِ العِفَّةِ.

3- الاختِلاطُ والخَلوةُ:

"إنَّ العِفَّةَ حِجابٌ يمزِّقُه الاختلاطُ؛ ولهذا صار طريقُ الإسلامِ التَّفريقَ والمباعدةَ بينَ المرأةِ والرَّجُلِ الأجنبيِّ عنها، فالمجتمَعُ الإسلاميُّ مجتمَعٌ فرديٌّ لا زوجيٌّ؛ فللرِّجالِ مجتمعاتُهم، وللنِّساءِ مجتمعاتُهنَّ، ولا تخرجُ المرأةُ إلى مجتمَعِ الرِّجالِ إلَّا لضرورةٍ أو حاجةٍ بضوابطِ الخروجِ الشَّرعيَّةِ.

كلُّ هذا لحفظِ الأعراضِ والأنسابِ، وحراسةِ الفضائلِ، والبُعدِ عن الرِّيبِ والرَّذائلِ، وعدَمِ إشغالِ المرأةِ عن وظائفِها الأساسِ في بيتِها، ولذا حُرِّم الاختلاطُ، سواءٌ في التَّعليمِ، أم في العمَلِ، والمؤتمراتِ، والنَّدواتِ، والاجتماعاتِ العامَّةِ والخاصَّةِ وغيرِها؛ لما يترتَّبُ عليه من هتكِ الأعراضِ ومرَضِ القلوبِ، وخطَراتِ النَّفسِ، وخنوثةِ الرِّجالِ، واسترجالِ النِّساءِ، وزوالِ الحياءِ، وتقلُّصِ العِفَّةِ والحِشمةِ، وانعدامِ الغيرةِ".[3284]

قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} [الأحزاب: 53].

[3281] أخرجه البخاري 2072

[3282] رواه البخاري 10 واللفظ له، ومسلم 40 مختصَرًا

[3283] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنِيَّة، المَوسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

[3284] حراسة الفضيلة لبكر أبو زيد97، 98

وعن عُقبةَ بنِ عامرٍ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "إيَّاكم والدُّخولَ على النِّساءِ، فقال رجلٌ من الأنصارِ: يا رسولَ اللهِ، أفرأيتَ الحَمْوَ؟ قال: الحَمْوُ[3285] الموتُ".[3286]

وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا يخلوَنَّ رجُلٌ بامرأةٍ، ولا تُسافِرَنَّ امرأةٌ إلَّا ومعها مَحرَمٌ".[3287]

4- تبرُّجُ النِّساءِ:

فتَبَرُّجُ النِّساءِ من الأسبابِ التي تحولُ دونَ العِفَّةِ؛ لذا أُمِرَتْ المرأةُ بالقرارِ في البيتِ، قال تعالى: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب: 33]، فإذا خرجَتْ التَزمَت بالضَّوابطِ الشَّرعيَّةِ، ومنها الالتزامُ بالحجابِ الشَّرعيِّ، ومن ذلك ما جاء في قولِه تعالى: {وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ} [النور: 31]، قال السَّعديُّ في تفسيرِه لهذه الآيةِ: "أي: لا يضرِبْنَ الأرضَ بأرجُلِهنَّ، ليصوتَ ما عليهنَّ من حُليٍّ، كخلاخِلَ وغيرِها، فتُعلَمَ زينتُها بسببِه، فيكونَ وسيلةً إلى الفتنةِ.

ويؤخَذُ من هذا ونحوِه قاعِدةُ سَدِّ الوسائلِ، وأنَّ الأمرَ إذا كان مباحًا ولكنَّه يُفضي إلى محرَّمٍ، أو يُخافُ من وقوعِه، فإنَّه يُمنَعُ منه، فالضَّربُ بالرِّجلِ في الأرضِ الأصلُ أنَّه مباحٌ، ولكِنْ لَمَّا كان وسيلةً لعِلمِ الزِّينةِ، مُنِع منه".[3288]

5- الاستماعُ إلى الأغاني والمعازفِ:

فقد روى البخاريُّ في صحيحِه من حديثِ أبي عامرٍ أو أبي مالكٍ الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه: "سَمِعَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ليَكونَنَّ من أمَّتي أقوامٌ يَستحِلُّون الحِرَ[3289]، والحريرَ، والخمرَ، والمعازفَ".[3290]

"والحِكمةُ في التَّحريمِ ظاهرةٌ: حيثُ إنَّ المتتبِّعَ لمجالسِ الغِناءِ الفاسِقِ، ومسارحِ الطَّربِ، وأماكنِ اللَّهوِ، وما يصاحِبُها من معازفَ وآلاتٍ في ذلك يجدُ الرَّقصَ الخليعَ الفاجرَ، من نساءٍ امتَهَنَّ الرَّذيلةَ والفاحِشةَ، ويجِدُ العربدةَ والصِّياحَ المتعالي من أفواهِ السُّكارى، ويجِدُ الكلِماتِ البذيئةَ الفاحشةَ العاريةَ من الحياءِ والخَجَلِ، والمُتخَمةَ بالوقاحةِ وسوءِ الأدبِ، يجِدُ الاختلاطَ الشَّائنَ بينَ عوائلَ متحَلِّلةٍ؛ حيث التَّخلُّعُ والمراقصةُ وهَدرُ النَّخوةِ والشَّرَفِ... وباختصارٍ يجِدُ التَّحلُّلَ والإباحيَّةَ في أسوأِ تبذُّلِها ومظاهِرِها".[3291]

قال الفُضَيلُ بنُ عياضٍ: "الغِناءُ رُقيةُ الزِّنا".[3292]

وقال ابنُ القَيِّمِ: "فإنَّه رُقيةُ الزِّنا ومَنبِتُ النِّفاقِ وشَرَكُ الشَّيطانِ، وخمرةُ العقلِ، وصَدُّه عن القرآنِ أعظمُ من صَدِّ غيرِه من الكلامِ الباطِلِ؛ لشِدَّةِ مَيلِ النُّفوسِ ورغبتِها فيه".[3293]

6- البيئةُ الفاسدةُ والصُّحبةُ السَّيِّئةُ:

فالصاحِبُ ساحبٌ، و(النَّاسُ كأسرابِ القَطَا[3294]؛ مجبولون على تشبُّهِ بعضِهم ببعضٍ).[3295]

[3285] الحَمْوُ الموتُ: معناه أنَّ الخوفَ منه أكثَرُ من غيرِه والشَّرَّ يُتوقَّعُ منه والفتنةُ أكثَرُ؛ لتمكُّنِه من الوصولِ إلى المرأةِ والخَلوةِ من غيرِ أن يُنكَرَ عليه، بخلافِ الأجنبيِّ، والمرادُ بالحَمْوِ هنا أقاربُ الزَّوجِ غيرَ آبائِه وأبنائِه. يُنظَر: شرح النووي على مسلم 14/154

[3286] رواه البخاري 5232، ومسلم 2172

[3287] رواه مطوَّلًا البخاري 3006 واللفظ له، ومسلم 1341 من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[3288] تيسير الكريم الرحمن للسعدي 566

[3289] الحِرُ: فَرجُ المرأةِ. يُنظَر: فتح الباري لابن حجر 1/104

[3290] رواه البخاري موصولًا وصورته معلَّق بصيغة الجزم 5590

[3291] تربية الأولاد في الإسلام لعبد الله العلوان 2/921، 922

[3292] رواه ابنُ أبي الدنيا في ذم الملاهي 55

[3293] إغاثة اللهفان 1/240

[3294] نوعٌ من اليمام. يُنظَر: المعجم الوسيط 748 /2

[3295] مجموع الفتاوى 150 /28

7- غيابُ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكَرِ.
8- الطَّمَعُ وشِدَّةُ الحِرصِ.

المطلب العاشر: الوسائِلُ المعينةُ عَلَى اكْتِسَابِ خُلُقِ العِفَّةِ

1- تقويةُ الإيمانِ: فالإيمانُ منبَعُ كلِّ فضيلةٍ وخُلُقٍ كريمٍ.

2- أن يتَّقيَ اللهَ في سِرِّه وعلانيتِه:

قال اللهُ تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ [الأنعام: 3] ويقولُ تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: 19].

قال ابنُ عبَّاسٍ في قولِه تعالى: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ): "هو الرَّجُلُ يكونُ بينَ الرِّجالِ، فتمُرُّ بهم امرأةٌ فينظُرُ إليها، فإذا نظر إليه أصحابُه غَضَّ بصَرَه".[3296]

3- الإكثارُ من الدُّعاءِ:

وكان من دعاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك الهدى والتُّقى، والعفافَ والغِنى".[3297]

ومن ذلك أيضًا أن يدعوَ اللهَ بأن يصرِفَ عنه السُّوءَ والفحشاءَ، قال سُبحانَه وتعالى عن نبيِّه يوسُفَ عليه السَّلامُ: {وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ} [يوسف: 33-34].

قال ابنُ تيميَّةَ: "فلا بدَّ من التَّقوى بفعلِ المأمورِ، والصَّبرِ على المقدورِ، كما فعَل يوسُفُ عليه السَّلامُ؛ اتَّقَى اللهَ بالعِفَّةِ عن الفاحشةِ، وَصَبَرَ على أذاهم له بالمراودةِ والحبسِ، واسْتَعَانَ اللهَ وَدَعَاهُ حَتَّى يثبِّتَه عَلَى العِفَّةِ، فتوكَّلَ عَلَيْهِ أَنْ يَصرِفَ عَنْهُ كيدَهنَّ، وَصَبَر على الحبسِ".[3298]

4- غَرسُ الفضيلةِ والعِفَّةِ في نفوسِ النَّاشئةِ.

5- المبادَرةُ إلى الزَّواجِ المُبكِرِ، أو الالتزامُ بالصَّومِ عندَ عدَمِ الاستطاعةِ: فالزَّواجُ من أقوى الوسائِلِ المعينةِ على العفافِ؛ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "يا مَعشَرَ الشَّبابِ، من استطاع منكم الباءةَ[3299] فليتزوَّجْ فإنَّه أغضُّ للبصَرِ، وأحصَنُ للفَرجِ، ومن لم يستطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ[3300]".[3301]

6- سدُّ الذَّرائعِ التي تؤدِّي إلى الفسادِ، ومنها:

أ- عدمُ الخَلوةِ بالمرأةِ الأجنبيَّةِ:

قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا يخلوَنَّ رجُلٌ بامرأةٍ إلَّا كان ثالثُهما الشَّيطانَ".[3302]

قال ابنُ تيميَّةَ: "ولهذا حَرُمت الخلوةُ بالأجنبيَّةِ؛ لأنَّها مَظِنَّةُ الفتنةِ، والأصلُ أنَّ كُلَّ ما كان سببًا للفتنةِ فإنَّه لا يجوزُ؛ فإنَّ الذَّريعةَ إلى الفسادِ يجبُ سَدُّها إذا لم يعارضْها مصلحةٌ راجحةٌ؛ ولهذا كان النَّظرُ الذي يُفضي إلى الفتنةِ محرَّمًا إلَّا إذا كان لمصلحةٍ راجحةٍ، مثلُ: نظَرِ الخاطبِ، والطَّبيبِ، وغيرِهما؛ فإنَّه يباحُ النَّظرُ للحاجةِ، لكِنْ مع عدَمِ الشَّهوةِ".[3303]

[3296] تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني 5/13

[3297] أخرجه مسلم 2721

[3298] مجموع الفتاوى لابن تَيميَّةَ 15/131

[3299] الباءةُ: الجِماعُ. يُنظَر: شرح النووي على مسلم 9/173

[3300] الوِجاءُ: هو رَضُّ الخُصيتَينِ، والمرادُ هنا أنَّ الصَّومَ يَقطَعُ الشَّهوةَ ويقطَعُ شَرَّ المنيِّ كما يفعَلُه الوِجاءُ. يُنظَر: شرح النووي على مسلم 9/173

[3301] رواه البخاري 5065، ومسلم 1400 واللفظ له، من حديثِ عبد اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[3302] رواه مطوَّلًا الترمذي 2165، والحاكم 387 واللفظ لهما، والألباني في صحيح سنن الترمذي 2165

[3303] مجموع الفتاوى لابن تَيميَّةَ 21/251

هَذَا يَنْطَبِقُ أَيْضًا عَلَى الِاخْتِلَاطِ وَالْخَلْوَةِ عَبْرَ الْوَسَائِلِ الاجْتِمَاعِيَّة إِلَّا لِضَرُورَةٍ وَفِي نِطَاق شَرْعِيّ، خَاصَّة للأخوات نَنْصَح بما يلي:

- أَنْ تسْتَغْنِي عَنْ كُلِّ اتِّصالٍ هاتِفِي بِالرِّجَال، وأوكلي الِاتِّصَالَ لِأَحَد مَحَارِمَك.

- وأَنْ تُعامِلِي كُلَّ رَجُلٍ بِصِفَتِه أَجْنَبِيّ: دَاعِيَةٌ، مُسْتَشار، طَبِيب، شَيخ، إعْلامي، مُنْشِد، مُسْتَشار، سائِق، أو أحَد مِنَ الأقْرِباء، فَهُم فِي مَشَاعِرِهِم الفطرية سَوَاءٌ.

- وألا تُضَاحِكِ الرِّجَال بِكِتَابَةٍ أَوْ بِصُورَةِ الْوُجُوهِ الْمُعبِرَةِ -وَلَو كَانُوا صالِحِين-فَلا مَحَلَّ لِلتِّقَةِ هُنَا كَيْ لَا تَفْتِنِي وَلَا تُفْتَنِي "فلا تَخْضَعْنَ"، وقد قِيل: "الطريق إلَى جَهَنَّمَ معبّد بالنَّوايا الحَسَنَة".

فأوقِفِي التَّوَاصُلَ وبادِرِي بِإِلْغَاءِ الْإِضَافَة واحْفَظِي دِينك وَقَلْبِكِ، وَكَمَا قِيلَ: السَّلَامَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ، والاحتياط "واجب" لَا مُسْتَحَبٌّ واحْذَرِي مِنَ الِانْضِمَام "لِمَجْمُوعاتٍ دَعْوية" في الواتساب أَوْ غَيْرِهِ تَضُمُّ رِجالاً وَلَو ثِقَات، بَل احْذَرِي أيضا من الانْضِمَام "لمجموعاتٍ نِسائِيَّةٍ" مَجْهُولَةِ الْأَعْضَاءِ والأهْدافِ، وَنَقُولُ لِلرَّجُلِ نَفْسَ النَّصيحَة.

ب- عدَمُ التَّبرُّج: قال تعالى: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب: 33].

ج- غَضُّ البصرِ:

قال تعالى: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور: 30].

قال ابنُ القيّمِ: "فلمَّا كان غضُّ البصَرِ أصلًا لِحِفظِ الفَرْجِ بدأ بذِكرِه... وقد جعَل اللهُ سُبحانه العينَ مرآةَ القلبِ، فإذا غضَّ العبدُ بصرَه غَضَّ القلبُ شهوتَه وإرادتَه، وإذا أطلق بصرَه أطلق القلبُ شَهوتَه".[3304]

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "كُتِب على ابنِ آدمَ نصيبُه من الزِّنا، مُدرِكٌ ذلك لا محالةَ؛ فالعينانِ زِناهما النَّظَرُ، والأُذُنانِ زناهما الاستماعُ، واللِّسانُ زناه الكلامُ، واليدُ زناها البطشُ، والرِّجلُ زناها الخُطا، والقلبُ يهوى ويتمنَّى، ويصدِّقُ ذلك الفرجُ ويكذِّبُه".[3305]

وكما قال الشَّاعرُ:

كلُّ الحوادثِ مبدؤُها من النَّظَرِ.. ومعظَمُ النَّارِ من مُستصغَرِ الشَّرَرِ
والمرءُ ما دام ذا عينٍ يُقَلِّبُها.. في أعينِ الغيرِ موقوفٌ على الخطَرِ
كم نظرةٍ فعلَت في قلبِ صاحبِها.. فِعلَ السِّهامِ بلا قوسٍ ولا وَتَرِ
يَسُـــرُّ ناظـرَه ما ضَرَّ خاطِرَه.. لا مرحبًا بسـرورٍ عاد بالضَّـرَرِ[3306]

د- التَّفريقُ في المضاجعِ:

لا بُدَّ من التَّفريقِ في المضاجعِ بينَ الأولادِ، كما أمر بذلك النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "مُروا أولادَكم بالصَّلاةِ وهم أبناءُ سبعِ سنينَ، واضربوهم عليها وهم أبناءُ عَشرٍ، وفَرِّقوا بينهم في المضاجِعِ".[3307]

"فهذا الحديثُ نصٌّ في النَّهي عن بدايةِ الاختلاطِ داخِلَ البيوتِ، إذا بلغ الأولادُ عشرَ سِنينَ فواجِبٌ على الأولياءِ التَّفريقُ بين أولادِهم في مضاجعِهم، وعدَمُ اختلاطِهم، لغَرسِ العِفَّةِ والاحتشامِ في نفوسِهم، وخوفًا من غوائِلِ الشَّهوةِ التي تؤدِّي إليها هذه البدايةُ في الاختلاطِ، ومن حام حولَ الحمى يوشِكُ أن يقَعَ فيه".[3308]

[3304] روضة المحبين ص:92

[3305] رواه البخاري 6243، ومسلم 2657 واللفظ له.

[3306] الكبائر للذهبي 59

[3307] رواه أبو داود 495 واللفظ له، والألباني في صحيح سنن أبي داود 495.

[3308] حراسة الفضيلة لبكر أبو زيد ص: 129

هـ- الابتعادُ عن أماكنِ اللَّهوِ والخلاعةِ والمنكَراتِ.

7- إقامةُ الحدودِ:

فإقامَةُ الحُدودِ تردَعُ مَنْ سَوَّلَت له نَفْسَهُ أن يَرتَكِبَ شيئًا من الموبِقاتِ.

8- استحضارُ الآثارِ السَّيِّئةِ والعواقِبِ الوخيمةِ المترتِّبةِ على عدَمِ العِفَّةِ.

9- مجاهدةُ النَّفسِ على اكتسابِ مكارمِ الأخلاقِ كالصَّبرِ والحياءِ والقناعةِ.

المطلب الحادي عشر: نماذج في العفة

أولا: نماذجُ من عِفَّةِ الأنبياءِ والأمَمِ السَّابقةِ:

1- عِفَّةُ يوسُفَ عليه السَّلامُ أعظمُ عفَّةٍ في التَّاريخ:

فقد أخبر اللهُ سبحانَه وتعالى: (عن عِشقِ امرأةِ العزيزِ ليوسُفَ، وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحالِ التي صار إليها يوسُفُ بصبرِه وعفَّتِه وتقواه، مع أنَّ الذي ابتُلِيَ به أمرٌ لا يصبِرُ عليه إلَّا من صبَّره اللهُ؛ فإنَّ مواقعةَ الفعلِ بحسَبِ قوَّةِ الدَّاعي وزَوالِ المانِعِ، وكان الدَّاعي هاهنا في غايةِ القُوَّةِ، وذلك من وجوهٍ:

أحدُها: ما ركَّبه اللهُ سُبحانه في طَبعِ الرَّجُلِ من مَيلِه إلى المرأةِ.

الثَّاني: أنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ كان شابًّا، وشهوةُ الشَّبابِ وحِدَّتُه أقوى.

الثَّالثُ: أنَّه كان عَزَبًا، ليس له زوجةٌ ولا سُرِّيَّةٌ تكسِرُ شِدَّةَ الشَّهوةِ.

الرَّابعُ: أنَّه كان في بلادِ غُربةٍ، يتأتَّى للغريبِ فيها من قضاءِ الوَطَرِ ما لا يتأتَّى له في وطنِه وبينَ أهلِه ومعارِفه.

الخامِسُ: أنَّ المرأةَ كانت ذاتَ مَنصِبٍ وجمالٍ، بحيث إنَّ كُلَّ واحدٍ من هذينِ الأمرينِ يدعو إلى مواقَعتِها.

السَّادسُ: أنَّها غيرُ ممتَنِعةٍ ولا آبيةٍ.

السَّابعُ: أنَّها طلبت وأرادت وبذَلت الجُهدَ، فكَفَتْه مُؤنةَ الطَّلَبِ، وذُلَّ الرَّغبةِ إليها، بل كانت هي الرَّاغبةَ الذَّليلةَ، وهو العزيزَ المرغوبَ إليه.

الثَّامِنُ: أنَّه في دارِها وتحتَ سُلطانها وقَهرِها، بحيث يخشى إن لم يُطاوِعْها مِن أذاها له، فاجتمع داعي الرَّغبةِ والرَّهبةِ.

التَّاسعُ: أنَّه لا يخشى أن تَنُمَّ عليه هي ولا أحَدٌ من جِهتِها؛ فإنَّها هي الطَّالبةُ الرَّاغبةُ، وقد غلَّقت الأبوابَ، وغَيَّبَت الرُّقَباءَ.

العاشِرُ: أنَّه كان في الظَّاهِرِ مملوكًا لها في الدَّارِ، بحيث يدخُلُ ويخرُجُ ويحضُرُ معها، ولا يُنكَرُ عليه، وكان الأُنسُ سابِقًا على الطَّلَبِ، وهو من أقوى الدَّواعي.

الحادي عَشَرَ: أنَّها استعانت عليه بأئمَّةِ المكرِ والاحتيالِ، فأرته إيَّاهنَّ، وشكت حالَها إليهنَّ؛ لتستعينَ بهنَّ عليه.

الثَّاني عَشَرَ: أنَّها توعَّدَته بالسَّجنِ والصَّغارِ، وهذا نوعُ إكراهٍ.

الثَّالِثَ عَشَرَ: أنَّ الزَّوجَ لم يظهَرْ منه الغَيرةُ والنَّخوةُ ما يُفَرِّقُ به بينهما، ويبعِدُ كُلًّا منهما عن صاحِبه، بل كان غايةُ ما قابلها به أن قال ليوسُفَ: {أَعْرِضْ عَنْ هَذَا}، وللمرأةِ: {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} [يوسف: 29]، وشِدَّةُ الغَيرةِ للرَّجُلِ من أقوى الموانِعِ، وهنا لم يظهَرْ منه غَيرةٌ.

ومع هذه الدَّواعي كُلِّها فآثر مرضاةَ اللهِ وخوفَه، وحمله حبُّه للهِ على أن اختار السِّجنَ على الزِّنا: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} [يوسف: 33].

وعَلِم أنَّه لا يُطيقُ صَرْفَ ذلك عن نفسِه، وأنَّ رَبَّه تعالى إنْ لم يَعصِمْه ويَصرِفْ عنه كيدَهنَّ صبا إليهنَّ بطَبعِه، وكان من الجاهِلين، وهذا من كمالِ معرفتِه برَبِّه وبنَفسِه).[3309]

2- عِفَّةُ سَيِّدِنا مُوسى وَالفَتاتَيْن:

وَجَدَ سَيِّدُنا موسى -عليه السلام- امْرأتَيْنِ مِن مَدْيَنَ تَمْنَعَانِ غَنَمَهُما عن وُرُودِ الماء، ولا يَلْتفِتُ لَهُما أحَدٌ، والأولى عند ذوي المروءةِ والفِطْرَةِ السَّليمةِ أنْ تَسْقي المَرأتان بأغْنامِهِما أوَلًا وأن يَفسَحَ لَهُما الرِجالُ، فَتَقَدَّمَ للمَرأتَينِ ليَسْألَهُما عن أمرِهِما الغَريب فأطْلَعَتاهُ على السَّبب، إنه الحياء من مُزاحَمَةِ الرِّجالِ، فالمَرأة الحَيِيَّةُ، العَفيفة الرُوح، النَّظيفَةُ القَلب، لا تَسْتَريحُ لِمُزاحَمَةِ الرِّجال، فثارت نَخْوَةُ مُوسى فَتَقَدَّمَ وسَقى لَهُما ثُم تَرَكَهُما، وَجاءَه الفَرَجُ عِنْدَما جاءتْهُ إحدى الفَتاتَينِ على اسْتِحْياءٍ في غَيْرِ ما تَبَذُّلٍ ولا تَبَرُّجٍ وفي هذا قال تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} [القصص: ٢٣ - ٢٧].

ولبى موسى الدعوة، وقال لها: امشي خلفي فإن أخطأت الطريق فأشيري إلي بحجر تلقينه فيه، لأُصَحِّحَ المَسار وأسلُكَه، حتى انتَهى إلى بَيْتِ أبيها، وهكذا يَكُون الشَّابُ المُسلم حيِيًا لا يَسير خَلْفَ امْرَأةٍ يَنْظُرُ إلى عَوْرَتِها، ولذلك مِن المَظاهِرِ التي تَتَنافى مَعَ الحَياء في عَصرِنا اليوم مُعاكَسَةَ الشَّبابِ للبَناتِ في الشَّوارِعِ وأمام المَدارِسِ، بَلْ أصْبَحَتِ البِنْتُ في بَعضِ الأحيان تَتَلَفَّظُ مَعَ الشَّباب بِطَريقَة سَيئة تُحْدِثُ الفَوضى ويَضيعُ بَينَهُما الحَياءُ، ولا حَول ولا قُوَّة إلا بِالله.[3310]

وَنُلاحِظَ أَنَّ ابْنَةَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ شُعَيبٍ لَمْ تَمْتَدِحْ نَبِيّ اللهِ مُوسَى فِي حَضْرَتِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَبِيهَا، فَحَيَاؤُهَا وَعِفَّتُهَا قَطْعًا سَيَمْنَعَانِهَا مِنْ مَدْحِ رَجُلٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْهَا وَهِيَ فِي مُوَاجَهَةٍ مَعَهُ، حَيْثُ قَالَتْ لأبيها: {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}، (فَقَالَ لَهَا أَبُوهَا: "وَمَا عِلْمُكِ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ رَفَعَ الصَّخْرَةَ الَّتِي لَا يُطِيقُ حَمْلَهَا إِلَّا عَشْرَةُ رِجَالٍ، وَإِنَّهُ لَمَّا جِئْتُ مَعَهُ تَقَدَّمْتُ أَمَامَهُ، فَقَالَ لِي: كُونِي مِنْ وَرَائِي، فَإِذَا اجْتَنَبْتُ الطَّرِيقَ فَاحْذِفِي [لِي] بِحَصَاةٍ أَعْلَمُ بِهَا كَيْفَ الطَّرِيقُ.

(عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: "أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ: أَبُو بَكْرٍ حِينَ تَفَرَّسَ فِي عُمَرَ، وَصَاحِبُ يُوسُفَ حِينَ قَالَ: أَكْرِمِي مَثْوَاه، وَصَاحِبَةُ مُوسَى حِينَ قَالَتْ: {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ}").[3311]

3- عِفَّةُ جُرَيجٍ العابِدِ:

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أنَّه قال: "كان رجلٌ في بني إسرائيلَ -يُقالُ له جُرَيجٌ- يُصَلِّي، فجاءته أمُّه فدعَتْه، فأبى أن يجيبَها، فقال: أُجيبُها أو أُصَلِّي، ثمَّ أتَتْه فقالت: اللَّهُمَّ لا تُمِتْه حتَّى تُرِيَه وجوهَ المومِساتِ! وكان جُرَيجٌ في صَومعتِه، فقالت امرأةٌ: لأفتِنَنَّ جُرَيجًا، فتعرَّضَت له، فكلَّمَتْه فأبى، فأتت راعيًا، فأمكَنَتْه من نفسِها، فولَدَت غلامًا، فقالت: هو من جُرَيجٍ! فأتوه وكَسَروا صومعتَه، فأنزلوه وسَبُّوه، فتوضَّأَ وصَلَّى ثمَّ أتى الغلامَ، فقال: من أبوك يا غُلامُ؟! قال: الرَّاعي، قالوا: نبني صومعَتَك من ذَهَبٍ، قال: لا، إلَّا مِن طينٍ".[3312]

[3309] الجواب الكافي لابن القيم ص: 208 بتصرف.

[3310] كتاب موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق - حياء سيدنا موسى والفتاتين، ص 292، المكتبة الشاملة.

[3311] تفسير ابن كثير.

[3312] رواه مسلم 2550 مطوَّلًا

4- نموذَجٌ آخَرُ للعِفَّةِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "بينما ثلاثةُ نَفَرٍ يتمشَّون أخذَهم المَطَرُ، فأوَوا إلى غارٍ في جَبَلٍ، فانحطَّت على فَمِ غارِهم صَخرةٌ من الجَبَلِ، فانطبَقَت عليهم، فقال بعضُهم لبعضٍ: انظُروا أعمالًا عمِلْتُموها صالحةً للهِ، فادعوا اللهَ تعالى بها؛ لعَلَّ اللهَ يَفرُجُها عنكم ..." وفيه: "وقال الآخَرُ: اللَّهُمَّ إنَّه كانت لي ابنةُ عَمٍّ أحبَبتُها كأشَدِّ ما يحِبُّ الرِّجالُ النِّساءَ، وطلَبْتُ إليها نفسَها فأبت حتى آتيَها بمئةِ دينارٍ، فتَعِبْتُ حتى جَمَعتُ مئةَ دينارٍ، فجِئتُها بها، فلمَّا وقَعتُ بين رِجلَيها، قالت: يا عبدَ اللهِ، اتَّقِ اللهِ، ولا تفتَحِ الخاتَمَ[3313] إلَّا بحقِّه، فقمتُ عنها، فإن كنتَ تعلَمُ أني فعلتُ ذلك ابتغاءَ وَجهِك، فافرُجْ لنا منها فُرجةً، ففُرِجَ لهم...".[3314]

ثانيا: نماذِجُ من عِفَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

1- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أعفَّ النَّاسِ، بلغ في العِفَّةِ الذِّروةَ العُليا؛ فعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: أخذ الحَسَنُ بنُ عليٍّ تمرةً من تمرِ الصَّدَقةِ فجعَلَها في فيه، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "كِخْ كِخْ[3315]! ارْمِ بها، أمَا عَلِمتَ أنَّا لا نأكُلُ الصَّدَقةَ؟!".[3316]

2- وعنه أيضًا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: "إني لأنقلِبُ إلى أهلي فأجِدُ التَّمرةَ ساقطةً على فِراشي، ثمَّ أرفعُها لآكُلَها، ثمَّ أخشى أن تكونَ صَدَقةً فأُلقيها".[3317]

3- وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: مرَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتمرةٍ في الطَّريقِ قال: "لولا أني أخافُ أن تكونَ من الصَّدَقةِ لأكَلْتُها".[3318]

ثالثا: نماذجُ من عِفَّةِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم:

1- عِفَّةُ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه:

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: "كان لأبي بَكرٍ غلامٌ يُخْرِجُ له الخَراجَ، وكان أبو بكرٍ يأكُلُ من خراجِه، فجاء يومًا بشيءٍ، فأكَل منه أبو بكرٍ، فقال له الغلامُ: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكرٍ: وما هو؟ قال: كنتُ تكَهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهليَّةِ، وما أُحسِنُ الكِهانةَ إلَّا أني خدَعْتُه، فلَقِيَني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكَلْتَ منه! فأدخل أبو بكرٍ يَدَه، فقاء كُلَّ شيءٍ في بطنِه".[3319]

2- عِفَّةُ عُثمانَ بنِ طَلحةَ رَضِيَ اللهُ عنه:

فقد ظَهَرت عِفَّةُ وشَهامةُ عُثمانَ بنِ طَلحةَ رَضِيَ اللهُ عنه حين منع بنو المغيرةِ أبا سَلَمةَ أن يَصطَحِبَ معه زوجَه أمَّ سَلمةَ وابنَه معه عندما أراد الهجرةَ إلى المدينةِ، تقولُ أمُّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها: "...وانطلق زوجي أبو سَلَمةَ إلى المدينةِ، قالت: ففُرِّق بيني وبين زوجي وبينَ ابني، قالت: فكنتُ أخرُجُ كُلَّ غداةٍ فأجلِسُ بالأبطَحِ، فما أزالُ أبكي حتى أُمسيَ، سنةً أو قريبًا منها، حتى مرَّ بي رجلٌ من بني عمّي أحدُ بني المغيرةِ، فرأى ما بي فرَحِمني، فقال لبني المُغيرةِ: ألا تُخرِجون هذه

[3313] كنايةٌ عن إزالةِ البِكارةِ، يُنظَر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني 86 /22

[3314] أخرجه البخاري 5974 ومسلم 2743 واللفظ له

[3315] كِخْ كِخْ: هو زجرٌ للصَّبيِّ وردعٌ. ويقالُ عِندَ التَّقذُّرِ أيضًا، فكأنَّه أمره بإلقائِها من فيه، وتُكسَرُ الكافُ وتُفتَحُ، وتُسَكَّنُ الخاءُ وتُكسَرُ، بتنوينٍ وغيرِ تنوينٍ. يُنظَر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير4/273

[3316] رواه البخاري 1491، ومسلم 1069 واللفظ له

[3317] رواه البخاري 2432، ومسلم 1070 واللفظ له من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه

[3318] رواه البخاري 2431 واللفظ له، ومسلم 1071

[3319] أخرجه البخاري 3842

المسكينةَ، فرَّقتُم بينها وبين زوجِها وبين ولَدِها، قالت: فقالوا: الحَقي بزوجِك إن شئتِ، قالت: وردَّ بنو عبدِ الأسَدِ إليَّ عندَ ذلك ابني، قالت: فارتحَلْتُ بعيري ثم أخذتُ ابني فوضَعْتُه في حِجْري ثمَّ خرجتُ أريدُ زوجي بالمدينةِ، قالت: وما معي أحدٌ من خَلقِ اللهِ، قالت: قلتُ: أتبلَّغُ بمن لَقِيتُ حتى أقدَمَ على زوجي، حتى إذا كنتُ بالتَّنعيمِ لقيتُ عثمانَ بنَ طلحةَ بنِ أبي طلحةَ أخا بني عبدِ الدَّارِ، فقال: أين يا بنتَ أبي أميَّةَ؟ قالت: أريدُ زوجي بالمدينةِ، قال: أو ما معك أحدٌ؟ قلتُ: لا واللهِ إلَّا اللهُ وابني هذا، قال: واللهِ ما لك من مَترَكٍ، فأخذ بخِطامِ[3320] البعيرِ فانطلَقَ معي يهوي به، فواللهِ ما صَحِبتُ رجلًا من العَرَبِ قطُّ أرى أنَّه كان أكرَمَ منه؛ كان إذا بلغ المنزِلَ أناخ بي ثمَّ استأخر عنِّي، حتى إذا نزَلْنا استأخَرَ ببعيري فحَطَّ عنه، ثمَّ قيَّده في الشَّجَرةِ، ثمَّ تنحَّى إلى شجرةٍ فاضطجَعَ تحتَها، فإذا دنا الرَّواحُ قام إلى بعيري فقدَّمه فرحَلَه[3321]، ثمَّ استأخر عني، فقال: اركبي، فإذا ركِبتُ فاستويتُ على بعيري أتى فأخَذَ بخطامِه فقاد بي حتى ينزِلَ بي، فلم يَزَلْ يصنَعُ ذلك بي حتى أقدَمَني المدينةَ، فلمَّا نظر إلى قريةِ بني عَمرِو بنِ عَوفٍ بقُباءٍ، قال: زوجُكِ في هذه القريةِ -وكان أبو سلمةَ بها نازِلًا- فادخُليها على بركةِ اللهِ، ثمَّ انصرف راجِعًا إلى مكَّةَ، قال: وكانت تقولُ: ما أعلَمُ أهلَ بيتٍ في الإسلامِ أصابهم ما أصاب أبو سَلَمةَ، وما رأيتُ صاحِبًا قطُّ كان أكرَمَ من عثمانَ بنِ طلحةَ!".[3322]

3- عِفَّةُ مرثَدِ بنِ أبي مَرثَدٍ رَضِيَ اللهُ عنه:

عن عَمرِو بنِ شُعَيبٍ، عن أبيه، عن جَدِّه، قال: "كان رجلٌ يقال له مرثَدُ بنُ أبي مرثدٍ، وكان رجُلًا يحمِلُ الأسرى من مكَّةَ حتى يأتيَ بهم المدينةَ، قال: وكانت امرأةٌ بغيٌّ بمكَّةَ يقالُ لها: عَناقُ، وكانت صديقةً له، وإنَّه كان وعد رجلًا من أسارى مكَّةَ يحمِلُه، قال: فجِئتُ حتى انتهيتُ إلى ظِلِّ حائطٍ من حوائِطِ مكَّةَ في ليلةٍ مُقمِرةٍ، قال: فجاءت عَناقُ فأبصرَت سوادَ ظِلِّي بجنبِ الحائِطِ، فلمَّا انتهت إليَّ عرَفَتْ[3323] فقالت: مرثَدٌ؟ فقلتُ: مَرثَدٌ، فقالت: مرحبًا وأهلًا، هلُمَّ فبِتْ عندنا اللَّيلةَ، قال: قُلتُ: حرَّم اللهُ الزِّنا، قالت: يا أهلَ الخيامِ، هذا الرَّجُلُ يحمِلُ أُسَراءَكم، قال: فتبِعَني ثمانيةٌ وسلَكْتُ الخَنْدمةَ[3324] فانتَهَيتُ إلى كَهفٍ أو غارٍ، فدخلتُ فجاؤوا حتَّى قاموا على رأسي فبالوا، فظَلَّ بولُهم على رأسي وأعماهم اللهُ عنِّي، قال: ثمَّ رجعوا ورجعتُ إلى صاحبي فحَمَلتُه، وكان رجلًا ثقيلًا حتى انتهيتُ إلى الإذخِرِ[3325]، ففكَكْتُ عنه كُبُلَه[3326]، فجعَلْتُ أحمِلُه ويُعييني[3327] حتَّى قَدِمتُ المدينةَ، فأتيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنكِحُ عَناقًا؟ فأمسك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلم يَرُدَّ عليَّ شيئًا حتَّى نزلت: {الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا مَرثَدُ، الزَّاني لا ينكِحُ إلَّا زانيةً أو مُشرِكةً والزَّانيةُ لا ينكِحُها إلَّا زانٍ أو مُشرِكٌ، فلا تَنكِحْها".[3328]

رابعا: نماذِجُ من العِفَّةِ عندَ السَّلَفِ:

1- عِفَّةُ سالمِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ:

[3320] الخِطامُ هو الحَبلُ الذي يقادُ به البعيرُ، يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 186 /12

[3321] أي: شَدَّ على ظهرِه الرَّحلَ، يُنظَر: مختار الصحاح لزين الدين الرازي ص: 120

[3322] رواه ابنُ هشام في السيرة 1/469

[3323] عَرَفَتْ: أي: عرفَتْني، يُنظَر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (17/9)

[3324] الخَنْدَمةُ: جَبَلٌ بمكَّةَ، يُنظَر: ((معجم البلدان)) لياقوت (392/2)

[3325] الإذخِرُ: بكَسرِ الهمزةِ :حَشيشةٌ طَيِّبةُ الرَّائحةِ يُسقَفُ بها البيتُ فوق الخشَبِ، وهمزتُها زائدةٌ، يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير(1/65)

[3326] كُبَلَه: جمعُ قِلَّةٍ للكَبَلِ: القَيدُ، يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير(4/248)

[3327] ويُعْيِيني: أي: يُتعِبني ويُجهِدُني، يُنظَر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (9/17)

[3328] رواه أبو داود (2051) مختصرًا، والترمذي (3177) واللفظ له، والنسائي (3228)باختلاف يسير .صحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (6/260) والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2051)، وقال الترمذي :(حسنٌ غريبٌ)، وحسَّن إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (2051)

قال ابنُ عُيَينةَ: "دخَل هِشامُ بنُ عبدِ المَلِكِ إلى الكعبةِ، فإذا هو بسالمٍ، فقال له: سَلْني حاجتَك، فقال: إني أستحي من اللهِ أن أسألَ في بيتِه غيرَه، فلمَّا خرجا منها قال: الآن قد خرَجْتَ منها فاسأَلْ، فقال: واللهِ ما سألتُ الدُّنيا ممَّن يملِكُها، فكيف أسألُ فيها من لا يَملِكُها؟!".[3329]

2- عِفَّةُ الرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ:

عن سعدانَ قال: "أمَر قومٌ امرأةً ذاتَ جمالٍ بارعٍ أن تتعرَّضَ للرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ فلعَلَّها تفتِنُه، وجعلوا لها إن فعَلَتْ ذلك ألفَ دِرهَمٍ، فلَبِسَت أحسَنَ ما قدَرَت عليه من الثِّيابِ، وتطيَّبَت بأطيبِ ما قدَرَت عليه، ثمَّ تعرَّضَت له حينَ خرج من مسجِدِه، فنظر إليها فراعه أمرُها، فأقبلَت عليه وهي سافرةٌ، فقال لها الرَّبيعُ: كيف بكِ لو قد نزَلَت الحُمَّى بجسمِك فغيَّرَت ما أرى من لونِك وبهجتِك؟ أم كيف بكِ لو قد نزل بكِ مَلَكُ الموتُ فقَطَع منكِ حبلَ الوتينِ[3330]؟ أم كيف بكِ لو قد ساءلَكِ منكَرٌ ونكيرٌ؟ فصرَخَت صرخةً فسقَطَت مغشيًّا عليها، فواللهِ لقد أفاقت وبلغت من عبادةِ رَبِّها أنَّها كانت يومَ ماتت كأنَّها جِذعٌ محترِقٌ!".[3331]

<u>خامسا: نماذِجُ أُخرى في العِفَّةِ:</u>

- راود رجلٌ امرأةً في فَلاةٍ ليلًا فأبت وقالت: أمَا لك زاجرٌ من عقلٍ إن لم يكنْ لك ناهٍ من دينٍ؟! فقلتُ: إنَّه لا يرانا إلَّا الكواكِبُ، فقالت: وأين مُكوكِبُها[3332]؟!

- نزل أسَديٌّ بطائيَّةٍ في يومٍ صائفٍ، فأتته بقِرًى[3333]، ففتنَتْه بعينَيها من وراءِ البُرقُعِ، فراودها، فقالت: أمَا يردَعُك الكرَمُ والإسلامُ؟! كُلْ وأقِلَّ، وإن أردْتَ غيرَ ذلك فارتحِلْ[3334].

- وعن مخرَمةَ بنِ عُثمانَ قال: نُبِّئتُ أنَّ فتًى من العبَّادِ أحبَّ جاريةً من أهلِ البصرةِ، فبعث يخطُبُها فامتنعَت عليه، وقالت: إن أردتَ غيرَ ذلك فعَلتُ، فأرسل إليها: سبحانَ اللهِ! يا هذه أدعوك إلى الأمرِ الصَّحيحِ الذي لا عيبَ فيه ولا وِزرَ، وتدعينَني إلى ما لا يصلُحُ، ولا لكِ فيه عذرٌ! فأرسلَت إليه: قد أخبَرتُك بالذي عندي، فإن أردتَ فتقَدَّمْ، وإن كرِهتَ تأخَّرْ، فأنشد يقولُ:

أسـائِلُها الحلالَ وتَدْعُ قلـــبي.. إلى ما لا أريدُ من الحرامِ
كداعـي آلِ فرعـــونَ إليه.. وهـم يدعـونه نحـوَ الغـرامِ
فظلَّ منعَّمًا في الخُلدِ يسعى.. وظلُّوا في الجحيمِ وفي السَّقامِ

فلمَّا عَلِمَت أنَّه قد امتنع من الفاحشةِ أرسلَت إليه: ها أنا بين يديك على الذي تحِبُّ، فكتب إليها: هيهاتَ! لا حاجةَ لنا فيمن دعانا إلى المعصيةِ ونحن ندعوه إلى الطَّاعةِ، لا خيرَ في نفسٍ لا تدومُ على الاستقامةِ! ثمَّ أنشدَ يقولُ:

لا خـيرَ فيمـــن لا يراقِـبُ رَبَّه.. عندَ الهـــوى ويخـافُه أحيانَا
حَجَب التُّقى بابَ الهوى فأخو التُّقى.. عفُّ الخليقةِ زائدٌ إيمانَا[3335]

[3329] رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم 80، وابن عساكر في تاريخ دمشق 20/64

[3330] الوَتينُ: عِرقٌ في القَلبِ إذا انقطع مات صاحبُه، يُنظَر: لسان العرب لابن منظور 13/441

[3331] صفة الصفوة لابن الجوزي 3/191

[3332] يُنظَر: اعتلال القلوب للخرائطي 1/ 44، شعب الإيمان للبيهقي 2/ 266، محاضرات الأدباء للراغب249 /2

[3333] القِرى: ما يُقدَّمُ إلى الضَّيفِ من طعامٍ. يُنظَر: معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار 1808 /3

[3334] محاضرات الأدباء للراغب 249 /2

[3335] اعتلال القلوب للخرائطي ص: 92، 93

• رَائِحَةُ الْمِسْكِ تَنْبَعِثُ مِنْ عَفِيفٍ:

وقد يَتَعَرَّضُ الْمُسْلِمُ الْعَفِيفُ فِي طَرِيقِ الْعِفَّةِ لألوانٍ مِنْ الْبَلَاءِ وَالِامْتِحَانِ، وَقَد تَتَطَلَّب مِنْه الْعِفَّةُ خَدْشَ كَرَامَتِه، أَوْ ذَهَابَ مِهْنَتِهِ، أَوْ ضَيَاعَ حُرِّيَّتِه مِثْلَمَا وَقَعَ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَبْتَلِي اللَّهُ بِهِ الْعَفِيفَ لِيَخْتَبِرَ إِيمَانَهُ وَصِدْقَه، وَيَقِينَه وَعِفَّتَه فَإِنْ هُوَ صَدَقَ مَعَ اللَّهِ وعَفَّ وَصَبَرَ عَلَى مَا يُلَاقِيهِ مِنْ بُهْتَانٍ وَامْتِحَانٍ عَوَّضَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا وَأَحْسَنَ لَهُ الْعَاقِبَةَ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: 83].

• عِفَّةُ إِبْرَاهِيمِ المِسْكِيّ:

قيل لِأَبِي بَكْرٍ المِسكي: إِنَّا نَشُمُّ مِنْكَ رَائِحَةَ الْمِسْكِ مَعَ الدَّوَامِ، فَمَا سَبَبُهُ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لِي سِنِينَ عَدِيدَةً لَمْ أَسْتَعْمِلِ الْمِسْكَ، وَلَكِنَّ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ امْرَأَةً احْتَالَتْ عَلَيَّ حَتَّى أَدْخَلَتْنِي دَارَهَا، وَأَغْلَقَتْ دُونِيَ الْأَبْوَابَ، وَراوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي، فَتَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِي، فَضَاقَتْ بِي الْحِيَلُ، فَقُلْتُ لَهَا: أَنَّ لِي حَاجَةٌ إِلَى الطَّهَارَةِ، فَأَمَرَتْ جَارِيَةً لَهَا أَنْ تَمْضِيَ بِيَ إِلَى بَيْتِ الرَّاحَة، فَفَعَلَتْ. فَلَمَّا دَخَلْتُ بَيْتَ الرَّاحَةِ أَخَذْتُ الْعَذِرَةَ، وَأَلْقَيْتُهَا عَلَى جِسْمِي، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَيْهَا، وَأَنَا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ، فَلَمَّا رَأَتْنِي دُهِشَتْ، ثُمَّ أَمَرَتْ بِإِخْرَاجِي فَمَضَيْتُ وَاغْتَسَلْتُ، فَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ قَائِلًا يَقُولُ لِي: "فَعَلْتَ مَا لَمْ يَفْعَلْهُ أَحَدٌ غَيْرُك، لأُطَيِّبَنَّ رِيحَكَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَة" فَأَصْبَحَتُ وَالْمِسْكُ يَفُوحُ مِنِّي، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ إِلَى الْآنَ.[3336]

• الْحَدَّادُ الَّذِي لاَ تُحْرِقُهُ النَّار:

قال أَحَدُ الصَّالِحِينَ: دَخَلْتُ إِلَى مِصْرَ فَوَجَدْتُ حَدَّادًا يُخْرِجُ الْحَدِيدَ بِيَدِهِ مِنْ النَّارِ وَيُقَلِّبُهُ عَلَى السَّنْدَانِ، وَلَا يَجِدُ لِذَلِك أَلماً! فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذَا عَبْدٌ صَالِحٌ لَا تَعْدُو عَلَيْهِ النَّارُ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا سَيِّدي بِالَّذِى مَنَّ عَلَيْكَ بِهَذِهِ الْكَرامَةِ إِلَّا مَا دَعَوْتَ لي، فَبَكَى وَقَالَ: وَاللهِ يَا أَخِي مَا أَنَا كَمَا ظَنَنْتَ، فَقَالَ: إِنَّ لِهَذَا الْأَمْرِ حديثاً عجيباً، فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُعَرِّفَنِي بِه فَافْعَلْ، قَال: نَعَم، كُنْتُ يَومًا مِنَ الْأَيَّامِ جالِسًا فِي هذِهِ الدُّكَّانِ وَكُنْتُ كَثِيرَ التَّخْلِيطِ، إِذْ وَقَفَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا وجهًا، فَقَالَت: يَا أَخِي هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ لِلَّهِ؟ فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْهَا فُتِنْتُ بِهَا وَقُلْتُ لَهَا: هَلْ لَكِ أَنْ تَمْضي مِعِي إِلَى الْبَيْتِ وَأَدْفَعُ لَكِ مَا يَكْفِيكِ؟ فَنَظَرَتْ إِلَيَّ زَمَنًا طَوِيلًا فَذَهَبَتْ وَغَابَتْ عَنِّي طَوِيلًا، ثُمَّ رَجَعَتْ وَقَالَت: يَا أخي قَدْ أَحْوَجَتْنِي الضَّرُورَةُ إِلَى مَا ذَكَرْتَ، قَالَ: فَقَفَلْتُ الدُّكَّانَ وَمَضَيْتُ بِهَا إِلَى الْبَيْتِ، فَقَالَت لي: يَا هَذَا أَنَّ لي أَطْفالاً وَقَدْ تَرَكْتُهُم عَلَى فَاقَةٍ شَدِيدَة، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُعْطِيَنِي شيئاً أَذْهَبُ بِهِ إِلَيْهِمْ وَأَرْجِعُ إِلَيْكَ فَافْعَلْ، قَالَ: فَأَخَذْتُ عَلَيْهَا الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ وَدَفَعْتُ لَهَا بَعضاً مِنْ الدَّرَاهِمِ، فَمَضَتْ، وَغَابَتْ سَاعَةً ثُمَّ رَجَعَتْ، فَدَخَلْتُ بِهَا إِلَى الْبَيْتِ وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ، فَقَالَت: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ فَقُلْتُ لَهَا: خَوفًا مِنَ النَّاسِ، فَقَالَت: وَلِمَ لَا تَخَافُ مِنْ رَبِّ النَّاسِ؟ فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيم، ثُمّ تَقَدَّمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَدْتُهَا تَضْطَرِبُ كَمَا يَضْطَرِبُ السَّعَفُ فِي يَوْمِ رِيحٍ عَاصِفٍ وَدُمُوعُها تَنْحَدِرُ عَلَى خَدَّيْهَا، فَقُلْتُ لَهَا: مِمَّ اضْطرابُكِ وبُكاؤُكِ؟ فَقَالَت: خَوفًا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ قَالَتْ لي: يَا هَذَا إِنْ أَنْتَ تَرَكْتَنِي لِلَّه ضَمِنْتُ لَكَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُك بِالنَّارِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ، قَالَ: فَقُمْتُ وأَعْطَيْتُهَا جَمِيعَ مَا كَانَ عِنْدِي، وَقُلْتُ لَهَا: يَا هَذِهِ قَدْ تَرَكْتُكِ خَوفاً مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَال: فَلَمَّا فارَقَتْنِي غَلَبَتْنِي عَيْنَيَّ فَنِمْتُ، فَرَأَيْتُ امْرَأَةً لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا وجهًا، وَعَلَى رَأْسِهَا تَاجٌ مِنْ الْيَاقُوتِ الْأَحْمَر، فَقَالَت لي: جَزَاك اللَّهُ عَنَّا خيراً، قُلْتُ لَهَا: وَمَنْ أَنْتِ؟ قَالَت: أَنَا أُمُّ الصَّبِيَّةِ الَّتي أَتَتْكَ

[3336] المَواعِظ والمَجالِس، ص 224، ابن الجَوزي، مَوْسُوعَة الْأَخْلَاق وَالزُّهْد وَالرَّقَائِق - الْمُجَلَّد 1 - ص 281، جَامِع الْكُتُب الْإِسْلَامِيَّة

وَتَرَكَتْهَا خَوفًا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا أَحْرَقَكَ اللَّهُ بِالنَّارِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ، فَقُلْتُ لَهَا: عَرِّفِينِي بِكِ وَمِنْ أَي نَسْلٍ أَنْت - يَرْحَمُكِ الله-؟ فَقَالَت: أَنَا مِنْ نَسْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَذَكَّرْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: 33]، ثُمَّ أَفَقْتُ مِن مَنامي، وَمِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ تَعْدُ عَلَيَّ النَّارِ، وَأَرْجُو أَنْ لَا تَعْدُوَ عَلَيَّ فِي الآخِرَةِ.[3337]

المطلب الثَّاني عشر: فَضْلُ العِفَّةِ

1- العِفَّةُ مِنْ سُبُلِ الفَلَاحِ:

لقد أثنى الله تعالى على أهل العفة وأخبر أنهم أهل الفلاح، فقال في محكم التنزيل: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} [سورة المؤمنون:1-6]، قال ابن كثير: "والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم"[3338]، ولا شك أن هذا المعنى ينطبق على الرجال والنساء معاً.

2- العِفَّةُ عُنْوَانُ الصَّلَاحِ:

قال تعالى: {فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ} [النساء: 34]، قال ابن كثير رحمه الله: (فَالصَّالِحَاتُ): أي من النساء (قَانِتَاتٌ): قال ابن عباس وغير واحد: يعني مطيعات لأزواجهن، (حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ): قال السدي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله، وقوله: (بِمَا حَفِظَ اللَّهُ): أي المحفوظ من حفظه الله.[3339]

3- العِفَّةُ سَبَبٌ فِي المَغْفِرَةِ:

قال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 35] فبين الله في هذه الآية أن حفظ الفرج وصيانته عن الحرام من جملة أسباب المغفرة والأجر العظيم يوم القيامة.

4- العِفَّةُ تلبيةٌ لنِدَاءِ الرَّحْمَنِ:

قال تعالى : {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة النور: 31].

قالت عائشة رضي الله عنها: "يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ المُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ؛ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} [النور: 31]، شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا"[3340].

[3337] المواعظ وَالْمَجَالِس، ص: 219

[3338] تفسير القرآن العظيم: 318/3

[3339] المصدر السابق:642/1

[3340] صحيح البخاري 4758

وعن صفية بنت شيبة قالت: "بينا نحن عند عائشة، فذكرنا نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة رضي الله عنها: إن لنساء قريش لفضلاً وإني –والله– ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا بكتاب الله ولا إيمانا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} انقلب إليهن رجالهن، يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيه، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابته، فما فمنهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل، فاعتجرن به، تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم معتجرات، كأن على رؤوسهن الغربان".[3341]

فأين نساء المؤمنات اليوم من المسارعة إلى العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؟ أين هن من الحجاب الكامل الساتر البعيد عن التبرج والفتنة؟ أين هن من طاعة الله عز وجل في الأمر بالحشمة والعفاف؟

5- العِفَّةُ مفتاحُ الفرجِ:

قال تعالى: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النور: 33]، قال عكرمة: "هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السماوات والأرض حتى يغنيه".

وكذلك أنت أيتها الأخت المسلمة الفاضلة العفيفة، فإن الله عز وجل قال: {وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ} [النور: 60].

ولقد كانت عِفَّةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ سَبَبًا فِي أَنْ أَصْبَحَ عَزِيزَ مِصْر، كَمَا أَنَّ عِفَّةَ وَشَهَامَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ كَانَتْ سَبَبًا فِي أَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ وَالْمَأْوَى.

6- بالعِفَّةِ كَمُلَتْ مَرْيَمُ:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مَرْيَمَ امْتَدَحَهَا فَقَالَ: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [التحريم: 12].

7- العِفَّةُ مخالفَةٌ لطريقِ الهالِكِينَ:

قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: 26-28].

قال ابن كثير: "يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أُحِلَّ لكم وَحُرِّمَ عليكم مما تقدم ذكرُهُ في هذِهِ السورَةِ وغيرِها (وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ): يعني طرائقَهُم الحميدة واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها (وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ): أي من الإثم والمحارم، وقوله: (وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا): أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيما".[3342]

8- العِفَّةُ مفتاحُ الجنَّةِ:

قَالَ رَسُولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إذا صَلَّتْ المرأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لهَا: ادْخُلِي مِنْ أَيِّ أبوابِ الجَنَّةِ شِئْتِ".[3343]

وَقَالَ أَيْضًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُم أَضْمَنُ لَكُمُ الجَنَّةَ، اصْدُقُوا إِذَا حَدَثْتُم، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُم، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُم، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ".[3344]

[3341] صحيح أبي داود 4101

[3342] تفسير القرآن العظيم: 625/1

[3343] أخرجه ابن حبان وصححه الألباني

[3344] أخرجه أحمد وابن حبان وحسنه الألباني

9- العِفَّةُ تَاجٌ:

ومن الذي يَنْكِرُ هذه الحقيقة؟ قال ابنُ القيم رحمه الله: "لَمْ يزلْ النَّاسُ يفتخِرُونَ بالعفَافِ قديمًا وحديثًا"، وقال إبراهيمُ بنُ أبِي بكرٍ بنِ عياش: "شَهِدْتُ أَبِي عنْدَ الموتِ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: يَا بُنَي! مَا يُبْكِيكَ؟ فَمَا أَتَى أَبُوكَ فَاحِشَةً قَطُّ"، فها هو ذا إبراهيمُ يفتخرُ، وَهُوَ عَلَى فراشِ الموتِ بِأَنَّهُ عَاشَ عَفِيفًا طُوَالَ عُمُرِهِ.. فَأَيُّ افتخارٍ هَذَا!! وأيُّ معنىً سَامٍ!

المطلب الثالث عشر: الدُّعَاةُ إِلَى اللهِ وَخُلُقُ العِفَّةِ

يَنْبَغِي عَلَى الدَّاعِيَةِ إلى الله أنْ يَكونَ عَزيزَ النَّفْسِ، غَنياً بِالله، وبِما عِنْدَه، وَأَنْ يَزْهَدَ عَمَّا في أيْدِي النَّاسِ، فَمَا جَاءَهُ مِنْ غَيرِ اسْتِشْرافٍ، ولا تَطَلُّعٍ، وَلَا سُؤالٍ، فَلا بَأسَ عَلَيْهِ أنْ يَأخُذَهُ، مَعَ أَنَّ الأَوْلَى وَالأَكْمَلَ أَلَّا يَقْبَلَ العَطاءَ مِنَ النَّاسِ إنْ لَمْ تَكُنْ به حاجَةٌ إِلَى ذَلِكَ، فَمِنَ الغُبْنِ أَنْ يُفَوِّتَ الدَّاعِيَةُ عَلَى نَفْسِهِ فُرْصَةَ الحُصُولِ عَلَى الثَّوابِ كَامِلًا في أعْظَمِ وَأَرْقَى مَهَمَّةٍ عَلَى الإِطْلَاقِ، وَهِيَ الدَّعوةُ إلى اللهِ، ليَأخُذَ في المقابل أَجْرًا مَادِيًّا أَوْ عَرَضًا مِنْ عُرُوضِ الدُّنْيَا، بَلْ والأَسْوأُ مِنْ ذَلِكَ حِينَمَا يُعْطَى مُكافَئَةً ثُمَّ تَرَاهُ مُقَصِّرًا في واجِبِهِ؛ فعن عَبْدِ اللَّهِ بنَ السَّعْدِيِّ أَنَّه قَدِمَ على عُمَرَ في خِلَافَتِهِ، فَقالَ له عُمَرُ: أَلَمْ أُحَدَّثْ أَنَّكَ تَلِيَ مِن أعْمَالِ النَّاسِ أعْمَالًا، فَإِذَا أُعْطِيتَ العُمَالَةَ كَرِهْتَهَا؟ فَقُلْتُ: بَلَى، فَقالَ عُمَرُ: فَما تُرِيدُ إلى ذلكَ؟ قُلْتُ: إنَّ لي أفْرَاسًا وأَعْبُدًا، وأَنَا بخَيْرٍ، وأُرِيدُ أنْ تَكُونَ عُمَالَتي صَدَقَةً علَى المُسْلِمِينَ، قالَ عُمَرُ: لا تَفْعَلْ؛ فإنِّي كُنْتُ أرَدْتُ الذي أرَدْتَ، فَكانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعْطِينِي العَطَاءَ، فأقُولُ: أعْطِهِ أفْقَرَ إلَيْهِ مِنِّي، حتَّى أعْطَانِي مَرَّةً مَالًا، فَقُلْتُ: أعْطِهِ أفْقَرَ إلَيْهِ مِنِّي، فَقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: خُذْهُ، فَتَمَوَّلْهُ، وتَصَدَّقْ به، فَما جَاءَكَ مِن هذا المَالِ وأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ ولَا سَائِلٍ فَخُذْهُ، وإلَّا فلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ". [3345]

لَقَدْ نظَّم الإسلامُ العَلاقةَ بين الرَّعِيَّةِ ووُلاةِ الأمورِ، وأعطى كُلَّ طَرَفٍ حَقَّه، فنظَّم الحُقوقَ الماليَّةَ لِمن تولَّى من أمورِ النَّاسِ شيئًا؛ حتى يقومَ بمهامِّه على أكمَلِ وَجهٍ، ولا يكونَ محتاجًا ولا يأخُذَ ممَّا تحت يدِه ما لا يحِلُّ له.

وفي هذا الحَديثِ يروي عبدُ اللهِ بنُ السَّعْدِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قَدِم على الخليفةِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه، وقدْ كان ابنُ السَّعدِيِّ تَولَّى لِلنَّاسِ أعمالًا عامَّةً، كالقضاءِ والولايةِ وغيرِها، وكان لا يَأخذُ على ذلك أجْرًا، فسأله عُمرُ بنُ الخطَّابِ رضِي اللهُ عنه: ما قَصْدُك مِن عدَمِ أخْذِك الأجرَ على ما تَقومُ به مِن أعمالٍ لِلنَّاسِ تَستحِقُّ عليها الأجرَ؟ فأخبره ابنُ السَّعديِّ: أنَّه له مِنَ المالِ ما يَكفيهِ مِنَ الأفراسِ، وهو جمْعُ فرَسٍ، والأعبُدُ، وهو جمْع عَبْدٍ، فلمَّا كان له مِنَ المالِ ما يَكفيهِ أرادَ أنْ يَكونُ ما يقومُ به من أعمالٍ صَدَقةً على المسلمينَ، فنهاه عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه عن ذلك، وحدَّثه أنَّه فعل ذلك في عَهدِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعطيه شيئًا من مالِ الزكاةِ على أنَّه عمولةٌ على عَمَلِه فيها، لا على أنَّه صدقةٌ؛ لأنَّه ليس بفقيرٍ، فيقولُ عمرُ رَضِيَ اللهُ عنه: أعْطِه أفْقَرَ إليه مِنِّي، وعندما كَرَّر رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عطاءَه، وكَرَّر عُمَرُ عدَمَ أخْذِه، قال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "خُذْهُ، فتمولَّهْ، وتصدَّقْ به"، يعني: تَملَّكْ هذا المالَ الَّذي هو حقُّك، ثُمَّ تَصدَّقْ به على مَن شِئتَ إنْ أردتَ ذلك؛ لأنَّه إذا ملَكَ المالَ وتَصدَّقَ به طيِّبةً به نفْسُه، كان أفضلَ مِنَ التَّصدُّقِ به قَبْلَ قبْضِه؛ لأنَّ الَّذي يَحصُلُ بيَدِه هو أحْرَصُ عليه مِمَّا لم يَدخُلْ في يَدِه، وأرشده إلى أنَّه إذا جاءَه المالُ وهو غيرُ طامعٍ ولا حريصٍ عليه، ولا ساعٍ في سبيلِه، فعليه أن يأخُذَه ولا يردَّهُ، وإنْ لم يَجِئْ إليه فلا يَطلُبْه بَل يتركُه.

وفي الحَديثِ: فَضلُ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنه وزُهدُه وإيثارُه، وكذا ابنُ السَّعديِّ رضِيَ اللهُ عنه؛ فقدْ طابَقَ فِعلُه فِعْلَ عُمَرَ.

[3345] صحيح البخاري 7163

وفيه: ذمُّ التَّطلُّعِ إلى ما في أَيدي الأَغنياءِ والتَّشوُّفِ إلى فُضولِه وأخْذِه منهم، وأنَّها حالةٌ مَذمومةٌ تدُلُّ على شِدَّةِ الرَّغبةِ في الدُّنيا والرُّكونِ إلى التَّوسُّعِ فيها.

وفيه: مَشروعيَّةُ أخذِ العَطِيَّةِ بدونِ سُؤالٍ ولا إشرافِ نَفسٍ.[3346]

المطلب الرابع عشر: العِفَّةُ باختصار

هي خُلُقٌ عَظِيمٌ فِي حَيَاةِ المُسْلمينَ أَفْرَاداً وَجَمَاعَاتٍ، وَهِيَ بُرْهَانٌ عَلَى صِدْقِ الإِيمَانِ وَثَمَرَةٌ مِنْ ثِمارِهِ، وَسَجِيَّةٌ كَرِيمَةٌ نَبِيلَةٌ وَشِيمَةٌ، وَهِي عِزُّ الْحَيَاةِ وَشَرَفُهَا وكَرامُتَها، لَا يُمْكِنُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنْها بِأيِّ حَالٍ؛ فَهِيَ زِينَةٌ لِلرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وسياجٌ لَهُمَا مِنْ الوُقُوعِ فِي الرَّذَائِلِ، وَسَفَاسِفِ الْأُمُورِ، فَطُوبَى لِمَنْ حَصَّنَ نَفْسَهُ وَحَفِظ فَرْجَه بِهَذَا الْخُلُقِ الرَّفِيعِ.

والْعِفَّةُ خُلُقٌ رَاقٍ، نَادِرٌ فِي الرِّجَالِ؛ فالعَفيفُ يبدو لِلنَّاسِ غَنِياً وَلَو كَانَ فَقِيرًا مُعْدَمًا مُحْتَاجًا، فتراه زَاهِدًا فِي الْمَنَاصِبِ خَوفاً مِنْ اللَّهِ، أَمِينًا لَا يَمَسُّ الْمَالَ الْعَامَّ، مُحَافِظًا عَلَى بَصَرِهِ مَصُونًا، حَيِيًّا مِنْ رَبِّهِ فَلَا يُشَارِكُ فِي مَجَالِسِ الزُّور، وَلَا يُؤَيِّدُ الْكَاذِبِين، وَأَهْلَ الْبُهْتَانِ، فَهُوَ صَاحِبُ رُوحٍ أَبِيَّةٍ شُجَاعَةٍ تُجَاهِدُ ضِدَّ الْبَاطِلِ وَالْفَسَاد، لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَلَوْ عَلَى أَقْرَبِ الأَقْرَبِين أَو الْأَحْبَابِ.

وَالْعِفَّةُ أَيْضًا هِيَ طَهَارَةُ النَّفْسِ وَحَيَاةُ الْقَلْبِ، وجَمَالٌ لَا يَرَاهُ إِلَّا مَن امتُحِنَ بِالْحَرَام فَصَبَر، وَمَن وُضِعَ فِي أُتُون الاخْتِبَار؛ فَعَصَمَهُ اللَّهُ باستِعْفافِه.

وَهِيَ الكَفُّ عَنْ سُؤَالِ الْخَلْقِ عَلَى وَجْهِ الاسْتِجْدَاءِ، وَحِفْظِ اللِّسَان عَنْ قَبِيحِ الكَلَامِ، وَالتَّرَفُّعُ عَنْ سَفَاسِفُ الْأُمُورِ، وَرَذَائِل الْأَخْلَاق، وَخَدْشِ الْمُرُوءَةِ وَالْحَيَاءِ.

وَهَكَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الْعَبْدَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْعِفَّة كَحاجَتِهِ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَيَشْتَرِكُ فِي الْحَاجَةِ إِلَيْهَا الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ وَالشَّابُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا تَصُونُ سِيرَتَهُمْ، وَتَحْفَظُ أَمْوَالَهُمْ، وتَحْمِي أَعْرَاضَهُم، وَمِنْ ثَمَّ وَجَبَ عَلَى الْجَمِيعِ بَذْلُ أَسْبَابِهَا، وَالصَّبْرُ عَلَى لُزُومِهَا؛ فَإِنَّه مَنْ يَسْتَعْفِفْ؛ يُعِفَّهُ اللَّهُ.

((اللَّهمَّ إنَّا نَسألُكَ الهُدى والتُّقى والعَفافَ والغِنى))

[3346] مَوْقِعُ الدُرَرِ السَنيَّة، المَوْسُوعَةُ الحديثية، شروح الأحاديث.

المبحث السابع والعشرون: الموعظة الحسنة

ما أَحْوَجَ أَنْ يَكُونَ لَدَى الدَّاعِيةِ وَعْيٌ أَدَبِيٌّ، وحِسٌّ لُغَويّ، وَقُدرةٌ عَلَى النَّصِيحَةِ بِأَلْفَاظٍ مَلِيحَةٍ، وَعِبَارَةٍ فَصِيحَةٍ؛ مَعَ مُرَاعَاةِ حُسْنِ الإِلْقَاءِ لِتَكونَ مَوْعِظَتُهُ فِي النُّفُوسِ مُؤَثِّرَةٌ، وَعَنِ المَوْضُوعِ مُعَبِّرَةٌ "فَالدَّاعِيَةُ البَارِعُ، يَكْتُبُ عَلَى صَفَحَاتِ القُلُوبِ رَسَائِلَ مِنَ التَّأْثِيرِ، وَفِي العُقُولِ صُوَرًا مِنْ بَرَاعَةِ التَّعْبِيرِ، وَيَبْنِي فِي الأَفْئِدَةِ خِيَامًا مِنْ جَلَالِ التَّصْوِيرِ، هَلْ تَمَلُّ مِنْ الرَّوْضَةِ الغَنَّاءِ إِذَا غَنَّى فِيهَا العَنْدَلِيبُ، وَحَلَّ بِهَا الحَبِيبُ، وَأَطْفَأَ نَسِيمُهَا اللهِيبَ، وَكَذَلِكَ الدَّاعِيَةُ النَّجِيبُ، فِي عِبَارَاتِهِ رَوْضَاتٌ مِنَ الجَمَالِ، وَبَسَاتِينٌ مِنَ الجَلَالِ، وَدَوَاوِينٌ مِنَ الكَمَالِ".[3347]

وقد تَكُونُ الاسْتِجابَةُ للمَوْعِظَةِ قَوِيَّةً، فَتُثِيرُ حُروفُهَا المَشاعِرَ، وَتُهَيِّجُ كَلِمَاتُهَا الأَفْئِدَةَ، فَتَفِيضُ لهَا الأَعْيُنُ مِنَ الدَّمْعِ، وَلَنَا فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، فَهَا هُوَ ذَا العِرْباضُ بنُ سارِيَةَ، يَقُولُ: "صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقبَلَ عَلَيْنَا، فوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ[3348] مِنْهَا القُلُوبُ"، فَلَيْسَ هُنَاكَ أَبْلَغُ مِنْهُ - بِأَبِي هُوَ وأُمِّي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

المطلب الأول: معنى المَوْعِظَةُ الحَسَنَةُ

- **المَوْعِظَةُ لغة:**

الوَعظ والعِظَة والعَظة والمَوْعِظَة: النُصْح والتَّذْكير بِالعَواقِب، وتَذْكيرك لِلإِنْسان بِما يَلِينُ قَلْبَهُ مِن ثَوابٍ وَعِقاب.[3349]
والمَوْعِظَةُ: مَصْدَرُ، قَوْلِهِم: وَعَظَ يَعِظُ وهو من مادّة (و، ع، ظ) الّتي تَدُلُّ على التَّخْويف، والعِظَة الاسْم مِنْهُ.[3350]
وَقَالَ الخَلِيلُ: "العِظَةُ: المَوْعِظَةُ، يُقَالُ: وَعَظْتُ الرَّجُلَ أَعِظُهُ عِظَةً وَمَوْعِظَةً، وَهُوَ تَذْكِيرُكَ إِيَّاهُ الخَيْرَ وَنَحْوَهُ مِمَّا يَرِقُّ لَهُ قَلْبُهُ، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الوَعْظُ: النُّصْحُ والتَّذْكِيرُ بِالْعَوَاقِبِ".[3351]

- **المَوْعِظَة شَرْعًا:**

تَعَدَّدَتِ التَّعْريفاتُ الواردَة عَن أَهْلِ العِلْم لِلْمَوعِظَة، وكُلُها مُتَضافِرَة، وَيُؤَكِّدُ بَعْضُها بَعضًا ويُبَيِّنُهُ، ومِنْ ذلكَ:
قالَ الطَّبَري: "والمَوْعِظَةُ الحَسَنَةُ: العِبَرُ الجَميلَة التي جَعَلَها اللهُ حُجَّةً عَلَيْهِم في كِتابِهِ، وذَكَّرَهُم بِها في تَنْزِيلِهِ".[3352]
وقال الجرجاني: "هي التي تُلِينُ القُلُوبَ القاسِيَة، وَتُدْمِعُ العُيُونَ الجامِدَة، وتُصْلِحُ الأَعْمالَ الفاسِدَة".[3353]
وقيل: "هو التَّذْكيرُ بِالخَيرِ فيما يَرُقُّ لَهُ القَلْب".[3354]
وَقال الرّاغِبُ: "الوَعْظُ زَجْرٌ مُقْتَرِنٌ بِتَخْوِيف".[3355]
وقال ابن القيم: "هِيَ الأَمْرُ وَالنَّهْيُ المَقْرُونُ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَة".[3356]
وَقيلَ: "هِيَ التَّذْكِيرُ بِعَذابِ اللهِ الزَّاجِرِ عَن مُخالَفَتِهِ، وَبِثَوابِهِ الباعِث على طاعَتِهِ تَعالى".[3357]

[3347] المقامات الخطابية، لعائض القرني.
[3348] وجِلَتْ منها القلوب: أي: خافَت ورهِبَت.
[3349] لسان العرب 466/7
[3350] مقاييس اللغة 6/ 126
[3351] الصحاح 3/ 1181
[3352] جامع البيان 7/ 663
[3353] التعريفات، للجرجاني، ص 236
[3354] التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص339، التعريفات للجرجاني ص 275
[3355] المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص527
[3356] مفتاح دار السعادة 153/1
[3357] تطريز رياض الصالحين 554/1

وقال المَيداني: "هِي التَّرْغِيبُ بِالْعَاقِبَةِ الْحَسَنَةِ وَالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ لِمَنْ اتَّبَعَ سَبِيلَ رَبِّهِ، وَالتَّرْهِيبُ مِنَ الْعَاقِبَةِ السَّيِّئَةِ الْوَخِيمَةِ وَالشَّقَاوَةِ والتَّعاسَةِ لِمَنْ أَبَى أَنْ يَتَّبِعَ سَبِيلَ رَبِّهِ، بِشَرْطِ عَرْضِهَا بأسلوبٍ حسنٍ جميلٍ مقبولٍ لَا تُنَفِّرُ مِنْهُ الطِّبَاعَ السَّوِيَّة".[3358]

وَمَن خِلَال هَذِه النقولات السَّابِقَةِ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَتَبَيَّن لَنَا أَنَّ المَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ هِيَ: الْأَمْرُ وَالنَّهْي المَقْرُونانِ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب؛ لِلْوُصُولِ بِالمَدْعُو إِلَى تَرْقِيق قَلْبِه، وَاتِّبَاعِهِ لِلْحَقِّ الَّذِي عَلِمَهُ، وَلَكِنَّه تقاعَس عَنِ العَمَلِ بِهِ.

المطلب الثاني: الحثُّ على المَوْعِظَةِ الحسنةِ والتَّرغيبُ فيه

إنَّ كَثْرَةَ الشَّوَاهِدِ منَ القرآنِ والسنَّةِ تدلُّ على أهميةِ أسلوبِ المَوْعِظَة الحسَنَةِ، وَمِنْهَا كَالتَّالِي:

أ. في نصوص القُرآن الكريم:

1- أمَرَ اللهُ تعالى نَبِيَهُ أمْرًا مُباشِرًا والمُؤمِنُون مِن بَعْدِهِ بِالدَعْوَةِ إلى اللهِ بالمَوْعِظَةِ الحَسَنَة: {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ * وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥].

2- وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سبأ: ٤٦].

3- وبَيَّنَ تعالى أنَّ المَوْعِظَةَ وَسيلَةٌ رَبَّانِيَّةٌ كما قال تعالى: {وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ} [النساء: ٥٨].

4- وبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المَوْعِظَةَ يَسْتفيدُ مِنْها المُتَّقُون، كَما قالَ تعالى: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٦٦]، وقال تعالى: {هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٨].

5- وَبَيَّنَ كَذلكَ أنَّها مِن سِماتِ الَّذينَ يُؤمِنُون بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ، كَما قَال تعالى: {ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٣٢].

6- وأَخْبَرَ اللهُ تعالى عَن قَومٍ مِن بَني إسرائيل وعَظوا قَوما مُعانِدين، فَأنْكَرَ عَلَيهِم قَومٌ آخَرونَ وَعْظَهُم، قَال تعالى: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٦٤].

7- وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الصَّالِحِينَ كانُوا يَقُومونَ بِوَعْظِ أوْلادِهِم، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣].

8- وبَيَّنَ تعالى أنَّ ثَمَرَةَ قُبُولِ المَوْعِظَةِ في قولِهِ: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [النساء: ٦٦].

9- ولِأَهَمِيَة المَوْعِظَةِ وَجَّهَ اللهُ الأزْواجَ بالعَمَلِ بِها مَعَ زَوجاتِهِم بِحَيْثُ تَكُونَ أوَّلَ عِلاجٍ لِنُشُوزِ الزَّوْجَةِ، كَما قالَ تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا} [النساء: ٣٤].

ب. في نُصُوصِ السُنَّة النبوية:

وَقَد مارَسَ النَّبيُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَوْعِظَةَ الحَسَنَة في دَعْوَتِهِ ومِن ذلك:

[3358] فقه الدعوة إلى الله، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني 1/ 609

1- عن أبي مسعود الأنصاريّ رضي الله عَنْهُ قال: جاءَ رَجُلٌ إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إنّي لأتَأَخَّرُ عَنِ صَلاة الصُّبْحِ مِن أجْلِ فُلان، ممّا يُطيلُ بِنا، "فما رأيْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَضِبَ في مَوْعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ ممّا غَضِبَ يَومئذ" إلى آخر الحديث".[3359]

2- وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: "صلّى بنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يوم، ثُمَّ أقْبَلَ عَلَيْنا فَوَعَظَنا مَوْعِظَةً بَليغَة، ذَرَفَت مِنْها العُيون، وَوَجِلَت مِنْها القُلُوب، فقال قائلٌ: يا رسول الله كأنَّ هذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فماذا تَعْهَد إلينا؟ فقال: "أوصيكم بتقوى اللهِ والسمعِ والطاعةِ وإن عبدًا حبشيًّا، فإنه من يعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاءِ المهديّين الراشدين تمسّكوا بها، وعَضّوا عليها بالنواجذِ، وإياكم ومحدثاتِ الأمورِ فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ".[3360]

ذَكَرَ الشَّيْخ ابْنُ عُثَيْمِين فِي شَرْحِهِ لِهَذَا الْحَدِيثِ عِدَّة فَوَائِدَ، حَيْثُ قَالَ:

الفائدة الْأُولَى: مَشْرُوعِيَّة المَوْعِظَة، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي مَحَلِّهَا، وَأَنْ لَا يُكْثِرَ مِنْهَا فَتُمَلَّ؛ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا مَلُّوا، مَلُّوا الْوَاعِظ والمَوْعِظَة، وتقاصَرَت هِمَمَهُم عَنِ الحُضُورِ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّلُ أَصْحَابَهُ بِالمَوْعِظَةِ، وَكَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ يَعِظُ أَصْحَابَهُ كُلَّ يَوْمِ خَمِيسٍ، يَعْنِي فِي الْأُسْبُوعِ مَرَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْوَاعِظِ أَنْ تَكُونَ مَوْعِظَتُهُ مُؤَثِّرَةً، وَذَلِك بِاخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ الجَزْلَةِ الْمُثِيرَة، وَهَذَا عَلَى حَسَبِ الْمَوْضُوع، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعِظَ النَّاسَ لِمُشَارَكَةٍ فِي جِهَادٍ أَوْ نَحْوِهِ فالمَوْعِظَةُ تَكُونُ حَماسِيَّةً، وَإِنْ كَانَ لِعَمَلِ الْآخِرَةِ فَإِنْ المَوْعِظَةَ تَكُونُ مُرَقِّقَةً لِلْقُلُوبِ وَهَكَذَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْمُخَاطَبَ بالمَوْعِظَةِ إِذَا كَانَتْ بَلِيغَةً فَسَوْف يَتَأَثَّر، لِقَولِهِ: "وَجِلَت مِنهَا القُلُوبُ، وذَرَفَت مِنهَا العُيونُ".[3361]

والمَوْعِظَةُ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ تَخْرُجُ مِن فَمِ الدَّاعِيَةِ وقَلْبِهِ، لِتَصِلَ إلى آذانِ وقُلُوبِ وعُقُولِ السَّامِعِينَ؛ فَيَجِدون فيها الخَيرَ والسَّعادَة والأمَلَ والبَلْسَم النَّاجِعَ لأمراضِهِم وأدواءِهِم، ويُحِسُّونَ مِنْ خِلَالِهَا بِصِدْقِ الدَّاعِيَةِ وَقُرْبِهِ مِنْهُم، وحِرْصِهِ على جَلْبِ الخَيرِ والنَّفْعِ لَهُم، وَدَفْعِ الشَّرِّ والضُّرِّ عَنْهُم.
كَمَا أَنَّ "المَوْعِظَةَ تُعَدُّ سياجًا آمِنًا لِلْمُجْتَمَعِ المُسْلِمِ، يَقِيهِ مِن الوُقُوعِ في الرَّذائِلِ والانْغِماسِ في الشَّهَواتِ، أو التَّعَلُّقِ بالشُّبُهاتِ والمَعاصي والمُنْكَرات، فهي تُبْرِهِنُ على خَيْرِيَّةِ الأمَّةِ وفَضْلِها على سائِرِ الأُمَم حَيْثُ إنَّها اقتِفاءٌ لِسُنَّةِ الرُسُلِ والصَّالِحِين".[3362]

المطلب الثالث: شُمُولِيَّةُ المَوْعِظَةِ الحَسَنَة لِلأمْرِ والنَّهي

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: "العظة يُرَادُ بِهَا أَمْرَان: الْأَمْرُ وَالنَّهْي المَقْرُونانِ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَقُيِّدَت المَوْعِظَة بِوَصْف الْإِحْسَان، إِذْ لَيْسَ كُلُّ مَوْعِظَةٍ حَسَنَة".[3363]

وقال ابنُ تَيمية رحمه الله: "والمَوْعِظَة الحَسَنَة: تَجْمَعُ التَّصْدِيقَ بالخَبَرِ والطَّاعَةَ لِلأمْر؛ ولهذا يَجِيءُ الوَعْظُ في القُرآن مُرادًا بِهِ الأمْرُ والنَّهي بِتَرْغيبٍ وَتَرهِيبٍ، كَقَوْلِهِ: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [النساء: ٦٦]، وقَوْلِهِ:

[3359] صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام 466 واللفظ له
[3360] سنن أبي داوود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة 4607 واللفظ له، وجامع الترمذي كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع 2676 وقال: حسن صحيح، وسنن ابن ماجة في افتتاح الكتاب، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين 42، وصححه الألباني في صحيح الجامع 2/ 346
[3361] شرح الأربعين النووية، محمد صالح العثيمين، ص: 304
[3362] الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية 2/693- 694، 699- 700بتصرف واختصار.
[3363] ينظر مدارج السالكين 1/444

{يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [النور: ١٧]، وقَوْلِهِ: {جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٦٦]، أي يَتَّعِظُونَ بِها فَيَنْتَهُونَ وَيَنْزَجِرُون".[3364]

وقالَ الشَّوكاني رَحِمَهُ الله: "هي المَقالةُ المُشْتَمِلَة على المَوْعِظَة الحَسَنة التي يَسْتَحْسِنُها السَّامِع، وتَكُونَ في نَفسِها حَسَنة باعْتِبار انْتِفاعِ السَّامِع بِها".[3365]

المطلب الرابع: أنواعُ المَوْعِظَةِ الحسنةِ

قال ابن القيم: "وَالْعِظَةُ نوعان: عِظَةٌ بالمَسْمُوع، وَعِظَةٌ بالمشْهُود:

فالعظةُ بِالْمَسْمُوع: الِانْتِفَاعُ بِمَا يَسْمَعُهُ مِنْ الْهُدَى وَالرُّشْد، وَالنَّصَائِح الَّتِي جَاءَتْ عَلَى لِسَانِ الرُّسُل وَمَا أُوحِيَ إلَيْهِم، وَكَذَلِك الِانْتِفَاعُ بالعظة مِنْ كُلِّ نَاصِحٍ ومُرْشِدٍ فِي مَصَالِحِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

والعظة بِالْمَشْهُود: الِانْتِفَاعُ بِمَا يَرَاهُ وَيَشْهَدُه فِي الْعَالَمِ مِنْ مَوَاقِعِ الْعِبَر، وَأَحْكَامِ الْقَدَر، وَمَجَارِيهِ، وَمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ رُسُلِه".[3366]

المطلب الخامس: مَعَالِمُ المَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الله

مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبَغِي للدُّعَاةِ مُرَاعَاتُهَا فِي أُسْلُوبِ المَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ:

أَوَّلًا: الإِخْلاصُ لِلَّهِ تَعَالَى فِي المَوْعِظَة:

فَلَا بُدَّ لِلداعِيَةِ أَنْ يَسْتَحْضِرَ النِّيَّةَ الصَّالِحَةَ فِي مَوْعِظَتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، بِأَنْ يَكُونَ قَاصِدًا نَفْعَ النَّاسِ ودَلالَتِهِم عَلَى الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ وإِبْعادِهِم عَنِ الشَّرِّ وَالْمُنْكَرِ، وَلَا تَكُونُ نِيَّتُهُ حُبَّ الظُّهُورِ وَالتَّعَالِي عَلَى النَّاسِ.

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَدَفُ الدَّاعِيَة وَغَايَتُه هُوَ صَلَاحُ الْمَدْعُو وَاسْتِقَامَةُ حَالِهِ، وَلَا يَكُونُ قَصْدُهُ مُجَرَّدًا عَلَى إِقَامَةِ الْحُجَّةِ، بَلْ يَكُونُ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٦٤] فالهَدَفُ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ مَعَ رَجَاءِ الْهِدَايَة، فَإِذَا خَرَجَتِ المَوْعِظَةُ مِنْ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ، وَمَتَى مَا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ الْأَذَانَ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: "فإِنَّ أَعْظَمَ مَا عُبِدَ اللَّهِ بِهِ نَصِيحَةُ خَلْقِهِ".[3367]

ثانياً: مَنْ يُسْتَخْدَمُ فِي حَقِّهِ أُسْلُوبُ المَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ:

قَالَ ابنُ القَيِّم: "والقابِلُ الَّذي عِنْدَهُ نَوْعُ غَفْلَةٍ وتأَخُّرٍ، يُدْعى بالمَوْعِظَةِ الحَسَنَة، وهي الأمرُ والنَّهْيُ المَقْرونُ بالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ".[3368]

كَما يَقولُ ابنُ القَيِّم: "إنَّما يَشْتَدُّ افْتِقارُ العَبْدِ إلى العِظَةِ وهِيَ التَّرْغيبُ والتَّرْهيبُ إذا ضَعُفَتْ إِنَابَتُهُ وَتَذَكُّرُهُ".[3369]

فَإِنْ كانَ المَدْعُو فِيهِ حِرْصٌ على اتِّباعِ الحَقِّ؛ فَيُبَيَّنُ له هذا الحَقَّ بِالأَدِلَة، لِكَوْنِهِ يَطْلُبُ الحَقَّ فَمَتى ظَهَرَ لَهُ قَبِلَهُ، فَلا يَكُونُ في حاجَةٍ إلى المَوْعِظَةِ، وَبَعْضُ النَّاسِ يَكُونُ عِنْدَهُ بَعْضُ التَّوَقُّفِ وَبَعْضُ الجَفَاءِ وَالغَفْلَةِ والإعراضِ مَعَ عِلْمِهِ بِالحَقِّ؛ فَهَذَا يَحْتاجُ إلى المَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، والتي تَكونُ بالأمرِ والنَّهي المَقْرونانِ بالتَّرغيبِ والتَّرْهِيبِ الذي يُوصِلُ إلى تَرْقيقِ قَلْبِ المَدْعُو وقَبُولِهِ لِلَحَقِّ واتِّبَاعِهِ لَه.[3370]

[3364] مجموع الفتاوى 45/2

[3365] فتح القدير 242/3

[3366] مدارج السالكين 334/1

[3367] مجموع الفتاوى 615/28.

[3368] مفتاح دار السعادة 153/1

[3369] مدارج السالكين445/1

[3370] مجموع فتاوى ابن باز 229/4

ثالثًا: مَن يقومُ بالوَعظ:

"ليسَ كُلُّ النّاسِ يَصْلُحُ لِوَعْظِ العَامَّةِ وإرشادِهِم، وإنَّما يَقْتَصِرُ ذلكَ على طائِفَةٍ مِنَ العُلَماءِ الَّذينَ أشارَ إليهِمُ الرّاغِبُ عِنْدَما قال: حَقُّ الواعِظِ أن تَكونَ له مُنَاسَبَةٌ إلى الحُكَماءِ لِيَقْدِرَ على الاقْتِباسِ عَنْهُم والاستِفادَةِ مِنهُم، ومُنَاسَبَةٌ إلى الدُّهَماءِ، حتّى يَقْدِروا بِها على الأخْذِ مِنْه كالوزير للسلطان الذي يجب أن يكون فيه أخلاق الملوك، وتواضع السوقة ليصلح أن يكون واسطة بينه وبينهم، وكالنبي الذي جعله الله من البشر وأعطاه قوة الملك ليمكنه أن يأخذ عن الملك ويمكن البشر أن يأخذوا عنه، وإلى هذا أشار تعالى بقوله: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا)".[3371]

وَكَذَلِكَ عَلَى الْوَاعِظ أَنْ يَكُونَ قُدْوَةً عَمَلِيَّةً فِيمَا يَعِظُ النَّاسَ بِهِ، وَإِلَّا تُخَالِفُ أَقْوَالُهُ أَفْعَالَه، وَهَذَا الْأَمْرُ مُهِمٌّ جِدًّا لِلداعِيةِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَلِكَي يَسْتَجِيبَ النَّاسِ لَهُ.

رَابِعًا: الاعْتِمَادُ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ:

فَالْوَحْي الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا فِيهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وهِدايَتُها، وَقَدْ يُكْثِرُ الْبَعْضُ مِنْ ذِكْرِ الْقِصَصِ الَّتِي لَمْ تَرِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ نَبِيِّهِ بِهَدَفِ نُصْحِ النَّاسِ وَتَرْغِيبِهِم أو تَرْهِيبِهِم، وَرُبَّمَا يَكُونُ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْقِصَصِ مِنْ نَسْجِ خَيَالِ رُوَاتِهَا، بَلْ قَدْ يَصِلُ الْأَمْرُ بِالْبَعْض إِلَى وَضْعِ الْأَحَادِيثِ وَالْكَذِبِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحُجَّةِ أَنَّ قَصَدَهُ الْخَيْرَ وَالنُّصْحَ لِلنَّاس، وَقَدْ اشْتَدَّ نَكِيرُ السَّلَفِ عَلَى قَوْمٍ زَعَمُوا التَخَصُّصَ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ.

قَالَ أَبُو زُرْعَةَ: "مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عِبْرَةٌ؛ فَلَيْسَ لَهُ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ عِبْرَة"[3372]، يُشِيرُ إلى كُتُبِ الوَعْظِ التي بَعُدَتْ عَنِ الكِتابِ والسُنة.

وقال ابنُ الجَوزي رَحِمَهُ الله: "كانَ الوُعَّاظُ في قَديمِ الزَّمانِ عُلَماءٌ فُقَهاء".[3373]

وَذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَنَّ قَوْمًا كَانُوا يَضَعُونَ أَحَادِيثَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَلَبَّسَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ بِأَنَّنَا نَقْصِدُ حَثَّ النَّاسِ عَلَى الْخَيْرِ وَكَفَّهُمْ عَنِ الشَّرِّ، وَهَذَا افْتِيَاتٌ مِنْهُمْ عَلَى الشَّرِيعَةِ، لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ نَاقِصَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى تَتِمَّةٍ، ثُمَّ نَسُوا قَوْلُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"[3374]).[3375]

خَامِسًا: الاقْتِصَادُ فِي الْمَوْعِظَة وَعَدَمُ الْإِسْهَابِ وَالْإِطَالَةِ فِيهَا:

وَذَلِكَ حَتَّى لَا يَمَلَّ السَّامِعُ فَيَضِيعَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا، فَعَن شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ فقالَ له رَجُلٌ: يا أبا عبدِ الرَّحْمَنِ لَوَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنا كُلَّ يَومٍ؟ قالَ: أما إنَّه يَمْنَعُنِي مِن ذلكَ أنِّي أكْرَهُ أنْ أُمِلَّكُمْ، وإنِّي أتَخَوَّلُكُمْ بالمَوْعِظَةِ، كما كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتَخَوَّلُنا بها، مَخافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنا".[3376]

"قَوْلُه: (يَتَخَوَّلُنا بالمَوْعِظَة): الْمُرَادُ أَنَّهُ كَانَ يُرَاعِي الْأَوْقَاتَ فِي تَعْلِيمِهِمْ وَوَعْظِهِم وَلَا يَفْعَلُهُ كُلَّ يَوْمٍ خَشْيَة الْمَلَلِ، والتَّخَوُّلُ: التَّعَهُّدُ، وَقِيل: أَنَّ بَعْضَهُمْ رَوَاهُ بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ – يَتَحَوَّلُنا - وَفَسَّرَهُ بِأَنَّ الْمُرَادَ يَتَفَقَّدُ أَحْوَالَهُم الَّتِي يَحْصُلُ لَهُمْ فِيهَا النَّشَاطُ للمَوْعِظَةِ فَيَعِظُهُم فِيهَا، وَلَا يُكْثِرُ عَلَيْهِم؛ لِئَلَّا يَمَلُّوا، حَكَى ذَلِكَ الطَّيبِيُّ ثُمَّ قَالَ: وَلَكِنَّ الرِّوَايَةَ فِي الصِّحَاحِ بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ، وقوله: (كراهية السَّآمَة علينا) أَي: أَنْ تَقَعَ مِنَّا السَّآمَة، وَفِيهِ رِفْقُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَصْحَابِه وَحُسْنُ التَّوَصُّلِ إِلَى

[3371] الذريعة إلى مكارم الشريعة ص 252 بتصرف يسير.

[3372] تاريخ بغداد 104/9

[3373] تلبيس إبليس ص111

[3374] صحيح البخاري 3461

[3375] تلبيس إبليس ص111

[3376] صحيح البخاري 68، ومسلم 2821

تَعْلِيمِهِم وتَفْهِيمِهِم؛ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ بِنَشَاطٍ لَا عَنْ ضَجَرٍ، وَلَا مَلَلٍ، ويُقتدى بِهِ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ التَّعْلِيم بِالتَّدْرِيجِ أَخَفُّ مَؤُنَةً، وَأَدْعَى إِلَى الثَّبَاتِ مِنْ أَخْذِهِ بَالكَدِّ والمُغالَبَةِ".[3377]

وعن جابِرِ بنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قال: "كانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَطيلُ المَوْعِظَةَ يومَ الجُمُعَةِ إنَّما هُنَّ كَلِماتٍ يَسيرات".[3378]

سَادِسًا: التَّنْوِيعُ فِي المَوْعِظَةِ بَيْن التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ:

وَذلِكَ بِحَسَبِ حَالِ الْمَدْعُوّ وَالْأَمْرِ الَّذِي تَدْعُوه إِلَيْه، فَتَارَةً تَكُونُ المَوْعِظَةُ بِذِكْرِ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْأَوَامِرُ مِنَ الْمَصَالِحِ وَتِعْدَادُهَا، وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ النَّوَاهِي مِنَ الْمَضَارِّ وَتِعْدَادُهَا، وَتَارَةً بِذِكْرِ إِكْرَامِ مَنْ قَامَ بِدِينِ اللَّهِ وَإِهَانَةِ مَنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ، وَتَارَةً بِذِكْرِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلطَّائِعِينَ مِنَ الثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَمَا أَعَدَّ لِلْعَاصِين مِنْ الْعِقَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ.[3379]

سابِعًا: أَنْ تَكُونَ المَوْعِظَة حَسَنة:

أَي: "أن تَكُونَ المَوْعِظَةُ حَسَنَةً فِي ذَاتِهَا وَمَوْضُوعِهَا وأسْلُوبِها وَطَرِيقَةِ عَرْضِهَا مِنْ حَيْثُ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ، مَعَ اللِّينِ وَالْبُعْدِ عَنْ الفَظاظَةِ وَالْغِلْظَةِ وَالْخُشُونَة، وَأَنْ تَكُونَ بَلِيغَةً بَيِّنَةً لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة: ٨٣]، وَقَالَ تَعَالَى: {اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ} [طه: ٤٣ – ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء:٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عِمْرَان:١٥٩].

وَمِنْ حُسْنِ المَوْعِظَةِ أَنْ تَكُونَ سِرِيَّةً إِذَا كَانَتْ خَاصَّة بِفَرْدٍ أَوْ حَالَةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَيَبْتَعِدُ فِيهَا الدَّاعِيَةُ عَنِ التَّشْهِيرِ وَالتَّجْرِيحِ"[3380]، فالمَوْعِظَةُ لِلنَّصِيحَةِ، وَلَيْسَتْ لِلفَضِيحَةِ.

المطلب السادس: الْحِكْمَةُ وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ قَرِينَتَانِ

قَالَ اللَّهُ -عز وجل- فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: {ادعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ} [النحل: 125].

وَالْحِكْمَة كَمَا تقدّم تَعْنِي: الْعِلْم، والتكلّم بِالْحَقِّ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِب والمحلّ الْمُنَاسِب، وَبِالْكَلَام الْوَاضِح مِنْ كَلَامِ اللَّهِ -تعالى- وَكَلَامِ رَسُولِهِ الْكَرِيمُ صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم مَع الرِّفْقِ وَاللِّينِ وَعَدَم السبّ.[3381]

وَمِنْ أَهَمِّ أَسَالِيبِ وَوَسَائِلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ مَا يَأْتِي:[3382]

1- الْقَوْلُ الْحَسَنُ:

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [سورة البقرة:83]، فَيَجِبُ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَخْتَارَ أَلْطَفَ التَّعْبِيرَاتِ وأرَقَّ التَّرْكِيبَاتِ عِنْدَ مُخَاطَبَة النَّاس؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَوْقَعُ فِي نُفُوسِهِمْ، وأبْلَغُ فِي التَّأْثِيرِ بِهِم، وَأَنْفَعُ فِي حُصُولِ الْمَقْصُودِ.

2- الوَقْتُ الْمُنَاسِبُ:

[3377] فتح الباري لا بن حجر 11/228

[3378] المستدرك على الصحيحين، الحاكم 1/426، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم

[3379] ينظر تيسير الكريم الرحمن، ص 452

[3380] الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية 695/2 بتصرف يسير.

[3381] كيفية الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة"، www.binbaz.org.sa

[3382] بكر البعداني، "الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وبيان شيء من طرقها"، ww.alukah.net

يَنْبَغِي عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَخْتَارَ الوَقْتَ الْمُنَاسِبَ لِلدَّعْوَة؛ لِأَنَّ هُنَاكَ مُشْكِلَاتٍ واشْتِبَاكاتٍ تَحْصُل بَيْنَ النَّاسِ تَجْعَلُهُم يَحْتَاجُونَ إِلَى الْمَوْعِظَةِ وتَهْدِئَةِ النُّفُوسِ فِي هَذَا الْوَقْتِ بِالذَّات.

3- الْعَمَلُ بِالسِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ:

فَيَنْبَغِي عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يُرَاعِيَ فِي دَعْوَتِهِ مَصالِحَ الْأُمَّة، وَأَنْ يَتَّخِذَ الْحِكْمَة سبيلاً ومنهجًا لِذَلِك.

4- الْبُعْدُ عَنْ الغِلظَةِ:

يَنْبَغِي عَلَى الدَّاعِيَةِ أَن يَحْذَرَ مِنْ اسْتِخْدَامِ الْكَلِمَاتِ الْجَافَّة، وَالْعِبَارَاتِ الْغَلِيظَةِ غَيْرِ الْمَرْغُوبِ فِيهَا، وَيَبْتَعِدَ عَن سَبِّ النَّاس أو تَجْرِيحِهم، أَو تَحْقِيرَهُم، أَو إِيذَائِهِم؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ منافياً لِلْحِكْمَةِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

5- الاتِّبَاعُ النَّبَوِيُّ فِي الدَّعْوَةِ:

يَنْبَغِي عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَسْعَى إِلَى تَطْبِيقِ أَسَالِيبِ النَّبِيِّ صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّعْوِيَة، لِمَا لِهَذِهِ التربيةِ النَّبَوِيَّة الْكَرِيمَةِ مِنْ الْأَثَرِ الْعَظِيمِ فِي تَوْجِيهِ النَّاسِ نَحْوَ الْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ.

6- اتِّبَاعُ مَنْهَجِ الصَّحَابَةِ فِي الدَّعْوَةِ:

يَنْبَغِي عَلَى الدَّاعِيَة أَنْ يَنْظُرَ فِي سِيرَةِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ -رضوان الله عليهم- ويَتَّبِعَ مَنْهَجَهُم فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَيَسِيرَ عَلَى طَرِيقِهِم؛ لِأَنَّهُم مَصَابِيحُ الْهُدَى الَّذِينَ سَطَّروا أَرْوَعَ الْأَمْثِلَةِ التَّطْبِيقِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَفْقَ مَنْهَجِ رَسُولِ اللَّهِ.

7- تَنْوِيعُ أَسَالِيبِ الدَّعْوَةِ:

فَيَنْبَغِي عَلَى الدَّاعِيَة أَنْ يَسْعَى إِلَى تَطوِيرِ نَفسِهِ وتَطْوِيرِ أَسَالِيبِ الدَّعْوَةِ حَتَّى تَصِلَ إِلَى كُلِّ مَن لَم تبلُغْه فِي كُلِّ مكانٍ فِي الْعَالَمِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ اسْتِخْدَامِ كلِّ الوَسَائِلِ الَّتِي يَسَّرها اللَّه -تعالى- لِلْإِنْسَان.

8- مُخَاطَبَةُ النَّاسِ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ:

فَيَنْبَغِي عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ قَاعِدَةَ: (لكلّ مقامٍ مقال)، فَيَقْتَصِرَ فِي دَعْوَتِهِ عَلَى كَلِماتٍ تُنَاسِبُ الْمُسْتَمِعِين لَه وَعُقُولُهُم، واسْتِعْداداتُهُم، بِشكلٍ لَا شُبْهَةَ فِيهِ وَلَا لبْس.

9- التَّلَطُّفُ فِي دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى:

لَكِنَّ هَذَا التَّلَطُّفُ يَكُونُ فِي الْأُسْلُوب فَقَط، وَلَا يَكُونُ فِي الْمَعْلُومَات الدِّينِيَّةِ الَّتِي يُقَدِّمُها لَهُم.

وَتَجْدُرُ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ -تعالى- يَنْبَغِي أَنْ لَا تَقْتَصِرَ عَلَى الْعُلَمَاءِ فَقَط، وَخَاصَّةً الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ؛ لِأَنَّهَا وَظِيفَةُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِم، وَلَو الْتَزَمَ كُلُّ داعيةٍ بِالْأُمُورِ السَّابِقَةِ الذِّكْرِ فَإِنَّهَا وَبِلَا شَكٍّ سَتَكُونُ سَبَباً فِي انْفِتَاحِ قُلُوبِ النَّاسِ لِلنُّورِ وَالْهُدَى؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَةَ الْحَكِيمِ هُوَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَلِكَ الْقُلُوبَ بِحُسْنِ بَيَانِهِ، وَكَرِيمِ طِبَاعِهِ، فَهُوَ أَشْبَهُ بِالطَّبِيبِ النَّاصِحِ الَّذِي يُعَالِجُ الْمَرِيضَ وَقَدْ أَتْعَبَه الْمَرَض.

المطلب السابع: الموعظة الحسنة باختصار

"التَّربيةُ بالوَعظِ لها دَورُها الهامُّ في غَرسِ القِيَمِ الإسلاميَّةِ بمَيادينِها المُختَلفةِ، وهيَ قَد تَكونُ في صورةٍ مُباشِرةٍ على شَكلِ نَصائِحَ، فالإنسانُ "قد يُصغي ويَرغَبُ في سَماعِ النُّصحِ من مُحِبِّيه وناصِحِيهِ، فالنُّصحُ والوَعظُ يُصبحُ في هذه الحالةِ ذا تَأثيرٍ بَليغٍ في نَفسِ المُخاطَبِ".[3383]

[3383] نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي لمحمد فاضل الجمالي ص: 111

والقُرآنُ الكَريمُ زاخِرٌ بالمَواعِظِ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ} [يونس: 57]، {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ} [النساء: 58].

وفي الحَديثِ الشَّريفِ عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "المَرءُ على دينِ خَليلِهِ[3384]؛ فليَنظُرْ أحَدُكُم من يُخالِلُ".[3385]

"والمَوْعِظَة المُؤَثِّرةُ تَفتَحُ طَريقَها إلى النَّفسِ مُباشَرةً؛ ممَّا يُؤَثِّرُ في تَغييرِ سُلوكِ الفردِ، وإكسابِه الصِّفاتِ المَرغوبِ فيها، وَكَمَالُ الخُلُقِ: عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: "أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَرَجَ ومَعَه بلالٌ، فظَنَّ أنَّه لم يُسمِعِ النِّساءَ، فَوَعَظَهُنَّ وأمرَهُنَّ بالصَّدَقةِ، فجَعلتِ المَرأةُ تُلقي القُرطَ[3386] والخاتمَ، وبلالٌ يأخُذُ في طَرَفِ ثَوبِه".[3387]

وفي المَواعِظِ القُرآنيَّةِ نلحَظُ أسلوبًا تَربَويًّا رائِعًا: يَبغي كَمالَ الإنسانِ، بَحيثُ يَجِبُ أن يَتَمَثَّلَها المُعلِّمُ والمُتَعلِّمُ؛ إذ هي صادِرةٌ عن حِكمةٍ، وليس عن هَوًى، والمِثالُ على ذلك نَأخُذُها خُلاصةً من عِظةِ لُقمانَ لابنِه، التي تَهدُفُ إلى:

أ- أَنْ يَكونَ اللَّهُ هو مَصدَرُ السُّلوكِ، بِمَعْنَى إِيمَانِ الإِنْسَانِ بِهِ، وَاتِّبَاعِ شَرِيعَتِه، وَذَلِكَ هُوَ مُحَدِّدُ سُلوكِ الإنسانِ، وَهُوَ الهَدَفُ والغايةُ لسُلوكِه، بِمَعْنَى أَنْ يَكونَ مُخلِصًا للَّهِ، وَذَلِكَ عن طَريقِ عَدَمِ الإشراكِ باللهِ، والشُّكرِ له.

ب- أَنْ يَكونَ السُّلوكُ كما حَدَّدَتهُ المَوْعِظَةُ في قَصدٍ واعتِدالٍ في كُلِّ شَيءٍ، فلا مُغالاةَ ولا تَفريطَ، إنَّما تَوسُّطٌ واعتِدالٌ، وهذا يَعكِسُ هَدَفَ التَّربيةِ الإسلاميَّةِ السُّلوكيَّةِ: أنَّها تُنشِئُ إنسانًا مُعتَدِلًا في سُلوكِه وفي عَقيدَتِه.

وهكذا يَبدو دَورُ الوعظِ كَوسيلةٍ في التَّربيةِ الإسلاميَّةِ، تَصلُحُ في مَيدانِ التَّربيةِ الخُلُقيَّةِ، كما هي في مَيدانِ التَّربيةِ الاجتِماعيَّةِ والعَقليَّةِ وباقي المَيادينِ الإسلاميَّةِ".[3388]

(اللهم ارزُقْنَا الحِكْمَةَ وَالمَوعِظَةَ الحَسَنةَ، وَاطْرَحْ فِيمَا نَقولُ البَرَكَةَ
وَاكْتُبْ لَنَا القَبُولَ فِي قُلُوبِ خَلْقِكَ).

[3384] الخليلُ: الصَّدِيقُ، والخُلَّةُ بالضَّمِّ: الصَّداقةُ والمحبَّةُ التي تخلَّلت القَلبَ فصارت خِلالَه: أي: في باطِنِه، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 72 /2

[3385] رواه أبو داود 4833، والتِّرمذي 2378، وأحمد 8417 واللفظ له. صحَّحه ابن باز في مجموع الفتاوى 6/306، وحسَّنه ابن حجر في الأمالي المطلقة 151، والألباني في صحيح سنن أبي داود 4833، والوادعي في الصحيح المسند 1288، وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ

[3386] القُرطُ: نوعٌ من حُلِيِّ الأذُنِ، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر 41 /4

[3387] أخرجه البخاري 98 واللفظ له، ومسلم 884

[3388] نضرة النعيم 1/142

المبحث الثامن والعشرون: التَّغافُلُ

المطلب الأول: معنى التَّغافُلِ

- **التَّغافُلُ لُغةً:**

الغَفلةُ: غَيبةُ الشَّيءِ عن بالِ الإنسانِ وعَدَمُ تذكُّرِه له. وأغفَلْتُ الشَّيءَ إغفالًا: تركتُه إهمالًا من غيرِ نِسيانٍ. وتغافَل: أرى من نفسِه ذلك وليس به، والتَّغافُلُ: تعمُّدُ الغفلةِ، أي: بالسَّهوِ وقِلَّةِ التَّيقُّظِ.[3389]

- **التَّغافُلُ اصطِلاحًا:**

التَّغافُلُ: هو وَضعُ الغفلةِ في موضِعِها الذي يُذَمُّ فيه البحثُ والتَّقَصِّي؛ فهو فَهمٌ للحقيقةِ، وإضرابٌ عن الطَّيشِ، واستعمالٌ للحِلمِ، وتسكينٌ للمَكروهِ.[3390]

المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ التَّغافُلِ وَغَيْرِهِ من الصِّفَاتِ

1- الفَرقُ بَينَ الغَفلةِ والتَّغافُلِ:

أنَّ الغفلةَ تقعُ من الإنسانِ؛ حيث ينبغي عليه أن يتحَفَّظَ وأنْ ينتَبِهَ، وقد يكونُ مَنشؤُها الجَهلَ، أمَّا التَّغافُلُ فهي غَفلةٌ وَقَعَتْ عَنْ قَصْدٍ وإرادةٍ وتيقُّظٍ وعِلْمٍ، فُحِمِد التَّغافُلُ وذُمَّتِ الغفلةُ.[3391]

2- الفَرقُ بَينَ التَّغافُلِ والتَّغابي والتَّغاضي والتَّجاهُلِ:

التَّغافُلُ: هو أن يتظاهَرَ بالغفلةِ أو يتعَمَّدَها، أي: بالسَّهوِ وقِلَّةِ التَّيقُّظِ.

أمَّا التَّغابي: فيقالُ تغابى عنه، أي: تغافَلَ، وتظاهَرَ بالغباءِ أو الجهلِ وقِلَّةِ الفِطنةِ.

أمَّا التَّغاضي: فيُقالُ: تغاضى عنه، أي: تغافلَ، مِثلُ تغابى عنه.

وتجاهَلَ: تظاهَرَ بالجهلِ؛ أظهَرَ أنَّه جاهِلٌ وليس به[3392]. فالألفاظُ الأربعةُ بينها تقارُبٌ في المعنى.

المطلب الثالث: التَّرغيبُ في خلق التَّغَافِلِ والحثُّ عليه

أ. التَّغَافُلُ مِنْ نُصُوصِ القُرآنِ الكَرِيمِ:

1- قال تعالى مخاطبًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199].

"قَولُه تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ) أي: خُذِ الميسورَ من أخلاقِ النَّاسِ؛ مِثلُ: قَبولِ الاعتذارِ، والعَفوِ والمُساهلةِ في الأمورِ، وتَركِ البحثِ عن الأشياءِ، ونحوِ ذلك".[3393]

قال السَّعديُّ: "أي: ما سمَحَتْ به أنفُسُهم، وما سَهُل عليهم من الأعمالِ والأخلاقِ، فلا يُكَلِّفُهم ما لا تسمَحُ به طبائِعُهم، بل يَشكُرُ مِن كُلِّ أحدٍ ما قابله به من قَولٍ وفِعلٍ جميلٍ، أو ما هو دونَ ذلك، ويتجاوَزُ عن تقصيرِهم، ويغُضُّ طَرفَه عن

[3389] يُنظر: مختار الصحاح للرازي ص: 228، لسان العرب لابن منظور 11/498، المصباح المنير للفيومي 2/449، معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار 2/1630

[3390] يُنظر :((الأخلاق والسير)) لابن حزم (ص: 86)

[3391] يُنظر: الأخلاق والسير لابن حزم ص: 86

[3392] يُنظر: الزاهر لأبي منصور الأزهري ص: 274، لسان العرب لابن منظور 15/115، 128، تاج العروس للزبيدي 39/171، معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار 1/413 و1594 /2، 1626، 1630

[3393] تفسير السمعاني 242 /2

نَقصِهم، ولا يتكبَّرُ على الصَّغيرِ لصِغَرِه، ولا ناقِصِ العقلِ لنَقصِه، ولا الفقيرِ لفَقرِه، بل يعامِلُ الجميعَ باللُّطفِ والمقابلةِ بما تقتضيه الحالُ، وتنشَرِحُ له صدورُهم".[3394]

"ففي هذه الآيةِ إشارةٌ إلى الإغضاءِ عن العُيوبِ، والصَّفحِ عن الذُّنوبِ، والتَّغافُلِ عن الزَّلّاتِ".[3395]

2- قال تعالى في وصفِ أخلاقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع زوجاتِه: {فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ} [التحريم: 3].

قال السَّمعانيُّ: "قَولُه: (عَرَّفَ بَعْضَهُ) أي: عرَّفها بعضَ ما كان بينهما، وأعرضَ عن البعضِ؛ تكرُّمًا وصفحًا، والتَّغافُلُ عن كثيرٍ من الأمورِ من شِيمةِ العُقلاءِ وأهلِ الكَرمِ".[3396]

3- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: 12].

قال السَّعديُّ: "وَلَا تَجَسَّسُوا أي: لا تُفَتِّشُوا عن عوراتِ المُسلِمينَ، ولا تتَّبِعوها، واترُكوا المسلِمَ على حالِه، واستَعمِلوا التَّغافُلَ عن أحوالِه التي إذا فُتِّشَت ظَهَر منها ما لا ينبغي".[3397]

ب. التَّغَافُلُ مِنْ نُصُوصِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ:

1- عن أبي أُمامةَ قال: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "إنَّ الأميرَ إذا ابتغى الرِّيبةَ في النَّاسِ أفسَدَهم".[3398]

قال المُناويُّ: "ومقصودُ الحديثِ حَثُّ الإمامِ على التَّغافُلِ، وعَدَمِ تتبُّعِ العوراتِ؛ فإنَّ بذلك يقومُ النِّظامُ ويحصُلُ الانتظامُ".[3399]

2 - وعن عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ أنَّ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عنها- زَوجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قالت: "دخل رهطٌ من اليهودِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالوا: السَّامُ عليكم، قالت عائشةُ: ففَهِمْتُها فقُلتُ: وعليكم السَّامُ واللَّعنةُ! قالت: فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَهلًا يا عائشةُ! إنَّ اللهَ يحِبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كُلِّه، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أوَلم تسمَعْ ما قالوا؟ قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قد قلتُ: وعليكم".[3400]

"وقد استُنبِطَ من هذا استحبابُ تغافُلِ أهلِ الفَضلِ عن سَفَهِ المُبطِلين إذا لم يترتَّبْ عليه مفسَدةٌ".[3401]

3- وعن عبدِ اللهِ بنِ زَمعةَ قال: خَطَبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... وفيه: ثمَّ وعَظَهم في ضَحِكِهم من الضَّرطةِ[3402]، فقال: "إلامَ يضحَكُ أحَدُكم ممَّا يفعَلُ؟".[3403]

قال النَّوويُّ: "فيه النَّهيُ عن الضَّحِكِ من الضَّرطةِ يسمَعُها من غيرِه، بل ينبغي أن يتغافَلَ عنها ويستَمِرَّ على حديثِه واشتغالِه بما كان فيه، من غيرِ التفاتٍ ولا غيرِه، ويُظهِرَ أنَّه لم يسمَعْ".[3404]

[3394] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص: 313

[3395] البرهان في علوم القرآن للزركشي 3/54

[3396] تفسير القرآن للسمعاني 5/472

[3397] تيسير الكريم الرحمن ص: 801

[3398] أخرجه أبو داود 4889، وأحمد 23815، صحَّحه لغيره الألباني في صحيح سنن أبي داود، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود 4889، ووثَّق رجالَه الهيثميُّ في مجمع الزوائد 5/218

[3399] فيض القدير 2/323

[3400] أخرجه البخاري 6024 واللفظ له، ومسلم 2165

[3401] يُنظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح 1/ 294

[3402] الضُّرَاطُ: الريح الخارجة من الاست مع صوتٍ

[3403] أخرجه البخاري 4942، ومسلم 2855 واللفظ له

[3404] شرح النووي على مسلم للنووي 17/188

ت. مِنْ أَقْوَالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ

- قال جَعفَرُ بنُ محمَّدٍ الصَّادِقُ: "عَظِّموا أقدارَكم بالتَّغافُلِ".[3405]

-وقال عُمَرُ بنُ عُثمانَ المكِّيُّ: "المروءةُ التَّغافُلُ عن زَلَلِ الإخوانِ".[3406]

- وقال أَكثَمُ بنُ صَيفيٍّ: "مَن شدَّد نَفَّر، ومَن تراخى تألَّف، والشَّرَفُ في التَّغافُلِ".[3407]

- وقال عبدُ الرَّحمنِ السَّعديُّ: "من تغافل عن عُيوبِ النَّاسِ، وأمسَك لِسانَه عن تتبُّعِ أحوالِهم التي لا يحبُّون إظهارَها؛ سَلِمَ دينُه وعِرْضُه، وألقى اللهُ محبَّتَه في قلوبِ العبادِ، وسَتَر اللهُ عورتَه؛ فإنَّ الجزاءَ من جِنسِ العَمَلِ، وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيدِ".[3408]

- وقال بعضُهم: "من انتَقَم فقد شَفى غيظَ نَفسِه، وأخذ أقصى حَقِّه، وإذا انتقَمْتَ فقد انتصَفْتَ، وإذا عفَوتَ فقد تطوَّلتَ، ومن أخذ حَقَّه وشفى غيظَه، لم يجِبْ شُكرُه، ولم يُذكَرْ في العالَمينَ فَضلُه، وكَظمُ الغَيظِ حِلمٌ، والحِلمُ صَبرٌ، والتَّشَفّي طَرَفٌ من العَجزِ، ومَن رَضِيَ ألَّا يكونَ بَينَ حالِه وبَينَ حالِ الظَّالمِ إلَّا سِترٌ رقيقٌ، وحجابٌ ضعيفٌ؛ فلم يجزِمْ في تفضيلِ الحِلمِ، وفي الاستيثاقِ مِن تَركِ دواعي الظُّلمِ، ولم تَرَ أهلَ النُّهى والمنسوبينَ إلى الحِجا والتُّقى مَدَحوا الحُلَماءَ بشِدَّةِ العقابِ، وقد ذكَروهم بحُسنِ الصَّفحِ، وبكَثرةِ الاغتفارِ، وشِدَّةِ التَّغافُلِ".

- قال أبو بكرٍ: "فاز بالمروءةِ من امتطى التَّغافُلَ، وهان على القُرَناءِ من عُرِف باللَّجاجِ[3409]".[3410]

- وقال مُعاويةُ: "أُحِبُّ للسَّيِّدِ أن يكونَ عاقِلًا مُتغافِلًا".[3411]

- وعن بعضِ السَّلَفِ: "تِسعةُ أعشارِ حُسنِ الخُلُقِ في التَّغافُلِ".[3412]

- وقال الأعمَشُ: "جوابُ الأحمقِ السُّكوتُ عنه، والتَّغافُلُ يُطفِئُ شَرًّا كثيرًا، ورِضا المتجَنِّي غايةٌ لا تُدرَكُ، واستِعطافُ المحِبِّ عونٌ للظَّفَرِ، ومن غَضِب على ما لا يقدِرُ عليه طال حُزنُه".[3413]

- وقال ابنُ عَقيلٍ الحَنبليُّ: "تغافلْ عن هفَواتِ النَّاسِ؛ فذلك داعيةٌ لدوامِ العِشرةِ، وسلامةِ الوُدِّ".[3414]

- وقال أبو الحسَنِ الحراليُّ: "ينظُرُ المنافِقُ إلى ما يَستسقِطُ به فضائِلَ أهلِ الفَضلِ، ويتعامى عن محاسِنِهم! والمؤمِنُ الصَّادِقُ يتغافَلُ عن مساوئِ أهلِ المساوئِ، فكيف بمعايبِ أهلِ المحاسِنِ؟!".[3415]

المطلب الرابع: نماذج في التغافل

أولا: نَموذِجٌ من التَّغافُلِ عندَ الأنبياءِ والمُرسَلينَ:

تغافُلُ يوسُفَ عليه السَّلامُ عَنِ اتِّهامِ إخوتِه له بالسَّرِقةِ:

قال تعالى: {قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا} [يوسف: 77].

[3405] يُنظر: البصائر والذخائر لأبي حيان 241 /7

[3406] صفة الصفوة لابن الجوزي 1/531

[3407] أدب الدنيا والدين للماوردي ص: 180

[3408] الفواكه الشهية ص: 111-112

[3409] اللجاج: التمادي والعناد في الفعل المزجور عنه ومنه.

[3410] ربيع الأبرار للزمخشري 2/ 233

[3411] عيون الأخبار لابن قتيبة 1/ 327

[3412] تفاصيل الجمل شرح لامية ابن الوردي لعبد العزيز بن علي الحربي ص: 69

[3413] شعب الإيمان للبيهقي 11/ 28، 29

[3414] الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح 3/ 586

[3415] للبقاعي 8/ 538، تراث أبي الحسن الحرالي ص: 139

"أي: فأخفى في نفسِه مقالتَهم هذه، أو أخفى الجُملةَ أو الكَلِمةَ التي بعدَها، وهي قولُه: أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا، وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ أي: لم يظهِرْ ما في نفسِه من مؤاخذتِهم بمقالتِهم، بل صفَح عنهم".[3416]

ثانيا: نَماذِجٌ مِنَ التَّغافُلِ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

1- تغافُلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا كان يسمَعُه من شَتمٍ وأذى المُشرِكينَ:

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ألا تعجَبونَ كيف يصرِفُ اللهُ عني شَتمَ قريشٍ ولَعْنَهم؟ يَشتِمونَ مُذَمَّمًا ويلعَنونَ مُذَمَّمًا، وأنا محمَّدٌ!".[3417]

2- تغافُلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن التَّصرُّفِ المَعيبِ، وتعَرُّضُه له بالعَفوِ والصَّفحِ:

عن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: "كنتُ أمشي مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعليه بُردٌ نَجرانيٌّ غليظُ الحاشيةِ، فأدركه أعرابيٌّ فجَذَبه جَذبةً شديدةً، حتى نظرْتُ إلى صفحةِ عاتِقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد أثَّرت به حاشيةُ الرِّداءِ من شِدَّةِ جَذبَتِه! ثمَّ قال: مُرْ لي من مالِ اللهِ الذي عندَك، فالتفَت إليه فضَحِك، ثم أمَرَ له بعطاءٍ!".[3418]

3- تغافُلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا وقع غَيرةً من بعضِ نِسائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

عن أنس رَضِيَ اللهُ عنه، قال: "كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فأرْسَلَتْ إحْدَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتِ الَّتي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في بَيْتِهَا يَدَ الخَادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فَجَمع النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الذي كانَ في الصَّحْفَةِ، ويقولُ: غَارَتْ أُمُّكُمْ، ثُمَّ حَبَسَ الخَادِمَ حتَّى أُتِيَ بصَحْفَةٍ مِن عِندِ الَّتي هو في بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إلى الَّتي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وأَمْسَكَ المَكْسُورةَ في بَيْتِ الَّتي كَسَرَتْ".[3419]

ثالثا: نماذِجُ من التَّغافُلِ عندَ الصَّحابةِ:

1- تغافُلُ ابنِ عَبَّاسٍ عن رَجُلٍ سَبَّه:

قال عِكرِمةُ: "سَبَّ رجُلٌ ابنَ عَبَّاسٍ، فلمَّا قضى مقالتَه قال: يا عِكرِمةُ، انظُرْ هل للرَّجُلِ حاجةٌ فتقضِيَها له؟ قال: فنَكَس الرَّجُلُ رأسَه استحياءً!".[3420]

2- تغافُلُ المغيرةِ بنِ شُعبةَ عمَّا يُنفِقُه أهلُه:

قال ابنُ الجَوزيِّ: "خطب المغيرةُ بنُ شُعبةَ وفتًى من العَرَبِ امرأةً، وكان الفتى طريرًا جميلًا، فأرسلَتْ إليهما المرأةُ، فقالت: إنَّكما قد خطَبتُماني ولستُ أجيبُ أحدًا منكما دونَ أن أراه وأسمعَ كلامَه، فاحضُرا إن شِئتُما، فحَضَرا فأجلسَتْهما بحيثُ تراهما وتسمَعُ كَلامَهما، فلمَّا رآه المغيرةُ ونظر إلى جمالِه وشبابِه وهيئتِه يَئِسَ منها، وعَلِم أنَّها لن تؤثِرَه عليه، فأقبل على الفتى فقال له: لقد أوتيتَ جمالًا وحُسنًا وبيانًا، فهل عندك سوى ذلك؟ قال: نعم، فعدَّد محاسِنَه ثمَّ سكَتَ، فقال له المغيرةُ: كيف حِسابُك؟ قال: ما يسقُطُ عليَّ منه شيءٌ، وإنِّي لأستدرِكُ منه أدَقَّ من الخَردلةِ! فقال له المغيرةُ: لكنَّني أضَعُ البَدرةَ[3421] في

[3416] التفسير المنير 13/42

[3417] أخرجه البخاري 3533

[3418] أخرجه البخاري 3149 واللفظ له، ومسلم 1057

[3419] أخرجه البخاري 5225

[3420] سبل الهدى والرشاد للصالحي 11/130

[3421] البَدرةُ: كِيسٌ فيه عَشرةُ آلافِ دِرهَمٍ، وقيل: ألفٌ، وقيل: سبعةُ آلافِ دينارٍ. يُنظر: مختار الصحاح لزين الدين الرازي ص: 30، تاج العروس للزبيدي 142 /10

زاويةِ البيتِ فيُنفِقُها أهلي على ما يُريدونَ، فما أعلَمُ بنَفادِها حتَّى يسألوني غيرَها! فقالت المرأةُ: واللهِ لَهذا الشَّيخُ الذي لا يحاسِبُني أحَبُّ إليَّ من هذا الذي يُحصي عليَّ مِثلَ صَغيرِ الخَردَلِ! فتزوَّجَت المغيرةَ".[3422]

رابعا: نماذِجُ من التَّغافُلِ عندَ السَّلَفِ والعلماءِ وغيرِهم:

1- تغافُلُ عليِّ بنِ حُسينٍ:

عن موسى بنِ طريفٍ، قال: "اسْتَطالَ رجلٌ على عليِّ بنِ حسينٍ فتغافَل عنه، فقال له الرَّجلُ: إيَّاكَ أعني، فقال له عليٌّ: وعنك أُغْضي".[3423]

2- تغافُلُ عُمَرَ بنِ عَبدِ العزيزِ:

نال رجُلٌ من عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فقيل له: ما يمنَعُك منه؟ فقال: إنَّ المتَّقيَ مُلجَمٌ.[3424]

ولمَّا وَلِيَ بدابِقٍ خرج ذاتَ ليلةٍ ومعه حَرَسيٌّ، فدخل المسجِدَ، فمَرَّ في الظُّلمةِ برَجُلٍ نائمٍ، فعَثَر به، فرفع رأسَه إليه، فقال: أمجنونٌ أنت؟ قال: لا، فهَمَّ به الحرَسيُّ، فقال له عُمَرُ: مَهْ! إنَّما سألني: أمجنونٌ أنت؟ فقُلتُ: لا.[3425]

3- تغافُلُ حاتمِ الأصَمِّ:

قال أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ: "جاءت امرأةٌ فسألت حاتمًا عن مسألةٍ، فاتَّفَق أنَّه خرج منها صوتٌ في تلك الحالةِ، فخَجِلَت، فقال حاتِمٌ: ارفَعي صوتَك، فأوهمَها أنَّه أصَمُّ، فسُرَّت المرأةُ بذلك، وقالت: إنَّه لم يسمَعِ الصَّوتَ؛ فلُقِّبَ بحاتِمٍ الأصَمِّ".[3426]

قال ابنُ القَيِّمِ مُعَلِّقًا: "وهذا التَّغافُلُ هو نِصفُ الفُتُوَّةِ".[3427]

4- تغافُلُ صَلاحِ الدِّينِ الأيُّوبيِّ:

قال ابنُ الأثيرِ يَصِفُ صلاحَ الدِّينِ: "وكان -رحمه اللهُ- كريمًا حليمًا، حسَنَ الأخلاقِ متواضِعًا، صبورًا على ما يكرَهُ، كثيرَ التَّغافُلِ عن ذُنوبِ أصحابِه، يسمَعُ من أحَدِهم ما يكرَهُ ولا يُعلِمُه بذلك ولا يتغيَّرُ عليه، وبلغَني أنَّه كان يومًا جالِسًا وعندَه جماعةٌ، فرمى بعضُ المماليكِ بعضًا بسَرْمُوز[3428] فأخطأَتْه، ووصَلَت إلى صلاحِ الدِّينِ فأخطَأَتْه، ووقَعَت بالقُربِ منه، فالتَفَت إلى الجهةِ الأُخرى يكَلِّمُ جليسَه ليتغافَلَ عنها!".[3429]

5- تغافُلُ ابنِ تيميَّةَ وعَفوُه عمَّن آذوه وتكَلَّموا فيه:

قال ابنُ كثيرٍ: "وسِمعتُ الشَّيخَ تَقيَّ الدِّينِ يَذكُرُ ما كان بينه وبين السُّلطانِ من الكلامِ لَمَّا انفردا في ذلك الشُّبَّاكِ الذي جلسَا فيه، وأنَّ السُّلطانَ استفتى الشَّيخَ في قتلِ بَعضِ القُضاةِ بسَبَبِ ما كانوا تكلَّموا فيه، وأخرج له فتاوى بعضِهم بعَزلِه من المُلكِ ومبايعةِ الجاشَنْكيرِ، وأنَّهم قاموا عليك وآذَوك أنت أيضًا، وأخذ يحثُّه بذلك على أن يُفتيَه في قَتلِ بعضِهم، وإنما كان حَنَقُه عليهم بسَبَبِ ما كانوا سَعَوا فيه من عزلِه ومبايعةِ الجاشَنْكِيرِ، ففهم الشَّيخُ مُرادَ السُّلطانِ، فأخذ في تعظيمِ القضاةِ والعُلماءِ، ويُنكِرُ أن ينالَ أحدًا منهم سُوءٌ، وقال له: إذا قتَلْتَ هؤلاء لا تجِدُ بَعدَهم مِثْلَهم، فقال له: إنَّهم قد آذوك وأرادوا

[3422] الأذكياء لابن الجوزي 30-29

[3423] تاريخ دمشق لابن عساكر 395 /41

[3424] الطبقات الكبير لابن سعد 7/365

[3425] الطبقات الكبير لابن سعد 7/385

[3426] الرسالة للقشيري 1/ 63، مدارج السالكين لابن القيم 2/328

[3427] مدارج السالكين لابن القيم 2/328

[3428] السَّرْمُوز: النَّعْلُ، يُنظر: المعجم العربي لأسماء الملابس لرجب عبد الجواد ص: 232-233

[3429] الكامل في التاريخ 10/119

قَتْلَك مرارًا! فقال الشَّيخُ: من آذاني فهو في حِلٍّ، ومن آذى اللهَ ورسولَه فاللهُ ينتقِمُ منه، وأنا لا أنتَصِرُ لنفسي. وما زال به حتى حَلُمَ عنهم السُّلطانُ وصَفَح".[3430]

المطلب الخامس: مظاهِرُ وصُوَرُ التَّغافُلِ

1-التَّغافُلُ عن زلَّاتِ ذوي الرَّحِمِ، والصَّبرُ عَلَى أَذَاهِمْ، وعَدَمُ قَطْعِهِمْ:

فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ لي قرابةً أصِلُهم ويقطعوني، وأُحسِنُ إليهم ويُسِيئون إليَّ، وأَحلُمُ عنهم ويَجهَلونَ عَلَيَّ، فقال: "لَئِنْ كُنتَ كما قُلتَ فكأنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ[3431]، ولا يزالُ معك من اللهِ ظَهيرٌ عليهم ما دُمتَ على ذلك".[3432]

وفي هذا إشارةٌ إلى التَّغافُلِ عن زلَّاتِ الأرحامِ.[3433]

2-تغافُلُ الزَّوجِ عمَّا يكرَهُ من زوجتِه:

فقد قالت المرأةُ تمدَحُ زَوجَها: "ولا يُولِجُ الكَفَّ ليعلَمَ البَثَّ".[3434]

قال أبو عُبَيدٍ: "أحسَبُه كان بجَسَدِها عيبٌ أو داءٌ تكتَئِبُ به؛ لأنَّ البَثَّ هو الحُزنُ، فكان لا يدخِلُ يَدَه في ثوبِها؛ ليَمَسَّ ذلك العَيبَ، فيَشُقَّ عليها، تَصِفُه بالكَرَمِ".[3435]

قال أبو العبَّاسِ القُرطبيُّ: "على قَولِ أبي عُبَيدٍ، فإنَّها تكونُ قد مدحَتْه بالإعراضِ والتَّغافُلِ عن الاطِّلاعِ على ما يَحزُنُها من عيبِ جَسَدِها".[3436]

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا يَفرَكْ مُؤمِنٌ مُؤمِنةً، إن كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَرَ".[3437]

قال السَّعديُّ: "في هذا الحديثِ فائدتانِ عظيمتانِ:

الفائدة الأولى: الإرشادُ إلى معاملةِ الزَّوجةِ والقريبِ والصَّاحِبِ والمعامِلِ، وكُلِّ من بينَك وبينَه عُلقةٌ واتصالٌ، وأنَّه ينبغي أن تُوطِّنَ نفسَك على أنَّه لا بدَّ أن يكونَ فيه عيبٌ أو نقصٌ أو أمرٌ تكرهُه؛ فإذا وجَدْتَ ذلك فقارِنْ بَينَ هذا وبينَ ما يجِبُ عليك أو ينبغي لك من قوَّةِ الاتصالِ والإبقاءِ على المحبَّةِ، بتذكُّرِ ما فيه من المحاسِنِ والمقاصِدِ الخاصَّةِ والعامَّةِ، وبهذا الإغضاءِ عن المساوئِ وملاحظةِ المحاسِنِ تدومُ الصُّحبةُ والاتِّصالُ، وتتمُّ الرَّاحةُ وتحصُلُ لك.

الفائدةُ الثَّانيةُ: وهي زوالُ الهَمِّ والقَلَقِ، وبقاءُ الصَّفاءِ، والمداومةُ على القيامِ بالحُقوقِ الواجبةِ والمستحَبَّةِ، وحصولُ الرَّاحةِ بَينَ الطَّرَفينِ، ومَن لم يسترشِدْ بهذا الذي ذكره النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بل عكَس القضيَّةَ، فلَحَظ المساوِئَ، وعَمِيَ عن المحاسِنِ؛ فلا بدَّ أن يقلَقَ، ولا بدَّ أن يتكدَّرَ ما بينه وبينَ مَن يتَّصِلُ به من المحبَّةِ، ويتقطَّعَ كثيرٌ من الحُقوقِ التي على كُلٍّ منهما المحافظةُ عليها".[3438]

[3430] البداية والنهاية 18/94

[3431] المَلّ :التُّرابُ الحارُّ والرَّمادُ أَو الجمرُ يُخبَزُ أو يُطبَخُ عليه، أو فيه.

[3432] أخرجه مسلم 2558

[3433] فتح الباري لابن حجر 10/418

[3434] أخرجه البخاري 5189، ومسلم 2448 مطولا من حديث عائشة رضي الله عنها.

[3435] غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلَّام 171 /2

[3436] المفهم لأبي العباس القرطبي 6/338

[3437] أخرجه مسلم 1469

[3438] الوسائل المفيدة للحياة السعيدة ص: 28

3- تغافُلُ الزَّوجِ عمَّا يقَعُ من زوجتِه بسَبَبِ الغَيرةِ:

وقد ذكر العُلَماءُ أنَّ الغَيرى لا تُؤاخَذُ بما يصدُرُ عنها؛ لأنَّها في تلك الحالةِ يكونُ عَقلُها محجوبًا بشِدَّةِ الغَضَبِ الذي أثارته الغَيرةُ.[3439]

4- تغافُلُ الزَّوجِ أحيانًا وعَدَمُ تعهُّدِه الدَّائِمِ لِما يجري في البيتِ:

فقد قالت المرأةُ تمدَحُ زَوجَها: "زوجي إذا دَخَل فَهِد، وإذا خَرَج أسِدَ، ولا يسألُ عمَّا عَهِد".[3440]

قولُها: (زوجي إذا دَخَل فَهِد) تصِفُه بكثرةِ النَّومِ والغَفلةِ في منزِلِه على وجهِ المدحِ له، وذلك أنَّ الفهدَ كثيرُ النَّومِ، يقالُ: أنوَمُ من فَهدٍ، والذي أرادت: أنَّه ليس يتفقَّدُ ما ذهب من مالِه، ولا يلتَفِتُ إلى معايبِ البيتِ وما فيه، كأنَّه ساهٍ عن ذلك، وممَّا يُبَيِّنُه قولُها: (ولا يسألُ عمَّا عَهِد) تعني: عمَّا كان عندي قَبلَ ذلك.[3441]

5- تغافُلُ الوالِدَينِ والمربِّينَ أحيانًا عن بعضِ أخطاءِ الأولادِ؛ لرياضتِهم وتأديبِهم:

قال أبو حامِدٍ الغزاليُّ: "ثُمَّ مهما ظهر من الصَّبيِّ خُلُقٌ جميلٌ وفِعلٌ محمودٌ، فينبغي أن يُكرَمَ عليه ويُجازى عليه بما يَفرَحُ به، ويُمدَحَ بَينَ أظهُرِ النَّاسِ، فإن خالف ذلك في بعضِ الأحوالِ مرَّةً واحدةً فينبغي أن يَتغافَلَ عنه ولا يَهتِكَ سِترَه، ولا يُكاشِفَه ولا يُظهِرَ له أنَّه يتصوَّرُ أن يتجاسَرَ أحَدٌ على مِثلِه، ولا سيَّما إذا ستره الصَّبيُّ واجتهد في إخفائِه؛ فإنَّ إظهارَ ذلك عليه ربَّما يفيدُه جَسارةً حتَّى لا يبالِيَ بالمكاشَفةِ".

6- التَّغافُلُ بتقليلِ اللَّومِ والعِتابِ:

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: "خدَمتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَشْرَ سِنينَ، واللهِ ما قال لي: أفًّا قطُّ، ولا قال لي لشَيءٍ: لَمَ فعلْتَ كذا؟ وهلَّا فعَلْتَ كذا؟".[3442]

7- التَّغافُلُ عند مخالطةِ النَّاسِ عمَّا يقَعُ من بعضِهم من سوءِ الألفاظِ:

قال الغزاليُّ: "ولا تجالِسِ العامَّةَ؛ فإن فعَلْتَ فأدَبُه تَركُ الخوضِ في حديثِهم، وقِلَّةُ الإصغاءِ إلى أراجيفِهم، والتَّغافُلُ عمَّا يجري من سوءِ ألفاظِهم، وقِلَّةُ اللِّقاءِ لهم مع الحاجةِ إليهم".[3443]

8- التَّغافُلُ عن الحُسَّادِ والمُبغِضينَ وكلامِهم:

قال عَبدُ اللهِ بنُ شَدَّادِ بنِ الهادي يوصي ابنَه: "أيْ بُنَيَّ، وإن سَمِعتَ كَلِمةً من حاسدٍ فكُنْ كأنَّك لستَ بالشَّاهِدِ؛ فإنَّك إن أمضَيتَها حيالَها رجع العَيبُ على من قالها، وكان يقالُ: الأريبُ العاقِلُ هو الفَطِنُ المتغافِلُ.

وكُنْ كما قال حاتِمٌ الطَّائيُّ:

وما مِن شِيمَتي شَتمُ ابنِ عَمِّي.. وما أنا مخلِفٌ مَن يرتجيني
وكَلِمةِ حاسدٍ في غيرِ جُرمٍ.. سمِعتُ فقُلتُ: مُرِّي فانفُذيني
فعابُوها عليَّ ولم تَسُؤْني.. ولم يَعرَقْ لها يومًا جَبيني
وذو اللَّونَينِ يلقاني طليقًا.. وليس إذا تغيَّبَ يأتليني
سمِعتُ بعَيبِه فصَفَحتُ عنه.. محافَظةً على حَسَبي ودِيني

[3439] يُنظر: فتح الباري لابن حجر 9/325

[3440] أخرجه البخاري 5189، ومسلم 2448 مطولا من حديث عائشة رضي الله عنها.

[3441] شرح صحيح البخاري لابن بطال 7/ 301

[3442] أخرجه البخاري 6038، ومسلم 2309 واللفظ له.

[3443] إحياء علوم الدين 2/192

9- التَّغافُلُ عند ظُهورِ مَساوئِ النَّاسِ وما يبدو في غَفَلاتِهم، من كَشفِ عَورةٍ، أو خروجِ رِيحٍ.

المطلب السادس: فوائِدُ التَّغافُلِ

1- من أسبابِ إبقاءِ المودَّةِ بَينَ النَّاسِ.
2- من أسبابِ قَطعِ العداواتِ.
3- من أسبابِ التَّسامُحِ.
4- من أسبابِ قَطعِ الوَحشةِ عن النُّفوسِ.
5- من أسبابِ رَفعِ الحَرَجِ والحاجةِ للاعتذارِ.
6- صفاءُ قَلبِ المتغافِلِ وعَدَمُ استيحاشِه من النَّاسِ.
7- اعتيادُ الإنسانِ ضَبطَ النَّفسِ وكَظمَ الغَيظِ.
8- القُدرةُ على مواجهةِ المواقِفِ الصَّعبةِ بهُدوءٍ وسَكينةٍ.
9- سلامةُ الدِّينِ والعِرْضِ.
10- إلقاءُ محبَّةِ المتغافِلِ في قلوبِ النَّاسِ؛ لِما يرونَه من سماحتِه وحُسنِ مَعشَرِه.[3444]

المطلب السابع: أقسامُ التَّغافُلِ

التَّغافُلُ منه ما هو محمودٌ مُرَغَّبٌ فيه، ومنه ما هو مذمومٌ مُجتَنَبٌ؛ فإذا كان تغافُلًا عن الزَّلَّاتِ والأخطاءِ والعيوبِ التي لا يخلو منها إنسانٌ، أو تغافُلًا عن المعايبِ بسَترِها؛ فهو المحمودُ، وأما التَّغافُل عن المُنكَراتِ أو البِدَعِ، أو التَّغافُلُ عمَّا ينبغي عليه تعاهُدُه أو القيامُ به ونحوُ ذلك؛ فهو التَّغافُلُ المذمومُ.
ومنه التَّغافُلُ عن الضَّيفِ، وقد قالوا: "من صفاتِ المتكَبِّرِ التَّعظُّمُ على الصَّديقِ، والتَّغافُلُ عن الضَّيفِ، والمنُّ على الضَّعيفِ، واحتقارُ من هو دونَه، والخضوعُ لِمَن فوقَه".[3445]

المطلب الثامن: دَرَجاتُ التَّغافُلِ

الأولى: تركُ الخُصومةِ، وهي دَرَجاتٌ، فلا يخاصِمُ بِلسانِه، ولا ينوي الخصومةَ بقَلبِه، ولا يُخطِرُها على بالِه.
الثَّانيةُ: التَّغافُلُ عن الزَّلَّةِ، فإذا رأى من أحَدٍ زَلَّةً أظهر أنَّه لم يَرَها.
الثَّالثةُ: نِسيانُ الأذيَّةِ، بأن تنسى أذيَّةَ من نالك بأذًى.[3446]

المطلب التاسع: الوسائِلِ المُعينةِ على اكتِسابِ التَّغافُلِ

1- أن يعلَمَ أنَّ التَّغافُلَ من أخلاقِ الفُضَلاءِ والعُلَماءِ.
2- أن يعلَمَ أنَّ التَّغافُلَ ممَّا يُعينُ على استجلابِ المودَّةِ وبقائِها.
3- أن يعلَمَ أنَّ التَّغافُلَ من أسبابِ قَطعِ العداوةِ.
4- أن يعلَمَ أنَّ الكريمَ يُمدَحُ بالتَّغافُلِ عن الزَّلَّةِ.

المطلب العاشر: موانِعُ اكتِسابِ التَّغافُلِ

[3444] التفسير البسيط للواحدي 5/598، مدارج السالكين لابن القيم2/327،328، الفواكه الشهية للسعدي ص: 111-112، الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة لمحمد بن إبراهيم ص: 16
[3445] الرسائل الأدبية للجاحظ ص: 18
[3446] يُنظر: مدارج السالكين لابن القيم2/327

1- جَهلُ الإنسانِ بعاقبةِ تعقُّبِ الزَّلَّاتِ، وعَدَمِ التَّغاضي عنها، وما ينتُجُ عن ذلك.
2- رغبةُ الإنسانِ في الانتصارِ للنَّفسِ.
3- اعتِقادُ الإنسانِ أنَّ التَّغافُلَ دليلُ ضَعفِه.
4- جَهلُ الإنسانِ بطَبيعةِ نَفسِه التي لا تسلَمُ من خطأٍ أو زَلَلٍ.
5- اعتقادُ الإنسانِ أنَّ في التَّغافُلِ غَباءً وحماقةً.

المطلب الحادي عشر: أخطاءٌ شائِعةٌ حولَ التَّغافُلِ

1-الاعتقادُ بأنَّ التَّغافُلَ يكونُ أيضًا في حقِّ اللهِ:

وهذا خطَأٌ؛ فإنَّ تغافُلَ الإنسانِ عن حَقِّه، وعفوَه عن زلَّةِ صاحِبِه، وتجاهُلَه رَدَّ الإساءةِ الموجَّهةِ إليه- محمودٌ، بخلافِ التَّغافُلِ عن حَقِّ اللهِ سُبحانَه.

قال ابنُ القَيِّمِ بعدَ أن بَيَّنَ أنَّ المرءَ في حَقِّ نفسِه لا يخاصِمُ بلسانِه، ولا ينوي الخصومةَ بقَلبِه، ولا يُخطِرُها على بالِه: وأمَّا في حقِّ رَبِّه: فالفُتُوَّةُ أن يخاصِمَ باللهِ وفي اللهِ، ويحاكِمَ إلى اللهِ، كما كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ في دعاءِ الاستفتاحِ[3447]: "وبك خاصَمْتُ، وإليك حاكَمْتُ".[3448]

2-الاعتقادُ بأنَّ التَّغافُلَ لا يكونُ منه إنكارٌ مُطلَقًا:

وهذا اعتقادٌ خَطَأٌ، فلا يلزَمُ من التَّغافُلِ عن الزَّلَّةِ أو الخطَأِ تَركُ إظهارِ الإنكارِ على صاحِبِه بالكُلِّيَّةِ، بل ينبغي إذا تكرَّر الخطَأُ ووقَع الإصرارُ عليه- الإنكارُ على صاحِبِه بالحُسنى، ونُصحُه بالمعروفِ، وإظهارُ سوءِ صنيعِه؛ لرَدعِه عن طَيشِه وتماديه في حُمقِه، خُصوصًا إذا كان في فِعْلِه فَسادٌ.

المطلب الثاني عشر: لماذا ذُمَّت الغَفلةُ ومُدِحَ استعمالُها؟

قال ابنُ حَزمٍ: "من عجائِبِ الأخلاقِ أنَّ الغفلةَ مذمومةٌ، وأنَّ استعمالَها محمودٌ، وإنما ذلك لأنَّ من هو مطبوعٌ على الغفلةِ يستعمِلُها في غيرِ مَوضِعِها وفي حيثُ يجِبُ التَّحفُّظُ، وهي تُغَيِّبُ عن فهمِ الحقيقةِ، فدخلَت تحت الجهَلِ، فذُمَّت لذلك، وأمَّا المتيقِّظُ الطَّبعِ فإنَّه لا يضَعُ الغفلةَ إلَّا في موضِعِها الذي يُذَمُّ فيه البحثُ والتَّقصي، والتَّغافُلُ فَهمٌ للحقيقةِ، وإضرابٌ عن الطَّيشِ، واستعمالٌ للحِلمِ، وتسكينٌ للمكروهِ؛ فلذلك حُمِدَت حالةُ التَّغافُلِ، وذُمَّت الغَفلةُ".[3449]

المطلب الثالث عشر: التَّغافُل في الدَّعْوَة

قال ابن القيم: " التَّغَافُلُ عَنِ الزَّلَّةِ هُوَ أَنَّهُ إِذَا رَأَى مِنْ أَحَدٍ زَلَّةً يُوجِبُ عَلَيْهِ الشَّرْعُ أَخْذَهُ بِهَا، أَظْهَرَ أَنَّهُ لَمْ يَرَهَا، لِئَلَّا يُعَرِّضَ صَاحِبَهَا لِلْوَحْشَةِ، وَيُرِيحَهُ مِنْ تَحَمُّلِ الْعُذْرِ".

فإذا صدر من أحد خطأ، أو وقع في مخالفة شرعية، أو خلقية فلا يواجهه الداعية بكل ما اقترف حتى لا يقع في الحرج، ويزدادُ عِنادًا وإصرارًا على ما هو عليه.

وهذا التَّغافُل يزدادُ أهميةً عِندَ إساءةِ الجُهال، قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان:٦٣].

[3447] أخرجه البخاري 1120، ومسلم 769 مطولا من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما

[3448] مدارج السالكين 2/327

[3449] الأخلاق والسير ص: 86

● **مَا المقْصُودُ بِالتَّغَافُلِ الدَّعَوِيِّ؟ وَمَنْ هُوَ المتَغَافِلُ مِنَ الدُّعَاةِ؟**

التَّغافل الدَّعوي:

هو: إعراضُ الدَّاعية عن قَولٍ أو فِعلٍ صَدَرَ مِن أحدِ المدعوين وهو مُتَيَقِّنٌ غَرَضَهُ السَّيء منه.

والمتَغافِل من الدُعاة:

هو: من يَتَعَمَّد الغَفلة عن أخطاءِ وعيوبِ المدعويين، مع أنه مدركٌ لها وعالمٌ بها، وكذلك يتغافلُ عمَّا يقعُ أَمَامَهُ من المواقفِ المحرجةِ للبعضِ، فمن حُسْنِ الخلقِ التغافلُ عن ذلك، وعدمُ إشعارِ صاحبِ الموقفِ بأنَّه شُوهِدَ أو شُعِر به.

والدعاةُ عِندما يَتَغافَلونَ عن شَخصٍ منَ النَّاس، فإنهم بذلك يُعْطُونَهُ فُرْصَةَ للرُجُوع عن الخطأ، وليس فُرْصةً لِلتَمادي فيه.

فما دام الخطأ والزلَل من طَبيعةِ بني آدم، فلا داعي للتركيز على الأخْطاء أو التَّدقيق على الهَفَوات؛ فالتغافل وسيلةٌ فَعَّالَةٌ لِسِتْرِ العُيُوبِ والأخْطاء، وغَلْقِ أبواب الإشاعاتِ المُغرضَة وحِمايةَ أعراضِ المَدعويين، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ يومَ القيامَة".[3450]

وقد "قال بعض الوزراء الصالحين لبعضِ مَنْ يأمرُ بالمعروف: اجتهد أن تستُرَ العُصَاةَ، فإنَّ ظهورَ معاصيهم عيبٌ في أهل الإسلام، وَأَوْلَى الأمُورِ سترُ العُيُوبِ".[3451]

وقال الشافعي: "الكيِّس العاقل هو الفطن المتغافل".[3452]

المطلب الرابع عشر: لِبَقَاءِ الْوُدِّ وَرَاحَةِ الْبَالِ، تَغافلْ

التَّغَافُلُ هُوَ أَنْ تُظْهِرَ نَفْسَكَ كَأَنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ وَأَنْتَ قَدْ عَلِمْت، أَوْ أَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَأَنْتَ قَدْ سَمِعْتَ، أَوْ أَنَّكَ لَمْ تَرَ وَأَنْتَ قَدْ رَأَيْتَ، ثُمَّ تَتَأَمَّلْ بَعْدَهَا كَمْ مِنْ شَرٍ أَطْفَأْتَ ؟! وَكَمْ مِنْ خَيرٍ جَنَيْتَ ؟! وَكَمْ مِنْ قَلْبٍ كَسَبْتَ ؟! وَكَمْ مِنْ أُجُورٍ نِلْتَ ؟!

إِنَّ التَّغَافُلَ خُلُقٌ نَبَوِيٌّ كَرِيمٌ يَحْتَاجُهُ الْأَزْوَاجُ، وَالأَقْرِبَاءُ، وَالأَصْحَابُ، وَالْأَبَاءُ؛ فَكَثْرَةُ الْمُحَاسَبَةِ والتَّدْقِيقِ عَلَى كُلِّ صَغيرَةٍ وكَبيرَة تُفْسِدُ الْعَلَاقَاتِ، وتُذْهِبُ بِراحَةِ البالِ، وَتَجْعَلُ الْمَرْءَ يَهْتَمُّ بِسَفاسِفِ الْأُمُورِ فَيَضِيعَ عُمُرُهُ فِي التُّرَّهَاتِ، قَالَ الْإِمَامُ الأَعْمَش رَحِمَهُ اللَّهُ: "التَّغافُلُ يُطْفِئُ شرًا كثيرًا".[3453]

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

لَيْسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ.. لَكِنَّ سَيِّدُ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي [3454]

وَمِنْ ثَمَّ فإِنَّ الْمُتَجَاوِزَ عَنِ الإِسَاءةِ لَيسَ بِعَاجِزٍ عَن رَدِها، ولكِنَّهُ عَرَفَ قَدْرَ الْمُسيءِ؛ فَتَجاهَلَهُ، وَعَرَفَ قَدَرَ نَفسِه؛ فارْتَقى عَن كُلِ ما لا يَليقُ بِها.

وَلو أَنَّنَا نَعْلَمُ ما يُقال عنّا في غيابنا لما ابْتَسَمْنا فِي وُجُوهِ الكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ، ثُمّ إنَّكَ لَا تَعْلَمُ فِي أَيِّ ظُرُوفٍ يَمُرُّ الْبَعْضُ، وَلَيْسَ الْكُلُّ عَلَى نَفْسٍ مُسْتَواكَ مِنَ الْخُلُقِ وَالصَّبْرِ، وَسَأَضْرِبُ لَكُمْ مِثالًا عَنْ تَجْرُبَةٍ شَخْصِيَّةٍ: "ذَاتَ يَوْمٍ حَدَثَ لِي اضْطِرَابٌ أَثْنَاءَ قِيَادَتِي للسَّيارةِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ سَيّارَةٌ أُخْرَى تُحَاوِلُ أَنْ تَسْبِقَنِي فَأَعْطَيْتُ قَائِدَهَا الْمَجَالَ، وعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى مُحَاذَاتِي، وَقَفَ وَفَتَحَ النَّافِذَةَ، وَصَرَخَ بِي قَائِلًا: "أنت لَا تَعْرِفُ أَيْنَ تَذْهَبُ"، فابْتَسَمْتُ فِي وَجْهِهِ، وَقُلْتُ: "صَحِيحٌ، وَاَللَّهِ لَا أَعْرِفُ أَيْنَ أَذْهَبُ"؛ فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ خَفَّتْ حِدَتُهُ وَتَرَكَنِي، وبَعْدَ أَيَّامٍ رَآنِي هَذَا الرَّجُلُ فِي الْمَدِينَةِ، فَهَرْوَلَ إِلَيّ لِيَعْتَذِرَ قَائِلًا: "لَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ كَمْ مِنْ الْمَشَاكِلِ كَانَتْ عِنْدِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لسامَحْتَني"، فَقُلْتُ لَه: "سامَحْتُكَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةَ"، ثم أَعْطَيْتُهُ

[3450] تقدم تخريجه

[3451] جامع العلوم والحكم 3/1012

[3452] أدب الدنيا والدين 1/180

[3453] شعب الإيمان 6/347

[3454] هذا البيت ينسب لأبي تمام ينظر: محاضرات الأدباء 1/199

بَعْضَ النَّصَائِح.

هكذا عَلَيْنَا أَن نَصْبِرَ عَلَى النَّاسِ وَلَا نُؤذيهِم، فَنَزِيدَ مِنْ الطِّينِ بِلَّةً، إِذْ أَنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ قِصَّةُ حُزنٍ يَعِيشُهَا بِدَاخِلِه، فهُنَاكَ مَنْ عانَى مِمَّن أحبَّهُم أَو لازَالَ يُعاني، وَآخَرُ لَدَيْه أَمْرَاضٌ، أَوْ مَشَقَّةٌ فِي عَمَلِهِ، وَهُنَاكَ مَنْ يَبْكِي مِن الغُربة أوْ مِنْ أَلَمِ الْفَقْدِ، فَهَذِه الدُّنيا دَارُ ابْتِلَاءٍ، وَلِهَذَا سُمِّيَتْ دُنيا؛ فَخُذْ نَفَسًا عَميقًا وقُلْ: "الحَمْدُ لِلَّه".

وَلَقَدْ أَصْبحَ عِنْدِي - مِنْ خِلَالِ تعامُلَاتِي الحياتِية - إيْمَانٌ تَامٌّ بِأَنَّ كُلَّ إنْسَانٍ لَهُ ظُروفُهُ وَأَسْبَابُهُ الْخَاصَّة، وَهَذَا مَا جَعَلَنِي لَا أَعْتِبُ كثيراً عَلَى الْآخَرِينَ، بل أَتْرُكُ المَوْقِفَ يَمُرُّ كَمَا هُوَ مُحَمَّلاً بِحُسْنِ الظَّنِّ، وَمِنَ الْجَيِّدِ أَنَّ الْأَيَّامَ تَدُورُ وَتُثْبِتُ لِي دَوماً صِحَّةَ حُسْنِ ظَنِّي، وَأَنَا مُنْذُ أَنِ احْتَذَيْتُ هَذَا النَّهْجَ فِي حَيَاتِي، وَقَدْ تَذَوَّقْتُ طَعْمَ الرَّاحَةِ وَلَذَّتَهَا، وكَثُرَ سَوَادَ أَصْدِقَائِي.

وَلِأَنَّ الْأَصْلَ فِي العَلَاقَاتِ سَلَامَةُ الصَّدْرِ وَحُسْنُ الظَّنِّ وَالْتِمَاسُ الْعُذْرِ؛ فأَنَا وَأَنْتَ لَسْنَا مُلْزَمين بِتَبْرِيرِ كُلِّ تَصَرُفاتِنا لِلْآخَرِين، وَلْيَكُنْ شِعَارُنَا (كُلُّنَا مَعْذُورِنَ)، قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "والله مَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُؤْذِيَ كلباً وَلَا خنزيراً بِغَيْرِ حَقٍّ فَكَيْف تُؤْذِي مسلمًا".[3455]

وقال ابن الجوزي رحمه الله: "مَايَزَالُ التَّغَافُلُ عَنِ الزَّلَاتِ مِنْ أَرْقَى شِيَمِ الكِرَامِ، فَإِنَّ النَّاسَ مَجْبُولُونَ عَلَى الزَّلَّاتِ وَالأَخْطَاءِ، فَإِنِ اهْتَمَّ المَرْءُ بِكُلِّ زَلَّةٍ وَخَطِيئَةٍ تَعِبَ وَأَتْعَبَ!"، وَالنُّفُوسُ الكَبِيرَةُ تَتَغَافَلُ لِبَقَاءِ الوُدِّ؛ لِذَلِكَ مَنْ يَقِفْ عِنْدَ كُلِّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَةٍ، سَيُحَوِّلُ حَيَاتَهُ وَحَيَاةَ مَنْ حَوْلَهُ إِلَى جَحِيمٍ لَا يُطَاقُ.

قَالَ العَلَّامَةُ ابْنُ الجَوْزِيّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "مَتَى رَأَيْتَ صَاحِبَكَ قَدْ غَضِبَ، وَأَخَذَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَصْلُحُ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَعقِدَ عَلَى مَا يَقُولُ خِنصراً - أَيْ لَا تَأْخُذْ مَا يَقُولُ بِعَيْنِ الاعْتِبارِ - وَلَا أَنْ تُؤَاخِذَهُ بِه؛ فَإِنَّ حَالَهُ حَالُ السَّكْرَانِ، لَا يَدْرِي مَا يَجْرِي، بَلِ اصْبِرْ لِفَوْرَتِهِ، وَلَا تُعَوِّلُ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ غَلَبَه، وَالطَّبْعُ قَد هَاجَ، وَالْعَقْلُ قَدْ اسْتَتَرَ، وَمَتَى أَخَذْتَ فِي نَفْسِكَ عَلَيْهِ، وَأَجَبْتَهُ بِمُقْتَضَى فِعْلِهِ كُنْتَ كَعَاقِلٍ وَاجَهَ مَجْنُونًا، أَو كَمُفِيقٍ عَاتَبَ مُغْمىً عَلَيْهِ، فالذَّنْبُ لَك، بَلِ انْظُرْ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ، وَتَلَمَّحْ تَصْرِيفَ الْقَدَرِ لَه، وتَفَرَّحْ فِي لَعِبِ الطَّبْعِ بِه، وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا انْتَبَهَ نَدِمَ عَلَى مَا جَرَى، وَعَرَفَ لَك فَضْلَ الصَّبْرِ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَلَّمَهَا الْوَلَدُ عِنْدَ غَضَبِ الْوَالِدِ، وَالزَّوْجَةُ عِنْدَ غَضَبِ الزَّوْجِ؛ فَتَتْرُكَهُ يَشْتَفِي بِمَا يَقُولُ، وَلَا تُعَوِّلُ عَلَى ذَلِكَ؛ فَسَيَعُودُ نَادِمًا مُعْتَذِرًا، وأَكثَرُ النَّاسِ عَلَى غَيْرِ هَذَا الطَّرِيقِ، مَتَى رَأَوْا غَضْباناً؛ قَابَلُوهُ بِمَا يَقُولُ وَيَعْمَل، وَهَذَا عَلَى غَيْرِ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ، بَل الْحِكْمَةُ مَا ذَكَرْتُهُ {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ} [العنكبوت: 43].[3456]

المطلب الخامس عشر: الحَيَاةُ تَحْتاجُ إلى التَّغَافُلِ

لِتَعيشَ مُرْتاحَ البَالِ، عَوِّدْ نَفْسَكَ على التَّجاهُلِ الذَّكِيّ، فَلَيْسَ كُلُّ أَمْرٍ يَسْتَحِقُّ وُقُوفَكَ وفَورانَكَ، تَجَاهَلْ أَقْوَالًا، وتَجَاهَلْ أَفْعَالًا.. تَجَاهَلْ أَحْدَاثًا، وَتَجَاهَلْ أَشْخَاصًا؛ إِنَّ رَاحَةَ البَالِ أَهَمُّ مِنْ إِثْبَاتِ صِحَّةِ وِجْهَاتِ النَّظَرِ وَالْأَقْوَالِ؛ وَلِذَلِكَ عِنْدَمَا تَسُوءُ الْأَلْفَاظُ وَتَتَغَيَّرُ النَّوَايَا وَتَعْتَقِدُ أَنَّ الْحِوَارَ لَنْ يُجْدِي، تَوَقَّفْ!

وَمَعَ أَنَّ هُنَاكَ أَخْطَاءٌ تَسْتَحِقُّ فُرْصَةً أُخْرَى لِلتَّدَارُكِ، إِلَّا أَنَّ هُناكَ أَخْطَاءٌ لَا تَسْتَحِقُّ إِلَّا التَّجاهُل، وَلَوْ أَنَّكَ أَعْطَيْتَ كُلَّ مُشْكِلَةٍ أَكْبَرَ مِنْ حَجْمِهَا؛ لَكَانَ ذَلِكَ عَلَى حِسَابِ صِحَّتِكَ وَأَعْصَابِكَ، فَالأَزَماتُ لَا تَحلُّها الأَحْزَانُ، وَإِنَّمَا حَلُّهَا التَّغَافُلُ وَالْأَزْمَانُ، قَالَ تَعَالَى: {فَأَسَرَّها يوسُفُ فِي نَفسِهِ} [يوسف: 77]، كَمْ مَرَّةٍ أَسْرَرْتَها فِي نَفْسِكَ مُرَاعَاةً لِحَقِّ الرَّحِمِ وَالْقَرَابَةِ وَالصُّحْبَةِ والجيرةِ والزَمالَة؟!

إِنَّ مِنَ الْهُمُومِ مَا يَكُونُ عِلَاجُهَا مُوَاجَهَتُها بِحِكْمَةٍ واتِّزانٍ، وَالْبَعْضُ يَكُونُ عِلَاجُهَا عَدَمُ الِاهْتِمَامِ، فَلَا تَهْتَم لِكُلِّ شَيْءٍ يَوجِعُكَ، فَلَيْسَت كُلُّ الْهُمُوم هُمُومٌ، وإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكْفِيكَ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَهَمَّكَ، فَأَقْبِلْ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَمُلَازَمَةِ الِاسْتِغْفَار،

[3455] مكارم الأخلاق للخرائطي:٣٦٨

[3456] صيد الخاطر ص468 - 469

والتَّسْبيح، فرَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَالَ: "مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ".[3457]

المطلب السادس عشر: أُمْحُهَا يَا عَلِيُّ

قال البراء بن عازب: لَمَّا صَالَحَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَهْلَ الحُدَيْبِيَةِ، كَتَبَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ بيْنَهُمْ كِتَابًا، فَكَتَبَ مُحَمَّدٌ رَسولُ اللَّهِ، فَقَالَ المُشْرِكُونَ: لا تَكْتُبْ مُحَمَّدٌ رَسولُ اللَّهِ، لو كُنْتَ رَسولًا لَمْ نُقَاتِلْكَ، فَقَالَ لِعَلِيٍّ: "امْحُهُ"، فَقَالَ عَلِيٌّ: ما أَنَا بالَّذِي أَمْحَاهُ، فَمَحَاهُ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيَدِهِ، وصَالَحَهُمْ علَى أنْ يَدْخُلَ هو وأَصْحَابُهُ ثَلَاثَةَ أيَّامٍ، ولَا يَدْخُلُوهَا إلَّا بجُلُبَّانِ السِّلَاحِ، فَسَأَلُوهُ ما جُلُبَّانُ السِّلَاحِ؟ فَقَالَ: القِرَابُ بما فِيهِ.[3458]

إنَّهَا هَدْيٌ نَبَوِيٌّ، اِجْتِمَاعِيٌّ وسِياسِيٌّ وإداريٌّ وأسريٌّ، هَدْيٌ يَدْعُوكَ إِلَى التَّجَاوُزِ عَنِ الصَّغَائِرِ مِنْ أَجْلِ اسْتِمْرَارِ الْوُدِّ، وَيَدْعُوكَ لِنَبْذِ الْعِنَادِ، وَالتَّشَبُّثِ بِالرَّأْيِ، وَيَحُثُّكَ عَلَى المُرُونَةِ وَالتَّغَافُلِ، ومَا أَحْوَجَنَا جَمِيعًا إِلَيْهِمَا، وَبِخَاصَةٍ الدُّعَاةُ مَعَ الْمَدْعُوِّين، والرَّجُلُ وَزَوْجَتُهُ؛ فَعَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، إِنْ لَمْ يَحْمِلْ كِلَا الزَّوْجَيْنِ مِمْحَاةً وَهُمَا يُعِدَّانِ بَيْتَ الزَّوْجِيَّةِ؛ لِحَذْفِ بَعْضِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي لَا تَسُرُّهُمَا فِي قَابِلِ أَيَّامِهِمَا؛ فَإِنَّ صَفْحَةَ الزَّوَاجِ سَتَمْتَلِئ غُيُومًا، وَكَآبَةً فِي أَيَّامٍ قَلَائِلٍ، يَقُولُ رَسُولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَفْرَكْ[3459] مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَرَ، أَوْ قالَ: غَيْرَهُ"[3460]، أي: يَنبَغي للزَّوجِ ألَّا يَبْغَضَ زَوجتَه بُغضًا شَديدًا يؤدِّي إلى ظُلمِها وتَركِها وإعْراضِه عنها، ثُمَّ علَّلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذَلِكَ بِأَنَّ الزَّوجَ إنْ كَرِهَ مِنْ زَوْجَتِهِ خلُقًا سيِّئًا، وجَدَ فيها خلُقًا آخَرَ يُرْضِيهِ، كأنْ تَكُونَ حَادَّةَ الطِّبَاعِ؛ لكنَّها دَيِّنةٌ، أو جميلةٌ، أو عَفيفةٌ، أو نحوُ ذَلِكَ، فيُقابِلَ هَذَا بِذَاكَ، فيَغفِرَ سيِّئَها لحَسَنِها، ويَتغاضَى عَمَّا يكرَهُ لمَا يُحِبُّ، فَلَا يَبْغَضُهَا بُغْضًا كُلِّيًّا يَحمِلُه عَلَى فِراقِهَا، وَنَفْسُ الشَّيْءِ يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَهُ الْوَالِدُ مَعَ أَبْنَائِهِ، وَالْأَخُ مَعَ إِخْوَانِهِ، والْجَارُ مَعَ جِيرَانِهِ.

المطلب السابع عشر: حُفْرَةٌ فِي طَيِّ النِسْيَانِ

اجْعَلْ فِي حَياتِكَ حُفرَةً صَغيرَةً تَرْمِي فِيهَا أَخْطاءَ أَحِبَّائِكَ، وَالْأَهَمُّ مِنَ الحُفْرَةِ أَنْ تَنْسَى مَكَانَهَا، حَتَّى لَا تَعُودَ إليها في لَحَظاتِ الخِصَامِ.

المطلب الثامن عشر: تَجَاهَلْ مَنْ يُحْبِطَكَ

سَتَرَى حَوْلَكَ مَنْ يُحْبِطُكَ ويَحْسُدُك، ولا يَعترِفُ بِكُلِّ ما تَقُومُ بِهِ، فَتَغافَلْ وتَجَاهَلْ وركِّزْ عَلَى الإِنْجَازِ وَالعَطَاءِ، والتَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ، وَيُقالُ: "تَبيضُ الدَّجاجَةُ بَيْضَةً زَهيدَةَ الثَّمَنِ، فَتَمْلَأُ الدُّنْيَا بَقيْقٍ، فَلَا تُبَالِي، بَيْنَمَا تَضَعُ السَّمَكَةُ الآلافَ مِنَ الكافيارِ غَالِي الثَّمَنِ، وَهِيَ صَامِتَةٌ"، وَلِذَلِكَ اصْمُتْ ودَعْ إِنْجازاتِكَ تَتَحَدَّثُ، وَلَا تَكْتَرِثْ بِمَا يَقُولُونَ، وَلَا تَحْزَنْ، وَحَافِظْ عَلَى صِحَتِكَ النَّفْسِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ، وقد قَالَ الأَصْمَعِيُّ ذَاتَ مَرَّةٍ: "رَأَيْتُ شَيخاً بالبادِيَةِ قَد سَقَطَ حاجِباهُ على عَينَيْهِ ولَهُ مائَةٌ وعشرونَ سَنَة وفيه بَقِيَّةٌ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: تَرَكْتُ الحَسَد فَبَقِيَ الجَسَد".

[3457] رواه أبو داود 1518 وابن ماجه 3819، وأحمد في المسند 1/248، والطبراني في المعجم الأوسط 6/240، والبيهقي في السنن الكبرى 3/351 وغيرهم

[3458] صحيح البخاري 2698، ومسلم 1783.

[3459] الفَرْكُ: البُغْضُ والكَرْهُ، والمُرادُ بالمؤمِنِ والمؤمِنةِ هنا الزَّوجُ والزَّوجةُ

[3460] صحيح مسلم 1469

المبحث التاسع والعشرون: الأمور المعينة على كسب خلق من أخلاق الإسلام

ذكرنا سالفًا مع كلِّ خُلُقٍ الوسائلَ المُعينةَ على اكتسابِها، وهُنا سنذكُر بعضَ الأُمورِ المُعينةِ؛ لِكَسبِ جميعِ الآدابِ على وجهِ العُمُومِ:

1- الدعاء: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو اللهَ بأن يهديَه إلى أحسَنِ الأخلاقِ، فكان من دُعائِه: "واهْدِني لأحسَنِ الأخلاقِ؛ لا يهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصرِفْ عنِّي سَيِّئَها؛ لا يَصرِفُ عنِّي سَيِّئَها إلَّا أنت".[3461]

2- استحضار مراقبة الله له في جميع أقواله وأفعاله.

3- الاستعانة بالله والتوكل عليه.

4- الحرص على مجاهدة النفس.

5- استحضار الموت والآخرة وعذاب القبر.

6- من الصلاح إلى الإصلاح، ففي زمن الفتن، وكثرةِ الخَبَثِ، لا يكفي أن تكون صالحا لتنجو، وإنما النجاة في أن تكون مُصْلِحًا، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: 117]

7- مُجاهَدةُ النَّفسِ على اكتِسابِ الأخلاقِ الحَميدةِ والتَّخلِّي عن رذائِلِها.

8- أن يتعَرَّفَ على ما للأخلاق الحَميدة من فَضلٍ، وما يترَتَّبُ عليه من أجرٍ أُخرويٍّ ومصالحَ دُنيويَّةٍ وما يترتَّبُ على الإخْلالِ بها من مفاسد دنوية وآخروية.

9- أن يجاهِدَ نَفسَه في تحصيلِ الأخلاقِ الحميدةِ.

10- أن يلجَأَ إلى رَبِّه سُبحانَه بالتَّضرُّعِ والدُّعاءِ أن يكونَ من عبادِه المُحسِنين.

11- مصاحبةُ أهلِ الإحسانِ.

12- الإكْثارُ مِنْ قِراءَةِ القُرآنِ، والتَّدَبُّرِ، وَمُطَالعةُ سِيرَةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

13- مُطَالَعَةُ كُتُبِ المواعِظِ، وسِيَرِ الأنبياءِ والسَّلَفِ الصَّالِحِ والصَّالحين والاقتداءُ بهم.

14- أن يتذَكَّرَ إحسانَ اللهِ عليه؛ فإنَّ إحسانَه مُوجِبٌ للإحسانِ إلى عَبيدِه، كما قال تعالى: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [القصص: 77]، وقال رجلٌ لأحَدِ السَّلاطينِ: "أحَقُّ النَّاسِ بالإحسانِ من أحسَنَ اللهُ إليه، وَأَوْلَاهُمْ بالإنصافِ من بُسِطت القُدرةُ بَيْنَ يَدَيه؛ فاستَدِمْ ما أوتيتَ من النِّعَمِ بتأديةِ ما عليك من الحَقِّ".[3462]

15- الإكثارِ من ذِكرِ الموتِ.

16- تذكُّرُ ما أعدَّه اللهُ تعالى للمُتخلِّقينَ بالأخلاقِ الفاضِلةِ.

17- مَعْرِفَةُ أنَّ حَياةَ الدُّنْيا زائِلةٌ لا دَوامَ فِيها.

18- محبَّةُ اللهِ، وهي أقوى الأسبابِ في الصَّبرِ عن مُخالفتِه ومَعاصيه؛ فإنَّ المُحِبَّ لَمَن يُحِبُّ مُطيعٌ، وكُلَّما قَوِيَ داعي المَحَبَّةِ في القَلبِ كانت استِجابَتُه للطَّاعةِ بحَسَبِه.

19- الحَياءُ مِنَ اللهِ سُبحانَه؛ فإنَّ العَبدَ متى عَلِمَ بنَظَرِه إليه ومَقامِه عليه وأنَّه بمَرأًى مِنه ومَسمَعٍ، وكان حَيِيًّا، استحيا مِن رَبِّه أن يتَعَرَّضَ لمسَاخِطِه بتَركِ طاعَتِه أو ارتِكابِ مَعاصيه.

[3461] أخرجه مسلم 771 مطوَّلًا من حديثِ عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه

[3462] عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري 3/20

20- خَوفُ اللهِ وخَشيةُ عِقابه، ورَجاءُ ثَوابِه ومَغفِرَتِه، وهذا إنَّما يَثبُتُ بتَصديقِه في وعدِه ووعيدِه، والإيمانِ به وبكِتابِه وبرَسولِه.

21- مُراعاةُ نِعَمِه عَليك وإحسانِه إليك؛ فإنَّ الذُّنوبَ تُزيلُ النِّعَمَ ولا بُدَّ، فما أذنَبَ عَبدٌ ذَنبًا إلَّا زالت عنه نِعَمُه مِنَ اللهِ بحَسبِ ذلك الذَّنبِ، ومَن أطاعَه وشَكَرَه زادَه مِن نِعَمِه وآلائِه.

22- شَرَفُ النَّفسِ وزَكاؤُها وفضلُها وأنَفَتُها وحَميَّتُها أن تَختارَ الأسبابَ التي تَحُطُّها وتَضَعُ مِن قَدْرِها وتُخَفِّضُ مَنزِلتَها وتُحَقِّرُها وتُسَوِّي بَينَها وبَينَ السِّفلةِ.

23- قوَّةُ العِلمِ بسوءِ عاقِبةِ المَعصيةِ وقُبحِ أثَرِها والضَّرَرِ النَّاشِئِ مِنها؛ مِن سَوادِ الوجهِ، وظُلمةِ القَلبِ وضيقِه، وغَمِّه وحُزنِه، وألَمِه وانحِصارِه، وشِدَّةِ قَلقِه واضطِرابِه، وتَمَزُّقِ شَملِه، وضَعفِه عن مُقاومةِ عَدوِّه، وتَعَرِّيه من زينتِه، والحَيرةِ في أمرِه، وتَخَلِّي وليِّه وناصِره عنه، وتَولِّي عَدوِّه المُبينِ له، وقوَّةِ العِلمِ بحُسنِ عاقِبةِ الطَّاعةِ وأثَرِها الطَّيِّبِ على النَّفسِ.

24- قِصَرُ الأمَلِ، وعِلمُه بسُرعةِ انتِقاله، وأنَّه كمُسافِرٍ دَخل قَريةً وهو مُزمِعٌ على الخُروجِ مِنها، أو كراكِبٍ قال في ظِلِّ شَجَرةٍ ثُمَّ سارَ وتَركها، فهو لعِلمِه بقِلَّةِ مُقامِه وسُرعةِ انتِقالِه حَريصٌ على تَركِ ما يَثقُلُه حَملُه ويضُرُّه ولا ينفعُه.

25- مُجانَبةُ الفُضولِ في مَطعَمِه ومَشرَبِه ومَلبَسِه ومَنامِه واجتماعِه بالنَّاسِ.

26- ثَباتُ شَجَرةِ الإيمانِ في القَلبِ، فصَبرُ العَبدِ عنِ المَعاصي إنَّما هو بحَسبِ قوَّةِ إيمانِه، وكُلَّما قَوِيَ داعي الإيمانِ في القَلبِ كانت استِجابَتُه للطَّاعةِ بحَسَبِه، وهذا السَّبَبُ جامِعٌ للأسبابِ كُلِّها.

27- الزُّهدُ في الدُّنيا وتركُ التَّعلقِ بها والحِرصِ عليها.

28- عَدَمُ الاتِّكالِ على الحَسَبِ والنَّسَبِ والمَنصَب والعِلمِ.

29- التدرب على اكتساب الأخْلاق ولو بِتَكَلُّف وتَصَنُّع في البداية حتى يصير سَجِية وصِفة أصلية في الشخص، كما في الحديث: "مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ".[3463]

30- سدُّ الذَّرائعِ التي تؤدِّي إلى فسادِ الأخلاق.

((أَدْعُو اللهَ أَنْ يُعِينَنِي وَإِيَّاكُمْ عَلَى الاسْتِقَامَةِ))

قَالَ اللهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {فَاستَقِم كَمَآ أُمِرتَ} فاللهُ عز وجل أَمَرَهُ أَنْ يَسْتَقِيمَ كَمَا (أُمِرَ) لَا كَمَا (يُرِيدُ) وَهُوَ نَبِيٌّ مَعْصُومٌ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَقِيمَ كَمَا يُرِيدُ وَيَهْوَى لَكَانَ رَسُولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[3463] رواه البخاري 1469

الفَصْلُ السَّابِعُ: أَخْلَاقٌ مَذْمُومَةٌ

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: النِّفَاقُ

المطلب الأول: النِّفَاقُ لُغَةً واصطِلاحًا

- **النِّفَاقُ لُغَةً:**

أصلُ (نفق) هنا: يدُلُّ على إخفاءِ شَيءٍ وإغماضِه، ومن ذلك النِّفَاقُ، فأصلُه إظهارُ شيءٍ وكتمُ غيرِه وسَترُه. قيل: إنَّه مأخوذٌ من نافِقاءِ اليَربوعِ (دويبَّةٌ أكبَرُ من الفأرةِ قليلًا)، والنَّافِقاءُ جُحرٌ له، وله آخَرُ يُقالُ له: القاصِعاءُ، فإذا طُلِب من القاصعاءِ خَرج من النَّافِقاءِ. وقيل: شُبِّه باليربوعِ من جهةِ أنَّ اليَربوعَ يَخرِقُ الأرضَ حتى إذا كاد يبلُغُ ظاهِرَها أرَقَّ التُّرابَ، فإذا رابَه رَيبٌ دَفَع ذلك التُّرابَ برأسِه فخرَج. والنِّفاقُ بالكَسرِ، فِعلَ المُنافِقِ[3464].

قال ابنُ رجَبٍ: (النِّفاقُ في اللُّغةِ هو من جِنسِ الخِداعِ والمكرِ وإظهارِ الخَيرِ وإبطانِ خِلافِه) [3465].

- **النِّفَاقُ اصطِلاحًا:**

هو: (إظهارُ القولِ باللِّسانِ أو الفِعلِ بخِلافِ ما في القَلبِ من القولِ والاعتقادِ) [3466].

وقال ابنُ كثيرٍ: (النِّفاقُ: هو إظهارُ الخيرِ، وإسرارُ الشَّرِّ)[3467].

وقال النَّوويُّ: (النِّفاقُ هو إظهارُ ما يُبطِنُ خِلافَه)[3468]. وهذه التَّعريفاتُ وإن كانت عامَّةً في أنواعِ النِّفاقِ إلَّا أنَّ المرادَ بيانُه هاهنا النِّفاقُ الأصغَرُ العَمليُّ لا النِّفاقُ الأكبَرُ الاعتقاديُّ.

والنِّفاقُ العَمَليُّ هو أن يُظهِرَ الإنسانُ علانيةً صالحةً، ويبطِنَ ما يخالِفُ ذلك[3469].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ النِّفاقِ وغيرِه من الصِّفاتِ

أ- الفَرْقُ بَيْنَ النِّفاقِ والرِّياءِ:

أنَّ النِّفاقَ إظهارُ خِلافِ ما يُبطِنُ، والرِّياءُ إظهارُ جميلِ الفِعلِ رَغبةً في حمدِ النَّاسِ لا في ثوابِ اللهِ تعالى[3470]. فالأصلُ في الرِّياءِ الإظهارُ، والأصلُ في النِّفاقُ: الإخفاءُ[3471].

[3464] يُنظَر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري، ((الصحاح)) للجوهري، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (250/8)، ((لسان العرب)) لابن منظور ((تاج العروس)) للزبيدي، ((المعجم الوسيط)).

[3465] ((جامع العلوم والحكم)) (2/ 481).

[3466] ((عارضة الأحوذي)) لابن العربي (97/10، 98).

[3467] ((تفسير القرآن العظيم)) (1/176).

[3468] ((شرح النووي على مسلم)) (46/2، 47).

[3469] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي (2/ 481).

كذلك فالنِّفاقُ أعمُّ من الرِّياءِ وقد ذَكَر اللهُ تعالى أنَّ من صفاتِ المُنافِقين الرِّياءَ؛ قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: 142].

ب- الفَرْقُ بَيْنَ النِّفاقِ والخيانةِ:

قال الرَّاغِبُ: (الخيانةُ والنِّفاقُ واحِدٌ، إلَّا أنَّ الخيانةَ تقالُ اعتبارًا بالعَهدِ والأمانةِ، والنِّفاقُ يُقالُ اعتبارًا بالدِّينِ، ثمَّ يتداخلان، فالخيانةُ: مخالفةُ الحَقِّ بنَقضِ العَهدِ في السِّرِّ)[3472].

ج- الفَرْقُ بَيْنَ النِّفاقِ والتَّقيَّةِ:

أمَّا التَّقيَّةُ عِندَ الرَّافضةِ، وهي أن يقولَ أحَدُهم بلسانِه خِلافَ ما في قلبِه، فهذه التَّقيَّةُ لا فَرقَ بينَها وبينَ النِّفاقِ؛ قال ابنُ تَيميَّةَ: (الرَّافِضةُ ... يجعَلون التَّقيَّةَ من أصولِ دينِهم... و«التَّقيَّةُ» هي شعارُ النِّفاقِ؛ فإنَّ حقيقتَها عندهم أن يقولوا بألسِنَتِهم ما ليس في قلوبِهم، وهذا حقيقةُ النِّفاقِ)[3473].

وقال أيضًا: (أمَّا الرَّافِضةُ فأصلُ بدعتِهم عن زنَدقةٍ وإلحادٍ، وتعَمُّدُ الكَذِبِ كثيرٌ فيهم، وهم يُقرُّون بذلك حيث يقولون: دينُنا التَّقيَّةُ، وهو أن يقولَ أحَدُهم بلسانِه خِلافَ ما في قلبِه، وهذا هو الكَذِبُ والنِّفاقُ)[3474].

أمَّا التَّقيَّةُ عِندَ أهلِ السُّنَّةِ، وهي أن يقولَ العبدُ خِلافَ ما يعتَقِدُه؛ لاتقاءِ مكروهٍ يَقَعُ به لو لم يتكَلَّمْ بالتَّقيَّةِ[3475]، فالأصلُ فيها قولُ الله تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران: 28]، وهي جائزةٌ عِندَ الضَّرورةِ[3476]. وغالبًا تكونُ مع الكُفَّارِ، قال ابنُ جريرٍ: (التَّقيَّةُ التي ذكَرها اللهُ في هذه الآيةِ إنما هي تقيَّةٌ من الكُفَّارِ لا من غيرِهم)[3477]. وبذلك يتَّضِحُ الفَرْقُ بَيْنَ التَّقيَّةِ وبينَ النِّفاقِ.

المطلب الثالث: ذمُّ النِّفاقِ والتَّحذيرُ منه

أ- مِنَ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

1- عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافِقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصلةٌ مِن النِّفاقِ حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خان، وإذا حَدَّث كَذَب، وإذا عاهَدَ غَدَر، وإذا خاصَمَ فَجَر))[3478].

[3470] ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص: 228، 229)

[3471] يُنظَر: ((نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم)) (10/ 4552)

[3472] ((المفردات)) (1/334)

[3473] ((مجموع الفتاوى)) (13 /263)

[3474] ((منهاج السنة النبوية)) (1 /30)

[3475] ((أحكام أهل الذمة)) (2 /1038)

[3476] ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (13/ 187)

[3477] ((جامع البيان)) (5/ 319)

[3478] أخرجه البخاري (34) واللفظ له، ومسلم (58)

(«أربعٌ من كُنَّ فيه» أي: من اتَّصف بهِنَّ «كان مُنافِقًا خالصًا»؛ لأنَّه أتى بجميعِ الأعمالِ التي يتَّصِفُ بها المُنافِقون، والعياذُ باللهِ، والمراد بالنِّفاقُ هنا النِّفاقُ العَمَليُّ الذي يكونُ عليه أهلُ النِّفاقِ العقَديّ، وليس نفاقَ الاعتقادِ؛ لأنَّ نفاقَ الاعتقادِ نفاقُ كُفرٍ، والعياذُ باللهِ، وهو الذي يُظهِرُ الإسلامَ ويُبطِنُ الكُفرَ، أمَّا هؤلاء الذين يتَّصِفون بهذه الصِّفاتِ فإنَّهم يؤمِنون باللهِ واليومِ الآخِرِ إيمانًا حقيقيًّا)[3479].

وقال النَّوويُّ: (قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كان مُنافِقًا خالصًا)) معناه شديدُ الشَّبَهِ بالمُنافِقين بسَبَبِ هذه الخِصالِ)[3480].

2- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((آيةُ المُنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلَف، وإذا اؤتُمِن خان))[3481].

(قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «آيةُ المُنافِقِ» أي: علامتُه ودلالتُه)[3482].

و(وجهُ الاقتصارِ على الثَّلاثةِ أنَّها مبنيَّةٌ على ما عداها؛ إذ أصلُ الدِّيانةِ ينحَصِرُ في ثلاثةٍ: القَولُ، والفِعلُ، والنِّيَّةُ؛ فنبَّه على فسادِ القَولِ بالكَذِبِ، وعلى فسادِ الفِعلِ بالخيانةِ، وعلى فسادِ النِّيَّةِ بالخُلفِ؛ لأنَّ خُلفَ الوعدِ لا يقدَحُ إلَّا إذا كان العزمُ عليه مقارِنًا للوعدِ، أمَّا لو كان عازمًا ثمَّ عَرَض له مانعٌ أو بدا له رأيٌ، فهذا لم توجَدْ منه صورةُ النِّفاقِ)[3483].

ب- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

1- قيل لحُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه: من المُنافِقُ؟ قال: (الذي يَصِفُ الإسلامَ ولا يَعمَلُ به)[3484].

2- وقال ابنُ جُرَيجٍ: (المُنافِقُ يخالِفُ قَولُه فِعلَه، وسِرُّه علانيتَه، ومَدخَلُه مخرجَه، ومَشهَدُه مَغيبَه)[3485].

3- وقال قتادةُ: (المُنافِقُ خَنِعُ الأخلاقِ، يصدقُ بلسانِه ويُنكِرُ بقَلبِه، ويخالفُ بعِلمِه، ويصبِحُ على حالٍ ويُمسي على غيرِه، ويُمسي على حالٍ ويُصبِحُ على غيرِه، يتكفَّأُ تكَفُّأَ السَّفينةِ كلَّما هبَّت ريحٌ هَبَّ معها)[3486].

4- وقال الحَسَنُ: (كان يقالُ: النِّفاقُ اختِلافُ السِّرِّ والعلانيةِ، والقَولِ والعَمَلِ، والمدخَلِ والمخرَجِ. وكان يقالُ: أُسُّ النِّفاقِ الذي يبنى عليه النِّفاقُ: الكَذِبُ)[3487].

5- وقال بلالُ بنُ سَعدٍ: (لا تكُنْ وَليَّ اللهِ في العلانيةِ، وعَدُوَّه في السِّرِّ!)[3488].

6- وقالت طائفةٌ من السَّلَفِ: (خُشوعُ النِّفاقِ أن ترى الجسَدَ خاشِعًا، والقَلبُ ليس بخاشِعٍ)[3489].

[3479] ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (6/ 163)

[3480] ((شرح النووي على مسلم)) (2/ 47)

[3481] أخرجه البخاري (33)، ومسلم (59)

[3482] ((شرح النووي على مسلم)) (2/ 48)

[3483] ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (264/4).

[3484] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (1/ 282).

[3485] ((جامع البيان)) للطبري (277/1).

[3486] ((تفسير ابن أبي حاتم)) (43/1).

[3487] ((صفة النفاق وذم المُنافِقين)) للفريابي (ص: 90).

[3488] ((الزهد)) لأحمد بن حنبل (ص: 312).

7- وقال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: (المُؤمِنُ قليلُ الكلامِ كثيرُ العَمَلِ، والمُنافِقُ كثيرُ الكلامِ قليلُ العَمَلِ؛ كلامُ المُؤمِنِ حُكمٌ، وصَمتُه تفَكُّرٌ، ونَظَرُه عِبرةٌ، وعمَلُه بِرٌّ، وإذا كنتَ كذا لم تَزَلْ في عبادةٍ)[3490].

8- وقال ابنُ القَيِّمِ: (زَرعُ النِّفاقِ يَنبُتُ على ساقيتَينِ: ساقيةِ الكَذِبِ، وساقيةِ الرِّياءِ. ومخرَجُهما من عينينِ: عينِ ضَعفِ البَصيرةِ، وعَينِ ضَعفِ العزيمةِ؛ فإذا تمَّت هذه الأركانُ الأربعُ استحكم نباتُ النِّفاقِ وبنيانُه)[3491].

المطلب الرابع: آثارُ النِّفاقِ

1- فِقدانُ المصداقيَّةِ.

2- فِقدانُ الثِّقةِ في التَّعامُلِ.

3- قد يؤدِّي النِّفاقُ الأصغَرُ إلى النِّفاقِ الأكبرِ.

4- تفَشِّي رذائِلِ الأخلاقِ، كالكَذِبِ والخيانةِ والغَدرِ.

5- تفكُّكُ المجتَمَعِ وعَدَمُ ترابُطِه.

6- حصولُ العداوةِ واستِشراءُ الخُصومةِ.

7- استِحقاقُ المُنافِقِ العقوبةَ المترتِّبةَ على نفاقِه.

8- حصولُ الفسادِ في قطاعاتٍ كثيرةٍ من المجتَمَعِ.

9- نقصُ الإيمانِ نتيجةَ فِعلِ خِصالِ النِّفاقِ.

المطلب الخامس: أقسامُ النِّفاقِ

النِّفاقُ قِسمانِ:

- **نفاقٌ اعتقاديٌّ،** وهو النِّفاقُ الأكبَرُ، وهو الذي يُخلِّدُ صاحِبُه في النَّارِ، وهو أن يُظهِرَ الإنسانُ الإيمانَ باللهِ وملائكتِه وكتُبِه ورسُلِه واليومِ الآخِرِ، ويُبطِنَ ما يناقِضُ ذلك كُلَّه أو بعضَه، وهذا هو النِّفاقُ الذي كان على عهدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.
- **ونفاقٌ عَمَليٌّ،** وهو النِّفاقُ الأصغَرُ، وهو من أكبَرِ الذُّنوبِ، وأصولُ هذا النِّفاقِ ترجِعُ إلى أنَّه إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلَف، وإذا خاصَم فجَر، وإذا عاهَد غدَر، وإذا اؤتُمِن خان[3492]. وهذا القِسمُ من أقسامِ النِّفاقِ هو المرادُ هنا.

[3489] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي (490/2).

[3490] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (8/ 98).

[3491] ((مدارج السالكين)) (1/ 365).

[3492] ينظر ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (176/1)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي (481/2)، ((فتح الباري)) لابن حجر (89/1).

المطلب السادس: مظاهِرُ وصُوَرُ النِّفاقِ

من مظاهِرِ وصُوَرِ نفاقِ العَمَلِ:

1- الكَذِبُ: وهو مذكورٌ في خصالِ النِّفاقِ، وذلك أن يحدِّثَ بحديثٍ لمن يُصدِّقُه به، وهو كاذبٌ له، والكَذِبُ أُسُّ النِّفاقِ، كما قال بعضُ العُلَماءِ.

2- الخيانةُ: وهي من صُوَرِ النِّفاقِ العَمَليِّ التي ذكَرها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في خِصالِ النِّفاقِ. عن سَعدٍ قال: (المُؤمِنُ يُطبَعُ على الخِلالِ كُلِّها إلَّا الخيانةَ والكَذِبَ)[3493].

قال الصَّنعانيُّ: (فإنَّ اللهَ لا يَطبَعُه عليها، بل إنَّما تحصُلُ له بالتَّطبُّعِ والتَّشبُّهِ بالأشرارِ الذين يَسرِقُ طِباعُهم الطِّباع، وفيه بيانُ قُبحِ هاتين الخَلَّتينِ، والخيانةُ شاملةٌ للخيانةِ في الأموالِ والأقوالِ والأفعالِ، والكَذِبُ شامِلٌ لقبائحِ الأقوالِ)[3494].

3- الفجورُ في الخُصومةِ، وقد ذكَرها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في خصالِ النِّفاقِ، والمرادُ بالفجورِ أن يخرُجَ عن الحَقِّ عَمدًا حتى يصيرَ الحَقُّ باطلًا، والباطِلُ حَقًّا، وهذا ممَّا يدعو إليه الكَذِبُ، والمُؤمِنُ لا يفجُرُ في خصومتِه، ولا يتخَلَّقُ بهذا الخُلُقِ القبيحِ.

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أبغضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألَدُّ الخَصِمُ))[3495].

قال ابنُ رجبٍ: (فإذا كان الرَّجُلُ ذا قُدرةٍ عِندَ الخصومةِ -سواءٌ كانت خصومتُه في الدِّينِ أو في الدُّنيا- على أن ينتَصِرَ للباطِلِ، ويخيِّلَ للسَّامعِ أنَّه حَقٌّ، ويُوهِنَ الحَقَّ، ويخرِجَه في صورةِ الباطِلِ؛ كان ذلك من أقبَحِ المحرَّماتِ، ومن أخبَثِ خِصالِ النِّفاقِ)[3496].

4- الرِّياءُ: وذلك حينَ يتظاهَرُ المُسلِمُ بالأعمالِ المطلوبةِ في الدِّينِ من الأعمالِ الصَّالحةِ ابتغاءَ مقاصِدَ دنيويَّةٍ يقصِدُها المرائي عِندَ النَّاسِ الذين يرجو أن ينخَدِعوا بأعمالِه، وطالبُ التَّعظيمِ والتَّبجيلِ من النَّاسِ من أجلِ ما شاهدوا من مظاهرِ أعمالِه الصَّالحةِ، قد يؤتيه اللهُ ثوابَه من الدُّنيا ومِن ثناءِ النَّاسِ عليه، لكِنَّه لا يجعَلُ له في الآخرةِ ثوابًا عليها.

عن محمودِ بنِ لَبيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أخوَفَ ما أخافُ عليكم الشِّرْكُ الأصغَرُ. قالوا: وما الشِّركُ الأصغَرُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: الرِّياءُ، يقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ لهم يومَ القيامةِ إذا جُزِيَ النَّاسُ بأعمالِهم: اذهَبوا إلى الذين كنتُم تراؤون في الدُّنيا، فانظروا هل تجِدون عندَهم جزاءً))[3497].

قال ابنُ بطَّالٍ: (إن كان الرِّياءُ لِمن سَلِم له عَقدُ الإيمانِ من الشِّركِ، ولحِقَه شيءٌ من الرِّياءِ في بعضِ أعمالِه، فليس ذلك بمُخرِجٍ من الإيمانِ إلَّا أنَّه مذمومٌ فاعلُه؛ لأنَّه أشرَكَ في بعضِ أعمالِه حَمدَ المخلوقين مع حَمدِ رَبِّه، فحُرِم ثوابَ عَمَلِه ذلك)[3498].

[3493] أخرجه ابن أبي شيبة (30975) واللفظ له، والبيهقي (21348). صحَّح إسنادَه على شرط الشيخين الألباني في تخريج ((الإيمان)) (81).

[3494] ((التنوير شرح الجامع الصغير)) (8/173).

[3495] رواه البخاري (2457)، ومسلم (2668).

[3496] ((جامع العلوم والحكم)) (2/486).

[3497] أخرجه أحمد (23630) واللفظ له، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (6831). صحَّحه ابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (2/29)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (1555)، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (23630)، وحسَّن إسناده ابن حجر في ((بلوغ المرام)) (440)، وجوَّده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (1/52).

[3498] ((شرح صحيح البخاري)) (113/1).

5- عدَمُ مشاركةِ المُسلِمِ في الغزوِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ، أو تحديثِ نفسِه به تشوقًا ورغبةً؛ فإنَّ المُؤمِنَ لا يُتصَوَّرُ منه أن يعيشَ عُمُرَه دونَ أن يتمنَّى أو يتطلَّعَ للجهادِ في سبيلِ اللهِ، وقد أخبر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ المحرومَ من ذلك فيه شُعبةٌ من شُعَبِ النِّفاقِ.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من مات ولم يَغْزُ ولم يحَدِّثْ به نفسَه، مات على شُعبةٍ من نفاقٍ))[3499].

قال النَّوويُّ: (والمرادُ أنَّ مَن فَعَل هذا فقد أشبه المُنافِقين المتخَلِّفين عن الجهادِ في هذا الوَصفِ؛ فإنَّ ترَكَ الجهادَ أحدُ شُعَبِ النِّفاقِ)[3500].

6- أن يكونَ المرءُ ذا وجهين، قال أناسٌ لابنِ عُمَرَ: إنَّا ندخُلُ على سُلطانِنا، فنقولُ لهم خلافَ ما نتكلَّمُ إذا خرَجْنا مِن عندِهم، قال: (كُنَّا نَعُدُّها نِفاقًا)[3501]. وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه سمِعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ شَرَّ النَّاسِ ذو الوجهَينِ، الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجهٍ))[3502].

7- إساءةُ الظَّنِّ، وتتبُّعُ العوراتِ والعَثَراتِ، والغِيبةُ وإظهارُ العُيوبِ؛ فعن أبي برزةَ الأسلَميِّ قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا مَعشَرَ مَن آمَن بلِسانِه، ولم يدخُلِ الإيمانُ قَلبَه، لا تغتابوا المُسلِمين، ولا تتَّبِعوا عَوراتِهم؛ فإنَّه من اتَّبَع عوراتِهم يَتَّبِعِ اللهُ عَورتَه، ومن يتَّبِعِ اللهُ عورتَه يفضَحْه في بيتِه))[3503]، وقال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: (الغِبطةُ من الإيمانِ، والحَسَدُ من النِّفاقِ، والمُؤمِنُ يَغبِطُ ولا يَحسُدُ، والمُنافِقُ يحسُدُ ولا يَغبِطُ، والمُؤمِنُ يَستُرُ ويَعِظُ وينصَحُ، والفاجِرُ يَهتِكُ ويُعَيِّرُ ويُفشي)[3504]، وقال ابنُ المبارَكِ: (المُؤمِنُ يَطلُبُ المعاذيرَ، والمُنافِقُ يَطلُبُ العثَراتِ)[3505]. قال الهيتمي: (كُلُّ من رأيتَه سَيِّئَ الظَّنِّ بالنَّاسِ طالِبًا لإظهارِ معايبِهم، فاعلَمْ أنَّ ذلك لخُبثِ باطِنِه وسُوءِ طَويَّتِه؛ فإنَّ المُؤمِنَ يَطلُبُ المعاذيرَ لسلامةِ باطِنِه، والمُنافِقُ يطلُبُ العُيوبَ لخُبثِ باطِنِه)[3506].

9- أن يعمَلَ الإنسانُ عَمَلًا، ويُظهِرَ أنَّه قصَد به الخيرَ، وإنما عَمِله ليتوصَّلَ به إلى غَرضٍ له سَيِّئٍ، فيتمُّ له ذلك، ويتوصَّلُ بهذه الخديعةِ إلى غَرَضِه، ويَفرحُ بمَكْرِه وخِداعِه وحَمدِ النَّاسِ له على ما أظهرَه، وتوصَّل به إلى غرَضِه السَّيِّئِ الذي أبطنَه[3507].

10- كثرةُ القولِ وقِلَّةُ العَمَلِ.

[3499] أخرجه مسلم (1910).

[3500] ((شرح النووي على مسلم)) (13/ 56).

[3501] رواه البخاري (7178).

[3502] رواه البخاري (7179)، ومسلم (2526).

[3503] رواه أبو داود (4880)، وأحمد (420/4) (19791)، وأبو يعلى (419/13) (7423)، والبيهقي (247/10) (20953). جوَّد إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (175/3)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (96/8): رجاله ثقات، وقال الألباني في ((4880)): حسنٌ صحيحٌ. وقال الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (19776): (صحيحٌ لغيره).

[3504] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (8/ 95).

[3505] ((الزهد والرقائق)) لابن المبارك (1/ 188).

[3506] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (1/ 143).

[3507] يُنظَر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (2/ 493).

المطلب السابع: أسبابُ الوُقوعِ في النِّفاقِ

1-ضَعفُ الإيمانِ.

2- الجَهلُ بالآثارِ المترتِّبةِ على النِّفاقِ.

3- الصُّحبةُ السَّيِّئةُ؛ فإنَّ الصَّاحِبَ ساحِبٌ.

4- تمكُّنُ حُبِّ الدُّنيا من قلوبِهم، والحِرصُ على المالِ؛ قال شُمَيطُ بنُ عَجلانَ: (إنَّ الدِّينارَ والدِّرهَمَ أزمةُ المُنافِقين، بهما يقادون إلى السَّوءاتِ)[3508].

5- الغفلةُ عن محاسبةِ النَّفسِ: قال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: (المُؤمِنُ يحاسِبُ نفسَه ويعلَمُ أنَّ له موقِفًا بَيْنَ يدَيِ اللهِ تعالى، والمُنافِقُ يَغفُلُ عن نفسِه؛ فرَحِم اللهُ عبدًا نظَر لنفسِه قبلَ نُزولِ مَلَكِ الموتِ له)[3509].

6- تمكُّنُ رذائِلِ الأخلاقِ من المُنافِقِ.

المطلب الثامن: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ النِّفاقِ

1- أن يعلَمَ أنَّ النِّفاقَ علامةُ عَدَمِ الإيمانِ، وأنَّ بعضَ النِّفاقِ كُفرٌ دونَ بَعضٍ، فهو شَرٌّ كُلُّه لا خيرَ فيه، فيَحرِصُ أن يجانِبَه أشَدَّ المجانبةِ.

2- أن يعلَمَ أنَّ النِّفاقَ الأصغَرَ وسيلةٌ إلى النِّفاقِ الأكبَرِ؛ قال ابنُ رجَبٍ: (النِّفاقُ الأصغرُ وسيلةٌ إلى النِّفاقِ الأكبرِ، كما أنَّ المعاصيَ بَريدُ الكُفرِ، وكما يُخشى على من أصَرَّ على المعصيةِ أن يُسلَبَ الإيمانَ عِندَ الموتِ، كذلك يُخشى على من أصَرَّ على خِصالِ النِّفاقِ أن يُسلَبَ الإيمانَ فيصيرَ مُنافِقًا خالصًا)[3510].

3-أن يعلَمَ أنَّ النِّفاقَ مرَضٌ يزدادُ في القلبِ ويتفاقَمُ حتى يكونَ سَبَبًا في هلاكِ العَبدِ.

4- تجنُّبُ خِصالِ النِّفاقِ، والحَذَرُ الشَّديدُ منه، وقد كان السَّلَفُ يخافون من النِّفاقِ ويَحذَرون من الوقوعِ فيه؛ قال إبراهيمُ التَّيميُّ: (ما عرَضتُ قولي على عَمَلي إلَّا خَشِيتُ أن أكونَ مُكَذِّبًا!)، وقال ابنُ أبي مُلَيكةَ: (أدركتُ ثلاثين من أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كُلُّهم يخافُ النِّفاقَ على نفسِه، ما منهم أحدٌ يقولُ: إنَّه على إيمانِ جِبريلَ وميكائيلَ)، ويُذكَرُ عن الحَسَنِ: (ما خافه إلَّا مُؤمِنٌ، ولا أَمِنَه إلَّا مُنافِقٌ)[3511].

وقال رجُلٌ لعبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ: إني أخافُ أن أكونَ مُنافِقًا، قال: (لو كنتَ مُنافِقًا ما خِفتَ ذلك)[3512].

وقال الحَسَنُ: (المُؤمِنُ مَن يَعلَمُ أنَّ ما قال اللهُ عزَّ وجَلَّ كما قال، والمُؤمِنُ أحسَنُ النَّاسِ عَمَلًا، وأشدُّ النَّاسِ خوفًا، لو أنفَق جبلًا من مالٍ ما أَمِنَ دونَ أن يُعايِنَ، ولا يزدادُ صلاحًا وبِرًّا وعبادةً إلَّا ازداد فَرَقًا، يقولُ: لا أنجو لا أنجو! والمُنافِقُ يقولُ: سوادُ النَّاسِ كثيرٌ، وسيُغفَرُ لي، ولا بأسَ عَلَيَّ! يُسيءُ العَمَلَ، ويتمنَّى على اللهِ تعالى!)[3513].

5- أن يعمَلَ على مجاهَدةِ نفسِه، ومراقبةُ اللهِ في أقوالِه وأفعالِه.

[3508] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (3/ 128).

[3509] ((تاريخ بغداد)) للخطيب (5/ 300).

[3510] ((جامع العلوم والحكم)) (2/ 492).

[3511] ((صحيح البخاري)) (1/ 18).

[3512] ((حلية الأولياء)) (4/ 251).

[3513] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (2/ 177).

6- أن يسأَلَ اللهَ سُبحانَه أن يعصِمَه من النِّفاقِ، ويستعيذَ باللهِ منه اقتداءً برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3514].

وسَمِع رَجُلٌ أبا الدَّرداءِ يتعوَّذُ من النِّفاقِ في صلاتِه، فلمَّا سَلَّم قال له: ما شأنُك وشأنُ النِّفاقِ؟! فقال: اللَّهُمَّ غَفْرًا -ثلاثًا-! لا تأمَنِ البلاءَ، واللهِ إنَّ الرَّجُلَ ليُفتَنُ في ساعةٍ واحدةٍ، فينقلِبُ عن دينِه[3515]!

المطلب التاسع: حُكمُ النِّفاقِ

يختَلِفُ حُكمُ النِّفاقِ باختلافِ نَوعِه؛ فالنِّفاقُ الأكبَرُ المتعَلِّقُ بالاعتقادِ، الذي يُظهِرُ فيه المُنافِقُ الإسلامَ، ويُبطِنُ الكُفرَ، هو الذي نزل القرآنُ بذَمِّ أهلِه وتكفيرِهم، وأخبر أنَّ أهلَه في الدَّركِ الأسفَلِ من النَّارِ، ولا خلافَ بَيْنَ العُلَماءِ أنَّ صاحِبَه مخلَّدٌ في النَّارِ، والنِّفاقُ الأصغَرُ، وهو نفاقُ العَمَلِ، وهو أن يظهِرَ الإنسانُ علانيةً صالحةً، ويُبطِنَ ما يخالِفُ ذلك سوى الاعتقادِ، فهذا النَّوعُ من كبائِرِ الذُّنوبِ[3516].

المطلب العاشر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ النِّفاقِ

1- اعتقادُ المُسلِمِ بعضَ الأمورِ تحصُلُ منه أنَّها من النِّفاقِ، وليست كذلك؛ كاختلافِ حالِ القَلبِ وحضورِه، ورقَّتِه وخُشوعِه عِندَ سماعِ الذِّكرِ، وتغَيُّرِه برُجوعِه إلى الدُّنيا والاشتغالِ بالأهلِ والأولادِ والأموالِ، فعن حَنظلةَ الأُسَيديِّ قال -وكان من كُتَّابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، قال: ((لَقِيني أبو بكرٍ، فقال: كيف أنت يا حنظلةُ؟ قال: قُلتُ: نافَق حَنظَلةُ، قال: سُبحانَ اللهِ! ما تقولُ؟! قال: قلتُ: نكونُ عِندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُذَكِّرُنا بالنَّارِ والجنَّةِ، حتَّى كأنَّا رأيَ عَينٍ، فإذا خرَجْنا من عِندِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عافَسْنا الأزواجَ والأولادَ والضَّيعاتِ، فنَسِينا كثيرًا، قال أبو بكرٍ: فواللهِ إنَّا لنلقى مثلَ هذا، فانطلَقتُ أنا وأبو بكرٍ حتى دخَلْنا على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قُلتُ: نافَق حنظَلةُ يا رسولَ اللهِ! فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وما ذاك؟ قلتُ: يا رسولَ اللهِ، نكونُ عندك، تُذَكِّرُنا بالنَّارِ والجنَّةِ، حتَّى كأنَّا رأيَ عينٍ، فإذا خرَجْنا من عندِك عافَسْنا[3517] الأزواجَ والأولادَ والضَّيعاتِ، نَسِينا كثيرًا! فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: والذي نفسي بيَدِه إنْ لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكرِ، لصافَحَتْكم الملائكةُ على فُرُشِكم وفي طُرُقِكم، ولكِنْ يا حنظَلةُ ساعةٌ وساعةٌ)) ثلاثَ مرَّاتٍ[3518].

قال القاضي عياضٌ: (قولُه: «نافَق حنظَلةُ»: أي بما ظهر منه بحضرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الخوفِ، خِلافَ ما كان منه في منزِلِه وانفرادِه، خَشِيَ النِّفاقَ؛ إذ أصلُه إظهارُ شَيءٍ وكَتمُ غيرِه وسترُه، فأعلَمَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ الحالَ منهم لا تقتضي بقاءَهم على وتيرةٍ واحدةٍ، وأنَّ مِثلَ هذا ليس بنفاقٍ)[3519].

[3514] يُنظَر: ما أخرجه الطبراني في ((المعجم الصغير)) (316)، والحاكم (1944)، والبيهقي في ((الدعوات الكبير)) (348). قال الحاكم في ((المستدرك)): (صحيحٌ على شرطِ الشَّيخينِ)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (146/10): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ، وقال الألباني في إرواء الغليل (357/3): إسنادُه عِندَ الحاكِمِ على شرطِ البخاريِّ، وقال الأرناؤوط في ((تخريج سنن أبي داود)) (646/2): (إسناده صحيحٌ).

[3515] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (2/ 492).

[3516] يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (193/1)، ((الكبائر)) للذهبي (ص: 125)، ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (176/1)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي (481/2)، ((فتح الباري)) لابن حجر (89/1)، ((الزواجر)) لابن حجر الهيتمي (129/1).

[3517] أي: عالجْنا ذلك ولَزِمْناه. وقيل: لاعَبْناهم. يُنظر: ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قُرْقُول (5/ 26).

[3518] أخرجه مسلم (2750).

[3519] يُنظَر: ((إكمال المعلم)) (8/250).

وقال ابنُ الجوزيّ: (قولُه: «ساعةٌ وساعةٌ» معناه: ساعةٌ لقُوَّةِ اليقظةِ، وساعةٌ للمُباحِ وإن أوجبت بعضَ الغفلةِ، وهذا لأنَّ الإنسانَ لو حقَّق مع نفسِه ما بَقِيَ؛ فلا بدَّ للمتيقِّظِ من التَّعرُّضِ لأسبابِ الغفلةِ ليُعدِّلَ ما عندَه، ومن أين يقدِرُ على الأكلِ والشُّربِ والجِماعِ مَن يرى الأمرَ كأنَّه مُعايِنٌ؟! وإنَّ من الغفلةِ لنِعمةً عظيمةً، إلَّا أنَّها إذا زادت أفسَدَت، إنما ينبغي أن تكونَ بمقدارِ ما يُعَدِّلُ)[3520].

2- الاعتقادُ بأنَّ الوقوعَ في خصلةٍ من خصالِ النِّفاقِ ولو مرَّةً واحدةً يستَحِقُّ صاحبُها الوصفَ بالنِّفاقِ، وقد أجاب العُلَماءُ على ذلك عِندَ الحديثِ عن خصالِ النِّفاقِ، ومتى يوصَفُ فاعلُها بالمُنافِقِ، وذلك باعتبارَينِ:

الاعتبارُ الأوَّلُ: أن يكونَ ما يفعَلُه منها عن قصدٍ وعزمٍ بغيرِ عُذرٍ؛ فعلى سبيلِ المثالِ إخلافُ الوعدِ هذا يُنَزَّلُ على عَزمِ الخُلفِ أو تَركِ الوفاءِ من غيرِ عُذرٍ، فأمَّا من عزَم على الوفاءِ فعَنَّ له عذرٌ منعَه من الوفاءِ، لم يكُنْ مُنافِقًا وإن جرى عليه ما هو صورةُ النِّفاقِ، ولكِنْ ينبغي أن يحترِزَ من صورةِ النِّفاقِ أيضًا كما يتحَرَّزُ من حقيقتِه، ولا ينبغي أن يجعَلَ نفسَه معذورًا من غيرِ ضرورةٍ حاجزةٍ[3521].

الاعتبارُ الثَّاني: أن تكونَ هذه الخِصالُ ديدَنًا له، وعادةً غالبةً عليه يفعَلُها مستَخِفًّا بفِعلِها ومتهاوِنًا بها[3522].

المطلب الحادِي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

1- اجتِماعُ النِّفاقِ والإيمانِ:

قال ابنُ تَيميَّةَ: (وقد يجتَمِعُ في العبدِ نِفاقٌ وإيمانٌ، ... وطوائِفُ أهلِ الأهواءِ من الخوارجِ، والمعتَزِلةِ، والجَهميَّةِ، والمُرجِئةِ، كرَامِيِّهم وغيرِ كرَامِيِّهم، يقولون: إنَّه لا يجتَمِعُ في العبدِ إيمانٌ ونفاقٌ، ومنهم من يدَّعي الإجماعَ على ذلك، وقد ذَكَر أبو الحسَنِ في بعضِ كُتُبِه الإجماعَ على ذلك، ومن هنا غلِطوا فيه وخالفوا فيه الكتابَ والسُّنَّةَ وآثارَ الصَّحابةِ والتَّابعين لهم بإحسانٍ، مع مخالفةِ صريحِ المعقولِ)[3523].

والمرادُ بالنِّفاقِ هنا النِّفاقُ العَمَليُّ؛ قال ابنُ القَيِّمِ: (قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فمَن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصلةٌ من النِّفاقِ)). دلَّ على أنَّه يجتَمِعُ في الرَّجُلِ نِفاقٌ وإسلامٌ)[3524].

2- إشكالٌ في حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو في خِصالِ النِّفاقِ:

- عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خالِصًا، ومَن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خصلةٌ من النِّفاقِ حتَّى يدَعَها: إذا اؤتُمِن خان، وإذا حدَّث كَذَب، وإذا عاهَد غدَر، وإذا خاصَم فجَر))[3525].

قال النَّوويُّ: (هذا الحديثُ ممَّا عدَّه جماعةٌ من العُلَماءِ مُشكِلًا من حيثُ إنَّ هذه الخصالَ توجَدُ في المُسلِمِ المصَدِّقِ الذي ليس فيه شكٌّ، وقد أجمع العُلَماءُ على أنَّ من كان مصَدِّقًا بقلبِه ولسانِه وفعَل هذه الخصالَ، لا يُحكَمُ عليه بكُفرٍ، ولا هو مُنافِقٌ يخلَّدُ في النَّارِ؛ فإنَّ إخوةَ يُوسُفَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جمعوا هذه الخِصالَ، وكذا وُجِد لبعضِ السَّلَفِ والعُلَماءِ بعضُ

[3520] يُنظَر: ((كشف المشكل)) (4/229، 230).

[3521] ((إحياء علوم الدين)) (3/133).

[3522] ((فتح الباري)) (1/90-91). ويُنظَر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (1/ 164-168)، ((الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري)) للكرماني (1/ 148).

[3523] ((الإيمان)) (ص: 277، 278).

[3524] ((الصلاة وأحكام تاركها)) (ص: 61) بتصرُّفٍ يسيرٍ.

[3525] أخرجه البخاري (34) واللفظ له، ومسلم (58)

هذا أو كُلُّه، وهذا الحديثُ ليس فيه -بحمدِ اللهِ تعالى- إشكالٌ، ولكن اختلف العُلَماءُ في معناه؛ فالذي قاله المحَقِّقون والأكثرون -وهو الصَّحيحُ المختارُ-: إنَّ معناه أنَّ هذه الخصالَ خِصالُ نِفاقٍ وصاحِبُها شبيهٌ بالمُنافِقين في هذه الخِصالِ، ومتخَلِّقٌ بأخلاقِهم؛ فإنَّ النِّفاقَ هو إظهارُ ما يُبطَنُ خِلافُه، وهذا المعنى موجودٌ في صاحبِ هذه الخِصالِ، ويكونُ نفاقُه في حَقِّ من حَدَّثه ووعَده وائتَمَنه وخاصَمَه وعاهَدَه من النَّاسِ، لا أنَّه مُنافِقٌ في الإسلامِ فيُظهِرُه وهو يُبطِنُ الكُفرَ، ولم يُرِدِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا أنَّه مُنافِقٌ نِفاقَ الكُفَّارِ المُخَلَّدين في الدَّركِ الأسفَلِ من النَّارِ ... فهذا هو المختارُ في معنى الحديثِ)[3526].

3- سؤالٌ في حديثِ أبي هُرَيرةَ:

- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((آيةُ المُنافِقِ ثلاثٌ: إذا حَدَّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا اؤتُمِن خان))[3527].

قال ابنُ حَجَرٍ: (فإنْ قيلَ: ظاهِرُه الحَصرُ في الثَّلاثِ، فكيف جاء في الحديثِ الآخَرِ بلفظِ: أربعٌ مَن كُنَّ فيه... الحديث؟ أجاب القُرطبيُّ باحتمالِ أنَّه استجَدَّ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من العِلمِ بخصالِهم ما لم يكُنْ عندَه، وأقولُ: ليس بَيْنَ الحديثينِ تعارُضٌ؛ لأنَّه لا يلزَمُ مِن عَدِّ الخَصلةِ المذمومةِ الدَّالَّةِ على كمالِ النِّفاقِ كونُها علامةً على النِّفاقِ؛ لاحتمالِ أن تكونَ العلاماتُ دالَّاتٍ على أصلِ النِّفاقِ، والخصلةُ الزَّائدةُ إذا أضيفَت إلى ذلك كَمَل بها خُلوصُ النِّفاقِ، على أنَّ في روايةِ مُسلمٍ من طريقِ العلاءِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ عن أبيه عن أبي هُرَيرةَ ما يدُلُّ على إرادةِ عَدَمِ الحَصرِ؛ فإنَّ لفظَه: من علامةِ المُنافِقِ ثلاثٌ ... وإذا حُمِل اللَّفظُ الأوَّلُ على هذا لم يَرِدِ السُّؤالُ، فيكونُ قد أخبر ببعضِ العلاماتِ في وقتٍ، وببعضِها في وقتٍ آخَرَ، وقال القُرطبيُّ أيضًا والنَّوويُّ: حصل من مجموعِ الرِّوايتينِ خَمسُ خِصالٍ؛ لأنَّهما توارَدَتا على الكَذِبِ في الحديثِ، والخيانةِ في الأمانةِ، وزاد الأوَّلُ الخُلفَ في الوَعدِ، والثَّاني: الغَدرَ في المعاهدةِ، والفُجورَ في الخُصومةِ، قُلتُ: وفي روايةِ مُسلمٍ: الثَّاني بَدَلَ الغَدْرِ في المعاهَدةِ الخُلفُ في الوَعدِ، كما في الأوَّلِ، فكأنَّ بعضَ الرُّواةِ تصَرَّف في لفظِه؛ لأنَّ معناهما قد يتَّحِدُ، وعلى هذا فالمزيدُ خَصلةٌ واحدةٌ، وهي الفُجورُ في الخُصومةِ، والفُجورُ: الميلُ عن الحَقِّ والاحتيالُ في ردِّه، وهذا قد يندَرِجُ في الخَصلةِ الأُولى، وهي الكَذِبُ في الحديثِ)[3528].

[3526] ((شرح النووي على مسلم)) (2/46-47).

[3527] أخرجه البخاري (33)، ومسلم (59).

[3528] ((فتح الباري)) (1/ 89).

المبحث الثاني: العُجْبُ

المطلب الأول: معنى العُجْبِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى العُجْبِ لُغةً:**

العُجْبُ بالضَّمِّ: الزَّهوُ والكِبرُ، ورَجُلٌ مُعجَبٌ: مزهوٌّ بما يكونُ منه حَسَنًا أو قبيحًا. وقيل: المُعجَبُ: الإنسانُ المُعجَبُ بنَفسِه أو بالشَّيءِ. وقد أُعجِبَ فلانٌ بنفسِه إذا ترفَّع وتكَبَّرَ، فهو معجَبٌ برأيِه وبنَفسِه. والاسمُ العُجْبُ، وهذه المادَّةُ ممَّا تدُلُّ عليه كِبرٌ واستِكبارٌ للشَّيءِ.[3529]

- **معنى العُجْبِ اصطِلاحًا:**

قال الجُرْجانيُّ: (العُجْبُ: هو عبارةٌ عن تصَوُّرِ استحقاقِ الشَّخصِ رُتبةً لا يكونُ مُستَحِقًّا لها)[3530].

وقال الغَزاليُّ: (العُجْبُ: هو استِعظامُ النِّعمةِ، والرُّكونُ إليها، مع نِسيانِ إضافتِها إلى المُنعِمِ)[3531].

وقال أحمَدُ بنُ يحيى بنِ المُرتَضى: (العُجْبُ: مَسَرَّةٌ بحُصولِ أمرٍ، يَصحَبُها تطاوُلٌ به على مَن لم يحصُلْ له مِثلُه، بقولٍ أو ما في حُكمِه من فِعلٍ، أو تَركٍ، أو اعتِقادٍ)[3532].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ العُجْبِ وبَعضِ الصِّفاتِ

قال ابنُ حَزمٍ: (العُجْبُ أصلٌ يتفَرَّعُ عنه التِّيهُ، والزَّهوُ، والكِبرُ، والنَّخوةُ، والتَّعالي، وهذه أسماءٌ واقعةٌ على معانٍ متقاربةٍ؛ ولذلك صَعُب الفَرْقُ بينها على أكثَرِ النَّاسِ)[3533].

ومع ذلك فقد تكَلَّم العُلَماءُ -وخاصَّةً أهلَ اللُّغةِ- عن الفُروقِ بَيْنَ العُجْبِ وبينَ هذه الصِّفاتِ، ونذكُرُ منها ما يلي:

- **الفَرْقُ بَيْنَ العُجْبِ والكِبرِ:**

قال أبو هِلالٍ العَسكريُّ: (إنَّ العُجْبَ بالشَّيءِ شِدَّةُ السُّرورِ به، حتَّى لا يعادِلَه شيءٌ عِندَ صاحِبِه، تقولُ: هو مُعجَبٌ بفُلانةَ: إذا كان شديدَ السُّرورِ بها، وهو مُعجَبٌ بنفسِه: إذا كان مسرورًا بخِصالِها.

ولهذا يُقالُ: أعجَبَه، كما يُقالُ: سُرَّ به، فليس العُجْبُ من الكِبرِ في شيءٍ، وقال عليُّ بنُ عيسى: العُجْبُ عَقدُ النَّفسِ على فضيلةٍ لها ينبغي أن يُتعَجَّبَ منها، وليست هي لها)[3534].

[3529] يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((لسان العرب)) لابن منظور، ((المصباح المنير)) للفيومي، ((تاج العروس)) للزبيدي.

[3530] ((التعريفات)) (ص: 147)

[3531] ((إحياء علوم الدين)) (3/371)، قال أبو العبَّاسِ القُرطبيُّ: (إعجابُ الرَّجُلِ بنفسِه هو ملاحظتُه لها بعَينِ الكَمالِ والاستِحسانِ، مع نسيانِ مِنَّةِ اللهِ تعالى). ((المفهم لما أشكل من تلخيص: كتاب مسلم)) (406 /5)

[3532] ((البحر الزخار)) (6/490)

[3533] ((الأخلاق والسير)) (ص: 75)

[3534] ((الفروق اللغوية)) (ص: 352).

وقال الغَزاليُّ: (فإنَّ الكِبرَ يستدعي مُتكبَّرًا عليه، ومتكبَّرًا به، وبه ينفَصِلُ الكِبرُ عن العُجْبِ ... فإنَّ العُجْبَ لا يستدعي غيرَ المُعجَبِ، بل لو لم يُخلَقِ الإنسانُ إلَّا وَحدَه تُصُوِّرَ أن يكونَ معجَبًا، ولا يُتصَوَّرُ أن يكونَ مُتكَبِّرًا إلَّا أن يكونَ مع غيرِه)[3535].

- **الفَرْقُ بَيْنَ العُجْبِ والتِّيهِ:**

قال الرَّاغِبُ: (والتِّيهُ: قريبٌ من العُجْبِ، لكِنَّ المُعجَبَ يُصَدِّقُ نفسَه فيما يَظُنُّ بها وَهمًا. والتَّائِهُ يُصَدِّقُها قَطعًا)[3536].

- **الفَرْقُ بَيْنَ العُجْبِ والإدلالِ:**

يقولُ المُحاسِبيُّ: (إنَّ الإدلالَ معنًى زائدٌ في العُجْبِ، وهو أن يَعجَبَ بعَمَلِه أو عِلمِه، فيرى أنَّ له عِندَ اللَّهِ قَدرًا عظيمًا قد استحَقَّ به الثَّوابَ على عَمَلِه، فإنَّ رَجاءَ المغفرةِ مع الخوفِ لم يكُنْ إدلالًا، وإن زايلَ الخوفُ ذلك فهو إدلالٌ)[3537].

المطلب الثالث: ذمُّ العُجْبِ والنَّهيُ عنه

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

أمَّا العُجْبُ في القُرآنِ الكريمِ فقد وردت فيه عدَّةُ آياتٍ تُبَيِّنُ خَطَرَه، وتُنَبِّهُ على أنَّه آفةٌ تَجُرُّ وراءَها آفاتٍ دُنيويَّةً وعُقوباتٍ أُخرويَّةً، فمِن تلك الآياتِ:

- قال اللَّهُ تبارك وتعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ} [التوبة: 25].

(قال جعفَرٌ: استِجلابُ النَّصرِ في شيءٍ واحدٍ، وهو الذِّلَّةُ والافتقارُ والعَجزُ... وحلولُ الخِذلانِ بشيءٍ واحدٍ، وهو العُجْبُ...)[3538].

- وقال اللَّهُ تبارك وتعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} [الكهف: 32-36].

قال ابنُ عاشورٍ: (ضَرَب مثلًا للفريقينِ؛ للمُشرِكين وللمُؤمِنين، بمَثَلِ رَجُلين، كان حالُ أحَدِهما معجَبًا مُؤنِقًا، وحالُ الآخَرِ بخِلافِ ذلك، فكانت عاقبةُ صاحبِ الحالِ المونِقةِ تبابًا وخَسارةً، وكانت عاقبةُ الآخَرِ نجاحًا؛ ليَظهَرَ للفريقينِ ما يجُرُّه الغرورُ

[3535] ((إحياء علوم الدين)) (3/341)

[3536] ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص: 218). ويُنظَر: ((تاج العروس)) للزبيدي (3/318)

[3537] ((الرعاية لحقوق الله)) (343، 344).

[3538] ((تفسير السلمي)) (1/272)

والإعجابُ والجَبَروتُ إلى صاحِبِه من الإزراءِ، وما يلقاه المُؤمِنُ المتواضِعُ العارِفُ بسُنَنِ اللَّهِ في العالَمِ، من التَّذكيرِ، والتَّدبُّرِ في العواقِبِ، فيكونُ مُعَرَّضًا للصَّلاحِ والنَّجاحِ)[3539].

- وقال اللَّهُ تبارك وتعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} [الإسراء: 37-38].

يقولُ العِزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ: (زَجَره عن التَّطاوُلِ الذي لا يُدرِكُ به غَرَضًا، أو يريدُ: كما أنَّك لا تخرِقُ الأرضَ ولا تَبلُغُ الجِبالَ طُولًا، فلذلك لا تبلُغُ ما تريدُه بكِبرِك وعُجبِك، إياسًا له من بلوغِ إرادتِه)[3540].

- وقال اللَّهُ تبارك وتعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان: 18].

قال ابنُ كثيرٍ: (لا تُعرِضْ بوَجهِك عن النَّاسِ إذا كلَّمْتَهم أو كَلَّموك، احتقارًا منك لهم واستِكبارًا عليهم، ولكِنْ ألِنْ جانِبَك وابسُطْ وَجهَك إليهم... وقولُه تعالى: وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ، أي: خُيَلاءَ مُتكَبِّرًا جبَّارًا عنيدًا، لا تفعَلْ ذلك، يبغِضُك اللَّهُ؛ ولهذا قال: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، أي: مختالٍ مُعجَبٍ في نفسِه فَخُورٍ، أي: على غيرِه)[3541].

- وقال اللَّهُ تعالى: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 49].

قال ابنُ كثيرٍ: (يقولُ تعالى مخبِرًا عن الإنسانِ أنَّه في حالِ الضَّرَّاءِ يَضرَعُ إلى اللَّهِ عزَّ وجَلَّ، وينيبُ إليه ويدعوه، وإذا خوَّله منه نِعمةً بغى وطغى، وقال: إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ، أي: لِما يَعلَمُ اللَّهُ من استحقاقي له، ولولا أنِّي عِندَ اللَّهِ تعالى خصيصٌ لَما خوَّلني هذا)[3542].

ب- من السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه: ((بينا رجُلٌ يمشي في حُلَّةٍ تُعجِبُه نفسُه، مُرَجِّلٌ[3543] جُمَّتَه[3544]، إذ خَسَف اللَّهُ به، فهو يتجَلْجَلُ[3545] إلى يومِ القيامةِ))[3546].

[3539] ((التحرير والتنوير)) (15/315)

[3540] ((تفسير العز بن عبد السلام)) (2/219)

[3541] ((تفسير القرآن العظيم)) (6/339)

[3542] المصدر السابق (7/105)

[3543] مُرَجِّلٌ: من التَّرجيلِ بالجيمِ، وهو تسريحُ شَعرِ الرَّأسِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (21/298)

[3544] جُمَّتُه: مجتَمَعُ شَعرِ الرأسِ، وهو أكبَرُ من الوَفرةِ، ويقالُ: هو الشَّعرُ الذي يتدَلَّى من الرَّأسِ إلى المَنكِبينِ وإلى أكثَرَ من ذلك. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني(21/298)

[3545] يتجَلْجَلُ من التَّجَلجُلِ -بالجيمين- وهو الحركةُ، والمعنى: أنَّه يتحَرَّكُ وينزِلُ مُضطَرِبًا متدافِعًا. يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (10/261)، ((عمدة القاري)) للعيني /21) (298

[3546] رواه البخاري (5789) واللفظ له، ومسلم (2088)

قال أبو العبَّاسِ القُرطبيُّ: (يفيدُ هذا الحديثُ تَركَ الأمنِ من تعجيلِ المؤاخَذةِ على الذُّنوبِ، وأنَّ عُجبَ المرءِ بنَفسِه وثوبِه وهيئتِه حرامٌ وكبيرةٌ)[3547].

- وعن أبي هُرَيرةَ، قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللَّهُ عزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ: الشَّيخُ الزَّاني، والعائِلُ المَزهوُّ، والإمامُ الكَذَّابُ))[3548].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ وغَيرِهم:

- قال عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عنه: (أخوَفُ ما أخاف عليكم أن تَهلِكوا فيه ثلاثُ خِلالٍ: شُحٌّ مطاعٌ، وهوًى متَّبَعٌ، وإعجابُ المرءِ بنَفسِه)[3549].

- وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه: (الإعجابُ ضِدُّ الصَّوابِ، وآفةُ الألبابِ)[3550].

- وقالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عنها: (لبِستُ مرَّةً دِرعًا جديدًا، فجعَلْتُ أنظُرُ إليه وأعجَبُ به، فقال أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه: أمَا علِمتِ أنَّ العبدَ إذا دخَله العُجْبُ بزينةِ الدُّنيا مقَتَه رَبُّه حتَّى يفارِقَ تلك الزِّينةَ؟ قالت: فنزَعْتُه فتصَدَّقْتُ به. فقال أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه: عسى ذلك أن يُكَفِّرَ عنكِ)[3551].

- وعن كعبٍ أنَّه قال لرجُلٍ رآه يتَّبعُ الأحاديثَ: (اتَّقِ اللَّهَ، وارْضَ بدُونِ الشَّرَفِ من المجلِسِ، ولا تؤذِيَنَّ أحَدًا؛ فإنَّه لو ملأَ عِلمُك ما بَيْنَ السَّماءِ والأرضِ مع العُجْبِ، ما زادك اللَّهُ به إلَّا سَفالًا ونَقصًا)[3552].

- وقال أبو الدَّرداءِ: (علامةُ الجَهلِ ثلاثٌ: العُجْبُ، وكَثرةُ المَنطِقِ فيما لا يَعنيه، وأن يَنهى عن شيءٍ ويأتيَه)[3553].

- وعن مسروقٍ قال: (كفى بالمرءِ عِلمًا أن يخشى اللَّهَ، وكفى بالمرءِ جهلًا أن يُعجَبَ بعِلمِه)[3554].

- -وقال أبو وَهبٍ المَرْوَزيُّ: (سألتُ ابنَ المبارَكِ: ما الكِبرُ؟ قال: أن تزدريَ النَّاسَ، قال: وسألتُه عن العُجْبِ؟ قال: أن ترى عندَك شيئًا ليس عِندَ غيرِك، قال: ولا أعلَمُ في المُصلِّين شيئًا شَرًّا من العُجْبِ)[3555].

- وقال عليُّ بنُ ثابتٍ: (المالُ آفتُه التَّبذيرُ والنَّهبُ، والعِلمُ آفتُه الإعجابُ والغَضَبُ)[3556].

- وعن خالِدِ بنِ يزيدَ بنِ معاويةَ قال: (إذا رأيتَ الرَّجُلَ لجوجًا مُماريًا مُعجَبًا بنفسِه، فقد تمَّت خَسارتُه)[3557].

[3547] ((المفهم لما أشكل من تلخيص: كتاب مسلم)) (406 /5)

[3548] رواه النسائي (2575) واللفظ له، وأحمد (9594). صحَّحه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (4413)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (2575)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (9594). والحديثُ رواه مسلم (107) بلفظ: ((ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ ولا يُزَكِّيهم -قال أبو معاويةَ-: ولا ينظُرُ إليهم- ولهم عذابٌ أليمٌ: شَيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كَذَّابٌ، وعائِلٌ مُستكبِرٌ)).

[3549] رواه من طُرُقٍ: ابن أبي شيبة (38727)، وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (960) واللفظ له.

[3550] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (237)

[3551] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (1/37)

[3552] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (5/376) مطوَّلًا، وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (959) باختلافٍ يسيرٍ، والخطيب في ((الفقيه والمتفقه)) (2/57) واللفظ له.

[3553] رواه ابنُ عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (963)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (47/175)

[3554] أخرجه الدارمي في سننه (1/ 346، 383)، وابن سعد في ((الطبقات الكبير)) (202 /8)

[3555] رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (8260)

[3556] ذكره ابنُ عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (968)

- وكان يحيى بنُ مُعاذٍ يقولُ: (إيَّاكم والعُجْبَ؛ فإنَّ العُجْبَ مَهلكةٌ لأهلِه، وإنَّ العُجْبَ ليأكُلُ الحَسَناتِ كما تأكُلُ النَّارُ الحَطَبَ)[3558].

- وكان ذو النُّونِ يقولُ: (أربَعُ خِلالٍ لها ثَمَرةٌ: العَجَلةُ، والعُجْبُ، واللَّجاجةُ، والشَّرَهُ؛ فثَمرةُ العَجَلةِ النَّدامةُ، وثَمَرةُ العُجْبِ البُغضُ، وثَمَرةُ اللَّجاجةِ الحَيرةُ، وثَمَرةُ الشَّرَهِ الفاقةُ)[3559].

- وقال عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ: (اثنتانِ مُنجيتانِ، واثنتانِ مُهلِكتانِ؛ فالمُنجيتانِ: النِّيَّةُ، والنَّهيُ، فالنِّيَّةُ: أن تنويَ أن تطيعَ اللَّهَ فيما يُستقبَلُ، والنَّهيُ: أن تنهى نفسَك عمَّا حَرَّم اللَّهُ عزَّ وجَلَّ، والمُهلِكتان: العُجْبُ، والقُنوطُ)[3560].

- وقال الحارِثُ بنُ نَبْهانَ: سَمِعتُ محمَّدَ بنَ واسِعٍ يقولُ: (وا أصحاباه! ذهَب أصحابي، قال: قُلتُ: يرحمُك اللَّهُ، أليس قد نشأ شبابٌ يقرؤون القرآنَ، ويقومون اللَّيلَ، ويصومون النَّهارَ، ويحجُّون ويقرؤون؟! قال: فبزَق، وقال: أفسَدَهم العُجْبُ!)[3561].

- وعن مُطَرِّفِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ الشِّخِّيرِ، قال: (لأن أبيتَ نائِمًا وأُصبِحَ نادِمًا أحَبُّ إليَّ مِن أن أبيتَ قائِمًا وأُصبِحَ مُعجَبًا)[3562].

- وقال الذَّهبيُّ بعدَ أن أورَد كلامَ مُطَرِّفٍ: (قُلتُ: لا أفلَحَ -واللَّهِ- مَن زكَّى نفسَه، أو أعجَبَتْه)[3563].

- وقال مُبارَكٌ أبو حمَّادٍ: سمِعتُ سُفيانَ الثَّوريَّ يقولُ فيما أوصى به عليَّ بنَ الحَسَنِ السُّلَميَّ: (عليك بالصِّدقِ في المواطِنِ كُلِّها، وإيَّاك والكَذِبَ والخيانةَ ومجالَسةَ أصحابِها؛ فإنَّها وِزرٌ كُلُّه، وإيَّاك يا أخي والرِّياءَ في القولِ والعَمَلِ؛ فإنَّه شِركٌ بعَينِه، وإيَّاك والعُجْبَ؛ فإنَّ العَمَلَ الصَّالحَ لا يُرفَعُ وفيه عُجبٌ)[3564].

- وقال عَمرُو بنُ قَيسٍ المُلائيُّ: (قال إبليسُ: ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه أدرَكْتُ منه حاجتي: مَن استكثَرَ عَمَلَه، ونَسِيَ ذُنوبَه، وأعجِبَ برأيِه)[3565].

- وقال عبدُ المَلِكِ بنُ مَروانَ: (العُجْبُ آفةُ الرَّأيِ)[3566].

- وقال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: (مَن وُقِيَ خمسًا فقد وُقِيَ شَرَّ الدُّنيا والآخرةِ: العُجْبُ، والرِّياءُ، والكِبرُ، والإزراءُ، والشَّهوةُ)[3567]

- وقال: (آفةُ القُرَّاءِ: العُجْبُ)[3568].

[3557] رواه الخرائطي في ((مساوئ الأخلاق)) (567)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (16/312)

[3558] رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (7248)

[3559] المصدر السابق (8215)

[3560] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (7/298) مطوَّلًا.

[3561] رواه أحمد في ((الزهد)) (1572)

[3562] ((الزهد)) لابن المبارك (448)، ((الزهد)) لأحمد بن حنبل (1342)، ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (384 /1)

[3563] ((سير أعلام النبلاء)) (190 /4)

[3564] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (7/ 82)، ((التذكرة)) لابن حمدون(219 /1)

[3565] ((شعب الإيمان)) للبيهقي (3/ 325). ويُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (92 /5)

[3566] ((المجموع اللفيف)) للأفطسي (ص: 401).

[3567] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (95 /8)

[3568] ((شعب الإيمان)) للبيهقي (3/ 304) و (35 /12)

- وقال أبو الحَسَنِ المُزَيِّنُ: (المُعجَبُ بعَمَلِه مُستدرَجٌ، والمُستحسِنُ لشَيءٍ من أحوالِه ممكورٌ به، والذي يظُنُّ أنَّه موصولٌ فهو مغرورٌ)[3569].

- وقال حاتمٌ الأصَمُّ: (لا أدري أيُّهما أشَدُّ على النَّاسِ اتِّقاءً: العُجْبُ أو الرِّياءُ؟! العُجْبُ داخِلٌ فيك، والرِّياءُ يدخُلُ عليك، العُجْبُ أشَدُّ عليك من الرِّياءِ، ومَثَلُهما: أن يكونَ معك في البَيتِ كَلبٌ عَقورٌ، وكَلبٌ آخَرُ خارِجَ البيتِ، فأيُّهما أشَدُّ عليك: الذي معك أو الخارِجُ؟ فالدَّاخِلُ العُجْبُ، والخارِجُ الرِّياءُ)[3570].

- وقال ابنُ المقَفَّعِ: (العُجْبُ آفةُ العَقلِ، واللَّجاجةُ قُعودُ الهوى، والبُخلُ لِقاحُ الحِرصِ، والمِراءُ فَسادُ اللِّسانِ، والحَمِيَّةُ سَبَبُ الجَهلِ، والأنَفُ توأمُ السَّفَهِ، والمنافسةُ أختُ العداوةِ)[3571].

- وقال أيضًا: (واعلَمْ أنَّ خَفضَ الصَّوتِ، وسُكونَ الرِّيحِ، ومَشيَ القَصدِ: من دواعي المودَّةِ، إذا لم يخالِطْ ذلك بَأْوٌ ولا عُجبٌ. أمَّا العُجْبُ فهو من دواعي المقتِ والشَّنَآنِ)[3572].

- وقيل لبُزُرْجُمِهْرَ: (ما النِّعمةُ التي لا يُحسَدُ عليها صاحِبُها؟ قال: التَّواضُعُ، قيل له: فما البلاءُ الذي لا يُرحَمُ عليه صاحِبُه؟ قال: العُجْبُ)[3573].

- وقال أبو عَمرِو بنُ العَلاءِ: (الأخلاقُ المانعةُ للسُّؤدُدِ: الكَذِبُ، والكِبرُ، والسُّخْفُ، والتَّعرُّضُ للعَيبِ، وفَرطُ العُجْبِ)[3574]

- وسُئِلَ أنيسُ بنُ جَندَلٍ: (ما أجلَبُ الأشياءِ للمَقتِ؟ فقال: العُجْبُ والخُرْقُ)[3575].

- وقال ابنُ القَيِّمِ: (وإنَّك أن تبيتَ نائمًا وتصبحَ نادِمًا خيرٌ من أن تبيتَ قائمًا وتُصبِحَ مُعجَبًا؛ فإنَّ المُعجَبَ لا يصعَدُ له عَمَلٌ، وإنَّك إن تَضحَكْ وأنت معترِفٌ خيرٌ من أن تبكيَ وأنت مُدِلٌّ، وأنينُ المُذنبين أحبُّ إلى اللَّهِ من زَجَلِ المُسَبِّحين المُدِلِّين، ولعَلَّ اللَّهَ أسقاه بهذا الذَّنبِ دواءً استخرج به داءً قاتِلًا هو فيك ولا تشعُرُ! فلِلَّه في أهلِ طاعتِه ومعصيتِه أسرارٌ لا يعلَمُها إلَّا هو، ولا يطالِعُها إلَّا أهلُ البصائِرِ، فيَعرِفون منها بقَدرِ ما تنالُه معارفُ البَشَرِ)[3576].

المطلب الرابع: آثارُ العُجْبِ

1. أنَّه يدعو إلى الكِبرِ؛ لأنَّه أحَدُ أسبابِه. قال ابنُ الجوزيِّ: (اعلَمْ أنَّ من أسبابِ الكِبرِ العُجْبُ؛ فإنَّ من أُعجِبَ بشيءٍ تكبَّرَ به)[3577].

وقال المحاسِبيُّ: (إنَّ أوَّلَ بُدُوِّ الكِبرِ العُجْبُ، فمِن العُجْبِ يكونُ أكثَرُ الكِبرِ، ولا يكادُ المُعجَبُ أن ينجوَ من الكِبرِ...)[3578].

[3569] ((طبقات الصوفية)) للسلمي (ص: 291).
[3570] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (76 /8، 77)
[3571] ((الأدب الصغير والأدب الكبير)) (ص: 35).
[3572] المصدر السابق (ص: 128).
[3573] ذكره ابنُ عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (953)
[3574] ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان (6/212)
[3575] ((التذكرة الحمدونية)) لابن حمدون (1/258)
[3576] ((مدارج السالكين)) (1/177)
[3577] ((غذاء الألباب)) للسفاريني (2/174)
[3578] ((الرعاية في حقوق الله)) (ص: 371).

2. أنَّه يتولَّدُ عنه الكثيرُ من الأخلاقِ السَّيِّئةِ والصِّفاتِ الرَّديئةِ، كالتِّيهِ وازدِراءِ الآخَرينَ؛ لذا قيل في تعريفِ التِّيهِ: (هو خُلُقٌ متولِّدٌ بَيْنَ أمرينِ: إعجابُه بنَفسِه، وإزراؤه بغيرِه، فيتولَّدُ من بَيْنَ هذينِ التِّيهُ)[3579].

3. يدعو إلى إهمالِ الذُّنوبِ ونسيانِها، فلا يحدِثُ العَبدُ بعدَ ذلك توبةً.

قال المحاسِبيُّ: (يجمَعُ العُجْبُ خِصالًا شَتَّى: يُعَمَّى عليه كثيرٌ من ذنوبِه، وينسى ممَّا لم يُعَمَّ عليه منها أكثَرَها، وما ذَكَر منها كان له مُستصغِرًا، وتَعمَى عليه أخطاؤه، وقولُه بغيرِ الحقِّ)[3580].

4. يجعَلُ العبدَ يَستعظِمُ أعمالَه وطاعاتِه، ويمُنُّ على اللَّهِ بفِعلِها.

5. يدعو العبدَ إلى الاغترارِ بنفسِه وبرأيِه، ويأمَنُ مَكرَ اللَّهِ وعذابَه، ويظُنُّ أنَّه عِندَ اللَّهِ بمكانٍ، ولا يسمَعُ نُصحَ ناصحٍ، ولا وَعْظَ واعِظٍ.

6. يمنَعُه عن سؤالِ أهلِ العِلمِ.

7. يُفَتِّرُه عن السَّعيِ؛ لظَنِّه أنَّه قد فاز واستغنى، وهو الهلاكُ الصَّريحُ[3581].

8. يُخفي المحاسِنَ، ويُظهِرُ المساوئَ، ويَصُدُّ عن الفضائِلِ[3582].

9. يحبِطُ العَمَلَ ويُفسِدُه ويَذهَبُ به.

ويقولُ ابنُ القَيِّمِ: (لا شيءَ أفسَدُ للأعمالِ من العُجْبِ ورؤيةِ النَّفسِ)[3583].

10. يدعو العبدَ إلى المَنِّ بما يُقَدِّمُ من معروفٍ، وإلى تعظيمِ ما يُسدي من خيرٍ؛ قال المحاسِبيُّ: (ويخرِجُه المَنُّ بمعروفِه وصدَقَتِه؛ لأنَّه عَظُم عندَه ما تصَدَّقَ به أو تفضَّلَ به، وينسى منَّةَ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ عليه، وأنَّه مُضَيِّعٌ لشُكرِه على ذلك، فمَنَّ بما اصطنَع من معروفِه، فحَبِط أجرُه، كما قال اللَّهُ عزَّ وجَلَّ: {لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ} [البقرة: 264][3584].

11. طريقٌ إلى خِذلانِ العبدِ، بحيثُ يَكِلُه اللَّهُ إلى نفسِه فلا ينصُرُه، ولا يؤَيِّدُه. وقد قال جَلَّ وعلا: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ} [التوبة: 25].

12. من اتَّصَف به ساءت عاقبتُه في الدُّنيا والآخِرةِ[3585].

المطلب الخامس: صُوَرُ العُجْبِ

قد يحصُلُ العُجْبُ بصِفاتٍ اضطِراريَّةٍ، وقد يحصُلُ بصِفاتٍ اختياريَّةٍ، والفَرْقُ بَيْنَهما أنَّ الصِّفاتِ الاضطراريَّةَ هي ما خُلِقَت في الإنسانِ ابتداءً دونَ أن يكونَ له تدخُّلٌ فيها، كالجَمالِ والنَّسَبِ وغيرِها، أمَّا الاختياريَّةُ فهي ما تحصَّلَ عليها ببَذلِ مجهودٍ واكتسَبها بعد أن لم يكُنْ مُتَّصِفًا بها، كالعِلمِ والمالِ والجاهِ وغيرِها. وكُلُّها العُجْبُ بها مذمومٌ، (ولا فَرقَ بَيْنَ أن تكونَ تلك

[3579] ((غذاء الألباب شرح منظومة الآداب)) (2/174)

[3580] ((الرعاية في حقوق الله)) (ص: 337).

[3581] ((البحر الرائق)) لابن نجيم (ص: 153) بتصرُّفٍ.

[3582] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (1/237)

[3583] ((الفوائد)) (ص: 152).

[3584] ((الرعاية في حقوق الله)) (ص: 337).

[3585] ((موسوعة المناهي الشرعية في صحيح السنة النبوية)) لسليم الهلالي (3/305)

الخَصلةُ التي حَصَل بها الإعجابُ اضطراريَّةً، كجَمالٍ، أو فصاحةٍ، أو كَثرةِ عشيرةٍ، أو مالٍ، أو بنينَ؛ أم اختياريَّةً، كإقدامٍ، أو كثرةِ علمٍ، أو طاعةٍ، أو نحوِ ذلك؛ فإنَّ العُجْبَ بذلك كُلِّه قبيحٌ شَرعًا، ولا أعرِفُ فيه خِلافًا)[3586].

ونذكُرُ هنا الإعجابَ ببعضِ الصِّفاتِ الاضطِراريَّةِ والاختياريَّةِ، ومنها:

- الإعجابُ بالعَقلِ الرَّاجِحِ والذَّكاءِ.
- الإعجابُ بالرَّأيِ السَّديدِ.
- الإعجابُ بالعِلمِ وغزارتِه، والتَّفوُّقِ على الأقرانِ فيه.
- الإعجابُ بالشَّجاعةِ والإقدامِ، والقوَّةِ والبأسِ.
- الإعجابُ بجمالِ الصُّورةِ، وحُسنِ المظهَرِ.
- الإعجابُ بالجاهِ، والمنصِبِ والرِّئاسةِ، والتَّصدُّرِ.
- الإعجابُ بالعبادةِ والطَّاعةِ.
- الإعجابُ بما يُقَدِّمُه من خيرٍ ومنفعةٍ للنَّاسِ.
- الإعجابُ بالنَّسَبِ والشَّرَفِ، أو العشيرةِ والقبيلةِ.
- الإعجابُ بالمالِ والغِنى، والتِّجارةِ وسَعةِ الرِّزقِ.
- الإعجابُ بكثرةِ الأتباعِ والأنصارِ والمُريدين.
- الإعجابُ بكثرةِ الأبناءِ.

وغيرُ ذلك من الخصالِ التي يحصُل بها العُجْبُ.

المطلب السادس: أسبابُ العُجْبِ

1. جَهلُ المرءِ بحقيقةِ نَفسِه وغفلتُه عنها و(أنَّ جَهْلَه بنفسِه وصفاتِها، وآفاتِها وعيوبِ عَمَلِه، وجَهْلَه بربِّه وحقوقِه، وما ينبغي أن يُعامَلَ به: يتولَّدُ منهما رِضاه بطاعتِه، وإحسانُ ظَنِّه بها، ويتولَّدُ من ذلك من العُجْبِ والكِبرِ والآفاتِ ما هو أكبَرُ من الكبائرِ الظَّاهِرةِ؛ من الزِّنا، وشُربِ الخَمرِ، والفِرارِ من الزَّحفِ ونحوِها)[3587].

2. المَدحُ والثَّناءُ والإطراءُ في الوَجهِ سَبَبٌ قَويٌّ من أسبابِ العُجْبِ؛ قال الماوَرديُّ: (من أقوى أسبابِه -أي العُجْبِ- كثرةُ مَديحِ المتقرِّبين، وإطراءِ المتملِّقين، الذين جعلوا النِّفاقَ عادةً ومَكسَبًا، والتَّملُّقَ خديعةً ومَلعَبًا، فإذا وجَدوه مقبولًا في العقولِ الضَّعيفةِ أغْرَوا أربابَها باعتقادِ كَذِبِهم، وجعَلوا ذلك ذريعةً إلى الاستهزاءِ بهم)[3588].

[3586] ((البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار)) لابن المرتضى (6/491)

[3587] ((مدارج السالكين)) لابن القيم (1/192)

[3588] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 239)

وقال ابنُ حَجَرٍ: (قال ابنُ بطَّالٍ: من أفرَط في مدحِ آخَرَ بما ليس فيه لم يأمَنْ على الممدوحِ العُجْبَ؛ لظَنِّه أنَّه بتلك المنزلةِ، فرُبَّما ضَيَّع العَملَ والازديادَ من الخيرِ اتِّكالًا على ما وُصِف به)[3589].

و((أثنى رجُلٌ على رجُلٍ عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: وَيلَك! قطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِك، قطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِك!))[3590]. أي: أهلَكْتَه[3591].

3. ومِمَّا يُوصِلُ الإنسانَ إلى العُجْبِ بنفسِه، مقارنتُه لنفسِه بمن هو دونَه في العَمَلِ، والفَضلِ، واعتقادُه أنَّ النَّاسَ هلكى بالذُّنوبِ والمعاصي، وأنَّه على خيرٍ كبيرٍ إذا قورِنَ بغيرِه؛ فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قال الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فهو أهلَكَهم[3592]))[3593].

4. النَّشأةُ والتَّربيةُ؛ فقد ينشَأُ الإنسانُ في بيئةٍ غَلَب عليها طَبعُ العُجْبِ والكبرِ، فيتأثَّر بها. فـ(قد ينشَأُ بَيْنَ أبوينِ يَلمَسُ منهما أو من أحَدِهما حُبَّ المحمَدةِ، ودوامَ تزكيةِ النَّفسِ إنْ بالحَقِّ وإنْ بالباطِلِ، والاستِعصاءَ على النُّصحِ والإرشادِ، ونحوَ ذلك من مظاهِرِ الإعجابِ بالنَّفسِ، فيحاكيهما، وبمرورِ الزَّمَنِ يتأثَّرُ بهما، ويُصبِحُ الإعجابُ بالنَّفسِ جُزءًا من شخصيَّتِه إلَّا مَن رَحِم اللَّهُ)[3594].

وكما قال الشَّاعِرُ:

وينشَأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنَّا

على ما كان عوَّده أبوه[3595]

5. الرُّفقةُ والصُّحبةُ سَبَبٌ من أسبابِ الإعجابِ بالنَّفسِ؛ ذلك أنَّ الإنسانَ شديدُ المحاكاةِ والتَّأثُّرِ بصاحِبِه، لا سيَّما إذا كان هذا الصَّاحِبُ قَويَّ الشَّخصيَّةِ، ذا خِبرةٍ ودرايةٍ بالحياةِ، وكان المصحوبُ غافِلًا على سجيَّتِه، يتأثَّرُ بكُلِّ ما يُلقى عليه، فإذا كان الصَّاحِبُ مصابًا بداءِ الإعجابِ، فإنَّ عَدْواه تَصِلُ إلى قرينِه فيَصيرُ مِثلَه[3596].

6. الاغترارُ بالنِّعمةِ والرُّكونُ إليها، مع نسيانِ ذِكرِ المنعِمِ تبارك وتعالى، (فإذا حباه اللَّهُ نعمةً من مالٍ أو علمٍ، أو قوَّةٍ أو جاهٍ، أو نحوِه، وَقَف عِندَ النِّعمةِ ونَسِيَ المنعِمَ، وتحتَ تأثيرِ بريقِ المواهِبِ وسُلطانِها تحدِّثُه نفسُه أنَّه ما أصابته هذه النِّعمةُ إلَّا لِما لديه من عِلمٍ! على حَدِّ قولِ قارونَ: قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي [القصص: 78] ، ولا يزالُ هذا الحديثُ يُلِحُّ عليه حتَّى يرى أنَّه بلَغَ الغايةَ أو المنتهى، ويُسَرُّ ويَفرَحُ بنفسِه وبما يصدُرُ عنها، ولو كان باطِلًا، وذلك هو الإعجابُ بالنَّفسِ)[3597].

7. تولِّي المناصِبِ القياديَّةِ، من سُلطةٍ أو قضاءٍ، أو إدارةٍ أو إشرافٍ، وغيرِ ذلك من المسئوليَّاتِ.

[3589] ((فتح الباري)) لابن حجر (10/477)

[3590] رواه مطولًا البخاري (2662) واللفظ له، ومسلم (3000)

[3591] يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (18/127)

[3592] فهو أهلَكَهم: يُروى بفَتحِ الكافِ وضَمِّها، فمَن فتَحها كانت فِعلًا ماضيًا... وأمَّا الضَّمُّ فمعناه أنَّه إذا قال لهم ذلك فهو أهلَكُهم: أي: أكثَرُهم هلاكًا. وهو الرَّجُلُ يُولَعُ بعَيبِ النَّاسِ ويَذهَبُ بنفسِه عُجبًا، ويرى له عليهم فضلًا. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير(5/270)

[3593] رواه مسلم (2623)

[3594] ((آفات على الطريق)) لسيد محمد نوح (1/118)

[3595] ((اللزوميات)) لأبي العلاء المعري (413 /2)

[3596] ((آفات على الطريق)) لسيد محمد نوح (1/121)

[3597] المصدر السابق.

8. التَّمتُّعُ بصِفةٍ أو مزيَّةٍ تجعَلُه يتميَّزُ عن غيرِه فيها، سواءٌ كانت هذه الصِّفةُ اضطراريَّةً كالجَمالِ، أو فصاحةِ اللِّسانِ، أو النَّسَبِ، أو العشيرةِ، أو المالِ والبنينَ، أو غيرِها، أو كانت تلك الصِّفةُ اختياريَّةً، كالعِلمِ، والطَّاعةِ، والإقدامِ، وغيرِها.

9. المبالغةُ في التَّوقيرِ والاحترامِ من الأتباعِ، وفي ذلك قاصِمةُ ظَهرٍ للمتبوعِ.

10. قِلَّةُ الوَرَعِ والتَّقوى، وضَعفُ المراقبةِ للهِ عزَّ وجَلَّ.

11. قِلَّةُ النَّاصِحِ والموَجِّهِ، أو فَقدُه بالكُلِّيَّةِ.

12. عَدَمُ التَّفكُّرِ في حالِ الدُّنيا، والافتتانُ بها وبزُخرُفِها الفاني، بالإضافةِ إلى اتِّباعِ هوى النَّفسِ ومتابعتِها فيها.

13. الغَفلةُ عن نهايةِ العُجْبِ والمُعجَبين، ومآلِهم في الدُّنيا والآخِرةِ.

14. عَدَمُ التَّأمُّلِ في النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ من القرآنِ والسُّنَّةِ النَّبَويَّةِ النَّاهيةِ عن هذه السَّجيَّةِ القبيحةِ، الآمِرةِ بضِدِّها من تواضُعٍ وخَفضِ جَناحٍ.

15. الأمنُ مِن مَكرِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ، والرُّكونُ إلى عَفوِه ومغفرتِه.

16. قِلَّةُ العِلمِ؛ قال الماوَرْديُّ: (قلَّما تجِدُ بالعِلمِ مُعجَبًا وبما أدرَك مُفتخِرًا، إلَّا مَن كان فيه مقِلًّا ومُقَصِّرًا؛ لأنَّه قد يجهَلُ قَدْرَه، ويحسَبُ أنَّه نال بالدُّخولِ فيه أكثَرَه. فأمَّا من كان فيه متوجِّهًا، ومنه مُستكثِرًا، فهو يعلَمُ مِن بُعدِ غايتِه والعَجزِ عن إدراكِ نهايتِه، ما يَصُدُّه عن العُجْبِ به.

وقد قال الشَّعبيُّ: العِلمُ ثلاثةُ أشبارٍ، فمَن نال منه شِبرًا شَمَخ بأنفِه وظَنَّ أنَّه ناله، ومَن نال الشِّبرَ الثَّانيَ صَغُرَت إليه نفسُه وعَلِمَ أنَّه لم يَنَلْه، وأمَّا الشِّبرُ الثَّالِثُ فهيهاتَ! لا ينالُه أحَدٌ أبدًا)[3598].

المطلب السابع: علاماتُ العُجْبِ

هناك بعضُ العلاماتِ والأماراتِ التي تظهَرُ في سُلوكِ المُعجَبِ بنَفسِه؛ منها:

1. تزكيةُ النَّفسِ، والرَّفعُ من شأنِها.

2. عدَمُ سَماعِ النَّصيحةِ، والاستعصاءُ على التَّوجيهِ والإرشادِ.

3. الفَرَحُ بسَماعِ عُيوبِ الآخَرينَ خاصَّةً الأقرانَ.

4. ردُّ الحَقِّ والتَّرفُّعُ عن الاستجابةِ لداعيه.

5. احتِقارُ النَّاسِ.

6. الاستِنكافُ عن استشارةِ العُقلاءِ والفُضَلاءِ.

7. الاختيالُ والتَّبختُرُ في المشيِ.

8. استِعظامُ الطَّاعةِ واستِكثارُها، والمنَّةُ على اللَّهِ بها.

9. المباهاةُ بالعِلمِ، والتَّفاخُرُ به، وجَعْلُه وسيلةً للمُماراةِ والجَدَلِ.

10. التَّباهي بالأحسابِ والأنسابِ، واحتقارُ النَّاسِ من أجْلِ ذلك.

11. التَّفاخُرُ بحُسنِ الخِلقةِ وجمالِ المنظَرِ.

[3598] ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 73).

12. تعمُّدُ التَّقليلِ من شأنِ أهلِ الفَضلِ من العُلَماءِ والمشايخِ والأتقياءِ.
13. التَّكبُّرُ عن الاستماعِ لأهلِ العِلمِ.
14. الإصرارُ على الأخطاءِ، وتعَمُّدُ مخالفةِ النَّاسِ.
15. الاتِّكالُ على ما قد عَمِل؛ ظَنًّا منه أنَّه قد وَصَل إلى مرحلةِ الكَمالِ.
16. التَّصدُّرُ في المجالِسِ وإنْ لم يكُنْ أهلًا لذلك؛ لظَنِّه أنَّه الأجدَرُ بالصَّدارةِ .

المطلب الثامن: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ العُجْبِ

وصَف ابنُ حزمٍ عِلاجَ العُجْبِ، وجعَل له علاجًا عامًّا يتداوى به كُلُّ من أُصيبَ بهذا الدَّاءِ العُضالِ، والآفةِ القاتلةِ، وهذا العلاجُ يكمُنُ في التَّفكُّرِ في عيوبِ النَّفسِ، والنَّظَرِ إلى نقصِها وضَعفِها، فقال: (مَن امتُحِن بالعُجْبِ فلْيُفكِّرْ في عيوبِه، فإن أُعجِبَ بفضائِله فلْيُفتِّشْ ما فيه من الأخلاقِ الدَّنيَّةِ، فإن خَفِيت عليه عيوبُه جملةً حتَّى يَظُنَّ أنَّه لا عَيبَ فيه، فلْيعلَمْ أنَّه مصيبةٌ للأبَدِ، وأنَّه أتمُّ النَّاسِ نقصًا، وأعظَمُهم عُيوبًا، وأضعَفُهم تمييزًا!... فليتدارَكْ نفسَه بالبَحثِ عن عيوبِه، والاشتغالِ بذلك عن الإعجابِ بها، وعن عيوبِ غيرِه التي لا تضُرُّه لا في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ...

ثمَّ تقولُ للمُعجَبِ: ارجِعْ إلى نفسِك، فإذا ميَّزْتَ عيوبَها فقد داويتَ عُجبَك، ولا تُمَيِّلْ[3599] بَيْنَ نفسِك وبينَ مَن هو أكثَرُ منها عيوبًا، فتستسهِلَ الرَّذائِلَ، وتكونَ مقلِّلًا لأهلِ الشَّرِّ)[3600].

ثمَّ تكلَّم ابنُ حزمٍ عن علاجٍ لبعضِ الحالاتِ الخاصَّةِ من حالاتِ العُجْبِ، ننقُلُها هنا بتصَرُّفٍ يسيرٍ:

- **علاجُ مَن أُعجِبَ بعَقلِه:**

)فإن أُعجِبتَ بعَقلِك ففكِّرْ في كُلِّ فكرةِ سوءٍ تمُرُّ بخاطرِك، وفي أضاليلِ الأمانيِّ الطَّائفةِ بك؛ فإنَّك تعلَمُ نَقصَ عَقلِك حينَئذٍ.

- **علاجُ مَن أُعجِبَ برأيِه:**

وإن أُعجِبتَ بآرائِك فتفكَّرْ في سَقَطاتِك، واحفَظْها ولا تَنْسَها، وفي كُلِّ رأيٍ قدَّرْتَه صوابًا فخَرج بخلافِ تقديرِك، وأصاب غيرُك وأخطأتَ أنت؛ فإنَّك إن فعَلْتَ ذلك فأقَلُّ أحوالِك أن يوازِنَ سُقوطُ رأيِك صوابَه، فتخرُجَ لا لك ولا عليك، والأغلَبُ أنَّ خطَأَك أكثَرُ من صوابِك. وهكذا كُلُّ أحدٍ من النَّاسِ بَعدَ النَّبيِّينَ صَلَواتُ اللَّهِ عليهم.

- **علاجُ مَن أُعجِبَ بما يُقدِّمُه من الخيرِ:**

وإن أُعجِبْتَ بخَيرِك فتفكَّرْ في معاصيك وتقصيرِك، وفي معايبِك ووُجوهِها؛ فواللَّهِ لتجِدَنَّ من ذلك ما يَغلِبُ على خيرِك، ويُعْفي على حَسَناتِك، فلْيَطُلْ هَمُّك حينَئذٍ من ذلك، وأبدِلْ من العُجْبِ تنقيصًا لنفسِك.

[3599] التَّميلُ بَيْنَ الشَّيئينِ: كالتَّرجيحِ بَيْنَهما. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري.
[3600] ((رسائل ابن حزم)) (1/387)

- **علاجُ من أُعجِب بعِلمِه:**

وإن أُعجِبتَ بعِلمِك، فاعلَمْ أنَّه لا خَصلةَ لك فيه، وأنَّه موهِبةٌ من اللهِ مجرَّدةٌ وهَبَك إيَّاها ربُّك تعالى، فلا تقابِلْها بما يُسخِطُه؛ فلعَلَّه يُنسيك ذلك بعِلَّةٍ يمتَحِنُك بها، توالِّدُ عليك نِسيانَ ما عَلِمتَ وحَفِظتَ...

واعلَمْ أنَّ كثيرًا من أهلِ الحِرصِ على العِلمِ يَجِدُّون في القراءةِ والإكبابِ على الدَّرسِ والطَّلَبِ، ثمَّ لا يُرزَقون منه حَظًّا؛ فلْيعلَمْ ذو العِلمِ أنَّه لو كان بالإكبابِ وَحدَه لكان غيرُه فوقَه، فصَحَّ أنَّه مَوهِبةٌ من اللهِ تعالى، فأيُّ مكانٍ للعُجبِ هاهنا؟! ما هذا إلَّا موضِعُ تواضُعٍ وشُكرٍ للهِ تعالى، واستزادةٍ من نِعَمِه، واستعاذةٍ مِن سَلبِها.

ثمَّ تفكَّرْ أيضًا في أنَّ ما خَفِيَ عليك وجَهِلْتَه من أنواعِ العِلمِ الذي تختصُّ به، والذي أُعجِبتَ بنفاذِك فيه: أكثَرُ ممَّا تعلَمُ من ذلك؛ فاجعَلْ مكانَ العُجْبِ استنقاصًا لنفسِك واستقصارًا لها؛ فهو أَولى، وتفكَّرْ فيمن كان أعلَمَ منك تجِدْهم كثيرًا، فلْتَهُنْ نفسُك عندَك حينَئذٍ.

وتفكَّرْ في إخلالِك بعِلمِك؛ فإنَّك لا تعمَلُ بما عَلِمتَ منه، فعِلمُك عليك حُجَّةٌ حينئذٍ، لقد كان أسلَمَ لك لو لم تكُنْ عالِمًا، واعلَمْ أنَّ الجاهِلَ حينَئذٍ أعقَلُ منك، وأحسَنُ حالًا وأعذَرُ، فلْيَسقُطْ عُجبُك بالكُلِّيَّةِ.

ثمَّ لعَلَّ عِلمُك الذي تُعجَبُ بنفاذِك فيه مِن العُلومِ المتأخِّرةِ التي لا كبيرَ خَصلةٍ فيها، كالشِّعرِ وما جرى مجراه، فانظُرْ حينَئذٍ إلى مَن عِلمُه أجَلُّ مِن عِلمِك في مراتِبِ الدُّنيا والآخِرةِ، فتهونَ نفسُك عليك.

- **علاجُ مَن أُعجِبَ بشجاعتِه:**

وإن أُعجِبتَ بشجاعتِك فتفكَّرْ فيمن هو أشجَعُ منك، ثمَّ انظُرْ في تلك النَّجدةِ التي منحَك اللَّهُ تعالى فيما صرَفْتَها، فإن كنتَ صَرفْتَها في معصيةٍ فأنت أحمقُ؛ لأنَّك بذَلتَ نفسَك فيما ليس بثَمَنٍ لها، وإنْ كُنتَ صَرفْتَها في طاعةٍ فقد أفسَدْتَها بعُجبِك، ثمَّ تفكَّرْ في زوالِها عنك بالشَّيخِ، وأنَّك إن عِشتَ فستصيرُ في عِدادِ العيالِ وكالصَّبيِّ ضَعفًا...

- **علاجُ مَن أُعجِبَ بجاهِه:**

وإن أُعجِبتَ بجاهِك في دُنياك فتفكَّرْ في مخالفيك وأندادِك ونَظائِرِك، ولعَلَّهم أخسَّاءُ وُضَعاءُ سُقَّاطٌ؛ فاعلَمْ أنَّهم أمثالُك فيما أنت فيه، ولعلَّهم ممَّن يُستحيَا من التَّشبُّهِ بهم؛ لفَرطِ رذالتِهم، وخَساستِهم في أنفُسِهم وفي أخلاقِهم ومَنابِتِهم؛ فاستَهِنْ بكُلِّ منزلةٍ شارَكَك فيها مَن ذكَرتُ لك.

إنْ كُنتَ مالِكَ الأرضِ كُلِّها ولا خليفةَ عليك -وهذا بعيدٌ جِدًّا في الإمكانِ- فما نعلَمُ أحدًا مَلَكَ معمورَ الأرضِ كُلِّها على قِلَّتِه وضِيقِ مِساحتِه بالإضافةِ إلى غامِرِها، فكيف إذا أُضيفَ إلى الفَلَكِ المحيطِ؟...!

وإن كُنتَ مَلِكَ المُسلِمين كُلِّهم فاعلَمْ أنَّ مَلِكَ السُّودانِ -وهو رجُلٌ أسوَدُ مكشوفُ العورةِ جاهِلٌ- يملِكُ أوسَعَ مِن مُلكِك، فإن قُلتَ: أخَذْتُه بحَقٍّ، فلَعَمْري ما أخذْتَه بحَقٍّ إذ استعمَلْتَ فيه رذيلةَ العُجْبِ، وإذا لم تعدِلْ فيه فاستَحِي من حالِك؛ فهي حالةٌ لا حالةَ يحِبُ العُجْبُ فيها.

- **علاجُ مَن أُعجِبَ بمالِه:**

وإن أُعجِبتَ بمالِك فهذه أسوَأُ مراتبِ العُجْبِ؛ فانظُرْ في كُلِّ ساقطٍ خَسيسٍ فهو أغنى منك، فلا تغتَبِطْ بحالةٍ يفوقُك فيها من ذكَرْتُ، واعلَمْ أنَّ عُجبَك بالمالِ حُمقٌ؛ لأنَّه أحجارٌ لا تنتفِعُ بها إلَّا بأن تُخرِجَها عن مِلكِك بنَفَقتِها في وَجْهِها فقط، والمالُ أيضًا غادٍ ورائحٌ، وربَّما زال عنك ورأيتَه بعينِه في يَدِ غَيرِك، ولعَلَّ ذلك يكونُ في يَدِ عَدُوِّك، فالعُجْبُ بمِثلِ هذا سُخفٌ، والثِّقةُ به غرورٌ وضَعفٌ.

- **علاجُ مَن أُعجِبَ بجمالِه وحُسنِ مَنظَرِه:**

وإن أُعجِبتَ بحُسنِك ففَكِّرْ فيما عليك ممَّا نستحيي نحن من إثباتِه، وتستحي أنت منه إذا ذهَب عنك بدُخولِك في السِّنِّ.

- **علاجُ منَ أُعجِبَ بمَدحِ النَّاسِ له:**

وإن أُعجِبتَ بمدح إخوانِك لك ففَكِّرْ في ذَمِّ أعدائِك إياك، فحينَئذٍ ينجلي عنك العُجْبُ، فإنْ لم يكُنْ لك عَدُوٌّ فلا خيرَ فيك، ولا منزلةَ أسقَطُ من منزلةِ مَن لا عَدُوَّ له، فليست إلَّا منزلةَ مَن ليس للهِ تعالى عندَه نِعمةٌ يُحسَدُ عليها، عافانا اللَّهُ.

فإن استحقَرْتَ عُيوبَك ففَكِّرْ فيها لو ظهَرَت إلى النَّاسِ، وتمثَّلِ اطِّلاعَهم عليها، فحينَئذٍ تخجَلُ وتعرِفُ قَدْرَ نَقصِك إن كانت لك مُسكةٌ من تمييزٍ...

- **علاجُ مَن أُعجِب بنَسَبِه:**

وإن أُعجِبتَ بنَسَبِك فهذه أسوَأُ من كُلِّ ما ذَكَرْنا؛ لأنَّ هذا الذي أُعجِبتَ به لا فائدةَ له أصلًا في دنيا ولا آخِرةٍ، وانظُرْ هل يدفَعُ عنك جَوعةً، أو يَستُرُ لك عورةً، أو ينفَعُك في آخِرتِك؟!

ثمَّ انظُرْ إلى من يساهِمُك في نَسَبِك، ورُبَّما فيما هو أعلى منه ممَّن نالته ولادةُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، ثمَّ وِلادةُ الخُلَفاءِ، ثمَّ وِلادةُ الفُضَلاءِ من الصَّحابةِ والعُلَماءِ، ثمَّ وِلادةُ مُلوكِ العَجَمِ مِن الأكاسِرةِ والقياصِرةِ، ثمَّ وِلادةُ التَّبابِعةِ وسائِرِ مُلوكِ الإسلامِ، فتأمَّلْ غُبَّراتِهم وبقاياهم، ومَن يُدلي بمِثلِ ما تُدلي به من ذلك، تجِدْ أكثَرَهم أمثالَ الكلابِ خَساسةً، وتَلْقَهم في غايةِ السُّقوطِ والرَّذالةِ والتَّبذُّلِ والتَّحَلِّي بالصِّفاتِ المذمومةِ؛ فلا تغتَبِطْ بمنزلةٍ هم نُظَراؤك أو فوقَك!

- **علاجُ مَن أُعجِبَ بفَضلِ آبائِه:**

فإن أُعجِبتَ بولادةِ الفُضَلاءِ إيَّاك، فما أخلى يَدَك مِن فَضْلِهم إنْ لم تكُنْ أنت فاضِلًا، وما أقَلَّ غَناءَهم عنك في الدُّنيا والآخرةِ إنْ لم تكُنْ مُحسِنًا، والنَّاسُ كُلُّهم وَلَدُ آدمَ الذي خلَقه اللَّهُ تعالى بيَدِه، وأسكَنه جنَّتَه وأسجَد له ملائكتَه، ولكِنْ ما أقَلَّ نَفْعَه لهم، وفيهم كُلُّ عيبٍ، وكلُّ فاسِقٍ، وكُلُّ كافِرٍ.

وإذا فَكَّر العاقِلُ في أنَّ فضائِلَ آبائِه لا تُقَرِّبُه مِن رَبِّه تعالى ولا تَكسِبُه وَجاهةً، لم يَحُزْها هو بسَعدِه أو بفَضلِه في نفسِه ولا مالِه، فأيُّ معنًى للإعجابِ بما لا منفعةَ فيه؟...!

- **علاجُ مَن طَلَب المدحَ عُجبًا بنفسِه:**

فإن تعدَّى بك العُجْبُ إلى الامتداحِ فقد تضاعَف سُقوطُك؛ لأنَّه قد عَجَز عقلُك عن مفارقةِ ما فيك من العُجْبِ، هذا إن امتدَحْتَ بحَقٍّ، فكيف إن امتدَحْتَ بكَذِبٍ؟! وقد كان ابنُ نوحٍ وأبو إبراهيمَ، وأبو لهبٍ -عمُّ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وعلى نوحٍ وإبراهيمَ وسَلَّم- أقربَ النَّاسِ من أفضَلِ خَلقِ اللَّهِ تعالى من وَلَدِ آدَمَ، ومِّن الشَّرَفُ كُلُّه في اتِّباعِهم، فما انتفَعوا بذلك!

- **علاجُ مَن أُعجِبَ بقُوَّةِ جِسمِه أو خِفَّتِه:**

وإن أُعجِبتَ بقوَّةِ جِسمِك فتفكَّرْ في أنَّ البَغلَ والحِمارَ والثَّورَ أقوى منك وأحمَلُ للأثقالِ، وإن أُعجِبتَ بخِفَّتِك فاعلَمْ أنَّ الكَلبَ والأرنبَ يفوقانِك في هذا البابِ، فمِن أَعجَبِ العَجيبِ إعجابُ ناطِقٍ بخَصلةٍ يفوقُه فيها غيرُ النَّاطِقِ.. !))[3601].

وقال السَّمَرْقَنديُّ: (مَن أراد أن يَكسِرَ العُجْبَ فعليه أربعةُ أشياءَ:

أوَّلُها: أن يرى التَّوفيقَ من اللَّهِ تعالى، فإذا رأى التَّوفيقَ من اللَّهِ تعالى فإنَّه يشتَغِلُ بالشُّكرِ، ولا يُعجَبُ بنَفسِه.

والثَّاني: أن يَنظُرَ إلى النَّعماءِ التي أنعَم اللَّهُ بها عليه، فإذا نظَر في نَعْمائِه اشتَغَل بالشُّكرِ عليها، واستقَلَّ عَمَلَه، ولا يُعجَبُ به.

والثَّالِثُ: أن يخافَ ألَّا يُتقبَّلَ منه، فإذا اشتغل بخوفِ القَبولِ لا يُعجَبُ بنفسِه.

والرَّابعُ: أن ينظُرَ في ذنوبِه التي أذنَب قبلَ ذلك، فإذا خاف أن ترجَحَ سَيِّئاتُه على حَسَناتِه فقد كَسَر عُجبَه، وكيف يُعجَبُ المرءُ بعَمَلِه ولا يدري ماذا يخرجُ من كتابِه يومَ القيامةِ؟! وإنَّما يتبيَّنُ عُجبُه وسُرورُه بعدَ قراءةِ الكتابِ)[3602].

وقال الشَّافعيُّ: (إذا أنت خِفتَ على عَمَلِك العُجْبَ فانظُرْ رِضا من تَطلُبُ، وفي أيِّ ثوابٍ ترغَبُ، ومِن أيِّ عقابٍ تَرهَبُ، وأيَّ عافيةٍ تَشكُرُ، وأيَّ بلاءٍ تَذكُرُ؟ فإنَّك إذا تفكَّرْتَ في واحدٍ من هذه الخصالِ صَغُر في عينِك عَمَلُك)[3603].

وقال عُبَيدُ اللَّهِ بنُ أبي جعفَرٍ الكِنانيُّ: (إذا كان المرءُ يُحَدِّثُ في مجلِسٍ فأعجبه الحديثُ فليُمسِكْ، وإذا كان ساكِتًا فأعجَبه السُّكوتُ فلْيتحَدَّثْ)[3604].

المطلب التاسع: قِصَصٌ في العُجْبِ

- عن سُفيانَ بنِ عُيَينةَ، قال: (قال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ يومًا: سلوني عمَّا دونَ العَرشِ، فقال له إنسانٌ: يا أبا الحَسَنِ، أرأيتَ الذَّرَّةَ أو النَّملةَ، مِعاها في مُقَدِّمِها أو مُؤَخِّرِها؟ قال: فبَقِيَ الشَّيخُ لا يدري ما يقولُ له! قال سُفيانُ: فظَنَنْتُ أنَّها عقوبةٌ عُوقِبَ بها)[3605].

[3601] ((رسائل ابن حزم)) (1/393)

[3602] ((تنبيه الغافلين)) (ص: 486، 487).

[3603] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (1/ 26)، ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (413 /51)

[3604] ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (10 /6)

[3605] ((تاريخ بغداد)) للخطيب البغدادي (214 /15، 215)

وفي روايةٍ: فقال له رَجُلٌ: آدَمُ حينَ حَجَّ مَن حَلَق رأسَه؟ قال: فقال له: ليس هذا من عِلْمِكم، ولكِنَّ اللَّهَ أراد أن يبتَلِيَني بما أعجَبَتْني نفسي)[3606].

- قال الماوَرْديُّ: (ومِمَّا أُنذِرُك به مِن حالي أنَّني صنَّفْتُ في البُيوعِ كِتابًا جمَعْتُ فيه ما استطَعْتُ من كُتُبِ النَّاسِ، وأجهَدْتُ فيه نفسي، وكدَدْتُ فيه خاطري، حتَّى إذا تهذَّب واستكمَل وكِدتُ أُعجَبُ به وتصوَّرتُ أنَّني أشدُّ النَّاسِ اضطِلاعًا بعِلمِه، حَضَرني وأنا في مجلسي أعرابيَّانِ، فسألاني عن بيعٍ عَقَداه في الباديةِ على شُروطٍ تضَمَّنَت أربَعَ مَسائِلَ لم أعرِفْ لواحدةٍ منهنَّ جوابًا، فأطرَقْتُ مُفكِّرًا، وبحالي وحالِهما معتَبِرًا، فقالا: ما عندَك فيما سألناك جوابٌ، وأنت زعيمُ هذه الجماعةِ؟! فقُلتُ: لا. فقالا: واهًا لك! وانصَرَفا. ثمَّ أتيا مَن يتقَدَّمُه في العِلمِ كثيرٌ من أصحابي، فسألاه، فأجابهما مُسرِعًا بما أقنَعَهما، وانصرَفا عنه راضِيَينِ بجوابِه، حامِدَينِ لعِلمِه!

فبَقِيتُ مُرتَبِكًا، وبحالِها وحالي معتَبِرًا، وإنِّي لعلى ما كنتُ عليه من المسائِلِ إلى وقتي، فكان ذلك زاجِرَ نصيحةٍ، ونذيرَ عِظةٍ تَذَلَّلَ بها قِيادُ النَّفسِ، وانخَفَض لها جَناحُ العُجْبِ؛ توفيقًا مُنِحتُه، ورُشدًا أُوتيتُه).[3607]

تكلَّم ربيعةُ الرَّأيِ يومًا بكلامٍ في العِلمِ فأكثَرَ، فكأنَّ العُجْبَ داخَلَه، فالتفَت إلى أعرابيٍّ إلى جَنْبِه، فقال: ما تَعُدُّون البلاغةَ يا أعرابيُّ؟ قال: قِلَّةُ الكلامِ، وإيجازُ الصَّوابِ، قال: فما تَعُدُّونَ العِيَّ؟ قال: ما كُنتَ فيه منذُ اليومِ! فكأنَّما ألقَمَه حَجَرًا[3608].

المطلب العاشر: حُكمُ العُجْبِ

العُجْبُ كبيرةٌ من كبائِرِ الذُّنوبِ التي تستحِقُّ غَضَبَ اللَّهِ ومَقْتَه، وعذابَه في الدُّنيا والآخِرةِ.

فهو سَجِيَّةٌ مذمومةٌ، وطَبعٌ سَيِّئٌ مبغوضٌ؛ قال ابنُ حزمٍ: (إنَّ العُجْبَ من أعظَمِ الذُّنوبِ وأمحقِها للأعمالِ، فتحَفَّظوا، حَفِظَنا اللَّهُ وإيَّاكم من العُجْبِ والرِّياءِ)[3609].

ويقولُ الغَزاليُّ: (اعلَمْ أنَّ العُجْبَ مذمومٌ في كتابِ اللَّهِ تعالى وسُنَّةِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ قال اللَّهُ تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا} [التوبة: 25] ، ذكَر ذلك في مَعرِضِ الإنكارِ، وقال عزَّ وجلَّ: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} [الحشر: 2] ، فرَدَّ على الكُفَّارِ في إعجابِهم بُحصونِهم وشَوكتِهم، وقال تعالى: {وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: 104])[3610].

بل عدَّه ابنُ تَيميَّةَ من بابِ الإشراكِ بالنَّفسِ، فقال: (وكثيرًا ما يُقرَنُ الرِّياءُ بالعُجْبِ؛ فالرِّياءُ من بابِ الإشراكِ بالخَلقِ، والعُجْبُ من بابِ الإشراكِ بالنَّفسِ، وهذا حالُ المُستكبِرِ، فالمُرائي لا يحقِّقُ قولَه: إيَّاكَ نَعْبُدُ، والمُعجَبُ لا يحقِّقُ قولَه: وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ، فمن حقَّق قولَه إيَّاكَ نَعْبُدُ خَرَج عن الرِّياءِ، ومَن حقَّق قَولَه: وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ خرَجَ عن الإعجابِ).[3611]

[3606] المصدر السابق (15/ 211)، ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (119 /60)

[3607] ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 73).

[3608] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (2/112)

[3609] ((رسائل ابن حزم)) (3/180)

[3610] ((إحياء علوم الدين)) (3/369)

[3611] ((الفتاوى الكبرى)) (5/248)

المبحث الثالث: الكِبْرُ

المطلب الأول: معنى الكِبْرِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى الكِبْرِ لُغةً:**

الكِبْرُ: العَظَمةُ والتَّجبُّرُ، كالكِبْرِياءِ، وقد تكبَّر واستكبر وتكابَر، والتَّكبُّرُ والاستكبارُ: التَّعظُّمُ، والكِبْرُ بالكسرِ: اسمٌ من التَّكبُّرِ[3612].

- **معنى الكِبْرِ اصطلاحًا:**

معنى الكِبْرِ جاء تعريفُه في حديثِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقد قال: ((الكِبْرُ بطَرُ الحَقِّ، وغَمطُ النَّاسِ))[3613].

وقال الزَّبيديُّ: (الكِبْرُ: حالةٌ يتخَصَّص بها الإنسانُ من إعجابِه بنفسِه، وأن يرى نفسَه أكبَرَ من غيرِه)[3614].

وقيل: الكِبْرُ هو: (استعظامُ الإنسانِ نفسَه، واستحسانُ ما فيه من الفضائلِ، والاستهانةُ بالنَّاسِ، واستصغارُهم، والتَّرفُّعُ على من يجِبُ التَّواضُعُ له)[3615].

وقال الغزاليُّ: (هو استعظامُ النَّفسِ ورؤيةُ قَدْرِها فوقَ قَدْرِ الغَيرِ).[3616]

وقيل: (الكِبْرُ: أن يتعظَّمَ على غيرِه أَنَفةً منه واحتقارًا له)[3617].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الكِبْرِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الكِبْرِ والزَّهوِ:**

أنَّ الكِبْرَ إظهارُ عِظَمِ الشَّأنِ، وهو فينا خاصَّةً رفعُ النَّفسِ فوقَ الاستحقاقِ، والزَّهوُ على ما يقتضيه الاستعمالُ: رَفعُ شيءٍ إيَّاها من مالٍ، أو جاهٍ، وما أشبه ذلك، ألا ترى أنَّه يقال: زها الرَّجُلُ وهو مزهوٌّ، كأنَّ شيئًا زهاه، أي: رفَعَ قَدْرَه عنده، وهو من قولِك: زَهَت الرِّيحُ الشَّيءَ: إذا رفعَتْه، والزَّهوُ: التَّزيُّدُ في الكلامِ[3618].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الكِبْرِ والكِبْرِياءِ والتَّكبُّرِ:**

[3612] ((تاج العروس)) للزبيدي، ((المصباح المنير)) للفيومي.

[3613] رواه مسلم (91) مطوَّلًا من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[3614] ((تاج العروس)) (14/8)

[3615] ((تهذيب الأخلاق)) للجاحظ (ص: 32).

[3616] ((إحياء علوم الدين)) (3/ 353)

[3617] ((مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل)) للعز بن عبد السلام (ص: 140).

[3618] ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (1/445)

أنَّ الكِبْرَ إظهارُ عِظَمِ الشَّأنِ، والكِبْرِياءُ هي العِزُّ والمُلكُ، وليست من الكِبْرِ في شيءٍ، والشَّاهدُ قولُه تعالى: {وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ} [يونس: 78]. يعني المُلكَ، والسُّلطانَ، والعِزَّةَ، وأمَّا التَّكبُّرُ فهو إظهارُ الكِبْرِ، مِثلُ: التَّشجُّعِ: إظهارِ الشَّجاعةِ[3619].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الكِبْرِ والكِبْرِياءِ والعَظَمةِ:**

قال أبو العبَّاسِ القُرطبيُّ: (الكِبْرُ والكِبْرِياءُ في اللُّغةِ: هو العَظَمةُ، يُقالُ منه: كَبُرَ الشَّيءُ، بضمِّ الباءِ، أي: عَظُم، فهو كبيرٌ وكُبارٌ، فإذا أفرَطَ قيل: كُبَّارٌ، بالتَّشديدِ، وعلى هذا يكونُ الكِبْرُ والعَظَمةُ اسمين لمسمًّى واحدٍ.

وقد جاء في الحديثِ ما يُشعِرُ بالفَرْقِ بَيْنَهما؛ وذلك أنَّ اللَّه تعالى قال: "الكِبْرِياءُ ردائي، والعَظَمةُ إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما..."[3620]؛ فقد فرَّق بَيْنَهما بأن عبَّر عن أحدِهما بالرِّداءِ، وعن الآخَرِ بالإزارِ، وهما مختلفان، ويدُلُّ أيضًا على ذلك قولُه تعالى: "فمَن نازعني واحدًا منهما"؛ إذ لو كانا واحدًا لقال: فمَن نازعنيه، فالصَّحيحُ إذَن الفَرْقُ، ووجهُه: أنَّ جِهةَ الكِبْرِياءِ يستدعي متكبَّرًا عليه؛ ولذلك لما فسَّر الكِبْرَ قال: الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وغَمطُ النَّاسِ، وهو احتقارُهم، فذَكَر المتكبَّرَ عليه، وهو الحَقُّ أو الخَلقُ، والعَظَمةُ: لا تقتضي ذلك.

فالمُتكَبِّرُ يلاحِظُ ترفُّعَ نفسِه على غيرِه بسَبَبِ مَزيَّةٍ كمالِها فيما يراه، والمعظِّمُ يلاحِظُ كمالَ نفسِه من غيرِ ترفُّعٍ لها على غيرِه)[3621].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الكِبْرِ والتِّيهِ:**

أنَّ الكِبْرَ هو إظهارُ عِظَمِ الشَّأنِ، وهو في صفاتِ اللهِ تعالى مدحٌ؛ لأنَّ شأنه عظيمٌ، وفي صفاتِنا ذمٌّ؛ لأنَّ شأنَنا صغيرٌ، وهو أهلٌ للعَظَمة، ولسْنا لها بأهلٍ.

والتِّيهُ أصلُه الحِيرةُ والضَّلالُ، وإنَّما سُمِّي المُتكَبِّرُ تائهًا على وَجهِ التَّشبيهِ بالضَّلالِ والتَّحيُّرِ، ... والتِّيهُ من الأرضِ ما يُتحيَّرُ فيه، وفي القرآنِ {يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ} [المائدة: 26] أي: يتحَيَّرون[3622].

الفَرْقُ بَيْنَ الجَبَروتِ والجَبريَّةِ والكِبْرِ:

الفَرْقُ بَيْنَ الجَبريَّةِ، والجَبَروتِ، والكِبْرِ: أنَّ الجبريَّةَ أبلَغُ من الكِبْرِ، وكذلك الجَبَروتُ، ويدُلُّ على هذا فخامةُ لفظِها، وفخامةُ اللَّفظِ تدُلُّ على فخامةِ المعنى فيما يجري هذا المجرى[3623].

- **الفَرْقُ بَيْنَ العُجبِ والكِبْرِ:**

[3619] المصدر السابق.

[3620] رواه أبو داود (4090)، وابن ماجه (4174)، وأحمد (8894) مطوَّلًا من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (5671)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4090)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (4090). والحديث أصلُه في الصحيح، رواه مسلم (2620) من حديثِ أبي سعيدٍ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[3621] ((المفهم لما أشكل من تلخيص: كتاب مسلم)) (1/286)

[3622] ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري.(1/444)

[3623] المصدر السابق (1/154، 155)

أنَّ العُجبَ بالشَّيءِ شِدَّةُ السُّرورِ به حتَّى لا يعادِلَه شيءٌ عِندَ صاحبِه، تقولُ: هو مُعجَبٌ بفلانةَ: إذا كان شديدَ السُّرورِ بها، وهو مُعجَبٌ بنفسِه: إذا كان مسرورًا بخصالِها.

ولهذا يقالُ: أعجَبه، كما يقال: سُرَّ به، فليس العُجبُ من الكِبْرِ في شيءٍ، وقال عليُّ بنُ عيسى: (العُجبُ: عقدُ النَّفسِ على فضيلةٍ لها ينبغي أن يُتعَجَّبَ منها، وليست هي لها)[3624].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الاستنكافِ والاستكبارِ والتَّكبُّرِ:**

الاستنكافُ: تكبُّرٌ في تركِه أَنَفةٌ، وليس في الاستكبارِ ذلك، وإنَّما يُستعمَلُ الاستكبارُ حيثُ لا استخفافَ، بخلافِ التَّكبُّرِ؛ فإنَّه قد يكونُ باستخفافٍ. والتَّكبُّرُ: هو أن يرى المرءُ نفسَه أكبَرَ من غيرِه، والاستكبارُ طَلَبُ ذلك بالتَّشبُّعِ، وهو التَّزيُّنُ بأكثَرَ ما عنده[3625].

- **الفَرْقُ بَيْنَ صيانةِ النَّفسِ والتَّكبُّرِ:**

قال ابنُ القَيِّمِ:

(الفَرْقُ بَيْنَ الصِّيانةِ والتَّكبُّرِ: أنَّ الصَّائنَ لنفسِه بمنزلةِ رجُلٍ قد لَبِس ثوبًا جديدًا نقيَّ البياضِ ذا ثَمَنٍ، فهو يدخُلُ به على الملوكِ فَمَن دونهم، فهو يصونُه عن الوسَخِ والغُبارِ والطُّبوعِ وأنواعِ الآثارِ؛ إبقاءً على بياضِه ونقائِه، فتراه صاحِبَ تعزُّزٍ وهروبٍ من المواضعِ التي يُخشى منها عليه التَّلوُّثُ، فلا يسمَحُ بأثرٍ ولا طبعٍ ولا لوثٍ يعلو ثوبَه، وإن أصابه شيءٌ من ذلك على غِرَّةٍ بادر إلى قَلعِه وإزالتِه ومحوِ أثَرِه، وهكذا الصَّائنُ لقَلبِه ودينِه تراه يجتَنِبُ طُبوعَ الذُّنوبِ وآثارَها؛ فإنَّ لها في القَلبِ طُبوعًا وآثارًا أعظَمَ من الطُّبوعِ الفاحشةِ في الثَّوبِ النَّقيِّ للبياضِ، ولكِنْ على العُيونِ غِشاوةٌ أن تدرِكَ تلك الطُّبوعَ، فتراه يهرُبُ من مظانِّ التَّلوُّثِ ويحترِسُ من الخَلقِ ويتباعدُ من تخالُطِهم؛ مخافةَ أن يحصُلَ لقَلبِه ما يحصُلُ للثَّوبِ الذي يخالِطُ الدَّبَّاغين والذَّبَّاحين والطَّبَّاخين ونحوَهم.

بخلافِ صاحِبِ العُلُوِّ؛ فإنَّه وإن شابه هذا في تحرُّزِه وتجنُّبِه فهو يقصِدُ أن يعلوَ رِقابَهم، ويجعَلَهم تحتَ قَدَمِه، فهذا لونٌ، وذاك لونٌ)[3626].

- **الفَرْقُ بَيْنَ المهابةِ والكِبْرِ:**

قال ابنُ القَيِّمِ:

(الفَرْقُ بَيْنَ المهابةِ والكِبْرِ: أنَّ المهابةَ أثرٌ من آثارِ امتلاءِ القَلبِ بعَظَمةِ اللهِ ومحبَّتِه وإجلالِه، فإذا امتلأ القلبُ بذلك حلَّ فيه النُّورُ، ونزلت عليه السَّكينةُ، وأُلبِس رداءَ الهيبةِ، فاكتسى وجهُه الحلاوةَ والمهابةَ، فأخَذ بمجامِعِ القُلوبِ محبَّةً ومهابةً، فحَنَّت إليه الأفئدةُ، وقرَّت به العيونُ، وأَنِست به القلوبُ: فكلامُه نورٌ، ومدخَلُه نورٌ، ومخرَجُه نورٌ، وعَمَلُه نورٌ، وإن سكت علاه الوَقارُ، وإن تكلَّم أخذ بالقلوبِ والأسماعِ.

[3624] المصدر السابق (1/352)

[3625] ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (1/18)

[3626] ((الروح)) (ص: 236).

وأمَّا الكِبْرُ فأثَرٌ من آثارِ العُجبِ والبغيِ من قلبٍ قد امتلأ بالجهلِ والظُّلمِ، ترحَّلت منه العبوديَّةُ، ونزل عليه المقتُ، فنظَرُه إلى النَّاسِ شَزرٌ، ومشيُه بَيْنَهم تبختُرٌ، ومعاملتُه لهم معاملةُ الاستئثارِ لا الإيثارِ ولا الإنصافِ، ذاهبٌ بنفسِه تيهًا، لا يبدَأُ من لقِيَه بالسَّلامِ، وإن ردَّ عليه رأى أنَّه قد بالغ في الإنعامِ عليه، لا ينطَلِقُ لهم وجهُه، ولا يسَعُهم خُلُقُه، ولا يرى لأحَدٍ عليه حقًّا، ويرى حقوقَه على النَّاسِ، ولا يرى فضلَهم عليه، ويرى فضلَه عليهم، لا يزدادُ من اللهِ إلا بعدًا، ومن النَّاسِ إلا صَغارًا وبُغضًا)[3627].

- **الفَرْقُ بَيْنَ التَّكبُّرِ وبينَ العِزَّةِ:**

الفَرْقُ بَيْنَ التَّكبُّرِ والعِزَّةِ أنَّ التَّكبُّرَ ترفُّعٌ بالباطلِ والعِزَّةَ ترفُّعٌ بالحقِّ، أو أنَّ التَّكبُّرَ: نُكرانُ النِّعمةِ وجُحودُها والتَّرفُّعَ: اعترافٌ بالنِّعمةِ وتحدُّثٌ بها[3628].

المطلب الثالث: ذمُّ الكِبْرِ والنَّهْيُ عنه

أ- من القرآنِ الكريمِ:

- الكِبْرُ من أوَّلِ الذُّنوبِ التي عُصي اللهُ تبارك وتعالى بها؛ قال اللهُ تعالى مبيِّنًا سببَ امتناعِ إبليسَ عن السُّجودِ لآدمَ: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 34].

قال الطَّبريُّ: (وهذا، وإن كان من اللهِ جَلَّ ثناؤه خبرًا عن إبليسَ، فإنَّه تقريعٌ لضُرَبائِه من خَلقِ اللهِ الذين يتكبَّرون عن الخضوعِ لأمرِ اللَّهِ، والانقيادِ لطاعتِه فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه، والتَّسليمِ له فيما أوجب لبعضِهم على بعضٍ من الحقِّ)[3629]
.

وقال عَوفُ بنُ عبدِ اللهِ للفَضلِ بنِ المُهَلَّبِ: (إني أريدُ أن أعظَك بشيءٍ: إيَّاك والكِبْرَ؛ فإنَّه أوَّلُ ذنبٍ عصى اللهَ به إبليسُ) ثمَّ قرأ: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ} [البقرة: 34][3630].

- والكِبْرِ سببٌ رئيسٌ في هلاكِ الأممِ السَّابقةِ؛ فهؤلاء قومُ نوحٍ ما منعهم عن قَبولِ الدَّعوةِ، والاستماعِ لنداءِ الفِطرةِ والإيمانِ، إلَّا الكِبْرُ؛ فقد قال اللهُ تعالى على لسانِ نبيِّهم نوحٍ عليه السَّلامُ: {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا} [نوح: 7].

وهؤلاء قومُ عادٍ ظنُّوا بسَبَبِ تكبُّرِهم أنَّه لا قوَّةَ أشدُّ من قُوَّتِهم؛ فقد قال اللهُ عنهم: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ} [فصلت: 15-16]

[3627] المصدر السابق (ص: 235، 236).

[3628] ((آفات على الطريق)) لسيد محمد نوح (ص: 105)

[3629] ((جامع البيان)) (1/510)

[3630] ((مفاتيح الغيب)) (3/645)

وها هي ثمودُ من بعدِهم ينهَجون نفسَ النَّهجِ في الاستكبارِ والتَّعالي، فيردُّون دعوةَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ويُكَذِّبون نبيَّه عليه السَّلامُ: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [الأعراف: 75-76].

وقال اللهُ تعالى عن قومِ نبيِّ اللهِ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} [الأعراف: 88].

أمَّا فرعونُ فقد ملأ الدُّنيا كبرًا وعُجبًا وخُيَلاءَ، حتَّى وصل به الحالُ أن ادَّعى الرُّبوبيَّةَ والألوهيَّةَ؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} [القصص: 38-40].

- والكِبْرُ سَبَبٌ في الإعراضِ عن آياتِ اللهِ والصَّدِّ عنها؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: {وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الجاثيَة: 7-8].

- وهو سَبَبٌ للصَّرفِ عن دينِ اللَّهِ؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف: 146].

- وهو سَبَبٌ لدُخولِ النَّارِ؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف: 20].

ب- من السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

- عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ، قال رجلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يحِبُّ أن يكونَ ثوبُه حَسَنًا ونَعلُه حَسَنةً! قال: إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ. الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ وغَمطُ النَّاسِ))[3631].

قال النَّوويُّ في شرحِ الحديثِ: (قد اختُلِف في تأويلِه؛ فذكر الخطَّابيُّ فيه وجهين:

أحدُهما: أنَّ المرادَ التَّكبُّرُ عن الإيمانِ، فصاحبُه لا يدخُلُ الجنَّةَ أصلًا إذا مات عليه.

والثَّاني: أنَّه لا يكونُ في قَلبِه كِبْرٌ حالَ دُخولِه الجنَّةَ، كما قال اللهُ تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ} [الأعراف: 43].

وهذان التَّأويلان فيهما بُعدٌ؛ فإنَّ هذا الحديثَ ورد في سياقِ النَّهي عن الكِبْرِ المعروفِ، وهو الارتفاعُ على النَّاسِ، واحتقارُهم، ودفعُ الحَقِّ، فلا ينبغي أن يُحمَلَ على هذين التَّأويلين المخرِجين له عن المطلوبِ. بل الظَّاهِرُ ما اختاره القاضي عياضٌ وغيرُه من المحقِّقين، أنَّه لا يدخُلُ الجنَّةَ دونَ مجازاةٍ إن جازاه. وقيل: هذا جزاؤه لو جازاه، وقد يتكرَّمُ بأنَّه لا يجازيه،

[3631] رواه مسلم (91)

بل لا بُدَّ أن يدخُلَ كُلُّ الموحِّدين الجنَّةَ؛ إمَّا أوَّلًا، وإمَّا ثانيًا بعد تعذيبِ بعضِ أصحابِ الكبائرِ الذين ماتوا مُصِرِّين عليها. وقيل: لا يدخُلُ مع المتَّقين أوَّلَ وهلةٍ)[3632].

وقال ابنُ القيِّمِ: (فسَّر النَّبيُّ الكِبْرَ بضِدِّه فقال: الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْصُ[3633] النَّاسِ. فبطَرُ الحقِّ: ردُّه وجَحدُه، والدَّفعُ في صَدرِه كدفعِ الصَّائلِ. وغَمصُ النَّاسِ: احتقارُهم وازدراؤهم. ومتى احتقرهم وازدراهم دفَع حقوقَهم وجحَدَها واستهان بها)[3634].

- وعن حارثةَ بنِ وَهبٍ الخُزاعيِّ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ألا أخبرُكم بأهلِ الجنَّةِ؟ كُلُّ ضعيفٍ متضاعِفٍ لو أقسم على اللهِ لأبرَّه، ألا أخبِرُكم بأهلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ[3635] جوَّاظٍ[3636] مُستكبرٍ))[3637].

-وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((احتجَّت النَّارُ والجنَّةُ، فقالت هذه: يدخُلُني الجبَّارون والمُتكبِّرون! وقالت هذه: يدخُلُني الضُّعَفاءُ والمساكينُ! فقال اللهُ عزَّ وجَلَّ لهذه: أنت عذابي أعذِّبُ بكِ من أشاء -وربَّما قال: أصيبُ بكِ من أشاءُ- وقال لهذه: أنت رحمتي أرحَمُ بكِ من أشاءُ، ولكُلِّ واحدةٍ منكما مِلؤها))[3638].

- وعن أبي هُرَيرةَ قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ ولا يُزَكِّيهم ولا ينظُرُ إليهم ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذَّابٌ، وعائِلٌ مُستكبِرٌ[3639])[3640].

يقولُ ابنُ تَيميَّةَ: (فهؤلاء الثَّلاثةُ: اشتركوا في هذا الوعيدِ، واشتركوا في فِعلِ هذه الذُّنوبِ مع ضَعفِ دواعيهم؛ فإنَّ داعيةَ الزِّنا في الشَّيخِ ضعيفةٌ، وكذلك داعيةُ الكَذِبِ في المَلِكِ ضعيفةٌ؛ لاستغنائه عنه، وكذلك داعيةُ الكِبْرِ في الفقيرِ، فإذا أتَوا بهذه الذُّنوبِ مع ضَعفِ الدَّاعي، دلَّ على أنَّ في نفوسِهم من الشَّرِّ الذي يستحقُّون به من الوعيدِ ما لا يستحقُّه غيرُهم)[3641].

- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((تحاجَّت الجنَّةُ والنَّارُ، فقالت النَّارُ: أُوثِرت بالمُتكبِّرين والمتجبِّرين...))[3642].

- وعن عَمرِو بنِ شُعَيبٍ، عن أبيه، عن جَدِّه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((يُحشَرُ المتكبِّرون يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ في صورةِ الرِّجالِ، يغشاهم الذُّلُّ من كُلِّ مكانٍ، يُساقونَ إلى سِجنٍ في جهنَّمَ يُسمَّى بُولَس، تغشاهم نارُ الأنيارِ، يُسقَونَ من عُصارةِ أهلِ النَّارِ طينةَ الخَبالِ))[3643].

[3632] ((شرح النووي على مسلم)) (2/91)

[3633] كَلِمةُ غَمْص: روايةٌ في الحديثِ، وهي بمعنى كَلِمةِ غَمْط. يُنظَر: ((مشارق الأنوار)) (2/135)

[3634] ((مدارج السالكين)) (2/318)

[3635] العُتُلُّ: الجافي الشَّديدُ الخصومةِ بالباطِلِ، وقيل: الجافي الفَظُّ الغليظُ. يُنظَر: ((شرح مسلم)) للنووي (17/188)

[3636] الجوَّاظُ: الجَموعُ المنوعُ، وقيل: كثيرُ اللَّحمِ المختالُ في مشيتِه، وقيل: القصيرُ البطينُ، وقيل: الفاجرُ. يُنظَر: ((شرح مسلم)) للنووي (17/188)

[3637] رواه البخاري (6071) واللفظ له، ومسلم (2853)

[3638] رواه البخاري (7449)، ومسلم (2846) واللفظ له.

[3639] عائلٌ مُستكبِرٌ: أي: فقيرٌ متكبِّرٌ. يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (8/3190)

[3640] رواه مسلم (107)

[3641] ((مجموع الفتاوى)) (18/14)

[3642] أخرجه البخاري (4850) ومسلم (2846)

[3643] أخرجه الترمذي (2492) واللفظ له، وأحمد (6677). صحَّحه الترمذي، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2492)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (10/157)، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (6677)، وجوَّده ابن حجر في ((فتح الباري)) (11/431)

قولُه: ((بُولَس)) فُوعَلٌ من: الإبلاسِ، بمعنى: اليأسِ، ولعَلَّ هذا السِّجنَ يُسَمَّى به لياْسِ داخِلِه من الخلاصِ.

وقولُه: ((تعلوهم نارُ الأنيارِ)) جمعُ نارٍ، ومعنى ((نارُ الأنيارِ)): هو أنَّه كأنَّ هذه النَّارَ لفرطِ إحراقِها وشِدَّةِ حَرِّها تفعَلُ بسائِرِ النِّيرانِ فِعلَ النَّارِ بغَيرِها.

وقولُه: ((طينةَ الخَبالِ)): اسمُ عُصارةِ أهلِ النَّارِ، وهو ما يسيلُ منهم من الصَّديدِ والقَيحِ والدَّمِ[3644].

- عن ابنِ عُمَرَ، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((من تعظَّمَ في نفسِه، أو اختال في مِشيتِه، لقيَ اللهَ عزَّ وجَلَّ وهو عليه غضبانُ))[3645].

قولُه: ((من تعظَّم في نفسِه)) اعتقد نفسَه عظيمةً تستحقُّ من غيرِه التَّبجيلَ والتَّكريمَ[3646].

قولُه: ((أو اختال في مِشيتِه)) أي: تبختر وأُعجِب بنفسِه فيها ، ومشى مِشيةَ المُختالِ المفتَخِرِ، وهذا كِبرٌ ظاهرٌ، فقولُه: ((تعظَّم)) هذا الكِبْرِياءُ في القلبِ ((واختال في مِشيتِه)) هذا الكِبْرِياءُ في العمَلِ في الظَّاهِرِ، ((لقيَ اللَّهَ)) يعني: يومَ القيامةِ ((وهو)) أي: اللهُ عزَّ وجَلَّ ((عليه)) أي: على هذا المتعاظِمِ المختالِ ((غضبانُ)) الجملةُ في قولِه: ((وهو عليه غضبانُ)) حالٌ من لفظِ الجلالةِ، فيقولُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ التَّعاظُمَ في النَّفسِ والاختيالَ في المِشيةِ إذا اجتمعا استحقَّ فاعلُهما هذا الوعيدَ، وهو غَضَبُ اللهِ عزَّ وجَلَّ[3647].

- وعن ثوبانَ قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن مات وهو بريءٌ من ثلاثٍ: الكِبْرِ، والغُلولِ، والدَّينِ، دَخَل الجنَّةَ))[3648].

- وعن مُصعَبِ بنِ سعدٍ رَضِيَ الله عنه قال: رأى سعدٌ رَضِيَ الله عنه أنَّ له فضلًا على من دونَه، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((هل تنصُرون وتُرزَقون إلَّا بضُعفائِكم؟))[3649].

قال الطِّيبيُّ في معنى الحديثِ: (فيه نهيٌ عن مخالطةِ الأغنياءِ، وتحذيرٌ من التَّكبُّرِ على الفقراءِ، والمحافظةُ على جَبرِ خواطِرِهم؛ ولهذا قال لقمانُ لابنه: لا تحقِرَنَّ أحدًا لخُلقانِ ثيابِه؛ فإنَّ ربَّك وربَّه واحدٌ.

وقال ابنُ معاذٍ: حُبُّك الفُقَراءَ من أخلاقِ المُرسَلين، وإيثارُك مجالستَهم من علاماتِ الصَّالحين، وفرارُك منهم من علاماتِ المُنافِقين)[3650].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

[3644] ((شرح المصابيح)) لابن الملك (353 /5)

[3645] أخرجه أحمد (5995) واللفظ له، والطبراني (13/64) (13692)، والحاكم (201). صحَّحه الحاكمُ على شرط الشيخين، والألباني على شرط البخاري في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (543)، والوادعي في ((الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين)) (718)، وقال الذهبي في ((الكبائر)) (196): على شرطِ مسلمٍ.

[3646] ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (181 /10)

[3647] ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (409 /6)

[3648] أخرجه الترمذي (1572) واللفظ له، وابن ماجه (2412)، وأحمد (22390) بلفظ: "من فارق الرُّوحُ الجسَدَ وهو بريءٌ ...". صحَّحه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (198)، والحاكم على شرط الشيخين في ((المستدرك)) (2252)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (1572)، والوادعي في ((الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين)) (1/161)

[3649] أخرجه البخاري (2896)

[3650] ((فيض القدير)) للمناوي (1/109)

- عوتِبَ عليٌّ رَضِيَ الله عنه في لَبوسِه فقال: (إنَّ لبوسي هذا أبعَدُ من الكِبْرِ، وأجدَرُ أن يقتديَ بي المسلِمُ)[3651].

- وعن عليّ بنِ رباحٍ اللَّخميّ، قال: قال عمرُو بنُ العاصِ رَضِيَ الله عنه: (انتهى عَجَبي عِندَ ثلاثٍ: المرءٌ يَفِرُّ من القدَرِ وهو لاقيه، والرَّجُلُ يرى في عينِ أخيه القَذاةَ فيعيبُها، ويكونُ في عينِه مِثلُ الجِذعِ فلا يعيبُه، والرَّجُلُ يكونُ في دابَّتِه الصَّعَرُ[3652] فيُقَوِّمُها جُهدَه، ويكونُ في نفسِه الصَّعَرُ فلا يُقَوِّمُ نفسَه!)[3653].

- وقال الحسَنُ: (إنَّ أقوامًا جعلوا الكِبْرَ في قلوبِهم، والتَّواضُعَ في ثيابِهم، فصاحبُ الكساءِ بكِسائِه أعجبُ من صاحِبِ المِطرَفِ بمِطرَفِه)[3654].

- وقال أبو عثمانَ النَّيسابوريُّ: (ما ترك أحدٌ شيئًا من السُّنَّةِ إلَّا لكِبرٍ في نفسِه، ثمَّ هذا مَظِنَّةٌ لغيرِه، فينسَلِخُ القلبُ عن حقيقةِ اتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويصيرُ فيه من الكِبْرِ وضَعفِ الإيمانِ ما يفسِدُ عليه دينَه، أو يكادُ، وهم يحسَبون أنَّهم يُحسِنون صُنعًا)[3655].

- وقال الأحنَفُ بنُ قَيسٍ: (عَجَبًا لابنِ آدَمَ يتكَبَّرُ وقد خرج من مجرى البولِ مرَّتين!)[3656].

- وقال محمَّدُ بنُ الحُسَينِ بنِ عليٍّ: (ما دخل قلبَ امرئٍ شيءٌ من الكِبْرِ قطُّ إلَّا نقص من عقلِه بقدرِ ما دخَل من ذلك قَلَّ أو كَثُر).

- وسُئِل سَلمانُ عن السَّيِّئةِ التي لا تنفَعُ معها حَسَنةٌ، فقال: الكِبْرُ[3657].

- وقال سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ لابنِه: (يا بُنَيَّ: إيَّاك والكِبْرَ، وليَكُنْ فيما تستعينُ به على تركِه: عِلمُك بالذي منه كنتَ والذي إليه تصيرُ، وكيف الكِبْرُ مع النُّطفةِ التي منها خُلِقتَ، والرَّحِمِ التي منها قُذِفتَ، والغذاءِ الذي به غُذِيتَ؟!)[3658].

- ويقولُ ابنُ تَيميَّةَ: (الكِبْرُ ينافي حقيقةَ العُبوديَّةِ كما ثبت في الصَّحيحِ: عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((يقولُ اللَّهُ: العَظَمةُ إزاري، والكِبْرِياءُ ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذَّبتُه))[3659]. فالعَظَمةُ والكِبْرِياءُ من خصائصِ الرُّبوبيَّةِ، والكِبْرِياءُ أعلى من العَظَمةِ؛ ولهذا جعلها بمنزلةِ الرِّداءِ، كما جَعَل العَظَمةَ بمنزلةِ الإزارِ)[3660].

- قال الحارِثُ بنُ أسَدٍ المحاسِبيُّ: (الكِبْرُ عظيمُ الآفاتِ، عنه تَشعَّبُ أكثَرُ البَليَّاتِ، يستوجبُ به من اللهِ عزَّ وجَلَّ سرعةَ العقوبةِ والغَضَبِ؛ لأنَّ الكِبْرَ لا يحِقُّ إلَّا للهِ عزَّ وجَلَّ، ولا يليقُ ولا يصلُحُ لمن دونه؛ إذ كُلُّ مَن سواه عبدٌ مملوكٌ، وهو المليكُ الإلهُ القادرُ؛ فعَظُم عِندَ اللهِ عزَّ وجَلَّ الكِبْرُ ذنبًا؛ إذ كان لا يليقُ بغيرِه، فإذا فَعَل العبدُ ما لا يليقُ إلَّا بالمولى جلَّ

[3651] رواه أحمد في ((فضائل الصحابة)) (908) مطوَّلًا، وابن أبي الدنيا في ((إصلاح المال)) (393)

[3652] الصَّعَرُ: داءٌ يصيبُ الإبِلَ فتلتوي منه أعناقُها، وبذلك سُمِّيَ المتكبِّرُ أصعَرَ. يُنظَر: ((المخصص)) لابن سيده (218 /2)

[3653] ((تاريخ بغداد)) للخطيب البغدادي (8/ 679)، ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (190 /46)

[3654] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((التواضع والخمول)) (66)

[3655] ذكره ابن تَيميَّةَ في ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (2/120)

[3656] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((التواضع والخمول)) (201) واللفظ له، وأبو بكر الدينوري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (2163)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق))(24/328)

[3657] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((التواضع والخمول)) (229)

[3658] ذكره ابن عبد ربه في ((العقد الفريد)) (2/197)

[3659] رواه مسلم (2620) من حديثِ أبي سعيدٍ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((العِزُّ إزارُه، والكبرياءُ رداؤه، فمَن ينازعُني عذَّبتُه)).

[3660] ((العبودية)) (ص: 99).

وعزَّ اشتدَّ غضبُ المولى تعالى عليه... فيستحقُّ المُتكَبِّرُ أن يقصِمَه اللهُ عزَّ وجَلَّ ويحقِرَه ويُصغِّرَه؛ إذ جاز قَدرَه، وتعاطى ما لا يصلُحُ لمخلوقٍ...

ويستأهِلُ أيضًا المُتكَبِّرُ أن يزيلَ اللهُ عنه النِّعمةَ التي تكبَّرَ بها؛ لأنَّه لا يتكبَّرُ إلَّا بنعمةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ...

ثمَّ مع ذلك أنَّه يستحقُّ من اللهِ عزَّ وجَلَّ ألَّا يُفهِّمَه العلمَ، ولا يُفَقِّهَه في الدِّينِ، ومن ذلك قولُه عزَّ وجَلَّ: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف: 146]...

فالمُتكَبِّرُ يتعرَّضُ للمقتِ من اللهِ عزَّ وجَلَّ، وسرعةِ المعاجَلةِ بالعقوبةِ)[3661].

- عن سفيانُ بنِ عُيينةَ، قال: (كان يقالُ: دَعِ الكِبْرَ والفخرَ، واذكُرْ طولَ الثَّواءِ[3662] في القبرِ)[3663].

- وقال أيضًا: (من كانت معصيتُه في الشَّهوةِ فارجُ له التَّوبةَ؛ فإنَّ آدمَ عليه السَّلامُ عصى مشتهيًا فغُفِر له، وإذا كانت معصيتُه في كِبرٍ فاخْشَ على صاحبِه اللَّعنةَ؛ فإنَّ إبليسَ عصى مستكبرًا فلُعِن)[3664].

- قال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: (من وُقِيَ خمسًا فقد وُقِيَ شَرَّ الدُّنيا والآخرةِ: العُجبُ، والرِّياءُ، والكِبْرُ، والإزراءُ، والشَّهوةُ)[3665].

- قال ابنُ المعتزِّ: (لمَّا عرَف أهلُ النَّقصِ حالَهم عِندَ ذوي الكمالِ، استعانوا بالكِبْرِ، ليُعظِّمَ صغيرًا، ويرفَعَ حقيرًا، وليس بفاعلٍ)[3666].

- عن عُقبةَ بنِ سِنانٍ، قال: قال أكثَمُ بنُ صيفيٍّ: (ليس للمختالِ في حسنِ الثَّناءِ نصيبٌ)[3667].

- عن هلالِ بنِ العلاءِ، قال: قال ذو النُّونِ: (من تطأطأ لَقَط رُطَبًا، ومن تعالى لَقِيَ عَطَبًا)[3668].

- قال حاتمٌ الأصَمُّ: (أصلُ المعصيةِ ثلاثةُ أشياءَ: الكِبْرُ، والحِرصُ، والحَسَدُ) [3669]، قال بعضُهم: (فأمَّا الكِبْرُ فقد ظهر من إبليسَ حيث أُمِر بالسُّجودِ فاستكبر حتى صار ملعونًا، وأمَّا الحرصُ فقد ظهر على آدمَ عليه السَّلامُ، حيث تناول من الشَّجرةِ؛ لكي يُخلَّدَ في الجنَّةِ، فأُخرِجَ منها، وأمَّا الحسدُ فقد ظهر على ابنِ آدَمَ، فقَتَل أخاه حتى أُدخِل النَّارَ)[3670].

- قال الغزاليُّ: (وأمَّا العُجبُ والكِبْرُ والفخرُ فهو الدَّاءُ العُضالُ، وهو نظَرُ العبدِ إلى نفسِه بعينِ العِزِّ والاستعظامِ، وإلى غيرِه بعينِ الاحتقارِ والذُّلِّ، ونتيجتُه على اللِّسانِ أن يقولَ: أنا وأنا، كما قال إبليسُ اللَّعينُ: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: 12] ، وثمرتُه في المجالسِ التَّرفُّعُ والتَّقدُّمُ، وطلبُ التَّصدُّرِ فيها، وفي المحاورةِ الاستنكافُ من أن يُرَدَّ

[3661] يُنظَر: ((الرعاية لحقوق الله)) (ص: 299-301).

[3662] الثَّواءُ: طُولُ المُقامِ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور

[3663] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (283 /7)

[3664] المصدر السابق (272 /7)

[3665] المصدر السابق (95 /8)

[3666] ((التمثيل والمحاضرة)) للثعالبي (444، 445)

[3667] ((تاريخ بغداد)) للخطيب البغدادي (196 /14)

[3668] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (376 /9)

[3669] ((شعب الإيمان)) للبيهقي (498 /10)

[3670] يُنظَر: ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: 223، 591).

كلامُه عليه، والمُتكَبِّرُ هو الذي إن وُعِظ أَنِف، أو وَعَظ عَنَّف، فكُلُّ من رأى نفسَه خيرًا من أحدٍ مِن خَلقِ اللهِ تعالى فهو مُتكَبِّرٌ)[3671].

- قال أَكثَمُ بنُ صيفيٍّ: (لا يَطمَعَنَّ ذو كبرٍ في حُسنِ ثناءٍ، ولا الملولُ في الإخوانِ، ولا الخِبُّ في الشَّرَفِ). وقال: (آفةُ المروءةِ الكِبْرُ، وآفةُ السَّخاءِ المنُّ، وآفةُ الرَّأيِ العُجبُ)[3672].

- (قال المأمونُ: ما تكبَّرَ أحدٌ إلَّا لنقصٍ وَجَده في نفسِه، ولا تطاول إلَّا لوَهنٍ أحسَّ من نفسِه)[3673].

- قال الجاحظُ: (ولم تَرَ العُيونُ ولا سَمِعَت الآذانُ ولا توَهَّمَت العقولُ عَمَلًا اجتباه ذو عَقلٍ، أو اختاره ذو عِلمٍ، بأَوْبَأَ مغبَّةً، ولا أنكَدَ عاقِبةً، ولا أوخَمَ مَرعًى، ولا أبعَدَ مَهوًى، ولا أضَرَّ على دينٍ، ولا أفسَدَ لعِرضٍ، ولا أوجَبَ لسَخطِ اللَّهِ، ولا أدعى إلى مَقتِ النَّاسِ، ولا أبعَدَ مِن الفلاحِ، ولا أظهَرَ نفورًا عن التَّوبةِ، ولا أقَلَّ دَرَكًا عِندَ الحقيقةِ، ولا أنقَضَ للطَّبيعةِ، ولا أمنَعَ من العِلمِ، ولا أشَدَّ خلافًا على الحِلمِ- من التَّكبُّرِ في غيرِ مَوضِعِه، والتَّنبُّلِ في غيرِ كُنْهِه)[3674].

المطلب الرابع: آثارُ الكِبْرِ

1. الحرمانُ من النَّظَرِ والاعتبارِ:

أي أنَّ الأثَرَ الأوَّلَ الذي يتركُه التَّكبُّرُ على المسلمِ إنما هو الحرمانُ من النَّظرِ والاعتبارِ... ومَن حُرِم النَّظَرَ والاعتبارَ كانت عاقبتُه البوارَ والخُسرانَ المبينَ؛ لأنَّه سيبقى مقيمًا على عيوبِه وأخطائِه، غارقًا في أوحالِه، حتى تنتهيَ الحياةُ.

2. القَلَقُ والاضطرابُ النَّفسيُّ:

ذلك أنَّ المُتكَبِّرَ يحِبُّ إشباعًا لرغبةِ التَّرفُّعِ والتَّعالي أن يحنيَ النَّاسُ رؤوسَهم له، وأن يكونوا دومًا في رِكابِه، ولأنَّ أعزَّةَ النَّاسِ وكِرامَهم يأبَون ذلك، بل ليسوا مستعدِّين له أصلًا، فإنَّه يصابُ بخيبةِ أملٍ تكونُ عاقبتُها القَلَقَ والاضطرابَ النَّفسيَّ، هذا فضلًا عن أنَّ اشتغالَ هذا المُتكَبِّرِ بنفسِه يجعَلُه في إعراضٍ تامٍّ عن معرفةِ اللهِ وذِكرِه، وذلك له عواقِبُ أدناها في هذه الدُّنيا القَلَقُ والاضطرابُ النَّفسيُّ.

3. الملازمةُ للعُيوبِ والنَّقائِصِ:

وذلك أنَّ المُتكَبِّرَ لظنِّه أنَّه بلغ الكمالَ في كُلِّ شيءٍ لا يفتِّشُ في نفسِه؛ حتى يعرفَ أبعادَها ومعالِمَها، فيُصلِحَ ما هو في حاجةٍ منها إلى إصلاحٍ، ولا يقبَلُ كذلك نصحًا أو توجيهًا أو إرشادًا من الآخرين، ومثلُ هذا يبقى غارقًا في عيوبِه ونقائصِه، ملازمًا لها إلى أن تنقضيَ الحياةُ، ويدخُلَ النَّارَ مع الدَّاخلين.

4. الحرمانُ من الجنَّةِ واستحقاقُ العذابِ في النَّارِ:

[3671] ((بداية الهداية)) (ص: 60).

[3672] ((أنساب الأشراف)) للبلاذري (79 /13)

[3673] ((محاضرات الأدباء)) للراغب (321 /1)

[3674] ((الرسائل)) (178 /4)

وذلك أمرٌ بَدَهيٌّ؛ فإنَّ من يعتدي على مقامِ الألوهيَّةِ، ويظلُّ مقيمًا على عيوبِه ورذائلِه، ستنتهي به الحياةُ حتمًا، وما حصَّل خيرًا يستحقُّ به ثوابًا أو مكافأةً، فيُحرَمُ الجنَّةَ مؤبَّدًا أو مؤقَّتًا.

5. قلَّةُ كسبِ الأنصارِ بل والفُرْقةُ والتَّمزُّقُ، والشُّعورُ بالعُزلةِ:

ذلك أنَّ القلوبَ جُبِلت على حُبِّ من ألان لها الجانبَ، وخَفَض لها الجناحَ، ونظَر إليها من دونٍ لا مِن عَلٍ.

6. الحِرمانُ من العَونِ والتَّأييدِ الإلهيّ:

ذلك أنَّ الحَقَّ سُبحانَه مضَت سنَّتُه أنَّه لا يُعطي عونَه وتأييدَه إلَّا لمن هضَموا نفوسَهم حتَّى استخرجوا حظَّ الشَّيطانِ من نفوسِهم، بل حَظَّ نفوسِهم من نفوسِهم، والمُتكبِّرون قومٌ كَبُرت نفوسُهم، ومن كانت هذه صفتَه، فلا حَقَّ له في عونٍ أو تأييدٍ إلهيّ[3675].

7. استحقاقُ غَضبِ اللهِ والتَّعرُّضُ لسَخَطِه.

8. المُتكبِّرُ يُحرَمُ كثيرًا من العلمِ؛ قال مجاهدٌ: (إنَّ هذا العلمَ لا يتعلَّمُه مُستحٍ ولا مُتكبِّرٌ)[3676].

وقال النَّوويُّ: (قد قالوا: من لم يصبرْ على ذلِّ التَّعلُّمِ بقي عُمرَه في عمايةِ الجهالةِ، ومن صبَر عليه آلَ أمرُه إلى عزِّ الآخرةِ والدُّنيا. ومنه الأثرُ المشهورُ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: ذلَلْتُ طالبًا فعَزَزتُ مطلوبًا. وقد أحسَن من قال:

من لم يذُقْ طَعمَ المذَلَّةِ ساعةً

قطَع الزَّمانَ بأسْرِه مذلولًا)[3677].

9. **المُتكبِّرُ على من تحتَه يكونُ ذليلًا لمن فوقَه؛** قال الجاحظُ: (وشيءٌ قد قتَلْتُه عِلمًا، وهو أني لم أرَ ذا كِبرٍ قطُّ على من دونَه، إلَّا وهو يَذِلُّ لمن فوقه بمقدارِ ذلك ووَزْنِه)[3678].

10. **المُتكبِّرُ ينادي على نفسِه بالمهانةِ؛** قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه: (ما وَجَد أحدٌ في نفسِه كبرًا إلَّا من مهانةٍ يجِدُها في نفسِه)[3679].

11. قد يؤدِّي الكِبْرُ ببعضِ النَّاسِ إلى تَركِ الجُمَعِ والجماعاتِ، أو عَدَمِ إتمامِ الصُّفوفِ إن صلَّى في جماعةٍ؛ قال الذَّهبيُّ بعد أن ذكَر ما يُروى عن حجَّاجِ بنِ أرطاةَ أنَّه قال: (لا تَتِمُّ مروءةُ الرَّجُلِ حتَّى يتركَ الصَّلاةَ في الجماعةِ): (قلتُ: لَعَن اللهُ هذه المروءةَ! ما هي إلَّا الحُمقُ والكِبْرُ؛ كي لا يزاحمَه السُّوقةُ! وكذلك تجِدُ رؤساءَ وعُلَماءَ يُصَلُّون في جماعةٍ في غيرِ صَفٍّ، أو تُبسَطُ له سجَّادةٌ كبيرةٌ حتَّى لا يلتَصِقَ به مسلمٌ! فإنَّا للهِ!)[3680].

12. قد يؤدِّي الكِبْرُ ببعضِ النَّاسِ إلى الكُفرِ:

[3675] ((آفات على الطريق)) لسيد محمد نوح (1/175) فما بعدها (بتصرف).

[3676] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (3/ 287)

[3677] ((التبيان في آداب حملة القرآن)) (ص: 42).

[3678] ((الحيوان)) (6/ 353)

[3679] ((البيان والتبيين)) للجاحظ (3/ 294)

[3680] ((سير أعلام النبلاء)) (7/ 72)

ذُكِر أنَّ جَبَلةَ بنَ الأيهَمِ مَلِكَ غَسَّان أسلم، فبينما هو في سوقِ دِمَشقَ -في زمانِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ- إذ وطئَ رجلًا من مزينةَ، فوثب المُزَنيُّ فلَطَمه، فأُخِذ وانطُلِق به إلى أبي عُبَيدةَ بنِ الجرَّاحِ، فقالوا: هذا لَطَم جَبَلةَ، قال: فليَلطِمْه، قالوا: وما يُقتَلُ؟ قال: لا، قالوا: فما تُقطَعُ يَدُه؟ قال: لا، إنما أمر اللهُ تبارك وتعالى بالقَودِ، قال جَبَلةُ: أو تَرونَ أني جاعِلٌ وجهي نِدًّا لوَجهِ جَدْيٍ جاء من عُمقٍ؟! بئس الدِّينُ هذا! ثمَّ ارتدَّ نصرانيًّا وترحَّل بقومِه حتى دخل أرضَ الرُّومِ. نعوذُ باللهِ من العُتُوِّ والكِبْرِ[3681]!

13. **المُتكَبِّرُ (قد يحمِلُه الكِبْرُ على أن يتصَنَّعَ بما ليس عندَه من العِلمِ والعَمَلِ**، والحسَبِ الشَّريفِ ونزاهةِ النَّفسِ وسلامةِ العِرضِ، وكذلك يحمِلُه على تركِ الاختلافِ إلى العُلَماءِ إظهارًا منه أنَّه مِثلُهم أو أفضلُ منهم، وأن يأنَفَ أن يتقَدَّمَ عليه غيرُه في الصَّلاةِ، كُلُّ ذلك تكبُّرًا أو خوفًا من سقوطِ منزلتِه عِندَ النَّاسِ)[3682].

المطلب الخامس: أقسامُ الكِبْرِ

ينقَسِمُ الكِبْرُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: بعضُها أشَدُّ من بعضٍ، وإن كانت كلُّها مذمومةً، وقد ذكَر هذه الأقسامَ ابن حجر الهيتمي، فقال: (الكِبْرُ:

-إمَّا على اللهِ تعالى، وهو أفحَشُ أنواعِ الكِبْرِ، كتكبُّرِ فرعونَ ونمرودَ حيث استنكفا أن يكونا عبدينِ له تعالى وادَّعيا الرُّبوبيَّةَ؛ قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: 60]، أي: صاغِرينَ. {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ...} الآيَة [النساء: 172].

- وإمَّا على رسولِه، بأن يمتَنِعَ من الانقيادِ له تكبُّرًا جهلًا وعنادًا، كما حكى اللهُ ذلك عن كُفَّارِ مكَّةَ وغيرِهم من الأمَمِ.

- وإمَّا على العبادِ، بأن يستعظِمَ نفسَه، ويحتَقِرَ غيرَه ويزدريَه، فيأبى على الانقيادِ له، أو يترفَّعَ عليه، ويأنَفَ من مساواتِه، وهذا وإن كان دونَ الأوَّلين إلَّا أنَّه عظيمٌ إثمُه أيضًا؛ لأنَّ الكِبْرِياءَ والعَظَمةَ إنَّما يليقان بالمَلِكِ القادِرِ القويِّ المتينِ، دونَ العبدِ العاجزِ الضَّعيفِ، فتكبُّرُه فيه منازعةٌ لله في صفةٍ لا تليقُ إلَّا بجلالِه، فهو كعبدٍ أخذ تاجَ مَلِكٍ وجلس على سريرِه، فما أعظَمَ استحقاقَه للمَقتِ، وأقرَبَ استعجالَه للخِزيِ! ومِن ثمَّ قال تعالى كما مرَّ في أحاديثَ: إنَّ من نازعه العَظَمةَ والكِبْرِياءَ أهلكَه، أي لأنَّهما من صفاتِه الخاصَّةِ به تعالى)[3683].

المطلب السادس: دَرَجاتُ الكِبْرِ

يقولُ ابنُ قُدامةَ المَقدِسيُّ: (واعلَمْ أنَّ العُلَماءَ والعُبَّادَ في آفةِ الكِبْرِ على ثلاثِ دَرَجاتٍ:

الأولى: أن يكونَ الكِبْرُ مُستقرًّا في قلبِ الإنسانِ منهم، فهو يرى نفسَه خيرًا من غيرِه، إلَّا أنَّه يجتَهِدُ ويتواضَعُ، فهذا في قَلبِه شجرةُ الكِبْرِ مغروسةٌ، إلَّا أنَّه قد قطَع أغصانَها.

[3681] يُنظَر: ((نثر الدر)) للآبي (7/ 89)، ((محاضرات الأدباء)) للراغب (1/ 324)، ((التذكرة)) لابن حمدون (102 /3)

[3682] ((مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل)) للعز بن عبد السلام (ص: 148)

[3683] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (1/118)

الثَّانيةُ: أن يُظهِرَ لك بأفعالِه من التَّرفُّعِ في المجالِسِ، والتَّقدُّمِ على الأقرانِ، والإنكارِ على من يُقصِّرُ في حقِّه، فترى العالمَ يُصَعِّرُ خَدَّه للنَّاسِ، كأنَّه مُعرِضٌ عنهم، والعابِدُ يعيشُ ووجهُه كأنَّه مستقذِرٌ لهم، وهذان قد جَهِلا ما أدَّب اللهُ به نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، حينَ قال: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 215].

الدَّرجةُ الثَّالثةُ: أن يُظهِرَ الكِبْرَ بلسانِه، كالدَّعاوى والمفاخِرِ، وتزكيةِ النَّفسِ، وحكاياتِ الأحوالِ في مَعرِضِ المفاخرةِ لغيرِه، وكذلك التَّكبُّرُ بالنَّسَبِ؛ فالذي له نَسَبٌ شريفٌ يستحقِرُ من ليس له ذلك النَّسَبُ وإن كان أرفَعَ منه عملًا. قال ابنُ عبَّاسٍ: يقولُ الرَّجُلُ للرَّجُلِ: أنا أكرمُ منك، وليس أحدٌ أكرمَ من أحدٍ إلَّا بالتَّقوى. قال اللهُ تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13]، وكذلك التَّكبُّرُ بالمالِ، والجَمالِ، والقُوَّةِ، وكثرةِ الأتباعِ، ونحوِ ذلك)[3684].

المطلب السابع: مظاهِرُ الكِبْرِ

- **هناك مظاهِرُ وسِماتٌ تظهَرُ على المُتكَبِّرِ، في صفاتِه**، وحَرَكاتِه، وسَكَناتِه، وأحوالِه وأقوالِه وأعمالِه، تدُلُّ على ما وصَل إليه من الكِبْرِ والعُجبِ بالنَّفسِ، والازدراءِ للآخَرين، ومن المُتكَبِّرين من يجمَعُ كثيرًا من هذه المظاهِرِ، ومنهم من يتكبَّرُ في بعضٍ ويتواضَعُ في بعضٍ، ومن ذلك[3685]:

- أن يحِبَّ قيامَ النَّاسِ له أو بَيْنَ يَدَيه:

وقد قال عليٌّ رَضِيَ الله عنه: (مَن أراد أن ينظُرَ إلى رجلٍ من أهلِ النَّارِ، فلينظُرْ إلى رجُلٍ قاعدٍ وبينَ يَدَيه قومٌ قيامٌ)[3686].

وقال أنسٌ رَضِيَ الله عنه: (لم يكُنْ شَخصٌ أحَبَّ إليهم من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له؛ لِما يعلمون من كراهتِه لذلك)[3687].

- أن لا يمشيَ إلَّا ومعه غيرُه يمشي خَلْفَه:

قال أبو الدَّرداءِ رَضِيَ الله عنه: (لا يزال العبدُ يزدادُ من اللهِ بعدًا، ما مُشِي خَلْفَه)[3688].

وكان عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ رَضِيَ الله عنه لا يُعرَفُ من عبيدِه، إذ كان لا يتميَّزُ عنهم في صورةٍ ظاهرةٍ[3689].

ومشى قومٌ خَلفَ الحَسَنِ البصريِّ، فمنعهم وقال: ما يُبقي هذا من قَلبِ العبدِ[3690]؟!

- أن لا يزورَ غيرَه وإن كان يحصُلُ من زيارتِه خيرٌ لغيرِه في الدِّينِ:

[3684] ((مختصر منهاج القاصدين)) لابن قدامة (292، 293).

[3685] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/354)

[3686] ذكره الغزالي في ((إحياء علوم الدين)) (3/354)

[3687] رواه الترمذي (2754) واللفظ له، وأحمد (12345). صحَّحه الترمذي، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (2/91)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2754)، والوادعي على شرط مسلم في ((الصحيح المسند)) (50)

[3688] رواه ابنُ المبارك في ((الزهد)) (394)، والخطيب في ((تلخيص المتشابه)) (2/768)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (72/276)

[3689] ذكره الغزالي في ((إحياء علوم الدين)) (3/354)

[3690] المصدر السابق.

رُوِيَ أنَّ سفيانَ الثَّوريَّ قَدِم الرَّملةَ فبعث إليه إبراهيمُ بنُ أدهَمٍ: أن تعالَ فَحَدِّثْنا. فجاء سفيانُ، فقيل له: يا أبا إسحاقَ، تبعَثُ إليه بمثلِ هذا؟ فقال: أردتُ أن أنظُرَ كيف تواضُعُه[3691].

- أن يَستنكِفَ من جلوسِ غيرِه بالقُربِ منه، إلَّا أن يجلِسَ بَيْنَ يديه:

قال ابنُ وَهبٍ: (جلَستُ إلى عبدِ العزيزِ بنِ أبي رُوادٍ، فمسَّ فَخِذي فَخِذَه، فنحيَّتُ نفسي عنه، فأخذ ثيابي فجَرَّني إلى نفسِه، وقال لي: لَمَ تفعَلون بي ما تفعَلون بالجبابرةِ؟ وإني لا أعرِفُ رجلًا منكم شَرًّا مني!)[3692].

وقال أنسٌ ((كانت الأَمَةُ من إماءِ أهلِ المدينةِ لتأخُذُ بيَدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتنطَلِقُ به حيثُ شاءت))[3693]

- أن يتوقَّى من مجالسةِ المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم:

(وكان عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما لا يحبِسُ عن طعامِه مجذومًا، ولا أبرَصَ، ولا مبتلًى، إلَّا أقعدَهم على مائدتِه)[3694]

- ألَّا يتعاطى بيَدِه شُغلًا في بيتِه:

رُوِيَ أنَّ عُمَرَ بنَ عبدِ العزيزِ أتاه ليلةً ضَيفٌ، وكان يكتُبُ، فكاد السِّراجُ يُطفَأُ، فقال الضَّيفُ: أقومُ إلى المصباحِ فأُصلِحُه. فقال: ليس من كَرَمِ الرَّجُلِ أن يستخدِمَ ضَيفَه. قال: أفأُنَبِّهُ الغلامَ؟ فقال: هي أوَّلُ نومةٍ نامها. فقام وأخَذ البَطَّةَ[3695]، وملأ المصباحَ زَيتًا، فقال الضَّيفُ: قمتَ أنت بنفسِك يا أميرَ المُؤمِنين؟ فقال: ذهبتُ وأنا عُمَرُ، ورجَعتُ وأنا عُمَرُ، ما نقَصَ مني شيءٌ! وخيرُ النَّاسِ مَن كان عِندَ اللهِ متواضعًا[3696].

- ألَّا يأخُذَ متاعَه ويحمِلَه إلى بيتِه، وهو خلافُ عادةِ المتواضِعين.

قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عنه: (لا ينقُصُ الرَّجُلَ الكامِلَ من كمالِه ما حَمَل من شيءٍ إلى عيالِه)[3697]. وكان أبو عُبَيدةَ بنُ الجرَّاحِ - وهو أميرٌ- يحمِلُ سَطلًا[3698] له من خشَبٍ إلى الحمَّامِ[3699].

وعن سُفيانَ بنِ عُيَينةَ، قال: (كان أبو سِنانٍ -ضِرارُ بنُ مُرَّةَ- يشتري الشَّيءَ من السُّوقِ فيَحمِلُه، فيأتيه الرَّجُلُ فيقولُ: يا أبا سنانٍ، أنا أحمِلُه لك، فيأبى، ثمَّ يقولُ: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} [النحل: 23]). قال سُفيانُ: وسَمِعتُ أبا سِنانٍ يقولُ: (حلبتُ الشَّاةَ منذُ اليومِ، واستقَيتُ لأهلي راويةً[3700] من ماءٍ، وكان يقالُ: خَيرُكم أنفَعُكم لأهلِه)[3701].

[3691] رواه أبو بكر الدِّينَوَري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (2971)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (6/367)

[3692] ذكره الغزالي في ((إحياء علوم الدين)) (3/354)

[3693] رواه البخاري (6072)

[3694] رواه ابنُ المبارك في ((الزهد)) (611)، وابن أبي الدنيا في ((الجوع)) (56)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (31/145) مطوَّلًا.

[3695] البَطَّةُ: إناءٌ كالقارورةِ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور(7/261)

[3696] ذكره الغزالي في ((إحياء علوم الدين)) (3/355)

[3697] ذكره أبو طالب المكي في ((قوت القلوب)) (2/388)

[3698] السَّطلُ: الدَّلوُ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: 147).

[3699] ذكره الغزالي في ((إحياء علوم الدين)) (3/355)

[3700] أي: مزادةً، والرَّاويةُ: البَعيرُ أو البَغلُ أو الحمارُ الذي يُستقى عليه. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: 132).

[3701] ((المعرفة والتاريخ)) ليعقوب بن سفيان (2/ 710)، ((شعب الإيمان)) للبيهقي (491 /10)

ورأى رجلٌ محمَّدَ بنَ كُناسةَ يحمِلُ بيَدِه بَطنَ شاةٍ، فقال: هاتِه أحمِلْه عنك. فقال: لا. ثمَّ قال:

لا ينقُصُ الكامِلَ من كمالِه

ما جَرَّ من نفعٍ إلى عيالِه[3702]

- أن يميِّزَ في إجابةِ الدَّعوةِ بَيْنَ الغنيِّ والفقيرِ:

فتراه يسارِعُ في إجابةِ دَعوةِ الغنيِّ إذا دعاه، ويستنكِفُ من إجابةِ دَعوةِ الفقيرِ.

- ومنها[3703] الاختيالُ في المِشيةِ مع لَيٍّ صفحةِ العُنُقِ وتصعيرِ الخَدِّ.

- رفضُ النَّصيحةِ، والاستنكافُ عن الحَقِّ.

- إسبالُ الإزارِ اختيالًا.

- محبَّةُ التَّقدُّمِ على الغيرِ في المشيِ أو في المجلِسِ أو في الحديثِ أو نحوِ ذلك.

- من مظاهِرِ المُتكَبِّرِ بعِلمِه المُعجَبِ به[3704]: أنَّه ينتهِرُ من يُعَلِّمُه، وإن وَعَظ عَنَّف، وإن وُعِظ أَنِف، وإن أُمِر بالحقِّ لم يقبَلْه، وإن ناظر ازدرى بمُناظِريه، وينقَبِضُ عن النَّاسِ ليبدَؤوا بالسَّلامِ، ويُسَخِّرُهم في أغراضِه، ويغضبُ على من لم يقُمْ بحوائجِه.

- ومن مظاهِرِ المُتكَبِّرِ بعَمَلِه أنَّه يحتقِرُ من لا يعمَلُ مِثلَ عَمَلِه؛ فإن كان أجهَلَ منه قال: مُضَيِّعٌ جاهِلٌ، وإن كان أعلَمَ منه قال: الحُجَّةُ عليه أعظَمُ منها عليَّ، فينظرُ إلى النَّاسِ بعينِ الاحتقارِ والازدراءِ منقَبِضًا عنهم ليبدؤوه بالسَّلامِ ولا يبدَؤهم، ويزوروه ولا يزورُهم، ويعودوه ولا يعودُهم، ويخدُموه ولا يخدُمُهم، وإن بدأ أحدًا منهم بالسَّلامِ أو زاره أو عاده رأى أنَّه قد تفضَّل عليه وأحسَن إليه، وأنَّ مِثلَهم لا يستحِقُّ ذلك منه، ويرجو لنفسِه أكثَرَ ممَّا يرجوه لهم، ويخافُ عليهم أكثَرَ ممَّا يخافُ على نفسِه، آمنًا من عذابِ اللهِ تعالى .

المطلب الثامن: أسبابُ الكِبْرِ

- **الكِبْرُ الظَّاهِرُ أسبابُه ثلاثةٌ[3705]:**

1- **سَبَبٌ في المُتكَبِّرِ:** وهو العُجبُ، فهو يُورِثُ الكِبْرَ الباطِنَ، والكِبْرُ يُثمِرُ التَّكبُّرَ الظَّاهِرَ في الأعمالِ والأقوالِ والأحوالِ.

2- **وسَبَبٌ في المُتكَبَّرِ عليه:** وهو الحِقدُ والحسَدُ؛ فأمَّا الحِقدُ فإنَّه يحمِلُ على التَّكبُّرِ مِن غيرِ عُجبٍ، كالذي يتكبَّرُ على من يرى أنَّه مِثلُه، أو فوقَه، ولكِنْ قد غَضِب عليه بسبَبٍ سَبَق منه، فأورثه الغضَبُ حقدًا، ورسَخ في قلبِه بُغضُه؛ فهو لذلك لا تطاوِعُه نفسُه أن يتواضعَ له، وإن كان عنده مستحِقًّا للتَّواضُعِ، فكم مِن رَذْلٍ[3706] لا تطاوِعُه نفسُه على التَّواضُعِ لواحدٍ من الأكابرِ؛ لحِقدِه عليه، أو بُغضِه له، ويحمِلُه ذلك على رَدِّ الحقِّ إذا جاء من جِهتِه، وعلى الأنَفةِ من قَبولِ نُصحِه، وعلى أن

[3702] ((الأغاني)) للأصفهاني (13/ 227)، ((الجليس الصالح الكافي)) للمعافى بن زكريا (ص: 437).

[3703] ((آفات على الطريق)) لسيد محمد نوح (ص: 110).

[3704] ((مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل)) للعز بن عبد السلام (ص: 142).

[3705] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/353) بتصرف.

[3706] الرَّذْلُ: الدُّونُ من النَّاسِ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور

يجتَهِدَ في التَّقدُّمِ عليه وإن عَلِمَ أنَّه لا يستحِقُّ ذلك، وعلى ألَّا يستحِلَّه وإن ظَلَمه، فلا يعتذِرُ إليه وإن جنى عليه، ولا يسألُه عمَّا هو جاهِلٌ به.

وأمَّا الحسَدُ فإنَّه أيضًا يوجِبُ البُغضَ للمحسودِ، وإن لم يكُنْ من جهتِه إيذاءٌ وسببٌ يقتضي الغَضَبَ والحِقدَ، ويدعو الحَسَدُ أيضًا إلى جَحدِ الحَقِّ، حتى يمنَعَ من قَبولِ النَّصيحةِ وتعلُّمِ العِلمِ، فكم من جاهلٍ يشتاقُ إلى العِلمِ، وقد بقيَ في رذيلةِ الجَهلِ؛ لاستنكافِه أن يستفيدَ من واحدٍ من أهلِ بلَدِه أو أقاربِه؛ حسَدًا وبغيًا عليه، فهو يُعرِضُ عنه، ويتكبَّرُ عليه، مع معرفتِه بأنَّه يستحِقُّ التَّواضُعَ بفضلِ عِلمِه، ولكِنَّ الحسَدَ يبعثُه على أن يعامِلَه بأخلاقِ المُتكبِّرين، وإن كان في باطنِه ليس يرى نفسَه فوقَه.

3- **وسببٌ فيما يتعلَّقُ بغيرِهما: وهو الرِّياءُ**؛ فهو أيضًا يدعو إلى أخلاقِ المُتكبِّرين، حتى إنَّ الرَّجُلَ ليناظِرُ من يعلَمُ أنَّه أفضَلُ منه، وليس بينه وبينه معرفةٌ ولا محاسدةٌ ولا حقدٌ، ولكِنْ يمتنِعُ من قَبولِ الحَقِّ منه، ولا يتواضَعُ له في الاستفادةِ؛ خيفةً من أن يقولَ النَّاسُ: إنَّه أفضلُ منه، فيكونُ باعثُه على التَّكبُّرِ عليه الرِّياءَ المجرَّدَ، ولو خلا معه بنفسِه لكان لا يتكبَّرُ عليه.

وأمَّا الذي يتكبَّرُ بالعُجبِ، أو الحَسَدِ، أو الحِقدِ، فإنَّه يتكبَّرُ أيضًا عِندَ الخلوةِ به، مهما لم يكُنْ معهما ثالثٌ، وكذلك قد ينتمي إلى نسَبٍ شريفٍ كاذبًا وهو يعلَمُ أنَّه كاذبٌ، ثمَّ يتكبَّرُ به على من ليس ينتَسِبُ إلى ذلك النَّسَبِ، ويترفَّعُ عليه في المجالِسِ، ويتقدَّمُ عليه في الطَّريقِ، ولا يرضى بمساواتِه في الكرامةِ والتَّوقيرِ، وهو عالمٌ باطنًا بأنَّه لا يستحقُّ ذلك، ولا كِبرَ في باطنِه لمعرفتِه بأنَّه كاذبٌ في دعوى النَّسَبِ، ولكن يحمِلُه الرِّياءُ على أفعالِ المُتكبِّرين، وكأنَّ اسمَ المُتكبِّرِ إنَّما يُطلَقُ في الأكثَرِ على من يفعَلُ هذه الأفعالَ عن كِبرٍ في الباطِنِ، صادِرٍ عن العُجبِ والنَّظرِ إلى الغيرِ بعينِ الاحتقارِ، وهو إن سُمِّي مُتكبِّرًا فلأجْلِ التَّشبُّهِ بأفعالِ الكِبْرِ، فتصيرُ الأسبابُ بهذا الاعتبارِ أربعةً: العُجبُ، والحِقدُ، والحسَدُ، والرِّياءُ.

4- **ومنها أيضًا**[3707]**: مقارنةُ نعمتِه بنعمةِ الآخرين**، وظنُّه دوامَ النِّعمةِ وعدَمَ التَّحوُّلِ عنها، مع نسيانِ المنعِمِ.

المطلب التاسع: بماذا يكونُ التَّكبُّرُ

قال ابنُ قدامةَ المقدِسيُّ: (في الجملةِ، فكُلُّ ما يمكِنُ أن يُعتَقَدَ كمالًا -وإن لم يكُنْ كمالًا- أمكن أن يُتكبَّرَ به، حتى الفاسِقُ قد يفتَخِرُ بكثرةِ شُربِ الخمرِ والفُجورِ؛ لظنِّه أنَّ ذلك كمالٌ!)[3708].

وقال الغزاليُّ: (اعلَمْ أنَّه لا يتكبَّرُ إلَّا من استعظم نفسَه، ولا يستعظِمُها إلَّا وهو يعتقدُ لها صفةً من صفاتِ الكمالِ، وجماعُ ذلك يرجعُ إلى كمالٍ دينيٍّ أو دنيويٍّ؛ فالدِّينيُّ هو العلمُ والعَمَلُ، والدُّنيويُّ هو النَّسبُ والجمالُ والقُوَّةُ والمالُ وكثرةُ الأنصارِ، فهذه سبعةُ أسبابٍ:

- **الأوَّلُ**: العِلمُ، وما أسرَعَ الكِبْرَ إلى العُلَماءِ...! فلا يلبثُ العالمُ أن يتعَزَّزَ بعزَّةِ العِلمِ، يستشعِرُ في نفسِه جمالَ العِلمِ وكمالَه، ويستعظِمُ نفسَه ويستحقِرُ النَّاسَ، وينظُرُ إليهم نظَرَه إلى البهائمِ، ويستجهِلُهم... هذا فيما يتعلَّقُ بالدُّنيا، أمَّا في أمرِ الآخرةِ

[3707] ((آفات على الطريق)) لسيد محمد نوح (ص: 108).

[3708] ((مختصر منهاج القاصدين)) (ص: 293).

فتكبُّرُه عليهم بأن يرى نفسَه عِندَ اللهِ تعالى أعلى وأفضَلَ منهم، فيخافُ عليهم أكثَرَ ممَّا يخافُ على نفسِه، ويرجو لنفسِه أكثَرَ ممَّا يرجو لهم... فإن قلتَ: فما بالُ بعضِ النَّاسِ يزدادُ بالعِلمِ كِبرًا وأمنًا؟ فاعلَمْ أنَّ لذلك سببينِ:

- **أحدُهما:** أن يكونَ اشتغالُه بما يسمَّى علمًا، وليس علمًا حقيقيًّا، وإنما العلمُ الحقيقيُّ ما يَعرِفُ به العبدُ ربَّه ونفسَه، وخَطَر أمرِه في لقاءِ اللَّهِ، والحِجابِ منه، وهذا يورِثُ الخشيةَ والتَّواضُعَ، دونَ الكِبْرِ والأمنِ؛ قال اللهُ تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: 28].

- **السَّبَبُ الثَّاني:** أن يخوضَ العبدُ في العلمِ، وهو خبيثُ الدَّخلةِ، رديءُ النَّفسِ، سَيِّئُ الأخلاقِ.

● **الثَّاني:** العَمَلُ والعبادةُ، وليس يخلو عن رذيلةِ العِزِّ والكِبْرِ، واستمالةِ قلوبِ النَّاسِ الزُّهَّادِ والعُبَّادِ، ويترشَّحُ الكِبْرُ منهم في الدِّينِ والدُّنيا؛ أمَّا في الدُّنيا فهو أنَّهم يرون غيرَهم بزيارتِهم أَولى منهم بزيارةِ غَيرِهم، ويتوقَّعون قيامَ النَّاسِ بقضاءِ حوائجِهم وتوقيرِهم، والتَّوسُّعِ لهم في المجالِسِ، وذِكرِهم بالوَرَعِ والتَّقوى، وتقديمِهم على سائِرِ النَّاسِ في الحظوظِ... وأمَّا في الدِّينِ فهو أن يرى النَّاسَ هالكين، ويرى نفسَه ناجيًا، وهو الهالكُ تحقيقًا.

● **الثَّالثُ:** التَّكبُّرُ بالحَسَبِ والنَّسَبِ؛ فالذي له نسَبٌ شريفٌ يستحقِرُ مَن ليس له ذلك النَّسَبُ، وإن كان أرفَعَ منه عملًا وعِلمًا، وقد يتكبَّرُ بعضهم، فيرى أنَّ النَّاسَ له أموالٌ وعبيدٌ، ويأنَفُ من مخالطتِهم ومجالستِهم.

● **الرَّابعُ:** التَّفاخُرُ بالجمالِ، وذلك أكثَرُ ما يجري بَيْنَ النِّساءِ، ويدعو ذلك إلى التَّنقُّصِ والثَّلبِ والغِيبةِ، وذِكرِ عُيوبِ النَّاسِ.

● **الخامسُ:** الكِبْرُ بالمالِ، وذلك يجري بَيْنَ الملوكِ في خزائنِهم، وبينَ التُّجَّارِ في بضائعِهم، وبين الدَّهاقينَ في أراضيهم، وبين المتجَمِّلين في لباسِهم وخيولِهم، ومراكِبِهم، فيستحقرُ الغنيُّ الفقيرَ، ويتكبَّرُ عليه.

● **السَّادِسُ:** الكِبْرُ بالقوَّةِ وشِدَّةِ البَطشِ، والتَّكبُّرُ به على أهلِ الضَّعفِ.

● **السَّابعُ:** التَّكبُّرُ بالأتباعِ والأنصارِ، والتَّلامذةِ والغِلمانِ، وبالعَشيرةِ والأقارِبِ والبنينَ، ويجري ذلك بَيْنَ الملوكِ في المكاثَرةِ بالجنودِ، وبين العُلَماءِ في المكاثَرةِ بالمستفيدين...

فهذه مجامِعُ ما يتكبَّرُ به العبادُ بعضُهم على بعضٍ، فيتكبَّرُ من يُدلي بشيءٍ منه على من لا يُدلي به، أو على من يُدلي بما هو دونه في اعتقادِه، وربَّما كان مثلَه أو فوقَه عِندَ اللهِ تعالى، كالعالِمِ الذي يتكبَّرُ بعِلمِه على من هو أعلمُ منه؛ لظنِّه أنَّه هو الأعلَمُ، ولحُسنِ اعتقادِه في نفسِه)[3709].

المطلب العاشر: الوسائِلُ المعينةُ على تَركِ الكِبْرِ

1- تذكيرُ النَّفسِ بالعواقِبِ والآثارِ المترتِّبةِ على التَّكبُّرِ، سواءٌ كانت عواقِبَ ذاتيَّةً، أو متَّصِلةً بالعَمَلِ الإسلاميِّ، وسواءٌ كانت دُنيويَّةً أو أخرويَّةً؛ فلعلَّ هذا التَّذكيرَ يحرِّكُ النَّفسَ من داخِلِها، ويحمِلُها على أن تتوبَ، وتتدارَكَ أمرَها، قبلَ ضَياعِ العُمُرِ وفواتِ الأوانِ.

2- عيادةُ المرضى، ومشاهدةُ المحتضَرين وأهلِ البلاءِ، وتشييعُ الجنائزِ، وزيارةُ القُبورِ؛ فلعَلَّ ذلك أيضًا يحرِّكُه من داخِلِه، ويجعَلُه يرجِعُ إلى ربِّه بالإخباتِ والتَّواضُعِ.

[3709] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/347-353) بتصرف

3- الانسلاخُ من صُحبةِ المُتكَبِّرين، والارتماءُ في أحضانِ المتواضعين المخبِتين؛ فربَّما تعكِسُ هذه الصُّحبةُ بمرورِ الأيَّامِ شُعاعَها عليه، فيعودُ له سَناؤه، وضياؤه الفِطريُّ، كما كان عِندَ ولادتِه.

4- مجالَسةُ ضِعافِ النَّاسِ وفُقَرائِهم، وذوي العاهاتِ منهم، بل ومؤاكلتُهم ومشاربتُهم، كما كان يصنعُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصَحبُه الكرامُ، وكثيرٌ من السَّلَفِ؛ فإنَّ هذا ممَّا يُهَذِّبُ النَّفسَ، ويجعَلُها تقلِعُ عن غَيِّها، وتعودُ إلى رُشدِها.

5- التَّفكُّرُ في النَّفسِ، وفي الكونِ، بل وفي كُلِّ النِّعَمِ التي تحيطُ به من أعلاه إلى أدناه: مَن مصدَرُ ذلك كلِّه؟ ومن مُمسِكُه؟ وبأيِّ شيءٍ استحقَّه العبادُ؟ وكيف تكونُ حالُه لو سُلِبت منه نعمةٌ واحدةٌ فضلًا عن باقي النِّعَمِ؟ فإنَّ ذلك التَّفكُّرَ لو كانت معه جديَّةٌ يحرِّكُ النَّفسَ ويجعَلُها تشعُرُ بخَطَرِ ما هي فيه، إنْ لم تبادِرْ بالتَّوبةِ والرُّجوعِ إلى رَبِّها.

6- النَّظَرُ في سِيَرِ وأخبارِ المُتكَبِّرين، كيف كانوا؟ وإلى أيِّ شيءٍ صاروا؟ مِن إبليسَ والنُّمرودِ إلى فرعونَ، إلى هامانَ، إلى قارونَ، إلى أبي جهلٍ، إلى أُبَيِّ بنِ خَلَفٍ، إلى سائرِ الطُّغاةِ والجبَّارين والمجرِمين، في كُلِّ العصورِ والبيئاتِ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يخوِّفُ النَّفسَ ويحمِلُها على التَّوبةِ والإقلاعِ خشيةَ أن تصيرَ إلى نفسِ المصيرِ، وكتابُ اللهِ عزَّ وجَلَّ وسُنَّةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكُتُبُ التَّراجِمِ والتَّاريخِ: خيرُ ما يُعينُ على ذلك.

7- حضورُ مجالِسِ العِلمِ التي يقومُ عليها عُلَماءُ ثقاتٌ نابهون، لا سيَّما مجالِسِ التَّذكيرِ والتَّزكيةِ؛ فإنَّ هذه المجالِسَ لا تزالُ بالقلوبِ حتَّى تَرِقَّ وتلينَ، وتعودَ إليها الحياةُ من جديدٍ.

8- حملُ النَّفسِ على ممارسةِ بَعضِ الأعمالِ التي يتأفَّفُ منها كثيرٌ من النَّاسِ ممارسةً ذاتيَّةً، ما دامت مشروعةً، كأن يقومَ هذا المُتكَبِّرُ بشِراءِ طعامِه وشرابِه وسائرِ ما يلزمُه بنفسِه، ويحرِصَ على حملِه والمشيِ به بَيْنَ النَّاسِ، حتَّى لو كان له خادِمٌ، على نحوِ ما كان يصنعُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصحبُه والسَّلفُ؛ فإنَّ هذا يساعدُ كثيرًا في تهذيبِ النَّفسِ وتأديبِها، والرُّجوعِ بها إلى سيرتِها الأولى الفِطريَّةِ، بعيدًا عن أيِّ التِواءٍ أو اعوجاجٍ.

9- الاعتذارُ لمن تعالى وتطاول عليهم بسُخريَّةٍ أو استهزاءٍ.

10- التَّذكيرُ دومًا بمعاييرِ التَّفاضُلِ، والتَّقدُّمِ في الإسلامِ:

قال اللهُ تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13].

وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَيَدَعَنَّ رجالٌ فَخْرَهم بأقوامٍ إنَّما هم فَحمٌ من فَحمِ جَهنَّمَ، أو ليكونُنَّ أهوَنَ على اللهِ مِن الجُعلانِ[3710]!))[3711].

11- المواظبةُ على الطَّاعاتِ: فإنَّها إذا واظب عليها، وكانت متقَنةً لا يرادُ بها إلَّا وجهُ اللهِ، طهَّرت النَّفسَ من كُلِّ الرَّذائلِ، بل زكَّتْها[3712].

قال يحيى بنُ جَعْدةَ: (من وَضَع وَجهَه للهِ عزَّ وجَلَّ ساجدًا فقد بَرِئَ من الكِبْرِ)[3713].

[3710] جُعْلانٌ جَمعُ جُعَلٍ: دابَّةٌ سوداءُ من دوابِّ الأرضِ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[3711] رواه أبو داود (5116)، والترمذي (3955)، وأحمد (10781) باختلافٍ يسيرٍ من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابنُ تيمية في ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (1/247)، وصحَّحه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (5116)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (5116)، وقال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ.

[3712] ((آفات على الطريق)) لسيد محمد نوح (ص: 180) (بتصرف).

[3713] رواه ابنُ الجعد في ((المسند)) (1737)، وابن أبي الدنيا في ((التواضع والخمول)) (217)

12- أن يعلَمَ أنَّ الكِبْرَ من أخلاقِ الكُفَّارِ وأضرابِهم، فيسعى في ألا يتخَلَّقَ بأخلاقهم؛ قال السَّمرقنديُّ: (اعلَمْ أنَّ الكِبْرَ من أخلاقِ الكُفَّارِ والفراعنةِ... لأنَّ اللهَ تعالى وَصَف الكُفَّارَ بالكِبْرِ، فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} [الصافات: 35] ، وقال: {وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} [العنكبوت: 39] ، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: 60] ، وقال: {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمر: 72] ، وقال: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} [النحل: 23])[3714].

13- أن يجتَهِدَ في ألَّا يرى نفسَه خيرًا من أحدٍ، وأن يعلَمَ أنَّ الأمرَ متوقِّفٌ على الخاتمةِ وهو لا يدري بم يختَمُ له، وينشَغِلُ بنفسِه عن غيرِه.

قال الفُضَيلُ لسُفيانَ بنِ عُيَينةَ: (إن كنتَ ترى أنَّ في هذا المسجِدِ أحدًا هو دونَك، لقد ابتُلِيتَ ببليَّةٍ عظيمةٍ!)[3715].

وقال سُفيانُ بنُ عُيَينةَ: (من رأى أنَّه خيرٌ من غيرِه فقد استكبر؛ وذاك أنَّ إبليسَ إنما منعه من السُّجودِ لآدَمَ عليه السَّلامُ استكبارُه)[3716].

وقال الغزاليُّ: (ينبغي لك أن تَعلَمَ أنَّ الخَيِّرَ مَن هو خيرٌ عِندَ اللهِ في دارِ الآخرةِ، وذلك غيبٌ، وهو موقوفٌ على الخاتمةِ؛ فاعتقادُك في نفسِك أنَّك خيرٌ من غيرِك جهلٌ محضٌ، بل ينبغي ألَّا تنظُرَ إلى أحدٍ إلَّا وترى أنَّه خيرٌ منك، وأنَّ الفضلَ له على نفسِك، فإن رأيت صغيرًا قلتَ: هذا لم يعصِ اللهَ وأنا عصيتُه، فلا شَكَّ أنَّه خيرٌ مني، وإن رأيتَ كبيرًا قُلتَ: هذا قد عبدَ اللهَ قبلي، فلا شَكَّ أنَّه خيرٌ مني، وإن كان عالِمًا قلتَ: هذا قد أُعطِيَ ما لم أُعطَ، وبلغ ما لم أبلُغْ، وعَلِم ما جَهِلتُ؛ فكيف أكونُ مثلَه؟! وإن كان جاهلًا قُلتَ: هذا قد عصى اللهَ بجَهلٍ، وأنا عصيتُه بعِلمٍ؛ فحُجَّةُ اللهِ عليَّ آكَدُ، وما أدري بمَ يُختَمُ لي وبم يختَمُ له؟...

فلا يخرجُ الكِبْرُ من قلبِك إلَّا بأن تعرِفَ أنَّ الكبيرَ من هو كبيرٌ عِندَ اللهِ تعالى، وذلك موقوفٌ على الخاتمةِ، وهي مشكوكٌ فيه؛ فيشغَلُك خوفُ الخاتمةِ عن أن تتكبَّرَ مع الشَّكِّ فيها على عبادِ اللهِ تعالى، فيَقينُك وإيمانُك في الحالِ لا يناقِضُ تجويزَك في الاستقبالِ؛ فإنَّ اللهَ مُقَلِّبُ القلوبِ يهدي من يشاءُ، ويُضِلُّ من يشاءُ)[3717].

14- ملازمةُ الدُّعاءِ وكثرةُ التَّضرُّعِ إلى اللهِ أن يُعيذَه من الكِبْرِ.

15- تذكُّرُ أصلِ خِلقةِ الإنسانِ وما يؤولُ إليه حالُه بعدَ الموتِ.

عن أحمدَ بنِ عُبَيدِ بنِ ناصحٍ، قال: كنتُ أمشي مع أبي العتاهيةِ يَدُه في يدي وهو متَّكِئٌ عليَّ ينظرُ إلى النَّاسِ يذهبون ويجيئون، فقال: أما تراهم هذا يتيهُ فلا يتكَلَّمُ، وهذا يتكَلَّمُ بصَلَفٍ[3718]!

[3714] ((تنبيه الغافلين)) (ص: 186، 187).

[3715] ((الحدائق)) لابن الجوزي (3/272)

[3716] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (271 /7، 272)

[3717] ((بداية الهداية)) (ص: 60).

[3718] الصَّلَفُ: الغُلُوُّ في الظَّرْفِ، والزِّيادةُ على المقدارِ مع تكبُّرٍ. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير.(47 /3)

ثمَّ قال لي: مَرَّ بعضُ أولادِ المُهَلَّبِ بمالِكِ بنِ دينارٍ وهو يخطِرُ، فقال: يا بُنَيَّ، لو خفَضْتَ بعضَ هذه الخُيَلاءِ ألم يكُنْ أحسَنَ بك من هذه الشُّهرةِ التي قد شَهَرتَ بها نفسَك؟! فقال له الفتى: أو ما تَعرِفُ من أنا! فقال له: بلى واللَّهِ أعرِفُك معرفةً جيدةً، أوَّلُك نُطفةٌ مَذِرةٌ[3719]، وآخِرُك جيفةٌ قَذِرةٌ، وأنت بَيْنَ ذَينِك حامِلُ عَذِرةٍ!

قال: فأرخى الفتى أذُنَيه وكَفَّ عمَّا كان يفعَلُ، وطأطأ رأسَه ومشى مسترسِلًا. ثمَّ أنشدني أبو العتاهيةِ:

أيا واهًا لذِكرِ اللَّهِ

يا واهًا[3720] له واهَا

لقد طيَّب ذِكرُ اللَّهِ

بالتَّسبيحِ أفواهَا

فيا أنتَنَ من حُشٍّ

على حُشٍّ إذا تاها

أرى قومًا يتيهون

حشوشًا رُزِقوا جاهَا)[3721].

و(لو ذَكَر انفرادَه في القبرِ عن الأموالِ والأولادِ والحَشَمِ والأحفادِ وقد صار جيفةً قَذِرةً مُنتِنةً، لكان ذلك مانعًا له من الكِبْرِ!)[3722].

المطلب الحادِيَ عَشَرَ: حُكمُ الكِبْرِ

الكِبْرُ كبيرةٌ من الكبائِرِ[3723]، وإنَّ مِن الكِبْرِ ما يكونُ كُفرًا أكبَرَ مُخرِجًا من الملَّةِ، يستحِقُّ صاحبُه الخلودَ في النَّارِ، ومنه ما يكونُ صاحبُه مرتَكِبًا لكبيرةٍ من الكبائِرِ يستَحِقُّ العقوبةَ، ومع ذلك هو تحتَ مشيئةِ اللهِ تبارك وتعالى؛ إن شاء عذَّبه، وإن شاء غَفَر له، يقولُ أبو العبَّاسِ القُرطبيُّ:

(لمَّا تقرَّر أنَّ الكِبْرَ يستدعي مُتكَبَّرًا عليه، فالمُتكَبَّرُ عليه:

إن كان هو اللهَ تعالى، أو رُسُلَه، أو الحَقَّ الذي جاءت به رُسُلُه، فذلك الكِبْرُ كُفرٌ.

وإن كان غيرَ ذلك فذلك الكِبْرُ معصيةٌ وكبيرةٌ، يُخافُ على المتلَبِّسِ بها المُصِرِّ عليها أن تُفضيَ به إلى الكُفرِ، فلا يدخُلَ الجنَّةَ أبدًا.

[3719] مَذِرةٌ: أي: مُتغَيِّرةٌ. يقال: مَذِرَت البيضةُ مَذَرًا، فهي مَذِرةٌ: فسَدَت. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور (5/ 164)، ((بريقة محمودية)) للخادمي.(218 /2)

[3720] واهًا: كَلِمةُ تعجُّبٍ من طِيبِ كُلِّ شيءٍ، وكَلِمةُ تلهُّفٍ. يُنظَر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: 1256).

[3721] ((الأغاني)) لأبي الفرج الأصفهاني (314 /4، 315)

[3722] ((مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل)) للعز بن عبد السلام (ص: 146).

[3723] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهيتمي (109 /1)

فإن سَلِمَ من ذلك ونَفَذ عليه الوعيدُ عُوقِبَ بالإذلالِ والصَّغارِ، أو بما شاء اللهُ من عذابِ النَّارِ؛ حتَّى لا يبقى في قَلبِه من ذلك الكِبْرِ مثقالُ ذَرَّةٍ، وخَلَص من خُبثِ كِبرِه حتى يصيرَ كالذَّرَّةِ؛ فحينَئذٍ يتداركُه اللهُ تعالى برحمتِه، ويخلِّصُه بإيمانِه وبركتِه. وقد نصَّ على هذا المعنى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في المحبوسين على الصِّراطِ لمَّا قال: ((حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أُذِن لهم في دُخولِ الجنَّةِ)) [3724] [3725].

(فالذي في قلبِه كِبرٌ، إمَّا أن يكونَ كِبرًا عن الحَقِّ وكراهةً له، فهذا كافرٌ مخلَّدٌ في النَّارِ ولا يدخُلُ الجنَّةَ؛ لقولِ اللهِ تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: 9] ، ولا يحبَطُ العَمَلُ إلَّا بالكُفرِ؛ لقَولِه تعالى: {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: 217] ، وأمَّا إذا كان كبرًا على الخَلقِ وتعاظُمًا على الخَلقِ، لكِنَّه لم يستكبِرْ عن عبادةِ اللهِ، فهذا لا يدخُلُ الجنَّةَ دُخولًا كاملًا مُطلَقًا لم يُسبَقْ بعذابٍ، بل لا بدَّ من عذابٍ على ما حَصَل من كِبرِه وعَلوائِه على الخَلقِ، ثمَّ إذا طَهُر دخَل الجنَّةَ)[3726].

المطلب الثاني عَشَرَ: أخطاءٌ شائعةٌ

-قد يظُنُّ البعضُ أنَّ محبَّةَ الإنسانِ أن يكونَ مَلبَسُه حَسَنًا: من الكِبْرِ، وهذا خَطَأٌ، فلمَّا قال رجلٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (إنَّ الرَّجُلَ يحِبُّ أن يكونَ ثوبُه حَسَنًا، ونعلُه حَسَنةً) وخشي أن يكونَ هذا من الكِبْرِ الذي جاء فيه الوعيدُ، بَيَّنَ له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ هذا ليس من الكِبْرِ، إذا كان صاحبُه منقادًا للحَقِّ، متواضِعًا للخَلقِ؛ فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ جميلٌ يحِبُّ الجَمالَ. الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ وغَمطُ النَّاسِ))[3727]، وبيَّن له أنَّ فِعلَه هذا من الجَمالِ الذي يحبُّه اللَّهُ؛ فإنَّه تعالى جميلٌ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، يحِبُّ الجمالَ الظَّاهريَّ، والجمالَ الباطنيَّ؛ فالجمالُ الظَّاهِرُ كالنَّظافةِ في الجَسَدِ والملبَسِ والمسكَنِ وتوابِعِ ذلك. والجمالُ الباطِنُ: التَّجمُّلُ بمعالي الأخلاقِ ومحاسِنِها[3728].

-ليس من الكِبْرِ أن يعرِفَ الإنسانُ ما فضَّله اللهُ تعالى به على غيرِه، وإنَّما الكِبْرُ أن يحتقِرَه ويَغلِبَ عليه أنَّه عِندَ اللهِ في الآخرةِ خيرٌ منه، مع جَهلِه بما يؤولُ إليه أمرُهما[3729].

المطلب الثالِثَ عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

• أسماءُ المُتكبِّرِ والتَّكبُّرِ:

أسماءُ المُتكبِّرِ: الطَّاغيةُ، الأَشوَزُ، الشُّمَّخْرُ، السَّامِدُ، السِّمَغْدُ، النفَّاخُ، أصيَدُ، أسوَسُ، أصوَرُ، أزوَرُ، العُنجُهيُّ، الجَفَّاخُ، المطَّاخُ، البَلخُ، الأزْوَشُ، النَّابخةُ، المصبوغُ، الغَطرَسُ، الغِطْريسُ.

[3724] رواه البخاري (6535) مطوَّلًا من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[3725] ((المفهم)) للقرطبي (1/288)

[3726] ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (3/542)

[3727] رواه مسلم (91)

[3728] ((بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار)) للسعدي (ص: 166).

[3729] ((مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل)) للعز بن عبد السلام (ص: 151).

أسماءُ التَّكبُّرِ: التَّغطرُس، التَّغطرُق، التَّصلُّف، الزَّهوُ، الجَمْخُ، الشَّمْخرةُ، الغَترَفةُ، الغَطرَفةُ، الفَجسُ، التَّفجُّس، التَّغترُف، التَّغطرُف، البَهلَكةُ، التَّطاوُلُ، التَّبختُرُ هو الشَّمخُ بالأنفِ، الذَّيخُ، الطَّرْمحانيَّةُ، الخُيَلاءُ، الخيلُ، الخيلةُ، المَخِيلةُ، الأخيَلُ، العُبِّيَّةُ، الغَطرَسةُ، الصَّبعُ، المِصبَغةُ[3730].

- **ترتيبُ أوصافِ الكِبْرِ:**

يقالُ: (رجُلٌ مُعجَبٌ، ثمَّ تائِهٌ، ثمَّ مَزهُوٌّ، ومنخوٌّ، من الزَّهوِ والنَّخوةِ، ثمَّ باذخٌ مِن البَذخِ، ثمَّ أَصْيَدُ، إذا كان لا يلتَفِتُ يَمنةً ويَسرةً مِن كِبرِه، ثمَّ مُتغَطرِفٌ، إذا تشَبَّه بالغطارفةِ كِبرًا، ثمَّ مُتغَطرِسٌ إذا زاد على ذلك)[3731].

- **مَن فيه الكِبْرُ أرسَخُ:**

قال الجاحِظُ: (الكِبْرُ في الأجناسِ الذَّليلةِ مِن النَّاسِ أرسَخُ وأعَمُّ، ولكِنَّ الذِّلَّةَ والقِلَّةَ مانعتان من ظهورِ كبرِهم، فصار لا يَعرِفُ ذلك إلَّا أهلُ المعرفةِ... والجملةُ أنَّ كُلَّ من قَدَر من السِّفلةِ والوُضَعاءِ والمحَقَّرين أدنى قُدرةٍ، ظَهَر من كبرِه على من تحتَ قُدرتِه على مراتِبِ القُدرةِ ما لا خَفاءَ به)[3732].

- **أشَرُّ الكِبْرِ:**

يحَدِّثُنا الذَّهبيُّ عن أشَرِّ أنواعِ الكِبْرِ، فيقولُ: (وأشَرُّ الكِبْرِ الذي فيه من يتكَبَّرُ على العبادِ بعِلمِه، ويتعاظَمُ في نفسِه بفضيلتِه؛ فإنَّ هذا لم ينفَعْه عِلمُه، فإنَّ مَن طَلَب العِلمَ للآخرةِ كَسَره عِلمُه، وخشَع قَلبُه، واستكانت نفسُه، وكان على نفسِه بالمرصادِ، فلا يَفتُرُ عنها، بل يحاسِبُها كُلَّ وقتٍ ويتفقَّدُها، فإن غفل عنها جمَحَت عن الطَّريقِ المستقيمِ وأهلكَتْه، ومن طلب العِلمَ للفَخرِ والرِّياسةِ، وبَطَر على المسلمين، وتحامَق عليهم وازدراهم، فهذا من أكبَرِ الكِبْرِ، ولا يدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ من كبرٍ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللَّهِ العَليِّ العظيمِ)[3733].

وعن جُبَيرِ بنِ نُفَيرٍ أنَّه قيل له: أيُّ الكِبْرَين أشَرُّ؟ قال: (كِبرُ العبادةِ)[3734].

- **أقبَحُ النَّاسِ كِبرًا:**

كان ابنُ ثوابةَ مِن أقبَحِ النَّاسِ كِبرًا؛ رُوِيَ أنَّه قال لغلامِه: اسقني ماءً، فقال: نعم، فأمَرَ بصَفعِه، فقيل له في ذلك، فقال: إنَّما يقولُ نعَمْ من يقدِرُ أن يقولَ: لا، وليس لهذا هذه المنزلةُ!

ودعا يومًا أكَّارًا وكلَّمه، فلمَّا فرغ دعا بماءٍ وتمضمَضَ به؛ استقذارًا لمخاطبتِه[3735]!

- **الكِبْرُ خُلقٌ باطِنٌ:**

[3730] ((معجم أسماء الأشياء المسمى اللطائف في اللغة)) للبابيدي (1/121)

[3731] ((فقه اللغة)) للثعالبي (ص: 110).

[3732] ((الحيوان)) (353 /6)

[3733] ((الكبائر)) للذهبي (ص: 78).

[3734] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (133 /5)

[3735] يُنظَر: ((الطبقات الكبير)) لابن سعد (1/ 228)، ((المعارف)) لابن قتيبة (1/ 644)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (532 /3)

قال الغَزاليُّ: (اعلَمْ أنَّ الكِبْرَ خلُقٌ باطنٌ، وأمَّا ما يظهَرُ من الأخلاقِ والأفعالِ فهي ثمرةٌ ونتيجةٌ، وينبغي أن تسمَّى تكبُّرًا)[3736].

[3736] ((إحياء علوم الدين)) (3/ 353)

المبحث الرابع: الظلم

المطلب الأول: تعريف الظلم لغة واصطلاحا

- **مَعنى الظُّلمِ لُغةً:**

الظُّلمُ: الجَورُ ومُجاوزةُ الحَدِّ والمَيلُ عن القَصدِ، وأخذُ حَقِّ الغَيرِ، يُقالُ: ظَلمه يَظلِمُه ظَلْمًا وظُلمًا، ومَظلَمةً، فالظَّلمُ مَصدَرٌ حَقيقيٌّ، والظُّلمُ الاسمُ، وهو ظالمٌ وظَلومٌ. وأصلُ الظُّلمِ: وَضعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه، وأخذُ المَرءِ ما ليس له[3737].

- **مَعنى الظُّلمِ اصطِلاحًا:**

قيل: (هو التَّعَدِّي عن الحَقِّ إلى الباطِلِ، وهو الجَورُ. وقيل: هو التَّصَرُّفُ في مِلكِ الغَيرِ، ومُجاوزةُ الحَدِّ)[3738].

وقيل: (الظُّلمُ: وضعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه)[3739].

وقيل: (وضعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه المُختَصِّ به، إمَّا بنُقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمَّا بعُدولٍ عن وقتِه أو مَكانِه)[3740].

المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ الظُّلمِ ومُتَرادِفاتِه

1. الفرقُ بَينَ الجَورِ والظُّلمِ:

(الجَورُ خِلافُ الاستِقامةِ في الحُكمِ، وفي السِّيرةِ السُّلطانيَّةِ تَقولُ: جار الحاكِمُ في حُكمِه، والسُّلطانُ في سيرَتِه: إذا فارَقَ الاستِقامةَ في ذلك. والظُّلمُ ضَرَرٌ لا يستَحقُّ ولا يُعقِبُ عِوضًا، سَواءٌ كان مِن سُلطانٍ أو حاكِمٍ أو غَيرِهما؛ ألا تَرى أنَّ خيانةَ الدَّانقِ والدِّرهَمِ تُسَمَّى ظُلمًا، ولا تُسَمَّى جَورًا، فإن أخِذَ ذلك على وَجهِ القَهرِ أو المَيلِ سُمِّي جَورًا، وهذا واضِحٌ، وأصلُ الظُّلمِ نُقصانُ الحَقِّ، والجَورُ العُدولُ عن الحَقِّ، مِن قَولِنا: جارَ عن الطَّريقِ: إذا عَدَل عنه، وخولِفَ بَينَ النَّقيضَينِ، فقيل في نَقيضِ الظُّلمِ: الإنصافُ، وهو إعطاءُ الحَقِّ على التَّمامِ، وفي نَقيضِ الجَورِ العَدلُ، وهو العُدولُ بالفِعلِ إلى الحَقِّ)[3741].

2. الفرقُ بَينَ الغَشمِ والظُّلمِ:

(الغَشمُ كَرهُ الظُّلمِ وعُمومُه، توصَفُ به الوُلاةُ؛ لأنَّ ظُلمَهم يعُمُّ، ولا يكادُ يُقال: غَشمَني في المُعامَلةِ، كما يُقال: ظَلمَني فيها، وفي المَثَل: والٍ غَشومٌ خَيرٌ مِن فِتنةٍ تَدومُ، وقال أبو بَكرٍ: الغَشمُ اعتِسافُك الشَّيءَ، ثُمَّ قال: يُقال: غَشَمُ السُّلطانُ الرَّعيَّةَ، يَغشِمُهم، قال الشَّيخُ أبو هلالٍ رَحِمَه اللهُ: الاعتِسافُ خَبطُ الطَّريقِ على غَيرِ هدايةٍ، فكأنَّه جَعل الغَشمَ ظُلمًا يجري على غَيرِ طَرائِقِ الظُّلمِ المَعهودةِ)[3742].

[3737] ((العين)) للخليل بن أحمد (ص: 154)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (14/ 276)، ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (2/ 943)، ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/362).

[3738] ((التعريفات)) للجرجاني (ص: 186).

[3739] ((معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم)) (ص: 207).

[3740] ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: 537).

[3741] ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص: 231).

[3742] ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص: 232).

3. الفرقُ بَينَ الهَضمِ والظُّلمِ:

(أنَّ الهَضمَ نُقصانُ بَعضِ الحَقِّ، ولا يُقالُ لِمَن أخَذَ جَميعَ حَقِّه: قد هَضمَ. والظُّلمُ يكونُ في البَعضِ والكُلِّ، وفي القُرآنِ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} [طه: 112]، أي: لا يمنَعُ حَقَّه ولا بَعضَ حَقِّه، وأصلُ الهَضمِ في العَرَبيَّةِ النُّقصانُ، ومِنه قيل للمُنخَفِضِ مِن الأرضِ: هَضمٌ. والجَمعُ أهضامٌ)[3743].

4. الفرقُ بَينَ الظُّلمِ والعُدوانِ:

قال ابنُ رَجَبٍ: (وقد يُفرَّقُ بَينَ الظُّلمِ والعُدوانِ: بأنَّ الظُّلمَ ما كان بغَيرِ حَقٍّ بالكُلِّيَّةِ، كأخذِ مالٍ بغَيرِ استِحقاقٍ لشَيءٍ مِنه، وقَتلِ نَفسٍ لا يحِلُّ قَتلُها، وأمَّا العُدوانُ: فهو مُجاوزةُ الحُدودِ وتَعدِّيها فيما أصلُه مُباحٌ، مِثلُ أن يكونَ له على أحَدٍ حَقٌّ مِن مالٍ أو دَمٍ أو عِرضٍ، فيستَوفي أكثَرَ مِنه، فهذا هو العُدوانُ، وهو تَجاوُزُ ما يجوزُ أخذُه، فيأخُذُ ما له أخذُه وما ليس له أخذُه..)[3744].

5. الفرقُ بَينَ الظُّلمِ والبَغيِ:

أنَّ البَغيَ: طَلبُ تَجاوُزِ قَدرِ الاستِحقاقِ -تَجاوزَه أو لم يتَجاوَزْه-، ويُستَعمَلُ في المُتَكبِّرِ[3745]، فالبغيُ أعَمُّ من الظُّلمِ.

المطلب الثالث: ذَمُّ الظُّلمِ والنَّهيُ عنه

أولا: مِن القُرآنِ الكريمِ:

- قولُه تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: 102].
- وقال: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [الحج: 45].
- وقولُه تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا} [الكهف: 59].
- وقولُه تعالى: {كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ} [الأنبياء: 11 - 15].
- وقولُه تعالى: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 258].
- وقولُه تعالى: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [الأنعام: 21].
- وقولُه تعالى: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: 57].
- وقولُه تعالى: {وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الإنسان: 31].
- وقولُه تعالى: {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [الحج: 53].
- وقولُه تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} [الفرقان: 27].

[3743] المصدر السابق (ص: 231).

[3744] ((الكليات)) للكفوي (584).

[3745] المصدر السابق.

- وقولُه تعالى: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} [هود: 113].

- وقولُه تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم: 42 - 43].

- وقولُه تعالى: وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [سبأ: 42].

- وقولُه تعالى: {مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ} [غافر: 18].

- وقولُه عزَّ وجلَّ: وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [البقرة: 270].

- وقوله سُبحانَه: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء: 10].

- وقولُه تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: 29-30].

- وقولُه تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} [التوبة: 36].

- وقولُه تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} [البقرة: 193].

- وقولُه تعالى: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [الشعراء: 227].

- وقوله سبحانه: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى: 40].

- وقولُه تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات: 11] إلى غَيرِ ذلك مِن الآياتِ.

قال ابنُ رَجَبٍ: (وأكثَرُ ما ذُكِرَ في القُرآنِ مِن وعيدِ الظَّالمينَ إنَّما أُريدَ به المُشرِكونَ)[3746].

ثانيا: مِن السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

1- عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قال اللهُ تبارك وتعالى: يا عِبادي، إنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ على نَفسي، وجَعلتُه بَينَكم مُحَرَّمًا؛ فلا تَظالَموا...))[3747].

قال ابنُ تَيميَّةَ: (هذا الحَديثُ قد تَضَمَّنَ مِن قَواعِدِ الدِّينِ العَظيمةِ في العُلومِ والأعمالِ والأُصولِ والفُروعِ؛ فإنَّ تلك الجُملةَ الأولى وهي قَولُه: ((حَرَّمتُ الظُّلمَ على نَفسي)) يتَضَمَّنُ جُلَّ مَسائِلِ الصِّفاتِ والقَدَرِ إذا أُعطِيَت حَقَّها مِن التَّفسيرِ...، وأمَّا هذه الجُملةُ الثَّانيةُ، وهي قَولُه: ((وجَعلتُه بَينَكم مُحَرَّمًا؛ فلا تَظالَموا)). فإنَّها تَجمَعُ الدِّينَ كُلَّه؛ فإنَّ ما نَهى اللهُ عنه راجِعٌ إلى الظُّلمِ، وكُلُّ ما أمرَ به راجِعٌ إلى العَدلِ)[3748].

3- وعن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اتَّقوا الظُّلمَ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ، واتَّقوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبلَكم، حَملهم على أن سَفَكوا دِماءَهم، واستَحَلُّوا مَحارِمَهم))[3749].

[3746] ((جامع العلوم والحكم)) (2/ 36).

[3747] رواه مسلم (2577) مطوَّلًا .

[3748] ((مجموع الفتاوى)) (157/18).

[3749] رواه مسلم (2578).

4- وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ عَزَّ وجَل يُملي للظَّالمِ، فإذا أخَذَه لم يُفلِتْه. ثُمَّ قَرَأ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: 102]))[3750].

قال ابنُ عُثَيمينَ: (... "يُملي له" يعني: يُمهلُ له حتَّى يتَمادى في ظُلمِه -والعِياذُ باللهِ-، فلا يُعَجِّلُ له العُقوبةَ، وهذا مِن البَلاءِ، نَسألُ اللهَ أن يُعيذَنا وإيَّاكم، فمن الاستِدراجِ أن يُمليَ للإنسانِ في ظُلمِه، فلا يُعاقَبَ له سَريعًا حتَّى تَتَكدَّسَ على الإنسانِ المَظالمُ، فإذا أخَذَه اللهُ لم يُفلِتْه، أخَذَه أخْذَ عَزيزٍ مُقتَدِرٍ، ثُمَّ قَرَأ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: 102] ؛ فعلى الإنسانِ الظَّالمِ ألَّا يغترَّ بنَفسِه، ولا بإملاءِ اللهِ له؛ فإنَّ ذلك مُصيبةٌ فوقَ مُصيبَتِه؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عوقِبَ بالظُّلمِ عاجِلًا فرُبَّما يتذَكَّرُ ويتَّعِظُ ويدَعُ الظُّلمَ، لكِن إذا أُمليَ له واكتَسَبَ آثامًا، أو ازدادَ ظُلمًا، ازدادَت عُقوبَتُه، والعياذُ باللهِ، فيُؤخَذُ على غِرَّةٍ، حتَّى إذا أخَذَه اللهُ لم يُفلِتْه)[3751].

5- وعن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُسلمُ أخو المُسلمِ، لا يَظلِمُه، ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجَتِه، ومَن فرَّج عن مُسلمٍ كُربةً فرَّج اللهُ عنه كُربةً مِن كُرُباتِ يومِ القيامةِ، ومَن سَترَ مُسلِمًا سَتَرَه اللهُ يومَ القيامةِ))[3752].

قَولُه: ((لا يظلِمُه)) هو خَبَرٌ بمَعنى الأمرِ؛ فإنَّ ظُلمَ المُسلمِ للمُسلمِ حَرامٌ.

6- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من كانت عِندَه مَظلَمةٌ لأخيه فلْيتَحَلَّلْه منها، فإنَّه ليس ثَمَّ دينارٌ ولا دِرهَمٌ، مِن قَبلِ أن يُؤخَذَ لأخيه مِن حَسَناتِه، فإنْ لم يكُنْ له حَسَناتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئاتِ أخيه، فطُرِحَت عليه))[3753].

وفي روايةٍ: ((مَن كانت له مَظلَمةٌ لأخيه مِن عِرضِه أو شَيءٍ، فلْيتَحَلَّلْه مِنه اليومَ...))[3754].

قَولُه: ((مَظلَمةٌ)) هي اسمٌ لِما أخَذَه المَرءُ بغَيرِ حَقٍّ، وقولُه تعالى: {((مِن عِرضِه)) بَيانٌ للمَظلمةِ، وعِرضُ الرَّجُلِ: مَوضِعُ المَدحِ والذَّمِّ مِنه، سَواءٌ كان في نَفسِه أو في سَلفِه أو مَن يلزَمُه أمرُه، وقيل: هو جانِبُه الذي يصونُه مِن نَفسِه ونَسَبِه وحَسَبِه، ويُحامي عنه أن يُنتقَص. قَولُه: ((أو شَيءٍ))، أي: مِن الأشياءِ، أي: أمرٍ آخَرَ كأخذِ مالِه أو المَنعِ مِن الانتِفاعِ به، والجِراحاتِ، حتَّى اللَّطمةِ ونَحوِها، وهو مِن عِطفِ العامِّ على الخاصِّ، قَولُه: ((فلْيتَحَلَّلْه)) أي: ليسأَلْه أن يجعَلَه في حِلٍّ، وليطلُبْ مِنه بَراءةَ ذِمَّتِه قَبلَ يومِ القيامةِ[3755].

والمَظالمُ إمَّا أن تكونَ في النَّفسِ، أو المالِ، أو العِرضِ:

فإن كانت في النَّفسِ مِثلُ أن يكونَ قد جَنى عليه، أو ضَرَبَه حتَّى جَرَحَه، أو قَطعَ عُضوًا مِن أعضائِه، أو قَتَل له قَتيلًا، فإنَّه يتَحَلَّلُ مِنه بأن يُمكِّنَ صاحِبَ الحَقِّ مِن القِصاصِ، أو مِن بَذلِ الدِّيةِ إذا لم يكُنِ القِصاصُ. أمَّا إن كانت في المالِ، فالواجِبُ أن يُعطيه صاحِبَه، فإن غابَ عنه ولم يعرِفْ مَكانَه وأيِسَ مِنه فإنَّه يتَصَدَّقُ به عنه، وإن كان قد ماتَ -أي صاحِبُ الحَقِّ- فإنَّه يوصِلُه إلى ورَثَتِه.

[3750] رواه البخاري (4686)، ومسلم (2583) واللفظ له.

[3751] ((شرح رياض الصالحين)) (2/498).

[3752] رواه البخاري (2442) واللفظ له، ومسلم (2580).

[3753] ((فتح الباري)) لابن حجر (5/ 97).

[3754] أخرجه البخاري (6534).

[3755] يُنظَر: ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) للعيني (12/ 294)، ((إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري)) للقسطلاني (9/ 311)، ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) للقاري (8/ 3201).

أمَّا إن كانت في العِرضِ، مِثلُ أن يكونَ قد سَبَّه أو اغتابَه، فلا بُدَّ أن يتَحَلَّلَ منه إذا كان المَظلومُ قد عَلِمَ بأنَّه سَبَّه أو اغتابَه، فيذهَبُ إليه ويعتَذِرُ، فإن عَذرَه فهذا مِن نِعمةِ اللهِ على الجَميعِ، وإن أبى فإنَّ اللهَ تعالى إذا عَلِمَ أنَّ تَوبةَ الظَّالمِ تَوبةٌ حَقيقيَّةٌ، فإنَّه سُبحانَه وتعالى يُرضي المَظلومَ يومَ القيامةِ.

وقال بَعضُ العُلماءِ في مَسألةِ العِرْضِ: إن كان المَظلومُ لم يعلَمْ فلا حاجةَ أن يُعلِمَه، ولكِن يستَغفِرُ له ويدعو له، ويُثني عليه بالخَيرِ في المَجالسِ التي كان يسُبُّه فيها، وبذلك يتَحَلَّلُ منه، ألَا إنَّ الأمرَ خَطيرٌ، وحُقوقُ النَّاسِ لا بُدَّ أن تُعطى لهم، إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخِرةِ[3756].

ثالثا: مِن أقوالِ السَّلَفِ والعُلماءِ

- قال مُعاويةُ بنُ أبي سُفيانَ رَضِيَ اللهُ عنهما: (إنِّي لأستَحي أن أظلِمَ مَن لا يجِدُ عليَّ ناصِرًا إلَّا اللهَ)[3757].

- وقال رَجُلٌ عِندَ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: إنَّ الظَّالمَ لا يَظلِمُ إلَّا نَفسَه، فقال أبو هرَيرةَ: (كذَبتَ، والذي نَفسُ أبي هرَيرةَ بيدِه، إنَّ الحُبارى[3758] لتموتُ في وَكرِها مِن ظُلمِ الظَّالمِ!)[3759].

- وعن عَبدِ اللهِ بنِ سَلمةَ قال: (قال رَجُلٌ لمُعاذٍ: علِّمْني، قال: وهَل أنتَ مُطيعي؟ قال: إنِّي على طاعَتِك لحَريصٌ، قال: صُمْ وأفطِرْ، وصَلِّ ونَمْ، واكتَسِبْ ولا تَأثَمْ، ولا تَموتَنَّ إلَّا وأنتَ مُسلمٌ، وإيَّاك ودَعوةَ المَظلومِ)[3760].

- (وكتَبَ إلى عُمَرَ بنِ عَبدِ العَزيزِ رَحِمَه اللهُ بَعضُ عُمَّالِه يستَأذِنُه في تَحصينِ مَدينَتِه. فكتَبَ إليه: حَصِّنْها بالعَدلِ، ونَقِّ طُرُقَها مِن الظُّلمِ)[3761].

- و(كتَبَ عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ إلى بَعضِ عُمَّالِه: أمَّا بَعدُ، فإذا دَعَتك قُدرَتُك على النَّاسِ إلى ظُلمِهم، فاذكُر قُدرةَ اللهِ تعالى عليك، ونَفادَ ما تَأتي إليهم، وبَقاءَ ما يأتونَ إليك)[3762].

- (ودَخَل طاوُسٌ اليمانيُّ على هشامِ بنِ عَبدِ المَلكِ، فقال له: اتَّقِ يومَ الأذانِ، قال هشامٌ: وما يومُ الأذانِ؟! قال: قَولُه تعالى: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [الأعراف: 44]، فصَعِقَ هشامٌ! فقال طاوُسٌ: هذا ذُلُّ الصِّفةِ، فكيف المُعاينةُ؟)[3763].

- وقال أبو عُبَيدِ اللهِ الوزيرُ، سَمِعتُ أبا جَعفرٍ أميرَ المُؤمِنينَ المَنصورَ يقولُ لابنِه المَهديِّ أميرِ المُؤمِنينَ: (يا أبا عَبدِ اللهِ، إذا أرَدتَ أمرًا ففَكِّرْ فيه؛ فإنَّ فِكرةَ العاقِلِ مِرآتُه تُريه حَسَنَه وسَيِّئَه، يا أبا عَبدِ اللهِ، الخَليفةُ لا يُصلِحُه إلَّا التَّقوى، والسُّلطانُ لا يُصلِحُه إلَّا الطَّاعةُ، والرَّعيَّةُ لا يُصلِحُها إلَّا العَدلُ، وأعظَمُ النَّاسِ عَفوًا أقدَرُهم على العُقوبةِ، وأنقَصُ النَّاسِ عَقلًا مَن ظَلَمَ مَن هو دونَه)[3764].

[3756] ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (2/ 509).

[3757] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (30/1).

[3758] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((العقوبات)) (269) واللفظ له، والطبري في ((تفسيره)) (231/17).

[3759] الحُبارى: طائرٌ معروفٌ، وهو على شَكلِ الإوَزةِ، برأسِه وبطنِه غبرةٌ، ولونُ ظَهرِه وجناحيه كلَونِ السُّمانى غالبًا. يُنظَر: ((المصباح المنير)) للفيومي (1/118).

[3760] أخرجه عبد اللهِ بن أحمد في زوائد ((الزهد)) (1010)، ومن طريقه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (1/ 233).

[3761] رواه أبو بكر الدينوري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (2287)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (305/5)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (202/45).

[3762] ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (5/ 131).

[3763] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) لابن حجر الهيتمي (2/124).

[3764] يُنظَر: ((الفاضل)) للمبرد (ص: 88)، ((شعب الإيمان)) للبيهقي (10/ 16)، ((تاريخ بغداد)) للخطيب (11/ 247).

- (وقال المَهديُّ للرَّبيعِ بنِ أبي الجَهمِ، وهو والي أرضِ فارِسَ: يا رَبيعُ، آثِرِ الحَقَّ، والزَمِ القَصدَ، وابسُطِ العَدلَ، وارفُقْ بالرَّعيَّةِ، واعلَمْ أنَّ أعدَلَ النَّاسِ مَن أنصَفَ مِن نَفسِه، وأظلَمَهم مَن ظَلمَ النَّاسَ لغَيرِه)[3765].

- وكان شُرَيحٌ القاضي يقولُ: (سَيعلمُ الظَّالمونَ حَقَّ مَن انتقَصوا، إنَّ الظَّالمَ لينتَظِرُ العِقابَ، والمَظلومُ ينتَظِرُ النَّصرَ والثَّوابَ)[3766].

- وقال مَيمونُ بنُ مِهرانَ: (إنَّ الرَّجُل يقرَأُ القُرآنَ وهو يلعنُ نَفسَه. قيل له: وكيف يلعنُ نَفسُه؟! قال: يقولُ: أَلَا لَعْنةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: 18]، وهو ظالِمٌ!)[3767].

- وقال جَعفرُ بنُ يحيى: (الخَراجُ عَمودُ المُلكِ، وما استَغزَرَ[3768] بمِثل العَدلِ، وما استَنزَرَ[3769] بمِثلِ الظُّلمِ)[3770].

- وقال مُبارَكٌ أبو حَمَّادٍ: سَمِعتُ سُفيانَ الثَّوريَّ يقرَأُ على عليِّ بنِ الحَسَنِ السُّليميِّ: (يا أخي، لا تَغبِطْ أهلَ الشَّهَواتِ بشَهَواتِهم، ولا ما يتَقَلَّبونَ فيه مِن النِّعمةِ؛ فإنَّ أمامَهم يومًا تَزِلُّ فيه الأقدامُ، وتَرعَدُ فيه الأجسامُ، وتَتَغَيَّرُ فيه الألوانُ، ويطولُ فيه القيامُ، ويشتَدُّ فيه الحِسابُ، وتَتَطايرُ فيه القُلوبُ حتَّى تَبلُغَ الحَناجِرَ، فيا لها مِن نَدامةٍ على ما أصابوا مِن هذه الشَّهَواتِ!... وإيَّاك والظُّلمَ، وأن تكونَ عَونًا للظَّالمِ، وأن تَصحَبَه أو تُؤاكِلَه أو تَبتَسِمَ في وَجهِه، أو تَنالَ مِنه شَيئًا؛ فتَكونَ عَونًا له، والعَونُ شَريكٌ، لا تَخالفِنَّ أهلَ التَّقوى، ولا تُخادِنْ أهلَ الخَطايا، ولا تُجالِسْ أهلَ المَعاصي، واجتَنِبِ المَحارِمَ كُلَّها، واتَّقِ أهلَها)[3771].

- وعن سَعيدِ بنِ عَبدِ العَزيزِ قال: (مَن أحسَنَ فلْيَرجُ الثَّوابَ، ومَن أساءَ فلا يستَنكِرِ الجَزاءَ، ومَن أخَذَ عِزًّا بغَيرِ حَقٍّ أورَثَه اللهُ ذُلًّا بحَقٍّ، ومَن جَمَعَ مالًا بظُلمٍ أورَثَه اللهُ فقرًا بغَيرِ ظُلمٍ)[3772].

- (وبَكى عليُّ بنُ الفُضَيلِ يومًا، فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي على مَن ظَلمَني إذا وقف غَدًا بَينَ يدَيِ اللهِ تعالى ولم تَكُنْ له حُجَّةٌ)[3773].

- وقال أبو الوليدِ الباجيُّ لولَديه: (... إيَّاكما والظُّلمَ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ، والظَّالمُ مَذمومُ الخَلائِقِ، مُبغَضٌ إلى الخَلائِقِ)[3774].

- وقال بَعضُ السَّلَفِ: (لا تَظلمِنَّ الضُّعَفاءَ فتكُنْ مِن شِرارِ الأقوياءِ)[3775].

[3765] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (1/31).

[3766] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) لابن حجر الهيتمي (124/2).

[3767] ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: 377).

[3768] استغزره: طَلَب غزارتَه وكثرتَه. يُنظَر: ((تكملة المعاجم العربية)) (7/404)

[3769] استَنزَر: طلَب القليلَ التَّافِهَ. يُنظَر: ((تاج العروس)) للزبيدي (14/204)

[3770] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (31/1)

[3771] أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (24 /7)

[3772] ((سير أعلام النبلاء)) (36 /8)

[3773] ((سنن الصالحين)) للباجي (ص: 578)

[3774] ((النصيحة الولدية)) (ص: 30)

[3775] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهيتمي (198 /2)

المطلب الرابع: آثارُ الظُّلمِ

1- الظَّالمُ مَصروفٌ عن الهدايةِ: قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة: 51].

2- الظَّالمُ لا يُفلِحُ أبَدًا: قال تعالى: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [الأنعام: 21].

3- الظَّالمُ عليه اللَّعنةُ مِن اللهِ: يقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر: 52].

4- الظَّالمُ يُحرَمُ مِن الشَّفاعةِ: قال تعالى: {مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ} [غافر: 18].

5- تُصيبُه دَعوةُ المَظلومِ ولا تُخطِئُه: قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((واتَّقِ دَعوةَ المَظلومِ؛ فإنَّه ليس بَينَها وبَينَ الله حِجابٌ))[3776].

6- بالظُّلمِ يرتَفِعُ الأمنُ: قال اللهُ تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: 82].

عن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلت هذه الآيةُ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ...} [الأنعام: 82] شَقَّ ذلك على أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقالوا: أيُّنا لم يَظلِمْ نَفسَه؟ فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ليس كما تَظُنُّونَ، إنَّما هو كما قال لُقمانُ لابنِه: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ))[3777].

7- الظُّلمُ سَبَبٌ للبَلاءِ والعِقابِ:

قال تعالى: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [الحج: 45]، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: 102]، وقال سُبحانَه: وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} [الكهف: 59].

8- الظُّلمُ سَبَبٌ للخَرابِ:

قال تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [النمل: 50 - 52].

وفي هذا دَليلٌ على أنَّ الظُّلمَ يورِثُ أهلَه الهَلاكَ، ويُعقِبُ ديارَهم الخَرابَ؛ فاللهُ تعالى لَمَّا خَصَّ عَمَلَهم بوصفِ الظُّلمِ مِن بَينِ عِدَّةِ أحوالٍ يشتَمِلُ عليها كُفرُهم، كالفسادِ، كان ذلك إشارةً إلى أنَّ للظُّلمِ أثَرًا في خَرابِ بلادِهم[3778].

ويُروى أنَّ رَجُلًا مِن أهلِ الكِتابِ قال لابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: إنَّ في التَّوراةِ: مَن يظلِمْ يخرَبْ بَيتَه، فقال ابنُ عَبَّاسٍ: (وهذا في القُرآنِ؛ قال الله تعالى: {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [النمل: 52 – 53].

وقال ابنُ خَلدونَ: (الظُّلمُ مُؤذِنٌ بخَرابِ العُمرانِ)[3779].

9- الظُّلمُ عاقِبَتُه النَّارُ:

عن خَولةَ الأنصاريَّةِ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ رِجالًا يتَخوَّضونَ في مالِ اللهِ بغَيرِ حَقٍّ، فلهم النَّارُ يومَ القيامةِ))[3780]، قال ابنُ حَجَرٍ: (قولُه: يتَخوَّضونَ - بالمُعجَمَتينِ- في مالِ اللهِ بغَيرِ حَقٍّ، أي: يتَصَرَّفونَ في مالِ المُسلمينَ بالباطِلِ).

[3776] رواه مسلم (19) من حديثِ معاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه. ورواه البخاري (1496)، ومسلم (19) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[3777] رواه البخاري (6937) واللفظ له، ومسلم (124).

[3778] يُنظَر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (3/ 552)، ((روح المعاني)) للألوسي (10/ 209)، ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (19/ 285، 286).

[3779] ((المقدمة)) (2/697)

10- الظُّلمُ يُؤَدِّي إلى العَداوةِ والبَغضاءِ.

11- الظُّلمُ يتَسَبَّبُ في عَدَمِ انتِظامِ مَصالحِ الخَلقِ.

المطلب الخامس: أقسامُ الظُّلمِ

(الظُّلمُ ثَلاثةٌ:

الأوَّلُ: ظُلمٌ بَينَ الإنسانِ وبَينَ اللهِ تعالى، وأعظَمُه: الكُفرُ، والشِّركُ، والنِّفاقُ؛ ولذلك قال: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13]، وإيَّاه قَصدَ بقَولِه: {أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: 18]، {وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الإنسان: 31]، في آيٍ كثيرةٍ، وقال: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ} [الزمر: 32]، {وَمَنْ أَظْلَمَ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} [الأنعام: 93].

والثَّاني: ظُلمٌ بَينَه وبَينَ النَّاسِ، وإيَّاه قَصدَ بقَولِه: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} إلى قَولِه: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} الآية، وبقَولِه: {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ} [الشورى: 42]، وبقَولِه: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا} [الإسراء: 33].

والثَّالثُ: ظُلمٌ بَينَه وبَينَ نَفسِه، وإيَّاه قَصدَ بقَولِه: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} [فاطر: 32]، وقَولُه: {ظَلَمْتُ نَفْسِي} [النمل: 44]، {إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [النساء: 64]، {فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 35]، أي: {مِن الظَّالمينَ أنفُسَهم وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} [البقرة: 231].

وكُلُّ هذه الثَّلاثةِ في الحَقيقةِ ظُلمٌ للنَّفسِ؛ فإنَّ الإنسانَ في أوَّلِ ما يَهُمُّ بالظُّلمِ فقد ظَلمَ نَفسَه، فإذًا الظَّالمُ أبَدًا مُبتَدِئٌ في الظُّلمِ؛ ولهذا قال تعالى في غَيرِ مَوضِعٍ: {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [النحل: 33]، {وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [البقرة: 57]، وقَولُه: {وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام:82])[3781].

وقال ابنُ رَجَبٍ في أقسامِ الظُّلمِ: (وهو نَوعانِ: أحَدُهما: ظُلمُ النَّفسِ، وأعظَمُه الشِّركُ، كما قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13] ؛ فإنَّ المُشرِكَ جَعل المَخلوقَ في مَنزِلةِ الخالقِ، فعَبدُه وتَألَهَه، فهو وضعُ الأشياءِ في غَيرِ مَوضِعِها... ثُمَّ يليه المَعاصي على اختِلافِ أجناسِها مِن كبائِرَ وصَغائِرَ. والثَّاني: ظُلمُ العَبدِ لغَيرِه)[3782].

المطلب السادس: مَظاهرُ وصورُ الظُّلمِ

أوَّلًا: ظُلمُ العَبدِ نَفسَه:

1- أعظَمُه الشِّركُ باللهِ:

قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13].

قال ابنُ تَيميَّةَ: (ومِمَّا ينبَغي أن يُعلمَ أنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ لا يعلمونَ كونَ الشِّركِ مِن الظُّلمِ، وأنَّه لا ظُلمَ إلَّا ظُلمُ الحُكَّامِ أو ظُلمُ العَبدِ نَفسَه، وإن عَلِموا ذلك مِن جِهةِ الاتِّباعِ، والتَّقليدِ للكِتابِ والسُّنَّةِ، والإجماعِ، لم يفهَموا وجهَ ذلك؛ ولذلك لم يسبِقْ ذلك إلى فهمِ جَماعةٍ مِن الصَّحابةِ لمَّا سَمِعوا قَولَه: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ [الأنعام: 82]، كما ثَبَتَ ذلك في الصَّحيحَينِ مِن حَديثِ ابنِ مَسعودٍ أنَّهم قالوا: أيُّنا لم يظلِمْ نَفسَه؟! فقال رَسولُ اللهِ: ((ألم تَسمَعوا إلى قَولِ العَبدِ الصَّالحِ: إنَّ

[3780] رواه البخاري (3118)

[3781] ((مفردات ألفاظ القرآن)) للراغب الأصفهاني (537، 538).

[3782] ((جامع العلوم والحكم)) (2/ 36).

الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ؟)). وذلك أنَّهم ظَنُّوا أنَّ الظُّلمَ -كما حَدَّه طائِفةٌ مِن المُتَكلِّمينَ- هو إضرارٌ غَيرُ مُستَحَقٍّ، ولا يرَونَ الظُّلمَ إلَّا ما فيه إضرارٌ بالمَظلومِ، إن كان المُرادُ أنَّهم لن يضُرُّوا دينَ الله وعِبادَه المُؤمِنينَ، فإنَّ ضَرَرَ دينِ اللهِ وضَرَرَ المُؤمِنينَ بالشِّركِ والمَعاصي أبلَغُ وأبلَغُ)[3783].

2- التَّعَدِّي على حُدودِ اللهِ:

قال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: 229]. قال ابنُ جَريرٍ: (تلك مَعالمُ فُصولِه، بَيَّنَ ما أحَلَّ لكم وما حَرَّمَ عليكم أيُّها النَّاسُ؛ فلا تَعتَدوا ما أُحِلَّ لكم مِن الأُمورِ التي بَيَّنَها وفصَّلها لكم مِن الحَلالِ إلى ما حَرَّمَ عليكم؛ فتُجاوزوا طاعَتَه إلى مَعصيتِه، وإنَّما عنى تعالى ذِكرُه بقَولِه: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا هذه الأشياءَ التي بَيَّنتُ لكم في هذه الآياتِ التي مَضَت؛ مِن نِكاحِ المُشرِكاتِ الوثَنِيَّاتِ، وإنكاحِ المُشرِكينَ المُسلماتِ، وإتيانِ النِّساءِ في المَحيضِ، وما قد بَيَّنَ في الآياتِ الماضيةِ قَبل قَولِه: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ مِمَّا أحَلَّ لِعِبادِه وحَرَّمَ عليهم، وما أمَرَ ونَهى)[3784].

3- الصَّدُّ عن مَساجِدِ اللهِ أن يُذكَرَ فيها اسمُه:

قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: 114].

قال ابنُ جَريرٍ: (وأيُّ امرِئٍ أشَدُّ تَعَدِّيًا وجَراءةً على اللهِ وخِلافًا لأمرِه، مِن امرِئٍ مَنعَ مَساجِدَ اللهِ أن يُعبَدَ اللهُ فيها؟!)[3785].

4- كَتمُ الشَّهادةِ:

قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: 140].

قال السَّعديُّ: (فهي شَهادةٌ عِندَهم مودَعةٌ مِن اللهِ لا مِن الخَلقِ، فيقتَضي الاهتِمامَ بإقامَتِها، فكتَموها وأظهَروا ضِدَّها، جَمَعوا بَينَ كَتمِ الحَقِّ وعَدَمِ النُّطقِ به، وإظهارِ الباطِلِ والدَّعوةِ إليه، أليس هذا أعظَمَ الظُّلمِ؟! بَلى واللهِ، وسَيُعاقِبُهم عليه أشَدَّ العُقوبةِ)[3786].

5- الإعراضُ عن آياتِ اللهِ بتَعطيلِ أحكامِها:

قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا} [الكهف: 57].

قال ابنُ كثيرٍ: (يقولُ تعالى: وأيُّ عِبادِ اللهِ أظلمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ اللهِ فأعرَضَ عنها، أي: تَناساها وأعرَضَ عنها، ولم يُصغِ لها، ولا ألقى إليها بالًا)[3787].

6- الكذِبُ على اللهِ:

[3783] ((جامع المسائل)) (6/235).

[3784] ((جامع البيان)) للطبري (583/4).

[3785] المصدر السابق (519/2).

[3786] ((تيسير الكريم الرحمن)) (69).

[3787] ((تفسير القرآن العظيم)) (172/5).

قال تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: 144].

قال ابنُ جَريرٍ في تَفسيرِ هذه الآيةِ: (يقولُ: فمَن أشَدُّ ظُلمًا لنَفسِه، وأبعَدُ عن الحَقِّ مِمَّن تَخرَّصَ على اللهِ قِيلَ الكَذِبِ، وأضاف إليه تَحريمَ ما لم يُحرِّمْ، وتَحليلَ ما لم يُحَلِّلْ)[3788].

ثانيًا: ظُلمُ العِبادِ بَعضِهم لبَعضٍ

وظُلمُ العِبادِ بَعضِهم لبَعضٍ أنواعٌ، وهو أشهَرُ أنواعِ الظُّلمِ وأكثَرُها.

قال سُفيانُ الثَّوريُّ: (إن لقيتَ اللهَ تعالى بسَبعينَ ذَنبًا فيما بَينَك وبَينَ اللهِ تعالى أهونُ عليك مِن أن تَلقاه بذَنبٍ واحِدٍ فيما بَينَك وبَينَ العِبادِ[3789]). ويُمكِنُ تَقسيمُه إلى ظُلمٍ قَوليٍّ، وظُلمٍ فِعليٍّ:

- **مِن صُوَرِ الظُّلمِ القَوليِّ:**

التَّعَرُّضُ إلى النَّاسِ بالغِيبةِ والنَّميمةِ، والسِّبابِ والشَّتمِ، والاحتِقارِ، والتَّنابُزِ بالألقابِ، والسُّخريَّةِ والاستِهزاءِ، والقَذفِ، ونحوِ ذلك.

- **مِن صُوَرِ الظُّلمِ الفِعليِّ:**

1- القَتلُ بغَيرِ حَقٍّ:

قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} [الإسراء: 33].

قال السَّعديُّ في تَفسيرِ قَولِه تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ} (وهي: النَّفسُ المُسلمةُ مِن ذَكَرٍ وأُنثى، صَغيرٍ وكبيرٍ، برٍّ وفاجِرٍ، والكافِرةُ التي قد عُصِمَت بالعَهدِ والميثاقِ إلَّا بِالْحَقِّ كالزَّاني المُحصَنِ، والنَّفسِ بالنَّفسِ، والتَّارِكِ لدينِه المُفارِقِ للجَماعةِ... وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا أي: بغَيرِ حَقٍّ فَقَدْ جَعَلْنَا لَوَلِيِّهِ وهو أقرَبُ عَصَباتِه وورَثَتِه إليه سُلْطَانًا أي: حُجَّةً ظاهرةً على القِصاصِ مِن القاتِلِ)[3790].

2- أخذُ أرضِ الغَيرِ أو شَيءٍ منها:

قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من أخَذَ شِبرًا من الأرضِ ظُلمًا؛ فإنَّه يُطَوَّقُه يومَ القيامةِ من سَبعِ أرَضينَ))[3791].

وفي هذا الحَديثِ (التَّحذيرُ الشَّديدُ من السَّطوِ على أرضِ الغَيرِ، وأخذِ شَيءٍ منها ظُلمًا، والوعيدُ الشَّديدُ لمَن فعَل ذلك بالخَسفِ به يومَ القيامةِ)[3792].

3- الظُّلمُ في مُحيطِ الأُسرةِ:

ومنه:

- ظُلمُ الأولادِ للوالدَينِ بالعُقوقِ.
- ظُلمُ الأزواجِ لزَوجاتِهم في حَقِّهنَّ، سَواءٌ كان صَداقًا أو نَفقةً أو كِسوةً.

[3788] ((جامع البيان)) (189/12).

[3789] ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: 380).

[3790] ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (69).

[3791] رواه البخاري (3198)، ومسلم (1610) من حديثِ سعيدِ بنِ زيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[3792] ((منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري)) (4/150).

- ظُلمُ الزَّوجاتِ لأزواجِهنَّ بتَقصيرِهنَّ في حَقِّهم، وتَنَكُّرِ فَضلِهم.
- ظُلمُ البَناتِ بعَضْلِهنَّ عن الزَّواجِ؛ قال تعالى: {وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ} [النساء: 19].
(العَضْلُ: التَّضييقُ والمَنعُ والشِّدَّةُ... والمَعنى: لا يحِلُّ لكم إرثُ النِّساءِ ولا عَضْلُهنَّ، أي: ولا التَّضييقُ عليهنَّ؛ لأجْلِ أن تَذهَبوا ببَعضِ ما آتَيتُموهنَّ، أي: أعطيتُموهنَّ من ميراثٍ أو صَداقٍ أو غَيرِ ذلك. والخِطابُ لمَجموعِ المُؤمنينَ لتَكافُلِهم، فيصدُقُ بما أعطَوه للنِّساءِ من ميراثٍ ومَهرِ زَواجٍ، وغَيرِ ذلك، وجَعَلَه بَعضُهم للأزواجِ، وبَعضُهم للورَثةِ، وكُلٌّ منهم كان يَعضِلُ النِّساءَ)[3793].
- الدُّعاءُ على الأولادِ، والقَسوةُ في التَّعامُلِ مَعَهم.
- تَفضيلُ بَعضِ الأولادِ على بَعضٍ في العَطيَّةِ: عن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ((سألَت أمِّي أبي بعضَ الموهبةِ لي مِن مالِه، ثُمَّ بدا له، فوهَبها لي، فقالت: لا أرضى حتَّى تُشهِدَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخذ بيدي وأنا غلامٌ، فأتى بي النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: إنَّ أمَّه بنتَ رَواحةَ سألَتني بعضَ الموهبةِ لهذا، قال: ألك ولدٌ سِواه؟ قال: نعَم، قال: فأُراه قال: لا تُشهِدْني على جَورٍ، في رِوايةٍ: لا أشهَدُ على جَورٍ))[3794].

4- ظُلمُ أصحابِ الوِلاياتِ والمَناصِب، ومنه:
- نَبذُ كِتابِ اللهِ وتَحكيمُ القَوانينِ الوضعيَّةِ.
- عَدَمُ إعطاءِ الرَّعيَّةِ حُقوقَهم.
- تَقديمُ شَخصٍ في وظيفةٍ ما، وهناك من هو أكفأُ منه وأقدَرُ على العَمَلِ.

5- ظُلمُ العُمَّالِ: ومنه:
- أن يعمَلَ له عَمَلًا ولا يُعطيَه أجرَه: عن أبي هرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ((قال اللهُ تعالى: ثَلاثةٌ أنا خَصمُهم يومَ القيامةِ: رَجُلٌ أعطى بي ثُمَّ غَدَرَ، ورَجُلٌ باعَ حُرًّا فأكل ثَمَنَه، ورَجُلٌ استَأجَرَ أجيرًا فاستَوفى منه ولم يُعطِه أجرَه))[3795].
- أن يبخَسَه حُقوقَه أو أن يُؤَخِّرَها عن وقتِها.
- تَكليفُه بأُمورٍ غَيرِ ما اتَّفقَ عليها مَعَه، أو بأُمورٍ لم تَجرِ العادةُ بتَكليفِه بها: قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إخوانُكم خَوَلُكم، جَعلَهم اللهُ تَحتَ أيديكم، فمَن كان أخوه تَحتَ يدِه فليُطعِمْه مِمَّا يأكُلُ، وليُلبِسْه مِمَّا يَلبَسُ، ولا تُكلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإن كَلَّفتُموهم فأعينوهم))[3796].

6- أكلُ مالِ الغَيرِ بغَيرِ حَقٍّ: وهو أنواعٌ
ومنه:
أ- أكلُ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ:

[3793] ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (4/372).
[3794] رواه البخاري (2650) واللفظ له، ومسلم (1689).
[3795] رواه البخاري (2270).
[3796] رواه مطولًا البخاري (30) واللفظ له، ومسلم (1661).

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: 29 - 30].

(يُنادي اللهُ تعالى عِبادَه المُؤمنينَ بعُنوانِ الإيمانِ، فيقولُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا. وينهاهم عن أكلِ أموالِهم بَينَهم بالباطِلِ بالسَّرِقةِ أو الغِشِّ أو القِمارِ أو الرِّبا، وما إلى ذلك من وُجوهِ التَّحريمِ العَديدةِ، فيقولُ: {لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}، أي: بغَيرِ عِوضٍ مُباحٍ، أو طِيبِ نَفسٍ، ثُمَّ يستَثني ما كان حاصِلًا عن تِجارةٍ قائِمةٍ على مَبدَأِ التَّراضي بَينَ البَيِّعينِ؛ لحَديثِ: ... ((البَيِّعانِ بالخيارِ ما لم يتفرَّقا)). فقال تعالى: {إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ}، فلا بَأسَ بأكلِه؛ فإنَّه حَلالٌ لكم. هذا ما تَضَمَّنَته الآيةُ كما قد تَضَمَّنَت حُرمةَ قَتلِ المُؤمنينَ لبَعضِهم بَعضًا، فقال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}.

والنَّهيُ شامِلٌ لقَتلِ الإنسانِ نَفسَه وقَتلِه أخاه المُسلمَ؛ لأنَّ المُسلمينَ كجِسمٍ واحِدٍ، فالذي يقتُلُ مُسلمًا منهم كأنَّما قَتَل نَفسَه، وعلَّل تعالى هذا التَّحريمَ لنا، فقال: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}؛ فلذا حَرَّمَ عليكم قَتلَ بَعضِكم بَعضًا.

هذا ما تَضَمَّنَته الآيةُ الأولى، أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فقد تَضَمَّنَت وعيدًا شَديدًا بالإصلاءِ بالنَّارِ والإحراقِ فيها كُلَّ من يقتُلُ مُؤمنًا عُدوانًا وظُلمًا، أي: بالعَمدِ والإصرارِ والظُّلمِ المَحضِ، فقال تعالى: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أي: القَتلَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ أي: الإصلاءُ والإحراقُ في النَّارِ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا؛ لكَمالِ قُدرَتِه بهذا العَذابِ؛ إذ لا يستَطيعُ أن يدفعَ ذلك عن نَفسِه بحالٍ من الأحوالِ)[3797].

ب- أكلُ أموالِ الضُّعَفاءِ كاليتامى:

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا [النساء: 10].

يقولُ الفخرُ الرَّازيُّ: (اعلَمْ أنَّه تعالى أكَّدَ الوعيدَ في أكلِ مالِ اليتيمِ ظُلمًا، وقد كثُرَ الوعيدُ في هذه الآياتِ مَرَّةً بَعدَ أُخرى على من يفعلُ ذلك، كقَولِه: وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا [النساء: 2] وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا [النساء: 9]، ثُمَّ ذَكَر بَعدَها هذه الآيةَ مُفرَدةً في وعيدِ من يأكُلُ أموالهم، وذلك كُلُّه رَحمةٌ من الله تعالى باليتامى؛ لأنَّهم لكمالِ ضَعفِهم وعَجزِهم استَحَقُّوا من اللهِ مَزيدَ العِنايةِ والكرامةِ، وما أشَدَّ دَلالةَ هذا الوعيدِ على سَعةِ رَحمَتِه وكثرةِ عَفوِه وفضلِه! لأنَّ اليتامى لَمَّا بَلغوا في الضَّعفِ إلى الغايةِ القُصوى بَلغَت عِنايةُ اللهِ بهم إلى الغايةِ القُصوى)[3798].

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (إيَّاكم ودَعوةَ المَظلومِ، ودَعوةَ اليتيمِ؛ فإنَّها تَسريانِ باللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ)[3799].

وقال: (إنَّ أبغَضَ النَّاسِ إليَّ أن أظلِمَه من لا يستَعينُ عليَّ إلَّا اللهَ)[3800].

ج- الرِّبا:

قال تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء: 160 - 161].

[3797] ((أيسر التفاسير)) للجزائري (1/466، 467).

[3798] ((مفاتيح الغيب)) للرازي (506/9).

[3799] أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (1/ 221).

[3800] أخرجه ابن سعد في ((الطبقات الكبير)) (4/ 356).

(ما زال السِّياقُ في اليهودِ من أهلِ الكِتابِ يُبَيِّنُ جَرائِمَهم ويكشِفُ السِّتارَ عن عَظائِمِ ذُنوبِهم؛ ففي الآيةِ الأولى سَجَّل عليهم الظُّلمَ العَظيمَ الذي به استَوجَبوا عِقابَ اللهِ تعالى حَيثُ حَرَّمَ عليهم طَيِّباتٍ كثيرةً كانت حَلالًا لهم، كما سَجَّل عليهم أقبَحَ الجَرائِمِ، وهي صَدُّهم أنفُسَهم وصَدُّ غَيرِهم عن سَبيلِ اللهِ تعالى، وذلك بجُحودِهم الحَقَّ وتَحريفِهم كلامَ اللهِ، وقَبولِهم الرِّشوةَ في إبطالِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ. هذا ما تَضَمَّنَته الآيةُ الأولى، أمَّا الثَّانيةُ فقد تَضَمَّنَت تَسجيلَ جَرائِمَ أُخرى على اليهودِ، وهي أوَّلًا: استِباحَتُهم للرِّبا وهو حَرامٌ، وقد نُهُوا عنه، وثانيًا: أكلُهم أموالَ النَّاسِ بالباطِلِ، كالرِّشوةِ والفتاوى الباطِلةِ التي كانوا يأكُلونَ بها. وأمَّا قَولُه تعالى في خِتامِ الآيةِ: وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا فهو زيادةٌ على عِقابِهم به في الدُّنيا، أعَدَّ لِمَن كَفَرَ منهم وماتَ على كُفرِه عَذابًا أليمًا موجِعًا يُعَذَّبونَ به يومَ القيامةِ)[3801].

د- الرِّشوةُ:

قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لعنَ رَسولُ اللهِ الرَّاشيَ والمُرتَشيَ))[3802].

يقولُ المُناويُّ: (الرِّشوةُ على تَبديلِ أحكامِ اللهِ إنَّما هي خَصلةٌ نَشَأت من اليهودِ المُستَحِقِّينَ اللَّعنةَ، فإذا سَرَتِ الخَصلتانِ إلى أهلِ الإسلامِ استَحَقُّوا من اللَّعنِ ما استَحَقَّه اليهودُ)[3803].

هـ- الغِشُّ في المُعامَلاتِ:

قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن غَشَّنا فليس منَّا))[3804].

قال المُناويُّ مُعلِّقًا على هذا الحَديثِ: (أي: ليس على منهاجِنا؛ لأنَّ وصفَ المُصطَفى صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وطَريقَتَه الزُّهدُ في الدُّنيا والرَّغبةِ فيها، وعَدَمُ الشَّرَهِ والطَّمَعِ الباعِثَينِ على الغِشِّ)[3805].

ويقولُ ابن حجر الهيتمي: (ليتَأمَّلِ الغَشَّاشُ بخُصوصِه قَولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "مَن غَشَّنا فليس منَّا"، يَعلَمْ أنَّ أمرَ الغِشِّ عَظيمٌ، وأنَّ عاقِبَتَه وخيمةٌ جِدًّا؛ فإنَّه رُبَّما أدَّت إلى الخُروجِ عن الإسلامِ، والعياذُ باللهِ تعالى، فإنَّ الغالبَ أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يقولُ ليس منَّا إلَّا في شَيءٍ قَبيحٍ جِدًّا يُؤَدِّي بصاحِبِه إلى أمرٍ خَطيرٍ، ويُخشى منه الكُفرُ، فإنَّ لَمَن يُعَرِّضُ دينَه إلى زَوالٍ، ويسمَعُ قَولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "مَن غَشَّ فليس منَّا"، ولا ينتَهي عن الغِشِّ إيثارًا لمَحَبَّةِ الدُّنيا على الدِّينِ ورِضًا بسُلوكِ سَبيلِ الضَّالِّين)[3806].

و- التَّطفيفُ في المكيالِ والميزانِ

قال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [الأنعام: 152].

قوله: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ (أي: بالعدلِ والوفاءِ التَّامِّ، فإذا اجتَهَدْتُم في ذلك، فـ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أي: بقدرِ ما تسعُه، ولا تضيقُ عنه. فمَن حرَص على الإيفاءِ في الكيلِ والوزنِ، ثمَّ حصَل منه تقصيرٌ لم يُفرِّطْ فيه، ولم يَعْلَمْه، فإنَّ اللهَ عفوٌّ غفورٌ)[3807].

[3801] ((مفاتيح الغيب)) للرازي (1/573).

[3802] رواه أبو داود (3580)، والترمذي (1337) واللفظ لهما، وابن ماجه (2313) باختلافٍ يسيرٍ من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما. صحَّحه الترمذي، وابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (548/3)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (3580)، وحسَّنه البغوي في ((شرح السنة)) (330/5).

[3803] ((فيض القدير)) (268/5).

[3804] رواه مسلم (101) مطوَّلًا من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[3805] ((فيض القدير)) (6/186).

[3806] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (401/1).

[3807] ((تفسير السعدي)) (ص: 280).

وقال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [الإسراء: 35].

قوله: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ أي: مِن غيرِ تَطْفيفٍ، ولا تَبْخسوا النَّاسَ أشياءَهم. وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ أي: الميزانِ. الْمُسْتَقِيمِ أي: الذي لا اعوجاجَ فيه، ولا انحرافَ، ولا اضطرابَ. ذَلِكَ خَيْرٌ أي: لكم في معاشِكم ومعادِكم؛ ولهذا قال: وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا أي: مآلًا ومنقلبًا في آخرتِكم[3808].

وقال تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين: 1 - 3].

وفي هذه الآيةِ تحذيرٌ للمسلمينَ مِن التَّساهُلِ في التَّطفيفِ -إذ كان وجودُه فاشيًا في المدينةِ في أوَّلِ هجرتِهم- وذمٌّ للمشركينَ مِن أهلِ المدينةِ وأهلِ مكَّةَ. وحسبُهم أنَّ التطفيفَ يجمعُ ظلمًا واختلاسًا ولُؤْمًا[3809].

ز- المَيسِرُ:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [المائدة:90-91].

ح- الغُلولُ:

قال تعالى: {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ} [آل عمران: 161].

(الغُلولُ هو: الكِتمانُ من الغَنيمةِ، والخيانةُ في كُلِّ مالٍ يتولَّاه الإنسانُ، وهو مُحرَّمٌ إجماعًا، بل هو من الكبائرِ، كما تَدُلُّ عليه هذه الآيةُ الكريمةُ وغيرُها من النُّصوصِ، فأخبرَ اللهُ تعالى أنَّه ما ينبغي ولا يليقُ بنَبيٍّ أن يَغُلَّ؛ لأنَّ الغُلولَ -كما عَلِمتَ- من أعظَمِ الذُّنوبِ وأشَرِّ العُيوبِ.... ثُمَّ ذكر الوعيدَ على من غَلَّ، فقال: وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أي: يأتِ به حامِلَه على ظَهرِه، حَيوانًا كان أو مَتاعًا، أو غَيرَ ذلك؛ ليُعَذَّبَ به يومَ القيامةِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ الغالُّ وغيرُه، كُلُّ يُوفَّى أجرَه ووِزرَه على مِقدارِ كَسْبِه، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ أي: لا يُزادُ في سَيِّئاتِهم، ولا يُهضَمونَ شَيئًا من حَسَناتِهم)[3810].

ط- الهدايا التي تُهدى للمُوَظَّفِ بسَبَبِ وَظيفتِه:

عن أبي حُمَيدٍ السَّاعِديِّ قال: ((استَعملَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رَجُلًا على صَدَقاتِ بَني سُلَيمٍ يُدعى ابنَ اللُّتبيَّةِ، فلمَّا جاءَ حاسَبَه، قال: هذا مالُكم وهذا هَدِيَّةٌ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فهَلَّا جَلَستَ في بَيتِ أبيك وأُمِّك حتَّى تأتيَك هَدِيَّتُك إن كُنتَ صادِقًا! ثُمَّ خَطَبَنا فَحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثُمَّ قال: أمَّا بَعدُ؛ فإنِّي أستَعمِلُ الرَّجُلَ منكم على العَمَلِ ممَّا ولَّاني اللهُ، فيَأتي فيَقولُ: هذا مالُكم وهذا هَديَّةٌ أُهدِيَت لي، أفلا جَلَسَ في بَيتِ أبيه وأُمِّه حتَّى تَأتيَه هَدِيَّتُه؟! واللهِ لا يَأخُذُ أحَدٌ منكم شَيئًا بغيرِ حَقِّه إلَّا لَقِيَ اللهَ يَحمِلُه يومَ القِيامةِ، فلَأعرِفَنَّ أحَدًا منكم لَقِيَ اللهَ يَحمِلُ بَعيرًا له رُغاءٌ[3811]،

[3808] يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (74/5).

[3809] ((تفسير ابن عاشور)) (30/ 192).

[3810] ((تيسير الكريم الرحمن)) السعدي (ص: 155).

[3811] الرُّغاءُ: صوتُ البعيرِ. يُنظَر: ((النهاية)) لابن الأثير، ((شرح النووي على مسلم)) (12/216).

أو بقرةً لها خُوارٌ[3812]، أو شاةٌ تَيعَرُ[3813]. ثُمَّ رَفَعَ يَدَيه حتَّى رُئِيَ بَياضُ إبْطَيه، يقولُ: اللَّهُمَّ هل بَلَّغتُ، بَصُرَ عَيْني وسَمْعَ أُذُني))[3814].

المطلب السابع: أسبابُ الوُقوعِ في الظُّلمِ

1- ضَعفُ الخَوفِ من اللهِ.
2- الجَهلُ بعُقوبةِ الظَّالمِ التي تَوعَّدَ اللهُ بها صاحِبَها في الدُّنيا والآخِرةِ.
3- الإعجابُ بالنَّفسِ والكِبرُ.
4- الجَشَعُ وشِدَّةُ الطَّمَعِ والحِرصُ على جَمعِ المالِ.
5- وُجودُ الأعوانِ للظَّالمِ على ظُلمِه.
6- مُصاحَبةُ الظَّالمينَ وكثرةُ الدُّخولِ عليهم والعَمَلُ لَديهم.
7- الأمنُ من المُساءَلةِ والمُحاسَبةِ.
8- غيابُ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهي عن المُنكَرِ.
9- سوءُ الخُلُقِ، ومنه الغِلظةُ والفَظاظةُ.
9- ضَعفُ الإيمانِ.
10-

المطلب الثامن: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الظُّلمِ

1- الخَوفُ من اللهِ ومُراقَبَتُه في السِّرِّ والعَلَنِ.
2- تَذكُّرُ يومِ القيامةِ وما فيه من حِسابٍ وجَزاءٍ.

عن نَوفَلِ بنِ عُمارةَ، قال: قال عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ: (إنَّ أوَّلَ مَن أيقَظَني لهذا الشَّأنِ مُزاحِمٌ، حَبَستُ رَجُلًا فجاوزتُ في حَبسِه القَدْرَ الذي يجِبُ عليه، فكَلَّمني في إطلاقِه، فقُلتُ: ما أنا بمُخرِجِه حتَّى أبلُغَ في الحَيطةِ عليه ما هو أكثَرُ مِمَّا مَرَّ عليه. قال: فقال مُزاحِمٌ: يا عُمَرُ بنَ عَبدِ العَزيزِ، إنِّي أُحَذِّرُك ليلةً تَمَخَّضُ بالقيامةِ في صَبيحَتِها تَقومُ السَّاعةُ! يا عُمَرُ، ولقد كِدتُ أن أنسى اسمَك مِمَّا أسمَعُ: قال الأميرُ، وقال الأميرُ! فواللهِ ما هو إلَّا أن قال ذلك، فكأنَّما كشَفتُ عن وجهي غِطاءً؛ فذكِّروا أنفُسَكم رَحِمَكم اللهُ؛ فإنَّ الذِّكرى تَنفعُ المُؤمنينَ!)[3815].

وكان يُقالُ: (إذا دَعَتك الضَّرورةُ إلى ظُلمِ مَن هو دونَك فاذكُرْ قُدرةَ اللهِ تعالى على عُقوبَتِك؛ فأنقَصُ النَّاسِ عَقلًا مَن ظَلَمَ مَن هو دونَه)[3816].

3- التَّحَلِّي بمَكارِمِ الأخلاقِ، كالقَناعةِ والعَدلِ والشَّجاعةِ والصَّبرِ.

[3812] الخُوارُ: صوتُ البقَرِ. يُنظَر: ((النهاية)) لابن الأثير .
[3813] تَيعَرُ: أي: تصيحُ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.
[3814] رواه البخاري (6979) واللفظ له، ومسلم (1832).
[3815] ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (57/ 375، 376).
[3816] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/367).

4- الحَذَرُ من إعانةِ الظَّالمينَ على ظُلمِهم.

5- البُعدُ عن صُحبةِ الظَّالمينَ، وتَركُ الدُّخولِ عليهم أو العَمَلِ لَديهم.

6- الدُّعاءُ والاستِعاذةُ باللهِ من الظُّلمِ.

7- كفُّ الظَّالمِ عن ظُلمِه: ن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مظلومًا، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنصُرُه إذا كان مظلومًا، أفرأيتَ إذا كان ظالمًا كيف أنصُرُه؟ قال: تحجُزُه أو تمنَعُه من الظُّلمِ؛ فإنَّ ذلك نَصرُه[3817].

عن جابرٍ قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ولْينصُرِ الرَّجُلُ أخاه ظالمًا أو مظلومًا؛ إن كان ظالِمًا فلْيَنْهَه فإنَّه له نَصرٌ، وإن كان مظلومًا فلْيَنصُرْه))[3818].

المطلب التاسع: قِصَصٌ في الظُّلمِ... عِبَرٌ وعِظاتٌ

أ- عن جابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (شكا أهلُ الكوفةِ سَعدًا إلى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه، فعَزَله، واستعمَلَ عليهم عمَّارًا، فشَكَوا حتى ذكَروا أنَّه لا يحسِنُ يُصَلِّي! فأرسل إليه، فقال: يا أبا إسحاقَ، إنَّ هؤلاء يزعُمون أنَّك لا تحسِنُ تُصَلِّي، قال أبو إسحاقَ: أمَّا أنا واللهِ فإني كنتُ أُصَلِّي بهم صلاةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أخرِمُ عنها، أصلِّي صلاةَ العِشاءِ، فأركُدُ في الأوليَينِ وأخِفُّ في الأخرَيَينِ، قال: ذاك الظَّنُّ بك يا أبا إسحاقَ! فأرسل معه رجُلًا أو رجالًا إلى الكوفةِ، فسأل عنه أهلَ الكوفةِ ولم يَدَعْ مسجِدًا إلَّا سأل عنه، ويُثنون معروفًا، حتى دخل مسجِدًا لبني عَبسٍ، فقام رجلٌ منهم يقالُ له أسامةُ بنُ قتادةَ يُكنى أبا سعدةَ، قال: أمَا إذ نشَدْتَنا فإنَّ سعدًا كان لا يَسيرُ بالسَّريَّةِ، ولا يقسِمُ بالسَّويَّةِ، ولا يَعدِلُ في القَضيَّةِ! قال سعدٌ: أمَا واللهِ لأدعُوَنَّ بثلاثٍ: اللَّهُمَّ إن كان عبدُك هذا كاذِبًا، قام رياءً وسُمعةً، فأطِلْ عُمُرَه، وأطِلْ فَقْرَه، وعَرِّضْه بالفِتَنِ! وكان بَعدُ إذا سُئِل يقولُ: شيخٌ كبيرٌ مفتونٌ، أصابتني دعوةُ سعدٍ! قال عبدُ المَلِكِ -راوي الأثَرِ عن سَمُرةَ-: فأنا رأيتُه بَعْدُ قد سقَط حاجباه على عينَيه من الكِبَرِ، وإنَّه ليتعَرَّضُ للجواري في الطُّرُقِ يَغمِزُهنَّ![3819] [3820].

ب- ومنها أيضًا: قِصَّةُ سَعيدِ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه؛ فقد رَوى مُسلمٌ في صَحيحِه: ((أنَّ أروى بنتَ أُوَيسٍ ادَّعَت على سَعيدِ بنِ زَيدٍ أنَّه أخَذَ شَيئًا من أرضِها، فخاصَمَته إلى مَروانَ بنِ الحَكَمِ. فقال سَعيدٌ: أنا كُنتُ آخُذُ من أرضِها شَيئًا بَعدَ الذي سَمِعتُ من رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! قال: وما سَمِعتَ من رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: من أخَذَ شِبرًا من الأرضِ ظُلمًا طُوِّقَه إلى سَبعِ أرَضينَ. فقال له مَروانُ: لا أسألُك بَيِّنةً بَعدَ هذا! فقال: اللَّهمَّ إن كانت كاذِبةً فعَمِّ بَصَرَها، واقتُلْها في أرضِها. قال: فما ماتَت حتَّى ذَهبَ بَصَرُها، ثُمَّ بَينا هي تمشي في أرضِها إذ وقَعَت في حُفرةٍ فماتَت!))[3821].

ج- قِصَّةٌ أورَدها الهيتمي في كِتابه (الزَّواجِرُ عن اقتِراف الكبائِرِ) قال:

[3817] أخرجه البخاري (6952).

[3818] أخرجه مسلم (2584).

[3819] يَغمِزُهنَّ: أي: يَعصِرُ أعضاءَهنَّ بأصابِعِه. يُنظَر: ((إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري)) للقسطلاني (2/85).

[3820] رواه البخاري (755).

[3821] رواه البخاري (3198)، ومسلم (1610) واللفظ له.

(وقال بَعضُهم: رَأيتُ رَجُلًا مَقطوعَ اليدِ من الكَتِفِ، وهو يُنادي: مَن رَآني فلا يظلِمَنَّ أحَدًا! فتقدَّمتُ إليه وقُلتُ له: يا أخي، ما قِصَّتُك؟! فقال: يا أخي، قِصَّتي عَجيبةٌ، وذلك أنِّي كُنتُ من أعوانِ الظَّلَمةِ، فرَأيتُ يومًا صَيَّادًا قد اصطادَ سَمكةً كبيرةً، فأعجَبَتني، فجِئتُ إليه فقُلتُ: أعطِني هذه السَّمَكةَ. فقال: لا أُعطيكها، أنا آخُذُ بثَمَنِها قوتًا لعيالي! فضَرَبتُه وأخذتُها منه قَهرًا، ومَضَيتُ بها! قال: فبَينَما أنا ماشٍ بها حامِلَها إذ عَضَّت على إبهامي عَضَّةً قَويَّةً، فلمَّا جِئتُ بها إلى بيتي، وألقيتُها من يدي ضَرَبتْ عَلَيَّ إبهامي، وآلَمَتْني ألمًا شَديدًا، حتَّى لم أنَمْ من شِدَّةِ الوجَعِ، ووَرِمَتْ يدي، فلمَّا أصبَحتُ أتَيتُ الطَّبيبَ، وشَكوتُ إليه الألَمَ، فقال: هذه بُدُوُّ أَكِلةٍ ! اقطَعْها وإلَّا تَلِفَت يدُك كُلُّها! فقَطَعتُ إبهامي، ثُمَّ ضَرَبت يدي، فلم أُطِقِ النَّومَ ولا القَرارَ من شِدَّةِ الألمِ، فقيل لي: اقطَعْ كفَّك! فقَطَعتُها، وانتَشَرَ الألمُ إلى السَّاعِدِ، وآلمني ألمًا شَديدًا، ولم أُطِقِ النَّومَ ولا القَرارَ، وجَعلتُ أستَغيثُ من شِدَّةِ الألمِ، فقيل لي: اقطَعْها من المِرفَقِ! فانتَشَرَ الألمُ إلى العَضُدِ، وضَرَبَت عليَّ عَضُدي أشَدَّ من الألمِ، فقيل لي: اقطَعْ يدَك من كَتِفِك، وإلَّا سَرى إلى جَسَدِك كُلِّه! فقَطَعتُها، فقال لي بَعضُ النَّاسِ: ما سَبَبُ ألمِك؟ فذَكرتُ له قِصَّةَ السَّمَكةِ، فقال لي: لو كُنتَ رَجَعتَ من أوَّلِ ما أصابك الألمُ إلى صاحِبِ السَّمَكةِ، فاستَحلَلْتَ منه، واسترَضيتَه ولا قَطَعتَ يدَك! فاذهَبِ الآنَ إليه واطلُبْ رِضاه قَبل أن يصِلَ الألمُ إلى بَدَنِك! قال: فلم أزَلْ أطلُبُه في البَلدِ حتَّى وجَدتُه، فوقَعتُ على رِجلَيه أقبِّلُهما وأبكي! وقُلتُ: يا سَيِّدي، سَألتُك باللهِ إلَّا ما عَفوتَ عنِّي. فقال لي: ومَن أنت؟ فقُلتُ: أنا الذي أخَذتُ منك السَّمَكةَ غَصبًا! وذَكرتُ له ما جَرى وأريتُه يدي، فبكى حينَ رَآها! ثُمَّ قال: يا أخي، قد حالَلتُك منها؛ لِما قد رَأيتُ بك من هذا البَلاءِ. فقُلتُ له: باللهِ يا سَيِّدي، هَل كُنتَ دَعَوتَ عليَّ لَمَّا أخَذتُها منك؟ قال: نَعَم. قُلتُ: اللَّهمَّ، هذا تَقوَّى عليَّ بقوَّتِه على ضَعفي، وأخَذَ منِّي ما رَزَقتَني ظُلمًا، فأرِني فيه قُدرَتَك! فقُلتُ له: يا سَيِّدي، قد أراك اللهُ قُدرَتَه فيَّ، وأنا تائِبٌ إلى اللهِ عَزَّ وجَل عَمَّا كُنتُ عليه!)[3822].

د- كان أحمَدُ بنُ أبي دُؤادَ، ومُحَمَّدُ بنُ عُبدِ المَلِكِ بنِ الزَّيَّاتِ، وهَرثَمةُ، مِمَّن ظَلموا الإمامَ أحمَدَ في مِحنةِ القَولِ بخَلقِ القُرآنِ، فكانت نِهايتُهم عِبرةً لكُلِّ ظالمٍ؛ قال ابنُ كثيرٍ: (دَخَل عَبدُ العَزيزِ بنُ يحيى الكَتَّانيُّ - صاحِبُ كِتابِ الحَيدةِ- على المُتَوكِّل، وكان من خيارِ الخُلفاءِ -لأنَّه أحسَنَ الصَّنيعَ لأهلِ السُّنَّةِ، بخِلافِ أخيه الواثِقِ وأبيه المُعتَصِمِ وعَمِّه المَأمونِ؛ فإنَّهم أساؤوا إلى أهلِ السُّنَّةِ، وقَرَّبوا أهلَ البدَعِ والضَّلالِ من المُعتَزِلةِ وغَيرِهم- فأمَرَه أن يُنزِل جُثَّةَ أحمَدَ بنِ نَصرٍ ويَدفنَه، ففعل، وقد كان المُتَوكِّلُ يُكرِمُ الإمامَ أحمَدَ بنَ حَنبَلٍ إكرامًا زائِدًا جِدًّا. والمَقصودُ أنَّ عَبدَ العَزيزِ صاحِبَ كِتاب الحَيدةِ قال للمُتَوكِّل: يا أميرَ المُؤمِنين، ما رُئِيَ أعجَبُ مِن أمرِ الواثِقِ؛ قَتَل أحمدَ بنَ نَصرٍ، وكان لِسانُه يقرأُ القُرآنَ إلى أن دُفِنَ! قال: فوجد المتوكِّلُ من ذلك، وساءه ما سمِعَه في أخيه؛ إذ دخل عليه محمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ الزَّيَّاتُ، فقال له: يا ابنَ عَبدِ المَلِكِ، في قلبي مِن قَتلِ أحمدَ بنِ نَصرٍ! فقال: يا أميرَ المُؤمِنين، أحرَقَني اللَّهُ بالنَّارِ إنْ قَتَله أميرُ المُؤمِنين الواثِقُ إلَّا كافِرًا! قال: ودخَل عليه هَرثَمةُ، فقال: يا هَرثَمةُ: في قلبي مِن قَتلِ أحمدَ بنِ نَصرٍ! فقال: يا أميرَ المُؤمِنينَ، قَطَّعَني اللَّهُ إرْبًا إرْبًا إن قَتَله أميرُ المُؤمِنين الواثِقُ إلَّا كافِرًا! قال: ودخل عليه أحمدُ بنُ أبي دُؤادَ، فقال: يا أحمدُ، في قلبي مِن قَتلِ أحمدَ بنِ نَصرٍ! فقال: يا أميرَ المُؤمِنين، ضَرَبني اللَّهُ بالفالجِ إن قتَلَه أميرُ المُؤمِنين الواثقُ إلَّا كافِرًا! قال المتوكِّلُ: فأمَّا ابنُ الزَّيَّاتِ فأنا أحرَقْتُه بالنَّارِ، وأمَّا هَرثَمةُ فإنَّه هَرَب، وتبَدَّى، واجتاز بقبيلةِ خُزاعةَ، فعَرَفه رجُلٌ في الحَيِّ، فقال: يا مَعشَرَ خُزاعةَ، هذا الذي قَتَل ابنَ عَمِّكم أحمدَ بنَ

[3822] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (2/124).

نَصرٍ، فقَطَّعوه إرْبًا إرْبًا، وأمَّا ابنُ أبي دؤادَ فقد سجَنه اللَّهُ في جِلْدِه -يعني بالفالجِ- ضَرَبَه اللهُ قَبل مَوتِه بأربَعِ سِنينَ، وصودِرَ من صُلبِ مالِه بمالٍ جَزيلٍ جِدًّا!)[3823].

د- ذَكَرَ الذَّهَبيُّ أنَّ باديسَ بنَ حبوسٍ تَملَّك غرناطةَ، وكان سَفَّاكًا للدِّماءِ، وفيه عَدلٌ بجَهلٍ، يقولُ الذَّهَبيُّ: (استَعمَل أي: باديسُ بَعضَ أقارِبِه على بَلدٍ، فخَرَجَ يتَصَيَّدُ، فمَرَّ بشَيخِ قَريةٍ، فرَغِبَ في تَشريفِه بالضِّيافةِ، فأنزَله في أرضٍ فيها دولابٌ وفواكِهُ، فبادَرَ له بثَريدٍ في لبَنٍ وسُكَّرٍ، وقال: نَأتي بَعدُ بما تُحِبُّ. فرَماه برِجلِه وضَرب الشَّيخَ، ففرَّ الشَّيخُ، وأتى إلبيرةَ، فعَرَف المَلِكُ بما جَرى عليه، فقال: ارجِعْ واصبِرْ، وواعِدْه، ثُمَّ جاءَه بَعدَ أيَّامٍ في كبكَبةٍ منهم خَصمُه، فقدَّمَ الشَّيخُ للمَلِكِ مِثلَ ذلك الثَّريدِ، فتَناوله وأكَله واستَطابَه، ثُمَّ قال: خُذ بثَأرِك مِن هذا، فاضرِبْه! فاستَعظَمَ الشَّيخُ ذلك! فقال المَلِكُ: لا بُدَّ، فضَرَبه حتَّى اقتَصَّ منه! فقال المَلِكُ: هذا حَقُّ هذا، بَقيَ حَقُّ اللهِ في إهانةِ نِعمَتِه، وحَقِّي في اجتِراءِ العُمَّالِ؛ فضُرِبَ عنُقُه، وطِيفَ برَأسِه!)[3824].

هـ- امتُحِنَ وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ، وحُبِسَ، وضُرِبَ؛ ضَرَبَه يوسُفُ بنُ عُمَرَ أميرُ اليَمَنِ حتَّى قَتَله، وكان يوسُفُ جَبَّارًا عنيدًا، ثُمَّ إنَّه عُزِل عن العِراقِ وضُرِبَت عُنُقُه[3825].

المطلب العاشر: حُكمُ الظُّلمِ

ظُلمُ المُسلِمِ للمُسلِمِ حَرامٌ[3826]، وكُلُّ الظُّلمِ بأنواعِه مُحرَّمٌ[3827].

وقد ذَكَرَ الذَّهَبيُّ في الكبائِرِ: الظُّلمَ بأخذِ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ، وأكلَ مالِ اليتيمِ ظُلمًا[3828]. وذَكَرَ الهيتمي في الكبائِرِ: ظُلمَ السَّلاطينِ والأُمَراءِ والقُضاةِ وغَيرِهم، ومَحَبَّةَ الظَّلمةِ أو الفسَقةِ بأيِّ نَوعٍ كان فِسقُهم، وبُغضَ الصَّالحينَ، وتَرجيحَ إحدى الزَّوجاتِ على الأُخرى ظُلمًا وعُدوانًا[3829].

المطلب الحادِي عَشَرَ: أخطاءٌ شائِعةٌ

قال ابنُ خَلدونَ: (لا تَحسَبَنَّ الظُّلمَ إنَّما هو أخذُ المالِ أو المِلكِ من يدِ مالكِه من غَيرِ عِوَضٍ ولا سَبَبٍ، كما هو المَشهورُ، بَل الظُّلمُ أعَمُّ من ذلك، وكُلُّ من أخَذَ مِلكَ أحَدٍ أو غَصبَه في عَمَلِه أو طالبَه بغَيرِ حَقٍّ أو فرَضَ عليه حَقًّا لم يفرِضْه الشَّرعُ فقد ظَلمَه؛ فجُباةُ الأموالِ بغَيرِ حَقِّها ظَلَمةٌ، والمُعتَدونَ عليها ظَلمةٌ، والمُنتَهِبونَ لها ظَلمةٌ، والمانِعونَ لحُقوقِ النَّاسِ ظَلمةٌ، وغُصَّابُ الأملاكِ على العُمومِ ظَلمةٌ. ووَبالُ ذلك كُلِّه عائِدٌ على الدَّولةِ بخَرابِ العُمرانِ الذي هو مادَّتُها لإذهابِه الآمالَ مِن أهلِه)[3830].

المطلب الثاني عَشَرَ: مَسائِلُ مُتَفرِّقةٌ

[3823] ((البداية والنهاية)) (10/337).

[3824] ((سير أعلام النبلاء)) (18/ 591).

[3825] المصدر السابق (4/ 555).

[3826] ((فتح الباري)) لابن حجر (5/ 97).

[3827] ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (2/ 485).

[3828] ((الكبائر)) (ص:151، 218).

[3829] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (1/183) (2/60، 189).

[3830] ((المقدمة)) (2/699).

1- التَّحذيرُ من دَعوةِ المَظلومِ:

قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((واتَّقِ دَعوةَ المَظلومِ؛ فإنَّه ليس بَينَها وبَينَ اللهِ حِجابٌ))[3831].

(أي: مانِعٌ، بل هي مَعروضةٌ عليه تعالى. قال السُّيوطيُّ: أي: ليس لها ما يصرِفُها، ولو كان المَظلومُ فيه ما يقتَضي أنَّه لا يُستَجابُ لِمثلِه من كونِ مَطعَمِه حَرامًا أو نَحوِ ذلك، حتَّى ورَدَ في بَعضِ طُرُقِه «وإن كان كافِرًا» رواه أحمَدُ من حَديثِ أنَسٍ. قال ابنُ العَرَبيُّ: ليس بَينَ اللهِ وبَينَ شَيءٍ حِجابٌ عن قُدرتِه وعِلمِه، وإرادتِه، وسَمعِه وبَصَرِه، ولا يخفى عليه شَيءٌ، وإذا أخبَرَ عن شَيءٍ أنَّ بَينَه وبَينَه حِجابًا، فإنَّما يُريدُ مَنْعَه)[3832].

ولرُبَّما تَأخَّرَت إجابةُ الدَّعوةِ، ولكِنَّ اللهَ ليس بغافِلٍ عَمَّا يعمَلُ الظَّالمونَ؛ قال سبحانَه: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ [إبراهيم:42-43].

وقال ميمونُ بنُ مِهرانَ: في قَولِه تبارك وتعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ. قال: (تَعزيةٌ للمَظلومِ، ووعيدٌ للظَّالِمِ)[3833].

وقال بَعضُ ولَدِ خالدِ بنِ يحيى البَرَمَكيِّ له وهم في السِّجنِ والقُيودِ: يا أبَتِ، بَعدَ الأمرِ والنَّهيِ والنِّعمةِ صِرنا إلى هذا الحالِ! فقال: يا بُنَيَّ، دَعوةُ مَظلومٍ سَرَت بليلٍ، ونحن عنها غافِلونَ، ولم يَغفُلِ اللهُ عنها! ثُمَّ أنشَأ يقولُ:

رُبَّ قَومٍ قد غَدَوا في نِعمةٍ زَمَنًا والدَّهرُ رَيَّانُ غَدَقْ

سَكتَ الدَّهرُ زَمانًا عنهم ثُمَّ أبكاهم دَمًا حينَ نَطَقْ

وقال سُحنونُ بنُ سَعيدٍ: كان يزيدُ بنُ حاتِمٍ يقولُ: (واللهِ ما هِبتُ شَيئًا قَطُّ هَيبَتي رَجُلًا ظَلمتُه، وأنا أعلَمُ أنَّه لا ناصِرَ له إلَّا اللهُ، يقولُ لي: حَسيبُك اللهُ! بَيني وبَينَك اللهُ!)[3834].

وقيل لإبراهيمَ بنِ نَصرٍ الكَرمانيِّ: (إنَّ القَرمَطيَّ دَخَل مَكَّةَ وقَتَل فيها وفَعَل وصَنَعَ، فقُلتُ: قد كان ذاك، وقد كثُرَ الدُّعاءُ عليه، فلِمَ مُنِعَ الإجابة! فقال: لأنَّ فيهم عَشرَ خِصالٍ، فكيف يُستَجابُ لهم؟! فقُلتُ وما هنَّ؟! قال: أوَّلُه: أقَرُّوا باللهِ وتَرَكوا أمرَه. والثَّاني: قالوا: نُحِبُّ الرَّسولَ، ولم يتَّبعوا سُنَّتَه. والثَّالثُ: قَرَؤوا القُرآنَ ولم يعمَلوا به. والرَّابعُ: قالوا: نُحِبُّ الجَنَّةَ، وتَرَكوا طَريقَها. والخامِسُ: قالوا: نَكرَهُ النَّارَ، وزاحَموا طَريقَها. والسَّادِسُ: قالوا: إنَّ إبليسَ عَدُوُّنا فوافَقوه. والسَّابعُ: دَفَنوا أمواتَهم فلم يعتَبروا. والثَّامنُ: اشتَغَلوا بعُيوبِ إخوانِهم ونَسُوا عُيوبَهم. والتَّاسِعُ: جَمَعوا المالَ ونَسُوا الحِسابَ. والعاشِرُ: نَقَضوا القُبورَ وبَنَوا القُصورَ)[3835].

قال ابنُ القَيِّمِ: (سُبحانَ اللهِ! كم بَكت في تَنعُّمِ الظَّالمِ عَينُ أرمَلةٍ! واحتَرَقَت كَبِدُ يتيمٍ، وجَرَت دَمعةُ مِسكينٍ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ [المرسلات: 46]، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ [ص: 88]، ما ابيضَّ لونُ رَغيفِهم حتَّى اسودَّ لونُ ضَعيفِهم، وما سَمِنَت أجسامُهم حتَّى انتَحَلت أجسامُ ما استَأثَروا عليه، لا تَحتَقِرْ دُعاءَ المَظلومِ، فشَرَرُ قَلبِه مَحمولٌ بعَجيجِ صَوتِه إلى سَقفِ بَيتِك! ويحَك! نِبالُ أدعيتِه مُصيبةٌ وإن تَأخَّرَ الوقتُ! قَوسُه قَلبُه المَقروحُ، ووَتَرُه سَوادُ اللَّيلِ، وأُستاذُه صاحِبُ

[3831] رواه مسلم (19) من حديثِ معاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه. ورواه البخاري (1496)، ومسلم (19) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[3832] ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (3/260).

[3833] رواه ابنُ أبي حاتم في ((التفسير)) (7/2251)، والخرائطي في ((مساوئ الأخلاق)) (595).

[3834] ((سنن الصالحين)) لأبي الوليد الباجي (ص: 577).

[3835] رواه ابنُ عساكر في ((تاريخ دمشق)) (7/241).

"لأنصُرَنَّكِ ولو بَعدَ حينٍ"! وقد رَأيتَ ولكِنْ لستَ تعتَبِرُ، احذَرْ عَداوةَ من ينامُ وطَرْفُه باكٍ، يُقَلِّبُ وجهَه في السَّماءِ، يرمي سِهامًا ما لها غَرَضٌ سِوى الأحشاءِ منك! فرُبَّما ولعَلَّها إذا كانت راحةُ اللَّذَّةِ تُثمِرُ ثَمرةَ العُقوبةِ لم يحسُنْ تَناوُلُها، ما تُساوي لَذَّةُ سَنةٍ غَمَّ ساعةٍ! فكيف والأمرُ بالعَكسِ؟! كم في يَمِّ الغُرورِ من تِمساحٍ؛ فاحذَرْ يا غائِصُ! سَتَعلمُ أيُّها الغَريمُ قِصَّتَك عِندَ تعلُّقِ الغُرَماءِ بك!

إذا التَقى كُلُّ ذي دَينٍ وماطَلَه سَتَعلمُ ليلى أيَّ دينٍ تَداينَتْ.

من لم يتَتَبَّعْ بِمِنقاشِ العَدلِ شَوكَ الظُّلمِ من أيدي التَّصَرُّفِ أثَّرَ ما لا يُؤمَنُ تَعَدِّيه إلى القَلبِ!)[3836].

2- إعانةُ الظَّالمِ على ظُلمِه:

من يُعينُ الظَّالمَ فهو ظالمٌ مِثلُه، ومُشارِكٌ له في الإثمِ.

والظُّلمُ من الإثمِ والعُدوانِ، واللهُ سُبحانَه وتعالى أمرَ بالتَّعاوُنِ على البرِّ والتَّقوى، ونَهى عن التَّعاوُنِ على الإثمِ والعُدوانِ، فقال: وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [المائدة: 2]. وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((لعنَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آكِلَ الرِّبا وموكِلَه وكاتِبَه وشاهِدَيه، وقال: هم سَواءٌ))[3837].

قال النَّوويُّ: (هذا تَصريحٌ بتَحريمِ كِتابةِ المُبايعةِ بَينَ المُتَرابينَ والشَّهادةِ عليها، وفيه: تَحريمُ الإعانةِ على الباطِلِ)[3838].

وقال مَيمونُ بنُ مِهرانَ: (الظَّالمُ، والمُعينُ على الظُّلمِ، والمُحِبُّ له: سَواءٌ)[3839].

3- هل للظَّالمِ توبةٌ؟

بابُ التَّوبةِ مَفتوحٌ لكُلِّ من عَصى الله إذا تَوفَّرَت شُروطُها، قال تعالى: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: 110] ، وقال تعالى: فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [المائدة: 39] .

شُروطُ التَّوبةِ كما ذَكَرها العُلماءُ:

- أن يُقلِعَ عن الذَّنبِ.
- وأن يندَمَ على ما قد مَضى.
- وأن يعزِمَ في المُستَقبَلِ على ألَّا يعودَ إليه.
- وإذا كان الأمرُ يتَعلَّقُ بحُقوقِ الآدَميِّينَ -سَواءٌ بأموالِهم أو أعراضِهم أو أبدانِهم- فعليه أن يطلُبَ المُسامَحةَ مِمَّن له عليه حَقٌّ، أو يُؤَدِّيَ الحُقوقَ إلى أهلِها.

قال ابنُ القَيِّمِ: (والظُّلمُ عِندَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ له دَواوينُ ثَلاثةٌ: ديوانٌ لا يغفِرُ اللهُ منه شَيئًا، وهو الشِّركُ به؛ فإنَّ اللهَ لا يغفِرُ أن يُشرَكَ به. وديوانٌ لا يترُكُ اللهُ تعالى منه شَيئًا، وهو ظُلمُ العِبادِ بَعضِهم بَعضًا؛ فإنَّ اللهَ تعالى يستَوفيه كُلَّه. وديوانٌ لا يعبَأُ اللهُ به شَيئًا، وهو ظُلمُ العَبدِ نَفسَه بَينَه وبَينَ رَبِّه عَزَّ وجَلَّ؛ فإنَّ هذا الدِّيوانَ أخَفُّ الدَّواوينِ وأسرَعُها مَحوًا؛

[3836] ((بدائع الفوائد)) (3/762).

[3837] رواه مسلم (1598).

[3838] ((شرح صحيح مسلم)) للنووي (36/11).

[3839] رواه الخرائطي في ((مساوئ الأخلاق)) (ص: 279).

فإنَّه يُمحى بالتَّوبةِ والاستِغفارِ، والحَسَناتِ الماحيةِ، والمَصائِبِ المُكفِّرةِ، ونَحوِ ذلك. بخِلافِ ديوانِ الشِّركِ؛ فإنَّه لا يُمحى إلَّا بالتَّوحيدِ، وديوانُ المَظالمِ لا يُمحى إلَّا بالخُروجِ منها إلى أربابِها واستِحلالِهم منها)[3840].

وقال السَّمَرقَنديُّ: (ليس شَيءٌ من الذُّنوبِ أعظَمَ من الظُّلمِ؛ لأنَّ الذَّنبَ إذا كان بَينَك وبَينَ اللهِ تعالى فإنَّ اللهَ تعالى كريمٌ يتَجاوزُ عنك، فإذا كان الذَّنبُ بَينَك وبَينَ العِبادِ فلا حيلةَ لك سِوى رِضا الخَصمِ، فينبَغي للظَّالمِ أن يتوبَ عن الظُّلمِ، ويتَحَلَّلَ من المَظلومِ في الدُّنيا، فإذا لم يقدِرْ عليه فينبَغي أن يستَغفِرَ، ويدعوَ له، فإنَّه يُرجى أنَّه يُحَلِّلُه بذلك)[3841].

فَمَن ابتُلِيَ بشَيءٍ من الظُّلمِ فليتَحَلَّلْ منه، فليس في الآخِرةِ دينارٌ ولا دِرهَمٌ، وإنَّما هي الحَسَناتُ والسَّيِّئاتُ، يُؤخَذُ من حَسَناتِه بقدرِ مَظلمَتِه ويُعطى للمَظلومِ، فإن نَفِدَت حَسَناتُه أُخِذَ من سَيِّئاتِ المَظلومِ وحمَلَه الظَّالمُ؛ قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن كانت له مَظلَمةٌ لأحَدٍ من عِرضِه أو شَيءٍ فليتَحَلَّلْه منه اليومَ قَبل أن لا يكونَ دينارٌ ولا دِرهَمٌ، إن كان له عَمَلٌ صالحٌ أُخِذَ منه بقدرِ مَظلمَتِه، وإن لم تَكُنْ له حَسَناتٌ أُخِذَ من سَيِّئاتِ صاحِبِه فحُمِل عليه))[3842].

وعن أبي هرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لتُؤَدُّنَّ الحُقوقَ إلى أهلِها يومَ القيامةِ، حتَّى يُقادَ للشَّاةِ الجَلحاءِ من الشَّاةِ القَرناءِ[3843])[3844].

وعن عَبدِ الله بنِ أُنَيسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ -أو قال: العِبادُ- عُراةً غُرْلًا بُهْمًا[3845]، قال: قُلنا: وما بُهْمًا؟ قال: "ليس مَعَهم شَيءٌ، ثُمَّ يُناديهم بصَوتٍ يسمَعُه مَن بَعُدَ كما يسمَعُه مَن قَرُبَ: أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّانُ، ولا ينبَغي لأحَدٍ من أهلِ النَّارِ أن يدخُلَ النَّارَ وله عِندَ أحَدٍ من أهلِ الجَنَّةِ حَقٌّ، حتَّى أُقِصَّه منه، ولا ينبَغي لأحَدٍ من أهلِ الجَنَّةِ أن يدخُلَ الجَنَّةَ، ولأحَدٍ من أهلِ النَّارِ عِندَه حَقٌّ، حتَّى أُقِصَّه منه، حتَّى اللَّطمةَ. قال: قُلْنا: كيف وإنَّا إنَّما نَأتي اللهَ عَزَّ وجَل عُراةً غُرْلًا[3846] بُهمًا؟ قال: بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ))[3847].

وقال أبو الزِّنادِ: (كان عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ يرُدُّ المَظالمَ إلى أهلِها بغَيرِ البَيِّنةِ القاطِعةِ، كان يكتَفي باليسيرِ، إذا عَرَف وَجهَ مَظلَمةِ الرَّجُلِ رَدَّها عليه، ولم يُكلِّفْه تَحقيقَ البَيِّنةِ؛ لِما يَعرِفُ من غَشمِ الوُلاةِ قَبلَه على النَّاسِ، ولقد أنفَدَ بَيتَ مالِ العِراقِ في رَدِّ المَظالمِ، حتَّى حَمَل إليها من الشَّامِ)[3848].

وذَكَر صاحِبُ (العقدِ الفريد) قِصَّةً للمَأمونِ: (وأنَّه جَلسَ يومًا لرَدِّ المَظالمِ، فكان آخِرَ من تَقدَّم إليه - وقد همَّ بالقيامِ- امرأةٌ عليها هَيئةُ السَّفرِ، وعليها ثيابٌ رَثَّةٌ، فوقَفَت بَينَ يدَيه فقالت: السَّلامُ عليك يا أميرَ المُؤمنينَ ورَحمةُ اللهِ وبَرَكاتُه. فنَظَرُ المَأمونُ إلى يحيى بنِ أكثَمَ. فقال لها يحيى: وعليكِ السَّلامُ يا أَمَةَ اللهِ، تَكلَّمي بحاجَتِك. فقالت:

يا خيرَ مُنتَصِفٍ يُهدى له الرَّشَدُ

[3840] ((الوابل الصيب)) (1/24).

[3841] ((تنبيه الغافلين)) (ص: 377).

[3842] رواه البخاري (2449) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[3843] الجَلْحاءُ هي التي لا قَرْنَ لها. والقَرناءُ: هي التي لها قَرنٌ. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (16/137)، ((شرح المصابيح)) لابن الملك (5/361).

[3844] رواه مسلم (2582).

[3845] البُهمُ: جمعُ بهيمٍ، وهو في الأصلِ الذي لا يخالِطُ لونَه لونٌ سواه، يعني: ليس فيهم شيءٌ من العاهاتِ والأعراضِ التي تكونُ في الدُّنيا، كالعمى والعَوَرِ والعَرَجِ وغيرِ ذلك. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (1/167).

[3846] الغُرْلُ: جمعُ الأغرَلِ، وهو الأقلَفُ. ينظر ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (3/362).

[3847] رواه البخاريُّ معَلَّقًا بصيغة التضعيف قبل حديث (7481) مختصَرًا، ورواه موصولًا أحمد (16042) واللفظ له. صحَّحه الألباني في تخريج ((كتاب السنة)) (514)، وحسَّنه ابنُ القيم في ((مختصر الصواعق المُرسَلة)) (489)، وصحَّح إسناده الحاكم في ((المستدرك)) (3638)، وحسَّن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (4/218)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (5/283)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (10/354)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (16042).

[3848] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (ص: 241).

ويا إمامًا به قد أشرَقَ البَلَدُ
تشكو إليك -عميدَ القومِ- أرملةٌ
عُدي عليها فلم يُترَكْ لها سَبَدُ
وابتُزَّ مني ضياعي بعد مَنعَتِها
ظُلمًا وفُرِّقَ مني الأهلُ والوَلَدُ

فأطرَق المأمونُ حينًا، ثمَّ رفع رأسَه إليها، وهو يقولُ:
في دونِ ما قُلتِ زال الصَّبرُ والجَلَدُ
عني وأُقرِحَ مني القَلبُ والكَبِدُ
هذا أذانُ صلاةِ العَصرِ فانصَرِفي
وأحضري الخَصمَ في اليومِ الذي أعِدُ
فالمجلِسُ السَّبتُ إن يُقضَ الجُلوسُ لنا
نُنصِفْك منه وإلَّا المجلِسُ الأحَدُ

قال: فلمَّا كان يومُ الأحَدِ جَلسَ، فكان أوَّلَ من تَقدَّمَ إليه تلك المَرأةُ، فقالت: السَّلامُ عليك يا أميرَ المُؤمنينَ ورَحمةُ اللهِ وبَرَكاتُه. فقال: وعليكِ السَّلامُ، ثُمَّ قال: أينَ الخَصمُ؟ فقالت: الواقِفُ على رَأسِكِ يا أميرَ المُؤمنينَ -وأومَأتْ إلى العَبَّاسِ ابنِه!- فقال: يا أحمَدُ بنَ أبي خالدٍ، خُذْ بيدِه فأجلِسْه مَعَها مَجلِسَ الخُصومِ. فجَعل كلامُها يعلو كلامَ العَبَّاسِ. فقال لها أحمَدُ بنُ أبي خالدٍ: يا أمةَ اللهِ، إنَّكِ بَينَ يدَي أميرِ المُؤمنينَ، وإنَّكِ تُكَلِّمينَ الأميرَ، فاخفِضي من صَوتِك. فقال المَأمونُ: دَعْها يا أحمَدُ؛ فإنَّ الحَقَّ أنطَقَها والباطِلَ أخرَسَه. ثُمَّ قَضى لها بِرَدِّ ضَيعَتِها إليها، وظلَّمَ العَبَّاسَ بظُلمِه لها، وأمَرَ بالكِتابِ لها إلى العامِلِ الذي ببَلدِها أن يوغِرَ لها ضَيعَتَها، ويُحسِنَ مُعاونَتَها، وأمَرَ لها بنَفقةٍ)[3849].

4- الرُّكونُ إلى الظَّالِمينَ:

قال اللهُ تعالى: وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا [هود: 113]، قال القُرطُبيُّ: (قَولُه تعالى: إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا قيل: أهلُ الشِّركِ. وقيل: عامَّةٌ فيهم وفي العُصاةِ، على نَحوِ قَولِه تعالى: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا... الآية، وهذا هو الصَّحيحُ في مَعنى الآيةِ).

ومِن صُوَرِ الرُّكونِ إلى الظَّالمينَ: مَحَبَّتُهم، والرِّضا بأعمالِهم، ومُتابَعَتُهم ومُداهَنَتُهم، وإعانَتُهم على الظُّلمِ، والاعتِمادُ عليهم، والاستِعانةُ بهم في ظُلمِ الآخَرينَ[3850].

[3849] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (1/28).

[3850] ((العدل في القرآن الكريم)) لعبد الله آل حسين (ص: 133).

المبحث الخامس: الخيانة

المطلب الأول: معنى الخيانةِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى الخيانةِ لُغةً:**

الخيانةُ: نقيضُ الأمانةِ، وأصلُ الخَونِ النَّقص؛ لأنَّ الخائِنَ يَنقُصُ المخونَ شيئًا ممَّا خانه فيه؛ يُقالُ: خانه خونًا وخيانةً ومَخانةً، واختانه، فهو خائِنٌ وخائنةٌ وخَؤُونٌ وخَوَّانٌ، وخائنةُ الأعيُنِ: ما تخونُ به من مُسارقةِ النَّظَرِ إلى ما لا يحِلُّ له[3851].

- **معنى الخيانةِ اصطِلاحًا:**

قال الرَّاغِبُ: (الخيانةُ مُخالَفةُ الحَقِّ بنَقضِ العَهدِ في السِّرِّ)[3852]. (والأظهَرُ أنَّها شامِلةٌ لجميعِ التَّكاليفِ الشَّرعيَّةِ)[3853].

وقيل: هي (الاستبدادُ بما يؤتَمَنُ الإنسانُ عليه من الأموالِ والأعراضِ والحُرَمِ، وتملُّكُ ما يُستودَعُ، ومجاحَدةُ مودِعِه)[3854].

وقيل: (الخيانةُ: التَّفريطُ فيما يؤتَمَنُ الإنسانُ عليه)[3855].

وقال ابنُ عاشورٍ: (وحقيقةُ الخيانةِ: عَمَلُ مَن اؤتمِنَ على شيءٍ بضِدِّ ما اؤتُمِنَ لأجلِه، بدونِ عِلمِ صاحِبِ الأمانةِ)[3856].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الخيانةِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الخيانةِ والسَّرِقةِ:**

قال ابنُ قُتَيبةَ: (لا يكادُ النَّاسُ يُفَرِّقون بَيْنَ الخائِنِ والسَّارِقِ.

والخائِنُ: الذي ائتُمِنَ فأخَذَ، قال النَّمِرُ بنُ تَولَبٍ:

وإنَّ بني ربيعةَ بَعدَ وَهبٍ

كراعي البَيتِ يحفَظُه فخانا!

والسَّارِقُ من سرَقَك سِرًّا بأيِّ وجهٍ كان، يُقالُ: كُلُّ خائنٍ سارِقٌ، وليس كُلُّ سارِقٍ خائِنًا)[3857].

[3851] يُنظَر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري، ((الصحاح)) للجوهري، ((مفردات ألفاظ القرآن)) للراغب الأصفهاني (ص: 305)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروز آبادي (2/582)، ((تاج العروس)) للزبيدي.

[3852] يُنظَر: ((مفردات ألفاظ القرآن)) (ص: 305).

[3853] يُنظَر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري.(8/229)

[3854] يُنظَر: ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص: 31).

[3855] ((نزهة الأعين النواظر)) لابن الجوزي (ص: 281).

[3856] يُنظَر: ((التحرير والتنوير)) (24/174)

[3857] يُنظَر: ((أدب الكاتب)) (ص: 35).

- **الفَرْقُ بَيْنَ الخيانةِ والنِّفاقِ:**

(الخيانةُ والنِّفاقُ واحِدٌ، إلَّا أنَّ الخيانةَ تقالُ اعتِبارًا بالعَهدِ والأمانةِ، والنِّفاقُ يُقالُ اعتبارًا بالدِّينِ)[3858].

- **الفَرْقُ بَيْنَ النَّقضِ والخيانةِ:**

أنَّ الخيانةَ تقتضي نقضَ العَهدِ سِرًّا، أمَّا النَّقضُ فإنَّه يكونُ سِرًّا وجَهرًا، ومِن ثَمَّ يكونُ النَّقضُ أعَمَّ من الخيانةِ ويُرادِفُه الغَدرُ، وضِدُّ الخيانةِ الأمانةُ، وضِدُّ النَّقضِ: الإبرامُ[3859].

المطلب الثالث: ذَمُّ الخيانةِ والنَّهيُ عنها

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

1- قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج: 38].

قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} أي: لا يحِبُّ مِن عبادِه من اتَّصف بهذا، وهو الخيانةُ في العُهودِ والمواثيقِ، لا يفي بما قال)[3860]. والخوَّانُ: هو كثيرُ الخيانةِ[3861]، قال أهلُ اللُّغةِ: الخوَّانُ الفَعَّالُ من الخيانةِ، وهو المبالغةُ في الخيانةِ[3862].

2- وقال سُبحانه: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: 58].

(يقولُ تعالى ذِكْرُه: وإمَّا تخافَنَّ -يا محمَّدُ- من عَدُوٍّ لك بينَك وبَينَه عَهدٌ وعَقدٌ أن ينكُثَ عَهدَه، وينقُضَ عَقدَه، ويَغدِرَ بك، وذلك هو الخيانةُ والغَدرُ، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ. يقولُ: فناجِزْهم بالحَربِ، وأعلِمْهم قَبلَ حَربِك إيَّاهم أنَّك قد فسَخْت العهدَ بَينَك وبَيْنَهم؛ بما كان منهم من ظهورِ آثارِ الغَدرِ والخيانةِ منهم؛ حتَّى تصيرَ أنت وهم على سواءٍ في العلمِ بأنَّك لهم محارِبٌ، فيأخُذوا للحربِ آلَتَها، وتبرَأَ من الغَدرِ؛ إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ الغادِرين بمَن كان منه في أمانٍ وعهدٍ بَينَه وبَينَه أن يَغدِرَ، فيُحارِبَه قبلَ إعلامِه إيَّاه أنَّه له حَربٌ وأنَّه قد فاسَخه العَقدَ)[3863].

3- وقال عزَّ مِن قائِلٍ: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [النساء: 105-108].

[3858] يُنظَر: ((مفردات ألفاظ القرآن)) للراغب الأصفهاني (ص: 305).

[3859] يُنظَر: ((نضرة النعيم)) (11/ 5633)

[3860] يُنظَر: ((تفسير القرآن العظيم)) (5/433)

[3861] ((تفسير السمعاني)) (3/ 441)

[3862] ((بحر العلوم)) للسمرقندي (2/ 461)

[3863] يُنظَر: ((جامع البيان)) للطبري (11/238-239).

قال السَّعديُّ: (قولُه: {وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} أي: لا تُخاصِمْ عمَّن عرَفْتَ خيانتَه من مُدَّعٍ ما ليس له، أو مُنكِرٍ حَقًّا عليه، سواءٌ عَلِم ذلك أو ظَنَّه؛ ففي هذا دليلٌ على تحريمِ الخُصومةِ في باطِلٍ، والنِّيابةِ عن المبطِلِ في الخُصوماتِ الدِّينيَّةِ والحُقوقِ الدُّنيويَّةِ)[3864].

وهذا الخِطابُ لم يَكُنْ مُوَجَّهًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاصَّةً، وإنَّما هو تشريعٌ وُجِّهَ إلى المكلَّفين كافَّةً؛ فهؤلاء الخائنون يوجَدون في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، وفي جَعلِ النَّهي بصيغةِ الخطابِ له -وهو أعدَلُ النَّاسِ وأكمَلُهم- مبالغةٌ في التَّحذيرِ مِن هذه الخَلَّةِ المعهودةِ من الحُكَّامِ[3865]، وقولُه: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ} يشمَلُ النَّهيَ عن المجادَلةِ عمَّن أذنب وتوجَّه عليه عقوبةٌ مِن حَدٍّ أو تعزيرٍ؛ فإنَّه لا يجادِلُ عنه بدَفعِ ما صدَر منه من الخيانةِ، أو بدَفعِ ما ترتَّب على ذلك من العُقوبةِ الشَّرعيَّةِ[3866].

ولْيَعلَمِ الجميعُ أنَّ الخائِنَ لغَيرِه خائنٌ في الحقيقةِ لنفسِه؛ حيثُ أوقعها في المآثِمِ والخيانةِ، فلا يظُنَّ الخائِنُ الذي يكتَسِبُ بخيانتِه ما يكتَسِبُ أنَّه رابحٌ، بل هو خائنٌ لنَفسِه[3867].

4- وقال سُبحانَه: {قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} [يوسف: 51-52].

قال السَّعديُّ في قولِه تعالى حكايةً عن امرأةِ العزيزِ: ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ. (يحتَمِلُ أنَّ مُرادَها بذلك زَوجُها، أي: ليعلَمَ أنِّي حينَ أقرَرْتُ أنِّي راودتُ يوسُفَ، أنِّي لم أخُنْه بالغيبِ، أي: لم يَجرِ منِّي إلَّا مجرَّدُ المراوَدةِ، ولم أفسِدْ عليه فِراشَه، ويحتَمِلُ أنَّ المرادَ بذلك: ليَعلَمَ يوسُفُ حينَ أقرَرْتُ أنِّي أنا الذي راوَدْتُه وأنَّه صادِقٌ، أنِّي لم أَخُنْه في حالِ غيبتِه عنِّي. وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ؛ فإنَّ كُلَّ خائنٍ لا بدَّ أن تعودَ خيانتُه ومَكْرُه على نفسِه، ولا بدَّ أن يتبيَّنَ أمرُه). فاللهُ تعالى عاقَب كُلَّ خائنٍ بأنَّه يُضِلُّ كَيدَه ويُبطِلُه، ولا يَهديه لمقصودِه، وإن نال بعضَه؛ فالذي ناله سببٌ لزيادةِ عُقوبتِه وخَيبتِه[3868].

ب- مِنَ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

1- عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ النَّبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافِقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ، كانت فيه خَصلةٌ مِن النِّفاقِ حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خان، وإذا حَدَّث كَذَب، وإذا عاهَدَ غَدَر، وإذا خاصَمَ فَجَر))[3869].

[3864] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 199)

[3865] يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (5/323)

[3866] المصدر السابق.

[3867] يُنظر: ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 200)

[3868] يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (1/359)

[3869] أخرجه البخاري (34) واللفظ له، ومسلم (58)

2- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((آيةُ المُنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كَذَب، وإذا وعَد أخلَفَ، وإذا اؤتُمِن خان)) . فبيَّن الحديثُ بعضَ صِفاتِ المُنافِقِ، ومنها خيانةُ الأمانةِ (يعني: إذا ائتمنه النَّاسُ على أموالِهم أو على أسرارِهم أو على أولادِهم أو على أيِّ شيءٍ من هذه الأشياءِ، فإنَّه يخونُ -والعياذ باللهِ- فهذه من علاماتِ النِّفاقِ)[3870].

(قال المُهلَّبُ: والمرادُ بالحديثِ -والله أعلَمُ- من يكونُ الكَذِبُ غالِبًا على كلامِه، ومستوليًا على حديثِه، والخيانةُ على أمانتِه، والخُلْفُ على مواعيدِه، فإذا كان هذا شأنَه قَوِيت العلامةُ والدَّلالةُ، وأمَّا من كان الكَذِبُ على حديثِه نادرًا في خبرِه تافِهًا، والخيانةُ في أمانتِه شاذَّةً يُدَّعى العُذرُ فيها، والخُلفُ في أوعادِه مثلَ ذلك، معتَذِرٌ بآفاتٍ منعَتْه من الإنجازِ- فلا يُقضى عليه بالنَّادِرِ اليسيرِ؛ إذ لا يمكِنُ أن يَسلَمَ أحدٌ من كَذِبٍ)[3871].

3- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((اللَّهُمَّ إني أعوذُ بك من الجوعِ؛ فإنَّه بئسَ الضَّجيعُ، وأعوذُ بك من الخيانةِ؛ فإنَّها بِئسَت البِطانةُ[3872])[3873]. أي: ألجأُ إليك وألوذُ وأعتَصِمُ بك من الخيانةِ، وهي نقضُ العهدِ والأماناتِ سواءٌ من أن تَقَعَ منه أو تقَعَ من غيرِه عليه، فإنَّها أسوَأُ ما يُبطِنُه الإنسانُ من خيانةٍ وغَدرٍ، وهي أذَمُّ المساوئِ التي قد يُضمِرُها الإنسانُ في نفسِه، والجوعُ والخيانةُ إذا صاحبَا العبدَ فإنَّهما يحَوِّلانِه إلى شخصٍ ضعيفٍ، ويتمكَّنانِ منه بحيثُ يُصبِحُ بَيْنَهما مِن التَّلازُمِ كأنَّهما متلاصِقانِ وتوءَمانِ؛ فوجبَ الاستعاذةُ منهما؛ لأنَّهما يُفسِدانِ حالَ المرءِ[3874].

4- وعن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خيرُكم قَرْني، ثمَّ الذين يَلُونهم، ثمَّ الذين يَلُونهم -قال عِمرانُ: لا أدري أذَكَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ قَرنَينِ أو ثلاثةٍ- قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ بَعدَكم قومًا يخونون ولا يُؤتَمنون، ويَشهَدون ولا يُستَشهَدون، ويَنذِرون ولا يفون، ويَظهَرُ فيهم السِّمَنُ))[3875].

ذكَر النَّوويُّ في معنى: ((يخونون ولا يُؤتَمنون)): (أنَّهم يخونون خيانةً ظاهِرةً، بحيثُ لا يبقى معها أمانةٌ، بخلافِ من خان بحقيرٍ مرَّةً واحدةً؛ فإنَّه يَصدُقُ عليه أنَّه خان، ولا يخرُجُ به عن الأمانةِ في بعضِ المواطِنِ)[3876].

5- عن عياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيِّ، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال ذاتَ يومٍ في خُطبتِه: ((ألا إنَّ رَبِّي أمَرَني أن أعلِّمَكم ما جَهِلتُم، ممَّا عَلَّمَني يومي هذا... قال: وأهلُ النَّارِ خمسةٌ: الضَّعيفُ الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تَبَعًا لا يَبتغون أهلًا ولا مالًا، والخائِنُ الذي لا يخفى له طَمَعٌ وإن دَقَّ إلَّا خانه، ورجُلٌ لا يُصبِحُ ولا يُمسي إلَّا وهو يخادِعُك عن أهلِك ومالِك...))[3877].

[3870] يُنظَر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (4/48)

[3871] يُنظَر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال(91 /1)

[3872] البِطانةُ: الخَصلةُ الباطِنةُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لملا علي القاري(4/1711)

[3873] أخرجه أبو داود (1547)، والنسائي (5468)، وابن ماجه (3354). صحَّحه ابن حبان في ((صحيحه)) (1029)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (5468)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (3/88)، وصحَّح إسنادَه النووي في ((الأذكار)) (484)، وقوَّاه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود))(1547)

[3874] يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (4/ 1711)، ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمناوي (224 /1)

[3875] أخرجه البخاري (2651) واللفظ له، ومسلم (2535)

[3876] يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (16/88)

[3877] أخرجه مسلم (2865)

قَولُه: ((الخائِنُ الذي لا يخفى له طَمَعٌ وإن دَقَّ إلَّا خانه)) أي: لا يخفى عليه شيءٌ ما يمكِنُ أن يطمعَ فيه، وإن دَقَّ بحيثُ لا يكادُ يُدرَكُ، إلَّا وهو يسعى في التَّفحُّصِ عنه والتَّطلُّعِ عليه، حتى يجِدَه فيخونَه، وهذا هو الإغراقُ في الوَصفِ بالخيانةِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ (خَفِي) من الأضدادِ، والمعنى: لا يظهَرُ له شيءٌ يطمَعُ فيه إلَّا خانه[3878].

والحديثُ فيه كثيرٌ من صفاتِ بعضِ المُستحقِّين للنَّارِ؛ فمِن أبرَزِهم الخوَّانُ الذي إذا اؤتُمِن على القليلِ أو الكثيرِ خان، الطَّامِعُ في الكبيرِ والحقيرِ، والمخادِعُ الغشَّاشُ الخبيثُ الذي لا يُؤتَمَنُ على أهلٍ ولا مالٍ[3879].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- عن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (إذا كانت في البيتِ خيانةٌ ذَهَبت منه البركةُ)[3880].

- وعن خالِدٍ الرَّبعيِّ قال: كان يُقالُ: (إنَّ من أجدَرِ الأعمالِ ألَّا تُؤَخَّرَ عُقوبتُه، أو يُعَجَّلَ عُقوبتُه: الأمانةَ تُخانُ، والرَّحِمَ تُقطَعُ، والإحسانَ يُكفَرُ)[3881].

- وعن مجاهِدٍ قال: (المَكرُ والخديعةُ والخيانةُ في النَّارِ، وليس من أخلاقِ المُؤمِنِ المكرُ ولا الخيانةُ)[3882].

- وعن ميمونَ بنِ مِهرانَ قال: (ثلاثةٌ المُسلِمُ والكافِرُ فيهنَّ سواءٌ: من عاهَدْته وَفِّ بعَهدِه مُسلِمًا كان أو كافِرًا؛ فإنَّما العهدُ للهِ عزَّ وجَلَّ، ومَن كانت بينك وبينَه رَحِمٌ فصِلْها مُسلِمًا كان أو كافِرًا، ومَن ائتَمَنَك على أمانةٍ فأَدِّها إليه مُسلِمًا كان أو كافِرًا).

- وقال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: (أصلُ الإيمانِ عِندَنا وفَرعُه وداخِلُه وخارِجُه بعدَ الشَّهادةِ بالتَّوحيدِ، وبَعدَ الشَّهادةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالبلاغِ، وبعدَ أداءِ الفرائضِ- صِدقُ الحديثِ، وحِفظُ الأمانةِ، وتَركُ الخيانةِ، ووفاءٌ بالعَهدِ، وصِلةُ الرَّحِمِ، والنَّصيحةُ لجَميعِ المُسلِمين)[3883].

- وقال الماوَرْديُّ: (وأمَّا الاستِسرارُ بالخيانةِ فضَعةٌ؛ لأنَّه بِذُلِّ الخيانةِ مَهِينٌ، ولقِلَّةِ الثِّقةِ به مُستكينٌ. وقد قيل في منثورِ الحِكَمِ: من يَخُنْ يَهُنْ. وقال خالِدٌ الرَّبعيُّ: قرأتُ في بعضِ الكُتُبِ السَّالفةِ: أنَّ ممَّا تُعَجَّلُ عقوبتُه ولا تؤخَّرُ: الأمانةَ تخانُ، والإحسانَ يُكفَرُ، والرَّحِمَ تُقطَعُ، والبَغيَ على النَّاسِ.

ولو لم يكُنْ مِن ذَمِّ الخيانةِ إلَّا ما يجِدُه الخائِنُ في نفسِه من المذَلَّةِ، لكفاه زاجِرًا، ولو تصوَّر عُقبى أمانتِه وجَدوى ثقتِه، لعَلِمَ أنَّ ذلك من أربَحِ بضائِعِ جاهِه، وأقوى شُفَعاءِ تقَدُّمِه، مع ما يجِدُه في نفسِه من العِزِّ، ويقابَلُ عليه من الإعظامِ)[3884].

- وقال ابنُ حزمٍ: (الخيانةُ في الحُرَمِ أشَدُّ من الخيانةِ في الدِّماءِ)[3885].

[3878] ((تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة)) للبيضاوي (3/ 254)

[3879] ((فتح المنعم شرح صحيح مسلم)) لموسى شاهين لاشين (10/ 481)

[3880] أخرجه الخرائطي في ((مكارم الأخلاق)) (167)

[3881] المصدر السابق (168)

[3882] المصدر السابق (174)

[3883] رواه ابنُ عساكر في ((تاريخ دمشق)) (48/399)

[3884] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 325). ويُنظر أيضًا: ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (168)

[3885] يُنظَر: ((الأخلاق والسير)) (ص: 80).

المطلب الرابع: آثارُ الخيانةِ

1- تُسخِطُ اللهَ عزَّ وجَلَّ على العبدِ.

2- طريقٌ مُوصِلٌ إلى العارِ في الدُّنيا، والنَّارِ في الآخِرةِ.

3- انتِشارُ الخيانةِ في المجتَمَعِ من علاماتِ اضمِحلالِه.

4- انتِشارُ الغُلولِ والرِّشوةِ والمطْلِ والغِشِّ؛ لأنَّها كُلَّها من الخيانةِ[3886].

5- فِقدانُ الثِّقةِ بَيْنَ أفرادِ المجتَمَعِ.

6- تفكُّكُ أواصِرِ المحبَّةِ والتَّعاوُنِ بَيْنَ أفرادِ المجتَمَعِ.

7- أنَّها تُسَبِّبُ المهانةَ والذُّلَّ لصاحِبِها.

8- انتِشارُ الفسادِ والمحسوبيَّةِ، وضياعُ الحقوقِ.

9- تسلُّطُ الأعداءِ إذا كانت الخيانةُ للأوطانِ.

10- انتِهاكُ الأعراضِ واختِلاطُ الأنسابِ، وذلك في الخيانةِ الزَّوجيَّةِ.

المطلب الخامس: صُوَرُ الخيانةِ

1- خيانةُ اللهِ ورَسولِه:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: 27 - 28].

قال ابن حجر الهيتمي: (أمَّا خيانةُ اللهِ ورَسولِه فمَعصيتُهما، وأمَّا خيانةُ الأماناتِ فكُلُّ أحدٍ مؤتَمَنٌ على ما كلَّفه اللهُ به، فهو سُبحانَه مُوقِفُه بَيْنَ يديه، ليس بَينَه وبَينَه تَرجمانٌ، وسائِلُه عن ذلك: هل حَفِظ أمانةَ اللهِ فيه أو ضَيَّعها؟ فلْيَستعِدَّ الإنسانُ بماذا يجيبُ اللهَ تعالى به إذا سأله عن ذلك؛ فإنَّه لا مساغَ للجَحدِ ولا للإنكارِ في ذلك اليومِ، وليتأمَّلْ قَولَه تعالى: {وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} [يوسف: 52]، أي: لا يرشِدُ كَيدَ من خان أمانتَه، بل يحرِمُه هدايتَه في الدُّنيا، ويفضَحُه على رُؤوسِ الأشهادِ في العُقبى، فالخيانةُ قبيحةٌ في كُلِّ شيءٍ)[3887].

2- خيانةُ النَّفسِ:

وهي أن يفعَلَ المرءُ من الذُّنوبِ ما لا يَطَّلِعُ عليه إلَّا اللهُ، ويخونَ به أمرَ اللهِ تعالى بألَّا يفعَلَ، مثلَما وقع من بعض المُسلِمين من الرَّفَثِ إلى النِّساءِ ليلةَ الصِّيامِ؛ فعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: كان المُسلِمون في شهرِ رمَضانَ إذا صلَّوا العِشاءَ حَرُم عليهم النِّساءُ والطَّعامُ في شَهرِ رمَضانَ بعدَ العِشاءِ؛ منهم عُمَرُ بنُ الخطَّابِ، فشَكَوا ذلك إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

[3886] يُنظَر: ((نضرة النعيم)) (10/4479).

[3887] يُنظَر: ((الزواجر)) (1/443، 444).

وسلَّم، فأنزل اللهُ تعالى: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ} [البقرة: 187] ، وقولُه تعالى: تَخْتَانُونَ من الاختيانِ، وهو أبلَغُ من الخيانةِ، كالاكتِسابِ من الكَسْبِ[3888].

3- خيانةُ النَّاسِ، وهي أنواعٌ:

- **الخيانةُ في الأموالِ:** وتتمثَّلُ في أكلِ المالِ الذي يؤتَمَنُ عليه الإنسانُ، ومن ذلك مالُ الوديعةِ؛ قال ابنُ عُثَيمين في قولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا اؤتُمِن خان)) قال: (إذا ائتَمنه إنسانٌ على شيءٍ خانه؛ فمَثَلًا إذا أُعطِيَ وديعةً، وقيل له: خُذْها احفَظْها، دراهِمُ أو ساعةٌ أو قَلَمٌ أو متاعٌ أو غيرُ ذلك، فيستعمِلُها لنَفسِه، أو يترُكُها فلا يحفَظُها في مكانِها، أو يخبِرُ بها من يتسَلَّطُ عليه ويأخُذُها، المهِمُّ أنَّه لا يؤدِّي الأمانةَ فيها)[3889].

ومن ذلك الخيانةُ بالتَّطفيفِ في الميزانِ، فقال سُبحانَه: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: 1-6].

وقال تعالى حاكيًا قولَ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ لقَومِه: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} [الشعراء: 181-182].

ومن ذلك خيانةُ الشَّريكِ لشَريكِه.

- **إفشاءُ السِّرِّ:** وقد تكونُ خيانةُ النَّاسِ بإفشاءِ السِّرِّ الذي يؤتَمَنُ عليه الإنسانُ.

وأكثَرُ ما تكونُ الخيانةُ في إفشاءِ الأسرارِ الخاصَّةِ، مِثلُ عَوراتِ البيوتِ، وأسرارِ العائلاتِ، والأزواجِ... فليتَّقِ اللهَ من يطَّلِعُ على شيءٍ من ذلك إذا ائتمَنه عليه أصحابُ الشَّأنِ؛ لاستشارةٍ، أو لقيامٍ بَيْنَهم بصُلحٍ.

كما يكونُ ذلك الإفشاءُ وخيانةُ الأمانةِ ممَّن يطَّلِعون بحُكمِ عِلمِهم على أسرارِ النَّاسِ، كالأطبَّاءِ والمُمَرِّضاتِ، فهؤلاء يَعلَمون من أسرارِ المرضى ما لا ينبغي أن يُذاعَ، وكذلك من يقومون بغَسلِ الموتى، وتكفينِهم ودفنِهم، فقد وجَب عليهم ألَّا يخونوا أماناتِهم، وأن يحفَظوا ما عَلِموا سِرًّا[3890].

(وقال الحسَنُ: إنَّ من الخيانةِ أن تحَدِّثَ بسِرِّ أخيك. ويُروى أنَّ معاويةَ رَضِيَ اللهُ عنه أسَرَّ إلى الوليدِ بنِ عُتبةَ حَديثًا، فقال لأبيه: يا أبتِ، إنَّ أميرَ المُؤمِنين أسَرَّ إليَّ حديثًا، وما أراه يطوي عنك ما بسَطه إلى غيرِك. قال: فلا تحَدِّثْني به؛ فإنَّ من كتَم سِرَّه كان الخيارُ إليه، ومن أفشاه كان الخيارُ عليه. قال: فقُلتُ: يا أبتِ، وإنَّ هذا ليَدخُلُ بَيْنَ الرَّجُلِ وبَينَ ابنِه؟! فقال: لا واللهِ يا بُنَيَّ، ولكِنْ أحِبُّ ألَّا تُذَلِّلَ لسانَك بأحاديثِ السِّرِّ، قال: فأتيتُ مُعاويةَ فأخبَرْتُه. فقال: يا وَليدُ، أعتَقَك أخي من رِقِّ الخَطَأِ)[3891].

[3888] يُنظَر: ((أخلاق المُنافِقين)) ليعقوب المليجي (ص: 84).

[3889] يُنظَر: ((شرح رياض الصالحين)) (6/164)

[3890] يُنظَر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (6/164)

[3891] أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (407)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (38/271)

- **الخيانةُ في النَّصيحةِ:** ومِن صُوَرِ خيانةِ النَّاسِ كذلك الخيانةُ في النَّصيحةِ، كمَن يُزَكِّي فاسِقًا، أو يُخفي مالًا مسروقًا، أو يُؤوي مجرِمًا، أو يُعينُ قاطِعَ طَريقٍ، أو من ينصَحُ غيرَه بما يؤذيه في الدُّنيا أو الآخرةِ من الإفسادِ وقطيعةِ الرَّحِمِ[3892].

- **الخيانةُ الزَّوجيَّةِ:** وهي من أبشَعِ صُوَرِ الخيانةِ: خيانةُ الزَّوجةِ لزَوجِها في مالِه وعِرضِه، بالسَّرِقةِ والزِّنا، وخيانةُ الرَّجُلِ لزوجتِه بالسَّرِقةِ والزِّنا كذلك[3893].

- **الخيانةُ في الوِلاياتِ:** كأن يكونَ الإنسانُ وَليًّا على يتيمٍ؛ على مالِه وحَضانتِه وتربيتِه، فيُهمِلَ مالَه، ولا يقومَ بالواجِبِ، أو يأكُلَ مالَه، وقد قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا [النساء: 10].

- **ومِن صُوَرِ الخيانةِ أيضًا:** عَدَمُ القيامِ بواجِبِ التَّربيةِ في الأهلِ والأولادِ، وقد ائتمنه اللهُ عليهم؛ قال جَلَّ وعلا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [التحريم: 6][3894].

المطلب السادس: أسبابُ الوُقوعِ في الخيانةِ

1- إهمالُ تربيةِ النَّشءِ مع فسادِ البيئةِ المحيطةِ.

2- الصُّحبةُ السَّيِّئةُ.

3- ضَعفُ الإيمانِ باللهِ تعالى.

4- عَدَمُ التَّأمُّلِ في العواقِبِ الوخيمةِ للخيانةِ.

5- حُبُّ الدُّنيا والسَّعيُ وراءَ ملَذَّاتِها وشَهَواتِها، حتَّى وإن نالها بالخيانةِ لأهلِه ونفسِه ودينِه ودولتِه.

6- عدَمُ الاهتمامِ بالتَّحَلِّي بمكارِمِ الأخلاقِ كخُلُقِ الأمانةِ.

قال الماوَرْديُّ: (الدَّاعي إلى الخيانةِ شَيئانِ: المهانةُ وقِلَّةُ الأمانةِ، فإذا حسَمَهما عن نفسِه ظَهَرت مروءتُه)[3895].

المطلب السابع: الوسائِلُ المعينةُ على تَركِ الخيانةِ

1- العَمَلُ على تقويةِ الإيمانِ.

2 - تربيةُ الأبناءِ على الأخلاقِ الحميدةِ، مِثلُ الوفاءِ والصِّدقِ والأمانةِ.

3 – مَعرفةُ عُقوبةِ الخيانةِ، والتَّأمُّلُ في الآثارِ الوخيمةِ للخيانةِ.

4 – عدَمُ الهَرولةِ وراءَ الدُّنيا؛ حتى لا يضطَرَّه ذلك إلى تحقيقِ رَغَباتِه حتَّى ولو بالخيانةِ لنَفسِه ودينِه وبلادِه.

[3892] يُنظَر: ((أخلاق المُنافِقين)) ليعقوب المليجي (ص: 84).

[3893] المصدر السابق.

[3894] يُنظَر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (6/164)

[3895] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 326) بتصرفٍ يسيرٍ.

5 - البُعدُ عن أصدقاءِ السُّوءِ، ومجالسةُ أهلِ الصَّلاحِ.

6- البَحثُ عن القُدوةِ الصَّالحةِ.

المطلب الثامن: نماذِجُ من الخيانةِ

1- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} [التحريم: 10].

قال ابنُ كثيرٍ في قولِه: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا} (أي: في مخالطتِهم المُسلِمين ومعاشَرتِهم لهم، أنَّ ذلك لا يُجدي عنهم شيئًا ولا ينفَعُهم عِندَ اللهِ، إنْ لم يكُنِ الإيمانُ حاصِلًا في قُلوبِهم، ثمَّ ذكَر المثَلَ، فقال: {امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ}، أي: نبيَّينِ رسولينِ عِندَهما في صُحبتِها ليلًا ونهارًا، يُؤاكِلانِهما ويضاجِعانِهما ويعاشِرانِهما أشَدَّ العِشرةِ والاختلاطِ فَخَانَتَاهُمَا أي: في الإيمانِ، لم يوافِقاهما على الإيمانِ، ولا صَدَّقاهما في الرِّسالةِ، فلم يُجْدِ ذلك كُلُّه شيئًا، ولا دَفَع عنهما محذورًا؛ ولهذا قال: {فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} أي: لكُفْرِهما، وَقِيلَ أي: للمَرأتينِ: {ادخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} وليس المرادُ: فَخَانَتَاهُمَا في فاحشةٍ، بل في الدِّينِ؛ فإنَّ نساءَ الأنبياءِ معصوماتٌ عن الوقوعِ في الفاحِشةِ؛ لحُرمةِ الأنبياءِ)[3896].

(وقيل: إنَّ خيانتَهما أنَّ امرأةَ نوحٍ كانت تخبِرُ الكُفَّارَ بأسرارِ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، تَصِفُه بأنَّه مجنونٌ، وخيانةُ امرأةِ لُوطٍ أنَّها كانت تدُلُّ قومَها على أضيافِ لوطٍ؛ ليفعَلوا بهم الفاحِشةَ، فهما خائنتانِ للأمانةِ التي بَيْنَهما وبَينَ زَوجَيهما من ناحيةِ حِفظِ السِّرِّ، وعَدَمِ الدَّلالةِ على ما عندَهما من الأسرارِ، ومن الأضيافِ وغيرِ ذلك، فهذا هو نوعُ الخيانةِ الواقِعُ. والحاصِلُ: أنَّ هذه الخيانةَ ليست خيانةً في العِرضِ، بل هي إمَّا في الدِّينِ، وإمَّا خيانةٌ في عَدَمِ حِفظِ الأسرارِ)[3897].

2- خيانةُ الحَروريَّةِ للخليفةِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه وانسحابُهم من جيشِه بعدَ التَّحكيمِ وبعدَ موقعةِ النَّهروانِ؛ فإنَّ الحَروريَّةَ لمَّا خرجت قالوا: (لا حُكمَ إلَّا للهِ، قال عليٌّ: كَلِمةُ حَقٍّ أُريدَ بها باطِلٌ، إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصَف ناسًا، إنِّي لأعرِفُ صفتَهم في هؤلاء، يقولون الحقَّ بألسِنَتِهم لا يجوزُ هذا منهم -وأشار إلى حَلْقِه- مِن أبغَضِ خَلقِ الله إليه منهم أسوَدُ، إحدى يَدَيه طُبيُ شاةٍ، أو حَلَمةُ ثَدْيٍ، فلمَّا قتلَهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: انظُروا، فنَظَروا فلم يجِدوا شيئًا، فقال: ارجِعوا، فواللهِ ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ، مرَّتينِ، أو ثلاثًا، ثمَّ وجَدوه في خَرِبةٍ، فأَتَوا به حتَّى وَضَعوه بَيْنَ يدَيه)[3898].

3- تشَرْذَمَت الأمَّةُ الإسلاميَّةُ في القرنِ السَّابعِ الهِجريِّ حتَّى جاء المَغولُ التَّتارُ، وعَقَدوا معاهداتِ خيانةٍ مع بعضِ الأمراءِ المُسلِمين ضِدَّ الخلافةِ الإسلاميَّةِ؛ فعَقد هولاكو اتفاقيَّةً مع بدرِ الدِّينِ لُؤلُؤِ أميرِ الموصِلِ ليتحالَفَ معه، كما عَقَد اتِّفاقَ تحالُفٍ آخَرَ مع كيكاوس الثَّاني سُلطانِ السَّلاجِقةِ الأتراكِ، ثمَّ مع قَلَجِ أرسلانَ الرَّابعِ، وهما في شمالِ العراقِ، وهذا التَّحالُفُ أدَّى

[3896] يُنظَر: ((تفسير القرآن العظيم)) (8/171)

[3897] يُنظَر: ((مجموع فتاوى الشيخ صالح الفوزان)) (1/130)

[3898] أخرجه مسلم (1066)

إلى حصارِ الخليفةِ العبَّاسيِّ في بغدادَ، كما رضَخَ أيضًا ووقَع في الخيانةِ النَّاصِرُ يوسُفُ أميرُ حَلَبٍ، وقدَّم فروضَ الطَّاعةِ لهولاكو[3899]!

4- خيانةُ مُؤَيِّدِ الدِّينِ بنِ العَلْقميِّ وتسهيلُه الطَّريقَ أمامَ المغولِ لاحتلالِ بَغدادَ وإسقاطِ الخلافةِ العباسيَّةِ؛ قال ابنُ تَيميَّةَ: (ووَزيرُ بَغدادَ ابنُ العَلْقميِّ الرَّافِضيُّ هو الذي خامَر على المُسلِمين، وكاتَب التَّتارَ حتى أدخَلَهم أرضَ العِراقِ بالمكرِ والخديعةِ، ونهى النَّاسَ عن قِتالِهم)[3900] فسقَطَت بغدادُ.

وابنُ العَلقَميِّ هو محمَّدُ بنُ أحمدَ بنِ عَليِّ بنِ محمَّدٍ العَلقميُّ، استوزره الخليفةُ المُستَعصِمُ باللهِ سنةَ اثنتَينِ وأربعين وستّمائةٍ، ولم يكُنْ وزيرَ صِدقٍ ولا مَرضيَّ الطَّريقةِ؛ فإنَّه هو الذي أعان على المُسلِمين.

وكان الوزيرُ ابنُ العَلقَميِّ يجتهِدُ في صَرفِ الجيوشِ وإسقاطِ اسمِهم من الدِّيوانِ، فكانت العساكِرُ في آخِرِ أيامِ المستَنصِرِ قريبًا من مائةِ ألفِ مُقاتِلٍ، فلم يزَلْ يجتَهِدُ في تقليلِهم إلى أن لم يَبْقَ سِوى عَشَرةِ آلافٍ، ثمَّ كاتَب التَّتارَ وأطمَعَهم في أخذِ البلادِ، وسهَّل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقةَ الحالِ، وكشف لهم ضَعفَ الرِّجالِ، وذلك كُلُّه طمعًا منه أن يُزيلَ السُّنَّةَ بالكُلِّيَّةِ، وأن يُظهِرَ البدعةَ الرَّافضةَ، وأن يقيمَ خليفةً من الفاطميِّينَ، وأن يُبيدَ العُلَماءَ والمُفتِين. وقد رُدَّ كَيدُه في نحرِه، وأذَلَّه واكتَسَب إثمَ مَن قُتِل ببغدادَ من الرِّجالِ والنِّساءِ والأطفالِ[3901].

5- خيانةُ الرَّافِضةِ لأهلِ الإسلامِ، كما قال ابنُ تَيميَّةَ: (إنَّ أصلَ كُلِّ فِتنةٍ وبَليَّةٍ هم الشِّيعةُ ومن انضوى إليهم، وكثيرٌ من السُّيوفِ التي في الإسلامِ إنَّما كان من جهتِهم، وبهم تستَّرت الزَّنادِقةُ... وقد رآهم المُسلِمون بسواحِلِ الشَّامِ وغيرِها إذا اقتتل المُسلِمون والنَّصارى هواهم مع النَّصارى يَنصُرونهم بحسَبِ الإمكانِ، ويَكرَهون فتحَ مَدائِنِهم، كما كَرِهوا فَتحَ عَكَّا وغيرِها، ويختارون إدالتَهم على المُسلِمين، حتَّى إنَّهم لمَّا انكسر المُسلِمون سنةَ غازان سنةَ تِسعٍ وتسعين وخمسِمائة، وخلَت الشَّامُ من جيشِ المُسلِمين عاثوا في البلادِ، وسَعَوا في أنواعٍ من الفسادِ من القَتلِ وأخذِ الأموالِ، وحملِ رايةِ الصَّليبِ، وتفضيلِ النَّصارى على المُسلِمين، وحَملِ السَّبيِ والأموالِ والسِّلاحِ من المُسلِمين إلى النَّصارى بقُبرصَ وغيرِها، فهذا وأمثالُه قد عاينه النَّاسُ، وتواتَر عِندَ من لم يُعايِنْه)[3902].

6- من صُوَرِ الخيانةِ أنَّه بعد أن فَتَح صلاحُ الدِّينِ بيتَ المَقدِسِ رتَّب على أبوابِ البَلَدِ في كُلِّ بابٍ أمينًا من الأمراءِ؛ ليأخُذوا من أهلِه ما استقرَّ عليهم من الفِداءِ؛ لينجوا من الأَسْرِ أو العُبوديَّةِ، فاستعمَلَ بعضٌ من هؤلاء الأمَراءِ الخيانةَ، ولم يؤدُّوا الأمانةَ، بل اقتَسَم الأُمَناءُ الأموالَ، وتفرَّقت أيديَ سَبَا، ولو أدِّيَت فيه الأمانةُ لملأ الخزائِنَ، وعَمَّ النَّاسَ؛ فإنَّه كان فيه على الضَّبطِ سِتُّون ألفَ رَجُلٍ ما بَيْنَ فارسٍ وراجِلٍ سِوى من يَتْبَعُهم من النِّساءِ والولدانِ، ولا يَعجَبُ السَّامِعُ من ذلك؛ فإنَّ البَلَدَ كبيرٌ، واجتمع إليه من تلك النَّواحي من عَسْقلانَ وغَيرِها، والدَّاروم، والرَّملةِ، وغَزَّةَ وغيرِها من القُرى، بحيث امتلأت الطُّرُقُ والكنائِسُ، وكان الإنسانُ لا يقدِرُ أن يمشيَ، ومن الدَّليلِ على كثرةِ الخَلقِ أنَّ أكثَرَهم وزَن ما استقرَّ من

[3899] يُنظَر: ((التتار من البداية إلى عين جالوت)) راغب السرجاني (ص: 112)

[3900] يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) (638 - 28/636)

[3901] يُنظَر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (192 /13، 235)

[3902] يُنظَر: ((منهاج السنة)) (3/ 243-244). ويُنظَر: ((خيانات الشيعة وأثرها في هزائم الأمة الإسلامية لمحمود محمد عبد الرحمن)) (ص: 29 - 35) ففيه نماذج من خيانة الشِّيعةِ لآلِ البيتِ.

القطيعةِ، وأطلَق باليانُ بنُ بيرزانَ ثمانيةَ عَشَرَ ألفَ رَجُلٍ وَزَن عنهم ثلاثين ألفَ دينارٍ، وبَقِي بعدَ هذا جميعِه من لم يكُنْ معه ما يُعطي، وأُخِذ أسيرًا سِتَّةَ عَشَرَ ألفَ آدَميٍّ ما بَيْنَ رجلٍ وامرأةٍ وصبيٍّ، هذا بالضَّبطِ واليقينِ.

ثمَّ إنَّ جماعةً من الأمراءِ ادَّعى كُلُّ واحدٍ منهم أنَّ جماعةً من رعيَّةِ إقطاعِه مقيمون ببيتِ المقدِسِ، فيُطلِقُهم ويأخُذُ هو قطيعتَهم، وكان جماعةٌ من الأمراءِ يُلبِسون الفِرنجَ زِيَّ الجُندِ المُسلِمين، ويُخرِجونهم، ويأخُذون منهم قطيعةً قَرَّروها، واستوهبَ جماعةٌ من صلاحِ الدِّين عددًا من الفِرنجِ، فوهبهم لهم، فأخَذوا قطيعتَهم، وبالجُملةِ فلم يَصِلْ إلى خزائنِه إلَّا القليلُ[3903].

المطلب التاسع: حُكمُ الخيانةِ

الخيانةُ محرَّمةٌ، وذهَب عددٌ من العُلَماءِ إلى أنَّ الخيانةَ من الكبائِرِ، كالذَّهَبيِّ، وابن حجر الهيتمي[3904].

المطلب العاشر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ الخيانةِ

1- اعتِقادُ أنَّ زواجَ الرَّجُلِ على امرأتِه بزوجةٍ ثانيةٍ دونَ عِلمِ الأولى يُعَدُّ خيانةً لها، وهذا خطأٌ؛ فإنَّه لا يُشتَرَطُ عِلمُ الزَّوجةِ الأولى بزواجِه ولا إذنُها ولا رِضاها؛ لأنَّ هذا حَقُّه الذي أباحه اللهُ له، لكِنَّ عليه أن يَعدِلَ بَيْنَهما.

2- من الأخطاءِ اعتقادُ أنَّ خيانةَ الخائِنِ خيانةٌ مَشروعةٌ، بحُجَّةِ أنَّها رَدٌّ لخيانةٍ حَدَثت منه وعقوبةٌ له، وهذا خَطَأٌ؛ فالخيانةُ محرَّمةٌ على كُلِّ حالٍ.

3- قال الحسنُ: (إنَّما تُجالسونَ بالأمانةِ، كأنَّكم تَظنُّونَ أنَّ الخيانةَ ليست إلَّا في الدِّينارِ والدِّرهمِ! إنَّ الخيانةَ أشدُّ الخيانةِ أنْ يُجالِسَنا الرَّجلُ فنَطمئِنَّ إلى جانبِه، ثمَّ ينطلقَ فيَسعَى بنا إلى شرارةٍ مِن نارٍ!)[3905].

المطلب الحادِيَ عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

1- الخيانةُ من صفاتِ اليهودِ؛ فقد (وصف اللهُ اليهودَ إلَّا قليلًا منهم بأنَّهم أهلُ خيانةٍ، فقال تعالى لرَسولِه: {وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ} [المائدة: 13].

فهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الخيانةَ من الصِّفاتِ التي تَبرُزُ في اليهودِ بَيْنَ حينٍ وآخَرَ؛ فالخيانةُ شأنُهم ودَيدنُهم، وطريقتُهم في معاملةِ النَّاسِ.

فمن خيانتِهم محاولتُهم اغتيالَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد كان بينَه وبَيْنَهم عهدُ أمانٍ.

ومن خيانتِهم تواطُؤُهم مع الأحزابِ، وقد كان بَيْنَهم وبين الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَهدٌ وأمانٌ)[3906].

[3903] يُنظَر: ((الكامل في التاريخ)) لابن الأثير (36 /10)

[3904] يُنظَر: ((الكبائر)) للذهبي (ص: 149)، ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (1/442). ويُنظَر أيضًا: ((مجموع فتاوى ابن باز)) (103 /4)

[3905] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (329 /3)

[3906] يُنظَر: ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (1/614)

2- لا يُتوهَّمُ مِن قَولِه: {لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ} [الحج: 38] أنَّه يحِبُّ بعضَ الخوَّانين؛ لأنَّ كَلِمةَ "كُلٍّ" اسمٌ جامدٌ لا يُشعِرُ بصفةٍ، فلا يتُوهَّمُ توجُّهُ النَّفيِ إلى معنى الكُلِّيَّةِ المستفادِ من كَلِمةِ كُلٍّ[3907].

وأيضًا فالخوَّانُ والكَفورُ كِلاهما صيغةُ مُبالغةٍ؛ لأنَّ الفَعَّالَ بالتَّضعيفِ والفَعُولَ -بفتحِ الفاءِ- من صِيَغِ المبالغةِ، والمقَرَّرُ في عِلمِ العربيَّةِ أنَّ نفيَ المبالغةِ في الفِعلِ لا يَستلزِمُ نفيَ أصلِ الفِعلِ؛ فلو قُلتَ: زيدٌ ليس بقَتَّالٍ للرِّجالِ، فقد نفيتَ مبالغتَه في قَتلِهم، ولم يستلزِمْ ذلك أنَّه لم يحصُلْ منه قَتلٌ لبعضِهم، ولكِنَّه لم يبالِغْ في القَتلِ، وعلى هذه القاعدةِ العربيَّةِ المعروفةِ؛ فإنَّ الآيةَ قد صرَّحت بأنَّ اللهَ لا يحِبُّ المبالِغين في الكُفرِ والمُبالغين في الخيانةِ، ولم تتعَرَّضْ لَمَن يتَّصِفُ بمُطلَقِ الخيانةِ ومُطلَقِ الكُفرِ مِن غيرِ مبالغةٍ فيهما، ولا شَكَّ أنَّ اللهَ يُبغِضُ الخائِنَ مُطلَقًا، والكافِرَ مطلقًا، وقد أوضَح جلَّ وعلا ذلك في بعضِ المواضعِ، فقال في الخائِنِ : {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: 58]، وقال في الكافِرِ: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 32][3908].

3- مِن الصفاتِ ما لا يكونُ كمالًا عندَ الإطلاق؛ ولكن هو كمالٌ عندَ التقييدِ؛ فهذا لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ به الله سبحانَه إلَّا مقيَّدًا، مثل: الخداعِ، والمكرِ، والاستهزاءِ، والكيدِ. فلا يصحُّ أنْ تقولَ: إنَّ الله ماكرٌ على سبيلِ الإطلاقِ، ولكنْ قلْ: إنَّ الله ماكرٌ بمَن يمكرُ به، وبرسلِه.

أمَّا الخيانةُ فلا يُوصَفُ اللهُ بها مُطلَقًا؛ لأنَّ الخيانةَ صِفةُ نَقصٍ مُطلَقٍ؛ والخيانةُ معناها: الخديعةُ في موضِعِ الائتمانِ، وهذا نقصٌ؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: {وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ} [الأنفال: 71] ، ولم يَقُلْ: فخانهم، لكنْ لمَّا قال تعالى: {يُخَادِعُونَ اللهَ قال: وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [النساء: 142] ؛ لأنَّ الخديعةَ صفةُ مدحٍ مقيدةٌ[3909].

4- عن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((نهى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَطرُقَ الرَّجُلُ أهلَه ليلًا يتخوَّنُهم، أو يلتَمِسُ عَثَراتِهم))[3910].

قال ابنُ بطَّالٍ: (فبيَّن النَّبيُّ عليه السَّلامُ بهذا اللَّفظِ المعنى الذي من أجْلِه نهى عن أن يَطرُقَ أهلَه ليلًا، فإن قيل: وكيف يكونُ طُروقُه أهلَه ليلًا سَبَبًا لتخَوُّنِهم؟ قيل: معنى ذلك -واللهُ أعلَمُ- أنَّ طُروقَه إيَّاهم ليلًا هو وقتُ خَلوةٍ، وانقطاعِ مُراقبةِ النَّاسِ بعضِهم بعضًا، فكان ذلك سببًا لسُوءِ ظَنِّ أهلِه به، وكأنَّه إنما قصدَهم ليلًا ليَجِدَهم على ريبةٍ، حينَ توخَّى وقتَ غِرَّتِهم وغَفلتِهم. ومعنى الحديثِ النَّهيُ عن التَّجسُّسِ على أهلِه، ولا تحمِلْه غَيرتُه على تُهمتِها إذا لم يأنَسْ منها إلَّا الخيرَ)[3911].

5- قال الفَيْروز آباديُّ عن وُرودِ صِفةِ الخيانةِ في القرآنِ: (قد وردت في القرآنِ على خمسةِ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: في الدِّينِ والدِّيانةِ {وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ} [الأنفال: 27].

الثَّاني: في المالِ والنِّعمةِ {وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء: 105].

[3907] ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (17/ 197)

[3908] ((أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)) للشنقيطي (5/ 262)

[3909] يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (1/ 55، 58)

[3910] أخرجه البخاري (1801) مختصرًا، ومسلم (715) واللفظ له.

[3911] يُنظَر: ((شرح صحيح البخاري)) (7/369)

الثَّالثُ: في الشَّرعِ والسُّنَّةِ {وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ} [الأنفال: 71].

الرَّابعُ: الخيانةُ بمعنى الزِّنا {وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} [يوسف: 52]. أي: الزَّانينَ. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

الخامِسُ: بمعنى نَقضِ العهدِ والبَيعةِ {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً} [الأنفال: 58]. أي: نَقْضَ عَهدٍ)[3912].

6- (وكان شُرَيحٌ يقضي في المضارِبِ بقضاءَينِ: (كان ربَّما قال للمُضارِبِ: بيِّنتَك على مصيبةٍ تُعذَرُ بها. وربَّما قال لصاحِبِ المالِ: بيِّنتَك أنَّ أمينَك خائِنٌ، وإلَّا فيَمينُه باللهِ ما خانك)[3913].

[3912] يُنظَر: ((بصائر ذوي التمييز)) (2/152)

[3913] رواه النسائي (3935). صحَّح إسنادَه مقطوعًا الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (3935)

المبحث السادس: الطَّمَعُ

المطلب الأول: معنى الطَّمَعِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى الطَّمَعِ لُغةً:**

الطَّمَعُ: الأَمَلُ والرَّجاءُ، وأَكثَرُ ما يُستعمَلُ فيما يَقرُبُ حُصولُه. يُقالُ: طَمِع فيه، وبه، طَمَعًا وطِماعًا وطَماعِيَةً: حرَص عليه، ويتعدَّى بالهمزةِ، فيُقالُ: أطمَعْتُه. وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على رجاءٍ في القَلبِ قويٍّ للشَّيءِ، يُقالُ: إنَّه لطَمِعٌ: حَريصٌ، والطَّمَّاعُ: الكثيرُ الطَّمَعِ[3914].

- **معنى الطَّمَعِ اصطِلاحًا:**

قال الرَّاغِبُ: (نزوعُ النَّفسِ إلى الشَّيءِ شَهوةً له)[3915].

وقال المُناويُّ: (الطَّمَعُ: تعلُّقُ البالِ بالشَّيءِ من غيرِ تقَدُّمِ سَبَبٍ له)[3916].

وقال العَضُدُ: (الطَّمَعُ ذُلٌّ ينشَأُ من الحِرصِ والبَطالةِ، والجَهلِ بحِكمةِ الباري)[3917].

- **من مُرادِفاتِ الطَّمَعِ:**

من مُرادِفاتِ الطَّمَعِ: الحِرصُ، والجَشَعُ، والشَّرَهُ، والرَّتعُ[3918].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الطَّمَعِ وبَعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الطَّمَعِ والحِرصِ والجَشَعِ:**

قيل: الحِرصُ أَشَدُّ الطَّمَعِ، وعليه جرى قَولُه تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ} [البقرة: 75].

لأنَّ الخِطابَ فيه للمُؤمِنين، وقَولُه سُبحانَه: {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ} [النحل: 37]؛ فإنَّ الخِطابَ فيه مقصورٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، ولا شَكَّ أنَّ رغبتَه صلَّى اللهُ عليه وآلِه في إسلامِهم وهدايتِهم كانت أَشَدَّ وأَكثَرَ من رغبةِ المُؤمِنين المشارِكين له في الخِطابِ الأوَّلِ في ذلك[3919].

وأمَّا الجَشَعُ فهو الحِرصُ الشَّديدُ[3920].

[3914] يُنظَر: ((العين)) للخليل بن أحمد (2/27)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (3/425)، ((المصباح المنير)) للفيومي (2/378)، ((القاموس المحيط)) للفيروز آبادي (ص: 744)، ((المعجم الوسيط)) (2/566)

[3915] يُنظَر: ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: 524).

[3916] يُنظَر: ((التوقيف على مهمات التعاريف)) (ص: 228).

[3917] المصدر السابق.

[3918] يُنظَر: ((الألفاظ المؤتلفة)) لابن مالك الطائي (ص: 192).

[3919] يُنظَر: ((معجم الفروق اللغوية)) لبيت الله بيات (ص: 183).

[3920] ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (1/ 477)

- **الفَرْقُ بَيْنَ الطَّمَعِ والرَّجاءِ والأَمَلِ:**

أنَّ الرَّجاءَ: هو الظَّنُّ بوقوعِ الخيرِ الذي يعتري صاحِبَه الشَّكُّ فيه، إلَّا أنَّ ظَنَّه فيه أغلَبُ، وليس هو من قَبيلِ العِلمِ، والشَّاهِدُ أنَّه لا يُقالُ: أرجو أن يدخُلَ النَّبيُّ الجنَّةَ؛ لكَونِ ذلك متيقَّنًا، ويُقالُ: أرجو أن يدخُلَ الجنَّةَ، إذا لم يعلَمْ ذلك. والرَّجاءُ: الأمَلُ في الخيرِ، والخَشيةُ والخَوفُ في الشَّرِّ؛ لأنَّهما يكونانِ مع الشَّكِّ في المرجوِّ والمَخوفِ، ولا يكونُ الرَّجاءُ إلَّا عن سبَبٍ يدعو إليه؛ من كَرَمِ المرجوِّ أو ما به إليه، ويتعدَّى بنفسِه؛ تقولُ: رجوتُ زيدًا، والمرادُ: رَجَوتُ الخيرَ من زيدٍ؛ لأنَّ الرَّجاءَ لا يتعدَّى إلى أعيانِ الرِّجالِ.

والطَّمَعُ: ما يكونُ من غيرِ سَبَبٍ يدعو إليه، فإذا طَمِعتَ في الشَّيءِ فكأنَّك حدَّثْتَ نفسَك به، من غيرِ أن يكونَ هناك سببٌ يدعو إليه؛ ولهذا ذُمَّ الطَّمَعُ ولم يُذَمَّ الرَّجاءُ، والطَّمَعُ يتعدَّى إلى المفعولِ بحرفٍ، فتقولُ: طَمِعتُ فيه، كما تقولُ: فَرِقْتُ منه، وحَذِرْتُ منه، واسمُ الفاعِلِ طَمِعٌ، مِثلُ: حَذِرٍ، وفَرِقٍ، ودَئِبٍ؛ إذا جعَلْتَه كالنِّسبةِ، وإذا بَنيتَه على الفِعلِ قُلتَ: طامِعٌ[3921].

وقيل: الطَّمَعُ يقارِبُ الرَّجاءَ والأمَلَ، لكِنَّ الطَّمَعَ أكثَرُ ما يُقالُ فيما يقتضيه الهوى. والأمَلُ والرَّجاءُ قد يكونانِ فيما يقتضيه الفِكرُ والرَّويَّةُ؛ ولهذا أكثَرُ ذَمِّ الحُكَماءِ للطَّمَعِ[3922].

وقيل: الأمَلُ: توقُّعُ حُصولِ الشَّيءِ، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ فيما يَبعُدُ حُصولُه، فمَن عزَم على سَفَرٍ لا إلى بلَدٍ بعيدٍ، يقولُ: أمَلْتُ الوصولَ، ولا يقولُ: طَمِعتُ إلَّا إن قَرُب منها؛ فإنَّ الطَّمَعَ ليس إلَّا في القريبِ.

والرَّجاءُ بَيْنَ الأملِ والطَّمَعِ؛ فإنَّ الرَّاجيَ يخافُ ألَّا يحصُلَ مأمولُه، فليس يُستعمَلُ بمعنى الخَوفِ[3923].

وقد يكونُ الأمَلُ بمعنى الطَّمَعِ[3924].

المطلب الثالث: ذَمُّ الطَّمَعِ

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

1. قال تعالى: {وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} [البقرة: 41].

قال السُّدِّيُّ: (لا تأخُذوا طَمَعًا قليلًا وتكتُموا اسمَ اللهِ، وذلك الثَّمَنُ هو الطَّمَعُ)[3925].

وعن قتادةَ قال: (أنبأَكُم اللهُ بمكانِهم من الطَّمَعِ)[3926].

وقال جَلَّ في عُلاه: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [ص: 24].

[3921] يُنظَر: ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (1/248)

[3922] يُنظَر: ((تفسير الراغب)) (1/235)

[3923] ((التوقيف على مهمات التعاريف)) (ص: 62).

[3924] ((معجم الفروق اللغوية)) لبيت الله بيات (ص: 73).

[3925] رواه الطبري في ((جامع البيان)) (821) واللفظ له، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (451)

[3926] رواه الطبري في ((جامع البيان)) (14730)

(لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ: بسائقِ الطَّمَعِ والحِرصِ، وحُبِّ التَّكاثُرِ بالأموالِ التي تميلُ بذَويها إلى الباطِلِ إنْ لم يتولَّهم اللهُ بلُطفِه).[3927]

2. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا} [النساء: 29 - 30]، ففي هذه الآيةِ ينهى اللهُ المُؤمنين أن يأخُذَ بعضُهم أموالَ بعضٍ بغيرِ حقٍّ، أو أن يطمَعَ بعضُهم في أموالِ بعضٍ فيأخُذَها، فيحتالَ ليأخُذَها بالباطِلِ، لكِنْ إن كان ما يأخُذُه بعضُهم من بعضٍ عن طريقِ التِّجارةِ المبنيَّةِ على رِضا المتبايعينِ، فذلك حلالٌ لهم، كما ينهاهم سُبحانَه عن أن يَقتُلَ أحدُهم نفسَه، أو يقتُلَ أخاه في الدِّينِ؛ إنَّه سُبحانَه كان بهم رحيمًا، ثمَّ توعَّد سُبحانَه من يأخُذُ أموالَ النَّاسِ بالباطِلِ، ويقتُلُ الأنفُسَ التي حرَّمها اللهُ تعالى بغيرِ حَقٍّ، متجاوِزًا حدودَ اللهِ عن قصدٍ وعلمٍ بكونِه مُحرَّمًا، بأنَّه سيَحرِقُه سُبحانَه بنارٍ يُدخِلُه فيها، وكان ذلك أمرًا سهلًا على اللهِ[3928].

وممَّا يُستفادُ من هذه الآيةِ في إضافةِ الأموالِ للجميعِ في قولِه تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ أنَّ صاحِبَ المالِ الحائزَ له يجبُ عليه بَذلُه، أو البَذلُ منه للمُحتاجِ، وألَّا يحمِلَه الطَّمَعُ على إمساكِه، فكما لا يجوزُ للمُحتاجِ أن يأخُذَ شيئًا من مالِ غيرِه بالباطِلِ، كالسَّرِقةِ والغَصبِ، لا يجوزُ لصاحبِ المالِ أن يبخَلَ عليه بما يحتاجُ إليه[3929].

3. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة: 34]

يقولُ اللهُ تعالى: {يا أيُّها الذين آمنوا}، إنَّ كثيرًا من عُلَماءِ اليهودِ، وعُبَّادِ النَّصارى، حمَلهم الطَّمَعُ والحِرصُ على أن يتملَّكوا أموالَ النَّاسِ بغيرِ حَقٍّ ، وأن يُعرِضوا عن الحَقِّ، ويصُدُّوا النَّاسَ عنه، ثمَّ أخبر سُبحانَه أنَّ الذين يجمَعون الذَّهبَ والفِضَّةَ، وحمَلهم الطَّمَعُ والجشَعُ والحِرصُ على ألَّا يُخرِجوا حقوقَ اللهِ منها، وألَّا يُنفِقوا منها في سبيلِ اللهِ، {فبَشِّرْهم} -يا محمَّدُ- {بعذابٍ} موجعٍ، فيومَ القيامةِ يوقَدُ على كنوزِهم في نارِ جهنَّمَ، فتُكوى بها جِباهُهم وجُنوبُهم وظُهورُهم، ويُقالُ لهم توبيخًا وتهكُّمًا: هذا ما جمَعتُم لأنفُسِكم، فذوقوا عذابَ ما كُنتُم تَكنِزونَه.

وهذا كُلُّه فيه تحذيرُ المُؤمِنين من حالِ الذين صار جمعُ الأموالِ والافتِتانُ بكَثرتِها وخَزْنِها في الصَّناديقِ، أعظَمَ هَمِّهم في الحياةِ[3930].

4. {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: 88]

ففي هذه الآيةِ ينهى اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الإعجابِ بالدُّنيا وزينتِها أو الطَّمَعِ فيها، فيقولُ: ولا تنظُرْ -يا محمَّدُ- بإعجابٍ ورغبةٍ وتمَنٍّ إلى ما أعطَيناه للأغنياءِ المُترَفين من هؤلاء المُعرِضين عن آياتِ رَبِّهم من نِعَمٍ ومباهِجَ زائلةٍ، يتمتَّعون بها من زينةِ الدُّنيا الفانيةِ؛ لنَبتَليَهم بها، ورِزقُ رَبِّك وثوابُه خيرٌ لك من زينةِ الدُّنيا وأدوَمُ، وهو أحرى أن تطمَعَ في تحصيلِه

[3927] يُنظَر: ((بيان المعاني)) لعبد القادر العاني (1/304)

[3928] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 176)، ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (5/25)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (1/2591-260)

[3929] يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (5/33)

[3930] المصدر السابق (10/349)

من عِندِ اللهِ بطاعتِه، فإذا رأى العبدُ من نفسِه طُموحًا إلى زينةِ الدُّنيا وإقبالًا عليها وطمَعًا فيها، أن يُذَكِّرَ نفسَه بما أمامَها من رِزقِ رَبِّه، وأن يوازِنَ بَيْنَ هذا وهذا[3931].

ب- من السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

1. عن كَعبِ بنِ مالِكٍ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما ذئبانِ جائعانِ أُرسِلَا في غَنَمٍ بأفسَدَ لها مِن حِرصِ المرءِ على المالِ والشَّرَفِ لدينِه))[3932].

قال ابنُ رجَبٍ: (فهذا مَثَلٌ عظيمٌ جِدًّا ضرَبه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لفسادِ دينِ المُسلِمِ بالحِرصِ على المالِ والشَّرَفِ في الدُّنيا، وأنَّ فَسادَ الدِّينِ بذلك ليس بدونِ فَسادِ الغَنَمِ بذئبَينِ جائِعَينِ ضاريَينِ باتا في الغَنَمِ، وقد غاب عنها رعاؤُها ليلًا، فهما يأكُلانِ في الغَنَمِ ويفترِسانِ فيها.

ومعلومٌ أنَّه لا ينجو من الغَنَمِ من إفسادِ الذِّئبَينِ المذكورينِ -والحالةُ هذه- إلَّا قليلٌ، فأخبر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ حِرصَ المرءِ على المالِ والشَّرَفِ إفسادٌ لدينِه ليس بأقَلَّ من إفسادِ الذِّئبَينِ لهذه الغنَمِ، بل إمَّا أن يكونَ مُساويًا وإمَّا أكثَرَ، يشيرُ إلى أنَّه لا يَسلَمُ من دينِ المُسلِمِ مع حرصِه على المالِ والشَّرَفِ في الدُّنيا إلَّا القليلُ، كما أنَّه لا يَسلَمُ من الغَنَمِ مع إفسادِ الذِّئبَينِ المذكورينِ فيها إلَّا القليلُ.

فهذا المثَلُ العظيمُ يتضمَّنُ غايةَ التَّحذيرِ من شَرِّ الحرصِ على المالِ والشَّرَفِ في الدُّنيا)[3933].

وقال القاريُّ: (والمعنى: أنَّ حِرصَ المرءِ عليهما أكثَرُ فسادًا لدينِه المشبَّهِ بالغَنَمِ؛ لضَعفِه بجَنبِ حِرصِه من إفسادِ الذِّئبَينِ للغَنَمِ)[3934].

وقال المُناويُّ: (فمقصودُ الحديثِ أنَّ الحِرصَ على المالِ والشَّرَفِ أكثَرُ إفسادًا للدِّينِ من إفسادِ الذِّئبينِ للغَنَمِ؛ لأنَّ ذلك الأشَرَ والبَطَرَ يَستفِزُّ صاحِبَه، ويأخُذُ به إلى ما يضُرُّه، وذلك مذمومٌ لاستدعائِه العلُوَّ في الأرضِ والفسادَ المذمومينِ شَرعًا)[3935].

2. وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ، عن أبيه، قال: سمِعتُ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ: ((قد كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعطيني العطاءَ، فأقولُ: أعطِه أفقَرَ إليه منِّي، حتَّى أعطاني مرَّةً مالًا، فقُلتُ: أعطِه أفقَرَ إليه منِّي، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خُذْه، وما جاءك من هذا المالِ وأنت غيرُ مُشرِفٍ ولا سائِلٍ فخُذْه، وما لا فلا تُتْبِعْه نفسَك))[3936].

قال القاريُّ: (قال الطِّيبيُّ: الإشرافُ: الاطِّلاعُ على شيءٍ والتَّعرُّضُ له، والمقصودُ منه الطَّمَعُ، أي: والحالُ أنَّك غيرُ طامعٍ له، ((ولا سائِلٍ، فخُذْه)). أي: فاقبَلْه وتصدَّقْ به، إنْ لم تكُنْ محتاجًا. ((وما لا))، أي: وما لا يكونُ كذلك بأن لا يجيئَك

[3931] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 516)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين.(3/45)

[3932] أخرجه الترمذي (2376)، وأحمد (15794). صحَّحه الترمذي، وابن حبان في ((صحيحه)) (3228)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2376)، والوادعي في ((الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين)).(1100)

[3933] يُنظَر: ((مجموع رسائل ابن رجب)).(1/64)

[3934] يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)).(8/3243)

[3935] يُنظَر: ((فيض القدير)).(5/445)

[3936] أخرجه البخاري (7164)، ومسلم (1045) واللفظ له.

هنالك إلَّا بتطَلُّعٍ إليه واستشرافٍ عليه، "فلا تُتبِعْه نَفسَك" من الإتباعِ -بالتَّخفيفِ-، أي: فلا تجعَلْ نفسَك تابعةً له، ولا تُوصِلِ المشقَّةَ إليها في طَلَبِه)[3937].

3. وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما يقولُ: سمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لو كان لابنِ آدَمَ واديانِ من مالٍ لابتغى ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدَمَ إلَّا التُّرابُ، ويتوبُ اللهُ على من تاب))[3938].

قال ابنُ بطَّالٍ: (وأشار صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا المثَلِ إلى ذَمِّ الحِرصِ على الدُّنيا، والشَّرَهِ على الازديادِ منها؛ ولذلك آثَرَ أكثَرُ السَّلَفِ التَّقلُّلَ من الدُّنيا، والقناعةَ والكَفافَ؛ فِرارًا من التَّعرُّضِ لِما لا يُعلَمُ كيف النَّجاةُ من شَرِّ فتنتِه)[3939].

4. وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من غزا في سبيلِ اللهِ، ولم يَنْوِ إلَّا عِقالًا، فله ما نوى))[3940].

قال الطِّيبيُّ: (قولُه: «إلَّا عِقالًا» العِقالُ: حَبلٌ صغيرٌ تُشَدُّ به رُكبتا البعيرِ؛ لئلَّا ينفِرَ، وهو مبالغةٌ في قَطعِ الطَّمَعِ عن الغنيمةِ، بل يكونُ خالِصًا للهِ تعالى غيرَ مشوبٍ بأغراضٍ دُنيويَّةٍ، كقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "وإنَّما لامرئٍ ما نوى"[3941])[3942].

5. وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أهلُ الجَنَّةِ ثَلاثةٌ: ذُو سُلطانٍ مُقسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، ورجُلٌ رَحيمٌ رقيقُ القَلبِ لِكُلِّ ذي قُربى ومُسلِمٍ، وعَفيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عيالٍ. وأهل النَّار خمسةٌ: الضَّعيفُ الذي لا زَبْرَ[3943] له، الذين هم فيكم تَبَعًا لا يَبتغون أهلًا ولا مالًا، والخائِنُ الذي لا يخفى له طَمَعٌ وإن دَقَّ إلَّا خانه، ورجُلٌ لا يُصبِحُ ولا يُمسي إلَّا وهو يخادِعُك عن أهلِك ومالِك، وذَكَر البُخلَ أو الكَذِبَ. والشِّنْظيرُ: الفَحَّاشُ))[3944].

قال القاريُّ: (... ((والخائِنُ الذي لا يخفى له طَمَعٌ وإن دقَّ إلَّا خانه)): هو إغراقٌ في وصفِ الطَّمَعِ، والخيانةُ تابعةٌ له، والمعنى أنَّه لا يتعدَّى عن الطَّمَعِ ولو احتاج إلى الخيانةِ)[3945].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: (تَعلَمُنَّ أنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ، وأنَّ الإياسَ غِنًى)[3946].

- وقال أيضًا: (في اليأسِ الغِنى، وفي الطَّمَعِ الفَقرُ، وفي العُزلةِ راحةٌ مِن خُلَطاءِ السُّوءِ)[3947].

[3937] يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) (4/1312)

[3938] أخرجه البخاري (6436) واللفظ له، ومسلم (1049)

[3939] يُنظَر: ((شرح صحيح البخاري)) (10/160)

[3940] أخرجه النسائي (3138) واللفظ له، وأحمد (22692). صحَّحه ابن حبان في ((صحيحه)) (4638)، والشوكاني في ((الفتح الرباني)) (12/6233)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (3138)، وحسَّنه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (365 /37)

[3941] أخرجه البخاري (6689) ومسلم (1907)

[3942] ((الكاشف عن حقائق السنن)) (2659 /8، 2660)

[3943] لا زَبْرَ له: أي: لا عَقلَ له يَزبُرُه وينهاه عن الإقدامِ على ما لا ينبغي. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير.

[3944] رواه مسلم (2865) مطوَّلًا.

[3945] يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)).(7/3108)

[3946] أخرجه مطوَّلًا أحمد في ((الزهد)) (613) واللفظ له، وابن المبارك في ((الزهد)) (998)، ووكيع في ((الزهد)).(182)

[3947] ((بهجة المجالس وأنس المجالس)) لابن عبد البر (ص: 159).

- وقال أيضًا: (ما شيءٌ أذهَبَ لعُقولِ الرِّجالِ من الطَّمَعِ)[3948].

- وقال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عنه: (أكثَرُ مصارِعِ العُقولِ تحتَ بُروقِ المطامِعِ)[3949].

- وقال أيضًا: (ما الخَمرُ صِرفًا[3950] بأذهَبَ لعقولِ الرِّجالِ من الطَّمَعِ)[3951].

- وقال أيضًا: (الطَّامِعُ في وِثاقِ الذُّلِّ)[3952].

- وعنه أيضًا: (الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ)[3953].

- وقال أيضًا: (إيَّاك أن توجِفَ بك مطايا الطَّمَعِ؛ فتُورِدَك مناهِلَ الهلَكةِ)[3954].

واجتَمَع كَعبٌ وعبدُ اللهِ بنُ سلَامٍ، فقال له كَعبٌ: (يا ابنَ سلَامٍ: مَن أربابُ العِلمِ؟ قال: الذين يعمَلون به. قال: فما أذهَبَ العِلمَ عن قلوبِ العُلَماءِ بعدَ أن عَلِموه؟ قال: الطَّمَعُ، وشَرَهُ النَّفسِ، وطلَبُ الحوائِجِ إلى النَّاسِ)[3955].

- وقيل لكَعبٍ: ما يُذهِبُ العِلمَ من صدورِ الرِّجالِ بعدَ أن عَلِموه؟ قال: الطَّمَعُ، وطَلَبُ الحاجاتِ إلى النَّاسِ[3956].

- وقال كعبٌ: الصَّفَا[3957] الزَّلَّالُ[3958] الذي لا تَثبُتُ عليه أقدامُ العُلَماءِ: الطَّمَعُ[3959].

- وقال الحَسَنُ البَصريُّ: (صلاحُ الدِّينِ الوَرَعُ، وفَسادُه الطَّمَعُ)[3960].

- وقال عَمرُو بنُ عُبيدٍ: في المُؤمِنِ ثلاثُ خِلالٍ: يسمَعُ الكَلِمةَ التي تؤذيه فيَضرِبُ عنها صَفحًا كأنْ لم يسمَعْها، ويحبُّ للنَّاسِ ما يحِبُّ لنَفسِه، ويقطَعُ أسبابَ الطَّمَعِ من الخَلقِ[3961].

(واجتَمَع الفُضَيلُ وسُفيانُ وابنُ كريمَةَ اليربوعيُّ، فتواصَوا، فافتَرَقوا وهم مجمِعون على أنَّ أفضلَ الأعمالِ: الحِلمُ عِندَ الغَضَبِ، والصَّبرُ عِندَ الطَّمَعِ)[3962].

- وقال وَهبُ بنُ مُنَبِّهٍ: (الكُفرُ أربعةُ أركانٍ: فرُكنٌ منه الغَضَبُ، ورُكنٌ منه الشَّهوةُ، ورُكنٌ منه الخوفُ، ورُكنٌ منه الطَّمَعُ)[3963].

[3948] المصدر السابق.

[3949] ذكره الأبشيهي في ((المستطرف في كل فن مستظرف)) (ص: 83).

[3950] يقال: شَرابٌ صِرفٌ، أي: بحتٌ غيرُ ممزوجٍ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)).

[3951] ذكره الأبشيهي في ((المستطرف في كل فن مستظرف)) (ص: 83).

[3952] ذكره الزمخشري في ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) (3/273)

[3953] المصدر السابق (3/270)

[3954] أخرجه مطوَّلًا وكيع، والعسكري في ((المواعظ)) كما في ((كنز العمال)) للمتقي الهندي.(16/175)

[3955] ذكره الأبشيهي في ((المستطرف في كل فن مستظرف)) (ص: 83). ويُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (4/438)، ((ربيع الأبرار)) للزمخشري.(3/270)

[3956] ((بهجة المجالس وأنس المجالس)) لابن عبد البر (ص: 159).

[3957] الصَّفا: العريضُ من الحِجارةِ، الأملَسُ. يُنظَر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري .

[3958] الزَّلَّالُ، بمعنى المُزِلِّ. يُنظَر: ((الفروق اللغوية)) للعسكري.

[3959] ((بهجة المجالس وأنس المجالس)) لابن عبد البر (ص: 159).

[3960] يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) للقاري (8/3304)

[3961] ((بهجة المجالس وأنس المجالس)) لابن عبد البر (ص: 159).

[3962] يُنظَر: ((ربيع الأبرار)) للزمخشري.(3/271)

[3963] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((القناعة والتعفف)) (ص: 77) واللفظ له، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (4/70)

- وقال الورَّاقُ: (لو قيل للطَّمَعِ: من أبوك؟ قال: الشَّكُّ في المقدورِ. ولو قيل: ما حِرفتُك؟ قال: اكتسابُ الذُّلِّ. ولو قيل: ما غايتُك؟ قال: الحِرمانُ)[3964].

- وقال المأمونُ: (صَدَقَ واللهِ أبو العتاهيةِ، ما عرَفْتُ من رجُلٍ قَطُّ حِرصًا ولا طَمَعًا، فرأيتُ فيه مُصطَنَعًا)[3965].

- وقال ابنُ خُبَيقٍ الأنطاكيُّ: (من أراد أن يعيشَ حُرًّا أيَّامَ حياتِه فلا يُسكِنِ الطَّمَعَ قَلْبَه)[3966].

- وقال هَزَّالٌ القريعيُّ: (مِفتاحُ الحِرصِ الطَّمَعُ، ومِفتاحُ الاستغناءِ الغِنى عن النَّاسِ، واليأسُ ممَّا في أيديهم)[3967].

- وعن سعيدِ بنِ عُمارةَ أنَّه قال لابنِه: (أظهِرِ اليأسَ؛ فإنَّه غِنًى، وإيَّاك والطَّمَعَ؛ فإنَّه فَقْرٌ حاضِرٌ)[3968].

- وقال ابنُ عَطاءٍ: (ما بسَقَت أغصانُ ذُلٍّ إلَّا على بَذرِ طَمَعٍ)[3969].

- وقال أيضًا: (أنت حُرٌّ ممَّا أنت عنه آيِسٌ، وعبدٌ لِما أنت له طامِعٌ)[3970].

- (وقال الحَرالِيُّ: والطَّمَعُ تعلُّقُ البالِ بالشَّيءِ من غيرِ تقدُّمِ سبَبٍ له؛ فينبغي للعالِمِ ألَّا يَشينَ عِلمَه وتعليمَه بالطَّمَعِ، ولو ممَّن يُعَلِّمُه، بنحوِ مالٍ، أو خِدمةٍ، وإن قَلَّ، ولو على صورةِ الهَدِيَّةِ التي لولا اشتغالُه عليه لم يُهْدِها)[3971].

- وقال أيضًا: (الطَّمَعُ يُشرِبُ القَلبَ الحِرصَ، ويختِمُ عليه بطابَعِ حُبِّ الدُّنيا، وحُبُّ الدُّنيا مِفتاحُ كُلِّ شَرٍّ، وسبَبُ إحباطِ كُلِّ خيرٍ)[3972].

- وقال ابنُ تَيميَّةَ: (الطَّمَعُ غُلٌّ في العُنُقِ قَيدٌ في الرِّجلِ، فإذا زال الغُلُّ من العُنُقِ زال القَيدُ من الرِّجلِ... وهذا أمرٌ يَجِدُه الإنسانُ من نفسِه؛ فإنَّ الأمرَ الذي ييأسُ منه لا يطلُبُه ولا يطمَعُ به، ولا يبقى قلبُه فقيرًا إليه، ولا إلى من يفعَلُه، وأمَّا إذا طَمِع في أمرٍ من الأمورِ ورجاه تعلَّق قلبُه به، فصار فقيرًا إلى حُصولِه، وإلى من يظُنُّ أنَّه سَبَبٌ في حُصولِه، وهذا في المالِ والجاهِ والصُّوَرِ وغيرِ ذلك)[3973].

- وقال ابنُ القَيِّمِ: (لا يجتَمِعُ الإخلاصُ في القَلبِ ومحبَّةُ المدحِ والثَّناءِ والطَّمَعُ فيما عِندَ النَّاسِ إلَّا كما يجتَمِعُ الماءُ والنَّارُ، والضَّبُّ والحُوتُ؛ فإذا حدَّثَتْك نفسُك بطَلَبِ الإخلاصِ فأقبِلْ على الطَّمَعِ أوَّلًا فاذبَحْه بسِكِّينِ اليأسِ، وأقبِلْ على المدحِ والثَّناءِ فازهَدْ فيهما زُهدَ عُشَّاقِ الدُّنيا في الآخرةِ، فإذا استقام لك ذَبحُ الطَّمَعِ والزُّهدُ في الثَّناءِ والمدحِ سَهُلَ عليك الإخلاصُ، فإن قُلتَ: وما الذي يُسَهِّلُ عليَّ ذَبحَ الطَّمَعِ والزُّهدَ في الثَّناءِ والمدحِ؟ قُلتُ: أمَّا ذبحُ الطَّمَعِ فيُسَهِّلُه عليك عِلمُك

[3964] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (10/236) واللفظ له، والبيهقي في ((الزهد الكبير)) (113)

[3965] يُنظَر: ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزمخشري (3/274)

[3966] المصدر السابق (3/270)

[3967] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((القناعة والتعفف)) (194)

[3968] رواه ابنُ عساكر في ((تاريخ دمشق)) (54/207)

[3969] ((الحكم)) (ص: 28).

[3970] المصدر السابق.

[3971] يُنظَر: ((فيض القدير)) للمناوي (4/290)

[3972] المصدر السابق (3/460)

[3973] يُنظَر: ((الفتاوى الكبرى)) (179 /5)

يقينًا أنَّه ليس من شيءٍ يُطمَعُ فيه إلَّا وبيَدِ اللهِ وَحدَه خزائنُه، لا يملِكُها غيرُه ولا يؤتى العبدُ منها شيئًا سِواه، وأمَّا الزُّهدُ في الثَّناءِ والمدحِ فيُسَهِّلُه عليك عِلمُك أنَّه ليس أحدٌ ينفَعُ مَدحُه ويَزينُ، ويَضُرُّ ذَمُّه ويَشينُ، إلَّا اللهُ وَحْدَه)[3974].

المطلب الرابع: آثارُ الطَّمَعِ

1. الانشِغالُ الدَّائِمُ والتَّعَبُ الذي لا ينقَطِعُ.

2. يؤدِّي إلى غيابِ فضيلةِ البَذلِ والتَّضحيةِ والإيثارِ بَيْنَ أفرادِ المجتَمَعِ.

3. يُضعِفُ الثِّقةَ باللهِ.

4. طريقٌ مُوصِلٌ إلى النَّارِ.

5. يجعَلُ صاحِبَه حقيرًا في عُيونِ الآخَرينَ.

6. يُذِلُّ أعناقَ الرِّجالِ؛ لذا قيل:

أذَلَّ الحِرصُ والطَّمَعُ الرِّقابا.[3975]

وقيل: (من أراد أن يعيشَ حُرًّا أيَّامَ حياتِه، فلا يُسكِنْ قَلْبَه الطَّمَعَ)[3976].

7. يُشعِرُ النَّفسَ بفَقرٍ دائمٍ، مهما كَثُر المالُ.

8. يُعمي الإنسانَ عن الطَّريقِ المستقيمِ.

9. يعودُ على صاحِبِه بالخُسرانِ في الدُّنيا والآخِرةِ.

10. يمحَقُ البركةُ.

11. ينشُرُ العداوةَ والكراهيةَ وعدَمَ الثِّقةِ بَيْنَ أفرادِ المجتَمَعِ.

12. ينشُرُ الفوضى في المجتَمَعِ، ويُزعزِعُ أمنَه.

13. يؤدِّي إلى الظُّلمِ والاضطِهادِ، إذا كان الطَّامِعُ من أصحابِ النُّفوذِ.

14. يؤدِّي إلى الغِشِّ والكَذِبِ.

15. يؤدِّي إلى زيادةِ الأسعارِ، واحتكارِ البضائِعِ، ممَّا يُلحِقُ الضَّرَرَ بالمجتَمَعِ.

16. يؤدِّي بالفَردِ إلى ارتكابِ الذُّنوبِ والمعاصي.

17. يؤدِّي إلى أكلِ الحرامِ .

المطلب الخامس: أنواعُ الطَّمَعِ وأقسامُه

الطَّمَعُ ثلاثةُ أنواع وهي:

1. الطَّمَعُ المحمودُ، وذلك مِثلُ:

[3974] يُنظَر: ((الفوائد)) (ص: 148).

[3975] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/160). والبيتُ كامِلًا: أذلَّ الحِرصُ والطَّمعُ الرِّقابا وقد يعفو الكريمُ إذا استَرَابَا وهو لأبي العتاهيةِ. يُنظَر: ((ديوان أبي العتاهية)) (ص: 32).

[3976] يُنظَر: ((المستطرف)) للأبشيهي (ص: 83).

الطَّمَعِ في طَلَبِ مغفرةِ اللهِ، والطَّمَعِ في دُخولِ الجنَّةِ، والطَّمَعِ في النَّصرِ على الأعداءِ.

2. الطَّمَعُ المذمومُ، وذلك مِثلُ:

الطَّمَعِ في مالٍ لا يحِلُّ له، أو في سُلطةٍ أو منصِبٍ لا يستحِقُّها.

وقد قيل: (الطَّمَعُ طَمَعانِ: طَمَعٌ يُوجِبُ الذُّلَّ للهِ، وهو إظهارُ الافتقارِ والعَجزِ والانكسارِ، وغايتُه الشَّرَفُ والعِزُّ والسَّعادةُ الأبَديَّةُ، وطَمَعٌ يُوجِبُ الذُّلَّ في الدَّارينِ، أي: وهو المرادُ هنا، وهو رأسُ حُبِّ الدُّنيا، وحُبُّ الدُّنيا رأسُ كُلِّ خطيئةٍ، والخطيئةُ ذُلٌّ وخِزيٌ، وحقيقةُ الطَّمَعِ: أن تُعَلِّقَ همَّتَك وقلبَك وأمَلَك بما ليس عندَك، فإذا أمطَرَت مياهُ الآمالِ على أرضِ الوُجودِ، وأُلقِيَ فيها بَذرُ الطَّمَعِ، بسَقَت أغصانُها بالذُّلِّ)[3977].

3. الطَّمَعُ المباحُ.

وهو الطَّمَعُ في أمرٍ مُباحٍ له[3978].

المطلب السادس: مظاهِرُ وصُوَرُ الطَّمَعِ

1. الطَّمَعُ في أموالِ النَّاسِ الخاصَّةِ.
2. الطَّمَعُ في الأموالِ العامَّةِ.
3. الطَّمَعُ في المأكَلِ والمشرَبِ والشَّرَهِ فيهما.
4. الطَّمَعُ في الوُصولِ لمنصِبٍ أو تحصيلِ جاهٍ.
5. الطَّمَعُ فيمن لا تحِلُّ له من النِّساءِ كزَوجةِ غيرِه.
6. اشتراطُ وَليِّ المرأةِ جُزءًا كبيرًا من المهرِ لنَفسِه.
7. احتِكارُ بعضِ التُّجَّارِ للسِّلَعِ؛ طَمَعًا في زيادةِ أثمانِها .

المطلب السابع: الأسبابُ المؤَدِّيةُ إلى الطَّمَعِ

1. الجَهلُ بالآثارِ السَّيِّئةِ للطَّمَعِ.
2. حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ.
3. ضَعفُ الإيمانِ.
4. عدَمُ الاهتمامِ بتزكيةِ النَّفسِ وتهذيبِها.
5. الانجرافُ وراءَ المُغرياتِ من أموالٍ ومناصِبَ وغيرِها.
6. مجالَسةُ أهلِ الطَّمَعِ ومُصاحَبتُهم.
7. ضَعفُ التَّربيةِ، ونشوءُ الفَردِ في مجتَمَعٍ لا يلتَزِمُ بتعاليمِ الدِّينِ الحنيفِ .

[3977] يُنظَر: ((فيض القدير)) للمناوي (3/132)

[3978] يُنظَر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (273 /4)

المطلب الثامن: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الطَّمَعِ

1. الاهتمامُ بتهذيبِ النَّفسِ.
2. التَّأمُّلُ في العواقِبِ الوخيمةِ التي تَنتُجُ عن الطَّمَعِ.
3. التَّأمُّلُ في نِعَمِ اللهِ الكثيرةِ والمختَلِفةِ، وشُكرُه عليها.
4. التَّحَلِّي بالوَرَعِ عِندَ الميلِ إلى الطَّمَعِ.
5. التَّسليمُ لقضاءِ اللهِ وقَدَرِه.
6. الطَّمَعُ في الجنَّةِ وما عِندَ اللهِ من نعيمٍ في الدَّارِ الآخِرةِ.
7. اللُّجوءُ إلى اللهِ، والاستعانةُ به في الابتعادِ عن الطَّمَعِ.
8. مجاهَدةُ النَّفسِ، وتعويدُها القناعةَ والتَّعفُّفَ.
9. مُطالعةُ سِيَرِ السَّلَفِ وأحوالِ الصَّالحينَ.
10. العِلمُ بأنَّ الطَّمَعَ والحِرصَ لا يزيدانِ من الرِّزقِ، وإنَّما ينالُ الإنسانُ ما قُدِّرَ له منه. قال بعضُهم: (الحِرصُ ينقُصُ قَدْرَ الإنسانِ، ولا يزيدُ في رِزقِه)[3979].
11. أن يَعلَمَ بأنَّ الدُّنيا دنيئةٌ وحقيرةٌ.
12. معرفةُ أنَّ القناعةَ طُمَأنينةٌ للقَلبِ وراحةٌ للنَّفسِ.
13. نَشرُ العِلمِ بَيْنَ أفرادِ المجتَمَعِ، والقضاءُ على الجَهلِ.
14. النَّظَرُ إلى مَن هو أدنى في أُمورِ الدُّنيا، كالفُقَراءِ، والمُبتَلَين، والمَرضى.
15. اليقينُ بأنَّ الإنسانَ لن يموتَ حتَّى يستكمِلَ رِزقَه.
16. تذكُّرُ الموتِ والدَّارِ الآخِرةِ.
17. مجالَسةُ أهلِ القناعةِ ومُصاحبتُهم.
18. إخراجُ الزَّكاةِ والصَّدَقةِ، والإنفاقُ في وُجوهِ الخيرِ .

المطلب التاسع: نماذِجُ من الطَّمَعِ

- **أصحابُ السَّبتِ:**

قال تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [الأعراف: 163 - 166]، ففي هذه الآيةِ يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يسأَلَ اليهودَ الذين بحَضرتِه عن القريةِ التي على شاطئِ البحرِ، وأن يستفسِرَهم عن اعتداءِ أهلِها يومَ السَّبتِ، ومخالفتِهم لأمرِ اللهِ؛ بتعظيمِ ذلك اليومِ، والانقطاعِ للعبادةِ، وتَركِ الاصطيادِ

[3979] يُنظَر: ((المستطرف)) للأبشيهي (ص: 83).

فيه، حينَ كانت تأتيهم الحيتانُ يومَ السَّبتِ كثيرةً ظاهرةً ومُقبِلةً، وفي بقيَّةِ الأيَّامِ غيرِ السَّبتِ لا تأتيهم، كذلك يختَبِرُهم اللهُ بما كانوا يَفسُقون.

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قالت جماعةٌ من أهلِ تلك القريةِ لِمن كان يَعِظُ المعتَدينَ منهم: لمَ تَنهَون المُستَحِلِّين للصَّيدِ يومَ السَّبتِ، واللهُ تعالى مُهلِكُهم أو مُعَذِّبُهم عذابًا شديدًا؟ فأجابوهم: نفعَلُ ذلك مَعذِرةً إلى رَبِّكم فيما أخذ علينا من الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكَرِ، ولعَلَّ هؤلاء المعتَدينَ يتَّقون اللهَ، ويجتَنِبون المعصيةَ، فلمَّا تَرَك المعتدون ما ذُكِّروا به، ولم يَقبَلوا نصيحةَ الواعِظين؛ أنجى اللهُ الذين يَنهَون عن المعصيةِ، وأخَذ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بمعصيتِهم للهِ بعذابٍ شديدٍ نتيجةَ فِسقِهم.

فلمَّا تمرَّدوا وتجاوَزوا ما نُهُوا عنه، وتمادَوا في صَيدِ السَّمَكِ يومَ السَّبتِ، قال اللهُ لهم: صِيروا قِرَدةً حَقيرين، مطرودينَ مِنَ الخَيرِ[3980].

- **طَمَعُ أصحابِ البُستانِ:**

أخبَرَ اللهُ تعالى عن أصحابِ البُستانِ حينَ حَلَفوا أنَّهم سيَقطَعون ثَمَرتَه عِندَ الصَّباحِ؛ حتَّى لا يعلَمَ بهم الفُقَراءُ، فيأخُذوا ما كانوا يأخُذونه؛ طمَعًا في اقتناءِ كامِلِ الغَلَّةِ والزَّرعِ، فكان من أمرِهم ما كان.

قال تعالى: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [القلم: 17 - 33].

- وذكَرَ الجاحِظُ رَجُلًا يُعرَفُ بالكِنديِّ، وأخبَرَ عن شِدَّةِ طَمَعِه الذي جعلَه يحتالُ ليأخُذَ من أموالِ النَّاسِ، فقال: حدَّثني عمرُو بنُ نِهْيَويٍّ قال: (كان الكِنديُّ لا يزالُ يقولُ للسَّاكِنِ، وربَّما قال للجارِ: إنَّ في الدَّارِ امرأةً بها حَملٌ، والوَحْمى ربَّما أسقَطَت من ريحِ القِدْرِ الطَّيِّبةِ، فإذا طبَخْتُم فرُدُّوا شهوتَها ولو بغَرفةٍ أو لَعقةٍ؛ فإنَّ النَّفسَ يَرُدُّها اليسيرُ، فإن لم تفعَلْ ذلك بعد إعلامي إياك، فكُفَّارتُك -إن أسقَطَت- غُرَّةٌ: عَبدٌ أو أَمَةٌ، ألزَمْتَ ذلك نفسَك أم أبَيتَ! قال: فكان ربَّما يوافي إلى منزلِه من قِصاعِ السُّكَّانِ والجيرانِ ما يكفيه الأيَّامَ، وكان أكثَرُهم يَفطِنُ ويَتغافَلُ)[3981]!

ومن القِصَصِ التي تدُلُّ على بُخلِ الكِنديِّ وطَمَعِه فيما عِندَ النَّاسِ الذين يستأجِرون دارَه، قال مَعبدٌ: (نزَلْنا دارَ الكِنديِّ أكثَرَ من سنةٍ، نُروِّجُ له الكِراءَ، ونقضي له الحوائِجَ، ونَفي له بالشَّرطِ. قُلتُ: قد فَهِمتُ ترويجَ الكِراءِ، وقضاءَ الحوائِجِ. فما معنى الوفاءِ بالشَّرطِ؟! قال: في شَرطِه على السُّكانِ أن يكونَ له رَوثُ الدَّابَّةِ، وبَعرُ الشَّاةِ، ونِشوارُ العَلوفةِ، وألَّا يُلقوا

[3980] يُنظَر: ((جامع البيان)) لابن جرير (10/509)، ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 306)، ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (9/148)

[3981] يُنظَر: ((البخلاء)) للجاحظ (ص: 112).

عَظمًا، ولا يُخرِجوا كُساحةً، وأن يكونَ له نوى التَّمرِ، وقُشورُ الرُّمَّانِ، والغَرفةُ من كُلِّ قِدرٍ تُطبَخُ للحُبلى في بيتِه. وكان في ذلك يتنَزَّلُ عليهم؛ فكانوا لطِيبِه وإفراطِ بُخلِه، وحُسنِ حديثِه، يحتَمِلون ذلك.

قال مَعبدٌ: فبينا أنا كذلك إذ قَدِم ابنُ عَمٍّ لي ومعه ابنٌ له، وإذا رُقعةٌ منه قد جاءتني: إن كان مُقامُ هذينِ القادمينِ ليلةً أو ليلتينِ احتمَلْنا ذلك، وإن كان إطماعُ السُّكَّانِ في اللَّيلةِ الواحِدةِ يجُرُّ علينا الطَّمَعَ في اللَّيالي الكثيرةِ! فكتَبْتُ إليه: ليس مُقامُهما عندنا إلَّا شهرًا أو نحوَه. فكتب إليَّ: إنَّ دارَك بثلاثين دِرهمًا، وأنتم سِتَّةٌ، لكُلِّ رأسٍ خمسةٌ، فإذ قد زِدتَ رَجُلين فلا بُدَّ من زيادةِ خَمستَينِ! فالدَّارُ عليك من يومِك هذا بأربعين. فكتبتُ إليه: وما يَضُرُّك من مُقامِهما، وثِقَلُ أبدانِهما على الأرضِ التي تحمِلُ الجِبالَ، وثِقَلُ مؤَونتِهما عليَّ دونَك؟! فاكتُبْ إليَّ بعُذرِك لأعرِفَه. ولم أدْرِ أنِّي أهجُمُ على ما هجَمْتُ، وأنِّي أقعُ منه فيما وقَعْتُ، فكتبَ إليَّ: الخِصالُ التي تدعو إلى ذلك كثيرةٌ، وهي قائمةٌ معروفةٌ ...)[3982]. ثمَّ أخذ يَسرُدُ هذه الخِصالَ بما يطولُ ذِكرُه.

• طَمَعُ أشعَبَ:

- قيل لأشعَبَ: ما بَلَغ مِن طَمَعِك؟ قال: أرى دُخانَ جاري فأَثْرُدُ[3983]!

- وقيل له: هل رأيتَ أطمَعَ منك؟ قال: نعم، امرأتي؛ كُلُّ شيءٍ ظَنَنْتَاه فهي تتيقَّنُه! وقال: شاةٌ لي كانت على السَّطحِ فأبصَرَت قَوسَ قُزَحَ فحَسِبَتْها حَبلًا من قَتٍّ، فوثَبَت إليها فطاحت، فاندَقَّ عُنُقُها!

-قال أشعَبُ أيضًا: ما رأيتُ أطمَعَ منِّي إلَّا كلبًا تَبِعَني على مَضغِ العِلْكِ فَرَسَخًا[3984]!

-قال المدائنيُّ: (كان سالِمُ بنُ عبدِ اللهِ يستخِفُّ أشعَبَ، ويمازِحُه ويَضحَكُ منه كثيرًا، ويحسِنُ إليه. فقال له ذاتَ يومٍ: أخبِرْني عن طمَعِك يا أشعَبُ. فقال: نعَمْ، قُلتُ لصِبيانٍ مجتَمِعين: إنَّ سالمًا قد فتح بابَ صَدَقةِ عُمَرَ، فامضوا إليه حتَّى يُطعِمَكم تمرًا، فمَضَوا. فلمَّا غابوا عن بصري وقَع في نفسي أنَّ الذي قُلتُ لهم حَقٌّ، فتَبِعتُهم[3985]!

-وقال أيضًا: مرَّ أشعَبُ برجُلٍ يعمَلُ زَبيلًا[3986]، فقال له: أُحِبُّ أن توسِعَه، قال: لِمَ ذاك؟ قال: لعَلَّ الذي يشتريه منك يُهدي إليَّ فيه شيئًا[3987]!

-وقال بعضُ الرُّواةِ: قيل لأشعَبَ: ما بلَغَ من طَمَعِك؟ قال: ما تناجى اثنانِ قطُّ إلَّا ظننتُ أنَّهما يأمُرانِ لي بشَيءٍ[3988]!

-وقال أيضًا: (تعلَّق أشعَبُ بأستارِ الكعبةِ، وسأل اللهَ أن يخرِجَ الحِرصَ مِن قَلبِه. فلمَّا انصرَف مرَّ بمجالِسِ قُريشٍ، فسألهم، فما أعطاه أحدٌ منهم شيئًا. فرجع إلى أمِّه، فقالت له: يا بُنَيَّ كيف جِئْتَني خائبًا. فقال: إنِّي سألتُ اللهَ أن يخرِجَ الحِرصَ من قلبي، فقالت: ارجِعْ يا بُنَيَّ، فاستَقِلْه ذاك! قال أشعَبُ: فرجَعْتُ، فتعلَّقتُ بأستارِ الكعبةِ وقُلتُ: يا رَبِّ، كُنتُ

[3982] المصدر السابق (ص: 113- 114).

[3983] يُنظَر: ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزمخشري (3/273)

[3984] المصدر السابق.

[3985] رواه الأنباري في ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) (2/217)

[3986] الزَّبيلُ: الجِرابُ، وقيل: الوِعاءُ يُحمَلُ فيه. ((لسان العرب)) لابن منظور.

[3987] رواه الأنباري في ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) (2/217)

[3988] المصدر السابق.

سألتُك أن تخرِجَ الطَّمَعَ من قلبي، فأقِلْني! ثمَّ مررتُ بمجالِسِ قُرَيشٍ فسألتُهم فأعطوني. ووهَبَ لي رجُلٌ غُلامًا، فجِئتُ إلى أمِّي بجِمارٍ مُوقَرٍ من كُلِّ شيءٍ، وبغُلامٍ، فقالت لي: ما هذا الغلامُ؟ فأشفَقْتُ من أن أقولَ: وُهِب لي، فتموتَ فرَحًا، فقُلتُ: غَينٌ. فقالت: وما غينٌ؟ قلتُ: لامٌ. قالت: وما لامٌ؟ قلتُ: ألفٌ. قالت: وما ألِفٌ؟ قلتُ: ميمٌ. قالت: وما ميمٌ؟ قلتُ: وُهِب لي غلامٌ! فغُشِيَ عليها من الفَرَحِ، ولو لم أُقَطِّعِ الحروفَ لماتت!)[3989].

-ويُقالُ: كان ثلاثةُ نَفَرٍ في العَرَبِ في عَصرٍ واحدٍ: أحَدُهم آيةٌ في السَّخاءِ، وهو حاتمٌ الطَّائيُّ، والثَّاني آيةٌ في البُخلِ، وهو أبو حُباحِبٍ، والثَّالِثُ آيةٌ في الطَّمَعِ، وهو أشعَبُ، كان طمَّاعًا، وكان من طَمَعِه إذا ... رأى إنسانًا يحُكُّ عُنُقَه، فيَظُنُّ أنَّه يَنزِعُ القميصَ ليدفعَه إليه[3990]!

المطلب العاشر: حُكمُ الطَّمَعِ

أمَّا الطَّمَعُ في المحرَّمِ فهو حرامٌ، وكذلك الطَّمَعُ الذي يشغَلُ عن واجبٍ، هو حرامٌ، وأمَّا الطَّمَعُ الذي يشغَلُ عن مُستحَبٍّ فليس بحرامٍ، لكِنَّ الزُّهدَ تَرْكُه، والطَّمَعُ فيما ليس بمُحَرَّمٍ هو من الأمورِ المباحةِ لا يُلامُ عليه الإنسانُ[3991].

المطلب الحادِيَ عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- من الطَّمَعِ المحمودِ الطَّمَعُ في مغفرةِ اللهِ تعالى؛ قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء: 51].

وهذا الطَّمَعُ ممَّا يُمدَحُ عليه العَبدُ، لكِنْ إذا فعَل أسبابَه، أمَّا إذا لم يفعَلْ أسبابَه فإنَّه من الأمانيِّ الباطلةِ[3992].

وكذلك فإنَّ الطَّمَعَ في النَّصرِ بدونِ أسبابِه طَمَعٌ في غيرِ محَلِّه؛ إنَّه كالطَّمَعِ في الأولادِ بدونِ نِكاحٍ، وكالطَّمَعِ في الأشجارِ بدونِ غَرسٍ، أو في رِبحِ التِّجارةِ بدونِ اتِّجارٍ[3993].

قال الجاحِظُ: (مَن طَمِع في السَّلامةِ من غيرِ تَسَلُّمٍ فقد وضَع الطَّمَعَ في موضِعِ الأمانيِّ)[3994].

- يُقالُ: فلانٌ طَبِعٌ طَمِعٌ: إذا كان متدَنِّسَ العِرضِ، ذا خُلُقٍ دَنيءٍ، لا يستحي من سَوءةٍ[3995].

- وأراد رجُلٌ أن يُقَبِّلَ يدَ هِشامِ بنِ عبدِ المَلِكِ، فقال: (لا تفعَلْ؛ فإنَّما يفعَلُه من العَرَبِ الطَّمِعُ، ومن العَجَمِ الطَّبِعُ[3996].[3997]

[3989] المصدر السابق.

[3990] يُنظَر: ((بحر العلوم)) للسمرقندي (3/609)

[3991] يُنظَر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (273 /4)

[3992] يُنظَر: ((تفسير ابن عثيمين - الشعراء)) (ص: 113).

[3993] ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (372 /2)

[3994] ((البخلاء)) (ص: 250).

[3995] يُنظَر: ((العين)) للخليل (2/ 23)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (557 /1)

[3996] الطَّبَعُ: الدَّنَسُ والعيبُ، وكُلُّ شَينٍ في دينٍ أو دُنيا فهو طَبَعٌ، يُقالُ منه: رَجُلٌ طَبِعٌ. يُنظَر: ((غريب الحديث)) للقاسم بن سلام (219 /2)

[3997] يُنظَر: ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزمخشري (2/419)

- وكان يُقالُ: (حين خَلَق اللهُ آدَمَ عَجَن بطينتِه ثلاثةَ أشياءَ: الحِرصَ، والطَّمَعَ، والحَسَدَ. فهي تجري في أولادِه إلى يومِ القيامةِ، فالعاقِلُ يُخفيها، والجاهِلُ يُبديها)، ومعناه أنَّ اللهَ تعالى خلَق شَهوتَها فيه[3998].

- **قال تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ} [آل عمران: 112]** قال ابنُ عُثَيمين: (اليهودُ قد ضُرِبَت عليهم المَسكَنةُ، وهي الفَقرُ، ويشمَلُ فَقرَ القُلوبِ الذي هو شِدَّةُ الطَّمَعِ، بحيثُ إنَّ اليهوديَّ لا يَشبَعُ، ولا يتوقَّفُ عن طَلَبِ المالِ ولو كان من أكثَرِ النَّاسِ مالًا، ويشمَلُ أيضًا فَقرَ المالِ، وهو قِلَّتُه)[3999].

- لا يزولُ الطَّمَعُ والحِرصُ بكثرةِ المالِ، بل بإقناعِ النَّفسِ، كما قيل:

ما كُلُّ ما فوقَ البسيطةِ كافيًا

وإذا قَنِعْتَ فبَعضُ شَيءٍ كافِ[4000]

[3998] يُنظَر: ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (3/271)

[3999] ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (219 /1)

[4000] ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (169 /9)

المبحث السابع: سوء الظن

المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى سُوءِ الظَّنِّ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى السُّوءِ لُغةً:**

أصلُ هذه المادَّةِ يَدُلُّ على القُبحِ، يقالُ: ساء الشَّيءُ: إذا قَبُح. والسُّوءُ: الاسمُ الجامعُ للآفاتِ والدَّاءِ، والسُّوءُ أيضًا بمعنى الفجورِ والمُنكَرِ، ويقالُ: ساءه يسوءُه سُوءًا وسَواءً: فعل به ما يَكرَهُ، نقيضُ سَرَّه. والاسمُ: السُّوءُ بالضَّمِّ. وسُؤتُ الرَّجُلَ سَوايةً ومَسايةً، يُخَفَّفان، أي: ساءه ما رآه مني. وسؤتُ به ظَنًّا، وأسأتُ به الظَّنَّ. ويقالُ: أسأتُ به وإليه وعليه وله[4001].

- **معنى الظَّنِّ لغةً:**

ظنَّ الشَّيءَ ظَنًّا: عَلِمه بغيرِ يقينٍ، وقد تأتي بمعنى اليقينِ. و: فلانًا. وبه: اتَّهمه. والظِّنَّةُ: التُّهمةُ. والظَّنينُ: المتَّهَمُ الذي تُظَنُّ به التُّهمةُ، ومَصدَرُه الظِّنَّةُ، والجَمعُ الظِّنَنُ. ورجلٌ ظَنينٌ: متَّهَمٌ من قومٍ أظِنَّاءَ[4002].

- **معنى الظَّنِّ اصطِلاحًا:**

قال الجُرجانيُّ: (الظَّنُّ هو الاعتقادُ الرَّاجِحُ مع احتمالِ النَّقيضِ، ويُستعمَلُ في اليقينِ والشَّكِّ، وقيل: الظَّنُّ أحَدُ طرَفَيِ الشَّكِّ بصفةِ الرُّجْحانِ)[4003].

- **معنى سُوءِ الظَّنِّ اصطِلاحًا:**

قال الماوَرْديُّ: (سُوءُ الظَّنِّ: هو عدَمُ الثِّقةِ بمن هو لها أهلٌ)[4004].

وقال ابنُ كثيرٍ: سُوءُ الظَّنِّ (هو التُّهمةُ والتَّخوُّنُ للأهلِ والأقارِبِ والنَّاسِ في غيرِ محَلِّه)[4005].

وقيل: (سُوءُ الظَّنِّ هو: اعتقادُ جانبِ الشَّرِّ وترجيحُه على جانبِ الخيرِ فيما يحتَمِلُ الأمرينِ معًا)[4006].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ سُوءِ الظَّنِّ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ سُوءِ الظَّنِّ والاحترازِ:**

قال ابنُ القَيِّمِ: (الفَرْقُ بَيْنَ الاحترازِ وسُوءِ الظَّنِّ:

أنَّ المحتَرِزَ يكونُ مع التَّأهُّبِ والاستعدادِ، وأخذِ الأسبابِ التي بها ينجو من المكروهِ؛ فالمحتَرِزُ كالمتسلِّحِ المتطَوِّعِ الذي قد تأهَّب للقاءِ عَدُوِّه، وأعدَّ له عُدَّتَه؛ فهمُّه في تهيئةِ أسبابِ النَّجاةِ ومحاربةِ عَدُوِّه، قد أشغَلَتْه عن سُوءِ الظَّنِّ به، وكلَّما ساء به

[4001] ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((المحيط في اللغة)) لابن عباد، ((لسان العرب)) لابن منظور، ((تاج العروس)) للزبيدي.

[4002] ((لسان العرب)) لابن منظور، ((المعجم الوسيط)).

[4003] ((التعريفات)) (1/187).

[4004] ((أدب الدنيا والدين)) (1/186).

[4005] ((تفسير القرآن العظيم)) (7/377).

[4006] ((نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم)) (10/ 4652).

الظَّنُّ أخذ في أنواعِ العِدَّةِ والتَّأهُّبِ، بمنزلةِ رجُلٍ قد خرج بمالِه ومركوبِه مسافِرًا، فهو يحترزُ بجُهدِه من كُلِّ قاطعٍ للطَّريقِ، وكلِّ مكانٍ يُتوقَّعُ منه الشَّرُّ.

وأمَّا سُوءُ الظَّنِّ فهو امتلاءُ قلبِه بالظُّنونِ السَّيِّئةِ بالنَّاسِ؛ حتى يطفَحَ على لسانِه وجوارحِه، فهم معه أبدًا في الهَمزِ واللَّمزِ والطَّعنِ والعَيبِ والبُغضِ، يُغِضُهم ويُبغِضونه، ويلعَنُهم ويلعنونه، ويَحذَرُهم ويحذَرون منه، فالأوَّلُ يخالطُهم ويحترِزُ منهم، والثَّاني يتجنَّبُهم ويلحَقُه أذاهم، الأوَّلُ داخِلٌ فيهم بالنَّصيحةِ والإحسانِ مع الاحترازِ، والثَّاني خارجٌ منهم مع الغِشِّ والدَّغَلِ والبُغضِ)[4007].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الفِراسةِ وسُوءِ الظَّنِّ:**

قال أبو طالبٍ المكِّيُّ: (الفَرْقُ بَيْنَ الفِراسةِ وسُوءِ الظَّنِّ: أنَّ الفِراسةَ ما توسَّمْتَه من أخيك بدليلٍ يظهَرُ لك، أو شاهدٍ يبدو منه، أو علامةٍ تَشهَدُها فيه، فتتفَرَّسُ من ذلك فيه ولا تنطِقُ به إن كان سوءًا، ولا تُظهِرُه ولا تحكُمُ عليه ولا تقطَعُ به فتأثَمَ.

وسُوءُ الظَّنِّ ما ظنَنْتَه من سوءِ رأيِك فيه، أو لأجلِ حِقدٍ في نفسِك عليه، أو لسوءِ نيَّةٍ تكونُ أو خبثِ حالٍ فيك، تعرِفُها من نفسِك، فتحمِلُ حالَ أخيك عليها وتقيسُه بك، فهذا هو سُوءُ الظَّنِّ والإثمُ)[4008].

وقال ابنُ القَيِّمِ: (الظَّنُّ يخطئُ ويصيبُ، وهو يكونُ مع ظُلمةِ القَلبِ ونورِه، وطهارتِه ونجاستِه؛ ولهذا أمرَ تعالى باجتنابِ كثيرٍ منه، وأخبر أنَّ بعضَه إثمٌ، وأمَّا الفِراسةُ فأثنى على أهلِها ومدَحَهم...)[4009].

المطلب الثالث: ذَمُّ سُوءِ الظَّنِّ والنَّهْيُ عنه

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

- قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور: 11 - 12].

فالآيةُ فيها تحريمُ ظَنِّ السُّوءِ، وأنَّ حَقَّ المُؤمِنِ إذا سمع قالةً في أخيه أن يبنيَ الأمرَ فيه على ظنِّ الخيرِ، وأن يقولَ بناءً على ظَنِّه: (هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)، هكذا باللَّفظِ الصَّريحِ ببراءةِ أخيه[4010].

- وقال سُبحانَه في ذم سُوءُ الظَّنِّ بمن ظاهره العدالة من المسلمين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات:12].

قال ابنُ كثيرٍ: (قال تعالى ناهيًا عبادَه المُؤمنين عن كثيرٍ من الظَّنِّ...؛ لأنَّ بعضَ ذلك يكونُ إثمًا محضًا، فليُجتنَبْ كثيرٌ منه احتياطًا)[4011].

[4007] يُنظَر: ((الروح)) (1/237، 238) بتصرف.

[4008] ((قوت القلوب)) (2/371).

[4009] ((الروح)) (ص: 238).

[4010] ((تفسير أبي حيان)) (8/21).

[4011] ((تفسير القرآن العظيم)) (7/377).

وقال السَّعديُّ: (نهى اللَّهُ تعالى عن كثيرٍ من الظَّنِّ السُّوءِ بالمُؤمنين، فـ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ وذلك كالظَّنِّ الخالي من الحقيقةِ والقرينةِ، وكظَنِّ السُّوءِ الذي يقترنُ به كثيرٌ من الأقوالِ والأفعالِ المحَرَّمةِ؛ فإنَّ بقاءَ ظَنِّ السُّوءِ بالقَلبِ لا يقتصِرُ صاحبُه على مجرَّدِ ذلك، بل لا يزالُ به حتى يقولَ ما لا ينبغي، ويفعَلَ ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا إساءةُ الظَّنِّ بالمسلمِ وبغضُه وعداوتُه، المأمورُ بخلافِ ذلك منه)[4012].

- وأمَّا سُوءُ الظَّنِّ باللَّهِ تعالى، فقد قال اللَّهُ تعالى في ذمِّه وعاقبةِ الظَّانِّين به ظَنَّ السَّوءِ: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران: 154].

قال ابنُ القَيِّمِ: (فُسِّر هذا الظَّنُّ الذي لا يليقُ باللهِ بأنَّه سُبحانَه لا ينصُرُ رسولَه، وأنَّ أمرَه سيضمَحِلُّ، وأنَّه يُسلِمُه للقَتلِ، وقد فُسِّر بظَنِّهم أنَّ ما أصابهم لم يكُنْ بقضائِه وقَدَرِه، ولا حكمةَ له فيه، ففُسِّر بإنكارِ الحكمةِ، وإنكارِ القَدَرِ، وإنكارِ أن يُتِمَّ أمرَ رسولِه ويُظهِرَه على الدِّينِ كُلِّه. وإنَّما كان هذا ظنَّ السَّوءِ، وظَنَّ الجاهليَّةِ المنسوبَ إلى أهلِ الجَهلِ، وظَنَّ غيرِ الحقِّ؛ لأنَّه ظنُّ غيرِ ما يليقُ بأسمائِه الحسنى وصفاتِه العُليا وذاتِه المبرَّأةِ من كُلِّ عيبٍ وسُوءٍ، بخلافِ ما يليقُ بحكمتِه وحمدِه وتفرُّدِه بالرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ، وما يليقُ بوعدِه الصَّادِقِ الذي لا يخلِفُه، وبكَلِمتِه التي سبقت لرُسُلِه أنَّه ينصُرُهم ولا يخذُلُهم، ولجُندِه بأنَّهم هم الغالِبون، فمن ظَنَّ بأنَّه لا ينصُرُ رسولَه، ولا يُتِمُّ أمرَه، ولا يؤيِّدُه ويُؤيِّدُ حِزبَه، ويُعليهم ويُظفِرُهم بأعدائِه، ويُظهِرُهم عليهم، وأنَّه لا ينصُرُ دينَه وكتابَه، وأنَّه يُديلُ الشِّركَ على التَّوحيدِ، والباطِلَ على الحقِّ إدالةً مستَقِرَّةً يضمَحِلُّ معها التَّوحيدُ والحَقُّ اضمحلالًا لا يقومُ بعده أبدًا- فقد ظَنَّ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ، ونسبه إلى خلافِ ما يليقُ بكمالِه وجلالِه وصفاتِه ونُعوتِه؛ فإنَّ حمدَه وعزَّتَه وحكمتَه وإلهيَّتَه تأبى ذلك، وتأبى أن يُذِلَّ حِزبَه وجُندَه، وأن تكونَ النُّصرةُ المستَقِرَّةُ والظَّفَرُ الدَّائمُ لأعدائِه المُشرِكين به العادلين به، فمن ظَنَّ به ذلك فما عرَفه ولا عرَف أسماءَه ولا عرَف صفاتِه وكمالَه)[4013].

- وقال سُبحانَه في عاقبةِ مَن ظَنَّ به السَّوءَ: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت: 22- 23].

قال أبو حيَّانَ الأندَلُسيُّ: (هذا الظَّنُّ كُفرٌ وجَهلٌ باللهِ وسُوءُ مُعتقَدٍ يؤدِّي إلى تكذيبِ الرُّسُلِ، والشَّكِّ في علمِ الإلهِ)[4014].

قال السَّعديُّ: (وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ بإقدامِكم على المعاصي أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ فلذلك صدَر منكم ما صدَر، وهذا الظَّنُّ صار سببَ هلاكِهم وشقائِهم؛ ولهذا قال: وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ الظَّنَّ السَّيِّئَ؛ حيث ظنَنْتُم به ما لا يليقُ بجلالِه أَرْدَاكُمْ أي: أهلككم فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ لأنفُسِهم وأهليهم وأديانِهم بسَبَبِ الأعمالِ التي أوجبها لكم ظنُّكم القبيحُ بربِّكم، فحقَّت عليكم كَلِمةُ العقابِ والشَّقاءِ، ووجَب عليكم الخلودُ الدَّائمُ في العذابِ الذي لا يُفَتَّرُ عنهم ساعةً)[4015].

[4012] ((تيسير الكريم الرحمن)) (1/801).

[4013] ((زاد المعاد)) (206/3) بتصرف يسير. ويُنظَر: ((فتح القدير)) للشوكاني (449/1).

[4014] ((البحر المحيط)) (9/300).

[4015] ((تيسير الكريم الرحمن)) (1/747).

- ثمَّ أوضح سُبحانَه صورةَ هذا الهلاكِ والخُسرانِ بقَولِه تعالى: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [الفتح: 6].

قال ابنُ القَيِّمِ: (توعَّد اللهُ سُبحانَه الظَّانّين به ظَنَّ السَّوءِ بما لم يتوعَّدْ به غيرَهم، كما قال تعالى: {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [الفتح: 6])[4016].

وقال الشَّوكانيُّ في قولِه تعالى: (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ أي: يُعَذِّبُهم في الدُّنيا بما يَصِلُ إليهم من الهُمومِ والغُمومِ بسَبَبِ ما يشاهِدونه من ظُهورِ كَلِمةِ الإسلامِ، وقَهرِ المخالِفين له، وبما يصابون به من القَهرِ والقتلِ والأسْرِ، وفي الآخرةِ بعذابِ جهنَّمَ. عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ أي: ما يظنُّونه ويتربَّصونه بالمُؤمِنين دائرٌ عليهم حائقٌ بهم، والمعنى: أنَّ العذابَ والهلاكَ الذي يتوقَّعونه للمُؤمِنين واقعانِ عليهم نازلانِ بهم... وغَضِب اللهُ عليهم ولعنَهم وأعدَّ لهم جهنَّمَ وساءت مصيرًا)[4017].

ب- من السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ))[4018].

قال الصَّنعانيُّ: (المرادُ بقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إيَّاكم والظَّنَّ" سُوءُ الظَّنِّ به تعالى، وبكُلِّ من ظاهرُه العدالةُ من المسلمين، وقولُه: "فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ". سمَّاه حديثًا؛ لأنَّه حديثُ النَّفسِ، وإنما كان الظَّنُّ أكذَبَ الحديثِ؛ لأنَّ الكَذِبَ مخالفةُ الواقعِ من غيرِ استنادٍ إلى أمارةٍ، وقبحُه ظاهرٌ لا يحتاجُ إلى إظهارِه، وأمَّا الظَّنُّ فيزعُمُ صاحبُه أنَّه استند إلى شيءٍ، فيخفى على السَّامعِ كونُه كاذبًا بحَسَبِ الغالِبِ، فكان أكذَبَ الحديثِ، والحديثُ واردٌ في حقِّ من لم يَظهَرْ منه شَتمٌ ولا فُحشٌ ولا فُجورٌ)[4019].

وقال المُلَّا علي القاري: (... "إيَّاكم والظَّنَّ"، أي: احذروا اتِّباعَ الظَّنِّ في أمرِ الدِّينِ الذي مبناه على اليقينِ؛ قال تعالى: وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا [يونس: 36] ، قال القاضي: التَّحذيرُ عن الظَّنِّ فيما يجِبُ فيه القطعُ، أو التَّحدُّثِ به عِندَ الاستغناءِ عنه، أو عمَّا يُظَنُّ كَذِبُه.. أو اجتَنِبوا الظَّنَّ في التَّحديثِ والإخبارِ، ويؤيِّدُه قولُه: "فإنَّ الظَّنَّ" في موضِعِ الظَّاهِرِ زيادةَ تمكينٍ في ذهنِ السَّامِعِ حَثًّا على الاجتنابِ "أكذَبُ الحديثِ")[4020].

- وعن عليِّ بنِ الحُسَينِ رَضِيَ اللهُ عنهما ((أنَّ صفيَّةَ زوجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخبرتْه أنَّها جاءت رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تزورُه في اعتكافِه في المسجِدِ في العَشرِ الأواخِرِ من رمضانَ، فتحدَّثَت عنده ساعةً، ثمَّ قامت تنقَلِبُ، فقام النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معها يقَلِبُها، حتَّى إذا بلغت بابَ المسجِدِ عندَ بابِ أمِّ سَلَمةَ مرَّ رجلانِ من الأنصارِ، فسَلَّما على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال لهما النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: على رِسْلِكما، إنما هي صفيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ. فقالا: سبحانَ اللهِ، يا رسولَ اللهِ! وكَبُرَ عليهما. فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ الشَّيطانَ يَبلُغُ من الإنسانِ مَبلَغَ الدَّمِ، وإني خَشيتُ أن يقذِفَ في قلوبِكما شيئًا))[4021].

[4016] ((الداء والدواء)) (1/138).

[4017] يُنظَر: ((فتح القدير)) (5/54) بتصرف يسير.

[4018] رواه البخاري (5143)، ومسلم (2563) مطوَّلًا.

[4019] يُنظَر: ((سبل السلام)) (2/664، 665).

[4020] ((مرقاة المفاتيح)) (8/3147).

[4021] رواه البخاري (2035) واللفظ له، ومسلم (2175).

قال النَّوويُّ: (الحديثُ فيه فوائدُ؛ منها: بيانُ كمالِ شَفَقتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أمَّتِه، ومراعاتُه لمصالِحِهم، وصيانةُ قُلوبِهم وجوارِحِهم، وكان بالمُؤمِنين رحيمًا؛ فخاف صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُلقيَ الشَّيطانُ في قلوبِهما فيَهلِكا؛ فإنَّ ظَنَّ السَّوءِ بالأنبياءِ كُفرٌ بالإجماعِ، والكبائِرُ غيرُ جائزةٍ عليهم، وفيه أنَّ من ظَنَّ شيئًا من نحوِ هذا بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كَفَر.. وفيه استحبابُ التَّحرُّزِ من التَّعرُّضِ لسُوءِ ظنِّ النَّاسِ في الإنسانِ، وطَلبِ السَّلامةِ، والاعتذارِ بالأعذارِ الصَّحيحةِ، وأنَّه متى فعل ما قد يُنكَرُ ظاهِرُه ممَّا هو حقٌّ، وقد يخفى أن يُبَيِّنَ حالَه ليَدفَعَ ظَنَّ السَّوءِ)[4022].

- **وعن أبي أمامةَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الأميرَ إذا ابتغى الرِّيبةَ في النَّاسِ أفسَدَهم))[4023].**

قال المُناويُّ: (... "إنَّ الأميرَ إذا ابتغى الرِّيبةَ"، أي: طلَب الرِّيبةَ، أي: التُّهمةَ في النَّاسِ بنيَّةِ فَضائِحِهم. أفسَدَهم، وما أمهَلَهم، وجاهَرَهم بسُوءِ الظَّنِّ فيها، فيؤدِّيهم ذلك إلى ارتِكابِ ما ظُنَّ بهم ورُموا به، ففَسَدوا، ومقصودُ الحديثِ: حَثُّ الإمامِ على التَّغافُلِ، وعَدَمِ تتَبُّعِ العَوْراتِ؛ فإنَّ بذلك يقومُ النِّظامُ، ويحصُلُ الانتظامُ، والإنسانُ قَلَّما يسلَمُ مِن عَيبِه، فلو عامَلَهم بكُلِّ ما قالوه أو فعلوه اشتَدَّت عليهم الأوجاعُ، واتَّسَع المجالُ، بل يَستُرُ عُيوبَهم، ويتغافَلُ ويصفَحُ، ولا يتَّبِعُ عَوراتِهم، ولا يتجَسَّسُ عليهم)[4024].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ

- قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه: (إذا استولى الصَّلاحُ على الزَّمانِ وأهلِه، ثمَّ أساء رجلٌ الظَّنَّ برجلٍ لم تظهَرْ منه خِزيةٌ، فقد ظَلَمَ)[4025].

- وعنه أيضًا: (ليس من العَدلِ القضاءُ على الثِّقةِ بالظَّنِّ)[4026].

- وقال أبو ذَرٍّ: (الأمانةُ خيرٌ من الخاتَمِ، والخاتَمُ خيرٌ من ظَنِّ السُّوءِ)[4027].

- وقال سَلمانُ الفارسيُّ: (لأَعُدُّ عِراقَ[4028] قِدْري مخافةَ الظَّنِّ)[4029].

- وقال مالِكٌ: (بلغني أنَّ ابنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما باع من رجلينِ بيتًا، وكان يكيلُ لهما، وقعد إلى جانبِ حائطٍ في ظِلِّه، فذهب الظِّلُّ عنهما، وأصابت ابنَ عُمَرَ الشَّمسُ، فقال له الرَّجلانِ: لو انصرَفْتَ عن الشَّمسِ فإنَّا لا نزيدُ على حَقِّنا! فقال ابنُ عُمَرَ: أمَا إنِّي لا أراكما إلَّا وقد صدَقْتُما، ولكِنَّ القعودَ في الشَّمسِ أحَبُّ إليَّ مِن ظَنِّ السَّوءِ)[4030].

- وقال طاهِرُ بنُ الحُسَينِ لابنِه عبدِ اللهِ لَمَّا ولَّاه المأمونُ الرَّقَّةَ ومِصرَ وما بَيْنَهما: (... ولا تتَّهِمَنَّ أحدًا من النَّاسِ فيما تولِّيه من عَمَلِك قبلَ أن تكشِفَ أمرَه؛ فإنَّ إيقاعَ التُّهَمِ بالبُرآءِ والظُّنونَ السَّيِّئةَ بهم مأثَمٌ، واجعَلْ من شأنِك حُسْنَ الظَّنِّ بأصحابِك، واطرُدْ عنك سوءَ الظَّنِّ بهم، وارفُضْه فيهم، يعينُك ذلك على اصطناعِهم ورياضتِهم. ولا يجِدَنَّ عَدُوُّ اللهِ

[4022] ((شرح النووي على مسلم)) (14/156، 157).

[4023] رواه أبو داود (4889)، وأحمد (23815). صحَّحه لغيره الألباني في ((صحيح سنن أبي داود))، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (4889)، ووثَّق رجاله الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (5/218).

[4024] ((فيض القدير)) (2/323).

[4025] ذكره الزمخشري في ((ربيع الأبرار)) (3/257)..

[4026] المصدر السابق.

[4027] رواه ابنُ أبي شيبة (35828).

[4028] العِراقُ: جمعُ عِرقٍ، وهو العَظمُ الذي عليه بقيَّةٌ من لحمٍ. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (3/ 211).

[4029] ذكره ابن عطية في ((المحرر الوجيز)) (5/134).

[4030] ((سنن الصالحين وسنن العابدين)) لأبي الوليد الباجي (ص: 451).

الشَّيطانُ في أمرِك مَغمَزًا؛ فإنَّه إنما يكتفي بالقليلِ من وَهنِك، فيُدخِلُ عليك من الغَمِّ في سوءِ الظَّنِّ ما يُنغِّصُك لَذاذةَ عَيشِك...)[4031].

- وكان بَكرٌ المُزَنيُّ يقولُ: (إيَّاك من كلامٍ ما إن أصَبتَ فيه لم تؤجَرْ، وإن أخطَأْتَ وَزِرتَ. وذلك سُوءُ الظَّنِّ بأخيك)[4032].

- وقال أبو حاتمِ بنُ حِبَّانَ: (العاقِلُ يُحسِنُ الظَّنَّ بإخوانِه، وينفَرِدُ بغمومِه وأحزانِه، كما أنَّ الجاهِلَ يُسيءُ الظَّنَّ بإخوانِه، ولا يُفكِّرُ في جناياتِه وأشجانِه)[4033].

- وقال ابنُ عطيَّةَ: (كان أبو العاليةِ يختِمُ على بقيَّةِ طعامِه مخافةَ سُوءِ الظَّنِّ بخادِمِه)[4034].

- وقال الغَزاليُّ: (سُوءُ الظَّنِّ غِيبةٌ بالقَلبِ)[4035].

- وقال الخطَّابيُّ: (الظَّنُّ منشَأُ أكثَرِ الكَذِبِ)[4036].

- وقال إسماعيلُ بنُ أُمَيَّةَ: (ثلاثٌ لا يُعجِزْنَ ابنَ آدَمَ: الطِّيَرةُ، وسُوءُ الظَّنِّ، والحَسَدُ. قال: فيُنجيك من الطِّيَرةِ ألَّا تعمَلَ بها، وينجيك من سُوءِ الظَّنِّ ألَّا تتكَلَّمَ به، وينجيك من الحسَدِ ألَّا تبغيَ أخاك سُوءًا)[4037].

- وقال الحارِثُ المحاسِبيُّ: (احمِ القَلبَ عن سُوءِ الظَّنِّ بحُسنِ التَّأويلِ)[4038].

- وقال الشَّرباصيُّ: (مهما رأيتَ إنسانًا يسيءُ الظَّنَّ بالنَّاسِ طالبًا للعيوبِ فاعلَمْ أنَّه خبيثٌ في الباطِنِ، وأنَّ ذلك خُبثُه يترشَّحُ منه، وإنما رأى غيرَه من حيثُ هو؛ فإنَّ المُؤمِنَ يطلُبُ المعاذيرَ، والمُنافِقَ يطلُبُ العيوبَ، والمُؤمِنُ سليمُ الصَّدرِ في حَقِّ كافَّةِ الخَلقِ)[4039].

المطلب الرابع: آثارُ سُوءِ الظَّنِّ

1- يورِثُ الإنسانَ الأخلاقَ السَّيِّئةَ:

سُوءُ الظَّنِّ يورِثُ الإنسانَ الأخلاقَ السَّيِّئةَ، كالجُبنِ، والبُخلِ، والشُّحِّ، والحِقدِ، والحَسَدِ، والتَّباغُضِ.

قال ابنُ القَيِّمِ: (الشُّحُّ... خُلُقٌ ذميمٌ يتولَّدُ من سُوءِ الظَّنِّ، وضَعفِ النَّفسِ، ويُمُدُّه وَعدُ الشَّيطانِ)[4040].

وقال المهلَّبُ: (التباغُضُ والتَّحاسُدُ أصلُهما سُوءُ الظَّنِّ، وذلك أنَّ المباغِضَ والمحاسِدَ يتأوَّلُ أفعالَ من يُبغِضُه ويحسُدُه على أسوأِ التَّأويلِ)[4041].

2- سبَبٌ في وجودِ الأحقادِ والعداوةِ:

[4031] ((تاريخ الرسل والملوك)) لابن جرير الطبري (8/ 584)، ((المقدمة)) لابن خلدون (2/725-735).

[4032] ((الطبقات الكبرى)) لابن سعد (7/ 157).

[4033] ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)) (ص: 126).

[4034] ذكره ابن عطية في ((المحرر الوجيز)) (5/134).

[4035] ((إحياء علوم الدين)) (2/177).

[4036] ((عمدة القاري)) لبدر الدين العيني (23/232).

[4037] ((غريب الحديث)) للخطابي (1/85).

[4038] ((رسالة المسترشدين)) (1/89).

[4039] ((أخلاق القرآن)) للشرباصي (4/49).

[4040] ((الروح)) (1/237).

[4041] ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (9/261).

فإنَّ الظَّنَّ السَّيِّئَ (يزرعُ الشِّقاقَ بَيْنَ المُسلِمين، ويقطَعُ حبالَ الأُخُوَّةِ، ويمزِّقُ وشائجَ المحبَّةِ، ويزرعُ العداءَ والبغضاءَ والشَّحناءَ)[4042].

قال ابنُ القَيِّمِ: (وأمَّا سُوءُ الظَّنِّ فهو امتلاءُ قلبِه بالظُّنونِ السَّيِّئةِ بالنَّاسِ؛ حتى يطفَحَ على لسانِه وجوارحِه، فهم معه أبدًا في الهَمزِ واللَّمزِ والطَّعنِ والعَيبِ والبُغضِ، يُبغِضُهم ويُبغِضونه، ويلعَنُهم ويلعنونه، ويَحذَرُهم ويحذَرون منه، فالأوَّلُ يخالطُهم ويحترِزُ منهم، والثَّاني يتجنَّبُهم ويلحَقُه أذاهم، الأوَّلُ داخِلٌ فيهم بالنَّصيحةِ والإحسانِ مع الاحترازِ، والثَّاني خارجٌ منهم مع الغِشِّ والدَّغَلِ والبُغضِ)[4043].

3- يؤدِّي إلى تتبُّعِ عَوراتِ المُسلِمين:

قال الغزاليُّ: (من ثَمَراتِ سُوءِ الظَّنِّ التَّجَسُّسُ؛ فإنَّ القلبَ لا يقنَعُ بالظَّنِّ، ويطلُبُ التَّحقيقَ فيشتَغِلُ بالتَّجسُّسِ، وهو أيضًا منهيٌّ عنه؛ قال اللهُ تعالى: وَلَا تَجَسَّسُوا [الحجرات: 12]. فالغِيبةُ وسُوءُ الظَّنِّ والتَّجَسُّسُ منهيٌّ عنه في آيةٍ واحدةٍ، ومعنى التَّجسُّسِ ألَّا يترُكَ عبادَ اللهِ تحتَ سِترِ اللَّهِ، فيتوصَّلُ إلى الاطِّلاعِ وهَتكِ السِّترِ؛ حتى ينكَشِفَ له ما لو كان مستورًا عنه كان أسلَمَ لقَلبِه ودينِه)[4044].

4- سَبَبٌ للمُشكِلاتِ العائليَّةِ:

فـ(من أسبابِ المشاكِلِ العائليَّةِ سُوءُ الظَّنِّ من أحَدِهما وغَضَبُه قبلَ التَّذكُّرِ والتَّثبُّتِ؛ فيقَعُ النِّزاعُ، وربَّما حصل فِراقٌ، ثمَّ تبيَّن الأمرُ خِلافَ الظَّنِّ)[4045].

وقال ابنُ القَيِّمِ: (الغَيرةُ مذمومةٌ؛ منها غَيرةٌ يحمِلُ عليها سُوءُ الظَّنِّ، فيؤذي بها المحبُّ محبوبَه، ويُغري عليه قلبَه بالغَضَبِ، وهذه الغَيرةُ يكرَهُها اللهُ إذا كانت في غيرِ رِيبةٍ، ومنها غيرةٌ تحمِلُه على عقوبةِ المحبوبِ بأكثَرَ ممَّا يستحِقُّه)[4046].

5- إضعافُ الثِّقةِ بَيْنَ المُؤمِنين[4047].

6- من مداخِلِ الشَّيطانِ الموقِعةِ في كبائِرِ الذُّنوبِ:

قال الغزاليُّ: (من عظيمِ حِيَلِ الشَّيطانِ.. سُوءُ الظَّنِّ بالمسلِمين؛ قال اللهُ تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ [الحجرات: 12]، فمَن يحكُمْ بشَرٍّ على غيرِه بالظَّنِّ، بعثه الشَّيطانُ على أن يُطوِّلَ فيه اللِّسانَ بالغِيبةِ فيَهلِكَ، أو يُقصِّرَ في القيامِ بحقوقِه، أو يتوانى في إكرامِه، وينظُرَ إليه بعينِ الاحتقارِ، ويرى نفسَه خيرًا منه. وكلُّ ذلك من المُهلِكاتِ)[4048].

7- سَبَبٌ في مَرَضِ القَلبِ، وعلامةٌ على خُبثِ الباطِنِ:

[4042] ((ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث)) لمحمد عبد الحكيم (210/1).

[4043] ((الروح)) (238/1).

[4044] ((إحياء علوم الدين)) (152/3).

[4045] ((موارد الظمآن لدروس الزمان)) لعبد العزيز السلمان (4/272).

[4046] ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) (1/311).

[4047] ((الرائد دروس في التربية والدعوة)) لمازن الفريح (168/2).

[4048] ((إحياء علوم الدين)) (36/3).

قال الغزاليُّ: (مهما رأيتَ إنسانًا يسيءُ الظَّنَّ بالنَّاسِ طالبًا للعيوبِ فاعلَمْ أنَّه خبيثٌ في الباطِنِ، وأنَّ ذلك خُبثُه يترشَّحُ منه، وإنما رأى غيرَه من حيثُ هو؛ فإنَّ المُؤمِنَ يطلُبُ المعاذيرَ، والمُنافِقَ يطلُبُ العيوبَ، والمُؤمِنُ سليمُ الصَّدرِ في حَقِّ كافَّةِ الخَلقِ)[4049].

8- يُسَبِّبُ عَدَمَ الثِّقةِ بالآخَرِينَ:

قال الزَّمخشريُّ: (قيل لعالمٍ: مَن أسوأُ النَّاسِ حالًا؟ قال: مَن لا يثِقُ بأحدٍ لسُوءِ ظَنِّه، ولا يثِقُ به أحدٌ لسُوءِ فِعلِه)[4050].

■ **أمَّا آثارُ سُوءِ الظَّنِّ باللهِ فمنها:**

1- أنه سببٌ للوقوعِ في الشِّركِ والبدعةِ والضَّلالِ:

سُوءُ الظَّنِّ باللهِ سببٌ في الوقوعِ في الشِّركِ قال ابنُ القَيِّمِ: (الشِّركُ والتَّعطيلُ مبنيَّانِ على سُوءِ الظَّنِّ باللهِ تعالى.. لأنَّ الشِّركَ هضمٌ لحَقِّ الرُّبوبيَّةِ، وتنقيصٌ لعَظَمةِ الإلهيَّةِ، وسوءُ ظَنٍّ بربِّ العالَمين؛ ولهذا قال إبراهيمُ إمامُ الحُنَفاءِ لخُصَمائِه من المُشرِكين: أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [الصافات: 86-87])[4051].

قال المقريزيُّ: (اعلَمْ أنَّك إذا تأمَّلتَ جميعَ طوائفِ الضَّلالِ والبِدَعِ وجَدْتَ أصلَ ضلالِهم راجعًا إلى شيئين: أحدُهما: ... الظَّنُّ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ)[4052].

2- أنَّه صفةُ كُلِّ مبطِلٍ ومبتَدِعٍ:

قال تعالى: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت: 23].

قال ابنُ القَيِّمِ: (كُلُّ مبطِلٍ وكافرٍ ومبتَدِعٍ مقهورٌ مُستذَلٌّ، فهو يظُنُّ برَبِّه هذا الظَّنَّ وأنَّه أولى بالنَّصرِ والظَّفَرِ والعُلوِّ من خصومِه، فأكثَرُ الخلقِ بل كلُّهم إلَّا من شاء اللهُ يظنُّون باللهِ غيرَ الحَقِّ ظَنَّ السَّوءِ، فإنَّ غالِبَ بني آدمَ يعتقِدُ أنَّه مبخوسُ الحَقِّ ناقِصُ الحظِّ، وأنَّه يستحِقُّ فوقَ ما أعطاه اللهُ، ولسانُ حالِه يقولُ: ظلَمَني ربِّي، ومنعني ما أستحِقُّه! ونفسُه تشهَدُ عليه بذلك، وهو بلسانِه يُنكِرُه، ولا يتجاسَرُ على التَّصريحِ به، ومن فتَّش نفسَه وتغلغَلَ في معرفةِ دفائنِها وطواياها رأى ذلك فيها كامنًا كُمونَ النَّارِ في الزِّنادِ!)[4053].

3- سببٌ في استحقاقِ لعنةِ اللهِ وغضَبِه:

قال تعالى: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا} [الفتح: 6].

قال ابنُ القَيِّمِ: (توعَّد اللهُ سُبحانَه الظَّانِّين به ظَنَّ السَّوءِ بما لم يتوعَّدْ به غيرَهم، كما قال تعالى: {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا} [الفتح: 6])[4054].

4- من أساء الظَّنَّ أساء العَمَلَ:

[4049] المصدر السابق.

[4050] ((ربيع الأبرار)) (298/3).

[4051] يُنظَر: ((إغاثة اللهفان)) (60/1-62).

[4052] ((رسائل المقريزي)) (102/1) بتصرف يسير.

[4053] ((زاد المعاد)) (211/3)، ((الصواعق المُرسَلة)) (1356/4)، ((الداء والدواء)) (138/1).

[4054] ((الداء والدواء)) (138/1).

(تلا الحَسَنُ: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ} [فصلت: 23] ، فقال: إنَّما عَمَلُ النَّاسِ على قَدرِ ظُنونِهم بربِّهم؛ فأمَّا المُؤمِنُ فأحسَنَ باللهِ الظَّنَّ، فأحسن العَمَلَ، وأمَّا الكافرُ والمُنافِقُ فأساءا الظَّنَّ، فأساءا العمَلَ)[4055].

المطلب الخامس: أقسامُ سُوءِ الظَّنِّ

ينقَسِمُ سُوءُ الظَّنِّ إلى قسمَينِ:

القسمُ الأوَّلُ: سُوءُ الظَّنِّ الذي يؤاخَذُ به صاحبُه:

وضابطُ هذا النَّوعِ: هو كُلُّ ظنٍّ ليس عليه دليلٌ صحيحٌ معتَبَرٌ شرعًا، استقرَّ في النَّفسِ، وصدَّقه صاحبُه، واستمرَّ عليه، وتكلَّم به، وسعى في التَّحقُّقِ منه[4056]. ومن ذلك سُوءُ الظَّنِّ بالمُؤمِنين.

القسمُ الثَّاني: سُوءُ الظَّنِّ الذي لا يؤاخَذُ به صاحِبُه:

ومن ذلك الخواطرُ الطَّارئةُ غيرُ المستقِرَّةِ التي يجاهِدُها صاحبُها، ولا يسعى للتحقُّقِ منها.

قال النَّوويُّ: (الخواطِرُ وحديثُ النَّفسِ إذا لم يستَقِرَّ ويستمِرَّ عليه صاحبُه فمعفوٌّ عنه باتِّفاقِ العُلَماءِ؛ لأنَّه لا اختيارَ له في وقوعِه، ولا طريقَ له إلى الانفكاكِ عنه، وهذا هو المرادُ بما ثبت في الصَّحيحِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ اللهَ تجاوز لأمَّتي ما حدَّثت به أنفُسَها ما لم تتكلَّمْ به أو تعمَلْ))[4057]. قال العُلَماءُ: المرادُ به الخواطرُ التي لا تستقِرُّ، قالوا: وسواءٌ كان ذلك الخاطِرُ غِيبةً أو كُفرًا أو غيرَه، فمن خطَر له الكُفرُ مجرَّدَ خَطَرٍ من غيرِ تعمُّدٍ لتحصيلِه، ثمَّ صرفه في الحالِ، فليس بكافرٍ، ولا شيءَ عليه... وسببُ العَفوِ ما ذكَرْناه من تعذُّرِ اجتنابِه، وإنما الممكنُ اجتنابُ الاستمرارِ عليه؛ فلهذا كان الاستمرارُ وعَقدُ القلبِ حرامًا، ومهما عَرَض لك هذا الخاطرُ بالغِيبةِ وغيرِها من المعاصي، وجَب عليك دفعُه بالإعراضِ عنه، وذِكرِ التَّأويلاتِ الصَّارفةِ له عن ظاهِرِه)[4058].

وكذلك لا يؤاخَذُ المسلِمُ على سُوءِ الظَّنِّ بالكافِرِ وبمن اشتهر بَيْنَ النَّاسِ بالفُجورِ، والمجاهرةِ بالمعاصي، أو سُوءِ الظَّنِّ بمن يناصِبُه العداوةَ[4059].

وللهِ دَرُّ القائِلِ:

من أحسَنَ الظَّنَّ بأعدائِه
تجرَّع الهمَّ بلا كاسِ[4060]

وعن عائشةَ قالت: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما أظُنُّ فلانًا وفلانًا يعرفانِ من دينِنا شيئًا)) قال اللَّيثُ: (كانا رجلينِ من المُنافِقين)[4061]. وترجم له البخاريُّ "بابُ ما يجوزُ من الظَّنِّ"، قال ابنُ حَجَرٍ: (حاصِلُ التَّرجمةِ أنَّ مِثلَ هذا الذي وقع في الحديثِ ليس من الظَّنِّ المنهيِّ عنه؛ لأنَّه في مقامِ التَّحذيرِ من مثلِ من كان حالُه كحالِ الرَّجلينِ، والنَّهيُ إنما هو عن الظَّنِّ

[4055] رواه عبد الرزاق في ((التفسير)) (2700)، والطبري في ((التفسير)) (21/456) واللفظ له.
[4056] يُنظَر: ((معالم السنن)) للخطابي (4/123)، و((شرح النووي على مسلم)) (16/119).
[4057] رواه البخاري (5269)، ومسلم (127) باختلافٍ يسيرٍ من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.
[4058] ((الأذكار)) (1/345)، ((إحياء علوم الدين)) لأبي حامد الغزالي (3/150).
[4059] يُنظَر: ((روضة العقلاء)) لابن حبان (1/127)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (5/300).
[4060] يُنظَر: ((شرح لامية العجم)) للدميري (ص: 114).
[4061] أخرجه البخاري (6067).

السَّوءِ بالمسلِمِ السَّالمِ في دينِه وعِرضِه، وقد قال ابنُ عُمَرَ: "إنَّا كنَّا إذا فقَدْنا الرَّجُلَ في عشاءِ الآخِرةِ أسَأْنا به "الظَّنَّ"[4062] ومعناه أنَّه لا يغيبُ إلَّا لأمرٍ سيِّئٍ إمَّا في بدنِه وإمَّا في دينِه)[4063].

المطلب السادس: أسبابُ الوقوعِ في سُوءِ الظَّنِّ

1 -الجَهلُ وسُوءُ القصدِ والفَهمِ:

فالجهلُ من الأسبابِ التي تؤدي إلى سُوءِ الظَّنِّ بسَبَبِ عَدَمِ فَهمِ حقيقةِ (ما يرى وما يقرأُ، ومرمى ذلك. وعدمُ إدراكِ حُكمِ الشَّرعِ الدَّقيقِ في هذه المواقِفِ، خُصوصًا إذا كانت المواقفُ غريبةً تحتاجُ إلى فقهٍ دقيقٍ ونظرٍ بعيدٍ، يجعلُ صاحبَه يبادرُ إلى سُوءِ الظَّنِّ، والاتهامِ بالعَيبِ، والانتقاصِ من القَدرِ؛ فانظُرْ إلى ذي الخويصِرةِ الجَهولِ، لماذا أساء الظَّنَّ بالرَّسولِ واتَّهمه بعدَمِ الإخلاصِ؟! فقال: اعدِلْ يا محمَّدُ، فما عَدَلْتَ! هذه قِسمةٌ ما أُريدَ بها وجهُ اللَّهِ! لقد دفعَه إلى الظَّنِّ السَّيِّئِ والفِعلِ القبيحِ جَهلُه وسطحيَّةُ فهمِه، وقِلَّةُ فقهِه لمقاصِدِ الشَّريعةِ ومصالحِ الدِّينِ الشَّرعيَّةِ)[4064].

2 -اتِّباعُ الهوى وتعميمُ الأحكامِ على النَّاسِ:

قال الغزاليُّ: (المُسلِمُ يستحِقُّ بإسلامِه عليك ألَّا تسيءَ الظَّنَّ به، فإن أسأتَ الظَّنَّ به في عينِه؛ لأنَّك رأيتَ فسادًا من غيرِه، فقد جنَيتَ عليه، وأثِمتَ به في الحالِ... ويدُلُّ عليه أنَّا نعلَمُ أنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عنهم في غزواتِهم وأسفارِهم كانوا ينزِلون في القُرى، ولا يردُّون القِرى، ويدخلون البلادَ، ولا يحترزون من الأسواقِ، وكان الحرامُ أيضًا موجودًا في زمانِهم، وما نُقِل عنهم سؤالٌ إلَّا عن ريبةٍ؛ إذ كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يسألُ عن كُلِّ ما يُحمَلُ إليه، بل سأل في أوَّلِ قُدومِه إلى المدينةِ عمَّا يحمَلُ إليه أصَدَقةٌ أم هَديَّةٌ؟! لأنَّ قرينةَ الحالِ تدُلُّ، وهو دخولُ المهاجِرين المدينةَ وهم فُقَراءُ، فغَلَب على الظَّنِّ أنَّ ما يحمَلُ إليهم بطريقِ الصَّدَقةِ)[4065].

3 -مصاحَبةُ أهلِ الفِسقِ والفُجورِ:

قال أبو حاتمٍ البُستيُّ: (صحبةُ الأشرارِ تُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ بالأخيارِ، ومَن خادَن الأشرارَ لم يسلَمْ من الدُّخولِ في جملتِهم، فالواجِبُ على العاقِلِ أن يجتَنِبَ أهلَ الرَّيبِ؛ لئلَّا يكونَ مُريبًا، فكما أنَّ صُحبةَ الأخيارِ تُورِثُ الخيرَ، كذلك صُحبةُ الأشرارِ تورِثُ الشَّرَّ)[4066].

4 -الحضورُ في مواطِنِ التُّهَمِ والرَّيبِ:

من أسبابِ إساءةِ النَّاسِ الظَّنَّ بالمرءِ حُضورُه في أماكِنِ الرَّيبِ والفجورِ؛ ولهذا قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: (من أقام نفسَه مقامَ التُّهَمِ فلا يلومَنَّ من أساء به الظَّنَّ)[4067].

[4062] أخرجه ابن خزيمة (1485)، والحاكم (764)، وابن حبان (2099) بنحوه، بزيادة لفظة (والصبح). صحَّحه ابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم على شرط الشيخين، والألباني في ((صحيح الموارد)) (364).

[4063] ((فتح الباري)) (10/485).

[4064] ((ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث)) لمحمد عبد الحكيم (201/1، 202).

[4065] ((إحياء علوم الدين)) (119/2).

[4066] ((روضة العقلاء)) (1/100).

[4067] رواه الخرائطي في ((مكارم الأخلاق)) (477).

5 -الحِقدُ والحسَدُ على المظنونِ به:

قال أبو طالِبٍ المكِّيُّ: (وسُوءُ الظَّنِّ ما ظنَنْتَه من سوءِ رأيِك فيه، أو لأجلِ حِقدٍ في نفسِك عليه، أو لسوءِ نيَّةٍ تكونُ أو خبثِ حالٍ فيك، تعرِفُها من نفسِك، فتحمِلُ حالَ أخيك عليها وتقيسُه بك، فهذا هو سُوءُ الظَّنِّ والإثمُ)[4068].

6 -الإسرافُ في الغَيرةِ:

قال الغزاليُّ: (قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عنه: لا تُكثِرِ الغَيرةَ على أهلِك، فتُرمى بالسُّوءِ من أجلِك)[4069].

7 -وساوِسُ الشَّيطانِ وتزيينُه:

قال تعالى: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا} [الفتح: 12].

قال البَغَويُّ: (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا، أي: ظنَنْتُم أنَّ العدُوَّ يستأصِلُهم فلا يرجِعون، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ زيَّن الشَّيطانُ ذلك الظَّنَّ في قلوبِكم)[4070].

وفي الحديثِ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الشَّيطانَ يجري من الإنسانِ مجرى الدَّمِ، وإني خشيتُ أن يقذِفَ في قلوبِكما شَرًّا، أو قال: شيئًا))[4071].

قال الهيتمي: (وينبغي لك إذا ورد عليك خاطِرُ سوءٍ بمسلِمٍ أن تبادِرَ بالدُّعاءِ له بالخيرِ؛ لتَغيظَ الشَّيطانَ، وتقطَعَ عنه إلقاءَه إليك ذلك من دعائِك له)[4072].

المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ سُوءِ الظَّنِّ

1- مجاهدةُ النَّفسِ على سلامةِ الصَّدرِ ودَفعِ الوساوِسِ والخَطَراتِ.

2- تركُ التَّحقُّقِ من الظُّنونِ السَّيِّئةِ:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: 12].

قال ابنُ حَجَرٍ: (دلَّ سياقُ الآيةِ على الأمرِ بصونِ عِرضِ المسلِمِ غايةَ الصِّيانةِ؛ لتقدُّمِ النَّهيِ عن الخوضِ فيه بالظَّنِّ، فإن قال الظَّانُّ: أبحثُ لأتحقَّقَ، قيل له: وَلَا تَجَسَّسُوا، فإن قال: تحقَّقْتُ من غيرِ تجَسُّسٍ، قيل له: وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)[4073].

3- أن يتأوَّلَ ما ظاهِرُه السُّوءُ وأن يجِدَ له مخرَجًا:

[4068] ((قوت القلوب)) (371/2).

[4069] ذكره الغزالي في ((إحياء علوم الدين)) (46/2).

[4070] ((تفسير البغوي)) (4/ 225).

[4071] رواه البخاري (3281)، ومسلم (2175) واللفظ له.

[4072] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (2/ 32).

[4073] ((فتح الباري)) (10/ 481).

قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ: (لا يحِلُّ لامرئٍ مسلمٍ سَمِع من أخيه كَلِمةً أن يظُنَّ بها سوءًا، وهو يجِدُ لها في شيءٍ من الخيرِ مَخرَجًا)[4074].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: (ما بلغني عن أخٍ مكروهٌ قطُّ إلَّا أنزَلْتُه إحدى ثلاثِ منازِلَ: إن كان فوقي عرَفْتُ له قَدْرَه، وإن كان نظيري تفضَّلتُ عليه، وإن كان دوني لم أحفِلْ به. هذه سيرتي في نفسي، فمَن رَغِب عنها فأرضُ اللهِ واسِعةٌ)[4075].

4- عَدَمُ مصاحبةِ من ابتُلِيَ بإساءةِ الظَّنِّ:

قال ابنُ حِبَّانَ: (الواجِبُ على العاقِلِ أن يجتَنِبَ أهلَ الرِّيَبِ؛ لئلَّا يكونَ مُريبًا، فكما أنَّ صُحبةَ الأخيارِ تُورِثُ الخيرَ، كذلك صُحبةُ الأشرارِ تورِثُ الشَّرَّ)[4076].

5- البعدُ عن مواطِنِ التُّهَمِ والرِّيَبِ:

وعن عليِّ بنِ الحُسَينِ رَضِيَ اللهُ عنهما ((أنَّ صفيَّةَ زوجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخبرتْه أنَّها جاءت رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تزورُه في اعتكافِه في المسجِدِ في العَشرِ الأواخِرِ من رمضانَ، فتحدَّثَت عنده ساعةً، ثمَّ قامت تنقَلِبُ، فقام النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معها يقلِبُها، حتَّى إذا بلغت بابَ المسجِدِ عندَ بابِ أمِّ سَلَمةَ مرَّ رجلانِ من الأنصارِ، فسَلَّما على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال لهما النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: على رِسْلِكما، إنَّما هي صفيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ. فقالا: سبحانَ اللهِ، يا رسولَ اللهِ! وكَبُر عليهما. فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ الشَّيطانَ يَبلُغُ من الإنسانِ مَبلَغَ الدَّمِ، وإني خَشيتُ أن يقذِفَ في قلوبِكما شيئًا))[4077].

قال ابنُ بطَّالٍ: (في قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّها صفيَّةُ" السُّنَّةُ الحَسَنةُ لأمَّتِه، أن يمتَثِلوا فعلَه ذلك في البُعدِ عن التُّهَمِ ومواقِفِ الرِّيَبِ)[4078].

وقال الغزاليُّ: (حتى لا يتساهَلَ العالِمُ الوَرِعُ المعروفُ بالدِّينِ في أحوالِه فيقولَ: مِثلي لا يُظَنُّ به إلَّا الخيرُ؛ إعجابًا منه بنفسِه، فإنَّ أورعَ النَّاسِ وأتقاهم وأعلَمَهم لا ينظُرُ النَّاسُ كُلُّهم إليه بعينٍ واحدةٍ، بل بعينِ الرِّضا بعضُهم، وبعَينِ السَّخَطِ بعضُهم... فيجِبُ الاحترازُ عن ظَنِّ السَّوءِ، وعن تهمةِ الأشرارِ؛ فإنَّ الأشرارَ لا يظنُّون بالنَّاسِ كُلِّهم إلَّا الشَّرَّ)[4079].

وقال أيضًا: ينبغي على المرءِ (أن يتَّقيَ مواضِعَ التُّهَمِ صيانةً لقلوبِ النَّاسِ عن سُوءِ الظَّنِّ، ولألسِنَتِهم عن الغيبةِ؛ فإنَّهم إذا عصَوا اللهَ بذِكرِه وكان هو السَّببَ فيه، كان شريكًا؛ قال اللهُ تعالى: وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ [الأنعام: 108]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كيف ترونَ من يَسُبُّ أبويه؟! فقالوا: وهل من أحَدٍ يَسُبُّ أبَويه؟! فقال: نعم، يسُبُّ أبوَي غيرِه فيَسُبُّون أبوَيه))[4080][4081].

[4074] ذكره ابن عبد البر في ((التمهيد)) (18/20).

[4075] ذكره ابن مُفلِح في ((الآداب الشرعية)) (2/13)، وعزاه إلى أبي حفص العكبري في ((الأدب)).

[4076] ((روضة العقلاء)) (ص: 100).

[4077] رواه البخاري (2035) واللفظ له، ومسلم (2175).

[4078] ((شرح صحيح البخاري)) (4/175).

[4079] ((إحياء علوم الدين)) (3/36).

[4080] رواه البخاري (5973)، ومسلم (90) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما. ولفظُ البخاريِّ: (إنَّ مِن أكبرِ الكبائرِ أن يلعَنَ الرَّجُلُ والدَيه. قيل: يا رسولَ اللهِ، وكيف يلعَنُ الرَّجُلُ والدَيه؟ قال: يسُبُّ الرَّجُلُ أبا الرَّجُلِ فيَسُبُّ أباه، ويسُبُّ أمَّه).

وقال أعرابيٌّ لصديقٍ له: (دَعْ ما يسبِقُ إلى القلوبِ إنكارُه، وإن كان عندك اعتذارُه؛ فليس من حكى عنك نُكرًا، توسِعُه فيك عُذرًا)[4082].

6- أنَّ المسلِمَ كما يكرَهُ أن يساءَ به الظَّنُّ، فينبغي عليه ألَّا يسيءَ الظَّنَّ بأحدٍ من المسلِمين ممَّن ظاهرُه الخيرُ والصَّلاحُ.

■ **ومن وسائِلِ دفعِ المرءِ سُوءَ الظَّنِّ برَبِّه:**

1- الاستعاذةُ باللهِ والتَّوقُّفُ عن الاسترسالِ في الظُّنونِ:

إذا كان سُوءُ الظَّنِّ الواردُ متعلِّقًا باللهِ سُبحانَه وتعالى فممَّا ورد في علاجِ ذلك حديثُ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يأتي الشَّيطانُ أحَدَكم فيقولُ: مَن خَلَق كذا، مَن خَلَق كذا، حتَّى يقولَ: مَن خَلَق رَبَّك؟ فإذا بلَغه فلْيَستعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ))[4083].

2- معرفةُ أسماءِ اللهِ وصِفاتِه:

قال ابنُ القَيِّمِ: (أكثَرُ النَّاسِ يظنُّون باللهِ غيرَ الحَقِّ ظَنَّ السَّوءِ فيما يختَصُّ بهم، وفيما يفعلُه بغيرِهم، ولا يسلَمُ من ذلك إلَّا من عرَف اللهَ وعرَف أسماءَه وصفاتِه، وعرَف موجِبَ حَمدِه وحكمتِه، فمن قَنِط من رحمتِه وأَيِس من رَوحِه، فقد ظنَّ به ظَنَّ السَّوءِ)[4084].

3- سُوءُ الظَّنِّ بالنَّفسِ واتِّهامُها بالتَّقصيرِ:

قال ابنُ القيِّمِ: (لِيَظُنَّ العَبدُ السُّوءَ بنفسِه التي هي مأوى كُلِّ سوءٍ، ومنبَعُ كُلِّ شَرٍّ، المركَّبةِ على الجهلِ والظُّلمِ؛ فهي أَولى بظَنِّ السُّوءِ من أحكَمِ الحاكمين وأعدَلِ العادِلين وأرحَمِ الرَّاحِمين، الغنيِّ الحميدِ الذي له الغِنى التَّامُّ والحمدُ التَّامُّ والحِكمةُ التَّامَّةُ، المنزَّهِ عن كُلِّ سوءٍ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه وأسمائِه، فذاتُه لها الكمالُ المُطلَقُ من كُلِّ وجهٍ، وصفاتُه كذلك، وأفعالُه كذلك، كلُّها حكمةٌ ومصلحةٌ ورحمةٌ وعدلٌ، وأسماؤه كلُّها حُسنى)[4085].

4 - المداومةُ على محاسبةِ النَّفسِ والاستغفارِ:

قال ابنُ القَيِّمِ: (فلْيَعتَنِ اللَّبيبُ النَّاصحُ لنَفسِه بهذا الموضِعِ، وليتُبْ إلى اللهِ تعالى، وليستغفِرْه كُلَّ وقتٍ من ظنِّه برَبِّه ظَنَّ السَّوءِ)[4086].

[4081] ((إحياء علوم الدين)) (2/201)

[4082] ((الأمالي)) لأبي علي القالي.(14 /1)

[4083] رواه البخاري (3276) واللفظ له، ومسلم (134).

[4084] ((زاد المعاد)) (3/206).

[4085] المصدر السابق (3/211).

[4086] المصدر السابق

المطلب الثامن: حُكمُ سُوءِ الظَّنِّ

يَحرُمُ سُوءُ الظَّنِّ، أمَّا سُوءُ الظَّنِّ باللهِ تعالى فهو من أعظَمِ الذُّنوبِ؛ قال ابنُ القيِّمِ: (أعظَمُ الذُّنوبِ عِندَ اللهِ إساءةُ الظَّنِّ به)[4087]. وعدَّه الهيتمي في الكبائِرِ[4088]، وقال الماوَرديُّ: (سُوءُ الظَّنِّ هو عدَمُ الثِّقةِ بمن هو لها أهلٌ، فإن كان بالخالِقِ كان شكًّا يؤولُ إلى ضلالٍ)[4089].

وكذلك يحرُمُ سُوءُ الظَّنِّ بالأنبياءِ. قال النَّوويُّ: (ظنُّ السَّوءِ بالأنبياءِ كُفرٌ بالإجماعِ)[4090].

ويَحرُمُ سُوءُ الظَّنِّ بمن ظاهِرُه العدالةُ من المسلمين، وقد عدَّه الهيتمي في الكبائِرِ[4091].

- قال الغزاليُّ: (اعلَمْ أنَّ سُوءَ الظَّنِّ حرامٌ مِثلَ سُوءِ القولِ؛ فكما يحرُمُ عليك أن تحدِّثَ غيرَك بلسانِك بمساوئِ الغيرِ، فليس لك أن تحدِّثَ نفسَك وتسيءَ الظَّنَّ بأخيك، ولستُ أعني به إلَّا عقدَ القلبِ وحُكمَه على غيرِه بالسُّوءِ، فأمَّا الخواطِرُ وحديثُ النَّفسِ فهو معفوٌّ عنه، بل الشَّكُّ أيضًا معفوٌّ عنه، ولكِنَّ المنهيَّ عنه أن يَظُنَّ، والظَّنُّ عبارةٌ عمَّا تركَنُ إليه النَّفسُ، ويميلُ إليه القَلبُ)[4092].

- وقال أيضًا: (لا يُستباحُ ظَنُّ السَّوءِ إلَّا بما يُستباحُ به المالُ، وهو نفسُ مشاهدتِه أو بيِّنةٌ عادلةٌ، فإذا لم يكُنْ كذلك وخطر لك وِسواسُ سُوءِ الظَّنِّ فينبغي أن تدفَعَه عن نفسِك وتقرِّرَ عليها أنَّ حاله عندك مستورٌ كما كان، وأنَّ ما رأيتَه منه يحتَمِلُ الخيرَ والشَّرَّ، فإن قُلتَ: فبماذا يُعرَفُ عقدُ الظَّنِّ، والشُّكوكُ تختَلِجُ والنَّفسُ تحدِّثُ، فنقولُ: أمارةُ عَقدِ سُوءِ الظَّنِّ أن يتغَيَّرَ القَلبُ معه عمَّا كان، فينفِرُ عنه نفورًا ما ويستثقِلُه، ويفتُرُ عن مراعاتِه وتفقُّدِه وإكرامِه والاغتمامِ بسَبَبِه، فهذه أماراتُ عقدِ الظَّنِّ وتحقيقِه)[4093].

فيَجِبُ على المسلِمِ إذا عرَض له خاطرٌ بسُوءِ الظَّنِّ أن يقطعَه إلَّا إذا دعت إلى الفكرِ في ذلك مصلحةٌ شرعيَّةٌ، فإذا دعت جاز الفكرُ في نقيصتِه والتَّنقيبِ عنها، كما في جَرحِ الشُّهودِ والرُّواةِ وغيرِ ذلك[4094].

ويجوزُ سُوءُ الظَّنِّ بالكافرِ وبمن اشتَهَر بَيْنَ النَّاسِ بمخالطةِ الرِّيَبِ، والمجاهرةِ بالمعاصي؛ قال ابنُ عُثَيمين: (يحرُمُ سُوءُ الظَّنِّ بمسلمٍ، أمَّا الكافرُ فلا يحرُمُ سُوءُ الظَّنِّ فيه؛ لأنَّه أهلٌ لذلك، وأمَّا من عُرِف بالفسوقِ والفجورِ فلا حرَجَ أن نسيءَ الظَّنَّ به؛ لأنَّه أهلٌ لذلك، ومع هذا لا ينبغي للإنسانِ أن يتتبَّعَ عوراتِ النَّاسِ، ويبحثَ عنها؛ لأنَّه قد يكون متجَسِّسًا بهذا العَمَلِ)[4095].

[4087] ((الداء والدواء)) (1/138)، ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) لابن حجر الهيتمي (1/150).

[4088] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (1/ 150).

[4089] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) (186/1).

[4090] ((شرح النووي على مسلم)) (156/14، 157). ويُنظَر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (63/7).

[4091] يُنظَر: ((الزواجر)) لابن حجر الهيتمي (130/1).

[4092] ((إحياء علوم الدين)) (3/ 150).

[4093] المصدر السابق (3/ 151).

[4094] ((الأذكار)) للنووي (ص: 346).

[4095] ((الشرح الممتع)) (300/5).

- وقال ابنُ بطّالٍ: (سُوءُ الظَّنِّ جائزٌ عِندَ أهلِ العِلمِ لِمن كان مظهِرًا للقبيحِ ومجانِبًا لأهلِ الصَّلاحِ...)[4096].

وكذلك لا يُمنعُ الإنسانُ من سُوءِ الظَّنِّ بعدوِّه؛ قال أبو حاتمٍ البُستيُّ: (أما الذي يُستحَبُّ من سُوءِ الظَّنِّ فهو كمن بينَه وبينَ آخَرَ عداوةٌ أو شَحناءُ في دينٍ أو دنيا، يخافُ على نفسِه من مَكرِه، فحينَئذٍ يلزَمُه سوءُ الظَّنِّ بمكائِدِه ومَكرِه؛ كي لا يصادِفَه على غِرَّةٍ بمَكْرِه فيُهلِكَه)[4097].

- قال الزَّمخشريُّ: (والذي يميِّزُ الظُّنونَ التي يجِبُ اجتنابُها عمَّا سواها: أنَّ كُلَّ ما لم تُعرَفْ له أمارةٌ صحيحةٌ وسبَبٌ ظاهرٌ كان حرامًا واجبَ الاجتنابِ، وذلك إذا كان المظنونُ به ممَّن شوهِدَ منه السَّترُ والصَّلاحُ، وأونِسَت منه الأمانةُ في الظَّاهِرِ؛ فظَنُّ الفسادِ والخيانةِ به محرَّمٌ، بخلافِ من اشتَهَر بيْنَ النَّاسِ بتعاطي الرِّيَبِ والمجاهَرةِ بالخبائِثِ)[4098].

المطلب التاسع: حُكمُ سُوءِ الظَّنِّ بالنَّفسِ

سُوءُ الظَّنِّ بالنَّفسِ اختلف فيه العُلَماءُ؛ فمنهم من رأى الاستحبابَ. قال ابنُ القَيِّمِ: (أمَّا سُوءُ الظَّنِّ بالنَّفسِ فإنَّما احتاج إليه؛ لأنَّ حُسنَ الظَّنِّ بالنَّفسِ يمنَعُ من كمالِ التَّفتيشِ، ويُلبِّسُ عليه، فيرى المساوئَ محاسِنَ، والعيوبَ كمالًا؛ فإنَّ المحبَّ يرى مساوئَ محبوبِه وعيوبَه كذلك.

فعينُ الرِّضا عن كُلِّ عيبٍ كليلةٌ

كما أنَّ عينَ السُّخطِ تُبدي المساويا

ولا يُسيءُ الظَّنَّ بنفسِه إلَّا من عرَفها، ومن أحسَنَ ظنَّه بنفسِه فهو من أجهَلِ النَّاسِ بنفسِه[4099].

وضابطُ سُوءِ الظَّنِّ بالنَّفسِ (هو اتِّهامُ النَّفسِ، فلا يتَّهِمُ رَبَّه، وإنما يتَّهِمُ الإنسانُ نفسَه بالتَّقصيرِ، ويعاملُها بالاتهامِ ليدفَعَ عنها الغُرورَ والعُجبَ، دون أن يُخرِجَه ذلك إلى حدِّ سُوءِ الظَّنِّ باللَّهِ، أو اليأسِ من رحمتِه؛ لأنَّه لا ييأَسُ من رَوحِ اللهِ إلَّا القومُ الكافرون، فلا ييأسُ الإنسانُ من رَوحِ اللَّهِ، ولا يقنَطُ من رحمتِه، لكِنْ ليجتَهِدْ في الطَّاعاتِ، ومع ذلك يتَّهِمُ نفسَه وعمَلَه، ولا يدري أقُبِلَ عمَلُه أم لم يُقبَلْ؟ مع ثقتِه في أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لن يُضيعَ عَمَلَ عاملٍ من المُؤمِنين أبدًا).[4100]

ومنهم من رأى الكراهةَ؛ قال الماوَرديُّ: (منهم من كَرِهه لِما فيه من اتِّهامِ طاعتِها، وردِّ مناصحتِها؛ فإنَّ النَّفسَ وإن كان لها مكرٌ يُردي، فلها نُصحٌ يَهدي. فلمَّا كان حسنُ الظَّنِّ بها يُعمي عن مساوئِها، كان سُوءُ الظَّنِّ بها يُعمي عن محاسنِها. ومن عَمِيَ عن محاسنِ نفسِه كان كمن عَمِيَ عن مساوئِها، فلم يَنفِ عنها قبيحًا، ولم يهدِ إليها حَسنًا. وقال الأحنَفُ بنُ قيسٍ: من ظَلَمَ نفسَه كان لغيرِه أظلَمَ، ومن هدَم دينَه كان لمجْدِه أهدَمَ)[4101].

[4096] ((شرح صحيح البخاري)) (9/ 262).

[4097] ((روضة العقلاء)) لابن حبان (127/1).

[4098] ((الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)) (4/ 371).

[4099] ((مدارج السالكين)) (1/189)، ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (1/235، 236).

[4100] ((شرح العقيدة الطحاوية)) لسفر الحوالي.

[4101] ((أدب الدنيا والدين)) (1/234، 235).

ومنهم من قال بالموازنةِ بَيْنَ سُوءِ الظَّنِّ وحُسنِ الظَّنِّ، وأنَّه ينبغي على المرءِ أن (يكونَ في التُّهمةِ لنَفسِه معتَدِلًا، وفي حُسنِ الظَّنِّ بها مقتَصِدًا؛ فإنَّه إن تجاوز مقدارَ الحَقِّ في التُّهمةِ لنفسِه ظلَمَها فأودعها ذِلَّةَ المظلومين، وإن تجاوَز الحَقَّ في مقدارِ حُسنِ الظَّنِّ بها آمنَها فأودعها تهاوُنَ الآمنين، ولكُلِّ ذلك مقدارٌ من الشُّغلِ، ولكُلِّ شُغلٍ مِقدارٌ من الوَهنِ، ولكُلِّ وَهنٍ مقدارٌ من الجهلِ)[4102].

المطلب العاشر: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: 12] عُلِم من قولِه تعالى: {كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ} وتبيينِه بأنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ: أنَّ بعضًا من الظَّنِّ ليس إثمًا، وأنَّا لم نؤمَرْ باجتنابِ الظَّنِّ الذي ليس بإثمٍ؛ لأنَّ كَثِيرًا وصفٌ، فمفهومُ المخالفةِ منه يدُلُّ على أنَّ كثيرًا من الظَّنِّ لم نؤمَرْ باجتنابِه، وهو الذي يُبَيِّنُه إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، أي: إنَّ بعضَ الظَّنِّ ليس إثمًا؛ فعلى المسلِمِ أن يكونَ معيارُه في تمييزِ أحدِ الظَّنَّينِ من الآخَرِ أن يَعرِضَه على ما بيَّنَتْه الشَّريعةُ في تضاعيفِ أحكامِها من الكتابِ والسُّنَّةِ، وما أجمعَت عليه عُلَماءُ الأمَّةِ، وما أفاده الاجتهادُ الصَّحيحُ، وتتبُّعُ مقاصِدِ الشَّريعةِ؛ فمنه ظنٌّ يجبُ اتِّباعُه، كالحَذَرِ من مكايدِ العَدُوِّ في الحربِ، وكالظَّنِّ المستَنِدِ إلى الدَّليلِ الحاصِلِ من دَلالةِ الأدِلَّةِ الشَّرعيَّةِ؛ فإنَّ أكثَرَ التَّفريعاتِ الشَّرعيَّةِ حاصلةٌ من الظَّنِّ المستَنِدِ إلى الأدِلَّةِ[4103].

- قال الشَّوكانيُّ: (وأمَر سُبحانَه باجتنابِ الكثيرِ ليَفحَصَ المُؤمِنُ عن كُلِّ ظنٍّ يظنُّه حتَّى يَعلَمَ وجهَه؛ لأنَّ من الظَّنِّ ما يجِبُ اتِّباعُه؛ فإنَّ أكثَرَ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ مبنيَّةٌ على الظَّنِّ؛ كالقياسِ، وخَبرِ الواحدِ، ودلالةِ العمومِ، ولكِنَّ هذا الظَّنَّ الذي يجِبُ العَمَلُ به قد قَوِيَ بوَجهٍ من الوُجوهِ الموجِبةِ للعَمَلِ به، فارتفع عن الشَّكِّ والتُّهمةِ)[4104].

- قال ابنُ عُثَيمين: (ما يُذكَرُ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ "احترِسوا من النَّاسِ بسُوءِ الظَّنِّ"[4105]، فهذا كَذِبٌ لا يصِحُّ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ)[4106].

[4102] ((البيان والتبيين)) للجاحظ (1/95، 96).

[4103] يُنظَر: ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (26/ 253).

[4104] ((فتح القدير)) (5/ 76).

[4105] أخرجه ابن أبي الدنيا في ((مداراة الناس)) (113)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (598)، وابن عدي في ((الكامل في الضعفاء)) (401/6) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه. ضعَّفه جدًّا الألباني في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) (156)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (547/10): له علَّتان.

[4106] ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) (5/ 301).

المبحث الثامن: الغضب

المطلب الأول: معنى الغضب لغة واصطلاحا

- **معنى الغضب لغة:**

الغَضَبُ: ضِدُّ الرِّضا. والغَضبةُ: الصَّخرةُ الصُّلبةُ. قالوا: ومِنه اشتُقَّ الغَضَبُ؛ لأنَّه اشتِدادُ السَّخَطِ. يُقالُ: غَضِبَ يَغضَبُ غَضَبًا، وهو غَضبانُ وغَضوبٌ.[4107]

- **معنى الغضب اصطلاحا:**

الغَضَبُ: هو ثَورانُ دَمِ القَلبِ لقَصدِ الانتِقامِ[4108].

وقيل: الغَضَبُ غَلَيانُ القَلبِ بسَبَبِ ما يُؤلِمُ[4109].

وقال الجُرجانيُّ: (الغَضَبُ: تَغَيُّرٌ يحصُلُ عِندَ غَلَيانِ دَمِ القَلبِ؛ ليحصُلَ عنه التَّشَفّي للصَّدرِ)[4110].

وقيل: (هو غَلَيانُ دَمِ القَلبِ؛ طَلبًا لدَفعِ المُؤذي عِندَ خَشيةِ وُقوعِه، أو طَلبًا للانتِقامِ مِمَّن حَصَل له مِنه الأذى بَعدَ وُقوعِه)[4111].

وقيل: (الغَضَبُ: انفِعالٌ للنَّفسِ وهَيَجانٌ ينشَأُ عن إدراكِ ما يسوءُها ويُسخِطُها دونَ خَوفٍ)[4112].

المطلب الثاني: الفرقُ بَينَ الغَضَبِ وبَعضِ الصِّفاتِ

- **الفرقُ بَينَ الغَضَبِ والسَّخَطِ:**

(أنَّ الغَضَبَ يكونُ مِن الصَّغيرِ على الكبيرِ، ومِن الكبيرِ على الصَّغيرِ.

والسَّخَطُ لا يكونُ إلَّا مِن الكبيرِ على الصَّغيرِ، يُقالُ: سَخِط الأميرُ على الحاجِبِ، ولا يُقالُ: سَخِطَ الحاجِبُ على الأميرِ، ويُستَعمَلُ الغَضَبُ فيهما.

والسَّخَطُ إذا عَدَّيتَه بنَفسِه فهو خِلافُ الرِّضا، يُقال: رَضِيَه وسَخِطَه، وإذا عَدَّيتَه بعلى فهو بمَعنى الغَضَبِ، تَقولُ: سَخِطَ اللهُ عليه: إذا أرادَ عِقابَه)[4113].

[4107] يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (428/4)، ((لسان العرب)) لابن منظور (648/1)، ((تاج العروس)) لمرتضى الزبيدي (485/3).

[4108] يُنظَر: ((مفردات ألفاظ القرآن الكريم)) للراغب الأصفهاني (ص: 75)، ((تاج العروس)) لمرتضى الزبيدي (3/485).

[4109] ((الجواهر الحسان في تفسير القرآن)) للثعالبي (3/78).

[4110] ((التعريفات)) (ص: 209).

[4111] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (1/396). ((التعريفات)) (ص: 209).

[4112] ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (16/281).

[4113] ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص: 386).

- **الفرقُ بَينَ الغَضَبِ والغَيظِ:**

قيل: (الغَيظُ فوقَ الغَضَبِ، وقد فصَّل قَومٌ مِن أهلِ اللُّغةِ بَينَ الغَيظِ والغَضَبِ فقالوا: الغَيظُ أشَدُّ مِن الغَضَبِ، وقال قَومٌ: الغَيظُ سَورةُ الغَضَبِ وأوَّلُه)[4114].

وقيل: الغَيظُ أشَدُّ الغَضَبِ؛ فعلى ذلك فهو أخَصُّ مِن الغَضَبِ؛ فكُلُّ غَيظٍ غَضَبٌ، وليس كُلُّ غَضَبٍ غَيظًا[4115].

وقيل: الفَرقُ بَينَ الغَيظِ والغَضَبِ: أنَّ الغَضَبَ يتبَعُه إرادةُ الانتِقامِ البَتَّةَ، ولا كذلك الغَيظُ[4116].

وأيضًا قيل في الفرقِ بَينَهما: (إنَّ الإنسانَ يجوزُ أن يغتاظَ مِن نَفسِه، ولا يجوزُ أن يَغضَبَ عليها؛ وذلك أنَّ الغَضَبَ إرادةُ الضَّرَرِ للمَغضوبِ عليه، ولا يجوزُ أن يُريدَ الإنسانُ الضَّرَرَ لنَفسِه، والغَيظُ يقرُبُ مِن بابِ الغَمِّ)[4117].

- **الفرقُ بَينَ الغَضَب والاشتياطِ:**

(أنَّ الاشتياطَ خِفَّةٌ تَلحَقُ الإنسانَ عِندَ الغَضَبِ، وهو في الغَضَبِ كالطَّرَبِ في الفرَحِ، وقد يُستَعمَلُ الطَّرَبُ في الخِفَّةِ التي تعتَري مِن الحُزنِ، والاشتياطُ لا يُستَعمَلُ إلَّا في الغَضَبِ، ويجوزُ أن يُقالَ: الاشتياطُ سُرعةُ الغَضَبِ)[4118].

- **الفرقُ بَينَ الغَضَبِ والحُزنِ:**

أنَّ (سَبَبَ الغَضَبِ هُجومُ ما تَكرَهُه النَّفسُ مِمَّن دونَها، وسَبَبُ الحُزنِ هجومُ ما تَكرَهُه النَّفسُ مِمَّن فوقَها.

والغَضَبُ يتَحَرَّكُ مِن داخِلِ الجَسَدِ إلى خارِجِه، والحُزنُ يتَحَرَّكُ مِن خارِجِ الجَسَدِ إلى داخِلِه.

فلذلك قَتَل الحُزنُ ولم يقتُلِ الغَضَبُ؛ لبُروزِ الغَضَبِ وكُمونِ الحُزنِ.

وصارَ الحادِثُ عن الغَضَبِ السَّطوةَ والانتِقامَ لبُروزِه، والحادِثُ عن الحُزنِ المَرَضَ والأسقامَ لكُمونِه.

ولذلك أفضى الحُزنُ إلى المَوتِ، ولم يُفضِ إليه الغَضَبُ.

فهذا فرقُ ما بَينَ الحُزنِ والغَضَبِ)[4119].

فـ ((المُؤلِمُ إن كان مِمَّا يُمكِنُ دَفعُه أثارَ الغَضَبَ، وإن كان مِمَّا لا يُمكِنُ دَفعُه أثارَ الحُزنَ؛ ولهذا يحمَرُّ الوَجهُ عِندَ الغَضَبِ لثَورانِ الدَّمِ عِندَ استِشعارِ القُدرةِ، ويصفرُّ عِندَ الحُزنِ لغَورِ الدَّمِ عِندَ استِشعارِ العَجزِ)[4120].

[4114] ((جمهرة اللغة)) (2/932).

[4115] ((عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ)) للسمين (3/189).

[4116] ((تفسير الألوسي)) (2/272).

[4117] ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص: 391).

[4118] المصدر السابق (ص: 54).

[4119] ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 258).

[4120] ((الاستقامة)) (2/271)

المطلب الثالث: ذَمُّ الغَضَبِ والنَّهيُ عنه

أ - مِن السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

- عن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَجُلًا قال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أوصِني، قال: لا تَغضَبْ، فرَدَّدَ مِرارًا، قال: لا تَغضَبْ))[4121].

(فهذا الرَّجُلُ طَلبَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يوصيَه وصيَّةً وجيزةً جامِعةً لِخِصالِ الخَيرِ؛ ليحفظَها عنه خَشيةَ ألَّا يحفظَها لكثرَتِها، فوصَّاه النَّبيُّ ألَّا يغضَبَ، ثُمَّ رَدَّدَ هذه المَسألةَ عليه مِرارًا، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُرَدِّدُ عليه هذا الجَوابَ، فهذا يدُلُّ على أنَّ الغَضَبَ جِماعُ الشَّرِّ، وأنَّ التَّحَرُّزَ مِنه جِماعُ الخَيرِ)[4122].

قال الخَطَّابيُّ: (مَعنى قَولِه: "لا تَغضَبْ": اجتَنِبْ أسبابَ الغَضَبِ، ولا تَتَعَرَّضْ لِما يجلِبُه)[4123].

وقال ابنُ رَجَبٍ: ("لا تَغضَبْ" يحتَمِلُ أمرَينِ:

أحَدُهما: أن يكونَ مُرادُه الأمرَ بالأسبابِ التي توجِبُ حُسنَ الخُلُقِ؛ مِن الكرمِ والسَّخاءِ، والحِلمِ والحَياءِ، والتَّواضُعِ والاحتِمالِ وكفِّ الأذى، والصَّفحِ والعَفوِ وكظمِ الغَيظِ، والطَّلاقةِ والبِشرِ، ونَحوِ ذلك مِن الأخلاقِ الجَميلةِ؛ فإنَّ النَّفسَ إذا تَخَلَّقَت بهذه الأخلاقِ، وصارَت لها عادةً، أوجَبَ لها ذلك دَفعَ الغَضَبِ عِندَ حُصولِ أسبابِه.

والثَّاني: أن يكونَ المُرادُ لا تَعمَلْ بمُقتَضى الغَضَبِ إذا حَصَل لك، بَل جاهِدْ نَفسَك على تَركِ تَنفيذِه والعَمَلِ بما يأمُرُ به)[4124].

وقال ابنُ التِّينِ: (جَمعَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِه: "لا تَغضَبْ" خَيرَ الدُّنيا والآخِرةِ؛ لأنَّ الغَضَبَ يُؤولُ إلى التَّقاطُعِ ومَنعِ الرِّفقِ، ورُبَّما آل إلى أن يُؤذيَ المَغضوبَ عليه، فينتَقِصُ ذلك مِن الدِّينِ)[4125].

وقال البَيضاويُّ: (لعلَّه لَمَّا رَأى أنَّ جَميعَ المَفاسِدِ التي تَعرِضُ للإنسانِ إنَّما هي مِن شَهوتِه ومِن غَضَبِه، وكانت شَهوةُ السَّائِلِ مَكسورةً، فلمَّا سَأل عَمَّا يحتَرِزُ به عن القَبائِحِ نَهاه عن الغَضَبِ الذي هو أعظَمُ ضَرَرًا مِن غَيرِه، وأنَّه إذا مَلك نَفسَه عِندَ حُصولِه كان قد قَهرَ أقوى أعدائِه)[4126].

- وعن سُليمانَ بنِ صُردٍ قال: ((استَبَّ رَجُلانِ عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونحن عِندَه جُلوسٌ، وأحَدُهما يسُبُّ صاحِبَه مُغضَبًا قد احمَرَّ وجهُه، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّي لأعلَمُ كَلِمةً لو قالها لذَهَب عنه ما يجِدُ، لو قال: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ. فقالوا للرَّجُلِ: ألا تَسمَعُ ما يقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قال: إنِّي لستُ بمَجنونٍ!))[4127].

[4121] رواه البخاري (6116).

[4122] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (361/1).

[4123] ((فتح الباري)) لابن حجر (10/520).

[4124] ((جامع العلوم والحكم)) (1/364).

[4125] ((فتح الباري)) لابن حجر (10/520).

[4126] المصدر السابق.

[4127] رواه البخاري (6115) واللفظ له، ومسلم (2610)

- وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ليس الشَّديدُ بالصُّرَعةِ، إنَّما الشَّديدُ الذي يملِكُ نَفسَه عِندَ الغَضَبِ))[4128].

قال ابنُ بَطَّالٍ: (أرادَ عليه السَّلامُ أنَّ الذي يَقوى على مَلكِ نَفسِه عِندَ الغَضَبِ ويرُدُّها عنه هو القويُّ الشَّديدُ والنِّهايةُ في الشِّدَّةِ؛ لغَلَبَتِه هَواه المُرديَ الذي زَيَّنَه له الشَّيطانُ المُغوي؛ فدَلَّ هذا أنَّ مُجاهَدةَ النَّفسِ أشَدُّ مِن مُجاهَدةِ العَدوِّ؛ لأنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ جَعل للذي يملِكُ نَفسَه عِندَ الغَضَبِ مِن القوَّةِ والشِّدَّةِ ما ليس للذي يغلِبُ النَّاسَ ويَصرَعُهم)[4129].

وقال الزُّرقانيُّ: (لَمَّا كان الغَضبانُ بحالةٍ شَديدةٍ مِن الغَيظِ، وقد ثارَت عليه شِدَّةٌ مِن الغَضَبِ فقَهَرَها بحِلمِه وصَرَعَها بثَباتِه وعَدَمِ عَمَلِه بمُقتَضى الغَضَبِ؛ كان كالصُّرَعةِ الذي يصرَعُ الرِّجالَ ولا يَصرَعونَه)[4130].

ب- مِن أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ وغَيرِهم:

- كتَبَ عُمَرَ إلى أبي موسى الأشعَريِّ: (... وإيَّاك والغَضَبَ والقَلَقَ والضَّجَرَ)[4131].

- وقال أبو الدَّرداءِ: (أقرَبُ ما يكونُ العَبدُ مِن غَضَبِ اللهِ إذا غَضِبَ)[4132].

- وكتَبَ عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ إلى عامِلِه: (ألَّا تُعاقِبَ عِندَ غَضَبِك، وإذا غَضِبتَ على رَجُلٍ فاحبِسْه، فإذا سَكنَ غَضَبُك فأخرِجْه فعاقِبْه على قَدْرِ ذَنبِه...)[4133].

- وقال عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ: (قد أفلحَ مَن عُصِم مِن الهَوى والغَضَبِ والطَّمَعِ)[4134].

- وقال الحَسَنُ: مِن علاماتِ المُسلمِ: (... لا يغلِبُه الغَضَبُ، ولا تَجمَحُ به الحَميَّةُ، ولا تَغلِبُه شَهوةٌ، ولا تَفضَحُه بِطنةٌ، ولا يستَخِفُّه حِرصُه، ولا تَقصُرُ به نيَّتُه، فينصُرُ المَظلومَ، ويرحَمُ الضَّعيفَ، ولا يبخَلُ ولا يُبَذِّرُ، ولا يُسرِفُ ولا يقتُرُ، يغفِرُ إذا ظُلِمَ، ويعفو عن الجاهِلِ. نَفسُه مِنه في عناءٍ، والنَّاسُ مِنه في رَخاءٍ!)[4135].

- وقال الحَسَنُ: (أربَعٌ مَن كُنَّ فيه عَصَمَه اللهُ مِن الشَّيطانِ، وحَرَّمَه على النَّارِ: مَن مَلكَ نَفسَه عِندَ الرَّغبةِ، والرَّهبةِ، والشَّهوةِ، والغَضَبِ)[4136].

قال ابنُ رَجَبٍ: (وهذه الأربَعُ التي ذَكَرها الحَسَنُ هي مَبدَأُ الشَّرِّ كُلِّه...)[4137].

[4128] رواه البخاري (6114)، ومسلم (2609).

[4129] ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (9/296).

[4130] ((شرح الزرقاني على الموطأ)) (4/410).

[4131] ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (32/71).

[4132] ((البيان والتبيين)) للجاحظ (2/136). ونسبه الزمخشري في ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) (2/219) إلى علي بن الحسين. ونسبه الماوردي في ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 257) إلى بعض السَّلَفِ.

[4133] ((إحياء علوم الدين)) (3/166).

[4134] رواه عبد الرزاق (20103). ((إحياء علوم الدين)) (3/166).

[4135] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/166).

[4136] رواه أبو بكر الدينوري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (3094)، وقوام السنة في ((الترغيب والترهيب)) (2266).

[4137] ((جامع العلوم والحكم)) (1/368). ثم فصَّل ابنُ رجبٍ الكلامَ في هذه المقولةِ فقال: (فإنَّ الرَّغبةَ في الشَّيءِ هي ميلُ النَّفسِ إليه لاعتقادِ نفعِه، فمن حصَل له رغبةٌ في شيءٍ حملته تلك الرَّغبةُ على طلَبِ ذلك الشَّيءِ من كُلِّ وَجهٍ يظنُّه موصِلًا إليه، وقد يكونُ كثيرٌ منها محرَّمًا، وقد يكونُ ذلك الشَّيءُ المرغوبُ فيه محرَّمًا. والرَّهبةُ: هي الخوفُ من

- وقال الحَسَنُ: (يا ابنَ آدَمَ، كُلَّما غَضِبتَ وثَبتَ، ويوشِكُ أن تَثِبَ وَثبةً فتَقَعَ في النَّارِ)[4138].

- وقال الحَسَنُ: (المُؤمِنُ حَليمٌ لا يَجهَلُ وإن جُهِل عليه، وتَلا قَولَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان: 63])[4139].

- وقال سَهلُ بنُ هارونَ: ثَلاثةٌ يعودونَ إلى أجَنِّ المَجانينِ، وإن كانوا أعقَلَ العُقَلاءِ: الغَضبانُ، والغَيرانُ، والسَّكرانُ)[4140].

- وقال بَعضُ الأنصارِ: (رَأسُ الحُمقِ: الحِدَّةُ، وقائِدُه الغَضَبُ، ومَن رَضِيَ بالجَهلِ استَغنى عن الحِلمِ، والحِلمُ زَينٌ ومَنفعةٌ، والجَهلُ شَينٌ ومَضَرَّةٌ، والسُّكوتُ عن جَوابِ الأحمَقِ جَوابُه)[4141].

- وقال جَعفرُ بنُ مُحَمَّدٍ: (الغَضَبُ مِفتاحُ كُلِّ شَرٍّ)[4142].

- وقيل لابنِ المُبارَكِ: (اجمَعْ لنا حُسنَ الخُلُقِ في كَلِمةٍ، قال: تَركُ الغَضَبِ)[4143].

- وقال مَيمونُ بنُ مِهرانَ: (جاءَ رَجُلٌ إلى سَلمانَ رَضيَ اللهُ عنه، فقال: يا أبا عَبدِ اللهِ، أوصِني. قال: لا تَكلَّمْ، قال: ما يستَطيعُ مَن عاشَ في النَّاسِ ألَّا يتَكلَّمَ! قال: فإن تَكلَّمتَ فتَكلَّمْ بحَقٍّ أو اسكُتْ، قال: زِدْني. قال: لا تَغضَبْ، قال: أمَرتَني ألَّا أغضَبَ، وإنَّه ليغشاني ما لا أملِكُ! قال: فإن غَضِبتَ فاملِكْ لسانَك ويَدَك)[4144].

- وقال عَطاءُ بنُ أبي رَباحٍ: (ما أبكى العُلماءَ بُكاءً آخِرَ العُمرِ مِن غَضبةٍ يغضَبُها أحَدُهم، فتَهدِمُ عَمَلَ خَمسينَ سَنةً، أو سِتِّينَ سَنةً، أو سَبعينَ سَنةً! ورُبَّ غَضبةٍ قد أقحَمَت صاحِبَها مُقحَمًا ما استَقاله!)[4145].

- وقال الأصمَعيُّ: سَمِعتُ أعرابيًّا يقولُ: (الغَضَبُ عَدوُّ العَقلِ؛ ولذلك يحولُ بَينَ صاحِبِه وبَينَ السَّمعِ والفَهمِ)[4146].

- وقال أكثَمُ بن صَيفيٍّ: (مَن كان غَضَبُه لغَيرِ عِلَّةٍ، كان رِضاه لغَيرِ عُتبى. وقال: الغَضَبُ لُؤمٌ؛ فذَرْه، والحُزنُ سوءُ استِكانةٍ)[4147].

- وقال سُفيانُ الثَّوريُّ فيما أوصى به عليَّ بنَ الحَسَنِ السُّلَميَّ: (إيَّاك والحِدَّةَ والغَضَبَ؛ فإنَّهما يَجرَّانِ إلى الفُجورِ، والفُجورُ يجُرُّ إلى النَّارِ)[4148].

الشَّيءِ، وإذا خاف الإنسانُ من شيءٍ تسبَّب في دفعِه عنه بكلِّ طريقٍ يظنُّه دافعًا له، وقد يكونُ كثيرٌ منها محرَّمًا. والشَّهوةُ: هي ميلُ النَّفسِ إلى ما يلائِمُها، وتلتذُّ به، وقد تميلُ كثيرًا إلى ما هو محرَّمٌ، كالزِّنا والسَّرقةِ وشُربِ الخمرِ، وإلى الكُفرِ والسِّحرِ والنِّفاقِ والبِدَعِ). ثمَّ ذكر الغضَبَ وأنَّه ينشأُ عنه كثيرٌ من الأفعالِ المحرَّمةِ والأقوالِ المحرَّمةِ، بل ربَّما ارتقى إلى الكُفرِ.

[4138] ((إحياء علوم الدين)) (3/165).

[4139] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (2/278).

[4140] ((البيان والتبيين)) للجاحظ (2/136).

[4141] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/166).

[4142] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (1/363).

[4143] المصدر السابق. قال ابنُ رجبٍ: (وكذا فسَّر الإمامُ أحمدُ وإسحاقُ بنُ راهَوَيه حُسنَ الخُلُقِ بتركِ الغَضَبِ).

[4144] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((الصمت)) (610)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (21/443).

[4145] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (1/374).

[4146] ((الحدائق)) لابن الجوزي (3/122).

[4147] ((أنساب الأشراف)) للبلاذري (13/81).

[4148] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (7/83).

- وقال بَكرُ بنُ عَبدِ اللهِ المُزَنيُّ: (لا يكونُ الرَّجُلُ تَقيًّا حتَّى يكونَ نَقيَّ الطَّمَعِ، نَقيَّ الغَضَبِ)[4149].

- لَمَّا انصَرَف مَروانُ بنُ الحَكَمِ مِن مِصرَ إلى الشَّامِ، استَعمَل عَبدَ العَزيزِ ابنَه على مِصرَ، وقال له حينَ ودَّعه: (أرسِلْ حَكيمًا ولا توصِه. أي بُنَيَّ، انظُر إلى عُمَّالِك، فإن كان لهم عِندَك حَقٌّ غَدوةً فلا تُؤَخِّرْهم إلى عَشيَّةٍ، وإن كان لهم عَشيَّةً فلا تُؤَخِّرْهم إلى غَدوةٍ، وأعطِهم حُقوقَهم عِندَ مَحَلِّها تَستَوجِبْ بذلك الطَّاعةَ مِنهم. وإيَّاك أن يظهَرَ لرَعيَّتِك مِنك كذِبٌ؛ فإنَّهم إن ظَهَرَ لهم مِنك كذِبٌ لم يُصدِّقوك في الحَقِّ.

واستَشِرْ جُلساءَك وأهلَ العِلمِ؛ فإنْ لم يستَبِنْ لك فاكتُبَ إليَّ يأتِك رَأيي فيه إن شاءَ اللهُ تعالى.

وإن كان بك غَضَبٌ على أحَدٍ مِن رَعيَّتِك فلا تُؤاخِذْه به عِندَ سَورةِ الغَضَبِ، واحبِسْ عنه عُقوبتَك حتَّى يسكُنَ غَضَبُك، ثُمَّ يكونَ مِنك ما يكونُ وأنتَ ساكِنُ الغَضَبِ مُنطفِئُ الجَمرةِ؛ فإنَّ أوَّلَ من جَعل السِّجنَ كان حَليمًا ذا أناةٍ. ثُمَّ انظُرْ إلى ذَوي الحَسَبِ والدِّينِ والمُروءةِ فليكونوا أصحابَك وجُلساءَك، ثُمَّ ارفَعْ مَنازِلَهم مِنك على غَيرِهم، على غَيرِ استِرسالٍ ولا انقِباضٍ، أقولُ هذا، وأستَخلِفُ اللهَ عليك)[4150].

- وقال الخَطَّابُ بنُ المُعلَّى المَخزوميُّ لابنِه: (إنْ سُفِهَ عليك فاحلُمْ، وإذا هَدَأ غَضَبُك فتَكلَّمْ، وأكرِمْ عِرضَك، وألقِ الفُضولَ عنك)[4151].

- وقال يزيدُ بنُ أبي حَبيبٍ: (إنَّما غَضَبي في نَعليَّ، فإذا سَمِعتُ ما أكرَهُ أخذتُهما ومَضَيتُ)[4152].

- وعن المَدائِنيِّ قال: قال ابنُ المُقَفَّعِ لابنِه: (يا بُنَيَّ، لا تَعُدَّ المَلكَ الكَذوبَ مَلِكًا، ولا النَّاسِكَ المُخادِعَ ناسِكًا، ولا الأخَ الخاذِلَ أخًا، ولا مُصطَنِعَ الكَفورِ مُنعِمًا، وليس للمَلكِ أن يكذِبَ؛ لأنَّه لا يقدِرُ أحَدٌ على استِكراهِه على غَيرِ ما يُريدُ، وليس له أن يَغضَبَ؛ لأنَّ القُدرةَ مِن وراءِ حاجَتِه، وليس له أن يبخَلَ؛ لأنَّه أقَلُّ النَّاسِ عُذرًا في تَخَوُّفِ الفقرِ)[4153].

- وقال الجاحِظُ: (اعلَمْ أنَّ الحُكَماءَ لم تذُمَّ شَيئًا ذَمَّها أربَعَ خِلالٍ: الكَذِبُ؛ فإنَّه جِماعُ كُلِّ شَرٍّ، وقد قالوا: لم يكذِبْ أحَدٌ قَطُّ إلَّا لصِغَرِ قَدرِ نفسِه عندَه. والغَضَبُ؛ فإنَّه لُؤمٌ وسوءُ مَقدِرةٍ، وذاك أنَّ الغَضَبَ ثَمرةٌ لخِلافِ ما تهوى النَّفسُ، فإن جاءَ الإنسانَ خِلافُ ما يهوى مِمَّن فوقَه أغضى وسَمَّى ذلك حُزنًا، وإن جاءَه ذلك مِمَّن دونَه حَمَلَه لُؤمُ النَّفسِ وسوءُ الطِّباعِ على الاستِطالةِ بالغَضَبِ، والمَقدرةِ والبَسطةِ على البَطشِ. والجَزَعُ عندَ المُصيبةِ التي لا ارتِجاعَ لها؛ فإنَّهم لم يجعَلوا لصاحِبِ الجَزَعِ في مِثلِ هذا عُذرًا، لِما يتَعَجَّلُ مِن غَمِّ الجَزَعِ مع عِلمِه بفَوتِ المَجزوعِ عليه، وزَعَموا أنَّ ذلك مِن إفراطِ الشَّرَهِ، وأنَّ أصلَ الشَّرَهِ والحَسَدِ واحِدٌ وإن افتَرَقَ فرعاهما، وذَمُّوا الحَسَدَ كذَمِّهم الجَزَعَ؛ لِما يتَعَجَّلُ صاحِبُه مِن ثِقَلِ الاغتِمامِ، وكُلفةِ مُقاساةِ الاهتِمامِ، مِن غَيرِ أن يُجديَ عليه شَيئًا. فالحَسَدُ اغتِمامٌ، والغَدرُ لُؤمٌ.

وقال بَعضُ الحُكَماءِ: (الحَسَدُ خُلُقٌ دَنيءٌ، ومِن دَناءَتِه أنَّه يبدَأُ بالأقرَبِ فالأقرَبِ).

[4149] ((القناعة والتعفف)) لابن أبي الدنيا (ص: 76)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (2/224، 225).

[4150] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (1/40).

[4151] ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص: 199).

[4152] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (2/279).

[4153] ((المجالسة وجواهر العلم)) للدينوري (6/150).

وزَعموا أنَّه لم يغدِرْ غادِرٌ قَطُّ إلَّا لصِغَرِ همَّتِه عن الوفاءِ، وخُمولِ قَدرِه عن احتمالِ المَكارِهِ في جَنبِ نَيلِ المَكارِمِ)[4154].

- وقال أبو حامِدٍ الغَزاليُّ: (قال بَعضُهم لابنِه: يا بُنَيَّ، لا يثبتُ العَقلُ عِندَ الغَضَبِ كما لا تَثبُتُ رُوحُ الحَيِّ في التَّنانيرِ المَسجورةِ. فأقَلُّ النَّاسِ غَضَبًا أعقَلُهم، فإن كان للدُّنيا كان دَهاءً ومَكرًا، وإن كان للآخِرةِ كان حِلمًا وعِلمًا، فقد قيل: الغَضَبُ عَدوُّ العَقلِ، والغَضَبُ غُولُ العَقلِ)[4155].

- وقال أيضًا: (الغَضَبُ شُعلةُ نارٍ اقتُبِسَت مِن نارِ اللهِ الموقَدةِ التي تَطَّلعُ على الأفئِدةِ، وإنَّها لَمُستَكِنَّةٌ في طَيِّ الفُؤادِ استِكنانَ الجَمرِ تَحتَ الرَّمادِ، ويَستَخرجُه الكِبرُ الدَّفينُ في قَلبِ كُلِّ جَبَّارٍ عنيدٍ كاستِخراجِ الحَجَرِ النَّارَ مِن الحَديدِ)[4156].

- وقال أبو حاتِمِ بنُ حِبَّانَ: (سُرعةُ الغَضَبِ مِن شِيَمِ الحَمقى، كما أنَّ مُجانَبَتَه مِن زيِّ العُقَلاءِ، والغَضَبُ بَذرُ النَّدَمِ؛ فالمَرءُ على تَركِه قَبلَ أن يَغضَبَ أقدَرُ على إصلاحِ ما أفسَدَ به بَعدَ الغَضَبِ)[4157].

- وقال أيضًا: (أحسَنُ النَّاسِ عَقلًا من لم يَجرَدْ[4158]، وأحضَرُ النَّاسِ جَوابًا مَن لم يغضَبْ)[4159].

- وقال أيضًا: (الواجِبُ على العاقِلِ إذا ورَدَ عليه شَيءٌ بضِدِّ ما تَهواه نَفسُه: أن يذكُرَ كثرةَ عِصيانِه رَبَّه، وتَواتُرَ حِلمِ اللهِ عنه، ثُمَّ يُسكنَ غَضَبَه، ولا يُزريَ بفِعلِه بالخُروجِ إلى ما لا يليقُ بالعُقَلاءِ في أحوالِهم، ثُمَّ تَأمُّلُ وُفورِ الثَّوابِ في العُقبى، بالاحتمالِ ونَفيِ الغَضَبِ)[4160].

- وقال ابنُ القَيِّمِ: (إذا اقتَدَحَت نارُ الانتِقامِ مِن نارِ الغَضَبِ ابتَدَأت بإحراقِ القادِحِ. أوثِقْ غَضَبَك بسِلسِلةِ الحِلمِ؛ فإنَّه كلبٌ إن أفلَتَ أتلَفَ)[4161].

المطلب الرابع: آثارُ الغَضَبِ

1- مِن آثارِ الغَضَبِ في الظَّاهرِ:

تَغَيُّرُ اللَّونِ، وشِدَّةُ رَعدةِ الأطرافِ، وخُروجُ الأفعالِ عن التَّرتيبِ والانتِظامِ، واضطِرابُ الحَرَكةِ والكلامِ، حتَّى يظهَرَ الزَّبَدُ على الأشداقِ، وتَشتَدَّ حُمرةُ الأحداقِ، وتَستَحيلَ الخِلقةُ، ولو يرى الغَضبانُ في حالِ غَضَبِه صورةَ نَفسِه لسَكن غَضَبُه حَياءً مِن قُبحِ صورَتِه؛ لاستِحالةِ خِلقَتِه[4162].

2- مِن آثارِ الغَضَبِ على اللِّسانِ:

[4154] ((الرسائل)) (1/123).

[4155] ((إحياء علوم الدين)) (3/166).

[4156] المصدر السابق (3/164).

[4157] ((روضة العقلاء)) (ص: 139).

[4158] يجرَدُ: يَغضَبُ. يُنظَر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي.

[4159] ((روضة العقلاء)) (ص: 138).

[4160] المصدر السابق (ص: 139).

[4161] ((الفوائد)) (ص: 50).

[4162] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/168)، ((فتح الباري)) لابن حجر (10/520)، ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) لابن حجر الهيتمي (1/95).

أنَّه ينشَأُ مِن الغَضَب كثيرٌ مِن الأقوال المُحَرَّمةِ والقَبائِحِ، كالقَذفِ والسَّبِّ والفُحشِ، إلى غَيرِ ذلك مِمَّا يستَحي مِنه ذَوو العُقولِ مُطلقًا، وقائِلُه عِندَ فُتورِ غَضَبِه، ومِمَّا ينشَأُ عن الغَضَبِ أيضًا الأيمانُ التي لا يجوزُ التِزامُها شَرعًا، وطَلاقُ الزَّوجةِ الذي يُعقِبُ النَّدَمَ، ورُبَّما ارتَقى الأمرُ إلى دَرَجةِ الكُفرِ، كما جَرى لجَبلةَ بنِ الأيهمِ ، كما أنَّ الغَضبانَ لا ينتَظِمُ كلامُه، بَل يتَخَبَّطُ نَظمُه، ويضطَرِبُ لفظُه[4163]، وقد يصيحُ صياحًا شَديدًا أو يدعو على نَفسِه وأحَبِّ النَّاسِ إليه[4164].

3- مِن آثارِ الغَضَب على الأفعالِ:

وينشَأُ مِن الغَضَبِ كثيرٌ مِن الأفعال المُحَرَّمةِ، كالضَّربِ فما فوقَه إلى القَتلِ عِندَ التَّمَكُّنِ، وأنواعِ الظُّلمِ والعُدوانِ، فإن عَجَزَ عن التَّشَفِّي رَجَعَ غَضَبُه عليه، فمَزَّقَ ثَوبَه، وضَرَبَ نَفسَه وغَيرَه مِمَّن ليس له ذَنبٌ، حتَّى الحَيوانَ، والجَمادَ بالكَسرِ وغَيرِه، وعَدا عَدْوَ الوالِهِ السَّكرانِ، والمَجنونِ الحَيرانِ، ورُبَّما سَقَطَ وعَجَز عن الحَرَكةِ، واعتَراه مِثلُ الغَشيةِ؛ لشِدَّةِ استيلاءِ الغَضَبِ عليه[4165].

وقال ابنُ مِسكويهِ: (فإنَّ صاحِبَ هذا الخُلُقِ -خُلقِ الغَضَبِ- الذي ذَمَمْناه، تَصدُرُ عنه أفعالٌ رَديئةٌ كثيرةٌ، يجورُ فيها على نَفسِه، ثُمَّ على إخوانِه، ثُمَّ على الأقرَبِ فالأقرَبِ مِن مَعامِليه، حتَّى ينتَهِيَ إلى عَبيدِه وإلى حَرَمِه، فيكونَ عليهم سَوطَ عَذابٍ، ولا يُقيلُهم عَثرةً، ولا يرحَمُ لهم عَبرةً، وإن كانوا بُرَآءَ مِن الذُّنوبِ، غَيرَ مُجتَرِمينَ ولا مُكتَسبينَ سوءًا! بَل يتَجَرَّمُ عليهم، ويَهيجُ مِن أدنى سَبَبٍ يجِدُ به طَريقًا إليهم، حتَّى يبسُطَ لسانَه ويدَه، وهم لا يمتَنِعونَ مِنه ولا يتَجاسَرونَ على رَدِّه عن أنفُسِهم، بَل يُذعِنونَ له، ويُقِرُّونَ بذُنوبٍ لم يقتَرِفوها استِكفافًا لشَرِّه، وتَسكينًا لغَضَبِه، وهو مَعَ ذلك مُستَمِرٌّ على طَريقَتِه، لا يكُفُّ يدًا ولا لسانًا! ورُبَّما تَجاوزَ في هذه المُعامَلةِ النَّاسَ إلى البَهائِمِ التي لا تَعقِلُ، وإلى الأواني التي لا تُحِسُّ؛ فإنَّ صاحِبَ هذا الخُلُقِ الرَّديءِ... رُبَّما عَضَّ القُفلَ إذا تَعَسَّرَ عليه، وكَسَرَ الآنيةَ التي لا يجِدُ فيها طاعةً لأمرِه. وهذا النَّوعُ مِن رَداءةِ الخُلُقِ مَشهورٌ في كثيرٍ مِن الجُهَّالِ، يستَعمِلونَه في الثَّوبِ والزُّجاجِ، والحَديدِ وسائِرِ الآلاتِ)[4166].

4- مِن آثارِ الغَضَب على الباطِنِ:

وأمَّا الباطِنُ فقُبحُه أشَدُّ مِن الظَّاهرِ؛ فإنَّ الظَّاهرَ عُنوانُ الباطِنِ، وإنَّما قَبُحَت صورةُ الباطِنِ أوَّلًا ثُمَّ انتَشَرَ قُبحُها إلى الظَّاهرِ ثانيًا، وتَغَيُّرُ ظاهرِه ثَمرةُ تَغَيُّرِ باطِنِه؛ فالغَضَبُ يولِّدُ الحِقدَ في القَلبِ على المَغضوبِ عليه، وحَسَدَه وإضمارَ السُّوءِ له على اختِلافِ أنواعِه، وإظهارَ الشَّماتةِ بمَساءَتِه، والحُزنَ بسُرورِه، والعَزمَ على إفشاءِ سِرِّه، وهَتكِ سِترِه، والاستِهزاءِ به، وغَيرِ ذلك مِن القَبائِحِ[4167].

5- مِن آثارِ الغَضَبِ أنَّه يطغى على العَقلِ فيُضعِفُه أو يُزيلُه؛ قال ابنُ حِبَّانَ: (سُرعةُ الغَضَبِ أنكى في العاقِلِ مِن النَّارِ في يَبسِ العَوسَجِ[4168]؛ لأنَّ مَن غَضِبَ زايله عَقلُه، فقال ما سَوَّلت له نَفسُه، وعَمِل ما شانَه وأرداه)[4169].

[4163] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/168)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (1/369)، ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) لابن حجر الهيتمي (1/95).

[4164] ((إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان)) لابن القيم (ص: 47).

[4165] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/168)، ((جامع العلوم والحكم)) (1/369). ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) لابن حجر الهيتمي (1/95).

[4166] ((تهذيب الأخلاق)) (ص: 168).

[4167] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (168/3)، ((فتح الباري)) لابن حجر (520/10)، ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) لابن حجر الهيتمي (95/1).

[4168] العوسَجُ: شَجَرٌ من شَجَرِ الشَّوكِ، وله ثمرٌ أحمرُ مُدَوَّرٌ كأنَّه خَرَزُ العقيقِ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4169] ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص: 138).

6- الغَضَبُ يُعمي صاحِبَه ويُصِمُّه عن كُلِّ مَوعِظةٍ، بَل لا تَزيدُه المَوعِظةُ إلَّا اشتِعالًا؛ لانطِفاءِ نورِ عَقلِه ومَحوِه حالًا بدُخانِ الغَضَب الصَّاعِدِ إلى الدِّماغِ الذي هو مَعدِنُ الفِكرِ، وبما يتَعَدَّى إلى مَعادِنِ الحِسِّ؛ فيُظلِمُ بَصَرُه حتَّى لا يرى شَيئًا إلَّا سَوادًا، بَل رُبَّما زادَ اشتِعالُ نارِه حتَّى تَفنى رُطوبةُ القَلبِ التي بها حَياتُه فيموتُ صاحِبُه غَيظًا[4170].

قال الرَّاغِبُ: (واعلَمْ أنَّ نارَ الغَضَبِ متى كانت عنيفةً تَأجَّجَت واضطَرمَت، واحتَدَّ مِنه غَليانُ الدَّمِ في القَلبِ، ومَلأت الشَّرايينَ والدِّماغَ دُخانًا مُظلِمًا مُضطَرِمًا، يسودُّ مِنه مَجالُ العَقلِ، ويَضعُفُ به فِعلُه، فكما أنَّ الكهفَ الضَّيِّقَ إذا مُلِئَ حَريقًا اختَنَقَ فيه الدُّخانُ واللَّهَبُ، وعلا مِنه الأجيجُ، فيصعُبُ عِلاجُه وإطفاؤُه، ويصيرُ كُلُّ ما يدنو مِنه مادَّةً تُقَوِّيه- فكذلك النَّفسُ، إذا اشتَعلت غَضَبًا عَميَت عن الرُّشدِ، وصَمَّتْ عن المَوعِظةِ، فتَصيرُ مَواعِظُه مادَّةً لغَضَبِه؛ ولهذا حُكي عن إبليسَ -لعنه اللهُ- أنَّه يقولُ: متى أعجَزَني ابنُ آدَمَ فلن يُعجِزَني إذا غَضِبَ؛ لأنَّه ينقادُ لي فيما أبتَغيه مِنه، ويعمَلُ بما أُريدُه وأرتَضيه)[4171].

7- الغَضَبُ يمنَعُ كثيرًا مِن مَنافِعِ الدُّنيا[4172].

قال ابنُ حَجَرٍ: (ومَن تَأمَّل هذه المَفاسِدَ عَرَف مِقدارَ ما اشتَمَلت عليه هذه الكَلِمةُ اللَّطيفةُ مِن قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا تَغضَبْ" مِن الحِكمةِ واستِجلابِ المَصلحةِ في دَرءِ المَفسَدةِ، مِمَّا يتَعَذَّرُ إحصاؤُه والوُقوفُ على نِهايتِه، وهذا كُلُّه في الغَضَبِ الدُّنيويِّ لا الغَضَبِ الدِّينيِّ)[4173].

8- الغَضَبُ يُؤَثِّرُ على صِحَّةِ الإنسانِ، ورُبَّما كان سَبَبًا لأمراضٍ صَعبةٍ مُؤَدِّيةٍ إلى التَّلفِ[4174].

المطلب الخامس: أقسامُ الغَضَبِ والمُتَّصِفينَ به

ينقَسِمُ الغَضَبُ إلى قِسمَينِ: غَضَبٌ مَذمومٌ، وغَضَبٌ مَحمودٌ.

1- الغَضَبُ المَذمومُ: وهو الذي نُهي عنه وذُمَّ في الأحاديثِ التي ورَدَت، وهو خُلُقٌ سَيِّئٌ؛ (لأنَّه يُخرِجُ العَقلَ والدِّينَ مِن سياسَتِهما، فلا يبقى للإنسانِ مَعَ ذلك نَظَرٌ ولا فِكرٌ ولا اختيارٌ)[4175].

ومِن الغَضَبِ المَذمومِ الغَضَبُ للنَّفسِ أو عَصَبيَّةً وحَميَّةً.

ولا يُذَمُّ الغَضَبُ إذا لم يُخرِجِ الإنسانَ إلى المكروهِ مِن القَولِ والفِعلِ[4176].

2- الغَضَبُ المَحمودُ: وهو أن يكونَ للهِ عَزَّ وجَل عِندَما تُنتَهكُ حُرُماتُه، والغَضَبُ على أعدائِه مِن الكُفَّارِ والمُنافِقينَ، والطُّغاةِ والمُتَجَبِّرينَ؛ قال اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التوبة: 73].

[4170] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهيتمي (1/95).

[4171] ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص: 345).

[4172] ((المنتقى شرح الموطأ)) (7/214).

[4173] ((فتح الباري)) (10/520).

[4174] ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص: 345).

[4175] ((مختصر منهاج القاصدين)) لابن قدامة (ص: 232).

[4176] ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)) (ص: 141).

قال الكَلاباذيُّ: (أخبَرَ اللهُ تعالى عن موسى عليه السَّلامُ أنَّه أخَذَ بِرَأسِه ولحيتِه وجَرَّه إليه بعُنفٍ وغِلظةٍ حتَّى استَعطَفه عليه، واعتَذَرَ إليه)، ثُمَّ ذَكَر أنَّ حِدَّتَه وغَضَبَه على أخيه وصَنيعَه به كانت لله وطَلبًا لمَرضاتِه، ثُمَّ قال: (ألا تَراه يقولُ: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [طه: 92 - 93] ، فكانت تلك الحِدَّةُ مِنه والغَضَبُ فيه صِفةَ مَدحٍ له؛ لأنَّها كانت للهِ وفي اللهِ، كما كانت رَأفةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ورَحمَتُه في اللهِ وللهِ، ثُمَّ كان يغضَبُ حتَّى يحمَرَّ وجهُه، وتَذرَّ عُروقُه للهِ وفي اللهِ، وبذلك وصَف اللهُ تعالى المُؤمنينَ بقَولِه: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: 29] ، وقال تعالى: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: 54])[4177].

ويُمكِنُ تَقسيمُ النَّاسِ مِن حَيثُ التَّفاوتُ في سُرعةِ غَضَبِهم ورُجوعِهم عنه إلى أقسامٍ أربَعةٍ:

(**الأوَّلُ:** بَطيءُ الغَضَبِ سَريعُ الفيءِ، أي: سَريعُ الرُّجوعِ إلى حالةِ الهدوءِ واعتِدالِ المِزاجِ، وهذا خَيرُ الأقسامِ.

الثَّاني: سَريعُ الغَضَبِ سَريعُ الفيءِ، وسُرعةُ الغَضَبِ خُلُقٌ مَذمومٌ، إلَّا أنَّ سُرعةَ الفيءِ فضيلةٌ مَحمودةٌ، فهذه بهذه.

الثَّالثُ: بَطيءُ الغَضَبِ بَطيءُ الفيءِ، أمَّا بُطءُ الغَضَبِ فَخُلُقٌ مَحمودٌ يدُلُّ على الحِلمِ، لكِنَّ بُطءَ الفيءِ خُلقٌ مَذمومٌ يدُلُّ على الحِقدِ، وعَدَمِ التَّسامُحِ، فهذه بهذه، ويظهَرُ أنَّ هذا القِسمَ مُعادِلٌ للقِسمِ الثَّاني.

الرَّابعُ: سَريعُ الغَضَبِ بَطيءُ الفيءِ، وهذا شَرُّ الأقسامِ؛ لأنَّه جَمعَ الدَّاءَينِ مَعًا، وما اجتَمَعَ الداءانِ إلَّا ليَقتُلا، فسُرعةُ الغَضَبِ خُلُقٌ مَذمومٌ، وبُطءُ الفيءِ خُلُقٌ مَذمومٌ، ويا بُؤسَ مِن تُلجِئُه الضَّرورةُ إلى مُعاشَرةِ هذا القِسمِ مِن النَّاسِ!)[4178].

قال الرَّاغِبُ: (الغَضَبُ في الإنسانِ بمَنزِلةِ نارٍ تُشعَلُ، والنَّاسُ يختَلفونَ فيه، فبَعضُهم كالحَلفاءِ[4179] سَريعُ الوَقودِ وسَريعُ الخُمودِ، وبَعضُهم كالغَضى[4180] بَطيءُ الوَقودِ بَطيءُ الخُمودِ، وبَعضُهم سَريعُ الوَقودِ بَطيءُ الخُمودِ، وبَعضُهم على عَكسِ ذلك، وهو أحمَدُهم ما لم يكُنْ مُفضيًا به إلى زَوالِ حَميَّتِه وفِقدانِ غَيرَتِه، واختِلافُهم تارةً يكونُ بحَسبِ الأمزِجةِ؛ فمَن كان طَبعُه حارًّا يابسًا يكثُرُ غَضَبُه، ومَن كان بخِلافِه يقِلُّ، وتارةً يكونُ بحَسَبِ اختِلافِ العادةِ؛ فمِن النَّاسِ من تَعوَّد السُّكونَ والهدوءَ، وهو المُعَبَّرُ عنه بالذَّلولِ والهَيِّنِ واللَّيِّنِ، ومنهم من تَعوَّد الطَّيشَ والانزِعاجَ، فيحتَدُّ بأدنى ما يطرُقُه، ككلبٍ يسمَعُ صَوتًا فينبَحُ قَبل أن يعرِفَ ما هو)[4181].

ويُمكِنُ تَقسيمُ الغَضَبِ مِن جِهةٍ أُخرى إلى:

غَضَبٍ دينيٍّ: وهو ما كان باعِثُه أمرًا يتَعلَّقُ بالدِّينِ.

وغَضَبٍ دُنيويٍّ: وهو ما كان باعِثُه أمرًا يتَعلَّقُ بالدُّنيا[4182].

[4177] ((معاني الأخبار)) (ص: 358).

[4178] ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (2/330).

[4179] الحَلفاءُ: نبتٌ أطرافُه محدَّدةٌ كأنَّها أطرافُ سَعفِ النَّخلِ والخوصِ، ينبُتُ في مغايِضِ الماءِ والنزوزِ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور (9/56).

[4180] الغَضَى: شجَرٌ من الأثْلِ خَشَبُه من أصلَبِ الخَشَبِ وجَمْرُه يبقى زمانًا طويلًا لا ينطفئُ، واحِدتُه غَضاةٌ. يُنظَر: ((المعجم الوسيط)) (2/655).

[4181] ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص: 345).

[4182] ((فتح الباري)) (10/521).

المطلب السادس: دَرَجاتُ الغَضَبِ

دَرَجاتُ الغَضَبِ ثَلاثةٌ:

الأولى: أن يكونَ الغَضَبُ عاديًّا لا يوصَفُ بالشِّدَّةِ، كسائِرِ الغَضَبِ الذي يقَعُ بَينَ النَّاسِ.

الثَّانيةُ: أن يشتَدَّ الغَضَبُ حتَّى يزولَ مَعَه الشُّعورُ ويصيرَ صاحِبُه كالمَعتوهِ والمَجنونِ والسَّكرانِ.

الثَّالثةُ: ما بَينَ ذلك، وهو أن يكونَ اشتَدَّ به الغَضَبُ، ولكِن لم يفقِدْ شُعورَه، بَل عِندَه شَيءٌ مِن الإحساسِ، وشَيءٌ مِن العَقلِ.

(والنَّاسُ في قوَّةِ الغَضَبِ على دَرَجاتٍ ثَلاثٍ: إفراطٌ، وتَفريطٌ، واعتِدالٌ.

فلا يُحمَدُ الإفراطُ فيها؛ لأنَّه يُخرِجُ العَقلَ والدِّينَ عن سياسَتِها، فلا يبقى للإنسانِ مَعَ ذلك نَظَرٌ ولا فِكرٌ ولا اختيارٌ.

والتَّفريطُ في هذه القوَّةِ أيضًا مَذمومٌ؛ لأنَّه يبقى لا حَميَّةَ له ولا غَيرةَ، ومَن فقدَ الغَضَبَ بالكُلِّيَّةِ عَجَزَ عن رياضةِ نَفسِه؛ إذ الرِّياضةُ إنَّما تَتِمُّ بتَسَلُّطِ الغَضَبِ على الشَّهوةِ، فيغضَبُ على نَفسِه عِندَ المَيلِ إلى الشَّهَواتِ الخَسيسةِ، ففقدُ الغَضَبِ مَذمومٌ؛ فينبَغي أن يُطلَبَ الوسَطُ بَينَ الطَّريقينِ)[4183].

المطلب السابع: أسبابُ الغَضَب

مِن أسباب الغَضَب: (العُجبُ، والافتِخارُ، والمِراءُ، واللَّجاجُ، والمُزاحُ، والتِّيهُ، والضَّيمُ، والاستِهزاءُ، وطَلبُ ما فيه التَّنافُسُ، والتَّحاسُدُ، وشَهوةُ الانتِقامِ) ، (والمُضادَّةُ، والغَدرُ، وشِدَّةُ الحِرصِ على فُضولِ المالِ والجاهِ، وهذه أخلاقٌ رَديئةٌ مَذمومةٌ شَرعًا)[4184].

(ومِن أشَدِّ البَواعِثِ على الغَضَبِ عِندَ أكثَرِ الجُهَّالِ: تَسميتُهم الغَضَبَ شَجاعةً، ورُجوليَّةً، وعَزَّةَ نَفسٍ، وكِبرَ هِمَّةٍ، وتَلقيبُه بالألقابِ المَحمودةِ غَباوةً وجَهلًا، حتَّى تَميلَ النَّفسُ إليه وتَستَحسِنَه، وقد يتَأَكَّدُ ذلك بحِكايةِ شِدَّةِ الغَضَبِ عن الأكابِرِ في مَعرِضِ المَدحِ بالشَّجاعةِ، والنُّفوسُ مائِلةٌ إلى التَّشَبُّهِ بالأكابِرِ، فيهيجُ الغَضَبُ إلى القَلبِ بسَبَبِه)[4185].

مِن جِهةٍ أُخرى يُمكِنُ إجمالُ أسبابِ الغَضَبِ في الآتي:

1 - رُؤيةُ ما يُكرَهُ.

2 - سَماعُ ما يُكرَهُ.

3 - العِلمُ بما يكرَهُ.

[4183] ((مختصر منهاج القاصدين)) لابن قدامة (ص: 179). ويُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/167).

[4184] ((مختصر منهاج القاصدين)) لابن قدامة (ص: 233).

[4185] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/172).

المطلب الثامِن: الأسبابُ المُعينةُ على تَركِ الغَضَبِ وما يترَتَّبُ عليه

1- تَغييرُ الحالِ:

قال ابنُ مُفلحٍ: (ويُستَحَبُّ لِمَن غَضَبَ أن يُغَيِّرَ حالَه؛ فإن كان جالسًا قامَ واضطجَع، وإن كان قائِمًا مَشى)[4186].

وقد قيل في الحِكمةِ مِن ذلك: إنَّ القائِمَ مُتَهَيِّئٌ للانتِقامِ، والجالسُ دونَه في ذلك، والمُضطجِعُ أبعَدُ عنه؛ لذا كان تَغييرُ الحالِ للتَّباعُدِ عن حالةِ الانتِقامِ؛ ولهذا المعنى قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الفِتَنِ: إنَّ القاعِدَ فيها خَيرٌ مِن القائِمِ، والقائِمُ خَيرٌ مِن الماشي، والماشي خَيرٌ مِن السَّاعي[4187].

2- الالتِزامُ بوصيَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عَدَمِ الغَضَبِ.

فعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رَجُلًا قال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أوصِني، قال: ((لا تَغضَبْ، فرَدَّدَ مِرارًا، قال: لا تَغضَبْ))[4188].

3- ضَبطُ النَّفسِ عن الاندِفاعِ بعَوامِلِ الغَضَبِ.

(فإنَّ الغَضَبَ إذا مَلَك ابنَ آدَمَ كان الآمِرَ والنَّاهيَ له؛ ولهذا المعنى قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ} [الأعراف: 154] ، فإذا لم يَمتَثِلِ الإنسانُ ما يأمُرُه به غَضَبُه، وجاهَدَ نَفسَه على ذلك، اندَفعَ عنه شَرُّ الغَضَبِ، ورُبَّما سَكنَ غَضَبُه، وذَهَبَ عاجِلًا، فكأنَّه حينَئِذٍ لم يغضَبْ، وإلى هذا المَعنى وقَعَت الإشارةُ في القُرآنِ بقَولِه عَزَّ وجَلَّ: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [الشورى: 37] ، وبقَولِه عَزَّ وجَلَّ: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: 134])[4189].

4- الاستِعاذةُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ:

وقد كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُ من غَضِبَ بتَعاطي أسبابٍ تَدفعُ عنه الغَضَبَ، وتُسكِّنُه[4190]، ومنها الاستِعاذةُ؛ فعن سُليمانَ بنِ صُردٍ رَضيَ اللهُ عنه قال: ((كُنتُ جالسًا مَعَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ورَجُلانِ يَستَبَّانِ، فأحَدُهما احمَرَّ وجهُه وانتَفخَت أوداجُه، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّي لأعلَمُ كلمةً لو قالها ذَهَب عنه ما يجِدُ، لو قال: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ ذَهَبَ عنه ما يجِدُ))[4191].

وقال ابنُ القَيِّمِ: (ولمَّا كان الغَضَبُ والشَّهوةُ جَمرَتَين مِن نارٍ في قَلبِ ابنِ آدَمَ، أمَرَ أن يُطفِئَهما بالصَّلاةِ، والاستِعاذةِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، كما قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة: 44 - 45].

[4186] ((الآداب الشرعية)) لابن مُفلِح (2/261).

[4187] ((جامع العلوم والحكم)) (1/365). والحديثُ المشارُ إليه أخرجه البخاري (3601)، ومسلم (2886) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[4188] رواه البخاري (6116).

[4189] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (364/1).

[4190] المصدر السابق.

[4191] رواه البخاري (3282) واللفظ له، ومسلم (2610).

وهذا إنَّما يَحمِلُ عليه شِدَّةَ الشَّهوةِ، فأمَرهم بما يُطفِئونَ بها جَمرَتَها، وهو الاستِعانةُ بالصَّبرِ والصَّلاةِ، وأمَرَ تعالى بالاستِعاذةِ مِن الشَّيطانِ عِندَ نَزَغاتِه... والمَقصودُ: أنَّه سُبحانَه أرشَدَ عِبادَه إلى ما يدفعونَ به شَرَّ قوَّتَي الغَضَبِ والشَّهوةِ؛ مِن الصَّلاةِ والاستِعاذةِ)[4192].

5- السُّكوتُ:

قال ابنُ رَجَبٍ عن السُّكوتِ: (وهذا أيضًا دَواءٌ عَظيمٌ للغَضَبِ؛ لأنَّ الغَضبانَ يصدُرُ مِنه في حالِ غَضَبِه مِن القَولِ ما يندَمُ عليه في حالِ زَوالِ غَضَبِه كثيرًا؛ مِن السِّبابِ وغَيرِه مِمَّا يَعظُمُ ضَرَرُه، فإذا سَكتَ زال هذا الشَّرُّ كُلُّه عنه، وما أحسَنَ قَولَ مُوَرِّقٍ العِجليِّ رَحِمَه اللهُ: ما امتَلأتُ غَيظًا قَطُّ، ولا تَكلَّمتُ في غَضَبٍ قَطُّ بما أندَمُ عليه إذا رَضيتُ!)[4193].

6- (أن يذكُرَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ، فيدعوَه ذلك إلى الخَوفِ مِنه، ويبعَثَه الخَوفُ مِنه على الطَّاعةِ له، فيرجِعَ إلى أدَبِه ويأخُذَ بنَدبِه:

قال اللهُ تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [الكهف: 24]، قال عِكرِمةُ: يعني: إذا غَضِبتَ.

وقال سُبحانَه: وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ [الأعراف: 200]، ومَعنى قَولِه: ينزَغَنَّكَ، أي: يُغضِبَنَّك، {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: 200] ، يعني أنَّه سَميعٌ بجَهلِ مَن جَهِلَ، عليمٌ بما يُذهِبُ عنك الغَضَبَ)[4194].

قال مُحَمَّدُ بنُ عَطيَّةَ السَّعديُّ لابنِه عُروةَ لَمَّا ولِيَ اليَمَنَ: (إذا غَضِبتَ فانظُرْ إلى السَّماءِ فوقَك، وإلى الأرضِ تَحتَك، ثُمَّ عَظِّمْ خالِقَهما)[4195].

7- أن يتَذَكَّرَ ما يؤولُ إليه الغَضَبُ مِن النَّدَمِ ومَذَمَّةِ الانتِقامِ.

8 - أن يذكُرَ انعِطافَ القُلوبِ عليه، ومَيلَ النُّفوسِ إليه، فلا يرى إضاعةَ ذلك بتَغَيُّرِ النَّاسِ عنه، فيرغَبُ في التَّأَلُّفِ وجَميلِ الثَّناءِ[4196].

9- **أن يُحَذِّرَ نَفسَه عاقِبةَ العَداوةِ والانتِقامِ**، وتشميرِ العَدوِّ في هَدمِ أعراضِه، والشَّماتةِ بمَصائِبه؛ فإنَّ الإنسانَ لا يخلو عن المَصائِبِ، فيخوِّفُ نَفسَه ذلك في الدُّنيا إن لم يَخَفْ في الآخِرةِ.

10- أن يتفكَّرَ في قُبحِ صورَتِه عِندَ الغَضَبِ.

11- أن يتفكَّرَ في السَّبَبِ الذي يدعوه إلى الانتِقامِ، مِثلُ أن يكونَ سَبَبُ غَضَبِه أن يقولَ له الشَّيطانُ: إنَّ هذا يُحمَلُ مِنك على العَجزِ والذِّلَّةِ والمَهانةِ، وصِغَرِ النَّفسِ، وتَصيرُ حَقيرًا في أعيُنِ النَّاسِ! فليقُلْ لنَفسِه: تَأنَفينَ مِن الاحتِمالِ الآنَ، ولا

[4192] ((زاد المعاد)) (2/463) بتصرف يسير.

[4193] ((جامع العلوم والحكم)) (1/366). ويُنظَر: ((الزهد والرقائق)) لابن المبارك (2/11/زوائد نعيم)، ((المعرفة والتاريخ)) ليعقوب بن سفيان (2/252)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (2/235).

[4194] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (258 - 260).

[4195] يُنظَر: ((الإشراف في منازل الأشراف)) لابن أبي الدنيا (249)، ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص: 211، 212)، ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (54/221).

[4196] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (258 - 260).

تَأنَفينَ مِن خِزيِ يومِ القيامةِ والافتِضاحِ إذا أخَذَ هذا بيدِك وانتَقَمَ مِنك! وتحذَرينَ مِن أن تَصغُري في أعيُنِ النَّاسِ، ولا تحذَرينَ مِن أن تَصغُري عِندَ اللهِ تعالى وعِندَ المَلائِكةِ والنَّبيِّينَ!

12- أن يعلمَ أنَّ غَضَبَه إنَّما كان مِن شَيءٍ جَرى على وَفقِ مُرادِ اللهِ تعالى، لا على وَفقِ مُرادِه، فكيف يُقدِّمُ مُرادَه على مُرادِ اللهِ تعالى ؟!)[4197].

13- أن يذكُرَ ثَوابَ مَن كَظَم غَيظَه:

قال سُبحانَه: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: 134].

(قَولُه: وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ أي: إذا حَصَل لهم مِن غَيرِهم أذيَّةٌ توجِبُ غَيظَهم -وهو امتِلاءُ قُلوبِهم مِن الحَنَقِ الموجِبِ للانتِقامِ بالقَولِ والفِعلِ-، هؤلاء لا يعمَلونَ بمُقتَضى الطِّباعِ البَشَريَّةِ، بَل يكظِمونَ ما في القُلوبِ مِن الغَيظِ، ويصبِرونَ عن مُقابَلةِ المُسيءِ إليهم)[4198].

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [الشورى: 37].

(أي: قد تَخَلَّقوا بمَكارِمِ الأخلاقِ ومَحاسِنِ الشِّيمِ، فصارَ الحِلمُ لهم سَجيَّةً، وحُسنُ الخُلُقِ لهم طَبيعةً، حتَّى إذا أغضَبَهم أحَدٌ بمَقالِه أو فِعالِه كظموا ذلك الغَضَبَ فلم يُنفِذوه، بَل غَفروه، ولم يُقابِلوا المُسيءَ إلَّا بالإحسانِ والعَفوِ والصَّفحِ، فتَرَتَّبَ على هذا العَفوِ والصَّفحِ مِن المَصالحِ ودَفعِ المَفاسِدِ في أنفُسِهم وغَيرِهم شَيءٌ كثيرٌ)[4199].

وقال ابنُ كثيرٍ في تَفسيرِه للآيةِ: (أي: سَجيَّتُهم وخُلُقُهم وطَبعُهم تَقتَضي الصَّفحَ والعَفوَ عن النَّاسِ، ليس سَجيَّتُهم الانتِقامَ مِن النَّاسِ)[4200].

وقال عَزَّ وجَلَّ: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: 201].

قال سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ: (هو الرَّجُلُ يغضَبُ الغَضبةَ، فيذكُرُ اللهَ تعالى، فيكظِمُ الغَيظَ)[4201].

14- التَّواضُعُ: فالذي يتَواضَعُ حتَّى يَذهَبَ عنه عِزَّةُ النَّفسِ، يَسلَمُ مِن شَرِّ الغَضَبِ؛ وذلك لأنَّ أعظَمَ ما ينشَأُ عنه الغَضَبُ الكِبرُ؛ لكونِه يقَعُ عِندَ مُخالفةِ أمرٍ يُريدُه، فيحمِلُه الكِبرُ على الغَضَبِ[4202].

15- التَّخَلُّقُ بخُلُقِ الصَّبرِ، فلا بُدَّ مِن الصَّبرِ عِندَ الغَضَبِ[4203].

[4197] ((مختصر منهاج القاصدين)) لابن قدامة (ص: 234) بتصرف.

[4198] ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (148/1).

[4199] المصدر السابق (1/759).

[4200] ((تفسير القرآن العظيم)) (7/210).

[4201] ((معالم التنزيل)) للبغوي (3/318).

[4202] ((فتح الباري)) لابن حجر (10/520).

[4203] ((الاستقامة)) لابن تَيميَّةَ (2/271).

المطلب التاسع: نَماذِجُ في الغَضَبِ

أ - نَماذِجُ مِن غَضَبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للهِ (الغَضَبُ المَحمودُ):

النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما كان يغضَبُ لنَفسِه، وما كان ينتَصِرُ لها، بَل كان غَضَبُه للهِ، وحينَما تُنتَهكُ حُرُماتُه.

قال أحمد شوقي، وهو يذكُرُ بَعضَ أخلاقِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

وإذا غضِبتَ فإنَّما هي غَضبةٌ

في الحَقِّ لا ضِغنٌ ولا بغضاءُ

وإذا رَضيتَ فذاك في مَرضاتِه

ورِضا الكثيرِ تحلُّمٌ ورياءُ[4204]

وإليكم نَماذِجَ مِن غَضَبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للهِ، وعِندَما تُنتَهكُ حُرُماتُه.

- عن عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها قالت: ((دَخَل عليَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفي البَيتِ قِرامٌ[4205] فيه صُوَرٌ، فتَلوَّنَ وجهُه، ثُمَّ تَناوَل السِّترَ فهَتَكه، وقالت: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مِن أشَدِّ النَّاسِ عَذابًا يومَ القيامةِ الذين يُصَوِّرونَ هذه الصُّورَ))[4206].

- عن أبي مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((أتى رجلٌ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: إنِّي لَأَتَأَخَّرُ عن صَلَاةِ الغَدَاةِ مِن أجْلِ فُلَانٍ؛ ممَّا يُطِيلُ بنَا فِيهَا، قالَ: فما رَأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَطُّ أشَدَّ غَضَبًا في مَوعِظةٍ منه يَومَئِذٍ! ثُمَّ قالَ: {يا أيُّها النَّاسُ}، إنَّ مِنكم مُنَفِّرينَ، فأيُّكم ما صَلَّى بالنَّاسِ فلْيُوجِزْ؛ فإنَّ فيهم الكَبيرَ والضَّعيفَ وذا الحاجةِ))[4207].

- وعن عَبدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عنه قال: ((بَينا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصَلِّي رَأى في قِبلةِ المَسجِدِ نُخامةً فحَكَّها بيدِه، فتَغَيَّظَ ثُمَّ قال: إنَّ أحَدَكم إذا كان في الصَّلاةِ فإنَّ اللهَ حِيالَ[4208] وجهِه، فلا يتَنَخَّمَنَّ حيالَ وَجهِه في الصَّلاةِ))[4209].

- وعن زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ أنَّ رَجُلًا سَأل رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن اللُّقَطةِ، فقال: ((عَرِّفْها سَنةً، ثُمَّ اعرِفْ وِكاءَها وعِفاصَها[4210]، ثمَّ استنفِقْ بها[4211]، فإن جاءَ رَبُّها فأدِّها إليه. قال: يا رَسولَ اللهِ، فضالَّةُ الغَنَمِ؟ قال: خُذْها؛ فإنَّما هي

[4204] ((الشوقيات)) (1/36).

[4205] قِرامٌ: أي: سِترٌ. يُنظَر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (9/67).

[4206] رواه البخاري (6109) واللفظ له، ومسلم (2107).

[4207] رواه البخاري (6110) واللفظ له، ومسلم (466)

[4208] أي: تلقاءَ. يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (10/518).

[4209] رواه البخاري (6111) واللفظ له، ومسلم (547).

[4210] العِفاصُ: الوعاءُ الذي تكونُ فيه النَّفَقةُ جِلدًا كان أو غيرَه. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (21/12).

[4211] استنفِقْ بها: أي: تملَّكْها ثمَّ أنفِقْها على نفسِك. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (12/23).

لك، أو لأخيك، أو للذِّئبِ. قال: يا رَسولَ اللهِ، فضالَّةُ الإبِلِ؟ قال: فغَضِبَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى احمَرَّت وجنَتاه ، أو احمرَّ وجهُه! ثُمَّ قال: ما لك ولها، مَعَها حِذاؤُها، وسِقاؤُها ، حتَّى يلقاها رَبُّها))[4212].

- وعن زَيدِ بنِ ثابتٍ رَضيَ اللهُ عنه قال: ((احتَجَر[4213] رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حُجَيرةً مُخَصَّفةً[4214]، أو حَصيرًا، فخَرَجَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصَلِّي فيها، فتَتَبَّعَ إليه رِجالٌ، وجاؤوا يُصَلُّونَ بصَلاتِه، ثُمَّ جاؤوا ليلةً فحَضَروا وأبطَأَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنهم، فلم يخرُجْ إليهم، فرَفعوا أصواتَهم، وحَصَبوا البابَ[4215]، فخَرَجَ إليهم مُغضَبًا، فقال لهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما زال بكم صَنيعُكم حتَّى ظَنَنتُ أنَّه سَيُكتَبُ عليكم، فعليكم بالصَّلاةِ في بُيوتِكم؛ فإنَّ خَيرَ صَلاةِ المَرءِ في بَيتِه إلَّا الصَّلاةَ المكتوبةَ))[4216].

- وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه قال: ((بينَما يَهوديٌّ يَعرِضُ سِلعَتَه أُعطِيَ بها شَيئًا كَرِهَه، فقال: لا والذي اصطَفى موسى على البَشَرِ، فسَمِعَه رَجُلٌ من الأنصارِ، فقامَ فلَطَمَ وَجْهَه، وقال: تَقولُ: والذي اصطَفى موسى على البَشَرِ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينَ أظهُرِنا، فذَهَبَ إليه، فقال: أبا القاسِمِ، إنَّ لي ذِمَّةً وعَهدًا، فما بالُ فُلانٍ لَطَمَ وَجهي؟ فقال: لَمَ لَطَمْتَ وَجْهَه؟ فذَكَره، فغَضِبَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حَتَّى رُئِيَ في وَجهِه، ثُمَّ قال: لا تُفَضِّلوا بينَ أنبياءِ اللهِ؛ فإنَّه يُنفَخُ في الصُّورِ، فيَصعَقُ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ إلَّا من شاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى، فأكونُ أوَّلَ من بُعِثَ، فإذا موسى آخِذٌ بالعَرْشِ، فلا أدري أحُوسِبَ بصَعقَتِه يومَ الطُّورِ أم بُعِثَ قَبْلِي؟ ولا أقولُ: إنَّ أحَدًا أفضَلُ مِن يونُسَ بنِ مَتَّى عليه السَّلامُ))[4217].

- وعن عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها أنَّها قالت: ((رَخَّصَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أمرٍ، فتَنَزَّهَ عنه ناسٌ مِن النَّاسِ! فبَلَغَ ذلك النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فغَضِبَ حتَّى بان الغَضَبُ في وجهِه، ثُمَّ قال: ما بالُ أقوامٍ يرغَبونَ عَمَّا رُخِّصَ لي فيه؟! فواللهِ لأنا أعلمُهم باللهِ وأشَدُّهم له خَشيةً))[4218].

- وعن أبي قَتادةَ رَضيَ اللهُ عنه أنَّه قال: ((رَجُلٌ أتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: كيف تَصومُ؟ فغَضِبَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلمَّا رَأى عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنه غَضَبَه، قال: رَضينا باللهِ رَبًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمُحَمَّدٍ نَبيًّا، نَعوذُ باللهِ مِن غَضَبِ اللهِ وغَضَبِ رَسولِه! فجَعل عُمَرُ رَضيَ اللهُ عنه يُرَدِّدُ هذا الكَلامَ حتَّى سَكنَ غَضَبُه))[4219].

- وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أشَدَّ حَياءً مِن العَذراءِ في خِدرِها، فإذا رَأى شَيئًا يكرَهُه عَرَفْناه في وَجهِه))[4220].

[4212] رواه البخاري (2436)، ومسلم (1722). يريدُ أنَّها تقوى على ورودِ المياهِ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور (14/170). الحِذاءُ: أي: خُفُّها. يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (5/83). الوَجنةُ: هي اللَّحمُ المرتفِعُ من الخدَّينِ. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (12/24). استنفِقْ بها: أي: تملَّكْها ثمَّ أنفِقْها على نفسِك. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (12/23). العِفاصُ: الوعاءُ الذي تكونُ فيه النَّفَقةُ جِلدًا كان أو غيرَه. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (12/21). الوِكاءُ هو الخيطُ الذي يُشَدُّ به الوعاءُ. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (12/21).

[4213] احتَجَر: أي: اتَّخَذ شِبهَ الحُجرةِ. يُنظَر: ((كشف المشكل من حديثِ الصحيحين)) لابن الجوزي (100/2).

[4214] حُجيرةً مُخَصَّفةً: ثوبٌ أو حصيرٌ قَطَع به مكانًا في المسجِدِ واستتر وراءَه. يُنظَر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (9/295).

[4215] حصبوا البابَ: أي رموه بالحَصباءِ: وهي الحصا الصِّغارُ. يُنظَر: ((كشف المشكل من حديثِ الصحيحين)) لابن الجوزي (2/100).

[4216] رواه البخاري (6113) واللفظ له، ومسلم (781).

[4217] رواه البخاري (3414)، ومسلم (2373) واللفظ له.

[4218] رواه البخاري (6101)، ومسلم (2356) واللفظ له.

[4219] رواه مسلم (1162) مطوَّلًا.

- وعن عَبدِ اللهِ قال: ((قَسَمُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَسمًا، فقال رَجُلٌ: إنَّها لقِسمةٌ ما أُريدَ بها وجهُ اللهِ! قال: فأتَيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فسارَرتُه، فغَضِبَ مِن ذلك غَضَبًا شَديدًا، واحمَرَّ وجهُه حتَّى تَمَنَّيتُ أنِّي لم أذكُرْه له. قال: ثُمَّ قال: قد أوذِيَ موسى بأكثَرَ مِن هذا فصَبَر!))[4221].

ب- نَماذِجُ مِن أحوالِ الصَّحابةِ عِندَ الغَضَبِ:

عُمَرُ رَضيَ اللهُ عنه:

أنَّ ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (قَدِمَ عُيَينةُ بنُ حِصنِ بنِ حُذَيفةَ فَنَزَلَ علَى ابنِ أخِيهِ الحُرِّ بنِ قَيسٍ، وكانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدنِيهِم عُمَرُ، وكانَ القُرَّاءُ أصحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ ومُشَاوَرَتِه، كُهُولًا كانوا أو شُبَّانًا، فقال عُيَينةُ لابنِ أخيه: يا ابنَ أخِي، هل لكَ وجهٌ عِندَ هذا الأمِيرِ؟ فاستَأذِنْ لي عليه، قال: سَأَستَأذِنُ لك عليه، قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: فاستَأذَنَ الحُرُّ لعُيَينةَ، فأذِنَ له عُمَرُ، فلمَّا دخَلَ عليه قال: هَيْ يا ابنَ الخَطَّابِ! فواللَّهِ ما تُعطِينَا الجَزلَ ولا تَحكُمُ بيننَا بالعَدلِ، فغَضِبَ عُمَرُ حتَّى هَمَّ أن يُوقِعَ به، فقالَ له الحُرُّ: يا أمِيرَ المُؤمِنينَ، إنَّ اللهَ تعالى قال لنَبِيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199]، وإنَّ هذا مِنَ الجَاهِلِينَ، واللهِ ما جاوَزَها عُمَرُ حينَ تَلَاها عليه، وكان وقَّافًا عِندَ كِتَابِ اللَّهِ)[4222].

مُعاويةُ رَضيَ اللهُ عنه:

(خَطَبُ مُعاويةُ يومًا، فقال له رَجُلٌ: كذَبتَ! فنَزَل مُغضَبًا فدَخَل مَنزِلَه، ثُمَّ خَرَجَ عليهم تَقطُرُ لحيتُه ماءً، فصَعِدَ المِنبَرَ، فقال: أيُّها النَّاسُ، إنَّ الغَضَبَ مِن الشَّيطانِ، وإنَّ الشَّيطانَ مِن النَّارِ، فإذا غَضِبَ أحَدُكم فليُطفِئْه بالماءِ، ثُمَّ أخَذَ في المَوضِعِ الذي بَلغَه مِن خُطبَتِه)[4223].

عَبدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنه:

سَبَّ رَجُلٌ ابنَ عَبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، فلمَّا فرَغَ قال: يا عِكرِمةُ، هَل للرَّجُلِ حاجةٌ فنَقضيَها؟ فنَكَّسَ الرَّجُلُ رَأسَه واستَحى[4224].

أبو الدَّرداءِ رَضيَ اللهُ عنه:

أسمَعُ رَجُلٌ أبا الدَّرداءِ رَضيَ اللهُ عنه كلامًا، فقال: يا هذا، لا تُغرِقَنَّ في سَبِّنا، ودَعْ للصُّلحِ مَوضِعًا؛ فإنَّا لا نُكافِئُ من عَصى اللهَ فينا بأكثَرَ مِن أن نُطيعَ اللهَ فيه[4225]!

أبو ذَرٍّ رَضيَ اللهُ عنه:

[4220] رواه البخاري (6102) واللفظ له، ومسلم (2320).

[4221] رواه البخاري (3405)، ومسلم (1062) واللفظ له.

[4222] رواه البخاري (4642).

[4223] ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (1/405).

[4224] ((ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى)) لمحب الدين الطبري (ص: 233).

[4225] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (252).

قال أبو ذَرٍّ رَضيَ اللهُ عنه لغُلامِه: (لِمَ أرسَلتَ الشَّاةَ على عَلَفِ الفَرَسِ؟ قال: أرَدتُ أن أَغيظَك، قال: لأجمَعَنَّ مَعَ الغَيظِ أجرًا، أنتَ حُرٌّ لوَجهِ اللهِ تعالى!)[4226].

ج- نَماذِجُ مِن حالِ السَّلَفِ عِندَ الغَضَبِ:

عليُّ بنُ الحُسَينِ:

عن عبدِ الرَّزَّاقِ يقولُ: جعَلَت جاريةٌ لعليِّ بنِ الحُسَينِ تسكُبُ عليه الماءَ يتهَيَّأُ للصَّلاةِ فسقَطَ الإبريقُ من يدِ الجاريةِ على وَجهِه فشَجَّه، فرفع عليُّ بنُ الحُسَينِ رأسَه إليها، فقالت الجاريةُ: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يقولُ: وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ، فقال لها: قد كظَمْتُ غيظي. قالت: وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، قال: قد عفا اللهُ عنكِ. قالت: وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [آل عمران: 134]، قال: فاذهَبي فأنتِ حُرَّةٌ[4227].

عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ:

(غَضِبٌ يومًا عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ فقال له ابنُه عَبدُ المَلكِ رَحِمَها اللهُ: أنتَ يا أميرَ المُؤمِنينَ مَعَ ما أعطاك اللهُ وفضَّلك به تَغضَبُ هذا الغَضَبَ؟! فقال له: أوَ ما تَغضَبُ يا عَبدَ المَلكِ؟! فقال عَبدُ المَلكِ: وما يُغني عنِّي سَعةُ جَوفي إذا لم أَرُدَّ فيه؟!)[4228].

(وأسمَعه رَجُلٌ كلامًا، فقال له: أرَدتَ أن يستَفِزَّني الشَّيطانُ بعِزِّ السُّلطانِ، فأنالَ مِنك اليومَ ما يناله مِنِّي غَدًا؟! ثُمَّ عَفا عنه)[4229].

ودَخَل عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ المَسجِدَ ليلةً في الظُّلمةِ، فمَرَّ برَجُلٍ نائِمٍ، فعَثَرَ به، فرَفعَ رَأسَه وقال: أمجنونٌ أنتَ؟ فقال عُمَرُ: لا. فهمَّ به الحَرَسُ، فقال عُمَرُ: مَهْ[4230]! إنما سألني أمجنونٌ؟ فقلتُ: لا[4231]!

المَهديُّ:

(قيل: غَضِبَ المَهديُّ على رَجُلٍ، فدَعا بالسِّياطِ، فلمَّا رَأى شَبيبٌ شِدَّةَ غَضَبِه، وإطراقَ النَّاسِ، فلم يتَكلَّموا بشَيءٍ، قال: يا أميرَ المُؤمِنينَ، لا تَغضَبَنَّ للهِ بأشَدَّ مِمَّا غَضِبَ لنَفسِه! فقال: خَلُّوا سَبيلَه)[4232].

عَبدُ اللهِ بنُ عَونٍ:

(رُوِيَ عن القَعنَبيِّ قال: كان ابنُ عَونٍ لا يغضَبُ، فإذا أغضَبَه رَجُلٌ قال: بارَك اللهُ فيك)[4233]!

[4226] ((ربيع الأبرار ونصوص الأخيار)) للزمخشري (2/227).

[4227] رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (8317)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (41/387)

[4228] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (1/366)

[4229] رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (8324)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (45/205)

[4230] مهْ: اسمُ فعلٍ معناه الزَّجرُ، أي: اكفُفْ. يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (8/580)

[4231] رواه ابنُ سعد في ((الطبقات الكبرى))(6834) ، وقوام السنة في ((الترغيب والترهيب)) (1194)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (45/206)

[4232] ((مختصر منهاج القاصدين)) لابن قدامة (ص: 236)

[4233] رواه ابنُ حبان في ((روضة العقلاء)) (ص139)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (3/39)

(وكان لابنِ عَونٍ ناقةٌ يغزو عليها، ويحُجُّ عليها، وكان بها مُعجَبًا، فأمَر غُلامًا له يستقي عليها، فجاء بها وقد ضرَبَها على وَجهِها، فسالت عينُها على خَدِّها! فقُلْنا: إن كان من ابنِ عونٍ شيءٌ فاليومَ! قال: فلم يلبَثْ أنْ نَزَل إلينا، فلمَّا نَظَر إلى النَّاقةِ قال: سُبحانَ اللَّهِ! أفلا غَيْرَ الوَجهِ بارَك اللَّهُ فيك؟! اخرُجْ عنِّي، اشهَدوا أنَّه حُرٌّ)[4234].

الفُضَيلُ بنُ بَزوانَ:

- عن أبي رَزينٍ قال: (جاءَ رَجُلٌ إلى الفُضَيلِ بنِ بَزوانَ، فقال: إنَّ فُلانًا يقَعُ فيك. فقال: لأغيظَنَّ مَن أمَرَه، يغفِرُ اللَّهُ لي وله. قيلَ: مَن أمَرَه؟ قال: الشَّيطانُ)[4235].

المطلب العاشر: حُكمُ الغَضَبِ

(الخَلقُ مَجبولونَ على الغَضَبِ والحِلمِ مَعًا؛ فمَن غَضِبَ وحَلُمَ في نَفسِ الغَضَبِ، فإنَّ ذلك ليس بمَذمومٍ ما لم يُخرِجْه غَضَبُه إلى المكروهِ مِن القَولِ والفِعلِ، على أنَّ مُفارَقَتَه في الأحوالِ كُلِّها أحمَدُ)[4236].

وأمَّا الغَضَبُ المَذمومُ شَرعًا فهو ما كان في سَبيلِ الباطِلِ، ويُهَيِّجُه الكِبرُ والاستِعلاءُ والأنَفةُ.

و(الغَضَبُ قد يكونُ واجِبًا، وهو الغَضَبُ على الكُفَّارِ والمُبالغةُ فيهم بالجِهادِ، وكذلك الغَضَبُ على أهلِ الباطِلِ، وإنكارُه عليهم بما يجوزُ، وقد يكونُ مَندوبًا إليه، وهو الغَضَبُ على المُخطِئِ إذا عَلِمتَ أنَّ في إبداءِ غَضَبِك عليه رَدعًا له، وباعِثًا على الحَقِّ)[4237].

المطلب الحادِيَ عَشَرَ: مَسائِلُ مُتَفرِّقةٌ

- **تَولُّدُ المَعاصي مِن الغَضَبِ والشَّهوةِ:**

المَعاصي كُلُّها تَتَولَّدُ مِن الغَضَبِ والشَّهوةِ، ولمَّا كان نِهايةُ قوَّةِ الغَضَبِ القَتلَ، ونِهايةُ قوَّةِ الشَّهوةِ الزِّنا، جَمَعَ اللهُ تعالى بَينَ القَتلِ والزِّنا، وجَعلهما قَرينينِ في سورةِ الأنعامِ، وسورةِ الإسراءِ، وسورةِ الفُرقانِ، وسورةِ المُمتَحنةِ[4238].

- **غالبُ مِن يتَّصِفُ بسُرعةِ الغَضَبِ:**

ذَكَر بَعضُ العُلماءِ أنَّ أغلبَ مِن يتَّصِفُ بسُرعةِ الغَضَبِ هم: النِّساءُ، والصِّبيانُ، والشَّرِهُ، والبَخيلُ، وضَعيفُ النَّفسِ مِن الرِّجالِ...

قال الرَّاغِبُ: (أسرَعُ النَّاسِ غَضَبًا الصِّبيانُ، والنِّساءُ، وأكثَرُهم ضَجَرًا الشُّيوخُ...)[4239].

وقال ابنُ مِسكَوَيهِ: (ونحن ... نَجِدُ الصِّبيانَ أسرَعَ غَضَبًا وضَجَرًا مِن الرِّجالِ، والشُّيوخَ أكثَرَ مِن الشُّبَّانِ.

[4234] رواه ابنُ سعد في ((الطبقات الكبرى)) (9421)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (31/360)

[4235] رواه أحمد في ((الورع)) (619)، وابن المبارك في ((الزهد)) (670) واللفظ له، وابن أبي الدنيا في ((الإشراف)) (367).

[4236] ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)) (ص: 141).

[4237] ((المنتقى شرح الموطأ)) للباجي (7/214) بتصرف يسير

[4238] ((زاد المعاد)) (2/463)

[4239] ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص: 345).

ونَجِدُه في رَذيلةَ الشَّرَهِ؛ فإنَّ الشَّرِهَ إذا تَعَذَّرَ عليه ما يشتَهيه غَضِبَ، وشاجَرٌ على مِن يُهَيِّئُ طَعامَه وشَرابَه مِن نِسائِه وأولادِه وخَدَمِه وسائِرِ من يُلابسُ أمرَه. والبَخيلُ إذا فقدَ شَيئًا مِن مالِه تَسرَّعَ بالغَضَبِ على أصدِقائِه ومُخالِطيه، وتَوجَّهَت تُهمَتُه إلى أهلِ الثِّقةِ مِن خَدَمِه ومَواليه. وهؤلاء الطَّبَقةُ لا يحصُلونَ مِن أخلاقِهم إلَّا على فقدِ الصَّديقِ، وعَدَمِ النَّصيحِ، وعلى الذَّمِّ السَّريعِ، واللَّومِ الوجيعِ)[4240].

وقال الغَزاليُّ: (المَريضُ أسرَعُ غَضَبًا مِن الصَّحيحِ، والمَرأةُ أسرَعُ غَضَبًا مِن الرَّجُلِ، والصَّبيُّ أسرَعُ غَضَبًا مِن الرَّجُلِ الكبيرِ، والشَّيخُ الضَّعيفُ أسرَعُ غَضَبًا مِن الكهلِ، وذو الخُلُقِ السَّيِّئِ والرَّذائِلِ القَبيحةِ أسرَعُ غَضَبًا مِن صاحِبِ الفضائِلِ؛ فالرَّذلُ يغضَبُ لشَهوتِه إذا فاتَته اللُّقمةُ، ولبُخلِه إذا فاتَته الحَبَّةُ، حتَّى أنَّه يغضَبُ على أهلِه وولَدِه وأصحابِه!)[4241].

• الألفاظُ المُتَرادِفةُ للفظةِ غَضِبَ:

مِن الألفاظِ المُتَرادِفةِ للفظةِ غَضِبَ: (حَرِدَ، وتَلظَّى، واغتاظَ، وترغَّمَ، واستَشاطَ، وتَضرَّمُ، وحَنِقَ، وأسِفَ، ونَقَم، وسَخِطَ، ووجَدَ، وأحفَظَ، وأضمَرَ)[4242].

• الحَليمُ يُعرَفُ عِندَ الغَضَبِ:

- يُروى أنَّ لُقمانَ رَضيَ اللهُ عنه قال لابنِه: (ثَلاثةٌ لا يُعرَفونَ إلَّا في ثَلاثةِ مَواطِنَ: لا يُعرَفُ الحَليمُ إلَّا عِندَ الغَضَبِ، ولا الشُّجاعُ إلَّا في الحَربِ، ولا تَعرِفُ أخاك إلَّا عِندَ الحاجةِ إليه)[4243].

- وقال عَبدُ المَلكِ بنُ مَروانَ: (إذا لم يغضَبِ الرَّجُلُ لم يحلُمْ؛ لأنَّ الحَليمَ لا يُعرَفُ إلَّا عِندَ الغَضَبِ)[4244].

- وعن يحيى بنِ أبي كثيرٍ، قال: (لا يُعجِبْك حِلمُ امرِئٍ حتَّى يغضَبَ، ولا أمانَتُه حتَّى يطمَعَ؛ فإنَّك لا تَدري على أيِّ شِقَّيه يقَعُ)[4245].

- وذُكِر أنَّ رَجُلًا مِن التَّابعينَ مَدحَه رَجُلٌ في وجهِه، فقال له: يا عَبدَ اللهِ لم تِمدَحُني؟ أجرَّبْتَني عِندَ الغَضَبِ فوجَدْتَني حَليمًا؟ قال: لا. قال: أجرَّبْتَني في السَّفرِ فوجَدْتَني حَسنَ الخُلُقِ؟ قال: لا. قال: أجرَّبْتَني عِندَ الأمانةِ فوجَدْتَني أمينًا؟ قال: لا. فقال: ويحَك! ما لأحَدٍ أن يمدَحَ أحَدًا ما لم يُجَرِّبْه في هذه الأشياءِ الثَّلاثةِ[4246].

- وكان الشَّعبيُّ مِن أولَعِ النَّاسِ بهذا البَيتِ:

ليست الأحلامُ في حينِ الرِّضا

إنَّما الأحلامُ في وقتِ الغَضَبِ[4247]

[4240] ((تهذيب الأخلاق)) (ص: 169).

[4241] ((إحياء علوم الدين)) (3/172).

[4242] ((الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى)) لأبي الحسن الرماني (ص: 77).

[4243] ((البيان والتبيين)) للجاحظ (50/2).

[4244] رواه ابنُ حبان في ((روضة العقلاء)) (ص: 141)

[4245] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (69/3).

[4246] ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: 207).

- وقال الحُسَينُ بنُ عليٍّ المِصريُّ، المَعروفُ بابنِ المَغرِبيِّ:

وليس حَليمًا مَن تُقبَّلُ كفُّه فيرضى

ولكِنْ مَن تُعَضُّ فيَحلُمُ[4248]

- **غَضَبُ النَّاسِ أهونُ مِن غَضَبِ اللهِ:**

- قال ابنُ حَزمٍ: (إن لم يكُنْ بُدٌّ مِن إغضابِ النَّاسِ أو إغضابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ولم يكُنْ لك مَندوحةٌ عن مُنافرةِ الحَقِّ ومُنافرةِ الخَلقِ، فأغضِبِ النَّاسَ ونافِرْهم، ولا تُغضِبْ رَبَّك ولا تُنافِرِ الحَقَّ)[4249].

- **صِفةُ مِن يتَّخِذُ صَديقًا:**

- قال جَعفرُ بنُ مُحَمَّدٍ لابنِه: (يا بُنَيَّ، مَن غَضِبَ مِن إخوانِك ثَلاثَ مَرَّاتٍ فلم يقُلْ فيك سوءًا، فاتَّخِذْه لنَفسِك خِلًّا)[4250].

- قال ابنُ الجوزيِّ: (قال الفُضَيلُ بنُ عياضٍ: "إذا أرَدتَ أن تُصادِقَ صَديقًا فأغضِبْه، فإن رَأيتَه كما ينبَغي فصادِقْه".

وهذا اليومَ مُخاطَرةٌ؛ لأنَّك إذا أغضَبتَ أحَدًا صارَ عَدوًّا في الحالِ! والسَّبَبُ في نَسخِ حُكمِ الصَّفا: أنَّ السَّلَفَ كانت هِمَّتُهم الآخِرةَ وحدَها، فصفَت نيَّاتُهم في الأُخوَّةِ والمُخالطةِ، فكانت دينًا لا دُنيا، والآنَ فقد استَولى حُبُّ الدُّنيا على القُلوبِ، فإن رَأيتَ مُتَمَلِّقًا في بابِ الدِّينِ، فاخبُرْه تَقْلُه)[4251].

- **مِن صِفاتِ اللهِ الغَضَبُ:**

الغَضَبُ صِفةٌ فِعليَّةٌ خَبَريَّةٌ ثابتةٌ للهِ عَزَّ وجَلَّ بالكِتابِ والسُّنَّةِ. وأهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ يُثبتونَ صِفةَ الغَضَبِ للهِ عَزَّ وجَلَّ بوَجهٍ يليقُ بجَلالِه وعَظَمَتِه، لا يُكيِّفونَ ولا يُشَبِّهونَ، ولا يُؤَوِّلونَ -كَمَن يقولُ: الغَضَبُ إرادةُ العِقابِ-، ولا يُعَطِّلونَ[4252]، واللهُ تعالى يغضَبُ على مِن يستَحِقُّ الغَضَبَ مِن الكافِرينَ وغَيرِهم؛ قال اللهُ تعالى: {وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النحل: 106][4253].

وفي الحَديثِ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَمَّا خَلقَ اللهُ الخَلقَ كتَبَ في كِتابِه فهو عِندَه فوقَ العَرشِ: إنَّ رَحمَتي تَغلِبُ غَضَبي)) وفي روايةٍ: ((سبَقَت غضبي))[4254].

- **لماذا يوصَفُ اللهُ بالغَضَبِ دونَ الحُزنِ؟**

[4247] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (4/327).

[4248] ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (9/296)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (17/396)

[4249] ((رسائل ابن حزم)) (1/383)

[4250] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 174)

[4251] ((صيد الخاطر)) (ص: 392)

[4252] ((صفات الله عزَّ وجَلَّ الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: 262، 263).

[4253] يُنظَر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (3/234)

[4254] أخرجه البخاري (7554) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

(الإنسانُ الغاضِبُ هو الذي يتَصَوَّرُ نَفسَه أنَّه قادِرٌ على أن يُنَفِّذَ؛ لأنَّ من لا يستَطيعُ لا يغضَبُ، ولكِنَّه يحزَنُ؛ ولهذا يوصَفُ اللهُ بالغَضَبِ ولا يوصَفُ بالحُزنِ؛ لأنَّ الحُزنَ نَقصٌ، والغَضَبُ في مَحَلِّه كمالٌ)[4255].

- **لا يقضي الغَضبانُ بَينَ اثنَينِ:**

كَتبَ أبو بَكرةَ إلى ابنِه وكان بسِجِستانَ بألَّا تَقضيَ بَينَ اثنَينِ وأنتَ غَضبانُ؛ فإنِّي سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يقضينَّ حَكَمٌ بَينَ اثنَينِ وهو غَضبانُ))[4256].

قال ابنُ القَيِّمِ: (إنَّما كان ذلك لأنَّ الغَضَبَ يُشَوِّشُ عليه قَلبَه وذِهنَه، ويمنَعُه مِن كمالِ الفهمِ، ويحولُ بَينَه وبَينَ استيفاءِ النَّظَرِ، ويُعفي عليه طَريقَ العِلمِ والقَصدِ)[4257].

- **كلمةُ الحَقِّ في الغَضَبِ:**

كان مِن دُعائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ((أسألُكَ كلمةَ الحَقِّ في الغَضَبِ والرِّضا)) ، وهذا عَزيزٌ جِدًّا، وهو أنَّ الإنسانَ لا يقولُ سِوى الحَقِّ سَواءٌ غَضِبَ أو رَضيَ؛ فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ إذا غَضِبَ لا يتَوقَّفُ فيما يقولُ)[4258].

[4255] ((شرح رياض الصالحين)) (1/274)

[4256] أخرجه البخاري (7158) واللفظ له، ومسلم (1717)

[4257] ((إعلام الموقعين)) (383/2).

[4258] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (1/372)

المبحث التاسع: الحِقْدُ

المطلب الأول: معنى الحِقْدِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى الحِقْدِ لُغةً:**

الحِقْدُ: الضِّغْنُ، وهو إمساكُ العَداوةِ في القَلبِ، والتَّرَبُّصُ لفُرصتِها، والجَمعُ أحقادٌ وحُقودٌ. وتقولُ: حَقَد عليه يحقِدُ حِقدًا، وحَقِدَ عليه -بالكَسرِ- حِقدًا: لُغةٌ. وأحقَدَه غيرُه: صيَّرَه حاقِدًا. ورَجُلٌ حَقودٌ[4259].

- **معنى الحِقْدِ اصطِلاحًا:**

هو إضمارُ الشَّرِّ للجاني إذا لم يتمكَّنْ من الانتقامِ منه، فأخفى ذلك الاعتقادَ إلى وَقتِ إمكانِ الفُرصةِ.[4260]

وقيل: الحِقْدُ: هو طَلَبُ الانتقامِ، وتحقيقُه: أنَّ الغَضَبَ إذا لزِمَ كَظْمُه لعَجزٍ عن التَّشفّي في الحالِ، رجع إلى الباطِلِ واحتَقَن فيه، فصار حِقدًا.[4261]

وقيل: الحِقْدُ: تَرَدُّدُ دَمِ القَلبِ بَيْنَ انقِباضٍ وانبِساطٍ على مَن يَشُكُّ أنَّه: هل يَقدِرُ على الانتِقامِ منه أم لا[4262]؟

وقال الجُرْجانيُّ: الحِقْدُ هو (سُوءُ الظَّنِّ في القَلبِ على الخلائِقِ لأجْلِ العداوةِ).[4263]

وقال الغَزاليُّ: (الحِقْدُ أن يَلزَمَ قَلبُه استِثقالَه والبِغضةَ له والنِّفارَ عنه، وأن يدومَ ذلك ويبقى)[4264].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الحِقْدِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ المَوجِدةِ والحِقْدِ:**

ذكَر ابنُ القَيِّمِ فُروقًا بَيْنَ المَوجِدةِ والحِقْدِ، فقال: (إنَّ الوَجْدَ: الإحساسُ بالمُؤلِمِ، والعِلمُ به، وتحرُّكُ النَّفسِ في رَفعِه؛ فهو كَمالٌ.

وأمَّا الحِقْدُ فهو إضمارُ الشَّرِّ وتوقُّعُه كُلَّ وقتٍ فيمن وَجَدْتَ عليه، فلا يزايِلُ القَلبَ أثَرُه.

وفرقٌ آخَرُ: وهو أنَّ المَوجِدةَ لِما ينالُك منه، والحِقْدَ لِما ينالُه منك؛ فالمَوجِدةُ: وَجْدُ ما نالك من أذاه، والحِقْدُ: توقُّعُ وُجودِ ما ينالُه من المقابلةِ؛ فالمَوجِدةُ سَريعةُ الزَّوالِ، والحِقْدُ بَطيءُ الزَّوالِ، والحِقْدُ يجيءُ مع ضِيقِ القَلبِ، واستيلاءِ ظُلمةِ النَّفسِ ودُخَانِها عليه، بخلافِ المَوجِدةِ؛ فإنَّها تكونُ مع قوَّتِه وصَلابتِه، وقُوَّةِ نُورِه وإحساسِه)[4265].

[4259] ((الصحاح)) للجوهري، ((لسان العرب)) لابن منظور، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي.

[4260] ((تهذيب الأخلاق)) للجاحظ (ص: 33).

[4261] ((التعريفات)) (ص: 91).

[4262] ((معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم)) (ص: 204).

[4263] ((التعريفات)) (ص: 91).

[4264] ((إحياء علوم الدين)) (3/ 181).

[4265] ((الروح)) لابن القيم (ص: 251).

● **الفَرْقُ بَيْنَ الحِقْدِ والحَسَدِ:**

أنَّ الحَسَدَ -وهو تمنِّي زَوالِ النِّعمةِ عن المحسودِ- ثَمَرةٌ من ثَمَراتِ الحِقْدِ، ونتيجةٌ من نتائِجِه، فالذي يحمِلُ على الحَسَدِ بهذا المعنى هو الحِقْدُ[4266].

● **الفَرْقُ بَيْنَ الحِقْدِ والعَداوةِ:**

أنَّ الحِقْدَ عَداوةٌ مع طَلَبِ الانتقامِ وإضمارِ الشَّرِّ، ودوامِ ذلك وبقائِه.

المطلب الثاني: ذَمُّ الحِقْدِ والنَّهْيُ عنه

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

- قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: 204-205].

- وقال سُبحانَه: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} [الأعراف: 43].

- وقال عزَّ وجَلَّ: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا} [الحجر: 47-48] .

قال الطَّبَريُّ: (وأذهَبْنا من صُدورِ هؤلاء الذين وَصَف صِفتَهم، وأخبَرَ أنَّهم أصحابُ الجنَّةِ، ما فيها من حِقدٍ وغِمرٍ[4267] وعَداوةٍ، كان من بعضِهم في الدُّنيا على بعضٍ، فجَعَلهم في الجنَّةِ إذا أَدخَلهموها على سُرُرٍ مُتقابِلين، لا يَحسُدُ بعضُهم بعضًا على شيءٍ خَصَّ اللَّهُ به بعضَهم، وفَضَّله به مِن كرامتِه عليه، تجري من تحتِهم أنهارُ الجنَّةِ)[4268].

وقال القُرطبيُّ: (ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ فيما يُنعِمُ به على أهلِ الجنَّةِ نَزْعَ الغِلِّ مِن صُدورِهم. والنَّزعُ: الاستِخراجُ، والغِلُّ: الحِقْدُ الكامِنُ في الصَّدرِ. والجَمعُ غِلالٌ)[4269].

وقال السَّعديُّ: (وهذا مِن كَرَمِه وإحسانِه على أهلِ الجنَّةِ؛ أنَّ الغِلَّ الذي كان موجودًا في قلوبِهم، والتَّنافُسَ الذي بَيْنَهم، أنَّ اللهَ يَقلَعُه ويُزيلُه حتَّى يكونوا إخوانًا مُتحابِّين، وأخِلَّاءَ مُتَصافين... ويخلُقُ اللهُ لهم من الكرامةِ ما به يحصلُ لكُلِّ واحدٍ منهم الغِبطةُ والسُّرورُ، ويرى أنَّه لا فَوقَ ما هو فيه من النَّعيمِ نعيمٌ. فبهذا يأمَنونَ من التَّحاسُدِ والتَّباغُضِ؛ لأنَّه قد فُقِدَت أسبابُه)[4270].

[4266] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/ 181)، ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) لابن حجر (1/83).

[4267] غِمْرٌ: ضِغْنٌ وحِقدٌ. ((لسان العرب)) لابن منظور (5/30).

[4268] ((جامع البيان)) (12/438).

[4269] ((الجامع لأحكام القرآن)) (208/7).

[4270] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 289).

(ولمَّا كانت الجنَّةُ دارَ سعادةٍ ونعيمٍ عامٍّ وشاملٍ، كان لا بُدَّ لأصحابِها من أن يكونوا مُبرَّئين من كُلِّ حِقدٍ وغِلٍّ، ومن كُلِّ عِلَّةٍ خُلُقيَّةٍ تُسبِّبُ لهم آلامًا وأكدارًا، وقد وصَف اللهُ أهلَ دارِ النَّعيمِ يومَ القيامةِ بأنَّهم مُبرَّؤون من كُلِّ غِلٍّ، وما كان من غِلٍّ في صُدورِهم في الدُّنيا فإنَّ اللهَ يَنزِعُه منها متى دخَلوا الجنَّةَ)[4271].

ب- من السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

- عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((قيل: يا رسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أفضَلُ؟ قال: كُلُّ مخمومِ القَلبِ صَدوقِ اللِّسانِ، قيل: صَدوقُ اللِّسانِ نَعرِفُه، فما مخمومُ القَلبِ؟ قال: هو التَّقيُّ النَّقيُّ، لا إثمَ فيه ولا بَغيَ، ولا غِلَّ ولا حَسَدَ))[4272].

- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ، ولا تَحَسَّسوا ولا تَجَسَّسوا، ولا تَنافَسوا ولا تَحاسَدوا، ولا تَباغَضوا ولا تَدابَروا، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا))[4273].

فالحديثُ فيه نهيٌ عن الظَّنِّ؛ لأنَّه مبنيٌّ على غيرِ الواقِعِ، فهو كَذِبٌ يستهينُ به صاحِبُه، فيكونُ أكثَرَ وُقوعًا، وأكثَرَ شَرًّا، ثمَّ إنَّ الشَّيطانَ ينتقِلُ بالظَّنِّ إلى محاولةِ التَّأكُّدِ من المظنونِ، فيدفَعُ إلى التَّجَسُّسِ والتَّحسُّسِ؛ فنهى الحديثُ عن التَّجسُّسِ والتَّحسُّسِ، ثمَّ ينتقِلُ الشَّيطانُ بالمتحَسِّسِ والمتجَسِّسِ إلى البغضاءِ والمقْتِ والكراهيةِ؛ فنهى الحديثُ عن البغضاءِ والحِقْدِ والحسَدِ، فإن انتقَل الشَّيطانُ بالمتباغِضينَ إلى التَّقاطُعِ والتَّدابُرِ والهَجرِ، قيل لهم: ((لا تَدابَروا، ولا يحِلُّ لمُسلِمٍ أن يهجُرَ أخاه فوقَ ثلاثةِ أيَّامٍ))، هكذا يدخُلُ الشَّيطانُ ليُفسِدَ دينَ المُسلِمِ، وهكذا يجِبُ محاربتُه ليبقى المُسلِمُ مُسلِمًا كاملًا، ولتبقى الأُخُوَّةُ بينَه وبَينَ بني جنسِه؛ ليكونَ الجميعُ عِبادَ اللهِ إخوانًا[4274].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ وغَيرِهم:

- قال: عثمانُ رَضِيَ اللهُ عنه: (ما أسَرَّ أحدٌ سريرةً إلَّا أظهَرَها اللهُ عزَّ وجَلَّ على صَفَحاتِ وَجهِه وفَلَتاتِ لِسانِه).

- وعن زيدِ بنِ أسلَمَ أنَّه دخَل على ابنِ أبي دُجانةَ وهو مريضٌ، وكان وَجهُه يتهَلَّلُ، فقال له: ما لك يتهَلَّلُ وَجهُك؟! قال: ما مِن عَمَلِ شَيءٍ أوثَقُ عندي من اثنينِ: أمَّا أحدُهما فكنتُ لا أتكَلَّمُ بما لا يعنيني، وأمَّا الأخرى فكان قلبي للمُسلِمين سليمًا)[4275].

- وقال ابن حجر الهيتمي: (الحَسَدُ من نتائجِ الحِقْدِ، والحِقْدُ من نتائجِ الغَضَبِ)[4276].

- وقال أبو حاتمِ بنُ حِبَّانَ: (الحِقْدُ أصلُ الشَّرِّ، ومَن أضمَرَ الشَّرَّ في قَلبِه أنبَت له نباتًا مُرًّا مذاقُه، نماؤُه الغَيظُ، وثَمرتُه النَّدَمُ)[4277].

[4271] ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (726/1).

[4272] رواه ابنُ ماجه (4216) واللفظ له، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (1/183)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (6604). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4216)، وصحَّح إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (4/33)، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (2/325)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (3/18).

[4273] رواه البخاري (6064)، ومسلم (2563) واللفظ له.

[4274] ((فتح المنعم شرح صحيح مسلم)) لموسى شاهين لاشين (10/ 16).

[4275] رواه ابنُ وهب في ((الجامع)) (319) واللفظ له، وابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (4577)، وابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (113).

[4276] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (1/83).

[4277] ((روضة العقلاء)) (ص: 134).

- قال ابنُ المقَفَّع: (ليَكُنِ المرءُ سَؤولًا، ولْيَكُنْ فَصولًا بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ... ولْيَكنْ متواضِعًا ليُفرَحَ له بالخَيرِ ولا يُحسَدَ عليه... ولا يكونَنَّ حَقودًا؛ لئلَّا يَضُرَّ بنَفسِه إضرارًا باقيًا)[4278].

- قال أبو الخَيرِ التِّيناتيُّ: (القُلوبُ ظُروفٌ؛ فقَلبٌ مملوءٌ إيمانًا، وعلامتُه الشَّفَقةُ على جميعِ المُسلِمين، والاهتمامُ بما يُهِمُّهم، ومعاونتُهم على مصالِحِهم، وقلبٌ مملوءٌ نِفاقًا، وعلامتُه الحِقْدُ والغِلُّ، والغِشُّ والحَسَدُ)[4279].

- قال فَتحُ بنُ شُخرُفٍ: حَدَّثَني عبدُ اللهِ بنُ خُبَيقٍ الأنطاكيُّ أبو محمَّدٍ، قال لي: (يا خُراسانيُّ، إنَّما هي أربعٌ لا غيرُ: عَينُك ولسانُك وقلبُك وهَواك؛ فانظُرْ عَينَك لا تنظُرْ بها إلى ما لا يَحِلُّ، وانظُرْ لِسانَك لا تقُلْ به شيئًا يَعلَمُ اللهُ خِلافَه من قلبِك، وانظُرْ قَلبَك لا يكونُ منه غِلٌّ ولا حِقدٌ على أحَدٍ من المُسلِمين، وانظُرْ هَواك لا يهوى شيئًا من الشَّرِّ، فإذا لم تكُنْ فيك هذه الأربَعُ خصالٍ، فاجعَلِ الرَّمادَ على رأسِك؛ فقد شَقِيتَ!)[4280].

- وقال أحمد شوقي: (ارحَمْ نَفسَك من الحِقْدِ؛ فإنَّه عَطَبٌ، نارٌ وأنت الحَطَبُ!)[4281].

- وقال أيضًا: (كُلُّ نارٍ طاهِرةٌ مُطَهِّرةٌ إلَّا نارُ الحِقْدِ!)[4282].

المطلب الرابع: آثارُ الحِقْدِ

إنَّ الحِقْدَ حِملٌ ثقيلٌ يُتعِبُ حامِلَه، يحمِلُه الجاهِلُ في صَدرِه فيُشقي به نفسَه، ويُفسِدُ به فِكرَه، ويُشغِلُ به بالَه، ويَقُضُّ به مضجَعَه، ويُكثِرُ به هَمَّه وغَمَّه، إنَّه كحِملٍ من أحمالِ الشَّوكِ الملتَهِبِ الحارِّ، المحشوِّ بصُخورٍ ثقيلةٍ مميَّتةٍ تَنفُثُ السُّمومَ التي تلتَهِبُ منها الصُّدورُ، ويَظَلُّ الجاهِلُ الأحمقُ يحمِلُ هذا الحِملَ الخبيثَ مهما حَلَّ أو ارتَحَلَ، حتَّى يَشفيَ حِقدَه بالانتقامِ ممَّن يَحقِدُ عليه[4283]. ومِن آثارِه:

1- أنَّه (يُثمِرُ الحَسَدَ، وهو أن يحمِلَك الحِقْدُ على أن تتمنَّى زوالَ النِّعمةِ عنه؛ فتغتَمَّ بنعمةٍ إن أصابَها، وتُسَرَّ بمُصيبةٍ إن نزَلَت به.

2- الشَّماتةُ بما أصابه من البلاءِ.

3- الهِجرانُ والمقاطَعةُ.

4- الإعراضُ عنه استِصغارًا له.

5- التَّكلُّمُ فيه بما لا يَحِلُّ؛ مِن كَذِبٍ وغِيبةٍ، وإفشاءِ سِرٍّ، وهَتْكِ سِترٍ، وغيرِه.

6- محاكاتُه استهزاءً به، وسُخريةً منه.

[4278] ((الأدب الصغير)) (ص: 49، 50).

[4279] ((طبقات الصوفية)) للسلمي (ص: 281)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (10/ 378).

[4280] ((طبقات الصوفية)) للسلمي (ص: 121، 122)، ((الزهد الكبير)) للبيهقي (401).

[4281] ((أسواق الذهب)) (ص: 134).

[4282] المصدر السابق.

[4283] ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (1/723).

7- إيذاؤه بالضَّربِ وما يُؤلِم بَدَنَه.

8- مَنْعُه من حَقِّه من قضاءِ دَينٍ، أو صلةِ رَحِمٍ، أو ردِّ مَظلَمةٍ) .

9- الحِقْدُ من مظاهِرِ دُنُوِّ الهِمَّةِ؛ فهو لا يَصدُرُ من النُّبَلاءِ، ولا يليقُ بالعُقلاءِ[4284].

10- الحِقْدُ يُنبِتُ سُوءَ الظَّنِّ، وتتبُّعَ العَوْراتِ، والهَمزَ واللَّمزَ، والنَّميمةَ، وتعييرَ النَّاسِ بعاهاتِهم، أو خصائِصِهم البَدَنيَّةِ والنَّفسيَّةِ[4285].

11- من مَضارِّ الحِقْدِ أيضًا أنَّه يقتضي التَّشَفِّيَ والانتِقامَ.

12- جَحدُ الحَقِّ وعَدَمُ اتِّباعِه.

13- الحِقْدُ يُفضي إلى التَّنازُعِ والتَّقاتُلِ، واستغراقِ العُمُرِ في غَمٍّ وحُزنٍ.

14- الحِقْدُ يُغضِبُ الرَّبَّ عزَّ وجَلَّ، ويؤدِّي بصاحِبِه إلى الخُسرانِ المُبينِ في الدُّنيا والآخِرةِ.

15- الحِقْدُ يُظهِرُ عُيوبَ الإنسانِ[4286].

المطلب الخامس: دَرَجاتُ الحِقْدِ

● **الدَّرَجةُ الأُولى:** الحِقْدُ المحَرَّمُ، وهو الذي يُثمِرُ الحَسَدَ والشَّماتةَ، وهَجْرَه ومُصارمتَه، والانقِطاعَ عنه وإن طلَبَك وأقبَلَ عليك، والإعراضَ عنه استصغارًا له، والتَّكلُّمَ فيه بما لا يَحِلُّ، ومحاكاتَه استهزاءً به وسُخريةً منه، وإيذاءَه بما يُؤلِمُ بدَنَه، ومنْعَه حَقَّه.

● **الدَّرَجةُ الثَّانيةُ:** وهي أقَلُّ دَرَجاتِ الحِقْدِ بالاحترازِ ممَّا سَبَق، وعَدَمُ الخروجِ بسَبَبِ الحِقْدِ إلى ما تعصي اللهَ به، ولكِنْ تَستثقِلُه في الباطِنِ، ولا تَهى قلبَك عن بُغضِه حتَّى تمتنعَ عمَّا كنتَ تَطوعُ به من البَشاشةِ والرِّفقِ والعِنايةِ، والقيامِ بحاجاتِه، والمجالسةِ معه على ذِكرِ اللهِ تعالى، والمعاونةِ على المنفَعةِ له، أو بتَركِ الدُّعاءِ له والثَّناءِ عليه، أو التَّحريضِ على بِرِّه ومواساتِه، فهذا كلُّه ممَّا يَنقُصُ دَرجتَك في الدِّينِ، ويحولُ بَينَك وبَينَ فَضلٍ عظيمٍ وثوابٍ جَزيلٍ، وإن كان لا يُعَرِّضُك لعقابِ اللهِ[4287].

المطلب السادس: حُكمُ الحِقْدِ وما يُباحُ منه

ذَكَر العُلَماءُ أنَّ الحِقْدَ من الكبائِرِ، وأورد ابن حجر الهيتمي في كتابِه (الزَّواجِر) أنَّ من الكبائِرِ الغَضَبَ بالباطِلِ، والحِقْدَ والحَسَدَ، وذَكَر سَبَبَ جَمعِه لهذه الكبائِرِ الثَّلاثِ بقَولِه: (لمَّا كانت هذه الثَّلاثةُ بَينَها تلازُمٌ وترتُّبٌ -إذ الحَسَدُ من نتائِجِ

[4284] ((الهمة العالية)) لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص: 55).

[4285] ((خلق المسلم)) لمحمد الغزالي (ص: 92).

[4286] ((نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم)) (10/ 4440).

[4287] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/ 181).

الحِقْدِ، والحِقْدُ من نتائجِ الغضَبِ- كانت بمنزلةِ خَصلةٍ واحِدةٍ، وذمُّ كُلٍّ يستلزِمُ ذَمَّ الآخَرِ؛ لأنَّ ذَمَّ الفَرعِ وفَرعِه يَستلزِمُ ذَمَّ الأصلِ وأصلِه، وبالعَكسِ)[4288].

أمَّا الحِقْدُ على غيرِ المُسلِمين ممَّن قَتَلوا وعَذَّبوا وشَرَّدوا المُسلِمين، وأخرَجوهم من ديارِهم، وناصَبوهم العَداوةَ؛ فالحِقْدُ في حَقِّهم محمودٌ مطلوبٌ؛ قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} [التوبة: 14-15].

ولا يزولُ حِقدُ المُسلِمِ على الكافِرِ إلَّا أن يُسلِمَ؛ فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((واللهِ لَيَنزِلَنَّ ابنُ مَريمَ حَكَمًا عادِلًا، فلَيَكْسِرَنَّ الصَّليبَ، ولَيَقتُلَنَّ الخِنزيرَ، ولَيَضَعَنَّ الجِزيةَ، ولَتُترَكَنَّ القِلاصُ[4289] فلا يُسعى عليها، ولتَذهَبَنَّ الشَّحناءُ والتَّباغُضُ والتَّحاسُدُ، ولَيَدْعُوَنَّ إلى المالِ فلا يَقبَلُه أحَدٌ!))[4290].

(قال الأشرَفُ: إنَّما تذهَبُ الشَّحناءُ[4291] والتَّباغُضُ والتَّحاسُدُ يومَئِذٍ؛ لأنَّ جميعَ الخَلقِ يكونون يومَئذٍ على مِلَّةٍ واحدةٍ، وهي الإسلامُ، وأعلى أسبابِ التَّباغُضِ وأكثَرُها هو اختِلافُ الأديانِ)[4292].

كذلك إن كان الحِقْدُ على ظالمٍ لا يمكِنُ دَفعُ ظُلمِه أو استيفاءُ الحَقِّ منه، فإنَّ ذلك غيرُ مذمومٍ شَرعًا، ثمَّ إذا تمكَّن ممَّن ظلَمَه فإمَّا أن يعفوَ عنه، فذلك من الإحسانِ والعَفوِ عمَّن ظلَمَه عِندَ المَقدِرةِ.

وإمَّا أن يأخُذَ حَقَّه منه، فلا حَرَجَ فيه؛ لقَولِه تعالى: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ} [الشورى: 41-42][4293].

المطلب السابع: أسبابُ الحِقْدِ

1- المُماراةُ والمنافَسةُ:

قال الغَزاليُّ: (وأشَدُّ الأسبابِ لإثارةِ نارِ الحِقْدِ بَيْنَ الإخوانِ: المُماراةُ والمنافَسةُ؛ فإنَّها عَينُ التَّدابُرِ والتَّقاطُعِ، فإنَّ التَّقاطُعَ يَقَعُ أوَّلًا بالآراءِ، ثمَّ بالأقوالِ، ثمَّ بالأبدانِ)[4294].

2- كثرةُ المُزاحِ:

المُزاحُ الذي يخرُجُ عن حَدِّه يَغرِسُ الحِقْدَ في القلوبِ؛ قال الأبشيهيُّ: (المُزاحُ يَخرِقُ الهَيبةَ، ويَذهَبُ بماءِ الوَجهِ، ويُعقِبُ الحِقْدَ، ويَذهَبُ بحلاوةِ الإيمانِ، والوُدِّ)[4295]. فمَن كَثُر مُزاحُه تنازَعَه الحِقْدُ والهوانُ، فلم يَسلَمْ من استخفافٍ به، أو حِقدٍ عليه[4296].

ويُروى عن سعيدِ بنِ العاصِ أنَّه قال لابنِه: (يا بُنَيَّ، لا تمازِحِ الشَّريفَ فيَحقِدَ عليك، ولا تمازِحِ الدَّنيءَ فيَجتَرِئَ عليك)[4297].

[4288] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) لابن حجر (83/1).

[4289] القِلاصُ: جَمعُ قَلوصٍ: وهي من الإبِلِ كالفتاةِ من النِّساءِ والحَدَثِ من الرِّجالِ. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (2/ 192).

[4290] رواه البخاري (2222) بنحوه، ومسلم (155) واللفظ له.

[4291] الشَّحناءُ: العداوةُ. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (2/ 192).

[4292] ((مرقاة المفاتيح)) لمُلَّا علي القاري (3494/8).

[4293] ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (18/ 7).

[4294] ((إحياء علوم الدين)) (2/179).

[4295] ((المستطرف)) (ص: 133).

[4296] يُنظَر: ((التمثيل والمحاضرة)) للثعالبي (ص: 449).

[4297] ((الأمثال)) لابن سلام (ص: 85، 86)، ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (395)، ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (1/ 404).

3- الخُصومةُ:

قال النَّوويُّ: (والخُصومةُ تُوغِرُ[4298] الصُّدورَ، وتُهيِّجُ الغضَبَ، وإذا هاج الغَضَبُ حَصَل الحِقْدُ بَيْنَهما، حتَّى يفرَحَ كُلُّ واحدٍ بمَساءةِ الآخَرِ، ويَحزَنَ بمَسَرَّتِه، ويُطلِقَ اللِّسانَ في عِرْضِه)[4299].

4- الكَراهيةُ الشَّديدةُ.

5- الرَّغبةُ في الانتِقامِ، وإنزالِ السُّوءِ بمن يكرَهُه الحاقِدُ[4300].

6- إذا فات الشَّخصَ ما يتمنَّاه لنَفسِه وحَصَل لغَيرِه:

فـ (المُسلِمُ يجِبُ أن يكونَ أوسَعَ فِكرةً، وأكرَمَ عاطِفةً، فينظُرَ إلى الأمورِ من خلالِ الصَّالحِ العامِّ، لا من خِلالِ شَهَواتِه الخاصَّةِ.

وجمهورُ الحاقِدين تَغلي مَراجِلُ الحِقْدِ في أنفُسِهم؛ لأنَّهم ينظُرون إلى الدُّنيا فيَجِدون ما يتمَنَّونه لأنفُسِهم قد فاتهم، وامتلأَت به أكُفٌّ أُخرى، وهذه هي الطَّامَّةُ التي لا تَدَعُ لهم قرارًا!

وقديمًا رأى إبليسُ أنَّ الحُظْوةَ التي يتشَهَّاها قد ذهبَت إلى آدَمَ، فآلَى ألَّا يترُكَ أحَدًا يستَمتِعُ بها بعدَ ما حرِمَها! قَالَ {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 16-17].

هذا الغَلَيانُ الشَّيطانيُّ هو الذي يضطَرِمُ في نُفوسِ الحاقِدين، ويُفسِدُ قُلوبَهم. وقد أهاب الإسلامُ بالنَّاسِ أن يبتَعِدوا عن هذا المُنكَرِ، وأن يَسلُكوا في الحياةِ نَهجًا أرقى وأهدَأَ)[4301].

المطلب الثامن: وسائِلُ علاجِ الحِقْدِ

1- الدُّعاءُ:

المُسلِمُ يدعو اللهَ أن يجعَلَ قَلبَه طاهِرًا نَقيًّا من الحِقْدِ والغِلِّ؛ قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو ويقولُ: ((ربِّ أَعِنِّي ولا تُعِنْ عليَّ، وانصُرْني ولا تَنصُرْ عليَّ، وامكُرْ لي ولا تَمكُرْ علَيَّ، واهْدِني ويَسِّرِ الهُدى لي، وانصُرْني على مَن بَغى عليَّ، ربِّ اجعَلْني لك شَكَّارًا، لك ذَكَّارًا، لك رَهَّابًا، لك مِطْواعًا، إليك راغِبًا، إليك مُخْبِتًا، لك أوَّاهًا مُنيبًا، ربِّ تقَبَّلْ تَوبتي، واغسِلْ حَوْبَتي[4302]، وأجِبْ دَعْوتي، وثَبِّتْ حُجَّتي، واهْدِ قَلْبي، وسَدِّدْ لِساني، واسْلُلْ سَخيمةَ قَلْبي))[4303]. والسَّخيمةُ هي الحِقْدُ في النَّفسِ[4304].

2- سلامةُ الصَّدرِ:

[4298] توغِرُ الصُّدورَ: تملَؤُها غَيظًا وحقدًا. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (286/5).

[4299] ((الأذكار)) للنووي (ص: 371).

[4300] ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (1/723).

[4301] ((خلق المسلم)) لمحمد الغزالي (ص: 80).

[4302] حوبتي: أي: إثمي ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (1/ 455).

[4303] رواه أبو داود (1510)، والترمذي (3551) واللفظ له، وابن ماجه (3830) من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه الترمذي، وابن حبان (947)، وابن القيم في ((الوابل الصيب)) (196).

[4304] ((شرح سنن أبي داود)) للعيني (5/422).

وسلامةُ الصَّدرِ تكونُ بعَدَمِ الحِقْدِ والغِلِّ والبَغضاءِ.

3- تقويةُ رابِطِ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ:

إنَّ الأُخُوَّةَ الإيمانيَّةَ والغِلَّ لا يجتَمِعانِ في قَلبٍ واحِدٍ، إنَّ عاطفةَ المُؤمِنِ نحوَ إخوانِه المُؤمِنين تتدَفَّقُ بالمحبَّةِ، فكيف يجِدُ الغِلَّ إلى هذه العاطِفةِ الكريمةِ سَبيلًا؟! إنَّهما أمرانِ لا يجتَمِعانِ[4305].

قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 8-9].

قال السَّعديُّ: (وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا، أي: لا يَحسُدون المُهاجِرين على ما آتاهم اللهُ مِن فَضلِه، وخَصَّهم به مِن الفَضائِلِ والمناقِبِ التي هم أهلُها، وهذا يدُلُّ على سلامةِ صُدورِهم، وانتِفاءِ الغِلِّ والحِقْدِ والحَسَدِ عنها)[4306].

4- التَّواضُعُ:

لا شَكَّ أنَّ تواضُعَ المُسلِمِ لأخيه المُسلِمِ يدفَعُ الغِلَّ والحِقدَ؛ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم: ((إنَّ اللهَ أوحى إليَّ أن تواضَعوا، حتَّى لا يَفخَرَ أحَدٌ على أحَدٍ، ولا يبغيَ أحدٌ على أحَدٍ))[4307].

وقال أبو حاتمٍ: (التَّواضُعُ يَكسِبُ السَّلامةَ، ويُورِثُ الأُلفةَ، ويَرفَعُ الحِقْدَ، ويُذهِبُ الصَّدَّ)[4308].

5- مَلءُ القَلبِ بالمحبَّةِ وإرادةِ الخَيرِ للآخَرينَ.

6- اعتذارُ المرءِ لأخيه:

قال أبو حاتمِ بنُ حِبَّانَ: (الاعتِذارُ يُذهِبُ الهُمومَ، ويُجْلي الأحزانَ، ويدفَعُ الحِقْدَ، ويُذهِبُ الصَّدَّ... فلو لم يكُنْ في اعتذارِ المرءِ إلى أخيه خَصلةٌ تحمَدُ إلَّا نفيُ العُجْبِ عن النَّفسِ في الحالِ، لكان الواجِبُ على العاقِلِ ألَّا يفارِقَه الاعتذارُ عِندَ كُلِّ زلَّةٍ)[4309].

وقال المأمونُ لإبراهيمَ بنِ المهْديِّ بعدَ اعتذارِه: (قد مات حِقْدي بحياةِ عُذرِك، وقد عفَوتُ عنك، وأعظَمُ مِن عَفوي ويدي عِندَك أنِّي لم أُجَرِّعْك مرارةَ امتِنانِ الشَّافِعينَ)[4310].

7- تقديمُ الهَدِيَّةِ:

(وذلك لأنَّ الهَدِيَّةَ خُلُقٌ من أخلاقِ الإسلامِ دَلَّت عليه الأنبياءُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وحثَّ عليه خُلَفاؤهم الأولياءُ، تُؤَلِّفُ القُلوبَ، وتنفي سَخائِمَ[4311] الصُّدورِ)[4312].

وقد قيل: الهَدِيَّةُ تُذهِبُ السَّخيمةَ. والسَّخيمةُ: الحِقْدُ.

[4305] ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (1/725).

[4306] ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 851).

[4307] رواه مسلم (2865) مطوَّلًا من حديثِ عِياضِ بنِ حِمارٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[4308] ((روضة العقلاء)) (ص: 61).

[4309] ((روضة العقلاء)) (ص: 186).

[4310] يُنظَر: ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان التوحيدي (3/ 50)، ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (3/ 82).

[4311] السَّخائِمُ: جمعُ سَخيمةٍ، وهي: الحِقدُ في النَّفسِ. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير.

[4312] يُنظر: ((الأمثال والحكم)) للماوَرْدي (ص: 130).

وقال الجاحِظُ: (أنظَرُ النَّاسِ في العاقِبةِ مَن لَطَف حتى كَفَّ حَربَ عَدُوِّه بالصَّفحِ والتَّجاوُزِ، واستَلَّ حِقدَه بالرِّفقِ والتَّحبُّبِ)[4313].

8- تَركُ الغَضَبِ الذي هو سَبَبٌ للأحقادِ:

الغَضَبُ يُعدُّ من الأسبابِ التي تؤدِّي إلى الحِقْدِ.

وقد قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للرَّجُلِ الذي سألَه أن يوصيَه: ((لا تَغضَبْ، فردَّد مِرارًا، قال: لا تَغضَبْ))[4314].

9- الإخلاصُ والمناصَحةُ ولُزومُ الجماعةِ:

فعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهِنَّ قَلبُ مُسلِمٍ: إخلاصُ العَمَلِ للهِ، ومُناصَحةُ أئمَّةِ المُسلِمين، ولُزومُ جماعتِهم؛ فإنَّ الدَّعوةَ تحيطُ مِن ورائِهم)) [4315].

قال ابنُ تَيميَّةَ: (ويَغِلُّ -بالفَتحِ- هو المشهورُ، يُقالُ: غَلّ صَدْرُه يَغِلُّ: إذا كان ذا غِشٍّ وضِغْنٍ وحِقدٍ)[4316].

وقال ابنُ القَيِّمِ: (أي: لا يحمِلُ الغِلَّ، ولا يبقى فيه مع هذه الثَّلاثةِ؛ فإنَّها تنفي الغِلَّ والغِشَّ، وهو فَسادُ القَلبِ وسَخايمُه، فالمُخلِصُ للهِ إخلاصُه يمنَعُ غِلَّ قلبِه ويخرِجُه ويزيلُه جُملةً؛ لأنَّه قد انصرَفَت دواعي قلبِه وإرادتُه إلى مرضاةِ رَبِّه، فلم يَبْقَ فيه موضِعٌ للغِلِّ والغِشِّ)[4317].

10- الاقتِداءُ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والسَّلَفِ الصَّالحِ في سلامةِ الصَّدرِ من الحِقْدِ.

فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القُدوةُ في الأخلاقِ الحَسَنةِ، ومنها سلامةُ الصَّدرِ مِن الحِقْدِ والضَّغائِنِ، وقد ذَكَر ابنُ القَيِّمِ سَلامةَ الصَّدرِ، من منازِلِ إيَّاك نعبُدُ وإيَّاك نستعينُ، فقال: (ومَن أراد فَهْمَ هذه الدَّرَجةِ كما ينبغي، فلْيَنظُرْ إلى سِيرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع النَّاسِ يجِدْها بعَينِها)[4318].

وهكذا كان أصحابُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قلوبُهم سليمةٌ من الأحقادِ والضَّغائِنِ، ومن تلك النَّماذجِ ما رواه أبو الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((كُنتُ جالِسًا عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذ أقبَلَ أبو بَكرٍ آخِذًا بطَرَفِ ثَوبِه حَتَّى أبدى عن رُكبَتِه! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أمَّا صاحِبُكم فقد غامَرَ[4319]! فسلَّم وقال: إنِّي كانَ بَيني وبَينَ ابنِ الخَطَّابِ شَيءٌ فأسرَعْتُ إليه ثُمَّ نَدِمتُ، فسألْتُه أن يَغفِرَ لي فأبى عَليَّ، فأقبَلْتُ إليك. فقال: يَغفِرُ اللهُ لكَ يا أبا بَكرٍ «ثَلاثًا»، ثُمَّ إنَّ عُمرَ نَدِمَ فأتى مَنزِلَ أبي بَكْرٍ فسألَ: أثَمَّ أبو بَكْرٍ؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسَلَّمَ عليه، فجَعلَ وَجهُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتَمَعَّرُ حَتَّى أشفَقَ أبو بَكرٍ، فجثَا عَلى رُكبَتَيه، فقال: يا رَسولَ اللهِ، واللَّهِ أنا كُنتُ أَظلَمَ! مَرَّتينِ. فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ اللهَ بَعَثني إليكم فقُلتُم: كذَبْتَ، وقال أبو بَكرٍ: صَدَقَ، وواساني بنَفسِه ومالِه، فهل أنتُم تارِكو لي صاحِبي ؟! مَرَّتينِ. فما أوذِيَ بَعدَها))[4320].

[4313] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (4/ 326).

[4314] رواه البخاري (6116) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[4315] أخرجه الترمذي (2658) واللفظ له، والحميدي (88) صححه ابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (1/364)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2658)، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج ((شرح السنة)) (112)، وقال ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (1/18): مشهور في السنن

[4316] ((مجموع الفتاوى)) (35/7).

[4317] ((مفتاح دار السعادة)) (1/72)..

[4318] ((مدارج السالكين)) لابن القيم (2/345).

[4319] غامَرَ: أي: خاصَمَ غَيرَه، ومعناه: دَخَل في غَمرةِ الخُصومةِ، وهي معظَمُها. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (30/5).

[4320] رواه البخاري (3661).

وعن عائِذِ بنِ عَمرٍو: ((أنَّ أبا سُفيانَ أتى على سَلمانَ وصُهَيبٍ وبِلالٍ في نَفَرٍ، فقالوا: واللهِ ما أخَذَت سُيوفُ اللهِ مِن عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأخَذَها! قال: فقال أبو بكرٍ: أتقولون هذا لشَيخِ قُرَيشٍ وسَيِّدِهم؟ فأتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأخبَره، فقال: يا أبا بكرٍ، لعلَّك أغضَبْتَهم! لئنْ كُنتَ أغضَبْتَهم لقد أغضَبْتَ رَبَّك! فأتاهم أبو بكرٍ فقال: يا إخوَتاه، أغضَبْتُكم؟ قالوا: لا، يغفِرُ اللهُ لك يا أخي))[4321].

وقد تأسَّى العُلَماءُ الرَّبَّانيُّونَ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتخَلَّقوا بأخلاقِه، فأصبحَت قلوبُهم سليمةً لا تحمِلُ حِقدًا على أحَدٍ، حتَّى على من آذاهم، ومن هؤلاء ابنُ تَيميَّةَ؛ يقولُ ابنُ القَيِّمِ: (وما رأيتُ أحَدًا قَطُّ أجمَعَ لهذه الخِصالِ مِن شَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيميَّةَ قدَّس اللهُ رُوحَه، وكان بعضُ أصحابِه الأكابِرِ يقولُ: وَدِدْتُ أنِّي لأصحابي مِثلُه لأعدائِه وخُصومِه! وما رأيتُه يدعو على أحَدٍ منهم قَطُّ، وكان يدعو لهم، وجئتُ يومًا مُبَشِّرًا له بموتِ أكبَرِ أعدائِه، وأشَدِّهم عَداوةً وأذًى له، فنَهَرني وتنكَّرَ لي واسترجَعَ! ثمَّ قام مِن فَورِه إلى بيتِ أهلِه فعَزَّاهم، وقال: إنِّي لكم مكانَه، ولا يكونُ لكم أمرٌ تحتاجون فيه إلى مساعدةٍ إلَّا وساعدتُكم فيه! ونحوَ هذا من الكلامِ، فسُرُّوا به، ودَعَوا له، وعَظَّموا هذه الحالَ منه)[4322].

المطلب التاسع: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **سلامةُ القَلبِ من الأحقادِ:**

القلبُ السَّليمُ سبَبٌ من أسبابِ النَّجاةِ يومَ القيامةِ؛ قال اللهُ تعالى حكايةً عن إبراهيمَ: وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [الشعراء: 87-89] ، والقَلبُ السَّليمُ هو الذي سَلِم من الشِّركِ والنِّفاقِ، ومن الغِلِّ والحِقْدِ والحَسَدِ.

ووصَف اللهُ عزَّ وجَلَّ أهلَ الجنَّةِ بسَلامةِ القَلبِ، فقال: وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [الحجر 47]، و(ليس أروَحُ للمَرءِ ولا أطرَدُ لهُمومِه ولا أقَرُّ لعَينِه من أن يعيشَ سَليمَ القَلبِ، مُبَرَّأً من وساوِسِ الضَّغينةِ، وثَوَرانِ الأحقادِ، إذا رأى نعمةً تنساقُ لأحَدٍ رَضِيَ بها، وأحسَّ فَضلَ اللهِ فيها، وفَقْرَ عبادِه إليها، وإذا رأى أذًى يَلحَقُ أحَدًا من خَلقِ اللهِ رثى له، ورجا اللهَ أن يُفَرِّجَ كَرْبَه، ويَغفِرَ ذَنبَه... وبذلك يحيا المُسلِمُ ناصِعَ الصَّفحةِ، راضيًا عن اللهِ وعن الحياةِ، مستريحَ النَّفسِ مِن نَزَعاتِ الحِقْدِ الأعمى؛ فإنَّ فسادَ القَلبِ بالضَّغائِنِ داءٌ عَياءٌ، وما أسرَعَ أن يتسَرَّبَ الإيمانُ من القَلبِ المغشوشِ، كما يتسَرَّبُ السَّائِلُ من الإناءِ المثْلومِ!... والإسلامُ يحارِبُ الأحقادَ ويَقتُلُ جُرثومتَها في المَهْدِ، ويرتقي بالمجتَمَعِ المُؤمِنِ إلى مستوًى رفيعٍ من الصَّداقاتِ المتبادَلةِ، أو المعامَلاتِ العادِلةِ، وقد عَدَّ الإسلامُ مِن دلائِلِ الصَّغارِ وخِسَّةِ الطَّبيعةِ أن يرسُبَ الغِلُّ في أعماقِ النَّفسِ، فلا يخرُجَ منه، بل يظَلُّ يموجُ في جوانِبِها كما يموجُ البُركانُ المكتومُ، وكثيرٌ من أولئك الذين يحتَبِسُ الغِلُّ في أفئدتِهم، يتلَمَّسون متنَفَّسًا له في وُجوهِ من يقَعُ معهم، فلا يستريحون إلَّا إذا أرغَوا وأزبَدوا، وآذَوا وأفسَدوا).

- **أحوالُ المحقودِ:**

قال الغَزاليُّ: (للمَحقودِ ثلاثةُ أحوالٍ عِندَ القُدرةِ:

[4321] رواه مسلم (2504).

[4322] ((مدارج السالكين)) (345/2).

أَحَدُها: أن يستوفيَ حَقَّه الذي يستحِقُّه من غيرِ زيادةٍ أو نقصانٍ، وهو العَدلُ.

الثَّاني: أن يُحسِنَ إليه بالعَفوِ والصِّلةِ، وذلك هو الفَضلُ.

الثَّالِثُ: أن يَظلِمَه بما لا يستَحِقُّه، وذلك هو الجَورُ، وهو اختيارُ الأراذِلِ، والثَّاني هو اختيارُ الصِّدِّيقينَ، والأوَّلُ هو مُنتهى دَرَجاتِ الصَّالِحين).

- **الألفاظُ المترادِفةُ للحِقْدِ:**

هناك ألفاظٌ عديدةٌ وردت بمعنى الحِقْدِ بمعناه الاصطِلاحيّ، فيُقالُ مَثَلًا: (في صَدْرِه: حِقدٌ، وضِغْنٌ، وضَغينةٌ، وإِحْنةٌ، ودِمْنةٌ، وغِلٌّ، وغِمْرٌ، ووَغْرٌ، ووَغْمٌ، وحَزازةٌ، وطائِلةٌ، وغائِلةٌ، وحَسيفةٌ، وحَسيكةٌ، وسَخيمةٌ).

- **حِقدُ السُّلطانِ عَجْزٌ:**

قال ابنُ المقَفَّعِ: (ليس للمَلِكِ أن يَغضَبَ؛ لأنَّ القُدرةَ مِن وراءِ حاجتِه، وليس له أن يَكذِبَ؛ لأنَّه لا يَقدِرُ أحَدٌ على استكراهِه على غيرِ ما يريدُ، وليس له أن يَبخَلَ؛ لأنَّه أقَلُّ النَّاسِ عُذرًا في تخوُّفِ الفَقرِ، وليس له أن يكونَ حَقودًا؛ لأنَّ خَطَرَه قد عَظُم عن مجاراةِ كُلِّ النَّاسِ).

ونازع عبدُ المَلِكِ بنُ مَروانَ عبدَ الرَّحمنِ بنَ خالِدِ بنِ الوليدِ، فأربى عليه! فقيل له: اشْكُه إلى عَمِّك معاويةَ؛ لينتَقِمَ لك منه، فقال: مِثلي لا يشكو، ولا يُعَدُّ انتقامُ غيري لي انتقامًا. فلمَّا استُخلِفَ قيل له في ذلك، فقال: (حِقدُ السُّلطانِ عَجْزٌ) .

- **نارُ الحِقْدِ:**

- وقيل: (لكُلِّ حريقٍ مُطفِئٌ: فللنَّارِ الماءُ، وللسُّمِّ الدَّواءُ، وللحُزنِ الصَّبرُ، ونارُ الحِقْدِ لا تخبو أبدًا).

المبحث العاشر: الحَسَدُ

المطلب الأول: معنى الحَسَدِ لُغةً واصطِلاحًا

■ **معنى الحَسَدِ لُغةً:**

الحَسَدُ مصدَرُ حَسَده يَحسُدُه ويَحسِدُه، حَسَدًا وحُسُودًا وحَسادةً، وحَسَده: تمنَّى أن تتَحوَّلَ إليه نعمتُه وفضيلتُه، أو يُسلَبَها، وحَسَده الشَّيءَ وعليه[4323].

■ **معنى الحَسَدِ اصطلاحًا:**

- قال الجُرجانيُّ: (الحَسَدُ تمنِّي زوالِ نِعمةِ المحسودِ إلى الحاسِدِ)[4324].
- وقال السُّيوطيُّ: (الحَسَدُ: تمنِّي خَيرٍ يَصِلُ إلى غيرِه مع زوالِه عنه).[4325]
- وقال ابنُ القَيِّمِ: (أصلُ الحَسَدِ هو بُغضُ نعمةِ اللَّهِ على المحسودِ وتمنِّي زوالِها)[4326].
- وقال ابنُ حَجَرٍ: (الحَسَدُ تمنِّي الشَّخصِ زوالَ النِّعمةِ عن مستحِقٍّ لها)[4327].
- وقال الكَفَويُّ: (الحَسَدُ: اختلافُ القلبِ على النَّاسِ؛ لكثرةِ الأموالِ والأملاكِ)[4328].
- وعرَّفه الطَّاهِرُ بنُ عاشورٍ فقال: (الحَسَدُ: إحساسٌ نَفسانيٌّ مركَّبٌ من استحسانِ نعمةٍ في الغيرِ، مع تمنِّي زوالِها عنه؛ لأجْلِ غَيرةٍ على اختصاصِ الغيرِ بتلك الحالةِ، أو على مشاركتِه الحاسِدَ)[4329].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الحَسَدِ وبَعضِ الصِّفاتِ

■ **الفَرْقُ بَيْنَ الحَسَدِ والغِبطةِ:**

- قال ابنُ منظورٍ: (الغَبْطُ: أن يرى المغبوطَ في حالٍ حَسَنةٍ، فيتمنَّى لنفسِه مِثلَ تلك الحالِ الحَسَنةِ، من غيرِ أن يتمنَّى زوالَها عنه، وإذا سأل اللَّهَ مِثْلَها فقد انتهى إلى ما أمَرَه به ورَضِيَه له، وأمَّا الحَسَدُ فهو أن يشتهِيَ أن يكونَ له ما للمحسودِ، وأن يزولَ عنه ما هو فيه).

- وقال الرَّازيُّ: (إذا أنعَم اللَّهُ على أخيك بنِعمةٍ؛ فإن أردتَ زوالَها فهذا هو الحَسَدُ، وإن اشتَهَيتَ لنفسِك مثلَها، فهذا هو الغِبطةُ).

[4323] يُنظَر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي، ((تاج العروس)) للزبيدي

[4324] ((التعريفات)) (ص: 87).

[4325] ((معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم)) (ص: 207).

[4326] ((بدائع الفوائد)).(233 /2)

[4327] ((فتح الباري)).(482 /10)

[4328] ((الكليات)) (ص: 408).

[4329] ((التحرير والتنوير)) (629/30).

وقد تُسَمَّى الغِبطةُ حَسَدًا، كما جاء في حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا حَسَدَ إلَّا في اثنتَينِ: رجلٌ آتاه اللَّهُ مالًا فسُلِّط على هَلَكتِه في الحَقِّ، ورجُلٌ آتاه اللَّهُ الحِكمةَ فهو يقضي بها ويُعَلِّمُها)) . وقد فسَّر النَّوويُّ الحَسَدَ في الحديثِ فقال: (هو أن يتمَنَّى مِثلَ النِّعمةِ التي على غيرِه من غيرِ زوالِها عن صاحِبِها).

■ الفَرْقُ بَيْنَ الحَسَدِ والمُنافَسةِ والمُسابقةِ:

قال ابنُ القَيِّمِ: (للحَسَدِ حَدٌّ، وهو المنافسةُ في طَلَبِ الكَمالِ، والأَنَفةُ أن يتقَدَّمَ عليه نظيرُه، فمتى تعدَّى ذلك صار بغيًا وظُلمًا يتمَنَّى معه زوالَ النِّعمةِ عن المحسودِ، ويحرِصُ على إيذائِه)[4330].

وقال الغَزاليُّ: (والمنافَسةُ في اللُّغةِ مُشتَقَّةٌ من النَّفاسةِ، والذي يدُلُّ على إباحةِ المنافسةِ قَولُه تعالى: وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [المطففين: 26]، وقال تعالى: سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ [الحديد: 21] ، وإنَّما المسابقةُ عِندَ خوفِ الفَوتِ، وهو كالعبَدينِ يتسابقانِ إلى خِدمةِ مولاهما؛ إذ يجزَعُ كُلُّ واحدٍ أن يسبِقَه صاحِبُه فيحظى عِندَ مولاه بمنزلةٍ لا يحظى هو بها)[4331].

وبيَّن الغَزاليُّ سَبَبَ المنافسةِ فأرجعَها إلى: (إرادةِ مساواتِه واللُّحوقِ به في النِّعمةِ، وليس فيها كراهةُ النِّعمةِ، وكان تحتَ هذه النِّعمةِ أمرانِ: أحَدُهما: راحةُ المنعَمِ عليه، والآخَرُ: ظُهورُ نقصانِه عن غيرِه وتخلُّفِه عنه، وهو يكرَهُ أحدَ الوجهَينِ، وهو تخلُّفُ نفسِه، ويحِبُّ مُساواتَه له. ولا حَرَجَ على من يكرَهُ تخلُّفَ نفسِه ونُقصانَها في المباحاتِ)[4332].

وقد تنافَس الصَّحابةُ في الخيرِ، وبذلوا أسبابَ الكمالِ؛ فهذا عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عنه يقولُ: ((أمَرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا أن نتصَدَّقَ، فوافَق ذلك مالًا عِندي، فقُلتُ: اليومَ أسبِقُ أبا بكرٍ إن سبَقْتُه يومًا! فجِئتُ بنِصفِ مالي، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما أبقَيْتَ لأهلِك؟ قُلتُ: مِثْلَه، قال: وأتى أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه بكُلِّ ما عِندَه، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما أبقَيْتَ لأهلِك؟ قال: أبقَيتُ لهم اللهَ ورَسولَه! قُلتُ: لا أسابِقُك إلى شيءٍ أبدًا))[4333].

ولكِنَّ المنافسةَ في أمورِ الدُّنيا تجُرُّ غالِبًا إلى الوقوعِ في الحَسَدِ والأخلاقِ الذَّميمةِ؛ فعن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عنهما، عن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إذا فُتِحَت عليكم فارِسُ والرُّومُ، أيُّ قومٍ أنتم؟ قال عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ: نقولُ كما أمَرَنا اللَّهُ. قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أو غيرَ ذلك، تتنافَسون، ثمَّ تتحاسَدون، ثمَّ تتدابَرون، ثمَّ تتباغَضون))[4334]. وقال الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فواللهِ ما الفَقْرَ أخشى عليكم، ولكِنِّي أخشى أن تُبسَطَ عليكم الدُّنيا كما بُسِطَت على مَن كان قبلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، وتُهلِكَكم كما أهلَكَتْهم))[4335].

[4330] ((الفوائد)) (ص140).

[4331] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/190)

[4332] المصدر السابق (3/191)

[4333] رواه أبو داود (1678) واللفظ له، والترمذي (3675). صحَّحه الترمذي، والحاكم على شرط مسلم في ((المستدرك)) (1510)، والنووي في ((المجموع))(6/236)

[4334] رواه مسلم (2962)

[4335] رواه مطولًا البخاري (3158) واللفظ له، ومسلم (2961)

وقد نبَّه على ذلك الرَّازيُّ فقال: (لكِنْ هاهنا دقيقةٌ، وهي أنَّ زوالَ النُّقصانِ عنه بالنِّسبةِ إلى الغيرِ له طريقانِ: أحَدُهما: أن يحصُلَ له مِثلُ ما حَصَل للغيرِ. والثَّاني: أن يزولَ عن الغيرِ ما لم يحصُلْ له. فإذا حَصَل اليأسُ عن أحدِ الطَّريقينِ فيكادُ القلبُ لا ينفَكُّ عن شهوةِ الطَّريقِ الآخَرِ، فهاهنا إن وَجَد قَلْبَه بحيثُ لو قَدَر على إزالةِ تلك الفضيلةِ عن ذلك الشَّخصِ لأزالَها، فهو صاحِبُ الحَسَدِ المذمومِ، وإن كان يجِدُ قَلْبَه بحيثُ تَردَعُه التَّقوى عن إزالةِ تلك النِّعمةِ عن الغيرِ، فالمرجوُّ من اللَّهِ تعالى أن يعفوَ عن ذلك).[4336]

- **الفَرْقُ بَيْنَ الحَسَدِ والعَيْنِ:**

العَينُ نَظَرٌ باستحسانٍ قد يشوبُه شيءٌ من الحَسَدِ، ويكونُ النَّاظِرُ خبيثَ الطَّبعِ.

وهما (يشتركانِ في الأثَرِ، ويختلفانِ في الوسيلةِ والمُنطَلَقِ.

فالحاسِدُ: قد يحسُدُ ما لم يَرَه، ويحسُدُ في الأمرِ المتوقَّعِ قَبلَ وقوعِه، ومصدَرُه تحَرُّقُ القَلبِ واستكثارُ النِّعمةِ على المحسودِ، وتمنِّي زوالِها عنه أو عدَمِ حصولِها له، وهو غايةٌ في حِطَّةِ النَّفسِ[4337].

والعائنُ: لا يَعينُ إلَّا ما يراه والموجودَ بالفِعلِ، ومصدَرُه انقِداحُ نَظرةِ العينِ، وقد يَعينُ ما يَكرَهُ أن يُصابَ بأذًى منه، كوَلَدِه ومالِه).[4338]

قال ابنُ القَيِّمِ: (العائنُ والحاسِدُ يشتركانِ في شيءٍ، ويفترقانِ في شيءٍ؛ فيشتركانِ في أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما تتكيَّفُ نفسُه وتتوجَّهُ نحوَ مَن يريدُ أذاه؛ فالعائِنُ تتكيَّفُ نفسُه عِندَ مقابلةِ المَعِينِ ومعاينتِه، والحاسِدُ يحصُلُ له ذلك عِندَ غَيبِ المحسودِ وحُضورِه أيضًا، ويفترقانِ في أنَّ العائِنَ قد يصيبُ من لا يحسُدُه من جمادٍ أو حيوانٍ أو زرعٍ أو مالٍ).[4339]

وقال أيضًا: ((العائِنُ حاسِدٌ خاصٌّ، وهو أضَرُّ من الحاسِدِ... وأنَّه أعَمُّ؛ فكُلُّ عائنٍ حاسِدٌ ولا بُدَّ، وليس كُلُّ حاسِدٍ عائنًا))[4340].

المطلب الثالث: ذمُّ الحَسَدِ والنَّهيُ عنه

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

- قال تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ [الفلق 1-4].

قال الرَّازيُّ: (كما أنَّ الشَّيطانَ هو النِّهايةُ في الأشخاصِ المذمومةِ؛ ولهذا السَّبَبِ خَتَمَ اللَّهُ مجامِعَ الشُّرورِ الإنسانيَّةِ بالحَسَدِ، وهو قولُه: وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ كما خَتَمَ مجامِعَ الخبائِثِ الشَّيطانيَّةِ بالوَسوَسةِ)[4341].

[4336] ((مفاتيح الغيب)) للرازي (3/647)

[4337] ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (2/445)

[4338] ((أضواء البيان)) للشنقيطي (9/165)

[4339] ((بدائع الفوائد)) (2/231)

[4340] المصدر السابق (2/233).

وقال الحُسينُ بنُ الفضلِ: (إنَّ اللَّهَ جمَع الشُّرورَ في هذه الآيةِ وختَمها بالحَسَدِ لِيُعْلَمَ أنَّه أخَسُّ الطَّبائِعِ)[4342].

- وقال تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ [البقرة: 109].

قال ابنُ عُثَيمين: (والآيةُ تدُلُّ على تحريمِ الحَسَدِ؛ لأنَّ مشابهةَ الكُفَّارِ بأخلاقِهم محرَّمةٌ ... والحاسِدُ لا يزدادُ بحَسَدِه إلَّا نارًا تتلَظَّى في جوفِه، وكلَّما ازدادت نعمةُ اللَّهِ على عبادِه ازداد حَسرةً؛ فهو مع كونِه كارِهًا لنعمةِ اللَّهِ على هذا الغيرِ مُضادٌّ للهِ في حُكمِه؛ لأنَّه يكرَهُ أن يُنعِمَ اللَّهُ على هذا المحسودِ، ثمَّ إنَّ الحاسِدَ أو الحسودَ مهما أعطاه اللَّهُ من نعمةٍ لا يرى للهِ فضلًا فيها؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يرى في غيرِه نِعمةً أكثَرَ ممَّا أنعَم اللَّهُ به عليه، فيحتَقِرَ النِّعمةَ)[4343].

وقال الثَّعالبيُّ: (وقيل: إنَّ هذه الآيةَ تابعةٌ في المعنى لما تقدَّمَ من نهيِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ عن متابعةِ أقوالِ اليهودِ في: رَاعِنَا [البقرة: 104] وغيرِه، وأنَّهم لا يودُّون أن يُنَزَّلَ على المُؤمِنين خيرٌ، ويودُّون أن يَرُدُّوهم كُفَّارًا مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، وهو نبُوَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)[4344].

(وقال: حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ليُبَيِّنَ أنَّ حسَدَهم لم يكُنْ عن شُبهةٍ دينيَّةٍ، أو غَيرةٍ على حقٍّ يعتَقِدونه، وإنَّما هو خُبثُ النُّفوسِ، وفسادُ الأخلاقِ، والجُمودُ على الباطِلِ، وإنْ ظَهَر لصاحِبِه الحَقُّ)[4345].

- وقال سُبحانَه: {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} [النساء: 54].

(وَصَف اليهودَ بالبُخلِ والحَسَدِ، وهما شَرُّ خَصلتينِ: يمنعون ما أُوتوا من النِّعمةِ، ويتمَنَّون أن تكونَ لهم نِعمةُ غيرِهم)[4346].

وجملةُ: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ (مفيدةٌ للانتقالِ من توبيخِهم بما سبَق إلى توبيخِهم بالحَسَدِ الذي هو شَرُّ الرَّذائِلِ وأقبَحُها، لا سيَّما على ما هم بمَعزِلٍ من استحقاقِه)[4347].

قال القُرطبيُّ: (وهذا هو الحَسَدُ بعينِه الذي ذمَّه اللَّهُ تعالى)[4348].

- وقال عَزَّ مِن قائِلٍ: وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا [النساء: 32].

[4341] ((مفاتيح الغيب)) (1/226)

[4342] ((الكشف والبيان)) للثعلبي (10/340)

[4343] ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (1/360)

[4344] ((الجواهر الحسان)) (1/302). ويُنظَر: ((المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)) لابن عطية (1/ 196).

[4345] ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (1/346)

[4346] ((الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)) للزمخشري (1/ 521)

[4347] ((إرشاد العقل السليم)) (2/190)

[4348] ((الجامع لأحكام القرآن)) (5/163) بتصرفٍ يسيرٍ.

(وفيه النَّهيُ عن أن يتمنَّى الإنسانُ ما فضَّل اللَّهُ به غيرَه من النَّاسِ عليه؛ فإنَّ ذلك نوعٌ من عَدَمِ الرِّضا بالقِسمةِ التي قسَمَها اللَّهُ بَيْنَ عبادِه على مقتضى إرادتِه وحِكمتِه البالغةِ، وفيه أيضًا نوعٌ من الحَسَدِ المنهيّ عنه إذا صَحِبه إرادةُ زوالِ تلك النِّعمةِ عن الغيرِ)[4349].

وقال الزَّجَّاجُ: (قيل: لا ينبغي أن يتمنَّى الرَّجُلُ مالَ غيرِه ومَنزِلَ غيرِه؛ فإنَّ ذلك هو الحَسَدُ)[4350].

ب- من السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

-عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَباغَضوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَدابَروا ، وكونوا عبادَ اللَّهِ إخوانًا))[4351].

قال ابنُ بطَّالٍ: (وفيه: النَّهيُ عن الحَسَدِ على النِّعَمِ، وقد نهى اللَّهُ عبادَه المُؤمِنين عن أن يتمنَّوا ما فَضَّل اللَّهُ به بعضَهم على بعضٍ، وأمَرَهم أن يسألوه من فَضلِه)[4352].

وقال الباجيُّ: (أن تُنافِسَ أخاك في الشَّيءِ حتَّى تحسُدَه عليه، فيَجُرَّ ذلك إلى الطَّعنِ والعداوةِ، فذلك الحَسَدُ)[4353].

-وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ((قيل: يا رَسولَ اللهِ! أيُّ النَّاسِ أفضَلُ؟ قال: كُلُّ مخمومِ القَلبِ، صَدوقِ اللِّسانِ، قالوا: صَدوقُ اللِّسانِ نَعرِفُه، فما مخمومُ القَلبِ؟ قال: هو التَّقيُّ النَّقيُّ، لا إثمَ فيه ولا بَغْيَ، ولا غِلَّ ولا حَسَدَ))[4354]

-وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عنه: ((أنَّ جِبريلَ أتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: يا محمَّدُ، اشتكَيتَ؟ فقال: نعم. قال: باسمِ اللَّهِ أرقيك من كُلِّ شيءٍ يؤذيك، من شَرِّ كُلِّ نفسٍ أو عينِ حاسِدٍ اللَّهُ يشفيك، باسمِ اللَّهِ أرقيك))[4355].

قولُه: ((أو عينِ حاسِدٍ)) أي: ما يُسَمُّونه النَّاسُ بالعَينِ، وذلك أنَّ الحاسِدَ -والعياذُ باللَّهِ- الذي يكرَهُ أن يُنعِمَ على عبادِه بنِعَمِه، نفسُه خبيثةٌ شِرِّيرةٌ، وهذه النَّفسُ الخبيثةُ الشِّرِّيرةُ قد ينطَلِقُ منها ما يصيبُ المحسودَ؛ ولهذا قال تعالى: وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، ويكونُ المحسودُ مهمومًا بسَبَبِ هذه العَينِ؛ ولهذا قال: ((أو عينِ حاسِدٍ اللَّهُ يشفيك)) أي: يُبرِئُه ويزيلُ سَقَمَه[4356].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ وغَيرِهم:

[4349] ((فتح القدير)) للشوكاني (530 /1)

[4350] ((معاني القرآن وإعرابه)) (2/45).

[4351] رواه البخاري (6065)، ومسلم (2559) مطوَّلًا.

[4352] ((شرح صحيح البخاري)) (9/258)

[4353] ((المنتقى شرح الموطأ)) (7/216)

[4354] رواه ابنُ ماجه (4216) واللفظ له، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (1/183)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (6604). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4216)، وصحَّح إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (4/33)، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (2/325)، والعراقي في ((تخريج الإحياء))(3/18)

[4355] أخرجه مسلم (2186)

[4356] ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (486 /4)

-قال ابنُ مسعودٍ: (لا تعادوا نِعَمَ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ. قيل: ومَن يعادي نِعَمَ اللَّهِ؟ قال: الذين يحسُدون النَّاسَ على ما آتاهم اللَّهُ مِن فضلِه)[4357].

-وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ أنَّه مرَّ على ديارٍ خَربةٍ خاويةٍ، قال: (هذه أهلَكها وأهلَك أهلَها البَغيُ والحَسَدُ؛ إنَّ الحَسَدَ لَيُطفئُ نورَ الحسَناتِ، والبَغيَ يُصَدِّقُ ذلك أو يُكَذِّبُه، فإذا حسَدتُم فلا تَبْغُوا)[4358].

-وقال معاويةُ بنُ أبي سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عنهما: (كُلُّ النَّاسِ أستطيعُ أن أُرضيَه إلَّا حاسِدَ نعمةٍ؛ فإنَّه لا يُرضيه إلَّا زوالُها!)[4359].

-وقال مُعاويةُ أيضًا: (ليس في خِلالِ الشَّرِّ خَلَّةٌ أعدَلُ من الحَسَدِ؛ فإنَّه يقتُلُ الحاسِدَ قبلَ أن يَصِلَ إلى المحسودِ)[4360].

-وقال معاويةُ أيضًا: (لا ينبغي للمَلِكِ أن يكون كذَّابًا؛ لأنَّه إن وَعَد خيرًا لم يُرْجَ، وإن أوعَد شرًّا لم يُخَفْ. ولا غاشًّا؛ لأنَّه لم ينصَحْ، ولا تَصِحُّ الوِلايةُ إلَّا بالمناصحةِ. ولا حديدًا؛ لأنَّه إذا احتَدَّ هلَكَت رعيَّتُه. ولا حسودًا؛ لأنَّه لا يَشرُفُ أحدٌ فيه حَسَدٌ، ولا يَصلُحُ النَّاسُ إلَّا بأشرافِهم. ولا جبانًا؛ لأنَّه يجترئُ عليه عدُوُّه، وتضيعُ ثُغورُه)[4361].

-وقال ابنُ سِيرينَ: (ما حسَدتُ أحَدًا على شيءٍ من أمرِ الدُّنيا؛ لأنَّه إن كان من أهلِ الجنَّةِ، فكيف أحسُدُه على الدُّنيا، وهي حقيرةٌ في الجنَّةِ؟! وإن كان من أهلِ النَّارِ، فكيف أحسُدُه على أمرِ الدُّنيا، وهو يصيرُ إلى النَّارِ؟!)[4362].

-وقال الحَسَنُ البصريُّ: (ما رأيتُ ظالمًا أشبَهَ بمظلومٍ من حاسِدٍ؛ نَفَسٌ[4363] دائمٌ، وحَزَنٌ لازمٌ، وغَمٌّ لا يَنفَدُ).[4364]

-وقال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: (الغِبطةُ من الإيمانِ، والحَسَدُ من النِّفاقِ، والمُؤمِنُ يَغبِطُ ولا يحسُدُ، والمُنافِقُ يحسُدُ ولا يَغبِطُ، والمُؤمِنُ يستُرُ ويَعِظُ وينصَحُ، والفاجِرُ يهتِكُ ويُعَيِّرُ ويُفشي).[4365]

-وقال أبو حاتمِ بنُ حبَّانَ: (الواجِبُ على العاقِلِ مجانبةُ الحَسَدِ على الأحوالِ كُلِّها؛ فإنَّ أهوَنَ خِصالِ الحَسَدِ هو تَركُ الرِّضا بالقضاءِ، وإرادةُ ضِدِّ ما حَكَم اللَّهُ جَلَّ وعلا لعبادِه، ثمَّ انطواءُ الضَّميرِ على إرادةِ زَوالِ النِّعَمِ عن المُسلِمِ، والحاسِدُ لا تهدَأُ رُوحُه، ولا يستريحُ بَدَنُه إلَّا عِندَ رؤيةِ زوالِ النِّعمةِ عن أخيه، وهيهاتَ أن يُساعِدَ القضاءُ ما للحُسَّادِ في الأحشاءِ!)[4366] .وقال كذلك: (الحَسَدُ من أخلاقِ اللِّئامِ، وتَركُه من أفعالِ الكِرامِ، ولكُلِّ حريقٍ مُطفئٌ، ونارُ الحَسَدِ لا تُطفَأُ)[4367].

[4357] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/ 407).

[4358] المصدر السابق.

[4359] رواه الدِّينَوَري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (657م)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (200/59).

[4360] ((الفاضل)) (ص: 100).

[4361] ((محاضرات الأدباء)) للراغب (1/ 199).

[4362] ((إحياء علوم الدين)) للغزلي (189/3).

[4363] أي: حَسَدٌ. يُنظَر: ((تاج العروس)) للزبيدي.

[4364] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (2/170).

[4365] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (8/ 95).

[4366] ((روضة العقلاء)) (ص: 133).

[4367] المصدر السابق (ص: 134).

-وقال أبو اللَّيثِ السَّمَرْقَنديُّ: (ليس شيءٌ من الشَّرِّ أضَرَّ من الحَسَدِ؛ لأنَّه يَصِلُ إلى الحاسِدِ خمسُ عُقوباتٍ قَبلَ أن يَصِلَ إلى المحسودِ مكروهٌ؛ أوَّلُها: غَمٌّ لا ينقَطِعُ. والثَّانيةُ: مصيبةٌ لا يؤجَرُ عليها. والثَّالثةُ: مَذَمَّةٌ لا يُحمَدُ بها. والرَّابعةُ: يَسخَطُ عليه الرَّبُّ. والخامسةُ: تُغلَقُ عليه أبوابُ التَّوفيقِ)[4368].

-وقال الجاحِظُ: (ومتى رأيتَ حاسِدًا يُصَوِّبُ إليك رأيًا إن كنتَ مُصيبًا، أو يُرشِدُك إلى صوابٍ إن كنتَ مُخطِئًا، أو أفصَحَ لك بالخيرِ في غَيبتِه عنك، أو قصَر من غيبتِه لك؟ فهو الكَلْبُ الكَلِبُ[4369]، والتَّمْرُ النَّمِرُ[4370]، والسُّمُّ القَشِبُ[4371]، والفَحلُ القَطِمُ[4372]، والسَّيلُ العَرِمُ[4373]. إن مَلَك قتَلَ وسبى، وإن مُلِك عصى وبغى. حياتُك موتُه، وموتُك عُرسُه وسُرورُه. يُصَدِّقُ عليك كُلَّ شاهدِ زُورٍ، ويُكَذِّبُ فيك كُلَّ عَدلٍ مَرضيٍّ. لا يحِبُّ مِن النَّاسِ إلَّا مَن يُبغِضُك، ولا يُبغِضُ إلَّا من يحِبُّك. عدوُّك بِطانةٌ[4374] وصديقُك علانيةً... أحسَنُ ما تكونُ عندَه حالًا أقَلَّ ما تكونُ مالًا، وأكثَرَ ما تكونُ عيالًا، وأعظَمَ ما تكونُ ضَلالًا. وأفرَحُ ما يكونُ بك أقرَبَ ما تكونُ بالمصيبةِ عَهدًا، وأبعَدَ ما تكونُ من النَّاسِ حمدًا، فإذا كان الأمرُ على هذا فمُجاورةُ الموتى، ومخالطةُ الزَّمْنى[4375]، والاجتنانُ بالجُدرانِ، ومَصرُ المُصرانِ، وأكلُ القِردانِ: أهوَنُ من معاشرتِه والاتِّصالِ بحَبْلِه!)[4376].

-وقال الجُرْجانيُّ: (كم من فضيلةٍ لو لم تَستَتِرْها المحاسِدَ لم تَبرَحْ في الصُّدورِ كامنةً، ومنقبةٍ لو لم تُزعِجْها المنافَسةُ لبَقِيَت على حالِها ساكنةً! لكِنَّها برَزَت فتناولَتْها ألسُنُ الحَسَدِ تجلوها وهي تَظُنُّ أنَّها تمحوها، وتَشهَرُها وهي تحاوِلُ أن تستُرَها، حتَّى عثر بها من يَعرِفُ حَقَّها، واهتدى إليها مَن هو أولى بها، فظَهَرت على لسانِه في أحسَنِ مَعرِضٍ، واكتَسَت مِن فضلِه أزيَنَ مَلبَسٍ؛ فعادت بعدَ الخُمولِ نابهةً، وبعدَ الذُّبولِ ناضِرةً، وتمكَّنَت من بِرِّ والِدِها فنوَّهَت بذِكْرِه، وقدَرَت على قضاءِ حَقِّ صاحِبِها، فرفَعَت مِن قَدرِه وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [البقرة: 216])[4377].

-وقال ابنُ المعتَزِّ: (الحاسِدُ مُغتاظٌ على مَن لا ذَنْبَ له، ويَبخَلُ بما لا يملِكُه، ويطلُبُ ما لا يجِدُه)[4378].

-وقال ابنُ حزمٍ: (إنَّ ذوي التَّراكيبِ الخبيثةِ يُبغِضون لشِدَّةِ الحَسَدِ كُلَّ من أحسَنَ إليهم، إذا رأوه في أعلى من أحوالِهم)[4379].

-وقال الخطَّابُ بنُ نُمَيرٍ السَّعديُّ: (الحاسِدُ مجنونٌ؛ لأنَّه يحسُدُ الحَسَنَ والقبيحَ)[4380].

[4368] ((تنبيه الغافلين)) (ص: 177، 178).

[4369] الكَلْبُ الكَلِبُ: الذي يَكلَبُ في أكلِ لحومِ النَّاسِ، فيأخذُه شِبهُ جُنونٍ. يُنظَر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري.

[4370] يقال: نَمِر نَمَرًا: غَضِب، وساء خُلُقُه. ويقالُ للرَّجُلِ السَّيِّئِ الخُلُقِ: قد نَمِرَ وتنَمَّرَ. يُنظَر: ((تاج العروس)) للزبيدي.

[4371] أي: القاتِلُ. يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس.

[4372] فَحلٌ قَطِمٌ: ضَؤولٌ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4373] السَّيلُ الذي لا يطاقُ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4374] البِطانةُ: السَّريرةُ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4375] الزَّمْنى: ذوو العاهاتِ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4376] ((الرسائل)) (3/17-21) بتصرُّفٍ.

[4377] ((الوساطة بَيْنَ المتنبي وخصومه)) (1، 2).

[4378] ((غرر الخصائص الواضحة)) للوطواط (ص: 603).

[4379] ((الأخلاق والسير)) (ص: 42).

[4380] ((الرسائل)) للجاحظ (1/345).

-وقال أَكثَمُ بنُ صَيفيٍّ: (لن يَعدَمَ الحَسودُ أن يُتعِبَ قَلْبَه، ويُشغِلَ فِكرَه، ويُوري[4381] غَيظَه، ولا يجاوِزَ ضُرُّه نَفسَه)[4382].

-وقال الأحنَفُ بنُ قَيسٍ: (خمسٌ هنَّ كما أقولُ: لا راحةَ لحَسودٍ، ولا مُروءةَ لكَذوبٍ، ولا إخاءَ لمَلولٍ، ولا حيلةَ لبخيلٍ، ولا سُؤدُدَ لسَيِّئِ الخُلُقِ)[4383].

-وقال الشَّعبيُّ: (الحاسِدُ مُنغَصٌ بما في يدِ غَيرِه)[4384].

-وقال الشَّافعيُّ: (الحاسِدُ طويلُ الحَسَراتِ، عادِمُ الدَّرَجاتِ)[4385].

-وقال حاتِمٌ الأصَمُّ: (أصلُ المعصيةِ ثلاثةُ أشياءَ: الكِبرُ، والحِرصُ، والحَسَدُ)[4386].

-وقال ذو النُّونِ المِصريُّ: (الحَسَدُ داءٌ لا يَبرَأُ، وحَسْبُ الحَسودِ من الشَّرِّ ما يلقى)[4387].

-وقال ابنُ المقَفَّعِ: (الحَسَدُ خُلُقٌ دَنيءٌ، ومن دناءتِه أنَّه يبدَأُ بالأقرَبِ فالأقرَبِ)[4388].

-وأوصى عبدُ المَلِكِ بنُ صالحٍ ابنًا له فقال: (أي بُنَيَّ احلُمْ؛ فإنَّ مَن حَلُم ساد، ومن تفَهَّم ازداد... وحُسنُ التَّدبيرِ مع الكَفافِ خيرٌ من الكثيرِ مع الإسرافِ، والاقتصادُ يُثمِرُ القليلَ، والإسرافُ يُبيرُ الكثيرَ، ونِعمَ الحَظُّ القناعةُ! وشَرُّ ما صَحِب المرءَ الحَسَدُ...)[4389].

-وقال الحَصكَفيُّ في خُطبةِ كتابِه ((الدُّرُّ المختار)): (أستغفِرُ اللَّهَ مُستعيذًا به من حَسَدٍ يسُدُّ بابَ الإنصافِ، ويَرُدُّ عن جميعِ جَميلِ الأوصافِ. ألا وإنَّ الحَسَدَ حَسَكٌ، من تعَلَّق به هَلَك، وكفى للحاسِدِ ذَمًّا في آخِرِ سورةِ الفَلَقِ، في اضطرابِه بالقَلَقِ، للهِ دَرُّ الحَسَدِ ما أعدَلَه! بدأ بصاحِبِه فقَتَله!

وما أنا من كَيدِ الحَسودِ بآمِنٍ

ولا جاهِلٍ يُزري ولا يتدَبَّرُ

وللهِ دَرُّ القائِلِ:

هم يحسُدوني وشَرُّ النَّاسِ كُلِّهِم

مَن عاش في النَّاس يومًا غيرَ محسودِ

[4381] أي: يوقِدُ. يُنظَر: ((تاج العروس)) للزبيدي.

[4382] ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان (1/ 154)، ((نثر الدر)) للآبي (6/ 248).

[4383] يُنظَر: ((الزهد)) لأحمد بن حنبل (1310)، ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (2/ 13)، ((المروءة)) لابن المرزبان (ص: 81)، ((الأمالي)) لأبي علي القالي (1/ 231، 232)، ((شعب الإيمان)) للبيهقي (9/ 27) و (11/ 46).

[4384] ((البيان والتبيين)) للجاحظ (3/ 286).

[4385] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (9/ 147).

[4386] ((طبقات الصوفية)) للسلمي (ص: 88)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (8/ 79)، ((شعب الإيمان)) للبيهقي (10/ 498)..

[4387] ((شعب الإيمان)) للبيهقي (9/ 32، 33).

[4388] ((الفاضل)) (ص: 100).

[4389] ((البيان والتبيين)) للجاحظ (3/ 306، 307).

إذ لا يسودُ سَيِّدٌ بدونِ وَدودٍ يَمدَحُ، وحَسودٍ يَقدَحُ؛ لأنَّ مَن زَرَع الإحَنَ[4390] حَصَد المِحَنَ، فاللَّئيمُ يَفضَحُ، والكريمُ يُصلِحُ)[4391].

وقال ابنُ القَيِّمِ: (الحَسَدُ خُلُقُ نَفسٍ ذميمةٍ وضيعةٍ ساقطةٍ، ليس فيها حِرصٌ على الخيرِ، فلعَجْزِها ومهانتِها تحسُدُ من يكسِبُ الخيرَ والمحامِدَ ويفوزُ بها دونَها، وتتمَنَّى أنْ لو فاته كسْبُها حتَّى يساويَها في العَدَمِ)[4392].

- وقال أحمد شوقي: (اثنانِ في النَّارِ دُنيا وأُخرى: الحاقِدُ، والحاسِدُ)[4393].

المطلب الرابع: آثارُ الحَسَدِ

الحَسَدُ مذمومٌ مرذولٌ، أجمَلَ الماوَرْديُّ مذَمَّتَه في قولِه: (ولو لم يكُنْ من ذَمِّ الحَسَدِ إلَّا أنَّه خُلُقٌ دنيءٌ، يتوجَّهُ نحوَ الأكْفاءِ والأقارِبِ، ويختَصُّ بالمُخالِطِ والمُصاحِبِ، لكانت النَّزاهةُ عنه كَرَمًا، والسَّلامةُ منه مَغنَمًا، فكيف وهو بالنَّفسِ مُضِرٌّ، وعلى الهَمِّ مُصِرٌّ، حتَّى رُبَّما أفضى بصاحبِه إلى التَّلَفِ، من غيرِ نِكايةٍ في عَدُوٍّ، ولا إضرارٍ بمحسودٍ)[4394]، ثمَّ ذَكَر للحَسَدِ أربَعَ مَساوئَ فقال:

1- حَسَراتُ الحَسَدِ وسَقامُ الجَسَدِ، ثمَّ لا يجِدُ لحَسرتِه انتهاءً، ولا يؤمِّلُ لسَقامِه شفاءً، قال ابنُ المعتَزِّ: الحَسَدُ داءُ الجَسَدِ.

2- انخفاضُ المنزلةِ وانحِطاطُ المرتبةِ؛ لانحرافِ النَّاسِ عنه، ونفورِهم منه، وقد قيل في منثورِ الحِكَمِ: الحَسودُ لا يَسودُ.

3- مَقتُ النَّاسِ له حتَّى لا يجِدَ فيهم محبًّا، وعداوتُهم له حتَّى لا يرى فيهم وليًّا، فيصيرُ بالعداوةِ مأثورًا، وبالمَقتِ مزجورًا.

4- إسخاطُ اللَّهِ تعالى في معارضتِه، واجتناءُ الأوزارِ في مخالفتِه؛ إذ ليس يرى قضاءَ اللَّهِ عَدلًا، ولا لنِعَمِه من النَّاسِ أهلًا[4395].

وقال الجاحِظُ: (الحَسَدُ -أبقاك اللَّهُ- داء يَنهَكُ الجَسَدَ، ويُفسِدُ الوُدَّ، علاجُه عَسِرٌ، وصاحِبُه ضَجِرٌ، وهو بابٌ غامضٌ، وأمرٌ متعَذِّرٌ، فما ظهر منه فلا يُداوى، وما بَطَن منه فمُداويه في عَناءٍ[4396]) ، ثمَّ قال: (ولو لم يَدخُلْ- رحمك اللَّهُ- على الحاسِدِ بَعدَ تراكُمِ الهمومِ على قَلبِه، واستمكانِ الحُزنِ في جَوفِه، وكثرةِ مَضَضِه[4397]، ووَسواسِ ضَميرِه، وتنغيصِ عُمُرِه، وكَدَرِ نفسِه، ونَكَدِ لَذاذةِ معاشِه، إلَّا استصغارُه لنعمةِ اللَّهِ عندَه، وسَخَطُه على سَيِّدِه بما أفاد اللَّهُ عبدَه، وتمنّيه عليه أن يرجِعَ في هبتِه إيَّاه، وألَّا يرزُقَ أحدًا سِواه؛ لكان عِندَ ذوي العُقولِ مرحومًا، وكان عندَهم في القياسِ مظلومًا)[4398].

5- يؤدِّي إلى المقاطعةِ والهَجرِ، والبَغضاءِ والشَّحناءِ.

[4390] الإحَنُ: جَمعُ الإحنةِ، وهي الحِقدُ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي.

[4391] ((الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار)) (ص: 7، 8).

[4392] ((الروح)) (ص: 252).

[4393] ((أسواق الذهب)) (ص: 143).

[4394] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (269/1، 270).

[4395] ((أدب الدنيا والدين)) (273/1، 274) بتصرُّفٍ. ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (269/1، 270).

[4396] ((الرسائل)) (3/3، 4).

[4397] مَضَضُه: توَجُّعُه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (1106/3).

[4398] ((الرسائل)) (5/3).

6- يؤدِّي إلى الغِيبةِ والنَّميمةِ.

7- يؤدِّي إلى الظُّلمِ والعُدوانِ.

8- يؤدِّي إلى السَّرِقةِ والقَتلِ[4399].

المطلب الخامس: أقسامُ الحَسَدِ

قسَّم العُلَماءُ الحَسَدَ إلى عددٍ من الأنواعِ، ومنهم ابنُ القَيِّمِ الذي قسَّمه إلى ثلاثةِ أنواعٍ:

1- حَسَدٌ يُخفيه ولا يرتِّبُ عليه أذًى بوَجهٍ ما، لا بقَلبِه ولا بلِسانِه ولا بيَدِه، بل يجِدُ في قلبِه شيئًا من ذلك، ولا يعامِلُ أخاه إلَّا بما يحِبُّ اللَّهُ.

2- تمنِّي استصحابِ عَدَمِ النِّعمةِ، فهو يكرَهُ أن يُحدِثَ اللَّهُ لعبدِه نِعمةً، بل يحِبُّ أن يبقى على حالِه؛ من جَهلِه، أو فَقرِه، أو ضَعفِه، أو شَتاتِ قَلبِه عن اللَّهِ، أو قِلَّةِ دِينِه.

3- حَسَدُ الغِبطةِ، وهو تمنِّي أن يكونَ له مثلُ حالِ المحسودِ، من غيرِ أن تزولَ النِّعمةُ عنه، فهذا لا بأسَ به ولا يعابُ صاحبُه، بل هذا قريبٌ من المنافسةِ[4400].

وقسَّمه الغزاليُّ إلى أربعةِ أنواعٍ:

1- أن يحِبَّ زوالَ النِّعمةِ عنه، وإن كان ذلك لا ينتَقِلُ إليه، وهذا غايةُ الخُبثِ.

2- أن يحِبَّ زوالَ النِّعمةِ إليه لرغبتِه في تلك النِّعمةِ، مثلُ رغبتِه في دارٍ حَسَنةٍ، أو امرأةٍ جميلةٍ، أو ولايةٍ نافذةٍ، أو سَعةٍ نالها غيرُه، وهو يحِبُّ أن تكونَ له، ومطلوبُه تلك النِّعمةُ لا زوالُها عنه.

3- ألَّا يشتهِيَ عينَها لنفسِه، بل يشتهي مِثلَها، فإن عَجَز عن مِثلِها أحَبَّ زوالَها؛ كي لا يظهَرَ التَّفاوُتُ بَيْنَهما.

4- أن يشتهِيَ لنفسِه مِثلَها، فإن لم تحصُلْ فلا يحِبُّ زوالَها عنه، وهذا هو المعفوُّ عنه إن كان في الدُّنيا، والمندوبُ إليه إن كان في الدِّينِ[4401].

المطلب السادس: صُوَرُ الحَسَدِ

وقد يقَعُ التَّحاسُدُ على تفضيلٍ دُنيويٍّ، كإيثارِ الأبِ أحَدَ ابنَيه، والزَّوجِ لإحدى زوجَتَيه.

وقد يقَعُ التَّحاسُدُ بَيْنَ أربابِ الصَّنائِعِ.

وقد يقَعُ بَيْنَ المتعَلِّقين بالأمراءِ والملوكِ.

وقد يقَعُ التَّحاسُدُ بسَبَبِ الإعجابِ بالفضائِلِ في الأنسابِ.

[4399] ((سلامة الصدر)) لسعيد بن وهف القحطاني (ص: 18).

[4400] ((بدائع الفوائد)) (2/237) بتصرُّفٍ.

[4401] ((إحياء علوم الدين)) (3/192) بتصرُّفٍ.

وكذلك يقَعُ بسَبَبِ التَّماثُلِ في الأنسابِ، كالإخوةِ وبني الأعمامِ بحسَدِ بعضِهم بعضًا.

وكذلك يحسُدُ العُبَّادُ العُبَّادَ، والعُلَماءُ العُلَماءَ[4402].

المطلب السابع: أسبابُ الوُقوعِ في الحَسَدِ

للحَسَدِ أسبابٌ كثيرةٌ تجعَلُ النَّفسَ المريضةَ تقَعُ في حبائِلِ تلك الخَصلةِ الذَّميمةِ، وقد أحسَن الجُرجانيُّ إجمالَها، فقال: (التَّفاضُلُ -أطال اللَّه بقاءَك- داعيةُ التَّنافُسِ، والتَّنافُسُ سَبَبُ التَّحاسُدِ، وأهلُ النَّقصِ رَجُلانِ: رجُلٌ أتاه التَّقصيرُ مِن قِبَلِه، وقَعَد به عن الكمالِ اختيارُه، فهو يساهِمُ الفُضَلاءَ بطَبعِه، ويحنو على الفَضلِ بقَدرِ سَهمِه. وآخَرُ رأى النَّقصَ ممتَزِجًا بخِلقتِه، ومُؤَثَّلًا[4403] في تركيبِ فِطرتِه، فاستشعَر اليأسَ من زوالِه، وقصُرَت به الهِمَّةُ عن انتقالِه؛ فلجأَ إلى حسَدِ الأفاضلِ، واستغاث بانتقاصِ الأماثِلِ، يرى أنَّ أبلغَ الأمورِ في جَبرِ نقيصتِه، وسَترِ ما كشَفَه العَجزُ عن عورتِه- اجتذابُهم إلى مشاركتِه، ووَسمُهم بمِثلِ سَمْتِه[4404] [4405].

وفَصَّل الغزاليُّ أسبابَ التَّحاسُدِ في سبعةِ أمورٍ، هي:

1– (العداوةُ والبغضاءُ: وهذا أشدُّ أسبابِ الحَسَدِ؛ فإنَّ مَن آذاه شخصٌ بسببٍ مِن الأسبابِ، وخالَفه في غَرَضٍ بوجهٍ من الوجوهِ، أبغَضَه قَلبُه، وغَضِب عليه، ورَسَخ في نفسِه الحِقدُ. والحِقدُ يقتضي التَّشَفِّيَ والانتقامَ، فإنْ عَجَز المُبغِضُ عن أن يتشَفَّى بنفسِه أحَبَّ أن يتشَفَّى منه الزَّمانُ، ورُبَّما يحيلُ ذلك على كرامةِ نفسِه عِندَ اللَّهِ تعالى، فمهما أصابت عدُوَّه بليَّةٌ فَرِح بها، وظنَّها مكافأةً له من جهةِ اللهِ على بغضِه، وأنَّها لأجلِه، ومهما أصابته نعمةٌ ساءه ذلك؛ لأنَّه ضِدُّ مُرادِه، وربَّما يخطُرُ له أنَّه لا منزلةَ له عِندَ اللَّهِ؛ حيث لم ينتَقِمْ له من عدُوِّه الذي آذاه، بل أنعَمَ عليه!

2- التَّعزُّزُ: وهو أن يَثقُلَ عليه أن يترفَّعَ عليه غيرُه، فإذا أصاب بعضُ أمثالِه ولايةً أو عِلمًا أو مالًا، خاف أن يتكَبَّرَ عليه، وهو لا يُطيقُ تكَبُّرَه، ولا تسمَحُ نفسُه باحتمالِ صَلَفِه[4406] وتفاخُرِه عليه، وليس من غَرَضِه أن يتكَبَّرَ، بل غَرَضُه أن يدفَعَ كِبرَه؛ فإنَّه قد رَضِيَ بمساواتِه مَثَلًا، ولكنْ لا يرضى بالتَّرفُّعِ عليه.

3- الكِبرُ: وهو أن يكونَ في طَبعِه أن يتكبَّرَ عليه ويستصغِرَه ويستخدِمَه، ويتوقَّعَ منه الانقيادَ له والمتابعةَ في أغراضِه، فإذا نال نعمةً خاف ألَّا يحتَمِلَ تكَبُّرَه، ويترفَّعَ عن متابعتِه، أو ربَّما يتشَوَّفُ[4407] إلى مساواتِه، أو إلى أن يرتفِعَ عليه، فيعودُ متكَبِّرًا بعدَ أن كان متكَبَّرًا عليه.

4- التَّعجُّبُ: فيَجزَعُ الحاسِدُ من أن يتفضَّلَ عليه مَن هو مثلُه في الخِلقةِ، لا عن قَصدِ تكبُّرٍ، وطلَبِ رياسةٍ، وتقدُّمِ عداوةٍ، أو سَبَبٍ آخَرَ من سائرِ الأسبابِ.

[4402] ((مقاصد الرعاية لحقوق الله عزَّ وجَلَّ)) للعز بن عبد السلام (ص: 152).

[4403] مؤثَّلٌ: له أصلٌ ثابتٌ. يُنظَر: ((المنجد في اللغة)) لأبي الحسن الأزدي.

[4404] سَمْتُه: طريقتُه ومَذهَبُه وقَصدُه. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4405] ((الوساطة بَيْنَ المتنبي وخصومه)) (ص: 1).

[4406] الصَّلَفُ: مجاوزةُ القَدْرِ في الظَّرفِ والبراعةِ، والادِّعاءُ فوق ذلك تكَبُّرًا. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4407] تشَوَّفَ: تطَلَّعَ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) للرازي.

5- الخوفُ من فوتِ المقاصِدِ: وذلك يختصُّ بمتزاحمَينِ على مقصودٍ واحدٍ، فإنَّ كلَّ واحِدٍ يحسُدُ صاحِبَه في كُلِّ نعمةٍ تكونُ عونًا له في الانفرادِ بمقصودِه، ومن هذا الجِنسِ تحاسُدُ الضَّرَّاتِ[4408] في التَّزاحُمِ على مقاصِدِ الزَّوجيَّةِ، وتحاسُدُ الإخوةِ في التَّزاحُمِ على نَيلِ المنزلةِ في قلبِ الأبوينِ؛ للتَّوصُّلِ به إلى مقاصِدِ الكرامةِ والمالِ.

6- حُبُّ الرِّياسةِ وطَلَبُ الجاهِ: وذلك كالرَّجُلِ الذي يريدُ أن يكونَ عديمَ النَّظيرِ في فَنٍّ مِن الفنونِ، إذا غَلَب عليه حُبُّ الثَّناءِ، واستفزَّه الفَرَحُ بما يُمدَحُ به من أنَّه واحِدُ الدَّهرِ، وفريدُ العصرِ في فنِّه، وأنَّه لا نظيرَ له؛ فإنَّه لو سَمِع بنظيرٍ له في أقصى العالَمِ لساءه ذلك، وأحبَّ موتَه أو زوالَ النِّعمةِ عنه التي بها يشارِكُه المنزلةَ؛ مِن شجاعةٍ، أو عِلمٍ، أو عبادةٍ، أو صناعةٍ، أو جمالٍ، أو ثروةٍ، أو غيرِ ذلك ممَّا يتفَرَّدُ هو به، ويفرَحُ بسَبَبِ تفَرُّدِه.

7- خُبثُ النَّفسِ وشُحُّها بالخيرِ لعبادِ اللَّهِ تعالى: فإنَّك تجِدُ مَن لا يشتغِلُ برياسةٍ وتكبُّرٍ ولا طَلَبِ مالٍ، إذا وُصِف عندَه حُسنُ حالِ عبدٍ من عبادِ اللَّهِ تعالى فيما أنعَم اللَّهُ به عليه، يشُقُّ ذلك عليه، وإذا وُصِف له اضطِرابُ أمورِ النَّاسِ، وإدبارُهم، وفَواتُ مقاصِدِهم، وتنغُّصُ عَيشِهم، فَرِح به؛ فهو أبدًا يحِبُّ الإدبارَ لغيرِه، ويبخَلُ بنعمةِ اللَّهِ على عبادِه، كأنَّهم يأْخذون ذلك من مُلكِه وخِزانتِه! وهذا السَّببُ معالجتُه شديدةٌ؛ لأنَّ الحَسَدَ الثَّابتَ بسائرِ الأسبابِ أسبابُه عارِضةٌ، يُتصَوَّرُ زوالُها، فيُطمَعُ في إزالتِها، وهذا خُبثٌ في الجِبلَّةِ لا عن سَبَبٍ عارِضٍ، فتَعسُرُ إزالتُه)[4409].

المطلب الثامن: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الحَسَدِ

ذَكَر العُلَماءُ وسائِلَ للحاسِدِ الذي يريدُ النَّجاةَ من مغبَّةِ هذا الخُلُقِ الذَّميمِ، ويوَدُّ الخلاصَ من آفتِه التي أقضَّت مَضجَعَه، ومن تلك الوسائِلِ[4410]:

1- قَطعُ النَّظَرِ عن النَّاسِ، وتعليقُ قلبِه باللَّهِ سُبحانَه وتعالى، وسؤالُه من فَضلِه.

2- المنافَسةُ في الأعمالِ الصَّالحةِ لا في أمورِ الدُّنيا.

3- التَّربيةُ منذُ الطُّفولةِ على حُبِّ الخيرِ للنَّاسِ.

4- أن يُدَرِّبَ نفسَه على قولِ: ما شاء اللَّهُ لا قوَّةَ إلَّا باللَّهِ، والدُّعاءُ بالبَرَكةِ إذا أعجَبَه شيءٌ.

5- الدُّعاءُ للمحسودِ بالزِّيادةِ مِن فَضلِ اللَّهِ تعالى إذا وَجَد في نفسِه شيئًا من الحَسَدِ المذمومِ.

6- الرِّضا بقضاءِ اللَّهِ وقَدَرِه، والتَّسليمُ لحُكمِه؛ فهو الذي يُعطي النِّعَمَ ويَسلُبُها، قال تعالى: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} [الزخرف:32].

7- التَّفكُّرُ في نتائِجِ الحَسَدِ، والنَّظَرُ في عواقِبِه الوخيمةِ عليه وعلى مَن حولَه؛ فهو يتألَّمُ بحسَدِه ويتنغَّصُ في نفسِه، فيبقى مغمومًا محرومًا مُتشَعِّبَ[4411] القلبِ، ضَيِّقَ الصَّدرِ، قد نزل به ما يَشتَهيه الأعداءُ له، ويشتهيه لأعدائِه؛ قال تعالى: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: 43].

[4408] ضَرَّةُ المرأةِ: امرأةُ زوجِها. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4409] ((إحياء علوم الدين)) (3/192، 194) بتصرُّفٍ.

[4410] يُنظَر: ((سلامة الصدر)) لسعيد بن وهف القحطاني (ص: 18).

8- أن يحذَرَ نُفورَ النَّاسِ منه، وبُعدَهم عنه، وبُغضَهم له؛ لأنَّ الحَسَدَ يَظهَرُ في أعمالِ الجوارِحِ؛ قال تعالى: {قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ} [آل عمران: 118]، فيخافُ عداوتَهم له وملامتَهم إيَّاه، فيتألَّفُهم بمعالجةِ نفسِه، وسلامةِ صَدرِه.

9- أن يَعمَلَ بنقيضِ ما يأمُرُه به الحَسَدُ؛ فإنْ حمَلَه الحَسَدُ على القَدحِ في محسودِه كَلَّف لسانَه المدْحَ له والثَّناءَ عليه، وإنْ حَمَله على التَّكبُّرِ عليه ألزَمَ نفسَه التَّواضُعَ له والاعتذارَ إليه، وإنْ بَعَثه على كَفِّ الإنعامِ عليه ألزَم نفسَه الزِّيادةَ في الإنعامِ عليه.

10- أن يَصرِفَ شهوةَ قلبِه في مرضاةِ اللَّهِ تعالى: فقد جَعَل اللَّهُ في الطَّاعةِ والحلالِ ما يملأُ القلبَ بالخيرِ، وما من صفةٍ من الصِّفاتِ إلَّا وجَعَل لها مصرِفًا ومحلًّا ينفُذُها فيه، فجعل لصفةِ الحَسَدِ مَصرِفًا وهو المنافَسةُ في فعلِ الخيرِ، والغِبطةُ عليه، والمسابقةُ إليه، وجَعَل لصِفةِ الكِبرِ التي تؤدِّي للحَسَدِ مَصرِفًا، هو التَّكبُّرُ على أعداءِ اللَّهِ تعالى وإهانتُهم، وقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لمن رآه يختالُ بَيْنَ الصَّفَّينِ في الحربِ: ((إنَّها لَمِشيةٌ يُبغِضُها اللَّهُ إلَّا في هذا الموطِنِ))[4412]، وجعَل لقُوَّةِ الحِرصِ مَصرِفًا، وهو الحِرصُ على ما ينفَعُ، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((احرِصْ على ما ينفَعُك))[4413].

11- أنَّه إذا خَطَرت له خَطرةُ الحَسَدِ، ودعاه الشَّيطانُ إليه، فينبغي أن يَكرَهَ ذلك أشَدَّ الكراهةِ لِما يؤدِّي إليه مِن السَّعيِ في مضارَّةِ المحسودِ[4414].

12- أن يَعلَمَ أنَّ الحاسِدَ لم يحِبَّ لأخيه المُسلِمِ ما أحَبَّ لنفسِه، وأنَّه شارَك الشَّيطانَ في عداوةِ أخيك المُسلِمِ، وسَخِطَ ما أعطاه اللَّهُ عبادَه[4415].

13- أن يجاهِدَ نفسَه على تخليصِ قلبِه من كُلِّ مَرَضٍ، ومن ذلك داءُ الحَسَدِ؛ حتَّى يكونَ قلبًا سليمًا؛ قال تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشَّعراء: 88 - 89].

والقلبُ السَّليمُ هو الذي سَلِم من الشِّركِ الجَليِّ والخَفيِّ، ومن الأهواءِ والبِدَعِ، ومن الفُسوقِ والمعاصي؛ كبائِرِها وصغائِرِها، الظَّاهِرةِ والباطنةِ، كالرِّياءِ، والعُجبِ، والغِلِّ، والغِشِّ، والحِقدِ، والحَسَدِ، وغيرِ ذلك[4416].

[4411] متشَعِّبٌ: متفَرِّقٌ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4412] رواه ابنُ إسحاق في ((السيرة)) (505)، والطبري في ((التاريخ)) (11/294).

[4413] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) (269/1، 270)، و((إحياء علوم الدين)) للغزالي (196/3-199)، و((التبيان في أقسام القرآن)) لابن قيم الجوزية (ص: 415). والحديث رواه مسلم (2664) مطوَّلًا من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[4414] ((مقاصد الرعاية لحقوق الله عزَّ وجَلَّ)) للعز بن عبد السلام (ص: 154).

[4415] المصدر السابق (ص: 153).

[4416] يُنظَر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: 121)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (1/354).

المطلب التاسع: الوسائِلُ المُعينةُ على دفعِ شَرِّ الحاسِدِ عن المحسودِ

ذكَر ابنُ القَيِّمِ عَشَرةَ أسبابٍ تدفَعُ شَرَّ الحاسِدِ عن المحسودِ[4417]:

1- التَّعوُّذُ باللَّهِ تعالى مِن شَرِّه، واللُّجوءُ والتَّحصُّنُ به، واللَّهُ تعالى سميعٌ لاستعاذتِه، عليمٌ بما يستعيذُ منه {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} [الفلق 1- 5].

2- تقوى اللَّهِ وحِفظُه عِندَ أمرِه ونَهيِه؛ فمن اتَّقى اللَّهَ تولَّى اللَّهُ حِفظَه، ولم يَكِلْه إلى غيرِه، قال تعالى: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} [آل عمران: 120]، وقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لعَبدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما: ((احفَظِ اللهَ يحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك))[4418]. فمَن حَفِظ اللَّهَ حَفِظه اللَّهُ ووجَدَه أمامَه أينما توجَّهَ، ومَن كان اللَّهُ حافِظَه وأمامَه، فمِمَّن يخافُ؟!

3- **الصَّبرُ على عَدُوِّه،** وألَّا يقاتِلَه ولا يشكوَه، ولا يحدِّثَ نفسَه بأذاه أصلًا، فما نُصِر على حاسدِه وعَدُوِّه بمثلِ الصَّبرِ عليه والتَّوكُّلِ على اللَّهِ، ولا يستَطِلْ تأخيرَه وبَغْيَه؛ فإنَّه كلَّما بغى عليه كان بغيُه جُندًا وقوَّةً للمَبغيِّ عليه المحسودِ، يقاتلُ به الباغي نفسَه وهو لا يَشعُرُ، فبَغيُه سهامٌ يرميها من نفسِه، وقد قال تعالى: {وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ} [الحج: 60] ، فإذا كان اللَّهُ قد ضَمِن له النَّصرَ مع أنَّه قد استوفى حقَّه أوَّلًا، فكيف بمَن لم يَستوفِ شيئًا مِن حَقِّه؟!

4- التَّوكُّلُ على اللَّهِ: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: 3] ، والتَّوكُّلُ من أقوى الأسبابِ التي يدفَعُ بها العبدُ ما لا يطيقُ من أذى الخَلقِ وظلمِهم وعدوانِهم؛ فإنَّ اللَّهَ حَسبُه، أي: كافيه، ومَن كان اللَّهُ كافيَه وواقيَه فلا مَطمَعَ فيه لعدوِّه، ولا يضرُّه إلَّا أذًى لا بُدَّ منه، كالحَرِّ والبردِ والجوعِ والعَطَشِ، وأمَّا أن يضُرَّه بما يبلُغُ منه مرادَه فلا يكونُ أبدًا، وفرقٌ بَيْنَ الأذى الذي هو في الظَّاهِرِ إيذاءٌ له، وهو في الحقيقةِ إحسانٌ إليه وإضرارٌ بنفسِه، وبَينَ الضَّرَرِ الذي يتشَفَّى به منه.

5- فراغُ القلبِ من الاشتغالِ به والفِكرِ فيه، وأن يقصِدَ أن يمحوَه من بالِه كلَّما خطَر له، فلا يلتَفِتُ إليه، ولا يخافُه، ولا يملأُ قلبَه بالفِكرِ فيه، ولا يجعَلْ قَلبَه معمورًا بالفِكرِ في حاسِدِه، والباغي عليه، فهذا التَّفكيرُ ممَّا لا يتَّسِعُ له إلَّا قلبٌ خرابٌ، لم تسكُنْ فيه محبَّةُ اللَّهِ، وإجلالُه وطَلَبُ مرضاتِه، وهذا العلاجُ من أنفَعِ الأدويةِ، وأقوى الأسبابِ المُعينةِ على اندِفاعِ شَرِّه.

6- الإقبالُ على اللَّهِ والإخلاصُ له، وجَعلُ محبَّتِه وترضِّيه والإنابةِ إليه في مَحَلِّ خواطِرِ نفسِه وأمانيِّها، تَدِبُّ فيها دبيبَ الخواطِرِ شيئًا فشيئًا، حتَّى يقهَرها ويَغمُرَها، ويُذهِبَها بالكُلِّيَّةِ، فتبقى خواطِرُه وهواجِسُه وأمانيُّه كُلُّها في محابِّ الرَّبِّ، والتَّقرُّبِ إليه، وتملُّقِه، وترَضِّيه، واستِعطافِه، وذِكرِه.

7- تجريدُ التَّوبةِ إلى اللَّهِ من الذُّنوبِ التي سلَّطت عليه أعداءه؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: 30] ، وقال لصحابةِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا

[4417] ((بدائع الفوائد)) (238-245) بتصرُّفٍ.

[4418] أخرجه الترمذي (2516) واللفظ له، وأحمد (2669). صحَّحه الترمذي، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2516)، وصحَّحه لغيره الوادعي في ((الصحيح المسند)) (699)، وحسَّنه وجوَّده ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (1/459)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (4/233)، وقوَّاه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (2669).

قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: 165] ، فما سُلِّط على العبدِ مَن يؤذيه إلَّا بذَنبٍ يَعلَمُه أو لا يعلَمُه، وما لا يَعلَمُه العبدُ مِن ذنوبِه أضعافُ ما يعلَمُه منها، وما ينساه ممَّا عَلِمَه وعَمِلَه أضعافُ ما يَذكُرُه.

8- الصَّدَقةُ والإحسانُ ما أمكنه؛ فإنَّ لذلك تأثيرًا عجيبًا في دَفعِ البلاءِ، ودَفعِ العَينِ وشَرِّ الحاسِدِ، فما يكادُ العينُ والحَسَدُ والأذى يتسَلَّطُ على محسِنٍ متصَدِّقٍ، وإن أصابه شيءٌ من ذلك كان معامَلًا فيه باللُّطفِ والمعونةِ والتَّأييدِ، وكانت له فيه العاقبةُ الحميدةُ.

9- إطفاءُ نارِ الحاسدِ والباغي والمؤذي بالإحسانِ إليه؛ فكلَّما ازداد أذًى وشَرًّا وبغيًا وحسدًا، ازدَدْتَ إليه إحسانًا، وله نصيحةً، وعليه شفَقةً، وهذا من أصعَبِ الأسبابِ على النَّفسِ وأشقِّها عليها، ولا يوفَّقُ له إلَّا مَن عَظُم حَظُّه من اللَّهِ؛ قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت: 34 - 36] ، واعلَمْ أنَّ لك ذنوبًا بينك وبينَ اللَّهِ، تخافُ عواقِبَها، وترجوه أن يعفوَ عنها، ويغفِرَها لك، ويهَبَها لك. ومع هذا يُنعِمُ اللَّهُ عليك ويُكرِمُك، ويجلِبُ إليك من المنافِعِ والإحسانِ فوقَ ما تؤمِّلُه، فإذا كنتَ ترجو هذا من رَبِّك أن يقابِلَ به إساءتَك، فما أولاك وأجدَرَك أن تعامِلَ به خَلْقَه، وتقابِلَ به إساءتَهم؛ ليعامِلَك اللَّهُ هذه المعاملةَ؛ فإنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ.

10- تجريدُ التَّوحيدِ والانتقالُ بالفِكرِ إلى المُسَبِّبِ العزيزِ الحكيمِ، والعِلمُ بأنَّ الحَسَدَ لا يَضُرُّ ولا ينفَعُ إلَّا بإذنِه، فهو الذي يصرِفُه عنه وَحدَه لا أحَدَ سِواه؛ قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} [يونس: 107] ، وقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لعبدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما: ((واعلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمَعَت على أن يضُرُّوك بشَيءٍ لم يضرُّوك إلَّا بشَيءٍ قد كتبه اللهُ عليك))[4419].

وقال الجاحِظُ: (فإذا أحسَسْتَ -رَحِمك اللَّهُ- من صديقِك بالحَسَدِ، فأقلِلْ ما استطَعْتَ من مخالطتِه؛ فإنَّه أعونُ الأشياءِ لك على مسالمتِه، وحَصِّنْ سِرَّك منه تسلَمْ مِن شَرِّه وعوائِقِ ضُرِّه، وإيَّاك والرَّغبةَ في مشاورتِه، ولا يَغُرَّنَّك خُدعُ مَلَقِه[4420]، وبيانُ ذَلَقِه[4421]؛ فإنَّ ذلك من حبائِلِ نفاقِه... وربَّما كان الحسودُ للمُصطَنِعِ إليه المعروفَ أكفَرَ له وأشَدَّ احتقادًا، وأكثَرَ تصغيرًا له من أعدائِه)[4422].

وقال ابنُ الجوزيِّ: (إن أردتَ العيشَ فابعُدْ عن الحسودِ؛ لأنَّه يرى نعمتَك، فربَّما أصابها بالعينِ! فإنِ اضطُرِرْتَ إلى مخالطتِه فلا تُفشِ له سِرَّك، ولا تشاوِرْه، ولا يَغُرَّنَّك تملُّقُه لك، ولا ما يُظهِرُه من الدِّينِ والتَّعبُّدِ؛ فإنَّ الحَسَدَ يَغلِبُ الدِّينَ، وقد عرَفْتَ أنَّ قابيلَ أخرَجه الحَسَدُ إلى القَتلِ! وأنَّ إخوةَ يوسُفَ باعوه بثَمَنٍ بَخسٍ! وكان أبو عامِرٍ الرَّاهِبُ من المتعَبِّدين العُقَلاءِ، وعبدُ اللَّهِ بنُ أُبَيٍّ من الرُّؤساءِ، أخرَجَهما حَسَدُ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى النِّفاقِ، وتَركِ الصَّوابِ.

[4419] أخرجه مطوَّلًا الترمذي (2516)، وأحمد (2669) واللفظ له. صحَّحه الترمذي، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2516)، وصحَّحه لغيره الوادعي في ((الصحيح المسند)) (699)، وحسَّنه وجوَّده ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (1/459)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (4/233)، وقوَّاه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (2669).

[4420] المَلَقُ: أن يعطيَ الرَّجُلُ بلسانِه ما ليس في قَلبِه. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4421] الذَّلَقُ: الفصاحةُ والبلاغةُ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4422] ((الرسائل)) (3/16، 17).

ولا ينبغي أن تَطلُبَ لحاسِدِك عُقوبةً أكثرَ ممَّا فيه؛ فإنَّه في أمرٍ عظيمٍ متَّصِلٍ، لا يُرضيه إلَّا زوالُ نعمتِك، وكلَّما امتَدَّت امتَدَّ عذابُه، فلا عَيشَ له! وما طاب عَيشُ أهلِ الجنَّةِ إلَّا حينَ نُزِع الحَسَدُ والغِلُّ مِن صُدورِهم، ولولا أنَّه نُزِع، تحاسَدوا وتنغَّص عيشُهم)[4423].

المطلب العاشر: نماذِجُ من الحُسَّادِ

▪ حسَدُ إبليسَ:

خَلَق اللَّهُ جَلَّ وعلا آدَمَ عليه السَّلامُ وشَرَّفه وكَرَّمه، وأمَر الملائكةَ بالسُّجودِ له، ولكِنَّ إبليسَ تكبَّرَ وبغى، وحَسَده على هذه المنزلةِ؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: 11-12].

قال قتادةُ: (حَسَد عَدُوُّ اللَّهِ إبليسُ آدَمَ عليه السَّلامُ ما أعطاه من الكرامةِ، وقال: أنا ناريٌّ وهذا طينيٌّ) [4424]. وقال ابنُ عطيَّةَ: (أوَّلُ ما عُصِيَ اللَّهُ بالحَسَدِ، وظهَر ذلك من إبليسَ) [4425].

ومن شِدَّةِ حَسَدِ إبليسَ أنَّه لمَّا تبيَّن مَقتَ اللَّهِ له وغَضَبه عليه، أراد أن يُغوِيَ بني آدمَ ليشارِكوه المَقْتَ والغضَبَ، وقد ذَكَر اللَّهُ حالَ إبليسَ هذا؛ قال تعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 16-17] . قال ابنُ القيِّمِ: (الحاسِدُ شبيهٌ بإبليسَ، وهو في الحقيقةِ من أتباعِه؛ لأنَّه يطلُبُ ما يحِبُّه الشَّيطانُ مِن فسادِ النَّاسِ، وزوالِ نِعَمِ اللَّهِ عنهم، كما أنَّ إبليسَ حَسَد آدمَ لشَرَفِه وفَضلِه، وأبى أن يسجُدَ له حَسَدًا، فالحاسِدُ من جُندِ إبليسَ)[4426].

▪ حَسَدُ قابيلَ لأخيه هابيلَ:

قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة: 27- 30] . (فإنَّ آدَمَ عليه السَّلامُ لمَّا بُعِث إلى أولادِه كانوا مُسلِمين مُطيعين، ولم يحدُثْ بَيْنَهم اختلافٌ في الدِّينِ، إلى أن قَتَل قابيلُ هابيلَ؛ بسَبَبِ الحَسَدِ والبَغيِ)[4427].

[4423] ((صيد الخاطر)) (ص: 463).

[4424] ((المحرر الوجيز)) (3/469).

[4425] رواه الطبري في ((التفسير)) (17/99)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (364).

[4426] ((بدائع الفوائد)) (2/234).

[4427] ((اللباب في علوم الكتاب)) لعمر بن علي النعماني (501/3).

■ حَسَدُ إخوةِ يُوسُفَ:

قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} [يوسف: 7- 9] .

قال الماوَرْديُّ: (كان يعقوبُ قد كَلِفَ بهما لموتِ أمِّهما، وزاد في المراعاةِ لهما، فذلك سَبَبُ حَسَدِهم لهما، وكان شديدَ الحُبِّ ليوسُفَ، فكان الحَسَدُ له أكثَرَ، ثمَّ رأى الرُّؤيا فصار الحَسَدُ له أشَدَّ)[4428].

قيل للحَسَنِ: يا أبا سعيدٍ، أيحسُدُ المُؤمِنُ؟ قال: لا أمَّ لك! أنسِيتَ إخوةَ يوسُفَ[4429].

■ حَسَدُ اليهودِ والنَّصارى:

بَيَّنَ اللَّهُ تعالى أنَّ أهلَ الكتابِ الذين كفَروا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حَسَدوه على ما آتاه اللَّهُ من فضلِه، حتَّى إنَّهم زعموا أنَّ كُفَّارَ مكَّةَ أهدى من المُؤمِنين برسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} [النساء 51- 54]، ومع كُفرِهم فإنَّهم يودُّون لو يرتَدُّ المُسلِمون عن دينِهم حَسَدًا وحِقدًا؛ قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} [البقرة: 109]، قال ابنُ كثيرٍ: (يحذِّرُ تعالى عبادَه المُؤمِنين عن سُلوكِ طرائِقِ الكُفَّارِ من أهلِ الكتابِ، ويُعلِمُهم بعداوتِهم لهم في الباطِنِ والظَّاهِرِ، وما هم مشتَمِلون عليه من الحَسَدِ للمُؤمِنين، مع عِلمِهم بفضلِهم، وفَضلِ نبيِّهم)[4430].

■ حَسَدُ كُفَّارِ قُرَيشٍ:

أكرَم اللَّهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالرِّسالةِ، ولكِنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ حَسَدوه على هذا الفَضلِ، وظنُّوا أنَّ النُّبُوَّةَ مبنيَّةٌ على مقاييسِهم الدُّنيويَّةِ المختَلَّةِ، وقد ذكر اللَّهُ تعالى ذلك عنهم ووبَّخَهم على سوءِ فَهمِهم؛ قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: 31- 32].

وقال تعالى: {وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} [القصص: 69] .

((مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ) من عداوةِ رَسولِ اللَّهِ وحَسَدِه (وَمَا يُعْلِنُونَ) من مَطاعِنِهم فيه، وقولِهم: هلَّا اختيرَ عليه غيرُه في النُّبُوَّةِ!)[4431].

[4428] ((النكت والعيون)) (3/9).

[4429] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/ 407).

[4430] ((تفسير القرآن العظيم)) (382/1).

[4431] ((الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)) للزمخشري (3/ 428).

المطلب الحادِيَ عَشَرَ: حُكمُ الحَسَدِ

الحَسَدُ الذي هو تمنِّي زوالِ النِّعمةِ عن المحسودِ سواءٌ زالت عن المحسودِ ووصَلت إليه، أو لم تَصِلْ، فهذا الحَسَدُ قد أجمع العُلَماءُ على تحريمِه مع ورودِ النُّصوصِ من الكتابِ والسُّنَّةِ[4432]. وذكَره بعضُ العُلَماءِ في الكبائِرِ[4433].

وقال ابنُ حَجَرٍ: (مَن تمنَّى زوالَ النِّعمةِ عن مستحِقٍّ لها، وسعى في ذلك، كان باغيًا، وإن لم يسْعَ في ذلك ولا أظهَره ولا تسَبَّب في تأكيدِ أسبابِ الكراهةِ التي نُهِي المُسلِمُ عنها في حَقِّ المُسلِمِ، نُظِرَ؛ فإن كان المانِعُ له من ذلك العَجزَ بحيثُ لو تمكَّن لفَعَل، فهذا مأزورٌ، وإن كان المانعُ له من ذلك التَّقوى، فقد يُعذَرُ؛ لأنَّه لا يستطيعُ دَفعَ الخواطِرِ النَّفسانيَّةِ، فيكفيه في مجاهدتِها ألَّا يعمَلَ بها، ولا يَعزِمَ على العَمَلِ بها؛ فعن الحَسَنِ البَصريِّ قال: ما من آدَميٍّ إلَّا وفيه الحَسَدُ؛ فمن لم يجاوِزْ ذلك إلى البَغيِ والظُّلمِ لم يَتبَعْه منه شيءٌ)[4434].

وأمَّا الحَسَدُ بمعنى الغِبطةِ، وهو أن يتمنَّى مِثلَ النِّعمةِ التي على غيرِه من غيرِ زوالِها عن صاحِبِها، فإن كانت من أمورِ الدُّنيا كانت مباحةً، وإن كانت طاعةً فهي مستحبَّةٌ. عن عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ، قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا حَسَدَ إلَّا في اثنتَينِ[4435]: رجُلٌ آتاه اللَّهُ مالًا فسُلِّط على هلَكَتِه في الحَقِّ، ورجُلٌ آتاه اللَّهُ الحِكمةَ فهو يقضي بها ويُعَلِّمُها))[4436]. قال ابنُ القَيِّمِ: (فهذا حَسَدُ مُنافَسةٍ وغِبطةٍ، يَدُلُّ على عُلُوِّ هِمَّةِ صاحِبِه، وكِبَرِ نفسِه، وطَلَبِها للتَّشبُّهِ بأهلِ الفَضلِ)[4437].

المطلب الثاني عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

▪ الحَسَدُ أوَّلُ ذَنبٍ عُصِيَ اللَّهُ به:

يقالُ: الحَسَدُ أوَّلُ ذَنبٍ عُصِيَ اللَّهُ به في السَّماءِ، وأوَّلُ ذَنبٍ عُصِيَ به في الأرضِ؛ فأمَّا في السَّماءِ فحَسَدُ إبليسَ لآدَمَ، وأمَّا في الأرضِ فحَسَدُ قابيلَ لهابيلَ[4438].

▪ علاماتُ الحاسِدِ:

قال الجاحِظُ: (وما لَقِيتَ حاسِدًا قَطُّ إلَّا تبيَّن لك مكنونُه بتغَيُّرِ لونِه، وتخوُّصِ عينِه، وإخفاءِ سلامِه، والإقبالِ على غيرِك، والإعراضِ عنك، والاستِثقالِ لحديثِك، والخلافِ لرأيِك)[4439].

وكان يقالُ: من علاماتِ الحَسودِ: أن يتمَلَّقَ الرَّجُلَ إذا حضَر، ويغتابَه إذا غاب، ويَشمَتَ بالمصيبةِ إذا نَزَلت[4440].

[4432] يُنظَر: ((مقاصد الرعاية لحقوق الله عزَّ وجلَّ)) للعز بن عبد السلام (ص: 151)، ((شرح النووي على مسلم)) (6/97).

[4433] يُنظَر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (4/ 309)، ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (1/ 83).

[4434] ((فتح الباري)) (10/ 482) بتصرُّفٍ.

[4435] وقيل: المرادُ بالحديثِ نفيُ الحسَدِ فحَسْبُ، فقولُه: لا حَسَدَ. كلامٌ تامٌّ، وهو نفيٌ في معنى النَّهيِ. وقولُه: إلَّا في اثنتَينِ. استثناءٌ ليس من الجنسِ. يُنظَر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (1/289).

[4436] رواه البخاري (73) واللفظ له، ومسلم (316).

[4437] ((الروح)) (ص: 252).

[4438] ((الجامع لأحكام القرآن)) (5/250).

[4439] ((الرسائل)) (3/8، 9).

▪ مَن يقَعُ بَيْنَهم الحَسَدُ:

الغالِبُ أنَّ الحَسَدَ لا يقَعُ إلَّا بَيْنَ المُشتَرِكينِ في فضيلةٍ من الفضائِلِ أو في شيءٍ من الأسبابِ الدُّنيويَّةِ، فلا يحسُدُ الفقيهُ النَّحويَّ، ولا التَّاجِرُ الجَمَّالَ، ولا الصَّانِعُ البَقَّالَ، ولا يُتصَوَّرُ الحَسَدُ لمحبوبٍ؛ لأنَّ المحِبَّ يتمَنَّى زيادةَ النِّعَمِ للمحبوبِ، ولا يتمنَّى زوالَ النِّعَمِ عنه[4441].

▪ من أخبارِ التَّحاسُدِ:

-كان الخليفةُ النَّاصِرُ الأندَلُسيُّ قد وشَّح ابنَه الحَكَمَ، وجعَلَه وليَّ عهدِه، وآثره على جميعِ وَلَدِه، ودفع إليه كثيرًا من التَّصرُّفِ في دولتِه، فحَسَده أخوه عبدُ اللَّهِ، فأضمَر في نفسِه الخروجَ على أبيه، وتحدَّث مع مَن داخَله شيءٌ من أمرِ الحَكَمِ من رجالاتِ أبيه، فأجابه بعضُهم، ثمَّ إنَّ الخَبَرَ بلَغ الخليفةَ النَّاصِرَ، فاستكشَفَ أمْرَهم، وقَبَض على ابنِه عبدِ اللَّهِ وعلى جميعِ مَن معه، وقتَلَهم أجمعينَ سَنةَ ثلاثٍ وتسعينَ وثلاثمائةٍ[4442].

-كان جَنْكيز خان سَنَّ لقومِه الياسقَ يتحاكَمون إليه، وقرَّر فيه قَتلَ مَن رَعَفَ وسال منه الدَّمُ وهو يأكُلُ، وقرَّر لهم أنَّ مَن لم يُمضِ حُكمَ الياسقَ قُتِل، وأراد أن يَقتُلَ بعضَ مَن حولَه مِن كبارِ قَومِه للتَّحاسدِ الذي يظهَرُ منهم، فتركهم يومًا وهم على سِماطِه ورَعَف نفسَه، فلم يجسُرْ أحَدٌ أن يُمضيَ فيه حُكمَ الياسقَ لمهابتِه وجبَروتِه، فتركوه ولم يطالِبوه بما قرَّره، وهابوه في ذلك، فتركهم أيَّامًا، ثمَّ جمع مُقَدَّميهم وأُمَراءَهم، وقال: لأيِّ شيءٍ ما أمضيتُم فيَّ حُكمَ الياسقِ، وقد رَعَفْتُ وأنا آكُلُ بينكم؟! قالوا: لم نجسُرْ على ذلك! فقال: لم تعمَلوا بالياسقِ ولا أمضَيتُم أمرَه، وقد وجَبَ قَتْلُكم، فقتَلَهم أجمعين[4443]!

▪ من نوادِرِ التَّحاسُدِ:

قال الشَّعبيُّ: (وجَّهَني عبدُ المَلِكِ إلى مَلِكِ الرُّومِ، فلمَّا انصَرَفتُ دفَع إليَّ كتابًا مختومًا، فلمَّا قرأه عبدُ المَلِكِ رأيتُه تغَيَّرَ، وقال: يا شَعبيُّ، أعلِمْتَ ما كَتَب هذا الكَلبُ؟! قلتُ: لا، قال: إنَّه كَتَب: لم يكُنْ للعَرَبِ أن تُمَلِّكَ إلَّا مَن أرسَلْتَ به إليَّ؟ فقُلتُ: يا أميرَ المُؤمِنين، إنَّه لم يَرَك، ولو رآك لكان يَعرِفُ فَضْلَك، وإنَّه حَسَدك على استخدامِك مِثلي! فسُرِّيَ عنه)[4444].

وقال الأصمَعيُّ: (كان رجُلٌ من أهلِ البَصرةِ بذيئًا شِرِّيرًا، يؤذي جيرانَه ويَشتِمُ أعراضَهم، فأتاه رجُلٌ فوعَظَه، فقال له: ما بالُ جيرانِك يشكونك؟ قال: إنَّهم يحسُدونني! قال له: على أيِّ شيءٍ يحسُدونَك؟ قال: على الصَّلبِ! قال: وكيف ذاك؟! قال: أقبِلْ معي. فأقبَلَ معه إلى جيرانِه، فقَعَد مُتحازِنًا، فقالوا له: ما لك؟ قال: طَرَق اللَّيلةَ كتابُ معاويةَ: أنِّي أُصلَبُ أنا ومالِكُ بنُ المُنذِرِ وفُلانٌ وفلانٌ، فذكَر رجالًا من أشرافِ أهلِ البصرةِ، فوثبوا عليه، وقالوا: يا عدُوَّ اللَّهِ، أنت تُصلَبُ مع هؤلاء، ولا كرامةَ لك؟! فالتفتَ إلى الرَّجُلِ فقال: أمَا تراهم قد حَسَدوني على الصَّلبِ! فكيف لو كان خيرًا؟!)[4445].

[4440] ((الفاضل)) (ص: 100).

[4441] ((مقاصد الرعاية لحقوق الله عزَّ وجَلَّ)) للعز بن عبد السلام (ص: 152، 153).

[4442] ((ديوان المبتدأ والخبر)) لابن خلدون (4/184).

[4443] ((الوافي بالوفيات)) للصفدي (11/153).

[4444] ((محاضرات الأدباء)) للراغب الأصفهاني (1/318).

[4445] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (2/175، 176).

■ تحاسُدُ بعضِ طلَبةِ العِلمِ والأقرانِ:

قد يجُرُّ التَّنافُسُ بَيْنَ بعضِ طَلَبةِ العِلمِ إلى الوقوعِ في بعضِ التَّحاسُدِ؛ قال الذَّهبيُّ: (كلامُ الأقرانِ بعضِهم في بعضٍ لا يُعبَأُ به، لا سيَّما إذا لاح لك أنَّه لعَداوةٍ أو لمذهَبٍ أو لحسَدٍ، وما ينجو منه إلَّا مَن عَصَم اللَّهُ، وما عَلِمتُ أنَّ عصرًا من الأعصارِ سَلِم أهلُه من ذلك سوى الأنبياءِ والصِّدِّيقين، ولو شِئتُ لسَرَدتُ من ذلك كراريسَ، اللَّهُمَّ فلا تجعَلْ في قُلوبِنا غِلًّا للذين آمنوا، ربَّنا إنَّك رؤوفٌ رحيمٌ)[4446].

وذكَر الغزاليُّ حالَ بعضِ أولئك الحَسَدةِ، فقال: (واحذَرْ مخالطةَ مُتفَقِّهةِ الزَّمانِ، لا سِيَّما المشتَغِلين بالخِلافِ والجِدالِ، واحذَرْ منهم؛ فإنَّهم يتربَّصون بك- لحسَدِهم- رَيبَ المنونِ، ويقطَعون عليك بالظُّنونِ، ويتغامَزون وراءك بالعُيونِ، ويُحصون عليك عَثَراتِك في عِشرتِهم، حتَّى يجابِهوك بها في حالِ غَيظِهم ومناظرتِهم، لا يُقيلون لك عَثرةً، ولا يَغفِرون لك زَلَّةً، ولا يَستُرون لك عَورةً، يحاسِبونك على النَّقيرِ[4447]، والقِطْميرِ[4448]، ويحسُدونك على القليلِ والكثيرِ، ويُحرِّضون عليك الإخوانَ بالنَّميمةِ والبلاغاتِ والبُهتانِ، إن رَضُوا فظاهِرُهم المَلَقُ[4449]، وإن سَخِطوا فباطِنُهم الحَنَقُ[4450]، ظاهِرُهم ثيابٌ، وباطِنُهم ذئابٌ. هذا ما قطَعَت به المشاهدةُ على أكثَرِهم، إلَّا مَن عصَمه اللَّهُ تعالى؛ فصُحبتُهم خُسرانٌ، ومعاشرتُهم خِذلانٌ. هذا حُكمُ من يُظهِرُ لك الصَّداقةَ، فكيف مَن يجاهِرُك بالعَداوةِ؟!)[4451].

وقد نهى العُلَماءُ عن الخَوضِ في أهلِ العِلمِ بلا برهانٍ واضِحٍ وبَيِّنةٍ ساطعةٍ؛ قال ابنُ عبدِ البَرِّ: (لا يُقبَلُ فيمن صَحَّت عدالتُه، وعُلِمَت بالعِلمِ عنايتُه، وسَلِم من الكبائِرِ، ولَزِم المروءةَ والتَّصاوُنَ[4452]، وكان خيرُه غالبًا، وشَرُّه أقَلَّ عَمَلِه، فهذا لا يُقبَلُ فيه قولُ قائِلٍ لا برهانَ له به، وهذا هو الحَقُّ الذي لا يَصِحُّ غيرُه إن شاء اللَّهُ، قال أبو العتاهيةِ:

بكى شَجْوَه[4453] الإسلامُ من عُلَمائِهِ

فما اكتَرَثوا لِما رأوا من بُكائِهِ

فأكثَرُهم مُستقبِحٌ لصوابِ مَن

يخالِفُه مُستحسِنٌ لخَطائِهِ

فأيُّهُمُ المَرجوُّ فينا لدينِهِ

وأيُّهم الموثوقُ فينا برأيِهِ)[4454].

[4446] ((ميزان الاعتدال)) للذهبي (1/111)..

[4447] النَّقيرُ: النُّكتةُ في ظَهرِ النَّواةِ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4448] القِطْميرُ: القِشرةُ الرَّقيقةُ على النَّواةِ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4449] المَلَقُ: الوُدُّ واللُّطفُ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي.

[4450] الحَنَقُ: الغيظُ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي.

[4451] ((بداية الهداية)) للغزالي (68، 69).

[4452] تصاوَنَ: تكَلَّفَ صيانةَ نفسِه، ومن المعايبِ ونحوِها: وقى نفسَه منها. يُنظَر: ((المعجم الوسيط)).

[4453] بكى شَجْوَه: بكى حُزنَه. يُنظَر: ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) لأبي بكر الأنباري.

[4454] ((جامع بيان العلم وفضله)) (2/1113).

■ شَرُّ الحَسَدِ:

شَرُّ الحَسَدِ: الحَسَدُ على معاصي اللَّهِ عزَّ وجَلَّ، وهو أن يتمنَّى أن يتمكَّنَ من المعاصي التي يفعَلُها غيرُه[4455].

■ ليس من الحَسَدِ:

ليس من الحَسَدِ ألَّا ينالَ غيرُه خيرًا من خُيورِ الدُّنيا والآخرةِ؛ لأنَّ الحَسَدَ مخصوصٌ بما حَصَل من النِّعَمِ[4456].

■ وجودُ النِّعمةِ مَظِنَّةُ الحَسَدِ:

قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ: (ما كانت على أحَدٍ نِعمةٌ إلَّا كان لها حاسِدٌ)[4457].

[4455] ((مقاصد الرعاية لحقوق الله عزَّ وجَلَّ)) للعز بن عبد السلام (ص: 152).

[4456] المصدر السابق.

[4457] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/406).

المبحث الحادي عشر: الجفاء

المطلب الأول: معنى الجَفاءِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى الجَفاءِ لُغةً:**

الجَفاءُ: خِلافُ البِرِّ ونقيضُ الصِّلةِ، وأيضًا غِلَظُ الطَّبعِ، يُقالُ: جفاه: إذا بَعُد عنه، وأجفاه: إذا أبعَدَه، وجَفَوتُ الرَّجُلَ أجفوه: أعرَضْتُ عنه أو طرَدْتُه، وهو مأخوذٌ من جفاءِ السَّيلِ، وهو ما نفاه السَّيلُ، وقد يكونُ مع بُغضٍ، وجفا الثَّوبُ يجفو: إذا غَلُظ، فهو جافٍ، ومنه جفاءُ البَدْوِ، وهو غِلظتُهم[4458].

- **معنى الجَفاءِ اصطِلاحًا:**

الجَفاءُ: هو الغِلَظُ في العِشرةِ، والخُرقُ في المعامَلةِ، وتركُ الرِّفقِ في الأمورِ[4459].

قال المُبارَكْفوريُّ: (الجَفاءُ: غِلَظُ الطَّبعِ)[4460].

وقال العَينيُّ: (الجَفاءُ هو: الغِلَظُ في الطَّبعِ لقِلَّةِ مخالطةِ النَّاسِ)[4461].

المطلب الثاني: ذمُّ الجَفاءِ والنَّهيُ عنه

أ- من السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الحياءُ من الإيمانِ، والإيمانُ في الجنَّةِ، والبَذاءُ من الجَفاءِ، والجَفاءُ في النَّارِ)).[4462]

ففي هذا الحديثِ بَيَّنَ المصطفى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ الإيمانَ والحياءَ مترابطانِ متلازمانِ، وهما معًا يقودانِ صاحِبَهما إلى الجنَّةِ، وفي المقابِلِ فإنَّ البَذاءَ -وهو فُحشُ القَولِ، والسَّيِّئُ منه- متلازِمٌ مع الجَفاءِ؛ فهو صِنْوُه الذي لا يفارِقُه، وهما يسوقانِ صاحِبَهما إلى النَّارِ.

قال مُلَّا عَليّ القاري: (... ((والبَذاءُ)) -بفتحِ الباءِ- خِلافُ الحياءِ، والنَّاشِئُ منه الفُحشُ في القَولِ، والسُّوءُ في الخُلُقِ. من الجَفاءِ: وهو خِلافُ البِرِّ الصَّادِرِ منه الوَفاءُ. ((والجَفاءُ)). أي: أهلُه التَّارِكون للوفاءِ، الثَّابتون على غَلاظةِ الطَّبعِ وقَساوةِ القَلبِ. ((في النَّارِ)) إمَّا مُدَّةً أو أبدًا؛ لأنَّه في مقابِلِ الإيمانِ الكامِلِ أو مُطلَقِه، فصاحِبُه إمَّا من أهلِ الكُفرانِ أو الكُفرِ)[4463]

[4458] انظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((لسان العرب)) لابن منظور، النهاية في غريب الحديث والأثر ((لابن الأثير))، ((تاج العروس)) للزبيدي، ((المصباح المنير)) للفيومي

[4459] ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمناوي (ص: 128).

[4460] ((تحفة الأحوذي)) (365/9).

[4461] ((عمدة القاري)) (23/96).

[4462] رواه الترمذي (2009)، وأحمد (10512). صحَّحه الترمذي، وابن حبان في ((صحيحه)) (608)، والذهبي في ((الكبائر)) (472).

[4463] ((مرقاة المفاتيح)) لملا عَليّ القاري (4038/9).

-وعن أبي مسعودٍ رَضِيَ الله عنه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الإيمانُ هاهنا- وأشار بيَدِه إلى اليَمَنِ-، والجَفاءُ وغِلَظُ القُلوبِ في الفَدَّادينَ عِندَ أصولِ أذنابِ الإبِلِ، حيثُ يَطلُعُ قَرنُ الشَّيطانِ في رَبيعةَ ومَضُرَ))[4464].

وفي هذا الحديثِ يُحَدِّثُنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الجَفاءِ وأين يكونُ، وهو في معنى الحديثِ الذي سبقه في أنَّ الجَفاءَ يَكثُرُ في أهلِ البوادي، الذين يتَّبِعون الإبِلَ في مراعيها، فيَبعُدون عن مراكِزِ المُدُنِ والحَضَرِ؛ فتَقسو قُلوبُهم، وتجفو طِباعُهم.

قال مُلَّا عَليّ القاري: (... «والجَفاءُ» -بالمَدِّ- ضِدُّ الوفاءِ... والأظهَرُ أنَّ المرادَ به هاهنا غِلَظُ الألسِنةِ، بقرينةِ قولِه: «وغِلَظُ القُلوبِ في الفَدَّادينَ[4465] أهلِ الوَبَرِ» بيانٌ للفدَّادينَ، ويرادُ بأهلِ الوَبَرِ: الأعرابُ أو سُكَّانُ الصَّحاري، وإنَّما ذَمَّهم لبُعدِهم عن المُدُنِ والقُرى، المُوجِبِ لقِلَّةِ العِلمِ الحاصِلِ به حُسنُ الأخلاقِ لهم، وسائِرُ عُلومِ الشَّريعةِ)[4466].

وقال المُناويُّ: (ويحتَمِلُ أنَّ المرادَ بالجَفاءِ أنَّ القَلبَ لا يَميلُ لموعظةٍ، ولا يخشَعُ لتَذكرةٍ، والمرادُ بالغِلَظِ: أنَّها لا تَفهَمُ المرادَ، ولا تَعقِلُ المعنى)[4467].

ب- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- قال مالِكُ بنُ أنَسٍ: (ما قَلَّت الآثارُ في قومٍ إلَّا كَثُرت فيهم الأهواءُ، وإذا قَلَّت العُلَماءُ ظهَر في النَّاسِ الجَفاءُ)[4468].

- وقال سُفيانُ الثَّوريُّ: (إيَّاك ومُجالَسةَ أهلِ الجَفاءِ، ولا تَصحَبْ إلَّا مُؤمِنًا، ولا يأكُلْ طعامَك إلَّا تَقيٌّ، ولا تَصحَبِ الفاجِرَ ولا تجالِسْه)[4469].

- وعن محمَّدِ بنِ إسحاقَ السَّرَّاجِ قال: كَتَب إليَّ ابنُ أبي الدُّنيا من بغدادَ: يا أخي، عزيزٌ عليَّ جَفاءُ مِثْلِك، وما أنت إلَّا كما قيل:

أتجفو خليلًا لم يَخُنْك مودَّةً

عزيزٌ علينا أن نراك كذالكا

- وقال عبدُ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه: (لا ينبغي لحامِلِ القرآنِ أن يكونَ جافيًا ولا غافِلًا، ولا صخَّابًا ولا صَيَّاحًا، ولا حديدًا)[4470].

- وقال الأحنَفُ بنُ قَيسٍ: (ما أقبَحَ القطيعةَ بَعدَ الصِّلةِ، والجَفاءَ بَعدَ اللُّطفِ، والعداوةَ بَعدَ الوُدِّ! لا تَكونَنَّ على الإساءةِ أقوى منك على الإحسانِ، ولا إلى البُخلِ أسرَعَ منك إلى البَذْلِ)[4471].

[4464] رواه البخاري (4387) واللفظ له، ومسلم (51)

[4465] هم المُكثِرون من الإبِلِ، الذين تعلو أصواتُهم في حُروثِهم ومواشيهم، وهم أهلُ جَفاءٍ وخُيَلاءَ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظَر: ((كشف المشكل من حديثِ الصحيحين)) لابن الجوزي .(201 /2)

[4466] ((مرقاة المفاتيح)) لملا عَليّ القاري (4038/9).

[4467] ((فيض القدير)) للمناوي (4/535).

[4468] رواه الخطيب في ((الفقيه والمتفقه)) (383/1).

[4469] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (7/47)

[4470] ((الزهد)) لأحمد بن حنبل (892)، ((الزهد)) لأبي داود (ص: 170، 171)، ((الهم والحزن)) لابن أبي الدنيا (151)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (130 /1)

- وقال الأصمَعيُّ: سَمِعتُ أعرابيًّا يقولُ لأخٍ له: (يا أخي، إنَّ الصَّديقَ يُحَوَّلُ بالجَفاءِ عَدُوًّا، والعَدُوَّ يُحَوَّلُ بالصِّلةِ صَديقًا، وإنِّي أراك رَطْبَ اللِّسانِ من عُيوبِ أصدِقائِك، فلا تَزِدْهم في أعدائِك)[4472].

المطلب الثالث: آثارُ الجَفاءِ

1 -التَّنافُرُ بَيْنَ النَّاسِ.

2 -تَقطُّعُ أواصِرِ المَوَدَّةِ والمحبَّةِ، خاصَّةً مع الأهلِ والأقرِباءِ.

3 -كَثرةُ حُدوثِ المُشكِلاتِ.

4 -تَخَلِّي النَّاسِ عن الجافي عِندَ نُزولِ الشَّدائِدِ.

5 -الجافي متوَعَّدٌ بالعقوبةِ الأُخرَويَّةِ بالعَذابِ في النَّارِ.

6 -تفَكُّكُ الأُسَرِ، وكَثرةُ حُدوثِ المُشكِلاتِ الزَّوجيَّةِ والطَّلاقِ.

7- فِقدانُ الصَّديقِ.

المطلب الرابع: صُوَرُ الجَفاءِ

1 -جفاءُ الإنسانِ رَبَّه: وهو مَولاه والمطَّلِعُ عليه، ويُحَدِّثُنا ابنُ القَيِّمِ عن هذا النَّوعِ من أنواعِ الجَفاءِ، فيقولُ: أمَّا قَولُه: (والصَّبرُ عن اللهِ جَفاءٌ)، فلا جفاءَ أعظَمُ ممَّن صَبَر عن معبودِه وإلهِه ومولاه، الذي لا مولى له سِواه، ولا حياةَ له ولا صلاحَ ولا نعيمَ إلَّا بمحبَّتِه والقُربِ منه، وإيثارِ مَرضاتِه على كُلِّ شيءٍ، فأيُّ جفاءٍ أعظَمُ من الصَّبرِ عنه؟!).[4473]

وقال بعضُ الحُكَماءِ: لا تَجْفُ رَبَّك... أمَّا الجَفاءُ بِرَبِّك: فأن تشتَغِلَ بخِدمةِ غيرِه من المخلوقينَ[4474].

2 -جفاءُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومن ذلك: أنَّه لا يُصَلِّي عليه إذا ذُكِر عِندَه؛ عن أبي هُرَيرةَ قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((رَغِمَ أنفُ[4475] رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِندَه فلم يُصَلِّ عَلَيَّ))[4476].

3 -جفاءُ الوالِدَين بالتَّأفُّفِ وغِلَظِ القَولِ لهما، أو قَطْعِهما ونحوِه: وهذا من أعظَمِ الجَفاءِ وأشَدِّه، بل هو العُقوقُ بعينِه؛ إذ كيف يجفو المرءُ مَن كانا سببًا في وُجودِه، ومَن تَعِبَا على تربيتِه، وبَذَلا جُهدَهما من أجْلِ راحتِه؟!

[4471] ((الأمالي)) لأبي علي القالي (20 /2)

[4472] يُنظَر: ((الموشى)) لأبي الطيب الوشاء (ص: 19)، ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (689/1)، ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (1/ 384).

[4473] ((عدة الصابرين)) (50/1).

[4474] ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: 371) .

[4475] رَغِمَ: أي: لَصِق بالتُّرابِ، وهو كنايةٌ عن حُصولِ غايةِ الذُّلِّ والهوانِ. يُنظَر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (6/ 259).

[4476] رواه الترمذي (3545)، وأحمد (7451) مطوَّلًا. صحَّحه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (908)، وابن حجر كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (319/3)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3545)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (7451). وقال الترمذي: حَسَنٌ غريبٌ .

بل عَدَّ السَّلَفُ مُناداةَ الرَّجُلِ لوالِدِه باسمِه مجرَّدًا: من الجَفاءِ؛ قال طاوُسٌ: (من الجَفاءِ أن يدعوَ الرَّجُلُ والِدَه باسمِه)[4477]. فكيف بمن يعامِلُهما بما هو أشَدُّ من ذلك سُوءًا ؟!

4 -ومِن صُوَرِ الجَفاءِ المتفَشِّيةِ في المجتَمَعِ: جفاءُ الرَّجُلِ زوجَتَه وأبناءَه، وذلك من أعظَمِ أسبابِ الفِراقِ وتفَكُّكِ الأُسَرِ، فتَجِدُه إذا دخل بيتَه تغَيَّرَت صورتُه، وعلا صوتُه، فنَهَر هذا، وضَرَب ذاك، وربَّما يكونُ ذلك بدونِ سَبَبٍ أو مبَرِّرٍ، فيتحوَّلُ البيتُ مِن سَكَنٍ إلى جحيمٍ، ومن طُمأنينةٍ إلى قَلَقٍ وإزعاجٍ، وكُلُّ ذلك بسبَبِ جفاءِ الرَّجُلِ وقَسوةِ طَبعِه. يقولُ ابنُ سَعديٍّ: (وكذلك رحمةُ الأطفالِ الصِّغارِ، والرِّقَّةُ عليهم، وإدخالُ السُّرورِ عليهم: من الرَّحمةِ، وأمَّا عَدَمُ المبالاةِ بهم وعَدَمُ الرِّقَّةِ عليهم فمِن الجَفاءِ والغِلظةِ والقَسوةِ، كما قال بعضُ جُفاةِ الأعرابِ حينَ رأى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه يُقَبِّلون أولادَهم الصِّغارَ، فقال ذلك الأعرابيُّ: إنَّ لي عَشرةً من الوَلَدِ ما قبَّلتُ واحِدًا منهم! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أَوَأملِكُ لك أن نَزَع اللهُ مِن قَلبِك الرَّحمةَ ؟!))[4478][4479].

وقال ابنُ عُثَيمين: (أمَّا ما يفعَلُه بعضُ النَّاسِ من الجَفاءِ والغِلظةِ بالنِّسبةِ للصِّبيانِ، فتَجِدُه لا يمكِّنُ صَبيَّه من أن يَحضُرَ على مجلِسِه، ولا أن يمكِّنَ صبيَّه من أن يَطلُبَ منه شيئًا، وإذا رآه عِندَ الرِّجالِ انتَهَره، فهذا خِلافُ السُّنَّةِ، وخِلافُ الرَّحمةِ)[4480].

5 -ومن الصُّوَرِ كذلك: جفاءُ الصَّديقِ لأيِّ سَبَبٍ من الأسبابِ؛ فرُبَّما يجفو صديقَه كِبرًا وتيهًا، وربَّما يجفوه لمُشكلةٍ لا تحتَمِلُ الجَفاءَ، ورُبَّما لوِشايةٍ سَمِعَها عنه، أو خبَرٍ نمى إليه أو غيرِ ذلك.

6 -ومن الجَفاءِ كذلك: الجَفاءُ الشَّديدُ مع النَّاسِ في معاملتِهم والحديثِ معهم؛ فمِن النَّاسِ من يَظُنُّ أنَّه لا يُفهِمُ حتَّى يَعلوَ صوتُه، ويُقَطِّبَ جَبينَه، فتراه غليظًا وَقِحًا فَظًّا فَجًّا، يخشاه النَّاسُ، ويتجَنَّبونَه مخافةَ لسانِه السَّليطِ، وطَبعِه القاسي.

وأدْهى من ذلك وأَمَرُّ: جفوةُ المُنتَسِبين إلى الدِّينِ عُمومًا، والدُّعاةِ إلى اللهِ خُصوصًا؛ فإنَّ بعضَهم يَظُنُّ أنَّ هذه الجَفوةَ من الدِّينِ، وأنَّها تكسو الدَّاعيةَ وَقارًا وهَيبةً! وقد أخطأ، بل إن لها أثَرًا سَيِّئًا؛ فهي تُنَفِّرُ النَّاسَ عن دينِ اللهِ؛ لذا امتنَّ اللهُ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن جعَلَه رقيقَ الطَّبعِ، طَيِّبَ القَلبِ، ولم يجعَلْه فَظًّا ولا غليظًا؛ قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159].

قال ابنُ حزمٍ: (الائتِساءُ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في وَعظِه أهلَ الجَهلِ والمعاصي والرَّذائِلِ: واجبٌ؛ فمَن وَعَظ بالجَفاءِ والاكفِهرارِ فقد أخطَأَ وتعَدَّى طريقتَه، وصار في أكثَرِ الأمورِ مُغريًا للمَوعوظِ بالتَّمادي على أمرِه لَجاجًا وحَرَدًا ومُغايَظةً للواعِظِ الجافي، فيكونُ في وَعظِه مسيئًا لا محسِنًا. ومَن وَعَظ ببِشرٍ وتبسُّمٍ ولِينٍ، وكأنَّه مشيرٌ برأيٍ ومُخبِرٌ عن غيرِ الموعوظِ بما يُستقبَحُ من الموعوظِ، فذلك أبلَغُ وأنجَعُ في الموعِظةِ، فإن لم يتقَبَّلْ فلينتَقِلْ إلى الوَعظِ بالتَّحشيمِ وفي الخلاءِ، فإن لم يَقبَلْ ففي حَضرةِ مَن يستحيي منه الموعوظُ؛ فهذا أدَبُ اللهِ تعالى في أمرِه بالقولِ اللَّيِّنِ. وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

[4477] رواه عبد الرزاق (20133)، والبيهقي في ((المدخل إلى السنن الكبرى)) (ص: 382) مطوَّلًا، والخطيب في ((الفقيه والمتفقه)) (2/380).

[4478] رواه مطوَّلًا البخاري (5998) واللفظ له، ومسلم (2317) من حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها.

[4479] ((بهجة قلوب الأبرار)) (189، 190).

[4480] ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (2/551، 552).

لا يواجِهُ بالموعِظةِ، لكِنْ كان يقولُ: ((ما بالُ أقوامٍ يَفعَلون كذا))[4481]. وقد أثنى عليه السَّلامُ على الرِّفقِ، وأمَر بالتَّيسيرِ، ونهى عن التَّنفيرِ، وكان يتخَوَّلُ بالموعظةِ خَوفَ المَلَلِ. وقال تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159]، وأمَّا الغِلظةُ والشِّدَّةُ فإنَّما تجِبُ في حَدٍّ من حدودِ اللهِ، فلا لِينَ في ذلك للقادِرِ على إقامةِ الحَدِّ خاصَّةً)[4482].

7 - ومِن صُوَرِ الجَفاءِ: جفاءُ طُلَّابِ العِلمِ، سواءٌ كان الجَفاءُ بَيْنَ طلَبةِ العِلمِ أو جفاءَ المعَلِّمِ أو الشَّيخِ لهم، وهذا على خِلافِ الأخلاقِ المطلوبةِ من الشَّيخِ والمعَلِّمِ، التي حكاها الآجُرِّيُّ بقولِه: (فأمَّا أخلاقُه مع مجالِسيه: فصَبورٌ على من كان ذِهنُه بطيئًا عن الفَهمِ حتَّى يَفهَمَ عنه، صبورٌ على جفاءِ مَن جَهِل عليه حتى يَرُدَّه بحِلمٍ، يؤدِّبُ جُلَساءَه بأحسَنِ ما يكونُ من الأدَبِ، لا يَدَعُهم يخوضون فيما لا يَعنيهم، ويأمُرُهم بالإنصاتِ مع الاستِماعِ إلى ما ينطِقُ به من العِلمِ، فإن تخطَّى أحَدُهم إلى خُلُقٍ لا يَحسُنُ بأهلِ العِلمِ لم يَجْبَهْه في وَجْهِه على جِهةِ التَّبكيتِ له، ولكِنْ يقولُ: لا يحسُنُ بأهلِ العِلمِ والأدَبِ كذا وكذا، وينبغي لأهلِ العِلمِ أن يتجافَوا عن كذا وكذا؛ فيكونُ الفاعِلُ لخُلُقٍ لا يَحسُنُ قد عَلِم أنَّه المرادُ بهذا، فيُبادِرُ برِفقِه به، إن سأله منهم سائلٌ عمَّا لا يعنيه ردَّه عنه، وأمرَه أن يسألَ عمَّا يَعْنيه، فإذا عَلِم أنَّهم فُقَراءُ إلى عِلمٍ قد غَفَلوا عنه، أبداه إليهم، وأعلَمَهم شِدَّةَ فَقرِهم إليه، لا يُعَنِّفُ السَّائِلَ بالتَّوبيخِ القبيحِ فيُخجِلَه، ولا يَزجُرُه فيَضَعَ مِن قَدْرِه، ولكِنْ يَبسُطُه في المسألةِ ليَجبُرَه فيها، قد عَلِم بُغيَتَه عمَّا يَعْنيه، ويحُثُّه على طَلَبِ عِلمِ الواجباتِ؛ مِن عِلمِ أداءِ فرائِضِه، واجتنابِ محارِمِه. يُقبِلُ على مَن يَعلَمُ أنَّه محتاجٌ إلى عِلمِ ما يَسأَلُ عنه، ويَترُكُ مَن يَعلَمُ أنَّه يريدُ الجَدَلَ والمِراءَ، يُقَرِّبُ عليهم ما يخافون بُعدَه بالحِكمةِ والموعِظةِ الحَسَنةِ، يَسكُتُ عن الجاهِلِ حِلمًا، ويَنشُرُ الحِكمةَ نُصحًا؛ فهذه أخلاقُه لأهلِ مَجلِسِه، وما شاكَلَ هذه الأخلاقَ)[4483].

أمَّا الجَفاءُ بَيْنَهم فقد يحصُلُ بَيْنَ طُلَّابِ العِلمِ من الجَفوةِ ما يَصِلُ إلى حَدٍّ لا يُحمَدُ، وقد يكونُ سَبَبُه التَّنافُسَ المذمومَ، الذي قد يَصِلُ بهم إلى دَرَجةِ التَّقاطُعِ والتَّهاجُرِ، والحديثِ في بَعضِهم البَعضِ، وقد يكونُ سَبَبُه حَسَدَ بَعضِهم لبعضٍ، واللهُ المستعانُ.

8 - جفاءُ مَن أحسَنوا إليك، وأعانوك عِندَ حاجتِك.

9 -ومِن صُوَرِ الجَفاءِ ما (رُوِيَ عن سُفيانَ الثَّوريِّ أنَّه قال: عَشَرةُ أشياءَ من الجَفاءِ:

أوَّلُها: رجلٌ أو امرأةٌ يدعو لنَفسِه ولا يدعو لوالِدَيه والمُؤمِنين.

والثَّاني: رَجُلٌ يقرَأُ القُرآنَ، ولا يقرَأُ في كُلِّ يومٍ مائةَ آيةٍ.

والثَّالِثُ: رَجُلٌ دَخَل المسجِدَ وخَرَج ولم يُصَلِّ ركعتينِ.

والرَّابعُ: رجُلٌ يمُرُّ على المقابِرِ ولم يُسَلِّمْ عليهم ولم يَدْعُ لهم.

والخامِسُ: رَجُلٌ دَخَل مدينةً في يومِ الجُمُعةِ، ثمَّ خَرَج ولم يُصَلِّ الجُمُعةَ.

والسَّادِسُ: رَجُلٌ أو امرأةٌ نَزَل في محلَّتِها عالِمٌ، ولم يذهَبْ إليه أحَدٌ ليتعلَّمَ منه شيئًا من العِلمِ.

[4481] من ذلك قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما بالُ أقوامٍ يَشتَرِطون شروطًا ليست في كتابِ اللهِ؟!)). أخرجه البخاري (2735)، ومسلم (1504). وقَولُه: ((ما بالُ أقوامٍ يرفعون أبصارَهم إلى السَّماءِ في صلاتِهم؟!)). أخرجه البخاري (750). وقَولُه: ((ما بالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا؟!)). أخرجه مسلم (1401).

[4482] ((رسائل ابن حزم)) (1/ 383، 384).

[4483] ((أخلاق العلماء)) (52/1).

والسَّابعُ: رجُلانِ ترافَقا ولم يسأَلْ أحَدُهما عن اسمِ صاحِبِه.

والثَّامِنُ: رَجُلٌ دعاه رجلٌ إلى ضيافةٍ، فلم يَذهَبْ إلى الضِّيافةِ.

والتَّاسِعُ: شابٌّ يُضيعُ شبابَه وهو فارِغٌ، ولم يَطلُبِ العِلمَ والأدَبَ.

والعاشِرُ: رَجُلٌ شَبْعانُ وجارُه جائعٌ، ولا يُعطيه شيئًا من طعامِه)[4484].

-ومِن صُوَرِ الجَفاءِ ما رُوِيَ عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: (أربَعةٌ تُعَدُّ من الجَفاءِ: دُخولُ الرَّجُلِ المسجِدَ يُصَلِّي في مُؤَخَّرِه ويَدَعُ أن يتقَدَّمَ في مُقَدَّمِه، ويمُرُّ الرَّجُلُ بَيْنَ يَدَيِ الرَّجُلِ وهو يصَلِّي، ومَسحُ الرَّجُلِ جَبهَتَه قبل أن يقضِيَ صلاتَه، ومؤاكَلةُ الرَّجلِ مع غيرِ أهلِ دينِه)[4485].

المطلب الخامس: أسبابُ الوُقوعِ في الجَفاءِ

1 -ضَعفُ الإيمانِ وقِلَّةُ العِلمِ؛ لذا كان أهلُ البداوةِ أكثَرَ النَّاسِ جَفاءً، وأغلَظَهم طبعًا، وأقساهم قُلوبًا، وأضعَفَهم إيمانًا.

2 -تزيينُ الشَّيطانِ.

3 -الحَسَدُ قد يُوَلِّدُ الجَفاءَ بَيْنَ المتحاسِدَينِ، ويُوسِّعُ النُّفرةَ بَيْنَهما؛ لأنَّه (إذا شاع الحَسَدُ بَيْنَ النَّاسِ، وحَسَد بعضُهم بعضًا، زال الخَيرُ عنهم، وحَلَّ الجَفاءُ، واشتَعَلت نارُ الفِتنةِ، وعَمَّتْهم المُصيبةُ والمِحنةُ)[4486].

4 -البُعدُ عن المنهَجِ الصَّحيحِ في مُعامَلةِ الآخرينَ.

5 -تَركُ النُّصحِ والتَّوجيهِ لمن اتَّصَف بهذه الصِّفةِ، والمعاتَبةِ بالحُسنى حتَّى يرعويَ، وقديمًا قال بعضُ الحُكَماءِ: (العِتابُ علامةُ الوفاءِ، وسِلاحُ الأكْفاءِ، وحاصِدُ الجَفاءِ)[4487]. وقال أبو حاتمٍ البُستيُّ: (إنَّ من أعظَمِ الجَفاءِ تَرْكَ العِتابِ)[4488].

6 -البيئةُ والتَّنشِئةُ في الصِّغَرِ.

7 -الكِبرُ.

8 -مُقابلةُ الجَفاءِ بالجَفاءِ؛ فإنَّ بعضَ النَّاسِ قد يكونُ هيِّنًا ليِّنًا، رقيقَ الطَّبعِ غيرَ جافٍ، إلَّا أنَّ جفاءَ الجُفاةِ قد يحوِّلُه إلى جافٍ؛ من بابِ المقابلةِ بالمِثْلِ، حالُه في ذلك كحالِ القائِلِ:

من البِرِّ أن تلقى الجَفاءَ بمِثْلِه

ليَعطِفَ من يجفو على وَصلِ صاحِبِه[4489]

[4484] ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: 144).

[4485] رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (9380).

[4486] ((صيد الأفكار)) لحسين المهدي (ص: 478).

[4487] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (726/2).

[4488] ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص: 182).

[4489] ((المنتحل)) للثعالبي (ص: 223).

أو كقَولِ الآخَرِ:

أَصِلُ الكريمَ إذا أراد وِصالَنا

وأَصُدُّ عنه صُدودَه أحيانَا

فإذا استَمَرَّ على الجَفاءِ تَرَكْتُه

ووجَدْتُ عنه مَذهَبًا ومَكانَا[4490]

9- العَجَلةُ وسُوءُ الظَّن؛ قال ابنُ قُتَيبةَ: (قرأتُ في كتابٍ: لستُ أدري بأيِّ شيءٍ استَجَزْتَ تصديقَ ظَنِّك حتَّى أنفَذْتَ عَلَيَّ به حُكمَ قطيعتِك؟! فواللهِ ما صَدَق عَلَيَّ ولا كاد، ولا استجَزْتُ ما توهَّمْتَه فيمن لا يلزَمُني حَقُّه، وأعيذُك باللهِ من بِدارٍ إلى حُكمٍ يوجِبُ الاعتذارَ؛ فإنَّ الأناةَ سَبيلُ أهلِ التُّقى والنُّهى، والظَّنُّ والإسراعُ إلى ذوي الإخاءِ يُنتِجانِ الجَفاءَ، ويميلانِ عن الوَفاءِ إلى اللَّفَاءِ[4491].

سادِسًا: الوسائِلُ المُعينةُ على تَرْكِ الجَفاءِ

1 -التَّزوُّدُ بالإيمانِ، والتَّضَلُّعُ من العِلمِ النَّافِعِ؛ فإنَّهما كفيلانِ بترقيقِ الطَّبعِ، وتحسينِ الخُلُقِ.

2 -الاقتداءُ بسَيِّدِ الخَلقِ أجمعينَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في كيفيَّةِ مُعاملتِه للنَّاسِ، وحِرصِه عليهم، ورِفقِه بهم.

3 -الاختِلاطُ بالنَّاسِ والصَّبرُ على أذاهم، وكُلَّما بَعُد الإنسانُ عن النَّاسِ وتجمُّعاتِهم غَلُظ طبعُه، وقسا قَلبُه، وساء خُلُقُه؛ لعَدَمِ وُجودِ من يعاشِرُه، ويتعَلَّمُ منه ويصبِرُ عليه، كما هو الحالُ في أهلِ الباديةِ.

4 -التَّناصُحُ بَيْنَ الإخوانِ والعِتابُ بَيْنَهم بالحُسنى كفيلٌ بأن يُهَذِّبَ الطِّباعَ، ويُذهِبُ الجَفاءَ، وقد قال الشَّاعِرُ:

لستُ ممَّن يُماذِقُ[4492] الصَّاحِبَ ال

ودَّ إذا أظهَرَ الجَفاءَ الصَّريحَا

أنا أنهاه ما استطَعْتُ فإن لجَّ[4493]

أعرتُ الفؤادَ يأسًا مُريحَا

غيرَ أنِّي على القطيعةِ لا أُظ

هِرُ هَجرًا ولا أقولُ قبيحَا[4494]

[4490] ((تاريخ بغداد)) للخطيب البغدادي (16/96).

[4491] ((عيون الأخبار)) (3/ 118، 119).

[4492] المَذْقُ: اللَّبَنُ قد خُلِط به الماءُ، فاستعاره للمودَّةِ. يُنظَر: ((شرح ديوان الحماسة)) للمرزوقي (ص: 1261).

[4493] اللَّجَاجُ: التَّمادي في الخُصومةِ. وقيل: هو الاستِمرارُ على المعارَضةِ في الخِصامِ. يُنظَر: ((تاج العروس)) للزبيدي .(179 /6)

[4494] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (725/2).

وقال أعرابيٌّ لصاحبٍ له: (لستُ أقتضي الوفاءَ بكثرةِ الإلحاحِ فأُثقِلَ عليك، ولا أقابِلُ الجَفاءَ بتركِ العِتابِ فأغتَنِمَ القطيعةَ منك)[4495].

وقال بعضُ الحُكَماءِ: (العِتابُ علامةُ الوفاءِ، وسلاحُ الأَكْفاءِ، وحاصِدُ الجَفاءِ)[4496].

وعن الأصمَعيِّ قال: قال أعرابيٌّ: (عاتِبْ من ترجو رُجوعَه)[4497].

5 -أن يَعلَمَ من ابتُلِيَ بهذا الخُلُقِ أنَّه قد يُعَرِّضُ نفسَه للعُقوبةِ والعذابِ إن داومَ على سوءِ الخُلُقِ، وقَسوةِ القَلبِ.

6 -أن يَعلَمَ أنَّه قد يخسَرُ كُلَّ أصدقائِه وأحبابِه.

7 -أن يَعلَمَ أنَّه متَّصِفٌ ببعضِ صِفاتِ الجبَّارين الذين يُبغِضُهم اللهُ تبارك وتعالى.

8 -أن يَعلَمَ أنَّه بقَسوتِه وجَفائِه قد يَظلِمُ مَن حَولَه فيأثَمُ، وربَّما يدعو عليه المظلومون فلا تخطِئُه تلك الدَّعَواتُ؛ فيَخسَرُ دُنياه وآخِرتَه.

9 -أن يَصبِرَ على جفاءِ الإخوانِ ولا يُقابِلَهم بالمِثلِ؛ فإنَّه مأجورٌ مُثابٌ على صَبرِه، وقد يكونُ صَبرُه هذا سَبَبًا لتركِهم الجَفاءَ وبُعدِهم عنه، وهو من جانبٍ آخَرَ أسلَمُ له؛ قال ابنُ حِبَّانَ: (العاقِلُ يتفَقَّدُ تَركَ الجَفاءِ مع الإخوانِ، ويراعي محوَها إن بدَت منه، ولا يجِبُ أن يستَضعِفَ الجفوةَ اليسيرةَ؛ لأنَّ مَن استصغر الصَّغيرَ يوشِكُ أن يَجمَعَ إليه صغيرًا، فإذا الصَّغيرُ كبيرٌ، بل يبلُغُ مجهودَه في محوِها). وقال أيضًا: (ولَأن يصبِرَ المرءُ على حرارةِ الجَفاءِ ومَرارتِها أَولى من الانتقامِ ممَّا يَستجلِبُ عليه بما هو أحَرُّ وأمَرُّ ممَّا مضى؛ لأنَّ من الكلامِ ما هو أشَدُّ من الحَجَرِ، وأنفَذُ من الإبَرِ، وأمَرُّ من الصَّبرِ، ولقد أحسَنَ الذي يقولُ:

لقد أسمَعُ القولَ الذي كاد كلَّما

تُذَكِّرُنيه النَّفسُ قَلبي تصَدَّعُ

فأُبدي لمن أبداه منِّي بشاشةً

كأنِّي مسرورٌ بما منه أسمَعُ

وما ذاك عن عَجزٍ به غيرَ أنَّني

أرى أنَّ تَرْكَ الشَّرِّ للشَّرِّ أقطَعُ[4498]

ولْيَعلَمْ هذا الفاضِلُ أنَّ أفضَلَ طريقةٍ يختبرُ فيها حُسنَ خُلُقِه هي الصَّبرُ على جفاءِ الجُفاةِ، واحتمالُ الأذى؛ قال الغَزاليُّ: (وأَولى ما يُمتحَنُ به حُسنُ الخُلُقِ: الصَّبرُ على الأذى، واحتمالُ الجَفاءِ)[4499].

[4495] ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان التوحيدي (60 /8)

[4496] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/726)

[4497] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (726/1)، ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (304 /1)

[4498] ((روضة العقلاء)) (ص: 171).

[4499] ((إحياء علوم الدين)) (3/70)

وعليه أن يتَّهِمَ نفسَه إذا رأى جفاءً من إخوانِه؛ فرُبَّما كان هذا الجَفاءُ بسَبَبِ ذَنبٍ ارتكَبه، أو خطيئةٍ أتى بها. قال بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المُزَنيُّ: (وإن رأيتَ إخوانَك المُسلِمين من يكرمونَك، ويُعَظِّمونك ويَصِلونك، فقُلْ أنت: هذا فَضلٌ أخذوا به، وإن رأيتَ منهم جفاءً وانقباضًا، فقُلْ: هذا ذنبٌ أحدَثْتُه)[4500].

المطلب السابع: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **الصَّبرُ على الجَفاءِ:**

قال ابنُ حزمٍ الأندَلُسيُّ: (الصَّبرُ على الجَفاءِ ينقَسِمُ ثلاثةَ أقسامٍ:

1 -فصَبرٌ عمَّن يقدِرُ عليك، ولا تَقدِرُ عليه.

2 -وصَبرٌ عمَّن تقدِرُ عليه، ولا يَقدِرُ عليك.

3 -وصَبرٌ عمَّن لا تَقدِرُ عليه، ولا يَقدِرُ عليك.

فالأوَّلُ: ذُلٌّ ومهانةٌ، وليس من الفضائِلِ، والرَّأيُ لمن خَشِيَ ما هو أشدُّ ممَّا يصبرُ عليه المتاركةُ والمباعَدةُ. والثَّاني: فَضلٌ وبِرٌّ، وهو الحِلمُ على الحقيقةِ، وهو الذي يوصَفُ به الفُضَلاءُ، والثَّالِثُ ينقَسِمُ قِسمَينِ:

أ- إمَّا أن يكونَ الجَفاءُ ممَّن لم يقَعْ منه إلَّا على سبيلِ الغَلَطِ، ويعلَمُ قُبحَ ما أتى به، ويندَمُ عليه؛ فالصَّبرُ عليه فَضلٌ وفَرضٌ، وهو حِلمٌ على الحقيقةِ.

ب- وأمَّا من كان لا يدري مقدارَ نَفسِه، ويُظُنُّ أنَّ لها حقًّا يستطيلُ به، فلا يندَمُ على ما سَلَف منه؛ فالصَّبرُ عليه ذُلٌّ للصَّابِرِ، وإفسادٌ للمصبورِ عليه؛ لأنَّه يزيدُ استشراءً، والمقارَضةُ له سُخْفٌ، والصَّوابُ إعلامُه بأنَّه كان ممكِنًا أن ينتَصِرَ منه، وأنَّه إنَّما تَرَك ذلك استرذالًا له فقط، وصيانةً عن مراجعتِه، ولا يُزادُ على ذلك، وأمَّا جَفاءُ السَّفِلةِ فليس جزاؤُه إلَّا النَّكالَ وَحْدَه)[4501].

- **جفاءُ الإخوانِ والأصدِقاءِ:**

-قال ابنُ الجَوزيِّ: (كان لنا أصدِقاءُ وإخوانٌ أعتَدُّ بهم، فرأيتُ منهم من الجَفاءِ وتَرِك شُروطِ الصَّداقةِ والأُخُوَّةِ عَجائِبَ، فأخَذْتُ أعتِبُ، ثمَّ انتبَهْتُ لنفسي، فقُلتُ: وما ينفَعُ العتابُ؟! فإنَّهم إن صلَحوا فللعِتابِ لا للصَّفاء، فهَمَمْتُ بمقاطعتِهم، ثمَّ تفكَّرْتُ، فرأيتُ النَّاسَ بَيْنَ معارِفَ وأصدِقاءَ في الظَّاهِرِ، وإخوةً مُباطِنينَ، فقُلتُ: لا تَصلُحُ مُقاطعتُهم، إنَّما ينبغي أن تنقُلَهم من ديوانِ الأُخُوَّةِ إلى ديوانِ الصَّداقةِ الظَّاهِرةِ، فإنْ لم يصلُحوا لها نقَلْتَهم إلى جملةِ المعارِفِ، وعامَلْتَهم معاملةَ المعارِفِ، ومِنَ الغَلَطِ أن تعاتِبَهم؛ فقد قال يحيى بنُ مُعاذٍ: بِئسَ الأخُ أخٌ تحتاجُ أن تقولَ له: اذكُرْني في دُعائِك!).[4502]

[4500] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (2/226)

[4501] ((الأخلاق والسير)) (26، 27).

[4502] ((صيد الخاطر)) (ص: 391) .

● **انتهارُ شَريكٍ بعضَ مَن ظهَر منه الجَفاءُ:**

عن يحيى بنِ أيُّوبَ قال: (كنَّا عِندَ شَريكٍ يومًا، فظهر من أصحابِ الحَديثِ جَفاءٌ، فانتَهَر بعضَهم، فقال له رَجُلٌ: يا أبا عبدِ اللهِ، لو رفَقْتَ! فوضَعَ شَريكٌ يَدَه على رُكبَةِ الشَّيخِ، وقال: النُّبلُ عونٌ على الدِّينِ)[4503].

● **المحبَّةُ الحقيقيَّة:**

-وقال يحيى بنُ مُعاذٍ: (حقيقةُ المحبَّةِ لا يزيدُها البِرُّ، ولا يَنقُصُها الجَفاءُ)[4504]. وقد قيل:

إنَّ مَحْضَ الوُدِّ لا يُزري به طُولُ التَّنائي

وانقِطاعٌ من كِتابٍ وتراخٍ مِن لِقاءِ

إنَّما الوامِقُ من يحمِلُ أثقالَ الجَفاءِ

والذي تُضجِرُه الجَفوةُ مَدخولُ الإخاءِ[4505].

[4503] رواه ابنُ الجعد في ((المسند)) (2427)، والخطيب في ((تاريخ بغداد)) (9/285) واللفظ لهما، ووكيع في ((أخبار القضاة)) (3/155).

[4504] ذَكره الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ في ((محاضرات الأدباء)) (2/411).

[4505] ((محاضرات الأدباء)) للراغب (2/ 37).

المبحث الثاني عشر: العُبوسُ

المطلب الأول: معنى العُبوسِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى العُبوسِ لُغةً:**

العَينُ والباءُ والسِّينُ: أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تَكرُّهٍ في شيءٍ، يقالُ: عَبَس يَعبِسُ عَبسًا، وعَبَس: كَلَح وقَطَّب ما بَيْنَ عينَيه، ورجُلٌ عابِسٌ من قومٍ عُبوسٍ، وهو عابِسُ الوَجهِ: غَضبانُ، وعَبَّاسٌ: إذا كَثُر ذلك منه، ويومٌ عابِسٌ وعَبوسٌ: شديدٌ. وخلافُ العُبوسِ: طلاقةُ الوَجهِ[4506].

- **معنى العُبوسِ اصطِلاحًا:**

قال أبو هلالٍ العَسكَريُّ: (العُبوسُ: تَكرُّهُ الوَجهِ عِندَ اللِّقاءِ والسُّؤالِ)[4507].

وقال ابنُ عطيَّةَ: (العُبوسُ: تقَطُّبُ الوَجهِ وارِبدادُه عِندَ كراهيةِ أمرٍ)[4508].

وقال المُناويُّ: (العُبوسُ: تقبُّضُ الوَجهِ عن كراهيةٍ أو ضِيقِ صَدرٍ).[4509]

وقال الرَّاغِبُ: (العُبوسُ: قُطوبُ الوَجهِ من ضِيقِ الصَّدرِ).[4510]

المطلب الثاني: الفرقُ بينَ العُبوسِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ العُبوسِ والبُسورِ:**

قيل: البُسورُ: تقطيبُ الوَجهِ، وهو أشَدُّ من العُبوسِ[4511].

وقيل: إنَّ ظُهورَ العُبوسِ في الوَجهِ بعدَ المحاوَرةِ، وظُهورَ البُسورِ في الوَجهِ قَبلَ المحاوَرةِ[4512].

وقيل: هما بمعنًى واحِدٍ[4513].

- **الفرقُ بينَ العُبوسِ والكُلوحِ:**

أنَّ الكُلوحَ: بُدُوُّ الأسْنانِ عندَ العُبوسِ[4514].

4506 يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((الفروق اللغوية)) للعسكري، ((المغرب في ترتيب المعرب)) للمطرزي، ((لسان العرب)) لابن منظور.

4507 ((الفروق اللغوية)) (ص: 264).

4508 ((المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)) (5/ 436).

4509 ((التوقيف على مهمات التعاريف)) (ص: 235).

4510 ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: 544).

4511 يُنظَر: ((المحرر الوجيز)) لابن عطية (5/ 405)، ((التسهيل لعلوم التنزيل)) لابن جُزَي (2/ 429).

4512 يُنظَر: ((تفسير القرآن)) للسمعاني (6/ 93)، ((تفسير القرآن)) للعز بن عبد السلام (3/ 387)، ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (19/ 76).

4513 يُنظَر: ((تفسير القرآن)) للسمعاني (6/ 93).

4514 يُنظر: ((العين)) للخليل (3/ 63)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (4/ 63).

وقيل: الكُلوحُ زيادةُ العُبوسِ، والإفْراطُ فيه[4515].

وقيل: هما بمعنًى واحدٍ[4516].

المطلب الثالث: ذَمُّ العُبوسِ والنَّهْيُ عنه

أ- من القُرآنِ الكريمِ :

قال تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس: 1 - 10].

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بمُعاتَبةِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عِتابًا رقيقًا، فقال: قَطَّبَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَجْهَه، وأعرَضَ؛ بسَبَبِ مَجيءِ الرَّجُلِ الأعمى إليه، وهو مَشغولٌ بدَعوةِ رَجُلٍ مِن أشرافِ قُرَيشٍ، وما يُدْرِيك -يا مُحمَّدُ- لعَلَّ هذا الأعمى يتطَهَّرُ مِن ذُنوبِه بما يتعَلَّمُه مِنَ القُرآنِ منك، أو يتذَكَّرُ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما يَسمَعُ مِنَ القُرآنِ[4517]؟!

وفي الآياتِ الكريمةِ تَلَطُّفُ اللهِ عزَّ وجَلَّ بمُخاطَبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ فقال سُبحانَه ثلاثَ جُمَلٍ لَمْ يُخاطِبْ فيها النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ لأنَّها عِتابٌ، فلو وُجِّهَتْ إلى الرَّسولِ بالخِطابِ لكان شَديدًا عليه، لكنْ جاءتْ بالغَيبةِ (عَبَسَ) وإلَّا كان مقتضى الحالِ أنْ يقولَ: «عَبَسْتَ وتَوَلَّيتَ أنْ جاءك الأعمى»، ولكِنَّه قال: (عَبَسَ وَتَوَلَّى) فجَعَلَ الحُكْمَ للغائِبِ؛ كراهيةَ أنْ يُخاطِبَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بهذه الكَلِماتِ الغَليظةِ الشَّديدةِ، ومِن أجْلِ ألَّا يَقَعَ بمِثْلِ ذلك مَن يَقَعُ مِن هذه الأُمَّةِ، واللهُ سُبحانَه وتعالى وَصَفَ كتابَه العزيزَ بأنَّه بلِسانٍ عَربيٍّ مُبينٍ، وهذا مِن بَيانِه[4518].

ب- من السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

جاءت السُّنَّةُ النَّبَويَّةُ بالتَّرغيبِ في طلاقةِ الوَجهِ وانبساطِه وبشاشتِه، وجَعَلت ابتسامةَ المُسلِمِ في وَجهِ أخيه صَدَقةً؛ ممَّا يُفهَمُ منه مَنعُ ما ينافي ذلك وكراهتُه، فضِدُّ طلاقةِ الوَجهِ والتَّبسُّمِ: العُبوسُ والتَّجهُّمُ.

- عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((تبَسُّمُك في وَجهِ أخيك لك صَدَقةٌ))[4519].

- وعن أبي جُرَيٍّ جابِرِ بنِ سُلَيمٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَحقِرَنَّ شيئًا مِن المعروفِ، وأن تُكلِّمَ أخاك وأنت مُنبسِطٌ إليه وَجهُك؛ إنَّ ذلك مِن المعروفِ))[4520].

[4515] يُنظر: ((المعجم الوسيط))، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار.

[4516] يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير.

[4517] ((التفسير المحرر- الدرر السنية)) (42/ 226).

[4518] يُنظَر: ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: 62).

[4519] رواه الترمذي (1956)، والبزار (457/9) (4070)، وابن حبان (287/2) (529). قال الترمذي: حسنٌ غريبٌ. وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (1956)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (287/2).

[4520] أخرجه أبو داود (4084) واللفظ له، وأحمد (20635). صحَّحه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (522)، وابن حجر كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (5/322)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4084)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (4084)، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين)) (196): يرتقي إلى الصِّحَّةِ.

- وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: قال لي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَحقِرَنَّ من المعروفِ شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوَجهٍ طَلْقٍ))[4521].

والوَجهُ الطَّلْقُ: الذي فيه بشاشةٌ وفرَحٌ، يعني: افعَلِ الخيراتِ كُلَّها، قليلَها وكثيرَها. ومن الخَيراتِ: أن يكونَ وَجهُك ذا بشاشةٍ وفَرَحٍ إذا رأيتَ مُسلِمًا؛ فإنَّه يَصِلُ إلى قلبِه سُرورٌ إذا تركْتَ العُبوسَ، وتتلَطَّفُ عليه. ولا شَكَّ أنَّ إيصالَ السُّرورِ إلى قلوبِ المُسلِمين حَسَنةٌ[4522].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ وغَيرِهم:

- قال ابنُ المبارَكِ: (إنَّه ليُعجِبُني من القُرَّاءِ كُلُّ طَلقٍ مِضحاكٍ، فأمَّا مَن تلقاه بالبِشرِ ويلقاك بالعُبوسِ كأنَّه يمُنُّ عليك بعَمَلِه، فلا أكثَرَ اللَّهُ في القُرَّاءِ مِثلَه)[4523].

- وقال الأحنَفُ: (الدَّاءُ الدَّويُّ: الخُلُقُ الرَّدِيُّ، واللِّباسُ البَذِيُّ، بئسَ الملبوسُ العُبوسُ)[4524].

- وقال خالِدُ بنُ صَفوانَ: (لا بأسَ بالمفاكهةِ تُخرِجُ الرَّجُلَ من حالِ العُبوسِ)[4525].

- وقال عبدُ القادِرِ الجيلانيُّ: (ينبغي أن يُحسِنَ العِشرةَ مع إخوانِه، فيكونَ مُنبَسِطَ الوَجهِ غيرَ عَبوسٍ ولا مخالِفًا لهم فيما يريدون عنه، بشَرطِ ألَّا يكونَ فيه خَرقٌ للشَّرعِ ومجاوزةٌ للحَدِّ وارتكابٌ للإثمِ، بل يكونُ ممَّا أباحه الشَّرعُ وأذِنَ فيه الرَّبُّ، ولا يكونُ مماريًا ولا لجوجًا، ويكونُ أبدًا مساعِدًا للإخوانِ على الشَّرطِ الذي ذكَرنا)[4526].

وقال ابنُ عقيلٍ: (البِشرُ مُؤنِسٌ للعُقولِ، ومن دواعي القَبولِ، والعُبوسُ ضِدُّه. لو كان في العُبوسِ خَيرٌ ما عَتَب عليه النَّبيُّ عليه السَّلامُ)[4527].

- وقال بعضُ الحُكَماءِ لابنِه: (يا بُنَيَّ، عليك بالتَّرحيبِ والبِشرِ، وإيَّاك والتَّقطيبَ والكِبرَ؛ فإنَّ الأحرارَ أحَبُّ إليهم أن يَلقَوا بما يُحِبُّون ويُحرَموا، من أن يُلقَوا بما يكرهون ويُعطَوا؛ فانظُرْ إلى خَصلةٍ غَطَّت على مِثلِ اللُّؤمِ فالزَمْها، وانظُرْ إلى خَصلةٍ عَفَّت على مِثلِ الكَرَمِ فاجتَنِبْها. ألم تسمَعْ إلى قولِ حاتمٍ الطَّائيِّ:

أُضاحِكُ ضيفي قبلَ إنزالِ رَحْلِه

ويُخصِبُ عندي والمحَلُّ جَديبُ

وما الخِصبُ للأضيافِ أن يَكثُرَ القِرى

ولكِنَّما وَجهُ الكريمِ خَصيبُ)[4528].

[4521] أخرجه مسلم (2626).

[4522] يُنظَر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (2/ 533).

[4523] ((شعب الإيمان)) للبيهقي (10/ 408، 409) رقم (7710).

[4524] ((محاضرات الأدباء)) للراغب (1/ 338).

[4525] المصدر السابق (1/ 346).

[4526] ((الغنية لطالبي طريق الحق)) (2/ 294).

[4527] ((الفنون)) (2/ 635).

- وقال ابنُ عُثَيمين: (ينبغي أن يقابِلَ المرءُ غيرَه بالبِشرِ والسَّماحةِ وانطِلاقِ الوَجهِ؛ ولهذا كان من أوصافِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه كان دائِمَ البِشرِ، كثيرَ التَّبسُّمِ. وضِدُّه العُبوسُ والتَّقطيبُ وعدَمُ الانشراحِ؛ فإنَّ هذا يوجِبُ لغيرِك أن يَنفِرَ منك، وكذلك أيضًا يوجِبُ ألَّا يأنَسَ بك أحَدٌ)[4529].

وقال حُسينٌ المهديُّ: (الابتهاجُ والسُّرورُ هما الصُّورةُ المُشرِقةُ المريحةُ الجميلةُ لكُلِّ وَجهٍ، وعَكسُها العُبوسُ وتقطيبُ الحاجِبَينِ، وهما الصُّورةُ المُزعِجةُ لكُلِّ إنسانٍ)[4530].

وقال أيضًا: (لن يحصُدَ العابسون وهم يَشمَخون بأنوفِهم على النَّاسِ غيرَ بُغضِ النَّاسِ وازدِرائِهم لهم؛ فالعُبوسُ والغِلظةُ والفَظاظةُ كُلُّها مترادفاتٌ لا تجلِبُ لصاحِبِها إلَّا الفُرْقةَ والنُّفورَ)[4531].

وقال أحمد أمين: (ليس المبتَسِمون للحياةِ أسعَدَ حالًا لأنفُسِهم فقط، بل هم كذلك أقدَرُ على العَمَلِ، وأكثَرُ احتِمالًا للمسؤوليَّةِ، وأصلَحُ لمواجهةِ الشَّدائدِ ومعالجةِ الصِّعابِ، والإتيانِ بعظائِمِ الأمورِ التي تنفعُهم وتنفَعُ النَّاسَ.

لو خُيِّرتُ بَيْنَ مالٍ كثيرٍ أو منصِبٍ خطيرٍ، وبينَ نَفسٍ راضيةٍ باسمةٍ، لاخترْتُ الثَّانيةَ، فما المالُ مع العُبوسِ؟! وما المنصِبُ مع انقباضِ النَّفسِ؟! وما كُلُّ ما في الحياةِ إذا كان صاحِبُه ضَيِّقًا حَرِجًا كأنَّه عائدٌ من جنازةِ حَبيبٍ؟! وما جمالُ الزَّوجةِ إذا عبَسَت وقَلَبَت بيتَها جحيمًا؟! لَخيرٌ منها ألفَ مَرَّةٍ زوجةٌ لم تبلُغْ مَبلَغَها في الجمالِ، وجعَلَت بيتَها جَنَّةً)[4532].

المطلب الرابع: آثارُ العُبوسِ

1- يُوقِعُ الوَحشةَ والبِغضةَ والنُّفرةَ في قُلوبِ الخَلقِ[4533].

قال الشَّاعِرُ:

أخو البِشرِ محمودٌ على حُسنِ بِشرِه

ولن يَعدَمَ البغضاءَ مَن كان عابِسًا[4534]

2- مانِعٌ من الوُدِّ.

3- داعيةٌ للقطيعةِ والهَجرِ.

4- مَجلَبةٌ للذَّمِّ، وقد قال المنصورُ: (إذا أحبَبْتَ المحمَدةَ من النَّاسِ بلا مَؤونةٍ، فالقَهم ببِشرٍ حَسَنٍ)[4535].

[4528] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (2/ 199).

[4529] يُنظَر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة القصص)) (ص: 102).

[4530] ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال)) (2/ 311).

[4531] المصدر السابق (1/ 220).

[4532] ((فيض الخاطر)) (6/ 148).

[4533] يُنظَر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (2/ 296).

[4534] ((الإمتاع والمؤانسة)) لأبي حيان (ص: 399).

[4535] ((الموشى)) للوشاء (ص: 29).

5- قِلَّةُ الصَّاحِبِ والصَّديقِ، وقد قِيلَ لحَكيمٍ: مَن أضيَقُ النَّاسِ طريقًا وأقَلُّهم صديقًا؟ قال: مَن عاشَرَ النَّاسَ بعُبوسِ وَجهِه واستطال عليهم بنَفسِه[4536].

6- العُبوسُ من علاماتِ الفَظاظةِ[4537].

7- ربَّما يُؤدِّي العُبوسُ وضِيقُ الصَّدرِ إلى بعضِ الأمراضِ، ومنها مَرَضُ الضَّغطِ، وإنَّ انشراحَ الصَّدرِ وطلاقةَ الوَجهِ من أكبَرِ العقاقيرِ المانعةِ من هذا الدَّاءِ؛ ولهذا فإنَّ الأطبَّاءَ ينصَحون من ابتُلِيَ بهذا الدَّاءِ أن يبتَعِدَ عمَّا يثيرُه ويُغضِبُه؛ لأنَّ ذلك يزيدُ في مَرَضِه[4538].

المطلب الخامس: أقسامُ العُبوسِ

- عُبوسٌ ناتِجٌ عن أمورٍ طارئةٍ، وأسبابٍ عارضةٍ، كبعضِ الهُمومِ.

- عُبوسٌ متولِّدٌ مِن خُلُقٍ راسخٍ وجِبِلَّةٍ.

ويمكِنُ أن يُقسَّمَ أيضًا إلى:

- عُبوسٍ عامٍّ، كالنَّاتِجِ عن مِثلِ الغِنى والفَقرِ، وكِبَرِ السِّنِّ والهَرَمِ.

- عُبوسٍ خاصٍّ تجاهَ إنسانٍ بعينِه، ويكونُ ناتجًا عن بُغضِه[4539].

المطلب السادس: دَرَجاتُ العُبوسِ

إذا زوى ما بَيْنَ عينَيه فهو قاطِبٌ وعابِسٌ.

فإذا كَشَّر عن أنيابِه مع العُبوسِ فهو كالِحٌ.

فإذا زاد عُبوسُه فهو باسِرٌ ومُكفَهِرٌّ.

فإذا كان عُبوسُه من الهَمِّ فهو ساهِمٌ.

فإذا كان عُبوسُه من الغيظِ وكان مع ذلك منتَفِخًا فهو مُبَرطِمٌ[4540].

المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ العُبوسِ

1- العُبوسُ في وَجهِ كُلِّ مَن يلقاه. وعن هشامِ بنِ عُروةَ عن أبيه، قال: (مكتوبٌ في الحِكمةِ: بُنَيَّ، لتكُنْ كَلِمتُك طَيِّبةً، وليَكُنْ وَجهُك بسيطًا، تكُنْ أحَبَّ إلى النَّاسِ ممَّن يُعطيهم العطاءَ)[4541].

[4536] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 335).

[4537] ((بريقة محمودية)) للخادمي (3/ 71).

[4538] ((العلم)) لابن عثيمين (ص: 184).

[4539] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 244-246).

[4540] يُنظَر: ((فقه اللغة وسر العربية)) للثعالبي (ص: 110).

2- العُبوسُ في وَجهِ الوالِدَينِ؛ قال الهيتمي: (العُقوقُ كبيرةٌ، فإن كان... عقوقُه هو استِثقالَه لأمرِهما ونَهْيِهما، والعُبوسَ في وُجوهِهما، والتَّبَرُّمَ بهما مع بَذلِ الطَّاعةِ ولُزومِ الصَّمتِ، فصَغيرةٌ)[4542].

3- العُبوسُ في وُجوهِ الضِّيفانِ. ومن آدابِ المُضيفِ: أن يخدُمَ أضيافَه، ويُظهِرَ لهم الغِنى، وبَسْطَ الوَجهِ، فقد قيل: البشاشةُ في الوَجهِ خيرٌ مِن القِرى. قالوا: فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحِكٌ[4543]؟!

4- العُبوسُ في وُجوهِ السَّائلينَ، وهذا من مكايِدِ الشَّيطانِ؛ حيثُ يأمُرُ المرءَ أن يَلقى المساكينَ وذوي الحاجاتِ بوَجهٍ عَبوسٍ، وألَّا يُريَهم بِشرًا ولا طلاقةً لئَلَّا يَطمَعوا فيه ويتجَرَّؤوا عليه، وتَسقُطَ هَيبتُه من قلوبِهم! فيُحرَمُ العبدُ بذلك صالِحَ أدعيتِهم، ومَيلَ قُلوبِهم إليك، ومحبَّتَهم له[4544].

ويُذكَرُ أنَّ أبا بكرِ بنَ دُرَيدٍ قَصَد بعضَ الوُزَراءِ في حاجةٍ، فلم يَقضِها له، وظَهَر له منه ضجَرٌ، فقال:

لا تَدخُلَنْك ضَجرةٌ من سائِلٍ

فلَخَيرُ دَهرِك أن تُرى مَسؤولَا

لا تجبَهَنْ بالرَّدِّ وَجْهَ مُؤَمِّلٍ

فبقاءُ عِزِّك أن تُرى مأمولَا

تلقى الكريمَ فتَستَدِلَّ بِبِشْرِه

وترى العُبوسَ على اللَّئيمِ دليلَا

واعلَمْ بأنَّك عن قليلٍ صائِرٌ

خَبَرًا فكُنْ خَبَرًا يروقُ جميلَا[4545]

5- العُبوسُ عِندَ الجودِ والعَطاءِ. قال الجاحِظُ: (زعَمَت الحُكَماءُ أنَّ القليلَ مع طلاقةِ الوَجهِ أوقَعُ بقُلوبِ ذوي المروءاتِ من الكثيرِ مع العُبوسِ والانقِباضِ)[4546].

وقال المتنبِّي:

وإنْ بَذَلَ الإنسانُ لي جُودَ عابِسٍ

جَزَيتُ بجُودِ التَّارِكِ المتَبَسِّمِ

[4541] ((الزهد والرقائق)) لابن المبارك (1058).

[4542] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (2/ 115).

[4543] ((المستطرف في كل فن مستطرف)) للأبشيهي (ص: 191).

[4544] يُنظَر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (1/ 120).

[4545] ((الرسائل)) (1/ 130).

[4546] يُنظَر: ((اللامع العزيزي)) للمعري (ص: 1312).

أي: لا آخُذُ الصِّلةَ من الإنسانِ حتَّى يكونَ معها بِشرٌ وبشاشةٌ، وإنْ بَذَل عَطيَّةَ مَن هو عابِسٌ جَزَيتُه عن جُودِه بجُودٍ، وهو تركي عطيَّتَه مع تبسُّمٍ منِّي. يريدُ أنِّي أزيدُ على ما فَعَل؛ لأنَّه بذَلَ جُودًا بعُبوسٍ، وجَزَيتُه جُودًا بتبَسُّمٍ.

هذا، وقد كان يقالُ: (البِشرُ الحَسَنُ إحدى العَطيَّتَينِ)[4547].

وقال زُهيرُ بنُ أبي سُلمى يمدَحُ حِصنَ بنَ حُذَيفَة الفَزاريَّ:

تراه إذا ما جِئْتَه مُتهَلِّلًا

كأنَّكَ تُعطيه الذي أنت سائِلُه[4548]

6- عُبوسُ الحاجِبِ في وَجهِ أربابِ الحوائِجِ.

قال المنصورُ للمَهديِّ: (لا ينبغي أن يكونَ الحاجِبُ جَهولًا ولا غَبيًّا، ولا عَيِيًّا ولا ذَهولًا ولا متشاغِلًا، ولا خامِلًا ولا محتَقَرًا، ولا جَهمًا ولا عَبوسًا؛ فإنَّه... إذا كان جَهمًا عَبوسًا تلقَّى كُلَّ طبقةٍ من النَّاسِ بالمكروهِ، فترَك أهلُ النَّصائحِ نصائِحَهم، وأخَلَّ بذوي الحاجاتِ في حوائِجِهم، وقَلَّت الغاشيةُ لبابِ صاحِبِه؛ فرارًا من لقائِه)[4549].

وقال المهديُّ لحاجِبِه الفَضلِ بنِ الرَّبيعِ: (إنِّي قد ولَّيتُك سَترَ وَجهي وكَشْفَه، فلا تجعَلِ السِّترَ بيني وبين خواصِّي سَبَبَ ضِغْنِهم عَلَيَّ بقُبحِ رَدِّك، وعُبوسِ وَجهِك)[4550].

المطلب الثامن: أسبابُ الوقوعِ في العُبوسِ

1- الظَّنُّ بأنَّ العُبوسَ يَجلِبُ الهَيبةَ.

2- العُبوسُ في وجوهِ ذوي الحاجاتِ لئلَّا يَطمَعوا فيه.

3- الكِبرُ؛ فإنَّه يحمِلُ صاحِبَه على (التَّرفُّعِ في المجالِسِ، والتَّقدُّمِ على الأقرانِ، وإظهارِ الإنكارِ على مَن يُقَصِّرُ في حَقِّه، وأدنى ذلك في العالِمِ أن يُصَعِّرَ خَدَّه للنَّاسِ كأنَّه مُعرِضٌ عنهم، وفي العابِدِ أن يُعبِّسَ وَجهَه ويُقَطِّبَ جَبينَه كأنَّه مُنَزَّهٌ عن النَّاسِ، مُستقذِرٌ لهم أو غضبانُ عليهم! وليس يَعلَمُ المسكينُ أنَّ الوَرَعَ ليس في الجبهةِ حتَّى تُقَطَّبَ، ولا في الوَجهِ حتَّى يُعبَّسَ، ولا في الخَدِّ حتَّى يُصَعَّرَ، ولا في الرَّقبَةِ حتى تُطَأطأَ، ولا في الذَّيلِ حتَّى يُضَمَّ، إنَّما الوَرَعُ في القلوبِ؛ قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((التَّقوى هاهنا))[4551]، وأشار إلى صَدْرِه)[4552].

4- البغضُ الذي تنفِرُ منه النَّفسُ، فتُحدِثُ نُفورًا على المُبغِضِ، فيَؤولُ إلى سوءِ خُلُقٍ معه، وعُبوسٍ في وَجهِه.

5- ومن الأسبابِ العارضةِ والأمورِ الطَّارئةِ التي قد يتغَيَّرُ بها حُسنُ الخُلُقِ والوِطاءُ إلى الشَّراسةِ والبَذاءِ، وتجعَلُ اللِّينَ خُشونةً، والوِطاءَ غِلظةً، والطَّلاقةَ عُبوسًا: المناصِبُ والولاياتُ؛ فإنَّها تحدِثُ في الأخلاقِ تَغَيُّرًا، وعلى الخُلَطاءِ تنكُّرًا؛ إمَّا

[4547] يُنظَر: ((جمهرة الأمثال)) للعسكري (1/ 101).

[4548] يُنظَر: ((شرح ديوان زهير)) لثعلب (ص: 142).

[4549] ((الرسائل)) (2/ 37، 38).

[4550] ((نثر الدر في المحاضرات)) للآبي (3/ 63).

[4551] أخرجه مسلم (2564) مطوَّلًا من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[4552] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/ 351).

من لؤمِ طَبعٍ، وإمَّا مِن ضِيقِ صَدرٍ. وكذلك العَزلُ، فقد يسوءُ به الخُلُقُ، ويضيقُ به الصَّدرُ، إمَّا لشِدَّةِ أسَفٍ، أو لقِلَّةِ صَبرٍ.

ومنها: الغِنى؛ فقد تتغَيَّرُ به أخلاقُ اللَّئيمِ بَطَرًا، وتسوءُ طرائقُه أشَرًا. وقد قيل: مَن نال استطالَ.

ومنها: الفَقرُ؛ فقد يتغَيَّرُ به الخُلُقُ؛ إمَّا أنَفةً من ذُلِّ الاستكانةِ، أو أسَفًا على فائتِ الغِنى.

ومنها: الهُمومُ التي تُذهِلُ اللُّبَّ، وتَشغَلُ القَلبَ. وقد قيل: الهَمُّ كالسُّمِّ. وقال بعضُ الأُدَباءِ: الحُزنُ كالدَّاءِ المخزونِ في فؤادِ المحزونِ.

ومنها: الأمراضُ التي يتغَيَّرُ بها الطَّبعُ ما يتغَيَّرُ بها الجِسمُ، فلا تبقى الأخلاقُ على اعتِدالٍ، ولا يُقدَرُ معها على احتمالٍ.

ومنها: تقدُّمُ السِّنِّ، وحدوثُ الهَرَمِ؛ لتأثيرِه في آلةِ الجَسَدِ، كذلك يكونُ تأثيرُه في أخلاقِ النَّفسِ، فكما يَضعُفُ الجسَدُ عن احتمالِ ما كان يطيقُه من أثقالٍ، فكذلك تَعجِزُ النَّفسُ عن أثقالِ ما كانت تَصبِرُ عليه من مخالفةِ الوِفاقِ، ومَضيقِ الشِّقاقِ، وكذلك ما ضاهاه[4553].

6- الغَضَبُ؛ قال ابنُ المقَفَّعِ: (اعلَمْ أنَّ من النَّاسِ ناسًا كثيرًا يَبلُغُ من أحَدِهم الغَضَبُ إذا غَضِب أن يحمِلَه ذلك على الكُلوحِ والقُطوبِ في وَجهِ غيرِ مَن أغضَبَه، وسوءِ اللَّفظِ لِمن لا ذَنبَ له، والعقوبةِ لِمَن لم يكُنْ يَهُمُّ بمعاقبتِه، وشِدَّةِ المعاقَبةِ باللِّسانِ واليَدِ لِمَن لم يكُنْ يريدُ به إلَّا دونَ ذلك)[4554].

المطلب التاسع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَرْكِ العُبوسِ

1- أن يَعلَمَ أنَّ العُبوسَ من ذميمِ الخِصالِ، فَحَرِيٌّ بالعاقِلِ أن يجتَنِبَه.

2- أن يَعلَمَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان دائِمَ البِشرِ، كثيرَ التَّبسُّمِ، فيجتَهِدَ في الاقتداءِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

3- أن يَعلَمَ أنَّ العُبوسَ داعيةُ البُغضِ، والبشاشةَ مَصيَدةُ المودَّةِ، والبِرَّ شيءٌ هَيِّنٌ: وجهٌ طليقٌ، وكلام لَيِّنٌ[4555].

4- الرِّضا والقَناعةُ بما قَسَم اللَّهُ تعالى له.

5- التَّفاؤُلُ والحَذَرُ من التَّشاؤُمِ أو الشُّعورِ بالإحباطِ.

6- الصَّبرُ واحتمالُ الأذى، والعَفوُ والصَّفحُ.

7- العِلمُ بالآثارِ السَّيِّئةِ للعُبوسِ.

8- سلامةُ الصَّدرِ من العَداوةِ والبَغضاءِ والحِقدِ.

9- إدخالُ السُّرورِ على النَّفسِ، ودَفعُ أسبابِ الكآبةِ والحُزنِ.

قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عنه: (لا بأسَ بالفُكاهةِ يَخرُجُ بها الرَّجُلُ عن حَدِّ العُبوسِ)[4556].

[4553] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 244-246).

[4554] ((الأدب الصغير والأدب الكبير)) لابن المقفع (ص: 72).

[4555] يُنظَر: ((فيض القدير)) للمناوي (3/ 226).

10- مجاهَدةُ النَّفسِ على تكَلُّفِ البِشرِ وطلاقةِ الوَجهِ، وعلى تجنُّبِ العُبوسِ والتَّقطيبِ.

المطلب العاشر: أخطاءٌ شائعةٌ

1- من الأخطاءِ ما نَزَغ به الشَّيطانُ في نفوسِ بَعضِ الدُّعاةِ بأنَّ العُبوسَ من الجِدِّ، ولا يليقُ بالدَّاعيةِ أن يكونَ متبَسِّمًا طَلْقَ الوجهِ منبَسِطًا إلى النَّاسِ؛ لذا لا تراه إلَّا عابِسَ الوَجهِ مُقَطِّبَ الجبينِ؛ ممَّا يؤدي إلى ابتعادِ كثيرٍ من النَّاسِ عنه ونفورِهم منه بسَبَبِ ذلك، ولا شَكَّ أنَّ ذلك خلافُ هَديِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

2- يظُنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّ العُبوسَ مذمومٌ بإطلاقٍ، وليس كذلك، فهناك حالاتٌ ينبغي للمُسلِمِ أن يَغضَبَ فيها ويتغيَّرَ وَجهُه ويتحَوَّلَ من البشاشةِ إلى العُبوسِ.

قال الغزِّيُّ: (فالعُبوسُ في وُجوهِ أهلِ المعاصي زجرًا لهم، ولقاؤهم بأكفِهرارِ الوُجوهِ مندوبٌ إليه كلِقاءِ أهلِ الطَّاعةِ بالبشاشةِ، والتَّودُّدِ إليهم، والتَّخَلُّقِ بأخلاقِهم)[4557].

وقال ابنُ القَيِّمِ: (وصَّى أطِبّاءُ القُلوبِ بالإعراضِ عن أهلِ البِدَعِ وألَّا يُسَلِّمَ عليهم، ولا يُريَهم طلاقةَ وَجهِه، ولا يلقاهم إلَّا بالعُبوسِ والإعراضِ.

وكذلك أوصَوا عِندَ لقاءِ مَن يُخافُ الفِتنةُ بلقائِه من النِّساءِ والمُردانِ، وقالوا: متى كشَفْتَ للمرأةِ أو الصَّبيِّ عن بياضِ أسنانِك كَشَفَا لك عمَّا هنالِك، ومتى لقيتَهما بوجهٍ عابِسٍ وُقِيتَ شَرَّهما)[4558].

وكان مُنذِرُ بنُ سَعيدٍ البَلُّوطيُّ على متانتِه وصلابتِه حَسَنَ الخُلُقِ كثيرَ الدُّعابةِ، فرُبَّما ساء ظَنُّ مَن لا يعرِفُه به لدُعابتِه، فإذا رأى ما يُخِلُّ بالدِّينِ قَدْرَ شَعرةٍ ثار ثورةَ الأسَدِ الضَّاري، وتبدَّلَت بشاشتُه عُبوسًا[4559].

3- وقال عبَّاس محمود العقَّاد مُبَيِّنًا أنَّه رُبَّ عُبوسةٍ خيرٌ من بشاشةٍ:

إذا ما تبَيَّنْتَ العُبوسةَ في امرئٍ

فلا تَلْحَهُ واسألْ سؤالَ حَكيمِ

أجَلْ سَلْه قبلَ اللَّومِ فيمَ انقِباضُهُ

وفيمَ رمى الدُّنيا بطَرفٍ كظيمِ

لعلَّ طِلابَ الخَيرِ سِرُّ انقباضِهِ

وعِلَّةُ حُزنٍ في الفؤادِ مُقيمِ

[4556] يُنظَر: ((نثر الدر في المحاضرات)) للآبي (2/ 4)، ((التذكرة الحمدونية)) (9/ 364).

[4557] ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) (6/ 352).

[4558] ((إغاثة اللهفان)) (1/ 120).

[4559] ((معجم الأدباء)) لياقوت الحموي (6/ 2721).

فما تحمَدُ العينانِ كُلَّ بشاشةٍ

ولا كُلُّ وَجهٍ عابسٍ بذميمِ

قُطوبُ كريمٍ خاب في النَّاسِ سَعْيُهُ

أحَبُّ من البُشرى بفوزِ لَئيمِ[4560]

المطلب الحادِيَ عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **التَّوسُّطُ في كُلِّ أمرٍ محمودٌ:**

قال ابنُ القَيِّمِ: (طلاقةُ الوَجهِ والبِشرُ المحمودُ وَسَطٌ بَيْنَ التَّعبيسِ والتَّقطيبِ وتصعيرِ الخَدِّ وطَيِّ البِشرِ عن البَشَرِ، وبَينَ الاسترسالِ مع كُلِّ أحدٍ بحيثُ يُذهِبُ الهيبةَ، ويُزيلُ الوقارَ، ويُطمِعُ في الجانبِ، كما أنَّ الانحرافَ الأوَّلَ يُوقِعُ الوحشةَ والبِغضةَ والنُّفرةَ في قلوبِ الخَلقِ. وصاحِبُ الخُلُقِ الوَسَطِ مَهيبٌ محبوبٌ، عزيزٌ جانبُه، حبيبٌ لِقاؤه)[4561].

وقال مِسكَوَيهِ: (... ولا بُدَّ من المُزاحِ المُستعذَبِ والأحاديثِ المُستطابةِ والفُكاهةِ المحبوبةِ، وإصابةِ اللَّذَّةِ التي تطيقُها الشَّريعةُ ويُقَدِّرُها العقلُ حتَّى لا يتجاوَزَها إلى الإسرافِ فيها، ولا يَقصُرَ عنها تهاوُنًا بها؛ ذلك أنَّ الخُروجَ إلى أحَدِ الطَّرفينِ إن كان إلى جانبِ الزِّيادةِ سُمِّيَ مُجونًا وفِسقًا وخَلاعةً وما أشبَهَها من أسماءِ الذَّمِّ، وإن كان إلى جانِبِ النُّقصانِ سُمِّيَ فَدامةً[4562] وعُبوسًا وشَكاسةً[4563] وما أشبَهَها من أسماءِ الذَّمِّ أيضًا. والمتوَسِّطُ بَيْنَهما هو الظَّريفُ الذي يوصَفُ بالهَشاشةِ والطَّلاقةِ وحُسنِ العِشرةِ)[4564].

وقال الذَّهبيُّ: (ينبغي لمن كان ضَحوكًا بسَّامًا أن يَقصُرَ من ذلك، ويلومَ نفسَه حتَّى لا تمجَّه الأنفُس، وينبغي لمن كان عَبوسًا منقبِضًا أن يتبَسَّمَ، ويحسِنَ خُلُقَه، ويمقُتَ نفسَه على رداءةِ خُلُقِه، وكلُّ انحرافٍ عن الاعتدالِ فمذمومٌ، ولا بُدَّ للنَّفسِ من مجاهَدةٍ وتأديبٍ)[4565].

- **اليومُ العَبُوسُ:**

قال اللَّهُ تعالى: {إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} [الإنسان: 10] ، قال البَغَويُّ في تفسيرِ هذه الآيةِ: (تَعبِسُ فيه الوُجوهُ من هَولِه وشِدَّتِه، ونُسِبَ العُبوسُ إلى اليومِ كما يقالُ: يومٌ صائمٌ وليلٌ قائمٌ. وقيل: وُصِف اليومُ بالعُبوسِ لِما فيه من الشِّدَّةِ، قَمْطَرِيرًا قال قتادةُ ومجاهِدٌ ومُقاتِلٌ: القَمْطَريرُ الذي يقبِضُ الوُجوهَ والجِباهَ بالتَّعبيسِ. وقال الكَلبيُّ: العَبوسُ: الذي لا انبِساطَ فيه، والقَمْطَريرُ: الشَّديدُ، قال الأخفَشُ: القَمْطَريرُ: أشَدُّ ما يكونُ من الأيَّامِ وأطوَلُه في البلاءِ، يقالُ: يومٌ قَمْطَريرٌ

[4560] ((وحي الأربعين)) (ص: 29).

[4561] ((مدارج السالكين)) (2/ 296، 297).

[4562] يقال: فَدُم، ككَرُم، فَدامةً وفُدومةً: ثَقُل وتبلَّدَ، والفَدْمُ من النَّاسِ: العَيِيُّ عن الحُجَّةِ والكلامِ في ثِقلٍ ورخاوةٍ وقِلَّةِ فَهمٍ. وهو أيضًا: الغليظُ السَّمينُ الأحمقُ الجافي. يُنظَر: ((تاج العروس)) للزبيدي.

[4563] الشَّكاسةُ: سوءُ الخُلُقِ. يُنظَر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده، ((شمس العلوم)) لنشوان.

[4564] ((تهذيب الأخلاق)) (ص: 187).

[4565] ((سير أعلام النبلاء)) (10/ 141).

وقُماطِرٌ: إذا كان شديدًا كريهًا، واقمَطَرَّ اليومُ فهو مُقْمَطِرٌّ. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ، الذي يخافون، وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً حُسنًا في وجوهِهم، وَسُرُورًا [الإنسان: 11] في قلوبِهم)[4566]. نسألُ اللَّهَ أن يجعَلَنا منهم.

- **عُبوسُ الوَليدِ بنِ المُغيرةِ:**

قال اللَّهُ تعالى في الوليدِ بنِ المُغيرةِ[4567] الذي أعمَلَ فِكرَه ليقولَ قولًا يُبطِلُ به القرآنَ: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [المدثر: 18 - 26].

قيل: عَبَس في وجوهِ المُؤمِنين. وقيل: عَبَس في وَجهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[4568].

قال ابنُ جُزَيٍّ: (فَعَل ذلك مِن حَسَدِه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: عَبَس في وَجهِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أو عَبَس لَمَّا ضاقت عليه الحِيَلُ ولم يَدْرِ ما يقولُ)[4569].

وقيل: عَبَس وبَسَر كالمُهتَمِّ المتفكِّرِ في شيءٍ[4570].

[4566] ((تفسير البغوي)) (5/ 192).

[4567] نقَل غيرُ واحدٍ اتِّفاقَ المفَسِّرين على أنَّ هذه الآياتِ نزلت في الوليدِ بنِ المغيرةِ. يُنظَر: ((تفسير ابن عطية)) (394/5(، ((البسيط) للواحدي (416/22)، ((تفسير الرازي)) (704/30). ونسبه السَّمعانيُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرين. يُنظَر: ((تفسير السمعاني)) (91/6).

[4568] ((تفسير الشوكاني)) (5/392).

[4569] ((تفسير ابن جزي)) (2/429).

[4570] يُنظَر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (16/130).

المبحث الثالث عشر: الغِلظةُ والقَسوةُ والفَظاظةُ

المطلب الأول: معنى القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ لُغةً واصطِلاحًا

• معنى الغِلظةِ لُغةً:

الغِلظةُ: اسمٌ مِن غَلُظَ يَغلُظُ غِلَظًا، صارَ غَليظًا، واستَغلَظَ مِثلُه، ورَجُلٌ غَليظٌ: فظٌّ فيه غِلظةٌ، أي: غَيرُ لَيِّنٍ ولا سَلِسٍ، وأغلَظَ له في القَولِ، والغِلَظُ ضِدُّ الرِّقَّةِ في الخَلْقِ، والطَّبعِ، والفِعلِ، والمَنطِقِ، والعَيشِ، ونحوِ ذلك[4571].

• معنى الغِلظةِ اصطِلاحًا:

قال الشَّوكانيُّ (غِلَظُ القَلبِ: قَساوَتُه، وقِلَّةُ إشفاقِه، وعَدَمُ انفِعالِه للخَيرِ)[4572].

• معنى القَسوةِ لُغةً:

القَسوةُ: اسمٌ مِن قَسا القَلبُ يقسو قَسوةً وقَساوةً وقَساءً، وهو غِلَظُ القَلبِ وشِدَّتُه، والقَسوةُ: الصَّلابةُ في كُلِّ شَيءٍ، وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على شِدَّةٍ وصَلابةٍ[4573].

معنى القَسوةِ اصطِلاحًا:

قال ابنُ منظورٍ: (القَسوةُ في القَلبِ: ذَهابُ اللِّينِ والرَّحمةِ والخُشوعِ منه)[4574].

وقال الجاحِظُ: (القَساوةُ: ... التَّهاوُنُ بما يَلحَقُ الغيرَ من الألمِ والأذى)[4575].

• معنى الفَظاظةِ لُغةً:

الفَظاظةُ مِن فَظَّ يَفَظُّ -مِن بابِ تَعِبَ- فَظاظةً: إذا غَلُظَ، حتى يُهابَ في غَيرِ مَوضِعِه، ورَجُلٌ فظٌّ شَديدٌ، غَليظُ القَلبِ، وذو فَظاظةٍ: أي: غِلَظٍ في مَنطِقِه وتَجَهُّمٍ. والفَظاظةُ والفَظَظُ: خُشونةُ الكَلامِ[4576].

• معنى الفَظاظةِ اصطِلاحًا:

قال محمَّد رشيد رضا: (الفَظاظةُ هي الشَّراسةُ والخُشونةُ في المُعاشَرةِ)[4577].

قال الفيروزابادِيُّ: (الفَظُّ: الغليظُ الجانبِ، السَّيِّئُ الخُلُقِ، القاسي الخَشِنُ الكلامِ).[4578]

[4571] ((لسان العرب))، لابن منظور، ((مختار الصحاح)) للرازي، ((المصباح المنير)) للفيومي.

[4572] ((فتح القدير)) (451/1).

[4573] ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((لسان العرب)) لابن منظور، ((المصباح المنير)).

[4574] ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4575] يُنظَر: ((تهذيب الأخلاق)) (30).

[4576] ((العين)) للخليل بن أحمد (153/8)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 241)، ((المصباح المنير)) للفيومي (478/2).

[4577] ((تفسير المنار)) (4/ 163).

المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ وبَعضِ الصِّفاتِ

● الفَرقُ بَينَ الغِلظةِ والفَظاظةِ:

يري البعضُ أنَّهما بمعنًى واحدٍ، كما قال العِزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ[4579].

● ويرى آخَرونَ أنَّهما يختَلِفانِ مِن وُجوهٍ:

أنَّ الفَظاظةَ في القَولِ، والغِلظةَ في الفِعلِ، كما قال ابنُ عَبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما[4580].

الفظُّ: هو سَيِّئُ الخُلُقِ، وغَليظُ القَلبِ: هو الذي لا يتَأثَّرُ قَلبُه عن شَيءٍ[4581].

الفظاظةُ: خُشونةُ القَلبِ، والغِلظةُ: قَسوةُ القَلبِ[4582].

● الفَرقُ بَينَ القَسوةِ والصَّلابةِ:

(الفَرقُ بَينَ القَسوةِ والصَّلابةِ: أنَّ القَسوةَ تُستَعمَلُ فيما لا يقبلُ العِلاجَ؛ ولهذا يوصَفُ بها القَلبُ، وإن لم يكُن صُلبًا)[4583].

● الفَرقُ بَينَ القَسوةِ والصَّبرِ:

قال ابنُ القَيِّمِ: (الفَرقُ بَينَ الصَّبرِ والقَسوةِ: أنَّ الصَّبرَ خُلقٌ كَسبيٌّ يتَخَلَّقُ به العَبدُ، وهو: حَبسُ النَّفسِ عن الجَزَعِ والهَلَعِ والتَّشَكِّي، فيَحبِسُ النَّفسَ عن التَّسَخُّطِ، واللِّسانَ عن الشَّكوى، والجَوارِحَ عَمَّا لا ينبغي فِعلُه، وهو ثَباتُ القَلبِ على الأحكامِ القدَريَّةِ والشَّرعيَّةِ.

وأمَّا القَسوةُ: فيُبسٌ في القَلبِ يمنَعُه مِن الانفِعالِ، وغِلظةٌ تمنَعُه مِن التَّأثُّرِ بالنَّوازِلِ، فلا يتَأثَّرُ لغِلظَتِه وقَساوَتِه لا لصَبرِه واحتِمالِه)[4584].

المطلب الثالث: ذَمُّ القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

- قال تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [البقرة: 74].

[4578] ((القاموس المحيط)) (ص: 697).

[4579] ((تفسير ابن عبد السلام)) (697).

[4580] ((زاد المسير)) لابن الجوزي (ص: 340).

[4581] ((مفاتيح الغيب)) للرازي (9/407).

[4582] ((طلبة الطلبة)) لنجم الدين النسفي (3/316).

[4583] ((معجم الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: 429).

[4584] ((الروح)) (241/1).

قال الشَّوكانيُّ: (القَسوةُ: الصَّلابةُ واليُبسُ، وهي: عِبارةٌ عن خُلوِّها مِن الإنابةِ، والإذعانِ لآياتِ اللهِ، مع وُجودِ ما يقتَضي خِلافَ هذه القَسوةِ)[4585].

قال السَّعديُّ: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ، أي: اشتَدَّت وغَلُظت، فلم تُؤَثِّر فيها المَوعِظةُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، أي: مِن بَعدِ ما أنعَمَ عليكم بالنِّعَمِ العَظيمةِ وأراكم الآياتِ، ولم يكُنْ ينبَغي أن تقسوَ قُلوبُكم؛ لأنَّ ما شاهَدتُم مِمَّا يوجِبُ رِقَّةَ القَلبِ وانقيادَه، ثُمَّ وصفَ قَسوَتَها بأنَّها كَالْحِجَارَةِ التي هي أشَدُّ قَسوةً مِن الحَديدِ؛ لأنَّ الحَديدَ والرَّصاصَ إذا أُذيبَ في النَّارِ ذابَ بخِلافِ الأحجارِ. وقَولُه: أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، أي: إنَّها لا تقصُرُ عن قَساوةِ الأحجارِ!)[4586].

قال الطَّبَريُّ: (فقَولُه: أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً يعني: فقلوبُكم كالحِجارةِ صَلابةً، ويُبسًا، وغِلَظًا، وشِدَّةً، أو أشَدُّ قَسوةً)[4587].

قال الرَّازيُّ: (وقَولُه: أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً إنَّما وصَفَها بأنَّها أشَدُّ قَسوةً لوُجوهٍ.. منها: أنَّ الحِجارةَ ليس فيها امتِناعٌ مِمَّا يحدُثُ فيها بأمرِ اللهِ تعالى وإن كانت قاسيةً، بل هي مُنصَرِفةٌ على مُرادِ اللهِ غَيرُ مُمتَنِعةٍ مِن تسخيرِه، وهؤلاء مع ما وصَفْنا مِن أحوالِهم في اتِّصالِ الآياتِ عندَهم، وتَتابُعِ النِّعَمِ مِن اللهِ عليهم يمتَنِعونَ مِن طاعَتِه، ولا تَلينُ قُلوبُهم لمَعرِفة حَقِّه.. وكَأنَّ المعنى أنَّ الحَيواناتِ مِن غَيرِ بَني آدَمَ أُمَمٌ، سُخِّرَ كُلُّ واحِدٍ منها لشَيءٍ، وهو مُنقادٌ لما أُريدَ منه، وهؤلاء الكُفَّارُ يمتَنِعونَ عَمَّا أرادَ اللهُ منهم... والأحجارُ يُنتَفَعُ بها مِن بَعضِ الوُجوهِ، ويظهَرُ منها الماءُ في بَعضِ الأحوالِ، أمَّا قُلوبُ هؤلاء فلا نفعَ فيها البَتَّةَ، ولا تَلينُ لطاعةِ اللهِ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ!)[4588].

- وقَولُه تعالى: {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 43].

قال الألوسيُّ: (ومعنى {قَسَتْ} إلَخ، استَمَرَّت على ما هي عليه مِن القَساوةِ، أو ازدادَت قَساوةً)[4589].

قال ابنُ كَثيرٍ: (قال اللهُ تعالى: {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا}، أي: فهَلَّا إذ ابتَليناهم بذلك تضَرَّعوا إلينا وتمسكَنوا إلينا {وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ}، أي: ما رَقَّت ولا خَشَعت وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، أي: مِن الشِّركِ والمَعاصي)[4590].

وقال ابنُ عاشورٍ: (ولكِنِ اعتَراهم ما في خِلقَتِهم مِن المُكابَرةِ وعَدَمِ الرُّجوعِ عن الباطِلِ، كأنَّ قُلوبَهم لا تتَأثَّرُ فشُبِّهَت بالشَّيءِ القاسي -والقَسوةُ: الصَّلابةُ- وقد وَجَدَ الشَّيطانُ مِن طِباعِهم عَونًا على نفْثِ مُرادِه فيهم، فحَسَّن لهم تلك القَساوةَ وأغراهم بالاستِمرارِ على آثامِهم وأعمالِهم)[4591].

- وقال تعالى: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [الحج: 53].

[4585] ((فتح القدير)) (1/118).

[4586] ((تيسير الكريم الرحمن)) (1/55)

[4587] ((جامع البيان)) (2/234).

[4588] ((مفاتيح الغيب)) للرازي (3/556)

[4589] ((روح المعاني)) (4/143).

[4590] ((تفسير القرآن العظيم)) (3/256).

[4591] ((التحرير والتنوير)) (229/7).

قال السَّعديُّ: (وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ، أي: الغَليظةِ التي لا يُؤَثِّرُ فيها زَجرٌ ولا تذكيرٌ، ولا تفهمُ عن اللهِ وعن رَسولِه لقَسوَتِها، فإذا سَمِعوا ما ألقاه الشَّيطانُ جَعَلوه حُجَّةً لهم على باطِلِهم، وجادَلوا به وشاقُّوا اللهَ ورَسولَه)[4592].

وقال أبو بكرٍ البِقاعيُّ: (وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ عن فَهمِ الآياتِ، وهم من عَلَت قُلوبُهم عن ذلك الجِدالِ أن صارَت حَجَريَّةً، وهم المُصارِحونَ بالعَداوةِ، فهم في رَيبٍ مِن أمرِهم وجِدالٍ للمُؤمِنينَ، قد انتَقَشَت فيها الشُّبَهُ، فصارَت أبعَدَ شَيءٍ عن الزَّوالِ)[4593].

- وقال تعالى: أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [الزمر: 22].

قال الشَّوكانيُّ: ({فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: 22] والمعنى: أنَّه غَلُظَ قَلبُه، وجَفا عن قَبولِ ذِكرِ اللهِ، يُقالُ: قَسا القَلبُ: إذا صَلُب، وقَلبٌ قاسٍ، أي: صُلبٌ لا يرِقُّ ولا يَلينُ)[4594].

قال السَّعديُّ: (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، أي: لا تَلينُ لكِتابِه ولا تتَذَكَّرُ آياتِه، ولا تطمَئِنُّ بذِكرِه، بل هي مُعرضةٌ عن رَبِّها، مُلتَفِتةٌ إلى غَيرِه، فهؤلاء لهم الوَيلُ الشَّديدُ، والشَّرُّ الكَبيرُ)[4595].

قال الألوسيُّ: (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أي: مِن أجلِ ذِكْرِه سُبحانَه الذي حَقُّه أن تلينَ منه القُلوبُ، أي: إذا ذُكِرَ اللهُ تعالى عندَهم أو آياتُه عَزَّ وجَلَّ اشمَأزُّوا مِن ذلك، وزادَت قُلوبُهم قَساوةً)[4596].

- وقولُه تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: 16].

قال ابنُ كَثيرٍ: (وقَولُه: {وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ} نهى اللهُ المُؤمِنينَ أن يتَشَبَّهوا بالذينَ حَمَلوا الكِتابَ قَبلَهم مِن اليهودِ والنَّصارى، لَمَّا تطاوَلَ عليهم الأَمَدُ بَدَّلوا كِتابَ اللهِ الذي بأيديهم، واشتَروا به ثَمَنًا قَليلًا، ونَبذوه وراءَ ظُهورِهم، وأقبلوا على الآراءِ المُختَلِفةِ والأقوالِ المُؤتَفِكةِ، وقَلَّدوا الرِّجالَ في دينِ اللهِ، واتَّخَذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أربابًا مِن دونِ اللهِ، فعندَ ذلك قست قُلوبُهم، فلا يَقبَلونَ مَوعِظةً، ولا تلينُ قُلوبُهم بوَعدٍ ولا وعيدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ، أي: في الأعمالِ، فقُلوبُهم فاسِدةٌ، وأعمالُهم باطِلةٌ)[4597].

قال الطَّبَريُّ: (وقَولُه: {فقَسَتْ قُلُوبُهُمْ} عن الخَيراتِ، واشتَدَّت على السُّكونِ إلى مَعاصي اللهِ)[4598].

- قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159].

[4592] ((تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)) (1/542).

[4593] ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) (13/72).

[4594] ((فتح القدير)) (4/526).

[4595] ((تيسير الكريم الرحمن)) (1/722).

[4596] ((روح المعاني)) (12/246).

[4597] ((تفسير القرآن العظيم)) (8/20).

[4598] ((جامع البيان)) (23/189).

قال العزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ: (فَظًّا الفَظُّ: الجافي، والغليظُ: القاسي القَلبِ، معناهما واحدٌ، فجمَع بينَهما تأكيدًا)[4599].

وقال ابنُ كَثيرٍ: (قال تعالى: وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ الفَظُّ: الغَليظُ، والمُرادُ به هاهُنا غَليظُ الكَلامِ؛ لقَولِه بَعدَ ذلك: غَلِيظَ الْقَلْبِ، أي: لو كُنتَ سَيِّئَ الكَلامِ قاسيَ القَلبِ عليهم لانفَضُّوا عنك وتَركوك، ولكنَّ اللهَ جَمعَهم عليك، وألان جانِبَك لهم تأليفًا لقُلوبِهم)[4600].

وقال السَّعديُّ: ({وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا}، أي: سَيِّئَ الخُلُقِ {غَلِيظَ الْقَلْبِ}، أي: قاسيَه، {لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}؛ لأنَّ هذا يُنَفِّرُهم ويُبَغِّضُهم لَمن قامَ به هذا الخُلُقُ السَّيِّئُ؛ فالأخلاقُ الحَسَنةُ مِن الرَّئيسِ في الدِّينِ تجذِبُ النَّاسَ إلى دينِ اللهِ، وتُرَغِّبُهم فيه، مع ما لصاحِبِه مِن المَدحِ والثَّوابِ الخاصِّ، والأخلاقُ السَّيِّئةُ مِن الرَّئيسِ في الدِّينِ تُنفِّرُ النَّاسُ عن الدِّينِ، وتُبغِّضُهم إليه، مع ما لصاحِبِها مِن الذَّمِّ والعِقابِ الخاصِّ، فهذا الرَّسولُ المَعصومُ يقولُ اللهُ له ما يقولُ، فكيف بغَيرِه؟!)[4601].

ب- مِنَ السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

- عن أبي مَسعودٍ قال: وأشارَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيَدِه نحوَ اليَمَنِ، وقال: ((الإيمانُ هاهُنا -مَرَّتَينِ- ألا وإنَّ القَسوةَ وغِلَظَ القُلوبِ في الفَدَّادينَ -حَيثُ يطلُعُ قَرنا الشَّيطانِ- رَبيعةَ ومُضَرَ))[4602].

قال الخَطَّابيُّ: (إنَّما ذَمَّ هَؤُلاءِ لاشتِغالِهم بمُعالَجةِ ما هم عليه عن أُمورِ دينِهم، وتَلَهِّيهم عن أمرِ الآخِرةِ، وتَكونُ منها قَساوةُ القَلبِ)[4603].

- وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما: (أنَّ هذه الآيةَ التي في القُرآنِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: 45]، قال في التَّوراةِ: "يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسَلْناك شاهِدًا ومُبَشِّرًا وحِرزًا للأُمِّيِّين[4604]، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتُك المتوَكِّلَ، ليس بفَظٍّ ولا غليظٍ")[4605].

قال القاريُّ: (والمعنى: ليس بسَيِّئِ الخُلُقِ أو القَولِ، ولا غَليظٍ، أي: ضَخمٍ كَريهِ الخَلقِ، أو سَيِّئِ الفِعلِ، أو غَليظِ القَلبِ، وهو الأظهَرُ؛ لقَولِه تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ} [آل عمران: 159]، أي: شَديدَه، وقاسيَه، فيُناسِبُ حينَئِذٍ أن يكونَ الفَظُّ مَعناه بَذاذةَ اللِّسانِ، ففيه إيماءٌ إلى طَهارةِ عُضوَيه الكَريمَينِ مِن دَنَسِ الطَّبعِ، ووَسخِ هَوى النَّفسِ الذَّميمينِ، وقد قال الكَلبيُّ: فظًّا في القَولِ، غَليظَ القَلبِ في الفِعلِ)[4606].

وقال المُناويُّ: (ليس بفَظٍّ، أي: شديدًا، ولا قاسيَ القَلبِ على المؤمنين. ولا غَليظٍ، أي: سَيِّئٍ)[4607].

[4599] ((تفسير ابن عبد السلام)) (1/290).

[4600] ((تفسير القرآن العظيم)) (2/148).

[4601] ((تيسير الكريم الرحمن)) (1/154).

[4602] رواه البخاري (5303) واللفظ له، ومسلم (51).

[4603] ((عمدة القاري)) للعيني (191/15).

[4604] وحِرزًا للأمِّيِّين: أي: حافِظًا لدينِهم، والمرادُ العَرَبُ، وسُمُّوا بالأُمِّيِّين؛ لأنَّ الكتابةَ كانت فيهم قليلةً. يُنظَر: ((عمدة القاري)) للعيني (11/243).

[4605] رواه البخاري (2125) مطوَّلًا.

[4606] ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) (9/3679).

[4607] ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) (2/89).

- وعن حارثةَ بنِ وَهبٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّه سمع النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((ألا أُخبِرُكم بأهلِ الجنَّةِ؟ قالوا: بلى. قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كُلُّ ضعيفٍ متضَعَّفٍ، لو أقسَمَ على اللهِ لأبرَّه. ثمَّ قال: ألا أخبِرُكم بأهلِ النَّارِ؟ قالوا: بلى. قال: كُلُّ عُتُلٍّ جوَّاظٍ مُستكبِرٍ))4608.

الجوَّاظُ قيل: إنَّه الفَظُّ الغليظُ، والعُتُلُّ قيل: إنَّه الفَظُّ الشَّديدُ من كُلِّ شيءٍ[4609]. الغليظُ، الذي لا يَلينُ للحَقِّ ولا للخَلقِ[4610].

ج- مِن أقوالِ السَّلَفِ والعُلماءِ:

- قال مالِكُ بنُ دينارٍ: (أربَعٌ مِن علامِ الشَّقاءِ: قَسوةُ القَلبِ، وجُمودُ العينِ، وطولُ الأمَلِ، والحِرصُ على الدُّنيا)[4611].

- وقال سَهلُ بنُ عبدِ اللهِ: (كُلُّ عُقوبةٍ طَهارةٌ، إلَّا عُقوبةَ القَلبِ؛ فإنَّها قَسوةٌ)[4612].

- وقال أبو عَبدِ اللهِ السَّاجيُّ: (الذِّكرُ لغَيرِ ما يوصِلُ إلى اللهِ قَسوةٌ في القَلبِ)[4613].

- وقال حُذَيفةُ المَرعَشيُّ: (ما ابتُليَ أحَدٌ بمُصيبةٍ أعظَمَ عليه مِن قَسوةِ قَلبِه)[4614].

- وقال مالِكُ بنُ دينارٍ: (ما ضُرِب عَبدٌ بعُقوبةٍ أعظَمَ مِن قَسوةِ قَلبٍ، وما غَضِبَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ على قَومٍ إلَّا نزعَ منهم الرَّحمةَ)[4615].

- وقال ابنُ القَيِّمِ: (ما ضُرِب عَبدٌ بعُقوبةٍ أعظَمَ مِن قَسوةِ القَلبِ والبُعدِ عن اللهِ. خُلِقَت النَّارُ لإذابةِ القُلوبِ القاسيةِ. أبعَدُ القُلوبِ مِن اللهِ القَلبُ القاسي)[4616].

- وقال أبو حَمزة الكوفيُّ لعُثمانَ بنِ عَبدِ الحَميدِ: (لا تتَّخِذْ مِن الخَدَمِ إلَّا ما لا بُدَّ منه؛ فإنَّ مع كُلِّ إنسانٍ شَيطانًا، واعلَمْ أنَّهم لا يعطونَك بالشِّدَّة شَيئًا إلَّا أعطوك باللِّينِ ما هو أفضَلُ منه)[4617].

- وقال مَيمونُ بنُ مِهرانَ: (لا تُعَذِّبِ المَملوكَ، ولا تضرِبِ المَملوكَ في كُلِّ ذَنبٍ، ولكِنِ احفَظْ ذاك له، فإذا عصى اللهَ عَزَّ وجَلَّ فعاقِبْه على مَعصيةِ اللهِ تعالى، وذَكِّرْه الذُّنوبَ التي أذنَب بَينَك وبَينَه)[4618].

- وقال أبو العَبَّاسِ السَّفَّاحُ: (مَن شَدَّدَ نفَّر، ومَن لانَ تألَّفَ)[4619].

[4608] رواه البخاري (6657) واللفظ له، ومسلم (2853).

[4609] يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (8/663)، ((فيض القدير)) للمناوي (3/87).

[4610] ((كتب ورسائل ابن عثيمين)) مجالس شهر رمضان (ص: 155).

[4611] رواه ابن أبي الدنيا في ((الزهد)) (36)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (56/415) واللفظ له.

[4612] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (10/208) مطوَّلًا.

[4613] المصدر السابق (9/317).

[4614] المصدر السابق (10/168).

[4615] رواه الثعلبي في ((التفسير)) (8/230).

[4616] ((الفوائد)) (1/97)

[4617] يُنظَر: ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (2/ 235)، ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/ 186).

[4618] يُنظَر: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (4/ 88، 89).

[4619] ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (2/ 239)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (6/ 78).

- وقال مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ: (ما أقبَحَ الأشَرَ عندَ الظَّفَرِ، والكَآبَةَ عندَ النَّائِبةِ، والغِلظةَ على الفَقيرِ، والقَسوةَ على الجارِ، ومُشاحَنةَ القَريبِ، والخِلافَ على الصَّاحِبِ، وسوءَ الخُلُقِ على الأهلِ، والاستِطالةَ بالقُدرةِ، والجَشَعَ مع الفَقرِ، والغِيبةَ للجَليسِ، والكَذِبَ في الحَديثِ، والسَّعيَ بالمُنكَرِ، والغَدرَ مِن السُّلطانِ، والحِلفَ مِن ذي المُروءةِ!)[4620].

- وقال ابنُ خَلدونَ: (الشِّدَّةُ على المُتَعلِّمينَ مُضرَّةٌ بهم؛ وذلك أنَّ إرهافَ الحَدِّ بالتَّعليمِ مُضِرٌّ بالمُتَعلِّمِ سيَّما في أصاغِرِ الوَلَدِ؛ لأنَّه مِن سوءِ المَلَكةِ. ومَن كان مَرباه بالعَسفِ والقَهرِ مِن المُتَعلِّمينَ أو المَماليكِ أو الخَدَمِ سَطا به القَهرُ وضَيَّق عن النَّفسِ في انبِساطِها، وذَهَبَ بنَشاطِها ودَعاه إلى الكَسَلِ، وحَمَلَ على الكَذِبِ والخُبثِ، وهو التَّظاهُرُ بغَيرِ ما في ضَميرِه؛ خَوفًا مِن انبِساطِ الأيدي بالقَهرِ عليه، وعَلَّمه المكرَ والخَديعة لذلك، وصارَت له هذه عادةً وخُلُقًا، وفَسَدَت مَعاني الإنسانيَّةِ التي له)[4621].

- وقال القُرطُبيُّ: (مَن خَلَق اللهُ تعالى في قَلبِه هذه الرَّحمةَ الحامِلةَ له على الرِّفقِ وكَشْفِ ضُرِّ المُبتَلى، فقد رَحِمَه اللهُ تعالى بذلك في الحالِ، وجَعَلَ ذلك عَلامةً على رَحمَتِه إيَّاه في المآلِ، ومَن سَلبَ اللهُ ذلك المعنى منه، وابتَلاه بنَقيضِ ذلك مِن القَسوةِ والغِلَظِ، ولم يلطُفْ بضَعيفٍ، ولا أشفَقَ على مُبتَلًى، فقد أشقاه في الحالِ، وجَعَلَ ذلك عَلَمًا على شِقوتِه في المآلِ، نعوذُ باللهِ مِن ذلك)[4622].

قال محمد رشيد رضا: (القَسوةُ والغِلظةُ، وهما مِن الأخلاقِ المُنَفِّرةِ للنَّاسِ، لا يصبِرونَ على مُعاشَرةِ صاحِبِها وإن كَثُرَت فضائِلُه، ورُجيَت فواضِلُه، بل يتَفَرَّقونَ ويذهَبونَ مِن حَولِه، ويترُكونَه وشَأنَه لا يُبالونَ ما يفوتُهم مِن مَنافِعِ الإقبالِ عليه، والتَّحَلُّقِ حَواليه)[4623].

- وقال مُحَمَّدٌ الغَزاليُّ: (الرَّحمةُ كمالٌ في الطَّبيعةِ يجعَلُ المَرءَ يرِقُّ لآلامِ الخَلقِ ويسعى لإزالَتِها، ويأسى لأخطائِهم فيتَمَنَّى لهم الهُدى، هي كمالٌ في الطَّبيعةِ؛ لأنَّ تبلُّدَ الحِسِّ يهوي بالإنسانِ إلى مَنزِلةِ الحَيَوانِ ويسلُبُه أفضَلَ ما فيه، وهو العاطِفةُ الحَيَّةُ النَّابِضةُ بالحُبِّ والرَّأفةِ، بل إنَّ الحَيَوانَ قد تجيشُ فيه مَشاعِرُ مُبهَمةٌ تُعطِّفُه على ذَراريِّه؛ ومِن ثُمَّ كانت القَسوةُ ارتِكاسًا بالفِطرة إلى مَنزِلةِ البَهائِمِ، بل إلى مَنازِلِ الجَمادِ الذي لا يعي ولا يهتَزُّ! والرَّحمةُ في أُفُقِها الأعلى وامتِدادِها المُطلَقِ صِفةُ المَولى تبارَكَ أسماؤُه)[4624].

- وقال أيضًا: (إنَّ القُلوبَ الكَبيرةَ قَلَّما تَستَجيشُها دَوافِعُ القَسوةِ، فهي أبَدًا إلى الصَّفحِ والحَنانِ أدنى منها إلى الحَفيظةِ والأضغانِ، إنَّ القَسوةَ في خُلُقِ إنسانٍ دَليلُ نقصٍ كَبيرٍ، وفي تاريخِ أُمَّةٍ دَليلُ فسادٍ خَطيرٍ، فلا عَجَبَ إذا حَذَّرَ الإسلامُ منها واعتَبَرَها عِلَّةَ الفِسقِ عن أمرِ اللهِ، وسِرَّ الشُّرودِ عن صِراطِه المُستقيمِ: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: 16])[4625].

[4620] ((التذكرة)) لابن حمدون (1/ 274).

[4621] ((المقدمة)) (3/ 1119).

[4622] ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) (6/ 109).

[4623] ((تفسير المنار)) (4/ 163).

[4624] ((خلق المسلم)) (ص: 209).

[4625] المصدر السابق (ص: 210، 211).

المطلب الرابع: آثارُ قَسوة القَلبِ والغِلظةِ والفَظاظةِ

1- الوَحشةُ والخَوفُ الدَّائِمُ، وعُبوسُ الوَجهِ والكَآبةُ.

2- التَّنافُرُ بَينَ القُلوبِ، وشُيوعُ الكَراهيةِ والبَغضاءِ.

قال تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159].

و (الفَظاظةُ تُنفِّرُ الأصحابَ والجُلَساءَ، وتُفَرِّقُ الجُموعَ)[4626].

3- غِلظةُ القَلبِ مِن عَلامةِ الشَّقاوةِ في الدُّنيا والآخِرةِ.

4- قَسوةُ القَلبِ والغِلظةُ والفَظاظةُ مِن صِفاتِ الظَّلَمةِ المُتَكَبِّرينَ.

5- قَسوةُ القَلبِ والغِلظةُ والفَظاظةُ سَبَبٌ في دُخولِ النَّارِ.

فعن حارِثةَ بنِ وهبٍ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وفيه: ((أهلُ النَّارِ كُلُّ جَوَّاظٍ عُتُلٍّ مُستَكبِرٍ))[4627].

6- تفَكُّكُ الأُسَرِ وانفِصامُ عُراها.

7- انتِشارُ العنفِ وتَفَشِّي الجَرائِمِ نتيجةَ الغِلظةِ في التَّعامُلِ مع الصِّغارِ.

8- الصَّدُّ عن سَبيلِ اللهِ ونُفورُ المَدعوِّينَ.

المطلب الخامس: أقسامُ الغِلظةِ والقَسوةِ

- تنقَسِمُ الغِلظةُ إلى قِسمَينِ باعتِبارِ القَولِ والفِعلِ؛ فقد تكونُ الغِلظةُ بالقَولِ، وقد تكونُ بالفِعلِ.
- وتَنقَسِمُ باعتِبارِ المَدحِ والذَّمِّ إلى قِسمَينِ:

غِلظةٌ مَذمومةٌ، وهذا هو الأصلُ أنَّ الغِلظةَ والفَظاظةَ مذمومةٌ ما لم تَدْعُ إليها حاجةٌ.

غِلظةٌ مَحمودةٌ، كالغِلظةِ والشِّدَّةِ في الجِهادِ، وعلى الكُفَّارِ والمُنافِقينَ الذين يُناصِبونَنا العَداءَ؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِ} [التوبة: 73]، وقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} [الفتح: 29].

المطلب السادس: مَظاهِرُ وصوَرُ القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ

1- تعامُلُ الدَّاعيةِ مع النَّاسِ بأُسلوبٍ فيه نوعٌ مِن الشِّدَّةِ والغِلظةِ والجَفوةِ وافتِقادِ الرِّفقِ واللِّينِ.

[4626] ((سراج الملوك)) لأبي بكر الطرطوشي (ص: 50).

[4627] رواه مطوَّلًا البخاري (6657) واللفظ له، ومسلم (2853).

وهذا السُّلوكُ يجعَلُ النَّاسَ ينفِرونَ مِن دَعوَتِه، ولا يستَجيبونَ لتَعاليمِه، ولا شَكَّ (أنَّ الغُلوَّ مُخالِفٌ للفِطرةِ البَشَريَّةِ، لا يُمكِنُ تحَمُّلُه والالتِقاءُ معه، وسُلوكُ الغُلاةِ مِن الغِلظةِ والجَفوةِ، وأُسلوبُهم مِن التَّشَدُّدِ والتَّعسيرِ، كُلُّ ذلك ينفِّرُ النَّاسَ مِن الاستِجابةِ للدَّعوةِ، ويصُدُّهم عنها...)[4628].

2- تغليبُ التَّرهيبِ على التَّرغيبِ في الدَّعوةِ إلى اللهِ.

3- القَسوةُ والغِلظةُ عندَ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ.

قال أحمَدُ بنُ حَنبلٍ: (الأمرُ بالمَعروفِ بلا غِلظةٍ إلَّا رَجُلًا مُعلِنًا بالفِسقِ، فلا حُرمةَ له)[4629].

وقال عَبدُ القادِرِ الجيلانيُّ: (يُشتَرَطُ في الآمِرِ بالمَعروفِ والنَّاهي عن المُنكَرِ خَمسُ شَرائِطَ:

أوَّلُها: أن يكونَ عالِمًا بما يأمُرُ ويَنهى.

والثَّاني: أن يكونَ قَصدُه وَجهَ اللهِ، وإعزازَ دينِ اللهِ، وإعلاءَ كَلِمتِه، وإظهارَ طاعَتِه، دونَ الرِّياءِ والسُّمعةِ والحَميَّةِ لنَفسِه، وإنَّما يُنصَرُ ويُوثَقُ ويزولُ به المُنكَرُ إذا كان صادِقًا مُخلِصًا...

والثَّالِثُ: أن يكونَ أمرُه ونَهيُه باللِّينِ والتَّوَدُّدِ، لا بالفَظاظة والغِلظةِ، بل بالرِّفقِ والنُّصحِ والشَّفَقةِ على أخيه، كيف وافَقَ عَدوَّه الشَّيطانَ اللَّعينَ الذي قد استَولى على عَقلِه، وزَيَّنَ له مَعصيةَ رَبِّه ومُخالَفةَ أمرِه، يُريدُ بذلك إهلاكَه وإدخالَه النَّارَ، كما قال اللهُ تعالى: {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر: 6]، وقال اللهُ تعالى لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159] ، وقال تعالى لموسى وهارونَ عليهما السَّلامُ حينَ بَعَثَهما إلى فِرعَونَ: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: 44] ...)[4630].

4- غِلظةُ المُعَلِّمِ وقَسوَتُه على المُتَعَلِّمينَ، وذلك إمَّا بالزَّجرِ أو السَّبِّ أو الضَّربِ، بما يدفَعُ المُتَعَلِّمَ للعُزوفِ عن تعَلُّمِ العِلمِ.

قال مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الباقي البَزَّازُ: (يجِبُ على المُعَلِّمِ ألَّا يُعنِّفَ، وعلى المُتَعَلِّمِ ألَّا يأنَفَ)[4631].

وقال الآجُرِّيُّ: (ينبَغي لمَن قُرِئَ عليه القُرآنُ فأخطَأ فيه القارِئُ أو غَلِطَ ألَّا يُعنِّفَه، وأن يرفُقَ به، ولا يجفوَ عليه، ويصبِرَ عليه؛ فإنِّي لا آمَنُ أن يجفوَ عليه، فينفِرَ عنه، وبالحَريِّ ألَّا يعودَ إلى المَسجِدِ)[4632].

وقال ابنُ مُفلِحٍ: (ينبَغي للمَشايِخِ الإحسانُ إليهم، والصَّبرُ على ما يكونُ منهم، واللُّطفُ بهم؛ لئَلَّا يتَضاعَفَ ألَمُهم وهَمُّهم، فيضعُفَ الصَّبرُ، وتَحصُلَ النُّفرةُ عن العِلمِ، واستِحبابُ ذلك مِن الطَّلَبةِ أَولى بهم والأدَبُ والتَّلَطُّفُ وما يُعينُهم على المَقصودِ، وقد قال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: 54])[4633].

[4628] ((ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث)) لمحمد عبد الكريم حامد (ص: 371).

[4629] يُنظَر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي (2/ 256).

[4630] ((الغنية لطالبي طريق الحق)) (1/ 112).

[4631] ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (11/ 641)، ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (3/ 302).

[4632] ((أخلاق حملة القرآن)) (ص: 87).

[4633] ((الآداب الشرعية)) (1/ 224).

5- الشِّدَّةُ والإغلاظُ في النُّصحِ؛ قال ابنُ حَزم: (إذا نَصَحْتَ ففي الخَلاءِ وبكَلامٍ لَيِّنٍ... فإن خَشَّنتَ كَلامَك في النَّصيحةِ فذلك إغراءٌ وتَنفيرٌ. وقد قال تعالى: فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا [طه: 44] ...)[4634].

6- عَدَمُ الرَّحمةِ بالضُّعفاءِ ولا الإشفاقِ على المُبتَلَينَ، ولا التَّأثُّرِ بالمُصابينَ، ولا الرِّقَّةِ لآلامِهم.

المطلب السابع: أسبابُ قَسوةِ القَلبِ والغِلظةِ والفَظاظةِ

1- ضَعفُ الإيمانِ والإعراضُ عن القُرآنِ.

2- التَّفريطُ في الفَرائِضِ وانتِهاكُ المُحَرَّماتِ.

3- الانشِغالُ بالدُّنيا والانهِماكُ في طَلَبِها والمُنافَسةُ عليها.

4- التَّوَسُّعُ المَذمومُ في المُباحاتِ:

فإنَّ قَسوةَ القَلبِ مِن أربَعةِ أشياءَ إذا جاوَزَت قدرَ الحاجةِ: الأَكلُ، والنَّومُ، والكَلامُ، والمُخالَطةُ.

(وفي كَثرةِ النَّومِ ضَياعُ العُمرِ، وفَوتُ التَّهَجُّدِ، وبلادةُ الطَّبعِ، وقَسوةُ القَلبِ، وفي كَثرةِ الطَّعامِ قَسوةُ القَلبِ)[4635].

وقال الفُضَيلُ: (ثَلاثُ خِصالٍ تُقَسِّي القَلبَ: كَثرةُ الأَكلِ، وكَثرةُ النَّومِ، وكَثرةُ الكَلامِ).

وقال عَبدُ اللهِ الدَّاريُّ: (كان أهلُ العِلمِ باللهِ والقَبولِ منه يقولونَ: ... إنَّ الشِّبَعَ يُقَسِّي القَلبَ، ويُفتِّرُ البَدَنَ)[4636].

5- افتِقادُ خُلُقِ الرَّحمةِ والإحسانِ وغَيرِهما مِن مَكارِمِ الأخلاقِ: عن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها قالت: جاءَ أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: تُقَبِّلونَ الصِّبيانَ؟ فما نُقَبِّلُهم! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أو أملِكُ لك أن نزعَ اللهُ مِن قَلبِك الرَّحمةَ!))[4637].

قال المُناويُّ: (لأنَّ الرَّحمةَ تتَخَطَّى إلى الإحسانِ إلى الغَيرِ، وكُلُّ مَن رَحِمتَه رَقَّ قَلبُك له فأحسَنتَ إليه، ومَن لم يُعطَ حَظَّه مِن الرَّحمةِ غَلُظَ قَلبُه وصارَ فظًّا لا يرِقُّ لأحَدٍ ولا لنَفسِه؛ فالشَّديدُ يشُدُّ على نفسِه ويُعسِّرُ ويُضَيِّقُ، فهو مِن نفسِه في تعَبٍ، والخَلْقُ منه في نَصَبٍ، مَكدوحُ الرُّوحِ، مُظلِمُ الصَّدرِ، عابِسُ الوَجهِ، مُنكَرُ الطَّلعةِ، ذاهِبًا بنَفسِه تِيهًا وعَظَمةً، سَمينَ الكَلامِ، عَظيمَ النِّفاقِ، قَليلَ الذِّكرِ للهِ وللدَّارِ الآخِرة، فهو أهلٌ لأن يُسخَطَ عليه، ويُغاضِبَه ليُعاقِبَه)[4638].

6- التَّعَصُّبُ للرَّأيِ وكَثرةُ الجِدالِ: قال الشَّافِعيُّ: (المِراءُ في العِلمِ يُقَسِّي القَلبَ، ويُورِثُ الضَّغائِنَ[4639])[4640].

7- ظُلمُ الضُّعَفاءِ، وأكلُ المالِ الحَرامِ، وعَدَمُ التَّوَرُّعِ عن الشُّبُهاتِ.

[4634] ((رسائل ابن حزم)) (1/ 367).

[4635] ((بريقة محمودية)) للخادمي (4/97). ويُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) لأبي حامد الغزالي (3/ 86).

[4636] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (6/288).

[4637] رواه البخاري (5998) واللفظ له، ومسلم (2317).

[4638] ((فيض القدير)) للمناوي (1/689).

[4639] الضَّغائِنُ: جمعُ ضغينةٍ، وهي الحِقدُ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4640] ((الاعتقاد)) للبيهقي (ص: 239).

8- كِبرُ النَّفسِ واحتقارُ الآخرينَ.

9- الجَهلُ بأُصولِ الشَّريعةِ ومَبادِئِ الدَّعوةِ إلى اللهِ تبارَك وتعالى وفِقْهِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ.

10- عَدَمُ مُراعاةِ أحوالِ النَّاسِ، واختِلافِ طَبائِعِهم.

11- سوءُ الخُلُقِ وجَفاءُ الطَّبعِ مِن أعظَمِ أسبابِ القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ.

المطلب الثامن: الوَسائِلُ المُعينةُ على التَّخَلُّصِ مِن القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ

1- الدُّعاءُ:

قال تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ [البقرة: 186] .

2- قراءةُ القرآنِ وتدَبُّرُ آياتِه:

قال تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: 21].

هذه دعوةٌ من اللهِ سُبحانَه وتعالى لعبادِه بتدَبُّرِ القرآنِ (وإن كانوا في القَسوةِ وصَلابةِ القُلوبِ كالجِبالِ الرَّواسي، فإنَّ هذا القُرآنَ لو أُنزِلَ على جَبَلٍ لرَأيتَه خاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِن خَشيةِ اللهِ؛ لكَمالِ تأثيرِه في القُلوبِ، فإنَّ مَواعِظَ القُرآنِ أعظَمُ المَواعِظِ على الإطلاقِ، وأوامِرَه ونَواهيَه مُحتَويةٌ على الحِكَمِ والمَصالِحِ المَقرونةِ بها، وهي مِن أسهَلِ شَيءٍ على النُّفوسِ، وأيسَرِها على الأبدانِ، خاليةٌ مِن التَّكَلُّفِ لا تناقُضَ فيها ولا اختِلافَ، ولا صُعوبةَ فيها ولا اعتِسافَ، تَصلُحُ لكُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ، ولا أنفَعَ للعَبدِ مِن التَّفَكُّرِ في القُرآنِ والتَّدَبُّرِ لمَعانيه؛ فإنَّ التَّفَكُّرَ فيها يفتَحُ للعَبدِ خَزائِنَ العِلمِ، ويُبَيِّنُ له طُرُقَ الخَيرِ والشَّرِّ، ويحُثُّه على مَكارِمِ الأخلاقِ، ومَحاسِنِ الشِّيَمِ، ويزجُرُه عن مَساوِئِ الأخلاقِ)[4641].

عن عَمرِو بنِ مَيمونٍ أنَّ أباه مَيمونَ بنَ مِهرانَ قال للحَسنِ البَصريِّ: (يا أبا سَعيدٍ، قد أنِستُ مِن قَلبي غِلظةً فاستَلِنْ لي منه! فقَرَأ الحَسَنُ: بسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيمِ {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} [الشعراء: 205 - 207] ، قال: فسَقَطَ الشَّيخُ فرَأيتُه يفحَصُ برِجلِه[4642] تفَحُّصَ الشَّاةِ المَذبوحةِ، فأقامَ طَويلًا ثُمَّ أفاقَ، فجاءَت الجاريةُ فقالت: قد أتعَبتُم الشَّيخَ! قوموا، تفَرَّقوا، فأخَذتُ بيَدِ أبي فخَرَجتُ به، ثُمَّ قُلتُ: يا أبَاه، هذا الحَسَنُ! قد كُنتُ أحسَبُ أنَّه أكبَرُ مِن هذا! قال: فوكَزَني في صَدري وكزةً، ثُمَّ قال: يا بُنَيَّ، لقد قَرَأ علينا آيةً لو فهِمْتَها بقَلبِك لأبقى لها فيك كُلومٌ!)[4643].

3- الإكثارُ مِن ذِكرِ اللهِ:

قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28].

[4641] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (853/1).

[4642] فحص برِجلِه: ركَض برِجلِه. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4643] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (4/83).

قال رَجُلٌ للحَسنِ: (يا أبا سَعيدٍ، أشكو إليك قَسوةَ قَلبي، قال: أدْنِه[4644] مِن الذِّكرِ)[4645].

4- الإكثارُ من الاستغفارِ والتَّوبةِ:

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53].

عن أبي هُرَيرةَ: عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يحكي عن رَبِّه عَزَّ وجَلَّ قال: ((أذنَب عَبدٌ ذَنبًا فقال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنَبَ عَبدي ذَنبًا فعَلِمَ أنَّ له رَبًّا يغفِرُ الذَّنبَ ويأخُذُ بالذَّنبِ، ثُمَّ عادَ فأذنَبَ، فقال: أيْ رَبِّ اغفِرْ لي ذَنبي، فقال تبارك وتعالى: عَبدي أذنَبَ ذَنبًا فعَلِمَ أنَّ له رَبًّا يغفِرُ الذَّنبَ ويأخُذُ بالذَّنبِ، ثُمَّ عادَ فأذنَبَ، فقال: أيْ رَبِّ اغفِرْ لي ذَنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنَبَ عَبدي ذَنبًا فعَلِمَ أنَّ له رَبًّا يغفِرُ الذَّنبَ، ويأخُذُ بالذَّنبِ، اعمَلْ ما شِئتَ فقد غَفَرتُ لك!))[4646].

قال ابنُ رَجَبٍ الحَنبليُّ: (والمعنى: ما دامَ على هذه الحالِ كُلَّما أذنَبَ استَغفَر. والظَّاهِرُ أنَّ مُرادَه الاستِغفارُ المَقرونُ بعَدَمِ الإصرارِ)[4647].

قال العَظيمُ آبادي: (إنَّ القَلبَ إنَّما خُلِقَ لأن يتَخَشَّعَ لبارِئِه، وينشَرِحَ لذلك الصَّدرُ، ويُقذَفَ النُّورُ فيه، فإذا لم يكُنْ كذلك كان قاسيًا، فيجِبُ أن يُستَعاذَ منه؛ قال تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: 22])[4648].

6- مُصاحَبةُ الصَّالِحينَ ومُجالستُهم، وقِراءةُ سَيرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

7– الإحسانُ إلى الضُّعفاءِ:

قال تعالى: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [القصص: 77].

قال مالِكُ بنُ دينارٍ: (المُؤمِنُ كَريمٌ في كُلِّ حالةٍ، لا يُحِبُّ أن يُؤذيَ جارَه، ولا يفتَقِرَ أحَدٌ مِن أقرِبائِه، وهو واللهِ مع ذلك غَنيُّ القَلبِ، لا يملِكُ مِن الدُّنيا شَيئًا.. إن أتاه منها شَيءٌ فرَّقَه، وإنْ زُويَ عنه كُلُّ شَيءٍ فيها لم يَطلُبْه، قال: ثُمَّ يبكي ويقولُ: هذا واللهِ الكَرَمُ، هذا واللهِ الكَرَمُ!)[4649].

8- زيارةُ المرضى:

عن أبي موسى الأشعَريِّ، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أطعِموا الجائِعَ، وعودوا المَريضَ، وفُكُّوا العانيَ[4650])[4651].

[4644] دنا: دنا الشَّيءُ من الشَّيءِ دُنُوًّا ودناوةً: قَرُب. يُنظَر ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4645] رواه أحمد في ((الزهد)) (1510) باختلاف يسير، وابن أبي الدنيا في ((الرقة والبكاء)) (48)، والخرائطي في ((اعتلال القلوب)) (53) واللفظ لها.

[4646] رواه مسلم (2758).

[4647] ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي (3/1165).

[4648] ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (4/285).

[4649] رواه ابن أبي الدنيا في ((مكارم الأخلاق)) (63).

[4650] فكُّوا العانيَ: أي: الأسيرَ. يُنظَر: ((فتح الباري لابن حجر)) (1/160).

عن ثَوبانَ مَولى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((مَن عادَ مَريضًا لم يزَلْ في خُرفةِ الجَنَّةِ، قيل: يا رَسولَ اللهِ، وما خُرفةُ الجَنَّةِ؟ قال: جَناها))[4652].

قال ابنُ عُثَيمينَ: (في ذلك تذكيرٌ للعائِدِ بنِعمةِ اللهِ عليه بالصِّحَّةِ؛ لأنَّه إذا رَأى هذا المَريضَ، ورَأى ما هو فيه مِن المَرَضِ، ثُمَّ رَجَعَ إلى نفسِه، ورَأى ما فيها مِن الصِّحَّةِ والعافيةِ، عَرَفَ قدرَ نِعمةِ اللهِ عليه بهذه العافيةِ؛ لأنَّ الشَّيءَ إنَّما يُعرَفُ بضِدِّه)[4653].

9- الاعتِبارُ بقِصَصِ أهلِ القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ.

10- العِلمُ بالآثارِ السَّيِّئةِ المُترَتِّبةِ على الغِلظةِ والقَسوةِ والفَظاظةِ.

المطلب التاسع: ما يُباحُ مِن القَسوةِ والغِلظةِ والفَظاظةِ

(اللِّينُ ورِقَّةُ القَلبِ هي الأصلُ في الكَلامِ والتَّعامُلِ حتى مع المُخالِفينَ، كما قال تعالى: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [العنكبوت: 46]، ولكِنْ قد يُعدَلُ عنه إلى غَيرِه حَسَبَ ما تقتَضيه الحِكمةُ، ومَقاماتُ الأحوالِ)[4654].

قال أبو حامِدٍ الغَزاليُّ: (قال سُفيانُ لأصحابِه: تدرونَ ما الرِّفقُ؟ قالوا: قُلْ يا أبا مُحَمَّدٍ، قال: أن تضَعَ الأُمورَ في مَواضِعِها: الشِّدَّةَ في مَواضِعِها، واللِّينَ في مَوضِعِه، والسَّيفَ في مَوضِعِه، والسَّوطَ في مَوضِعِه؛ وهذه إشارةٌ إلى أنَّه لا بُدَّ مِن مَزجِ الغِلظةِ باللِّينِ، والفَظاظةَ بالرِّفقِ)[4655].

ويُروى عن مُعاويةَ أنَّه كَتَبَ إلى نائِبِه زيادٍ: (إنَّه لا ينبَغي أن نَسوسَ النَّاسَ سياسةً واحِدةً: باللِّينِ فيَمرَحوا، ولا بالشِّدَّةِ فنَحمِلَ النَّاسَ على المهالِكِ، ولكِنْ كُنْ أنت للشِّدَّةِ والفظاظةِ والغِلظةِ، وأكونُ أنا للِّينِ والأُلفةِ والرَّحمةِ، فإذا خاف خائِفٌ وجَد بابًا يَدخُلُه)[4656].

وهذه المواطِنُ التي يُباحُ فيها القَسوةُ والغِلظةُ والفَظاظةُ تَخضَعُ لقاعِدةِ مُراعاةِ المَصالِحِ والمَفاسِدِ؛ لذا فلا (يَظُنَّنَّ أحَدٌ أنَّه إذا وُجِدَت تلك الأحوالُ أو بَعضُها شَرَعَ في استِخدامِ الشِّدَّةِ والقَسوةِ في الدَّعوةِ مِن غَيرِ النَّظَرِ إلى العَواقِبِ والنَّتائِجِ... بل يجِبُ مُراعاةُ ما يُتوقَّعُ حُدوثُه عِندَ استِخدامِ الشِّدَّةِ والقَسوةِ، فإن تأكَّد لديه أنَّ لُجوءَه إلى الشِّدَّةِ سيكونُ سَبَبَ حُدوثِ مُنكَرٍ أعظَمَ مِن المُنكَرِ الذي أراد إزالتَه، أو تَرْكِ مَعروفٍ أهمَّ مِنه، فليس له أن يلجأَ إليها آنذاك)[4657] والكَلامُ وإن كان عن الدَّعوةِ فإنَّه عامٌّ في جَميعِ الأحوالِ.

ومِن المواطِنِ التي تُباحُ فيها القَسوةُ والغِلظةُ والفَظاظةُ:

1- في الجهادِ:

[4651] رواه البخاري (5373).

[4652] رواه مسلم (2568).

[4653] ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (1/48).

[4654] يُنظَر: ((أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة)) لمحمد بن إبراهيم الحمد (55).

[4655] ((إحياء علوم الدين)) (3/186).

[4656] يُنظَر: ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (5/ 112)، ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (59/ 187)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (11/ 443).

[4657] ((من صفات الداعية مراعاة أحوال المخاطبين)) لفضل إلهي (180).

- جاءَ في قِصَّةِ الحُدَيبيَةِ حينَما قال عُروةُ بنُ مَسعودٍ الثَّقَفيُّ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فإنِّي واللهِ لأرى وُجوهًا، وإنِّي لأرى أوشابًا[4658] من النَّاسِ خليقًا أن يَفِرُّوا ويَدَعوك! فقال له أبو بكرٍ: امصُصْ بَظْرَ[4659] اللَّاتِ، أنحن نَفِرُّ عنه وندَعُه؟! فقال: مَن ذا؟ قالوا: أبو بكرٍ. قال: أمَا والذي نفسي بيَدِه لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجْزِك بها لأجَبْتُك))[4660].

- ((تَناوَلَ عُروةُ بنُ مَسعودِ الثَّقَفيُّ لحيةَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمُغيرةُ بنُ شُعبةَ واقِفٌ على رأسِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الحَديدِ -أي: لابِسٌ سِلاحَ المُقاتِلِ مِن دِرعٍ ونَحوِه- قال: فقَرَعَ يدَه، ثُمَّ قال: أمسِكْ يدَك عن لحيةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَبلَ -واللهِ- لا تَصِلُ إليك! قال: ويحَك! ما أفظَّك وأغلَظَك!))[4661].

وقال المُغيرةُ بنُ زُرارةَ الأسَديُّ ليَزْدَجِرْدَ قَبلَ مَعرَكةِ القادِسيَّةِ: (اختَرْ إن شِئتَ الجِزيةَ عن يدٍ وأنت صاغِرٌ، وإن شِئتَ فالسَّيفُ، أو تُسلمُ فتُنجِّي نَفسَك! فقال: أتَستَقبِلُني بمِثلِ هذا -الكَلامِ الشَّديدِ- فقال: ما استَقبَلتُ إلَّا مَن كلَّمَني، ولو كلَّمَني غَيرُك لم أستَقبِلْك به! فقال: لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقتَلُ لقَتَلتُكم، لا شَيءَ لكم عِندي)[4662].

وقال الجاحِظُ: (القَساوةُ مَكروهةٌ مِن كُلِّ أحَدٍ إلَّا مِن الجُندِ وأصحابِ السِّلاحِ، والمُتوَلِّينَ للحُروبِ؛ فإنَّ ذلك غَيرُ مَكروهٍ منهم إذا كان في مَوضِعِه)[4663].

2- مُجادَلةُ الظَّالِمِ المُتعَدِّي مِن أهلِ الكِتابِ:

قال تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت: 46].

(وقَولُه: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ استِثناءٌ مِن الذين يُجادَلونَ بالتي هي أحسَنُ، أي: ناقِشوهم وأرشِدوهم إلى الحَقِّ بالتي هي أحسَنُ، إلَّا الذين ظَلموا مِنهم، بأن أساؤوا إليكم، ولم يستَعمِلوا الأدَبَ في جِدالِهم؛ فقابِلوهم بما يليقُ بحالِهم مِن الإغلاظِ والتَّأديبِ.

وعلى هذا التَّفسيرِ يكونُ المَقصودُ بالآيةِ الكَريمةِ دَعوةَ المُؤمِنينَ إلى استِعمالِ الطَّريقةِ الحُسنَى في مُجادَلتِهم لأهلِ الكِتابِ عُمومًا، ما عَدا الظَّالمينَ منهم، فعلى المُؤمِنينَ أن يُعامِلوهم بالأُسلوبِ المُناسِبِ لرَدعِهم وزَجرِهم وتأديبِهم)[4664].

3- عندَ إقامةِ الحُدودِ:

قال تعالى في حَقِّ الزُّناةِ: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ [النور: 2].

[4658] الأوشابُ: الأخلاطُ من النَّاسِ والرَّعاعُ. يُنظَر: ((النهاية)) لابن الأثير.

[4659] البَظرُ: قطعةٌ تبقى بعدَ الختانِ في فَرجِ المرأةِ. يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (5/340).

[4660] رواه البخاري (2731، 2732) مطوَّلًا من حديثِ المِسوَرِ بنِ مخرَمةَ، ومروانَ بنِ الحكَمِ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[4661] رواه أحمد (18910) مطوَّلًا من حديثِ المِسوَرِ بنِ مخرَمةَ، ومروانَ بنِ الحكَمِ رَضِيَ اللهُ عنهما. حسَّن إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (18910). والحديثُ أصله في الصَّحيح، رواه البخاري (2731، 2732).

[4662] رواه الطبري في ((التاريخ)) (2/392).

[4663] ((تهذيب الأخلاق)) (30).

[4664] ((التفسير الوسيط)) لمحمد سيد طنطاوي (11/45).

يقولُ الطَّبريُّ: (يقولُ تعالى ذِكْره: لا تأخُذْكم بالزَّاني والزَّانيةِ -أيُّها المُؤمِنونَ- رأفةٌ، وهي رِقَّةُ الرَّحمةِ. فِي دِينِ اللَّهِ، يعني: في طاعةِ اللهِ فيما أمرَكم به مِن إقامةِ الحَدِّ عليهما على ما ألزَمَكم به)[4665].

وعن عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها قالت: ((واللهِ ما انتقَمَ لنَفسِه في شَيءٍ يُؤتَى إليه قَطُّ، حتَّى تُنتَهَكَ حُرُماتُ اللهِ، فيَنتَقِمَ للهِ))[4666].

وقال ابنُ حَزمٍ: (أمَّا الغِلظةُ والشِّدَّةُ فإنَّما تَجِبُ في حَدٍّ مِن حُدودِ اللهِ تعالى؛ فلا لِينَ في ذلك للقادِرِ على إقامةِ الحَدِّ خاصَّةً)[4667].

4- عِندَ ظُهورِ العِنادِ والاستِهزاءِ بالدِّينِ.

5- عِندَ بُدورِ مُخالَفةِ الشَّرعِ لدى من لا يُتوقَّعُ منه ذلك[4668]:

كما في حَديثِ شَفاعةِ أُسامةَ في المَرأةِ المَخزوميَّةِ التي سَرقَت: ((فكَلَّمَه فيها أُسامةُ بنُ زَيدٍ، فتَلوَّنَ وجهُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أتَشفَعُ في حَدٍّ مِن حُدودِ اللهِ؟! فقال له أُسامةُ: استَغفِرْ لي يا رَسولَ اللهِ))[4669].

المطلب العاشر: أخطاءٌ شائِعةٌ

يظُنُّ بَعضُ النَّاسِ أنَّ كُلَّ قَسوةٍ مَنهيٌّ عنها، والصَّوابُ أنَّ وضعَ الشَّيءِ في مَوضِعِه لا يُذَمُّ.

قال مُحَمَّدٌ الغَزاليُّ: (قد تأخُذُ الرَّحمةُ الحَقَّةُ طابَعَ القَسوةِ، وليست كذلك؛ إنَّ الأطفالَ عِندَنا يُساقونَ إلى المَدارِسِ كُرهًا، ويَحفَظونَ الدُّروسَ زَجرًا، ولو تُرِكوا وأهواءهم لقَتلَهم اللَّهوُ واللَّعِبُ، ولشَبُّوا لا يُحسِنونَ صُنعًا؛ ولِذلك قال الشَّاعِرُ:

فقَسا ليزدَجِروا ومن يَكُ راحِمًا

فلْيَقُسْ أحيانًا على مَن يَرحَمُ

والطَّبيبُ عِندَما يُجري بالجِسمِ جِراحةً يستَخدِمُ مِبضَعةً لتَمزيقِ اللَّحمِ، وقد يُضطَرُّ لتَهشيمِ العِظامِ وبَترِ أعضاءٍ، وما يفعَلُ ذلك إلَّا رَحمةً بالمَريضِ! فليست الرَّحمةُ حَنانًا لا عَقلَ معه، أو شَفَقةً تَتَنكَّرُ للعَدلِ والنِّظامِ، كَلَّا! إنَّها عاطِفةٌ تَرعى هذه الحُقوقَ جَميعًا، إنَّ مَنظَرَ المشنوقِ وجِسمُه يتأرجَحُ في الهَواءِ وعَيناه تَعشَقانِ الضَّوءَ وتَطلُبانِ النَّجاةَ مَنظَرٌ قد يستَدِرُّ العَطفَ، ولو أُجيبَت هذه العاطِفةُ السَّريعةُ وأُطلِقَ سَراحُ القاتِلِ لامتلأتِ الأرضُ فوضى، والرَّحمةُ الحَقَّةُ في كُتبِ هذا الشُّعورِ {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 179].

[4665] ((جامع البيان)) (17/139).

[4666] رواه مطوَّلًا البخاري (6786) واللفظ له، ومسلم (2327).

[4667] ((الأخلاق والسير في مداواة النفوس)) (ص: 63).

[4668] يُنظَر: ((من صفات الداعية مراعاة أحوال المخاطبين)) لفضل إلهي (180).

[4669] رواه مطوَّلًا البخاري (3475)، ومسلم (1688) واللَّفظُ له من حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها.

إنَّ القَسوةَ التي استَنكَرَها الإسلامُ جَفافٌ في النَّفسِ لا يرتَبِطُ بمَنطِقٍ ولا عَدالةٍ، إنَّها نَزوةٌ فاجِرةٌ تَتَشَبَّعُ مِن الإساءةِ والإيذاءِ، وتَمتَدُّ مع الأثَرةِ المُجَرَّدةِ والهَوَى الأعمَى، أمَّا الرَّحمةُ فهي أثَرٌ مِن الجَمالِ الإلَهيِّ الباقي في طَبائِعِ النَّاسِ يحدوهم إلى البِرِّ، ويُهِبُّ عليهم في الأزَماتِ الخانِقةِ ريحًا بليلةٍ تُرَطِّبُ الحياةَ وتُنعِشُ الصُّدورَ)[4670].

وكتَبَ أحمَدُ بنُ طُولونَ إلى ابنِه العَبَّاسِ بنِ أحمَدَ حينَ عصى عليه: (قد كَتبتُ إليك يا بُنَيَّ كِتابًا يصِلُ بوُصولِ هذه الرُّقعةِ، وعَظتُك فيه بالعِظاتِ النَّوافِعِ، واحتَجَجتُ عليك فيه بالحُجَجِ البوالِغِ، وذَكَّرتُك بالدُّنيا والدِّينِ، وخَلطتُ لك الغِلظةَ باللِّينِ، أرَدتُ بالغِلظةِ تَسكينَ نِفارِك، وباللِّينِ أن أَثنيَ إليَّ قيادَك، فلا تَحسَبِ الغِلظةَ يا بُنَيَّ دَعَتْني إليها فظاظةٌ، ولا اللِّينَ حَمَلَتْني عليه ضَراعةٌ، وكُنْ على أوثَقِ الثِّقةِ وأصَحِّ المَعرِفةِ بأنَّ قَلبي لك سَليمٌ، وأنَّك عَلَيَّ كريمٌ)[4671].

المطلب الحادِيَ عَشَرَ: مَسائِلُ مُتَفَرِّقةٌ

- يوصَفُ مِن ابتُلِيَ بالقَسوةِ بعِدَّةِ أوصافٍ، وهي مِن المُرادِفاتِ: (قاسي القَلبِ، غَليظُ الكَبِدِ، جافي الطَّبعِ، خَشِنُ الجانِبِ، فظُّ الأخلاقِ، وفيه قَسوةٌ، وقَساوةٌ، وغِلظةٌ، وجَفاءٌ، وخُشونةٌ، وفَظاظةٌ)[4672].

- كان (أحمَدُ بنُ أبي خالِدٍ أبو العَبَّاسِ وزيرُ المأمونِ ذا رأيٍ وفِطنةٍ، إلَّا أنَّه كانت له أخلاقٌ وفَظاظةٌ، فقال له رَجُلٌ: واللهِ لقد أُعطيتَ ما لم يُعطَه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فقال: واللهِ لَئِنْ لم تَخرُجْ ممَّا قُلتَ لأعاقِبَنَّك! فقال: قال اللهُ تعالى لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ [آل عمران: 159]. وأنت فظٌّ غَليظُ القَلبِ، ولا ينفضُّونَ مِن حَولِك!)[4673].

- قيلَ: (إنَّما يُؤتَى السُّلطانُ ويَفسُدُ أمرُه مِن قَبلِ سِتَّةِ أشياءَ: الحِرمانُ، والفِتنةُ، والهَوى، والفَظاظةُ، والزَّمانُ... وأمَّا الفَظاظةُ فهي إفراطُ الشِّدَّةِ حتَّى يجمَحَ اللِّسانُ بالشَّتمِ، واليَدُ بالبَطشِ في غَيرِ مَوضِعِها... وأمَّا الخُرقُ فإعمالُ الشِّدَّةِ في مَوضِعِ اللِّينِ، واللِّينِ في مَوضِعِ الشِّدَّةِ)[4674]، فيُعامِلُ الأعداءَ في مَوضِعِ السِّلمِ بالحَربِ، وفي مَواضِعِ الحَربِ بالسِّلمِ والموادَعةِ، وفي المَواضِعِ التي يحتاجُ فيها إلى المكيدةِ والصَّبرِ والحَذَرِ والتَّدبيرِ بالخَطأ والمُغالَبةِ والغِلظةِ وتَركِ السِّياسةِ[4675]!

- قال اللهُ تعالى لنَبيِّه: {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}، أي: على الكُفَّارِ والمُنافِقينَ، و (إنَّما أُمِرَ بذلك صَلواتُ اللهِ تعالى عليه؛ لأنَّ الغالِبَ على طَبعِه الشَّريفِ الرِّقَّةُ والرَّحمةُ والأدَبُ في المُقابَلةِ والمُعاشَرةِ، وقد قال تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [3: 159])[4676].

[4670] ((خلق المسلم)) (ص: 213).

[4671] ((التذكرة الحمدونية)) لابن حمدون (4/120).

[4672] ((نجعة الرائد)) لليازجي (1/234).

[4673] ((المنتظم)) لابن الجوزي (10/243).

[4674] ((كليلة ودمنة)) (ص: 110، 111).

[4675] ((التذكرة)) لابن حمدون (1/ 300).

[4676] ((تفسير المنار)) (11/ 72).

المبحث الرابع عشر: التعالُم

المطلب الأول: معنى التَّعالُمِ لغةً واصطلاحًا

- **التَّعالُم لغةً:**

التَّعالُم: مصدَرُ تعالَمَ، وتعالَمَ الشَّخصُ، أي: ادَّعى أو أظهر العِلمَ والمعرفةَ، وصيغةُ «تفاعَلَ» قد تدُلُّ على التَّظاهُرِ بالفِعلِ، مِثلُ: «تعامى»، «تغافَلَ».

وتعالَمَ على زُملائِه: تباهى وتفاخَر بالعِلمِ عليهم.

وأيضًا يقالُ: تعالَم النَّاسُ الخَبَرَ: إذا عَلِموه[4677]، وهذا هو الأصلُ في إطلاقِ هذه الكَلِمةِ، ثمَّ استُعمِلَت بمعنى إظهارِ العِلمِ وادِّعائِه.

- **التَّعالُمُ اصطِلاحًا:**

هو: ادِّعاءُ العِلمِ والمعرفةِ، والتَّظاهُرُ والتَّفاخُرُ بهما مع كونِ مُدَّعي ذلك ليس أهلًا لما يدَّعيه[4678].

المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ صفةِ التَّعالُمِ وبعضِ الصِّفاتِ

قد تقرَّر أنَّ صفةَ (التَّعالُمِ) هي ادِّعاءُ المعرفةِ والعِلمِ والتَّظاهُرُ بهما، ويتداخَلُ مع مدلولِ هذه الصِّفةِ عِدَّةُ صِفاتٍ أُخرى تشتركُ معها في الدَّلالةِ على معنى الادِّعاءِ للعِلمِ والتَّظاهُرِ بالمعرفةِ، ويختَصُّ كُلٌّ منها بمعنًى خاصٍّ؛ فبينهما تداخُلٌ وعمومٌ وخُصوصٌ، ومن هذه الصِّفاتِ: (التَّحَذلُقُ، التَّفَيهُقُ).

- **الفَرقُ بَينَ التَّعالُمِ والتَّحَذلُقِ:**

فأمَّا التَّحَذلُقُ فيقالُ: إنَّه لَيتحَذْلَقُ علينا: إذا أظهَرَ الحِذْقَ، وادَّعى أكثَرَ ممَّا عنده، وفيه حَذْلقةٌ، وتحَذْلُقٌ، وقيل: المُتحَذلِقُ: المتكَيِّسُ الذي يريدُ أن يزدادَ على قَدْرِه[4679].

فيَشتَرِكُ التَّحَذلُقُ والتَّعالُمُ في التَّظاهُرِ بالشَّيءِ وادِّعائِه، لكِنِ (التَّحَذلُق) أعمُّ من (التَّعالُم)، والتَّعالُمُ خاصٌّ بادِّعاءِ العِلمِ والمعرفةِ.

- **الفَرقُ بَينَ التَّعالُمِ والتَّفيهُقِ:**

[4677] يُنظَر: ((الكتاب)) لسيبويه (4/ 69)، ((الصحاح)) للجوهري (5/ 1991)، ((معجم ديوان الأدب)) للفارابي (2/ 472)، ((شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم)) للحميري (7/ 4747)، ((معجم الصواب اللغوي)) لأحمد مختار عمر (1/ 239)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار عمر (2/ 1541).

[4678] يُنظَر: ((معجم الصواب اللغوي)) لأحمد مختار (1/ 239)، ((تكملة المعاجم العربية)) لرينهارت (7/ 295، 421).

[4679] يُنظَر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (4/ 43)، ((أساس البلاغة)) للزمخشري (1/ 177).

أمَّا (التَّفيهقُ) فهو: عبارةٌ عن التَّوسُّعِ في الكلامِ، وفَتحِ الفمِ به، وهو مأخوذٌ من الفَهقِ، وهو الامتلاءُ والاتِّساعُ، ويقالُ: تَفيهَقَ في مِشيتِه: تبختَرَ، ويقالُ: هو يتفيهَقُ علينا بمالِ غيرِه: يفخَرُ ويتفخَّمُ، فهو مُتفَيهِقٌ[4680].

فالظَّاهِرُ: أنَّ التَّعالُمَ والتَّفيهُقَ يشتركانِ في التَّوسُّعِ والفخرِ، وإن كان التَّعالُمُ يختصُّ بإظهارِ التَّوسُّعِ في العِلمِ، والتَّفيهُقُ ليس مختَصًّا بذلك.

المطلب الثالث: ذمُّ صِفةِ التَّعالُمِ والنَّهيُ عنها

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

1- قال تعالى: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: 188].

وعن عِكرمةَ مولى ابنِ عَبَّاسٍ: قولُه: وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا: (أن يقولَ النَّاسُ لهم: عُلَماءُ، وليسوا بأهلِ عِلمٍ، لم يحمِلوهم على خيرٍ ولا هُدًى، ويحبُّون أن يقولَ النَّاسُ: قد فعَلوا)[4681].

قال ابنُ عاشورٍ: (ومعنى: وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا أنَّهم يحبُّون الثَّناءَ عليهم بأنَّهم حَفَظةُ الشَّريعةِ وحُرَّاسُها والعالِمون بتأويلِها، وذلك خلافُ الواقِعِ)[4682].

قال ابنُ كثيرٍ: (قولُه تعالى: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: 188] الآية، يعني بذلك المُرائين المُتكَثِّرين بما لم يُعطَوا)[4683].

2- قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} [الإسراء: 36 - 38].

عن قتادةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه في قولِه: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ: (لا تقُلْ: سَمِعتُ، ولم تسمَعْ، ولا تقُلْ: رأيتُ، ولم ترَ؛ فإنَّ اللَّهَ سائِلُك عن ذلك كُلِّه)[4684].

قال ابنُ عاشورٍ: (أي: أنَّك أيُّها الإنسانُ تُسألُ عما تُسنِدُه إلى سمعِك وبصَرِك وعَقلِك، بأنَّ مَراجِعَ القَفْوِ المنهيِّ عنه إلى نسبةٍ لسَمعٍ أو بصرٍ أو عقلٍ في المسموعاتِ والمُبصَراتِ والمُعتَقَداتِ، وهذا أدَبٌ خُلُقيٌّ عظيمٌ.

وهو أيضًا إصلاحٌ عقليٌّ جليلٌ يُعَلِّمُ الأمَّةَ التَّفرقةَ بَينَ مراتِبِ الخواطِرِ العقليَّةِ بحيثُ لا يختَلِطُ عندها المعلومُ والمظنونُ والموهومُ.

[4680] يُنظَر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (5/ 1484)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (3/ 482)، ((تاج العروس من جواهر القاموس)) للزبيدي، ((المعجم الوسيط)).

[4681] ((تفسير القرآن)) لابن أبي حاتم (3/ 840).

[4682] ((التحرير والتنوير)) (4/ 193).

[4683] ((تفسير القرآن العظيم)) (2/ 181).

[4684] ((تفسير القرآن)) لابن أبي حاتم (7/ 2331).

ثمَّ هو أيضًا إصلاحٌ اجتماعيٌّ جليلٌ يجنِّبُ الأمَّةَ من الوقوعِ والإيقاعِ في الأضرارِ والمهالكِ، من جرَّاءِ الاستنادِ إلى أدلَّةٍ موهومةٍ)[4685].

ب- من السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

1- عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنهما، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ لا يقبِضُ العِلمَ انتِزاعًا ينتزِعُه مِن العِبادِ، ولكن يقبِضُ العِلمَ بقَبضِ العُلَماءِ، حتَّى إذا لم يُبقِ عالِمًا اتَّخَذ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا فأفتَوا بغَيرِ عِلمٍ، فضلُّوا وأضلُّوا))[4686].

قال ابنُ بطَّالٍ: (وإنَّما يكونُ قَبضُ العِلمِ بتضييعِ التَّعلُّمِ، فلا يوجَدُ فيمن يبقى من يَخلُفُ من مضى)[4687].

قال المُناويُّ: («فأفتَوا بغيرِ عِلمٍ» ... أي: استِكبارًا وأنَفةً عن أن يقولوا: لا نَعلَمُ، «فضلُّوا» في أنفُسِهم، «وأضَلُّوا» من أفتَوه... وهذا تحذيرٌ من ترئيسِ الجَهَلةِ، وأنَّ الفتوى هي الرِّئاسةُ الحقيقيَّةُ، وذَمٌّ من يُقدِمُ عليها بلا عِلمٍ)[4688].

2- عن ثوبانَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... وإنَّما أخافُ على أمَّتي الأئمَّةَ المُضِلِّين))[4689].

قال ابنُ رسلانَ: («وإنَّما أخاف على أمَّتي» من «الأئمَّة» الأئمَّةُ: جمعُ إمامٍ، وهو الذي يدعو النَّاسَ إلى ضلالةٍ بالقَولِ أو الفِعلِ أو اعتقادٍ يعتَقِدُه، «المُضِلِّين» الذين تولَّوا الولاياتِ بغيرِ علمٍ، فحَكَموا بغيرِ عِلمٍ، فضَلُّوا وأضَلُّوا، فهم ضالُّون عن الحَقِّ، مُضِلُّون لغيرِهم، وقد يدخُلُ فيهم العُلَماءُ الذين لا يَعمَلون بعِلمِهم، وجُهَلاءُ الصُّوفيَّةِ الذين صاروا مشايخَ يُقتدى بهم، فيَلعَبُ بهم الشَّيطانُ وبمن يقتدي بهم، إلَّا من وفَّقه اللَّهُ تعالى)[4690].

3- عن ثابتِ بنِ الضَّحَّاكِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من ادَّعى دعوى كاذِبةً ليتكَثَّرَ بها، لم يَزِدْه اللَّهُ إلَّا قِلَّةً))[4691].

قال القاضي عِياضٌ: (هذا عامٌّ في كُلِّ دعوى يتشَبَّعُ بها المرءُ بما لم يُعْطَ؛ من مالٍ يحتالُ في التَّجمُّلِ به من غيرِه، أو نَسَبٍ ينتمي إليه ليس من جِذْمِه أي: فَرعِه، أو عِلمٍ يتحلَّى به ليس من حَمَلتِه، أو دينٍ يُرائي به ليس من أهلِه؛ فقد أعلَمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه غيرُ مُبارَكٍ له في دعواه، ولا زاكٍ ما اكتَسَبه بها)[4692].

4- عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُتشَبِّعُ بما لم يُعْطَ كلابِسِ ثَوبَيْ زُورٍ))[4693].

[4685] ((التحرير والتنوير)) (15/ 101).

[4686] أخرجه البخاري (100) واللفظ له، ومسلم (2673).

[4687] ((شرح صحيح البخاري)) (1/ 177).

[4688] ((فيض القدير)) (2/ 274). أخرجه البخاري (100) واللفظ له، ومسلم (2673).

[4689] أخرجه مطولًا: أبو داود (4252) واللفظ له، والترمذي (2202، 2229) مفرقًا، وأحمد (22452) باختلافٍ يسيرٍ. صحَّحه الترمذي، وابن حبان في ((صحيحه)) (7238)، والسخاوي في ((البلدانيات)) (105).

[4690] ((شرح سنن أبي داود)) لابن رسلان (16/ 672).

[4691] أخرجه مسلم (110) مطوَّلًا من حديثِ ثابتِ بنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللهُ عنه.

[4692] ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) (1/ 391).

[4693] أخرجه البخاري (5219)، ومسلم (2130).

قال النَّوويُّ: (قال العُلَماءُ: معناه المتكَثِّرُ بما ليس عندَه، بأن يُظهِرَ أنَّ عندَه ما ليس عندَه، يتكثَّرُ بذلك عندَ النَّاسِ، ويتزيَّنُ بالباطِلِ؛ فهو مذمومٌ، كما يُذَمُّ من لَبِس ثوبَي زُورٍ؛ قال أبو عُبَيدٍ وآخرون: هو الذي يلبَسُ ثيابَ أهلِ الزُّهدِ والعبادةِ والوَرَعِ، ومقصودُه: أن يُظهِرَ للنَّاسِ أنَّه متَّصِفٌ بتلك الصِّفةِ، ويُظهِرَ من التَّخشُّعِ والزُّهدِ أكثَرَ ممَّا في قلبِه، فهذه ثيابُ زُورٍ ورياءٍ، وقيل: هو كمن لَبِس ثوبَينِ لغيرِه وأوهَمَ أنَّهما له، وقيل: هو مَن يلبَسُ قميصًا واحدًا ويَصِلُ بكُمَّيه كُمَّينِ آخرَينِ، فيُظهِرُ أنَّ عليه قميصينِ، وحكى الخطَّابيُّ قولًا آخَرَ: أنَّ المرادَ هنا بالثَّوبِ الحالةُ والمذهَبُ، والعرَبُ تُكنِّي بالثَّوبِ عن حالِ لابسِه، ومعناه: أنَّه كالكاذِبِ القائِلِ ما لم يكُنْ، وقولًا آخَرَ: أنَّ المرادَ الرَّجُلُ الذي تُطلَبُ منه شهادةُ زُورٍ فيَلبَسُ ثوبَينِ يتجمَّلُ بهما، فلا تُرَدُّ شهادتُه لحُسنِ هيئتِه. واللَّهُ أعلَمُ)[4694].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

1- قال زُفَرُ: (من قعَد قبلَ وَقتِه ذَلَّ)[4695].

2- وقال أبو الطَّيِّبِ الصُّعلوكيُّ النَّيسابوريُّ: (من تصدَّر قبلَ أوانِه فقد تصدَّى لهوانِه)[4696].

3- وقال أبو حنيفةَ: (من طلَب الرِّياسةَ في غيرِ حينِه، لم يزَلْ في ذُلٍّ ما بَقِيَ)[4697].

4- وقال أبو الذَّيَّالِ: (تعلَّمْ: لا أدري، ولا تعلَّمْ: أدري؛ فإن قُلتَ: أدري، يسألوك حتَّى لا تدريَ، وإن قُلتَ: لا أدري، عَلَّموك حتى تدريَ)[4698].

5- وقال بعضُ الحُكَماءِ: (من العِلمِ ألَّا تتكلَّمَ فيما لا تعلَمُ بكلامِ مَن يعلَمُ؛ فحَسْبُك جهلًا مِن عَقلِك أن تنطِقَ بما لا تفهَمُ)[4699].

6- وقال ابنُ جماعةَ الكِنانيُّ في آدابِ العالِمِ في درسِه: (ألَّا ينتَصِبَ للتَّدريسِ إذا لم يكُنْ أهلًا له، ولا يَذكُرَ الدَّرسَ مِن عِلمٍ لا يعرِفُه؛ ... فإنَّ ذلك لَعِبٌ في الدِّينِ وازدراءٌ بَينَ النَّاسِ... واللَّبيبُ من صان نفسَه عن تعرُّضِها لما يُعَدُّ فيه ناقِصًا، وبتعاطيه ظالِمًا، وبإصرارِه عليه فاسِقًا)[4700].

7- وقيل: (لسانُ الدَّعوى إذا نَطَق فضَحَه الامتحانُ)[4701].

8- رُوِيَ عن مجاهدٍ أنَّه قال: (جاء بشيرٌ العَدَويُّ إلى ابنِ عَبَّاسٍ، فجعل يحدِّثُ، ويقولُ: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فجعل ابنُ عبَّاسٍ لا يأذَنُ لحديثِه، ولا ينظُرُ إليه، فقال: يا ابنَ عبَّاسٍ، ما لي لا أراك تسمَعُ لحديثي، أحَدِّثُك عن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا تَسمَعُ؟! فقال ابنُ عبَّاسٍ: إنَّا كُنَّا مرَّةً إذا سَمِعْنا

[4694] ((شرح النووي على مسلم)) (14/ 110).

[4695] ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (8/ 40).

[4696] ((شعب الإيمان)) للبيهقي (10/ 516)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (17/ 208).

[4697] ((تذكرة السامع والمتكلم)) لابن جماعة (ص: 46).

[4698] ((الزهد)) لابن أبي عاصم (ص: 51)، ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (2/ 842).

[4699] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 74).

[4700] ((تذكرة السامع والمتكلم)) (ص: 46).

[4701] ((محاضرات الأدباء)) للراغب (1/ 64).

رجلًا يقولُ: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ابتدَرَتْه أبصارُنا، وأصغَينا إليه بآذانِنا، فلمَّا رَكِبَ النَّاسُ الصَّعبَ والذَّلولَ، لم نأخُذْ من النَّاسِ إلَّا ما نَعرِفُ!)[4702].

9- وقال الحَسَنُ البَصريُّ في شأنِ هؤلاء المتعالِمين وأمثالِهم: (اللَّهُمَّ إليك نشكو هذا الغُثاءَ الذي كنَّا نُحَدَّثُ عنه!)[4703].

10- وقال محمَّدُ بنُ سيرينَ: (إنَّ هذا العِلمَ دينٌ؛ فانظُروا عمَّن تأخُذون دينَكم)[4704].

11- وعن سُفيانَ أنَّه كان يقولُ: (تعوَّذوا باللَّهِ من فتنةِ العابدِ الجاهِلِ، وفتنةِ العالِمِ الفاجِرِ؛ فإن فِتنَتَهما فتنةٌ لكُلِّ مفتونٍ)[4705].

12- وقال الشَّعبيُّ: (ما جاءك من أصحابِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فخُذْه، ودَعْ ما يقولُ هؤلاء الصَّعافقةِ. قيل: الصَّعافِقةُ: الذين يدخُلون السُّوقَ بلا رأسِ مالٍ، وقيل: هم رذالةُ النَّاسِ، أراد الذين لا عِلمَ لهم، فهم بمنزلةِ التُّجَّارِ الذين ليس لهم رأسُ مالٍ)[4706].

13- وعن شُعبةَ قال: (قال لي ابنُ عَونٍ: يا أبا بِسطامٍ ما يحمِلُ هؤلاء الذين يَكذِبون في الحديثِ على الكَذِبِ؟ قال: يريدون أن يُعَظَّموا بذلك)[4707].

14- وقال بعضُ السَّلَفِ: (عِلمٌ لا يَعبُرُ معك الوادي لا تَعمُرُ معه النَّادي، إذا ازدحَم الجوابُ خَفِي الصَّوابُ، اللَّغَطُ يكونُ معه الغَلَطُ، لو سكت من لا يعلَمُ سَقَط الاختِلافُ)[4708].

15- وقال مالِكُ بنُ أنَسٍ: (لا تأخُذِ العِلمَ من أربعةٍ، وخُذْه ممَّا سوى ذلك: مِن مُعلِنٍ للسِّفلةِ، وإن كان أروى النَّاسِ، ولا من كذَّابٍ يكذِبُ في حديثِ النَّاسِ، وإن كان لا تتَّهِمُه بكَذِبٍ على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا من صاحِبِ هوًى يدعو إلى هواه، ولا من شيخٍ له فضلٌ وعبادةٌ إذا كان لا يَعرِفُ ما يحَدِّثُ به)[4709].

16- وقال الشَّافعيُّ: (الواجِبُ على العالِمين أن لا يقولوا إلَّا من حيثُ عَلِموا، وقد تكلَّم في العِلمِ مَن لو أمسك عن بعضِ ما تكلَّم فيه منه لكان الإمساكُ أولى به، وأقرَبَ من السَّلامةِ له إن شاء اللَّهُ)[4710].

17- وقال ابنُ حزمٍ: (لا آفةَ على العلومِ وأهلِها أضَرُّ من الدُّخَلاءِ فيها وهم من غيرِ أهلِها؛ فإنَّهم يَجهَلون ويظنُّون أنَّهم يَعلَمون، ويُفسِدون ويُقَدِّرون أنَّهم يُصلِحون)[4711].

[4702] رواه مسلم في مقدمة صحيحه (1/13).

[4703] ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (1/ 18).

[4704] رواه مسلم في مقدمة صحيحه (1/14).

[4705] ((الزهد والرقائق)) لابن المبارك (2/ 18).

[4706] ((شرح السنة)) للبغوي (1/ 318).

[4707] ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (1/ 584).

[4708] ((العلل ومعرفة الرجال)) لأحمد - رواية ابنه عبد الله (2/ 438).

[4709] ((شرح السنة)) للبغوي (1/ 318).

[4710] ((الرسالة)) (1/ 41).

[4711] ((الأخلاق والسير في مداواة النفوس)) (ص: 23).

وقال في موضعٍ آخَرَ: (إنَّ قومًا قَوِيَ جَهلُهم، وضَعُفَت عقولُهم، وفسَدت طبائعُهم، يظنُّون أنَّهم من أهلِ العلمِ، وليسوا من أهلِه، ولا شيءَ أعظَمُ آفةً على العلومِ وأهلِها -الذين هم أهلُها بالحقيقةِ- من هذه الطَّبقةِ المذكورةِ؛ لأنَّهم تناولوا طرَفًا من بعضِ العلومِ يسيرًا، وكان الذي فاتهم من ذلك أكثَرَ ممَّا أدركوا منه، ولم يكُنْ طَلَبُهم لِما طلَبوا من العلمِ للهِ تعالى، ولا ليَخرُجوا من ظُلمةِ الجهلِ، لكن ليزدروا بالنَّاسِ زَهوًا وعَجَبًا، وليماروا لِجاجًا وشَغبًا، وليَفخَروا أنَّهم من أهلِه تطاوُلًا ونَفَجًا، وهذه طريقٌ مُجانبةٌ الفلاحَ؛ لأنَّهم لم يُحصِّلوا على الحقيقةِ، وضَيَّعوا سائِرَ لوازمِهم؛ فعَظُمت خيبتُهم، ولم يكُنْ وَكْدُهم أيضًا مع الازدراءِ بغيرِهم إلَّا الازدراءَ بسائرِ العُلومِ وتنقيصَها؛ لظَنِّهم الفاسِدِ أنَّه لا عِلمَ إلَّا الذي طلبوا فقط. وكثيرًا ما يَعرِضُ هذا لمبتدئٍ في علمٍ من العلومِ، وفي عُنفوانِ الصِّبا وشِدَّةِ الحداثةِ، إلَّا أنَّ هؤلاء لا يُرجى لهم البرءُ من هذا الدَّاءِ، مع طولِ النَّظَرِ والزِّيادةِ في السِّنِّ)[4712].

18- وقال ابنُ حَجَرٍ العَسقلانيُّ: (إذا تكلَّم المرءُ في غيرِ فَنِّه أتى بهذه العجائِبِ!)[4713].

19- وقال مصطفى صادق الرَّافعي: (من فَرَض على النَّاسِ أن يَعرِفوه نابغةً، فقد فرَض عليهم أن يَعرِفوه معتوهًا أو مغرورًا)[4714].

المطلب الرابع: آثارُ التَّعالُمِ

1- التَّعالُمُ هو أساسُ كُلِّ فتنةٍ ورأسُ كُلِّ بَليَّةٍ.

2- قد يؤدِّي إلى التَّشكيكِ في ثوابتِ الأمَّةِ، وإثارةِ الشُّبُهاتِ والفِتَنِ.

ومن ذلك ردُّ السُّنَّةِ والاكتفاءُ بالقرآنِ، وفي الحديثِ عن أبي رافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا أُلفِيَنَّ أحدُكم متَّكِئًا على أريكتِه يأتيه أمرٌ ممَّا أَمَرْتُ به أو نهيتُ عنه، فيقولُ: لا أدري، ما وجَدْنا في كتابِ اللَّهِ اتَّبَعْناه))[4715].

قوله: ((لا أدري))، أي: لا أعلَمُ غيرَ القرآنِ، ولا أتَّبِعُ غيرَه، أو لا أدري قولَ الرَّسولِ[4716].

3- تتبُّعُ زلاتِ العُلَماءِ وهَفَواتِهم.

4- حملُ الشَّواذِّ وغثاثةُ الرُّخَصِ.

5- الغَلَطُ على الأئمَّةِ في أقوالِهم ومذاهِبِهم.

6- ضَعفُ الدَّعوةِ إلى اللَّهِ، ونفورُ المدعوِّين منها.

7- ظهورُ الجَهلِ.

[4712] ((رسالة مراتب العلوم - ضمن مجموع رسائل)) لابن حزم (4/ 86).

[4713] ((فتح الباري)) لابن حجر (3/ 584).

[4714] ((كلمة وكليمة)) (ص: 62) .

[4715] أخرجه أبو داود (4605)، والترمذي (2663) واللفظ له، وابن ماجه (13). صحَّحه الترمذي، وابن حبان في ((صحيحه)) (13)، والحاكم على شرط الشيخين في ((المستدرك)) (368)، وابن حزم في ((الإحكام في أصول الأحكام)) (1/216).

[4716] ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) للقاري (1/ 246).

8- عدمُ احترامِ العُلَماءِ.

9- التَّعالُمُ من أسبابِ وُقوعِ الخلافِ، وقد قيل: (لو سكَت من لا يعلَمُ سَقَط الخلافُ)[4717].

10- التَّعالُمُ مُفسِدٌ للدِّينِ والدُّنيا.

11- التَّعالُمُ يؤدِّي إلى القولِ على اللَّهِ بلا عِلمٍ.

فـ(التَّعالُمُ هو عتبةُ الدُّخولِ على القولِ على اللَّهِ بلا علمٍ، بل إنَّ التَّعالُمَ والشُّذوذَ والتَّرخُّصَ والتَّعصُّبَ، كُلُّها منافِذُ تؤدِّي إلى القولِ على اللَّهِ بلا عِلمٍ)[4718].

(وقد حرَّم اللَّهُ سُبحانَه القولَ عليه بغيرِ علمٍ في الفُتيا والقضاءِ، وجعَله من أعظَمِ المحَرَّماتِ، بل جعَله في المرتبةِ العُليا منها، فقال تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: 33] ؛ فرتَّب المحرَّماتِ أربعَ مراتِبَ، وبدأ بأسهَلِها وهو الفواحِشُ، ثمَّ ثنَّى بما هو أشدُّ تحريمًا منه وهو الإثمُ والظُّلمُ، ثمَّ ثلَّث بما هو أعظَمُ تحريمًا منهما وهو الشِّركُ به سُبحانَه، ثمَّ ربَّع بما هو أشدُّ تحريمًا من ذلك كُلِّه وهو القولُ عليه بلا علمٍ، وهذا يعُمُّ القولَ عليه سُبحانَه بلا عِلمٍ في أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، وفي دينِه وشَرعِه)[4719].

وقال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [البقرة: 168 - 169].

(أي: إنَّما يأمُرُكم عَدُوُّكم الشَّيطانُ بالأفعالِ السَّيئةِ، وأغلَظُ منها الفاحِشةُ، كالزِّنا ونحوِه، وأغلَظُ من ذلك وهو القولُ على اللَّهِ بلا علمٍ)[4720].

المطلب الخامس: مظاهِرُ وصُوَرُ التَّعالُمِ

1- التَّعالُمُ في الفُتيا:

قال ابنُ القَيِّمِ: (قَلَّ من حرَص على الفتوى، وسابَق إليها وثابَر عليها، إلَّا قَلَّ توفيقُه، واضطرب في أمرِه... وقال بِشرٌ الحافي: من أحَبَّ أن يُسألَ فليس بأهلٍ أن يُسألَ... وذكَر عن مالكٍ قال: أخبَرَني رجلٌ أنَّه دخَل على ربيعةَ فوَجَده يبكي، فقال: ما يُبكيكَ، أمُصيبةٌ دخَلَتْ عليك؟ وارتاع لبُكائِه، فقال: لا، ولكِنِ استُفتيَ مَن لا عِلمَ له، وظهَر في الإسلامِ أمرٌ عظيمٌ)[4721].

2- التَّعالُمُ في التَّأليفِ والتَّصنيفِ:

[4717] ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (1/ 584).

[4718] ((التعالم وأثره على الفكر والكتاب)) لبكر أبو زيد (ص: 131).

[4719] ((أعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (1/ 31).

[4720] ((تفسير ابن كثير)) (1/ 479).

[4721] ((بدائع الفوائد)) (3/ 1286، 1287).

(فيخوضُ المتعالِمُ غِمارَ التَّأليفِ فيما وصَل إليه الأكابرُ بَعدَ قَطعِ السِّنينَ، والتَّأليفُ المقبولُ لا بُدَّ أن يكونَ بقَلَمٍ من اتَّسَعت مدارِكُه، وطال جِدُّه وطَلَبُه، والصَّنعةُ بصانعِها الحاذِقِ، ومُعَلِّمِها البارِعِ)[4722].

3- نَفخُ الكُتُبِ بالتَّرَفِ العِلميّ والتَّطويلِ الذي ليس فيه مِن طائلٍ.

فـ(مِن التَّعالُمِ نَفخُ الكُتُبِ بالتَّرَفِ العِلميّ والتَّطويلِ الذي ليس فيه مِن طائلٍ، وذلك في أعقابِ ثورةِ الإنتاجِ الطِّباعيّ، تحتَ شِعارِ التَّحقيقِ والتَّنقيحِ وغيرِه، ومن مظاهِرِه: الإثقالُ بالحواشي والتَّعليقاتِ، التَّرجمةُ للمُبَرّزين من الصَّحابةِ والتَّابعين، التَّعريفُ بالمواضِعِ المشهورةِ، كمَكَّةَ والمدينةِ، وغيرُه ممَّا هو تحصيلُ حاصلٍ لا يفيدُ النَّاظِرَ في موضِعِ الكتابِ)[4723].

4- الجُرأةُ على نَقدِ الكُتُبِ والرِّجالِ بغيرِ وَجهِ حَقٍّ.

5- التَّصدُّرُ للتَّدريسِ قَبلَ التَّأهُّلِ.

6- التَّصدُّرُ للوَعظِ والتَّذكيرِ دونَ تأهُّلٍ.

7- اتِّساعُ الدَّعوى، وسُرعةُ الحُكمِ بلا استقراءٍ، والنَّفيُ بلا إحاطةٍ[4724].

المطلب السادس: أسبابُ الوُقوعِ في التَّعالُمِ

1- جَهلُ العامَّةِ بحقيقةِ العِلمِ وكُنهِه، وبصفاتِ العُلَماءِ:

قال أبو طالبٍ المكِّيُّ: (فصار كُلُّ مَن نطَق بكلامٍ وصفُه غريبٌ على السَّامعين لا يَعرِفُ حَقَّه من باطِلِه، سُمّيَ عالِمًا، وكلُّ كلامٍ يُستحسَنُ زُخرُفُه ورَونقُه لا أصلَ له يُسَمَّى عِلمًا، وليس هذا إلَّا:

أ- لجَهلِ العامَّةِ بالعِلمِ أيُّ شيءٍ هو.

ب- لقِلَّةِ مَعرفةِ السَّامعِ بوصفِ من سَلَف من العُلَماءِ كيف كانوا.

فصار كثيرٌ من متكَلِّمي الزَّمانِ فِتنةً لمفتونٍ، وصار كثيرٌ من الكلامِ والرَّأيِ والمعقولِ -الذي حقيقتُه جَهلٌ- كأنَّه عِلمٌ عندَ الجاهلينَ، فلا يُفَرِّقون بَينَ المتكَلِّمين والعُلَماءِ، ولا يميّزون بَينَ العِلمِ والكلامِ)[4725].

2- تأخُّرُ العُلَماءِ عن أداءِ مُهِمَّتِهم:

فـ(الوظيفةُ الرَّئيسةُ لأهلِ العِلمِ والإيمانِ هي تغذيةُ العقولِ بالعِلمِ النَّافِعِ؛ تحصينًا لها من أيِّ مُؤثِّرٍ عليها، وتأخُّرُ العُلَماءِ عن أداءِ مُهمَّةِ البلاغِ من الأسبابِ التي أدَّت إلى التَّجنُّسِ الفِكريّ من انحرافاتٍ في المفاهيمِ والأخلاقِ، وتموُّجاتٍ في الاعتقادِ)[4726].

[4722] ((التعالم وأثره على الفكر والكتاب)) لبكر أبو زيد (ص: 81).

[4723] المصدر السابق (ص: 76).

[4724] ((التعالم)) لبكر أبو زيد (ص: 58) .

[4725] ((قوت القلوب في معاملة المحبوب)) (1/ 274).

[4726] ((التعالم وأثره على الفكر والكتاب)) (ص: 32).

قال ابنُ تيميَّةَ: (فالمُرصَدون للعِلمِ عليهم للأمَّةِ حِفظُ عِلمِ الدِّينِ وتبليغُه؛ فإذا لم يبَلِّغوهم عِلمَ الدِّينِ أو ضيَّعوا حِفظَه، كان ذلك من أعظَمِ الظُّلمِ للمُسلِمين؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [البقرة: 159])[4727].

3- عدَمُ التَّعلُّمِ على أيدي المشايخِ، وكان الأوزاعيُّ يقولُ: (كان هذا العِلمُ كريمًا يتلاقاه الرِّجالُ بينهم، فلمَّا دخَل في الكتُبِ دخَل فيه غيرُ أهلِه)[4728].

4- تقديمُ الجُهَّالِ على العُلَماءِ وتوليةُ المناصِبِ الشَّريفةِ لِمن لا يَصلُحُ لها:

قال الشَّاطبيُّ: (إنَّ جَعْلَ الجاهِلِ في موضِعِ العالِمِ حتَّى يصيرَ مُفتيًا في الدِّينِ، ومعمولًا بقولِه في الأموالِ والدِّماءِ والأبضاعِ وغيرِها: محرَّمٌ في الدِّينِ، وكونُ ذلك يُتَّخَذُ دَيدنًا حتى يصيرَ الابنُ مستَحِقًّا لرُتبةِ الأبِ، وإنْ لم يبلُغْ رُتبةَ الأبِ في ذلك المنصِبِ، بطريقِ الوِراثةِ أو غيرِ ذلك، بحيثُ يَشيعُ هذا العَمَلُ ويطَّرِدُ، ويَعُدُّه النَّاسُ كالشَّرعِ الذي لا يخالَفُ: بدعةٌ بلا إشكالٍ، زيادةً إلى القولِ بالرَّأيِ غيرِ الجاري على العِلمِ، وهو بدعةٌ، أو سَبَبُ البدعةِ ...، وهو الذي بيَّنه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه: ((حتَّى إذا لم يَبْقَ عالِمٌ، اتَّخذ النَّاسُ رُؤساءَ جُهَّالًا، فسُئِلوا، فأفتَوا بغيرِ عِلمٍ؛ فضَلُّوا وأضَلُّوا))[4729]، وإنَّما ضلُّوا وأضلُّوا؛ لأنَّهم أفتَوا بالرَّأيِ؛ إذ ليس عندَهم علمٌ)[4730].

وقال ابنُ تيميَّةَ: (والمَنصِبُ والوِلايةُ لا يجعَلُ من ليس عالِمًا مجتَهِدًا، عالِمًا مجتَهِدًا، ولو كان الكلامُ في العِلمِ والدِّينِ بالوِلايةِ والمنصِبِ لكان الخليفةُ والسُّلطانُ أحَقَّ بالكلامِ في العِلمِ والدِّينِ، وبأن يستفتيَه النَّاسُ ويَرجِعوا إليه فيما أشكَل عليهم في العِلمِ والدِّينِ.

فإذا كان الخليفةُ والسُّلطانُ لا يدَّعي ذلك لنَفسِه، ولا يُلزِمُ الرَّعيَّةَ حُكمَه في ذلك بقولٍ دونَ قولٍ إلَّا بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه، فمَن هو دون السُّلطانِ في الوِلايةِ أَولى بأن لا يتعدَّى طَورَه، ولا يقيمَ نَفسَه في منصِبٍ لا يَستَحِقُّ القيامَ فيه أبو بكرٍ وعُمَرُ وعثمانُ وعليٌّ، وهم الخُلفاءُ الرَّاشِدون فضلًا عمَّن هو دونَهم؛ فإنَّهم رَضِيَ اللهُ عنهم إنَّما كانوا يُلزِمون النَّاسَ باتِّباعِ كِتابِ ربِّهم وسُنَّةِ نبيِّهم)[4731].

5- التَّفَقُّهُ طَلَبًا للدُّنيا وحُبًّا للرِّئاسةِ؛ قال التُّورِبِشْتيُّ: (حقيقةُ الفِقهِ في الدِّينِ: ما وقع في القَلبِ، ثمَّ ظهر على اللِّسانِ؛ فأفاد العَمَلَ، وأورَث الخشيةَ والتَّقوى. وأمَّا الذي يتدارَسُ أبوابًا منه؛ ليتعزَّزَ به ويتأكَّلَ، فإنَّه بمعزِلٍ عن هذه الرُّتبةِ العُظمى؛ لأنَّ الفِقهَ تعلَّق بلِسانِه دونَ قَلبِه)[4732].

6- الاغترارُ بالشَّهاداتِ العِلميَّةِ، وظنُّها كافيةً في الكلامِ في كُلِّ فَنٍّ، وإنْ لم يُتقِنْه الإنسانُ، قال أحمد شوقي: (ما بالُ النَّاشئِ وصل اجتهادَه حتى حصل على الشَّهادةِ، فلمَّا كحَّل بأحرُفِها عينيه، وظفِرت بزُخرُفِها كِلتا يدَيه، هَجَر العِلمَ ورُبوعَه، وبعَث إلى معاهِدِه بأُقطوعةٍ، طوى الدَّفاتِرَ، وترَك المحابِرَ، وذهَب يُخايِلُ ويُفاخِرُ، ويدَّعي علمَ الأوَّلِ والآخِرِ؟!

[4727] ((مجموع الفتاوى)) (187 /28)

[4728] ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (35/ 188).

[4729] أخرجه البخاري (100)، ومسلم (2673) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما بلفظ: "رُؤوسًا ".

[4730] ((الاعتصام)) (2/ 432).

[4731] ((مجموع الفتاوى)) (27/ 296).

[4732] ((الميسر في شرح مصابيح السنة)) (1/ 106).

فَمن يُنْبِيه، بارك اللَّهُ فيه لأبيه، وجزى سَعْيَ مُعَلِّمِه ومُرَبِّيه: أنَّ الشَّهادةَ طَرَفُ السَّببِ، وفاتحةُ الطَّلَبِ، والجوازُ إلى أقطارِ العِلمِ والأدَبِ، وأنَّ العِلمَ لا يُملَكُ بالصُّكوكِ والرِّقاعِ، وأنَّ المعرفةَ عندَ الثِّقاتِ غيرُ وثائِقِ الإقطاعِ؟)[4733].

وقال شكيب أرسلان:

(رأيتُ كثيرًا من الشُّبَّانِ يجعَلون جميعَ وَكْدِهم في تحصيلِ الشَّهادةِ، ويَرَون بها منتهى السَّعادةِ، وإذا حصَل الواحِدُ عليها ظنَّ نفسَه عالِمًا لا يجوزُ أن يقالَ له: أخطَأْتَ! أوَ ليس أنَّه أحرَز الشَّهادةَ؟! ورأيتُ شُبَّانًا آخَرين يكادُ أحَدُهم يذوبُ حَسرةً وتألُّمًا على كونِه لم يُصِبِ الشَّهادةَ، ولم يَفُزْ بما فاز به غيرُه، وهو يتخيَّلُ أنَّ الأرضَ قد ابتلَعَتْه!

فكنتُ أقولُ للفئةِ الأولى: لا يَغُرَّنَّكم نَيلُ الشَّهادةِ فتناموا بعدها قائلين لأنفُسِكم: إنَّكم صِرتُم عُلَماءَ؛ بحُجَّةِ أنَّ الشَّهادةَ هي في أيديكم! بل يجِبُ أن تثابِروا على الدَّرسِ والتَّحقيقِ، كأنَّ شهادتَكم لم تكُنْ؛ فالشَّهادةُ ليست العِلمَ.

وكنتُ أقولُ للفِئةِ الثَّانيةِ: اعلَموا أنَّ الشَّهادةَ ليست هي العِلمَ الحقيقيَّ، بل هي علامةٌ من علاماتِه؛ فمَن عَرَف نفسَه قد أحكَمَ الفَنَّ الذي عكَف عليه، فلا ينبغي أن يحزَنَ على تأخُّرِ الشَّهادةِ، ومَن عَرَف نفسَه لا يزالُ غيرَ ضليعٍ في العِلمِ الذي درَسه، فلا ينبغي أن يَفرَحَ بهذه الوَرَقةِ التَّي أعطاه إيَّاها الأساتيذُ، وكثيرًا ما قدَّموا متأخِّرًا، وأخَّروا متقدِّمًا! فكم من طالبٍ تأخَّر أيامَ التَّحصيلِ ثمَّ بعدَ خُروجِه من الجامعةِ نَبَغ وتقدَّم وصار من كبارِ العُلَماءِ!)[4734].

المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ التَّعالُمِ

1- الإخلاصُ والمتابعةُ:

فالمرءُ إذا أخلَص دينَه للهِ تعالى، وابتغى بعَمَلِه وجهَ اللَّهِ، لا غيرُ، فإنَّه يكونُ أبعَدَ ما يكونُ عن تلك الصِّفةِ الذَّميمةِ.

و(لا يُوصَفُ العمَلُ من المُسلِمِ بالقَبولِ شَرعًا إلَّا إذا توَّفر رُكناه، وهما: الإخلاصُ والمتابعةُ؛ فالإخلاصُ أن يكونَ العَمَلُ للهِ تعالى لا نصيبَ لغيرِ اللَّهِ فيه، متمَحِّضًا من شَوبِ الإرادةِ لغيرِه.

والمتابعةُ -ويقالُ الصَّوابُ: أن يكونَ ممَّا شرَعه اللَّهُ على لسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبالجُملةِ، إذا اختَلَّ رُكناه أو أحدُهما صار العمَلُ مردودًا غيرَ مقبولٍ، والأدِلَّةُ على هذا متظاهِرةٌ من الكتابِ والسُّنَّةِ)[4735].

(فالتَزِمِ التَّخلُّصَ من كُلِّ ما يشوبُ نيَّتَك في صِدقِ الطَّلَبِ؛ كحُبِّ الظُّهورِ والتَّفوُّقِ على الأقرانِ، وجَعْلِه سُلَّمًا لأغراضٍ وأعراضٍ؛ من جاهٍ أو مالٍ، أو تعظيمٍ أو سُمعةٍ، أو طَلَبِ محمَدةٍ، أو صَرفِ وُجوهِ النَّاسِ إليك؛ فإنَّ هذه وأمثالَها إذا شابت النِّيَّةَ أفسَدَتْها، وذهَبَت بركةُ العِلمِ؛ ولهذا يتعيَّنُ عليك أن تحميَ نيَّتَك من شَوبِ الإرادةِ لغيرِ اللَّهِ تعالى، بل وتحميَ الحِمى)[4736].

2- الاجتهادُ في معرفةِ ماهيَّةِ العِلمِ وصِفاتِ العُلَماءِ:

[4733] ((أسواق الذهب)) (ص: 66).

[4734] يُنظَر: ((شوقي أو صداقة أربعين سنة)) (ص: 243).

[4735] ((التعالم وأثره على الفكر والكتاب)) (ص: 95).

[4736] ((حلية طالب العلم)) (ص: 142).

قال أبو طالبٍ المكِّيُّ: (وقد قُلْنا: إنَّ خُصوصَ الجُهَّالِ يُشَبَّهون بالعُلَماءِ، فيَشتَبِهون على مجالِسيهم في الحالِ، فأعلَمُ النَّاسِ في زمانِك هذا

أ- أعرَفُهم بسيرةِ المتقَدِّمين وأعلَمُهم بطرائِقِ السَّالِفين.

ب- ثمَّ أعلَمُهم بالعِلمِ أيُّ شيءٍ هو؟

ج- وبالعالِمِ من هو من المتعَلِّمِ والمتعالِمِ؟

وهذا كالفرضِ على طالِبِي العِلمِ؛ أن يعرِفوا أيُّ شيءٍ هو العِلمُ حتى يطلُبوه؛ إذ لا يَصِحُّ طَلَبُ ما لا يُعرَفُ، ثمَّ وجب عليهم من هذا أن يعرِفوا العالِمَ من هو؛ ليطلُبوا عندَه العِلمَ؛ إذ العِلمُ عَرَضٌ ولا يقومُ إلا بجِسمٍ، فلا يُوجَدُ إلَّا عندَ أهلِه)[4737].

3- البعدُ عن شواذِّ العِلمِ وغوامِضِ المسائِلِ.

4- الدِّقَّةُ في النَّقلِ عن الأئمَّةِ، والتَّأكُّدُ من صِحَّةِ نِسبةِ الأقوالِ إليهم.

5- الحَذَرُ من أمراضِ القُلوبِ.

6- ملازَمةُ العُلَماءِ والدُّعاةِ الصَّادِقينَ.

7- التَّأنِّي في الطَّلَبِ وعَدَمُ الاستعجالِ.

المطلب الثامن: نماذِجُ من التَّعالُمِ

ممَّا رُوِيَ من أخبارِ المتعالِمينَ:

- قصَّةُ الهَرَويِّ شَمسِ بنِ عَطاءٍ الرَّازيِّ ت 887هـ، وكان من أعوانِ تَيْمورلنك، وكان عريضَ الدَّعوى في الحِفظِ، فاستعظَمَ النَّاسُ ذلك، فجُعِل له مجلِسٌ لامتحانِه، وكان من جملةِ ما سُئِل عنه حينَئذٍ: هل ورد النَّصُّ على أنَّ المغرِبَ تُقصَرُ في السَّفَرِ؟

فقال: نعم، جاء ذلك من حديثِ جابِرٍ في كتابِ الفِردَوسِ لأبي اللَّيثِ السَّمَرقَنديِّ، فلمَّا انفَصلوا ورجَعوا إلى كتابِ أبي اللَّيثِ لم يجِدوا فيه ذلك، فقيل له في ذلك.

فقال: لكتابِ السَّمَرْقَنديِّ هذا ثلاثُ نُسَخٍ: كُبرى، ووُسطى، وصُغرى، وهذا الحديثُ في الكُبرى، ولم تَدخُلِ الكُبرى هذه البلادَ! فاستَشْعروا كَذِبَه من يومِئذٍ[4738].

- عن أبي العيناءِ قال: حضَرْتُ مجلِسَ بعضِ المحَدِّثين المغَفَّلين فأسندَ حديثًا: عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن جِبرائيلَ عن اللَّهِ عن رجلٍ. فقلتُ: من هذا الذي يصلُحُ أن يكونَ شيخَ اللَّهِ؟! فإذا هو قد صحَّفه، وإذا هو: عزَّ وجَلَّ[4739]!

[4737] ((قوت القلوب في معاملة المحبوب)) (1/ 275).

[4738] يُنظَر: ((إنباء الغمر بأبناء العمر)) لابن حجر (3/ 58)، ((التعالم وأثره على الفكر والكتاب)) لبكر أبي زيد (ص: 18).

[4739] ((أخبار الحمقى والمغفلين)) لابن الجوزي (ص: 84).

- عن محمَّدِ بنِ حمدانَ قال: سمِعتُ صالِحًا -يعني جَزَرةَ- يقولُ: قَدِم علينا بعضُ الشُّيوخِ من الشَّامِ، وكان عندَه كُرَّاسٌ فيه عن جريرٍ، فقرأتُ عليه: حدَّثكم جريرٌ عن ابنِ عُثمانَ أنَّه كان لأبي أسامةَ خَرَزةٌ يَرقي بها المريضَ، فصَحَّفْتُ أنا الخَرَزةَ، فقُلتُ: كان لأبي أسامةَ جَزَرةٌ. قال الخَطيبُ: وبهذا سُمِّيَ صالِح جَزَرة[4740]!

- (في كُتُبِ المحاضَراتِ أنَّ رجُلًا كان يُفتي كُلَّ سائِلٍ دونَ توقُّفٍ، فلحَظ أقرانُه ذلك منه، فأجمعوا أمْرَهم لامتحانِه بنَحتِ كَلِمةٍ ليس لها أصلٌ، هي: الخُنْفُشارُ، فسألوه عنها فأجاب على البَديهةِ بأنَّه: نَبتٌ طَيِّبُ الرَّائحةِ يَنبُتُ بأطرافِ اليَمَنِ، إذا أكلَتْه الإبِلُ عَقَد لبنُها! قال شاعِرُهم اليمانيُّ:

لقد عَقَدَتْ محبَّتُكم فؤادي

كما عَقَد الحَليبَ الخُنْفُشارُ

- وقال داودُ الأنطاكيُّ في تذكِرتِه كذا، وقال فلانٌ وفلانٌ... وقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاستوقفوه وقالوا: كذَبْتَ على هؤلاء فلا تكذِبْ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم!)[4741].

- عن أبي فَزارةَ الأسديِّ قال: قلتُ لسعيدِ بنِ هُشَيمٍ: لو حَفِظتَ عن أبيك عَشَرةَ أحاديثَ سُدْتَ النَّاسَ، وقيل: هذا ابنُ هُشَيمٍ، فجاءوك فسَمِعوا منك، قال: شغَلني عن ذلك القُرآنُ، فلمَّا كان يومٌ آخَرُ، قال لي: جُبَيرٌ كان نبيًّا أم صِدِّيقًا؟ قال: قُلتُ: مَن جُبَيرٌ؟ قال: قولُه عزَّ وجل: واسألْ به جُبَيرًا! قال: قُلتُ له: يا غافِلُ، زعَمْتَ أنَّ القرآنَ أشغَلَك[4742]!

- وعن أبي عُبَيدةَ قال: كنَّا نجلِسُ إلى أبي عَمرِو بنِ العلاءِ فنخوضُ في فُنونٍ من العِلمِ، ورجُلٌ يجلِسُ إلينا لا يتكَلَّمُ حتى نقومَ، فقُلْنا: إمَّا أن يكونَ مجنونًا أو أعلَمَ النَّاسِ! فقال يونُسُ: أو خائِفٌ، سأُظهِرُ لكم أمرَه. فقال له: كيف عِلمُك بكتابِ اللَّهِ تعالى؟ قال: عالِمٌ به، قال: ففي أيِّ سورةٍ هذه الآيةُ:

الحمدُ للهِ لا شريكَ له
مَن لم يَقُلْها فنَفسَه ظَلَمَا

فأطرَقَ ساعةً، ثمَّ قال: في: حم الدُّخَان[4743]!

[4740] المصدر السابق (ص: 85).

[4741] ((التعالم)) لبكر أبو زيد (ص: 17). ويُنظَر: ((الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)) لابن بسام (7/ 32، 33)، ((نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب)) للمقري (3/ 81)، ((تاج العروس)) للزبيدي (11/ 228).

[4742] ((أخبار الحمقى والمغفلين)) لابن الجوزي (ص: 78).

[4743] المصدر السابق (ص: 77).

المبحث الخامس عشر: التعصب

المطلب الأول: التَّعَصُّبُ لُغةً واصطِلاحًا

- **التَّعَصُّبُ لُغةً:**

التَّعَصُّبُ: من العَصَبيَّةِ. والعَصَبيَّةُ: أن يدعوَ الرَّجُلُ إلى نُصرةِ عَصَبتِه، والتَّأَلُّبُ معهم على مَن يناوِئُهم، ظالِمين كانوا أو مظلومين. وقد تعَصَّبوا عليهم إذا تجَمَّعوا، فإذا تجمَّعوا على فريقٍ آخَرَ، قيل: تعَصَّبوا.

وتعصَّبْنا له ومعه: نصَرْناه. والعَصَبيُّ: هو الذي يَغضَبُ لعَصَبتِه[4744].

- **التَّعَصُّبُ اصطِلاحًا:**

التَّعَصُّبُ: فَرطُ التَّمادي في المَيلِ والانحيازِ إلى شَيءٍ ما، والدِّفاعُ عنه ونُصرتُه بحَقٍّ أو بباطِلٍ.

وقد يكونُ بفَرطِ التَّمادي في الانحيازِ ضِدَّ شَيءٍ ومقاوَمتِه[4745].

أو: هو المحاماةُ والمدافَعةُ عمَّن يلزَمُك أمرُه، أو تلزَمُه لغَرَضٍ[4746].

المطلب الثاني: ذَمُّ التَّعَصُّبِ والتَّحذيرُ منه

أ- مِن القُرآنِ الكريمِ:

1- قال تعالى: {فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا} [النساء: 135] .

قال ابنُ كثيرٍ: (أي: فلا يحمِلَنَّكم الهوى والعَصَبيَّةُ وبِغضةُ النَّاسِ إليكم على تَرْكِ العَدْلِ في أمورِكم وشُؤونِكم، بل الزَموا العَدلَ على أيِّ حالٍ كان)[4747].

2- وقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [لقمان: 20-21].

قال الطَّبَريُّ: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: وإذا قيل لهؤلاء الذين يجادِلون في توحيدِ الله جَهلًا منهم بعَظَمةِ اللهِ: اتَّبِعوا -أيُّها القومُ- ما أنزَلَ اللهُ على رسولِه، وصَدِّقوا به؛ فإنَّه يَفْرُقُ بَينَ المحِقِّ مِنَّا والمُبطِلِ، ويَفصِلُ بَينَ الضَّالِّ والمُهتدي، فقالوا: بل نتَّبِعُ ما وجَدْنا عليه آباءَنا من الأديانِ؛ فإنَّهم كانوا أهلَ حَقٍّ. قال اللهُ تعالى ذِكْرُه: أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ بتزيينِه لهم سوءَ

[4744] يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري، ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4745] يُنظر: ((أضواء على التعصب)) لمجموعة مؤلفين (ص: 166-176)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (2/ 1505).

[4746] ((لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح)) للدهلوي (6/ 453).

[4747] ((تفسير ابن كثير)) (2/433).

أعمالِهم، واتِّباعِهم إيَّاه على ضَلالتِهم، وكُفرِهم باللهِ، وتَركِهم اتِّباعَ ما أنزَلَ اللهُ من كتابِه على نَبيِّه إلَى عَذَابِ السَّعِيرِ يعني: عذابَ النَّارِ التي تتَسَعَّرُ وتلتَهِبُ)[4748].

3- وقال تعالى، يذُمُّ هذا المنطِقَ البَليدَ: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ} [الزخرف: 22]. (إنَّه لا مَنطِقَ ولا عَقلَ، ولا دليلَ ولا بُرهانَ، وإنَّما هي عَصَبيَّةٌ عَمياءُ)[4749].

4- وقال تعالى في ذَمِّ مُعتَقَدِ مُشرِكي قُرَيشٍ وما حملهم عليه من العَصَبيَّةِ الباطِلةِ: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} [الفتح: 26].

قيل: (حميَّةُ الجاهليَّةِ: العَصَبيَّةُ لآلهتِهم التي كانوا يَعبُدونَها من دونِ اللهِ، والأَنَفةُ من أن يَعبُدوا غَيرَها)[4750].

وقيل: (إنَّهم قالوا: قَتَلوا آباءَنا وإخوانَنا ثمَّ يَدخُلون علينا في منازِلِنا، واللَّاتِ والعُزَّى لا يَدخُلُنَّها أبدًا. وكانت حَمِيَّةَ جاهليَّةٍ؛ لأنَّها بغيرِ حُجَّةٍ وفي غيرِ مَوضِعِها، وإنَّما ذلك محْضُ تعَصُّبٍ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما جاء مُعَظِّمًا للبَيتِ لا يريدُ حَربًا)[4751].

5- وقال تعالى مُبَيِّنًا ميزانَ التَّفاضُلِ الحَقِّ وداعيًا لنبذِ ما سِواه من أسبابِ التَّعَصُّبِ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13].

فالحِكمةُ في جَعلِ بني آدَمَ شُعوبًا وقبائِلَ هي التَّعارُفُ فيما بَينَهم، وليست هي أن يتعَصَّبَ كُلُّ شَعبٍ على غَيرِه، وكُلُّ قبيلةٍ على غيرِها؛ فالأصلُ مَنعُ النِّداءِ بالرَّوابِطِ العَصبيَّةِ والأواصِرِ النَّسَبيَّةِ[4752].

6- قال تعالى: {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم: 31-32].

قال السَّعْديُّ: (في هذا تحذيرٌ للمُسلِمين من تشَتُّتِهم وتفَرُّقِهم فِرَقًا، كُلُّ فريقٍ يتعَصَّبُ لِما معه من حَقٍّ وباطِلٍ، فيكونون مشابِهين بذلك للمُشرِكين في التَّفَرُّقِ، بل الدِّينُ واحِدٌ، والرَّسولُ واحِدٌ، والإلهُ واحِدٌ.

وأكثَرُ الأمورِ الدِّينيَّةِ وَقَع فيها الإجماعُ بَينَ العُلَماءِ والأئمَّةِ، والأُخُوَّةُ الإيمانيَّةُ قد عقَدَها اللهُ ورَبَطها أتمَّ ربطٍ، فما بالُ ذلك كُلِّه يُلغَى ويُبنى التَّفَرُّقُ والشِّقاقُ بَينَ المُسلِمين على مسائِلَ خَفيَّةٍ أو فروعٍ خِلافيَّةٍ يُضَلِّلُ بها بعضُهم بعضًا، ويتَحَيَّزُ بها بعضُهم عن بعضٍ؟! فهل هذا إلَّا من أكبَرِ نَزَغاتِ الشَّيطانِ وأعظَمِ مقاصِدِه التي كاد بها للمُسلِمين؟ وهل السَّعيُ في جَمعِ كَلِمتِهم وإزالةِ ما بَينَهم من الشِّقاقِ المَبنيِّ على ذلك الأصلِ الباطِلِ إلَّا من أفضَلِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وأفضَلِ الأعمالِ المُقَرِّبةِ إلى اللهِ؟!)[4753].

[4748] ((تفسير الطبري)) (18/568، 569).

[4749] ((التفسير القرآني للقرآن)) لعبد الكريم يونس (11/577).

[4750] ((تفسير الماوردي)) (5/ 320).

[4751] يُنظر: ((البحر المحيط في التفسير)) لأبي حيان (9/ 497).

[4752] يُنظر ((أضواء البيان)) للشنقيطي (3/45).

[4753] ((تفسير السعدي)) (ص: 641).

7- قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: 11-12].

وقد قيل: إنَّ إبليسَ (اعتَرَضَتْه الحَمِيَّةُ، فافتَخَر على آدمَ بخَلْقِه، وتعصَّبَ عليه لأصلِه؛ فعَدُوُّ اللهِ إمامُ المتَعَصِّبين، وسَلَفُ المُتكَبِّرين، الذي وَضَع أساسَ العَصَبيَّةِ)[4754].

ب- مِنَ السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

1- عن أبي هُرَيرةَ، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ قد أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهِليَّةِ، وفَخْرَها بالآباءِ؛ مُؤمِنٌ تقيٌّ، وفاجِرٌ شَقيٌّ))[4755].

قال القاري: ("إنَّ اللهَ قد أذهَبَ" أي: أزال ورفَع "عنكم عُبِّيَّةَ الجاهِليَّةِ": بضَمِّ العَينِ المُهمَلةِ وكَسرِها، وكَسرِ مُوَحَّدةٍ فتَحْتيَّةٍ مُشَدَّدتَينِ، أي: نَخْوَتَها وكِبْرَها. "وفَخْرَها" أي: وافتِخارَ أهلِ الجاهليَّةِ في زمانِهم بالآباءِ[4756].

وقال الخطَّابيُّ: (قولُه: "مُؤمِنٌ تَقيٌّ وفاجِرٌ شَقيٌّ" معناه: أنَّ النَّاسَ رَجُلانِ "مُؤمِنٌ تَقيٌّ" وهو الخَيِّرُ الفاضِلُ وإن لم يَكُنْ حَسيبًا في قومِه، "وفاجِرٌ شَقيٌّ" فهو الدَّنِيُّ وإن كان في أهلِه شريفًا رفيعًا)[4757].

2- وعن أبي هُرَيرةَ، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((من قاتَلَ تحتَ رايةٍ عُمِّيَّةٍ يَغضَبُ لعَصَبةٍ، أو يَدعو إلى عَصَبةٍ، أو يَنصُرُ عَصَبةً، فقُتِلَ؛ فقِتلةٌ جاهِليَّةٌ))[4758].

والمعنى: يَغضَبُ ويقاتِلُ ويدعو غيرَه إلى ذلك لا لنُصرةِ الحَقِّ والدِّينِ، بل لمحضِ التَّعَصُّبِ لقَومِه ولهواه كما يقاتِلُ أهلُ الجاهِليَّةِ؛ فإنَّهم إنَّما كانوا يُقاتِلون لمحضِ العصَبيَّةِ والوطنيَّةِ والجِنسيَّةِ، فقُتِل من أجلِ ذلك، فقَتْلُه كقِتلةِ أهلِ الجاهِليَّةِ، والمعنى: من قاتَل عَصَبيَّةً فمات وهو على ذلك، مات على هيئةٍ كانت الجاهِليَّةُ تموتُ عليها في كَونِهم يقاتِلون للعَصَبةِ لا للحَقِّ[4759].

3- وعن أبي نَضرةَ، حَدَّثني من سَمِع خُطبةَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في وَسَطِ أيَّامِ التَّشريقِ، فقال: ((يا أيُّها النَّاسُ، ألَا إنَّ رَبَّكم واحِدٌ، وإنَّ أباكم واحِدٌ، ألَا لا فَضْلَ لعَرَبيٍّ على عَجَميٍّ، ولا لعجَميٍّ على عَرَبيٍّ، ولا أحمَرَ على أسوَدَ، ولا أسوَدَ على أحمَرَ، إلَّا بالتَّقْوى))[4760].

[4754] يُنظر: ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (1/ 332).

[4755] أخرجه أبو داود (5116) واللَّفظُ له، والترمذي (3956)، وأحمد (10781). صحَّحه ابنُ تيميَّةَ في (اقتضاء الصراط المستقيم)) (1/247)، وابن باز في ((الفوائد العلمية)) (7/207)، وصَحَّحه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (5116)، وحَسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (5116).

[4756] ((مرقاة المفاتيح)) (7/ 3073).

[4757] ((معالم السنن)) (4/148).

[4758] أخرجه مسلم (1848).

[4759] يُنظر: ((الكوكب الوهاج)) لمحمد الأمين الهرري (20/94).

[4760] أخرجه من طرق: أحمد (23489) واللَّفظُ له، وعبد الله بن المبارك في ((المسند)) (239)، والحارث في ((المسند)) كما في ((بغية الباحث)) للهيثمي (51). صحَّحه الوادعي في ((الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين)) (1536)، وصحَّح إسنادَه ابنُ تيمية في ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (1/412)، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (6/199)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (23489).

قال ابنُ عُثَيمين: (فليس بَينَ اللهِ وبَينَ خَلقِه صِلةٌ إلَّا بالتَّقوى؛ فمن كان لله أتقى كان من اللهِ أقرَبَ، وكان عِندَ اللهِ أكرَمَ؛ إذًا لا تفتَخِرْ بمالِك، ولا بجمالِك، ولا ببَدَنِك، ولا بأولادِك، ولا بقُصورِك، ولا سيَّاراتِك، ولا بشَيءٍ من هذه الدُّنيا أبدًا، إنَّما إذا وَفَّقَكَ اللهُ للتقوى فهذا من فَضلِ اللهِ عليك؛ فاحمَدِ اللهَ عليه)[4761].

4- وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، يقولُ: ((كُنَّا في غَزاةٍ فكَسَع[4762] رجلٌ من المُهاجِرين رجُلًا من الأنصارِ، فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ، وقال المُهاجِريُّ: يا لَلمُهاجِرين، فسَمَّعَها اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ما بالُ دعوى الجاهِليَّةِ؟ فقالوا: كسَعَ رَجُلٌ من المُهاجِرين رَجُلًا من الأنصارِ، فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ، وقال المُهاجِريُّ: يا لَلمُهاجِرين، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعُوها؛ فإنَّها مُنْتِنةٌ!))[4763].

قال النَّوويُّ: (وأمَّا تسميتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذلك دعوى الجاهِليَّةِ فهو كراهةٌ منه لذلك؛ فإنَّه ممَّا كانت عليه الجاهِليَّةُ من التَّعاضُدِ بالقبائِلِ في أمورِ الدُّنيا ومُتعَلِّقاتِها، وكانت الجاهِليَّةُ تأخُذُ حُقوقَها بالعَصَباتِ والقبائِلِ؛ فجاء الإسلامُ بإبطالِ ذلك)[4764].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- قال أبو بَكرِ بنُ عَيَّاشٍ في بيانِ علامةِ مُتَّبِعِ السُّنَّةِ: (السُّنِّيُّ: هو الذي إذا ذُكِرت الأهواءُ لم يتعَصَّبْ لشَيءٍ منها)[4765].

- وقال الغزاليُّ في ذمِّ تقليدِ الأشخاصِ بغَيرِ سَنَدٍ: (وهذه عادةُ ضُعَفاءِ العُقولِ؛ يَعرِفون الحَقَّ بالرِّجالِ، لا الرِّجالَ بالحَقِّ)[4766].

- وقال ابنُ تَيميَّةَ: (وأمَّا التَّعَصُّبُ لأمرٍ من الأمورِ بلا هُدًى من اللهِ، فهو من عَمَلِ الجاهِليَّةِ)[4767].

- وقال ابنُ القَيِّمِ في نَبذِ صُوَرٍ من التَّعَصُّبِ: (ومنها: الدُّعاءُ بدعوى الجاهِليَّةِ، والتَّعزِّي بعَزائِهم، كالدُّعاءِ إلى القبائِلِ والعَصَبيَّةِ لها وللأنسابِ، ومِثلُه التَّعَصُّبُ للمَذاهِبِ والطَّرائِقِ والمشايِخِ، وتفضيلُ بَعضِها على بَعضٍ بالهَوى والعَصَبيَّةِ، وكَونُه مُنتَسِبًا إليه، فيدعو إلى ذلك، ويُوالي عليه ويُعادي عليه، ويَزِنُ النَّاسَ به، كُلُّ هذا من دعوى الجاهِليَّةِ)[4768].

- وقال التَّفتازانيُّ: (التَّعَصُّبُ يُغَطِّي على العُقولِ، وعِندَه تَعْمَى القُلوبُ التي في الصُّدورِ)[4769].

- وقال ابن حجر الهيتمي: (كُلُّ من تعَصَّبَ لإمامٍ ولم يَسِرْ على سيرتِه، فذلك الإمامُ هو خَصْمُه ومِن جملةِ المُوَبِّخين له)[4770].

[4761] ((شرح رياض الصالحين)) (1/61).

[4762] أي: ضَرَب دبُرَه وعجيزتَه بيَدٍ أو رِجلٍ أو سَيفٍ وغيرِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (16/ 138).

[4763] أخرجه البخاري (4907) واللَّفظُ له، ومسلم (2584).

[4764] ((شرح النووي على مسلم)) (16/137).

[4765] ((شرح أصول الاعتقاد)) للَّالَكائي (72/1).

[4766] ((المنقذ من الضلال)) (ص: 152).

[4767] ((مجموع الفتاوى)) (28/11).

[4768] ((زاد المعاد)) (431/2).

[4769] ((شرح المقاصد)) (139/2).

[4770] ((الزواجر)) (142/1).

- وقال الشَّوكانيُّ: (المُتعَصِّبُ وإن كان بصَرُه صحيحًا فبصيرتُه عَمياءُ، وأذُنُه عن سماعِ الحَقِّ صَمَّاءُ، يدفَعُ الحَقَّ وهو يظُنُّ أنَّه ما دفع غيرَ الباطِلِ، ويحسَبُ أنَّ ما نشَأ عليه هو الحَقُّ؛ غَفلةً منه وجَهلًا بما أوجَبه اللهُ عليه من النَّظَرِ الصَّحيحِ)[4771].

- وقال الزُّرقانيُّ: (واعلَمْ أنَّ هناك أفرادًا بل أقوامًا تعَصَّبوا لآرائِهم ومذاهبِهم، وزَعَموا أنَّ من خالف هذه الآراءَ والمذاهِبَ كان مبتَدِعًا مُتَّبِعًا لهواه، ولو كان مُتأوِّلًا تأويلًا سائغًا يتَّسِعُ له الدَّليلُ والبُرهانُ، كأنَّ رأيَهم ومَذهَبَهم هو المقياسُ والميزانُ، أو كأنَّه الكِتابُ والسُّنَّةُ والإسلامُ! وهكذا استزَلَّهم الشَّيطانُ وأعماهم الغُرورُ)[4772].

- نُقِل عن السَّلَفِ أنَّهم كانوا يقولون في الفُروعِ: مذهبي صوابٌ يحتَمِلُ الخطَأَ، ومذهَبُ الخَصمِ خَطَأٌ يحتَمِلُ الصَّوابَ[4773].

المطلب الثالث: آثارُ التَّعَصُّبِ

1- دَفعُ الحَقِّ مع وضوحِه، والإعراضُ عن اتِّباعِه.

2- المجادَلةُ عن الباطِلِ ونُصرتُه مع ظُهورِ فَسادِه.

3- توسيعُ هُوَّةِ الخِلافِ والنِّزاعِ، وتضييقُ فُرَصِ التَّقارُبِ والاتِّفاقِ.

4- غَرسُ الحِقدِ والبُغضِ والكَراهيةِ.

5- نُصرةُ الظَّالمِ، والتَّفريطُ في نُصرةِ المظلومِ.

6- نشأةُ النِّزاعاتِ وحُصولُ الحُروبِ وسَفكُ الدِّماءِ.

7- انهيارُ المجتَمَعاتِ وتقَطُّعُ الرَّوابِطِ وتفَكُّكُ العَلاقاتِ.

8- يحمِلُ على تتَبُّعِ عَثَراتِ العُلَماءِ، وتصَيُّدِ زَلَّاتِهم والفَرَحِ بها، واستِثمارِها في تأثيمِهم والتَّشهيرِ بهم، والتَّشنيعِ عليهم؛ لإهدارِ قَدْرِهم، وإسقاطِ مَنزلتِهم، وإحباطِ محاسِنِهم، وجُحودِ فَضائلِهم.

9- من آثارِ التَّعَصُّبِ الرِّياضيِّ:

- الألفاظُ والكِتاباتُ والإشاراتُ غَيرُ اللَّائقةِ.

- إتلافُ المُنَشَآتِ الرِّياضيَّةِ والمُمتَلكاتِ العامَّةِ والخاصَّةِ.

- الاعتِداءاتُ الشَّخصيَّةُ.

- الاعتِداءُ على وَسائِلِ النَّقلِ[4774].

[4771] ((فتح القدير)) (2/277).

[4772] ((مناهل العرفان)) (2/35).

[4773] ((الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب)) للبابرتي (1/ 636).

[4774] ((التعصب الرياضي وخطورته على الفرد والمجتمع)) لعلي منصور (ص: 263) ضمن مجلة العلوم التربوية مجلد 28- العدد الثالث يوليو. ج 3- 2020م. ويُنظر: أشهر حوادث التعصب الرياضي في المصدر السابق (ص: 265).

المطلب الرابع: أقسامُ التَّعَصُّبِ

التَّعَصُّبُ بمُختَلِفِ أشكالِه وصُوَرِه سواءٌ كان في نُصرةِ رأيٍ أو في المعاداةِ له، يَرجِعُ إلى قِسمَينِ: محمودٌ ومذمومٌ، وإنْ غَلَب التَّعَصُّبُ على النَّوعِ المذمومِ، فإنَّ صاحِبَ الحَقِّ لا يُعتَبَرُ مُتعَصِّبًا، وإن جاز أن يُسَمَّى كذلك، ما دام في نُصرةِ حَقٍّ بحَقٍّ واعتدالٍ، لكِنَّ الأغلَبَ في إطلاقِ لَفظِ التَّعَصُّبِ انصِرافُه إلى القَدحِ والذَّمِّ[4775].

المطلب الخامس: مَظاهِرُ وصُوَرُ التَّعَصُّبِ

1-التَّعَصُّبُ القَبَليُّ؛ ففي حديثِ الإفكِ قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها: فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن يَعذِرُني من رَجُلٍ بلغني أذاه في أهلي، فواللهِ ما عَلِمتُ على أهلي إلَّا خيرًا، وقد ذكَروا رجُلًا ما عَلِمتُ عليه إلَّا خيرًا، وما كان يدخُلُ على أهلي إلَّا معي، فقام سَعدُ بنُ مُعاذٍ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أنا واللهِ أعذِرُك منه؛ إن كان من الأوسِ ضَرَبْنا عُنُقَه، وإن كان من إخوانِنا من الخَزرَجِ أمَرْتَنا، ففعَلْنا فيه أمْرَك، فقام سَعدُ بنُ عُبادةَ -وهو سَيِّدُ الخَزرَجِ، وكان قَبلَ ذلك رجُلًا صالِحا، ولكِنِ احتمَلَتْه الحَمِيَّةُ- فقال: كذَبْتَ! لعَمرُ اللهِ لا تقتُلُه، ولا تقدِرُ على ذلك...))[4776].

احتمَلَتْه، أي: أغضَبَتْه، وفي روايةٍ: اجتَهَلَتْه، أي: استخَفَّتْه وأغضَبَتْه وحَمَلَتْه على الجَهلِ[4777].

قال القاضي عِياضٌ: (فيه أنَّ التَّعَصُّبَ في الباطِلِ يقدَحُ في العَدالةِ، ويُخرِجُ عن اسمِ الصَّلاحِ؛ لقولِ عائِشةَ: فاجتَهَلَتْه الحَمِيَّةُ، وكان قَبلَ ذلك رجُلًا صالِحًا)[4778].

2-التَّعَصُّبُ للمُعتَقَدِ بالباطِلِ وجَعلُه ذريعةً لقَتلِ الأنفُسِ ونَهبِ الأموالِ:

قال تعالى في وَصفِ فسادِ مُعتَقَدِ اليَهودِ: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} [آل عمران: 75].

(والمعنى: أنَّ ذلك الاستِحلالَ والخيانةَ هو بسَبَبِ أنَّهم يقولون: ليس علينا فيما أصَبْنا من أموالِ العَرَبِ سبَيلٌ؛ فإنَّهم مُبالِغون في التَّعَصُّبِ لدينِهم، فلا جَرَمَ يقولون: يَحِلُّ قَتلُ المخالِفِ ويَحِلُّ أخذُ مالِه بأيِّ طريقٍ كان)[4779].

3- التَّعَصُّبُ لشَخصٍ مُعَيَّنٍ والمُوالاةُ والمعاداةُ عليه؛ قال ابنُ تيميَّةَ: (ومن نَصَب شخصًا كائنًا من كان فوالى وعادى على موافَقتِه في القَولِ والفِعلِ، فهو من الذين فَرَّقوا دِينَهم وكانوا شِيَعًا، وإذا تفَقَّه الرَّجُلُ وتأدَّب بطريقةِ قَومٍ من المُؤمِنين، مِثلُ اتِّباعِ الأئمَّةِ والمشايِخِ؛ فليس له أن يجعَلَ قُدوتَه وأصحابَه هم العيارَ، فيُوالي مَن وافقَهم، ويُعادي مَن خالفَهم)[4780].

4- التَّعَصُّبُ للآباءِ والأجدادِ، وتقليدُهم في الباطِلِ، قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [الشعراء: 69 - 74] .

[4775] يُنظر: ((أضواء على التعصب)) لمجموعة مؤلفين (ص: 30-32)، ((التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي)) لخالد كبير علال (ص: 7).

[4776] أخرجه البخاري (2661) واللَّفظُ له، ومسلم (2770).

[4777] يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (17/ 110).

[4778] ((إكمال المعلم)) (8/290).

[4779] يُنظر: ((تفسير الرازي)) (8/264).

[4780] ((مجموع الفتاوى)) (20/9).

قال الألوسيُّ: (أضرَبوا عن أن يكونَ لهم سَمعٌ أو نَفعٌ أو ضُرٌّ اعترافًا بما لا سَبيلَ لهم إلى إنكارِه، واضطُرُّوا إلى إظهارِ أنْ لا سَنَدَ لهم سِوى التَّقليدِ، فكأنَّهم قالوا: لا يَسمَعون ولا يَنفَعوننا ولا يَضُرُّون، وإنَّما وجَدْنا آباءَنا يَفعَلون مِثلَ فِعْلِنا ويَعبُدونهم مِثلَ عِبادتِنا، فاقتَدينا بهم)[4781].

5- التَّعَصُّبُ في بابِ المُفاضَلةِ:

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((لا تُخَيِّروا بَينَ الأنبياءِ))[4782].

قال ابنُ كثيرٍ: (المرادُ من ذاك هو التَّفضيلُ بمُجَرَّدِ التَّشَهِّي والعصَبيَّةِ لا بمُقتضى الدَّليلِ، فإذا دلَّ الدَّليلُ على شيءٍ وَجَب اتِّباعُه)[4783].

6-التَّعَصُّبُ في تقليدِ مَذهَبٍ من المذاهِبِ الفِقهيَّةِ، والمبالَغةُ في الدِّفاعِ عنه، حتَّى فيما ظهَر ضَعفُه أو خالَف الدَّليلَ؛ قال ابنُ القَيِّمِ: (فمن عَرَض أقوالَ العُلَماءِ على النُّصوصِ ووَزَنَها بها وخالَف منها ما خالَف النَّصَّ، لم يُهدِرْ أقوالَهم، ولم يَهضِمْ جانِبَهم، بل اقتدى؛ فإنَّهم كُلَّهم أمَروا بذلك، فمُتَّبِعُهم حقًّا مَن امتثل ما أوصَوا به لا من خالفَهم في القَولِ الذي جاء النَّصُّ بخِلافِه)[4784].

7- التَّعَصُّب في اتِّخاذِ طريقةٍ مُعَيَّنةٍ للتعبُّدِ، وزِيٍّ مُعَيَّنٍ، والمُوالاةُ والمُعاداةُ على ذلك؛ قال ابنُ القَيِّمِ: (ومِن كَيدِه أي: الشَّيطانِ: أمْرُهم بلُزومِ زِيٍّ واحدٍ، ولِبسةٍ واحِدةٍ، وهَيئةٍ ومِشيةٍ مُعَيَّنةٍ، وشَيخٍ مُعَيَّنٍ، وطريقةٍ مُخترَعةٍ، ويَفرِضُ عليهم لُزومَ ذلك بحيثُ يَلزَمونَه كلُزومِ الفرائِضِ، فلا يَخرُجون عنه، ويَقدَحون فيمَن خَرَج عنه ويَذُمُّونه)[4785].

8- التَّعَصُّبُ لشِعاراتِ القَوميَّةِ والعُروبةِ والوَطَنيَّةِ والاشتِراكيةِ ونَحوِ ذلك.

9- التَّعَصُّبُ الرِّياضيُّ الذي يَظهَرُ عِندَ بَعضِ مُشَجِّعي كُرةِ القدَمِ أو غيرِها؛ قال ابنُ عُثَيمين: (يجِبُ أن نَعلَمَ أنَّ المباحَ إذا تضمَّن ضَرَرًا صار مُحَرَّمًا؛ فلو أدَّى ذلك إلى العداوةِ والبَغضاءِ والتَّحَيُّزِ والتَّعَصُّبِ، كان ذلك حرامًا، كُرةُ القَدَمِ من هذا النَّوعِ لا يجِبُ أن يَدخُلَها التَّحَزُّبُ المَشينُ، كما يحصُلُ مِن بعضِ النَّاسِ، يتحَزَّبون لنادٍ مُعَيَّنٍ، حتَّى تحصُلَ فِتنةٌ تَصِلُ إلى حَدِّ الضَّربِ بالأيدي والعِصِيِّ والحِجارةِ)[4786].

10- التَّكفيرُ والتَّبديعُ للمُخالِفِ؛ قال الشَّوكانيُّ: (هاهنا تُسكَبُ العَبَراتُ ويُناحُ على الإسلامِ وأهلِه بما جناه التَّعَصُّبُ في الدِّينِ على غالِبِ المُسلِمين؛ من التَّرامي بالكُفرِ لا لسُنَّةٍ ولا لقُرآنٍ ولا لبيانٍ من اللهِ ولا لبُرهانٍ، بل لَمَّا غَلَبَت مَراجِلُ العَصَبيَّةِ في الدِّينِ، وتمكَّن الشَّيطانُ الرَّجيمُ من تفريقِ كَلِمةِ المُسلِمين، لقَّنَهم إلزاماتٍ بعضَهم لبعضٍ بما هو شَبيهُ الهباءِ في

[4781] ((تفسير الألوسي)) (24/510).

[4782] أخرجه البخاري (2412)، ومسلم (2374) مُطَوَّلًا.

[4783] ((تفسير ابن كثير)) (3/65).

[4784] ((الروح)) لابن القيم (1/360).

[4785] ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (1/125).

[4786] ((الشرح الممتع)) (10/94) بتصرف.

الهَواءِ والسَّرابِ بالقِيعةِ، فيا لَهُ ولِلمُسلِمين من هذه الفاقِرةِ التي هي من أعظَمِ فواقِرِ الدِّينِ والرَّزيَّةِ التي ما رُزِئَ بمِثلِها سبيلُ المُؤمِنين!)[4787].

المطلب السادس: أسبابُ الوُقوعِ في التَّعَصُّبِ

1- غرورُ الإنسانِ واعتِزازُه برأيِه.

2- غيابُ الإنصافِ والعَدلِ.

3- الجَهلُ وضآلةُ المعرفةِ.

4- سوءُ التَّربيةِ.

5- الصُّحبةُ السَّيِّئةُ.

6- إذكاءُ رُوحِ التَّعَصُّبِ مِن قِبَلِ بَعضِ المتبوعين.

7- الغُلُوُّ في المحبَّةِ.

المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ التَّعَصُّبِ

1- مَعرفةُ العواقِبِ والأضرارِ المترَتِّبةِ على التَّعَصُّبِ؛ كإراقةِ الدِّماءِ، والعَداوةِ والشَّحناءِ والتَّفرُّقِ، إلى غيرِ ذلك.

2- التَّعامُلُ بالعَدلِ والإنصافِ.

3- أن يَعلَمَ أنَّ التَّعَصُّبَ من صفاتِ أهلِ الجاهليَّةِ التي صَدَّتْهم عن الحَقِّ، فيُعرِضَ عنه.

4- أن يَعلَمَ أنَّ المتعَصِّبَ بصيرتُه عَمياءُ، وأذُنُه عن سماعِ الحَقِّ صَمَّاءُ.

5- أن يَعلَمَ أنَّ التَّعَصُّبَ قد يؤدِّي به إلى الكَذِبِ وقَولِ الباطِلِ.

6- أن يَعلَمَ أنَّ التَّعَصُّبَ قد يؤدِّي بصاحِبِه إلى التَّكفيرِ والتَّبديعِ بغيرِ حَقٍّ.

7- أن يَعلَمَ أنَّ التَّعَصُّبَ قد ينَمِّي النِّزاعاتِ القَبَليَّةَ.

8- أن يَعلَمَ أنَّه لا عِصمةَ لأحدٍ، وأنَّ الكُلَّ يُؤخَذُ منه ويُرَدُّ عليه سِوى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأن يَعرِفَ الرِّجالَ بالحَقِّ لا الحَقَّ بالرِّجالِ.

المطلب الثامن: نماذِجُ من التَّعَصُّبِ

- **تعصُّبُ الرَّافِضةِ:**

[4787] ((السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار)) (ص: 981).

كانوا مِن تعَصُّبِهم ضِدَّ الصَّحابةِ (يَنفِرون عمَّن اسمُه أبو بكرٍ وعُمَرُ وعُثمانُ؛ لبُغضِهم لشَخصٍ كان اسمُه هذا الاسمَ! ومِن تعَصُّبِهم أنَّهم إذا وَجَدوا مُسَمًّى بعَليٍّ أو جَعفَرٍ أو الحَسَنِ أو الحُسَينِ بادَروا إلى إكرامِه، مع أنَّه قد يكونُ فاسِقًا، وقد يكونُ في الباطِنِ سُنِّيًّا؛ فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ يُسَمُّون بهذه الأسماءِ، كُلُّ هذا من التَّعَصُّبِ والجَهلِ)[4788]. ثمَّ ذَكَر صُورًا أُخرى من تعَصُّبِهم.

- **الحَصْكَفيُّ وتَعصُّبُه لمذهَبِ أبي حنيفةَ:**

فقد نَقَل شِعرًا فيه مدحٌ لأبي حنيفةَ وغُلُوٌّ في الأخذِ بمَذهَبِه، ومنه:

فلَعنةُ رَبّنا أعدادَ رَملٍ

على مَن رَدَّ قولَ أبي حَنيفةَ[4789].

الكَرْخيُّ وكلامُه في الانتصارِ لمذهَبِ أبي حَنيفةَ:

قال الكَرْخيُّ: (الأصلُ: أنَّ كُلَّ آيةٍ تُخالِفُ قَولَ أصحابِنا فإنَّها تُحمَلُ على النَّسخِ أو على التَّرجيحِ، والأَولى أن تُحمَلَ على التَّأويلِ مِن جِهةِ التَّوفيقِ)[4790].

أبو إسماعيلَ الأنصاريُّ ووِصايتُه بالمَذهَبِ الحَنبَليِّ:

قال محمَّدُ بنُ طاهرٍ: سَمِعتُه يُنشِدُ على مِنبَرِه:

أنا حَنبَليٌّ ما حَييتُ وإنْ أَمُتْ

فوَصِيَّتي للنَّاسِ أن يَتحَنْبَلوا[4791].

- **التَّعصبُ بإبطالِ صلاةِ الحنفيِّ خلفَ شافعيٍّ**

وصل الخِلافُ المذهَبيُّ بَينَ المُقَلِّدين إلى أنَّ كثيرًا من فُقَهاءِ الأحنافِ قد أفتَوا ببُطلانِ صَلاةِ الحَنَفيِّ وراءَ إمامٍ شافعيٍّ! قال ابنُ الهُمامِ: قال أبو اليُسْرِ: اقتداءُ الحنَفيِّ بشافِعيٍّ غيرُ جائزٍ؛ لِما روى مكحولٌ النَّسَفيُّ في كتابٍ له سمَّاه الشُّعاعَ: أنَّ رَفْعَ اليَدَينِ في الصَّلاةِ عِندَ الرُّكوعِ والرَّفعِ منه مُفسِدٌ بناءً على أنَّه عَمَلٌ كثيرٌ، ومنهم من قَيَّدَ جوازَ الاقتداءِ به -كقاضي خانَ- بألَّا يكونَ مُتعَصِّبًا ولا شاكًّا في إيمانِه، ويُحتاطُ في موضوعِ الخِلافِ، وقد ردَّ الشَّافعيَّةُ على هذه التَّهَجُّماتِ الحَنَفيَّةِ بأن ألَّفوا كتُبًا ينتَقَّصون فيها مَذهَبَ الحنَفيَّةِ[4792].

- **منعُ بعضِهم من مُناكَحةِ الشَّافِعيَّةِ:**

[4788] ((منهاج السنة النبوية)) (4/ 140، 144).

[4789] ((الدر المختار)) لعلاء الدين الحصكفي (ص: 14).

[4790] ((أصول الكرخي)) (ص: 11).

[4791] يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (506/18).

[4792] من مقدمة تحقيق كتاب ((إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد للصنعاني)) تحقيق صلاح الدين مقبول (ص: 18).

لقد وَصَل الخِلافُ إلى أن مَنَع بعضُ الفُقَهاءِ الأحنافِ تزَوُّجَ الحَنَفيّ من المرأةِ الشَّافعيَّةِ! ثمَّ صدرت فتوى من فقيهٍ آخَرَ مُلقَّبٍ بمُفتي الثَّقَلَين، فأجاز تزوُّجَ الحَنَفيّ بالشَّافعيَّةِ، وعلَّل ذلك بقولِه: تنزيلًا لها منزلةَ أهلِ الكتابِ[4793]!

قال ابنُ نُجَيمٍ الحَنَفيُّ عن المنعِ من مناكَحتِهم: (وليس هو إلَّا محْضَ تَعَصُّبٍ، نعوذُ باللهِ من شُرورِ أنفُسِنا، وسَيِّئاتِ أعمالِنا)[4794].

- **الحروبُ بسَبَبِ التَّعَصُّبِ المَذهَبيِّ:**

قال الحَمَويُّ في وَصفِ مدينةِ أصبَهانَ: (وقد فَشا الخَرابُ في هذا الوقتِ وقَبلَه في نواحيها؛ لكَثرةِ الفِتَنِ، والتَّعَصُّبِ بَينَ الشَّافعيَّةِ والحَنَفيَّةِ، والحُروبِ المتَّصِلةِ بَينَ الحِزبَينِ؛ فكُلَّما ظهَرت طائِفةٌ نَهبت محلَّةَ الأُخرى وأحرقَتْها وخرَّبَتْها، لا يأخُذُهم في ذلك إلٌّ ولا ذِمَّةٌ)[4795].

- **من صُوَرِ تعَدِّي بَعضِ المتعَصِّبين:**

قال محمَّد رشيد رضا: (بعضُ الحَنَفيَّةِ من الأفغانيِّين سَمِع رجُلًا يقرأُ الفاتحةَ وهو بجانِبِه في الصَّفِّ، فضَرَبه بمجموعِ يَدِه على صَدرِه ضَربةً وَقَع بها على ظَهرِه، فكاد يموتُ!

وبلَغَني أنَّ بعضَهم كَسَر سَبَّابةَ مُصَلٍّ؛ لرَفْعِه إيَّاها في التَّشَهُّدِ! وقد بلَغ من إيذاءِ بعضِ المتعَصِّبين لبعضٍ في طَرابُلُسِ الشَّامِ في آخِرِ القَرنِ الماضي أنْ ذهَب بعضُ شُيوخِ الشَّافعيَّةِ إلى المفتي، وهو رئيسُ العُلَماءِ، وقال له: اقسِمِ المساجِدَ بَينَنا وبَينَ الحَنَفيَّةِ؛ فإنَّ فُلانًا من فُقَهائِهم يَعُدُّنا كأهلِ الذِّمَّةِ!)[4796].

المطلب التاسع: حُكمُ التَّعَصُّبِ وما يُباحُ منه

إنْ نَتَج عن التَّعَصُّبِ اعتداءٌ على الحُرُماتِ، أو شَتمٌ وسِبابٌ، أو انتِصارٌ للظُّلمِ، أو أدَّى إلى سَلبِ حَقٍّ أو لسَفكِ دِماءٍ، وما شابه ذلك- فهو حرامٌ لا مِريةَ فيه، وقد عدَّ ابن حجر الهيتمي التَّعَصُّبَ للمَذاهِبِ والأهواءِ، والحِقدَ على الخُصومِ، والنَّظَرَ إليهم بعَينِ الازدِراءِ والاحتِقارِ: من الكبائِرِ التي تُهلِكُ العِبادَ، ويُستثنى من التَّعَصُّبِ المحرَّمِ التَّعَصُّبُ دِفاعًا عن حَقٍّ، فيُباحُ حينَئذٍ ما كان منضَبِطًا بأحكامِ الشَّريعةِ وآدابِها، محافِظًا على أواصِرِ الأُخُوَّةِ وحُقوقِها[4797].

المطلب العاشر: أخطاءٌ شائعةٌ حَولَ التَّعَصُّبِ

الاعتقادُ أنَّ التَّعَصُّبَ لأسماءٍ شَريفةٍ أو معانٍ حميدةٍ لا يُذَمُّ، وإن تجاوز بصاحِبِه حَدَّ الاعتدالِ، وأدَّى إلى غُلُوٍّ وظُلمٍ وبَغيٍ.

[4793] المصدر السابق (ص: 20).

[4794] ((البحر الرائق شرح كنز الدقائق)) (2/ 50).

[4795] ((معجم البلدان)) (1/ 209).

[4796] ((مجلة المنار)) (26/ 276).

[4797] يُنظر: ((الزواجر)) لابن حجر الهيتمي (142/1)، ((موسوعة وصايا للدعاة إلى الله)) لأمير بن محمد (481/1).

وهذا اعتقادٌ خَطَأٌ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين تنادى المهاجِريُّ والأنصاريُّ بنَسَبَيهما وكادا يقتَتِلانِ، أوضَح أنَّ هذه الفَعلةَ مُنتِنةٌ[4798] أي: (مُستخبَثةٌ قبيحةٌ؛ لأنَّها تُثيرُ التَّعَصُّبَ على غيرِ الحَقِّ، والتَّقاتُلَ على الباطِلِ، ثمَّ إنَّها تجُرُّ إلى النَّارِ)[4799].

المطلب الحادِيَ عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **هل يَلزَمُ أن يكونَ التَّمسُّكُ بما كان عليه الأقدَمون تعَصُّبًا ممقوتًا ؟**

والجوابُ: أنَّ هذا ممَّا قد يختَلِطُ في بعضِ الأذهانِ، فلا تَفهَمُ الفَرقَ بَينَ التَّمسُّكِ المحمودِ بالحَقِّ ولو كان بالقديمِ، وبَينَ التَّعَصُّبِ الجاهِليِّ المذمومِ، وقد تلاعَب البعضُ في هذا المعنى، وأوهَموا متَّبِعيهم أنَّ الاستِمساكَ بشَريعةِ اللهِ، والأخذَ بما ثبَت فيها، والمحافَظةَ على ما كان عليه السَّلَفُ الصَّالحُ من عقيدةٍ صالحةٍ وعَمَلٍ صالحٍ: لونٌ من ألوانِ التَّعَصُّبِ المذمومِ! وهذا من الباطِلِ الذي لا ينبغي أن يَرُوجَ على عُقَلاءِ المُسلِمين[4800].

- **التَّعَصُّبُ المَذهَبيُّ من أسبابِ عَدَمِ قَبولِ الجَرحِ في الرَّاوي:**

قال السُّبكيُّ: (الصَّوابُ عِندَنا أنَّ من ثبتَت إمامتُه وعدالتُه وكَثُر مادِحوه ومُزَكُّوه، وندَر جارِحُه، وكانت هناك قرينةٌ دالَّةٌ على سَبَبِ جَرحِه من تعَصُّبٍ مَذهَبيٍّ أو غيرِه؛ فإنَّا لا نلتَفِتُ إلى الجَرحِ فيه، ونعمَلُ فيه بالعدالةِ، وإلَّا فلو فتَحْنا هذا البابَ أو أخَذْنا تقديمَ الجَرحِ على إطلاقِه لَمَا سَلِم لنا أحَدٌ من الأئمَّةِ؛ إذ ما مِن إمامٍ إلَّا وقد طَعَن فيه طاعِنون، وهَلَك فيه هالِكون)[4801].

وقال أيضًا: (الجارِحُ لا يُقبَلُ منه الجَرحُ وإن فَسَّره في حَقِّ من غَلَبت طاعاتُه على معاصيه، ومادِحوه على ذامِّيه، ومُزَكُّوه على جارِحيه، إذا كانت هناك قرينةٌ يَشهَدُ العقلُ بأنَّ مِثلَها حامِلٌ على الوقيعةِ في الذي جرَحَه؛ من تعَصُّبٍ مذهبيٍّ، أو مُنافَسةٍ دُنيويَّةٍ، كما يكونُ من النُّظَراءِ، أو غيرِ ذلك)[4802].

- **تجاوُزُ الحُدودِ الشَّرعيَّةِ في التَّعَصُّبِ للحَقِّ قد يحَوِّلُه إلى تعصُّبٍ مذمومٍ؛** فمع أنَّ النَّقدَ الموضوعيَّ، والتَّنبيهَ على الأخطاءِ، والتَّحذيرَ من المخالفاتِ: أمرٌ مطلوبٌ ومُهِمٌّ؛ فإنَّ هناك من يتعدَّى أدَبَ النَّقدِ والنُّصحِ، مع أنَّه قد يكونُ مُحِقًّا؛ حيثُ يتجاوَزُ حُدودَ الشَّرعِ في تعصُّبِه للحَقِّ، في أسلوبِ التَّبليغِ أو النُّصحِ، أو في التَّطبيقِ، أو في الإنكارِ على المُخالِفين، حتَّى يُفسِدَ أكثَرَ ممَّا يُصلِحُ، كمَن يدعو النَّاسَ إلى سُنَّةٍ ثابتةٍ غيرِ واجِبةٍ، لكِنَّه يجعَلُها أساسًا يُصَنِّفُ النَّاسَ عليها، ويُفَرِّقُ في المعاملةِ بَينَهم بسَبَبِها، أو كمَن يدعو إلى اتِّباعِ مَنهَجِه في الدَّعوةِ، لكِنَّه يتعصَّبُ له إلى دَرَجةِ تسفيهِ المناهِجِ الدَّعَويَّةِ الأُخرى حتَّى إن كانت صحيحةً وسليمةً من البِدَعِ أو المُخالَفاتِ[4803].

[4798] والحديث أخرجه البخاري (4907) واللَّفظُ له، ومسلم (2584).

[4799] ((المفهم)) للقرطبي (560/6).

[4800] يُنظر ((أجنحة المكر الثلاثة)) لعبد الرحمن حبنكة (1/298-299).

[4801] ((طبقات الشافعية الكبرى)) (2/ 9).

[4802] المصدر السابق (2/ 12).

[4803] يُنظر: ((موسوعة وصايا للدعاة إلى الله)) لأمير بن محمد (1/481).

المبحث السادس عشر: التخاذل

المطلب الأول: معنى التَّخاذُلِ لُغةً واصطِلاحًا

- **التَّخاذُلُ لُغةً:**

التَّخاذُلُ مَصدَرُ الفِعلِ تخاذَل؛ يقالُ: تخاذَلوا، أي: خَذَل بعضُهم بعضًا، و(خذل): أصلٌ يدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ، والقُعودِ عنه؛ يقالُ: خَذَله خِذْلانًا: إذا تخلَّى عنه وتَرَك نُصرتَه وعَونَه، وكُلُّ تارِكٍ: خاذِلٌ [4804].

- **التَّخاذُلُ اصطِلاحًا:**

1- قال الثَّعلبيُّ وغَيرُه في تعريفِ الخِذْلانِ: (القُعودُ عن النُّصرةِ، والإسلامُ للهَلَكةِ والمكروهِ)[4805].

2- وقال أبو المُظَفَّرِ السَّمْعانيُّ في تعريفِ الخِذْلانِ: (الامتِناعُ عن النُّصرةِ والإعانةِ عِندَ الحاجةِ)[4806].

3- وقال الرَّاغِبُ: (الخِذْلانُ: تَركُ من يُظَنُّ به أن يَنصُرَ نُصرتَه)[4807].

4- وقيل: هو (تَركُ المأمولِ منه ما أُمِلَ منه)[4808].

ويمكِنُ استِخلاصُ تعريفٍ للتَّخاذُلِ ممَّا سبَق بأنَّه: امتِناعُ النَّاسِ عن إعانةِ بَعضِهم بعضًا، وقعودُ بَعضِهم عن نُصرةِ بَعضٍ، وإسلامُ بعضِهم بعضًا للهَلَكةِ والمكروهِ، مع القُدرةِ على الإعانةِ والنُّصرةِ.

المطلب الثاني: ذمُّ التَّخاذُلِ والتَّحذيرُ منه

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

وردت عِدَّةُ آياتٍ في ذَمِّ التَّخاذُلِ والنَّهي عنه، والأمرِ بخلافِه؛ منها:

1- قولُه تعالى: {وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ} [الأنفال: 72]، أي: يجِبُ عليكم نصرُ الذين لم يهاجِروا وعَونُهم؛ لأنَّهم مُسلِمون[4809].

2- وقولُه تعالى: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا} [آل عمران: 122]، قال الطَّبريُّ: (وكان همُّهما الذي همَّا به من الفَشَلِ الانصِرافَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنينَ)[4810].

3- وقولُه تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر: 16] ضَرَب مثَلًا للمُنافِقين واليهودِ في تخاذُلِهم، وتخلِّي بعضِهم عن بعضٍ، وإخلافِهم الوَعدَ، وإسلامِهم أنفُسَهم عِندَ الشِّدَّةِ؛

[4804] يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((تاج العروس)) للزَّبيدي.

[4805] ((الكشف والبيان)) للثعلبي (9/ 88)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (6/ 125)، ((معالم التنزيل)) للبغوي (125 /2)

[4806] ((تفسير القرآن)) (1/ 373).

[4807] ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: 277).

[4808] ((تأويلات أهل السنة)) للماتُريدي (517 /2)

[4809] ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (97 /4)

[4810] ((جامع البيان)) (15 /6)

كَمَثَلِ الشَّيطانِ الذي غرَّ إنسانًا، ووعَدَه على اتِّباعِه وكُفرِه باللهِ النُّصرةَ عِندَ الحاجةِ إليه، فكَفَر باللهِ وأطاعه، فلمَّا احتاج إلى نُصرتِه أسلَمَه وتبرَّأَ منه[4811].

4- وقولُه تعالى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً} [التوبة: 36]، يريدُ: تعاوَنوا وتناصَروا على ذلك، ولا تتخاذَلوا ولا تتقاطَعوا، وكونوا عبادَ اللهِ مجتَمِعينَ مُتوافِقينَ في مُقاتَلةِ الأعداءِ[4812].

5- وقولُه تعالى: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ} [الحشر: 14]، وفي هذا تربيةٌ للمُسلِمين لِيَحذَروا من التَّخالُفِ والتَّدابُرِ، ويَعلَموا أنَّ الأمَّةَ لا تكونُ ذاتَ بأسٍ على أعدائِها إلَّا إذا كانت متَّفِقةَ الضَّمائِرِ، يرونَ رأيًا متماثِلًا في أصولِ مَصالِحِها المُشتَرَكةِ، وإن اختَلَفت في خصوصيَّاتِها التي لا تنقُضُ أصولَ مصالِحِها، ولا تُفَرِّقُ جامِعتَها، وأنَّه لا يكفي في الاتِّحادِ توافُقُ الأقوالِ، ولا التَّوافُقُ على الأغراضِ، إلَّا أن تكونَ الضَّمائِرُ خالِصةً من الإحَنِ والعَداواتِ؛ فاجتِماعُ النُّفوسِ مع تنافُرِ القُلوبِ واختلافِها أصلُ كُلِّ فَسادٍ، ومُوجِبُ كُلِّ تخاذُلٍ، ومُقتَضٍ لتجاسُرِ العَدُوِّ. واتفاقُ القُلوبِ، والاشتراكُ في الهِمَّةِ، والتَّساوي في القَصدِ: يُوجِبُ كُلَّ ظَفَرٍ، وكُلَّ سعادةٍ[4813].

6- وقولُه تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف: 14] فيه بشارةٌ للمُؤمِنين بالتَّأييدِ الرَّبَّانيِّ لهم ما داموا مُتناصِرين على الحَقِّ، مجتَمِعين عليه، غيرَ مُتفَرِّقين عنه ولا مُتخاذِلين، كما وقَع لسَلَفِهم؛ اتَّفَقوا فَملَكوا، وإلَّا فإذا تفَرَّقوا هَلَكوا[4814].

7- قولُه تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [الحشر: 11-12].

قال السَّعديُّ: (تعجَّب تعالى من حالِ المُنافِقين الذين طَمَّعوا إخوانَهم من أهلِ الكِتابِ في نُصرتِهم ومُوالاتِهم على المُؤمِنين، وأنَّهم يقولون لهم: {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا} أي: لا نطيعُ في عَدَمِ نُصرتِكم أحدًا يَعذِلُنا أو يُخَوِّفُنا، {وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} في هذا الوَعدِ الذي غرُّوا به إخوانَهم، ولا يُستكثَرُ هذا عليهم؛ فإنَّ الكَذِبَ وَصفُهم، والغُرورَ والخِداعَ مُقارِنُهم، والنِّفاقَ والجُبنَ يَصحَبُهم؛ ولهذا كَذَّبَهم اللهُ بقولِه، الذي وُجِد مَخبَرُه كما أخبر اللهُ به، ووَقَع طِبقَ ما قال، فقال: {لَئِنْ أُخْرِجُوا} من ديارِهم جَلاءً ونفيًا {لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ} لمحبَّتِهم للأوطانِ، وعدَمِ صَبرِهم على القِتالِ، وعدَمِ وفائِهم بوَعدِهم {وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ} بل يستولي عليهم الجُبنُ، ويَملِكُهم الفَشَلُ، ويَخذُلون إخوانَهم أحوَجَ ما كانوا إليهم. وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ على الفَرضِ والتَّقديرِ {لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} أي: لَيحصُلُ منهم الإدبارُ عن القتالِ والنُّصرةِ، ولا يحصُلُ لهم نَصرٌ من اللهِ)[4815].

[4811] ((المحرر الوجيز)) لابن عطية (5/ 290)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (4/ 260)

[4812] ((مفاتيح الغيب)) للرازي (16/ 44)

[4813] يُنظر: ((لطائف الإشارات)) للقشيري (3/ 563، 564)، ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (28/ 106)

[4814] يُنظر: ((محاسن التأويل)) للقاسمي (9/ 225)

[4815] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 852).

8- قال يحيى بنُ سَلَّامٍ في قَولِه تعالى: {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} يأمُرُه بمعصيةِ اللهِ، ثمَّ يخذُلُه في الآخِرةِ[4816].

ب- مِنَ السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

ممَّا جاء في تحذيرِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من التَّخاذُلِ، والحَضِّ على ضِدِّه:

1 -عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: المُسلِمُ أخو المُسلِمِ، لا يَظلِمُه ولا يَخذُلُه))[4817]. ((ولا يَخذُلُه)): من الخِذْلانِ، وهو تَركُ النُّصرةِ والإعانةِ، ومعناه: إذا استعان به في دَفعِ ظالمٍ ونحوِه لَزِمه إعانتُه إذا أمكَنَه، ولم يكُنْ له عُذرٌ شَرعيٌّ[4818].

2 -عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المؤمِنون تكافَأُ دِماؤُهم، وهم يَدٌ على مَن سِواهم))[4819]، يعني: أنَّ المُسلِمين لا يَسَعُهم التَّخاذُلُ، بل يعاوِنُ بعضُهم بعضًا على جميعِ الأديانِ والمِلَلِ[4820].

3 -عن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مظلومًا، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنصُرُه إذا كان مظلومًا، أفرأيتَ إذا كان ظالمًا كيف أنصُرُه؟ قال: تحجُزُه أو تمنَعُه من الظُّلمِ؛ فإنَّ ذلك نَصرُه)) ، فنهى عن تَركِ إعانةِ المُسلِمِ؛ لأنَّه إذا تركَه على ظُلمِه ولم يَكُفَّه عنه، أدَّاه ذلك إلى أن يُقتَصَّ منه؛ فمَنْعُه له ممَّا يوجِبُ عليه القِصاصَ نَصْرُه[4821]؛ لأنَّ النَّصرَ دَفعُ الضَّرَرِ عن أحَدٍ، وإذا منعْتَ أحدًا عن الظُّلمِ فقد دفَعْتَه عن الإثمِ الذي هو سَبَبُ دُخولِه النَّارَ، فكأنَّك دفَعْتَ النَّارَ عنه، وأيُّ نُصرةٍ أكمَلُ من دَفعِك النَّارَ عن أخيك[4822]؟

4- قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كُلُّ مُسلِمٍ على مُسلِمٍ مُحَرَّمٌ، أخوانِ نصيرانِ))[4823]، معناه: أنَّ مِن حَقِّ المُسلِمَينِ أن يتعاوَنا ولا يتخاذَلا[4824].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

ممَّا ورد عن أهلِ العِلمِ في التَّحذيرِ من التَّخاذُلِ، والحَضِّ على التَّعاوُنِ والتَّناصُرِ:

1 -قال أبو طَلحةَ زَيدُ بنُ سَهلٍ رَضِيَ اللهُ عنه: (المُنافِقون ليس لهم هَمٌّ إلَّا أنفُسُهم، أجبَنُ قومٍ وأرعَبُه، وأخذَلُه للحَقِّ)[4825].

[4816] ((التفسير)) ليحيى بن سلَّام (480 /1)

[4817] أخرجه مسلم (2564) مُطَوَّلًا.

[4818] ((شرح مسلم)) للنووي (120 /16)

[4819] أخرجه أبو داود (4530)، والنَّسائي (4734)، وأحمد (993) مُطولًا. صحَّحَه ابنُ المُلقِّن في ((البدر المنير)) (9/ 159)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4530)، وصَحَّح إسنادَه محمد بن عبد الهادي في ((تنقيح التحقيق)) (4/ 460)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (2/ 212)، وشعيب الأرناؤوط على شرط الشيخين في تخريج ((مسند أحمد)) (993)

[4820] ((الغريبين)) لأبي عُبيد الهَرَوي (2052 /6)

[4821] ((شرح البخاري)) لابن بطال (572 /6)

[4822] ((المفاتيح)) للمظهري (215 /5)

[4823] أخرجه النسائي (2568)، وأحمد (20037) مُطولًا من حديثِ مُعاويةَ بنِ حَيدةَ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (160)، وابن عبد البر في ((الاستيعاب)) (1/420) وابن باز في ((مجموع الفتاوى))(24/25)

[4824] ((غريب الحديث)) للخطابي (323 /1)

[4825] ((السنن)) للترمذي (3008)

2 -وعن يَزيدَ بنِ الأسوَدِ قال: (لقد أدركْتُ أقوامًا من سَلَفِ هذه الأمَّةِ، قد كان الرَّجُلُ إذا وقع في هُوِيٍّ أو وَحلةٍ نادى: يا آلَ عِبادِ اللهِ، فيتواثَبون إليه فيَستخرِجونَه ودابَّتَه ممَّا هو فيه، ولقد وقع رجُلٌ ذاتَ يومٍ في وَحلةٍ، فنادى: يا آلَ عِبادِ اللهِ، فتواثَبَ النَّاسُ إليه، فما أدركْتُ منه إلَّا مَقاصَّه[4826] في الطِّينِ، فلأن أكونَ أدركْتُ من متاعِه شيئًا فأُخرِجَه من تلك الوَحلةِ أحَبُّ إليَّ من دنياكم التي تَرغَبون فيها)[4827].

3 -قال عليُّ بنُ المَدينيّ في قولِ النَّبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يزالُ من أمَّتي أمَّةٌ قائمةٌ بأمرِ اللهِ، لا يضرُّهم من خذَلَهم))[4828]: هم أصحابُ الحديثِ[4829]، فقاموا بما عليهم من ضَبطِ السُّنَنِ ونَشْرِها ولم يتخاذَلوا، فلولاهم لدَرَس الدِّينُ.[4830]

4 -قال البُخاريُّ: (... وكذلك كُلُّ مُكرَهٍ يَخافُ، فإنَّه يَذُبُّ عنه المظالِمَ، ويقاتِلُ دُونَه ولا يَخذُلُه)[4831].

5 -وقيل: (المخذولُ من كانت له إلى اللِّئامِ حاجةٌ)[4832].

6 -وفي وَصِيَّةِ عَلقَمةَ بنِ لَبيدٍ العُطارِديّ لابنِه: (يا بُنيَّ، إذا نزعَتْك إلى صُحبةِ الرِّجالِ حاجةٌ، فاصحَبْ منهم من إنْ تُحِبَّه زانك، وإن خَدَمْتَه صانك، وإن أصابَتْك خَصاصةٌ مانَك[4833]، وإنْ قُلتَ صَدَّق قولَك، وإنْ صُلْتَ شَدَّ صولَك، وإن مدَدْتَ يَدَك بفَضلٍ مَدَّها، وإن رأى منك حَسَنةً عَدَّها، وإن سألْتَه أعطاك، وإن سكَتَّ عنه ابتداك، وإنْ نزَلَتْ بك إحدى المُلِمَّاتِ[4834] آساك، من لا يأتيك منه البَوائِقُ[4835]، ولا تختَلِفُ عليك منه الطَّرائِقُ، ولا يخذُلُك عِندَ الحقائِقِ، وإن حاول حويلًا آمَرَك، وإن تنازَعْتُما مُنفِسًا[4836] آثَرك)[4837].

7 -وقيل: (شَرُّ النَّاسِ من يَنصُرُ الظَّلومَ، ويَخذُلُ المظلومَ)[4838].

8- وقال أبو هِلالٍ العَسكَريُّ: (تخاذُلُ القومِ فيما بينهم من أماراتِ شُؤمِهم، ودلائلِ شَقائِهم)[4839].

9- قال الأصمعيُّ: (مَرَّ قَيسُ بنُ زُهَيرٍ ببلادِ غَطَفانَ، فرأى ثروةً وجماعةً وعَدَدًا، فكَرِه ذلك، فقال له الرَّبيعُ بنُ زيادٍ: إنَّه يَسوءُك ما يَسُرُّ النَّاسَ! فقال له: يا أخي، إنَّك لا تدري أنَّ مع الثَّروةِ والنِّعمةِ التَّحاسُدَ والتَّخاذُلَ، وأنَّ مع القِلَّةِ التَّحاشُدَ والتَّناصُرَ)[4840].

[4826] جمعُ مِقَصٍّ: وهو المِقْراضُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي .

[4827] ((شعب الإيمان)) للبيهقي.(94 /10)

[4828] أخرجه البخاري (3641) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (1037) من حديثِ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ رَضِيَ اللهُ عنهما .

[4829] ((سنن الترمذي)) (ص: 672).

[4830] ((شرف أصحاب الحديث)) للخطيب البغدادي (ص: 68).

[4831] ((صحيح البخاري)).(22 /9)

[4832] ((المجتنى)) لابن دريد (ص: 32).

[4833] مانَهُ يَمونُه مَؤْنًا: إذا احتمل مَؤُونتَه وقام بكفايتِه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري.

[4834] المُلِمَّاتُ: جمعُ مُلِمَّةٍ، وهي النَّازِلةُ الشَّديدةُ من نَوازِلِ الدَّهْرِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي.

[4835] أي: شُرورُه وظُلمُه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي.

[4836] المُنفِسُ: الشَّيءُ النَّفيسُ الكريمُ الذي تنافَسَ فيه النَّاسُ، وكلُّ شَيءٍ له خَطَرٌ وقَدْرٌ قيل له: نَفيسٌ ومُنْفِسٌ. يُنظر: ((تصحيح الفصيح وشرحه)) لابن المرزبان (ص: 479)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري.

[4837] ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (3/ 6، 7).

[4838] ((المستطرف)) للأبشيهي (ص: 33).

[4839] ((جمهرة الأمثال)) (70 /1)

المطلب الثالث: آثارُ التَّخاذُلِ

للتَّخاذُلِ آثارٌ سَيِّئَةٌ؛ منها:

1 -بُغضُ اللهِ للمُتخاذِلينَ واستحقاقُهم لعقوبتِه .

2 -تصَدُّعُ المجتَمَعِ وعَدَمُ تماسُكِه.

3 -يصيرُ المُتخاذِلُ مَنبوذًا في مجتَمَعِه .

4 -شُيوعُ البَغضاءِ والكَراهيَةِ.

5 -يؤدِّي إلى ضَعفِ أواصِرِ الأُخُوَّةِ.

6 -يؤدِّي إلى ضياعِ الأمنِ، وفَقدِ الثِّقةِ بَينَ النَّاسِ.

7- فِقدانُ كثيرٍ من الأخلاقِ المحمودةِ؛ كالنُّصرةِ، والشَّهامةِ والنَّخوةِ، وإغاثةِ اللَّهفانِ، والتَّنفيسِ عن المكروبِ.

المطلب الرابع: أقسامُ التَّخاذُلِ

1- التَّخاذُلُ في أمورِ الدُّنيا، كأن يَقدِرَ على دَفعِ عَدُوٍّ يريدُ البَطشَ به، فلا يَدفَعَه.

2- التَّخاذُلُ في أمورِ الآخِرةِ، كأن يَقدِرَ على نُصحِه من غَيِّه -بنحوِ وَعظٍ-، فيَترُكَ[4841]، وكالقعودِ عن نصرِ المؤمنين في الجِهادِ.

المطلب الخامس: مظاهِرُ وصُوَرُ التَّخاذُلِ

من مظاهِرِ التَّخاذُلِ:

1- التَّخاذُلُ عن إعانةِ المحتاجِ.

2- التَّخاذُلُ عن إعانةِ المَدِينِ لسَدادِ دَينِه أو قضاءِ حاجتِه.

3- التَّخاذُلُ عن نَصرِ المظلومِ من ظالِمِه.

4- التَّخاذُلُ بالقُعودِ عن الجهادِ ونُصرةِ الدِّينِ.

5- التَّخاذُلُ في رَدِّ غِيبةِ المُسلِمِ.

6- التَّخاذُلُ في إنقاذِ المُصابين أو العالِقين أو من نَزل بهم مكروهٌ.

7- التَّخاذُلُ في تعليمِ الجاهِلِ وإرشادِ الضَّالِّ ونُصحِ العاصي.

[4840] ((المجالسة)) للدينوري (5/ 332)

[4841] ((فيض القدير)) (5/ 471)

8- التَّخاذُلُ في إغاثةِ المنكوبِ وتفريجِ هَمِّ المكروبِ.

المطلب السادس: أسبابُ التَّخاذُلِ

1 -تنافُرُ القُلوبِ واختلافُها: فذلك أصلُ كُلِّ فسادٍ، وموجِبُ كُلِّ تخاذُلٍ[4842].

2 -الأثَرةُ وتقديمُ حَظِّ النَّفسِ وإيثارُ الرَّاحةِ.

3 -العَداوةُ والبُغضُ؛ قال ابنُ القَيِّمِ (والبُغضُ والكراهةُ أصلُ كُلِّ تَركٍ ومَبدُؤه)[4843].

4 -اختِلافُ الكَلِمةِ، والتَّقطُّعُ والتَّحزُّبُ، وقد قال رَبُّنا سُبحانَه: {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم: 31-32]، وقال جَلَّ ثناؤه: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [المؤمنون: 52-53]، أي: إنَّهم فَرِحون بدِينِهم عن غيرِ دليلٍ ولا تبصُّرٍ، بل لمجرَّدِ العُكوفِ على المعتادِ، وذلك يومئُ إليه لَدَيْهِمْ المقتضي أنَّه متقرِّرٌ بَينَهم من قَبلُ، أي: بالدِّينِ الذي هو لَديهم، فهم لا يَرضَونَ على مَن خالفهم ويُعادونَه، وذلك يُفضي إلى التَّفريقِ والتَّخاذُلِ بَينَ الأمَّةِ الواحِدةِ، وهو خِلافُ مُرادِ اللهِ؛ ولذلك ذَيَّلَ به قَولَه: وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وقديمًا كان التَّحزُّبُ مُسَبِّبًا لسُقوطِ الأديانِ والأُمَمِ، وهو من دعوةِ الشَّيطانِ التي يُلَبِّسُ فيها الباطِلَ صورةَ الحَقِّ[4844].

5 -التَّنافُسُ والتَّحاسُدُ.

6 -الجُبنُ وتخويفُ الشَّيطانِ.

7 -السَّلبيَّةُ واللَّامُبالاةُ.

8-انعدامُ المروءةِ وقِلَّةُ الأنَفةِ ممَّا يأنَفُ منه النَّاسُ، قال عُروةُ بنُ مَسعودٍ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يومَ الحُدَيبيَةِ: (فإنِّي -واللهِ- لأرى وُجوهًا، وإني لأرى أوشابًا[4845] مِن النَّاسِ خليقًا أن يَفِرُّوا ويَدَعوك)[4846]، أي: يَسهُلُ عليهم خِذْلانُك؛ لأنَّهم من قبائِلَ مُختَلِفةٍ، فلا يَخشَونَ المَعَرَّةَ!

9- التَّأثُّر بالبيئةِ، وغيابُ القُدوةِ، واستِشْراءُ الشَّرِّ.

المطلب السابع: الوَسائِلُ المُعينةُ على تَركِ التَّخاذُلِ

1- تحقيقُ معاني الأُخُوَّةِ؛ قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأصحابِه: ((أعينوا أخاكم، قال سَلمانُ الفارِسيُّ: فأعانوني بالنَّخْلِ، الرَّجُلُ بقَدْرِ ما عِندَه))[4847].

[4842] ((لطائف الإشارات)) للقشيري (3/ 563)

[4843] ((الداء والدواء)) لابن القيم (448 /1)

[4844] ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (73 /18)

[4845] الأوشابُ: الضُّروبُ المتفَرِّقونَ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: 339).

[4846] أخرجه البخاري (2731، 2732) من حديثِ المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ ومَروانَ بنِ الحَكَمِ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[4847] أخرجه أحمد (23737)، والبزَّار (2500)، والطبراني (6/222) (6065) مُطَوَّلًا. حسَّنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (442)، وجوَّد إسنادَه ابنُ العراقي في ((طرح

2- الاستعاذةُ باللهِ سُبحانَه من التَّخاذُلِ والفُتورِ عن القيامِ بالواجِبِ، وقد قيل: (المعاوَنةُ في الحَقِّ دِيانةٌ)[4848].

3- مَعرِفةُ ما ينالُ المتخاذِلَ من المهانةِ والخِذْلانِ.

4- أن يحِبَّ المؤمِنُ لأخيه ما يحِبُّ لنَفسِه، وأن يَكرَهَ لأخيه ما يَكرَهُه لنَفسِه.

5- صُحبةُ الصَّالحين والتَّخَلُّقُ بأخلاقِهم، والابتعادُ عن الرُّفقةِ السَّيِّئةِ؛ فالمرءُ على دينِ خَليلِه.

6- الأخذُ بأسبابِ التَّحابُبِ؛ قال ابنُ القَيِّمِ: (فالحُبُّ والإرادةُ أصلُ كُلِّ فِعلٍ ومَبدؤُه)[4849].

7- تَركُ التَّشاحُنِ والتَّنافُسِ في الدُّنيا، (لأنَّها أساسُ الآفاتِ، ورأسُ الخَطيئاتِ، وأصلُ الفِتَنِ، وعنه تنشَأُ الشُّرورُ)[4850].

8- أن يعلَمَ ما أعدَّ اللهُ تعالى من الثَّوابِ والأجرِ لِمن أعان أخاه ونَصَره، وكان في حاجتِه، وفَرَّج عنه كُربتَه.

المطلب الثامن: حُكمُ التَّخاذُلِ

التَّخاذُلُ ممنوعٌ شَرعًا ويحرُمُ في حالةِ عَدَمِ العُذرِ؛ فمن استعان بمُسلِمٍ في دَفعِ ظالمٍ ونحوِه لزِمَتْه إعانتُه إذا أمكَنه ذلك، ولم يُوجَدْ له عُذرٌ شُرعيٌّ[4851].

التثريب)) (4/42)، وحَسَّن إسنادَه الألباني في ((السِّلسلة الصَّحيحة)) (894)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (23737).

[4848] ((الأمثال والحكم)) للماوردي (ص: 131).

[4849] ((الداء والدواء)) لابن القيم (1/ 448)

[4850] ((فيض القدير)) للمناوي (126 /4)

[4851] يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (16/ 120)

المبحث السابع عشر: التنازع

المطلب الأول: معنى التنازع لغة واصطلاحا

- **معنى التنازع لغة:**

يُقال: نَزَعَ الشَّيءَ مِن مَكانِه قَلعَه، ونازَعَه مُنازَعةً: جاذَبَه في الخُصومةِ، وبَينَهم نِزاعةٌ، أي: خُصومةٌ في حَقٍّ، والتَّنازُعُ: التَّخاصُمُ. ونازَعَتني نَفسي إلى هَواها نِزاعًا: غالبَتني، ونَزَعتُها أنا: غالبتُها.

والتَّنازُعُ في الأصلِ: التَّجاذُبُ، كالمُنازَعةِ، ويُعَبَّرُ بهما عنِ التَّخاصُمِ والمُجادَلةِ[4852].

قال القُرطُبيُّ: (قَولُه تعالى: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ [النساء: 59] أي: تَجادَلتُم واختَلفتُم، فكأنَّ كُلَّ واحِدٍ ينتَزِعُ حُجَّةَ الآخَرِ ويُذهِبُها. والنَّزعُ: الجَذبُ. والمُنازَعةُ: مُجاذَبةُ الحُجَجِ)[4853].

- **معنى التنازع اصطلاحا:**

قال ابنُ حَجَرٍ: (أمَّا التَّنازُعُ فمِنَ المُنازَعةِ، وهي في الأصلِ المُجاذَبةُ، ويُعَبَّرُ بها عنِ المُجادَلةِ، والمُرادُ بها المُجادَلةُ عِندَ الاختِلافِ في الحُكمِ إذا لم يتَّضِحِ الدَّليلُ، والمَذمومُ مِنه اللَّجاجُ بَعدَ قيامِ الدَّليلِ)[4854].

ويُمكِنُ تَعريفُ التَّنازُعِ بأنَّه التَّخاصُمُ والتَّخالُفُ القائِمُ على التَّجاذُبِ لنَفيِ ما عِندَ الآخَرِ ومَحوِه، سَواءٌ أكان حَقًّا أم باطِلًا، والموصِلُ في الغالِبِ إلى الفشَلِ والانتِكاسِ[4855].

- **معنى الاختِلافِ لُغةً:**

الاختِلافُ مَصدَرٌ مِنَ الفِعلِ اختَلف، وهذا الفِعلُ يدُلُّ على التَّفاعُلِ والمُشارَكةِ، أي: لا يكونُ إلَّا بَينَ اثنَينِ فأكثَرَ.

واختَلف: ضِدُّ اتَّفقَ. وتَخالف الأمرانِ واختَلفا: لم يتَّفِقا.

والخِلفةُ، بالكَسرِ: الاسمُ مِنَ الاختِلافِ، أي: خِلافُ الاتِّفاقِ، أو مَصدَرُ الاختِلافِ، أي: التَّرَدُّدِ.

واختَلف الصَّديقانِ في الرَّأيِ: ذَهَبَ كُلٌّ مِنهما إلى خِلافِ ما ذَهَبَ إليه الآخَرُ، ولم يتَّفِقا[4856].

- **معنى الاختِلافِ اصطِلاحًا:**

قال الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ: (الاختِلافُ والمُخالفةُ: أن يأخُذَ كُلُّ واحِدٍ طَريقًا غَيرَ طَريقِ الآخَرِ في حالِه أو قَولِه)[4857].

[4852] يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((المفردات)) للراغب (ص: 798)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 308)، ((تاج العروس)) للزبيدي.

[4853] ((الجامع لأحكام القرآن)) (261/5).

[4854] ((فتح الباري)) (278/13).

[4855] ((موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم)) (54/2).

[4856] يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: 808)، ((تاج العروس)) للزبيدي، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار (1/ 683).

وقال المُناويُّ: (الاختِلافُ: افتِعالٌ مِنَ الخِلافِ، وهو تُقابلٌ بَينَ رَأيينِ فيما ينبَغي انفِرادُ الرَّأيِ فيه)[4858].

المطلب الثاني: الفرقُ بَينَ التَّنازُعِ والاختِلافِ وبَعضِ الصِّفاتِ

- **الفرقُ بَينَ التَّنازُعِ والاختِلافِ:**

قال الرَّاغِبُ: (الاختِلافُ والمُخالفةُ: أن يأخُذَ كُلُّ واحِدٍ طَريقًا غَيرَ طَريقِ الآخَرِ في حالِه أو قَولِه، والخِلافُ أعَمُّ مِنَ الضِّدِّ؛ لأنَّ كُلَّ ضِدَّينِ مُختَلفانِ، وليسَ كُلُّ مُختلفينِ ضِدَّينِ، ولمَّا كان الاختِلافُ بَينَ النَّاسِ في القَولِ قد يقتَضي التَّنازُعَ استُعيرَ ذلك للمُنازَعةِ والمُجادَلةِ، قال: {فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ} [مريم: 37]، {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} [هود: 118]، {وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ} [الروم: 22]، {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} [النبأ: 1 - 3]، {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ} [الذاريات: 8])[4859].

وأيضًا فالاختِلافُ لا يحمِلُ مَعنى المُنازَعةِ؛ فقد يحصُلُ الاختِلافُ ولا تَحصُلُ المُنازَعةُ، أمَّا المُنازَعةُ فهي اختِلافٌ مَعَ مُعاداةٍ ومُخاصَمةٍ[4860].

- **الفرقُ بَينَ المُنازَعةِ والمُطالبةِ:**

قال أبو هلالٍ العَسكريُّ: (المُطالبةُ تَكونُ بما يُعرَفُ به المَطلوبُ، كالمُطالبةِ بالدَّينِ، ولا تَقَعُ إلَّا مَعَ الإقرارِ به، وكذلك المُطالبةُ بالحُجَّةِ على الدَّعوى، والدَّعوى قَولٌ يعتَرِفُ به المُدَّعي، والمُنازِعةُ لا تَكونُ إلَّا فيما يُنكِرُ المَطلوبَ، ولا يقَعُ فيما يعتَرِفُ به الخَصمانِ مُنازَعةٌ)[4861].

- **الفرقُ بَينَ الاختِلافِ والخِلافِ:**

مِن أهلِ العِلمِ مَن فرَّقَ بَينَ الاختِلافِ والخِلافِ، فجَعَل الاختِلافَ: ما يستَنِدُ إلى دَليلٍ، والخِلافَ ما لا يستَنِدُ إلى دَليلٍ، والاختِلافُ مِن آثارِ الرَّحمةِ، والخِلافُ مِن آثارِ البدعةِ، إلى غَيرِ ذلك[4862].

ومِن أهلِ العِلمِ من ذَهَب إلى أنَّ الخِلافَ كالاختِلافِ، وأنَّهما مُتَرادِفانِ[4863].

[4857] ((المفردات)) (ص: 294).

[4858] ((التوقيف على مهمات التعاريف)) (ص: 41).

[4859] ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: 294).

[4860] ((موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم)) (2/54).

[4861] ((الفروق اللغوية)) (ص: 64) .

[4862] يُنظَر: ((الكليات)) (ص: 61، 62).

[4863] يُنظَر: ((الاختلاف في ميزان السنة)) لعبد اللهِ شعبان (ص: 15).

المطلب الثالث: ذَمُّ التَّنازُعِ والاختِلافِ والنَّهيُ عنهما

أ- مِنَ القُرآنِ الكريمِ:

- قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: 45-46].

(هذه وصايا سَماويَّةٌ، وتَعاليمُ مِن رَبِّ العالمينَ عَظيمةٌ، مَن أخَذَ بها ظَفِرَ، ومَن تَرَكها فَشِل وذَهَبَت ريحُه لا شَكَّ)[4864].

قال ابنُ كثيرٍ: (أمَرَ تعالى بالثَّباتِ عِند قِتالِ الأعداءِ والصَّبرِ على مُبارَزَتِهم، فلا يفِرُّوا ولا يَنكُلوا ولا يجبُنوا، وأن يذكُروا اللهَ في تلك الحالِ ولا يَنسوه بَل يستَعينوا به ويتَّكِلوا عليه، ويسألوه النَّصرَ على أعدائِهم، وأن يُطيعوا اللهَ ورَسولَه في حالِهم ذلك، فما أمَرَهم اللهُ تعالى به ائتَمَروا، وما نَهاهم عنه انزَجَروا، ولا يتَنازَعوا فيما بَينَهم أيضًا فيختَلفوا، فيكونَ سَبَبًا لتَخاذُلِهم وفشَلِهم، وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ أي: قوَّتُكم ووَحدتُكم وما كُنتُم فيه مِنَ الإقبالِ)[4865].

- وقال تعالى في شَأنِ غَزوةِ أُحُدٍ: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [آل عِمرانَ: 152].

أي: إنَّ اللهَ عَزَّ وجَل قد أنجَزَ لكم ما وعَدَكم به يومَ أُحُدٍ أيُّها المُؤمِنونَ، وهو نَصرُكم على عَدوِّكم، وكان ذلك في بدايةِ المَعرَكةِ حينَ طَفِقتُم تَستَأصِلونَهم بقَتلهم قَتلًا ذَريعًا، وذلك قد وقَعَ عن أمرِ اللهِ تعالى شَرعًا وقدَرًا، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ أي: لما استَولى عليكم الضَّعفُ والخَورُ، وجَبُنتُم عنِ القِتالِ، ووقَعَ الخِلافُ بَينَ رُماتِكم: هَل يَلزَمونَ ثُغورَهم -كما عَهِدَ إليهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أم يتَحَرَّكونَ لجَمعِ الغَنائِمِ، وعَصى بَعضُكم في النِّهايةِ أمرَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِن بَعدِ أن أظهرَ اللهُ تعالى لكم ما تُحِبُّونَه مِن انهزامِ الكُفَّارِ، وتَوليتِهم الأدبارَ، فلمَّا وقَعَ ذلك كُلُّه، حَلَّت بكم الهَزيمةُ[4866].

وفي هذا أنَّ وعدَ اللهِ تعالى المُؤمِنينَ النَّصرَ على عَدوِّهم مَشروطٌ تحَقُّقُه بما إذا لم يعصوا بتَنازُعِهم وفشَلِهم، يُبَيِّنُ ذلك قَولُه تعالى: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ} [آل عمران: 152][4867].

وفيه الحَثُّ على اجتِماعِ الكلمةِ، ووجهُه: أنَّ النِّزاعَ سَبَبٌ للخِذلانِ، فيكونُ الاتِّفاقُ سَبَبًا للنَّصرِ، وهو كذلك؛ فاجتِماعُ النَّاسِ على كلمةٍ واحِدةٍ لا شَكَّ أنَّه سَبَبٌ للنَّصرِ؛ ولهذا ينبَغي لطَلَبةِ العِلمِ وللعُلَماءِ ألَّا يُظهِروا خِلافَهم ونِزاعَهم أمامَ العامَّةِ[4868].

- وقال تعالى في المُشرِكينَ: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ} [يس: 48 - 50].

[4864] ((العذب النمير)) للشنقيطي (5/ 87).

[4865] ((تفسير القرآن العظيم)) (4/72).

[4866] ((التفسير المحرر- الدرر السنية)) (2/576).

[4867] يُنظَر: ((مفاتيح الغيب)) للرازي (9/399)، ((البحر المحيط)) لأبي حيان (3/380).

[4868] يُنظَر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (2/313).

أي: ما ينتَظِرونَ إلَّا صَيحةً واحِدةً حينَ يُنفَخُ في الصُّورِ عِندَ قيامِ السَّاعةِ، فتُصيبُهم وهم يختَصِمونَ في شُؤونِ دُنياهم؛ فهم في غَفلتِهم لاهونَ عنها، لم تَخطُرْ على قُلوبِهم[4869].

وفي قَولِه تعالى: تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ بَيانُ حالِ هؤلاء الذين تَقومُ عليهم القيامةُ وتَأخُذُهم الصَّيحةُ، مِنَ الخُصومةِ والتَّنازُعِ؛ مِمَّا يدُلُّ على سوءِ أحوالِهم، وسوءِ أخلاقِهم، وأنَّه لا همَّ لهم إلَّا هذه المُخاصَمةُ والمُنازَعةُ؛ شُحًّا وطَمَعًا في الدُّنيا، وغَفلةً عنِ الآخِرةِ؛ ولهذا جاءَ في الحَديثِ الصَّحيحِ: أنَّ السَّاعةَ لا تَقومُ إلَّا على شِرارِ الخَلقِ[4870]، وهؤلاء مِنَ المَعلومِ أنَّهم يأكُلونَ ويشرَبونَ، لكِنْ لم يذكُرِ اللهُ إلَّا هذا التَّخاصُمَ؛ لبَيانِ سوءِ حالِهم في ذلك الزَّمَنِ[4871].

- وقال تعالى مُبَيِّنًا أَنَّ السَّبَبَ في التَّنازُعِ واختِلاف العُقولِ هو قِلَّةُ العَقلِ: لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ [الحَشر: 14].

قال الشِّنقيطيُّ: (بَيَّن تعالى أنَّ اختِلافَ القُلوبِ، والمُنازَعاتِ الشَّديدةَ، وتَشَتُّتَ الآراءِ والأفكارِ، وعَدَمَ الاتِّحادِ؛ أنَّ سَبَبَ هذا الذي يجتَلبُه به إنَّما هو ذَهابُ العَقلِ وعَدَمُ العَقلِ؛ لأنَّ العاقِلَ لا يتَسَبَّبُ في المُخالفةِ؛ لأنَّك إذا اختَلفتَ أنتَ وأخوك كان تَدبيرُه وكُلُّ ما عِندَه مِن قوَّةٍ يعمَلُ ضِدَّك، فإذا كُنتَ عاقِلًا -ولو عَقلًا دُنيويًّا- كان تَسبُّبُك في أن يكونَ مَعَك؛ لأنَّ كونَ قوَّتِه وما أعطاه اللهُ في صالِحِك خَيرٌ لك مِن أن يكونَ في غَيرِ ذلك؛ ولذا بَيَّن تعالى أنَّ سَبَبَ اختِلافِ القُلوبِ هو ضَعفُ العُقولِ وعَدَمُها؛ قال في قَومٍ -وهمُ اليهودُ لعنَهمُ اللهُ- بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى أي: مُختَلفةٌ مُفتَرِقةٌ، فِرَقٌ مُتَعاديةٌ مُختَلفةٌ. ثُمَّ بَيَّنَ العِلَّةَ التي أوجَبَت تَشَتُّتَ تلك القُلوبِ، قال: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)[4872].

- وقال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199].

فدَخَل في قَوله: وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ الحَضُّ على التَّخَلُّقِ بالحِلمِ، والإعراضُ عن أهلِ الظُّلمِ، والتَّنَزُّهُ عن مُنازَعةِ السُّفهاءِ، ومُساواةِ الجَهَلةِ والأغبياءِ، وغَيرُ ذلك مِنَ الأخلاقِ الحَميدةِ، والأفعالِ الرَّشيدةِ[4873].

- وقال تعالى مُحَذِّرًا الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ مِنَ الاختِلافِ والتَّفرُّقِ الذي وقَعَ في الأُمَمِ السَّالفةِ: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: 105].

قال ابنُ جَريرٍ: (يعني بذلك جَلَّ ثَناؤُه: ولا تَكونوا يا مَعشَرَ الذين آمَنوا كالذين تَفرَّقوا مِن أهلِ الكِتابِ، واختَلفوا في دينِ اللهِ وأمرِه ونَهيِه، مِن بَعدِ ما جاءَهمُ البَيِّناتُ مِن حُجَجِ اللهِ، فيما اختَلفوا فيه، وعَلموا الحَقَّ فيه، فتَعَمَّدوا خِلافَه، وخالفوا أمرَ اللهِ، ونَقَضوا عَهدَه وميثاقَه؛ جَراءةً على الله، وَأُولَئِكَ لَهُمْ يعني: ولهؤلاء الذين تَفرَّقوا واختَلفوا مِن أهلِ الكِتابِ مِن بَعدِ ما جاءَهم عَذَابٌ مِن عِندِ اللهِ عَظيمٌ يقولُ جَل ثَناؤُه: فلا تَفرَّقوا يا مَعشَرَ المُؤمِنينَ في دينِكم تَفرُّقَ هؤلاء في دينِهم، ولا تَفعَلوا فِعلَهم، وتَستَنُّوا في دينِكم بسُنَّتِهم؛ فيكونَ لكم مِن عَذابِ اللهِ العَظيمِ مِثلُ الذي لهم)[4874].

[4869] ((التفسير المحرر- الدرر السنية)) (27/184).

[4870] يُنظَر: ما أخرجه مسلم (1924).

[4871] يُنظَر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: 179).

[4872] يُنظَر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (5/85).

[4873] يُنظَر: ((المروءة)) لابن المرزبان (ص: 133)، ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (7/ 344).

[4874] ((جامع البيان)) (662 /5)

- وقال تعالى مُبَيِّنًا قُبحَ الاختِلافِ وما يُفضي إليه مِن شِقاقٍ ونِزاعٍ: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [البقرة: 176].

قال الرَّازيُّ: (أمَّا قَولُه: وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ فاعلَمْ أنَّا وإن قُلنا: المُرادُ مِنَ الكِتابِ هو القُرآنُ، كان اختِلافُهم فيه أنَّ بَعضَهم قال: إنَّه كِهانةٌ، وآخَرونَ قالوا: إنَّه سِحرٌ، وثالثٌ قال: رِجزٌ، ورابعٌ قال: إنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، وخامِسٌ قال: إنَّه كلامٌ مَنقولٌ مُختَلَقٌ، وإن قُلنا: المُرادُ مِنَ الكِتابِ التَّوراةُ والإنجيلُ فالمُرادُ باختِلافِهم يحتَمِلُ وُجوهًا أحَدُها: أنَّهم مُختَلفونَ في دَلالةِ التَّوراةِ على نُبوَّةِ المَسيحِ، فاليهودُ قالوا: إنَّها دالَّةٌ على القدحِ في عيسى، والنَّصارى قالوا: إنَّها دالَّةٌ على نُبوَّتِه، وثانيها: أنَّ القَومَ اختَلفوا في تَأويلِ الآياتِ الدَّالةِ على نُبوَّةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذكر كُلُّ واحِدٍ منهم له تَأويلًا آخَرَ فاسِدًا؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا لم يكُنْ حَقًّا واجِبَ القَبولِ بَل كان مُتَكلَّفًا كان كُلُّ أحَدٍ يذكُرُ شَيئًا آخَرَ على خِلافِ قَولِ صاحِبه، فكان هذا هو الاختِلافَ)[4875].

وقال السَّعديُّ: (وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ أي: وإنَّ الذين اختَلفوا في الكتابِ، فآمَنوا ببَعضِه، وكفَروا ببَعضِه، والذين حَرَّفوه وصَرَفوه على أهوائِهم ومُراداتِهم لَفِي شِقَاقٍ أي: مُحادَّةٍ، بَعِيدٍ عنِ الحَقِّ؛ لأنَّهم قد خالفوا الكِتابَ الذي جاءَ بالحَقِّ الموجِبِ للاتِّفاقِ وعَدَمِ التَّناقُضِ، فمَرَج أمرُهم، وكثُرَ شقاقُهم، وترَتَّبَ على ذلك افتِراقُهم)[4876].

- وقال تعالى في بَيانِ نِعمَتِه سُبحانَه على مَن عَصَمَهم مِنَ الاختِلافِ المُهلِكِ: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} [هود: 118-119].

قال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ أي: ولا يزالُ الخُلْفُ بَينَ النَّاسِ في أديانِهم واعتِقاداتِ مِلَلِهم ونِحَلِهم ومَذاهِبِهم وآرائِهم. وقَولُه: إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ أي: إلَّا المَرحومينَ مِن أتباعِ الرُّسُلِ، الذين تَمَسَّكوا بما أُمِروا به مِنَ الدِّينِ، أخبَرَتهم به رُسُلُ اللهِ إليهم، ولم يزَلْ ذلك دَأبَهم، حتَّى كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الأُمِّيُّ خاتَمَ الرُّسُلِ والأنبياءِ، فاتَّبَعوه وصَدَّقوه، ونَصَروه ووازَروه؛ ففازوا بسَعادةِ الدُّنيا والآخِرةِ؛ لأنَّهم الفِرقةُ النَّاجيةُ)[4877].

وقال ابنُ عاشورٍ: (لَمَّا أشعر الاختِلافُ بأنَّه اختِلافٌ في الدِّينِ، وأنَّ مَعناه العُدولُ عنِ الحَقِّ إلى الباطِلِ؛ لأنَّ الحَقَّ لا يقبَلُ التَّعَدُّدَ والاختِلافَ، عَقَّبَ عُمومَ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ باستِثناءِ مَن ثَبَتوا على الدِّينِ الحَقِّ ولم يُخالِفوه، بقَولِه: إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ أي: فعَصَمَهم مِنَ الاختِلافِ)[4878].

ب- مِنَ السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

-عنِ ابن عَبَّاس رَضي الله عنهما قال: ((لَمَّا اشتَدَّ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وجَعُه قال: ائْتُونِي بكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لا تَضِلُّوا بَعْدَهُ قَالَ عُمَرُ إِنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غَلَبَهُ الوَجَعُ، وعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ حَسْبُنَا. فَاخْتَلَفُوا وكَثُرَ اللَّغَطُ[4879]، قال:

[4875] ((مفاتيح الغيب)) (5/210)

[4876] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 82).

[4877] ((تفسير القرآن العظيم)) (4/ 361).

[4878] ((التحرير والتنوير)) (11/ 350).

[4879] أي : الأصواتُ المختَلِفةُ. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (12/ 110).

قوموا عنِّي ولا ينبَغي عِندي التَّنازُعُ. فخَرَجَ ابنُ عَبَّاسٍ يقولُ: إنَّ الرَّزيَّةَ[4880] كُلَّ الرَّزيَّةِ ما حال بَينَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبَينَ كِتابِه))[4881].

- عن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضي اللهُ عنه قال: ((بايعنا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على السَّمعِ والطَّاعةِ في العُسرِ واليُسرِ، والمنشَطِ والمكرَهِ، وألَّا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه، وأن نَقومَ بالحَقِّ حَيثُ كُنَّا لا نَخافُ في اللهِ لَومةَ لائِمٍ))[4882].

- عن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضي اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَرَجَ يُخبرُ بليلةِ القَدرِ، فتَلاحى رَجُلانِ مِنَ المُسلمينَ، فقال: إنِّي خَرَجتُ لأُخبِرَكم بليلةِ القَدْرِ، وإنَّه تَلاحى فُلانٌ وفُلانٌ فرُفعَت، وعَسى أن يكونَ خَيرًا لكم، التَمِسوها في السَّبعِ والتِّسعِ والخَمسِ))[4883].

في هذا الحَديثِ شُؤمُ الخِصامِ ومُلاحاةِ الرِّجالِ، أي: مُقاولتِهم ومُخاصَمَتِهم، ولاحيتُه مُلاحاةً: إذا نازَعتَه. قَولُه: (فرُفِعَت، قيل: رُفِعَت مَعرِفةُ ليلةِ القدرِ لتَلاحي النَّاسِ. وفيه دَليلٌ على أنَّ المُخاصَمةَ مَذمومةٌ وأنَّها سَبَبٌ في العُقوبةِ المَعنَويَّةِ أي الحِرمانِ)[4884].

وقال ابنُ العَرَبيِّ: (فيه دَليلٌ على أنَّ العُقوبةَ تَعُمُّ سائِرَ النَّاسِ مِنَ المُسيءِ والمُحسِنِ؛ لأنَّ تَلاحيَ الرَّجُلينِ كان سَبَبًا ألَّا يَعرِفَها أحَدٌ؛ فالجِدالُ لا يأتي بخَيرٍ، فعَمَّت العُقوبةُ بجِدالِهما المُسيءَ والمُحسِنَ؛ قال اللهُ تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال: 25])[4885].

- عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ رَضي اللهُ عنهما: (أنَّه قَدِمَ رَكبٌ[4886] مِن بَني تَميمٍ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال أبو بَكرٍ: أمِّرِ القَعقاعَ بنَ مَعبَدِ بنِ زُرارةَ، قال عُمَرُ: بَل أمِّرِ الأقرَعَ بنَ حابِسٍ، قال أبو بَكرٍ: ما أرَدتَ إلَّا خِلافي! قال عُمَرُ: ما أرَدتُ خِلافَك، فتَماريا[4887] حتَّى ارتَفعَت أصواتُهما، فنزَل في ذلك: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا} [الحجرات: 1] حتَّى انقَضَت)[4888].

وعنِ ابنِ أبي مُلَيكةَ قال: (كادَ الخَيِّرانِ أن يَهلِكا؛ أبو بَكرٍ وعُمَرُ، لَمَّا قدِمَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وفدُ بَني تَميمٍ أشارَ أحَدُهما بالأقرَعِ بنِ حابِسٍ التَّميميِّ الحنظليِّ أخي بني مجاشعٍ، وأشارَ الآخَرُ بغَيرِه، فقال أبو بَكرٍ لعُمَرَ: إنَّما أرَدتَ خِلافي! فقال عُمَرُ: ما أرَدتُ خِلافَك، فارتَفعَت أصواتُهما عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فنزَلت: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [الحجرات: 2] إلى قَولِه {عَظِيمٌ} [الحجرات: 3]، قال ابنُ أبي مُلَيكةَ، قال ابنُ الزُّبَيرِ: فكان عُمَرُ بَعدُ -

---

[4880] أي: المصيبةُ. يُنظَر: ((عمدة القاري)) للعيني (21/ 225).

[4881] أخرجه البخاري (114) واللفظ له، ومسلم (1637).

[4882] أخرجه البخاري (7199) مختصرًا، ومسلم (1709) واللفظ له.

[4883] أخرجه البخاري (49).

[4884] يُنظَر: ((إكمال المعلم)) لعياض (4/ 146، 149)، ((الكاشف عن حقائق السنن)) للطيبي (5/ 1626)، ((فتح الباري)) لابن حجر (1/113).

[4885] ((المسالك في شرح موطأ مالك)) (4/ 268)

[4886] الرَّكبُ: أصحابُ الإبِلِ في السَّفَرِ، وهم العَشَرةُ فما فوقها. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 127).

[4887] فتماريا: أي: تجادلا وتخاصَما. يُنظَر: ((عمدة القاري)) للعيني (19/184).

[4888] رواه البخاري (4367).

ولم يذكُرْ ذلك عن أبيه يعني أبا بَكرٍ- إذا حَدَّثَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحَديثٍ، حَدَّثَه كأخي السِّرارِ؛ لم يُسمِعْه حتَّى يَستَفهِمَه)[4889].

قال ابنُ حَجَرٍ: (في قِصَّةِ بَني تَميمٍ ذَمُّ التَّنازُعِ المُؤَدِّي إلى التَّشاجُرِ ونِسبةِ أحَدِهما الآخَرَ إلى قَصدِ مُخالفتِه؛ فإنَّ فيه إشارةً إلى ذَمِّ كُلِّ حالةٍ تَؤولُ بصاحِبِها إلى افتِراقِ الكَلِمةِ أوِ المُعاداةِ)[4890].

- وعن أبي مَسعودٍ قال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يمسَحُ مَناكِبَنا في الصَّلاةِ، ويقولُ: ((استَووا، ولا تَختَلِفوا؛ فتَختَلِفَ قُلوبُكم...))[4891].

قال ابنُ الجَوزيِّ: (قَولُه: «ولا تَختَلفوا؛ فتَختَلفَ قُلوبُكم» أي: أنَّكم إذا اختَلفتُم بالظَّواهرِ عوقِبتُم باختِلافِ القُلوبِ. ويُحتَمَلُ: لا تَختَلفَنَّ ظواهِرُكم؛ فإنَّ اختِلافَها دَليلٌ على اختِلافِ قُلوبِكم)[4892].

وقال السُّيوطيُّ: («ولا تَختَلفوا؛ فتَختَلفَ قُلوبُكم»: أي: لا يتَغَيَّر عنِ التَّوادِّ والأُلفةِ إلى التَّباغُضِ والعَداوةِ)[4893].

- عن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه قال: ((سَمِعتُ رَجُلًا قَرَأ آيةً، وسَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ خِلافَها، فجِئْتُ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأخبَرْتُه، فعَرَفتُ في وجهِه الكَراهيةَ، وقال: كِلاكما مُحسِنٌ، ولا تَختَلِفوا؛ فإنَّ مَن كان قَبلَكمُ اختَلَفوا فهَلَكوا))[4894].

قال ابنُ الجَوزيِّ: (وَجهُ الهَلاكِ في الاختِلافِ أنَّ هذا يكفُرُ بما يقرَأُ هذا، ويزعُمُ أنَّه ليسَ مِن كلامِ اللهِ. فأمَّا الاختِلافُ في حَرَكاتِ الحُروفِ المَنقولةِ عنِ القُرَّاءِ فإنَّه لا يضُرُّه)[4895].

وقال الكَرمانيُّ: (حَذَّرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنِ اختِلافٍ يُؤَدِّي إلى الكُفرِ والبِدعةِ، مِثلُ الاختِلافِ في نَفسِ القُرآنِ، وفيما جازَ قِراءتُه على وجهَينِ مَثَلًا، وفيما يوقِعُ في الفِتنةِ أو شِبهِه، وأمَّا الاختِلافُ في فُروعِ الدِّينِ ومُناظَراتُ العُلماءِ وإظهارُ الحَقِّ، فهو مَأمورٌ به)[4896].

- وعن جُندَبِ بنِ عَبدِ اللهِ البَجَليِّ، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اقرَؤوا القُرآنَ ما ائتَلفَت عليه قُلوبُكم، فإذا اختَلفتُم فيه فقوموا))[4897].

قال القاضي عِياضٌ: (ومحمَلُه عِندَ أهلِ العِلمِ على أنَّ المُرادَ به اختِلافٌ لا يجوزُ، أو يوقِعُ فيما لا يجوزُ، كاختِلافِهم في تَفسيرِ القُرآنِ، أوِ اختِلافِهم في مَعانٍ لا يسوَغُ فيها الاجتِهادُ، أوِ اختِلافٍ يوقِعُ في التَّشاجُرِ والشَّحناءِ. وأمَّا الاختِلافُ في فُروعِ

[4889] أخرجه البخاري (7302).

[4890] ((فتح الباري)) (13/ 280).

[4891] أخرجه مسلم (432).

[4892] ((كشف المشكل)) (2/ 205).

[4893] ((قوت المغتذي)) (1/135).

[4894] رواه البخاري (3476).

[4895] ((كشف المشكل)) (1/310).

[4896] ((الكواكب الدراري)) (106 /14)

[4897] أخرجه البخاري (5060)، ومسلم (2667) واللفظ له.

الدِّينِ، وتَمسُّكُ صاحِبِ كُلِّ مَذهَبٍ بالظَّاهرِ مِنَ القُرآنِ وتَأويلُه الظَّاهِرَ على خِلافِ ما تَأوَّل صاحِبُه، فأمرٌ لا بُدَّ مِنه في الشَّرعِ، وعليه مَضى السَّلَفُ وانقَرَضَتِ الأعصارُ)[4898].

(فيَندُبُهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للقيامِ عنِ القُرآنِ العَظيمِ إذا اختَلفوا في بَعضِ أحرُفِ القِراءةِ أو في المَعاني المُرادةِ مِنَ الآياتِ الكريمةِ، حتَّى تَهدَأَ النُّفوسُ والقُلوبُ والخَواطِرُ، وتَنتَفيَ دَواعي الحِدَّةِ في الجِدالِ المُؤَدِّيةِ إلى المُنازَعةِ والشِّقاقِ، أمَّا إذا ائتَلفتِ القُلوبُ وسَيطَرَتِ الرَّغبةُ المُخلِصةُ في الفهمِ، فعليهم أن يواصِلوا القِراءةَ والتَّدَبُّرَ والتَّفكيرَ في آياتِ الكِتابِ)[4899].

ج- مِن أقوالِ السَّلفِ والعُلماءِ:

- قال عَبدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ رَضي اللهُ عنهما: (قدِمَ على عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رَجُلٌ، فجَعَل عُمرُ يسألُ عنِ النَّاسِ، فقال: يا أميرَ المُؤمِنينَ، قد قَرَأ القُرآنَ مِنهم كذا وكذا، فقال ابنُ عَبَّاسٍ: فقُلتُ: واللهِ ما أحِبُّ أن يتسارعوا يومَهم هذا في القُرآنِ هذه المُسارَعةَ! قال: فنَهَرَني عُمَرُ، وقال: مَهْ[4900]! فانطَلقتُ إلى مَنزِلي مُكتَئِبًا حَزينًا، فبَينا أنا كذلك إذ أتاني رَجُلٌ فقال: أجِبْ أميرَ المُؤمِنينَ، فخَرَجتُ، فإذا هو بالبابِ ينتَظِرُني، فأخَذَ بيدي، فخَلا بي، وقال: ما الذي كرِهتَ مِمَّا قال الرَّجُلُ آنِفًا؟ فقُلتُ: يا أميرَ المُؤمِنينَ، متى يتسارعوا هذه المُسارَعةَ يحتَقُّوا، ومتى ما يحتَقُّوا يختَصِموا، ومتى ما يختَصِموا يختَلِفوا، ومتى ما يختَلفوا يقتَتِلوا. قال: للهِ أبوك! واللهِ إن كُنتُ لأكتُمُها النَّاسَ حتَّى جِئتَ بها)[4901].

- وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ: (اقضوا كما كُنتُم تَقضونَ؛ فإنِّي أكرَهُ الاختِلافَ، حتَّى يكونَ للنَّاسِ جَماعةٌ، أو أموتَ كما ماتَ أصحابي)[4902].

-وقال ابنُ مسعودٍ: (الخِلافُ شَرٌّ)[4903].

- ووعَظَ الخَطَّابُ بنُ المُعلَّى المَخزوميُّ القُرَشيُّ ابنَه، فقال: (يا بُنَيَّ، عليك بتَقوى اللهِ وطاعَتِه، وتَجَنُّبِ مَحارِمِه باتِّباعِ سُنَّتِه ومَعالِمِه؛ حتَّى تَصِحَّ عُيوبُك، وتَقَرَّ عَينُك؛ فإنَّها لا تَخفى على اللهِ خافيةٌ... ولا تُكثِرِ المِراءَ، ولا تُنازِعِ السُّفهاءَ، فإن تَكلمتَ فاختَصِرْ، وإن مَزَحتَ فاقتَصِرْ)[4904].

- وقال مُبارَكٌ أبو حَمَّادٍ: سَمِعتُ سُفيانَ الثَّوريَّ يقولُ لعليِّ بنِ الحَسَن السُّلميِّ: (لا تُنازِعْ أهلَ الدُّنيا في دُنياهم تَكُنْ مُحَبَّبًا إلى النَّاسِ، وإيَّاك والمَعصيةَ فتَستَحِقَّ سَخَطَ اللهِ)[4905].

- وأوصى بَعضُهم رَجُلًا فقال: (ازهَدْ في الدُّنيا ولا تُنازِعْها أهلَها، وكُنْ فيها كالنَّحلةِ؛ إن أكَلَتْ أكَلَتْ طَيِّبًا، وإن وضَعَتْ وضَعَتْ طَيِّبًا، وإن وقَعَتْ على عودٍ لم تَكسِرْه ولم تَضُرَّه)[4906].

[4898] ((إكمال المعلم)) (8/159، 160).

[4899] ((أدب الاختلاف في الإسلام)) لطه جابر العلواني (ص: 47).

[4900] مَهْ: اسمٌ لفِعلِ الأمرِ، ومعناه: اكفُفْ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: 300).

[4901] ((رسالة الإمام أحمد للمتوكل)) (ص: 32، 33)، ((السنة)) لعبد الله بن أحمد (88).

[4902] أخرجه البخاري (3707).

[4903] أخرجه أبو داود (1960)، وابن أبي شيبة (14174)، والبيهقي (5641). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (1960)، وصحَّح إسنادَه الطبري في ((مسند عمر)) (1/226)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (1960).

[4904] ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص: 198).

[4905] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (7/ 47، 48).

- وعنِ الأصمَعيِّ قال: سَمِعتُ أعرابيًّا يقولُ: (مَن لاحى[4907] الرِّجالَ وماراهم قَلَّت مُروءتُه، وهانَت كرامَتُه، ومَن أكثَرَ مِن شَيءٍ عُرِف به)[4908].

- وقال المُزنيُّ: (ذَمَّ اللهُ الاختِلافَ، وأمَرَ عِندَه بالرُّجوعِ إلى الكِتابِ والسَّنةِ، فلو كان الاختِلافُ مِن دينِه ما ذَمَّه، ولو كان التَّنازُعُ مِن حُكمِه ما أمَرَهم بالرُّجوعِ عِندَه إلى الكِتابِ والسَّنَّةِ)[4909].

- وقال الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ: (الخُصومةُ لا تُثمِرُ إلَّا العَداوةَ وإنكارَ الحَقِّ؛ فلهذا جَعَلها اللهُ تعالى شَرًّا مِنَ الجِدالِ، فقال تعالى: بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [الزخرف: 58] ، وقال: فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ [النحل: 4] أي: شَديدُ الخُصومةِ مُبينٌ، ولم يذكُرِ الخِصامَ في مَوضِعٍ إلَّا عابَه، وأيضًا فالمُتَجادِلانِ يَجريانِ مَجرى فحلينِ تَعادَيا، وكبشَينِ تَناطَحا، ورَئيسَينِ تَحارَبا، وكُلُّ واحِدٍ منهما يجتَهِدُ أن يكونَ هو الفاعِلَ)[4910].

- وقال الشِّنقيطيُّ: (النِّزاعُ مِن أكبَرِ أسبابِ الضَّعفِ والخَورِ وعَدَم انتِظامِ الكلمةِ، وهذا النِّزاعُ والاختِلافُ هو مُشكِلةٌ عُظمى في أقطارِ الأرضِ؛ لأنَّ مَن يتَسَمَّونَ باسمِ المُسلمينَ يُنازِعُ بَعضُهم بَعضًا، ويُعادي بَعضُهم بَعضًا!)[4911].

- وقال قتادةُ: (فأهلُ رَحمةِ اللهِ أهلُ جَماعةٍ، وإن تَفرَّقَت دُورُهم وأبدانُهم، وأهلُ مَعصيتِه أهلُ فِرقةٍ، وإنِ اجتَمَعَت دُورهم وأبدانُهم)[4912].

-وقال أبو المُظَفَّرِ السَّمعانيُّ: (وأمَّا إذا نَظَرتَ إلى أهلِ الأهواءِ والبدَعِ رَأيتَهم مُتَفرِّقينَ مُختَلفينَ أو شِيَعًا وأحزابًا، لا تَكادُ تُجِدُ اثنَينِ مِنهم على طَريقةٍ واحِدةٍ في الاعتِقادِ، يُبدِّعُ بَعضُهم بَعضًا، بَل يرتَقونَ إلى التَّكفيرِ، يُكفِّرُ الابنُ أباه والرَّجُلُ أخاه، والجارُ جارَه! تَراهم أبَدًا في تَنازُعٍ وتَباغُضٍ واختِلافٍ، تَنقَضي أعمارُهم ولَمَّا تَتَّفِقْ كَلِماتُهم)[4913].

- وقال ابنُ تيميَّةَ: (إذا تَفرَّقَ القَومُ فسَدوا وهَلَكوا، وإذا اجتَمَعوا صَلَحوا ومَلَكوا؛ فإنَّ الجَماعةَ رَحمةٌ، والفُرقةَ عَذابٌ)[4914].

- وقال أيضًا: (مَواضِعُ التَّفرُّقِ والاختِلافِ عامَّتُها تَصدُرُ عنِ اتِّباعِ الظَّنِّ وما تَهوى الأنفُسُ)[4915].

- وقال السَّعديُّ: (أهلُ الفِرقةِ والاختِلافِ، هؤلاء اسودَّت وُجوهُهم بما في قُلوبِهم مِنَ الخِزيِ والهَوانِ والذِّلَّةِ والفضيحةِ)[4916].

- وقال أيضًا: (الدِّينُ يأمُرُ بالاجتِماعِ والائتِلافِ، وينهى عنِ التَّفرُّقِ والاختِلافِ)[4917].

[4906] ((المصنف)) لابن أبي شيبة (7/ 183، 184)، ((الزهد)) لهناد بن السري (459).

[4907] يقال: لاحاه مُلاحاةً ولِحاءً: نازعه. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: 281).

[4908] ((الإبانة الكبرى)) لابن بطة (2/ 531).

[4909] ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (2/ 910).

[4910] ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص: 187).

[4911] يُنظَر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (85/5).

[4912] ((جامع البيان)) لابن جرير (12/ 635).

[4913] ((الحجة في بيان المحجة)) لقوام السنة (2/239، 240).

[4914] ((مجموع الفتاوى)) (3/ 421).

[4915] المصدر السابق (12/ 237).

[4916] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 142).

-وقال ابنُ عُثَيمين: (نَهى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن كُلِّ ما يوجِبُ تَفرُّقَ المُسلمينَ وتَباعُدَهم؛ وذلك لِما في التَّفرُّقِ والبَغضاءِ مِنَ المَفاسِدِ العَظيمةِ؛ فالتَّفرُّقُ هو قُرَّةُ عَينِ شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ؛ لأنَّ شَياطينَ الإنسِ والجِنِّ لا يَوَدُّونَ مِن أهل الإسلامِ أن يجتَمِعوا على شَيءٍ، فهم يُريدونَ أن يتفرَّقوا؛ لأنَّهم يعلمونَ أنَّ التَّفرُّقَ تَفتُّتٌ للقوَّةِ التي تَحصُلُ بالالتِزامِ والاتِّجاهِ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حَثَّ على التَّآلُفِ والتَّحابِّ بقَولِه وفِعلِه، ونَهى عنِ التَّفرُّقِ والاختِلافِ الذي يُؤَدِّي إلى تَفريقِ الكلمةِ وذَهابِ الرِّيحِ)[4918].

المطلب الرابع: أقسامُ التَّنازُعِ والاختِلافِ

ينقَسِمُ التَّنازُعُ إلى قِسمَينِ:

- **القسمُ الأوَّلُ: تَنازُعٌ في أُمورِ الدُّنيا:**

قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((واللهِ ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكِنِّي أخشى عليكم أن تُبسَطَ الدُّنيا عليكم كما بُسِطَت على مَن كان قَبلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، وتُهلِكَكم كما أهلكَتْهم!))[4919].

قال ابنُ الجَوزيِّ: (المُنافسةُ في الشَّيءِ: المُشاحَّةُ عليه والتَّنازُعُ فيه. وفي هذا الحَديثِ تَحذيرٌ مِن فِتنةِ الدُّنيا؛ فإنَّ مَن طَلبَ مِنها فوقَ الحاجةِ لم يجِدْ لمُرادِه مَرَدًّا، ومَن قَنِعَ بالبَلاغِ بَلغَ المَنزِلَ سَليمًا مِنَ الشَّرِّ، فما الدُّنيا إلَّا كما قيل:

إنَّ السَّلامةَ مِن سَلمى وجارَتِها

ألَّا تَمُرَّ على حالٍ بواديها)[4920].

- **والقِسمُ الثَّاني: التَّنازُعُ في الدِّينِ:**

وينقَسِمُ الاختِلافُ مِن حَيثُ المَدحُ والذَّمُّ إلى قِسمَينِ:

- **اختِلافٌ مَذمومٌ:** وهو ما كان سَبَبُه اتِّباعَ الهَوى والتَّعَصُّبَ والبَغيَ، وأدَّى إلى التَّفرُّقِ والعَداوةِ والبَغضاءِ.
- **واختِلافٌ مَحمودٌ:** وهو ما كان دافِعُه نُصرةَ الحَقِّ والإنصافَ ولم يُؤَدِّ إلى التَّفرُّقِ ولا العَداوةِ ولا فسادِ ذاتِ البَينِ.

قال ابنُ تيميَّةَ: (إنَّ السَّلَفَ كانوا يختَلفونَ في المَسائِلِ الفرعيَّةِ، مَعَ بَقاءِ الأُلفةِ والعِصمةِ، وصَلاحِ ذاتِ البَينِ)[4921].

وقال يونُسُ الصَّدَفيُّ: (ما رَأيتُ أعقَلَ مِنَ الشَّافِعيِّ؛ ناظرتُه يومًا في مَسألةٍ، ثُمَّ افتَرَقْنا، ولقِيَني فأخَذَ بيدي، ثُمَّ قال: يا أبا موسى، ألا يستَقيمُ أن نَكونَ إخوانًا وإن لم نَتَّفِقْ في مَسألةٍ؟!)[4922].

[4917] المصدر السابق (ص: 282).

[4918] ((مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين)) (7/120).

[4919] أخرجه البخاري (3158)، ومسلم (2961) واللفظ له، من حديثِ عَمرِو بنِ عَوفٍ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[4920] ((كشف المشكل من حديثِ الصحيحين)) (2/ 105).

[4921] ((الفتاوى الكبرى)) لابن تَيميَّةَ .(6/92)

[4922] ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (10/16).

وينقَسِمُ الاختِلافُ مِن جِهةٍ أُخرى إلى اختِلافِ تَنَوُّعٍ، واختِلافِ تَضادٍّ.

واختِلافُ التَّنَوُّعِ على وُجوهٍ: مِنه: ما يكونُ كُلُّ واحِدٍ مِنَ القَولينِ أوِ الفِعلينِ حَقًّا مَشروعًا، كما في القِراءاتِ التي اختَلف فيها الصَّحابةُ، حتَّى زَجرهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقال: ((كِلاكما مُحسِنٌ))[4923].

ومِثلُه اختِلافُ الأنواعِ في صِفةِ الأذانِ، والإقامةِ، والاستِفتاحِ، والتَّشهُّداتِ، وصَلاةِ الخَوفِ، وتَكبيراتِ العيدِ، وتَكبيراتِ الجِنازةِ، إلى غَيرِ ذلك مِمَّا قد شُرِعَ جَميعُه، وإن كان قد يُقالُ: إنَّ بَعضَ أنواعِه أفضَلُ.

ثُمَّ نَجِدُ لكثيرٍ مِنَ الأُمَّةِ في ذلك مِنَ الاختِلافِ ما أوجَبَ اقتِتالَ طَوائِفَ مِنهم على شَفعِ الإقامةِ وإيتارِها، ونَحوِ ذلك! وهذا عَينُ المُحَرَّمِ، ومَن لم يبلُغْ هذا المَبلغَ فتَجِدُ كثيرًا مِنهم في قَلبِه مِنَ الهَوى لأحَدِ هذه الأنواعِ والإعراضِ عنِ الآخَرِ أوِ النَّهيِ عنه ما دَخَل به فيما نَهى عنه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم!

ومِنه: ما يكونُ كُلٌّ مِنَ القَولينِ هو في مَعنى قَولِ الآخَرِ، لكِنِ العِبارَتانِ مُختَلفتانِ، كما قد يختَلفُ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ في ألفاظِ الحُدودِ وصِيَغِ الأدِلَّةِ، والتَّعبيرِ عنِ المُسَمَّياتِ، وتَقسيمِ الأحكامِ، وغَيرِ ذلك، ثُمَّ الجَهلُ أو الظُّلمُ يحمِلُ على حَمدِ إحدى المَقالتَينِ وذَمِّ الأُخرى.

ومِنه ما يكونُ المَعنَيانِ غَيرينِ، لكِن لا يتَنافيانِ؛ فهذا قَولٌ صَحيحٌ، وهذا قَولٌ صَحيحٌ، وإن لم يكُنْ مَعنى أحَدِهما هو مَعنى الآخَرِ، وهذا كثيرٌ في المُنازَعاتِ جِدًّا.

ومِنه ما يكونُ طَريقَتانِ مَشروعَتينِ، ورَجُلٌ أو قَومٌ قد سَلكوا هذه الطَّريقَ، وآخَرونَ قد سَلكوا الأُخرى، وكلاهما حَسَنٌ في الدِّينِ. ثُمَّ الجَهلُ أوِ الظُّلمُ يحمِلُ على ذَمِّ إحداهما أو تَفضيلِها بلا قَصدٍ صالحٍ، أو بلا عِلمٍ، أو بلا نيَّةٍ وبلا عِلمٍ.

وأمَّا اختِلافُ التَّضادِّ فهو: القَولانِ المُتَنافيانِ إمَّا في الأُصولِ وإمَّا في الفُروعِ، فهذا الخَطبُ فيه أشَدُّ؛ لأنَّ القَولينِ يتَنافيانِ؛ لكِن نَجِدُ كثيرًا مِن هؤلاء قد يكونُ القَولُ الباطِلُ الذي مَعَ مُنازِعِه فيه حَقٌّ ما، أو مَعَه دَليلٌ يقتَضي حَقًّا ما، فيَرُدُّ الحَقَّ في الأصلِ هذا كُلِّه، حتَّى يبقى هذا مُبطِلًا في البَعضِ، كما كان الأوَّلُ مُبطِلًا في الأصلِ.

وهذا القِسمُ المُسَمَّى اختِلافَ التَّنَوُّعِ: كُلُّ واحِدٍ مِنَ المُختَلفين مُصيبٌ فيه بلا تَرَدُّدٍ، لكِنَّ الذَّمَّ واقِعٌ على مَن بَغى على الآخَرِ فيه، وقد دَلَّ القُرآنُ على حَمدِ كُلِّ واحِدٍ مِنَ الطَّائِفتَينِ في مِثلِ ذلك إذا لم يحصُلْ بَغيٌ، كما في قَولِه: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ} [الحشر: 5] .

وقد كانوا اختَلفوا في قَطعِ الأشجارِ، فقَطَعَ قَومٌ وترك آخَرونَ.

وكما في قَوله: {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} [الأنبياء: 78-79]، فخَصَّ سُليمانَ بالفهمِ، وأثنى عليهما بالعِلمِ والحُكمِ.

وكما في إقرارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ بَني قُرَيظةَ لَمن صَلى العَصرَ في وقتِها، ولَمن أخَّرَها إلى أن وصل إلى بَني قُرَيظةَ.

[4923] أخرجه البخاري (2410).

وكما في قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا حَكَمَ الحاكِمُ فاجتَهَدَ ثُمَّ أصابَ فله أجرانِ، وإذا حَكَمَ فاجتَهَدَ ثُمَّ أخطَأَ فله أجرٌ))[4924]. ونَظائِرُه كثيرةٌ.

وإذا جَعَلتَ هذا قِسمًا آخَرَ صارَ الاختِلافُ ثَلاثةَ أقسامٍ.

- **والاختِلافُ على ما ذَكَره اللهُ في القُرآنِ قِسمانِ:**

- **أحَدُهما:** يذُمُّ الطَّائِفتَينِ جَميعًا، كما في قَولِه تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [البقرة: 176]، وكذلك قَولُه: {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [آل عمران: 19]، وقَولُه: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [آل عمران: 105]، وقَولُه: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [الأنعام: 159].

وكذلك وصَف اختِلافَ النَّصارى بقَولِه: {فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [المائدة: 14]. ووصَف اختِلافَ اليهودِ بقَولِه: {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ} [المائدة: 64] ، وقال: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [المؤمنون: 53] ... وهذا الاختِلافُ المَذمومُ مِنَ الطَّرَفينِ يكونُ سَبَبُه تارةً فسادَ النِّيَّةِ؛ لِما في النُّفوسِ مِنَ البَغيِ والحَسَدِ وإرادةِ العُلوِّ في الأرضِ ونَحوِ ذلك؛ فيُحبُّ لذلك ذَمَّ قَولِ غَيرِه أو فِعلِه، أو غَلبَتَه ليتَمَيَّزَ عليه، أو يُحِبُّ قَولَ مَن يوافِقُه في نَسَبٍ أو مَذهَبٍ أو بَلدٍ أو صَداقةٍ، ونَحوِ ذلك؛ لِما في قيامِ قَولِه مِن حُصولِ الشَّرَفِ والرِّئاسةِ، وما أكثَرَ هذا مِن بَني آدَمَ! وهذا ظُلمٌ.

ويكونُ سَبَبُه -تارةً- جَهلَ المُختَلفينِ بحَقيقةِ الأمرِ الذي يتَنازَعانِ فيه، أوِ الجَهلَ بالدَّليلِ الذي يُرشِدُ به أحَدُهما الآخَرَ، أو جَهْلَ أحَدِهما بما مَعَ الآخَرِ مِنَ الحَقِّ في الحُكمِ، أو في الدَّليل، وإن كان عالِمًا بما مَعَ نَفسِه مِنَ الحَقِّ حُكمًا ودَليلًا.....

- **القِسمُ الثَّاني مِنَ الاختِلافِ المَذكورِ في كِتابِ اللهِ: هو ما حَمِدَ فيه إحدى الطَّائِفتَينِ،** وهمُ المُؤمِنونَ، وذَمَّ فيه الأُخرى، كما في قَولِه تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: 253]؛ فقَولُه: وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ حَمدٌ لإحدى الطَّائِفتَينِ -وهمُ المُؤمِنونَ- وذَمٌّ للأخرى.

وأكثَرُ الاختِلافِ الذي يَؤولُ إلى الأهواءِ بَينَ الأُمَّةِ مِنَ القِسمِ الأوَّلِ، وكذلك آلَ إلى سَفكِ الدِّماءِ، واستِباحةِ الأموالِ، والعَداوةِ والبَغضاءِ؛ لأنَّ إحدى الطَّائِفتَينِ لا تَعتَرِفُ للأُخرى بما مَعَها مِنَ الحَقِّ ولا تُنصِفُها، بَل تَزيدُ على ما مَعَ نَفسِها مِنَ الحَقِّ زياداتٍ مِنَ الباطِلِ، والأُخرى كذلك!

وكذلك جَعَل اللهُ مَصدَرَه البَغيَ في قَولِه: {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [البقرة: 213]؛ لأنَّ البَغيَ: مُجاوزةُ الحَدِّ.

وذِكر هذا في غَيرِ مَوضِعٍ مِنَ القُرآنِ؛ ليكونَ عِبرةً لهذه الأُمَّةِ[4925].

[4924] أخرجه البخاري (7352) ومسلم (1716).

المطلب الخامس: آثارُ التَّنازُعِ والاختِلافِ

1- الاختِلافُ والتَّنازُعُ يجعَلُ المُسلمينَ فِرَقًا وأحزابًا، كُلٌّ يتبَعُ ما يهواه ويُريدُه.

2- حُدوثُ الضَّغينةِ بَينَ المُتنازِعينَ خاصَّةً إذا ما انتَصَرَ أحَدُهم على الآخَرِ.

3- عادةً ما يُصاحِبُ تلك المُنازَعاتِ التَّطاوُلُ مِن أحَدِ الجانِبَينِ -أو كِليهما- على الآخَرِ؛ إمَّا بسَبٍّ، أو عَيبٍ، أوِ انتِقاصٍ.

4- حِرمانُ الخَيرِ كما في قِصَّةِ تَلاحي الصَّحابيَّينِ في المَسجِدِ.

5- قد يلجَأُ أحَدُ المُتنازِعين للكذِبِ وشَهادةِ الزُّورِ لنُصرةِ قَولِه ورَأيِه.

6- الاختِلافُ والتَّنازُعُ قد يُفضي إلى المُقاتَلةِ، وهي تُؤَدِّي إلى الهَرجِ وسَفكِ الدِّماءِ وإذهابِ النُّفوسِ المُفضي إلى انقِطاعِ النَّوعِ[4926]، ولا سيَّما في التَّنازُعِ على المُلكِ؛ ولهذا كانوا يقولونَ: (المُلكُ عَقيمٌ) يُريدونَ أنَّ المَلِكَ لو نازَعَه ولدُه المَلِكُ لقَطَّعَ رَحِمَه حتَّى يُهلِكَه، فكأنَّه عَقيمٌ لم يولَدْ له! وإنَّما ذلك مِنَ الانفِرادِ بالمُلكِ، وأنْ ليسَ في المُلكِ شَريكٌ، فكأنَّه لذلك عَقيمٌ)[4927].

7- سُقوطُ الدُّولِ واستيلاءُ الأعداءِ عليها، كما حَدَثَ في الأندَلُسِ، وكان سُقوطُها بسَبَب عِدَّةِ عَوامِلَ، مِن أهَمِّها تنازُعُ مُلوكِ الطَّوائِفِ فيها وتَفرُّقُهم.

7- وُقوعُ الاختِلافِ والتَّنازُعِ والتَّشاجُرِ يرفعُ البَرَكةَ[4928].

8- الاختِلافُ والتَّنازُع يُؤَدِّي إلى التَّدابُرِ والتَّقاطُعِ.

9- التَّنازُعُ مِن أسبابِ الفَشَلِ وذَهابِ القوَّةِ.

قال تعالى: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: 46].

فقد (نَهى اللهُ جَلَّ وعَلا المُؤمِنينَ في هذه الآيةِ الكَريمةِ عنِ التَّنازُعِ، مُبَيِّنًا أنَّه سَبَبُ الفشَلِ، وذَهابِ القوَّةِ)[4929].

10- الاختِلافُ والتَّنازُعُ قد يُؤَدِّي إلى تَركِ الإنصافِ وجَحَدِ ما مَعَ المُخالِفِ مِن حَقٍّ.

قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [البقرة: 113].

[4925] يُنظَر: ((اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم)) لابن تَيميَّةَ (1/146، 154).

[4926] يُنظَر: ((العبر وديوان المبتدأ والخبر)) لابن خلدون (1/ 234، 235).

[4927] ((الأمثال)) لابن سلام (ص: 148).

[4928] ((فتح الباري)) لابن حجر (8/ 133).

[4929] ((أضواء البيان)) للشنقيطي (2/ 102).

قال ابنُ عَطيَّةَ: (وفي هذا مِن فِعلِهم كُفرُ كُلِّ طائِفةٍ بكِتابِها؛ لأنَّ الإنجيلَ يتَضَمَّنُ صِدقَ موسى وتَقريرَ التَّوراةِ، والتَّوراةَ تَتَضَمَّنُ التَّبشيرَ بعيسى وصِحَّةَ نُبوَّتِه، وكِلاهما تَضَمَّن صِدقَ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فعَنَّفهمُ اللهُ تعالى على كذِبِهم، وفي كُتُبِهم خِلافُ ما قالوا)[4930].

11- الاختِلافُ والتَّنازُعُ يُؤَدِّي إلى الجَدَلِ والمِراءِ.

المطلب السادس: دَرَجاتُ التَّنازُعِ والاختِلافِ

جَعَل الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ الاختِلافَ على أربَعِ دَرَجاتٍ فقال: (جَميعُ الاختِلافاتِ بَينَ أهلِ الأديانِ والمَذاهِبِ على أربَعِ مَراتِبَ:

- **الأولى**: الاختِلافُ بَينَ أهلِ الأديانِ النَّبَويَّةِ وبَينَ الخارِجينَ عنها مِنَ الثَّنويَّةِ والدَّهريَّةِ، وذلك في حُدوثِ العالَمِ، وفي الصَّانِعِ، وفي التَّوحيدِ.
- **والثَّانيةُ:** الاختِلافُ بَينَ أهلِ الأديانِ النَّبَويَّةِ بَعضِهم مَعَ بَعضٍ، وذلك في الأنبياءِ، كاختِلاف المُسلمينَ والنَّصارى واليهودِ.
- **والثَّالثةُ:** الخِلافُ المُختَصُّ في أهلِ الدِّينِ الواحِدِ بَعضِهم مَعَ بَعضٍ في الأُصولِ التي يقَعُ فيها التَّبديعُ والتَّفجيرُ، كالاختِلافِ في كثيرٍ مِن صِفاتِ اللهِ تعالى، وفي القَدَرِ، وكاختِلاف المُجَسِّمةِ.
- **الرَّابعةُ**: الاختِلافُ المُختَصُّ بأهلِ المَقالاتِ في فُروعِ المَسائِلِ، كاختِلافِ الشَّافِعيَّةِ والحَنَفيَّةِ.

فالاختِلافُ الأوَّلُ: يجري مَجرى مُتَنافيينِ في مَسلكيهما، والثَّاني: يجري مَجرى آخِذٍ نَحوَ المَشرِقِ، وآخِذٍ يمينَه أو شِمالَه، فهو وإن كان أقربَ مِنَ الأوَّل فليسَ يخرُجُ أحَدُهما عن أن يكونَ ضالًّا ضَلالًا بَعيدًا، والثَّالثُ: جارٍ مَجرى آخِذينِ وِجهةً واحِدةً، ولكِنَّ أحَدَهما سالكٌ للمَنهَجِ، والآخَرَ تارِكٌ للمَنهَجِ، وهذا التَّارِكُ للمَنهَجِ رُبَّما يبلُغُ وإن كان يطولُ عليه الطَّريقُ، والرَّابعُ: جارٍ مَجرى جَماعةٍ سَلكوا مَنهَجًا واحِدًا، لكِن أخذَ كُلُّ واحِدٍ شُعبةً غَيرَ شُعبةِ الآخَرِ، وهذا هو الاختِلافُ المَحمودُ)[4931].

المطلب السابع: مَظاهرُ التَّنازُعِ والاختِلافِ

1- التَّنازُعُ بَينَ الأفرادِ، كالتَّنازُعِ بَينَ الجيرانِ وبَينَ الزُّمَلاءِ.

2- التَّنازُعُ بَينَ الدُّولِ.

3- التَّنازُعُ في الأُمورِ الدُّنيويَّةِ، كالأموالِ والضَّيعاتِ والعَقاراتِ.

4- التَّنازُعُ على المُلكِ والحُكمِ والقيادةِ والمَناصِبِ.

5- الاختِلافُ في مَسائِلِ العَقيدةِ.

6- الاختِلافُ في المَسائِلِ الفِقهيَّةِ.

[4930] ((المحرر الوجيز)) (1/198).

[4931] يُنظَر: ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص: 190، 191).

7- الاختِلافُ بَينَ الزَّوجَينِ.

المطلب الثامن: أسبابُ الوُقوعِ في التَّنازُعِ والاختِلافِ

1- قِلَّةُ العَقلِ.

(وقد بَيَّنَ تعالى في سورةِ الحَشرِ أنَّ اختِلافَ القُلوبِ، والمُنازَعاتِ الشَّديدةَ، وتَشَتُّتَ الآراءِ والأفكارِ، وعَدَمَ الاتِّحادِ؛ أنَّ سَبَبَ هذا الذي يجتَلبُه به إنَّما هو ذَهابُ العَقلِ وعَدَمُ العَقلِ؛ لأنَّ العاقِلَ لا يتَسَبَّبُ في المُخالفةِ؛ لأنَّك إذا اختَلفتَ أنتَ وأخوك كان تَدبيرُه وكُلُّ ما عِندَه مِن قوَّةٍ يعمَلُ ضِدَّك، فإذا كُنتَ عاقِلًا -ولو عَقلًا دُنيويًّا- كان تَسبُّبُك في أن يكونَ مَعَك؛ لأنَّ كونَ قوَّتِه وما أعطاه اللهُ في صالِحِك خَيرٌ لك مِن أن يكونَ في غَيرِ ذلك؛ ولذا بَيَّن تعالى أنَّ سَبَبَ اختِلافِ القُلوبِ هو ضَعفُ العُقولِ وعَدَمُها)[4932].

2- تَصدُّرُ الجَهَلةِ. وكان يُقالُ: (إذا ازدَحَمَ الجَوابُ خَفِيَ الصَّوابُ، اللَّغَطُ يكونُ مَعَه الغَلَطُ، لو سَكتَ مَن لا يعلمُ سَقَطَ الاختِلافُ)، وقد قال بَعضُ أهلِ العِلمِ: (لو سَكتَ مَن لا يعلمُ لاستَرَحْنا)[4933].

3- الغَفلةُ عن آثارِ التَّنازُعِ السَّيِّئةِ وعَواقِبِه الوخيمةِ.

4- اتِّباعُ الهَوى.

5- التَّكاثُرُ مِن حُطامِ الدُّنيا، والتَّنافُسُ في تَحصيلِها، ومِن ذلك التَّنازُعُ على المُلكِ وغَيرِه؛ (فإنَّ المُلكَ مَنصِبٌ شَريفٌ مَلذوذٌ، يشتَمِلُ على جَميعِ الخَيراتِ الدُّنيويَّةِ والشَّهَواتِ البَدَنيَّةِ والمَلاذِّ النَّفسانيَّةِ؛ فيقَعُ فيه التَّنافُسُ غالبًا، وقَلَّ أن يُسلِّمَه أحَدٌ لصاحِبِه إلَّا إذا غَلبَ عليه، فتَقَعُ المُنازَعةُ، وتُفضي إلى الحَربِ والقِتالِ والمُغالبةِ)[4934].

6- ازدحامُ الأغراضِ[4935].

7- الأثَرةُ وحُبُّ الدُّنيا وطَلَبُ الرِّئاسةِ. قال مُحَمَّدٌ الغَزاليُّ: (لو غَلغَلتَ النَّظَرَ في كثيرٍ مِنَ الانقِساماتِ لرَأيتَ حُبَّ الدُّنيا والأثَرةَ العَمياءَ تَكمُنُ وراءَ هذه الحَزازاتِ)[4936].

8- ومِن أكبَرِ أسبابِ النِّزاعِ: تَقديمُ المَصالِحِ الشَّخصيَّةِ والأغراضِ الدُّنيويَّةِ على المَصالِحِ العامَّةِ[4937].

9- التَّعَصُّبُ للآراءِ والمَذاهِبِ.

10- البَغيُ والظُّلمُ الحاصِلُ مِن بَعضِ النَّاسِ على بَعضٍ.

11- اتِّباعُ المُتَشابِهِ مِنَ النُّصوصِ، وتَأويلُها تَأويلًا باطِلًا.

[4932] ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (5/ 85).

[4933] يُنظَر: ((الجليس الصالح الكافي)) للمعافى بن زكريا (ص: 610).

[4934] يُنظَر: ((العبر وديوان المبتدأ والخبر)) لابن خلدون (1/ 193).

[4935] المصدر السابق (1/ 240).

[4936] ((خلق المسلم)) (ص: 186).

[4937] يُنظَر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (5/84).

12- الإعجابُ بالنَّفسِ والغُرورُ.

13- إهمالُ نُصوصِ الشَّرعِ.

14- سوءُ الظَّنِّ بالآخَرينَ واتِّهامُهم بلا بَيِّنةٍ.

المطلب التاسع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ التَّنازُعِ والاختِلافِ

1- أن يكونَ الأصلُ والمَرجِعُ لكُلِّ إنسانٍ هو الكِتابَ والسُّنَّةَ، فعِندَئِذٍ يقِلُّ التَّنازُعُ.

2- الإيثارُ في الأُمورِ الدُّنيويَّةِ، وأن يُحِبَّ المَرءُ لأخيه مِنَ الخَيرِ ما يُحِبُّه لنَفسِه.

3- الزُّهدُ في الدُّنيا؛ فإنَّه يُقَلِّلُ التَّنازُعَ عليها.

4- أن يستَحضِرَ المَرءُ شُؤمَ الاختِلافِ والتَّنازُعِ وخَطَرَهما على الأُمَمِ والأفرادِ.

5- السَّعيُ في الإصلاحِ بَينَ النَّاسِ، ونَبذُ أسبابِ التَّهاجُرِ والتَّنازُعِ بَينَهم؛ قال تعالى: لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 114].

قال القُرطُبيُّ: (قَولُه تعالى: أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ عامٌّ في الدِّماءِ والأموالِ والأعراضِ، وفي كُلِّ شَيءٍ يقَعُ التَّداعي والاختِلافُ فيه بَينَ المُسلمينَ، وفي كُلِّ كلامٍ يُرادُ به وَجهُ اللهِ تعالى)[4938].

وقال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال: 1] (وذاتُ البَينِ: هي صاحِبةُ البَينِ، والبَينُ في كلامِ العَرَبِ يأتي على وجهَينِ مُتَضادَّينِ: فيأتي بمَعنى الفُرقةِ، ويأتي بمَعنى الوَصلِ. وإصلاحُ ذاتِ البَينِ على المَعنى الأوَّلِ يكونُ بمَعنى إصلاحِ صاحِبةِ الفُرقةِ بَينَ المُسلمينَ، وإصلاحُها يكونُ بإزالةِ أسبابِ الخِصامِ، أو بالتَّسامُحِ والعَفوِ، أو بالتَّراضي على وجهٍ مِنَ الوُجوه، وبهذا الإصلاحِ يذهَبُ البَينُ، وتَنحَلُّ عُقدةُ الفُرقةِ. أمَّا إصلاحُ ذاتِ البَينِ على المَعنى الثَّاني فيكونُ بمَعنى إصلاحِ صاحِبةِ الوَصلِ والتَّحابُبِ والتَّآلُفِ بَينَ المُسلمينَ، وإصلاحُها يكونُ برَأبِ ما تصَدَّع مِنها، وإزالةِ الفسادِ الذي دَبَّ إليها بسَبَبِ الخِصامِ والتَّنازُعِ على أمرٍ مِن أُمورِ الدُّنيا، واللهُ تَبارَك وتعالى أمر المُؤمِنينَ بأن يُصلِحوا ذاتَ بَينِهم ويُطيعوا اللهَ ورَسولَه إن كانوا مُؤمِنينَ حَقًّا؛ فمِن صِفاتِ المُؤمِنينَ المُتَّقينَ أنَّهم يُصلِحونَ ذاتَ بَينِهم، فإذا نَشَأ بَينَهم وبَينَ إخوانٍ لهم خِصامٌ على أمرٍ مِن أُمورِ الدُّنيا أسرَعوا إلى إصلاحِه بأنفُسِهم، ولو لم يتَدَخَّلْ بَينَهم وبَينَ إخوانِهم وُسَطاءُ)[4939].

المطلب العاشر: حُكمُ التَّنازُعِ والاختِلافِ

الاختِلافُ والتَّنازُعُ مَذمومٌ إذا أدَّى إلى التَّشاجُرِ والتَّدابُرِ وافتِراقِ الكَلِمةِ أوِ المُعاداةِ[4940].

(أمَّا التَّنازُعُ في الأحكامِ فجائِزٌ إجماعًا؛ حَيثُ خَلا عنِ التَّعَصُّب والتَّعنُّتُ، وإلَّا كان مِن أقبَحِ القَبائِحِ)[4941].

[4938] ((الجامع لأحكام القرآن)) (5/ 384).

[4939] ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني (2/ 230).

[4940] ((فتح الباري)) لابن حجر (13/ 280).

قال الشَّافِعِيُّ: (كُلُّ ما أقامَ اللهُ به الحُجَّةَ في كِتابِه أو على لسانِ نَبيّه مَنصوصًا بَيِّنًا، لم يحِلَّ الاختِلافُ فيه لمَن عَلِمه، وما كان مِن ذلك يحتَمِلُ التَّأويلَ ويُدرَكُ قياسًا، فذَهَبَ المُتَأوِّلُ أوِ القايسُ إلى مَعنًى يحتَمِلُه الخَبَرُ أوِ القياسُ، وإن خالفَه فيه غَيرُه؛ لم أقُلْ إنَّه يُضَيَّقُ عليه ضِيقَ الخِلافِ في المَنصوصِ)[4942].

المطلب الحاديَ عَشَرَ: أخطاءٌ شائِعةٌ

كثيرٌ مِنَ النَّاسِ يظُنُّ أنَّ التَّنازُعَ والاختِلافَ في الأحكامِ الفرعيَّةِ التي يُحتَمَلُ فيها الخِلافُ مَدعاةٌ للتَّهاجُرِ والتَّقاطُعِ، وموجِبٌ للإثمِ على المُخالِفِ، وهذا خَطَأٌ ظاهِرٌ.

قال ابنُ تيميَّةَ: (قدِ اتَّفقَ الصَّحابةُ في مَسائِلَ تَنازَعوا فيها، على إقرارِ كُلِّ فريقٍ للفريقِ الآخَرِ على العَمَلِ باجتِهادِهم، كَمَسائِلَ في العِباداتِ والمناكِحِ والمَواريثِ والعَطاءِ والسِّياسةِ وغَيرِ ذلك... وهذه المَسائِلُ مِنها ما أحَدُ القَولينِ خَطَأٌ قَطعًا، ومِنها ما المُصيبُ في نَفسِ الأمرِ واحِدٌ عِندَ الجُمهورِ أتباعِ السَّلفِ، والآخَرُ مُؤَدٍّ لِما وجَبَ عليه بحَسبِ قوَّةِ إدراكِه، وهَل يُقالُ له: مُصيبٌ أو مُخطِئٌ؟ فيه نِزاعٌ. ومِنَ النَّاسِ مَن يجعَلُ الجَميعَ مُصيبينَ ولا حُكمَ في نَفسِ الأمرِ. ومَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ أنَّه لا إثمَ على مَنِ اجتَهَدَ وإن أخطَأَ)[4943].

وقال أيضًا: (كان العُلماءُ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابعينِ ومَن بَعدَهم إذا تَنازَعوا في الأمرِ اتَّبَعوا أمرَ اللهِ تعالى في قَولِه: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [النساء: 59] ، وكانوا يتَناظَرونَ في المَسألةِ مُناظَرةَ مُشاورةٍ ومُناصَحةٍ، ورُبَّما اختَلف قَولُهم في المَسألةِ العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ مَعَ بَقاءِ الأُلفةِ والعِصمةِ وأُخوَّةِ الدِّينِ. نعَمْ، مَن خالف الكِتابَ المُستَبينَ والسُّنَّةَ المُستَفيضةَ أو ما أجمَعَ عليه سَلَفُ الأُمَّةِ خِلافًا لا يُعذَرُ فيه، فهذا يُعامَلُ بما يُعامَلُ به أهلُ البدَعِ)[4944].

وعن أبي سَلَمةَ بنِ عَبدِ الرَّحمَنِ وسَعيدِ بنِ المُسَيِّبِ: (أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ وعُثمانَ بنَ عَفَّانَ رَضي اللهُ عنهما كانا يتَنازَعانِ في المَسألةِ بَينَهما حتَّى يقولَ النَّاظِرُ: إنَّهما لا يجتَمِعانِ أبَدًا! فما يفتَرِقانِ إلَّا على أحسَنِه وأجمَلِه!)[4945].

المطلب الثاني عَشَرَ: مَسائِلُ مُتَفرِّقةٌ

- **الواجِبُ عِندَ التَّنازُعِ:**

قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65] .

وقال سُبحانَه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: 59] .

[4941] ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) (1/ 488).

[4942] ((الرسالة)) (ص: 560).

[4943] ((مجموع الفتاوى)) (19/122، 123).

[4944] المصدر السابق (24/172).

[4945] ((تاريخ الخلفاء)) للسيوطي (ص: 114).

قال الطَّبَريُّ في قَولِه تعالى: ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا: (فرَدُّ ما تَنازَعتُم فيه مِن شَيءٍ إلى اللهِ والرَّسولِ، خَيرٌ لكم عِندَ اللهِ في مَعادِكم، وأصلَحُ لكم في دُنياكم؛ لأنَّ ذلك يدعوكم إلى الأُلفةِ، وتركِ التَّنازُعِ والفُرقةِ. وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا يعني: وأحمَدُ مَوئِلًا ومَغَبَّةً، وأجمَلُ عاقِبةً)[4946].

وقال ابنُ كثيرٍ: (هذا أمرٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَل بأنَّ كُلَّ شَيءٍ تَنازَعَ النَّاسُ فيه مِن أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه أن يُرَدَّ التَّنازُعُ في ذلك إلى الكِتابِ والسُّنَّةِ، كما قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى: 10] ، فما حَكَمَ به كِتابُ اللهِ وسُنَّةُ رَسولِه وشَهِدا له بالصِّحَّةِ، فهو الحَقُّ، وماذا بَعدَ الحَقِّ إلَّا الضَّلالُ؛ ولهذا قال تعالى: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أي: رُدُّوا الخُصوماتِ والجَهالاتِ إلى كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه، فتَحاكَموا إليهما فيما شَجَرَ بَينَكم إن كُنتُم تُؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ.

فدَلَّ على أنَّ مَن لم يتَحاكَمْ في مَجالِ النِّزاعِ إلى الكِتابِ والسُّنَّةِ ولا يَرجِعُ إليهما في ذلك، فليسَ مُؤمِنًا باللهِ ولا باليومِ الآخِرِ)[4947].

وقال ابنُ عَبدِ البَرِّ: (الحُجَّةُ عِندَ التَّنازُعِ الكِتابُ والسُّنَّةُ لا ما سِواهما)[4948].

وقال أيضًا: (أمَر اللهُ عِبادَه عِندَ التَّنازُعِ أن يرُدُّوا ما تَنازَعوا فيه إلى كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبيِّه، فمَن كان عِندَه مِن ذلك عِلمٌ وجَبَ الانقيادُ إليه)[4949].

فيجِبُ التِزامُ الحُكمِ الذي ثَبَتَت حُجَّتُه، والعَمَلُ به والتَّسليمُ له، وما فيه التَّنازُعُ والاختِلافُ وجَبَ العَمَلُ منه بما قامَ الدَّليلُ عليه لكُلِّ مُجتَهِدٍ، وقامَ العُذرُ فيه لمَن مال إلى وجهٍ مِنه؛ لأنَّه هو الأَولى عِندَه، ووجَبَ على العامَّةِ تَقليدُ عُلَمائِها فيما اجتَهَدوا فيه ووَسِعَهم العَمَلُ به[4950].

- قال الماوَرْديُّ: (قد يختَلِفُ أهلُ الدِّينِ على مَذاهبَ شَتَّى وآراءٍ مُختَلِفةٍ، فيَحدُثُ بَينَ المُختَلِفينَ فيه مِنَ العَداوةِ والتَّبايُنِ مِثلُ ما يحدُثُ بَينَ المُختَلِفينَ في الأديانِ. وعِلَّةُ ذلك أنَّ الدِّينَ والاجتِماعَ على العَقدِ الواحِدِ فيه لَمَّا كان أقوى أسبابَ الأُلفةِ كان الاختِلافُ فيه أقوى أسبابِ الفُرقةِ، وإذا تَكافأ أهلُ الأديانِ المُختَلِفةِ والمَذاهِبِ المُتَباينةِ، ولم يكُنْ أحَدُ الفريقَينِ أعلى يدًا، وأكثَرَ عَدَدًا، كانتِ العَداوةُ بَينَهم أقوى والإحَنُ فيهم أعظَمَ؛ لأنَّه ينضَمُّ إلى عَداوةِ الاختِلافِ تَحاسُدُ الأكفاءِ، وتَنافُسُ النُّظَراءِ)[4951].

- **الدُّعاءُ بالهدايةِ عِندَ الاختِلافِ:**

عن أبي سَلمةَ بنِ عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ عَوفٍ قال: سَألتُ عائِشةَ أُمَّ المُؤمِنينَ: بأيِّ شَيءٍ كان نَبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يفتَتِحُ صَلاتَه إذا قامَ مِنَ اللَّيلِ؟ قالت: ((كان إذا قامَ يُصَلِّي من اللَّيلِ يَقولُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطِرَ

[4946] ((جامع البيان)) (7/ 187).

[4947] ((تفسير القرآن العظيم)) (2/345، 346).

[4948] ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) (11/ 49).

[4949] المصدر السابق (8/ 368).

[4950] يُنظَر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (5/ 328).

[4951] ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 148).

السَّمَواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، أنتَ تَحكُمُ بَينَ عِبادِك فيما كانوا فيه يَختَلِفونَ، اهدِني لِما اختُلِفَ فيه من الحَقِّ بإذْنِكَ؛ إنَّك تَهدِي من تَشاءُ إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ))[4952].

قال ابنُ القَيِّمِ: (فَمَن هَداه اللهُ سُبحانَه إلى الأخذِ بالحَقِّ حَيثُ كان ومَعَ مَن كان، ولو كان مَعَ مَن يُبغِضُه ويُعاديه، ورَدِّ الباطِلِ مَعَ مَن كان، ولو كان مَعَ مَن يُحِبُّه ويواليه- فهو مِمَّن هَدى لِما اختُلِف فيه مِنَ الحَقِّ. فهذا أعلَمُ النَّاسِ وأهداهم سَبيلًا وأقوَمُهم قِيلًا، وأهلُ هذا المَسلَكِ إذا اختَلفوا فاختِلافُهم اختِلافُ رَحمةٍ وهدًى، يُقِرُّ بَعضُهم بَعضًا عليه ويواليه ويُناصِرُه، وهو داخِلٌ في بابِ التَّعاوُنِ والتَّناظُرِ الذي لا يستَغني عنه النَّاسُ في أُمورِ دينِهم ودُنياهم، بالتَّناظُرِ والتَّشاوُرِ وإعمالِهم الرَّأيَ وإجالتِهم الفِكرَ في الأسبابِ الموصِلةِ إلى دَركِ الصَّوابِ)[4953].

[4952] أخرجه مسلم (770).

[4953] ((الصواعق المُرسَلة)) (2/ 517).

المبحث الثامن عشر: الجدال والمراء

المطلب الأول: معنى الجَدَلِ والمِراءِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى الجَدَلِ لُغةً:**

الجَدَلُ: اللَّدَدُ في الخُصومةِ والقُدرةُ عليها، وجادَلَه، أي: خاصَمَه، مجادَلةً وجِدالًا. والجَدَلُ: مُقابلةُ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ، والمجادَلةُ: المناظَرةُ والمُخاصَمةُ، والجِدالُ: الخُصومةُ، سُمّي بذلك لشِدَّتِه[4954].

- **معنى الجَدَلِ اصطِلاحًا:**

قال الرَّاغِبُ: (الجِدالُ: المفاوَضةُ على سَبيلِ المنازَعةِ والمغالَبةِ)[4955].

وقال الجُرْجانيُّ: (الجَدَلُ: دَفعُ المرءِ خَصمَه عن إفسادِ قَولِه، بحُجَّةٍ أو شُبهةٍ، أو يَقصِدُ به تصحيحَ كلامِه)[4956].

وقال أيضًا: (الجِدالُ: هو عِبارةٌ عن مِراءٍ يتعَلَّقُ بإظهارِ المذاهِبِ وتَقريرِها)[4957].

- **معنى المِراءِ لُغةً:**

المِراءُ: الجِدالُ. والتَّماري والمُماراةُ: المُجادَلةُ على مذهَبِ الشَّكِّ والرِّيبةِ، ويُقالُ للمُناظَرةِ: مُماراةٌ، ومارَيتُه أُماريه مماراةً ومِراءً: جادَلْتُه[4958].

- **معنى المِراءِ اصطِلاحًا:**

المِراءُ: هو كَثرةُ المُلاحاةِ للشَّخصِ لبيانِ غَلَطِه وإفحامِه، والباعِثُ على ذلك التَّرفُّعُ[4959].

وقال الجُرْجانيُّ: (المِراءُ: طَعنٌ في كلامِ الغَيرِ لإظهارِ خَلَلٍ فيه، من غيرِ أن يرتَبِطَ به غَرَضٌ سِوى تحقيرِ الغيرِ)[4960].

وقال الهَرَويُّ عن المِراءِ: هو (أن يَستخرِجَ الرَّجُلُ من مُناظِرِه كلامًا ومعانيَ الخُصومةِ وغيرِها)[4961].

وقال أبو الوليدِ الباجيُّ: (المِراءُ هو مُدافَعةُ الحَقِّ بالقولِ، وتَركُ الانقيادِ لِما ظهر منه... وهو تردُّدُ الكلامِ بَيْنَ اثنينِ، يريدُ كُلُّ واحدٍ منهما إظهارَ قولِه وإبطالَ قولِ خَصمِه)[4962].

[4954] ((مجمل اللغة)) لابن فارس (1/179)، ((لسان العرب)) لابن منظور.

[4955] ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: 189).

[4956] ((التعريفات)) (ص: 74).

[4957] المصدر السابق (ص: 75).

[4958] ((لسان العرب)) لابن منظور، ((المصباح المنير)) للفيومي.

[4959] ((مختصر منهاج القاصدين)) لأبي العباس بن قدامة (ص: 166).

[4960] ((التعريفات)) (ص: 209).

[4961] ((تهذيب اللغة)) (15/204)

[4962] ((سنن العابدين وسنن الصالحين)) (ص: 484).

وقال ابنُ رَسلانَ: (وحَدُّ المِراءِ هو كُلُّ اعتراضٍ على كلامِ الغَيرِ بإظهارِ خَلَلٍ فيه، إمَّا في اللَّفظِ، وإمَّا في المعنى، بأن يقولَ: ليس كما قُلتَ فيه، وقد أخطَأْتَ)[4963].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الجِدالِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الجِدالِ والحِجاجِ:**

الفَرْقُ بَيْنَهما أنَّ المطلوبَ بالحِجاجِ: هو ظُهورُ الحُجَّةِ.

والمطلوبُ بالجِدالِ: الرُّجوعُ عن المذهَبِ[4964].

وقيل: المُجادَلةُ تتميَّزُ بمَلمَحِ الشِّدَّةِ، والمحاجَّةُ تتميَّزُ بمصاحَبةِ الكلامِ للحُجَجِ التي يرادُ بها الغَلَبةُ على الخَصمِ[4965].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الجِدالِ والمِراءِ:**

قيل: هما بمعنًى.

غيرَ أنَّ المِراءَ مذمومٌ؛ لأنَّه مخاصَمةٌ في الحَقِّ بعدَ ظُهورِه، وليس كذلك الجِدالُ.

ولا يكونُ المِراءُ إلَّا اعتراضًا، بخِلافِ الجِدالِ؛ فإنَّه يكونُ ابتداءً واعتراضًا[4966].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الجَدَلِ والمُناظَرةِ والمُحاورةِ:**

الجَدَلُ يرادُ منه إلزامُ الخَصمِ ومُغالبتُه.

أمَّا المُناظَرةُ: فهي تردُّدُ الكلامِ بَيْنَ شَخصَينِ، يقصِدُ كُلُّ واحدٍ منهما تصحيحَ قَولِه وإبطالَ قَولِ صاحِبِه، مع رغبةِ كُلٍّ منهما في ظُهورِ الحَقِّ.

والمحاوَرةُ: هي المُراجَعةُ في الكلامِ، ومنه التَّحاوُرُ، أي: التَّجاوُبُ، وهي ضَربٌ من الأدَبِ الرَّفيعِ، وأسلوبٌ من أساليبِه، وقد ورد لفظُ الجَدَلِ والمحاوَرةِ في موضِعٍ واحدٍ من سُورةِ المُجادَلةِ في قولِه تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} [المجادلة: 1]، وقريبٌ من ذلك المناقَشةُ والمباحَثةُ.

فالمُجادَلةُ تتميَّزُ بمَلمَحِ الشِّدَّةِ، كما تقدَّمَ، والمحاوَرةُ تتميَّزُ بمَلمَحِ الهُدوءِ[4967].

[4963] ((شرح سنن أبي داود)).(93 /18)

[4964] ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص: 158).

[4965] ((معجم الفروق الدلالية)) (ص: 181).

[4966] ((المصباح المنير)) للفيومي (569/2).

[4967] ((معجم الفروق الدلالية)) (ص: 181).

المطلب الثالث: ذَمُّ الجِدالِ والمِراءِ والنَّهْيُ عنهما

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

- قال اللهُ تعالى: {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [البقرة: 197].

قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: وَلَا جِدَالَ في الْحَجِّ فيه قولانِ:

أحَدُهما: ولا مُجادَلَةَ في وَقتِ الحَجِّ وفي مَناسِكِه، وقد بيَّنه اللهُ أتمَّ بيانٍ، ووضَّحه أكمَلَ إيضاحٍ...

والقَولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالجِدالِ هاهنا: المخاصَمةُ)[4968].

وقيل: معنى ذلك: النَّهيُ عن أن يجادِلَ المُحرِمُ أحَدًا. وقال بعضُهم: نهى عن أن يجادِلَ صاحِبَه حتَّى يُغضِبَه[4969].

قال السَّعديُّ: (وقَولُه: فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ أي: يجبُ أن تعَظِّموا الإحرامَ بالحَجِّ -وخُصوصًا الواقِعَ في أشهُرِه- وتصونوه عن كُلِّ ما يُفسِدُه أو يَنقُصُه؛ من الرَّفَثِ، وهو الجِماعُ ومُقَدِّماتُه الفِعليَّةُ والقَوليَّةُ، خُصوصًا عِندَ النِّساءِ بحَضرتِهنَّ. والفُسوقِ، وهو: جميعُ المعاصي، ومنها محظوراتُ الإحرامِ.

والجِدالِ، وهو: المُراةُ والمُنازعةُ والمُخاصَمةُ؛ لكَونِها تثيرُ الشَّرَّ، وتوقِعُ العَداوةَ.

والمقصودُ من الحَجِّ: الذُّلُّ والانكِسارُ للهِ، والتَّقرُّبُ إليه بما أمكَن من القُرُباتِ، والتَّنزُّهُ عن مقارَفةِ السَّيِّئاتِ؛ فإنَّه بذلك يكونُ مبرورًا، والمبرورُ ليس له جزاءٌ إلَّا الجنَّةُ، وهذه الأشياءُ وإن كانت ممنوعةً في كُلِّ مكانٍ وزمانٍ، فإنَّها يتغَلَّظُ المنعُ عنها في الحَجِّ)[4970].

- وقال جلَّ شأنُه: {وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} [البقرة: 204].

قال العَينيُّ: (أي: شديدُ الجِدالِ والخُصومةِ، والعَداوةِ للمُسلِمين)[4971].

قال مقاتِلٌ: (يقولُ جَدَلًا بالباطِلِ)[4972].

وقال الطَّبَريُّ: (أي: ذو جِدالٍ إذا كلَّمك وراجَعَك)[4973].

- وقال جَلَّ في عُلاه: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} [غافر: 4].

(قال سَهلٌ: في القُرآنِ آيتانِ ما أشَدَّهما على من يجادِلُ في القرآنِ! وهما قولُه تعالى: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} [غافر: 4]، أي: يماري في آياتِ اللهِ، ويخاصِمُ بهوى نفسِه، وطَبْعِ جِبِلَّةِ عَقلِه، قال تعالى: {وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [البقرة: 197]، أي: لا مِراءَ في الحَجِّ. والثَّانيةُ: قَولُه: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [البقرة: 176])[4974].

[4968] ((تفسير ابن كثير)).(545 /1)

[4969] ((جامع البيان)).(4/141)

[4970] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 91).

[4971] ((عمدة القاري)) (18/114)

[4972] ((تفسير مقاتل)) (ص: 178).

[4973] ((جامع البيان)) (3/573).

- وقال سُبحانَه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} [الحج: 8].

قال الزَّجَّاجُ: (فالمعنى: ومِن النَّاسِ مَن يجادِلُ في اللهِ بغيرِ عِلمٍ مُتكَبِّرًا)[4975].

وقال البَيضاويُّ: (ومِن النَّاسِ مَن يجادِلُ في اللهِ في توحيدِه وصِفاتِه)[4976].

وقال الشَّوكانيُّ: (ومعنى اللَّفظِ: ومِنَ النَّاسِ فريقٌ يجادِلُ في اللهِ، فيَدخُلُ في ذلك كُلُّ مجادِلٍ في ذاتِ اللهِ، أو صفاتِه، أو شرائِعِه الواضِحةِ)[4977].

وقال السَّعديُّ: (ومِن النَّاسِ طائفةٌ وفِرقةٌ سَلَكوا طريقَ الضَّلالِ، وجَعَلوا يجادِلون بالباطلِ الحَقَّ، يريدون إحقاقَ الباطِلِ وإبطالَ الحَقِّ، والحالُ أنَّهم في غايةِ الجَهلِ، ما عِندَهم من العِلمِ شَيءٌ)[4978].

- وقال جَلَّ شأنُه: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت: 46].

قال السَّعديُّ: (ينهى تعالى عن مُجادَلةِ أهلِ الكتابِ، إذا كانت من غيرِ بصيرةٍ من المجادِلِ، أو بغيرِ قاعدةٍ مَرضيَّةٍ، وألَّا يجادِلوا إلَّا بالتي هي أحسَنُ، بحُسنِ خلُقٍ ولُطفٍ، ولِينِ كلامٍ، ودَعوةٍ إلى الحَقِّ وتحسينِه، ورَدٍّ عن الباطِلِ وتهجينِه، بأقرَبِ طريقٍ موصِلٍ لذلك، وألَّا يكونَ القَصدُ منها مجرَّدَ المُجادَلةِ والمغالَبةِ وحُبِّ العُلُوِّ، بل يكونُ القَصدُ بيانَ الحَقِّ وهدايةَ الخَلقِ، إلَّا مَن ظَلَمَ من أهلِ الكتابِ، بأن ظَهَر مِن قَصدِه وحالِه أنَّه لا إرادةَ له في الحَقِّ، وإنَّما يجادِلُ على وَجهِ المشاغَبةِ والمُغالبةِ، فهذا لا فائدةَ في جِدالِه؛ لأنَّ المقصودَ منها ضائِعٌ)[4979].

- وقال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [آل عمران: 66].

قال الطَّبَريُّ: (يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: ها أنتم هؤلاء القومُ الذين خاصَمْتُم وجادَلْتُم فيما لكم به عِلمٌ من أمرِ دينِكم الذي وجَدْتُموه في كُتُبِكم، وأتَتْكم به رُسُلُ اللهِ مِن عندِه، وفي غيرِ ذلك ممَّا أوتيتُموه، وثبتَت عندَكم صِحَّتُه، فلِمَ تحاجُّون؟ يقولُ: فلِمَ تجادِلون وتخاصِمون فيما ليس لكم به عِلمٌ)[4980].

وقال الشَّوكانيُّ: (وفي الآيةِ دليلٌ على مَنعِ الجِدالِ بالباطِلِ، بل ورَد التَّرغيبُ في تَركِ الجِدالِ من المُحِقِّ)[4981].

وقال السَّعديُّ: (وقد اشتَمَلت هذه الآياتُ على النَّهيِ عن المحاجَّةِ والمُجادَلةِ بغيرِ علمٍ، وأنَّ من تكلَّم بذلك فهو متكَلِّمٌ في أمرٍ لا يمكنُ منه، ولا يُسمَحُ له فيه)[4982].

[4974] ((تفسير التستري)) (1/19).

[4975] ((معاني القرآن وإعرابه)) (3/414).

[4976] ((أنوار التنزيل)) (4/215).

[4977] ((فتح القدير)) للشوكاني (519/3).

[4978] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 533).

[4979] المصدر السابق.

[4980] ((جامع البيان)) (483/5).

[4981] ((فتح القدير)) (1/401).

- قال تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [الكهف: 54].

قال ابنُ كثيرٍ: (يقولُ تعالى: ولقد بَيَّنَّا للنَّاسِ في هذا القرآنِ، ووضَّحْنا لهم الأمورَ وفصَّلْناها؛ كي لا يَضِلُّوا عن الحَقِّ، ويخرُجوا عن طريقِ الهُدى. ومع هذا البيانِ وهذا الفُرْقانِ، الإنسانُ كثيرُ المُجادَلةِ والمخاصَمةِ والمعارَضةِ للحَقِّ بالباطِلِ، إلَّا مَن هدى اللهُ وبَصَّرَه لطَريقِ النَّجاةِ)[4983].

و(سياقُ الآيةِ أنَّ الكُفَّارَ أكثَروا الجَدَلَ والخُصومةَ والمِراءَ لإدحاضِ الحَقِّ الذي أوضَحه اللهُ بما ضرَبه في هذا القُرآنِ من كُلِّ مَثَلٍ، ولكِنْ كونُ هذا هو ظاهِرَ القرآنِ وسَبَبَ النُّزولِ لا ينافي تفسيرَ الآيةِ الكريمةِ بظاهِرِ عُمومِها؛ لأنَّ العِبرةَ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَبِ)[4984].

وممَّا يدُلُّ على ذلك ما جاء عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طَرَقَه[4985] وفاطِمةَ بنتَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةً، فقال لهم: ألا تُصَلُّون؟! قال عَليٌّ: فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّما أنفُسُنا بيَدِ اللهِ، فإذا شاء أن يبعَثَنا بعَثَنا! فانصرَفَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ قُلتُ ذلك، ولم يرجِعْ إليَّ شَيئًا، ثمَّ سمِعتُه وهو مُدبِرٌ يَضرِبُ فَخِذَه ويقولُ: وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا!))[4986].

قال الشِّنقيطيُّ: (فإيرادُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الآيةَ على قَولِ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه "إنَّما أنفُسُنا بيَدِ اللهِ، فإذا شاء أن يبعَثَنا بعَثَنا" دليلٌ على عُمومِ الآيةِ الكريمةِ، وشُمولِها لكُلِّ خِصامٍ وجَدَلٍ، لكِنَّه قد دلَّت آياتٌ أُخَرُ على أنَّ من الجَدَلِ ما هو محمودٌ مأمورٌ به لإظهارِ الحَقِّ، كقَولِه تعالى: وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل: 125]، وقَولِه تعالى: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [العنكبوت: 46])[4987].

ب- مِنَ السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

- عن أبي أُمامةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانوا عليه، إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ. ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هذه الآيةَ: مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [الزخرف: 58]))[4988].

قال القاريُّ: (والمعنى: ما كان ضلالتُهم ووقوعُهم في الكُفرِ إلَّا بسَبَبِ الجِدالِ، وهو الخصومةُ بالباطِلِ مع نبيِّهم، وطَلَبُ المعجزةِ منه عنادًا أو جُحودًا، وقيل: مقابَلةُ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ، وقيل: المرادُ هنا العِنادُ، والمِراءُ في القرآنِ ضَربُ بعضِه ببَعضٍ؛

[4982] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 134).

[4983] ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير.(171 /5)

[4984] ((أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)) للشنقيطي.(302 /3)

[4985] طَرَقَه: أي: أتاه ليلًا، وكُلُّ من أتاك ليلًا فقد طرَقَك. يُنظَر: ((كشف المشكل من حديثِ الصحيحين)) (1/ 176).

[4986] رواه البخاري (7465) واللفظ له، ومسلم (775). قال ابنُ تَيميَّةَ: (هذا الحديثُ نصٌّ في ذَمِّ مَن عارض الأمرَ بالقَدَرِ؛ فإنَّ قولَه: "إنَّما أنفُسُنا بيَدِ اللهِ" إلى آخِرِه، استنادٌ إلى القَدَرِ في تركِ امتثالِ الأمرِ، وهي في نفسِها كَلِمةُ حَقٍّ، لكِنْ لا تَصلُحُ لمعارضةِ الأمرِ، بل معارَضةُ الأمرِ بها من بابِ الجَدَلِ المذمومِ الذي قال اللهُ فيه: وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا). ((مجموع الفتاوى)) (15/229).

[4987] ((أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)) (302 /3)

[4988] أخرجه الترمذي (3253) واللفظ له، وابن ماجه (48)، وأحمد (22164) باختلافٍ يسيرٍ. حسَّنه ابنُ القطان في ((الوهم والإيهام)) (654/5)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3253)، وشعيب الأرناؤوط بطُرُقِه وشواهِدِه في تخريج ((مسند أحمد)) (22164).

لترويجِ مذاهِبِهم، وآراءِ مشايخِهم، من غيرِ أن يكونَ لهم نُصرةٌ على ما هو الحَقُّ، وذلك مُحَرَّمٌ، لا المناظَرةُ لغَرَضٍ صَحيحٍ، كإظهارِ الحقِّ؛ فإنَّه فَرضُ كِفايةٍ)[4989].

وقال المُناويُّ: (أي: الجِدالُ المؤَدِّي إلى مِراءٍ ووقوعٍ في شَكٍّ، أمَّا التَّنازُعُ في الأحكامِ فجائِزٌ إجماعًا، إنَّما المحذورُ جِدالٌ لا يرجِعُ إلى عِلمٍ، ولا يُقضى فيه بضِرسٍ قاطِعٍ[4990]، وليس فيه اتِّباعٌ للبُرهانِ، ولا تأوُّلٌ على النَّصَفةِ، بل يَخبِطُ خَبْطَ عَشواءَ غيرَ فارقٍ بَيْنَ حَقٍّ وباطِلٍ)[4991].

وقال البَيضاويُّ: (المرادُ بهذا الجَدَلِ العنادُ، والمِراءُ، والتَّعصُّبُ)[4992].

- وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أبغَضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألَدُّ الخَصِمُ))[4993].

قال الصَّنعانيُّ: (أي: الشَّديدُ المِراءِ، أي: الذي يَحُجُّ صاحِبَه)[4994].

وقال المُهَلَّبُ: (لمَّا كان اللَّدَدُ حامِلًا على المَطْلِ بالحُقوقِ، والتَّعريجِ بها عن وجوهِها، واللَّيِّ بها عن مُستَحقِّيها، وظُلمِ أهلِها؛ استَحَقَّ فاعِلُ ذلك بِغْضةَ اللهِ وأليمَ عِقابِه)[4995].

وقال النَّوويُّ: (والألَدُّ: شديدُ الخُصومةِ، مأخوذٌ من لديدَيِ الوادي، وهما جانباه؛ لأنَّه كلَّما احتُجَّ عليه بحُجَّةٍ أخَذ في جانِبٍ آخَرَ، وأمَّا الخَصِمُ فهو الحاذِقُ بالخُصومةِ، والمذمومُ هو الخصومةُ بالباطِلِ في رَفعِ حَقٍّ، أو إثباتِ باطِلٍ)[4996].

- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المِراءُ في القُرآنِ كُفْرٌ))[4997].

قال البَيضاويُّ: (المرادُ بالمِراءِ فيه التَّدارُؤُ، وهو أن يرومَ تكذيبَ القرآنِ بالقُرآنِ؛ ليَدفَعَ بعضَه ببَعضٍ، فيَطرُقَ إليه قَدحًا وطَعنًا)[4998].

وقال الخَطَّابيُّ: (اختلف النَّاسُ في تأويلِه؛ فقال بعضُهم: معنى المِراءِ هنا الشَّكُّ فيه، كقولِه: فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ [هود: 17] ، أي: في شَكٍّ... وتأوَّله بعضُهم على المِراءِ في قرآنِه دونَ تأويلِه ومعانيه، مِثلُ أن يقولَ قائِلٌ: هذا قُرآنٌ قد أنزله اللهُ تبارك وتعالى، ويقولَ الآخَرُ: لم يُنزِلِ اللهُ هكذا، فيَكفُرَ به من أنكَرَه، وقد أنزل سُبحانَه كتابَه على سَبعةِ أحرُفٍ كُلُّها شافٍ كافٍ، فنهاهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن إنكارِ القراءةِ التي يَسمَعُ بعضُهم بعضًا يقرَؤُها، وتوَعَّدهم بالكُفرِ عليها لينتَهوا عن المِراءِ فيه والتَّكذيبِ به؛ إذ كان القرآنُ مُنَزَّلًا على سبعةِ أحرُفٍ، وكُلُّها قرآنٌ مُنزَّلٌ يجوزُ قراءتُه، ويجِبُ علينا الإيمانُ به.

[4989] ((مرقاة المفاتيح)) (1/265).

[4990] أي: ماضٍ في الأمورِ نافِذُ العزيمةِ. يُقالُ: فُلانٌ ضِرسٌ من الأضراسِ، أي: داهيةٌ. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير.(84 /3)

[4991] ((فيض القدير)) (3/354).

[4992] ((قوت المغتذي)) للسيوطي (2/801).

[4993] رواه البخاري (2457)، ومسلم (2668).

[4994] ((سبل السلام)) (2/674).

[4995] ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (259/8).

[4996] ((شرح النووي على مسلم)) (16/219).

[4997] أخرجه من طُرُقٍ: أبو داود (4603)، وأحمد (9479) واللفظ لها، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (8093) مطوَّلًا. صحَّحه ابن حبان في ((صحيحه)) (1464)، والحاكم على شرط مسلم في ((المستدرك)) (2/243)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4603)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (7848)، وحسَّنه ابنُ القيم في ((تهذيب السنن)) (12/353).

[4998] ((مرقاة المفاتيح)) لملا علي القاري (311/1).

وقال بعضُهم: إنَّما جاء هذا في الجِدالِ بالقُرآنِ في الآيِ التي فيها ذِكرُ القَدَرِ والوعيدِ، وما كان في معناهما، على مذهَبِ أهلِ الكلامِ والجَدَلِ، وعلى معنى ما يجري من الخوضِ بَيْنَهم فيها دونَ ما كان منها في الأحكامِ وأبوابِ التَّحليلِ والتَّحريمِ والحَظرِ والإباحةِ؛ فإنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد تنازعوها فيما بَيْنَهم، وتحاجُّوا بها عِندَ اختلافِهم في الأحكامِ، ولم يتحَرَّجوا عن التَّناظُرِ بها وفيها، وقد قال سُبحانَه: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ [النساء: 59] ؛ فعُلِم أنَّ النَّهيَ منصَرِفٌ إلى غيرِ هذا الوَجهِ. واللهُ أعلَمُ)[4999].

- وعن أبي أُمامةَ الباهِليِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنَّةِ لِمَن تَرَك المِراءَ وإن كان مُحِقًّا، وببَيتٍ في وَسَطِ الجنَّةِ لِمَن تَرَك الكَذِبَ وإن كان مازِحًا، وببَيتٍ في أعلى الجنَّةِ لِمَن حَسُنَ خُلُقُه))[5000].

قال السِّنديُّ: (ومَن تَرَك المِراءَ، أي الجِدالَ؛ خوفًا من أن يقَعَ صاحِبُه في اللَّجاجِ الموقِعِ في الباطِلِ)[5001].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: (لا تمارِ أخاك؛ فإنَّ المِراءَ لا تُفهَمُ حِكمتُه، ولا تُؤمَنُ غائِلَتُه[5002] [5003].

- وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (مِن استحقاقِ حقيقةِ الإيمانِ تَركُ المِراءِ والمَرءُ صادِقٌ)[5004].

- وقال أبو الدَّرداءِ: (كفى بك إثمًا ألَّا تزالَ مُماريًا!)[5005].

- وقال ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: (لن يصيبَ رَجُلٌ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يترُكَ المِراءَ، وهو يعلَمُ أنَّه صادِقٌ، ويَترُكَ الكَذِبَ في المُزاحةِ)[5006].

- ورُوِيَ عن معاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: (إذا أحبَبْتَ أخًا فلا تُمارِه)[5007].

- وقال مالِكُ بنُ أنَسٍ: (المِراءُ في العِلمِ يُقَسِّي القُلوبَ، ويُورِثُ الضَّغائِنَ)[5008].

- وقال أيضًا: (كلَّما جاءنا رجُلٌ أجدَلُ مِن رَجُلٍ، تَرَكْنا ما نَزَل به جبريلُ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لجَدَلِه!)[5009].

[4999] ((معالم السنن)) (4/ 297).

[5000] رواه أبو داود (4800)، والطبراني (8/117) (7488)، والبيهقي (21708). صحَّحه النووي في ((رياض الصالحين)) (ص: 216)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4800)، وحسَّن إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (4/50)، وابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (810)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (4800).

[5001] ((حاشية السندي على سنن ابن ماجه)) (ص: 26).

[5002] الغائلةُ: الدَّاهيةُ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور (11/ 507).

[5003] ((جامع الأصول)) لابن الأثير (2/753) (1262).

[5004] رواه هناد في ((الزهد)) (2/557).

[5005] رواه الدارمي (293) مطوَّلًا، وابن أبي الدنيا في ((الصمت)).(130)

[5006] رواه عبد اللهِ بن أحمد في ((الزهد)) (2134).

[5007] رواه البخاري في ((الأدب المفرد)) (545)، وأبو داود في ((الزهد)) (187). صحَّح إسنادَه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (424).

[5008] رواه ابنُ عساكر في ((تاريخ دمشق)).(61/205)

[5009] ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) للَّالكائي (1/ 163)، ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (1/ 554).

- وقال أيضًا: (ليس هذا الجَدَلُ من الدِّينِ بشَيءٍ)[5010].

(وكان يقولُ: المِراءُ والجِدالُ في العِلمِ يَذهَبُ بنورِ العِلمِ من قَلبِ العبدِ. وقيل له: الرَّجُلُ له عِلمٌ بالسُّنَّةِ أيجادِلُ عنها؟ قال: لا، ولكِنْ ليُخبِرْ بالسُّنَّةِ، فإن قُبِل منه وإلَّا سَكَت. قال ابنُ وَهبٍ: وسمِعتُ مالِكًا يقولُ إذا جاءه أحَدٌ من أهلِ الأهواءِ: أمَّا أنا فعلى بَيِّنَةٍ من رَبِّي، وأمَّا أنت فشاكٌّ، فاذهَبْ إلى شاكٍّ مِثْلِك فخاصِمْه، ثمَّ قرأ: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [يوسف: 108])[5011].

- وقال ابنُ أبي ليلى: (لا تمارِ أخاك؛ فإنَّه لا يأتي بخيرٍ)[5012].

- وقال أيضًا: (لا أماري أخي؛ إمَّا أن أُغضِبَه، وإمَّا أُكَذِّبَه)[5013].

وفي لفظٍ آخَرَ: (ما ماريتُ أخي أبدًا؛ لأنِّي إن ماريتُه إمَّا أن أُكَذِّبَه، وإمَّا أن أُغضِبَه)[5014].

- وقال بلالُ بنُ سَعدٍ: (إذا رأيتَ الرَّجُلَ لَجوجًا مماريًا مُعجَبًا برأيِه فقد تمَّت خَسارتُه)[5015].

- وقال مُسلِمُ بنُ يَسارٍ: (إيَّاكم والمِراءَ؛ فإنَّها ساعةُ جَهلِ العالِمِ، وبها يبتغي الشَّيطانُ زلَّتَه)[5016].

- وقال عَبدوسُ بنُ مالِكٍ العَطَّارُ: (سَمِعتُ أبا عبدِ اللهِ أحمَدَ بنَ حَنبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ: أصولُ السُّنَّةِ عِندَنا: التَّمسُّكُ بما كان عليه أصحابُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والاقتداءُ بهم، وتَركُ البِدَعِ -وكُلُّ بدعةٍ فهي ضلالةٌ-، وتَركُ الخُصوماتِ والجُلوسِ مع أصحابِ الأهواءِ، وتَركُ المِراءِ والجِدالِ والخُصوماتِ في الدِّينِ... إلى أن قال: لا تخاصِمْ أحدًا ولا تناظِرْه، ولا تتعَلَّمِ الجِدالَ؛ فإنَّ الكلامَ في القَدَرِ والرُّؤيةِ والقرآنِ وغيرِها من السُّنَنِ مكروهٌ منهيٌّ عنه، ولا يكونُ صاحِبُه -إن أصاب بكلامِه السُّنَّةَ- من أهلِ السُّنَّةِ حتَّى يَدَعَ الجَدَلَ)[5017].

- وقال محمَّدُ بنُ الحُسَينِ الآجُرِّيُّ: (من صفةِ الجاهِلِ: الجَدَلُ، والمِراءُ، والمُغالَبةُ)[5018].

- وعن الحَسَنِ قال: (ما رأينا فقيهًا يُماري)[5019].

- وعنه أيضًا: (المُؤمِنُ يُداري ولا يُماري، يَنشُرُ حِكمةَ اللهِ، فإنْ قُبِلت حَمِدَ اللهَ، وإن رُدَّت حَمِدَ اللهَ)[5020].

- وعن زيادِ بنِ حُدَيرٍ قال: (قال لي عُمَرُ: هل تَعرِفُ ما يَهدِمُ الإسلامَ؟! قال: قُلتُ: لا. قال: يَهدِمُه زَلَّةُ العالِمِ، وجِدالُ المُنافِقِ بالكِتابِ، وحُكمُ الأئمَّةِ المُضِلِّين)[5021].

[5010] ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (1/201).

[5011] ((الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب)) لابن فرحون (1/ 115). ويُنظَر: ((ترتيب المدارك)) للقاضي عياض (2/ 39).

[5012] رواه هناد في ((الزهد)) (2/557).

[5013] المصدر السابق.

[5014] ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (18/1).

[5015] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (5/228)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (8435)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (10/502).

[5016] رواه الدارمي (396)، وابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (125)، والآجُري في ((الشريعة)) (112).

[5017] رواه اللَّالَكائي في ((شرح أصول الاعتقاد)) (317).

[5018] ((أخلاق العلماء)) للآجري (ص: 63).

[5019] المصدر السابق (ص: 58).

[5020] المصدر السابق.

- وقال عبدُ اللهِ بنُ الحَسَنِ: (المِراءُ رائِدُ الغَضَبِ، فأخزى اللهُ عقلًا يأتيك بالغَضَبِ!)[5022].

- وقال الأصمَعيُّ: (سَمِعتُ أعرابيًّا يقولُ: مَن لاحى الرِّجالَ وماراهم قَلَّت كرامتُه، ومَن أكثَرَ مِن شيءٍ عُرِف به)[5023].

- وقال عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ: (قد أفلح مَن عُصِم من المِراءِ والغَضَبِ والطَّمَعِ)[5024].

- وقال أيضًا: (مَن جَعَل دينَه غَرَضًا للخُصوماتِ أكثَرَ التَّنقُّلَ)[5025].

- وقال الأوزاعيُّ: (إذا أراد اللهُ بقومٍ شَرًّا ألزَمَهم الجَدَلَ، ومنَعَهم العَمَلَ)[5026].

- وقال يحيى بنُ أبي كَثيرٍ: (سِتٌّ منَ كُنَّ فيه فقد استكمَلَ الإيمانَ: قتالُ أعداءِ اللهِ بالسَّيفِ، والصِّيامُ في الصَّيفِ، وإسباغُ الوُضوءِ في اليومِ الشَّاتي، والتَّبكيرُ بالصَّلاةِ في يومِ الغَيمِ، وتَركُ الجِدالِ والمِراءِ وأنت تَعلَمُ أنَّك صادِقٌ، والصَّبرُ على المصيبةِ)[5027].

- وقال سُفيانُ الثَّوريُّ فيما أوصى به عليَّ بنَ الحَسَنِ السُّلَميَّ: (عليك بالصِّدقِ في المواطِنِ كُلِّها، وإيَّاك والكَذِبَ والخيانةَ ومجالَسةَ أصحابِها؛ فإنَّها وِزرٌ كُلُّه... وإيَّاك والخُصوماتِ والجِدالَ والمِراءَ؛ فإنَّك تصيرُ ظَلومًا خوَّانًا أثيمًا، وعليك بالصَّبرِ في المواطِنِ كُلِّها؛ فإنَّ الصَّبرَ يجرُّ إلى البِرِّ، والبِرَّ يَجُرُّ إلى الجنَّةِ، وإيَّاك والحِدَّةَ والغَضَبَ؛ فإنَّهما يجرَّانِ إلى الفُجورِ، والفُجورُ يجُرُّ إلى النَّارِ، ولا تُمارِيَنَّ عالِمًا فيَمقُتَك)[5028].

- وقال معروفٌ الكَرْخيُّ: (إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا فتح عليه بابَ العَمَلِ وأغلق عنه بابَ الجَدَلِ، وإذا أراد بعبدٍ شَرًّا أغلق عليه بابَ العَمَلِ وفتَح عليه بابَ الجَدَلِ)[5029].

- وقال ذو النُّونِ المِصريُّ: (ثلاثةٌ من أعمالِ الكِياسةِ: تَركُ المِراءِ والجِدالِ في الدِّينِ، والإقبالُ على العَمَلِ بيسيرِ العِلمِ، والاشتِغالُ بإصلاحِ عُيوبِ النَّفسِ غافِلًا عن عيوبِ النَّاسِ)[5030].

- وقال أبو قِلابةَ: (لا تجالِسوا أهلَ الأهواءِ ولا تجادِلوهم؛ فإنِّي لا آمَنُ أن يَغمِسوكم في ضلالتِهم، أو يَلبِسوا عليكم ما كنتُم تَعرِفون)[5031].

- وقال ابنُ بطَّةَ: (اعلَمْ -يا أخي- أنِّي لم أرَ الجِدالَ والمناقَضةَ، والخِلافَ والمُماحَلةَ، والأهواءَ المختَلِفةَ والآراءَ المُخترَعةَ: من شرائِعِ النُّبَلاءِ، ولا من أخلاقِ العُقَلاءِ، ولا من مذاهِبِ أهلِ المروءةِ، ولا ممَّا حُكيَ لنا عن صالحي هذه الأُمَّةِ، ولا من

[5021] رواه الدارمي (214). صحَّح إسنادَه الألباني في تخريج ((مشكاة المصابيح)) (259)، وذكر ابنُ كثير في ((مسند الفاروق)) (536/2) أنَّه رُوِي من طُرُقٍ جيِّدةٍ.

[5022] ((البيان والتبيين)) للجاحظ (1/315).

[5023] ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (18/1).

[5024] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (5/290)

[5025] رواه ابنُ سعد في ((الطبقات الكبير)) (7/ 362).

[5026] ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (1/202).

[5027] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (3/ 68).

[5028] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (7/ 82، 83).

[5029] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (8/ 361)، ((شعب الإيمان)) للبيهقي (3/ 296).

[5030] ((شعب الإيمان)) للبيهقي (13/ 505)، ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (17/ 424).

[5031] ((سنن الدارمي)) (405)، ((الشريعة)) للآجري (114، 2044)، ((شعب الإيمان)) للبيهقي (12/ 56).

سِيَرِ السَّلَفِ، ولا من شيمةِ المَرضيِّين من الخَلَفِ، وإنَّما هو لهوٌ يُتعَلَّمُ، ودرايةٌ يُتفَكَّهُ بها، ولذَّةٌ يُستراحُ إليها، ومهارَشةُ العُقولِ، وتذريبُ اللِّسانِ بمَحقِ الأديانِ، وضراوةٌ على التَّغالُبِ، واستمتاعٌ بظُهورِ حُجَّةِ المخاصِمِ، وقَصدٌ إلى قَهرِ المناظِرِ والمغالَطةِ في القياسِ، وبَهتٌ في المقاوَلةِ، وتكذيبُ الآثارِ، وتسفيهٌ لأحلامِ الأبرارِ، ومُكابَرةٌ لنَصِّ التَّنزيلِ، وتهاوُنٌ بما قاله الرَّسولُ، ونَقضٌ لعُقدةِ الإجماعِ، وتشتيتُ الألفةِ، وتفريقٌ لأهلِ المِلَّةِ، وشُكوكٌ تدخُلُ على الأمَّةِ، وضراوةُ السَّلاطةِ، وتوغيرٌ للقُلوبِ، وتوليدٌ للشَّحناءِ في النُّفوسِ. عَصَمنا اللهُ وإيَّاكم من ذلك، وأعاذنا من مجالَسةِ أهلِه)[5032].

- وقال لُقمانُ: (يا بُنَيَّ، مَن لا يَملِكْ لِسانَه يَندَمْ، ومَن يُكثِرِ المِراءَ يُشتَمْ، ومَن يصاحِبْ صاحِبَ السُّوءِ لا يَسلَمْ، ومن يُصاحِبِ الصَّالِحَ يَغنَمْ)[5033].

- وقال أيضًا: (لا تُمارِيَنَّ حكيمًا، ولا تُجادِلَنَّ لَجوجًا[5034]، ولا تُعاشِرَنَّ ظَلومًا، ولا تُصاحِبَنَّ مُتَّهَمًا)[5035].

- وقال أيضًا: (يا بُنَيَّ، مَن قَصَّر في الخُصومةِ خُصِمَ، ومَن بالغ فيها أَثِمَ؛ فقُلِ الحَقَّ ولو على نفسِك، فلا تُبالِ مَن غَضِبَ)[5036].

- وعن يُونُسَ قال: كتَبَ إليَّ ميمونُ بنُ مِهرانَ: (إيَّاك والخصومةَ والجِدالَ في الدِّينِ، ولا تجادِلَنَّ عالِمًا ولا جاهِلًا؛ أمَّا العالِمُ فإنَّه يَخزُنُ عنك عِلمَه، ولا يُبالي ما صنَعْتَ، وأمَّا الجاهِلُ فإنَّه يُخَشِّنُ بصَدرِك[5037]، ولا يُطيعُك)[5038].

المطلب الرابع: آثارُ الجِدالِ والمِراءِ

1- الجِدالُ والمِراءُ غيرُ المحمودِ من فُضولِ الكلامِ الذي يُعابُ عليه صاحِبُه.

2- قد يؤدِّي الجِدالُ الباطِلُ إلى تكفيرِ الآخَرينَ أو تفسيقِهم.

3- يدعو إلى التَّشَفِّي من الآخَرينَ.

4- يوقِدُ العداوةَ، ويُورِثُ الشِّقاقَ بَيْنَ أفرادِ المجتَمَعِ.

5- يقودُ صاحِبَه إلى الكَذِبِ.

6- يؤدِّي إلى التَّطاوُلِ والتَّراشُقِ بالألسِنةِ.

7- يؤدِّي بالمجادِلِ إلى إنكارِ الحَقِّ ورَدِّه.

[5032] ((الإبانة الكبرى))531 /2) ، 532).

[5033] ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (ص: 295).

[5034] اللَّجوجُ: هو الذي يتمادى في الخُصومةِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي.

[5035] ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (1/18).

[5036] المصدر السابق.

[5037] يُخَشِّنُ بصَدرِك: يُوغِرُه. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: 1193).

[5038] رواه الدارمي (302).

المطلب الخامس: أقسامُ الجِدالِ

ينقَسِمُ الجِدالُ إلى قِسمَينِ:

1- الجِدالُ المحمودُ:

وهو الذي يكونُ الغَرَضُ منه تقريرَ الحَقِّ وإظهارَه بإقامةِ الأدِلَّةِ والبراهينِ على صِدقِه، وقد جاءت نصوصٌ تأمُرُ بهذا النَّوعِ من الجِدالِ، وقد أمَر اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا الجِدالِ في قَولِه تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125]، وقال جلَّ في عُلاه: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [العنكبوت: 46].

وقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((جاهِدوا المُشرِكين بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم))[5039].

وقد حصَل هذا النَّوعُ من الجِدالِ بَيْنَ عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما وبينَ الخوارجِ زَمَنَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ بأمرِ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، فأقام عليهم الحُجَّةَ وأفحَمَهم، فرَجَع عن هذه البِدعةِ خَلقٌ كثيرٌ كما سيأتي. وكذلك مُجادَلةُ أحمدَ بنِ حَنبَلٍ للمُعتَزِلةِ[5040]، ومجادَلاتُ ابنِ تَيميَّةَ لأهلِ البِدَعِ[5041].

2- الجِدالُ المذمومُ:

هو الجِدالُ الذي يكونُ غَرَضُه تقريرَ الباطِلِ بعدَ ظُهورِ الحَقِّ، وطَلَبَ المالِ والجاهِ، وقد جاءت الكثيرُ من النُّصوصِ والآثارِ التي حذَّرت من هذا النَّوعِ من الجِدالِ ونهَت عنه، ومن هذه النُّصوصِ:

- قَولُه تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: 3].
- وقَولُه تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} [الحج: 8].
- وقَولُه سُبحانَه: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ} [غافر: 4].
- وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((المِراءُ في القُرآنِ كُفرٌ))[5042].
- وقال ابنُ عُثَيمين: (المُجادَلةُ والمناظَرةُ نوعانِ:

النَّوعُ الأوَّلُ: مُجادَلةُ مُماراةٍ: يماري بذلك السُّفَهاءَ، ويجاري العُلَماءَ، ويريدُ أن ينتَصِرَ قَولُه؛ فهذه مذمومةٌ.

النَّوعُ الثَّاني: مُجادَلةٌ لإثباتِ الحَقِّ وإن كان عليه؛ فهذه محمودةٌ مأمورٌ بها)[5043].

[5039] رواه أبو داود (2504)، وأحمد (12246) واللفظ لهما، والنسائي (3096) باختلافٍ يسيرٍ من حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (4708)، وابن حزم في ((أصول الأحكام)) (1/27)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (114).

[5040] ((البداية والنهاية)) لابن كثير (365/10).

[5041] ومنها: الرَّدُّ على الإخنائيِّ. يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) (27/214-255).

[5042] أخرجه من طُرُقٍ: أبو داود (4603)، وأحمد (9479) واللفظ لهما، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (8093) مطوَّلًا من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (1464)، والحاكم على شرط مسلم في ((المستدرك)) (2/243)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4603)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (7848)، وحسَّنه ابنُ القَيِّم في ((تهذيب السنن)) (12/353).

- وقال الكَرْمانيُّ: (الْجِدَالُ هو المخاصَمةُ والمُدافَعةُ، ومنه قبيحٌ وحَسَنٌ؛ فما كان لتبيينِ الحقِّ من الفَرائِضِ مثلًا فهو أحسَنُ، وما كان له من غيرِ الفرائضِ فهو حَسَنٌ، وما كان لغيرِه فهو قبيحٌ، أو هو تابعٌ للطَّريقِ، فباعتبارِه يتنوَّعُ أنواعًا، وهذا هو الظَّاهِرُ)[5044].

- وقال الكَرْمانيُّ أيضًا: (الجِدالُ: هو الخِصامُ، ومنه قبيحٌ وحَسَنٌ وأحسَنُ؛ فما كان للفرائِضِ فهو أحسَنُ، وما كان للمُستحَبَّاتِ فهو حَسَنٌ، وما كان لغيرِ ذلك فهو قبيحٌ)[5045].

- وقال أبو الوليدِ الباجيُّ: (كُلُّ مَن ذَمَّ الجَدَلَ من السَّلَفِ إنَّما ذَمَّه على أحَدِ وَجهَينِ:

إمَّا أن يَذُمَّ جَدَلَ مَن نَصَر باطِلًا ودعا إلى ضلالةٍ، أو جَدَلَ مَن لا عِلمَ له بذلك، فلا يحِلُّ أن يتعَرَّضَ له ولا يناظِرَ أهلَ البِدَعِ لأحَدِ أمرَينِ ممنوعَينِ، وربَّما اجتمعا له:

أحدُهما: أنَّه يُظهِرُ باطِلَهم على حَقِّه.

والثَّاني: أنَّه ربَّما وقعَت في نفسِه شُبهةٌ ليس عندَه من العِلمِ ما يَرُدُّها به، فتُضِلُّه)[5046].

المطلب السادس: دَرَجاتُ الجِدالِ المذمومِ

الجِدالُ المذمومُ في بعضِ الأحوالِ، وذلك فيما إذا استُعمِلَ عِندَ عَدَمِ الحاجةِ إليه، فيكونُ حينَئذٍ شاغلًا عن الدَّعوةِ ومؤدِّيًا - في الأكثَرِ - إلى الفسادِ والفِتنةِ.

الجِدالُ لمجَرَّدِ الغَلَبةِ والظُّهورِ، وهو شَرٌّ كُلُّه.

الجِدالُ لمدافعةِ الحَقِّ بالباطلِ، وهو أشدُّ أنواعِ الجِدالِ شَرًّا[5047].

المطلب السابع: آدابُ الجِدالِ المحمودِ

هناك جملةٌ من الآدابِ ينبغي لمن أراد الجِدالَ المحمودَ أن يتحَلَّى بها، ومنها:

1- النِّيَّةُ الصَّادِقةُ في نُصرةِ الحَقِّ، والدَّعوةِ إلى دينِ اللهِ تعالى، وتَركُ الرِّياءِ والسُّمعةِ، أو طَلَبِ الجاهِ والرِّفعةِ.

2- العِلمُ الصَّحيحُ المستفادُ من كتابِ اللهِ تعالى، ومِن سُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما كان عليه سَلَفُ هذه الأمَّةِ الصَّالحُ.

3- ردُّ الاختلافِ إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه.

4- تقديمُ النَّقلِ ونُصوصِه على العَقلِ وظُنونِه.

[5043] ((العلم)) (ص: 164).

[5044] ((الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري)) (25/ 74).

[5045] قال الحافظُ تعليقًا على كلامِه: (ويلزَمُ على الأوَّلِ أن يكونَ في المباحِ قبيحًا، وفاته تنويعُ القبيحِ إلى أقبَحَ، وهو ما كان في الحرامِ). ((فتح الباري)) (314/13).

[5046] ((سنن الصالحين وسنن العابدين)) (ص: 484، 485).

[5047] ((تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)) (ص: 326).

5- التَّحَلِّي بالأخلاقِ الإسلاميَّةِ العاليةِ أثناءَ الجِدالِ؛ من القَولِ المهَذَّبِ، واحترامِ الآخَرينَ، وعدَمِ الطَّعنِ فيهم، أو لمزِهم والاستهزاءِ بهم.

6- أن تكونَ غايتُك إظهارَ الحَقِّ، وإقناعَ النَّاسِ به، مع الابتعادِ عن الباطِلِ أو تلبيسِه على النَّاسِ.

7- تقديمُ الأهَمِّ فالأهَمِّ مِن الحُجَجِ والبَيِّناتِ، والأدِلَّةِ المُفحِمةِ للخَصمِ، بقَصدِ الإقناعِ وإظهارِ وَجهِ الصَّوابِ.

8- مجانَبةُ إطالةِ الكلامِ، وغرابةِ الألفاظِ، أو خروجِها عن صُلبِ الموضوعِ.

9- عدَمُ الالتِزامِ في أثناءِ المناظَرةِ بضِدِّ الدَّعوى التي تحاوِلُ إثباتَها، وإلَّا فَشِلْتَ.

10- عَدَمُ التَّعارُضِ بَيْنَ الأدِلَّةِ، أو التَّناقُضِ في البَيِّناتِ والحُجَجِ.

11- عَدَمُ الطَّعنِ في أدِلَّةِ الخَصمِ إلَّا ضِمنَ الأمورِ المبنيَّةِ على المنهَجِ الصَّحيحِ.

12- إعلانُ التَّسليمِ بالقضايا المتَّفَقِ عليها، وقَبولُ نتائِجِ المناظَرةِ.

13- الامتناعُ عن المُجادَلةِ إذا كانت تؤدِّي إلى فِتنةٍ وفسادٍ، أو ضَرَرٍ يَلحَقُ بالدَّعوةِ.

14- أهمِّيَّةُ مُراعاةِ الظُّروفِ المحيطةِ بالمناظَرةِ؛ من حيثُ الأشخاصُ، والموضوعُ، والزَّمانُ، والمكانُ[5048].

المطلب الثامن: نماذِجُ من الجِدالِ المحمودِ

1- مُجادَلةُ نوحٍ عليه السَّلامُ قومَه في دعوتِهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه، وعَدَمِ الإشراكِ به:

قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [هود: 25-33].

2- مُجادَلةُ إبراهيمَ لأبيه وقَومِه لإثباتِ الحَقِّ، وإظهارِ بُطلانِ الآلهةِ التي يَعبُدونها من دونِ اللهِ، وأنَّها لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ؛ قال الله تعالى:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى

[5048] يُنظَر: ((وسائل الدعوة)) لعبد الرحيم المغذوي (98، 99).

الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: 74-83].

3- المُجادَلةُ والمُناظَرةُ التي دارت بَيْنَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ والنُّمْرودِ حينَما ادَّعى النُّمْرودُ الرُّبوبيَّةَ، والتي انتصر فيها إبراهيمُ الخليلُ على عَدُوِّ اللهِ نُمْرودَ:

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 258] .

4- المُجادَلةُ والمناظَرةُ التي دارت بَيْنَ شُعَيبٍ وقومِه عندما دعاهم لعبادةِ اللهِ وَحدَه، والابتعادِ عن الكُفرِ، وعَدَمِ تطفيفِ المكيالِ والميزانِ، وأكلِ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ:

قال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ} [هود: 84-93].

ب- مِنَ السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

والأمثِلةُ من السُّنَّةِ على الجِدالِ المحمودِ كثيرةٌ، ونذكُرُ منها على سبيلِ المثالِ:

1- المُجادَلةُ التي دارت بَيْنَ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبَينَه وبَينَ أبي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، في صُلحِ الحُدَيبيَةِ:

فعن شَقيقِ بنِ سَلَمةَ قال: ((قام سَهلُ بنُ حُنَيفٍ يومَ صِفِّينَ، فقال: أيُّها النَّاسُ، اتَّهِموا أنفُسَكم! لقد كُنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الحُدَيبيَةِ، ولو نرى قتالًا لقاتَلْنا، وذلك في الصُّلحِ الذي كان بَيْنَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبَينَ المُشرِكين، فجاء عُمَرُ بنُ الخطَّابِ، فأتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رسولَ اللهِ، ألَسْنا على حَقٍّ وهم على باطِلٍ؟ قال: بلى، قال: أليس قَتْلانا في الجنَّةِ وقَتْلاهم في النَّارِ؟ قال: بلى. قال: ففيمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في ديننا[5049]، ونرجِعُ ولَمَّا يحكُمِ اللهُ بَينَنا وبَيْنَهم؟! فقال يا ابنَ الخطَّابِ، إنِّي رسولُ اللهِ، ولن يُضَيِّعَني اللهُ أبدًا! قال: فانطَلَق عُمَرُ فلم يصبِرْ متغَيِّظًا، فأتى أبا بكرٍ فقال: يا أبا بَكرٍ، ألَسْنا على حَقٍّ وهم على باطِلٍ؟ قال: بلى، قال: أليس قَتْلانا في الجنَّةِ وقَتْلاهم في النَّارِ؟ قال: بلى. قال: فعلامَ نُعطي الدَّنيَّةَ في ديننا، ونرجِعُ ولَمَّا يحكُمِ اللهُ بَينَنا وبَيْنَهم؟! فقال: يا ابنَ الخطَّابِ، إنَّه رسولُ اللهِ ولن يُضَيِّعَه اللهُ أبَدًا! قال: فنَزَل القرآنُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالفتحِ. فأرسَلَ إلى عُمَرَ فأقرأه إيَّاه. فقال: يا رَسولَ اللهِ، أو فَتحٌ هو؟ قال: نعَمْ، فطابت نفسُه ورَجَع))[5050].

2- الجِدالُ الذي دار بَيْنَ سَعدِ بنِ مُعاذٍ وسَعدِ بنِ عُبادةَ رَضِيَ اللهُ عنهما وبَينَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوةِ الأحزابِ:

عن عاصِمِ بنِ عُمَرَ بنِ قتادةَ: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعَث إلى عُيَينةَ بنِ حِصنٍ والحارِثِ بنِ عَوفٍ، وهما قائِدَا غَطَفانَ، فأعطاهما ثُلُثَ ثمارِ المدينةِ على أن يَرجِعَا ومَن معهما عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه؛ فجرى بينَه وبَيْنَهم الصُّلحُ، حتَّى كَتَبوا الكِتابَ، ولم تَقَعِ الشَّهادةُ ولا عزيمةُ الصُّلحِ إلَّا المراوضةُ[5051]. وفي ذلك ففَعَلا. فلمَّا أراد رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يفعَلَ بعَث إلى سَعدِ بنِ عُبادةَ، وسَعدِ بنِ مُعاذٍ، وذكَرَ ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا: يا رسولَ اللهِ، أمرٌ تُحِبُّه فنصنَعُه، أو شيءٌ أمَرَك اللهُ به لا بُدَّ لنا مِن عَمَلٍ به، أم شيءٌ تصنَعُه لنا؟ فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا، بل لكم -واللهِ- ما أصنعُ ذلك، إلَّا أنِّي رأيتُ العَرَبَ قد رمَتْكم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالَبوكم[5052] مِن كُلِّ جانبٍ، فأردْتُ أن أكسِرَ عنكم شوكَتَهم، فقال سعدُ بنُ مُعاذٍ: يا رسولَ اللهِ، قد كُنَّا نحن وهؤلاءِ القومُ على الشِّركِ باللهِ وعبادةِ الأوثانِ، لا نعبُدُ اللهَ ولا نَعرِفُه، وهم لا يطمَعون أن يأكُلوا منها ثَمَرةً إلَّا قِرًى[5053] أو شِراءً، فحينَ أكرَمَنا اللهُ بالإسلامِ، وهدانا له، وأعَزَّنا بك، نُعطيهم أموالَنا، ما لنا بهذا حاجةٌ، فواللهِ لا نُعطيهم إلَّا السَّيفَ حتَّى يَحكُمَ اللهُ بَينَنا وبَيْنَهم! فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فأنتَ وذاك. فتناوَلَ سعدٌ الصَّحيفةَ فمحاها، ثمَّ قال: لِيَجهَدوا علينا، فأقام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعَدُوُّهم محاصِروهم))[5054].

3- مُجادَلةُ ابنِ عبَّاسٍ للخوارِجِ:

فعن عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ قال: ((لَمَّا اعتَزَلَتِ الحَرُوريَّةُ فكانوا في دارٍ على حِدَتِهم، فقُلت لعَلِيٍّ: يا أميرَ المُؤمنين، أبرِدْ عنِ الصَّلاةِ لَعَلِّي آتي هؤلاء القَومَ فأكَلِّمَهم، قال: إنِّي أتخوَّفُهم عليك، قُلتُ: كَلَّا إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى، قال: فلَبِستُ أحسَنَ ما

[5049] الدَّنِيَّةُ: النَّقيصةُ والحالةُ الخَسيسةُ، أي: نَرُدُّ مَن استجار بنا من المُسلِمين إلى المُشرِكين. يُنظَر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (8/ 131)، ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (6/ 155).

[5050] رواه البخاري (3182)، ومسلم (1785) واللفظ له.

[5051] المراوَضةُ: المداراةُ. يُنظَر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: 644).

[5052] كالَبوكم: تواثَبوا عليكم، وأظهَروا عداوَتَكم، وناصَبوكم وجاهَروكم بها. ((المصباح المنير)) للفيومي.

[5053] القِرى: الإحسانُ إلى الضَّيفِ. ((العين)) للخليل بن أحمد الفراهيدي (5/204).

[5054] رواه الطبري في ((التاريخ)) (350/11)، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (430/3) واللفظ له.

أقدِرُ عليه من هذه اليَمانيةِ، قال: ثُمَّ دَخَلتُ عليهم وهم قائِلونَ في نَحرِ الظَّهيرةِ[5055]، قال: فدَخَلْتُ على قَومٍ لم أرَ قَومًا قَطُّ أشَدَّ اجتِهادًا منهم، أيديهم كأنَّها ثَفِنُ[5056] الإبلِ، ووُجوهُهم مُعَلَّمةٌ من آثارِ السُّجودِ، قال: فدَخَلْتُ فقالوا: مَرحَبًا بكَ يا ابنَ عَبَّاسٍ، ما جاء بك؟ قُلتُ: جِئتُ أحدِّثُكم عن أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، عليهم نَزلَ الوَحيُ، وهم أعلمُ بتَأويلِه، فقال بَعضُهم: لا تُحَدِّثوهُ، وقال بَعضُهم: واللَّهِ لنُحَدِّثَنَّه، قال: قُلتُ: أخبِروني ما تَنقِمونَ على ابنِ عَمِّ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وخَتَنِه وأوَّلِ من آمن به، وأصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معه؟ قالوا: نَنقِمُ عليه ثَلاثًا، قال: قُلتُ: وما هُنَّ؟ قالوا: {أوَّلُهن أنَّه حَكَّمَ الرِّجالَ في دينِ اللهِ، وقد قال اللَّهُ: إنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [الأنعام: 57]، قال: قُلتُ: وماذا؟ قالوا: وقاتَلَ ولم يَسْبِ ولم يَغنَمْ، لَئِن كانوا كفَّارًا لَقد حَلَّتْ له أموالُهم، ولَئِن كانوا مُؤمِنين لقد حَرُمَتْ عليه دِماؤُهم. قال: قُلتُ: وماذا؟ قالوا: مَحا نَفسَه من أميرِ المُؤمنينَ، فإن لم يَكُنْ أميرَ المُؤمِنين فهو أميرُ الكافِرينَ. قال: قُلتُ: أرأيتُم إن قَرَأتُ عليكم من كِتابِ اللهِ المُحكَمِ وحَدَّثْتُكم من سُنَّةِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما لا تُنكِرونَ، أترجِعونَ؟ قالوا: نَعَم، قال: قُلتُ: أمَّا قَولُكم: حَكَّمَ الرِّجالَ في دينِ اللهِ، فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: {يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ} [المائدة: 95] إلى قَولِه: يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُم} [المائدة: 95]، وقال في المَرأةِ وزَوجِها: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا} [النساء: 35] أنشُدُكم اللَّهَ أحُكْمُ الرِّجالِ في حَقنِ دِمائِهم وأنفُسِهم وإصلاحِ ذاتِ بينِهم أحَقُّ أم في أرنَبٍ ثَمنُها رُبُعُ دِرهمٍ؟ قالوا: اللَّهمَّ بَل في حَقنِ دِمائِهم وإصلاحِ ذاتِ بينِهم، قال: أخرَجْتُ مِن هذه؟ قالوا: اللَّهُمَّ نَعَم، قال: وأمَّا قَولُكم: إنَّه قاتَلَ ولم يَسْبِ ولم يَغنَمْ، أتسْبونَ أُمَّكُم عائِشةَ أم تَستَحِلُّونَ منها ما تَستَحِلُّونَ من غيرِها! فقد كفَرتُم، وإن زَعَمْتُم أنَّها ليسَت أمَّ المُؤمنين فقد كفَرتُم وخَرجْتُم من الإسلامِ، إنَّ اللهَ يَقولُ: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب: 6] فأنتم مُتَرَدِّدونَ بينَ ضَلالَتين، فاختاروا أيَّتَهما شِئتُم، أخرَجْتُ من هذه؟ قالوا: اللَّهمَّ نَعَم، قال: وأمَّا قَولُكم: مَحا نَفسَه من أميرِ المُؤمنينَ، فإنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَعا قُرَيشًا يَومَ الحُدَيبيَةِ على أن يَكتُبَ بينَه وبينَهم كِتابًا، فقال: اكتُبْ: هذا ما قاضَى عليه مُحَمَّدٌ رَسولُ اللَّهِ. فقالوا: واللَّهِ لو كُنَّا نَعلمُ أنَّك رَسولُ اللهِ ما صَدَدناك عنِ البيتِ ولا قاتَلْناكَ، ولكِنِ اكتُب: مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ، فقال: واللهِ إني لرَسولُ اللهِ حَقًّا وإن كذَّبتُموني، اكتُبْ يا عَليُّ: مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللَّهِ. فرَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان أفضَلَ من عَليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، أخرَجْتُ من هذه؟ قالوا: اللَّهمَّ نَعَم، فرَجَع منهم عِشرونَ ألفًا، وبَقِيَ منهم أربَعةُ آلافٍ فقُتِلوا))[5057].

[5055] هو حينَ تبلُغُ الشَّمسُ منتهاها من الارتفاعِ، كأنَّها وصلَت إلى النَّحرِ، وهو أعلى الصَّدرِ. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (5/ 27).

[5056] الثَّفِنةُ: ما وَلِيَ الأرضَ من كُلِّ ذاتِ أربَعٍ إذا بَرَكَت، كالرُّكبَتَينِ وغيرِهما، ويحصُلُ فيه غِلَظٌ من أثَرِ البُروكِ. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (215/1).

[5057] رواه أبو داود (4037) مختَصَرًا بذِكرِ "لِباسُ ابنِ عبَّاسٍ أحسَنَ ما يكونُ من حُلَلِ اليَمَنِ"، وأحمد (3187) مختصرًا بذكر "كتابةُ محمَّدٍ رسولِ اللهِ ومحوُها"، وعبد الرزاق (18678) واللَّفظُ له. صحَّحه الحاكم في ((المستدرك)) (2/ 495) وقال: على شرط مسلم، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (115)، وحسَّنه الوادعي على شرط مسلم في ((الصَّحيح المسند)) (638)، وصحَّح إسنادَه ابن تَيميَّةَ في ((منهاج السنة)) (8/ 530)، وابن حجر في ((الدراية)) (2/ 138)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (5/ 67)، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (3187).

المطلب التاسع: حُكمُ الجِدالِ

الجِدالُ منه الواجِبُ والمحَرَّمُ والمباحُ:

- **فأمَّا الواجِبُ** فهو الذي يرادُ به إثباتُ الحَقِّ وإبطالُ الباطِلِ، وهو مشروعٌ لِمن كان من أهلِ العِلمِ، فكم موقِفٍ تدعو الضَّرورةُ إلى ذلك، ويحتاج المُسلِمون إليه! فهو من بابِ القيامِ للهِ بالحَقِّ.
- **وأمَّا الجِدالُ المحَرَّمُ** فهو الجِدالُ بالباطِلِ ليُدحَضَ به الحَقُّ، ومثالُه صاحِبُ بدعةٍ يجادِلُ عن بدعتِه. وكذلك مَن جادَل بغيرِ عِلمٍ فجَدَلُه محظورٌ، وهو به مذمومٌ.
- **وأمَّا الجِدالُ الذي لا يرادُ به إثباتُ الحَقِّ وإبطالُ الباطِلِ**، ولا يرادُ به دَحضُ الحَقِّ ولا نَصرُ الباطِلِ -وذلك كالذي يحصُلُ بَيْنَ النَّاسِ كثيرًا في المجالِسِ-، فهو من قِسمِ المباحِ الذي يكونُ له الأحكامُ الخَمسةُ، ومِثلُ هذا الجِدالِ يُنهى عنه في الحَجِّ، وأمَّا في غيرِه فيُنظَرُ ماذا يستفيدُ منه المرءُ[5058].

[5058] يُنظَر: ((سنن الصالحين وسنن العابدين)) لأبي الوليد الباجي (ص: 486)، ((شرح صحيح البخاري)) لابن عثيمين (554/5).

المبحث التاسع عشر: الجُبْن

المطلب الأول: معنى الجُبْنِ لغةً واصطلاحًا

- **معنى الجُبْنِ لغةً:**

الجُبْنُ: ضِدُّ الشَّجاعةِ، تقولُ: جَبَن يَجبُنُ وجَبُنَ جُبْنًا وجُبُنًا وجَبانةً، وأجبَنَه: وَجَده جبانًا أو حَسِبه إيَّاه، والجبانُ من الرِّجالِ، هو ضعيفُ القلبِ، الهيوبُ للأشياءِ لا يُقدِمُ عليها، وأصلُه في القتالِ[5059].

- **معنى الجُبْنِ اصطِلاحًا:**

فُسِّر الجُبْنُ بأنَّه ضِدُّ الغَضَبِ، أي: سكونُ النَّفسِ فيما ينبغي أن يتحَرَّك منه، ومبدؤه بطلانُ شَهوةِ الانتقامِ.[5060]

وقال الخادميُّ: (هو هيئةٌ راسخةٌ بها يُحجَمُ -أي: يتأخَّرُ ويُكَفُّ- عن مباشرةِ ما ينبغي أن يليقَ الإقدامُ عليه، بل يجِبُ)[5061].

وقال الفيروزابادِيُّ: (الجُبْنُ: ضَعفُ القلبِ عمَّا يحِقُّ أن يقوى عليه)[5062].

وقال مِسكَويهِ: (هو الخوفُ ممَّا لا ينبغي أن يُخافَ منه).[5063]

وقال السُّيوطيُّ: (الجُبْنُ: الفَزَعُ المذمومُ من الأمورِ المُعطِبةِ)[5064].

وقيل: (هو الجَزَعُ عِندَ المخاوفِ، والإحجامُ عمَّا تُحذَرُ عاقبتُه، أو لا تُؤمَنُ مغبَّتُه)[5065].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الجُبْنِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الجُبْنِ والخوفِ:**

أنَّ الخوفَ أعَمُّ من الجُبْنِ؛ فقد يكونُ الخَوفُ من الفَقرِ أو المرَضِ أو إصابةِ مكروهٍ، إلى غيرِ ذلك، ولا يُسَمَّى الخوفُ من الفَقرِ ولا من المَرَضِ جُبنًا.

أنَّ الخَوفَ منه ما يُحمَدُ ومنه ما يُباحُ -كالخوفِ الطَّبيعيِّ- ومنه ما يُذَمُّ، أمَّا الجُبْنُ فهو خُلُقٌ مذمومٌ.

كذلك فالخوفُ قد يترَتَّبُ عليه أمورٌ محمودةٌ أو أمورٌ مذمومةٌ، أمَّا الجُبْنُ فلا يترَتَّبُ عليه إلَّا ما هو مذمومٌ، كالأنانيةِ والذُّلِّ والتَّفريطِ.

[5059] يُنظَر: ((المخصص)) لابن سيده (1/ 277)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير، ((لسان العرب)) لابن منظور.

[5060] ((بريقة محمودية)) (269 /2)

[5061] المصدر السابق (35 /2)

[5062] ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)).(366 /2)

[5063] ((تهذيب الأخلاق)) (ص: 23).

[5064] ((معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم)) (ص: 204).

[5065] ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص: 33) .

وقد يُقدِمُ الإنسانُ وفي قلبِه خوفٌ، أمَّا الجُبْنُ فصاحبُه يمتنعُ من الإقدامِ.

- **الفَرْقُ بَيْنَ الجُبْنِ والبُخلِ:**

أنَّ الجُبْنَ: تَركُ الإحسانِ وحَبسُ النَّفعِ بالبَدَنِ، والبُخلَ: تَركُ الإحسانِ وحَبسُ النَّفعِ بالمالِ؛ فالإحسانُ المتوقَّعُ من العبدِ إمَّا بمالِه وإمَّا ببدَنِه، فالبخيلُ مانعٌ لنفعِ مالِه، والجبانُ مانعٌ لنَفعِ بَدَنِه[5066].

المطلب الثالث: ذَمُّ الجُبْنِ

أ- من القرآنِ الكريمِ:

لم يَرِدْ ذِكْر لفظِ الجُبْنِ صراحةً في القُرآنِ الكريمِ، ولكِنْ كما قال ابنُ تَيميَّةَ: (ما في القرآنِ من الحَضِّ على الجِهادِ والتَّرغيبِ فيه، وذَمِّ النَّاكلين عنه والتَّاركينَ له: كُلُّه ذَمٌّ للجُبنِ)[5067].

1- قال اللَّهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال: 15-16].

قال الشَّوكانيُّ: (نهى اللَّهُ المُؤمِنين أن ينهَزِموا عن الكُفَّارِ إذا لقوهم، وقد دَبَّ بعضُهم إلى بعضٍ للقتالِ؛ فظاهِرُ هذه الآيةِ العمومُ لكُلِّ المُؤمِنين في كُلِّ زمنٍ، وعلى كُلِّ حالٍ، إلَّا حالةَ التَّحرُّفِ والتَّحيُّزِ)[5068].

2- ووصف اللَّهُ سُبحانَه المُنافِقين بأنَّهم جُبَناءُ وأنَّهم لا يَصمُدون في الحُروبِ والمعاركِ، فقال: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب:19-20].

(قَولُه: أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ (بأبدانِهم عِندَ القتالِ، وبأموالِهم عِندَ النَّفقةِ فيه، فلا يجاهِدون بأموالِهم وأنفُسِهم. فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغشيِّ عليه مِنَ الْمَوْتِ من شِدَّةِ الجُبْنِ، الذي خلع قلوبَهم، والقَلَقِ الذي أذهَلَهم، وخوفًا من إجبارِهم على ما يكرَهون من القتالِ.

فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ وصاروا في حالِ الأمنِ والطُّمأنينةِ، سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ أي: خاطبوكم، وتكلَّموا معكم بكلامٍ حديدٍ، ودعاوى غيرِ صحيحةٍ!

وحين تسمَعُهم تظنُّهم أهلَ الشَّجاعةِ والإقدامِ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ الذي يرادُ منهم، وهذا شرُّ ما في الإنسانِ؛ أن يكونَ شحيحًا بما أُمِر به، شحيحًا بمالِه أن ينفِقَه في وَجهِه، شحيحًا في بَدَنِه أن يجاهِدَ أعداءَ اللَّهِ، أو يدعوَ إلى سبيلِ اللَّهِ)[5069].

[5066] يُنظَر: ((زاد المعاد في هدي خير العباد)) لابن القيم (4/ 208)، ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: 279)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (1/ 113).

[5067] ((الحسبة في الإسلام)) (ص: 102).

[5068] ((فتح القدير)) (3/160)

[5069] ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 660).

3- ووصفهم أيضًا بقولِه: {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} [الأحزاب: 13].

ثمَّ بَيَّنَ اللَّهُ سُبحانَه وتعالى أنَّ ما يَفِرُّون منه سيأتيهم لا محالةَ، فقال: {قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب: 16].

4- وقال أيضًا في حَقِّهم: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المُنافِقون: 4].

قال ابنُ تَيميَّةَ: (قد بَيَّنَ اللَّهُ في كتابِه: أنَّ ما يوجِبُه الجُبْنُ من الفرارِ هو من الكبائِرِ الموجبةِ للنَّارِ، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال: 15-16].

فأخبر أنَّ الذين يخافون العَدُوَّ خوفًا منعهم من الجهادِ: مُنافِقون، فقال: {وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} [التوبة:56-57])[5070].

قال السَّعديُّ: (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَصدُهم في حَلِفِهم هذا أنَّهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ أي: يخافون الدَّوائِرَ، وليس في قلوبِهم شجاعةٌ تحمِلُهم على أن يُبيّنوا أحوالَهم. فيخافون إن أظهروا حالَهم منكم، ويخافون أن تتبرَّؤوا منهم، فيتخَطَّفَهم الأعداءُ من كُلِّ جانبٍ.

وأمَّا حالُ قَويِّ القَلبِ ثابتِ الجَنانِ فإنَّه يحمِلُه ذلك على بيانِ حالِه، حَسَنةً كانت أو سَيِّئةً، ولكنَّ المُنافِقين خُلِع عليهم خِلعةُ الجُبْنِ، وحُلُّوا بحليةِ الكَذِبِ.

ثمَّ ذَكَر شِدَّةَ جُبنِهم فقال: لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً يلجؤون إليه عندما تَنزِلُ بهم الشَّدائدُ، أَوْ مَغَارَاتٍ يدخُلونها فيستَقِرُّون فيها أَوْ مُدَّخَلًا أي: محلًّا يدُخلونه فيتحصَّنون فيه لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ أي: يُسرِعون ويُهرَعون، فليس لهم مَلَكةٌ يقتدرون بها على الثَّباتِ)[5071].

ب- مِنَ السُّنَّةِ النَّبَويَّة:

1- عن عَمرِو بنِ ميمونٍ الأوديِّ، قال: كان سعدٌ يُعَلِّمُ بنيه هؤلاء الكَلِماتِ كما يُعلِّمُ المعلِّمُ الغِلمانَ الكتابةَ، ويقولُ: ((إنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يتعوَّذُ منهنَّ دُبُرَ الصَّلاةِ: اللَّهُمَّ إني أعوذُ بك من الجُبْنِ، وأعوذُ بك أن أُرَدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وأعوذُ بك من فتنةِ الدُّنيا، وأعوذُ بك من عذابِ القَبرِ))[5072].

[5070] ((قاعدة في الانغماس في العدو)) لابن تيمية (ص: 40).

[5071] ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 340).

[5072] رواه البخاري (2822)

(قال المُهَلَّبُ: أمَّا استعاذتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الجُبْنِ، فإنَّه يؤدِّي إلى عذابِ الآخرةِ؛ لأنَّه يفِرُّ من قِرنِه[5073] في الزَّحفِ، فيَدخُلُ تحتَ وعيدِ اللهِ؛ لقَولِه: {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ} [الأنفال: 16] الآيةَ، وربَّما يُفتَنُ في دينِه فيرتَدُّ لجُبنٍ أدركَه)[5074].

2- عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه: (أنَّه بينما هو يسيرُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومعه النَّاسُ مَقفَلَه[5075] من حنينٍ، فعَلِقَه النَّاسُ يسألونه حتَّى اضطرُّوه إلى سَمُرةٍ[5076]، فخَطِفَت رداءَه، فوقف النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أعطوني ردائي، لو كان لي عددُ هذه العِضاهِ[5077] نَعَمًا[5078] لقسَمْتُه بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كَذوبًا ولا جَبانًا)[5079].

(فأشار صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَمِ الجُبْنِ إلى كمالِ القُوَّةِ الغَضَبيَّةِ، وهي الشَّجاعةُ)[5080].

- عن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من الهَمِّ والحَزَنِ، والعَجزِ والكَسَلِ، والجُبنِ والبُخلِ، وضَلَعِ الدَّينِ، وغَلَبةِ الرِّجالِ))[5081].

قال ابنُ القَيِّمِ: (فاستعاذ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من ثمانيةِ أشياءَ، كُلُّ اثنينِ منها قرينانِ... والجُبْنُ والبُخلُ قرينانِ؛ لأنَّهما عَدَمُ النَّفعِ بالمالِ والبَدَنِ، وهما من أسبابِ الألمِ؛ لأنَّ الجبانَ تفوتُه محبوباتٌ ومُفرِحاتٌ وملذوذاتٌ عظيمةٌ لا تُنالُ إلَّا بالبذلِ والشَّجاعةِ، والبُخلُ يحولُ بينه دونها أيضًا، فهذان الخُلُقانِ من أعظَمِ أسبابِ الآلامِ)[5082].

3- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((شرُّ ما في رجُلٍ شُحٌّ هالِعٌ، وجُبنٌ خالِعٌ))[5083].

قال ابنُ القَيِّمِ في شرحِه للحديثِ: (هنا أمرانِ: أمرٌ لفظيٌّ، وأمرٌ معنويٌّ؛ فأمَّا اللَّفظيُّ: فإنَّه وصْفُ الشُّحِّ بكونِه هالِعًا، والهالِعُ صاحبُه، وأكثَرُ ما يُسَمَّى هَلوعًا، ولا يقالُ: هالِعٌ له؛ فإنَّه لا يتعَدَّى، وفيه وجهانِ:

أحدُهما: أنَّه على النَّسَبِ، كقَولِهم: ليلٌ نائمٌ، وشرٌّ قائمٌ، ونهارٌ صائمٌ، ويومٌ عاصفٌ. كلُّه عِندَ سيبَوَيهِ على النَّسَبِ، أي: ذو كذا.

والثَّاني: أنَّ اللَّفظةَ غُيِّرت عن بابِها؛ للازدواجِ مع خالِعٍ، وله نظائِرُ.

[5073] القِرنُ: الكُفءُ والنَّظيرُ في الشَّجاعةِ والحَربِ. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير.

[5074] ((شرح البخاري)) لابن بطال (5/35)

[5075] مُقْفَلَه: يعني زمانَ رُجوعِه. يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (6/35)

[5076] اضطرُّوه إلى سَمُرةٍ: أي: ألجؤوه إلى شَجَرةٍ من شَجَرِ الباديةِ ذاتِ شَوكٍ. يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (6/35)

[5077] العِضاهُ: كُلُّ شَجَرٍ عظيمٍ له شَوكٌ. يُنظَر: ((شرح القسطلاني)) (6/337)

[5078] النَّعَمُ واحِدُ الأنعامِ، وهي الأموالُ الرَّاعيةُ، وأكثَرُ ما يقعُ على الإبِلِ. يُنظَر: ((اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح)) للبرماوي (420 /8)

[5079] رواه البخاري (2821)

[5080] ((فتح الباري)) لابن حجر (571 /6)

[5081] أخرجه البخاري (6369) واللفظ له، ومسلم (2706)

[5082] ((بدائع الفوائد)) (207 /2)

[5083] أخرجه أبو داود (2511)، وأحمد (8010). صحَّحه ابن حبان في ((صحيحه)) (3250)، وابن تَيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (28/437)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2511)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (2511)، وحسَّنه الوادعي في ((الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين))(1406)

وأمَّا المعنويُّ: فإنَّ الشُّحَّ والجُبْنَ أردى صفتينِ في العبدِ، ولا سيَّما إذا كان شُحُّه هالعًا، أي: مُلْقٍ له في الهَلَعِ، وجُبنُه خالِعًا، أي: قد خلع قلبه من مكانِه؛ فلا سماحةَ ولا شجاعةَ، ولا نفعَ بمالِه ولا ببَدنِه، كما يقالُ: لا طعنةَ ولا جَفنةَ، ولا يَطرُدُ ولا يَشرُدُ، بل قد قمَعَه وصغَّره وحقَّره ودسَّاه الشُّحُّ والخوفُ والطَّمَعُ والفَزَعُ)[5084].

4- وعن يعلى العامِريِّ رَضِيَ الله عنه قال: ((جاء الحسَنُ والحُسَينُ يسعيانِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فضمَّهما إليه، وقال: إنَّ الولَدَ مَبخَلةٌ مَجبَنةٌ))[5085].

(أي: سببٌ لبُخلِ الأبِ وجُبنِه، ويحمِلُ أبويه على البُخلِ، وكذلك على الجُبْنِ؛ فإنَّه يتقاعَدُ من الغزَواتِ والسَّرايا بسَبَبِ حُبِ الأولادِ، ويمسِكُ مالَه لهم)[5086].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: (كَرَمُ المُؤمِنِ تقواه، ودينُه حسَبُه، ومروءتُه خُلُقُه، والجرأةُ والجُبْنُ غرائزُ يضَعُها اللهُ حيثُ شاء، فالجبانُ يَفِرُّ عن أبيه وأمِّه، والجريءُ يقاتِلُ عمَّا لا يؤوبُ به إلى رَحلِه، والقَتلُ حَتفٌ[5087] من الحتوفِ، والشَّهيدُ من احتَسَب نفسَه على اللهِ)[5088].

- وقالت عائشةُ رَضِيَ الله عنها: (إنَّ للهِ خَلقًا قلوبُهم كقُلوبِ الطَّيرِ، كلَّما خفَقَت الرِّيحُ خفَقَت معها، فأفٍّ للجُبَناءِ، أفٍّ للجُبناءِ!)[5089].

- وقال خالِدُ بنُ الوليدِ: (لقد لَقِيتُ كذا وكذا زَحفًا، وما في جَسَدي شِبرٌ إلَّا وفيه ضربةٌ بسَيفٍ أو رميةٌ بسَهمٍ أو طعنةٌ برُمحٍ؛ فها أنا أموتُ على فِراشي حَتْفَ أنفي[5090] كما يموتُ العِيرُ! فلا نامت أعيُنُ الجُبَناءِ)[5091].

- وقال طَلحةُ بنُ عُبَيدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه: (لا تشاوِرْ بخيلًا في صِلةٍ، ولا جبانًا في حَربٍ، ولا شابًّا في جاريةٍ)[5092].

- وقال معاويةُ رَضِيَ الله عنه: (لا ينبغي للمَلِكِ أن يكون كذَّابًا؛ لأنَّه إن وَعَد خيرًا لم يُرْجَ، وإن أوعَد شرًّا لم يُخَفْ. ولا غاشًّا؛ لأنَّه لم ينصَحْ، ولا تَصِحُّ الوِلايةُ إلَّا بالمناصحةِ. ولا حديدًا؛ لأنَّه إذا احتَدَّ هلَكَت رعيَّتُه. ولا حسودًا؛ لأنَّه لا يَشرُفُ أحدٌ فيه حَسَدٌ، ولا يَصلُحُ النَّاسُ إلَّا بأشرافِهم. ولا جبانًا؛ لأنَّه يجترئُ عليه عدُوُّه، وتضيعُ ثُغورُه)[5093].

[5084] ((عدة الصابرين)) (ص: 275).

[5085] رواه ابنُ ماجه (3666) واللفظ له، وأحمد (17562) مطوَّلًا. صحَّحه الحاكم في ((المستدرك)) (3/179) وقال: على شرط مسلم، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (3666)، وصحَّح إسناده البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (4/99)، وقوَّاه الذهبي في ((المهذب)) (8/4210)

[5086] ((شروح سنن ابن ماجه)) للسيوطي (2/1338)

[5087] الحتفُ: الموتُ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[5088] رواه مالك.(2/463)

[5089] ذكره ابنُ عبد ربه في ((العقد الفريد)) (1/124)، وأبو إسحاق الوطواط في ((غرر الخصائص الواضحة)) (ص: 444)، والنويري في ((نهاية الأرب)) (3/318)

[5090] هو أن يموتَ على فراشِه كأنَّه سقَط لأنفِه فمات. تقولُ العَرَبُ: مات فلانٌ حَتفَ أنفِه، أي: بلا ضربٍ ولا قتلٍ. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير، ((لسان العرب)) لابن منظور.

[5091] رواه الواقدي في ((المغازي)) (3/884)، وأبو بكر الدينوري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (836)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (16/273)

[5092] ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (ص: 252)، ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (104 /25)

[5093] ((محاضرات الأدباء)) للراغب (1/ 199)، ((لباب الآداب)) لأسامة بن منقذ (ص: 70، 71)، ((غرر الخصائص الواضحة)) للوطواط (ص: 28).

- (وقيل: كتب زيادٌ إلى ابنِ عبَّاسٍ: أنْ صِفْ لي الشَّجاعةَ والجُبْنَ والجُودَ والبُخلَ، فكَتَب إليه: كتَبتَ تسألُني عن طبائِعَ رُكِّبَت في الإنسانِ تركيبَ الجوارحِ، اعلَمْ أنَّ الشُّجاعَ يقاتِلُ عمَّن لا يَعرِفُه، والجبانَ يَفِرُّ عن عِرسِه، وأنَّ الجوادَ يعطي من لا يلزَمُه، وأنَّ البخيلَ يمسِكُ عن نفسِه، وقال الشَّاعرُ:

يفرُّ جبانُ القومِ عن عِرسِ نَفسِه

ويحمي شُجاعُ القومِ من لا يناسِبُه[5094]

- وقال هانئٌ الشَّيبانيُّ لقومِه يومَ ذي قارٍ يحَرِّضُهم على القتالِ: (يا بني بَكرٍ، هالكٌ معذورٌ خيرٌ من ناجٍ فَرورٍ، المنيَّةُ ولا الدَّنيَّةُ، استقبالُ الموتِ خيرٌ من استدبارِه، الطَّعنُ في ثُغورِ النُّحورِ خيرٌ منه في الأعجازِ والظُّهورِ، يا بني بكرٍ، قاتِلوا؛ فما من المنايا بُدٌّ، الجبانُ مُبغَضٌ حتَّى لأمِّه، والشُّجاعُ محَبَّبٌ حتَّى لعَدُوِّه)[5095].

- وقال ابنُ حبَّانَ: (الواجبُ على العاقِلِ إذا لم يُعرَفْ بالسَّماحةِ ألَّا يُعرَفَ بالبُخلِ، كما لا يجِبُ إذا لم يُعرَفْ بالشَّجاعةِ أن يُعرَفَ بالجُبْنِ، ولا إذا لم يُعرَفْ بالشَّهامةِ أن يُعرَفَ بالمهانةِ، ولا إذا لم يُعرَفْ بالأمانةِ أن يُعرَفَ بالخيانةِ)[5096].

- وقال عَمرُو بنُ مَعدِ يكَرِبَ: (الفَزَعاتُ ثلاثةٌ: فمن كانت فزعتُه في رِجلَيه فذاك الذي لا تُقِلُّه رجلاه، ومن كانت فزعتُه في رأسِه فذاك الذي يَفِرُّ عن أبويه، ومن كانت فزعتُه في قَلبِه فذاك الذي لا يقاتِلُ)[5097].

- وقال ابنُ المقَفَّعِ: (الجُبْنُ مَقتلةٌ، والحِرصُ مَحرَمةٌ؛ فانظُرْ فيما رأيتَ وسَمِعتَ: من قُتِل في الحَربِ مقبِلًا أكثَرُ أم من قُتِل مُدبِرًا؟ وانظُرْ من يَطلُبُ إليك بالإجمالِ والتَّكرُّمِ أحَقُّ أن تسخوَ نفسُك له بالعطيَّةِ أم من يَطلُبُ إليك بالشَّرَهِ والحِرصِ؟)[5098].

- وقال ابنُ تَيميَّةَ: (... إنَّ الجميعَ يتمادحون بالشَّجاعةِ والكَرَمِ، حتى إنَّ ذلك عامَّةُ ما يَمدَحُ به الشُّعراءُ ممدوحيهم في شِعرِهم، وكذلك يتذامُّون بالبُخلِ والجُبْنِ)[5099].

المطلب الرابع: آثارُ الجُبْنِ

1- (إهانةُ النَّفسِ، وسوءُ العَيشِ، وطَمَعُ طَبَقاتِ الأنذالِ وغيرِهم.
2- قلَّةُ الثَّباتِ والصَّبرِ في المواطِنِ التي يجِبُ فيها الثَّباتُ.
3- أنَّه سَبَبٌ للكَسَلِ ومحبَّةِ الرَّاحةِ اللَّذينِ هما سببُ كُلِّ رذيلةٍ.
4- الرِّضا بكُلِّ رذيلةٍ وضَيمٍ.
5- الدُّخولُ تحت كُلِّ فضيحةٍ في النَّفسِ والأهلِ والمالِ.

[5094] ذكره النويري في ((نهاية الأرب)) (3/318، 319).
[5095] ((نهاية الأرب)) للنويري (3/320)
[5096] ((روضة العقلاء)) (ص: 242).
[5097] ((الفروسية)) لابن القيم (ص: 498).
[5098] ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (1/ 258)
[5099] ((الاستقامة)) بتصرف (2/263).

6- سماعُ كُلِّ قبيحةٍ فاحشةٍ من الشَّتمِ والقَذفِ، واحتمالُ كُلِّ ظُلمٍ من كُلِّ معامِلٍ، وقِلَّةُ الأنَفةِ مِمَّا يأنَفُ منه النَّاسُ)[5100].

7- الجبانُ يُسيءُ الظَّنَّ باللَّهِ.

8- أنَّ ما يوجِبُه الجُبْنُ من الفِرارِ في الجِهادِ في سبيلِ اللهِ هو من الكبائِرِ الموجِبةِ للنَّارِ؛ قال اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال:15-16][5101].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اجتَنِبوا السَّبعَ المُوبقاتِ)) وذكَرَ منها ((التَّوليَّ يومَ الزَّحفِ[5102])[5103].

9- الجُبْنُ ينقُصُ الدِّينَ والمروءةَ[5104].

10- الحِرمانُ من انشراحِ الصَّدرِ وسَعادةِ القَلبِ؛ قال ابنُ القَيِّمِ: (والجبانُ أضيَقُ النَّاسِ صَدرًا، وأحصَرُهم قلبًا، لا فَرحةَ له ولا سرورَ، ولا لذَّةَ له ولا نعيمَ إلَّا من جنسِ ما للحيوانِ البهيميِّ)[5105].

11- الجبانُ يُعينُ عَدُوَّه على نفسِه؛ قال ابنُ القَيِّمِ: (والجُبْنُ إعانةٌ منه لعَدُوِّه على نفسِه، فهو جندٌ وسلاحٌ يعطيه عَدُوَّه ليحارِبَه به، وقد قالت العَرَبُ: الشَّجاعةُ وقايةٌ، والجُبْنُ مَقتلةٌ، وقد أكذب اللهُ سُبحانَه أطماعَ الجُبَناءِ في ظنِّهم أنَّ جُبنَهم ينجيهم من القتلِ والموتِ، فقال اللهُ تعالى: {قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب: 16])[5106]، (وكما قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عنه لَمَّا قيل له: كيف كنتَ تصرَعُ الأبطالَ؟ قال: كنتُ أَلقى الرَّجُلَ فأُقَدِّرُ أني أقتُلُه، ويُقَدِّرُ هو أيضًا أني أقتُلُه، فأَكونُ أنا ونفسُه عَونًا عليه. ومن وصايا بعضِهم: شعِروا قلوبَكم في الحَربِ الجُرأةَ؛ فإنَّها سببُ الظَّفَرِ. ومن كلامِ القُدَماءِ: من تهيَّبَ عَدُوَّه فقد جهَّز إلى نفسِه جيشًا!).

12- الجُبْنُ سببٌ من أسبابِ الخُسرانِ في الآخرةِ والذُّلِّ في الدُّنيا[5107].

المطلب الخامس: مظاهِرُ وصُوَرُ الجُبْنِ

1- الفِرارُ من ساحاتِ المعارِكِ.

2- تركُ إنكارِ المُنكَرِ مع القُدرةِ عليه.

3- شِدَّةُ الفَزَعِ والهَلَعِ عِندَ الشَّدائدِ.

4- ضَعفٌ في الرَّأيِ والبصيرةِ وذُهولٌ للذِّهنِ عِندَ الشَّدائدِ.

5- الكَذِبُ وعَدَمُ الاعترافِ بالخطأِ جُبنًا وخوفًا.

6- شِدَّةُ الخوفِ من الموتِ.

[5100] يُنظَر: ((تهذيب الأخلاق)) لمسكويه (170، 171).

[5101] ((قاعدة في الانغماس في العدو وهل يباح)) لابن تَيميَّةَ (ص: 40).

[5102] التَّولي يومَ الزَّحفِ: أي: الإعراضُ عن الحَربِ، والفرارُ من الكُفَّارِ. يُنظَر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (2/505)، ((عمدة القاري)) للعيني (14/62)

[5103] رواه البخاري (2766)، ومسلم (89) واللفظ له.

[5104] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 325).

[5105] ((زاد المعاد)) لابن القيم.(2/22)

[5106] ((الفروسية)) لابن القيم (ص: 491).

[5107] ((مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق)) لابن النحاس. بتصرف (2/954)

7- التَّأخُّرُ وعَدَمُ التَّقدُّمِ في الصُّفوفِ.
8- تركُ مواجهةِ الخُصومِ.
9- التَّعلُّقُ بالأعذارِ وكَثرةُ الاعتذارِ.
10- التَّثبيطُ والتَّخذيلُ.
11- تركُ الإقدامِ في المواقِفِ التي تتطَلَّبُ الإقدامَ.
12- عدَمُ ثُبوتِ الأقدامِ في المواقِفِ التي يجمُلُ فيها ثُبوتُ الأقدامِ.
13- عدمُ الصَّبرِ على مواجهةِ المواقِفِ المخيفةِ أو مقارعتِها أو تحمُّلِ آلامِها.

سادسًا: أسبابُ الوُقوعِ في الجُبْنِ

1- تركُ الاستعانةِ باللَّهِ.
2- الجَهلُ بما للجُبنِ من عواقِبَ سَيِّئةٍ.
3- انعِدامُ الثِّقةِ بالنَّفسِ.
4- النَّشأةُ والتَّربيةُ بالغِلظةِ والقَسوةِ ممَّا يكسِبُ الأطفالَ الجُبْنَ والذُّلَّ والمهانةَ.
5- مصاحبةُ الضُّعَفاءِ والجُبَناءِ.
6- الحِرصُ على الدُّنيا ومتاعِها.
7- تركُ مجاهدةِ النَّفسِ.
8- التَّأثيرُ الإعلاميُّ في بثِّ الأخلاقِ المرذولةِ بَيْنَ المسلِمين، ومنها الجُبْنُ والضَّعفُ والخَوَرُ.
9- عَدَمُ الصَّبرِ، وسُوءُ الظَّنِّ.

سابعًا: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الجُبْنِ

1- اللُّجوءُ إلى اللهِ بالدُّعاءِ والإكثارُ من الذِّكرِ:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال:45].

(للعُلَماءِ في هذا الذِّكرِ ثلاثةُ أقوالٍ:

الأوَّلُ: اذكُروا اللهَ عِندَ جزَعِ قُلوبِكم؛ فإنَّ ذِكره يُعينُ على الثَّباتِ في الشَّدائِدِ.

الثَّاني: اثبُتوا بقلوبِكم، واذكُروه بألسِنَتِكم؛ فإنَّ القَلبَ لا يسكُنُ عِندَ اللِّقاءِ، ويَضطَرِبُ اللِّسانُ، فأمر بالذِّكرِ حتى يثبُتَ القَلبُ على اليقينِ، ويَثبُتَ اللِّسانُ على الذِّكرِ، ويقولَ ما قاله أصحابُ طالوتَ: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 250]، وهذه الحالةُ لا تكونُ إلَّا عن قوَّةِ المعرفةِ، واتِّقادِ البصيرةِ، وهي الشَّجاعةُ المحمودةُ في النَّاسِ.

الثَّالِثُ: اذكُروا ما عندَكم من وَعدِ اللهِ لكم في ابتياعِه أنفُسَكم، ومُثامَنتِه لكم)[5108].

2- (ترسيخُ عقيدةِ الإيمانِ بالقضاءِ والقَدَرِ، وأنَّ الإنسانَ لن يصيبَه إلَّا ما كَتَب اللهُ له.

3- ترسيخُ عقيدةِ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ.

4- غَرسُ اليقينِ بما أعدَّه اللهُ من النَّعيمِ في الجنَّةِ للذين يقاتِلون في سبيلِ اللَّهِ.

5- التَّدريبُ العَمَليُّ بدَفعِ الإنسانِ إلى المواقِفِ المحرِجةِ التي لا يتخلَّصُ منها إلَّا بأن يتشجَّعَ.

6- الاقتناعُ بأنَّ مُعظَمَ مُثيراتِ الجُبْنِ لا تعدو كونَها مجرَّدَ أوهامٍ لا حقيقةَ لها.

7- القُدوةُ الحَسَنةُ وعَرضُ مَشاهِدِ الشِّجعانِ، وذِكرِ قِصَصِهم.

8- إثارةُ دوافعِ التَّنافُسِ، ومكافأةُ الأشجَعِ بعطاءاتٍ ماديَّةٍ)[5109].

9- التَّقرُّبُ من اللهِ والاستعانةُ به وتركُ العَجزِ؛ ففي الحديثِ: ((واستَعِنْ باللهِ ولا تَعجِزْ)) ، وفي الحديثِ القُدسيِّ: ((وما يزالُ عبدي يتقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كُنْتُ سَمعَه الذي يَسمَعُ به، وبصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويَدَه التي يَبطِشُ بها، ورِجلَه التي يمشي عليها))[5110].

10- تدريبُ النَّفسِ واكتسابُ المهاراتِ اللَّازمةِ للمقاماتِ التي يُحتاجُ فيها إلى شجاعةٍ؛ ففي الجهادِ يحتاجُ إلى التَّدرُّبِ على أساليبِ القِتالِ، وفي إنكارِ المُنكَرِ يحتاجُ إلى العِلمِ الشَّرعيِّ، وهكذا.

11- التَّواضُعُ وإظهارُ الافتقارِ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ.

12- تذكُّرُ الموتِ ومَعرفةُ أفضَلِ حالاتِه التي إذا مات عليها الإنسانُ عَظُم بها أجرُه في الآخرةِ؛ فمقامُ الشَّهادةِ في قتالِ الكُفَّارِ أعظَمُ وأفضَلُ، وكما في قولِ الشَّاعِرِ:

من لم يمُتْ بالسَّيفِ مات بغيرِه

تنوَّعَت الأسبابُ والموتُ واحِدُ[5111]

13- النَّشأةُ والتَّربيةُ التي تَكسِبُ الأطفالَ العِزَّةَ والكرامةَ، ورَبْطُهم بالنَّماذِجِ والقُدواتِ التي من شأنِها غَرسُ خُلُقِ الشَّجاعةِ في نفوسِهم.

14- مراجعةُ الإنسانِ نفسَه لمواقِفِ الضَّعفِ والجُبْنِ، وتدارُكُ ما فاته فيها من الشَّجاعةِ، ويَعزِمُ على أنَّها إن تكرَّرَت أظهَرَ فيها شجاعتَه.

المطلب الثامن: نماذِجُ من أخبارِ الجُبَناءِ وأقوالِهم وأشعارِهم

- قال أبو الفَرَجِ الأصفهانيُّ: (كان أبو حيَّةَ النُّمَيريُّ -وهو الهيثَمُ بنُ الرَّبيعِ بنِ زُرارةَ- جبانًا بخيلًا كذَّابًا، قال ابنُ قُتَيبةَ: وكان له سيفٌ يُسَمِّيه لُعابَ المنيَّةِ، ليس بينه وبين الحَشَبةِ فَرقٌ! قال: وكان أجبَنَ النَّاسِ، قال: فحدَّثني جارٌ له، قال: دخل ليلةً

[5108] ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (8/23)

[5109] يُنظَر: ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (2/568)

[5110] أخرجه البخاري (6502) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5111] ((الذخائر والعبقريات)) للبرقوقي (291 /1)

إلى بيتِه كَلبٌ فظَنَّه لِصًّا، فأشرَفتُ عليه، وقد انتضى[5112] سيفَه، وهو واقِفٌ في وَسَطِ الدَّارِ يقولُ: أيُّها المغترُّ بنا المجترئُ علينا، بِئسَ -واللهِ- ما اخترْتَ لنفسِك! خيرٌ قليلٌ، وسَيفٌ صقيلٌ[5113]، لُعابُ المنيَّةِ الذي سمِعتَ به، مشهورةٌ ضربتُه، لا تُخافُ نَبْوَتُه[5114]، اخرُجْ بالعفوِ عنك قبلَ أن أدخُلَ بالعقوبةِ عليك، إني واللهِ إن أدْعُ قَيسًا إليك لا تقُمْ لها، وما قَيسٌ؟! تملأُ واللهِ الفضاءَ خيلًا ورَجِلًا، سبحانَ اللَّهِ! ما أكثَرَها وأطيَبَها! فبينا هو كذلك إذا الكلبُ قد خرج! فقال: الحمدُ للهِ الذي مسَخَك كَلبًا، وكفانا حَربًا!)[5115].

- وقال النُّوَيريُّ: (ولِيمَ بعضُ الجُبَناءِ على جُبنِه، فقال: أوَّلُ الحَربِ شَكوى، وأوسَطُها نجوى، وآخِرُها بلوى.

- وقال آخَرُ: الحَربُ مَقتلةٌ للعبادِ، مَذهَبةٌ للطَّارِفِ والتِّلادِ.

- وقيل لجبانٍ: لمَ لا تقاتِلُ؟ فقال: عِندَ النِّطاحِ يُغلَبُ الكَبشُ الأجَمُّ[5116].

- وقالوا: الحياةُ أفضَلُ من الموتِ، والفِرارُ في وَقتِه ظَفَرٌ.

- وقالوا: الشُّجاعُ مُلقًّى، والجَبانُ مُوَقًّى.

- قال البديعُ الهَمَذانيُّ:

ما ذاق همًّا كالشُّجاعِ ولا خَلَا

بمسَرَّةٍ كالعاجِزِ المتواني

- وقالوا: الفِرارُ في وَقتِه خيرٌ من الثَّباتِ في غيرِ وَقتِه.

- وقالوا: السِّلمُ أزكى للمالِ، وأبقى لأنفُسِ الرِّجالِ.

- وقيل لأعرابيٍّ: ألا تعرِفُ القتالَ؟! فإنَّ اللهَ قد أمرَك به. فقال: واللهِ إني لأبغِضُ الموتَ على فِراشي في عافيةٍ، فكيف أمضي إليه رَكضًا؟! قال الشَّاعِرُ:

تمشي المنايا إلى قومٍ فأُبغِضُها

فكيف أعدو إليها عاريَ الكَفَنِ)[5117].

- وقال الفرارُ السُّلَميُّ:

وفوارِسَ لَبَّستُها بفوارِسَ

[5112] أي: سَلَّ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: 313).

[5113] صقيلٌ، أي: مصقولٌ، يقالُ: صقَلتُ السَّيفَ: جَلَوتُه. يُنظَر: ((المصباح المنير في غريب الشرح الكبير)) للفيومي (345 /1)

[5114] يقال: نبا السَّيفُ عن الضَّريبة نَبْوًا ونَبْوةً: كَلَّ وارتدَّ عنها ولم يمْضِ. يُنظَر: ((تاج العروس من جواهر القاموس)) للزبيدي.

[5115] ((نهاية الأرب)) للنويري (3/320)

[5116] الأجَمُّ: الكَبشُ بغيرِ قَرنٍ. يُنظَر: ((تاج العروس)) للزبيدي.

[5117] ((نهاية الأرب)) (3/321، 322). ويُنظَر: ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (257 /1)

حتَّى إذا التَبَسَت أمَلْتُ بها يدي

وتركتُهم نَقْضَ الرِّماحِ ظُهورُهم

من بَيْنِ مقتولٍ وآخَرَ مُسنَدِ

هل ينفَعُني أن تقولَ نِساؤهم

وقُتِلْتُ دونَ رجالِهم لا تَبْعَدِ

- وقال آخَرُ:

قامت تُشَجِّعُني هندٌ فقُلتُ لها

إنَّ الشَّجاعةَ مقرونٌ بها العَطبُ

لا والذي منعَ الأبصارَ رؤيتَه

ما يشتهي الموتَ عندي مَن له أرَبُ

للحَربِ قومٌ أضَلَّ اللهُ سَعْيَهم

إذا دعَتْهم إلى نيرانِها وَثَبوا

- وقيل لجبانٍ في بعضِ الوقائِعِ: تقَدَّمْ. فقال:

وقالوا: تقدَّمْ قُلتُ لستُ بفاعلٍ

أخافُ على فخارتي أن تحطما

فلو كان لي رأسانِ أتلفَتُ واحِدًا

ولكِنَّه رأسٌ إذا زال أعقَما

وأوتَمُ أولادًا وأُرمَلُ نِسوةً

فكيف على هذا ترون التَّقدُّما[5118]

- (وقيل لأعرابيّ: ألا تغزو العَدُوَّ؟ قال: وكيف يكونون لي عدوًّا، وما أعرِفُهم ولا يعرفوني؟!)[5119].

-وقال أبو دلامةَ: (كنتُ مع مروانَ أيَّامَ الضَّحَّاكِ الحَروريّ، فخرج فارسٌ منهم فدعا إلى البرازِ، فخرج إليه رجلٌ فقتَلَه، ثمَّ ثانٍ فقتَلَه، ثمَّ ثالثٌ فقَتَله، فانقبض النَّاسُ عنه، وجعل يدنو ويَهدِرُ كالفَحلِ المغتَلِمِ[5120]. فقال مروانُ: من يخرجُ إليه وله

[5118] ((نهاية الأرب)) للنويري (3/324)

[5119] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (1/144)

[5120] الغُلْمةُ بالضَّمّ: شهوةُ الضِّرابِ. وقد غَلِم البعيرُ غُلمةً واغتلم، إذا هاج من ذلك. يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري.

عَشَرةُ آلافٍ؟ قال: فلمَّا سمِعتُ عَشَرةَ آلافٍ هانت عليَّ الدُّنيا، وسخوتُ بنفسي في سبيلِ عَشَرةِ آلافٍ، وبرزتُ إليه، فإذا عليه فروٌ قد أصابه المطَرُ فارمعَلَّ[5121]، ثمَّ أصابتْه الشَّمسُ فاقفعَلَّ[5122]، وله عينانِ تتَّقِدان كأنَّهما جمرتانِ. فلمَّا رآني فهم الذي أخرجَني، فأقبل نحوي وهو يرتجِزُ ويقولُ:

وخارِجٍ أخرجه حُبُّ الطَّمَعْ

فرَّ من الموتِ وفي الموتِ وَقَعْ

من كان ينوي أهلَه فلا رجَعْ

فلمَّا رأيتُه قنَّعْتُ رأسي، وولَّيتُ هاربًا، ومروانُ يقولُ: من هذا الفاضِحُ؟ لا يَفُتْكم، فدخَلتُ في غِمارِ النَّاسِ[5123] [5124].

- (وحُكيَ أنَّ عَمرَو بنَ مَعدِ يكَرِبَ مرَّ بحيٍّ من أحياءِ العرَبِ، وإذا هو بفَرَسٍ مشدودٍ، ورمحٍ مركوزٍ، وإذا صاحِبُها في وَهدةٍ[5125] من الأرضِ يقضي حاجتَه، فقال له عمرٌو: خُذْ حِذْرَك؛ فإني قاتِلُك لا محالةَ، فالتفتَ إليه، وقال له: من أنت؟ قال: أبو ثورٍ عَمرُو بنُ مَعد يكَرِبَ. قال: أنا أبو الحارِثِ، ولكِنْ ما أنصفْتَني أنت على ظَهرِ فَرَسِك، وأنا في وَهدةٍ، فأعطِني عَهْدَك ألَّا تقتُلَني حتى أركبَ فرسي، وآخُذَ حِذْري، فأعطاه عهدًا على ذلك، فخرج من الوهدةِ التي كان فيها، وجلس محتبيًا بحمائِلِ سيفِه! فقال له عمرٌو: ما هذا الجلوسُ؟! قال: ما أنا براكِبٍ فرسي ولا مقاتِلِك، فإن كنتَ نكَثْتَ العَهدَ فأنت أعلَمُ ما يلقى النَّاكِثُ! فتركه ومضى، وقال: هذا أجبَنُ مَن رأيتُ)[5126].

- ومن الفرَّارينَ: (أميَّةُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ خالِدِ بنِ أُسَيدٍ، فرَّ يومَ مرداء هَجَر من أبي فديكٍ، فسار من البحرينِ إلى البَصرةِ في ثلاثةِ أيَّامٍ، فجلس يومًا بالبصرةِ، فقال: سِرتُ على فرسي المهرجانِ من البحرينِ إلى البصرةِ في ثلاثةِ أيَّامٍ. فقال له بعضُ جُلَسائِه: أصلح اللهُ الأميرَ! فلو ركِبتَ النَّيروزَ لسِرتَ إليها في يومٍ واحدٍ. فلمَّا دخل عليه أهلُ البصرةِ لم يروا كيف يُكَلِّمونه، ولا ما يَلقَونه من القولِ، أيُهَنِّئونه أم يُعَزِّونه! حتى دخل عليه عبدُ اللهِ بنُ الأهتَمِ، فاستشرف النَّاسُ له، وقالوا: ما عسى أن يُقالَ للمنهزِمِ؟ فسَلَّمَ، ثمَّ قال: مرحبًا بالصَّابِرِ المخذولِ، الذي خذله قومُه، الحمدُ للهِ الذي نظَر لنا عليك، ولم ينظُرْ لك علينا؛ فقد تعرَّضْتَ للشَّهادةِ جُهدَك، ولكِنْ عَلِمَ اللهُ تعالى حاجةَ أهلِ الإسلامِ إليك؛ فأبقاك لهم بخذلانِ مَن معك لك! فقال أميَّةُ بنُ عبدِ اللَّهِ: ما وجَدْتُ أحدًا أخبرني عن نفسي غيرَك!)[5127].

- وقال أبو الغمرِ الرَّازيّ:

ظَلَّتْ تُشَجِّعُني هندٌ بتضليلِ

وللشَّجاعةِ خَطبٌ غيرُ مجهولِ

[5121] ارمعَلَّ الأديمُ: ترطَّب شديدًا. يُنظَر: ((تاج العروس)) للزبيدي.

[5122] المقفَعِلُّ: اليابسُ، واقفعَلَّت يدُه: تشنَّجَت وتقبَّضَت. يُنظَر: ((تاج العروس)) للزبيدي.

[5123] غمارُ النَّاسِ هو جمعُهم إذا تكاثف ودخل بعضُهم في بعضٍ. يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (401 /7)

[5124] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (1/143)

[5125] الوَهدةُ: الهوَّةُ تكونُ في الأرضِ. يُنظَر: ((تاج العروس)) للزبيدي (9/331)

[5126] ((غرر الخصائص الواضحة)) لأبي إسحاق الوطواط (ص: 457).

[5127] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (1/142)

هاتي شجاعًا بغيرِ القَتلِ مَصرَعُه

أُوجِدْك ألفَ جبانٍ غيرَ مقتولِ[5128]

- (قيل لبشَّارِ بنِ بُردٍ: فلانٌ يَزعُمُ أنَّه لا يبالي ألقيَ واحدًا أو ألفًا! قال: صدَق؛ لأنَّه يفِرُّ من الواحِدِ كما يفرُّ من الألفِ!

وقالوا: فلانٌ إذا ذُكِرت السُّيوفُ لمس رأسَه هل ذهَب! وإذا ذُكِرت الرِّماحُ جَسَّ صَدرَه هل ثُقِب! كأنَّه سُلِّمَ كتابَ الجُبْنِ صبيًّا، ولُقِّن كتابَ الفَشَلِ أعجميًّا!

وقالوا: فلانٌ تقلَّصَت من الفَزَعِ شَفَتاه، واصفَرَّت من الهَلَعِ وجْنَتاه!

وقالوا: فلانٌ إذا نظَرْتَ إليه شَزرًا، أغمِيَ عليه شهرًا!

وذمَّ بعضُهم جبانًا فقال: لو سُمِّيَت له الحربُ لعاف لفظَها قبل معناها، واسمَها قبلَ مُسَمَّاها.

وذمَّ آخَرُ جبانًا: فلانٌ يزحَفُ يومَ الزَّحفِ إلى خَلفٍ، ويُرِّوعُه الواحِدُ وهو في ألفٍ!

وذمَّ آخَرُ جبانًا فقال:

لو كنتَ في ألفِ ألفٍ كُلُّهم بَطَلٌ

مثلَ المجفَّفِ داودَ بنِ حَمدانِ

وتحتك الرّيحُ تجري حيثُ تأمُرُها

وفي يمينكِ سَيفٌ غيرُ خَوَّانِ

لكنتَ أوَّلَ فَرَّارٍ إلى عَدَنٍ

إذا تجَرَّدَ سَيفٌ في خُراسانِ

وانهزم بعضُهم فأخذ أميرُه يوبِّخُه ويعنِّفُه على فرارِه، وقال: أعطِيتَ بيَدِك ولا طعَنْتَ ولا ضرَبْتَ؟! فقال: لأن يشتُمَني الأميرُ -أصلحه اللَّهُ- وأنا حيٌّ خيرٌ من أن يترحَّمَ عليَّ وأنا مَيِّتٌ!)[5129].

المطلب التاسع: حُكمُ الجُبْنِ

الجُبْنُ خُلُقٌ مذمومٌ عِندَ جميعِ الخَلقِ[5130] ويحرُمُ إذا أدَّى إلى ضياعِ واجبٍ أو الوقوعِ في محرَّمٍ، وقد يُكرَهُ إذا لم يترَتَّبْ عليه شيءٌ من ذلك.

المطلب العاشر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ الجُبْنِ

[5128] ((الدر الفريد)) للمستعصمي (7 /11)

[5129] يُنظَر: ((غرر الخصائص الواضحة)) للوطواط (ص: 449، 450، 466).

[5130] ((الفروسية)) لابن القيم (ص: 491).

- قال أبو حامدٍ الغَزاليُّ: (وقد يُسَمّي الجبانُ الجُبْنَ والقصورَ باسمِ الحزمِ والحَذَرِ، كما قيل:

ترى الجُبَناءُ أنَّ الجُبْنَ حَزمٌ

وتلك خديعةُ الطَّبعِ اللَّئيمِ)[5131].

- وقال ابنُ القَيّمِ (المشهورُ عِندَ النَّاسِ أنَّ البُخلَ مُستلزِمٌ الجُبْنَ من غيرِ عَكس؛ لأنَّ مَن بَخِل بمالِه فهو بنفسِه أبْخَلُ، وما قالوه ليس بلازمٍ أكثَرُه؛ فإنَّ الشَّجاعةَ والكَرَمَ وأضدادَها أخلاقٌ وغرائزُ قد تُجمَعُ في الرَّجُلِ، وقد يُعطى بعضَها دونَ بعضٍ، وقد شاهد النَّاسُ من أهلِ الإقدامِ والشَّجاعةِ والبأسِ مَن هو أبْخَلُ النَّاسِ، وهذا كثيرًا ما يوجَدُ في أمَّةِ التُّركِ؛ يكونُ أشجَعَ مِن لَيثٍ وأبْخَلَ مِن كلبٍ! فالرَّجُلُ قد يسمَحُ بنفسِه ويَضَنُّ بمالِه؛ ولهذا يقاتِلُ عليه حتى يُقتَلَ، فيبدأُ بنفسِه دونَه، فمِن النَّاسِ مَن يسمَحُ بنفسِه ومالِه، ومنهم من يبخَلُ بنفسِه، ومنهم من يسمَحُ بمالِه ويبخَلُ بنفسِه، وعكسُه، والأقسامُ الأربعةُ موجودةٌ في النَّاسِ)[5132].

- ليس كُلُّ من يخافُ من المواقِفِ جبانًا، ولكِنَّ الجبانَ هو من يزيدُ خَوفُه عن حاجةِ الموقِفِ عِندَ الشِّجعانِ الأسوياءِ حتى يمنعَه عن الإقدامِ والاستِبسالِ، أو هو من يخافُ فيَجبُنُ في المواقِفِ التي يجمُلُ فيها ويحسُنُ الإقدامُ وعَدَمُ الخَوفِ[5133].

المطلب الحادي عشر: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

-قال أبو حيَّانَ التَّوحيديُّ: (أمَّا الشَّجاعةُ والجُبْنُ فهما خُلُقانِ متَّصِلان بالخَلقِ؛ ولهذا يَعِزُّ على الشُّجاعِ أن يتحوَّلَ جبانًا، ويتعَذَّرُ على الجبانِ أن يصيرَ شجاعًا، وكذلك طرَفاهما داخلانِ في الخُلُقِ، أعني التَّهوُّرَ والتَّوقِّيَ)[5134].

-قال المنفلوطيُّ: (بينَ الجُبْنِ والتَّهوُّرِ منزلةٌ هي الشَّجاعةُ والإقدامُ، وبينَ البُخلِ والإسرافِ مَنزِلةٌ هي الكَرَمُ، وبينَ العَفوِ والانتقامِ مَنزِلةٌ هي العقوبةُ، وبينَ العَجزِ والجَهلِ منزِلةٌ هي الحِكمةُ؛ فلْيَكُنْ مِن أفضَلِ ما تأخُذُ به نفسَك التَّرَيُّثُ والتَّثبُّتُ عِندَ النَّظَرِ في الفَرْقِ بَيْنَ مشتَبِهِ الفضائِلِ والرَّذائِلِ، واعلَمْ أنَّك لا تزالُ كريمًا حتى تُنفِقَ مالَك في غيرِ مَوضِعِه، فإذا أنت مُسرِفٌ، وأنَّك لا تزالُ حليمًا حتى تغضَبَ للباطِلِ، فإذا أنت جَهولٌ، وأنَّك لا تزالُ جبانًا حتى تقاتِلَ عن عِرضِك وشَرَفِك، فإذا أنت شجاعٌ، وأنَّ كُلَّ النَّاسِ يعرِفون الفضائِلَ والرَّذائِلَ ويَفهَمون معانيَها، أمَّا إدراكُ الفُروقِ بَيْنَ مُشتَبِهاتِها ونظائِرِها فتلك رُتبةُ العُقَلاءِ الأذكياءِ)[5135].

-وممَّا قيل عن الجُبْنِ: إنَّه (النَّزَقُ[5136] عِندَ الفَزَعِ، والهَلَعُ عِندَ الجَزَعِ). وعن الشَّجاعةِ: إنَّها (صِدقُ الباسِ، والصَّبرُ عِندَ المراسِ[5137] [5138]. وقيل: (الجُبْنُ: الجرأةُ على الصَّديقِ، والنُّكولُ عن العَدوِّ)[5139].

[5131] ((إحياء علوم الدين)) (2/ 247). والبيت في ديوان المتنبي (ص: 232) بلفظ: ترى الجُبَناءُ أنَّ العجزَ عَقلٌ.

[5132] ((مفتاح دار السعادة)).(113 /1)

[5133] ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) للميداني.(2/606)

[5134] ((الإمتاع والمؤانسة)) (ص: 113).

[5135] ((النظرات)) (345 /2، 346)

[5136] النَّزَقُ: الخِفَّةُ والطَّيشُ. يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري.

[5137] المِراسُ: الممارسةُ والمعالجةُ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: 293).

[5138] يُنظَر: ((الجليس الصالح الكافي)) للمعافى بن زكريا (ص: 662).

[5139] المصدر السابق (ص: 578).

-وصَف اللهُ تعالى اليهودَ بشِدَّةِ الحِرصِ على الحياةِ، فقال تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [البقرة: 96] إشعارًا بأنَّهم جُبَناءُ في مواقِفِ القتالِ، ومعلومٌ أنَّ الحِرصَ على الحياةِ يورِثُ الجُبْنَ في القلوبِ، ومن ظواهِرِ جُبنِهم أنَّهم لا يقاتِلون المسلمين مجتَمِعين إلَّا إذا كانوا في قُرًى محصَّنةٍ أو كانوا وراءَ جُدُرٍ، قال تعالى: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ} [الحشر: 14].[5140]

[5140] ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) للميداني.(2/607)

المبحث العشرون: الجزع

المطلب الأول: معنى الجَزَعِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى الجَزَعِ لُغةً:**

الجَزَعُ بالتَّحريكِ: نقيضُ الصَّبرِ، وقد جَزِعَ يجزَعُ جَزَعًا فهو جازِعٌ، فإذا كَثُرَ منه الجَزَعُ، فهو جَزوعٌ. والجَزوعُ: ضِدُّ الصَّبورِ على الشَّرِّ. وأجزَعَه غَيرُه[5141].

- **معنى الجَزَعِ اصطِلاحًا:**

قال أبو هِلالٍ: (الجَزَعُ: إظهارُ ما يلحَقُ المُصابَ مِن المَضَضِ والغَمِّ)[5142].

وقال الرَّاغِبُ: (والجَزَعُ هو: حُزنٌ يصرِفُ الإنسانَ عَمَّا هو بصَدَدِه، ويقطَعُه عنه)[5143].

قال ابنُ فارِسٍ: (هو انقِطاعُ المُنَّةِ[5144] عن حَملِ ما نَزَل)[5145].

وقال السُّيوطيُّ: (الجَزَعُ: ما يعتَري مِن الشَّيءِ المُؤلِمِ)[5146].

وقال أبو حَيَّانَ: (الجَزَعُ: عَدَمُ احتِمالِ الشِّدَّةِ، وهو نقيضُ الصَّبرِ)[5147].

المطلب الثاني: الفَرقُ بَينَ الجَزَعِ وبَعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرقُ بَينَ الجَزَعِ والفَزَعِ:**

قال الرَّاغِبُ: (الفَزَعُ والجَزَعُ أخَوانِ، لكِنَّ الفَزَعَ ما يعتَري الإنسانَ مِن الشَّيءِ المُخيفِ، والجَزَعَ ما يعتَري مِن الشَّيءِ المُؤلِمِ، والفَزَعُ لفظٌ عامٌّ، سَواءٌ كان عارِضًا عن أمارةٍ ودَلالةٍ، أو حاصِلًا لا عن ذلك)[5148].

- **الفَرقُ بَينَ الجَزَعِ ورِقَّةِ القَلبِ:**

قال ابنُ القَيِّمِ: (والفَرقُ بَينَ رِقَّةِ القَلبِ والجَزَعِ: أنَّ الجَزَعَ ضَعفٌ في النَّفسِ، وخَوفٌ في القَلبِ، يمُدُّه شِدَّةُ الطَّمَعِ والحِرصِ، ويتَوَلَّدُ مِن ضَعفِ الإيمانِ بالقدَرِ... فمَتى عَلِمَ أنَّ المُقدَّرَ كائِنٌ -ولا بُدَّ- كان الجَزَعُ عناءً مَحضًا ومُصيبة ثانيةً. أمَّا رِقَّةُ القَلبِ فإنَّها مِن الرَّحمةِ، وقد كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسَلَّمَ أرَقَّ النَّاسِ قَلبًا، وأبعَدَهم مِن الجَزَعِ؛ فرِقَّةُ القَلبِ رَأفةٌ ورَحمةٌ،

[5141] ((الصحاح)) للجوهري، ((تهذيب اللغة)) للأزهري.

[5142] ((الفروق)) (ص: 200).

[5143] ((المفردات)) (194، 195).

[5144] المُنَّةُ: القُوَّةُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: 299).

[5145] ((مقاييس اللغة)) (453/1).

[5146] ((معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم)) للسيوطي (ص: 204).

[5147] ((البحر المحيط في التفسير)) (6/ 421).

[5148] ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص: 234).

وجَزَعُه مَرَضٌ وضَعفٌ، فالجَزَعُ حالُ قَلبٍ مَريضٍ بالدُّنيا، قد غَشيَه دُخانُ النَّفسِ الأمَّارةِ، فأخَذَ بأنفاسِه، وضَيَّقَ عليه مَسالِكَ الآخِرة، وصارَ في سِجنِ الهَوى والنَّفسِ، وهو سِجنٌ ضَيِّقُ الأرجاءِ، مُظلِمُ المَسلَكِ، فانحِصارُ القَلبِ وضيقُه يجعَلُه يجزَعُ مِن أدنى ما يُصيبُه ولا يحتَمِلُه، فإذا أشرَقَ فيه نورُ الإيمانِ واليقينِ بالوَعدِ، وامتَلأ مِن مَحبَّةِ اللهِ وإجلالِه، رَقَّ وصارَت فيه الرَّأفةُ والرَّحمةُ، فتَراه رَحيمًا رَقيقَ القَلبِ بكُلِّ ذي قُربى ومُسلِمٍ، يرحَمُ النَّملةَ في جُحرِها، والطَّيرَ في وَكرِه، فضلًا عن بَني جِنسِه؛ فهذا أقرَبُ القُلوبِ مِن اللهِ تعالى)[5149].

المطلب الثالث: ذَمُّ الجَزَعِ والنَّهيُ عنه

أ - مِن القُرآنِ الكَريمِ:

- قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ} [المعارج: 19 - 22].

قال السَّعديُّ: (فيَجزَعُ إن أصابَه فقرٌ أو مَرَضٌ، أو ذَهابُ مَحبوبٍ له، مِن مالٍ أو أهلٍ أو ولَدٍ، ولا يَستَعمِلُ في ذلك الصَّبرَ والرِّضا بما قَضى اللهُ)[5150].

- وقال تعالى: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} [يوسف: 18].

قال ابنُ القَيِّمِ: (لا جَزَعَ فيه)[5151].

- وقال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا} [يونس: 12].

قال ابنُ كَثيرٍ عندَ هذه الآيةِ: (يُخبِرُ تعالى عن الإنسانِ وضَجَرِه وقَلَقِه إذا مَسَّه الضُّرُّ، كقَولِه: {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ} [فصلت: 51]، أي: كَثيرٍ، وهما في معنًى واحِدٍ؛ وذلك لأنَّه إذا أصابَته شِدَّةٌ قَلِقَ لها، وجَزِعَ منها، وأكثَرَ الدُّعاءَ عندَ ذلك، فدَعا اللهَ في كَشفِها ورَفعِها عنه...)[5152].

- (والصَّبرُ والجَزَعُ ضِدَّانِ؛ ولهذا يُقابَلُ أحَدُهما بالآخَرِ؛ قال تعالى عن أهلِ النَّارِ: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} [إبراهيم: 21])[5153].

ب- مِنَ السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((بعَث رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَشرةَ رَهطٍ[5154] سَرِيَّةً[5155] عينًا[5156]... قال لهم خُبَيبٌ: دعوني أصَلِّي ركعتينِ، فتركوه فركَع ركعتينِ، فقال: واللهِ لولا أن تحسَبوا أنَّ ما بي جَزعٌ لزِدتُ، ثمَّ قال: اللَّهُمَّ أحصِهم عددًا))[5157].

[5149] ((الروح)) (ص: 250).

[5150] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 887).

[5151] ((بدائع الفوائد)) (4/175).

[5152] ((تفسير القرآن العظيم)) (4/252).

[5153] ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: 18).

- عن عَمرِو بنِ تَغلِبَ: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُتِيَ بمالٍ أو سَبيٍ، فقَسَمُه، فأعطى رِجالًا وتَرك رِجالًا، فبلَغَه أنَّ الذين تَرك عَتَبوا، فَحَمِد اللهَ ثُمَّ أثنى عليه، ثُمَّ قال: أمَّا بَعدُ، فواللهِ إنِّي لأُعطي الرَّجُلَ، وأدَعُ الرَّجُلَ، والذي أدَعُ أحَبُّ إليَّ مِن الذي أُعطي، ولكنْ أُعطي أقوامًا لِما أرى في قُلوبِهم مِن الجَزَعِ والهَلَعِ، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جَعَلَ اللهُ في قُلوبِهم مِن الغِنى والخَيرِ، فيهم عَمرُو بنُ تَغلِبَ. فواللهِ ما أُحِبُّ أنَّ لي بكَلِمةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حُمْرَ النَّعَمِ[5158])[5159].

(أي: مِن شِدَّةِ الألمِ والضَّجَرِ الذي يُصيبُ نُفوسَهم لو لم يُعطَوا مِن الغَنيمةِ، فأُعطيهم تأليفًا لقُلوبِهم، وتَطييبًا لنُفوسِهم)[5160].

- عن جُندَبِ بنِ عبدِ اللهِ قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كان فيمن كان قَبلَكم رجُلٌ به جُرحٌ فجَزِع فأخَذ سِكّينًا فحَزَّ[5161] بها يَدَه، فما رقَأَ[5162] الدَّمُ حتَّى مات. قال اللَّهُ تعالى: بادَرني عبدي بنفسِه، حرَّمْتُ عليه الجنَّةَ))[5163].

قال العَينيُّ: (قولُه: "فجَزِع"، أي: لم يصبِرْ على الألمِ)[5164].

- عن مَحمودِ بنِ لَبيدٍ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا أحَبَّ اللهُ قَومًا ابتَلاهم، فمَن صَبَرَ فله الصَّبرُ، ومَن جَزِعَ فله الجَزَعُ))[5165].

ومعنى الحَديثِ: (مَن يُرِدِ اللهُ به خَيرًا أوصَلَ إليه مُصيبةً؛ ليطهِّرَه به من الذُّنوبِ، وليرفَعَ دَرَجتَه)[5166].

قَولُه: ((ومَن جَزِعَ فله الجَزَعُ))، أي: ومَن جَزِعَ فعليه وِزرُ جَزَعِه[5167].

ج- مِن أقوالِ السَّلَفِ والعُلماءِ:

- قال عَليُّ بنُ أبي طالِبٍ رَضيَ اللهُ عنه للأشعَثِ بنِ قَيسٍ: (إنَّك إن صَبَرتَ جَرى عليك القَلَمُ وأنت مَأجورٌ، وإن جَزِعتَ جَرى عليك القَلَمُ وأنتَ مَأزورٌ)[5168].

- و (قال مُحَمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظيُّ: الجَزَعُ: القَولُ السَّيِّئُ، والظَّنُّ السَّيِّئُ)[5169].

[5154] الرَّهطُ من الرِّجالِ ما دونَ العَشَرةِ، وقيل: إلى أربعينَ، ولا يكونُ فيهم امرأةٌ ولا واحِدَ له من لفظِه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (14/291).

[5155] السَّرِيَّةُ: طائفةٌ من الجيشِ يبلغُ أقصاها أربعَمائةٍ تبعَثُ إلى العَدُوِّ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (14/291). الرَّهطُ من الرِّجالِ ما دونَ العَشَرةِ، وقيل: إلى أربعينَ، ولا يكونُ فيهم امرأةٌ ولا واحِدَ له من لفظِه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (14/291).

[5156] عينًا: أي: جاسوسًا. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (14/291).

[5157] رواه البخاري (3045) مطوَّلًا.

[5158] حُمرُ النَّعَمِ: هي الإبِلُ الحُمرُ، وهي أنفَسُ أموالِ العَرَبِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (15/178).

[5159] رواه البخاري (923).

[5160] ((منار القاري)) لحمزة محمد قاسم (2/254).

[5161] فحَزَّ: قطَع بها يدَه من غيرِ إبانةٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (5/424).

[5162] فما رقَأَ: أي: لم ينقَطِعْ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (5/424)..

[5163] رواه البخاري (3463) واللفظ له، ومسلم (113)..

[5164] ((عمدة القاري)) (16/47)

[5165] رواه أحمد (23633) واللفظ له، وابن شاهين في ((الترغيب في فضائل الأعمال)) (275)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (9784). صحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (1706)، وجوَّد إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (23633)، ووثَّق رجاله الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (2/295).

[5166] ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (8/342)..

[5167] ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (7/ 242).

[5168] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 288).

- (وسُئِلَ القاسِمُ بنُ مُحَمَّدٍ عن الجَزَعِ، فقال: القَولُ السَّيِّئُ، والظَّنُّ السَّيِّئُ)[5170].

- وقال ابنُ السَّمَّاكِ: (المُصيبةُ واحِدةٌ، فإن جَزِعَ صاحِبُها فهما ثِنتانِ، وما مِن مُصيبةٍ إلَّا ومعها أعظَمُ منها؛ إن صَبرَ فالثَّوابُ، وإن جَزِعَ فسوءُ الخَلَفِ، بكَونِ ما فاتَه مِن ثَوابِ اللهِ أعظَمَ مِن المُصيبةِ)[5171].

- و (قال مَنصورُ بنُ عَمَّارٍ: مَن جَزِعَ مِن مَصائِبِ الدُّنيا تحَوَّلَت مُصيبتُه في دينِه)[5172].

- عن إبراهيمَ بنِ بَشَّارٍ قال: نظَر إبراهيمُ بنُ أدهَمَ إلى رَجُلٍ قد أُصيبَ بمالٍ ومَتاعٍ، ووَقَعَ الحَريقُ في دُكَّانِه فاشتَدَّ جَزَعُه حتى خولِطَ في عَقلِه، فقال: (يا عَبدَ اللهِ، إنَّ المالَ مالُ اللهِ، متَّعك به إذ شاءَ، وأخَذَه منك إذ شاءَ، فاصبِرْ لأمرِه ولا تجزَعْ؛ فإنَّ مِن تمامِ شُكرِ اللهِ على العافيةِ الصَّبرَ له على البليَّةِ، ومَن قدَّم وَجَد، ومَن أخَّرَ فقد نَدِم)[5173].

- وقال مالِكُ بنُ دينارٍ: (ما مِن أعمالِ البِرِّ عَمَلٌ إلَّا ودونَه عَقَبةٌ، فإن صَبرَ صاحِبُها أفضَت به إلى رَوحٍ، وإن جَزِعَ رَجَعَ)[5174].

- وكَتَبَ القاضي الفاضِلُ إلى السُّلطانِ أثناءَ حِصارِ عَكَّا: (لا بُدَّ أن تَنفُذَ مَشيئةُ اللهِ في خَلقِه، ولا رادَّ لحُكمِه، فلا يتَسَخَّطْ مَولانا بشَيءٍ مِن قَدَرِه؛ فلَأَنْ يجريَ القَضاءُ وهو راضٍ مَأجورٌ خَيرٌ مِن أن يجريَ وهو ساخِطٌ مَوزورٌ، فيصطَليَ نارَ الشِّدَّةِ أعاذَه اللهُ منها، ولا يجِدُ راحةَ الثَّوابِ وفَّرَ اللهُ حَظَّه منه)[5175].

- وقال يحيى بنُ مُعاذٍ: (حُفَّت الجَنَّةُ بالمَكارِهِ وأنت تكرَهُها، وحُفَّت النَّارُ بالشَّهَواتِ وأنت تطلُبُها، فما أنت إلَّا كالمَريضِ الشَّديدِ الدَّاءِ؛ إن صَبرَ نفسَه على مَضَضِ الدَّواءِ اكتَسَبَ بالصَّبرِ عافيةً، وإن جَزِعَت نفسُه مِمَّا يلقى طالَت به عِلَّةُ الضَّنا)[5176].

- وقال أبو سَعيدٍ الخَرَّازُ: (العافيةُ سَتَرَت البَرَّ والفاجِرَ، فإذا جاءَت البلوى يتَبَيَّنُ عندَها الرِّجالُ)[5177].

- وقال شُمَيطُ بنُ عَجلانَ: (إنَّ العافيةَ سَتَرَت البَرَّ والفاجِرَ، فإذا جاءَت البلايا استَبانَ عندَها الرَّجُلانِ؛ فجاءَت البلايا إلى المُؤمِنِ فأذهَبَت مالَه وخادِمَه ودابَّتَه حتى جاعَ بَعدَ الشِّبَعِ، ومَشى بَعدَ الرُّكوبِ، وخَدَمَ نفسَه بَعدَ أن كان مَخدومًا، فصَبرَ ورَضيَ بقَضاءِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وقال: هذا نَظَرٌ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ لي، هذا أهونُ لحِسابي غَدًا. وجاءَت البلايا إلى الفاجِرِ فأذهَبت مالَه وخادِمَه ودابَّتَه، فجَزِعَ وهَلَعَ، وقال: واللهِ ما لي بهذا طاقةٌ، واللهِ لقد عَوَّدتُ نفسي عادةً ما لي عنها صَبرٌ مِن الحُلوِ والحامِضِ، والحارِّ والبارِدِ، ولينِ العَيشِ، فإن هو أصابَه مِن الحَلالِ وإلَّا طَلَبَه مِن الحَرامِ والظُّلمِ؛ ليعودَ إليه ذلك العَيشُ).

[5169] رواه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم قبل حديث (1301).

[5170] ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: 99).

[5171] رواه أبو الحسن المدائني في ((التعازي)).(124)

[5172] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (9/327)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)).(60/328)

[5173] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (8/ 32، 33)، ((شعب الإيمان)) للبيهقي.(402 /12)

[5174] ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (43)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (2/371).

[5175] ((الروضتين في أخبار الدولتين)) لأبي شامة (4/ 186).

[5176] ((صفة الصفوة)) لابن الجوزي (4/94).

[5177] المصدر السابق (1/ 529).

- وقال الجاحِظُ: (وهذا الخُلُقُ -أي الجَزَعُ- مُرَكَّبٌ مِن الحُرقِ[5178] والجُبنِ، وهو مُستَقبَحٌ إذا لم يكُنْ مُجديًا ولا مُفيدًا)[5179].

- وقال الجاحِظُ: (اعلَمْ أنَّ الحُكَماءَ لم تذُمَّ شَيئًا ذَمَّها أربَعَ خِلالٍ: الكَذِبُ؛ فإنَّه جِماعُ كُلِّ شَرٍّ، وقد قالوا: لم يكذِبْ أحَدٌ قَطُّ إلَّا لصِغَرِ قَدرِ نفسِه عندَه. والغَضَبُ؛ فإنَّه لُؤمٌ وسوءُ مَقدِرةٍ، وذاك أنَّ الغَضَبَ ثَمرةٌ لِخِلافِ ما تهوى النَّفسُ، فإن جاءَ الإنسانَ خِلافُ ما يهوى مِمَّن فوقَه أغضى وسَمَّى ذلك حُزنًا، وإن جاءه ذلك مِمَّن دونَه حَمَلَه لُؤمُ النَّفسِ وسوءُ الطِّباعِ على الاستِطالةِ بالغَضَبِ، والمَقدرةِ والبَسطةِ على البَطشِ. والجَزَعُ عندَ المُصيبةِ التي لا ارتِجاعَ لها؛ فإنَّهم لم يجعَلوا لصاحِبِ الجَزَعِ في مِثلِ هذا عُذرًا، لِما يتَعَجَّلُ مِن غَمِّ الجَزَعِ مع عِلمِه بفَوتِ المَجزوعِ عليه، وزَعَموا أنَّ ذلك مِن إفراطِ الشَّرَهِ، وأنَّ أصلَ الشَّرَهِ والحَسَدِ واحِدٌ وإن افتَرَقَ فرعاهما، وذَمُّوا الحَسَدَ كذَمِّهم الجَزَعَ؛ لِما يتَعَجَّلُ صاحِبُه مِن ثِقَلِ الاغتِمامِ، وكُلفةِ مُقاساةِ الاهتِمامِ، مِن غَيرِ أن يُجديَ عليه شَيئًا)[5180].

- وقال أبو اللَّيثِ السَّمَرقَنديُّ: (الجَزَعُ لا يُرَدُّ مَيِّتًا، ويُبطِلُ ثَوابَ المُصيبةِ؛ لأنَّ الذي يجزَعُ على المُصيبةِ إنَّما يشكو رَبَّه، ويرُدُّ قَضاءَه)[5181].

- وقال ابنُ حَزمٍ: (إنَّ إظهارَ الجَزَعِ عندَ حُلولِ المَصائِبِ مَذمومٌ؛ لأنَّه عَجزَ مَظهَرُه عن مَلْكِ نفسِه، فأظهَرَ أمرًا لا فائِدةَ فيه، بل هو مَذمومٌ في الشَّريعةِ، وقاطِعٌ عَمَّا يلزَمُ مِن الأعمالِ وعن التَّأهُّبِ لِما يُتوَقَّعُ حُلولُه مِمَّا لعَلَّه أشنَعُ مِن الأمرِ الواقِعِ الذي عنه حَدَثَ الجَزَعُ... فلمَّا كان إظهارُ الجَزَعِ مَذمومًا، كان ضِدُّه مَحمودًا، وهو إظهارُ الصَّبرِ؛ لأنَّه مَلْكُ النَّفسِ، واطِّراحٌ لِما لا فائِدةَ فيه، وإقبالٌ على ما يعودُ ويُنتَفَعُ به في الحالِ وفي المُستَأنَفِ)[5182].

- وقال ابنُ الجَوزيِّ: (الجَزَعُ لا يُفيدُ، بل يفضَحُ صاحِبَه)[5183].

- وقال ابنُ تيميَّة: (قال بَعضُ العُقَلاءِ: الأُمورُ أمرانِ: أمرٌ فيه حيلةٌ، وأمرٌ لا حيلةَ فيه؛ فما فيه حيلةٌ لا يُعجَزُ عنه، وما لا حيلةَ فيه لا يُجزَعُ منه) [5184].

- وقال ابنُ القَيِّمِ: (الجَزَعُ يُشمِتُ عَدوَّه، ويَسوءُ صَديقَه، ويُغضِبُ رَبَّه، ويَسُرُّ شَيطانَه، ويُحبِطُ أجرَه، ويُضعِفُ نفسَه)[5185].

المطلب الرابع: آثارُ الجَزَعِ

1 -سوءُ الظَّنِّ باللهِ، وعَدَمُ الثِّقةِ به سُبحانَه.

2 -انتِفاءُ كمالِ الإيمانِ.

3 -عَدَمُ الرِّضا بالمَقدورِ، وعَجزُه عن فِعلِ المَأمورِ.

[5178] الحُرقُ: الجَهلُ والحُمقُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[5179] ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص: 34).

[5180] ((الرسائل)) (1/ 123).

[5181] ((تنبيه الغافلين)) (ص: 257).

[5182] ((رسائل ابن حزم)) (1/406).

[5183] ((صيد الخاطر)) (ص: 171).

[5184] يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (8/ 285، 320) و (10/ 507) و (16/ 39) ويُنظر: ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (12/ 700).

[5185] ((زاد المعاد)) (4/ 176).

4 -استِحقاقُ العَذابِ في الآخِرةِ.

5 -قَلَقُ النَّفسِ واضطِرابُها.

6 -الجَزِعُ يشقى به جُلَساؤُه، ويملُّه أقرِباؤُه[5186].

7 -الجَزَعُ قد يحمِلُ الإنسانَ على الدُّعاءِ على نفسِه[5187].

8 -الجَزَعُ يورِثُ الحَسرةَ والنَّدامةَ:

قيل للأحنَفِ: إنَّك لَصَبورٌ على الجَزَعِ! فقال: الجَزَعُ شَرُّ الحالينِ؛ يُباعِدُ المَطلوبَ، ويُورِثُ الحَسرةَ، ويُبقي على صاحِبِه النَّدَم[5188].

9 - فواتُ الأجرِ، وتَضاعُفُ المُصيبةِ:

قال ابنُ القَيِّمِ: (الجَزَعُ لا يُفيدُ إلَّا فواتَ الأجرِ وتَضاعُفَ المُصيبةِ)[5189].

10 - الجَزَعُ يورِثُ السَّقَمَ:

قال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: (إنَّ الجَزَعَ يورِثُ السَّقَمَ، وبالسَّقَمِ يكونُ المَوتُ، وبالبُرءِ تكونُ الحياةُ)[5190].

11- زيادةُ البلاءِ.

المطلب الخامس: أقسامُ الجَزَعِ

قسَّم سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ -فيما رُوي عنه- الصَّبرَ إلى قِسمَينِ: الأوَّلُ: صَبرٌ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ، وصَبرٌ لِما افتَرَضَ اللهُ مِن عِبادتِه، والثَّاني: صَبرٌ في المَصائِبِ، وفي المُقابِلِ قسَّمَ الجَزَعَ إلى قِسمَينِ، فقال: (الجَزَعُ على نحوينِ: أحَدُهما في الخَطايا: أن يجزَعَ الرَّجُلُ إليها، والآخَرُ في المَصائِبِ؛ فأمَّا جَزَعُ المُصيبةِ فهو ألَّا يحتَسِبَها العَبدُ عندَ اللهِ، ولا يرجوَ ثَوابَها، ويرى أنَّه سوءٌ أصابَه، فذلك الجَزَعُ، ويفعَلُ ذلك وهو مُتَجَلِّدٌ لا يَبِينُ منه إلَّا الصَّبرُ)[5191].

المطلب السادس: صوَرُ الجَزَعِ

1- تَمَنِّي المَوتِ: عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يتَمَنَّيَنَّ أحَدُكم المَوتَ مِن ضُرٍّ أصابه، فإن كان لا بُدَّ فاعِلًا فليقُلِ: اللَّهُمَّ أحيِني ما كانت الحَياةُ خَيرًا لي، وتَوَفَّني إذا كانت الوَفاةُ خَيرًا لي))[5192].

[5186] ((نضرة النعيم)) (4357/9).

[5187] ((فيض القدير)) للمناوي (330/1).

[5188] ((المجالسة وجواهر العلم)) لأبي بكر الدينوري (113/5).

[5189] ((طريق الهجرتين)) (ص: 218).

[5190] ((التذكرة الحمدونية)) لابن حمدون (183/1).

[5191] رواه ابن أبي الدنيا في ((الصبر والثواب)) (188).

[5192] أخرجه البخاري (5671) واللفظ له، ومسلم (2680).

وفيه: النَّهيُ عن تَمَنِّي المَوتِ عندَ نُزولِ البلاءِ[5193]. وقولُه: ((مِن ضُرٍّ أصابَه)) حَمَلَه جَماعةٌ مِن السَّلَفِ على الضُّرِّ الدُّنيويِّ، فإن وجَدَ الضُّرَّ الأُخرَويَّ بأن خَشيَ فِتنةً في دينِه، لم يدخُلْ في النَّهيِ[5194].

2- ضَربُ الخُدودِ.

3- شَقُّ الثِّيابِ.

4- نشرُ الشُّعورِ.

5- الدُّعاءُ بالوَيلِ والثُّبورِ.

6- وَضعُ التُّرابِ على الرَّأسِ.

7- التَّسَخُّطُ والاعتِراضُ على قدَرِ اللهِ.

المطلب السابع: أسبابُ الوُقوعِ في الجَزَعِ

1 -تذَكُّرُ المُصابِ حتى لا يتَناساه، وتَصَوُّرُه حتى لا يَعزُبَ عنه[5195]، ولا يجِدُ مِن التَّذكارِ سَلوةً، ولا يخلِطُ مع التَّصَوُّرِ تعزيةً، وقد قال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضيَ اللهُ عنه: لا تستَفِزُّوا الدُّموعَ بالتَّذَكُّرِ.

قال الشَّاعِرُ: ولا يبعَثُ الأحزانَ مِثلُ التَّذَكُّرِ[5196].

2 -الأسَفُ وشِدَّةُ الحَسرةِ، فلا يرى مِن مُصابِه خَلَفًا، ولا يجِدُ لمَفقودِه بَدَلًا؛ فيزدادُ بالأسَفِ ولَهًا، وبالحَسرةِ هَلَعًا؛ ولذلك قال اللهُ تعالى: {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد: 23].

وقال بَعضُ الشُّعَراءِ:

إذا بُلِيتَ فثِقْ باللهِ وارْضَ به

إنَّ الذي يكشِفُ البلوى هو اللهُ

إذا قضى اللهُ فاستسلِمْ لقُدرتِه

ما لامرِئٍ حيلةٌ فيما قضى اللهُ

اليأسُ يقطَعُ أحيانًا بصاحِبِه

لا تيأسَنَّ فإنَّ الصَّانعَ اللهُ.[5197]

[5193] ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) للعيني (21/ 225).

[5194] ((فتح الباري)) لابن حجر (10/ 128). ويُنظر: ((فقه الجنائز)) إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدُّرَر السَّنيَّة (ص: 27).

[5195] يَعزُبُ: يغيبُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور .

[5196] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 298).

[5197] المصدر السابق.

3 -كَثرةُ الشَّكوى؛ فقد قيل في قَولِه تعالى: فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا [المعارج: 5]: إنَّه الصَّبرُ الذي لا شَكوى فيه ولا بَثَّ[5198].

4 -اليأسُ مِن جَبرِ مُصابِه، فيقتَرِنُ بحُزنِ الحادِثةِ قُنوطُ الإياسِ، فلا يبقى معها صَبرٌ، ولا يتَّسِعُ لها صَدرٌ. وقد قيل: المُصيبةُ بالصَّبرِ أعظَمُ المُصيبَتَينِ. وقال الشَّاعِرُ:

اصبري أيَّتُها النَّفـ

ـسُ فإنَّ الصَّبرَ أحجى

ربَّما خاب رجاءٌ

وأتى ما ليس يُرجى[5199]

وأنشَدُ بَعضُ أهلِ العِلمِ:

أتحسَبُ أنَّ البُؤسَ للحُرِّ دائِمٌ

ولو دام شيءٌ عدَّه النَّاسُ في العَجَبْ

لقد عرَّفَتْكَ الحادثاتُ ببُؤسِها

وقد أُدِّبتَ إن كان ينفَعُك الأدَبْ

ولو طَلَب الإنسانُ مِن صَرفِ دَهرِه

دوامَ الذي يخشى لأعياه ما طَلَبْ[5200].

5 -أن يغرى بمُلاحَظةِ مَن حيطَت سَلامَتُه، وحُرِسَت نِعمتُه، حتى التَحَفَ بالأمنِ والدَّعةِ[5201]، واستَمتَعَ بالثَّروةِ والسَّعةِ، ويرى أنَّه قد خُصَّ مِن بَينِهم بالرَّزيَّةِ بَعدَ أن كان مُساويًا، وأُفرِدَ بالحادِثةِ بَعدَ أن كان مُكافيًا، فلا يستَطيعُ صَبرًا على بلوى، ولا يلزَمُ شُكرًا على نُعمى، ولو قابلَ بهذه النَّظرةِ مُلاحَظةَ مَن شارَكَه في الرَّزيَّةِ، وساواه في الحادِثةِ، لتَكافَأ الأمرانِ، فهانَ عليه الصَّبرُ، وحانَ منه الفَرَجُ[5202].

6 -ضَعفُ الإيمانِ: قال القاسِميُّ: (الجَزَعُ واليأسُ مِن الفَرَجِ عندَ مَسِّ شَرٍّ قُضيَ عليه...مِمَّا يُنافي عَقدَ الإيمانِ)[5203].

قال ابنُ القَيِّمِ: (وإذا اطمَأنَّ إلى حُكمِه الكَونيِّ عَلِم أنَّه لن يُصيبَه إلَّا ما كَتَبَ اللهُ له، وأنَّه ما يشاءُ كان، وما لم يشَأْ لم يكُنْ، فلا وَجهَ للجَزَعِ والقَلَقِ إلَّا ضَعفُ اليقينِ والإيمانِ؛ فإنَّ المَحذورَ والمَخوفَ إن لم يُقدَّرْ فلا سَبيلَ إلى وُقوعِه، وإن قُدِّرَ فلا سَبيلَ إلى صَرفِه بَعدَ أن أُبرِمَ تقديرُه، فلا جَزَعَ حينَئذٍ لا مِمَّا قُدِّرَ ولا مِمَّا لم يُقدَّرْ).[5204]

[5198] المصدر السابق.

[5199] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 298)، ((الدر الفريد وبيت القصيد)) للمستعصمي.(340 /1)

[5200] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 298).

[5201] الدَّعةُ: السُّكونُ والرَّاحةُ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[5202] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 298).

[5203] ((محاسن التأويل)).(6/499)

7 -عَدَمُ الاستِعانةِ باللهِ في المُصيبةِ.

8 -عدَمُ النَّظَرِ إلى مَن هم أشَدُّ منه مُصيبةً وغَمًّا وألَمًا.

9 –العَجزُ: قال ابنُ القَيِّمِ: (الجَزَعُ قَرينُ العَجزِ وشَقيقُه...فلَو سُئِلَ الجَزَعُ: مَن أبوك؟ لقال: العَجزُ[5205].

10 -تركُ الرِّضا بما يوجِبُ القَضاءُ.

11 -عَدَمُ توطينِ النَّفسِ على وُقوعِ المكروهِ:

قال ابنُ حِبَّانَ: (السَّبَبُ المُؤَدِّي إلى إظهارِ الجَزَعِ عندَ فِراقِ المُتواخينَ هو: تركُ الرِّضا بما يوجِبُ القَضاءُ، ثُمَّ وُرودُ الشَّيءِ على مُضمَرِ الحَشا بَعدَما انطَوى عليه قديمًا، فَمَن وطَّن نفسَه في ابتِداءِ المُعاشَرةِ على وُرودِ ضِدِّ الجَميلِ عليها مِن صُحبَتِه، وتَأَمَّل وُرودَ المكروهِ منه على غَفلَتِه، لا يُظهِرُ الجَزَعَ عندَ الفِراقِ، ولا يشكو الأسَفَ والاحتِراقَ إلَّا بمِقدارِ ما يوجِبُ العِلمُ إظهارَه)[5206].

قال أحَدُهم لعُبَيدِ بنِ الأبرَصِ: ما أشَدَّ جَزَعَك على المَوتِ! فقال:

لا غَرْوَ[5207] من عيشةٍ نافِدَه

وهل غيرُ ما مِيتةٍ واحِدَه

فأبلِغْ بَنيَّ وأعمامَهم

بأنَّ المنايا هي الرَّاصِدَه

فلا تجزعوا لحِمامٍ دنا

فلِلموتِ ما تَلِدُ الوالِدَه[5208]

12- حُبُّ الدُّنيا: عن عُمَرَ بنِ عَبدِ الرَّحمَنِ أنَّه سَمِعَ وهبَ بنُ مُنَبِّهٍ يقولُ: (قال عيسى بنُ مَريمَ للحَواريِّينَ: بحَقٍّ أقولُ لكم -وكان عيسى كَثيرًا ما يقولُ: بحَقٍّ أقولُ لكم-: إنَّ أشَدَّكم حُبًّا للدُّنيا أشَدُّكم جَزَعًا على المُصيبةِ)[5209].

[5204] ((مدارج السالكين)).(2/483)

[5205] ((عدة الصابرين)) (ص: 18).

[5206] ((روضة العقلاء)) (ص: 112).

[5207] لا غَرْوَ: لا عَجَبَ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي.

[5208] ((زهر الأكَم)) لليوسي (1/61)

[5209] ((الزهد)) لأحمد بن حنبل (338)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (67 /4)

المطلب الثامن: الوَسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الجَزَعِ

1- قوَّةُ الإيمانِ:

فعن صُهَيبٍ قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمرَه كُلَّه خَيرٌ، وليس ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ؛ إن أصابَته سَرَّاءُ شَكرَ فكان خَيرًا له، وإن أصابَته ضَرَّاءُ صَبرَ فكان خَيرًا له))[5210].

2- ذِكرُ اللهِ:

فذِكرُ اللهِ يُعينُ على الثَّباتِ في الشَّدائِدِ؛ قال تعالى: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال: 45].

ذَكَرَ القُرطُبيُّ أقوالًا للعُلماءِ في معنى هذه الآيةِ؛ منها: (اذكُروا اللهَ عندَ جَزَعِ قُلوبِكم؛ فإنَّ ذِكرَه يُعينُ على الثَّباتِ في الشَّدائِدِ)[5211].

3- الثَّباتُ والصَّبرُ على ما نزَلَ به مِن مَكروهٍ: قال ابنُ القَيِّمِ: (وإذا صَبرَ واحتَسَبَ أنضى[5212] شَيطانَه، ورَدَّه خاسِئًا، وأرضى رَبَّه، وسَرَّ صَديقَه، وساءَ عَدوَّه، وحَمَلَ عن إخوانِه، وعَزَّاهم هو قَبلَ أن يُعزُّوه؛ فهذا هو الثَّباتُ والكَمالُ الأعظَمُ، لا لطمُ الخُدودِ، وشَقُّ الجُيوبِ[5213]، والدُّعاءُ بالوَيلِ والثُّبورِ[5214]، والسَّخَطُ على المَقدورِ)[5215].

ورُويَ عن ابنِ المُبارَكِ أنَّه ماتَ له ابنٌ، فمَرَّ به مَجوسيٌّ يُعَزِّيه، فقال له: ينبغي للعاقِلِ أن يَفعَلَ اليومَ ما يفعَلُه الجاهِلُ بَعدَ خَمسةِ أيَّامٍ! فقال ابنُ المُبارَكِ: اكتُبوا هذا منه[5216].

4- تَوقُّعُ حُدوثِ المُصابِ:

قال أبو حاتِمٍ: (...فمَن وطَّن نفسَه في ابتِداءِ المُعاشَرةِ على وُرودِ ضِدِّ الجَميلِ عليها مِن صُحبَتِه، وتَأمَّل وُرودَ المَكروهِ منه على غَفلَتِه، لا يُظهِرُ الجَزَعَ عندَ الفِراقِ، ولا يشكو الأسَفَ والاحتِراقَ إلَّا بمِقدارِ ما يوجِبُ العِلمُ إظهارَه)[5217].

وحُكيَ عن بَعضِ الصَّالِحينَ أنَّ ابنًا له ماتَ، فلم يُرَ به جَزَعٌ، فقيل له في ذلك، فقال: (هذا أمرٌ كُنَّا نتَوَقَّعُه، فلمَّا وقَعَ لم نُنكِرْه)[5218].

5- مَعرِفةُ أنَّ المَقدورَ لا حيلةَ في دَفعِه: قال ابنُ القَيِّمِ: (المَقدورُ لا حيلةَ في دَفعِه، وما لم يُقدَّرْ لا حيلةَ في تحصيلِه)[5219].

[5210] رواه مسلم (2999)

[5211] ((تفسير القرطبي)) (8/23).

[5212] أنضاه: أتعَبَه وأهزَلَه. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (2/ 929).

[5213] شَقُّ الجُيوبِ: جمعُ جَيبٍ، وهو ما يُفتَحُ من الثَّوبِ ليدخُلَ فيه الرَّأسُ، والمرادُ بشَقِّه إكمالُ فتحِه إلى آخرِه، وهو من علاماتِ التَّسخُّطِ. يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (3/ 164).

[5214] الثُّبورُ: هو الهَلاكُ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[5215] ((زاد المعاد)).(4/192)

[5216] ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: 262).

[5217] ((روضة العقلاء)) (ص: 112).

[5218] ((الكامل)) للمبرد (1/256).

[5219] ((عدة الصابرين)) (ص: 52) .

6- العِلمُ بأنَّ الجَزَعَ يُشمِتُ الأعداءَ.

7- العِلمُ بأنَّ الجَزَعَ يسوءُ الأصدِقاءَ.

8- العِلمُ بأنَّ الجَزَعَ يُغضِبُ اللهَ.

9- العِلمُ بأنَّ الجَزَعَ يَسُرُّ الشَّيطانَ.

10- العِلمُ بأنَّ الجَزَعَ يُحبِطُ الأجرَ.

11- **العِلمُ بأنَّ الجَزَعَ يُضعِفُ النَّفسَ**[5220].

12- أن يعلمَ أنَّه ليس مع الجَزَعِ فائِدةٌ: و (كان أبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ إذا عَزَّى عن مَيِّتٍ قال لوَلِيِّه: ليس مع العَزاءِ مُصيبةٌ، ولا مع الجَزَعِ فائِدةٌ)[5221].

المطلب التاسع: أخطاءٌ شائِعةٌ

مِن الخَطَأِ أن يُظَنَّ أنَّ مُجَرَّدَ حُزنِ القَلبِ ودَمعِ العَينِ مِن الجَزَعِ؛ قال عَمرُو بنُ دينارٍ: قال عُبَيدُ بنُ عُمَيرٍ: (ليس الجَزَعُ أن تدمَعَ العَينُ، ويحزَنَ القَلبُ، ولكنَّ الجَزَعَ: القَولُ السَّيِّئُ والظَّنُّ السَّيِّئُ)[5222].

المطلب العاشر: مَسائِلُ مُتَفَرِّقةٌ

- قال ابنُ الجَوزيِّ: (لا ينبغي للمُؤمِنِ أن ينزَعِجَ مِن مَرَضٍ أو نُزولِ مَوتٍ، وإن كان الطَّبعُ لا يُملَكُ، إلَّا أنَّه ينبغي له التَّصبُّرُ مهما أمكَنَ: إمَّا لطَلَبِ الأجرِ بما يُعاني، أو لبَيانِ أثَرِ الرِّضا بالقَضاءِ، وما هي إلَّا لحَظاتٌ ثُمَّ تنقضي، وليتَفَكَّرِ المُعافى مِن المَرَضِ في السَّاعاتِ التي كان يَقلَقُ فيها: أينَ هي في زَمانِ العافية؟! ذَهَبَ البلاءُ وحَصَلَ الثَّوابُ، كما تذهَبُ حَلاوةُ اللَّذَّاتِ المُحَرَّمةِ، ويبقى الوِزرُ، ويمضي زَمانُ التَّسَخُّطِ بالأقدارِ، ويبقى العِتابُ، وهَل المَوتُ إلَّا آلامٌ تزيدُ، فتَعجِزُ النَّفسُ عن حَملِها، فتَذهَبُ؟! فليتَصَوَّرِ المَريضُ وُجودَ الرَّاحةِ بَعدَ رَحيلِ النَّفسِ، وقد هانَ ما يلقى، كما يتَصَوَّرُ العافيةَ بَعدَ شُربِ الشَّربةِ المَرَّةِ، ولا ينبغي أن يقَعَ جَزَعٌ بذِكرِ البِلى؛ فإنَّ ذلك شَأنُ المركبِ، أمَّا الرَّاكِبُ ففي الجَنَّةِ أو النَّارِ، وإنَّما ينبَغي أن يقَعَ الاهتِمامُ الكُلِّيُّ بما يزيدُ في دَرَجاتِ الفَضائِلِ قَبلَ نُزولِ المُعَوِّقِ عنها؛ فالسَّعيدُ من وُفِّق لاغتِنامِ العافيةِ، ثُمَّ يختارُ تحصيلَ الأفضَلِ فالأفضَلِ في زَمَنِ الاغتِنامِ، وليعلَمْ أنَّ زيادةَ المَنازِلِ في الجَنَّةِ على قَدْرِ التَّزَيُّدِ مِن الفَضائِلِ هاهُنا، والعُمرُ قَصيرٌ، والفَضائِلُ كَثيرةٌ، فليبالغْ في البِدارِ، فيا طولَ راحةِ التَّعَبِ! ويا فَرحةَ المَغمومِ! ويا سُرورَ المَحزونِ! ومتى تخايَل دَوامَ اللَّذَّةِ في الجَنَّةِ مِن غَيرِ مُنَغِّصٍ ولا قاطِعٍ، هانَ عليه كُلُّ بلاءٍ وشِدَّةٍ)[5223].

- وقال ابنُ حَزمٍ: (أمَّا استِبطانُ الصَّبرِ فمَذمومٌ؛ لأنَّه ضَعفٌ في الحِسِّ، وقَسوةٌ في النَّفسِ وقِلَّةُ رَحمةٍ، وهذه أخلاقُ سوءٍ، لا تكونُ إلَّا في أهلِ الشَّرِّ وخُبثِ الطَّبيعةِ، وفي النُّفوسِ السَّبُعيَّةِ الرَّديئةِ، فلمَّا كان ذلك نتيجةَ ما ذَكَرْنا، كان ضِدُّه

[5220] ((زاد المعاد)) لابن القيم (4/192)، بتصرف.

[5221] رواه ابن عبد البر في ((التمهيد)) (325/19).

[5222] ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: 99).

[5223] ((صيد الخاطر)) (ص: 289)

مَحمودًا، وهو استِبطانُ الجَزَعِ؛ لِما في ذلك مِن الرَّحمةِ والرِّقَّةِ والشَّفَقةِ والفَهمِ لقدْرِ الرَّزيَّةِ، فصَحَّ بهذا أنَّ الاعتِدالَ هو أن يكونَ المَرءُ جَزوعَ النَّفسِ صَبورَ الجَسَدِ، بمعنى ألَّا يَظهَرَ في وجهِه ولا في جَوارِحِه شَيءٌ مِن دَلائِلِ الجَزَعِ)[5224].

[5224] ((رسائل ابن حزم)) (1/406)

المبحث الحادي والعشرون: السَّفَهُ والحُمقُ

المطلب الأول: معنى السَّفَهِ والحُمقِ لُغةً واصطلاحًا

- **معنى السَّفَهِ لُغةً:**

السَّفَهُ: خِفَّةُ الحِلمِ أو نقيضُه أو الجَهلُ، والسَّفَهُ نَقصٌ في العقلِ، وأصلُه الخِفَّةُ، من سَفِه سَفَهًا من بابِ تَعِب، وسَفُه بالضَّمِّ سَفاهةً وسَفاهًا، أي: صار سفيهًا، فهو سفيهٌ، والأنثى سفيهةٌ، والجمعُ سُفَهاءُ. وسَفِهَ الحقَّ جَهِلَه، وسَفَّهه تسفيهًا: نسبَه إلى السَّفَهِ.[5225]

- **معنى السَّفَهِ اصطلاحًا:**

السَّفَهُ: نقيضُ الحِلمِ، وهو سُرعةُ الغَضَبِ، والطَّيشُ من يسيرِ الأمورِ، والمبادرةُ في البطشِ، والإيقاعُ بالمؤذي، والسَّرَفُ في العقوبةِ، وإظهارُ الجَزَعِ من أدنى ضَرَرٍ، والسَّبُّ الفاحِشُ[5226].

وقال الجُرجانيُّ: (السَّفَهُ: عبارةٌ عن خِفَّةٍ تَعرِضُ للإنسانِ من الفرَحِ والغَضَبِ، فتحمِلُه على العَمَلِ بخلافِ طَورِ العَقلِ، وموجَبِ الشَّرعِ)[5227].

وقال ابنُ القَيِّمِ: (السَّفَهُ غايةُ الجَهلِ، وهو مركَّبٌ من عدَمِ العِلمِ بما يُصلِحُ معاشَه ومعادَه، وإرادتُه بخلافِه)[5228].

- **معنى الحُمقِ لُغةً:**

الحُمقُ: قِلَّةُ العقلِ وفسادٌ فيه. وقد حَمُق الرَّجُلُ -بالضَّمِّ- حماقةً، فهو أحمقُ. وحَمِق -أيضًا بالكَسرِ- يحمَقُ حُمقًا، فهو حَمِقٌ. وامرأةٌ حمقاءُ، وقومٌ ونِسوةٌ حُمقٌ وحَمقى وحماقى[5229].

- **معنى الحُمقِ اصطلاحًا:**

قال ابنُ الأثيرِ: (حقيقةُ الحُمقِ: وَضعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوضِعِه مع العِلمِ بقُبحِه)[5230].

وقال النَّوويُّ: (حقيقةُ الأحمقِ: من يعمَلُ ما يضُرُّه مع عِلمِه بقُبحِه)[5231].

وقال الرَّاغِبُ: (الحُمقُ: قِلَّةُ الإصابةِ ووَضعُ الكلامِ في غيرِ مَوضِعِه، وقيل: فِقدانُ ما يُحمَدُ من العاقِلِ)[5232].

[5225] يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي، ((المصباح المنير)) للفيومي.

[5226] ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص: 29).

[5227] ((التعريفات)) (ص: 119). قال الرَّاغبُ: (السَّفَهُ: خِفَّةٌ في البدَنِ، ومنه قيل: زمامٌ سَفيهٌ: كثيرُ الاضطرابِ، وثوبٌ سفيهٌ: رديءُ النَّسجِ. واستُعمِل في خِفَّةِ النَّفسِ لنقصانِ العقلِ، وفي الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ). ((مفردات القرآن)) (ص: 414).

[5228] ((بدائع الفوائد)) (183/5).

[5229] يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري، ((المصباح المنير)) للفيومي.

[5230] ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (442/1).

[5231] ((شرح النووي على مسلم)) (136/18).

[5232] ((محاضرات الأدباء)) (1/ 25).

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ السَّفَهِ والحُمقِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الحُمقِ والجَهلِ:**

في الفَرْقِ بَيْنَ الحُمقِ والجهلِ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ الأحمقَ هو الذي يتصوَّرُ الممتَنِعَ بصورةِ الممكِنِ، والجاهِلَ هو الذي لا يعرِفُ الممتَنِعَ من الممكِنِ.

والوَجهُ الثَّاني: أنَّ الأحمقَ هو الذي يَعرِفُ الصَّوابَ ولا يعمَلُ به، والجاهِلَ هو الذي لا يَعرِفُ الصَّوابَ، ولو عَرَفه لعَمِلَ به[5233].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الحماقةِ والرَّقاعةِ:**

الرَّقاعةُ: حُمقٌ مع رِفعةٍ وعُلوِّ رتبةٍ، ولا يُقالُ للأحمقِ إذا كان وضيعًا: رقيعٌ، وإنَّما يُقالُ ذلك للأحمقِ إذا كان سيِّدًا أو رئيسًا أو ذا مالٍ وجاهٍ[5234].

- **الفَرْقُ بَيْنَ السَّفَهِ والطَّيشِ:**

السَّفَهُ: نقيضُ الحِكمةِ، ويستعارُ في الكلامِ القبيحِ، فيقالُ: سَفِه عليه: إذا أسمعه القبيحَ، ويقالُ للجاهِلِ: سفيهٌ.

والطَّيشُ: خِفَّةٌ معها خطأٌ في الفعلِ، وهو من قولِك: طاش السَّهمُ: إذا خفَّ فمضى فوقَ الهدَفِ، فشُبِّه به الخفيفُ المفارِقُ لصوابِ الفِعلِ[5235].

- **الفَرْقُ بَيْنَ السَّفَهِ والشَّتمِ:**

الشَّتمُ: يكونُ حَسَنًا، وذلك إذا كان المشتومُ يستحِقُّ الشَّتمَ.

والسَّفَهُ: لا يكونُ إلَّا قبيحًا، وجاء عن السَّلَفِ في تفسيرِ قولِه تعالى: {صُمٌّ بُكْمٌ} [البقرة: 18] ، إنَّ اللَّهَ وصفَهم بذلك على وَجهِ الشَّتمِ، ولم يَقُلْ على وَجهِ السَّفَهِ؛ لِما قُلْناه[5236].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الأحمقِ والمائِقِ:**

المائِقُ: هو السَّريعُ البكاءِ، القليلُ الحزمِ والثَّباتِ، والمائقةُ: البكاءُ. وفي المثَلِ: أنا يَئِقٌ وصاحبي مَئِقٌ، فكيف نتَّفِقُ؟ وقال بعضُهم: المائِقُ: السَّيِّئُ الخُلُقِ، وحكى ابنُ الأنباريِّ أنَّ قولَهم: أحمقُ مائِقٌ، بمنزلةِ: عطشانُ نَطْشانُ، وجائِعٌ نائِعٌ[5237].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الحُمقِ والجنونِ:**

[5233] ((تسهيل النظر)) للماوردي (ص: 5).

[5234] يُنظَر: ((معجم الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: 259).

[5235] المصدر السابق (ص: 204).

[5236] المصدر السابق (ص: 294).

[5237] المصدر السابق (ص: 472). ويُسَمَّى إتباعًا سواءٌ كان للكَلِمةِ المتبَعةِ معنًى أم لم يكُنْ. يُنظَر: ((معاني النحو)) لفاضل السامرائي (4/ 151).

الحُمقُ والتَّغفيلُ: هو الغَلَطُ في الوسيلةِ والطَّريقِ إلى المطلوبِ، مع صِحَّةِ المقصودِ.

أمَّا الجنونُ: فإنَّه عبارةٌ عن الخَلَلِ في الوسيلةِ والمقصودِ جميعًا؛ فالأحمقُ مقصودُه صحيحٌ، ولكِنْ سلوكُه الطَّريقَ فاسِدٌ، ورويَّتُه في الطَّريقِ الوصالَ إلى الغرَضِ غيرُ صحيحةٍ، والمجنونُ أصلُ إشارتِه فاسِدٌ، فهو يختارُ ما لا يختارُ[5238].

- **الفَرْقُ بَيْنَ السَّفَهِ والعَبَثِ:**

العبَثُ: هو ما يخلو عن الفائدةِ، والسَّفَهُ: ما لا يخلو عنها، ويلزمُ منه المضرَّةُ، والسَّفَهُ أقبحُ من العبثِ، كما أنَّ الظُّلمَ أقبحُ من الجهلِ.

وقيل: العَبَثُ هو الفِعلُ الذي فيه غَرَضٌ، لكِنْ ليس بشَرعيٍّ، والسَّفَهُ ما لا غَرَضَ فيه أصلًا[5239].

المطلب الثالث: ذمُّ السَّفَهِ والحُمقِ والنَّهيُ عنهما

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

- قال تعالى: {فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ} [البقرة: 282].

(فُسِّر السَّفيهُ بضعيفِ الرَّأيِ، أي: من لا يُحسِنُ التَّصرُّفَ في المالِ لضَعفِ عَقلِه، وقيل: هو العاجِزُ الأحمقُ. وقيل: الجاهِلُ بالإملالِ، وقال الإمامُ الشَّافعيُّ: هو المبذِّرُ لمالِه المفسِدُ لدينِه، وهو بمعنى الأوَّلِ)[5240].

- قال تعالى: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا} [النساء: 5].

قال البَغَويُّ: (والسَّفيهُ الذي لا يجوزُ لوَلِيِّه أن يؤتيَه مالَه هو المستَحِقُّ للحَجرِ عليه، وهو أن يكونَ مُبذِّرًا في مالِه، أو مفسِدًا في دينِه)[5241].

من فوائِدِ الآيةِ الكريمةِ: ذَمُّ السَّفَهِ، وأنَّه سَبَبٌ للحيلولةِ بَيْنَ الإنسانِ وبينَ مالِه[5242].

- قال تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 140].

(بيَّن خُسرانَهم وسفاهةَ عُقولِهم، فقال: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 140] ، أي: خَسِروا دينَهم وأولادَهم وعقولَهم، وصار وصفُهم -بعد العقولِ الرَّزينةِ- السَّفَهَ المُرديَ، والضَّلالَ)[5243].

ب- من السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

[5238] ((أخبار الحمقى والمغفلين)) لابن الجوزي (1/23)، بتصرف يسير.

[5239] ((الكليات)) للكفوي (ص: 1021).

[5240] ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (3/ 102) بتصرف يسير.

[5241] ((تفسير البغوي)) (2/164).

[5242] ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (1/ 40).

[5243] ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 275).

- عن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لكَعبِ بنِ عُجرةَ: أعاذك اللهُ من إمارةِ السُّفَهاءِ. قال: وما إمارةُ السُّفَهاءِ؟ قال: أُمَراءُ يكونون بعدي، لا يقتدون بهَدْيي، ولا يستنُّون بسُنَّتي، فمن صدَّقهم بكَذِبِهم، وأعانهم على ظُلمِهم، فأولئك ليسوا مني ولستُ منهم، ولا يَرِدوا عليَّ حوضي، ومَن لم يُصدِّقْهم بكَذِبِهم ولم يُعِنْهم على ظُلمِهم، فأولئك مني وأنا منهم، وسيَرِدوا عليَّ حوضي)[5244].

(إمارةُ السُّفَهاءِ، وهو فِعلُهم المستفادُ منه من الظُّلمِ والكَذِبِ وما يؤدِّي إليه جَهلُهم وطَيشُهم)[5245].

قال المُناويُّ: (إمارةُ السُّفَهاءِ -بكَسرِ الهمزةِ- أي: وِلايتُهم على الرِّقابِ؛ لِما يحدثُ منهم من العُنفِ والطَّيشِ والخِفَّةِ، جمعُ سفيهٍ، وهو ناقِصُ العقلِ، والسَّفَهُ... نقصُ العقلِ)[5246].

- عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((يأتي في آخِرِ الزَّمانِ قومٌ حُدَثاءُ الأسنانِ، سُفَهاءُ الأحلامِ، يقولون من خيرِ قَولِ البريَّةِ، يمرُقون من الإسلامِ كما يمرُقُ السَّهمُ من الرَّميَّةِ، لا يجاوِزُ إيمانُهم حناجِرَهم، فأينما لقيتُموهم فاقتُلوهم؛ فإنَّ قَتْلَهم أجرٌ لِمن قتَلَهم يومَ القيامةِ))[5247].

قال ملَّا عَليّ القاري: (أي: ضُعَفاءُ العقولِ، والسَّفَهُ -في الأصلِ-: الخِفَّةُ والطَّيشُ، وسَفِه فلانٌ رأيَه: إذا كان مضطَرِبًا لا استقامةَ فيه، والأحلامُ: العقولُ، واحِدُها حِلمٌ، بالكَسرِ)[5248].

- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّها ستأتي على النَّاسِ سِنونَ خدَّاعةٌ، يُصَدَّقُ فيها الكاذِبُ، ويُكَذَّبُ فيها الصَّادِقُ، ويؤتَمَنُ فيها الخائنُ، ويخوَّنُ فيها الأمينُ، ويَنطِقُ فيها الرُّوَيبِضةُ. قيل: وما الرُّوَيبِضةُ؟ قال: السَّفيهُ يتكَلَّمُ في أمرِ العامَّةِ))[5249].

قال ابنُ رجَبٍ: (ومضمونُ ما ذُكِر من أشراطِ السَّاعةِ في هذا الحديثِ يَرجِعُ إلى أنَّ الأمورَ تُوَسَّدُ إلى غيرِ أهلِها)[5250].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- عن مجاهدٍ قال: (كنتُ عِندَ ابنِ عبَّاسٍ، فجاءه رجلٌ، فقال: إنَّه طَلَّق امرأتَه ثلاثًا، فسكَتَ حتى ظننتُ أنَّه رادُّها إليه، فقال: ينطَلِقُ أحَدُكم فيركَبُ الأُحموقةَ[5251]، ثمَّ يقولُ: يا ابنَ عبَّاسٍ، يا ابنَ عبَّاسٍ! إنَّ اللهَ قال: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا [الطلاق: 2] ، وإنَّك لم تتَّقِ اللهَ، فلم أجِدْ لك مخرجًا، عصَيتَ ربَّك، وبانت منك امرأتُك)[5252].

[5244] رواه أحمد (14441) واللفظ له، وابن حبان (4514)، والطبراني (141/19) (309). صحَّحه ابن حبان، وابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (213)، وصحَّحه لغيره الألباني في ((صحيح الترغيب)) (2242)، وحسنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (260).

[5245] ((مرقاة المفاتيح)) لملا علي القاري (6/2410).

[5246] ((فيض القدير)) .(3/194)

[5247] رواه البخاري (3611) واللفظ له، ومسلم (1066).

[5248] ((مرقاة المفاتيح)) (6/2311).

[5249] رواه ابنُ ماجه (4036)، وأحمد (7912) واللفظ له. صحَّحه الحاكم في ((المستدرك)) (8439)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4036)، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (7912)، وحسَّنه لغيره الوادعي في ((صحيح دلائل النبوة)) (568).

[5250] ((جامع العلوم والحكم)) (1/143).

[5251] الأُحموقةُ هي أُفعولةٌ من الحُمقِ: أي خَصلةٌ ذاتُ حُمقٍ. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (1/442)

[5252] رواه أبو داود (2197) واللفظ له، والطبراني (11/89) (11139)، والبيهقي (15338). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2197)، وصحَّح إسنادَه ابن حجر في ((فتح الباري)) (9/275)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (2197)، وقال ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (1/375): (إسناده على شرط

- وعن أنسِ بنِ سِيرينَ قال: سَمِعتُ ابنَ عُمَرَ قال: (طلَّق ابنُ عُمَرَ امرأتَه وهي حائضٌ، فذكر عُمَرُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: لِيُراجِعْها. قُلتُ: تُحتَسَبُ؟ قال: فَمَهْ؟! وعن قتادةَ، عن يونُسَ بنِ جُبَيرٍ، عن ابنِ عُمَرَ، قال: مُرْه فلْيُراجِعْها. قُلتُ: تُحتَسَبُ؟ قال: أرأيتَ إن عَجَز واستحمَقَ[5253]؟!)[5254].

- وعن يُسَيرِ بنِ عَمرٍو -وكان قد أدرك الصَّحابةَ- قال: (الهجْرُ الأحمقَ؛ فليس للأحمقِ خيرٌ من هِجرانِه)[5255].

- عن أبي جَعفَرٍ الخَطميِّ أنَّ جَدَّه عُمَيرَ بنَ حبيبٍ -وكان قد بايع النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أوصى بنيه، فقال لهم: (أي بَنِيَّ، إيَّاكم ومخالطةَ السُّفَهاءِ؛ فإنَّ مجالستَهم داءٌ، وإنَّه من يعلَمْ عن السَّفيهِ يُسَرَّ بحِلمِه، ومَن يُجِبْه يَندَمْ)[5256].

- وعن وَهبِ بنِ مُنبِّهٍ قال: (الأحمقُ كالثَّوبِ الخَلَقِ: إن رفَأْتَه[5257] من جانبٍ انخرق من جانبٍ آخرَ، مِثلُ الفَخَّارِ المكسورِ، لا يُرقَعُ ولا يُشعَبُ ولا يعادُ طِينًا!)[5258].

- وقال وَهبُ بنُ مُنبِّهٍ أيضًا: (يتشعَّبُ من السَّفَهِ: كثرةُ الكلامِ في غيرِ الحَقِّ فما عليه ولا له، والخوضُ في الباطِلِ، وصُحبةُ الفُجَّارِ، والإنفاقُ في السَّرَفِ، والاختيالُ، والبَذَخُ، والمكرُ والخديعةُ، والاغتيابُ والسِّبابُ)[5259].

- وسأل سليمانُ بنُ عبدِ الملِكِ أبا حازمٍ: مَن أحمَقُ النَّاسِ؟ قال أبو حازمٍ: (من حَطَّ في هوى رجُلٍ وهو ظالمٌ، فباع آخِرتَه بدُنيا غيرِه)[5260].

- وكان شُريحٌ يقولُ: (لَأَنْ أزاوِلَ الأحمقَ أحَبُّ إليَّ من أن أزاوِلَ نِصفَ الأحمقِ، قيل: يا أبا أُمَيَّةَ، ومَن نصفُ الأحمقِ؟ قال: الأحمقُ المتعاقِلُ)[5261].

- وقال الحَسَنُ: (هَجرُ الأحمقِ قُربةٌ)[5262] .

- وقال مُسلِمُ بنُ قُتَيبةَ: (لا تَطلُبَنَّ حاجتَك إلى واحدٍ من ثلاثةٍ: لا تَطلُبْها إلى الكذَّابِ؛ فإنَّه يُقَرِّبُها وهي بعيدةٌ ويُبعِدُها وهي قريبةٌ، ولا تَطلُبْها إلى الأحمقِ؛ فإنَّه يريدُ أن ينفَعَك وهو يضُرُّك، ولا تطلُبْها إلى رجُلٍ له عِندَ قومٍ مأكَلةٌ؛ فإنَّه يجعَلُ حاجتَك وِقاءً لحاجتِه)[5263].

- وقال ذو النُّونِ المِصريُّ: (العِزُّ الذي لا ذُلَّ فيه سكوتُك عن السَّفيهِ. عَطَبُ السَّفيهِ بيَدِه وفيه)[5264].

مسلم).

[5253] استحمَقَ الرَّجُلُ: إذا فَعَل فِعلَ الحمقى. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير.

[5254] رواه البخاري (5252) واللفظ له، ومسلم (1471).

[5255] رواه ابنُ حبان في ((روضة العقلاء)) (ص: 118).

[5256] رواه مطوَّلًا الطبراني (17/50) (108)، والبيهقي (20705) واللفظ له. وثَّق رجاله الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (7/269).

[5257] رفَأَ الثَّوبَ: لأَمَ خَرقَه وضَمَّ بعضَه إلى بعضٍ، وأصلح ما وهى منه. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور (1/ 87).

[5258] رواه ابنُ حبان في ((روضة العقلاء)) (ص: 122).

[5259] ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (63/ 397).

[5260] رواه أبو بكر الدينوري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (3456).

[5261] ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (2/39).

[5262] ((زهر الأكم)) لليوسي (3/65).

[5263] ((الأمالي)) لأبي علي القالي (2/ 188).

[5264] ((شعب الإيمان)) للبيهقي (11/ 27، 28).

- وقال يحيى بنُ خالدٍ البَرمكيُّ: (السَّفيهُ إذا تنَسَّك تعاظَمَ)[5265].

- وأوصى المنذِرُ بنُ ماءِ السَّماءِ ابنَه النُّعمانَ بنَ المنذِرِ، فقال: (آمُرُك بما أمرني به أبي، وأنهاك عمَّا نهاني عنه: آمُرُك بالشُّحِّ في عِرضِك، والانخداعِ في مالِك، وأنهاك عن ملاحاةِ الرِّجالِ وسِيما المُلوكِ، وعن ممازَحةِ السُّفَهاءِ)[5266].

- وقال الغزاليُّ: (لا خيرَ في صُحبةِ الأحمقِ، فإلى الوَحشةِ والقطيعةِ يرجِعُ آخِرُها، وأحسَنُ أحوالِه أن يَضُرَّك وهو يريدُ أن ينفَعَك، والعَدوُّ العاقِلُ خيرٌ من الصَّديقِ الأحمقِ)[5267].

- وقال ابنُ الجوزيِّ: (السَّفَهُ نباحُ الإنسانِ)[5268].

المطلب الرابع: آثارُ السَّفَهِ والحُمقِ

1- الأحمَقُ مُبغَضٌ في النَّاسِ.

2- الأحمَقُ غيرُ مَرضيِّ العَمَلِ، ولا محمودِ الأمرِ عِندَ اللهِ، وعند الصَّالحين[5269].

3- الحَمقى عباداتُهم عاداتٌ[5270].

4- الحُمقُ داءٌ لا شفاءَ له[5271].

5- الأحمقُ كاسِدُ العقلِ والرَّأيِ، لا يحسِنُ شيئًا.

6- سرعةُ الانفعالِ والتَّدخُّلِ في شُؤونِ النَّاسِ.

7- الخِفَّةُ وسُرعةُ الجوابِ من غيرِ رَويَّةٍ.

8- الأحمقُ عدوُّ نفسِه لِما يسَبِّبُ لنفسِه من الضَّرَرِ[5272].

9- السَّفَهُ والحُمقُ دليلٌ على سوءِ الخُلُقِ.

10- السَّفَهُ والحُمقُ من خوارمِ المروءةِ.

11- السَّفيهُ يقَعُ في الغيبةِ وأعراضِ النَّاسِ.

12- السَّفيهُ بذيءُ اللِّسانِ.

[5265] ذكره الغزالي في ((إحياء علوم الدين)) (3/343).
[5266] رواه أبو بكر الدينوري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (2326).
[5267] ((بداية الهداية)) (ص: 65). ويُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) (2/ 171).
[5268] يُنظَر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (2/8).
[5269] يُنظَر: ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص: 123)
[5270] ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (1/164).
[5271] ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص: 202).
[5272] ((نضرة النعيم)) (10/4458).

المطلب الخامس: أقسامُ السَّفَهِ

السَّفَهُ ينقَسِمُ إلى قِسمَينِ:

1- سَفَهٌ في الأمورِ الدُّنيويَّةِ، ومن أمثلتِه ما جاء في قولِ اللهِ تعالى: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ} [النساء: 5] .

2- سَفَهٌ في الأمورِ الدِّينيَّةِ؛ قال تعالى حكايةً عن المُشرِكين قولَهم: {أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ} [البقرة: 13] ، فنبَّه أنَّهم هم السُّفَهاءُ في تسميةِ المُؤمِنين سُفَهاءَ، قال تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا} [البقرة: 142]، والمرادُ اليهودُ، وأهلُ النِّفاقِ، والمُشرِكون[5273].

المطلب السادس: الوسائِلُ المعينةُ على تركِ السَّفَهِ والحُمقِ

1- مجانبةُ صُحبةِ الحَمقى والسُّفَهاءِ.

قال أبو حاتمٍ: (والواجِبُ على العاقِلِ تَركُ صُحبةِ الأحمقِ، ومجانبةُ مُعاشرةِ النَّوكى[5274]، كما يجِبُ عليه لزومُ صحبةِ العاقِلِ الأريبِ، وعِشرةُ الفَطِنِ اللَّبيبِ؛ لأنَّ العاقِلَ وإن لم يُصِبْك الحظُّ من عَقلِه أصابك من الاعتبارِ به، والأحمقُ إن لم يُعْدِك حمقُه تدنَّسْتَ بعِشرتِه)[5275].

2- مجاهدةُ النَّفسِ على تركِ الحُمقِ والسَّفَهِ.

3- استشارةُ ذوي الخبرةِ وأهلِ الصَّلاحِ.

4- معرفةُ الأضرارِ المترتِّبةِ على الحُمقِ والسَّفَهِ.

5- تركُ مجاراةِ الحَمقى والسُّفَهاءِ حتى لا يصيرَ مِثلَهم.

قال أنوشروانَ لابنِه: (يا بُنَيَّ، إنَّ من أخلاقِ المُلوكِ العِزَّ والأنَفةَ، وإنَّك ستُبلى بمداراةِ أقوامٍ، وإنَّ سَفَهَ السَّفيهِ ربَّما تطَّلِعُ منه، فإن كافأْتَه بالسَّفَهِ فكأنَّك رضيتَ بما أتى؛ فاجتَنِبْ أن تحتذيَ على مثالِه، فإن كان سَفَهُه عندك مذمومًا فحَقِّقْ ذَمَّك إيَّاه بتركِ معارضتِه بمِثلِه)[5276].

المطلب السابع: من أخبارِ الحَمقى

هذه بعضُ أخبارِ الحَمقى ذكَرْناها لثلاثِ فوائِدَ:

(الأوَّلُ: أنَّ العاقِلَ إذا سمع أخبارَهم عرَف قَدْرَ ما وُهِب له ممَّا حُرِموه، فحثَّه ذلك على الشُّكرِ.

والثَّاني: أنَّ ذِكرَ المغفَّلين يحثُّ المتيقِّظَ على اتِّقاءِ أسبابِ الغفلةِ إذا كان ذلك داخلًا تحتَ الكَسبِ، وعامِلُه فيه الرِّياضةُ، وأمَّا إذا كانت الغفلةُ مجبولةً في الطِّباعِ فإنها لا تكادُ تَقبَلُ التَّغييرَ.

[5273] ((تفسير ابن كثير)) (1/ 452).

[5274] نَوْكى، جمعُ أَنْوَك: وهو الأحمَقُ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور (10/501).

[5275] ((روضة العقلاء)) (ص: 118).

[5276] ((لباب الآداب)) لأسامة بن منقذ (1/ 19).

والثَّالِثُ: أن يُرَوِّحَ الإنسانُ قَلبَه بالنَّظَرِ في سِيَرِ هؤلاء المبخوسين حظوظًا يومَ القِسمةِ؛ فإنَّ النَّفسَ قد تَمَلُّ من الدُّؤوبِ في الجِدِّ، وترتاحُ إلى بعضِ المباحِ من اللَّهوِ، وقد قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لحنظلةَ: "ساعةٌ وساعةٌ").

- عن أبي عثمانَ المازنيِّ أنَّه قال: قَدِم أعرابيٌّ على بعضِ أقاربِه بالبصرةِ، فدفعوا له ثوبًا ليقطَعَ منه قميصًا، فدفع الثَّوبَ إلى الخيَّاطِ فقَدَر عليه ثمَّ خَرَق منه، قال: لمَ خرَقتَ ثوبي؟ قال: لا يجوزُ خياطتُه إلَّا بتخريقِه، وكان مع الأعرابيِّ هِراوةٌ[5277] من أَرْزَنٍ[5278] فشَجَّ بها الخيَّاطَ، فرمى بالثَّوبِ وهَرَب، فتَبِعه الأعرابيُّ وأنشد يقولُ:

ما إنْ رأيتُ ولا سمِعتُ بمِثلِه

فيما مضى من سالِفِ الأحقابِ

مِن فِعلِ عِلجٍ جِئتُه ليَخيطَ لي

ثوبًا فخَرَقه كفِعلِ مُصابِ

فعلوتُه بهِراوةٍ كانت معي

فسعى وأدبَرَ هاربًا للبابِ

أيشقُّ ثوبي ثمَّ يقعُدُ آمِنًا

كلَّا ومُنزِلِ سورةِ الأحزابِ[5279]

- وكان رجلٌ من الأعرابِ يعمَلُ في مَعمَلٍ للذَّهَبِ فلم يُصِبْ شيئًا، فأنشأ يقولُ:

يا رَبِّ قَدِّرْ لي في حماسي

وفي طِلابِ الرِّزقِ بالتماسِ

صفراءَ تجلو كَسَلَ النُّعاسِ

فضربَتْه عَقربٌ صَفراءُ، سهَّرَتْه طولَ اللَّيلةِ! وجعل يقولُ: يا رَبِّ، الذَّنبُ لي إذ لم أُبَيِّنْ لك ما أريدُه، اللَّهُمَّ لك الحَمدُ والشُّكرُ، فقيل له: ما تصنَعُ؟ أمَا سَمِعتَ قولَ اللهِ تعالى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: 7]. فوَثَب جَزَعًا وقال: لا شُكرًا، لا شُكرًا[5280]!

- تذاكَرَ قومٌ قيامَ اللَّيلِ وعندَهم أعرابيٌّ، فقالوا له: أتقومُ باللَّيلِ؟ قال: إي واللهِ. قال: فما تصنعُ؟ قال: أبولُ وأرجِعُ أنامُ[5281].

[5277] الهِراوةُ: العصا الضَّخمةُ. يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري.

[5278] الأَرْزَنُ: شَجَرٌ صُلبٌ تُتَّخَذُ منه العِصيُّ. يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري.

[5279] ((أخبار الحمقى والمغفلين)) لابن الجوزي (121).

[5280] المصدر السابق (126).

[5281] المصدر السابق

- وعن أبي العيناءِ قال: كان المدنيُّ في الصَّفِّ من وراءِ الإمامِ، فذكر الإمامُ شيئًا فقطع الصَّلاةَ، وقدَّم المدنيَّ ليَؤُمَّهم، فوقف طويلًا، فلمَّا أعيا النَّاسُ سَبَّحوا له، وهو لا يتحَرَّكُ فنحَّوْه وقدَّموا غيرَه، فعاتبوه فقال: ظَنَنْتُه يقولُ لي: احفَظْ مكاني حتَّى أجيءَ[5282]!

- من أخبارِ هبنقةَ واسمُه يزيدُ بنُ ثروانَ، من حُمقِه أنَّه جعل في عنقِه قِلادةً مِن ودعٍ وعظامٍ وخزفٍ، وقال: أخشى أن أضِلَّ نفسي ففعَلْتُ ذلك لأعرِفَها به! فحُوِّلَت القِلادةُ ذاتَ ليلةٍ من عنُقِه لعُنُقِ أخيه، فلمَّا أصبح قال: يا أخي أنت أنا، فمَن أنا[5283]؟

- وأضلَّ بعيرًا فجعَل ينادي: من وجَدَه فهو له. فقيل له: فلم تَنشُدُه؟ قال: فأين حلاوةُ الوِجْدانِ[5284]؟!

- واختَصَمت طفاوةُ وبنو راسِبٍ في رجلٍ ادَّعى كُلُّ فريقٍ أنَّه في عرافتِهم[5285]، فقال هبنقةُ: حُكمُه أن يُلقى في الماءِ، فإن طفا فهو من طفاوةَ، وإن رَسَب فهو من راسِبٍ! فقال الرَّجُلُ: إن كان الحُكمُ هذا فقد زَهِدتُ في الدِّيوانِ[5286].

- ومنهم عِجلُ بنُ لُجَيمٍ، مِن حُمقِه أنَّه قيل له: ما سَمَّيتَ فَرَسَك؟ فقام إليه ففَقَأَ إحدى عينيه وقال: سَمَّيتُه الأعوَرَ.

قال العنزيُّ:

رَمَتْني بنو عِجلٍ بداءِ أبيهِمُ

وأيُّ امرئٍ في النَّاسِ أحمقُ مِن عِجلِ

أليس أبوهم عارَ عَينِ جوادِه

فصارت به الأمثالُ تُضرَبُ بالجَهلِ[5287].

- وعن الأصمعيِّ أنَّه قال: حَجَّ أعرابيٌّ فدخل مكَّةَ قبلَ النَّاسِ، وتعلَّق بأستارِ الكعبةِ وقال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي قبلَ أن يَدهمَك النَّاسُ[5288]!

المطلب الثامن: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- من علاماتِ السَّفيهِ والأحمقِ:

- **من علاماتِ السَّفيهِ:**

[5282] المصدر السابق (119).

[5283] المصدر السابق (43).

[5284] المصدر السابق.

[5285] يقالُ: عرَفَ فلانٌ على أصحابِه يَعْرُفُ عِرافةً: إذا صار عريفَهم، والعريفُ هو القَيِّمُ بأمورِ القبيلةِ أو الجماعةِ من النَّاسِ يلي أمورَهم ويتعَرَّفُ الأميرُ منه أحوالَهم. يُنظَر: ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (2/ 766)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (3/ 218).

[5286] ((أخبار الحمقى والمغفلين)) لابن الجوزي (43).

[5287] المصدر السابق (45).

[5288] المصدر السابق (122).

1- الشُّحُّ.

2- سوءُ الخُلُقِ.

3- كثرةُ طَلَبِ الحوائِجِ إلى النَّاسِ[5289].

4- إنفاقُ المالِ على وَجهِ التَّبذيرِ وفيما لا ينبغي.

5- الفُحشُ وبذاءةُ اللِّسانِ.

- **من علاماتِ الأحمقِ:**

1- التَّخلُّقُ بالعَجَلةِ والخِفَّةِ، والجَفاءِ والغُرورِ والفُجورِ.

2- التَّخَلُّقُ بالجَهلِ والتَّواني، والخيانةِ والظُّلمِ والضَّياعِ.

3- التَّخلُّقُ بالتَّفريطِ والغفلةِ.

4- التَّخلُّقُ بالسُّرورِ والخُيَلاءِ، والفُجرِ والمكرِ.

5- إذا استغنى بَطِر، وإن افتَقَر قَنِط، وإن فَرِح أَشِر.

6- إن قال فَحُش، وإن سألَ ألَحَّ.

7- إن قال لم يحسِنْ، وإن قيل له لم يَفقَهْ.

8- إن ضَحِك نهِقَ، وإن بكى خارَ[5290].

9- يغضَبُ من غيرِ شيءٍ، ويعطي في غيرِ حَقٍّ.

10- يتكَلَّمُ من غيرِ منفعةٍ، ويفشي السِّرَّ.

11- لا يُفرِّقُ بَيْنَ عدُوِّه وصديقِه.

12- يتكَلَّمُ ما يخطُرُ على قلبِه.

13- يتوهَّمُ أنَّه أعقلُ النَّاسِ[5291].

14- لا يتثبَّتُ، ويُفرِطُ في الضَّحِكِ.

15- الوقيعةُ في الأخيارِ.

16- الاختلاطُ بالأشرارِ[5292].

[5289] ((مجمع الأمثال)) للميداني (2/456).

[5290] يُنظَر: ((صيد الأفكار)) لحسين المهدي (1/679).

[5291] المصدر السابق (1/679) بتصرف يسير.

17- إذا أعرَضْتَ عنه اغتَمَّ، وإن أقبَلْتَ عليه اغتَرَّ.

18- إن حَلُمتَ عنه جَهِل عليك، وإن جَهِلتَ عليه حَلُم عنك.

19- إن أسأتَ إليه أحسَن إليك، وإن أحسَنتَ إليه أساء إليك.

20- إذا ظَلَمْتَه انتصَفْتَ منه، ويظلِمُك إذا أنصَفْتَه[5293].

21- سرعةُ الجوابِ، وكثرةُ الالتِفافِ، والثِّقةُ بكُلِّ أحدٍ[5294].

- من شِيَمِ الأحمَقِ:

قال أبو حاتمٍ: (ومِن شِيَمِ الأحمقِ: العَجَلةُ، والخِفَّةُ، والعَجزُ، والفجورُ، والجهلُ، والمقتُ، والوَهنُ، والمهابةُ، والتَّعرُّضُ، والتَّحاسُدُ، والظُّلمُ، والخيانةُ، والغفلةُ، والسَّهوُ، والغيُّ، والفُحشُ، والفَخرُ، والخُيَلاءُ، والعدوانُ، والبغضاءُ)[5295].

- الأحمقُ قَلبُه في طَرَفِ لِسانِه:

قال أبو حاتمِ بنُ حِبَّانَ: (وإنَّ من أعظَمِ أماراتِ الحُمقِ في الأحمقِ لِسانَه؛ فإنَّه يكونُ قلبُه في طَرَفِ لسانِه، ما خَطَر على قلبِه نطَق به لسانُه. والأحمقُ يتكَلَّمُ في ساعةٍ بكلامٍ يعجِزُ عنه سحبانُ وائلٍ[5296]، ويتكلَّمُ في السَّاعةِ الأخرى بكلامٍ لا يَعجِزُ عنه باقِلٌ[5297]، والعاقِلُ يجِبُ عليه مجانبةُ مَن هذا نعتُه، ومخالطةِ مَن هذه صفتُه؛ فإنَّهم يجترئون على مَن عاشَرهم)[5298].

- معاشَرةُ الأحمقِ:

قال أبو حاتمِ بنُ حِبَّانَ: (مَثَلُ الأحمقِ إن صَحِبتَه عنَّاك، وإن اعتزَلْتَه شَتَمك، وإن أعطاك مَنَّ عليك، وإن أعطَيتَه كَفَرك، وإن أسَرَّ إليك اتَّهَمك، وإن أسرَرْتَ إليه خانك، وإن كان فوقَك حَقَّرك، وإن كان دونك غمَزَك)[5299].

وقال محمَّدُ بنُ إسحاقَ الواسِطيُّ:

لي صديقٌ يرى حقوقي عليه

نافلاتٍ وحقُّه كان فرضًا

لو قطعتُ الجبالَ طولًا إليه

[5292] يُنظَر: ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص 119) بتصرف يسير.

[5293] المصدر السابق.

[5294] يُنظَر: ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/545)، ((مجمع الأمثال)) للميداني (2/456).

[5295] يُنظَر: ((روضة العقلاء)) (ص: 121).

[5296] سَحبانُ وائِلٍ: اسمُ رجلٍ كان فصيحًا بليغًا، يُضرَبُ به المثَلُ في البيانِ والفصاحةِ، وهو من وائِلِ بنِ مَعنٍ. يُنظَر: ((معجم ديوان الأدب)) لإسحاق الفارابي، ((شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم)) لنشوان (5/ 3003).

[5297] باقِلٌ: هو اسمُ رجلٍ من العَرَبِ، وكان اشترى ظبيًا بأحَدَ عَشَرَ دِرهمًا، فقيل له: بكم اشتريتَه؟ ففتح كفَّيه وفرَّق أصابعَه وأخرج لسانَه، يشيرُ بذلك إلى أحدَ عَشَرَ، فانفلت الظَّبيُ؛ فضربوا به المثَلَ في العيّ. يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري.

[5298] ((روضة العقلاء)) (ص: 122).

[5299] المصدر السابق.

ثمَّ مِن بعدِ طُولِها سِرتُ عَرضَا

لرأى ما صنعتُ غيرَ كبيرٍ

واشتهى أن أزيدَ في الأرضِ أرضَا[5300]

وقال الماوَرديُّ: (والأحمقُ ضالٌّ مُضِلٌّ، إن أونِسَ تكبَّرَ، وإن أوحش تكدَّر، وإن استُنطِق تخلَّف، وإن تُرِك تكلَّف، مجالستُه مِهنةٌ، ومعاتبتُه مِحنةٌ، ومحاورته تَعُرُّ، وموالاتُه تَضُرُّ، ومقاربتُه عمًى، ومقارنتُه شَقا)[5301].

قيل: (أربعةٌ تَصعُبُ معاشرتُهم: النَّديمُ المُعربِدُ، والجليسُ الأحمقُ، والمغنّي التَّائهُ، والسِّفلةُ إذا تقرَّأُ)[5302].

وعن عُمَرَ قال: (ما يمنعُكم إذا رأيتُم السَّفيهَ يُخرّقُ أعراضَ النَّاسِ أن تُعَرّبوا عليه؟ قالوا: نخافُ لِسانَه. قال: ذاك أدنى أنْ لا تكونوا شُهَداءَ)[5303].

- ويُروى عن لقمانَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: (لا تعاشِرِ الأحمقَ وإن كان ذا جمالٍ، وانظُرْ إلى السَّيفِ، ما أحسَنَ منظَرَه وأكثَرَ أذاه!)[5304].

- وقال لابنِه: (يا بُنيَّ، لأن يقصيَك الحكيمُ خيرٌ من أن يُدنيَك الأحمقُ)[5305].

- وقال له: (حليمٌ كُلَّما لَقِيَك قرَعَك بعصاه، خيرٌ من سفيهٍ كلَّما لَقِيَك سَرَّك)[5306].

- ويروى أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال لابنِه الحَسَنِ رَضِيَ اللهُ عنه: (إيَّاك ومصادقةَ الأحمقِ؛ فإنَّه يريدُ أن ينفَعَك فيَضُرُّك)[5307].

- وعن أبي جَعفَرٍ الخطميّ، أنَّ جَدَّه عُمَيرَ بنَ حَبيبٍ -وكان قد بايع رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أوصى بنيه، فقال لهم: (أي بَنيَّ، إيَّاكم ومخالطةَ السُّفَهاءِ؛ فإنَّ مجالستَهم داءٌ، وإنَّه من يحلُمْ عن السَّفيهِ يُسَرَّ بحِلمِه، ومن يحِبَّه يندَمْ، ومَن لا يُقِرَّ بقليلِ ما يأتي به السَّفيهُ يُقِرَّ بالكثيرِ)[5308].

- وقال الجاحِظُ: (لا تجالِسِ الحَمقى؛ فإنَّه يعلَقُ بك من مجالستِهم من الفسادِ ما لا يَعلَقُ بك من مجالسةِ العقلاءِ دَهرًا من الصَّلاحِ؛ فإنَّ الفسادَ أشَدُّ التِحامًا بالطِّباعِ)[5309].

- من امتُحِن بعِشرةِ الأحمقِ:

[5300] المصدر السابق (ص: 119).

[5301] ((أدب الدنيا والدين)) (ص 27).

[5302] ((الأمثال المولدة)) للخوارزمي (ص: 255).

[5303] رواه من طُرُقٍ: ابن أبي شيبة (26049)، وابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (245) واللفظ له، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (19/430).

[5304] ((محاضرات الأدباء)) للراغب (1/ 27).

[5305] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/545).

[5306] ((الحلم)) لابن أبي الدنيا (97).

[5307] يُنظَر: ((المجتنى)) لابن دريد (ص: 18)، ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (1/ 405).

[5308] ((الزهد)) لأحمد بن حنبل (1031)، ((الحلم)) لابن أبي الدنيا (17)، ((شعب الإيمان)) للبيهقي (11/ 25).

[5309] ((محاضرات الأدباء)) للراغب (1/ 27).

قال أبو حاتمٍ: (أظلَمُ الظُّلماتِ الحُمقُ، كما أنَّ أنفذَ البصائِرِ العقلُ، فإذا امتُحِن المرءُ بعِشرةِ الأحمقِ كان الواجِبُ عليه اللُّزومُ لأخلاقِ نفسِه، والمباينةَ لأخلاقِه مع الإكثارِ من الحمدِ للهِ على ما وَهَب له من الانتباهِ لما حُرِم غيرُه التَّوفيقَ له... والعاقِلُ يجِبُ عليه مجانبةُ مَن هذا نعتُه)[5310].

- إطلاقُ لفظِ الجاهِلِ على الأحمَقِ

قال ابنُ عبدِ البرِّ: (كانوا يُعَبِّرون عن الأحمَقِ بالجاهِلِ، ومِن ثَمَّ قالوا: غَضِب كِسرى على عاقلٍ فسجَنه مع جاهلٍ. يريدونَ سجَنه مع أحمقَ.

ويعبِّرون أيضًا عن العاقِلِ بالحِلمِ، قال الشَّاعِرُ:

فلا تصحَبْ أخا الجَهلِ

وإيَّاك وإيَّاه

فكم من جاهلٍ أردى

حليمًا حين واخاه

يقاسُ المرءُ بالمرءِ

إذا ما هو ماشاه)[5311].

- استشارةُ الأحمقِ:

قال أعرابيٌّ: (استَشِرْ عَدُوَّك العاقِلَ ولا تستَشِرْ صديقَك الأحمقَ؛ فإنَّ العاقِلَ يتَّقي على رأيِه الزَّللَ كما يتَّقي الوَرِعُ على دينِه الحَرَجَ)[5312].

- ذَلَّ مَن لا سفيهَ له:

يقال: (ذَلَّ مَن لا سفيهَ له)[5313]. قال الخوارزميُّ: (أوَّلُ من قاله الأحنَفُ، وتعاوَره المولَّدون)[5314].

عن ابنِ شوذَبٍ قال: (كنَّا عِندَ مكحولٍ، ومعنا سليمانُ بنُ موسى، فجاء رجلٌ واستطال على سُلَيمانَ، وسليمانُ ساكِتٌ، فجاء أخٌ لسُليمانَ فرَدَّ عليه، فقال مكحولٌ: لقد ذَلَّ مَن لا سفيهَ له!)[5315].

وقال الرَّافعيُّ: (إذا اصطنَعْتَ سفيهًا يُسافِهُ عنك، فاحذَرْه لليومِ الذي لا يكونُ فيه سفيهًا إلَّا عليك)[5316].

[5310] ((روضة العقلاء)) (120، 121).

[5311] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/545).

[5312] ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان التوحيدي (1/ 203)، ((نثر الدر)) للآبي (6/ 34).

[5313] ((مجمع الأمثال)) للميداني (1/ 286).

[5314] ((الأمثال المولدة)) (ص: 316).

[5315] أخرجه ابن عدي في ((الكامل في ضعفاء الرجال)) (4/ 253)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (11/ 397)

[5316] ((كلِمة وكليمة)) (ص: 71).

المبحث الثاني والعشرون: البُخلُ والشُّحُّ

أوَّلًا: معنى البُخلِ والشُّحِّ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى البُخلِ لُغةً:**

البُخلُ ضِدُّ الكَرَمِ والجُودِ، وقد بَخِل بكذا: أي: ضَنَّ بما عندَه ولم يَجُدْ، ويُقالُ: هو بخيلٌ وباخِلٌ، وجمعُه بُخلاءُ، والبَخَّالُ: الشَّديدُ البُخلِ، والمَبخَلةُ: ما يحمِلُك عليه ويدعوك إليه وبه[5317]. (والبُخلُ في كلامِ العَرَبِ منعُ الرَّجُلِ سائِلَه ما لديه وعندَه من فَضلٍ عنه)[5318].

- **معنى البُخلِ اصطِلاحًا:**

- قال الرَّاغبُ الأصفهانيُّ: (البُخلُ: إمساكُ المُقتَنَياتِ عمَّا لا يحِقُّ حَبسُها عنه)[5319].

- وقال الجُرجانيُّ: (البُخلُ هو المنعُ مِن مالِ نفسِه)[5320].

- وقال ابنُ حَجَرٍ: (البُخلُ هو مَنعُ ما يُطلَبُ ممَّا يُقتنى، وشَرُّه ما كان طالِبُه مُستحِقًّا، ولا سيَّما إن كان من غيرِ مالِ المسئولِ)[5321].

- وقال الفيوميُّ: (البُخلُ في الشَّرعِ: مَنعُ الواجِبِ)[5322].

- **معنى الشُّحِّ لُغةً:**

الشُّحُّ: البُخلُ مع حِرصٍ. وقيل: هو أشَدُّ البُخلِ، وقيل: الشُّحُّ يكونُ بالمالِ والمعروفِ. ويقالُ: رجُلٌ شحيحٌ وقومٌ شِحاحٌ وأشِحَّةٌ وأشِحَّاءُ، وتشاحَّ القومُ: إذا شَحَّ بعضُهم على بعضٍ[5323].

- **معنى الشُّحِّ اصطِلاحًا:**

- قال النَّوويُّ: (الشُّحُّ: هو البُخلُ بأداءِ الحقوقِ، والحِرصُ على ما ليس له)[5324].

- وقال الطَّبَريُّ: (الشُّحُّ: الإفراطُ في الحِرصِ على الشَّيءِ)[5325].

- وقال الرَّاغبُ الأصفهانيُّ: (الشُّحُّ: بخلٌ مع حرصٍ، وذلك فيما كان عادةً)[5326].

[5317] يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري، ((مختار الصحاح)) للرازي، ((تاج العروس)) للزبيدي، ((المعجم الوسيط)).

[5318] ((جامع البيان)) للطبري (21 /7)

[5319] يُنظَر: ((المفردات)) (109/1).

[5320] يُنظَر: ((التعريفات)) (ص42).

[5321] يُنظَر: ((فتح الباري)) (457/10).

[5322] يُنظَر: ((المصباح المنير)).

[5323] يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري، ((المصباح المنير)) للفيومي، ((تاج العروس)) للزبيدي.

[5324] يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (222/16).

[5325] يُنظَر: ((جامع البيان)) (282/9).

[5326] يُنظَر: ((المفردات)) (ص: 446).

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ البُخلِ والشُّحّ

اختلف أهلُ العِلمِ في البُخلِ والشُّحّ: هل هما مترادفانِ أو لكُلِّ واحدٍ منهما معنًى غيرُ معنى الآخَرِ، وقد بَيَّنَ الطِّيبيُّ أنَّ الفَرْقَ بَيْنَهما عسيرٌ جِدًّا[5327]، وسنعرِضُ هنا بعضًا من أقوالِ العُلَماءِ في الفَرْقِ بَيْنَهما:

فقد فَرَّق ابنُ عُمَرَ بَيْنَ الشُّحّ والبُخلِ، فقال: (ليس الشُّحُّ أن يمنَعَ الرَّجلُ مالَه، ولكِنَّه البُخلُ، وإنَّه لشَرٌّ، إنَّما الشُّحُّ أن تطمَحَ عينُ الرَّجُلِ إلى ما ليس له)[5328].

وقيل: إنَّهما مترادِفانِ لهما المعنى نفسُه[5329].

(وقيل: البُخلُ: الامتناعُ من إخراجِ ما حصَل عندك، والشُّحُّ: الحِرصُ على تحصيلِ ما ليس عندك)[5330].

وقيل: (البُخلُ منعُ الواجِبِ، والشُّحُّ منعُ المُستحَبِّ)[5331]. واستدلَّ أصحابُ هذا القولِ على أنَّ البُخلَ هو منعُ الواجِبِ بأمورٍ:

أحَدُها: أنَّه قد جاء الوعيدُ الشَّديدُ في البُخلِ، ومنه قولُه تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران: 180]، والوعيدُ لا يليقُ إلَّا بالواجِبِ.

وثانيها: أنَّه تعالى ذمَّ البُخلَ وعابه، ومنعُ التَّطوُّعِ لا يجوزُ أن يُذَمَّ فاعِلُه، وأن يُعابَ به.

وثالثُها: وهو أنَّه تعالى لا ينفَكُّ عن تَركِ التَّفضُّلِ؛ لأنَّه لا نهايةَ لمقدوراتِه في التَّفضُّلِ، وكلُّ ما يدخُلُ في الوجودِ فهو مُتناهٍ، فيكونُ لا محالةَ تاركًا التَّفضُّلَ، فلو كان تَركُ التَّفضُّلِ بُخلًا لَزِم أن يكونَ اللهُ تعالى موصوفًا بالبُخلِ لا محالةَ، تعالى اللهُ عزَّ وجَلَّ عنه عُلُوًّا كبيرًا.

ورابعُها: قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((وأيُّ داءٍ أدوَأُ[5332] من البُخلِ؟))[5333]. ومعلومٌ أنَّ تارِكَ التَّطوُّعِ لا يليقُ به هذا الوصفُ.

وخامِسُها: أنَّه لو كان تارِكُ التَّفضُّلِ بخيلًا لوجب فيمن يملِكُ المالَ كُلَّه العظيمَ ألَّا يتخَلَّصَ من البُخلِ إلَّا بإخراجِ الكُلِّ.

وسادِسُها: أنَّه تعالى قال: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة: 3]، وكَلِمةُ مِنْ للتَّبعيضِ، فكان المرادُ مِن هذه الآيةِ: الذين يُنفِقون بعضَ ما رزَقَهم اللهُ، ثمَّ إنَّه تعالى قال في صِفتِهم: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: 5] . فوصَفَهم بالهُدى والفلاحِ، ولو كان تارِكُ التَّطوُّعِ بخيلًا مذمومًا لَمَا صحَّ ذلك؛ فثبَتَ أنَّ البُخلَ عبارةٌ عن تَركِ الواجِبِ[5334].

[5327] يُنظَر: ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (28/ 94).

[5328] أخرجه عبدُ بن حُمَيد، وابن المنذر، وابن مردويه، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (107/8).

[5329] يُنظَر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (220/4).

[5330] يُنظَر: ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (293/4).

[5331] يُنظَر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (1/396).

[5332] داءٍ أدوَأُ: أيُّ عيبٍ أقبَحُ. يُنظَر: ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمناوي (2/ 482).

[5333] أخرجه البخاري (4383) مطوَّلًا من حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما.

أمَّا الدَّليلُ على كَونِ الشُّحِّ منْعَ المستحَبِّ فقولُه تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9]، والإيثارُ مُستحَبٌّ، وسُمِّي منعُه شُحًّا[5335]. واعتُرِض على ذلك وسيأتي بيانُه.

وقيل: (البُخلُ هو المنعُ من مالِ نَفسِه، والشُّحُّ: هو بُخلُ الرَّجلِ من مالِ غيرِه ...)[5336].

وقيل: (البُخلُ هو نفسُ المنعِ، والشُّحُّ الحالةُ النَّفسيَّةُ التي تقتَضي ذلك المنعَ)[5337].

وقيل: إنَّ الشُّحَّ هو البُخلُ مع زيادةِ الحِرصِ، وهو ما رجَّحه القُرطبيُّ، فقال: (وقيل: إنَّ الشُّحَّ هو البُخلُ مع حِرصٍ. وهو الصَّحيحُ؛ لِما رواه مُسلِمٌ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اتَّقوا الظُّلمَ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ، واتَّقوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبلَكم؛ حمَلَهم على أنْ سَفَكوا دِماءَهم، واستحَلُّوا محارِمَهم))[5338]. وهذا يرُدُّ قولَ من قال: إنَّ البُخلَ منعُ الواجِبِ، والشُّحَّ مَنعُ المُستحَبِّ؛ إذ لو كان الشُّحُّ مَنعَ المُستحَبِّ لَما دخل تحتَ هذا الوعيدِ العظيمِ والذَّمِّ الشَّديدِ الذي فيه هلاكُ الدُّنيا والآخرةِ. ويؤيِّدُ هذا المعنى ما رواه النَّسائيُّ عن أبي هُرَيرةَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يجتَمِعُ غُبارٌ في سبيلِ اللهِ ودُخانُ جهنَّمَ في مَنخِرَي رجلٍ مُسلِمٍ أبدًا، ولا يجتَمِعُ شُحٌّ وإيمانٌ في قلبِ رُجلٍ مُسلِمٍ أبدًا))[5339][5340].

ويرى ابنُ القَيِّمِ أنَّ (الفَرْقَ بَيْنَ الشُّحِّ والبُخلِ: أنَّ الشُّحَّ هو شِدَّةُ الحِرصِ على الشَّيءِ، والإحفاءُ في طلَبِه، والاستقصاءُ في تحصيلِه، وجَشَعُ النَّفسِ عليه، والبُخلُ: منعُ إنفاقِه بعدَ حُصولِه، وحُبُّه وإمساكُه، فهو شحيحٌ قبلَ حُصولِه، بخيلٌ بعدَ حُصولِه؛ فالبُخلُ ثمَرةُ الشُّحِّ، والشُّحُّ يدعو إلى البُخلِ، والشُّحُّ كامِنٌ في النَّفسِ، فمَن بَخِل فقد أطاع شُحَّه، ومَن لم يبخَلْ فقد عصى شُحَّه ووُقِيَ شَرَّه، وذلك هو المُفلِحُ: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9])[5341].

المطلب الثالث: ذَمُّ البُخلِ والشُّحِّ والنَّهيُ عنهما

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

1. الآياتُ الواردةُ في ذَمِّ البُخلِ:

البُخلُ خُلُقٌ مكروهٌ ذَمَّه الله تبارك وتعالى في غيرِ آيةٍ مِن كتابِه الكريمِ، وتوعَّد أصحابَه بوعيدٍ شديدٍ، وعُقوباتٍ تَلحَقُهم في الدُّنيا والآخِرةِ، وسنذكُرُ بعضًا من تلك الآياتِ الكريمةِ.

[5334] يُنظَر: ((مفاتيح الغيب)) للرازي (9 / 444).

[5335] يُنظَر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (1/396).

[5336] ((التعريفات)) للجرجاني (ص: 42).

[5337] يُنظَر: ((الكليات)) للكفوي (1 /361).

[5338] رواه مسلم (2578).

[5339] أخرجه النسائي (3111) واللفظ له، وأحمد (8512). صحَّحه ابن حبان في ((صحيحه)) (3251)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (3111)، وشعيب الأرناؤوط بطرقه وشواهده في تخريج ((مسند أحمد)) (8512)، وصحَّح إسنادَه الطبري في ((مسند عمر)) (1/102).

[5340] يُنظَر: ((الجامع لأحكام القرآن)) (293/4).

[5341] يُنظَر: ((الوابل الصيب)) (ص: 33).

- قال اللهُ تبارك وتعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [آل عمران: 180].

(أي: ولا يَظُنَّ الذين يَبخَلون، أي: يمنَعون ما عندَهم ممَّا آتاهم اللهُ من فَضلِه، من المالِ والجاهِ والعِلمِ، وغيرِ ذلك ممَّا منحَهم اللهُ، وأحسَنَ إليهم به، وأمَرَهم ببذلِ ما لا يَضُرُّهم منه لعبادِه، فبَخِلوا بذلك، وأمسَكوه، وضَنُّوا به على عبادِ اللهِ، وظنُّوا أنَّه خيرٌ لهم، بل هو شرٌّ لهم في دينِهم ودُنياهم، وعاجِلِهم وآجِلِهم سُيَطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [آل عمران: 180] أي: يُجعَلُ ما بَخِلوا به طوقًا في أعناقِهم، يُعَذَّبون به)[5342].

- وقال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء: 36-37].

قال ابنُ تَيميَّةَ: (قد تُؤُوِّلَت في البُخلِ بالمالِ والمنعِ، والبُخلِ بالعِلمِ ونحوِه، وهي تَعُمُّ البُخلَ بكُلِّ ما ينفَعُ في الدِّينِ والدُّنيا من عِلمٍ ومالٍ وغيرِ ذلك)[5343].

فـ (المرادُ بالبُخلِ في الآيةِ البُخلُ بالإحسانِ الذي أمَرَ به فيما تقدَّم، فيَشمَلُ البُخلَ بلِينِ الكلامِ، وإلقاءِ السَّلامِ، والنُّصحِ في التَّعليمِ، وإنقاذِ المُشرِفِ على التَّهلُكةِ، وكتمانُ ما آتاهم اللهُ من فضلِه يشمَلُ كِتمانَ المالِ، وكِتمانَ العِلمِ)[5344].

- وقال تعالى: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [الحديد: 24].

(أي: يجمَعون بَيْنَ الأمرينِ الذَّميمَين، اللَّذَينِ كُلٌّ منهما كافٍ في الشَّرِّ: البُخلُ: وهو مَنعُ الحُقوقِ الواجبةِ، ويأمُرون النَّاسَ بذلك، فلم يَكْفِهم بُخلُهم، حتى أمروا النَّاسَ بذلك، وحثُّوهم على هذا الخُلُقِ الذَّميمِ بقولِهم وفِعلِهم، وهذا من إعراضِهم عن طاعةِ رَبِّهم، وتولِّيهم عنها...)[5345].

- وقد بَيَّنَ القرآنُ الكريمُ سوءَ عاقبةِ البُخلِ في آياتٍ عِدَّةٍ، كما قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} [الليل: 8-11].

- وقال تعالى: {هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: 38].

2. الآياتُ الواردةُ في ذمِّ الشُّحِّ:

- قال تعالى: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النِّساء: 128].

[5342] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (158).

[5343] يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) (212/14).

[5344] يُنظَر: ((تفسير المراغي)) (38/5).

[5345] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 842) .

قال السَّعدي: (وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ أي: (جُبِلت النُّفوسُ على الشُّحِّ، وهو: عدَمُ الرَّغبةِ في بذلِ ما على الإنسانِ، والحِرصُ على الحَقِّ الذي له؛ فالنُّفوسُ مجبولةٌ على ذلك طبعًا، أي: فينبغي لكم أن تحرِصوا على قَلعِ هذا الخُلُقِ الدَّنيءِ من نفوسِكم، وتستبدِلوا به ضِدَّه، وهو السَّماحةُ، وهو بَذلُ الحَقِّ الذي عليك، والاقتناعُ ببعضِ الحَقِّ الذي لك، فمتى وُفِّق الإنسانُ لهذا الخُلُقِ الحسَنِ سَهُل حينئذٍ عليه الصُّلحُ بَينَه وبينَ خَصمِه ومُعامِلِه، وتسهَّلت الطَّريقُ للوصولِ إلى المطلوبِ، بخلافِ مَن لم يجتَهِدْ في إزالةِ الشُّحِّ من نفسِه؛ فإنَّه يَعسُرُ عليه الصُّلحُ والموافقةُ؛ لأنَّه لا يُرضيه إلَّا جميعُ مالِه، ولا يرضى أن يؤدِّيَ ما عليه، فإن كان خَصمُه مثلَه اشتَدَّ الأمرُ)[5346].

- وقال تعالى: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

قال ابنُ كثيرٍ: ({وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9]، أي: من سَلِم من الشُّحِّ فقد أفلَح وأنجَح)[5347].

وقال السَّعديُّ: (مَن رُزِق الإيثارَ فقد وُقِيَ شُحَّ نَفسِه {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9]، ووقايةُ شُحِّ النَّفسِ يَشمَلُ وقايتَها الشُّحَّ في جميعِ ما أمَر به، فإنَّه إذا وقِيَ العبدُ شُحَّ نفسِه سمَحَت نفسُه بأوامرِ اللهِ ورَسولِه، ففعَلها طائعًا منقادًا، منشَرِحًا بها صدرُه، وسمَحت نفسُه بتركِ ما نهى اللهُ عنه، وإن كان محبوبًا للنَّفسِ تدعو إليه، وتطَّلِعُ إليه، وسمَحَت نفسُه ببذلِ الأموالِ في سبيلِ اللهِ وابتغاءَ مرضاتِه، وبذلك يحصُلُ الفلاحُ والفوزُ، بخِلافِ مَن لم يُوقَ شُحَّ نفسِه، بل ابتُلِيَ بالشُّحِّ بالخيرِ، الذي هو أصلُ الشَّرِّ ومادَّتُه)[5348].

ب- من السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

- عن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من الهَمِّ والحَزَنِ، والعَجزِ والكَسَلِ، والجُبنِ والبُخلِ، وضَلَعِ الدَّينِ[5349]، وغَلَبةِ الرِّجالِ))[5350].

يقولُ ابنُ القَيِّمِ تعليقًا على هذا الحديثِ: (...ثمَّ ذكَر الجُبنَ والبُخلَ؛ فإنَّ الإحسانَ المتوقَّعَ من العبدِ إمَّا بمالِه وإمَّا ببَدَنِه؛ فالبخيلُ مانعٌ لنفعِ مالِه، والجبانُ مانعٌ لنَفعِ بَدَنِه ...)[5351].

وقال: (والجُبنُ والبُخلُ قرينانِ؛ فإن عُدِم النَّفعُ منه إن كان ببَدَنِه فهو الجُبنُ، وإن كان بمالِه فهو البُخلُ)[5352].

- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((ضرب رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَثَلَ البخيلِ والمتصَدِّقِ، كمَثَلِ رجُلَينِ عليهما جُنَّتانِ[5353] من حديدٍ، قد اضطُرَّت[5354] أيديهما إلى ثُدِيِّهما وتَراقيهما[5355]، فجعَل المتصَدِّقُ كُلَّما تصدَّق بصَدَقةٍ انبسَطَت عنه،

[5346] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 206).

[5347] يُنظَر: ((تفسير القرآن العظيم)) (71/8).

[5348] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 850).

[5349] أي: ثِقَلُ الدَّينِ وشِدَّتُه، وذلك حيثُ لا يجِدُ مَن عليه الدَّينُ وَفاءً، ولا سيَّما مع المطالبةِ. يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (11/ 174).

[5350] أخرجه البخاري (6369) واللفظ له، ومسلم (2706).

[5351] يُنظَر: ((مفتاح دار السعادة)) (113/1).

[5352] يُنظَر: ((الجواب الكافي)) (ص: 73).

[5353] الجُنَّةُ: ما استُتِر به من سلاحٍ أو غيرِه. والجُنَّةُ: التُّرسُ. يُنظَر: ((كشف المشكل من حديثِ الصحيحين)) لابن الجوزي (3/ 442).

[5354] قد اضطُرَّت أيديهما: شُدَّت وعُصِرت وضُمَّت وأُلصِقَت. يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح)) لملا علي القاري (1320/4).

[5355] التَّراقي: جمعُ تَرقُوةٍ، وللإنسانِ تَرقُوتانِ: وهما العظمانِ المُشرفانِ في أعلى الصَّدرِ. يُنظَر: ((كشف المشكل من حديثِ الصحيحين)) لابن الجوزي (3/ 442).

حتى تغشى أنامِلَه وتَعفوَ أثرَه[5356]، وجعَل البخيلُ كُلَّما همَّ بصَدَقةٍ قلَصَت[5357]، وأخذَت كُلُّ حَلقةٍ مَكانَها، قال: فأنا رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ بإصبَعِه في جيبِه، فلو رأيتَه يُوسِّعُها ولا تتوَسَّعُ))[5358].

قال ابنُ القَيِّمِ تعليقًا على هذا الحديثِ: (لمَّا كان البخيلُ محبوسًا عن الإحسانِ، ممنوعًا عن البِرِّ والخيرِ، وكان جزاؤه من جِنسِ عَمَلِه؛ فهو ضَيِّقُ الصَّدرِ، ممنوعٌ من الانشراحِ، ضَيِّقُ العَطَنِ، صغيرُ النَّفسِ، قليلُ الفَرَحِ، كثيرُ الهَمِّ والغَمِّ والحُزنِ، لا يكادُ تُقضى له حاجةٌ، ولا يُعانُ على مطلوبٍ؛ فهو كرجُلٍ عليه جُبَّةٌ من حديدٍ قد جُمِعَت يداه إلى عنُقِه، بحيث لا يتمكَّنُ من إخراجِها ولا حركتِها، وكلَّما أراد إخراجَها أو توسيعَ تلك الجُبَّةِ، لَزِمَت كُلُّ حلقةٍ من حِلَقِها مَوضِعَها، وهكذا البخيلُ كُلَّما أراد أن يتصدَّقَ منعَه بُخلُه فبَقِيَ قلبُه في سِجنِه كما هو)[5359].

- وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: لمَّا قَدِم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يا بني سَلِمةَ مَن سَيِّدُكم قالوا: الجَدُّ بنُ قَيسٍ وإنَّا لنبَخِّلُه! قال: وأيُّ داءٍ أدوى من البُخلِ؟! بل سَيِّدُكم الخيرُ الأبيضُ عَمرُو بنُ الجَموحِ)). قال: وكان على أضيافِهم في الجاهليَّةِ، قال: وكان يُولِمُ على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا تزوَّجَ[5360].

قال المُناويُّ: (أيُّ عَيبٍ أقبَحُ منه؛ لأنَّ من تَرَك الإنفاقَ خَوفَ الإملاقِ لم يُصَدِّقِ الشَّارِعَ، فهو داءٌ مُؤلِمٌ لصاحِبِه في الآخِرةِ، وإن لم يكُنْ مؤلِمًا في الدُّنيا)[5361].

- وعن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اتَّقوا الظُّلمَ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ، واتَّقوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ من كان قَبلَكم، حمَلَهم على أن سفَكوا دماءَهم، واستحَلُّوا محارِمَهم))[5362].

قال النَّوويُّ: (قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((واتَّقوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ من كان قَبلَكم)). قال القاضي: يحتَمِلُ أنَّ هذا الهلاكَ هو الهلاكُ الذي أخبر عنهم به في الدُّنيا بأنَّهم سفَكوا دماءَهم، ويحتَمِلُ أنَّه هلاكُ الآخرةِ، وهذا الثَّاني أظهَرُ، ويحتَمِلُ أنَّه أهلكَهم في الدُّنيا والآخِرةِ)[5363].

- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يتقارَبُ الزَّمانُ[5364]، ويَنقُصُ العَمَلُ[5365]، ويُلقى الشُّحُّ، وتظهَرُ الفِتَنُ، ويَكثُرُ الهَرْجُ. قالوا: يا رسولَ اللهِ، أيُّمَ هو[5366]؟ قال: القَتلُ القَتلُ))[5367].

[5356] أي: تستُرُ جميعَ بَدَنِه. يُنظَر: ((كشف المشكل من حديثِ الصحيحين)) لابن الجوزي (3/ 442).

[5357] قلَصَت: أي: تضامَّت واجتَمَعت. يُنظَر: ((كشف المشكل من حديثِ الصحيحين)) لابن الجوزي (3/ 442).

[5358] أخرجه البخاري (5797)، ومسلم (1021) واللفظ له.

[5359] يُنظَر: ((الوابل الصيب)) (ص: 33).

[5360] أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)) (296)، والبزار كما في ((كشف الأستار)) للهيثمي (2705)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (10859) واللفظ له. صحَّحه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (296)، وحسَّنه الوادعي في ((الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين)) (236)، وقال الشوكاني في ((در السحابة)) (329): (إسنادُه رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ حُمَيدِ بنِ الرَّبيعِ، وهو ثقةٌ).

[5361] يُنظَر: ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) (482/2).

[5362] أخرجه مسلم (2578).

[5363] يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (134/16). وينظر أيضًا: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (8/ 48).

[5364] يتقارَبُ الزَّمانُ: أي: في الشَّرِّ حتى يُشبِهَ أوَّلُه آخِرَه، أو أحوالِ النَّاسِ في غَلَبةِ الفسادِ عليهم، أو المرادُ قِصَرُ أعمارِ أهلِه، أو تسارُعُ الدُّوَلِ في الانقضاءِ، والقُرونِ إلى الانقراضِ، فيتقارَبُ زمانُهم. يُنظَر: ((إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري)) للقسطلاني (9/ 33).

[5365] ويَنقُصُ العَمَلُ: أي: بالطَّاعاتِ لاشتغالِ النَّاسِ بالدُّنيا. يُنظَر: ((إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري)) للقسطلاني (9/ 33).

[5366] أي: أيُّ شيءٍ. يُنظَر: ((إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري)) للقسطلاني (10/ 173).

قال ابنُ حَجَرٍ: (أمَّا قولُه: ويُلقى الشُّحُّ. فالمرادُ إلقاؤه في قُلوبِ النَّاسِ على اختلافِ أحوالِهم؛ حتى يبخَلَ العالِمُ بعِلمِه، فيَترُكَ التَّعليمَ والفتوى، ويَبخَلَ الصَّانعُ بصناعتِه حتى يترُكَ تعليمَ غيرِه، ويبخَلَ الغنيُّ بمالِه حتى يَهلِكَ الفقيرُ، وليس المرادُ وجودَ أصلِ الشُّحِّ؛ لأنَّه لم يَزَلْ موجودًا)[5368].

وقال ابنُ الجوزيِّ: (قولُه: يُلقى الشُّحُّ. على وجهَينِ: أحَدُهما: يُلقى من القُلوبِ، يدُلُّ عليه قولُه: ويَفيضُ المالُ. والثَّاني: يُلقى في القُلوبِ، فيُوضَعُ في قَلبِ من لا شُحَّ عِندَه، ويزيدُ في قلبِ الشَّحيحِ. ووجهُ هذا أنَّ الحديثَ خارِجٌ مخرَجَ الذَّمِّ؛ فوقوعُ الشُّحِّ في القلوبِ مع كثرةِ المالِ أبلَغُ في الذَّمِّ)[5369].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ وغَيرِهم:

- قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عنه: (البُخلُ جِلبابُ المسكنةِ، وربَّما دخل السَّخِيُّ بسَخائِه الجنَّةَ)[5370].

- وقال عليٌّ أيضًا: (البخلُ جامعٌ لمساوئِ العيوبِ، وهو زمامٌ يُقادُ به إلى كلِّ سوءٍ). ومرَّ على مزبلةٍ فقال: (هذا ما بخل به الباخلون)[5371].

- وقال طَلحةُ بنُ عُبَيدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه: (إنَّا لنَجِدُ بأموالِنا ما يجِدُ البُخلاءُ، لكِنَّنا نتصَبَّرُ)[5372].

- وسُئِل الحسنُ بنُ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عنهما عن البُخلِ، فقال: (هو أن يرى الرَّجُلُ ما يُنفِقُه تلفًا، وما أمسَكَه شَرَفًا)[5373].

- وقال محمَّدُ بنُ المُنكَدِرِ: (كان يُقالُ: إذا أراد اللهُ بقومٍ شَرًّا أمَّر اللهُ عليهم شِرارَهم، وجعَل أرزاقَهم بأيدي بُخَلائِهم)[5374].

- وقال أبو حنيفةَ: (لا أرى أنْ أُعَدِّلَ بخيلًا؛ لأنَّ البُخلَ يحمِلُه على الاستقصاءِ؛ فيأخُذُ فوقَ حَقِّه خيفةً من أن يُغبَنَ، فمن كان هكذا لا يكونُ مأمونَ الأمانةِ)[5375].

- وقال بِشرُ بنُ الحارِثِ: (النَّظَرُ إلى البخيلِ يُقَسِّي القلبَ، ولِقاءُ البُخلاءِ كَربٌ على قلوبِ المُؤمِنين)[5376].

- قالت أمُّ البنينَ أختُ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ: (أفٍّ للبخيلِ! لو كان البُخلُ قميصًا ما لبِسْتُه، ولو كان طريقًا ما سلَكْتُه)[5377].

- وقال الشَّعبيُّ: (لا أدري أيُّهما أبعَدُ غَورًا في نارِ جَهنَّمَ: البُخلُ، أو الكَذِبُ)[5378].

- قال حُبَيشُ بنُ مُبَشِّرٍ الثَّقَفيُّ الفقيهُ: (قعَدْتُ مع أحمدَ بنِ حنبَلٍ ويحيى بنِ مَعينٍ، والنَّاسُ مُتوافِرون، فأجمَعوا أنَّهم لا يَعرِفون رجلًا صالحًا بخيلًا)[5379].

[5367] أخرجه البخاري (7061) واللفظ له، ومسلم (157).

[5368] يُنظَر: ((فتح الباري)) (17/13).

[5369] يُنظَر: ((كشف المشكل من حديثِ الصحيحين)) (327/3).

[5370] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (ص: 135).

[5371] ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (4/ 393).

[5372] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (255/3).

[5373] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (ص: 138).

[5374] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (255/3).

[5375] المصدر السابق (256/3).

[5376] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((العقل وفضله)) (82)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (350/8)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (10910).

[5377] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (255/3).

[5378] المصدر السابق.

- وقال يحيى بنُ مُعاذٍ: (ما في القَلبِ للأسخياءِ إلَّا حُبٌّ ولو كانوا فُجَّارًا، وللبُخَلاءِ إلَّا بُغضٌ ولو كانوا أبرارًا)[5380].

- وقال ابنُ المعتَزِّ: (أبخَلُ النَّاسِ بمالِه أجوَدُهم بعِرْضِه)[5381].

- وقال أيضًا: (بَشِّرْ مالَ البخيلِ بحادِثٍ أو وارِثٍ)[5382].

- وقال الماوَرْديُّ: (الحِرصُ والشُّحُّ أصلٌ لكُلِّ ذَمٍّ، وسببٌ لكُلِّ لؤمٍ؛ لأنَّ الشُّحَّ يمنَعُ من أداءِ الحُقوقِ، ويبعَثُ على القطيعةِ والعُقوقِ)[5383].

المطلب الرابع: آثارُ البُخلِ والشُّحِّ

أ- آثارُ البُخلِ:

1. الحِرمانُ من الأجرِ المترتِّبِ على الإنفاقِ في أبوابِ الخيرِ.
2. سَبَبٌ في ضَعفِ الإيمانِ واضمِحلالِه؛ لِما فيه من سوءِ الظَّنِّ باللهِ.
3. كراهيةُ النَّاسِ له؛ فهو مَبغوضٌ مَكروهٌ حتى من أقرَبِ النَّاسِ إليه، كزوجتِه وأبنائِه وأقربائِه، بل قد يَصِلُ بهم الحَدُّ إلى أن يَدْعوا عليه، ويتَمَنَّوا موتَه؛ حتى يستطيعوا التَّنعُّمَ بما حرَمَهم منه من أموالٍ.
4. سببٌ لحِرمانِ الرِّزقِ، فكما أنَّ الإنفاقَ سَبَبٌ في زيادةِ الرِّزقِ وسَعتِه فإنَّ البُخلَ والشُّحَّ سَبَبٌ في تضييقِه.
5. الوقوعُ في الإثمِ بسببِ منْعِه لِما يجِبُ عليه من حُقوقٍ وواجِباتٍ.
6. حِرمانُ البخيلِ الشَّحيحِ لنَفسِه ولغيرِه من لذائِذِ الدُّنيا المباحةِ.
7. ومِن ضَرَرِهما في الدُّنيا تعريضُ مالِ الغنيِّ للضَّياعِ والنَّهبِ والسَّرِقةِ والأحقادِ، وفي عَصرِنا وغيرِه ظُهورُ الحَملاتِ الشَّنيعةِ على الأغنياءِ المُترَفين، وانتِشارُ الأفكارِ والنَّظريَّاتِ المُسمَّاة بالاشتراكيَّةِ، التي ظَهَرت لتقويضِ أركانِ الرَّأسماليَّةِ[5384].
8. سببٌ لكَشفِ عُيوبِ المرءِ وإظهارِها للخَلقِ.

قال شمسُ الدِّينِ السفيريُّ: (والسَّخاءُ والكَرَمُ سَبَبٌ لسَترِ العُيوبِ، والبُخلُ والشُّحُّ سببٌ جالِبٌ لكَشفِها كما أشار إليه بعضُهم بقَولِه:

ويظهِرُ عَيبَ المرءِ في النَّاسِ بُخلُهُ

ويَستُرُه عنهم جميعًا سَخاؤُه

تغَطَّ بأثوابِ السَّخاءِ فإنَّني

أرى كُلَّ عيبٍ والسَّخاءُ غِطاؤُه)[5385]

[5379] يُنظَر: ((الآداب الشرعية)) لابن مُفلِح (311/3).

[5380] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (256/3).

[5381] المصدر السابق.

[5382] يُنظَر: ((الآداب الشرعية)) لابن مُفلِح (3 / 317).

[5383] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 224).

[5384] يُنظَر: ((التفسير المنير)) للزحيلي (180/4).

9. الحِرصُ على ملازمةِ الأسواقِ لجَمعِ المالِ، والأسواقُ هي مُعشَّشُ الشَّياطينِ[5386].

10. البُخلُ صِنوٌ لعَدَدٍ من الأخلاقِ السَّيِّئةِ التي يجُرُّ بعضُها بعضًا؛ كالجَهلِ، والحَسَدِ، وسُوءِ الظَّنِّ باللهِ، وغيرِها من الأخلاقِ الرَّديئةِ؛ (ولهذا قيل في حَدِّ البُخلِ: جَهلٌ مَقرونٌ بسُوءِ الظَّنِّ)[5387].

11. والبُخلُ صفةٌ غَيرُ لائقةٍ بأهلِ الإسلامِ، بل هي سَجِيَّةٌ عُرِف بها اليهودُ قديمًا وحديثًا؛ قال الشَّوكانيُّ: (البُخلُ قد لَزِم اليهودَ لُزومَ الظِّلِّ للشَّمسِ، فلا ترى يهوديًّا وإن كان مالُه في غايةِ الكثرةِ إلَّا وهو من أبخَلِ خَلقِ اللهِ)[5388].

12. (البُخلُ محوُ صِفاتِ الإنسانيَّةِ، وإثباتُ عاداتِ الحيوانيَّةِ)[5389].

13. ما ينتَظِرُ البخيلَ والشَّحيحَ من عقابٍ أُخرويٍّ وطولِ حِسابٍ، خاصَّةً إذا كان بُخلُه قد أدَّاه إلى عدَمِ تأديةِ ما فَرَض اللهُ عليه من زكاةٍ، وإنفاقٍ على من تجِبُ نفَقتُهم عليه.

14. إفسادُ العَلاقاتِ بَيْنَ النَّاسِ وإعاقةُ الصُّلحِ بَيْنَهم:

قال تعالى: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: 128].

قال السَّعديُّ: (اعلَمْ أنَّ كُلَّ حُكمٍ من الأحكامِ لا يتِمُّ ولا يكمُلُ إلَّا بوجودِ مُقتَضيه وانتفاءِ موانِعِه؛ فمِن ذلك هذا الحُكمُ الكبيرُ الذي هو الصُّلحُ، فذَكَر تعالى المقتضيَ لذلك ونبَّه على أنَّه خيرٌ، والخيرُ كُلُّ عاقلٍ يطلُبُه ويرغَبُ فيه، فإن كان -مع ذلك- قد أمَر اللهُ به وحثَّ عليه، ازداد المُؤمِنُ طَلَبًا له ورغبةً فيه. وذَكَر المانِعَ بقَولِه: وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ، أي: جُبِلت النُّفوسُ على الشُّحِّ، وهو: عدَمُ الرَّغبةِ في بَذلِ ما على الإنسانِ، والحِرصُ على الحَقِّ الذي له؛ فالنُّفوسُ مجبولةٌ على ذلك طبعًا، أي: فينبغي لكم أن تحرِصوا على قَلعِ هذا الخُلُقِ الدَّنيءِ من نفوسِكم، وتستبدِلوا به ضِدَّه، وهو السَّماحةُ، وهو بَذلُ الحَقِّ الذي عليك، والاقتناعُ ببعضِ الحقِّ الذي لك؛ فمتى وُفِّق الإنسانُ لهذا الخُلُقِ الحسَنِ سَهُلَ حينئذٍ عليه الصُّلحُ بَينَه وبينَ خَصمِه ومُعامِلِه، وتسهَّلت الطَّريقُ للوصولِ إلى المطلوبِ، بخلافِ مَن لم يجتَهِدْ في إزالةِ الشُّحِّ من نفسِه؛ فإنَّه يَعسُرُ عليه الصُّلحُ والموافقةُ؛ لأنَّه لا يُرضيه إلَّا جميعُ مالِه، ولا يرضى أن يؤدِّيَ ما عليه، فإن كان خَصمُه مثلَه اشتَدَّ الأمرُ)[5390].

ب- آثارُ الشُّحِّ:

1. الشُّحُّ من صِفاتِ المُنافِقين:

قال تعالى في وَصفِ المُنافِقين-: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [الأحزاب: 19].

[5385] يُنظَر: ((شرح صحيح البخاري)) (348/1).

[5386] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (34/3).

[5387] يُنظَر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (ص: 116).

[5388] يُنظَر: ((فتح القدير)) (66/2).

[5389] يُنظَر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: 43).

[5390] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 206).

قال الطَّبريُّ: (إنَّ اللهَ وصَف هؤلاء المُنافِقين بالجُبنِ والشُّحِّ، ولم يَخصُصْ وَصفَهم من معاني الشُّحِّ بمعنًى دونَ معنًى، فهم كما وصفَهم اللهُ به: أشِحَّةٌ على المُؤمِنين بالغنيمةِ والخيرِ، والنَّفقةِ في سبيلِ اللهِ على أهلِ مَسكَنةِ المُسلِمين)[5391].

2. الإنسانُ الشَّحيحُ لا خيرَ فيه ولا عِندَه:

قَولُه تعالى: أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ، قال ابنُ كثيرٍ: (وهم مع ذلك أشِحَّةٌ على الخيرِ، أي: ليس فيهم خيرٌ، قد جمعوا الجُبنَ والكَذِبَ وقِلَّةَ الخيرِ)[5392].

3. الشُّحُّ أسوَأُ صِفاتِ الإنسانِ:

قولُه تعالى: أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ، قال السَّعديُّ: (أشِحَّةً على الخيرِ الذي يرادُ منهم، وهذا شَرُّ ما في الإنسانِ أن يكونَ شحيحًا بما أُمِر به، شحيحًا بمالِه أن ينفِقَه في وَجهِه، شحيحًا في بدَنِه أن يجاهِدَ أعداءَ اللهِ، أو يدعوَ إلى سبيلِ اللهِ، شحيحًا بجاهِه، شحيحًا بعِلمِه ونصيحتِه ورأيِه)[5393].

4. الشُّحُّ سَبَبٌ في الهلاكِ وفَسادِ المجتَمَعِ:

عن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اتَّقوا الظُّلمَ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ، واتَّقوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبلَكم؛ حمَلَهم على أنْ سَفَكوا دِماءَهم، واستحَلُّوا محارِمَهم))[5394].

5. يوقِعُ الإنسانَ في كبائِرِ الذُّنوبِ:

ومن ذلك سَفكُ الدِّماءِ واستِحلالُ المحارِمِ، كما مرَّ في حديثِ جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ السَّابقِ.

6. سَبَبٌ للخُسرانِ في الدُّنيا والآخِرةِ:

قال تعالى: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

قال السَّعديُّ: (لعَلَّ ذلك -الوقايةَ من الشُّحِّ- شامِلٌ لكُلِّ ما أُمِرَ به العبدُ، ونُهِي عنه؛ فإنَّه إن كانت نفسُه شحيحةً لا تنقادُ لِما أُمِرت به ولا تُخرِجُ ما قِبَلَها، لم يُفلِحْ، بل خَسِر الدُّنيا والآخِرةَ)[5395].

المطلب الخامس: صُوَرُ البُخلِ والشُّحِّ

للبُخلِ والشُّحِّ صُوَرٌ شَتَّى ومظاهِرُ متعَدِّدةٌ؛ فمن صُوَرِه ما يأتي:

1. البُخلُ بالمالِ والمُقتَنَياتِ: وهذا بدَورِه ينقَسِمُ إلى أقسامٍ عِدَّةٍ ذكَرها الرَّاغِبُ، فقال: (البُخلُ ثلاثةٌ:

-بُخلُ الإنسانِ بمالِه.

[5391] يُنظَر: ((جامع البيان)) (31/20).

[5392] يُنظَر: ((تفسير القرآن العظيم)) (391/6).

[5393] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 660).

[5394] أخرجه مسلم (2578).

[5395] يُنظَر: ((تسير الكريم الرحمن)) (ص: 868).

-وبخلُه بمالِ غيرِه على غيرِه.

-وبخلُه على نفسِه بمالِ غيرِه، وهو أقبحُ الثَّلاثةِ، والباخِلُ بما بيَدِه باخِلٌ بمالِ اللهِ على نفسِه وعيالِه؛ إذ المالُ عاريَّةٌ بيَدِ الإنسانِ مُستردَّةٌ، ولا أحَدَ أجهَلُ ممَّن لا ينتقِذُ نَفسَه وعيالَه من العذابِ الأليمِ بمالِ غيرِه، سيَّما إذا لم يخَفْ من صاحِبِه تَبِعةً ولا مَلامةً، والكَفالةُ الإلهيَّةُ مُتكفِّلةٌ بتعويضِ المُنفِقِ؛ ففي الخبَرِ: اللهُمَّ اجعَلْ لمُنفِقٍ خَلَفًا، ولمُمسِكٍ تَلَفًا[5396]، ومن وسَّع وسَّع اللهُ عليه)[5397].

2. البُخلُ بالنَّفسِ: كمَن يبخَلُ بنَفسِه أن يُقَدِّمَها في سبيلِ اللهِ رخيصةً، وذلك تعلُّقًا منه بالدُّنيا وحرصًا عليها، وكراهيةَ الموتِ، وهو على عَكسِ من يجودُ بنَفسِه لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، ونَشرِ دينِه؛ قال الشَّاعِرُ:

يجودُ بالنَّفسِ إن ضَنَّ[5398] البخيلُ بها

والجودُ بالنَّفسِ أعلى غايةِ الجُودِ

ونقل ابنُ القَيِّمِ عن بعضِ الحُكَماءِ أنَّه قال: (إنَّ الإحسانَ المتوقَّعَ من العبدِ إمَّا بمالِه وإمَّا ببَدَنِه؛ فالبخيلُ مانعٌ لنَفعِ مالِه، والجبانُ مانعٌ لنَفعِ بدَنِه، المشهورُ عِندَ النَّاسِ أنَّ البُخلَ مُستلزِمٌ الجُبنَ من غيرِ عَكسٍ؛ لأنَّ من بَخِل بمالِه فهو بنفسِه أبخَلُ، والشَّجاعةُ تَستلزِمُ الكَرَمَ من غيرِ عَكسٍ؛ لأنَّ من جاد بنفسِه فهو بمالِه أسمَحُ وأجوَدُ). ثمَّ قال: (وهذا الذي قالوه ليس بلازمٍ أكثَرُه؛ فإنَّ الشَّجاعةَ والكَرَمَ وأضدادَها أخلاقٌ وغرائِزُ، قد تُجمَعُ في الرَّجُلِ، وقد يُعطى بعضَها دونَ بعضٍ، وقد شاهد النَّاسُ من أهلِ الإقدامِ والشَّجاعةِ والبأسِ من هو أبخَلُ النَّاسِ، وهذا كثيرًا ما يوجَدُ في أمَّةِ التُّركِ؛ يكونُ أشجَعَ من ليثٍ، وأبخَلَ من كَلبٍ، فالرَّجُلُ قد يسمَحُ بنَفسِه ويَضَنُّ بمالِه؛ ولهذا يقاتِلُ عليه حتى يُقتَلَ، فيبدأُ بنفسِه دونَه، فمِن النَّاسِ مَن يسمَحُ بنفسِه ومالِه، ومنهم من يبخَلُ بنفسِه، ومنهم من يسمَحُ بمالِه ويبخَلُ بنَفسِه، وعكسُه، والأقسامُ الأربعةُ موجودةٌ في النَّاسِ)[5399].

3. البُخلُ بالجاهِ:

فترى صاحِبَ الجاهِ والمنصِبِ العَلِيِّ يبخَلُ بالمنفعةِ التي سيقدِّمُها لمن يحتاجُها، فلا يشفَعُ إن طُلِبت منه الشَّفاعةُ، ولا يُصلِحُ إن طُلِب منه الصُّلحُ، ولا يسعى في حاجةِ الضَّعيفِ والمسكينِ وذي الحاجةِ.

4. البُخلُ بالعِلمِ:

وهو من أسوَأِ أنواعِ البُخلِ وأقبَحِها، بحيث يكتُمُ صاحِبُ العِلمِ عِلمَه عمَّن يحتاجُه، فلا يُعَلِّمُ ولا ينصَحُ ولا يوجِّهُ؛ قال الله تعالى: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا [النساء: 37].

قال ابنُ عبَّاسٍ: (هي في أهلِ الكِتابِ يقولُ: يكتُمون، ويأمُرون النَّاسَ بالكِتمانِ)[5400].

[5396] ينظر ما رواه البخاري (1442)، ومسلم (1010)، من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5397] يُنظَر: ((فيض القدير)) للمناوي (496/5).

[5398] الضَّنُّ: الإمساكُ والبُخلُ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[5399] يُنظَر: ((مفتاح دار السعادة)) (113-114).

[5400] أخرجه الطبري في ((التفسير)) (8297)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (5323).

وقال حَضرَميٌّ: (هم اليهودُ بَخِلوا بما عندَهم من العِلمِ، وكتَموا ذلك)[5401].

وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: (كان عُلَماءُ بني إسرائيلَ يَبخَلون بما عندَهم من العلمِ، ويَنهَون العُلَماءَ أن يُعَلِّموا النَّاسَ شيئًا؛ فغيَّرهم اللهُ بذلك، فأنزل اللهُ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ[5402]. وقال: هذا في العِلمِ، ليس للدُّنيا منه شيءٌ)[5403].

وقال الطَّبريُّ: (إنَّ بُخلَهم الذي وصفَهم اللهُ به إنَّما كان بخلًا بالعِلمِ الذي كان الله آتاهموه، فبَخِلوا بتبيينِه للنَّاسِ، وكتَموه دونَ البُخلِ بالأموالِ)[5404].

وقال السَّعديُّ: (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ أي: يمنَعون ما عليهم من الحقوقِ الواجبةِ. وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ بأقوالِهم وأفعالِهم وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أي: من العلمِ الذي يهتدي به الضَّالُّون، ويسترشِدُ به الجاهِلون، فيَكتُمونه عنهم، ويُظهِرون لهم من الباطِلِ ما يحولُ بَيْنَهم وبينَ الحقِّ؛ فجمعوا بَيْنَ البُخلِ بالمالِ والبُخلِ بالعِلمِ، وبَينَ السَّعيِ في خسارةِ أنفُسِهم وخسارةِ غَيرِهم، وهذه هي صفاتُ الكافِرين)[5405].

المطلب السادس: أسبابُ الوُقوعِ في البُخلِ والشُّحِّ

1. ضَعفُ إيمانِ البخيلِ وسُوءُ ظَنِّه باللهِ، فهو يَستثقِلُ أمرَ الإنفاقِ، ويَغفُلُ عن تعويضِ اللهِ له على ما أنفَق، كما أنَّه يغيبُ عنه أنَّ هذا المالَ هو مالُ اللهِ، وأنَّه لم يأتِ إلى الدُّنيا وبيَدِه شيءٌ منه.

2. الظُّلمُ من أسبابِ البُخلِ؛ حيث يَنتجُ عنه تعطيلٌ لحُقوقِ الآخَرينَ.

3. حُبُّ المالِ والتَّعلُّقُ به يورِثُ هذه الصِّفةَ الدَّنيئةَ، والسَّجيَّةَ القَبيحةَ.

4. الظَّنُّ بأنَّ البُخلَ نوعٌ من الذَّكاءِ والفِطنةِ والتَّدبيرِ لأمورِ الدُّنيا.

5. الخَوفُ من المُستقبَلِ، والهَلَعُ من الفَقرِ والحاجةِ التي يَعِدُ بها الشَّيطانُ الرَّجيمُ.

6. الخَوفُ على الأبناءِ؛ فالأبناءُ مَبخَلةٌ مَجبَنةٌ.

7. النَّشأةُ والتَّربيةُ؛ فقد ينشَأُ الشَّخصُ بَيْنَ والِدَينِ بخيلَينِ، أو مجتمَعٍ يتَّصِفُ بالبُخلِ؛ فيتشَرَّبُ هذه الصِّفةَ ممَّن حولَه، وتصبِحُ سَجيَّةً له.

8. عَدَمُ استشعارِ ما ينتَظِرُ البخيلَ من العقوبةِ يومَ القيامةِ.

9. الغَفلةُ عن الأجورِ المترتِّبةِ على الإنفاقِ، والقيامِ بالحُقوقِ الواجِبةِ.

10. طولُ الأمَلِ، والتَّشَبُّثُ بالحياةِ .

[5401] رواه الطبري في ((التفسير)) (9494).

[5402] رواه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (5317)

[5403] المصدر السابق (5316)، والخطيب في ((الجامع)) (720).

[5404] يُنظَر: ((جامع البيان)) (24/7).

[5405] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) (177/1).

المطلب السابع: الوَسائِلُ المعينةُ على تركِ البُخلِ والشُّحِّ

1. أن يحسِنَ المرءُ الظَّنَّ باللهِ عزَّ وجَلَّ، ويعلَمَ أنَّ اللهَ الذي أمَره بالإنفاقِ قد تكفَّل له بالزِّيادةِ. وقد قيلَ: (حبَسُ الموجودِ سوءُ الظَّنِّ بالمعبودِ)[5406].

2. الإكثارُ من الصَّدَقةِ، وإن كان ذلك ثقيلًا على من اتَّصف بهذه الصِّفةِ، وبذلك يعتادُ على صفةِ الكَرَمِ والإنفاقِ؛ قال ابنُ القَيِّمِ: (فالفقيرُ الآخِذُ لصدقتِك يستخرِجُ منك داءَ البُخلِ، كالحجَّامِ يستخرِجُ منك الدَّمَ المُهلِكَ)[5407].

3. مَعرِفةُ أنَّ الإيحاءَ بالفَقرِ والتَّخويفَ منه إنَّما هو وعدٌ شيطانيٌّ، وأنَّ وَعدَ اللهِ هو المغفرةُ للذُّنوبِ وزيادةُ الفَضلِ، يقولُ اللهُ تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 268].

4. الاستعاذةُ باللهِ من البُخلِ، كما كان يفعَلُ أكرَمُ الخَلقِ وأجوَدُهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيثُ كان يستعيذُ من البُخلِ فيقولُ: ((اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بك من البُخلِ، وأعوذُ بك من الجُبنِ، وأعوذُ بك أن أُرَدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ))[5408].

5. معالجةُ طُولِ الأمَلِ بالإكثارِ من ذِكرِ الموتِ.

6. التأمُّلُ في حالِ البُخلاءِ الذين تَعِبوا في جمعِ المالِ، والحِرصِ عليه، ثمَّ تركِهم له يتقاسَمُه الوَرَثةُ.

7. التَّأمُّلُ في الآياتِ الواردةِ في ذَمِّ البُخلِ، وما أعدَّه اللهُ للمتَّصِفين بهذه الصِّفةِ القبيحةِ.

8. صَرفُ القَلبِ إلى عبادةِ المولى تبارك وتعالى؛ حتَّى لا ينشَغِلَ بعبادةِ المالِ والحِرصِ عليه.

9. معرفةُ أنَّ المستقبَلَ بيَدِ اللهِ؛ إن شاء أغناك، وإن شاء أفقرك، وإن كُنتَ أحرصَ النَّاسِ.

10. عَدَمُ الخوفِ على مُستقبَلِ الأبناءِ، والتَّيقُّنُ أنَّ مَن خلقَهم قد خلَق أرزاقَهم معهم، ولن يُضيعَهم؛ فكم من ولَدٍ لم يَرِثْ من والِدِه مالًا قد أغناه اللهُ! وكم من أناسٍ وَرِثوا أموالًا ثمَّ صار أمرُهم إلى فَقرٍ وقِلَّةٍ!

11. علاجُ القَلبِ من أمراضِه.

12. التَّأمُّلُ في أحوالِ البُخلاءِ، ونُفرةِ الطَّبعِ منهم، وبُغضِ النَّاسِ لهم، وبقاءِ الذِّكرِ السَّيِّئِ مِن بَعدِهم .

المطلب الثامن: نماذِجُ من البُخلاءِ وأخبارِهم ونوادِرِهم

- عبدُ المَلِكِ بنُ زيادةِ اللهِ بنِ أبي مُضَرَ التَّميميُّ الحمانيُّ، أبو مروانَ الطُّبنيُّ المتوفَّى سنةَ 457 هجرية: عالمٌ باللُّغةِ والحديثِ، شاعِرٌ، أصلُه من "طُبنةَ" بالأندَلُسِ، وهو من أهلِ قُرطُبةَ، رحل إلى المَشرِقِ وحجَّ، وكتب عمَّن لَقِي من العُلَماءِ، وعاد فأملى كثيرًا من تقييداتِه، وقُتِل بقُرطُبةَ، قال ابنُ حيَّانَ: قتلَتْه جواريه لتقتيرِه عليهنَّ، وكان يوصَفُ بالبُخلِ المُفرِطِ[5409].

- كان أسَدُ بنُ جَهورٍ بخيلًا، وكان مكاشِفًا بالبُخلِ على الطَّعامِ جِدًّا، فكان نُدَماؤه يَلقَون لذلك جَهدًا، وكان يَحضُرُهم ويطالِبُهم بالجُلوسِ، ويحضِرُ كُلَّ لذيذٍ شَهيٍّ من الطَّعامِ، فإن ذاقه منهم ذائِقٌ استحَلَّ دمَه وعَجَّل عقوبتَه، وكان له ابنُ أختٍ يتجرَّأُ عليه ولا يفكِّرُ فيه، ويهتِكُ سِترَه إذا واكَلَه، فقُدِّمَت يومًا إليه دجاجةٌ، فحين أهوى ابنُ أخته إليها بيَدِه قَبَض أسدٌ

[5406] ((الفاضل)) للمبرد (ص: 35).

[5407] يُنظَر: ((عدة الصابرين)) (6/22).

[5408] رواه البخاري (6365) مطوَّلًا من حديثِ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5409] يُنظَر: ((الأعلام)) للزركلي (4/ 158).

عليها، وقال: (يا بارِدُ، يا سَيِّئَ العِشرةِ، يا قبيحَ الأدَبِ، أفي الدُّنيا أحَدٌ استحسَنَ إفسادَ هذه؟! فقال له ابنُ أخته: يا بخيلُ، يا لئيمُ، يا سيِّئَ الاختيارِ، فلأيِّ تَصلُحُ؟ صنمًا للعبادةِ، أو سُرِّيَّةً يُتمتَّعُ بالنَّظَرِ إليها؟ شَهِد اللهُ أنَّني ما أدَعُها.

فتصابرا عليها، إلى أن قال له الفتى: فافتَدِها منِّي. قال: بماذا تحِبُّ حتى أفعَلَ؟ قال: ببَغْلتِك الفلانيَّةِ.

قال: قد فعَلْتُ، قال: بسَرْجِها ولِجامِها المحلَّى الفُلانيِّ. قال: قد فعَلْتُ. قال: ما أرفَعُ يدي عنها أوْ تحضِرَ ذلك. قال: يا غِلمانُ، أحضِروه. فأُحضِرَت البغلةُ والمركَبُ، فسَلَّمها الفتى إلى غلامِه وأخرجَها، ورفَع يدَه عن الدَّجاجةِ، وانقضى الطَّعامُ، وشيلَت المائدةُ، وقام أسَدٌ لينامَ فخرج ابنُ أختِه، وقال للطَّبَّاخِ: عليَّ بالفائِقةِ السَّاعةَ وبجميعِ ما شِلتُموه من المائدةِ. فأُحضِرَ إليه، وردَّ النُّدَماءَ وقعدوا، فأكلوا ذلك، وانصرَفوا وقد أكَلَ الدَّجاجةَ والطَّعامَ أجمَعَ، وحصَلَت له البغلةُ والمركَبُ. قال: وإنَّما كان أسدٌ لا يُطيقُ أن يرى ذلك يؤكَلُ، فأمَّا إذا نحِّيَ مِن بَيْنِ يديه لم يَسألْ عنه ولم يطالِبْ برَدِّه!)[5410].

- وقال ابنُ حسَّان: (كان عندَنا رجلٌ مُقِلٌّ، وكان له أخٌ مُكثِرٌ، وكان مُفرِطَ البُخلِ. فقال له يومًا أخوه: ويحَك! أنا فقيرٌ مُعيلٌ، وأنت غنيٌّ خفيفُ الظَّهرِ، لا تعينُني على الزَّمانِ، ولا تواسيني ببعضِ مالِك، ولا تتفرَّجُ لي عن شيءٍ؟! واللهِ ما رأيتُ قَطُّ ولا سَمِعتُ بأبخلَ منك! قال: ويحَك! ليس الأمرُ كما تظُنُّ، ولا المالُ كما تحسَبُ، ولا أنا كما تقولُ في البُخلِ ولا في اليُسرِ. واللهِ لو ملَكْتُ ألفَ ألفِ دِرهَمٍ لوهَبْتُ لك منها خمسَمائةِ ألفِ دِرهَمٍ! يا هؤلاء، فرجُلٌ يَهَبُ ضربةً واحدةً خمسَمائةِ ألفٍ يُقالُ له: بخيلٌ)[5411]؟!

- وكان أبو الهُذَيلِ أهدى إلى مُوَيسٍ دجاجةً. وكانت دجاجتُه التي أهداها دونَ ما كان يتَّخَذُ لمُويسٍ، ولكِنَّه بكَرَمِه وبحُسنِ خُلُقِه أظهَرَ التَّعجُّبَ مِن سِمَنِها وطِيبِ لَحمِها، وكان يعرِفُه بالإمساكِ الشَّديدِ. فقال: (وكيف رأيتَ يا أبا عِمرانَ تلك الدَّجاجةَ؟؟ قال: كانت عَجَبًا من العَجَبِ! فيقولُ: وتدري ما جِنسُها؟ وتدري ما سِنُّها؟ فإنَّ الدَّجاجةَ إنَّما تطيبُ بالجِنسِ والسِّنِّ. وتدري بأيِّ شيءٍ كنَّا نُسَمِّنُها؟ وفي أيِّ مكانٍ كنَّا نَعلِفُها؟ فلا يزالُ في هذا، والآخَرُ يضحَكُ ضَحِكًا نعرِفُه نحن، ولا يَعرِفُه أبو الهُذَيلِ!

وكان أبو الهُذَيلِ إذا ذكَروا دجاجةً قال: أين كانت يا أبا عِمرانَ من تلك الدَّجاجةِ؟! فإن ذكَروا بَطَّةً أو عَناقًا أو جَزروًا أو بَقَرةً قال: فأين كانت هذه الجَزُورُ في الجُزُرِ من تلك الدَّجاجةِ في الدَّجاجِ؟! وإن استَسْمَنَ أبو الهُذَيلِ شيئًا من الطَّيرِ والبهائمِ قال: لا واللهِ، ولا تلك الدَّجاجةُ! وإن ذكَروا ميلادَ شيءٍ أو قدومَ إنسانٍ قال: كان ذلك بعدَ أن أهديتُها لك بسَنةٍ، وما كان بَيْنَ قدومِ فلانٍ وبَينَ البعثةِ بتلك الدَّجاجةِ إلَّا يومٌ! وكانت مثَلًا في كُلِّ شيءٍ، وتاريخًا في كُلِّ شيءٍ)[5412]!

- وقال الأصمَعيُّ أو غيرُه: (حمل بعضُ النَّاسِ مدينيًّا على بِرذَونٍ[5413]، فأقامه على الأريِّ[5414]، فانتبه من نَومِه فوجَدَه يعتَلِفُ، ثمَّ نام فانتَبَه فوَجَده يعتَلِفُ، فصاح بغلامِه: يا ابنَ أُمَّ، بِعْه وإلَّا فهَبْه، وإلَّا فرُدَّه، وإلَّا فاذبَحْه؛ أنامُ ولا ينامُ، يذهَبُ بحُرِّ مالي، ما أراد إلَّا استِئصالي)[5415]!

[5410] يُنظَر: ((البخلاء)) للخطيب البغدادي (ص: 165، 166).

[5411] المصدر السابق (ص: 252).

[5412] المصدر السابق (ص: 179).

[5413] البِرْذَونُ: الدَّابَّةُ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: 32).

[5414] الأرِيُّ: هنا المَعلَفُ. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير.

- وقال الجاحِظُ: (صَحِبَني محفوظٌ النَّقَّاشُ من مَسجِدِ الجامعِ ليلًا، فلمَّا صِرتُ قُربَ منزلِه، وكان منزِلُه أقرَبَ إلى مسجدِ الجامعِ مِن منزلي، سألني أن أبيتَ عِندَه، وقال: أين تذهَبُ في هذا المطَرِ والبردِ؟! ومنزلي مَنزِلُك، وأنت في ظُلمةٍ وليس معك نارٌ، وعندي لِبَأٌ لم يَرَ النَّاسُ مِثْلَه، وتمرٌ ناهيك به جودةً لا تصلُحُ إلَّا لك! فمِلتُ معه، فأبطأ ساعةً ثم جاءني بجَأمِ لِبَإٍ[5416] وطَبَقِ تمرٍ، فلمَّا مدَدْتُ قال: يا أبا عُثمانَ، إنَّه لِبَأٌ وغِلَظُه، وهو اللَّيلُ ورُكودُه! ثمَّ ليلةُ مَطَرٍ ورطوبةٍ، وأنت رجُلٌ قد طعَنْتَ في السِّنِّ، ولم تَزَلْ تشكو من الفالِجِ طرَفًا، وما زال الغليلُ يُسرِعُ إليك، وأنت في الأصلِ لستَ بصاحِبِ عَشاءٍ! فإنْ أكَلْتَ اللِّبَأَ ولم تبالِغْ كنتَ لا آكِلًا ولا تارِكًا، وحرَّشْتَ طِباعَك، ثمَّ قطَعْتَ الأكلَ أشهى ما كان إليك!

وإن بالَغْتَ بِتْنا في ليلةِ سُوءٍ من الاهتمامِ بأمرِك، ولم نُعِدَّ لك نبيذًا ولا عَسَلًا! وإنَّما قلتُ هذا الكلامَ؛ لئلَّا تقولَ غدًا: كان وكان! واللهِ قد وقعتُ بَيْنَ نابَيْ أسَدٍ؛ لأنِّي لو لم أجِئْك به وقد ذكَرْتُه لك، قُلتَ: بَخِل به وبدا له فيه، وإن جِئتُ به ولم أحَذِّرْك منه ولم أذَكِّرْك كُلَّ ما عليك فيه، قُلتَ: لم يُشفِقْ عَلَيَّ ولم ينصَحْ؛ فقد بَرِئتُ إليك من الأمرَينِ جميعًا؛ فإن شئتَ فأَكلةٌ وموتةٌ، وإن شِئتَ فبعضُ الاحتمالِ، ونومٌ على سلامةٍ! فما ضَحِكتُ قَطُّ كضَحِكي تلك اللَّيلةَ! ولقد أكَلْتُه جميعًا فما هضَمَه إلَّا الضَّحِكُ والنَّشاطُ والسُّرورُ، فيما أظُنُّ[5417].

- قال أحَدُ البُخلاءِ وهو يوصي ابنَه: (أي بُنَيَّ، إنَّ إنفاقَ القراريطِ يَفتَحُ عليك أبوابَ الدَّوانيقِ، وإنفاقَ الدَّوانيقِ يفتَحُ عليك أبوابَ الدَّراهِمِ، وإنفاقَ الدَّراهِمِ يفتحُ عليك أبوابَ الدَّنانيرِ. والعَشَراتُ تفتَحُ عليك أبوابَ المِئينَ، والمِئونَ تفتَحُ عليك أبوابَ الألوفِ، حتَّى يأتيَ ذلك على الفَرعِ والأصلِ، ويَطمِسَ على العينِ والأثَرِ، ويحتَمِلَ القليلَ والكثيرَ)[5418]!

- وقال المكِّيُّ: (كان لأبي عَمٌّ يُقالُ له: سُلَيمانُ الكَثريُّ، سمِّيَ بذلك لكثرةِ مالِه، وكان يُقَرِّبُني وأنا صبيٌّ إلى أن بلَغْتُ، ولم يَهَبْ لي مع ذلك التَّقريبِ شيئًا قَطُّ، وكان قد جاوز في ذلك حدَّ البُخلاءِ. فدخلتُ عليه يومًا وإذا قُدَّامَه قِطَعُ دارَصينيٍّ[5419] لا تَسوى قيراطًا، فلمَّا نال حاجتَه منها مدَدْتُ يدي لآخُذَ قِطعةً، فلمَّا نظَر إليَّ قبضْتُ يدي، فقال: لا تنقَبِضْ، وانبَسِطْ واسترسِلْ، ولْيَحسُنْ ظَنُّك؛ فإنَّ حالَك عندي على ما تحِبُّ، فخُذْه كُلَّه؛ فهو لك بزَوْبَرِه وبحذافيرِه، وهو لك جميعًا! نفسي بذلك سَخِيَّةٌ، واللهُ يعلَمُ أني مسرورٌ بما وصَل إليك من الخيرِ؛ فتركتُه بَيْنَ يَدِه، وقُمتُ من عندِه وجعَلْتُ وجهي كما أنا إلى العراقِ، فما رأيتُه وما رآني حتَّى مات!

- واشترى رجُلٌ من البُخلاءِ دارًا وانتقل إليها، فوقَف ببابِه سائِلٌ، فقال له: فتَح اللهُ عليك. ثمَّ وقف ثانٍ، فقال له مِثلَ ذلك، ثمَّ وقف ثالثٌ، فقال له مِثلَ ذلك، ثم التفَت إلى ابنتِه، فقال لها: ما أكثَرَ السُّؤَّالَ في هذا المكانِ! قالت: يا أبتِ، ما دُمتَ مُستَمسِكًا لهم بهذه الكَلِمةِ، فما تُبالِي كَثُروا أم قَلُّوا[5420]!

- وقال دِعبِلٌ: كُنَّا عِندَ سَهلِ بن هارونَ، فلم نبرَحْ حتى كاد يموتُ من الجوعِ، فقال: وَيلَك يا غلامُ! آتِنا غداءَنا، فأُتِيَ بقَصعةٍ فيها ديكٌ مطبوخٌ تحتَه ثَريدٌ قليلٌ، فتأمَّل الدِّيكَ فرآه بغيرِ رأسٍ، فقال لغُلامِه: وأين الرَّأسُ؟ فقال: رميتُه، فقال:

[5415] ((البخلاء)) للجاحظ (ص: 175).

[5416] اللِّبَأُ: أوَّلُ اللَّبَنِ في النِّتاجِ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: 278).

[5417] يُنظَر ((البخلاء)) للجاحظ (ص: 165).

[5418] المصدر السابق (143).

[5419] الدَّارصِينيُّ: قِرفةٌ سيلانيَّةٌ. يُنظَر: ((تكملة المعاجم العربية)) لدوزي (4/ 271).

[5420] يُنظَر: ((المستطرف)) للأبشيهي (183).

واللهِ إني لأكرَهُ من يرمي برِجلِه، فكيف برأسِه؟! ويحَك! أمَا عَلِمتَ أنَّ الرَّأسَ رئيسُ الأعضاءِ، ومنه يَصيحُ الدِّيكُ؟ ولولا صوتُه ما أُريدَ، وفيه فَرْقُه الذي يُتبَرَّكُ به، وعينُه التي يُضرَبُ بها المثَلُ، فيُقالُ: شرابٌ كعينِ الدِّيكِ، ودماغُه عجيبٌ لوَجعِ الكُليةِ، ولم نَرَ عَظمًا أهَشَّ تحتَ الأسنانِ من عَظمِ رأسِه، وهَبْك ظنَنْتَ أنِّي لا آكُلُه، أمَا قُلتَ: عندَه من يأكُلُه؟! انظُرْ في أيِّ مكانٍ رميتَه فأْتِني به. فقال: واللهِ لا أدري أين رميتُه؟ فقال: ولكنِّي أنا أعرِفُ أين رميتَه؟ رَميتَه في بَطنِك، اللهُ حَسْبُك[5421]!

- وقال ابنُ مجاهِدٍ المقرئُ شِعرًا يهجو فيه صديقًا له، ويذُمُّه على شِدَّةِ بُخلِه وحِرصِه:

لنا صاحِبٌ من أبرَعِ النَّاسِ في البُخلِ

وأفضَلِهم فيه وليس بذي فَضلِ

دعاني كما يدعو الصَّديقُ صديقَه

فجِئتُ كما يأتي إلى مِثلِه مِثلي

فلمَّا جلَسْنا للغَداءِ رأيتُه

يرى أنَّما من بعضِ أعضائِه أكْلي

ويَغتاظُ أحيانًا ويَشتِمُ عَبدَه

وأعلَمُ أنَّ الغيظَ والشَّتمَ مِن أجْلي

أمُدُّ يدي سِرًّا لآكُلَ لُقمةً

فيَلحَظُني شَزْرًا فأعبَثُ بالبَقلِ

إلى أن جَنَت كفّي لحَيْني جنايةً

وذلك أنَّ الجوعَ أعدَمَني عَقْلي

فأهوَتْ يميني نحوَ رِجلِ دَجاجةٍ

فجُرَّت كما جَرَّت يَدِي رِجْلَها رِجْلي[5422].

المطلب التاسع: حُكمُ البُخلِ والشُّحِّ

ليس للبُخلِ حُكمٌ واحِدٌ ينطَبِقُ على جميعِ صُوَرِه وأنواعِه، وإنَّما لكُلِّ صورةٍ من صُورِ البُخلِ حُكمٌ خاصٌّ بها، وإن كان البُخلُ في عمومِه مذمومًا مكروهًا؛ يقولُ ابنُ تَيميَّةَ: (والبُخلُ جِنسٌ تحتَه أنواعٌ؛ كبائِرُ وغيرُ كبائِرَ)[5423].

[5421] المصدر السابق (182).

[5422] ((البداية والنهاية)) لابن كثير (15/ 98).

[5423] يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) (156/28).

فإن كان المنعُ بُخلًا بواجِبٍ فهو محرَّمٌ شرعًا، بل هو كبيرةٌ من الكبائرِ توعَّد اللهُ صاحبَها بالعقوبةِ والعذابِ، كَمَن منَع الزَّكاةَ الواجبةَ بخلًا بالمالِ وحِرصًا عليه؛ قال ابنُ تَيميَّةَ: (فإنَّ البُخلَ من الكبائِرِ، وهو منعُ الواجباتِ؛ من الزَّكاةِ، وصِلةِ الرَّحِمِ، وقِرى الضَّيفِ، وتَركِ الإعطاءِ في النَّوائِبِ، وتركِ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ)[5424].

وقال ابنُ حزمٍ: (ومنعُ الفَضلِ داخِلٌ في البُخلِ، وعلى قَدْرِ التَّقصيرِ والتَّوسُّعِ في ذلك يكونُ المدحُ والذَّمُّ، وما وُضِع في غيرِ هذه الوُجوهِ فهو تبذيرٌ، وهو مذمومٌ... ومنعُ الواجباتِ حرامٌ، ومَنعُ ما فَضَل عن القوتِ بُخلٌ وشُحٌّ، والمنعُ من الإيثارِ ببعضِ القوتِ عُذرٌ، ومنعُ النَّفسِ أو الأهلِ القوتَ أو بعضَه نَتْنٌ ورَذالةٌ ومعصيةٌ)[5425].

المطلب العاشر: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **ترتيبُ أوصافِ البخيلِ:**

يقالُ: رجلٌ بخيلٌ، ثمَّ مِسِّيكٌ: إذا كان شديدَ الإمساكِ لمالِه، ثمَّ لَحِزٌ: إذا كان ضَيِّقَ النَّفسِ شديدَ البُخلِ، ثمَّ شَحيحٌ: إذا كان مع شِدَّةِ بُخلِه حريصًا، ثمَّ فاحِشٌ: إذا كان متشَدِّدًا في بُخلِه، ثمَّ حِلِزٌّ: إذا كان في نهايةِ البُخلِ[5426].

البخيلُ يذهَبُ إلى ما منه يَهرُبُ:

فقد قيل: (عَجَبًا للبخيلِ المتعَجِّلِ للفقرِ الذي منه هَرَب، والمؤخِّرِ للسَّعةِ التي إيَّاها طَلَب! ولعَلَّه يموتُ بَيْنَ هَرَبِه وطَلَبِه، فيكونُ عَيشُه في الدُّنيا عيشَ الفُقَراءِ، وحسابُه في الآخرةِ حِسابَ الأغنياءِ، مع أنَّك لم تَرَ بخيلًا إلَّا غيرُه أسعَدُ بمالِه منه؛ لأنَّه في الدُّنيا مهتَمٌّ بجَمعِه، وفي الآخرةِ آثِمٌ بمنعِه، وغيرُه آمِنٌ في الدُّنيا من همِّه، وناجٍ في الآخِرةِ من إثمِه)[5427].

- **إذا بَخِل الزَّوجُ بالنَّفَقةِ:**

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: ((قالت هندٌ امرأةُ أبي سفيانَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ شحيحٌ، وليس يُعطيني ما يكفيني ووَلَدي إلَّا ما أخذتُ منه وهو لا يَعلَمُ، قال: خُذي ما يكفيكِ وولَدَكِ بالمعروفِ))[5428].

فأذِنَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهندٍ أن تأخُذَ من مالِ زوجِها أبي سفيانَ بغيرِ عِلمِه ما يكفيها ويكفي ولَدَها، ولكِنْ بالمعروفِ، يعني لا تزيدُ على ذلك، فدَلَّ هذا على أنَّه يجوزُ لمن له النَّفقةُ على شخصٍ وامتنَع مَن عليه النَّفقةُ مِن بَذلِ النَّفقةِ، أن يأخُذَ من مالِه بقَدْرِ النَّفَقةِ، سواءٌ عَلِم أم لم يعلَمْ، وسواءٌ أذِنَ أم لم يأذَنْ، فللمرأةِ مَثَلًا أن تأخُذَ من مالِ زَوجِها ما يكفيها ويكفي أولادَها، سواءٌ عَلِم أم لم يَعلَمْ[5429].

[5424] يُنظَر: ((المستدرك على فتاوى ابن تيمية)) جمع: ابن قاسم (125/1).

[5425] يُنظَر: ((الأخلاق والسير في مداواة النفوس)) لابن حزم الأندلسي (ص: 79، 80).

[5426] يُنظَر: ((فقه اللغة)) للثعالبي (ص: 111).

[5427] يُنظَر: ((الآداب الشرعية)) لابن مُفلِح (3/ 16).

[5428] أخرجه البخاري (5364)، ومسلم (1714).

[5429] يُنظَر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (6/ 143).

- **حَدُّ البُخلِ والسَّخاءِ:**

قد تكلَّم النَّاسُ في حدِّ البُخلِ والسَّخاءِ؛ فذهب قومٌ إلى أنَّ حَدَّ البُخلِ منعُ الواجِبِ، وأنَّ من أدَّى ما يجبُ عليه فليس ببخيلٍ، وهذا غيرُ كافٍ؛ فإنَّ من لم يُسَلِّمْ إلى عيالِه إلَّا القَدْرَ الذي يَفرِضُه الحاكِمُ، ثمَّ يضايقُهم في زيادةِ لُقمةٍ أو ثَمَرةٍ، فإنَّه معدودٌ من البُخلاءِ؛ فالصَّحيحُ أنَّ البراءةَ من البُخلِ تحصُلُ بفِعلِ الواجِبِ في الشَّرعِ واللَّازِمِ بطريقِ المروءةِ مع طِيبِ القَلبِ بالبَذلِ؛ فأمَّا الواجِبُ بالشَّرعِ فهو الزَّكاةُ، ونفقةُ العيالِ. وأمَّا اللَّازمُ بطريقِ المروءةِ فهو تَركُ المضايقةِ والاستِقصاءِ عن المحَقَّراتِ؛ فإنَّ ذلك يُستقبَحُ، ويختَلِفُ ذلك باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ؛ فقد يُستقبَحُ من الغَنيِّ ما لا يُستقبَحُ من الفقيرِ، ويُستقبَحُ من الرَّجُلِ المضايقةُ لأهلِه وأقاربِه وجيرانِه ما لا يُستقبَحُ من الأجانبِ؛ فالبخيلُ: الذي يمنَعُ ما لا ينبغي أن يُمنَعَ، إمَّا بحُكمِ الشَّرعِ أو لازمِ المروءةِ. ومن قام بواجِبِ الشَّرعِ ولازِمِ المروءةِ فقد تبرَّأَ من البُخلِ، لكنْ لا يتَّصِفُ بصفةِ الجودِ ما لم يَبذُلْ زيادةً على ذلك[5430].

- **مقالةُ اليهودِ الشَّنيعةُ في اللهِ جلَّ وعلا:**

قال اللهُ تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ [المائدة: 64]، يخبِرُ تعالى عن مقالةِ اليهودِ الشَّنيعةِ وعقيدتِهم الفظيعةِ، فقال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ، أي: عن الخيرِ والإحسانِ والبِرِّ. غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا، وهذا دعاءٌ عليهم بجِنسِ مقالتِهم؛ فإنَّ كلامَهم متضَمِّنٌ لوصفِ اللهِ الكريمِ، بالبُخلِ وعَدَمِ الإحسانِ، فجازاهم بأنْ كان هذا الوصفُ مُنطَبِقًا عليهم، فكانوا أبخَلَ النَّاسِ وأقَلَّهم إحسانًا، وأسوَأَهم ظنًّا باللهِ، وأبعَدَهم اللهُ عن رحمتِه التي وَسِعَت كُلَّ شيءٍ، وملأَت أقطارَ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ؛ ولهذا قال: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ[5431].

[5430] ((مختصر منهاج القاصدين)) لابن قدامة (3/ 74).

[5431] ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 238).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ: المَنُّ

المطلب الأول: معنى المَنِّ لُغةً واصطِلاحًا

- **المَنُّ لُغةً:**

المَنُّ أصلُه الإنعامُ والفضلُ، و(منن) أصلٌ يدُلُّ على اصطناعِ خيرٍ، يقالُ: منَّ عليه مَنًّا، ثمَّ أُطلِق على عَدِّ الإنعامِ على المنعَمِ عليه، يقال: مَنَنْتُ عليه مَنًّا: عدَدْتُ له ما فعَلْتُ له من الصَّنائِعِ، مثل أن تقولَ: أعطيتُك وفعَلْتُ لك، ومنه قولُه تعالى: {وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} [المدثر: 6]، وهو إذا ذُكِر بعد الصَّدَقةِ والعطاءِ تَعَيَّن للمعنى الثَّاني.

ولهذه المادَّةِ أصلٌ آخَرُ يدُلُّ على قَطعٍ وانقِطاعٍ، ومنه يقالُ: مَنَنْتُ الحَبلَ: قطَعْتُه. قال اللَّهُ تعالى: {فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [التين: 6]. والمَنونُ: المَنِيَّةُ؛ لأنَّها تَنقُصُ العَدَدَ وتقطَعُ المَدَدَ. والمَنُّ: الإعياءُ، وذلك أنَّ المُعيِيَ ينقَطِعُ عن السَّيرِ[5432].

- **المَنُّ اصطِلاحًا:**

قال القُرطبيُّ: (المَنُّ: ذِكر النِّعمةِ على معنى التَّعديدِ لها والتَّقريعِ بها، مِثلُ أن يقولَ: قد أحسَنْتُ إليك ونعَشْتُك، وشِبْهَه.

وقال بعضُهم: المَنُّ: التَّحدُّثُ بما أعطى، حتَّى يبلُغَ ذلك المعطى فيُؤذيَه)[5433].

وقال أبو حيَّانَ: (هو ذِكرُ المَنَّةِ للمُنعَمِ عليه على سبيلِ الفَخرِ عليه بذلك، والاعتدادِ عليه بإحسانِه)[5434].

المطلب الثاني: ذمُّ المَنِّ والنَّهيُ عنه

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

- قال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 262] .

قال ابنُ كثيرٍ: (يمدَحُ تعالى الذين يُنفِقون أموالَهم في سبيلِ اللهِ، ثمَّ لا يُتبِعون ما أنفَقوا من الخَيراتِ والصَّدَقاتِ مَنًّا على من أعطَوه، فلا يَمُنُّون على أحَدٍ، ولا يَمُنُّون به لا بقولٍ ولا فعلٍ. وقولُه: وَلَا أَذًى أي: لا يفعَلون مع من أحسَنوا إليه مكروهًا يُحبِطون به ما سَلَف من الإحسانِ.

ثمَّ وعدهم تعالى الجزاءَ الجزيلَ على ذلك، فقال: لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ أي: ثوابُهم على اللهِ، لا على أحَدٍ سواه وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ أي: فيما يستقبِلونه من أهوالِ يومِ القيامةِ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أي: على ما خلَّفوه من الأولادِ وما فاتهم من الحياةِ الدُّنيا وزهرتِها، لا يأسَفون عليها لأنهم قد صاروا إلى ما هو خيرٌ لهم من ذلك)[5435].

[5432] يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) (5/ 267)، ((المصباح المنير)) (2/ 581)، ((التحرير والتنوير)) (3/ 42).

[5433] ((الجامع لأحكام القرآن)) (3/ 308). ويُنظَر: ((المحرر الوجيز)) لابن عطية (1/ 356).

[5434] ((البحر المحيط)) (2/ 650).

[5435] ((تفسير القرآن العظيم)) (1/ 693).

- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 264].

قال السَّعديُّ: (ينهى عبادَه تعالى لطفًا بهم ورحمةً عن إبطالِ صدَقاتِهم بالمَنِّ والأذى، ففيه أنَّ المَنَّ والأذى يُبطِلُ الصَّدقةَ، ويستدَلُّ بهذا على أنَّ الأعمالَ السَّيِّئةَ تُبطِلُ الأعمالَ الحَسَنةَ، كما قال تعالى: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: 2] ، فكما أنَّ الحَسَناتِ يُذهِبنَ السَّيِّئاتِ فالسَّيِّئاتُ تُبطِلُ ما قابلها من الحَسَناتِ، وفي هذه الآيةِ مع قولِه تعالى: {وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد: 33] حثٌّ على تكميلِ الأعمالِ وحِفظِها من كُلِّ ما يفسِدُها؛ لئلَّا يضيعَ العَمَلُ سُدًى. وقولُه: كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [البقرة: 264]، أي: أنتم وإن قصَدْتُم بذلك وجهَ اللهِ في ابتداءِ الأمرِ، فإنَّ المِنَّةَ والأذى مُبطِلانِ لأعمالِكم، فتصيرُ أعمالُكم بمنزلةِ الذي يعمَلُ لمراءاةِ النَّاسِ ولا يريدُ به اللهَ والدَّارَ الآخرةَ، فهذا لا شَكَّ أنَّ عمَلَه من أصلِه مردودٌ؛ لأنَّ شَرطَ العَمَلِ أن يكونَ للهِ وَحدَه، وهذا في الحقيقةِ عَمَلٌ للنَّاسِ لا للهِ؛ فأعمالُه باطلةٌ، وسَعْيُه غيرُ مشكورٍ)[5436].

- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} [المدثر: 1 - 7].

قيل: قولُه: تَمْنُنْ من المَنِّ بالشَّيءِ -وذلك على أحَدِ الأقوالِ في الآيةِ- وفيه وجهانِ؛ الأوَّلُ: لا تَمْنُنْ على النَّاسِ بنُبُوَّتِك تستكثِرُ بأجرٍ أو مكسَبٍ تَطلُبُه. الثَّاني: لا تمنُنْ على اللهِ بعَمَلِك تستكثِرُ أعمالَك ويقَعُ لك بها إعجابٌ[5437].

قال ابنُ العَرَبيِّ: (المَنُّ يُطلَقُ على معنيينِ؛ أحدُهما: العطاءُ. والثَّاني: التَّعدادُ على المُنعَمِ عليه بالنِّعَمِ... والآيةُ تتناوَلُ المعنيينِ كِليهما)[5438].

وقال السَّعديُّ: (لا تمنُنْ على النَّاسِ بما أسدَيتَ إليهم من النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، فتتكَثَّرَ بتلك المِنَّةِ، وترى لك الفضلَ عليهم بإحسانِك والمِنَّةَ، بل أحسِنْ إلى النَّاسِ مهما أمكنَك، وانْسَ عِندَهم إحسانَك، ولا تطلُبْ أجرَه إلَّا من اللهِ تعالى، واجعَلْ من أحسَنْتَ إليه وغيرَه على حَدٍّ سواءٍ)[5439].

- وقال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات: 14 - 17].

أي: يمُنُّ هؤلاء الأعرابُ عليك -يا محمَّدُ- إسلامَهم، فيَذكُرونَه لك ذِكر مَن قَدَّم لك معروفًا، وأسدى إليك خَيرًا!

[5436] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 113).

[5437] ((التسهيل لعلوم التنزيل)) (2/ 427، 428).

[5438] يُنظَر: ((أحكام القرآن)) (4/343).

[5439] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 895).

قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: لا تمُنُّوا عليَّ إسلامَكم؛ فليس لكم مِنَّةٌ عليَّ في ذلك، ونفعُ إسلامِكم يعودُ عليكم، وإنَّما للهِ المِنَّةُ عليكم بالتَّوفيقِ للإيمانِ إنْ كنتُم صادقين في ادِّعائِكم الإيمانَ[5440].

ب- من السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

- عن أبي ذرٍّ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ، ولا ينظُرُ إليهم ولا يُزَكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ. قال: فقرأها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثلاثَ مرارٍ، قال أبو ذرٍّ: خابوا وخَسِروا! من هم يا رسولَ اللهِ؟ قال: المُسبِلُ، والمنَّانُ، والمُنَفِّقُ سِلعتَه بالحَلِفِ الكاذِبِ))[5441].

وفي لفظٍ: ((ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ: المَنَّانُ الذي لا يعطي شيئًا إلَّا مَنَّه، والمُنَفِّقُ سِلعَتَه بالحَلِفِ الفاجِرِ، والمُسبِلُ إزارَه))[5442].

قال أبو العبَّاسِ القُرطبيُّ: (المَنَّانُ: فَعَّالٌ مِن المَنِّ، وقد فسَّره في الحديثِ، فقال: ((هو الذي لا يُعطي شيئًا إلَّا مَنَّه))، أي: إلَّا امتَنَّ به على المعطى له، ولا شَكَّ في أنَّ الامتنانَ بالعطاءِ مُبطِلٌ لأجرِ الصَّدَقةِ والعطاءِ، مؤذٍ للمُعطى له؛ ولذلك قال تعالى: {لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} [البقرة: 264].

وإنَّما كان المَنُّ كذلك؛ لأنَّه لا يكونُ -غالبًا- إلَّا عن البُخلِ، والعُجبِ، والكِبرِ، ونِسيانِ مِنَّةِ اللهِ تعالى فيما أنعَمَ به عليه)[5443].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- قال زيدُ بنُ أسلَمَ: (لَئِنْ ظَنَنْتَ أنَّ سلامَك يَثقُلُ على من أنفَقْتَ عليه تريدُ وَجْهَ اللهِ، فلا تُسَلِّمْ عليه)[5444].

- وقال أَكثَمُ بنُ صَيفيٍّ: (آفةُ المروءةِ الكِبرُ، وآفةُ السَّخاءِ المَنُّ، وآفةُ الرَّأيِ العُجبُ)[5445].

- وقال بعضُ السَّلَفِ: (الأيدي ثلاثٌ: يَدٌ بيضاءُ وهي الابتداءُ بالمعروفِ، ويدٌ خَضراءُ وهي المكافأةُ، ويدٌ سوداءٌ وهي المَنُّ)[5446].

- وقال الماوَرديُّ: (من شُروطِ المعروفِ: مجانَبةُ الامتنانِ به، وتَركُ الإعجابِ بفِعلِه؛ لِما فيهما من إسقاطِ الشُّكرِ، وإحباطِ الأجرِ...)[5447].

[5440] يُنظَر: ((التفسير المحرر- الدرر السنية)) (34/340).

[5441] رواه مسلم (106).

[5442] المصدر السابق.

[5443] ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) (1/ 304).

[5444] ((المحرر الوجيز)) لابن عطية (1/ 356).

[5445] ((أنساب الأشراف)) للبلاذري (13/ 79).

[5446] ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان (5/ 60)، ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (4/ 374).

[5447] ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 204).

- وقال القُرطبيُّ: (مِن شَرطِ المعروفِ: تَركُ الامتنانِ به، وتَركُ الإعجابِ بفِعلِه؛ لِما فيهما من إسقاطِ الشُّكرِ، وإحباطِ الأجرِ)[5448].

المطلب الثالث: آثارُ المَنِّ

- المَنُّ عُنصُرٌ كَريهٌ لئيمٌ، يُحيلُ الصَّدَقةَ أذًى للواهِبِ وللآخذِ سَواءً:

أذًى للواهِبِ بما يثيرُ في نفسِه من كِبرٍ وخُيَلاءَ ورَغبةٍ في رؤيةِ أخيه ذليلًا له كسيرًا لديه، وبما يملأُ قَلْبَه بالنِّفاقِ والرِّياءِ والبُعدِ من اللهِ.

وأذًى للآخِذِ بما يثيرُ في نفسِه من انكسارٍ وانهزامٍ، ومن رَدِّ فِعلٍ بالحِقدِ والانتِقامِ[5449].

- المِنَّةُ إن وقَعَت في الصَّدَقةِ أبطلَت الأجرَ، وإن كانت في المعروفِ كَدَّرَت الصَّنيعةَ وأفسَدَتْها[5450].

- يُدخِلُ المَنَّانُ نفسَه في وعيدِ مَن لا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ ولا ينظُرُ إليهم ولا يُزَكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ.

المطلب الرابع: أقسامُ المَنِّ

- المَنُّ بالقَلبِ، وهو أن يرى نفسَه مُحسِنًا إليه ومُنعِمًا عليه.

- المَنُّ باللِّسانِ، كأن يخبِرَه بأنَّه تفضَّلَ عليه بمنحِه شَيئًا، وأنَّه مَدِينٌ له لقاءَ مَعروفِه، وكأن يَطلُبَ المكافأةَ منه.

- المَنُّ بالفِعلِ، كأن يفعَلَ مكروهًا للمُنفَقِ عليه ينافي ما قدَّمه له من إحسانٍ[5451]، أو يستخدِمَه بالعطاءِ.

قال أبو حامدٍ الغَزاليُّ: (المَنُّ له أصلٌ ومَغرِسٌ، وهو من أحوالِ القَلبِ وصفاتِه، ثمَّ يتفرَّعُ عليه أحوالٌ ظاهرةٌ على اللِّسانِ والجوارِحِ؛ فأصلُه أن يرى نفسَه محسِنًا إليه ومنعِمًا عليه... فإن رأى نفسَه محسِنًا إليه تفرَّع منه على ظاهِرِه ما ذُكِر في معنى المَنِّ، وهو التَّحدُّثُ به وإظهارُه وطَلَبُ المكافأةِ منه بالشُّكرِ والدُّعاءِ والخِدمةِ، والتَّوقيرِ والتَّعظيمِ، والقيامِ بالحقوقِ والتَّقديمِ في المجالِسِ والمتابَعةِ في الأمورِ، فهذه كُلُّها ثمَراتُ المِنَّةِ، ومعنى المِنَّةِ في الباطِنِ ما ذكَرْناه)[5452].

المطلب الخامس: مظاهِرُ وصُوَرُ المَنِّ

للمَنِّ صُوَرٌ كثيرةٌ؛ منها:

1- المَنُّ بالمالِ، كالصَّدَقةِ والإنفاقِ على الفُقَراءِ والمساكينِ والمحتاجينَ.

2- المَنُّ بالعِلمِ على غيرِه ممَّن تعَلَّم منه ولو كان شيئًا يسيرًا.

[5448] ((الجامع لأحكام القرآن)) (5/ 384).

[5449] يُنظَر: ((الظلال)) (1/ 306، 307)، ((التفسير المحرر- الدرر السنية)) (1/ 805).

[5450] يُنظَر: ((معالم السنن)) للخطابي (4/ 195).

[5451] يُنظَر: ((التفسير المحرر- الدرر السنية)) (1/ 798).

[5452] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) (1/ 216، 217).

3- المَنُّ بالعَمَلِ، كأن يمُنَّ على من ساعدَهم أو أعانهم على بعضِ أعمالِهم أو أرشدَهم إلى ما يعودُ عليهم بالنَّفعِ.

4- المَنُّ بقُوَّتِه أو بجاهِه، كأن يقولَ: لو لم أحضُرْ لَمَا تَمَّ هذا الأمرُ[5453].

المطلب السادس: أسبابُ الوقوعِ في المَنِّ

1- ضَعفُ إيمانِ صاحِبِه، وجَهلُه.

2- البُخلُ؛ لأنَّه لا يمُنُّ إلَّا بما عَظُم في نفسِه إخراجُه عن يَدِه، وشُحُّه عليه عَظَّمَه عِندَه فأدَّاه إلى إيذاءِ مَن وَصَله به، واستطالتِه عليه، والجَوادُ لا يَعظُمُ عِندَه شيءٌ ممَّا يمنَحُه، ولا يذكُرُه، ولا يَمُنُّ به[5454].

3- كثرةُ تَملُّقِ النَّاسِ له ومدحُهم إيَّاه؛ ممَّا يجعَلُه يرى لنفسِه الحَقَّ في الامتنانِ بفِعلِه وعمَلِه.

4- ضَعفُ وُثوقِه بموعودِ اللهِ عزَّ وجَلَّ وإثابتِه في الآخرةِ؛ لذا يحرِصُ على نَيلِ ذلك في الدُّنيا، وكأنَّه متوعَّدٌ بقَولِه تعالى: وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ [الشورى: 20] .

5- عَدَمُ مخالطةِ أهلِ التَّقوى والنَّصيحةِ الذين يُذَكِّرونه بسوءِ فِعلِه، ووجوبِ إقلاعِه عنه.

6- تزيينُ الشَّيطانِ له أنَّ له الحَقَّ في فِعلِه وامتنانِه على غيرِه.

7- نسيانُ نِعمةِ اللهِ عليه.

8- العُجبُ بالنَّفسِ أو بكثرةِ العَمَلِ.

9- الكِبرُ.

قال أبو العبَّاسِ القُرطُبيُّ في بيانِ أسبابِ المَنِّ: (المَنُّ لا يكونُ -غالبًا- إلَّا عن البُخلِ، والعُجبِ، والكِبرِ، ونِسيانِ مِنَّةِ اللهِ تعالى فيما أنعَم به عليه؛ فالبخيلُ: يَعظُمُ في نفسِه العطيَّةُ وإن كانت حقيرةً في نفسِها، والعُجبُ: يحمِلُه على النَّظَرِ لنَفسِه بعينِ العظَمةِ، وأنَّه منعِمٌ بمالِه على المعطى له، ومتفَضِّلٌ عليه، وأنَّ له عليه حقًّا يجبُ عليه مراعاتُه، والكِبرُ: يحمِلُه على أن يحتَقِرَ المُعطى له وإن كان في نفسِه فاضِلًا، وموجِبُ ذلك كُلِّه الجهلُ، ونسيانُ مِنَّةِ اللهِ تعالى فيما أنعَم به عليه؛ إذ قد أنعَم عليه ممَّا يعطي، ولم يحرِمْه ذلك، وجعَله ممَّن يُعطي، ولم يجعَلْه ممَّن يَسأَلُ، ولو نَظَر ببصيرةٍ لعَلِمَ أنَّ المِنَّةَ للآخِذِ؛ لِما يزيلُ عن المعطي من إثمِ المَنعِ وذَمِّ المانعِ، ومن الذُّنوبِ، ولِما يحصُلُ له من الأجرِ الجزيلِ، والثَّناءِ الجميلِ)[5455].

[5453] يُنظَر: ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهيتمي (1/ 311، 312).

[5454] يُنظَر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) لعياض (1/ 382).

[5455] ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) (1/ 304).

المطلب السابع: الوسائِلُ المعينةُ على تَركِ المَنِّ

1- العِلمُ بأنَّ توفيقَ اللهِ تعالى له هو الذي كانت الأعمالُ الصَّالحةُ عنه، فإذا مَنَّ بذلك فقد جَحَد للهِ سُبحانَه وتعالى كَرَمَ صُنعِه[5456].

2- أن يَشهَدَ دائِمًا أنَّ المتفَضِّلَ والمُنعِمَ حقيقةً هو اللهُ تعالى وَحدَه.

3- أن يتفَكَّرَ في أنَّ أجرَه على اللهِ تعالى بأضعافِ ما أعطى، فأيُّ حَقٍّ بقي له على الآخذِ المحتاجِ حتَّى يمتَنَّ عليه، أو يؤذيَه بصنائِعِ مَعروفِه[5457]؟!

4- أن يعلَمَ أنَّ المَنَّ والأذى بالصَّدَقةِ مُنافٍ لكمالِ الإيمانِ؛ لقَولِه تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} [البقرة: 264]؛ كأنَّه يقولُ: إنَّ مقتضى إيمانِكم ألَّا تفعَلوا ذلك؛ وإذا فعَلْتُموه صار منافيًا لهذا الوَصفِ، ومنافيًا لكمالِه[5458].

5- ألَّا يرى أنَّ لنفسِه مزيةً على المتصَدَّقِ عليه بإحسانِه إليه، بل يرى الفقيرَ أو المتعَلِّمَ محسِنًا بقَبولِ صَدَقتِه أو عِلمِه، وبهذا لا يبقى للمَنِّ مجالٌ.

قال أبو حامِدٍ الغزاليُّ: (حَقُّه أن يرى الفقيرَ محسِنًا إليه بقَبولِ حَقِّ اللهِ عزَّ وجَلَّ منه الذي هو طُهرتُه ونجاتُه من النَّارِ، وأنَّه لو لم يقبَلْه لبقيَ مُرتهَنًا به)[5459].

وقال ابنُ القيِّمِ: (أنفَعُ النَّاسِ لك رجلٌ مكَّنَك من نفسِه حتَّى تزرَعَ فيه خيرًا أو تصنَعَ إليه معروفًا؛ فإنَّه نِعْمَ العونُ لك على منفعتِك وكمالِك، فانتفاعُك به في الحقيقةِ مِثلُ انتفاعِه بك أو أكثَرُ. وأضَرُّ النَّاسِ عليك من مكَّن نفسَه منك حتى تعصيَ اللهَ فيه؛ فإنَّه عونٌ لك على مضرَّتِك ونَقصِك)[5460].

6- أن يوطِّنَ نفسَه على ألَّا يَطلُبَ الشُّكرَ إلَّا من اللهِ تعالى، ولا يطلُبَ ممَّن أحسَن إليه دعاءً ولا يطمَعَ فيه؛ لأنَّه ربَّما كان في مقابلةِ إحسانِه فيَسقُطُ أجرُه، بل إذا أحسَن إلى من له حَقٌّ عليه أو مَن ليس له حقٌّ فليعلَمْ أنَّ هذا معاملةٌ منه مع اللهِ، فلا يبالِ بشُكرِ مَن أنعَم عليه، كما قال تعالى في حقِّ خواصِّ خَلقِه: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [الإنسان: 9] . ويتأكَّدُ هذا في معاملةِ الأهلِ والأولادِ ومَن قَوِيَ اتِّصالُه بهم[5461].

7- أن يوقِنَ أنَّ الدُّنيا ليست بدارٍ للجَزاءِ، إنَّما الآخرةُ هي دارُ الجزاءِ والحِسابِ؛ فمَن تعجَّل جزاءَه في الدُّنيا حُرِمه في الآخرةِ.

8- مُرافقةُ الصَّالحين وأهلِ التَّقوى والدِّينِ، الذين يُعينون المرءَ على عَمَلِ الخيرِ ويَقصُرونه عن أعمالِ الشَّرِّ.

[5456] يُنظَر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هبيرة (2/ 176).

[5457] يُنظَر: ((التفسير المحرر- الدرر السنية)) (1/ 798).

[5458] يُنظَر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (3/ 322).

[5459] ((إحياء علوم الدين)) (1/ 216). ويُنظَر: ((قوت القلوب)) لأبي طالب المكي (2/ 177).

[5460] ((الفوائد)) (ص: 192).

[5461] يُنظَر: ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهيتمي (1/ 312)، ((الوسائل المفيدة للحياة السعيدة)) للسعدي (ص: 31).

9- أن يراقِبَ رَبَّه في جميعِ أعمالِه ليَعلَمَ هل هي خالصةٌ له أو أنَّه يُشرِكُ معه غيرَه، فعندَئذٍ لا تنفَعُ بل تَبطُلُ.

10- أن يعلَمَ بأنَّ المالَ عاريَّةٌ عندَه، وما عَظُمَت نعمةُ اللهِ على عبدٍ إلَّا عَظُمَت عليه مَؤونةُ النَّاسِ، فَمَن لم يحتَمِلْ تلك المؤونةَ للنَّاسِ عَرَّض تلك النِّعمةَ للزَّوالِ.

11- استصغارُ المعروفِ وسَترُه؛ قال الجاحِظُ: (اعلَمْ أنَّ استصغارَك نِعَمَك يُكَبِّرُها عِندَ ذوي العُقولِ، وسَترَك لها نَشرٌ لها عِندَهم؛ فانشُرْها بسَتْرِها، وكَبِّرْها باستصغارِها)[5462].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: (لا يَتِمُّ المعروفُ إلَّا بثلاثٍ: تعجيلِه وتصغيرِه وسَترِه؛ فإنه إذا عَجَّله هنَّأَه، وإذا صَغَّره عَظَّمَه، وإذا سترَه تمَّمَه)[5463].

وكان يقالُ: (سَترَ رَجُلٌ ما أَولى، ونَشَرَ رجُلٌ ما أُوليَ)[5464].

12- نسيانُ المعروفِ المُسْدى؛ فإنَّ المعروفَ إذا ذُكِر كُدِّر، وإذا أُنسِيَ أُمِرَّ، وتمامُ البَذلِ تركُ المَنِّ[5465]. وقال بعضُ حُكَماءِ العَرَبِ لبَنيه: (يا بَنيَّ، إذا اتَّخَذْتُم عِندَ رجُلٍ يدًا فانسَوها)؛ يعني: حتَّى لا يقَعَ في أنفُسِكم الطَّولُ على النَّاسِ بالقُلوبِ، ولا تذكُروها بالألسِنةِ[5466].

(وكان يُقالُ: أحيوا المعروفَ بإماتتِه. وتأويلُ ذلك أنَّ الرَّجُلَ إذا اعتَدَّ بمعروفِه كَدَّره. وكان يقال: كِتمانُ المعروفِ من المُنعَمِ عليه كُفرٌ، وذِكرُه من المُنعِمِ تكديرٌ له.

وقال قَيسُ بنُ عاصِمٍ: يا بَني تميمٍ، اصحَبوا مَن يَذكُرُ إحسانَكم إليه، وينسى أياديَه إليكم)[5467].

وقال رجلٌ لابنِ شُبرُمَةَ: فعَلْتُ بفلانٍ كذا وفعَلْتُ به كذا، فقال: (لا خيرَ في المعروفِ إذا أُحصيَ)[5468].

وقال الخُرَيميُّ:

زاد معروفُك عندي عِظَمًا

أنَّه عندَك محقورٌ صَغيرُ

تتناساه كأنْ لم تأتِهِ

وهو عِندَ النَّاسِ مشهورٌ كبيرُ[5469].

[5462] ((الرسائل)) (1/ 131).

[5463] ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (3/ 197).

[5464] المصدر السابق (3/ 198).

[5465] يُنظَر: ((محاضرات الأدباء)) للراغب (1/ 702).

[5466] ((الأمثال)) لابن سلام (ص: 66).

[5467] ((الكامل)) للمبرد (1/ 145).

[5468] ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (3/ 198).

[5469] المصدر السابق (3/ 197).

المطلب الثامن: حُكمُ المَنِّ

قال أبو عبدِ اللهِ القُرطبيُّ: (المَنُّ من الكبائِرِ، ثَبَت ذلك في صحيحِ مُسلِمٍ[5470] وغيرِه، وأنَّه أحدُ الثَّلاثةِ الذين لا ينظُرُ اللهُ إليهم ولا يُزَكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ)[5471].

لكِنْ من أهلِ العِلمِ مَن قال: يجوزُ إذا كُفِرَت النِّعمةُ، وعومِلَ المتفَضِّلُ بالإساءةِ، أو كان لقَصدِ تربيةٍ وتأديبٍ.

وقد ذَكَر الرَّاغبُ أنَّ المَنَّ (مستقبَحٌ فيما بَيْنَ النَّاسِ إلَّا عِندَ كُفرانِ النِّعمةِ، ولقُبحِ ذلك قيل: المِنَّةُ تهدِمُ الصَّنيعةَ، ولحُسنِ ذِكرِها عِندَ الكُفرانِ قيل: إذا كُفِرَت النِّعمةُ حَسُنَت المِنَّةُ)[5472].

وقال ابنُ حزمٍ في: (ولا يحِلُّ لأحَدٍ أن يَمُنَّ بما فعَلَ من خيرٍ إلَّا مَن كَثُر إحسانُه وعومِلَ بالمَساءةِ، فله أن يعَدِّدَ إحسانَه)[5473].

عن عبدِ اللهِ بنِ زيدِ بنِ عاصِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا أفاء اللهُ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنَينٍ قَسَّم في النَّاسِ في المؤلَّفةِ قُلوبُهم، ولم يُعطِ الأنصارَ شيئًا، فكأنَّهم وجَدوا إذ لم يُصِبْهم ما أصاب النَّاسَ، فخطَبَهم فقال: يا مَعشَرَ الأنصارِ، ألم أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وكنتُم متفَرِّقين فألَّفكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي؟ كلَّما قال شيئًا قالوا: اللهُ ورسولُه أمَنُّ، قال: ما يمنَعُكم أن تجيبوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قال: كلَّما قال شيئًا، قالوا: اللهُ ورسولُه أمَنُّ، قال: لو شِئتُم قُلتُم: جِئْتَنا كذا وكذا، أترضَون أن يذهَبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبعيرِ، وتذهبون بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى رِحالِكم؟! لولا الهِجرةُ لكنتُ امرَأً من الأنصارِ، ولو سَلَك النَّاسُ واديًا وشِعبًا لسلَكْتُ وادِيَ الأنصارِ وشِعْبَها، الأنصارُ شِعارٌ والنَّاسُ دِثارٌ! إنَّكم ستَلْقَون بعدي أَثرةً فاصبِروا حتَّى تَلقَوني على الحوضِ))[5474].

وعن أبي عبدِ الرَّحمنِ، أنَّ عثمانَ رَضِيَ اللهُ عنه حينَ حُوصِرَ أشرَفَ عليهم، وقال: ((أَنشُدُكم اللهَ، ولا أَنشُدُ إلَّا أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ألستُم تَعلَمون أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: مَن حَفَر رُومةَ فله الجنَّةُ. فحَفَرْتُها؟ ألستُم تَعلَمون أنَّه قال: مَن جهَّز جيشَ العُسرةِ فله الجنَّةُ. فجَهَّزْتُهم؟ قال: فصَدَّقوه بما قال))[5475].

وقال ابنُ تَيميَّةَ: (... ثمَّ قُلتُ للأميرِ والحاضِرين: أنا أعلَمُ أنَّ أقوامًا يكذِبون عليَّ، كما قد كذَبوا عليَّ غيرَ مَرَّةٍ. وإن أملَيتُ الاعتقادَ مِن حفظي، ربَّما يقولون: كَتَم بعضَه أو داهَنَ وداري، فأنا أُحضِرُ عقيدةً مكتوبةً من نحوِ سَبعِ سِنينَ قبلَ مجيءِ التَّتَرِ إلى الشَّامِ. وقُلتُ قبلَ حُضورِها كلامًا قد بَعُدَ عهدي به وغَضِبتُ غضبًا شديدًا، لكِنِّي أذكُرُ أنِّي قُلتُ: أنا أعلَمُ أنَّ أقوامًا كذَبوا عليَّ وقالوا للسُّلطانِ أشياءَ، وتكَلَّمْتُ بكلامٍ احتَجْتُ إليه، مِثلُ أن قلتُ: من قام بالإسلامِ أوقاتَ الحاجةِ غيري؟ ومَن الذي أوضَح دلائِلَه وبيَّنَه؟ وجاهَد أعداءَه وأقامه لمَّا مال؟ حينَ تخَلَّى عنه كُلُّ أحدٍ، ولا أحَدَ يَنطِقُ بحُجَّتِه ولا أحدَ يجاهِدُ عنه، وقُمتُ مُظهِرًا لحُجَّتِه مجاهِدًا عنه مرغِّبًا فيه؟ فإذا كان هؤلاء يطمَعون في الكلامِ فيَّ فكيف يصنَعون

[5470] يُنظَر: ((صحيح مسلم)) (106).

[5471] ((الجامع لأحكام القرآن)) (3/ 308). ويُنظَر: ((الكبائر)) للذهبي (ص: 111)، ((الفروع)) لابن مُفلِح (4/ 382)، ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهيتمي (1/ 313).

[5472] ((المفردات)) (ص: 777).

[5473] ((المحلى بالآثار)) (8/ 123). ويُنظَر: ((الفروع)) لابن مُفلِح (4/ 383)، ((الإنصاف)) للمرداوي (7/ 321)، ((مطالب أولي النهى)) للرحيباني (2/ 167).

[5474] أخرجه البخاري (4330) واللفظ له، ومسلم (1061).

[5475] أخرجه البخاري (2778).

بغيري، ولو أنَّ يهوديًّا طَلَب من السُّلطانِ الإنصافَ لوجَب عليه أن يُنصِفَه، وأنا قد أعفو عن حقّي وقد لا أعفو، بل قد أطلُبُ الإنصافَ منه وأن يُحضِرَ هؤلاء الذين يَكذِبون؛ ليوافِقوا على افترائِهم)[5476].

المطلب التاسع: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **المَنَّانُ من أسماءِ اللهِ تعالى:**

(المَنُّ والمِنَّةُ صِفةٌ فِعليَّةٌ ثابتةٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ، والمَنَّانُ: من أسماءِ اللهِ الثَّابتةِ بالحديثِ الصَّحيحِ)[5477].

قال ابنُ الأثيرِ: (في أسماءِ اللهِ تعالى «المَنَّانُ» هو المُنعِمُ المُعطي، من المَنِّ: العطاءُ، لا من المِنَّةِ)[5478].

قال ابنُ هُبَيرةَ: (المَنَّانُ: الذي يتابِعُ عطاياه)، (فاللهُ عزَّ وجَلَّ منَّانٌ على عبادِه بإحسانِه وإنعامِه ورِزقِه إيَّاهم)[5479].

وقال الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ: (المِنَّةُ: النِّعمةُ الثَّقيلةُ، ويقالُ ذلك على وجهَينِ؛ أحَدُهما: أن يكونَ ذلك بالفِعلِ، فيُقالَ: مَنَّ فلانٌ على فلانٍ: إذا أثقَلَه بالنِّعمةِ، وعلى ذلك قولُه: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران:164]، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ [النساء:94]، وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ [الصافات: 114]، يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ [إبراهيم: 11]، {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا} [القصص: 5]، وذلك على الحقيقةِ لا يكونُ إلَّا للهِ تعالى.

والثَّاني: أن يكونَ ذلك بالقولِ، وذلك مستقبَحٌ فيما بَيْنَ النَّاسِ إلَّا عِندَ كُفرانِ النِّعمةِ)[5480].

وقال ابنُ القَيِّمِ: (ليست المِنَّةُ في الحقيقةِ إلَّا للهِ فهو المانُّ بفَضلِه، وأهلُ سَمواتِه وأهلُ أرضِه في محضِ مِنَّتِه عليهم؛ قال تعالى: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وقال تعالى لكليمه موسى: وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى، وقال: وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ، وقال: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} [القصص: 5] ، ولمَّا قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للأنصارِ: ((ألم أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أَمَنُّ))[5481]، وقال الرُّسُلُ لقومِهم: {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [إبراهيم: 11] ، فمَنُّه سُبحانَه وتعالى محضُ إحسانِه وفَضلِه ورحمتِه، وما طاب عيشُ أهلِ الجنَّةِ فيها إلَّا بمِنَّتِه عليهم؛ ولهذا قال أهلُها وقد أقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءَلون: {إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ} [الطور: 26 - 27]، فأخبروا لمعرفتِهم بربِّهم وحَقِّه عليهم أن نجاهم من عذابِ السَّمومِ بمَحضِ مِنَّتِه عليهم. وقد قال أعلَمُ الخلقِ باللهِ وأحبُّهم إليه وأقرَبُهم منه وأطوَعُهم له: ((لن يدخُلَ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعَمَلِه، قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا إلَّا أن يتغَمَّدَني اللهُ برحمةٍ منه وفَضلٍ))[5482] ... فلو أتى العبادُ بكُلِّ

[5476] يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) (3/ 162، 163).

[5477] يُنظَر: ((صفات الله عزَّ وجَلَّ الواردة في الكتاب والسنة)) لعلوي بن عبد القادر السقاف (ص: 331).

[5478] ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (4/ 365).

[5479] ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: 164).

[5480] ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: 777).

[5481] أخرجه مطوَّلًا البخاري (4330) باختلاف يسير، ومسلم (1061) واللفظ له من حديثِ عبدِ اللهِ بن زيدِ بنِ عاصمٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5482] أخرجه البخاري (6463) بنحوه، ومسلم (2816) واللفظ له من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

طاعةٍ وكانت أنفاسُهم كُلُّها طاعاتٍ للهِ لكانوا في محضِ مِنَّتِه وفَضلِه، وكانت له المِنَّةُ عليهم، وكلَّما عَظُمت طاعةُ العبدِ كانت منَّةُ اللهِ عليه أعظَمَ، فهو المانُّ بفَضلِه، فمن أنكَر مِنَّتَه فقد أنكَر إحسانَه)[5483].

• الفَرْقُ بَيْنَ المَنِّ والأذى:

قال ابنُ عطيَّةَ في الفَرْقِ بَيْنَ المَنِّ والأذى في قَولِه تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 262] : (المَنُّ: ذِكْر النِّعمةِ على معنى التَّعديدِ لها، والتَّقريعِ بها، والأذى: السَّبُّ والتَّشكِّي، وهو أعَمُّ من المَنِّ؛ لأنَّ المَنَّ جزءٌ من الأذى)[5484].

وقيل: المَنُّ أن يذكُرَ النِّعمةَ، والأذى أن يُظهِرَها. وقيل: المَنُّ هو أن يستخدِمَه بالعطاءِ، والأذى أن يُعَيِّرَه بالفَقرِ. وقيل: المَنُّ أن يتكبَّرَ عليه من أجْلِ أن يُعطيَه، والأذى أن يَنهَرَه أو يوبِّخَه بالمسألةِ[5485].

• لماذا كان المَنُّ والأذى مانعَينِ للأجرِ؟

والجوابُ عن ذلك: (لأنَّ الأجرَ هو جزاءٌ من اللهِ، فَمَن تصَدَّق يبتغي وجهَ اللهِ فله ثوابُه، ومَن مَنَّ أو آذى فقد قصَد غيرَ وَجهِ اللهِ، فليس له أن يَطلُبَ ثوابَه.

ولقد قال في ذلك ابنُ جريرٍ الطَّبَريُّ: أوجَب الأجرَ لِمن كان غيرَ مانٍّ ولا مؤذٍ لِمَن أنفَق عليه في سبيلِ اللهِ؛ لأنَّ النَّفَقةَ في سبيلِ اللهِ ممَّا ابتُغيَ به وجهُ اللهِ وطُلِب به ما عندَه، فإذا كان معنى النَّفَقةِ في سبيلِ اللهِ هو ما وصَفْنا، فلا وجهَ لِمَنِّ المُنفِقِ على مَن أنفَقَ عليه؛ لأنَّه لا يَدَ له قِبَلَه، ولا صنيعةَ يَستحِقُّ بها عليه -إنْ لم يكافِئْه عليها- المَنَّ والأذى؛ إذ كانت نفقةُ ما أنفَق عليه احتِسابًا، وابتغاءَ ثوابِ اللهِ، وطَلَبَ مَرضاتِه، وعلى اللهِ مثوبتُه دونَ مَن أنفَق عليه)[5486].

وقال ابنُ هُبَيرةَ: (إنَّ المَنَّ لا يحتَمِلُ غَضاضتَه إلَّا محتاجٌ، واللهُ سُبحانَه هو الغَنيُّ؛ ولذلك كان المَنُّ عندَه مُبطِلًا للعَمَلِ. وكيف لا؟ وفيه جَحدٌ للحَقِّ؛ فإنَّ المُؤمِنَ باللهِ يلزَمُه أن يعتَرِفَ بأنَّ توفيقَ اللهِ تعالى له هو الذي كانت الأعمالُ الصَّالحةُ عنه، فإذا مَنَّ بذلك فقد جَحَد للهِ سُبحانَه وتعالى كَرَمَ صُنعِه)[5487].

• الوَصيَّةُ بتَركِ نِكاحِ المَنَّانةِ:

وأوصى بعضُ العَرَبِ بنيه فقال: (لا تَنكِحوا من النِّساءِ سِتَّةً: أنَّانةً، ولا منَّانةً، ولا حنَّانةً، ولا حدَّاقةً، ولا برَّاقةً، ولا شدَّاقةً... والمَنَّانةُ: التي تَمُنُّ على زوجِها، تقولُ: فعَلْتُ بك وفعَلْتُ، فأنا أفعَلُ وأفعَلُ)[5488].

[5483] ((شفاء العليل)) (1/58).

[5484] ((المحرر الوجيز)) (1/ 356).

[5485] ((زهرة التفاسير)) (2/ 975). ويُنظَر: ((جامع البيان)) لابن جرير الطبري (4/ 655).

[5486] ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) (2/ 175، 176).

[5487] ((رياض النفوس)) لأبي بكر المالكي (1/ 297).

[5488] ((قوت القلوب)) لأبي طالب المكي (2/ 421). ويُنظَر: ((الأمالي)) لأبي علي القالي (2/ 256)، ((محاضرات الأدباء)) للراغب (2/ 224).

المبحث الرابع والعشرون: الكَذِبُ

المطلب الأول: معنى الكَذِبِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى الكَذِبِ لُغةً:**

الكَذِبُ: نَقيضُ الصِّدقِ، يقالُ: كَذَب يَكذِبُ كَذِبًا وكِذْبًا. وتقولُ: كَذَّبتُ الرَّجُلَ: إذا نَسَبْتَه إلى الكَذِبِ، وأَكذَبْتُه: إذا أخبَرْتَ أنَّ الذي يحدِّثُ به كَذِبٌ[5489].

- **معنى الكَذِبِ اصطِلاحًا:**

قال أبو الوفاءِ ابنُ عَقيلٍ: (الكَذِبُ: هو الخَبَرُ عن الشَّيءِ على خلافِ ما هو به)[5490].

وقال الماوَرْديُّ: (الكَذِبُ هو الإخبارُ عن الشَّيءِ بخِلافِ ما هو عليه)[5491].

وقال ابنُ حَجَرٍ: (الكَذِبُ هو الإخبارُ بالشَّيءِ على خِلافِ ما هو عليه، سواءٌ أكان عَمدًا أم خَطأً)[5492].

وقال النَّوويُّ: (الإخبارُ عن الشَّيءِ على خِلافِ ما هو، عمدًا كان أو سهوًا، سواءٌ كان الإخبارُ عن ماضٍ أو مُستقبَلٍ)[5493].

المطلب الثاني: الفَرْق بَيْنَ الكَذِبِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الخَرْصِ والكَذِبِ:**

(أنَّ الخَرْصَ هو الحَزْرُ، وليس من الكَذِبِ في شيءٍ، والخَرْصُ ما يُخزَرُ من الشَّيءِ، يقالُ: كم خَرْصُ نَخلِك؟ أي: كم يجيءُ من ثَمَرتِه، وإنما استُعمِلَ الخَرصُ في موضعِ الكَذِبِ؛ لأنَّ الخَرصَ يجري على غيرِ تحقيقٍ، فشُبِّه بالكَذِبِ، واستُعمِلَ في مَوضِعِه)[5494].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الكَذِبِ والافتراءِ والبُهتانِ:**

(الكَذِبُ: هو عدَمُ مطابقةِ الخبرِ للواقِعِ، أو لاعتقادِ المُخبِرِ لهما، على خلافٍ في ذلك.

[5489] يُنظَر: ((العين)) للخليل بن أحمد، ((لسان العرب)) لابن منظور، ((مختار الصحاح)) للرازي.

[5490] يُنظَر: ((الواضح في أصول الفقه)) لابن عقيل(1/129)

[5491] ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 262).

[5492] يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (1/201)

[5493] يُنظَر: ((المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)) (1/69)

[5494] يُنظَر: ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص: 45).

والافتراءُ: أخَصُّ منه؛ لأنَّه الكَذِبُ في حَقِّ الغيرِ بما لا يرتضيه، بخِلافِ الكَذِبِ؛ فإنَّه قد يكونُ في حَقِّ المتكَلِّمِ نفسِه؛ ولذا يقالُ لمن قال: فعلتُ كذا ولم أفعَلْ كذا، مع عدَمِ صِدقِه في ذلك: هو كاذِبٌ، ولا يقالُ: هو مُفتَرٍ، وكذا مَن مدَح أحدًا بما ليس فيه، يقالُ: إنَّه كاذِبٌ في وَصفِه، ولا يقالُ: هو مُفتَرٍ؛ لأنَّ في ذلك ممَّا يرتضيه المقولُ فيه غالبًا.

وقال سُبحانَه حكايةً عن الكُفَّارِ: {افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} [الأنعام: 93]؛ لزعِمهم أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه اللهُ سُبحانَه مع نِسبتِه إليه.

وأيضًا قد يحسُنُ الكَذِبُ على بعضِ الوجوهِ، كالكَذِبِ في الحَربِ، وإصلاحِ ذاتِ البَينِ، وعِدَةِ الزَّوجةِ... بخلافِ الافتراءِ.

وأمَّا البُهتانُ: فهو الكَذِبُ الذي يواجِهُ به صاحِبُه على وَجهِ المكابَرةِ له بما لم يُجِبَّه).[5495]

- **الفَرْقُ بَيْنَ الزُّورِ والكَذِبِ:**

أنَّ الزُّورَ هو الكَذِبُ الذي قد سُوِّيَ وحُسِّن في الظَّاهِرِ ليُحسَبَ أنَّه صِدقٌ، وهو من قولِك: زَوَّرْتُ الشَّيءَ: إذا سوَّيْتَه وحَسَّنْتَه، وقيل: أصلُه فارسيٌّ من قولِهم: زورٌ، وهو القُوَّةُ، وزوَّرْتُه: قوَّيتُه[5496].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الكَذِبِ والإفكِ:**

أنَّ الكَذِبَ: اسمٌ موضوعٌ للخبَرِ الذي لا مُخبَرَ له على ما هو به، وأصلُه في العربيَّةِ التَّقصيرُ، ومنه قولُهم: كَذَب عن قِرنِه في الحَربِ: إذا ترَك الحملةَ عليه، وسواءٌ كان الكَذِبُ فاحِشَ القُبحِ أو غيرَ فاحشِ القُبحِ.

والإفكُ: هو الكَذِبُ الفاحِشُ القُبحِ، مِثلُ الكَذِبِ على اللهِ ورسولِه، أو على القرآنِ، ومِثلُ قَذفِ المحصَنةِ، وغيرِ ذلك ممَّا يفحُشُ قُبحهُ، وأصلُه في العربيَّةِ الصَّرفُ، وتُسَمَّى الرِّياحُ المُؤتَفِكاتِ؛ لأنَّها تقلِبُ الأرضَ فتَصرِفُها عمَّا عُهِدَت عليه، وسُمِّيَت ديارُ قومِ لُوطٍ المؤتَفِكاتِ؛ لأنَّها قُلِبَت بهم[5497].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الخُلفِ والإخلافِ والكَذِبِ:**

الخُلفُ والإخلافُ والكَذِبُ: لا يكادُ النَّاسُ يُفَرِّقون بَيْنَهما، والكَذِبُ فيما مضى، وهو أن تقولَ: فعَلْتُ كذا، ولم تفعَلْه، والخُلفُ والإخلافُ لِما يُستقبَلُ، وهو أن تقولَ: سأفعلُ كذا، ولا تفعَلُه، ويرشِدُ إليه قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا وعَد أخلَفَ))[5498]، وقولُه تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [المنافقون: 1] أي: فيما أخبروا به من إيمانِهم فيما مضى، وقولُه تعالى: فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ [إبراهيم: 47] أي: فيما وعدَهم بالنَّصرِ وإهلاكِ أعدائِهم في المُستقبَلِ[5499].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الكَذِبِ والمُحالِ:**

[5495] يُنظَر: ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص: 47)، ((الكليات)) للكفوي (ص: 154).

[5496] يُنظَر: ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري، (ص: 47).

[5497] المصدر السابق، (ص: 45، 46).

[5498] أخرجه البخاري (33)، ومسلم (59) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، وأخرجه البخاري (2459)، ومسلم (58) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما.

[5499] يُنظَر: ((أدب الكاتب)) لابن قتيبة (ص: 33)، ((الكليات)) للكفوي (ص: 428)، ((فيض الباري على صحيح البخاري)) لمحمد أنور شاه (199 /1)

(أنَّ المُحالَ ما أُحيلَ من الخَبَرِ عن حَقِّه حتى لا يَصِحَّ اعتقادُه، ويُعلَمَ بُطلانُه اضطِرارًا، مِثلُ قولِك: سأقومُ أمسِ، وشَرِبتُ غدًا، والجِسمُ أسوَدُ أبيَضُ في حالٍ واحدةٍ، والكَذِبُ هو الخبَرُ الذي يكونُ مُخبَرُه على خلافِ ما هو عليه، ويَصِحُّ اعتقادُ ذلك ويُعلَمُ بطلانُه استدلالًا، والمحالُ ليس بصِدقٍ ولا كَذِبٍ، ولا يقعُ الكَذِبُ إلَّا في الخبرِ، وقد يكونُ المُحالُ ليس بصِدقٍ ولا كَذِبٍ، ولا يقَعُ الكَذِبُ إلَّا في الخبرِ، وقد يكونُ المحالُ في صورةِ الخبرِ، مِثلُ قولِك: هو حَسَنٌ قبيحٌ من وجهٍ واحدٍ، وفي صورةِ الاستخبارِ، مِثلُ قولِك: أقدِمَ زيدٌ غدًا؟ وفي صورةِ التَّمنِّي، كقولِك: ليتني في هذا الحالِ بالبَصرةِ ومكَّةَ، وفي صورةِ الأمرِ، مِثلُ قولِك: اتَّقِ زيدًا أمسِ، وفي صورةِ النَّهيِ، كقولِك: لا تَلْقَ زيدًا في السَّنةِ الماضيةِ، ويقعُ في النِّداءِ، كقولِك: يا زيدُ بَكْرٌ؛ على أن تجعَلَ زيدًا بَكرًا، وخِلافُ المحالِ المُستقيمُ، وخِلافُ الكَذِبِ الصِّدقُ)[5500].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الجَحدِ والكَذِبِ:**

(أنَّ الكَذِبَ هو الخبرُ الذي لا مُخبَرَ له على ما هو به، والجَحدُ إنكارُك الشَّيءَ الظَّاهرَ، أو إنكارُك الشَّيءَ مع عِلمِك به؛ فليس الجَحدُ له إلَّا الإنكارَ الواقِعَ على هذا الوجهِ، والكَذِبُ يكونُ في إنكارٍ وغيرِ إنكارٍ)[5501]، (فالجَحدُ نفيُ ما في القَلبِ ثباتُه، وإثباتُ ما في القلبِ نفيُه، وليس بمرادِفٍ للنَّفيِ من كُلِّ وجهٍ)[5502].

المطلب الثالث: ذَمُّ الكَذِبِ والنَّهيُ عنه

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

1- قال اللهُ تعالى: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [النحل: 105].

(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ على اللهِ وعلى رسولِه شِرارُ الخَلقِ، (الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) من الكَفَرةِ والمُلحِدين المعروفين بالكَذِبِ عِندَ النَّاسِ)[5503]، فالذين لا يؤمنون بآياتِ اللهِ هم المعتادون للكَذِبِ، وهو منحَصِرٌ فيهم، وفي هذا تحذيرٌ وزجرٌ من الوقوعِ في الكَذِبِ واختلاقِه؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه أخبر أنَّه إنما يفتري الكَذِبَ من لا يؤمِنُ، ومن اعتاد ذلك من المُسلِمين فإنَّه على خَطَرٍ[5504].

2- وقال سُبحانَه: {وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} [الجاثية: 7].

الوَيلُ: كَلِمةُ دُعاءٍ بالهلاكِ والعَذابِ[5505]، و(أَفَّاكٍ) أي: كذَّابٍ في مقالِه، أثيمٍ في فِعالِه. وأخبر أنَّ له عذابًا أليمًا، (وأنَّ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ) [الجاثية: 10] تكفي في عقوبتِهم البليغةِ)[5506]، فالمعنى: أنَّه مُلاقٍ جهنَّمَ بعد موتِه، فهي مِن بَعدِه، أي: بعدَ مفارقتِه الدُّنيا، فهي لمَّا كانت بعدَ حياتِه كانت وراءَه[5507].

3- وقال عزَّ وجلَّ: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} [الشعراء: 221-223].

[5500] يُنظَر: ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: 43، 44).

[5501] المصدر السابق (ص: 46، 47).

[5502] يُنظَر: ((الكليات)) للكفوي (ص: 356).

[5503] يُنظَر: ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (4/604)

[5504] يُنظَر: ((جامع البيان)) لابن جرير (14/371)، ((البسيط)) للواحدي (3/85)، ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 450.)

[5505] يُنظَر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (7/191، 192).

[5506] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (775)

[5507] يُنظَر: ((بدائع الفوائد)) (4/195، 196)

يقولُ اللهُ سُبحانَه: هل أخبركم بالذين تتنزَّلُ عليهم الشَّياطينُ؟ تتنَزَّلُ بكثرةٍ على كُلِّ كثيرِ الكَذِبِ في أقوالِه، كثيرِ الآثامِ في أفعالِه، يَسترِقُ هؤلاء الشَّياطينُ ما يسمعونَه في السَّماءِ، ثمَّ يُلقونَه إلى أوليائِهم من الكَهَنةِ، وأكثرُ هؤلاء الكُهَّانِ كاذِبون فيما يخبِرون به[5508]، كما يُبيِّنُه حديثُ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: إنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قَضى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبَتِ المَلائِكةُ بأجنِحَتِها خُضعانًا لقَولِه، كأنَّه سِلسِلةٌ على صَفْوانٍ، فإذا فُزِّعَ عَن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال رَبُّكُم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهوَ العَلِيُّ الكَبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ، ومُستَرِقُ السَّمعِ هَكَذا بَعضُه فوقَ بَعضٍ - ووَصفَ سُفيانُ بكَفِّه فحَرفَها، وبَدَّدَ بَينَ أصابِعِه- فيَسمَعُ الكَلِمةَ فيُلقيها إلى من تَحتَه، ثُمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى من تَحتَه، حَتَّى يُلقِيَها على لسانِ السَّاحِرِ أوِ الكاهِنِ، فرُبَّما أدرَكَ الشِّهابُ قَبلَ أن يُلقِيَها، ورُبَّما ألقاها قَبلَ أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ مَعَها مِائةَ كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليسَ قد قال لنا يومَ كذا: كذا وكذا؟! فيُصَدَّقُ بتِلكَ الكَلِمةِ الَّتي سَمِعَ مِنَ السَّماءِ))[5509].

4- وقال سُبحانَه: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [النور: 11 - 13].

يقولُ اللهُ تعالى: إنَّ الذين قذَفوا أمَّ المُؤمِنين عائشةَ كَذِبا وباطِلًا جماعةٌ منكم -أيُّها المُسلِمونَ- لا تحسَبوا قَذْفَهم لها شَرًّا لكم، بل هو خيرٌ لكم؛ لكُلِّ فَردٍ من أولئك القاذفين حَظُّه من العذابِ بقَدْرِ جُرمِه[5510]، وقَولُه تعالى: (لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ) ... فيه توبيخٌ وتعنيفٌ للذين سَمِعوا الإفكَ فلم يجِدُّوا في دفعِه وإنكارِه، واحتجاجٌ عليهم بما هو ظاهرٌ مكشوفٌ في الشَّرعِ من وجوبِ تكذيبِ القاذِفِ بغيرِ بيِّنةٍ، والتَّنكيلِ به إذا قذَف امرأةً محصَنةً من عُرْضِ نِساءِ المُسلِمين؛ فكيف بأمِّ المُؤمِنين الصِّدِّيقةِ بنتِ الصِّدِّيقِ، حُرمةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحبيبةِ حَبيبِ اللهِ[5511]؟! وصيغةُ الحصرِ في قولِه: (فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) للمبالغةِ؛ كأنَّ كَذِبَهم لقُوَّتِه وشناعتِه لا يُعَدُّ غيرُهم من الكاذِبين كاذِبًا؛ فكأنَّهم انحصرت فيهم ماهيَّةُ الموصوفين بالكَذِبِ، والتَّقييدُ بقولِه: (عِنْدَ اللَّهِ) لزيادةِ تحقيقِ كَذِبِهم، أي: هو كَذِبٌ في عِلمِ اللهِ؛ فإنَّ عِلمَ اللهِ لا يكونُ إلَّا موافقًا لنفسِ الأمرِ، واسمُ الإشارةِ لزيادةِ تمييزِهم بهذه الصِّفةِ؛ ليَحذَرَ النَّاسُ أمثالَهم[5512].

5- وقال تعالى في وَصفِ المُنافِقين: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [الحشر: 11-12].

قال السَّعديُّ في قولِه: وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ: (في هذا الوعدِ الذي غرُّوا به إخوانَهم، ولا يُستكثَرُ هذا عليهم؛ فإنَّ الكَذِبَ وصفُهم، والغُرورَ والخِداعَ مقارِنُهم، والنِّفاقَ والجُبنَ يَصحَبُهم؛ ولهذا كَذَّبَهم اللهُ بقولِه الذي وُجِد مُخبَرُه كما أخبَرَ اللهُ به، ووقع طِبقَ ما قال، فقال: (لَئِنْ أُخْرِجُوا من ديارِهم) جلاءً ونفيًا (لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ) لمحبَّتِهم للأوطانِ، وعدَمِ صَبرِهم على القتالِ، وعدَمِ وفائِهم بوعدِهم)[5513].

[5508] يُنظَر: ((جامع البيان)) لابن جرير (17/670)، ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (6/172)، ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 599).

[5509] أخرجه البخاري (4800)

[5510] يُنظَر: ((جامع البيان)) لابن جرير (17/214)، ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (6/27)، ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 563)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (5/373)

[5511] يُنظَر: ((الكشاف)) للزمخشري (3/219)، ((البحر المحيط)) لأبي حيان (8/22)

[5512] يُنظَر: ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (18/176)

[5513] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) (851)

ب- من السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

1- **عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((آيةُ المُنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا اؤتُمِن خان))**[5514]. المقصودُ من الحديثِ: أنَّ هذه الخِصالَ خِصالُ نِفاقٍ، وصاحِبُها شبيهٌ بالمُنافِقين في هذه الخِصالِ، ومتخَلِّقٌ بأخلاقِهم، لا أنَّه مُنافِقٌ نِفاقًا أكبَرَ يُظهِرُ الإسلامَ وهو يُبطِنُ الكُفرَ، بل هو نفاقٌ أصغَرُ عَمَليٌّ، وذَكَر من هذه الخِصالِ: أن يحَدِّثَ بحديثٍ لمن يصَدِّقُه به وهو كاذِبٌ له[5515]، وفي هذا تنفيرٌ وتحذيرٌ من الوقوعِ في الكَذِبِ.

2- عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... وإنَّ الكَذِبَ يهدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يهدي إلى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَكذِبُ حتَّى يُكتَبَ كذَّابًا))[5516].

وفي روايةٍ: ((وما يزالُ الرَّجُلُ يكذِبُ ويتحَرَّى الكَذِبَ حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذَّابًا))[5517].

فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخبر أنَّ الكَذِبَ يوصِلُ إلى الفُجورِ، وهو الميلُ عن الاستقامةِ، وقيل: الانبعاثُ في المعاصي، وهذا فيه التَّحذيرُ من الكَذِبِ والتَّساهُلِ فيه؛ فإنَّه إذا تساهل فيه كَثُر منه فعُرِف به وكتبَه اللهُ لمبالغتِه كذَّابًا إن اعتاده، ومعنى يُكتَبُ هنا: يُحكَمُ له بذلك، ويستحِقُّ الوصفَ بصفةِ الكذَّابين وعقابَهم، والمرادُ إظهارُ ذلك للمخلوقين إمَّا بأن يكتُبَه في ذلك ليشتَهِرَ بحَظِّه من هذه الصِّفةِ في الملأِ الأعلى، وإمَّا بأن يُلقيَ ذلك في قلوبِ النَّاسِ وألسنَتِهم كما يوضَعُ له البغضاءُ، وإلَّا فقَدَرُ اللهِ تعالى وكتابُه السَّابِقُ قد سبَق بكُلِّ ذلك. واللهُ أعلمُ[5518].

3- عن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((رأيتُ رجُلَين أتياني قالا: الذي رأيتَه يُشَقُّ شِدقُه، فكذَّابٌ يكذِبُ بالكَذبةِ تُحمَلُ عنه حتى تبلُغَ الآفاقَ، فيُصنَعُ به إلى يومِ القيامةِ))[5519].

قولُه: ((يُشَقُّ شِدقُه)): أي: يُقطَعُ طَرَفُ فمِه إلى قفاه، قولُه: ((فكذَّابٌ))، أي: فهو كثيرُ الكَذِبِ ((يحَدِّثُ بالكَذبةِ فتُحمَلُ عنه)): أي: فتُروى وتُنقَل تلك الكَذْبةُ عنه ((حتَّى تبلُغَ الآفاقَ)) أي: حتى تُنشَرَ في أطرافِ الأرضِ[5520]. وإنَّما استحقَّ التَّعذيبَ لِما ينشأُ عن تلك الكَذبةِ من المفاسِدِ، وهو فيها مختارٌ غيرُ مُكرَهٍ ولا مُلجَأٍ[5521].

4- وعن ثابتِ بنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من حلَف بمِلَّةٍ غيرِ الإسلامِ كاذِبًا متعَمِّدًا فهو كما قال))[5522].

(ومعنى الحديثِ النَّهيُ عن الحَلِفِ بما حَلَف به من ذلك، والزَّجرُ عنه، وتقديرُ الكلامِ: من حلَف بملَّةٍ غيرِ الإسلامِ كاذِبًا متعَمِّدًا، فهو كما قال، يعنى فهو كاذبٌ حقًّا؛ لأنَّه حين حلَف بذلك ظنَّ أنَّ إثمَ الكَذِبِ واسمَه ساقطان عنه؛ لاعتقادِه أنَّه لا

[5514] أخرجه البخاري (33)، ومسلم (59) واللفظ له.

[5515] يُنظَر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (1/ 94)، ((المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)) للنووي (2/ 46)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (2/ 481)، ((فيض الباري على صحيح البخاري)) لمحمد أنور شاه (1/ 199)

[5516] أخرجه البخاري (6094) ومسلم (2607/103)

[5517] ((صحيح مسلم)) (2607/105)

[5518] يُنظَر: ((المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)) للنووي (16/ 160)

[5519] أخرجه البخاري (6096)

[5520] ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) للقاري (7/ 2927)

[5521] ((فتح الباري)) لابن حجر (12/ 445)

[5522] أخرجه البخاري (1363) واللفظ له، ومسلم (110)

حُرمةَ لِما حلَف به، لكن لَمَّا تعمَّد تَرْكَ الصِّدقِ في يمينِه، وعدَل عن الحقِّ في ذلك، لَزِمه اسمُ الكَذِبِ، وإثمُ الحَلِفِ، فهو كاذبٌ كَذْبتينِ: كاذِبٌ بإظهارِ تعظيمِ ما يعتَقِدُ خلافَه، وكاذِبٌ بنفيِه ما يَعلَمُ إثباتَه، أو بإثباتِ ما يَعلَمُ نَفيَه. فإن ظَنَّ ظانٌّ أنَّ في هذا الحديثِ دليلًا على إباحةِ الحَلِفِ بملَّةٍ غيرِ الإسلامِ صادِقًا، لاشتراطِه في الحديثِ أن يحلِفَ به كاذبًا، قيل له: ليس كما توهَّمتَ؛ لورودِ نهيِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الحَلِفِ بغيرِ اللهِ نهيًا مُطلَقًا[5523]، فاستوى في ذلك الكاذِبُ والصَّادِقُ، وفي النَّهيِ عنه)[5524].

5- وعن أبي محمَّدٍ الحَسَنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((حَفِظتُ من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يَريبُك؛ فإنَّ الصِّدقَ طُمَأنينةٌ، وإنَّ الكَذِبَ رِيبةٌ))[5525].

قال ابنُ رجبٍ: (يشيرُ إلى أنَّه لا ينبغي الاعتمادُ على قولِ كُلِّ قائلٍ، كما قال في حديثِ وابصةَ: "وإنْ أفتاك النَّاس وأفتَوك"[5526]، وإنما يعتَمَدُ على قولِ من يقولُ الصِّدقَ، وعلامةُ الصِّدقِ أنَّه تطمَئِنُّ به القلوبُ، وعلامةُ الكَذِبِ أنَّه تحصُلُ به الرِّيبةُ، فلا تسكُنُ القلوبُ إليه، بل تنفِرُ منه.

ومن هنا كان العُقلاءُ في عهدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا سمِعوا كلامَه وما يدعو إليه عرَفوا أنَّه صادِقٌ، وأنَّه جاء بالحَقِّ، وإذا سَمِعوا كلامَ مُسيلِمةَ عرَفوا أنَّه كاذِبٌ، وأنَّه جاء بالباطِلِ)[5527].

6- عن أبي ذرٍّ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ، ولا ينظُرُ إليهم ولا يُزَكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ. قال: فقرأها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثلاثَ مرارٍ، قال أبو ذرٍّ: خابوا وخَسِروا! من هم يا رسولَ اللهِ؟ قال: المُسبِلُ، والمنَّانُ، والمُنَفِّقُ سِلعتَه بالحَلِفِ الكاذِبِ))[5528].

قولُه: ((والمُنَفِّقُ سِلعتَه بالحَلِفِ الكاذِبِ)) أي: الذي يروِّجُ متاعَه بالحَلِفِ الكاذِبِ، مثلُ أن يقولَ البائعُ للمُشتري: اشتريتُ هذا بمئةِ دينارٍ واللهِ، ولم يشتَرِها بمئةٍ، بل بأقَلَّ من مئةٍ[5529].

7- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ثلاثةٌ لا يَنظُرُ اللهُ إليهم يومَ القيامةِ ولا يُزَكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ... وفيه: ورجلٌ أقام سِلعتَه بعد العَصرِ فقال: واللهِ الذي لا إلهَ غيرُه لقد أُعطيتُ بها كذا وكذا، فصَدَّقه رجلٌ، ثمَّ قرأ هذه الآيةَ: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} [آل عمران: 77]))[5530].

[5523] يُنظَرُ ما أخرجه أبو داود (3251) والترمذي (1535)، من حديثِ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما. وما أخرجه البخاري (6108)، ومسلم (1646) من حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[5524] يُنظَر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (3/350)

[5525] أخرجه الترمذي (2518)، وأحمد (1723) واللفظ لهما، والنسائي (5711) مختصرًا. صحَّحه الترمذي، وابن حبان في ((صحيحه)) (722)، وابن الملقن في ((شرح البخاري)) (14/42)

[5526] أخرجه أحمد (18001)، والدارمي (2533)، وأبو يعلى (1586) مطولًا من حديثِ وابصةَ رَضِيَ اللهُ عنه. حسَّنه النووي في ((الأذكار)) (504)، والشوكاني في ((إرشاد الفحول)) (2/284)، وحسَّنه لغيره الألباني في ((صحيح الترغيب)) (1734)، وحسَّن إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (3/23)

[5527] يُنظَر: ((جامع العلوم والحكم)) (ص: 285).

[5528] أخرجه مسلم (106)

[5529] ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (404 /3)

[5530] أخرجه البخاري (2358)

8- وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ((جاءَ أعرابِيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: يا رَسولَ اللهِ، ما الكَبائِرُ؟ قالَ: الإشراكُ باللهِ. قلَ: ثُمَّ ماذا؟ قال: ثُمَّ عُقوقُ الوالِدَينِ. قال: ثُمَّ ماذا؟ قال: اليَمينُ الغَموسُ. قُلتُ: وما اليَمينُ الغَموسُ؟ قال: الذي يَقتَطِعُ مالَ امرِئٍ مُسلِمٍ هو فيها كاذِبٌ))[5531].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- عن أبي بَكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (إيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ مجانِبُ الإيمانِ)[5532].

- قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: (لأن يضَعَني الصِّدقُ -وقلَّما يفعَلُ- أحبُّ إليَّ من أن يرفَعَني الكَذِبُ، وقلَّما يفعَلُ)[5533].

- وقال عُمَرُ أيضًا: (لا يجِدُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يدَعَ المِراءَ وهو محِقٌّ، ويدَعَ الكَذِبَ في المُزاحِ، وهو يرى أنَّه لو شاء لغَلَب)[5534].

- وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ قال: (بحَسْبِ المرءِ من الكَذِبِ أن يحَدِّثَ بكُلِّ ما سَمِع)[5535].

- وفيه الزَّجرُ عن التَّحديثِ بكُلِّ ما سمِع الإنسانُ؛ فإنَّه يسمَعُ في العادةِ الصِّدقَ والكَذِبَ، فإذا حدَّث بكلِّ ما سمِع فقد كَذَب لإخبارِه بما لم يكُنْ[5536].

- وقال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه ضِمنَ حديثٍ طويلٍ: (أعظَمُ الخطايا الكَذِبُ)[5537].

- ورُوِيَ عنه أيضًا أنَّه قال: (الكَذِبُ لا يصلُحُ منه جِدٌّ ولا هَزلٌ)[5538].

- وكان ابنُ عبَّاسٍ يقولُ: (الكَذِبُ فُجورٌ، والنَّميمةُ سِحرٌ، فمن كَذَب فقد فَجَر، ومن نمَّ فقد سَحَر)[5539].

- وقال عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ: (ما كَذَبتُ منذُ عَلِمتُ أنَّ الكَذِبَ يَشينُ صاحِبَه)[5540].

- وقال الأحنَفُ: (ما خان شريفٌ، ولا كَذَب عاقِلٌ، ولا اغتاب مُؤمِنٌ. وكانوا يحلِفون فيَحنَثون، ويقولون فلا يَكذِبون)[5541].

[5531] أخرجه البخاري (6920)

[5532] أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (4807). قال البيهقي في الشعب (10/197): موقوفٌ صحيحٌ، وصحَّح إسنادَه ابن حجر في ((فتح الباري)) (10/ 508)، وأحمد شاكر في تخريج المسند (1/31)

[5533] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (1/263)

[5534] يُنظَر: رواه ابنُ أبي الدنيا في ((الصمت)) (393)، وابن حبان في ((روضة العقلاء)) (ص55) واللفظ له.

[5535] رواه من طرقٍ: البخاري في ((الأدب المفرد)) (884)، ومسلم في ((مقدمة الصحيح)) (5) واللفظ له. صحَّحه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (679)، وصحَّح إسناده ابن كثير في ((مسند الفاروق)) (2/626). ورواه مسلم أيضًا عن ابنِ مسعود في (المقدمة) (5)

[5536] ((شرح النووي على مسلم)) (1/ 75)

[5537] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (1/138)

[5538] رواه أحمد (3896)، وأبو يعلى (5363) واللفظ لهما، والطبراني (9/102) (8526) باختلافٍ يسيرٍ. صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (5/343)، وشعيب الأرناؤوط على شرط مسلم في تخريج ((مسند أحمد)) (3896)، ووثَّق رجاله البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (6/85). وأخرجه من طريق آخرَ: البخاري في ((الأدب المفرد)) (387)، وابن أبي شيبة (26114)، والطبراني (9/102) (8525). صحَّحه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (299)

[5539] يُنظَر: ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (2/31)

[5540] ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص: 253).

[5541] رواه أبو بكر الدِّينَوَري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (3/ 515)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (24/343)

- وقال أيضًا: (اثنانِ لا يجتَمِعانِ أبدًا: الكَذِبُ والمروءةُ)[5542].

- وقال ميمونُ بنُ ميمونٍ: (مَن عُرِف بالصِّدقِ جاز كَذِبُه، ومن عُرِف بالكَذِبِ لم يجُزْ صِدقُه)[5543].

- وقال الأحنَفُ لابنِه: (مِن دناءةِ الكَذِبِ أنَّ الكاذِبَ لا يُقبَلُ قولُه في صديقِه ولا عَدُوِّه)[5544].

- و(قال سليمانُ بنُ سعدٍ: لو صحِبني رجلٌ فقال: اشترِطْ خصلةً واحدةً لا تزيدُ عليها، لقلْتُ لا تَكْذِبْني...)[5545].

- وقال الماوَرديُّ: (الكَذِبُ جِماعُ كُلِّ شَرٍّ، وأصلُ كُلِّ ذمٍّ لسُوءِ عواقبِه، وخُبثِ نتائجِه؛ لأنَّه يُنتِجُ النَّميمةَ، والنَّميمةُ تُنتِجُ البغضاءَ، والبغضاءُ تَؤولُ إلى العداوةِ، وليس مع العداوةِ أمنٌ ولا راحةٌ؛ ولذلك قيل: من قَلَّ صِدقُه قَلَّ صديقُه)[5546].

- وقال ابنُ القَيِّمِ: (إيَّاك والكَذِبَ؛ فإنَّه يُفسِدُ عليك تصوُّرَ المعلوماتِ على ما هي عليه، ويفسِدُ عليك تصويرَها وتعليمَها للنَّاسِ)[5547].

المطلب الرابع: آثارُ الكَذِبِ

1- الكَذِبُ يَذهَبُ بالمروءةِ.

2- الكَذِبُ يُعَرِّضُ صاحِبَه للإهانةِ والاحتقارِ وضَياعِ الهَيبةِ.

3- (الكاذِبُ يُصَوِّرُ المعدومَ موجودًا، والموجودَ معدومًا، والحَقَّ باطلًا، والباطِلَ حَقًّا، والخيرَ شَرًّا، والشَّرَّ خيرًا؛ فيَفسُدُ عليه تصوُّرُه وعِلمُه عُقوبةً له، ثمَّ يُصَوَّرُ ذلك في نَفسِ المخاطَبِ)[5548].

4- الكَذِبُ يهدي إلى الفُجورِ.

5- الكذَّابُ لا تَسكُنُ القلوبُ إليه، بل تَنفِرُ منه.

6- الكذَّابُ لا يُفلِحُ أبدًا.

7- الكَذِبُ من علاماتِ النِّفاقِ.

8- الكَذِبُ يمحَقُ البركةَ، ويَنقُصُ الرِّزقَ، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (البَيِّعانِ بالخيارِ ما لم يتفَرَّقا، فإن صَدَقا وبيَّنَا بورِكَ لهما في بيعِهما، وإن كتَمَا وكذَبَا مُحِقَت بركةُ بيعِهما)[5549].

9- الكَذِبُ يَحرِمُ صاحِبَه هدايةَ اللهِ تعالى وتوفيقَه، كما قال اللهُ تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} [غافر: 28].

10- الكَذِبُ سَبَبٌ لحُلولِ اللَّعنةِ على صاحِبِه، فتكونُ النَّتيجةُ بذلك الطَّردَ من رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، كما قال اللهُ تعالى: {ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ على الْكَاذِبِينَ} [آل عمران: 61].

[5542] يُنظَر: ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (2/32)

[5543] المصدر السابق.

[5544] يُنظَر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري.(3/224)

[5545] ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة.(31 /2)

[5546] ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 261).

[5547] يُنظَر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: 135).

[5548] المصدر السابق.

[5549] أخرجه البخاري (2079) ومسلم(1532)

11- الكَذِبُ يؤدِّي إلى الفسادِ؛ قال الجاحِظُ: (الصِّدقُ والوفاءُ تَوءمانِ، والصَّبرُ والحِلمُ تَوءمانِ، فيهنَّ تمامُ كُلِّ دينٍ، وصلاحُ كُلِّ دُنيا، وأضدادُهنَّ سَبَبُ كُلِّ فُرقةٍ، وأصلُ كُلِّ فسادٍ)[5550].

المطلب الخامس: أقسامُ الكَذِبِ

الكَذِبُ إمَّا أن يكونَ اختراعًا لقِصَّةٍ لا أصلَ لها، أو زيادةً في القِصَّةِ أو نُقصانًا يُغَيِّرانِ المعنى، أو تحريفًا بتغييرِ عبارةٍ؛ فما كان اختراعًا يقالُ له: الافتراءُ والاختلاقُ، وما كان من زيادةٍ أو نقصانٍ فَمَيْنٌ، وكلُّ من أورد كَذِبًا في غيرِه، فإمَّا أن يقولَه بحَضرةِ المقولِ فيه أو بغيرِ حضرتِه، وأعظَمُ الكَذِبِ ما كان اختراعًا بحضرةِ المقولِ فيه، وهو المعَبَّرُ عنه بالبُهتانِ[5551].

وينقَسِمُ الكَذِبُ باعتبارِ القولِ والفِعلِ إلى عِدَّةِ أقسامٍ:

1- الكَذِبُ في الأقوالِ.
2- الكَذِبُ في الأفعالِ.

وينقَسِمُ الكَذِبُ بحسَبِ الأداءِ والمطابقةِ للواقِعِ لعِدَّةِ أنواعٍ على النَّحوِ الآتي:

الكَذِبُ يرادُ به أمرانِ؛ أحَدُهما: الخبَرُ غيرُ المطابِقِ لمُخبَرِه، وهو نوعانِ: كَذِبٌ عَمدٌ، وكَذِبٌ خَطَأٌ، فكَذِبُ العَمدِ معروفٌ، وكَذِبُ الخَطَأِ... منه قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم "كذَب من قالها"[5552]، لمن قال: حَبِط عَمَلُ عامرٍ؛ حيث قَتَل نفسَه خطأً، ومنه قولُ عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ: "كذَب أبو محمَّدٍ"؛ حيث قال: الوِترُ واجِبٌ، فهذا كلُّه مِن كَذِبِ الخطأِ، ومعناه: أخطأَ قائِلُ ذلك.

والثَّاني من أقسامِ الكَذِبِ: الخبَرُ الذي لا يجوزُ الإخبارُ به، وإن كان خبرُه مُطابقًا لمُخبَرِه، كخَبَرِ القاذِفِ المنفَرِدِ برؤيةِ الزِّنا، والإخبارِ به؛ فإنَّه كاذِبٌ في حُكمِ اللهِ وإن كان خبَرُه مطابقًا لمُخبَرِه؛ ولهذا قال تعالى: {فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [النور: 13]، فحَكَم اللهُ في مِثلِ هذا أن يعاقَبَ عقوبةَ المُفتري الكاذِبِ وإن كان خبَرُه مطابقًا، وعلى هذا فلا تتحقَّقُ توبتُه حتى يعتَرِفَ بأنَّه كاذِبٌ عِندَ اللهِ، كما أخبَرَ اللهُ تعالى به عنه، فإذا لم يعترِفْ بأنَّه كاذِبٌ وجعَلَه اللهُ كاذبًا، فأيُّ توبةٍ له؟ وهل هذا إلَّا محضُ الإصرارِ والمجاهَرةِ بمخالفةِ حُكمِ اللهِ الذي حكَم به عليه[5553]؟

المطلب السادس: صُوَرُ الكَذِبِ ومَظاهِرُه

للكَذِبِ صُوَرٌ ومظاهِرُ كثيرةٌ؛ منها:

1- الكَذِبُ على اللهِ تعالى ورسولِه:

[5550] ((الرسائل)) للجاحظ (1/ 125)

[5551] ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) للأصفهاني (ص: 196).

[5552] أخرجه البخاري (6891) من حديثِ سَلَمةَ بنِ الأكوعِ رَضِيَ اللهُ عنه، ولفظُه: ((خرَجْنا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى خيبَرَ، فقال رجُلٌ منهم: أسمِعْنا يا عامِرُ من هُنَيهاتِك! فحدا بهم، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن السَّائقُ؟ قالوا: عامِرٌ. فقال: رحمه اللهُ! فقالوا: يا رسولَ اللهِ، هلَّا أمتَعْتَنا به! فأصيبَ صبيحةَ ليلتِه، فقال القومُ: حَبِط عَمَلُه؛ قَتَل نَفسَه! فلمَّا رجَعْتُ وهم يتحدَّثون أنَّ عامِرًا حَبِط عَمَلُه، فجِئتُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقُلتُ: يا نبيَّ اللهِ، فداك أبي وأمي، زعَموا أنَّ عامرًا حَبِط عَمَلُه! فقال: كَذَب من قالها، إنَّ له لأجرَينِ اثنينِ؛ إنَّه لجاهِدٌ مجاهِدٌ، وأيُّ قَتلٍ يزيدُه عليه)).

[5553] يُنظَر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (1/ 371)

وهذا أعظَمُ أنواعِ الكَذِبِ، (والكَذِبُ على اللهِ نوعانِ:

- **النَّوعُ الأوَّلُ:** أن يقولَ: قال اللهُ كذا، وهو يَكذِبُ.

- **والنَّوعُ الثَّاني:** أن يُفَسِّرَ كلامَ اللهِ بغيرِ ما أراد اللهُ؛ لأنَّ المقصودَ من الكلامِ معناه، فإذا قال: أراد اللهُ بكذا كذا وكذا، فهو كاذِبٌ على اللهِ، شاهِدٌ على اللهِ بما لم يُرِدْه اللهُ عزَّ وجَلَّ، لكِنَّ الثَّانيَ إذا كان عن اجتهادٍ وأخطأَ في تفسيرِ الآيةِ، فإنَّ اللهَ تعالى يعفو عنه؛ لأنَّ اللهَ قال: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: 78] وقال: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: 286] ، وأمَّا إذا تعمَّد أن يفسِّرَ كلامَ اللهِ بغيرِ ما أراد اللهُ، اتِّباعًا لهواه أو إرضاءً لمصالحَ أو ما أشبه ذلك، فإنَّه كاذِبٌ على اللهِ عزَّ وجَلَّ[5554].

وقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ} [الأنعام: 93]. (يقولُ تعالى: لا أحَدَ أعظَمُ ظُلمًا ولا أكبَرُ جُرمًا ممن كَذَب على اللهِ، بأن نسَب إلى اللهِ قولًا أو حُكمًا، وهو تعالى بريءٌ منه، وإنما كان هذا أظلَمَ الخلقِ؛ لأنَّ فيه من الكَذِبِ وتغييرِ الأديانِ أُصولِها وفروعِها ونسبةِ ذلك إلى اللهِ- ما هو من أكبَرِ المفاسِدِ.

ويدخُلُ في ذلك ادِّعاءُ النُّبُوَّةِ، وأنَّ اللهَ يوحي إليه، وهو كاذِبٌ في ذلك؛ فإنَّه -مع كَذِبِه على اللهِ، وجرأتِه على عظمتِه وسُلطانِه يوجِبُ على الخَلقِ أن يتَّبِعوه، ويجاهِدُهم على ذلك، ويستَحِلُّ دِماءَ من خالفه وأموالَهم.

ويدخُلُ في هذه الآيةِ كُلُّ من ادَّعى النُّبُوَّةَ، كمُسَيلِمةِ الكذَّابِ، والأسوَدِ العَنسيِّ، والمختارِ، وغيرِهم ممن اتَّصف بهذا الوصفِ[5555]. وقد بدأت الآيةُ أوَّلًا بالعامِّ، وهو افتراءُ الكَذِبِ على اللهِ، وهو أعمُّ من أن يكونَ ذلك الافتراءُ بادِّعاءِ وَحيٍ أو غيرِه، ثمَّ ثانيًا بالخاصِّ، وهو افتراءٌ منسوبٌ إلى وحيٍ من اللهِ تعالى، وهذا فيه تنبيهٌ على مزيدِ العقابِ فيه والإثمِ، وقد أخبَرنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم محذِّرًا ممَّن يدَّعون الدَّجَلَ والنُّبُوَّةَ بالكَذِبِ، فقال: ((لا تقومُ السَّاعةُ حتى يُبعَثَ دجَّالون كذَّابون قريبًا من ثلاثين، كُلُّهم يزعُمُ أنَّه رسولُ اللهِ))[5556].

وقال الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم "من كَذَب عَلَيَّ متعَمِّدًا فليتبوَّأْ مَقعَدَه من النَّارِ"[5557]. وذلك لأنَّ الكَذِبَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس مِثلَ الكَذِبِ على أحدٍ غيرِه؛ لأنَّ كلامَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تشريعٌ، وكلامَ غيرِه ليس كذلك؛ فالكَذِبُ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أعظَمُ مَضرَّةً، وأوقَعُ فسادًا في نفوسِ المُسلِمين، وهو أشدُّ في الإثمِ من الكَذِبِ على غيرِه)[5558].

وقال: ((من حدَّث عنِّي حديثًا وهو يُرى أنَّه كَذِبٌ، فهو أحدُ الكاذِبين))[5559].

[5554] يُنظَر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (6/156)

[5555] يُنظَر: ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 264).

[5556] أخرجه البخاري (3609) مطولًا من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5557] أخرجه البخاري (110) مطولًا، ومسلم في ((مقدمة الصحيح)) (3) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5558] يُنظَر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (1/ 183)، ((عمدة القاري)) للعيني (84 /8)

[5559] أخرجه مسلم في ((مقدمة الصحيح)) (1/9)، والترمذي (2662)، وابن ماجه (41) من حديثِ المغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه الترمذي، وابن حزم في ((أصول الأحكام)) (1/215)، وابن الجوزي في ((الموضوعات)) (1/16)

وكفى بهذه الجملةِ وعيدًا شديدًا في حقِّ من روى الحديثَ فيظُنُّ أنَّه كَذِبٌ فضلًا عن أن يتحقَّقَ ذلك ولا يُبَيِّنَه؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جعَل المحَدِّثَ بذلك مشاركًا لكاذبِه في وضعِه[5560].

(وأكثرُ النَّاسِ كَذِبًا على رسولِ اللهِ هم الرَّافضةُ الشِّيعةُ، فإنَّه لا يوجَدُ في طوائِفِ أهلِ البِدَعِ أحدٌ أكثرُ منهم كَذِبًا على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما نصَّ على هذا عُلَماءُ مُصطلَحِ الحديثِ رحمهم اللهُ، لمَّا تكلَّموا على الحديثِ الموضوعِ قالوا: إنَّ أكثرَ من يكذِبُ على الرَّسولِ هم الرَّافضةُ الشَّيعةُ، وهذا شيءٌ مشاهَدٌ ومعروفٌ لمن تتبَّع كُتُبَهم)[5561].

2- -2الكَذِبُ على النَّاسِ بادِّعاءِ الإيمانِ:

وهو (كذِبٌ يظهِرُ الإنسانُ فيه أنَّه من أهلِ الخيرِ والصَّلاحِ، والتُّقى والإيمانِ، وهو ليس كذلك، بل هو من أهل الكُفرِ والطُّغيانِ -والعياذُ باللهِ- فهذا هو النِّفاقُ، النِّفاقُ الأكبَرُ. الذين قال اللهُ فيهم: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ [البقرة: 8] ، لكِنَّهم يقولون بألسنتِهم، ويحلِفون على الكَذِبِ وهم يعلمون، وشواهِدُ ذلك في القرآنِ والسُّنَّةِ كثيرةٌ؛ إنَّهم -أعني المُنافِقين أهلَ الكَذِبِ- يَكذِبون على النَّاسِ في دعوى الإيمانِ، وهم كاذبون، وانظُرْ إلى قولِ اللهِ تعالى في سورة "المُنافِقون"؛ حيث صدَّر هذه السُّورةَ ببيانِ كَذِبِهم؛ حيثُ قال تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} [المُنافِقون: 1] أكَّدوا هذه الجُملةَ بثلاثةِ مُؤَكِّداتٍ: "نشهد" "إنَّ" "اللَّام"، يؤكِّدون أنَّهم يشهَدون أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، فقال اللهُ تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [المُنافِقون: 1] في قولِهم: نشهَدُ إنَّك لرسولُ اللهِ هذا أيضًا من أنواعِ الكَذِبِ، وهو أشدُّ أنواعِ الكَذِبِ على النَّاسِ؛ لأنَّ فاعِلَه -والعياذُ باللهِ- مُنافِقٌ)[5562].

3- الكَذِبُ في الحديثِ بَيْنَ النَّاسِ:

(الكَذِبُ في الحديثِ الجاري بَيْنَ النَّاسِ؛ يقولُ: قُلتُ لفُلانٍ كذا. وهو لم يَقُلْه. قال فلانٌ كذا. وهو لم يَقُلْه. جاء فلانٌ. وهو لم يأتِ، وهكذا، هذا أيضًا محرَّمٌ ومن علاماتِ النِّفاقِ، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "آيةُ المُنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كَذَب...[5563]")[5564].

4- الكَذِبُ لإضحاكِ النَّاسِ:

رُوِيَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((وَيلٌ للذي يحدِّثُ بالحديثِ؛ ليضحِكَ به القومَ، فيَكذِبُ، وَيلٌ له، وَيلٌ له!))[5565].

[5560] ((النكت على كتاب ابن الصلاح)) لابن حجر (2/ 839)

[5561] يُنظَر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (6/156، 157)

[5562] المصدر السابق (6/157)

[5563] أخرجه البخاري (33)، ومسلم (59) مطولًا.

[5564] يُنظَر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (6/158)

[5565] أخرجه أبو داود (4990)، والترمذي (2315) واللفظ له، وأحمد (20046) من حديثِ معاويةَ بنِ حَيدةَ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (7/74)، وحسَّنه الترمذي، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (2315)، وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (4990)، وقوَّاه ابن حجر في ((بلوغ المرام)) (446).

قال المُناويُّ: (كرره إيذانًا بشِدَّةِ هَلَكتِه؛ وذلك لأنَّ الكَذِبَ وَحدَه رأسُ كُلِّ مذمومٍ، وجِماعُ كُلِّ فضيحةٍ، فإذا انضَمَّ إليه استجلابُ الضَّحِكِ الذي يميتُ القَلبَ، ويجلِبُ النِّسيانَ، ويورِثُ الرُّعونةَ، كان أقبَحَ القبائِحِ؛ ومِن ثَمَّ قال الحُكَماءُ: إيرادُ المُضحِكاتِ على سَبيلِ السُّخْفِ نهايةُ القباحةِ)[5566].

وقال ابنُ عُثَيمين: (وهذا يفعَلُه بعضُ النَّاسِ ويُسمُّونها النُّكَتَ، يتكَلَّمُ بكلامٍ كَذِبٍ، ولكِنْ من أجلِ أن يُضحِكَ النَّاسَ، هذا غَلَطٌ، تكلَّمْ بكلامٍ مُباحٍ من أجلِ أن تُدخِلَ السُّرورَ على قلوبِهم، وأمَّا الكلامُ الكَذِبُ فهو حرامٌ)[5567].

(والحِكمةُ من هذا المنعِ أنَّه يجُرُّ إلى وضعِ أكاذيبَ مُلفَّقةٍ على أشخاصٍ مُعَيَّنين، يؤذيهم الحديثُ عنهم، كما أنَّه يعطي ملَكةَ التَّدرُّبِ على اصطِناعِ الكَذِبِ وإشاعتِه، فيختَلِطُ في المجتَمَعِ الحَقُّ بالباطِلِ، والباطِلُ بالحقِّ)[5568].

5- المبالغةُ في الإطراءِ والمدحِ:

(تمدُّحُ النَّاسِ مَدرَجةٌ إلى الكَذِبِ، والمُسلِمُ يجِبُ أن يحاذِرَ حينما يُثني على غيرِه، فلا يَذكُرُ إلَّا ما يَعلَمُ من خيرٍ، ولا يجنَحُ إلى المبالغةِ في تضخيمِ المحامِدِ، وطَيِّ المثالِبِ، ومهما كان الممدوحُ جديرًا بالثَّناءِ فإنَّ المبالغةَ في إطرائِه ضَربٌ من الكَذِبِ المحرَّمِ)[5569].

فعن المقدادِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((أمرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن نحثِيَ في وجوهِ المدَّاحين التُّرابَ))[5570].

قال النَّوويُّ: (اعلَمْ أنَّ مدحَ الإنسانِ والثَّناءَ عليه بجميلِ صِفاتِه قد يكونُ في حضورِ الممدوحِ، وقد يكونُ بغيرِ حُضورِه؛ فأمَّا الذي في غيرِ حُضورِه فلا مَنْعَ منه إلَّا أن يجازِفَ المادِحُ، ويدخُلَ في الكَذِبِ، فيَحرُمَ عليه بسَبَبِ الكَذِبِ لا لكونِه مدحًا، ويُستحَبُّ هذا المدحُ الذي لا كَذِبَ فيه إذا ترتَّب عليه مصلحةٌ، ولم يجُرَّ إلى مفسدةٍ، بأن يبلُغَ الممدوحَ فيُفتَتَنَ به، أو غيرِ ذلك)[5571].

6- كَذِبُ التَّاجِرِ في بيانِ سِلعتِه:

عن عبدِ اللهِ بنِ أبي أوفى رَضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّ رجُلًا أقام سِلعةً في السُّوقِ فحَلَف فيها لقد أعطى بها ما لم يُعْطِه؛ ليوقِعَ فيها رجلًا من المُسلِمين، فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} [آل عمران: 77])[5572].

وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ، ولا ينظُرُ إليهم: رجُلٌ حَلَف على سلعةٍ لقد أعطَى بها أكثَرَ ممَّا أعطَى وهو كاذبٌ، ورجُلٌ حَلَف على يمينٍ كاذبةٍ بعد العصرِ ليقتَطِعَ بها مالَ رجلٍ مُسلِمٍ...))[5573]. فهذا بائعٌ حلَف كَذِبًا أنَّه اشترى سِلعةً بأكثَرَ من الثَّمَنِ الذي اشتراها به حقيقةً، ويريدُ أن يبيعَها به، فصدَّقه المشتري من أجلِ تلك اليمينِ، وهو

[5566] يُنظَر: ((فيض القدير)) (6/368)

[5567] يُنظَر: ((شرح رياض الصالحين)) (6/117)

[5568] يُنظَر: ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (1/495)

[5569] ((خلق المسلم)) للغزالي (ص: 36).

[5570] أخرجه مسلم (3002)

[5571] ((الأذكار)) (ص: 276).

[5572] أخرجه البخاري (4551)

[5573] أخرجه البخاري (2369) واللفظ له، ومسلم (108) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

كاذِبٌ فيها، والثَّاني: رجُلٌ حلَف كَذِبًا يدَّعي بذلك شيئًا من مالِ أخيه بغيرِ حَقٍّ، فيحلِفُ ليأخُذَ مالَ غيرِه الذي لا يحِلُّ له [5574].

7- الكَذِبُ على الأولادِ:

فكثيرًا ما يكذِبُ الوالِدانِ على أولادِهما الصِّغارِ؛ رَغبةً في التَّخلُّصِ منهم، أو تخويفًا لهم؛ كي يكفُّوا عن العَبَثِ واللَّعِبِ، أو حَفزًا لهم كي يجِدُّوا في أمرٍ ما، أو غيرَ ذلك[5575].

8- شهادةُ الزُّورِ:

(الحَيفُ في الشَّهادةِ من أشنَعِ الكَذِبِ؛ فالمُسلِمُ لا يبالي إذا قام بشهادةٍ ما أن يقَرِّرَ الحَقَّ، ولو على أدنى النَّاسِ منه وأحَبِّهم إليه، لا تميلُ به قرابةٌ ولا عصبيَّةٌ، ولا تُزيغُه رغبةٌ أو رهبةٌ.

وتزكيةُ المُرَشَّحين لمجالِسِ الشُّورى أو المناصِبِ العامَّةِ نوعٌ من أنواعِ الشَّهادةِ، فمَن انتخَب المغموطَ في كفايتِه وأمانتِه، فقد كَذَب وزَوَّر، ولم يقُمْ بالقِسطِ)[5576].

فعن أبي بَكرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألا أنبِّئُكم بأكبَرِ الكبائِرِ؟ ثلاثًا. قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ. قال: الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَين. وجلس وكان متَّكِئًا فقال: ألا وقولُ الزُّورِ. قال: فما زال يكَرِّرُها حتى قُلنا: ليته سكَت))[5577]. والزُّورُ: هو الباطِلُ، ويشمَلُ الكَذِبَ في القولِ والشَّهاداتِ وغيرِها، وقد كرر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم التَّحذيرَ من قولِ الزُّورِ تنبيهًا على استقباحِه، وكرره دونَ الأوَّلينِ؛ لأنَّ النَّاسَ يهونُ عليهم أمرُه، فيظنُّون أنَّه أقَلُّ من سابِقِه، فهوَّل صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمرَه ونفَّر عنه حين كرره، وقد حصَل في مبالغةِ النَّهيِ عنه ثلاثةُ أشياءَ: الجلوسُ وكان متَّكِئًا، واستفتاحُه بـ(ألَا) التي تفيدُ تنبيهَ المخاطَبِ، وإقبالُه على سماعِه، وتكريرُ ذِكرِه[5578].

9- المبالغةُ في المعاريضِ:

لا ريبَ أنَّ في المعاريضِ مندوحةً عن الكَذِبِ، ولكِنْ هناك من يبالغُ في المعاريضِ، ويتوسَّعُ فيها توسُّعًا يخرِجُه عن طَورِه، ويجعَلُه يُدخِلُ فيها ما ليس منها، فتجِدُه يقلِبُ الحقائقَ، وينالُ من الآخرين، ويُلَبِّسُ عليهم، ويحصلُ على مآربِه بالمراوغةِ والمخاتَلةِ؛ ممَّا يوقِعُه في الكَذِبِ، فتُفقَدُ الثِّقةُ به وبحديثِه[5579].

10- الكَذِبُ في الأحلامِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من تحلَّم بحُلمٍ لم يَرَهْ، كُلِّف أن يعقِدَ بَيْنَ شعيرَتينِ ولن يفعَلَ))[5580].

[5574] يُنظَر: ((عمدة القاري)) للعيني (12/ 212)، ((إرشاد الساري)) للقسطلاني.(205 /4)

[5575] يُنظَر: ((الكذب مظاهره - علاجه)) لمحمد الحمد (ص: 24).

[5576] يُنظَر: ((خلق المسلم)) للغزالي (ص: 37).

[5577] أخرجه البخاري (2654) واللفظ له، ومسلم (87)

[5578] يُنظَر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال 8/ 32)، ((عمدة القاري)) (2/ 115)

[5579] يُنظَر: ((الكذب مظاهره - علاجه)) لمحمد الحمد (ص: 22).

[5580] أخرجه البخاري (7042)

((من تحلَّم)) أي: من تكَلَّف الحِلمَ بأن يقولَ: حَلَمتُ بكذا وكذا، ولم يكُنْ حَلَم ولا رأى شيئًا. قولُه: ((كُلِّف)) المرادُ به نوعٌ من التَّعذيبِ[5581].

فإن قُلتَ: الكَذِبُ في اليقَظةِ أكثَرُ ضَرَرًا لتعدِّيه إلى غيرِه ولتضَمُّنِه المفاسِدَ، فما وجهُ تعظيمِ الكاذِبِ في رؤياه بذلك؟ قُلتُ: هو لأنَّ الرُّؤيا جزءٌ من النُّبُوَّةِ، والكاذِبُ فيها كاذِبٌ على اللهِ، وهو أعظَمُ الفِرَى، وأولى بعظيمِ العُقوبةِ[5582].

وعن ابنِ عُمَرَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مِن أفرَى الفِرَى أن يُرِيَ عينَيه ما لم تَرَ))[5583].

((أفرى)) أفعلُ تفضيلٍ، أي: أعظَمُ الكَذْباتِ، والفِرى: جَمعُ فِريةٍ، وهي الكَذْبةُ العظيمةُ التي يُتعَجَّبُ منها[5584].

11- كَذِبُ الحُكَّامِ:

عن أبي هُرَيرةَ قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ ولا يُزَكِّيهم -قال أبو معاويةَ: ولا ينظُرُ إليهم- ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذَّابٌ، وعائِلٌ مُستكبِرٌ))[5585].

و(خصَّ هؤلاء الثَّلاثةَ بأليمِ العذابِ وعُقوبةِ الإبعادِ لالتزامِ كُلِّ واحدٍ منهم المعصيةَ التي ذُكِر، على بُعدِها منه، وعدَمِ ضَرورتِه إليها، وضَعفِ دواعيها عندَه، وإن كان لا يُعذَرُ أحَدٌ بذنبٍ، ولا في معصيتِه اللهَ تعالى، لكِنْ لَمَّا لم تدْعُهم إلى هذه المعاصي ضرائرُ مُزعِجةٌ، ولا دواعٍ مُعتادةٍ، ولا حملَتْهم عليها أسبابٌ لازمةٌ- أشبَهَ إقدامُهم عليها المعاندةَ والاستخفافَ بحَقِّ المعبودِ محضًا، وقَصْدَ معصيتِه لا لغيرِ معصيتِه...

فالإمامُ لا يخشى من أحَدٍ من رعيَّتِه، ولا يحتاجُ إلى مداهنتِه ومصانعتِه؛ إذ إنما يداهِنُ الإنسانُ ويصانِعُ بالكَذِبِ وشِبهِه من يحذَرُه ويخشى معاقبتَه، أو أذاه ومعاتبتَه، أو يَطلُبُ عنده بذلك منزلةً أو منفعةً، فهو غَنيٌّ عن الكَذِبِ جُملةً)[5586].

12- الكَذِبُ السِّياسيُّ:

الكَذِبُ الذي يقومُ على القاعدةِ الميكافيليَّةِ التي تقولُ: (إنَّ الغايةَ تُبَرِّرُ الوسيلةَ) أو (الغايةُ تُسَوِّغُ الواسِطةَ). وهذه القاعدةُ يأخذُ بها غالبيَّةُ السِّياسيِّين[5587].

13- الكَذِبُ الإعلاميُّ وعلى الإنترنتِ ووسائِلِ التَّواصُلِ الاجتماعيِّ:

وهذا من أخطَرِ مظاهِرِ الكَذِبِ التي استُحدِثَت في عصرِنا؛ حيث انتشرت هذه الوسائلُ الإعلاميَّةُ بَيْنَ جميعِ شُعوبِ العالمِ وبينَ مختَلِفِ النَّاسِ الأطفالِ والشَّبابِ والكُهولِ والمُسِنِّين، وأصبح لهذه الوسائلِ الإعلاميَّةِ من التَّأثيرِ الشَّيءُ العظيمُ

[5581] يُنظَر: ((طرح التثريب في شرح التقريب)) للعراقي (2/ 137) ((فتح الباري)) لابن حجر (12/ 428)

[5582] ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) للعيني (24/ 168)

[5583] أخرجه البخاري (7043)

[5584] ((فتح الباري)) لابن حجر (12/ 430)

[5585] أخرجه مسلم (107)

[5586] ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (1/ 383)

[5587] يُنظَر: ((الكذب مظاهره - علاجه)) لمحمد الحمد (ص: 17).

بل والخطيرُ، خاصَّةً مع سرعةِ الوصولِ إلى أعدادٍ كبيرةٍ في وقتٍ وجيزٍ؛ لذا كان لا بُدَّ من بيانِ بعضِ مظاهِرِ الكَذِبِ عَبْرَ هذه الوسائِلِ لتجَنُّبِها والحَذَرِ منها:

-إنشاءُ حِساباتٍ وهميَّةٍ على مواقعِ الإنترنتِ ووسائِلِ التَّواصُلِ، واستعمالُ أسماءٍ مُستعارةٍ غيرِ حقيقيَّةٍ، أو استعمالُ صُوَرٍ مُستعارةٍ ليست لصاحِبِ الحسابِ الحقيقيِّ.

-المسارعةُ إلى إذاعةِ المنشوراتِ والأخبارِ بكُلِّ أنواعِها، ونشرِها على مواقعِ الإنترنتِ ووسائِلِ التَّواصُلِ، دونَ تثبُّتٍ ولا تحقُّقٍ من صحَّتِها أو مراعاةٍ للعواقِبِ التي تترتَّبُ على نشرِها.

-نَقلُ الأخبارِ الكاذبةِ والشَّائعاتِ عن الأحوالِ العامَّةِ للبُلدانِ والدُّوَلِ، أو عن الشَّخصيَّاتِ العامَّةِ والمشاهيرِ.

-الدَّجَلُ الإعلاميُّ: الذي يقلِبُ الحقائقَ، ويُلَبِّسُ على النَّاسِ بزُخرُفِ القولِ، فيرفَعُ السِّفلةَ الأقزامَ، ويضَعُ السَّادةَ الأعلامَ، ويُغري بالرَّذيلةِ ويحَسِّنُها لتنتشِرَ، ويُزري بالفضيلةِ وينتقِصُها لتَنزويَ.

-الكَذِبُ الإعلاميُّ وعلى وسائِلِ التَّواصُلِ الاجتماعيِّ، وممارَسةُ الكِهانةِ، وادِّعاءُ مَعرفةِ الغَيبِ تحتَ مسمَّياتِ: الطَّالعِ، والنُّجومِ، وقراءةِ الأبراجِ، وحَظُّك اليومَ، والتَّوقُّعاتِ والتَّنبُّؤاتِ، إلى غيرِ ذلك.

-ومن مظاهِرِ الكَذِبِ الذي يُنشَرُ على الوسائِلِ الإعلاميَّةِ من القنَواتِ الفضائيَّةِ والإنترنتِ: ما يقومُ به من يتقدَّمون لترشيحِ أنفُسِهم للأعمالِ والمناصِبِ العامَّةِ من استخدامِ الكَذِبِ والخِداعِ، وتخديرِ النَّاسِ بالأمانيِّ الباطلةِ، والوعودِ المعسولةِ الكاذبةِ، وما إن يحرِزُ هَدَفَه ويَصِلُ إلى مبتغاه حتى يتنكَّرَ لِمن أيَّده، ويَقلِبَ لهم ظَهرَ المجَنِّ، وتتبخَّرَ الأمانيُّ والوعودُ، ويَظهَرَ كَذِبُه[5588].

المطلب السابع: أسبابُ الوُقوعِ في الكَذِبِ

(دوافعُ الكَذِبِ كثيرةٌ؛ منها الخوفُ من النَّقدِ، والخوفُ من العقابِ أو العتابِ، ومنها إيثارُ المصلحةِ العاجلةِ، ومنها قِلَّةُ مراقبةِ اللهِ والخوفِ منه، ومنها اعتيادُ الكَذِبِ وإلفُه، ومنها البيئةُ والمجتَمَعُ، ومنها سوءُ التَّربيةِ، إلى غيرِ ذلك من دوافعِ الكَذِبِ)[5589].

قال الماوَرديُّ: (وأمَّا دواعي الكَذِبِ فمنها:

-اجتِلابُ النَّفعِ واستِدفاعُ الضُّرِّ، فيَرَى أنَّ الكَذِبَ أسلَمُ وأغنَمُ، فيُرَخِّصُ لِنَفسِه فيه اغتِرارًا بالخُدَعِ، واستِشفافًا لِلطَّمَعِ. ورُبَّما كان الكَذِبُ أبعَدَ لِما يُؤَمِّلُ وأقرَبَ لِما يَخافُ؛ لأنَّ القَبيحَ لا يكونُ حَسَنًا والشَّرَّ لا يَصيرُ خَيرًا. وليس يُجنَى مِن الشَّوكِ العِنَبُ، ولا مِن الكَرَمِ الحَنظَلُ...

-**ومنها:** أن يُؤثِرَ أن يَكونَ حَديثُه مُستَعذَبًا، وكَلامُه مُستَطرَفًا، فلا يَجِدُ صِدقًا يَعذُبُ، ولا حَديثًا يُستَطرَفُ؛ فيَستَحلي الكَذِبَ الذي ليست غَرائِبُه مُعوِزةً، ولا ظَرائِفُه مُعجِزةً.

[5588] يُنظَر: ((الكذب) لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص: 6)، ((الكذب)) لعبد الملك بن محمد القاسم (ص: 14- 19)، ((الإنترنت)) لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص: 4).

[5589] يُنظَر: ((الكذب مظاهره - علاجه)) لمحمد الحمد (ص: 25).

وهذا النَّوعُ أسوأُ حالًا ممَّا قبلُ؛ لأنَّه يصدُرُ عن مهانةِ النَّفسِ، ودناءةِ الهِمَّةِ.

وقد قال الجاحِظُ: لم يكذِبْ أحَدٌ قَطُّ إلَّا لصِغَرِ قَدْرِ نَفسِه عِندَه.

وقال ابنُ المقفَّعِ: لا تتهاوَنْ بإرسالِ الكَذْبةِ من الهَزْلِ؛ فإنَّها تُسرِعُ إلى إبطالِ الحَقِّ.

-**ومنها:** أن يَقصِدَ بالكَذِبِ التَّشَفِّيَ من عَدوِّه فيُسَمِّيه بقَبائِحَ يَختَرِعُها عليه، ويَصِفُه بفضائِحَ يَنسُبُها إليه. ويَرى أنَّ مَعَرَّةَ الكَذِبِ غُنمٌ، وأنَّ إرسالَها في العَدوِّ سَهمٌ وسُمٌّ. وهذا أسوأُ حالًا من النَّوعينِ الأوَّلينِ؛ لأنَّه قد جَمَع بَينَ الكَذِبِ المُعِرِّ والشَّرِّ المُضِرِّ. ولذلك وَرَدَ الشَّرعُ بَرَدِّ شَهادةِ العَدوِّ على عَدوِّه.

-**ومنها:** أن تَكونَ دَواعي الكَذِبِ قد تَرادَفت عليه حتَّى ألِفَها، فصارَ الكَذِبُ لَهُ عادةً، ونَفسُه إليه مُنقادةً، حتَّى لو رامَ مُجانَبةَ الكَذِبِ عَسُرَ عليه؛ لأنَّ العادةَ طَبعٌ ثانٍ.

وقد قالت الحُكَماءُ: من استحلى رَضاعَ الكَذِبِ عَسُر فِطامُه.

وقيل في منثورِ الحِكَمِ: لا يلزَمُ الكذَّابَ شيءٌ إلَّا غَلَب عليه)[5590].

المطلب الثامن: الوسائِلُ المعينةُ على تَركِ الكَذِبِ

1- مراقبةُ اللهِ تعالى.
2- معرفةُ خُطورةِ الكَذِبِ وآثارِه السَّيِّئةِ وعُقوباتِه، وأنَّه من صفاتِ المُنافِقين.
3- معرفةُ ما للصِّدقِ من ثمارٍ طَيِّبةٍ، وأنَّه شعارُ الصَّالحين.
4- حفظُ اللِّسانِ والإقلالُ من الكلامِ.
5- الحِرصُ على الرُّفقةِ الصَّالحةِ وملازمةُ مجالِسِ الخيرِ.

قال صالحُ بنُ عبدِ القُدُّوسِ:

واحذَرْ مؤاخاةَ الدَّنيِّ لأنَّه

يُعدي كما يُدي الصَّحيحَ الأجرَبُ

واختَرْ صديقَك واصطَفيه تفاخُرًا

إنَّ القَرينَ إلى المقارِنِ يُنسَبُ

ودَعِ الكَذوبَ ولا يكُنْ لك صاحِبًا

إنَّ الكَذوبَ لبِئسَ خِلًّا يُصحَبُ[5591]

6- محاسَبةُ النَّفسِ.

[5590] يُنظَر: ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 264).

[5591] ((جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب)) للهاشمي (2/ 429)

7- الشَّجاعةُ ونَبذُ الخَوفِ.
8- وجودُ القُدوةِ الصَّالحةِ في الصِّدقِ ونَبذِ الكَذِبِ.
9- تربيةُ الصِّغارِ على نَبذِ الكَذِبِ.
10- التَّواصي بالصِّدقِ وإشاعتُه بَيْنَ المُسلِمين، ونَبذُ الكَذِبِ والتَّحذيرُ منه.
11- دعاءُ اللهِ تعالى واللُّجوءُ إليه .

المطلب التاسع: نماذِجُ من الكَذِبِ

- عن جابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (شكا أهلُ الكوفةِ سَعدًا إلى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه، فعَزَله، واستعمَلَ عليهم عمَّارًا، فشَكَوا حتى ذكَروا أنَّه لا يحسِنُ يُصَلِّي! فأرسل إليه، فقال: يا أبا إسحاقَ، إنَّ هؤلاء يزعُمون أنَّك لا تحسِنُ تُصَلِّي، قال أبو إسحاقَ: أمَّا أنا واللهِ فإني كنتُ أُصَلِّي بهم صلاةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أخرِمُ عنها، أصلِّي صلاةَ العِشاءِ، فأركُدُ في الأوليَيْنِ وأخِفُّ في الأخرَيَيْنِ، قال: ذاك الظَّنُّ بك يا أبا إسحاقَ! فأرسل معه رجُلًا أو رجالًا إلى الكوفةِ، فسأل عنه أهلَ الكوفةِ ولم يَدَعْ مسجِدًا إلَّا سأل عنه، ويُثنون معروفًا، حتى دخل مسجِدًا لبني عَبسٍ، فقام رجلٌ منهم يقالُ له أسامةُ بنُ قتادةَ يُكنى أبا سعدةَ، قال: أمَا إذ نشَدْتَنا فإنَّ سعدًا كان لا يَسيرُ بالسَّرِيَّةِ، ولا يقسِمُ بالسَّوِيَّةِ، ولا يَعدِلُ في القَضِيَّةِ! قال سعدٌ: أمَا واللهِ لأدعُوَنَّ بثلاثٍ: اللَّهُمَّ إن كان عبدُك هذا كاذِبًا، قام رياءً وسُمعةً، فأطِلْ عُمُرَه، وأطِلْ فَقْرَه، وعَرِّضْه بالفِتَنِ! وكان بَعدُ إذا سُئِل يقولُ: شيخٌ كبيرٌ مفتونٌ، أصابتني دعوةُ سعدٍ! قال عبدُ المَلِكِ -راوي الأثَرِ عن سَمُرةَ-: فأنا رأيتُه بَعْدُ قد سقَط حاجباه على عينَيه من الكِبَرِ، وإنَّه ليتعَرَّضُ للجواري في الطُّرُقِ يَغمِزُهنَّ!)[5592].

- وذكَر الذَّهبيُّ نموذَجًا من الكَذِبِ على العُلَماءِ والعُبَّادِ، فقال: (قال ابنُ طاهِرٍ: سَمِعتُ أصحابَنا بهَراةَ يقولون: لمَّا قَدِم السُّلطانُ ألَب أرسَلانَ هراةَ في بعضِ قَدَماتِه، اجتمع مشايخُ البلَدِ ورؤساؤُه، ودخلوا على أبي إسماعيلَ وسَلَّموا عليه وقالوا: ورد السُّلطانُ ونحن على عَزمٍ أن نخرُجَ ونُسَلِّمَ عليه، فأحبَبْنا أن نبدأَ بالسَّلامِ عليك، وكانوا قد تواطَئوا على أن حمَلوا معهم صنَمًا من نُحاسٍ صغيرٍ وجعلوه في المحرابِ تحتَ سجَّادةِ الشَّيخِ، وخَرَجوا وقام إلى خَلوتِه، ودخَلوا على السُّلطانِ واستغاثوا من الأنصاريِّ وأنه مجسِّمٌ وأنَّه يترُكُ في محرابِه صَنَمًا، يزعم أنَّ اللهَ على صورتِه، إن بعث الآن السُّلطانُ يجِدْه! فعَظُم ذلك على السُّلطانِ وبعث غلامًا ومعه جماعةٌ، فدخلوا الدَّارَ وقصدوا المحرابَ فأخذوا الصَّنَمَ، ورجع الغُلامُ بالصَّنَمِ، فبعث السُّلطانُ من أحضَرَ الأنصاريَّ، فأتى فرأى الصَّنَمَ والعُلَماءَ، والسُّلطانَ قد اشتَدَّ غَضَبُه؛ فقال السُّلطانُ له: ما هذا؟ قال: هذا صنَمٌ يُعمَلُ من الصُّفرِ شِبهُ اللُّعبةِ، قال: لستُ عن ذا أسألُك؟ قال: فعَمَّ يسألُني السُّلطانُ؟ قال: إنَّ هؤلاء يزعُمون أنَّك تعبُدُ هذا، وأنك تقولُ: إنَّ اللهَ على صورتِه! فقال الأنصاريُّ بصَولةٍ وصَوتٍ جَهْوَريٍّ: سُبحانَك! هذا بهتانٌ عظيمٌ! فوقَع في قلبِ السُّلطانِ أنَّهم كَذَبوا عليه، فأمر به فأُخرِجَ إلى دارِه مُكَرَّمًا، وقال لهم: اصدُقوني، وهَدَّدهم، فقالوا: نحن في يدِ هذا الرَّجُلِ في بَليَّةٍ من استيلائِه علينا بالعامَّةِ، فأرَدْنا أن نقطَعَ شَرَّه عنا، فأَمَر بهم ووكَّل بكُلِّ واحدٍ منهم وصادَرَهم وأهانَهم)[5593].

[5592] أخرجه البخاري (755) واللفظ له، ومسلم (453) مختصرًا.
[5593] ((تذكرة الحفاظ)) للذهبي (3/ 251)

المطلب العاشر: حُكمُ الكَذِبِ وما يُباحُ منه وحُكمُ المعاريضِ

- **حُكمُ الكَذِبِ وما يُباحُ منه:**

قال النَّوويُّ: (قد تظاهرت نصوصُ الكِتابِ والسُّنَّةِ على تحريمِ الكَذِبِ في الجملةِ، وهو من قبائحِ الذُّنوبِ وفواحِشِ العُيوبِ. وإجماعُ الأمَّةِ مُنعَقِدٌ على تحريمِه مع النُّصوصِ المتظاهِرةِ...)[5594].

ثمَّ قال: (وقد ضبط العُلَماءُ ما يباح منه. وأحسنُ ما رأيتُه في ضبطِه ما ذكره الإمامُ أبو حامدٍ الغزاليُّ فقال: الكلامُ وسيلةٌ إلى المقاصِدِ؛ فكلُّ مقصودٍ محمودٍ يُمكنُ التوصُّلُ إليه بالصِّدقِ والكَذِبِ جميعًا، فالكَذِبُ فيه حرامٌ لعَدَمِ الحاجةِ إليه، وإن أمكنَ التوصُّلُ إليه بالكَذِبِ ولم يمكِنْ بالصِّدقِ فالكذبُ فيه مباحٌ إن كان تحصيلُ ذلك المقصودِ مباحًا، وواجبٌ إن كان المقصودُ واجبًا، فإذا اختفى مسلمٌ من ظالمٍ وسأل عنه، وجبَ الكَذِبُ بإخفائِه، وكذا لو كان عندَه أو عندَ غيرِه وديعةٌ وسأل عنها ظالمٌ يُريدُ أخذَها، وجبَ عليه الكَذِبُ بإخفائِها، حتى لو أخبرَه بوديعةٍ عندَه فأخذَها الظالمُ قهرًا، وجبَ ضمانُها على المُودَعِ المُخبِرِ، ولو استحلفَه عليها لزمَه أن يَحلِفَ ويُورِّيَ في يمينِه، فإن حلفَ ولم يُوَرِّ حنثَ على الأصحِّ، وقيل: لا يحنَثُ، وكذلك لو كان مقصودَ حَرْبٍ أو إصلاحِ ذاتِ البَينِ، أو استمالةِ قَلبِ المجنيِّ عليه في العَفوِ عن الجنايةِ لا يحصُلُ إلَّا بكَذِبٍ، فالكَذِبُ ليس بحَرامٍ، وهذا إذا لم يحصُلِ الغَرَضُ إلَّا بالكَذِبِ، والاحتياطُ في هذا كلِّه أن يُوَرِّيَ، ومعنى التَّوريةِ: أن يقصِدَ بعبارتِه مقصودًا صحيحًا ليس هو كاذبًا بالنِّسبةِ إليه، وإن كان كاذبًا في ظاهِرِ اللَّفظِ، ولو لم يقصِدْ هذا بل أطلَقَ عبارةَ الكَذِبِ فليس بحرامٍ في هذا الموضِعِ. قال أبو حامِدٍ الغزاليُّ: وكذلك كُلُّ ما ارتبط به غرضٌ مقصودٌ صحيحٌ له أو لغيرِه؛ فالذي له مِثلُ أن يأخذَه ظالمٌ ويسألَه عن مالِه ليأخُذَه، فله أن يُنكِرَه، أو يسألَه السُّلطانُ عن فاحشةٍ بينَه وبينَ اللهِ تعالى ارتكَبَها فله أن يُنكِرَها ويقولَ: ما زنيتُ، أو ما شَربتُ مثلًا.

وقد اشتَهَرتِ الأحاديثُ بتلقينِ الذين أقرُّوا بالحدودِ الرُّجوعَ عن الإقرارِ. وأمَّا غَرَضُ غيرِه، فمِثلُ أن يُسأَلَ عن سرِّ أخيه فيُنكِرَه، ونحوِ ذلك، وينبغي أن يُقابِلَ بين مَفسدةِ الكَذِبِ والمفسدةِ المترتِّبةِ على الصِّدقِ؛ فإن كانت المفسدةُ في الصِّدقِ أشدَّ ضَررًا فله الكَذِبُ، وإن كان عكسُه أو شكَّ، حَرُمَ عليه الكَذِبُ؛ ومتى جازَ الكَذِبُ فإن كان المبيحُ غَرَضًا يتعلَّقُ بنفسِه فيُستحَبُّ ألَّا يكذِبَ، ومتى كان متعلِّقًا بغيرِه لم تَجُزِ المسامحةُ بحقِّ غيرِه، والحَزمُ تركُه في كُلِّ موضعٍ أُبيحَ إلَّا إذا كان واجِبًا)[5595].

- **بعضُ الحالاتِ التي يباحُ فيها الكَذِبُ، وهي:**

1- **في الحَربِ؛** لأنَّ الحَربَ خَدعةٌ، ومقتضياتُها تستدعي التَّمويهَ على الأعداءِ، وإيهامَهم بأشياءَ قد لا تكونُ موجودةً، واستعمالَ أساليبِ الحَربِ النَّفسيَّةِ ما أمكَن، ولكِنْ بصورةٍ ذَكيَّةٍ لَبِقةٍ.

[5594] يُنظَر: ((الأذكار)) (ص: 377).

[5595] يُنظَر: ((الأذكار)) (ص: 377، 378). ويُنظر أيضًا: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/137)

عن حُذَيفةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما: (ما منَعَني أن أشهَدَ بَدرًا إلَّا أني خرَجتُ أنا وأبي حُسَيلٍ، قال: فأخَذَنا كُفَّارُ قُرَيشٍ، قالوا: إنَّكم تريدون محمَّدًا، فقُلْنا: ما نريدُه، ما نريدُ إلَّا المدينةَ، فأخذوا منا عَهدَ اللهِ وميثاقَه لننصَرِفَنَّ إلى المدينةِ، ولا نقاتِلُ معه، فأتينا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبَرْناه الخبرَ، فقال: انصَرِفا، نَفي لهم بعَهْدِهم، ونستعينُ اللهَ عليهم!)[5596].

قال النَّوويُّ: (في هذا الحديثِ جَوازُ الكَذِبِ في الحَربِ)[5597].

2- **في الصُّلحِ بَيْنَ المتخاصِمَينِ؛** حيث إنَّ ذلك يستدعي أحيانًا أن يحاوِلَ المُصلِحُ تبريرَ أعمالِ كُلِّ طَرَفٍ وأقوالِه بما يحَقِّقُ التَّقارُبَ ويزيلُ أسبابَ الشِّقاقِ، وأحيانًا يَنسُبُ إلى كُلٍّ من الأقوالِ الحَسَنةِ في حَقِّ صاحِبِه ما لم يَقُلْه، وينفي عنه بعضَ ما قاله، وهو ما يَعوقُ الصُّلحَ ويزيدُ شُقَّةَ الخِلافِ والخِصامِ.

3- **في الحياةِ الزَّوجيَّةِ؛** حيثُ يحتاجُ الأمرُ أحيانًا إلى أن تكذِبَ الزَّوجةُ على زوجِها، أو يكذِبَ الزَّوجُ على زوجتِه، ويخفيَ كُلٌّ منهما عن الآخَرِ ما من شأنِه أن يُوغِرَ الصُّدورَ، أو يولِّدُ النُّفورَ، أو يثيرَ الفِتَنَ والنِّزاعَ والشِّقاقَ بَيْنَ الزَّوجينِ، كما يجوزُ أن يَزُفَّ كُلٌّ منهما للآخَرِ من معسولِ القولِ ما يزيدُ الحُبَّ، ويَسُرُّ النَّفسَ، ويُجَمِّلُ الحياةَ بَيْنَهما، وإن كان ما يُقالُ كَذِبًا؛ لأنَّ هذا الرِّباطَ الخطيرَ يَستحِقُّ أن يُهتَمَّ به غايةَ الاهتمامِ، وأن يُبذَلَ الجُهدُ الكافي ليظَلَّ قويًّا جميلًا مثمِرًا[5598].

فعن أمِّ كُلثومٍ بِنتِ عُقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ، وكانت من المهاجِراتِ الأُوَلِ اللَّاتي بايَعْنَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخبرته: أنَّها سمعتْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يقولُ: ((ليس الكَذَّابُ الذي يُصلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، ويقولُ خَيرًا ويَنْمي[5599] خيرًا)). قال ابنُ شِهابٍ: ولم أسمَعْ يُرَخَّصُ في شيءٍ ممَّا يقولُ النَّاسُ كَذِبٌ، إلَّا في ثلاثٍ: الحَربُ، والإصلاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وحديثُ الرَّجُلِ امرأتَه، وحديثُ المرأةِ زَوجَها[5600].

قال النَّوويُّ: (قال القاضي: لا خلافَ في جوازِ الكَذِبِ في هذه الصُّوَرِ، واختلفوا في المرادِ بالكَذِبِ المباحِ فيها ما هو؟ فقالت طائفةٌ: هو على إطلاقِه، وأجازوا قولَ ما لم يكُنْ في هذه المواضِعِ للمصلحةِ، وقالوا: الكَذِبُ المذمومُ ما فيه مضَرَّةٌ، قالوا: ولا خلافَ أنَّه لو قصَد ظالمٌ قَتْلَ رجُلٍ هو عندَه مختَفٍ، وجب عليه الكَذِبُ في أنَّه لا يَعلَمُ أين هو، وقال آخَرون - منهم الطَّبريُّ-: لا يجوزُ الكَذِبُ في شيءٍ أصلًا، قالوا: وما جاء من الإباحةِ في هذا المرادُ به التَّوريةُ واستعمالُ المعاريضِ لا صريحُ الكَذِبِ، مِثلُ أن يَعِدَ زَوجتَه أن يحسِنَ إليها ويكسوَها كذا، وينويَ: إنْ قَدَّر اللهُ ذلك، وحاصِلُه: أن يأتيَ بكَلِماتٍ محتَمِلةٍ يفهَمُ المخاطَبُ منها ما يُطيِّبُ قَلبَه، وإذا سعى في الإصلاحِ نَقَل عن هؤلاء إلى هؤلاء كلامًا جميلًا، ومن هؤلاء إلى هؤلاء كذلك ووَرَّى، وكذا في الحَربِ بأن يقولَ لعَدُوِّه: مات إمامُكم الأعظَمُ، وينويَ إمامَهم في الأزمانِ الماضيةِ، أو غَدًا يأتينا مَدَدٌ، أي: طعامٌ ونَحوُه، هذا من المعاريضِ المباحةِ، فكُلُّ هذا جائزٌ)[5601].

[5596] أخرجه مسلم (1787)

[5597] ((شرح النووي على مسلم)) (12/ 144)

[5598] يُنظَر: ((الرائد دروس في التربية والدعوة)) لمازن الفريح (3/264)

[5599] نميتُ حديثَ فُلانٍ إلى فلانٍ: إذا بلَّغْتَه على وَجهِ الإصلاحِ وطَلَبِ الخيرِ. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[5600] أخرجه البخاري (2692)، ومسلم (2605) واللفظ له.

[5601] ((شرح النووي على مسلم)) (16/ 158). ويُنظَر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (8/ 77)

ثمَّ قال: (وأمَّا كَذِبُه لزوجتِه وكَذِبُها له فالمرادُ به في إظهارِ الوُدِّ والوَعدِ بما لا يلزَمُ، ونحوِ ذلك، فأمَّا المخادعةُ في منعِ ما عليه أو عليها أو أخذِ ما ليس له أو لها، فهو حرامٌ بإجماعِ المُسلِمين. واللهُ أعلَمُ)[5602].

وقال ابنُ حزمٍ: (ولا بأسَ بكَذِبِ أحَدِ الزَّوجينِ للآخَرِ فيما يُستجلَبُ به المودَّةُ)[5603].

- **حُكمُ المعاريضِ ونماذِجُ منها:**

حُكمُ المعاريضِ:

(المعاريضُ: أن يريدَ الرَّجُلُ أن يتكَلَّمَ بالكلامِ الذي إن صرَّح به كان كَذِبًا، فيعارِضَه بكلامٍ آخَرَ يوافِقُ ذلك الكلامَ في اللَّفظِ ويخالفُه في المعنى، فيتوهَّمُ السَّامعُ أنَّه أراد ذلك)[5604].

قال النَّوويُّ: (اعلَمْ أنَّ هذا البابَ من أهمِّ الأبوابِ؛ فإنَّه ممَّا يكثُرُ استعمالُه، وتعُمُّ به البلوى؛ فينبغي لنا أن نعتنيَ بتحقيقِه، وينبغي للواقِفِ عليه أن يتأمَّلَه ويعمَلَ به)[5605].

وقال أيضًا: (واعلَمْ أنَّ التَّوريةَ والتَّعريضَ معناهما: أن تُطلِقَ لفظًا هو ظاهِرٌ في معنًى، وتريدَ به معنًى آخَرَ يتناوَلُه ذلك اللَّفظُ، لكِنَّه خلافُ ظاهِرِه، وهذا ضَربٌ من التَّغريرِ والخِداعِ.

قال العُلَماءُ: فإن دَعَت إلى ذلك مصلحةٌ شرعيَّةٌ راجحةٌ على خِداعِ المخاطَبِ، أو حاجةٌ لا مندوحةَ عنها إلَّا بالكَذِبِ، فلا بأسَ بالتَّعريضِ، وإن لم يكُنْ شَيءٌ من ذلك فهو مكروهٌ وليس بحرامٍ، إلَّا أن يتوصَّلَ به إلى أخذِ باطِلٍ أو دفعِ حَقٍّ، فيصيرَ حينئذٍ حرامًا، هذا ضابطُ البابِ)[5606].

عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: (إنَّ في المعاريضِ لمندوحةً عن الكَذِبِ)[5607].

وقال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: (أمَا في المعاريضِ ما يُغني المُسلِمَ عن الكَذِبِ)[5608].

وعن عَونُ بنُ عبدِ اللهِ قال: (كساني أبي حُلَّةً فخَرَجتُ فيها، فقال لي أصحابي: كساك هذه الأميرَ؟ فأحبَبْتُ أن يَرَوا أنَّ الأميرَ كسانيها، فقلتُ: جزى اللهُ الأميرَ خيرًا، كسا اللهُ الأميرَ من كِسوةِ الجنَّةِ، فذكَرْتُ ذلك لأبي، فقال: يا بُنَيَّ لا تَكذِبْ ولا تَشَبَّهْ بالكَذِبِ)[5609].

نماذِجُ من المعاريضِ:

[5602] ((شرح النووي على مسلم)) (16/ 158)

[5603] ((المحلى بالآثار)) (9/ 229)

[5604] يُنظَر: ((غريب الحديث)) لأبي عبيد (4/287)

[5605] يُنظَر: ((الأذكار)) (ص: 380).

[5606] المصدر السابق.

[5607] رواه الطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (7/370)، والطبراني (18/106) (201)، والبيهقي (21363). صحَّحه الألباني في صحيح ((الأدب المفرد)) (662)، وصحَّح إسناده الطبري في ((مسند عمر)) (2/638)، ووثق رجاله ابن حجر في ((فتح الباري)) (10/610)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((شرح مشكل الآثار)) (7/370)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (8/133): (رجاله رجال الصحيح).

[5608] رواه البخاري في ((الأدب المفرد)) (ص: 305) بلفظ: "ما يكفي المسلِمَ"، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (7/369) واللفظ له، والبيهقي (21362) باختلافٍ يسيرٍ. صحَّحه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (680)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((شرح مشكل الآثار))(7/369)

[5609] يُنظَر: ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص: 256).

عن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رجلًا أتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: يا رسولَ اللهِ، احمِلْني، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّا حاملوك على وَلَدِ ناقةٍ. قال: وما أصنعُ بوَلَدِ النَّاقةِ؟! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وهل تَلِدُ الإبِلَ إلَّا النُّوقُ!))[5610]، والمعنى: أنَّ كُلَّ الإبِلِ هي من وَلَدِ النَّاقةِ؛ فأراد النَّبيُّ ولدًا كبيرًا يطيقُ حَملَك، وفَهِم الرَّجُلُ وَلَدَ النَّاقةِ الذي لو حُمِل عليه الإنسانُ يَبرُكُ ولا يستطيعُ المشيَ، وهذا من جُملةِ مُزاحِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[5611]، ومن ملاطفتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للرَّجُلِ، وهو من بابِ المعاريضِ[5612]؛ ففي الحديثِ عن أبي هُرَيرةَ أنَّ بعضَ الصَّحابةِ قالوا: ((يا رسولَ اللهِ، إنَّك تُداعِبُنا! قال: إني لا أقولُ إلَّا حَقًّا)).[5613]

ومن المعاريضِ ما استخدَمَتْه أمُّ سُلَيمٍ والِدةُ أنسِ بنِ مالكٍ مع زوجِها أبي طلحةَ حينما مات ابنُه الصَّغيرُ وهو غائبٌ عن البيتِ، فاستخدمت المعاريضَ في إخبارِه بموتِه حتى لا يُصدَمَ، ثمَّ أخبرَتْه بحقيقةِ موتِه صراحةً بعدَ أن هيَّأَتْه لتلقِّي الخبرِ؛ فروى أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ للهُ عنه:

((مات ابنٌ لأبي طلحةَ من أمِّ سُلَيمٍ، فقالت لأهلِها: لا تُحَدِّثوا أبا طلحةَ بابنِه حتَّى أكونَ أنا أحَدِّثُه، قال: فجاء فقرَّبت إليه عشاءً، فأكل وشَرِب، فقال: ثمَّ تصَنَّعَت له أحسَنَ ما كان تَصنَّعُ قبلَ ذلك، فوَقَع بها، فلمَّا رأت أنَّه قد شَبِع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحةَ أرأيتَ لو أنَّ قومًا أعاروا عاريَّتَهم أهلَ بَيتٍ، فطَلَبوا عاريَّتَهم، ألهم أن يمنَعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتَسِبِ ابنَك، قال: فغَضِب، وقال: تركْتِني حتَّى تلطَّخْتُ، ثمَّ أخبرْتِني بابني! فانطلق حتى أتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبره بما كان، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: بارَك اللهُ لكما في غابِرِ ليلَتِكما. قال: فحَمَلت، قال: فكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سفَرٍ وهي معه، وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أتى المدينةَ من سَفَرٍ لا يطرُقُها طُروقًا، فدَنَوا من المدينةِ، فضرَبَها المخاضُ، فاحتَبَس عليها أبو طلحةَ، وانطلق رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: يقولُ أبو طلحةَ: إنَّك لتعلَمُ يا رَبِّ إنَّه يُعجِبُني أن أخرُجَ مع رسولِك إذا خرج، وأدخُلَ معه إذا دخَل، وقد احتُبِسْتُ بما ترى! قال: تقولُ أمُّ سُلَيمٍ: يا أبا طلحةَ، ما أجِدُ الذي كنتُ أجِدُ، انطَلِقْ، فانطلَقْنا، قال وضرَبَها المخاضُ حينَ قَدِما، فولَدَت غُلامًا، فقالت لي أمي: يا أنَسُ، لا يُرضِعُه أحدٌ حتى تغدوَ به على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلمَّا أصبح احتمَلْتُه فانطلَقْتُ به إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال فصادَفْتُه ومعه مِيسَمٌ، فلمَّا رآني قال: لعلَّ أمَّ سُلَيمٍ ولَدَت؟ قُلتُ: نعم، فوضَعَ الميسَمَ، قال: وجئتُ به فوضعْتُه في حِجرِه، ودعا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعَجوةٍ من عجوةِ المدينةِ، فلاكها في فيه حتى ذابت، ثمَّ قذَفَها في في الصَّبيِّ، فجَعل الصَّبيُّ يتلمَّظُها، قال: فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: انظُروا إلى حُبِّ الأنصارِ التَّمرَ! قال: فمَسَح وجهَه وسَمَّاه عبدَ اللهِ))[5614].

ويؤخَذُ من هذا الحديثِ جوازُ استعمالِ المعاريضِ إذا دعت الحاجةُ إليها، وشرطُ جوازِها أنْ لا تُبطِلَ حَقًّا لمُسلِمٍ، وكان الحامِلُ لأمِّ سُلَيمٍ على ذلك المبالغةَ في الصَّبرِ، والتَّسليمَ لأمرِ اللهِ تعالى، ورجاءَ إخلافِه عليها ما فات منها، إذ لو أعلَمَت أبا

[5610] أخرجه أبو داود (4998) واللفظ له، والترمذي (1991)، وأحمد (13817). صحَّحه الترمذي، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4998)، وصحَّح إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد))(323 /21)

[5611] يُنظَر: ((شرح المصابيح)) لابن الملك (5/ 261)، ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (392 /6)

[5612] يُنظَر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح(43 /1)

[5613] أخرجه التِّرمذي (1990) واللفظ له، وأحمد (8723). صحَّحه الترمذي، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (1990)، وحسَّنه البغوي في ((شرح السنة)) (6/547)، وحسَّن إسناده الهيثمي في ((مجمع الزَّوائد)) (9/20)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (8723)، وجوَّده ابن الملقن في ((شرح البخاري)) (24/607)

[5614] أخرجه مسلم (2144)

طلحةَ بالأمرِ في أوَّلِ الحالِ تنكَّدَ عليه وقتُه، ولم تبلُغِ الغَرَضَ الذي أرادَتْه، فلمَّا عَلِمَ اللهُ صِدقَ نِيَّتِها بلَّغها مناها، وأصلَح لها ذُرِّيَّتَها[5615].

وقال النَّخَعيُّ: (إذا بلغ الرَّجُلَ عنك شيءٌ قُلتَه، فقُل: اللهُ يعلَمُ ما قلتُ من ذلك من شيءٍ. فيتوهَّمُ السَّامِعُ النَّفي، ومقصودُك: اللهُ يعلَمُ الذي قُلتُه)[5616].

(وكان النَّخَعيُّ إذا طلبه رجُلٌ قال للجاريةِ: قولي له: اطلُبْه في المسجِدِ.

وقال غيرُه: خرج أبي في وقتٍ قبلَ هذا.

وكان الشَّعبيُّ يخُطُّ دائرةً ويقولُ للجاريةِ: ضعي أصبَعَك فيها، وقولي: ليس هو هاهنا)[5617].

و(ذُكِر عن حمَّادٍ أنَّه إذا أتاه من لا يريدُ الجلوسَ معه، قال متوجِّعًا: ضِرْسي، ضِرْسي! فيترُكُه الثَّقيلُ الذي ليس بصُحبتِه خَيرٌ!

وأُحضِر سُفيانُ الثَّوريُّ إلى مجلِسِ الخليفةِ المهديِّ فاستحسَنَه، فأراد الخروجَ، فقال الخليفةُ: لا بدَّ أن تجلِسَ، فحلَف الثَّوريُّ على أنَّه يعودُ، فخرج وترَك نَعلَه عِندَ البابِ، وبعدَ قليلٍ عاد فأخَذ نَعلَه وانصرَفَ، فسأل عنه الخليفةُ فقيل له: إنَّه حلَف أن يعودَ، فعاد وأخَذ نَعْلَه!)[5618].

و(عن إسحاقَ بنِ هانئٍ قال: كنَّا عِندَ أحمدَ بنِ حنبَلٍ في منزِلِه، ومعه المُرُّوذيُّ ومهنَّى، فدقَّ داقٌّ البابَ، وقال: المُرُّوذيُّ هاهنا؟ فكأنَّ المُرُّوذيَّ كَرِه أن يَعلَمَ مَوضِعَه، فوضَع مهنَّى أصبَعَه في راحتِه، وقال: ليس المُرُّوذي هاهنا، وما يَصنَعُ المُرُّوذي ها هنا! فضحك أحمَدُ ولم يُنكِرْ)[5619].

المطلب الحادِيَ عَشَرَ: أخطاءٌ شائعةٌ في الكَذِبِ

• كِذْبةُ إبريلَ:

يقومُ بعضُ النَّاسِ في الدُّوَلِ الغربيَّةِ في اليومِ الأوَّلِ من شَهرِ إبريلَ بإطلاقِ الأكاذيبِ، وقلَّدهم في ذلك بعضُ المُسلِمين، ويُطلِقون على من يُصَدِّقُ هذه الأكاذيبَ اسمَ (ضَحيَّةِ كِذْبةِ إبريلَ).

ويَقصِدون بفِعلِهم هذا المُزاحَ، ولا شَكَّ أنَّ هذا من الكَذِبِ الحرامِ، ويضافُ إليه أنَّه من التَّشبُّهِ بالكُفَّارِ، وقد قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من تشبَّه بقومٍ فهو منهم))[5620].

[5615] يُنظَر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (7/ 21)، ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (13/ 200)، ((كوثر المعاني الدراري)) لمحمد الخضر الشنقيطي(439 /11)

[5616] يُنظَر: ((الأذكار)) للنووي (ص: 381).

[5617] يُنظَر: ((الأذكار)) للنووي (ص: 381).

[5618] يُنظَر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم(383 /1)

[5619] يُنظَر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي(319 /11)

[5620] أخرجه أبو داود (4031) واللفظ له، وأحمد (5114) مطولًا من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما. صحَّحه ابن حبان كما في ((بلوغ المرام)) لابن حجر (437)،

قال ابنُ عُثَيمين: (أحَذِّرُ إخواني المُسلِمين ممَّا يصنَعُه بعضُ السُّفَهاءِ من كِذْبةِ إبريلَ، هذه الكِذْبةُ التي تلقَّوها عن اليهودِ والنَّصارى والمجوسِ وأصحابِ الكُفرِ، فهي مع كونِها كَذِبًا، والكَذِبُ محرَّمٌ شَرعًا؛ ففيها تشبُّهٌ بغيرِ المُسلِمين، والتَّشبُّهُ بغيرِ المُسلِمين محرَّمٌ، وقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من تشبَّه بقومٍ فهو منهم))، وأقلُّ أحوالِه التَّحريمُ، وإن كان ظاهِرُه يقتضي كُفرَ المتشَبِّهِ بهم، وهي مع تضمُّنِها لهذين المحظورينِ فيها إذلالٌ للمُسلِمِ أمامَ عَدُوِّه؛ لأنَّ من المعلومِ بطبيعةِ البشَرِ أنَّ المقَلَّدَ يفخَرُ على من قَلَّدَه، ويرى أنَّه أقدَرُ منه؛ ولذلك ضَعُف مُقَلِّدُه حتَّى قلَّده، فهي فيها إذلالٌ للمُؤمِنِ بكونِه ذليلًا وتبَعًا للكُفَّارِ، المحظورُ الرَّابعُ: أنَّ غالِبَ هذه الكِذْبةِ الخبيثةِ تتضَمَّنُ أكلًا للمالِ بالباطِلِ، أو ترويعًا للمُسلِمِ... وما أشبهَ ذلك من الأمورِ التي لا تجوزُ بدونِ أن تكونَ بهذه الحالِ، فعلى المُسلِمِ أن يتَّقيَ اللهَ سُبحانَه وتعالى، وأن يكونَ عزيزًا بدينِه فخورًا به).[5621]

- **الكَذِبُ الأبيضُ والأسوَدُ:**

يظُنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّ هناك كَذِبًا أبيَضَ وهو حلالٌ، وكَذِبًا أسوَدَ وهو حرامٌ، والأمرُ ليس كذلك؛ فالكَذِبُ كلُّه حرامٌ، قال ابنُ عُثَيمين: (والكَذِبُ حرامٌ، وكلَّما كانت آثارُه أسوأَ كان أشدَّ إثمًا، وليس في الكَذِبِ شيءٌ حلالًا وأمَّا ما ادَّعاه بعضُ العامَّةِ؛ حيث يقولون: إنَّ الكَذِبَ نوعانِ: أسوَدُ، وأبيضُ، فالحرامُ هو الأسودُ، والحلالُ هو الأبيضُ، فجوابُه: أنَّ الكَذِبَ كُلَّه أسودُ، ليس فيه شيءٌ أبيضُ، لكن يتضاعَفُ إثمُه بحسَبِ ما يترَتَّبُ عليه، فإذا كان يترَتَّبُ عليه أكلُ مالِ المُسلِمِ أو غَرَرٌ على مُسلِمٍ، صار أشدَّ إثمًا، وإذا كان لا يترَتَّبُ عليه أيُّ شيءٍ من الأضرارِ فإنَّه أخفُّ، ولكِنَّه حرامٌ)[5622].

المطلب الثاني عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **علاماتٌ تدُلُّ على الكذَّابِ:**

قال الماوَرْديُّ: (واعلَمْ أنَّ للكذَّابِ قبلَ خِبرتِه أماراتٍ دالَّةً عليه.

فمنها: أنَّك إذا لقَّنْتَه الحديثَ تلقَّنَه، ولم يكُنْ بَيْنَ ما لقَّنْتَه وبينَ ما أورده فَرقٌ عِندَه.

ومنها: أنَّك إذا شكَّكْتَه فيه تشكَّك، حتى يكادَ يرجِعُ فيه، ولولاك ما تخالجَه الشَّكُّ فيه.

ومنها: أنَّك إذا ردَدْتَ عليه قولَه حُصِر وارتبَك، ولم يكُنْ عندَه نُصرةُ المحتجِّين، ولا برهانُ الصَّادقين. ولذلك قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ: الكذَّابُ كالسَّرابِ.

وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (4/358)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4031)، وجوَّده ابنُ تيمية في ((مجموع الفتاوى))(25/331)

[5621] ((فتاوى نور على الدرب)) (12/472)

[5622] ((شرح رياض الصالحين)) (2/570)

ومنها: ما يَظهَرُ عليه من ريبةِ الكذَّابين ويَتُمُّ عليه من ذلَّةِ المتوهِّمين؛ لأنَّ هذه أمورٌ لا يمكِنُ الإنسانَ دفعُها عن نفسِه؛ لما في الطَّبعِ من آثارِها؛ ولذلك قالت الحُكَماءُ: العينانِ أنَمُّ من اللِّسانِ. وقال بعضُ البُلَغاءِ: الوجوهُ مرايا تريك أسرارَ البرايا.

وقال بعضُ الشُّعراءِ:

تريك أعينُهم ما في صُدورِهم

إنَّ العُيونَ يؤدِّي سِرَّها النَّظَرُ

وإذا اتَّسم بالكَذِبِ نُسِبت إليه شوارِدُ الكَذِبِ المجهولةُ، وأضيفَت إلى أكاذيبِه زياداتٌ مُفتَعَلةٌ، حتَّى يصيرَ الكاذِبُ مكذوبًا عليه، فيَجمَعَ بَيْنَ معرَّةِ الكَذِبِ منه ومضَرَّةِ الكَذِبِ عليه)[5623].

- **إبراهيمُ عليه السَّلامُ:**

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: **((لم يكذِبْ إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلَّا ثلاثَ كَذْباتٍ، ثِنْتَينِ منهن في ذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ قولُه: {إِنِّي سَقِيمٌ} [الصافات: 89]، وقولُه: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} [الأنبياء: 63] . وقال: بينا هو ذاتَ يومٍ وسارةُ إذ أتى على جبَّارٍ من الجبابرةِ، فقيل له: إنَّ هاهنا رجلًا معه امرأةٌ من أحسَنِ النَّاسِ، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: مَن هذه؟ قال: أختي، فأتى سارةَ قال: يا سارةُ، ليس على وجهِ الأرضِ مُؤمِنٌ غيري وغيرُك، وإنَّ هذا سألني فأخبَرْتُه أنَّك أختي، فلا تُكَذِّبيني، فأرسَلَ إليها، فلمَّا دخلت عليه ذهب يتناوَلُها بيَدِه فأُخِذَ! فقال: ادعي اللهَ لي ولا أضُرُّكِ، فدَعَت اللهَ فأُطلِقَ، ثمَّ تناوَلها الثَّانيةَ فأُخِذَ مِثلَها أو أشَدَّ! فقال: ادعي اللهَ لي ولا أضُرُّكِ، فدَعَت فأُطلِقَ، فدعا بعضَ حَجَبَتِه، فقال: إنَّكم لم تأتوني بإنسانٍ، إنَّما أتَيْتُموني بشَيطانٍ! فأخدَمَها هاجَرَ، فأتَتْه وهو قائمٌ يُصَلِّي، فأومأ بيَدِه: مَهْيَا؟ قالت: ردَّ اللهُ كيدَ الكافِرِ -أو الفاجرِ- في نحرِه، وأخدَمَ هاجَرَ. قال أبو هُرَيرةَ: تلك أمُّكم يا بني ماءِ السَّماءِ))**[5624]، وما وقَع من نبيِّ اللهِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ليس بكَذِبٍ ولا يجوزُ الكَذِبُ عليه، ولكِنَّه من المعاريضِ، أخبرهم بأنَّه سقيمٌ في المثالِ، وعلى عُرفِ ابنِ آدَمَ لا بدَّ أن يَسقَمَ ضرورةً، وقيل: أراد على هذا: إنِّي سقيمُ النَّفسِ، أي: مِن أمورِكم وكُفرِكم، فظهر لهم من كلامِه أنَّه أراد سُقمًا بالجَسَدِ حاضِرًا، وهكذا هي المعاريضُ، (وفي تفسيرِ ابنِ الجوزيِّ[5625] في قولِه: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا: المعاريضُ لا تُذَمُّ خُصوصًا إذا احتيجَ إليها)[5626]، وأخبر المَلِكَ أنَّه أختُه، وهي أختُه في الدِّينِ. قال القاضي أبو محمَّدٍ: (وهذا التَّأويلُ لا يُرُدُّه الحديثُ وذِكرُ الكَذْباتِ؛ لأنَّه قد يقالُ لها كَذِبٌ على الاتِّساعِ بحسَبِ اعتقادِ المُخبَرِ)[5627]، ولكِنْ إن قصَد بكلامِه (معنًى مطابقًا صحيحًا، وقصَد مع ذلك التَّعميةَ على المخاطَبِ وإفهامَه خلافَ ما قصَدَه، فهو صِدقٌ بالنِّسبةِ إلى قَصدِه، كَذِبٌ بالنِّسبةِ إلى إفهامِه، ومن هذا البابِ التَّوريةُ والمعاريضُ، وبهذا أطلق عليها إبراهيمُ الخليلُ عليه السَّلامُ اسمَ الكَذِبِ، مع أنَّه الصَّادقُ في خبرِه ولم يخبِرْ إلَّا صِدقًا، فتأمَّلْ هذا الموضِعَ الذي أشكَل على النَّاسِ، وقد ظهر بهذا أنَّ

[5623] ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 264، 265).

[5624] أخرجه البخاري (3358) واللفظ له، ومسلم (2371)

[5625] ((زاد المسير في علم التفسير)) (3/ 196)

[5626] يُنظَر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (1/ 43)

[5627] يُنظَر: ((تفسير ابن عطية)) (4/ 478)، ((تفسير الرازي)) (22/161)

الكَذِبَ لا يكونُ قطُّ إلَّا قبيحًا، وأنَّ الذي يحسُنُ ويجِبُ إنَّما هو التَّوريةُ، وهي صِدقٌ، وقد يُطلَقُ عليها الكَذِبُ بالنِّسبةِ إلى الإفهامِ لا إلى العنايةِ)[5628].

- **مَطِيَّةُ الكَذِبِ: زَعَموا**

قيل: زَعَموا: مَطِيَّةُ الكَذِبِ. ومعناه: أنَّ الرَّجُلَ إذا أراد المسيرَ إلى بلَدٍ والظَّعنَ في حاجةٍ، رَكِب مطيَّتَه، وسار حتى يقضيَ أرَبَه؛ فشَبَّه ما يقَدِّمُه المتكَلِّمُ أمامَ كلامِه ويتوصَّلُ به إلى غَرَضِه -من قولِه: زعَموا كذا وكذا- بالمطيَّةِ التي يُتوصَّلُ بها إلى الحاجةِ[5629].

وذُكِر عن ابنِ عُمَرَ وشُرَيحٍ أنَّهما قالا: لكُلِّ شيءٍ كُنيةٌ، وكُنيةُ الكَذِبِ: زَعَموا[5630].

وذُكِر عن ابنِ عُمَرَ أيضًا أنَّه كان يقولُ: زعَموا: كنايةُ الكَذِبِ. وكان مجاهِدٌ يكرَهُ أن يقولَ الرَّجُلُ: زَعَم فلانٌ[5631]. وقال ابنُ عُمَرَ: (زعَموا: زامِلةُ الكَذِبِ)[5632].

والزَّعمُ كما يُطلَقُ على الكَذِبِ وعلى المشكوكِ فيه، يُطلَقُ أيضًا على القولِ المحقَّقِ، ويُنزَّلُ كُلُّ موضِعٍ على ما يليقُ به، فزعم ليس مخصوصًا بالكَذِبِ والقولِ المشكوكِ فيه، بل يكونُ أيضًا في القولِ المحقَّقِ والصِّدقِ الذَّى لا شَكَّ فيه، وقد جاء من هذا كثيرٌ في الأحاديثِ، وعن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.[5633]

[5628] يُنظَر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن قيم الجوزية (36 /2)

[5629] ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (303 /2)

[5630] ((حياة الحيوان الكبرى)) للدميري (441 /2)

[5631] ((زاد المسير في علم التفسير)) لابن الجوزي (292 /4)

[5632] يُنظَر: ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (32/2)

[5633] ((المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)) للنووي (1/170) (5/ 76). ويُنظَر: ((الآداب الشرعية والمنح المرعية)) لابن مُفلِح (33 /1)

المبحث الخامس والعشرون: السُّخْرِيَّةُ والاستِهزاءُ

المطلب الأول: معنى السُّخْريَّةِ والاستِهْزاءِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى السُّخْريَّةِ لُغةً:**

مادَّةُ (سخر): أصلٌ يَدُلُّ على احتقارٍ واستِذلالٍ، يقالُ: سَخِر منه وبه سَخْرًا وسَخَرًا ومَسْخَرًا وسُخْرًا -بالضَّمِّ-، وسُخْرةً وسِخْرِيًّا وسُخْرِيًّا وسُخْرِيَّةً: هَزِئَ به، والاسمُ السُّخْرِيَّةُ والسُّخْرِيُّ، ويُكسَرُ[5634].

- **معنى السُّخْريَّةِ اصطِلاحًا:**

السُّخْرِيَّةُ هي الاستهانةُ والتَّحقيرُ، والتَّنبيهُ على العُيوبِ والنَّقائِصِ، على وَجهٍ يُضحَكُ منه[5635].

- **معنى الاستِهْزاءِ لُغةً:**

الاستِهْزاءُ مَصدَرُ قَولِهم: استَهزَأَ يَستهزِئُ، يقالُ: هَزَأ منه وهَزَأ به، يَهْزَأُ هُزْءًا -بالضَّمِّ-، وهُزُؤًا -بضَمَّتينِ-، وهُزُوءًا -بالضَّمِّ والمدِّ-، ومُهْزَأةً -على مُفْعَلةٍ بضَمِّ العَينِ-: أي: سَخِر منه[5636].

- **معنى الاستِهْزاءِ اصطِلاحًا:**

الاستِهْزاءُ هو: ارتيادُ الهُزءِ[5637] من غيرِ أن يَسبِقَ منه فِعلٌ يُستهزَأُ به مِن أجلِه[5638].

وقال ابنُ تَيميَّةَ: (الاستِهْزاءُ هو: السُّخْرِيَّةُ، وهو حَملُ الأقوالِ والأفعالِ على الهَزلِ واللَّعِبِ لا على الجِدِّ والحقيقةِ؛ فالذي يَسخَرُ بالنَّاسِ هو الذي يَذُمُّ صِفاتِهم وأفعالَهم ذَمًّا يُخرِجُها عن دَرَجةِ الاعتِبارِ)[5639].

وقيل: الاستِهْزاءُ هو صُدورُ ما يدعو لانتِقاصِ شأنِ المقصودِ به من المُستهزِئِ، بوُجودِ المُقتضي أو بعَدَمِه، بغَرَضِ التَّحقيرِ له أو التَّنفيرِ عنه أو كِلَيهما[5640].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الاستِهْزاءِ والسُّخْريَّةِ وبعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الاستِهْزاءِ والسُّخْريَّةِ:**

(أنَّ الإنسانَ يُستهزَأُ به من غيرِ أن يَسبِقَ منه فِعلٌ يُستهزَأُ به من أجْلِه.

[5634] يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي، ((لسان العرب)) لابن منظور.

[5635] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (131 /3)

[5636] ((تاج العروس)) للزبيدي بتصَرُّفٍ يسيرٍ.

[5637] ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمناوي (ص:50).

[5638] ((الفروق)) لأبي هلال العسكري (ص: 254).

[5639] ((الفتاوى الكبرى)) (6/22)

[5640] ((موسوعة التفسير الموضوعي)) (3/186)

والسُّخْرُ: يدُلُّ على فِعلٍ يَسبِقُ من المسخورِ منه، والعبارةُ من اللَّفظينِ تدُلُّ عن صِحَّةِ ما قُلْناه؛ وذلك أنَّك تقولُ: استهزَأْتُ به، فتُعَدِّي الفِعلَ منك بالباءِ، والباءُ للإلصاقِ، كأنَّك ألصَقْتَ به استهزاءً من غيرِ أن يدُلَّ على شيءٍ وقع الاستِهْزاءُ من أجلِه، وتقولُ: سَخِرتُ منه، فيقتضي ذلك مَن وَقَع السُّخرُ من أجلِه، كما تقولُ: تعجَّبْتُ منه، فيدُلُّ ذلك على فِعلٍ وَقَع التَّعجُّبُ من أجْلِه)[5641].

- **الفَرْقُ بَيْنَ السُّخْرِيَّةِ واللَّعِبِ:**

(أنَّ في السُّخْرِيَّةِ خَديعةً واستِنقاصًا لِمن يُسخَرُ به، ولا يكونُ إلَّا بذي حياةٍ.

وأمَّا اللَّعِبُ فقد يكونُ بجَمادٍ؛ ولذلك أسند سُبحانَه السُّخْرِيَّةَ إلى الكُفَّارِ بالنِّسبةِ إلى الأنبياءِ، كقَولِه سُبحانَه: {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ} [هود: 38])[5642].

- **الفَرْقُ بَيْنَ المُزاحِ والاستِهْزاءِ:**

(أنَّ المُزاحَ لا يقتضي تحقيرَ من يمازِحُه ولا اعتقادَ ذلك؛ ألا ترى أنَّ التَّابعَ يمازِحُ المتبوعَ من الرُّؤَساءِ والملوكِ، ولا يقتضي ذلك تحقيرَهم ولا اعتقادَ تحقيرِهم، ولكِنْ يقتضي الاستئناسَ بهم. والاستِهْزاءُ: يقتضي تحقيرَ المُستهزَأ به واعتقادَ تحقيرِه)[5643].

- **الفَرْقُ بَيْنَ التَّهكُّمِ والاستِهْزاءِ:**

التَّهكُّمُ هو ازدراءُ الغَيرِ، والمُقتضي له بغضُ المُتهَكَّمِ به من غيرِ وجودِ سَبَبٍ، أمَّا الاستِهْزاءُ فإنَّه يحتَمِلُ وجودَ السَّبَبِ؛ فالتَّهكُّمُ يكونُ من المتعالي وبدونِ أن يكونَ في المتهَكَّمِ به ما يدعو للتَّهكُّمِ، وإنَّما فعَلَه مِن قبيلِ الاستعلاءِ[5644].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الازدِراءِ والاستِهْزاءِ:**

الازدِراءُ: هو الاستهانةُ والاحتقارُ والاستخفافُ، يُعَدَّى بدونِ حَرفٍ، ويقَعُ من الأعلى على الأدنى، بينما الاستِهْزاءُ يُعَدَّى بحَرفٍ، ويكونُ من المماثِلِ أو من الأدنى إلى الأعلى[5645].

[5641] ((الفروق)) لأبي هلال العسكري (ص: 50).

[5642] المصدر السابق (ص: 275).

[5643] المصدر السابق (ص: 493).

[5644] ((موسوعة التفسير الموضوعي)) (3/189)

[5645] المصدر السابق (3/188)

المطلب الثالث: ذمُّ السُّخْريَّةِ والاستِهْزاءِ والنَّهْيُ عنها

أ- مِنَ القُرآنِ الكريمِ:

- قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [الحجرات: 11].

قال ابنُ كثيرٍ: (ينهى تعالى عن السُّخْريَّةِ بالنَّاسِ، وهو احتِقارُهم والاستِهْزاءُ بهم... فإنَّه قد يكونُ المحتَقَرُ أعظَمَ قَدرًا عِندَ اللهِ، وأحَبَّ إليه من السَّاخِرِ منه المحتَقِرِ له... وقولُه: وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ، أي: لا تَلمِزوا النَّاسَ. والهَمَّازُ اللَّمَّازُ من الرِّجالِ مذمومٌ ملعونٌ... وقولُه: وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ، أي: لا تتداعَوا بالألقابِ، وهي التي يسوءُ الشَّخصَ سَماعُها)[5646].

وقال ابنُ جريرٍ: (إنَّ اللهَ عَمَّ بنَهْيِه المُؤمِنين عن أن يَسخَرَ بعضُهم من بعضٍ جميعَ معاني السُّخْريَّةِ؛ فلا يَحِلُّ لمُؤمِنٍ أن يَسخَرَ من مُؤمِنٍ لا لفَقرِه، ولا لذَنبٍ رَكِبَه، ولا لغيرِ ذلك)[5647].

- وقال سُبحانَه: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ [الهمزة: 1-4].

(وَيْلٌ أي: وَعيدٌ ووَبالٌ وشِدَّةُ عَذابٍ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ الذي يَهمِزُ النَّاسَ بفِعلِه، ويَلمِزُهم بقولِه؛ فالهَمَّازُ: الذي يعيبُ النَّاسَ ويَطعَنُ عليهم بالإشارةِ والفِعلِ، واللَّمَّازُ: الذي يعيبُهم بقَولِه. ومِن صفةِ هذا الهَمَّازِ اللَّمَّازِ أنَّه لا هَمَّ له سوى جمعِ المالِ وتعديدِه والغِبطةِ به، وليس له رَغبةٌ في إنفاقِه في طُرُقِ الخيراتِ وصِلةِ الأرحامِ، ونحوِ ذلك)[5648]. (ولقد سجَّل القرآنُ الكريمُ عاقِبةَ السَّاخِرينَ والمُستَهزِئينَ من المُؤمِنين، وأخبَرَ بانعِكاسِ الوضعيَّةِ يومَ القيامةِ بصورةٍ يُصبِحُ السَّاخِرون مَوضِعَ سُخريَّةٍ واستهزاءٍ من طَرَفِ عبادِه المُستَضعَفين في هذه الدُّنيا؛ قال الحَقُّ سُبحانَه: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ} [المطففين: 29-34])[5649].

- وقال تعالى: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} [الزمر: 56].

قال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ، أي: إنَّما كان عملي في الدُّنيا عَمَلَ ساخِرٍ مُستَهزِئٍ غيرِ مُوقِنٍ مُصَدِّقٍ)[5650].

ب- من السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

[5646] ((تفسير القرآن العظيم)) (7/376)

[5647] ((جامع البيان)) (22/376)

[5648] ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص: 934).

[5649] ((قضايا اللهو والترفيه)) لمادون رشيد (ص: 206).

[5650] ((تفسير القرآن العظيم)) (7/110)

- عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: ((حكيتُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجلًا فقال: ما يَسُرُّني أنِّي حكيتُ رَجُلًا وأنَّ لي كذا وكذا، قالت: فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ صفيَّةَ امرأةٌ- وقالت بيَدِها هكذا، كأنَّها تعني قصيرةً- فقال: لقد مَزَجْتِ بكَلِمةٍ لو مَزَجْتِ بها ماءَ البحرِ لَمُزِجَ))[5651]. وفي روايةٍ أبي داودَ قالت: ((حَسْبُك من صفيَّةٍ كذا وكذا!))[5652].

(قولُه: ((وقالت بيَدِها))، أي: أشارت بها ((تعني قصيرةً))، أي: تريدُ عائشةُ كونَها قصيرةً، وفي المِشكاةِ: "قُلتُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: حَسْبُك من صفيَّةَ كذا وكذا، تعني قصيرةً ((لقد مزَجْتِ بكَلِمةٍ)) أي: أعمالَك، ((لو مُزِج)) بصيغةِ المجهولِ، أي: لو خُلِط ((بها))، أي: على تقديرِ تجسيدِها، وكونِها مائعةً "لَمُزِج" بصيغةِ المجهولِ أيضًا، والمعنى: تغَيَّرَ وصار مغلوبًا. وفي المِشكاةِ: لقد قُلْتِ كَلِمةً لو مُزِج بها البَحرُ لمزَجَتْه. قال القاريُّ: أي: غلبَتْه وغيَّرَتْه. قال القاضي: المَزْجُ: الخَلطُ والتَّغييرُ بضَمِّ غيرِه إليه)[5653].

وقَولُه ((ما أُحِبُّ أنِّي حكيتُ إنسانًا)): (أي: فعَلْتُ مِثلَ فِعلِه أو قُلتُ مِثلَ قولِه، مُنَقِّصًا له، يقال: حكاه وحاكاه، قال الطِّيبيُّ: وأكثَرُ ما تُستعمَلُ المحاكاةُ في القبيحِ، ((وأنَّ لي كذا وكذا))، أي: لو أُعطيتُ كذا وكذا من الدُّنيا، أي: شيئًا كثيرًا منها بسَبَبِ ذلك، فهي جملةٌ حاليَّةٌ واردةٌ على التَّعميمِ والمبالغةِ، قال النَّوويُّ: من الغِيبةِ المحرَّمةِ المحاكاةُ بأن يمشيَ متعارِجًا أو مطاطيًا رأسَه، أو غيرَ ذلك من الهيئاتِ)[5654].

- عن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّه كان يجتَني سِواكًا من الأراكِ، وكان دقيقَ السَّاقينِ، فجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُه[5655]، فضَحِك القومُ منه! فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مِمَّ تضحَكون؟ قالوا: يا نَبيَّ اللهِ، مِن دِقَّةِ ساقَيه! فقال: والذي نفسي بيَدِه، لهما أثقَلُ في الميزانِ من أُحُدٍ!))[5656].

- وعن أبي هُرَيرةَ قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَحاسَدوا، ولا تَناجَشوا[5657]، ولا تَباغَضوا، ولا تَدابَروا[5658]، ولا يَبِعْ بَعضُكم على بَيعِ بَعضٍ، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا، المُسلِمُ أخو المُسلِمِ، لا يَظلِمُه ولا يَخذُلُه، ولا يَحقِرُه، التَّقوى هاهنا -ويُشيرُ إلى صَدْرِه ثلاثَ مرَّاتٍ-، بحَسْبِ امرئٍ من الشَّرِّ أن يَحقِرَ أخاه المُسلِمَ، كُلُّ المُسلِمِ على المُسلِمِ حرامٌ: دَمُه، ومالُه، وعِرْضُه))[5659].

قوله: ((بحَسْبِ امرئٍ من الشَّرِّ أن يَحقِرَ أخاه المُسلِمَ))، (يعني: يكفي المُؤمِنَ من الشَّرِّ أن يَحقِرَ أخاه المُسلِمَ، وهذا تعظيمٌ لاحتقارِ المُسلِمِ، وأنَّه شَرٌّ عظيمٌ، لو لم يأتِ الإنسانُ من الشَّرِّ إلَّا هذا لكان كافيًا؛ فلا تَحقِرَنَّ أخاك المُسلِمِ، لا في خِلقتِه،

[5651] رواه أبو داود (4875)، والترمذي (2502) واللفظ له، وأحمد (25560). صحَّحه الترمذي، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (118)، والشوكاني في ((الفتح الرباني)) (11/5593)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4875)، والوادعي على شرط الشيخين في ((الصحيح المسند)) (1615)

[5652] ((سنن أبي داود)) (4875)

[5653] ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (7/177)

[5654] ((فيض القدير)) للمناوي (5/524)

[5655] أي: تُميلُه، يقال: كفأتُ الإناءَ وأكفَأْتُه: إذا كَبَبْتَه وإذا أمَلْتَه. يُنظَر: ((بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني)) للساعاتي (312 /22)

[5656] رواه أحمد (3991) واللفظ له، وابن حبان (7069)، والطبراني (9/75) (8452). صحَّحه ابن حبان، والألباني بطرقه في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (2750)، وصحَّحه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (3991)، وحسَّنه ابنُ كثير في ((إرشاد الفقيه)) (1/32)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (849)

[5657] النَّجْشُ: هو مَدحُ السِّلعةِ بما ليس فيها، والزِّيادةُ في ثمَنِها وهو لا يريدُ شِراءَها، بل ليَغُرَّ غيرَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (193 /1)

[5658] لا تَدابَروا: أي لا يعطي كُلُّ واحدٍ منكم أخاه دُبُرَه وقفاه، فيُعرِضَ عنه ويَهجُرَه. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير.

[5659] رواه مسلم (2564)

ولا في ثيابِه، ولا في كلامِه، ولا في خُلُقِه، ولا غيرِ ذلك، أخوك المُسلِمُ حَقُّه عليك عظيمٌ؛ فعليك أن تحتَرِمَه وأن تُوَقِّرَه، وأمَّا احتِقارُه فإنَّه محرَّمٌ، ولا يَحِلُّ لك أن تحتَقِرَه)[5660].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قال: (لو سَخِرْتُ مِن كَلبٍ لخَشِيتُ أن أكونَ كَلبًا، وإنِّي لأكرَهُ أن أرى الرَّجُلَ فارِغًا؛ ليس في عَمَلِ آخرةٍ ولا دُنيا)[5661].

- وقال أبو موسى الأشعَريُّ: (لو رأيتُ رَجُلًا يَرضَعُ شاةً في الطَّريقِ فسَخِرتُ منه، خِفتُ ألَّا أموتَ حتَّى أرضَعَها!)[5662].

- وعن الأسوَدِ قال: ((كُنَّا عِندَ عائشةَ فسَقَط فُسطاطٌ على إنسانٍ فضَحِكوا، فقالت عائشةُ: لا سَخَرَ[5663]! سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ما من مُسلِمٍ يُشاكُ شَوكةً فما فوقَها إلَّا رفَعَه اللهُ بها دَرَجةً، وحَطَّ عنه بها خطيئةً))[5664].

- قال القاضي عِياضٌ: (الضَّحِكُ في مِثلِ هذا غيرُ مُستحسَنٍ ولا مباحٍ، إلَّا أن يكونَ مِن غَلَبةٍ ممَّا طُبِع عليه البَشَرُ. وأمَّا قَصدًا ففيه شماتةٌ بالمُسلِمِ وسُخريَّةٌ بمُصابه، والمُؤمِنون إنَّما وصفهم اللهُ بالرَّحمةِ والتَّراحُمِ بَيْنَهم، ومِن خُلُقِهم الشَّفَقةُ بعضُهم لبعضٍ)[5665].

- وقال إبراهيمُ النَّخَعيُّ: (إنِّي لأرى الشَّيءَ أكرَهُه، فما يمنَعُني أن أتكَلَّمَ فيه إلَّا مخافةُ أن أُبتلى بمِثْلِه)[5666].

- وقال عَمرُو بنُ شُرَحْبيلَ: (لو رأيتُ رَجُلًا يرضَعُ عَنزًا فسَخِرتُ منه، خَشِيتُ أن أكونَ مِثلَهَ)[5667].

- وقال يحيى بنُ مُعاذٍ: (ليَكنْ حَظُّ المُؤمِنِ منك ثلاثًا: إنْ لم تنفَعْه فلا تَضُرَّه، وإنْ لم تُفرِحْه فلا تَغُمَّه، وإنْ لم تمدَحْه فلا تَذُمَّه)[5668].

- وأوصى زهيرُ بنُ جَنابٍ بنيه، فقال: (يا بَنِيَّ... إيَّاكم أن تكونوا بالأحداثِ مُغتَرِّين، ولها آمِنين، ومنها ساخِرين؛ فإنَّه ما سَخِر قومٌ قَطُّ إلَّا ابتُلوا، ولكِنْ توقَّعوها؛ فإنَّما الإنسانُ في الدُّنيا غَرَضٌ تَعاوَرُه الرُّماةُ، فمُقَصِّرٌ دونَه، ومجاوِزٌ مَوضِعَه، وواقِعٌ عن يمينِه وشِمالِه، ثمَّ لا بدَّ أنَّه مُصيبُه!)[5669].

- وقال القُرطبيُّ: (من لقَّب أخاه أو سَخِر منه، فهو فاسِقٌ)[5670].

[5660] ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (6/260)

[5661] رواه ابنُ المبارك في ((الزهد)) (741) باختلافٍ يسيرٍ، وابن أبي شيبة (26059) مختصرًا، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (33/170)، واللفظ له.

[5662] رواه ابنُ أبي شيبة (26057)

[5663] سَخِر منه وبه سَخَرًا وسُخْرًا وسُخريَّةً: هَزِئَ به. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور (4/352)

[5664] رواه أبو داود الطيالسي (1477) واللفظ له، وابن الجعد في ((المسند)) (875)، والفاكهي في ((الفوائد)) (33). والحديث رواه مسلم (2527) دونَ ذِكرِ لفظة: "لا سَخَرَ" عن الأسودِ، قال: دخَل شبابٌ من قُرَيشٍ على عائشةَ وهي بمِنًى، وهم يضحَكون. فقالت: ما يُضحِكُكم؟! قالوا: فلانٌ خَرَّ على طُنُبِ فُسطاطٍ، فكادت عنُقُه أو عينُه أن تذهَبَ! فقالت: لا تَضحَكوا؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما من مسلم يُشاكُ شَوكةً فما فَوقَها، إلَّا كُتِبَت له بها دَرَجةٌ، ومُحِيَت عنه بها خَطيئةٌ)).

[5665] ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) (8/ 41)

[5666] رواه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (6775)

[5667] رواه وكيع في ((الزهد)) (314)

[5668] ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: 165).

[5669] ((التذكرة الحمدونية)) (6/ 36)

[5670] ((الجامع لأحكام القرآن)) (16/328)

- وقال السَّفَّارينيُّ: (إنَّ كُلَّ من افتَخَر على إخوانِه، واحتَقَر أحدًا من أقرانِه وأخدانِه[5671]، أو سَخِر أو استَهزَأَ بأحَدٍ من المُؤمِنين؛ فقد باء بالإثمِ والوِزرِ المُبينِ)[5672].

- وقال ابن حجر الهيتمي: (لا تحتَقِرْ غَيرَك؛ عسى أن يكونَ عِندَ اللهِ خيرًا منك، وأفضَلَ وأقرَبَ)[5673].

- قال محمَّدٌ الغَزاليُّ: (ممَّا يُمَزِّقُ أواصِرَ الأُخُوَّةِ: التَّهكُّمُ والازدِراءُ والسُّخْريَّةُ من الآخَرين، إنَّ هذه الأخلاقَ تنشَأُ عن جهالةٍ سادرةٍ، وغفلةٍ شائنةٍ؛ فإنَّ من حَقِّ الضَّعيفِ أن يُحمَلَ لا أن يُنالَ منه، ومن حَقِّ الحائِرِ أن يُرشَدَ لا أن يُضحَكَ عليه. وإذا وجَدْتَ بشَخصٍ عاهةً أو عرَضَتْ له سَيِّئةٌ، فآخِرُ ما يُتوَقَّعُ من المُسلِمِ أن يجعَلَ ذلك مَثارَ تَنَدُّرِه واستِهزائِه!)[5674].

- قال عبدُ الرَّحمنِ المَيدانيُّ: (إنَّ السُّخْريَّةَ تُنافي ما يوجِبُه الحَقُّ، وهي ظُلْمٌ قبيحٌ من الإنسانِ لأخيه الإنسانِ، وعُدوانٌ على كرامتِه، وإيذاءٌ لنفسِه وقلبِه)[5675].

المطلب الرابع: آثارُ السُّخْريَّةِ

1. أنَّ السُّخْريَّةَ والاستِهْزاءَ تقطَعُ الرَّوابِطَ الاجتماعيَّةَ القائمةَ على الأُخُوَّةِ، والتَّوادِّ، والتَّراحُمِ.
2. تَبذُرُ بُذورَ العداوةِ والبغضاءِ، وتورِثُ الأحقادَ والأضغانَ.
3. تُوَلِّدُ الرَّغبةَ بالانتِقامِ.
4. أنَّ ضَرَرَ الاستِهْزاءِ بالمُؤمِنين راجِعٌ إلى المُستَهزِئين بهم.
5. حُصولُ الهوانِ والحَقارةِ للمُستهزِئِ.
6. المُستهزِئُ يُعَرِّضُ نفسَه لغَضَبِ اللهِ وعذابِه.
7. ضَياعُ الحَسَناتِ يومَ القيامةِ.
8. تُوَلِّدُ الشُّعورَ بالانتِقامِ.
9. السُّخْريَّةُ نذيرُ شُؤمٍ للسَّاخِرين؛ فقد كان الغَرَقُ عاقِبةَ قومِ نُوحٍ الذين كفَروا باللهِ وسَخِروا من نوحٍ عليه السَّلامُ.
10. السُّخْريَّةُ تُفقِدُ السَّاخِرَ الوَقارَ، وتُسقِطُ عنه المروءةَ.
11. السَّاخِرُ يَظلِمُ نَفسَه بتحقيرِ مَن وقَّره اللهُ عزَّ وجَلَّ، واستصغارِ مَن عَظَّمه اللهُ.
12. السُّخْريَّةُ تُميتُ القلبَ، وتُورِثُه الغَفلةَ، حتَّى إذا كان يومُ القيامةِ نَدِم السَّاخِرُ على ما قدَّمَت يداه، ولاتَ ساعةَ مَندَمٍ! {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} [الزمر: 56].
13. السُّخْريَّةُ من سماتِ الكُفَّارِ والمُنافِقين، وقد نُهينا عن التَّشبُّهِ بهم.
14. السَّاخِرُ متعَرِّضٌ للعُقوبةِ في الدَّارِ العاجِلةِ أيضًا، بأن يحدُثَ له مِثلُ ما حدَث للمَسخورِ منه.
15. بُعدُ النَّاسِ عن المُستهزِئِ؛ لخوفِهم منه، وعَدَمِ سلامتِهم منه.
16. يُصرَفُ عن قَبولِ الحَقِّ، واستماعِ النُّصحِ[5676].

[5671] الأخدانُ: جَمعُ خِدْنٍ، وهو الصَّاحِبُ، ومَن يخادِنُك في كُلِّ أمرٍ ظاهِرٍ وباطِنٍ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: 1193).

[5672] ((غذاء الألباب)) (ص: 134).

[5673] ((الزواجر)) (2/8)

[5674] ((خلق المسلم)) (ص: 178).

[5675] ((الأخلاق الإسلامية)) (2/223)

المطلب الخامس: صُوَرُ السُّخْرِيَّةِ والاستِهْزاءِ

1. السُّخْرِيَّةُ بالقولِ أو بالمحاكاةِ في الفِعلِ والقولِ، أو بالإشارةِ والإيماءِ، أو بالضَّحِكِ:

قال ابنُ النَّحَّاسِ: (واعلَمْ أنَّ معنى السُّخْرِيَّةِ: الاستِحقارُ والاستِهانةُ والتَّنبيهُ على العُيوبِ والنَّقائِصِ على وَجهٍ يُضحَكُ منه، وقد يكونُ ذلك بالمحاكاةِ في الفِعلِ والقَولِ، وقد يكونُ بالإشارةِ والإيماءِ، وقد يكونُ بالضَّحِكِ، كأن يَضحَكَ على كلامِه إذا تخبَّط فيه أو غَلِط، أو على صَنعتِه، أو قُبحٍ في صورتِه، ونحوِ ذلك)[5677].

2. الهَمْزُ واللَّمْزُ:

وقد نهى اللهُ عزَّ وجَلَّ عن الهَمْزِ واللَّمزِ في كتابِه، وتوعَّد مَن يفعَلُ ذلك؛ قال ابنُ تَيميَّةَ: (اللَّمْزُ: هو العَيبُ والطَّعنُ، ومنه قَولُه تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} [التوبة: 58]، أي: يَعيبُك ويَطعَنُ عليك، وقَولُه: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ} [التوبة: 79]، وقَولُه: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} [الحجرات: 11]، أي: لا يَلمِزْ بعضُكم بعضًا، كقَولِه: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور: 12] ... والهَمزُ: العَيبُ والطَّعنُ بشِدَّةٍ وعُنفٍ، ومنه: هَمَز الأرضَ بعَقِبِه، ومنه الهَمْزةُ، وهي نَبرةٌ من الصَّدرِ)[5678].

و(اللَّمزُ: هو أن يعيبَ الإنسانُ أخاه في وَجهِه بكلامٍ ولو خَفيًّا، ورُبَّ لَمزٍ خَفيٍّ هو أشدُّ مِن طعنٍ صريحٍ، وأعمَقُ جُرحًا في داخِلِ النَّفسِ؛ لأنَّ فيه بالإضافةِ إلى الطَّعنِ والتَّجريحِ بالعَيبِ معنى استغباءِ الملموزِ واستِغفالِه، فكأنَّ اللَّامِزَ يُشعِرُ الذين في المجلِسِ أنَّ الملموزَ غبيٌّ لا يتنَبَّهُ إلى الطَّعنِ الذي يوجَّهُ ضِدَّه في رمزِ الكلامِ.

واللَّمزُ قبيحةٌ اجتماعيَّةٌ تورِثُ الأحقادَ والأضغانَ، وتقطَعُ أواصِرَ الأخُوَّةِ الإيمانيَّةِ، وهو ظُلمٌ من الإنسانِ لأخيه الإنسانِ، وعُدوانٌ على حَقِّه عليه)[5679].

قال سُبحانَه: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} [الحجرات: 11] (فجَعَل اللَّامِزَ أخاه لامِزًا نفسَه؛ لأنَّ المُؤمِنين كرَجُلٍ واحدٍ فيما يلزَمُ بعضُهم لبعضٍ من تحسينِ أمرِه، وطلَبِ صلاحِه، ومحبَّتِه الخَيرَ)[5680].

وقال أبو السُّعودِ: (مَناطُ الخَيريَّةِ... ليس ما يَظهَرُ للنَّاسِ من الصُّوَرِ والأشكالِ، ولا الأوضاعِ والأطوارِ التي عليها يدورُ أمرُ السُّخْرِيَّةِ غالبًا، بل إنَّما هو الأمورُ الكامنةُ في القُلوبِ، فلا يجتَرِئُ أحَدٌ على استحقارِ أحَدٍ؛ فلعَلَّه أجمعُ منه لِما نيطَ به الخيريَّةُ عِندَ اللهِ تعالى، فيَظلِمَ نفسَه بتحقيرِ مَن وَقَّره اللهُ تعالى، والاستهانةِ بمَن عظَّمَه اللهُ تعالى)[5681].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الهمزِ واللَّمزِ:**

اختُلِف في الفَرْقِ بَيْنَ الهَمزِ واللَّمزِ:

[5676] يُنظَر: ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (2/223)، ((التفسير الكبير)) للرازي (2/64). ((نضرة النعيم)) (9/3883)، (10/4614)

[5677] ((تنبيه الغافلين)) (ص: 180).

[5678] ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (5/236)

[5679] ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (2/226)

[5680] ((جامع البيان)) لابن جرير (22/298)

[5681] ((إرشاد العقل السليم)) (6/186)

فقيل: الهَمزُ: عيبُ النَّاسِ مِن خَلفِهم، واللَّمزُ: عَيبُهم مواجَهةً.

وقيل بعَكسِ ذلك؛ فالهَمزُ: الطَّعنُ في وَجهِ الرَّجلِ، واللَّمزُ: اغتيابُ الرَّجُلِ مِن خَلفِه إذا غاب.

وقيل: الهَمزُ: بالقَولِ، واللَّمزُ: بالفِعلِ.

وقيل بعَكسِ ذلك؛ فالهَمزُ: عَيبُ النَّاسِ والطَّعنُ عليهم بالإشارةِ والفِعلِ. واللَّمزُ: عَيبُهم بالقَولِ.

وقيل: الهَمزُ واللَّمزُ: كِلاهما بمعنًى واحِدٍ، وهو العَيبُ والطَّعنُ[5682].

3. التَّنابُزُ بالألقابِ:

(اللَّقَبُ: هو ما يُدعى به الشَّخصُ مِن لَفظٍ غيرِ اسمِه وغيرِ كُنيتِه، وهو قِسمانِ: قَبيحٌ، وهو ما يَكرَهُه الشَّخصُ لكونِه تقصيرًا به وذَمًّا. وحسَنٌ، وهو بخِلافِ ذلك، كالصِّدِّيقِ لأبي بَكرٍ، والفاروقِ لعُمَرَ، وأسَدِ اللهِ لحَمزةَ، رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم)[5683].

قال ابنُ عبَّاسٍ: (التَّنابُزُ بالألقابِ: أن يكونَ الرَّجُلُ قد عَمِل السَّيِّئاتِ ثمَّ تاب، فنهى اللهُ أن يُعَيَّرَ بما سلَف مِن عَمَلِه)[5684].

ثمَّ إنَّ التَّنابُزَ بالألقابِ التي هي (ممَّا يؤذي النَّاسَ؛ إذ يَحمِلُ معنى التَّحقيرِ والإهانةِ، نهى اللهُ عنه، وجَعَله من المحرَّماتِ، وجعلَه من الفُسوقِ والظُّلمِ، وربَّما يَصِلُ التَّنابُزُ بالألقابِ إلى مستوى الشَّتيمةِ، كالنَّبزِ بالحِمارِ، والثَّورِ، والكَلبِ، ونحوِ ذلك.

ومن شأنِ التَّنابُزِ بالألقابِ أنَّه يقطَعُ أواصِرَ الأخُوَّةِ الإيمانيَّةِ، ويُفسِدُ المودَّاتِ، ويولِّدُ العداواتِ والأحقادَ، ورُبَّما يوصِلُ إلى التَّقاتُلِ مع ثَوراتِ الغَضَبِ، وهَيَجانِ الحماقاتِ)[5685].

ويُستثنى من النَّهيِ بالتَّنابُزِ بالألقابِ الألقابُ الحَسَنةُ، كالصِّديقِ، والفاروقِ وغيرِها، وكذلك التي هي للشُّهرةِ، كالأعمَشِ وغيرِه.

وقال الخازِنُ: (قال بعضُ العُلَماءِ: المرادُ بهذه الألقابِ ما يَكرَهُه المنادى به أو يفيدُ ذَمًّا له، فأمَّا الألقابُ التي صارت كالأعلامِ لأصحابِها، كالأعمَشِ والأعرَجِ وما أشبَهَ ذلك، فلا بأسَ بها، إذا لم يكرَهْها المدعوُّ بها، وأمَّا الألقابُ التي تكسِبُ حَمدًا ومدحًا تكونُ حَقًّا وصِدقًا، فلا يُكرَهُ، كما قيل لأبي بَكرٍ: عتيقٌ، ولعُمَرَ: الفاروقُ، ولعُثمانَ: ذو النُّورَينِ، ولعَليٍّ: أبو تُرابٍ، ولخالِدٍ: سَيفُ اللهِ، ونحوِ ذلك)[5686].

4. التَّعييرُ والتَّهكُّمُ:

[5682] يُنظَر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (2/ 311)، ((إصلاح المنطق)) لابن السكيت (ص: 304)، ((الصحيح)) للبخاري (8/ 17)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (5/ 361)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص53، 54).

[5683] ((تفسير البحر المحيط)) لأبي حيان الأندلسي (8/79)

[5684] رواه الطبري في ((التفسير)) (22/301)

[5685] ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (2/227)

[5686] ((لباب التأويل)) (4/181)

والتَّعييرُ: ذِكر ما يُوجِبُ العارَ[5687]، فيَذُمُّ الرَّجُلَ ويتنقَّصُه ويُظهِرُ عَيبَه؛ ليُنفِّرَ النَّاسَ عنه؛ إمَّا محبَّةً لإيذائِه أو لعداوتِه، أو مخافةً من مزاحمتِه على مالٍ أو رئاسةٍ، أو غيرِ ذلك من الأسبابِ المذمومةِ، فلا يَتوَصَّلُ إلى ذلك إلَّا بإظهارِ الطَّعنِ فيه[5688]

وقال الكَفَويُّ في معنى التَّهكُّمِ: (هو ما كان ظاهِرُه جِدًّا وباطِنُه هَزْلًا، والهَزْلُ الذي يرادُ به الجِدُّ بالعَكسِ، ولا تخلو ألفاظُ التَّهكُّمِ من لفظةٍ من اللَّفظِ الدَّالِّ على نوعٍ من أنواعِ الذَّمِّ، أو لفظةٍ مِن معناها الهَجْوُ)[5689].

عن المعرورِ بنِ سُوَيدٍ قال: ((لَقيتُ أبا ذَرٍّ بالرَّبَذةِ، وعليه حُلَّةٌ[5690]، وعلى غُلامِه حُلَّةٌ، فسألْتُه عن ذلك فقال: إنِّي سابَبْتُ رجُلًا فعَيَّرْتُه بأمِّه، فقال لي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا أبا ذَرٍّ، أعيَّرْتَه بأمِّه؟ إنَّك امرؤٌ فيك جاهليَّةٌ! إخوانُكم خَوَلُكم[5691] جعَلَهم اللهُ تحتَ أيديكم؛ فمن كان أخوه تحتَ يَدِه فلْيُطعِمْه ممَّا يأكُلُ، ولْيُلبِسْه ممَّا يَلبَسُ، ولا تُكَلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإن كَلَّفْتُموهم فأعينوهم))[5692].

5. **السُّخْريَّةُ والاستِهْزاءُ والتَّهكُّمُ عن طريقِ وسائلِ التَّواصُلِ**، بنَشرِ المقاطِعِ المصَوَّرةِ، وكتابةِ التَّعليقاتِ السَّاخرةِ، وكذلك ما يُعرَفُ بالبرامِجِ السَّاخِرةِ، والرُّسومِ المعروفةِ بـ(الكاريكاتير) .

المطلب السادس: أسبابُ السُّخْريَّةِ والاستِهْزاءِ

أسبابُ السُّخْريَّةِ ودوافِعُها كثيرةٌ؛ منها:

1. الكِبرُ الذي يلازِمُه بَطَرُ الحَقِّ وغَمطُ النَّاسِ.
2. الرَّغبةُ بتحطيمِ مكانةِ الآخَرينَ.
3. التَّسليةُ والضَّحِكُ على حِسابِ آلامِ الآخَرينَ.
4. الاستِهانةُ بأقوالِ الآخَرينَ وأعمالِهم، أو خِلقتِهم، أو طبائِعِهم، أو أُسَرِهم أو أنسابِهم، إلى غيرِ ذلك.
5. الفَراغُ وحُبُّ إضحاكِ الآخَرينَ[5693].

المطلب السابع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ السُّخْريَّةِ والاستِهْزاءِ

1. أن يتفَكَّرَ في الآثارِ المترتِّبةِ على السُّخْريَّةِ والاستِهْزاءِ.
2. حِفظُ اللِّسانِ ومَعرفةُ خُطورةِ إطلاقِه، وقد مرَّ أعرابيٌّ بمجلسِ قومٍ، فسَخِروا منه واستهزَؤوا به، فرَجَع إليهم وقال: يا هؤلاءِ، إنَّ النَّاسَ رَجُلان: مُتكَلِّمٌ غانمٌ، وساكِتٌ سالمٌ، فواللهِ ما سَلِمتُم سلامةَ الصَّامِتِ، ولا غَنِمتُم غنيمةَ المتكَلِّمِ[5694].
3. أن يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسِه، وأن يكرَهَ له ما يكرَهُه لنَفسِه.

[5687] ((كشف المشكل من حديثِ الصحيحين)) لابن الجوزي (453 /4)

[5688] ((الفرق بين النصيحة والتعيير)) لابن رجب (ص: 25).

[5689] ((الكليات)) (ص: 303) .

[5690] الحُلَّةُ: ثوبانِ لا يكونُ واحِدًا وهما إزارٌ ورداءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (219 /4)

[5691] خوَلُكم، أي: خَدَمُكم وعَبيدُكم. يُنظَر: ((فتح الباري)) لابن حجر (115 /1)

[5692] رواه البخاري (30) واللفظ له، ومسلم (1661)

[5693] يُنظَر: ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (2/223)

[5694] ((التذكرة الحمدونية)) (208 /7)

4. حُسنُ اختيارِ الأصحابِ، والبُعدُ عن رُفَقاءِ السُّوءِ.
5. أن يَعلَمَ أنَّ المُسلِمَ مَن سَلِمَ المُسلِمون مِن لِسانِه ويَدِه.
6. أن يَحذَرَ أن يُصيبَه مِثلُ الذي سَخِر بسَبَبِه من النَّاسِ.
7. الإكثارُ من الدُّعاءِ أن يَرزُقَه اللهُ حُسنَ الخُلُقِ .
8. تقويةُ الإيمانِ والانشِغالُ بالأعمالِ الصَّالحةِ .

المطلب الثامن: حُكمُ السُّخْريَّةِ والاستِهْزاءِ

- **حُكمُ الاستِهْزاءِ باللهِ وآياتِه ورَسولِه:**

حُكمُ الاستِهْزاءِ باللهِ وآياتِه ورَسولِه كُفْرٌ يخرِجُ صاحِبَه من الملَّةِ؛ قال تعالى: يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ [التوبة: 64-66] ؛ قال ابنُ تَيميَّةَ: (وهذا نصٌّ في أنَّ الاستِهْزاءَ باللهِ وآياتِه ورَسولِه كُفْرٌ)[5695].

وقال الفَخرُ الرَّازيُّ: (إنَّ الاستِهْزاءَ بالدِّينِ -كيف كان- كُفْرٌ باللهِ؛ وذلك لأنَّ الاستِهْزاءَ يدُلُّ على الاستخفافِ، والعُمدةُ الكبرى في الإيمانِ تعظيمُ اللهِ تعالى بأقصى الإمكانِ، والجمعُ بَيْنَهما مُحالٌ)[5696].

وقال النَّوويُّ: (الأفعالُ الموجِبةُ للكُفرِ هي التي تصدُرُ عن تعَمُّدٍ واستهزاءٍ بالدِّينِ صريحٍ)[5697].

وقال السَّعديُّ: (إنَّ الاستِهْزاءَ باللهِ ورَسولِه كُفْرٌ يُخرِجُ عن الدِّينِ؛ لأنَّ أصلَ الدِّينِ مَبنيٌّ على تعظيمِ اللهِ، وتعظيمِ دينِه ورُسُلِه، والاستِهْزاءُ بشَيءٍ من ذلك مُنافٍ لهذا الأصلِ، ومناقِضٌ له أشَدَّ المناقَضةِ)[5698].

- **حُكمُ الاستِهْزاءِ والسُّخْريَّةِ من المُؤمِنين:**

الاستِهْزاءُ بالمُؤمِنين والسُّخْريَّةُ منهم لها حالتانِ:

الحالةُ الأولى: الاستِهْزاءُ والسُّخْريَّةُ بالمُؤمِنين بخَلْقِهم أو خُلُقِهم، وهو مُحَرَّمٌ بالإجماعِ؛ قال ابن حجر الهيتمي: (وقد قام الإجماعُ على تحريمِ ذلك)[5699].

الحالةُ الثَّانيةُ: الاستِهْزاءُ بالمُؤمِنين بسَبَبِ تمسُّكِهم بالإسلامِ، وهذا يُراعى فيه أمرانِ:

- الأمرُ الأوَّلُ: أن يكونَ المُستهزِئُ جاهِلًا بأنَّ ما يَستهزِئُ به من الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ.
- الأمرُ الثَّاني: ألَّا يقصِدَ المُستهزِئُ باستهزائِه ما يقومُ به المُسلِمُ من الطَّاعاتِ.

[5695] ((الصارم المسلول)) (ص: 31)
[5696] ((التفسير الكبير)) (16/95)
[5697] ((روضة الطالبين وعمدة المفتين)) (64 /10)
[5698] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 342).
[5699] ((الزواجر)) (2/33)

فإذا انتفى هذان الأمرانِ، وقَصَد الاستِهْزاءَ بالمُسلِمِ بسَبَبِ تمسُّكِه بالدِّينِ، فهذا حُكمُه الرِّدَّةُ عن الإسلامِ.

وقد جاء في فتوى اللَّجنةِ الدَّائمةِ: (سبُّ الدِّينِ والاستِهْزاءُ بشَيءٍ من القُرآنِ والسُّنَّةِ، والاستِهْزاءُ بالمتمسِّكِ بهما نظَرًا لِما تمسَّك به، كإعفاءِ اللِّحيةِ وتحَجُّبِ المُسلِمةِ: هذا كُفرٌ إذا صَدَر من مُكلَّفٍ، وينبغي أن يُبيَّنَ له أنَّ هذا كُفرٌ، فإن أصَرَّ بعد العِلمِ فهو كافِرٌ؛ قال اللهُ تعالى: {قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة:65 - 66])[5700].

وسُئِل ابنُ عُثَيمين عن حُكمِ مَن يَسخَرُ بالملتَزِمين بدينِ اللهِ، ويَستهزِئُ بهم؟

فأجاب بقَولِه: (هؤلاء الذين يَسخَرون بالملتَزِمين بدينِ اللهِ، المتَفَّذين لأوامرِ اللهِ: فيهم نوعُ نفاقٍ؛ لأنَّ اللهَ قال عن المُنافِقين: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: 79] ، ثمَّ إن كانوا يَستهزِئون بهم من أجْلِ ما هم عليه من الشَّرعِ، فإنَّ استهزاءَهم بهم استهزاءٌ بالشَّريعةِ، والاستِهْزاءُ بالشَّريعةِ كُفرٌ، أمَّا إذا كانوا يَستَهزِئون بهم يعنون أشخاصَهم وزيَّهم بقَطعِ النَّظَرِ عمَّا هم عليه من اتِّباعِ السُّنَّةِ، فإنَّهم لا يكفُرون بذلك؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَستهزئُ بالشَّخصِ نفسِه بقَطعِ النَّظَرِ عن عَمَلِه وفِعلِه، لكِنَّهم على خَطَرٍ عظيمٍ)[5701].

أمَّا سُخريَّةُ الإنسانِ ممَّن يَسخَرُ منه فجائزةٌ، وهذا من العَدلِ؛ لأنَّه يقابِلُ السُّخْريَّةَ بمِثلِها، ومع ذلك فتَركُها أَولى؛ قال اللهُ تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل: 126].

وقال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى: 40].

وذَكَر اللهُ عن نوحٍ وقومِه: {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} [هود: 38]. فقابَل نوحٌ عليه السَّلامُ والمُؤمِنون معه سُخريَّةَ الكُفَّارِ منهم بسُخريَّةٍ.

وقد أخبَرَنا اللهُ عزَّ وجَلَّ أنَّه يَسخَرُ من المُنافِقين؛ مقابلةً لسُخريَّتِهم ومجازاةً عليها، فقال تعالى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: 79].

قال ابنُ تَيميَّةَ: (لَفظُ المكرِ والاستِهْزاءِ والسُّخْريَّةِ المضافُ إلى اللهِ... زعَموا أنَّه مُسمًّى باسمِ ما يُقابِلُه على طريقِ المَجازِ، وليس كذلك، بل مُسمَّياتُ هذه الأسماءِ إذا فُعِلَتْ بمَن لا يستحِقُّ العقوبةَ كانت ظُلمًا له، وأمَّا إذا فُعِلَتْ بمَن فعَلَها بالمَجنيِّ عليه؛ عقوبةً له بمِثلِ فِعْلِه، كانت عَدْلًا، كما قال تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} [يوسف: 76] ، فكادَ له كما كادَتْ إخوتُه لَمَّا قال له أبوه: {لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا} [يوسف: 5] ، وقال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق: 15-16] ، وقال تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ} [النمل: 50-51] ، وقال تعالى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ} [التوبة: 79])[5702].

[5700] ((فتاوى اللجنة الدائمة)) (1/387)

[5701] ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (2/158)

[5702] ((مجموع الفتاوى)) (7/111)

المطلب التاسع: أخطاءٌ شائِعةٌ

من الأخطاءِ الشَّائعةِ انتِشارُ السُّخْريَّةِ والاستِهْزاءِ تحتَ مُسَمَّياتٍ كثيرةٍ، وقد أصبحت من وسائِلِ التَّعبيرِ المنتَشِرةِ، وتجاوَزَ الأمرُ السُّخْريَّةَ والاستِهْزاءَ بالأشخاصِ إلى السُّخْريَّةِ والاستِهْزاءِ بالدِّينِ وتعاليمِه وحَمَلتِه من العُلَماءِ وطَلَبةِ العِلمِ والدُّعاةِ والمتمسِّكين به، حتَّى وصل الأمرُ إلى التَّطاوُلِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بدعوى حُرِّيَّةِ الرَّأيِ والتَّعبيرِ!

وقد قال اللهُ تعالى مدافِعًا عن نبيِّه: إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ [الحجر: 95] (وهذا وعدٌ من اللهِ لرَسولِه ألَّا يَضُرَّه المُستَهزِئون، وأن يكفيَه اللهُ إيَّاهم بما شاء من أنواعِ العُقوبةِ. وقد فعل تعالى؛ فإنَّه ما تظاهَرَ أحدٌ بالاستِهْزاءِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبما جاء به إلَّا أهلَكه اللهُ، وقتَله شَرَّ قِتلةٍ)[5703].

وقال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام: 10] (يقولُ تعالى ذِكْرُه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُسَلِّيًا عنه بوعيدِه المُستهزِئين به عقوبةَ ما يلقى منهم من أذى الاستِهْزاءِ به والاستخفافِ في ذاتِ اللهِ: هَوِّنْ عليك -يا محمَّدُ- ما أنت لاقٍ من هؤلاء المستَهزِئين بك المُستخفِّين بحَقِّك فيَّ وفي طاعتي، وامضِ لِما أمَرْتُك به من الدُّعاءِ إلى توحيدي والإقرارِ بي والإذعانِ لطاعتي؛ فإنَّهم إن تمادَوا في غَيِّهم وأصرُّوا على المُقامِ على كُفرِهم، نَسلُكْ بهم سبيلَ أسلافِهم من سائِرِ الأمَمِ غيرِهم من تعجيلِ النِّقمةِ لهم، وحُلولِ المَثُلاتِ بهم؛ فقد استهزأَتْ أُمَمٌ مِن قَبلِك برُسُلٍ أرسَلْتُهم إليهم بمِثلِ الذي أرسَلْتُك به إلى قومِك، وفَعَلوا مِثلَ فِعلِ قَومِك بك، فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، يعني بقَولِه: فَحَاقَ فنزَل وأحاط بالذين هَزِئوا برُسُلِهم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ يقولُ: العذابُ الذي كانوا يَهزَؤون به ويُنكِرون أن يكونَ واقعًا بهم على ما أنذَرَتْهم رُسُلُهم).[5704]

المطلب العاشر: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

كانوا يقولون: (عَشرٌ في عَشَرةٍ هي فيهم أقبَحُ منها في غَيرِهم: الضِّيقُ في المُلوكِ، والغَدرُ في ذَوي الأحسابِ، والحاجةُ في العُلَماءِ، والكَذِبُ في القُضاةِ، والغَضَبُ في ذوي الألبابِ، والسَّفاهةُ في الكُهولِ، والمَرَضُ في الأطبَّاءِ، والاستِهْزاءُ في أهلِ البُؤسِ، والفَخرُ في أهلِ الفاقةِ، والشُّحُّ في الأغنياءِ)[5705].

[5703] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 435)

[5704] ((جامع البيان)) للطبري (165 /9)

[5705] ((البيان والتبيين)) للجاحظ (309 /3)

المَبْحَثُ السَّادِسُ والعِشْرُونَ: الغِيبَةُ

المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الغِيبةِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى الغِيبةِ لُغةً:**

الغِيبةُ: الوقيعةُ في النَّاسِ؛ لأنَّها لا تُقالُ إلَّا في غَيبةٍ، يُقالُ: اغتابه اغتيابًا: إذا وقَع فيه وذَكَره بما يَكرَهُ من العُيوبِ وهو حقٌّ، والاسمُ الغِيبةُ، وهي ذِكرُ العَيبِ بظَهرِ الغَيبِ، وغابه: عابه، وذَكَره بما فيه من السُّوءِ، كاغتابه[5706].

- **معنى الغِيبةِ اصطِلاحًا:**

قال ابنُ التِّينِ: (الغِيبةُ: ذِكرُ المرءِ بما يَكرَهُه بظَهرِ الغَيبِ)[5707].

وعرَّفها الجَوهَريُّ بقَولِه: (أن يتكلَّمَ خَلفَ إنسانٍ مستورٍ بما يَغُمُّه لو سَمِعه، فإن كان صِدقًا سُمِّي غِيبةً، وإن كان كَذِبًا سُمِّيَ بُهتانًا)[5708].

وقال المُناويُّ: (هي ذِكرُ العَيبِ بظَهرِ الغَيبِ بلفظٍ أو إشارةٍ أو مُحاكاةٍ)[5709].

وفي الحديثِ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في بيانِ حقيقةِ الغِيبةِ: ((ذِكْرُك أخاك بما يَكرَهُ))[5710].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الغِيبةِ وبَعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الغِيبةِ والإفكِ والبُهتانِ:**

قال الحَسَنُ: (الغِيبةُ ثلاثةُ أوجُهٍ كُلُّها في كتابِ اللهِ تعالى: الغِيبةُ، والإفْكُ، والبُهتانُ؛ فأمَّا الغِيبةُ فهو أن تقولَ في أخيك ما هو فيه.

وأمَّا الإفكُ فأن تقولَ فيه ما بلَغَك عنه.

وأمَّا البُهتانُ فأن تقولَ فيه ما ليس فيه)[5711].

وقال الجُرْجانيُّ: (الغِيبةُ ذِكرُ مَساوئِ الإنسانِ التي فيه في غَيبةٍ.

والبُهتانُ ذِكرُ مَساوئِ الإنسانِ، وهي ليست فيه)[5712].

[5706] ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (335/16)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي، ((المصباح المنير)) للفيومي.

[5707] ((فتح الباري)) لابن حجر (469/10).

[5708] ((الصحاح في اللغة)) (196/1).

[5709] ((فيض القدير)) (166/3).

[5710] رواه مسلم (2589).

[5711] ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (335/16).

[5712] ((التعريفات)) (ص: 210).

وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في بيانِ الفَرْقِ بَيْنَ الغِيبةِ والبُهتانِ: ((إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتَبْتَه، وإنْ لم يكُنْ فيه فقد بهَتَّه))[5713].

- **الفَرْقُ بَيْنَ الغِيبةِ والنَّميمةِ والهَمْزِ واللَّمْزِ:**

الغِيبةُ: ذِكْرُك أخاك بما يَكرَهُ إن سمِعَه، وإنَّما حُرِّمَت لِما فيها من مفسَدةِ إفسادِ العِرْضِ. والنَّميمةُ: نَقلُ كَلامِ النَّاسِ بعضِهم إلى بعضٍ على وَجهِ الإفسادِ بَيْنَهم؛ فحُرِّمَت لِما فيها من مفسَدةِ إلقاءِ البِغضةِ بَيْنَ النَّاسِ، فحقيقةُ النَّميمةِ إفشاءُ السِّرِّ، وهَتْكُ السِّترِ عمَّا يُكرَهُ كَشْفُه، فإن كان ما يَتُمُّ به نقصًا أو عيبًا في المحكيِّ عنه فهو غِيبةٌ ونميمةٌ[5714].

قال ابنُ حَجَرٍ: (اختُلِفَ في الغِيبةِ والنَّميمةِ: هل هما متغايرتانِ أو متَّحِدتانِ، والرَّاجِحُ التَّغايُرُ، وأنَّ بَيْنَهما عُمومًا وخُصوصًا وَجهيًّا؛ وذلك لأنَّ النَّميمةَ نَقلُ حالِ شَخصٍ لغيرِه على جِهةِ الإفسادِ بغيرِ رِضاه، سواءٌ كان بعِلمِه أم بغيرِ عِلمِه.

والغِيبةُ ذِكرُه في غَيبتِه بما لا يُرضيه، فامتازت النَّميمةُ بقصدِ الإفسادِ، ولا يُشتَرَطُ ذلك في الغِيبةِ.

وامتازت الغِيبةُ بكَونِها في غَيبةِ المقولِ فيه، واشتركا فيما عدا ذلك.

ومن العُلَماءِ مَن يَشترِطُ في الغِيبةِ أن يكونَ المقولُ فيه غائبًا، واللَّهُ أعلمُ)[5715].

وقال ابن حجر الهيتمي: (كُلُّ نميمةٍ غِيبةٌ، وليس كُلُّ غِيبةٍ نميمةً؛ فإنَّ الإنسانَ قد يذكُرُ عن غيرِه ما يَكرَهُه، ولا إفسادَ فيه بينَه وبينَ أحَدٍ، وهذا غِيبةٌ، وقد يَذكُرُ عن غيرِه ما يَكرهُه، وفيه إفسادٌ، وهذا غِيبةٌ ونميمةٌ معًا)[5716].

والهَمزُ: تعييبُ الإنسانِ بحُضورِه، واللَّمزُ: تعييبُه بغَيبتِه، فتكونُ هي الغِيبةَ، وقيل: بالعَكسِ، أي: أنَّ اللَّمزَ تعييبُه بحُضورِه، والهَمزَ تعييبُه بغَيبتِه، فتكونُ هي الغِيبةَ[5717].

المطلب الثالث: ذَمُّ الغِيبةِ والنَّهيُ عنها

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

- قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات:12] .

قال الشَّوكانيُّ: (فهذا نهيٌ قُرآنيٌّ عن الغِيبةِ، مع إيرادِ مَثَلٍ لذلك يزيدُه شِدَّةً وتغليظًا، ويوقِعُ في النُّفوسِ من الكراهةِ والاستِقذارِ لِما فيه ما لا يُقادَرُ قَدْرُه؛ فإنَّ أكْلَ لَحمِ الإنسانِ من أعظَمِ ما يَستقذِرُه بنو آدَمَ جِبِلَّةً وطَبعًا، ولو كان كافِرًا أو عَدُوًّا مُكافِحًا، فكيف إذا كان أخًا في النَّسَبِ، أو في الدِّينِ؟! فإنَّ الكراهةَ تتضاعَفُ بذلك، ويزدادُ الاستقذارُ، فكيف إذا

[5713] رواه مسلم (2589).

[5714] ((تهذيب الفروق للقرافي)) لعلي بن حسين (4/ 232). ويُنظَر: ((الذخيرة)) للقرافي (ص: 241).

[5715] ((فتح الباري)) (473/10).

[5716] ((تطهير العيبة من دنس الغيبة)) (ص: 45).

[5717] ((تهذيب الفروق للقرافي)) لعلي بن حسين (4/ 234).

كان مَيتًا؟! فإنَّ لحمَ ما يُستطابُ ويَحِلُّ أكلُه يَصيرُ مُستقذَرًا بالموتِ، لا يَشتهيه الطَّبعُ، ولا تَقبَلُه النَّفسُ، وبهذا يُعرَفُ ما في هذه الآيةِ من المبالغةِ في تحريمِ الغِيبةِ، بعدَ النَّهيِ الصَّريحِ عن ذلك)[5718].

- وقال تعالى: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} [الهمزة: 1].

قال الزَّجَّاجُ: (والهُمَزةُ اللُّمَزةُ: الذي يَغتابُ النَّاسَ ويَغُضُّهم)[5719].

وقال الزَّمخشَريُّ: (والمرادُ: الكَسرُ من أعراضِ النَّاسِ والغَضُّ منهم، واغتيابُهم، والطَّعنُ فيهم)[5720].

- وقال تعالى: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا [الإسراء: 36].

قال الرَّازيُّ: (القَفْوُ: هو البَهْتُ، وأصلُه من القَفا، كأنَّه قولٌ يُقالُ خَلْفَه، وهو في معنى الغِيبةِ، وهو ذِكرُ الرَّجُلِ في غَيبتِه بما يَسوءُه)[5721]. وذلك على أحَدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

ب- من السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((أتدرون ما الغِيبةُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: ذِكْرُك أخاك بما يَكرَهُ، قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟ قال: إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتَبْتَه، وإنْ لم يكُنْ فيه فقد بهَتَّه))[5722].

قال الغَزاليُّ: (اعلَمْ أنَّ الذِّكرَ باللِّسانِ إنَّما حُرِّم لأنَّ فيه تفهيمَ الغَيرِ نُقصانَ أخيك، وتعريفَه بما يَكرَهُه؛ فالتَّعريضُ به كالتَّصريحِ، والفِعلُ فيه كالقَولِ، والإشارةُ والإيماءُ والغَمزُ والهَمزُ والكتابةُ والحَرَكةُ وكُلُّ ما يُفهِمُ المقصودَ: فهو داخِلٌ في الغِيبةِ، وهو حرامٌ)[5723].

- وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّه قال: ((مرَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على قبرَينِ، فقال: إنَّهما ليُعَذَّبانِ، وما يُعَذَّبانِ في كبيرٍ! ثمَّ قال: بلى، أمَّا أحَدُهما فكان يسعى بالنَّميمةِ، وأمَّا الآخَرُ فكان لا يستتِرُ مِن بَولِه، قال: ثمَّ أخذ عودًا رَطْبًا، فكَسَره باثنتَينِ، ثمَّ غَرَز كُلَّ واحدٍ منهما على قَبرٍ، ثمَّ قال: لعَلَّه يُخَفَّفُ عنهما ما لم يَيْبَسا))[5724].

وهذا الحديثُ وإن كان في النَّميمةِ لكِنَّ الغِيبةَ مِن لوازِمِها؛ لأنَّ الذي يَنُمُّ ينقُلُ كلامَ الرَّجُلِ الذي اغتابه، ويُقالُ: الغِيبةُ والنَّميمةُ أختانِ، ومَن نَمَّ عن أحَدٍ فقد اغتابه، وقد وقَع في بعضِ طرُقِ هذا الحديثِ بلَفظِ الغِيبةِ[5725].

[5718] ((الفتح الرباني)) (11/5567-5568).

[5719] ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (5/ 361).

[5720] ((الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)) (4/ 794). ومن المفسِّرين مَن جَعَل الهُمَزةَ: الذي يعيبُ النَّاسَ مِن خَلفِهم، واللُّمَزةَ: من يعيبُهم مواجهةً، ومنهم من قال بعَكسِ ذلك؛ فجَعَل الهُمَزةَ: الذي يَطعَنُ في وَجهِ الرَّجُلِ، واللُّمَزةَ: الذي يغتابُه مِن خَلفِه إذا غاب. يُنظَر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (4/ 837)، ((تفسير القرطبي)) (20/ 181، 182).

[5721] ((مفاتيح الغيب)) (20/339).

[5722] رواه مسلم (2589).

[5723] ((إحياء علوم الدين)) (3/144).

[5724] رواه البخاري (1378) واللفظ له، ومسلم (292).

- وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: ((قلتُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: حَسْبُك من صَفيَّةَ كذا وكذا! فقال: لقد قُلتِ كَلِمةً لو مُزِجَت بماءِ البَحرِ لمزجَتْه!))[5726].

قال النَّوويُّ: (هذا الحديثُ من أعظَمِ الزَّواجِرِ عن الغِيبةِ أو أعظَمُها، وما أعلَمُ شيئًا من الأحاديثِ يَبلُغُ في الذَّمِّ لها هذا المبلَغَ!)[5727].

(فإذا كانت هذه الكَلِمةُ بهذه المثابةِ في مَزجِ البَحرِ الذي هو من أعظَمِ المخلوقاتِ، فما بالُك بغِيبةٍ أقوى منها!)[5728].

وقال ابنُ عُثَيمين: (معنى مزجَتْه: خالطَتْه مخالطةً يتغَيَّرُ بها طَعمُه أو ريحُه؛ لشِدَّةِ نَتْنِها وقُبحِها، وهذا من أبلَغِ الزَّواجِرِ عن الغِيبةِ)[5729].

- وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمِنًى: ((أتدْرونَ أيُّ يومٍ هذا؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. قال: فإنَّ هذا يومٌ حرامٌ. أفتدْرونَ أيُّ بَلَدٍ هذا؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: بَلَدٌ حرامٌ. أتدْرونَ أيُّ شَهرٍ هذا؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: شَهرٌ حرامٌ. قال: فإنَّ اللهَ حَرَّم عليكم دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم كحُرمةِ يَومِكم هذا في شَهرِكم هذا في بَلَدِكم هذا))[5730].

- وعن أبي بَكرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فإنَّ دِماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم بَيْنَكم حرامٌ كحُرمةِ يَومِكم هذا في شَهرِكم هذا في بَلَدِكم هذا، لِيُبلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ؛ فإنَّ الشَّاهِدَ عسى أن يُبَلِّغَ مَن هو أوعى له منه))[5731].

قال النَّوَويُّ: (المرادُ بذلك كُلِّه بيانُ توكيدِ غِلَظِ تحريمِ الأموالِ والدِّماءِ والأعراضِ، والتَّحذيرُ من ذلك)[5732].

- وعن أبي بَرْزةَ الأسلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا مَعشَرَ مَن آمَنَ بلِسانِه، ولم يدخُلِ الإيمانُ قَلبَه، لا تغتابوا المُسلِمين، ولا تتَّبِعوا عوراتِهم؛ فإنَّه من اتَّبع عوراتِهم يَتَّبِعِ اللهُ عورتَه، ومن يتَّبِعِ اللهُ عورتَه يفضَحْه في بيتِه))[5733].

[5725] ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) للعيني (208/8). قال العراقيُّ عن ذِكرِ الغيبةِ في الحديثِ: (أخرجه ابنُ أبي الدُّنيا في الصَّمتِ، وأبو العبَّاسِ الدغوليُّ في كتابِ الآدابِ بإسنادٍ جَيِّدٍ، وهو في الصَّحيحَينِ من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ، إلَّا أنَّه ذَكَر فيه النَّميمةَ بدَلَ الغِيبةِ، وللطَّيالسيِّ فيه: أمَّا أحَدُهما فكان يأكُلُ لحومَ النَّاسِ، ولأحمَدَ والطَّبرانيِّ من حديثِ ابنِ بكرةَ نحوُه بإسنادٍ جَيِّدٍ). ((المغني عن حمل الأسفار)) (3/ 142).

[5726] رواه أبو داود (4875) واللفظ له، والترمذي (2502)، وأحمد (25560). صحَّحه الترمذي، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (118)، والشوكاني في ((الفتح الرباني)) (5593/11)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4875)، والوادعي على شرط الشيخين في ((الصحيح المسند)) (1615).

[5727] ((الأذكار)) (ص: 338).

[5728] ((دليل الفالحين)) لابن علان (352/8).

[5729] ((شرح رياض الصالحين)) (126/6).

[5730] أخرجه البخاري (6043). وأخرجه أيضًا (1739) من حديثِ ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[5731] أخرجه البخاري (67) واللفظ له، ومسلم (1679).

[5732] ((شرح النووي على مسلم)) (169/11).

[5733] رواه أبو داود (4880) واللفظ له، وأحمد (19776). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4880)، وصحَّحه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (4880)، وجوَّد إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (250/2).

- وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَمَّا عُرِجَ بي مرَرْتُ بقَومٍ لهم أظفارٌ مِن نُحاسٍ يَخمُشون بها وُجوهَهم وصُدورَهم، فقُلتُ: مَن هؤلاء يا جِبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين يأكُلون لُحومَ النَّاسِ، ويقَعون في أعراضِهم))[5734].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: (اذكُرْ أخاك إذا توارى عنك بمِثْلِ الذي تحِبُّ أن يَذكُرَك)[5735].

- وعن عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه مَرَّ على بَغلٍ مَيِّتٍ، فقال لبعضِ أصحابِه: (لأَنْ يأكُلَ الرَّجُلُ من هذا حتَّى يملأَ بَطْنَه خيرٌ له من أن يأكُلَ لَحمَ رَجُلٍ مُسلِمٍ)[5736].

- وقال الحُمَيديُّ: سَمِعتُ الفُضَيلَ بنَ عِياضٍ يقولُ: قال محمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظيُّ: (إذا أراد اللهُ عزَّ وجَلَّ بعبدٍ خيرًا زهَّده في الدُّنيا، وفقَّهه في الدِّينِ، وبصَّرَه عُيوبَه). قال: (ثمَّ التفَت الفُضيلُ إلينا، فقال: ربَّما قال الرَّجُلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فأخشى عليه النَّارَ! قيل: وكيف ذاك؟! قال: يُغتابُ بَيْنَ يَدَيه رجُلٌ، فيُعجِبُه، فيقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وليس هذا موضِعَها، إنَّما هذا موضِعُ أن يَنصَحَ له في نفسِه، ويقولَ له: اتَّقِ اللهَ!)[5737].

- وعن محمَّدِ بنِ سِيرينَ أنَّه قال: (إنَّ أكثَرَ النَّاسِ خَطايا أكثَرُهم ذِكْرًا لخطايا النَّاسِ)[5738].

- وعن الشَّعبيِّ رَحِمَه اللهُ أنَّ العبَّاسَ بنَ عَبدِ المطَّلِبِ قال لابنِه عبدِ اللهِ: (يا بُنَيَّ، أرى أميرَ المُؤمِنين يُدنيك؛ فاحفَظْ منِّي خِصالًا ثلاثًا: لا تُفشِيَنَّ له سِرًّا، ولا يَسمَعَنَّ منك كَذِبًا، ولا تغتابَنَّ عنده أحَدًا)[5739].

- وقال أحمدُ بنُ عاصمٍ الأنطاكيُّ: (أشَرُّ مَكِنةِ الرَّجُلِ البَذاءُ -وهو الوقيعةُ منه، وهي الغِيبةُ- وذلك أنَّه لا ينالُ بذلك منفعةً في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، بل يُبغِضُه عليه المتَّقون ويَهجُرُه الغافِلون، وتجتَنِبُه الملائكةُ، وتفرَحُ به الشَّياطينُ... والغِيبةُ والنَّميمةُ قرينتانِ، ومخرَجُهما من طريقِ البَغيِ، والنَّمَّامُ قاتِلٌ، والمغتابُ آكِلُ الميتةِ، والباغي مُستكبِرٌ، ثلاثتُهم واحِدٌ، وواحِدُهم ثلاثةٌ، فإذا عوَّد نفسَه ذلك رفَعَه إلى دَرَجةِ البُهتانِ، فيَصيرُ مُغتابًا مباهِتًا كذَّابًا، فإذا ثبَت فيه الكَذِبُ والبُهتانُ صار مجانِبًا للإيمانِ.

ولا يَكسِبُ بالغِيبةِ تعجيلَ ثَناءٍ، ولا يبلُغُ به رئاسةً، ولا يَصِلُ به إلى مزيَّةٍ في دُنيا من مَطعَمٍ أو مَلبَسٍ ولا مالٍ، وهو عِندَ العُقَلاءِ منقوصٌ، وعندَ العامَّةِ سَفيهٌ، وعندَ الأمناءِ خائِنٌ، وعندَ الجُهَّالِ مذمومٌ. ولا يحتَمِلُه في نقصٍ إلَّا مَن كان في مِثْلِ حالِه...)[5740].

- وقال الأحنَفُ: (ما خان شَريفٌ، ولا كَذَب عاقِلٌ، ولا اغتاب مُؤمِنٌ)[5741].

[5734] أخرجه أبو داود (4878)، وأحمد (13340). صحَّحه ابن باز في ((مجموع فتاويه)) (239/9)، وقال الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (2/ 70): (صحيح على شرط مسلم). وقال شعيب في تخريج ((مسند أحمد)) (21/ 53): إسنادُه صحيحٌ على شَرطِ مسلمٍ.

[5735] رواه أبو الشيخ في ((التوبيخ والتنبيه)) (212).

[5736] رواه أبو داود في ((الزهد)) (334)، وأبو الشيخ في ((التوبيخ والتنبيه)) (239) مطوَّلًا.

[5737] رواه أبو بكر الدِّينَوَري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (663)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (144/55).

[5738] رواه أبو بكر الدِّينَوَري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (2406)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (215/53).

[5739] رواه الخرائطي في ((مكارم الأخلاق)) (706)، وابن بشران في ((الأمالي)) (1344).

[5740] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (9/ 291، 292).

- وقال أبو عاصمٍ: (ما اغتَبْتُ أحدًا مُنذُ عَلِمتُ أنَّ الغِيبةَ تَضُرُّ بأهلِها)[5742].

- وقال ابنُ الكَوَّاءِ للرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ: (ما نراك تعيبُ أحدًا ولا تَذُمُّه! فقال: وَيلَك يا بنَ الكوَّاءِ! ما أنا عن نفسي براضٍ فأتفَرَّغَ من ذنبي إلى حديثِ النَّاسِ! إنَّ النَّاسَ خافوا اللهَ على ذنوبِ النَّاسِ، وأمِنوه على نُفوسِهم)[5743].

- وقال ابنُ المبارَكِ: (لو كنتُ مُغتابًا أحَدًا لاغتَبْتُ والِدَيَّ؛ لأنَّهما أحَقُّ بحَسَناتي!)[5744].

- وعن الحَسَنِ البَصريِّ أنَّ رَجُلًا قال له: إنَّك تغتابُني، فقال: (ما بلَغَ قَدْرُك عندي أن أحَكِّمَك في حَسَناتي!)[5745].

- وعن ابنِ سيرينَ أنَّه ذَكَر الغِيبةَ، فقال: (ألم تَرَ إلى جيفةٍ خَضراءَ مُنتِنةٍ؟!)[5746].

- وقال الغَزاليُّ: (الغِيبةُ هي الصَّاعِقةُ المُهلِكةُ للطَّاعاتِ، ومَثَلُ مَن يغتابُ كمَنَ ينصِبُ منجنيقًا، فهو يرمي به حَسَناتِه شَرقًا وغَربًا، ويمينًا وشِمالًا!)[5747].

- قال عَدِيُّ بنُ حاتِمٍ: (الغِيبةُ مرعى اللِّئامِ)[5748].

- سَمِع عَليُّ بنُ الحُسَينِ رَجُلًا يغتابُ رَجُلًا، فقال: (إيَّاك والغِيبةَ؛ فإنَّها إدامُ كِلابِ النَّاسِ!)[5749].

- قال يحيى بنُ مُعاذٍ الرَّازيُّ: (لِيَكُنْ حظُّ المُؤمِنِ منك ثلاثةً: إنْ لم تنفَعْه فلا تَضُرَّه، وإنْ لم تُفرِحْه فلا تَغُمَّه، وإنْ لم تَمدَحْه فلا تَذُمَّه)[5750].

- قال يحيى بنُ أبي كثيرٍ: (يصومُ الرَّجُلُ عن الحلالِ الطَّيِّبِ، ويُفطِرُ على الحرامِ الخَبيثِ؛ لحمِ أخيه!) يعني: اغتيابَه[5751].

- قال سُلَيمانُ بنُ سالمٍ: قال لي أبو سِنانٍ: (إذا كان طالِبُ العِلمِ لا يتعَلَّمُ أو قبلَ أن يتعَلَّمَ مسألةً في الدِّينِ، يتعَلَّمُ الوقيعةَ في النَّاسِ، متى يُفلِحُ؟!)، وكان لا يتكَلَّمُ أحدٌ في مجلِسِه بغِيبةٍ في أحَدٍ، فإذا تكَلَّم بذلك نهاه وأسكَتَه[5752].

- قال أبو عُثمانَ سعيدُ بنُ الحَدَّادِ: (مَن شُغِل بذِكرِ مَساوئِ النَّاسِ تَرَك حَظَّه من الشُّغلِ بمساوئِ نفسِه، ومَن شُغِل بالفِكرِ في مساوئِ نَفسِه أذهَله ذلك عن الشُّغلِ بمساوئِ النَّاسِ، ومساوئُ نفسِه هي التي تضُرُّه، ومساوئُ النَّاسِ لا تَضُرُّه)[5753].

- قال أبو حاتمٍ: (أربَحُ التِّجارةِ ذِكرُ اللهِ، وأخسَرُ التِّجارةِ ذِكرُ النَّاسِ)[5754].

[5741] ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (2/ 31، 32).

[5742] رواه البخاري في ((التاريخ الكبير)) (336/4)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (363/24).

[5743] رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (110/2).

[5744] ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (245/9)، ((سنن الصالحين)) للباجي (ص: 586).

[5745] ((الأذكار النووية)) (ص: 340).

[5746] رواه وكيع في ((الزهد)) (432)، وهناد في ((الزهد)) (564/2).

[5747] ينظر ((فيض القدير)) للمناوي (166/3).

[5748] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/ 398).

[5749] ((ذم الغيبة والنميمة)) لابن أبي الدنيا (161)، ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (297).

[5750] ((الزهد والرقائق)) للخطيب البغدادي (91).

[5751] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (3/ 69).

[5752] ((ترتيب المدارك وتقريب المسالك)) للقاضي عياض (4/ 104).

[5753] ((رياض النفوس في طبقات عُلَماء القيروان وإفريقية)) لأبي بَكرٍ المالكي (2/ 107).

- وقال عبدُ الرَّحمنِ بنُ مَهديٍّ: (لولا أنِّي أكرهُ أن يُعصى اللهُ لتمنَّيتُ ألَّا يبقى في هذا المِصرِ أحدٌ إلَّا وقَعَ فيَّ واغتابني! وأيُّ شيءٍ أهنأُ من حَسَنةٍ يجِدُها الرَّجُلُ في صحيفتِه يومَ القيامةِ لم يعمَلْها ولم يعلَمْ بها؟!)[5755].

- وعن ابنِ المبارَكِ قال: (قُلتُ لسُفيانَ الثَّوريِّ: يا أبا عبدِ اللهِ، ما أبعَدَ أبا حنيفةَ من الغِيبةِ، ما سمِعتُه يغتابُ عَدُوًّا له قطُّ! قال: هو -واللهِ- أعقَلُ مِن أن يُسَلِّطَ على حَسَناتِه ما يُذهِبُ بها!)[5756].

- وقال سُفيانُ بنُ عُيَينةَ: (لو أنَّ رَجُلًا أصاب من مالِ رَجُلٍ شيئًا فتورَّع عنه بعدَ موتِه، فجاء به إلى وَرَثتِه، لكُنَّا نرى ذلك كَفَّارةً له، ولو أنَّ رجُلًا أصاب من عِرضِ رَجُلٍ شيئًا فتورَّع عنه بَعدَ مَوتِه، فجاء إلى وَرَثتِه وإلى جميعِ أهلِ الأرضِ فجَعَلوه في حِلٍّ، ما كان في حِلٍّ! فعِرْضُ المُؤمِنِ أشَدُّ من مالِه، افقَهوا ما يُقالُ لكم)[5757].

- وقال أيضًا: (الغِيبةُ أشَدُّ من الدَّينِ؛ الدَّينُ يقُضى، والغِيبةُ لا تُقضى)[5758].

المطلب الرابع: آثارُ الغِيبةِ وأضرارُها على الفَردِ والمجتَمَعِ

- **أضرارُ الغِيبةِ على الفَردِ:**

1- الغِيبةُ تزيدُ في رَصيدِ السَّيِّئاتِ، وتَنقُصُ من رصيدِ الحَسَناتِ:

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: ((قلتُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: حَسْبُك من صَفيَّةَ كذا وكذا! فقال: لقد قُلتِ كَلِمةً لو مُزِجَت بماءِ البَحرِ لمَزَجَتْه!))[5759].

(وهذا يدُلُّ على ما يَلحَقُ المُغتابَ من الإثمِ بسَبَبِ افتياتِه على خَلقِ اللهِ تعالى الذي حرَّم الغِيبةَ، وفي نفسِ الوَقتِ افتاتَ على حَقِّ الإنسانِ الذي اغتابَه)[5760].

2- صاحِبُ الغِيبةِ مُفلِسٌ يومَ القيامةِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أتدرونَ ما المُفلِسُ؟ قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لا دِرهمَ له ولا مَتاعَ، فقال: إنَّ المُفلِسَ مِن أمَّتي يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شتَمَ هذا، وقذَف هذا، وأكل مالَ هذا، وسفَكَ دمَ هذا، وضرَب هذا؛ فيُعطى هذا مِن حسناتِه، وهذا من حسناتِه، فإن فنِيَت حسناتُه قَبلَ أن يُقضى ما عليه أُخِذ مِن خطاياهم، فطُرِحَت عليه، ثُمَّ طُرِح في النَّارِ))[5761].

[5754] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/ 399).

[5755] ((التوبيخ والتنبيه)) لأبي الشيخ الأصبهاني (231)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (9/ 11)، ((شعب الإيمان)) للبيهقي (9/ 97).

[5756] ((تاريخ بغداد)) للخطيب (15/ 497)، ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (2/ 322).

[5757] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (7/ 278).

[5758] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (7/ 275).

[5759] رواه أبو داود (4875) واللفظ له، والترمذي (2502)، وأحمد (25560). صحَّحه الترمذي، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (118)، والشوكاني في ((الفتح الرباني)) (5593/11)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4875)، والوادعي على شرط الشيخين في ((الصحيح المسند)) (1615).

[5760] ((إبراء الذمة من حقوق العباد)) لنوح علي سليمان (604).

[5761] رواه مسلم (2581).

3- الغِيبةُ تُسَبِّبُ هَجرَ صاحِبِها:

قال ابنُ بازٍ: (الواجِبُ عليك وعلى غيرِك من المُسلِمين عَدَمُ مُجالسةِ من يغتابُ المُسلِمين، مع نصيحتِه والإنكارِ عليه؛ لقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن رأى منكم مُنكرًا فلْيُغَيِّرْه بيَدِه، فإنْ لم يستَطِعْ فبلِسانِه، فإنْ لم يستَطِعْ فبقَلبِه، وذلك أضعَفُ الإيمانِ))[5762]. فإن لم يمتثِلْ فاترُك مجالستَه؛ لأنَّ ذلك من تمامِ الإنكارِ عليه)[5763].

4- الغِيبةُ تَجرَحُ الصَّومَ:

قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن لم يَدَعْ قَولَ الزُّورِ والعَمَلَ به، فليس للهِ حاجةٌ في أن يدَعَ طعامَه وشَرابَه))[5764].

وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الصِّيامُ جُنَّةٌ، وإذا كان يومُ صَومِ أحَدِكم فلا يَرفُثْ ولا يَصخَبْ، فإن سابَّه أحَدٌ أو قاتَلَه فلْيَقُلْ: إنِّي امرؤٌ صائِمٌ))[5765].

5- يتتَبَّعُ اللهُ عَورةَ المغتابِ ويَفضَحُه في جَوفِ بيتِه:

فعن أبي بَرزةَ الأسلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا مَعشَرَ مَن آمَنَ بلِسانِه، ولم يدخُلِ الإيمانُ قَلبَه، لا تغتابوا المُسلِمين، ولا تتَّبِعوا عوراتِهم؛ فإنَّه من اتَّبع عوراتِهم يَتَّبِعِ اللهُ عورتَه، ومن يتَّبِعِ اللهُ عورتَه يفضَحْه في بيتِه))[5766].

6- الغِيبةُ تُوغِرُ صَدرَ من وقَعَت عليه الغِيبةُ، وتملأُ قَلبَه بالعداوةِ.

7- الغِيبةُ تُظهِرُ عُيوبَ الفَردِ المستورةَ في الوَقتِ الذي لا يملِكُ فيه الدِّفاعَ عن نفسِه.

8- **أنَّها تُفقِدُ الثِّقةَ بصاحِبِها؛** قال وَهبُ بنُ مُنَبِّهٍ: (مَن عُرِف بالكَذِبِ لم يَجُزْ صِدقُه، ومَن عُرِف بالصِّدقِ ائتُمِن على حديثِه، ومَن أكثَرَ الغِيبةَ والبَغضاءَ لم يُوثَقْ منه بالنَّصيحةِ، ومَن عُرِف بالفُجورِ والخديعةِ لم يُوثَقْ إليه في المحبَّةِ، ومَن انتحَل فَوقَ قَدْرِه جُحِد قَدْرُه، ولا يَحسُنُ فيه ما يَقبُحُ في غيرِه)[5767].

9- الغِيبةُ تدُلُّ على دَناءةِ صاحِبِها، وجُبنِه، وخِسَّتِه.

- **أضرارُ الغيبةِ على المجتمَعِ:**

1- كَشفُ عَوراتِ الآخَرينَ، ونَشرُ عُيوبِهم والاستهانةُ بها.

[5762] رواه مسلم (49) من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5763] ((مجموع فتاوى ومقالات متنوعة)) لابن باز (ص: 402).

[5764] رواه البخاري (1903) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5765] رواه البخاري (1904) مطوَّلًا، واللفظ له، ومسلم (1151) باختلافٍ يسيرٍ من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5766] رواه أبو داود (4880) واللفظ له، وأحمد (19776). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4880)، وصحَّحه لغيره شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (4880)، وجوَّد إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (250/2).

[5767] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (4/ 63).

2- الغِيبةُ تؤدِّي إلى الغِيبةِ، أي: أنَّ من اغتِيبَ قد يدفَعُه غَضَبُه إلى غِيبةِ مَن اغتابه، وبهذا تنتَشِرُ هذه الصِّفةُ الذَّميمةُ، وتُصبِحُ مَرضًا عُضالًا يَصعُبُ استِئصالُه.

3- نَشرُ الحِقدِ والحَسَدِ والكراهيةِ والبغضاءِ بَيْنَ أفرادِ المجتَمَعِ.

4- إفسادُ المودَّاتِ، وقَطعُ أواصِرِ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ، ومَلءُ القُلوبِ بالضَّغائِنِ والعَداواتِ.

قال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: (إذا ظهَرَت الغِيبةُ ارتَفَعت الأُخُوَّةُ في اللهِ، إنَّما مَثَلُكم في ذلك الزَّمانِ مَثَلُ شَيءٍ مَطليٍّ بالذَّهَبِ والفِضَّةِ، داخِلُه خَشَبٌ، وخارِجُه حَسَنٌ)[5768].

المطلب الخامس: أقسامُ الغِيبةِ

للغِيبةِ ثلاثةُ أقسامٍ:

1- الغِيبةُ المحَرَّمةُ:

وهي ذِكرُك أخاك المُسلِمَ في غَيبتِه بما يَكرَهُ، بعَيبٍ فيه مَخفيٍّ، سواءٌ كان هذا العَيبُ خِلْقيًّا أم خُلُقيًّا، في دينِه أو دُنياه، ولا شَكَّ أنَّه محرَّمٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ؛ للأدِلَّةِ الواردةِ سَلَفًا في هذا البابِ.

قال ابنُ القَيِّمِ وهو يتحَدَّثُ عن الغِيبةِ: (وإذا وقَعَت على وَجهِ ذَمِّ أخيك، وتمزيقِ عِرْضِه، والتَّفَكُّهِ بلَحمِه، والغَضِّ منه؛ لتَضَعَ مَنزلتَه من قُلوبِ النَّاسِ، فهي الدَّاءُ العُضالُ، ونارُ الحَسَناتِ التي تأكُلُها كما تأكُلُ النَّارُ الحَطَبَ)[5769].

2- الغِيبةُ الواجِبةُ:

هي الغِيبةُ التي بها يحصُلُ للفَردِ نجاةٌ ممَّا لا يُحمَدُ عُقباه، أو مُصيبةٌ كانت محتَمَلةَ الوُقوعِ به، مِثْل التي تُطلَبُ للنَّصيحةِ عِندَ الإقبالِ على الزَّواجِ لمَعرفةِ حالِ الزَّوجِ، أو كأن يقولَ شَخصٌ لآخَرَ محَذِّرًا له من شَخصٍ شِرّيرٍ: إنَّ فُلانًا يريدُ قَتْلَك في المكانِ الفُلانيِّ، أو يريدُ سَرِقةَ مالِك في السَّاعةِ الفُلانيَّةِ، وهذا من بابِ النَّصيحةِ.

3- الغِيبةُ المباحةُ:

كما أنَّ الغِيبةَ مُحَرَّمةٌ لِما فيها من أضرارٍ تَمَسُّ الفَردَ، إلَّا أنَّها مباحةٌ بضَوابِطِها لغَرَضٍ شَرعيٍّ صحيحٍ، لا يمكِنُ الوُصولُ لهذا الغَرَضِ إلَّا بهذه الغِيبةِ، وبدونِ هذه الضَّوابطِ تُصبِحُ مُحرَّمةً.

والأغراضُ التي تبيحُ الغِيبةَ جمَعَها ابنُ أبي شريفٍ في قَولِه:

الذَّمُّ ليس بغِيبةٍ في سِتَّةٍ

مُتظَلِّمٍ ومُعَرِّفٍ ومُحذِّرِ

ولمُظهِرٍ فِسقًا ومُستَفتٍ ومَن

[5768] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (8/ 96).

[5769] ((الروح)) (ص: 240).

عن الحَسَنِ قال: (لا غِيبةَ إلَّا لثلاثةٍ: فاسِقٍ مجاهِرٍ بالفِسقِ، وذي بِدعةٍ، وإمامٍ جائِرٍ)[5771].

قال السَّمَرْقَنديُّ: (ثلاثةٌ لا تكونُ غِيبتُهم غِيبةً: سُلطانٌ جائرٌ، وفاسِقٌ مُعلِنٌ، وصاحِبُ بِدعةٍ. يعني: إذا ذَكَر فِعْلَهم ومَذهَبَهم. ولو ذَكَر شيئًا من أبدانِهم بعَيبٍ فيهم لكان ذلك غِيبةً، ولكِنْ إذا ذَكَر فِعلَهم ومَذهَبَهم فلا بأسَ؛ لكي يَحذَرَهم النَّاسُ)[5772].

و(قال عيسى: لا غِيبةَ في ثلاثٍ: إمامٍ جائرٍ، وفاسِقٍ مُعلِنٍ، وصاحِبِ بِدعةٍ.

قال محمَّدُ بنُ رُشدٍ: إنَّما لم يكُنْ في هؤلاء غِيبةٌ؛ لأنَّ الغِيبةَ إنَّما هي بأن يُذكَرَ مِنَ الرَّجُلِ ما يَكرَهُ أن يُذكَرَ عنه لمن لا يَعلَمُ ذلك منه، والإمامُ الجائِرُ، والفاسِقُ المُعلِنُ، قد اشتهر أمرُهما عِندَ النَّاسِ؛ فلا غِيبةَ في أن يُذكَرَ مِن جَورِ الجائِرِ وفِسقِ الفاسِقِ ما هو معلومٌ من كُلِّ واحدٍ منهما، وصاحِبُ البِدعةِ يَدينُ ببِدعتِه، ويعتَقِدُ أنَّه على الحَقِّ فيها، وأنَّ غيرَه على الخطَأِ في مخالفتِه في بدعتِه، فلا غِيبةَ فيه؛ لأنَّه إن كان مُعلِنًا بها فهو يحِبُّ أن يُذكَرَ بها، وإن كان مستَتِرًا بها فواجِبٌ أن يُذكَرَ بها، ويُحفَظَ النَّاسُ من اتِّباعِه عليها)[5773].

فإذا وقعَت الغِيبةُ على وَجهِ النَّصيحةِ للهِ ورَسولِه، وعبادِه المُسلِمين، فهي قُربةٌ إلى اللهِ من جملةِ الحَسَناتِ[5774].

المطلب السادس: صُوَرُ الغِيبةِ

الغِيبةُ تكونُ في جميعِ الصِّفاتِ الخِلْقيَّةِ والخُلُقيَّةِ، وفي جميعِ أمورِ الدُّنيا والدِّينِ.

قال ابنُ عُثَيمين عن الغِيبةِ هي: (ذِكرُك أخاك بما يَكرَهُ، سواءٌ كان ذلك في خِلقتِه أو خُلُقِه، أو في أحوالِه، أو في عَقلِه، أو في ذَكائِه، أو في غيرِ ذلك)[5775].

وقال الغَزاليُّ: (حَدُّ الغِيبةِ: أن تَذكُرَ أخاك بما يَكرَهُه لو بلَغَه، سواءٌ ذَكَرْتَه بنَقصٍ في بدَنِه، أو نَسَبِه، أو في خُلُقِه، أو في فِعلِه، أو في قَولِه، أو في دينِه، أو في دُنياه... حتَّى في ثوبِه، ودارِه، ودابَّتِه.

أمَّا البَدَنُ: فذِكرُك العَمَشَ، والحَوَلَ، والقَرَعَ، والقِصَرَ، والطُّولَ، والسَّوادَ، والصُّفرةَ، وجميعَ ما يُتصوَّرُ أن يوصَفَ به ممَّا يَكرَهُه، كيفما كان.

وأمَّا النَّسَبُ: فبأن تقولَ: أبوه فاسِقٌ، أو خسيسٌ، أو إسكافٌ، أو زَبَّالٌ، أو شيءٌ ممَّا يكرَهُه، كيفما كان.

[5770] ((سبل السلام)) لابن الأمير الصنعاني (194/4).

[5771] ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (2/ 17).

[5772] ((تنبيه الغافلين)) (ص: 167).

[5773] ((البيان والتحصيل)) لابن رشد القرطبي (575/17).

[5774] ((الروح)) لابن القيم (ص: 240).

[5775] ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: 52).

وأمَّا الخُلُقُ: فبأن تقولَ: هو سَيِّئُ الخُلُقِ، بَخيلٌ، مُتكَبِّرٌ، مُراءٍ، شديدُ الغَضَبِ، جَبانٌ، عاجِزٌ، ضعيفُ القَلبِ، متهَوِّرٌ... وما يجري مجراه.

وأمَّا في أفعالِه المتعَلِّقةِ بالدِّينِ: فكقولِك: هو سارِقٌ، أو كذَّابٌ، أو شارِبُ خمرٍ، أو خائنٌ، أو ظالمٌ، أو مُتهاوِنٌ بالصَّلاةِ أو الزَّكاةِ، أو لا يُحسِنُ الرُّكوعَ أو السُّجودَ، أو لا يُحسِنُ قِسمَتَها، أو لا يَحرُسُ صَومَه عن الرَّفَثِ والغِيبةِ والتَّعرُّضِ لأعراضِ النَّاسِ.

وأمَّا فِعلُه المتعَلِّقُ بالدُّنيا: فكقولِك: إنَّه قليلُ الأدَبِ، متهاوِنٌ بالنَّاسِ، أو لا يرى لأحَدٍ على نفسِه حَقًّا، أو يرى لنَفسِه الحَقَّ على النَّاسِ، أو أنَّه كثيرُ الكلامِ، كثيرُ الأكلِ، نَؤومٌ، ينامُ في غيرِ وَقتِ النَّومِ، ويجلِسُ في غيرِ مَوضِعِه.

وأمَّا ثوبُه: فكقَولِك: إنَّه واسِعُ الكُمِّ، طويلُ الذَّيلِ، وَسِخُ الثِّيابِ.

وقال قومٌ: لا غِيبةَ في الدِّينِ؛ لأنَّه ذمٌّ ما ذمَّه اللهُ تعالى، فذِكرُه بالمعاصي وذَمُّه بها يجوزُ، بدليلِ ما رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذُكِرت له امرأةٌ وكثرةُ صلاتِها وصَومِها، ولكِنَّها تؤذي جيرانَها بلسانِها، فقال: ((هي في النَّار))[5776][5777].

من صُوَرِ الغِيبةِ التي يَغفُلُ عنها كثيرٌ من النَّاسِ:

1- الإصغاءُ للغِيبةِ من بابِ التَّعجُّبِ مِن فِعلِ الذي اغتيبَ.

2- ذِكرُ حالِ الذي اغتيبَ، وإظهارُ التَّألُّمِ والاستياءِ لحالِه، والدُّعاءُ له أمامَ الآخَرينَ.

قال أبو حامدٍ الغَزاليُّ: (وإيَّاك وغِيبةَ القُرَّاءِ المُرائين، وهو أن تُفهِمَ المقصودَ من غيرِ تصريحٍ، فتقولَ: أصلَحَه اللهُ؛ فقد ساءني وغَمَّني ما جرى عليه، فنسألُ اللهَ تعالى أن يُصلِحَنا وإيَّاه! فإنَّ هذا جمعٌ بَيْنَ خبيثينِ؛ أحَدُهما: الغِيبةُ إذا حصل به التَّفهُّمُ، والآخَرُ: تزكيةُ النَّفسِ والثَّناءُ عليها بالتَّجريحِ لغَيرِك والصَّلاحِ لنَفسِك. ولكِنْ إن كان مقصودُك من قولِك: «أصلحه اللهُ» الدُّعاءَ، فادْعُ له في السِّرِّ، وإن اغتمَمْتَ بسَبَبِه فعلامتُه أنَّك لا تريدُ فضيحتَه وإظهارَ عَيبِه، وفي إظهارِك الغَمَّ بعَيبِه إظهارُ تَعييبِه!)[5778].

3- أن يقولَ المُستَمِعُ للمُغتابِ: اسكُتْ، لكِنَّ المستَمِعَ لم يُنكِرْ ذلك في قَلبِه، وإنَّما هو مُشتَهٍ بذلك؛ فهذا قد وَقَع في الغِيبةِ ما لم يَكرَهْه بقَلْبِه.

4- أن يَذكُرَ الإنسانُ شخصًا ما ويمدَحَه، ويذكُرَ اهتمامَه والتزامَه بالدِّينِ، ثمَّ يقولَ: لكِنَّه ابتُلِيَ بما ابتُلينا به كلُّنا من تقصيرٍ وفتورٍ في بعضِ العباداتِ، وهو بهذا يستنقِصُ مِن قَدْرِ الذي اغتيبَ، وبذلك وقَع في الغِيبةِ.

5- أن يَتكلَّمَ الإنسانُ بألفاظٍ أو أسلوبٍ يُحاكي فيه الآخَرين، بقَصدِ غِيبتِهم.

[5776] رواه مطولا أحمد (9675)، والحاكم (7304) واللفظ لهما، وابن حبان (5764) باختلافٍ يسيرٍ من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابن حبان، والألباني في ((صحيح الترغيب)) (2560)، وصحَّح إسناده الحاكم، والمنذري في ((الترغيب والترهيب)) (321/3)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (490/5).

[5777] ((آفات اللسان)) لأبي حامد الغزالي (ص: 156-157) بتصرُّفٍ يسيرٍ.

[5778] ((بداية الهداية)) (ص: 53، 54).

6- التَّشبُّهُ بالآخَرين في مِشيتِهم بغَرَضِ السُّخريَّةِ منهم، كأن يمشيَ مُتعَرِّجًا، أو يُغمِضَ إحدَى عينَيه محاكاةً للأعوَرِ، وغيرِها من الحَركاتِ التي توحي بالسُّخريَّةِ.

7- أن يغتابَ الرَّجُلُ أخاه، وإذا أُنكِرَ عليه قال: أنا على استعدادٍ للقَولِ أمامَه! ويُرَدُّ على هذا بردودٍ؛ منها:

أ- أنَّك ذكَرْتَه مِن خَلْفِه بما يَكرَهُ بما فيه، وهذه هي الغِيبةُ.

ب- استِعدادُك للحديثِ أمامَه أمرٌ آخَرُ مُستقِلٌّ، لم يَرِدْ فيه دليلٌ على أنَّه يسوغُ لك أن تذكُرَ أخاك مِن خَلْفِه بما يَكرَهُ.

8- قولُ القائِلِ في جماعةٍ من النَّاسِ عِندَ ذِكرِ شَخصٍ ما: نعوذُ باللهِ من قِلَّةِ الحياءِ، أو نعوذُ باللهِ من الضَّلالِ، أو نحوَ هذا؛ فإنَّه يجمَعُ بَيْنَ ذَمِّ المذكورِ ومَدحِ النَّفسِ.

9- قولُ القائِلِ: فعَل كذا بعضُ النَّاسِ، أو بعضُ الفُقَهاءِ، أو نحوَ ذلك، إذا كان المخاطَبُ يَفهَمُه بعَينِه؛ لحُصولِ التَّفهيمِ.

10- قولُ الشَّخصِ: فَعَل كذا الأفنديُّ، أو جَنابُ السَّيِّدُ، ونحوَ ذلك، إن كان يقصِدُ التَّنقيصَ منه.

11- قولُهم: هذا صغيرٌ تجوزُ غِيبتُه. وأين الدَّليلُ على تجويزِ هذه الغِيبةِ ما دامتِ النُّصوصُ وردت مُطلَقةً؟!

12- التَّساهُلُ في غِيبةِ العاصي؛ لأنَّ قولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((الغِيبةُ ذِكْرُك أخاك بما يكرَهُ))[5779] يَشمَلُ المُسلِمَ الطَّائِعَ والعاصيَ.

13- قولُك: هذا هِنديٌّ، أو مِصريٌّ، أو فِلَسطينيٌّ، أو أُرْدُنِّيٌّ، أو عَجَميٌّ، أو عَرَبيٌّ، أو بَدَويٌّ، أو قُرَويٌّ، أو إسكافٌ، أو نجَّارٌ، أو حدَّادٌ، إن كان ذلك تحقيرًا أو انتقاصًا[5780].

المطلب السابع: أسبابُ الوقوعِ في الغِيبةِ

توجَدُ بعضُ الأسبابِ التي تجعَلُ الإنسانَ يَقَعُ في براثِنِ الغِيبةِ ومساوِئِها، ومن تلك الأسبابِ:

1- (كراهيتُه الباطِنةُ لِمن يغتابُ، مع عَدَمِ رَغبتِه بإظهارِ كراهيتِه؛ لئلَّا تتحَوَّلَ إلى عداوةٍ ظاهرةٍ.

2- المنافَسةُ التي ولَّدَت حَسَدًا، والحَسودُ لا يُحِبُّ أن يُعرَفَ عنه الحَسَدُ.

3- الرَّغبةُ بأن يُبَرِّرَ المغتابُ في نظَرِ النَّاسِ ما عرَفوه عنه من معايبَ وقبائِحَ، فإذا ذَكَر أمامَهم من يحترمونه بأنَّ له من العُيوبِ والقبائِحِ مِثلَ عُيوبِه وقبائِحِه، خَفَّ إنكارُهم عليه)[5781].

4- تَشَفِّي الغيظِ، بأن يجريَ من إنسانٍ في حَقِّ آخَرَ سَبَبٌ يُهَيِّجُ غَيظَه، فكلَّما هاج غَضَبُه تشفَّى بغِيبةِ صاحِبِه.

5- مُوافَقةُ الأقرانِ ومجامَلةُ الرُّفَقاءِ، ومُساعدتُهم على الغِيبةِ؛ فإنَّه يُخشى إن أنكَر عليهم أن يستَثقِلوه.

6- إرادةُ رَفعِ نَفسِه بتنقيصِ غَيرِه، فيقولُ: فلانٌ جاهِلٌ وفَهمُه رَكيكٌ.

[5779] رواه مسلم (2589) مطوَّلًا من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5780] ((حصائد الألسن)) لحسين العوايشة (90، 91)، بتصرُّفٍ يسيرٍ. ويُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/ 145).

[5781] ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (231/2).

7- اللَّعِبُ والهَزْلُ، فيَذكُرُ غيرَه بما يُضحَكُ له على سبيلِ المحاكاةِ.

8- كثرةُ الفراغِ، والشُّعورُ بالمَلَلِ والسَّأمِ، فيَشتَغِلُ بالنَّاسِ وأعراضِهم وعيوبِهم.

9- التَّقرُّبُ لدى أصحابِ الأعمالِ والمسئولينَ عن طريقِ ذَمِّ العامِلينَ معه؛ ليرتقيَ لمنصِبٍ أفضَلَ، أو ليُقالَ عنه: مواظِبٌ[5782].

10- الظُّهورُ بمَظهَرِ الغَضَبِ للهِ على من يرتَكِبُ المُنكَرَ، فيُظهِرُ غَضَبَه ويذكُرُ اسمَه، مِثلُ أن يقولَ: فلانٌ لا يستحيي من اللهِ؛ يفعَلُ كذا وكذا. ويقَعُ في عِرضِه بالغِيبةِ.

11- إظهارُ الرَّحمةِ، والتَّصنُّعُ بمواساةِ الآخَرين، كأن يقولَ لغَيرِه من النَّاسِ: مِسكينٌ فُلانٌ، قد غمَّني أمرُه وما هو فيه من المعاصي[5783].

12- ضَعفُ التَّربيةِ الإيمانيَّةِ، وعَدَمُ التَّنبُّهِ لعَظَمةِ مَن تعصي.

13- جَهلُ المغتابِ بحُكمِ الغِيبةِ، وعواقِبِها الوخيمةِ والسَّيِّئةِ، التي تورِثُ غَضَبَ اللهِ وسَخَطَه.

14- تَنشئةُ الفَردِ تَنشِئةً سَيِّئةً بعيدةً عن الأخلاقِ والتَّعاليمِ الإسلاميَّةِ.

15- صُحبةُ الأشرارِ الذين هم بعيدون عن الآدابِ الإسلاميَّةِ السَّليمةِ؛ فـ ((المرءُ على دينِ خليلِه))[5784].

16- حُضورُ المجالِسِ والتَّجمُّعاتِ التي تخلو من ذِكرِ اللهِ، ويَكثُرُ فيها الغِيبةُ والنَّميمةُ.

17- الطَّمَعُ وحُبُّ الدُّنيا والحِرصُ عليها.

المطلب الثامن: التَّوبةُ مِن الغِيبةِ

يجِبُ على مَن وقع في الغِيبةِ التَّوبةُ، بالإقلاعِ عن الغِيبةِ، والنَّدَمِ على فِعلِها، والعَزمِ ألَّا يعودَ إليها، وأن يَستَحِلَّ من اغتابه، ويَطلُبَ عَفوَه عنها، والإبراءَ منها.

قال الغزاليُّ: (اعلَمْ أنَّ الواجِبَ على المغتابِ أن يندمَ ويتوبَ ويتأسَّفَ على ما فَعَله؛ ليَخرُجَ به مِن حَقِّ اللهِ سُبحانَه، ثمَّ يَستَحِلُّ المغتابَ ليُحِلَّه فيَخرُجَ من مَظلمتِه)[5785].

ومن أهلِ العِلمِ مَن فَصَّل، فقال: إن كان من اغتابه قد عَلِم بذلك فلا بُدَّ من أن يَستَحِلَّه، أمَّا إذا لم يَعلَمْ فيكفي أن يستغفِرَ له، وأن يُثنيَ عليه في المجالِسِ التي كان يغتابُه فيها؛ فإن كان صاحبُ الغِيبةِ مَيِّتًا أو غائِبًا فقد تعذَّر تحصيلُ البراءةِ منها، لكِنْ قال العُلَماءُ: ينبغي أن يُكثِرَ من الاستغفارِ له والدُّعاءِ، ويُكثِرَ من الحَسَناتِ[5786].

[5782] ((حصائد الألسن)) لحسين العوايشة (85-87) بتصرُّفٍ

[5783] ((آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة)) لسعيد بن علي القحطاني (ص: 20). ويُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/146)

[5784] رواه مطوَّلًا أبو داود (4833)، والترمذي (2378)، وأحمد (8417) واللفظ له من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (6/306)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((الأمالي المطلقة)) (151)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4833)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (1288)، وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ.

[5785] ((إحياء علوم الدين)) (154/3).

قال السَّمَرْقَنديُّ: (قد تكلَّم النَّاسُ في توبةِ المُغتابِ: هل تجوزُ من غيرِ أن يَستَحِلَّ مِن صاحِبِه؟ قال بعضُهم: يجوزُ، وقال بعضُهم: لا يجوزُ ما لم يَستَحِلَّ مِن صاحِبِه.

وهو عِندَنا على وَجهَينِ: إن كان ذلك القولُ قد بلغ إلى الذي اغتابه، فتوبتُه أن يستَحِلَّ منه، وإن لم يبلُغْ فلْيَستغفِرِ اللهَ تعالى ويُضمِرَ ألَّا يعودَ إلى مِثْلِه.

ورُوِيَ أنَّ رَجُلًا أتى ابنَ سِيرينَ فقال: إنِّي اغتَبْتُك فاجعَلْني في حِلٍّ. فقال: وكيف أحِلُّ ما حرَّم اللهُ؟! فكأنَّه أشار إليه بالاستغفارِ والتَّوبةِ إلى اللهِ تعالى، مع استِحلالِه منه.

فأمَّا إذا لم تبلُغْ إلى صاحِبِه تلك الغِيبةُ، فتوبتُه أن يستغفِرَ اللهَ تعالى ويتوبَ إليه، ولا يخبِرَ صاحِبَه، فهو أحسَنُ؛ لكيْ لا يشتَغِلَ قَلبُه به)[5787].

و(قال حُذيفةُ: كُفَّارةُ مَن اغتَبْتَه أن تستغفِرَ له. وقال عبدُ اللهِ بنُ المبارَكِ لسُفيانَ بنِ عُيَينةَ: التَّوبةُ من الغِيبةِ أن تستغفِرَ لِمن اغتَبْتَه، قال سُفيانُ: بل تستغفِرُه ممَّا قُلتَ فيه، قال ابنُ المبارَكِ: لا تُؤذِه مَرَّتينِ)[5788].

وقال ابنُ القَيِّمِ: (والصَّحيحُ أنَّه لا يحتاجُ إلى إعلامِه، بل يكفيه الاستغفارُ، وذِكْره بمحاسِنِ ما فيه في المواطِنِ التي اغتابه فيها، وهذا اختيارُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تَيميَّةَ وغيرِه. والذين قالوا: لا بُدَّ من إعلامِه جعَلوا الغِيبةَ كالحقوقِ الماليَّةِ، والفَرْقُ بَيْنَهما ظاهِرٌ؛ فإنَّ الحقوقَ الماليَّةَ ينتَفِعُ المظلومُ بعَودِ نظيرِ مَظلمتِه إليه، فإن شاء أخذَها، وإن شاء تصدَّق بها، وأمَّا في الغِيبةِ فلا يمكِنُ ذلك، ولا يحصُلُ له بإعلامِه إلَّا عَكسُ مقصودِ الشَّارعِ... فإنَّه يوغِرُ صَدرَه ويؤذيه إذا سَمِع ما رُمِيَ به، ولعَلَّه يُهَيِّجُ عداوتَه ولا يصفو له أبدًا، وما كان هذا سبيلَه فإنَّ الشَّارِعَ الحكيمَ... لا يبيحُه ولا يُجَوِّزُه فَضلًا عن أن يوجِبَه ويأمُرَ به، ومدارُ الشَّريعةِ على تعطيلِ المفاسِدِ وتقليلِها، لا على تحصيلِها وتكميلِها)[5789].

المطلب التاسع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الغِيبةِ

(إنَّ الغِيبةَ مَرَضٌ خطيرٌ، وداءٌ فتَّاكٌ، ومِعوَلٌ هَدَّامٌ، وسلوكٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ الأحبابِ، وبُهتانٌ يُغَطِّي على محاسِنِ الآخَرين، وبَذرةٌ تُنبِتُ شُرورًا بَيْنَ المجتَمَعِ المُسلِمِ، وتَقلِبُ موازينَ العدالةِ والإنصافِ إلى الكَذِبِ والجَورِ، وعلاجُ هذا المرَضِ لا يكونُ إلَّا بالعِلمِ والعَمَلِ، فإذا عَرَف المغتابُ أنَّه تعَرَّض لسَخَطِ اللهِ يومَ القيامةِ بإحباطِ عَمَلِه، وإعطاءِ حَسَناتِه من يغتابُه، أو يحمِلُ عنه أوزارَه، وأنَّه يتعَرَّضُ لهجومِ من يغتابه في الدُّنيا، وقد يُسَلِّطُه اللهُ عليه، إذا عَلِم هذا وعَمِل بمُقتضاه من خيرٍ فقد وُفِّق للعِلاجِ)[5790].

ومن الوسائِلِ المُعينةِ على تَركِ الغِيبةِ والبُعدِ عنها ما يلي:

1- التَّقرُّبُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى بكَثرةِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وتقديمِ رِضاه على رِضا المخلوقينَ.

[5786] يُنظَر: ((الأذكار)) للنووي (ص: 346)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (210/3)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: 45).

[5787] ((تنبيه الغافلين)) (ص: 166).

[5788] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (398/1).

[5789] ((الوابل الصيب)) (ص: 219).

[5790] ((نضرة النعيم)) (5164/11).

2- زيادةُ الإيمانِ وتقويتُه بالعِلمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالِحِ.

3- أن ينشَغِلَ الإنسانُ بالبَحثِ عن عيوبِه، ويَكُفَّ عن عُيوبِ الآخَرين وتتَبُّعِها.

قال الغزاليُّ: (ويمنَعُك عن الغِيبةِ أمرٌ لو تفكَّرْتَ فيه، وهو أن تنظُرَ في نفسِك: هل فيك عيبٌ ظاهِرٌ أو باطِنٌ؟ وهل أنت مُقارِفٌ مَعصيةً سِرًّا أو جهرًا؟ فإذا عرَفْتَ ذلك من نفسِك فاعلَمْ أنَّ عَجزَه عن التَّنزُّهِ عمَّا نسَبْتَه إليه كعَجْزِك، وعُذرَه كعُذرِك! وكما تكرَهُ أن تُفتضَحَ وتُذكَرَ عُيوبُك، فهو أيضًا يكرهُه؛ فإنْ سترْتَه سَتَرَ اللهُ عليك عُيوبَك، وإن فضَحْتَه سلَّط اللهُ عليك ألسِنةً حِدادًا يُمزِّقون عِرْضَك في الدُّنيا، ثمَّ يفضَحُك اللهُ في الآخِرةِ على رُؤوسِ الخلائِقِ يومَ القيامةِ.

وإن نظَرْتَ إلى ظاهِرِك وباطِنِك فلم تطَّلِعْ فيهما على عَيبٍ ونقصٍ في دينٍ ولا دُنيا، فاعلَمْ أنَّ جهلَك بعُيوبِ نفسِك أقبَحُ أنواعِ الحماقةِ، ولا عَيبَ أعظَمُ من الحُمقِ، ولو أراد اللهُ بك خيرًا لبصَّرَك بعيوبِ نفسِك، فرؤيتُك نفسَك بعينِ الرِّضا غايةُ غباوتِك وجَهلِك. ثمَّ إن كنتَ صادِقًا في ظَنِّك فاشكُرِ اللهَ تعالى عليه ولا تُفسِدْه بثَلبِ النَّاسِ، والتَّمضمُضِ بأعراضِهم؛ فإنَّ ذلك من أعظَمِ العُيوبِ)[5791].

وقال عَونُ بنُ عبدِ اللهِ: (ما أحسَبُ أحَدًا تفرَّغ لعُيوبِ النَّاسِ إلَّا من غَفلةٍ غَفَلَها عن نفسِه)[5792].

4- اختيارُ الصُّحبةِ الصَّالحةِ التي تُقَرِّبُك من اللهِ وتُبعِدُك عن المعاصي، والابتعادُ عن رِفاقِ السُّوءِ.

5- تربيةُ الفردِ تربيةً إسلاميَّةً سَليمةً قائمةً على الآدابِ والتَّعاليمِ الإسلاميَّةِ.

6- استِغلالُ وَقتِ الفراغِ بما ينفَعُ الفَردَ ويُقَوِّي إيمانَه، ويُقَرِّبُه إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى من طاعاتٍ وعباداتٍ، وانشِغالٍ بالعِلمِ.

7- قناعةُ الإنسانِ بما رزقه اللهُ، وشُكرُه له عليها، وأن يَعلَمَ أنَّ ما عِندَ اللهِ خيرٌ وأبقى.

8- أن يَضَعَ الإنسانُ نفسَه مكانَ الشَّخصِ الذي اغتيبَ، فيُحِبَّ له ما يحِبُّ لنفسِه، ويَكرَهَ له ما يكرَهُه لنفسِه، فإذا كان لا يرضى لنفسِه أن يُغتابَ، فينبغي أنْ لا يرضى لغيرِه ما لا يرضاه لنفسِه.

9- كَظمُ الغَيظِ والصَّبرُ على الغَضَبِ؛ فإنَّه إذا لم يكظِمْ غيظَه وانساق وراءَ غَضَبِه، اندفع للغِيبةِ.

10- الابتعادُ عن كُلِّ ما يؤدِّي به إلى الغِيبةِ، وقَطعُ جميعِ الأسبابِ الباعثةِ على الغِيبةِ، كالغَضَبِ والحَسَدِ.

11- أن يَعلَمَ أنَّه تعَرَّضَ لسَخَطِ اللهِ تعالى بغِيبتِه، وأنَّها محبِطةٌ لحسَناتِه يومَ القيامةِ.

12- أن يَعلَمَ أنَّ العَيبَ الذي يغتابُ به صاحِبَه إن كان أمرًا خِلْقِيًّا فالذَّمُّ له ذَمٌّ للخالِقِ؛ فإنَّ من ذَمَّ صَنعةً فقد ذمَّ صانِعَها[5793].

[5791] ((بداية الهداية)) (ص: 54).

[5792] ((ذم الغيبة والنميمة)) لابن أبي الدنيا (61)، ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (198)، ((مداراة الناس)) لابن أبي الدنيا (143)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (4/ 249).

[5793] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/ 148).

المطلب العاشر: حُكمُ الغِيبةِ وما يُباحُ منها وضوابِطُ الإباحةِ

- **حُكمُ الغِيبةِ:**

قال ابنُ كثيرٍ: (والغِيبةُ محَرَّمةٌ بالإجماعِ، ولا يُستثنى من ذلك إلَّا ما رجَحَت مصلحتُه، كما في الجَرحِ والتَّعديلِ، والنَّصيحةِ)[5794].

وعَدَّ ابن حجر الهيتمي الغِيبةَ من الكبائِرِ؛ حيثُ قال: (الذي دلَّت عليه الدَّلائِلُ الكثيرةُ الصَّحيحةُ الظَّاهرةُ أنَّها كبيرةٌ، لكِنَّها تختَلِفُ عِظَمًا وضِدَّه بحَسَبِ اختِلافِ مَفسدتِها. وقد جعلَها مَن أُوتي جوامِعَ الكَلِمِ عديلةَ غَصبِ المالِ وقَتلِ النَّفسِ، بقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كُلُّ المُسلِمِ على المُسلِمِ حرامٌ: دَمُه، ومالُه، وعِرْضُه))[5795]، والغَصبُ والقَتلُ كبيرتانِ إجماعًا، فكذا ثَلْمُ العِرْضِ)[5796].

وحُكِيَ الإجماعُ على أنَّها من الكبائِرِ، لكِنْ نُقِل الخِلافُ، وإذا لم يَثبُتِ الإجماعُ فلا أقَلَّ من التَّفصيلِ؛ فَمَن اغتاب وليًّا للهِ أو عالِمًا ليس كَمَن اغتاب مجهولَ الحالةِ مَثَلًا، وقد قالوا: ضابِطُها ذِكرُ الشَّخصِ بما يَكرَهُ، وهذا يختَلِفُ باختلافِ ما يُقالُ فيه، وقد يشتَدُّ تأذِّيه بذلك، وأذى المُسلِمِ مُحَرَّمٌ[5797].

- **ما يباحُ من الغِيبةِ:**

قال النَّوويُّ: (اعلَمْ أنَّ الغِيبةَ تُباحُ لغرَضٍ صَحيحٍ شَرعيٍّ لا يمكِنُ الوُصولُ إليه إلَّا بها، وهو سِتَّةُ أبوابٍ:

الأوَّلُ: التَّظَلُّمُ، فيجوزُ للمظلومِ أن يتظَلَّمَ إلى السُّلطانِ والقاضي وغيرِهما ممَّا له ولايةٌ أو قُدرةٌ على إنصافِه من ظالِمِه، فيقولَ: ظلَمَني فلانٌ كذا.

الثَّاني: الاستِعانةُ على تغييرِ المُنكَرِ ورَدِّ العاصي إلى الصَّوابِ، فيقولُ لِمن يرجو قدرتَه على إزالةِ المُنكَرِ: فُلانٌ يَعمَلُ كذا؛ فازجُرْه عنه.

الثَّالِثُ: الاستِفتاءُ، فيقولُ للمُفتي: ظلَمَني أبي، أو أخي، أو زَوجي، أو فلانٌ بكذا.

الرَّابِعُ: تحذيرُ المُسلِمين من الشَّرِّ ونصيحتُهم.

الخامِسُ: أن يكونَ مجاهِرًا بفِسقِه أو بِدعتِه، كالمجاهِرِ بشُربِ الخَمرِ، ومُصادرةِ النَّاسِ، وأخذِ المَكْسِ، وغيرِها.

السَّادِسُ: التَّعريفُ، فإذا كان الإنسانُ معروفًا بلَقَبِ الأعمشِ والأعرَجِ والأصَمِّ والأعمى والأحوَلِ، وغيرِهم، جاز تعريفُهم بذلك.

فهذه سِتَّةُ أسبابٍ ذَكَرها العُلَماءُ، وأكثَرُها مجمَعٌ عليها، دلائِلُها من الأحاديثِ الصَّحيحةِ مشهورةٌ)[5798].

[5794] ((تفسير القرآن العظيم)) (7/380).

[5795] رواه مسلم (2564) مطوَّلًا من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5796] ((الزواجر)) (2/555).

[5797] ((فتح الباري)) لابن حجر (10/ 470).

- **ضوابِطُ إباحةِ الغِيبةِ:**

للغِيبةِ التي أباحها الشَّرعُ لأغراضٍ صحيحةٍ ضوابِطُ ينبغي مراعاتُها، ومن هذه الضَّوابِطِ:

(1- الإخلاصُ للهِ تعالى في النِّيَّةِ، فلا تَقُلْ ما أبيحَ لك من الغِيبةِ تشَفِّيًا لغيظٍ، أو نيلًا من أخيك، أو تنقيصًا منه.

2- عدَمُ تعيينِ الشَّخصِ ما أمكنك ذلك.

3- أن تَذكُرَ أخاك بما فيه، بما يباحُ لك، ولا تفتَحْ لنفسِك بابَ الغِيبةِ على مِصراعَيه، فتذكُرَ ما تشتهي نفسُك من عُيوبِه.

4- التَّأكُّدُ من عَدَمِ وُقوعِ مفسَدةٍ أكبَرَ من هذه الفائدةِ)[5799].

(ويُشتَرَطُ في هذا البابِ أن تكونَ الحاجةُ ماسَّةً لذلك، وأن يقتَصِرَ النَّاصِحُ من العُيوبِ على ما يُخِلُّ بتلك المصلحةِ خاصَّةً، التي حصلت المشاوَرةُ فيها، أو التي يعتقِدُ النَّاصحُ أنَّ المنصوحَ شَرَع فيها، أو هو على عَزمِ ذلك، فينصَحُه وإن لم يستَشِرْه؛ فإنَّ حِفظَ مالِ الإنسانِ وعِرضِه ودَمِه عليك واجِبٌ، وإن لم يَعرِضْ لك بذلك فالشَّرطُ الأوَّلُ احترازٌ من ذِكرِ عُيوبِ النَّاسِ مُطلَقًا؛ لجوازِ أن يقَعَ بَيْنَهما من المخالطةِ ما يقتضي ذلك، فهذا حرامٌ لا يجوزُ إلَّا عِندَ مَسيسِ الحاجةِ، ولولا ذلك لأبيحَت الغِيبةُ مُطلَقًا؛ لأنَّ الجوازَ قائمٌ في الكُلِّ، والشَّرطُ الثَّاني احترازٌ من أن يُستشارَ في أمرِ الزَّوجِ فيَذكُرَ العيوبَ المُخِلَّةَ بمصلحةِ الزَّواجِ، والعُيوبَ المُخِلَّةَ بالشَّرِكةِ والمساقاةِ، أو يُستشارَ في السَّفَرِ معه فيَذكُرَ العُيوبَ المخِلَّةَ بمصلحةِ السَّفَرِ، والعُيوبَ المُخِلَّةَ بالزَّواجِ؛ فالزِّيادةُ على العيوبِ المخِلَّةِ بما استُشيرَ فيه حرامٌ، مثلًا إن كفى نحوُ: لا يصلُحُ لك، لم يَزِدْ عليه، وإن توقَّف على ذِكرِ عَيبٍ ذَكَرَه، ولا تجوزُ الزِّيادةُ عليه، أو عَيبينِ اقتصر عليهما، وهكذا؛ لأنَّ ذلك كإباحةِ المَيْتةِ للمُضطَرِّ، فلا يجوزُ تناوُلُ شيءٍ منها إلَّا بقَدرِ الضَّرورةِ، ويُشتَرَطُ أن يقصِدَ بذلك بَذْلَ النَّصيحةِ لوَجهِ اللهِ تعالى دونَ حَظٍّ آخَرَ، وكثيرًا ما يَغفُلُ الإنسانُ عن ذلك، فيُلَبِّسُ عليه الشَّيطانُ، ويحمِلُه على التَّكلُّمِ به حينَئذٍ لا نُصحًا، ويُزَيِّنَ له أنَّه نُصحٌ وخَيرٌ)[5800].

المطلب الحادِيَ عَشَرَ: حُكمُ سَماعِ الغِيبةِ ومَوقِفُ العُلَماءِ من المُغتابينَ

- **حُكمُ سَماعِ الغِيبةِ:**

إنَّ سَماعَ الغِيبةِ والاستماعَ إليها لا يجوزُ؛ فقائِلُ الغِيبةِ وسامِعُها في الإثمِ سَواءٌ.

قال النَّوويُّ: (اعلَمْ أنَّ الغِيبةَ كما يَحرُمُ على المغتابِ ذِكْرُها، يَحرُمُ على السَّامِعِ استِماعُها وإقرارُها؛ فيَجِبُ على مَن سَمِع إنسانًا يبتدئُ بغِيبةٍ مُحرَّمةٍ أن ينهاه إنْ لم يَخَفْ ضررًا ظاهِرًا، فإن خافه وجَب عليه الإنكارُ بقَلبِه، ومُفارقةُ ذلك المجلِسِ إن تمكَّنَ من مفارقتِه، فإنْ قَدَر على الإنكارِ بلِسانِه، أو على قَطعِ الغِيبةِ بكلامٍ آخَرَ، لَزِمه ذلك، إن لم يفعَلْ عصى)[5801].

[5798] ((رياض الصالحين)) للنووي (182/2) بتصَرُّفٍ.

[5799] ((حصائد الألسن)) لحسين العوايشة (89، 90).

[5800] ((تهذيب الفروق للقرافي)) لمحمد بن علي بن حسين (4/ 231).

[5801] ((الأذكار)) (ص: 339).

وجاء في فتاوى اللَّجنةِ الدَّائمَةِ إجابةً عن سؤالِ حُكمِ سَماعِ الغِيبةِ: (سماعُ الغِيبةِ محرَّمٌ؛ لأنَّه إقرارٌ للمُنكَرِ، والغِيبةُ كبيرةٌ من كبائرِ الذُّنوبِ، يجِبُ إنكارُها على مَن يفعَلُها)[5802].

قال الشَّاعِرُ:

فالسَّامِعُ الذَّمّ شريكٌ له

ومُطعِمِ المأكولِ كالآكِلِ

وقال آخر:

وسَمْعَك صُنْ عن سَماعِ القَبيحِ

كصَونِ اللِّسانِ عن القَولِ بِهْ

فإنَّك عِندَ استماعِ القَبيحِ

شريكٌ لقائِلِهِ فانتَبِهْ[5803]

وقال أبو حامِدٍ الغَزاليُّ: (وأمَّا الأذُنُ فاحفَظْها عن أن تُصغيَ بها إلى البِدعةِ أو الغِيبةِ، أو الفُحشِ، أو الخَوضِ في الباطِلِ، أو ذِكرِ مَساوئِ النَّاسِ؛ فإنَّما خُلِقَت لك لتَسمَعَ بها كلامَ اللهِ تعالى، وسُنَّةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحِكمةَ أوليائِه، وتتوصَّلَ باستفادةِ العِلمِ بها إلى المُلكِ المُقيمِ والنَّعيمِ الدَّائمِ في جوارِ رَبِّ العالَمين. فإذا أصغَيتَ بها إلى شيءٍ من المَكارِهِ صار ما كان لك عليك، وانقلَب ما كان سبَبَ فوزِك سَبَبَ هلاكِك، وهذا غايةُ الخُسرانِ. ولا تظُنَّ أنَّ الإثمَ يختَصُّ به القائِلُ دونَ المُستَمِعِ؛ فالمستَمِعُ شريكُ القائِلِ، وهو أحَدُ المُغتابين)[5804].

وينبغي للمُسلِمِ أن يَذُبَّ عن عِرضِ أخيه؛ فعن عِتبانَ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، وهو ممَّن شَهِد بدرًا، قال: ((كنتُ أُصَلِّي لقومي بني سالمٍ، وكان يحولُ بيني وبَيْنَهم وادٍ إذا جاءت الأمطارُ، فيَشُقُّ عَليَّ اجتيازُه قِبَلَ مَسجِدِهم، فجِئتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقُلتُ له: إنِّي أنكَرْتُ بصري، وإنَّ الوادي الذي بَيني وبَينَ قومي يسيلُ إذا جاءت الأمطارُ، فيَشُقُّ عَلَيَّ اجتيازُه، فوَدِدْتُ أنَّك تأتي فتُصَلِّي من بيتي مكانًا أتَّخِذُه مُصَلًّى، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: سأفعَلُ. فغدا عليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه بعدَ ما اشتدَّ النَّهارُ، فاستأذن رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأذِنتُ له، فلم يجلِسْ حتَّى قال: أين تحِبُّ أن أصلِّيَ من بيتِك، فأشَرْتُ له إلى المَكانِ الذي أحِبُّ أن أصَلِّيَ فيه، فقام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فكَبَّرَ وصَفَفْنا وراءَه فصَلَّى ركعتينِ، ثمَّ سَلَّم وسَلَّمْنا حينَ سَلَّم، فحَبَسْتُه على خزيرٍ يَصنَعُ له، فسَمِع أهلُ الدَّارِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في بيتي، فثاب رجالٌ منهم حتَّى كَثُر الرِّجالُ في البيتِ، فقال رجُلٌ: ما فعل مالِكٌ؟ لا أراه! فقال: رجُلٌ منهم: ذاك مُنافِقٌ لا يحِبُّ اللهَ ورسولَه. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تَقُلْ ذاك، ألا تراه قال لا إلهَ إلَّا اللهُ يبتغي بذلك وَجهَ اللهِ؟ فقال: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. أمَّا نحن فواللهِ ما نرى وُدَّه

[5802] ((فتاوى اللجنة الدائمة)) (18/26).

[5803] ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (170/1).

[5804] يُنظَر: ((بداية الهداية)) (ص: 52).

ولا حديثَه إلَّا إلى المُنافِقين. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فإنَّ اللهَ قد حَرَّم على النَّارِ مَن قال لا إلهَ إلَّا اللهُ يبتغي بذلك وَجهَ اللهِ))[5805].

وعن القاسِمِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ الشَّاميِّ قال: (سَمِعتُ ابنَ أمِّ عَبدٍ يقولُ: مَن اغتيبَ عندَه مُؤمِنٌ فنصَره، جزاه اللهُ بها خيرًا في الدُّنيا والآخرةِ، ومَن اغتيبَ عندَه مُؤمِنٌ فلم ينصُرْه، جزاه اللهُ بها في الدُّنيا والآخِرةِ شَرًّا، وما التَقَم أحدٌ لُقمةً شَرًّا من اغتيابِ مُؤمِنٍ؛ إن قال فيه ما يَعلَمُ فقد اغتابه، وإن قال فيه بما لا يَعلَمُ فقد بَهَتَه)[5806].

- **موقِفُ السَّلَفِ والعُلَماءِ من المُغتابينَ:**

- عن يحيى بنِ الحُصَينِ عن طارِقِ بنِ شِهابٍ: (أنَّ خالِدَ بنَ الوليدِ كان بينَه وبينَ سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ كلامٌ، فذُكِر خالدٌ عِندَ سعدٍ، فقال: مَهْ[5807]! فإنَّ ما بينَنا لم يبلُغْ دِينَنا)[5808].

- ومرَّ ابنُ سِيرينَ بقومٍ، فقام إليه رجُلٌ منهم، فقال: أبا بكرٍ، إنَّا قد نِلْنا منك فَحَلِّلْنا. فقال: (إنِّي لا أُحِلُّ لك ما حَرَّم اللهُ عليك، فأمَّا ما كان إليَّ فهو لكم)[5809].

- و(قال مولًى لعَمرِو بنِ عُتبةَ بنِ أبي سُفيانَ: رآني عَمرُو بنُ عُتبةَ وأنا مع رجُلٍ، وهو يقَعُ في آخَرَ، فقال: لي: وَيْلَك -ولم يَقُلْها لي قَبْلَها ولا بَعْدَها- نَزِّه سَمْعَك عن استماعِ الخَنَا كما تُنَزِّهُ لسانَك عن القولِ به؛ فإنَّ المستَمِعَ شريكُ القائِلِ، وإنَّما نَظَر إلى شَرِّ ما في وعائِه فأفرَغَه في وعائِك، ولو ردَدْتَ كَلِمةَ سَفيهٍ في فيه لسَعِدَ بها رادُّها كما شَقِيَ بها قائِلُها)[5810].

- وكان ميمونُ بنُ سِياهٍ لا يغتابُ، ولا يَدعُ أحَدًا يغتابُ، ينهاه، فإن انتهى وإلَّا قام[5811].

- وقال الأصمَعيُّ: (اغتاب رجُلٌ رجُلًا عِندَ قُتَيبةَ بنِ مُسلِمٍ، فقال له قُتَيبةُ: أمسِكْ أيُّها الرَّجُلُ، فواللهِ لقد تلَمَّظْتَ[5812] بمُضغةٍ طالما لفَظَها الكِرامُ)[5813].

- وجرى ذِكرُ رَجُلٍ في مجلِسِ ابنِ قُتَيبةَ، فنال منه بعضُهم، فأقبَلَ عليه سَلْمٌ، فقال: (يا هذا، أوحَشْتَنا من نفسِك، وأيأَسْتَنا من مودَّتِك، ودلَلْتَنا على عَورتِك)[5814].

- وأتى رجُلٌ عَمرَو بنَ مَرثَدٍ فسأله أن يُكَلِّمَ له أميرَ المُؤمِنين، فوَعَده أن يفعَلَ، فلمَّا قام قال بعضُ مَن حَضَر: إنَّه ليس مُستَحِقًّا لِما وعَدْتَه. فقال عَمْرٌو: (إنْ كنتَ صَدَقْتَ في وَصفِك إيَّاه فقد كذَبْتَ في ادِّعائِك مودَّتَنا؛ لأنَّه إن كان مُستَحِقًّا

[5805] رواه البخاري (1186) واللفظ له، ومسلم (33).

[5806] رواه البخاري في ((الأدب المفرد)) (734)، وابن وهب في ((الجامع)) (311). صحَّح إسنادَه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (563).

[5807] أي: اكفُفْ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: 300).

[5808] رواه ابنُ أبي شيبة (26048)، والطبراني (106/4) (3810) واللفظ له، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (94/1). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (226/7): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ.

[5809] رواه أبو بكر الدِّينَوَري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (662)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (213/53).

[5810] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((ذم الغيبة والنميمة)) (111)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (275/46).

[5811] رواه ابنُ أبي الدنيا في ((ذم الغيبة والنميمة)) (113)، وأبو الشيخ في ((التوبيخ والتنبيه)) (181)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (107/3).

[5812] تلمَّظ: إذا تتبَّع بلِسانِه بقيَّةَ الطَّعامِ في فَمِه، وأخرج لسانَه فمَسَح به شفَتَيه. انظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 285).

[5813] رواه أبو بكر الدِّينَوَري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (2172).

[5814] ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان التوحيدي (4/ 61).

كانت اليَدُ مَوضِعَها، وإن لم يكُنْ مستَحِقًّا فما زِدْتَ على أن أعلَمْتَنا أنَّ لنا بَغيبِنا عنك مِثلَ الذي حضَرْتَ به مَن غاب من إخوانِنا!)[5815].

- واغتاب رَجُلٌ عِندَ معروفٍ الكَرْخيّ، فقال له: (اذكُرِ القُطنَ إذا وضَعوه على عَينَيك!)[5816].

- ورُوِيَ عن الحَسَنِ البَصريّ أنَّ رَجُلًا قال: إنَّ فُلانًا قد اغتابك، فبعَث إليه طبقًا من الرُّطَبِ، وقال: (بلغني أنَّك أهدَيْتَ إليَّ حَسَناتِك، فأرَدْتُ أن أكافِئَك عليها، فاعذُرْني؛ فإنِّي لا أقدِرُ أن أكافِئَك بها على التَّمامِ!)[5817].

- وقيل: (دُعِيَ إبراهيمُ بنُ أدهَمَ إلى دَعوةٍ، فحَضَر، فذكَروا رَجُلًا لم يأتِهم، فقالوا: إنَّه ثقيلٌ. فقال إبراهيمُ: إنَّما فَعَل بي هذا نفسي؛ حيثُ حَضَرْتُ موضِعًا يُغتابُ فيه النَّاسُ! فخرج، ولم يأكُلْ ثلاثةَ أيَّامٍ)[5818].

- وعن سُفيانَ بنِ حُسَينٍ قال: كنتُ عِندَ إياسِ بنِ مُعاويةَ وعِندَه رَجُلٌ تخوَّفْتُ إن قمتُ مِن عِندِه أن يَقَعَ فيَّ، فجَلَسْتُ حتَّى قام، فلمَّا قام ذكَرْتُه لإياسٍ. قال: فجَعَل ينظُرُ في وجهي فلا يقولُ لي شيئًا حتَّى فرَغْتُ، فقال لي: أغزَوتَ الدَّيلَمَ؟ قُلتُ: لا. قال: غزوتَ السِّندَ؟ قُلتُ: لا. قال: غزَوتَ الهِندَ؟ قُلتُ: لا. قال: غزَوتَ الرُّومَ؟ قُلتُ: لا. قال: فسَلِمَ منك الدَّيلَمُ والسِّندُ والهِندُ والرُّومُ، وليس يَسلَمُ منك أخوك هذا؟! فلم يَعُدْ سُفيانُ إلى ذلك[5819].

- و(عاب رجُلٌ رجُلًا عِندَ بعضِ أهلِ العِلمِ، فقال له: قد استدلَلْتَ على كثرةِ عُيوبِك بما تكثِرُ من عُيوبِ النَّاسِ؛ لأنَّ الطَّالِبَ للعُيوبِ إنَّما يَطلُبُها بقَدْرِ ما فيه منها!)[5820].

المطلب الثاني عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

● الغِيبةُ لا تقتَصِرُ على اللِّسانِ:

إنَّ الشَّرعَ حَرَّم الغِيبةَ باعتبارِها تصريحًا باللِّسانِ يُفهَمُ منه استِنقاصُ الآخَرين وذِكر عُيوبِهم، وكذلك فإنَّ كُلَّ فِعلٍ أو حَرَكةٍ أو كتابةٍ تُوحي بالمقصودِ فهي غِيبةٌ.

قال النَّوويُّ: (الغِيبةُ: ذِكْرُك الإنسانَ بما يَكرَهُ؛ سواءٌ ذكَرْتَه بلفظِك أو في كتابِك، أو رمَزْتَ أو أشَرْتَ إليه بعينِك أو يَدِك أو رأسِك. وضابطُه: كُلُّ ما أفهَمْتَ به غيرَك نُقصانَ مُسلِمٍ فهو غِيبةٌ مُحرَّمةٌ)[5821].

غِيبةُ العُلَماءِ ومَن لهم شأنٌ في الإسلامِ:

لا شَكَّ أنَّ الوقيعةَ في المُؤمِنين حرامٌ، وأنَّ أشَدَّ أنواعِها (غِيبةُ العُلَماءِ، والوقيعةُ في العُلَماءِ، والكلامُ على العُلَماءِ بما يَجرَحُهم...؛ لأنَّه يترَتَّبُ عليه فصلُ الأمَّةِ عن عُلَمائِها، ويترَتَّبُ عليه عدَمُ الثِّقةِ بأهلِ العِلمِ، وإذا حصَل هذا حصَل الشَّرُّ العظيمُ)[5822].

[5815] رواه أبو بكر الدينوري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (665).

[5816] رواه ابنُ حمكان في ((الفوائد والأخبار)) (87)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (8/ 364).

[5817] ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: 164)، ((سنن الصالحين)) للباجي (ص: 586).

[5818] ((الرسالة القشيرية)) لعبد الكريم القشيري (ص: 194).

[5819] ((المعرفة والتاريخ)) ليعقوب بن سفيان (2/ 95)، ((شعب الإيمان)) للبيهقي (9/ 117، 118).

[5820] رواه أبو بكر الدِّينَوَري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (664).

[5821] ((الأذكار)) (ص: 338).

- **غِيبةُ الكافِرِ:**

قولُ اللهِ تعالى: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} [الحجرات: 12] استُدِلَّ به على أنَّ الاغتيابَ الممنوعَ اغتيابُ المُؤمِنِ، لا ذِكرَ الكافِرِ؛ وذلك لأنَّه شبَّهه بأكلِ لَحمِ الأخِ، وقال مِن قَبلُ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: 10] ، فلا أُخُوَّةَ إلَّا بَيْنَ المُؤمِنين، ولا مَنْعَ إلَّا من شيءٍ يُشبِهُ أكلَ لَحمِ الأخِ؛ ففي هذه الآيةِ نهيٌ عن اغتيابِ المُؤمِنِ دونَ الكافِرِ[5823].

ومن أهلِ العِلمِ مَن فَصَّل فقال: أمَّا الحَربيُّ فلا تحرُمُ غِيبتُه، لكِنْ تُكرَهُ إذا اشتمَلَت على تنقيصِ خِلقتِه، وأمَّا الذِّمِّيُّ فكالمُسلِمِ فيما يرجِعُ إلى المنعِ من الإيذاءِ؛ لأنَّ الشَّرعَ عَصَم عِرضَه ودَمَه ومالَه[5824].

[5822] ((ما يجب في التعامل مع العلماء)) صالح الفوزان (ص: 17).

[5823] يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (110/28).

[5824] يُنظَر: ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهيتمي (27/2)، ((تفسير الألوسي)) (311/13).

المَبْحَثُ السَّابِعُ والعِشْرُونَ: النَّمِيمَةُ

المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى النَّميمةِ لُغةً واصطِلاحًا

- **معنى النَّميمةِ لُغةً:**

النَّمُّ: رَفعُ الحديثِ على وَجهِ الإشاعةِ والإفسادِ. وقيل: تزيينُ الكلامِ بالكَذِبِ. مِن نَمَّ يَنُمُّ ويَنِمُّ، فهو نَمومٌ ونَمَّامٌ ومِنَمٌّ، ونَمٌّ، من قومٍ نَمِّينَ وأنِمَّاءَ ونُمٍّ، وهي نَمَّةٌ، ويقالُ للنَّمَّامِ القَتَّاتُ، ونمَّامٌ مبالغةٌ، والاسمُ النَّميمةُ، وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على إظهارِ شَيءٍ وإبرازِه[5825].

- **معنى النَّميمةِ اصطِلاحًا:**

- النَّميمةُ: (نَقلُ الحديثِ مِن قومٍ إلى قومٍ على جِهةِ الإفسادِ والشَّرِّ)[5826].
- وعرَّفها الغَزاليُّ بقَولِه: (إفشاءُ السِّرِّ، وهَتكُ السِّترِ عمَّا يُكرَهُ كَشفُه)[5827].
- وقيل هي: (التَّحريشُ بَيْنَ النَّاسِ والسَّعيُ بَيْنَهم بالإفسادِ)[5828].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ النَّميمةِ وبَعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الغِيبةِ والنَّميمةِ:**

- قال ابنُ حَجَرٍ: (اختُلِفَ في الغِيبةِ والنَّميمةِ: هل هما متغايرتانِ أو متَّحِدتانِ، والرَّاجِحُ التَّغايُرُ، وأنَّ بَيْنَهما عُمومًا وخُصوصًا وَجهيًّا؛ وذلك لأنَّ النَّميمةَ نَقلُ حالِ شَخصٍ لغيرِه على جِهةِ الإفسادِ بغيرِ رِضاه، سواءٌ كان بعِلمِه أم بغيرِ عِلمِه.

- والغِيبةُ ذِكرُه في غَيبتِه بما لا يُرضيه، فامتازت النَّميمةُ بقصدِ الإفسادِ، ولا يُشترَطُ ذلك في الغِيبةِ.
وامتازت الغِيبةُ بكَونِها في غَيبةِ المقولِ فيه، واشتركا فيما عدا ذلك.

- ومن العُلَماءِ مَن يَشترِطُ في الغِيبةِ أن يكونَ المقولُ فيه غائبًا، واللَّهُ أعلمُ.

- وقال ابن حجر الهيتمي: (كُلُّ نميمةٍ غِيبةٌ، وليس كُلُّ غِيبةٍ نميمةً؛ فإنَّ الإنسانَ قد يذكُرُ عن غيرِه ما يكرهُه، ولا إفسادَ فيه بينَه وبينَ أحَدٍ، وهذا غِيبةٌ، وقد يَذكُرُ عن غيرِه ما يَكرَهُه، وفيه إفسادٌ، وهذا غِيبةٌ ونميمةٌ معًا).

- **الفَرْقُ بَيْنَ القَتَّاتِ والنَّمَّامِ:**

(القَتَّاتُ والنَّمَّامُ بمعنًى واحِدٍ.
وقيل: النَّمَّامُ الذي يكونُ مع جماعةٍ يتحَدَّثون حديثًا فيَنُمُّ عليهم.

[5825] يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (358/5)، ((لسان العرب)) لابن منظور (592/12)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: 1164)، ((المصباح المنير)) للفيومي (2/626)

[5826] ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (5/256)

[5827] ((إحياء علوم الدين)) (3/156)

[5828] ((فتاوى إسلامية)) لمجموعة من العلماء (70/4).

والقَتَّاتُ: الذي يتسَمَّعُ عليهم وهم لا يَعلَمون، ثمَّ يَنُمُّ)[5829].

المطلب الثالث: ذمُّ النَّميمةِ والنَّهيُ عنها

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

- قال تعالى: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} [القلم: 10-11].

قال ابنُ كثيرٍ في قولِه تعالى: (مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ يعني: الذي يمشي بَيْنَ النَّاسِ، ويُحَرِّشُ بَيْنَهم وينقُلُ الحديثَ لفسادِ ذاتِ البَينِ، وهي الحالِقةُ)[5830].

- وقال تعالى: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} [الهمزة: 1].

(قيل: اللُّمَزةُ: النَّمَّامُ. عن أبي الجَوزاءِ قال: قلتُ لابنِ عبَّاسٍ: من هؤلاء الَّذين بدأهم اللَّهُ بالوَيلِ؟ قال: هم المَشَّاؤون بالنَّميمةِ، المُفَرِّقون بَيْنَ الأحبَّةِ، الباغون أكبَرَ العَيبِ)[5831].

وقال مقاتِلٌ: (فأمَّا الهُمَزةُ فالذي يَنُمُّ الكلامَ إلى النَّاسِ، وهو النَّمَّامُ)[5832].

- وقال تعالى: {حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} [المسد: 4].

(قيل: كانت نمَّامةً حَمَّالةً للحديثِ إفسادًا بَيْنَ النَّاسِ، وسُمِّيَت النَّميمةُ حَطَبًا؛ لأنَّها تَنشُرُ العداوةَ بَيْنَ النَّاسِ، كما أنَّ الحطَبَ ينشُرُ النَّارَ. قال مجاهِدٌ: يعني حمَّالةَ النَّميمةِ، تمشي بالنَّميمةِ)[5833].

ب- من السُّنَّةِ النَّبويَّةِ:

- عن حُذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يدخُلُ الجنَّةَ نمَّامٌ))[5834]، وفي روايةٍ ((قَتَّاتٌ))[5835].

ونفيُ دُخولِ الجنَّةِ في الحديثِ نَفيٌ مُطلَقٌ، والنَّفيُ المُطلَقُ يُحمَلُ على المقيَّدِ، فيُقالُ: لا يدخُلون الجنَّةَ دُخولًا مُطلَقًا، يعني: لا يَسبِقُه عذابٌ، ولكِنَّهم يدخُلون الجنَّةَ دُخولًا يسبِقُه عذابٌ بقَدْرِ ذُنوبِهم، ثمَّ مَرجِعُهم إلى الجنَّةِ[5836].

قال ابنُ بطَّالٍ: (والقَتَّاتُ: النَّمَّامُ عِندَ أهلِ اللُّغةِ)[5837].

- وعن عبدِ اللَّهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: ((إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ألا أُنبِّئُكم ما العِضَهُ؟ هي النَّميمةُ القالةُ بَيْنَ النَّاسِ. وإنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: إنَّ الرَّجُلَ يَصدُقُ حتَّى يُكتَبَ صِدِّيقًا، ويَكذِبُ حتَّى يُكتَبَ كَذَّابًا))[5838].

[5829] ((الترغيب والترهيب)) للمنذري (323/3).

[5830] ((تفسير ابن كثير)) (191/8).

[5831] ((جامع البيان)) للطبري (596/24).

[5832] ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (839/4).

[5833] ((تفسير مجاهد)) لمجاهد بن جبر (ص: 759).

[5834] رواه مسلم (105).

[5835] رواه البخاري (6056)، ومسلم (105).

[5836] ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (2/ 15).

[5837] ((شرح صحيح البخاري)) (249/9).

قال المُناويُّ: (... "القالةُ بَيْنَ النَّاسِ"، أي: كثرةُ القولِ، وإيقاعُ الخُصومةِ بَيْنَهما، فيما يُحكى للبعضِ عن البعضِ، وقيل: القالةُ بمعنى المقولةِ، وزعَم بعضُهم أنَّ القالةَ هنا جمعٌ، وهم الذين يَنقُلون الكلامَ، ويوقِعون الخُصومةَ بَيْنَ النَّاسِ)[5839].

وقال ابنُ عُثَيمين: (هي النَّميمةُ: أن ينقُلَ الإنسانُ كلامَ النَّاسِ بعضِهم في بعضٍ؛ من أجلِ الإفسادِ بَيْنَهم، وهي من كبائِرِ الذُّنوبِ)[5840].

- وعن عبدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما قال: ((مرَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على قبرَينِ، فقال: إنَّهما ليُعَذَّبانِ، وما يُعَذَّبانِ في كبيرٍ! ثمَّ قال: بلى، أمَّا أحَدُهما فكان يسعى بالنَّميمةِ، وأمَّا الآخَرُ فكان لا يستَتِرُ مِن بَولِه، قال: ثمَّ أخذ عودًا رَطْبًا، فكَسَره باثنتَينِ، ثمَّ غَرَز كُلَّ واحدٍ منهما على قَبرٍ، ثمَّ قال: لعَلَّه يُخَفَّفُ عنهما ما لم يَيْبَسا))[5841].

قال ابنُ بطَّالٍ: (ومعنى الحديثِ: الحَضُّ على تَركِ النَّميمةِ)[5842].

وقال ابنُ دقيقِ العيدِ: (في الحديثِ دليلٌ على عِظَمِ أمرِ النَّميمةِ، وأنَّها سَبَبُ العذابِ، وهو محمولٌ على النَّميمةِ المُحَرَّمةِ)[5843].

وقال الشَّوكانيُّ: (الحديثُ يدُلُّ على نجاسةِ البَولِ من الإنسانِ، ووجوبِ اجتنابِه، وهو إجماعٌ، ويدُلُّ أيضًا على عِظَمِ أمرِه وأمرِ النَّميمةِ، وأنَّها من أعظمِ أسبابِ عذابِ القبرِ)[5844].

وقال السُّيوطيُّ: (قد ذَكَر بعضُهم السِّرَّ في تخصيصِ البَولِ والنَّميمةِ والغِيبةِ بعذابِ القَبرِ، وهو أنَّ القبرَ أوَّلُ منازِلِ الآخرةِ، وفيه أنموذَجُ ما يقَعُ في يومِ القيامةِ من العقابِ والثَّوابِ. والمعاصي التي يعاقَبُ عليها يومَ القيامةِ نوعانِ: حَقٌّ للهِ، وحَقٌّ لعبادِه، وأوَّلُ ما يُقضى فيه يومَ القيامةِ من حقوقِ اللَّهِ: الصَّلاةُ، ومن حُقوقِ العِبادِ: الدِّماءُ، وأمَّا البرزَخُ فيُقضى فيه في مُقَدِّماتِ هذينِ الحَقَّينِ ووَسائلِها، فمُقَدِّمةُ الصَّلاةِ الطَّهارةُ من الحدَثِ والخَبَثِ، ومُقَدِّمةُ الدِّماءِ النَّميمةُ والوقيعةُ في الأعراضِ، وهما أيسَرُ أنواعِ الأذى، فيبدَأُ في البرزخِ بالمحاسبةِ والعقابِ عليها)[5845].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- رُوِيَ أنَّ سُلَيمانَ بنَ عَبدِ المَلِكِ كان جالِسًا وعنده الزُّهريُّ، فجاءه رجُلٌ فقال له سُليمانُ: بلغني أنَّك وقَعْتَ فيَّ، وقُلتَ كذا وكذا. فقال الرَّجُلُ: ما فعَلْتُ ولا قُلتُ. فقال سُلَيمانُ: إنَّ الذي أخبرني صادِقٌ، فقال له الزُّهريُّ: لا يكونُ النَّمَّامُ صادِقًا. فقال سُلَيمانُ: صدَقْتَ، ثمَّ قال للرَّجُلِ: اذهَبْ بسَلامٍ[5846].

- وقال الحسَنُ: (كأنَّكم تظنُّون أنَّ الخيانةَ ليست إلَّا في الدِّينارِ والدِّرهَمِ! إنَّ الخيانةَ أشَدَّ الخيانةِ أن يجالِسَنا الرَّجُلُ فنطمَئِنَّ إلى جانِبِه، ثمَّ ينطَلِقَ فيسعى بنا إلى شرارةٍ من نارٍ!)[5847].

[5838] رواه مسلم (2606).

[5839] ((فيض القدير)) (133/3).

[5840] ((شرح رياض الصالحين)) (147/6).

[5841] رواه البخاري (218) واللفظ له، ومسلم (292).

[5842] ((شرح صحيح البخاري)) (346/3).

[5843] ((إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام)) (104/1).

[5844] ((نيل الأوطار)) (121/1).

[5845] ((الحاوي للفتاوي)) (181/2).

[5846] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/156).

[5847] المصدر السابق (3/ 329).

- وقال الحَسَنُ: (مَن نَمَّ إليك نَمَّ عليك)[5848].

- وعن عَطاءِ بنِ السَّائِبِ، قال: قَدِمتُ مِن مَكَّةَ فلَقِيني الشَّعبيُّ، فقال: يا أبا زيدٍ، أطرِفْنا ممَّا سَمِعتَ بمكَّةَ، فقُلتُ: سَمِعتُ عبدَ الرَّحمنِ بنَ سابِطٍ يقولُ: لا يَسكُنُ مكَّةَ سافِكُ دَمٍ، ولا آكِلُ رِبًا، ولا مَشَّاءٌ بنميمةٍ، فعَجِبتُ منه حينَ عَدَل النَّميمةَ بسَفكِ الدَّمِ وأكلِ الرِّبا، فقال الشَّعبيُّ: وما يُعجِبُك من هذا؟! وهل يُسفَكُ الدَّمُ وتُركَبُ العظائِمُ إلَّا بالنَّميمةِ[5849]؟!

- وقال قتادةُ: (ذُكِر لنا أنَّ عذابَ القبرِ ثلاثةُ أثلاثٍ: ثُلُثٌ من الغِيبةِ، وثُلُثٌ من البولِ، وثُلُثٌ من النَّميمةِ)[5850].

- وقال ابنُ حَزمٍ: (وما في جميعِ النَّاسِ شَرٌّ من الوُشاةِ، وهم النَّمامونَ، وإنَّ النَّميمةَ لَطَبعٌ يدُلُّ على نَتنِ الأصلِ، ورداءةِ الفَرعِ، وفسادِ الطَّبعِ، وخُبثِ النَّشأةِ، ولا بُدَّ لصاحبِه من الكَذِبِ. والنَّميمةُ فرعٌ من فروعِ الكَذِبِ، ونوعٌ من أنواعِه، وكُلُّ نمَّامٍ كَذَّابٌ)[5851].

- وقال أبو موسى عِمرانُ بنُ موسى المؤدِّبُ: (وَفَد على أَنوشِرْوانَ حكيمُ الهندِ، وفيلسوفُ الرُّومِ، فقال للهِنديِّ: تكلَّمْ. فقال: يا خَيرَ النَّاسِ، مَن ألقى سخيًّا، وعند الغَضَبِ وقورًا، وفي القولِ مُتأنِّيًا، وفي الرِّفعةِ متواضِعًا، وعلى كُلِّ ذي رَحِمٍ مُشفِقًا. وقام الرُّوميُّ، فقال: مَن كان بخيلًا وَرِث عَدُوُّه مالَه، ومَن قَلَّ شُكرُه لم يَنَلِ النَّجاحَ، وأهلُ الكَذِبِ مذمومون، وأهلُ النَّميمةِ يموتون فُقَراءَ، فمَن لم يرحَمْ سُلِّط عليه مَن لا يرحَمُه)[5852].

- عن يحيى بنِ أبي كَثيرٍ، قال: قال سُلَيمانُ بنُ داودَ لابنِه: (يا بُنَيَّ، إيَّاك والنَّميمةَ؛ فإنَّها أحَدُّ من السَّيفِ)[5853].

- قال أَكثَمُ بنُ صَيفيٍّ لبنيه: (إيَّاكم والنَّميمةَ؛ فإنَّها نارٌ مُحرِقةٌ، وإنَّ النَّمَّامَ ليَعمَلُ في ساعةٍ ما لا يَعمَلُ السَّاحِرُ في شهرٍ)[5854].

- كان ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما يقولُ: (الكَذِبُ فُجورٌ، والنَّميمةُ سِحرٌ؛ فمَن كَذَب فقد فَجَر، ومَن نَمَّ فقد سَحَر) .

- عن كَعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: (اتَّقوا النَّميمةَ؛ فإنَّ صاحِبَها لا يستريحُ من عذابِ القبرِ)[5855].

- عن كَعبِ الأحبارِ، قال: (إنَّ أعظَمَ النَّاسِ عِندَ اللَّه خطيئةً يومَ القيامةِ المُثلِّثُ، قالوا له: وما المُثَلِّثُ؟ قال: الذي يسعى بأخيه إلى إمامِه فيُهلِكُ نَفسَه، ويُهلِكُ أخاه، ويُهلِكُ إمامَه)[5856].

- عن بعضِ أصحابِ جَعفَرِ بنِ محمدٍ الصَّادِقِ، قال: (دخَلتُ على جَعفَرٍ وموسى بَيْنَ يَدَيه، وهو يوصيه بهذه الوَصيَّةِ، فكان ممَّا حَفِظتُ منها أنْ قال: يا بُنَيَّ، اقبَلْ وَصِيَّتي، واحفَظْ مقالتي... وإيَّاك والنَّميمةَ؛ فإنَّها تزرَعُ الشَّحناءَ في قُلوبِ الرِّجالِ، وإيَّاك والتَّعرُّضَ لعُيوبِ النَّاسِ؛ فمَنزِلةُ التَّعرُّضِ لعيوبِ النَّاسِ بمنزلةِ الهَدَفِ)[5857].

[5848] المصدر السابق (156/3).

[5849] رواه وكيع في ((الزهد)) (446)، وهناد في ((الزهد)) (575/2)، وأبو بكر الدينوري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (673) واللفظ له.

[5850] ((الزهد)) لأحمد بن حنبل (467)، ((الزهد)) لهناد بن السري (2/ 575)، ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص: 176)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (3/ 70).

[5851] ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (2/ 31).

[5852] ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (273)، ((ذم الغيبة والنميمة)) لابن أبي الدنيا (137).

[5853] ((الزهد)) لأحمد بن حنبل (467)، ((الزهد)) لهناد بن السري (2/ 575)، ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص: 176)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (3/ 70).

[5854] ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (2/ 31).

[5855] ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (273)، ((ذم الغيبة والنميمة)) لابن أبي الدنيا (137).

[5856] ((الزهد)) لهناد بن السري (2/ 578).

[5857] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (3/ 195).

- أوصى عبدُ المَلِكِ بنُ صالِحٍ ابنًا له، فقال: (أي بُنَيَّ، احلُمْ؛ فإنَّ مَن حَلُم ساد، ومَن تفَهَّمَ ازداد... مَن سعى بالنَّميمةِ حَذِرَه البعيدُ، ومَقَتَه القريبُ)[5858].

- قال يحيى بنُ أبي كثيرٍ: (إنَّ صاحِبَ النَّميمةِ ليُفسِدُ ما بَيْنَ النَّاسِ في يومٍ ما لا يُفسِدُه السَّاحِرُ في شَهرٍ)[5859].

- وكتب طاهِرُ بنُ الحُسَينِ لابنِه عبدِ اللَّهِ كتابًا لَمَّا ولَّاه المأمونُ عبدُ اللَّهِ بنُ هارونَ الرَّشيدِ الرَّقَّةَ ومِصرَ وما بَيْنَهما، وفيه: (أغمِضْ عن عيبِ كُلِّ ذي عَيبٍ من رعيَّتِك، واشدُدْ لِسانَك عن قَولِ الكَذِبِ والزُّورِ، وأبغِضْ أهلَه، وأقْصِ أهلَ النَّميمةِ؛ فإنَّ أوَّلَ فَسادِ أمرِك في عاجِلِ الأمورِ وآجِلِها تقريبُ الكذوبِ والجرأةُ على الكَذِبِ؛ لأنَّ الكَذِبَ رأسُ المآثِمِ، والزُّورَ والنَّميمةَ خاتِمتُها؛ لأنَّ النَّميمةَ لا يَسلَمُ صاحِبُها، وقائِلُها لا يَسلَمُ له صاحِبٌ، ولا يستقيمُ لمطيعِها أمرٌ)[5860].

- قال ابنُ حِبَّانَ عن النَّميمةِ: (تَهتِكُ الأستارَ، وتُفشي الأسرارَ، وتُورِثُ الضَّغائِنَ، وترفَعُ المودَّةَ، وتجَدِّدُ العداوةَ، وتُبَدِّدُ الجماعةَ، وتُهَيِّجُ الحِقدَ، وتَزيدُ الصَّدَّ)[5861].

قال ابنُ مِسكَوَيهِ: (احذَرِ النَّميمةَ وسَماعَها؛ وذلك أنَّ الأشرارَ يَدخُلون بَيْنَ الأخيارِ في صورةِ النُّصَحاءِ فيُوهمونَهم النَّصيحةَ، ويَنقُلون إليهم في عَرضِ الأحاديثِ اللَّذيذةِ أخبارَ أصدقائِهم محَرَّفةً مُمَوَّهةً، حتَّى إذا تجاسَروا عليهم بالحديثِ المُختَلَقِ يُصَرِّحون لهم بما يُفسِدُ مودَّاتِهم، ويُشَوِّهُ وجوهَ أصدقائِهم، إلى أن يُبغِضَ بعضُهم بعضًا)[5862].

المطلب الرابع: آثارُ النَّميمةِ

1- طريقٌ مُوصِلٌ إلى النَّارِ.

2- توقِدُ نارَ العداوةِ والشَّحناءِ. عن العَتبيِّ، قال: سمِعتُ أعرابيَّةً تُوصي ابنًا لها، فقالت: (عليك بحِفظِ السِّرِّ، وإيَّاك والنَّميمةَ؛ فإنَّها لا تَترُكُ مودَّةً إلَّا أفسدَتْها، ولا ضغينةً إلَّا أوقَدَتْها)[5863].

وقال أبانُ بنُ تَغلِبَ: (شَهِدتُ أعرابيَّةً وهي توصي ولَدًا لها يريدُ سَفَرًا، وهي تقولُ له: ... أي بُنَيَّ، إيَّاك والنَّميمةَ؛ فإنَّها تزرَعُ الضَّغينةَ، وتُفَرِّقُ بَيْنَ المحِبِّين)[5864].

3- تؤذي وتَضُرُّ، وتُؤلِمُ، وتَجلِبُ الخِصامَ والنُّفورَ.

4- عُنوانُ الدَّناءةِ والجُبنِ، والضَّعفِ والدَّسِّ، والكَيدِ، والمَلَقِ، والنِّفاقِ.

5- مُزيلةٌ كُلَّ محبَّةٍ، ومُبعِدةٌ كُلَّ مودَّةٍ وتآلُفٍ وتآخٍ[5865].

6- عارٌ على قائِلِها وسامِعِها.

[5858] ((البيان والتبيين)) للجاحظ (3/ 306، 307).

[5859] ((شعب الإيمان)) للبيهقي (13/ 448).

[5860] ((تاريخ الرسل والملوك)) للطبري (8/ 585).

[5861] ((روضة العقلاء)) (ص: 180).

[5862] ((تهذيب الأخلاق)) لابن مسكويه (ص: 175).

[5863] ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص: 177).

[5864] ((الأمالي)) لأبي علي القالي (2/ 79).

[5865] ((نضرة النعيم)) (5671/11).

7- تحمِلُ على التَّجَسُّسِ، وتتبُّعِ أخبارِ الآخَرينَ.

8- تؤدِّي إلى التَّفرُّقِ والقطيعةِ.

9- النَّميمةُ تحلِقُ الدِّينَ:

عن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: ((قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ألا أخبِرُكم بأفضَلِ مِن دَرَجةِ الصِّيامِ والصَّلاةِ والصَّدَقةِ؟ قالوا: بلى، قال: صلاحُ ذاتِ البَينِ؛ فإنَّ فسادَ ذاتِ البَينِ هي الحالِقةُ))[5866].

10- النَّميمةُ تجعَلُ صاحِبَها ذليلًا محتقَرًا:

اتَّبَع رَجُلٌ حكيمًا سَبعَمائةِ فَرسَخٍ في سَبعِ كَلِماتٍ، فلمَّا قَدِم عليه قال: إنِّي جئتُك للذي آتاك اللَّهُ تعالى من العِلمِ، أخبِرْني عن السَّماءِ وما أثقَلُ منها؟ وعن الأرضِ وما أوسَعُ منها؟ وعن الصَّخرِ وما أقسى منه؟ وعن النَّارِ وما أحَرُّ منها؟ وعن الزَّمهريرِ وما أبرَدُ منه؟ وعن البحرِ وما أغنى منه؟ وعن اليتيمِ وما أذَلُّ منه؟ فقال له الحكيمُ: البهتانُ على البريءِ أثقَلُ من السَّمواتِ، والحَقُّ أوسَعُ من الأرضِ، والقَلبُ القانِعُ أغنى من البحرِ، والحِرصُ والحَسَدُ أحَرُّ من النَّارِ، والحاجةُ إلى القريبِ إذا لم تنجَحْ أبرَدُ من الزَّمهريرِ، وقَلبُ الكافرِ أقسى من الحَجَرِ، والنَّمَّامُ إذا بان أمرُه أذَلُّ من اليتيمِ[5867].

11- النَّميمةُ تُفسِدُ الدِّينَ والدُّنيا:

قال أبو الفَرَجِ ابنُ الجَوزيِّ: (النَّميمةُ تُفسِدُ الدِّينَ والدُّنيا، وتُغَيِّرُ القُلوبَ، وتُولِّدُ البَغضاءَ، وسَفكَ الدِّماءِ، والشَّتاتَ)[5868].

المطلب الخامس: أقسامُ النَّميمةِ

للنَّميمةِ ثلاثةُ أقسامٍ، وهي كما يلي:

1- النَّميمةُ المحرَّمةُ:

هي نَقلُ الكلامِ بَيْنَ النَّاسِ على جهةِ الإفسادِ والإيقاعِ بَيْنَهم، دونَ وُجودِ مَصلَحةٍ شَرعيَّةٍ في نَقلِ الكلامِ.

2- النَّميمةُ الواجِبةُ أو المُستحَبَّةُ:

وهي التي تكونُ للتَّحذيرِ من شَرٍّ واقعٍ على إنسانٍ ما، فيُخبِرُ بذلك الشَّرِّ ليَحذَرَه.

وقال ابنُ الملَقِّنِ وهو يتحَدَّثُ عن النَّميمةِ: (أمَّا إذا كان فِعلُها نصيحةً في تركِ مَفسَدةٍ أو دَفعِ ضَرَرٍ، وإيصالِ خَيرٍ يتعَلَّقُ بالغيرِ، لم تكُنْ محرَّمةً ولا مكروهةً، بل قد تكونُ واجبةً أو مستحبَّةً)[5869].

وقال النَّوويُّ عن النَّميمةِ: (فإن دَعَت حاجةٌ إليها فلا مَنْعَ منها، وذلك كما إذا أخبره بأن إنسانًا يريدُ الفَتكَ به أو بأهلِه أو بمالِه، أو أخبر الإمامَ أو مَن له ولايةٌ بأنَّ إنسانًا يفعَلُ كذا ويسعى بما فيه مَفسَدةٌ، ويجِبُ على صاحِبِ الولايةِ الكَشفُ عن

[5866] أخرجه أبو داود (4919)، والترمذي (2509) واللفظ له، وأحمد (27508). صحَّحه الترمذي، وابن حبان في ((صحيحه)) (5092).

[5867] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (156/3).

[5868] ((بحر الدموع)) لابن الجوزي (ص: 129).

[5869] ((الإعلام بفوائد عمدة الأحكام)) (531/1).

ذلك وإزالتُه، فكُلُّ هذا وما أشبَهَه ليس بحرامٍ، وقد يكونُ بعضُه واجبًا وبعضُه مُستحَبًّا على حَسَبِ المَواطِنِ، واللَّهُ أعلمُ)[5870].

3- النَّميمةُ المباحةُ:

قد تُباحُ النَّميمةُ، ومن ذلك ما ورد أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَسَم قِسمةً، فقال رجُلٌ من الأنصارِ: ((واللَّهِ ما أراد محمَّدٌ بهذا وَجهَ اللَّهِ! فأتيتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأخبَرْتُه، فتمعَّرَ وجهُه، وقال: رَحِمَ اللَّهُ موسى، لقد أوذيَ بأكثَرَ من هذا فصَبَرَ!))[5871].

قال ابنُ بطَّالٍ: (في هذا الحديثِ من الفقهِ أنَّه يجوزُ للرَّجُلِ أن يخبِرَ أهلَ الفضلِ والسَّترِ من إخوانِه بما يُقالُ فيهم ممَّا لا يليقُ بهم؛ ليُعَرِّفَهم بذلك من يؤذيهم من النَّاسِ ويُنَقِّصُهم، ولا حرَجَ عليه في مقابلتِه بذلك وتبليغِه له. وليس ذلك من بابِ النَّميمةِ؛ لأنَّ ابنَ مسعودٍ حينَ أخبَرَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بقولِ الأنصاريِّ فيه وتجويرِه له في القِسمةِ، لم يقُلْ له: أتيتَ بما لا يجوزُ، ونمَمْتَ الأنصاريَّ، والنَّميمةُ حرامٌ، بل رَضِيَ ذلك عليه السَّلامُ، وجاوبه عليه بقولِه: ((يرحَمُ اللَّهُ موسى، لقد أوذيَ بأكثَرَ من هذا فصَبَرَ))[5872]، وإنَّما جاز لابنِ مسعودٍ نقلُ ذلك إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ الأنصاريَّ في تجويرِه للنَّبيِّ عليه السَّلامُ استباح إثمًا عظيمًا، ورَكِبَ جُرمًا جسيمًا، فلم يكُنْ لحديثِه حُرمةٌ، ولم يكُنْ نَقلُه من بابِ النَّميمةِ)[5873].

المطلب السادس: صُوَرُ النَّميمةِ

النَّميمةُ هي كَشفُ ما يُكرَهُ كَشفُه، سواءٌ كَرِهه المنقولُ عنه، أو المنقولُ إليه، أو ثالِثٌ، وسواءٌ كان الكَشفُ بالقولِ أو الكتابةِ أو الرَّمزِ أو الإيماءِ أو نحوِها، وسواءٌ كان المنقولُ من الأقوالِ أو الأعمالِ، وسواءٌ كان عيبًا أو غيرَه[5874]. وكُلُّ ما ذُكِر من صُوَرِ النَّميمةِ.

المطلب السابع: أسبابُ الوقوعِ في النَّميمةِ

1- أن ينشَأَ الفَردُ في بيئةٍ دأبُها النَّميمةُ والوقيعةُ بَيْنَ النَّاسِ، فيُحاكيها ويتأثَّرُ بها.

2- الإساءةُ للآخَرينَ، والرَّغبةُ في إيذائِهم.

3- إطلاقُ اللِّسانِ بالخَوضِ في الباطِلِ وفُضولِ الحديثِ.

4- عدَمُ رَدعِ النَّمَّامِ وزَجرِه، بل استحسانُ عَمَلِه ومسايرتُه.

5- الفَراغُ وعَدَمُ شَغلِ الوقتِ بالأشياءِ النَّافعةِ.

6- الغَضَبُ والرَّغبةُ في الانتقامِ.

[5870] ((شرح النووي على مسلم)) (2/ 113).

[5871] رواه البخاري (6059) واللفظ له، ومسلم (1062) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5872] المصدر السابق.

[5873] ((شرح صحيح البخاري)) (252/10).

[5874] ((الأذكار)) للنووي (ص: 348).

7- تتبُّعُ عَوراتِ النَّاسِ.

8- العَمَلُ لصالحِ أفرادٍ أو جِهاتٍ مَشبوهةٍ.

9- ضَعفُ الإيمانِ وسوءُ الخُلُقِ.

10- جَهلُ النَّمَّامِ بالعواقِبِ السَّيِّئةِ للنَّميمةِ وآثارِها على الفَردِ والمجتمعِ.

11- الحَسَدُ للآخَرينَ، وعَدَمُ حُبِّ الخيرِ لهم.

12- البَغيُ، قال أحمدُ بنُ عاصِمٍ الأنطاكيُّ: (أشَرُّ مَكِنةِ الرَّجُلِ البَذاءُ -وهو الوقيعةُ منه، وهي الغِيبةُ- وذلك أنَّه لا ينالُ بذلك منفعةً في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، بل يُبغِضُه عليه المتَّقون ويَهجُرُه الغافِلون، وتجتَنِبُه الملائكةُ، وتَفرَحُ به الشَّياطينُ... والغِيبةُ والنَّميمةُ قرينتانِ، ومخرَجُهما من طريقِ البَغيِ، والنَّمَّامُ قاتِلٌ، والمغتابُ آكِلُ الميتةِ، والباغي مُستكبِرٌ)[5875].

المطلب الثامن: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ النَّميمةِ

1- التَّعريفُ بخُطورةِ النَّميمةِ.

2- استِشعارُ عَظَمةِ هذه المعصيةِ وأنَّها من الكبائِرِ.

3- حِفظُ اللِّسانِ.

4- معرفةُ ما يترَتَّبُ على النَّميمةِ من إفسادٍ للقُلوبِ وتفريقٍ بَيْنَ النَّاسِ.

5- التَّقرُّبُ إلى اللَّهِ سُبحانَه وتعالى بكثرةِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وتقديمِ رِضاه على رِضا المخلوقين.

6- استشعارُ الفَردِ أنَّ حِفظَ اللِّسانِ عن النَّميمةِ وغَيرِها من الآفاتِ من أسبابِ دُخولِه الجنَّةَ.

7- تقويةُ الإيمانِ بالعِلمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالِحِ.

8- تَركُ الاستماعِ للنَّمَّامين ومَنْعُهم من النَّميمةِ.

9- تربيةُ الفردِ على الالتِزامِ بالآدابِ والتَّعاليمِ الإسلاميَّةِ.

10- استغلالُ وَقتِ الفَراغِ بما ينفَعُ الفَردَ.

11- كَظْمُ الغيظِ والصَّبرُ على الغَضَبِ.

12- التَّأمُّلُ في سيرةِ السَّلَفِ والاقتداءُ والتَّأسِّي بهم.

13- أن يَعلَمَ الفَردُ أنَّ الذين يَتُمُّ عليهم اليومَ هم خُصَماؤه عِندَ اللَّهِ يومَ القيامةِ.

المطلب التاسع: ماذا يفعَلُ مَن حُمِلَت إليه النَّميمةُ؟

[5875] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (9/ 291).

قال الغَزاليُّ: (كُلُّ مَن حُمِلت إليه النَّميمةُ وقيل له: إنَّ فلانًا قال فيك كذا وكذا، أو فَعَل في حقِّك كذا، أو هو يُدَبِّرُ في إفسادِ أمرِك، أو في ممالأةِ عَدُوِّك أو تقبيحِ حالِك، أو ما يجري مجراه؛ فعليه سِتَّةُ أمورٍ:

الأوَّلُ: ألَّا يُصَدِّقَه؛ لأنَّ النَّمَّامَ فاسِقٌ، وهو مردودُ الشَّهادةِ؛ قال اللَّهُ تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ [الحجرات: 6].

الثَّاني: أن ينهاه عن ذلك وينصَحَ له، ويُقَبِّحَ عليه فِعلَه؛ قال اللَّهُ تعالى: وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ [لقمان: 17].

الثَّالِثُ: أن يُبغِضَه في اللَّهِ تعالى؛ فإنَّه بغيضٌ عِندَ اللَّهِ تعالى، ويجِبُ بُغضُ من يُبغِضُه اللَّهُ تعالى.

الرَّابعُ: ألَّا تظُنَّ بأخيك الغائِبِ السُّوءَ؛ لقَولِ اللَّهِ تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ [الحجرات: 12].

الخامِسُ: ألَّا يحمِلَك ما حُكِيَ لك على التَّجسُّسِ والبَحثِ لتُحَقِّقَ؛ اتباعًا لقَولِ اللَّهِ تعالى: وَلَا تَجَسَّسُوا [الحجرات: 12].

السَّادِسُ: ألَّا ترضى لنفسِك ما نهَيتَ النَّمَّامَ عنه، ولا تحكيَ نميمَتَه؛ فتقولَ: فلانٌ قد حكى لي كذا وكذا، فتكونَ به نمَّامًا ومُغتابًا، وقد تكونُ قد أتيتَ ما عنه نهَيتَ)[5876].

(جاء رجُلٌ إلى عَليِّ بنِ الحُسَينِ رَضِيَ اللَّهُ عنهما فنَمَّ له عن شَخصٍ، فقال: اذهَبْ بنا إليه، فذهَب معه، وهو يرى أنَّه ينتَصِرُ لنَفسِه، فلمَّا وصَل إليه قال: يا أخي، إن كان ما قُلتَ فيَّ حقًّا يغفِرُ اللَّهُ لي، وإن كان ما قُلتَ فيَّ باطِلًا يَغفِرُ اللَّهُ لك)[5877].

ورُوِيَ عن عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ أنَّه دَخَل عليه رجُلٌ، فذَكَر عِندَه رجُلًا، فقال له عُمَرُ: (إن شِئتَ نظَرْنا في أمرِك، فإن كُنتَ كاذِبًا فأنت من أهلِ هذه الآيةِ: إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا [الحجرات: 6] ، وإن كُنتَ صادِقًا فأنت من أهلِ هذه الآيةِ: هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ [القلم: 11] ، وإن شِئتَ عَفَونا عنك. فقال: العَفوُ يا أميرَ المُؤمِنينَ، لا أعودُ إليه أبَدًا)[5878].

وذُكِر أنَّ حكيمًا من الحُكَماءِ زاره بعضُ أصدقائِه وذَكَر عندَه بعضَ إخوانِه، فقال له الحكيمُ: (قد أبطَأْتَ في الزِّيارةِ وأتيتَني بثلاثِ جِناياتٍ: بغَّضْتَ إليَّ أخي، وشَغَلْتَ قلبي الفارِغَ، واتَّهَمْتَ نَفسَك بالمَينِ!)[5879].

وعاتَبَ مُصعَبُ بنُ الزُّبَيرِ الأحنَفَ بنَ قَيسٍ على شيءٍ بَلَغه عنه، فاعتذَر إليه الأحنَفُ من ذلك ودَفَعه، فقال مُصعَبٌ: أخبَرَني بذلك الثِّقةُ، فقال الأحنَفُ: كَلَّا أيُّها الأميرُ؛ إنَّ الثِّقةَ لا يُبلِّغُ[5880].

(ورُوِيَ أنَّ سُلَيمانَ بنَ عَبدِ المَلِكِ كان جالِسًا وعنده الزُّهريُّ، فجاءه رجُلٌ فقال له سُليمانُ: بلغني أنَّك وقَعْتَ فيَّ، وقُلتَ كذا وكذا. فقال الرَّجُلُ: ما فعَلْتُ ولا قُلتُ. فقال سُلَيمانُ: إنَّ الذي أخبرني صادِقٌ، فقال له الزُّهريُّ: لا يكونُ النَّمَّامُ صادِقًا. فقال سُلَيمانُ: صدَقْتَ، ثمَّ قال للرَّجُلِ: اذهَبْ بسَلامٍ)[5881].

[5876] ((إحياء علوم الدين)) (3/156). ويُنظَر: ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: 174، 175).

[5877] ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) لابن حجر الهيتمي (571/2).

[5878] يُنظَر: ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (2/ 25)، ((الفاخر)) للمفضل بن سلمة (ص: 299)، ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (2/ 182).

[5879] ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: 173).

[5880] المصدر السابق.

[5881] المصدر السابق (ص: 174).

و(سعى رجُلٌ بزيادٍ الأعجَمِ إلى سُلَيمانَ بنِ عَبدِ المَلِكِ، فجَمع بَيْنَهما للمُوافقةِ، فأقبل زيادٌ على الرَّجُلِ وقال:

فأنت امرُؤٌ إمَّا ائتمَنْتُك خاليًا

فخُنتَ وإمَّا قُلتَ قَولًا بلا عِلمِ

فأنتَ من الأمرِ الذي كان بينَنا

بمنزلةٍ بَيْنَ الخيانةِ والإثمِ

وقال رجُلٌ لعَمرِو بنِ عُبَيدٍ: إنَّ الأسواريَّ ما يزالُ يَذكُرُك في قَصَصِه بشَرٍّ. فقال له عَمْرٌو: يا هذا، ما رعَيتَ حَقَّ مجالسةِ الرَّجُلِ حيثُ نقَلْتَ إلينا حديثَه، ولا أدَّيتَ حَقِّي حينَ أعلَمْتَني عن أخي ما أكرَهُ، ولكِنْ أعلِمْه أنَّ الموتَ يَعُمُّنا، والقَبرَ يَضُمُّنا، والقيامةَ تَجمَعُنا، واللَّهُ تعالى يحكُمُ بيننا، وهو خيرُ الحاكِمين)[5882].

ورَفَع إنسانٌ رَفيعةً إلى الصَّاحِبِ بنِ عَبَّادٍ يحُثُّه فيها على أخذِ مالِ يَتيمٍ، وكان مالًا كثيرًا، فكَتَب على ظَهْرِها: النَّميمةُ قبيحةٌ وإن كانت صحيحةً، والمَيِّتُ رحمه اللَّهُ، واليتيمُ جَبَره اللَّهُ، والمالُ ثَمَرةُ اللَّهِ، والسَّاعي لَعَنه اللَّهُ[5883]!

وقال ذو الرِّياستَينِ: (قَبولُ النَّميمةِ شَرٌّ من النَّميمةِ؛ لأنَّ النَّميمةَ دَلالةٌ، والقَبولَ إجازةٌ، وليس مَن دَلَّ على شيءٍ كمَن قَبِله وأجازَه)[5884].

وقيل لمحمَّدِ بنِ كَعبٍ القُرَظيِّ: أيُّ خِصالِ المُؤمِنِ أوضَعُ له؟ فقال: كثرةُ الكلامِ، وإفشاءُ السِّرِّ، وقَبولُ قَولِ كُلِّ أحَدٍ[5885].

المطلب العاشر: حُكمُ النَّميمةِ وما يباحُ منها

النَّميمةُ مُحَرَّمةٌ بالكِتابِ، والسُّنَّةِ، والإجماعِ، وهي من كبائِرِ الذُّنوبِ.

ومِمَّن نقل الإجماعَ على حُرمةِ النَّميمةِ ابنُ حَزمٍ والنَّوويُّ:

قال ابنُ حَزمٍ: (واتَّفَقوا على تحريمِ الغِيبةِ والنَّميمةِ في غيرِ النَّصيحةِ الواجِبةِ)[5886].

وقال النَّوويُّ: (وأمَّا حُكمُها أي: الغِيبةِ والنَّميمةِ، فهما محرَّمتانِ بإجماعِ المُسلِمين، وقد تظاهَرَ على تحريمِها الدَّلائلُ الصَّريحةُ من الكِتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأمَّةِ)[5887].

وقال ابنُ بازٍ: (هي من الكبائِرِ ومِن أسبابِ البَغْضاءِ والشَّحناءِ بَيْنَ المُسلِمين؛ فالواجِبُ الحَذَرُ منها)[5888].

وقال ابنُ عُثَيمين: (النَّميمةُ من كبائِرِ الذُّنوبِ، وهي سبَبٌ لعذابِ القَبرِ، ومن أسبابِ حِرمانِ دُخولِ الجنَّةِ)[5889].

[5882] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (157/3).

[5883] ((الأذكار)) للنووي (ص: 553).

[5884] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (2/ 182).

[5885] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (157/3).

[5886] ((مراتب الإجماع)) (ص: 156)

[5887] ((الأذكار)) (ص: 336)

[5888] ((فتاوى نور على الدرب لابن باز)) جمع: محمد الشويعر (14/125)

[5889] ((مجموع فتاوى ورسائل بن عثيمين)) جمع وترتيب: فهد السليمان (9/524)

لكن إن دَعَت إليها حاجةٌ فلا تحرُمُ، وذلك كتحذيرِ إنسانٍ ممَّن يريدُ قَتْلَه أو الإضرارَ به أو بأهلِه أو بمالِه، أو دلالةِ أصحابٍ على من يسعى بما فيه مفسَدةٌ، وقد يكونُ بعضُ ذلك واجبًا وبعضُه مُستحَبًّا[5890].

قال ابنُ كثيرٍ: (النَّميمةُ على قِسمَينِ، تارةً تكونُ على وَجهِ التَّحريشِ بَيْنَ النَّاسِ وتفريقِ قُلوبِ المُؤمِنين، فهذا حرامٌ متَّفَقٌ عليه. فأمَّا إذا كانت على وَجهِ الإصلاحِ بَيْنَ النَّاسِ وائتلافِ كَلِمةِ المُسلِمين... أو يكونُ على وَجهِ التَّخذيلِ والتَّفريقِ بَيْنَ جموعِ الكَفَرةِ، فهذا أمرٌ مطلوبٌ، كما جاء في الحديثِ: ((الحَربُ خَدْعةٌ))[5891]. وكما فَعَل نعيمُ بنُ مَسعودٍ في تفريقِه بَيْنَ كَلِمةِ الأحزابِ وبَينَ قُرَيظةَ، وجاء إلى هؤلاء فنَمى إليهم عن هؤلاء كَلامًا، ونَقَل من هؤلاءِ إلى أولئك شَيئًا آخَرَ، ثمَّ لأَمَ بَيْنَ ذلك، فتناكَرت النُّفوسُ وافترَقَت. وإنَّما يحذو على مِثلِ هذا الذَّكاءِ والبصيرةِ النَّافذةِ. واللَّهُ المستعانُ)[5892].

المطلب الحادِيَ عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **قِصَّةٌ فيما تفعَلُه النَّميمةُ:**

عن حمَّادِ بنِ سَلَمةَ قال: باع رجُلٌ من رجُلٍ غلامًا له، وقال: أبرَأُ إليك من النَّميمةِ، فاشتراه على ذلك، فجاء إلى مولاتِه، فقال: إنَّ زَوجَكِ ليس يحِبُّك وهو يتسَرَّى عليك ويتزوَّجُ، أفتريدين أن يَعطِفَ عليك؟ قالت: نعم، قال: خذي موسى فاحلقي به شَعَراتٍ من باطِنِ لحيتِه وبَخِّريه بها، وجاء إلى الرَّجُلِ فقال: إنَّ امرأتَك تبغي وتصادِقُ وهي قاتِلَتُك، أفتريدُ أن يَبينَ لك ذلك؟ قال: نعم، قال: تناوَمْ لها، قال: فتناوَمَ لها فجاءت بموسى تحلِقُ الشَّعرَ، فأخَذَها فقَتَلها فأخَذَه أولياؤُها فقَتَلوه[5893]!

قال رجُلٌ لعُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عنه: (يا أميرَ المُؤمِنين، احذَرْ قاتِلَ الثَّلاثةِ، قال: وَيْلَك! مَن قاتِلُ الثَّلاثةِ؟ قال: الرَّجُلُ يأتي الإمامَ بالحديثِ الكَذِبِ، فيَقتُلُ الإمامُ ذلك الرَّجُلَ بحديثِ هذا الكَذَّابِ؛ ليكونَ قد قَتَل نَفْسَه، وصاحِبَه، وإمامَه)[5894].

- **النَّميمةُ تقتُلُ صاحِبَها:**

(كان رجُلٌ يغشي بعضَ المُلوكِ، فيقومُ بحِذاءِ المَلِكِ، ويقولُ: أحسِنْ إلى المحسِنِ بإحسانِه، والمسيءُ ستكفيه مساوِئُه، فحَسَده رجُلٌ على ذلك المقامِ والكلامِ، فسعى به إلى المَلِكِ، فقال: إنَّ هذا الذي يقومُ بحذائِك، ويقولُ ما يقولُ، يزعُمُ أنَّ المَلِكَ أَبْخَرُ[5895]. فقال له المَلِكُ: وكيف يَصِحُّ ذلك عندي؟ قال: تدعو به إليك، فإذا دنا منك وَضَع يَدَه على أنفِه؛ لئلَّا يَشَمَّ ريحَ البَخَرِ. فقال له المَلِكُ: انصَرِفْ حتَّى أنظُرَ، فخَرَج من عِندِ المَلِكِ، فدعا الرَّجُلَ إلى منزِلِه، فأطعَمَه طعامًا فيه ثُومٌ، فخرج الرَّجُلُ مِن عِندِه، وقام بحِذاءِ المَلِكِ، فقال: أحسِنْ إلى المحسِنِ بإحسانِه، والمسيءُ ستكفيه مساوئُه! فقال له المَلِكُ: ادْنُ منِّي، فدنا منه، فوَضَع يَدَه على فيه؛ مخافةَ أن يَشتَمَّ المَلِكُ منه رِيحَ الثُّومِ. فقال المَلِكُ في نفسِه: ما أرى فلانًا إلَّا وقد

[5890] ((شرح النووي على مسلم)) (2/ 113)

[5891] رواه البخاري (3030)، ومسلم (1739) من حديثِ جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[5892] ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (1/ 371)

[5893] ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)) (ص: 179). ويُنظَر: ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص: 159).

[5894] رواه الخرائطي في ((مساوئ الأخلاق)) (211) واللفظ له، والبيهقي (17121).

[5895] البَخَرُ: الرَّائحةُ المتغيِّرةُ من الفَمِ. يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

صَدَق، وكان المَلِكُ لا يكتُبُ بخَطِّه إلَّا جائِزةً أو صِلةً، فكَتَب له كتابًا بخَطِّه إلى عامِلٍ مِن عُمَّالِه: إذا أتاك حامِلُ كتابي هذا، فاذبَحْه، واسلُخْه، واحشُ جِلْدَه تِبنًا، وابعَثْ به إليَّ. فأخَذ الرَّجُلُ الكِتابَ وخرَج، فلَقِيه الرَّجُلُ الذي سعى به، فقال: ما هذا الكتابُ؟ قال: خَطَّ المَلِكُ لي بصِلةٍ، فقال: هَبْه لي. فقال: هو لك، فأخَذه، ومضى إلى العامِلِ، فقال العامِلُ: في كتابِك أن أذبَحَك وأسلُخَك! قال: إنَّ الكتابَ ليس هو لي، اللَّهَ اللَّهَ في أمري حتَّى أرجِعَ إلى المَلِكِ! فقال: ليس لكِتابِ المَلِكِ مُراجعةٌ. فذبحَه وسلَخَه وحشا جِلدَه تِبنًا، وبَعَث به، ثمَّ عاد الرَّجُلُ إلى المَلِكِ كعادتِه، وقال مِثلَ قَولِه، فعَجِبَ المَلِكُ وقال: ما فَعَل الكِتابُ؟ قال: لَقِيَني فلانٌ، فاستوهَبَني إيَّاه، فوهَبْتُه له، فقال المَلِكُ: إنَّه ذَكَر لي أنَّك تزعُمُ أنِّي أبخَرُ! قال: ما فعَلْتُ، قال: فلِمَ وَضَعْتَ يَدَك على فيك؟ قال: كان أطعَمَني طعامًا فيه ثُومٌ، فكَرِهتُ أن تَشَمَّه. قال: صدَقْتَ، ارجِعْ إلى مكانِك، فقد كفاك المسيءُ مَساوِئَه!)[5896].

- **ضَرَرُ عَمَلِ النَّمَّامِ:**

يقالُ: (عَمَلُ النَّمَّامِ أضَرُّ مِن عَمَلِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ عَمَلَ الشَّيطانِ بالخَيالِ والوَسْوسةِ، وعَمَلَ النَّمَّامِ بالمواجَهةِ والمُعاينةِ)[5897].

- **وَصِيَّةٌ:**

(قال لُقمانُ لابنِه: يا بُنَيَّ، أوصيك بخِلالٍ، إن تمسَّكْتَ بهِنَّ لم تَزَلْ سَيِّدًا: ابسُطْ خُلُقَك للقريبِ والبعيدِ، وأمسِكْ جَهْلَك عن الكريمِ واللَّئيمِ، واحفَظْ إخوانَك، وصِلْ أقارِبَك، وآمِنْهم من قَبولِ قَولِ ساعٍ، أو سماعِ باغٍ يريدُ فَسادَك، ويَروم خِداعَك، وليَكُنْ إخوانُك مَن إذا فارَقْتَهم وفارقوك لم تَعِبْهم ولم يَعيبوك)[5898].

- **الصِّدقُ المذمومُ:**

قال بعضُ العُلَماءِ: (يُفسِدُ النَّمَّامُ في ساعةٍ ما لا يُفسِدُ السَّاحِرُ في شَهرٍ، ولترغيبِ الشَّارعِ في الإصلاحِ بَيْنَ النَّاسِ أباح الكَذِبَ فيه، ولزَجْرِه عن الإفسادِ حَرَّم الصِّدقَ فيه)[5899].

وقال المأمونُ: (حَسْبُك من السِّعايةِ أنْ ليس في الدُّنيا صِدقٌ مذمومٌ غيرُها)[5900].

وقد ذُكِر السُّعاةُ عِندَ المأمونِ، فقال: (لو لم يكُنْ في عَيبِهم إلَّا أنَّهم أصدَقَ ما يكونون أبغَضُ ما يكونون إلى اللَّهِ تعالى، لكفاهم!)[5901].

وقال بَعضُ الحُكَماءِ: (الصِّدقُ يَزينُ كُلَّ أحَدٍ إلَّا السُّعاةَ؛ فإنَّ السَّاعيَ أذَمُّ وآثَمُ ما يكونُ إذا صَدَق)[5902].

[5896] ((بدائع السلك في طبائع الملك)) لابن الأزرق (533، 534).

[5897] ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: 172).

[5898] ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (156/3، 157).

[5899] ((الإعلام بفوائد عمدة الأحكام)) لابن الملقن (545/1).

[5900] ((محاضرات الأدباء)) للراغب (1/ 470).

[5901] ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (2/ 182).

[5902] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 268).

المَبْحَثُ الثَّامِنُ والعِشْرُونَ: الثَّرْثَرَةُ

المَطْلَبُ الأَوَّل: معنى الثَّرْثَرَةِ لُغةً واصطِلاحًا

- **الثَّرْثَرَةُ لُغةً:**

الثَّرْثَرَةُ: كَثرةُ الكلامِ وترديدُه في تخليطٍ[5903]، وقد ثَرْثَرَ الرَّجُلُ، فهو ثَرْثارٌ مِهذارٌ. وثَرَّ الشَّيءَ مِن يَدِه يَثُرُّه ثَرًّا وثَرْثَرةً: بدَّده. ورجُلٌ ثَرٌّ وثَرثارٌ: مُتشدِّقٌ كثيرُ الكلامِ، والأُنثى ثَرَّةٌ وثرثارةٌ. والثَّرثارُ أيضًا: الصَّيَّاحُ. والثَّرْثَرةُ في الأَكلِ: الإكثارُ في تخليطٍ[5904].

- **الثَّرْثَرةُ اصطِلاحًا:**

قال الطِّيبيُّ: (الثَّرثَرةُ: كثرةُ الكلامِ وترديدُه، والثَّرثارون هم الذين يُكثِرون الكلامَ تكلُّفًا وخروجًا عن الحَقِّ)[5905].

وهو التَّعريفُ نفسُه الذي ذكَره ابن حجر الهيتمي[5906]، والمُناويُّ[5907]، وابنُ علَّانَ[5908].

وقال الصَّنعانيُّ: (الثَّرثَرةُ: صوتُ الكلامِ وترديدُه تكلُّفًا وخروجًا عن الحقِّ واستِكثارًا في الحديثِ)[5909].

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ الثَّرْثَرةِ وبَعضِ الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ الثَّرْثَرةِ واللَّغوِ:**

الثَّرثَرةُ هي كثرةُ الكلامِ وترديدُه بدونِ فائِدةٍ، وأمَّا اللَّغوُ فله عِدَّةُ معانٍ؛ منها:

(السَّقَطُ وما لا يُعتَدُّ به من الكلامِ وغيرِه، ولا يُحصَلُ منه على فائدةٍ ولا نفعٍ)[5910].

وقال الشَّافعيُّ: (اللَّغوُ في لسانِ العَرَبِ: الكلامُ غيرُ المعقودِ عليه)[5911].

فيشتَرِكُ الاثنانِ في كونِهما كلامًا لا فائدةَ فيه، وأمَّا الثَّرثَرةُ فتنفَرِدُ بالكثرةِ والتَّرديدِ، بينما لا يلزَمُ ذلك في اللَّغوِ.

- **الفَرْقُ بَيْنَ الثَّرْثَرةِ والتَّشَدُّقِ والتَّفيهُقِ:**

الظَّاهِرُ أنَّ الجامِعَ بَيْنَ الألفاظِ الثَّلاثةِ حُصولُ التَّكلُّفِ، فإذا كان الثَّرثارُ هو الذي يُكثِرُ الكلامَ تكلُّفًا وخروجًا عن الحَقِّ، فالمتشَدِّقُ هو من يتوسَّعُ في الكلامِ أيضًا بغيرِ احتياطٍ، والمتفَيهِقُ هو من يملأُ فَمَه بالكلامِ ويفتَحُه؛ من الفَهقِ: وهو الامتلاءُ والاتِّساعُ[5912]، فالمشترَكُ بَيْنَهم أنَّ المتَّصِفَ بأيِّ صفةٍ منها تكلَّف أمرًا وبالغ فيه حتَّى خرج به عن حَدِّه.

[5903] ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: 537).

[5904] يُنظَر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري، ((لسان العرب)) لابن منظور، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي.

[5905] يُنظَر: ((الكاشف عن حقائق السنن)) (10/ 3106).

[5906] ((الزواجر)) .(2/ 163)

[5907] ((فيض القدير)) (3/ 465).

[5908] ((دليل الفالحين)) (5/ 85).

[5909] ((التنوير)) (6/ 496).

[5910] ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (35/ 281).

[5911] ((الأم)) (7/ 257).

[5912] يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (7/3019)، ((فيض القدير)) للمناوي (3/ 464)، ((دليل الفالحين)) لابن علان (5/85).

المَطْلَب الثَالِث: ذَمُّ الثَّرثَرةِ والتَّحذيرُ منها

أ- ذم الثرثرة في القُرآنِ الكريمِ

ورد في القرآنِ الكريمِ بعضُ الآياتِ تُشيرُ إلى النَّهي عن الثَّرثَرةِ أو كثرةِ الكلامِ على سَبيلِ التَّلميحِ؛ منها على سبيلِ المثالِ:

- قوله تعالى: {قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ} [آل عمران: 118].

قال القُرطُبيُّ: (يعني: ظهَرَت العداوةُ والتَّكذيبُ لكم من أفواهِهم. والبغضاءُ: البُغضُ، وهو ضِدُّ الحُبِّ. وخَصَّ تعالى الأفواهَ بالذِّكرِ دونَ الألسِنةِ إشارةً إلى تشَدُّقِهم وثَرثَرتِهم في أقوالِهم هذه، فهم فوقَ المتسَتِّرِ الذي تبدو البغضاءُ في عينَيه)[5913].

- قولُه تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ} [النساء: 83].

وهذا جانبٌ من جوانبِ الصُّورةِ التي عرَض اللهُ فيها هؤلاء المُنافِقين، وإنَّهم لأصحابُ ثَرثَرةٍ ولَغوٍ، كلَّما وقعَت لآذانِهم كَلِمةٌ طاروا بها، وألقَوا بها إلى كُلِّ أذُنٍ، دونَ أن يتبَيَّنوا ما يَسمَعون أو يَعرِفوا وَجهَه، إنَّ اللَّغوَ وتقليبَ وُجوهِ الكلامِ هو تجارتُهم الرَّابحةُ، وبضاعتُهم الرَّابحةُ، لا يتكَلَّفون له جُهدًا، ولا يخشَون من ورائِه سُوءًا، فما هو إلَّا أحاديثُ تُروى، وأخبارٌ تُتناقَلُ، لا يدري أحَدٌ مَصدَرَها، ولا يَعرِفُ مَن هو صاحِبُها، وعلى هذا الغِذاءِ الخبيثِ يعيشُ المُنافِقون، ومِن هذا الجَوِّ المغبَرِّ يتنَفَّسون!

فهم يُثرثِرون بكُلِّ ما يَسمَعون من خيرٍ أو شَرٍّ {إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ} أي: نطقوا به وصَحِبوه معهم إلى كُلِّ مكانٍ؛ فليس يُرضيهم أن يُذيعوا هذه الأحاديثَ في النَّاسِ، وإنَّما هم وراءَ هذه الأحاديثِ المذاعةِ يدفَعونها بَيْنَ أيديهم، ويَشهَدون آثارَها في النَّاسِ، وهذا ما يشيرُ إليه النَّظمُ في قَولِه تعالى {أَذَاعُوا بِهِ}[5914].

- قولُه تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} [البقرة: 204].

قولُه تعالى: وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ فيه وَصفٌ دقيقٌ لكُلِّ فَردٍ من أفرادِ هذه الطَّائفةِ، وهو صورةٌ ناطقةٌ بما عليه المُنافِقون جميعًا من قُدرةٍ خاصَّةٍ على الجَدَلِ الفارِغِ، وطُولِ نَفَسٍ في الأخذِ والرَّدِّ؛ فهم ثَرثارون مُتفَيهِقون دائمًا، وعليهم وعلى أمثالِهم يَصدُقُ قَولُه تعالى في سورةِ الأنعامِ: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: 121] ، وقولُه تعالى في السُّورةِ نفسِها: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}[5915] [الأنعام: 112].

- وقال تعالى آمِرًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عن لَغوِ وثَرثَرةِ أهلِ الضَّلالِ والكُفرِ: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام: 91].

قال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: {ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} أي: ثمَّ دَعْهم في جَهلِهم وضَلالِهم يَلعَبونَ، حتَّى يأتيَهم من اللهِ اليقينُ، فسوف يعلمونَ ألهم العاقِبةُ، أم لعبادِ اللهِ المتَّقين؟!)[5916].

[5913] ((الجامع لأحكام القرآن)) (4/ 180).

[5914] يُنظَر: ((التفسير القرآني)) لعبد الكريم يونس (3/ 846)

[5915] يُنظَر: ((التيسير في أحاديث التفسير)) لمحمد المكي الناصري (1/ 130).

[5916] ((تفسير القرآن العظيم)) (3/301).

ففي الآيةِ تنديدٌ بالكُفَّارِ على مكابرتِهم وتجاهُلِهم أو عَدَمِ إدراكِهم عِظَمَ شأنِ اللهِ وقَدْرِه، وسابِقَ أحداثِه مع أنبيائِه، وفيها أمرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالهُتافِ بأنَّ اللهَ تعالى هو الذي أنزَله، وبأنْ يدَعَهم بعدَ ذلك وشأنَهم غارِقين في خوضِهم وثَرثَرتِهم وغَوايتِهم؛ لأنَّهم يقولون ما يقولون مُكابرةً وعِنادًا[5917].

ب- ذم الثرثرة في نصوص السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ

ورَد في السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ بعضُ الأحاديثِ فيها النَّهيُ عن الثَّرثَرةِ على سبيلِ الإشارةِ والتَّشنيعِ على الثَّرثارين؛ منها على سبيلِ المثالِ:

- عن جابِرِ بنِ عَبدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ مِن أحَبِّكم إليَّ وأقرَبِكم منِّي مجلِسًا يومَ القيامةِ أحاسِنَكم أخلاقًا، وإنَّ أبغَضَكم إليَّ وأبعَدَكم منِّي يومَ القيامةِ الثَّرثارون والمتَشَدِّقون والمُتفَيهِقون. قالوا: يا رسولَ اللهِ، قد عَلِمْنا الثَّرثارون والمتَشَدِّقون، فما المُتفَيهِقون؟ قال: المُتكَبِّرون))[5918].

قال ابنُ الأثيرِ: الثَّرثارون: هم الذين يُكثِرون الكلامَ تكَلُّفًا وخروجًا عن الحَقِّ. والثَّرثَرةُ: كثرةُ الكلامِ وترديدُه. المتشَدِّقون: المتوسِّعون في الكلامِ من غيرِ احتياطٍ واحترازٍ. وقيل: أراد بالمتشَدِّقِ: المُستهزِئَ بالنَّاسِ يلوي شِدْقَه بهم وعليهم.

المُتفَيهِقون: هم الذين يتوسَّعون في الكلامِ ويفتَحون به أفواهَهم، مأخوذٌ من الفَهْقِ، وهو الامتلاءُ والاتِّساعُ. يقال: أفهَقْتُ الإناءَ ففَهِقَ يَفهَقُ فَهْقًا[5919].

وقيل: الثَّرثارون: (مُكثِرو الكلامِ خَطَأً أو صوابًا، حَقًّا أو باطلًا، بحيثُ لا يميِّزُ الجَيِّدَ من الرَّديءِ، ويتكَلَّفُ رِياءً وعُجبًا)[5920].

- عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ((قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يُبغِضُ البليغَ من الرِّجالِ، الذي يتخَلَّلُ بلسانِه تخَلُّلَ الباقِرةِ بلِسانِها))[5921].

((تخَلُّلَ الباقِرةِ بلِسانِها)) شَبَّه إدارةَ لسانِه حولَ الأسنانِ والفَمِ حالَ التَّكَلُّمِ تفاصُحًا بما تفعَلُ البَقَرةُ بلِسانِها، والباقِرةُ: جماعةُ البَقَرِ، وهو الذي يتشَدَّقُ في الكلامِ، ويُفخِّمُ به لسانَه، ويَلُفُّه كما تَلُفُّ البَقَرةُ بلِسانِها لَفًّا[5922]، (فالمَرْضيُّ من الكلامِ أن يكونَ قَدْرَ الحاجةِ غيرَ زائدٍ عليها، يوافِقُ ظاهِرُه باطِنَه)[5923].

[5917] ((التفسير الحديث)) لدروزة محمد عزت (4/121).

[5918] أخرجه الترمذي (2018) واللفظ له، والخرائطي في ((مساوئ الأخلاق)) (59)، والطبراني في ((مكارم الأخلاق)) (6). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2018)، وقال الترمذي: حسَنٌ غريبٌ، وحَسَّن إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((رياض الصالحين)) (1738). وأخرجه أحمد (17732)، وابن حبان (5557)، والبيهقي (21320) باختلافٍ يسيرٍ من حديثِ أبي ثعلبةَ الخُشَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه ابن حبان، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (6/11)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (1535)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (5557).

[5919] يُنظَر: ((النهاية)) (1/ 209) (2/ 453) (3/ 482).

[5920] ((بريقة محمودية)) لأبي سعيد الخادمي (4/ 30).

[5921] أخرجه أبو داود (5005) واللفظ له، والترمذي (2853)، وأحمد (6543). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (5005)، وقال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ من هذا الوجهِ)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (10/53)، وحسَّنه ابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (303)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (5005).

[5922] يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (7/ 3020).

[5923] ((شرح المصابيح)) لابن الملك (5/ 230).

- عن كاتِبِ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ قال: كتَب معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عنه إلى المغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه: أنِ اكتُبْ إليَّ بشَيءٍ سَمِعتَه من النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكتَب إليه: سمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ كَرِهَ لكم ثلاثًا: قِيلَ وقال، وإضاعةَ المالِ، وكَثرةَ السُّؤالِ))[5924].

قال ابنُ عُثَيمين: («كَرِه لكم قِيلَ وقال» يعني: نَقلَ الكلامِ، وكثرةَ ما يتكَلَّمُ الإنسانُ ويُثرثِرُ به، وأن يكونَ ليس له همٌّ إلَّا الكلامُ في النَّاسِ، قالوا كذا وقيل كذا، ولا سيَّما إذا كان هذا في أعراضِ أهلِ العِلمِ وأعراضِ وُلاةِ الأمورِ؛ فإنَّه يكونُ أشَدَّ وأشَدَّ كراهةً عِندَ اللهِ عزَّ وجَلَّ)[5925].

- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن كان يؤمِنُ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ فلْيَقُلْ خَيرًا أو لِيَصمُتْ))[5926].

قال القاضي عِياضٌ: (أي: يَصمُتُ عن الشَّرِّ وما لا يُعنى من الكلامِ، وقد تكونُ الواوُ للتَّقسيمِ، أي: يقولُ الخَيرُ ويَشغَلُ به لسانَه فيُؤجَرُ ويَغنَمُ، فإنْ لم يفعَلْ هذا فلْيَصمُتْ ويَسلَمْ، وقد تكونُ «أو» هنا بمعنى الواوِ، أي: يقولُ الخيرَ ويَصمُتُ عن الشَّرِّ)[5927].

وهكذا تجِدُ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعَلِّمُ أتباعَه الإعراضَ عن اللَّغوِ، ومجانبةَ الثَّرثَرةِ والهَذَرِ[5928].

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أبغَضَ الرِّجالِ إلى اللَّهِ الألَدُّ الخَصِمُ))[5929].

قولُه: ((الألَدُّ الخَصِمُ)) يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ الشَّديدَ الخصومةِ؛ فإنَّ الخَصِمَ من صِيَغِ المبالغةِ، فيَحتَمِلُ الشِّدَّةَ، ويحتَمِلُ الكَثرةَ[5930].

(والحديثُ بإطلاقِه يَشمَلُ من يخاصِمُ في باطِلٍ أو يجادِلُ بغيرِ عِلمٍ، كالمحامين الذين لم يَدرُسوا القضيَّةَ أو دَرَسوها وعَرَفوا باطِلَها، ودافَعوا فيها، وكالجَدَليِّين الذين يحامون عن الآراءِ الباطِلةِ والعقائِدِ الزَّائغةِ، حتَّى يَضِلَّ بهم العامَّةُ أو ذوو العُقولِ الصَّغيرةِ، سواءٌ كان ذلك بالتَّأليفِ أو بالحديثِ في المجالِسِ، ويدخُلُ في الذَّمِّ مَن يخاصِمُ في الحَقِّ، ويتجاوَزُ في الخصومةِ قَدْرَ الحاجةِ، فيَسُبُّ ويَكذِبُ لإيذاءِ خَصمِه، أو يخاصِمُه عِنادًا ليَقهَرَه ويُذِلَّه)[5931].

و(هناك أُناسٌ أوتوا بَسطةً في ألسِنَتِهم، تُغريهم بالاشتباكِ مع العالِمِ والجاهِلِ، وتجعَلُ الكلامَ لديهم شَهوةً غالبةً، فهم لا يَملُّونه أبَدًا. وهذا الصِّنفُ إذا سَلَّط ذلاقَتَه على شُؤونِ النَّاسِ أساء، وإذا سَلَّطها على حقائِقِ الدِّينِ شَوَّه جمالَها وأضاع هيبتَها. وقد سَخِط الإسلامُ أشَدَّ السَّخَطِ على هذا الفريقِ الثَّرثارِ المتقَعِّرِ. قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أبغَضَ الرِّجالِ إلى اللَّهِ الألَدُّ الخَصِمُ))[5932]... هذا الصِّنفُ لا يَقِفُ ببَسطةِ لِسانِه عِندَ حَدٍّ، إنَّه يريدُ الكلامَ فحَسْبُ، يريدُ أن يباهيَ به

[5924] أخرجه البخاري (1477)، ومسلم (593).

[5925] ((شرح رياض الصالحين)) (3/ 211).

[5926] أخرجه البخاري (6018)، ومسلم (47).

[5927] ((إكمال المعلم)) (23/6).

[5928] يُنظَر: ((خلق المسلم)) لمحمد الغزالي (ص: 7).

[5929] رواه البخاري (3178)، ومسلم (58).

[5930] ((فتح الباري)) لابن حجر (13/ 180).

[5931] ((الأدب النبوي)) للخولي (ص: 200).

[5932] أخرجه البخاري (2457)، ومسلم (2668) من حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها.

ويَستطيلَ، إنَّ الألفاظَ تأتي في المرتبةِ الأولى، والمعاني في المرتبةِ الثَّانيةِ، أمَّا الغَرَضُ النَّبيلُ فرُبَّما كان له موضوعٌ أخيرٌ، ورُبَّما عزَّ له موضِعٌ وَسْطَ هذا الصَّخَبِ!)[5933].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ وغَيرِهم في ذم الثرثرة:

وردَت آثارٌ كثيرةٌ فيها الحَثُّ على اجتنابِ الثَّرثَرةِ أو كثرةِ الكلامِ؛ منها على سبيلِ الإيجازِ:

- قال عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ: (يمنَعُني كثرةَ الكلامِ مخافةُ المباهاةِ)[5934].

- عن الفُضَيلِ بنِ عِياضٍ قال: (المُؤمِنُ قليلُ الكلامِ كثيرُ العَمَلِ، والمُنافِقُ كثيرُ الكلامِ قليلُ العَمَلِ، كلامُ المُؤمِنِ حُكمٌ، وصَمتُه تفَكُّرٌ، ونَظَرُه عِبرةٌ، وعَمَلُه بِرٌّ، وإذا كُنتَ كذا لم تَزَلْ في عبادةٍ)[5935].

- عن بِشرِ بنِ الحارِثِ قال: (خَصلَتانِ تُقَسِّيان القَلبَ: كَثرةُ الكلامِ، وكثرةُ الأَكلِ)[5936].

- عن أبي إسحاقَ الخَوَّاصِ قال: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ ثلاثةً ويُبغِضُ ثلاثةً؛ فأمَّا ما يحِبُّ: فقِلَّةُ الأَكلِ، وقِلَّةُ النَّومِ، وقِلَّةُ الكلامِ، وأمَّا ما يُبغِضُ: فكثرةُ الكلامِ، وكثرةُ الأَكلِ، وكثرةُ النَّومِ)[5937].

- عن محمَّدِ بنِ النَّضرِ الحارِثيِّ قال:(كان يقالُ: كَثرةُ الكلامِ تَذهَبُ بالوَقارِ)[5938].

- وقال الخَطَّابُ بنُ المُعَلَّى المخزوميُّ موصيًا ابنَه: (إيَّاك وهَذَرَ الكلامِ وكَثرةَ الضَّحِكِ، والمُزاحَ ومهازلةَ الإخوانِ؛ فإنَّ ذلك يُذهِبُ البهاءَ ويوقِعُ الشَّحناءَ، وعليك بالرَّزانةِ والتَّوقُّرِ من غيرِ كِبرٍ يُوصَفُ منك، ولا خُيَلاءَ تُحكى عنك)[5939].

- وقال الأحنَفُ بنُ قَيسٍ: (الصَّمتُ أمانٌ من تحريفِ اللَّفظِ، وعِصمةٌ من زَيغِ المنطِقِ، وسلامةٌ من فُضولِ القَولِ، وهَيبةٌ لصاحِبِه)[5940].

- وعن موسى بنِ عُقَيلٍ: أنَّ الأحنَفَ بنَ قَيسٍ كان يقولُ: (مَن كَثُر كلامُه وضَحِكُه ومُزاحُه قَلَّت هَيبتُه، ومَن أكثَرَ مِن شيءٍ عُرِف به)[5941].

- وعن عبدِ اللَّهِ بنِ أبي زكريَّا، قال: (مَن كَثُر كلامُه كَثُر سَقَطُه، ومَن كَثُر سَقَطُه قَلَّ وَرَعُه، ومَن قَلَّ ورَعُه أمات اللهُ قَلْبَه)[5942].

- وعن شُفَيٍّ الأصبَحيِّ، قال: (مَن كَثُر كلامُه كَثُرت خطيئتُه)[5943].

- وعن معروفٍ الكَرْخيِّ، قال: (كلامُ العبدِ فيما لا يَعنيه خِذلانٌ من اللهِ عزَّ وجَلَّ له)[5944].

[5933] ((خلق المسلم)) لمحمد الغزالي (ص: 84).

[5934] ((التاريخ الكبير)) للبخاري (2/ 351).

[5935] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (8/ 98).

[5936] المصدر السابق (8/ 350).

[5937] ((شعب الإيمان)) للبيهقي (7/ 488).

[5938] ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص: 67).

[5939] ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)) لابن حبان (ص: 198).

[5940] المصدر السابق (ص: 43).

[5941] ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص: 209) .

[5942] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (149/5).

[5943] المصدر السابق (167/5).

[5944] المصدر السابق (361/8)، ((شعب الإيمان)) للبيهقي (7/ 87).

- وقال ابنُ المقَفَّع: (صيانةُ القَولِ خَيرٌ مِن سُوءِ وَضعِه، وإنَّ كَلِمةً واحِدةً من الصَّوابِ تُصيبُ مَوضِعَها خيرٌ مِن مِئةِ كَلِمةٍ تقولُها في غيرِ فُرَصِها ومواضِعِها)[5945].

- وقال سُلَيمانُ بنُ عبدِ المَلِكِ: (الكلامُ فيما يعنيك خيرٌ من السُّكوتِ عمَّا يَضُرُّك، والسُّكوتُ عمَّا لا يَعنيك خيرٌ من الكلامِ فيما يَضُرُّك)[5946].

وقال القاسميُّ: (على المتكَلِّمِ أن يتجَنَّبَ الحَلِفَ في كلامِه وإن كان صادِقًا؛ توقيرًا للَّفظِ الكريمِ، وتباعُدًا عن إيهامِ الدَّخَلِ في كلامِه لترويجِ مَأرَبِه... وعليه ألَّا يكونَ مِكثارًا من القولِ، مُستغرِقًا الجَلسةَ في طولِ حَديثِه، مُلجِمًا الغيرَ عن المُشاركةِ؛ فإنَّ ذلك مُضجِرٌ للجُلَساءِ، ومن دلائِلِ الطَّيشِ والخِفَّةِ، فمَن بَسَط لسانَه قَبَض إخوانَه، ودواؤه الإعراضُ؛ لأنَّ حُسنَ الاستماعِ قُوَّةٌ للمُحَدِّثِ)[5947].

وقال عَمرُو بنُ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عنه: (الكلامُ كالدَّواءِ؛ إن أقلَلْتَ منه نَفَع، وإن أكثَرْتَ منه صَرَع)[5948].

وقال لوَلَدِه عبدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عنهما: (قَصِّرْ إذا قُلتَ، واقتَصِرْ إذا طُلْتَ، وإيَّاك والإكثارَ فإنَّه شَينُ[5949] العاقِلِ، وحَينُ[5950] الجاهِلِ)[5951].

وقال بُزُرْجُمِهْر: مَن مَلَكَه طُولُ لِسانِه، أهلكَه فَضلُ بَيانِه[5952].

وقال منصورٌ الفقيهُ: ولا تُكثِرَنَّ فخَيرُ الكلامِ القليلُ الحُروفِ الكثيرُ المعاني[5953].

المطلب الرابع: آثارُ الثَّرثَرةِ

للثَّرثرةِ آثارٌ سَيِّئةٌ كثيرةٌ، نذكُرُ منها:

1- **سوءُ المآلِ والمصيرِ؛** فإنَّه من كَثُر كلامُه كَثُر سَقَطُه، ومَن كَثُر سَقَطُه كَثُرت ذُنوبُه، وفي كثرةِ الكلامِ مفاسِدُ لا تُحصى[5954].

2- **الثَّرثَرةُ تُحيلُ الصَّوابَ إلى خطَأٍ؛** فإنَّ ما جاوز حدَّه جاوَر ضِدَّه. وقد تكلَّم رجُلٌ عِندَ معاويةَ فهَذَرَ[5955]، فلمَّا أطال قال: أأسكُتُ يا أميرَ المُؤمِنين؟ قال: وهل تكَلَّمْتَ[5956]؟!

وقد قيل: الكلامُ إذا طال اختَلَّ، وإذا اختَلَّ اعتَلَّ[5957]. وقالوا: العِثارُ[5958] مع الإكثارِ[5959].

[5945] ((الأدب الصغير والأدب الكبير)) (ص: 89).

[5946] ((البيان والتبيين)) للجاحظ (1/ 251).

[5947] ((جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب)) (ص: 65).

[5948] يُنظَر: ((غرر الخصائص الواضحة)) للوطواط (ص: 230).

[5949] أي: هَلاكُ. يُنظَر: ((العين)) للخليل.

[5950] الشَّينُ: خِلافُ الزَّينِ، وشانَه، أي: عابه. يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري.

[5951] يُنظَر: ((غرر الخصائص الواضحة)) للوطواط (ص: 230).

[5952] يُنظَر: ((غرر الخصائص الواضحة)) للوطواط (ص: 230).

[5953] يُنظَر: ((محاضرات الأدباء)) للراغب (1/ 81).

[5954] يُنظَر: ((شرح المصابيح)) لابن الملك (1/ 66).

[5955] أي: هَذَى، والهَذَرُ: الهَذَيانُ. يُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير.

[5956] يُنظَر: ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (2/ 190).

[5957] يُنظَر: ((محاضرات الأدباء)) للراغب (1/ 81).

[5958] العَثْرَةُ الزَّلَّةُ. وقد عَثَرَ في ثوبِه يَعْثُرُ عِثارًا. يقالُ: عَثَرَ به فَرَسُه فسَقَط. وعَثَر: كَبَا. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي، ((لسان العرب)) لابن منظور.

[5959] يُنظَر: ((غرر الخصائص الواضحة)) للوطواط (ص: 230).

3- **الثَّرثَرة مَدعاةٌ للسَّآمةِ وسُوءِ الاستِماعِ**، وقد قيل: خَيرُ الكلامِ ما قَلَّ ودَلَّ، ولم يَطُلْ فيُمَلَّ[5960].

4- **الثَّرثَرةُ تنادي على صاحبِها بعَدَمِ الحِكمةِ.** قال مصطفى صادِق الرَّافِعِيُّ: (الرَّأسُ الفارِغُ من الحِكمةِ لا يوازِنُه في صاحِبِه إلَّا فُمٌ ممتلِئٌ من الثَّرثَرةِ[5961])، وقال أيضًا: (أربعةُ آلافِ كَلِمةٍ في الثَّرثَرةِ أقَلُّ مِن أربَعِ كَلِماتٍ في الحِكمةِ!)[5962].

5- **الوقوعُ في الغِيبةِ والنَّميمةِ،** وهما من كبائِرِ الذُّنوبِ[5963]، وفي القرآنِ الكريمِ ما يدُلُّ على ذلك؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: 12]، وفي السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أتدرون ما الغِيبةُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: ذِكْرُك أخاك بما يَكرَهُ، قيل: أفرأَيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟ قال: إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتَبْتَه، وإنْ لم يكُنْ فيه فقد بهَتَّه[5964]))، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أيضًا: ((لا يدخُلُ الجنَّةَ قَتَّاتٌ[5965])) أي: نمَّامٌ.

6- **إفشاءُ أسرارِ النَّاسِ:**

الثَّرثارُ ليس أمينًا على أسرارِ النَّاسِ، فلا يَهدَأُ له بالٌ إن عَلِم بأمرٍ ما أو رأى شيئًا في بيتٍ أثناءَ زيارتِه، أو سَمِعه أو حتَّى تسَمَّعَ إليه، إلَّا أن يُذيعَه ويتحَدَّثَ به، وقد نهى اللهُ عن ذلك، فقال: وَلَا تَجَسَّسُوا [الحجرات: 12]، وقد حثَّ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على السَّترِ على المُسلِمين، فقال: ((ومَن ستَرَ مُسلِمًا ستَرَه اللهُ يومَ القيامةِ))، ومِنَ السَّترِ عَدَمُ إفشاءِ أسرارِ النَّاسِ.

7- **نَشرُ الشَّائعاتِ التي تضُرُّ بالفَردِ والمجتَمَعِ:**

فالثَّرثَرةُ مَدعاةٌ إلى نَشرِ الشَّائعاتِ، فينبغي للمرءِ إذا سمِع شيئًا ألَّا يُسهِمَ في نشرِه وإذاعتِه إلَّا بعدَ التَّأكُّدِ من صِحَّتِه؛ كي يبقى المجتمَعُ المُسلِمُ نقيًّا سليمًا طاهِرًا. وفي القرآنِ الكريمِ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ [الحجرات: 6].

8- **ضياعُ العُمُرِ أو الوقتِ بما لا فائدةَ فيه؛** فالعُمُرُ كَنزٌ ثمينٌ ينبغي على المرءِ استغلالُه بما يعودُ عليه بالنَّفعِ، وهو مسؤولٌ عنه أمامَ اللهِ تعالى؛ قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تزولُ قَدَما عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسأَلَ عن عُمُرِه فيما أفناه ...[5966])).

9- **الثَّرثَرةُ من أسبابِ دُخولِ جَهنَّمَ:**

من أسبابِ دُخولِ جهنَّمَ -عياذًا باللَّهِ- أن يخوضَ الإنسانُ مع الخائِضين، ويُثرثِرَ بالباطِلِ؛ قال اللهُ تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ

[5960] يُنظَر: ((محاضرات الأدباء)) للراغب (1/ 81).

[5961] ((كلمة وكليمة)) (ص: 42).

[5962] المصدر السابق (ص: 17).

[5963] يُنظَر: ((الزواجر)) للهيتمي (2/ 8، 34).

[5964] أخرجه مسلم (2589).

[5965] أخرجه البخاري (6056)، ومسلم (105) من حديثِ حُذيفةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[5966] أخرجه الترمذي (2417) واللفظ له، والدارمي (537)، وأبو يعلى (7434) مطوَّلًا من حديثِ أبي بَرْزةَ الأسلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه الترمذي، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (30/301)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2417)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سير أعلام النبلاء)) (9/316).

الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ [المدثر: 38 - 47].

10- الثَّرثَرةُ من أسبابِ الحسرةِ يومَ القيامةِ:

من أعظَمِ أسبابِ الحَسرةِ يومَ القيامةِ أن يجلِسَ الإنسانُ مجلِسًا ثمَّ ينصَرِفَ منه ولم يَذكُرِ اللهَ تعالى فيه، ولو لم يكُنْ فيه شيءٌ من الكلامِ المحَرَّمِ، قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما من قومٍ جلَسوا مجلِسًا لم يذكُروا اللهَ فيه إلَّا رأوه حسرةً يومَ القيامةِ[5967])، فكيف الحالُ إذا كان المجلِسُ كُلُّه خوضًا في الباطِلِ، أو وقوعًا في نميمةٍ أو غِيبةٍ؟!

11- **الثَّرثَرةُ والخَوضُ بالباطِلِ صِفةٌ من صفاتِ المُنافِقين**؛ قال اللهُ تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} [التوبة: 65].

12- ويذكُرُ أبو طالِبٍ المكِّيُّ جملةً من آثارِ الثَّرثَرةِ وكَثرةِ الكلامِ، فيقولُ: (كثرةُ الكلامِ... فيه قِلَّةُ الوَرَعِ، وعَدَمُ التَّقوى، وطولُ الحِسابِ، وكثرةُ المطالِبين، وتعلُّقُ المظلومين، وكثرةُ الأشهادِ من الأملاكِ المكاتِبينَ، ودوامُ الإعراضِ من المَلَكِ الكريمِ؛ لأنَّ الكلامَ مِفتاحُ كبائِرِ اللِّسانِ، فيه الكَذِبُ والغِيبةُ والنَّميمةُ والبُهتانُ، وفيه شهادةُ الزُّورِ، وفيه قَذفُ المُحصَنِ، والافتراءُ على اللهِ تعالى والإيمانِ، وفيه القولُ فيما لا يَعني، والخوضُ فيما لا ينفَعُ)[5968].

المطلب الخامس: أقسامُ الثَّرثَرةِ

الثَّرثَرةُ بالكلامِ لا تخرُجُ عن أمرينِ:

الأوَّلُ: ثرثرةٌ في أمورٍ تتعَلَّقُ بالدِّينِ:

وهذا الأمرُ قد يقعُ ممَّن يدَّعون العِلمَ أو بعضِ مَن يُنسَبون إلى الدُّعاةِ، وقد يقَعُ من جاهلٍ جَريءٍ، فيكثُرُ كلامُهم وتطولُ مجالِسُهم بالقِصَصِ الباطِلةِ والمغالطاتِ والشُّبُهاتِ، أو بذِكرِ ما لا فائِدةَ لمستَمِعِه في دينِه ولا دُنياه، إلى غيرِ ذلك.

قال ابنُ بازٍ: (الكلامُ الذي ينفَعُ النَّاسَ ويُوضِّحُ الحَقَّ وليس فيه كَذِبٌ، هذا ليس من آفاتِ اللِّسانِ، هذا حَقٌّ؛ إذا شرَحَ مسألةً مُهِمَّةً، أو آيةً يشرَحُها للنَّاسِ، أو يُفَسِّرُها، أو حديثًا يُفَسِّرُه للنَّاسِ، ويوضِّحُ معناه بقَدرِ الحاجةِ، فهذا من فضائلِ اللِّسانِ، وممَّا يؤجَرُ عليه الإنسانُ، وإنَّما يكونُ من آفاتِ اللِّسانِ إذا أكثَرَ الكلامَ بدونِ فائدةٍ، وأضاع الوقتَ على النَّاسِ، هذا يكونُ الثَّرثَرةَ، أمَّا إذا تكلَّم بقَدرِ الحاجةِ، وأوضح للنَّاسِ، وبيَّن للنَّاسِ الحُكمَ الشَّرعيَّ، أو صِحَّةَ الحديثِ، أو بُطلانَ الحديثِ وأنَّه مكذوبٌ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو بَيَّنَ لهم معنى الآيةِ وشرَحَها لهم بقَدرِ الحاجةِ، هذا مأجورٌ)[5969].

الثَّاني: ثرثرةٌ في أمورٍ تتعَلَّقُ بالدُّنيا:

وهذا يحصُلُ لكثيرٍ من النَّاسِ، وهو ذائعٌ في هذه الأزمانِ بكثرةٍ، ومُشاهَدٌ في الحديثِ بَيْنَ النَّاسِ في أماكِنِ عَمَلِهم وفي الطُّرُقِ وفي وسائِلِ النَّقلِ، وفي وسائِلِ الإعلامِ، بكلامٍ لا زمامَ له ولا خِطامَ، ولا نَفعَ فيه ولا خَيرَ في دينٍ ولا دُنيا، ويعادُ فيه ويُزادُ بلا مَلَلٍ.

[5967] أخرجه أحمد (7093) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما. صحَّحه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (11/ 663) وقال: على خَطَأٍ في تسميةِ صَحابيِّه، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (12/44)، وحسَّنه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (80).

[5968] ((قوت القلوب)) (1/ 175).

[5969] يُنظَر: ((موقع ابن باز)).

ولا يخلو القِسمانِ مِن لَغوٍ أو باطِلٍ أو محرَّمٍ.

ولأنَّ الثَّرثَرةَ لا تقتَصِرُ على اللِّسانِ، خُصوصًا في عَصرِ الإنترنتِ وانتشارِ مواقِعِ الكتابةِ للنَّاسِ كافَّةً، فيُمكِنُنا تقسيمُ الثَّرثَرةِ من وَجهٍ آخَرَ إلى نوعينِ أيضًا:

الأوَّلُ: الثَّرثَرة الملفوظةُ أو الثَّرثَرةُ بالكلامِ.

الثَّاني: الثَّرثَرةُ المكتوبةُ، ومن أبرَزِ صُوَرِها الثَّرثَرةُ على مواقعِ التَّواصُلِ الاجتِماعيِّ، كالفيسِ وتُويتَر، أو الواتس آب والماسِنجَر، وغيرِهما من وسائِلِ التَّواصُلِ الحديثةِ التي أصبحَت مادَّةً خِصبةً للثَّرثَرةِ.

المطلب السادس: دَرَجاتُ الثَّرثَرةِ

لا شَكَّ أنَّ الثَّرثَرةَ أمرٌ ممقوتٌ؛ لِما تحمِلُه من التَّكلُّفِ وكثرةِ الكلامِ بغيرِ داعٍ، وعلى المُسلِمِ أن يحفَظَ لِسانَه من الوقوعِ فيها، لكِنْ تبقى الثَّرثَرةُ دَرَجاتٍ بحسَبِ ما تُفضي إليه، وعلى ذلك يمكِنُنا اعتبارُ الثَّرثَرةِ أربعَ دَرَجاتٍ:

الأولى: ثرثرةٌ تُفضي إلى الكُفرِ، وذلك إذا اشتمَلَت على استهزاءٍ بشيءٍ من الدِّينِ ونحوِ ذلك.

الثَّانيةُ: ثرثرةٌ تُفضي إلى الوقوعِ في كبائِرِ الذُّنوبِ، كثرثرةٍ تُفضي إلى القولِ على اللهِ بغيرِ عِلمٍ، أو نَبزِ أهلِ الدِّينِ، أو التَّكلُّمِ في الأعراضِ والغِيبةِ، ونحوِ ذلك.

الثَّالِثةُ: ثرثرةٌ تُفضي إلى الوقوعِ في صغائِرِ الذُّنوبِ، وهي ما يقَعُ من سَقَطاتِ اللِّسانِ لمَمًا، ولا يحصُلُ معه إصرارٌ.

الرَّابعةُ: ثرثرةٌ هي من لغوِ الكلامِ، وهو الكلامُ الذي لا ضرَرَ فيه لكِنَّه لا ينفَعُ صاحِبَه، وربَّما يؤذي الآخَرينَ من حيثُ كثرتُه بلا فائدةٍ، والعاقِلُ يُنَزِّهُ نفسَه عنه؛ لِما فيه من تضييعِ الأوقاتِ بغيرِ نَفعٍ على صاحِبِه وعلى مَن يتحدَّثُ إليهم[5970].

المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ الثَّرثَرةِ

الثَّرثَرةُ إكثارٌ من الكلامِ بلا فائدةٍ مَرجُوَّةٍ، وهذا في حَدِّ ذاتِه مذمومٌ، فكيف إذا كانت تلك الثَّرثَرةُ في باطِلٍ؟ فلا شَكَّ أنَّ ذلك يكونُ أشَدَّ ذَمًّا، وكذلك بعضُ الصُّوَرِ المذكورةِ هي مذمومةٌ، وإن لم يُكثِرْ منها صاحِبُها، فكيف إذا ثرثَرَ بها لسانُه، فلا شَكَّ أنَّها ستكونُ أشَدَّ ذَمًّا، ومن صُوَرِ ومظاهِرِ هذه الثَّرثَرةِ:

1. كلامُ المرءِ فيما لا يَعنيه.

2. فضولُ الكلامِ؛ فعن محمَّدِ بنِ سوقةَ قال: (أُحَدِّثُكم بحديثٍ لعَلَّه ينفَعُكم؛ فإنَّه قد نفعني، قال لنا عطاءُ بنُ أبي رَباحٍ: "يا بَني أخي، إنَّ مَن كان قَبلَكم كانوا يَكرَهون فُضولَ الكلامِ، وكانوا يَعُدُّون فُضولَ الكلامِ ما عدا كِتابَ اللهِ أن تقرَأَه، أو تأمُرَ بمعروفٍ أو تنهى عن مُنكَرٍ، أو تنطِقَ بحاجتِك في معيشتِك التي لا بُدَّ لك منها، أتُنكِرون {إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ} [الانفطار: 11]، {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} [ق: 17] ، {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 18]؟)[5971].

[5970] يُنظَر: ((قوت القلوب)) لأبي طالب المكي (1/ 175)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (211/3)، ((التفسير الوسيط)) لمجموعة من المؤلفين (6/ 959).

[5971] ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص: 81).

3. المراءُ والجِدالُ: لقولِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنَّةِ لمَن تَرَكَ المِراءَ وإن كان مُحِقًّا))[5972]. والمِراءُ: هو كُلُّ اعتراضٍ على كلامِ الغيرِ بإظهارِ خَلَلٍ فيه؛ إمَّا في اللَّفظِ، وإمَّا في المعنى. والجِدالُ هو: قَصدُ إفحامِ الغَيرِ وتعجيزِه وتنقيصِه بالقَدحِ في كلامِه.

4. من صُوَرِ الثَّرثَرةِ أيضًا: الفُحشُ، والسَّبُّ. والفُحشُ: هو التَّعبيرُ عن الأمورِ المُستقبَحةِ بالعباراتِ الصَّريحةِ، وهذا خِلافُ أخلاقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيثُ ((لم يكُنِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فاحِشًا ولا مُتفَحِّشًا)) ، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سِبابُ المُسلِمِ فُسوقٌ، وقِتالُه كُفرٌ))[5973].

5. الخوضُ في الباطِلِ.

6. الهَمزُ واللَّمزُ وعَيبُ الآخَرين وتعييرُهم.

7. تضليلُ النَّاسِ عن الحَقِّ وخِداعُهم بشَقشَقةِ اللِّسانِ والتَّقعُّرِ في الكلامِ، وذلك فِعلُ المُنافِقين الذين فسَدت قلوبُهم؛ فينبغي للمُسلِمِ أن يحذَرَهم ويُحذِّرَ منهم، وألَّا تشتَبِهَ عليه ثَرثَرتُهم وتفاصُحُهم.

عن أبي عُثمانَ النَّهديِّ، قال: كنتُ عِندَ عُمَرَ وهو يخطُبُ النَّاسَ، فقال في خطبتِه: (إنَّ أخوَفَ ما أخافُ على أمَّتي كُلُّ مُنافِقٍ عليمِ اللِّسانِ)[5974].

قال المُناويُّ: («كُلُّ مُنافِقٍ عليمِ اللِّسانِ» أي: عالمٍ للعِلمِ مُنطَلِقِ اللِّسانِ به، لكِنَّه جاهِلُ القَلبِ والعَمَلِ، فاسِدُ العقيدةِ، مُغرٍ للنَّاسِ بشقاشِقِه وتفحُّصِه وتقَعُّرِه في الكلامِ)[5975].

8. المبالغةُ في المديحِ والتَّكلُّفُ فيه؛ فإنَّه قَطعٌ لعُنقِ الممدوحِ، وبعضُ النَّاسِ يكثِرُ المديحَ حتَّى يقَعَ في الباطِلِ من القولِ، ويتكلَّمَ بغيرِ حَقٍّ.

عن عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي بَكرةَ، عن أبيه، قال: ((أثنى رجلٌ على رجُلٍ عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: وَيلَكَ! قطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِك، قطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِك! مِرارًا، ثمَّ قال: مَن كان منكم مادِحًا أخاه لا محالةَ فلْيَقُلْ: أحسَبُ فلانًا، واللَّهُ حَسيبُه، ولا أزكّي على اللَّهِ أحَدًا، أحسَبُه كذا وكذا، إن كان يعلَمُ ذلك منه))[5976].

(قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِك)): قال أهلُ العِلمِ: هذا كُلُّه في التَّفاوُتِ في المدحِ، ووَصفِ الإنسانِ بما ليس فيه، أو لمن يُخشى عليه العُجبُ والفسادُ بسَماعِ المدحِ)[5977].

وقال معروفٌ الكَرْخيُّ: (احفَظْ لِسانَك من المدحِ كما تحفَظُه من الذَّمِّ)[5978].

[5972] أخرجه أبو داود (4800)، والطبراني (117/8) (7488)، والبيهقي (21708) مطوَّلًا من حديثِ أبي أُمامةَ الباهِليِّ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه النَّوويُّ في ((رياض الصالحين)) (ص216)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4800)، وحسَّن إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (50/4)، وابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (810)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (4800).

[5973] أخرجه البخاري (48)، ومسلم (64) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5974] أخرجه الفِريابي في ((صفة النفاق)) (26)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (236)؛ ولفظُه: عن أبي عُثمانَ النَّهْديِّ قال: سمِعتُ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ رحمه اللهُ وهو على مِنبَرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكثَرَ من عَدَدِ أصابِعِي هذه، وهو يقولُ: (إنَّ أخوَفَ ما أخافُ على هذه الأمَّةِ المُنافِقُ العليمُ، قيل: وكيف يكونُ المُنافِقُ العليمُ؟ قال: عالِمُ اللِّسانِ، جاهِلُ القَلبِ والعَمَلِ). صحَّح إسنادَه ووثَّق رجالَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (1013).

[5975] ((التيسير)) (1/52).

[5976] أخرجه البخاري (2662) واللفظ له، ومسلم (3000).

[5977] ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (8/549).

[5978] ((الرسالة)) للقشيري (1/ 235).

9. الجَهرُ بذَنبٍ قد ستَرَه اللهُ على فاعِلِه، فيصبِحُ يُثرثِرُ بما فَعَل ويتكَلَّمُ به دونَ حَياءٍ؛ ولذلك استهجن النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فِعلَ بعضِ النَّاسِ ممَّن يَقَعون في الحرامِ خُفيةً ثمَّ يُثرثِرون بما فعَلوا.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: سمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كُلُّ أمَّتي مُعافًى إلَّا المُجاهِرين، وإنَّ من المُجاهَرةِ أن يعمَلَ الرَّجُلُ باللَّيلِ عَمَلًا، ثمَّ يُصبِحَ وقد ستَرَه اللهُ عليه، فيقولَ: يا فُلانُ، عَمِلْتُ البارحةَ كذا وكذا، وقد بات يستُرُه رَبُّه، ويصبِحُ يَكشِفُ سِترَ اللهِ عنه))[5979].

10. تطوُّعُ بعضِ النَّاسِ بالفتوى في أمورِ الدِّينِ بلا عِلمٍ، وإبداءُ رأيِهم في كُلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، والثَّرثَرةُ فيما لا يُحسِنونَه.

عن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عنهما، قالَ: ((سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: إنَّ اللهَ لا يقبِضُ العِلمَ انتِزاعًا ينتزِعُه مِن العِبادِ، ولكن يقبِضُ العِلمَ بقَبضِ العُلَماءِ، حتَّى إذا لم يُبقِ عالِمًا اتَّخَذ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا فأفتَوا بغَيرِ عِلمٍ، فضلُّوا وأضلُّوا))[5980].

قال ابنُ بطَّةَ: (كُنتُ عِندَ أبي عُمَرَ الزَّاهِدِ، فسُئِل عن مسألةٍ فبادَرْتُ أنا فأجبْتُ السَّائِلَ، فالتَفتَ إليَّ فقال لي: تَعرِفُ الفُضوليَّاتِ المنتَقِباتِ؟! يعني: أنت فُضوليٌّ، فأخجَلَني!)[5981].

ورُوِيَ عن مجاهِدٍ قال لُقمانُ لابنِه: (إيَّاك إذا سُئِل غيرُك أن تكونَ أنت المجيبَ، كأنَّك أصَبْتَ غنيمةً أو ظَفِرتَ بعَطِيَّةٍ؛ فإنَّك إن فعَلْتَ ذلك أزرَيتَ بالمسئول، وعنَّفْتَ السَّائِلَ، ودلَلْتَ السُّفهاءَ على سَفاهةِ حِلمِك وسُوءِ أدَبِك!)[5982].

المطلب الثامن: أسبابُ الوقوعِ في الثَّرثَرةِ

1- **نشأةُ الإنسانِ وتربيتُه؛** فالعاداتُ لها أثَرُها، فالذي ينشأُ مُعتادًا على حِفظِ لِسانِه ويحيطُ به مَن يُرشِدُه ويُعينُه على إمساكِ لِسانِه عن اللَّغوِ والثَّرثَرةِ، يختَلِفُ عمَّن اعتاد إطلاقَ لسانِه، وخالط أهلَ الباطلِ والفُسَّاقَ وأهلَ الثَّرثَرةِ، ولم يجِدْ مَن يُرشِدُه.

2- **الجَهلُ بعواقِبِ الثَّرثَرةِ وكثرةِ الكلامِ، وبخطورةِ الكَلِمةِ بوَجهٍ خاصٍّ**؛ ففي الحديثِ قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((وإنَّ العبدَ ليتكَلَّمُ بالكَلِمةِ من سَخَطِ اللهِ لا يُلقي لها بالًا، يهوي بها في جَهنَّمَ))[5983].

3- **الكِبرُ والغرورُ وحُبُّ الظُّهورِ أمامَ الآخَرين.**

4- **حُبُّ الفُضولِ والرَّغبةُ في معرفةِ كُلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ عن الآخَرين،** بكثرةِ الأسئِلةِ، والتَّتبُّعِ ونَقلِ الأخبارِ وتداوُلِها.

5- **شَغلُ الأوقاتِ ومجاراةُ النَّاسِ والتَّكلُّمُ بما يَهوونه موافقةً لهم**، ولو كان كلامًا لا فائدةَ فيه ولا نَفعَ يُرجى منه.

يقولُ عبدُ الكريم زيدان: (قد يبتَعِدُ الدَّاعي عن النَّهجِ الصَّحيحِ، فلا يهتَمُّ بأمورِ العقيدةِ، ويهوى الخوضَ فيما يهواه النَّاسُ، ولا يُكلِّفُهم شيئًا، كالخَوضِ فيما تُعورِفَ عليه من أمورِ ما يُسَمَّى بالسِّياسةِ، والثَّرثَرةِ فيها، وتحليلِ الأمورِ تحليلًا بعيدًا عن مفاهيمِ العقيدةِ وشُمولِها، كُلُّ ذلك يفعَلُه الدَّاعي استجابةً لرغَباتِ النَّاسِ، أو لرغبةٍ في نفسِه هو، وهذا النَّهجُ خَطَأٌ؛ لأنَّ الدَّاعيَ لا يأتي بشيءٍ جديدٍ لا يعرِفُه النَّاسُ، بل قد يناقِشونه فيما يقولُه ويدَّعيه، فينجَرُّ الدَّاعي إلى أمورٍ بعيدةٍ عن أصلِ

[5979] أخرجه البخاري (6069) واللفظ له، ومسلم (2990).

[5980] أخرجه البخاري (100) واللفظ له، ومسلم (2673).

[5981] ((الآداب الشرعية)) لابن مُفلِح (2/171).

[5982] المصدر السابق.

[5983] أخرجه من طرُقٍ: البخاري (6478) مطوَّلًا واللفظ له، ومسلم (2988) بنحوِه من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.

الدَّاءِ والدَّواءِ، وهو الانحرافُ عن العقيدةِ الإسلاميَّةِ، ولُزومِ تعميقِ معانيها في النُّفوسِ، ونتيجةُ ذلك بقاءُ أصلِ الدَّاءِ، والسَّيرُ في البناءِ من السَّطحِ أو بلا أساسٍ)[5984].

6- **الرَّغبةُ في طَلَبِ رئاسةٍ**؛ فبعضُ النَّاسِ يريدُ أن يرى النَّاسُ عِلمَه وفصاحتَه بالرِّئاسةِ، فيدفَعُ ذلك صاحِبَه إلى التَّباهي بما فيه وما ليس فيه.

7- **قِلَّةُ العِلمِ:**

قال المُناويُّ: (كثرةُ الكلامِ تتولَّدُ عن أمرينِ: إمَّا طَلَبُ رئاسةٍ يريدُ أن يرى النَّاسُ عِلمَه وفصاحتَه، وإمَّا قِلَّةُ العِلمِ بما يجِبُ عليه في الكلامِ)[5985].

8- **الصُّحبةُ السَّيِّئةُ.**

9- **ضَعفُ الوازِعِ الدِّينيِّ.**

المطلب التاسع: الوسائِلُ المُعينةُ على تَركِ الثَّرثَرةِ

هناك وسائِلُ وطُرُقٌ إذا استعان بها الإنسانُ ساعدَتْه على اجتنابِ الثَّرثَرةِ، منها:

1- مجاهدةُ النَّفسِ على إمساكِ اللِّسانِ وقِلَّةِ الكلامِ.

2- استِحضارُ خُطورةِ الثَّرثَرةِ، والعِلمُ بأنَّ أكثَرَ ما يَدخُلُ النَّاسُ النَّارَ بسَبَبِه يومَ القيامةِ كَثرةُ الكلامِ أو الثَّرثَرةُ، أو ما يتكَلَّمُ به اللِّسانُ من باطلٍ ولَغوٍ، وقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لمعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه: ((وهل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وُجوهِهم -أو قال: على مناخِرِهم- إلَّا حصائِدُ ألسِنَتِهم))[5986].

3- الدُّعاءُ وطَلَبُ العَونِ من اللهِ عزَّ وجَلَّ، والإلحاحُ في ذلك.

4- أن يُدرِكَ أنَّه مكثِرٌ من الكلامِ قد ابتُلي بالثَّرثَرةِ، وهذا هو بدايةُ طريقِ العلاجِ والتَّخلُّصِ من هذه الآفةِ.

5- استغلالُ أوقاتِه بما يعودُ عليه بالنَّفعِ، مِثلُ: التَّسبيحِ والاستغفارِ، والدَّعوةِ إلى اللَّهِ تعالى، وحُضورِ مجالِسِ العِلمِ، أو أيِّ عَمَلٍ يعودُ عليه أو على المجتَمَعِ بالنَّفعِ والفائدةِ.

6- مصاحبةُ الصَّالحين وأهلِ العِلمِ المعروفين بالإخلاصِ والصَّلاحِ والفُضلاءِ من عامَّةِ المُسلِمين؛ فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: ((قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَثَلُ الجليسِ الصَّالحِ والجليسِ السَّوءِ كَمَثَلِ صاحِبِ المِسكِ وكِيرِ الحدَّادِ، لا يَعدَمُك من صاحِبِ المِسكِ إمَّا تشتريه أو تجِدُ ريحَه، وكِيرُ الحَدَّادِ: يُحرِقُ بَدَنَك أو ثوبَك، أو تجِدُ منه ريحًا خبيثةً))[5987].

7 -اجتنابُ مجالِسِ السُّوءِ والكَذِبِ والفِسقِ والباطِلِ واللَّهوِ والمُنكَراتِ.

[5984][5984] ((أصول الدعوة)) (ص: 425).

[5985] ((فيض القدير)) (4/350).

[5986] أخرجه الترمذي (2616)، وابن ماجه (3973)، وأحمد (22016) واللَّفظُ له من حديثِ معاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه. صحَّحه الترمذي، وعبد الحق الإشبيلي في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (3/156)، وابن القيم في ((أعلام الموقعين)) (4/259)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2616).

[5987] أخرجه البخاري (2101) واللفظ له، ومسلم (2628).

المطلب العاشر: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ الثَّرثَرةِ

1- الاعتقادُ بأنَّ الثَّرثَرةَ مقصورةٌ على كلامِ الشَّخصِ فيما لا يعنيه، فإذا تكلَّم في شأنِه تكلَّم كيف شاء، وهذا خطَأٌ؛ فليست العِبرةُ بخَطَرِ الكلامِ فيما لا يعنيك فحَسْبُ، وإنَّما العبرةُ بأن يكونَ للكلامِ فائدةٌ، وليس من اللَّغوِ فَضلًا عن الحرامِ.

ولئِنْ كان لُزومُ الصَّمتِ وتَركُ الحديثِ فيما لا يعني مستحسَنًا مطلوبًا من كُلِّ أحدٍ، لَهُوَ مِّمَّن يأنَسُ من نفسِه الجَهلَ وكثرةَ الزَّللِ والخطَأِ أَولى وأَحرى.

قال ابنُ هُذَيلٍ: (ومن الواجبِ على مَن عَرِيَ من الأدبِ، وتخلَّى عن المعرفةِ والفَهمِ، ولم يتحَلَّ بالعِلمِ أن يلزَمَ الصَّمتَ، ويأخُذَ نفسَه به؛ فإنَّ ذلك حَظٌّ كبيرٌ من الأدَبِ، ونصيبٌ وافرٌ من التَّوفيقِ؛ لأنَّه يأمَنُ من الغلَطِ، ويعتَصِمُ من دواعي السَّقطِ؛ فالأدبُ رأسُ كُلِّ حِكمةٍ، والصَّمتُ جِماعُ الحُكمِ)[5988].

2- ربَّما يحتاجُ المعَلِّمُ أو الدَّاعيةُ أو العالمُ أن يُكَرِّرَ كلامَه، وأن يطيلَ في الشَّرحِ، ويكثِرَ من الأمثلةِ؛ حتَّى تَصِلَ المعلومةُ إلى المستَمِعين ويُفهِمَ الطُّلَّابَ أو غيرَهم، ومِثلُ هذا من الخَطَأِ أن يُعَدَّ من الثَّرثَرةِ؛ فالكلامُ الذي فيه نفعٌ وتوضيحٌ للحَقِّ، ويُحتاجُ إليه، يؤجَرُ عليه صاحِبُه، ويُعَدُّ من الكلامِ المحمودِ لا من الثَّرثَرةِ المذمومةِ.

وقد قيل لإياسِ بنِ معاويةَ: (إنَّك تُكثِرُ الكلامَ. قال: أفبصوابٍ أتكلَّمُ أم بخطَإٍ؟ قالوا: بصوابٍ. قال: فالإكثارُ من الصَّوابِ أفضَلُ)[5989].

3- لا يعني ذمُّ الثَّرثَرةِ لُزومَ الصَّمتِ حتَّى عن الحَقِّ والخيرِ؛ قال ابنُ عبدِ البَرِّ: (الكلامُ بالخيرِ مِن ذِكرِ اللهِ وتلاوةِ القُرآنِ وأعمالِ البِرِّ أفضَلُ من الصَّمتِ، وكذلك القولُ بالحَقِّ كُلِّه، والإصلاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وما كان مِثلَه)[5990].

[5988] ((عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة)) (128).

[5989] ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص: 303).

[5990] ((التمهيد)) لابن عبد البر (22/ 20).

المطلب الحادي عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **الثَّرثَرةُ من أخلاقِ الإنسانِ الفارِغِ التَّافِهِ:**

من أخلاقِ المُسلِمِ الواعي أنَّه بعيدٌ عن التَّنطُّعِ في كلامِه، لا يتكَلَّفُ النُّطقَ حُبًّا بالتَّظاهُرِ ولَفتِ الأنظارِ إلى شخصِه؛ فالتَّنطُّعُ والثَّرثَرةُ الفارغةُ ليسا من خُلُقِ المُسلِمِ العامِلِ الذي يحبُّ معاليَ الأمورِ ويَكرَهُ سَفسافَها، وإنَّما هما من خُلُقِ الإنسانِ الفارِغِ التَّافهِ الذي لا يُهِمُّه إلَّا الظُّهورُ والبروزُ وجَذبُ الانتباهِ إليه؛ ولذلك اشتَدَّ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المتنَطِّعين، فقال ((هلَك المتنَطِّعون. قالها ثلاثًا[5991]))[5992].

- **مَوقِفُ السَّلَفِ من الثَّرثارينَ:**

(عن أنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: خَطَب رجُلٌ عِندَ عُمَرَ فأكثَرَ الكلامَ، فقال عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عنه: إنَّ كثرةَ الكلامِ في الخُطَبِ من شَقاشِقِ الشَّيطانِ)[5993].

و(عن ابنِ وَهبٍ، قال: سمِعتُ مالِكًا يُحَدِّثُ، وذَكَر رجُلًا بكثرةِ الكلامِ ومراجَعةِ النَّاسِ، فقال: مَن صَنَع مِثلَ هذا ذَهَب بهاؤُه)[5994].

و(عن إبراهيمَ بنِ سُلَيمانَ الزَّيَّاتِ العَبديِّ، قال: كنتُ جالِسًا مع سُفيانَ، فجَعَل رَجُلٌ ينظُرُ إلى ثوبٍ كان على سُفيانَ، ثمَّ قال: يا أبا عبدِ اللَّهِ، أيَّ شيءٍ كان هذا الثَّوبُ؟ فقال سُفيانُ: كانوا يَكرَهونَ فُضولَ الكلامِ!)[5995].

[5991] أخرجه مسلم (2670) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[5992] ((شخصية المسلم)) لمحمد علي الهاشمي (ص: 269).

[5993] أخرجه ابن وهب في ((الجامع)) (322)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (876) واللفظ له، وابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (152). صحَّح إسنادَه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (672)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((شرح السنة)) (363/12).

[5994] ((شعب الإيمان)) للبيهقي (8132).

[5995] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (7/ 65).

المبحث التاسع والعشرون: إفشاء السِّرّ

المطلب الأول: التِّفاقُ لُغةً واصطِلاحًا

- **الإفشاءُ لُغةً:**

الإفشاءُ: من: فشا الخَبَرُ يفشو فُشُوًّا وفُشِيًّا، أي: انتشر وذاع، وأفشاه غيرُه، وتفشَّى الشَّيءُ، أي: اتَّسَع، وفشا الشَّيءُ: ظَهَر[5996].

- **السِّرُّ لُغةً:**

(سرر) أصلٌ يجمَعُ فُروعُه إخفاءَ الشَّيءِ، والسِّرُّ: هو ما يُكتَمُ، والإسرارُ خِلافُ الإعلانِ، يقال: أسرَرْتُ الشَّيءَ إسرارًا: كتَمْتُه، خِلافَ أعلَنْتُه. وسارَّه: إذا أوصاه بأن يُسِرَّه، وتسارَّ القومُ: تناجَوا، وقيل: هو من الأضدادِ. يقالُ: سرَرْتُه: كتَمْتُه، وسرَرْتُه: أعلَنْتُه[5997].

- **السِّرُّ اصطِلاحًا:**

- قال الرَّاغِبُ: (السِّرُّ هو الحديثُ المُكتَّمُ في النَّفسِ)[5998].

- وقال الكَفَويُّ: (هو ما يُسِرُّه المرءُ في نفسِه من الأمورِ التي عَزَم عليها)[5999].

- وقيل: هو ما يُكتَمُ في النَّفسِ من الحديثِ[6000].

وقيل: (السِّرُّ هو ما يُفضي به الإنسانُ إلى آخرَ مُستَكتِمًا إيَّاه مِن قَبلُ أو مِن بَعدُ، ويَشمَلُ ما حَفَّت به قرائِنُ دالَّةٌ على طَلَبِ الكتمانِ إذا كان العُرفُ يقضي بكتمانِه، كما يَشمَلُ خُصوصيَّاتِ الإنسانِ وعُيوبَه التي يَكرَهُ أن يطَّلِعَ عليها النَّاسُ)[6001].

- **إفشاءُ السِّرِّ اصطِلاحًا:**

إفشاءُ السِّرِّ هو: تعمُّدُ الإفضاءِ بسِرٍّ من شخصٍ اؤتُمِنَ عليه، في غيرِ الأحوالِ التي توجِبُ فيها الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ الإفضاءَ أو تُجيزُه[6002].

المطلب الثاني: ذمُّ إفشاءِ السِّرِّ والتَّحذيرُ منه

[5996] يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((الصحاح)) للجوهري، ((لسان العرب)) لابن منظور.

[5997] يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((المفردات)) للراغب، ((لسان العرب)) لابن منظور، ((تاج العروس)) للزبيدي، ((الكليات)) للكفوي

[5998] يُنظر: ((المفردات))

[5999] يُنظر: ((الكليات)) (ص: 415).

[6000] ((تاج العروس)) للزبيدي

[6001] يُنظر: ((قرارات وتوصيات مجمع الفقه الإسلامي)) (ص: 129).

[6002] يُنظر: ((كتمان السر وإفشاؤه في الفقه الإسلامي)) لشريف بن أدول (ص: 20) .

أ- من القُرآنِ الكريمِ:

1 -قال تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: 83]

قال ابنُ عبَّاسٍ: (قولُه أَذَاعُوا بِهِ، قال: أعلَنوه وأفشَوه)[6003]. أي: إذا أتى هؤلاء المنافِقين خبَرٌ يتعَلَّقُ بأمنِ المؤمِنين، أو خَبَرُ أمرٍ يُوجِبُ خوفَ المؤمنين، أذاعوا به وأشاعوه على الفَورِ دونَ تثبُّتٍ وتحقُّقٍ من صِحَّتِه أوَّلًا[6004]، ويُستنبَطُ من هذه الآياتِ فائِدةٌ: أنَّ خَوضَ العامَّةِ في السِّياسةِ وأمورِ الحَربِ والسِّلمِ، والأمنِ والخوفِ: أمرٌ مُعتادٌ، ولكِنَّه ضارٌّ جدًّا إذا شُغِلوا به عن عَمَلِهم، ويكونُ ضَرَرُه أشَدَّ إذا وقَفوا على أسرارِ ذلك وأذاعوا به، وهم لا يَستطيعون كِتمانَ ما يَعلَمون، ولا يَعرِفون كُنْهَ ضَرَرِ ما يقولون، وأضَرُّه عِلمُ جواسيسِ العَدُوِّ بأسرارِ أمَّتِهم، وما يكونُ وراءَ ذلك، ومِثلُ أمرِ الخوفِ والأمنِ وسائِرِ الأمورِ السِّياسيَّةِ والشُّؤونِ العامَّةِ التي تختَصُّ بالخاصَّةِ دونَ العامَّةِ[6005].

2 -وقال سُبحانَه: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} [التحريم: 3].

قال الطَّبَريُّ: (فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ: فلمَّا أخبَرَت بالحديثِ الذي أسَرَّ إليها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صاحِبَتَها).[6006]

وقال القاسميُّ: (أشار تعالى إلى غَضَبِه لنبيِّه صَلَواتُ اللهِ عليه ممَّا أتت به من إفشاءِ السِّرِّ إلى صاحِبتِها، ومِن مُظاهَرتِها على ما يُقلِقُ راحتَه، وأنَّ ذلك ذَنبٌ تجِبُ التَّوبةُ منه)[6007].

3 -وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: 27-28].

قال ابنُ كثيرٍ: (كانوا يَسمَعون من النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الحديثَ فيُفشُونه حتَّى يَبلُغَ المُشرِكين. وقال عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسلَمَ: نهاكم أن تخونوا اللهَ والرَّسولَ، كما صَنَع المنافِقون)[6008].

قال بعضُهم: نزلت في منافِقٍ كَتَب إلى أبي سُفيانَ يُطلِعُه على سِرِّ المُسلِمين[6009].

ومعنى الآيةِ: (أي: ولا تخونوا أماناتِكم فيما بَينَ بَعضِكم وبَعضٍ، من المعامَلاتِ الماليَّةِ وغيرِها، حتى الشُّؤونِ الأدبيَّةِ والاجتماعيَّةِ؛ فإفشاءُ السِّرِّ خيانةٌ مُحَرَّمةٌ).[6010]

[6003] رواه الطبري في ((التفسير)) (9993)

[6004] يُنظر: ((جامع البيان)) لابن جرير (7/254-255)، ((تفسير الكريم الرحمن)) (ص: 190)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (2/23).

[6005] يُنظر: ((تفسير المنار)) (5/242)

[6006] يُنظر: ((جامع البيان)) (23-91).

[6007] يُنظر: ((محاسن التأويل)) (9/274)

[6008] يُنظر: ((تفسير القرآن العظيم)) (4/42)

[6009] يُنظر: ((جامع البيان)) للطبري (11/120)

[6010] يُنظر: ((تفسير المراغي)) (9/139)

4- قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} [التحريم: 10].

قال الطَّبَريُّ: (ذُكِر أنَّ خيانةَ امرأةِ نُوحٍ زَوجَها أنَّها كانت كافِرةً، وكانت تقولُ للنَّاسِ: إنَّه مجنونٌ، وأنَّ خيانةَ امرأةِ لُوطٍ أنَّ لوطًا كان يُسِرُّ الضَّيفَ، وتَدُلُّ عليه)[6011]. وقيل: كانت خيانتُهما أنَّهما كانتا على غيرِ دينِهما؛ فكانت امرأةُ نُوحٍ تُطلِعُ على سِرِّ نوحٍ، فإذا آمَنَ مع نوحٍ أحَدٌ أخبَرَت الجبابرةَ من قومِ نُوحٍ به، فكان ذلك مِن أمْرِها، وأمَّا امرأةُ لُوطٍ فكانت إذا ضافَ لُوطٌ أحَدًا خَبَّرَت به أهلَ المدينةِ ممَّن يَعمَلُ السُّوءَ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا؛ إذ عَذَّبهما اللهُ مع الكافِرينَ من قَومَيهما، ولم ينفَعْهما كونُهما زوجَتَينِ لهذين العبدَينِ الصَّالِحَينِ، وقيل لهما: ادخُلا النَّارَ من جملةِ الدَّاخِلين فيها من الكُفَّارِ والفُسَّاقِ[6012].

ب- مِنَ السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

1 -عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ من أشَرِّ النَّاسِ عندَ اللهِ مَنزِلةً يومَ القيامةِ الرَّجُلُ يُفضي إلى امرأتِه وتُفضي إليه، ثمَّ يَنشُرُ سِرَّها))[6013].

قال المُناويُّ: (ثمَّ يَنشُرُ سِرَّها: أي: يَبُثُّ ما حَقُّه أن يُكتَمَ من الجِماعِ ومُقَدِّماتِه ولواحِقِه، فيَحرُمُ إفشاءُ ما يَجري بَينَ الزَّوجَينِ من الاستِمتاعِ، ووَصفُ تفاصيلِ ذلك بقَولٍ أو فِعلٍ)[6014].

وقال النَّوويُّ: (في هذا الحديثِ تحريمُ إفشاءِ الرَّجُلِ ما يجري بَينَه وبَينَ امرأتِه من أمورِ الاستمتاعِ، ووَصفِ تفاصيلِ ذلك، وما يجري من المرأةِ فيه من قَولٍ أو فِعلٍ ونحوِه، فأمَّا مجرَّدُ ذِكرِ الجماعِ فإنْ لم تكُنْ فيه فائدةٌ ولا إليه حاجةٌ فمكروهٌ؛ لأنَّه خِلافُ المروءةِ، وقد قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من كان يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيَقُلْ خَيرًا أو ليَصْمُتْ))[6015]، وإن كان إليه حاجةٌ أو ترتَّب عليه فائدةٌ بأن يُنكِرَ عليه إعراضَه عنها، أو تدَّعي عليه العَجزَ عن الجِماعِ، أو نحوَ ذلك؛ فلا كراهةَ في ذِكْرِه، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنِّي لأفعَلُه أنا وهذه))[6016]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي طَلحةَ: ((أعرَّسْتُم[6017] اللَّيلةَ؟))[6018]. وقال لجابرٍ: ((الكَيْسَ الكَيْسَ))[6019][6020].

2 -وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((إنَّا كُنَّا- أزواجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عندَه جميعًا، لم تغادِرْ منَّا واحِدةٌ، فأقبَلَت فاطِمةُ تمشي، لا واللهِ ما تَخفى مِشْيَتُها من مِشْيةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلمَّا رآها رَحَّب، قال: مَرحَبًا بابنَتي. ثمَّ أجلَسَها عن يمينِه -أو عن شمالِه- ثمَّ سارَّها، فبَكَت بكاءً شديدًا، فلمَّا رأى حُزنَها سارَّها الثَّانيةَ، فإذا هي تَضحَكُ، فقُلتُ لها، أنا مِن بَينِ نسائِه: خَصَّكِ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالسِّرِّ مِن بَينِنا، ثمَّ أنتِ تَبكِينَ، فلمَّا قام

[6011] يُنظر: ((جامع البيان)) للطبري (23/ 497).

[6012] المصدر السابق (23/ 497)

[6013] رواه مسلم (1437).

[6014] يُنظر: ((فيض القدير)) (2/538)

[6015] أخرجه البخاري (6018)، ومسلم (47) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه. وأخرجه البخاري (6019)، ومسلم (48) من حديثِ أبي شُرَيحٍ العَدَويِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

[6016] أخرجه مسلم (350) من حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها بلفظ: ((إنِّي لأفعَلُ ذلك أنا وهذه ثمَّ نغتَسِلُ)).

[6017] هو كنايةٌ عن الجِماعِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (14/ 124).

[6018] أخرجه البخاري (5470)، ومسلم (2144) من حديثِ أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

[6019] أخرجه البخاري (5245)، ومسلم (715) من حديثِ جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما.

[6020] يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (8/10).

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سألتُها: عمَّا سارَّكِ؟ قالت: ما كُنتُ لأفُشِيَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سِرَّه. فلمَّا توُفِّيَ قُلتُ لها: عزَمْتُ عليكِ بما لي عليكِ مِن الحَقِّ لَمَا أخبَرْتِني. قالت: أمَّا الآنَ فنَعَم. فأخبَرَتْني، قالت: أمَّا حينَ سارَّني في الأمرِ الأوَّلِ فإنَّه أخبَرَني أنَّ جِبريلَ كان يُعارِضُه بالقُرآنِ كُلَّ سَنةٍ مَرَّةً، وإنَّه قد عارَضَني به العامَ مَرَّتين، ولا أرى الأجَلَ إلَّا قد اقتَرَب، فاتَّقي اللهَ واصبِري، فإنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أنا لك! قالت: فبَكَيت بكائي الذي رأيتِ، فلمَّا رأى جَزَعي سارَّني الثَّانيةَ، قال: يا فاطِمةُ، ألَا تَرضَينَ أن تكوني سَيِّدةَ نساءِ المؤمِنين، أو سَيِّدةَ نساءِ هذه الأمَّةِ؟!))[6021].

قال ابنُ بَطَّالٍ: (وفيه: أنَّه لا ينبغي إفشاءُ السِّرِّ إذا كانت فيه مَضَرَّةٌ على المُسِرِّ؛ لأنَّ فاطِمةَ لو أخبَرَت نساءَ النَّبيِّ ذلك الوَقتَ بما أخبرَها به النَّبيُّ من قُربِ أجَلِه، لحَزِنَ لذلك حُزنًا شديدًا، وكذلك لو أخبَرَتهنَّ أنَّها سَيِّدةُ نِساءِ المؤمِنين لَعَظُمَ ذلك عليهِنَّ، واشتَدَّ حُزنُهنَّ، فلمَّا أَمِنَت ذلك فاطِمةُ بَعدَ مَوتِه أخبَرَت بذلك).[6022]

وقال ابنُ حَجَرٍ: (فيه جَوازُ إفشاءِ السِّرِّ إذا زال ما يترتَّبُ على إفشائِه من المَضَرَّةِ؛ لأنَّ الأصلَ في السِّرِّ الكِتمانُ، وإلَّا فما فائِدتُه)[6023].

3 -وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: حينَ تأيَّمَت[6024] حَفصةُ قال عُمَرُ: لَقِيتُ أبا بكرٍ فقُلتُ: (إنْ شِئتَ أنكَحْتُك حفصةَ بنتَ عُمَرَ، فلَبِثْتُ ليالِيَ ثمَّ خَطَبها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلَقِيني أبو بكرٍ فقال: إنَّه لم يمنَعْني أن أَرجِعَ إليك فيما عَرَضْتَ إلَّا أنِّي قد عَلِمْتُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد ذكَرَها، فلم أُكُنْ لأفشِيَ سِرَّ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولو تَرَكها لقَبِلْتُها)[6025].

قال ابنُ حَجَرٍ: (وفيه أنَّ مَن حَلَف لا يُفشي سِرَّ فُلانٍ، فأفشى فلانٌ سِرَّ نَفسِه، ثمَّ تحَدَّث به الحالِفُ؛ لا يحنَثُ؛ لأنَّ صاحِبَ السِّرِّ هو الذي أفشاه، فلم يكُنِ الإفشاءُ من قِبَلِ الحالِفِ، وهذا بخلافِ ما لو حدَّث واحِدٌ آخَرَ بشَيءٍ واستحلَفَه ليَكتُمَه، فلَقِيَه رجلٌ فذَكَر له أنَّ صاحِبَ الحديثِ حَدَّثه بمِثلِ ما حدَّثه به، فأظهَرَ التَّعجُّبَ، وقال: ما ظنَنْتُ أنَّه حَدَّث بذلك غيري! فإنَّ هذا يحنَثُ؛ لأنَّ تحليفَه وقع على أنَّه يَكتُمُ أنَّه حَدَّثه، وقد أفشاه)[6026].

4 -وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافِقًا خالِصًا، ومن كانت فيه خَصلةٌ منهُنَّ كانت فيه خَصلةٌ من النِّفاقِ حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خان، وإذا حدَّث كذَب، وإذا عاهَد غدَر، وإذا خاصَم فَجَر)).[6027]

قوله: ((وإذا اؤتُمِنَ خان)) أي: فيما جُعِل أمينًا عليه، ومن ذلك حِفظُ الأسرارِ وعَدَمُ إفشائِها.

5 -عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((بعثني رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنا والزُّبَيرُ، والمقدادُ بنُ الأسوَدِ، قال: انطَلِقوا حتى تأتوا روضةَ خاخٍ[6028]؛ فإنَّ بها ظَعينةً[6029]، ومعها كتابٌ فخُذوه منها، فانطلَقْنا تَعادى بنا خيلُنا حتى انتَهَينا إلى

[6021] أخرجه البخاري (6285، 6286) واللفظ له، ومسلم (2450).

[6022] يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) (61/9).

[6023] يُنظر: ((فتح الباري)) (11/80)

[6024] أي: صارت غيرَ ذاتِ زوجٍ بموتِ زَوجِها عنها. يُنظر: ((شرح صحيح البخارى)) لابن بطال (7/ 232).

[6025] أخرجه البخاري (5145).

[6026] يُنظر: ((فتح الباري)) (178/9).

[6027] أخرجه البخاري (34) واللفظ له، ومسلم (58)

الرَّوضةِ، فإذا نحن بالظَّعينةِ، فقُلْنا: أخرجي الكتابَ، فقالت: ما معي من كتابٍ، فقُلْنا: لتُخرِجِنَّ الكتابَ أو لنُلقِيَنَّ الثيابَ، فأخرجَتْه من عِقاصِها ، فأتينا به رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإذا فيه: مِن حاطِبِ بنِ أبي بلتعةَ إلى أُناسٍ من المشركين مِن أهلِ مكَّةَ يخبِرُهم ببعضِ أمرِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا حاطِبُ، ما هذا؟! قال: يا رَسولَ اللهِ، لا تعجَلْ عليَّ، إنِّي كنتُ امرَأً مُلصَقًا في قريشٍ، ولم أَكُنْ من أنفُسِها، وكان مَن معك من المهاجِرين لهم قراباتٌ بمكَّةَ يحمون بها أهليهم وأموالَهم، فأحببتُ إذْ فاتني ذلك من النَّسَبِ فيهم أن أتَّخِذَ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلتُ كُفرًا ولا ارتدادًا، ولا رِضًا بالكُفرِ بعد الإسلامِ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لقد صدَقَكم، قال عُمَرُ: يا رسولَ اللهِ، دَعْني أضرِبْ عُنُقَ هذا المنافِقِ! قال: إنَّه قد شهد بدرًا، وما يُدريك لعلَّ اللهَ أن يكونَ قد اطَّلع على أهلِ بَدرٍ فقال: اعمَلوا ما شئتُم، فقد غفرتُ لكم))[6030].

وهذا من خصائِصِ أهلِ بَدرٍ؛ أنَّ اللهَ غَفَر لهم ما يَفعَلون من الذُّنوبِ، وإلَّا فإنَّ حاطِبًا رَضِيَ اللهُ عنه فَعَل ذَنبًا عظيمًا، فَمَن يَكتُبْ إلى أعدائِنا بأخبارِنا فعلى وَلِيِّ الأمرِ أن يقتُلَه ولو كان مسلِمًا، ومَنَع مِن ذلك في هذه القِصَّةِ مانِعٌ، وهو أنَّ حاطِبًا كان من أهلِ بَدرٍ[6031].

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- قال عبدُ المَلِكِ بنُ مَرْوانَ للشَّعبيِّ لَمَّا دخل عليه: (جَنِّبْني خِصالًا أربعًا: لا تُطْريني[6032] في وَجهي، ولا تُجرِيَنَّ عَلَيَّ كَذْبةً، ولا تغتابَنَّ عندي أحدًا، ولا تُفشِيَنَّ لي سِرًّا)[6033].

- وقال الحَسَنُ: (إنَّ من الخيانةِ أن تحَدِّثَ بسِرِّ أخيك).[6034]

- وقال أبو حاتِمِ بنُ حِبَّانَ: (مَن حَصَّن بالكِتمانِ سِرَّه تمَّ له تدبيرُه، وكان له الظَّفَرُ بما يريدُ، والسَّلامةُ مِن العَيبِ والضَّرَرِ وإن أخطَأَه التَّمَكُّنُ والظَّفَرُ، والحازِمُ يجعَلُ سِرَّه في وعاءٍ ويكتُمُه عن كُلِّ مُستودَعٍ، فإنِ اضطَرَّه الأمرُ وغَلَبه أودَعَه العاقِلَ النَّاصِحَ له؛ لأنَّ السِّرَّ أمانةٌ، وإفشاؤه خيانةٌ، والقَلبُ له وِعاؤه؛ فمِن الأوعيةِ ما يَضيقُ بما يُودَعُ، ومنها ما يتَّسِعُ لِما استُودِعَ)[6035].

- وقال أيضًا: (الإفراطُ في الاسترسالِ بالأسرارِ عَجزٌ، وما كتَمَه المرءُ من عَدُوِّه فلا يجِبُ أن يُظهِرَه لصديقِه، وكفى لذَوي الألبابِ عِبرًا ما جرَّبوا، ومَن استُودِعَ حديثًا فلْيَستُرْ، ولا يكُنْ مِهتاكًا ولا مِشياعًا؛ لأنَّ السِّرَّ إنَّما سُمِّيَ سِرًّا؛ لأنَّه لا يُفشَى، فيَجِبُ على العاقِلِ أن يكونَ صَدرُه أوسَعَ لسِرِّه مِن صَدرِ غَيرِه بألَّا يُفشيَه).[6036]

[6028] مَوضِعٌ بيْن مكَّةَ والمدينةِ بقُربِ المدينةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (9/4012).

[6029] الظَّعينةُ: المرأةُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (151 /1)

[6030] أخرجه البخاري (3007)

[6031] ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (2/ 71، 72).

[6032] أي: لا تَمدَحيني. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: 190).

[6033] يُنظر: ((المحاسن والأضداد)) للجاحظ (ص: 45).

[6034] رواه ابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (404).

[6035] يُنظر: ((روضة العقلاء)) (ص: 189).

[6036] المصدر السابق (ص: 190).

- وقال بعضُهم: (كِتمانُك سِرَّك يُعقِبُك السَّلامةَ، وإفشاؤك سِرَّك يُعقِبُك النَّدامةَ، والصَّبرُ على كِتمانِ السِّرِّ أيسَرُ من النَّدَمِ على إفشائِه).[6037]

- وقال الرَّاغِبُ الأصفَهانيُّ: (إذاعةُ السِّرِّ من قِلَّةِ الصَّبرِ، وضِيقِ الصَّدرِ، وتوصَفُ به ضَعَفةُ الرِّجالِ، والصِّبيانُ، والنِّساءُ).[6038]

- وشَكا هِشامُ بنُ عَبدِ المَلِكِ ما يجِدُ مِن فَقدِ الأنيسِ المأمونِ على سِرِّه، فقال: أَكَلْتُ الحامِضَ والحُلوَ حتَّى ما أجِدُ لهما طَعمًا، وأتيتُ النِّساءَ حتَّى ما أُبالي امرأةً لَقِيتُ أم حائِطًا، فما بَقِيَت لي لَذَّةٌ إلَّا وجودُ أخٍ أضَعُ بَيني وبَينَه مَؤُونةَ التَّحَفُّظِ[6039]

- وقال الماوَرديُّ: (وكم من إظهارِ سِرٍّ أراقَ دَمَ صاحِبِه، ومَنَع مِن نَيلِ مطالِبِه! ولو كتَمَه كان مِن سَطوتِه آمنًا، وفي عواقِبِه سالمًا، ولِنَجاحِ حوائِجِه راجِيًا)[6040].

- وقال أيضًا: (وإظهارُ الرَّجُلِ سِرَّ غيرِه أقبَحُ من إظهارِه سِرَّ نَفسِه؛ لأنَّه يبوءُ بإحدى وصَمَتَينِ: الخيانةِ إن كان مُؤتَمَنًا، أو النَّميمةِ إن كان مُستودَعًا؛ فأمَّا الضَّرَرُ فرُبَّما استوَيَا فيه وتفاضَلَا. وكلاهما مذمومٌ، وهو فيهما مَلومٌ).

- وقيل لعَدِيِّ بنِ حاتِمٍ: أيُّ الأشياءِ أوضَعُ للرِّجالِ؟ قال: كَثرةُ الكلامِ، وإضاعةُ السِّرِّ، والثِّقةُ بكُلِّ أحَدٍ[6041].

- وعن المأمونِ يقولُ: (المَلوكُ لا تحتَمِلُ ثلاثةَ أشياءَ: إفشاءُ السِّرِّ، والتَّعَرُّضُ للحُرمةِ، والقَدْحُ في المُلكِ).[6042]

- ومِمَّا قيل في إفشاءِ الإنسانِ سِرَّ نفسِه لغيرِه:

- قال مُعاويةُ رَضِيَ اللهُ عنه: (ما أفشَيتُ سِرِّي إلى أحَدٍ إلَّا أعقَبَني طولَ النَّدَمِ، وشِدَّةَ الأسَفِ، ولا أودَعْتُه جوانِحَ صَدري فحَكَمْتُه بَينَ أضلاعي إلَّا أكسَبَني مجْدًا وذِكرًا، وسَناءً ورِفعةً. فقيلَ: ولا ابنَ العاصِ؟ قال: ولا ابنَ العاصِ. وكان يقولُ: ما كنتُ كاتِمَه من عَدُوِّك فلا تُظهِرْ عليه صديقَك).[6043]

- و(قال عَمرُو بنُ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنه: ما تقدَّمْتُ على شَيءٍ فنَدِمْتُ عليه، ولا وضَعْتُ سِرِّي عِندَ أحدٍ فأفشاه عليَّ فلُمْتُه؛ أنا كنتُ أضيَقَ صَدرًا حيثُ وضَعْتُه عِندَه)[6044].

- وفي لفظٍ آخَرَ: (ما وَضعتُ سِرِّي عندَ أحدٍ أفشاه عليَّ فلُمْتُه؛ أنا كنت أضيَقَ به حيثُ استودَعْتُه إيَّاه)[6045].

- وقال أيضًا: (عَجِبتُ من الرَّجُلِ يَفِرُّ من القَدَرِ وهو مُواقِعُه! ويَرى القَذاةَ[6046] في عَينِ أخيه، ويَدَعُ الجِذعَ في عَينِه! ويُخرِجُ الضِّغنَ من نَفسِ أخيه، ويَدَعُ الضِّغنَ[6047] في نَفسِه! وما وضَعْتُ سِرِّي عندَ أحَدٍ فلُمْتُه على إفشائِه، وكيف ألومُه وقد ضِقتُ به ذَرْعًا؟!).[6048]

[6037] يُنظر: ((المحاسن والأضداد)) للجاحظ (ص: 46).

[6038] يُنظر: ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص: 213).

[6039] يُنظر: ((الرسائل الأدبية)) للجاحظ (ص: 92).

[6040] يُنظر: ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 307).

[6041] رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (91/40).

[6042] رواه أبو بكر الدِّينَوري في ((المجالسة وجواهر العلم)) (871)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (33/314)

[6043] يُنظر: ((المحاسن والأضداد)) للجاحظ (ص: 46)

[6044] أخرجه الخرائطي في ((اعتلال القلوب)) (694) واللفظ له، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (9499)

[6045] رواه ابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (406)

- وقال ابنُ الجَوزيّ: (رأيتُ أكثَرَ النَّاسِ لا يتمالَكون مِن إفشاءِ سِرِّهم، فإذا ظَهَر عاتبوا من أخبَروا به. فواعَجَبًا! كيف ضاقوا بحَبْسِه ذَرعًا، ثمَّ لاموا مَن أفشاه؟!)[6049].

- وقال رجُلٌ مِن سَلَفِ العُلَماءِ: (كان يقالُ: أملَكُ النَّاسِ لنَفسِه مَن كَتَم سِرَّه من صديقِه وخليلِه). قال أبو عُبَيدٍ مُعَلِّقًا على هذا القولِ: (أحسَبُ ذلك للنَّظَرِ في العاقِبةِ؛ ألَّا يتغيَّرَ الذي بَينَهما يومًا ما فيُفشيَ سِرَّه)[6050].

- وقال الجاحِظُ: (والسِّرُّ- أبقاك اللهُ- إذا تجاوَزَ صَدْرَ صاحِبَه، وأفلَتَ مِن لسانِه إلى أذُنٍ واحِدةٍ، فليس حينَئذٍ بسِرٍّ، بل ذاك أَولى بالإذاعةِ، ومِفتاحُ النَّشرِ والشُّهرةِ، وإنَّما بَينَه وبَينَ أن يَشيعَ ويَستطيرَ أن يُدفَعَ إلى أذُنٍ ثانيةٍ، وهو مع قِلَّةِ المأمونين عليه وكَربِ الكِتمانِ حريٌّ بالانتقالِ إليها في طَرْفةِ عَينٍ)[6051].

- وقال أكثَمُ بنُ صَيفيٍّ: (إنَّ سِرَّك مِن دَمِك، فانظُرْ أين تُريقُه)[6052].

- وقال الأعمَشُ: (يَضيقُ صَدرُ أحَدِهم بسِرِّه حتى يحَدِّثَ به، ثمَّ يقولُ: اكتُمْه عَلَيَّ!)[6053].

- وعن المَدائنيّ قال: (كان يُقالُ: أصبَرُ النَّاسِ الذي لا يُفشي سِرَّه إلى صديقِه؛ مخافةَ أن يقَعَ بَينَهما شيءٌ فيُفشِيَه)[6054].

- وقال بعضُهم: (ما أقبَحَ بالإنسانِ أن يخافَ على ما في يَدِه من اللُّصوصِ فيُخفيَه، ويمكِّنَ عَدُوَّه مِن نفسِه بإظهارِه ما في قَلبِه مِن سِرِّ نَفسِه وسِرِّ أخيه! ومَن عَجَز عن تقويمِ أمرِه فلا يلومَنَّ إلَّا نَفسَه إنْ لم يستَقِمْ له)[6055].

المطلب الثالث: آثارُ إفشاءِ السِّرِّ

1 -إفشاء السِّرِّ خيانةٌ للأمانةِ، ونَقضٌ للعَهدِ.

2 -إفشاءُ السِّرِّ دليلٌ على لُؤمِ الطَّبعِ.

3 -إفشاءُ السِّرِّ دليلٌ على قِلَّةِ الصَّبرِ، وضِيقِ الصَّدْرِ.

4 -إفشاءُ السِّرِّ -خاصَّةً عندَ الغَضَبِ- يُعقِبُ النَّدَمَ والحَسرةَ في نَفسِ صاحِبِه.

5 -إفشاءُ الأسرارِ إخلالٌ بالمروءةِ وإفسادٌ للصَّداقةِ، ومَدعاةٌ للتَّنافُرِ.

6 -إفشاءُ الرَّجُلِ سِرَّ امرأتِه، وإفشاءُ المرأةِ سِرَّ زَوجِها: يُخِلُّ بفضيلةِ الحياءِ، ويَخدِشُ ما بَينَهما من سِترٍ، ويدعو للشِّقاقِ.

7 -إفشاءُ السِّرِّ من فُضولِ الكلامِ الذي يُعابُ عليه صاحِبُه.

8 -إفشاءُ السِّرِّ يُفقِدُ الثِّقةَ بَينَ الإخوانِ.

[6046] القَذَى: ما يقَعُ في العينِ وما ترمي به، وجمعُه أقذاءٌ، والقَذاةُ: الطَّائفةُ من القَذَى. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور.

[6047] الضِّغْنُ: الحِقدُ والعداوةُ والبغضاءُ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير.

[6048] رواه البخاري في ((الأدب المفرد)) (886) واللَّفظُ له، والبيهقي في ((القضاء والقدر)) (501)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (189/46). صحَّح إسنادَه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (681)

[6049] ((صيد الخاطر)) (ص: 273) .

[6050] يُنظر: ((الأمثال)) لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص: 58).

[6051] يُنظر: ((الرسائل الأدبية)) للجاحظ (ص: 92) .

[6052] يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (275-2/174)

[6053] يُنظر: ((روضة العقلاء)) لابن حبان (ص: 191) .

[6054] المصدر السابق (ص: 189)

[6055] يُنظر: ((المحاسن والأضداد)) للجاحظ (ص: 46) .

9 -إفشاءُ السِّرِّ يكونُ سببًا في وقوعِ الضَّغينةِ بَينَ النَّاسِ.
10 -إفشاءُ أسرارِ الدُّوَلِ يتسَبَّبُ في اضطرابِ الأمنِ، والتَّعَرُّضِ للخَطَرِ.
11 -إفشاءُ الأسرارِ يمكِّنُ أعداءَ الإنسانِ من النَّيلِ منه[6056].

المطلب الرابع: أنواعُ السِّرِّ وأقسامُ إفشائِه

- **قال الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ: (السِّرُّ ضَربانِ:**

أحَدُهما: ما يُلقي الإنسانُ من حديثٍ يُستكتَمُ، وذلك إمَّا لفظًا، كقولِك لغَيرِك: اكتُمْ ما أقولُ لك، وإمَّا حالًا، وهو أن يتحرَّى القائِلُ حالَ انفرادِه فيما يُورِدُه، أو يخفِضَ صوتَه، أو يُخفيَه عن مجالِسيه؛ ولهذا قيل: إذا حدَّثك الإنسانُ بحديثٍ فالتَفَت، فهو أمانةٌ.

والثَّاني: أن يكونَ حديثًا في نفسِك بما تَستقبِحُ إشاعتَه، أو شيئًا تريدُ فِعلَه.[6057]

ومثالُ ما تَستقبِحُ إشاعتَه: أن يكونَ أتى شيئًا من المعاصي ثمَّ سترَه اللهُ، فلْيَستَتِرْ بسِترِ اللهِ، وإلى الثَّاني -وهو إشاعةُ الشَّيءِ تريدُ فِعلَه- أشار من قال: (مِن وَهْنِ الأمرِ إعلانُه قَبلَ إحكامِه)[6058].

- **ويمكِنُ أن تُقَسَّمَ الأسرارُ إلى قِسمَينِ، الأوَّلُ:** أسرارٌ خاصَّةٌ، وتشمَلُ الأسرارَ الشَّخصيَّةَ الخاصَّةَ، وأسرار الغيرِ.

والقِسمُ الثَّاني: الأسرارُ العامَّةُ، وهي التي تخُصُّ الهيئاتِ والمُؤَسَّساتِ المملوكةَ للدَّولةِ، وهي أسرارٌ تحظى بالرِّعايةِ والأهميَّةِ بما يوجِبُ حِفظَها وعَدَمَ نَشْرِها [6059].

المطلب الخامس: صُوَرُ إفشاءِ السِّرِّ ومَظاهِرُه

1 -إفشاءُ أسرارِ المُسلِمين:

لقد نهى الشَّارِعُ الكريمُ عن إفشاءِ أسرارِ المُسلِمين وأمَر بسَتْرِها وكِتمانِها؛ لِما في ذلك مِن حِفظٍ لأعراضِهم؛ قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [النور: 19] ، وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُسلِمُ أخو المُسلِمِ لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه، ومَن فَرَّج عن مُسلِمٍ كُربةً فَرَّج اللهُ عنه كُربةً من كُرُباتِ يومِ القيامةِ، ومَن سَتَرَ مُسلِمًا سترَه اللهُ يومَ القيامةِ))[6060].

2 -إفشاءُ أسرارِ الدَّولةِ:

إذا كان إفشاءُ أسرارِ الأفرادِ مذمومًا فإفشاءُ أسرارِ الدَّولةِ أشَدُّ ذَمًّا، وأعظَمُ جُرمًا، ويترتَّبُ عليه من المفاسِدِ الشَّيءُ الكثيرُ الذي يُزعزِعُ أمنَ البلَدِ واستِقرارَها، ويُمكِّنُ أعداءَها منها.

3 -إفشاءُ الأسرارِ الزَّوجيَّةِ:

[6056] يُنظر: ((نضرة النعيم)).(1/228-229)
[6057] ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (ص: 212).
[6058] يُنظر: ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة .(1/98)
[6059] يُنظر: ((كتمان السر وإفشاؤه في الفقه الإسلامي)) لشريف بن أدول (ص: 27) .
[6060] أخرجه البخاري (2442) واللَّفظُ له، ومسلم (2580)

لقد جعَل اللهُ سُبحانَه وتعالى لكُلٍّ من الزَّوجَينِ حقوقًا وواجباتٍ، ومن هذه الحُقوقِ حِفظُ الأسرارِ الزَّوجيَّةِ؛ فكُلٌّ من الزَّوجَينِ أمينٌ على أسرارِ الآخَرِ، يجِبُ عليه حِفظُها وعدَمُ إفشائِها، ومن أعظَمِ هذه الأسرارِ وأشَدِّها أسرارُ الجِماعِ وما يجري بَينَ الزَّوجَينِ في الفِراشِ. عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ من أشَرِّ النَّاسِ عِندَ اللهِ مَنزِلةً يومَ القيامةِ الرَّجُلُ يُفضي إلى امرأتِه وتُفضي إليه، ثمَّ ينشُرُ سِرَّها))[6061]. قال السَّفَّارينيُّ: (يُكرَهُ لكُلٍّ من الزَّوجَينِ التَّحَدُّثُ بما صار بَينَهما ولو لضَرَّتِها... لأنَّه من السِّرِّ، وإفشاءُ السِّرِّ حرامٌ)[6062]. وكذلك فكُلٌّ من الزَّوجَينِ مُطالَبٌ بحِفظِ باقي الأسرارِ الأخرى التي تقَعُ في الحياةِ الزَّوجيَّةِ، بل حتَّى بَعدَ الفِراقِ بطَلاقٍ أو غيرِه، لا ينبغي له إفشاءُ ما كان بَينَه وبَينَ زَوجِه من أسرارٍ خاصَّةٍ لا ينبغي إطلاعُ الغيرِ عليها. (يُروى عن بعضِ الصَّالِحين أنَّه أراد طَلاقَ امرأةٍ، فقيل له: ما الذي يَريبُك فيها؟ فقال: العاقِلُ لا يَهتِكُ سِترَ امرأتِه، فلمَّا طَلَّقَها قيل له: لِمَ طلَّقْتَها؟ فقال: ما لي ولامرأةِ غَيري ؟!)[6063]

4 -إفشاءُ وإعلانُ الذُّنوبِ التي يَرتَكِبُها: عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كُلُّ أمَّتي مُعافًى إلَّا المُجاهِرين، وإنَّ من المُجاهَرةِ أن يعمَلَ الرَّجُلُ باللَّيلِ عَمَلًا، ثمَّ يُصبِحَ وقد ستَرَه اللهُ عليه، فيقولَ: يا فُلانُ، عَمِلْتُ البارحةَ كذا وكذا، وقد بات يستُرُه رَبُّه، ويصبِحُ يكشِفُ سِترَ اللهِ عنه))[6064].

5 -إفشاءُ الغاسِلِ حالَ المَيِّتِ:

كأن يرى الغاسِلُ من بَدَنِ الميِّتِ سوادًا، أو تغيُّرَ رائحةٍ، أو انقِلابَ صُورةٍ؛ حَرُمَ ذِكْرُه؛ لأنَّه غِيبةٌ لِمَن لا يتأتَّى الاستحلالُ منه، بخلافِ ما لو رأى الغاسِلُ مِن بدَنِ الميِّتِ خَيرًا كاستِنارةِ وَجهِه، وطِيبِ رائحتِه، ذكَرَه نَدبًا؛ ليكونَ أدعى لكثرةِ المُصَلِّين عليه، والدُّعاءِ له . قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَتَر مُسلِمًا سترَه اللهُ في الدُّنيا والآخِرةِ))[6065].

6 -إفشاءُ بَعضِ المحامينَ أسرارَ بَعضِ عُمَلائِهم، فيُفشي المحامي سِرَّهم أو يبيعُه للخُصومِ، وهذا فيه خيانةٌ للأمانةِ، وإضرارٌ بالآخَرينَ.

7 -إفشاءُ الأصحابِ الأسرارَ التي استأمَن بعضُهم بعضًا عليها، وهذا شائعٌ بَينَ الشَّبابِ الذين يتندَّرون على أصحابِهم، ويَجعَلون إفشاءَ أسرارِهم مَدعاةً للضَّحِكِ والاستهزاءِ فيما بَينَهم.

8 -إفشاءُ الأسرارِ الماليَّةِ لعُمَلاءِ المُؤَسَّساتِ الماليَّةِ، مِثلُ البُنوكِ وغَيرِها.

9 -إفشاءُ بعضِ شَرِكاتِ الهواتِفِ الأسرارَ ونَشرُها أرقامَ العُمَلاءِ المُسَجَّلين لديهم دونَ الاستئذانِ منهم، وإعطاؤُها بياناتِ العُمَلاءِ لشَرِكاتٍ أُخرى مُخصَّصةٍ في الدِّعايةِ والإعلانِ والتَّسويقِ الرَّقْميِّ؛ ممَّا يتسَبَّبُ في مُشكِلاتٍ اجتماعيَّةٍ وإزعاجٍ للنَّاسِ، مع ضياعِ أموالهم.

10- إفشاءُ أسرارِ المُؤَسَّساتِ ونَشرُها على وسائِلِ التَّواصُلِ الاجتماعيِّ ومواقِعِ الإنترنتِ.

[6061] أخرجه مسلم (1437)

[6062] يُنظر: ((غذاء الألباب)) (1/118).

[6063] يُنظر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (2/56).

[6064] أخرجه البخاري (6069) واللَّفظُ له، ومسلم (2990).

[6065] أخرجه مسلم (2699) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه.

المطلب السادس: أسبابُ الوُقوعِ في إفشاءِ السِّرِّ

1 -رغبةُ الإنسانِ في الافتِخارِ بإظهارِ العِلمِ بما لا يَعلَمُه غَيرُه.

2 -التِّكايةُ أو التَّشهيرُ خاصَّةً عِندَ حُصولِ العَداوةِ بَينَ الأصدقاءِ أو وُقوعِ الطَّلاقِ بَينَ الزَّوجَينِ.

3 -الرَّغبةُ في الاستفادةِ الماديَّةِ والمعنويَّةِ من إذاعةِ الأسرارِ.

4 -إفشاءُ الأسرارِ من آفاتِ اللِّسانِ التي تحدُثُ بسَبَبِ إطلاقِ العِنانِ له.

5 -ضَعفُ الوازِعِ الدِّينيِّ.

6 -عدَمُ التَّحَلِّي بمكارِمِ الأخلاقِ والتَّلبُّسُ بمساوِئِها .

7 -قِلَّةُ الصَّبرِ وضِيقُ الصَّدرِ فـ (إذاعةُ السِّرِّ من قِلَّةِ الصَّبرِ وضِيقِ الصَّدرِ، وتُوصَفُ به ضَعَفةُ الرِّجالِ والصِّبيانُ والنِّساءُ، والسَّبَبُ في أنَّه يصعُبُ كِتمانُ السِّرِّ هو: أنَّ للإنسانِ قوَّتَينِ؛ آخِذةٌ، ومُعطيةٌ. وكِلتاهما تتشَوَّفُ إلى الفِعلِ المختَصِّ بها، ولولا أنَّ اللهَ تعالى وكَّلَ المُعطيةَ بإظهارِ ما عِندَها لَمَا أتاك بالأخبارِ من لم تُزَوِّدْه، فصارت هذه القُوَّةُ تتشَوَّفُ إلى فِعلِها الخاصِّ بها؛ فعلى الإنسانِ أن يمسِكَها ولا يُطلِقَها إلى حيثُ ما يجِبُ إطلاقُها، ولا يخدَعَنَّك عن سِرِّك قولُ مَن قال: وأكتُمُ السِّرَّ فيه ضَربةُ العُنُقِ.

وقولُ مَن يُنشِدُك:

ويكاتِمُ الأسرارَ حتَّى كأنَّه

لَيَصونُها عن أن تَمُرَّ ببالِه

فذلك قولُ مَن يَستَنزِلُك عمَّا في قَلبِك، فإذا استَفرَغَ ما عندَك لم يَرْعَ فيه حَقَّك، فقد قيل: الصَّبْرُ على القَبضِ على الجَمرِ أيسَرُ من الصَّبرِ على كِتمانِ السِّرِّ. وما أصدَقَ من أنبَأَ عن حقيقةِ حالِه؛ حيثُ قال له صديقُه: أريدُ أن أُفشِيَ إليك سِرًّا تحفَظُه عَلَيَّ، فقال: لا أريدُ أن أوذِيَ قلبي بنَجْواك، وأجعَلَ صَدري خزانةَ شَكواك؛ فيُقلِقَني ما أقلَقَك، ويُؤَرِّقَني ما أرَّقَك، فتَبيتَ بإفشائِه مُستريحًا، ويَبيتَ قلبي بحَرِّه جريحًا.[6066]

المطلب السابع: الوسائِلُ والأسبابُ المُعينةُ على تَركِ إفشاءِ السِّرِّ

1 -إدراكُ خُطورةِ اللِّسانِ وعَدَمُ إطلاقِ العِنانِ له.

2 -تذَكُّرُ عاقبةِ كَشْفِ السِّرِّ.

3 -تعويدُ النَّفسِ على الصَّبرِ.

4 -التِزامُ ضَوابِطِ كَشفِ السِّرِّ.

5 -لا تَنسَ هذه الوصايا:

[6066] ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) للراغب الأصفهاني (ص: 212- 213).

- لا تُحَدِّثْ بكُلِّ ما سَمِعتَ: فعن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (بحَسْبِ امرئٍ من الكَذِبِ أن يحَدِّثَ بكُلِّ ما سَمِع)[6067].

- سَتْرُ المُسلِمِ فَضيلةٌ: قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يَستُرُ عَبدٌ عَبدًا في الدُّنيا إلَّا ستَرَه اللهُ يومَ القيامةِ)).[6068]

- الأسرارُ أماناتٌ؛ فلا تَخُنْ من ائتَمَنك.

- لا تكُنْ أسيرَ سِرِّك.

- احذَرْ كَثرةَ المُستودَعين؛ قال الماوَرديُّ: (ولْيَحذَرْ كَثرةَ المُستودَعينَ لسِرِّه؛ فإنَّ كَثرتَهم سَبَبُ الإذاعةِ، وطريقُ الإشاعةِ؛ لأمرَينِ:

أحَدُهما: أنَّ اجتماعَ هذه الشُّروطِ في العَدَدِ الكثيرِ مُعوِزٌ، ولا بُدَّ إذا كَثُروا أن يكونَ فيهم من أخَلَّ ببعضِها.

الثَّاني: أنَّ كُلَّ واحدٍ منهم يجِدُ سبيلًا إلى نفيِ الإذاعةِ عن نفسِه، وإحالةِ ذلك إلى غيرِه، فلا يضافُ إليه ذنبٌ، ولا يتوَجَّهُ عليه عَتبٌ، وقد قال بعضُ الحُكَماءِ: (كُلَّما كثُرَت خُزَّانُ الأسرارِ ازدادت ضَياعًا)[6069].

المطلب الثامن: حُكمُ إفشاءِ الأسرارِ

قال الغزاليُّ: (إفشاءُ السِّرِّ هو منهيٌّ عنه لِما فيه من الإيذاءِ والتَّهاوُنِ بحَقِّ المعارِفِ والأصدقاءِ، وهو حرامٌ إذا كان فيه إضرارٌ، وهو مِن قَبيلِ اللُّؤمِ إن لم يكُنْ فيه إضرارٌ)[6070].

وقال السَّفَّارينيُّ: (يَحرُمُ على كُلِّ مُكَلَّفٍ إفشاءُ السِّرِّ؛ قال: ولعَلَّه يحرُمُ حيثُ أُمِرَ بكَتْمِه، أو دلَّتْه قرينةٌ على «ضرورةِ» كِتمانِه، أو كان ممَّا يُكتَمُ عادةً، وقيل: الذي يحرُمُ هو إفشاءُ السِّرِّ المُضِرِّ «كما في الرِّعايةِ»).[6071]

وقال ابنُ عُثَيمين: (إذا حدَّثك إنسانٌ بحديثٍ، وقال: إنَّه أمانةٌ، حَرُم عليك أن تُفشِيَه لأيِّ أحَدٍ، ... فإن فعَلْتَ فقد خُنتَ الأمانةَ، لكِنْ لو فُرِض أنَّك أخطَأْتَ فخُنتَ الأمانةَ، فالواجِبُ عليك أن تتحَلَّلَ ممَّن ائتَمَنك؛ لأنَّك ظَلَمْتَه حيثُ خُنتَه، لعَلَّ اللهَ يهديه فيُحلِّلَك، والذي ينبغي لِمَن جاءه أخوه معتَذِرًا أن يَعذِرَه ويحَلِّلَه حتَّى يكونَ أجرُه على اللهِ عزَّ وجَلَّ، كما قال تعالى {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [الشورى: 40] ولا شَكَّ أنَّ الأماناتِ تختَلِفُ في آثارِها؛ فقد يكونُ إفشاءُ السِّرِّ في هذه الأمانةِ عظيمًا يترتَّبُ عليه مفاسِدُ كثيرةٌ، وقد يكونُ متوَسِّطًا، وقد يكونُ سهلًا).[6072]

وقال ابنُ بطَّالٍ: (قال المُهَلَّبُ: والذي عليه أهلُ العِلمِ أنَّ السِّرَّ لا يُباحُ به إذا كان على المُسِرِّ فيه مضَرَّةٌ، وأكثَرُهم يقولُ: إنَّه إذا مات لا يلزَمُ مِن كتمانِه ما يلزَمُ في حياتِه إلَّا أن يكونَ عليه فيه غضاضةٌ في دينِه)[6073].

[6067] أخرجه من طرقٍ: البخاري في ((الأدب المفرد)) (884)، ومسلم في ((مقدمة الصحيح)) (5) واللفظ له، وابن أبي شيبة (26132) صحَّحه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (679)، وصحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((مسند الفاروق)) (626/2).

[6068] رواه مسلم (2590) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه .

[6069] ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص: 308)، ويُنظر: ((الرائد دروس في التربية والدعوة)) لمازن عبد الكريم الفريح (227/4-230).

[6070] ((إحياء علوم الدين)) (3/ 132).

[6071] ((غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب)) (1/ 116).

[6072] ((فتاوى نور على الدرب)) (9/428).

[6073] يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) (9/ 64).

وقال ابنُ حَجَرٍ بَعدَ نَقلِه كلامَ ابنِ بَطَّالٍ: (قلتُ: الذي يَظهَرُ انقسامُ ذلك بعد الموتِ إلى ما يُباحُ، وقد يُستحَبُّ ذِكرُه ولو كَرِهه صاحِبُ السِّرِّ، كأن يكونَ فيه تزكيةٌ له من كرامةٍ أو مَنقَبةٍ أو نحوِ ذلك؛ وإلى ما يُكرهُ مُطلَقًا، وقد يحرُمُ، وهو الذي أشار إليه ابنُ بطَّالٍ، وقد يجِبُ كأن يكونَ فيه ما يجِبُ ذِكرُه، كحَقٍّ عليه؛ كأن يُعذَرَ بتَركِ القيامِ به، فيُرجى بَعدَه إذا ذُكِر لِمن يقومُ به عنه أن يفعَلَ ذلك).[6074]

وقد يُصبِحُ إفشاءُ السِّرِّ لازمًا إذا كانت مصلحةُ الإفشاءِ أكبرَ من مصلحةِ الكِتمانِ والسَّترِ، وهذه بعضُ مِن النَّماذِجِ التي ينبغي إفشاءُ السِّرِّ فيها:

1. أداءُ الشَّهادةِ عِندَ القاضي:

(والشَّهادةُ في حَدِّ ذاتِها هي إخبارٌ بالشَّيءِ السِّرِّي الذي يخفى عن القاضي حقيقتُه، والمرادُ من أداءِ الشَّهادةِ: إظهارُ الأسرارِ لإثباتِ الحَقِّ في مجلِسِ القضاءِ، وقد نهى الحَقُّ عن كتمانِ الشَّهادةِ: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ} [البقرة: 283].

وكذلك لا تكونُ الشَّهادةُ إلَّا بالإخبارِ القاطِعِ، والإخبارُ لا يكونُ قاطِعًا إلَّا بالإخبارِ التَّفصيليِّ، كما هو حالُه في الشَّهادةِ على الزِّنا، لا بُدَّ مِن ذِكرِ المكانِ، والزَّمانِ، والكيفيَّةِ، وذِكرِ الفاعِلِ والمفعولِ به، وما إلى ذلك؛ حتَّى تتوفَّرَ فيه الشُّروطُ المُقَرَّرةُ في حَدِّ الزِّنا. وكذلك في الشَّهادةِ على السَّرِقةِ، لا بُدَّ مِن ذِكرِ الكيفيَّةِ، والحِرْزِ، والمِقدارِ؛ حتَّى يَثبُتَ بشَهادتِهم أنَّ المشهودَ عليه قد فَعَل الجنايةَ المُستحِقَّةَ للعُقوبةِ)[6075].

2. إفشاءُ الأسرارِ إذا أدَّت إلى المصلحةِ العامَّةِ:

يُحمَدُ إفشاءُ السِّرِّ إذا كان في إفشائِه مَصلَحةٌ أو فائدةٌ يعودُ نَفعُها على الإسلامِ والمُسلِمين.

وقد أخبَرَنا اللهُ عن قِصَّةِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ الذي أفشى خبَرَ فِرعَونَ وقَومِه إلى موسى حينما كانوا يَسْعَون لقَتلِه، فأفشى ذلك السِّرَّ لِموسى، وكان في ذلك نجاةٌ له من القَتلِ بإذنِ اللهِ.

قال تعالى: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} [القصص: 20].

وهذا رأسُ المُنافِقين عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ لَمَّا قال: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: 8]، وسَمِع بذلك زيدُ بنُ أرقَمَ، أخبَرَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما قاله ابنُ سَلولَ[6076].

3 -نُصحُ المُستشيرِ: إذا طَلَب أحدٌ مشورةَ إنسانٍ واستلزم الأمرُ أن يُفشِيَ المستشارُ سِرًّا عن المسئول عنه .

جاء في قراراتِ مَجمَعِ الفقهِ الإسلاميِّ: (تُستثنى من وجوبِ كِتمانِ السِّرِّ حالاتٌ يُؤَدِّي فيها كتمانُه إلى ضَرَرٍ يفوقُ ضَرَرَ إفشائِه بالنِّسبةِ لصاحبِه، أو يكونُ إفشاؤُه مَصلَحةً تَرجَحُ على مضَرَّةِ كِتمانِه، وهذه الحالاتُ على ضربَينِ:

أ- حالاتٌ يجِبُ فيها إفشاءُ السِّرِّ بناءً على قاعدةِ ارتكابِ أهوَنِ الضَّرَرينِ لتفويتِ أشَدِّهما، وقاعدةِ تحقيقِ المصلَحةِ العامَّةِ التي تَقضي بتحَمُّلِ الضَّرَرِ الخاصِّ لدَرءِ الضَّرَرِ العامِّ إذا تعيَّن ذلك لدَرْئِه.

وهذه الحالاتُ نوعانِ:

1. ما فيه درءُ مَفسَدةٍ عن المجتَمَعِ.

[6074] ((فتح الباري)) (82 /11)

[6075] يُنظر: ((كتمان السر وإفشاؤه في الفقه الإسلامي)) لشريف بن أدول (113-114).

[6076] يُنظر: ((جامع البيان)) للطبري (364/14). وينظر ما أخرجه البخاري (4902).

2. وما فيه دَرءُ مَفسَدةٍ عن الفَردِ.

ب- حالاتٌ يجوزُ فيها إفشاءُ السِّرِّ لِما فيه:

1. جَلبُ مصلحةٍ للمُجتَمَعِ.

2. أو دَرءُ مَفسَدةٍ عامَّةٍ.

وهذه الحالاتُ يجِبُ الالتِزامُ فيها بمقاصِدِ الشَّريعةِ وأولويَّاتِها من حيثُ حِفظُ الدِّينِ، والنَّفسِ، والعَقلِ، والنَّسلِ، والمالِ)[6077] ومن الحالاتِ التي يجوزُ فيها البَوحُ ببَعضِ الأسرارِ ما جاء عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: ((دخلَتْ هِندُ بنتُ عُتبةَ امرأةُ أبي سفيانَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أبا سُفيانَ رَجُلٌ شحيحٌ لا يعطيني من النَّفَقةِ ما يكفيني ويكفي بَنِيَّ إلَّا ما أخَذْتُ من مالِه بغيرِ عِلْمِه، فهل عليَّ في ذلك من جُناحٍ؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خُذي من مالِه بالمعروفِ ما يكفيكِ ويكفي بَنيكِ))[6078]، وفي روايةٍ أُخرى: ((فهل عَلَيَّ جُناحٌ أن آخُذَ مِن مالِه سِرًّا؟ قال: خُذي أنت وبَنوكِ ما يكفيكِ بالمعروفِ))[6079]، فهذه صورةٌ للزَّوجةِ أن تُفشِيَ سِرَّ زَوجِها لتحصُلَ على حَقِّها، وحقِّ أبنائِها في النَّفَقةِ من زوجِها المقتَدِرِ، ويمكِنُ أن تَذكُرَ زوجَها بما يكرَهُه للاستفتاءِ والشَّكوى، وقد أقرَّها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ذلك واستمع لِما أفشَتْه وأظهَرَتْه من عيوبِ زَوجِها الخفيَّةِ والسِّرِّيَّةِ، وأمَرَها بأن تأخُذَ القَدْرَ الذي يكفيها ويكفي أبناءَها[6080].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ رِفاعةَ القُرَظيَّ تَزَوَّجَ امرأةً ثمَّ طَلَّقها، فتزوَّجَت آخَرَ، فأتت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرَت له أنَّه لا يأتيها، وأنَّه ليس معه إلَّا مِثلُ هُدْبةٍ، فقال: لا، حتَّى تذوقي عُسَيلتَه ويذوقَ عُسَيلتَكِ[6081])[6082]. فهذه المرأةُ أفشَت سِرَّ زَوجِها وأظهَرَت صِفةَ نَقصٍ فيه حتَّى تحصُلَ على الطَّلاقِ، وسَمِع النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شَكْواها ولم يَذُمَّ إفشاءَها لسِرِّ زَوجِها، ولكِنَّه بَيَّنَ لها الحُكمَ الواجِبَ عليها[6083].

المطلب التاسع: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **ضوابِطُ في إفشاءِ الإنسانِ سِرَّه إلى غيرِه:**

قال الماوَرْديُّ: (واعلَمْ أنَّ مِن الأسرارِ ما لا يُستغنى فيه عن مطالعةِ صَديقٍ مُساهِمٍ، واستشارةِ ناصِحٍ مُسالِمٍ؛ فلْيَختَرِ العاقِلُ لسِرِّه أمينًا إن لم يجِدْ إلى كَتْمِه سبيلًا، ولْيَتحَرَّ في اختيارِ من يأتمِنُه عليه، ويستودِعُه إيَّاه؛ فليس كلُّ من كان على الأموالِ أمينًا كان على الأسرارِ مُؤتَمَنًا، والعِفَّةُ عن الأموالِ أيسَرُ من العِفَّةِ عن إذاعةِ الأسرارِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يُذيعُ سِرَّ نَفسِه ببادِرةِ لِسانِه، وسَقَطِ كَلامِه، ويَشُحُّ باليسيرِ من مالِه؛ حِفظًا له وضَنًّا به، ولا يرى ما أذاع مِن سِرِّه كبيرًا في جَنبِ ما

[6077] ((قرارات وتوصيات مجمع الفقه الإسلامي)) (ص: 129- 130)، ((مجلة مجمع الفقه الإسلامي)) 8/ 1423).

[6078] أخرجه البخاري (5364)، ومسلم (1714) واللَّفظُ له.

[6079] أخرجها البخاري (2211).

[6080] يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (12/ 7)، ((عمدة القاري)) للعيني (12/ 18).

[6081] هي كنايةٌ عن الجِماع، شَبَّه لذَّته بلذَّةِ العَسَلِ وحلاوتِه. يُنظر: ((طرح التثريب في شرح التقريب)) للعراقي (7/ 98).

[6082] أخرجه البخاري (5317) واللفظ له، ومسلم (1433).

[6083] يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (7/ 480)، ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (4/ 375).

حَفِظَه من يَسيرِ مالِه، مع عِظَمِ الضَّرَرِ الدَّاخِلِ عليه. فمِن أجْلِ ذلك كان أُمَناءُ الأسرارِ أشَدَّ تعَذُّرًا وأقَلَّ وُجودًا من أُمناءِ الأموالِ، وكان حِفظُ المالِ أيسَرَ من كَتمِ الأسرارِ؛ لأنَّ أحرازَ الأموالِ منيعةٌ، وأحرازَ الأسرارِ بارزةٌ يُذيعُها لِسانٌ ناطِقٌ، ويُشيعُها كلامٌ سابِقٌ).[6084]

ومِمَّا قيل في عَدَمِ إفشاءِ الإنسانِ لأسرارِه:

صَدْرُك أوسَعُ لسِرِّك، أي: فلا تُفْشِه إلى أحَدٍ. ومنه قَولُ أكثَمَ بنِ صَيفيٍّ:

لا تُفْشِ سِرَّكَ إلى أَمَة، ولا تَبُلْ على أَكَمَة.

- وقيل: سِرُّك مِن دَمِك. يقالُ: ربَّما أفشيتَه فيكونُ سَبَبَ حَتْفِك.

- ويُروى: (أصبَرُ النَّاسِ مَن لا يُفشي سِرَّه إلى صديقِه مخافةَ التَّقَلُّبِ يومًا ما)[6085].

- وقال بعضُ الحُكَماءِ: (من أفشى سِرَّه كَثُر عليه المتآمِرون)[6086].

- وقال بعضُ الحُكَماءِ: (لا تُطلِعْ واحِدًا مِن سِرِّك إلَّا بقَدْرِ ما لا تجِدُ فيه بُدًّا من معاونتِك)[6087].

- **صِفاتُ مَن يُفشي سِرَّ نَفسِه:**

قال الماوَرْديُّ: (وفي الاسترسالِ بإبداءِ السِّرِّ دلائِلُ على ثلاثةِ أحوالٍ مَذمومةٍ:

إحداها: ضِيقُ الصَّدْرِ، وقِلَّةُ الصَّبرِ، حتَّى إنَّه لم يتَّسِعْ لسِرٍّ، ولم يَقدِرْ على صَبرٍ.

والثَّانيةُ: الغَفلةُ عن تحذُّرِ العُقَلاءِ، والسَّهوُ عن يقَظةِ الأذكياءِ. وقد قال بعضُ الحُكَماءِ: انفرِدْ بسِرِّك ولا تودِعْه حازِمًا فيَزِلَّ، ولا جاهِلًا فيَخونَ.

والثَّالِثةُ: ما ارتكَبَه من الغَدْرِ، واستعمَلَه من الخَطَرِ. وقال بعضُ الحُكَماءِ: سِرُّك مِن دَمِك، فإذا تكَلَّمْتَ به فقد أرَقْتَه).[6088]

- **أكثَرُ مَن يُذيعُ السِّرَّ:**

قال الجاحِظُ: (وأكثَرُ ما يُذيعُ أسرارَ النَّاسِ أهلوهم وعَبيدُهم، وحاشِيَتُهم وصِبيانُهم، ومَن لهم عليهم اليَدُ والسُّلطانُ؛ فالسِّرُّ الذي يُودِعُه خليفةٌ في عامِلٍ له يَلحَقُه زَينُه وشَينُه، أحرى ألَّا يكتُمَه، وهذا سبيلُ كُلِّ سِرٍّ يَستَودِعُه الجِلَّةُ والعُظَماءُ، ومَن لا تبلُغُه العقوبةُ ولا تَلحَقُه اللَّائِمةُ.

وقال سُلَيمانُ بنُ داودَ في حِكمتِه: لِيَكُنْ أصدقاؤك كثيرًا، وصاحِبُ سِرِّك واحِدًا من ألفٍ)[6089].

وقد قيل: (أكثَرُ ما يُستَنزَلُ الإنسانُ عن سِرِّه في ثلاثةِ مواضِعَ: عِندَ الاضطِجاعِ على فِراشِه، وعندَ خُلُوِّه بعِرْسِه، وفي حالِ سُكْرِه)[6090].

- **أكثَرُ الأمورِ عُرضةً لإفشاءِ السِّرِّ:**

[6084] يُنظر: ((أدب الدنيا والدين)) (307-308).

[6085] يُنظر: ((غذاء الألباب)) للسفاريني (1/117).

[6086] يُنظر: ((تسهيل النظر وتعجيل الظفر)) للماوردي (ص: 93).

[6087] يُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (5/101)

[6088] يُنظر: ((أدب الدنيا والدين)) (ص: 307).

[6089] يُنظر: ((الرسائل الأدبية)) (95-96).

[6090] ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) للراغب الأصفهاني (ص: 213).

وإفشاءُ السِّرِّ إنَّما يُوكَلُ بالخبَرِ الرَّائِعِ، والخَطْبِ الجَليلِ، والدَّفينِ المغمورِ، والأشنَعِ الأبلَقِ، مِثلُ سِرِّ الأديانِ لغَلَبةِ الهوى عليها، وتضاغُنِ أهلِها بالاختِلافِ والتَّضادِّ، والوَلايةِ والعداوةِ. ومِثلُ سِرِّ الملوكِ في كَيدِ أعدائِهم ومَكْنونِ شَهَواتِهم ومستورِ تدبيراتِهم، ثمَّ مَن يليهم مِنَ العُظَماءِ والجِلَّةِ؛ لنفاسةِ الملوكِ على العوامِّ، وأنَّهم سماءٌ مُظِلَّةٌ عليهم، أعيُنُهم إليها ساميةٌ، وقلوبُهم بها مُعَلَّقةٌ، ورَغَباتُهم ورَهَباتُهم إليها مصروفةٌ، ثمَّ عداواتُ الإخوانِ، فإنَّما صارت العداوةُ بَعدَ المودَّةِ أشَدَّ لاطِّلاعِ الصَّديقِ على سِرِّ صديقِه، وإحصائِه معايبِه، وربَّما كان في حالِ الصَّداقةِ يجمَعُ عليه السَّقَطاتِ، ويُحصي العُيوبَ، ويحتَفِظُ بالرِّقاعِ؛ إرصادًا ليومِ النَّبْوَةِ[6091]، وإعدادًا لحالِ الصَّريمةِ[6092].

[6091] أي: الجَفْوَة. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي.

[6092] يُنظر: ((الرسائل الأدبية)) للجاحظ (ص: 100). الصَّريمةُ: القَطيعةُ يقالُ: صَرَم فُلانًا صَرْمًا: قَطَع كَلامَه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي، ((المعجم الوسيط)).

المبحث الثلاثون: خُلْفُ الوَعْدِ

المطلب الأول: خُلْفُ الوَعْدِ لغةً واصطِلاحًا

- **خُلْفُ الوَعْدِ لغةً:**

- الخُلْفُ لُغةً:

الخُلْفُ والخُلْفُ: نقيضُ الوَفاءِ بالوَعْدِ.

ويقالُ: أخلَفَه ما وعَدَه، وهو أن يقولَ شيئًا ولا يفعَلَه على الاستقبالِ.

والإخلافُ: ألَّا يفيَ بالعهدِ، وأن يَعِدَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ العِدَةَ فلا يُنجِزَها.

ورجُلٌ مُخلِفٌ: أي: كثيرُ الإخلافِ لوَعدِه[6093].

- الوَعْدُ لُغةً:

(وعد): أصلٌ يدُلُّ على تَرجيةٍ بقَولٍ، يقالُ: وَعَد يَعِدُ وَعدًا. وعَدَه الأمرَ وبه، عِدَةً ووَعدًا ومَوعِدًا ومَوعِدةً ومَوعودًا ومَوعودةً.

يقال: وعَدْتُه خيرًا ووعَدْتُه شَرًّا، فإذا أسقَطوا الخيرَ والشَّرَّ قالوا في الخَيرِ: (الوَعْدُ) و(العِدَةُ)، وفي الشَّرِّ (الإيعادُ).

فالوَعْدُ يُستعمَلُ في الخيرِ والشَّرِّ، وأمَّا الوعيدُ فلا يكونُ إلَّا بشَرٍّ[6094].

- **خُلْفُ الوَعْدِ اصطِلاحًا:**

عدَمُ الوفاءِ بأداءِ ما التزَم به المرءُ لغيرِه من صِلةٍ أو معاملةٍ أو غيرِ ذلك[6095].

وقال العَينيُّ: (الوَعْدُ في الاصطِلاحِ: الإخبارُ بإيصالِ الخيرِ في المستقبَلِ، والإخلافُ: جَعلُ الوَعْدِ خِلافًا).[6096]

المطلب الثاني: الفَرْقُ بَيْنَ خُلْفِ الوَعْدِ وغَيرِه من الصِّفاتِ

- **الفَرْقُ بَيْنَ خُلْفِ الوَعْدِ وإخلافِ العَهدِ:**

(يقَعُ الإخلافُ في الوَعْدِ وفي العهدِ، ومن الفُقَهاءِ مَن جَعَل الوَعْدَ والعهدَ واحِدًا، ومنهم مَن جَعَل الوَعْدَ غيرَ العهدِ، فخَصَّ العهدَ بما أوجبه اللَّهُ تعالى أو حرَّمه، وجعل الوَعْدَ فيما عدا ذلك)[6097].

[6093] يُنظَر: ((لسان العرب)) لابن منظور، ((المصباح المنير)) للفيومي، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي.

[6094] يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس، ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي، ((لسان العرب)) لابن منظور، ((المصباح المنير)) للفيومي، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي، ((تاج العروس)) للزبيدي.

[6095] يُنظَر: ((الفروق)) للقرافي (4/20)، ((فتح الباري)) لابن حجر (1/90)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (4/ 47، 48).

[6096] ((عمدة القاري)) (1/220).

[6097] ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (2/325، 326).

وقال أبو هِلالٍ العَسكَريُّ: (العَهدُ ما كان من الوَعْدِ مقرونًا بشرطٍ، نحوُ قَولِك: إن فعَلْتَ كذا فعَلْتُ كذا، وما دُمتَ على ذلك فأنا عليه؛ قال اللَّهُ تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ} [طه: 115] أي: أعلَمْناه أنَّك لا تخرُجُ من الجنَّةِ ما لم تأكُلْ من هذه الشَّجَرةِ، والعَهدُ يقتضي الوفاءَ، والوَعْدُ يقتضي الإنجازَ، ويقالُ: نَقَض العهدَ، وأخلفَ الوَعْدَ)[6098].

- **الفَرْقُ بَيْنَ خُلْفِ الوَعْدِ والكَذِبِ:**

(من الفُقَهاءِ مَن سَوَّى بَيْنَ الكَذِبِ والإخلافِ، ومنهم من فَرَّق بَيْنَهما فجَعَل الكَذِبَ في الماضي والحاضِرِ، وإخلافَ الوَعْدِ في المستقبَلِ)[6099].

وقيل: وَجهُ المغايَرةِ بَيْنَهما أنَّ الإخلافَ الذي هو لازِمُ الوَعْدِ قد يكونُ بالفِعلِ، وهو غيرُ لازمِ التَّحديثِ الذي هو الكَذِبُ الذي لا يكونُ فِعلًا[6100].

المطلب الثالث: ذَمُّ خُلْفِ الوَعْدِ والنَّهيُ عنه

أ- مِنَ القُرآنِ الكريمِ:

أكَّد القرآنُ الكريمُ على ضرورةِ الوَفاءِ بالوَعْدِ، ونهى عن إخلافِه وحَذَّر من ذلك؛ فخُلْفُ الوَعْدِ صِفةٌ مذمومةٌ ليست من شِيَمِ المُؤمِنين ولا مِن أخلاقِهم.

- قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 2 - 3].

قال أبو بكرٍ الجَصَّاصُ: (يُحتَجُّ به في أنَّ كُلَّ من ألزَم نفسَه عبادةً أو قُربةً وأوجب على نفسِه عقدًا، لزِمَه الوفاءُ به؛ إذ تَركُ الوفاءِ به يُوجِبُ أن يكونَ قائِلًا ما لا يفعَلُ، وقد ذمَّ اللَّهُ فاعِلَ ذلك، وهذا فيما لم يكُنْ معصيةً، فأمَّا المعصيةُ فإنَّ إيجابَها في القَولِ لا يلزَمُه الوفاءُ بها... وإنَّما يلزَمُ ذلك فيما عَقَده على نفسِه ممَّا يتقَرَّبُ به إلى اللَّهِ عزَّ وجَلَّ، مِثلُ النُّذورِ، وفي حُقوقِ الآدميِّينَ العقودُ التي يتعاقَدونها، وكذلك الوَعْدُ بفعلٍ يَفعَلُه في المستقبَلِ، وهو مباحٌ؛ فإنَّ الأَولى الوفاءُ به مع الإمكانِ، فأمَّا قولُ القائِلِ: «إنِّي سأفعَلُ كذا» فإنَّ ذلك مباحٌ له على شريطةِ استثناءِ مَشيئةِ اللَّهِ تعالى، وأن يكونَ في عقدِ ضَميرِه الوفاءُ به، ولا جائِزَ له أن يَعِدَ وفي ضميرِه ألَّا يَفِيَ به؛ لأنَّ ذلك هو المحظورُ الذي نهى اللَّهُ عنه ومَقَت فاعِلَه عليه، وإن كان في عقدِ ضميرِه الوفاءُ به ولم يَقرُنْه بالاستثناءِ فإنَّ ذلك مكروهٌ؛ لأنَّه لا يدري هل يقَعُ منه الوفاءُ به أم لا. فغيرُ جائزٍ له إطلاقُ القولِ في مِثلِه مع خَوفِ إخلافِ الوَعْدِ فيه، وهو يدُلُّ على أنَّ من قال: «إن فعَلْتَ كذا فأنا أحَجُّ أو أهدي أو أصومُ» فإنَّ ذلك بمنزلةِ الإيجابِ بالنَّذرِ؛ لأنَّ تَرْكَ فِعلِه يؤدِّيه إلى أن يكونَ قائِلًا ما لم يفعَلْ)[6101].

وقال الزَّمخشريُّ: (هذا الكلامُ يتناوَلُ الكَذِبَ وإخلافَ الموعِدِ، ورُوِيَ أنَّ المُؤمِنين قالوا قبلَ أن يُؤمَروا بالقتالِ: لو نعلَمُ أحَبَّ الأعمالِ إلى اللَّهِ تعالى لعَمِلْناه ولبذَلْنا فيه أموالَنا وأنفُسَنا؛ فدَلَّهم اللَّهُ تعالى على الجِهادِ في سبيلِه، فوَلَّوا يومَ أحُدٍ،

[6098] ((الفروق اللغوية)) (ص: 57، 58).

[6099] ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (2/325).

[6100] يُنظَر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (1/128).

[6101] ((أحكام القرآن)) (3/ 591).

فعَيَّرَهم. وقيل: لَمَّا أخبَرَ اللَّهُ بثوابِ شُهَداءِ بَدرٍ قالوا: لَئِنْ لَقِينا قتالًا لنُفرِغَنَّ فيه وُسْعنا، ففَرُّوا يومَ أُحُدٍ ولم يَفُوا. وقيل: كان الرَّجُلُ يقولُ: قتَلْتُ ولم يَقتُلْ، وطعَنْتُ ولم يَطعَنْ، وضرَبْتُ ولم يَضرِبْ، وصبَرْتُ ولم يصبِرْ)[6102].

- وقال تعالى: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ} [الرعد: 19 - 20].

قال ابنُ كثيرٍ: (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ، وليسوا كالمُنافِقين الذين إذا عاهَد أحَدُهم غَدَر، وإذا خاصَمَ فَجَر، وإذا حدَّث كَذَب، وإذا ائتُمِنَ خانَ)[6103].

وقال السَّعديُّ: (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ الذي عَهِده إليهم والذي عاهَدَهم عليه من القيامِ بحُقوقِه كامِلةً مُوفَّرةً؛ فالوفاءُ بها توفيتُها حَقَّها من التَّتميمِ لها، والنُّصحِ فيها، وَ مِن تمامِ الوفاءِ بها أنَّهم لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ أي: العهدَ الذي عاهدوا عليه اللَّهَ، فدَخَل في ذلك جميعُ المواثيقِ والعهودِ والأيمانِ والنُّذورِ، التي يعقِدُها العِبادُ. فلا يكونُ العبدُ مِن أُولي الألبابِ الذين لهم الثَّوابُ العظيمُ، إلَّا بأدائِها كاملةً، وعَدَمِ نَقضِها وبَخسِها)[6104].

- وقال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [النحل: 91].

قال الخازِنُ: (قيل: المرادُ منه كُلُّ ما يلتَزِمُه الإنسانُ باختيارِه، ويدخُلُ فيه الوَعْدُ أيضًا؛ لأنَّ الوَعْدَ من العَهدِ)[6105].

وقال محمَّد الأمين الشِّنقيطيُّ: (قولُه تعالى: وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ أمرَ جَلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ عِبادَه أن يُوفُوا بعهدِ اللَّهِ إذا عاهَدوا. وظاهِرُ الآيةِ أنَّه شامِلٌ لجميعِ العُهودِ فيما بَيْنَ العبدِ ورَبِّه، وفيما بينَه وبَينَ النَّاسِ)[6106].

- وقال تعالى: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا} [الإسراء: 34].

(والعَهدُ يكونُ بَيْنَ العبدِ ورَبِّه، كما يكونُ بَيْنَ المُؤمِنِ وجماعةِ المُؤمِنين، وبينَ المُسلِمين وسِواهم، والمجتَمَعُ الفاضِلُ المتمَسِّكُ هو الذي يسودُه الوفاءُ بالوَعْدِ والعَهدِ، أمَّا المجتَمَعُ الذي يفشو فيه الغَدرُ والخيانةُ والغِشُّ والخِداعُ، فمآلُه التَّفكُّكُ والانحلالُ)[6107].

(فالعَهدُ فضيلةٌ وميثاقٌ، والعَقدُ التِزامٌ وارتباطٌ، والإخلالُ بالعهدِ خيانةٌ ونِفاقٌ، والتَّحلُّلُ من العقدِ إهدارٌ للثِّقةِ وتضييعٌ للحُقوقِ، فيجِبُ شَرعًا الوفاءُ بالعهدِ، وتنفيذُ مقتضى العقدِ، فَمَن أخلَف بوَعدِه ولم يُوفِ بعَهدِه، ولم يُنَفِّذِ التِزامَ عَقدِه، وقَع في الإثمِ والمعصيةِ)[6108].

- وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح: 10].

[6102] ((الكشاف)) (4/522)

[6103] ((تفسير القرآن العظيم)) (4/450)

[6104] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 416)

[6105] ((لباب التأويل)) (95/3).

[6106] ((أضواء البيان)) (2/ 438).

[6107] ((التفسير الوسيط)) لمجموعة من المؤلفين (1/ 270).

[6108] ((التفسير المنير)) للزحيلي (15/73).

أي: فمَن نَقَض بَيعتَه فإنَّما يَضُرُّ نفسَه بذلك؛ لاستحقاقِه العقابَ، وحِرمانِ نَفسِه من الثَّوابِ[6109].

وقال ابنُ كثيرٍ: (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ أي: إنَّما يعودُ وَبالُ ذلك على النَّاكِثِ، واللَّهُ غنيٌّ عنه)[6110].

ب- مِنَ السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ:

- عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((آيةُ المُنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كَذَب، وإذا وعَد أخلَفَ، وإذا اؤتُمِن خان))[6111].

(وإذا وَعَد) أي: بالخيرِ في المستقبَلِ؛ لأنَّ الشَّرَّ يُستحَبُّ إخلافُه، بل قد يَجِبُ، (أخلَفَ) أي: لم يَفِ بوَعدِه، والاسمُ منه الخُلْفُ[6112].

وقال القَسطَلَّانيُّ: (وجهُ الاقتصارِ على الثَّلاثةِ أنَّها مبنيَّةٌ على ما عداها؛ إذ أصلُ الدِّيانةِ ينحَصِرُ في ثلاثةٍ: القَولُ، والفِعلُ، والنِّيَّةُ؛ فنبَّه على فسادِ القَولِ بالكَذِبِ، وعلى فسادِ الفِعلِ بالخيانةِ، وعلى فسادِ النِّيَّةِ بالخُلفِ؛ لأنَّ خُلفَ الوعدِ لا يقدَحُ إلَّا إذا كان العزمُ عليه مقارِنًا للوعدِ، أمَّا لو كان عازمًا ثمَّ عَرَض له مانعٌ أو بدا له رأيٌ، فهذا لم توجَدْ منه صورةُ النِّفاقِ)[6113].

- وعن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أربَعُ خِلالٍ مَن كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خالِصًا: مَن إذا حدَّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا عاهَدَ غَدَر، وإذا خاصَمَ فَجَر، ومن كانت فيه خصلةٌ منهُنَّ كانت فيه خَصلةٌ من النِّفاقِ حتَّى يَدَعَها))[6114].

قال النَّوويُّ: (هذه الخِصالُ خِصالُ نِفاقٍ، وصاحِبُها شَبيهٌ بالمُنافِقين في هذه الخِصالِ ومتخَلِّقٌ بأخلاقِهم؛ فإنَّ النِّفاقَ هو إظهارُ ما يُبطَنُ خِلافُه، وهذا المعنى موجودٌ في صاحبِ هذه الخِصالِ، ويكونُ نِفاقُه في حَقِّ مَن حَدَّثَه ووَعَده وائتَمَنه وخاصَمَه وعاهَدَه من النَّاسِ، لا أنَّه مُنافِقٌ في الإسلامِ فيُظهِرُه وهو يُبطِنُ الكُفرَ)[6115].

- وعن عبدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الصِّدقَ يهدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَصدُقُ ويتحرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكتَبَ عند اللهِ صِدِّيقًا. وإيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ يهدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يهدي إلى النَّارِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يكذِبُ، ويتحَرَّى الكَذِبَ حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذَّابًا))[6116].

قال الخطَّابيُّ: (أصلُ الفُجورِ المَيلُ عن الصِّدقِ، والانحرافُ إلى الكَذِبِ)[6117].

[6109] ((التفسير المحرر - الدرر السنية)) (34/ 59).

[6110] ((تفسير القرآن العظيم)) (330/7).

[6111] أخرجه البخاري (33)، ومسلم (59).

[6112] يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا علي القاري (1/ 126)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (1/128).

[6113] ((إرشاد الساري)) (4/ 264).

[6114] أخرجه البخاري (3178) واللفظ له، ومسلم (58).

[6115] ((شرح مسلم)) (2/ 47).

[6116] أخرجه البخاري (6094) واللفظ له، ومسلم (2607).

[6117] ((معالم السنن)) (4/ 133).

وقال الرَّاغِبُ الأصفَهانيُّ: (الصِّدقُ والكَذِبُ أصلُها في القولِ، ماضيًا كان أو مستقبَلًا، وعدًا كان أو غيرَه، ولا يكونانِ بالقَصدِ الأوَّلِ إلَّا في القَولِ، ولا يكونانِ في القَولِ إلَّا في الخَبَرِ دونَ غَيرِه من أصنافِ الكَلامِ)[6118].

ففي الحديثِ إشارةٌ إلى ذَمِّ الكَذِبِ في أيِّ أمرٍ كان، ولا شَكَّ أنَّ من يُخلِفُ وَعدَه داخِلٌ في جملةِ الكذَّابين، لا سيَّما إن كان عاقِدًا على خُلْفِ الوَعْدِ عِندَ قَطعِه على نفسِه.

- وعن عُروةَ أنَّ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عنها أخبَرَتْه: ((أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يدعو في الصَّلاةِ ويقولُ: اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من المأثَمِ والمَغرَمِ، فقال له قائِلٌ: ما أكثَرَ ما تستعيذُ يا رسولَ اللَّهِ من المغرَمِ! قال: إنَّ الرَّجُلَ إذا غَرِم حَدَّث فكَذَب، ووَعَد فأخلَفَ))[6119].

قال القَسْطَلَّانيُّ: («ووَعَد فأخلَفَ»: كأن قال لصاحِبِ الدَّينِ: أوفِّيك دينَك في يومِ كذا، ولم يُوفِّ، فيَصيرُ مُخلِفًا لوَعدِه. والكَذِبُ وخُلْفُ الوَعْدِ من صفاتِ المُنافِقين)[6120].

- وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن أخَذ أموالَ النَّاسِ يريدُ أداءَها أدَّى اللَّهُ عنه، ومَن أخَذ يريدُ إتلافَها أتلفَه اللَّهُ))[6121].

إنَّ (مِن النَّاسِ مَن يَقتَرِضُ الأموالَ لحاجةٍ مِن حاجتِه، عازِمًا على أدائِها في الموعِدِ المضروبِ، أو حينَ يَقَعُ في يَدِه مالٌ، فهذا يؤدِّي اللَّهُ عنه ديونَه، فيفتَحُ له من أبوابِ الرِّزقِ ما لم يكُنْ يحتَسِبُه؛ مكافأةً على نيَّتِه الصَّالحةِ، وعَزمِه المحمودِ، على أنَّ لتلك الإرادةِ أثَرًا في اكتِسابِ الرِّزقِ؛ فإنَّها لا تزالُ بصاحِبِها تدفَعُه إلى تلمُّسِ أبوابِ المكاسِبِ، والبَحثِ عن طُرُقِ المالِ، حتَّى يهتديَ إليها، ويؤدِّيَ ديونَه، ومِثلُ هذا من يشتري من التُّجَّارِ طعامَه وشرابَه وحاجياتِه الأُخرى، أو بضاعةً يتَّجِرُ فيها إلى أجَلٍ وليس بيَدِه ما يدفَعُه نَقدًا، فإنْ عَزَم على الأداءِ والوفاءِ يَسَّر اللَّهُ له المالَ حتَّى يوفيَ بما عاهَد. أمَّا من استقرَضَ أو اشترى شيئًا دَينًا أو طَلَب إلى النَّاسِ أن يودِعوه أموالَهم، أو استعارَ أو استأجَر عَينًا عازِمًا على الجُحودِ والإنكارِ أو الإتلافِ والإهلاكِ؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى يُتلِفُه؛ فيُوقِعُه في خُبثِ نِيَّتِه وسُوءِ طَوِيَّتِه، ويفتَحُ له من أبوابِ النَّفَقاتِ ما يَذهَبُ بمالِه)[6122].

فهذه صورةٌ لخُلْفِ الوَعْدِ في أداءِ الدَّينِ، فإنَّ من أخَذ أموالَ النَّاسِ وضَرَب لهم موعِدًا لسَدادِها وفي نيَّتِه ألَّا يَرُدَّ إليهم أموالَهم، أو كان عَجزُه عن رَدِّها مؤكَّدًا، فذلك داخِلٌ في الخُلْفِ بالوَعْدِ؛ ولذلك نهى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنه.

ج- من أقوالِ السَّلَفِ والعُلَماءِ:

- قال عبدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ: (خُلْفُ الوَعْدِ ثُلُثُ النِّفاقِ)[6123].

- وقال المُثَنَّى بنُ حارثةَ الشَّيبانيُّ: (لأن أموتَ عَطَشًا أحَبُّ إليَّ مِن أن أُخلِفَ موعِدًا)[6124].

[6118] ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: 478).

[6119] أخرجه البخاري (2397) واللفظ له، ومسلم (589).

[6120] ((إرشاد الساري)) (2/ 131).

[6121] أخرجه البخاري (2387)

[6122] ((الأدب النبوي)) (ص: 44)

[6123] ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (3/ 360).

- وقال عَوفٌ الكَلبيُّ: (آفةُ المروءةِ خُلفُ الموعِدِ)[6125].

- وقيل لأحمدَ بنِ حَنبَلٍ: (بمَ يُعرَفُ الكَذَّابون؟ قال: بخُلفِ المواعيدِ)[6126].

- وقال فُراتُ بنُ سلمانَ: (كان يقالُ: إذا سُئِلتَ فلا تَعِدْ، وقُلْ: أسمعُ ما تقولُ، فإن يُقَدَّرْ شَيءٌ يَكُنْ)[6127].

- وقال يحيى بنُ خالِدٍ: (المواعيدُ شُبَّاكُ الكِرامِ، يَصيدون بها محامِدَ الإخوانِ؛ ألا تسمَعُ قَولَهم: فلانٌ يُنجِزُ ويفي بالضَّمانِ، ويَصدُقُ في المقالِ؟ ولولا ما تقَدَّمَ من حُسنِ مَوقِعِ الوَعْدِ لبَطَل حُسنُ هذا المَدْحِ)[6128].

- وعن صالِحِ بنِ كَيسانَ، قال: (خرَج علينا الزُّهريُّ من عِندِ هِشامِ بنِ عَبدِ المَلِكِ، فقال: لقد تكَلَّمَ اليومَ رَجُلٌ عِندَ أميرِ المُؤمِنين ما سَمِعتُ كلامًا أحسَنَ منه، فقال له: يا أميرَ المُؤمِنين، اسمَعْ منِّي أربَعَ كَلِماتٍ فيهن صلاحُ دينِك ومُلكِك وآخرتِك ودُنياك. قال: وما هُنَّ؟ قال: لا تَعِدَنَّ أحَدًا عِدَةً وأنت لا تريدُ إنجازَها، ولا يَغُرَّنَّك مرتقًى وإن كان سَهلًا إذا كان المنحدَرُ وَعرًا، واعلَمْ أنَّ للأعمالِ آخِرًا فاحذَرِ العواقِبَ، وأنَّ الدَّهرَ تاراتٌ فكُنْ على حَذَرٍ)[6129].

- وقال أبو بكرِ بنُ العَرَبيّ: (خُلْفُ الوَعْدِ كَذِبٌ في الحديثِ ونِفاقٌ)[6130].

- وقال ابنُ عُثَيمين: (الوَعْدُ الذي يُوفَى به هو وَعدُ المُؤمِنِ؛ ولهذا ينبغي لك أن تقولَ إذا وعَدْتَ أحَدًا وأرَدْتَ أن تؤكِّدَ: إنَّه وَعدُ مُؤمِنٍ، حتَّى لا يُخلِفَه؛ لأنَّه لا يُخلِفُ الوَعْدَ إلَّا المُنافِقُ)[6131].

- وقال عبدُ الرَّحمنِ حَبَنَّكة الميدانيُّ: (الكَذِبُ في الوَعْدِ والعَهدِ، وعَدَمُ الوفاءِ بهما: من رذائِلِ الأخلاقِ، ومن مظاهِرِ التَّخلُّفِ الحَضاريِّ، وهما من أخلاقِ الأمَمِ التي لا تحتَرِمُ نفسَها، ولا تكتَرِثُ بارتقاءِ سُلَّمِ المجدِ الإنسانيِّ، بل تهونُ عليها نفسُها هوانًا يُرضيها بمواقِعِ المهانةِ والضَّعةِ والانحِطاطِ)[6132].

المطلب الرابع: آثارُ خُلْفِ الوَعْدِ

1- استِحقاقُ مُخلْفِ الوَعْدِ للعاقبةِ التي رتَّبها الشَّرعُ على ذلك.

2- خُلْفُ الوَعْدِ يورِثُ العداوةَ بَيْنَ الإخوانِ.

عن عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبزى، قال: كان داودُ عليه السَّلامُ يقولُ: (لا تَعِدَنَّ أخاك شيئًا لا تُنجِزُه له؛ فإنَّ ذلك يُورِثُ بينَك وبينَه عداوةً)[6133].

[6124] ((بهجة المجالس)) لابن عبد البر (1/494).

[6125] ((الأمثال)) لابن سلام (ص71).

[6126] ((الإنصاف)) للمرداوي (11/152).

[6127] ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص: 232، 233).

[6128] ((المصون في الأدب)) للعسكري (ص: 116).

[6129] ((المجالسة وجواهر العلم)) لأبي بكر الدينوري (6/111).

[6130] ((عارضة الأحوذي)) (8/161).

[6131] ((شرح رياض الصالحين)) (4/ 48).

[6132] ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) (1/551).

[6133] ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (ص: 83).

3- خُلْفُ الوَعْدِ يجُرُّ إلى عدَدٍ من المساوِئِ، كالكَذِبِ والاستخفافِ بالنَّاسِ والخيانةِ.

4- يُصبِحُ المتَّصِفُ به متَّصِفًا بصفةٍ من صفاتِ المُنافِقين.

5- نَبذُ النَّاسِ لصاحِبِ هذا الخُلُقِ المذمومِ، وانعدامُ ثِقَتِهم به.

6- تفَشِّي مِثلِ هذا الخُلُقِ يؤدِّي إلى تفَكُّكِ أواصِرِ المجتَمَعِ؛ فالمجتَمَعُ الذي يفشو فيه الكَذِبُ والخداعُ وخُلفُ الوعودِ مآلُه التَّفكُّكُ والانحلالُ.

المطلب الخامس: أقسامُ خُلْفِ الوَعْدِ

ينقَسِمُ خُلْفُ الوَعْدِ إلى قِسمَينِ:

الأوَّلُ: خُلْفُ وَعدٍ مذمومٌ، وهذا هو الأصلُ في خُلْفِ الوَعْدِ؛ إذ الأصلُ في المُسلِمِ إذا وَعَد وَعدًا الوفاءُ به، وعَدَمُ إخلافِه، ويدخُلُ في هذا القِسمِ كُلُّ ما كان وعدًا بواجِبٍ، كأداءِ حَقٍّ ثابتٍ أو فِعلِ أمرٍ لازمٍ؛ فإنَّه يجبُ عليه إنجازُ ذلك الوَعْدِ، أو وَعَد بفِعلِ شَيءٍ مباحٍ أو مندوبٍ إليه، فينبغي عليه أن يُنجِزَ وَعدَه.

الثَّاني: خُلفُ وَعدٍ محمودٌ، وذلك إذا كان وعدًا بما فيه محَرَّمٌ، أو كان مشتَمِلًا على شَرٍّ وسوءٍ، أو كان وَعدًا على تَركِ واجِبٍ شَرعِيٍّ؛ فالواجِبُ في حَقِّه أن يخلِفَه وأنْ لا يَفِيَ به، وكذا إذا ترتَّبَ على الوفاءِ به مَفسَدةٌ أعظَمُ من مفسَدةِ إخلافِه[6134].

المطلب السادس: دَرَجاتُ خُلْفِ الوَعْدِ

خُلْفُ الوَعْدِ أمذمومٌ منهيٌّ عنه، فَمَن وَعَد وكان ناويًا الوفاءَ بما وَعَد ثمَّ لَمَّا جاء وقتُ الوفاءِ غَيَّرَ رأيَه فلم يَفِ، سُمِّي ناقضًا ناكِثًا لوَعدِه، وإذا كان خُلْفُ الوَعْدِ ليس من أخلاقِ المُؤمِنِ فإنَّه ليس في درجةٍ واحدةٍ قُبحًا وسوءًا، وعليه يمكِنُنا اعتبارُ خُلْفِ الوَعْدِ ثلاثَ دَرَجاتٍ:

الأولى: خُلْفُ الوَعْدِ مع اللَّهِ سُبحانَه، وهو أقبَحُ صُوَرِ خُلْفِ الوَعْدِ، فَمَن وَعَد اللَّهَ سُبحانَه من نفسِه شَيئًا، وكان عازِمًا على أداءِ ما وَعَد، كان حريًّا به الوفاءُ بوعدِه مع اللَّهِ، وكان إخلافُه للوَعدِ مذمومًا.

قال القَرافيُّ: (أدَبُ العبدِ مع الرَّبِّ سُبحانَه وتعالى في أنَّه إذا وَعَد رَبَّه بشيءٍ لا يخلِفُه إيَّاه، لا سِيَّما إذا التَزَمه وصَمَّم عليه، فأدَبُ العبدِ مع الرَّبِّ سُبحانَه وتعالى بحُسنِ الوفاءِ)[6135].

الثَّانيةُ: خُلْفُ الوَعْدِ مع النَّفسِ، وهذا قد يقَعُ للإنسانِ أكثَرَ مِن خُلفِه مع غيرِه؛ فقد يتساهَلُ في حَقِّ نفسِه، ولا يبالي بوُعودِه التي يقطَعُها على نفسِه، فالنَّفسُ تحتاجُ إلى المجاهَدةِ والمتابَعةِ.

[6134] يُنظَر: ((اختلاف الحديث)) للشافعي (631/8)، ((المحلى)) لابن حزم (8/ 29)، ((الأذكار)) للنووي (ص: 317)، ((شرح النووي على مسلم)) (7/ 87)، ((التماس السعد في الوفاء بالوعد)) للسخاوي (ص: 63)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (2/ 438)، ((التفسير الوسيط)) لمجموعة من المؤلفين (1/ 270)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (4/ 47، 48)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (73/44، 74).

[6135] ((الفروق)) (3/ 95).

الثَّالثةُ: خُلْفُ الوَعْدِ مع النَّاسِ، وهو من صفاتِ المُنافِقين، لا سِيَّما إن كان صاحِبُه عازِمًا على الخُلْفِ بوَعدِه من البدايةِ، مُضمِرًا الإخلالَ بما وَعَد[6136].

وقال عبدُ الرَّحمن حِبَنَّكة الميدانيُّ:

(فإخلافُ الوَعْدِ أو بالعَهدِ له أربَعُ أحوالٍ:

الحالةُ الأولى: التَّعبيرُ العَمَليُّ عِندَ حلولِ أجَلِ الوَعْدِ أو العَهدِ عن الكَذِبِ في القولِ منذُ إعطاءِ الوَعْدِ أو العَهدِ، وهو في هذا يحمِلُ رذيلةَ الإخلافِ المُستَنِدِ إلى رذيلةِ الكَذِبِ.

الحالةُ الثَّانيةُ: النَّكثُ والنَّقضُ لِما أبرَمَه والتَزم به من وَعدٍ وعهدٍ، وهذا يعبِّرُ عن ضَعفِ الإرادةِ وعَدَمِ الثَّباتِ، وعَدَمِ احترامِ شَرَفِ الكَلِمةِ وثقةِ الآخرين بها، وهذا الخُلُقُ يُفضي بصاحِبِه إلى النَّبذِ من جماعةِ الفُضَلاءِ الذين يوثَقُ بهم وبأقوالِهم.

الحالةُ الثَّالثةُ: التَّحوُّلُ إلى ما هو أفضَلُ وخَيرٌ عِندَ اللَّهِ، والانتقالُ إلى ما هو أكثَرُ طاعةً للهِ، إلَّا أنَّ هذه الحالةَ لا تكونُ في العهودِ العامَّةِ التي تدخُلُ فيها حقوقٌ دوليَّةٌ، ولا في العهودِ التي ترتَبِطُ بها حقوقٌ مادِّيَّةٌ للآخرينَ من النَّاسِ.

أمَّا العَهدُ مع اللَّهِ في التِزامِ أمرٍ من الأمورِ فقد تجري المفاضَلةُ بينَه وبينَ غيرِه، لاختيارِ ما هو أقرَبُ إلى طاعةِ اللَّهِ وتحقيقِ مَرضاتِه.

الحالةُ الرَّابعةُ: العَجزُ عن الوفاءِ لسَبَبٍ من الأسبابِ، ومَن عَجَز عن الوفاءِ مع صِدقِ رَغبتِه به وحِرصِه عليه، فهو مَعذورٌ لعَدَمِ استطاعتِه.

وأمَّا حالةُ النِّسيانِ فهي من الأمورِ العامَّةِ التي تشمَلُ كُلَّ واجبٍ أو مُستحَبٍّ، وتنطَبِقُ عليها أحكامُ النِّسيانِ العامَّةِ)[6137].

المطلب السابع: مظاهِرُ وصُوَرُ خُلْفِ الوَعْدِ

لخُلْفِ الوَعْدِ مظاهِرُ وصُوَرٌ كثيرةٌ يَجِبُ على المُسلِمِ الحِرصُ على ألَّا يقَعَ في صورةٍ منها؛ فالمُسلِمُ مُلتَزِمٌ بتعاليمِ دينِه النَّاهيةِ عن خُلْفِ الوَعْدِ، الآمِرةِ بالوفاءِ وحُسنِ العَهدِ، ومِن صُوَرِ خُلْفِ الوَعْدِ التي ينبغي تجنُّبُها:

1- خُلْفُ الوَعْدِ مع اللَّهِ سُبحانَه، وهو حالُ المُنافِقين الذي يَكذِبون في أقوالِهم، ولا يتورَّعون عن إخلافِ وُعودِهم ولو كانت مع رَبِّهم.

قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [التوبة: 75 - 77].

قال ابنُ زيدٍ: (هؤلاء صِنفٌ من المُنافِقين، فلمَّا آتاهم ذلك بَخِلوا به، فلمَّا بَخِلوا بذلك أعقَبَهم بذلك نفاقًا إلى يومِ يَلقَونَه، ليس لهم منه توبةٌ ولا مغفرةٌ ولا عَفوٌ، كما أصاب إبليسَ حينَ منَعَه التَّوبةَ)[6138].

[6136] يُنظَر: ((أحكام القرآن)) للجصاص: (3/ 591)، ((مقاصد الرعاية)) للعز بن عبد السلام (ص: 125)، ((الفروق)) للقرافي (3/ 95)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (4/ 47، 48)، ((طوق النجاة)) لمجدي الهلالي (ص: 42).

[6137] ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) (1/550، 551).

وقال الطَّبَريُّ: (في هذه الآيةِ الإبانةُ من اللَّهِ جَلَّ ثناؤه عن علامةِ أهلِ النِّفاقِ)[6139].

وقال الواحِديُّ: (قَولُه: إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ دليلٌ على أنَّه مات مُنافِقًا بإخلافِه وَعدَ اللَّهِ، وكَذِبِه في عَهدِه، وهو قَولُه: بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)[6140].

(فلْيَحذَرِ العبدُ من هذا الوَصفِ الشَّنيعِ؛ أن يعاهِدَ رَبَّه على عَمَلٍ صالحٍ ثمَّ لا يفيَ بذلك، فإنَّه رُبَّما عاقبه اللَّهُ بالنِّفاقِ كما عاقَب هؤلاء، فهذا المُنافِقُ الذي عاهَد اللَّهَ لَئِنْ أعطاه اللَّهُ مِن فَضلِه ليَصَّدَّقَنَّ وليَكونَنَّ من الصَّالحينَ، عاهَد فغَدَر، ووَعَد فأخلَفَ، وحَدَّث فكَذَب، وتلك علاماتُ المُنافِقِ)[6141].

2- خُلْفُ الحليفِ وَعدَه مع حليفِه، والإخلالُ بما جرى من معاهَداتٍ، ومن ذلك ما وَقَع من ثقيفٍ حُلَفاءِ بني عَقيلٍ في خُلفِهم الوَعْدَ مع رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: ((كانت ثَقيفُ حُلَفاءَ لبني عُقَيلٍ، فأسَرَت ثَقيفُ رَجُلينِ من أصحابِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأسَر أصحابُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلًا من بني عُقَيلٍ، وأصابوا معه العَضباءَ، فأتى عليه رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو في الوَثاقِ، قال: يا محمَّدُ، فأتاه، فقال: ما شأنُك؟ فقال: بمَ أخَذْتَني، وبم أخَذْتَ سابقةَ الحاجِّ؟ فقال إعظامًا لذلك: أخَذْتُك بجَريرةِ حُلَفائِك ثقيفٍ))[6142].

قال القُرطبيُّ: («أخَذْتُك بجَريرةِ حُلَفائِك ثَقيفٍ» أي: بما فعلَتْه ثَقيفُ من الجنايةِ التي نَقَضوا بها ما كان بَيْنَهم وبينَ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من العهدِ، وكانت بنو عُقَيلٍ دخلوا معهم في ذلك... والظَّاهِرُ أنَّهم دخلوا معهم بحُكمِ الحِلفِ الذي كان بَيْنَهم؛ ولذلك ذَكَر حِلْفَهم في الحديثِ، ولمَّا سَمِع الرَّجُلُ ذلك لم يجِدْ جَوابًا، فسَكَت)[6143].

وقال الطِّيبيُّ: (الجَريرةُ: الجنايةُ والذَّنبُ، وذلك أنَّه كان بَيْنَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبينَ ثَقيفٍ موادَعةٌ، فلمَّا نقضوها ولم ينكِرْ عليهم بنو عُقيلٍ وكانوا معهم في العَهدِ، صاروا مِثْلَهم في نقضِ العَهدِ، فأخَذَه بجَريرتِهم)[6144].

وقال تعالى عن المُنافِقين: {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا} [الأحزاب: 15].

(أي: ولقد كان هؤلاء المُنافِقون قد حلَفوا من قَبلِ غَزوةِ الأحزابِ أنَّهم سيكونون معكم في الدِّفاعِ عن الحَقِّ وعن المدينةِ المنَوَّرةِ التي يساكِنونَكم فيها، ولكِنَّهم لم يفوا بعهودِهم.

وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا أي: مسئولًا عنه صاحِبُه الذي عاهَد اللَّهَ تعالى على الوفاءِ، وسيُجازي سُبحانَه كُلَّ ناقضٍ لعَهدِه بما يستحِقُّه من عقابٍ)[6145].

[6138] ((جامع البيان)) لابن جرير الطبري (11/ 583).

[6139] ((جامع البيان)) (11/ 583).

[6140] ((الوسيط)) (2/514).

[6141] ((موسوعة فقه القلوب)) لمحمد بن إبراهيم التويجري (4/3297).

[6142] أخرجه مسلم (1641).

[6143] ((المفهم)) (4/ 610).

[6144] ((الكاشف عن حقائق السنن)) (9/ 2746).

[6145] ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (11/ 186).

3- خُلْفُ الوَعْدِ مع العَدُوِّ ومباغتته دونَ إعلامٍ بذلك، وهذا لا يجوزُ؛ فالمُسلِمون لا يَعرِفون الخيانةَ ولا يَنقُضون عهدًا ولا يخلِفون وعدًا، حتَّى لو كان ذلك العهدُ أو الوَعْدُ مع عَدُوِّهم.

قال تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: 58].

(يقولُ تعالى لنبيِّه صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه: وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ قد عاهَدْتَهم خِيَانَةً أي: نقضًا لِما بينك وبَيْنَهم من المواثيقِ والعهودِ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ أي: عهدَهم عَلَى سَوَاءٍ أي: أعلِمْهم بأنَّك قد نقَضْتَ عَهدَهم حتَّى يبقى عِلمُك وعِلمُهم بأنَّك حَربٌ لهم وهم حربٌ لك، وأنَّه لا عهدَ بينك وبَيْنَهم- على السَّواءِ، أي: تستوي أنت وهم في ذلك)[6146].

عن سُلَيمِ بنِ عامِرٍ قال: كان بَينَ مُعاوِيةَ والرُّومِ عَهدٌ، وكان يَسيرُ نَحوَ بِلادِهم ليَقرُبَ، حتَّى إذا انقَضى العَهدُ غَزاهم، فجاءَ رَجُلٌ على فَرَسٍ أو بِرْذَونٍ[6147] وهو يقولُ: اللهُ أَكبَرُ، اللهُ أَكبَرُ، وفاءً لا غَدرَ، فنَظَروا فإذا عَمرُو بنُ عَبسةَ، فأرسَلَ إليه مُعاوِيةُ فسَأَلَه، فقالَ: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((مَن كانَ بَينَه وبَينَ قَومٍ عَهدٌ فلا يَشُدَّ عُقدةً ولا يَحُلَّها حتَّى يَنقَضيَ أمَدُها، أو يَنبِذَ إليهم على سَواءٍ)) فرَجَع معاويةُ[6148].

قال الشَّوكانيُّ: («فلا يَحُلَّنَّ عُقدةً» استعار عُقدةَ الحبلِ لِما يقعُ بَيْنَ المُسلِمين من المعاهَدةِ، ونهى عن حَلِّها، أي: نَقضِها وشَدِّها، أي: تأكيدِها بشيءٍ لم يقَعِ التَّصالحُ عليه، بل الواجِبُ الوفاءُ بها على الصِّفةِ التي كان وقوعُها عليها بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ)[6149].

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عنهما، قال: ((ما منَعَني أن أشهَدَ بَدرًا إلَّا أني خرَجتُ أنا وأبي حُسَيلٌ[6150]، قال: فأخَذَنا كُفَّارُ قُرَيشٍ، قالوا: إنَّكم تريدون محمَّدًا، فقُلْنا: ما نريدُه، ما نريدُ إلَّا المدينةَ، فأخذوا منا عَهدَ اللهِ وميثاقَه لننصَرِفَنَّ إلى المدينةِ، ولا نقاتِلُ معه، فأتينا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأخبَرْناه الخبرَ، فقال: انصَرِفا، نَفي لهم بعَهْدِهم، ونستعينُ اللهَ عليهم!))[6151].

قال النَّوويُّ: (اتَّفَقَ العُلَماءُ على جوازِ خِداعِ الكُفَّارِ في الحَربِ، وكيف أمكَن الخِداعُ، إلَّا أن يكونَ فيه نَقضُ عَهدٍ أو أمانٍ، فلا يَحِلُّ)[6152].

4- خُلْفُ الوَعْدِ على عَطيَّةٍ أو هبةٍ مُسَمَّاةٍ، ولا شَكَّ أنَّ ذلك قادِحٌ في صاحِبِه إن فعَلَ ذلك عن قَصدٍ وعَمدٍ، أو كان عازِمًا على الخُلْفِ ابتداءً، أمَّا إن وَقَعَ الخُلْفُ منه عن سَهوٍ أو نسيانٍ واستدركه بالوفاءِ فلا يُعَدُّ خُلفًا للوَعدِ.

قيل: ماتت للهُذَليِّ أمُّ وَلَدٍ، فأمَر المنصورُ الرَّبيعَ أن يُعَزِّيَه ويقولَ له: إنَّ أميرَ المُؤمِنين موجِّهٌ إليك جاريةً نفيسةً لها أدَبٌ وظَرفٌ يُسَلِّيك بها، وأمَر لك معها بفَرَسٍ وكِسوةٍ وصِلةٍ، فلم يَزَلِ الهُذَليُّ يتوقَّعُ وَعدَ أميرِ المُؤمِنين، ونَسِيَه المنصورُ، فحَجَّ

[6146] ((تفسير ابن كثير)) (4/ 79).

[6147] البِرذَونُ: الدَّابَّةُ. يُنظَر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: 1180).

[6148] أخرجه أبو داود (2759) واللفظ له، والترمذي (1580)، وأحمد (19436). صحَّحه الترمذي، وابن حبان في ((صحيحه)) (4871)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (120)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2759)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (2759).

[6149] ((نيل الأوطار)) (61/8).

[6150] حُسَيلٌ: هو اسمُ اليَمانِ والِدِ حُذَيفةَ. يُنظَر: ((تقريب التهذيب)) لابن حجر (ص: 154).

[6151] أخرجه مسلم (1787).

[6152] ((شرح مسلم)) (12/ 45).

المنصورُ ومعه الهُذَليُّ، فقال المنصورُ وهو بالمدينةِ: إنِّي أحِبُّ أن أطوفَ اللَّيلةَ المدينةَ فاطلُبْ لي مَن يطوفُ بي. فقال الهُذَليُّ: أنا لها يا أميرَ المُؤمِنينَ، فطاف به حتَّى وصَلَ بيتَ عاتكةَ، فقال: يا أميرَ المُؤمِنينَ، وهذا بيتُ عاتِكةَ الذي يقولُ فيه الأحوصُ:

يا بيتَ عاتِكةَ الذي أتعَزَّلُ[6153]

حَذَرَ العِدا وبه الفؤادُ مُوَكَّلُ[6154]

إنِّي لأمنَحُك الصُّدودَ وإنَّني

قَسَمًا إليك مع الصُّدودِ لأَمْيَلُ

فكَرِهَ المنصورُ ذِكر بَيتِ عاتِكةَ من غيرِ أن يسألَه عنه، فلمَّا رجع المنصورُ أمَرَّ القصيدةَ على قَلبِه فإذا فيها:

وأراكَ تَفعَلُ ما تقولُ وبعضُهم

مَذِقُ اللِّسانِ[6155] يقولُ ما لا يَفعَلُ

فذَكَر المنصورُ الوَعْدَ الذي كان وَعَد به الهُذَليَّ، فأنجَزَه له واعتَذَر إليه[6156].

5- خُلْفُ الوَعْدِ بَيْنَ الزَّوجين أو مِن أحَدِهما، فإذا تواعَد الزَّوجانِ على أمرٍ، فينبغي عليهما الوفاءُ به وعَدَمُ إخلافِه:

وممَّا يُذكَرُ أنَّه تزَوَّج رجلٌ بابنةِ عَمٍّ له يُقالُ لها ربابٌ، وتعاهدا على ألَّا يتزوَّجَ أحدُهما بعدَ مَوتِ الآخَرِ، فهلك الرَّجُلُ، فلم تلبَثِ المرأةُ أن تزوَّجَت، فلمَّا كان ليلةَ البناءِ بها نامت في أوَّلِ اللَّيلِ، فأتاها آتٍ في المنامِ، فقال:

حَيِّيتُ ساكِنَ هذا البيتِ كُلَّهم

إلَّا الرَّبابَ فإنِّي لا أُحَيِّيها

قد كنتُ أحسَبُها للعَهدِ حافِظةً

حتَّى تهونَ وما جَفَّت مآقيها[6157]

استبدَلَت بدَلًا غيري وقد عَلِمَت

أنَّ القبورَ تُواري مَن ثوى فيها

أمسَت عَروسًا وأمسى منزلي جَدَثًا[6158]

[6153] أتعَزَّلُ: أي: أتجَنَّبُه وأكونُ عنه بمَعزِلٍ. يُنظَر: ((خزانة الأدب)) للبغدادي (2/ 50).

[6154] وبه الفؤادُ مُوَكَّلٌ، من وكَّلْتُه بأمرِ كذا: فوَّضْتُه إليه. يُنظَر: ((خزانة الأدب)) للبغدادي (2/ 50).

[6155] مَذِقُ اللِّسانِ: أي: كاذِبٌ يقولُ ولا يفعَلُ. يُنظَر: ((نجعة الرائد)) لليازجي (2/ 159).

[6156] ((ربيع الأبرار)) للزمخشري (3/ 285، 286)، ((المستطرف في كل فن مستطرف)) للأبشيهي (ص: 207).

[6157] جمعُ مأقٍّ، ومأقِ العينِ ومُؤقُها: طَرَفُها ممَّا يلي الأنفَ. يُنظَر: ((الصحاح)) للجوهري (4/ 1553).

[6158] الجَدَثُ: القَبرُ. يُنظَر: ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (1/ 414).

تحتَ التُّرابِ وإنّي لا أُلاقيها

فقامت المرأةُ فَزِعةً فقالت: لا يجتَمِعُ رأسي ورأسُ هذا أبدًا، فاختلَعَت مِن زَوجِها ودفَعَت إليه كُلَّ قليلٍ وكثيرٍ هو لها[6159]!

6- خُلْفُ الوَعْدِ في المعاملاتِ والعُقودِ التي لا محظورَ فيها، سواءٌ كانت هذه العقودُ مُبرَمةً بَيْنَ المُسلِمين، أو بَيْنَ المُسلِمِ وغيرِ المُسلِمِ، أو كانت معاملاتٍ ماليَّةً أو غيرَ ماليَّةٍ، فالمُسلِمُ مأمورٌ بالوفاءِ في وُعودِه وعَدَمِ الإخلافِ.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: 1].

قال السَّعديُّ: (هذا أمرٌ من اللَّهِ تعالى لعبادِه المُؤمِنين بما يقتضيه الإيمانُ بالوفاءِ بالعُقودِ، أي: بإكمالِها وإتمامِها وعدَمِ نَقضِها ونَقصِها. وهذا شامِلٌ للعقودِ التي بَيْنَ العبدِ وبينَ رَبِّه من التِزامِ عُبوديَّتِه، والقيامِ بها أتَمَّ قيامٍ، وعَدَمِ الانتقاصِ من حقوقِها شيئًا، والتي بينَه وبينَ الرَّسولِ بطاعتِه واتِّباعِه، والتي بينَه وبينَ الوالِدَينِ والأقارِبِ، بِبِرِّهم وصِلَتِهم، وعَدَمِ قطيعتِهم، والتي بينَه وبينَ أصحابِه من القيامِ بحقوقِ الصُّحبةِ في الغِنى والفَقرِ، واليُسرِ والعُسرِ، والتي بينَه وبينَ الخَلقِ من عُقودِ المعاملاتِ، كالبيعِ والإجارةِ ونحوِهما، وعقودِ التَّبرُّعاتِ كالهِبةِ ونحوِها، بل والقيامِ بحقوقِ المُسلِمين التي عقَدَها اللَّهُ بَيْنَهم في قولِه: إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ بالتَّناصُرِ على الحَقِّ، والتَّعاوُنِ عليه، والتَّآلُفِ بَيْنَ المُسلِمين وعَدَمِ التَّقاطُعِ)[6160].

7- خُلْفُ الوَعْدِ فيما اشتَرَطه الإنسانُ على نفسِه؛ فإنَّ مَن اشترط على نفسِه لغيرِه شَرطًا وَجَب عليه الوفاءُ به.

(قال ابنُ عَونٍ عن ابنِ سِيرينَ، قال رجُلٌ لكَرِيِّهِ[6161]: أرحِلْ رِكابَكَ[6162]، فإنْ لم أرحَلْ معك يومَ كذا وكذا فلك مائةُ دِرهَمٍ، فلم يخرُجْ، فقال شُرَيحٌ: مَن شَرَط على نفسِه طائعًا غيرَ مُكرَهٍ فهو عليه. وقال أيُّوبُ عن ابنِ سيرينَ: إنَّ رَجُلًا باع طعامًا، وقال: إنْ لم آتِك الأربِعاءَ فليس بيني وبينَك بَيعٌ، فلم يجئْ، فقال شُريحٌ للمُشتري: أنت أخلَفْتَ، فقضى عليه)[6163].

8- خُلْفُ الوَعْدِ مع الأولادِ؛ فكثيرٌ من الوالِدَين إذا أراد التَّحايُلَ على طِفلِه تجِدُه يَعِدُه بهَدِيَّةٍ أو حلوى أو نحوِ ذلك، ثمَّ يُخلِفُ ما وَعَد به، فهذا ممَّا يُعَوِّدُ الطِّفلَ إخلافَ الوَعْدِ، فينشَأُ وقد أَلِفَ هذه الخَصلةَ السَّيِّئةَ.

9- خُلْفُ الوَعْدِ تحتَ مُسَمَّى المُزاحِ، فيحصُلُ أن يقومَ شَخصٌ بدَعوةِ أصحابِه في مكانٍ محدَّدٍ، وفي زمانٍ محدَّدٍ، ورُبَّما كان المَكانُ بعيدًا، فيُخبِرُهم بأنَّه سيُحضِرُ لهم الطَّعامَ في ذلك المَكانِ والزَّمانِ المحَدَّدينِ، مع أنَّه قد بَيَّت النِّيَّةَ بالخُلْفِ، فإذا ما جاؤوا لذلك المَكانِ لم يجِدوا ما وُعِدوا به! وربَّما طال بهم الانتظارُ، فإذا أَيِسوا عادوا أدراجَهم، فهذا الرَّجُلُ جمَعَ بصنيعِه هذا عددًا من الأعمالِ القبيحةِ؛ فجمَعَ بَيْنَ الكَذِبِ، وقِلَّةِ الحياءِ، وإخلافِ الوَعْدِ، وأذيَّةِ المُسلِمين[6164].

10- خُلْفُ الوَعْدِ في إعطاءِ المواعيدِ، وهذا كثيرٌ في هذا الزَّمانِ، وكثيرٌ من النَّاسِ يتهاوَنُ فيه ولا يعبَأُ بضَرَرِه، فما أقَلَّ مَن يَضبِطُ مواعيدَه! وما أكثَرَ الآثارَ المترتِّبةَ على ذلك! فتأخُّرُك عن موعدٍ معناه ضياعُ وَقتِ مَن وعَدْتَه، وفي ذلك تَعَدٍّ على

[6159] يُنظَر: ((اعتلال القلوب)) للخرائطي (447)، ((محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء)) للراغب (2/ 241).

[6160] ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص: 218).

[6161] الكَرِيُّ: الأجيرُ والذي يَكريك دابَّتَه. يُنظَر: ((المعجم الوسيط)) (2/ 785).

[6162] (أرحِلْ) أمرٌ من الإرحالِ. (رِكابَك): الإبِلُ التي يسارُ عليها، والمعنى: اجعَلْ عليها الرَّحْلَ لأرحَلَ معك يومَ كذا، ويروى (أدخِلْ) أمرٌ من الإدخالِ. يُنظَر: ((منحة الباري بشرح صحيح البخاري)) لزكريا الأنصاري (5/ 541).

[6163] ((صحيح البخاري)) (3/198).

[6164] يُنظَر: ((سوء الخلق)) لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص: 42-43).

أوقاتٍ رُبَّما خُصِّصَت لواجباتٍ أُخرى، ويدخُلُ في ذلك التَّأخُّرُ في إرجاعِ الكُتُبِ المستعارةِ، فيَحصُلُ كثيرًا أن يأتيَ أحدٌ لصاحِبِ مكتبةٍ، أو طالِبِ عِلمٍ لديه مكتبةٌ، فيَطلُبُ منه أن يُعيرَه كِتابًا، ويَعِدُه بأن يُرجِعَه في أقرَبِ وَقتٍ، فإذا ما أخَذ الكتابَ وحصَل منه على الفائدةِ التي يرجوها تأخَّر في إرجاعِ الكِتابِ، وماطَل في ذلك كثيرًا، بل رُبَّما أضاعَه، حتَّى إنَّ صاحِبَ الكتابِ لَيَستحيي من كثرةِ التَّودُّدِ إليه، والتَّردُّدِ عليه؛ كي يَرجِعَ الكتابَ[6165]!

المطلب الثامن: أسبابُ الوُقوعِ في خُلْفِ الوَعْدِ

1- الكَذِبُ أو إضمارُ الخِداعِ لِمن يقطَعُ له وعدًا من البدايةِ.

2- الغَفلةُ عن خطورةِ خُلْفِ الوَعْدِ، وعَدَمُ الالتِفاتِ لنهيِ الشَّرعِ عن ذلك.

3- ضَعفُ الإرادةِ وعَدَمُ احترامِ شَرَفِ الكَلِمةِ وثِقةِ الآخَرينَ بها.

4- الوَعْدُ بما ليس في طاقةِ الإنسانِ واستطاعتِه.

5- الجَزمُ في الوَعْدِ وعَدَمُ الاستثناءِ فيه ممَّا يوقِعُ صاحِبَه في الحَرَجِ إذا وقَع له عُذرٌ يمنَعُه من الوفاءِ.

6- ومن أسبابِ الوُقوعِ في الخُلْفِ الذي يُعذَرُ به المرءُ: السَّهوُ والنِّسيانُ وما يجري على الإنسانِ من أقدارٍ لا يملِكُ لها دَفعًا[6166].

المطلب التاسع: الوسائِلُ المعينةُ على تَركِ خُلْفِ الوَعْدِ

1- أن يَعلَمَ أن خُلْفَ الوَعْدِ من الأخلاقِ المذمومةِ التي نهى عنها الشَّرعُ، فيَحرِصَ على اجتِنابِه.

2- أن يَعلَمَ أنَّ خُلْفَ الوَعْدِ من صفاتِ المُنافِقين، فيَحرِصَ على التَّباعُدِ عن صفاتِهم وأخلاقِهم.

3- أن يَعلَمَ أنَّ خُلْفَ الوَعْدِ يدخِلُه في جملةِ الكَذَّابين، والمُؤمِنُ لا يكونُ كَذَّابًا.

4- أن يَعلَمَ أنَّ خُلْفَ الوَعْدِ من أسبابِ حُصولِ العداوةِ بَيْنَ الإخوانِ؛ لِما فيه من تركِ الوفاءِ والخِداعِ، والمُؤمِنُ لا يكونُ إلَّا وَفيًّا بعَهدِه غيرَ مخادِعٍ.

5- أن يَعلَمَ أنَّ خُلْفَ الوَعْدِ يُفضي به إلى أن يكونَ منبوذًا.

6- أن يَحرِصَ على تحديدِ وَعدِه وضَبطِه بما في استطاعتِه؛ فذلك مَدعاةٌ للوفاءِ به.

7- أن يَستثنيَ في وَعدِه؛ فإنَّ الواعِدَ لا يدري هل يقَعُ منه الوفاءُ أو لا، فإذا استثنى وعَلَّق بالمشيئةِ الإلهيَّةِ خَرَج عن صورةِ الكَذِبِ في حالِ التَّعذُّرِ.

[6165] المصدر السابق.

[6166] يُنظَر: ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص: 233)، ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (ص: 82)، ((أحكام القرآن)) للجصاص: (3/ 591)، ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (1/550، 551).

8- أن يَعلَمَ أنَّ الوفاءَ بالوَعْدِ من صفاتِ الأنبياءِ والمُرسَلين عليهم السَّلامُ، فيَحرِصَ على الاقتداءِ بهم، وموافقةِ هَدْيِهم.

9- أن يَعلَمَ أنَّ اللَّهَ سُبحانَه مَدَح المتَّصِفين بوفاءِ وُعودِهم وأثنى عليهم، فيَحرِصَ أن يكونَ منهم.

10- أن يَحرِصَ على التَّخلُّقِ بمحاسِنِ الأخلاقِ، ومنها الوفاءُ بالوَعْدِ.

المطلب العاشر: حُكمُ خُلْفِ الوَعْدِ

قال النَّوَويُّ: (أجمع العُلَماءُ على أنَّ مَن وَعَد إنسانًا شيئًا ليس بمنهيٍّ عنه، فينبغي أن يَفِيَ بوَعدِه، وهل ذلك واجِبٌ أو مُستحَبٌّ؟ فيه خلافٌ بَيْنَهم؛ ذَهَب الشَّافعيُّ وأبو حنيفةَ والجمهورُ إلى أنَّه مُستحَبٌّ، فلو تَرَكه فاته الفَضلُ وارتكَب المكروهَ كراهةَ تنزيهٍ شديدةً، ولكِنْ لا يأثَمُ، وذهب جماعةٌ إلى أنَّه واجِبٌ، قال الإمامُ أبو بكرِ بنُ العَرَبيِّ المالِكيُّ: أجَلُّ مَن ذَهَب إلى هذا المذهَبِ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ، قال: وذهَبَت المالكيَّةُ مَذهَبًا ثالثًا: أنَّه إن ارتَبَط الوَعْدُ بسَبَبٍ، كقَولِه: تزوَّجْ ولك كذا، أو احلِفْ أنَّك لا تشتُمني ولك كذا، أو نحوَ ذلك، وَجَب الوفاءُ، وإن كان وعدًا مُطلَقًا لم يجِبْ. واستدَلَّ من لم يوجِبْه بأنَّه في معنى الهبةِ، والهبةُ لا تَلزَمُ إلَّا بالقَبضِ عِندَ الجُمهورِ، وعندَ المالكيَّةِ: تَلزَمُ قَبلَ القَبضِ)[6167].

هذا، وإنَّ مَن وَعَد وفي نيَّتِه الإخلافُ فهو آثِمٌ قَطعًا، ويصدُقُ عليه أنَّه على شُعبةٍ مِن النِّفاقِ[6168].

وقال ابنُ عُثَيمين: (وأمَّا إخلافُ الوَعْدِ فحَرامٌ. يَجِبُ الوفاءُ بالوَعْدِ سواءٌ وعَدْتَه مالًا أو وعَدْتَه إعانةً تُعينُه في شيءٍ أو أيِّ أمرٍ من الأمورِ، إذا وعَدْتَ فيَجِبُ عليك أن تَفيَ بالوَعْدِ، وفي هذا ينبغي للإنسانِ أن يحَدِّدَ المواعيدَ ويَضبِطَها، فإذا قال لأحَدِ إخوانِه: أواعِدُك في المكانِ الفُلانيِّ فلْيُحَدِّدِ السَّاعةَ الفُلانيَّةَ، حتى إذا تأخَّر الموعودُ وانصرف الواعِدُ يكونُ له عُذرٌ حتَّى لا يَربطَه في المكانِ كثيرًا)[6169].

المطلب الحادِيَ عَشَرَ: أخطاءٌ شائعةٌ حولَ خُلْفِ الوَعْدِ

1- الاعتِقادُ بأنَّ كُلَّ من أخلَف وَعدًا دَخَل في النِّفاقِ، وعُدَّ مُنافِقًا، وهذا خَطَأٌ؛ فقد يكونُ إخلافُ الوَعْدِ لعُذرٍ أو لسَهوٍ.

يقولُ أبو حامِدٍ الغَزاليُّ في بيانِ متى يوصَفُ مُخلِفُ الوَعْدِ بالنِّفاقِ: (وهذا يُنَزَّلُ على عزمِ الخُلْفِ أو تَركِ الوفاءِ من غيرِ عُذرٍ، فأمَّا مَن عَزَم على الوفاءِ فعَنَّ له عُذرٌ منَعَه من الوفاءِ، لم يكُنْ مُنافِقًا)[6170].

ويقولُ ابنُ رَجَبٍ: (...أن يَعِدَ ومِن نِيَّتِه ألَّا يَفِيَ بوعدِه، وهذا أشَرُّ الخُلْفِ، ولو قال: أفعَلُ كذا إن شاء اللَّهُ تعالى ومن نيَّتِه ألَّا يفعَلَ، كان كَذِبًا وخُلفًا)[6171].

وعن مُعاذِ بنِ العَلاءِ، قال: (سأل رجُلٌ أبا عَمرِو بنَ العلاءِ حاجةً، فوَعَده بها، ثمَّ إنَّ الحاجةَ تعَذَّرَت على أبي عَمرٍو، فلَقِيَه الرَّجُلُ بعدَ ذلك، فقال له: أبا عَمرٍو، وعَدْتَني وَعدًا فلم تُنجِزْه! فقال أبو عَمرٍو: فمَن أَولى بالغَمِّ؟ قال: أنا، قال: لا، بل أنا،

[6167] ((الأذكار)) (ص: 317) .

[6168] يُنظَر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (3/133).

[6169] ((شرح رياض الصالحين)) (4/ 47، 48).

[6170] ((إحياء علوم الدين)) (3/133).

[6171] ((جامع العلوم والحكم)) (2/482).

قال الرَّجُلُ: وكيف ذلك، أصلَحَك اللَّهُ؟ قال: لأنِّي وعَدْتُك وعدًا فبِتَّ بفَرَحِ الوَعْدِ، وأنا بهَمِّ الإنجازِ، فبِتَّ ليلتَك فَرِحًا مسرورًا، وبِتُّ ليلتي مُفَكِّرًا مغمومًا، ثمَّ عاقَ القَدَرُ عن بلوغِ الإرادةِ، فلَقِيتَني مُدِلًّا، ولَقِيتُك مُحتَشِمًا!)[6172].

وعن عَبدِ رَبِّه القَصَّابِ قال: (واعَدْتُ محمَّدَ بنَ سِيرينَ رحمه اللَّهُ أن أشتريَ له أضاحِيَ، فنَسِيتُ وَعدَه بشُغلٍ، ثمَّ ذكَرْتُ بَعدُ، فأتيتُه قريبًا من نصفِ النَّهارِ، وإذا محمَّدٌ ينتَظِرُني، فسَلَّمتُ عليه، ورفَع رأسَه، فقال: أمَا إنَّه قد يُقبَلُ أهوَنُ ذَنبٍ منك! فقُلتُ: شُغِلتُ، وعنَّفَني أصحابي في المجيءِ إليك، وقالوا: قد ذَهَب ولم يقعُدْ إلى السَّاعةِ. فقال: لو لم تجِئْ حتَّى تغرُبَ الشَّمسُ ما قُمتُ مِن مَقعَدي هذا إلَّا للصَّلاةِ أو حاجةٍ لا بُدَّ منها)[6173].

2- (قد اشتَهَر عِندَ بعضِ السُّفَهاءِ أنَّهم يقولون: أنا واعِدُك ولا أُخلِفُك، وعدي إنجليزيٌّ! يَظُنُّون أنَّ الذين يوفونَ بالوَعْدِ هم الإنجليزُ! ولكِنَّ الوَعْدَ الذي يُوفى به هو وَعدُ المُؤمِنِ؛ ولهذا ينبغي لك أن تقولَ إذا وعَدْتَ أحَدًا وأرَدْتَ أن تؤَكِّدَ: إنَّه وَعدُ مُؤمِنٍ، حتَّى لا يخلِفَه؛ لأنَّه لا يُخلِفُ الوَعْدَ إلَّا المُنافِقُ)[6174].

المطلب الثاني عَشَرَ: مَسائِلُ مُتفَرِّقةٌ

- **مَدحُ إنجازِ الوَعْدِ وإخلافِ الوَعيدِ:**

عن عبدِ المَلِكِ بنِ قُرَيبٍ الأصمَعيِّ، قال: (كنتُ عِندَ أبي عَمرِو بنِ العلاءِ، فجاءه عمرُو بنُ عُبَيدٍ، فقال له: يا أبا عَمرٍو، آللَّهُ يُخلِفُ الميعادَ؟ قال: لا، قال: فإذا وَعَد على عَمَلٍ ثوابًا أنجَزَه؟ قال: نعم. قال: وإذا وَعَد على عَمَلٍ عِقابًا أنجَزَه؟ قال: إنَّ الوَعْدَ عِندَ العَرَبِ غيرُ الوعيدِ؛ لأنَّ العَرَبَ لا تَعُدُّ خُلفًا أن تَعِدَ بالشَّرِّ فلا تفيَ به، إنَّما الخُلْفُ عندَهم أن تَعِدَ بالخيرِ فلا تفيَ به، أمَا سَمِعتَ قولَ الشَّاعِرِ:

ولا يَرهَبُ ابنُ العَمِّ والجارُ صَولتي

ولا أَنثني من سَطوةِ المتهَدِّدِ

وإنِّي إذا أوعَدْتُه ووَعَدْتُه

ليَكذِبُ إيعادي ويَصدُقُ مَوعِدي)[6175].

- **هل في خُلْفِ الوَعْدِ كَفَّارةٌ؟**

ينبغي أن يُفَرَّقَ بَيْنَ الوَعْدِ والنَّذرِ؛ لكَونِ الوفاءِ بهما في المستقبَلِ، فيتشابهانِ من هذا الوجهِ، لكِنْ هذا التَّشابُهُ لا يمنَعُ وُجودَ الفَرْقِ بَيْنَهما؛ فالنَّذرُ وإن كان فيه معنى الوَعْدِ إلَّا أنَّ فيه معنى القُربةِ إلى اللَّهِ تعالى، وأنَّ في عدَمِ الوفاءِ به الكَفَّارةَ، وليس كذلك الوَعْدُ[6176].

[6172] ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (ص: 82).

[6173] ((الصمت)) لابن أبي الدنيا (ص: 232).

[6174] ((شرح رياض الصالحين)) (4/ 47، 48).

[6175] ((مكارم الأخلاق)) للخرائطي (ص: 81).

[6176] يُنظَر: ((الإنصاف)) للمرداوي (11/151، 152).

الخاتمة

فِي خِتَامِ هَذا البَحْث، نَقُولُ: إنَّ أَهَمَّ آدَابِ الْمُعَرِّفِ بِالْإِسْلَامِ أَدَبُهُ مَعَ رَبِّهِ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ وَالتَّوْحِيدِ وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ أَدَبُهُ مَعَ دِينِهِ فَيَتَعَلَّمَهُ كَيْ لَا يَقُولُ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَبِسَعْيِهِ فِي تَرْبِيَةِ نَفْسِهِ عَلَى الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ، وَبِلُزُومِهِ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَأَيْضًا بِبُعْدِهِ عَنْ أَخْذِ مَالِ الدَّعْوَةِ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَلَّا يُسَوِّفَ أَوْ يَتَكَاسَلَ عَنْ أَدَاءِ مَهَامِّه حَتَّى لَا يُصْبِحَ قُدْوَةً سَيِّئَةً.

وَيَقُومُ الدَّاعِي إِلَى اللهِ بِعَرْضِ نَفْسِهُ عَلَى النَّاسِ، وَمَا يَحْمِلُهُ مِنْ الْحَقِّ بِمَا يَلِي: بالابْتِسامَةِ وَالهُدُوءِ والتَّدَرُجِ، وَالتَّيْسِيرِ وَالتَّبْشِيرِ، وَالرِّفْقِ وَاللِّينِ، وَالْمَحَبَّةِ وَالرَّحْمَةِ، وَالْبَسَاطَةِ وَالْأُلْفَةِ، وَالدَّعْوَةِ وَالدُّعَاءِ، وَطَلَبِ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى، وَبِالعِزَّةِ وَالتَّوَاضُعِ، وَالصَّبْرِ وَالْحِلْمِ، وَالْجُودِ وَالْكَرَمِ، فَالْمُسْلِمُ كَرِيمٌ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ، وَلَا يَتَّصِفُ بِالْبُخْلِ؛ لِأَنَّهُ خُلُقٌ ذَمِيمٌ يَبْغَضُهُ اللَّهُ سُبْحانَه وَتَعَالَى، وَيَبْغَضُهُ النَّاسُ أَجْمَعُون.

وَمِنْ مَهَامِّ الدَّاعِي إِلَى اللهِ تَعَالَى، تَأْلِيفُ قُلُوبِ النَّاسِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِم، وَذِكرِ مَحَاسِنِهِم، وَإِنْزَالِهِمْ مَنَازِلَهُم، واحْتِرَامِهِمْ، وَتَوْقِيرِهِمْ، وَبِإِكْرَامِهِمْ، وَإِهْدَاءِ إِلَيْهِمْ مَا يُحِبُّون مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ؛ وَبِذَلِكَ يُحِبُونَه، وَيَسْمَعُون كَلَامَه، ويَتَأَثَّرُونَ بِحُسْنِ أَخْلَاقِهِ، وَيَرْغَبُونَ فِي دِينِهِ، وَمِنْ ثَمَّ يَدْخُلُونَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ، ثُمَّ يُثْبِتُ لَهُمْ أَنَّ لِهَذَا الْكَوْنِ خَالِقًا، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ عَظَمَتَهُ، وَعَظَمَةَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ لِيُعَظِّمُوهُ، ثُمّ يُبَيِّنُ كَثْرَةِ نِعَمِ اللهِ، وَجَمِيلِ إِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ، وَأَنَّ أَجَلَّ هِذِهِ النِّعَمِ هُوَ دِينُ الإِسْلَامِ؛ فيَشْكُرُوهُ وَيُطِيعُوهُ؛ لِيَزِيدَهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، قال الله تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: 7]

ثُمَّ يَطْلُبُ مِنْهُم تَوْحِيدَ اللهِ بِالْعِبَادَةِ والخَلْقِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وبِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا مَتْبُوعَ بِحَقٍّ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ، ثُمّ يُبَيِّنُ حَاجَةَ النَّاسِ إِلَى رَبِّهِمْ، وَإِلَى دِينِهِ؛ لِيَسْعَدوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ يُبَيِّنُ فَضَائِلَ الْإِيمَانِ، وَفَضَائِلَ الْأَخْلَاقِ، وَفَضَائِلَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، ثُمَّ يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْكُفَّارِ مِنَ النَّارِ وَمَا فِيهَا مِنْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، فَإِذَا عَرَفَ النَّاسُ ذَلِكَ، زَادَتْ عِنْدَهُم الرَّغْبَةُ فِي الدِّينِ، وَالْعَمَلِ بِهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَيه، والصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّه؛ وَلِيبَذْلُوا كُلَّ مَا يَمْلِكُونَهُ؛ لإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ عز وجل؛ ولنَشْرِ دِينِهِ، كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ الكِرَامُ رِضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، وَالسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ.

تَوْصِيَاتٌ

فِي نِهَايَةِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ، أُوَجِّهُ بعضَ التَّوصِيَّاتِ إلى البَاحِثِين فِي مَجَالِ تَأهِيلِ الدُّعَاةِ، وَلَا سِيَّمَا المعَرِّفِينَ بِالإِسْلَامِ، والمعْتَنِينَ بالمسْلِمِينَ الجُدُد، كَمَا أُوَجِّهُهُا إِلَى الجَامِعَاتِ وَالأَكَادِيمِيَّاتِ وَالمَرَاكِزِ الدَّعَوِيَّةِ. وَهِذِهِ التَّوْصِيَّاتِ كَالتَّالِي:

1- ضرورة تكثيف البحث العلمي في تأهيل الدعاة في مجال التعريف بالإسلام وقضايا المسلمين الجدد.

2- وجوب إدخال مقررات في مجال تنمية أخلاق وسلوكيات المعرف بالإسلام؛ لإظهار قدرة الشريعة الإسلامية على ضبط السلوك في كل جوانبه ومستوياته.

3- الجدّ في إجاد دراسات تُعطي حلولًا منطقية بعمق شرعي للبناء السلوكي والأخلاقي والقيمي للمعرف بالإسلام القابل للتطبيق.

4- إقامة دورات خاصة بين الفينة والأخرى في المراكز الدعوية؛ لتنمية سلوكيات المعرفين بالإسلام وتربيتهم الإيمانية.

وَخِتامًا: فَإِنَّ الْكَمَالَ عَزِيزٌ وَبُلُوغُهُ صَعْبُ الْمَنَالِ، وَهَذِه مُحَاوَلَةُ بَشَرٍ فِي طَرِيقِ دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ، أَرَادُوا بِهَا الْخَيْرَ لَهُمْ ولإِخْوانِهِم ولِأُمَّتِهِم، وَعَمَلُ الْبَشَرِ لَا يَخْلُو مِنْ أَخْطاءٍ وَزَلَلٍ، فَمَا كَانَ فِي هَذَا الْعَمَلِ مِنْ خَيْرٍ وَصَوَابٍ فَمِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ خَطَأٍ وَزَلَلٍ، فَمِنَّا وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَجِدُ خَلَلاً فَلْيُقَوِّمْهُ، وَمَنْ يَجِدُ نَقْصًا فَلْيُكْمِلْهُ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِين، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ لَنَا تَقْصِيرَنَا وَزَلَّاتِنَا، وَأن يَتَجَاوَزَ عَنَّا، كَمَا نأمَلُ مِنْ إِخْوَانِنَا الْقُرَّاءِ والبَّاحِثِينَ والمهْتَمِّينَ بِالْعِلْمِ وَأَهْلِهِ الْمُسَارَعَةَ فِي تَصْحِيحِ الْخَطَأ، أَوْ زِيَادَةِ الْبَيَانِ، أَوْ بِطَرحِ بَعْضِ المُقْتَرحاتِ، وَلَا يَبْخَلُوا عَلَى إِخْوَانِهِم بِمَا تَجُودُ بِهِ قَرِيحَتُهُم مِن أفْكَار وَمَعْلُومَاتٍ.

وَالحمدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُ الصَّالِحات، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليماً كثيراً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.